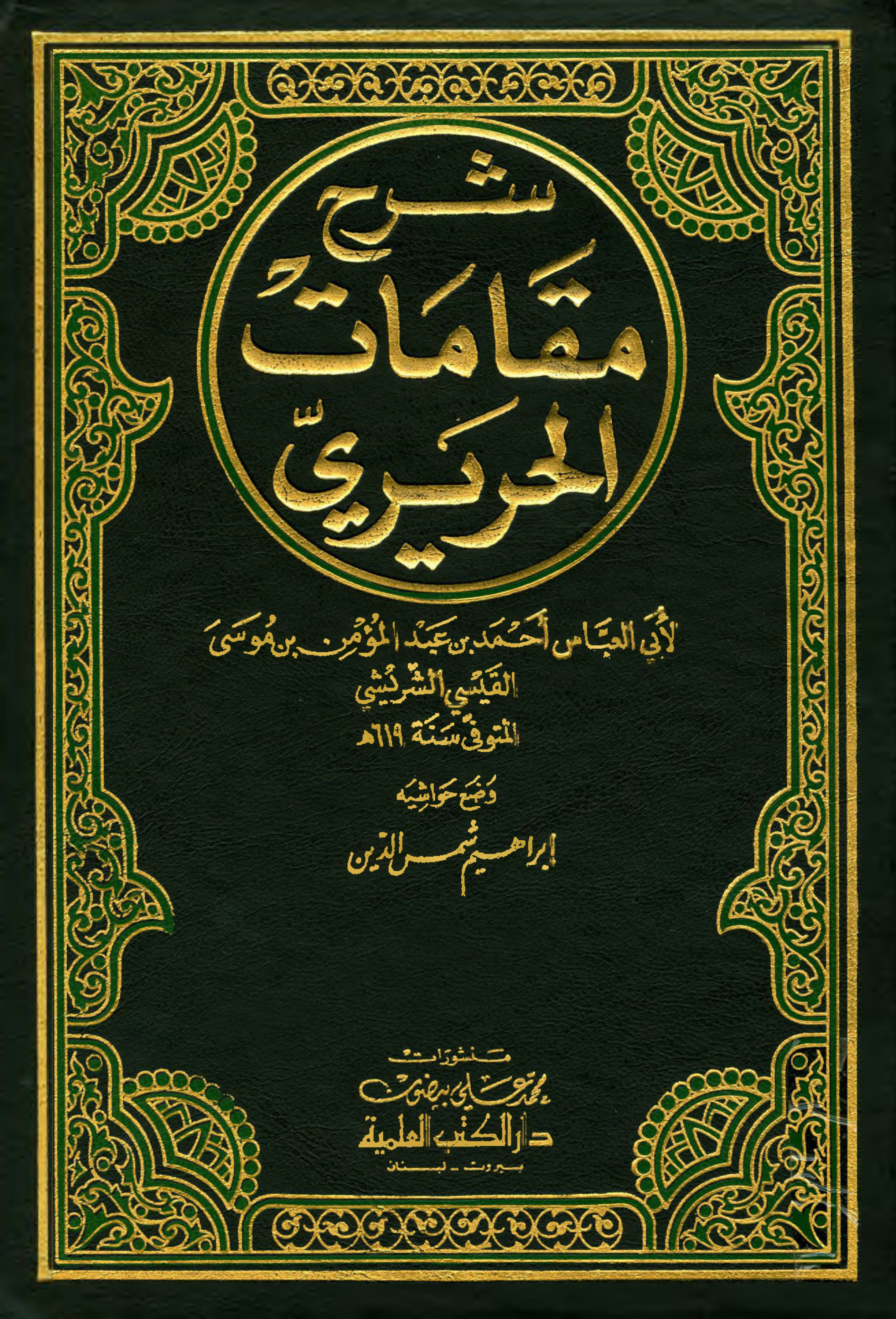

شرح
مقامات
الحريري
لأبي العباس أحمد بن عبد المؤمن بن موسى
القيسي الشريشي
المتوفى سنة ٦١٩هـ
وضع حواشيه
إبراهيم شمس الدين
منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان



شرح

مقامات الحريري

لأبي العبَّاس أحمد بن عبد المؤمن بن موسى
القيسي الشُّريشي
المتوفّى سنة ٦١٩هـ

وَضع حواشِيه

إبراهيم شمس الدّين

الجزء الأول

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت ـ لبنان

الطبعة الأولى

١٤١٩هـ-١٩٩٨م

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

العنوان : رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
تلفون وفاكس : ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ - ٦٠٢١٣٣ (١ ٩٦١) ٠٠
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

DAR al-KOTOB al-ILMIYAH
Beirut - Lebanon

Address : Ramel al-Zarif, Bohtory st., Melkart bldg., 1st Floore.
Tel. & Fax : 00 (961 1) 60.21.33 - 36.61.35 - 36.43.98
P.C.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

Dar al-Kotob al-Ilmiyah - Publishing House
P.o.box : 11-9424 Beirut - Lebanon

ISBN 2-7451-2264-9

EAN 9782745122643

No 02265



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تقديم

الصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى صحبه الكرام المنتجبين.

وبعد:

لقد عرف الأدب العربي نوعاً من النثر الأدبي وهو السجع وهو الكلام المقفّى، أو موالاة الكلام على رويّ واحد، وقد تأثر كتّاب النثر المسجوع أولاً بالقرآن الكريم، وخطب الجاهلية، كخطب أكثم بن صيفي حيث يقول: «أيها الناس: من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آتٍ آتٍ..»، وهذا السجع له نغم عذب يحرك النفس ويثير الشوق إلى سماعه.

وكان أول ظهور هذا النوع الأدبي كفن قائم بذاته في القرن الثالث الهجري، في خطب الخلفاء وعمال الأقاليم، ثم تطور هذا الفن على أيدي كتّاب محترفين كابن نباتة السعدي الذي توفي سنة ٣٧٤ هـ. كما تطور على أيدي كتّاب البلاط كإبراهيم بن هلال الصابي المتوفى سنة ٣٨٤ هـ، حتى أصبح النثر المسجوع أسلوباً مميزاً وضرورياً لدى الأدباء وكتاب الإنشاء. ومن رَحِم هذا الأسلوب ظهر فن جديد يدعى فن المقامات الذي يعود الفضل في ابتكاره وتأسيسه إلى بديع الزمان الهمذاني المتوفى سنة ٣٩٨ هـ.

والمقامة هي حكاية تقال في مقام معين وتشتمل على الكثير من درر اللغة وفرائد الأدب والحكم والأمثال والأشعار النادرة التي تدل على سعة اطلاع وغزارة مادة وطول باع وعلو مقام في عالم الأدب. وإذا كان بديع الزمان الهمذاني السباق والمبتكر والمبتدع لهذا الفن، فإن الأستاذ الرئيس أبي محمد القاسم بن علي الحريري هو الملك المتوج على رأس الكتاب الذين تخصصوا في المقامات، فهو بالمقارنة مع كل من كتب المقامات أغزر مادة وأكثر وأشد تعمقاً في اللغة مما جعل لمقاماته منزلة خاصة جعلتها ربّما في منزلة تالية للقرآن الكريم والحديث الشريف، حتى إن أديباً عظيماً كالزمخشري يقول: إن مقاماته حرية بأن تكتب بماء الذهب.

ويعزى السبب الذي من أجله وضع الحريري مقاماته، كما نقل ياقوت الحموي في معجم الأدباء ٤/ ٥٩٧، ٥٩٨: عن عبد الله بن محمد بن محمد بن أحمد النقور البزاز ببغداد، قال: سمعت الرئيس أبا محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الحريري صاحب المقامات يقول: أبو زيد السروجي، كان شيخاً شحاذاً بليغاً، ومحدثاً فصيحاً، ورد علينا البصرة، فوقف يوماً في مسجد بني حران، فسلم ثم سأل الناس، وكان بعض الولاة حاضراً، والمسجد غاص بالفضلاء، فأعجبتهم فصاحته وحسن صياغة كلامه وملاحته، ثم ذكر أسر الروم ولده كما ذكرناه في المقامة الحرامية وهي الثامنة والأربعون.

قال: واجتمع عندي عشية ذلك اليوم جماعة من فضلاء البصرة وعلمائها فحكيت لهم ما شاهدته من ذلك السائل وسمعت من لطافةِ عبارته في تحصيل مراده، وظرافة إشارته في تسهيل إيراده، فحكى كل واحد من جلسائه أنه شاهد من هذا السائل في مسجده مثل ما شاهدت، وأنه سمع منه في معنًى آخر فصلاً أحسن مما سمعت، وكان يغيّر في كل مسجد زيَّه وشكله، ويظهر في فنون الحيلة فضله، فتعجبوا من جريانه في ميدانه، وتصرفه في تلوُّنه وإحسانه، فأنشأت المقامة الحرامية ثم بنيت عليها سائر المقامات، وكانت أول شيء صنعته.

قال المؤلف: وذكر ابن الجوزي في تاريخه مثل هذه الحكاية، وزاد فيها أن الحريري عرض المقامة الحرامية على أنوشروان بن خالد وزير السلطان فاستحسنها وأمره أن يضيف إليها ما يشاكلها، فأتمها خمسين مقامة.

وقد اشتملت مقامات الحريري على فوائد جمة عدّدها هو بقوله في تقديمه:

وأنشأت على ما أعانيه من قريحة جامدة وفطنة خالدة وروية ناضبة وهموم ناصبة، خمسين مقامة تحتوي على جد القول وهزله ورقيق لفظه وجزله، وغرر البيان ودرره وملح الأدب ونوادرِه إلى ما وشحتها به من الآيات ومحاسن الكنايات، ورصعته فيها من الأمثال العربية واللطائف الأدبية والأحاجي النحوية والفتاوى اللغوية والرسائل المبتكرة والخطب المحبّرة، والمواعظ المبكية والأضاحيك الملهية، مما أمليت جميعه على لسان أبي زيد السروجي وأسندت روايته إلى الحارث بن همام البصري، وما قصدت بالإحماض فيه إلا تنشيط قارئيه وتكثير سواد طالبيه، ولم أودعه من الأشعار الأجنبية إلا بيتين فذين أسست عليهما بنية المقامة الحلوانية، وآخرين توأمين ضمنتهما خواتم المقامة الكَرَجية، ما عدا ذلك فخاطري أبو عُذْرِه ومقتضب حلوه ومرّه.

شرح المقامات

لقد حظيت مقامات الحريري بكمّ كبير من الشروحات والتعليقات، أحصى منها صاحب كشف الظنون حاجي خليفة أكثر من خمسة وثلاثين شرحاً، ويعود كثرة الشروحات إلى ما زخرت به المقامات من الألفاظ، والأمثال، والأحاجي والألغا ر النكت النحوية والبلاغية، مما جعلها ميداناً رحباً للشرح والتفسير والاستطراد.

ويعتبر هذا الشرح الذي بين أيدينا من أهم الشروحات وأغزرها، وقد وضعه العلامة أحمد ابن عبد المؤمن القيسي المعروف بالشريشي الذي يقول: لم أدع كتاباً أُلِّف في شرح ألفاظها وإيضاح أغراضها إلا وعيته نظراً، وتحققته معتبراً ومختبراً وترددت في تفهمه ورداً وصدراً، وعكفت على استيفائه بسيطاً كان أو مختصراً، ولم أترك في كتاب منها فائدة إلا استخرجتها ولا نكتة إلا علقتها ولا غريبة إلا استلحقتها فاجتمع من ذلك حفظاً وخطاً أعلاق جمة، وفوائد لم تهتم بها قبله همة، ثم لم أقنع بتدوين الدواوين، ولا اقتصرت على توقيف التصانيف، حتى لقيت بها صدور الأمصار وعلماء الأعصار.

وقد قام الشارح بالتعريف بالبلدان والأمصار المذكورة في المقامات، ثم شرح غريب

الألفاظ والأمثال، ووضع تراجم وافية للمشهورين من الأدباء والأمراء والقادة والشعراء، وكان للشعر الأندلسي نصيبٌ وافرٌ حيث أورد مجموعة كبيرة منه.

أما عملنا في هذا الكتاب فقد اقتصر على تخريج جميع الآيات القرآنية وتخريج معظم الأحاديث النبوية استناداً إلى كتب الصحاح التي بين أيدينا، وكذلك خرجنا الشواهد الشعرية في مظانها. كما وضعنا عناوين فرعية وبوبنا الكتاب ووضعنا حواشٍ تشرح بعض الألفاظ الغريبة استناداً إلى معاجم اللغة التي بين أيدينا.

ونرجو أن يكون عملنا هذا خالصاً لوجهه تعالى ولله الكمال وحده وهو ولي التوفيق.

إبراهيم شمس الدين

ترجمة المؤلف

هو الرئيس أبو محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الحريري، نسبة إلى صناعة الحرير أو بيعه، ولد سنة ٤٤٦ هـ بالمشان، وهي قرية قريبة من البصرة، ثم رحل إلى البصرة وسكن في محلة بني حرام، وتأدب بها، وقرأ العربية على أبي الحسن بن فضال المجاشعي شيخ إمام الحرمين، والفقه على أبي إسحاق الشيرازي، وعينٌ صاحب الخبر بالبصرة، وظل بهذا المنصب حتى وفاته.

وكان الحريري من ذوي الجاه واليسار يملك بالمشان أكثر من ثمانية عشر ألف نخلة يغلها، وكان له منزل بالبصرة يقصده الأدباء والعلماء يقرؤون عليه أو يفيدون من علمه، وخصوصاً بعد أن ألف المقامات وذاع أمرها بين الناس، وكان مرهف الشعور صادق الحس والتخمين.

وكان الحريري ضئيل الجسم زريّ المنظر عصبي المزاج، ينتف شعرات لحيته إذا اشتغل بالتفكير والكتابة، ولكنه مع هذا كان موضع تقدير الناس وإكبارهم، ويحكى أن شخصاً زاره، وأراد أن يتلقى عليه شيئاً من العلم لذيوع شهرته، فلما رآه استزرى منظره، فأدرك الحريري ما دار في نفسه، ولما طلب هذا الشخص إلى الحريري أن يملي عليه شيئاً من الأدب قال له: اكتب! وأملاه هذين البيتين: [البسيط].

ما أنت أول سارٍ غرّه قمرٌ	ورائد أعجبته خضرة الدمنِ
فاختر لنفسك غيري إنني رجل	مثل المعيدي فاستمع بي ولا ترني

فخجل الرجل وانصرف عنه.

وللحريري ديوان رسائل، وله الرسالة السينية التزم في جميع كلماتها حرف السين، والرسالة الشينية التزم أيضاً بجميع كلماتها حرف الشين. وله ديوان شعر.

ومن مؤلفات الحريري «درّة الغواص في أوهام الخواص» بين فيه أغلاط الكتاب فيما يستعملونه من الألفاظ بغير معناها وفي غير موضعها، وكذلك له «ملحة الأعراب في صناعة الإعراب»، وهي أرجوزة في النحو.

توفي الرئيس أبو محمد الحريري في البصرة سنة ٥١٥ هـ.

ترجمة الشارح

هو أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن بن موسى القيسي الشريشي، ولد بشريش سنة ٥٧٧ هـ. وتلقى بها على أبي الحسن بن لبّال، وأبي بكر بن الأزهر، وأبي عبد الله بن زرقون، وأبي الحسين بن جبير، ورحل إلى المشرق ثم عاد إلى شريش وتوفي بها سنة ٦١٩ هـ.

له كتب وشروحات كثيرة منها: مختصر لنوادر أبي علي القالي، وشرح الإيضاح لأبي علي الفارسي، وشرح جمل الزجاجي، ووضع رسالة في العروض؛ بالإضافة إلى الكتاب الذي بين أيدينا وهو أشهرها، وهو واحد من ثلاثة شروح: مختصر، ومتوسط، وهذا وهو المطول.

وكان الشريشي شاعراً مطبوعاً شائق اللفظ رشيق المعنى، ومن شعره:

يا جيرة الشام هل من نحوكم خبرُ	فإن قلبي بنار الشوق يستعرُ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الشارح

قال الشيخ الأستاذ اللغوي النحويّ أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن بن عيسى بن موسى بن عبد المؤمن القيسي الشريشي، تغمده الله برحمته ورضوانه، وأسكنه فسيح جناته بمنه وكرمه آمين:

الحمد لله الذي اختصّ هذه الأمة بأفصح الألسنة وأفسح الأذهان، وشرَّف علماءها بالافتنان في أفانين البلاغة والبيان، وميزّنا بين سائر الأمم بالنثر المتفق الفِقرَ والنظم المعتدل الأوزان.

نحمده على أفئدة هداها، وألسنة أطال في شأو البلاغة مداها، ونصليّ على سيد المرسلين، وخيرة العالمين، الذي ختمت بنبوته العامة النبوة، ونسخت بشرعته التّامة الكتب المتلوة، محمد سيد هذا العالم والمخصوص بعلوّ المكانة، وعموم الديانة في ولد آدم، وعلى آله وصحبه الذين عزّروه ووقروه، وآووْه إيواء الموفين بالعهود ونصروه، ونقلوا شرعه الكريم نقل التواتر وآثروه، وسلم تسليماً، وآتاهم منِ لدنه رحمة وأجراً عظيماً.

ورضي الله عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، مجدد معالم الديانة، والمليء بأداء الأمانة، والمشهور على تعاقب العصور بالزمان والمكان والمكانة، وعن خلفائه الراشدين المرشدين أئمة الهدى، والتالين له في شرف ذلك المدى، والقائمين بأعباء أمره الموعود أنه يبقي أبداً.

ونسأل الله تعالى لسيدنا الخليفة الإمام أمير المؤمنين ابن الخلفاء الأئمة الراشدين، سعداً يعلي أعلامه. ونصراً يصحب قلمه وحسامه، وتأييداً يُظهر أمره وينصر اعتزامه، حتى ينتظم شذّان الأمصار في سلك ملكه، وتزدحم وفودُ الأمم على غمر بَرّه، وتنطوي ضمائر القلوب ومخبّآت الغيوب على إخلاص طاعته والانثناء لأمره.

أما بعد؛ فإن العلم أربح المكاسب، وأرجح المناصب، وأرفع المراتب، وأنصح المناقب، وحرفة أهل الهمم من الأمم، ونِحْلة أهل الشرف من السلف، لم يتقلد سلكه إلا جيدُ ماجد ولم يتوشح بُرْدَه إلا عطف جادّ في طلب الكمال جاهد ولم يستحق اسمه إلا الواحد الفذ بعد الواحد، وهو وإن تشعّبت أفانينه، وتنوعت دواوينه؛ فعلم الأدب

علمه، والأسّ الذي يبنى عليه كَلِمَهُ، والرّوح الذي يخبّ في ميدان الطّروس قلمه؛ ولذلك كان أولى ما تقترحه القرائح، وأعلى ما تجنح إليه الجوانح؛ فذوو الأخطار في سائر الأقطار يتنافسون في اقتنائه، ويتصافنون في عافي إنائه[١]، ويرتاحون لأوضاعه وتآليفه، ويستريحون إلى أعبائه المكدودة وتكاليفه، فإنه زمام المنظوم والمنثور، وقوام نطق الألسنة وفكر الصدور، ومنشط المقال من عقال الفهاهة، ومميز الأقدار بالمهابة والنباهة.

ولم يزل في كل عصر من حَمَلَتِه بدر طالع، وزهر غصن يانع، وعلَمٌ ترنو إليه أبصار وتومىء إليه أصابع، وصناعة البراعة بينهم تتمكن وتتأصل، وتنويع البديع ينضبط ويتحصل، والآخر يكدّ ذهنه في تتميم ما غادره الأول؛ إلى أن اعتدلت كفتاه، وامتلأت ضفتاه، وراق مجتلاه ومجتباه، وتناهى في الحسن والإحسان لفظه ومعناه.

وكان آخر البلغاء وخاتمة الأدباء، أولهم بالاستحقاق، وأولاهم بِسِمَة السباق، والفذ الذي قد عقمت عن توءمة فتية العراق، وفارس ميدان البراعة، ومالك زمام القرطاس واليراعة، والملّبي عند استدعاء درر الفقر بالسمع والطاعة، أبو محمد القاسم ابن علي الحريريّ ـ سقى الله ثراه صوب رحماه، وكافأ إحسانه في الثناء عليه بحسناه ـ فبسط لسان الإحسان، ومدّ أفنان الافتنان، ومهّد جادّة الإجادة، وقوي مادة الإفادة، ولم يبق في البلاغة متعقّباً، ولا للزّيادة مترقباً، لا سيما في المقامات التي ابتدعها، والحكايات التي نوعها وفرعها، والملح التي وشحها بدرر الفقر ورصّعها؛ فإنه برْز فيها سابقاً، وبزّ البلغاء فائقاً، وأتى بالمعنى الدقيق واللفظ الرقيق مطابقاً، وخلّدها تاجاً على هامة الأدب وتقصاراً[٢] في جيد لغة العرب، وروضة تحوم أنفاس الهمم عليها، ولا تصل أيدي المطامع إليها.

ولما كانت من البراعة بهذا المحل الشهير، وسارت مسير النَّيِّرين بين مشاهير الجماهير؛ جعلتُ الأعتناء بها سهم فهمي، والعكوف عليها تحرز عزمي، والدّءوب في حفظ لغاتها وفك مخبّآتها أهم همّي، وصيَّرت تحفُّظها فرض عيني، والفكر الذي لا يحول وَسَنِي بينه وبيني، فبدأت بروايتها عن الشيوخ والثقات، وتقييد ألفاظها عن أعلام هذه الجهات؛ حتى لا أنقل لفظاً إلا عن تحقيق، ولا أثبت ضبطاً إلا من طريق.

فكان أول من أخذت عنه روايتها، وتلقيت منه درايتها، ببلدي، الشيخ الفقيه المقرىء أبو بكر بن أزهر الحجري، حدثني بها عن صهره الفقيه المحدّث الراوية أبي القاسم بن عبد ربه القيسي المعروف بابن جهور، عن منشئها أبي محمد الحريريّ.

---

(١) الصُّفْن ـ بالضم: كالركوة يتوضأ فيها، وخريطة لطعام الراعي، وتصافنوا الماء: اقتسموه بالحصص (القاموس المحيط: صفن).

(٢) التقصار والتقصارة، بكسرهما: القلادة جمعه تقاصير.

وحدّثني بها أيضاً ببلدي الشيخ الفقيه الراوية أبو بكر بن مالك الفهري عن ابن جهور المذكور، وعن الشيخ الفقيه أبي الحجاج الأبَّدي القضاعيّ كلاهما عن أبي محمد الحريريّ. وحدثني بها أيضاً إجازة الشيخ الفقيه المحدث أبو محمد عبد الله بن محمد ابن عبد الله الحجريّ عن القضاعيّ، وحدثني بها أيضاً الكاتب الزاهد أبو الحسن بن جبير عن الشيخ الجليل بركات بن إبراهيم بن طاهر بن بركات القرشي المعروف بالخشوعي عن الحريريّ. وحدثني بها أيضاً الشيخ الفقيه الأستاذ أبو ذرّ مصعب بن محمد بن مسعود الخُشنيّ بسنده، بعد وقوفه رحمه الله على هذا الشرح وأمره لي بتكليمه، وتلقيت بها جماعة من جلة الأشياخ أكثر في العدد ممن ذكرت؛ لا يعدمني واحد منهم إفادة ضبطية أو لفظية، ولا يفقدني زيادة هزلية أو وعظية فأخذتُها أخذ متثبت، عن واع منكّت.

ثم لم أدع كتاباً أُلِّفَ في شرح ألفاظها وإيضاح أغراضها، وتبيين الإنصاف بين انفصالها واعتراضها إلا وعيته نظراً، وتحققتُه معتبراً ومختبراً، وتردّدت في تفهمه ورداً وصدراً، وعكفت على استيفائه بسيطاً كان مختصراً؛ حتى أتيت على جميع ما انتهى إليه وسعي ممنّ فسرها، واستوعبت عامة فوائده الممكنة بأسرها؛ ولم أترك في كتاب منها فائدة إلا استخرجتها، ولا فريدة إلا استدرجتها ولا نكتة إلا علقتها، ولا غريبة إلا استلحقتها، ولا غادرت في موضع منها مستحسناً يشذّ عن جمعي، ولا مستجاداً ينبو عنه بصري أو سمعي. فاجتمع من ذلك حفظاً وخطاً أعلاق جمة، وفوائد لم تهتم بها قبلي هِمة، ثم لم أقنع بتبيين الدواوين، ولا اقتصرتُ على توقيف التصانيف؛ حتى ليقت بها صدور الأمصار، وعلماء هذه الأعصار، فباحثت وناقشت، وتأوّلت وتداولت، وطالبت المتحفّظ بالأداء، والمتيقظ بالإبداء؛ حتى لم أُبق في قادحةٍ زنداً إلا اقتدحته، ولا مُقْفَلاً إلا افتتحته، فتحصلّ لي من ذلك أيضاً عيونُ صائبة النواظر، وفنون قلّما توجد في مخبآت الدفاتر.

وأنا في خلال ذلك ألتمس مزيداً، ولا أسأم بحثاً وتقييداً، إلى أن عثرتُ على شرح الفنجديهيّ للمقامات ـ والفنجديهيّ هو الشيخ الحافظ أبو سعد محمد بن عبد الرحمن بن محمد المسعوديّ، من قرية فنجديهة من عمل خراسان ـ فرأيت في شرحه الغاية المطلوبة، والبغية المرغوبة، والضالة التي كانت عنيّ إلى هذا الأوان مطوية محجوبة؛ فاستأنفت النَّظر ثانياً، وشمرت عن ساعد الجدّ لا متكاسلاً ولا وانياً، وعانيت نور المعنى في نور اللفظ فأصبحت مجتلياً جانياً، فاستوعبته أيضاً أبلغ استيعاب، وقيدت من فوائد ما لم أجد قبله في كتاب، وأخذت منه أحاديث مسندة أوردها، وآثاراً مرفوعة قيّدها تليق بالباب الذي أوردت فيه، وتورد مصححّة إما لألفاظه وإما لمعانيه، وحذفت أسانيد ـ وإن كان قد أوردها ـ تخفيفاً عمّن يريد المتن ويبتغيه فتم لي بهذا الغرض استيفاء مقاصده، واستيعاب فوائده. وتركتُه مستلب المعاني، مطروق المغاني، كالروض ركدت

ريحه، والجسم قبض روحه؛ فانضاف من فوائد هذا التأليف البديع ـ إلى الفوائد الملتقطة من الألسنة والمأخوذة من التصانيف المستحسنة ـ روض كله زهر، وسلك كله درر، وأدب إن لم يجمعه التصنيف فهو بعد عين أثر.

فاستخرت الله تعالى في ضمّ ما انتشر من فوائدها، ونظم ما انتثر من فرائدها، والاعتناء بتأليف في المقامات يغني عن كل شرح تقدم فيها، ولا يحوج إلى سواه في لفظ من ألفاظها ولا معنى من معانيها، فتم من ذلك مجموع جامع وموضوع بارع أودعته من اللغات أصحَّها وأوضحها، وأسلسها قياد لفظ وأسمَحُها؛ وأولاها بالصواب في مظانّ الاختلاف وأرجحها؛ ونسبت المشكل منها إلى قائله من جهابذة العلماء، وجمعت بين مشهور اللغات ومشهور الأسماء، وسبكت العبارة عن المعاني سبكاً يدل على الإلغاء والإصغاء. وهذا الفصل وإن سبقني إليه من تقدمني من الشارحين قبلي، فلي فيه مزية إيراد اللفظ البعيد عن الإشكال، والمطابقة بين الأقوال وأرباب الأقوال.

ثم زدت في فوائد هذا التأليف التعريف بالأمصار المذكورة في المقامات على أوفى ما يمكنني؛ من ذكر مواضعها وأقدارها واختطاطها، ومِنْ عَقَد صلحَها، أو تولى فتحها؛ وهذه فوائد لا يخفى مكانها، ولا ينكر استحسانها بالحاجة إلى التعريف بالمكان، تتلو الحاجة إلى غوامض اللسان.

ثم استوعبت شرح الأمثال ونسبتها، جمعاً بين القائلين والأقوال، ولم أغفل منها الكثير الدّور ولا القليل الاستعمال، وهذا الفن لم يتبعه أحد على الكمال، وإن ذكره فإنما يذكره استطراداً بحسب الحال.

ثم استوفيتُ أيضاً ذكر مَن وقع فيه من الرجال والنساء أتم استيفاء، وعرّفت المشتهرين من الآدباء والأبناء، وبنيت أنسابهم وأمكنتهم، وأخبارهم وحرفتهم، وآثارهم ومدتهم، وزيادة في التهمُّم والأعتناء، وهذا الفن أيضاً لم يورده الشارحون حقّ إيراده؛ ولا اعتمدوه بالتبليغ حقّ اعتماده، وهومهمٌ في الإفادة، على مغفلة في الوقت وبعده الإعادة.

ثم زدت فيه فصلين مفيدين لم أر من اعتنى بهما، . ولا من قصد قصدهما. سوى أبي سعيد الفنجديهيّ في بعض المواضع، فإنه ألمح وألمع، وأورد اليسير فما شفى ولا أقنع:

أحدهما تبيين مأخذ الحريري في الكلام، وإخراج الاحالات المودعة فيه من حيز الإبهام والرد إلى المنشأ في آية أو أثر أو تخطبة أو خبر، أو حكمة فائقة، أو لفظة رائقة، أو بيت نادرٍ، أو مثلٍ سائر؛ وهذا تتميم بيِّن، وتكميل متعيّن.

والفصل الثاني: التنبيه على صناعة البديع، وتوفية أسمائه؛ كالتجنيس والتتميم والترصيع، والإتيان بهذا النوع من التبيين والتنبيه على الجميع، وبسط أنواع الأدب

وافتنانه، والإكثار من الشعر في مظانه من الجد والهزل في المواضع اللائقة باستحسانه، ومقابلة كل باب بما يزيد في حسنه وبيانه، والجري مع أبي محمد حسب اتساع خطوه وامتداد ميدانه.

ومن تمام التصنيف ردّ الفرع إلى أصله، والجمع في الترتيب بين الشكل وشكله، فأتبعت المواعظ بما يزيدها أثراً في القلوب، وأردفت المسليات بما يُعينها في إجلاء الكروب، وسلكت هذه المسالك في سائر الأساليب وأنواع الضروب؛ فإن وجد هذا الكتاب لفظ ظاهر الهزل أو معنى ينسب فيه إلى العذل؛ من وصف نور وثمر وذكر نديم وخمر أو نعت حُسن وحسن أو مدح سماع وأذن، فلأن أبا محمد بدأ بأمر فتمم، وخص نوعاً فعمم مع أن صنعة الأدب مبنية على الملح، وخواطر الأدباء جائشة بما سنح، فجاء من هذا الترتيب الغريب، ما يضرب في الإجادة بسهم مصيب، ويثبت لي في الجدّ والدءوب أوفر نصيب.

ثم رأيت الشارحين لها من أولى البصر كالفنجديهيّ وابن ظفر قد جردوا من شروحهم مختصرات وجيزة. ، اقتصروا فيها على إيراد اللغات، فحذوت حذوهم في مختصرٍ أوردتُها فيه على الكمال، ووفّيتها حقها من رفع الغلط وكشف الإشكال، ولم أخلّ في تصريفها واشتقاقها بوجه من الوجوه ولا حال من الأحوال فجاء غاية في هذا الباب، مغنياً في اللغات الغريبة عن كل كتاب؛ فإن فاته هذا الأصل بضروب من الإفادات وأنواع من الزيادات، فلذلك الفرع شفوف الاستيعاب في اللغات، ومزية الأشتقاق والتصريف والشاهد من الشعر والآيات.

وكل ذلك بلطف الله تعالى، وبسعد من شرّفت كتابي بخدمته، وبنيت تأليفي على أداء شكر نعمته، ونصبت نفسي لأقف ببابه الأعلى، وأتزين بلثم تربته فأنا العبد وهو المولى؛ عماد الأنام، والظل الممدود على المسلمين والإسلام، ونعمة الله التي هي من أفضل النعم الجسام؛ منفق سوق المعارف، ومفجر بحور المنن والعوارف، والمجير بفضله وعدله من المفاقر الفادحة والمخاوف، سيدنا الخليفة الإمام أمير المؤمنين أبو عبد الله ابن إمام الأئمة الراشدين وولي عهده سيدنا الأمير الأجل أبو يعقوب، أيد الله سلطانهم، وأيد بيضتهم وحزبهم، وجمع القلوب على الأنقياد لهم، والوجوه على التوجه قبلهم.

وهذا الكتاب وإن كان المعبر عن حسنه، والغاية الملتمسة في فنّه، والجامع لما افترق في سواه، والمبرّز بما وشحه من الزيادات وحلاّه، فإنه لم يتم جماله ولا استوفى احتواءه على الفوائد واشتماله، إلا ببركة مولانا الخليفة، واقترن اسمه الكريم باسم ولي عهده المستحق للتقديم في الصحيفة فالحمد لله على التوفيق لخدمتهم، والمعونة على شكر نعمتهم، والتعرض لخيري الدنيا والآخرة في ظل حرمتهم.

وقد بذلت في الخدمة جهدي، وأبرزت من فوائد هذا التّأليف أنفس ما عندي، ولم

أتعاط قياماً بكل الواجب، ولا وفاء بجميع الحقّ الراتب؛ فالقول يقتصر عن التحصيل، وليس إلى مطاولة الطود ومكاثرة اليمّ من سبيل.

وقد كنت حين أتممت هذا التأليف، وألقيت عن كاهلي الأعباء التي له والتكليف، وجلوته كالحسناء ألقت في المنصّة النّصيف، كثرت خطابه إليّ من البلدان، وتواردت عليه رغبات الاستحسان، فقلت: حتى يتشرف بلثم اليمين العليا، ويتخصص بقبول إمام الدين والدنيا، فمن بابه الأسمى يلتقط درهُ المنظوم، وببركاته يسطع مسكه العبق المختوم.

وها أنا أشرع ببركة الله وبركة خليفته المبارك الأهدى، وبنجله المتقلّد منه صفة وعهداً، في الشرح الخطبة كلمة كلمة، وإيضاحها حتى لا أدع لفظة مبهمة، ثم أشرح المقامات على الولاء، وأسلك الجمع بين الإيجاز والاستيفاء، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وآله وسلم أفضل التسليم.

بسم الله الرحمن الرحيم

الصَّدْرُ

اللَّهُمَ إنا نَحْمِدُكَ عَلَى مَا عَلَّمْتَ مِنْ البَيَانِ، وألْهَمْتَ مِنْ التِّبْيَانِ، كَمَا نحْمِدُكَ عَلَى ما أسْبَغْتَ مِنَ الْعَطَاءِ، وأسْبَلْتَ مِنَ الْغِطَاءِ.

* * *

اللهم إنا نحمدك؛ اللهم اسم خصصته الميم المشددة في آخره بنداء البارىء سبحانه، والتزم معها حذف حرف النداء لوقوع الميم خلفاً عنه، ولمحلّ اللام في أوله، أنه لا يلي حرف النداء لام التعريف إلا في قولهم: «يا الله»؛ لتكون اللام الزائدة نائبة عن حرف أصليّ، وهي همزة «إله»، فصارت كالأصليّ، وفي غير هذا الاسم تتجرد اللام للزيادة في أول الامس. و «يا» «زائدة» في أوله كذلك، وهما جميعاً لتخصيص الاسم وإزالة شياع التنكير عنه، فلمّا تقاربا في المعنى، وتشابها في الزيادة، وطلب كل واحد منهما أن يلي الاسم دون صاحبه، ترك استعمال الجمع بينهما في أول الاسم إلا في ضرورة الشاعر لإقامة الوزن، وأما اللام في قولهم: «يا الله» فلما كانت نائبة عن حرف أصلي خفيت زيادتها، فلما زادوا الميم في آخره فضحت اللام وشهرت معنى الزيادة، فامتنعت «يا» من أوله إلا عند الضرورة كامتناعها في الرجل والغلام؛ فلما كانت الميم هي الموجبة لمنع «يا» حُمِّلَ الاسم معها معنى «يا» فصار مختصاً بالنداء ممتنعاً من غيره.

ونحمدك، معناه نثني عليك بأتم وجوه الثناء كلها، فيدخل تحته الشكر، والشكر ثناء يقابل به معروف، وفي الحديث: «الحمد رأس الشكر فمن لم يحمد الله لم يشكره»[1] والحمد ذكر الرجل بما فيه من صفات جليلة، والشكر ذكره بما له من أفعال جزيلة، من قولهم: دابة شكور، إذا ظهر بها من السمن فوق ما تأكل من العلف ويقال: أشكر من بروقة، وهي شجرة معروفة تخصب بأدنى مطر؛ ويؤكد الفرق بينهما أن الحمد في مقابلة الذم والشكر في مقابلة الكفر فاختلاف نقيضيهما دليل على اختلافهما في أنفسهما.

البيان: وضوح المعنى وظهوره، والتبيان: تفهم المعنى وتبينه، والبيان مِنك

(١) أخرجه الطبراني في الجامع الصغير ١/ ٢٦٠.

لغيرك، والتبيان منك لنفسك، مثل التبيين تقول: بينت الشيء لغيري بياناً وتبينته أنا تبياناً؛ وقد وقع التبيان بمعنى البيان؛ حكى أبو منصور الأزهري رحمه الله: بينت الشيء تبييناً وتبياناً، قال تعالى **﴿تِبياناً لكلِّ شيء﴾** [النحل: ٨٩] أي يبين لك فيه كل ما تحتاج إليه أنت وأمتك من أمر الدين، فهو لفظ عام أريد به الخاصُّ، وقد يقع البيان لكثرة الكلام ويعد ذلك من النفاق؛ قال النبي ﷺ: «الحياء والعي شعبتان من الإيمان، والبذاء والبيان شعبتان من النفاق»[1] أخرجه الترمذي وقال: «العيّ قلة الكلام والبذاء الفحش، والبيان كثرة الكلام».

ألهمت: نبهت عليه وفهمته. وأسبغتَ: أتممت وكثرت. وأسبغت: أطلت. والغطاء: أراد به ستر الله على عبده.

* * *

ونَعُوْذُ بِك مِنْ شَرَّةُ اللّسَنِ، وفُضُول الهَذَرِ، كَمَا نَعُوذُ بِكَ مِنْ مَعَرَّةِ اللَّكَنِ، وفُضُوحِ الحَصَرِ، وَنَستَكفي بِكَ الافْتِتَانَ بإطرَاء المادحِ، وإغْضاءِ المُسَامِحِ، كَمَا نَسْتَكْفِي بِكَ الانتصابَ لإزرَاء القَادِحِ، وَهَتْكِ الفَاضِحِ.

* * *

نعوذ، أي نستجير، شرّة: حدة واللسن: حدة اللسان وإدلاله على الكلام فضول: زوائد. الهذر: إكثار الكلام بغير فائدة. معرّة: شدة وصعوبة، والمعرة: العيب والعار.

وقيل: هي كل ما يؤذيك، وفلان يَعرّ قومَه، أي يدخل عليهم مكروهاً يلطّخهم به؛ وأصله من العرة وهي الفعلة القبيحة، أو من العرّ وهو الجرب. واللكن: احتباس اللسان عند الكلام فضوح شهرة وفضيحة. الحصر العي، وحَصر حصراً إذا أعيا واستحيا أو أضاق صدره. واستعاذ من شرة اللسن لأنه من اقتدر على الكلام أداه إلى المطاولة في الجدل وتصوير الباطل في صورة الحق، وفيه إثم على الكلام وأصل الشرّة القلق والانتشار، ومنه الشرّ؛ وقد شرّ يشرّ، ومنه شرر النار. ثم استعاذ من ضدها وهي المعرة لأن صاحبها لا يتم لفظه فيشين بذلك نفسه، ويقصر عن مراده من البيان، ثم قرن بها الحصر لأن من يعتريه يتوالى عليه الوهَلُ والخجل؛ فلا يستطيع الكلام، فيفتضح ويشتهر عيبه.

وهذا الفنّ من الكلام يسمى في صنعة البديع المقابلة، وأول من صدر به كتاباً عمرو بن بحر الجاحظ في كتاب البيان فقال اللهم إنا نعوذ بك من فتنة القول كما نعوذ بك من فتنة العمل، ونعوذ بك من التكلف لما لا نحسن، كما نعوذ بك من العجب بما

---

(١) أخرجه الترمذي في البر باب ٨٠، وأحمد في المسند ٥/ ٢٦٩.

نحسن، ونعوذ بك من السلاطة والهذر[١]، كما نعوذ بك من العيّ والحصر؛ وقديماً تعوذوا بالله من شرهما، ورغبوا إليه في السلامة منهما؛ وقد قال النَّمِر بن تولب: **[الوافر]**

أعــذْنــي ربِّ مــن حَـصَــرٍ وعِــيٍّ ... ومــن نــفــسٍ أعــالــجــهــا عــلاجــا

وقال محمد بن علقمة: **[الوافر]**

لـقـد وَارَى الـمـقـابـرُ مـن شـريـكٍ ... كـثـيـرَ تـحـلُّـم وقـلـيـلَ عـابِ

صَـمُـوتـاً فـي الـمـحـافـل غـيـر عَـيٍ ... جـديـراً حـيـن يـنـطـق بـالـصـوابِ

ثم استرسل في ذكر العيّ والبيان إلى غاية بعيدة، واستشهد على النوعين بآيتين؛ بقوله تعالى؛ **﴿سلقوكم بألسنةٍ حِدَادٍ﴾** [الأحزاب: ١٩]، وفي الضد بقوله تعالى: **﴿أوَمَنْ يُنَشَّأُ في الْحليَةِ وهو في الخِصَام غَيْرُ مُبِينٍ﴾** [الزخرف: ١٨]، فاحتذى الحريري هذا الحذو، فجاءت تشبيهاته أطبع وأصنع، وزاد عليه بأن ابتدأ بحمد الله على نعمة البيان، ثم استعاذ مما استعاذ منه الجاحظ، وبيان المقابلة في كلامه أنه قابل شرّة بمعرّة واللْسن باللكن، والهذر بالحصر؛ فإذا تفهمت مواقعها في كلامه قست عليها ما يشبهها في النظم والنثر وسئل قدامة الكاتب عن المقابلة، فقال: هي أن يضع الشاعر ألفاظاً يعتمد التوافق بين بعضها وبعض في المخالفة، فيأتي في الموافق بما يوافق، وفي المخالف بما يخالف، وأنشد في ذلك: **[الطويل]**

فـيـا عـجـبـاً كـيـف اتـفـقـنـا فـنـاصـحٌ ... وفـيّ مـطـويٌّ عـلـى الـغِـشّ غـادرُ

فجعل بإزاء «ناصح»، «وفيّ»، «غاشّاً: غادراً». ومثله: **[الطويل]**

فـتًـى ثـمّ فـيـه مـا يـسُـرّ صـديـقـه ... عـلـى أنّ فـيـه مـا يـسـوء الأعـاديـا

نستكفي: معناه نسألك ونطلب منك أن تكفينا الافتتان؛ وذلك أن تصاب بفتنة الإعجاب، وأصل الفتنة اختبار الفضة بالنار، قال تعالى في الاختبار: **﴿وفَتَنَّاكَ فُتُوناً﴾** [طه: ٤٠] أي اختبرناك، والفتين: الفضة المحرقة، والفتين أيضاً: الحجارة المحرقة، وهي الحجارة تدلك بها الأقدام في الحمام، والإطراء: الاسترسال في مدح الإنسان بمحضره، وفي الحديث عن النبي ﷺ قال: «لا تُطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، فأنا عبد الله ورسوله».

إغضاء: تجاوز ومسامحة، وأصله أن يبدو لك الشيء فتدني جفنيك وتقصر نظرك كأنك لم تره، والاغضاء: الإغماض وأغضيت عنه وأغمضت، إذا تغافلت عنه. المسامح: الموافق لغرضك، والمتجاوز عن عيبك، الأنتصاب: الظهور والأعتراض أمام

---

(١) الهذر: كثرة الكلام في خطأ، والسلاطة حدة اللسان والصخن (القاموس المحيط: «سلط»، و

الشيء، إزراء: تقصير: وتنقيص، القادح: العائب، وقدحت الدود في الأسنان والشجر: أكلتها فكأنّ فعل هذا العائب في أعراض الناس فعلُ الدود في الشجر. والقادح أيضاً: الذي يضرب الزند بالحجر ليورى، وهتك: شق، وهتك الستر: خرقته. الفاضح الذي يشهر عيوبك، وفضحت الشيء: كشفته.

* * *

وَنَسْتَغْفِرُكَ مِنْ سَوْقِ الشَّهَوْاتِ إلى سُوقِ الشُّبُهَاتِ؛ كَمَا نَسْتَغْفِرُكَ مِنْ نَقْلِ الخَطَوْاتِ إلى خِطَطِ الخَطِيئَاتِ. وَنَسْتَوْهِبُ مِنْكَ تَوفيقاً قَائِداً إلى الرُّشْدِ، وَقَلْباً مُتَقَلِّباً مع الحَقِّ، ولِسَاناً مُتَحَلِيّاً بالصِّدقِ، ونُطقاً مُؤيَّداً بالحجة، وإصابة ذائِدَةً عَنِ الزَّيْغِ، وعَزِيْمَةً قاهرةً هوى النَّفسَ، وبصيرة نُدْرِكُ بها عِرفَانَ القدْرِ

* * *

نستغفرك: نسألك المغفرة، وهي من غفرت الشيء سترته. الشبهات: جمع شبهة وهي ما يشتبه عليك أمره، والخطوات: جمع خطوة؛ وهي ما بين القدمين، الخطط: جمع خطة وهي الطريق يخطه الرجل في الأرض يجعله حداً للشيء يحوزه ويعتمده، والخطة بالضم: المنزلة والمزية. والخطيئات: الذنوب وهي من الخطأ، وجعل ما ساقه في المقامات كأنه شهوة اشتهى عملها، ثم اشتبه عليه: هل في ذلك رضا الله أم سخطه! فكأنه ساق شهوة إلى سوق يجهل التَّبايع فيها خاسر الصفقة، فلهذا استغفر الله منها: الهداية رشده الله رشداً وأرشده: هداه. ورَشَد هو رَشداً ورشاداً: اهتدى. متحلياً: متصفاً ومتزيناً، مؤيداً: معاناً. وأصاب في كلامه إصابة: إذا نطق بالصواب، ورمى فأصاب لم يخطىء؛ وقوله تعالى ﴿**رُخاء حيثُ أصاب**﴾ [ص: ٣٦]، أي حيث أراد، قال الفراء: اختلفت أنا وعيسى النحوي في الآية فقلت: ما أحدٌ أعلم بهذا من رؤبة، قال: فسرنا إليه فلقيناه يتوكأ على اثنين، فقال: أين تصيبان؟ أي أين تريدان؟ فقلت لصاحبي: كُفِيتَ السُّؤال ذائدة: دافعة، الزيغ: الميل، وزاغ عن الحق: مال عنه إلى الباطل. العزيمة: الجدّ، وعزم على الشيء: جدَّ فيه. قاهرة: غالبة. وهوى النفس: ما تحبّه وتميل إليه بصيرة: يقينا والبصيرة للقلب، والبصر للعين. عِرْفان القدر أي معرفة أقدارنا.

* * *

وَإن تُسعِدنا بالهِدايَةِ إلى الدِّرايةِ، وتعضُدَنَا بالإعانةِ عَلَى الإبانةِ، وَتَعصمنا مِنْ الغواية في الرِّواية، وتَصرفنا عن السُّفاهة في الفكاهةِ؛ حتَّى نَأمَنَ حَصَائِدَ الألسُنَةِ، ونُكفى غَوَائِلَ الزَّخرفةِ؛ فلا نردَ مَورد مأثمةٍ، ولا نَقْفَ مَوْقِفَ مندَمَةٍ، ولا نرهقَ بتبعة ولا معتبةٍ، ولا نُلْجَأ إلى مَعْذِرَةٍ عَنْ بَادرةٍ.

الدّراية: مصدر دَرَيْتُ الشيء دراية ودرياً، علمته. تعضُدنا تقوّينا، وعضّده: أعانه وكان له عضداً، الإبانة: مصدر أبنت الشيء أي بينته تعصمنا من الغواية، أي تمنعنا من الضلالة والفساد، والغواية: مصدر غوى غيّاً وغواية وغوى أيضاً غواية، وهما ضد رشد رُشداً. الرواية: نقل الحديث من صاحبه إلى طالبه، تصرفنا: تزيلنا. السفاهة: الجهل، والفكاهة: المزاح وما تستريح به النفوس وهي في الكلام كالفاكهة في الطعام. حصائد الألسنة: شر كلامها وقطعها في أعراض الناس وأراد ما جاء في حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله، إنا لنؤاخذ بما نتكلم؟ فقال: «ثكلتك أمك يا معاذ! هل يكبُّ الناس في النار على رؤوسهم إلا حصائد ألسنتهم!» فدعا الله أن يتم سعده بأن يؤمنه عادية الألسنة. والحصائد في الأصل: جمع حصيدة وهي الحزمة من الزرع المحصود فهي فعيلة بمعنى مفعولة والحصيد: الشيء المحصود.

نكفي: نمنع غوائل: قواتل ومهلكات، واحدها غائلة؛ وغالته المنية أهلكته، الزخرفة: تزيين الباطل، وأصلها تزيين الشيء بالزخرف وهو الذهب. نرد: نقصد، مورد مأثمة: موضع إثم، والمورد أصله الموضع يشرب منه الماء مندمة: ندم. نرهق: نُتّهم ونعاب: والزهق العيب، وتبعة: خطيئة يتبعه ضرها بعد الموت. معتبة: سخط، وهي من العتاب، وهو تقبيح القول على جهة الاشفاق، وأصله من عتبت الأديم، أي رددته إلى الدباغ ليصلح، ومنه: إنما يعاتب الأديم ذو البشرة، ويقال عتب عليّ في كذا عتباً فأعتبته، أي رجعت إلى ما يريد وأرضيته، وباء «تبعة» وتاء «معتبة» يكسران ويفتحان. نلجأ: نُحوجُ. معذرة: اعتذار. بادرة: سقطه وزلّة، وقد بدرت الكلمة والفعلة: خرجت من غير أن يدبر موقعها، وفلان تُخْشى بوادره، أي فلتاته.

* * *

اللّهُمَ فَحقّقْ لنا هذه المُنْيَةَ، وأنلنا هَذْهِ البُغيةَ، ولا تُضْحنا عن ظِلْكَ السَّابغ، ولا تَجْعَلَنا مَضْغَةً للمَاضِغِ؛ فقد مَدَدْنا إليكَ يَدَ المَسألَةِ، وَبَخَعنا بالاسْتِكَانة لَكَ والمسكنة، واستنزلنا كَرَمِكَ الجُمَّ وَفَضْلِكَ الذي عَمَّ، بضَرَاعَةِ الطَّلَب، وَبِضاعة الأمل ثمّ بالتَّوسلِ بِمُحَمَّدٍ سيِّدَ البَشرِ، والشفيعِ المشفعِ في المحشر، الذي خَتَمْتَ بهِ النَّبيّين، وأعليتَ دَرَجتَهُ في عِلّيِّينَ. ووصَفْتَهُ في كتابك المبينَ فقلت وَأنت أصْدَقُ القائلينَ: ﴿إنَّهُ لَقَولُ رَسُولٍ كريم ذِي قوّةٍ عَنْدَ ذِي العَرشِ مَكِين مُطاعٍ ثَمّ أمينٍ﴾ [التكوير: ١٩ ـ ٢١]. اللّهُمَ صلِّ عليه وعلى آله الهادين، وأصحابه الذين شادوا الدين، واجعلنا لِهَديه وهديهِمْ مُتَّبِعينَ، وانفعنا بَمَحَبَّتِهِ ومحبتّهم أجمعين، إنك على كلِّ شيء قدير، وبالإجابة جديرٌ.

* * *

المُنْية: ما يتمنى، والبُغْية: ما يطلب، أنلنا: أعطنا تُضْحَنا: تكشفنا ظلّك السابغ: سترك المديد، وأصل الظل الستر والموضع الذي لا تبلغه الشمس وفي الحديث «ضَحَا ظلّه»، أي عدم فانكشف موضعه للشمس. مضغة: لقمة، وكلّ ما يمضغ لُقْمَة، والماضغ هنا العائب الآكل أعراض الناس وجعل العرض حين يعيبه مُضغة له، قال النبي ﷺ: «لَمَّا عُرِجَ بي مررت بأقوام لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبرائيل؟ فقال: «هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم». المسألة: الحاجة والفقر بخعنا: أقرنا، وبخع له بحقه أقرّ به وبخع نفسه قتلها غيظاً، ومنه: ﴿فلعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ﴾ [الكهف: ٦] فالمتعدية بالباء غير المتعدية بنفسها، الاستكانة: الخضوع والمسكنة: الفقر والذلة. استنزلنا: طلبنا أن تُنزل علينا، والاستنزال السؤال بتلطف، والجم: الكثير، فضلك: إحسانك. عمّ: شمل ضراعة: ذلة البضاعة: المال يتَّجر به. الأمل: الرجاء؛ يقول إن تجارتنا التي نحصل بها منك إحسانك، رجاؤنا توكلنا عليك التوسل: التقرب، البشر: الخلق، وهو في الأصل جمع بشرة، وهي ظاهرة الجلد وسمُّوا بشراً، لظهور أبشارهم خلافاً لغيرهم من الحيوان، الشفيع: الطالب لغيره. والمشّفع: الذي أُعطي الشفاعة، وقال النبي ﷺ: «خُيِّرت بين الشفاعة وبين أن يدخل شطر أمتي الجنة فاخترت الشفاعة وإنها أعمُّ وأكفى، أترونها للمؤمنين المنقين! لا ولكنها للمذنبين المتلوثين الخطائين»[1].

المحشر: موضع اجتماع الناس يوم القيامة والمحشر أيضاً: الحشر وهو الإشبه باليوم، ختمت: جعلته خاتمهم، أي آخرهم، درجته: منزلته، عليين: أعلى الجنة وكأنه جمع علّيّة، المبين: المبين. رسول كريم، قيل: وهو جبرائيل، وقيل هو محمد ﷺ. مكين: رفيع المنزلة. ثم: معناه هناك، قال الزّجاجي: هي إشارة إلى ما كان مترامياً من الأماكن، والأشهر أن المراد به في الآية جبرائيل، ولذا رجع الحريري آخراً فأزال الآية من كتابه واستشهد بما اتفق مشاهير المفسرين على أن المراد به نبينا ﷺ، وهو قوله تعالى: ﴿ومِا أرْسَلْنَاكَ إلا رَحْمَةً للعالمين﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وليس رجوعه عن القول يعيب بل هو حسن، إذ كان الرجوع عن الخطأ إلى الصواب واجباً، إلا أن الثابت عند ابن جهور ﴿إنَّهُ لقول رسول كريم﴾؛ قال ابن عباس رضي الله عنهما: وهو جبرائيل وهو الرسول لمحمد بالقرآن. ذي قُوَّة؛ لأنه قلع بأحد جناحيه أربع مدائن لقوم لوط؛ وهي سدوم وداموراً وصابوراً وعموراً؛ في كل مدينة مائة ألف إنسان سوى ما فيها من الدواب والأنعام، آله، أي أهله وأصله «أأل» فأبدلت الهمزة ألفاً، وأكثر ما تضاف إلى الظاهر، وقد سُمع إضافتها إلى المضمر في الشعر والكلام الفصيح، خلافاً لأبي جعفر النحاس وأبي بكر الزبيدي، فإنهما من إضافتها إلى المضمر، وأكثرهم على أن همزتها مبدلة من

(١) أخرجه ابن ماجه في الزهد باب ٣٧، وأحمد في المسند ٢/ ٧٥.

هاء «أهل» وصوابه أنها أصل في بابها، من آل يؤول إذا رجع لأنهم يرجعون إليه ويرجع إليهم، الهادين: المرشدين إلى الطريق الخير، وقد هديته الطريق إذا أرشدته شادوا: ترفعوا وبنو. هديه وهديهم: وطريقته وطريقتهم، وقال النبي ﷺ «الله الله في أصحابي، لا تتخذوهم غرضاً بعدي، فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه»[١] جدير: حقيق.

* * *

وَبَعدْ. فإنه قد جَرَى ببَعْضِ أندية الأدب الذي رَكدَتْ في هِذِا العَصْرِ رِيْحَهُ وَخَبَتْ مَصَابيحه، ذكر المقامات التي ابْتَدَعَهَا بَدِيْعُ الزمان، وعلاّمة هَمَذان رحمه الله تعالى. وَعَزا إلى أبي الفَتح الإسكندري نشأتها، وإلى عيسى بن هشام روايتها، وكلاهما مجهولٌ لا يعرفُ، ونَكَرةٌ لا تتعَرَّفُ.

* * *

أندية: مجالس واحدها ندِيّ، والنَّدي والنادي والمنتدى: مجلس القوم للحديث، وقيل هو من الندى وهو الكرم، لأنهم يقصدون فيه فيعطون. وقيل: هو من النداء الذي هو الصوت لأنه ينادي فيه بعضهم بعضاً ليجتمعوا. وقيل: هو من الندى وهو العرق لأن الداخل فيه يحتشم فيعرق. والأدب: معرفة الأخبار والأشعار، وفلان أديب، إذا كان متفنناً مشاركاً، ركدت: سكنت، والمقامات: المجالس، واحدها مقامة، والحديث يجتمع له ويجلس لاستماعه يسمى مقامة ومجلساً، لأن المستمعين للمحدث ما بين قائم وجالس، ولأن المحدث يقوم ببعضه تارةً ويجلس ببعضه أخرى؛ قال الأعلم: المقامة المجلس يقوم فيه الخطيب يحض على فعل الخير.

[بديع الزمان]

ذكر البديع أبو المنصور الثعالبي في يتيمته، فقال: «بديع الزمان هو أبو الفضل أحمد بن الحسين الهمذاني، مفخر همذان، ونادرة الفلك وبكر عُطارد، وفريد الدهر، وغرة العصر؛ ومن لم يلف نظيره في ذكاء القريحة وسرعة الخاطر وشرف الطبع وصفاء الذهن وقوة النفس، ولم يدرك قرينة في ظرف النثر وملحة وغرر النظم ونكته، ولم يروا أن أحداً بلغ مبلغه من لبّ الأدب وسره أو جاء بمثل إعجازه وسحره فإنه كان صاحب عجائب وبدائع وغرائب فمنها أنه كان ينشد القصيدة ولم يسمعها قطّ وهي أكثر من خمسين بيتاً، فيحفظها كلها ويوردها إلى آخرها، ولا ينخرم حرف منها وينظر في الأربع

(١) أخرجه الترمذي في المناقب باب ٥٨، وأحمد في المسند ٤/ ٨٧، ٥/ ٥٤، ٥٧

والخمس الأوراق من كتاب لم يعرفه ولم يره نظرة واحدة خفيفة، ثم يعيدها عن ظهر قلبه هذا ويسردها سرداً، وكان يقترح عليه عمل قصيدة أو إنشاء رسالة في معنى غريب وباب بديع، فيفرغ منها في الوقت والساعة والجواب عمّا فيها وكان ربمّا يكتب الكتاب المقترح عليه فيبتدىء بآخر سطوره، ثم هلم جرّاً إلى الأول ويخرجه كأحسن شيء وأملحه، ويوشح القصيدة الفريدة من قبله بالرسالة الشريفة من إنشائه، فيقرأ من النظم النثر، ومن النثر النظم. ويعطي القوافي الكثيرة، فيصل بها الأبيات الرشيقة، ويقترح عليه كل عروض من النظم والنثر فيرتجله في أسرع من الطرف، على ريق لا يبلعه، ونفس لا يقطعه؛ وكلامه كلّه عفو الساعة وفيض اليد ومسارقة القلم ومجاراة الخاطر، وكان مع هذا مقبول الصورة، خفيف الرّوح، حسن العشرة ناصع الظرف، عظيم الخلق، شريف النفس كريم العهد خالص الود، حلو الصداقة، مرّ العداوة، فارق همذان سنة ثمانين وثلثمائة وهو مقتبل الشبيبة، غض الحداثة وقد درس على أبي الحسين بن فارس، وأخذ عنه جميع ما عنده واستنفذ علمه وورد حضرة الصاحب أبي القاسم بن عباد، فتزوّد من ثمارها وحسن آثارها، وورد نيسابور في سنة اثنتين وثمانين وثلثمائة فنشر بها بزّه، وأظهر طرزَه وأملى أربعمائة مقامة نحلها أبا الفتح الإسكندري في الكُدْيَة وغيرها وضمنها ما تشتهي الأنفس، من لفظ أنيق قريب المأخذ بعيد المرام وسجع رشيق المطلع والمقطع كسجع الحمام. وجدّ يروق فيملك القلوب، وهزل يشوق فيسحر العقول... ثم ألقى عصاه بهراة فعاش فيها عشية راضية وحين بلغ أشده وأربى على أربعين سنة؛ ناداه الله فلباه. وفارق دنياه في سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة؛ فقامت نوادب الأدب وانثلم حد القلم، وبكاه الفضائل مع الأفاضل، ورثاه الأكارم مع المكارم؛ على أنه ما مات من لم يمت ذكره، ولقد خلد من بقي على الأيام نظمه ونثره؛ والله عز وجل يتولاه بعفوه وغفرانه، ويحيّيه بروحه وريحانه».

وذكر الحصري رحمه الله تعالى في كتاب الزهر أن الذي سبب للبديع رحمه الله تأليف مقاماته، وهو أنه رأى أبا بكر بن الحسين بن دريد قد أغرب بأربعين حديثاً، ذكر أنه استنبطها من ينابيع صدره، وانتخبها من معادن فكره على طبع العرب الجاهلية بألفاظ بعيدة حوشيّة، فعارضه البديع بأربعمائة مقامة لطيفة الأغراض والمقاصد، بديعة المصادر، والموارد، وانتهى كلامه.

والذي جاء بها، فيه قلة الامتاع للسامع من حديثها، وفيها مقامات لا تبلغ عشرة أسطار فجاءت مقامات الحريري أحفل، وأجزل وأكمل؛ فلذلك فضلت البديعيّة، وقد صرح علماء الأدب في كتبهم بتفضيل البديع على نظرائه من أهل زمانه، ولقبه بالبديع يدل على قدره الرفيع، قال: **[البسيط]**

وَقَلَّما أبصرتْ عيناكَ من رجلٍ   إلا ومعناه إن فَتَّشتَ في لَقَبِهِ

وسئل بعض علماء الأدب من أهل عصرنا عن الحريري والبديع، فقال: لم يبلغ الحريري أن يسمى «بديع يوم» فكيف يقارن بديع زمان!

وجرى ذكر مقاماته في مجلس بعض أشياخنا، وكان حافظاً أديباً، فقال: مقامات البديع يحكى أنها ارتجال، وأن البديع كان يقول لأصحابه في آخر مجلسه: اقترحوا غرضاً نبني عليه مقامة، فيقترحون ما شاءوا فيملي عليهم المقامة ارتجالاً في الغرض الذي اقترحوه؛ وهذا أقوى دليل إن صح على فضل البديع. قوله علاّمة: أي كثير العلم، وهي بنيةٌ للمبالغة.

[هَمَذان]

وهمذان، بفتح الميم ونقط الذال: بلد بخراسان. وقيل همذان من كور الجبل. وبلد همذان واسع جليل القدر كثير الأقاليم والكورَ، افتتح سنة ثلاث وعشرين، ويشرب أهلها من عيون وأودية، وقال اليعقوبي: من أراد السير من الدِّينور إلى همذان سار متنزهاً إلى موضع، يقال له: أسد آباذ مرحلتين من أسد آباذ إلى مدينة هِمذان مرحلتان ـ وهي كثيرة البرد. وقال فيها ابن خالويه ـ وهو همذاني، واستوطن حلب عند بني حمدان: [الطويل]

إذا همذانُ اعترَّها البردُ ولتقضى ... برغمك أيلولٌ وأنت مقيمُ
فعيناك عَمْشاء وَأُنْفُكَ سائلٌ ... ووجهك مسودُّ البياض بهيمُ
بلادٌ ـ إذا ما الصيفُ أقبل جنةٌ ... ولكنَّها عند الشتاء جحيمُ

ولبعضهم: [الكامل]

هَمَذان متلِفة النفوس ببردها ... والزَّمهرير، وحَرُّها مأمونُ
غَلب الشتاء مصيفها وخريفها ... فكأنَّما تَمُّوزها كَانُونُ

وكل الرواة يروونها «همذان» بفتح الميم ونقط الذال، إلا ابن اللبّانة فإني رأيت في شرحه: هَمْدان بسكون الميم ودال غير معجمة، وهي قبيلة يمانية، قال فيها عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وكرّم الله وجهه: [الطويل]

ولو كنت بواباً على باب جنّةٍ ... لقلت لَهِمْدان ادخلوا بسلام

والرواية الأولى أثبت. قوله: «عزا» أي نسب يقال: عزيته عزياً، وعزوته عزواً: نسبته؛ واعتزي إلى بني فلان: انتسب إليهم وأبو الفتح في البديعية بمنزلة أبي زيد في الحريرية، وعيسى بمنزلة الحارث نشأتها: صنعتها. وروايتها: إسناد أحاديثها. والنكرة التي لا تتعرف، هي في غير الأسماء.

* * *

فأشار مَنْ إشارتُهُ حُكمٌ، وطَاعَتُهُ غُنمٌ، إلى أنْ أُنشىء مَقَاماتٍ أتلو فيها تِلوَ البَدِيعِ وإنْ لَمْ يُدْرِكَ الظالِعُ شَأوَ الضّلِيعِ، فَذَاكرتهُ بِمَا قِيْلَ فيمن أَلَّفَ بَيْنَ كِلمَتَين، ونَظَمَ بَيْتَاً أو بَيتَينِ، واستقلتُ مِنْ هذا المقام الذي فيه يَحَارُ الفَهْمُ، ويفرطُ الوهْمُ ويسبر غورُ العَقْلِ وتبين قيمةُ المرءِ في الفضل، ويضطرُ صاحبه إلى أن يكون كحاطب ليل أو جالب رجل وخيل، وقلَّما سَلِمَ مِكْثارٌ، أو أُقِيلَ لَهُ عِثَارٌ.

* * *

غُنْم: غنيمة وحكى الفنجديهي في شرحه للمقامات: أن الذي أشار عليه بها هو شرف الدين أنوشروان بن خالد وزير الخليفة، أمره بإنشاء المقامات وحكم عليه بها. وقيل: أمره به صاحب البصرة وواليها، وقال: سمعت الشيخ الثقة أبا بكر عبد الله بن محمد بن أحمد بن النقور البزار ببغداد يقول؛ سمعت الشيخ الرئيس أبا محمد الحريري يقول: أبو زيد السَّروجيّ كان شحاذاً بليغاً، ومكدياً فصيحاً، ورد علينا البصرة، فوقف يوماً في مسجد بني حرام يتكلم، ويسأل شيئاً، وكان بعض الولاة حاضراً، والمسجد غاص بالفضلاء فأعجبهم بفصاحته، وحسن صناعته وملاحته، وذكر أسر الروم ابنته، كما ذكرنا في المقامة الحرامية وهي الثامنة والأربعون، قال: فاجتمع عندي عشية ذلك اليوم جماعة من المعارف فضلاء البصرة وعلمائها، فحكيت لهم ما شاهدت من ذلك السائل وسمعت من لطافة عبارته في تحصيل مراده، وطرافة إشارته في تسهيل إيراده؛ فحكى كلُّ واحد من جلسائي أنه شاهد من هذا السائل في مسجده مثل ما شاهدت، وإنه سمع منه معنى آخر فصلاً أحسن مما سمعت، وكان يغير في كل مسجد زيه وشكله، ويظهر في فنون احتياله، فعجبوا من جريانه في ميدانه، وافتنانه في إحسانه؛ قال الحريري؛ فابتدأت في إنشاء المقامة الحرامية تلك الليلة، حاذياً حذوه فلما فرغت منها أقرأتها جماعة من الأعيان، فاستحسنوها غاية الاستحسان، وأنهو ذلك إلى وزير السلطان، واقترحوا عليّ أخواتها، والله المستعان.

وهذا الذي ذكر الفنجديهي قد حدثني بنحوه من يوثق به من الطلبة، بسند يتصل بأبي محمد الحريري، وإن الحريري وفد مع أهل البصرة بغداد، فوجدوا بواسط أبا زيد السروجي فقال: يا أهل البصرة أنتم تزعمون أنكم لا تكادون ولا تخدعون، وقد والله مشيت على مساجدكم ومحاضركم، فما تعذر عليّ فيها موضع لم أجلب منافع أهله بضروب من المكر، فلما بلغوا بغداد أخبروا بالقصة وزير السلطان، فأمر الحريري بجمع المقامات.

لكن الذي ثبت عندنا هو ما حدثني به الشيخ الفقيه أبو بكر بن أزهر أن الفقيه الراوية أبا القاسم بن جهور، حدثه أن الحريري حدثه أن قصة المقامة الثامنة والأربعين

حق، وأن رجلاً قام بمسجد بني حرام فأظهر التوبة من ذنبه، وسأل عن الوجه في كفَّارته فقام رجل من بين الناس، فذكر أسر ابنته، فنظم الحريري القصة وجعلها مقامة، وأنها أول مقامة أثبتت في الكتاب وكان ابن جهور يقول: إن الذي أشار إليه بها في قوله: «فأشار من إشارته حكم» هو المستظهر بالله العباسي، وكان لهذا المستظهر رغبة في الطلب، وحظ من الأديب، وعناية بأهل العلم.

وحدث ابن جهور أنه دخل بغداد في أيامه وبها ألف رجل وخمسمائة رجل حامل علم، وكلهم قد أثبت أسماءهم السلطان في الديوان، وأجرى على كلٍّ واحد من المال بقدر حظِّه من العلم، وكان ابن جهور يحدث أن الحريري ألّف المقامات كلها على الرِّكاب، وذلك أن المستظهر بالله لما أمره بصنعتها، أُخرج كالحافظ على العمال، فكان يخرج في الأبردين يتمشى في ضِفتي دجلة والفرات، ويصقل خاطره بنظر الخضرة والمياه فلم ينقض فصل العمل إلا وقد اجتمع له مائتا مقامة فخلّص منها خمسين وأتلف البواقي، وصدر الكتاب، ورفعه إلى السلطان فبلغ عنده أسنى المراتب.

قوله: «فذاكرته بما قيل فيمن ألف بين كلمتين ونظم بيتاً أو بيتين»، قال عمرو بن العلاء: الإنسان في فسحة من عقله، وفي سلامة من أفواه الناس، ما لم يضع كتاباً أو يقل شعراً.

وقال العتابيّ: من صنع كتاباً فقد استشرف للمدح والذم، فإن أحسن فقد استهدف للحسد والغيبة، وإن أساء فقد تعرّض للشتم بكل لسان.

غيره: من صنف فقد جعل عقله على طبق يعرضه على الناس. وقال حسان: **[البسيط]**

وإنما الشِّعْرُ عَقْلُ المرء يَعْرِضهُ ... على البريَّة إن كَيْساً وإن حُمْقَا[1]

وإن أحسن بيتٍ أنت قائلُهُ ... بيتٌ يقال إذا أنشدْتَه صَدقَا

واستقلت: طلبت الإقالة. المقام: موضع القدمين وأنت قائم. يحار: يتحير: يَفْرُط: يسبقِ. الوهم: الغلط. يُسْبَر غور العقل، يختبر قدره ومنتهاه، وأصله في الجراحات يُختبرَ غورها، أي بعد قعرها. والمسبار: الحديدة التي يقاس بها مقدار غور الجراحة وسبرها: قاسها به، يفعل ذلك الدبيب للقصاص أو للدواء. ويقال لحديدته: السِّبار والمسبار والمسبر والمكحل والميل والمرود والمجراف.

تبين: تتبيّن، يضطر: يُلجأ. حاطب ليل: جامع الحطب بالظلام، وهذا مثل لأكثم ابن صيفي حكيم العرب، ذكره أبو عبيد في الأمثال وقال: إنما شبهّه بخاطب الليل لأنه ربما نهشته الحية أو لسعته العقرب في احتطابه ليلاً، فكذلك المهذار ربما أصابه في إكثاره بعض ما يكره، وقال الفرزذق: **[الطويل]**

---

(١) البيت في ديوان حسان بن ثابت ص ٢٩٢.

كمحتطبٍ ليلاً أساوِدَ هضبةٍ أتاه بها في ظلمة الليل حاطِبُهْ[(١)]

وأبين من تفسيره أن حاطب الليل لا يبصر ما يحتطب، فهو يؤلف بين الحطب الكبير والصغير والقوي والضعيف والجيد والرديء، فكذلك المكثار يأتي بالضعيف من الكلام والقوي والجيد والرديء، فشبهه لذلك بالحاطب وأراد بـ«جالب رجل وخيل» ما أراد بحاطب الليل، لأن الراجل ضعيف والفارس قوي، والمكثار: الكثير الكلام، قال النبي ﷺ: «مَنْ كثُرَ كلامه كثر سَقْطَهُ، ومن كَثُر سقطه كثرت ذنوبه، ومن كثرت ذنوبه، كانت النار أولى به، ألا ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت»[(٢)].

أقيل: أقيم ورفع. عثار: انكباب وسقوط وإقامة العاثر أن ترفعه من سقطته ومنه الإقالة في البيع ونحوه.

* * *

فلّما لم يُسْعِفْ بالإقَالَةِ، ولا أعْفَى مِنَ الْمَقالَةِ لَبَّيتُ دَعْوَتَهُ تَلْبِيَةَ المُطِيْعِ، وبَذَلْتُ في مُطاوعَتِهِ جُهْدُ الْمُسْتَطيعِ وأنْشَأتُ ـ عَلَى ما أعانيه مِنْ قَريحة جَامِدةٍ، وَفِطْنَةٍ خامدةٍ وَرَوِيَّةٍ نَاضِبَةٍ وَهُمومَ ناصبةٍ ـ خمسين مقامةً تحتوي على جدِّ القولِ وَهَزْلِه ورقيق اللفظِ وَجَزلِهِ وغررِ البيانِ ودُررَهِ ومُلحِ الأدب ونوادره، إلى ما وشَّحْتُها به من الآيات ومحاسن الكنايَاتِ ورَصَّعتُهُ فيها من الأمثالِ العَرَبُية، واللطائف الأدبية والأحاجي النَّحويةِ والفتاوى اللغويةِ والرسائل المبتكرة والخطب المُحبرة والمواعظ المُبْكيةِ والأضاحيك المُلهية مما أمليت جميعه على لسان أبي زيد السروجيّ، وأسندتُ روايته إلى الحارث بن همام البصريّ.

والاسعاف المصدر، وساعفته مساعفة: قضيت إرادته ولا أعفى من المقالة، أي لم يُعفني من كلامه وإلحاحه، وأعفيت: الرجل وعافيته: أزلت عنه ما يشق عليه وأصله الترك، ومنه إعفاء اللحية، وهو أن يتركها على حالها، ومنه: عفا الله عنك لبيت: أجبت وقلت: لبيك. أنشأت: ابتدأت وأخذت أفعل، أعانيه: أعالجه وأصلها من العناء وهو التعب قريحة: ذهن وأصلها ماء البئر النابع عند حفرها، ومنه القرحة للجراحة، لأن أصلها مادة وشبه الذهن بذلك لما يتولد عنه من المعاني فطنة: ذكاء والفطن: الذكيّ خامدة ساكنة وخمدت النار: سكن لهبها روية تدبر وروّأت الأمر تدبرت كيف تصنعه.

---

(١) البيت في ديوان الفرزدق ص ٥١.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق باب ٢٣، ومسلم في الإيمان حديث ٧٥، ٧٧، والترمذي في البر باب ٤٣، وابن ماجه في الأدب باب ٣٤، والفتن باب ١٢، والدارمي في الأطعمة باب ١١، وأحمد في المسند ٥/ ٢٤، ٤١٢.

وأصل الروية الهمز واستعملت بغير همز. ناضبة: جافة، ونضب الماء: غار في الأرض. ناصبة: متعبة، وهمٌّ على معنى النسب أي ذو نصب ولو جاء على القياس لقيل: منصب، لأن فعله أنصبه الهمّ وقال بشر: **[الطويل]**

تَعَنَّاك همٌّ من أُميمة مُنْصِبُ ... وجاء من الأخبار ما لا يكذبُ(١)

ونصب نَصَباً: أعيا من التعب. جزلة: غليظة ومتينة. وغُرَر: جمع غُرْة وهي خيار الشيء ومنه غُرّة الفرس وهو البياض في جبهته فجعلها للبيان مجازاً. دُرَرُه جمع دُرَّة، وهي الجوهرة العظيمة، والكلام الحسن يشبه بالدرر والجواهر، مُلح: جمع ملحة، وهي مليح الكلام. نوادره: غرائبه وشحتها: زينتها، الكنايات: ضرب من الألغاز، وأصل الكناية أن تذكر الشيء بغير لفظه، إما لإبهام على جليسك أو لتعظيم أو لتحقير، فالإبهام أن تذكر لفظاً يفهم من ظاهره غير مرادك مثل قوله تعالى حاكياً عن هود عليه السلام، حين قال له قومه: **﴿إنا لَنَرَاكَ في سفاهةٍ... قال يا قَوْم لَيْسَ بِي سَفَاهِة﴾** [الأعراف: ٦٦، ٦٧] فليس في اللفظ زيادة على ما في السفاهة، وقد تضمن الكلام التكذيب لهم والتعظيم، مثل كناية الرجل بأبي فلان، تُرِك اسمه وعدل إلى كنايته تعظيماً له. والتحقير: أن يكون الشيء خسيساً فتأنف من ذكره فتذكره بغير اسمه، مثل قوله تعالى: **﴿كَانَا يأكلانِ الطّعَام﴾** [المائدة: ٧٥] فكنى عن الحدث بالأكل لما كان يتولد عنه، رصّعته: نظمته، وألصقت بعضه ببعض، وتاج مرصّع: مزين بخرز وجوهر ينتظم فيه. اللّطائف: الرقائق والكلمة اللطيفة، أي الرقيقة المعنى التي تحل في القلب فتلطفه، الأحاجي: ضرب من الألغاز واحدها أُحجيَّة، وهي قولك لصاحبك: أخرج: ما في يدي ولك كذا تقول العرب: أحاجيك ما في يدي؟ وحجيَّاك ما في يدي؟ وهي من الحجى وهو العقل.

الفتاوى اللغوية، أراد بها المسائل المائة التي في الثانية والثلاثين وألفتيا: إظهار الشيء المسؤول عنه عند السؤال. المبتكرة: التي لم يسبق أليها، وبكر وابتكر خرج بكرة ومنه الباكور وهو المبكر من كل شيء في الإدراك، وبكر كلَّ شيء: أوله. والمحبَّرة: المزينة، وحبرت الشيء تحبيراً زينته، وأصلها من الحبر وهي ثياب تصنع باليمن فيها رقوم وتزيين أمليت: ألقيت، وأمليت على الصبيّ: ألقيت عليه ما يُكتب. أسندت: رفعت.

* * *

(١) البيت لبشر بن أبي خازم في ديوانه ص ٧، ورواية البيت فيه:

تغناك نصبٌ من أميمة منصب ... كذي الشوقِ لمّا يسْلُه وسيذهبُ

ولطفيل الغنوي في ديوانه ص ٣٧، ورواية البيت فيه:

تأوّبني همٌّ مع الليل منصبُ ... وجاء من الأخبار ما لا أكذبُ

والأغاني ١٥/ ٣٤٢، والرواية فيه كما في ديوان طفيل والبيت بلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٣٥٠.

وَمَا قَصَدتُ بالإحماض فيهِ إلا تَنَشيط قارئيهِ، وتَكْثيرَ سوادِ طالِبِيْهِ. وَلَمْ أُودِعَهُ مِنَ الأشْعَارِ الأجْنَبِيةَ إلا بيتين فذين أسَّسْتُ عليهما بنية المقامةِ الحُلْوَانية وآخرين توأمين ضمَنِتُهُما المقامة الكرجِيَّةِ وما عدا ذلك فخاطري أبو عُذْرِهِ ومُقْتَضب حُلْوِهِ وَمُرِّهِ هَذا مع اعترافي بأنَّ البَديع رَحِمَهُ الله سبَّاق غاياتٍ وصاحب آياتٍ، وأنّ المتصَدِّي بعده لإنشاء مقامةٍ؛ ولو أُوتِيَ بلاغة قدامة، لا يغترفُ إلا من فُضالته، ولا يسري ذلك المسرى إلا بدلالته.

* * *

الإحماض: الانتقال من الشيء إلى شيء، وأصله في الإبل ترعى الخلة وهي حلوة المرعى فتملّه فتنتقل إلى الحمض تأكل منه فيذهب الحمض عن قلوبها استيلاء الحلاوة فتنشط بذلك على الرعي فيقال: أحمض الرجل إحماضاً، والعرب تقول: الخلة خبز الإبل والحمض فاكهتها فأراد به تنقله في المقامات، من حكاية فائقة إلى قضية رائقة، ومن موعظة تبكي إلى ملهية تُسلي، وفي ذلك تنشيط وترغيب في قراءتها، ونفي للملل والكسل عن قارئها، سواد: أشخاص، ويسمى الشخص سواداً، لأنه يسود الأرض بظله. أودعه: أضمنه، الأجنبية: التي ليست من شعره، والأجنبي: من ليس بينك وبينه قرابة من الجنابة وهي البعد فذين: منفردين هذا من شعر وهذا من آخر، وتوأمين: أخوين من شعرٍ واحدٍ. أسست: أصلت، والأساس أصل الحائط. الحلوانية والكرجية: منسوبتان إلى حُلوان والكرج، وهما بلدان، ما عدا: ما جاوز. خاطري: ذهني. أبو عُذره، أي أول صانع له، يقال للمرأة: فلان أبو عُذرها، أي أول زوج تزوجها فوجدها عذراء فافتضها وأزال عُذرتها، أي ما بها من صعوبة، مقتضب. مقتطع. حلوه ومرّه: جيده ورديئه.

غايات: جمع غاية وهي طلق[1] الخيل والسباق منها الذي يجيء أبداً سابقاً المتصدي: المتعرض. بلاغة: فصاحة، وأصلها أن يبلغ الإنسان من الكلام والحجة ما أراد.

[قدامة بن جعفر]

قُدامة. وهو أبو الوليد بن جعفر، كان بليغاً مجيداً عالماً بأسرار صنعة الكتاب ولوازمها، وله كتاب يعرف بسرّ البلاغة في الكتابة، وترجمته تدل على متضمنه، وله تحقيق في صنع البديع يتميز به عن نظرائه، وتدقيق في كلام العرب يربي فيه على أكفائه، وتحذيق في علوم التعليم أضرم فيها شعلة ذكائه؛ فلذلك سار المثل ببلاغته، واتفق

(١) الطلق: هو الشوط الواحد في جري الخيل.

المتقدم والمتأخر على فضل براعته. الفُضالة: البقية من الماء وغيره، وهي ما فضل عن الحاجة. واغترفها: أخذها بيده يسري بذلك المسرى: يقصد ذلك المقصد، وأصل يسري، يسير بالليل، دلالته: تقدمه وهدايته، وتفتح دالها وتكسر، والفتح أكثر. والدليل بالفلاة: الذي يهدي القوم قصدهم.

* * *

وَلِلّهِ دَرُّ القائلِ: [الطويل]

فَلَو قَبْلَ مَبْكاهِا بَكَيْتُ صَبَابَةً ... بِسُعدَى شَفَيتُ النَّفْسَ قَبْلَ التَّنَدُّمِ

وَلَكِنْ بَكَتْ قَبْلِي فَهَيَّجَ لي البُكا ... بُكاهَا، فَقُلْتُ: الْفَضْلُ لِلْمُتَقَدِّمِ

مبكاها: بكاءها، صبابة: شوقاً هيج: حرك والبيتان لعديّ بن الرقاع، وقبلها: [الطويل]

ومما شجاني أنني كنت نائماً ... أعلّل من فرط الكرى بالتنسُّمِ

إلى أن دعت ورقاء في غصن أيكةٍ ... تُردّد مبكاها بحسن الترنمِ

فلو قبل مبكاها...

[عديّ بن الرّقاع]

وعديّ هو أبو زيد بن مالك، ينتمي إلى معاوية بن الحارث، وينسب إلى الرقاع وهو جدُّ جده. وكان شاعراً مقدماً عند بني أمية، مدّاحاً لهم، خاصاً بالوليد بن عبد الملك، ومنزله بدمشق، وهو من حاضرة الشعراء لا من باديتهم، وكان من أوصف الناس للمطية، وكذا ذكره صاحب الأغاني في ترجمته وقال نوح بن جرير لأبيه: من أنسب الناس؟ قال: ابن الرقاع في قوله: [الكامل]

لولا الحيا وأن رأسي قَدْ عَسَا ... فيه المشيب لزرت أمّ القاسمِ[1]

وكأنها بين النساء أعارها ... عينيه أحور من جآذر جاسم

وَسْنَانُ أقصده النّعاس فرنّقتْ ... في عينه سِنةٌ وليس بنائمِ

* * *

أقرّ الحريري هنا للبديع بالفضل، وجعله سبَّاقاً للغايات، وما أحسن هذا الأدب منه، مع علمه بفضل مقاماته على مقامات البديع، ومن أدل دليل على ذلك أنه منذ ظهرت مقامات الحريري لم تستعمل مقامات البديع، ثم إنه طبق استعمالها آفاق الأرض،

---

(١) الأبيات في ديوان عدي بن الرقاع ص ٩٩، والأغاني ٣/ ٣٧٤، ٩/ ٣٠٤، ٣٠٧، وأمالي المرتضى ١/ ٥١١، ولسان العرب (جسم)، (عتا)، ومعجم البلدان (جاسم).

إلا أنه أسرَّ هنا شيئاً، لأنه ختم كلامه، بأن البديع فضله بالتقدّم؛ وهذا منه مذهب مستحسن، ألا تراه كيف بدأ بتجريد الفضل للبديع وحده، ثم لم ير لنفسه قدراً في قوله: «وإن لم يدرك الظالع شأو الضليع»؛ فجعل نفسه كالفرس الأعرج الذي جريه إذا أجتهد دون مشي الصحيح، وجعل البديع كالفرس العتيق الكامل القوة ثم لّما بلغ إلى هذا الموضع بعد أسطار صرّح في الظاهر للسامع بأن البديع سباق غايات، وصاحب آيات، وأومى لمن فطن أنه إنما فضله بتقدم الزمان.. ثم خلط الكلام في الخلفاء بين المتقدمين والمتأخرين، ثم تناسى ذلك إلى آخر الكتاب في السابعة والأربعين، وصرّح هناك بتفضيل المتأخر على المتقدم وتفضيله نفسه على البديع، حيث يقول: **[الرجز]**

إن يكُنِ الإسكندريّ قبلِي   فالطلّ قد يبدو أمام الوَبْلِ

* والفضل للوابل لا للطَّلِّ *

ولو كان غيره من العلماء المنسوبين إلى سوء الأدب، ورأى فضل مقاماته، لذم البديع ونقص كتابه فكان ينعكس الذم عليه: وكذا رأينا في الغالب من ادّعى لنفسه فضلاً، وازدرى غيره، أنه قلّما يكون إلا ممقوتاً، فلما أظهر الحريري مدح البديع ووفاه قسطه من التفضيل والترفيع، ولم ينظر إلى نفسه إلا بطرف خفي قل من يتفطن له، ستر الله عليه ورفع صيته، ووضع لكتابه القبول عند الخاصة والعامة. **[الطويل]**

فشرّقَ حتى لم يجد ذكر مشرِقٍ   وغرّب حتى لم يجد ذكر مَغْربِ

فلا يذم كتابه إلا أحد الرجلين فذين ذكرهما؛ إما جاهل، أو حاسد.

* * *

ومذهب الناس في تفضيل الحديث على القديم؛ وأكثرهم على تفضيل القديم، وقد أحسن حبيب حيث يقول: **[الكامل]**

نقّل فؤادك حيث شئت من الهوى   ما الحبّ إلا للحبيب الأولِ

كم منزلٍ في الأرض يألفه الفتى   وحنينه أبداً لأول منزلِ

وقال: **[الكامل]**

لا زِلْتِ مِنْ شكريَ في حُلّةٍ   لابُسها ذو سلَبٍ فاخرِ

يقول من تقرع أسماعَه: ما تركَ الأوّل للآخرِ

وذكر ابن شرف علة ذلك فقال: **[الكامل]**

أُولع النَّاس بامتداح القديمِ   وبذمّ الحديثِ غير الذَّميمِ

ليس إلا لأنهم حسدوا الحيّ   ومالوا إلى العظام الرَّميمِ

وللمتأخرين شعر كثير في تفضيلهم أنفسهم على المتقدمين؛ من أحسنه قول المعريّ: [الخفيف]

وإنّي وإن كنتُ الأخيرَ زمانُه لاتٍ بما لم تستطعه الأوائل

وقال ابن عمار: [الطويل]

أنا ابنُ عمار لا أخفى على أحدٍ إلا على جاهلٍ بالشمس والقمرِ
إن كان أخّرني دهري فلا عجبٌ فوائد الكتبُ يُستلحقْن في الطرُرِ

والذي ذكر أبو العباس في الكامل هو الحق، قال: وليس لقدم العهد يفضل القائل، ولا لحداثة العهد يهّضم المصيب، ولكن يعطى كلٌ ما يستحقّ

[الحمام]

وأمّا بيت عديّ في الحمام فالحمام قد ذكر العرب لها في أشعارها، ونلمّ هنا بفصل منها؛ يروى عن علي رضي الله عنه أنه اشتكى إلى رسول الله ﷺ الوحشة فقال له: «اتّخذ حمامة تؤنسك وتصيب من فراخها وتوقظك للصلاة بتغريدها»[١].

ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «اتخذوا الحمام فإنها تلهي الجن عن صبيانكم»[٢].

وروى جابر رضي الله عنه أنه ﷺ كان يعجبه النظر إلى الحمام الأحمر وإلى الأترجّ.

وكان إبراهيم بن سيّار يعجب بالحمام، وكان إذا ذكرها يقول: إن الله جمع فيها حسن المنظر، وكريم المخبر؛ تكفيك مؤنتها، وتكثر لديك معونتها؛ فهي للطارق عدّة وللمستوطن لذة، تطعم في الصحراء، وتعود عليك بالسراء ويأنس الوحيد بحركاتها، وتُغنيه عن الأوتار بنغماتها؛ وغيرها من الطير يستعجم وهي ناطقة، وينفر عنك وهي داجنة، وفي طباعها سكون إلى الناس واستئناس بهم، وهي طير عفيف، يبقي الذكر بعد الأنثى مفرداً، والأنثى مثل ذلك، مع شدة اتفاقهما على المحبة، إن طارا طارا معاً، وإن وقعا وقعا معاً، لها سرعة طيران لا تكاد تصيدها سباع الطير إلا بحيلة.

ولم تزل العرب تستحسن تسجيع الحمام وتغريد البلبل والورشان، وقد ذكرت العرب من رقة تسجيعه ما يبعث التذكر، ويولد الشجون، ويهيج الأسى، ويجدد رقة القلب؛ حتى يجعل البكاء فرضاً معها، والتصابي لازماً لأجلها وأعراب وادي القرى إذا ظفروا بشراب الطائف، أتوا حوائط النخل عند استعلاء الظهيرة، إذا صارت الوراشين

---

(١) لم أجد الحديث بهذا اللفظ ولا المعنى في كتب الصحاح.

(٢) أخرجه الطبراني في الجامع الصغير ١/٩، بلفظ: «اتخذوا هذه الحمام المقاصيص».

والفواخت إلى تلك الظلال، فيشربون ويأنسون بتغريدهن، ويقيمون ترجيع أصواتهن مقام المزامير والأوتار وأنا أسوق من المنظوم ما يوافق هذا النثر، كقول أبي صخر الهذليّ: [الطويل]

ولّما دعتْ غوْريّةُ الأيك سَجّعَتْ ... فسجَّعَ دمعي يستهل ويستشري
يذكرني شجوى دعاء حمامةٍ ... ويبعث لوعاتِ الصَّبابة في صدري
بكتْ حزناً رزء الَهديِل وشفَّني ... فراقُ حبيبٍ ضاق عن فقده صبرِي

وأنشد الأصمعي قال: [البسيط]

أيّها البلبل المغرّد في النَّخـ ... ـل غريباً عن أهلِه حَيرانا
أفراقاً تشكوه أم ظَلْتَ تدعو ... فوق أفنان نخلةٍ وَرَشانا!
هاجَ لي صوتُك المغرّد شجواً ... رُبّ صوتٍ يهيِّج الأحزانا

وقال آخر: [الوافر]

أحنّ إلى حوائط ذات عِرقٍ ... لتغريد الفواخِتِ والحَمامِ
أُلمّ بها بكلّ فتىً كريم ... من الفِتْيان مخلوع الزِّمامِ

وقال آخر: [الوافر]

إذا غَنَّتْ على الأغصان وُرْقٌ ... أجبْنَاها بإعمال المُدَامِ

وقال آخر: [الوافر]

سيُغنيك عن مزمار آل محرّقٍ ... ومربعهمْ تغريد تلك الحمائم
بأيكة أطيار تجاوبن بالضحى ... عَلَى باسقات مائلات نواعِم

وأنشد أبو عليّ عفا الله تعالى عنه: [الطويل]

ومن بستان إبراهيم غَنّتْ ... حمائم بينها فَنَنٌ رطيبُ
فقلتُ لها وُقيتِ سهام رامٍ ... ورقط الريش مطعمها الحبوب
كما هيّجت ذا حزن مُعَنّىً ... على أشجانه فبكى الغريبُ

وقال نصيب: [الوافر]

لقد هتفت في جُنح ليلٍ حمامةٌ ... تبكّيّ على إلفٍ وإني لنائمُ
كذبتُ وبيت الله لو كنت عاشقاً ... لَمَا سبقتني بالبكاء الحمائمُ[1]

(١) البيتان للمجنون في ديوانه ص ١٨٦، والأغاني ٢/ ٦٢، والمقاصد النحوية ٤/ ٤٧٣، ولنصيب في=

وأنشد أبو العباس لحميد بن ثور: [الطويل]

وما هاج هذا الشَّوقَ إلا حمامةٌ ... دعت ساق حرٍّ ترحةً وترنُّما[1]
مُحَلاَّةُ طوقٍ لم يكن من تميمةٍ ... ولا ضربَ صَوّاغٍ بكفّيه درهما
تَغَنَّتْ على غصنٍ عِشاء فلم تَدَعْ ... لنائحةٍ في نوحها متلوَّما
إذا حرّكَتْهُ الريح أو مال ميلةً ... تغنَّتْ عليه مائلاً ومقوِّما
عجبت لها أنّى يكون غناؤها ... فصيحاً ولم تَفْغَرْ بمنطقها فَمَا
فلم أرَ مثلي شاقه صوت مثلِها ... ولا عَرَبيّاً شاقه صوت أعجما

وقال حبيب: [الكامل]

لتضعضعت عبراتُ عينيك أن دعَتْ ... ورقاءُ حين تضعضع الإظلامُ[2]
لا تشجَيَنْ لها فإن بكاءها ... ضحك وإنَّ بكاءك استغرامُ
هنّ الحمام، فإن كسرت عِيافةً ... من حائهنّ فإنّهنَّ حِمامُ

وسمع حبيب بخراسان غناء بالفارسية، فلم يدر ما هو، غير أنه شوّقه فقال: [الوافر]

حِمذْتُكَ ليلة شَرُفت وطالتْ ... أقام سهادُها ومضَى كَراها[3]
سمعتُ بها غناءً كانَ أولى ... بأن يقتاد نفسِي مِنْ عَنَاها
ومَسْمعةً يحارُ السمعُ فيها ... ولم تصمِمْه لا يصممْ صَدَاها
ولم أفهم معانيها ولكن ... وَرَتْ كبدي فلم أجهل شَجَاها
وظَلْتُ كأنني أعمى معنًّى ... يحبُّ الغانيات ولا يَرَاهَا

يعني بهذا الأعمى بشاراً حيث يقول: [البسيط]

يا قوم أذني لبعضِ الحيّ عاشقةٌ ... والأذن تعشق قبل العين أحيانا[4]
قالوا بمن لا ترى تهذي! فقلت لهم: ... الأذن كالعين توفي القلب ما كانا

* * *

= ديوانه ص ١٤، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ١٢٨٩، وبلا نسبة في الجنى الداني ص ٢٨٤، والحيوان ٣/٢٠٦.

(١) الأبيات في ديوان حميد بن ثور ص ٢٤، ٢٧ ولسان العرب (حرر)، (سوق)، (حمم)، ومقاييس اللغة ٢/٦، ومجمل اللغة ٢/٨، وتاج العروس (حرر)، (علط)، (سوق)، (وحى)، وبلا نسبة في كتاب العين.

(٢) الأبيات في ديوان أبي تمام ص ٢٧٩.

(٣) ديوان أبي تمام ص ٤٦٧.

(٤) انظر الأغاني ٣/٢٣٨.

وَأَرْجُو ألاَّ أكونَ في هَذا الهَذَرِ الذي أوْرَدَتَهُ، والموردِ الذي تَوَرَّدْتُه، كالباحثِ عَنْ حَتْفَهِ بظَلفِهِ، والجادعَ مَارنَ أنفهَ بِكَفِّهِ، فألحق بالأخْسَرين أعْمَالاً الَّذينَ ضلَّ سَعْيُهُمْ في الحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ يَحْسَبون أنَّهُمْ يُحْسُنونَ صُنْعاً.

* * *

قوله: «الهذر الذي أوردته» أي الإكثار الذي أتيتُ به، وقد تقدّم المورد وتوردّته: اقتحمته. الباحث: المفتش، والظّلف: للبقر والغنم كالحافر للخيل والحمير. وهذا مثل للعرب؛ وذلك أن ماعزة كانت لقوم، فأرادوا ذبحها فلم يجدوا شفرةً، فنبشت بظلفها في الأرض، فاستخرجت منها شفرة، فذبحوها بها، وقالوا: بحثت عن حتفها بظلفها، فسارت مثلاً. وقال الشاعر: **[الطويل]**

وكانتْ كعنز السوء قامت بظلفها إلى مُديةٍ تحت الثَّرى تستثيرُها[1]

وقال أبو الأسود: **[المتقارب]**

فلا تكُ مثل التي استخرجت بأظلافها مُديةً أو بِفيها[2]

فقامَ إليها بها ذابحٌ ومَنْ يَدْعُ يوماً شَعوباً يَجِيها

ولفظ المثل عند أبي عبيد «كالعنز تبحث عن المدية» والجادع: القاطع الأنف. والمارن: طرف الأنف، وأراد به قصيراً مولى جذيمة الأبرش. وقد ذكرنا قصته في شرح الرابعة والعشرين. ورجا المصنف ألا يدّركه من الضرر ما أدركا من الضّرر حين جنيا على أنفسهما وانتفع غيرهما، ضلّ سعيهم: خابت أعمالهم، وأصل ضلّ، تحيّر فلم يدر أين يتوجّه، وأصل السعي المشي بسرعة، سمع أعرابيّ رجلاً يقرأ ﴿**قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بالأخْسَرِينَ أعمالاً**﴾ [الكهف: ١٠٣]، فقال: أنا أعرفهم، قيل له: ومن هم؟ قال: الذين يبرّدون ويأكل غيرهم.

* * *

على أنّي وإنْ أغْمَضَ لي الْفَطِنُ المُتَغَابي، وَنَضَحَ عَنِّي المُحِبُّ المُحَابي، لا أكادُ أخلصُ مِن غُمرٍ جَاهل أو ذي غمرٍ مُتَجَاهِلٍ، يَضَعُ مِنِّي لِهذا الوضع ويندِّدُ بأنَّهُ مِنْ مَنَاهي الشَّرْعَ. وَمِنْ نَقَدَ الأشياءَ بِعَيْنِ المَعْقُول، وأنعم النَّظر في مَبَانّي الأصول، نَظْمُ هذه المقاماتِ، في سِلْكِ الإفاداتِ وسَلْكُها مَسْلَكِ المَوْضُوعَات، عن العَجَمْاوَاتِ والجَمَاداتِ.

* * *

---

(١) البيت للفرزدق في ديوانه ص ٧١.

(٢) البيتان في ديوان أبي الأسود الدؤلي ص ٢٢.

أغمض: سامح وسدْ عينيه عمّا لم يرض، والفطن: الذكيْ. التغابي: المتجاهل عن الشيء وهو عارف به، وهو مما يحمد به الرجل، قال حبيب: [الكامل]

ليس الغبيّ بسيّد في قومِه ... لكنَّ سيّد قومه المُتغابِي(١)

ونَضَح بالماء: غسل. المحابي: الذي يفضِّلني على غيري، وحباني: اختصني بالعطية، وأصل حاباه أن تعطيه ويعطيك، وقد يكون في معنى «حباه». الغُمْر: الجاهل ذي غِمر: صاحب عداوة. متجاهل: مستعمل للجهل وهو على خلافه؛ يقول؛ إن سدّ عينيه عن عيبي فَطِنٌ ذو عقل، أو تغابى حين يبصر لي خطأ، أو رأى لي ذلك العيب محبّ، فجعل يغسله عنيّ لمحبته لكلامي؛ فلا أخلص مع ذلك إما من جاهل يعيب ما لا يفهم، أو من عارف يُظهر لي عداوة وحسداً، فيردّ حسني قبيحاً، وهو عارف بحسني؛ فيشيع في الناس أن المقامات أكاذيب، وهو عارف بفضلها وما قصد بها.

[ما قيل في الحقد]

والغِمْر: الحقد، وصاحبه مذموم، ولا أعرف من تعرّض من الفصحاء لمدح حامله سوى ما يحكى أن عبد الملك بن صالح جيء به إلى الرشيد في قيوده، فقال له ابن خالد ـ وأراد أن يبكّته: بلغني أنك حقود، فقال عبد الملك: أيها الوزير، إن كان الحقد هو بقاء الخير والشر؛ إنهما لباقيان في صدري ـ وفي رواية أخرى: إنما صدري خِزانة تحفظ ما استودعت من خير أو شرّ ـ فقال الرشيد: والله ما رأيت أحداً احتجّ للحقد بمثل ما احتجّ به عبد الملك، ففتح الباب لابن الروميّ، فقال يخاطب بعض من عابه بالحقد: [الطويل]

لئن كنتُ في حفظي لما أنا مودَعٌ ... من الخير والشرّ انتحيت على عرضِي
لَمَا عِبْتنِي إلاّ بفضل أمانةٍ ... وربّ امرىءٍ يُزرِي على خُلُقٍ محضِ
ولولا الحُقود المستكنّات لم يكن ... لينقض وتراً آخرَ الدَّهرِ ذو نقضِ
وما الحقدُ إلاّ توءم الشُّكْرِ في الفَتَى ... وبعض السجايا ينتسبن إلى بعض
فحيثُ ترى حِقْداً على ذي إساءة ... فَثَمَّ ترى شُكْراً على حَسَنِ العَوْضِ

ثم رجع إلى الطريقة المثلى، فانتحل المذهب الأعلى، وقال يعيبه، ضارباً بسهم البلاغة في الوجهين: [البسيط]

يا مادح الحقد محتالا له شُبْهاً ... لقد سلكت إليه مسلكاً وَعَثَا
يا دافن الحِقْد في ضِغْفي جوانِحِه ... ساء الدَّفين الذي أضحت له جَدَثاً
الحِقْدُ داءٌ دوِيٌّ لاَ دَوَاء له ... يَرِي الصدور إذا ما جَمْرُه حُرِثَا

---

(١) البيت في ديوان أبي تمام ص ١٥٤.

فاستشفينْهُ بصفحٍ أو محادثة ... فإنما يُبْرَأ المصدور ما نَفَثا
إنّ القبيح إذا أصلحت ظاهِرَه ... يعود ما لمْ منه مَرَّةً شَعِثا
كم زَخرف القولَ ذو زورٍ ولبَّسَهُ ... على العقول ولكن قلَّما لبثا

* * *

قوله «يضع منّي» أي يحط من منزلتي. الوضع: الكتاب. يندّد: يشهر العيب، ندَّد به، إذا أسمعه المكروه، نقد الأشياء: فتّش وبحث عليها. المعقول: العقل. أنعم: بالغ. وأصل النظم جعل حبّات الجواهر في خيطها وضمها فيه لغيرها ثم سُمِّي بيتُ الشعر نظماً، لأن الكلام فيه ملتصق بعضه ببعض كحبّ الجواهر، والبيت يضمه كالخيط، والسلك: خيط الجوهر. والإفادات: الفوائد. سلَك: قصد. الموضوعات: الكتب المؤلفة، أي أدخلها مدخل هذه الكتب. العجماوات: البهائم، وسمّيت واحدتها عجماء لأن صوتها لا يُفهم منه معنى. والجمادات: ما عدا الحيوان، وأراد ما أُلِّفَ من الكتب مما لا حقيقة له في الظاهر، وقد ضُمِّنَ الحكَم الشافية في الباطن، مثل كتاب كليلة ودمنة وغيره مما ألف على ألسنة ما لا عقل له ولا روح. وكذلك المقامات، وإن كان ظاهرها كذباً فالقصد بها تمرين الطالب وتهذيبه وتذكية عقله، وأن يكتسب تجارب الدّنيا من حكايات السَّروجيّ، فيكون متنبّهاً لما يطرأ عليه من النَّوازل، فتؤمن على عقله الغفلة والخديعة، إلى ما ينضاف إليه من تعليم صنعة الكتابة والشعر، فإنّها أعون شيء عليها.

[حكم بلسان البهائم]

ومما يحكى على ألسنة البهائم ما جاء في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: بينا راع في غنم إذ عدا عليها الذئب، فأخذ شاة منها، فطلبه الراعي منه حتى استنقذها، فالتفت إليه الذئب وقال: من لها يوم السَّبْع، يوم ليس لها راع غيري!»[١].

بينما رجل يسوق بقرة له قد حمل عليها، فالتفتت إليه البقرة فكلّمته فقالت: أنا لم أُخلقَ لهذا، وإنما خلِقت للحرث، فقال الناس: سبحان الله! تعجباً وفزعاً؛ أبقرة تتكلم! فقال رسول الله ﷺ: «فإني مؤمن بذلك وأنا وأبو بكر وعمر»[٢].

السَّبْع، بسكون الباء: أرض المحشر والسبع: الفزع.

وقال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود وحتى يختبىء اليهوديّ

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء باب ٥٤، وفضائل أصحاب النبي باب ٥، ٦، ١٣، والحرث باب ٤، ومسلم في الفضائل حديث ١٨٥٧، والترمذي في المناقب باب ٧.
(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء باب ٥٤، ومسلم في الفضائل حديث ١٨٥٨.

وراء الحجر فيقول الحجر: يا عبدَ الله، يا مسلم هذا يهوديٌّ ورائي فاقتله»[1].

قالوا خرج أسد وذئب وثعلب يتصيدون، فاصطادوا حمار وحش وغزالاً وأرنباً فقال الأسد للذئب: اقسم بيننا هذا، فقال: الحمار للملك، والغزال لي، والأرنب للثعلب؛ فرفع الأسد يده فضربه ضربة، فإذا هو مجدّل بين يديه. ثم قال: للثعلب: اقسمها، فقال: الحمار يتغذّى به الملك، والغزال يتعشى به، والأرنب بين ذلك، فقال الأسد: ويحك ما أقضاك! مَنْ علّمك هذا القضاء؟ قال: رأس هذا الذئب. وحدّث الشعبيّ، قال: صاد رجل قُبّرةً، فقالت: ما تريد أن تصنع بي؟ قال: أذبحك وآكلك. فقالت: والله ما أشبع من جوع وخير لك من أكلي أن أعلّمك ثلاث خصال: واحدة وأنا في يدك، والثانية وأنا على الشجرة، والثالثة وأنا على الجبل؛ قال: هاتي: قالت: لا تلهفنّ على ما فات، فخلى سبيلها، فلما صارت على الشجرة قالت: لا تصدّقن بما لا يكون أنه سيكون، فلما صارت على الجبل قالت له: يا شقيّ لو ذبحتني أخرجت من حوصلتي درتين، كل واحدة عشرون مثقالاً، قال: فعض الرجل على شفته تلهّفاً، ثم قال: هاتي الثالثة، فقالت: أنت قد نسيت ثنتين فكيف أخبرك بالثالثة! ألم أقل لك: لا تلهفنَّ على ما فات، ولا تصدقن بما لا يكون أنه سيكون! أنا ولحمي ودمي وريشي لا يكون فيّ عشرون مثقالاً، فكيف يكون في حوصلتي درّتان كلّ واحدة عشرون مثقالاً! ثم طارت وذهبت. وأمثال هذه الملح أكثر من أن تحصى.

* * *

وَلَم يُسْمِعَ بِمَنْ نَبَا سَمْعُهُ عَنْ تِلْكَ الحِكَاياتِ، أَوْ أَثَّمَ رُوَاتَهَا في وَقْتٍ من الأوقات.

ثُمَّ إذا كَانَتِ الأعمالُ بالنِّيَاتِ، وبِها انْعِقَادُ العُقُودِ الدِّينِيَّات، فأيُّ حَرَجٍ عَلَى مَنْ أنْشَأَ مُلَحاً للتَّنْبِيْهِ، لاَ للتَّمْوِيهِ، وَنَحا بِهَا مَنْحَى التَّهْذيبِ، لا الأكَاذِيبِ! وَهَلْ هُوَ في ذَلِكَ إلاّ بِمَنْزِلَةِ مَنِ انْتَدبَ لِتَعْلِيم، أو هَدَى إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم! [الطويل]

عَلَى أنَّني رَاضٍ بأنْ أحْمِلَ الهَوَى ... وأخْلُصَ مِنْهُ، لا عَلَيَّ ولاَ لِيَا

قوله: «نبا سمُعه» أي ارتفع، وأصله في السَّيْف إذا ارتفع فلم يمض في الضربة. أثّمَ: جعلهم أصحاب إثم، انعقاد العقود، أي ارتباط العقائد. حرج: إثم، وأصل التحريج التضييق، للتنبيه، أي لينبّه به الغافل الذهن فيجعله حاضر الخاطر، نحا منحى: قصد مقصد. التهذيب: التلخيص، وهذبت الطالب: أخرجته وخلّصته، ورجل مهذّب:

(١) أخرجه البخاري في الجهاد باب ٩٤، ومسلم في الفتن حديث ٢٢٣٩، وأحمد في المسند ٢/ ٤١٧، ٥٣٠.

مخلص من العيوب. ويروى: ندب وانتدب، فندب دعا، وانتدب أجاب. وهدى: أرشد. صراط مستقيم: طريق معتدل، ومن فعل ما ذكر مأجور غير آثم، لكنّه مع هذا رضي أن يخلص ممن يتكلم في كتابه بتعييب، وأن يخرج من هذا الكتاب كفافاً لا أجر ولا وزر؛ بل نرجو له الأجر على نيّة الإفادة والتعليم، إن شاء الله تعالى.

* * *

وَباللَّهِ أعْتَضِدُ، فِيمَا أعْتَمِدُ، وأعْتَصِمُ مِمّا يَصِمُ وَأسْتَرْشِدُ، إلى مَا يُرْشِدُ؛ فَمَا الْمَفْزَعُ إلا إليْهُ، ولا الاسْتِعَانَةِ إلا بِهِ، ولا التَّوْفِيقُ إلا مِنْهُ، ولا المَوْئِلُ إلا هُوَ؛ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وإليْهِ أُنِيبُ، وبِهِ نَسْتَعِيْنُ، وِهُو نِعْمَ المُعِيْنُ!

أعتضد: أستعين. أعتمد: اقتصد. أعتصم: أمتنع يصم، يعيب. أسترشد: أستهدي. يرشد: يهدي ويدل على الخير. والمفزع: الملجأ، وكذلك الموئل. وتقول: فزعتُ إلى فلان، إذا لجأت أليه واستعنت به ليحميك ويمنعك، وفزعت منه: خفته، والمفزع الذي ذكره مصدر بمعنى الفزع. وتقول: وألت من ذلك، إذا نجوت منه، وأنت موئلي منه، أي الذي تنجّيني منه. والمفزع: الموئل والحصن، تفزع إليه فينجيك من طالبك. أنيب: أرجع. والإنابة: الرجوع إلى الله تعالى والتوبة إليه.

المقامة الأولى

وهي الصَّنعانية

حدّث الحارث بن هَمّام قال: لَمَّا اقْتعدْتُ غَارِبَ الاغْتِرَابِ، وأنْأتْني المَتْرَبَة عَنِ الأتْرَابِ، طَوَّحَتْ بيَ طَوَائِحُ الزَّمَنِ، إلى صنعاءِ اليَمَنِ، فَدَخَلْتُها خاوِيَ الوفاضِ، بَادِيَ الإنْفَاضِ؛ لا أَمْلِكُ بُلْغَةً ولا أجِد في جِرَابي مُضْغَةً.

* * *

إن قيل؛ لأي معنى اختار الحريري حارثاً وهماماً وأبا زيد، دون غيرهم من الأسماء؟ فالجواب أنه إنما قصدهم لأنهم أصدق الأسماء، قال رسول الله ﷺ في الحديث المرفوع: «تَسَمَّوا بأسماء الأنبياء وأحبُّ الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن، وأصدقها حارث وهمام، وأقبحها حرب ومرة»[1] وصدقهما أنه ليس أحد إلا وهو يحرث، أي يحاول الكسب أو يهمّ بحاجته.

وأما أبو زيد، فإن صدق أنه إنسان بعينه كما تقدّم في الصدر وقع الاكتفاء به، وإن لم يصدق فقد حكى أهل اللغة أنه كنية الكبر، وأنشد ابن قتيبة: **[الطويل]**

أعار أبو زيد يميني سلاحه ... وحدُّ سلاح الدَّهر للمرء كالمُ

وكنتُ إذا ما الكلب أنكر أهله ... أفدَّى، وحين الكلب جذلان نائمُ

سلاحه: العصا وإنكار الكلب أهله، إذا لبسوا السلاح. وجذلان نائم، في الجدب إذا ماتت المواشي فيشبع من لحومها وينام. وقال ابن الأعرابيّ: يقال للشيخ الكبير: أبو زيد وأبو سعيد والسروجيّ في الغالب إنما يصفه بالكبر والهرم.

فوقعت التسمية لغوية، وإنما عنى بالحارث بن همام نفسه لأنه يصفه بأشياء لا تليق إلا بالدهر، مثل قوله: **[الرجز]**

وكل سرحٍ فيه ذئبي عائثَ ... حتى كأني للأنام وارثُ

* سامُهم وحامهم ويافثُ *

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب باب ٦١، وأحمد في المسند ٤/ ٣٤٥، والطبراني في الجامع الصغير ١/ ٢٢٤.

ومثل قوله: [مجزوء الكامل]

وَوَتَّرتُ أربابَ الأرا ئِك والدَّرانِك والسَّجُوفِ

وهي كثيرة، وفي الخمسين له كلام لا يليق إلا بالدهر، فجعل أَخْذَ الحارث من أبي زيد، كناية عن علم الحريريّ بما جرّب من صروف الدهر.

قوله: «اقتعدت» أي ركبت، وأصله اتخذت قُعدة أو قَعوداً، وهما اسمان للبعير يقعد عليه راكبه. والغارب: مقدّم سنام البعير. والأغتراب والغربة: التحوّل في البلدان والبعد عن الأوطان، وسيأتي ما أصلهما، وأراد: لما اتخذت ظهر الغربة قعوداً. أنأتني: أبعدتني. المتربة: الفقر. الأتراب: الأصحاب على سنن واحد. طوّحت: رمت.

وطوائح: نوائب؛ تقول: طوْحتُ بالرجل، إذا رميت به إلى الهلاك، وقياس الطوائح المطاوح لأنك تقول: طوّحت فهي مطوحة والجمع مطوحات ومطاوح. قال أبو عبيد: جاءت الطوائح على حذف الزيادة، وردّ الفعل إلى أصله، فإنه من طاحت فهي طائحة، والجمع طوائح، قال أبو عمرو الشيبانيّ: جاءت على النَّسب، مثل لابن وتامر، أي ذو لبن وذو تمر وذات تطويح، قال الشاعر: [الطويل]

لِيُبْكَ يزيدُ ضارعٌ لخصومةٍ ومختبِطٌ ممّا تُطِيحُ الطوائحُ[1]

ومثله ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ [الحجر: ١٥]: تقديره ملاقح، لأنك تقول: أَلقَحَت الريح السحاب إذا جمعته وألقته، وضارع مرتفع بمضمر تقديره: يبكيه ضارع، وهو الذليل.

* * *

[صنعاء]

صنعاء، بلد باليمن، وأضافها إلى اليمن، لأن ثمّ صنعاء أخرى، وهي قرية بدمشق. وكان اسم صنعاء في القديم «أزال»، قال ابن الكلبيّ والشرقي[2]: ولما وافتها الحبشة قالوا: نعم، فسمّى جبلها نعم أي انظر، فلما نظروا إلى مدينتها ورأوها حصينة مبنية بالحجارة قالوا: هذه صنعاء، وتفسيرها هنيّة، فسميّت صنعاء.

وحكى الهمذاني قال: وأهل صنعاء يقولون في الإسلام: إنها القرية المحفوظة، وأنهم

---

(١) البيت للحارث بن نهيك في خزانة الأدب ١/ ٣٠٣، والكتاب ١/ ٢٨٨، وللبيد بن ربيعة في ملحق ديوانه ص ٣٦٢، ولنهشل بن حري في خزانة الأدب ١/ ٣٠٣، ولضرار بن نهشل في الدرر ٢/ ٢٨٦، وللحارث بن ضرار في شرح أبيات سيبويه ١/ ١١٠، ولنهشل، أو للحارث، أو لضرار، أو لمزرد بن ضرار، أو للمهلهل في المقاصد النحوية ٢/ ٤٥٤، والبيت بلا نسبة في الخصائص ٢/ ٣٥٣، ٤٢٤، ولسان العرب (طوح).

(٢) هو الشرقي بن قطامي، واسمه الوليد والشرقي لقبه.

سمعوا هاتفاً يقول في بعض أيام من حاربهم: كلٌّ عليك يا أزال، وأنا أتحنن عليك!

وأقدم قصور اليمن وأنبهها ذكراً، وأبعدها صيتاً غُمدان وقصر أزال، وهي صنعاء.

والذي أسس غُمدان وابتدأ بنيانه واحتفر بئره الذي هو اليوم سقاية لمسجد جامع صنعاء، سام بن نوح عليه السلام، على ما يذكره علماء صنعاء واليمن، وذلك أنّه لما مات نوح اجتوى بعده السكنى في الأرض الشمالية، فأقبل طالعاً في الجنوب يطلب أطيب البلاد، حتى صار إلى الإقليم الأول، فوجد اليمن أطيبه مسكناً، وصنعاء أطيب اليمن، فوضع مقراته ـ وهى الخيط الذي يقدر به البناء ويبنى على حده ـ فوضع الأساس في ناحية فجّ غمدان في غربيّ الجبل، وهو اليوم معروف بصنعاء، فلما ارتفع بعث الله طائراً، فاختطف المقراة فطار بها، وتبعه سام، لينظر أين يقع؛ فأَمَّ بها جنوب النَّعم من سفح نعم، فوقع بها، فلما اتبعه طار بها، وطرحها على حرّة غمدان، فلما قرَّت، علم سام أنه قد أمر بالبناء هنالك؛ فأسس غمدان. واحتفر بيده بئره المسمى كرامة. ويُستقى منها إلى اليوم لكنها أجاج.

خاوي الوفاض: فارغ المزاد، ويقال: خوى الرّجل، إذا سجد فترك بين جسده وبين الأرض خواء، وخوى البعير: برك على هذه الحال. والوفاض: جمع وفضة وهي شبه الجراب، وهي أيضاً كنانة السهام إذا كانت من جلد لا من خشب، فإن كانت من خشب مجلد أو غير مجلد فهي كنانة أو جُعبة.

ابن سيده في المحكم: الوفضة خريطة يحمل فيها الراعي أداته وزاده. والوفضة: جُعْبة السهام. قال أبو منصور الأزهري معنى قول النبي ﷺ «أنه أمر بصدقة[أن] توضع في الأوفاض»[(١)]: إنهم أخلاط الناس. قال الفراء: هم أهل الصُّفّة. أبو عبيد: هذا كله عندنا واحد؛ لأن أهل الصّفَّة أخلاط من قبائلَ شتَّى، ويمكن أن يكون مع كل واحد منهم وفضة، فعلى هذا من قصر الوفضة على الجُعبة، وخطأ الحريري بأن الزاد لا يكون في الجعبة، فهو المخطي والجاهل باتساع اللغة. بادي الأنفاض: ظاهر الفقر، وقد أنفض، إذا فنى زاده. وأنفض الجراب إذا انتفض وسقط ما من فيه من بقية الزاد، ومنه قولهم: النُّفاض يُقَطِّر الجلب، أي فناء زادهم يجعل إبلهم قطاراً، أي مربوطة بعضها خلف بعض، تساق إلى السوق فتباع، فيأكلون ثمنها، قال الهذلي: **[المتقارب]**

لَـــه ظَـــبْـــيـــةٌ وَلَـــهُ عُـــكَّـــةٌ ... إذا انـفـضَ الـقـوم لـم يـنـفـضٌ[(٢)]

ظبية: جريب صغير من جلد ظبي. بُلغة: زاد للمسافر يبلغ به من يومه إلى

(١) أخرجه بنحوه أحمد في المسند ٦/ ٣٩٠، ٣٩١.

(٢) البيت لأبي المثلم الهذلي في شرح أشعار الهذليين ص ٣٠٥، ولسان العرب (نفض)، (أبل)، وجمهرة اللغة ص ٣٦٣، وتاج العروس (نفض)، (عكك)، وبلا نسبة في أساس البلاغة (ظبي).

غده، الجراب: وعاء من جلد يصنع للزاد ـ مُضْغة: لقمة.

* * *

فَطَفِقْتُ أجوبُ طُرُقَاتِها مِثْلَ الهائِمِ، وأجُولُ في حَومَاتِها جَولانِ الحَائِمِ، وأرُودُ في مَسَارِحِ لَمَحاتي، وَمَسايحِ غَدَواتي وَرَوحَاتي، كَرِيماً أُخَلْقُ له دِيْبَاجَتي، وَأبُوحُ إليهِ بِحَاجَتي، أو أديباً تُفَرِّجُ رُؤيَتهُ غُمَّتِي، وَتُروي روايته غُلَّتي؛ حَتى أدَّتْني خاتمة المطافِ وهَدَتني فَاتِحَةِ الإلطافِ إلى نَادِرٍ رَحِيبٍ، مُحتوٍ على زِحَام وَنَحِيْبٍ، فَوَلَجْتُ غَابَةَ الجمعِ، لأسْبِرُ مَجْلبةَ الدَّمعِ، فرأيتُ في بُهْرَةِ الحَلْقَةِ، شَخْصاً شختَ الخِلْقَةِ، . عَلَيْهِ أُهْبَةُ السَّياحَةِ، ولَهُ رَنَّةُ النِّيَاحَةِ، وهوَ يَطْبَعُ الأسْجَاعَ بِجَواهِرِ لَفْظِهِ ويُقَرْعُ الأسْمَاعَ بِزَوَاجِرِ وَعِظِه، أحاطتْ بِهِ أخْلاطُ الزمَرِ إحاطَةَ الهَالَةَ بالقَمَرِ، والاكْمِامِ بالثمرِ، فَدَلَفْتُ إليه لأقتَبِسَ مِنْ فَوَائِدِهِ، وألتقطَ بَعْضَ فَرَائِدِهِ، فَسَمِعْتَهُ يَقُولُ حِينَ خَبَّ في مَجَالِهِ وهَدَرتْ شقاشِقُ ارتجَالهِ:

* * *

طفقت: أخذت وجعلت، ومعناها ابتداء الفعل والدخول فيه. أجوب: أقطع وأخرق، وجوب الأرض: قطعها بالمشي، الهائم: الحيران. أجول: أتصرف. حوماتها: جهاتها، الحائم: الطائر العاطش يحوم حول الماء، أي يدور به، أراد: ألتمس المسارح: مراعي البهائم. لمحاتي: نظراتي، يريد المواضع التي يسرح عينيه فيها بالنظر، مسايح: مسالك، أراد طُرقَه التي يسير فيها بالمشي بالغدوّ والعشيّ، والسيحَ: الماء الجاري على وجه الأرض، وتكون المسايح أيضاً جمع مَسيحة أو مسحة، وهي الطوافة، من قولك: مسحت البيت، أي طفت به، فيكون على هذا «فعائل» ميمها أصيلة، وعلى الأول «مفاعل». أُخلِق: أهين، ديباجتي: جلدة وجهي، يريد أنه يخلق وجهه بالمسألة كما يخلق الثوب، وهذا من قول النبي ﷺ: «المسألة كدوح وخدوش في وجه صاحبها»[١] وقوله ﷺ: «لا تزال المسألة بالرَّجل حتى يلقى الله عز وجل، وما على وجهه مزعة لحم»[٢]، أي قطعة. أبوح: أذكر، حاجتي: فقري. تفرّج: تزيل. غُمَّتي: غمّي وما يضيق نفسي. غُلَّتي: عطشي. أدّتني: أوصلتني. خاتمة المطاف: آخر المشي هدتني: دلتني. والإلطاف: حسن السؤال وفاتحته، أراد به سؤالك من تلقى في الطريق إذا دخلت بلداً غريباً، فإذا سألت بتلطّف أرشدت بسرعة، فسؤالك هو الذي فتح لك الطريق. ويَقال: لطف سؤال الرجل، إذا رقّ لفظه ولم يكن فيه جفاء، فتقبله القلوب، وألطف الرجل

(١) أخرجه بنحوه أبو داود في الزكاة باب ٢٦، والنسائي في الزكاة باب ٩٢، وأحمد في المسند ٢/ ٩٤ ٥/ ١٩، ٢٢.

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة باب ٥٢، والنسائي في الزكاة باب ٨٣، وأحمد في المسند ٢/ ١٥، ٨٨.

سؤاله، إذا سألك بحنان وتلطف، واللطف الرفق، وألطفتك أيضاً: بَرَرْتك وأكرمتك ؛ ، فالإلطاف مصدر ألطف، ويروي: «الألطاف» جمع لُطف وهو الرّفق، يقال: لطف الله بالعباد لُطفاً رفَق بهم رفقاً، وهو راجع إلى الأول. ناد مجلس. رحيب: واسع محتو: مشتمل، نحيب: بكاء. ولجت: دخلت، غاية الجمع: وسط الناس، وأصل الغابة الشجر الملتف يغيب فيه من يدخله، لأسبرُ: لأفتش، وأراد دخلت بين الناس لأجرب وأعرف ما الذي أبكاهم وجلب دموعهم. ويروي «محلبة» بالحاء، وهي من الحلب، يقال: انحلبت عينه، إذا سالت بالدمع. بُهْرة: وسط. شخت: دقيق ورقيق، والشَّخْتُ: الحطب الرقيق. أُهْبَةُ السياحة: آلة العبادة وهي مثل العصا وركوة الماء وثياب الصوف وغير ذلك. يطبع الأسجاع، أي يرتبها ويصنعها، تقول: طبعت الدرهم والسيف إذا صنعتهما، وطبعت الكتاب إذا ختمته، وكانت الملوك تكتب في فصوص خواتمها «لا إله إلا الله» و «الملك للّهِ» وتطبع بذلك كتبها هذا المعني أليق بطبع الأسجاع، أي يزينها ويختمها بجواهر كلامه، ومن روى «الجواهر» باللام فعلى «يصنعها» لا غير، والتفسير على الروايتين أخذته عن أبي ذرّ. والأسجاع الكلام المقفّر، له قافية. كقافية الشعر، وكان من كلام الكهّان، وهذه الموعظة التي في المقامة من الأسجاعه، وسجعت الحمامة، إذا غنّت على طريقة واحدة، يقرع: يضرب. الأسماع: الآذان. زواجر: نواه، وزجره: نهاه وانتهره. أحاطت؛ حلّقت: أخلاط: أصناف. مختلطون. الزُّمَر: الجماعات. الهالة: الدارة حول القمر من نوره، والطّفاوة: الدارة حول الشمس. والساهور: هو غلاف القمر الذي يستتر فيه ما نقص منه. الأكمام: جمع كِمْ، وهو الغلاف الذي ينشق عن الثمر ويحيط به وسمّي كماً لأنه يستر ما تحته، والأكمام: جمع قليل، والكثير كمام، والثمر حمل الأشجار، دلفت: قربت. ودلف الشيخ في مشيته إذا أسرع من ضعف فقارب خطوه، اقتبس من فوائده: التمس وطلب أخذها واكتسابها، والفرائد: شذور الذهب تفصِل ما بين الجواهر. خبّ في مجاله: أخذ في كلامه، والخبّ عدوٌ سهل وهو الذي تسميه العامة السير، وفرس مسيار والمجال للخيل: موضع تصرّفها وجريها، هدرت: صوّتت. شقاشق: جمع شقشقة، وهي النّفاخة يخرجها فحل الإبل من حلقه عند هياجه ورغائه، ويرجع فيها هديره؛ شبّه صوت الواعظ حين يرفعه ويزجر به الناس بصوت البعير يهيج ويتابع الهدير، قال الأخطل: **[الوافر]**

إذا هَـدَرَتْ شـقـاشـقـه وَنَـشَـبَـتْ ... لَـهُ الأظْـفَـار تُـرِكَ لـه الـهُـدَارُ[1]

أراد: نَشَبَتْ وتُرَكَ، فخفف.

* * *

(١) البيت بلا نسبة في الإنصاف ١/ ١٢٤، وفيه «المُدارُ» بدل «الهُدارُ». ولم أجد البيت في ديوان الأخطل.

أيُّها السَّادرُ في غُلَوَائِهِ، السَّادِلُ ثَوْبَ خُيَلائِهِ، الجَامِحُ في جَهَالاتِهِ، الجَانِحُ إلى خُزَعْبَلاتِهِ. . . إلامَ تَسْتَمِرُّ على غَيِّكِ، وتَسْتَمْرِيءُ مَرْعَى بَغْيِكَ! وَحَتَّامَ تَتَنَاهى في زُهْوِكَ، ولا تَنْتَهِي عَنْ لَهْوِكَ!

* * *

السَّادر: الراكب هواه، لا يردّه شيء استطالة وبغياً، ويقال للذي يطيل الجلوس في الشمس حتى يتحير بصره: قد سدر فهو سادر. في غلوائه: في ارتفاعه للشرّ ولجاجة فيه، وهو من غلا يغلو في الأمر، إذا جاز الحدّ؛ فيقول: يا أيُّها الأعمى الكثير اللجاج في ركوب المعاصي؛ هلاَّ نظرتَ بعين البصيرة، ورجعت عمَّا أنت عليه من الضلال! السَّادل: المرخي، خُيلائه: كبره. الجامح: الجاري إلى غير غاية، وقد جمح الفرس إذا أكبّ رأسه، وجرى في غير قصد، فيريد أنه أكثر الفساد حتى جرى منه في غير طريق الجانح: المائل. الخزعبلات: الأباطيل، وهو ما يتراءى للإنسان في نومه من الخيال. تستمرّ: تدوم في زورك. غيّك: ضلالك. تستمرىء: تستطيب من المرىء، وهو ما يُلتذ به من الطعام. بغيك: ظلمك. تتناهى: تبلغ النهاية، ونهاية الشيء، آخره، زهوك: كبرك وعجبك. اللهو: ما يشغل عن الخير من أنواع الطرب.

[ما قيل شعراً في ذم الكبر]

وقال القاضي أبو جعفر بن عمر في ذمِّ الكبر وما يتعلق به: **[الوافر]**

وَلا تُنْسَبْ إلى كِبْرٍ فهذا ... أبوكَ التُّرب يَخْفِضُك انْتِسابا

ولا تصحبْ أخا كِبْرٍ وقدِّم ... على النَّفس الأعادي والصِّحابا

ولا تحبب محاباةً بمدح ... كفى بالمرء حُوباً أن يُحابى

وحَاذِرْ أن تُرى في القومِ رأساً ... ولا تنس الذّنوب وكن ذُنابى

تراباً كن هنا فعساك ألاَّ ... تَمَنَّى أن تكون غداً تُرابا

وقال أبو نواس: **[البسيط]**

حَذَّرْتُكَ الكِبْرَ لا يغشاكَ ميسَمُه ... فإنّه ملبسٌ نازعتهُ الله[1]

يا بؤسَ جلْدِ على جَوْفٍ مُجَوَفَهُ ... يحوي مقادير إن كلمته تاها

يرى عليك له فضلاً يبين به ... إن نالَ في العاجل السلطان والجاهَا

إني لأمقتُ نفسي عند نخوتها ... فكيف آمنُ مقتَ الله إيَّاها

وقال أبو العتاهية: **[السريع]**

(١) الأبيات فى ديوان أبي نواس ص ١٩٧.

عجبتُ للإنسان في فخره ... وهو غداً في قبرهِ يُقبرُ[1]
ما بالُ مَنْ أوّلُهُ نُطفةٌ ... وجيفةٌ آخره يفخرُ!
أصبح لا يملك تقديم ما ... يرجو ولا تأخيرَ ما يحذرُ

* * *

تبارزُ بِمَعْصِيتكَ، مالكَ ناصيتكَ، وتجترىء بقُبْحِ سِيرَتِكَ على عالم سَرِيْرَتِكَ، وتتوارى عَنْ قَرِيْنِكَ، وأنتَ بِمَرْأى رَقيبِكَ، وتَسْتَخفي من مَمْلُوكِكَ، وما تَخْفى خافيةٌ على مَلِيكِكَ أتظنُّ أنْ ستنفعُكَ حَالُكَ إذا آذن ارتِحَالُكَ! أوْ يُنْقذُكَ مَالُكَ، حِيْنَ توبُقكَ أعْمَالُكَ! أو يُغْني عَنْكَ نَدَمُكَ، إذا زَلَّتْ قَدَمُكَ! أو يَعْطِفُ عَلَيْكَ مَعْشَرُكَ، يومَ يَضُمُكَ مَحْشَرُكَ!

* * *

قوله: «تبارز» أي تكاشف وتقابل، والبارز: الظاهر المنكشف، والناصية: شعر مقدم الرأس. تجترىء: تقدم وشجع. والجريء: الشجاع المقدام. سيرتك: عادتك، وجمعها سير وهي ما يعامل به الناس من خير أو شرّ، وتقول: سرت سيرة من خير أو شرّ، إذا أحدثتها فعمل بها الناس بعدك، فصارت عادة لهم ولذلك فسرّنا السيرة بالعادة حيث وقعت، وأصل السيرة هيئة فعل السيّر، وذلك أنك تقول: جلس فلان جلسة بالفتح، وهي المّرة الواحدة من جلوسه، فإذا كسرت الجيم فهي هيئة جلوسه، ومثله ركب ركبة والرِّكبة هيئة ركوبه، وتقول: سار هذا الفعل سيرة، والسّيرة بالكسر: هيئة سيره في الناس من حسن أو قبح أو صواب أو خطأ، وسيرة رسول الله ﷺ: هيئة أفعاله حيث كانت. تتوارى: تستتر بمرأى من رقيبك، أي بمنظر ربّك أو بحيث يراك، ورقيب الشيء: حافظه وحارسه. ومليكك: مالكك، وأراد أنّ الإنسان إذا خلا بريبة، استتر بها عن أخيه وعبده حياء منهما، ولا يستحي من ربّه الذي يطّلع على معاصيه، ولا يخفى عليه خافية، وأشار إلى قوله تعالى: **﴿يستَخفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفون مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعهُمْ...﴾** [النساء: ١٠٨]، وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: **[البسيط]**

إن كنت تعلم أن الله يا عمرُ ... يرى ويسمع ما يأتي وما تذرُ
وأنت في غفلةٍ من ذاك تركب مَا ... نهاك عنه، فأين الخوف والحذر!
تُجاهر الله إقداماً عليه، ومِنْ ... حُثَالةِ النَّاس تسْتَحْيي وتعتذرُ

وقال نابغة بني شيبان: **[الخفيف]**

(١) الأبيات في ديوان أبي العتاهية ١٠٣.

إن مـن يـركـب الـفـواحـش سِـراً ... حـيـن يـخـلـو بـسـرِّهِ غـيـر خـالِ[١]

كـيـف يـخـلـو وعـنـده كـاتـبـاه ... شـاهـداه وربُّـه ذو الـجـلالِ

وقال أبو نواس: [الطويل]

إذا ما خلوتَ الدهر يوماً فلا تَقُلْ ... خلوتُ، ولكنْ قلْ عليَّ رقيبُ[٢]

ولا تحسبنَّ الله يغفل ساعةً ... ولا أنَّ ما يخفى عليه يغيبُ

لهونا لعمر الله حتى تراكَمَتْ ... ذنوبٌ على آثارهنَ ذنوبُ

حالك: عزّتك ومالك. آن: حان وقرب. ارتحالك: انتقالك، توبقُك: تهلكك، يقال: أوبقته الذنوب، أهلكته فوبق، أي هلك ووبقَ أيضاً.

وقال أعشى همدان: [البسيط]

أستغفر الله أعمالي الّتي سلفتْ ... مِنْ عثرةٍ يعاقبني بها أبِقُ

زلَّت: زلقت.. معشرك: قومك. محشرك: موضعك الذي تُحشر إليه.

* * *

هَلاَّ انْتَهَجْتَ مَحَجَّةَ اهْتَدائِكَ، وَعَجِلْتَ مُعالجة دائك، وَفَلَلْتَ شباة اعْتَدائِكَ، وَقَدعْتَ نَفْسَكَ فَهْيَ أكبرُ أعْدَائِكَ!

أمَا الحمامُ مِيْعَادُكَ فَمَا إعدَادُكَ! وبالمشيبَ إنذَارُكَ، فَما أعْذَارِكَ، وفي اللّحْدِ مَقِيلكَ، فما قِيلُكَ! وإلى الله مصيرك فَمَنْ بَصيرِكَ! طَالَمَا أيْقَظَكَ الدَّهْرُ فتناعستَ، وَجَذبكَ الوعْظُ فتقاعستَ، وتجلّتْ لكَ العِبَرُ فَتَعامَيْتَ، وَحَصْحَصْ الحقُّ فَتَمَارَيْتَ، وَأذْكَرَكَ المَوْتُ فتناسَيتَ، وأمْكَنَكَ أن تُواسيَ فما آسَيْتَ.

* * *

انتهجت: ركبت. والنهج المنهج والمنهاج: الطريق الواضح. محجَّة: طريق، من حجة يحجُّهُ، إذا قصده. اهتدائك: استقامتك. معالجة: مداواة. فللتُ كسَرْت. شباة: حدّ. اعتدائك: جورك وظلمك. قدعت: كففت قال النبي ﷺ: «ليس عدَوِّك الذي إن قتلته كان لك نوراً، وإن قتلك دخلت الجنة، ولكن أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك». قال الأصمعي: كنّا بطريق مكة في بعض المنازل، إذ وقفت علينا أعرابية فقالت: أطعمونا مما أطعمكم الله، فناولها بعض القوم شيئاً فقالت له: كبت الله لك كلَّ عدوّ لك إلا نفسك.

---

(١) الأبيات في ديوان النابغة ص ٦٤.

(٢) البيتان في ديوان أبي نواس ص ٢٠١.

قوله: «أما»: حرف إخبار واستفتاح كألا، الحمام: الموت، من حُمّ الأمر، قضي: الموعد. ما إعدادك: ما استعددت له، والاعداد مصدر أعدّ للأمر إذا هيأ له ما يحتاج إليه من عُدَّة، يقول: الموت: هو الذي وُعَدت به أن يأتيك ولا بد، فاستعد له من أفعال البر.

وللفقيه الزاهد أبي عمران موسى بن عمران: [السريع]

يا صاح في الموتِ لنا حكمةٌ ... بالغةٌ لو أننا ننتفعْ
فاعملْ له قبل مفاجاتهِ ... ويَحْصِد الزارعُ ما قد زرعْ
لا حيلةٌ تُنجيكَ منه ولا ... ذو وزرٍ عنه به يمتنع
كم أُممٍ أفناهُمُ قبلنا ... وشمل قومٍ شتَّه فانصدعْ

ولحبيب: [الطويل]

فقد أيْقَنَتْ بالموت نفسي لأنَّني ... رأيتُ المنايا يَخْتَرِمْنَ حياتيا[1]
فيا ليْتَ أنِّي بعد موتي ومبعَثي ... أكون رُفاتاً لا عليّ ولا ليا

المشيب: الشيب، يقال: شاب رأسه شيباً أو مشيبا. إنذارك: إعلامك، وأنذرك: أعلمك ممّا تحذر وخوّفك منه، وأراد قوله تعالى: ﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ [فاطر: ٣٧]، وانظر هذا المعنى في الحادية والأربعين مستوفي نظماً ونثراً.

أعذارك: جمع عذر، والإعذار بكسر الهمزة مصدر أعذر في طلب الحاجة إذا بالغ فيها قال: ابن السَّبتي وجنّس قوافيه: [مخلع البسيط]

الشّيبُ في مفرقَيَّ حَلاّ ... وعَقْد عهد المِلاح حُلاّ
وكان كالآبَنوسِ رأسي ... فاحتلْه عاجةُ فحلاّ
وحَرّمَتْ وصليَ الغواني ... وقُلْنَ قَتْلُ العميد حَلاّ

اللحد: حفرة في جانب القبر، ولحد الميت وألحده: شقّ له في جانب القبر وأصل اللفظة الميل، ومقيلك: مقامك، وأصله النوم في القائلة، قيُلك: حديثك المقُول وحجّتك الواضحة، والقول مصدر كالطحن والذبح والقيل: اسم للمقول كالطحن بالكسر: اسم للدقيق المطحون، والذبح اسم للمذبوح، يعقوب: القال والقيل اسمان لا مصدران. ابن سيده: القيل في الأصل مصدر، وحكى الفارسيّ قاله قولاً وقيلاً، مثل ذكره ذكراً، والقال يجوز أن يكون مصدراً، فإنّ سيبويه حكى: ذامه ذاماً وعابه عاباً، إلا أنه لم ينص على القال، مصيرك: رجوعك نصير: معدول عن ناصر للمبالغة. تناعست،

(١) البيتان في ديوان أبي تمام الطائي ص ٤٨٤.

أي أظهرت أنك ناعس. جذبك: قادك بعنف، ويقال: جذب وجبذ وهي أقلّ من الأولى، وصحفت العامة هذه الثانية وقالوا: «حبد» بدال غير منقوطة، تقاعست: تأخرت وتصعبت وتشبهت بالأقعسِ؛ وهو الذي دخل ظهره وخرج صدره، أي قادك الوعظ إلى الخير فلم تنقد له والعرب تقول: عزة قعساء كأنها تتقعّس عن الذلة. تجلت: ظهرت والعبر: ما يتخوف ويتعظ به عند رؤيته حصحص: تبين، من الحصّ وهو ذهاب الشعر فيتبين ما تحته، والحاء الثانية مبدلة من صاد ثالثة، وإذا اجتمع الأمثال في مثل هذا، أبدلت العرب من الحرف الأوسط حرفاً من جنس الحرف السابق، ومثله حثحثت ورقرقت، أصلهما حثثت ورققت، هذا قول الكوفيين، وقال البصريون: هما لغتان تقاربتا، إذ لا يبدل الحرف إلا من مثله أو من مقاربه في المخرج، هذه الحروف متباعدة لا يصحّ إبدالها، ماريت: شككت: تؤاسي: تعطي.

* * *

تُؤْثِرُ فَلْساً تُوعيهِ، على ذِكرِ تعيهِ، وتَخْتارُ قَصراً تُعليهِ عَلَى بَرّ تُوليهِ، وَتَرْغَبُ عَنْ هادِ تَسْتَهْديهِ، إلى زادِ تَسْتَهْدِيهِ، وتُغَلِّبُ حُبَّ ثوبٍ تَشْتهيه، على ثوابٍ تَشْتَريهِ.

يواقيت الصِّلاتِ، أعْلَقُ بِقَلْبِكَ مِنْ مَوَاقِيتَ الصَّلاة، ومُغَالاةِ الصَّدُقات، آثرُ عندكَ مِنْ مُوَالاةِ الصَّدقاتِ، وَصِحَافُ الألوان، أشهى إليكَ من صَحَائِفِ الأدْيَانِ. وَدُعَابَةُ الأقرانِ، آنسُ لك مِنْ تِلاوة القُرْآن.

* * *

تؤثر: تفضل. توعيه: تجعله في وعاء. برّ إحسان. تُوليه: تعطيه وتلصِقه بمن تبرّه. هادٍ: مرشد لطريق الخير. ترغب عنه: أي تتركه. تستهديه، أي تسترشده وتسأله أن يهديك إلى الخير، وتستهديه الثانية: تطلب أن يهدي لك هدية. يقول: تترك مَنْ يهديك إلى طريق الخير، فلا تسأله الهداية، وتقصد أعراض الدنيا من الأطعمة وغيرها، وترغب أن تعطي منها هدية، قال الزاهد بن عمران: **[الطويل]**

تـوقَّ وحـاذِرْ مـن قَـبُـولِ هـديَّـةٍ	وإن جـاءك فـيـهـا الـحـدِيـثُ الـمـرغَّـبُ
فـقـد حـدَثَـتْ بـعـد الرّسـولِ حـوادثٌ	تـحـذِّرنـا مـنـهـا، وعـنـهـا تـرغِّـبُ
وكـانـت هـديَّـاتُ الأوائـل قـبـلـنـا	تـؤلِّـف فـيـمـا بـيـنـهـمْ وتـحـبِّـبُ
فـعـادتْ بـلايـا يُـسرعُ الـمـنُّ نـحـوهـا	تـفـرّق فـيـمـا بـيـنـنـا وتـجـنِّـبُ

وله في مثله: **[السريع]**

احـذَرْ هَـدَايَـا الـنَّـاس تـأمـن الـمـن	ـــهـــا أو قـــولَ واشٍ يَـــشـــي
فـــقـــلّ مَـــنْ يـــهـــديـــك إلاّ امـــرُؤٌ	مـــن رَغـبـــةٍ أو رَهْـبَـــةٍ قَـــدْ خُـشِـــي

التبس الأمر فلا تقدمن	واخشَ مقام الله فيمن خَشِي
كانت هَدَايا ثم عادت رِشاً	وفي الرِّشا الهُلْكُ لِمَنْ يرْتَشي
حَذَّرنا منها نبيّ الهُدَى	إذْ لَعَنَ الرَّاشِي والمُرْتَشي

الثواب: المكافأة على الفعل، وأراد به ما يجازي الله به عباده على إحسانه من الأجر، وهو من ثاب يثوب أذا رجع، وأثبت الرجل: أعطيته الثواب، وهو المكافأة على فعله، قوله «يواقيت»: أي جواهر. الصِّلات: العطايا.

أعلق: ألصق. مواقيت: أوقات، وهي جمع ميقات.

* * *

[التجنيس]

ومما يستحسن من تجنيس الصِّلات الصَّلاة، حكاية أحمد بن المدّبر ـ وكان إذا مدحه شاعر ولم يرض شعره، قال لغلامه: امض به إلى المسجد فلا تفارقه حتى يصليّ مائة ركعة، ثم خلّه، فتحاماه الشعراء إلا الأفراد المجيدين ـ فجاء الحسين بن عبد الرحمن البصريّ المعروف بالجمل، فاستأذنه في النشيد، فقال: أعرفت الشرط؟ قال نعم: وأنشد: [الوافر]

أردنا في أبي حسن مديحاً	كما بالمدح تُنْتَجَعُ الُولاة
فقلنا أكرمُ الثقلين طُراً	وَمَنْ كفَّاه دِجْلَةُ والفُرَاتُ
فقالوا يقبل المدحاتِ لكنْ	جَوائزه على المدح الصَّلاةُ
فقلت لهم: وما تغنيِ صلاتي	عَيالي، إنَّما تُغْني الزكَاةُ!
فأمّا إذ أبى إلا صَلاتي	وعاقتْني الهموم الشَّاغِلاتُ
فيأمر لي بكسر الصّاد منها	لعَلِّي أن تنشطني الصِّلاتُ
فيصلحُ لي على هِذي حياتي	ويصلحُ لي على هَذِي المماتُ

فضحك واستظرفه، وأمر له بمائة دينار، وقال: من أين أخذت هذا؟ قال: من قول أبي تمام: [الكامل]

هنَّ الحَمامُ فإن كَسَرْتَ عِيَافةً	مِنْ حَائِهن فإنَّهن حِمامُ[1]

* * *

قوله: «مغالاة الصَّدقات»، أي الزيادة في المهور، وغاليت: زدت في ثمن السِّلعة ورددتها غالية، والصَّدُقات واحدتها صدُقة، قال النبي ﷺ: «من يُمن المرأة تيسير صداقها

(١) البيت في ديوان أبي تمام الطائي ص ٢٧٩.

وخِطبتها»(١)، قال عروة: وأنا أقول: من أول شؤمها أن يكثُرُ صداقها. آثر: أفضل وأكثر أثرةً. موالاة: متابعة. صحائف: جمع صحيفة، وهي الورقة يكتب فيها من الرّق والقرطاس، دُعابة: مزاح، وفي فلان دُعابة وتداعب الرّجلان: تمازحا، وفي الحديث: «كانت فيه ﷺ دعابة»(٢)، وفي حديث جابر رضي الله عنه: «هلاً بكراً تداعبها وتداعبك!»(٣). الأقران: الأصحاب والأمثال. تلاوة: قراءة، وتلوته: قرأته، واختلفوا في اشتقاق القرآن، فقال أبو عبيدة: سُمّي قرآناً لأنه يجمع السور ويضمها، قال الله تعالى: ﴿فإذا قَرأْنَاهُ فاتَّبِع قُرْآنَه﴾ [القيامة: ٣]، أي إذا جمعنا لك شيئاً فضمّه واعمل به، وقال قطرب: سُمّي قرآناً لأن القارىء يُظْهره ويبينه ويلقيه مِنْ فيه، من قول العرب: ما قرأت الناقة سلاً قطّ، أي ما رمت به. قال النبي ﷺ: «إن القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد» قالوا: يا رسولَ الله. ما جلاؤها؟ قال: «قراءة القرآن»(٤).

تَأْمُرُ بالعُرف وتَنْتَهِكُ حِمَاهُ وَتَحْمي عَنِ النّكْرِ وَلا تَتَحَاماهُ، وَتُزَحْزِحَ عَنِ الظُّلْمِ ثم تغشاهُ، وتَخْشى النّاسَ والله أحَقُّ أَنْ تَخْشاه ثمَّ أنشَدَ: **[المجتث]**

تَبًّا لِطَالِبِ دُنْيا ... ثَنَى إلَيْها انْصِبَابَهْ
مَا يَسْتَفِيقُ غَرَاماً ... بِهَا وَفَرْطَ صَبَابَهْ
وَلَو دَرَى لَكَفَاهُ ... مِمّا يَرومُ صُبَابَهْ

* * *

العرف، أي المعروف، تنتهك: تبالغ في تناوله بما لا يجوز. حماه: ما حُمي منه ومنع، وأصل الحِمى موضع العشب يحميه الرجل لإبله، وانتهاكه: استئصال عشبه بالرعي، ونهكت الجلد وانتهكته، إذا أخذته بشفرة حتى يرقّ ويضعف النّكر: المنكر. تتحاماه: تتباعد عنه. تزُحزح عن الظلم: تُنحي عنه غيرك وتزيله، وتغشاه: تأتيه وتباشره، تخشى: تخاف، وقال ذو الرّمة في هذا المعنى وهو أحسن شعرٍ قاله: **[البسيط]**

يا ربِّ قد أسرفَتْ نفسِي وقد علمتْ ... علماً يقيناً لقد أحصيت آثاري

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٦/ ٧٧، بلفظ: «إنّ من يمن المرأة تيسير خطبتها».

(٢) أخرجه البخاري في الأدب باب ٨١، وابن ماجه في الجهاد باب ٤٠، وأحمد في المسند ٣/ ٦٧.

(٣) روي بطرق وأسانيد مختلفة، وفي كتب الصحاح برواية: «هلاّ بكراً تلاعبها وتلاعبك». أخرجه البخاري في البيوع باب ٣٤، والوكالة باب ٨، والجهاد باب ١١٣، والمغازي باب ١٨، والنكاح باب ١٠، ١٢١، ١٢٢، والنفقات باب ١٢، والدعوات باب ٣٥، ومسلم في الرضاع حديث ٥٤، ٥٥، ٥٦، ٥٨، وأبو داود في النكاح باب ١٠، وابن ماجه في النكاح باب ٧، والدارمي في النكاح باب ٣٢، وأحمد في المسند ٣/ ٢٩٤، ٣٠٢، ٣٠٨، ٣٠٤، ٣٦٢، ٣٦٩، ٣٧٤، ٣٧٦.

(٤) لم أجد الحديث بهذا اللفظ في كتب الصحاح.

يا مخرج الرُّوح من نفسي إذا احتضرت وفارجَ الكرب زحْزِحني عن النّار[1]

دعا لنفسه أن يكون من الفائزين، لقوله تعالى: ﴿**فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ**﴾ [آل عمران: ١٨٥].

قوله «تبّاً»، أي خسراناً وهلاكاً، وتبّت يده: خسرت قال تعالى: ﴿**وما زَادُوهم غَيْرَ تَتْبِيبٍ**﴾ [هود: ١٠١]، أي غير خسار وهلاك، قال الشاعر: [**الوافر**]

عَـرَادَةُ مـن بـقـيَّـة قَـوْمِ لُـوْطِ ألا تـبّـاً لـمـا عَـمِـلـوا تَـبَـابَـا[2]!

ثَنَى: عطف ورد: انصبابه: جريه، يستفيق: يستريح، وأفاق من المرض: استراح، غراماً: شدّة حبّ لازم له غير مفارق، ومنه سُمّي الغريم لملازمته التقاضي وإلحاحه فيه؛ قال تعالى: ﴿**إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا**﴾ [الفرقان: ٦٥] أي مُلْحَاً دائماً ومنه ﴿**إِنَّا لَمُغْرَمُونَ**﴾ [الواقعة: ٦٦]، وفلان مغرم بالنساء: يحبهن ويلازمهنّ، وقال حاتم: [**الطويل**]

فـمـا أكْـلَـةٌ إن نـلـتـهـا بـغـنـيـمـةٍ ولا جـوعـة إن جـعـتـهـا بـغـرام

أي بهلاك وملازمة.

فرط صبابة: شدة شوق ومجاوزة حدّ في ذلك. يروم: يطلب. صبابة. بقيّة الماء.

* * *

[ما قيل شعراً في ذم الدنيا]

وهذا الشعر مستحسن القوافي، ومثله في ذلك قول الزاهد ابن عمران، وكثيراً ما كان يستمد في شعرهِ من أدب المقامات: [**الكامل**]

تـبّـاً لـذي جَـهـل دَعَـا لـمـبـرَّةٍ وأجـبـتُـه بِـرّاً بـه فـأذاعـهـا

مَـنّـا وقـد كـافَـأْتـه بـهـبـاتِـهِ وذخـرتُـهـا عـنـدي لـه، فـأضـاعـهـا

فَأَقْلَ اللّئَامَ من الرجَالِ ولا تجبْ مَـهْـمَـا دَعَـوْك وجَـنِّـبَـنْ أوضـاعـهـا

وقال آخر: [**مجزوء الكامل**]

يـا مـن يـضـيِّـع عُـمْـرَهُ مـتـمـاديـاً فـي الـلّـهـوِ أمْـسِـكْ

واعـلـمْ بـأنَّـك لا مـحـا لـةَ ذاهـبٌ كـذهـابِ أمْـسِـكْ

---

(١) يروى البيت:

يا قابض الروح عن جسم عصى زمناً وغافر الذنب زحزحني عن النارِ

وهو في ملحق ديوان ذي الرمة ص ١٨٧٥، ولسان العرب (زحح)، وتاج العروس (زحح).

(٢) البيت لجرير في ديوانه ص ٨١٩، ولسان العرب (عرد)، وتاج العروس (عرد)، ويروى «صنعوا تبابا» بدل «عملوا تبابا».

ولمنصور الفقيه في الشعر المردف : [المتقارب]

إذا كُنْتَ تزعمَ أنَّ الفِراقَ فراقُ الحياةِ قريبٌ قريبْ
وأن المقدَّم ما لا يفوت على ما يفوت مصيبٌ مصيبْ
وأنتَ على ذاك لا ترعَوِي فأمرُك عندِي عجيبٌ عجيبْ

وقال القاضي أبو حفص عمر في معنى شعر الحريريِّ في ذم الدنيا : [مخلع البسيط]

يا رَاكِضاً في طلاب دنْيا ليس لمن تَصْرَعُ انتعاشُ
لم تُخشَ نارٌ هَوَى لَظَاها بمن له نحوَها انحياشُ
أعذر منكَ الفرَاش حالاً علمت ما يجهل الفراشُ
نطلبها لا تنام عين عنها ولا يستقرُّ جاش
مَنْ لك بالرِّيّ من شرابٍ يشتدّ من شُرْبِهِ العِطَاشُ
دَعها فطُلابُها رِعاعٌ طاشت بألبابهم فطاشُوا
لم يردوها فهم رِواءٌ ووادروها همُ العِطَاشُ
فاظمأ لترْوَى، وكن كقوم سُقوا بها غبَّةً فعاشوا
كأنَّ آمالنا ظباء ونحن من حَيرةٍ خِدَاشُ
إن لآمالنا انبساطاً به لأعمارنا انكماشُ
كأن رجالنا صقورٌ ونحن من تحتها خَشَاشُ

ولابن الرومي رحمه الله : [الطويل]

لَعَمْرِكَ ما الدُّنيا بدار إقامةٍ إذا زال عن عين اللبيب غطاؤُهَا
فكيف بقاءُ الناس فيها وإنما يُنال بأسباب الفناء بقاؤُها

وقال آخر : [الطويل]

ومن يحمد الدنيا لعيشٍ يسرُّه فسوف لَعَمْرِي عن قريب يلومُها
إذا أدبرتْ كانت على المرء حسرةً وإن أقبلت كانت كثيراً همومها

ولابن سارة رحمه الله تعالى : [الوافر]

بنُو الدُّنيا بجهل عَظَّمُوها فجلَّتْ عندهم وهي الحقيرَهْ
يُهارش بعضُهم بعضاً عليها مهارشة الكِلاب على العقيرهْ

* * *

ثمَّ إنَّهُ لَبَّدَ عَجَاجَتَهُ، . وغيَّضَ مُجَاجَتَهُ، واعْتَضدَ شَكَوتَهُ. وَتَأَبَّطَ هَرَاوَتَهُ فَلَمَّا

رَنتِ الجَماعَةُ إلى تحفُّزِه، ورأت تأهّبَهُ لِمُزايلةِ مَرْكَزِه، أدخَلَ كلٌّ مِنْهُمْ يَدَهُ في جيبِهِ، فأفعمَ لَهُ سَجْلاً مِنَ سَيبه، وقال: اصْرِفْ هذا في نفَقَتِكَ، أو تفرِّقْهُ على رُفْقَتِكَ، فقبِلَهُ مِنْهُمْ مُغْضِياً، وانثنى عَنْهُمْ مُثنياً، وجَعَلَ يُودِّعُ مَنْ يُشَيِّعَهْ، لِيَخْفي عليه مهيعه، ويُسَرِّبُ مَنْ يَتْبَعُهُ، لكي يُجْهَلَ مَرْبَعُهُ.

* * *

قوله: «ثم إنه لبّد عجاجته»، أي سكّن غبرته المرتفعة حتى لصقت بالأرض غَيّض: جفف. المُجَاجَة: ما يُلْقي مِنْ فيه، وقد مجَّ الرجل ريقه إذا سال من حمق أو كبَر، وأراد بلبد عجاجته، قطع كلامه الذي كان قد استرسل، وأخذه من قول سليمان بن عبد الملك، وقد تكلَّم وفد بين يديه، فلم يصنعوا شيئاً وتكلم بعدهم رجل قبيح المنظر فأبلغ، فقال سليمان: كأن كلامه بعد كلامهم سحابة لبّدت عجاجاً.

وأراد بـ«غيّض مُجاجته» ما كان يسيل من عينيه وأنفه عند البكاء. واعْتَضَدَها: جعلها تحت عَضُده. والشكوة: ركوة الماء تُصْنَعُ من جلد الثور أو الخروف، وتأبطها: جعلها تحت إبطه. هراوته: عصاه. رنت: نظرت. تحفزه: تهيؤه وعجلته للانصراف، وتحفَّز وانحفز، إذا كان جالساً على عقبيه متهيّئاً للقيام، تأهّبه: استعداده، مزايله: مفارقه. مركزه: موضعه الذي قام به. أفعم ملأ، وفعمت الشيء فعماً: ملأته. سجلاً: دلوا. سيبه: عطاؤه، معناه وهب له نصيباً من عطائه. رفقتك: أصحابك. مغضياً: مستحيياً، وأصل «أغضى» كفّ بصره وضم جفنيه، . انثنى: رجع وانعطف عن طريقه، مهيَعه: طريقه البيّن. يسرّب: يفرق. فكأنه «تفعّل» من السَّرب وهو الطريق، كأنه يردّهم عن تشييعه في طريق مختلفة، أو يكون من لفظ السَّرب، وهو الجحرّ. فكأنه يغيّبهم عنه حيث يقصد تعمية طريقه عليهم، أو يكون من لفظ السارب وهو الذاهب في الأرض، وقد سرب سروباً، فكأنه يذهبُهم في كلّ ناحية ليجهل مكانه مربعه: منزله في الربيع خاصة. والمربع: المنزل في كل وقت؛ من ربعت بالمكان، أقمت به.

* * *

قال الحارث بن هَمَّام: فاتّبعْتُهُ مواريًاً عَنْهُ عِيانّي، وَقَفَوْتُ إثْرَهُ مِنْ حَيْثُ لا يراني؛ حَتى انْتَهَى إلى مَغَارَة، فانْسَابَ فِيهَا عَلَى غَرَارَةٍ، فأمْهلْتُهُ رَيْثَما خَلَعَ نَعْلَيْهِ، وغَسَلَ رِجلَيْهِ، ثمّ هَجَمْتُ عليهِ، فَوَجَدْتَهُ مُحَاذِياً لِتِلْميذٍ، على خُبْزِ سَمِيذٍ، وجْدي حَنِيذٍ، وَقُبَالَتهما خَابيةُ نَبِيذٍ، فَقُلْتُ له: يا هذا، أيكونُ ذاك خَبَرَك وَهَذا مخبَرَكَ!

* * *

موارياً: ساتراً. عياني: شخصي، أي تبعته مستخفياً بحيث لا يراني، قفوُته: اتبعته من جهة قفاه، انساب: دخل، وأصلُ الأنسياب، جرى الحية على وجه الأرض، أو

جَرى الماء كذلك، ولا يكون الأنسياب إلا على وجه الأرض، لا يقال: انساب في الجحر؛ حدّثني به بعض من لقيت من أصحابنا، وكان أضبَط النّاس للسان العرب، قال: وقول الحريري: «انساب فيها» وهم منه، ولو قال: «انشام فيها» لكان أمثل، يشبّهه بالسيف إذا وُضع في غمده. غَرارة: غفلة. رَيْث: قدْر. هجمت عليه: دخلت عليه فجأة، ومنه هجم عليه الحرّ، وهجمتُ عينه: دخلت في رأسه. محاذياً: ملاصقاً أو جالساً بحذائه. تلميذ: متعلم الصنعة حَنِيذ: مشويّ، وحنذ اللحم حَنْذاً: شواه بحجارة محماة. نبيذ، أراد به خمراً، خبرك، أراد به أمرك الذي أنت عليه، مخبرك، أي باطنك وما يختبر منك.

ومما ينتظم في هذا النمط حكاية أبي نواس حين رُئي في مجلس منصور بن عمار يبكي، فظن الناس أنه قد نسك، فجعلوا يهنئونه، ويقولون: نرجو لك من الله الخير، فقال: أنا أهون على الله من ذلك؛ وليس كما تظنون، ولكن أبكي لبكاء ذلك الغزال ـ وغلام بالمجلس يبكي من وعظ منصور ـ ثم قال: **[السريع]**

لم أبكِ في مجلس منصورِ ... شوقاً إلى الجنَّة والحُورِ
لكن بكائي لبكا شادنٍ ... تَقِيه نفسي كلَّ محذُورِ
تنتسب الألسن في وصفِهِ ... إلى مَدَى عَجْزٍ وتقصيرِ

وحضر أيضاً مجلس بعض القصاص، فقالوا له: لعلّ الله قد أقبل بك! فقال: إنما حضرت لأجل هذا الغزال، ثم قال: **[مجزوء الرمل]**

خلّيانِي والْمَعَاصِي ... وَدَعَا ذِكْرَ القِصاصِ
واسقيانِي الخَمْرَ صِرْفاً ... في أباريقِ الرَّصاصِ
وعلى وجه غَزَالٍ ... طائعٍ ليس بعاصِي
بين فتيانٍ كرام ... قد تواصَوْا بالمعاصِي
وعلى الله ـ وإن أف ... رطت في الذنب ـ خلاصِي

***

فزفر زفرةَ القَيْظِ، وكَادَ يَتَمَيَّزُ مِنْ الغَيْظِ؛ وَلَمْ يَزَلْ يُحْملقُ إلي، حَتى خِفْت أن يَسْطُوَ عَليَّ، فلمَّا أن خَبَتْ نارُهُ، وتَوَارَى أُوَارُه، أنشد: **[المتقارب]**

لَبِسْتُ الخَمِيصَةَ أبْغِي الخَبيصَهْ ... وأنْشبْتُ شِصِّيَ في كلِّ شِيصهْ
وصَيَّرْتُ وَعْظِيَ أُحْبُولَةً ... أُرِيغُ القَنِيصَ بها والقَنِيصهْ
وألجأنِي الدَّهرُ حَتى وَلَجْـ ... ـتُ بِلُطْفِ احتيالي على اللّيثِ عِيصهْ
عَلَى أنَّنِي لَمْ أهبْ صرْفَهُ ... وَلا نَبضتْ لِيَ مِنْهُ فَرِيصهْ

ولا شـرعَـتْ بِـي عـلـى مـوردٍ ... يُـدَنِّـسُ عِـرْضـيَ نَـفْـسٌ حَـرِيـصَـهْ
وَلَـوْ أنـصَـفَ الـدَّهْـرُ فـي حُـكْـمِـهِ ... لَـمـا مَـلَّـكَ الـحُـكْـمُ أَهْـلَ الـنَّـقِـيـصَـهْ

* * *

قوله: «فزفر زفرة القيظ» الزفرة: تنفس المهموم أو المغتاظ، والقيظ: شدّة الحرّ، شبّه ما أبداه من شدَّة الغيظ بوهج الحر. يتميزّ: يتقطع ويتفرّق، يحملق: يحدّ النظر، والحملقة: نظر الغضبان، والحملاق: باطن الجفن. يسطو: يصول ويتناولني بالمكروه، يقال: سطا عليه وبه، يسطو سطواً وسطوة، إذا قهره وأذله، خبت ناره: سكنت حدّة غيظه، توارى: تغطى واستتر. أُواره: لهبه ونار غيظه، والأوار: وهج النار الخميصة: كساء فيه خطوط، وقال يعقوب وأبو عبيد: الخميصة: كساء مربع أسود له علمان. الخبيصة: نوع من الحلواء، وتسميه عامتنا الخبيز، بالزاي، وكنى به عن لذة العيش، . الشِّصّ: حديدة معوجة يصاد بها الحوت، وتسمى الصنارة، شيصة: ثمرة رديئة؛ ومِنْ مُلح قصاص البلدان، أن أبا عبد الله الخواص كان يقول في قصصه: إنما الناس مثل التمر، فيهم الشيص والبرني، يا رب اجعلنا بُرنياً ولا تجعلنا شيصاً، وقال قاصٌّ آخر: إن في الجنة لحم جدي ولحم كلّ شيء بلا عظم مثل الشِّيص في بلادنا بلا نوى، يريد أنه لا يحتقر شيئاً؛ فكل ما اتخذ له أخذه، أُحبولة: آلة يصاد بها، أريغ: أطلب ما يصعب أخذه، كأنه يروغ من كذا، أي عدل عنه ورجع، وهو يخفى رجوعه. قال الفراء: يقال لا للذي يرجع: راغ يروغ، إلا أن يكون مخيفاً لرجوعه، قال الله تعالى: **﴿فَرَاغَ عَلَيهِمْ ضَرْباً باليمين﴾** [الصافات: ٩٣]، أي رجع إليهم يضربهم مخيفاً لرجوعه، ومعنى «باليمين» أي بيمينه الذي حلف في قوله تعالى: **﴿وتاللّهِ لأكِيدَنَّ أصْنَامَكُمْ﴾** [الأنبياء: ٥٧]، أو يريد باليمين القوة، وقال تعالى: **﴿فَرَاغَ إلى أهْلهِ فَجَاءَ بِعجْلٍ﴾** [الذاريات: ٢٦]، أي رجع إليهم في إخفاء منه لرجوعه. القنيص والقنيصة: الذكر والأنثى مما يصاد من الوحش، وهذا مثل، وإنما أراد ما يأخذه من الناس بالحيل، ألجأني: أحوجني. ولجت: دخلت. لطْف: رقة، وتلطف، عيصه: بيته، وأصله الشجر الملتفّ. والليث: الأسد. أهب: أخف، صرفةُ تقلبه، نبضت: تحركت. فريصة: بضعة في آخر الكتف تتحركُ عند الفزع، شرعت: دخلت، وعلى: بمعنى «في» نحو قولك: كان ذلك على عهد فلان، أي في عهده. مورد موضع الماء. يدنّس: يوسخ ويعيب، . عِرْضي: ذكرى. نفس حريصة: كثيرة الرغبة والطمع، النقيصة: الخصلة القبيحة يفعلها الرجل فينقص بها.

وقال بعضهم: **[الكامل]**

غُضِّي عيونك يا عيونُ النَّرجِسِ ... منكِ استحيْتُ بِأنْ أُقبِّلَ مؤنِسِي
نـام الـحـبـيـبُ تَـدبَّـلـتْ أجـفـانُـه ... وعـيـونـكـنّ شـواخـصٌ لـم تـنْـعَـسِ
فـأجـابـنـي تـفـاح صـفـحـةِ خـده ... بـفـصـاحـة مـن ألـسـن لـم تُـخْـرَسِ

قَبِّلْ حبيبك ما اشتهيتَ فإنْ من عاداتنا كتمانَ سِرِّ المجلسِ
يا رب إن قدَّرْتَهُ لمقبِّلِ غيري فلِلمسْوَاك أو للأكْؤسِ
ولئن قضيت لنا بصحبة ثالثٍ يا رب فلْتَكُ شَمْعَةٌ في المجلس

ومن أحسن ما قيل في الدهر، قول تميم بن المعز:

يا دهرُ ما أقساكَ من متلوِّنٍ في حالتَيْكَ وما أقلَّكَ مُنْصِفا
أتروح للنِّكس الجهولِ ممهّداً وعَلَى اللَّبيبِ الحرّ سيفاً مُرْهَفَا!
وإذا صفوتَ كدرتَ شيمة باخلٍ وإذا وفيت نَقَضْتَ أسباب الوَفَا
لا أرتضيك وإن كرمْتَ لأنني أدري بأنك لا تَدُوم على الصَّفا
زمنٌ إذا أعطى استردَّ عطاءه وإذا استقام بدا له فتحرَّفاً
ما قام خيرُك يا زمان بَشرِّهِ أولى بنا ما قل منك وما كفى

إدريس بن اليمان: [البسيط]

ماذا أقول لدنيا لو ظفرتُ بها أدَّبتُها غضباً للعلم والأدَبِ
شَجاً من أُقذية الأيام برّح بي بل بالعوالي وبالهندية القضب

* * *

ثم قال لي: ادْنُ فَكُلْ، وَإنْ شِئتَ فَقُمْ وقُلْ. فالتفتُّ إلى تِلْمِيذهِ وَقُلْتُ: عَزَمْتُ عَلَيْكَ، بمن تسْتَدْفِعُ به الأذى، لَتُخْبرَني مَنْ ذا؟ فقال: هذا أبو زيدٍ السَّروجي، سِراجُ الغُرَبَاءِ، وَتَاجُ الأدباء.

فانصرفتُ مِنْ حيث أتيتُ، وقضيتُ العَجَبِ مِمَّا رأيتُ!

* * *

قول: «أدن» أي أقرب. قل، أي قل ما شئت، التلميذ: الخادم، والجمع التلاميذ، قال لبيد: [المنسرح]

* يجلو التلاميذ لؤلؤاً قشِبَا[1] *

أي يجلو التلاميذ لؤلؤاً جديداً، وطلبة العلم: تلاميذ شيخهم، الأذى: الضرر،

---

(١) صدره:

فالماء يجلو متونهن كما

والبيت في ديوان لبيد بن ربيعة ص ٣١، ولسان العرب (قشب)، وتهذيب اللغة ٨/ ٣٣٥، وتاج العروس (قشب).

سراج: مصباح، يريد أنه للغرباء مصباح يفخرون به ويهتدون بحيلته، وللأدباء تاج يتزينون به ويضعونه فوق رؤوسهم. انصرفت: رجعت، قضيت العجب؛ أي أتممته، كأنه قال: قضيت حاجتي مما رأيت، ويقال: قضى بحبه من كذا، أي بلغ مراده، وقضى عليه القاضي، أي قطع عليه، والقاضي: القاطع للأمور المحكم لها. وقوله تعالى: ﴿**فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ**﴾ [فصلت: ١٢]، أي قطعهنّ وأحكم خلقْهن، ويكون «قضى» بمعنى «عمل».

المقامة الثانية

وهي الحُلوانيَّة

حكى الحارث بن همام قال: كَلِفتُ مُذْ مِيطَتْ عَنِّي التَّمائمُ، ونيطتْ بي العمائمُ، بأن أغشى معان الأدب، وأُنْضيَ إليْهِ ركاب الطّلبِ لأعْلقَ مِنْهُ بما يكون لي زِيْنَةً بَيْنَ الأنام، ومُزْنَةً عَنْدَ الأُوَام، وَكُنْتُ لفَرْطِ اللَّهَج، باقْتبَاسِهِ، والطَّمعِ في تقمُّص لباسهِ، أُبَاحِثُ كلَّ مَنْ جَلَّ وقلَّ، وأستسْقِي الوَبْلَ الطَّلّ، وأتعلَّلُ بِعَسى وَلَعَلَّ.

* * *

كَلِفْتُ، أي اشتد حبي، والكَلَف: شدة الحبّ والمبالغة فيه، فلان كَلِفٌ بفلان، أي مبالغ في محبَّتهِ، ومِيطتْ وأميطتْ: أزيلت. التمائم: الأحراز نيطت: علّقت، وإذا بلغ الصبيّ الحلم عند العرب أزلوا الأحراز عن عنقه، وألبس العمامة والإزار، وقُلّد السيف، فأراد: أحببت مذ بلغت الحلم مجالس الأدباء. أغشى: أقصد وأدخل.

المعان: المنزل. أبو عبيد، يقال: البصرة معانٌ منّا، أي منزل منا، قال المعري: **[الوافر]**

* مـعـانٌ مـن أحـبّـتـنـا مَـعَـانُ[1] *

فالأول اسم موضع معلوم جنّس به، وجعله منزل أحبابه، وقال بعضهم: سُمي معاناً لمعاينة الناس فيه بعضهم بعضاً، أو لأن فيه أعياناً، أنضي: أهزل الركاب: الإبل، وجعل للطلب إبلاً مجازاً، وإنما يريد: أتعبت نفسي فرحلت إلى طلبه على الإبل، لأعلق منه: لأحصل منه على فائدة أتعلق بها، الأنام: الخلق مُزنة: سحابة. الأُوام: شدّة العطش؛ يريد أنه يتعب نفسه في طلب الأدب ليتزيّن به بين الناس؛ ويعيش به إذا احتاج إليه، فرط اللهج: شدّة الحب، يقال: قد لَهَجَ بالشيء، إذا أكثر الحديث به لحبه فيه، وحرصه عليه، ولهج الفصيل بالرّضاع، إذا لجّ فيه. اقتباسه: اكتسابه، التقمص: لبس

---

(١) عجزه:

تـجـيـب الـصـاهـلات بـه الـقـيـانُ

والبيت في سقط الزند ص ١٧٢.

القميص. لباسه: ثيابه، أي أطمع أن ألبس من ثيابه قميصاً. أباحث: أسائل. جلّ: عظم. قلّ: حقر. أستسقى الوبل والطلّ، أي أطلب منه السقي، والوبل: أشدّ المطر والطلّ: أضعفه، ويقال: الركّ أضعف من الطلّ، ومنه قيل للدنيء: ركيك. أتعللّ: أشغل نفسي وأطمعها، والعلالة: الشيء اليسير، وعسى ولعلّ: معناهما الرجاء والطمع؛ يريد أنه يسائل الجليل في العلم والحقير، ومن كثر علمه وكان كالوبل، أو قلّ وكان كالطّل، وإذا فقد من يؤخذ عنه العلم رجا نفسه بوجوده وأطمعها. والتعللّ: قطع الزمان بالعيش اليسير وقد تعللّ بشراً به، إذا أخذ منه قليلاً قليلاً؛ فمعنى «أتعلل عسى ولعل»، أُذهب علّه وجدِي بالرجاء والطمع.

* * *

فَلَما حَلَلْتُ حُلْوَانَ، وقد بلوتُ الإخوانَ، وسَبَرْتُ الأوزان؛ وخُبَرْتُ ما شانَ وزانَ، ألفيتُ بها أبا زيدِ السَّروجيّ يتقلبُ في قوالِبَ الأنتسابِ، ويخُبِطُ في أساليب الأكتسابِ فيدعي تارةً أنّهُ من آل ساسان، ويعتزي مَرّة إلى أقيال غسان، ويبرزُ طوراً في شِعَارَ الشُّعراءِ، ويلبسُ حيناً كبر الكبراءِ.

[حلوان]

حللت: نزلت، وحلوان: بلدة بينها وبين مدينة بغداد أربع مراحل، وهي من كور الجبل، وسميت باسم بانيها، وهو حلوان بن علي بن الحاف بن قضاعة وهي مدينتان بينهما نهر عظيم مقداره فرسخ، وهي مقابلة لطبرستان، وهي جبلية سهلية بحرية لها زيتون ونخيل، وبها قصب السكر وافتتحت في زمن عمر.

* * *

بلوت: جّربت، الإخوان: الأصحاب. سبرت: فتشت، الأوزان: أقدار الناس، خبرت: جربت وعرفت، شان: عاب. وزان: زيَّنَ؛ يريد أنه دخلها وهو مجّرب عارف بالناس. ألفيت: وجدت، يتقلب: يتنوّع. قولب جمع قالب، وقالب كل شيء: قياسه، وما يصنع عليه. يخبط: المشي في الأرض على غير قصد كمشي الأعمى، أساليب: طُرق. واحدها أسلوب. آل ساسان: ملوك الفرس. يعتزي: ينتسب. أقيال: ملوك غسان: قبيلة باليمن كان منها ملوك، وغسان: ماء كان شِرْباً لولد مازن بن الأزد بن الغوث فسمّوا به، يبرز: يظهر. طوراً: حيناً. شعار: ثياب. والشّعَار ثوب يلي الجسد. كِبرْ: تكبر، يريد أنه لقي أبا زيد بحُلوان يتنوّع بذلك. في أحوال المكدين، ويجري بذلك في طرق اكتساب المعيشة فيدعي أنه من آل ساسان.

وأصل هذا أن الفرس كان فيهم الملك، وكانت العرب تحت حكم ملوكهم، فلما بعث رسول الله ﷺ لملكهم بكتابه يدعوهم إلى الإسلام، مزّقوه، فدعا الله عليهم أن

يمزقوا كلَّ ممزقٍ، فأوقع بهم المسلمون في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد حروب شديدة معظمها بالقادسية، فلم يبق لهم في الملك رسم، وصاروا في خلافة عثمان رضي الله عنه تحت حكم المسلمين، وكانوا أهل دهاء وجراءة وحروب ورماية، فسكن من بقي منهم الأمصار، واستعربوا وتفقهوا. فكان منهم من نفع الله به المسلمين، وكان منهم أهلُ أهواء وبدع، ونشأت منهم هذه الطائفة الخسيسة أهل الكُدْية، فكانوا يطوفون على البلدان، ويقولون: نحن من بني ساسان، فينتسبون إلى ملوكهم، ثم يتذلّلون في السؤال، ويذكرون تلاعب الدهر وانقلاب حال الملوك إلى السؤال، فيقع الإشفاق عليهم، والميل بالرزق لهم، حتى شعر الناس بمكرهم وخديعتهم، فطردوا، وصار الناس إذا رأوا سائلاً متمسكاً قالوا. ساساني، وقيل: إنّ ساسان اسم رجل معين، وهو أول من أسس الكُدْية، فنسبوا إليه، كما أنَّ الطفيلي منسوب إلى رجل اسمه طفيل وهو أول من تطفل، فأراد أن أبا زيد كان يتنوع في أحواله، فيتمسكن تارة ويدعي أنه من ساسان، ويتعاظم أخرى فينتسب إلى غسان، ويبرز مرة في أحلاس الشعراء المكدين، ويظهر ثانية في ثياب فاخرة، ولباس الكبراء المثرين.

* * *

بَيْدَ أَنَّهُ مَعَ تَلَوْنِ حَالِهِ، وتبيُّنِ مُحَالِهِ، يَتَجَلى برُواءٍ وَرِوَايةٍ، وَمُدَارَاةٍ ودرايةٍ، وبلاغةٍ رَائِعَةٍ، وبديهةٍ مُطاوِعَةٍ، وآدابٍ بَارِعَةٍ وقدمٍ لأعلام العلوم فارعةٍ، فكان لِمَحَاسِنِ آلاتَهِ، يلبسَ على عِلاتِهِ، ولسعةِ روَايَتِهِ، يُصبي إلى رُؤيَتِهِ، وَلخَلابةِ عارضتِهِ يُرْغِبُ عن مُعارَضَتِهِ ولعُذُوبَةِ إيراده يُسعفُ بمرادهِ فَتَعلَّقتُ بأهدابهِ لخصائصِ آدابه، ونافستُ في مُصَافاتِهِ، لنفائسِ صِفَاتِهِ. [الطويل]

فكُنْتُ بِهِ أجْلُو هِمومي وأجْتَلي ... زمانيَ طَلِقَ الوَجْهِ مُلْتَمعَ الضِّيا
أرَى قُرْبَهُ قُرْبي وَمَغْنَاهُ غنْيَةً ... وَرُؤيتهُ رِيًّا، ومَحْيَاهُ لي حَيَا

قوله: «بيد أنه»، أي غير، محاله: باطله: والمحال ما لا يمكن أن يتصور، وهو «مفعل» من حال الشيء، إذا تغير، كأنه أزال عن وجهه. يتجلى: يتزين. رواء: نظافة وحسن منظر، مدارة: حسن سياسة في صُحبته، وأصلها المخادعة، دراية ودرية: مصدر دريت، بلاغة: فصاحة، رائعة: معجبة، ومن شاهدها ارتاع وتعجب، والبديهة والبداهة: الأخذ في الكلام من غير فكرة، وهي الإرتجال. مطاوعة: منقادة بارعة: فائقة تفضل غيرها أعلام: جبال فارعة: طائلة قد علتها، واللام في قوله: «لأعلام» زائدة، وزيادتها إذا تقدمت أحسن منها إذا تأخرت، مثل ضربت زيداً ولزيد ضربت، آلاته: عدده، وأراد به هذه الأنواع التي قدمها التي تحلى بها يلبس: يصاحب ويخالط علاته: عيوبه التي ذكر من أنواع الغربة، سعة روايته: كثرة علمه وما يرويه. يصبي: يمال. خلابة: خداع، وقد

خلبه خلباً وخلابة: خدعه، عارضته: قوة كلامه. معارضته: مقابلته ومناقضة كلامه، وتقول: رغبت عن الشيء تركته وتزهدت فيه، ورغبت فيه، إذا أحببتَه، فيريد أنّه لقوّة كلامه وصلابته لا يتعرّض أحد لجِداله فهو يخادع به الناس حتى لا يعترض له فيما يقول، وقيل: معنى فلان شديد العارضة، إذا أفحش وأسمع المكروه، ورجل شديد العارضة، أي لا تُقرب ناحيته، إيراده: أخذه في الكلام، يسعف: يساعد، أهدابه: أطراف ثوبه وخصائص الشيء: ما يختص به، أي ينفرد، نافست: زايدت وغاليت مصافاته: مصاحبته، نفائس جمع نفيس، وهو الرفيع من كل شيء، يسمى نفيساً، من النّفس وهو العين، حتى كأنه لرفعته تتعلق به العين، وقد قال المعري:

فالعينُ يسلم منها ما رأت فنبت ... عنه وتلحق ما تهوى من الصوَرِ[1]

قوله: «أجلو»، أي أكشف أجتلي: نظر طلق الوجه: مستبشراً، والطلق ضدّ العابس، ملتمع: منير بادي اللمعان: قربي: نسباً، ومغناه: منزله، من قولهم: غني بالمكان يغني غنياناً، إذا أقام به غُنْية: غِنَى، يقال: غني يغني غنى فهو غنيّ، إذا استغنى، والاسم: الغنية، ريّاً: شبعاً من الماء، ورويت من الماء ضدّ عطشت: محياه: حياته. حياً: مطر عام. يقول: أنه بمصاحبته أبا زيد يزول همه، ويلقاه ببشر منه، فيرى قربه منه بالودّ كقرابة النسب، وكان منزله لما يجد فيه من الخصب أو من غزارة العلم يرى أنه غناه، وإذا رآه زال عطشه للعلم أو للماء برؤيته، وقصد تجنيس الألفاظ يبعد المعنى.

* * *

وَلَبِثْنا على ذَلِكَ بُرْهَةً، يُنْشِىءُ لي كلَّ يوم نُزْهَةً، ويدرأ عنْ قَلْبي شُبْهَةً، إلى أن جدحَتْ، له يَدُ الإملاقِ كأس الفراقِ، وأغْرَاهُ عَدَمُ العُرَاقِ بتَطليقِ العِرَاقِ، ولفَظِتهُ مِعَاوز الإرفاقِ، إلى مفاوزِ الآفاقِ ونَظَمَهُ في سلك الرِّفاق خُفُوقُ رَايَةِ الإخْفَاقِ، فشَحذَ للرِّحْلَةِ غرَارَ عَزْمِتِهِ، وَظَعنَ يَقْتَادُ الْقَلْبَ بأزمتِهِ. **[الطويل]**

فَمَا رَاقَنِي مَنْ لاَقَنِي بَعْدَ بُعدِهِ ... ولاَ شَاقَنِي مَنْ سَاقَنِي لِوِصَالِهِ
ولا لاَحَ لي مُذْ نَدَّ نِدٌّ لِفَضلِهِ ... ولا ذو خِلالٍ حَازَ مِثْلَ خِلاَلَهِ

لبثنا: أقمنا. برهة: مدة، ينشىء: يصنع ويبتدىء، والنزهة أصلها التّباعد عن الرّيب، ثم كثرت حتى صارت الخروج للرياض، للتفرج، ثم استعملت في المعاني فقيل: نزه فلان في آدابه، وكنى بهذا عمّا يستفيده من علمه. يدرأ: يدفع. شبهة: إشكال والتباس. جدحت: حركت ومزجت، والمجدح: آلة يمزج بها المشروب الصعب

(١) البيت في ديوان أبي العلاء المعري ص ١٥٠.

الأمتزاج، الإملاق: الفقر من الملقة وهي الصخرة الملساء، فأملق كأنه صادف مَلَقة لا تنبت شيئاً، ولم يصادف خصباً بعد أن كان في ترفةٍ وغنى، أغراه: حرّضه.

والعُراق، اختلفوا فيه، فقال صاحب العين: العُراق: العظم بلا لحم، فإن كان عليه لحم فهو عَرق.

ابن قتيبة، يقال للعظم الذي عليه اللحم عُراق، وللخالي من اللحم عَرْق.

أبو عبيد، العُراق: القطعة من اللحم، أبو زيد، قول العامة: ثريده العراق خطأ؛ إذ كان العُراق العِظام، وأنشد لرجل يطرد الطير عن زرعه في عام جدب: [الرجز]

عَجِبْتُ من نفسي ومن إشفاقها ومن طرادي الطَّير عن أرزاقها[1]

في سَنَةٍ قد كشفت عن ساقها حَمْرَاء تَبْرِي للّحمَ عن عراقها

ابن الأنباريّ، قول أبي عبيد هو الصواب؛ لأن العرب تقول: أكلت العُراق ولا تقول: أكلت العظم، وفي حديث أم إسحاق العَنَزية: فجعلت لا آكل العُراق ولا أضعه، فقولها: «لا آكل» يدل على أن العُراق لحم مفرد أو لحم على عظم،

الأصمعي، قيل لأعرابي: أي الطعام أطيب؟ قال: ثريده دَكْنَاء من الفلفل، رقطاء من الحمض، ذات حفافين من البضع، لها جناحان من العراق، قيل: كيف أكلك لها؟ قال: أصدع بهاتين ـ يعني السبابة والوسطى ـ وأسند بهذين ـ يعنى الإبهام والخنصر ـ وأجمع ما شذ منها بهذه ـ يعني البنصر ـ وأضرب فيها ضرب وليّ السوء في مال اليتيم، فهذا يدل على أن العُرق قطع اللحم إذا كانت العرب لا تصف الثريد والأطعمة بكثرة العظام.

والعُراق في البيت: الأكل، تقول: عرقت العظم عراقاً، أكلت ما عليه من اللحم، والعظم معروق، وهو بمنزلة سكتّ سكاتاً.

العراِق: قال صاحب العين: هو شاطىء البحر، وبه سميِّت العِراق لأنها على شاطىء دجلة، ابن الأعرابي، سمي عَراقاً لأنه سَفُل عن نجد، ودنا من البحر، أخِذ من عِراق القربة، وهو الخرزفي أسفلها، قطرب، سُمِّي عِراقاً لأنه دنا من البحر، . وبه يُناخ وينجد.

ويقال: استعرقت إبلهم، إذا أتت ذلك الموضع، لفظته، أي رمته. ومعاوز: جمع مَعْوَز، والمعوز هو العَوز نفسه، والمِعْوز بالكسر: الثوب الخلق وجمعه معاوز، الإرفاق ومصدر أرفقته، إذا أوصلت إليه نفعاً يرتفق به، ورفقته بمعناه فأراد بمعاوز الإرفاق فقد ما يرتفق به والمفاوز: جمع مفازة وهي الصحراء سميت مفازة على التفاؤل، لأن الرجل إذا

---

(١) الرجز بلا نسبة في لسان العرب (عرق)، وتاج العروس (عرق).

قطعها فاز ونجا. والآفاق: نواحي الأرض، نظمه: ضمّه وجمعه سلك: خيط، الرّفاق: جمع رُفقة، وعنى بسلك الرفاق الطريق الذي ينتظمون فيه إذا أخذوا في السير، لأنهم يمشون فيه واحداً بعد واحد، فنظمهم الطريق، وصار لهم كالسلك. خفوق: اضطراب، وقد خفق خفقاً وخفوقاً، والإخفاق: الخيبة، ويقال: غدا فأخفق، إذا خاب، ومثله في الصائد: صاد فأروق. شحذ: حدّ وسن، وشحذ الرجل سيفه.، إذا ألحّ عليه بالتحديد، ومنه قولهم للملحّ في المسألة: شحاذ، والعامة تصحّفه فتقول: شحات، بالتاء. غِرار: حدّ. وأراد أنه لما عزم على الارتحال حدّ عزمته، أي عوّل على السفر يجدّ. والعزمة: مصدر عزم إذا جّد، وجعل لها حداً، مبالغة في تعجيل السفر. ظعن: ذهب وارتحل. أزمة: جمع زمام، وهو حبل من جلود يشدّ به في حلقه مجعولة في وتد أنف البعير، فجعل تعلُّق قلوب أصحابه به عند فراقه، وحنينهم إليه؛ كأنه قد ربطها بأزمّة وقادها معه، فمن روى «القلوب» عادت الهاء من «أزمتّه» على السروجيّ، ومن روى «القلب» عادت على القلب أو على السروجيّ، والقلب لابن همام.

وقوله: «راقني»، أي أعجبني، وقد راق الشيء يروق رَوْقاً فهو رائق إذا أعجب، لاقني: لصق بي وصحبني. شاقني: شوقني. ساقني لوصاله: دعاني لصحبته، لاح: ظهر، ندّ: فرّ وشرد. ندّ: مثل، والجمع أنداد، خلال: جمع خُلّة الضم؛ وهي الصداقة، خِلاله: جمع خُلّة بالضم أيضاً، وهي الخصلة. وهذا النَّمط في وصف الصديق وغيبته بارع ولابن عمران في ذلك: **[البسيط]**

يا مَرْحباً بصديقٍ لستُ أُبصِرُهُ ... إلاّ تجدَّد لي أُنسٌ بمرْآهُ
وإن تغيّب عن عيني فلم أرَهُ ... فلي فؤاد بظَهْرِ الغيْبِ يَرعَاهُ

* * *

واستَسرَّ عنِّي حيناً، لا أعرِفُ لَهُ عَرِيناً، ولا أحدُ عنهُ مُبيناً، فَلَمَّا أُبْتُ مِن غُرْبَتي، إلى مَنْبَتِ شُعْبتي، حضرتُ دَارَ كتُبِها التي هي مُنْتدى المُتأدِّبين، ومُلْتَقى القاطنينَ مِنْهُمْ المُغتَرِّبينَ، فدخلَ ذِو لِحْيَةٍ كَثَّةٍ، وهيئَةٍ رَثَةٍ، فَسَلَمَ على الجُلاَّسِ، وجَلَسَ في أُخْرَيَاتِ النَّاس.

* * *

استسرّ: غاب واختفى، وأصله من سِرار الهلال في آخر الشهر وهو يستسرّ ليلة لا يظهر أو ليلتين، والعرين: بيت الأسد ومأواه، مبنياً: معلماً به يبين لي أين استقرّ. أُبت: رجعت، منبت شُعبتي، أي بلدة قرابتي التي نبتوا فيها، يريد البصرة. والشعبة: القرابة، دار كتبها: مدرسة العلم. منتدى: مجتمع القاطنين: الساكنين، وقطن بالمكان: أقام فيه، كثّة: كثيرة الأصول من غير طول.

[اللحية وما قيل فيها]

ويقال للّحية إذا أقصر شعرها وكثر: أنها لكثة، وقد «كثّت تكِثّ كثاثة وكثوثة، ورجل كث اللحية، ولحية كثُحمة، إذا كُثفت وقصرت وجعدت، ورجل كُثحُم اللحية، وإذا عظمت وكثر شعرها قيل: إنه لذوا عُثْنون، وإنه لُهلْوف، فإذا كانت اللحية قليلة في الذقن ولم تكن في العارضين فذلك السُّنوط والسناط، ورجل سُناط: بين السّنط، فإذا لم يكن في وجهه كثير شعر، فذلك الثطط ورجل ثطّ، ورجال ثطاط، والسّبَلة: مقدّم اللحية، ورجل مسبل، وفلان خفيف العذارين، وهما ما اتصل من شعر اللحية بالصُّدغ، وهما العارضان، وهما ما نبت في الخدين من الشعر على عوارض الأسنان، قال رؤبة في لحية حرب بن قَطن: **[الرجز]**

هـلَّـوفـةٌ كـأنـهـا جُـوَالَـقُ ... نـكْـداءُ لا بـارك فِـيـهَـا الـخَـالِـقُ[1]

لـهـا فـضـولٌ ولـهـا بـنـائِـقُ ... إذا الـريـاح الـعـصـفُ الـسَّـوابِـقُ

طـيَّـرْنَـهـا طـارتْ لـهـا عـقـائـقُ ... إن الـذي يـحـمـلـهـا لـمـائِـقُ

وأنشد أبو عليّ: **[الطويل]**

وأنـت امـرؤ قـد كَـثَّـأتْ لـك لـحـيـةٌ ... كـأنـك مـنـهـا قـاعـد فـي جُـوَالِـقِ[2]

قال النبي ﷺ: «من سعادة المرء خفة لحيته». وكانت عائشة رضي الله عنها تقسم فتقول: «لا والذي زين الرجال باللِّحى»، تقول: إنه قَسَم الملائكة.

إلى ص ٨٥

كتاب شرح مقامات الحريري الجزء الأول من ص ٨٥ باسمة

قال الأحدب الصوفيّ: سمعت مطيار بن أحمد يقول: رأيت النبيّ ﷺ في المنام، فقلت: يا رسول الله، أشتهى لحية كبيرة، فقال لي: «لحيتك جيدة، وأنت محتاج إلى عقل تامّ».

وقال ﷺ: «اعتبر واعقل الرَّجل في ثلاث: في طول لحيته، ونقش خاتمه، وكنيته».

أتَى رجلٌ طويلُ اللحية معاوية فقال له: أمَّا اللحية فلا نسأل عنها، فما نقش خاتمك؟ فقال: **﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيرَ فَقَالَ مَالِيَ لا أَرَى الهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الغَائِبِينَ﴾**

---

(١) الأشطار الثلاثة الأول من الرجز بلا نسبة في لسان العرب (هلف)، وتاج العروس (هلف)، وكتاب العين ٤/ ٥٢، وتهذيب اللغة ٦/ ٣٠٢.

(٢) البيت بلا نسبة في لسان العرب (كثأ)، وتاج العروس (كثأ).

[النمل: ٢٠]، قال: فما كنيتك؟ فقال: أبو الكوكب الدرّيّ، قال: كَمَل الرجل.

وكان ﷺ يأخذ من لحيته من طولها وعرضها بالسواء[(١)].

وكان عبد الله بن عمر يقبِض على لحيته، ويأخذ ما زاد منها على قبضته.

الحسن بن المثنى: إذا رأيت رجلاً له لحية طويلة، ولم يتخذ لحية بين لحيتين، كان في عقله شيء.

وكان المأمون جالساً مع ندمائه ببغداد، مشرفاً على دجلة وهم يتذاكرون أخبارَ الناس، فقال المأمون: ما طالت لحية إنسان قط إلا ونقص من عقله بمقدار ما طال من لحيته، وما رأيت عاقلاً قطُّ طويلَ اللحية. فقال له بعض جلسائِه، ولا يردّ على أمير المؤمنين: قد يكون في طول اللحى أيضاً عقل؛ فبينما هم يتذاكرون في هذا، إذ أقبل رجل كبير اللحية، حسن الهيئة، فاخر الثياب، فقال المأمون: ما تقولون في هذا الرجل؟ فقال بعضهم: رجل عاقل، وقال آخر: يجب أن يكون هذا قاضياً، فقال المأمون لبعض الخدم: عليَّ بالرجل، فلم يلبث أن أُصْعِد إليه ووقف بين يديه، فسلَّم فأجاد السّلام، فأجلسه المأمون، واستنطقه فأحسن النطق، فقال المأمون: ما اسمُك؟ فقال: علّوية، قال: فما الكنية؟ قال: أبو حمدويه، فضحك المأمون، وغمز جلساءه ثم قال: ما صنعتُك؟ قال: فقيهٌ أجيد الشرع في المسائل، فقال له: نسألك مسألة! فقال الرجل: سل عما بدا لك، فقال له المأمون: ما تقول في رجل اشترى شاة من رجل، فلما تسلمّها المشتري، وقضى الثمن، ضرَطت، فخرج من استها بعرة ففقأت عين رجل؛ على مَنْ تجب دية العين؟ قال: فنكت بإصبعه في الأرض طويلاً، ثمّ قال: تجب على البائع دون المشتري، فقال المأمون: وما العلّة التي أوجبت الدية عليه دون المشتري؟ قال: إنه لمّا باعها لم يشترط أنّ في استها مِنجنيقاً، قال: فضحك المأمون حتى استلقَى على قفاه، وضحك كلّ من حضره مِنَ الندماء. وأنشد المأمون يقول: [السريع]

مـا أحـدٌ طـالـت لـه لِـحْـيـةٌ ... فـزادت الـلِّـحـيـةُ فـي حِـلْـيَـتِـه

إلا ومـا يـنـقـص مِـنْ عـقـلـه ... أكـثـر مـمـا زاد فـي لـحـيـتِـهْ

وقال آخر: [المتقارب]

إذا عـظـمـتْ لـلـفـتـى لِـحْـيـةٌ ... فـطـالـت فَـصَـارَتْ إلـى سـرَّتِـهْ

فـنـقـصـان عـقـل الـفـتـى عـنـدنـا ... بـمـقـدار مـا زاد فـي لِـحْـيَـتِـهْ

وأنشد أبو عليّ: [مجزوء الكامل]

---

(١) أخرجه الترمذي في الأدب باب ١٧، بلفظ: «كان النبي ﷺ يأخذه من لحيته من عرضها وطولها».

لا تــفــخــرنَّ بــلــحــيــةٍ كَـثُـرَتْ مـنـابِـتُـهَـا طـويـلـه[1]
يَـهـوى تـفـرُّقَـهَـا الـرّيـا ح كـأنـهـا ذَنَـبُ الـحِـسِـيـلـهْ
قَـدْ يـدرِكَ الـشَّـرَفَ الـفـتـى يـومـاً، ولـحـيـتـه قـلـيـلـهْ

وقال: الحسيلة العجلة.

وأنشد أبو العباس رحمه الله: **[الطويل]**

كـل امـرىءٍ ذي لـحـيـة عَـثْـوَلِـيَّـةٍ يـقـوم عـلـيـهـا ظَـنَّ أنّ لـه فـضـلا[2]
وما الفضلُ في طول السِّبال وعَرْضِهِ إذا الله لـم يـجـعـل لـصـاحـبـه عَـقْـلاَ

عَثْوليّة: كبيرة.

نظر يزيد بن مزيد الشيبانيّ رحمه الله إلى رجل ذي لحية عظيمة، وقد تَلَفَّفَتْ على صدره، وإذا هو خاضب، فقال له: إنك من لحيتك في مؤنة، فقال: أجل، ولذلك أقول: **[الطويل]**

لَعَمْرُكَ لو يعطِي الأميرُ على اللّحى لأصـبـحـتُ قـد أيـسـرتُ مـنـذ زمَـانِ
إذاً لـشـفـتـنِـي لـحـيـتـي من عـصـابـةٍ لـهـم عـنـده ألـفٌ ولـي مـائـتـانِ
لـهـا درهـم لـلـدُّهْـنِ في كـلِّ جـمـعـةٍ وآخـر لـلـحِـنَّـاء يـبـتـدرَانِ
ولـولا نـوالٌ مـن يـزيـد بـن مَـزْيَـدٍ لـصـوّت فـى حـافـاتـهـا الـجَـلَـمَـانِ

فأمر له بعشرة آلاف درهم. والجلمَان: المقصّ، ويسمى الجَالم.

وقال إسحاق بن خلف يصف رجُلاً بالقِصَرِ وطول اللّحية: **[البسيط]**

مـا سـرَّنـي أنَّـنِـي فـي طـولِ دَاوُدِ وأنَّـنـي عَـلـمٌ فـي الـبَـأسِ والّـجُـود
ماشيتُ داود فاستَضحكتُ من عجَبٍ كـأنَّـنـي والـدٌ يـمـشـي بـمـولُـودِ
مـا طـولُ داودَ إلاَّ طـولُ لـحـيـتِـه يـظـلُّ داودُ فـيـهـا غـيـرَ مـوجُـودِ
تـكُـنـه خـصْـلـة مـنـهـا إذا نـفـحـت ريح الشمال، وجفَّ الماء في العودِ
أجدى وأغنى من الخزّ الصّفيق ومن بـيـض الـقـطـائـف يوم الـقـرّ والـسُّـودِ

وأشد إفراطاً منه قول ابن الروميّ: **[السريع]**

ولـحـيـةٍ يـحـمِـلُـهـا مـائـقٌ مـثـل الـشِّـراعـيـن إذا أُشْـرِعَـا
تـقـودُه الـرِّيـح بـهـا طـائـعـاً قَـوْداً عـنـيـفـاً يُـتْـعِـب الأخْـدَعَـا

---

(١) الأبيات بلا نسبة في لسان العرب (حسل) وتهذيب اللغة ٤/ ٣٠٤.

(٢) البيتان بلا نسبة في تاج العروس (عثل).

وإن عـدا والـريـح فـي وَجْـهِـهِ ... لـم يـنـبـعـثْ فـي مـشـيـه إصـبـعَـا
لـو غـاص فـي الـيـمِّ بـهـا غِـوْصَـةً ... صـاد بـهـا حِـيـتـانَـهُ أجـمَـعَـا

وأشد إفراطاً منه قول الآخر: [الكامل]

يـا لَـحْـيَـةَ الـشَّـيْـخ الأزَبّ تـمـيـم ... أهـديـت لـلأقـوام عـرف الـثُّـوم
لـو أنـهـا دون الـسـمـاء غـمـامَـةً ... ضـاقـتْ مـسـالـكُ دعـوة الـمـظـلُـومِ
أو صبَّـهـا فـي الـمـاء ثـم سَـمَـا بِـهـا ... قـامـتْ مـقـام الـعـارِضِ الـمـرْكُـومِ

ولابن سارة: [البسيط]

ولـحـيـةٍ لـسـت أدري كـيـف أنـعـتـهـا ... فـضـول أشـعـارهـا أوْدَتْ بـأشـعـارِي
كـأنـهـا ويـمـيـنُ الـرِّيـح تـنـشـرُهَـا ... مِـذَبَّـةٌ وقـعـت فـي عـود بَـيْـطـار

وقال آخر: [السريع]

أبـصـرتُ شـيـخـاً ذاهـبـاً جـائـيـاً ... ذا لـحـيـةٍ قـدْ كـبـرُت فـي اتِّـسَـاعْ
عـرْضـاً وطُـولاً وهـو مـن خَـلْـفـهَـا ... كـأنـه نـاشـرُ ثـوبٍ يُـبـاعْ

وقال آخر: [الوافر]

لـقـد كـانـتْ مـجـالـسُـنـا فِـسـاحـاً ... فـضـيَّـقَـهـا بـلـحـيـتِـهِ رَبَـاحُ
مُـقَـلَّـبـة الأسـافـل والأعـالِـي ... لـهـا فـي كـلّ زاوِيـة جَـنَـاحُ

وقال آخر: [السريع]

يـاأيّـهـا الـنـاس خـذوا حـذْرَكُـمْ ... قـد بَـرَزَتْ لُـحْـيَـةُ بَـهْـلُـولِ
فـطـولُـهـا الـفـرسـخُ فـي فـرسـخ ... وعـرضـهـا مـيـلٌ إلـى مـيـل
لـو ضـمَّ مـا يـقـطـر مـن دُهـنـهـا ... أسـرج مـنـه ألـفُ قِـنـدِيـلِ
ولـو سَـهَـا الـحـجَّـام عـن قَـصِّـهـا ... لـخـالـطـت مـا فـي الـسَّـرَاوِيـلِ

ذكر هنا أبو محمد لحية السرّوجيّ أنّها كثّة، وكل صفة يصف بها السَّروجيّ في المقامات، فتلك كانت صفة الحريري. وذكر ابن جَهْور أنَّ الحريريّ كان قليل اللّحية لا خلقةً، وإنما كان مولعاً بنتفها، كانت يده رحمه الله لا تفارق لحيتَه. وهذا على كثرته قليل فيما قيل في اللحية.

قوله «رَثَّة»، أي خَلَقَةَ بالية. أخريات: أطراف، وهي جمع أخرى.

* * *

ثـمَّ أَخَذَ يُبْدِي مَا فِي وِطابِهِ، وَيُعْجِبُ الْحاضرِينَ بِفَصْلِ خِطَابِهِ، فقالَ لِمَنْ

يَلِيهِ: مَا الكتابُ الَّذِي تَنْظُرُ فيه؟ فقال: ديوانُ أبي عبَادَة، الْمَشْهُودِ لَهُ بالإجَادَةِ.

* * *

أتى طلحة رضي الله عنه مجلس قوم، فجعلوا ينادونه من كلّ جانب: ها هنا يا صاحبَ رسول الله! قال: فجلس في أدْنَى المجلس، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ من التواضع لله الرضا بالدُّون من شرف المجلس».

وطابه: زِقَاق لَبنِه، أراد أنه يظهر ما عنده. يعجب: يجعلهم يتعجَّبون. بفصل خطابه: يريد بفصل كلامه وجودة بلاغته، وقوله تعالى: ﴿**وفَصْلَ الخِطَابِ**﴾ [ص: ٢٠] هو قول الخطيب: «أما بعد». يليه: يلصق به.

[البحتريّ]

أبو عبادة. قال البكريّ: هو الوليد بن عبيد بن يحيى بن عبيد، من بني بحتر بن عتود بن عُنين بن سَلاَمَان بن ثُعل بن عمرو بن الغَوْث بن جلهمة، وهي طيّىء. شاعر مقدّم لا يُعدَل به أحد، يفضَّل على حبيب، والناس في تفضيلهما على اختلاف.

قال أبو الفرج الأصبهانيُّ: كان البحتريّ شاعراً فصيحاً، حسن المذهب نَقِيّ الكلام، خُتم به الشعراء المحدَثون، وله تصرّف في ضروب الشعر، سوى الهجاء، فإنّ بضاعته فيه نَزْرة.

قال البحتريّ: وكان أول أمري أنِّي سرت إلى أبي عامر بِحمْص، فعرضت عليه شعري ـ والشعراء يعرضون عليه أشعَارهم ـ فترك مَنْ حضر وأقبل عليّ، فقال لي حين تفرَّقوا: أنت أشعَر مَنْ أنشدني، فكيف حالك؟ فشكوت خَلَّة، فكتب إلى أهل معرّة النعمان، وشهد لي بالحذْقِ في الشعر، وشفع لي إليهم، وقال: امتدحهم. فسرت إليهم، فأكرموني بكتابه، ووظَّفُوا لي أربعة آلاف درهم، فكانت أوّل مالٍ أصبته.

وحدّث أبو الفرج، قال: حدثني أبو الغَوْث البحتريّ، عن أبيه، قال: أوّل أمري أنِّي دخلت على أبي سعيد محمد بن يوسف الثغريّ، فأنشدته قصيدة أولها: [**الكامل**]

* أأفـاق صـبٌّ مِـنْ هـوًى فـأُفِـيـقَـا[1] *

فسُرَّ أبو يوسف بها، وقال: أحسنت والله يا فتى وأجدت ـ وفي مجلسه رجل رفيع نبيل قريب المجلس منه، فوق كل مَنْ حضر، تكاد تمسّ ركبتُه ركبتَه، فأقبل عليّ، ثم قال: أما تسَتْحِي مني! هذا شعري تنتحله وتنشده بحضرتي! فقال أبو سعيد: أحقًّا ما

---

(١) عجزه:

أمْ خـان عـهـداً أم أطـاع سـفـيـقـا

والبيت في ديوان البحتري ٣/ ١٤٥٠، وهو بلا نسبة في رصف المباني ص ٣٨٢.

تقول؟ قال: نعم، وإنما عَلِقه مِنّي وسبق به إليك، وزاد فيه. ثم اندفع فأنشد أكثر القصيدة، حتى شكّكني ـ علم الله ـ في نفسي، وبقيت متحيّراً، فقال لي أبو سعيد: يا فتى، قد كان لك في قرابتك منّي ما يغنيك عن هذا! فجعلت أحلف بكل مَحْرَجةٍ من الإيمان أن الشعر لي، ما سمعتُه منه، ولا انتحلتُه. فلم ينفع ذلك شيئاً، وأطرق أبو سعيد، وقطع بي حتى تمنَّيت أن يُساخ بي في الأرض، فقمت منكسِف البالِ، أجرّ رجليّ، فما بلغت باب الدار حتى ردَّني الغلام، فأقبل عليَّ الرجل وقال: الشعر لك يا بنيّ، والله ما قلتُه قطّ، ولا سمعتُه إلا منك؛ ولكنني كنت ظننتُ أنَّك تهاونتَ بموضعي، فأقدمت على الإنشاد بحضرتي، تريد مضاهاتي، حتى عرّفني الأمير نسبك، ولوددت ألاّ تلد طائيّة إلا مثلك، ودعاني وضمَّني إليه، وعانقني، وأبو سعيد يضحك، فلزمتهُ بعد ذلك وأخذت عنه، واحتذيت فنه.

وعن أبي الغوث عن أبيه قال: قال لي أبو تمام: بلغني أن بني حُميد أعطَوْكَ مالاً جليلاً، فبِمَ مدحتهم؟ فأنشِدْني شيئاً منه، فأنشدته، فقال لي: كم أعطوك؟ فقلت: كذا، فقال لي: ظلموك، والله ما وفَوْك حقَّك، فلمَ استكثرتَ ما أعطوْك! والله لبَيْتٌ منها خَيْرٌ مما أخذت. ثم أطرق قليلاً وقال: لعمْري لقد استكثرتَ ذلك لمَّا مات الكرام، وذهب الناس، وغاضت المكارم، وكسدت أسواق الأدب، أنت والله يا بنيّ أميرُ الشعراء غداً بعدي، فقمت فقبّلت رأسه ويديه ورجليه، وقلت: والله لهذا القول أسَرُّ لِي مما وصل إليّ منهم.

قال البحتريّ: أنشدت أبا تمام يوماً شيئاً من شعري، فأنشدني بيت أَوْسٍ: **[الطويل]**

وإنْ مُـقْـرَمٌ مـنَّـا ذَرا حـدُّ نـابِـهِ تـمـخَّـط فـيـنـا نـابُ آخـرَ مُـقْـرَمِ[1]

ثم قال: يا بنيّ، نَعَيْتَ إليَّ نفسي: فقلت: أعيذك بالله من هذا! فقال لي: إن عمري ليس يطول، وقد نشأ مثلُك لطيىء، أما علمت أن خالد بن صفوان المِنْقريّ رأى شبيب بن شبّة، وهو من رهطه يتكلم، فقال. يا بنيّ، نَعَى نفسي إليّ إحسانُك في كلامك؛ لأنّا أهل بيت، ما نشأ فينا قطّ خطيب إلا مات مَنْ قبله.

قال: فمات أبو تمام بعد سنة من قوله هذا، ومات البحتري سنة ثلاث وثمانين ومائتين.

المبرّد: ذكرت للمتوكل المنازعة التي جَرَتْ بيني وبين أبي الفتح في تأويلات، فبعث إلى عامله بالبصرة أن يحملني إليه مكرهاً، فوردتُ سرّ من رأى، فأدخلتُ على

---

(١) البيت لأوس بن حجر في ديوانه ص ١٢٢، ولسان العرب (قرم)، (ذرا)، وتهذيب اللغة ٧/ ٢٦١، ٩/ ١٤٠، وتاج العروس (خمط)، (قرم)، وأساس البلاغة (خمط)، (قرم)، وبلا نسبة في لسان العرب (خمط)، ومقاييس اللغة ٢/ ٣٥٢، ٥/ ٧٥، والمخصص ١٠/ ٢٠٠، ١٥/ ٥٥.

المتوكِّل، وفي المجلس البحتريّ وأبو العنبس الصيمريّ، فأنشده البحتريّ قصيدة أولها: **[مجزوء الكامل]**

عَـنْ أيِّ ثـغـرٍ تـبـتـسـمْ … وبـأيِّ طَـرْفٍ تَـحْـتَـكِـمْ(١)
حَـسَـنٌ يَـضَـنّ بـحُـسـنِـهِ … والـحُـسْـنُ أشْـبَـهُ بـالـكَـرَمْ

حتى بلغ:

قـلْ لـلـخـلـيـفـةِ جـعـفـرِ الـمُـتَـ … ـوَكِّـلِ بـنِ الـمـعـتـصـمْ
الـمـرتـضَـى ابـنِ الـمـجـتَّـبـى … والـمـنـعـم ابـن الـمـنـتـقـمْ
أمّـا الـرعـيَّـة فـهـي مِـنْ … أمَـنـاتِ عَـدْلـك فـي حَـرَمْ
يـا بـانـيَ الـمـجـدِ الـذي … قـد كـان قُـوِّضَ فـانـهـدَمْ
اسْـلَـمْ لـديـن مـحـمَّـدٍ … فـإذا سـلـمـتَ فـقـد سَـلِـمْ
نـلْـنَـا الـهـدى بـعـد الـعَـمـى … بـلْ والـغـنـى بـعـد الـعَـدَمْ

ثم مشى القهقرى للإنصراف، فوثب أبو العنبس، وقال: يا سيّدي، تأمر بردّه! فقد والله عارضتُه، فأخذ ينشد في ذلك: **[مجزوء الكامل]**

فـي أيِّ سَـلْـحٍ تـنـتـظِـمْ … وبـأيِّ كـفٍّ تـلـتـقِـمْ
أدخـلـتَ رأسَ الـبـحـتـر … يِّ أبـي عُـبـادة فـي الـرَّحِـمْ

ووصله بما يشبهه من الشعر. فضحك المتوكّل حتى استلقَى، وقال: يُدفع إلى أبي العنبس عشرة آلاف درهم، فقال أبو الفتح: يا أمير المؤمنين، والبحتريّ الذي هُجِيَ وأُسْمِع المكروه ينصرف خائباً؟ قال: ويُدْفَع إلى البحتريّ عشرة آلاف درهم، قال: يا سيّدي، وهذا البصريّ الذي أشخصْنَاه من بلده، ألا يشركهم فيما حصلوه؟ قال: ويُدْفع له عشرة آلاف: قال وانصرفنا كلّنا في شفاعة الهذليّ، ولم ينفع البحتريَّ جِدُّه وحِذقه.

وأما أبو الفرج، فقال: حدّثني جحظة عن أبي العنبس الصيمريّ، قال: كنت عند المتوكل والبحتريّ ينشده:

* عَـنْ أيِّ ثـغـرٍ تَـبْـتَـسِـمْ *

وكان البحتريّ من أبغض الناس إنشاداً، يتشادق ويتزاور في مشيه مرّة جانباً، ومرّة القهقرى، ويهزّ رأسه مرة ومنكبيه أخرى، ويشير بكفيه، ويقف عند كل بيت، ويقول: أحسنتُ والله! ثم يقبل على المستمعين، ويقول لهم: ما لكم لا تقولون: أحسنت! هذا والله ما لا يحسِن أحدٌ أن يقول مثله، فضجر المتوكل من ذلك، وأقبل عليّ فقال: أما

(١) الأبيات في ديوان البحتري ص ١٩٩٨.

تسمع يا صيمريّ ما يقول؟ فقلت: بلى يا سيدي، فمرْ فيه بما أحببتَ، فقال: بحياتي اهْجُه على هذا الرويّ، فقلت على البديهة **[مجزوء الكامل]**

أدخـلـتَ رأسـك فـي الـرَّحِـمْ وعـلـمـتَ أنـكَ تـنـهـزِمْ
يـا بـحـتـريّ حـذارِ ويْـحـ ـك قـضـاقِـضَـةٍ ضُـغُـمْ
فـلـقـد أسَـلْـت بـواديْـيـ ـك مـن الـهَـجَـاسَـيْـلَ الـعَـرِمْ
فـبـأيّ عِـرْضٍ تـعـتِـصـمْ وبـهـتـكـه جـفّ الـقَـلَـمْ
والـلَّـهِ حـلْـفـةَ صـادقٍ وبـقـبـر أحْـمَـدَ والـحـرَمْ
ووحـق جـعـفـرٍ الإمـا م بـن الإمـام الـمـعـتـصـمْ
لأصـيِّـرنَّـك شُـهْـرَةً بـيـن الـمـسـيـل إلـى الـعَـلَـمْ
يـا بـنَ الـثـقـيـلـة والـثّـقـيـ ـل عـلـى قـلـوب ذوِي الـنِّـعَـمْ
وعـلـى الـصَّـغِـيـر مـع الـكـبـ ـيـرِ مِـنَ الـمـوالـي والـحَـشَـمْ

وبعد هذا ما يقبح ذكره؛ فغضب البحتريّ، وخرج يعدو، وجعلت أصيح به:

أدخـلْـتَ رأسـك فـي الـرَّحِـمْ وعـلـمـت أنـك تـنـهَـزِمْ

والمتوكّل يضحك، ويصفّق حتى غاب عنه.

ومدح البحتريّ بعض الولاة، فتوانى في حقه، فأنشده: **[البسيط]**

إنّ الأمـيـرَ أطـال الله مـدّتَـهُ يُعْطَى من العُرْفِ ما لم يعْطَه أَحَدُ[1]
ينسى الّذي كان مِنَ معروفه أبداً إلى العباد، ولا ينسى الذي يَعِدُ

فأعطاه خمسين ألف درهم، وقال: البيتان خير من القصيدة.

وقال الهذليّ: قيل للبحتريّ: أيما أشعر؟ أنت أو أبو تمام؟ قال: جيّده خيرٌ من جيّدي، ورديئي خير من رديئه. وصدق، أبو تمّام لا يتعلّق به أحد في جيّده، وربما اختلّ لفظه لا معناه، والبحتريّ لا يختلُّ لفظه.

وقيل له: قد عثرتَ باحتذائك أبا تمام في شعرك! فقال: أيُعاب عليّ أن أتبع أبا تمام، وما عملت بيتاً قط حتى أُخْطِر شعره ببالي!

وذكروا معنًى تعاوره البحتريّ وأبو تمام، فقال المبردّ للبحتريّ: أنت في هذا أشعر من أبي تمّام، فقال: لا والله، ذلك الرئيس الأستاذ، والله ما أكلت الخبزَ إلا به.

وقال عبد الله بن الحسن: سألت المبردّ عن أبي تمام والبحتريّ أيهما أشعر؟ فقال:

(١) البيت في ملحق ديوان البحتري ص ٢٥٤٥.

لأبي تمّام استخراجات لطيفة، ومعانٍ ظريفة، وجيّده أجود من شعر البحتريّ ومَنْ تقدّمه من المحدثين، وشعر البحتريّ أحسن استواء من شعره، لأنّ البحتريّ يقول القصيدة كلّها، فتكون سليمة من طعن طاعن، وأبو تمام يقول البيت النّادر والبارد؛ وهذا المعنى كان أعجب إلى الأصمعيّ، وما أشبّهه إلا بغائص يُخرج الدرّة الْمَخْشَلبة ـ وهي زجاجة توضع مكان الدّرّة ـ ثم قال: لأبي تمام والبحتريّ من المحاسن ما لو قيس بأكثر شعر الأوائل ما وجدوا فيه مثله، ثم قال: والبحتريّ ختمّ الشعر، وله بيتان لو وضعا إلى شعر زُهير لجازا فيه؛ وهما: **[الوافر]**

فما سَفَهُ السَّفِيه وإن تعدّى ... بأنجعَ فيك من حِلْم الحلِيم[١]

متى أحفَظتَ ذَا كرمٍ تخطّى ... إليك ببعض أفعال اللّئيمِ

وذكر المبرّد في هذا المجلس شعراً له، وقدّمه على نظرائه: **[الكامل]**

وإذا ذكرتُ محاسنَ ابنيْ صاعدٍ ... أدّت إليك مخائِلَ ابني مُخْلَدِ[٢]

كالفَرْقديْن إذا تأمّل ناظرٌ ... لم يعلُ موضعُ فرقدٍ عن فرقدِ

وقوله: **[الكامل]**

مَنْ شاكرٌ عنّي الخليفةَ لِلّذي ... أولاه من فضلٍ ومن إحسانِ[٣]

حتّى لقد أفضلتُ من إفضاله ... ورأيت نَهْجَ الجود حيثُ رآني

وبعدهما: **[الكامل]**

أغنت يداهُ يدي وشرّد جُودُه ... بُخْلِي، فأفقرني كما أغنانِي

وله أيضاً في الفتح بن خاقان، وقد نزل إلى الأسد فقتله: **[الطويل]**

حملت عليه السيف عطفك ما انثنى ... ولا يدُاكَ ارتدّت ولا حدُّه نَبَا[٤]

فأحجم لمّا لم يجد فيك مطمَعاً ... وصمَّمَ لما لم يجِدْ عنك مَهْرَبَا

وله فيه:

وما منع الفتحُ بن خاقان نيْله ... ولكنها الأيام تُعطى وتَحرِمُ[٥]

سحابٌ خطاني جَوْدُه وهو مسبِلٌ ... وبحرٌ عَدَانِي فيضُه وهو مفَعمُ

وبدرٌ أضاءَ الأرض شرقاً ومغرباً ... وموضعُ رجلي منه أسودُ مُظلمُ

---

(١) ديوان البحتري ص ٢٠٧٩.
(٢) ديوان البحتري ص ٥٤١.
(٣) ديوان البحتري ص ٢٢٥٥.
(٤) ديوان البحتري ص ٢٠٠، ٢٠١.
(٥) ديوان البحتري ص ١٩٨٠.

أأشكو نَدَاه بعد أن وَسِعَ الورَى ... ومَنْ ذا يذمّ الغيث إلا مذَمَّمُ!

وله أيضاً في انتقاض صلح بين عشيرته: [الوافر]

إذا ما الجرحُ رمّ على فَسادٍ ... تبيَّنَ فيه تفريط الطَّبيبِ[1]

ولِلَسَّهُم السَّديد أشد حُبًّا ... إلى الرامي من السهم المُصيبِ

ومن جيّد شعره: [الطويل]

ولما التقينَا واللّوَى موعدٌ لنَا ... تبيَّن رائي الدرّ حسناً ولا قطُهْ[2]

فمن لؤلؤٍ تجلوه عند ابتسامِهَا ... ومن لؤلؤٍ عند الحديث تساقِطُهْ

والبحتريّ مكثر جدًّا، وديوان شعره نسِخ مختلفاً بالزيادة والنقص؛ لأن شعره لا ينضبط لكثرته.

[وصية أبي تمام للبحتري]

قال البحتريّ: كنت أروم الشعر في حداثتي، وكنت أرجع فيه إلى الطبع، ولم أكن أقف على تسهيل مأخذه ووجوه اقتضائه، حتى قصدت أبا تمّام، وانقطعت فيه إليه، واتّكلت في تعريفه عليه، فكان أوّل ما قال لي: يا أبا عُبادة، تخيَّر الأوقاتَ وأنت قليل الهموم، صِفْرٌ من الغموم. واعلم أنّ العادة جرت في الأوقات أن يقصدها الإنسان لتأليف الشيء، أو حفظه في وقت السَّحَر، وذلك أن النفس تكون قد أخذت بحظها في الراحة، وقسطها من النوم، فإن أردت التشبيب، فاجعل اللفظَ رقيقاً، والمعني رشيقاً، وأكثر فيه بيان الصَّبَابة، وتوجُع الكآبة، وقلق الأشواق، ولوعة الفراق؛ فإذا أخذتَ في مدح سيّد [ذي أياد]، فأشهِرْ مناقبَه، وأظهِرْ مناسبَه، وابن معالمه، وشرّف مقامه، ونضّد المعاني، واحذر المحتملَ منها. وإيَّاك أن تشين شعرَك بالألفاظ الهجينة، وكن كأنك خيَّاط تقطع الثياب على مقادير الأجسام، وإذا عارضك الضَّجَر فأرح نفسَك، ولا تعمل شعراً إلا وأنت فارغ القلب. واجعل شهوتَك إلى قول الشعر الذَّريعة إلى حسن نظمه، فإن الشهوة تجمع النفس. وجملة الحال أن تعتبر شعرك بما سبق من شعر الماضين، فما استحسن العلماء فاقصده، وما تركوه فاجتنبه؛ ترشد إن شاء الله تعالى.

قال: فأعملت نفسي فيما قال، فوقفت على السياسة.

* * *

فقَالَ: هَلْ عَثَرْتَ لَهُ فِيمَا لَمَحْتَهُ، عَلَى بَدِيعٍ اسْتَمْلَحْتَهُ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَوْلُهُ: [السريع]

كَأَنَّمَا يَبْسِمُ عَنْ لُؤْلُؤٍ ... مُنَضَّدٍ أَوْ بَرَدٍ أَوْ أَقَاحْ[3]

---

(١) ديوان البحتري ص ١٩٠.

(٢) ديوان البحتري ص ١٢٣٠.

(٣) البيت بلا نسبة في تاج العروس (ظلم).

فإِنَّهُ أَبْدَعَ فِي التشبِيهِ، الْمُودَعِ فِيهِ.

* * *

قوله: «هل عثرت»، معناه اطّلعت. لمحته: نظرته. بديع: معنى لم يسبق غيره إليه من تشبيه أو تجنيس وشبههما ممّا ذكر من صنع البديع في [المقامة] الثالثة والعشرين. والبِدْع: إحداث الشيء قبل أن يكون أولاً، والبدْعَة: ما ابتدع من الدِّين، والبديع: المحدث العجيب، وأبدع الرجل: أتى ببديع من قول أو فعل، وأبدع الله الأشياءَ وابتدعها: خلقها بلا مثال. استملحته: وجدته مليحاً. يبسم: يبدي بعضَ أسنانه عند الضحك. لؤلؤ: جوهر شبّه به الأسنان. وهذا البيت من شعره، وقبله: [السريع]

بَاتَ نَدِيماً لَي حَتَّى الصَّبَاحْ ... أغْيَدُ مجدولُ مكانِ الوِشَاحْ[1]
فبِتّ أفديه ولا أرعوي ... لنهيِ ناهٍ عنه أو لَحْيِ لاَحْ
أمزُجُ كأسِي بجَنَى رِيقِه ... وإنّما أمزُجُ راحاً بِراحْ

كأنما يبسم . . . البيت.

وبعده: [السريع]

سِحْرُ الْعُيونِ النُّجْلِ مُسْتَهْلِكُ ... لُبّي، وتوريد الخدُودِ المِلاَحْ
قل لأبي نوحٍ شقيق العلاَ ... ومَعدِن الجودِ، وتِرْبِ السَّمَاحْ
أعوذ بالفضْلِ الجميل الّذي ... عوّدتني، والنائل المُسْتمَاحْ
منْ أن تَصُدّ الطّرف عنّي وأنْ ... أخيبَ في جدواك بعد النَّجَاحْ
أشمَتَّ حُسَّادِي وأخرجتني ... عن سَيْبِك المُغْدَى عليّ المرَاحْ
فهل لأُنْسٍ بان من عودةٍ ... أَمْ هل لحالٍ فَسَدَتْ مِنْ صَلاَحْ
لستُ على سخطك جَلْدَ القوى ... وَلاَ عَلَى هجرِكَ شاكِي السِّلاَحْ

قوله: «المودَع»: المضمّن، وأودع الشي: صيّره وديعةً.

* * *

فَقَالَ لَهُ: يَا لَلْعَجَب، ولِضَيْعَةِ الأَدَبِ! لَقَدِ اسْتَسْمَنْتَ ذَا وَرَمٍ، وَنَفَخْتَ في غَيْرِ ضَرَمٍ! أَيْنَ أَنْتَ مِنَ الْبَيْتِ النَّدْرِ، الْجَامِعِ مُشبَّهَاتِ الثَّغْرِ! وَأَنْشَدَ: [البسيط]

نَفْسِي الْفِدَاءُ لِثَغْرٍ رَقَ مَبْسَمُهُ ... وَزَانَهُ شَنَبٌ نَاهِيكَ مِنْ شَنَبِ
يَفْتَرُّ عَنْ لُؤْلُؤٍ رَطْبٍ وَعَنْ بَرَدٍ ... وَعَنْ أَقَاحٍ وَعَنْ طَلْعٍ وَعَنْ حَبَبِ

* * *

(١) الأبيات في ديوان البحتري ص ٤٣٥.

استسمنت: حسبتَه سميناً وطلبت السمانة من هزيل. وَرَم: دُمّل، والمعنى أنه يرميه بسوء الفهم، وقد بيّن هذا أبو الطيّب المتنبي فقال: **[البسيط]**

أعـيـذُهـا نـظـراتٍ مـنـكَ صـادقـةً أن تَحْسِبَ الشَّحْمَ فيمن شحمُهُ وَرَمُ[1]

وَمَـا انْـتِـفَـاعُ أخِـي الـدُّنـيَـا بـنـاظـرِهِ إذا استـوتْ عـنـدَهُ الأنـوارُ والـظُّـلَـمُ

ونفخت في غير ضرم، مثل لطلب الشيء في غير موضعه، ولفظ المثل: «نفخت» أو «تنفخ»، والضَّرم: النار. النّذر، والنادر: الغريب. الثغر: الأسنان، مبسمه: موضع ابتسامة، يعني الفم.

الشَّنَب: الماء القليل الجاري على الأسنان الجرميّ: سمعت الأصمعي يقول: الشَّنب بَرْد الأسنان والفم، فقلت: أصحابنا يقولون: حدّتها حين تطلُع، فيراد بذلك حَدَاثتها وطراءتها، لأنّها إذا أتت عليها السنون تغيّرت، فقال: ما هو إلا بَرْدها. ابن سيده: قال الأصمعيّ: سألت رؤبة عن الشّنب ما هو؟ فأخذ حبّة رمان فأومأ إلى بصيصها.

ناهيك: كافيك، وتقول: ناهيك بفلان! أي قد انتهى الأمر فيه إلى الغاية ونَهِيَ الرّجل من اللحم وأنهى، إذا شبع منه واكتفى، والنِّهْي: الغدير لأنه ينتهي إليه ماء الوادي. يفترّ: يكشف ويبسِم. رطب، أي طريّ كما أخرج من أصدافه، وفي اللؤلؤ إذ ذاك رطوبة وسطوع بياض، فإذا أصابه الهوى ودام عليه صَلُب، وإذا تداولته الأيدي باللمس وقدم تغيرّ بياضه. الطّلع: أول حَمْل النخلة، وهو الفرخ فإذا انشق فهو بالضحَّك، وبه تشبه الأسنان في بياضه، ثم الإغريض إذا افترق حبّه، وإنمّا شبّه الأسنان بالطَّلْع، وهو الفرخ، لأنه إذا شقّ وجد ما فيه من حمل النخلة في غاية البياض، ويقال له: الوليع، قال الشاعر: **[المتقارب]**

وتـبّـسـمِ عـن لـؤلـؤٍ كـالـولـيـعِ تـشـقّـق عـنـه الـرّقـاة الـجـفـوفـا[2]

الجُفوف جمع جُفّ وهو قشر الفرخ، ويقال له القيقاء والبلبلة، وهو طيّب الريح، والرّقاة: الراقون إلى أعلى النخل.

والحَبَب: تنضّد الأسنانِ، وقيل: طرائق تظهر في الخمر عند مزجها بالماء، فأمّا الفقاقيع التّي تعلو الخمر عند المزْج فهي الحَباب، بزيادة الألف، قال المتلمّس: **[الوافر]**

---

(١) البيتان في ديوان المتنبي ٣/ ٣٦٦، ٣٦٧.

(٢) يروى صدر البيت:

وتـبـسـم عـن نـيّـر كـالـولـيـع

وهو بلا نسبة في لسان العرب (ولع)، (جفف) وتهذيب اللغة ٣/ ٢٠٠، ١٠/ ٥٠٥، وكتاب العين ٢/ ٢٥١، ٦/ ٣٣، وتاج العروس (ولع)، (جفف).

عُقارٌ أُعْتِقَتْ في الدّنّ حتّى ... كأنّ حَبابَها حَدَقُ الجَرادِ[1]

وقال آخر: [الكامل]

حَمْراء قانيةٌ إذا ما شعشعَتْ ... ينزو إلى وجه النَّديم حَبَابُها

* * *

فاسْتَجادَهُ مَنْ حَضَرَ واسْتَحْلاهُ، واسْتَعادَهُ مِنْهُ واسْتَمْلاهُ، وسُئِلَ لِمَنْ هَذَا الْبَيْت، وَهَلْ حَيٌّ قائِلُهُ أَوْ مَيتٌ؟ فقالَ: أيمُ اللَّهِ، لَلْحَقُّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ، وَلَلصِّدْقُ حَقِيقٌ بِأَنْ يُسْتَمَعَ؛ إنَّهُ يا قَوْمُ، لَنَجيُكُمْ مِنذُ الْيَوْم. قَالَ: فَكأنَّ الْجَماعَة ارْتَابَتْ بِعزْوتِهِ، وَأَبَتْ تَصْدِيقَ دِعْوَتِهِ. فتوجَّسَ مَا هَجَسَ في أَفْكَارِهِمْ، وَفَطِن لِمَا بطَنَ من استنكارِهِمْ، وَحَاذَرَ أنْ يَفْرُطَ إلَيْهِ ذمٌّ، أوْ يَلْحَقَهُ وَهْمٌ، فقرأ ﴿**إنَّ بعضَ الظَّنِّ إثْمٌ**﴾. ثمَّ قال: يَا رُوَاةَ الْقَرِيضِ، وَأُسَاةَ الْقَوْلِ الْمَرِيضِ، إنَّ خُلاَصَةَ الْجَوْهَرِ تَظْهرُ بالسَّبْكِ، وَيَدَ الْحَقِّ تَصْدَعُ رِدَاءَ الشَّكِّ، وَقَدْ قِيلَ فِيمَا غَبَرَ مِنَ الزَّمَانِ: عِنْدَ الامْتِحَانِ يُكْرَمُ الْمَرْءُ أوْ يُهانُ، وها أنا قَدْ عَرَّضْت خَبِيَّتي للإخْتِبَارِ، وَعَرضْتُ حَقِيبَتي على الاعْتِبَار.

* * *

قوله: «استعاده»، أي قال: أعده عليَّ. استملاه: طلب أن يكتبه. ايم الله: يمين يحلَف به. نجيُكم: محدِّثُكم ـ يعني نفسه. ارتابت: شكَّت والرَّيْب: الشكّ. بعِزوته: بنسبته، أي بنسبته إلى نفسه. دِعوته: ادعاؤه أنه من قوله: والدِّعوة بكسر الدّال في النّسب، وبفتحها في الطعام. فتوجَّس: أي أحسَّ وسمع هَجَس: وقع وخطر. فطَن: شعر. بَطَن: خَفِيَ، يريد أنه فهم منهم أنهم لم يصدّقوه في أنَّ الشعر له، وأنكروا أن يقول مثله. حاذر: خاف. يفرُط: يسبق. القريض: الشعر. أساة: أطبّاء، وأحدهم آسٍ. القول المريض: الضعيف من قِبَل راويه. خُلاصة: ما خلص منه. وجواهر الأرض، مثل الحديد والنحاس وغيرهما، فإذ عرض الجوهر على النّار، فما كان منه خالصاً زاد صفاءً وجوْدة، وما لم يكن خالصاً فضحتْه النار وأظهرت عيبه. السَّبْك: الاختبار بالنار. تصدع: تشق. غبَر: مضى هنا، ويستعمل كثيراً بمعنى «بَقِيَ» وهو من الأضداد؛ يقال: غبر الشيء غبوراً إذا بقي، قال الله تعالى: ﴿**إلاّ امْرأتَهُ كانت مِنَ الغَابِرِينَ**﴾ [الأعراف: ٨٣]، أي الباقين. الامتحان: الاختبار والبحث، وهذا المثل من أمثال الفرس، ولهذا أبعد مدّته حيث قال: غَبَر من الزمان. خبيّتي: مكتومي، وما خبأته من علمي، وأصل «خبيّتي» الهمز، فقلبت همزته ياء وأدغمت فيها الياء، كما قلبت في «خاسية». وتقول:

---

(١) البيت في شعراء النصرانية ص ٣٤٢، ولعمرو بن معدي كرب في ديوانه ص ١٠٧:

مضاعفة تخيّرها سُليمٌ ... كأنّ قتيرها حَدَقُ الجرادِ

عرَضت الشيء على البيع وعرّضته للبيع، إن أتيتَ بعلى خفّفت الراءَ، وإن أتيتَ باللام شدّدتها. والحقيبة: وعاء يجعله الراكب خلفه، والاعتبار والاختبار واحد.

* * *

فابْتَدَرَ أحَدُ مَنْ حَضَرَ، وقال: أعْرِفُ بَيْتاً لَمْ يُنْسَجْ عَلَى مِنْوَالِهِ، وَلاَ سَمَحَتْ قَرِيحَةٌ بِمِثَالِهِ، فإنْ آثَرْتَ اخْتِلاَبَ الْقُلُوبِ، فانْظِمْ على هَذَا الأسْلُوب: [البسيط]

فَأمْطَرَتْ لُؤْلُؤاً مِنْ نَرْجِسٍ وَسَقَتْ　　　وَرْداً وَعَضَّتْ عَلَى الْعُنَّابِ بِالْبَرَدِ

* * *

قوله: «ابتدر»، أي سبق بالكلام وبادر به. والمِنْوال: خشبة الحائك؛ يريد أنّ البيت رفيع الصنعة في الشّعر لم يُصنع بيت مثله، لأنّ الثوب أنواع، وصنعة الشعر تشبه نَسْج الثوب. سمحتْ: جادت. قريحة: ذهن. آثرت: فضّلت. اختلاب القلوب: إمالتها إليك بتصديقك وانخداعك بما تبديه، وهو من الخِلْب وهو من غشاء القلب. وعن أبي عبيدة وغيره قال ثعلب: الخِلْب: الّذي بين الزيادة والكبد، يقال: خَلَبني حبُّ فلان، أي وصل حبُّه إلى خِلْبِي، وفلان خِلْب نساء، أي تخليه النساء، وخلاَّب: يخلب الناس، أي يذهب بقلوبهم، وخِلْب جمعه خلبة، وكلّه من الخِلْب، قال أعرابيّ: [البسيط]

مَنْ كانَ لم يدْرِ ما حُبٌّ جمعت له　　　أو كان في غفلة أو كان لم يَجِدِ

فالحُبُّ أوّله رَوْعٌ وآخره　　　مثل الحرارة بين الخِلْبِ والكَبِدِ

[انظم: قل شعراً منظوماً. والأسلوب: الطريقة].

لؤلؤاً: درًّا. النرجس: نوّار أصفر في نوْره انكسار وفتور لا يكاد يُرَى، له ورقة قائمة، تشبّه به العينان إذا كان في نظرهما فتور.

[ما قيل في النرجس]

وقد تمادى إنكار أدباء وقتنا تشبيه العين بهذا النوّار الأصفر المعروف عندنا بالنرجس، فأكثرهم ينكر أن يكون يقع به تشبيه لأجل صفرته، وإن ذكرتهُ لأحد قال: وأيّ صفرة في العين إلاّ أن يكون بصاحبها علّة اليرقان! ويستهجن موضع التشبيه جدًّا.

وقد سألت عنه بعض أشياخي في صغري، وأنا أقرأ عليه كتاب «الجمل» وكان أديباً شاعراً، فأنكر وقوع التشبيه بهذا النَّوْر الأصفر، وقال لي: النَّرْجِس عندهم بالمشرق نَوْر يشبه نُوَّار القول، وأكثر مَنْ لقيتُه يستبعد التشبيه بهذا الأصفر، لأجل لونه، وذلك لقلّة تحصيلهم معرفة كلام العرب وتشبيهاتها، والعرب توقع تشبيهاتها على الصورة دون المعنى، وعلى المعنى دون الصورة، وعليهما جميعاً؛ وهو أكمل وجوه التشبيه. وانظر أقسام التشبيه في الثالثة والعشرين تقع على علم هذا وغيره بإذن الله تعالى.

وتشبيه العيون بالسيوف والسِّهام، إنمَّا المراد به المَضَاء والقطع، ولا يُلتفت في ذلك إلى اللون، وكذلك تشبيه العيون بالنّرْجَس الأصفر إذا قصد ما فيه من الفتور واقع متمكِّن في التشبيه، ألا ترى ابن المعتزّ التفت إلى الفتور وحده حين قال: **[الكامل]**

وَسْنانُ قد خَدَعَ النُّعَاسُ جُفونَهُ ... فحكَى بمقلِته ذَبولَ النَّرْجسِ(١)

والنَّرجس الذي يشبَّه به أهل المشرق العيون، هو نباتٌ له قضبان خضر في رؤوسها أقماع، يخرج منها نَوْر ينبسط منه على الأقماع ورق أبيض، في وسط البياض دائرة قائمة من ورق صغير. هذه الصفة التي تقع في أشعارهم إذا ذكروا النّرْجس، وبذلك وصفه كسرى أنوشروان، فقال: النّرْجس ياقوت أصفر، بين دُرّ أبيض على زمرّد أخضر، أخذه بعضهم فقال فيه: **[الطويل]**

وياقوتة صفراء في رأس دُرَّةٍ ... مركبَّة في قائم من زَبَرْجَدِ

كأنّ بهيّ الدرّ عِقْد نظامها ... فريدٌ أنيقٌ قد أطافَ بعسْجَدِ

وأنشد أبو عَوْن الكاتب في كتاب التشبيه له، فقال: من جيّد ما قيل في النرجس ما أنشده المبرّد رحمه الله تعالى: **[السريع]**

نَرجِسَةٌ لاحظَنِي طرفُهَا ... تشبِهُ ديناراً على دِرْهَمِ

وقال عبيد الله بن عبد الله فيه: **[المنسرح]**

ترنو بأبصارها إليك كَمَا ... تَرْنُو إذا خافت اليعَافِيرُ

مثل اليواقيت قد نُظمنَ عَلَى ... زمرّد فوقهنّ كافورُ

كأنَّها والعيون ترمُقها ... دراهمٌ وَسْطَها دَنَانِيرُ

وقال أبو نواس: **[الطويل]**

لَدَى نرجِسٍ غضّ القِطافِ كأنه ... إذا ما منحناه العيونَ عيونُ

مخالفة في شكلهنّ وصفرةٌ ... مكانَ سوادٍ والبياض جفُونُ

أَجاد التشبيه، وكشف بذكر المخالفة قناع الشبهة، وبين مواقع التشبيه غاية البيان.

وقال أبو عبد الملك بن فرج في كتاب الحاسّ والمحسوس، له: وأحسن بيتٍ أنشدنيه أبو جعفر البغداديّ رحمه الله: **[الطويل]**

مَدَاهِنُ درّ بين أوراق فِضّةٍ ... على قِيس شبر أخضرٍ كالزَّبرْجَدِ

وقال أبو الفرج الببغاء: **[السريع]**

ونرجسٍ لم يَغْدُ مُبْيَضُهُ الْـ كَأسَ ولا أصفره الرَّاحا
تخال أحقاق لُجَيْنٍ حَوَتْ من أصفر العسْجَدِ أقْدَاحا
كأنما يُهدي المحيّي به لطفاً إلى الأرواح أرْوَاحا
يغني عن الوَرْد إذا مارنا ويخلف الوَرْد إذا فاحا

وقال ابن المعتزّ: [الطويل]

كأنّ عيونَ النَّرجس الغَضّ بيننا مَداهنُ درٍّ بينهنّ عقيقُ
إذا بَلهنّ القطر خلت دموعه بكاءَ عيون كحلهنّ خَلُوقُ

وقال النّاشيّ: [مجزوء المتقارب]

أخصّ الصفات التي تناولها مَنْ كَتَبْ
عيونٌ بلا أوْجُهٍ لها حدَقٌ من ذَهَبْ

وقال ابن الروميّ: [الكامل]

يا نرجسَ الدّنيا ترى أبداً للافتراج ودائم النّخب
ذهبُ العيون إذا مَثَلْنَ لنا درّ الجفون زَبَرْجَد القَصَب

وهذه الصفة التي أثبتها أهل المشرق للنَّرجس، هي التي يصف بها أهل المغرب البهار، قال ابنُ أبي عامر في جارية اسمها بهار: [الكامل]

حَدَقُ الحسان تقرّ لي وتَغارُ وتظلّ في صفة البهار تَحَارُ
طلعتْ على قضبي عيونُ كمائمي مثل العيون تحفّها الأشفارُ
وأخصّ شيء بي إذا شبَّهتني درّ تمنْطَقَ سلكَهُ دينارُ
أهدَى لنا قُضبَ الزَّبَرْجَد ساقُهُ وحَباهُ أنفسَ عطرِه العَطّارُ
أنا نرجسٌ حقًّا بهرت عقولهم ببديع تركيبي فقيل بَهَارُ

بَيَّن أن البهار عندنا، هو الذي تسميه أهل المشرق نَرْجساً.

وقال أبو جعفر بن برد: [الطويل]

تأمّل فقد شقَّ البهار مغلّساً كمائمه عن نوره الخضِلِ النَّدِي
مداهنُ تبرٍ في أناملِ فِضّةٍ على أذرع مخروطةٍ من زَبَرْجَد

وقال القسطليّ: [المتقارب]

بهارٌ يروقُ بمسكٍ ذَكيٍّ وصنعٍ بديع وخَلْقٍ عَجَبْ

غصون الزَّبَرْجَدِ قد أورقتْ ... بها فضة نوَّرت بالذَّهَبْ

وقال القاضي أبو الحسن بن لبّال : [الرمل]

وبَهارٍ يحكي كؤوسَ لُجيْنِ ... حملتْها أناملٌ من زَبَرْجَد
سامرتها الكواكب الزُّهر حتى ... سمّرتْ وسطَها كواكبُ عَسْجَدْ

وأنشدني بعض أشياخنا : [الكامل]

انظُرْ إلى حُسْنِ البَهَارِ وغُنْجِهِ ... يرنُو إليكَ بمُقْلتيْ وَسْنَانِ
فكأنما هي راحةٌ من فِضَّةٍ ... قد ضُمِّنَتْ كأساً من العِقْيَانِ
وكأنَّ نشْرَ نسيمه غبّ النَّدَى ... يأتيكَ بالأنفاسِ مِنْ بَغْدَانِ

والّذي تسميه أهل المغرب نرجساً يسمّيه أهل المشرق بهاراً، ولذلك قال الحريريّ في العاشرة: «وورْدتي بالبهار»، دعا فيها على الغلام بالحمّى، وأن ينعكس حمرة خدّه صفرة، وقال حبيب في ذلك : [الخفيف]

إنَّ وجْهَ الحمَّى لوجهٌ صفيقٌ ... حين تسطو به نَهاراً جَهَارا
لم تَشِنْ وَرْدَ وَجْنَتيْه ولكنْ ... صيَّرتَ وَرْدَ وجنتيه بَهَارَا

وبلون النرجس يشبّه أهل الأندلس المريض.

وقال أبو بكر الأبيض: [البسيط]

يا شاكياً صدّني عن مسّه ألمي ... طال اشتياقِي به ليلاً فلم أنَمِ
تضاءل الدَّهرُ إشفاقاً على قمرٍ ... رقيبه في سماء المجدِ والكَرمِ
لم أرضَ قلبي مكاناً إذ حللت به ... حتى خلطتك في سَوْادَئِه بِدَمِي
أنْتَ البَهَار ولا أدري متى خَلَعَتْ ... عليك أيْدِي اللَّيالي نَرْجِسَ السّقَمِ

ولابن الزقّاق : [الرمل]

وغزالٍ ذي اعتدالٍ شَفَّهُ ... بعد ما شقّ هَوَاه الأنفُسَا
جارت الحمَّى على وجنتِه ... فاستحال الوردُ منه نَرْجِسَا

فثبت بما قدمناه، أنّ نرجسهم بَهارُنا، وأن بَهارَهم نرجسنا. وآكدُ ما يدلّ على صحته اشتراكُ البيت الذي أنشده أبو الفرج على النَّرجس مع بيت ابن بُرْد في لفظٍ واحدٍ، أخذ ابن بردٍ منه صفة النرجس، فقلبه لاسم البَهار حين نظمه.

واعْلَم أن تشبيه العين بنرجسهم أبيْن لتعلّقهم بالصورة، وأن تشبيهها بنرجسنا أدون لتعلّقه بالمعنى، وهو مع ذلك متمكّن في باب التشبيه، وأنّ اسم النرجس لا بدّ فيه من صفرة.

وقد قال شاعر من المشرق، وهو أحمد بن يونس الكاتب في مناقَضَة ابن الروميّ في تفضيله النرجس على الورد:

إن كُنتَ تنكِرُ ما ذَكَرْنَا بعدمَا ... قامتْ عليه دلائلٌ وشواهدُ
فانظر إلى المصفرّ لوناً منهمَا ... وافطِنْ فما يصفرُّ إلا الحاسِدُ

فلولا ما ذكرنا من أشعارهم، لحكمنا بهذا البيت، على أن نرجسهم هو نرجسنا، ومذهب ابن الروميّ تفضيله على الورد، وهو القائل: [المتقارب]

وأحسن ما في الوجوهِ العيو ... نُ وأشبه شيء بها النَّرْجِسُ

والنُّفوس تتشوّق إلى رؤية نَرْجسهم، لأنّا لم نعلم نرجسنا غير هذا الأصفر، حتى نعلم بما ذكرناه أنّه هو النوّار المعروف، وهم أيضاً يتشوّقون لمنظر نرجسنا.

ويدلّ على ذلك حكاية القاضي الفقيه أبي الحسن بن لبّال، قال: خرجت عشيّةً لخارج إشبيليّة أيام حداثتي وقراءتي بها، فجلست في وسط واديها، وبيدي كتاب أنظر فيه، وإذا رجلٌ يُحملق حواليّ، فإذا نظرتُ في الكتاب يأخذ وينشد للأشعار التي بين أيدينا نظائر من بديع الشعر، فذاكرته فوجدته بحرَ أدبٍ، فسألته عن محفوظه، فقال: أحفظ خمسة عشر ألف بيت من الشعر، فسألته: هل تنظم شيئاً؟ فأنشدَني في وصف فرس، وزعم أنه القائل: [الكامل]

منع الحوافر أن تَطين به الثَّرَى ... فكأنه في جريه متعلِّقُ
وكأنّ أربعة توافق طرفَه ... فتكاد تسبقه إلى ما يرمقُ

فاستعدت بيته، وراجعته في قوله: «تطين»، فقلت له: إنما هو «تطأن»، فلم يعرف اللفظ، وإنما تكلّم بلا همر على لحن عامته، فجرّبته في غيره، فوجدت شعره من جهة الطبع وكثرة الحفظ، لا من جهة العلم، فسألته عن بلاده، فقال: أنا من العراق، فقلت له: فما السبّب الذي جاء بك إلى الأندلس؟ فقال لي: لأرى النَّرجس الأصفر المذكور في أشعاركم عياناً. ودعاني إلى الإطالة في ذكر النّرجس رغبةً أن أرفع عن غيري حَيْرة الشبهة التي أقمت فيها زماناً طويلاً، لا أجد من يرفعها عني.

[الوأواء الدّمشقي]

والبيت الذي اقتضى النَّظم على أسلوبه هو لأبي الفرج الغسّاني الدّمشقيْ، المعروف بالوأواء، ذكره أبو منصور الثعالبي في يتيمته، فقال: أبو الفرج من حسان الدهر، وصاغة الكلام.

ومن عجائب أمره أنه كان منادياً بدار البِطّيخ بدمشق ينادي على الفواكه، وما زال يشعر حتى جاد شعره، ووقع له ما يروق، ويشوق ويفوق، حتى تعلّق بالعيّوق.

وقال الفتح بن خاقان : إني انصرفت البارحة من مجلس أمير المؤمنين ، فلما دخلت مجلسي لقيت خلافة جاريتي ، فلم أتمالك أن ، قبَّلْتُها ، فوجدت ما بين شفتيها هواء ، لو رقد المحموم فيه لأفاق . وهذا مستطرَف من كلام الفتح ، فقال الوأواء ملمًّا به : [الطويل]

سَقَى الله ليلاً طاب إذ زار طيفُه ... فأفنيتُه حتى الصَّبَاح عِنَاقَا[1]

بطيب نسيمٍ منه يُستجلب الْكَرَى ... فلو رقد المحموم فيه أَفَاقَا

وله أيضاً : [البسيط]

بالله ربّكما عُوجاً على سَكَنِي ... وعاتباه ، لعلّ العَتْبَ يَعْطِفُ[2]

وعرّضَا بِي وقولاً في حديثكما ... ما بالُ عبدِكَ بالهِجْرانِ تُتْلِفُهُ!

فإن تبسَّم قولاً في ملاطفةٍ ... ما ضرّ لو بوصالٍ منكَ تُسْعِفُهُ!

وإن بدا لكما من سَيّدِي غضبٌ ... فغالطاه ، وقولا : ليس نعرفُهُ

وله في النحول : [الوافر]

وما أبقَى الهوى والشوقُ منِّي ... سِوَى رُوحٍ تَرَدّدُ في خَيَالِ[3]

خفيتُ عن العواذل أن تراني ... كأنّ الرُّوحَ منِّي في مُحالِ

وله في الزّرقة : [البسيط]

يا مَنْ هُو الماءُ في تكوين خِلْقَتِهِ ... وَمَنْ هُوَ الخرُّ في أفعال مُقْلَتِهِ[4]

ومَنَ بزُرْقَةِ سيف اللحظِ طَلّ دَمِي ... والسيف ، ما فَخْرُهُ إلا بزُرْقَتِهِ

علّمتَ إنسان عيني أن يعوم فَقَدْ ... جادت سِبَاحته في بحر دمعتِهِ

وله أيضاً : [المتقارب]

تملّكْتَ يا مهجَتِي مهجتي ... وأسهرت يا ناظري ناظري[5]

وما كان ذا أملي يا ملولُ ... ولا هجَسَ الهجرُ في خاطِرِي

فجدْ بالوصالِ فدتْكَ النفوسُ ... فلستُ على الهجرِ بالقادر

وفيك تعلّمتُ نظْمَ القَرِيضِ ... فلقَّبَنِي الناسُ بالشاعِرِ

وله من قصيدة :

يُقِمْنَ لنا بَرْقَ الثُّغُور أدِلّةً ... إذا ما ضَلِلْنَا في ظلامِ الذَّوائِبِ

---

(١) ديوان الوأواء الدمشقي ص ١٦٤.

(٢) ديوانه ص ١٤٦ ، ١٤٧.

(٣) ديوان الوأواء ص ١٨٩.

(٤) ديوانه ص ٦٥.

(٥) ديوانه ص ٩٩.

قال: ومن بديع تشبيهاته قوله:

فأمْطَرَت لؤلؤاً من نَرْجِسٍ... [(١)] البيت.

ثم قال: هذا البيت ضمّنه خمسة تشبيهات بغير أداة التشبيه، وذكر المتنبّي منها أربعة فأجاد، وهي ما ضمنها قوله رحمه الله: [الوافر]

بَدَتْ قَمراً، ومالَتْ خُوطَ بانٍ، وفاحتْ عنبراً، ورَنت غَزَالا[(٢)]

وللفقيه أبي محمد بن حزم خمسة تشبيهات في بيت واحد، ولا يقدر أحد على أكثر منه، إذ لا يحتمل العَروض ولا أبنية الأسماء أكثر من ذلك، قال: [الطويل]

خلوتُ بها والكأس ثالثةٌ لنا وجُنْحُ ظَلامِ اللَّيلِ قد مدّ وأتْلَجْ

فتاةٌ عدِمتُ العيشَ إلاّ بقربها وهل في ابتغاءِ العيش وَيْحَكَ من حَرَجْ!

كأنّي وهي والكأس والخمر والدُّجى ثَرَى وَحَياً والدّرّ والتِّبْر والسَّبَجْ

وقبل بيت الوأواء: [البسيط]

إنسيّةٌ لو بدتْ للشمس ما طَلعتْ للنّاظرين ولم تغربْ على أحدِ

قالت وقد فتكتْ فينا لواحِظُها: ما إن أرى لقتيل الحبِّ من قَوَدِ

فأمطرتْ لؤلؤاً من نرجسٍ وسقتْ وَرْداً وعضّت على العُنّابِ بالبَرَدِ

ثم استمرتْ وقالت وهي ضاحكةٌ: قومُوا انظُروا كيف فِعْلُ الظَّبْيِ بالأسَدِ!

وأول القصيدة: [البسيط]

لمّا وضعتُ على صدرِي يداً لِيدِ وصحْتُ في اللّيلة الظلماء واكبدِي!

وقال أيضاً: [الوافر]

أتانِي زائراً مَنْ كانَ يُبْدِي لِيَ الهجرَ الطَّويل ولا يزورُ[(٣)]

فقالَ النّاسُ لمّا أبصروه لِيَهْنِكَ زارَكَ القمرُ المنيرُ

فقُلْتُ لهم ودمعُ العين يجري على خَدِّي له دُرٌّ نثيرُ

ولو نَصَبُوا رحاً بإزاء عيني لكانت من مدامعها تدورُ

* * *

فَلَمْ يَكُنْ إلاّ كلَمْحِ الْبَصَرِ أوْ هُوَ أقْرَبُ، حَتّى أنْشَدَ فَأغْرَبَ: [البسيط]

سَألْتُهَا حِينَ زَارَتْ نَضْوَ بُرْقُعِهَا الْـ ـقَانِي وإيداعَ سَمْعِي أطْيَبَ الْخَبَرِ

(١) ديوانه ص ٨٤. (٢) البيت في ديوان المتنبي ٣/ ٢٣٤. (٣) ديوان الوأواء الدمشقي ص ١١٠.

فَزَحْزَحَتْ شَفَقاً غَشّى سَنَا قَمر وَساقَطَتْ لُؤلؤاً مِنْ خاتَمٍ عَطِرِ

* * *

قوله: «لمح البصر»، يعني نظر العين إلى الشيء بسرعة ثم تغيب عنه بسرعة، وأصل البصر الإدراك بالعين. أغرب: أتى بغريب. نَضو: كشف. القاني: الأحمر. إيداع سمعي: إعطاء أذني، كأنه جعله وديعة عنده. زحزحت: أزالت. الشفق: حمرة الشمس بعد الغروب. غشّى: غطّى. سنا: ضوء. عطِر: فوّاح طيّب التنفس. وبيت الحريريّ في صنعة البديع فائق، وإن لم يأت بعدد تشبيهات بيت أبي الفرج، وبيانه أن أبا الفرج يصف امرأة باكية، فيقول: إنها نثرت دموعها عَلَى مَنْ قتلت من عشاقها، فسقطت على خدّها فبلّلته، وعضّت على أصابعها المصبوغة بالحِنّاء بأسنانها، فجعل البيت كُلَّه استعارة، فقال: «فأمطرت لؤلؤاً»، وهو يريد: بكَتْ دمعاً، وذكر نرجساً ووردا، وهو يريد عيناً وخدًّا، وذكر عُنَّاباً وبَرَداً، وهو يريد أنامل وأسناناً، فضمَّن تحت ألفاظه هذه المعاني، وزاد فائدة التشبيه؛ وهذا يفعله أهلُ القدرة على الشعر، فقابل الحريريّ هذا بقوله: «فزحزحت شفقاً»، وهو يرى نقاباً أحمر، وذكر «سنا قمر» وهو يريد ضوء وجهها، وذكر لؤلؤاً من خاتم، وهو يريد كلاماً من فم. والبيت الثاني في مقابلة بيت أبي الفرج، والأول توطئة له، وهو يصف امرأة زارتْه متنقّبة فسألها، أن تكشف عن وجهها وتحدّثه، فأزالت نقابها، وأسمعتْه كلاماً حسناً من فم عطر.

[ما قيل في اللؤلؤ]

واللؤلؤ تشبّه به الأسنان في مثل قوله: **[السريع]**

* كأنما يبسم عن لؤلؤ[1] *

وقوله: **[البسيط]**

* يفتر عن لؤلؤ رطب وعن بَردِ *

ويشبَّه به الكلام في مثل قول البحتريّ: **[الكامل]**

* ومن لُؤلؤٍ عند الحديثِ تساقِطُه[2] *

---

(١) عجزه:

منضّدٍ أو بَرَدٍ أو أقاح

والبيت بلا نسبة في تاج العروس (ظلم).

(٢) صدره:

فمن لؤلؤ تجلوه عند ابتسامها

والبيت في ديوان البحتري ص ١٢٣٠، وتاج العروس (سقط)، وكتاب الصناعتين ص ٢٠٨.

وقول الحريريّ: [البسيط]

* وساقطت لؤلؤاً من خاتَم عطِرٍ *

ويشبّه به الدمع، كقول الوأواء: «فأمطرت لؤلؤاً»، وهو كثير.

ومن أحسنه قول الشاعر: [الطويل]

ولمّا وقفنا للوداعِ ودَمْعُها ... ودَمْعي يُثيرانِ الصَّبابَةَ والوجْدَا
بكت لؤلؤاً رطْباً ففاضت مدَامِعي ... عِقِيقاً، وصار الكلّ في نحرها عِقْدَا

وقال ابن عبد ربه: [الكامل]

وكأنما غاص الأسى بجفونها ... حتى أتاك بلؤلؤ منثورِ

فأخذه الرمادي فحسّنه فقال: [الطويل]

ولم أرَ أحْلَى مِنْ تبسّم أعْيُنٍ ... غداة اللّوى عن لؤلؤ كان كامِنَا

قال: فوقعت استعارة التبسّم للعين موقعاً لطيفاً، وإنما هو للثغر بسبب توسط اللؤلؤ. والحذّاق يتحيّلون في أخذ المعاني بترك القافية والوزن، كقول ابن شُهيد: [الطويل]

وَلمّا فشَا من دمعنا بعض سِرّنا ... إلى كاشحينا والقلوب كواتمُ
أَمَرْنَا بإمساك الدُّموع جُفُونَنَا ... ليشجي بما يطوِي عذولٌ ولائمُ
أَبَى دمعُنا يجري مخافَة شامتٍ ... فنظَّمَهُ بين المحاجر ناظِمُ
وراقَ الهوَى منّا عيونٌ كريمة ... تلمَّحن حتى ما تروق المبَاسِمُ

[ما قيل في الامتحان]

وقال ابن شُهيد في الامتحان فأحسن: [الطويل]

ونُبِّئْتُ أقواماً تجيشُ صدورهم ... عَلَيَّ وأنّيَ منهمْ فارغُ الصَّدْرِ
أصاخُوا إلى قَوْلِي فأسمعتُ صُمَّهم ... وغاصوا على سِرّي فأعياهُمُ أمْرِي
فقال فريق: ليس ذا الشعرُ شِعْرَهُ ... وقال فريق لَيْمنُ الله ما نَدْرِي
فَمَنْ شاءَ فليَخبرْ فإنّي لحاضرٌ ... ولا شيءَ أجْلَى للشّكوكِ من الخُبْرِ

وينظر في هذا الامتحان ونسبة شعره فيه إلى الانتحال، إلى قصة أبي بكر بن بَقيّ حين استهدى بعضَ إخوانه أقلاماً، فبعث إليه بثلاث من القصب، وكتب معها: [البسيط]

خُذْها إليك أبا بكرِ العلاَ قَصَباً ... كأنّما صاغها الصَّوّاغ من وَرِقهْ
يُزْهَى بها الطّرس حسناً ما نثرت به ... مسكَ المَدادِ على الكافور من وَرَقِه

فأجابه أبو بكر بن بقيّ فقال: [البسيط]

أرسلت نحوي ثلاثاً من قَنَا سلبِ ... ميّادة تطعن القِرطاسَ في وَرَقِهْ
فالحظُّ ينكرها والخطّ يعرفها ... والرقّ يخدمها بالرق في عُنُقِهْ

فحسده عليها بعض مَنْ سمعها، ونسبه إلى الانتحال، فقال أبو بكر يخاطب صاحبه الأوّل: [البسيط]

وجاهلٍ نسبَ الدَّعوَى إلى كَلِمي ... لمّا رماه بمثل النَّبْلِ في حَدَقِهْ
فقلت مِنْ حَنَقِي لمّا تعرّضَ لِي: ... مَنْ ذَا الّذي أخْرَجَ اليَرْبُوع من نَفَقِهْ!
ما ذمّ شعري وَايْمُ الله لي قسمٌ ... إلا امرؤ ليست الأشعارُ من طُرُقِهْ
الشّعر يشهد أنّي في كواكبه ... بل الصّباح الذي ينشقّ في أُفُقِهْ

وخرج السّلاميّ[1] إلى الموصل وهو صبيّ حين راهقَ البلوغ، فوجد بها أبا عثمان الخالديّ وأبا الفرج الببّغاء وأبا الحسن التّلّعفريّ وشيوخ الشعراء، فلما رأوه عجبوا منه، واتّهموه في شعره، فقال الخالديّ: أنا أكفيكم أمرَه. فاتخذ دعوة، وجمع الشعراء والسّلاميّ معهم، فلما توسَّطوا الشراب، أخذ في التفتيش عن قَدْرِ بضاعته، ثمّ لم يلبثوا أن جاء مطرٌ شديد وثلج وبَرَدٌ عَمَّ الأرض كثرة، فألقى أبو عثمان الخالديّ نارنجاً بين أيديهمْ على ذلك البَرَد، وقال: يا أصحابنا، هل لكم في أن نصف ذلك؟ فقال السّلاميّ ارتجالاً: [مجزوء الكامل]

لله درّ الخالديّ ... الأوْحد النَّدْب الخطيرِ
أهدى لماءِ المُزْنِ عنـ ... ـد جموده نارَ السَّعِيرِ
حتى إذا صَدَر العتا ... ب إليه من حَنَقِ الصُّدُورِ
بعثتْ إليه بعذره ... من خاطري أوفى السُّرورِ
لا تعذُلُوه فإنّما ... أهدى الخدود إلى الثُّغُورِ

فأمسكوا عنه عند ذلك، واعترفوا له بالفضل، إلاّ التّلّعفريّ، فإنه أقام على قوله فيه، حتى قال السّلاميّ فيه: [الكامل]

يا شاعراً بشعوره لم يَشْعُرِ ... ما كنتَ أوّلَ طالبٍ لم يَظْفَرِ
لو كنت تعرفُ والداً تسمُو به ... لم تنتسبْ صفةً إلى تلّعفرِ
تاه ابنُ فائقةِ الفُسوق على الوَرَى ... بقذال صَفْعَانٍ ونكهةِ أبخرِ
وبلادةٍ في الشّعر تعلم أنه ... تيسٌ ولو نُصِرتْ بطبع البُحتري

(١) هو محمد بن عبد الله بن محمد السّلامي.

وقال فيه: [الوافر]

سما التلّعفريّ إلى وصالي ... ونفس الكلبِ تكبُر عن وصالِهْ
ينافي خُلقه خُلقِي وتأبى ... فعالي أنْ تضاف إلى نعالِهْ
فصنعتيَ اللطيفة في لساني ... وصنعتهُ الخسيسة في قَذالِهْ
فإن أشْعُرْ فما هو مِنْ رجالي ... وإنْ يُصْفَعْ فما أنا من رِجالِهْ

[صاعد بن الحسن الربعيّ]

وكان المنصور بن أبي عامر قد أثبت عنده الحسَدة، أنَّ صاعداً اللغوي متَّهم في كل ما يورده من حديث أو شعر، فأدخلتْ عليه يوماً باكورةُ وَرْد لم تفتح أكمامها، فقال فيها صاعداً ارتجالاً: [المتقارب]

أتتك أبا عامرٍ وردةٌ ... يذكِّركَ المسكَ أنفاسَهَا
كعَذراء أبصرها مبصرٌ ... فغطَّتْ بأكمامها راسَها

فسرّ بذلك المنصور. وكان ابن العريف حاضراً فحسده وقال: إن هذين البيتين لغيره، [وقد أنشدنيهما بعض البغداديين بمصر لنفسه، وهما عندي على ظهر كتاب بخطه، فقال له المنصور: أرنيه. فخرج ابن العريف، وركب وجعل يبحث، حتى أتى مجلس ابن برد ـ وكان أحسن أهل وقته بديهة ـ فوصف له ما جرى فقال: [المتقارب]

عشوتُ إلى قصر عبَّاسةٍ ... وقد صرّع النومُ حرَّاسَها

أبياتاً ضمّن فيها البيتين، فكتبها ابن العريف بخطّ بصريّ، وصار بها إلى المنصور. فاشتدّ غيظه، وقال: غداً أمتحنه، فإن فضحه الامتحان لم يبق في موضع لي فيه سلطان ثم أخذ طبقاً فيه ضروب من الأنوار، وعليه جوارٍ باسمين على بركة ماء حصباؤها الدّر والجوهر. ودعاه في مجلس حافل، وقال له: هذا طبق فيه شيء ما توهمت أنه قدِّم بين يدي مَلِك قبلي، فصفه فقال على البديهة: **[الطويل]**

أبا عامرٍ هل غير جدواك واكفُ ... وأعجب ما يلقاه عندك واصفُ!
وشائعُ نَوْرٍ صاغها هامرُ الحيا ... حُلِيًّا فمنها عَبْقَرٌ ورفارفُ
ولمّا تناهَى الحسن فيها تقابلَتْ ... عليها بأنواع الملاهي الوصائفُ
كمثل الظباء المستكنَّة كُنَّساً ... تظلِّلها بالياسمين السَّقائِفُ
فلم ترعيني في البلاد حديقةً ... تنقِّلها في الراحتين المناصِفُ

والحكاية لطولها في القسم الرابع من الذخيرة.

وخرج معه إلى أرض الزاهرة، فمد يده إلى شيء من التّرنجان يعبث به، ورمى به إلى صاعد معرّضاً بأن يصفه، فقال: **[الطويل]**

لم أدرِ قبل ترنجان عبِثت بهِ أنّ الزُّمّرد قضبان وأوراقُ
من طيبه سَرَقَ الأُترجّ نكهتَهُ يا قوم حَتّى منَ الأشجار سُرّاقُ!
كأنما الحاجب المنصور عَلّمه فعلَ الجميل فطابت منه أخلاقُ
مَنْ ليس يقعده عن سُؤْدد كرمٌ ولا يقول له في سوءة سَاقُ

وله أيضاً: [الوافر]

بعثت إليك من خِيري دارِي محزمة كألوان العقِيقِ
تُوكّلُ بالعكُوف على التَّصابِي وتصطاد الخليع منَ الطريقِ

* * *

فحار الحاضرون لِبَدَاهَتِهِ، واعترفوا بِنَزَاهَتِهِ. فَلمَّا آنَسَ استئناسَهُمْ بكلامِه، وانصبَابُهُمْ إلى شِعْبِ إكْرَامِهِ، أطْرَقَ كَطَرْفَةِ العَيْنِ، ثم قال: ودُونَكُمْ بيتَيْنِ آخَرَيْنِ، وأنشد: [البسيط]

وأقبَلَتْ يَوْمَ جَدَّ البَيْنُ في حُلَلٍ سُودٍ تَعَضُّ بنانَ النَّادِمِ الحَصِرِ
فَلاَحَ لَيْلٌ عَلَى صُبْحٍ أقَلّهُمَا غُصْنٌ وضرَّستِ البِلَّوْرَ بالدُّرَرِ

فحينئذٍ اسْتَسْنَى القَوْمُ قِيمَتَهُ، واستغْزَرُوا دِيمَتَهُ، وأجْمَلُوا عِشْرَته، وجَمَّلُوا قِشْرَته

* * *

قوله: «لبداهته»، أي لارتجاله وإنشاده من غير فكرة، ويقال: بَدهه بَدْهاً وبديهة وبَدَاهة، إذا فجأهُ. وبده في كلامه: إذا لم يتفكّر فيه، وفلان حسن البَديهة والبَدَاهة، أي الإرتجال.

[سرعة البديهة وما قيل فيها]

والقول من غير تفكّر وهو عندهم مما يمدح به، وإن كانت الإصابة غالباً في الرويّة وإطالة الفكرة، كما قال عبد الله بن وهب الراسبيّ للخوارج حين عقدوا له: دَعُوا الرأي حتى يختمِر، فلا خير في الرأي الفطير، والقول القصير.

وقال المنصور لكاتبه: لا تبرم أمراً حتى تفكّر، فإن فكرة العاقل مرآته تريه حسَنه من قبيحه.

وقال أيضاً: الحكمةُ نور الفكرة، والصواب فرع الرويّة، والتدبير فرع الهمة.

قال ابن الروميّ: [البسيط]

نارُ الرويّةِ نارٌ جدّ منضِجةٍ وللبديهة نارٌ ذاتُ تلويحِ

وقد يفضّلها قوم لعاجلها لكنّه عاجل يمضي مع الريحِ

وقال أشجع في جعفر بن يحيى: [المتقارب]

يريدُ الملوك مدى جعفرٍ ولا يصنعون كما يصنعُ

وليس بأوسعهم في الغنى ولكنّ معروفه أوسَعُ

بداهته مثل تفكيره متى تلقه فهو مستجمِعُ

وقال فيه: [الوافر]

بديهتُه وفكرَتُه سواء إذا التبسَتْ على النَّاسِ الأمُورُ

وقال إبراهيم بن العبّاس الصوليّ في الفضل بن سهل: [الكامل]

يقضي الأمورَ على بديهته وتريه فكرتَهُ عواقِبُهُ

فيظلّ يُورِدها ويُصدِرها فَلَنِغْمَ حاضره وغائبُهُ

ودخل المأمون يوماً بعض دواوينه، فرأى غلاماً جميل الصورة، على أذنه قلم فقال: من أنت يا غلام؟ فقال: أنا يا أمير المؤمنين الناشىء في دولتك، والمتقلب في نعمتك، والمؤمّل بخدمتك؛ الحسن بن رجاء خادمك. فقال المأمون: أحسنتَ يا غلام، وبالإحسان في البديهة تفاضلت العقول. ثم أمر أن تُرْفَع مرتبته في الديوان.

* * *

قوله: «بنزاهته» أي برفعته وبعده من التّهمة بسرقة الشعر. آنس: أبصر استئناسهم: أُنسهم وتركهم الإنكار. طرفة: نظرة، قد طَرُف طَرْفاً، إذا حرَّك جفنيه بعد النظر. دونكم: إغراء، ومعناه خذوا حذركم واسمعوا. جدّ: تحقّق. البين: الفراق. بنان: أصابع. الحَصِر: المنقطع عن الكلام عِيًّا. ليل؛ أراد به نقاباً أسود. صبح: وجه. أقلّهما: رفعهما. غصن: قدّ. ضرّست البلّور: الأصابع. الدرر: الأسنان.

والظاهر من سياق هذين البيتين أنه قصد أن يزيدهم استئناساً بأنه غير مدّع في الشعر، ودلّ على هذا ظاهر الكلام قبل البيتين وبعدهما، وهو قد أدرج معنى زائداً في البيت ولم يصرح به لما عليه في ذلك من التقصير عن درجة غيره، وذلك أنه لمّا لم يستوف مقابلة بيت أبي الفرج مَرّةً ببيتيه المتقدمين، استوفاها في هذا البيت الثاني، لأنه قابل «أمطرت» بساقطت، واللؤلؤ باللؤلؤ، والنرجس بالخاتم، وهما العين والفم، وحمرة الخد بسنا القمر، وبقي عليه زائد من قول أبي الفرج: «وعضت على العنّاب بالبرد» فقابله في هذا البيت بقوله: «وضرّست البلور بالدرر، وجعلها تعضّ على أصابعها وهي بيض، لأنه يصف امرأة شعرت بفراق أحبابها، فتركت الزينة واستعمال الحِنَّاء، فلمّا حان وقت فراقهم، لبست ثياب الحزن، وأقبلت تودّعهم تلهّفاً وتندُّماً على فراقهم، ووصف الأصابع

باللّين والصبغ، وذلك مذكور في العاشرة، وجعلها لابسة السواد، لأنّ أهل الشرق يلبسونه لحزنهم، وأهل الأندلس يلبسون البياض لحزنهم، قال الشاعر: [الوافر]

ألا يا أهْلَ أندلسٍ فطنتمْ ... بلطفكم إلى أمرٍ عجيبِ
لبستمْ في مآتمكم بياضاً ... وجئتم منه في زيّ غريبِ
صدقتم فالبياض لباسُ حزنٍ ... ولا حزنٌ أشدّ من المشيبِ

وأنشد أبو عثمان الأشناندانيّ في أبيات المعاني له: [البسيط]

أرعتْ مراتع مدراها على عجلٍ ... صنوين إن أفردا لم يرعَيَا أبَدَا
واستبدلتْ من رياض الحزن مونقةً ... ثَوْبَ الأمير الذي في مُلْكِه قَعدَا

عنى بمراتع مدارها شَعْرَها، وبصنوين مقصَّ حلقتْه به، وبرياض الحزن ثياباً ملوّنة، وبثوب الأمير ثوباً أسود، لأن ملوك بني العباس لباسهم السواد وعارض ابن لبّال الحريريَّ في أبياته فقال: [مجزوء الكامل]

ودّعتُها ومدامعي ... تنهلّ بالدَّمع الطَّليقِ
فبكتْ فأذرَتْ أدمعاً ... في صفحة الخدِّ الأنِيقِ
ومضتْ تعضّ بنانَها ... بين التلهّف والشهيقِ
ورأيت مبيضّ اللّجـ ... ـيْن يَعضّ محمرَّ العقِيقِ

وكما عارض بيتَ الحريري عارض قولَ البحتريّ المتقدم: [السريع]

يا بأبى ظبيٌ إذا مارنا ... أثخن قلبي وفؤادي جراحْ
يفترّ عن طلعٍ وعَن جوهرٍ ... وفضّة أو حَبَبٍ أو أُقاحْ

فزاد عليه بوصفين.

[مما قيل في الفراق]

ومما يناظر ما تقدّم من البكاء عند الفراق قول محمد بن يوسف: [الكامل]

وكأنّما أثر الدموع بخدّها ... طلٌّ تساقط فوقَ وَرْدٍ يانِعِ
عَذُبَ الفراقُ لنا قبيلَ وَدَاعِنا ... ثم اجترعناه كَسُمٍّ ناقِعِ

وقال ابن الروميّ: [المنسرح]

لو كنتَ يومَ الوداع شاهدَنَا ... وهنَّ يُطفئن غلّة الوجْد
لم تَرَ إلاّ دموعَ باكيةٍ ... تسفح من مُقْلةٍ على خَدّ
كأنّ تلك الدموع قطرُ ندًى ... يقطر من نرجسٍ على وَرْدِ

وقال النّاشي: [المتقارب]

بكيتُ الفِراقَ وقد رَاعني ... بكاءُ الحبيب لبعد الديارْ
كأنَّ الدموع على خَدِّها ... بقيّة طلٍّ على جُلّنارْ

وقال أبو نواس: [الطويل]

تقولُ غداة البين إحدى نسائهمْ ... لِيَ الكِبدُ الحَرَّى فِسرْ وَلكَ الصَّبْرُ[1]
وقد غَلَبَتْها عَبرةٌ فدموعُها ... على خدِّها جَمْرٌ وفي نحرها صفْرُ

يقول: لون خدها أحمر، فتشكلت الدمعة به جمراً، ولون نحرها أصفر عاجيّ كما قال ذو الرمة: [البسيط]

كأنها فِضّةٌ قد مسَّها ذهبٌ ... فصارَ فيها للون الدمع صُفْرَتُهُ

وقيل للعباس بن محمد: ما لونُ الماء؟ فقال: لون إنائه.

ولمّا ذكر الحريريّ الحلل السود على الجارية، تذكّرت ما قال أبو عثمان الناجم في جارية رأى عليها ثوباً أزرق: [الخفيف]

ما تعدّت قبولُ حينَ جلتْ زِيَّـ ... ـا شبيهاً بوجهِهَا ذِي الضِّيَاءِ
لبست أزرقاً فجاءتْ بوجهٍ ... يشبه البَدْرَ في أديمِ السَّمَاءِ

ولأبي حفص بن برد في غلام بدا له في ثوب لازورديّ، فقال: [مجزوء الكامل]

لمَّا بدا في لازور ... ديّ الحرير وقد بَهَرْ
كبَّرت من فرط الجما ... لِ وقلتُ ما هذا بَشَرْ
فأجابني لا تنكرنْ ... ثوبَ السماءِ على القَمَرْ

وقال ابن المعتزّ في غلام عليه ديباج بنفسجيّ: [مجزوء الكامل]

وبنفسجيّ الثوب قتـ ... ـل محبّه مِنْ حَالِهْ
الآن صرت البدرَ إذ ... أُلبِسْتَ ثَوبَ جَمَالِهْ

قوله: «استسنى»، أي استعظم، وقد سَنُوَ الرجل، وسنا: شرف وعظم. ديمته: كلامه بالشعر وهو دائم غير منقطع، أو يريد بها فِطْنته التي تمدُّه بما شاء من الشعر، وأصل الديمة المطر الدائم. واستغزروها: استكثروها ووجدوها غزيرة أجملوا عشرته، أي أحسنوا صحبَته وعاشروه بالجميل. جمّلوا قشرته، أي حسّنوها، من لفظ الجمال، أو يكون معناه: جمّلوا من جمّلت الحساب وأجملته، أي جمعته، فكأنهم جمعوا له شيئاً

---

(١) البيت في ديوان أبي نواس ص ٨.

وكسوه. وقشرته: ثوبه، لأنه قدّم أنّ هيئته كانت رثّة، فاحتاجوا أن يكسوه.

* * *

قال المخبرُ بهذه الحِكايةِ: فَلَمَّا رَأَيتُ تَلَهُّبَ جَذْوَتِهِ، وَتَأَلُّقَ جَلْوَتِهِ، أَمْعَنْتُ النَّظَرَ فِي تَوَسُّمِهِ، وَسَرَّحْتُ الطَّرْفَ فِي مِيسَمِهِ، فإذَا هُوَ شَيخُنا السَّرُوجِيّ، وَقَدْ أَقْمَرَ لَيْلُهُ الدَّجُوجِيّ، فهنَّأْتُ نَفْسِي بمَوْرِدِهِ، وابتدرتُ اسْتِلامَ يَدِهِ، وَقُلْتُ لَهُ: ما الَّذِي أَحالَ صِفتَك، حَتَّى جَهِلْتُ مَعْرِفَتَكَ، وَأَيُّ شيءٍ شَيَّبَ لِحْيتَكَ، حَتَّى أَنْكَرْتُ حِلْيَتَكَ! فَأنشأ يقول: [المجتث]

وَقْعُ الشَّوَائِبِ شَيَّبْ ... وَالدَّهْرُ بالنَّاسِ قُلَّبْ
إن دَانَ يَوْماً لِشَخْصٍ ... فَفِي غدٍ يَتَغَلَّبْ
فَلا تَثِقْ بِوَمِيضٍ ... مِنْ بَرْقِهِ فَهْوَ خُلَّبْ
وَاصْبِرْ إذَا هُو أَضْرَى ... بِكَ الْخُطُوبَ وَأَلَّبْ
فَما عَلَى التِّبْرِ عَارٌ ... فِي النَّارِ حِينَ يُقَلَّبْ

ثم نَهَضَ مُفارِقاً مَوْضِعَهُ، وَمُسْتَصْحِباً الْقُلُوبَ مَعَهُ

* * *

تلتهب جذوته: اشتعال جمرته واتقّادها؛ وأراد حدّة ذهنه، والجذوة: النار في طَرَف العودِ. تألق: لمعان. جَلْوته: ما جلاه وكشفه من وجهه، وتقول: جلوت العروس جَلْوة، إذا أزلْتَ نقابها، وأظهرت وجهها، والجِلْوة بالكسر: هيئة جلوّة حين يجلَى، وأراد بتألّق جلوته بريقَ وجهه. أمعنت: بالغت وأدمْت النظر، وأصله من أمعن في الأرض إذا أبعد الذهاب فيها. توسمه: نظر سماته، وهي علامته التي يُعرف بها، ويريد أنه أدام النظر في نعوته. سرّحت الطّرْف: أرسلتُ العين بالنظر، وأصل الطرف تحرّك العين عند النَّظَر، تقول: طرفت العين طرفاً. والعين: الجارحة، والبَصَر: ما تدركه بنظرها، ثمّ سُمِّيت العين طرفاً لذلك. وميسمه: علامته. أقمر: ابيضّ، فصار مثل لون القمر. الدَّجوجيّ: الشديد السواد، وأراد نبات شعره الأسود.

قوله: «بمورده»، أي بقدومه وإتيانه، تقول: وَرَدَ علينا فلان، إذا قدم عليك من بلد آخر، والمورد: مصدر ورَدَ، وهو بمعنى الورود، لأنه قدّم أنه غاب عنه مدّة لا يَعرف له موضعاً، ولا يجد عنه مخبراً؛ حيث قال: «واستتر عَنّي حيناً»، فلما رآه ببلده بالبصرة فرح بقدومه وهنّأ نفسه على ذلك.

استلام: تقبل اليد. ابن الأنباريّ: استلم الحجر، معناه أخذه ومسّه بيده، واستلم، افتعل، من المسالمة. يريد أخذ الحجر وضمّه إليه، أو يكون استفعل، من اللّأمة وهي

السلاح، يريد أنه حصَّن نفسه بمسّ الحجر من العذاب، لأن السلاح إنما يلبس ليُمتنع به ويتحصَّن. أحال: غيّر. حلْيتك: صفتك، ولذلك احتاج أن يمعن النظر لمَّا تغيرت صفاته التي كان يعرفه بها من الفتوّة والشبيبة، فلما رآه قد شاب شعره، وتغيّرت صفاته لم يعرفه إلاّ بعد طول تأمّل. وقال الحلواني القيرواني: [الكامل]

ولربّ باكيةٍ رأت في لِمَّتِي ... وَخْزَ المشيب تألَّقتْ ضَحِكاتُهْ

قالت: أغصناً قد علاه فلا أرى ... زهر الرّياض ونوّرت ورقاتُهْ

فأجبتها: قارعتُ في جَنْبِ الهوَى ... صرف الزّمان، وهذه نكباتُهْ

ولابن الجدّ: [الكامل]

نَكَرَت نُحُولي وهو من فَرْط الأسَى ... لفراقِ إخوان عليّ كرامِ

وتعجَّبتْ للشَّيب لا تتعجَّبِي ... هذا غبار وقائع الأيَّامِ

قوله: «فأنشأ يقول» أي ابتدأ، وأنشدوا: [مجزوء الكامل]

أنشأت تطلب ما تَغَيّـ ... ـرَ قد تناشبت الأظافرْ

أي ابتدأت تطلب. الشوائب، أصله ما يقع في الماء الصافي من الأقذاء فيكدّره، فأراد أن أنكاد الدهر شيّبته. وقُلّب: كثير التقلّب، فيحوّل من حال إلى حال. دان: طاع وانقاد. يتقلّب: يتحوّل عن الطاعة. وميض: لمع خفيّ. خُلّب: خدّاع، لا ماء فيه، وأراد: لا تثق بالدّهر، إذا ما كسبت فيه شيئاً من المال فإنه يحوّل عنك ولا يترك لك منه شيئاً. أضرَى: أغرى وألصقها بك، وأصل «أضرى» من ضراوة الكلب، تقول ضَرِيَ الكلب بالصيد؛ إذا تعلّم الصيد، وأضربته أنا بمعنى عرَّضته للصيد. والخطوب: الأمور الشداد. وألّب: حشد، أي اصبر للشدائد إذا أضراها الدهر بك وحشدها، فما عليك في ذلك عيب، كما أن الذهب يُسبَك بالنار وهو مع ذلك عزيز القدر. والتّبر: الذهب قبل سبكه، وانظر هذا المعنى عند قوله في السابعة والأربعين: [البسيط]

وطَالَمَا أُصْلِيَ الياقوت جمرَ غضًى ... ثم انطفا الجمرُ والياقوتُ ياقوتُ

وزاد الآخر في المعنى فقال: [البسيط]

إني أنا الذَّهبُ المُحمَى ومخبرُه ... يزيد في السَّبْك للدينارِ دينارا

وأنشدوا: [الكامل]

اصْبِرْ على نُوبَ الزَّما ... ن فهكَذَا مضت الدُّهورْ

فَرَحٌ وحُزنٌ تارةً ... لا الحزن دامَ ولا السُّرورْ

المقامة الثّالثة

وهي الدِّيناريّة

رَوَى الحارثُ بن هَمَّامٍ قال: نَظَمِني وأخداناً لي نادٍ، لَمْ يَخِبْ فِيهِ منادٍ، ولا كبَا قَدْحُ زنادٍ، وَلاَ ذَكَتْ نارُ عِنادٍ؛ فَبَيْنَا نَحْنُ نتجاذَبُ أطْرَافَ الأناشِيدِ، ونتوارَدُ طُرَفَ الأسانيدِ، إِذ وقف بنا شَخْصٌ عَلَيْهِ سَمَلٌ، وفِي مِشْيَتِهِ قَزَلٌ.

* * *

نظَمني، أي جمعني. أخدانا؛ أي أصحاباً. نادٍ: مجلس. منادٍ: متكلّم. كبا: شحّ ولم يبد ناراً. قَدْح: ضرب. زناد: حديدة النار، وزناد العرب من خشب، وأكثر ما يكون من المرْخ والعَفار؛ وإنما هو أن يُؤخذ عود قدر شبر، فيُثقب في وسطه ثقب لا ينفذ، ويؤخذ عود آخر قدْر ذراع، فيحدّ طرفه، ويُجعل ذلك في الثّقب، وقد وضعه رجُلٌ بين رجليه، فيُدِيره ويفتلُهُ، فيبدي النار، فالأعلى زَنْد والسفلى زَنْدَة، والزّناد جمع زند. قوله: «ذَكَتْ»، أي اشتعلت. عناد: خلاف، يريد أنّ هؤلاء الأصحاب لحسن أدبهم ومناظرتهم ليس بينهم خلاف، وهم علماء لا يسقط من كلامهم شيء، وليس فيهم جاهل، فيكون كلامه قليلَ الإصابة. والأناشيد: ما يتناشدونه من الأشعار بينهم، كأنّ واحدها أنشودة. وتجاذب أطرافها، يريد المشاركة في إنشادها، أي إذا أنشد أحدُهم شعراً ليُغرب به شاركوه في إنشاده لحفظهم الأشعار، فكأنهم تجاذبوه كما يُتجاذب بأطراف الثوب. والأسانيد: الأخبار المسندَة إلى أهلها. وأصل التوارد، مزاحمة الإبل على شرب الماء، فجعل مشاركتهم في ضبط غرائب الأخبار كتوارد الإبل على الماء، والطُّرَف: الغرائب، والطُّرفة: الشيء العجيب من كل شيء، الذي لا يوجد له نظير. سَمَل: ثوب خلَق، وأكثر ما تقول العرب: ثوب أسْمال وأخْلاَق، فيوصَف بالجمع لأنه قِطَعٌ متفرّقة. وسمَل: قليل، وفي تبذّل اللباس روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ: «إن الله يحب المتبذّل لا يبالي بما لبس». قَزَلَ: عرج.

* * *

فقال: يا أخايرَ الذَّخائرِ، وبشائرَ العشائرِ، عموا صباحاً، وَأَنْعِمُوا اصْطِباحاً، وَانظرُوا إلى مَنْ كَانَ ذا نديٍّ وَنَدًى، وَجِدَةٍ وَجَداً، وَعَقَارٍ وَقُرًى، وَمَقَارٍ وَقِرًى، فَمَا زَالَ به قُطُوبُ الخُطُوبِ، وَحُرُوبُ الكُرُوبِ، وَشَرَرُ شرِّ الْحَسُودِ، وانتياب

النُّوَبِ السُّودِ، حتَّى صَفِرَتِ الرَّاحةُ، وَقَرِعت السَّاحَةُ، وغارَ المنبعُ، وَنَبا المَرْبعُ، وَأَقْوى المَجْمَعُ، وَأَقَضَّ الْمَضْجَعُ، وَاسْتَحالَتِ الْحالُ، وَأَعْوَلَ الْعِيالُ، وَخَلَتِ الْمَرَابِطُ، وَرَحِمَ الْغَابِطُ، وَأودَى الناطِقُ وَالصَّامِتُ، وَرَثى لَنَا الحَاسدُ وَالشَّامِتُ.

* * *

قوله: «يا أخاير الذخائرِ»، الأخاير: جمع أخير، كما يقال: أكبر وأكابر، والمستعمل خير وشر، ولا يقال: أخيرَ ولا أشرّ إلا شاذًا، وإن كان هو الأصل، لكنه رفض استعماله وجاء الجمع على الأصل، لأنه يردّ الشيء إلَى أصلِه وقال رؤبَة: [الرجز]

* بلال خيرُ النَّاسِ وابْنُ الأخْيَرِ[1] *

فنطق بالمستعمل لشهرته، وبأصله وهو قليل، فإذا تعجّبوا من ذلك قالوا: ما أخيَرَ فلاناً، وما أشرّ فلاناً. والذخائر: جمع ذخيرة؛ وهي الشيء النفيس الغالي يصونه الإنسان ويعتدُّه لزمانه. البشائر: جمع بِشارة، وقد بشرّت الرجل بشارة إذا أدخلت عليه السرور. والعشائر: جمع عشيرة، وهي قرابة الرجل من قبيلته، يقول: أنتم أرفع الذخائر، وخيرها، وأنتم يستبشر من لقيكم برؤيتكم، ويتيامن بلقائكم، ويعلم أنكم تَصِلُونه وتكرمونه؛ ليستعطفهم بهذا الكلام. عموا صباحاً: دعاء لهم بالنّعمة في الصباح، أي جعلكم الله تنعمون في صباحكم. وعِمُوا: أمرٌ من وَعَم يَعِم، وهي في معنى نَعِم يَنْعَم. وأنعِموا اصطباحاً، أي طاب شربكم في الصَّباح وتنعمتم به، والاصطباح: أن يُصبِحوا وهم يشربون. نديّ: مجلس اجتماع، أي هو شريف يُقعد ويجتمع عنده. ندى: كرم. جدًى: عطيّة. العَقار: المال الذي لا ينتقل كالنخل والدّور والأرَضين. قرًى: جمع قرية. مقار: جفان يُقرَى فيها الأضياف، أي يطعمون فيها. والقِرى: طعام الضيف. قُطوب. عبُوس. الخطوب: الشدائد. الحروب: القتال. الكروب: الهموم، قال النبي ﷺ: «مما أعلم أنّه لا يقوله مكروب إلاّ فرّج الله عنه، كلمة أخي يونس: ﴿**فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَٰهَ إِلاَّ أَنْتَ**. . .﴾ [الأنبياء: ٨٧] الآية».

ومن كلام ابن المعتز: الحوادث المحضة مكسبة لحظوظ جزيلة، وثواب مدخر، وتطهير من ذنب، وتنبيه من غَفْلَة، وتعريف بقدْر النعمة، ومرور على مقارعة الدهر، وإذا استرجع الله مواهب الدنيا كانت مواهبَ الآخرة.

غيره: لولا حوادث الأيام، لم يعرف صبر الكرام، ولا جزع اللئام.

وقال أبو تمّام: [الكامل]

---

(١) الرجز بلا نسبة في الدرر ٦/ ٢٦٥، وشرح التصريح ٢/ ١٠١، وشرح عمدة الحافظ ص ٧٧٠، وهمع الهوامع ٢/ ١٦٦.

والحادثاتُ وإن أصابَك بُؤسُها فهو الذي أنْباكَ كيفَ نعيمُهَا[(١)]

الحسود: المتمنّي إهلاك مالك، وإذا رأى لك خيراً تمنّى إزالته، يريد أن الحسود اتّبع ماله بالعين حتى أهلكه، وقلّما يُوجد الذي يرمِي بالعين إلا حسوداً. انتياب: نزول وقصود. النُّوَب: النوازل. قوله، «صفرت»، أي خلت من الدراهم الراحة: باطن الكف. قرعت: خلت من المال وصارت قرعاء. والساحة: فناء الدار، والساحة عند العرب: الرّحَبة التي تُحلّق بها البيوت، وأراد أنّها خلت من الإبل والبقر والغنم وغير ذلك. غار المنبع: جفّ الماء النابع، والمنبع: موضع النَّبْع. المربع: المنزل في الربيع. ونبا: بأهله: وجد نَبْوة، أي ارتفاعاً غير وطيء فلم تمكن الإقامة فيه. أقوى: خلا. المجمع: موضع الاجتماع. أقضّ: خَشُن وصار فيه القَضَض، وهي الحجارة. والمضجع: موضع رقاده، وأخذه من قول أبي ذؤيب: [الكامل]

أمْ ما لجنبكَ لا يلائِمُ مَضْجَعاً إلاَّ أقضَّ عليهِ ذَاكَ المضجعُ[(٢)]

وكنى بهذه الألفاظ عن تغيّر الأحوال وذهاب الملل.

وساق الكلام مساق حكايات الأعراب؛ منها أنَّ أعرابياً وقف بقوم، فقال: أشكو إليكم أيُّها الملأ زماناً أناخ عليّ بكلكله بعد نعمة من البال، وثروة من المال، وغبطة من الحال، أصْمَانِي جَديداه بنَبل مصائبه، عن قِسِيّ نوائبه، فما ترك لي راغية أجتدي ضَرْعَها، ولا ثاغية أرْتَجِي نفعها، فهل فيكم من معين على صرفِه، أو مُعْدٍ على حتفه!

وقد ذكرنا منها جملة في الثالثة والثلاثين. وحكى أبو عليّ في نوادره حكاية عن أبي زيد اللغويّ على لسان أعرابيّ يشبه كلام الحريريّ هنا في سياقه وكثير من الألفاظ، فيقول: إنّ المنبع الذي كنا نعيش به نحن وأموالنا قد ذهب، فهلكنا بذهابه. والمربع: وهو موضع الخِصْب، صار نبوة لا ينبت شيئاً، فلم تجد الإبل ما ترعاه فهلكت، وإذا هلك المال هلك صاحبه، والمجالس الّتي كنا نجتمع فيها، هلك أهلها فخَلَت، ومضجعنا الذي كان موطّأ بالفُرش أقضّ فامتنع من الإضجاع عليه.

قوله: «استحالت، تغيّرت». وحالُ الرجلِ: ما هو عليه من خير أو شرّ أو غِنًى أو فقر، والحال أيضاً: المال. أعول: بكى، وعيالُ الرّجل: من يفتقر إليه في مؤنته ونفقته، واحدهم عيّل. المرابط: المواضع التي تربط فيها الخيل وتُحْبَس. الغابط: الذي يتمنَّى مثل مالك ولا ينقص منه شيء. أودى: هلك. الناطق: المال من الحيوان مثل الإبل والبقر والغنم، وكلّ ما يُتملّك من ذي روح؛ سميت بذلك لأصواتها، والناطق كل حيوان

(١) البيت في ديوان أبي تمام ص ٣١٠.

(٢) البيت لأبي ذؤيب الهذلي في شرح أشعار الهذليين ص ٥، ولسان العرب (قضض)، ومقاييس اللغة ٥/ ١٢، وكتاب العين ٥/ ٩، وتهذيب اللغة ٨/ ٢٥١، وتاج العروس (قضض).

له صوت. والصامت: الذهب والفضة والمتاع. رثى: بكى. وأشفق الشامت: الذي يُسرّ بمصيبتك، ومنه تشميت العاطس، وهو إدخال السرور عليه بالدعاء، وقد شمت به شماتاً وشماتة، فهو شامت إذا سرّ ببلاء ينزل به. والحاسد، هو الحسود.

* * *

[الحسد وما قيل فيه]

والحسد أوّل ذنب عُصِيَ الله به في السماء والأرض، أما في السماء فحسد إبليس آدم، وأما في الأرض فحسد قابيل هابيل.

وقال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿ربّنا أَرِنَا اللّذين أضلاَّنا من الجنّ والإِنْسِ﴾ [فصلت: ٢٩]: إنهما قابيل وإبليس، فالحسد حمَل إبليس على الكفر، وحمَل قابيل على قتل أخيه.

وقال عليٌّ رضي الله عنه: لا راحة لحسود، ولا أخ لملول، ولا محبّ لسَيِّىء الخلق.

وقال رجل لخالد بن صفوان: إني أحبُّك، قال: وما يمنعُك، ولستُ لك بجارٍ ولا أخٍ ولا ابن عمٍّ! يريد أن الحسد موكّل بالأَدْنَيْنَ.

الحسن البصريّ: ما رأيت ظالماً أشبه بمظلومٍ من حاسد بنَفسٍ دائم، وحزن لازم، وغيْرَة لا تنفد.

معاوية: كلّ الناس أقدر على أن أرضِيَهم إلاّ حاسد نعمة، فإنه لا يرضيه إلا زوالها.

المبرّد: حدثنا الزياديّ، قال: يقال: ستة لا تخطئهم الكآبة: فقير حديث عهد بغِنًى، ومُكْثِرٌ يخاف على ماله التلف، والحسود، والحقود، وطالب مرتبة فوق قدره، وخليط أهل الأدب وليس منهم.

قال الأصمعيّ: اجتمع ثلاثة حسّاد، فقال أحدهم لصاحبه: ما بلغ من حسدك؟ قال: ما اشتهيت أن يُفعل بمسلم خيرٌ قطّ، فقال الثاني: أنت رجل صالح، ولكني ما اشتهيت أن يُفعل بي خير قطّ، فقال الثالث: ما في الأرض خير منكما، ولكني ما اشتهيت أن يَفعل أحد بأحد خيراً قطّ.

قال: وأنشد الشاعر: [البسيط]

كلّ العداوةِ قد تُرْجَى مودَّتُها ... إلاّ عداوة مَنْ عاداك مِنْ حَسَدِ

وقال حبيب: [الكامل]

وإذا أرادَ الله نشر فَضِيلةٍ ... طُوِيتْ أتاحَ لها لسَانَ حَسُودِ[1]

---

(١) البيتان في ديوان أبي تمام ص ٨٥.

لـولا اشـتـعـالُ الـنّـارِ فـيـمـا جـاورتْ ... مـا كـان يُـعْـرَفُ طِـيـبُ عَـرْفِ الـعُـودِ

وقال القاضي ابن عمر: **[المتقارب]**

نَـهَـانِـيَ حِـلْـمِـي فَـمـا أَظْـلِـمُ ... وَعَـزَّ مَـكَـانِـي فَـمَـا أُظْـلَـمُ

ولا بـدّ مـن حـاسـدٍ قـلْـبُـهُ ... بـنـور مـآثـرِنـا مُـظْـلِـمُ

رحـمـت حَـسُـودي عـلـى أنـه ... يـعـذَّب بـي ثـم لا يُـرْحَـمُ

أتـانـا الـحـسـود ولـسـنـا كـمـا ... يـقـول ولـكـنْ كـمَـا يـعـلَـمُ

وقال اليمانيّ: **[الكامل]**

إنّـي لأَرحـم حـاسِـديّ لـفـرْطَ مـا ... ضـمَّـتْ صـدورهُـم مـن الأوْغَـارِ

نَـظَـرُوا صـنـيـعَ الله بِـي فـعـيـونـهـمْ ... فـي جـنَّـة وقـلـوبـهـم فـي نـارِ

لا ذنب لـي قـد رُمْتُ كتْمَ فـواضِـلِـي ... فـكـأنّـمـا بـرقـعـتُـهـا بـنـهَـارِ

قوله: «رثى لنا الحاسد والشامت»: قال النبي ﷺ: «ارْحموا ثلاثاً: غنيّ قوم افتقر، وعزيز قوم ذلّ، وفقِيهاً يلعب به الجهّال».

قال الشافعيّ: خمسة مرحومون: عزيز ذل، وغنيّ فلّ، وحبيب ملّ، وفصيح كلّ، وفقيه ضلّ.

وقال الشافعي: ومن حديث واثلة، قال رسول الله ﷺ: «لا تُظهر الشماتة بأخيك، فيعافيَه الله ويبتليك»[1]، وأخذه الحريريّ من قول الآخر: **[السريع]**

لـم يـبـقَ إلاّ نَـفَـسٌ خـافـتٌ ... ومُـقْـلـة إنـسـانـهـا بـاهِـتُ

ومـغـرم تُـوقَـدُ أحـشـاؤه ... بـالـنَّـار إلا أنـه سـاكِـتُ

رقّ فـمـا فـي جـسـمـه مـفـصـلٌ ... إلاّ وفـيـهِ سَـقَـمٌ ثـابِـتُ

يـرثـي لـه الـشَّـامِـتُ مِـمَّـا بِـهِ ... يـا وَيـحَ مَـنْ يـرثـي لـه الـشـامِـتُ!

* * *

وآل بنَا الدَّهْرُ الْمُوقِعُ، وَالْفَقْرُ الْمُدْقِعُ، إلى أَنِ احْتَذَينا الْوَجَى، وَاغْتَذَيْنَا الشَّجَا، وَاسْتَبْطَنَّا الْجوَى، وَطَوَيْنَا الأحْشَاءَ عَلَى الطَّوَى، وَاكْتَحَلْنَا السُّهَادَ، وَاسْتَوْطَنَّا الوِهَادَ، وَاستوطأْنَا الْقَتَادَ، وَتَنَاسَيْنَا الأَقْتَادَ، وَاسْتَطَبْنَا الحَيْنَ الْمجتَاحَ، وَاسْتَبْطَأْنا الْيَومَ الْمُتَاحَ، فَهَلْ مِنْ حُرٍّ آسٍ، أَوْ سَمْحٍ مواسٍ! فوالذي اسْتَخْرَجَني مِنْ قَيْلَةَ، لَقَدْ أَمْسيْتُ أَخَا عَيْلَة، لا أَمْلِكُ بِيتَ لَيْلَةِ.

(١) أخرجه الترمذي في القيامة باب ٥٤.

قال الحارث بن هَمَّام: فَأَوَيْتُ لِمَفَاقِرِهِ، وَلَوَيْتُ إلى استنباطِ فِقَرِه، فَأَبْرَزْتُ دينَاراً، وَقُلْتُ له اختباراً: إِنْ مَدَحْتَهُ نَظْماً، فَهُوَ لَكَ حَتْماً، فانبرى يُنْشِدُ في الْحَالِ، مِنْ غَيْرِ انْتِحَالِ.

***

قوله: «آل بنا» أي رجع بنا، وقد آل يئيل ويؤول، أي رجع. المُوقع: المُهلك، من أوقع به، ويحتمل أن يريد بالموقع الذي يحمله على الوقوع، ورجل مُوقع إذا اشتكى ألم رجليه. المدقع: الملصَق بالدقعاء، أي التراب، أي لم يترك للإنسان شيئاً يبسطه غير التراب. احتذينا: انتعلنا. الوجى: توجّع باطن القدمين من الحفا، يريد أنه ليس مكان النعال الحفا حتى توجَّعت قدماه. الشجى: ما يعرض في الحلق، وكنى بهذا عن سوء الحال، لأن الشجى ليس بغذاء إنما هو مشقة وتعب. ولكن بالغ في وصف سوء حاله، فقال: إنه يَنتعل ما لا يُنتعل، ويغتذى ما ليس بغذاء، أي ليس ثمَّ انتعال ولا غذاء. استبطنَّا، أي جعلناه في بطوننا. الجوَى: فساد الجوف. والأحشاء: ما في الجوف وما حشي به. الطَّوَى: الجوع، وقد طوِيَ يَطْوَى؛ لأن الأحشاء إذا امتلأت من الطعام انتشرت، وإذ فرغت منه انطوى بعضُها على بعض. والسُّهاد: امتناع النوم، من قول الشاعر: **[الرمل]**

مـا لـعـيـنِـي كُـحِـلَـتْ بـالـسُّـهَـادِ ... ولـجـنـبـي نـابِـيـاً عَـنْ وِسَـادِي

استوطنَّا: سكنَّا واتخذناه وطناً. الوِهاد: ما انخفض من الأرض. استوطأنا: وجدناه وطيئاً. القتاد: شجر له شوك شديد يسمّى عندنا حِمْض الأمير. الأقتاد: خشب الرِّحال، يريد أنهم نسوا ركوب المطايا لبعد عهدهم بها ورجعوا الآن يمشون على الشوك فيجدونه وطيئاً. الحَيْن: الموت. المجتاح: من لفظ الجوائح، يريد به المستأصل للأموال. استبطأنا: وجدناه بطيء المجيء. المتاح. المقدَّر، يريد أن يوم موتهم تمنّوه لشدة ما قاسوْا، وأبطأ عليهم. آسٍ: طبيب يطبّ علة الفقر والجمع الأساة. سمح: كريم. والمواسي: المعين. وذكر عاصم في شرح قوله: «يواسي في كريهته أخاه»، أن معناه، جعله أسوة نفسه، فمواسٍ من الأسوة، كأنه يشاركه في ماله. ويقال: آسيته، والأصل الهمز.

المفضّل: معنى فلان يواسي فلاناً، يشاركه، والمواساة المشاركة، وآساه: شاركه فيما هو فيه.

مؤرِّج: ما يواسيه، أي ما يصيبه بخيرٍ أصلاً.

غيره: معناه يعوّضه من مودّته وقرابته شيئاً، من الأوس وهو العِوَض، قال الشاعر: **[مجزوء الكامل]**

فَلأَرْمِيَنَّك مِشْقَصاً أَوْساً أُوَيْسُ من الهَبَالَه[1]

والهبالة: اسم ناقة، أي أرميك بسهم يكون عِوَضاً عن الناقة. وكأنّ أصله يؤاوسه، فقدموا السين وهي لام الفعل، وأخّروا الواو وهي عينه، فصار «يؤاسوه» فقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها، فهو من المقلوب، وإن جعلتَه من أسوتُ الجرح، إذا أصلحته فلا قَلْب فيه.

قوله: «فوالذي استخرجني من قيلة»، قيْلة هي أمّ الأوس والخزرج، وهي بنت الأرقم الغسَّانية، وانتسابه لها كانتسابه قبل إلى أقيال غسّان. أخا عَيْلة: صاحب فقر، قال تعالى: ﴿وإنْ خِفتُمْ عَيلَةً﴾ [التوبة: ٢٨]، أي فقراً، وقال ﷺ: «أعوذ بك من القسوة والغفلة والعيْلة والمسكنة». بيت ليلة: قوت يبيت عليه ليلة.

أويت: أشفقت وحننت. مفاقره: جمع فقر على غير قياس ـ ومثله مذاكير الرجل جمع ذَكَر: محاسنه ومساويه. لوَيت: انعطفت. استنباط: استخراج الفِقَر في النثر: فواصله، وهي مثل القوافي في النظم، والفِقَر: ما تقدَّم في المقامة من الكلام المفَقَّر. أبرزت: أظهرت. حتماً: واجباً، يريد أنه قصد إلى أن يحقّق ما تقدّم من الفصاحة في فَقره إن كانت له أو انتحلها، فقال ليختبره: امتدح هذا الدينار بشعر. فانبرى، أي اعترض وتقدّم. انتحال: ادّعاء منه في شعر غيره، يقال: انتحل كذا، أي ألزمه نفسه، وجعله كالملك، من النِّحلة، وهي الهِبَة والعطية. **[الرجز]**

* * *

أَكْرِمْ بِهِ أَصْفَرَ رَاقَتْ صُفْرَتُهْ جَوَّابَ آفاقٍ تَرَامَتْ سَفْرَتُهْ
مَأْثُورَةٌ سُمْعَتُهُ وَشُهْرَتُهْ قَدْ أودِعَتْ سِرَّ الْغِنَى أَسْرَّتُهْ
وَقارَنَتْ نُجْحَ المساعِي خَطْرَتُهْ وَحُبِّبَتْ إلَى الأنام غُرَّتُهْ
كأَنَّما مِنَ الْقُلُوبِ نُقْرتُهْ بِهِ يَصُولُ مَنْ حَوَتْهُ صُرَّتُهْ
وَإنْ تفَانَتْ أو تَوَانَتْ عِتْرَتُهْ يَا حَبَّذَا نُضارُه وَنُقْرَتُهْ
وَحَبَّذا مَغْناتُهُ وَنُصْرَتُهْ كَمْ آمِرٍ بِهِ اسْتَتَبَّتْ إمْرَتُهْ
وَمُتْرَفٍ لَوْلاهُ دَامَتْ حَسْرَتُهْ وَجَيْشِ هَمٍّ هَزَمَتْهُ كَرَّتُهْ
وَبَدْرِ تِمٍّ أنزلَتْهُ بَدْرتُهْ وَمُسْتَشِيطٍ تَتَلَظَّى جَمْرتُهْ
أَسَرَّ نَجْوَاهُ فَلانَتْ شِرَّتُهْ وَكَمْ أَسِيرٍ أَسْلَمَتْهُ أُسْرَتُهْ

---

(١) البيت لأسماء بن خارجة في لسان العرب (حشأ)، (أوس)، (هبل)، وتاج العروس (حشأ)، (هبل)، وبلا نسبة في تهذيب اللغة ١٣٨/٥، ٣٠٧/٦، ١٣٨/١٣، ومقاييس اللغة ٦٥/٢، وديوان الأدب ٣٨٦/١، والمخصص ٦٦/٨، ويروى «فلأحشأنّكَ» بدل «فلأرمينّك».

أَنْـقَـذَه حَـتَّـى صَـفَـتْ مَـسَـرَّتُـهْ وَحَـقّ مـولـى أَبْـدَعَـتْـهُ فِـطْـرَتُـهْ

* لَوْلاَ التُّقَى لَقُلْتُ جَلَّتْ قُدْرَتُهْ *

* * *

قوله: «اكْرِم به»، معناه ما أكرمه. راقت. أعجبت. جوّاب آفاق: قطّاع بلاد. ترامت سفرته: بَعُدَت غيبته، وسمّى السّفر سفراً، لأنه يُسفر عن أخلاق الرجال، أي يكشفها ويوضّحها، أخذ من قولهم: سَفَرَت المرأة عن وجهها، إذا كشفته وأظهرته، ويقال للمكنسة: مِسْفَرة، لأنها تُسفِر التراب عن الموضع، وسفر بيتَه، كنسه. مأثورة: محدّث بها. سمعته: ذكره المسموع أودعت: ضُمِّنتْ. أسِرّته: خطوط وجهه، أراد نقشه، وأنّ بين أسطاره سرّ الغنى، فمن ملكه ملك الغنى. قارنت: ساوت: النجح: ضد الخيبة. المساعي: المشي في طلب الحوائج. الأنام: الخلق. غُرَّتُه: وجهه؛ قيل لأبي الزناد: مالك تحب الدراهم وهي تدنيك من الدنيا! قال: إنها وإن أدنتْني من الدنيا، فقد صانتني عنها. والنّقرة: القطعة المسبوكة من الذهب والفضة، قبل أن يطبع منها الدراهم والدنانير، وأراد: كأنما قطعت نقرته من قلوب الناس لشدّة حبهم فيه. والنّقرة، إنما تستعمل من الفضة، واستعملها في الذهب لقرب ما بينهما، وأخذه من قول البحتريّ:

فـكـلّ قـلـبٍ إلـيـه مـنـصـرفٌ كـأنّـه مـن جـمـيـعـهـا خُـلِـقَـا[1]

أو من قول ابن الروميّ: **[الطويل]**

* * *

بـه أمسـت الأهـواءُ يـجـمـعـهـا هـوًى كـأنَّ نـفـوسَ النّـاس فـي حـبّـه نَـفْـسُ

أو من قول المتنبي: **[الكامل]**

* * *

فـي خَـطّـه مـن كـلّ قـلـبٍ شـهـوةٌ حـتّـى كـأنَّ مـداده الأهـواءُ[2]

يصول: يقهر ويغلب، وصال الشجاع على قِرْنه، والفحل على إبله، والحمار على أُتُنه صَوْلاً، إذا قهر وعلا وصاح بها. الصّرّة: الخرقة تصرُّ فيها الدراهم. حوته: ضَمّته، يريد أنَّ مَنْ مَلك الدينار صال به على زمانه. تفانت: هلكت. توانت: أبطأت وضعفت عن نصرته. عِترته: قرابته الأدنوْن نضاره: ذهبه. نضرته: حسنه. مغناته: منابه، يقال فلان يغني مغناتك، أي ينوب منابك، ويقوم مقامك، يريد أنه ينوب عن الإنسان في المضايق وينصره. استتبَّت: تمّت واستقامت، والمستتبّ: الطريق البين، قال الشاعر: **[الطويل]**

* عـلـى مـسـتـتـبّ كـالـمـجّـرة تـعـمـل *

(١) البيت في ملحق ديوان البحتري ص ٢٦١٥.
(٢) البيت في ديوان المتنبي ١/ ٢٠.

إمرته: ولايته. مُترف: منعَّم. حسرته: تفجّعه، وحزنه. كَرّته: رجعته، وبدرتِمّ: القمر ليلة الكمال؛ ويريد به شخصاً به يشبه البدر في حسنه ورفعته، فإذا بعثت في طلبه الدينار أنزلته عن مرتبته وتملكته، والبَدْرة: عشرة آلاف درهم مستشيط: غضبان: تتلظّى: تتلهب. جمرته: شدّة غيظه أسرّ: أخفى نجواه: حديثه سراً. شِرّته: حدّته وغضبه، يقول: كم من غضبان شديد الغيظ، مثل حاكم يَصول بصاحب جناية ويهدّده، فإذا رُشِيَ بالدينار وبُعث إليه سرّاً أزال غضبه، وسكنتْ حِدّته. أسلمته، تركته. أسرته: قومه. مسرّته: فرحه أبدعته: أوجدته قبل أن يكون. فطرته: خلقته. التقى: الخوف. جلّت: عظمت.

* * *

ثمَّ بَسَطَ يَدَهُ، بَعْدَمَا أَنْشَدَهُ، وَقالَ: أَنْجزَ حُرُّ مَا وَعَدَ، وَسَحَّ خَالٌ إِذَا رَعَدَ فَنَبَذْتُ الدِّينَارَ إِليهْ، وقُلْتُ: خُذْهُ غيْرَ مَأسُوفٍ عَلَيْهْ، فوَضَعَهُ في فِيهِ، وَقال: بَارِكِ اللَّهُمَّ فِيهِ، ثم شَمَّرَ لِلإنْثِنَاءِ، بَعْدَ تَوْفيهِ الثَّنَاءِ.

* * *

قوله: «أنجز حرُّ ما وعد»، هذا مثل، قاله الحارث آكل المرار ـ وهو جدّ امرىء القيس ـ لصخر بن نهشل بن دارم؛ وذلك أن الحارث قال: يا صخر، هل أدلك على غنيمةٍ على أنَّ لي خمسَها؟ قال نعم، فدلّه على قوم من العرب، فأغار عليهم صخر بقومه فظفروا وغنموا، فحملهم صخر على أن يعطوا الحارث الخمس، فأبوا؛ وكان طريقهم على شِجْعات ـ وهي ثنيّة متضايقة ـ فلما دنوا منها صار إليهم صخر حتى قعد على رأسها، ومنعهم الجواز أو يعطوا الحارث الخمس، فقال حمزة اليربوعيّ: والله لا نعطيه من غنيمتنا شيئاً؛ ومضى في الثنيّة، فحمل عليه صخر فقتله. فلما رأى ذلك الجيش أعطوه الخمس، ففي ذلك يقول نهشل بن حرّيّ بن منجز بن نهشل بن دارم: [**الطويل**]

ونحن منعنا الجيش أن يتأوَّبوا	على شجعاتٍ والجياد بنا تجري
حبسناهُمُ حتَّى أقَرّوا لحكْمِنَا	وأُدِّيَ أنفال الخميس إلى صِخْرِ

فمعنى «أنجز حرُّ ما وعد» أحضر وهيَّأ. وقد نجز الشيء إذا حضر، ولفظه لفظ الخبر، ومعناه الأمر، أراد لينجزْ حُرُّ ما وّعد.

* * *

سحَّ: صبّ وأمطر. خالٌ: سحاب يخيَّل لك أنّ المطر فيه. رَعَد: صوّت؛ يقول لابن همام: إنَّ السحاب إذا سمع الرعد سحَّ بالمطر، وأنت قد أسمعتني ذكر الدينار، ووعدتَني به، فأنْجِزْ لي وعدي.

نبذتُ: رميتُ. مأسوف: محزون. بارك: أي ضع البركة فيه، وقولهم: تبارك الله،

أي تقدَّس وتطهّر، وقيل: هو «تفاعل» من البركة، أي البركة تنال بذكر اسمك. الانثناء: الرجوع. توفيه الثناء: كمال الشكر والمدح.

[في وصف الدينار]

ومّما قيل في وصف الدينار ومدحه: [الكامل]

ومُقَسّم الوجناتِ يبرُق وجهُه ... بادٍ على وجَناتِه عَبَّادُ
جُبِل الأنامُ عَلَى محبَّة حسنِه ... فكأنَّه ربّ وهُمْ عِبَّادُ

وفي مقامات البديع في وصفه: [الرجز]

يا حسنَها فاقعةٌ صفراءُ ... مشرقة منقوشة قَوْراءُ
يكادُ أن يقطرَ منها الماءُ ... قد أثمرتْها همَّة عَليَاءُ
ياذَا الَّذِي بغيته الثُّناءُ ... ما ينقضِي بقدرِكَ الإطرَاءُ

* امض عَلَى الله لك الجزاءُ *

* * *

[الوعد وإنجازه]

وإذ قد فرغت من شرح ألفاظه في إنجاز الوعد في المثل، وما اتّصل به، فلنذكر مذاهبَهم في ذلك.

فأكثرهم على إنجاز الوعد، وقد ذكر فيما هو مستقبل: [المتقارب]

* وبع آجلاً منك بالعاجِلِ *

وقال: وإذا خُيِّرتَ بين ذَرّة منقودة، ودُرّة موعودة فَمِلْ إلى النقد وقال جرير: [الطويل]

إنّي لأرجو منكَ خيراً عاجلاً ... والنَّفسَ مولَعةٌ بحبِّ العاجلِ[1]

قال آخر: [الطويل]

ولا شكَّ أنَّ الخيرَ منك سجيّةٌ ... ولكنّ خير الخير عندي المعجَّلُ

وقال آخر: [الطويل]

أتَى زائراً من غير وعدٍ وقال لي: ... أُجِلُّكَ عن تعذيب قَلْبِكَ بالوَعْدِ

وبعضهم يرى أن يكون بين الوعد الإنجاز مهلة؛ ومنه أنّ منصور بن زياد كلّم يحيى

(١) البيت في ديوان جرير ص ٤٩٥.

ابن خالد في حاجة رجل، فقال له: عِدْه عنّي قضاءها، فقال منصور بن زياد: وما يدعوك إلى العِدةَ مع القدرة! فقال: هذا قول مَنْ لا يعرف موقع الصنائع من القلوب، إنّ الحاجة إذا لم يتقدَّمها وعْد يُنتظَر به نجحُها، لم تتحدّث النفس بسرورها؛ إنّ الوعد مطعَم والإنجاز طعام، وليس من فاجأه طعام كمن وجد رائحته وتطعّمه ثم طعِمه، فدع الحاجة تختمر بالوعد، ليكون لها عند المصطَنع حسْن موقع ولطف محلّ.

قال ابن الكلبيّ لهشام بن عبد الملك: يا أميرَ المؤمنين، لا تصنع إليّ معروفاً حتى تعدَني به، فإنه لم يأتني منك سيْب على غير وعد إلاّ هان عليّ قدره، وقلّ منّي شكره، فقال له: لِمَ قلت ذلك، وقد قال سيّد قومك أبو مسلم الخولانيّ: إنّ أنجح المعروف في القلوب، وأبرده على الأكباد معروف غيرُ منتظَر بوعدٍ لا يكدّره مَطْل.

ووعد المهديّ عيسى بن دأب جارية ثم وهبها له، فأنشده عبد الله بن مصعب الزّبيريّ [قول مضرّس الأسديّ] **[الطويل]**

ولا تيأسنْ من صالحٍ أنْ تنالَهُ وإن كان قِدْماً بين أيدٍ تبادرُه

فقال: يُدفع لعبد الله جارية أخرى، فقال الزّبيريّ:

وأنجزُ خيرِ الناس مَنْ قبل وعده أراحك من مَطْلٍ ومن طولِ كَدِّهِ

فقال له عيسى بن دأب: ما صنعت شيئاً! هلاّ قلت: **[الرجز]**

حلاوة الفضل بوعدٍ ينجزُ لا خيرَ في العرفِ كنهْبٍ يُنْهَزُ

فقال المهديّ: **[مجزوء الكامل]**

الوعدُ أحسنُ ما يكو ن إذا تقدّمه ضمانُ

وقال بعض البلغاء: دع الوعد يركض ثلاثاً، فإن كثير العطاء قبل الوعد قليل، وجليله حقير.

وقال يحيى بن خالد: من لم يبت مسروراً بوعد، لم يجد للصنيعة مطعماً وفيه يقول أبو قابوس النّصرانيّ: **[البسيط]**

رأيتُ يحيى أتمّ الله نعمتَه عليه يأتي الذي لم يأتِهِ أحدُ
ينسَى الّذي كان من معروفه أبداً إلى الرجال ولا ينسى الذي يعِدُ

وقال الحارثيّ: **[الطويل]**

ومـا رَوْضةٌ داريَّةٌ أسديَّةٌ منمنمَةٌ زهراءُ ذات ثرى صَعْدِ
بأحسنَ من حُرّ تضمّن حاجةٍ لحرّ، فأوْفَى بالنّجاح مع الوعْدِ

وقال ابن رشيق: **[السريع]**

أحسنتَ في تأخيرها مِنَّةً لو لم تؤخَّرْ لم تكن كامِلَهْ
وكيف لا يحسنُ تأخيرها بعد يقيني أنها حاصِلَهْ!
وجَنَّة الفردوس يدعَى بها آجله للمرء، لا عاجِلَهْ

وقال رجل لأبي عمرو بن العلاء: وعدتَني بأمر فلم تنجزه! فقال أبو عمرو: من أولَى منّا بالعتب؟ أنا وإلا أنت! قال: أنا؛ قال أبو عمرو: لا والله بل أنا، قال: وكيف؟ قال: لأبي وعدتك وعداً فأنت تفرح بالوعد، فبِتَّ ليلَتَكَ جذلانَ مسروراً وبتُّ أنا بهمٍّ الإنجاز، فبتُّ ليلتي مفكراً مغموماً بما عاق الدّهر من بلوغ الإرادة فيه، فلقيتَنِي مدِلاً ولقيتك مستحيياً.

واعتذر بعضُ الرؤساء لأبي عليّ البصريّ من تأخّر وعد، فقال: في شكر ما تقدَّمَ من إحسانك شاغل عن استبطاءِ ما تأخّر منه.

* * *

فنَشَأَتْ لِي مِنْ فُكاهَتِهِ نَشْوَةُ غَرَام، سَهَّلَتْ عَلَيَّ ائتناف اغْتِرَام، فَجَرَّدْتُ دِينَاراً آخَرَ وَقُلْتُ له: هَلْ لَكَ فِي أَن تَذمَّهُ، ثُمَّ تَضُمَّهُ؟ فأَنشدَ مُرْتجِلاً وَشدَا عجِلاً:

* * *

قوله: «فنشأت»، أي ظهرت وبدت. فكاهة: مزاح. نشوة غرام: سكرة شوق، والغرام: الحربّ المعذّب للقلب. ائتناف: استقبال. اغترام: غرْم. ثم ذكر أن يذمه ثم يضمّه، وقد نظمهما الزاهد بن عمران في قوله: **[الكامل]**

إنّ المؤنة والحسابَ كلاَهما قرنا بهذا الدّرهم المذمومِ
كَلِفَ الأنام بذمّه وبضمّه فتعجّبوا لمذمّمٍ مضمومِ

وقال ابن شرف في الدينار والدرهم: **[الطويل]**

ألاَ رُبَّ شيءٍ فيه من أحرف اسمِه نواهٍ لنا عنه وزجرٌ وإنذارُ
فُتِنَّا بدينارٍ وهِمْنَا بدرهمٍ وآخِر ذاهَمٌّ، وآخِر ذا نَارُ

وقال ابن رشيق: **[المجتث]**

صحّفتُ دالين من دينـ ـارٍ يلوح ودرهْم
فقال لي ذلكم «ذي نار» وذا قال: «ذَرْهم»

وابن رشيق وابن شَرَف أديبَا القَيْرَوان، يَجْمَعهما البلَد والزَّمَان، وكانا مرَّة يتصاحبان، ومرَّة يتباغضان.

وقال ابن رشيق في مدح الدينار والدرهم: **[الوافر]**

صـديـقُ الـمـرء كـالـديـنـار طـبـعـاً وكـيـف يـفـارق الـمـرء الـطـبـاعَـا!
تــراه إذا أقــام يــقــيـمُ جـاهــاً وإن فـارقـتـه أَجْـدى انـتـفـاعَـا

أخذه من قول كُشاجم: [الرمل]

ومـــريـــدٍ مَـــن أبـــاه ومـــهـــيـــنٍ مـــن أجَـــلَّـــهْ[١]
فـهـو كـالـدّيـنـار لا يُـكـ ـرِمُ إلا مـــن أذلَّـــهْ

وقال آخر: [البسيط]

الـنـارُ آخـر ديـنـارٍ نـطـقـتَ بـه والـهـمّ آخـر هـذا الـدِّرهـم الـجـارِي
والـمـرء مـا لـم يـفـد مـن غـيـره ورعـاً مـقـسّـم الـقـلـب بـيـن الـهـمّ والـنَّـارِ

قوله: «مرتجلاً»، أي من غير تفكر. شدا: ابتدأ الغناء وطرّب بنشيده [الرجز]

* * *

تــبًّــا لَــهُ مِــنْ خــادِعٍ مُــمــاذقِ أَصْـفَـرَ ذِي وَجْـهَـيْـن كَـالـمُـنَـافِـقِ
يـبـدو بِـوَصْـفَـيْـنِ لِـعَـيْـنِ الـرَّامِـقِ زيـنـةِ مَـعْـشُـوقٍ وَلَـوْنِ عَـاشِـقِ
وَحُـبُّـهُ عِـنْـدَ ذَوِي الـحـقـائِـقِ يَـدْعُـو إِلَـى ارْتِـكـاب سُـخْـطِ الـخـالِـقِ
لَـوْلاَهُ لَـمْ تُـقْـطـعْ يَـمِـيـنُ سـارِقِ وَلاَ بَـدَتْ مَـظْـلِـمَـةٌ مِـنْ فَـاسِـقِ
وَلا اشـمـأَزَّ بـاخِـلٌ مـن طـارِقِ وَلا شـكـا الـمـمـطـول مَـطْـلَ الـعـائـقِ
وَلا اسْـتُـعِـيـذَ مـن حـسـودٍ رَاشِـقِ وَشَـرُّ مَـا فِـيـهِ مِـنَ الـخَـلاَئِـقِ
أَنْ لَـيْـسَ يُـغْـنِـي عَـنْـكَ فِـي الـمَـضـايـقِ إلاَّ إِذَا فَـــرَّ فِـــرَارَ الآبِـــقِ
واهـاً لِـمَـنْ يَـقْـذِفُـهُ مـن حَـالِـقِ وَمَـنْ إِذَا نَـاجَـاهُ نَـجْـوَى الْـوَامِـقِ
قَـالَ لَـهُ قَـوْلَ الـمـحـقِّ الـصَّـادِقِ: لاَ رأى فـي وَصِـلـكَ لِـي فَـفَـارِقِ

* * *

تباً: أي خسراً. مماذق: لا يصفو ودّه لصاحبه، وقد مذَقَ وُدّه، إذا لم يخلصه، ومذق اللبن: خلطه بالماء، والمذيق: المخلوط. أصفر ذي وجهين، قال أبو هُريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «شرّ النّاسِ ذو الوجهين، يأتي هؤلاء بوجهٍ، وهؤلاء بوجهٍ»[٢].

---

(١) البيتان في ديوان كشاجم ص ١٥٣.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب باب ١، والأدب باب ٥٢، والأحكام باب ٢٧، ومسلم في البر حديث ٩٨، ٩٩، وأبو داود في الأدب باب ٣٤، والترمذي في البر باب ٧٨، ومالك في الموطأ كتاب الكلام، حديث ٢١، وأحمد في المسند ٢/ ٢٤٥، ٣٠٧، ٣٣٦، ٤٥٥، ٤٦٥، ٤٩٥، ٥١٧، ٥٢٥.

ووقع هذا في نثر البديع، قال في مخاطبة أبي الفتح عيسى: أظعناً تريد؟ قلت: إي والله، قال: أخْصَبَ رائدُك، ولا ضلّ قائدك، فمتى عزمت؟ قلت: غداةِ غدٍ، فقال: [الوافر]

صباحُ الله لا صبحُ انطلاقِ وطيرُ الوصل لا طير الفراقِ
وقال السَّعد لا يعدوكَ دأباً يصاحبكم إلى يومَ التَّلاقي

فأين تريد؟ قلت: الوطنَ، قال: بُلِّغْتَ الوطن، وقضيتَ الوطر، فمتى العود؟ قلت: القابل، فقال: طويتَ الرَّيط[1]، وثنيت الخيط، فأين أنت من الكرَم؟ قلت: بحيث أردتَ، فقال: إذا رجعك الله سالماً من هذا الطريق؛ فاستصحب لي عدوّاً في ثياب صديق، من نجار الصُّفر، يدعو إلى الكفر، ويرقص على الظُّفْر، كدارة العين، يحطّ ثِقَلَ الديْن، وينافق بوجهين. فعلمت أنه يلتمس ديناراً، فقلت: ذلك لك نقداً، ومثله وعداً، فأنشأ يقول: [مخلع البسيط]

رأيك مـمّا خطبتُ أَعْلَى لا زلتَ للمكرُمات. أهلا
صَلُبْتَ عوداً، ودمت فرداً وطبت فرعاً وطبت أصلاً
يا واحدَ الدهر والمعالي لا لَقِيَ الدَّهر منك ثُكْلاً

قوله: «عدوًّا في ثياب صديق» من قول أبي نواس: [الطويل]

إذا امتحنَ الدّنيا لبيبٌ تكشّفَتْ لَهُ عن عدوٌ في ثياب صديقِ[2]

قوله: «الرامق» أي الناظر، ورمقت الشيء رمقاً أتبعت النظر إليه. وزينة المعشوق التي في الدينار: نقشه وتزيينه، ولون العاشق: صفرته، فالناظر في الدينار يرى في الظاهر زينَته فيهواه، فيقع على ما وقع عليه باطن العاشق من العذاب والغرام، ويدلّ على ذلك صفرته الظّاهرة عليه. وقال ابن ظفر: زينة المعشوق غرور مدعاة إلى التهوّر في الغرام، ولون العاشق وهو الأصفر دليل على ما أسرّ من شاغف الكلف، فالغافل ينظر من الدينار مثل زينة المعشوق مجرَّدة عن عاقبتها، فيصيده الهوى، والعاقل ينظر منه إلى لون العاشق، فيستدلّ على باطن الجوى ذوي الحقائق، يعني أهل الرشد والعلم، والذين ينظرون إلى ما في الدنيا بعين الحقيقة.

ثم لولا حبّ الدنيا ما سرق السارق، فيستوجب قطع يدِه، أو بعض أعضائه، واليد يجب قطعها بربع دينار ذهب. ومن مُلَح السّرقة أن الجاحظ حكى أن رجلين كان أحدهما أيمنَ، والآخر أعسر، فكان الأيمن يفخر على الأعسر، فأخذا في سرقة، فقطِعت أيمانهما، فكان الأعسر يعمل بيساره أعمالَه كلها، والأيمن لا يستطيع أن يعمل بيساره

(١) الريط: جمع ريطة، وهي الملاءة.
(٢) البيت في ديوان أبي نواس ص ١٩٢.

شيئاً، ففخر الأعسرُ عليه بذلك، فقال له الأيمن: ما علمت أنَّ للأعسر فضيلة إلا أن يَسْرِق فيؤخذ فتقطع يمينه.

الفاسق: الخارج عن الطاعة إلى ركوب المعصية أو عن الإيمان إلى الكفر، أُخِذَ من فَسَقَت الرطبة، إذا خرجت من قشرها. وقال قوم: الفاسق الجائر، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿**إلا إبليسَ كان من الجِنّ ففسَقَ عن أمر ربه**﴾ [الكهف: ٥٠]، أي جار، عنه قال رؤبة: **[الرجز]**

يَهْوِينَ في نجدٍ وغَوْرٍ غائرا   فواسقاً عن قَصْدِها جوائِرَا[1]

اشمأزّ: انقبض. باخل: شحيح، وبخيل أكثر من باخل. طارق: قاصد بليل. المَطْل: تأخير الحق الواجب، وأصله من مَطل القَينُ الحديدَ في النار، إذا مدَّه وطوَّله. العائق: الحابس، وقد عاقه عن الشيء إذا حبسه. راشق: عائن، وأصله الرامي، فجعله للذي يصيب الناس بعينه. واستُعيذ: قرىء عليه المعوّذتان، وهما: ﴿**قل أعوذ برب الفلق**﴾، و ﴿**قل أعوذ برب الناس**﴾. الخلائق: الطبائع، واحدتها خلِيقة. الآبق: الهارب، وأبَقَ العبد يأبِق إباقاً: زال عن مولاه، وفي معنى فراق الدينار فوق الأخطل: **[الوافر]**

ومعشوق يرقص كلَّ يوم   ترى في وجهه أبداً كلامَا
إذا فارقته أجداكَ خيراً   ولا يجدي عليك إذا أقامَا

وهذا من قولِ الحسن البصريّ، وقد رأى رجلاً يقلّب درهماً، فقال له: أتحبّ درهمك هذا؟ قال: نعم، قال: فإنه ليس لك حتى يخرج من يدك.

واهاً: تعجّب، معناه ما أعجب مَنْ يقذفه. حالق: جبل أملس مُنيف. ناجاه: حدّثه سرًّا. الوامق: المحبّ، وقد ومق يَمِقَ مِقَةً المحقّ: القائل الحق.

***

فَقُلْتَ لَهُ: ما أَغْزَرَ وَبْلَكَ! فَقَالَ: وَالشَّرْطُ أَمْلَكُ، فَنَفَحْتُه بالدِّينَارِ الثَّانِي، وقُلْتُ لهُ: عَوِّذْهُمَا بالمَثَانِي، فأَلْقَاهُ فِي فمهِ، وَقَرنَهُ بِتَوْءَمِهِ، وَانْكَفَأَ يَحْمَدُ مَغْدَاه، وَيَمْدَحُ النَّادِيَ وَنَدَاهُ.

***

(١) الرجز لرؤبة في ملحق ديوانه ص ١٩٠، وأساس البلاغة (فسق)، وللعجاج في ملحق ديوانه ٢/ ٢٨٨، والكتاب ١/ ٩٤، وبلا نسبة في لسان العرب (فسق)، وتهذيب اللغة ٨/ ٤١٤، وتاج العروس (فسق)، وجواهر الأدب ص ٣٣، والخصائص ٢/ ٤٣٢، وشرح التصريح ١/ ٢٨٨، وشرح شذور الذهب ص ٤٣١، والمحتسب ٢/ ٤٣.

قوله: «ما أغزر وَبْلك»، أي ما أكثر بلاغتك. وأمَلك: ألزم وأحقّ، يريد أن شرطك الذي شرطت من إعطائي ديناراً آخر إن ذممتِه، قد لزمك بذمِّي له. والشرط أملَك مثل، وأول من قاله الأفعى الجرهميّ، وكان حكيماً للعرب، فتحاكم إليه خصمان، فاشترط أحدهما وأراد ألاّ يلتزمه، فقال الأفعى: الشرط أملك، وتقديره الشرط أملك لأمرك منك.

نفحته: رميته. عوّذهما: رقاهما. والمثاني: أمّ القرآن، سميت بذلك لأنها تثني في الصلاة، واحتصّها لأنه أشار عليه أن يحمد الله على أخذ الدينار، فكأنه قال: اقرأ الحمد لله رب العالمين، شكراً لله عليهما وتعويذاً لهما.

وهذا كما قال ابن رشيق في غلام جميل: [السريع]

معتدل القامة والقدِّ ... مورّد الوجنة والخدِّ
لو وضع الوردُ على خدّه ... ما عرف الخدّ من الوردِ
قل للّذي يعجب من حُسْنه ... اقرأ عليه سورة الحمدِ

وله في مثله: [السريع]

شكوت بالحبّ إلى ظالمي ... فقال لي مستهزئاً: ما هو!
قلت: غرام ثابت، قال لي: ... اقرأ عليه «قل هو الله»

وقال أبو عبيد: المثاني في كتاب الله ثلاثة أشياء: القرآن، سمّاه الله المثاني في قوله تعالى: **﴿كتاباً مُتَشَابِهاً مثاني﴾** [الزمر: ٢٣]، وسّمى الفاتحة «مثاني» في قوله: **﴿سَبْعاً من المثاني﴾** [الحجر: ٨٧] وروى عثمان وابن عباس وابن مسعود عنه ﷺ. «إن المثانيَ من السور ما دون المئين»، كأنها جعلت مبادىء والتي تليها مثاني.

قوله: «بتوءمه»، أي بأخيه، يعني الدّينار الأول. انكفأ: انقلب وولّى، معناه بكوره وسيره في الغدوّ. النادي ونداه: المجلس وكرم أهله.

[مدح الأشياء وذمّها]

ونريد أن نأتيَ بفصل في مدح الشيء وذمّه على حكم ما مدح الحريريّ الدّينار وذمّه، ونبيّن مذهب العرب وأهل الأدب في ذلك، فقد ألّف ابن رشيق فيه كتاباً جلبت في هذا الكتاب عيونه.

قال أبو عثمان الجاحظ: العربيّ يعاف الشيء ويهجو به غيره، فإن ابتِليَ به فخر به، ولكنه لا يفخر به لنفسه من جهة ما هجا به غيرَه، فافهم هذا؛ فإنّ الناس يغلطون على العرب، ويزعمون أنّهم يمدحون بالشيء الذي يهجون به، وهذا باطل؛ ليس شيء إلا وله وجهان، فإذا مدحو ذكروا أحسنَ الوجهين، وإذا ذمّوا ذكروا أقبح الوجهين.

قال ابن رشيق: وأكثر ما تجري هذه الممادح والمذامّ على جهة المنافقة، لا على جهة المناصفة، ومن باب المسامحة لا من باب المشاححة، وإلاّ فالشيء لا يوافق ضده، فيكون الحسن قبيحاً في حالة واحدة، والمدح ذمًّا لمعنى واحد، لكن لكلّ شيء ـ كما ذكر الجاحظ ـ مساوىء ومحاسن؛ كما فعل عمرو بن الأهتم بين يدي رسول الله ﷺ وقد استشهده الزِّبرقان بن بدر على ما ادّعاه من الشرف في قومه، قال عمرو: أجل يا رسول الله، إنه مانعٌ حوْزته، مطاع في أنديته، شديد العارضة. فقال الزبرقان: أما والله لقد علم أكثر مما قال؛ ولكن حسدني شرفي، فقال عمرو: أما وقد قال ما قال، فوالله ما علمتُه إلا ضيِّق الطَعَن زِمِرَ المروءة، لئيم الخال، حديث الغنى فرأى الكراهة في عين رسول الله ﷺ لمّا اختلف قوله، فقال: يا رسولَ الله، رضيتُ فقلت أحسنَ ما علمت، وغضبت فقلت أقبح ما علمت؛ وما كذبت في الأولى، ولقد صدقت في الثانية، فقال رسول الله ﷺ: «إن من البيان لسحراً، وإن من الشعر لحكمة»[1].

وكتب يزيد بن معاوية في صدر كتابه إلى عبيد الله بن زياد ـ وقد ولاّه محاربةَ الحسين بن عليّ رضي الله عنهما ـ وكان قبل ذلك يسيء الرأي فيه: أمّا بعد، فإن المسبوب يوماً ممدوح، وإنّ الممدوح يوماً مسبوب.

ويروى أن عيسى عليه الصلاة والسلام لم يَعِبْ شيئاً قط، فمرّ يوماً بكلب ميّت، فقال أصحابه: ما أنتنَ ريحه! فقال عيسى عليه الصلاة والسلام: ما أحسن بياض أسنانه!.

وقالت للحضين بن منذر امرأة: كيف سدتَ وأنت دميم بخيل! فقال: لأني سديد الرأي، شديد الإقدام.

وقال مسلمة بن عبد الملك لأخيه هشام: كيف تطمع في الخلافة وأنت بخيل، وأنت جبان! فقال: لأني حليم، وأنا عفيف؛ فسلّم لعائبه ما ادّعاه من مساوئه، وذكَر من محاسنه ما لم ينازَعْ فيه.

صعد خالد بن عبد الله القسريّ مِنبر مكة يوم الجمعة، وهو أمير للوليد بن عبد الملك بن مروان، فأثنَى على الحجّاج خيراً، فلما كانت الجمعة الثانية وقد مات الوليد، ورد عليه كتاب سليمان يأمره بشتْم الحجَّاج وذكْر عيوبه، وإظهار البراءة منه، فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إنَّ إبليس كان يُظهر من طاعة الله عزّ وجلّ ما كانت الملائكة ترى له به عليهم فضلاً، وكان الله قد علم من غشِّه ما خَفِيَ عن الملائكة، فلما أراد الله فضيحَته ابتلاه بالسُّجود لآدم، فظهر لهم ما كان يخفيه منهم، فلعنوه. وإنَّ

---

(١) روي بطرق وأسانيد متعددة، أخرجه البخاري في الأدب باب ٩٠، والترمذي في الأدب باب ٦٩، وابن ماجه في الأدب باب ٤١، والدارمي في الاستئذان باب ٦٨، وأحمد في المسند ١/ ٢٦٩، ٢٧٣، ٣٠٣، ٣١٣، ٣٢٧، ٣/ ٤٥٦، ٥/ ١٢٥.

الحجّاج كان يظهر من طاعة أمير المؤمنين ما كنّا نرى له به فضلاً، وكان الله قد أطلع أمير المؤمنين من غِلّه وغشّه على ما خفيَ عنّا؛ فلما أراد فضيحته أجرى ذلك على يد أمير المؤمنين فالعنوه لعنة الله. ثم نزل.

ومرّ غيلان بن خرَشة الضّبّي مع عبد الله بن عامر بنهر أم عبد الله الذي يشقّ البصرة، فقال عبد الله: ما أصلحَ هذا النّهر لأهل هذا المصر! فقال غيلان: أجل والله أيّها الأمير؛ يتعلّم العَوْمَ فيه صبيانُهم، ويكون لسقائِهم ولسيل مِياههم، ويأتيهم بميرتِهم؛ ثم عاد ابن عامر فساير زياداً عليه، فقال زياد: ما أضرّ هذا النهر لأهل هذا المِصر! فقال: أجلْ والله أيّها الأمير، تنزّ منه دورهم، ويغرق فيه صبيانهم، ويكثر لأجله بَعوضهم.

ومدح الجاحظ العَروض، فقال: هو ميزان الشّعر ومعيارُه، به يعرَفُ الصحيح من السقيم، والعليل من السليم، وعليه مدار القريض والشعر، وبه يُسلَم من الأوَد والكسر. ثم ذمّه فقال: هو عَلْم مولّد، وأدب مستبرَد، ومذهب مرفوض، تستنكره العقول، مستفعلن فعول، من غيره فائدة ولا محصول.

وكان العباس بن عليّ عمّ المنصور يأخذ الكأس بيده، ثم يقول: أمّا النفس فتسمحين، وأما الهمّ فتطردين، أفتراك منّي تُفْلتين! ثم يشربها.

وشكا أبو العنياء حاله إلى عبد الله بن سليمان، فقال: أليس قد كتبنا لك إلى إبراهيم بن المدبّر! قال: كتبتَ إلى رجل قد حَصَر من همّته طول الفقر، وذلّ الأسر، ومعاناة مِحَن الدهر، فأخفقت في طلبتي. قال: أنت اخترته، قال: وما عِلمي أعزّ الله الامير في ذلك! قد اختار موسى قومه سبعين رجلاً وما كان منهم رشيد، واختار رسول ﷺ ابن أبي سرّح كاتباً فرجع إلى المشركين مرتدًّا، واختار عليّ رضي الله عنه أبا موسى حَكَماً، فحكم عليه.

* * *

قَال الحَارِثُ بن هَمَّام: فنَاجانِي قَلْبِي بَأَنَّهُ أَبُو زَيْدِ، وَأَنَّ تَعَارُجَه لِكَيْدٍ. فاستعدتُه وَقُلْتُ لَهُ: قَدْ عُرِفَتَ بِوَشْيِكَ، فاسْتَقِمْ فِي مَشْيِكَ. فقال: إن كُنْتَ ابنَ هَمَّام، فحُيِّيتَ بإِكْرَام، وَحَيِيت بَيْن كِرَام. فقلت: أنا الحَارِث، فكيفَ حَالُكَ وَالحَوَادِث؟ فقال: أَتَقَلَّبُ فِي الْحَالَيْنِ: بُؤسٍ وَرَخَاءٍ، وَأَنْقَلِبُ مَعَ الرِّيحَين: زَعْزَعٍ وَرُخَاءٍ. فقلْتُ: كَيفَ ادَّعَيْتَ الْقَزَلَ، وَمَا مِثْلُكَ مَنْ هَزَلَ! فاسْتَسَرَّ بِشْرُهُ الَّذِي كَانَ تَجَلَّى، ثم أَنشَد حِينَ وَلَّى: **[المتقارب]**

تَعَارَجْتُ لاَ رَغْبَةً فِي الْعَرَجْ ... وَلَكِنْ لأَقْرَعَ بَابَ الْفَرَجْ

وَأُلْقِيَ حَبْلِي عَلَى غَارِبِي ... وَأَسْلُكَ مَسْلَكَ مَنْ قَدْ مَرِجْ

فـإن لاَمَـنِـي الْـقَـوْمُ قُـلـتُ اغـذِرُوا　　فـلَـيْـسَ عَـلَـى أَعْـرجِ مِـنْ حَـرَجْ

* * *

قوله: «فاستعدته»، أي قلت له أعد عليّ. عرفتَ بوشيك، أي عرفت بحسن كلامك وتزيينه. استقم استعْدِل وأَزِلْ عوِجك. حُيِّيت: طال بقاؤك، والتحية البقاء: حَييت: عشت. والحوادث: ما يحدث من الخير والشر. بؤس: شدّة العيش. رخاء: لينه وسعته. زعزع: ريح شديدة تحرّك الشجر وتقلعه. والزعزعة: تحريك الشيء إذا أردت قلعه. رخاء: ريح ليِّنَة سريعة، من الإرخاء في السِّير، وهو عَدْوٌ فوق التقريب، وناقة مِرْخاء: سريعة القزَل: أسوأ العرَج، وقد قزل قَزَلاً.

وهَزل هَزْلا: ترك الجِدّ في قول أو فعل، يقول: كيف تحيّلت بالعرَج ومثلك لا يهزِل ولا يقع في هذه النقيصة! فهو يهزأ به، فغضب عند ذلك استسرّ بشرُه: زال عنه سماحُه وطلاقة وجهه. تجلّى: ظهر. ولّى: ذهب.

قوله: «أقرع»، أي أضرب. الفرج: كشف الهمّ. ألقي حبلي على غاربي: أي أسرح وأمشي حيث أحببت، والعرب تطلق هذا اللفظ، فتقول للمرأة: حبلُك على غاربك، أي أنت مسيَّبة فتوجَّهي حيث شئت لا مانع لك ولا حابس، والغارب: ما انحدر من السَّنام، والحبل هو الذي يُعقل به البعير، فإذا سرَّحوه حلّوا عقالَه وألقوْه على غاربه، قال ابنُ الأنباريّ: أصله أن يلقى على حبل الناقة على غاربها فتفزع، ولا ترعَى إذا لم تره على الأرض.

أسلك مسلك، أي أدخل مدخل، والمسلك: الطريق. مرَج: خلط الجدّ بالهزل. حرج: إثم والله تعالى أعلم.

المقامة الرّابعة

وهيَ الدِّمياطيّة

أخْبَرَالحَارثُ بنُ هَمَّام قال: ظَعَنْتُ إلى دِمْياط، عَامَ هياطٍ ومِياطٍ؛ وَأَنا يَوْمَئِذ مَرْمُوقُ الرَّخاءِ، مَوْمُوقُ الإخَاءِ، أَسْحَبُ مطَارِفَ الثَّرَاءِ، وأَجْتَلِي معَارِفَ السّراءِ. فرَافَقْتُ صَحْباً قَدْ شَقُّوا عَصَا الشِّقَاقِ، وَارْتَضَعُوا أَفاويقَ الْوِفاقِ؛ حَتَّى لاَحُوا كأَسْنَان الْمُشْطِ في الاستواء، وَكالنَّفْسِ الواحدة في التئام الأَهْوَاءِ. وَكُنَّا معَ ذَلِكَ نَسِيرُ النَّجاءَ، وَلاَ نَرْحَلُ إلاّ كلَّ هَوْجَاء، وَإِذَا نَزَلْنَا منْزِلاً، أَوْ ورَدْنَا منهْلاً، اخْتَلَسْنَا اللَّبْثَ، وَلَمْ نُطِلِ الْمُكْثَ، فَعنَّ لَنَا إعمال الرِّكابِ، فِي لَيْلَة فتيَّةِ الشَّبابِ، غُدَافيَّةِ الإهابِ. فأَسْرَينا إلَى أَنْ نَضا اللَّيْلُ شبَابَهُ، وَسَلَتَ الصُّبْحُ خِضابَهُ.

* * *

قوله: «ظعنت»، أي رحلت، والظعن ضدّ الإقامة.

دمياط: بلد بينه وبين مصر ثلاثون فرسخاً، وهي على ساحل البحر الملح، وإلى دمياط ينتهي ماء النيل، فيفترق منها فيخرج بعضه إلى بحيرة تنِّيس، وهي بحيرة تجري فيها السفن والمراكب العظام، ويخرج بعضه إلى البحر، وبها تعمل الشروب، وقد ذكرنا ذلك عند تِنّيس.

قوله: «هياط»: صياح، وتهايط القومُ: اجتمعوا ودبَّروا أمْرَهم. مِياط: دفاع، أي كان عام هَرْج وخِلاف. مرموق: منظور إليه، الرخاء: سعة المال مومُوق: محبوب. أسحب: أجرُّ. مطارف: ثياب لها أعلام في أطرافها أجتلى: أنظر. معارف: وجوه. السرّاء: الغنى والسرور. رافقت: صحبت في السفر. والصَّحْب: الأصحاب الشّقاق: الخلاف، ومعنى شقُّوا عصاه، أزالواه وطرحوه، والعرب تقول: شقّ فلان العصا، إذا ترك الطاعة وخرج مبايناً، قال أبو عبيد: العصا تُضرب مثلا للاجتماع، وانشقاقها يُضرب مثلاً للافتراق الّذي لا اجتماع بعده. أفاويق: جمع أفواق، وأفْواق جمع فُواق، وهو ما بين الحلْبتين والوفاق: ترك الخلاف، وقد وافقته موافقةً ووِفاقاً.

قوله: «لاحوا» أي ظهروا. والعرب تضرب المثل بأسنان المُشط، وهو يقع على كلّ استواء في أيّ حال كان، قال النبي ﷺ: «الناس كأسنان المُشط، وإنما يتفاضلون

بالعافية»، فإن أرادوا الاستواء في الشرّ قالوا: سواسية كأسنان الحمار، وقال كثيّر يهجو بني ضمرة: **[الطويل]**

فسائل بقومي كل أجْرَدَ سابحٍ وسلْ غنماً رُبّي بضمْرة أو سَخْلا[1]
سواء كأسنان الحِمار فلا ترى لذى كِبْرَةٍ منهم على ناشيءٍ فَضْلا

التئام: اجتماع واتّفاق. الأهواء: جمع هوى، وهو ما تحبُّه وتميل إليه النفس، فأراد أنّ أغراضَهم متّفقة. النَّجاء: السير السريع. نرحل: نشدّ عليها الرَّحْل ونشخص بها. هوجاء: ناقة سريعة، كأنَّ بها هَوَجاً وهو الحمق، لسرعة مشيها. وردنا منهلاً: أتينا ماءاً نَنزل عليه، والنَّهَل: المشرب الأوّل، والعَلَل الثاني؛ وذلك أنّ الإبل تَرِدُ الماء فتشرب منه، ثم تخرج ترعى ساعة وتستريح، وتسمِّي تلك الاستراحة الرِّعي التَّمرئة، ثم ترد مرَّة أخرى فتشرب الماء، فالشرب الأولَ نَهَل، والثاني عَلَل. والمَنْهل: موضع النّهل. والورود: قصد الماء.

اختلسنا: استرقنا. اللبث: الإقامة، ومثله المُكْثِ، أي لا يستقرّون بموضع ينزلون فيه إلا قليلاً. والرِّكاب: الإبل؛ وإعمالها: استعمالها. فَتِيَّة الشباب: صغيرة السن، وأراد أنها طويلة سوداء لا قمر فيها، لأن شعر الشباب أسود، ويريد أنها أول الشهر، فهي كالفتيّة، والليلة أوّل الشهر سوداء. غُدافيّة: منسوبة إلى الغُداف، وهو الغراب لسواده، والإهاب: الجلد، وأراد لونها أسْرينا: مشينا بالليل، ويقال: سرى وأسرى. نَضَا الليل شبابه، أي أزال ظلامه، ونضا ثوبه: جَرَّده عنه، ومثله: سَلَت خضابه، وأراد أن الصبح بيَّض الظلام بضوئه، وسلَت الشيء سَلْتاً؛ أزاله عمّا علق به، والمرأة خضابها كذلك، وسيأتي ذكر الصبح آخر المقامة.

[مما قيل في سواد الليل]

وينظر في سراه مع صحبه في سواد الليل إلى قول ابن شهاب: **[الخفيف]**

وفُتوٌ أسرَوْا وقد عكف اللَّيْـ ـل وأقْعى مُغْدَودِفَ الأطْنابِ
وكأنَّ النجوم لمَّا هدتهُم أشرقتْ كالعيون من أهْدَاب
يتفرّون جَوْز كلِّ فلاةٍ جُنْح ليلِ جَوْزَاؤهُ من رِكابِ
عنَّ ذكرى لمدحهم فتناهَوْا من حديثي في عرض أمر حِجَابِ
همّةٌ في السّماء تسحب ذيلاً منْ ذيول العُلا وجدّ الرِّكابِ

ومما جاء في سُرى الليل قول عبد الصّمد بن المعذّل، وهو من حسَن الاستعارة: **[المتقارب]**

---

(١) البيتان في ديوان كثير عزّة ص ٣٨٤، والبيت الثاني في لسان العرب (سوا).

أقولُ وجنحُ الدُّجى مُلْبَدُ ... وللّيل في كلّ فجٍّ يدُ

ونحن ضجيعان في مسجدٍ ... فلِلّه ما ضمن المسجِدُ!

فيا ليلة الوصل لا تبعَدى ... كما ليلة الهجر لا تبعدُ

ويا غد إن كنت لي راحماً ... فلا تدنُ من ليلتي يا غَدُ

وقال ابن المعتزّ: **[مخلع البسيط]**

يا ربّ ليل حالكِ الجلباب ... ملتحفٍ خافيَتيْ غرابِ

وما أحسن قول ابن شِهيد في وصف الليل: **[الطويل]**

وبتنا نراعي اللَّيل لم نطوِ بُرْدَهُ ... ولم يجن شيبُ الصبح من فَرْعِه وَخْطَا

تراه كَمْلك الزَّنج من فرطِ كِبْره ... إذا رام شيئاً في تأخّره أبطَا

مطلاً على الآفاق والبدرُ تاجُه ... وقد عَلَّق الجوزاء في أذنه قُرْطَا

وقال حبيب: **[الطويل]**

إليك هتَكنا جُنْحَ ليلٍ كأنَّه ... قد اكتحلت منه البلاد بإثمدِ[(١)]

وقال ذو الرّمة: **[الكامل]**

ودوِّيَة مثل السماء اعتَسفتُها ... وقد صبغ الليلُ الحَصى بسوادِ[(٢)]

وقال أيضاً **[الطويل]**

وليل كجلباب العَروس ادّرعتُه ... بأربعةٍ والشخصُ في العين واحدُ[(٣)]

أحمّ غُدافيٌّ، وأبيض صارمٌ ... وأعيسُ مَهريٌّ، وأرْوَعُ ماجدُ

وقال البحتريّ: **[الخفيف]**

يا خليليّ بالهواجر من مَعْـ ... ـنِ بن عوفٍ وبُحتر بن عَتُودِ[(٤)]

اطلبَا ثالثا سوايَ، فإنِّي ... رابعُ العِيس والدُّجى والبِيدِ

---

(١) البيت في ديوان أبي تمام ص ١٠٣.

(٢) البيت في ديوان ذي الرمة ص ٦٨٥، وشرح شواهد الإيضاح ص ٣٨٢، وهو بلا نسبة في شرح شذور الذهب ص ٤١٥.

(٣) يروى صدر البيت الأول:

وليلٍ كأثناء الرُّويزيّ جُبْتُه

والبيتان لذي الرمة في ديوانه ص ١١٠٨، وأساس البلاغة (روز)، وتاج العروس (روز)، والحيوان ٣/ ٢٥٠، ولسان العرب (روز).

(٤) البيتان في ديوان البحتري ص ٦٣٣.

وقال السَّلاميّ: [الطويل]

إليكَ طَوَى عَرْضَ البسيطةَ عاجلاً قطارُ المطايا أن يلوح لها القَصْرُ
وكنت وعزمي في الظَّلامِ وصارِمي ثلاثةَ أشباح كما اجتمع النَّسْرُ
وبشَّرْت آمالِي بملْكٍ هو الورَى، ودارٍ هي الدُّنيا، ويومٍ هو الدَّهرُ

فالبيت الأوَّل والثاني نحو بيت البحتريّ، والبيت الثالث نحو بيت ذي الرّمة في التقسيم، وبمثل هذا الكلام يمتدَح الملوك وإلاّ فلا. ولمَّا مدح عضدَ الدولة بلّغه به من المكانة الغاية القصوى، وفُتِن بشعره، حتى كان يقول: إذا رأيتُ السَّلاميّ في مجلسي، ظننت أنّ عطارداً نزل من السماء. وسنذكر من شعره ما يحسن.

* * *

فحين مَلَلْنَا السُّرَى، وَمِلْنا إلى الْكَرَى، صَادَفْنَا أَرضاً مُخضلَّةَ الرُّبَا، مُعْتَلَّةَ الصَّبَا، فتخيَّرْنَاهَا مُنَاخاً للعِيسِ، وَمَحَطًّا للتَّعْرِيسِ، فَلَمَّا حَلَّهَا الخَلِيطُ، وَهَدَأ بِهَا الأَطِيطُ وَالْغَطِيطُ، سَمِعتُ صَيِّتاً مِنَ الرِّجَالِ، يَقُولُ لِسَمِيرِهِ في الرِّحَالِ: كَيْفَ حُكْمُ سِيرَتِكَ، مَعَ جِيلِكَ وَجيرَتِكَ؟.

* * *

قوله: «السرى»، أي السير بالليل. الكرى: النوم. مخضلّة: مبتلّة بالنَّدى. الرُّبا: الكُدى، واحدها ربوةٌ. معتلّة الصّبا، أي ليِّنة الريح. مناخاً: منزلاً العِيس: الإبل يخالط بياضها حمرة. محطًّا: منزلاً تحطُّ به الأحمال. التعريس: النزول بالليل في آخره، وهذا التخيُّر الذي ذكر لهذه الأرض، منتزَعٌ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبيّ ﷺ أنه قال: «إذا كانت أرض مخصبة فتقصّدوا في السير وأعطُوا الركاب حقّها، فإن الله رفيق يحبّ الرفق، وإذا كانت مجدبةً فألحُّوا عليها، وعليكم بالدّلجة، فإنّ الأرض تُطوى بالليل، وإياكم والتّعريس على ظهر الطريق، فإنه مأوى الحيَّات ومدارج السباع»[1].

الخليط: الأصحاب. هَدَأ: سكن. الأطيط: أصوات الإبل، والغطيط: أصوات الناس النِّيام. صيِّتاً: جهير الصوت. سميره: رفيقه الذي يسمُر معه بالحديث. الرِّحال: منازل المسافرين، سمِّيت رحالاً باسم الرِّحال التي توضع فيها، والرَّحْل: اسم لما يحمِله البعير من حمله وقَتَبِه وما يوطّأ به تحت الحمل. سيرتك: عادتك. جيلك: أهل عصرك. جيرتك: جيرانك.

* * *

فقال: أرْعَى الْجَارَ، وَلَوْ جَارَ، وَأَبْذُلُ الوِصَالِ لِمَنْ صَالَ وأحتملُ الْخَلِيطَ،

(١) أخرجه ابن ماجه في الطهارة باب ٢١، ومالك في الاستئذان حديث ٣٨، برواية: «إياكم والتعريس على جواد الطريق».

وَلَوْ أَبْدَى التَّخلِيط، وَأَوَدُّ الْحَمِيمَ، وَلَوْ جَرَّعَنِي الحَمِيمَ، وأُفَضِّلُ الشَّفِيقَ، عَلَى الشَّقِيقِ، وأَفِي لِلْعَشِير، وَإِنْ لَمْ يُكافِىء بالْعَشِيرِ، وَأَسْتَقِلُّ الْجَزِيلَ، للنّزِيلِ، وَأَغْمُرُ الزَّمِيلَ، بالجميلِ. أُنَزِّلُ سَمِيرِي، مَنْزِلَةَ أَمِيرِي، وَأُحِلُّ أَنِيسِي، مَحَلَّ رَئِيسِي، وَأُودِعُ مَعَارِفِي، عَوَارِفِي، وَأُولِي مُرَافِقِي، مَرَافِقِي، وَأُلِينُ مَقالِي، لِلقَالِي، وَأُدِيمُ تسْآلِي، عَنِ السَّالِي، وَأَرْضَى من الْوَفاءِ، باللفاءِ وَأَقْنَعُ مِن الْجَزاءِ، بأَقَلِّ الأَجْزاءِ، وَلاَ أَتَظَلَّمُ، حِينَ أُظْلَمُ، وَلاَ انقَمُ، وَلَوْ لَدَغَنِي الأَرْقَمُ.

* * *

قوله: «أرعى»، أي أحفظ. جار: تعدّى ومال عن الحق، قال ﷺ: «ما زال جبريل يُوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورّثه»[1]. أبذُل: أعطِي. صال: صاح مخوّفاً. الخليط: الصاحب، ويقع على الواحد والإثنين والجمع بلفظ واحد، وسُمِّيَ بذلك لاختلاط الأمرِ بين الصاحبيْن. الحميم الأوّل: الصديق المخلص، والثاني: الماء الحارُّ. الشفيق: المحبّ. الشقيق: الأخ من الأب، كأنه شَقَّ معك ظهر أبيك ومن الأمّ كأنه شقّ معك بطن أمك. أَفِي للعشير: أعامل الصاحب بالوفاء يكافىء بالعشير: يجازى بالعُشر من فعلى، والمكافأة المواساة. استقلّ، أراد قليلاً الجزيل: الكثير. النزيل: الضيف، والنّزُل ما يعدّ للضيف من طعام وغيره. أغمر: أعطى الزّميل: الرديف. الجميل: الأفعال الجميلة. أميري: الحاكم عليّ الأنيس: الذي يؤنس بحديثه، وفلان رئيس قومه: أفضلهم وأعزّهم. أودع: أعطى وديعة معارفي: من يعرفني عوراً في: هِباتي؛ واحدها عارفة، وهي اليد من النعمة. أُولى مُرافقي: أعطى مصاحبي في السفر، ومنه الرفقة لاتفاق بعضهم ببعض، جمع مَرْفقة وهي المعونة وما يُرْتفق به. القالي: المبغض، وقليت الرجل قِلي، أبغضته تسآلي: كثرة سؤالِي. السالي: الناسي للمودَّة والتارك لها، وسلوت عن الشيءِ أسلو سلوّاً وسلوة، إذا تركته. اللَّفاء: النقصان. وقال أبو عليّ في الإيضاح: اللّفاء ما دُون الحق، قال أبو زيد الطائيّ واسمه حَرْملة رحمه الله: **[الوافر]**

فما أنا بالضّعيف فتظلموه ولا حظِّي اللَّفاءُ ولا الخسيسُ[2]

---

(١) روي بطرق وأسانيد متعددة، أخرجه البخاري في الأدب باب ٢٨، ومسلم في البر حديث ١٤٠، وأبو داود في الأدب باب ١٢٣، والترمذي في البر باب ٢٨، وابن ماجه في الأدب باب ٤، وأحمد في المسند ٢/ ٨٥، ١٦٠، ٢٥٩، ٣٠٥، ٤٤٥، ٤٥٨، ٥١٤، ٥/ ٣٢، ٢٦٧، ٣٦٥، ٦/ ٥٢، ٩١، ١٢٥، ١٣٨.

(٢) يروى صدر البيت:

وما أنا بالضعيف فتظلموني

وهو لأبي زبيد الطائي في ديوانه ص ١٠٠، ولسان (لفأ)، (خيس)، (لفا)، والمخصص ١٦/ ٢٤، وتاج العروس (لفأ)، (خبس)، (لفا)، وبلا نسبة في كتاب العين ٨/ ٣٣٥، وتهذيب اللغة ١٥/ ٥٨٤، ولسان العرب (وفي).

أقنع: أرضى، والقناعة الرضا باليسير. والجزاء: المكافأة، وجازيته بما صنع مثل كافأتُه، والأجزاءِ: الأنصباء تقسّم على جماعة، واحدها جزء، وأقلُّها أنقصها أتظلَّم: أشتكي من الظلم. لا أنقم: لا أنتقم. تقول: نقمتُ منه نقمة، أي عاقبته، فمعناه: لا أعاقب صاحبِي، ولو بلغ في الإضرار منّي الغاية، وتقول أيضاً: نقَمتُ الشيءَ وأنقَمه نَقماً ونقُوماً: إذا أنكرته، فمعناه على هذا: لا أنكر على صاحبي ولو بالغ في الأذى، ويقال في الإنكار أيضاً، نقَمِ ينقِم.

* * *

فَقَالَ لهُ صَاحِبُه: وَيْكَ يَا بُنَيَّ! إنَّمَا يُضَنُّ بالضَّنِينِ، وَيُنَافَسُ في الثَّمينِ؛ لَكِنْ أنَا لاَ آتِي، غَيْرَ الْمُوَاتِي، وَلاَ أَسِمُ الْعَاتِي، بمَراعَاتِي، وَلا أُصَافِي، مَنْ يأْبى إِنْصَافِي، ولاَ أُواخِي، مَنْ يُلْغِي الأَوَاخِي، ولاَ أُمَالِي، مَنْ يُخَيِّبُ آمالِي، ولاَ أُبالِي، بِمَنْ صَرَم حِبَالِي، ولاَ أُدَارِي، مَنْ جَهِلَ مِقْدَارِي، وَلاَ أُعْطِي زِمَامِي، مَنْ يُخْفِرُ ذِمَامِي، وَلاَ أَبْذُلُ ودَادِي، لأَضْدَادِي، ولاَ أَدَعُ أَيعَادِي، لِلْمُعَادِي، وَلاَ أَغْرِسُ الأَيَادي، في أَرْضِ الأَعَادِي، وَلاَ أَسْمَحُ بِمُوَاسَاتِي، لِمَنْ يَفرَحُ بِمَسَاآتِي، ولاَ أَرَى الْتِفاتي، إِلَى مَنْ يَشمَتُ بوَفاتي، ولاَ أَخُصُّ بِحبَائِي، إلاَّ أَحِبَّائِي، ولاَ أَستَطِبُّ لِدَائي، غَيْرَ أَوِدّائِي، ولاَ أُمَلِّكُ خُلَّتِي، مَنْ لاَ يَسُدَّ خَلَّتِي، ولاَ أُصفِيّ نِيَّتِي، لِمَن يَتَمنَّى مَنِيَّتِي، ولاَ أُخْلِصُ دُعَائِي، لِمَنْ لاَ يُفْعِمُ وِعَائي، ولاَ أُفرِغُ ثَنائي، عَلَى مَنْ يُفَرِّغُ إِنَائِي.

* * *

قوله: «ويك» معناه التعجّب، كأنه قال: ما أعجبك! أو عجباً لك. وقيل: أراد «ويلك»، فحذف اللام. إنما يضنّ بالضَّنين، هذا مَثَل؟ أوّل مَنْ قاله الأغلب العجليّ، وفسره أبو عبيد فقال: معناه: تمسَّك بإخاء من تمسَّكْ بإخائك، وبيانه أن الضّنين البخيل، ويضنّ: يبخل، فيقول: إنما أتمسَّكُ وأتعلّق بصاحبٍ تمسَّكَ بي وعرف حقّي، فأنا أبخل به على غيري أن يشرَكني في صحبته كما يبخل بي هو على غيره، وقيل: الضّنين في المثَل هو الشيء المضنون به لنفاسته، فمعناه إنما يُبخَل بالشيء النفيس الرفيع. المواتي: المساعد الموافق. العاتي المتكّبر الصعب الخَلق. والمراعاة: المحافظة للودّ اسِم: اجعلها سِمة، أي علامة. أصافي: أخلص له ودِّي. يأبَى: يمنع. إنصافي، أي إعطائي الحق من نفسه. أواخي: أصير له أخا وأتخذه صديقاً. يلغي: يترك ويطرح. الأواخي: أسباب الود، واحدها أخيَّة، وأصل الأخيَّة عُرْوة من حبل تشدّ في وتِدٍ أو على حجر تحت الأرض، وتبقى العروة على الأرض فيربط فيها حبل الدابه فيمسكها. أُمالي: أعاون، وأصلها الهمزة، تقول: مالأتُه على الأمر أمالئه، إذا عاونتَه وساعدته، ومنه: والله ما قتلت عثمان ولا مالأت في قتله، فخفف الهمزة ليوافق آمالي، وهو جمع أمل، وهو

الرجاء. صرم حبالي: قطع أسباب وِصالي، وهم يكنون بالحبل عن الودّ، لأن الودّ يربط القلوب ويؤلّفها كالحبل فيما يربط. قوله: «أداري» أسوس وأسحن صحبته. والزمام: حبل من جلود يربط في حلقةٍ في أنف البعير. يخفر ذمامي: ينق عهدي، أي لا أنقاد لمن لا عهد له. ودادي: حُبِّي، وهو من وادّه وهو الذي لا يكون إلا من اثنين فوضعه موضع ودِّي، ويقال أيضاً: في الحُب حُباب، مثل وداد، قال الشاعر: **[الطويل]**

* أداء عراني من حُبابك أم سحرُ[1] *

أضدادي: أعدائي المناقضين لأفعالي. إيعادي: تهديدي وتخويفي الأيادي: النّعم، وواسيته: مواساةً: جعلته أسوة نفسي في مالي فقاسمته فيه مساآتي: أحزاني وما يسوء بي. التفاتِي: نظري وانعطافي إلى جهته. يشمت: يسرّ: وفاتي: موتي. أخصّ: أفرد. حِبائي: عطائي. أحبّائي: جمع حبيب أستِطبّ: أطلب طِبّه. خَلَّتي: صداقتي. يسدّ خَلّتي: يصلح فقري. أخلص: أجعله خالصاً. يُفعم: يملأ. أفرغ ثنائي: أصبّ مدحي وأكسوه، أو يكون أفرغه، أبلغ آخره.

* * *

وَمَنْ حَكَمَ بِأَنْ أَبْذُل وَتَخزُنَ، وَأَلِينَ وَتَخْشُنَ، وَأَذِوبَ وَتَجْمُدَ، وَأَذْكُوَ وَتَخْمُدَ! لا وَاللَّهِ، بَلْ نَتَوازَنُ في المَقالِ، وَزْنَ المِثْقَالِ، وَنَتَحاذَى في الْفَعَال، حَذْوَ النِّعَالِ حَتَّى نأْمَنَ التَّغَابُنَ، وَنُكْفَي التَّضَاغُنَ؛ وإلاَّ فَلِمَ أُعِلُّكَ وَتُعِلُّنِي، وَأُقِلُّكَ وَتَسْتَقِلُّنِي، وَاجْتَرِحُ لكَ وَتجرحُنِي، وَأَسْرَحُ إلَيكَ وَتُسَرِّحُنِي. وَكَيْفَ يُجتَلب إنْصَافٌ بِضَيْمٍ، وَأَنَّى تُشْرِقُ نَفسٌ مَعَ غَيْمٍ! وَمَتَى أُصْحِبَ وُدُّ بِعَسْفٍ، وَأَيّ حُرٍّ رَضِيَ بِخُطَّةِ خَسْفٍ! وَلِلهِ أَبُوكَ حَيْثُ يقولُ:

* * *

قوله: «تخزن»، أي تحبس. أذكو: أضيء، يقال: خمدت النار، إذا سكن لهبها، وذكت: اتّقدت. والمثقال: الصنجة التي يوزن بها، سُمّيت بذلك لأنها تثقل ما يوزن بها في الكَفّة الثانية. نتحاذى: نتشابه. والفَعال: بفتح الفاء: اسم للفعل الحسن أو القبيح، ولا يقال بكسرها إلا في مصدر فاعَل، قال ابن الأعرابي: الفَعال: فعل الواحد من الخير والشرّ، والفِعال بالكسر: الفعل بين الإثنين. حذو: متشابهة، والعرب تقول في الشيئين يشتبهان: هما حذو النعل بالنعل، أي كل واحد من النّعلين تُقطع على قالب أختها، ومنه قول الهذلي: **[الكامل]**

---

(١) صدره:

فــوالله مــا أدري وإنــي لــصــادقٌ

والبيت لأبي عطاء السندي في لسان العرب (حبب) والتنبيه والإيضاح ١/ ٧٥، وتاج العروس (حبب)، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٦٤.

وتـأمّـل الـسّـبْـت الـذي أحْـذُوكُـمُ فـانْـظُـرْ بـمـثـل حـذائـه فـاحـذونـي[١]

التّغابن: الغبن. نكفَي: نمنع. التضاغن: العداوة، وتضاغن الرجلان: اعتقد كلّ واحد منهما لصاحبه ضِغْناً وهو الحِقْد. أعُلّك: أسقيك عَلَلاً، أي مرّة بعد أخرى. تعلّني: تمرضني. أقِلُّك: أرفعك. تستقلّني: تَحقرني. أجترح: اكتسب. أسْرَح: أرعى عليك، وأجلب عليك الرزق بالغداة والعشيّ تسرّحِني: تهملني. ضيم: ذلّ أنّى: كيف تشرق: تُضيء، من أشرقت، وتشرُق تطلع، من شرقت. غيم: سحاب. أصحب: أنقاد. بعسف: بجوْر. وأصل العَسْف ركوب الأمر بغير تدبير. والخطة: المنزلة والمرتبة، والخسف: الإذلال والنقصان، ومنه خسف الأرض، والخاسف: المهزول، ويقال: باتوا على الخسف، أي جياعاً ليس لهم شيء يتقوّتون به والخسف للدابة: أن تبيت بغير عَلفٍ [السريع]

* * *

جَـزَيْـتُ مَـنْ أَعْـلَـقَ بـي وُدَّهُ جَـزَاءَ مَـنْ يَـبْـنِـي عَـلَـى أُسِّـهِ
وَكِـلْـتُ لِـلْـخِـلّ كَـمَـا كـالَ لِـي عَـلَـى وَفَـاءِ الْـكَـيْـلِ أَوْ بَـخْـسِـهِ
وَلَـمْ أُخَـسِّـرْه وَشَـرُّ الْـوَرَى مَـنْ يَـوْمُـهُ أَخْـسَـرُ مِـنْ أَمْـسِـهِ
وَكـلُّ مـنْ يَـطْـلُـبُ عِـنْـدِي جَـنًـى فَـمَـا لَـهُ إلاَّ جَـنَـى غَـرْسِـهِ
لا أَبْـتَـغِـي الْـغَـبْـنَ، وَلا أَنْـثَـنِـي بِـصَـفْـقَـةِ الْـمَـغْـبُـونِ فـي حِـسِّـهِ
وَلَـسْـتُ بـالْـمُـوجِـبِ حَـقًّـا لِـمَـنْ لا يُـوجِـبُ الْـحَـقَّ عَـلَـى نَـفْـسِـهِ
وَرُبَّ مَـذَّاقِ الـهَـوى خَـالَـنِـي أَصْـدُقُـهُ الْـوُدَّ عَـلَـى لَـبْـسِـهِ
وَمَـا دَرَى مِـنْ جَـهْـلِـهِ أَنَّـنِـي أقـضِـي غَـرِيـمِـي الـدَّيْـنَ مِـنْ جِـنْـسِـهِ
فَـاهْـجُـرْ مَـن اسْـتَـغْـبَـاكَ هَـجْـرَ الْـقِـلَـى وَهَـبْـهُ كَـالْـمَـلْـحُـودِ فِـي رَمْـسِـهِ
وَالْـبَـسْ لِـمَـنْ فـي وَصْـلِـه لُـبْـسَـةٌ لِـبَـاسَ مَـن يُـرْغَـبُ عَـنْ أُنْـسِـهِ
وَلا تُـرَجِّ الْـوُدَّ مِـمَّـنْ يَـرَى أَنَّـكَ مُـحْـتَـاجٌ إلـى فَـلْـسِـهِ

* * *

قوله: «أعلَق»، فمعنى علّق، أي ألصق. أسّه: أصل بنائه؛ يقول: من عَلّق بقلبي ودّه، جعلت ذلك الودّ أسّا بقلبي، وبنيتُ عليه ودي، فإن أسس في قلبي ودّا سليما بنيت له عليه مثله، وإن غَشّني في ودٍّ غششته، والهاء في «أسّه» ترجع إلى «مَنْ» أي مَنْ نصحني في صحبتِهِ نصحته. والخِلّ: الصاحب. بخسه: نقصه أخسر: أنقص. الورى:

(١) البيت لبدر بن عامر الهذلي في شرح أشعار الهذليين ص ٤١٠، وللهذلي في لسان العرب (حزن)، وتهذيب اللغة ١١/ ٣٦.

الخلق من الناس. الجنَى: ما يجني من الثمرة أبتغي الغبن: أطلب الخداع: أنثني: أرجع، وصفقة المغبون: بيعة المخدوع حسّه: فهمه، والحسنّ: صوت حركة الحيّ. والصفقة: في الأصل مصدر، يقال: صَفَق صفقاً إذا ضرب بإحداهما على الأخرى، وكانت صفقة البيع عند العرب أن يضرِب المشتري بيده على يد البائع، فإن رضي البيع قبض على يد المشتري وانعقد البيع، وإن لم يرض أرسل يده، ثم صاروا يقولون، رضي الصفقة، إذا رضيَ البيع، ثم سُمِّي عقد البيع صَفْقة. مَذاق: خلاّط غير مخلص. الهوى: الحبّ. وخالَني: حسبني. لَبْسه: تخليطه وتلبيسه. غريمي: صاحب دَيْني. من جنسه: من نوع ما أعطاني. استغباك: استجهلك. القِلي: البغض. هبه: احسبه. الملحود: المدفون. رمسه: قبره، وينظر إلى بيته قول ابن الروميّ: **[الرمل]**

مَنْ تصدّى لأخيه ... بالغنى فهو أخُوهُ
فإن احتاج إليه ... راءَ منه ما يَسُوهُ
يُكرَم المشرِي فإن أمْـ ... ـلَقَ أقصَاه بَنُوهُ
أنت ما استغنيتَ عن صا ... حبك الدَّهرَ أَخُوهُ
فإن احتجت إليه ... ساعةً مجَّكَ فُوهُ

ووُجد على حجر مكتوباً: **[الرمل]**

كلّ من أحوجك الدهر إليهِ ... وتعرَّضت له هُنْتَ عَلَيْهِ

وهذان المذهبان اللّذان ذكرهما الحريريّ مبنيان على آيتين، من كتاب الله تعالى؛ قوله تعالى: **﴿وإنْ عاقَبْتُم فَعَاقِبُوا بِمثْلِ ما عُوقِبْتم بِهِ ولِئْن صَبرتُم لَهُوَ خَيرٌ للصَّابرين﴾**، والثانية قوله تعالى: **﴿وَلَمَنِ انْتَصَر بعد ظلمِه فأولئكَ ما عَلَيهم مِنْ سَبِيل﴾** [الشورى: ٤١].

وقال النبي ﷺ: «لا خير في صحبة مَنْ لا يرى لك من الحق، مثل الذي ترى له».

وللشعراء القدماء والمحدثين في المذهبين شعر كثير، قال المقنّع الكنديّ في المذهب الأول: **[الطويل]**

وإنَّ الَّذِي بيني وبينَ بني أبِي ... وَبَيْنَ بني عمِّي لمخْتلِفٌ جدًّا[1]
أراهم إلى نصري بِطاءَ وإن هُمُ ... دعوْني إلى نصْرِ أتيتهمُ شدًّا
وإن أكلُوا لحمِي وفرْتُ لحومَهُمْ ... وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدا
وإن ضَيَّعُوا غَيبي حفظتُ غيوبَهُمْ ... وإن هُمْ هَوُوا غَيّ هويت لهمْ رُشْدَا!
وإنْ زجَرُوا طَيراً بنحسٍ تمرُّ بي ... زجرتُ لهمْ طيراً تمُرُّ بهم سَعْدا
لهمْ جلّ مالي إن تتابع لي غنًى ... وإن قلّ مالي لم أكلفهمُ رِفْدَا

(١) الأبيات في شرح ديوان الحماسة للخطيب التبريزي ٣/ ١٧١.

ولا أحملُ الحِقْدَ القديم عليهُم ... وليس يسودُ القوْمَ من يحمِلُ الحقْدَا

وقال معن بن أوْسٍ المُزنيّ في المذهب الثاني: **[الطويل]**

إذا أنت لم تُنصِفْ أخاك وجدتَه ... على طرف الهِجران إن كان يعقِلُ(١)

ويركبُ حدّ السيف مِنْ أن تَضيمَهُ ... إذا لم يكن عن شَفْرة السيف مَزْحَلُ

وكنتُ إذا ما صاحبٌ رامَ ظِنَّتِي ... وبدَّل سوءاً بالذي كُنْتُ أفعلُ

قلبت له ظهر المِجَنِّ فلم أدمْ ... على ذاك إلاّ ريثما أتحوَّلُ

وقال إبراهيم بن العباس الصولي: **[الوافر]**

أميل مع الذّمام إلى ابن عمِّي ... وآخذ للصديق من الشقِيقِ(٢)

وإن ألفيتَنِي حُرًّا مُطاعاً ... فإنك واجدِي عبْدَ الصدِيقِ

أفرّق بين معروفِي وبيني ... وأجمع بين مالِي والحقوقِ

وكنت إذا الصديقُ أراد غيظي ... وأشرقنِي على شَرَقٍ بِريقِي

غفرتُ ذنوبه، وصفحت عنه ... مخافة أن أعيش بلا صديقِ

وكلّف إبراهيم بن العباس بعض إخوانه مقاطعة صديق فقال له: **[مجزوء الكامل]**

إني متى أحمل بحقدِ ... ك لا أضُرُّ به سِوَاكا(٣)

ومتى أطعتُك في أخيك ... أطعتُ فيك غداً أخاكا

حتَّى أُرَى مستقسماً ... يومي لِذَا، وغداً لِذَاكَا

وقال أبو الفتح البُستّي في المذهب الثاني: **[السريع]**

فإن تزرْني أَزُرْ وإمَّا ... تَقِفْ ببابي أقف ببابكْ

والله لا كنتَ في حسابي ... إلاّ إذا كنتُ في حسابكْ

أين هذا من قول البستيّ أيضاً وقد خالفه فيه خلافاً شديداً، ولا نازعه أحد فيه، ولا سبقه إليه إذ يقول: **[المتقارب]**

وإنّي لأختصُّ بعضَ الرجال ... وإن كان فَدْماً ثقيلاً عَبَامَا(٤)

فإنَّ الجُبَيْن على أنه ... وخيمٌ ثقيلٌ يشهِّي الطَّعَامَا

---

(١) الأبيات في شرح ديوان الحماسة للحطيب التبريزي ٣/ ١٣٢.

(٢) الأبيات في ديوان الصولي ص ١٥٤.

(٣) الأبيات في ديوان الصولي ص ١٤٦.

(٤) العبام: هو الغليظ الجامي.

ولأبن شرف: [البسيط]

بِعْ مَنْ جفاك ولا تبخل بسلعَتِه ... واطلب به بَدَلاً إن رام تَبْدِيلا

وهو كثير، وبما ذكرت يستدلّ على الباب.

* * *

قَالَ الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ: فَلَمَّا وَعَيْتُ مَا دَارَ بينهما، تُقْتُ إِلَى أَنْ أَعْرِفَ عينهما، فَلَمَّا لاحَ ابْنُ ذُكاء، وَأَلْحَفَ الْجَوَّ الضِّيَاءُ، غدَوْتُ قَبْلَ اسْتِقْلَالِ الرِّكَابِ، وَلاَ اغْتِدَاءَ الْغُرَابِ، وَجَعَلْتُ أَسْتَقْرِيء صَوْبَ الصَّوْتِ اللَّيْلِيِّ، وَأَتَوَسَّمُ الْوُجُوهَ بالنَّظَرِ الجَلِيِّ، إِلَى أَنْ لَمَحْتُ أَبَا زَيْدٍ وابنَهُ يَتَحَادَثَانِ، وَعَلَيْهِما بُرْدَانِ رَثَّانِ، فَعَلِمْتُ أَنَّهُما نَجِيًّا لَيْلَتِي، وَصَاحِبَا رِوَايَتِي.

* * *

قوله: «وعيت»، أي حفظت. تقت، أي اشتقت. عينهما: شخصهما لاح: ظهر. ابن ذُكاء: هو الصبح، وذكاء هي الشمس، ويقال للصبح: ابن ذكاء لأنه من ضوئها. ألحف: غطّى. الجوّ: الهواء بين السماء والأرض، أراد أن الصبح غطى نواحي السماء بضوئه.

[مما قيل في ضوء الصبح شعراً]

ومن حسن التشبيه في ضوء الصبح قول ذي الرمّة:

وقد لاح للسّاري الذي كَمَّل السّرى ... على أخريات اللّيل فَتْقٌ مشهَّرُ[1]

كلون الحصان الأبيض البطن قائماً ... تمايل عنه الجُلّ واللون أشقَرُ

شبه اختلاط الضوء بالظلمة بالفرس الأشقر الأبيض البطن.

وقال ابن المعتزّ: [الوافر]

وساقٍ يجعل المِنديلَ منْهُ ... مكان حمائل السيف الطّوالِ

غدا والصبحُ تحت الليل بادٍ ... كطِرْفٍ أشقرٍ ملقِى الجِلالِ

وقال يوسف الرمادي: [الطويل]

وليلة أنس قد غمرْنا ظلامها ... بأوجهِ راحٍ تستنير فترشفُ

إلى أن بدا ضوءُ الصباح كأنّما ... تحمَّل لقمانٌ، وأقبل يوسفُ

---

(١) البيتان في ديوان ذي الرمة ص ٦٥٥، ولسان العرب (شهر)، (نبط)، (فتق)، وتاج العروس (نبط)، (فتق)، وتهذيب اللغة ٦/ ٨٠، ٩/ ٦٣، وكتاب العين ٣/ ٤٠٠، ٥/ ١٣١، وأساس البلاغة (فتق).

قوله: «غدت»، أي بكرت. استقلال: ارتفاع وقيام. والركاب: الإبل واحدتها، راحلة. ولا اغتداءَ الغراب، أي ولا مثل اغتدائه؛ فحذف «مثل» المنصوبة بلا، وأقام «اغتداء» مقامها لأن «لا» لا تنصب المعارف، وأراد أن اغتدائي كان قبل أن يغتدِيَ الغراب، والغراب أكثر الطير بكوراً، وهذا وما شابهه في هذا الكتاب مثل قوله: «ولا كيد فرعون موسى»، «ولا انهلال السحب»، «ولا عمرو بن عبيد»، إذا طلبت حقيقة معناه صار المشبّه أقوى من المشبه به، ولم يأت هذا إلا عن العرب، تقول العرب: «فتى ولا كمالك» فيريدون مالكاً أفضل من الفتى، ومثله «مرعًى ولا كالسَّعدان» أي أن المرعى فاضل في طيبه، ولكن السعدان أفضل منه، ومثله: «ماء ولا كصدّاء»، فصدّاء أفضل من ذلك الماء على طيبه، فهذا مذهب العرب في ذكر «لا» بين المشبّهين.

وأما قول الحريري: «غدوت ولا اغتداء الغراب»، فيريد أن غدوِّي أبكر من اغتداء الغراب، وكذلك «ولا انهلال السّحب»، وهو يريد أنّ جودهم فوق جود السحاب، لأن كلام العرب: فلان أبْكرُ من الغراب، وأجود من السحاب، ولا يقولون السحاب أجود من فلان، ولا الغراب أبكر من فلان، ولا فائدة في ذلك، فإذا حققت لفظه «ولا» في تشبيه الحريريّ على ما يجب لها في كلام العرب انقلب المعنى، وإنما اللفظ من كلام عامّة العراق، فاستعملها لأنها عندهم متعارفة وليس بعربية، ومثل هذا قد جوّزه المولدون في أشعارهم، وجاء منه في مقامات البديع كثير. ويستعمل أهل فاسَّ في مغربنا لفظة «ولا» في تشبيهاتهم كثيراً جدًا على حدّ استعمال الحريرّي لها، ولا يستعملها أهل الأندلس.

وقال الفنجديهيّ: الرفع في قوله: «ولا اغتداءُ الغراب»، أكثر مبالغةً في التشبيه من النصب.

قوله: «أستقرىء»، أي أتتبع. صوب: جهة وناحية الليليّ: الذى سُمع بالليل أتوسّم، أتعرّف وأنظر سمتها. الجليّ: البيّن. لمحت: رأيت. بُرْدان رثّان: ثوبان خَلَقان. نجيًا ليلتي، أي المتحدّثان فيها، وجعلهما متحدثين مع الليلة مجازاً لما أوقعا الحديث فيها، كقوله تعالى: ﴿**بل مكْرُ الليل والنهار**﴾ [سبأ: ٣٣] ولا يمكران إنما يُمْكر فيهما، فنسب ذلك المكر إليهما. صاحبا روايتي. أي اللذان أروى عنهما هذه القصة.

* * *

فَقَصَدْتُهمَا قَصْدَ كلفِ بِدَمَاثتهما، رَاثٍ، لِرَثَاثَتِهِما، وَأَبَحْتُهُمَا التَّحوُّلَ إِلَى رَحْلِي، وَالتَّحكمَ فِي كُثْرِي وَقُلِّي، وَطَفِقْتُ أَسَيِّرُ بَيْنَ السَّيَّارَة فَضْلَهُمَا، وَأَهُزُّ الأَعْوَادَ الْمُثْمِرَةَ لَهُما، إِلَى أَنْ غُمِرَا بالنُّحلانِ، وَاتُّخِذَا مِنَ الخُلاَّنِ. وَكُنَّا بِمُعَرَّسٍ نَتَبَيَّنُ مِنْهُ بُنْيَانَ الْقُرَى، وَنَتَنَوَّرُ نِيرانَ الْقِرَى.

فَلَمَّا رَأى أَبُو زيد امْتِلاءَ كِيسِهِ، وَانْجِلاءَ بُوسِهِ، قال لي: إنَّ بَدَنِي قَدْ اتَّسَخَ، وَدَرَنِي قَدْ رَسَخ، أفتَأْذَنُ لي فِي قَصْدِ قَرْيَةٍ لأَسْتَحِمَّ؛ وَأَقْضِيَ هَذَا المهِمّ؟ فَقُلْتُ: إذَا شِئْتَ فالسُّرْعَةَ السُّرْعَةَ، والرَّجْعَة الرَّجْعَةَ، فَقالَ: سَتَجِدُ مَطْلَعِي عَلَيْكَ، أَسْرَعَ مِنَ ارْتِدَادِ طَرْفِكَ إليك.

* * *

كَلِف: محبّ. دَماثتهما: سهولتهما، والدّماثة سهولة الأرض، وكل ما وطئته وسهّلته وأذللتَه بيدك فهو دَمِث. راثٍ: باكٍ مشفق. ورثاثتهما: سوء حالهما. أبحته: جعلته له مباحاً كُثْرِي وقُلّي: أي كثير مالي وقليله. طفقت: أخذت. أسيّر: أمشّي. السيارة: القوم الذين يسيرون في الأسفار. أهزّ الأعواد، استعارة، وأراد أنه يستعطف لهما أصحاب الأموال فيواسونهم، فكنى عنهم بالأعواد، وقد كرّر هذا المعنى نظماً حين قال: [الرجز]

قصدته والشيخ يبغى جنَى عُودٍ له ما زال مهزُوزَا

وقال الشاعر في مثله: [البسيط]

إلاّ يَكُنْ ورقِي غضًّا أراح به للمعتفِين فإني ليِّن العودِ

أراد إنْ لا أكن كثير المال فإني كريم. والورِق: المال غير الصامت، وأراح به: أهتزّ به، من الأريحيّة. وراح الشجر: أتى بورق في آخر الصيف لا أصل له، ويقال لها الخلفة. قوله: «غمرَا»، أي أعطيا. النّحلان: العطايا. الخِلاّن: الأصحاب. وقوله: «وكنا بمعرّس»، المعرّس موضع النزول آخر الليل نتنوّر: ننظر النيران. القِرى: طعام الضيف. كيسه: وعاء دراهمه، والكِيس: خريطة تسع خمسمائة درهم والبَدْرة تسع عشرة آلاف درهمٍ، قال حبيب:

من بعد ما صارتْ هنيدة صِرمةً والبَدْرة النّجلاء صارت كيسا[1]

قوله: «انجلاء بوسه»، انكشاف فقره. دَرَني: وسخي. ورسخ الشيء في الأرض رسوخاً: غاب فيها، ورسخ العالم في العلم: دخل فيه. أستحمّ: أدخل الحمام، واستحمّ الرجلُ: اغتسل بالحميم؛ وهو الماء الحارّ. أقضى: أقطع وأزيل، وقضيت الشيء: صنعته. المهمّ: أراد به فَرْض الصّلاة، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إنّ أهم أموركم عندي الصّلاة، فمن ضيّعها فهو لما سواها أضْيَع. وقيل: المهمّ: الوسخ لأنّ

---

(١) الهنيدة: اسم للمائة من الإبل، والصرمة: ما بين العشرة إلى بضعة عشر، والنجلاء: الواسعة. والبيت في ديوان أبي تمام ص ١٧٧.

الأمر المهمّ، هو الذي في القلب منه همّ وشغل، وقد ذكر أن الذي أوجب عليه قصد الحمام هو ما عليه من الوسَخ، فيكون قوله: «وأقْضِي هذا المهمّ» من قوله تعالى: **﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾** [الحج: ٢٩]، وقد أهمَّني الشيء فهو مهِمّ، وهذا القول أوفق بمراده.

[الحمّام وما قيل فيه شعراً]

وللزاهد بن عمران رحمه الله وقد استبطأ في دخول الحمّام: **[البسيط]**

يا صاح عهديَ بالحمَّام قد بَعُدَا ... فلا تلمنِيَ فيه إن طلبتُ مَدَى
قارعتُ فيه العِدا في معرَكٍ لجِبٍ ... دَحْضٍ تزلّ به الأقدام قد بَعُدا
عِداً أثرن برأسي حين ثُرْن به ... توقّدا وأعادت جلده جَلدَا
فظلْت مستأصِلاً بالقتل أجمعُها ... فلم أدَعْ والداً منها ولا وَلَدَا
ثم انثنيتُ معافًى ناعماً جَذِلاً ... مظَفراً أستزيد الواحد الصَّمَدَا

ورأى نفسه ممتدّاً بين يدي الحكّاك، فقال: **[المتقارب]**

أأغترّ إن مُدّ في العُمْرِ لي ... وأُرجِي المتابَ إلى قابِلِ
وأغفلُ والموت لِي طالبٌ ... حثيثٌ كِذئب الغضَى القاتِلِ
كأنّي بي هكذا ميتاً ... تَحَكَّمُ فيَّ يَدُ الغاسل

وله أيضاً: **[المنسرح]**

شكرت للدهر حسنَ ما صَنَعَا ... طريدَ مجدٍ تحيّتي رفعا
يا حُسْنَ حمَّامنا وقد غَرُبَت ... شمس الضحى فيه بعد ما مَتَعَا
أيقنَ أنَّ الهلال راكبُه ... فضاءَ للحاضرين واتّسعا
فأنعمْ أبا عامر بنعمتِه ... واعجب لأمرين فيه قد جُمعا
نيرانه من زِنادِكُمْ قُدِحت ... وماؤه من بنَانكم نبعا

ولبعضهم في حمّام كانت مضاوئه من زجاج أحمر، وفي سمائه حمرة وبياض **[المتقارب]**

تحيّرتُ من طيبِ حمَّامِنا ... فَخُيِّل لي أن فيه الفلَقْ
فمن حمرةٍ فوقنا وابيضاضٍ ... لخدّ الحبيب إذا ما عَرَقْ
رأى الدهر ما سدّ من حُسْنِه ... فسدَّ كُوَى سقْفِه بالشَّفَقْ

ودخل الحمّام أبو جعفر التُّطيليّ وأبو بكر بن بقيّ رحمهما الله تعالى، فقال أبو جعفر: **[المنسرح]**

يا حُسْنَ حمَّامنا وبهجته ... مرأى من السِّحر كلُه حَسَنُ
ماءٌ ونارٌ حواهما كَنفٌ ... كالقلب فيه السّرور والحزَنُ

ونظر فيه إلى غلام وسيم، فقال: [البسيط]

هل استمالك ميّال القوَام وقَدْ سالت عليه من الحمَّام أندَاءُ
كالغصن باشَرَ حرّ النار من كثَب فظلّ يقطر من أعطافه الماءُ

وقال آخر: [البسيط]

حمّامنا فيه فصل القيظ محتدِمٌ وفيه للبرد سرٌ غير ذي ضررِ
ضدّان ينعم جسم المرء بينهِما كالغصن ينعم بين الشمس والمطرِ

وقال ابن رشيق: ومما قلته على عقب وداع:

ولم أدخلِ الحمام ساعةَ بينهمْ لأجل نعيم، قد رضيت بِبُوسِي
ولكن لتجري عَبْرتي مطمئنة فأبكي، ولا يدري بذاك جليِسي

وقال آخر: [الوافر].

وحمَّام كأنَّ النار فيه مسعّرةٌ بنيرانِ الجحيمِ
دخلت أنا ومَنْ أهواه فيه فعاد لنا كجنّات النعيمِ

وقال آخر في ذم حمّام: [المتقارب]

وحمّام سُوءٍ وَخِيم الهوا قليل المياه كثير الزِّحَامْ
فما للقيام به من قعودٍ ولا للقعود به من قِيَامْ
حنيّاته عطفات القِسيّ وقطراته صائبات السِّهَامْ

وقال آخر في تعجيل الخروج منه: [مجزوء الرمل]

خذ من الحمام واخرجْ قبل أن يأخذ مِنْكَا
حَدّثَنْ عنه وإلا حدّثَ الحمّام عنْكَا

وقال ابن رشيق: [الوافر]

ومُرْتَهنٍ لَدَى الحمَّام أَضحى وحالاَه لأصحاب السَّعِيرِ
إذا سئموا العذاب أو استغاثوا أغاثوهم بباب الزمّهرِير
كذلك حاله حَرّاً وبرداً ببيت الحوْض أو بيت الطّهورِ
وطال به انتظارُ مُواعِديه فقد زاد الشقيّ على النّظِيرِ

وله أيضاً: [الطويل]

سأشكر للحمّام بدءاً وعودةً أياديَ بِيضاً ما لهنَّ ثمينُ

جلاكَ على عينيَّ عُريانَ حاسراً فرحتَ بتطليقٍ وأنت قمين
وطهّر قلبي من هواك ببارِدٍ وسُخْنٍ نقرَّ الجفن وهو سَخينُ

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الحمّام يذكّرُ جهنم، وينقّي الدَّرَن.

وقال عليّ رضي الله عنه: بئس البيت الحمّامُ! تُكشَف فيه العورات، وترتفع فيه الأصوات، ولا يُقرأ فيه آية من كتاب الله تعالى.

ودخله بعضُ الأمراء مع الرقاشي فقال له: امدحه، فقال: يُذْهب القَشافة، ويعقب النظافة، ويفُشّ التُّخمة، ويطيّب النّعمة، فقال: ذمّه، فقال: يهتِك الأستار، ويؤلّف الأقذار، ويذهب بالوقار.

* * *

قوله: «إذا شئت فالسرعة السرعة»، يقول إذا شئت أن تقصد الحمّام فالزم السرعة، وعجل الرجعة، وكرّرهما تأكيداً، والفعل الناصب لهما يلزم إضماره مع التكرير، فإذا أفردت جاز إظهار الفعل، ونظيرهما قول العرب: الطريق، الطريق، والأسد الأسد وقال الشاعر: [البسيط]

* خلّ الطريق لمن يُبنى المنارُ لَهُ (1) *

فلما سقط التكرير ساغ له إظهار الفعل. مطّلَعي: مصدر بمعنى طلوعي. أهل الحجاز يفتحون لامه في المصدر وغيرهم يكسرها. ارتداد طرفك، أي رجوع نظرك.

* * *

ثمَّ اسْتَنَّ اسْتِنَانَ الْجَوادِ فِي الْمِضْمارِ، وَقَالَ لابْنِهِ: بَدَارِ بَدَارِ! وَلَمْ نَخَلْ أَنَّهُ غَرَّ، وَطَلَبَ الْمَفَرَّ. فَلَبِثْنَا نَرْقُبُهُ رِقْبَةَ الأَعْيَادِ، وَنَسْتَطْلِعُهُ بالطَّلائِعِ وَالرُّوَّادِ، إلَى أَنْ هَرِمَ النَّهَار، وكادَ جُرُفُ النَّهَارِ يَنْهَارُ. فَلَمَّا طَالَ أَمَدُ الانْتِظَارِ، وَلاَحَتِ الشَّمْسُ فِي الأَطْمَارِ، قُلْتُ لأَصْحَابِي: قَدْ تَنَاهَيْنَا فِي الْمُهْلَةِ، وَتَمَادَيْنَا في الرِّحْلَةِ، إلَى أَنْ أَضَعْنَا الزَّمَانَ، وَبَانَ أَنَّ الرَّجُلَ قَدْ مَانَ، فَتَأَهَّبُوا لِلظَّعَنِ، وَلاَ تَلْوُوا عَلَى خَضْرَاء الدِّمَنِ.

* * *

---

(1) عجزه:

وابرز ببرزة حيث اضطرّك القَدَرُ

والبيت لجرير في ديوانه ١/ ٢١١، وشرح التصريح ٢/ ١٩٥، والصاحبي في فقه اللغة ص ١٨٦، والكتاب ١/ ٢٥٤، ولسان العرب (برز)، والمقاصد النحوية ٤/ ٣٠٧، وبلا نسبة في أوضح المسالك ٤/ ٧٨، والرد على النحاة ص ٧٥، وشرح الأشموني ٢/ ٤٨١، وشرح المفصل ٢/ ٣٠.

استنَّ استنان الجواد: جرى كما يجري الفرس، وإنما يقال: استنَّ في كلامه إذا جرى في غير طريق بتحريف، ومنه قولهم: استنَّت الفِصال حتى القرعى، يريدون جرت الفصال وهي تلعب، ومنه قوله ﷺ: «فاستنَّت شرَفاً أو شرَفين»(١). وقال الشاعر يذكر طعنة خرج دمها في جهة: **[المتقارب]**

بمستنّةٍ كاستنان الخرو ... فِ وقد قطَع الحبلَ بالمِروَدِ(٢)

أراد المهر، ويقال له: خروف وفلوّ. وقد فسر «استنّت الفصال» بأن معناه أحسن رعيتها، حتى كأنه صقَلها. والجواد: الفرس الكريم. المضمار: الطَّلَق تجري فيه الخيل، سمّيَ مِضْماراً لأن الخيل تضمَّر فيه، وذلك أنّ العرب كانت تسمّن الخيل فتستخرجها إلى المِضْمَار، فتجريها طَلَقاً قدر ما تحتمَل، ثم تزيدها يوماً آخر في الجرْي على ذلك، ثم لا تزال تزيدها في الطَّلق كل يوم، حتى تجري بها الأميال، فيسيل عَرَق الخيل بذلك الجرْي، ويشتدّ لحمها بذلك التضمير قال زهير: **[الوافر]**

تُضمَّر بالأصائل كلّ يومٍ ... تُسنّ على سنابكها القرونُ(٣)

القرون: دُفَع العَرق، واحدها قَرْن.

وقوله: «بدار بدار»، أي سبقاً سبْقاً، وهو معدول عن بدر، فيقول لابنه: أبدر بالجري، واسبق إلى الحمَّام. لمْ نَخَل: لمْ نحسب. غرّ: خدع. نرقبه، أي ننظر من أين يجيء ويروى: «نرقبه رقبة أهِلّة الأعياد».

وما أحسن قولَ ابن الزقّاق في هذه الرِّقبة: **[الطويل]**

وشهرٍ أدرنا لارتقاب هلاله ... جفوْناً إلى نحو السماء موائلا(٤)

إلى أنْ بدا أحْوَى المدامع أحورٌ ... يجرّ لأذيال الشَّباب غلائلا

فقلت له أهلاً وسهلاً ومرحباً ... بمن قد حوى طيب السَّمول شمائِلا

أتطلبك الأبصار في الجوّ ناقصاً ... وأنت كذا تمشِي على الأرض كاملا

وله في معناه: **[الكامل]**

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد باب ٤٨، والاعتصام باب ٢٤، والمناقب باب ٢٨، والتفسير، تفسير سورة ٩٩، والشرب باب ١٢، ومسلم في الزكاة حديث ٢٤، ٢٥، والنسائي في الخيل باب ١، وابن ماجه في الجهاد باب ١٤، ومالك في الجهاد حديث ٣، وأحمد في المسند ٢/ ٢٦٢، ٣٨٣.

(٢) البيت لرجل من بني الحارث في لسان العرب (خرف).

(٣) البيت لزهير بن أبي سلمى في ديوانه ص ١٨٧، ولسان العرب (سنن)، (قرن)، وتهذيب اللغة ١٢/ ٣٠٤، وجمهرة اللغة ص ١٣٢١، ومقاييس اللغة ٥/ ٧٧، وتاج العروس (سنن)، (قرن)، وبلا نسبة في لسان العرب (صوح)، وجمهرة اللغة ص ٧٩٣، والمخصص ٩/ ١٤٣.

(٤) الأبيات في ديوان ابن الزقاق ص ٢٣٨.

لله شــهــرٌ مــا نــظــرتُ هــلالَــهُ إلاّ كــنــونٍ أو كــعــطــفــة لامِ[1]
حــتــى تــبــدّي لــي أغــنُّ مــهــفــهــفٌ بــضــيــائــه يَــنْــجَــابُ كــلُّ ظَــلامِ
فــطــفــقــت أهــتِــف بــالأنــام ضــلــلــتُــم وغــلــطــتُــم فــي عــدَّة الأيــامِ
مــا جــاءنَــا شــهــرٌ لأول لــيــلــة مــذ كــانــت الــدنــيــا بــبــدر تــمــام

نستطلعه، أي نلتمس طلوعه. الطلائع: الباحثون عليه. والروَّاد: الطالبون له، وأصل الطلائع الباحثون عن أخبار العدوّ. والراصدون في الطرقات، الواحد طليعة، وأصل الروّاد الطالبون للمرعى. هَرِم: شاخ، ومعناه قارب أن يتمّ ينهار: ينهدم. والجُرُف: ما يأكله الوادي، استعاره للنهار. لاحت: ظهرت والأطمار: الثياب الخلقَة، أراد أن ثوب الشمس وهو ضوءها قد تغيّر وبلى عند الغروب، وبعضهم يستعمل هذه الاستعارات في الشتاء وغروب الشمس.

ومما يستغرب من ذلك قول العلَويّ الأصبهانيّ: **[الطويل]**

ومــجــلــسِ شــربٍ جــئــتُــه مــتــطــرِّبــاً عشيًا وعينُ الشّمس في الأفْق تنعَسُ

وقال ابن الرّوميّ: **[الطويل]**

كــأنّ جــنــوح الــشّــمــس ثــم غــروبــهــا وقد جعلت في مجنح الليل تَمْرضُ
تــخــاوصُ عَــيــنٍ بيْنَ أجــفــانــهــا الــكــرى يــرنّــق مــنــهــا الــنّــوم وهــي تــغــمّــضُ

وقال أيضاً: **[الطويل]**

إذا رنعتْ شــمــسُ الأصــيــل ونــفّــضــتْ عــلــى الأُفــقِ الــغــربيّ وَرْساً مُــذَعــزَعــا
وودَّعــت الــدّنــيــا لــتــقــضــي نــحــبَــهــا وشــوَّل بــاقــي عــمــرهــا فَــتَــشَــعْــشَــعَــا
ولاحــظــت الأنــوار وهــي مــريــضــةٌ وقد وضعت خدًّا على الأرض أضْرَعَا
كــمــا لاحــظــت عــوّادهُ عــيــنَ مــدنــفٍ تــوجَّــع مــا أوصــابــه مــا تــوجّــعــا

أخبرني ابن منصور، قال: خرجتُ بخارج فاس عشية مع فتى ورّاق، فنظر إلى صفرة الشمس واستنشق برد النسيم، وأنشدني مرتجلاً: **[خلع البسيط]**

انــظــر إلــى الــشــمــس فــي الأصــيــلِ كــأنّــهــا وَجْــنَــتَــا عــلِــيــلِ
ورقَّ هــذا الــنــســيــمُ حــتّــى كــأنــمــا يــشــتــكــي نــحــولــي

وقال ابن الزّقاق: **[الكامل]**

وعــشــيــةٍ لــبِــســتْ مِــلاء شــقــيــق تُــزهَــى بــلــونٍ لــلــخــدود أنــيــقِ[2]

(١) الأبيات في ديوان ابن الزقاق ص ٢٥٨.

(٢) الأبيات في ديوان ابن الزقاق ص ٣٠٦.

أبقتْ بها الشَّمسُ المنِيرةُ مثلَ مَا ... أبقى الحياءُ بوجنتيْ معشوق
لو أستطيع شربتُها كلفاً بها ... وعدلت فيها عن كؤوس رحيقِ

وقال ابن سراج: **[الكامل]**

والشمس تنفض زعفراناً بالرّبا ... وتبثّ مسكتها على الغِيطان

وما أحسن قول الرّصافي في معناه: **[الكامل]**

وعشيّ أنسٍ للسرور وقد بَدَا ... من دون قُرْص الشَّمسِ ما يتوقَّع[1]
سقطت ولم تملك يمينُك ردَّها ... فوددت يا موسى لَوَ انّكَ يُوشَعُ

وقال ابن الروميّ في طلوع الشمس في خلل السحاب وذكر امرأة: **[الوافر]**

تريك بياض غُرّتها ووجهاً ... كقرن الشَّمس أغسق ثم زَالاَ
أصاب خصاصةً فبدا كليلاً ... كلاَ وانفلّ سائره انفلاَلا

قوله: «بدا كليلاً» إشارة إلى أنه عندما بدا غاب بسرعة، وأذكر «كَلاَ» في المقامة التاسعة والثلاثين.

وقال ابنُ المعتزّ في نحوه: **[الوافر]**

تظلّ الشمسُ ترمقنا بلحظٍ ... مريضٍ مدنَفٍ من خَلْفِ سِتْرِ
تحاول فتْقَ غيم وهو يأبَى ... كعَنِّينٍ يريدُ نكاح بِكْرِ

قوله: «تناهينا»، أي بلغنا النهاية، والمهلة: التراخي، يقول: قد تراخينا في انتظاره حتى بلغنا الغاية في ذلك. «تمادينا في الرحلة»، هذا على حذف مضاف للعلم به، تقديره: تمادينا في ترك الرحلة وانتظارها، ومثل هذا الحذف جائز في النظم والنثر وأنشد أبو علي: **[البسيط]**

أنا النذيرُ لكمْ منيّ مجاهرةً ... كي لا أُلامَ على نهيي وإنذارِي

أي على تركي النهي والإنذار، وقال آخر:

وأهلك مهرَ أبيك الدَّواءُ ... ليس له من طعامٍ نصيبِ

أي فقد الدواء، وجاء في القرآن **﴿واسَألِ القَريَةَ الَّتي كُنَّا فِيهَا﴾**[يوسف: ٨٢] أي أهل القرية، و **﴿هي أشدُّ قُوّةً من قريتك﴾** [محمد: ١٣]، أي من أهل قريتك، ومثل هذا كثير في القرآن والكلام الفصيح، بمّا لا يتمّ المعنى إلا بتقديره؛ فالذي غلّط الحريريّ

(١) البيتان في ديوان الرصافي ص ١٠٤.

فقال: لو تمادتْ بهم الرحلة لكانوا في سير متّصل، قد جهل الكلام الفصيح فأراد: طالتْ بنا هذه السفرة. وتمادى الشيء فهو متمادٍ، إذا طال فيه المدى، وهو الغاية البعيدة. يقول: تأخَّرنا عن السفر اليوم لتمادينا في انتظاره، فطالت علينا السفرة لعطلة السفر، حتى أضعنا اليوم الذي انتظرناه فيه حيث لم نسافر فيه. والزمان: اليوم. بأن: تبيَّن. مان: كذب؛ يقال منه: مان يمين مَيْناً، وأما مَانَهُ يَمُونه مَوْناً، فقام بمؤنته. قوله: «فتأهّبوا»، استعدوا. الظعن: الرحيل ولا تلوّوا: تعرّجوا. خضراء الدمَنِ: عشب المزابل، هي حسنة المنظر سيّئة المخبر، وإذا يبست لم ينتفع بعُودها لخوره وضعفه، فشبّه بها أبا زيد لحسن ظاهره فيما أبدى لهم من فصاحتهِ، وسوء باطنه في كذبه وإخلاف وعده، حتى عطَّلهم عن سفرهم نهاراً في انتظاره، قال النبي ﷺ: «إياكم وخضراءَ الدِّمَن»، فقيل له: وما خضراء الدمن؟ فقال: «الجارية الحسناء في المنبت السوء».

* * *

وَنَهَضْتُ لأَحْدِجَ رَاحِلَتِي، وَأَتَحَمَّلَ لِرِحْلَتِي، فَوَجَدْتُ أبا زَيْدٍ قَدْ كتَبَ، عَلَى الْقَتَبِ: [الكامل]

يَا مَنْ غَدَا لِي سَاعِداً وَمُسَاعِداً دُونَ الْبَشَرْ
لا تَحْسِبَنْ أنّي نَأَيْتُـ ـكَ عَنْ مَلالٍ أوْ أشَرْ
لَكِنَّنِي مُذْ لَمْ أزَلْ مِمَّنْ إذَا طَعِمَ انتَشَرْ

قالَ: فأَقْرَأتُ الْجماعَةَ الْقَتَبَ، لِيَعْذِرَهُ مَنْ كانَ عَتَبَ فأُعْجِبُوا بخُرَافَتِهِ، وَتَعَوَّذوا مِنْ آفتِهِ.

ثمّ إنا ظَعَنَّا وَلَمْ نَدْرِ مَنِ اعْتَاضَ عَنَّا.

* * *

قوله: «أحدج»: أي اجعل عليها الحدَج، وهو مركب من مراكب النساء، وأراد أرحل الناقة. وراحلته: ناقته. أتحمَّل لرحلتي، أو قِرُ حمْلي للرحيل، يقال: تحمَّل القوم، إذا عبُّوا أحمال.هم وارتحلوا. والقَتَب: الرَّحْل. قوله: «ساعدا»، أي ذراعاً يستعين به. مساعداً: موافقاً. نأيتك: بعدت عنك. أَشَر: بطر وعدم شكْرٍ، يقال: أشَر الرّجل يأشِر أشَراً، إذا بطر، قال الأخطل يذكر بني أمية: [البسيط]

أعطاكُم الله جَدًّا تُنْصَرونَ بِه لا جَدّ إلا صغيرٌ بَعْدُ محتَقَرُ[1]
لم يأشَرُوا فيه إذ كانُوا مَوَالِيَه ولو يكون لقومٍ غيرهم أشِرُوا

(١) البيتان في ديوان الأخطل ص ١٠٤.

قوله: «مذ لم أزل»، أي مذ بنت ووجدت. انتشر: ذهب. عتب: لام وسخط فعله. خُرافته: حديثه الملهِي.

[حديث خرافة]

وحديث خُرافة مَثلٌ سائر على ألسنة الناس في القديم والحديث، يضرَبَ لكلّ حديث لا حقيقة له. ووقع في أمثال المفضّل بسند يصل إلى عائشة رضي الله عنها، أنها قالت للنبي ﷺ: حدّثني حديث خُرافة[١]، فقال: رحم الله خرافة، كان رجلاً صالحاً، فأخبرني أنه خرج ذات، ليلة فلقيَ ثلاثة نفر من الجنّ فسّبوه، فقال أحدهم: نعفو عنه، وقال آخر نقتله، وقال آخر: نستعبده، فبينما هم يتشاورون في أمره، إذ ورد عليهم رجل، فقال: السلام عليكم. فقالوا: وعليك السلام، قال: وما أنتم؟ قالوا: نفر من الجنّ، أَسَرْنا هذا فنحن نأتمر في أمره، فقال: إن حدّثتكم حديثاً عجيباً، أتشركونني فيه؟ قالوا: نعم، قال: إني كنتُ ذا نعمةٍ فزالت، وركِبَني دَيْن، فخرجت هارباً، فأصابني عطش شديد، فسرت إلى بئر فنزلت لأشرب، فصاح بي صائح من البئر: مه! فخرجت منها ولم أشرب، فغلبَني العطش، فعدت، فصاح بي، ثم عدت الثالثة فشربت، ولم ألتفت إليه فقال: اللهم إن كان رجلاً فحوِّله امرأة، وإن كان امرأة فحوِّلها رجلاً، فإذا أنا امرأة، فأتيت مدينة فتزوّجني رجل، فولدت منه ولديْن، ثم عدتُ إلى بلدي، فمررت بالبئر التي شربت منها، فنزلت فصاح بي كما صاح في الأول، فشربت ولم ألتفت له، فدعا كالأول، فعدتُ رجلاً كما كنت. فأتيت بلدي، فتزوّجت امرأة، فولدت منها ولدين، فلي ابنان منْ ظهري وابنان من بطني. فقالوا: إن هذا لعجيب، أنت شريكنا، فبينما هم يتشاورون إذ ورد عليهم ثوْر يطير فلما جاوزهم، إذا رجل بيده خشبة، وهو يحفز في إثره، فوقف عليهم فسلّم، فردّوا وسألهم، فردّوا عليه مثل ردهم على صاحبهم؛ فقال: إن حدّثتكم بحديث أعجب من هذا أتشركونني فيه؟ قالوا: نعم قال: كان لي عمّ، وكان موسراً، وكان له ابنة جميلة، وكنّا سبعةَ إخوة، وكان لعّمي عجلٌ يربيّه، فانفلت، فقال: أيّكم يَردّه فابنتي له؛ فأخذت خشبتي هذه، واتزّرت، ثم حفزت في إثره وأنا غلام، وقد شبْت، فلا أنا ألحقه ولا هو يكلّ؛ فقالوا: إن هذا لعجب، أقعد فأنت شريكنا. فبينما هم يتشاورون، إذ ورد عليهم رجل على فرس أنثى، وخلْفه غلام على فرس ذكر، فسلّم كما سلّم صاحباه فردّوا عليه كردّهم على صاحبيه. فسألهم فأخبروه الخبر، فقال لهم: إن حدثتكم بحديث أغرب من هذا، أتشركونني فيه؟ فقالوا نعم، قال: كانت لي أمّ خبيثة ـ ثم قال للفرس الأنثى الذي تحته: أكذلك هو فقالت: برأسها نعم ـ قال: وكنتُ أتّهِمُها بهذا العبد ـ وأشار إلى الفرس، الذي تحت غلامه: أهكذا؟ فقال برأسه: نعم ـ فوجّهت بغلامي هذا الراكب ذات يوم في بعض حاجاتي،

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٦/ ١٥٧.

فحبسته عندها فأغفى، فرأى في منامه كأنها صاحت صيْحة، فإذا هي بجُرَذٍ قد خرج، فقالت: اسجد، فسجد، ثم قالت: اكرب فكرب، ثم قالت: ادرس فدرس، ثم دعت برَحاً فطحنت قدَح سَويق، فأتت به الغلام، فقالت له: ائت به مولاك، فأتاني به، فاحتلت عليهما حتى سقيّتهما القدح، فإذا هي فرس أنثى، وإذا هو فرس ذكر، قال: أكذلك؟ قالت الفرس الأنثى برأسها: نعم، وقال الفرس الذكر برأسه: نعم، فقالوا إن هذا أعجب شيء سمعناه، أنت شريكنا. فأجمع رأيهم فأعتقوا خُرافة فأتى النبيَّ ﷺ وسلم فأخبره بهذا الحديث، فما جاء من الأحاديث المحالبَّة نُسِب إلى خرافة صاحب الحديث.

❊ ❊ ❊

قوله: «آفته» أي ضرره. ظعنًا: رحلنا. اعتاض: استبدل.

المقامة الخامِسَة

وهيَ الكوفيّة

حكى الحارثُ بن همام قَالَ: سَمَرْتُ بالْكَوفِة فِي لَيلةٍ أُدِيمُها ذو لَوْنَين، وَقَمَرُها كَتَعْويذ مِنْ لَجيْنٍ، مَعَ رُفْقَةٍ غُذُوا بلِبَانِ البَيَانِ، وَسَحَبُوا عَلَى سَحْبَانَ ذَيل النِّسْيَانِ، مَا فِيهِمْ إلاَّ مَنْ يُحفَظُ عَنهُ وَلا يُتَحَفَّظ مِنهُ، وَيميلُ الرَّفِيقُ إِليهِ، وَلا يمِيلُ عَنهُ، فاسْتَهْوَانَا السَّمَرُ، إِلَى أَنْ غَرَبَ الْقَمَرُ، وَغَلَبَ السَّهَرُ. فلَمَّا رَوَّق اللَّيْلُ الْبَهِيمُ، وَلم يَبْقَ إِلاَّ التَّهْوِيمُ، سَمِعْنَا مِنَ الْبَاب نَبْأَةَ مُسْتَنْبِحٍ، ثُمَّ تلَتْهَا صَكَّةُ مُسْتَفْتِحٍ، فقُلْنَا: مَنَ الْمُلِمُّ، فِي اللَّيْل الْمُدْلَهِمُّ؟ فقال:

* * *

[الكوفة]

سَمَرْت بالكوفة. الكوفة بلد بالعراق مشهور بينه وبين بغداد ثلاثون فرسخاً، وسميَتْ كوفة لاستدارتها، أخذت من الكوفان، وهي الرملة الشديدة البياض، وقيل: سمِّيتْ كوفة لاجتماع الناس فيها، من قولهم: تكوَّف الرمل تكوّفاً، إذا ركب بعضُه بعضاً، وقيل: سمِّيت كوفة، لأنها قُطعت من البلاد، من قولهم: أعطيت فلاناً كَيْفة، أي قطعة، وكفت أكيف كيْفا: قطعت والكوفة «فُعلة» منه، قُلِبت الياء واواً للضمَّة التي قبلها.

وهي مدينة العراق الكبرى، والمِصُر الأعظم وقُبَّة الإسلام، ودار هجرة المسلمين، وأوَّل مدينة اختطّها المسلمون بالعراق.

وذكر شيخنا أبو الحسن بن جبُير في رحلته حاجًّا، أنه دخل الكوفة في أوّل محرّم سنة تسع وتسعين وخمسمائة، فقال: هي مدينة كبيرة، وقد استولَى الخراب على أكثرها، فالعامر منها أقلّ من الخراب، ومن أسباب خرابها قبيلة خفاجة المجاورة لها، وهي لا تزال تضرّ بها، وكفاك بتعاقب الأيّام والليالي ما حقاً ومفنياً! وبناؤها بالآجرّ خاصّة، ولا سورَ لها. والجامع العتيق آخرها ممَّا يلي شرق البلد، ولا عمارة تتَّصل به من جهة الشرق. وهو جامع كبير، في الجانب القبليّ منه خمس أبلطَة، وفي سائر الجوانب بلاطتان متّسعتان، وهي على أعمدة من السَّوارِي المصنوعة من صَمِيم الحجارة المنحوتة قطعة على قطعة، مفرَغة بالرَّصاص، ولا قسيّ عليها، وهي في نهاية من الطول متصلة

بسقف المسجد، فتحار العيون في تفاوت ارتفاعها، فما رئيَ في الأرض مسجد أعْلَى سقفاً منه، ولا أطول أعمدة، ولهذا الجامع آثار كثيرة منها بيت بإزاء المحراب عن يمين مستقبل القبلة، يقال إنه كان مُصَلَّى الخليل إبراهيم عليه السلام، وعليه ستر أسود صوناً له، ومنه يخرج الخطيب لابساً ثياب السواد للخطبة، والناس يزدحمون على هذا البيت للصلاة فيه، وبمقربة هذا البيت عن يمين القبلة محراب محّلق عليه بأعواد الساج، كأنه مسجد صغير مرتفع عن صحن البلاط، هو محراب عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وفيه ضربه الشقيّ عبد الرحمن بن مُلْجَم، فالناس يصلُّون فيه باكين داعين، وفي الزّواية من البلاط القبليّ المتّصل بآخر البلاط الغربيّ شبه مسجد صغير محلّق عليه أيضاً بأعواد الساج، وهو مَفارُ التَّنُّور الذي كان آيةَ نوح عليه السلام، ويتصل بالجدار القبليّ فضاء، يقال إنه. كان منشأ السفينة.

ومع هذا الفضاء دار عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ـ تلقّينا هذه الآثار من أشياخ ـ البلد وفي الجهة الشرقيَّة بيت قبر مَسلمة بن عَقيل، وفي جوف الجامع سقاية كبيرة فيها ثلاثة أحواض كبار، وفي غربيّ المدينة على مقدار فرسخ المشهد الشهير المنسوب لعلي بن أبي طالب حيث بركتْ ناقته، وهو محمول عليها ميِّتاً، وفيه قبره، والله نعالى أعلم بصحة ذلك. والفُرات في الجانب الشرقيّ على قدر نصف فرسخ، والجانب الشرقي كله حدائق نخل ملتفَّة يمتد سوادها امتداد البصر.

* * *

قوله: «سمرت» أي ذهب نومي. الأديم: الجلد، وأراد أنَّ لون الليلة فيه سواد وبياض، لأن قمرها ناقص، ولذلك جعله. كتعويذ من لُجينٍ؛ وهو خرز فضة، يُستعمل مستديراً استدارة القمر، وبعض الدائرة، فارغ فيربط في الدائرة خيط، فيعلّق في أعناق الصبيان.

[مما قيل في الهلال شعراً]

وقال فيه السكرادي: **[الكامل]**

قُمْ سَلِّ هَمِّي بالمدا ... م ففيه همّ قد أمضَّهْ
أَوَ ما ترى قمر السَّما ... ء كأنه تعويذ فِضَّهْ
فإذا ألمَّ به المحا ... ق تخالُه في الخدِّ عَضَّهْ

وعلى معنى البيت الآخر، قال إسماعيل القاضي يصف الهلال: **[مجزوء الخفيف]**

اسقِني قبل صاحبي ... واخش صَرْفِ النوائبِ
فالهلال الذي يلو ... حُ خلال الغَيَاهِبِ
مثل فخ اللجين صِيـ ... ـغ لصيد الكواكبِ

وقال القاضي أبو محمد عبد الوهاب: **[المنسرح]**

لـمّـا رأيـت الـهـلال مُـنـطـويـاً ... فـي غـرّة الـفـجـر قـارن الـزُّهَـرهْ
شـبَّـهـتُـه والـعـيـانُ يـشـهـد لـي ... بـصـولـجـانٍ أوفـى لـضـربِ كُـرَهْ

وقال القاضي أبو الحسن بن لبّال: **[مجزوء الرجز]**

انـظـر إلـى الـهـلال إذْ ... لاح بـهـيَّ الـمـنـظـرِ
كـزورقٍ مـن فـضـةٍ ... وسـط لُـجَـيـنٍ أخـضَـرِ

أخذه من قول ابن المعتزّ: **[الكامل]**

أهـلاً بـفِـطْـرٍ قـد أنـار هـلالُـهُ ... فـالآن فـاغْـدُ إلـى الـمُـدام وبَـكِّـرِ
وانـظـر إلـيـه كـزورقٍ مـن فـضَّـةٍ ... قـد أثـقـلـتـه حـمـولـة مـن عـنـبَـرِ

وله أيضاً: **[المنسرح]**

أهـلاً وسـهـلاً بـالـنّـاي والـعـودِ ... وشُـربِ كـأسٍ بـكـفِّ مَـقْـدُودِ
قـد انـقـضـت دولـةِ الـصـيـام وقـد ... بـشَّـر مـرأى الـهـلال بـالـعـيـدِ
يـتـلُـو الـثـريَّـا كـفـاغـرٍ شَـرِهٍ ... يـفـتـح فـاه لأكْـلِ عـنـقُـودِ

وقد شبَّهه ابنُ المعتزِّ بقُلامة الظفر، فأحسن حيث يقول: **[البسيط]**

وجاءنِي في قميص اللّيل مستتراً ... يستعجل الخطوَ من خَوْفٍ ومن حَذَرِ
ولاح ضـوء هـلالٍ كـاد يـفـضـحـه ... مثلُ الـقُـلامـةِ قـد قُـدَّت مـن الـظُّـفُـرِ

وأخذه من قول الأعرابيّ: **[المتقارب]**

كـأنَّ ابـن مُـزنـتـهـا جـانـحـاً ... فَـسِـيـط لـدى الأفـق مـن خِـنْـصَـرِ[1]

ابن مزنتها: الهلال. الفسِيط: قُلامة الظفر.

قوله: «غذوا»: أي ربُّوابه وجُعل غذاؤهم؛ واللّبان للآدميات، واللبن للآدميات وغيرهنّ. سَحبوا: جرّوا. سحبان: فصيح العرب، وانظره في السادسة عشرة. ذيل اللسان: طرَفه، يريد أنهم بفصاحتهم أَنْسَوْا ذكر سَحبان، فكأنهم جرّوا عليه ثوب النسيان حتى غطّوْه، فلم يذكره أحد من هؤلاء، وأصل ذلك أن يُسحب ذيل الثوب على أثرٍ ليخفى، كقول امرىء القيس: **[الطويل]**

* تُعفّى بذيل الدّرع إن جئتُ موئلي*

وكقوله: **[الطويل]**

---

(١) البيت لعمرو بن قميئة في ملحق ديوانه ص ١٩٣، ولسان العرب (فسط)، وبلا نسبة في أساس البلاغة (فسط)، وجمهرة اللغة ص ٨٣٥، وشرح عمدة الحافظ ص ٤٣٤، وكتاب الصناعتين ص ٢٢٣.

خرجْتُ بها تمشي تَجرُّ وراءَنا ... على أثَرَيْنا ذيلَ مِرْطٍ مُرحّلِ[(١)]

قوله: «يُحفظ عنه»، أي هم علماء يروون العلم فيحفظ عنهم. يُتحفَّظ، يُتحذَّر، وأخذ هذا من قول سليمان بن عبد الملك: قد أكلتُ الطَّيب، ولبست اللّين، وركبت الفارهَ، وتبطّنت العذراء، فلم يبق لي من لذتي إلا صديق أطرح فيما بيني وبينه مؤنة التحفّظ. فهذا الذي طلبه سليمان وجده الحريريّ في أصحابه، وأصل التحفّظ الاجتهاد في حفظ الشيء وقلة الغفلة في الأمور، كأنه على حذر، وأنشد ثعلب: **[الكامل]**

إنّي لأبغض عاشقاً متحفّظاً ... لم تتهمه أعينٌ وقلُوبُ[(٢)]

قوله: «يميل الرفيق إليه»، تقول: مِلْت إلى فلان، إذا أحببتَه وتقرّبتَ منه، ومِلْت عنه، إذا كرهتَه وبَعُدت عنه. والرفيق: الصاحب يُرتفق به في السفر. قوله: «استهوانا»، هوَى بنا وشغلنا. والسَّمَر: الحديث يُسمر عليه. وذكر الحريريّ أن أصل السَّمر ظل القمر، والسَّمَر: الحديث، ومنه أخذ السمير، وغالب أحوال السّمار أنهم يتحدثون في ظل القمر ـ وذكر هذا في تفسير الرابعة والأربعين ـ وهو الأصل، ثم لتسع فيه فصار الجلوس بالليل للحديث يسمى سمَراً، على أيّ حال اتفق. روّق: ضرب رِواقه، والرواق. الثوب يُستظلّ به من الشمس، يريد أنّ الليل ضرب عليهم من ظلامه رواقاً فانحجب عنهم به القمر. والبهيم: الخالص السواد، والبهيم الخالص من كلّ لون. والتهويم: النوم بالليل، والتغوير: النوم في القائلة، وقد هَوّم الرجل، إذا أسقط النُّعاس رأسَه فانتبه بسقوطه فرفعه، فحقيقته سجود الرأس من النعاس، قال ذو الرُّمّة في ذلك: **[الطويل]**

وأشعثَ مثل السَّيف قد لاَحَ جسمَه ... وجيفُ المهارَى والهموم الأَباعِدُ[(٣)]

سقاه النُّعاس كأسَ سكر فرأسُه ... لدين الكَرَى في آخر اللّيل ساجِدُ

ويقال: خفق رأسه فهو خافق، قال ذو الرّمة: **[البسيط]**

وخافِق الرأس فوق الرَّحْلِ قلت له ... زُعْ بالزّمام وجوْزُ الليل مَرْكُوم[(٤)]

---

(١) البيت لامرىء القيس في ديوانه ص ١٤، وخزانة الأدب ١١/ ٤٢٧، والدرر ٤/ ١٠، وشرح التصريح ١/ ٣٨٧، وشرح شواهد الشافية ص ٢٨٦، وشرح شواهد المغني ٢/ ٦٥٢، ٩٠١، وشرح عمدة الحافظ ص ٤٦٢، ولسان العرب (نير)، وتاج العروس (رجل)، (رجل)، وبلا نسبة في أوضح المسالك ٢/ ٣٣٩، ورصف المباني ص ٣٣٠، وشرح شافية ابن الحاجب ٢/ ٣٣٨، ومغني اللبيب ٢/ ٥٦٤، وهمع الهوامع ١/ ٢٤٤.

(٢) البيت بلا نسبة في لسان العرب (حفظ)، وتاج العروس (حفظ).

(٣) البيتان في ديوان ذي الرمة ص ١٣٠.

(٤) البيت لذي الرمة في ديوانه ص ٤٢٠، ولسان العرب (زهغ)، وتهذيب اللغة ٣/ ١٠١، ومقاييس اللغة ٣/ ٣٧ ومجمل اللغة ٣/ ٣٢، وتاج العروس (خفق)، وديوان الأدب ٣/ ٣٩٦، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٨١٨، ومقاييس اللغة ٣/ ٢٨٦، والمخصص ٧/ ١٥٢، ١٢/ ١٠٤.

وقال الرصافيّ فأحسن: [الخفيف]

ومجدِّين للسُّرَى قَدْ تعاطَوْا غفواتِ الكَرَى بغير كؤوسِ
جَنَحُوا وانحنَوْا على العيسِ حتَّى خِلْتُهم يلثمون أيدي العِيسِ
نبذوا الغُمض وهو حلْوٌ إلى أن وجدوه سُلافَةً في الرؤوس

قوله: «نبأة»، أي صوت. مُستنبح: يحكِي نُباح الكلاب، وكان الرجل إذا تلف بالليل بالصحراء ولم يدر أين يتوجَّه، حاكى بصوته نُباح الكلب، فإن كان قريباً من العمران نَبَحتْ لنُباحه كلاب الحيّ، فسمع أصواتها، فقصد الحيّ فتسمِّي العرب مَنْ يفعل هذا المستنبح. وأنشد أبو عليّ في نوادره: [الطويل]

ومستنبح بات الصدى يستتيههُ فتاهَ وجَوْز الليل مضطرب الكِسْرِ
رفعتُ له ناراً ثَقوباً زنادُها تُليح إلى الساري: هلُم إلى قِدْرِي

وقال حسان بن ماثل: [الطويل]

ومستنبحٍ في جُنح ليلٍ دعوتُه بمشبوبة في رأس صَمْدٍ مقابلِ[1]
فقلت له أقبل، فإنَّك راشدٌ وإنَّ على النار النّدى وابنُ ماثلِ[2]

وقد أنشد أبو تمام في حماسته في باب الأضياف في المستنبح ما فيه كفاية؛ فلينظر هنالك.

قوله: «تلتها»، أي تبعتها. صكّة: دفعة. مستفتِح: طالب فتح الباب الملمّ: الزائر: المدلهمّ: الشديد السواد، من الدّهمة، ولامه زائدة [الرجز]

* * *

يَا أَهْلَ ذَا الْمَغْنَى وُقِيتُمْ شَرَّاً ولاَ لَقِيتُمْ مَا بَقِيتمْ ضُرَّا
قَدْ دَفَعَ اللَّيْلُ الَّذِي اكْفَهَرَّا إِلَى ذَرَاكُمْ شِعْثاً مُغْبَرَّا
أَخَا سِفَارٍ طَالَ وَاسْبَطَرَّا حَتَّى انثَنَى مُحْقَوْقِفاً مُصْفَرَّا
مِثْلَ هِلاَلِ الأُفقِ حِينَ افتَرَّا وَقَدْ عَرا فِنَاءَكُم مُعْتَرَّا
وَأَمَّكُمْ دُونَ الأنَامِ طُرَّا يَبْغِي قِرًى مِنْكُمْ وَمُسْتَقَرَّا
فَدُونَكُمْ ضَيْفاً قَنُوعاً حُرَّا يَرْضَى بِمَا احْلَوْلَى وَمَا أَمَرَّا
وَيَنْثَنِي عَنْكم يَنُثّ الْبِرَّا

* * *

(١) الأبيات في ديوان الرصافي ص ١٠٣.

(٢) البيت لحسان بن ثامل في لسان العرب (لجج)، وتاج العروس (لجج).

المغْنَى: المنزل. وقُيتم: كفيتم، وإنما دعا لهم بهذا، لأن في حديث أبي سعيد الْخُدريّ رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «يوشك قلوبُ الناس أن تملأ شرًّا حتى يجري الشرّ فضلاً بين الناس فلا يجد قلباً يدخله».

اكفهرّ: تراكم ظلامه وكثر. ذَراً. شَعِثاً: متغيّر الشعر، والشعث: ترك غسل الرأس حتى يتغيّر. مغبرًّا: عليه الغبار، وفي الحديثِ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي ﷺ رأى رجلاً وسخت ثيابه، فقال: «أمَا وجد هذا ما ينقي به ثيابه!». ورأى رجلاً شَعِث الرأس، فقال: «أما وجد هذا ما يسكّن به شَعره!» أخاً سِفار: صاحب أسفار، أي ملازم لها. اسبطرّ: امتدّ وطال سفره انثنى: رجع عاد. محقوقفاً: منحنياً. الأفق: ناحية السماء. افترّ: انفتحت أطرافه ولم يتقارب، كأنه فرَّ هذا من هذا، ومنه فررت الدابة، وافترّ: ضحك، وشبّه انحناؤه من السفر بدائرة القمر الناقص، وأكثر ما يوقعون هذا التشبيه على الانحناء من الكبَر، قال الشاعر: **[الوافر]**

تقوّس بعد مَرّ العُمر ظهري ... وداستني الليالي أيَّ دَوْسِ
فأمشي والعصا تَهْوِي أمامِي ... كأنّ قوامَها وترٌ لقوسِي

وقال ابن لبَّال: **[المنسرح]**

قوّس ظهري المشيب والكِبَرُ ... والدّهر يا عمرُو كُلُّهُ عِبَرُ
كأنني والعصا تدبّ معي ... قوْسُها وهي في يدي وَتَرُ

قوله: «عَرَا»: قصد. فناءكم: منزلكم، وفناء الدار: ما أحاط بها من الأرض فحمتْه. معترًّا: قاصداً لطلب معروفكم، أَمّكم: قصدكم. طُرًّا: أجمع. يبغي قِرًى: يطلب طعاماً. احلولى: اشتدّت حلاوته. ينُثّ: يفشي وينشر. البرّ: الإحسان

* * *

قال الحارثُ بن همَّام: فلما خَلَبَنَا بِعُذُوبةِ نُطقِهِ، وَعَلِمْنَا مَا وراءَ بَرْقِه، ابْتَدَرْنَا فَتْحَ الْبابِ وَتلَقّيناهُ بالتَّرحَابِ، وَقُلْنَا لِلْغُلامِ: هَيَّا هَيًا، وَهَلُمَّ مَا تَهَيَّا.

فقال الضَّيف: وَالَّذِي أَحَلَّنِي دَارَكُمْ، لا تَلمَّظْتُ بِقِرَاكُمْ، أوْ تَضْمَنُوا لِي ألاَّ تَتَّخِذُونِي كَلاًّ! وَلاَ تَجَشَّمُوا لأَجْلِي أكْلاً؛ فرُبَّ أكْلَةٍ هَاضَتِ الآكِلَ، وَحَرَمَتْهُ مَآكِلَ، وَشَرُّ الأضْيافِ مَنْ سَامَ التَّكْلِيف، وَآذَى المُضِيفَ، خُصُوصاً أذًى يَعْتَلِقُ بالأجْسَامِ، وَيُفْضِي إِلَى الأسْقامِ، ومَا قِيلَ فِي المثلِ الذِي سَار سَائِرُهُ: «خَيْرُ الْعَشَاءِ سَوَافِرُهُ»، إلاَّ لِيُعَجَّلَ التَّعَشِّي، ويُجْتَنَبَ أكلُ اللَّيلِ الَّذِي يُعْشِي، اللَّهُمَّ إِلاَّ أن تَقِدَ نارُ الجُوْعِ، وَتَحُولَ دُونَ الْهُجُوعِ.

* * *

قوله: «خلَبنا»، أي خدعنا. علمنا ما وراءَ برقه، يريد أن ما أبدى لهم من الكلام الفصيح دلهّم على ما عنده من العلم، كما أن البرق إذا ظهر ولمع عُلِم ما وراءه من المطر. ابتدرنا: استبقنا، التَّرحاب: من قولهم. مرحباً مرحباً. هيّا هيّا، أي سق سق. هلم ما تهيّا، أي أحضِرْ ما تيسر. لا تلمَّظت بقِراكم: لا تذوّقت بطعامكم، وأصل التلمّظ تتبع اللسان ما بقي من الطعام في الفم بعد الأكل. كَلا: ثقيلاً، وفلان كَلٌ على أهله، إذا لم يكفهم مؤنة نفسه، والكلّ: الإعياء، وجمعه كلول، وعلى فلان كلٌ كثير، قال النابغة الجَعْدِيّ: **[الطويل]**

رأيتم بني سعدٍ كلولاً كثيرةً ... شهيدٌ بذاك ابنا حُماد بن أحمرا[1]

تجشموا: تكلفوا أكلا: طعاماً، والأكلة: الغداء والعَشاء، والأصل في هذا أنَّ الأكل بالفتح، مصدر أكل، وبالضمّ ما أكل، والأكلة بالفتح: المرَّة الواحدة، وبالضم اللقمة، وبالكسر هيئة الأكل. هاضت: أضعفت، وأدخلت عليه هيضةً، وهي القيء والاسهال، وأصل المثل: رب أكلة تمنع أكلات؛ وقال ابن هرمة: **[الوافر]**

ورُبّتَ أكلةٍ منعت أخاها ... بلذّة ساعةٍ أكَلاتِ دَهْرِ

وكمْ من طالب يُشْفَى بشيء ... وفيه هلاكه لو كان يَدْرِي

والمآكل: جمع مأكلة أو مأكل، وهي الأُكُل، وهي أيضاً ما يؤكل سامَ التكليف، أي عرّض مضيفه إلى تكلّف ما يشقّ عليه. والأذى: الضرر، والمضيف: صاحب المنزل. يفِضي: يؤُول. سار سائره: انتشر التحدّث به ومشى في الناس خير العشاء سوافره؛ بواكره، أي ما أكل منه بضوء النهار، واحدها سافرة، والسافرة: التي سَفَرت نقابها عن وجهها، أي كشفته؛ فكأن اللقمة إذا أبصرتها عند أكلها قد سَفَرت الظلام عن نفسها، وتُجمع على سوافر على هذا المعنى، حكى أبو بكر بن شعبان النحويّ، قال: دخلت على محمد اليزيديّ وهو يتغدّى، فقال: يا أبا بكر، خيْر الغداء بواكره، فخير العشاء ماذا؟ فقلت: لا أدري، فقال: دخلت على حسين بن الخادم، وهو يتغدّى فقال: يا أبا سليمان، خير الغداء بواكره، فخير العشاء ماذا؟ فقلت: لا أدري، فقال: كنت بحضرة الرشيد وهو يتغدّى، فدخل الأصمعيّ، فقال: يا أصمعيّ، خير الغداء بواكره، فخير العشاء ماذا؟ فقال: بواصرُه، يعني ما يُبصَر من الطعام قبل الظلام. وحكى أبو يعقوب في الغداء التأخير. فقال: قال الحكيم ـ وقيل هو لعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ـ من سرّه البقاء ولا بقاء، فليبكر الغداء، وليباكر العشاء، وليخفف الرّداء ـ يريد ثقل الدَّين.

التعشّي: أكل العشاء، وهو ما يؤكل بالعشيّ. يعشِي: يورث العَشَا، وهو سواد البصر ليلاً، قال ابن دُرَيد: **[مجزوء الكامل]**

---

(١) البيت في ديوان النابغة الجعدي ص ٦٥.

وأرى العَشَا في العين أكـ ـثر ما يكون من العَشاء[(١)]

أراد من تأخير العشاء، لأن أكل الطعام بالليل يحدث ضعف البصر أكثر من غيره، وقال كشاجم: [مجزوء الخفيف]

ونَديمٍ مخالفٍ لا يشاء الّذي أشا[(٢)]
هو في الصّحوِ لي أخ وعدوّ إذا انتَشَى
اقترحت العَشاء يو ماً عليه فأذهَشَا
ساعةً ثم قال لي: العَشا يورث العَشَا

كأن هذا التطبّب أخذه كشاجم من قول [ضيف] الصاحب بن عباد، قال الصاحب: ما أفحمني أحد كأبي الحسن البديهيّ، فإنه كان عندي، فقدّمت إليه فاكهة، فأمعن في المشمش، فقلت: المشمش يلطّخ المعدة، فقال: لا يعجبني المضيف إذا تطبَّب، فودِدت أني لم أقلها.

وورد النهي عن ترك العشاء في حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تَدَعوا العَشاء، ولو بكفّ من حَشَفٍ، وإنّ تركه مَهْرَمَةٌ»[(٣)].

وقوله: «تحول دون الهجوع»، أي تمنع من النوم، وجاء في الحديث النَّهي عن التكلف، قال سفيان: ذهبت أنا وصاحبٌ لي إلى سلمان، فقال: لولا أنّ رسول الله ﷺ نَهى عن التكلّف لتكلّفت لكم، ثم جاء بخبز وملح، فقال صاحبي: لو كان في ملحنا صَعْتَر! فبعث سلمان مطْهرته، فأرهنها، فجاء بصعتر، فلما أكلْنا قال صاحبي: الحمد لله الذي أقنَعنا بما رزقنا، فقال سلمان: لو قنعت لم تكن مطهرتي مرهونة! وجاء في حديث جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «نعم الإدام الخلّ»[(٤)]، وكفى بالمرء إثماً أن يسخط ما قُرّب إليه. الهجوع، أي النوم.

* * *

قال: فَكأَنَّهُ اطَّلَع عَلَى إرادَتِنا، فَرَمَى عَنْ قَوْسِ عَقِيدَتَنا، لاَ جَرَمَ أنَّا آنَسْنَاهُ بالْتِزَام الشَّرْطِ، وأثنَينا عَلَى خلُقِهِ السَّبْطِ وَلَمَّا أحْضَرَ الْغُلاَمُ مَا رَاجَ، وَأذْكَى بَيْننا السِّرَاجَ، تأَمَّلْتُهُ فإذا هُوَ أبُو زيدِ، فقُلتُ لِصَحْبِي: لِيَهْنئِكم الضَّيْفُ الوارِدُ، بل

(١) البيت في ديوان ابن دريد ص ٣٠.

(٢) الأبيات في ديوان كشاجم ص ١٠٦.

(٣) أخرجه الترمذي في الأطعمة باب ٤٦، بلفظ: «تعشّوا ولو بكف من حَشَف».

(٤) أخرجه أبو داود في الأطعمة باب ٣٩، والنسائي في الأيمان باب ٢١، وابن ماجه باب ٣٣، والدارمي في الأطعمة باب ١٨.

الْمغنَمُ البارِدُ! فإن يَكُنْ أَفَلَ قَمَرُ الشِّعْرَى فَقَدْ طَلَعَ قَمَرُ الشِّعْر، أو استسَرَّ بَدْرُ النَّثْرَةِ فَقَدْ تَبَلَّجَ بَدْرُ النَّثْرِ. فَسَرَتْ حُمَيَّا المسرَّة فيهِمْ، وَطَارَتْ السِّنَة عَنْ مَآقِيهِمْ، وَرَفَضُوا الدَّعَةَ الَّتِي كَانُوا نَوَوْهَا وثَابُوا إِلَى نشْرِ الْفُكَاهَةِ بَعْد مَا طَوَوْها؛ وَأبو زيدٍ مُكبٌّ عَلَى إعمَالِ يَدَيْهِ، حَتَّى إِذَا اسْتَرْفَعَ مَا لَدَيهِ، قُلْتُ له: أَطِرفْنا بغَرِيبَةٍ مِنْ غرَائِبِ أَسْمَارِكَ، أوْ عَجِيبَةٍ مِنْ عَجَائب أسْفَارِكَ.

* * *

قوله: «عقيدتنا»؛ أي ما انعقدت عليه نيَّاتنا، ويقال: رميت عن القَوس، ولا يقال: رميت بها، إلا أن ترميهَا من يدك. لا جرم، بمعنى حقا، ولا بدّ ولا محالة. السَّبط: السهل. راج: تيسر. أذكى: أوقد. السِّراج: المصباح تأملْته: نظرته ليهنئكم، أي ليسرّكم. الوارد: القاصد. المغنم البارد: الهنيء الذي يُغنَم دون قتال ولا تعب. أفل: غاب الشِّعري: كوكب معروف، وهما شعريان: العَبور والغُمَيصاء، سَمَّوْها عَبوراً لأنهم يزعمون أنها عبرت المجرّة، وسموا الأخرى الغَميصاء لأنها بكت على أختها حتى غمصت عينها. أي خفيت استسرّ: غاب وخفي. النّثرة: ثلاثة أنجم مجتمعة. تبلّج: ظهر وأضاء. النثر: ضد النظم، يقول: إن غاب قمر السماء الذي يتحدّث بضوئه، فهذا أبو زيد قمر الفصاحة قد طلع، فجدّدوا حديثكم ودعوا النوم.

سَرتْ: مشت حميّا المسرّة: شدة السرور، والحمّيا: حدّة الخمر وتسمّى الخمر الحمّيا. السِّنَة: أخفّ من النوم. مآقيهم: عيونهم، والمآق: طرَف العين من جهة الأنف. رفضوا: تركوا. الفكاهة: الحديث المظرّف، وأصلها المزاح، ومنه قولهم: لا تمازحنّ صبيًّا ولا تفاكهنّ أَمَة، قال ابن الأنباريّ: المعنى: لا تمازحنّ، إلا أنه استسمج إعادة اللفظ فأتى بلفظ في مثل معناه، مخالف للفظه. وتفاكهنّ، مشتق من الفكاهة، وهي المُزاح، وقال طرَفة: **[الطويل]**

وإن امـرأ لـم يَـعـفُ يـومـاً فـكـاهـةً لـمـنْ لـم يُـرِدْ سـوءًا بـهـا لَـجـهـولُ[1]

ووصف أبو العيناء بَن أبي دواد، فقال: له هزل يؤثَم به، وجَدٌّ يتقدم الجَدّ، وبين ذلك فكاهة تستملَح، ودعابه تُستظرف. ومزح، مصادره ثلاثة: مَزْح ومُزَاح وممازحة. اليزيديّ: بالكسر لا غير. أبو عمرو: ما ذكره اليزيديّ مصدر مازحت مِزاحاً وممازحة.

قوله: «مكبّ»، أي مائِل الرأس. إعمال يديه: استعمالها بالأكل. واسترفع: أمر برفعه، ويروى «استفرغ»، أي أتمّ. أطرفنا، أي حدّثنا بطُرفة، وهي الحديث المستملَح، والطرْفة عند العرب: الشيء المحدَث الذي لم يكن عرف، وجاء فلان بطرْفة وشيء

(١) البيت في ديوان طرفة بن العبد ص ١٢٠.

طريف. وهو مشتقّ من الطريف والطارف، وهما المال المستحدَث الذي جمعه الرجل واكتسبه. والتالد: ما ورثه عن الآباء، قال الشاعر: **[الطويل]**

وأصبح مالي من طريفٍ وتالدٍ لغيري وكان المال بالأمس ماليا

أسمارك: جمع سمر، وهو الحديث يُسْمَر عليه.

❊ ❊ ❊

فقال: لَقَدْ بَلَوْتُ مِنَ الْعَجَائِبِ مَا لَمْ يَرَهُ الرَّاءونَ، وَلاَ رَوَاهُ الرَّاوُون؛ وَإِنَّ مِنْ أَعْجَبِهَا مَا عَايَنْتُهُ اللَّيْلَة قُبَيْلَ انْتِيَابِكُمْ، وَمَصِيرِي إِلَى بابِكُمْ؛ فاسْتَخْبَرْنَاهُ عَنْ طُرْفَةِ مَرْآه، في مَسْرَحِ مَسْرَاه، فقال: إنَّ مَرَامِي الْغُرْبَةِ، لَفَظَتْنِي إِلَى هَذِهِ التُّرْبَةِ، وَأَنا ذُو مَجَاعَةٍ وَبُؤسَى، وجِرَاب كفُؤادِ أمّ مُوسَى. فَنَهَضْتُ حِينَ سَجا الدُّجى، عَلَى ما بِي من الوَجَى، لأَرْتَادَ مُضيفاً، أَو أَقْتَادَ رَغيفاً، فَسَاقَنِي حادِي السَّغبِ، وَالقَضاءُ المكَنَّى أَبا العَجَبِ، إلى أن وقفْتُ على باب دارٍ، فَقلْتُ على بدارٍ:

❊ ❊ ❊

قوله: «ما لم يره الراءون»، أي الناظرون إليه، وقوله: «ولا رَوَاه الراوون» أي حفظه الحافظون، عاينته: شاهدته ورأيته بعيني. إنتيابكم: قصدكم مصيري: رجوعي. مرآه: رؤيته. مسرح: حيث يسرح ويمشي. مسراه: سيره بالليل مرامي: قواذف التّربة: البلدة مجاعة: جوع. بؤسى: ضرر. جراب: وعاء الزاد. كفؤاد أم موسى، أي فارغاً لقوله تعالى: **﴿وأصْبَحَ فُؤاد أُمِّ مُوسَى فَارِغاً﴾** [القصص: ١٠].

[موسى عليه السلام]

وسمِّيَ موسى لأنَّهم وجدوه بين ماء وشجر، ومو بالقبطية هو الماء، وشا الشجر، فعربت فجعلت الشين سيناً. وهو موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام، ولم تَزل بنو إسرائيل من عهد يوسف عليه السلام تحت أيدي الفراعنة، وهم على بقايا من دين إبراهيم عليه السلام المشروع له وإسحاق ويعقوب ويوسف عليهم الصلاة والسلام، حتى كان فرعون الذي بعث موسى عليه السلام إليه، ولم يكن منهم فرعون أعتَى على الله منه ولا أطول عمراً. وكان شديد الغلِظة سيّىء الملكة. واسمه الوليد بن مصعب، وكان اتخّذ بني إسرائيل خَوَلاً، فصِنْفٌ منهم يبنون، وصِنْفُ يحرثون، ومن لا عمل له وظّف عليه الجزية، فرأى في منامه أن ناراً أقبلت من المقدس، فأحرقت القِبْط وتركت بني إسرائيل، فسأل عن رؤياه، فقيل له: يخرج من هذا البلد الذي جاء بنو إسرائيل منه رجل يكون على يديه هلاك مِصْر، فأمر بقتل كلّ مولود يولد في بني إسرائيل. فجمع القوابل وعهد إليهنّ بذلك، فذبح الوِلْدان

وعذَّب الحبالى، حتى يطرحن ما في بطونهنّ، حتى كاديفنيهم، فقيل له: إنما هم خَوَلُك، وإنك إن تُفنِهم ينقطع النسل. فأمر بقتل الغلمان عاماً ويُستحيون عاماً، فوِلِد هارون في السنة التي يستحيون فيها. وولد موسى في السنة التي يقتلون فيها.

فلما وضعته أمه حَزِنت لشأنه، فأوحى الله إليها: أن أرضعيه، فإذا خفت عليه فألقيه في اليمّ ـ وهو النيل ـ ولا تخافي ولا تَحزني. فعملت تابوتا وجعلته فيه، وألقته في اليمّ، وقالت لأخته: قصّيه، أي اقتفي أثره، فحمله الماء حتى أدخله بين أشجار تحت قصر فرعون، فخرج جواري فرعون يغتسِلْن، فوجدن التابوت، فأدخلنه إلى آسية امرأة فرعون، وهي بنت مزاحم، إسرائيليّة، فكشفت عنه التابوت، فرأته. فرحمته وأخذته، وأخبرت به فرعون، فأراد أن يذبحه، وخَشِيَ أن يكون المولودَ الذي حُذِّرَ منه، فلم تزل به آسية حت تركه لها، وذلك قوله تعالى: **﴿فالْتَقَطَه آلُ فِرْعَوْن لِيَكونَ لهم عَدُوًّا وَحَزناً﴾** [القصص: ٨]، فاللام من **﴿ليكون﴾** للعاقبة، ولم يكن لفرعون ولد، فاتّخذه له ولداً، فارتادوا له المرضعات، فلم يقبل ثَدْيَ واحدة منهن، ولما غاب أمرُه عن أمه، كاد قلبها يطير وَجْداً عليه، فبعثت أخته كأنّها تلتمس رضاعه، فلما رأت أسفهم عليه حيث لا يُقبل على مرضعة ـ وذلك قوله تعالى **﴿وحَرَّمْنَا عَلَيْهِ المَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ﴾** [القُصص: ١٠] قالت: هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم؟ فقالوا لها: دلّينا على ذلك، فذهبت فجاءت بأمه.

فلما رأته كادت لشدّة حبّها فيه، وفرحها به أن تقول: هو ابني، وتفتضح، فعصمها الله من ذلك، وذلك قوله تعالى: **﴿وأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسى فارغا إنْ كادَتْ لتُبْدِي به لولا أن رَبَطْنا على قلبها﴾** [القصص: ١٢]، فأعطته ثديها، فأخذ يرضعه. فربّته في قصر فرعون، فلما تحرّك عرضته آسية على فِرْعون، فلما أخذه مدّ موسى يده إلى لحيته فنتفها، فقال فرعون: عليَّ بالذبّاحين، فإنما هو هذا! فقالت آسية: قُرَّة عينٍ لي ولك، لا تقتلوه فإنه صبيّ لا يعقل، ودعت له بحمر وياقوت لتختبره، فطرح جبريل عليه السلام يده في النار وأخذ قطعة منها، فوضعها موسى عليه السلام في فمه، فأحرقته. فتكره فرعون، فكبر في حجره. فلمّا ترعرع تبنّاه، فكان يركب مراكبه ويلبس ملابسه، ويُدعى ابن فرعون.

ثم إن موسى عليه السلام أخبر أن فرعون قد ركب، فركب أثره، فأدركه ببلد منف، فدخلها وقد أُجلِيَتْ لفرعون وليس في طرقها أحد، فرأى إسرائيليا مع قبطيّ يقتتلان، فاستغاثه الإسرائيليّ، فوكز القبطيّ فقضى عليه، فكان من قصته معهما ما قص الله تعالى في كتابه، حتى خرج خائفاً يترقب إلى مدين.

وأما رجوعه منها إلى فرعون بأنه رسول الله إلى أن غرق فرعون في البحر وجنوده، فمذكور في الثامنة عشرة.

***

قوله: «نهضت»، أي مشيت. سجا الدجى: سكن بالظلام وغطّى كل شيء. الوجى: الحفا. أرتاد: أطلب. مضيفاً: منزلاً، وأضافه: أنزله. وضافه: نزل به فهو ضيفُه، أي النازل به. أقتاد: أقود. حادي السغَب: سائق الجوع [الرجز]

* * *

حُيِّيْتُمْ يَا أَهْلَ هَذَا الْمَنْزِلِ ... وَعِشْتُمْ فِي خَفْضِ عَيْشٍ خَضِلِ
مَا عِنْدَكُمْ لابْنِ سَبِيلٍ مُرْمِلِ ... نِضْوِ سُرًى خَابِطِ لَيْلٍ أَلْيَلُ
جوِى الْحَشَى على الطَّوَى مُشْتمِلِ ... مَا ذَاقَ مُذْ يَوْمَانِ طَعْمَ الْمأكَلِ
وَلا لَهُ فِي أَرْضِكُمْ مِنْ مَوْئِلِ ... وقَدْ دَجَا جُنْحُ الظَّلَامِ المسْبِلِ
وَهْوَ مِنَ الْحَيْرَةِ فِي تَمَلْمُلِ ... فَهَلْ بِهَذَا الرَّبْعِ عَذبُ الْمَنْهَلِ
يَقولُ لِي: أَلْقِ عَصَاكَ وادْخُلِ ... وَابْشِرْ بِبِشْرٍ وَقِرًى مُعَجَّلِ!

* * *

حُيِّيتم: طابت حياتُكم، والتحيّة البقاء. خفض: لين وخفض عيشُه خفضاً، إذا أخصب، خضل: ناعم، وخضِل: الشيء يخضل خضلاً: ابتلّ ابن سبيل: خاطر طريق، وهو الغريب، وسُمِّي الغريب ابنَ السَّبيل، لأنه إذا ظهر على قوم لا يعرفونه لم يُعرف له نسب إلا السبيل الذي جاء منه. ومرمِل: لا زاد له، وأرمل القوم: فنى زادهم.

ومن أبيات اللّغز في ابن السبيل: [الطويل]

ونحنُ ابن مَنْ لا ينكِرُ النَّاس فضلَه ... وليس له في الناس منْ طالبِ وتْرَا
فإنْ تحفَظوا فينا أبانا فحقَّنا ... رَعَيْتُمْ وإلاّ أُوقِدَتْ ناركم شَرَّا

أي سبيتم في كل مكان، كما قال الآخر: [الطويل]

وأنْت الذي شيَّبتَنِي قبل شِيبَتِي ... وأوقَدْت لي ناراً بكلّ مكانِ

ومنها أيضاً: [الوافر]

وأحياناً يكون كبير سنٍّ ... وأحياناً يكونُ من الشَّبابِ
ومنسوب إلى مَنْ لم يلده ... كذاك الله أنْزَلَ في الكِتَابِ

قوله: «نضو سُرَى»، أي هزيل مِنْ مشى اللَّيْل في الأسفار. وخابط ليل: الذي يمشي فيه على غير هداية. ألْيَل: شديد السواد. جوى الحشى: فاسد الجوف من الجوع، وهو الطوى. مشتمل: منضمّ، أي قد انضمّ جوفه على الجوع، ففسدت أحشاؤه. موئل: ملجأ، من وألت إلى كذا، أي لجأت. دجا: ألبس. جنْح: سواد: المسبِل. المطبق. تململ: تقلّب وتوجّع. والرّبع: المنزل، والمنهل: موضع الماء.

ويقال: ألقى عَصاه، إذا تَرك السَّير وأقام، وروى الأصبعيّ عن بعض البصريين أنه قال: سُمِّيت العصا عصاً لأن اليد والأصابع تشتمل عليها، وهو من قول العرب: عصوتُ القومَ إذا جمعتَهم على خير أو شرّ، ويقال: عُصِيَ بالسيفُ يعْصَى إذا ضُرِب به كما يضرب بالعصا. بشر: طلاقةُ وجه.

* * *

قَالَ: فَبَرَزَ إِلَيَّ جَوْذر، عَلَيْهِ شوذَر، وقال: [الرجز]

وَحُرْمَةِ الشَّيْخِ الَّذِي سَنَّ الْقِرَى وأَسَّسَ المَحجوجَ في أمِّ الْقُرَى

مَا عِنْدَنَا لِطَارِقٍ إذَا عَرَى سِوَى الْحَدِيثِ والمُنَاخ فِي الذَّرَا

* فَمَا تَرَى فِيمَا ذَكَرْتُ مَا تَرَى *

* * *

برز: خرج. جؤذر: ظبي، وأصله ولد الغزالة. الشوذر: ثوب قصير.

[إبراهيم عليه السلام]

والشيخ الذي سنَّ القِرى، هو إبراهيم عليه السلام، واختصّه بلقب الشيخ لأنه أوّل مَنْ شاب، ولما رأى الشيب، قال: يا ربّ، ما هذا؟ فأوحى الله إليه، يا إبراهيم، هذا وقار، فقال: يا ربّ زدني وقاراً. وشاب وهو ابن مائة وخمسين سنة، وذلك أنه لمّا ولدَت سارة إسحاق، قال الكنعانيون: ألا تعجبون لهذا الشيخ والعجوز وجَدَا غلاماً، فتبنَّياه! فصوّر الله إسْحَاق على صورة إبراهيم عليهما السلام، فلم يفصِلْ بينهما، فوشم الله إبراهيم بالشيب.

قوله: «سنّ»: ابتدأ، وجَعَله سُنَّة، وهو أول مَنْ ضَيَّف الضيف، وأطعم المساكين، وقصَّ شاربه، وقلَّم أظافره واستحدّ واستاك، وفَرَق شعره، ومضمض واستنثَر، واستنجى بالماء. وأسَّسَ المحجوج، أي بنى أساس البيت الحرام.

وأمّ القرى: مكّة. والطارق: الآتي بالليل. والمناخ: موضع البروك. يقْرِي: يُضِيف. الكرى: النوم برى أعظمه، أي أزال اللحم عنها. انبرى: اعترض.

[قرى الضيف]

وقال حبيب في أنّ أوّل من قِرى الضيف إبراهيم عليه السلام: [الكامل]

للجودِ سهمٌ في المكارم والتّقَى لا ربة المكدِي ولا المسهومُ[1]

وبيان ذلك أن أوّل من قرى وحبا خليلُ الله إبراهيمُ

(١) المكدي: الفقير، والمسهوم: الضامر. والبيت في ديوان أبي تمام ص ٣٠٠.

وقال أبو بحر صفوان بن إدريس في فتى اسمه إبراهيم، وأبدع ما شاء حيث قال: [الكامل]

أَسَمِيَّ من سنّ القِرى رفقاً بمن ... يَفنى عليك صبابة وغَرَامَا
أنا ضيف حسنِك فاصْطَنِعْنِي إنه ... ضيفُ الهوى يستوجب الإكْرَامَا
لمَّا نظرت نجوم خِيلانٍ بَدَتْ ... في صحن وجْنتِك استفدْت مُقَامَا
أفنيتَ جسم الصبِّ شوقاً مثْلَما ... أفْنَى سميُّك قبلك الأصْنَامَا
يا زهرةً سكنتْ فؤادي غَضَّةً ... إنّي تبوَّأت اللّهيب كمامَا
حتى كأنّ الحبّ قال لأضلُعِي: ... يا نَارُ كُنْ برداً له وسَلاَمَا

وقال أبو بكر بن ميمون فيما يتعلق بهذه النار: [المتقارب]

أبَا قاسم والهوى جَنّبة ... وإنيَ من حرِّها لم أفِقْ
تقَحَّمْتُ جاحِمَ نارِ الحشى ... وخضتُ بحار سواد الحَدَقْ
أكُنْتَ الخليل وكنتَ الكليم ... أمنتُ الجوى وأمنتُ الغَرَقْ!

انظر إلى الأضياف الرابعة والأربعين.

* * *

فَقُلْتُ: مَا أَصْنَعُ بِمَنْزِلٍ قَفْرٍ، وَمَنْزِلِ حِلْفِ فَقْرٍ! وَلَكِنْ يَا فتى، ما اسْمُكَ، فَقَدْ فَتَنَنِي فَهْمُكَ؟ فَقالَ: اسْمِي زَيْد، وَمَنْشِيء قَيْد، ووردت هَذِهِ الْمَدَرَةَ أَمْسِ، مَعَ أَخْوَالِي مِنْ بنِي عَبْسٍ.

* * *

قوله: «بمنزل قفر»؛ كأن هذا المنزل هو الذي وصفه الآخر حيث يقول: [الرمل]

ليس إغلاقي لبابي أنَّ لِي ... فيه ما أخشى عليه السَّرَقَا
إنما أغلقْته كي لا يرى ... سُوءَ حالِي من يمرّ الطُّرُقَا
منزلٌ أوطنهُ الفقرِ فلو ... يدخل السارق فيه سُرِقَا

[البؤس والحرمان]

وإنما أخذ الحريري هذا المعنى من قصة يزيد المدني، وكان من أهل المِلَح، فاستضافه أعرابيّ، فقال: ما عندنا إلا الأسودان، فقال الأعرابيّ: خير كثير، فقال: لعلك تظنّهما التمر والماء! والله ما هما إلا الليل والحرّة، فلم يكن ليزيد دارٌ إلا الحرّة ـ وهي أرض سوداء فيها حجارة سود، وهي مقبرة المدينة ـ والقبور المجَصّصة تكون بالليل موحشة، فما ظنك بقبور سود في أرض سوداء في ظلمة الليل! كيف حال من يكون هذا قِراه! فبهذا البلاء أعرض يزيد عن ضيافة الأعرابيّ.

ونحو هذا من أقوال المازحين قول أبي الشمقمق - ويروى عن وهب عابد قرطبة: [الوافر]

برزتُ من المنازل والقِبَاب ... فلم يعسُرْ على أحدٍ حجابِي
فمنزليَ الفضاء وسقفُ بيتي ... سماء الله أو قِطَعُ السحابِ
وإنّي لم أجد مصراع بيتٍ ... يكون من السّحابِ إلى التراب
ولا أنشقَّ الثرى عن عود نحت ... أؤمّل أن أشدّ به ثيابي
ولا خِفْت الإباقَ على عبيدي ... ولا خفتُ الهلاك على دَوابِي
وفي ذا راحةٌ وفراغ بال ... فدأب الدهر ذا أبداً ودابي

وقال آخر: [**الطويل**]

ولمّا التمستُ الرزق فانجذّ حبلُه ... فلم يَصْفُ لي من بحره العذبَ مَشْرَب
خطبتُ إلَى الإعدام إحدى بناتِه ... فزوّجَنيها الفقر إذ جئت أخطبُ
فأولدتُها الحُرْف الشّقيّ فماله ... على الأرض غيري والدٌ حين يُنْسَبُ
فلو تهت في البيداء والليل مسبلٌ ... عليّ جناحيْه لما لاح كوكبُ
ولو خفت شرًا فاستَترت بظلِّهِ ... لأقبل ضوء الشمس من حيث تغربُ
ولو جادَ إنسان عليّ بدرهم ... لرحت إلى رحْلي وفي الكف عَقْرَبُ
ولو يُمطَر الناسُ الدنانيرَ لم يكنْ ... بشيء سوى الحصباء رأسي يُخْصَبُ
وإن يقترف ذنباً ببرقَة مذنبٌ ... فإنّ برأسي ذلكَ الذنب يُعْصَبُ
وإن أر خيراً في الأنام فنازحٌ ... وإن أر شرًا فهو منّي مقرّبُ
أمامي من الحِرْمَانِ جيش عَرَمْرَمٌ ... ومنه ورائي جَحفل حين أركبُ

وقال آخر: [**الخفيف**]

لو ركبتُ البحار صارت أُجاجا ... لا ترى في مُتونها أمواجَا
ولَوَ أنّي وضعت ياقوته حمـ ... ـراء في راحتي لصارتْ زُجَاجَا
ولو أنّي وردت عَذْباً فُراتاً ... عَادَ لا شكّ فيه ملحاً أُجَاجَا

وقال آخر: [**الخفيف**]

لو وردت البحار أطلب ماءً ... جفَّ قبل الوُرود ماء البحارِ
أو مَسَسْتُ العود النَّضير بكفِّي ... لذوَى بعد بهجة واخضرَارِ
أو رمى باسمي النجوم الدَّرارِي ... لانزوَى ضوءُها عن الأبصار
ولو أني بعت القناديل يَوْماً ... أدغِمَ الليل في ضياء النهار

وقال شواش: [الكامل]

كسدت شَواشينا وقَلَّ معاشُنا ... فسعودُنا مقرونة بنحوسِ

فكأنما قُطِعت رؤوس الناس أَوْ ... خُلِقوا لشقوتنا بغير رؤوسِ

قيل لأبي الشمقمق: أبْشِرْ فإنَّا روينا في الحديث: «العارون في الدنيا هم الكاسون يوم القيامة»، فأنشأ يقول: [مجزوء الرمل]

أنا في حالٍ تعالى ... الله ربي أيّ حالِ

ليس لي شيء إذا قيلَ ... لِمَنْ ذا؟ قلت ذَا لِي

فأراضِي الله فرشِي ... والسَّمٰوات ظلاَلِي

ولقد أفلستُ حتّى ... حلّ أكلي لعيالي

ومن رأى شيئاً محالاً ... فأنا عين المحَالِ

لو بَقِي في الناس حُرٌّ ... لم أكن في مثل حَالِي

قوله: «منزل»، أي مضيف. حلْف: صاحب. منشيء: موضعي الذي نشأت فيه.

[مدينة فيد]

وفَيْد بلد مشهور، في نصف المسافة التي بين مكة وبغداد، وفيها عين ماء، وينزلها عمّال طريق مكة وأهلها من طيّيء، وهم في سَفْح جبلهم المعروف بسلْمى، وقد ذكرها زهير في قوله: [البسيط]

ثم استمرُّوا وقالوا إنّ مشرَبَكُمْ ... ماء بشرقيّ سلمى فَيْدُ أو رَكَكُ[1]

قال الزجاجيّ: سمِّيت بفيد بن حام، وهو أوّلَ مَنْ نزلها، قال: ويقول أهل العراق: هي من قولهم: فاد الرجل يفيد فَيْداً إذا مات، أو من قولهم: استفاد فائدة، وقلّما يقولون: أفاد فائدة، والفيد أيضاً نور الزّعفران. قال شيخنا ابن جبير رضي الله عنه: إنه خرج من مدينة رسول الله ﷺ بضحْوة يوم السبت الثامن من المحرم سنة سبع وتسعين مع أمير الحاج، وصبّحوا فيداً يوم الأحد في اليوم الرابع عشر من خروجهم. ثم وصفها فقال: هي مِصْرٌ كبير، منفرج في بسيط من الأرض، يمتدّ حوله رَبَضٌ، يطيف به سور عتيق. وهو معمور بسكان من الأعراب يتعيشون من الحجّاج في التّجارات

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى في ديوانه ص ١٦٧، والعقد الفريد ٥/ ٣٥٥، ولسان العرب (فيد)، (ركك)، وتاج العروس (فيد)، (ركك)، والمحتسب ١/ ٨٧، ٢/ ٢٧، ومعجم البلدان (ركك)، والمنصف ٢/ ٣٠٩، وبلا نسبة في معجم ما استعجم ص ١٠٣٣، والمقتضب ١/ ٢٠٠، والمعرب ٢/ ١٥٦، والممتع في التصريف ٢/ ٦٤٣.

والمبايعات وغير ذلك من المرافق، وفيها يترك الحجاج بعض أزوادهم إعداداً للإرمال[1] من الزاد عند انصرافهم يتركونها عند معارفهم، بها، فإذا رجعوا أخذوا أزوادهم، ووهبوا لمن أودعوها عندهم شيئاً من ذلك.

وهي نصف الطريق من بغداد إلى مكّة أو أقلّ يسيراً، ومنها إلى الكوفة اثنا عشر يوماً في طريق سهلة. ودخلها أمير الحاجّ على تعبية وأهبة إرهاباً للمجتمعين بها من الأعراب لئلاّ يداخلهم الطمع في الحاجّ، لكنّهم لا يجدون إليهم سبيلاً والحمد لله. والمياه كثيرة في آبارها، تمدّها عيون تحت الأرض، وامتلأت أيدي الحجاج القادمين من أغنام العرب بالمبايعة، فلم يبق خَيْمة ولا ظلالة إلا وإلى جانبها كَبْش أو كبشان، بحسب الوجد، فعمّ جميع المحلَّة الغنم واللبن والسمن والعسل، فأكلوا واحتملوا، وكان ذلك اليوم عيداً للركب.

قال: وبهذه المحّلة العراقية، وما انضاف إليها من الخُراسانية والموصليّة وسائر جهات الآفاق ينزل من صحبة أمير الحاج جمعٌ لا يحصِى عددَهم إلا الله تعالى، يغصّ بهم البَسيط الأفيح، ويضيق بهم المهمه الضحضح، فترى الأرض تميد بهم مَيْداً، وتموج بجمعهم موجاً، فتصير بهم بحراً طامِيَ العُباب، ماؤه السراب، وسفينه الركاب، وشراعه الظّلال المرفوعة والقباب، ويسير سير السحاب، متداخلاً بعضها على بعض، فتعاين تزاحما في البراح المنفسح يهولُ ويُروع، واصطكاكا لمبيع التجارات فيه، فبعضها ببعض مقروع؛ فمن لم يشاهد هذا السفر العراقي لم يشاهدْ عجباً يتحدّث به، ويتحف السامع بغرائبه، والقدرة والقوّة لله وحده وحسبُك أنَّ النازل في منزلٍ مِن هذه المحلَّة مَتيِ خرج لبعض حاجاته، ولم يكن له دلالة على موضعه ضلّ وتَلِفَ، وعاد منشوداً بجملة الضوالّ، وربما اضطر به الحال إلى الوصول لمضرب الأمير ورفع المسألة إليه، فيأمر أحد المنشدين بما أعدّ لذلك فيردفه خَلْفَه على جمل، ويطوف به المحلَّة منادياً باسم جماله وبلده، إلى أن يؤدِّيه إلى رفقته.

وعجائب هذه المحلّة كثيرة، ولأهلها من اليَسار ما يغنيهم على ما هم بسبيله.

وما ذكرنا أمر هذه المحّلة إلا ليستدلّ على أن فيها بلداً في غاية القوّة والعمارة، حيث أُمِدّ هذا الجمع الكثير والجم الغفير بما تقدم من أنواع الأرزاق، وإن قبائل طيىء متوفرة بحيث تطلع إلى الغارة على مثل هذه المحّلة. والملك لله وحده مفني الجميع بعد كمال العدّة.

قوله: «وردت»، أي أتيت. المَدَرة: البلد. عبْس: قبيلة.

* * *

(١) الإرمال: أي نفاد الزاد.

فَقُلْتُ لَهُ: زِدْنِي إيضاحاً، عشتَ وَنعِشتَ، فقالَ: أَخْبَرَتْنِي أُمِّي بَرّةُ، وَهِيَ كَاسْمِهَا بَرَّة؛ أَنَّها نَكَحَتْ عَامَ الْغَارَة بماوَانَ، رَجُلاً مِنْ سَرَاةِ سَرُوجَ وَغَسَّانَ، فَلَمَّا آنَسَ مِنْهَا الإثْقَالَ ـ وَكَانَ بَاقِعَةً فِيما يُقَالَ ـ ظَعَنَ عَنْها سِرًّا وهَلُمَّ جَرًّا فمَا يُعْرَفُ: أَحَيُّ هُوَ فَيُتَوَقَّعُ، أَمْ أُودِعَ اللَّحْدَ الْبَلْقَعَ.

قال أبو زيد: فَعَلِمْتُ بِصِحَّةِ الْعَلاَمَاتِ أَنَّهُ وَلَدِي، وَصَدَفَنِي عن التَّعرُّفِ إلَيْهِ صَفَرُ يَدِي، فَفَصَلْتُ عَنْهُ بِكَبدٍ مَرْضوضةٍ، وَدُمُوعٍ مَفْضُوضةٍ. فَهَلْ سَمِعْتُمْ يا أُولي الأَلْبَابِ، بأَعْجَبَ مِنْ هَذَا العِجاب! فَقلْنَا: لاَ وَمَنْ عَنْدَهُ عَلْمُ الْكِتاب، فقال: أثبتوها في عجائب الاتّفاقِ، وَخَلِّدُوها بُطُونَ الأوراقِ، فَمَا سُيرَ مِثْلهَا في الآفاق فأحضَرْنَا لدَّوَاةَ وأَساوِدَهَا، وَرَقَشْنَا الحِكاية على ما سَرَدَها.

* * *

إيضاحاً: بياناً. نِعِشت: جُبرت. وبَرّة الأول اسمها والثاني صفتها، يريد أنها مكرّمة كثيرة البِرّ. نكحت: تزوّجت. عام الغارة، أي عام أغار عليهم عدوّهم. ماوان: بلدة. سراة: سادة. آنس: أبصر والإثقال: الامتلاء بالولد. باقعة: داهية، ويقال: إنه الذي جال بقاع الأرض وعرف خيرَها وشرها.

قال ابن الأنباريّ رحمة الله: فلان باقعة، أي داهية حذِر محتال حاذِق، والباقعة عند العرب: الطائر الحذِر المحتال الذي يشرب الماء من المَباقع[١]، ولا يردُ المشارع والمياه المحصورة خوفاً من أن يُحتال عليه فيُصطاد، ثم شبّه به كل حِذرٍ محتال. هلم جرًّا، معناه إلى الآن، قال ابن الأنباريّ: هلمّ جرًّا، سيروا على هَيْنتكم، أي تثبّتوا على سيركم، ولا تجهدوا أنفسكم ولا تشقّوا عليها، أخِذ من الجرّ في السوق، وهو أن تترك الغنم والبقر ترعى في السير، وينتصب «جرًّا» في قول الكوفيين على المصدر، لأن في «هلُمّ» معنى «جَرّ»، وفي قول البصريين: هو مصدر في موضع الحال تقديره «هلم جارّين» أي مستثبتين، قياساً على: جاء عبد الله مشيا، وأقبل ركضاً، وجاء وأقبل عند الكوفيين بمعنى مشى وركض وقال بعضهم: ينصب على التميز. يُتوقّع: يُنتظر، أودِع: أدخِل اللَّحْد البَلْقع: اللحد الخالي. صدفني: أمالني. التعرّف: أن يعرّفه أنه أبوه. صفر يدي: فراغها من الدراهم. فصلت: زلت مرضوضة: مدقوقة مكسورة. مفضوضة: مفترقة. أولي الألباب: أهل العقول. العُجاب: مبالغة في العجَب.

خلدوها، أي أثبتوها. الآفاق: البلدان وجهات الأرض جميعها. أساودها:

---

(١) المباقع: أي الأمكنة التي يستقى منها.

أقلامها. رقشنا: كتبنا. على ما سردها، أي كما حكاها وتكلّم بها.

* * *

ثم اسْتَبْطَنَّاه عَنْ مُرْتآه، في استضْمام فَتَاهُ، فقَال: إذَا ثَقُلَ رُدْنِي، خَفَّ عَلَيَّ أَن أَكْفُلَ ابْنِي؛ فقُلْنَا: إنْ كَان يكْفِيك نِصَابُ مِنَ المالِ، أَلَّفْنَاهُ لكَ في الْحَالِ؛ فقالَ: وَكَيفَ لاَ يُقْنِعُنِي نِصابٌ، وَهَلْ يَحتَقِرُ قَدْرَهُ إلاَّ مُصَابٌ!

قال الراوي: فالتزمَ مِنهُ كلٌّ مِنَّا قِسْطاً، وَكَتَبَ لهُ به قِطًّا، فشكرَ عِند ذَلِك الصُّنْعَ، وَاسْتَنفَدَ في الثَّنَاءِ الْوُسْعَ، حتَى إنَّنا اسْتَطَلْنَا الْقَوْلَ، وَاسْتَقْلَلْنَا الطَّوْلَ. ثمَّ إنَّه نَشَر مِنْ وَشْيِ السَّمَر، مَا أَزْرَى بالْحِبَرِ، إلَى أَنْ أَظلَّ التّنْوِيرُ، وَجَشَرَ الصُّبْحُ الْمُنِيرُ، فَقَضَّيْنَاهَا لَيْلَةً غَابَتْ شَوَائبُها، إلى أن شابت ذوائبُها، وَكَمَلَ سُعُودُهَا، إلَى أَنِ انْفطَرَ عُودهَا.

* * *

استبطنَّاه: سألناه وطلبنا منه معرفة باطنه. مُرْتآه: رأيه وغرضه. رُدْني: كمّي. أكفل: أضمّ. نصاب: عشرون ديناراً. ألّفْناه: جمعناه. يقنعني: يكفيني. مصاب: مجنون. قوله: «قسطا»، أي نصيباً. قِطًّا: كتاباً. الصنع: الفعل الجميل، استنفد: استتمّ. الوسع: الطاقة، ووُسْع الرجل قدر ما يجد من مال أو كلام أو غير ذلك، وهو من السعة، أي أثنى غاية ما يمكنه من الثناء. استطلنا: استكثرنا ووجدناه كثيراً طويلاً، والطّوْل: الإنعام والفضل، أي رأينا ما أنعمنا به عليه قليلاً. والوَشْى: ثياب مرقومة بألوان شتّى من الحرير. والحِبَر: ثياب فيها خطوط ورقوم مختلفة، والحبَر تصنع باليمن، فشبّه حسن حديثه بالوشى، وخصّ الحِبَر لحسن فنونه، وقال ابن الزقّاق ـ وكأنه وصف الليلة والعجاب الذي سامرهم به أبو زيد، وزاد عليه الشجاعة: **[الكامل]**

لِلَّه ليلتُنَا التّي استجدى بها ... فَلَقُ الصَّباح لِسُدْفَةِ الإظلاَمِ
طرأت عليّ مع النجوم بأنجم ... من فتيةٍ بيضِ الوجوه كِرَام
إن حوربوا فزِعوا إلى بيض الظُّبَا ... أو خوطبوا فزِعُوا إلى الأقلامِ
فترى البلاغة إن نظرت إليْهِمُ ... والبأس بين يراعةٍ وحُسَامِ

جثر: طلع. قضيناها: أتممناها. شوائبها: ما ينكدها ويكدرها. الذوائب: الشعر الطويل الأسود، وأراد به ظلام الليل، وجعل فيه بياض الصبح بمنزلة الشيب في سواد الشعر، قال ابن دريد: **[الرجز]**

إمَّا تَرَى رأسِيَ حاكَي لونُه ... طُرّةَ صبحٍ تحت أذيال الدُّجَى

انفطر: اشنقّ وطلع. عودها: بياض صبحها، ويقال: انفطر القضيب، إذا بدا نبات ورقه، وقال امرؤ القيس: **[المتقارب]**

* كخُرعوبة البانة المنفطر[1] *

* * *

ولمّا ذَرَّ قَرْنُ الْغَزَالَةِ، طَمَرَ طُمورَ الْغَزالَةِ، وَقالَ: انْهَضْ بنَا لنَقْبِضَ الصِّلاَت، وَنَسْتَنِضَّ الاحَالاتِ، فقَدِ اسْتَطارَتْ صُدُوع كبِدِي، مِنَ الْحَنينِ إلَى وَلَدِي. فَوَصَلْتُ جَنَاحَهُ، حَتَّى سَنَّيْتُ نجَاحَهُ؛ فَحِينَ أحْرَزَ الْعَيْنَ فِي صُرَّتِه، بَرَقَت أَسارِيرُ مَسَرَّتِه، وَقَالَ لي: جُزيتَ خيْراً عَنْ خُطا قَدَمَيْكَ، وَاللَّهُ خَلِيفَتي عَلَيْكَ! فَقُلْتُ: أَرِيدُ أنْ أَتَّبِعكَ لأشَاهِدَ وَلَدَكَ النَّجِيبَ، وَأُنافِثَه لِكي يجيب.

* * *

قرن الغزالة: شعاعها وحاجبها، والغزالة من أسماء الشمس، وأسماؤها كثيرة؛ ذكرها يعقوب وغيره، وذكر منها عشرة خمسة بالهاء، وهي: الغزالة، والجارية، والجَوْنة، ومهاة، والإلاهة. وخمسة بغير الهاء وهي: الشمس، والسّراج، والضَّحّ، وذُكاء، وبوح.

طمر: وثب. الغزالة: الظبية. انهض أي قم: الصِّلات: العطايا. نستنضّ: نستحضر. والنَّاضّ: المال الحاضر. والإحالات: الديون التي وعدوه بها. استطارت: توسعت وانتشرت. صُدوع: شقوق. والحنين: الشوق والرحمة.

وصلتُ جناحه، أي مشيت معه ويدي في يده، وجناح الرجل: يده. سنيّت: يسَّرت. نجاحه: قضاء حاجته. أحرز العين: حصّل المال. وصُرّته: خرقة دراهمه. برقت: لمعت. أسارير: طرق الوجه، ومنه الحديث عن رسول الله ﷺ: «فخرج تبرق أسارير وجهه»، ويقال لها الأسرّة؛ ويقال لخطوط الكف: الأسرّة، وقد جمعهما التّهامي في لفظ واحد في قوله: **[الكامل]**

يُـبـدي أسِـرَّةَ وجـهِـهِ ويـمـيـنِـهِ فـي سـاعـة الإعـسـارِ والإيـسـارِ

مسرّته: سروره، أراد: انطلق وجهه سروراً بالمال. خطا: مشى. والنجيب: الجيّد العقل الكريم الأصل. قوله: «أنافثه»، أي أكلمه.

* * *

(١) صدره:

بـــرهـــةٌ رُؤْدَةٌ رَخْـــصَـــةٌ

والبيت لامرىء القيس في ديوانه ص ١٥٧، ولسان العرب (خرعب)، (بون)، (بره)، وتهذيب اللغة ٣/ ٢٧٥، والمخصص ١٠/ ٢١٤، ١١/ ٣، وديوان الأدب ٢/ ٨٧، وتاج العروس (خرعب) (بون)، (بره)، وبلا نسبة في مقاييس اللغة ٢/ ٢٥١.

فنظرَ إليَّ نظْرَةَ الْخَادِعِ إلى المَخْدُوعِ وَضَحِكَ حَتَّى تغَرْغَرَت مُقْلَتَاهُ بالدُّمُوعِ، وَأَنْشَدَ: [مخلع البسيط]

يَا مَنْ تَظَنَّى السَّرَابَ مَاءً ... لَمَّا رَوَيْتُ الَّذِي رَوَيتُ

مَا خِلْتُ أن يَستَسِرَّ مَكْرِي ... وَأَنْ يُخِيلَ الَّذِي عَنَيْتُ

وَاللَّهِ مَا بَرَّةٌ بِعُرْسِي ... وَلاَ لِيَ ابنٌ بِهِ اكتنيتُ

وَإنَّمَا لِي فنون سِحْرٍ ... أَبْدَعْتُ فِيهَا وَمَا اقْتَدَيتُ

لَمْ يَحْكِهَا الأَصْمَعِيّ فِيمَا ... حَكَى، وَلاَ حَاكَهَا الكُمَيْتُ

تَخِذْتُهَا وُصْلَةً إلى مَا ... تَجْنِيهِ كَفِّي مَتَى اشْتَهَيْتُ

وَلَوْ تَعَافَيتُهَا لَحَالَت ... حَالِي، وَلَمْ أَحْوِ مَا حَوَيتُ

فَمَهِّدِ الْعُذْرَ أَوْ فَسَامِحْ ... إنْ كُنتُ أَجْرَمْتُ أَوْ جَنَيتُ

ثمّ إنَّه وَدَعَنِي وَمَضَى، وَأَوْدَعَ قَلْبِي جَمْرَ الْغَضَى.

* * *

تغرغرت: امتلأت. تظنّى: حسب. حلت: حسبت. يستسرّ: يخفي. مكري: خداعي. يُخيل: يلبِّس ويشبّه. عُرسي: زوجتي. فنون: أنواع. أبدعت فيها: أحدثتها ولم أقتد بغيري فيها. يحكها: يحدّث بها. حاكها: نسجها وقال مثلها. الأصمعيّ مذكور في المقامة الأربعين.

[الكميت الشاعر]

وأما الكميت الشاعر، فهو ابن زيد الأسديّ، وهو شاعر مجيد مكثر جدًا، وديوان شعره مستعمَل مشهور؛ ولمَّا قال قصائدَه الهاشميّات قصدَ البَصْرَة، فأتى الفرزدقَ فقال: يا أبا فِراس، أنا ابن أخيك، فقال: ومَنْ أنت؟ فانتسبَ له، قال: صدقتَ، وما حاجتك؟ قال: أنت شيخ مُضر وشاعرُها، وأحببت أن أعرِض عليك ما قلت، فإن كان حسناً أمرتني بإذاعته، وإن كان غير ذلك أمرتني بستره: قال: يا ابن أخي، أحسبُ شعرَك على قدر عقلك، فقل راشداً، فأنشده: [الطويل]

طربتُ وما شوقاً إلى البيضِ أطرَبُ ... ولا لعباً مِنِّي وذو الشَّيْب يلعبُ[1]!

قال: بلى، فالعب، فأنشده: [الطويل]

---

(١) البيت للكميت في جواهر الأدب ص ٣٩، وخزانة الأدب ٤/ ٣١٣، ٣١٤، ٣١٥، ٣١٩، ١١/ ١٢٣، والدرر ٣/ ٨١، وشرح شواهد المغني ص ٣٤، والمحتسب ١/ ٥٠، ٢/ ٢٠٥، ومغني اللبيب ص ١٤، والمقاصد النحوية ٣/ ١١٢، وبلا نسبة في الدرر ٥/ ١١٢، وهمع الهوامع ٢/ ٦٩.

ولم يُلهِني دارٌ ولا رسمُ منزلٍ ولم يتطرَّبْنِي بَنَانٌ مُخَضَّبُ[١]

قال: ما يتطرّبك إذاً؟ فقال: [الطويل]

لا أنا ممّن يزجرُ الطير همّهُ أصاح غرابٌ أم تعرّض ثعلبُ

قال: أنت ممّن؟ ويحك! وإلى من تسمو؟ قال: [الطويل]

ولا السانحاتُ البارحاتُ عشيَّةً أمرّ صحيح القَرْن أمْ مَرّ أعْضَبُ

قال: أمّا هذا فقد أحسنت فيه، قال: [الطويل]

ولكنْ إلى أهلِ الفضائل والنُّهَى وخير بني حوّاء والخير يُطلب

قال: فمَنْ هم ويحك! فقال: [الطويل]

إلى النَّفرِ البيض الّذين بحبِّهِمْ إلى الله فيما نابني أتقرَّبُ

فقال: أرِحْني ويحك! مَن هؤلاءِ؟ فقال: [الطويل]

بني هاشمِ رهطِ النّبيِّ فإنّني بهمْ ولهمْ أرضَى مراراً وأَغْضَبُ

فقال: لله درّك يا بنيّ! فقد أصبتَ وأحسنتَ، إذ عدَلْتَ عن الزَّعانِفِ والأوباش، إذاً لا يُصرِد سهمُك[٢]، ولا يثلب قولك. ثم مَرّ فيها، فقال: أظهر وأشهر، فأنت أشعر من مضى، وأشعر مَنْ بقي.

فحينئذ قدم المدينة، فأتى عبدَ الله بن الحسين، فأنشده، فقال: يا أبا المستهلّ، إنّ لي ضيعةً أعطِيتُ فيها أربعة آلاف دينار وهذا كتابُها، وقد أشهدت لك بها شهوداً، فقال: بأبي أنت وأمي! كنت أقول الشعر لغيركم أريد به الدنيا والمال، ولا والله ما قلتُ فيكم شيئاً إلا لله، وما كنت لآخذ في شيء جعلته لله ثمناً. فلما أبى عليه أخذ مئزره، فدفعه إلى أربعة غلمان، فجعل يدور به دورَ بني هاشم، ويقول: هذا الكميت، قال فيكم الشعر حين صمت الناس عن فضلكم، وعرَّض دمه لبني أميّة، فأثيبوه بما قدرتُمْ. فاجتمع له من حَلْى النساء ومن الدنانير والدراهم ما قيمته مائة ألف درهم، فجاء بها إلى الكميت، وقال: يا أبا المستَهلّ أتيناك بجهد المقلّ، ونحن في دولة عدوّنا، فاستعن بهذا على دهرك، فقال: بأبي أنت وأمي، قد أكثرتم وأطنبتم، وما أردت بمدحي إيَّاكم إلا الله، فأردده إلى أهله. فجهد به بكل حيلة، فأبى، فقال: أما إذا أبيت أن تقبل، فإن رأيت أن تقول شعراً تغضب به بين النزاريّة واليمنيّة لعل فتنةً تحدث، فنخرج بين أضغانها، فقال قصيدته التي أولها: [الوافر]

---

(١) البيت في شرح هاشميات الكميت ص ٤٣، ولسان العرب (طراب)، وتاج العروس (طرب)، وأساس البلاغة (طرب).

(٢) أصرد السهم: أخطأ.

ألا حُيِّيتِ عَنَّا يا مَدِينا ... وهل بأسٌ بقولِ مسلِّمينا[1]!

فعرّض فيها، وصاح باليمن فيما كان من أمر الحبشة وغيرهم؛ مثل قوله: [الوافر]

لنا قمر السماء وكلّ نجمٍ ... تُشير إليه أيدي المهتدِينا

وما ضربتْ هجانَ بني نزارٍ ... هوائجُ من فحول الأعجمينا

وما حملوا الحمير على عتاقٍ ... مضمّرةٍ فيُلفَوا مُنْلِغينا

ومشت في العرب، فافتخرت نزار على اليمن واليمن على نزار، وثارت العصبية في البادية والحاضرة، وتحزَّب الناس، فتعصّب مروان بن محمد لقومه من نزار على اليمن، فانحرفت عنه إلى الدعوة العباسية وكان الكميت سبب ذلك.

وكان لامتداحه بني هاشم وتعريضه ببني أمية، يطلبه خلفاء بني أميّة، فهرب منهم عشرين سنة، فجدّ هشام بن عبد الملك في طلبه ولم يجده، ولم يستقرّ للكميت قرار من خوفه. وكان لمسلمة بن عبد الملك حاجة عند هشام يقضيها له، لا يردّه فيها، فخرج مَسْلمة لبعض صيوده، فأتاه الناس يسلّمون عليه، وأتاه الكميت ـ ومَسْلمة لا يعرفه ـ فقال: السّلام عليك ورحمة الله وبركاته، أما بعد: [مجزوء الكامل]

قِفْ بالدّيارِ وقوف زائرْ ... وتأيَّ إنّك غير صاغرْ[2]

حتى انتهى إلى قوله: [مجزوء الكامل]

يا مسْلم بن أبي الوليـ ... ـدِ لميّتٍ إن شئت ناشرْ

عَلِقَتْ حبالِي من حبا ... لِك ذمّة الجارِ المجاوِرْ

فالآن صرتُ إلى أميَّـ ... ـة والأمور لها مصايرْ

والآن كنتُ به المصيـ ... ـب كمهتدٍ بالأمس حائرْ

فقال مسلمة: سبحان الله! مَن هذا الذي أقبل من أخريات الناس ثم بدأنا بالسلام، ثم قال: أما بعد ثم الشعر؟ قيل: الكميت، فأعجب بفصاحته، فسأله عمّا كان فيه من طول غيبته، فذكر له سخط هشام عليه، فضمِن له أمانه وتوجّه به حتى أدخله على هشام، وهشام لا يعرفه، فقال الكميت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، فقال هشام: نعم الحمد لله، من هذا؟ قال الكميت: مبتدىء الحمد ومبتدعه، الذي خصّ بالحمد نفسَه، وأمر به ملائكتَه، وجعله فاتحة كتابه، ومنتهى شكرِه، وكلامَ أهل جنّته. أحمدَه حمد من علم يقيناً، وأبصر مستبيناً، وأشهد بما شهد به لنفسه، قائماً بالقسط

---

(١) البيت في ديوان الكميت ٢/ ١١٤، ولسان العرب (عجز)، والفاخر ص ٢، وخزانة الأدب ١/ ١٧٩.

(٢) البيت للكميت في ديوانه ١/ ٢٢٣، وإصلاح المنطق ص ٣٠٤، ولسان العرب (أيا)، وكتاب العين ٨/ ٤٠١، وبلا نسبة في الممتع في التصريف ٢/ ٥٨٤، والمنصف ٢/ ١٤٢.

وحدَه لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده العربيّ ورسوله النبيّ الأميّ، الذي أرسله والناس في هبَواتٍ[١] حيرة ومُدْلهِمّات ظلْمة، عند استمرار أبّهة الضلالة. فبلّغ عن الله ما أمر به، حتى أتاه اليقين ﷺ. ثم إنيّ يا أميرَ المؤمنين تهت في حَيْرة، وجِرْت في سكرة، أهاب بي داعيها، فأجابه غاوِيها، فاقطوْطيت[٢] في الضّلالة حائداً عن الحق، قائلاً بغير الصدق، فهذا مقام العائذ بكَ، ومنطق التائب، ومبصر الهدى بعد طول العمى. يا أمير المؤمنين، كم من عاثرٍ أقلتمْ عثرتَه، ومجترم عفوتم عن جرمه!

فقالَ هشام ـ وقد علم أنه الكميت: مَنْ سنَّ لك هذا الغَواية، وأهاب بك في العمَاية؟ قال: الذي أخرج آدم من الجنة فنسَى ولم يجد له عزماً، وأنت يا أمير المؤمنين، أضاء الله بك الظلْمة الداجية بعد العموس فيها فبصرت، وحقَن بك دماء قوم أشرِبَ خوفك قلوبهم؛ فهم يبكون لما يعلمون من حزمك وعزمك وبصيرتك، وعزِّ بأسك. وثبات جأشك. وأنت مستغنٍ برأيك عن رأي ذوي الألباب؛ برأي أريب، وحلم مصيب. فأطال الله لأمير المؤمنين البقاء، وأتمّ عليه النّعماء، ودفع به الأعداء.

فرضي عنه وأمر له بمال كثير.

فهذه منزلة الكميت من الشعر والخطابة خلافاً لمن يقول: القافية جلَبتْه في المقامات؛ وغيرُه من الشعراء كان أولى بموضعه.

* * *

قوله: «حاكها»، أي نسجها. يريد أن الكميت ممن يصنع الشعر ولا يقوله على طبعه، فلذلك قال: «حاكها». وسأل بعض الخلفاء جريراً عن النابغة وزهير، فقال: ينيّران الشعرَ ويُسّديانه، والعلماء بالشعر يسمون صنّاع الشعر عبيدَ الشعر، مثل زُهير وابنه كعب والحُطيئة وعديّ بن الرقّاع والكميت.

قوله: «تخذتها»، أي اتخذتها، يقال: تخذ يتخذ بمنزلة اتّخذ يتخّذ، وخُفِّف عنه، حذفوا ألف الوصل من اتخذ، والتاء الأولى الساكنة، التي هي فاء الفعل، فبقي تخذ، ومثله تقي يتقي واتقّى يتّقي، حذفت ألفه وتاؤه الأولى، وليس يطّرد هذا التخفيف، وإنما جاء في اتّخذ واتقّي وأتجه واتّسع، فقالوا: تقي وتخذ وتجه وتسع وصلة أي موصّلة. تعافيتها: تكارهتها، وهي تفاعلت من عفت الشيء أعافه عيافاً، أي كرهته. حالت: تغيّرت. أحوِ: أجمع. مهِّد: اقبل وسَهّل. أجرمت: أذنبت لنفسي، جنيت: أذنبت لغيري، أراد: إن كان عذري بيّناً فأقبله، وإن كنت ظالماً فتجاوز واسمح. أودع: ضمّن وجعل فيه. الغضى: شجر جمره يثبت في النار.

---

(١) هبوات: أي غبرات.

(٢) اقطوطيت: أي قاربت في المشي إسراعاً.

المقامة السّادسَة

وهيَ المَراغيَّة وتعرف بالخيفاء

روى الحارثُ بن همّام قال: حَضَرْتُ دِيوَان النَّظر بالمْرَاغَةِ، وقَدْ جَرَى بهِ ذِكْرُ البَلاَغَةِ؛ فأَجْمَعَ مَنْ حضَرَ منْ فُرْسَانِ اليَرَاعةِ، وأَربابِ الْبرَاعَةِ، عَلَى أَنَّهُ لَمْ يبْقَ مَنْ يُنَقِّحُ الإنشاءَ، وَيتَصَرَّفُ فِيهِ كيف شاءَ، وَلاَ خلَفَ، بعد السَّلفِ، مَن يبْتَدعُ طَريقَةً غَرَّاءَ، أَوْ يَفْتَرِعُ رِسالَةً عَذْرَاءَ، وأَنَّ الْمُفْلِقَ مِنْ كُتَّابِ هَذَا الأوَانِ، الْمتمكِّنَ مِن أَزِمَّةِ الْبيَانِ، كالْعِيالِ عَلَى الأوائِلِ، وَلَوْ ملكَ فَصَاحَةَ سَحْبانِ وَائل.

* * *

ديوان النظر، أي مجلس المناظرة. المراغة: بلدة من كُور أذربيجان. اليراعة: القلم قبل أن يبرى ويسوّى، فإذا بُرِيَ وسُوِّيَ قيل له قلم، وبقي عليه الاسم الأوّل وهو اليراعة، واليراع: القصب. أرباب البراعة: أصحاب أصالة الرأي. والبارع: الأصيل الجيّد الرأي، ويقال: بَرَع يبرع بروعاً وبراعة، إذا فاق في السؤدد. وينقّح: يحسن ويخلّص. الإنشاء. الكتابة. خلَف: بَقِيَ. السلف: المتقدمون، وسلفوا: ذهبوا وتقدّموا. يبتدع: يحدث. طريقة: حالة موصوفة، وطريقة فلان كذا، أي حالته التي هو عليها. غرّاء: واضحة مشهورة لم يقل أحد مثلها. وغرّة الشيء: أوّله. يفترع: يفتضّ. عذراء: بكر، سمّيت عذراء لصعوبة جماعها، وتعذّر الشيء: تصعّب، وافتراع البِكْر: إدماؤها وإزالة ما تصعّب منها، وكلّ ما أدميتَه فقد فرعته وافترعتَه، فمعنى يفترع رسالة عذراء أي يأتي برسالة قد تصعّب طريقها على غيره، فاقتدر هو على سلوك طريقها والإتيان بها. المفلِق: الفصيح المعرب الذي يأتي بالفِلْقِ؛ وهو الشيء العجيب. الأوان: الوقت. العيال: مَنْ يتكل في مؤنته على غيره ولا يقوم بنفسه، وعال الرجل عيلةً إذا افتقر، وعُلْتُه عَوْلاً: قمت بمؤنته، فيريد أن كتّاب هذا الزمان عيال على من تقدّمهم حيث افتقروا إلى الأخذ من كلامهم.

وقد وعدنا أن نذكر سحبان فيما يأتي إن شاء الله تعالى.

* * *

وكان بالمجلسِ كهلٌ جالسٌ في الحاشيَةِ، عِندَ مواقفِ الحاشية، فكان كلَّما

شَطَّ القَوم في شَوْطِهِمْ، وَنَثَرُوا العَجْوَةَ والنَّجْوةَ مِن نَوْطِهِمْ، ينْبِىء تَخَازُرُ طَرْفِهِ، وَتَشامُخُ أنْفِهِ، أَنَّهُ مُخْرَنْبِقٌ لِيَنْبَاعَ، وَمُجْرَمِّزٌ سَيمُدّ البَاعِ، ونابضٌ يبرى النبالَ، وَرابضٌ يَبْغِي النِّضَالَ. فلَمَّا نُثِلَتِ الكَنائِنُ، وفَاءَت السَّكائِن، وَرَكَدَتِ الزَّعازِعُ، وَكَفَّ المُنازِعُ، وَسَكَنَتِ الزّماجِر، وَسَكَتَ المَزْجُورُ والزاجِر، أَقْبَلَ عَلَى الجماعة، وقال:

* * *

الكهل: التامّ الخلْق، بين الشابّ والشيخ. الحاشية: طرف المجلس. والحاشية الثاني. الأتباع وخدمة القوم، وأصلها رُذال المال وصغاره، قال يعقوب: الحاشية والحواشي والحشو: صغار الإبل، وأنشد: [الرجز]

* جِلَّتها والأُخَر الحوَاشيا[1] *

لـ: جرى. شوطهم: طَلَقهم. نثروا: ألقوْا عليها. العجوة: التمرة الطيبة. والنجوة: الرديئة، هكذا كان يفسّرها شيخنا أبو بكر بن أزهر عن ابن جَهْور، وما وجدت في كتاب لغة أن النّجوةَ اسم للتّمرة الرديئة، وقد بحث عنها بعض أصحابنا غاية البحث في كلّ كتاب فيه ذكر النخل والتّمر، فأخبرني أنه ما وجد لها ذكراً، وأظنها لغة بصرية متعارفة بينهم في التمر الرديء، لا أنها لغة عربية، فاستعملها كما استعمل غيرها من لغة بلده، لأن البصرة أكثر بلاد الله نخلاً، فيسمون كل نوع من التمر باسم، والتمر تكثر أنواعه عندهم. ورأيت أكثر أهل سِجِلْماسة لا يكادون يحصون أنواعه لكثرتها، ورأيت بها نوعاً من التمر زعموا أنه لا يطيب أبداً، وإنما حاله أن ينكمش على نواه، فلا تَجد إلا جلداً يابساً على النواة، فيعلِفونه المَعِز، فيحتمل أن يكون مثل هذا في نخل البصرة يسمّى نجوة، ويقابَل بالعجوة التي هي أشرف التمر وأطيبُه. وأما من فسر النّجوة هنا بالمرتفع من الأرض، فلا معنى له. الفنجديهي: النّجوة، قيل: إنها لُفاظة التمر إذا سقطت لا يبالَي بها، فإن صحّت روايتها فكأنها سمِّيت بالنجوة التي هي العذِرة. نوطهم: وعاء تمرهم، قال أبو حنيفة: النّوطة: الجِلّة الصغيرة من جلال التمر، والجلّة: الوعاء الذي يكنز فيه التمر، وكلّ وعاء له علاقة فهو نوْطه، والجمع نُوط، وقد ناطه ينوطه، إذا علقه، فأراد: ألقَوا الكلمة الجيدة والرديئة من كلامهم. ينبىء: يخبر. تخازُر طرفه: كسر عينيه بالنّظر، وتخَازَر: نظر بمؤخَر عينيه، وهو نظر المنكر للشيء. تشامخ: ارتفاع، وهو فعل المستحقر للشيء مخرنبق: متهيّىء. ليَنْبَاع: لينهض، وفسره أبو عبيدة في الأمثال، فقال: المخرنبق: المطرق الساكت، لينباع. ليثِبَ إذا أصاب فرصة، قال: ومعناه أنه

---

(١) يروى الرجز:

ترى المِصَكَّ يطرُدُ العواشيا ... جِلَّتها والأُخَرَ الحواشيا

وهو بلا نسبة في لسان العرب (صكك)، (عشا)، وتاج العروس (صكك)، (عشا).

سكت لداهية يريدها، وقيل: المخرنبق: الساكت على السّوء. لينباع: ليظهر الذي في ظنه في الشرّ. مجرمّز: منقبض، وهو كقول النابغة:

وقلت يا قوم إنّ الليث منقبضٌ ... على براثِنِه للوثبة الضاري[1]

فأخذه ابن الرومي فقال: **[الطويل]**

سكنّ سكوناً كان رهناً بوثبة ... غماس كذاك اللّيث للوثب يلبُدُ

نابض: رام، ويقال: أنبض القوس، إذا جذب وترَها ثم أطلقه ليختبر شدّتها. ونبَض العرق: تحرّك، فيكون: «نابض» على النسب، أو على حذف الزائد. الفنجديهيّ: أورد أبو الحسين بن فارس اللغويّ في كتابه المجمل أنّ نبض لغة في أنبض، وهما بمعنى واحد، قال الشاعر: **[الطويل]**

فإن أباها مقسِمٌ بيمينه ... لئن نبضتْ كفّي فإني لنابضُ[2]

فصحّ بهذا قوله. رابض: لاطىء بالأرض، وربضت الشاة: اضطجعت. يبغي النّضال، أي يطلب المراماة، وأراد أنه يريد أن يلَقي عليهم المسائل ليجاذبوه. قوله: «نُثِلت»، أي نفضت وصبّ ما فيها. الكنائن: الجعاب، وهي أوعية السهام. فاءت: رجعت. السكائن: جمع سكينة، وهي الوقار، يريد: أتمّ أهل المجلس كلامهم فسكتوا. ركدت: سكنت. الزعازع: الرياح الشديدة المزلزلة، واحدها زعزع. كفَّ المنازع: أمسك المخالف، يريد انقطع كلامه.

* * *

لَقَدْ جِئتُمْ شيئاً إدًّا، وَجُرْتُمْ عن الْقَصْدِ جِدًّا، وَعَظَّمتمُ الْعِظام الرُّفاتَ، وافْتَتُّمْ فِي المَيْلِ إلَى مَن فاتَ، وَغَمَصْتُمْ جِيلَكُمْ الَّذِين فِيهِمْ لَكُم اللِّدَاتُ، وَمَعَهُمْ انْعقَدَتِ الْمَوَدَّات. أَنَسِيتُمْ يا جَهَابِذَةَ النَّقْدِ، وَمَوابذَةَ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ، مَا أَبرزَتْهُ طَوَارِفُ الْقَرَائِح، وَبَرَّزَ فِيهِ الْجَذَعُ عَلَى الْقَارِح، مِنَ الْعِبَارَاتِ الْمُهَذَّبةِ، والاسْتِعَارَاتِ الْمُسْتَعْذَبةِ، وَالرسَائِلِ الموَشَّحَةِ، وَالأَسَاجِيعِ الْمُسْتَملَحَةِ! وهلْ لِلْقُدَماءِ إذَا أَنْعمَ النَّظَرَ، مَنْ حَضَرَ، غيرُ المعَاني المطروقةِ المَوَارِدِ، المَعقُولَةِ الشَّوَارِدِ، المأثُورَةِ عَنهُم لِتَقادُم المَوالدِ، لا لتقدُّم الصَّادِر علَى الْوَارِد! وإني لأعْرِفُ الآن من إذَا أَنشا، وَشَّى، وَإِذَا عَبَّرَ، حَبَّرَ، وإن أَسْهَبَ، أَذْهَبَ، وَإِذا أَوْجَزَ، أَعْجَزَ، وَإنْ بَدَهَ، شَدَه، وَمتَى اخْترعَ، خَرَعَ.

---

(١) البيت في ديوان النابغة ص ٤٢.

(٢) البيت بلا نسبة في المخصص ٨/١٦، وفيه «وإني لنابضُ» بدل «فإني لنابضُ».

إدًّا: أمراً فظيعاً منكراً. جُرتم عن القصد: خرجتم عن الاستقامة. جدًّا: كثيراً. الرفات: البالية. افتتّم: فعلتم ما لا يجب وتجاوزتم فيه، ويقال: افتتات الرجل «افتعل» من الفَوات، وفات: ذهب وعدم. غمصتم: حقّرتم وغطيتم. جيلكم: أهل عصركم. اللّدات: جمع لِدَة، وهو الذي ولد معك. جهابذة: حذّاق؛ الواحد جِهْبِذ. النقْد: معرفة الكلام، نقده: ميّزه، وأصله من ميز الدراهم الجيدة من الرديئة. موابذة: حكام، والموبذ: الكثير الجاه من الفُرْس، مثل الوزير والقائد. أبرزته: أظهرته. طوارف، جديدات وغريبات. القرائح: الأذهان. برز: غلب. الْجَذَع من الخيل ابن سنتين. القارح: ابن خمس، أي غلب فيه الحديث العصرَ القديم. عبارات: جمع عبارة وهي التفسير، وعبّرت عن فلان: تكلّمت عنه وكنت لسانَه. المهذّبة: المخلَصة من العيب. الاستعارة: أن تعير اللفظ ما يستحقّه غيره، وهي من العاريّة. الموشّحة: المزيّنة. الأساجيع: جمع أسجوعة، وهي الكلام المربوط بقافية. أنعم: بالغ. المطروقة: التي نزل عليها. المعقولة: المربوطة. الشوارد: الفارّة، يقول: ليس للقدما. إلا المعاني التي قصدها المتأخّرون، كما قصدها المتقدّمون، وقيّدها المتأخرون بالكتاب كما قيّدها المتقدّمون، فكان تقييدها سبباً لأن مشت في الأقطار فعرفت وحفظت. المأثورة: المحدِّث بها. الصادر: الخارج عن الماء، والوارد: الداخل إليه، وذكر هنا أنّ الصادر يتقدّم الوارد، وذلك أنا إذا فرضنا موضع ماء لا يمكن وروده إلا واحداً بعد واحد، فالصادر يسبق الوارد على ما ذكره في المقامة. قال الحريري في درة الغواص: إنّ الخواصّ يقولون: هذا أمر يعرفه الصادر والوارد، ووجه الكلام أن يقال: الوارد والصادر، لأنه مأخوذ من الوِرْد والصدر، ولما كان الوِرْد يقدُم الصّدر، وجب أن يقدّم لفظ «الوارد» على الصادر، وهذا كما ترى، الورد يقدم الصدر في حق واحد، وَرَد الماء ثم صدر عنه، وأما في حق اثنين كما قدّمنا وكما ذكر هو في هذه المقامة، فالصادر يتقدّم الوارد. وقول الناس: هذا أمر يعرفه الصادر والوارد في حق اثنين، فهم فيه على صواب، ومحال أن يكون المثَل في حق واحد، لأنّ الشيء لا يعطَف على نفسه، ولو كان الوارد على زعمه يتقدّم الصادر لجاز تقديم الصادر عليه، لأنّ الواو لا تعطي رتبة، يقول: لا نتحدّث بكلمهم ونظمهم ونثرهم لفضلهم علينا، لكن لسبقهم لنا.

أنشأ: كتب. وشّى: زيّن ورَقّم. عبّر: تكلم أو فسّر. حبّر: حسّن. أوجز: اختصر. أعجز، أي عجز عن فعله غيره. أسهب: أطال الكلام. أذهب: جاء بالذهب، وأصل أسهب، حفر بئراً بعيدة القعر، وأذهب: صادف معدن الذهب في حفير. بدَه: ارتجل ولم يتفكّر. شدَه: حَيّر من يتعاطى منزلته. اخترع: قال ما لم يُسبق إليه. خرع: شقّق المعاني.

* * *

فَقالَ لهُ ناظُورَةُ الدِّيوانِ، وَعيْنُ أُولئِكَ الأَعْيَانِ: مَنْ قارِعُ هَذِي الصَّفاةِ،

وَقرِيعُ هَذِهِ الصِّفاتِ؟ فقال: إنَّهُ قِرْنُ مَجالِكَ، وَقَرِينُ جِدَالِكَ؛ وَإذَا شِئتَ ذَاكَ فَرُضْ نجيباً، وَادْعُ مُجِيباً، لِترَى عَجِيباً. فقالَ لَهُ: يا هَذَا، إنَّ الْبُغاثَ بِأَرضِنَا لا يَسْتنْسِرُ، وَالتَّمْييزَ بَيْنَ الْفِضَّةِ وَالْقِضَّةِ مُتيَسِّرٌ، وَقلَّ مَنِ اسْتَهْدَفَ لِلنِّضَالِ، فَخَلَصَ مِنَ الدَّاءِ الْعُضَالِ، أو اسْتثَارَ نَقْعَ الإمْتِحَانِ، فلَم يَقذَ بالامْتِهانِ، فَلا تُعَرِّضْ عِرْضكَ لِلمَفَاضِحِ، ولاَ تُعْرِضْ عَنْ نصَاحَةِ النَّاصِحِ. فقَال: كلُّ امْرِىءٍ أَعْرَفُ بَوسْمِ قِدْحِهِ، وَسَيَتَفَرَّي اللَّيْلُ عَنْ صُبْحِهِ. فتناجَتِ الجماعةُ فِيما يُسبَرُ بِهِ قَلِيبُهُ، وَيُعْمَدُ فِيه تقلِيبُه؛ فقال أحدهم: ذروه في حِصَّتِي؛ لأَرمِيَهُ بحَجَرِ قِصَّتِي، فإنَّهَا عُضْلةُ العُقَدِ، وَمَحَكُّ المنتَقَدِ. فقَلَّدُوه في هَذَا الأمر الزَّعَامَةَ، تقليدَ الْخوَارج أَبَا نَعامَة.

* * *

قوله: «ناظورة»، أي كبير القوم ومقدّمهم الذي ينظرون إليه. الديوان: دار الكتّاب وموضع اجتماعهم. والديوان، الزمام يكون فيه أسماء الجند وأرزاقهم، وأصله «دِوّان»، فقلبت واوه الأولى ياء لانكسار ما قبلها، ودلّ عليه دواوين في جمعه، وهو اسم أعجمي عرّب، والأصل في تسميته أن كسرى أمر الكتّاب أن يجتمعوا له في دار، ويعملوا حساب السواد في ثلاثة أيام، وأعجلهم فيه، فأخذوا في ذلك، واطّلع عليهم لينظر ما يصنعون؛ فنظر إليهم يحسبون بأسرع ما يمكن، وينسخون كذلك، فعجب من كثرة حركتهم، فقال: أرى «ديوان» ومعناه شياطين، ثم سمّى موضعهم ديواناً، ثم استعملته العرب، وجعل كل محصّل من كلام أو شعر ديوان. قارع: ضارب وكاسر. الصّفاة: الصخرة الملساء، استعارها للصعب من الكلام. قريع: سيّد. الصّفات: النعوت التي تقدّم أنه يُعرَف بفعلها. وقِرْن مجالك: صاحب كلامك الذي تجول فيه ـ يعني نفسه. قرين جِدالك: صاحب مجادلتك، والقِرْن بالكسر: الذي يماثلك في شدّة أو خصام أو عِلْم، وإن لم يكن بينكما معرفة، وقرينك: صاحبك الذي لا يفارقك كأنه قُرِن معك. والمجال: الموضع الذي تُراض فيه الخيل. رُضْ: سسْ وليّن. النجيب: الفحل الكريم من الإبل، وعنى نفسه. ادع مجيباً، يقول: سِسْنِي ثم ادعني أستجب لك. ترى عجيباً، في حسن جوابي. البُغاث: صغار الطير. يستنسر: يصير نسراً، يقول: نحن أهل علم ومعارف، فلا تجوز علينا المخاوف، والعرب تقول في أمثالها: «إن البغاث في أرضنا يستنسر»، أي يرجع الضعيف قوياً لعزّنا وحمايتنا له ممن يريده، وقيل في البغاث: إنه ذكَر الرَّخَم، وقيل: البُغاث كلّ ما يُصاد من الطير، والجوارح: كلّ ما يصيد، والرّهام: ما لا يصيد ولا يصاد، كالخطّاف وغيره. القِضّة: الحصى البيض الصغار، ويقال: جاء بالقضّ والقضيض بالقاف والضاد، ومعناه جاء بالكبير والصغير. والقضيض: صغار الحصى وما تكسّر منه، وقالوا: جاؤوا قضّهم بقضيضهم. أي كلّهم. استهدف: صار هدفاً، وهو

الغَرَض للسهم. النّضال: المراماة. العُضَال: الذي لا يُبرأ منه. استثار: حرّك نقع غبار. الامتحان: الاختبار. يَقْذَ: يقع في عينه القَذَى، وهو ما يسقط في العين، ويقول: من صار غرضاً للألسنة قلّ أن يسلم، ومن صار طالباً لمناظرة أهل المعارف أهين وأفحم. المفاضح: المخزيات واشتهار العيوب. وَسْم: علامة. قدْحه: سهمه، يريد قداح الميسر، وكان كلّ رجل يعمل في قدحه علامة يعرف بها، قال دريد بن الصمّة: **[الوافر]**

وأصفر من قداح النّبع فرعٍ ... به عَلَمان من عَقَبٍ وضَرْسِ[1]

الضّرس: العضّ بالضِّرس وسنذكر في الثالثة والأربعين قِداح العرب:

سيتفرّى: سيتكشَّف. قوله: «تناجت»، أي تحدّثت سرًّا. يُسبَر: يقاس. قلِيبه: بئره. يَغْمَد: يُقْصَد. تقليبه: تجريبه. ذرُوه: اتركوه. حِصّتي: نصيبي. قصتي: خبري، وجعل لمسألته حجراً يرميه به مجازاً. عُضْلة: صعبة. العقد: جمع عقدة، يريد أن عقدها صعب الحلّ. محك المنتقَد: وهو حجر يقاس جيِّد الفضة والذهب من الرديء؛ أراد أن مسألته نهاية في الصعوبة، والعُضْلة: كل مسألة شديدة لا يُهتدى لمثلها، ولا يوقف على جوابها، من قولهم: داء عضال ومعضل، إذا كان شديداً لا يُهتدى لدوائه، ولا يوقف على علاجه، وعضّلت المرأة تعضيلاً، نشب ولدها في بطنها، وعضّلت الدجاجة بيضّها كذلك، وفلان عُضّلة من العضل، أي داهية لا يُهتدى لمكره. قوله: «الزعامة»، أي الرياسة.

[قَطَريّ بن الفجاءة]

وأبو نعامة هو قَطريّ بن الفجاءة التميميّ الخارجيّ. وكان له فرس يكنَى بها في الحرب، ويكنى في السلم أبا محمد. وقَطَريّ: منسوب إلى قَطَر، موضع قريب من عُقير.

وكان فارساً شجاعاً شاعراً مجيداً، وكان رئيسَ الخوارج، وسلّموا عليه بأمير المؤمنين عشرين سنة، وكان خطيباً فصيحاً، وله خطبة في ذمّ الدنيا انتهى فيها من البلاغة إلى الغاية. وأوّلها:

أما بعد فإنّي أحذّركم الدنيا فإنها حلوة خضِرة، حُفّت بالشهوات، وراقَتْ بالقليل، وتحبّبت بالعاجل، وتحلّت بالأمانيّ، وتزيّنت بالغرور، لا تدوم زهرتها، ولا تُؤمن فجعتها، غرّارة ضرارة، حائلة زائلة، نافدة بائدة، لا تعدو إذا هي تناهت إلى أمنيّة الرغبة فيها، والرضا عنها، أن تكون كما قال تعالى: ﴿**كماءٍ أنزلْنَاهُ مِنَ السَّماءِ فاخْتَلَط بِهِ نَبَاتُ**

---

(١) البيت لدريد بن الصمة في ديوانه ص ١١٧، ورواية العجز فيه:

خفيّ الوسم من ضرسٍ ولمسِ

ولسان العرب (كفأ)، (عقب)، (ضرس)، (نبع)، والتنبيه والإيضاح ١/ ١١٨، ٢/ ١٨٤، والمخصص ٣/١١، ٤٨/١٣، وتاج العروس (كفأ)، (عقب)، (ضرس)، (نبع)، وبلا نسبة في تهذيب اللغة ١٠/ ٣٩٠، ٤٨٦/١١، ومجمل اللغة ٣/ ٣١٠، وديوان الأدب ٢/ ١٦١، ويروى «صلبٍ» بدل «فرعٍ».

الأرضِ فأصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كلِّ شيءٍ مُقْتَدِراً﴾ [الكهف: ٤٥].

كم واثقٍ بها قد فجعَتْه، وذي طمأنينة إليها قد صرعتْه، وذي احتيالٍ فيها قد خَدَعتْه. وكم من ذي أُهْبة فيها قد صيَّرته حقيراً، وذي نخْوة قد ردَّته ذليلاً، وذي تاج قد كبَّتْه لليدين والفم؛ سلطانها دوَل، وعيشها رَنْق، وعذبها أُجاج، وحلوُها صبِر، مليكها مسلوب، وعزيزها مغلوب، وسليمها منكوب، وجامعها محروب؛ مع أنّ وراء ذلك سكرات الموت، وهول المطلع، والوقوف بين يدي الحكَم العدل **﴿ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى﴾** [النجم: ٣١].

ومن جيّد شعره في وقعة دُولاب[1]: **[الطويل]**

لعمرك إني في الحياة لزاهدٌ	وفي العيش ما لم ألقَ أمّ حكيمِ[2]
من الخفِرات البيض لم يُرَ مثلُها	شفاءً لدى بثٍّ ولا لسقيمِ
لعمرُك إني يوم ألطِم وجهَها	على نائبات الدهر جدُّ لَئيمِ
ولو شهدتني يوم دُولاب أبصرَتْ	طعان فتًى في الحرب غير ذَميمِ
غداة طفَت علْماءِ بكر بن وائل	وَعُجْنا صدورَ الخيل نحو تميمِ
فلم أرَ يوماً كان أكثر مقطعاً	يُمُجُّ دماً من فائظٍ وكليمِ
وضاربة خدًّا كريماً على فتًى	أغرّ نجيب الأمّهات كريمِ
أصيب بدُولابٍ ولم تَكُ موطناً	له أرض دولابٍ وديْر حميمِ
فلو شهدتْنِي يوم ذاك وَخَيْلُنَا	تبيح من الكفار كلَّ حريمِ
رَأَتْ فتيةً باعوا الإله نُفُوسهمْ	بجنات عدن عنده ونَعيمِ

وأُمّ حكيم التي شبّب بها، كانت معه في عسكر الإباضيّة، وكانت من أشجع الناس، وأجملهِمْ وجهاً، وأحسنهم بدينه متمسّكاً. وكان قَطَرِيّ يحبّها ويجلّها، وأخبر من شاهدها في تلك الحروب أنها كانت ترتجز فتقول: **[الرجز]**

أحمِلُ رأساً قد سئمتُ حَمْلَهْ	وقد مللتُ دَهْنَهُ وَغَسْلَهْ

* ألاَ فتًى يحمل عنّي ثِقْلَه *

والخوارج يفدّونها بالآباء والأمهات، وخطبها جماعة من أشراف الخوارج فردّتهم، وقالت: **[الطويل]**

---

(١) دولاب: قرية من عمل الأهواز، كانت بها حرب الأزارقة ومسلم بن عبيس بن كريز.

(٢) الأبيات في ديوان قطري بن الفجاءة ص ١٧٥، والبيت السادس في لسان العرب (فيظ)، برواية:

فلم أر يوماً كان أكثر مقصعاً	يبيح دماً من فائظ وكليمِ

ألا إنّ وجـهـا حـسَّـن الله خـلـقـهُ ... لأجدر أن يُلْفَى به الحسن جامعَا
وأكـرِم هـذا الـجِـرْمَ عـن أن يـنـالَـهُ ... تـورّك فَـحْـلٍ هـمّـه أن يـجـامـعـا

أين هذه من أمّ خارجة، واسمها عمرة بنت سعد، كان يقال: لها خِطْب، فتقول: نِكْح، وضرب بها المثل فقيل: أسرعُ من نكاح أُمّ خارجة.

وأين هي من حفيدة قطريّ مع صاحبها، حكى الإصبهانيّ عن إسماعيل بن المهاجر قال: خرجت أنا والسيّد الحميريّ سكارى، فلقينا بنت الفُجاءة بن عمرو بن قَطَرِيّ بن الفجاءة، وكانت امرأة بَرْزَةً حسناء، فواقفها السّيّد، وأنشدها من شعره، فأعجب كلّ واحد منهما صاحبَه، ثم خطبها، فقالت: كيف يكون هذا ونحن على ظَهْر الطريق! قال: يكون كنكاح أمّ خارجة، قيل لها: خِطْب، قالت: نِكْح، فاستضحكت وقالت: نَنظر في هذا، وعلى ذلك فمن أنت؟ قال: **[البسيط]**

إن تـسـألـيـنـي بـقـومـي تـسـألـي رجـلاً ... فـي ذِرْوة الـمـجـد مـن أجـواد ذِي يَـمَـنِ
ثـمّ الـولاءَ الـذي أَنْـجـو الـنـجـاةَ بـه ... مـن كَـبَّـة الـنّـارِ لـلـهـادي أبـي حـسـنِ

فقالت: لا شيء أعجب من هذا! يمانيٌّ وتميمية، ورافضيّ وإباضيّة، فكيف يجتمعان! فقال: بحسن رأيك تسخو نفسك، ولا يذكر أحدنا سلفاً ولا مذهباً، قالت: أفليس التزويج إذا عُلِم، انكشفتْ معه الستور؟ قال: وأنا أعرض عليكِ أخرى، قالت: وما هي؟ قال: المُتْعة التي لا يَعلم بها أحد، قالت: تلك أخت الزنا، قال: أعيذك بالله أن تكفري بعد إيمانك! قالت: وكيف؟ قال لها: قال الله تعالى: **﴿فما استَمْتَعْتُم بِهِ مِنهُنَّ فآتوهُنّ أُجورهنّ فَرِيضةً﴾**، قالت: أستخير الله وأقلّدك، إذْ كُنت صاحب قياس وتفتيش. ولما انصرفت معه، وبات معرساً بها؛ وبلغ أهلَها من الخوارج أمرُها تَوَعّدوها بالقتل، فجحدت وقالوا: أتزوجتِ بكافر! فكانت تختلف إليه مدّةً وتواصله.

وقوله: «تقليد الخوارج أبا نعامة»، لما قُتِل الزّبير بن عليّ السّليطيّ أمير الخوارج، أداروا أمرهم، فأرادوا تولية عبيدة بن هلال اليشكريّ، فقال: ألا أدلّكم على من هو خير مني لكم؟ مَنْ يطاعن في قُبُلٍ، يحمي عن دُبُر؛ عليكم بقطريّ بن الفجاءة المازنيّ، فبايعوه.

* * *

فأَقبَلَ عَلَى الكَهْلِ، وقالَ: أعْلـمْ أَنِّي أُوَالي، هَذَا الوَالي، وَأُرَقِّحُ حَالِي، بالْبَيَانِ الْحَالِي. وكُنْتُ أسْتَعِينُ عَلَى تَقْوِيم أَوَدِي، في بلدِي، بِسَعَةِ ذَاتِ يدِي، مَعَ قِلَّةِ عَدَدِي. فلمَّا ثَقُلَ حاذِي، وَنَفِدَ رَذَاذِي، أَمَّمْتُهُ مِنْ أَرْجَائِي، بِرَجَائِي، وَدَعَوْتُه لإِعَادَةِ رُوَائي، وَإِروائي؛ فَهَشَّ لِلوِفادَةِ وَارْتَاحَ، وَغَدَا بالإِفادَةِ وَرَاحَ. فلَمَّا اسْتَأْذَنْته فِي الْمَرَاحِ، إلَى المُرَاحِ، عَلَى كَاهِلِ المِرَاحِ؛ قال: قَدْ أَزْمَعْتُ أَلاَّ أُزوِّدَكَ بَتَاتاً؛ وَلاَ

أَجْمَعُ لَكَ شَتَاتاً، أو تُنْشِيءَ لِي أَمَامَ ارْتِحالَكَ، رِسَالَةً تُودِعُها شَرْحَ حالِكَ، حُرُوفُ إحْدَى كَلِمتيها يَعُمُّهَا النَّقْطُ، وَحُرُوفُ الأخْرَى لَمْ يُعْجَمْنَ قَطُّ، وَقَد اسْتَأنيتُ بياني حَوْلا، فما أَحَارَ قَولاً، وَنبَّهْتُ فكْرِي سَنةً، فمَا ازدَادَ إلاَّ سِنةً. واستعنتُ بقاطبةِ الكتَّاب، فكلٌّ مِنهمْ قَطَّبَ وَتَاب، فإن كُنتَ صَدَعْتَ عَنْ وَصْفِكَ باليقينِ، فأْتِ بآيَةٍ إن كُنتَ منَ الصَّادِقِين.

فقال له: اسْتَسْعيْتَ يَعْبُوباً، واسْتَسْقَيْتَ أُسْكُوبا، وأَعْطَيْتَ القَوْس بارِيها، وَأَسْكَنْتَ الدَّارَ بَانيها. ثم فَكَّر رَيثما استجمَّ قريحتَهُ، واسْتَدَرَّ لِقحتَهُ، وقال: أَلقِ دَواتَكَ وَأقْرِبْ، وَخُذْ أَداتَكَ وَاكْتُبْ:

* * *

قوله: «أوالي»، أي ألازم وأتخذه وليًا. أرقّح: أصلح، يقال رقّح من عيشه، إذا أصلح منه، قال الشاعر: **[السريع]**

يــتــرك مــا رقَّــح مــن عــيـشِـهِ يَـعْـبَـثُ فـيـه هَـمَـجٌ هَـامِـجُ[1]

الهَمَج: البعوض، ثم قيل لأرذال الناس: همج. الحالي: المزيّن بالحُليّ. أَوَدِي: عوَجي. سعة: كثرة. ذات يدي، أي مالي. عددي: عِيَالي. حاذي: ظهري، وفلان خفيف الحاذ، أي قليل العيال، وأصل الحاذ مؤخر الفخذين. نفد رذاذي: فرغ قليل مالي، والرَّذاذ. المطر الضعيف. أمَّتْه: قصدته. أرجائي: جهاتي وبلادي. رجائي: أملي. رُوائي: حسن هيئتي وحالي: إروائي: إزالة عطشي. هَشَّ: خفَّ، ورجل هشّ بسّام: طليق الوجه. للوفاة: للقدوم عليه. وارتاح: طرب واهتزّ. الإفادة: تكسيب الفوائد. المَرَاح، بفتح الميم: المشي والإنصراف. والمُراح، بالضم: الموضع الذي تَرُوح إليه الإبل وتروح منه، أو تراح إليه، أي تساق بالعشيّ. والمِراح، بالكسر: النشاط والخِفّة، وقد مِرَح مَرَحاً، لعب، من الفرح. كاهل: ما بين فروع الكتفين، استعاره للنشاط. أزمعت: عزمت بتاتاً: زاداً. شتاتاً: مالاً متفرّقاً. تنشيء: تصنع وتكتب. أمام ارتحالك: قبل سفرك: تودّعها: تضمّنها وتجعل فيها. يعجْمن: ينقطن، وأعجمت الكتاب: أزلت عنه عُجمته.

---

(١) البيت للحارث بن حلزة في ديوانه ص ٦٦، ولسان العرب (همج)، (رقح)، وتهذيب اللغة ٦/ ٧١، وجمهرة اللغة ص ٥١٩، ومجمل اللغة ٤/ ٤٨٨، وديوان الأدب ١/ ٣٤٦، ٢/ ٢٤٥، وأساس البلاغة (رفح)، وإصلاح المنطق ص ٧٩، والبخلاء ص ١٦٤، والبيان والتبيين ص ٣/ ٣٠٣، والحيوان ٣/ ٤٥٠، وشرح اختيارات المفضّل ص ١٧٣١، والمعاني الكبير ص ٦٠٨، وتاج العروس (رقح)، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٤٩٦، ومقاييس اللغة ٦/ ٦٤، والمخصص ٣/ ٩٤، ٨/ ١٨٥.

قطّ: لفظة موضوعة لما مضى من الدهر. وجعل الحريريّ قول الخواصّ: «لا أكلمه قطّ» من أفحش الخطأ لتناقض الكلام، قال: وذلك أنّ العرب تستعمل لفظة «قطّ» فيما مضى من الزمان، كما تستعمل لفظة «أبداً» فيما يستقبل، فيقولون ما كلّمته أبداً، والمعنى: ما كلّمته فيما انقطع من عمري، لأنه من قططتُ الشيء، إذا قطعتَه، ومنه قطّ القَلم، إذا قطع طَرَفه. وفيما يؤثر من شجاعة عليّ رضي الله عنه أنه كان إذا استقبل قدّ، وإذا استدبر قطّ، فالقدّ قطع الشيء طولاً، والقطّ قطعُه عرضاً. يقول. تصنع رسالة تضمنها حالك، يكون تركيبها من كلمة يعمّ حروفها النّقط، وكلمة لا ينقط منها حرف، وبهذا المعنى سُمِّيَت المقامة الخيْفاء، لأنّ الأخيفَ من الخيل: الّذي إحدى عينيه زرقاء. والأخرى كحلاء. استأنيت: أمهلت وأخّرت. أحار: ردّ وراجع. نبّهت: أيقظت. سَنَة: حولاً. سِنَة: نوماً. قاطبة: جماعة. قطّب وجهه، إذا عبّسه. صدَعت: أوضحت وأظهرت، وأصل الصدع الشقّ. باليقين: بالحقّ الواضح .آية: علامة، قال ابنُ الأنباريّ رحمه الله: في قولهم آية من القرآن ثلاثة أوجه:

قيل إنها علامة لانقطاع الكلام قبلها وبعدها، واحتجّ أبو عبيدة لذلك بقول الشاعر: [الوافر]

* بآيَةِ ما تحبُّونَ الطَّعَامَا[1] *

وبقول النابغة: **[الطويل]**

توهَّمْتُ آياتٍ لها فعرفْتُها ... لستَّةِ أعْوَامٍ وذَا العَامُ سَابِعُ[2]

الثاني: سُمِّيت الآية لأنها جماعة حروف، قال أبو عمرو: خرج القوم بآيتهم، أي بجماعتهم.

الثالث: سُمِّيت آية لأنها عجب من العجائب، فالآية العجب.

قوله: «استسعيت»: طلبت سعيه أي جريه. واليَعْبُوب: الفرس السريع. استسقيت:

(١) صدره:

ألا مَنْ مُبْلِغٌ عني تميماً

والبيت ليزيد بن عمرو بن الصعق في خزانة الأدب ٦/ ٥١٢، ٥١٤، ٥١٥، ٥١٨، ٥١٩، ٥٢٣، ٥٢٦، والدرر ١/ ٩٢، وشرح أبيات سيبويه ٢/ ١٨٦، وشرح شواهد المغني ٢/ ٨٣٦، وشرح المفصل ٣/ ١١٨، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٢٥٠، ومغني اللبيب ٢/ ٤٢٠، ٦٣٨، وهمع الهوامع ٢/ ٥١.

(٢) البيت للنابغة الذبياني في ديوانه ص ٣١، وخزانة الأدب ٢/ ٤٥٣، وشرح أبيات سيبويه ١/ ٤٤٧، والصاحبي في فقه اللغة ص ١١٣، والكتاب ٢/ ٨٦، ولسان العرب (عشر)، والمقاصد النحوية ٣/ ٤٠٦، ٤/ ٤٨٢، وبلا نسبة في أوضح المسالك ٤/ ٢٦١، وشرح التصريح ٢/ ٢٧٦، وشرح شواهد الشافية ص ١٠٨، والمقتضب ٤/ ٣٢٢، والمقرب ١/ ١٤٧، وتاج العروس (لوم).

استمطرت وطلبت سُقياه. والأُسكُوب: المطر الكثير. باريها: صانعها، وكل هذه أمثال، ويريد: أنا أهلٌ لكلّ ما طلبت.

وأوّل من قال: أعط القوس باريها الحطيئة، وذلك أنه دخل على سعيد بن العاص وهو يقرِي النّاس، فأكل أكلاً جافياً، وخرج الناس، فأقام، وأتاه الحاجب ليُخرجه فامتنع، وقال: أترغب بهم عن مجالستي! إنّي بنفسي عنهم لأرغب! فقال له سعيد: دَعْه. ثم تذاكروا الشعر والشعراء، فقال لهم الحُطيئة: والله ما أصبتم جيّد الشّعر ولا شاعر العرب، ولو أعطيتم القوس باريها، وقعتم على ما تريدون، فقال له سعيد: فمن أشعر العرب؟ قال: الذي يقول: **[الخفيف]**

لا أعُدُّ الإقتـار عُـدْمـاً ولـكـنْ فَـقْـدُ مَـنْ قَـدْ رُزِئـتُـه الإعْـدَامُ(١)

إلى آخر القصيدة. قال: فمن قائلها؟ قال: أبو دؤاد الإياديّ، قال: ثم من؟ قال: والله لحسبك بي رهبة أو رغبة؛ أنا إذا رفعت إحدى رجليّ على الأخرى، وعويت في إثر القوافي كما يعوي الفصيل الصادي إثْرَ أُمّه؛ قال: [من أنت؟قال:] الحُطيئة، قال: حيَّاك الله يا أبا مليكة، ألا أعلمْتنا بمكانك، ولم تحملنا على الجهل بك، فنضيع حقّك ونبخسك قسطَك! وأدناه ووصله.

وقال الشاعر: **[البسيط]**

يا باريَ القَوْس بـرْيـاً لـيـس يُـحْـسِـنُـه لا تظلم القوس واعط القوسَ بارِيهَا(٢)

ريث: مقدار وبطء. استجمّ: استكثر. قريحته: طبيعته، والقريحة في الأصل أوّل ماء البئر النابع، واستجمّها: تركها حتى تكثر. استدرّ: استنزل دَرَّهَا وهو لبنها. واللِّقْحَة: الناقة ذات اللبن؛ يريد: أقام قليلاً يفكّر ويختار ما يقول: ومثل هذه الحالة ذكرُوا أن صديقاً لكلثوم العتابيّ أتاه يوماً، فقال له: اصنَعْ لي رسالة، فاستمدَ مُدَّة، ثم علّق القلم، فقال له صاحبه: ما أرى بلاغتك إلاّ شاردةً عنك، فقال له العَتّابيّ: إني لمّا تناولتُ القلم تداعت عليّ المعاني من كلّ جهة، فأحببت أن أترك كلّ معنى حتى يرجع إلى موضعه، وهذا مثل قول امرىء القيس ـ ويقال إنه قالها وهو ابن عشر سنين: **[المتقارب]**

أذودُ الـقـوافِـيَ عـنّـي ذيـادَا ذيـادَ غـلامٍ غـويّ جَـوادَا(٣)

---

(١) البيت لأبي دؤاد الإيادي في ديوانه ص ٣٣٨، والأصمعيات ص ١٨٧، والأغاني ٢/ ١٣٩، ١٦/ ١٩٩، ١٧/ ١٥٥، وتخليص الشواهد ص ٤٣١، وخزانة الأدب ٨/ ١٢٥، ٩/ ٥٩٠، ٥٩١، والدرر ٢/ ٢٣٨، والشعر والشعراء ١/ ٢٤٤، والمؤتلف والمختلف ص ١١٥، والمقاصد النحوية ٢/ ٣٩١، وبلا نسبة في همع الهوامع ١/ ١٤٨.

(٢) البيت للحطيئة في شرح شواهد الشافية ص ٤١١، وليس في ديوانه، وبلا نسبة في خزانة الأدب ٨/ ٣٤٩، ٣٥٠.

(٣) الأبيات لامرىء القيس في ديوانه ص ٢٤٨، ولسان العرب (مرج)، والتنبيه والإيضاح ١/ ٢١٩.

فلمّا كثُرْن وعنّينَه ... تخيّر منها جواداً جيادَا
فأعزل مَرجانها جانباً ... وآخذ من دُرّها المستجادَا

وقال عريف القوافي: [الطويل]

أبيتُ بأبواب القوافِي كأنما ... أصادي بها سِرْبا من الوحش نزَّعَا[1]
عواصِيَ إلا ما جعلت وراءَها ... عصا مِرْبَدٍ تغْشَى وجوهاً وأذرُعَا
إذا خفت أن تُروَى عليّ رددتُها ... وراء التراقِي خشية أن تطَلّعا

أصادِي: أداري، وجعل القوافي تقتحم عليه كالإبل، وهو يضربها بعصاه حتى يختار جيادها.

[الدواة والمداد والقلم]

قوله «ألِقْ»، أي اجعل فيها لِيقة، تقول: لِقْت الدواة فهي مَليقة، وألقتُها فهي ملاَقة، وجمع اللِّيقة لِيَق. ويقال للصُّوفة قبل أن تُبَلّ بالمداد: البُوهة والموارة، فإذا بلّت بالمداد سُمِّيت ليقة، وقد يقال لها: ليقة قبل أن تُبَلّ، سميت بما تؤول إليه، كما قيل للكبش: ذبيح، وللصيد: رميّة، فإن كانت قطنة فهي العُطْبة والكُرْسفة، وكرسفت الدواة كرسفةً، والقطن كلّه يقال له: العُطُب والكُرسف.

ويقال للمداد: نِقْس ونَقْس، والكسر أفصح، وقيل: الفتح مصدر نَقَسْتها، جعلت فيها نِقْساً، والحِبْر من المداد بالكسر لا غير، والحَبْر بالفتح والكسر: العالِم. وقال بعضهم: سمِّيَ المداد حِبراً باسم العالم، كأنهم أرادوا مداد حِبْر، فحذفوا، ولو كان ما قالوه صحيحاً لقالوا للمداد: حَبْر بالفتح، والأشبه أن يسمَّى حَبْراً لأنه يحسِّن الكتابة، من قولهم: حبرت الشيء إذا حسَّنته. ويقال للجَمال: حَبْر وسَبْر، فمداد حَبر، كقولك مداد زينة وجمال، أو يكون من الحبَر والحُبار، وهو الأثر، فيسمَّى بذلك لتأثيره في الكتاب. ويقال: مددت الدواة أمدّها مدًّا، إذا جعلت فيها مِدَاداً، فإن كان فيها مداد فزدت عليه قلت: أمددتها، فإذا أمرته أن يأخذ من المداد بالقلم قلتَ: استمدد، فإن سألْتَهُ أن يعطيَك على القلم مداداً، قلت: أمدِدْ لي من دواتك، واستمددته أنا؛ سألتُه أن يمدّني. وقال الخليل: مُدّني وأمدّني: أعطني من مداد دواتك، وكلّ شيء زاد في شيء فهو مداد له، وأمهت الدّواة وموّهتها؛ إذا جعلت فيها ماء، والأمر من ذلك كلّه أمِهْ وموّهْ دواتك.

---

(١) البيت الأول لسويد بن كراع في لسان العرب (بوب)، وتاج العروس (بوب)، والأغاني ١٢/ ٣٩٩، والشعر والشعراء ص ٦٣٩، والبيت الثاني لسويد بن كراع في مقاييس اللغة ٢/ ٤٧٦، والشعر والشعراء ص ٦٣٩، وبلا نسبة في لسان العرب (ربد)، وتهذيب اللغة ١٤/ ١٠٩، وجمهرة اللغة ص ٢٩٧، والمخصص ٧/ ٩١، وتاج العروس (ربد).

واشتقاق الدّواة من الدّواء، لأن بها إصلاح أمر الكتّاب، وبعض الشعراء اشتقّها من دَوِيَ الرجل يَدْوَي دَوِيًّا، إذا صار في جوفه الداء، قال: [البسيط]

أمّا الدواة فأدوى حملُها جسدي وحرّف الخطَّ تحريفٌ من القلم[1]

ووزنها «فَعَلة» تحرّكت الياء وقبلها فتحة، فقلبت ألفاً، وتجمع دَوَيات؛ كقناة وقَنَوات، ودوًى كقناة وقناً. ويقال: أدويت فأنا مدوٍ: اتّخذت دواة، ويقال للذي يبيعها: دوّاء كخيّاط، وإذا أمرت من يتخذها قلت: أدْوِ دواءً، ويقال لمن يحملها ويمسكها: دوّاء، ويقال لها: الدواة والرقيم والنون.

ويقال: هو القلم المِزبر بالزاي والمِذْبر من زبرت وذبرت، أي كتبت، ومَنْ فرقّ بينهما قال: زبرتُ بالزاي، أي كتبت، وذبرت، أيَ قرأت. وسمّيَ قلماً لأنه قلَم، أي قطع وسوّى، كما يقلّم الظفر، وكلّ عود قطِع وحُزّ رأسه وأُعلم بعلامة فهو قلم، قال الله تعالى: ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٤]، وكانت سهاماً فيها أسماؤهم مكتوبة. ويقال للذي يُقلم به: مِقْلم، وللذي يُبرى به: مبرًى، ولِمَا سَقَط عن البَرْي والتَّقليم: القُلامة والبُراية. وقيل لأعرابيّ: ما القلم؟ ففكّر ساعة، وجعل يقلّب أصابعه، ثم قال: لا أدري؛ فقيل له: توهّمْه في نفسك، قال: هو عود قُلِّم من جوانبه كتقليم الأظفار. ويقال لعُقَدة: الكعوب، واحدها كَعْب، ولما بينها الأنابيب، واحدها أُنبوب، ويستعملان في الرّمح، وفي كلّ عود فيه عُقَد، والعقدة التي تشينه تسمّى الأُبنةُ وجمعها أُبَن، فإن كان في العود أو القصبة تأكُل، قيل فيه: قادح ونقَد، ويقال لباطنه: الشحمة، ولظاهره اللِّيط، فإن قشرت منه قشرة قلت: ليَّطت من القلم لِيطة، فإن أخذت شحمته بالسِّكين قيل: شحمته أشحمه، فإن أفرطت في أخذها، قلت: بطّنته تبطيناً فهو مبَّطن، وحفرته فهو محفور، فإن تركت شحمته، قلتَ: أشحمته إشحاماً. ويقال لغشائه الذي عليه: الغلاف واللِّحاء والقشر، فإذا نزعتها عنه قيل: قشرته ولحوْته وقشوته وسحوْته، ويقال في ثلاثتها بالياء، ووسّقتُه ونَقَحْته، مشدّدان. ويقال لطرفيه اللّذين يكتب بهما: السِّنّان والشّعيرتان، واحدهما سنّ وشعيرة، فإذا قطع طرفه وهيىء للكتابة قيل: قطَطْته أقطّه قَطًّا، وقصمته أقصِمه قَصْماً، والمِقَطّ بالكسر: ما يقطّ عليه، وبالفتح الموضع الذي يقط من رأسه، فإن جعلت إحدى سنّيه أطولَ من الأخرى قلت: قلم محرّف، وقد حرّفته تحريفاً، فإن سوّيتهما قلت: قلم مبسوط، فإن سمع له صوت عند الكتابة، فذلك الصريف والصرير والرشيق ويقال للقصَب: اليَرَاع والأبَاءُ، الواحد يَرَاعة وأَباءة، وقيل: الأباء أطراف القلم، أي القصب، ويقال للقطن الذي يوجد في بطنها: البَيْلَمْ والقيصف والقيسع، واحدته بَيْلَمة وقيصفة وقَيْسَعة، فإن كان في القصب تأكّل قيل فيه: قادح ونقَد،

(١) البيت بلا نسبة في تاج العروس (دوي).

وكذلك العود والسنّ والقَرْن، فإن كان فيها عِوَج فذلك الدّرء.

قوله: «خذ أداتك»، أي قلمك. وقال ابن طاهر لكاتب له: أَلِقْ دواتك، وأطلِ سنَّ قَلمك، وفرّق بين السطور، وتوسط بين الحروف.

وقال ابن عبد ربه: ينبغي للكاتب أن يصلح آلَته التي لا بدّ له منها، وأداته التي لا تتمّ صناعته إلا بها، وهي دواته، فلينعم ربُّها إصلاحَها، ثم ليختر من أنابيب القصب أقَلَّها عُقَداً، وأكثفها لحماً، وأصلبها قشراً، وأعدلها استواء، ويجعل لقرطاسه سِكيناً حادًّا ليكون عوناً له على بَرْى أقلامه، ويبريها من ناحية نبات القصب.

واعلم أنّ محل القلم من الكاتب محل الرّمح من الفارس، نظم أحد الشعراء فقال: [الرمل]

يُمْسِكُ الفارسُ رُمحاً بيدٍ ... وأنا أمسك فيها قَصَبَهْ

فكلانا فارسٌ في شأنِهِ ... إنما الأقلامُ رُمْحُ الكَتَبَهْ

وقال أبو الفتح البُستي: [البسيط]

إن هزَّ أقلامه يوماً ليُعمِلَها ... أنساك كلّ كَمِيٍّ هزّ عامِلَهُ

وإن أقرّ على رَقّ أناملَه ... أقرّ بالرِّقِّ كتّابُ الأنام لَهُ

رأى جعفر بن يحيى خطًّا فاستحسنه، فقال: الخَط خَيْط الحكمة، يُنظم فيه منثورها، وتُفصّل فيه شذورها.

ومن كتاب جعفر بن يحيى إلى محمد بن الليث: أما بعد، فليكنْ قَلَمُك محرَّفاً. لا متيناً ولا رقيقاً، ضيّق القلب، فأبرِه برياً مستوياً كمنقار الحمامة، وأعطِفْ بطنه، ورقّقْ شفرتيْه، ولْيَكُن قِرْطاسك رقيقاً مستوىَ النَّسْج، مخرَج السَّحَاءة[1]، مستوياً من أحد الطرفين إلى آخره، فليست تستقيم السّطور إلا فيما كان كذلك، وليكُنْ أكثر مَطّك في أطراف القرطاس الذي فيه يسارك، وأقلّه في الوسط، ولا تمطّ في الطرف الآخر، والمطّ نصف الخطّ، ولا يقوى عليه إلا العاقل.

قال العتابيّ: سألنِي الأصمعيّ في دار الرشيدّ أيّ الأنابيب للكتابة أصْلَح، وعليها أصْبر؟ فقلت له: ما نَشِف بالهجير ماؤه، وستره من تلويحه غِشاؤه، من الدّرّية الظهور، النيّرة القشور، الفِضّيّة الكسور؛ قال: فأيّ نوع من البرْي أصوب وأكتب؟ فقلت له: البريّة المستوية القَطّة، التي عن يمين سنها قُرنة[2]، تأمن معها المجّة عند المدّة والمطّة، للهواء في شِقّها صفِيق، وللرّيح في جوفها خريق، والمداد في خرطومها رقيق. قال العتابيّ: فبقي الأصْمعيّ شاخصاً إليّ لا يحيرُ جواباً.

---

(١) السحاءة: أي القشرة.

(٢) القرنة: الطرف المائل من كلّ شيء.

وقال الحسن بن وهب: يحتاج الكاتب إلى خلال: جودة بَرْي القلم، وإطالة جَلْفته، وتحريف قَطّته، وحسن التأتّي لامتطاء الأنامل، وإرسال المدّة بعد إشباع الحروف، واستواء الرسوم، وحلاوة المقاطع.

وقال بعض الكتّاب: عَطِّرُوا دفاتركم بجيّد الحبر، فإنّ الكتب غوانٍ والحبر غوالٍ.

وقال بعض الكتاب أيضاً: [الوافر]

وما رَوْض الربيع وقد زهاه ... ندَى الأسحارِ يأرَج بالغَداةِ
بأضوعَ أو بأسطعَ من نسيمٍ ... تؤدّيه الأفاوهُ من دَوَاةِ

كأنّ هذا من قول الآخر: [الوافر]

دعيّ في الكتابه ليس منها ... له فِكرٌ يُعَدّ ولا بديهُ
كأنّ دواته من رِيقِ فيه ... تُلاقُ، فريحُها أبداً كريهُ

ونظر جعفر بن محمد إلى فتى على ثيابه أثر مداد، وهو يستره، فقال له: [الكامل]

لا تجزعنّ من المِداد فإنه ... عِطْر الرجال وحِلْية الكُتّابِ

ولبعضهم يهجو كاتباً: [الوافر]

حمارٌ في الكتابة يدّعيها ... كدعوَى آل حربٍ في زيادِ
فدعْ عنك الكتابَةَ لستَ منها ... ولو لطّخت نفسك بالمدادِ

وقال كُشاجم لورّاق يدّعي الكتابة: [الكامل]

وزعَمْتَ أنك في الكتابة مدركٌ ... شأوِي، فقلت: رماحنا أقلامُ[1]
هيهاتَ تلك صناعة ممزوجَةٌ ... فيها ضياءٌ واضحٌ وظلامُ
هذا الحديد سلاح أبطالِ الوغى ... وبه يَمُجّ دماءنا الحجّامُ

وقال أبو العيناء: كنتُ عند إبراهيم بن العباس، وهو يكتب كتاباً، فنقطت من القلم نقطة مفسدة، فمسحها بكمّه؛ فتعجّبت، فقال: لا تعجَبْ، المال فرع والقلم أصل، والأصل أحوج إلى المراعاة من الفرع، وبهذا السواد جاءت هذه الثياب، ثم أطرق قليلاً وقال: [الوافر]

إذا ما الفِكْرُ وَلَّدَ حسن لفظٍ ... وأسلَمُه الوجُودُ إلى العِيانِ
ووشّاه فنمنمه جوادٌ ... فصيحٌ في المقالِ بلا لِسانِ
ترى حُلل الْبَيان منشّراتٍ ... تجلّى بينها صُور المعاني

---

(١) الأبيات في ديوان كشاجم ص ١٦٠.

وكتب سليمان بن وهب بقلم صلْب، فاعتمد عليه اعتماداً شديداً، فصرّ القلم في يده، فأنشد: [الطويل]

إذا ما التقينا وانتضينا صوارماً ... يكاد يُصمّ السامعين صريرُها
تساقط في القِرْطاس منها بدائعٌ ... كمثل اللآلي نظمها ونثيرُها
تقود أبيّات البيان بفطنةٍ ... تكشّف عن وجه البلاغة نورُها
تظلّ المنايا والعطايا شوارعاً ... تدور بما شئنا وتمضي أمورُها
إذا ما خطوب الدهر أرْخَتْ ستورَها ... تجلّت بنا عما يسرّ ستورُها

وأتى رجل وكيعاً، فقال: رجل يمتّ إليك بحرمة! فقال له: وما حُرمتك؟ قال له: كنتَ تكتبَ بمحبرتي عند الأعمش. فوثب وكيع إلى منزله، ثم أخرج منه دنانير لنفقته، وقال له: اعذرني فما أملك غيرها، ودفعها إليه.

وقال أبو الحسن بن لبّال في محبرة آبنوس: [الكامل]

وخديمة للعلْم في أحشائِها ... كلَفٌ بجمع حلاله وحرامِه
لبِست رداءَ اللّيل ثم توشّحت ... بنجومه وتتوّجَتْ بهلالِهِ

وحدثني عن شيخي الفقيه أبي عبد الله بن زَرْقون ابنُه الفقيه أبو الحسين، قال: حدّثني أبي أنه كان بسَبْتة أيام الشبيبة والطلب، في مجلس جمع من طلبة الأدب، فتعرَّض لهم رجل بمِحْبَرة صنعها، وأراد أن يقصِد بها الوالي على حسنها، وكانت محبرة آبنوس بحلية صفراء مذهبَة، فأطرقوا يروّون، فبادرهم أبو الطالب بن أبي ركب فقال: [الكامل]

جاءتك من غُرَرِ العلا زِنجيَّةٌ ... في حُلَّةٍ من حِلْيةٍ تتبختَرُ
سوداء صفراء الحليّ كأنَّها ... ليل تُطرِّزه نجوم تزهَرُ

فاستحسنهما من حضر، ورأوا أنه قد أربى على الغاية فيما عنه صدر، فكتبا للرجل في رقعة، فبعد ما سار بها قليلاً، رجع فأبرز منها قلم صُفْرٍ مذهباً، ورغب أن يضمّن ذكره في منظوم يضاف إلى البيتين، فأطرقوا يروّون في ذلك، فبادرهم أبو طالب المذكور فقال: [الكامل]

كَملَت بأصغرَ من نجارِ حُلِيِّها ... تخفيه أحياناً، وحينا يظهرُ
خرسان إلا حينَ يَرْضع ثديَها ... فتراه ينطق ما يشاء ويذكُرُ

وقال آخر يصف دواة وأقلاماً: [الخفيف]

قَدْ بعثنا إليك أمّ العطايا ... والمنايا زُنْجيَّة الأحْسَابِ
في حشاها من غير حَرْبٍ حِرَابٌ ... وهي أمْضَى من نَافِذَاتِ الحِرَابِ

وأحسن ما قيل في القلم قول حبيب يصف قلم محمد بن عبد الملك الزيّات: [الطويل]

لَكَ القلمُ الأعلى الّذي بسنانِهِ ... تُصاب من المرء الكُلَى والمفَاصِلُ[1]
له الجلَوات اللاءِ لولا نجيُّها ... لَمَا احتفلتْ للملكِ تلكَ المَحافِلُ
لُعاب الأفاعِي القاتلات لعابُه ... وأرْى الجِنَى اشتارتْه أيدٍ عَوَاسِلُ
له ديمةٌ طلٌّ، ولكِنّ وقَعها ... بآثاره في الشرق والغربِ وَابِلُ
فصيحٌ إن استنطقتَه وهْو راكب ... وأعجمُ إن خاطبتَه وهْو رَاجِلُ
إذا ما امتطى الخمسَ اللّطاف وأفرِغت ... عليه شِعاب الفكر وهي حَوافِلُ
أطاعتْه أطرافُ القنا وتقوّضَتْ ... لنجواه تقويضَ الخيامِ الجَحافِلُ
إذا استغزر الذّهن الذكيّ وأقبلتْ ... أعاليه في القِرْطَاس وهي أسَافِلُ
وقد رفدته الخِنصران وسدّدت ... ثلاث نواحِيه الثّلاثُ الأنَامِلُ
رأيتَ جليلاً شأنُه وهو مرهَفٌ ... ضنًى، وسميناً خطبُه وهو ناحِلُ

وقال أبو الفتح البستي: [الطويل]

إذا أقسم الأبطالُ يوماً بسيفهمْ ... وعدّوه مما يكسب المجدَ والكَرَمْ
كفى قلم الكتاب مجداً ورفعةً ... مدى الدهر أنّ الله أقسم بالقَلَمْ

وقال البحتريّ: [البسيط]

تعنو له وزراء الملك خاضعةً ... وعادةُ السَّيْفِ أن يستخدِمَ القَلَمَا[2]

وقال أبو العباس التنوخيّ: [البسيط]

إن يخدم القلمُ السَّيفَ الّذي خضعت ... له الرقابُ ودانت خوفَه الأمَمُ
فالموتُ والموت لا شيءٌ يقابِلُهُ ... ما زال يتبع ما يجري به القَلَمُ
بذا قضى الله للأقلام مُذْ بُرِيَتْ ... أنَّ السيوف لها مذ أُرْهِفتْ خَدَمُ

وناقضه أبو الطيب المتنبي فقال: [البسيط]

حتى رجعتُ وأقلامي قوائلُ لي: ... المجد للسيف ليس المجد للقلم[3]
أكتب بنا أبداً بعد الكتاب به ... فإنّما نحن للأسيافِ كالخَدَمِ

وقال الصوليّ: فاخر صاحب سيف صاحبَ قلم، فقال صاحب القلم: أنا أكتب بلا

(١) الأبيات في ديوان أبي تمام ص ٢٥٧.
(٢) البيت في ديوان البحتري ص ٢٠٤٨.
(٣) البيتان في ديوان المتنبي ٤/ ١٥٩، ١٦٠.

غَرَر، وأنت تقتل على خَطَر، فقال صاحب السيفَ: القلم خادم السَّيف إن تَمّ مِدادُه، وإلا فإلى السيف معادُه.

قال الصوليّ: وقال بعض اليونانيين: الدين والدنيا تحت شيئين: سيف وقلم، والسيف تحت القلم.

وفي ذلك يقول جرير النّميريّ: [الوافر]

أتحقِرني ولستَ لذاك أهلاً ... وتُدْني الأصغرِيْن من الخِوَان
جهابذةٌ وكتّابٌ وليسوا ... بفرسان الكتيبة والطِّعَانِ
ستذكرني وتعرِفُني إذا ما ... تلاقَي الحلْقتان من البِطَانِ

وقال كشاجم: [الطويل]

هنيئاً لأصحاب السيوف بطالةٌ ... تقضّي بها أيامهم في التنعُّمِ
وكم فيهمُ من دائم الأمر لم يرعْ ... بحرْب ولم يَنْهَدْ لِقرْن مصمِّمِ
وكلّ ذوي الأقلام في كلّ ساعة ... سيوفهم ليست تجفّ من الدَّمِ

وقال آخر: [البسيط]

قوم إذا أخذوا الأقلام من قصبٍ ... ثم استمدُوا بها ماء المنيَّاتِ
نالوا بها من أعاديهم وإن بعدوا ... مَالاَ ينالُ بحدّ المشرفيَّاتِ

وقال البحتريّ يصف كلام الحسن بن وهب وأقلامه: [الكامل]

وإذا تألّق في العيون كلامه الـ ... ـمَحْمودُ خِلْتَ لسانه من عضْبِهِ[١]
وإذا دجتْ أقلامه ثم انتحتْ ... برَقت مصابيح الدُّجَى في كُتْبِهِ
فاللفظ يقرب فهمه في بُعدِهِ ... منّا، ويبعُد نيْلُهُ من قُرْبِهِ
حِكَمٌ، فسائحها خلال بنانِهِ ... متدفِّق، وقليبُها في قَلْبِهِ
فكأنّها والسَّمع معقودٌ لها ... شخص الحبيب بدا لعين مُحِبِّهِ

وقال عليّ بن الجهم في رقعة جاءته بخط جارية: [السريع]

ما رقعة جاءتك مثنِيّةٌ ... كأنّها خَدٌّ على خَدِّ
نَبْذُ سوادٍ في بياضٍ كما ... ذُرّ فَتِيتُ المسْكِ في الوَرْدِ
ساهمة الأسطر مصروفةٌ ... عن وجهة الهَزْل إلى الْجَدِّ
يا كاتباً أسلمني عَتْبُه ... إليه، حسبي منك ما عِنْدِي

---

(١) الأبيات في ديوان البحتري ص ١٦٤.

وقال البحتري في ابن الزيات: [الخفيف]

قد تَصرَّفتَ في الكتابة حتّى ... عطَّلَ الناسُ ذكرَ عَبْدِ الحميدِ[1]
في نظامٍ من البلاغةِ ما شَـ ... ـكَ أمرؤ أنّه نظامُ فريدِ
وبديعٍ كأنه الزَّهر الضا ... حك في رَوْنَقِ الرَّبيعِ الجَدِيدِ
ما أعيرت منه بطونُ القراطيـ ... ـس وما حملت ظهورُ البَرِيدِ
حُزْنَ مستعملَ الكلام اختياراً ... وتجنَّبْنَ ظُلمةَ التَّعْقِيدِ
كالعذارى غَدَوْنَ في الحُلَلِ الصّفْـ ... ـرِ إذا رُحْن في الخُطوب السُّودِ

قال المأمون لمحمد بن داود: إن شاركناك في اللّفظ فقد تاركناك في الخطّ، فقال: يا أميرَ المؤمنين، إنّ من أعظم آيات النبيّ ﷺ أنه أدّى عن الله تعالى رسالته، وحفظ وحيَه، وهو أُميّ لا يعرف من فنون الخطّ فنًّا، ولا يقرأ من حروفها حرفاً، وبقي عمود ذلك في أهله، فهم يشرفون بالشّرَف الكريم في نقص الخطّ، كما يشرف غيرهم بزيادته، وإنّ أمير المؤمنين أخصّ الناس برسول الله ﷺ، والوارث لموضعه، والمتقلّد لنهيه ولأمره، فتعلّقت به المشابهة الجليلة، وتناهت إليه الفضيلة. فقال المأمون: يا محمد، لقد تركتَني لا آسي على الكتابة ولو كنت أميًّا.

قد ذكرنا من آلات الكتابة نثراً ونظماً ما فيه كفاية وفي السادسة والعشرين من النظم في أوصاف الكتّاب ما يستحسن وينتظم بما أوردنا هنا.

وإنما أخرج الحريريّ رسالته الخَيْفاء من هذه الأوصاف المنظومة في الرسائل التي قدّمناها آنفاً لما ذكره من أنّ جميع الكتّاب قطب لإنشائها وتاب، لما فيها من لزوم نقط لفظة وترك أخرى؛ وهي على ما بها من التكلّف، رائقة المعاني، أنيقة المباني، ولو غيره تعاطاها لأظلمت معانيها، وتداعت مبانيها، فلله هو! لقد كان منقاداً له صعب الكلام بأيْسَر مَرَامٍ! وما هو في محاولة البلاغة إلا كما قال حبيب في سليمان بن وهب: [الخفيف]

سُرُحٌ نطقه إذا ما استمرَّتْ ... عقدة العيّ في لسان الخطيبِ[2]
ومصيب شواكلَ الأمر فيه ... مشكلاتٌ مَلَكْنَ لُبَّ اللبيبِ
لا معنًّى بكلِّ شيء ولا كـ ... ـلُّ عجيب في عينهِ بعجيبِ

* * *

الكرمُ ـ ثبَّتَ اللّهُ جَيْشَ سُعُودِك ـ يَزِينُ، واللُّؤْمُ ـ غَضَّ الدَّهْرُ جَفْنَ حَسُودِكَ يَشِين، وَالأَرْوَعُ يثيبُ، والمعور يَخيب، والحُلاحِلُ يُضيف، والماحِلُ يُخيف،

(١) الأبيات في ديوان البحتري ص ٦٣٦.
(٢) الأبيات في ديوان أبي تمام ص ٣٧.

والسَّمْحُ يُغْذِي، والمَحِكُ يُقْذِي، والْعَطاءُ يُنْجِي، وَالمِطَالُ يُشجِي، والدُّعَاءُ يقي، والمذْحُ يُنْقِي، والْحُرُّ يَجزي والإلطاطُ يُخزِي، واطِّرَاحُ ذِي الْحُرْمَةِ غَيّ، وَمَحْرَمَة بنِي الآمالِ بَغْيٌ، وَمَا ضَنَّ إلاَّ غبينٌ، وَلاَ غُبنَ إلاَّ ضنينٌ، ولاَ خَزَنَ إلاَّ شَقِيٌّ، ولاَ قَبَضَ رَاحَهُ تَقِيٌّ. وَمَا فَتِيءَ وَعْدُكَ يَفِي، وآرَاؤُكَ تَشْفِي، وَهِلاَلُكَ يُضِي، وحِلْمُكَ يُغْضِي، وآلاؤكَ تُغْنِي، وأَعْدَاؤكَ تُثْنِي، وَحُسَامُكَ يُفْنِي، وسُؤدَدُكَ يَبنِي، ومُواصِلُكَ يَجْتَنِي، ومَادِحُكَ يَقْتَنِي، وَسَماحُكَ يُغيث، وسَماؤكَ تَغيث، وَدَرُّكَ يفيضُ، ورَدُّكَ يَغيضُ، ومؤمِّلُكَ شيخٌ حكاه فَيْءٌ، ولم يبق لَهُ شَيْء. أَمَّكَ بِظَنٍّ حِرْصُهُ يَشِبُ، ومَدَحَكَ بِنُخَبِ مُهُورُها تَجِب، ومَرَامُهُ يخِفّ، وأواصُرُه تشِفّ، وإطراؤه يُجْتَذَب، ومَلامُهُ يُجْتَنب، ووراءَه ضَفَف، مسّهُمْ شَظَف؛ وحَصَّهم جَنَف، وعَمَّهُمْ قَشَف، وَهُوَ في دَمْعٍ يجيب، وَوَلَهٍ يُذيب؛ وَهَمٍّ تضيّف، وَكَمدٍ نيّف، لمأمُولٍ خَيَّبَ، وإهْمالٍ شيّبَ، وَعَدُوٍّ نَيَّبَ، وَهُدُوٍّ تغيَّبَ، ولمْ يزغْ وِدّه فيغضب، ولاَ خبُث عُودُه فَيُقضَب، ولا نفَث صَدْرُه، فيُنفَض، ولا نشزَ وصْلُهُ فيُبْغَض، وَمَا يَقْتَضِي كَرَمُكَ نَبْذَ حُرَمِهِ؛ فبيّضْ أملَه، بتخفيف ألمه، ينثُّ حَمْدَكَ بَيْنَ عَالِمِه. بقيتَ لإماطةِ شَجَبٍ، وإعطاءِ نَشَبٍ، وَمُدَاوَاة شَجَن، ومُرَاعَاةِ يَفَنٍ، موصولاً بخفضٍ، وسُرُورٍ غضّ، مَا غُشِي مَعْهَدُ غَنِيّ، أَوْ خُشِي وَهْمٌ غبِيّ، والسلام.

* * *

قوله: «غضّ الدهر جفن حسودك»، يقال: غضّ جفنه، أي سدّ عينيه، دعاء عليه بالعَمى، يقول: الكرم يزيّن صاحبه. واللؤم ـ وهو البخل ـ يَشينه ويَعيبه، ثم دعا له بدوام السّعد وثبوته، وبعمى عين الحسود حتى لا يبصر ما أُعْطِيَ الممدوح من النَّعم، فيأخذها بالعين. الأروع: السيد الكريم، وهو الذي قصِد، وقيل: الأرْوَع الحديد النفس، وقيل: الذي يروعُك بجماله. يُثِيب: يُجازي قاصده. والمُعْوِر: البادي العَوْرَة، وهو الفارس يظهر في طعنه خلل، وأراد به الناقص الخلق الكثير السفاهة، ومن جملة عيوبه البخل حتى يخيب قاصده، لأنه قابَل به الأرْوَع، وهو التامّ الجسيم، الجهير الصوت، قال الشاعر: [الطويل]

يـواخِـي لـئيـمُ الـنَّـاس كـلَّ مـلائـمِ ... ويـنـطـق بـالـعَـوْرَاءِ مَـنْ كـانَ مُـعْـوِرَا(١)

---

(١) يروى صدر البيت:

يـــروم أذى الأحـــرار كـــلّ مُـــلأَّمِ

وهو بلا نسبة في لسان العرب (لأم)، وتاج العروس (لؤم).

الحُلاحل: السيّد الذي يحُلّ به الناس كثيراً. يُضيف: يُنزل الأضياف ويكرمهم. والمَاحل: البخيل، شبِّه بالبلد الماحل، وهو الجدْب، فكأنّ الماحل الذي لا يوجد عنده خير، يقال: أمحل البلد، وبلد ماحل وذو مَحْل، مثل لابن وتامر، والماحل النَّمّام، يقال: مَحَلَ به إلى السلطان إذا وشى به، وهو الذي يُخيف على الحقيقة، والماحل أيضاً: المخاصم، وقد ما حلتُه وما حَلني. يُغْذِي: يطعم. والمِحكُ: اللّجوج، وهو مقابل السَّمْح الخلق. يُقذِي: يجعل في العين قَذاً، أي يضرّ قاصده ويؤلمه. يُنجِي: يخلّص صاحبَه من الذمّ، وتقدّم المِطال. يُنْقِي: يغسل العيب. والإلطاط: الامتناع من فعل الخير، ويقال: لطّ وألطّ، إذا ذهب، ولطّ الشيء وألطّه، إذا ستره. يُخزي: يهين. اطّراح: ترك. ذي الحرْمة، أي صاحبها، والحرمة ما لا يحلّ انتهاكه، ومن قصدك فقد دخل في حرمك، فتركه ليس من المروءة. غَيّ: فساد وضلال. مَحْرمة: منع. بنى الآمال: أهل الرجل الذين يرجون خيره ويأملونه. بَغْى: ظُلم. ضنّ: بخل. غَبِين: مخدوع في رأيه. ضنين: بخيل، يقول: ما يضَنّ بماله من هو سديد النظر ولا المصيب الرأي إنما يبخل به مَنْ هو فاسد النظر مغبون في رأيه. خَزن: حبس ماله: قبض راحه: ضمّ كفه على ما فيها، وهذه كناية عن المنع والبخل. والتقيّ: الذي يقي نفسَه من العذاب بعمله الصالح، من وقيتُ نفسِي أقِيها، واختلف في وزنه فقيل «فعول» وأصلها «وقوى»، فأبدلوا من الواو تاء لقرب مخرجيهما، ومن الواو الثانية ياء وأدغموها في الياء، وكسروا القاف لتصحّح الياء، والاختيار أن يكون وزنه «فعيلاً» وأصله «تقّي»، فأدغموا الياء في الياء، والدليل على صحته جمعهم له على أتقياء، كوليّ وأولياء، ومن قال: إنه «فعول» قال: لمّا أشبه «فعيلاً» جُمِع جمعه.

قوله: «ما فتىء»، أي ما زال. يفي: يصدق ويكون وفيًّا. آراؤك: جمع رأى. تشفِي: تزيل الهمَّ عن قلب وليّك، وتبرىء مرضَ قاصدِك من فقره، يصفه بجودة الرأي وحسن النَّظر فيما يُصلح به أحوال أصحابه وقصاده. هلالك يضيء: يصفه بطلاقة الوجه وإضاءته عند السؤال، قال زهير: [الطويل]

تَـرَاه إذا مـا جـئـتَـه مـتـهـلِّـلاً كـأنّـك تـعـطـيـه الـذي أنت سـائِـلُـهْ[1]

وكما قال أبو بكر في الطّلاقة: [الكامل]

وإذا نـظـرتَ إلـى أسـرّة وجـهـه بـرقـتْ كـبـرق الـعـارض الـمـتـهـلّـلِ[2]

---

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى في ديوانه ص ١٤٢، وكتاب العين ٣/ ٣٥٢، وتهذيب اللغة ٥/ ٣٦٥، وبلا نسبة في تاج العروس (هلل)، ولسان العرب (هلل).

(٢) البيت لأبي كبير الهذلي في شرح أشعار الهذليين ص ١٠٧٤، وتاج العروس (عرض)، وبلا نسبة في المخصص ١/ ٨٩.

خلافاً لسّيىء الخلُق الذي يقطّب وجهَه عند اللقاء، واللئيم الذي إذا سئل انزوى وتقبّض.

يغضي: يسمح. آلاؤك: نعمك. أعداؤك تُثني: يقول لكثرة المادحين لك والناشرين لفضلك، لم يمكن أعداؤك وحسّادك ذمّك لتكذيب الناس إياهم، فصاروا يثنون عليك مع من يثني؛ ويحكى أنّ أعرابيًا استضاف حاتماً، فلم يُنزله، فبات جائعاً مقروراً، فلما كان في السَّحر ركب راحلته، وانصرف، فتقدّمه حاتم، فلما خرج من بين البيوت لقيه متنكّراً، فقال له: من كان أباً مثواك البارحة؟ قال: حاتم، قال: فكيف كان مبيتك عنده؟ قال: خيرَ مبيت، نحرَ لي ناقةً فأطعمني لحماً عبيطاً، وأسقاني الخمر، وعلف راحلتي، وسرتُ من عنده بخير حال. فقال له: أنا حاتم، والله لا تبرحُ حتى ترى ما وصفت، فردّه وقال له: ما حملك على الكذب؟ فقال له الأعرابيّ: إنّ الناس كلَّهم يثنون عليك بالجود، ولو ذكرت شرًّا كنت أكذب، فرجعت مضطرًّا إلى قولهم، إبقاء على نفسي لا عليك. وقد تقدّم قول البحتريّ في هذا المعنى: [الطويل]

أأشكو نداه بعد ما وسع الوَرَى ... ومَنْ ذا يذمُّ الغَيْثَ إلا مُذَمَّمُ[1]!

وقال حبيب: [الطويل]

فإن أنا لم يحمدك عَنِّيَ صاغراً ... عدوّك فاعلم أنني غير حامِدِ[2]

بسبَّاقة تنساقَ من غير سائقٍ ... وتنقاد في الآفاق من غير قائِدِ

أفادت صديقاً من عدوّ وصيرّت ... أقاربَ دنيا من رجالٍ أباعِدِ

ومخلَفة لمّا تَرِدْ أُذنَ سامع ... فتصدر إلاّ عن يمين وشاهِدِ

وهذه القصيدة من كلامه يمدح بها محمد بن الهيثم، يقول: يسمع عدوّك إطنابي في مدحك فيمدحك صاغراً، فكيف وليّك! فأمدك بقصيدة تقطع الأرض، ليست بإبل تُساق، ولا بخيل تقاد، فتردّ العدوّ صديقاً، والبعيد قريباً، ولا يسمعها أحد إلا ويحلف أنه لم يسمع مثلَها، فيشهد له بالصدق.

قوله: «وسوددك يَبْنِي»، أي يرفع لك مجداً وشرفاً. حسامك يفنى، أي سيفك يقطع ويفني أعداءك. مواصلك يجتنى، أي مَنْ زارك وواصلَك اجتنى نعمتك ومواهبك. يقتنى، أي يكتسب. سماؤك تغيث، أي تأتي بالغيث وهو المطر فيستغيث الناس به من الجدب. سماحك يُغيث، أي جودك وحسن خلقك يفرّج كُرَب المهموم، وتقول: غوّث الرجل، أي قال: واغوثاه، وأغثته أغيثه، إذا فرّجت عنه ما يشتكي منه. درّك يفيض: عطاؤك يشمل، أي لبُنك يملأ الإناء ويفيض عليه، يريد أن عطاءه يكثر لسائله. وردّك

---

(١) البيت في ديوان البحتري ص ١٩٨٠.

(٢) الأبيات في ديوان أبي تمام ص ١١٩، ١٢٠.

يَغيض، أي منعك يذهب الرزق، وغاض الماء: غار في الأرض، مؤمّلك: راجيك. والفيء: الظلّ بعد الزوال، يريد أن عمره قد أدبر، فشبّه نفسه بالفيء الذاهب. أمَّك بظنّ، أي قصَدك برجاء. وحرصه يُثب، أي طمعه يتزايد فيجعله في غاية من القلق. نُخَب: مختارة. مهورها: حقوقها، يقول: مدحك بنخب في ملئه، فوجَبَتْ حقوقها لحسنها وجودتها. ومما ينظر إلى هذه المعارضة قول الشاعر: **[الوافر]**

وخذ حمدِي بجودك، ذَا بهذا ... كلانا اليوم أربحُ صيرفيِّ
لأُصبح من نوالك في رياشٍ ... وتصبح من مقالي في حُليِّ

وقال آخر: **[مجزوء الرجز]**

وحُلَّةٍ كَسَاها ... كالحليِّ في التهابهْ
فاستبطنت مديحاً ... كالأزْيِ في نِصَابِهْ
فراحَ في ثيابي ... ورُحْتُ في ثيابِه

وقال ابن شُهيد في ضيف له: **[الطويل]**

وما انفكّ معشوق الثّواء نَمُدُّهُ ... ببشر وترحيب وبَسْط لِسَانِ
إلى أن تشهّى البينَ من ذاتِ نفسِه ... وحنَّ إلى الأهلين حنَّة حَانِ
فأتبعتُه ما سدّ خَلّة حالِهِ ... وأتبعني ذكراً بكلّ مكَانِ

وقوله: «مرامه يخفّ»، أي مطلبه يسهل عليك.

أواصره: جمع آصرة وهي صلة الرحم، والأضر: الموضع الحابس، من قولهم: أصرت فلاناً على الشيء آصِره أصْراً، إذا حبسته عليه وعطفتَه، ويقال: ما تأصرني على فلان آصرة، أي مَا تحبسني عليه حابسة، ولا تعطفني عليه عاطفة. ذكره ابن الأنباريّ.

وذكر الحريري في الدرّة، أن اشتقاق أواصر القرابة والعهد من المأصِر، بكسر الصاد، ومعناه الوضع الحابس للمارّ عليه، فسمِّيت أواصر، لأنها تعطف على ما يجب رعايته من المودة والرحم. قال: وحكى عُبَيَد الله بن عبد الله بن طاهر، قال: اجتمع عندنا أبو نصر أحمد بن حاتم وابن الأعرابيّ فتحادثا، فحكى أبو نصر أنّ أبا الأسود دخل على عبيد الله بن زياد، وعليه ثياب رَثّة، فكساه ثياباً جديدة من غير أن يسأله، أو استكساه، فخرج وهو يقول: **[الطويل]**

كساك ولم تستكسِه فحمِدتَه ... فتًى ماجد يعطى الجزيل وياصِرُ
وإنَّ أحقّ الناس إن كنتَ مادحاً ... بمدحك من أعطاك والعِرْض وافرٌ

فقال ابنُ الأعرابيّ: «وناصر» بالنون، فقال له أبو نصر: دعني يا هذا ويا صري وعليك بناصرك؛ يريد بـ «ياصر» يعطف.

قوله: «تشفّ»، أي تزيد وتفضل غيرها، يقول: إن الأسباب التي توجب عطفك وحنانك عليّ كثيرة منها الشَّيَخ والضعف وكثرة العيال وجودة المدح، والعهود السابقة التي بيني وبينك. إطراؤه يُجتذب، أي مدحه يتجاذبه الناس ويحرصون على تحصيله لجودته، وأصل الإطراء المدح في الوجه، فهو بمشاهدته كأنه مدْح طريّ، أو ظهرت عليه طراوة. ملامه يُجتنب: ذمّه يخاف ويبعد منه، فيرشّي عليه، يقول: إنّ الذي رجاك شيخ مسنٌّ فقير قصَدك بيقين لأنك من أهل الكرم، فطمعُه لذلك يزيد لما ارتجى من معروفك، وأهدى إليك من مدائحه عرائس وجبت عليك حقوقها، ومرامه سهل عليك، ولديك عُلَق تقوم مقام القرابة، وتزيد على ذلك، وله مدح يرغَبُ فيه وذم يرهب منه.

ووراءه ضَفف، أي خلفه كثرة عيال، من ضفّ الطعام ضَفًّا إذا كثر القوم عليه، وضفّ العيش اشتدّ. والشَّظَف: سوء الحال، حصّهم: عرّاهم ونتف ريشَهم. جنَف: ميل الدهر عليهم. قَشَف: بؤس عيش. يجيب: يساعد. وَلَه: همّ وحيرة. يذيب: يُذهب اللحم. تضيّف: نزل به ومال إليه. كمد: حزن قارب الموت. نيّف: زاد على المعهود. لمأمول، أي لمقصود مرجوّ. إهمال: تضييع وتسييب. نيّب: عضّ بأسنانه. وهدوّ تغيّب، أي سكون وأمن زال عنه. يزغ: يمل. نفث صدره، أي تكلم بشرّ، ونفث: بَزَق من داء في صدره ومنه المثل: لا بدّ للمصدور أن ينفُث. ينفض، أي يضرب ويبعد. نَشَز: ارتفع وزال. يقتضي: يتضمّن ويلزم. نبُذ: طرح. حُرَمه: جمع حُرْمة. بيّض أمله، أي أسعد رجاءه، ورُدّه أبيض بعطائك الذي يخفف ألمه، ويزيل وجعه. ينثّ: ينشر. عالمه: ناسه وأهل زمانه. بَقِيت: عشت وطال بقاؤك. إماطة شجب: إزالة هلاك وتنحيته. نشب: مال. شجن: حزن، والشَّجن أيضاً الحاجة. مراعاة: حفظ. يَفَن: شيخ كبير. موصولاً، أي متصلاً. بخفض: عيش هنيء. غضّ: ناعم جديد. غُشِيَ: قُصِد ودخل. معهد: موضع يعهد به جلوسه. وهم غبيّ: غلط جاهل.

***

فَلَمَّا فرَغ مِنْ إمْلاَءِ رِسَالَتِهِ، وجَلّى في هَيْجَاءِ الْبَلاغةِ عَنْ بَسَالَتِهِ، أَرْضَتْهُ الجماعَةُ فِعْلاً وقَوْلاً، وَأَوْسَعَتْهُ حفَاوَةً وطَوْلاً. ثُمَّ سُئِلَ مِنْ أيِّ الشُّعُوبِ نِجارُه، وفي أيّ الشِّعَابِ وِجارُهُ، فَقَالَ: [مجزوء الكامل]

غَسَّانُ أُسْرَتِيَ الصَّمِيمَهْ ... وَسَرُوجُ تُرْبَتِيَ الْقَدِيمَة

فالبيتُ مِثْلُ الشَّمْسِ إشـ ... ـراقاً ومَنْزِلَةً جَسِيمَة

والرَّبْعُ كَالفِرْدوسِ مطـ ... ـيَبةً ومَنْزَهَةً وقِيمَة

وَاهاً لِعَيْشٍ كانَ لِي ... فِيهَا ولَذَّاتٍ عَمِيمَة

أيّامَ أَسْحَبُ مُطْرَفِي ... فِي رَوْضِهَا مَاضِي الْعَزِيمَة

أخْتَالُ في بُرْدِ الشَّبَا ... بِ وأجْتَلِي النِّعَمَ الْوَسِيمَةْ
لا أتَّقِي نُوَبَ الزَّمَا ... نِ ولاَ حَوَادِثَهُ الْمُلِيمَهْ
فَلَوْ أنّ كَرْباً مُتْلِفٌ ... لَتلِفْتُ مِنْ كُرَبِي المقيمَةْ
أَوْ يُفْتَدَى عَيْشٌ مَضَى ... لَفَدَتْهُ مُهْجَتيَ الكريمَةْ
فالموتُ خيرٌ لِلْفَتَى ... مِنْ عَيْشِهِ عَيْش البهيمَةْ
تقْتَادُهُ ثُرَةُ الصَّغَا ... رِ إلى العظيمةِ والْهَضِيمَةْ
ويَرَى السِّبَاعَ تَنُوشُها ... أَيدي الضّباعِ المستضِيمَةْ
والذَّنْبُ للأيام لَوْ ... لا شؤمُها لم تَنْبُ شِيمَةْ
ولو اسْتَقَامَتْ كانتِ الـ ... أحوالُ فيهَا مُسْتَقِيمَةْ

* * *

قوله: «إملاء رسالته»، أي إلقائها عليه ليكتبها جلَّى: كشف. الهيجاء: الحرب، وهي من الهيْج وهو الحركة والإضطِراب. بسالته: شجاعته. أوسعته: كثَّرت له. حفاوة: إكرام. والطَّوْل: الإنعام. الشّعوب: القبائل، وأحدها شَعْب، بفتح الشين وهو الأب الكبير. ثعلب، الشّعب: الأب الأكبر الذي ينتهون إليه والقبيلة دونه. نجاره: أصله. الشِّعاب: الطرق في الجبال. وِجَاره: جُحره، أراد بَيْتَه، لأنهم سألوه من أيّ قبيلة هو، وعن مسكنه في أيّ موضع هو.

وقوله: «غسان أسرتي»: أي هذه القبيلة أصلي وقرابتي. الصميمة: الصريحة الخالصة. تربتي. بلدتي. إشراقاً: ضياءً ونقاءً من العيب. جسيمة: عظيمة. الفردوس: الجنّة، سُمِّيَتْ بذلك لعرائشها، والفردوس: المعرّش من الكرم. مطيبة، أي سروج مثل الجنة في طيب الهواء، وفي نزهتها وحسنها، وفي قدرها، وأراد بالبيت غَسّان، وبالربع سَروج، أو يريد بيتَه في غسان في الشرف كالشمس، ومنزله في سَروج كالجنة في طيبها ونزهتها، وقد قال في أخرى: **[الرمل]**

مَنْ رآها قال مَرْسَى ... جنَّةِ الدنيا سَرُوجُ

ومثل قوله في البيت مثل الشمس، قول أبي الطَّمَحان القينيّ: **[الطويل]**

وإنّي من القوم الذين همُ همُ ... إذا مات منهم سيّد قام صاحبُهْ[1]

---

(١) البيتان الثاني والثالث، لأبي الطمحان القيني في الأغاني ١٣/ ٩، وأمالي المرتضى ١/ ٢٥٧، وتخليص الشواهد ص ٢٠٢، وخزانة الأدب ٨/ ٩٥، ٩٦، وديوان المعاني ١/ ٢٢، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ١٥٩٨، وكتاب الصناعتين ص ٣٦٠، ولسان العرب (خضض)، والمقاصد النحوية ١/ ٥٦٧، وهما للقيط بن زرارة في الحيوان ٣/ ٩٣، والشعر والشعراء ص ٧١٥.

نجوم سماء كلّما غار كوكبٌ ... بَدَا كوكب تأوي إليه كواكبُهْ

أضاءَتْ لهم أحسابهم ووجوههم ... دُجى الليل حتّى نظَّمَ الجَزْعَ ثاقبه

وقال حسان بن ثابت: [الكامل]

بيض الوجوه مضيئةٌ أحسابهمْ ... شمّ الأنوف من الطّرازِ الأوّلِ[1]

وزاد عليه في الإضاءة والإشراق حجيّة بن المضرّب فقال: [الطويل]

أضاءتْ لهم أحسابهمْ فتضاءلَتْ ... لنورهُم الشمس المنيرة والبَدْرُ

وزاد عليه أبو الطيب وعلى الناس في علوّ الهمة وتبعيد منازلها من منازل الكواكب، حيث يقول: [البسيط]

وعزمةٍ بعثتْها همّةٌ زُحَلٌ ... مَنْ تحتَها بمكان التّرب من زُحَلِ

وزُحل أرفع من الشمس ومن سائر الكواكب منزلةً، وهذا من غلوّ المتنبّي الذي يخرج به عن الناس حتى يُعاب، لأنه لو جعلها مع زُحَل في منزلة واحدة، كما جعل الحريري منزلته مع الشمس لكان قد بلَغ النّهاية، وزاد على غيره، فلم يكتف بذلك حتى جعلها تعلو على زُحَل، كما يعلو زُحل على الأرض. ومن هذا الإفراط في شعره كثير، وأكثر النقاد يعيبون عليه؛ وبعد هذا فمعجزاته في الشعر زاد بها على المتقدّمين والمتأخّرين عند الأكثر فلا يجاري في كثير منها.

واهاً: تعجُّباً، كأنه قال: ما أعجب ما كان عيشي بها! عميمة: كثيرة. أسحب مَطْرَفي: أجرّ ثوبي المعلَم في طرفه إعجاباً بنفسي. أختال: أمشي الخُيَلاء متكبّراً. بَرْد الشباب: ثوب الفتوّة. أجتلي: أنظر. الوسيمة: الحسان. والنّوب والحوادث: النوازل والمصائب، كلّها بمعنى واحد، وهي ما ينوب الإنسان: أو يحدث عليه أو ينزل به، أو يصيبه من البلاء بعد العافية. المليمة: التي تأتي بما يُلاَم عليه. كرَبي المقيمة: همومي الثابتة. مُهجتي: نفسي، وأصلها دم القلب. تقتاده: تسوقه. بُرَة: حَلْقة من صَفْر تجعل في وترة أنف البعير، يذلَّل بها. الصَّغَار: الذِّلّة. العظيمة: داهية يُستعظم أمرها. والهضيمة: المحقّرة لشأنه عند الناس، فيريد بالبهيمة البعير الذي يقاد ويذلّل بالبُرَة، وبالعظيمة سؤاله الناس، وبالهضيمة احتقارهم له إذا سألهم فيردونه خائباً. والسباع هنا: الأسُود. تنوشها: تتناولها وتخدشها.

---

(١) يروى صدر البيت: :

بيض الوجوه كريمة أحسابُهم

وهو لحسان بن ثابت في ديوانه ص ١٢٢، ولسان العرب (طرز)، (أنف)، وتهذيب اللغة ١٣/ ١٧٨، ومقاييس اللغة ٣/ ٤٤٦، وتاج العروس (طرز)، (أنف)، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٧٠٤.

[مما قيل في الضباع]

والضباع: جمع ضَبُع؛ وهو نوع من سباع الأرض، وهي مضادّة في الخِلْقة لسبع الأندلس، لأنها عظيمة الكَفَل والفخذين رقيقة الصدر، وهذا السبع أزَلّ عظيم الصدر، والضبع عظيم البطن، ولذلك سمى حُضاجر بالجمع، والحِضجر: عظيم البطن. والحِضْجر: الوطب الكبير من اللبن، ويشبّه به العظيم البطن، وهي عرجاء مثل هذا السبع، ويضرب بحمقها المثل فيقال: أحمق من ضَبُع، وأحمق من أُمّ عامر وهي كنيتها. ومن حمقها أنّ الصائد يدخل وِجارها فيقول لها: خامري أمّ عامر، ومعناه الجئي ألى أقصى مغارِك واستتري، فتتقبّص، فيقول: أم عامر ليست في وجارها، ثم يقول: أبشري أمّ عامر بكمَر الرجال، أبشري أم عامر بشاة هزلي، وجرادَةٍ عظْلَى، فتمدّ يديْها ورجليْها، فيوثقها ويشدّ عراقيبها بحبال فلا تتحرّك، ولو شاءت أن تقتله لأمكنها، ولا يدخل عليها إلا عرياناً، وإن دخل بثوب قتلته، ثم يخرج لأصحابه بالحبال، وهم على فم الوِجار بأسلحتهم، فيخرجونها بالجرّ من قعر الوِجار ويقتلونها.

ومن حمقها أنّها تترك جِراءها إذا خرجت تلتمس ما تأكل، فتجد جِراء أخرى قد خرجت أيضاً لذلك، وتركت جِراءها فترضع أولاد غيرها، وتترك أولادها، فربما ضاعت جِراؤها فأكلها الذئب. وقال الشاعر: **[الطويل]**

كَمُرْضِعَةٍ أولاد أُخرى وضَيَّعَتْ بني بطنها، هذا الضلال عن القَصْدِ

قال أبو زيد: والضباع لا تفترس شيئاً إنما تأكل الجِيف، وتنبش القبور عن الموتى، وربما اجتمعت الجماعة منها على حمار فأكلته، وليس لها بالنهار كبير عمل، قال الهذليّ: **[الوافر]**

تبيت الليل لا يخفى عليها حمارٌ حيث جُرَّ ولا قتيلُ[(١)]

قوله: «المستضيمة» أي المذلّله. والضيم: الذلّ؛ يضرب المثل لتلاعب الزمان بالناس بالأسود والضباع، فقال: إنّ الضباع المحتقرة عند الأسود تتناول الأسود بالضرر، وكذلك الزَّمان يرفع الحقير والهجين ويكثر رزقه، ويضع الرفيع ويقتّر عليه، ويملِّك الهجناء والأراذل الخطط الجسام، ويجرِّع النبلاء والأعيان غُصَصَ المخازي وكؤوس الحِمام.

* * *

[الدهر وأحواله]

وهذه أحوال مشاهدة تنسب إلى الدهر لوقوعها فيه، وقدّرها الباري عزّ وجلّ اختباراً لعباده، وليبصّر العقلاء جريان أحكامه في خلقه، وأنّ الكل تحت قهره، وأن كلّ إنسان من

(١) البيت لساعدة بن جؤية الهذلي في ديوان الهذليين ١/ ٢١٦.

أهل الحزم والرأي عاجز عن إدراك ما لم يقدَّر له؛ وقال محمد بن الفضل: [الرمل]

هانت الدّنيا على اللّـ ـه فأعطاها اللّئاما
فهمُ فيها يعيشو نَ ويَلْحَوْنَ الكِرامَا

وقال المعريّ في معنى بيت الحريريّ: [الوافر]

ومَنْ صَحِبَ الليّالي علّمْتُه خداع الإلْفِ والقِيل المُحَالا[١]
وغيّرت الخطوب عليه حتى تريه الذرّ يحمِلن الجبالا

وقال يزيد المهلبيّ يرثي المتوكل: [البسيط]

علتْك أسياف من لا دونه أحدُ وليس فوقَك إلا الواحدُ الصَّمَدُ
وأصبح الناسُ فوضَى يعجبُون به ليثاً صريعاً تندى حوله النَّقَدُ

وأخذ لفظ بيته من قول حبيب: [البسيط]

مَنْ لم يعاين أبا نصرٍ وقاتلَه فما رأى ضبُعاً في شدقه سَبُعُ[٢]
فيم الشماتة إعلاناً بأسْدِ وغًى أفناهمُ الصَّبرُ إذ أبقاكم الجَزَعُ!

هكذا يُنظم حرّ الكلام، ويُعتذر لموت الكرام، وتُنفى عنهم شماتة اللئام. وقد أحسن الاعتذار أيضاً لأبي نصر بأغرب من هذا، وجعله قاتل نفسه، إذ لا نظير له في شجاعته فيقتله، وإنما قتله أمر الله الذي لا يغالَب، كما قال أبو الطيب: [الطويل]

ألا إنّما كانتْ وفاة محمدٍ دليلاً على أن ليس لله غالبُ[٣]

وكذلك قوله: [الطويل]

فإن ترم عن عمرٍ توانى به المدَى فخانك حتى لم يجد فيك منزعا
فما كنتَ إلاّ السَّيفَ لاقى ضريبةً فقطّعها حتى انثنى فتقطّعا

أي لم يقتل حتى قلت أعداءه، وأبو نصر هو محمد بن حُميد قتله بابك الخرّميّ ومما قال فيه حبيب ـ وهو أشجع بيت قيل ـ قوله: [الطويل]

ونفسٌ تعاف العار حتى كأنمّا هو الكفرُ يوم الرَّوْع أو دونه الكفرُ[٤]
فأثبت في مستنقَع الموتِ رِحْلَهُ وقال لها: من تحت إخمصِك الحشرُ

قوله: «الذنب للأيام»، نسب الذنب إليها لوقوع المكروه فيها كما تقدم. تنبُ:

---

(١) البيتان في سقط الزند ص ٨١.
(٢) البيتان في ديوان أبي تمام ص ٣٧٢.
(٣) البيت في ديوان المتنبي ١/١٠٩.
(٤) البيتان في ديوان أبي تمام ص ٣٦٩.

ترتفع، شيمة: طبيعة، أي لولا شؤم الأيام لم تتغير الطباع، أي لو استقامت هي لاستقامت أحوال الناس فيها، فكان كل إنسان يدرك منها على قدر منزلته.

* * *

[مما قيل في ذم الزمان]

ومما قيل في ذمّ الزمان مما يوافق هذا المعنى، أنّ عبد الملك بن مروان سأل مسلمة بن يزيد ـ وكان من المعمَّرين ـ فقال: أيّ الملوك رأيت أكمل؟ وأيّ الزمان رأيت أفضل؟ فقال: أمّا الملوك فلم أر إلا حامداً أو ذامًّا، وأمّا الزمان فيرفع أقواماً ويضع أقواماً، وكلّهم يذمّ زمانه. لأنه يُبلي جديدَهم، ويفرّق عديدهم، ويُهرم صغيرهم، ويُهلك كبيرهم.

أبو جعفر الشيبانيّ قال: أتانا أبو ميّاس الشاعر، ونحن في جماعة، فقال: ما أنتم فيه؟ قلنا: نذكر الزمان وفساده، قال: كلاّ إنّ الزمان وعاء، وما ألقِيَ فيه من خير أو شر كان على حاله، ثم أنشأ يقول: **[الوافر]**

أرى حُلَلاً تُصانُ على رجال ... وأخلاقاً تُذَال ولا تُصَانُ
يقولون الزَّمان به فسادٌ ... وهمْ فسدوا وما فسد الزمَانُ

وقال آخر: **[المتقارب]**

أيا دهر إنْ كنت عاديْتَنا ... فها قد صنعْتَ بنا ما كَفَاكَا
جعلت الشِّرارَ علينا خِياراً ... وأوْلَيْتَنا بعد وجهٍ قَفَاكَا

وقال أبو العتاهية: **[الطويل]**

كفاكَ عن الدّنيا الذميمة مُخبِراً ... غِنَى باخليها وافتقار كِرَامِهَا
وأن رجال النّفْع تحت مداسِهَا ... وأنّ رجال الضرّ فوقَ سَنَامِهَا

وقال ابن لَنْكك: **[مجزوء الرمل]**

يا زمانا ألبس الأحـ ... ـرارَ ذِلاً ومهانَهْ
لست عندي بزمانٍ ... إنّما أنتَ زَمَانَهْ

وقال ابن الرومي: **[الكامل]**

دهرٌ علاَ قدرُ الوضيع به ... وغدا الشَّرِيف يحطُّه شرفُهْ
كالبحر يرسبُ فيه لؤلؤهُ ... سُفْلاً ويطفو فوقَهُ جَيفُهْ

وكرّره فقال: **[البسيط]**

قالتْ علا الناس إلا أنت قلت لَهَا: ... كذاك يَسْفُل في الميزان ما رَجَحَا

وقال آخر: [الخفيف]

ربّ يوم بكيتُ فيه فلمّا ... صرتُ في غيره بكيتُ عليْهِ

وقال آخر: [البسيط]

لم أبك من زمنٍ نكْدٍ أُساء به ... إلاّ بكيتُ لعيه حين أفقدُهْ

ولا جزعتُ على مَيْتٍ فُجِعتُ به ... إلا ظللت بسكنى القبر أحسُدُهْ

ولا ذممتُ زماناً في تقلّبِه ... إلاّ وفي زمني قَدْ صِرْت أُحْمَدُهْ

وقال ابن أبي عيزارة: [الطويل]

عتبتُ على سَلْمٍ فلمّا فقدتُه ... وجَرَّبْتُ أقواماً بكيتُ على سَلْمِ

رجعت إليه بعد تفويتِ غيره ... فكان كَبُرءٍ بعد طول من السَّقْمِ

وأنشد المبرّد: [الطويل]

حياة أبي العباس زيدتْ بقربِهِ ... أخَا ثقةٍ قاس الأمور وَجَرَّبَا

ونعتب أحياناً عليه ولو قَضَى ... لكنّا على الباقي من الناس أعتَبَا

قال عروة بن الزبير: الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم. أخذه أبو الطيّب فقال: [الوافر]

وشبه الشيء منجذبٌ إليه ... وأشبهُنا بدنيانا الطَّغَامُ

ولو لم يعلُ إلا ذُو محلٍّ ... تعالى الجيشُ وانحطَّ القَتَامُ

ودهرٌ ناسُهُ ناسٌ صغارٌ ... وإن كانت لهم جُثَثٌ عِظَامُ

وما أنا منهمُ بالعيشِ فيهمْ ... ولكن مَعْدِن الذّهب الرّغَامُ

الطّغام: السفلة.

* * *

ثمَّ إن خَبره نمَا إلَى الوالي، فَمَلأَ فَاه باللالَىء، وَسَامَهُ أنْ يَنْضوِيَ إلى أَحْشَائِهِ، وَيَلِيَ دِيوانَ إنْشائِهِ، فأَحْسَبَهُ الْحِباءَ، وَظَلَفَهُ عَنِ الْوِلايةِ الإبَاء.

قال الرَّاوِي: وَكُنتُ عَرَفْتُ عُودَ شجرَتِه، قَبْلَ إينَاع ثَمرَتِه، وَكِدْتُ أُنبِّهُ عَلَى عُلُوِّ قَدْرِه، قَبْلَ اسْتِنَارَةِ بدْرِه، فأَوحى إليَّ بإيماض جَفْنِهِ، ألاَّ أُجرِّدَ عَضْبَهُ مِنْ جَفْنِهِ، فلمَّا خَرَجَ بَطِين الْخُرْجِ، وَفصَلَ فائِزاً بالْفُلْجِ، شَيَّعْتُهُ قَاضياً حَقَّ الرِّعَايةِ، وَلاَ حِياً لهُ عَلَى رَفْضِ الوِلاَيَةِ، فأَعْرَضَ مُتَبَسِّماً، وَأَنْشَدَ مُتَرَنِّماً: [المتقارب]

لَجَوْبُ البلاَدِ مَعَ الْمَتْرَبَهْ ... أَحَبُّ إلَيَّ مِنَ الْمَرْتَبَهْ

لإنَّ الوُلاَةَ لَهُمْ نَبْوَةٌ ... ومَعْتَبَةٌ يا لَهَا مِعْتَبَهْ!
وَمَا فِيهِمُ مَنْ يَرُبُّ الضَّنيعَ ... وَلاَ مَنْ يُشَيِّدُ ما رتَّبَهْ
فَلاَ يَخْدَعَنْكَ لُمُوعُ السَّرَابِ ... وَلاَ تَأْتِ أَمْراً إذَا ما اشْتَبَهْ
فَكَمْ حَالِمٍ سَرَّهُ حِلْمُه ... وَأَدرَكَهُ الرَّوعُ لَمَّا انتَبَهْ

* * *

قوله: «نما»، أي ارتفع ووصل. اللالىء: الدرر. سامه: كلّفه، ينضوي: ينضمّ. وأحشائه: خاصَّته. يلي ديوان إنشائه: يتولّى دار كتابته، أي يكون هو الذي ينشىء الكتبَ، وينسخها الكتّاب وتنفذ إلى البلاد. أحسَبه: كفاه. الحِباء: العطاء. ظَلَفه: منعه. الإباء: الامتناع، وقد أبيت من كذا، أي امتنعت منه؛ ويكنَى به عن نزاهة النفس. عود شجرته، يريد أنه كان عرفه قبل أن يتكلّم، وأن يعرّف نفسه. وإيناع الثمرة: إدراكها ونضج ثمرتها. إيماض جفنه: إشارة عينه. عضْبه: سيفه. جفنه: غُمده، أي أشار عليّ أن أستره. بطين: مملوء. الخُرْج: وعاء معلوم، وهذا كقول الشاعر: **[الطويل]**

يبيتون بالدَّهنا خِفَافاً عيابُهُمْ ... ويخرجْن من دَارِين بجُرَ الحقائِبِ[1]

وقد أخذ هذا اللفظ في مقامة أخرى فقال: حتى آل ذا عيبة خضراء وحقيبة بجراء، أي مملوءة. وإلى هذا المعنى أشار، نُصَيب في قوله: **[الطويل]**

أقولُ لركبٍ قافلين رأيتهُمْ ... قَفا ذاتَ أوْ شَالٍ ومولاكَ قارِب[2]
قفوا خبِّروني عن سليمان إنَّنِي ... لمعروفه من أهل وَدَّانَ طالبُ
فعاجوا فأثنوْا بالذي أنت أهله ... ولو سكتُوا أثنت عليك الحقائبُ

ثناؤها عليه، أن بدت للناس مملوءة من معروفه، فأتى أبو العتاهية فزاد المعنى بياناً بقوله: **[الكامل]**

---

(١) البيت لأعشى همدان في الحماسة البصرية ٢/ ٢٦٢، ٢٦٣، ولشاعر من همدان في شرح أبيات سيبويه ١/ ٣٧١، ٣٧٢، ولأعشى همدان أو للأحوص أو لجرير في المقاصد النحوية ٣/ ٤٦، وهو في ملحق ديوان الأحوص ص ٢١٥، وملحق ديوان جرير ص ١٠٢١، والبيت بلا نسبة في الإنصاف ص ٢٩٣، وأوضح المسالك ٢/ ٢١٨، وجمهرة اللغة ص ٦٨٢، والخصائص ١/ ١٢٠، وسر صناعة الإعراب ص ٥٠٧، وشرح الأشموني ١/ ٢٠٤، وشرح التصريح ١/ ٣٣١، وشرح ابن عقيل ص ٢٨٩، والكتاب ١/ ١١٥، ولسان العرب (خشف)، (ندل).

(٢) الأبيات لنصيب في ديوانه ص ٥٩، والبيت الأول في تاج العروس (ودد)، والبيت الثاني في لسان العرب (ودد)، وزهر الآداب ١/ ٣٣٥، والأغاني ١/ ٣٢٣، وأمالي المرتضى ١/ ٦١، والحماسة البصرية ١/ ١٥٧، وأمالي القالي ١/ ٩٤، ٣/ ٤٠، والكامل ص ٢٣٨، وتاج العروس (ودد)، وفيه «راغبُ» بدل «طالبُ»، والبيت الثالث في الأغاني ١/ ٣١٧، وأمالي المرتضى ١/ ٦١، وخزانة الأدب ٥/ ٢٩٦، وشرح شذور الذهب ص ٣٨، والشعر والشعراء ١/ ٤١٨، ولسان العرب (حدث).

إنّ المطايا تشتكيك لأنّها ... قطعتْ إليك سباسباً ورِمالا[1]
فإذا أتينَ بنا أتيْنَ مخِفَّةً ... وإذا رجعن بنا رَجَعْنَ ثِقالاَ

قوله: «فصَل»، أي زال وتنحّي. الفُلْج: الظفر بما أراد. الرعاية: حفظ الصحبة. لاحياً: لائماً. رفض: ترك. مترنّما: مطرِباً، أي لما خرج ممتلىء الوعاء، ظافراً بما أراد، لُمْتُه على ترك خدمة الأمير التي كلفه، فأنشد معتذراً. المتربة، أي الفقر. المرتبة: المنزلة الرفيعة. وهذا البيت ينظر إلى حكاية الأصمعيّ وقد رُئي راكباً حماراً فقيل له: أبعد براذين الخلفاء تركب هذا؟ فقال متمثلاً: [الطويل]

ولما أبتْ إلا طِرافاً بودّها ... وتكديرها الشّرْب الذي كان صافيا
شربنا برنْقٍ من هواها مكدَّرٍ ... وليس يعافُ الرَّنْق مَنْ كان صاديا

يقول: هذا وأملك ديني ونفسي، أحبّ إليّ من ذلك مع ذهابهما.

أطرف الشيء وتطرّفه: استفاده، وقيل: استجاده.

نبوة: ارتفاع وقلّة ثبات. معتَبة: سخط. يا لها: تعجب، كأنه قال: يا عجباً لها، ما أشدّها. يربّ: يصلح ويقوّي. الصنيع: الفعل الجميل. يشيّد: يرفع ويتم. رتّبه: بناه وهيّأه. السّراب: ما يظهر نصف النهار كأنه ماء، اشتبه: أشكل. الحالم: من يرى في منامه رؤيا، وقد حلَم يحلَم: والرّوْع: الفزع، يقول: مثل المترفّه بالخطّة السلطانية كحالم رأى نفسه في النوم أميراً، فانتبه في أيدي أعاديه أسيراً، أو رأى نفسه بين غزلان ورياحين فانتبه لزئير أسود ولصفير ثعابين، وكذلك الأمراء إن رفعوا الخديم ببعض إنعامهم كدّروه بتعجيل انتقامهم. ومما يجري في هذا النّمَط قول الشاعر: [الطويل]

إلى الله أشكو كلّ يومٍ وليَلةٍ ... إذا نمت لم أعدم خواطر أوْهَامِ
فإن كان شرًّا كان لا شكّ واقعاً ... وإن كان خيراً كان أضغاث أَحْلاَمِ

أخذ المعنى هذا الشاعر من قول أشعب الطماع. قال: رأيت رؤيا نصفها حقّ، ونصفها باطل، قيل: وكيف ذلك؟ قال: كنت أراني أحمل بَدْرة؛ فمن ثِقَلها كنت أسلح في ثيابي، فانتبهت فإذا السَّلح ولا بَدْرة. قال الفنجديهيّ: ومن أحسن ما سمعت في هذا المعنى أبيات لطيفة المعاني ظريفة المباني، شرّفني بإنشادها وإملائها عليّ السيّد الأجلّ أبو المظفّر يوسف بن أيوب صلاح الدين بقاهرة مصر لبعضهم: [البسيط]

وزارني طيف مَنْ أهْوَى على وَجَلٍ ... مِنَ الوُشَاةِ وداعي الصبح قد هَتَفَا
فكدت أُوقظ مَنْ حولي به فرحاً ... وكاد يُهتك ستر الحب بي شَغَفَا

(١) البيتان في ديوان أبي العتاهية ص ٣١٢.

ثـم انـتـبـهـتُ وآمـالـي تـخـيـبـنـي نيل المني فاستحالت غِبْطتي أَسَفَا

ومن مُلح هذا الباب، أن ابن عَبْدل دخل على بِشْر بن مروان لمَّا وَلَي الكوفة، فقال: أيّها الأمير إني رأيت رؤيا، فأذن لي بقصّها، فقال: قل، فقال: [الكامل]

أغـفـيـت قـبـل الـصـبـح نـومَ مـسـهِّـدٍ فـي سـاعـة مـا كـنـت قـبـل أنـامـهـا

فـرأيـت أنـك رُعـتَـنـي بـولـيـدةٍ مـغـنـوجـةٍ حَـسَـنٍ عـلـيّ قـيـامُـهـا

وبـبَـدرةٍ حُـمـلـت إلـيّ وبـغـلـة شـهـبـاء نـاجـيَـةٍ يـصـلّ لـجـامُـهـا

فقال له بشر: كلّ شيء رأيته فهو عندك إلا البغلة، فإنها دهماء، قال: امرأتي طالق ثلاثاً إن كنت رأيتُها إلا دهماء ولكني غلطت.

قال البطين الشاعر: قدمت على عليّ بن يحيى الأرمينيّ، فكتبت إليه: [البسيط]

رأيـت فـي الـنـوم أنّـي راكـب فـرسـاً ولـي غـلام وفـي كـفّـي دنـانـيـرُ

فـجـئـت مـسـتـبـشـراً مـسـتـشـعِـراً فـرحـاً وعـنـد مـثـلـك لـي بـالـفـعـل تـبـشـيـرُ

فوقّع في أسفل كتابي: ﴿أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ وَمَا نَحنُ بِتأوِيلِ الأَحْلاَمِ بِعَالِمِينَ﴾ [سورة يوسف: ٤٤]، ثم أمر لي بكل ما رأيته في منامي.

المقامة السَّابعَة

وهي البرَقعِيديّة

حَكَى الحارث بن همام، قال: أَزْمعتُ الشُّخُوصَ مِن بَرْقَعيدَ، وَقَد شمْت بَرْقَ عيدٍ، فكَرهْتُ الرِّحْلَةَ عَنِ تلك المدينَةِ، أَو أشهَدَ بِها يَوْم الزِّينةِ. فلَمَّا أَظَلَّ بِفَرْضِه وَنفْلهِ، وَأَجلَبَ بِخَيْلِهِ وَرَجْلِهِ، اتَّبَعْتُ السُّنَّةَ فِي لُبْسِ الْجديد، وَبَرزْتُ مَعَ مَنْ بَرَزَ للتعْبِيدِ وَحينَ التَّأَمَ جَمْعُ الْمُصَلَّى وَانْتَظَمَ، وأخذَ الزِّحَامُ بالْكَظَم، طَلَعَ شيخٌ فِي شَمْلَتَينِ، مَحْجُوبُ المقْلتينِ، وَقَدِ انْتَضَدَ شِبْه المخلاةِ، وَاسْتَقَادَ العجوزَ كالسِّعْلاةِ، فَوقَفَ وِقْفَةَ مُهَافِتٍ، وَحيَّا تحيَّة خافَت. وَلَمَّا فَرغَ من دُعائِهِ، أَجال خَمْسَةً في وِعَائِه؛ فأَبْرَزَ منه رقاعاً قد كتبْنَ بألوان الأصباغ، في أَوانِ الفَراغ، فناوَلَهُنَّ عَجُوزَهُ الْحَيْزَبُون، وأَمَرَها بأن تَتَوسَّمَ الزَّبُون، فَمَن آنَسَتْ نَدى يدَيْه، أَلْقَتْ مِنهنَّ وَرَقةً لَدَيه، فأتاحَ له القدرُ المعتوب، رقْعة فيها مكتوب. . .

* * *

ازمعت الشخوص، أي عزمت على الخروج. بَرْقَعِيد: بلد بينه وبين الموصل عشرون فرسخاً. شِمت: نظرت.

ويريد ببرق عيد، مقدّمات العيد التي ينظر الناس بها في أسبابه، سأل رجل الجُنيد، لماذا سُمِّي يوم العيد؟ فقال: لأنّ آدم لمّا خرج من الجنة، وأُهبِط إلى الأرض، ثم تاب الله عليه، فردّه إلى الجنة، كان في ذلك اليوم؛ فقيل له يوم عيد، لأنه أعيد إلى الجنة فيه، قال ابن الأنباريّ رحمه الله: معنى يوم العيد، الّذي يعود فيه الفرح والسرور. والعيد عند العرب: الوقت الذي يعود فيه الفرح أو الحزن، وأصلُه «العِوْد» لأنه من عاد يعُود، فلما سُكِّنت الواو وكُسِر ما قبلها قُلِبت ياء، فصارت من باب ميزان وميقات، وهما من الوزن والوقت، وكذلك الياء إذا سكنت، وانضمّ ما قبلها قلبت واواً مثل مُوسر ومُوقن، وهما من أيسر وأيقن، ويقولون في الجمع مياسر.

المدينة: البلد، مَنْ أخذها من مَدَن بالمكان يمدُن، إذا أقام فيه، فهي «فَعِيلة» والجمع مدائن بالهمز، والميم أصلية والياء زائدة، ومن أخذها من دَان يدين، فالميم

زائدة والياء أصلية، وهي «مفعولة». يقال: دِنْتُ الرّجل ملكته، ودنت له أطعت، ويقال للأمَة مَدِينة لأنها مملوكة، قال الشاعر: **[الطويل]**

ربت وربَا في حَجْرها ابن مدينةٍ يظلّ على مَسحاته يتركّلُ[1]

يعني عبداً: يوم الزينة: يوم العيد لتزيّن الناس فيه. قوله: «أظل»، أي قرب ودَنا حتى دخلنا في ظلّه. بفرضه: يعني زكاة الفطر. ونفله: يعني صلاة العيد.

الفنجديهيّ: فَرْض العيد: صدَقة الفطر، ونَفْل العيد مثل الصلاة والغُسل ولبس الجديد من الثياب.

ابن عمر رضي الله عنهما: فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر من رمضان على الناس صاعاً من تمر أو شعير، على كل كرّ أو عبد، ذكر أو أنثى من المسلمين.

ابن عباس رضي الله عنهما: فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر من رمضان لجبر الصيام من اللغو والرّفَث طعمة للمساكين، فمن أدَّاها قبل الصلاة فهي زكاة مقبولة، ومن أدّاها بعدها فهي صدَقة من الصدقات. أجْلب بخيله ورجله، أي جمع أصحاب الخيل والرجَّالة وجاء بهم، ضرب به المثل لإقباله وتصميمه على المجيء. لبس: لباس، وجاء في لبس الجديد حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما على أحدكم أن يكون له ثوبان سوى ثوبيْ مهنته لجمعته ولعيده».

جابر: كان للنبيّ ﷺ حُلَّةٌ يلبسها في العيدين ويوم الجمعة. برزت: خرجت. التأم: التحم والتصق. المصلّى: موضع صلاة العيد. الزّحام: الضيق لكثرة الناس. الكظَم: تضييق النفس من شدة الزحام. شملتين: عباءتين، والشّملة: نوع من الأكسية، وقيل لها شملة لأنّ صاحبها يشتمل بها، أي يديرها حواليه، محجوب: مستور. المقلتين: العينين، أراد أنه أعمى. اعتضد: علّقها في عضُده. استقاد: جعلها تقوده. السِّعلاة: أنثى الغُول، وذكَرُها يسمّى الكعنكَع، وأنشدوا: **[الرجز]**

* غُولا تراعي شَرِساً كَعَنْكَعَا[2] *

والغول: جنّ مسكنها الصحارى تتراءى للإنسان كأنها إنسان فلا يزال يتبعها حتى

---

(١) البيت للأخطل في ديوانه ص ١٥٥، ولسان العرب (ركل)، (دين)، (مدن)، وتهذيب اللغة ١٠/ ١٨٨، ١٤/ ١٤٥، ١٨٢، وتاج العروس (ركل)، (دين)، (مدن)، وكتاب العين ٥/ ٣٥٣، ٨/ ٥٣، ومقاييس اللغة ١/ ٣٣٤، ٢/ ٣١٩، ٤٣٠، وأساس البلاغة (ركل)، والمخصص ١٣/ ١٩٩، ومجمل اللغة ٢/ ٤١٣، والبيت بلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٦٨٤.

(٢) يروى الرجز:

كأنّها وهو إذا استتبّا معا غولٌ تداهي شرساً عكنكعا

وهو بلا نسبة في تاج العروس (عكنكع)، ومقاييس اللغة ٤/ ١٢.

يضلّ الطريق فيهلك. قوله: «متهافت»، أي متساقط لضعفه، وتهافت الشيء في يدي: تناثر. خافِت: خفيّ الصوت، وقد خفَت الرجل، إذا ظهر عليه الضعف من مرض أو جوع أو غير ذلك، وأصل خفت مات هزالاً. فرغ: أتمّ أجال: مشى وصرّف. خمسه: أصابعه. في وعائه، يعني المخْلاة التي اعْتَضَدَها، وهي تعليقة يعلِّقها السائل في عنقه أو ذراعه، ويجعل فيها ما يُعْطَى من الصّدقة. أبرز: أخرج. أوان: وقت. الفراغ: قلّة الشغل. ناولهنّ: أعطاهنّ. الحيزبون: المسنّة القويّة الخلق. تتوسّم: تنظر. الزَّبون: المنخدع عن ماله «فَعول» بمعنى «مفعول»، وهو من ألفاظ أهل المشرِق، وأراد به الكثير الصدقة، آنست: أبصرت ندًى: كرم. أتاح: ساق. القَدَر المعتوب: الملوم. **[الهزج]**

لَقَدْ أَصْبَحْتُ مَوقوذاً ... بِأَوْجَاعٍ وَأَوْجَالِ
وَمَمْنُوًّا بِمُحْتَالٍ ... وَمُخْتَالٍ وَمُغْتَالِ
وَخَوَّانٍ مِنَ الإِخْوا ... نِ قَالٍ لِي لإِمْلاَلِي
وَإِعْمَالٍ مِنَ الْعُمَّا ... لِ فِي تَضْلِيعِ أَعْمَالِي
فَكَمْ أَصْلَى بِأَذْحَالٍ ... وَأَمْحَالٍ وَتَرْحَالِ
وَكَمْ أَخْطِرُ فِي بَالٍ ... وَلاَ أَخْطُرُ فِي بَالِ
فَلَيْتَ الدَّهْرَ لَمَّا جَا ... رَ أَطْفَا لِيَ أَطْفَالِي
فَلَوْلا أَنَّ أَشْبَالِيَ ... أَغْلاَلِي وَأَغْلالِي
لَمَا جَهَّزْتُ آمَالِي ... إِلَى آلٍ وَلاَ وَالِي
وَلاَ جَرَّرْتُ أَذْيَالِي ... عَلَى مَسْحَبِ إِذْلاَلِي
فَمِحْرَابِي أَحْرَى بِي ... وَأَسْمَالِيَ أَسْمَى لِي
فَهَلْ حُرٌّ يَرَى تَخْـ ... ـفِيفَ أَثْقَالِي بِمِثْقَالِ
وَيُطْفِي حَرَّ بَلْبَالِي ... بِسِرْبَالٍ وَسِرْوَالِ!

* * *

قوله: «موقوذاً»، أي مشرفاً على الموت من شدّة الأوجاع والأوجال، والموقوذة في القرآن[1]: المقتولة بالخشب، والوقْذ: شدة الضرب. أو جال: مخاوف. ممنوًّا: مبتلًى. محتال: ماكر كثير الحيلة. مختال: متكبّر. مغتال: مهلك. خوّان: كثير الخيانة.

ابن عمر رضي الله عنهما: قال رسول الله ﷺ: «قلّما يوجد في آخر الزمان درهم من حلال، أو أخ يوثق به». قال: مبغض. إقلالي: فقري. إعمال: جِدّ وبحث، تقول: أعملت الشيء في الشيء، إذ جعلته يعمل فيه. والعمال: عاملو كلّ شيء. تضليع:

(١) أي قوله تعالى: ﴿والمنخنقة والموقوذة﴾ [المائدة: ٣].

إفساد. أعمال: جمع عمل، يريد أنه مطلوب يبحث على أعماله إذا أتى بها مجموعة فتنقض أعماله وتصير له أضلاعاً بعد اجتماعها، وذلك فساد لها. ويحتمل أن يكون التّضليع من «ضَلعُك مع فلان». أي ميلك معه، فأعماله تميل عن طرقها فتفسد. وقيل: تضليع الأعمال: تثقيلها، قال الأزهريّ رحمه الله: ضلَع الدين. ثقله حتى يميل صاحبه عن الاستواء لثقله، وفي الحديث: «أعوذ بالله من ضلَع الدَّين». أصْلَى: أحترق. أذحال: أحقاد وعداوات. إمحال: فقر. تِرْحال: سَفَر ونقلة من بلد إلى بلد. أخطِر: أمشي متبختراً، وقد خطر الرجل، إذا أقبل بيديه وأدبر بهما، وهي مشية الشبّان. بالٍ: خَلَق. ولا أخطُر في بال: لا أمرّ على بال أحد ولا خاطره. جارَ: مال عن الحق ولم يعدِل. أطفأ: أمات. أطفالي: أولادي، ومثله: أشبالي.

الفنجديهيّ: يقول: ليت الدّهر لمّا ظلم أولادي، وجار عليهم أماتني لأتخلّص، فإنّ مقاساة الولائد سبب الوقوع في المصائد. قال ابن عيينة: قلت لصيّاد: أيّ طائر أسرعُ إلى مصايدكم؟ قال: الذي يزقّ، يعني الذي يطعم ولده. أغلالي: قيودي. والأعلال: جمع علّ، وهو القُراد الضخم، وهو الذي يلصق بأفخاذ الدوابّ، وهو كثير التشبّث والإلتصاق، لا يُقلَع إلا بجهد، فيريد بالأغلال أولاده لأنهم قيوده فلا يسرح بسببهم، وبالأعلال أنهم قد تعلّقوا به يطلبون ما عنده، وقال الشاعر يصف ناقته: **[الطويل]**

* ولو ظلّ في أوصالها العَلّ يرتقي[1] *

ويقال للقراد: الطِّلْح والفينق والحجير والعَلّ والبُرام والقُرشوم واللَّبود في بعض اللغات. جهَّزت: أرسلت. آلٌ: قريب، وآل: أهل، أو يكون آل أميراً وسائساً؛ قال عمر رضي الله عنه: أُلْنَاوأُيِلَ علينا، أي سِسْنا الناس وساسنا غيرُنا، فيكون على هذا مقلوباً من «آيل»، كما قيل: سار في سائر مسحب: طريق. يقول: لولا ذلّ الأولاد ما قصدت والياً، ولا جررت ذيلي في طريق ذلّ، ويقال: سحب ذيله سحباً إذا جرّه، والمسحَب: موضع جرّه ثوبه محرابي: مسجدي. أحرى: أحق بي. أسمالي. أثوابي الخَلقَة. أسمى لي: أعزّ لي وأرفع لقدري. أثقالي: همومي أو ديوني، أو كثرة عيالي وأحدها ثقَل، وثَقُلَ الشيء ثقلاً ضدّ خَفَّ، وأثقل الرجل: كثر عياله. بلبالي: حزني، والبلبال: وسواس الهموم. سربال: قميص. والسروال: معروف، وفي الحديث أن امرأة سقطت من على حمار فأعرض النبيّ ﷺ بوجهه عنها، فقالوا: إنها متسرولة، فقال النبيّ ﷺ: «اللهمّ اغفر للمتسرولات من أمّتي ـ ثلاثاً ـ يا أيّها الناس اتخذوا السراويلات فإنها من أستر ثيابكم، وحصّوا بها نساءكم إذا خرجْنَ».

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد باب ٧٤، والأطعمة باب ٢٨، والدعوات باب ٣٥، وأبو داود في الوتر باب ٣٢، والنسائي في الاستعاذة باب ٨، ٢٥، ٤٥، والترمذي في الدعوات باب ٧٠، وأحمد في المسند ٣/ ٢٢٦.

ومن مُلَح الصاحب بن عبّاد أن بعض الشعراء كتب له: [المتقارب]

أيا مَنْ عطاياه تُعطى الغِنَى ... إلى راحتي مَنْ نأي أوْ دَنا

كَسَوْتَ المقيمينَ والزائرينَ ... كُساً لم يخلْ مثلها مُمْكِنَا

وحاشية الدار يمشون في ... ثيابٍ من الخزّ إلاّ أنَا

فقال الصاحب: قرأت في أخبار مَعْن بن زائدة أن رجلاً قال له: احمْلِني أيُّها الأمير، فأمر له بناقة وفرس وبغلة وحمار وجارية، ثم قال له: لو علمت أنّ الله خلق مركوباً غير هذا لحملتُك عليه. وقد أمرنا لك من الخزّ بجّبةٍ وقميص ودُرَّاعة وسراويل وعمامة ومنديل ومُطرَف ورداء وكساء وجَوْرب وكيس، ولو علمنا لباساً غير هذا من الخزّ لأعطيناكه. ثم أمر بإدخاله إلى الخزانة؛ وصبّ تلك الخلع عليه.

وأخبار الصاحب مستظرفة كثيرة الملح.

قال الحَارث بن همام فلَمَّا اسْتعرَضْتُ حُلَّةَ الأبيَاتِ، تُقْت إلى مَعْرِفَةِ مُلْحِمِها، وَرَاقم عَلَمِها. فَنَاجَني الفِكْرُ بأَنّ الْوُصْلَةَ إلَيْهِ العَجُوز، وَأَفْتاني بأَنَّ حُلْوَانَ الْمُعَرِّفِ يجُوزُ؛ فَرَصدْتُها وَهيَ تَسْتَقْرِي الصُّفُوفَ صَفًّا صَفًّا؛ وَتَسْتَوْكِفُ الأكُفَّ كَفًّا كفًّا، وَما إنْ يَنجَحُ لهَا عَنَاءٌ، وَلا يَرْشَحُ عَلَى يَدِهَا إنَاءٌ، فَلمَّا أَكْدَى اسْتِعْطَافُها، وكدَّهَا مَطَافُهَا، عَاذَتْ بالإسْترْجَاعِ، ومالَتْ إلى إرْجاعِ الرِّقَاعِ، وَأَنْسَاهَا الشَّيْطان ذِكْرَ رُقْعتِي، فلَمْ تَعُجْ إلى بُقْعَتِي، وَآبَتْ إلَى الشَّيْخِ باكِيَةً لِلْحِرْمَانِ، شاكِيَةً تَحامُلَ الزَّمانِ؛ فقالَ: إنَّا للَّهِ، وَأُفَوِّضُ أَمرِي إلى اللَّهِ، وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إلاَّ باللَّهِ! ثُمَّ أَنشدَ: [مخلع البسيط]

لَمْ يَبْقَ صَافٍ ولاَ مُصَافِ ... وَلاَ مَعِينٌ وَلاَ مُعِينُ

وَفِي المَسَاوِي بدَا التَّسَاوِي ... فَلاَ أَمِينٌ وَلاَ ثَمِينُ

* * *

قوله: «ملحمها»، ناسجها، ولما جعل الشّعر حُلّة جعل له ناسجاً وراقماً. ناجاني: حدّثني. الوُصلة: الموصّلة. استعرضت، أي نظرت وعرضتها على نفسي. تُقْت:

---

(١) صدره:

ظَلِلْتُ ثلاثاً لا نُراعُ من الشذا

والبيت للممزق العبدي في الأصمعيات ص ١٦٥، والحيوان ٥/ ٤٤١، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ١٥٧.

اشتقت. أفتاني، أعلمني. الحُلوان: أجر الكُهّان، وأراد أجرة العرّاف، وهو الذي يعرّف بالتلائف الملتقطة أربابها، فيفتكّونها منه بما اتفقوا عليه، فذهب مالك أنّ من عَوّف اللُّقَطة، وكان من شأنه أخذ الجُعْل على مثل ذلك، فله أجرة مثله، والشافعيّ لا يوجب له حقًّا؛ سواء كان من شأنه أن يعرّف باللُّقَطة أو لم يكن، تعب في ذلك أو لم يتعب، إلاّ أن يشترط قبل الطلب.

رصدتها: ارتقبتها. تستقري: تتبع؛ واقتريْتُ الأرض واستقريتها، تتبَّعْتُها متأمِّلاً. تستوكف: تستمطر. ينجح: ينفع ويؤثّر؛ يقال: نجحت الحاجة إذا انقضتْ، ونجح طالبها إذا لم يخب، وأنجح: أشهر؛ يقول: إن مشيها عليهم لم يقضِ حاجتها ولا نفعها. وقصد برشْح الإناء كرمَ الكفّ؛ يقول: لم يرشح لها كفٌّ بعطِيَّة. أكدي: خاب وصعب، ويقال: أكدي الحافر، وهو أن يحفر البئر يطلب الماء، فإذا بلغ إلى الصَّلابة ويئس من الماء ولم يقدر على الحفْر قيل له: أكدي فهو مكدٍ، والكُدْية هي الصلابة التي يتعذّر حفرها. استعطافها: تليينها القلوب. كدُّها: أتعبها. مطافها: مشيها وطوْفها على الناس، ويحسن أن ينشد هنا في حالها لأبي نُوَاس: **[الطويل]**

إذا لـم يُـعِـنْـك الله فـيـمـا تـريـدُه   فـلـيـس لـمـخـلـوقٍ إلـيـه سـبـيـلُ

وإن هو لـم يرشدك في كلِّ مسلكٍ   ضـلـلـتَ، ولـو أنّ الـسِّـمـاكَ دلـيـلُ

غيره: **[الطويل]**

إذا لـم يكـن عـونٌ مـن الله لـلْـفَـتَـى   فـأكـثـر مـا يـجـنـى عـلـيـه اجـتـهـادُهُ

عاذت: تعوّذت ولاذت. الاسترجاع؛ قولهم: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، وفي حديث أم سلمة رضي الله عنها عن النبيّ ﷺ: «ما قال أحدٌ عند المصيبة إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، اللهمّ أَجِرْني في مُصيبتي، وأخْلِفْ لي خيراً منها؛ إلا استجيب له»[1].

ارجاع: ردّ. تعج: تميل وترجع. بقعتي: موضعي. آبت: رجعت. الحرمان: الخيبة والمنع. تحامل: مشقّات، وتحاملت في الأمر: تكلفْتُه على مشقة. أفوّض: أردّ.

لا حول، أي لا حيلة، يقال: ما له حيلة ولا حَوْل، وما له احتيال ولا محتال، ولا مَحالة ولا مَحِيلة؛ كلّه بمعنى. ويقال: ما له مَحال بالفتح، أي حَوْل، ومِحال بالكسر، أي مكر. ثعلب: هو من قولهم: مَحِل به؛ إذا سعى به إلى السلطان وعرّضه للهلاك. ومَحِل به القرآن: شهد عليه بالتّقصير؛ وقال الفرّاء: المَحالة على ثلاثة أقسام؛ هي

---

(١) روي بطرق وأسانيد متعددة. أخرجه مسلم في الجنائز حديث ٣، ٤، وأبو داود في الجنائز باب ١٨، والترمذي في الدعوات باب ٨٣، وابن ماجه في الجنائز باب ٥٥، ومالك في الجنائز حديث ٤٢، وأحمد في المسند ٦/ ٣٠٩، ٣٠٣، ٣١٧، ٣٢١.

الحيلة، والتّي تجعل على رأس البئر كالبَكْرة، وواحدة مَحال الظهر وهي فقَاره. ويقال: أخذت في الحوْلَقة والحوقلة، إذا قلت: لا حول ولا قوّة إلا بالله، وينتصب «لا حولَ ولا قوّة» بالتبرئة، وإن شئت رفعتهما بالابتداء، «وبالله» خبر «قوّة»، وحُذفت خبر «لا حول» لدلالة الثاني عليه، وإن شئت رفعت «حول» بالابتداء، ونصبت «قوة» بالتبرئة، وإن شئت نصبت «حولا» بالتبرئة ورفعت «قوّة» بالعطف على موضع «لا حول»، وإن شئت نصبت «قوّة» بالتنوين عطفاً على اللفظ.

وقوله: «صافٍ»، أي خالص الودّ. مصافٍ: صادقٌ في ودّه. مَعين: ماء كثير، يريد صاحب كرم كثير. مُعين: يُعين بماله. المساوي: ضد المحاسن، واحدها «سوء» على غير قياس، وقيل لا واحدَ لها. بدا: ظهر. الثمين: النفيس الغالي الثمن؛ يقول: إنّ الناس قد استووا في الأفعال السيّئة، وأراد قوله ﷺ: «لا يزال الناس بخير ما تباينوا، فإذا استَوَوْا هلكوا»، ومعناه أنّ الناس في الغالب إنّما يتساوون في الشرّ، ولا تجدهم كلّهم فضلاء لأنّ الخير قليل.

قال أبو العباس التُّطيليّ فيما يتعلّق بهذا المعنى: **[البسيط]**

والنّاس كالناس إلاّ أن تجرِّبَهُمْ ... وللبصيرة حكم ليس لِلبصرِ
كالأيك مشتبهاتٌ في منابتها ... وإنما يقع التفضيلُ بالثمرِ

وقال التّهاميّ:

ومِنَ الرِّجالِ معالمٌ ومجاهلٌ ... ومن النّجوم غوامضٌ ودَرارِي
ولربّما اعتضد الحليمُ بجاهلٍ ... لا خير في يُمنَى بغير يسَارِ
والنّاس مشتبهون في إيرادهمْ ... وتفاضلُ الأقوام بالإصْدَارِ

* * *

ثُمَّ قالَ لها: مَنّي النَّفْسَ وَعِدِيَها، وَاجْمَعي الرِّقاعَ وُعُدِّيها، فقالَتْ: لَقدْ عَدَدْتُها لمَّا اسْتَعَدْتها، فَوَجَدْتُ يَدَ الضيَّاع، قَدْ غالَتْ إحْدَى الرِّقَاع، فقالَ: تَعْساً لَكِ يَا لَكاعِ، أنُحْرَمُ وَيْحَكِ الْقَنَصَ والْحِبالَة، وَالْقَبس وَالذُّبالَةَ! إنَّها لَضِغْثٌ عَلَى إبَّالَةٍ. فانْصَاعَتْ تقْتَصُّ مَدْرَجَها، وتَنْشدُ مَدْرجَها؛ فلمَّا دَانتني قَرَنْت بالرُّقْعَةِ، دِرْهَماً وَقِطْعَةَ، وَقُلْتُ لها: إن رَغِبْتِ في الْمشَوفِ الْمُعْلَم ـ وَأَشَرْت إلى الدِّرْهَم ـ فبُوحِي بالسرِّ الْمُبْهَم. وَإنْ أبَيْتِ أنْ تشْرَحي، فخُذِي الْقِطْعَةَ وَاسْرَحِي. فَمالَتْ إلى اسْتِخلاصِ الْبَدْرِ التِّمّ، والأبْلَجِ الهِمِّ، وقالت: دَعْ جِدالَكَ، وَسلْ عَمَّا بدالك، فاسْتَطْلعتُها طِلْعَ الشَّيخ وَبَلَدَتِهِ، وَالشِّعرِ وناسِجِ بُردَتِه.

* * *

قوله: «عدِيها»، أي طمّعيها. استعدتها: رددتها. غالت: أهلكت، واستعار للتضييع «يداً» مجازاً. تعساً: هُلْكاً، والتّعْس: الدّعاء ألاّ تَقَال عثرتُه يا لكاعِ: يا لئيمة يا مُنتِنة، واللّكاع: وسخ الفرْج. واللُّكع: ولد الحمار. القنص: الصيد.

الحُبالة: الشبكة، وصفة الحُبالة أن يُعمد لحبل من شعر مخلوط بيسير من صوف، فذلك أقوى له، فيعقد في أحدِ طرفيه عين يجري فيها الحبل، ويربط في الطرف الثاني خشبة، وربمّا حدّدوا طرفها، ثم يأتون إلى الطريق الذي يدخل منه الصيد إلى الماء فيحفرون فيه حفرة فيغطّونها بورق الشجر وشبهها، ويفتحون عليها عين الحبل، ثم يغطُّونها بالتراب والزّبل، حتى تصير في طبع الأرض، فإذا أقبل الصيد للماء، فوضع يده أو رجله في الحفرة، سقطت به، وانضمّ على يده أو رجله الحبل، فيثب فازعاً ويفرّ، فتتبعه تلك الخشبة، فكلمّا انتفض أقبلت عليه، فتضربه بين يديه ورجليه وبطنه وظهره، فتوهِي أعضاءه، وربّما كسرت يديه أو رجليه، فلا يسير بها قدْر ميل، حتى يقف موقوذاً منها، فيأتيه الصائد فيأخذه، وأنواع الحُبالة كثيرة.

قوله: «القبَس»، يريد به نور المصباح، والذُّبالة: الفتيلة. ضِغْث: حُزمة من حشيش صغيرة، وأصلها جماعة القضبان، وشبهها من النبات، يجمعها أصل واحد، وكلّ ما جمعت عليه كفّك من حشيش أو عيدان فانتزعتَه من أصله ضغث. إبّالة: حُزمة كبيرة، والضِّغث على الإبّالة مثل حزمة الحطّاب إذا حملها للبيع، وجعل فوقها حُزيمة صغيرة لنفسه؛ فالكبيرة إبّالة والصغيرة ضِغْث، فكأنه قال: إنها خسارة على خسارة، ويقال لها: إبالة وأبيل وأبيلة، وضِغْثٌ على إبّالة، مَثَل أخذه من قول الشاعر: **[مجزوء الكامل]**

فـي كـلِّ يـوم مـن ذُؤالَـهْ ... ضِـغْـثٌ يـزيـد عـلـى إبّـالَـهْ[١]

وقال آخر وذكر ناقته: **[البسيط]**

رَدّتْ عوارِيَ غيطانِ الفَلا ونجتْ ... بـمـثـل إبّـالـةٍ مـن خـالـصِ الـشَّـعَـرِ

وهذا مثل قول حَبيب: **[الطويل]**

فكـمْ جزْعِ وادٍ جَبّ ذِروة غـاربٍ ... وبالأمس كانت أتمكتْه جوانِبُهْ[٢]

قوله: «انصاعت»، أي ذهبت نافرة وانثنت مسرعة، وكلّ ما ثنيته ولوْيته بسرعة؛ فقد صعته صوعاً، وكذلك إذا جمعته وفرّقته، فذهب عنك بسرعة، وصاع الشجاع القوم

---

(١) البيت لأسماء بن خارجة في لسان العرب (حشأ)، (أوس)، (أبل)، (ذأل)، وتاج العروس (حشأ)، (ذأل)، (هبل)، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٣٨٠، ١٠٢٧، وتهذيب اللغة ٥/ ١٣٨، والمخصص ٨/ ٦٦، ١٣/ ١٧٧، وديوان الأدب ٤/ ١٧٧.

(٢) البيت في ديوان أبي تمام ص ٤٤.

في الحرب؛ إذا جمعهم بهيبته ثم صدمهم، ففروا سراعاً متفرّقين، وكلّ نافرٍ مسرعٍ منصاع، وقال ذو الرمّة في الخمر: [البسيط]

رَمَى فأخطأ والأقدارُ غالِبَةٌ فانْصَعْنَ والويْلُ هجّيراه والحرَبُ[1]

تقتصّ، أي تتبع. مدرجها: طريقها الّتي مشت فيها لتفريق الرقّاع، ويقال: دَرج الشيخ والصبيّ درجاً ودَرَجاناً، إذا تقاربتْ خُطاهما، والمدْرَج: الموضع الذي دَرَجا فيه، والمدرَجة: قارعة الطريق. تنشد: تطلب من نشدْت الضَّالَّة، ومُدْرجها: رقعتها، ويقال: أدرجت الكتاب والثوب طويتهما. القِطْعة: عند أهل المشرق: الواحدة مَنْ صرف يعرّفونه الحندوس، يعمدون إلى دراهمه فيقطعونها قطعاً، فهي صرفهم، وبها يتصدقون، فأراد أنه قرن برقعة الشعر درهماً، وقطعة من الحندوس، وقال لها: إن خبّرتِني بقائل الشعر، فخذي الدرهم أجرة، وإن أبيت أن تعرّفيني به فخذي القطعة صدَقة وانصرفي. المشوف: المصقول المجلوّ، والشوف: الجلاء، والمعلَم: المنقوش، ونقشه علامته، وقيل: هو الذي عليه علامة الملك، وأخذه من قول عنترة: [الكامل]

ولقد شربتُ من المُدامة بَعْدَمَا ركَدَ الهواجرُ بالمشُوف المُعلَمِ[2]

بُوحي. تكلمّي. المبهم: المغلَق الملبِس. أبيْتِ: امتنعت. اسرحي: اذهبي. استخلاص: تخليص، واستخلص الشيء، جعله خالصاً. التمّ: الكامل. والأبلج: النقيّ الأبيض، وفعله إبلاجّ كاحمارّ. الهِمّ: الكبير الذي يهمّ به مَنْ رآه، وشيخ هِمّ: مسنّ، والهِمّ: الرقيق النحيف، وهو من همته النار إذا أذابته، وهَمَمت الشحم: أذبته. استطلعتها طِلْعهُ: استخبرتها خبره، وسألتها أن تطلعني عليه، وتقول: استطلعت طِلع الشيء، إذا حاولتَ الإطلاع عليه، وأردت معرفة خبره الّذي تطلع منه عليه، وطِلْع بالكسر. بُرْدته: ثوبه.

* * *

فقالَتْ: إنَّ الشَّيخَ منْ أَهلِ سَرُوجَ، وَهُوَ الّذي وَشّى الشعرَ المنْسُوجَ، ثُمَّ خَطفَتِ الدِّرْهَم خِطْفَةَ الْبَاشِقِ، وَمَرَقَتْ مُرُوقَ السَّهْم الرَّاشِق، فَخالج قلْبِي أَنَّ أبا زَيْدٍ هُو المْشارُ إليهِ، وَتأجّجَ كَرْبي لِمُصابه بناظِرَيه، وَآثَرْتُ أن أُفاجِيهِ وأُناجِيهِ، لأعْجُمَ عُودَ فِرَاسَتِي فيهِ، وَمَا كنْتَ لأصِلَ إلَيهِ إلاّ بتَخَطِّي رِقابَ الْجَمعِ، الْمَنْهِيِّ عنْهُ فِي الشَّرْعِ، وَعِفْتُ أَنْ يتأَذّى بي قَوْمٌ، أَوْ يَسْرِيَ إلَيَّ لَوْم، فَسَكَدْتُ بِمَكاني،

(١) البيت في ديوان ذي الرمة ص ٧١، ولسان العرب (هجر)، وتهذيب اللغة ٦/ ٤٣، وكتاب الجيم ٣/ ٣٢٥، وجمهرة أشعار العرب ص ٩٥٣، وتاج العروس (هجر)، وأساس البلاغة (هجر).

(٢) البيت لعنترة في ديوانه ص ٢٠٥، ولسان العرب (شوف)، (علم)، وتهذيب اللغة ٢/ ٤٢٠، ١١/ ٤٢٥، وجمهرة اللغة ص ٨٧٥، ومقاييس اللغة ٣/ ٢٢٩، وتاج العروس (شوف)، وكتاب العين ٦/ ٢٨٩، وبلا نسبة في المخصص ١٣/ ١٤٣.

وَجَعَلْتُ شَخْصَهُ قَيْدَ عِياني، إلَى أنِ انْقَضَتِ الْخُطْبَةُ، وَحَقَّتِ الْوَثْبَةُ، فَخَفَقْتُ إلَيْهِ، وَتَوَسَّمْتُهُ عَلَيّ الْتِحامِ جَفْنِيهِ، فإذَ أَلْمَعِيَّتِي أَلْمَعِيَّةُ ابنِ عَبَّاسٍ، وَفِرَاسَتي فِرَاسَةُ إياسٍ.

* * *

وشّى: زيّن ورقّم. خطَفت: أخذت بسرعة. الباشق: من جوارح الطير. مرقت: خرجت بسرعة. الرّاشق: الّذي يرشق الصيد، أي ينشبه، ويكون الراشق بمعنى المرشوق، كقوله تعالى: ﴿من ماء دافق﴾ [الطارق: ٦]، أي مدفوق. قوله: «خالج»، أي داخل وجاذب. تأجّج: اشتعل. كربي: هَمّي، والتأجّج «التفعّل» من الأجيج، وهو تصويت النار ولهبها إذا اشتعلت وعظمت. آثرت: اخترت وفضّلت، وآثرته بكذا: فضّلته به والإيثار المصدر. أفاجيه: آتيه فجأة وهو لا يشعر. أُناجيه: أحدّثه. أعجُم: أجرّب. فِراستي: نظري، وجعل لها عوداً مجازاً. تخطّى رقاب الجمع: الجواز على أعناق الناس؛ خرّج الترمذيّ في النهي عن ذلك، قال: قال رسول الله ﷺ: «من تخطّى رقاب الناس يوم الجمعة اتخذ جسراً إلى جهنم»[1].

عفت: كرهت. يتأذّى: يصيبهم أذى. يسرِي: يصل. اللوم: ضدّ الحمد، وهو أن تأخذ الإنسان بلسانك ذمًّا لما فعل. سَكَدْتُ: التصقت ولزمت. قيد عياني: غرض نظري، أي قيّدت نظري فيه. انقضت: تمّت. حقّت الوثبة، أي وجبت القفزة إليه. خفقت: أسرعت. توسّمته: نظرته. التحام: التصاق وانغلاق. ألمعيّتي: ذكائي وصدق ظنّي، والألمعيّ، هو الذي يظن بك الظّنّ، ولا يخطىء، وهو اليلمعيّ من اللّمعان، كأنه يلمع لذكائه وجودة فطنته، وقال أوس: **[المنسرح]**

الألـمعيّ الـذي يَظُـنّ بـك الـظّـنّ كـأَنْ قـد رأى وقـد سَـمِـعَـا[2]

ولا يبيّن أحد الألمعيّ بأحسن مما بيّنه أوس، فإذا سُئلت: ما الألمعيّ؟ فأنشدت بيته تأت بالجواب الشافي.

والفِراسة، أن تنظر الشيء فتستدلّ بظاهره على باطنه، وبما حضر على ما غاب، وقيل: الألمعيّة أن ترى الشيء على بُعْد فتعرفه وتحقّقه، والفِراسة أن ترى الرجل بين يديك فتحكمَ عليه بما أضمر، أو بما يريد أن يفعله، فالألمعيّة في البعد، والفراسة في

(١) أخرجه ابن ماجه في الإقامة باب ٨٨، وأبو داود في الطهارة باب ١٢٧، والترمذي في الجمعة باب ١٧، والنسائي في الجمعة باب ٢٠، وأحمد في المسند ٣/ ٤١٧، ٤٣٧، ٤/ ١٩٠.

(٢) البيت لأوس بن حجر في ديوانه ص ٥٣، ولسان العرب (حظرب)، (لمع)، وتهذيب اللغة ٢/ ٤٢٤، وديوان الأدب ١/ ٢٧٣، وكتاب الجيم ٣/ ٢١٤، وديوان الأدب ١/ ٢٧٣، وكتاب الجيم ٣/ ٢١٤، والكامل ص ١٤٠٠، وذيل أمالي القالي ص ٣٤، ومعاهد التنصيص ١/ ١٢٨، ولأوس أو لبشر بن أبي خازم في تاج العروس (لمع)، وبلا نسبة في مقاييس اللغة ٥/ ٢١٢.

القرب، وكيف اختلفت الألمعيّة والفراسة، فالظنّ الصادق يجمع بينهما.

[ابن عباس وبعض أخباره]

وابن عباس رضي الله عنه، هو عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم القرشيّ الهاشميّ، يكنى أبا العباس.

ولد قبل الهجرة بثلاث سنين، وكان ابن ثلاث عشرة سنة يوم توفّيَ رسول الله ﷺ. واختُلف في السنة التي مات فيها، ما بين ثمان وستين في الأقل، وأربع وسبعين في الأكثر. وصلّى عليه محمد ابن الحنفيّة، وقال: اليوم مات ربانيّ هذه الأمة، وضُرِبَ على قبره فسطاط.

روي عن النبيّ ﷺ أنه قال: «اللّهم علمّه الحكمة وتأويل القرآن»[1]، وفي حديث آخر: «اللّهم باركْ فيه، وانشر منه، واجعله من عبادك الصالحين». وفي حديث آخر: «اللّهم زده علماً وفقّهه»[2]؛ وفي حديث آخر: «اللهم فقّهْهُ في الدين وعلّمه التأويل»[3]. وكلها أحاديث صحاح.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحبّه ويدنيه ويقرّبه ويشاوره، مع وفور جِلّة الصحابة رضي الله عنهم.

وكان ابن عمر رضي الله عنه يقول: ابن عباس فتى الكهول، له لسان سَؤول، وقلْب عَقول.

عبد الله بن عبد الله: ما رأيت أحداً كان أعلَم بالسّنة، ولا أجلَد رأياً، ولا أثبت نظراً من ابن عباس.

ولقد كان عمر يعدّه للمعضلات، مع اجتهاد عمر ونظره للمسلمين.

عمرو بن دينار: ما رأيت مجلساً كان أجمعَ لكلِّ خيرٍ من مجلس ابن عباس، الحلال والحرام والعربيّة والأنساب والشعر.

عطاء: كان الناس يأتون ابنَ عباس في الشّعر والأنساب، وناس يأتُونه لأيام العرب ووقائعها، وناسٌ يأتونه للعلم والفقه، فما منهم صِنف إلا يُقبل عليهم بما يشاؤون.

مسروق: كنتُ إذا رأيت ابنَ عباس، قلت: أجمل الناس؛ فإذا تكلّم قلت: أفصح الناس، فإذا تحدث قلت: أعلم الناس.

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة باب ٢٤، والترمذي في المناقب باب ٤٢، وابن ماجه في المقدمة باب ١١.

(٢) أخرجه بنحوه البخاري في الوضوء باب ١٠، ومسلم في فضائل الصحابة حديث ١٣٨، وأحمد في المسند ١/٢٦٦، ٣١٤، ٣٢٨، ٣٣٥.

(٣) راجع التخريج السابق.

أبو وائل: خَطَبنا ابن عباس رضي الله عنهما، وهو على الموسم، فافتتح سورة، فجعل يقرأ ويفسّر، فجعلت أقول: ما رأيتُ ولا سمعت كلام رجل مثله، لو سمعتْه فارس والترك والروم لأسلمت.

طاوس: أدركت نحو خمسمائة من أصحاب رسول الله ﷺ، إذا ذكروا ابنَ عباس خالفوه، فلم يزل يقودهم حتى ينتهُوا إلى قوله:

ابن مسعود: نِعْمِ تِرجمان القرآن ابن عباس، ولو أدرك أسناننا ما عاشره منّا رجل.

يزيد الأصمّ: خرج معاوية حاجًا، ومعه ابن عباس، فكان لمعاوية موكب، ولابن عباس موكب ممّن يطلب العلم.

القاسم بن محمد: ما رأيتُ في مجلس ابن عباس باطلاً قطّ، وما سمعت فتوى أشبه بالسّنة من فتواه.

وكان أصحابه يسمونه الحَبْر والبَحْر. وذكر أبو العباس في الكامل أن عمر بن أبي ربيعة أنشده قصيدته: **[الطويل]**

أمِنْ آل نـعـمٍ أنْـتَ غـادٍ فـمـبـكـرُ غَـدَاة غـدٍ أم رائـحٌ فـمَـهـجّـرُ[1]

فحفظها مَنْ سمعها، وهي ثمانون بيتاً.

مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما: رأيتُ جبريل عليه السلام عند النّبيّ ﷺ مرتين، ودعا لي بالحِكمْة رسول الله ﷺ مرتين.

وروى عنه أنه رأى رجلاً مع النبيّ ﷺ فلم يعرفه، فسأل عنه النبيّ ﷺ، فقال له النبي ﷺ: أرأيته؟ قال: نعم، قال: ذاك جبريل، أمّا إنّك ستفقد بصرَك؛ فعمِيَ بعد ذلك في آخر عمره، وهو القائل في ذلك ـ ويروى لحسان رضي الله عنهما: **[البسيط]**

إن يـأخـذِ الله مـن عـينـيّ نـورَهـمـا ففي لساني وقلبي منهما نُورُ[2]

قـلـبٌ ذكـيٌّ وعـقـل غـيـر ذِي دَخَـلٍ وفي فـمـي صـارمٌ كـالـسيـف مـأثـورُ

نظر إليه الحطيئة في مجلس عمر رضي الله عنهما، فقال: مَنْ هذا الذي برع الناس بعلمه، ونزل عنهم بسنّه؟ فقيل له: عبد الله بن عباس.

وقال فيه حسان بن ثابت رضي الله عنهما: **[الطويل]**

إذا مَـا ابنُ عبَّـاسٍ بَـدَا لـك وجـهُـه رأيـت لَـهُ فـي كـلّ أحـوالـه فَـضْـلا[3]

---

(١) البيت في ديوان عمر بن أبي ربيعة ص ٩٢، وهو بلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٣٢٦.

(٢) البيتان في ديوان حسان بن ثابت ص ١٦٥.

(٣) الأبيات في ديوان حسان بن ثابت ص ٣٥٩.

إذا قال لم يترك مقالاً لقائلٍ   بمنتطحاتٍ لا ترى بينها فَصْلاَ
كفَى وشَفَى ما في النُفوسِ ولم يَدَعْ   لذي إرْبَةٍ في القول جِدًّا ولا هَزْلاَ
سموتَ إلى العليا بغير مشقّة   فنلت ذراها لا ذليلاً ولا وَغْلا

ونظر إليه معاوية يوماً يتكلّم معه، فأتبعه بصره، فقال متمثّلاً: [الطويل]

إذا قال لم يترك مقالاً لقائلٍ   مصيب ولم يثن اللّسان على هُجْرِ
يصرِّف بالقول اللّسانَ إذا انتحى   وينظر في أعطافه نظرَ الصَّقْرِ

وروي أن طائراً أبيض خرج من قبره، فتأوّلوه عِلمَه خرج إلى الناس.

وقيل: دخل قبرَه طائر أبيض، فقيل: هو بصره.

وقال أبو الزبير: مات ابن عباس رضي الله عنهما بالطائف، فجاء طائر أبيض فدخل في نعشه حين حُمِل، فما رئي خارجاً منه.

وفضائله كثيرة مشهورة، فلنقف منها على هذا القدر.

[إياس القاضي]

وأما إياس، فهو أبو واثلة بن معاوية بن قرة بن إياس بن هلال بن رباب المزنيّ، قاضي البصرة. وسبب قضائه أنّ عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كتب إلى عديّ بن أرطأة عامله على البصرة؛ أن اجمع إياس بن معاوية المزنيّ والقاسم بن ربيعة الحارثيّ، فولِّ القضاءَ أنفذَهما وأفقههما. فجمع بينهما، فقال كلّ واحد: إنّ صاحبَه أنفذ وأفقه، فقال له إياس: سلْ عنّي وعن القاسم فقيهَي المصر: الحَسَن وابن سيرين ـ وكان القاسم يأتيهما وإياس لا يأتيهما ـ فعلم القاسم أنه إن سألهما أشارا به، فقال القاسم: لا تسأل عني ولا عنه؛ فوالله الذي لا إله إلّا هو؛ إن إياساً لأفقهُ منّي، فإن كنتُ كاذباً فما عليك إلا ألاّ تولِّيَني وأنا كاذب، وإن كنت صادقاً فينبغي لك أن تقبل قولي. فقال له إياس: إنك جئتَ برجل، فوقفتَه على شفير جهنم، فنحيّ نفسه منها بيمين كاذبة يستغفر الله منها، وينجو مما يخاف، فقال له عديّ: أما إنك إذ فهمتَها فأنت لها؛ فاستقضاه.

وقال إياس رحمه الله: أرسل إليّ ابنُ هَبيرة فأتيته، فسألني فسكتُّ، فلمّا أطلتُ قال: هيهِ! قلت: سلْ عمّا بدا لك، قال: أتقرأ القرآن؟ قلت: نعم، قال: أتفرض الفرائض؟ قلت: نعم، قال: أتعرف من أيام العرب شيئاً؟ قلت: نعم، قال: أتعرف من أيام العجم شيئاً؟ قلت: أنا بها أعرف، قال: إني أريد أن أستعينَ بك على عملي، قلت: إن فيّ خصالاً ثلاثاً لا أصلح معها للعمل، قال: ما هي؟ قلت: أنا دميم كما ترى، وأنا عَيِيّ، وأنا حديد، قال: أمّا دمامتك فإني لا أريد أن أحاسن بك الناس، وأما العِيّ فإني أراك تُعْرِب عن نفسك، وأما الحِدّة فإن السوط يقوِّمك، قم. فولاّني القضاء، وأعطاني عشرة آلاف درهم، فهي أول مالٍ تموَّلتُه.

ودخل عليه عديّ بن أرطأة في مجلس القضاء ـ وعديّ أمير البصرة، وكان أعرابيَّ الطبع ـ فقال: يا هناه، أين أنت؟ قال: بينك وبين الحائط، قال: فاسمع مني، قال: للاستماع جلست، قال: إني تزوَّجت امرأة، قال: بالرِّفاء والبنين، قال: وشرطتُ لأهلها ألاّ أخرجَها من بينهم، قال: أوفِ لهم بالشرط، قال: فأنا أريد الخروج، قال: في حفظ الله، قال: فاقض بيننا، قال: قد فعلت، قال: فبمَ تحكم؟ قال: بألاّ تخرجها، قال: بشهادة مَنْ؟ قال: بشهادة ابن أخت خالتك.

وأول ما ظهر من ذكائه، أنه دخل دمشق، وهو غلام، فتحاكم مع شيخ عند قاضيها، فصال إياس بحُدّته على الشيخ، فقال له القاضي: إنه شيخ كبير، فخفِّض كلامَك، فقال له إياس: الحقّ أكبرُ منه، فقال له القاضي: أسكت، فقال: ومَنْ ينطق بحجَّتي؟ فقال له القاضي: ما أراك تقول حقًّا، فقال إياس: لا إله إلا الله، أحقٌّ هذا أم باطل؟ فدخل القاضي من فوره إلى عبد الملك بن مروان، فأعلمه بما رأى من ذكائه، فقال له عبد الملك: أخرج فاحكم بينهما، وأخرجْه الآن من دمشق إلى بلاده لئلاّ يُفسد على أهل الشام.

ولما دخل عبد الملك البصرة رأى إياساً وهو صبيّ، وخلْفه أربعة من القرّاء أصحاب الطيالسة، وإياس يقدُمهم، فقال عبد الملك: أُفٍّ لهذه العثانين؛ أما فيهم شيخٌ يقدّمهم غير هذا الحَدث! ثمّ التفتَ إليه، وقال: كم سنُّك؟ فقال: سنِّي ـ أطال الله بقاء الأمير ـ سنُّ أُسامة بن زيد بن حارثة حين ولاّه رسول الله ﷺ جيشاً فيهم أبو بكر وعمر؛ فقال: تقدَّم بارك الله فيك، وكان سنُّه سبع عشرة سنة.

وأمّا ذكاؤه وفِراسته، فقد ألَّف في ذلك المدائنيّ كتاباً سمَّاه كتاب «زكَن إياس»، والزَّكن: التشبيه، يقال: زكَّنَ عليهم وزكَّمَ: شبَّه وخيَّل، وقيل: الزَّكْن: الظنّ والتفرُّس. ومن زكَنِه أنه اختصم إليه رجلان في قطيفتين: حمراء وخضراء، فقال أحدهما: دخلت الحوضَ لأغتسل ووضعت قطيفتي، ثم دخل واغتسل، فخرج قبلي، وأخذ قطيفتي، فتبعته، فزعم أنها قطيفته، فقال: ألك بيِّنة؟ قال: لا، قال: ائتوني بمُشط، فأُتِيَ به، فسرَّح رأس هذا، ثم هذا، فخرج من رأس أحدهما صوف أحمر، ومن رأس الآخر أخضر، فقضى بالأخضر لصاحب الأخضر، وبالأحمر لصاحب الأحمر.

وأتى المدينةَ فصلّى في مسجد رسول الله ﷺ، فزكنه أهلُه حتى صاروا فرقتين: فرقة تزعم أنه معلم، وأخرى تزعم أنه قاضٍ، ثم وجّهوا إليه رجلاً، فأخبره خبرَهم، فقال: أصاب الذين ذكروا أني قاضٍ، ورويداً أخبرْك عن القوم؛ أمّا الذي مَنْ صفته كذا فهو كذا، وأما الذي يليه فهو كذا، وأما ذاك الشيخ فإنه نجار، فقال الرجل: في كلِّهم والله أصبت إلاّ في الشيخ، فإنه من قريش، فقال إياس: وإن كان من قريش! فقام الرّجل إلى أصحابه، فقال: قد جئتكم من عند أعجب النَّاس، والله إنْ منكم من أحدٍ إلاّ أخبرَني

بصناعته إلاَّ هذا فزعم أنه نجَّار، فقال: صدق والله؛ إني لأنجرُ عيدان جواريّ ـ يعني عود المزمار.

ونظر إلى ثلاث نسوة فزعن من شيء، فقال: هذه حامل، وهذه مرضع، وهذه بِكْر، فسُئِلن فوُجِدْن كذلك، فسئل منْ أين لك علم ذلك؟ فقال: لمَّا فَزِعن وضعت كلّ واحدة منهنّ يدها على أهمّ المواضع لها، فوضعت المرضع على ثديها، والحامل على بطنها، والبِكْر على فَرْجها.

وسمع نُباح كلب لم يره، فقال: هذا نُباح كلب مربوط على شفير بئر، فنُظِر فكان كما قال، فقيل له في ذلك، فقال: سمعت عند نُباحه دويًّا، ثم سمعت بعده صدًى يجيبه، فعلمت أنه عند بئر.

ومن فِراسته أنه رأى أثر اعتلاف بعيرٍ، فقال: هذا بعير أعور، فنظروا فكان كما قال، فقيل له في ذلك، فقال: لأني وجدت اعتلافه من جهةٍ واحدةٍ.

ولما صار ذكاؤه يضرب به المثل، كما يُضرب بجود حاتم وحلْم الأحنف وشجاعة عمرو بن معد يكرب، نظمهم حبيب في بيت جمع فضْلَهم المتفرّق للعباس بن المأمون، فقال: **[الكامل]**

إقدامُ عمرٍو في سماحة حاتمٍ   في حِلْم أحنَفَ في ذكاء إياس[(١)]

وتُوُفِّيَ سنة اثنتين وعشرين ومائة وأخباره كثيرة، وفيما أوردناه كفاية.

***

فَعرَّفْتُهُ حينئذٍ شَخْصِي؛ وَآثَرْتُهُ بأَحَدِ قُمْصِي، وَأَهَبْتُ به إِلَى قُرْصِي، فَهَشَّ لِعَارِفتي وَعِرْفَاني، وَلَبَّى دَعْوَةَ رُغفَانِي، وَانطَلقَ وَيَدِي زِمَامُهُ، وَظلِّي إمَامُهُ، وَالْعَجُوزُ ثَالثَةُ الأثافي، وَالرَّقِيبُ الَّذِي لا يَخْفَى عَلَيهِ خَافِي. فلمَّا اسْتَحْلَسَ وُكْنَتِي، وَأحْضَرْتُه عُجَالَةَ مُكْنَتِي، قالَ لِي: يا حَارِث، أَمَعَنا ثَالثٌ؟ فقُلتُ: لَيْسَ إلاَّ الْعَجُوزُ، قال: ما دُونها سِرٌّ مَحجُوز. ثمَّ فَتحَ إحْدَى كَرِيمَتيْهِ، وَرأوأَ بتَوْءَمَتَيْه، فإذَا سِرَاجا وَجْهٍ يَقْدَانِ، كأَنَّهُمَا الْفَرْقَدَانِ. فابْتَهَجْتُ بِسَلامَةِ بَصَرِه، وَعَجِبْتُ مِنْ غرَائِب سِيَرِه، وَلَم يُلقْنِي قَرارٌ، وَلا طَاوعَني اصْطِبارٌ، حتى سَأَلْتُه: ما دَعاكَ إلى التَّعالِي؛ مَع سَيْرِكَ في المَعَامِي، وَجَوْبِك المَوَامِي، وَإيغالِكَ في المَرَامِي!

***

قوله: «أهبت به»، أي دعوته، وأصل «أهاب» دعا لنفسه مَن بَعدُ. وقيل: الإهابة

---

(١) البيت في ديوان أبي تمام ص ١٧٤.

دعاء الإبل للشرب. والقُرْص: رغيف صغير سُمِّيَ قرصاً، كأنه قرص من العجين، أي قُطِع، والتقريص: التقطيع. هشّ: خف فرحاً. والعارفة، يريد النعمة وهي المعروف. لبّى: أجاب وقال: لبّيك، ومصدره تلبية وهي «تفعلة»، من الإلباب وهو اللّزوم، ولبّ بالمكان وألبّ به: أقام، وأصله لَبّب بثلاث باءات، فأبدلوا الآخرة ياء استثقالاً لاجتماع الأمثال، كما قالوا: تظّنيت وتمطّيت، فالياء فيهما بدل من مثل الحرف الذي قبلها، ثم أتبعوه الإبدال في المصدر وهو تلبية، فياؤه باء، وقولهم: لبيّك، معناه إجابةً بعد إجابة، ولزوماً لطاعتك بعد لزُوم. رُغفان: جمع رغيفٌ، يريد أنه لمّا سمع بذكر الخبر، فكأنّ الخبر دعاه فأجابه. زمامه: مقوده. إمامه: هاديه. الأثافيّ: حِجارة القِدْر، وهي ثلاث، والعرب تقول: رماه الله بثالثة الأثافيّ ـ يعنون بها الجبل، لأنهم يجعلون حجَرين ويلصقونهما بالجبل، فيقوم الجبل مقام الحجر الثالث، واحدتها أُثفيَّة بالتشديد، وقد تُخفَّف، وقد أثفيت القدر وأثَفتها وثفّيتها، وتسمِّي العرب أثافيَّ الحديد المِنصَب. الرقيب: الحافظ، يريد الله تعالى. استحلس وُكْنَتِي، أي دخل، بيتي، وجلس على حِلْسه، وهو ما يُبسط تحت بسطه؛ يقيها الأرض، وفلان حِلْس بيته، أي لازم القعود فيه، وفي الحديث: «كن في الفتنة حِلْس بيتك»[1]، أي لا تدخل فيها، والحِلْس: كساء يلِي ظهر البعير تحت البرذعة ويلزمه، فشُبّه الذين يعرفون الشيء ويلزمونه بالحِلْس، ومنه قولهم: لست من أحلاسها، أي من أصحابها العارفين بها. ومنه بنو فلان أحلاس الخيل، أي الذين يضمِّرونها ويلزمون ظهورها، وأحلاس القوافي: المجيدُون في نظم الشعر، والوُكْنة: الثقبة في الحائط يسكنها الطائر، وقيل: هي الموضع من الشجرة وغيرها، يقع عليه للمبيت، وهي الوَكْن، ووكَن الطائرُ وَكْناً، فهو واكن إذا حضن على فرخِه، فلزم وِكُنته. عُجَالة مُكنَتي: ما تعجَّل وأمكن من الطعام. محجوز: ممنوع، وحجزت الشيء: حزْته ومنعته، وحجزت بين الشيئين حجزاً، فأنا حاجز، إذا جعلت بينهما حائلاً، والمفعول محجوز، ومنه الحِجاز؛ لأنها أرض حجزت بين نَجْد والسَّراة. كريمتيه: عينيه، وفي الحديث قال النبي ﷺ: «ما من عبد أذهب الله كريمتيه إلا كان ثوابه عند الله الجنة» قالوا: وما كريمتاه؟ قال: عيناه[2]. رأرأ: قَلبَهما وأدارهما إدارة كثيرة. وتوأمتاه: كريمتاه، وقوله: «مسحَ كريمتيه»، يريد أنه حكَّهما بكفِّه، فانتفض عنهما ما كان ألصقهما به، حتى التحما. وقيل: رأرأ: أدار العين وحدَّدَ نظرها. وتَوأمتاه: عيناه، وفي الغريب المصنَّف: رأرأتِ المرأة بعينها ولألأت، إذا برقت عينُها، وأنشد ابن الأعرابيّ: **[الطويل]**

---

(١) أخرجه أبو داود في الفتن باب ٢، والدارمي في المقدمة باب ٢٧، وأحمد في المسند ٤/٤٠٨، جميعهم برواية: «كونوا أحلاس بيوتكم».

(٢) روي بطرق وأسانيد متعددة أخرجه الترمذي في الزهد باب ٥٨، وأحمد في المسند ٣/٢٨٣، ٥/٢٥٨، ٦/٣٦٦.

عجبت من الحُور الكريم نجارها تُرأرِىء بالعينين للرجل الحِبْلِ[1]

الحِبْل: الداهية. الفرقدان: نجمان مُنيران في بنات نعش. ابتهجت: فرحت. سِيَره: عاداته. يُلْقِنِي قرار: يحبسني سكون وطمأنينة. التَّعامي: استعمال العَمَى. المعامي: الطرُق المجهولة، وقيل: القِفار البعيدة التي تعمى فيها الآثار فلا يُهتدى فيها. الموامي: القِفار، واحدها مَوْماة. إيغالك: إبعادك ومبالغة دخولك. المرامي: المقاصد والبلاد التي ترميه إلى بلاد أُخرَى؛ يقول: سألته ما الذي دعاك إلى استعمالك العمى مع دخولك لطلبك الرزق في المشقات وجَوْب البلاد البعيدة، فلم تجِدْ لنفسك حيلة حتى تشبَّهت بالعميان!

* * *

فتَظاهَرَ باللُّكْنةِ، وتشاغَلَ باللُّهْنةِ، حَتى إذَا قضَى وَطَرَهُ، أتأرَ إليَّ نظَره؛ وَأنشدَ: [الطويل]

وَلَـمَّا تـعَـامـى الـدَّهـرُ وَهْـوَ أبـو الْـوَرَى عَـنِ الـرُّشْـدِ فِـي أَنْـحـائـهِ وَمَـقـاصِـدِهْ

تـعَـامَـيـتُ حـتَـى قـيـلَ إنـي أَخُـو عَـمًـى وَلاَ غَـرْوَ أَن يـحْـذُو الْـفَـتـى حَـذْوَ وَالـدِهْ

ثمَّ قالَ لي: انْهَضْ إلَى المُخْدَع فائتني بِغَسُول يَرُوقُ الطَّرْف، ويُنَقّي الْكَفَّ، وَيُنعِّمُ الْبَشَرَةِ، وَيُعَطِّرُ النَّكْهَة، وَيَشدُّ اللِّثَة، وَيقَوِّي المَعِدَة، وَلْيَكُنْ نظيفَ الظَّرْفِ، أَرِيجَ الْعَرْفِ، نقيَ الدَّقِّ، ناعِمَ السَّحْقِ، يَحْسَبُهُ الَّلامِسُ ذَرُوراً، وَيَخالَهُ النَّاشِقُ كَافُوراً، وَاقرُنْ به خِلاَلَةً نقيَّةَ الأصلِ، محبوبةَ الْوَصلِ، أَنِيقَة الشَّكْلِ، مَدْعاةً إلَى الأكلِ؛ لَهَا نَحافة الصَّبِّ، وَصَقَالة الْعَضْبِ، وَآلَة الْحَرْبِ، وَلدُونة الْغُصْنِ الرَّطْبِ.

* * *

تظاهر: استعان. واللُّكنة: احتباس اللسان؛ يريد: لمّا امتلأ فمه بالطعام ـ لم يتسرّح لسانه بالكلام، فوجد بذلك عِلّة لقطع الجواب، فكأنَّ اللُّكنة أعانته على ذلك. اللُّهنة: الطعام المعجَّل للضيف قبل الغداء، وكلّ ما تعجَّلته قبل إدراك الطعام لُهنة، ولَهَّنت الضيف: عللّته بذلك. قضى وَطَره؛ أتمَّ حاجته من الأكل، والوطر: المراد، ولا فعل له. أتأر: تابع نظره وحدّده. الوَرَى: الخلق. أنحائه: أغراضه ومقاصده، والنّحو كالقصد. لا غرْو: لا عجب. يحذُو حذْوَه: أي يفعل فعله.

---

(١) يروى صدر البيت:

فـيـا عـجـبـاً لـلـخـود تـبـدي قـنـاعـهـا

والبيت بلا نسبة في لسان العرب (حبل)، وتهذيب اللغة ٥/ ٧٨، وتاج العروس (حبل).

[مما قيل في العمى شعراً]

وهذا الاعتذار عن التعامي حسن، وقد تقدم اعتذار ابن عباس رضي الله عنهما عنه.

ومما يعزى للحُصْريّ في ذلك: [الوافر]

وقالوا قد عميتَ فقلت كلاً ... فإني اليوم أبصرُ من بَصيرِ

سواد العين زار سَواد قَلبي ... ليجتمِعَا على فهم الأمُورِ

أخذَه من قول بشار: [الطويل]

إذا وُلِد المولود أعمى وجدتَه ... وجدِّك أهدَى من بصيرٍ وأحْولاَ

عميتُ جنيناً والذّكاء من العمَى ... فجئت عجيب الظنّ للعلم معقِلاَ

وغاضَ ضياء العين للقلب فاغتدَى ... بقلب إذا ما ضيع النَّاس حَصَّلاَ

وشعرٍ كنوز الرَّوض لاءمتُ بينه ... بقولٍ إذا ما أحْزنَ الشّعْر أسْهَلاَ

وقال بشار: [مخلع البسيط]

قالوا العَمى منظرٌ قبيحٌ ... قلت بفقدِي لكُمْ يَهُونُ

تالله ما في البلاد شيءٌ ... تأسَى على فَقْدِه العُيُونُ

وعكَس هذا المعنى أبو العيناء حين سأله المتوكل: ما أشدُّ ما عليك في ذهاب بصرك؟ قال: ما حرِمتُه يا أمير المؤمنين من رؤيتك مع إجماع الناس على جمالك.

ومما يُستملح من هذا الباب: نشأ أعَمى بين أعورين، فإذا مشيا أو قعدا، فحاذى عَوَرُ هذا عَوَرَ هذا نشأ بينهما أعمى.

وقال المتنبي يمدح العوَر ويذمّه في بيت واحد: [الوافر]

أيا ابن كَروّسٍ يا نصفَ أعْمَى ... وإن تفخر فيا نِصْفَ البصيرِ(١)

فإذا انضمّ ابن كَرَوسّ إلى مثله نشأ بينهما أعمى، قال الشاعر: [البسيط]

وبينَنا أبداً أعَمَى نؤلّفه ... قد يخلُق الله عميانا من العُورِ

وقال آخر: [الوافر]

ألم ترني وعَمْراً حين نغدُو ... إلى الحاجات ليس لنا نظيرُ

أسايره على يُمنَى يديه ... وفيما بيننا رجلٌ ضريرُ

وقال آخر في أعور وعوراء تعاشقا: [الخفيف]

---

(١) البيت في ديوان المتنبي ٢/ ١٤٤.

هي عوراء باليمين وهذَا ... أعورٌ بالشمال وافق شَنًّا
بين شخصيهما ضريرٌ إذا ما ... قَعدَتْ عن شماله تتغنَّى

فأما قول جميل اليشكريّ في صفة الذئب: [الطويل]

وأعور مِنْ يمناه إن شاء مرّة ... وإن شاء من يسراه ما كان راقِدَا
لقد فزت دون العُور - أوس - برتبة ... وأعطيتَ نابا يفلَق الصخر بارِدَا

فإنما وصفه بشدة الحذر، وذكر العور على معنى الاستعارة كما قال حُميد بن ثور: [الطويل]

ينامُ بإحدى مقلتيه ويتّقي ... بأُخرى المنايا فهو يقظان نائمُ

وقال ابن المعذّل: [المديد]

أشتهي في المقلة القبلا ... لا كثيراً يشبه الحوَلاَ
واحمرار الخدّ من خجلٍ ... إنني أستحسن الخَجَلاَ

وقال آخر: [مجزوء الرجز]

وأحولٍ ذِي حَرَكَهْ ... يملأ بيتي بَرَكَةْ

يريد أنه يرى من الشيء اثنين، كما قال الآخر: [البسيط]

فقد جعلتُ أرى الشخصين أربعةً ... والواحد اثنين ممّا بورك البصرُ

لأن هذا يصف الكبَر.

واعتذر القاضي أبو محمد عبد الوهاب عن الحَوَل فأحسن، حيث يقول: [الطويل]

حمِدت إلهي إذ بُليت بحبِّها ... وبي حَوَلٌ يغني عن النَّظَرِ الشَّزْرِ
نظرتُ إليها والرَّقيبُ يظنّني ... نظرت إليه، فاسترحت من العُذْرِ

فحَولُه رفع عنه ثقل مؤنة التكلّف الذي ذكر الآخر حين قال: [الطويل]

ولمّا التقينَا والعيونُ نواظرٌ ... وليس لنا رُسْلٌ سِوَى الطَّرْفِ للطَّرْفِ
تنزهّت في خدَّيْك من نظر خفِي ... وما زلت أُخفِي الودّ ضعفاً على ضعفي
فإن غفل الواشون فزتُ بنظرةٍ ... وإن نظروا نحوي نظرتُ إلى كَفِّي

فلذلك حمِد الله على الحوَل.

وقال الناشي في هذا المعنى فأحسن: [الكامل]

يتناقلان اللفظ من جفنيهِمَا ... فكأنما يتناسخان كتَابَا
وإذا سَهَتْ عَيْنُ الرقيب تخالسَتْ ... كفَّاهما خَلْس السَّلام سِلاَبَا

وللقاضي أبي محمد عبد الوهاب، أنشدنا بعض أشياخنا البيت الثاني والأخير من القطعة التالية، وكان كثيراً ما يحرضنا بها على الطلب، ويسلّينا عن الغربة: [الطويل]

ومحجوبةٍ في الخِدْرِ عن كلِّ ناظرٍ ... ولو برزتْ باللَّيل ما ضلَّ مَنْ يَسْرِي
أقولُ لها والدَّمع يغلبُ صبرها ... أعِدّي لفقدي ما استطعتِ من الصَّبْرِ
سأنفِق رَيْعان الشبيبة آنفاً ... على طلبِ العَلْيَاء أو طلب الأجْرِ
أليس مِنَ الحرمان أنّ لياليًا ... تمرُّ بلا نَفْعٍ وتحسَب من عُمْرِي!

ولم ينشدنا البيت الأول ولا الأوسط، وهما من القطعة.

وأما كلام الحريريّ الّذي فرغنا من شرحه؛ فهو منقول من مقامة البديع، يقول على لسان عيسى بن هشام: «ثمّ فارقهم وتبعتُه، وعرفت أنه متعام لسرعة ما عرَف الدينار. فلما نظمتْنا حلوة، مددت يمنايَ إلى يسرى عضديه، فقلتُ: والله لتريِّني سرَّك، أو لأهتكنَّ سِترك، ففتح عن توأَمتيه، وحدَر لثامه عن وجهه، فإذا والله أبو الفتح الإسكندريّ، فقلت له: أنت أبو الفتح؟ فقال: [مجزوء الرمل]

أنا أبو قلمونْ ... في كلّ لون أكُونْ
اختر من الكسب دوناً ... فإنّ دهرك دُونْ
زَجّ الزمان بحمقٍ ... إنّ الزمان زَبُونْ
لا تكذبنَّ بعقلٍ ... ما العقل إلا الجُنُونْ

وعتْب الحريريّ على العمى فائقٌ في النثر، وشعره في الاعتذار عنه رائق في النظم، وهو على انطباعه في القصد إذا أتى بالبيتين أتى بالعجَب، وهو في ذلك كما قيل في أبي منصور الفقيه: إذا رمَى بزُجَّية قتل.

* * *

قوله: «المخدع»، هو بيت داخل بيت، قال ابن الأنباريّ: هو الخِزانة في جانب البيت، وهو من خدع، إذا توارى واستتر، وأخدعه إخداعاً: أخفاه، فمن ضمّ ميم «مُخدع» فهو من «أخدع»، ومن فتح فهو من «خدَع»، وخدع الضبُّ في جُحره خدعاً: دخله خوفاً من صائده. الغَوْل: الأشنان، وهو النّقاوة، ويقال أيضاً: الغاسول، وكل ما غسلت به ثوبك أو رأسك فهو غِسْل وغَسُول. يَرُوق: يعجب. والطرف: العين. ينقّ: ينظّف. والبَشَرة: ظاهر الجلد. والنكهة: رائحة الفم، ونكهت الرجل أنكِهه وأنكَهه ـ والفتح أقلّ ـ واستنكهته، كلّه شممت فاه، قال الشاعر: [الوافر]

نكِهتُ مجالداً فشممتُ منه ... كريح الكَلْبِ ماتَ حَدِيثَ عَهْدِ[1]

(١) البيت للحكم بن عبدل في الحيوان ١/ ٢٥١، وبلا نسبة في لسان العرب (جلد)، (نجا)، (نكه)، =

واللّثة: اللحم على الأسنان. نظيف الظَّرف: نقيّ الوعاء. أريج العَرْف: عَطِر الرّائحة، والأرَج: فوْح الطِّيب وأرَج المسكُ: فاح. فتيّ الدقّ: طريّ الكسر. ناعم: حسن، قد بولغ في سحقه، يريد أنه في الحال الذي يسحق يستعمل. الناشق: الشامّ. والذّرور والكافور: من أنواع الطيب، والذَّرُور هو المعروف بالذَّريرة، والذَّرُور أيضاً: غُبار يُذَرّ في العين، وكلّه مأخوذ من الذَّرّ، وهو التفرّق، لأن أجزاءه تفرّقت عند سَحْقه، وفعلُه ذرّ، وأصلُه ذرَرَ والكافور مأخوذ من الكَفْر، وهو التغطية، فلِشدَّة فَوْحِه وحده يستر رائحة غيره من الطِّيب. واللاَّمس: الذي يمسُّه بيده. الخِلالة: عُوَيد رَقيق يخرج به الطعام من خلل الأسنان. أنيقة الشكل، معجِبة الهيئة، وشَكْل الشيء: هيئته التي هو عليها. ومدعاة: داعية، والهاء للمبالغة. نحافة الصَّبّ: رقّة العاشق. والعضْب: السيف القاطع. آلة: عدّة وأداة، يريد أنها محدّدة مصقولة مثل آلة الحرب. ويروى «ألّة» بالتشديد، وهي الحربة. لدونة: لين. نحافة الصبّ: ليس هو تشبيهاً حقيقيًا، وإنما أراد أنها أخذت من العاشق نحافَته، ومن العضب صقالته، ومن الغصن لُدونته، ولو شبّه الخِلالة في الرقّة بالعاشق ونحوله لكان جائزاً، وكان من التشبيه المقلوب، وكلاهما بديع في بابه.

والخِلالة التّي ذكر، أصلها نبات لشُجَيْرٍ ينبت في الصيف، وتطلع له رؤوس، يكون في الواحد منها عدّة من قضبان رِقاق، فيمسك الرجل منها في جيبه رأساً، فمتى أكل طعاماً نزع منها قضيباً فتخلّل به، ويعرف هذا النبات عندنا بالبستينج، فيحتمل أن يكون هذا بعينه هو الذي عندهم في المشرق، وإلا فصفته التي وصفت موجودة في البستينج من الرقة والصّفاء واللّين والحدة.

وجاء في الحديث النّهي عن التخلّل بعود الآس والرّمان والقصب، وقال رسول الله ﷺ: «نقّوا أفواهكم بالخِلال فإنها مسكن الملكين الكاتبين الحافظين، وإن قلمهما اللسان، ومدادهما الرّيق، وليس عليهما شيء أشدّ من فضول الطعام».

أبو أيوب: قال ﷺ: «حبّذا المتخلّلون في الوضوء والطعام»[١].

أبو هريرة قال: قال ﷺ: «من أكل فليتخلّل، فما تخلّل فليلفظ، ومالاك بلسانه فليبتلع»[٢].

= وكتاب العين ٣/ ٣٨٠، ٦/ ١٨٦، والمخصص ١١/ ٢٠٩، وتهذيب اللغة ٦/ ٢٤، ١١/ ٢٠٠، ومجمل اللغة ٤/ ٣٨٣، وتاج العروس (جلد)، (نكه)، (نجو)، ويروى: «قريب عهدٍ» بدل «حديث عهدٍ».

(١) أخرجه أحمد في المسند ٥/ ٤١٦.

(٢) أخرجه الدارمي في الوضوء باب ٥، والأطعمة باب ٤٢، وأبو داود في الطهارة باب ١٩، وابن ماجه في الطهارة باب ٢٣، وأحمد في المسند ٢/ ٣٧١.

[أشعار في التشبيه]

والخِلالة إذا بلغت من رقتها، أن تقع بين الأسنان، فالعاشق إذا بلغ الغاية النّحول، هو الذي يشبّه بها، كما قال في التاسعة في وصف الصبيّ الهزيل من الجوع: «ولي منه سُلالة، كأنها خِلالة»، وأخذه من قول ديك الجن: **[الخفيف]**

ارحَمِ اليومَ ذلّتي وخُضُوعِي فلقد صرت ناحلاً كالخِلاَلِ

وقال أبو الطيّب: **[البسيط]**

رُوحٌ تَرَدّد في مثل الخلال إذا أطارت الريح عنه الثوب لم يَبِنِ[1]

فذكر أنّ ثوبه على بدنٍ لم يتبين للناظر. والتشبيه المقلوب عندهم شيء مستظرف، ومذهب مستحسن كما قال ذو الرّمة: **[الطويل]**

ورملٍ كأوْرَاكِ العذارَى قطعتُه وقد جَلَّلتْه المظلماتُ الحنَادِسُ[2]

فقلب التشبيه، لأن العادة أن تشبَّه الأعجاز بكثبان الرمل، كما قال الآخر: **[الرجز]**

* مثل قضيبٍ تحته كثيبُ *

وكما قال الآخر: **[الطويل]**

وبيضٍ نضيراتِ الوجوه كأنّما تأَزّرْن دون الأُزْرِ رمْلاتِ عالجِ

وأخذه حبيب، وجوّد الصنعة حيث قال:

كم أحرزت قضُب الهنديّ مصلتةً تهتزّ من قُضبٍ تهتزّ من كُثُبِ

علق قوله: «من قضب تهتز» بـ «أحرزت» يلجّ لك بديع صنعته بسرعة، فإنه أراد: كم أحرزت قُضَب الهند وهي السيوف إذا أُصْلِتت من أغمادها، وهزّت. من قضب، أي قدود نساء. تهتزّ من كُثب، أي أكفال شبه أكداس رمال.

وما أعذب وأظرف قول البحتري: **[الكامل]**

أين الغزال المستعير من النَّقَا كفَلاً ومن نَوْرِ الأقاحي مبسما[3]

فهذا هو الذي جرت به العادة؛ في التشبيه، فقلب ذو الرمّة العُرف والعادة فشبّه كُثبان النَّقَا بأكفال النساء، وتبعه خالد الكاتب وغيره.

---

(١) البيت في ديوان المتنبي ٤/ ١٨٦.

(٢) يروى عجز البيت:

إذا ألبسته المظلمات الحنادسُ

وهو في ديوان ذي الرمة ص ١١٣١، ولسان العرب (ورك)، (جمل)، وتاج العروس (ورك).

(٣) البيت في ديوان البحتري ص ١٩٥٨.

حدث جحظة قال: حدثني خالد الكاتب، قال: جاءني يوماً رسول إبراهيم بن المهديّ، فسرت إليه، فرأيت رجلاً أسود على فُرُشٍ قد غاص فيها، فاستجلسني وقال: أنشِدْني من شعرك، فأنشدته: **[الطويل]**

رأتْ منه عيني منظرَيْن كما رأتْ ... من الشَّمس والبدرِ المنير على الأرْض
عشيَّة حيَّاني بوردٍ كأنَّه ... خدود أضيفتْ بعضهنّ إلى بَعْضِ
ونازعني كأساً كأنّ حبَابها ... دموعِيَ لمَّا صَدّ عن مُقْلَتِي غَمْضي
وراحَ وفعلُ الرَّاح في حركاتهِ ... كفِعْلِ نسيم الريح في الغُصن الغَضِّ

فزحف حتى صار في ثلثي الفراش، وقال: يا فتى، شبّهوا الخدود بالورد، وأنت شبهت الورد بالخدود! فزدني، فأنشدته: **[مجزوء الكامل]**

عاتبتُ نفسي في هوا ... كَ فلم أجدها تقبلُ
وأطعت داعِيها إليـ ... ـك ولم أُطِعْ من يعْذِل
لا والذي جعل الوجو ... ه لحسن وَجْهك تمثُلُ
لا قلت إن الصبر عَنْـ ... ـك من التَّصابي أجْمَلُ

فزحف حتى انحدر من الفراش، ثم قال: زدْني، فأنشدته: [الوافر]

عش فحُبّيكَ سريعاً قاتلي ... والضَّنى إن لم تصلني وَاصِلِي
فأنا بين اكتئابٍ وضَنًى ... تركاني كالقَضِيب الذّابل
فبكى العاذل لِي من رحمةٍ ... فبكائي لبكاء العاذِل

فاستخفّ طرباً، ثم قال: يا بليق، كم معك لنفقتنا؟ قال: ثمانمائة وخمسون ديناراً، قال: اقسمها بيني وبين خالد، فدفع إليّ نصفَها:

وقد سُبِق إلى قوله: «كأنه خدود»، قال المفضّل: دخلت على الرشيد وبين يديه طبق ورد، وعنده جاريةٌ مليحة شاعرة أديبة، قد أهديت إليه، فقال: يا مفضَّل، قُلْ في هذا الورد شيئاً تشبّهه به، فأنشأتُ أقول: **[البسيط]**

كأنه خَدُّ معشوقٍ يقبّلُه ... فم الحبيب وقد أبقى به خَجَلاً

وقالت الجارية: **[البسيط]**

كأنّه لون خدّي حين تدفعني ... كفُّ الرّشِيدِ لأمر يوجب الغُسْلاَ

فقال: يا مفضّل قم فاخرج، فإن هذه الماجنة قد هيَّجْتنا، فقمت وأرخيت الستور.

ولقد أحسن ابن الزقّاق في قوله: **[الخفيف]**

ورياضٍ من الشقائق أضحتْ ... تتهادى بها نسيم الرياحِ

زرتـهـا والـغـمـام يـجـلِـد مـنـهـا زهـــراتٍ تـــروق لـــونَ الـــرّاح
قلـت: مـا ذنبُهـا؟ فـقـال مُـجِيبـاً: سـرقـتْ حُـمْـرَةَ الـخـدود الـمِـلاَحِ

وقال البحتري: [البسيط]

في طلعة الشمس شيءٌ من ملاحتها وللقضيب نصيبٌ من تثنِّيها[1]

وقال ابن المعتزّ: [الطويل]

سقتنيَ في ليلٍ شبيه بشعرها شبيهةَ خدّيها بغير رقيب
فأمسَيْتُ في ليلين: في الشعر والدجى وشمسين: من خمر وخدّ حَبِيبِ

وأستطرد إلى قلب التشبيه من مبالغة النّحول الذي ذكِرنا، فأقول: إذا صار جسم العاشق من النحول يوصف بمثل قول الشاعر: [السريع]

أنـحـلـنـي الـحـبّ فـلـو زجّ بـي فـي مُـقْـلَـةِ الـنَّـائـم لـم يـنـتـبِـه
قـد كـان لـي فـيـمـا مـضـى خـاتـمٌ والآن لـو شـئـت تـمـنـطـقـت بِـهْ

وبمثل قول أبي بكر بن دُريد: [السريع]

إنَّ الـذي أبـقـيـتَ مـن جـسـمِـه يـا مـتـلـفَ الـصـبّ ولـم يَـشْـعُـرِ
صُـبـابـة لـو أنـهـا قـطـرةٌ تـجـول فـي جـفـنـك لـم تَـقْـطُـرِ

صار جسم الخِلالة على نحافته أكبر من جسم الصبّ بأضعاف، فينقلب التشبيه، وكذلك إذا بولغ في وصف الأكفال بالعِظَم صغرت عندها الكُثْبان، فينقلب التشبيه.

وقد ترجم ابن جنّي في خصائصه ترجمة، فقال: هذا باب من غلبة الأصول على الفروع، ثم أنشد بعض ما أنشدنا، وقرنها بمسائل من العربية حِسان تشبه الباب.

وللمتقدّمين والمتأخّرين في النحول شعر كثير، ويستحسن في ذلك قول المجنون: [الطويل]

فأصبحتُ من ليلَى الغداةَ كناظرٍ مع الصبّح في أعقاب نجم مغرّبِ[2]
ألا إنـمـا غـادرتِ يـا أُمَّ مـالـكِ صدًى أينما تذهبْ به الريح يذْهَبِ

أخذه المؤمّل فقال: [السريع]

قد صرتُ من ضعفي إلى حالَةٍ تـجـري لـهـا آمـاقُ حُـسَّـادِي
يـكـاد جسمي من نحول الضَّنَى تـحـمـلـه أنـفـاسُ عُـوَّادِي

(١) البيت في ديوان البحتري ص ٢٤١.
(٢) البيت لقيس بن الملوح في ديوانه ص ٦٤، ولسان العرب (غرب)، وبلا نسبة في المخصص ١/ ١٤.

وزاد خالد الكاتب، فجعله لا يُدرك إلا بالوهم، فقال: [البسيط]

يا من تجاهلَ عمّا كان يعمله … عمداً وباح بسرٍّ كان يكتُمُه

غَدَا خليلك نِضْواً لا حَراكَ به … لم يبق من جسمه إلا تَوَهّمُه

فزاد ابن المعتزّ، وجعله يخفى على الموت، فقال: [البسيط]

مُسَهَّدٌ خانه التفريق في أمَلِهْ … أضناه سيّدُه ظلماً بمرتحلِهْ

فدقّ حتى لو أن الدهر قادَ لهُ … حتفاً لما أبصرتْه مقلتا أجَلِهْ

فأعدمه المتنبيّ واستريح منه. فقال: [الطويل]

أراكِ حسبتِ السّلك جسمي فَعُقْتِهِ … عليك بدُرٍّ عَنْ لقاء التّرائبِ[1]

ولو قَلَمٌ أُلقيتُ في شَقِّ رأسِهِ … من السّقم ما غيَّرتُ من خَطِّ كاتِبِ

* * *

قال: فنهَضْتُ فِيما أَمرَ، لأدْرَأَ عَنْهُ الْغَمَرَ، وَلَمْ أَهِمْ إِلَى أَنّه قَصَدَ أَنْ يَخْدَعَ، بإِدْخَالِي الْمُخْدَعِ، وَلا تَظَنَّيْتُ أَنّه سَخِرَ من الرَّسُولِ، فِي اسْتِدعَاءِ الْخِلاَلَةِ وَالْغَسُولِ.

فَلَمَّا عُدْتُ بالْمُلْتَمَس، في أَقْرَبَ مِن رَجْعِ النَّفَسِ، وَجَدْتُ الْجَوَّ قَدْ خلاَ، وَالشَّيْخَ وَالشَّيْخَةَ قَد أَجْفلاَ، فاسْتَشَطْتُ منْ مَكْرِهِ غَضَباً، وَأَوْغَلْتُ فِي إثْرِهِ طَلَباً. فكانَ كَمَنْ قُمِسَ في المَاءِ، أَوْ عُرِجَ به إِلَى عَنانِ السَّماءِ.

* * *

قوله: «أدرأ»، أي أزيل. الغَمَر: الودَك. أهِم: أظنّ، ويذهب وهمي. تظنّيت: حسبت، وأبدل إحدى نوني «ظنّ» ياء تخفيفاً للتضعيف. سخر: هزأ. الملتَمس: المطلوب. الجوّ هنا: داخل البيت. أجفَلا: هربا وأسرعا. قوله: «استشطت»: اشتدّ غضبي. مكرِهِ: خداعِهِ. أوغلت: بالغت وباعدت. قُمِسَ: غمس. عُرِج به: طلع به. عَنَان بفتح العين: سحاب، والعَنَانة: السحابة، وأعنَّت السماء: صار لها عَنان، والله الموفّق للصواب.

---

(١) البيت في ديوان المتنبي ١/ ١٤٩.

المقامة الثامنة

وهيَ المعَريّة

[معرّة النعمان]

هي بلدة بالشام، والنُّعمان: اسم جبل مطلّ عليها، والمَعَرّة اسم البلدة، فأضيفت إليه، ولها سبعة أبواب، وعلى جبل منها دَيْر سمعان، فيه قبر عمر بن عبد العزيز، وقبر شيث بن آدم عند باب شيث منها، وداخلها قبر يوشع بن نون، وله يوم حَفِيل في كلّ عام، وإلى المعرّة ينسب الشاعر المعرّي. قال شيخنا ابن جبير: إنه خرج من قنَّسرين يريد حُمْص، قال: فرأينا عن يمين طريقنا بمقدار فرسخين بلاد المَعرَّة، وهي سواد كلها محاطةٌ بشجر الزيتون والتين والفُسْتق وأنواع الفواكه، ويتصل التفاف بساتينها وانتظام قُراها مسيرة يومين، وهي من أخصب البلاد، وأكثرها أرزاقاً، ووراءها جبل لبنان، وهو سامي الارتفاع، ممتدُّ الطول، متّصل من البحر إلى البحر، وفي سفح الجبل حصون للملحدة الإسماعيليّة، فرقة مَرَقَتْ من الإسلام، وادَّعت الإلهية، قيَّض لهم شيطان يعرف بسنان، خدعهم بأباطيل وخيالات، وموّه عليهم باستعمالها، وسحرهم بمُحالها، فاتخذوه إلهاً يعبدونه، ويبذلون الأنفس دونه، وحصلوا من طاعته بحيث يأمر أحدهم بالتردِّي من شاهق جبل، فيتردَّى المأمور، والله يضل من يشاء.

* * *

أخبر الحارثُ بن هَمام قالَ: رَأَيْتُ منْ أَعَاجِيب الزَّمَانِ، أَنْ تقَدَّمَ خَصْمانِ، إلَى قَاضي مَعَرَّةِ النُّعْمانِ، أَحَدُهُما قَدْ ذَهَبَ مِنهُ الأطْيَبَانِ، وَالآخَرُ كأَنَّهُ قَضِيبُ الْبَانِ.

* * *

قوله: «الأطيبان»، أي الأكل والنكاح، أي هو شيخ مسنّ، وقيل: الأطيبان: النوم والنكاح، وقيل: طيب النّكاح، وطيب النّكهَة.

أبو هريرة، قال النبيّ ﷺ: «الأطيبان التمر واللبن»[1].

وسئل شيخ مسنّ من العرب عن حله، فقال: ذهب مني الأطيبان: السَّيْر والأيْر، وبقي الأرْطبان: الضّراط والسّعال.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٣/ ٤٧٤، بلفظ: «فإن رسول الله ﷺ سماهما الأطيبين».

والبان: شجر تشبَّه بقضبانه القُدود الناعمة.

* * *

فَقال الشَّيخ: أَيَّدَ الله القَاضِي، كَمَا أَيّدَ بِهِ المُتَقَاضِي، إنَّهُ كانت لِي مَمْلُوكَةٌ رشيقة القَدِّ، أَسِيلةُ الْخَدِّ، صَبُورٌ على الكَدِّ، تَخبُّ أَحْيَاناً كالنَّهْدِ، وَتَرقُدُ أَطْوَاراً فِي المَهْدِ، وَتَجِدُ في تَمُوزَ مَسَّ البَرْدِ، ذَاتُ عَقْلٍ وَعِنانٍ، وَخَدّ وَسِنان، وَكَفٍّ ببنانٍ، وَفم بِلاَ أَسْنانٍ؛ تلْدَغُ بِلسَانٍ نَضْناضٍ، وَتَرْفُلُ فِي ذَيْلٍ فَضْفاضٍ، وَتُجْلَى في سوادٍ وَبيَاضٍ، وَتُسْقَى وَلَكِنْ مِنْ غَيرِ حِيَاضٍ، ناصِحَةٌ خُدَعَةٌ، خُبَأَةٌ طُلَعَةٌ، مَطْبُوعَةٌ على المَنْفَعِة، وَمِطْوَاعَةٌ في الضِّيقِ وَالسَّعَةِ، إذا قَطَعَتْ وَصَلَتْ، وَمَتى فَصَلْتَهَا عَنْكَ انْفَصَلتْ، وَطَالمَا خَدمَتْكَ فَجَمِلَتْ، وَرُبما جَنَتْ عَلَيْكَ فَآلَمَتْ وَمَلْمَلَتْ، وَإنَّ هَذَا الفَتَى اسْتَخْدَمَنِيها لِغرَضٍ، فَأَخْدَمْتُهُ إيَّاهَا بلاَ عِوَضٍ، عَلَى أن يَجْتَنِيَ نفعَهَا، ولاَ يُكلِّفَهَا إلاَّ وُسْعَها، فأَوْلَجَ فِيهَا مَتَاعَهُ، وَأَطَالَ بهَا استِمتاعَهُ، ثُمَّ أعادَهَا إلَيَّ وَقَدْ أَفْضَاهَا، وَبذَلَ عنْها قِيمةً لا أَرْضَاهَا.

* * *

المتقاضي، أي المتحاكَم إليه الذي يطلب من الحاكم قضاءه، وعونه على خصمه؛ وهذا الغرض الذي ذكره ضرب من الألغاز، لأنه مشى كلامه في وصف جارية وغلام، وقد ضمّن الكلام وصف إبْرَة ومرْوَد. مملوكة، يعني الإبرة جَعلها مملوكة لأنها مما يُتموّل. رشيقة القدّ: معتدلة القامة. أسيلة: ملساء. خدّ الإبْرة: شَقٌّ فيه ثقبها، وأصل الخدّ شَقّ مستطيل في الأرض، والأسالة: ملاسةٌ مع طول.

صبور على الكدّ، أي صابرة على المشقّة والتعب، وفعول ـ بمعنى فاعل ـ يمتنع من إلحاق الهاء به إذا وقع صفة لمؤنث، قال عنترة: **[البسيط]**

إنِّي امرؤٌ سهلُ الخليقة ماجدٌ لا أُتبِع النَّفسَ اللَّجُوجَ هَوَاهَا

ومنه: امرأة شكُور وصَبُور ولَجُوج ولحَّن أبو محمد خواصّ العراق بقولهم: شكورة ولجوجة وصبورة، قال: إنّ هذه التاء إنما تدخل في «فعول» إذا كانت بمعنى «مفعول»، نحو ناقة رَكوبة وشاة حلوبة. قال: وذكر النحويّون في امتناع الهاء من «فعول» بمعنى «فاعل» للمؤنث عِلَلاً، أجودُها أن الصفات الموضوعة للمبالغة نقُلت عن بابها لتدلّ على المعنى الذي تخصصّت به، فأسقِطت الهاء من صبور وفتاة معطار ونظائره؛ كما ألحقت بصفة المذكّر في رجل علاّمة ونسّابة، ليدلّ على تحقيق المبالغة، وتؤذن بحدوث معنى زائد في الصفة. وامتناع الهاء المذكورة في أصل مطّرد [لم يشذّ منه إلا قولهم]: عدوّة، فإنهم ألحقوه بصَدِيقة، والشيء في أصول العربية [قد] يُحمَل على ضدّه ونقيضه، كما يحمَل على نظيره ورَسيله.

تَخُبّ: تثب في الثوب بسرعة. النَّهد: الفرس الضَّخم. أطواراً: أحياناً، ومهدها: مئبر الخائط الذي تُمسك به إبرته. تَمُوز: أحد الشهور، وهو يوليه. والبرد: أن يبردها الحدّاد بالمِبْرد ليقوّمها ويعدّلَها، فالبرد هنا فعْل صانعها. قال ابن ظَفر: ذهب بالبرْد إلى ما طُبع عليه الحديد من البَرْد في القيظ. قوله: «ذات عقل وعنان»، أراد بالعِنان الخيط لأنها ترسلُه في الخياطة، والعقل شدّها بالخيط حين تمسك في الثوب. سنان: طرفها المسنون، أي المحدّد. كفّ ببنان: الكفّ والتضريب شيئان معروفان في الخياطة، فيريد أن الخائط يقلّب التضريب بأصابعه وهي البَنان ويكفّه بالإبرة. فم، يريد ثقب الإبرة. تلدغ: تضرب الإصبع. واللسان النضناض للحيَّة، والنَّضْنَضَة، قيل: هي صوت الحيَّة، وقيل: حركة لسانها، وإنما اختُلِفَ فيها لأن الحيَّة إذا ضُيّق عليها فتحت فاها وصفرت وحركت لسانها، فيقال: نضنضتْ، وشبّه طرف الإبرة بلسان الحيّة لكثرة حركته في الثوب؛ وما أحسن قول الشاعر في تشبيه لسان الأفعى بنُورِ السِّراج: **[الوافر]**

وقـنـديـلٍ كـأنَّ الـنُّـورَ مـنـه ... مـحـيًّـا مَـنْ أحِـبّ إذا تَـجـلَّـى[1]

أشار على الدُّجى بلسانِ أفْعَى ... فـشـمَّـر ذيـلَـه فَـرَقـاً وَوَلَّـى

وقال ابن الصبّاغ الصقليّ في شمعة: **[المنسرح]**

يـطـعـنُ صـدْرَ الـدجـى بـعـالـيـةٍ ... صَـنْـوبَـرِي لـسـانُ كـوكَـبِـهَـا

كـحـيَّـةٍ بـالـلـسـان لاحـسـةٍ ... مـا أدركـت مـن سـواد غـيـهْـبِـهَـا

وللبيتين الأوّلين حكاية مستظرفة، حدّثني بها غير واحد من الطّلبة أردت ترك ذكرها لأمرين: لشهرتها، ولأني وجدت البيتين مثبتين في بعض النّسخ من القلائد لأحد رجالها، ثم عزم عليّ بعض الأدباء أن أذكرها، فذكرتها على اختصار لفائدتها؛ وذلك أن الشاعر المعروف بالبكيّ الهجّاء، دخل عليه في ليلة ماطرة ذات رعد وبرق في بيت فندق دوابّ ـ شخص في الظّلام لا يعرفه، وعلى البكيّ بقية من سِلْهامة خَلَقة، لا يواريه غيرُها، وعلى الثاني بقيّة من قميص قد أسودَّ من طول البلى وكثرة الأوساخ، حتى لا يعرف رائيه من أيّ ثوبٍ هو؛ وقد بُلل كلَّ واحدٍ منهما المطر. وهما في بلاء من الفقر والجوع والبرد، فرَقَّ لهما خادم الفندق، فدخل عليهما بقنديل، فعندما نظر كلّ واحد منهما صاحبه تأسّى به، ورأى أنه قد وجد لنفسه نظيراً في الشقاء. فقال البكيّ لجليسه: أيّ شيء أنت؟ فقال: شاعر، وشؤم الأدب بلغ بي ما ترى، قال: فأجِزْ، فقال: **[الوافر]**

* وقـنـديـلٍ كـأنَّ الـنُّـورَ مـنـه *

---

(١) البيتان لأبي جعفر بن البني الأندلسي في تاج العروس (بنن).

فقال الآخر: [الوافر]

* مـحـيًّـا مـن أحـبّ إذَا تـجـلّـى *

فقال البكيّ: [الوافر]

* أشـار عـلـى الـدُّجى بـلـسـانِ أفْـعَى *

فقال الآخر: [الوافر]

* فـشـمَّـر ذيـلـه فـرقـاً وَوَلَّـى *

فقال له البكيّ ـ وقد أعجب به: بمن تعرَف؟ فقال: بعنق البرة، قال له: وأنا البكيّ، فجعلا يتناظران بقيّة ليلتهما في أيّهما أكثر حرماناً، حتى أصبحا وكانا يتلمسان. فقال عنق البرة للبكيّ: هلمّ لنقترع؛ أيّنا يقيم هنا، وأيّنا يرتحل؟ فإنا إن بقينا في موضع واحدٍ، أدرك الناس من شؤمنا ما يؤدّي بهم إلى الهلاك، فاقترعا فخرجت قرعة البكيّ بالرحيل، فارتحل ونزل بفاس، فحلّ بأهلها من بلائه ما قد شُهِر.

قوله: «ترفل في ذيل فضفاض»، أي تمشي في خيط طويل. تجلّى في سواد وبياض، أي تبرز في خيط أسود لخياطة السواد، وأبيض لخياطة البياض. تسقى: أراد سقي الحدّاد لها إذا أخرجها من النار وألقاها في الماء لتصلُب. ناصحة: خائطة، والنّصاح: الخيّاط، ونصحتُ الثوب: خطته. خُدَعة: تخدع الخائط كثيراً، فتخيط وجه الثوب الأعلى، وتترك الأسفل، والهاء في هذه الصفات للمبالغة. خُبأة طُلَعة؛ يصف حالها من الخياطة حين تختبىء في الثوب، ثم تطلع في يد الخائط. مطبوعة أي مصنوعة لينتفع بها. مِطواعة في الضيق والسّعة؛ يريد إذا دفعتَها في الثوب دخلت فيه، سواء اتّسع موضع دخولها أو ضاق. إذا قطعت وصلت، يريد إذا قطعت الثوب وفصّلته ألّفته. فضْلَتها عنك: نحيّتها، وجعلتها في مئبرها. خدمتْك، أي صرفتها فيما تحتاج من خياطة ثيابك. جَمَّلَتْ: ألّفت قطع الثوب. جنت عليك فآلمت، أي ضربتك فأوجعتك وصيَّرتْك ذا ألم. ململت، أي جعلتك متقلّباً لشدة الوجع. قوله: «استخدمنيها»، أي طلب مني خدمتها. الغَرَض: الحاجة، وأصل الغَرض ما قصَدَته سهام الرامي، ثم سميت الحاجة غرضاً، لأنها قُصدت بالرغبة فيها. وسْعها: طاقتها وقَدْر ما تحتمل مما تكلف. أولج فيها متاعه، أي أدخل فيها خَيْطه. أفضاها: خرق عينها، وفي المرأة خلط مسلكيْها، من أفضيت إلى الشيء، وصلت إلى متّسعه، ومنه: القوم فوضى، أي متسعون مختلطون. بذل: أعطى.

* * *

فقَالَ الْحَدَث: أَمَّا الشَّيْخُ فأَصْدَقُ منَ القَطا، وَأَمَّا الإفْضَاءُ فَفَرَط عَنْ خطَا، وقدْ رَهَنْتُهُ، عَنْ أَرْشِ ما أَوْهَنْتُهُ، مَمْلُوكاً لِي مُتَناسِب الطَّرَفَيْن، مُنْتَسِباً إلى القَيْنِ،

نَقيًّا مِنَ الدَّرَن والشَّيْنِ، يُقارِنُ مَحَلُّهُ سَوَادَ الْعَينِ، يُفْشِي الإحْسَانَ، وَيُنْشِي الاسْتِحْسَانَ، وَيُغْذِي الإنْسَانَ، وَيَتَحامَى اللِّسَانَ، إنْ سُوِّدَ جادَ، أَوْ وَسَمَ أَجَادَ، وَإِذَا زُوِّدَ وَهَبَ الزَّادَ، وَمَتى اسْتُزِيدَ زَادَ، لا يَسْتَقِرُّ بمغْنًى، وَقَلَّمَا يَنْكِحُ إلاَّ مَثْنَى، يَسْخُو بِمَوْجُودِه، ويَسْمُو عِنْدَ جُودِه، وَيَنْقَادُ مَعَ قرِينَتِهِ، وَإنْ لم تَكُنْ مِنْ طِينَتهِ، وَيُسْتَمْتَعُ بزِينَتِهِ، وإن لَمْ يُطْمعْ في لِينَتِهِ.

* * *

[القطا]

القَطَا: طائر يصيح «قَطَا قَطَا» فسمِّي بصياحه، وبما يُفهم من صوته، ولذلك تسمِّيه العرب الصَّدُوق، ويقال: أنسَب من قطاة، لأنها إذا صاحت عرِفت، وقال الشاعر: [البسيط]

تدعو القطا وبه تدعى إذا انتسبتْ ... يا صِدْقَها حين تدعوها فتنتسبُ[1]

حمراءُ مقبلةً سَكَّاءُ مدبرةً ... للماء في البحر منها نَوْطة عَجَبُ

وقال الكميت: [البسيط]

لا تَكْذِب القول إن قالت قطا صدقَتْ ... إذ كلّ ذِي نسبةٍ لا بُدّ ينتحِلُ[2]

وقال أبو وجْزة: [البسيط]

ما زلن ينسُبْن وَهْناً كلّ صادقة ... باتت تباشر عُرْماً غير أزواجِ[3]

يريد، أن الحمير وَردَت الماء ليلاً، فأثارت القطا عن أفاحيصه، فَصاحت: «قطا

---

(١) يروى صدر البيت الأول:

تدعوا قطاً وبه تُدعى إذا نُسِبَتْ

وهو للنابغة في ديوانه ص ١٧٧، ولسان العرب (دعا)، (قطا)، وتهذيب اللغة ٣/ ١٢٣، ٩/ ٢٤٠، وتاج العروس (قطا)، ويروى البيت الثاني:

حذّاء مقبلةً سكّاء مدبرةً ... للماء في النحر منها نوطة عجبُ

والبيت للنابغة الذبياني في ديوانه ص ١٧٧، ولسان العرب (حذذ)، (نوط)، وتهذيب اللغة ٣/ ٤٢٦، ٩/ ٤٣٠، وجمهرة اللغة ص ٩٦، ١٠٧٣، والبيت لابن مقبل في المخصص ٨/ ١٣٢، وليس في ديوانه، وبلا نسبة في لسان العرب (سكك)، والمخصص ١/ ٨٥، وكتاب العين ٣/ ٢٣، وجمهرة اللغة ص ١٠٤٨، ومقاييس اللغة ٢/ ٥، وتاج العروس (سكك).

(٢) البيت في الحيوان ٦/ ٥٧٨.

(٣) البيت لأبي وجزة السعدي في لسان العرب (زوج)، (هدج)، (عرم)، (قطا)، وتاج العروس (عرم)، (قطا)، وتهذيب اللغة ٢/ ٣٩٢، ٩/ ٢٤١، وبلا نسبة في المخصص ٤/ ٤٦.

قطا»؛ فذلك انتسابه وجعلها صادقة لصياحها قطا، والعُرْم بيضها، لأن فيه سواداً وبياضاً، وبَيْض القَطا أفراد ثلاثة أو خمسة، قال مزاحم العقيلي في القطا وفراخها: [الطويل]

فلمّا دعَتْه بالقَطاة أجابَها ... بمثل الّذي قالت له لم يبدّلِ[1]

وقال المعرّيّ: [الكامل]

عُرِفت جُدُودك إذ نقطتَ وطالمَا ... لفظ القطا فأبان عن أنْسَابِها

وقال الأصمعيّ: القطا لا تصيح إلا إذا أرادت الماء، فإذا عدم الماء، وسمعت العرب صياح القطا، فرحوا به وعرفوا قُرْب الماء من بعده.

وقيل: سُمِّي القطا لثقَل مشيِه، يقال: قَطَا الرجل يَقْطُو، إذا ثَقُلَ مشيه.

* * *

قوله: «فرط» أي سبق. عن خطا، أي عن غير تعمّد. رهنته: أعطيته رهْناً، وأرهنتك: أعطيتك ما ترهنه. والأرْش: قيمة العيب، أي دية الجُرح، مأخوذ من أرَشَ بين القوم لأنّ الأرش يُختصم في قدره. أوْهنته: أفسدته، ووهن الشيء يَوْهَنُ ويهِن: ضعُف، وأَوْهنته أنا، إذا أضعفته. مملوكاً، يعني المرود. متناسب الطرفين، أي هذا الطرف مثل هذا الطرف، تكتحل بأيِّهما شئت. القَيْن: الحدَّاد الذي صنعه. الدّرَن: وَسَخ الحديد، والشَّيْن: العيب، أي هو مصقول معتدل ليس فيه اعوجاج ولا عيب. يقارن محلّه سواد العين أي عند التكحّل به. يفشي: يحدِث ويظهر. وإحسان الكَحَل في العين لا يخفى. ينشيء استحسان، أي ينشيء لناظر العين استحسان الكحل في العين والإنسان: إنسان العَيْن يغذيه بالكُحْل، والإنسان: السَّواد الذي في وسط العين، إذا رأيته رأيت فيه شخصاً، والشخص هو الإنسان، فسُمِّيَ السواد به. يتحامى: يبعد عنه، يريد أنه يكحل العين ولا يقرب من الفم. قوله: «سُوِّد»، أي جعل فيه الكحل. جاد: أعطاه العين. وَسَم العين بالكحل: أجاد عمله فيها. قلمّا ينكح إلا مثنى، أي ينكح عينا واحدة في الغالب. وقد نظم هذا النثر في الثانية والأربعين.

جوده، أي يجود بكحله للعين. ويسمُو: يطلُع للعين، وجعل له الكحل غذاء يأخذ ويرتفع به للغير. قرينته: مُكحلته. من طينته: من جنسه. زينته: تزيينه للعين يُطمع في لينته: أي لا يطمع أن يكون الحديد ليِّنا. وكلّ لفظة فسرّ بها المرود والإبرة، لها لفظ في ظاهرها غير ما فسّرت به.

* * *

فقال لهمَا القاضي: إمَّا أَنْ تُبِينَا، وَإلا فَبِينَا، فابْتَدَرَ الْغُلاَمُ، وَقال: [المنسرح]

---

(١) البيت في الحيوان ٥/ ٥٧٨.

أَعـارَنـي إِبْـرَةً لأرْفُـوَ أَطْـ ـماراً عَـفَـاهَـا الـبِـلَـى وَسَـوَّدَهَـا
فـانْـخَـرمَـتْ فِـي يـدِي عَـلَـى خَـطَـإٍ مِـنّـيَ لَـمَّـا جَـذَبْـتُ مِـقْـوَدَهـا
فـلَـمْ يَـرَ الـشَّـيْـخُ أَنْ يُـسَـامِـحَـنِـي بِـأَرْشِـهَـا إِذْ رَأَى تَـأَوُّدَهَـا
بـلْ قَـالَ هَـاتِ ابْـرَةً تُـمـاثِـلُـهَـا أَوْ قِـيـمَـةً بَـعْـدَ أَنْ تُـجَـوِّدَهَـا
واعْـتَـاقَ مِـيـلِـي رَهْـنـاً لَـدَيْـهِ وَنَـا هَـيـكَ بِـهـا سُـبَّـةً تَـزَوَّدَهَـا
فـالْـعَـيْـنُ مَـرْهَـى لِـرَهْـنِـهِ وَيـدِي تَـقْـصُـرُ عَـنْ أن تَـفُـكَّ مِـرْوَدَهَـا
فـاسْـبُـرْ بِـذَا الـشَّـرْحِ غَـوْر مَـسكَـنَـتِـي وارْثِ لِـمَـنْ لـم يَـكُـنْ تَـعَـوَّدَهَـا

* * *

تبينا: توضّحا وتفسّرا حديثكما المهمّ الملغز. فبينا: أبعدا، أو ارتفعا. قوله: «أرفو» أي أخيط، ويروى «لأرفأ» يقال: رفأت الثوب أرفؤه ورفوته وأرفوه، والرفو من أدقّ أنواع الخياطة، وهو نسج الخرق في الثوب حتى يعود كأنه لم يكن فيه خرق.

وقال ابن القابلة السبتيّ في غلام رفّاء: **[مخلع البسيط]**

يـا رافـيـاً قـطـع كـلّ ثـوبٍ ويـا رَشـا حَـبّـةَ اعـتـمـادي
عـسـى بـخـيـطِ الـوصـالِ تـرفُـو مـا قـطَّـع الـهـجـرُ مـن فـؤادِي

وقال الحلوانيّ في خياط: **[المديد]**

ربّ خـيّـاطٍ فُـتـنـت بـه فـتـنـة أوهَـتْ قُـوَى جَـلَـدِي
لاعـبٌ بـالـخـيْـطِ يـفـتـلُـهُ أتـراه ظـنّـه جَـسَـدِي!
لـيـت أنـي كـنـتُـهُ فـأُرَى بـيـن ذاك الـدُّرّ والـبَـرَدِ
فـعـلـتْ بـالـثّـوب إبـرتُـه فـعلَ سـهـم الـشَّـوْق فـي خَـلَـدِي
وجـرى الـمِـقْـرَاض فـي يـدِهِ جَـرْيَ عـيـنـيْـه عَـلَـى كَـبَـدِي

ومن مجون أبي نواس، أنه كان يؤاكل إسماعيل بن أبي سهل، فعرضت له على مائدة رُقاقة في جانبها خُرْق قد ضمّ، فرفعها بإحدى يديه ونقَرَها بالأخرى، فانفرجت، وقال وهو يضحك: أخبزكم مرفوء؟ فلما خرج قال: **[الرمل]**

خـبـز إسـمـاعـيـل كـالـوَشْـ ـي إذا مـا انـشـق يُـرْفَـا
عـجـبـا مـن أثـر الـصـنـ ـعـة فـيـه كَـيْـفَ يـخـفَـى
إنّ رَفَّـاءَك هـذا ألـطـف الأمّـة كـفّـا
فـإذا قـابـل بـالـنّـصْـ ـف مـن الـخـبـزةِ نِـصْـفَـا
ألـطـف الـصَّـنـعـة حـتـى لا تـرى الـمِـغْـرَزَ أَشْـفَـى

مـثـل مـا جـاء مـن الـتّـنُـ ـور مـا غـادَرَ حَـرْفَـا

والأطمار: الثياب الخَلَقة، واحدها طِمْر. عفاها البلى: غَيَّرها القدم ودرسها، وسوَّدها بالأوساخ حتى صارت في طبع الثوب، فمتى غسلت لم تزل.

ومما قالت الشعراء في الأطمار مِمّا يستحسن قول الحمدونيّ في طيلسانٍ وَهَبَه له أحمد بن حرب المهلبيّ: [الخفيف]

يـا بـن حـرب أطـلـت هَـمّي بـرفْـوِي طـيـلـسـانـاً قـد كـنـتُ عـنـه غـنـيًّـا
فـهـو فـي الـرّفـو آل فـرعـون فـي الـعَـرْ ض عـلـى الـنـار بـكـرةً وعـشـيّـا

وقال أيضاً فيه: [الرمل]

طَـيْـلَـسـانٌ لابـن حـربٍ يـتـداعَـى لا مَـسَـاسـا
قـد طـوى قَـرْنـاً فـقـرنـاً وأنـاسـاً فـأنـاسـا
لَـبِـسَ الأيـام حَـتَّـى لـم تَـدَعْ فـيـه لِـبَـاسَـا
غـاب تـحـت الـحـسّ حـتـى لا يُـرى إلا قِـيَـاسَـا

وقال فيه أيضاً: [المنسرح]

قـل لابـن حـرب مـقـالـة الـعـاتـبْ ولـسـتُ فـيـمـا أقـولُ بـالـكـاذِبْ
أمـا رأيـت الـرفـاء يُـحـزنـنـي بـرفْـوِهِ طـيـلـسـانَـكَ الـذَّاهِـبْ
أفـنـاه جَـوْرُ الـبِـلَـى عـلـيـه كـمـا أفْـنَـى الـهـوَى عُـمـرَ خَـالـدِ الـكـاتِـبْ

وقال فيه أيضاً: [السريع]

إن ابـن حـربٍ جـادلـي كـاسـيـاً بـطـيـلـسـان هَـرِمٍ قَـشْـعَـمِ
انـظـر إلـى كـثـرة تـمـزيـقِـه كـأنـمَّـا مُـزّق فـي مـأتَـمِ
رفـوى لـه وهـو رمـيـمٌ كـمـن يـبـنـى بـنـاء فـوق مـسـتـهـدَمِ
يـصـدعـه الـلّـحـظ بـإيـمـاضِـهِ صـدع فـؤاد الـعـاشـق الـمـغـرَمِ
يُـذْكِـرُنـي كـثـرةُ تـمـزيـقِـه تـفـرّقَ الـنـاس عـن الـمـوْسـمِ

وقال فيه أيضاً: [الخفيف]

يـا بـن حـربٍ كـسـوتَـنِـي طـيـلـسـانـاً مـلّ مـن صـحـبـة الـزمـان وصَـدّا
طـال تـردادُهُ إلـى الـرفـو حـتّـى لـو بـعـثـنـاه وحـدَهْ لَـتَـهـدَّى
فَـحَـسِـبْـنَـا نـسج الـعـنـاكـب قـد جِـئـنَ إلـى ضـعـف طـيـلـسـانـك شـدّا

وقال أيضاً فيه: [السريع]

يا قاتل الله ابن حربٍ لقد ... أطال إتعابي على عَمْدِ
بطيلسانٍ خلتُ أنّ البِلَى ... يطلبه بالوِتْر والْحِقدِ
أجدّ في رفوِي له والبِلَى ... يلُهو به في الهَزْل والَجدِّ
إن أتهم الرافي في رَفْوِهِ ... مضى به التمزيقُ في نَجْدِ
غَنَّيته لما مضى راحلاً: ... تركتني يا واجدي وَحْدِي

والحمدونيّ هو إسماعيل بن إبراهيم حمدويه، نُسب إلى جده، وهو من أهل مَيْسان، وكان حلو التصرّف مليح الافتنان، وهو القائل: [السريع]

من كان في الدنيا له شارةٌ ... فنحن من نظّارة أَدْنَى
نلحظها من كثَبٍ حَسْرَةً ... كأننا لفظ بلا مَعْنَى

وقال ابن الروميّ في طيلسانه: [الطويل]

ولي طيلسانٌ ناحلٌ غير أنَّه ... ثَبوت لهمات الريّاح الزَّعازِعِ
وما ذاك إلا أنه متهتّكٌ ... يخلى سبيلَ الريح غير مُنازَعِ
أراه لضوءِ الشمس بالعين رؤيةً ... ويمنعني من لمسه بالأصابع
شكا ثقل اسم الطيلسان لضعفِه ... فسميته ساجا فهَل ذاك نَافِعي!

وقال ابن سارة في فروة: [الكامل]

أودت بذات يدي فُرَيْوةُ أرنبٍ ... كفؤاد عُروة في الضَّنا والرِّقَّةِ
يتجشم الرَّفَّاءُ في ترقيعها ... بعد المشقة في قَريبِ الشُّقَةِ
لو أنَّ ما أنفقت في ترقيِعها ... يحصَى لزاد على رمال الرّقةِ
إن قلتُ: «باسم الله» عند لباسِها ... قرأت عليّ «إذا السماء انشقَّتِ»

وله فيها أيضاً: [الكامل]

لي فروةٌ وصفي لجائحتي بها ... يأتيك بين مقرّطٍ ومشنّفِ
عطَّلْتُ كتب أبي عبيدِ بالذي ... ألفَّتُ فيها من غِريبِ مُصَنّفِ
يسطو عليّ الغرم في ترقيعها ... سطوَ الغرام على فؤاد المدنَفِ
فأنا وفروى خوف تمزيقي لَهَا ... أحكي معاويةً بجنب الأحْنَفِ

وله في طيلسانه: [السريع]

وطيلسان هَرِمٍ يُحتَمَى ... عليه أكلُ الخلّ والبقلِ
كأن كفَّيَّ إذا انضمَّتا ... عليه خوف الرّيح في غُلِّ

ولبعض أصحابه فيه: [المتقارب]

علـى منكـب ابـن عـلـيّ سَـمَـلْ ... تـقـطّـعـه لـحـظـات الـمُـقَـلّ
إذا غـيَّـم الـجـوّ أبـصـرتـه ... رهـيـن الـذّبـول بـكـفّ الـبَـلَـلْ
نـسـوا طـيـلـسـان ابـن حـربٍ بـهِ ... وصـاروا بـه يـضـربـون الـمَـثَـلْ

وله في غِفارته: [المجتث]

لأحـمـد بـن عـلـيٍّ ... غِـفَـارةٌ كـالـسَّـرَابِ
إن هـبَّ أدنـى نـسـيـمٍ ... تـمـرّ مـرّ الـسَّـحَـابِ

والشعر في هذا الباب كثير.

وقوله: «انخرمت»، أي انكسرت. مقودها: خيطها. تأوّدُها: انكسارها، وأصله الاعوجاج. أعتاق مِيلي: أحبس مِرْوَدِي. ناهيك: كافيك، ومعناه المبالغة، كأنه بلغ النهاية في العَيْب الذي فعل. سُبَّة: عيب يُسَبّ به. مَرْهَى: خالية من الكُحْل، وقد مَرِه الرجل مَرَهاً إذا لم يتعهد الكهل، والمَرْهَى من النساء: البيضاء البينة الزُّرَق الذي يختصّ الكحل في زرَقها. اسْبُر: قِسْ. غَوْر: غاية وقَدْر. ارثِ: ارحم وتوجع.

* * *

فأَقْبلَ الْقَاضِي عَلَى الشَّيخِ، وَقالَ: إيه، بِغير تَمْويه، فقال: [المنسرح]

أَقْـسَـمْـتُ بـالْـمَـشْـعَـرِ الْـحَـرَامِ وَمَـنْ ... ضَـمَّ مِـنَ الـنَّـاسـكِـيـنَ خَـيْـفَ مِـنَـي
لَـوْ سَـاعَـفَـتْـنِـي لـم يَـرُنِـي ... مُـرْتَـهِـنـاً مِـيـلَـهُ الَّـذِي رَهَـنَـا
وَلاَ تَـصَـدَّيْـتُ أَبْـتَـغِـي بَـدَلاً ... مِـنْ إبْـرَةٍ غَـالَـهَـا وَلاَ ثَـمـنَـا
لَـكِـنَّ قَـوْسَ الْـخُـطُـوبُ تَـرْشُـقُـنِـي ... بِـمُـضْـمِـيَـاتٍ مِـنْ هـا هـنَـا وَهُـنَـا
وَخُـبْـرُ حَـالِـي كَـخُـبْـرِ حَـالَـتِـهِ ... ضُـرًّا وَبُـؤْسـاً وَغُـرْبَـةٍ وَضَـنَـى
قَـد عَـدلَ الـدَّهْـرُ بَـيْـنَـنَـا فـأَنَـا ... نَـظِـيـرُه فـي الـشَّـقَـاءِ وهْـوَ أَنَـا
لا هُـوَ يَـسْـتَـطِـيـعُ فَـكَّ مِـرْوَدِهِ ... لَـمَّـا غَـدَا فـي يَـدَيَّ مُـرْتَـهِـنَـا
وَلاَ مَـجَـالِـي لِـضِـيـقِ ذَاتِ يـدِي ... فـيـهِ اتِّـسَـاعٌ لِـلْـعَـفْـوِ حِـيـنَ جَـنَـى
فَـهِـذِهِ قِـصَّـتِـي وَقِـصَّـتُـهُ ... فـانْـظُـرْ إلَـيْـنـا وَبَـيْـنَـنَـا وَلَـنـا

* * *

إيه: كلمة يُستزاد بها الحديث. والتمويه: الكذب، وهو في الحديث كالتعمية، وقد موّه عليه، إذا خيّل له أنّه على شيء وهو على ضدّه، وأصل التمويه الصَّقْل، كأنَّ على ألفاظه المموّهة صقالة، وهو من لفظ الماء. المَشْعر: المزدلفة، وهو جمع، سُمِّيَ مشعراً

لأنه من علامات الحج، وكلّ علامات الحج مشاعر، والمَشْعر والمَنْسك: موضع ذبح الهَدْى بمكة المفضَّل، سُمِّي مشعراً، لأنه شعر أنه حرام كالبيت. الناسكين: الحجّاج الذين يُشعرون الهَدْى وما يُنحر، أنَسك ونسُكَ مَنسكاً ونَسْكاً ونَسَكاً، إذا ذبح النُسُك، وأصلها ذبائح الجاهلية ثم سُمّيت الأضاحي، والنّاسك أيضاً: الزاهد. خَيْف: موضع بمِنى. قوله: «ساعفتني»: ساعدتني. تصدّيت: تعرّضت. غالها: أهلكها. الخطوب: الأمور الشداد. ترشقني: تصيبني. بمصميات: بسهام قاتلة. بؤس: شدّة حال. ضنًى: ضعف ومرض. وهو أنا، أي هو مثلي في ضيق الحال. مجالي: موضع تصرّفي. ذات يدي: مالي، وذات اليد ما يُملَك. العفو: الغفران. جَنَى: أذنب. قصّتي: حديثي، يقول: فانظر إلينا بعين الشفقة والرحمة، وأصلِحْ بيننا بما ننصرف به شاكرين لك، وهبْ لنا ما نُثني به عليك، وجعل النّظر عاملاً في الجميع، لأن من وجوه النّظر الإصلاح بينهم والتكرّم عليهم.

* * *

فلَمَّا وَعَى القَاضِي قَصَصَهُمَا، وتَبَيَّنَ خَصَاصَتَهما وَتَخصُّصَهُمَا؛ أَبْرَزَ لَهُما دِينَاراً مِنْ تَحْتِ مُصَلاَّهُ، وَقَالَ لَهُما: اقْطَعَا به الْخِصامَ وَافْصِلاَهُ. فتَلقَّفه الشَّيْخُ دُونَ الْحَدَثِ، واسْتَخْلَصَهُ عَلَى وَجْهِ الْجِدِّ لا الْعَبَثِ، وقالَ لِلحَدَثِ: نِصْفُهُ لِي بِسَهْمِ مَبرّتِي، وسهْمُكَ لِي عَنْ أَرْشِ إِبْرَتِي، وَلَسْتُ عَنِ الحَقِّ أَمِيلُ، فقم وَخذِ المْيلَ. فعَرا الحَدَثَ لِمَا حَدَثَ اكْتِئَابٌ، وَاكْفَهَرَّ عَلَى سَمائِهِ سَحَابٌ، وجَمَ لهُ الْقاضِي، وَهَيَّجَ أَسَفَهُ عَلَى الدِّينارِ الماضِي؛ إلاَّ أَنَّهُ جبرَ بالَ الْفَتَى وبَلْبَالَهُ، بدُرَيْهِماتٍ رَضَخ بهَا لَهُ، وقالَ لَهُما: اجتَنِبَا المعَاملاَتِ، وَادْرَآ الْمُخَاصمَاتِ، وَلاَ تَحْضُرَانِي فِي الْمُحَاكَماتِ، فمَا عِنْدِي كِيسُ الْغَرامَاتِ.

فنهَضَا مِنْ عِنْدِهِ، فرِحِينَ برِفْدِهِ، مُفْصِحِينَ بحَمْدِه، والْقَاضِي مَا يَخْبُو ضَجَرُهُ، مُذْ بَضَّ حَجَرُهُ، وَلاَ يَنْصُلُ كَمَدُهُ، مُذْ رَشَحَ جَلْمَدُهُ.

* * *

قصصهما، أي حديثهما، وهو جمع قِصّة. خصاصتهما: فقرهما. تخصّصهما: رفعتهما وانقباضهما، وقد تخصّص الرجل، إذا انقبض عن العامّة وتشبّه بالخاصّة، أبرز: أخرج. مصلاّه: بساطه الذي يصلّي عليه. أفصلاه: اقطعاه وأزيلاه. استخلصه: حازه لنفسه خالصاً. الجِدّ: التحقيق. العبث: الهزل. سهم: نصيب. مبرّتي: إكرامي الذي وصلني به القاضي. أميل: أخرج وأعدِل عنه. عَرَا: قصد ونزل به. حَدث: ظهر. اكتئاب: حُزْن وهَمّ. وجَم: غضب، والوجوم: السكوت على غضب. هيَّج: حرَّك.

أسفه: حزنه. باله: فكره. بلباله: حزنه ووسواسه، رضخ: كَثَّر العطاء. اجتنبا: باعدا. المعاملات: المعاوضات والعواري. ادركا: ادفعا. كيس: وعاء الدراهم. رِفده: عطاؤه. يخبو ضجره: يسكن غضبه: بضّ حجره: رشحت كفه. قال الأخطل: [الكامل]

كَزْم اليديْن من العطيّة ممسكٌ ... ما إن تبِضّ صفاته ببلالِ[1]

يفصل كمده: يزول حزنه. الجلمد: الصّخر الصّلب، كنى به عن كفه؛ وأنه بخيل، ويد البخيل تشبَّه بالحجر، وقال جرير: [البسيط]

كأنّما خلِقَتْ كفَّاه من حَجَرٍ ... فليس بين يديه والنَّدَى عَمَل[2]

يرى التيمُّم في بَرّ وفي بَحرٍ ... مخافة أن يرى في كفّه بَلَلُ

وقال ابن عبد ربه: [البسيط]

يَراعةٌ غرّني منها وميضُ سناً ... حتى مددتُ إليه الكفّ مقتبِسَا[3]

فصادفت حجراً لو كنت تضربُه ... من لؤمه بعصا موسى لما انبجسَا

كأنما صيغ من لؤم ومن كذِبٍ ... فكان هذا له رُوحاً وذا نَفَسَا

أين هذه الأكفّ من التي ذكر حجيّة بن المضرّب، حين قال: [الطويل]

أناس إذا ما الدهر أظلم وجهه ... فأيديهمُ بيضٌ وأوجههمْ غُرُّ

يصونون أحساباً ومجداً مؤثّلاً ... ببذل أكفٍّ دونها المُزْن والبَحْرُ

فلو لامس الصخر الأصمُّ أكفَّهمْ ... أفاض ينابيع النَّدى ذلك الصَّخْرُ

وقال أبو الشيص: [الكامل]

إنّ الأمان من الزمان وريبهِ ... يا عقبَ شطّا بحرك الفيَّاضِ

بحرٌ يلوذُ المعتفون بسيْلهِ ... فغْم الجداول مترعُ الأحْواضِ

لأبي محمد المؤمّل راحتَا ... مَلكٍ إلى أعلى العُلا نهّاضِ

فيدٌ تدفّق بالغنى لصديقه ... ويدٌ على الأعداء سمّ قاضِ

وقال أبو تمام: [الطويل]

تعوّد بَسْطَ الكفّ حتى لو أنّهُ ... دَعَاها لقبضٍ لم تجبْه أنامُلهُ[4]

---

(١) البيت في ديوان الأخطل ص ١٥٩.

(٢) البيتان ليسا في ديوان جرير، وهما لعمرو بن عبد وهيب (الحزين الكناني) في لسان العرب (حزن)، وتاج العروس (حزن).

(٣) الأبيات في العقد الفريد ٦/ ١٩٥.

(٤) البيت في ديوان أبي تمام ص ٢٣٢.

وقال البحتريّ : **[الكامل]**

قد قلت للغيث الرّكام ولجَّ في ... إبراقه، وألحّ في إرعاده[1]

لا تعرضنَّ لجعفرٍ متشبّهاً ... بندى يديه فلستَ من أندادِهِ

الله شرّفه، وأعلى ذكره ... ورآه غيثَ بلاده وعبادِهِ

وقال ابن الروميّ : **[الطويل]**

مُقبَّلُ ظهر الكف وهّاب بطنها ... له راحةٌ فيها الحطيمُ وزمزمُ

فظاهرها للنّاس ركنٌ مقبَّلٌ ... وباطنها عينٌ من الجود عَيْلَمُ

* * *

حَتَّى إذا أفاقَ مِن غَشْيَتِهِ، أَقْبَلَ على غَاشِيَتِهِ وقالَ: قَد أشْرِبَ حِسِّي، وَنبَّأني حَدْسِي؛ أنَّهُما صَاحِبا دَهَاءٍ، لا خَصْمَا ادّعَاءٍ، فكَيفَ السَّبيلُ إلَى سَبْرِهِما، وَاسْتِنْبَاطِ سِرِّهِمَا! فقالَ لهُ نِحْرِيرُ زُمْرَتِه، وشَرَارَةُ جَمْرَتِه: إنَّهُ لم يَتِمّ اسْتِخْراجُ خَبْئِهِمَا إلاَّ بِهِما، فقَفَّاهُمَا عَوْناً يُرْجِعُهما إليهِ، فَلمّا مَثَلاَ بَينَ يدَيْهِ، قَالَ لهُما: اصْدُقَانِي سِنَّ بَكْرِ كما، وَلَكُمَا الأمَانُ مِنْ تَبِعَةِ مَكْرِكُمَا. فأَحْجَمَ الْحَدَثُ واستَقَال، وَأَقْدَم الشَّيخُ وَقَالَ:

* * *

قوله: «غشيته»، أي ذهاب عقله بأن يُغمَى عليه. وغاشيته: زوّاره ومنْ يغشى موضعه. أشْرِب: دُوخِل: حِسّي: إدراكي وفهمي. نبّأني: حدّثني. وأخبرني. حدْسي: ظنّي، قال الفرّاء رحمه الله: حدست أحدِس، إذا قلت في الشيء برأيك. غيره: حدَست: ظننت ظنّا بلغت منه غاية الشيء في عدده أو وزنه، وأصله من قول العرب: بلغت الحدْس، أي الشيء الذي تطلب لحاقه. والدّهاء في الرجل: الحذق والتبصّر في الأشياء. لا خصما ادّعاء، أي ليس بينهما ادّعاء على الحقيقة فيختصمان فيها. سبْرهما: اختبارهما. استنباط: استخراج. نِحْرير: حاذق. زمرته: جماعته، وجعله شرارة؛ لنفوذ ذهنه واتقّاده، ولذلك يسمى نحريراً، أي ماهراً بالأشياء كلها، كأنه لإدراكه وفهمه بالأشياء ينحرها بظنّه الصادق. خبئهما: خفيّ ما عندهما. قفّاهما: أتبعهما. والعون: الشرطيّ، لأنه يُعين من يتصرّف له. مثلا: وقفا، يقال: مَثل الشيء، فهو ماثل، إذا قام وانتصب، وإذا لطىء بالأرض أو ذهب، وهو من الأضداد. سنّ بكركما: حقيقة خبركما. والبَكْر: الفتى من الإبل، وسنه: مبلغ عمره، لأنّ بالسنّ يُعرف كم بلغ من

(١) الأبيات في ديوان البحتري ص ٧٠٣.

العمر، ولفظ المثل «صدقني سِنّ بَكره»، وروى البكري عن ابن الأعرابيّ أن رجلاً سام رجلاً بَكْراً على أن يشتريه مسنًا، فقال البائع: هذا جمل؛ لبَكْر له، وقال المشتري: هذا بَكْر، فقال البائع: بل هو مسنّ، فبينما هما يتنازعان إذْ نفر البَكْر، فقال صاحبه: ليسكّن نفاره: «هدع هدع»، وهي كلمة من العرب يسكّن بها صغار الإبل عند نِفارها، ولا تقال للكبار، فقال المشتري عند ذلك: صدقني سنّ بَكرة. تبعة؛ شُرِحت في الصّدر. أحجم: تأخّر فَزِعاً. أقدم: تقدم متشجّعاً. استقال: طلب الإقالة. [الرجز]

* * *

أنــا الــسَّــرُوجِــيُّ وهَــذَا وَلَــدِي ... والشِّبلُ في الْمَخْبرِ مِثْلُ الأسدِ

ومَــا تــعَــدَّتْ يَــدُهُ وَلا يَــدِي ... فِــي إبْــرَةٍ يَــوْمــاً ولاَ فــي مِــزْوَدِ

وَإنَّما الدَّهرُ الْمُسِيء المعتدِي ... مَالَ بنا حَتَّى غَدَوْنا نَجتَدِي

كلَّ نَدِى الرَّاحةِ عذْبِ المَوردِ ... وَكُلَّ جَعْدِ الْكَفِّ مَغْلُولِ الْيدِ

بِكُلِّ فَنٍّ وبِكُلِّ مَقْصِدِ ... بالْجِدِّ إن أَجْدَى وإلاَّ بالدّد

لِنجْلِبَ الرَّشْحَ إلى الحظِّ الصَّدى ... وَنُنفِدَ الْعُمْرَ بِعَيْشٍ أنْكَدِ

والموتُ مِن بَعْدُ لَنا بالمَرْصَدِ ... إن لم يفَاجِ اليَوْمَ فاجَي في غدِ

* * *

الشبّل: ولد الأسد. المخْبَر: التجربة والخبرة. تعدّت: ظلمت، والمتعدّي: الظالم المجاوز الحدّ في الظلم. مال بنا، أي حطّنا. نجتدي: نسأل الناس الجدا، وهو العطاء. ندىّ الراحة: كريم الكفّ. وجعْد الكفّ، ضدّه، وأراد أنْ يسأل كل كريم سهل العطاء، وكل لئيم صعبه، وأصل الجعودة انقباض الشعر، ثم استعيرت لقبض الكفّ من اللؤم، ومثله مغلول اليد، أي كأنّ يده محبوسة بُغلّ للؤمها، والسائل كأنه يحاول بسطها بالجود فيجدها محبوسة بغلّ اللؤم، وفي الكتاب العزيز: **﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إلى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كلَّ البَسْطِ﴾** [الإسراء: ٢٩] فهذا نهيٌ عن التبذير.

وقال حبيب في قصيدة يمدح بها حفص بن عمر الأزديّ ويذكر الجعودة، وهي: **[الطويل]**

يَرَى الوَعْد أخزى العار إن هو لم تكن ... مواهبُه تأتِي مقدّمة الوعْد[1]

فلو كانَ ما يعطيه غيثاً لأمطرتْ ... سحائبُه من غير بَرْقٍ ولا رعْد

من القوم جَعْدٌ أبيضْ الوجه والنَّدى ... وليس بنانٌ يجتدى منه بالجعْد

وقال البحتريّ: **[الخفيف]**

---

(١) الأبيات في ديوان أبي تمام ص ١٣٠.

صَنَتنِي عن معاشرٍ لا أسمِّي أوّليهم إلاّ غَداةَ سِبَابِي[١]
من جِعاد الأكفِّ غير جعادٍ وغضاب الوجوه غير غِضابِ
خطروا خطرةَ الجهام وساروا في نواحي الظنون سَيْرَ السَّحابِ

وقال أيضاً في نحوه: [الوافر]

وخلّفني الزمانُ على أناسٍ وجوهُهمُ وأيديهمْ حديدُ[٢]
لهم حُللٌ حسُنَّ بيضٌ وأخلاقٌ قبحنَ فهنّ سُودُ
أناسٌ لو تأمّلهمْ لَبيدٌ بكى الخلفَ الّذي يشكو لبيدُ

قوله «الدد»: ضد الجدّ، وهو اللهو واللعب، وقال النبي ﷺ: «لست مَنْ دَدٍ ولا الدّد مني»[٣]، أي لست من باطل ولا الباطل مني أجدَى: نفع. الحظ: البخت والنصيب. والصدى: العطشان، وأراد أن حظّه في الدّنيا قليل، فهو سعى له ليجلب رزقاً يكثر به حظه. ننفذ: نتمّم. أنكد: مشؤوم وكل ما جلَب شرًّا فهو أنكد ونكِد. والمرصَد: الموضع الذي ترتقب فيه من تريد أخذه، وقد رصدته رصداً ترقبته. يفاج: يأت على غفلة، وأصله فاجأ بالهمز، فسّهله.

* * *

فقال له القاضي: للّهِ درّك، فَمَا أَعْذَب نفثَاتِ فيكَ، وواهاً لكَ لَوْلاَ خِدَاعٌ فيكَ، وَإِنِّي لَكَ لِمَنَ المُنْذِرينَ، وعَلَيْكَ مِنَ الحَذِرين، فَلا تُمَاكِرْ بَعْدَها الحَاكِمِينَ، واتَّقِ سَطْوَةَ المُتَحَكِّمِينَ، فَمَا كلُّ مُسَيْطِرٍ يُقِيلُ، وَلا كُلَّ أوانٍ يُسْمَعُ القِيلَ.

فَعاهَدَهُ الشَّيخ عَلى مَشورَتِه، والارْتَداعِ عَنْ تلبِيسِ صُورَتِه، وفَصَلَ عَنْ جهَتِهِ، وَالخَتْرُ يَلْمَعُ مِن جَبْهَتِهِ.

قال الحارث بن همّامٍ: فلَم أَرَ أَعْجَبَ مِنهَا في تَصَاريفِ الأَسْفارِ، ولاَ قَرأتُ مِثْلَها فِي تَصَانيف الأسفارِ.

* * *

قوله: «لله درك»، أي ما أحسن كلامك، والدّرّ أصله اللبن، وكأنه سمِّيَ بحكاية صوته عند الحلْب. ولله، أصله القسم، ولا تدخل اللام في القسم إلاّ على اسم الله تعالى، والتعجّب معها لازم، فإذا قال الذي يسمع صوت الحلب لصاحب الناقة: لله

(١) الأبيات في ديوان البحتري ص ٨٦.

(٢) ديوان البحتري ص ٥٨١.

(٣) رواه الزمخشري في الفائق في غريب الحديث ١/ ٣٦٤، بلفظ: «ما أنا من ددٍ ولا الدَّد «مني» وبنفس اللفظ رواه ابن الأثير الجزري في النهاية في غريب الحديث ٢/ ١٠٨.

دَرّك! فكأنه قال: والله إن دَرّك هذا لكثير، ثم استعير للفصيح في كلامه، ولكل من أحسن في شيء، فكأنّه قيل: ما أحسن ما جئت به! وقيل: معناه لله اللبن الذي شربته من أمّك، قال الفرّاء رحمه الله: ربما قالوا: دَرّك، ولم يقولوا: لله دَرّك، وأنشد: [الخفيف]

دَرّ دَرّ الشَّباب والشَّعَر الأسـ ـودِ والضَّامراتِ تحت الرِّجَالِ

قوله: «نفثات»، أي كلمات. واهاً: عجباً. والمنذر: المعلَم بما يخاف. تماكر: تخادع. سطوة: بطشة. المتحكم: الذي يتحكم بما شاء فيُمتثل حكمه. مسيطر: أمير مسلّط. يقيل: يغفر الزلة. أوان: وقت. عاهده: حالفه. مشورته: أخذ رأيه. الارتداع: الكفّ. تلبيس: تخليط. صورته: قصته. فَصَل: زال الختْر: الخداع. يلمع: يضيء، يريد أنه انفصل عنه وعلى وجهه علامة الغدر، وأنّ يمينه التي حلف له كاذبة، وأوّل مَنْ نظم في هذا المعنى الشمّاخ حين قال: [الطويل]

أتتني تميمٌ قَضُّها بقضِيضها تمسّح حَوْلي بالبقيع سبالَها[1]

يقولون لي: احلف ولستُ بحالف أخادعهم عنها لكيما أنالَها

ففرّجت همّ النفس عني بحلفةٍ كما شقّت الشقراء عني جلالها

ومن الملح في اليمين الفاجرة، قول ابن الروميّ: [المتقارب]

وإنــي لــذو حَــلِــفٍ كــاذبٍ إذا ما استمحتُ وفي المال ضِيقُ

وهلى من جناحٍ على معسر يدافع بالله ما لا يطيقُ

وقال فيه أيضاً: [الوافر]

إذا حلّتْ على ضيق دُيُونِي وباكرني التُّجار وخوّفُوني

دفعتهمُ بمن لو شاء أدّى حقوقهم إليهم منذ حِينِ

ولدِعبل: [الخفيف]

سألوني اليمينَ فارتعْتُ عنْهَا كي يغروا بذلك الارتياعِ[2]

ثم أرسلتها كمنحدَر السَّيْـ ـل تدلى من المكان اليَفاعِ

وأنشد أبو عليّ: [الكامل]

لا شيء يدفعُ حقّ خصمٍ شاغبٍ إلا كحلف عبيدة بن سَمَيْذَع

(١) الأبيات للشماخ بن ضرار في ديوانه ص ٢٩٠، والبيت الأول في خزانة الأدب ٣/ ١٩٤، وشرح المفصل ٢/ ٦٣، والكتاب ١/ ٣٧٤، ولسان العرب (قضض) (سبل)، وتاج العروس (سبل).

(٢) البيتان في ديوان دعبل بن علي الخزاعي ص ١٠٧.

يمضي اليمين على اليمين لجاجة عَضّ الجموح على اللجام المقدِع
فإذا يذكر حلفه أصغى لها وإذا يذكر بالتقى لم يَسْمَع

قوله: «تصاريف»، أراد التصرّف بالجولان في البلدان. والأسفار: الأوّل: جمع السفر في البلاد، والثاني: جمع سِفْر، وهو الكتاب، قال الفرّاء رحمه الله: الأسفار: الكتب العظام. والتصانيف: التآليف المنوّعة، والمصنّف الذي فيه أنواع شتى.

المقامة التاسِعَة

وهي الإسكندرانية

قال الحارِثَ بنُ هَمَّام: طَحَا بِي مَرَحُ الشبَّابِ؛ وَهَوَى الاكتِسَابِ، إِلَى أَنْ جُبْتُ مَا بَيْنَ فرْغَانَة وَغَانَةَ، أَخُوضُ الغِمَارَ، لأَجْنِيَ الثّمَارَ، وَأَقْتَحِمَ الأخْطَار، لِكَيْ أُدْرِكَ الأَوطارَ، وَكُنْتُ لَقِفْتُ مِنْ أفْوَاهِ العُلَمَاءِ، وَثَقِفْتُ مِنْ وَصَايَا الحُكَماءِ، أَنَّهُ يَلْزَمُ الأَدِيبَ الأَرِيبَ، إذا دَخَلَ البَلَدَ الغريب، أَن يَسْتَمِيلَ قاضِيَةُ، وَيَسْتَخْلِصَ مَرَاضِيَهُ، لِيشْتَدَّ ظَهْرَهُ عِنْدَ الخِصَام، وَيأمَنَ في الغرْبَةِ جَوْرَ الحُكّام؛ فاتَّخَذْت هَذَا الأدَب أَمَاماً، وَجعلتُه لِمَصَالِحِي زِمَاماً، فَمَا دَخَلْتُ مَدِينةً، وَلاَ ولجتُ عَرِينَة، إلاّ وامْتَزَجْتُ بِحَاكِمَها امتزاجَ الماء بالرَّاح، وتقوّيتُ بعنايتِهِ تقوِّيَ الأجساد بالأرواح.

* * *

طحا بك قلبك ووَهمك طحْواً وطَحْياً: ذهب بِكَ، وطحا الله الأرض. ودحاها: بسطها. ابن الأنباريّ: طحا قلبه في الهوى واللهو، إذا تطاول وتمادى، قال علقمة: **[الطويل]**

* طَحَا بِكَ قلبٌ في الحِسَانِ طَرُوبُ[1] *

مرح الشباب: نشاط الفتوة. جُبْت: قطعت ومشيت.

[فرغانة]

فرغانة: مدينة في أقصى خراسان، وكان فيها بيتٌ يُسمَّى هيكل الشمس، بناه فارس الملك، وخَرَّبه المعتصم، وبها قُتِل قتيبة بن مسلم الباهليّ أمير خراسان سنة ثلاث وخمسين، وبينها وبين سَمَرْقند ثلاثة وخمسون فرسخاً. قال اليعقوبيّ: من سَمَرْقند إلى أسروشنة خمس مراحل شراقاً، ومن أسرُوشَنَة إلى فَرْغَانة مرحلتان، ومدينة فرغانة التي

---

(١) عجزه:

بُعَيْدَ الشباب عَصْرَ حانَ مشيبُ

والبيت لعلقمة الفحل في ديوانه ص ٣٣، والأضداد ص ١٤٩، وخزانة الأدب ٤/ ٢٨٩، ولسان العرب (طحا)، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٩٩، ورصف المباني ص ٣٥٤.

ينزلها الملك يقال لها كاسان، وهي مدينة جليلة القَدْر، عظيمة الأمْر، وكلُّ هذه المدن مضافة إلى عمل سَمَرْقند. وكان أنوشروان بنَى فَرْغَانة، ونقل إليها من كل بيت قوماً، وسمَّاها أزهر خانه، أي من كل بيت.

[غانة]

وغانة: بلد من بلاد السودان، وإليها ينتهي التجار، والمدخل إليها من سِجِلْمَاسة، ومن سِجِلْمَاسة إليها مسافة ثلاثة أشهر، ومن غانة إلى سِجِلْمَاسة شهر ونصف، ودون ذلك، وسبب ذلك أن الرِّفاق تتجهّز إليها من سِجِلْمَاسة بالأمتاع والأثقال، فتباع في غانة بالتِّبر، فمن سافر إليها بثلاثين حِمْلاً يرجع منها بثلاثة أحمال، أو بحملين: واحد لركوبه، وثان للماء بسبب المفازة التي في طريقها، حدَّثني غيرْ واحدٍ من تجارها أنهم يقطعون المفازة في ستة عشر يوماً، لا يروْن فيها ماء إلاّ على ظهور الإبل، فأثمان أحمال الثلاثين جملاً يجتمع فيها من التِّبْر ما يجعل في مِزْوَد واحد، فيطوون المراحل للخِفَّة. وغانة بلد مملكة السودان، وانتشر الإسلام في أهلها، وبها مدارس للعلم، وبها من تجار المغرب كثير يدخلون التّجارة فيصيبون الخِصْب والأمن وكثرة المتاجر، فيشترون بها خدماً للتَّسرِّي، ويقيمون بها عند أميرها في غاية الكرامة، والخدم فيها قد جعل الله فيهنّ من الخصال الكريمة في خُلُقهنّ فوق المراد، من ملاسة الأبدان، وتفتّق السواد، وحسن العينين، واعتدال الأنوف، وبياض الأسنان، وطيب الروائح.

[السواد والبياض ومما قيل فيه شعراً]

وكان ابن الروميّ وصف واحدة منهنّ بقوله: **[مخلع البسيط]**

تذكّرك المسك والغوالي والنـ ... ـدّ ذواتُ النَّسيم والعَبَقِ
ليست من العُبَّس الأكف ولا الـ ... ـفُلجِ الشّفاه الخبائثِ العَرَقِ
أكسبها الحبّ أنها صُبِغَتْ ... صِبْغة حَبِّ القُلوبِ والحدَقِ
يفتّر ذاك السّواد عن يقَقٍ ... من ثَغْرِها كاللآلىء النَّسَقِ
كأنّها والمِزاح يضحكها ... ليلُ تعرّى دُجاه عن فَلَقِ
لها حِرٍ يستعيرُ وقدتَه ... من قلبِ صبٍّ وصدر ذي حَنَقِ
يزداد ضيقاً على المراسِ كما ... تزداد ضيقاً أنشوطَة الوَهَقِ
غصن من الآبنوس ركِّب في ... مؤزر معجب ومنتطِقِ

وقال الشّريف الرضيّ: **[الطويل]**

أحبُّك يا لونَ السَّوادِ فإنّني ... رأيتُك في العينين والقلب تَوْأَمَا[1]

---

(١) الأبيات في ديوانه الشريف الرضي ص ٧٥٥.

وما كان سهمُ العين لولا سَوادُها ... ليبلغ حبَّاتِ القُلُوب إذا رَمَى
إذا كنت تهوى الظبى ألْمَى فلا تلمْ ... جنوني على الظّبي الذي كلّه لَمَى

وقال ابن مسلمة: [الوافر]

يكون الخالُ في خدٍّ قبيحٍ ... فيكسوه الملاحَةَ والجَمَالاَ
فكيف يُلامُ مشغوفٌ على مَنْ ... يَرَاها كلَّها في العَيْنِ خَالاَ!

وله أيضاً: [البسيط]

لام العواذلُ في سوداء فاحمةٍ ... كأنّها في سواد القلب تمثالُ
وهام بالخالِ أقوامٌ وما عَلِمُوا ... أنّي أهيمُ بشخصٍ كلّه خَالُ

ولابن رباح: [الوافر]

وسوداء الأديمَ إذا تبدَّت ... يرى ماء النعيم جرى عليهِ
رآها ناظرِي فصبَا إليها ... وشِبْهُ الشَّيء مُنْجَذِبٌ إليهِ

ولابن رشيق: [مخلع البسيط]

دعا بِكِ الحسن فاستجيبي ... يا مسكُ في صبغةٍ وطيبِ
تيهِي على البيض واستطِيلِي ... تِيْهَ شبابٍ على مَشِيبِ
ولا يرغك اسودادُ لونٍ ... كَمُقْلَةِ الشَّادِنِ الرَّبِيبِ
فإنَّما النُّور عن سوادٍ ... في أعين الناس والقُلُوبِ

قال ابن رشيق: أخذته من قول الآخر، أنشده الجاحظ: [الخفيف]

مشبهاتُ الشَّبابِ والمسك تفديهـ ... ـنّ نفسي من الرَّدَى والخطوبِ
كيف يهوى الفتى اللبيب وِصَال الـ ... ـبيض، والبِيضِ مشبهات المشِيبِ

وأخذ بيته الآخر من قول الآخر، أنشده الجاحظ: [الطويل]

وإنّ سواد العين في العين نورُها ... وما لبياضِ العينِ نُورٌ فَيُعْلَمُ

فأخذه أيضاً أبو الطيب، فقال في كافور وأحسن: [الطويل]

فجاءت بنا إنسانَ عينِ زمانه ... وخلَّتْ بياضاً خَلْفَها ومآقيا

ولابن الجَهْم: [المتقارب]

وعائب للسُّمْرِ من جهلِهِ ... مفضّلٌ للبيض ذي مخك
قولوا له عنّي: أما تستحي! ... مَنْ يجعلِ الكافور كالمسك!

والسابق لهذا المعنى أبو حفص الشّطرنجيّ، والناس تبَع له حيث قال: **[السريع]**

أشبَهكِ المسكُ وأشبهته قائمة في لونه قاعدَه

لا شكّ - إذ لونُكما واحدٌ أنّكما من طينةٍ واحده

على أنّ العباس بن الأحنف معاصره، قال: **[الطويل]**

أحِبّ النساء السُّود من أجل تكتم ومن أجلها أحببت ما كان أَسْوَدَا

فجئني بمثلِ المسك أطيبَ نكهةً وجئني بمثل اللَّيلِ أطيبَ مَرْقَدَا

أخذ بيته الأول من قول ابن الأعرابيّ: **[الوافر]**

أحبُ لحبّها السّودان حتّى أحبّ لحبِّها سودَ الكلاَبِ

وقال ابن الروميّ في تفضيل السّواد على البياض: **[المنسرح]**

وبعضُ ما فُضّل السّواد به والحقّ ذو سلَّم وذو نَفَقِ

ألا يَعيب السوادَ حُلْكتُه وقد يُعاب البياض بالبَهَقِ

وهذه الأقوال كلها على استحسانها اعتذارات واقتدارات من الشعراء على تحسين القبيح، والأمر المجمع عليه تفضيلُ البياض.

قال الجاحظ: العرب تمدح بالبياض، وتهجو بالسّواد، وربما مدحوا بالسّواد، ولكن أصل ما يبنون عليه أمرهم ذمّه، وأنشد: **[الوافر]**

لهمْ ديباجةٌ عُرِفت قديماً بياضٌ في الوجوه وفي الجلُودِ

وأحسن كشاجم فيما قصد إليه بقوله: **[المديد]**

يا مشبِهاً في فعلِه لونَه لم تعدُ ما أوجبت القِسْمَهْ[1]

خُلْقك من خَلْقِك مستخرَجٌ والظلم مشتقٌّ من الظلْمَهْ

قوله: «جبت ما بين فرغانة وغانة»، وما هنا بمعنى الذي، كأنه قال: جبت الذي بين فرغانة التي هي أقصى المشرق، وغانة التي هي أقْصَى المغرب من البلاد والقفار والبحار لكسب المال، فما هي التي أوجبت لِمَا بين البلدتين ما ذكر أن يعمّ بالمشي، ولو سقطت لم يلزم العموم، وكأنه يشير بهذا التعبير إلى قول حبيب: **[الطويل]**

سَلِي هل عمرت القَفْرَ وهو سَبَاسِبٌ وغادرت رَبْعِي من ركابي سَبَاسِبَا[2]

وغرّبت حتى لم أجد ذكر مشرقٍ وشرقت حتى قد نسبت المغَارِبَا

(١) البيتان في ديوان كشاجم ص ١٧.

(٢) البيتان في ديوان أبي تمام ص ١٧.

قوله: «أخوض الغمار»، أي أدخل المياه الغزيرة فأجوزها. أقتحم الأخطار، أي أترامى في المخاوف. والخطَر: الغرَر. والأوطار: الحاجات. وقال أبو عمر القسْطِلّي فيما يتعلق بهذا: [الطويل]

تخوّفنِي طولَ السّفار وإنّني ... لتقبيلِ كفّ العامريّ سَفِيرُ

دعينِي أرِدْ مَاءَ المفاوِز آجناً ... إلى حيث ماء المكرمات نَمِيرُ

ألم تعلمي أنّ الثواء هو النّوَى ... وأن بيوتَ العاجزين قبُورُ

وأن خطيرات المهالك ضُمّنٌ ... لراكبها أنَّ الجزاء خطِيرُ

وقال النابغة الجعديّ: [الطويل]

إذا المرءُ لم يطلبْ معاشاً لنفسِهِ ... شكا الفقر أو لام الصَّدِيقَ فأكْثَرَا[1]

فسِرْ في بلاد الله والتمسِ الغِنَى ... تَعِشْ ذا يسار أو تموت فتُعْذَرَا

وقال ابن سارة: [البسيط]

سافِرْ فإنَّ الفتى من باب مفتتحاً ... قُفلَ النجاح بمفتاحِ من السَّفَرِ

إن شئت خضرتها يا ابن الرّخاء فكنْ ... في طيّ عمر الفَيافِي نائِيَ الحضَرِ

ولا يصدَّنْك عن أمرٍ تصعّبُه ... قد ينبع الكوثر السلسال من حَجَرِ

لا بدّ أن يقع المطلوب في شَرَكٍ ... ولو بنى وكْرَهُ في دارةِ القَمَرِ

[مما قيل في السفر والحضّ عليه]

ومما ينتظم في باب الحضّ على السفر وترك العجز قولهم: لا ينبغي للعاقل أن يكون إلا في إحدى المنزلتين، إما في الغاية من طلب الدنيا، وإما في الغاية من تَرْكها، ولا ينبغي للعاقل أن يُرى إلاّ في أحد مكانين، إما مع الملوك مكرّماً، وإما مع العباد متبّتلاً، ولا يعدّ الغرم غرماً إلا إذا ساق غِنُماً، ولا الغنْم غنماً إلاّ إذا ساق غُرْماً؛ ونظم هذا المعريّ فقال: [الوافر]

ذرِ الدّنيا إذا لم تَخْطَ فيها ... وكُنْ فيها كثيراً أو قليلا[2]

وأصْبح واحدَ الرَّجلين إمّا ... مليكاً في العشائرِ أو أَبِيلا

---

(١) البيت الأول للنابغة الجعدي في ديوانه ص ٧٣، وبلا نسبة في كتاب العين ٥/ ٣٩٠، والبيت الثاني ليس في ديوان النابغة، وهو لعروة بن الورد في ديوانه ص ٨٩، ولأبي عطاء السندي في الأغاني ١٧/ ٢٤٤، ولربيعة بن الورد في العقد الفريد ٣/ ٣١، وبلا نسبة في رصف المباني ص ١٣٣، والمقرب ١/ ٢٦٣.

(٢) البيتان في سقط الزند ١٣٧١.

الأبيل: الراهب.

وفي كتاب الهند: من لم يركب الأهوال لم ينل الرغائب.

وفي التوراة: ابن آدم، خُلقتَ من الحركة إلى الحركة، فتحرّك وأنا معك.

وفي بعض الكتب: امدد يدك إلى بابٍ من العمل؛ أفتح لك باباً من الرزق.

وقالوا: مَن ضعُف عن عمله اتّكل على رزق غيره.

وقال عليّ رضي الله عنه: الحرص مقدّمة الكون.

وقال النبيّ ﷺ لوفد عبد القيس: «ما المروءة فيكم»؟ قالوا: العفّة والحِرفة.

ورئِيَ عكْرِمة وراء نهر بَلْخ، فقيل له: ما جاء بك ها هنا؟ فقال: بناتي.

وقال رجل لمعروف الكرخيّ: يا أبا محفوظ أتحرَّك لطلب الرزق أم أجلس؟ قال: لا بل تحرّك، فإنه أصلحُ لك، فقال: أتقول هذا؟ قال: وما أنا قلته ولكن الله عز وجل أمر به، قال لمريم عليها السلام: **﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيًّا﴾** [مريم: ٢٥] ولو شاء لأنزله عليها.

وأنشد الثعالبيّ: **[الطويل]**

ألم تَرَ أن الله أوْحَى لمريمٍ ... وهزِّي إليك الجِذْع يسَّاقَط الرُّطَبْ

ولو شاء أن تجنَيه من غير هَزِّها ... جنَتهُ، ولكن كلّ شيءٍ له سَبَبْ

وقال موسى بن عمران عليه السلام: لا تلوموا السَّفَر؛ فإني أدركت فيه ما لم يدركه أحد؛ يريد أن الله كلمَّه فيه.

ونظم هذا المعنى حبيب فقال: **[المنسرح]**

فإن موسى صلّى على روحه ... الله صلاةً كثيرة القُدُسِ[1]

صار نبيًّا وعُظْمُ بُغيتِهِ ... في جذوة للصَّلاء والقَبَسِ

قال المأمون: لا شيء ألذُّ من السفر في كفاية؛ لأنك تحلّ كل يوم في مَحِلَّةٍ لم تحلّها، وتعاشر قوماً لم تعاشرهم.

الثعالبي: من فضائل السفر أن صاحبه يَرَى من عجائب الأمصار، وبدائع الأقطار، ومحاسن الآثار، ما يزيده علماً بقدرة الله، ويدعوه إلى شكر نعمته.

وفي الأثر الصحيح: سافروا تصحُّوا وتغنموا.

آخر: السفر يشدّ الأبدان، وينشّط الكسلان، ويشهّي إلى الطعام.

---

(١) البيتان في ديوان أبي تمام ص ١٧٠.

آخر: ليس بينك وبين بلد نَسب، فخير البلاد ما حمَلك.

قال ابن رشيق: كتبتُ إلى بعض إخواني: مثل الرجل القاعد ـ أعزّك الله ـ كمثل الماء الراكد، إن تُرِك تغيّر، وإن تحرّك تكدّر، ومثل المسافر كالسحاب الماطر، هؤلاء يَدْعونه رحمة، وهؤلاء يَدْعونه نقمة، فإذا اتصلت أيامه، ثقل مقامه، وكثر لُوَّامه، فاجمع لنفسك فرجة الغيبة، وفرحة الأوبة، والسلام.

وقال ابن رشيق: [البسيط]

غِبْ عن بلادِك وارْجُ حسن مغبَّةٍ ... إن كنت حقاً تشتكي الإقْلالاَ

فالبدرُ لم يُجْحِفْ به إدباره ... ألاّ يسافر يطلب الإقبالا

وقال أبو الطّيب: [الطويل]

وما بلد الإنسان غير الموافِق ... ولا أهله الأدنَوْن غير الأصادقِ[١]

وقال البحتريّ: [الخفيف]

وإذا ما تنكرت لي بلادٌ ... أو صديق فإنني بالخيارِ[٢]

وقال أبو الطيّب: [الطويل]

إذا لم أجِدْ في بلدةٍ ما أريده ... فعندي لأخرى عَزْمَةٌ ورِكَابُ

وقال إبراهيم بن العبّاس الصولّي: [البسيط]

لا يمنعنَّك خفضَ العيشَ في دَعَةٍ ... نزوعُ نفسٍ إلى أهلٍ وأوطَانِ[٣]

تلقَى بكلّ بلاد إن حللتَ بها ... أهلاً بأهلٍ وجيراناً بجِيرَانِ

أي لا يمنعنَّك الشوقُ إلى الوطن في الغربة من الاستمتاع بلذة العيش، فالأرض واحدة، والناس جنس واحد. وفي غير الحماسة: [البسيط]

لا يمنعنَّك خفضُ العيشِ في دعةٍ ... من أن تبدّل أوطاناً بأوْطَانِ

برفع «خفض»، أي لا يمنعنك عيشك الهنيء في بلدك أن تجول في البلدان، وترى الناسَ، فتستفيد النزهة والتجربة.

وقالوا: المسافر يسمع العجائب، ويكشف التجارب، ويجلب المكاسب. أوحِشْ أهلك إذا كان أنسُك في إيحاشهم، واهجر وطنك إذا نبتْ نفسك عنه.

قيل لأعشى بكر: إلى كم ذا الاغتراب؟ أما ترضى بالدّعة! قال: لو دامت الشمس عليكم يومين لمللتموها.

---

(١) البيت في ديوان المتنبي ٢/ ٣٢٠.

(٢) البيت في ديوان البحتري ص ٩٨٧.

(٣) البيتان في ديوان الصولي ص ١٥١.

أخذه حبيب فقال: [الطويل]

وطولُ مُقام المرء في الحيِّ مُخْلِقٌ ... لديباجتيْه فاغتَرِبْ تتجدَّدِ[1]

فإنّي رأيتُ الشَّمسَ زيدَتْ محبَّةً ... إلى النَّاس أنْ ليست عليهم بسَرْمَدِ

وقال الحكماء: لا تُنال الراحة إلا بالتعب، ولا تدرَك الدّعة إلا بالنّصَب. وقال حبيب: [الطويل]

على أنني لم أحوِ وَفْراً مجمَّعاً ... ففزت بِه إلاّ بشمل مبدّدِ[2]

ولَمْ تُغطِني الأيّام يوماً مسكّناً ... ألذّ به إلا بنومِ مُشَرّدِ

وقال ابن عبد ربه: هل يجوز في عقل، أو يمثل في وهم، أو يصحّ في قياس، أن يُحْصَد زرعٌ بغير بَذْر، أو يثمّر مالٌ بغير طلبٍ، أو تُجْني ثمرة بغير غَرْسٍ، أو يُورَى زندٌ بغير قَدْح! وقد يكون الإكداء مع الكدّ، والخيْبة مع الغيبة.

وقال الشاعر: [المتقارب]

وما زلت أقطعُ عَرْضَ البلادِ ... من المشرقيْن إلى المغربين

وأدّرع الخوفَ تحت الدُّجى ... وأستصحب الجَدْيَ والفرقدَيْنْ

وأطوِي وأنشرُ ثوبَ الهمومِ ... إلى أن رجعتُ بخُفَّيْ حُنَيْن

وقال ابن رشيق: [الكامل]

يُغطَى الفَتَى فينالُ في دَعَةٍ ... ما لم ينل بالكدّ والتَّعَب

فاطلُبْ لنفسك فَضْلَ رَاحتِهَا ... إذْ ليست الأشياءُ بالطَّلَبِ

إن كان لا رزقٌ بلا سببٍ ... فرجاءُ ربِّك أعظمُ السَّبَبِ

وقال محمد بن يسير: [المنسرح]

قد يُرزَق الخافضُ المقيمُ وما ... شدَّ لِعنْسٍ رَحْلاً ولا قَتَبا[3]

ويحرَم المال ذو المطية والرَّ ... حل ومَنْ لا يزال مُغْترِبَا

وقال آخر: [البسيط]

قد يُرزَق المرء لم تتعب رواحلُه ... ويحرَم الرِّزق بالأسفار والتَّعَبِ

إنّي وعمرك ما أحصى ذَوِي حمقٍ ... الرزق أغدَى بهم من لاصقِ الجَربِ

---

(١) البيتان في ديوان أبي تمام ص ١٠٠، ١٠١.

(٢) البيتان في ديوان أبي تمام ص ١٠٠.

(٣) البيتان لابن عبدل الأسدي في الأغاني ٥/ ٢١.

ولآخر: [الطويل]

ألا ربّ باغي حاجةٍ لا ينالُها وآخر قد تُقضَى له وهو جَالِسُ

آخر: [البسيط]

قد يُرْزق المرء، لا من حُسنِ حيلتِه ويُصرف الرزق عن ذي الحيلة الدَّاهِي
ما مسَّني من غنًى يَوْمٍ ولا عدَمٌ إلا وقولي فيه: الحمدُ للَّهِ

آخر: [البسيط]

لو كان باللبّ يزداد اللبيب غنًى لكان كلّ لبيب مثل كافُورِ
لكنّه الرّزق بالقسطاس من حِكَمٍ يِقْصَى اللبيبُ، ويعطى كلّ ماخُورِ

ومثل هذا قليل في كثير وإنما يحكم بالأغلب، والنُّجْح مع الطلب أكثر، والحرمان للعاجز أصحب، وشرح حبيب هذا المعنى فقال: [الكامل]

همّ الفتى في الأرض أغصانُ المنى غُرِسَتْ وليست كلَّ حينٍ تُورِق

أوصى بعضُ الحكماء ابنَه وأراد سفراً، فقال: إنّك تدخل بلداً لا تعرفه، ولا يعرفك أهله، فتمسَّكْ بوصيّتي تنفقْ بها؛ عليك بحسن الشمائل؛ فإنها تدلّ على الحريّة، ونقاء الأطراف فإنها تشهد بالملوكية، ونظافة البِزَّة فإنها تشهد بالنشء في النعمة، وطيب الرائحة فإنها تظهر المروءة، والأدب الجميل فإنه يُكسب المحبَّة، وليكن عقلُك دون دِينك، وقولُك دون فِعلك، ولباسُك دون قدرِك، والزم الحياء والأنفَة فإنّك إن استحييت من الفظاظة اجتنبت الخساسة، وإن أَنِفتَ من الغلَبة لم يتقدّمك نظير في مرتبة.

قوله: «لقِفت»، أخذت، واللَّقَف: أخذ ما يرمى إليك بيدك. ثقِفت: قيدت، ويُمدح الرجل الحازم به فيقال: فلان ثقفٌ لَقِف. والأريب: العاقل، وقد أرَب أرابة وأرَباً، صار أريباً، والأريبة من أربت العُقْدة أرَبا، شددْتها. يستميل: يستنزل ويدعوه أن يميل إليه. يستخلص مراضيه، أي يحوزها لنفسه. ومراضيه: ما يُرْضي القاضي ويوافقه، وهو جمع مَرْضاة، ويقال: صلة الرحم مَرْضاة للربّ، أي يرضيه برّها، يقول: العاقل إذا دخل بلدة استعطف قاضيَها لنفسه، بحسن خلقه حتى يخفّ عليه أمره. ليشتدّ: ليتقوّى. جَوْر: ظُلم، إماماً: قُدْوة، زماماً: حبلاً أقودها به. ولجت: دخلت. عرينة: بلدة، وأصلها بيت الأسد. الراح: اسم الخمر، وأبهم، علَى ابن الرومي ممّ اشتُقّ اسمها حين قال: [الكامل]

واللَّهِ ما أدرِي لأيَّةِ عِلَّةٍ يدعونها في الرَّاح باسم الرَّاحِ
ألريحها أم رُوحها تحت الحشا أم لارتياح نديمها المرتاحِ!

وانظر الامتزاج الذي ذكر في الخامسة والأربعين.

عنايته: اعتناؤه به واهتمامه.

* * *

فبينما أنَا عِنْدَ حَاكِم الإسكنْدرِيَّةِ، في عَشِيَّةٍ عَرِيَّةٍ، وَقَدْ أَحْضَرَ مَالَ الصَّدَقَاتِ، لِيَفُضَّهُ عَلَى ذَوِي الفَاقاتِ، إذْ حَلَّ شَخْصٌ عِفْرِيَةٌ، تعْتِلُهُ امرأةٌ مُصْبيةٌ، فقالَتْ: أَيَّد اللَّهُ القاضي، وَأَدَامَ بِهِ التَّرَاضي، إنّي امرأة من أكْرَم جُرْثومةٍ، وأطهرِ أَرُومةٍ، وأشرفِ خُؤولةٍ وعمومةٍ، مِيسَمِي الصَّوْن، وَشِيمَتي الهَون، وَخُلُقي نِعْمَ العَوْن، وبيني وبين جاراتي بَوْن، وَكَانَ أَبِي إِذا خَطَبَنِي بُنَاة المجدِ، وَأَرْبابُ الجَدّ، سَكَّتهُمْ وَبَكَّتهُمْ، وَعَافَ وصُلَتَهُمْ وَصِلَتَهُمْ، وَاحْتَجَّ بأَنَّه عَاهَدَ اللَّهَ بِحِلْفَةٍ، ألاَّ يُصَاهِرَ غَيْرَ ذِي حِرْفَةٍ

* * *

[الإسكندرية]

مدينة عظيمة من بلاد مصر، بناها الإسكندر ذو القرنين، وهو الذي مشى مشارق الأرض ومغاربها. قال السدّيّ: لما سأل أهلُ الكتاب النبيَّ ﷺ عن ذي القرنين، قال: سأخبركم كما تجدونه مكتوباً عندكم: إنَّ أول أمره أنه غلام من الروم، أُعْطِيَ مُلْكاً، فسار حتى أتى ساحل البحر من أرض مصر، فابتنى عندها مدينة يقال لها الإسكندرية.

وقال الهَمذانيّ: ذو القرنين ينسب إليه التاريخ قبل الإسلام، ومؤدّبه أرسطاطاليس الحكيم، وكان مُلْكه الذي بلغ فيه أقصى المشرق والمغرب خمسة عشر عاماً، والإسكندرية لما بناها رخمّها بالرخام الأبيض جدرُها وأرضها، فكان لباسهم فيها السواد من نصوع بياض الرخام، وإذا كانت ليلة مقمرة يُدْخل الخياط الخيط في خَرْق الإبرة من بياض رخامها.

وقيل: إنها مكثت سبعين عاماً لا يدخلها أحد إلا وعلى بصره خرقة سوداء من بياض جِصّها ورُخامها، ولم يحتج لها في تلك المدة إلى سراج بالليل من ضيائها. وقيل: كانت ثلاث مدن يحيط بجميعها سور.

قال ابنُ جبير: ما شهدنا بلداً أوسعَ مسالك، ولا أعلى بناء، ولا أعتق ولا أحفل من الإسكندرية، وأسواقها في نهاية الاحتفال ومن أعجب ما في وصفها أن بناءها تحت الأرض كبنائها فوقها وأعتق، لأنّ الماء إذا جاء من النيل يخترق جميع آبارها وأزقّتها تحت الأرض، فتتصل الآبار بعضها ببعض، ويمدّ بعضها بعضاً، وعاينّا فيها من سواري الرّخام وألواحه كبراً وعلوًا واتساقاً حسناً ما لا يُتخيَّل إلا بالوهم؛ حتى إنك تلقى بعض

سواريها يغصّ بها الجوّ صعوداً لا يدري معناها، ولاَ لأيّ شيء وضعت إلا ما يتحدّث به أنه كان عليها من قديم الزمان مبانٍ للفلاسفة وأهل الرّياسة ومن أعظم عجائبها المنار، آية للمتوسّمين وهداية للمسافرين، لولاه ما اهتدوا في البحر إلى برّ الإسكندرية، ويظهر على أزيد من سبعين ميلاً، ومبناه في نهاية العَتَاقة والوثاقة طولاً وعرضاً، يزاحم الجوّ سموًّا وارتفاعاً ينحصر عنه الوصف، وينحسر دونَه الطَّرف، الخبر عنه يضيق، والمشاهدة له تتسع، ذرعْنا أحَدَ جوانبه الأربع، فألفينا فيه نَيِّفاً وخمسين باعاً، ويذكر أن في طوله أزيد من مائة وخمسين قامة.

وأما داخله فمرأى هائل، اتساعَ معارج، ومداخِل وكثرة مساكن حتى إن الوالج في مسالكه ربّما ضلّ، وفي أعلاه مسجد موصوف بالبركة، يتبرّك الناس بالصلاة فيه، طلعنا إليها، وشهدنا من شأن مبناه عجباً لا يستوفيه وصف واصف، والله تعالى لا يخليه من عزة الإسلام.

* * *

قوله «عشية عريّة»، أي باردة. يفضّه: يفرّقه. ذوي الفاقات: أهل الفقر والحاجات. عِفْرِية: يقال رجل عِفْرية وعِفَرّ وعِفِرّيّ، إذا كان صحيحاً شديداً موثّق الخلْق، أخِذ من عَفَر الأرض، وهو التراب، أي من عَلِق به عفره بالأرض ومنه ليث عِفِرّين، أي ليث ليوث، مُعَفِّر لفريسته. قال الخليل: رجل عِفْرٌ بيّن العفارة، إذا وصِف بالشيطنة، والعِفِّير أيضاً: الظّريف الكيّس، ويقال للشيطان: عِفْرِيت وعِفْرِية، وهم عَفَارية. وقرىء: «قال عِفْرِيَةٌ مِنَ الجِنّ»، وفي الحديث: «إن الله لَيَبْغَض العفريت النِّفْريت»[١]، قيل هو الجَمُوع المنُوع.

وقال أبو عثمان النّهديّ: دخل رجل عظيم الجسم على النبيّ ﷺ فقال له: متى عهدُك بالحُمَّى. قال: ما أعرفها، قال فبالصُّداع، قال: ما أدري ما هو! قال: أفأصِبت بمالك؟ قال: لا، قال: أفرُزِئت بولدك؟ قال: لا، فقال ﷺ: «إن الله يُبغض العفريت النِّفرِيت»[٢]، وهو الذي لا يرزأ في بدنه ولا يصاب في ماله.

وقوله: «تعتله»، أي تسوقه بعنف، وكذلك تدُعّه. مُصبية: لها صبيّ. جرثومة: أصل، وكذلك أرومة. ميسمي: علامتي. الصَّون: الصيانة والانقباض. شيمتي: طبيعتي. الهوْن: الرفق. بون: بُعْد. بناة: جمع بان، والمجد: الشرف الضخم، وأصله من الإبل المواجد، وهي التي امتلأت بطونُها من الرّعي وعظمت. وأمجدَها راعيها، إذا رعاها بحيث تمجُد، ومجدُت وهي تمجُد: رعت فامتلأت. وحكى الأصمعيّ قال: أتيت

---

(١) رواه ابن الأثير الجزري في النهاية في غريب الحديث ٥/ ٩٣، بلفظ: «إنّ الله يبغض العفريةَ النفرية» أي المنكر الخبيث. وقيل: النفريَةُ والنفريت: إتباع للعفرية والعفريتِ.

(٢) راجع الحاشية السابقة.

شُعبة يوماً؛ وعنده حماد بن سلمة، وهما يتكلّمان في حديث فقال شعبة: يا أبا سلمة، هذا الفتى الذي ذكرت لك فقال حماد؛ يا بنيّ كيف تنشد بيت الحطيئة: «أولئك قوم..»؟ فابتدأت القصيدة من أوّلها: [الطويل]

ألا طرقتْنا بعد ما هجعتْ هندُ وقد سِرْنَ خَمْساً وائلات بها الجِدُّ

إلى أن بلغت قوله: [الطويل]

أولئك قومٌ إن بنوْا البَنِى وإن عاهدوا أوفَوْا وإن عَقَدوا شدُّوا[١]

فقال لي حماد: يا بنيّ إن العرب تقول: بنَى يبنِي بناءً في العمران، ويقولون في الشرف: نبا يَنْبُو نَبْواً، فأنشِد هذا البيت «أحسنوا البِنَى» فعرفت قَدْر حمّاد من ذلك فما كنت أنشد إلا كما لقّنني.

قوله: «أرباب الجِدّ». أي أصحاب السعد والمال. والعرب تقول: لفلان جَدٌّ من الدّنيا، أي حظ وبخت، قال امرؤ القيس: [الوافر]

* وقاهمْ جَدُّهم ببني أبيهم[٢] *

وقال آخر: [الخفيف]

عش بجَدٍّ ولا يضرُّكَ نَوْكٌ إنما عيشُ مَنْ تَرَى بالجدودِ[٣]

وجدّ الرّجل: صار له جَدّ، وأجدّه الله: جعل له جَدًّا، وما كنتَ ذا جَدّ، ولقد جَدِذت تجِدّ، ورجل جديد: حظيظ من الجَدّ والحظّ.

أبو عبيد قوله: «ولا ينفع ذا الجَدّ منك الجَد»، أي ولا ينفع ذا الغنى منك غناه إنما تنفعه طاعته. يعقوب: أي من كان له حظ في الدنيا لم ينفعه ذلك في الآخرة.

بكَتَهم: قطع كلامهم وأهانهم. عاف: كره. وصْلتهم: اتّصالهم به، والوُصْلة: سبب التواصل، وهي في الآدميين ما يصل واحداً بآخر من حُبٍّ وغيره، والوَصْلَة بالفتح: ما جعلته بين عود وعود، أو حبل وحبل، فوصلْتهما به. صلتهم: عطيتهم. حِلفة: يمين. يصاهر: يخاتن. حِرْفة: صنعة ومكسب، وهي فِعْلة من الحُرف وهو الحرمان،

---

(١) البيت للحطيئة في ديوانه ص ٤١، ولسان العرب (عقد)، (بنى)، والمخصص ٢/ ١٦٤، ٥/ ١٢٢، ١٥/ ١٣٩، وتهذيب اللغة ١/ ١٩٧، ١٥/ ٤٩٢، وتاج العروس (بنى).

(٢) يروى البيت:

رقاهم جدهم ببني أبيهم وبالأشقين ما كان العقابُ

وهو في ديوان امرىء القيس ص ١٣٨، ومقاييس اللغة ٤/ ٨٣.

(٣) البيت لأبي محمد يحيى بن المبارك اليزيدي في لسان العرب (عجه)، وتاج العروس (هبنق)، (عجه)، وبلا نسبة في لسان العرب (هبنق).

والمحارَف: المحروم، كأنّ صاحبها منع الرزق، فصار يعالج كسبه.

أبو هريرة رضي الله عنه، قال ﷺ: «خير الكسب كسب يد العامل إذا نصح»(١).

سهل بن سعد رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «عمل الأبرار من الرجال الخياطة، ومن النساء الغزْل».

* * *

فَقَيَّضَ القَدَرُ لِنَصَبِي وَوَصَبِي، أَنْ حَضرَ هَذَا الخُدْعَةُ نَادى أَبي، فأَقْسَمَ بَيْنَ رَهْطِهِ، أَنَّهُ وَفْقُ شَرْطِه، وَادَّعَى أَنَّهُ طالَما نَظَمَ دُرَّةَ إلى دُرَةٍ، فَباعَهُمَا بِبَدْرَةٍ؛ فاغتَرَّ أَبي بِزُخْرُفِ مُحالِهِ؛ وَزوَّجَنيهِ قَبْلَ اختبَار حَالِهِ، فلَمَّا اسْتَخْرَجَنِي مِنْ كِنَاسِي، وَرَحَّلَنِي عَنْ أُنَاسِي، وَنَقَلَنِي إِلى كِسْرِه، وَحَصَّلَنِي تَحْتَ أَسْرِهِ، وَجَدتُهُ قُعَدَةً جُثَمَةً، وَأَلْفَيْتُهُ ضُجَعةً نُوَمَةً. وَكُنْتُ صَحِبْتُهُ برِيَاش وَزِيٍّ، وَأَثَاثٍ وَرِيٍّ، فَمَا بَرِحَ يَبِيعُهُ في سُوقِ الهَضْمِ، وَيُتْلِفُ ثَمَنهُ في الخَضْمِ وَالقَضْمِ، إلى أَنْ مَزَّقَ حالِي بأَسْرِهِ، وَأَنْفَقَ مَالِي في عُسْرِهِ.

* * *

قوله: «قيّض»، أي قدّر وساق. نَصَبِي: تعبي. وَوَصبي: مرضي، ونصِب الرجل نَصباً. أعيا من التعب، ووصَبَ وَصَباً: أتعبه المرض، فهو نصِب ووصِب. الخُدَعة: الكثير الخداع لغيره، وبسكون الدال الذي يخدعه غيره كثيراً؛ التحريك للفاعل والسكون للمفعول فيما يأتي على «فُعَلة» من الصفات. نادى: مجلس. رهطه: قومه، وهو اسم لجماعة من ثلاثة إلى عشرة، ويجمع أرهُط وأراهط. وفْق شرطه: أي موافق ما اشترط. نَظْمُ دُرَّة، يريد أنه جوهريّ ينظم سلوك اللؤلؤ. بَدْرة: عشرة آلاف درهم، وأراد بالدّرَّة هنا الكلمة، ويعبّر بها عن الحكمة، قال النبيّ ﷺ «لا تَدَعُوا الدُّرّة في أفواه الكلاب»، يعني العلم. اغتر: انخدع، وهو افتعل من الغرور. زخرف محاله: تزيين باطله، وأصل زخرف؛ زيّن الشيء بالزخرف وهو الذهب. كِناسي: بيتي وأصله للظّبي، وهو من قوله تعالى: ﴿الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٦] تشبيهاً لها بالظباء على ما ذكره ابن قتيبة؛ ويقال له: كُناس ومِكنس من الكنس، كأنّ الظبية قد كنست مرقدها ووطّأته. رحَّلني: نقلني وحَمَلني على الرَّحل. كِسْره: بيته، وأصله جانب بيت الشّعرِ أو الخِباء، لأنّ جانب الخِباء قد انكسر عن يمينه. أسْره: حبسه. قُعَدة: كثير القعود. جُثَمَة: كثير الجُثوم، وهو ملازمة الموضع. ضُجَعَة: كثير الاضطجاع، وهو الامتداد على الأرض للنوم. نُوَمة: كثير النوم، قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لهم المقت من الله»، وذكر الذي يكثر النّوم بالنهار،

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٣٣٤، ٣٥٧.

ولم يأخذ من الليل شيئاً، وفي حديث آخر: «خير أهل شر الزمان مُؤمن نُوَمة»[1]. أبو عبيدة: هو الخامل الذّكر الذي لا يعرف الشرّ وأهله، فتريد أنه عاجز قد لازَم بيتها، فإن تصرّفتْ فيه اعتَرضها ممتدّاً، فلا تجد معه راحة. رياش: ثياب، «فِعال» من الرّيش، لأنها تكسو البدنَ كما يكسو الرّيش الطائر. زِيّ: هيئة حسنة من اللباس. أثاث: متاع. رِيّ: حالة حسنة، وأصله الهمز، فسُهّل وأُدْغم ليوافق «زيًّا» قال ابنُ الأنباريّ: الأثاث: المتاع. والرّؤي والرُّؤاء: المنظر، وما له رؤاء أي ماله منظر ولا لسان. والحَرْفان، من رأيتُ أرى. ما برح: ما زال. الهَضم: النّقصان. الخَضْم: الأكل بالفم كله. والقضْم: الأكل بأطراف الأسنان. مَزّق: قطع وأفسد. حالي: غناي، ويروى «مالي» مكان «حالي»، وما فيه بمعنى الّذي كأنه قال: فرّق الذي لي، ورواية ابن ظفر «بالي» بالباء، وقال: البال: الخاطر، وما لهذا الشيء بالٌ، إذا حَقَّرتَه، والبال كالخَلد، تقول خَطَر ببالي، كما تقول: خطَر بخَلدي ونفسي، وكأنّ هذا هو الأصل. والبال: الحال أيضاً، ومنه قوله: **[الوافر]**

* وخـالَـف بـالَ أهـل الـدّار بـالِـي *

عسره، أي فقره.

* * *

فلَمَّا أَنْسَانِي طَعْمَ الرَّاحَةِ، وَغَادَرَ بَيْتِي أَنقَى مِنَ الرَّاحَةِ، قُلْتُ له: يا هَذَا، إنَّهُ لاَ مَخْبأَ بعْدَ بُوسٍ، وَلاَ عِطْرَ بعْدَ عَرُوسٍ، فانْهَضْ لِلاكْتِسَابِ بِصِنَاعَتِكَ، وَأَجْنِنِي ثَمرَةَ بَرَاعَتِكَ؛ فَزَعَمَ أَنَّ صِنَاعَتَهُ قدْ رُمِيَتْ بِالْكَسَادِ، لِمَا ظَهرَ في الأَرْضِ مِنَ الفَسَادِ، وَلِي مِنهُ سُلالَةٌ، كَأَنَّهُ خِلالَة، وَكِلاَنَا مَا ينَالُ مَعَهُ شبْعَةً، وَلاَ تَرْقَأُ لهُ مِنَ الطَّوَى دَمْعَةٌ، وَقدْ قُدْتُهُ إلَيْكَ، وَأَحْضَرْتُهُ لَدَيْكَ، لَتعجُمَ عُود دَعْوَاهُ، وَتَحْكُمَ بيْننَا بِمَا أَرَاكَ الله.

فأَقبَلَ القَاضي عَلَيْهِ، وَقَالَ له: قَدْ وَعَيْتُ قَصَصَ عِرْسِكَ، فبَرْهِنِ الآنَ عَنْ نفسِكَ، وَإِلاَّ كشَفْتُ عَنْ لَبْسِكَ، وَأَمَرْتُ بِحَبْسِكَ؛ فأَطْرَقَ أَطْرَاقَ الأُفْعُوَانِ، ثُمَّ شَمَّرَ لِلْحَرْب العَوانِ، وقال:

* * *

الراحة: القرار والعيش الهنيء، وأراد بأنقى من الراحة خلوَّ الكف من الشعر. مخبأ: سِتر. بؤس: شدَّة وفقر. عِطر: طِيب.

---

(١) رواه ابن الأثير الجزري في النهاية في غريب الحديث ٥/ ١٣١ من حديث علي بلفظ: «أنه ذكر آخر الزمان والفتن، ثم قال: خير أهل ذلك الزمان كل مؤمن نومة».

ولا عِطْرَ بعد عَرُوس، مثل يضرب لتأخير الشيء عن وقت الحاجة إليه، وأصلُه أن رجلاً تزوّج امرأة فوجدها تَفِلَةً، فقال لها: أين عِطْرِكِ؟ قالت: خبأته لغير هذا الوقت، فقال لها: لا مخبأ لعطر بعد عروسٍ؛ وبهذا اللفظ روى أبو زيد الأنصارِيّ المثل.

البكريّ: عَرُوس رجل كانت عنده ابنة عمّ له، فمات عنها، فتزوّجها بعده ابن عمٍّ لها آخَر، وهي كارهة، وانطلق بها إلى أهلِه وقد زوَّدها طِيباً في سَفَط، فمرّ بها بقبر عروس، فأقبلت تبكيه وترفع صوتها، وتقول: يا عَرُوسَ الأعراس، ويا شديد الباس؛ مع أشياء لا يعلمها النّاس. فانتهرها زوجُها، وقال: ما تلك الأشياء؟ فقالت: كان عن المكارم غير نَعَّاس، يُعمِل السيف صبيحة الباس. ثم قالت: يا عروس الأعراس الأزهر، الكريم المحضر، مع أشياء كانت تذكر؛ فازداد زوجُها غضباً، وقال: ما تلك الأشياء؟ فقالت: كان عيوفاً للخنا والمنكر، طيب النكهة غير أبخر، ثم أخذت السَّفَط وكسرته على قبر عَروس، ثم قالت: لا عطر بعد عروس، فذهب مثلاً. فقال زوجها: ارجعي إلى أهلِك، أنت طالق، فقالت: إذاً أنصرف مغتبطة.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، أن عروساً هذا رجل من هُذيل، وامرأته هُذليّة اسمها أسماء.

قوله: «براعتك»، أي جودة تدبيرك. سلالة: ولد صغير كما سُلّ من بطن أمه؛ ولهذا سُمّي ولد الناقة عند النّتاج قبل أن يعلم أذكر هو أم أنثى: سليل، ثم اتسعوا في السُّلالة فقالوا: فلان كريم السّلالة. والخِلالة: عُود تُنقّى به الأضراس من الطعام، شبَّهت ولدها به في رِقّته. ترقأ: تنقطع. الطَّوى: الجوع، وقال النبي ﷺ: «كفى بالمرء إثماً أن يضيّع من يقوت»[1]. تعجُم: تختبر. دَعْواه: ما ادّعاه من الصّنعة، وعجمت العود: عضضتَه بأسنانك لتعلم قوّته من ضعفه. وعيت: حَفِظت. قِصَص عرسك: حديث زوجك. بَرهِنْ: أَظْهِر حُجَّتك، والبُرهان: الحجّة. لَبْسك. تخليطك والتباس أمرك. أطرق: أمال رأسَه إلى الأرض ساكتاً. الأُفْعُوان: ذَكَر الأفاعي، وهذا منقول من قول المتلمّس:

فـأَطْـرَقَ إطـرَاق الـشّـجـاع ولـو رأى ... مـسـاغـاً لـنـابـيْـه الـشّـجـاعُ لـصَـمَّـمـا

ووقع لنا في رواية «النّاباه»، وهي لغة. شمّر: احتزم. العوَان: التي قُوتل فيها مرة بعد أخرى، وهي أشدّ، والمرأة العَوان: التي علت في السن ولم تهرم. والعوان: الثيّب، كانت ذات زوج أو لم تكن، وعوّنت المرأة تعويناً، والجمع عُون. [المنسرح]

* * *

اسْـمَـعْ حَـدِيـثِـي فَـإِنَّـهُ عَـجَـبُ ... يُـضْـحِـكُ مِـنْ شَـرْحِـهِ وَيُـنْـتَـحَـبُ

(١) أخرجه أبو داود في الزكاة باب ٤٥، وأحمد في المسند ٢/ ١٦٠، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥.

أَنَا امْرُؤٌ لَيْسَ فِي خَصَائِصِهِ ... عَيْبٌ وَلا فِي فَخَارِهِ رِيَبُ
سَرُوجُ دَارِي الَّتِي وُلِدْتُ بِهَا ... وَالأَصْلُ غَسَّانُ حِينَ أَنْتَسِبُ
وَشُغْلِيَ الدَّرْسُ، وَالتَّبَحُّرُ فِي الْـ ... ـعِلْمِ طِلابِي، وَحَبَّذَا الطَّلَبُ
وَرَأْسُ مَا لِي سِحْرُ الكَلامِ الَّذِي ... مِنْهُ يُصَاغُ القَرِيضُ والخُطَبُ
أَغُوصُ فِي لُجَّةِ البَيَانِ فَأَخْـ ... ـتَارُ اللآلِي مِنْهَا وَأَنْتَخِبُ
وَأَجْتَنِي اليَانِعَ الجَنِيَّ مِنَ الْـ ... ـقَوْلِ، وَغَيْرِي لِلْعُودِ يَحْتَطِبُ
وَآخُذُ اللَّفْظَ فِضَّةً فَإِذَا ... مَا صُغْتُهُ قِيلَ إِنَّهُ ذَهَبُ
وَكُنْتُ مِنْ قَبْلُ أَمْتَرِي نَشَبَاً ... بِالأَدَبِ المُنْتَقَى وأَحْتَلِبُ
وَيَمْتَطِي أَخْمَصِي لِحُرْمَتِهِ ... مَرَاتِبَاً لَيْسَ فَوْقَهَا رُتَبُ
وَطَالَمَا زُفَّتِ الصِّلاتُ إِلَى ... رَبْعِي فَلَمْ أَرْضَ كُلَّ مَنْ يَهَبُ

* * *

قوله: «يُنتحب»، أي يُبكى، ونحب نحيباً: أعلن بالبكاء. خصائصه: فضائله وما يختصّ به من الأفعال المحمودة. ريْب: شكوك. التبحّر: التوسّع. طِلابي: أي طلبي، وإنما هو للعلم، وذكر التبحّر واللآلىء والغوْص وغير ذلك مجازاً؛ وقال النبي ﷺ: «ما انتعل رجل قطّ ولا تخفّف ولا لبس ثوباً ليغدُوَ في طلب علم يتعلمه إلاّ غفر الله له حيث يخطو عتبة بيته». رُوي عن عائشة رضي الله عنها أنّها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من انتعل ليتعلم خيراً غفر الله له قبل أن يخطو».

ابن عباس رضي الله عنهما، قال النبيّ ﷺ: «الغُدُوّ والرّواح في تعليم العلم خيرٌ عند الله من الجهاد في سبيله».

ابن مسعود رضي الله عنه، قال النبيّ ﷺ: «مَنْ خرج يطلب باباً من العلم ليردَّ به ضلالاً إلى هدى، أو باطلاً إلى حق، كان كعبادة متعبد أربعين سنة».

قوله: «يصاغ»، أي يصنع. القريض: الشعر، أغوص: أغيب في الماء إلى قعره. واللّجة: معظم الماء، جعله للبيان مجازاً. اللآلىء: جمع لؤلؤة أنتخب: أختار. وقال المسيب بن علَس في وصف الغائص وانتخابه الدرة وتشبيه المرأة بها: **[الكامل]**

كَجُمَانَةِ البَحْرِيِّ جاء بِهَا ... غَوّاصُهَا من لُجَّةِ البَحْرِ[1]
نصفَ النهارِ الماءُ غامِرُه ... وشريكُه بالغيبِ ما يدري

(١) البيت الأول في ديوان المسيب بن علس ص ٦٠٩، ومقاييس اللغة ١/ ٤٧٥، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٤٩٥، وأساس البلاغة (جمن)، والبيت الثاني في ديوان المسيب ص ٦١٠، وتهذيب اللغة ١٢/ ٢٠٣، وديوان الأدب ٢/ ١٢٢، وتاج العروس (نصف)، وبلا نسبة في مقاييس اللغة ٥/ ٤٣٢.

فأصاب مُنَيتَه فجاء بها ... صدفيّةً كمضيئة الجَمْرِ
يُعْطَى بها ثمناً فيمنعُها ... ويقول صاحبه: ألا تشري!
وترى الصّراري يسجدون لها ... ويضمُّها بيديه للنحر

وقال عبد الرحمن بن حسان: [الخفيف]

وهي بيضاء مثل جوهرة الغـ ... ـوّاصِ مُيِّزت من جوهرٍ مكنونِ(١)

وقال النابغة: [الكامل]

أو درّةٍ صدفيّةٍ غواصُها ... بهِجٌ متى يرها يُهِلّ ويسجدِ(٢)

قوله: «اليانع» أي الناعم. الجنِيّ: الطريّ. أمترِي نشباً، أي أستخرج مالاً، ومريتُ ضرع الناقة: مسحته وحككته ليدِرّ اللبن. والنَّشب، قيل: هو العَقار وما لا ينقل، وكأنّ مالكه قد نشب إليه حيث لا ينتقل به، كالذي مالُه الماشية أو الذهب والفضة. المنتقَى: المختار، ويروى «المقتنى»، وهو المكتسب. ويقال: احتلب وحلَب حلَباً، والحليب: اللبن، وهو الحِلاب، والحِلاب أيضاً: الإناء يحلب فيه، وأصله السَّيلان. وتحلَّب الضّرْع: سال وانحلبتْ عينه: سال دمعها. يمتطِي: يركب. أخمصي: باطن قدمي، وهو ما ضُمر منها وارتفعَ عن الأرض. لحُرْمته: أي لرفعته وشرفه. مراتباً: منازلاً: والمرتبة منزلة الشرف، من الرتَب وهو ما أشرف من الأرض. والرُّتَب: جمع رُتبة، وهي بمعنى المرتبة، وأصل الرُّتَب الدَّرَج تُقطع في الحجر ليُصعد بها إلى أعلى الجبل، ومنه رتب كلامَه، إذا أتبع بعضُه بعضاً على نظام واعتدال. زُفَّت: حُمِلت، من زَفَفْت العروس إلى زوجها إذا أهديتَها له. الصِّلات: العطايا. رَبْعي: منزلي. لم أرض كلّ مَنْ يَهَبُ، أي لا أرضى أن أكون تحت مِنّة كل أحد. [المنسرح]

* * *

فاليَوْمَ مَنْ يَعْلَقُ الرَّجَاءُ بِهِ ... أكْسَدُ شَيءٍ فِي سوقِهِ الأَدَبُ
لا عِرْضُ أبْنَائِهِ يُصَان وَلا ... يُرْقَبُ فيهِمْ إلٌّ وَلا نَسَبُ
كَأَنَّهُمْ فِي عِرَاصِهِمْ جِيَفٌ ... يُبْعَدُ مِنْ نَتْنِهَا وَيُجْتَنَبُ

---

(١) يروى البيت:

وهي زهراء مثل لؤلؤة العفـ ... ـواص ميزت من جوهرٍ مكنونِ

وهو لأبي دهبل الجمحي في ديوانه ص ٦٩، ولسان العرب (خصر)، (سنن)، ولأبي دهبل أو لعبد الرحمن بن حسان في الكامل ص ٣٨٨.

(٢) البيت في ديوان النابغة الذبياني ص ٩٢، ولسان العرب (بهج)، (هلل)، وتاج العروس (بهج)، وأساس البلاغة (بهج)، وتهذيب اللغة ٥/ ٣٦٧.

فَحَارَ لُبِّي لِمَا مُنِيتُ بِهِ ... مِنَ اللَّيَالي وَصَرْفُها عَجَبُ
وَضَاقَ ذَرْعي لِضِيقِ ذاتِ يَدِي ... وَسَاوَرَتْنِي الهُمُومُ وَالكُرَبُ
وَقَادَني دَهْرِي المُلِيمُ إلى ... سُلُوكِ مَا يَسْتَشِينُهُ الحَسَبُ
فَبِعْتُ حَتى لم يَبْقَ لي سَبَدٌ ... وَلاَ بَتَاتٌ إِلَيْهِ أَنقَلِبُ
وادَّنْتُ حَتى أثْقَلْتُ سَالِفَتي ... بِحَمْلِ دَيْنٍ مِنْ دونِهِ العَطَبُ
ثُمَّ طَوَيْتُ الحَشَى عَلَى سَغَبٍ ... خَمساً فلمَّا أمَضَّني السَّغَبُ
لَمْ أرَ إلاَّ جِهَازَهَا عَرَضاً ... أجُولُ في بَيْعِهِ وَأضْطَرِبُ

* * *

مَنْ يَغْلق: معنى من استفهام. يرقُبُ: يرعى. إلّ: قرابة، وإلّ: بقاء عهد. وسبب: معرفة وصحبه، والسبب: العلم، ومنه: ﴿وآتيناهُ مِنْ كلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٤]؛ وأصله الحبْل؛ ثم يُستعمل في كل ما يَرْبط شيئاً بشيء، من كلام أو غيره. عِرَاصهم: مواضعهم، وأصل العَرْصة، فناء الدار. يقال: لَبَّ الرَّجل يُلبّ لبَابَةً، ورجل ملبُوب: موصوف باللّبابة، ولُبّ كل شيء من الثمار ولبابه: داخله، ولبّ كل شيء: خالصه. مُنِيت: ابتليت وقُدِّر لي. صَرْفُها: تقلّبها وتصرّفها بما يكره. ذَرْعي: كناية عن صدري وخُلقي، وأصل الذَّرع كيل الشيء بالذّراع؛ ثم صار مثلاً، يقال: ضاق ذَرْعي بكذا إذا لم تحتمله وضاق تصرُّفك فيه. ذات يدي، أي مالي. ساورتْنِي: واثبتنِي. الكرْب: الهموم، وكرّرها لاختلاف اللفظ. المُلِيم: الذي أتى بما يُلام عليه. سُلُوك: دخول. يستشِينه: يستعيبُه، والشَّيْن: العيب. لَبد: شيء لا قليل ولا كثير، وأصله الصّوف، وأكثر ما يستعمل مُزْدَوجاً مع سَبَد؛ يقال: ما عنده سَبَد ولا لَبَد، أي لا شعر ولا صوف، ويراد بها نفي الإبل والغنم، ثم صار نفياً لكلّ شيءٍ من المال. بَتَات: زاد. أنقلب: أرجع.

ادّنت: أخذت بالدّين، وفي حديث عمر: «فادّان مُعْرِضاً»[1]. والسالفة: صفحة العنق، يريد أن هذا الدّيْن لثقله ومقاساة همومه فوق العَطَب، والعطب: الذي هو الهلاك دونه في الشدّة. عائشة رضي الله عنها: قال النبي ﷺ: «إذا أراد الله أن يذلّ عبده ابتلاه بالدَّيْن وجعله في عنقه»، وقال أنس رضي الله عنه: قال النبيّ ﷺ: «إياكم والدّين فإنه همٌّ بالليل ومَذَلّةٌ بالنهار»، وروى جابر رضي الله عنه، قال النبي ﷺ: «لا همَّ إلا همَّ الدَّيْن ولا وجع إلا وجع العين».

الحشى: أسقاط الجَوْف. سَغَب: جوع. أمضّني: أحرقني. جهازها: متاعها الذي

(١) حديث عمر رواه ابن الأثير الجزري في النهاية في غريب الحديث ٢/ ١٤٩.

جاءتني به، والجِهاز، متاع البيت، يريد شِوَارها، عَرَضاً، أراد «عَرْضاً» فحركه ضرورة، والعرْض الأمتعة هنا، أخبرني بهذا مَنْ يوثق به في اللغة: والعَرَض خلاف النقد مشهور في اللغة. وفي العين: العَرَض، بفتح الراء: كثرة المال، فيقول: لمّا لم يبقَ لي مالٌ لم أر مالاً إلا جهازها، فيكون على هذا أتمّ معنى، ويخرج عن الضرورة التي ألزمته ذلك التحريك. أحول: أتصرّف. أضطرب: أكثر الترداد والتصرّف. **[المنسرح]**

* * *

فَجُلْتُ فيهِ وَالنَّفْسُ كَارِهَةٌ ... وَالعَيْنُ عَبْرَى وَالقَلْبُ مُكْتَئِبُ
وَمَا تجَاوَزْتُ إذْ عَبَثْتُ بِهِ ... حَدَّ التَّرَاضِي فَيَحْدُثُ الغَضَبُ
فَإنْ يَكُنْ غَاظَهَا تَوَهُّمُهَا ... أنَّ بَنَانِي بِالنَّظْمِ تَكْتَسِبُ
أوْ أنَّنِي إذْ عَزَمْتُ خِطْبَتَهَا ... زَخْرَفْتُ قَوْلِي لِيَنْجَحَ الأَرَبُ
فَوالَّذِي سَارَت الرِّفَاقُ إلَى ... كَعْبَتِهِ تَسْتَحِثُّهَا النُّجُبُ
ما المكرُ بالمُحصَنَاتِ مِن شِيَمِي ... وَلاَ شِعَارِي التَّمْوِيهُ وَالكَذِبُ
وَلا يَدِي مُذْ نَشَأْتُ نِيطَ بهَا ... إلاَّ مَوَاضِي اليَرَاعِ وَالكُتُبُ
بَلْ فِكْرَتِي تَنْظِمُ القَلائِدَ لا ... كفِّي، وَشِعْرِي المنْظُومُ لا السُّخبُ
فَهذِي الحِرفَةُ المُشَارُ إلى ... مَا كُنْتُ أَحْوِي بِهَا وأجْتَلِبُ
فَأذَنْ لشَرْحِي كمَا أَذِنْتَ لها ... ولا تراقِبْ واحْكُمْ بِمَا يَجِبُ

* * *

عَبْرَى: باكية. مكتئب: حزين. عَبَثْتُ: لعبت وتحكّمت فيه؛ يقول: ما تصرّفت في بيعه إلا برضا منها ومنى. قوله: «توهّمَها»، أي ظنها. خطبتها: مراسلتها في النكاح. لينجح الأرب: لتقضى الحاجة. تستحثّها: تستعجلها. النُّجب: الإبل الكرام. المكر: الخِداع، المحصنات: العفائف. شِيَمِي: طبائعي. شِعاري: علامتي: التمويه، تقدّم في الثامنة. نيطَ: علِق، وناط الشي نوطاً: علّقه. اليَراع: الأقلام. والمواضِي: المسرعة في الكتابة؛ يريد أنه فصيح لا يتوقّف قلمه. السُّخُب: جمع سخاب، وهي قلادة قرنفل ليس فيها جوهر ولا لؤلؤ. قال ابن ظفر: السّخُب: العقود من اللؤلؤ وغيره، ومن الطّيب أيضاً. أحْوَى: أحْوز وأجمع.

فأذنْ: اسمع. لا تراقِبْ: لا ترع منّا أحداً ولا تؤثره على صاحبه واحكم بيننا بما يجب؛ وأخذ معنى الأبيات المتقدمة من قول ابن هَرْمَة:

إني امرؤ لا أصوغ الحَلْيَ تعملُه ... كفَّاي لكن لساني صائِغُ الكلِمِ

وقال آخر: **[الطويل]**

وإنـي لـنـظَّـام الـقـلائـد لـلـعُـلا ولـسـتُ بـنـظَّـام الـقـلائـد لـلـنَّـحْـرِ

* * *

قال: فلمَّا أَحْكَمَ مَا شادَهُ، وأكملَ إنشَادَهُ، عَطَفَ القَاضي إلى الفَتاة، بَعدَ أَن شُعِفَ بالأبيَاتِ، وَقَالَ: أمَا أَنَّهُ قَدْ ثبتَ عِنْدَ جمِيعِ الحُكَّام، وَوُلاةِ الأَحْكام، انقرَاضُ جِيلِ الكِرَام، وَميْلُ الأَيَّام إلى اللِّئام، وأَبِّي لإخالُ بَعْلَكِ صَدُوقاً في الكَلام، بَرِيًّا منَ الملام، وَهَا هُوَ قَدِ اعْتَرَفَ لَكِ بالقَرْضِ، وَصَرَّحَ عن المحْضِ. وَبَيَّنَ مِصْداقَ النَّظْمِ، وَتبيَّنَ أنَّهُ معروقُ العَظْمِ؛ وإعْناتُ المُعْذر مَلأَمَةٌ، وَحَبْسُ المُعْسِرِ مَالَمةٌ، وَكِتمَانُ الفَقْرِ زَهَادَة، وَانْتظارُ الفَرَجِ بالصَّبْرِ عِبَادَة، فارْجِعِي إلى خِدرِكِ، واعْذُرِي أَبا عُذْرِكِ، وَنَهْنِهي مِنْ غَرْبِكِ، وَسَلِّمي لِقَضَاءِ رَبِّكِ. ثُمَّ إنَّهُ فَرَضَ لهُمَا في الصَّدَقَات حِصَّةً، وَناوَلَهُمَا مِنْ دَراهِمِهِمَا قَبْصَةً، وقال لهُما: تعَلَّلاَ بهَذه العُلالَةِ، وَتندّيا بهذه البُلالَةِ. واصْبِرَا عَلَى كَيْدِ الزَّمان وَكدِّه، فعَسَى اللَّهُ أنْ يأتيَ بالفَتْحِ أوْ أمْرٍ مِنْ عنده. فَنهَضا وَلِلشَّيْخِ فَرْحَةُ المطْلَقِ منَ الإسارِ، وَهِزَّة المُوسِرِ بعد الإعسار.

* * *

قول: «أحكم»، أي أتقن. شاده: بناه وزيّنه، وشاد البناء: أطاله وعَمِله بالشِّيد، وهو الجصّ، ويقال: فيه: أشاد، ويقال: شاد عمله بالشِّيد وأشاده: أطاله، هو الأول، وأشاد الحديث: رفعه، وعطف: ثنى عُنُقَه وردّها، وكل ما تثنيه من عنق أو جارحة أو عُود فقد عطفَته. شُعِفَ: أعجب. انقراض: انقطاع وهلاك. جيل: صِنْف، وجيلُك: أهل عصرك بَعْلك: زوجك؛ وبَعَل الرجل بعُولة: تزوَّج. والقرْض: السَّلف، أراد به ما أعطته من ثمن جهازها سلفاً. صرّح: بيّن. وصرّح عن المحْض، مثل يضرب لسرِّ الأمر، إذا انكشف، وقالوا: أمرٌ صُراح، أي منكشف ظاهر، والصريح من اللبن: المحض الخالص الذي لا رَغْوة فيه، قال الشاعر: **[الوافر]**

* وتـحـت الـرَّغـوة الـلَّـبـن الـصَّـريـحُ[1] *

---

(١) صدره:

ولـم يـخـشـوا مـصـالـتـه عـلـيـهـم

والبيت لنضلة السلمي في لسان العرب (فصح)، ولأبي محجن الثقفي في البيان والتبيين ٣/ ٣٣٨، وليس في ديوانه، وبلا نسبة في لسان العرب (صول)، وتاج العروس (صول)، ومجالس ثعلب ص ٨، وجمهرة اللغة ص ٥٤٢، ٥٥١.

ثم قالوا: لكل شيء خالص: صريح. وقوله: «بيّن مصداق النظم»، يريد أن نظمه إنما هو للشعر لا للجوهر. معروق: لا لحم على عظمه، أي هو فقير إعنات: مشقة. المعذِر: الذي يجهد نفسه في الشَّيء ثم لا يستطيعه، يقال: قد أعذر، أي قد بَيَّن عذرُه أَنّه لا يقدر عليه، وعذَّر فهو معذِّر، إذا قصّر في طلب الشيء، قال تعالى: **﴿وَجَاء المعذِّرُون مِنَ الأعْرابِ ليُؤذَن لهم﴾** [التوبة: ٩٠]، وقال ابن دريد:

* حكم المعذِّر غير حكم المعذِر *

الملائمة والمأثمة: اللؤم والإثم. والمعسر: الفقير: والزهادة: قلّة الرغبة، قال أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ جاع واحتاج فكتمه الناس وأنزله بالله، كان حقًّا على الله أن يفتح عليه رزق سنة من حلال».

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، أن النبيّ ﷺ قال: «انتظار الفرج بالصبر عبادة».

وقال ابن عمر: قال رسول الله ﷺ: «ما صبر أهل بيت على جهد ثلاثاً إلا أتاهم الله عزّ وجل برزق».

خدرك: بيتك، وأصله السِّتر يكون خَلْفه الجارية المحجوبة. أبا عُذْرك: زوجك المفتضّ لك. نهنهي: كُفّي غربك: حدّة لسانك. وقيل: معنى «نهنهي من غَرْبك»، أي غيِّضي من دموعك، والغَرْب: فيْض الدمع، والأوّل أشبه. سلِّمي: انقادي. فَرَض، أي أوجب. حِصّة: نصيب. ناولهما: أعطاهما. قبْصة: ما أخذت بأطرافِ أصابعك. العُلالة: الشيء القليل. تعلَّلا: خُذا منه شيئاً بعد شيء، وكذلك تندَّيا، وأصل العُلالة بقية الماء في الإناء، وبقيّة اللبن في الضَّرْع بعد الحلب، قال الراجز: **[الرجز]**

* يـرضـعـهـا الـدِّرة والـعُـلالـة[1] *

والبُلالة: الندى القليل يبلُّ وجهَ الأرض. كيد: مكر. كدّه: جهده وأنشد أبو مِحْجَن الثقفيّ: **[الطويل]**

عسى فرجٌ يأتي به الله إنّه ... له كلَّ يوم في خليقته أمرُ[2]

عسى ما ترى ألاّ يدومَ وأن ترى ... له فرجاً مما ألحّ به الدهرُ

---

(١) يروى الرجز بتمامه:

أحمل أمي وهي الحمّالة ... ترضعني الدِّرَّةَ والعلالَه

ولا يجازَى والدٌ فعالَه

والرجز بلا نسبة في لسان العرب (علل)، وتاج العروس (علل)، وكتاب العين ١/ ٨٨.

(٢) البيت الأول، لمحمد بن إسماعيل في حاشية شرح شذور الذهب ص ٣٥١، وبلا نسبة في الدرر ٢/ ١٥٧، وشرح شذور الذهب ص ٣٥١، وشرح ابن عقيل ص ١٦٦، والصاحبي في فقه اللغة ص ١٥٧، والمقاصد النحوية ٢/ ٢١٤، وهمع الهوامع ١/ ١٣١.

إذا اشتدّ عسرٌ فارجُ يُسْرا فإنه ... قَضى الله أنّ العسر يتبعُه اليُسْرُ

الإسار: الحبل يشدّ به الأسير. هِزّة: طرب. الموسر: الغنيّ. الإعسار: الفقر، وسئل حكيم: أيّ الأشياء أحلَى؟ قال: النُّصرة على العدوّ بعد الهزيمة، والاستغناء بعد الحاجة، والغَلَبة للمتكلم.

* * *

قال الرّاوي: وكُنْتُ عَرَفْتُ أَنَّهُ أبو زيدٍ ساعةَ بَزَغَتْ شَمْسُهُ، وَنَزَغَتْ عِرْسُهُ، وَكِدْتُ أُفصِحُ عَن افتنانهِ؛ وإثمارِ أفنانهِ؛ ثُمَّ أَشْفَقْتُ منْ عُثورِ القَاضِي عَلى بُهتَانِهِ، وَتَزْوِيقِ لِسَانهِ، فلاَ يَرَى عِنْدَ عِرْفانهِ، أنْ يُرَشّحَهُ لإِحْسانهِ، فأَحْجَمْتُ عَن القَوْلِ إحْجامَ المُرْتابِ، وَطَوَيْتُ ذِكْرَهُ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكِتاب، إلاّ أَنِّي قُلْتُ بَعْدَ مَا فَصَلَ، وَوَصَلَ إلى مَا وصَلَ: لَوْ أَنَّ لَنَا مَنْ يَنْطَلِقُ في أثَرِهِ، لأَتَانَا بفصِّ خَبَرِهِ، وَبِمَا يُنْشَرُ مِنْ حِبَرِه! فأَتْبَعَهُ القاضِي أحَدَ أُمنَائِهِ، وَأمَرَهُ بالتَّجسُّسِ عن أنْبائِهِ، فما لَبِثَ أن رَجَعَ مُتَدَهْدِهاً، وَقَهْقَرَ مُقَهْقِهاً، فقال له القاضي: مَهْيَمْ، يا أبا مَرْيم، فقال: لَقَدْ عَايَنْتُ عَجَباً، وَسمِعتُ ما أنْشَأَ لي طَرَباً، فقال له: ماذَا رَأَيْتُ، والَّذي وَعَيْتُ!

* * *

قوله: «بزغت»، أي طلعت. ونزغت: نشزت وقابلته بالشرّ والذِّكر القبيح، وأراد أنّه عرَفه حين ساقته زوجته إلى القاضي. أُفْصِح: أُبين. افتنانه: تنوّعه. إثمار: إخراج الثمر، وهو حمل كلّ شجرة. أفنانه: أغصانه. أشفقت: خافت. عثور: ظهور، وعثر على الأمر: اطّلع عليه. بهتانه: باطله وكذبه. تزويق: تزيين، وهو من الزَّاوُوق الذي يعرفه العامة بالزّواق، أي أنه تزيين في الظاهر، وليس له ثبات. عِرْفانه: تقدّم معرفته. يرشّحه: يهيئه، وفلان يرشّح لكذا، أي يؤهّل له، من رشّحت الأم ولدَها باللبن، إذا جعلته في فيه شيئاً بعد شيء حتى يقوَى، وقيل: الترشيح: التربية، وقيل: هو تحنّن الأمّ على ولدها من الشدّة. أحجمت: تأخّرت. المرتاب: صاحب الريبة. طويت: سترت. السِّجل: الورق. والكِتاب: المكتوب فيها، وقوله تعالى: ﴿**كطَيِّ السِّجلِّ للكِتاب**﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، قيل: السِّجلّ: اسم كاتب للنبيّ ﷺ، وقيل: ملَك من السماء الثالثة تَرفَع إليه الحَفظة أعمال العباد كلّ خميس واثنين. فَصَل: زال وانفصل بفصّ خبره: بحقيقة أمره. ينشر: يظهر. حبّره: حسّن كلامه، وأصله ثياب يمانية مزيّنة، ونشرها: حلّها من طيّها. التجسُّس: البحث. أنبائه: أخباره ما لبث، أي ما أقام، والمعنى ما أبطأ شيئاً حتى رجع. متدهدهاً: متحرّكاً، والتدهده: قَذْفك الحجر من أعلى إلى أسفل. قهقر: رجع إلى خلف. مقهقهاً: مبالغاً في الضحك، والقهقهة: حكاية صوت الضاحك.

مهيم: كلمة استفهام، معناها: ما الأمر؟ عاينت: رأيت. أنشأ: أحدث، وتقديره: سمعت شيئاً أحدث لي ذلك الشيء المسموع الطَّرَب، ولا يكون «أنشأ» فعلاً لأبي زيد، إنما هو فعل لـ «ما» من قوله: «ما أنشأ». وعيت: حفظت.

* * *

قالَ: ولم يَزَلِ الشيخُ مُذْ خَرَجَ يُصفِّقُ بيَدَيهِ، ويُخالِفُ بَينَ رِجْلَيْه، وَيُغَرِّدُ بملءِ شِدْقيْهِ، ويَقول: [مجزوء الرمل]

كِدْتُ أصْلَى بِبَلِيَّهْ ... مِنْ وقَاحٍ شَمَّرِيَّهْ

وَأزور السِّجْنِ لَوْلا ... حَاكِمُ الإسْكندرِيَّهْ

فضَحك القاضِي حَتَّى هَوَتْ دَنِينُتُه، وَذَوَتْ سَكِينتُه، فلَمَّا فاءَ إلى الوَقارِ، وَعَقَّبَ الاسْتِغرابَ بالاستِغْفارِ، قال: اللّهُمَّ بِحُرمَةِ عِبادِكَ المُقرَّبينَ، حَرِّمْ حَبْسِي عَلَى المتأدِّبينَ. ثم قال لذلك الأمِين: عَلَيَّ بِهْ، فانطَلِقْ مُجِدًّا في طَلَبِهْ. ثُمَّ عادَ بَعْدَ لأيٍ، مُخبِّراً بَنأْيِهِ، فقال له القاضي: أمَا إنَّهُ لَوْ حضرَ، لَكُفِيَ الحَذَرَ، ثُمَّ لأَوْلَيْتُهُ مَا هُوَ بِهِ أوْلَى، وَلأَرَيْتُهُ أنَّ الآخِرَةَ خيرٌ لهُ من الأُولَى.

قال الحارث بن همام: فلَمَّا رَأيْتُ صغْوَ القاضي إليْهِ، وَفوْتَ ثمَرَة التنبيه عَلَيْهِ، غَشِيَتْني نَدامَةُ الفرزدقِ حِينَ أبَان النَّوارَ، وَالكُسَعِيِّ لَمَّا استبان النَّهار.

* * *

يصفّق بيديه: يضرب بكفيه. يخالف بين رجليه: يعبث بهما في مشيه فيضع كلّ رِجْلٍ موضع الأخرى، وهي من أنواع الرقص؛ أراد أنه يضرب بكفّيه ويرقص. يغرّد: يغنّي. بملء شدقيه، أي بصوت شديد تمتلىء به أشداقه.

وملء القدح: قدر ما يملؤه. أبو يعقوب: يقال: أعطني ملء القدح ماء، وأعطني مِلأيه، وأعطني ثلاثة أملائه.

أصْلِيَ ببليّة، أي قربتُ أن أحترق بها وأتصلّى بها، والبليّة: المصيبة يبتلى بها، وَقَاح، جمع وقاحة، وهي صلابة الوجه، وأصلها من الحافر الصُّلْب، وقال بعضهم في صلابة الوجه: [السريع]

لا يعملُ المِبْرَد في وَجهِ ... بل وجهه يعمل في المِبْرَدِ

فجعل وجهه لصلابته يؤثّر في الحديد. شَمَّريّة، أي شديدة القِحَة، قال الأصمعي: سألت أعرابيًّا، وقد خرج من الصَّلاة: ما قرأ الإمام؟ قال: ما أدري إلا أنه وقع بين موسى وفرعون شِمّريّة. هوت: سقطت. دنِينته: قلنسوته، وهذه اللفظة إنما وقعت في

المقامات بفتح الدال وكسر النون، ودنيته بنونين لتوافق «سكينته»، والصحيح حذف نونها الثانية وكسر الأولى، وهي قلنسوة محدّدة الطرف يلبسها القضاة والأكابر، وليست من كلام العرب، إنما هي من الألفاظ المستعملة في العِراق، وقد استعملها شعراؤهم، قال ابن لَنْكَك: **[البسيط]**

نفسي تقيك أبا الهندام يا أَمَلِي إنّي بكلّ الذي ترضاه لي راضِي
ما كان أيْرى فقيهاً إذ ظَفرت به فكيف ألبسته دِينيّةَ القاضِي

وقال الصابي: **[مجزوء الرجز]**

وفوقه دينيّةٌ تَذْهَبُ طَوراً وتَجِي

ذَوت: زالت وخفِيت. سكينته: وقاره، وأصل ذَوَى، في الشيء الذي فيه بلَل وندوّة، فيجفّ بللُه، فاستعاره للسكينة. فاء: رجع. وعقَّب: أتبع. الاستغراب: كثرة الضحك، حتى تدمع العينان؛ أراد أنه أتبَع ضحكه الاستغفار ليكون كفّارة له، وهذا الذي حُكِيَ عن القاضي يُحكى مثاله عن الحجاج، يقال: إنه كان إذا استغرب ضحكاً يوالي من الاستغفار.

وقال عبد الله بن مسعود: في كتاب الله آيتان ما أصاب عبد ذنباً فقرأهما ثم استغفر الله إلا غفر له الأولى: قوله تعالى: ﴿**والّذِين إذَا فَعَلوا فَاحِشَةً...**﴾ [آل عمران: ١٣٥]، والثانية قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ...**﴾ [النساء: ١١٠] الآية.

قال أبو سعيد الخدريّ رضي الله عنه: من قال: «أستغفر الله الّذي لا إله إلاّ هو الحيّ القيوم وأتوب إليه» خمس مرّات، غفر له ولو فرّ من الزحف.

شدّاد بن أوس رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ أنه قال: «سيّد الاستغفار أن تقول: اللهمّ أنت ربي لا إله إلا أنت وأنا عبدك أصبحت على عهدك ووعدك ما استطعت. أعوذ بك من شرّ ما صنعتُ، أبوء بنعمتك عليّ، وأبوء لك بذنبي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»[1].

وأصل غفر واستغفر غَطّى. قال قطرب: اللهمّ اغفر لنا ذنوبنا، أي غطّها، من قول العرب: غفرت المتاع في الوعاء أغفره غفراً، أي غطّيته. ثعلب: غَفَر الرجل في مرضه يغفر غفراً، أي نكس، فكأنّ المرض غطّى عليه. وقال الأصمعي رحمه الله: اللّهم اغفر لنا ذنوبنا، أي استرها علينا، ومنه: اصبغ ثوبك، فإنه أغفر للوسخ، أي أستر، وهذه معان متقاربة.

---

(١) روي بطرق وأسانيد متعددة، أخرجه البخاري في الدعوات باب ١، والترمذي في الدعوات باب ١٥، والنسائي في الاستعاذة باب ٥٧، ٦٣، وأحمد في المسند ٤/ ١٢٢، ١٢٥، ورواه الطبراني في الجامع الصغير ١/ ٥٧.

قوله: «عَلَيّ به»، أي جئني به. مجدًا: مجتهداً في طلبه. لأيه: إبطائه. نأيه: بعده. الحذَر: الخوف. أوليته، بمعنى وليته وأعطيته. أوْلَى: أحقّ، يريد أنه لو رجع إليه كان يصله في المرّة الثانية بما هو خير مما وصله به أوّل مرة. قوله: «صغو»، أي ميل. فَوْت: ذهاب. التنبيه: الإعلام. غشيتني: غطتني. ولحقتني. أبان: طلقّ. النّوار: بنت عم الفرزدق وزوجه. استبان: تبيَّن.

وقال الشاعر: [الطويل]

لـو أنّ صـدور الأمـر تـبـرز لـلـفـتَـى كـأعـقـابـه لـم تُـلـفـه يـتـنـدَّمُ[١]

[الفرزدق وبعض أخباره]

والفرزدق اسمه همام بن غالب بن صعصعة، دارميّ من أشراف تميم، والفرزدق لقِّب به لجهومة وجهه وغلظه، والفرزدق: قطعة العجين، وقيل: الرغيف الضخم.

وخبره مع النوّار بنت أعين المجاشعيّ، أنه خطبها رجل من قريش أو من دارم، فبعثتْ إلى الفرزدق أن يكون وليّها إذا كان ابن عمها، فقال: إنّ بالشَّأم مَنْ هو أقربَ إليك مني ولاءً، وأنا حذر من أن يقدم منهم قادم، فينكر ذلك عليّ، فاشهدي أنك جعلت أمركِ إليّ. فجعلتْ له أمرها أن يزوّجها ممن يرى، وأشهدت له بذلك، فقال لها: أرسلِي إلى القوم أزوّجك ممّن خطبك. فلما غَصّ مسجدُ بني مجاشع ببني تميم جاء الفرزدق، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: قد علمتم أن النَّوار ولّتني أمْرَها، وأشهدكم أنّي قد زوّجتها من نفسي، فنشزَت عليه ونافرته من البصرة إلى عبد الله بن الزبير بمكّة حين أعياها أمراء البصرة، أن يطلقوها منه. وأعياها الشهود أن يشهدوا لها اتقاءً من شرّه، فلم يقدْر أحد على حملها، حتى تحمَّلَها قومٌ من بني عديّ، يقال لهم بنو نُسير إلى مكة، فصحبتْهم النّوار، فقال الفرزدق: [الطويل]

وقد سخِطتْ منّي النَّوار الذي ارتضى به قبلها الأزواجُ، خاب رحِيلُهَا[٢]
أطاعت بني أمّ النُّسَيْرِ فأصبحتْ على شارفٍ ورقاء صعب ذَلُولُها
وإن امرأً يسعى ليفسد زوجتي كساعٍ إلى أسْدِ الشَّرى يستبِيلُهَا
ومن دون أبوال الأسود بسالةٌ وبسطة أيدٍ يمنع الضَيْمَ طُولُها
وإنَّ أمير المؤمنين لعالمٌ بتأويل ما وصَّى العبادِ رسولُهَا

ثم ارتحل في أثرها حتى وصلا مكة، فنزلت النَّوار على بنت منظور بن زبّان زوجة

---

(١) البيت لابن السليماني في شرح ديوان الحماسة للتبريزي ٢/ ١٣٥، وللحماسي في تاج العروس (سند).

(٢) الأبيات في ديوان الفرزدق ص ٦٠٤، ٦٠٥.

عبد الله بن الزبير رضي الله عنه، ونزل الفرزدق على ابنه حمزة، وقال: [الكامل]

أصبحتُ قد نزلتُ بحمزة حاجتِي ... إن المنوَّه باسمه الموثوقُ[١]

بأبي عُمارة خير مَن وَطِئَ الحَصَى ... وجرت له في الصالحين عروقُ

بين الحواريِّ الأغرّ وهاشمٍ ... ثم الخليفةُ بعدُ والصِّدِّيقُ

فكان كلُّ ما أصلح حمزة بن عبد الله من شأن الفرزدق نهاراً أفسدته بنت منظور ليلاً، حتى غلبت النَّوار، وقضى ابن الزبير عليه، فقال: [البسيط]

أمَّا البنُونَ فلم تُقْبَلْ شَفاعتُهمْ ... وشُفِّعَتْ بنتُ منظور بن زبّانَا[٢]

ليس الشفيع الذي يأتيك مؤتزراً ... مثل الشفيع الذي يأتيك عريانَا

فلما سمع ابن الزبير شعره، توقَّف في أمره، فلقيه يوماً بباب المسجد، فضمَّه إلى الحائط، حتى كادت تُزهق نفس الفرزدق. وكان الزبير في غاية من القوَّة، ثم هزّه وتركه خائفاً، ثم دخل على النَّوار، فقال لها: إمّا أن تُتِمِّي زواج ابن عمّك وإلا قتلتُه، وأرحت المسلمين من شرّ لسانه، فقالت له: ولا بدّ أن تقتله؟ قال: ولا بدّ، فعطفها عليه رَحِم القرابة، وقالت: لا والله لا أدَعَهُ للقتل، قد رضيته. فتزوَّجها، فحكم عليه ابن الزبير بمهر مثلها عشرة آلاف درهم، فسأل: هل بمكة أحد يعينه؟ فدُلَّ على سلم بن زياد، وكان ابن الزبير قد حَبَسه، فقال: [الطويل]

دَعِي مُغْلِقِي الأبواب دون فعالهمْ ... ومُرّي بمسرًى لِي هُبلْتِ إلى سَلْمِ[٣]

إلى مَنْ يرى المعروف سهلاً سبيلَه ... ويفعل أفعال الكرام التي تَنْمِي

ثم دخل على سَلْم؛ وأنشده القصيدة، فقال: هي لك ومثلها لنفقتك، فقبض عشرين ألفاً، فدفع مهرَها، فدخل بها، وأحبلها قبل أن تخرج من مكة، ثم خرج بها، وهما عديلان في محمل، وكانت أبداً تخالفه وتسبّه، لأنها كانت صالحة الدِّين، وكان هو رديء الدين، زانياً قاذفاً للمحصنات، فكانت تكرهه.

ومن ملح أخبارها أنه راود امرأة شريفة على نفسها، فامتنعت عليه، فتهدَّدها بالهجاء، فاستعانت بالنَّوار، فقالت: واعدِيه ليلة؛ ثم أعلميني. ففعلت، وجاءت النَّوار، ودخلت الحَجَلة مع المرأة، فلما دخل الفرزدق البيت، أمرت الجارية فأطفأت السراج، وبادر الحَجَلة والنَّوار فيها، وهو لا يشكّ أنها صاحبة الدار، فواقعها. فلما فرغ قالت: يا عدوّ الله، يا فاسق! فعرفها، وعلم أنه قد خُدِع، فقال لها: وأنت هي! يا سبحان الله! ما أطيَبك حراماً، وأبردك حلالاً! فلم تزل تؤذيه بلسانها حتى أبغضها.

---

(١) الأبيات في ديوان الفرزدق ص ٥٧٠.

(٢) الأبيات في ديوان الفرزدق ص ٨٧٣.

(٣) البيتان في ديوان الفرزدق ص ٧٧٥.

فحدَّث أبو معقل راويته، قال: قال لي الفرزدق يوماً: امض بنا إلى حلقة الحسن، فإني أريد أن أطلّق النّوار، فقلت: إني أخاف أن تتبعها نفسُك، ويشهد عليك الحسن وأصحابه، قال: امض بنا، فجئنا حتى وقفنا على الحسن فقال: كيف أصبحتَ يا أبا سعيد؟ قال: بخير، كيف أصبحت يا أبا فِراس؟ قال: لتعلمنَّ أن النَّوار طالق مني ثلاثاً، فقال الحسن وأصحابه: قد سمعنا، قال: فانطلقنا، فقال الفرزدق: يا هذا، إنَّ في قلبي من النوَّار شيئاً، فقلت: قد حذَّرتك، فقال: [الوافر]

نـدمـتُ نـدامـةَ الـكُـسَـعـيّ لـمّـا ... غــدت مِـنِّـي مـطـلـقَّـةً نَـوارُ[1]
وكـانـتْ جَـنَّـتِـي فـخـرجْـتُ مـنـهـا ... كـآدم حـيـن أخـرجـه الـضِّـرَارُ
ولـو أنـي مـلـكـت يـدِي ونـفـسِـي ... لأصـبـح لـي عـلـى الـقَـدَرِ اخـتـيـارُ
وكـنـت كـفـاقـيءِ عـيـنـيـه عـمـداً ... فـأصـبـح مـا يُـضـيء لـه نَـهَـارُ

وتوفيّ سنة عشر ومائة. وفيها مات جرير وابن سيرين والحسن، فقالت امرأة بصريَّة: كيف يفلح بلد مات فقيهاه وشاعراه، وأضافت جريراً إلى البصرة لكثرة قدومة إليها، ومسكنه باليمامة. وأخباره تطول، وإنما ذكرنا منها ما تعلَّق بالنَّوار معه.

[الكسعيّ وقوسه]

وأما الكُسَعيّ فرجل منسوب إلى كُسع، قبيلة باليمن، واسمه محارب بن قيس، وبندامته يُضرب المثل؛ يقال: أندم من الكُسعيّ، وقيل: إنه من بني سعد بن ذبيان، وقيل: اسمه عامر بن الحارث.

ومن حديثه أنه كان يرعَى إبلاً بوادٍ كثير العشب والخَمْط؛ فبينما هو يرعاها بَصُرَ بِنَبْعةٍ على صخرة، فقال: ينبغي أن تكون هذه قوساً، فجعل يتعهَّدها ويقوّمها حتى أدركت، فقطعها، فلما جفّت اتّخذ منها قوساً، وأنشأ يقول: [الرجز]

يـا ربّ وَفِّـقـنـي لـنَـحْـتِ قـوسِـي ... فـإنَّـهـا مـن لـذَّتِـي لـنـفـسِـي
وَانـفـع بـقـوسِـي ولَـدِي وَعِـرسِـي ... أنـحـتُـهـا صَـفْـراء مـثـل الـوَرْسِ

* صَلْداء ليست كَقِسِيّ النُّكْسِ[2] *

ثم دهنها وَخطمها بوتَر، وَاتّخذ من بُرايتها خمسة أسهم، وَجعل يقلِّبها في كفّه، وَيُنشد: [الرجز]

---

(١) الأبيات في ديوان الفرزدق ص ٣٦٣.

(٢) الرجز لمحارب بن قيس في لسان العرب (كسع)، وتاج العروس (كسع)، ويروى الشطر الأخير من الرجز:

كـبـداء لـيـسـت كـالـقـسـي الـنُّـكْـسِ

هـنَّ وربـي أسـهـمٌ حِـسَـانُ   يـلـذّ لـلـرَّامِـي بـهـا الـبَـنَـانُ
كـأنـمـا قـوَّمـهـا مـيـزانُ   فـأَبـشـروا بـالـخـصـبِ يـا صبـيـانُ

* إن لـم يـعـقـنـي الـشُّـؤمُ والـحِـرمَـانُ[1] *

ثم أتى قُتْرَةً على موارد حُمُر، فكمن فيها، فمرَّ به قطيعٌ، فرمى عَيْراً منها بسهم، فأمخطه ـ أي أنفذه ـ وجازه، وأصاب الجبل، فأورى ناراً، فظنَّ أنه أخطأه، فأنشأ يقول: [الرجز]

أعـوذ بـالله الـعـزيـز الـرَّحْـمَـنْ   مـن نـكـد الـجَـدّ مـعـاً والـحـرْمَـانْ
مـا لـي رأيـت الـسـهـم بـيـن الـصَّـوَّانْ   يُـوري شَـراراً مـثـل لـون الـعِـقْـيـانْ

* فـأخـلَـف الـيـوم رَجَـاءَ الـصِّـبْـيَـان[2] *

ثم مرَّ به قطيع آخر، فرمى عيْراً فأمخطه السهم، فصنع صنيعه الأوّل، فأنشأ يقول: [الرجز]

لا بـارك الـرَّحـمـن فـي رَمْـي الـقُـتَـرْ   أعـوذ بـالـخـالـق مـن شـرّ الـقَـدَرْ
أأمـخـط الـسـهـمُ لإرهـاق الـضَّـرَرْ   أم ذاك مـن سـوء احـتـيـالٍ ونَـظَـرْ

* أم لـيـس يـغـنـي حَـذَرٌ عـنـه قَـدَرْ[3] *

ثم مرّ به قطيع آخر فرمى عيْراً، فأمخطه السهم، فصنع صنيعه الأوّل، فأنشأ يقول: [الرجز]

مـا بـال سـهـمـي يـوقـد الـحُـبَـاحِـبَـا   قـد كـنـت أرجـو أن يـكـون صَـائِـبَـا[4]
فـأخـطـأ الـعَـيْـر وولّـى جـانـبَـا   فـصـار رأيـي فـيـه رأيـاً خَـائِـبـا

ثم مرَّ به قطيع آخر، فرمى عَيْراً بسهم فأمخطه السهم، وصنع ما صنع أولاً، فأنشأ يقول: [الرجز]

يـا أسـفـاً والـجـدّ الـنـكـدْ   فـي قـوسِ صـدق لـم تـزيَّـن بـأَوَدْ
أخـلـف مـا أرجـو لأهـلٍ وَوَلَـدْ   فـيـهـا ولـم يـغـنِ الـحِـذَار وَالـجَـلَـدْ

* فخاب ظنّ الأهلِ جمعاً والوَلَدْ[5] *

ثم مرّ به قطيع آخر، فرمى عَيْراً بسهم، فأمخطه السهم، وصنع كما صنع أولاً،

---

(١) الرجز لمحارب بن قيس في لسان العرب (كسع)، وبلا نسبة في تاج العروس (كسع).
(٢) الرجز لمحارب بن قيس الكسعي في لسان العرب (كسع)، وتاج العروس (كسع).
(٣) راجع الحاشية السابقة.
(٤) الرجز للكسعي في لسان العرب (حجب)، (كسع)، وتاج العروس (حبب).
(٥) راجع الحاشية السابقة.

فأنشأ يقول : [الرجز]

أبـعـد خـمـس قـد حـفـظْـتُ عَـدَّهَـا　　أحـمِـل قـوسِـي وأرِيـدُ رَدَّهَـا

أخـزى الإلـه لـيـنـهـا وشَـدَّهَـا　　والله لا تـسـلـم مـنـي بـعـدَهَـا

* ولا أرجِّـي مـا حـيـيـت رِفْـدَهَـا[1] *

ثم أخذ القوس، فكسرها على حجر وبات، فلَّما أصبح أبصر الأعيار الخمسة مطروحة حوله، فأسف وندم على كسر القَوْس، وعضَّ على إبهامه فقطعها تلهفاً، وأنشأ يقول : [الوافر]

نـدمـت نـدامـةً لـو أنَّ نـفـسـي　　تـطـاوِعُـنِـي إذاً لـقـطـعـتُ خَـمْـسِـي[2]

تـبـيَّـن لـي سَـفَـاهُ الـرأي مِـنِّـي　　لَـعـمـرُ أبـيـك حـيـن كـسـرت قَـوْسِـي

(١) راجع الحاشية السابقة.

(٢) البيتان للكسعي (محارب بن قيس)، في لسان العرب (كسع)، وبلا نسبة في تاج العروس (كسع).

المقامة العَاشرة

وتعرف بالرحْبيَّة

حَكى الحارِثَ بنُ هَمَّام قال: هَتَفَ بِي دَاعِي الشَوْقِ، إلى رَحْبَة مالِك بن طوقٍ؛ فلَّبيتُهُ مُمْتِطياً شِمِلَّةً، وَمُنْتَضِياً عَزْمَةً مُشْمَعِلَّةً. فلَمَّا أَلْقَيْتُ بِهَا المَرَاسِي، وَشَدَدْتُ أَمْرَاسِي، وَبَرَزْتُ من الحمَّام بَعْدَ سَبْتِ راسِي، رأَيتُ غُلاَماً أُفرِغَ في قَالَبِ الجَمَالِ، وأُلْبِس من الحُسْنِ حُلَّةَ الكَمَالِ.

* * *

هتف بي، أي دعاني، يقال: هتف بي هتفاً وهُتافاً: دعاه، وهتفت الحمامة: مدّت صوتها. والشَّوْق: تحرّك الحبّ، يريد أنَّ شوقه إلى الرّحْبة يهيج عليه حتى سار إليها، وجعل له داعياً مجازاً. والرَّحْبة: مدينة شَهيرة من عمالة الفرات، بناها مالك بن طَوْق، ووليهَا فنُسبت إليه، وإليها تنسب الثياب الرحبيّة، وتعرف برحبة الشأم، وهي على يسار الطريق هي والرّقة في استقبالك الفرات جائياً من حرّان، وهي في آخر ديار ربيعة، وأول بلاد الشأم والفرات، بين ديار ربيعة والشأم، فإذا عبرته صرت في حدّ الشام.

[مالك بن طوق]

ومالك ـ كنيته أبو كلثوم ـ بن مالك بن عتّاب بن سعيد بن زهير بن جُشم بن بكر ابن حبيب بن عمرو بن غَنَم بن ثعلب. وقال حَبيب يمدحُه ويذكر الرَّحَبة: [الكامل]

يـا مـالِ قـد عـلـمـتْ ربـيـعـةُ أنَّـهُ ... مـا كـان مـثـلُـك فـي الأراقِـم أرقـمُ[1]

طـالـت يـدِي لـمَّـا رأيـتُـك سـالـمـاً ... وأُنـيـخ عـن خَـدَّى ذاك الـعِـظْـلِـمُ

وشممت تـرب الرّحـبة العبِقَ الثّرى ... وشـفـى صَدَاي البـحر منـهـا الخِـضْـرِمُ

كـم حـلَّ فـي أكـنـافـهـا مِـنْ مـعـدمٍ ... أمـسـى بـهـا يـأوي إلـيـه الـمـعـدِمُ

وقال فيه: [البسيط]

رأتـه فـي الـنـوم عـتَّـابٌ فـقـال لـهـا ... ذوو الـفـراسـة: هـذا صـفـوة الـكـرَمِ[2]

---

(١) الأبيات في ديوان أبي تمام ص ٢٧٥.

(٢) الأبيات في ديوان أبي تمام ص ٢٦٨.

فجاء والنَّسب الوضَّاح جاء به ... كأنه بُهْمَةٌ فِيهِمْ من البُهَم
طعَّان عمرو بن كلثوم ونائلُه ... إنَّ السيورَ التي قُدّت من الأدَمِ
لو كان يأمل عمرو مثلَه خلفاً ... من صُلْبِه لم يجد للموت من ألمِ

يقول هذا في اتصاله بنسب عمرو بن كلثوم، وأين هذا من قول دعبل يهجوه: [البسيط]

الناس كلُّهم يعدو لحاجَتِهِ ... ما بين ذي فرحٍ مِنْهم ومهموم[1]
ومالكٌ ظلَّ مشغولاً بنسبته ... يَرُوم منها بناء غير مهدُومِ
يبني بيوتاً خراباً لا أنيسَ بها ... ما بين طَوْقٍ إلى عمرو بن كلثُوم

وكان ملكاً شجاعاً، جواداً ممدوحاً أميراً على الجزيرة مسكن قومه بني ثعلب.

* * *

قوله «لبّيته»، أي أجبته. ممتطياً: راكباً، شِمّلة: ناقة سريعة. منتضياً: مجرَّداً. عزمة مشمعلَّة، أي عزمة سريعة لا تواني فيها. المراسي: هي محابس السفينة. أمراسي: حِبالى، يريد أنه استعدّ للإقامة وترك السفر، وضرب لذلك المثل بإلقاء المراسي وشدّ الأمراس. برزت: خرجت وظهرت. سَبْت: حَلْق، ومتى دخل أهل المشرق الحمام حلقوا رؤوسهم. أفرغ: وُضع ليصنع. والقالَب: الذي تطبع فيه الدراهم، ودِرْهم مفرغ، إذا أذيبت فضته وصُبَّتْ في قالَبه فيريد أنَّ هذا الغلام لإفراط حسنه أفرغ في قالب الجمال.

[مما قيل في الحسن والجمال]

ونذكر في هذه المقامة من أوصاف الحسن والجمال ما أمكن، ونُضيف إلى ذلك ما قيل في العلمان من الأشعار الحِسان ممَّا يليق بهذا المكان وندعها من كلّ مقامة يقع فيها ذكر العلمان. قال ابن عبد ربه: الحسن أحمر، وقد تضرب فيه الصّفْرة مع طول المكث في الكِنّ والتضمّخ بالطيب كما تضرب في بيضة الأدحيّ. وقال أعرابيّ: [البسيط]

وما تطيّبت من صفراء خالية ... كالعاج صفّرها الأكنانُ والطِّيبُ

وقال آخر: [الرجز]

كأنَّ لون البيض في الأدحيِّ ... لونكِ لولا صفرة الجاديِّ[2]

يريد أنها تضمّخ بالجاديّ، وهو الزعفران، وصفرة النعمة لا تبلغ صفرته.

وقالوا: إن الجارية الحسناء تتلون بلون الشمس، فهي بالضّحَى بيضاء، وبالعشى

---

(١) الأبيات في ديوان دعبل بن علي ص ١٤٤.
(٢) الرجز لأبي النجم في المخصص ١١/ ٢٦١.

صفراء، قال الأعشى: [مجزوء الكامل]

بيضاء ضحوتها وصفـ ـراء العشية كالعرارَهْ[1]

العَرار: البهار.

وقال الحريريّ في الدرّة: فأما قولهم في الحسن: أحمر، فمعناه أنه لا يكتسب ما فيه من الجمال إلا بتحمّل مشقة يحمرّ منها الوجه، كما قالوا: السَّنة الحمراء للمجدبة، وكَنَوْا عن الأمر المستصعب بالموت الأحمر، وأما قوله: [الطويل]

هِجانٌ عليها حُمرة في بياضِها تروق لها العينان والحسنُ أحمرُ

فإنه عنَى به الحسن في حمرة اللّون مع البياض، دون غيره من الألوان.

وقالوا: في الجارية: جميلة من بعيد، مليحة من قريب، فالجميلة الّتي تأخذ بصرك جملة، فإذا دنت منك لم تكن كذلك، والمليحة التي كلما كرَّرت بصرَك فيها زادتْكَ حسناً.

وقيل: الجميلة السمينة؛ من الجميل، وهو الشحم، والمليحة البيضاء من المُلحة، وهي البياض، والصَّبيحة كذلك من الصبح لبياضه.

وقالوا: إن الوجه الرَّقيق البَشَرة الصافي الأدِيم إذا خجل يحمرّ، وإذا فرق يصفرّ، ومنه قولهم: ديباج الوجه، يريدون تلوّنه من رقّته.

وقال عديُّ بن زيد في تلوّن الوجه: [الخفيف]

حُمرة خلط صفرة في بياضٍ مثل ما حاك حائكٌ دِيباجَا

وقال ابن عبد ربه في ذلك: [الكامل]

يا لؤلؤاً يَسْبي العقولَ أنِيقَا ورَشاً بتقطيع القُلوبِ رَفِيقَا

ما إنْ رأيتُ ولا سمعتُ بمثله دُرًّا يعود من الحياءِ عَقِيقَا

وإذا نظرتَ إلى محاسن وجهه ألفيْتَ وجهك في سَناه غريقَا

يا من تقطّع خَصْرُهُ من رِقّةٍ ما بالُ قلبك لا يكون رَقِيقَا!

وأعاد معنى: «درًّا يعود من الحياء عَقِيقاً»، في بيت آخر فقال وأحسن: [الكامل]

كم سَوْسَنٍ لَطَفَ الحياءُ بلونه فأصاره ورداً على وجَناتِهِ

قالت امرأة خالد بن صفوان لخالد: لقد أصبحتَ جميلاً، قال: وكيف ذاك وما فِيَّ

---

(١) البيت في ديوان الأعشى ص ٢٠٣، ولسان العرب (عرر)، وفي الديوان واللسان «بيضاء غدوتها» بدل «بيضاء ضحوتها».

رداء الحُسْنِ ولا عموده ولا بُرْنسه! قالت: وما ذاك؟ قال: عموده الشَّطاطِ[١]، ورداؤه البَيَاض، وبرنسه سَوَاد الشعر.

وقالوا: الحَلاَوة في العينين، والجمال في الأنف، والحسن في الوجه، والملاحة في الفم.

وقال بعضهم: الظرف في القدّ، والبراعة في الجِيد، والرّقة في الأطْراف والخَصْر، والشأن كلّه في الكلام، والمدار على العقل.

وقال عليّ بن عبيد الريحانيّ: الحسن تناسبُ الصورة، وزينته اعتدال الحركة؛ ثم ما لا يحسن اللسان الترجمة عنه من خفّة الروح والقبول.

وسئل عن اختياره من الحُسن، فقال: أمّا ما يمكن نعته فَخَلَّتَان وثلاثة بينهما، ليست من صفة اللسان تعجبني صورة أكثر نعتها الملاحة، وبراعة بفصاحة، والخلّة الثالثة نسميها مَراح الروح وشكل النَّفَس وملهبة الشوق، وبمقدار تمكّن الثالثة من القلب يستحكم سلطان الهوى على العقل، فهذه زبدة هذا الباب.

وأحسن الحسن، ما لم يُجْلَبْ بتزيين وتضييق، وتحلية وتزويق، وأطيب الطيب أنفاس عَبِقةٌ من كبد سليمة، ومزاج معتدل، وثغر نقيُّ، قال امرؤ القيس: **[الطويل]**

أم تـرَانِـي كـلَّـمـا جـئـتُ طَـارِقـاً ... وجـدْتُ بـهـا طـيـبـاً وإن لـم تـطـيَّـبِ[٢]

ويحكى أن سيبويه كان يقرأ على الخليل بن أحمد منتقباً، لئلا يشغَله بحسنه عن تعليمه. ومعنى «سيبويه» بالفارسية رائحة التفاح، وكان يقال: إنه أطيَبُ الناس رائحة ومع تحفّظ الخليل وورعه، فكان إذا استأذن عليه سيبويه يقول: مرحباً بزائر لا يملّ.

وكان أبو حاتم السجستاني يختم القرآن في كل أسبوع، ويتصدّق كلّ يوم بدينار، ومع هذا الفضل كان يميل بحبّه إلى أبي العباس المبرّد، وكان أبو العباس يلزم حلقته وهو غلام وسيم، فقال فيه: **[مجزوء الكامل]**

مـاذا لـقـيـتُ الـيـومَ مـن ... مُـتـمَـجِّـنٍ خَـنِـث الـكـلاَمِ
وقـف الـجـمـال بـوجِـهِـه ... فـسـمـتْ لـه حـدقُ الأنـامِ
حـركـاتُـه وسـكـونُـهُ ... يُـجـنَـى بـهـا ثـمـر الأثـامِ
فـإذا خـلـوتُ بـمـثـلـه ... وعـزمـت فـيـه عـلـى اغـتـرام
لـم أعْـدُ أفـعـالَ الـعَـفَـا ... ف، وذاك آكَـدُ لـلـغَـرامِ
نـفـسـي فـداؤك يـا أبـا الـ ... ـعـبـاس يـا جـلَّ اعـتـصَـامِـي

---

(١) الشطاط: الطول وحسن القوام.

(٢) البيت في ديوان امرىء القيس ص ٤١، والأشباه والنظائر ٨/ ٨٥، ولسان العرب (ندل)، (محل).

فارحم أخاك فإنه نَزْر الكَرى بادي السِّقامِ
وأنِلْه ما دون الحرا م فليس يَرْغَبُ في الحرَامِ

والوَلُوع في الجمال سجيَّة ركبها الله في الأولياء وأكابر العلماء، فمن دُونهم من السُّوقة والغوغاء. وعلى قدر ذكاء الأرض يَطيب زرعها، وعلى قدر طِيب التربة يطيب تبْعُها، فمنها العذب والأجاج وما بينهما، وعلى قدر شرف النفس يكون حبّها، فمنه المستحسن ومنه المستقبح. **[الطويل]**

* وكلّ إناء بالذي فيه ينضحُ *

في كتاب الوشاح: العشق إذا تزيّن بالعفاف فهو معنى شريف، ويتلو قوله تعالى: ﴿**الأخِلاءُ يَوْمَئذٍ بَعْضُهمْ لبعضٍ عَدُوٌّ إلاّ المُتَّقِين**﴾ [الزخرف: ٦٧]؛ فمن اتقى الله فهو خليل.

وذهبت طائفة من المتكلّمين البغداديين إلى أن الله تعالى إنما امتحن الناس بالهوى، ليأخذوا أنفسهم بطاعة من يهوَوْنه، وليشقّ عليهم سخطه، ويسرّهم رضاه؛ فيستدلّوا بذلك على قدر طاعة الله تعالى لأنه لا مِثْلَ له ولا نظير، وهو خالقهم غير محتاج إليهم، ورازقهم مبتدىء المنن عليهم، فإذا أوْجَبُوا على أنفسهم طاعة لسواه كان هو تعالى أولى أن يُتَّبع رضاه.

قالوا: ولا ينبغي للعاقل ولا للجاهل أن ينكِر علاقة شخص بشخص، وحنين شكل إلى شكل، ومؤالفة إلفٍ إلى إلفٍ، فالقلوب صافية قابلة، والعيون إليها ناقلة.

وقالوا: لا عاشق على الأغلب إلا موفورَ النَّعماء، مكفّى كدّ المعيشة؛ لأنه من فراغ نفسه ورّقة حاشيته.

وقد قيل: إن جميلاً وبُثينة لو قعدا ليلتين دون غداء وعشاء لبزق كلُّ واحد منهما في وجه صاحبه.

ومن شرط المعشوق أن يكون ممّن يؤيس ويُطمع، ويستتر ويلمع، ويبدو ويُحجَب، ويلين ويصعُب، ويُرضي ويُسخط، ويقُرب ويشحَط، كما قال أبو الطيب: **[الكامل]**

وأحْلى الهوى ما شكَّ في الوصل رَبُّه في الهجر فهو الدَّهرَ يَرْجُو ويتَّقي[1]
وبين الرّضا والسخط والقرب والنّوى مجالٌ لدمعِ المقلةِ المترقرِقِ

والحسن أول سعادة المرء، ورائد اليُمْنِ، وسائق النُّجح؛ لأن الله تعالى بلطفِ الحكمة، وبِشرف الإبداع والصنعة، لم يخلق الصورة مختارة الصفات، سليمة من الآفات، إلاّ عن فضل الاحتفاء، ولم يطابقها من الأخلاق إلاّ بما يناسب جمالها من

(١) البيتان في ديوان المتنبي ٢/ ٣٠٤.

العقل والصفاء. وقلّما تجد الخلُق إلاّ تبعاً للخلقة، تناسباً يطّرد، وأصلاً لا ينعكس، وإجماعاً لا ينفرد، وما خلق الله نبيًا قطّ إلا وقد بهر أهلَ زمانه بحسنه وإحسانه؛ فإذا نظرتَه لأوَّل وهلةٍ رأيتَه أحسنهم صورة، وأتقنهم بنيةً، فهو أوْلَى مرتبة، وأعلى منقبة.

وقال النبي ﷺ: «إنَّ الله لا يعذِّب حِسان الوجوه، سُود الحدَق».

وورد عليه وفد عبد القيس، وفيه غلام وضيء الوجه، فأقعده وراء ظهره، وقال: إنما أُتِيَ أخي داود من النظر.

وقد أكثر الشعراء في وصف الحسن؛ فمن أحسن ذلك ما قال عليّ بن بسّام؛ وكأنه يصف الفتى الذي ذكره الحريريّ: **[الكامل]**

يا مَنْ تسرْبَل بالملاحة وارْتَدى ... فعليه تعتكف العيونُ إذا بَدَا
فيُرى هِلالاً زاهاً ويرى قضيـ ... ـباً ناضراً ويُرى كثيباً أملَدَا
فإذا نهضت ترجرجا وإذا سفر ... ت تبلجا وإذا مشيت تأوّدَا
فترى الجبين كتاج ملك زانَهُ ... درّ تراه مفرّقاً ومنضَّدَا
ويجولُ ذاك الرَّشح في أقطارِه ... كالياسَمين جَرَى به قَطْرُ النَّدَى
الوجه فضيٌّ أحاط بوجنتيْ ... ذهبٍ، فأنبتَ عارضين زَبَرْجَدَا
وفمٌ عقيقيٌّ تضمّن لؤلؤاً ... رَطْباً ونظم فوق ذاك زُمرَّدَا

ولأبي إسحاق الخفاجيّ: **[الطويل]**

وأغيدَ أهدى نَرْجِساً من محاجرٍ ... وَثَنى فأبْدَى سَوْسَناً من سوالِفِ
وقد ماجَ مِنْ عِطْفَيْه ماء شبيبةٍ ... تَعبّ ولا أمواجَ غيرُ الرَّوَادِفِ
تطلَّع مثلَ الرمح بسطة قامةٍ ... وفتكةَ ألحاظِ ولِينَ مَعَاطِفِ

ولابن وكيع: **[الكامل]**

يا مَنْ إذا لاحتْ محاسنُ وجهه ... غفرت بدائعُها جميعَ ذنوبِهِ
إن كان في تَعْذِيب قلبي راحةٌ ... لك فاجتهد بالله في تعذيبِهِ

ولأبي إسحاق الخفاجيّ: **[الكامل]**

يا ربّ وضّاح الجبين كأنما ... رسمُ العِذار بصفحتيه كتَابُ
تُغْرَى بطلعته العيون ملاحةً ... وتبيتُ تعشَقُ عقلَه الألْبَابُ
خُلِعَتْ عليه منَ الصبَّاحِ غلالةٌ ... تَنْدَى ومن شفق السَّحابِ نِقَابُ

ولأبي نواس: **[الطويل]**

أساء فزادته الإساءة حُظْوَةً ... حبيبٌ على ما كان فهو حبيبُ

يعدّ عليّ الواشيان ذنوبَهُ ... ومن أين للوجهِ الجميل ذنوبُ!

ولأبي إسحاق الخفاجيّ: [الطويل]

تعلقتُه نَشْوانَ من خمرِ رِيقةٍ ... له رشفها دوني، ولي دونها السُّكْرُ

ترقرق ماءَ مُقْلَتايَ ووجهُهُ ... ويذكى على قلبي ووجنتِه الجَمرُ

أرقّ نسيبي فيه رِقّةَ حسنِهِ ... فلم أدر أيٌّ قبلها منهمَا السِّحْرُ

وطبْنا معاً ثغراً وشعراً، كأنما ... له منطقي ثغرٌ، ولِي ثغرُه شعرُ

* * *

وَقَدِ اعْتَلَقَ شَيْخٌ بِرُدْنِهِ، يَدَّعِي أَنَّهُ فَتَكَ بابْنِهِ، وَالغُلاَمُ يُنْكِرُ عِرْفَتَهُ، وَيُكْبِرُ قِرْفَتَهُ، وَالخِصَامُ بَيْنَهُمَ مُتَطَايِرُ الشّرَارِ، وَالزِّحَام عليْهِمَا يجْمَعُ بَيْنَ الأَخْيارِ وَالأشْرَارِ، إِلى أَنْ تَرَاضَيَا بَعْدَ اشتطاطِ اللَّدَدِ، بالتَّنَافُرِ إلى وَالِي البَلَدِ، وَكَان مِمَّنْ يُزَنُّ بالهَناتِ، وَيُغلِّبُ حُبَّ البنينَ عَلَى البَنَاتِ، فأَسْرَعَا إلَى نَدْوَتِهِ، كالسُّلَيْكِ في عَدْوَتِهِ.

* * *

قوله: «وقد اعتلق شيخ بُردنه»، أي تعلّق بكمه وأطراف ثوبه. فَتَك: قتل، والفتك: أن تأتِيَ رجلاً آمناً منك وتقتله، أو تكمن له في موضع لا يعرف بك، فإذا أتاك قتلتَه، ثم سُمِّيَ من هجم على الأمور العظام فاتكاً، فإذا أدخلت رجلاً منزلك أو موضعاً لا مغيث له فيه، فقتلته فذلك الغيلة، فإن كان رجلاً يخافك فأمنته وآنسته حتى آمنك، ثم قتلَته فذلك الغدر. عِرْفته: معرفته. يُكْبِر: يراه أمراً كبيراً قِرْفته: تهمته، وقد قرفتُه بذنب، إذا حملَته عليه واتّهمته به، وشبّه ما يلحق كلّ واحد منهما من أذى صاحبه بشرر النار اشتطاط اللَّدَد: اشتداد الخصام. التنافر: التحاكم. يزنُّ: بالهنات: يتّهم بالقبائح، والهِنات: الدواهي والهَن والهَنة من الكنايات العامّة التي يكنى بها عن كلّ شيء ولا يقتصر بها على شيء دون شيء.

[بعض أخبار الولاة]

قوله «ويغلِّبُ حبَّ البنين على البنات» نذكر هنا من الولاة المتهمين بهذه الهنات ما يليق بالموضع. قال أهل الأخبار: إن القاضي يحيى بن أكْثم، كان مشتهراً بحبّ الغلمان، وإن أهل البصرة رفعوا أمره إلى المأمون قبل اتّصاله به، وقالوا فيه: إنه قد أفسد أولادَهم، وظهرت منه الفواحش، وأنه القائل في صفة الغلمان: [السريع]

أربعةٌ تُعشَقُ ألحاظُهمْ ... فعين من يعشقهم ساهِرَهْ

فواحد دنياه في وجهه ... منافقٌ ليست له آخِرَهْ
وآخر دنياه منقوصةٌ ... من خَلْفِه آخرةٌ وافِرَهْ
وثالث فاز بكلتيهمَا ... قد جمع الدُّنيا مع الآخِرَهْ
ورابعٌ قد ضاع ما بينهمْ ... ليست له دنيا ولا آخِرَهْ

فاستعظمها المأمون وعزله عنهم.

ثم اتصل بعد ذلك يحيى بالمأمون، ونادمه، فخرج معه في يوم عيد، وقد ركب الجند أمامه، ويحيى يحادثه ويضاحكه، فنظرت إلى غلام أمْرَد من أولاد الجند في غاية الفَراهة، عليه ثوب حرير أخضر، ودرع موشّاة مزرّرة بالذهب. فالتفت إلى يحيى، وقال له: ما تقول في هذه البضاعة؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إنّ هذا لقبيح من إمام مثلك مع فقيه مثلي، قال: فمن الذي يقول: [المنسرح]

قاضٍ يرى الحدّ في الزُّناة ولا ... يَرى على من يلوطُ من باسِ

قال: من عليه لعنة الله وغضبه، ابنُ أبي نعيم، الذي يقول:

أميرنا يرتَشِي وحاكمُنَا ... يلوط والشِرّ بيننا راسي

قاض يرى الحدّ.. البيت، وبعده: [المنسرح]

لا أحسِب الموت ينقضي وعلى الـ ... ـأمّة والٍ لآل عبّاسِ

قال: أو صحيح هذا؟ قال: نعم، قال: يُنْفَى إلى السّند، وإنما ما زحناك، ثم قال المأمون في الغلام: [مجزوء الرمل]

أيُّها الراكب ثوبَا ... ه حريرٌ وحديدُ
جئت للعيد وفي وجـ ... ـهك للأعين عِيدُ
أنت جنديّ ولكن ... فيك للحسن جُنودُ

وفي يحيى يقول ابن أبي نعيم: [الراجز]

يا ليتَ يحيى لم يلده أكثَمُهْ ... ولم تطأ أرضَ العراق قدمُهْ
ألوَطُ قاضٍ في البلاد نعلمُه ... أيّ دواةٍ لم يُلِقْهَا قلمُهْ

* وأيّ جُحرٍ لم يلجه أرقَمُهْ *

وهذا كقول الآخر: [الرمل]

* يُدْخِل الأفعى إلى خِيس الأسَدْ *

ويحيى خُراسانيّ من مَرْو. وبلغ من تحكمّه على المأمون أن فرض لأربعمائة غلامٍ

مُرْد، واختارهم حِسان الوجوه يركبون لركوبه، فقال راشد بن إسحاق: [الوافر]

خليلي انظرا متعجِّبيْنِ لأظرف منظرٍ تقلاه عَيْنِي

لغرضٍ ليس يُقبل فيه إلا أَسِيلُ الخدِّ حُلْوُ المقلتيْنِ

يقودهم إلى الهيجاء قاضٍ شديدُ الطَّعْن بالرُّمْح الرّدَيْنِي

إذا شهدَ الوغى منهم غلامٌ تَجَدّل للجبين ولليديْنِ

وبات الشيخُ منحنياً عليه وصُدغاه تحاذِي الركبتيْنِ

وقال فيه: [الطويل]

وكنا نرجِّي أن نرى العدْل بيننَا فأعقبناه بعد الرّجاء قنوطُ

متى تَصْلح الدّنيا ويصلُح أهلُها إذا كان قاضِي المسلمين يلُوطُ

* * *

وكان القاضي أبو القاسم عليّ بن محمد التنوخيّ مولعاً بالغلمان، وكان له غلام اسمه «نسيم» في نهاية من الحسن، وكان يُؤثره على سائر غلمانه، ويخصّه بتقريبه واستخدانه، فكتب إليه بعض من يأنسُ به: [الرمل]

هل علَى مَنْ لامُه مدغمةٌ لاضطرار الشعر في ميم نسيمِ

فوقع تحت البيت: نعم، ولم لا!

وستذكر من شعره في هذه المقامة ما يستملح.

وممن كان يميل إلى الغلمان من الأمراء أبو العشائر الحمدانيّ الذي يقول فيه المتنبي: [الوافر]

فيا بحرَ البحُور ولا أورِّي ويا ملِكَ الملوك ولا أحاشي[1]

كأنّك ناظرٌ في كلّ قلبٍ فما يخْفى عليك محلُّ غاشِ

وقال بعض الرواة: دخلت على أبي العشائر أعودُه من علّة، فقلت: ما يَجد الأمير؟ فأشار إلى غلام قائم بين يديه، كأنّ رضوان قد غفل عنه بأبَق من الجنة، ثم أنشأ يقول: [مخلع البسيط]

أسْقَمُ هذا الغلامُ جسمي بما بعينيه مِنْ سَقَامِ

فتورُ عينيْه من دَلاَلِ أهدى فتوراً إلى عظامي

وامتزجتْ روحُه بروحِي تمازُجَ الماء بالمدام

(١) البيتان في ديوان المتنبي ٢/ ٢١١.

ولأبي العشائر: [البسيط]

سطا علينا ومَنْ حاز الجمال سطَا ... ظبيٌ من الجنة الفردوس قد هَبَطَا
له عِذاران قد خُطّا بوجنتِهِ ... فاستوقفا فوق خدّيه وما انبَسَطَا
وظلّ يخطُو فكلٌّ قال من شغَفٍ: ... يا ليتَه في سواد الناظرين خَطَا!

ومع هذا الميل، كان نزيه النفس، رفيع الهمة، سليم الناحية، وكان في الجود غاية، وفي الشجاعة نهاية، وفي الشعر آية. وإذا كان المتنبي الذي هو أشعرُ الناس عند الأكثرية، يقول حين عوتب في آخر أيامه على فتور شعره: قد تجوَّزت في شعري، وأعفيت طبعي، واغتنمت الراحة، مذ فارقت آل حمدان، ومنهم الذي يقول ـ يعني أبا العشائر:

أأخا الفوارِس لو رأيتَ مواقِفي ... والخيْل من تحت الأسنَة تَنْحَطُ
لقرأتَ منها ما تخطُّ يد الوغى ... والبيض تُشكِل والأسنة تنقُطُ

فهكذا تستعار المعاني البديعة في الألفاظ الرفيعة؛ فما ظنك بمنْ يُثني عليه المتنبي هذا الثناء!

* * *

وممَّن وصف غلاماً فأحسن، الأمير تميم بن المعزّ صاحب مصر، حيث يقول: [الطويل]

وباتَ ضجيعي منهُ أهيفُ ناعمٌ ... وأدعجُ وَسْنَانٌ وألْعَسُ أشنبُ
كأنَّ الدجى من لون صُدغيه طالعٌ ... وشمس الضُّحى في صحن خدِّيه نَغْرُبُ

وقال أيضاً: [البسيط]

يا ليلةً باتَ فيها البدرُ معتنقِي ... وكانت الشمس فيها بعض جُلاَّسِي
وبتُّ مستغنياً بالثَّغر عن قدَحِي ... وبالخدود عن التُّفاح والآس

وقال أيضاً: [مجزوء الكامل]

وَرْدُ الخدود أرقُّ من ... وَرْدِ الرياض وأنعَمُ
هذا تَنَشَّقُهُ الأنو ... فُ وذَا يقبّله الفَمُ
فإذا عدلت فأفضل الـ ... ـورديْن وردُ يُلثَمُ

قوله: «ندوته»، أي مجلسه.

[السُّلَيك بن السُّلَكة]

والسليك، هو ابن السُّلَكة، معروف بأمّه، وكانت أمَةً سوداء شديدة السواد، وكان

هو أسود، وأبوه عمرو بن سنان بن الحارث بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم السعديّ التميميّ.

وكان يسبق الخيلَ على رجليه، وكان من العدَّائين ومن رَجْلَي العرب ـ وهم الذين يسعَوْن على أقدامهم، ويسبقون الخيل، فيستغنون بأرجلهم عنها ـ وكان من أشجع الناس، وكان لا يُغيرُ إلاّ وحده، وكان يقال له: الرئبال:

وسأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه عمرو بن معد يكرب، فقال: أيّ العرب كان أبغضَ لك أن تلقاه؟ فقال: أمَّا من مَعدّ فغديّ بن فَزارة ومُرّة بن ذبيان وكلاب بن عامر وشيبان بن بَكْر وشقّ بن عبد القيس والأراقم من تَغْلب، ثم لم جُلت بفرسي على مياه سعد ما خفت هَيْجَ أحدٍ؛ ما لم يلقني حُرَّاها أو عبداها، قال: أما حُرَّاها فعامر بن الطفيل وعُتيبة بن الحارث بن شهاب، وأما عبداها فعنترة الفوارس وسُليك المقانب.

وأما عدْوته المذكورة، فيقال: إنه أحاط به عدوّه فنزا نزوة عُدّ فيها أربعاً وعشرون خطوة، وعُدَّ أيضاً في نزوة للشّنفَري إحدى وعشرون خطوة.

ويقال في المثل: أعدى من الشّنفَرَى، وأعدَى من السليك.

فأما الشّنفَرى فإنه أغار على بَجيلة مع تأبّط شرًا وعمرو بن براق، فرصدتْهم بجيلة على الماء، فقال تأبّط شرًا: إنّ بالماء رِصَداً، فقالا: ليس عليه أحد، ولا بدّ من وروده، فورد الشّنفَرَى ثم عمرو، فقال تأبّط شرًا: القوم إنما يريدونني، فلذلك لم يعرضوا لكما، وإذا وردتُ أنا الماء فسيشدّون عليّ، ويأسرونني، فاذهب يا شَنْفَرى، كأنك تهرب، وكن في أصل ذلك القرن، فإذا سمعتَني أقول: خذوا خذوا، فتعال فأطلقني، وقال لعمرو: إنّي سآمركَ أن تستأسِر لهم، فلا تبعد ولا تمكِّنهم من نفسك. ثم ورد الماء، فشدُّوا عليه، وكتفوه، وفعَلا ما أمرهما، فقال: تأبّط شرًا: يا معشر بجَيلة، هل لكم في أن تيسّروا فداءنا ونستأسر لكم ابنَ براق؟ قالوا: نعم. فقال يا عمرو: هل لك في أن تستأثر ويُبَاشرونا في الفدَاء؟ قال: حتى أروّضَ نفسي شوطاً أو شوطين، فجرى الأوّل كالريح، والثاني كالخيل، ثم أرَاد أن يجريَ ثالثاً، فجعل يقع ويقوم فشلاً؛ يُطمعهم بذلك، فقال لهم تأبّط شرًا: خذوا خذوا، فأسرعوا إليه بأجمعهم، وهوَى الشّنفَرى كالريح فقطع وثاقه، ثم أحضروا ثلاثتهم، فنجوْا، فقال تأبّط شراً من قصيدة: **[البسيط]**

لـيـلـةَ صـاحـوا وأغـزوا بـي سِـرَاعَـهُـمُ ... بـالـعـيـكَـتَـيْـنِ لـدَى عَـمْـرو بـن بَـرّاقِ[1]

لا شـيء أسـرعُ مـنّـي غـيـر ذِي عُـذَرٍ ... أو ذي جـنـاح بـجـنـب الـرَّيْـدِ خَـفَّـاقِ

(١) البيتان لتأبط شرّاً في ديوانه ص ١٣٢. والبيت الأول في لسان العرب (عيك)، ومجمل اللغة ٢/ ٤٣٠، وتاج العروس (برق)، (عيك)، وشرح اختيارات المفضل ص ١٠٨، ومعجم البلدان (العيكتان)، والمرصع ص ١٣٢، ويروى «مَعدَى بن برّاقِ» بدل «عمرو بن برّاقِ».

فالثلاثة عدَّاؤن، والمثل مقصور على الشَّنفَرى.

وأما السُّليك، فرأته طلائع جيش لبكر بن وائل، جاؤا مجرّدين ليُغيروا على تميم، فقالوا: إن عَلِم السليك بنا أنذر قومه، فبعثوا إليه فارسين على جواديْنْ، فلمّا صافحاه خرج يمحص[(١)] كأنه ظبي، فطارداه يوماً أجمع، ثم قالا: إذا كان الليل أعيا فنأخذه، ووجدا أثر بَوْله قد خدّ[(٢)] في الأرض، فقالا: قاتله الله! ما أشدّ متنه! فتبعاه ليلتهما: فلما أصبحا وجداه قد عثر بأصل شجرة، فندر منها كمكان قدمه، وسقطت قوسُه في جريه فانخطمت، فوجدا قطعة منها قد ارتَزّتْ[(٣)] بالأرض، فقالا: ما بعد هذا شيء، والله لاتبعناه بعد هذا. ومرّ السليك إلى أهله، فأنذرهم، فكذَّبوه لبعد الغاية، فقال: [الطويل]

يكذّبني العَمْران: عمرو بن جندب ... وعمرو بن سعد والمكذِّب أكذبُ[(٤)]

ثكلتكُما إن لم أكنْ قد رأيتُها ... كراديس يَهديها إلى الحيّ موكبُ

كراديس فيها الحوْفَزَان وحولَه ... فوارس همَّامٍ مَتى يَدْعُ يركَبُوا

فصدّقه قوم، فنجوا، وكذَّبه آخرون، فورد عليهم الجيش فاكتسحهم.

ومن شعر السليك يرثي فرسه ـ وكان يقال لها النحّام ـ وأنشدها المبرّد في باب التشبيه من الكامل: [الوافر]

كأن قَوائم النَّحّام لَمّا ... تحمّل صُحبتي أُصُلاً محارُ[(٥)]

على قَرماء عاليةٌ شَواهُ ... كأنّ بياض غُرّتِهِ خِمَار

وما يُدريك ما فقري إليه ... إذا مَا القومُ وَلَّوْا أو أغارُوا

---

(١) يمحص: يسرع.

(٢) خدّ في الأرض: شقها.

(٣) ارتزّت: أثبتت.

(٤) الأبيات في الأغاني ٢٠/ ٣٥٣.

(٥) البيت الأول للسليك بن السلكة في ديوانه ص ٢٨، ولسان العرب (حور)، (خرم)، (نحم)، وجمهرة اللغة ص ٥٧٣، وتاج العروس (حور)، (نحم)، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٦٦٣، والبيت الثاني لبشر بن أبي خازم في ديوانه ص ٧٧، وللسليك بن السلكة في الكتاب ٤/ ٢٥٨، ولسان العرب (تأد)، (فرم)، ولتأبط شراً في معجم ما استعجم ٢/ ٤٩١، وليس في ديوان السليك، وبلا نسبة في أدب الكاتب ص ٥٩١، وجمهرة اللغة ص ١٢٣٣، وشرح أبيات سيبويه ٢/ ٤٣١، ولسان العرب (قرم)، والبيت الثالث للسليك بن السلكة في ديوانه ص ٥٣، ولسان العرب (ركب)، وتاج العروس (ركب)، والكامل ص ٩٧٠، ويروى عجز البيت:

إذا ما الركب في نهب أغاروا

والبيت الرابع للسليك في ديوانه ص ٥٣، والكامل ص ٩٧٠، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ١٣١٧.

ويُحضِر فوق جُهْدِ الحُضْرِ نَصًّا   يَصيدُكَ نافِلاً والمخُّ رَارُ

أي: يصيد لك. ونافلاً: ثانياً، وَرار: ذائب من الهزال؛ وحكاية السُّليك، عن أبي عبيدة، وحكاية الشّنفَري عنه وعن الشيبانيّ؛ وكلتاهما على اختصار.

ونزل على جماعة من كنانة ضيفاً، فأكرموه، وجمعوا له إبلاً كثيرة، وأعطْوه إياها، وكان قد كبِر وشاخ، وذهبت قوّته، وانتقص عَدْوُه، فقالوا له: إنْ رأيتَ أن ترينا ما بقي من عَدْوك! قال: نعم، ابغُوا لي أربعين شاباً، وأتوني بدِرْع ثقيلة عظيمة، فأتوا بِهَا واختارُوا من شبانهم أربعين أقوياء عدّائين، فلبس سُليك الدرع، ثم قال للشبّان: الحقوني، ثم عَدَا عَدْواً وسطاً، وعدا الشبان وراءه جهدهم، فلم يلحقوه حتى غاب عنهم، ثم كرّ راجعاً حتى عاد إلى قوم وحدَه يخطِر، والدرع عليه، وسبق الشبَّان.

وخرج في ليلة مقمرة يطلب الإغارة، فغلب عليه النوم آخر الليل، فبينما هو ملتفّ بكساء، جَثَم عليه رجلٌ مثله، شديد البأس، عظيم القوّة، وأمسك على يديْه، ومنعه التحرّك، وجعل يلمزه ويؤذيه، ويقول له: اسْتأسرْ يا خبيث. فاجتهد سليك حتى خلّص إحدى يديه، فضمّ الرجلَ إليه ضَمّة، وعصره عصرة، فضرَطْ، فقال له: أضرِطاً وأنت الأعلى! فأرسلها مثلاً، فلما تخلّص منه، قال له: من أنت؟ قال: أنا رجل افتقرت فقلت: لأخرجَنّ ولا أرجع إلى أهلي حتى آتيَهم وأنا غنيّ. فقال له السُّليك: انطلق معي، فانطلقا فوجدا ثالثاً، قصّته قصّتُهما، فاصطحبوا حتى أتوا وادياً لِمُراد، فلما أشرفوا عليه إذا فيه نَعَمٌ، قد ملأ نواحيه من كثرته، فقال لهما السليك: كونا قريبا منّي حتّى آتيَ الرِّعاء، فأعلمُ علمَ الحيّ: أهو قريب أم بعيد؟ فإن كان قريباً رجعت، وإن كان بعيداً أوحيت إليكما بقولي فأغيرا. فأتي الرِّعاءَ فاستخبرهم عن الحيّ، فأخبروه ببعد الحيّ، وأنهم إن طلبُوا لم يدرَكوا، فقال للرّعاء: ألا أغنّيكم؟ قالوا: بلى، فرفع صوته فغنّى: [البسيط]

يا صاحِبَيّ ألا لا حيّ في الوادِي   سوى عَبيدٍ وآمٍ بين أذْوَادِ[1]

أتنظران قريباً ريث غفلتِهِمْ   أم تغدوان فإنّ الريح للعَادِي

فلما سمعا ذلك أتياه، وطردوا الإبل فذهبوا بها، ولم يبلغ الصريخُ الحيّ، حتى فاتوا بالإبل.

---

(١) البيت الأول للسليك بن السلكة في ديوانه ص ٥١، ولسان العرب (أما)، وتاج العروس (أمو)، والأغاني ١٠/ ٣٩١، والبيت الثاني لتأبط شرّاً في ملحق ديوانه ص ٢٤١، ولسان العرب (روح)، والتنبيه والإيضاح ١/ ٢٤٠، ومجمل اللغة ٢/ ٤٤١، وللسليك بن السلكة في ديوانه ص ٥٠، والشعر والشعراء ص ٣٧٣، وجمهرة الأمثال ١/ ١٣٠، وعيون الأخبار ١/ ٢٧١، ومجمع الأمثال ٢/ ١١، وبلا نسبة في مقاييس اللغة ٢/ ٤٦٤.

قال ابن الأعرابي: آم مقلوب آيم، وهم العزّاب، جمع أَمَة.

وكان السّليك من أدلّ الناس بالأرض وأعلمهم بمسالكها، وكان يستودع الماء بيضَ النعام في الشتاء، ويدفنه في المفاوز العظيمة، فإذا كان الصيف وانقطعت إغارة الخيل أغار على رَبيعة، وشرب من ذلك الماء. وكان يقول: اللّهم إني أعوذ بك من الخيْبة، وأما الهيبة فلا هيبة.

* * *

قوله: «عِدْوته»، العِدوة بالكسر: الحالة، وبالفتح المرة الواحدة، فيريد الحريريّ، أن إسراعهما إلى الوالي كان كعدوة السليك.

* * *

فَلَمَّا حَضَرَاهُ، جَدَّدَ الشَّيْخُ دَعْوَاهُ واسْتَدْعَى عَدْوَاهُ فاسْتَنْطَقَ الغلاَمَ وَقَدْ فَتَنَهُ بِمَحَاسِنِ غُرَّتِهِ، وَطَرَّ عَقْلَهُ بِتَصْفِيفِ طُرَّتِه، فقالَ: إِنَّهَا أَفِيكَةُ أَفَّاكٍ، عَلَى غَيْرِ سَفَّاكٍ؛ وعَضِيهَةُ مُحْتالٍ، على مَنْ لَيْسَ بِمُغْتَالٍ. فقال الوالي للشَّيخ: إنْ شَهِدَ لَكَ عَدلاَنِ مِنَ المُسْلِمينَ، وَإِلاَّ فاسْتَوْفِ مِنْهُ اليَمِينَ. فقال الشيخُ: إنَّهُ جَدَّلَهُ خاسِياً، وَأَفَاحَ دَمَهُ خالِياً، فأَنَّى لي شاهِد، ولَمْ يَكُنْ ثَمَّ مُشاهِدُ! ولَكِنْ وَلِّنِي تلقِينَهُ اليمين، ليَبين لك: أيصدق أم يَمِينُ! فقال له: أنت المالك لِذَلِكَ؛ مَعَ وَجْدِكَ المتَهَالِك، على ابنِك الهالك!

* * *

واستدعى عدواه، أي طلب إغاثته وأعداه الحاكم: أغاثه. استنطق: أمره أن ينطِق وقد بيّن هذا الاستنطاق في الرابعة والثلاثين عند شراء الغلام قال: «ثم استنطقته عن اسمه، لا لرغبةٍ في علمه، بل لأنظر أين فصاحته من صباحته، وكيف لهجته من بهجته». وكذلك لم يُرِد الوالي أن يستنطقَه ليقول حجته؛ بل ليعلم حلاوته من صورته التي فتنته. وقد ذكرنا أنّ فائدة الحسن إنما تدور على اللسان.

[إبراهيم النظام]

وهذا الاستنطاق هو الذي ذهب بإبراهيم بن سيار النظّام، الّذي هو إمام في علم الكلام إلى علاقة غلام؛ وذلك أنه لَقِيَ غلاماً جميل الوجه، مقبول الصورة، فاستحسنه، وتصوّر فيه الصورة الباطنة المناسبة لخِلْقته الظاهرة، فقال له: يا غلام، إنه لولا ما سبق من قول الحُكماء، لما جعلوا السبيل لمثلي إلى مثلك بقولهم: لا ينبغي لأحد أن يصغُر عن أن يقول، ولا أن يكبُر عن أن يقال له، لَمَا أنستُ إلى مخاطبتك، ولا انشرح صدري إلى محادثتك، لكنّه سبب الإخاء وعَقْد المودّة، ومحلُّك من قلبي محلّ الروح من جسد

الجبان، فقال له الغلام ـ وهو لا يعرفه: لئن قلتَ ذلك أيُها الرجل، لقد قال أستاذُنا إبراهيم بن سيار النظام: الطباع تجاذِب ما شاكلها بالمجانسة، وتميل إلى ما قارنها بالموافقة، وكياني مائل إلى كيانك بكلّيتي؛ ولو كان الذي انطوى عليه لك عَرَضاً لم أعتدّ به ودًا، ولكنه جوهر جسمي، فبقاؤه ببقاء النفس، وعدمه بعدمها، وأقول كما قال الهذليّ:

فتبيّني أني بكم كلِفٌ ... ثم اصنعي ما شئت عن عِلْمِ[1]

فقال له النظام: إنما كلّمتك بما سمعت، وأنت عندي حَسن الصورة غلام، ولولا أنّ محلّك محلٌ مقيم ما تعرّضت لك، ثم اعتلقه النظام بعد، وقال فيه جريا على علمه: **[الطويل]**

توهّمه طرفي فآلم خدَّه ... فصار مكان الوهْم من نظري أُثْرُ[2]

وصافحه كفّي فآلم كفَّه ... فمِنْ لمس كفّي في أنامله عَقْرُ

ومرّ بفكري خاطراً فجرحتُه ... ولم أر خَلْقاً قطّ يَجْرحه الفِكْرُ

وقال فيه أيضاً: **[الكامل]**

وإذ تأمّل في الزّجاجة ظلّه ... جرحته لحظة مقلة الظّلّ

وقال فيه أيضاً: **[الرجز]**

أفرغ من نور سماويٍّ ... مصوّرٍ في جسم إنسيّ

وافتقر الحسن إلى حسنه ... فجلّ عن تحديد كيفيّ

وقال فيه: **[مجزوء الكامل]**

يا مشرقا ملأ العيو ... ن فلحظها ما يستقلّ

أوفى على شمس الضُّحى ... حتى كأنّ الشمس ظلّ

أتريد قتلي عامِداً ... ولَقَتْلُ مثلِي ما يحلُّ

فصرّف في شعره من صناعته، وأبدع في تخيله ببراعته.

* * *

---

(١) يروى البيت:

فتعلّمي أنْ قد كلفتُ بكمْ ... ثم افعلي ما شئت عن عِلْمِ

وهو لأبي صخر الهذلي في الإنصاف ١/ ٢٠٥، وشرح أشعار الهذليين ٢/ ٩٧٥، وشرح المفصل ٨/ ٧٦.

(٢) الأبيات في أمالي المرتضى ١/ ١٨٨.

قوله: «غرّته»، أي وجهه. طَرّ، أي قطع وأذهب. تصفيف طُرّته: شعره المعتدل على جبهته. أفيكة أفّاك: كِذبة كذّاب. سفاك: قتّال. عضيهة: بهتان. وباطل. مغتال: قاتل الغيلة. استوف: استكمل. جدّلهُ: صرَعه وألقاه على الجَدَالة، وهي الأرض: خاسياً: متباعداً ممنوع الكلام، كأنه قهره ومنعه أن يصيح عند قتله، ولذلك لم يجد عليه شاهداً، وأصله الهمزة فسّهله ليوافق «خالياً» إن أخذتَه من خسأت الكلب، وإن أخذته من خَسِيَ البصرُ إذا كلّ، فلا تسهيل فيه، ومعناه قريب من الأوّل، أي أنه أضعفه بالضرب حتى لم يستطع الكلام ثم قتله. أفاح دمه، بحاء مهملة: أراقه. قال أبو زيد في نوادره: أفحت دمه ففاح فَيْحا وفيحانا، وأنشد: [الرجز]

نحن قتلنا الملك الجَحْجَاحَا ... ولم نَدَعْ لسارحٍ مُراحَا

* إلاّ دياراً أو دما مُفَاحَا[1] *

وقال أبو حاتم: أراد: ودما مفاحا أي مُهراقا. خاليا: بمعنى «منفردا». أنّى، بمعنى كيف. مُشاهد: من شاهد حاله وحضر عليها. وَلّني: مَكّنّي. تلقينه: تفهيمَه وإلقاءه عليه. يمين: يكذب. وجْدك: حزنك. المتهالك: الكثير التفاوت، وتهالكت المرأة عليه: تراخت عليه، وتكاسلت، قال الأعشى: [الطويل]

تهالك حتى ينكر المرء عقلَه ... وتُسْبي الحكيم ذا الحجى بالتَّقتّلِ[2]

* * *

فَقالَ الشَّيخُ لِلْغُلاَمِ: قُلْ: وَالَّذي زيَّنَ الجِبَاهَ بالطُّرَرِ، والعُيُونَ بالحَوَرِ، والحواجِبِ بالبَلَجِ، وَالمَبَاسِمَ بالفَلَجِ، وَالجُفُونَ بالسَّقَمِ، والأنوفَ بالشَّمَمِ، والخُدُودَ باللَّهَبِ، والثُّغُورَ بالشَّنَبِ، وَالبَنَانَ بالتَّرَفِ، والخُصُورَ بالهَيَفِ، إنَّنِي مَا قَتَلْتُ ابنَكَ سَهْواً وَلاَ عَمْداً، وَلاَ جَعَلْتُ هَامَتَهُ لِسَيْفِي غِمْداً، وإلاَّ فرَمَى اللَّهُ جَفْنِي بالعَمَشِ، وَخدِّي بالنَّمَشِ، وَطُرَّتِي بالجَلَحِ، وطَلْعِي بالبَلَحِ، وَوَرْدَتِي بالبَهارِ، ومِسْكَتِي بالْبُخَارِ، وبَدْرِي بالمِحاقِ، وفِضَّتِي بالاحْتِرَاق، وشُعَاعِي بالإظلامِ، ودواتي بالأقلام.

* * *

(١) الرجز لأبي حرب بن عقيل الأعلم في لسان العرب (فيح)، والتنبيه والإيضاح ١/ ٢٦١، وتاج العروس (فوح)، ولمزاحم في كتاب الجيم ٣/ ٢٤، وليس في ديوان مزاحم العقيلي، وبلا نسبة في تهذيب اللغة ٥/ ٢٦٣، وديوان الأدب ٣/ ٤١٩، والمخصص ٦/ ٩٥، وجمهرة اللغة ص ١٨٢.

(٢) البيت في ديوان الأعشى ص ٣٥٣.

قوله: «الذي زيّن الجباه بالطرر..»، إلى آخر يمينه، إنما ذكر صفات الحسْن شيئاً بعد شيء، ليُري هذا الوالي كمال الغلام، فيشتدّ حبّه فيه، فإذا ذكر صفةً من صفاته نبّه الوالي بذكرها على النّظر إليها، فوجدها كما يصف، فهو الآن في هذه اليمين يجلُو محاسنَ الغلام عليه.

الطّرَر: جمعُ طُرّة، وهي اعتدال الشعر على الجبهة، والطُّرّة عندهم أن يقطع للجارية من مقدّم ناصيتها حتى لا يبلغ الشعر حاجبيها، فيبقى ما بين شعر ناصيتها وحاجبيها من جبهتها نقيًّا، والشعر عليها معتدل، كطُرة الثوب ثم تسمّى الشعور الحسان طُرَراً.

أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «ثلاث فاتنات: الشَّعر الحسَن، والوجه الحسن، والصوت الحسن».

عائشة رضي الله عنها، قال رسول الله ﷺ: «ملائكة السماء يسبّحون بذوائب النساء وبلحى الرجال، فيقولون: سبحان الّذي زيّن الرجال باللحى، والنساء بالذوائب».

قال ﷺ: «إذا أراد أحدكم أن يتزوّج المرأة فليسأل عن شعرها كما يسأل عن وجهها».

قالوا: الشعر الحسن يزيد الوجه حسناً وجمالاً، وقال ابن صارة ـ وكأنه وصف طرة هذا الغلام ـ يصف بها أبا الفضل بن الأعلم، وكان من أجمل الناس وأذكرهم في علم النحو والأدب، وقرأ النحو قبل أن يلتحَى، فقال فيه: [الكامل]

أكرم بجعفرِ اللبيب فإنه ... ما زال يوضح مُشْكِلَ «الإيضاحِ»
ماء الجمال بخدِّه مترقرقٌ ... فالعين منه تجول في ضَحْضَاحِ
ما خدّه جرحته عينِي، إنّما ... صَبَغت غِلالَته دِمَاءُ جِراحِي
لله زايُ زبرجد في عسجدٍ ... في جوهرٍ في كَوْثرٍ في رَاحِ
ذي طُرَّةٍ سَبجيَّة ذي غُرَّةٍ ... عاجيَّة كالليل والإصْبَاحِ
رَشأٌ له خدّ البريء ولحظه ... أبداً شريك الموت في الأرْوَاحِ

* * *

[مما قيل في الحسن والجمال]

ونذكر بعد هذا الحورَ في العينين، وهو شدة بياض البياض وسواد الكحل، وكلّ ذلك عندهم ممدوح. وقد أكثر الشعراء من وصف ذلك حتى لو تركنا ذكره لشهرته لكان لنا فيه عذر، على أنّا نُلمّ ببعض ما قيل في ذلك، وأمّا ما يزهّد فيه من ذلك، ويقلّ ذكره في أشعارهم فالزَّرَق؛ على أنه قد جاء في حديث عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال: «الزرَق في العينين يُمْن».

وقال معاوية لصُحار العبديّ: إنك أحمر، قال: والذهب أحمر، قال: إنك لأزرق، قال: والبازي أزرق.

ولبعض أصحابنا: [الطويل]

أحبّك أن قالوا بعينيك زُرْقَةٌ ... كذاك عِتاق الطير زُرْق عيونُها

وقال الصّنوبريّ: [المنسرح]

قالوا به زُرْقة، فقلت لهمْ ... بذاك تمت خصالُهُ البَهِجَهْ
ما كَحَل العين مثلُ زُرْقتها ... كم بين ياقوتة إلى سَبَجهْ

وقال آخر: [مخلع البسيط]

ما مثلُ ذا الظّبي في الظّباءِ ... الأزرق الأزرق القَباءِ
يجول في مقلتيْه طرفِي ... في زُرْقة الماءِ والسماءِ
بأبي الشّقْر ما عليهمْ ... من ذلك النّور والبَهاءِ
شُقْرَةُ شعرٍ على بياضٍ ... شعاع شمس على هواءِ

وكلّ هذا اعتذار جاء على وَفْق مدح سواد الألوان، ولسواد الألوان في التاسعة فِصل مستطرف فقف عليه.

واختلفوا في الحَوَر، فقال أبو عبيدة: الحوراء: الشديدة بياض بياض العين في شدّة سوادها.

وقال أبو عمرو: الظبية الحوراء: السوداء العين الّتي ليس في عينها بياض، ولا يكون هذا في الإنس إنما يكون في الوحوش.

وقال يعقوب: الحَور سعة العين وكبر المُقْلة وكثرة البياض.

وقال قطرب: الحوراءُ: الحسَنة المحاجر، صغرت العين أم كبرت.

واشتقاق «ح و ر» يدل على صحة قول يعقوب وأَبي عبيدة؛ لأنهم إنما يوقعونه في الغالب على البياض مثل الدقيق الحواريّ للدرمك الشديد البياض ونحوه، وقلّما يتفق شدة بياض العين إلاّ مع شدة سوادها، ألا ترى أن بياضها مع الزّرَق ليس هناك في النقاء، وقال القاضي التنوخيّ في أحور: [الكامل]

حَوَرٌ بعينيه أطال تحيُّري ... ترك الدموع بخدّيَ المتعصفِرِ
غصنٌ تأوّد فوق غُصْنٍ من نقاً ... ليل تبلّج عن نهارٍ مُسْفِرِ
كالشّمس إلا أنه متنفّس ... عن مسكةٍ متبسّمُ عن جوهِرِ

والبَلَج: أن يكون ما بين الحاجبين نقيًّا من الشعر، وهو من علامات السيادة عند

العرب، ويُتمدّح به ويُتيمن بصاحبه، ويتطيّر بمقرون الحاجبين؛ ويقال: أبلج وأبلد، وهي البلجة والبلدة، قال كثير: [الطويل]

جميلُ المحيَّا أبلجُ الوجه واضحٌ ... حليم إذا ما زلزلته الزَّلاَزِلُ

الفَلج: أن يكون بين منابت الأسنان تباعد، وقد فلج ثغره فلَجاً، وهو مستحبٌ في الثغر. قال وجيه الدولة: وهو مما يليق بهذا الموضع لذكره أوصافاً ذكرها الحريري رحمه الله هنا: [الطويل]

إذا عدم الرَّوْضَ المنوَّرَ ناظرِي ... أرانيه ظبيٌ فاتر الطّرْف أدعجُ

فصدُغاه ريحانِي وعيناه نَرْجسِي ... ومنْ ثغره لي أقحوان مفلَّجُ

واحَرَبَا من حسن وردٍ بخدِّه ... يُطيف به من عارضيه بنفسجُ

الجفون: أغطية العيون، ثم تسمَّى العين جفناً مجازاً.

والسقم: فتور العين، ومن حَسَن التشبيه في ذلك قول أبي نواس: [الطويل]

فطبْ بحديث من نديم مساعدٍ ... وساقية بين المراهق والحِلْم[1]

ضعيفة كَرّ الطرف تَحْسِبُ أنَّها ... قريبة عهد بالإفاقةِ من سُقْمِ

وقال أيضاً: [البسيط]

وشادنٍ قال لي لما رأى سَقَمِي ... وضعف جسمِيَ والدَّمع الذي انْسَجَمَا

أخذتَ دمعك من لفظي، وجسمك من ... خَصْرى، وسُقْمَكَ من طرفي الّذي سَقِمَا

وقال ابن الروميّ: [الكامل]

قلبي من الطرف السقيم سقيمُ ... لو أنّ من أشكو إليه رحيمُ

وقال ابن الزّقاق: [الوافر]

ومقلةِ شادنٍ أَوْدَتْ بجسمي ... كأنَّ السُّقْمَ لي ولها لباسُ

يسلّ اللّحظ منها مَشْرفيًّا ... لقتلِي ثم يغمِدُ النُّعَاسُ

ولأبي العلاء بن زهر في مثل ذلك: [البسيط]

يا راشقِي بسهامٍ مالها غرضٌ ... إلاّ فؤادي وما منها له عِوَضُ

وممرضي بجفونٍ كلّها سَقَمٌ ... صَحَّتْ وفي طبعها التمريضُ والمَرَضُ

امنن ولو بخيالٍ منك يؤنِسُنِي ... فقد يسدّ مسدّ الجوهر العَرَضُ

---

(١) البيتان في ديوان أبي نواس ص ٣٢.

الشمم: ارتفاع في لين الأنف، وهو من علامات الجمال والسؤددِ، قال الفرزدق: [البسيط]

بكَفِّهِ خَيْزُرَانٌ رِيحُهُ عَبِقٌ ... من كَفِّ أرْوَعَ في عِرْنِينِه شَمَمُ[1]

يُغضِي حياء ويُغْضَى من مَهَابَتِه ... فلا يُكَلَّمُ إلا حينَ يبسِمُ

وقال آخر: [السريع]

في باعه طولٌ وفي وجهِه ... نورٌ وفي العرنين منه شَمَمْ

وقال النابغة: [البسيط]

* شمّ العرانين ضرّابُون لِلْهَام[2] *

اللهب: اشتعال النار بغير دخان، فشبّه الحمرة في الخدّ وضياءه بحمرة النار، وكُنِيَ به أبو لهب لجماله.

وقال ابن وكيع؛ فجمع السُّقم واللّهب: [مخلع البسيط]

واحزني من جفون ظبيٍ ... أقام عُذْرِي بها عِذارُهُ

أسقَم جسمي بسقم طَرْفٍ ... حيَّرني في الهوى احْوِرَارُهُ

عجبت من جَمْرِ وجنتَيْه ... يحرِقُني دونَهُ استعارُهُ

هو اختياري فأبصروه ... شاهدُ عقلِ الفتى اختيارُه

وله قريب منه: [مخلع البسيط]

---

(١) البيت الأول للفرزدق في ديوانه ٢/ ١٧٩، ولسان العرب (خزر)، وتاج العروس (خزر)، وله أو للحزين الكناني في لسان العرب (جنه)، وتاج العروس (جنه)، ولعمرو بن عبد وهيب (الحزين الكناني) في لسان العرب (حزن)، وتاج العروس (حزن)، وبلا نسبة في تهذيب اللغة ٢/ ١٤٠، ومقاييس اللغة ١/ ٤٨٢، ويروى عجز البيت الثاني:

فما يُكَلَّمُ إلا حين يبتسمُ

وهو للحزين الكناني (عمرو بن عبد وهيب) في الأغاني ١٥/ ٢٦٣، ولسان العرب (حزن)، والمؤتلف والمختلف ص ٨٩، وللفرزدق في ديوانه ٢/ ١٧٩، وأمالي المرتضى ١/ ٦٨، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ١٦٢٢، وشرح شواهد المغني ٢/ ٧٣٢، ومغني اللبيب ١/ ٣٢٠، والمقاصد النحوية ٢/ ٥١٣، ٣/ ٢٧٣، وبلا نسبة في أوضح المسالك ٢/ ١٤٦، وشرح الأشموني ١/ ١٨٣، وشرح المفصل ٢/ ٥٣.

(٢) صدره:

مستحقبي حَلَقِ الماذيّ يقدمهم

والبيت للنابغة الذبياني في ديوانه ص ٨٣، ولسان العرب (حقب)، وتاج العروس (حقب)، وكتاب العين ٣/ ٥٣، وأساس البلاغة (حقب).

كأنَّ صدغاً له تراهُ وهو على خدّه مُدار
بيت من الحسن لي إليه حجٌّ مدى الدَّهْرِ واعتِمارُ

ولابن الزَّقّاق: [الرمل]

بأبي من لم يدع لي لحظُه في الهوى من رمقٍ منذُ رمَقْ
جعلت نكهتُه في ثغره عَبَقاً في نَسَقٍ يسبي الحدَقْ
وبدت خجلتُه في خدّهِ شفقاً في فلقٍ تحت غَسَقْ

وقال الخفاجيّ: [السريع]

يا بانةً تهتزّ فَيْنَانَةً وروضةً تنفحُ مِعْطَارَا
كم دمع عينٍ فيك قد أجريتُهُ وقلب صبّ فيك قد طارَا
كَنّي فسمّى قوسَه حاجباً رمزاً وسمّي النَّبَل أشْفَارَا
فإن رَمَى يجرَحُني طرفُهُ لَحَظْتُهُ أجرحه ثَارا
فيصبِغُ الدّرّ عقيقاً بِهِ وأصبِغ الألوان أزهارَا
يُدِيرُ للأعيُنِ من وَجْهِهِ كَعْبَةَ حُسْنٍ حيثُمَا دارَا
قد طبع الحسنُ به درهماً تسبِك منه العين دِينَارَا
فلِي به عينٌ مجوسيَّةٌ تعبد من وَجْنَتِهِ نَارَا

غيره: [الطويل]

وأغيد تَدمى وجنتاه من اللَّمْحِ تخلّق إلاّ مِنْ صدُودِيَ بالشُّحّ
غَدَا قاتلي أن ظلت أجرَحُ خدَّه متى صار بالقتل القصاص من الجُرْح!

الثغور: جمع ثغر وهو السنّ. وتقدّم الشنَب في الثانية.

وقال العباس بن الأحنف في طيب الفم: [الطويل]

ذكرتكِ بالتفّاح لمَّا شمْمتُهُ وبالرَّاح لما قابَلَتْ أوجهَ الشَّرْبِ
وتذكَّرت بالتّفاح منكِ سوالِفاً وبالرَّاح طعماً من مقبَّلِك العَذْبِ

وقال ديك الجنّ، واسمه عبد السلام: [الكامل]

بأبي فمٌ شهد الضَّميرُ له قبل المذاق بأنه عذْبُ
كشهادةِ لله خالصةٍ قبل العيان بأنَّهُ الرَّبُّ

وقال أحمد بن محمد الغسانيّ: [المتقارب]

له مبسمٌ برقُه خاطفٌ عقولَ الرجال إذا ما ابتسَمْ

أقــــول لـــــــه إذ بــــــدا دُرّه ... شــهـدنـا لـصـانـعـه بـالـحِـكَـمْ
أرَى الـدّر تـثـقـبـه الـنـاظـمـونَ ... ومـا ثـقـبـوا إذا فـكـيـف انـتـظَـمْ!

وقال أبو بكر البلويّ: [المنسرح]

تَـقْـطِـفُ مـن ثَـغْـره ووجـنَـتِـهِ ... أنـامـلُ الـطَّـرفِ زهـرةً عَـجَـبَـا
شـقـيـقـهـا مُـذهـبـاً يُـرَى خـجـلا ... وأقـحـوانـاً مـفـضَّـضـاً شَـنَـبَـا

وقال ابن بشر الكاتب: [المنسرح]

ولـم نَـزَلْ، والـظـلام حـارسُـنَـا ... جـسـمـيْـنِ مسـتـودَعَـيْـنِ فـي جِسْـم
ألـثـمُـه فـي الـدُّجـى وبـرق ثـنـا ... يـاهُ يـريـنِـي مـواقِـعَ الـلَّـثْـم
ثـم افـتـرقـنـا عـنـد الـصَّـبَـاح وَقَـدْ ... أثَـر فـيـه كـهـيـئـة الـخَـتْـم

وقال الشريف الرضيّ: [البسيط]

بتْنَا ضجيعين في ثَوْبيْ هوًى وتُقًى ... يلـفـنـا الـشـوْق من فَـرْقٍ إلى قَدَم[1]
وبـات بـارق ذاك الـثَّـغـر يُـوضـح لـي ... مـواقـعَ الـلَّـثْـم فـي داجٍ مـن الـظُّـلَـمِ

وقال المتنبي: [الطويل]

حِسان التثّني ينقش الوشيُ مثلَه ... إذا مِسْـنَ فـي أثـوابـهـنَّ الـنَّـواعِـم[2]
ويـبـسِـمْـن عـن دُرٍّ تـقـلّـدن مـثـلَـه ... كـأنّ الـتـراقـي وُشِّـحَـت بـالـمـبـاسِـمِ

فهذه معانٍ مختلفة في أوصاف الثغر كلها حسان.

* * *

قوله: «والبنان بالترف»، أي الأصابع باللين والنعمة، وأحسن ما قيل في ذلك قول النابغة: [الكامل]

بـمـخَـضَّـبٍ رَخْـصٍ كـأنّ بَـنَـانَـهُ ... عَـنـمٌ يَـكـادُ مـن الـلَّـطَـافَـةِ يُـعْـقَـدِ[3]

فهذا تشبيه بديع.

وقال امرؤ القيس: [الطويل]

وتـعـطُـو بِـرَخْـصٍ غـيـرِ شَـثْـنٍ كـأنَّـهُ ... أسـاريـعُ ظَـبْـيٍ أو مـسـاويـكُ إسْـحِـلِ[4]

---

(١) البيتان في ديوان الشريف الرضي ص ٧٢٣.
(٢) البيتان في ديوان المتنبي ٢/ ١١١.
(٣) البيت في ديوان النابغة ص ٣٠.
(٤) البيت في ديوان امرىء القيس ص ١٧، وجمهرة اللغة ص ٣٦٣، ٥٤٣، وحاشية يس ٢/ ٨٥، =

وقال غيره: [السريع]

يا قمراً أبصرتُ في مأتم ... يندُب شجواً بين أتراب[1]
أبرزَه المأتم لي كارهاً ... من بين راياتٍ وحُجَّابِ
يبكي فيُذرِي الدُّرّ من نرجس ... ويَلطُمُ الوَرْدَ بعُنَّابِ

وقال عُكّاشة: [الكامل]

سقيا لمنزلنا الّذي كان به ... يوم الخميس عشيَّةً أصْحَابَا
إذْ نحنُ نُسْقَاهَا شَمُولاً قَرْقَفاً ... تدَعُ الصَّحِيح بعقلِه مُرْتَابَا
من كفّ جارية كأنَّ بنانها ... من فضّة قد قُمِّعَتْ عُنَّابَا
وكأنّ يُمناها إذا ضربت بها ... تُلْقِي على يدها الشِّمال حِسَابَا

وقال آخر: [الوافر]

وحوراء اللواحظِ بين قلبي ... وبين جفُونها حَرْبُ البَسُوسِ
ترى ماء النّعيم يجولُ فيها ... كمثل الخمر في صافِي الكؤوسِ
كأنّ بنانَها أقلام عاجٍ ... مرصّعة الرأس بآبنوسِ

ووصف الخصور بالهَيف، وهو الضّمر والرقة، وسنذكر معها ما يستظرف، وقد تقدّم قول ابن عبد ربه: [الكامل]

يا مَنْ تقطّعَ خَصْرُه من رِقّةٍ ... ما بالُ قلبِك لا يكون رقيقَا

وقال ابن الروميّ: [مجزوء الكامل]

وَهَبَتْ له عَيْنِي الهُجُوعَا ... فأثابها منه الدُّمُوعَا
ظبيٌ كأن بخَصْره ... من ضُمْرِه ظَمَأً وجُوعَا

وقال عبيد الله بن عبد الله: [السريع]

سَلْمَى وما سَلْمَى تَفُوقُ المُنَى ... والحسْنَ أوصافا وألْوَانَا
وِشاحها يحسد خَلْخَالَهَا ... كجائعٍ يحسُد شَبْعَانَا

وقال كشاجم في مقلوبِهِ:

مساولة الكَلّ غير بطنٍ ... مشقَلٍ فهي عنكبوتُ

= وشرح المفصل ٦/ ٩٢، ٧/ ١٤٤، ولسان العرب (سرع)، (سحل)، (شثن)، (ظبا)، والمنصف ٣/ ٥٨، وتاج العروس (سحل)، (شثن)، (ظبا).

(١) الأبيات لأبي نواس في ديوانه ص ٣٦١.

حَجُولها الدهرَ في اضطراب ... ووشحها كاظمٌ صموت

وقال حبيب: [الطويل]

مَهَا الوَحْشِ إلا أن هاتَا أوانسٌ ... قَنا الخطِّ إلاَّ أن تلك ذوابِلُ[١]

من الهِيف لو أنَّ الخلاخيل صُيِّرتْ ... لها وشُحاً جالت عليها الخلاخِلُ

أخذه القاضي ابن لبّال فقال: [الطويل]

جلوتِ لنا شيئاً من الدّرّ عاطلاً ... بعيشِك لمْ جنَّبْتِه الجِيدَ والنَّحْرَا

فقالت ولم تكذب خشيتُ سقوطَه ... وأومت إليّ فيها نظّمته ثغْرَا

كذلك إن عَضَّ السِّوارُ بمعْصَمِي ... وحاذرت أن يدميه حمَّلْتُه الخصْرَا

وأكثر ما يذكرون الخَصْر بالرّقة مع ذكر الكَفَل بالعِظَم، كما قال ديك الجن: [الكامل]

وتمايلتْ فضحكتُ من أرْدَافِهَا ... عجباً، ولكِنّي بكيتُ لخَصْرِهَا

تسقيك كأس مُدامةٍ من كَفِّها ... ورديّةٍ، ومُدامَةٍ مِنْ ثَغْرِهَا

وقال القاضي أبو حفص بن عمر:

مشتْ كالغصن يثنيه النسيمُ ... ويعدُوه النَّسيم فيستقيمُ

لها رِدْفٌ تعلّق من ضعيفٍ ... وذاك الرِّدْفِ لي ولها ظَلُومُ

يعذّبني إذا فكّرت فيه ... ويتعبها إذا رَامَت تقُومُ

وما حُبِّي لها إلا عذَابٌ ... عليه من نَضَارَتِها نعيمُ

* * *

قوله: «سهواً». أي خطأ. والهامة: الرأس. وإلا فَرَمى الله جَفْني بالعَمش، إنما ذكر العمش والنَّمش وما بعده لأنها أضداد لما تقدم، وعند الإشارة لها يتبيّن من الغلام عند الوالي أضدادُها، فيزداد حسناً. [الكامل]

* وبضِدِّهَا تتبيَّنُ الأشْيَاءُ[٢] *

والعَمَش: انتشار شعر العينين. والنَّمَش: أخفى من البَرَش. الجلَح: الصَّلَع، وهو

---

(١) البيتان في ديوان أبي تمام ص ٢٥٦.

(٢) صدره:

ونذيمهم وبهم عرفنا فَضْلَهُ

والبيت للمتنبي في ديوانه ١/ ٢٢.

انحسار الشعر من النّزعتين، وفعله جَلَح الرجل واجْلَحَّ، كاسودَّ. والطّلع: قد تقدّم في الثانية، وإذا علتْه خضرة سُمِّيَ بلحاً. والبَهار: نرجس المغرب، وهو أصفر، والورد أحمر، فدَعا له بعلّة تذهب جمال وجهه وتصفّر حمرة خده. والبخار: كالبخَر: النّتْن. والمسكة: أطيب العطر، فدعا له بتغير الرائحة. وتقدّم أن أطيب الطيب أنفاس عبقة من كبدٍ سليمة.، وتقدَّم في الثانية معنى قوله: «ووردتي بالبهار» منظوماً، وقال الصابي في أبخر: [الكامل]

نطق ابنُ نصرٍ فاستطارت جيفةٌ ... في العالمين لنتن فيه الفاسدِ
فكأنَّ أهل الأرض كلَّهمُ فَسَوْا ... متواطئين على اتّفاق واحِدِ

وقالت جنان في أبي نواس: [الخفيف]

فإذا ما أردت أن تحمد اللَّـ ... ـهَ على ما أعطى وأولاك شُكْرَا
فليكن ذاك بالضمير فمن سَبَّـ ... ـحَ بالفسْو نال إثماً وَوِزْرَا

وقال آخر: [السريع]

أهدى زريق قطَّهُ لقمةً ... قد لاكها في فمِهِ الأبْخَرِ
فبادر القِطّ إلى دَفْنِهَا ... يحسبها من بعض ما قد خَرِى

قوله: «وبدري بالمِحاق»، المِحاق: أن ينمحق ضوء القمر فلا يبقى منه شيء. واحتراق الفضة: اسودادها. وشُعاعي بالظلام، أي صَباحة وجهه ووضاءته بسواد اللحية، أي عاجلني الله بالالتحاء، ويريد بهذا كلّه أن يكسوَ بياض وجهه سواد الشعر، فيكسد ولا يُلْتَفَتُ إليه.

وقال ابن المعتزّ في مثل هذا الدعاء: [البسيط]

يا ربّ إن لم يكن في وصلِه طَمَعٌ ... وليس لي فرج من طول هجرَتِهِ
فاشْفِ السّقام الّذي في طرف مُقْلتِه ... واستر ملاحَة خَدَّيْهِ بلحيتِهِ

ونقل لفظ احتراق الفضة من قول أبي الحسين الثَّغريّ، وهو من شعراء اليتيمة: [الرمل]

لي حبيبٌ يزهَى بحسنٍ عجيبِ ... وبقدٌ مثل القضيب الرطيبِ
أحدقت بالسواد فضة خدَّيْـ ... ـه، فقد أحرقت سوادَ القلُوبِ

[مما قيل في العذار وفي الالتحاء]

ونذكر هنا ما يليق بهذا الموضع مما قيل في العِذار وفي الالتحاء مما مدح به وذُمّ، قال ابن عبد ربه: [الكامل]

ومعذّرٍ نقش الجمال بمسكِهِ خدًّا له بدم القلوبِ مُضرَّجا
لما تيقّن أن سيف جفونِه من نرجسٍ جعل النّجاد بنفْسِجَا

وقال ابن صارة: **[الكامل]**

ومعذّر رقّت حواشي حسنِه فقلوبنا حذرًا عليه رِفَاقُ
لم يَكْسُ عارضَهُ السوادُ وإنّما نفَضت عليه سوادَها الأحْدَاقُ

وقال عبد المحسن الصوريّ: **[الوافر]**

ومعتذر العِذار إلى فؤادي لجرم سابقٍ من مُقْلَتَيْهِ
وكم أعرضْتُ عنه فأعرضَتْ بي عن الأعراض خضرةُ عَارِضيْهِ
ولمّا قلتُ إنَّ الشّعر يسعَى لِقلبي في الخلاصِ سَعَى عَلَيْهِ

وقال أبو القاسم الزاهي: **[الكامل]**

لولا عذارُك ما خلعتُ عِذَارِي لكُنتُ في وَزَرٍ من الأوْزَارِ
ما كنتُ أحسِبُ أن أعاينَ أو أرَى تخطيطَ ليلٍ في بياض نَهَارِ
حتى نظرتُ إلى عِذارك فاغتدَى سَقَمَ القلوبِ ونزهةَ الأبصَارِ

وللمعتمد بن عباد: **[مخلع البسيط]**

تمَّ له الحسنُ بالعِذَارِ واختلَطَ اللَّيل بالنَّهارِ
أخْضَرُ في أبيضٍ تبدَّى ذلك آسِي وذَا بَهَارِي
لقَدْ حَوَى مجلسي تماماً إن يكُ من ريقه عُقَارِي

وقال ابن حمدون: **[مخلع البسيط]**

ظلّ على خدّه العِذارُ فافتضح الآسُ والبَهَارُ
وأبيضّ هذا واسودّ هذا واجتمع اللَّيل والنَّهَارُ
أغُضُّ عيني عنه لأنّي عليه من مُقْلَتِي أغَارُ

فهذا كله حسن في مدح العِذَار؛ وإن كان النّذيرَ بموت الجمال، فإذا تقوّى العِذار واسودّ؛ صاروا إلى نعيه، كما قال أبو بكر البلَويّ: **[السريع]**

انظرْ إلى ميتٍ ولكنّه خِلْوٌ من الأكفان والغَاسِلِ
قد كتب الدهر على خدِّه بالشّعر: هذا آخرُ البَاطِلِ

وله في ضدّه: **[مجزوء الكامل]**

لـمّـا الـتـحـى مَـنْ قـد هـويـتُ وقـلـت رسـمٌ قـد دَثَـرْ
عـايـنـتُ مـن طـلاّبـه زُمَـراً مـواصـلـةً زُمَـرْ
وكـذاك أصـحـاب الـحـديـث نِـفـاقـهـم عـنـد الـكِـبَـرْ

وكما قال أبو الحسن بن الحاجّ:

أبـا جـعـفـرٍ مـات فـيـكَ الـجـمـالُ فـأظـهـر خـدّك لُـبْـسَ الـحِـدَادَ
وقـد كـان يـنـبـت زهـرَ الـرّيـاضِ فـأصـبَـح يُـنـبِـتُ شـوكَ الـقَـتَـادِ
أبِـن لـي مـتـى كـان بـدرُ الـسـمـا ء يُـدْرَك بـالـكـونِ أو بـالـفَـسَـادِ!
وهل كنت في الملك من عبد شمس فـأخـنـى عـلـيـك ظـهـورُ الـفَـسَـادِ

وقال سعيد بن حميد في غلام التحى: [الكامل]

هـلاً وأنـت بـمـاء وجـهـك يُـسـتـقـى روضُ الشَّباب قليل شعر العَارِضِ
فـالآن حـيـن بـدت بـخـدّك لـحـيـةٌ ذهبت بحسنِك ملء كفّ القابِضِ
مثل السّلافة عاد خمر عصيرِها بعد اللّذاذة مثلَ خلّ الحَامِضِ

وقال عليّ بن بسام في أخيه جعفر: [البسيط]

يـا مَـنْ نَـعَـتْـهُ إلـيّ الإخـوان لـحـيـتُـه أدبـرتَ والـدّهـر إقـبـالٌ وإدْبـارُ
قد كنتَ ممّن يهشّ الناظرون له تـغُـضّ دونـك أسـمـاعٌ وأبـصَـارُ
أيّـامُ وجـهـك مـصـقـولٌ عـوارِضُـه ولـلـرّيـاض عـلـى خـدّيـك أنْـوَارُ
فـيـا لـدهـرٍ مـضَـى مـا كـان أحـسـنَـه إذا أنـت مـمـتـنـعٌ، والـشَّـرْط دِيـنَـارُ
حـانـت مـنـيَّـتُـه فـاسـودَّ عـارضُـه كـمـا تُـسـوَّد بـعـد الـمـيّـت الـدَّارُ

وفيه يقول أيضاً: [البسيط]

حـانـتْ وفـاتُـك يـا أبـا الـعـبـاسِ فـدعِ الـمِـكـاس فـلاتَ حـيـنَ مِـكـاسِ
مـا بـالُ وجـهـك بـعـد كـثـرة نُـورِهِ قـد سـوَّدُوه بـحـالِـك الأنـفـاسِ!
أيـنَ الـدَّنـانـيـرُ الـتـي عـوّدتـهـا هَـيْـهَـات جـاء الـشـعـر بـالإفـلاسِ
كـانـت بـخـد ثـيـابـه ديـبـاجـةٌ فـاسـتُـبـدلـت حِـلـسـاً مـن الأحـلاسِ
وكـذَا الـبـنـاء فـغـيْـر مـرتـفـعٍ إذا كـانـت بـلـيـتُـه مـن الآسـاسِ

وقال مُصعب الماجن: [الكامل]

قـد صـافـحـتْ أقـطـارَ خـدّك لـحـيـةٌ تـركـتـه وهـو مـسـوّدُ الأقـطـارِ
فـكـأنَّ خـط الـشَّـعـر فـي جَـنَـبَـاتِـهِ لـيـلٌ أقـام عـلـى نُـجـومِ أو نَـهَـارِ

وكان لمحمد بن بشر بابان يُدخِل من الأكبر أصحابَه، ومن الأصغر أحبابَه فجاء يوماً غلامٌ مليح، وأراد الدخول من الأصغر على عادته، فمنع، فجعل يخاصم البوّاب لإدلاله، فبلغ ذلك ابن بِشرٍ، فكتب إليه: [مجزوء الرمل]

قُلْ لمن رامَ بجهل مدخلَ الظَّبيِ الغَريرِ
بعد أن علَّق في خدّيه مخلاةَ الشَّعيرِ
لَيتَهُ يدخلُ إن جاءَ مِنَ البابِ الكبيرِ

وقال ابن الأبّار: [مخلع البسيط]

لستُ بصابٍ إلى معذّرْ بل أنا في حُبِّه معذَّرْ
لا أعشَقُ الظبي ذا لجام لأنه في الظباء منكَرْ
أحسنُ ما فيه أن تراه بين مهاةٍ وبين جؤذَرْ

ينظر قوله: «لأنه في الظبا منكر» إلى قول حبيب: [الوافر]

تعشُّقك الكبارَ يدلّ عندِي على أنَّ الرحى قلِبت ثِفالاَ

وقال آخر: [السريع]

لي في أبي يحيى ومشعوقِه شغل على ذِي شغل شاغلُ
يا ليت شعري قول ذي حيرةٍ مَنْ منهما المفعولُ والفاعِلُ!

وقال ابن حصين في محبوب صغير: [مجزوء الرمل]

بأبي ظبي صغير السنّ حازت ثلث سِنِّي
سَرَّني أن ليس يدري مذهبِي فيه وفَنِّي
فهو يدعونيَ عَمًّا وأنا أدعوه بابْني

وللخبز أرزيّ: [البسيط]

قالوا عشقتَ صغيراً قلت أرتُع في روضِ المحاسن حتى يُدرِك الثَّمَرُ
ربيع حسن دعاني لاتّباع هوًى لمَّا تفتح فيه النّوْر والزَّهَرُ

وقال التَّنُوخي في جَسيم: [البسيط]

من أين أستر وجدي وهو منتهَك ما لِلمتيّم في نيل الهوى دَرَكُ
قالوا عشقت عظيمَ الجسمِ قلت لهمْ الشَّمْس أعظم جسمٍ ضمَّه الفَلَكُ

وللفقيه ابن حزم: [الطويل]

وذي عذَلٍ فيمنْ سبانِي حسنُه يُطيل ملامي في الهوى ويقولُ:

أفِي حسن وجهٍ لاح لم تر غيرَه ... ولم تدرِ كَيْفَ الجسم، أنت قتيلُ!
فقلتُ له: أسرَفْتَ في اللَّوم ظاهراً ... وعندِيَ ردّ لو أردتَ طويلُ
ألم ترَ أنِّي ظاهِريٌّ وأنَّني ... على ما بَدَا حتى يقومَ دليلُ!

وأحسنَ حبيبٌ حين قال: [البسيط]

قال الوشاةُ بدا في الخدّ عارضُه ... فقلت لا تنكروا وما ذاك عائبُهُ[1]
الحسن منْهُ على ما كنتُ أعهده ... والشَّعر حِرْزٌ له ممَّن يطالبُهُ
أحلَى وأعذب ما كانت شمائلُه ... إذْ لاحَ عارضُه واخْضرَّ شاربُهُ
وصار مَنْ كان يلحَى في مودّته ... إن سِيلَ عني وعنه قال صاحبُهُ

وقال الحلوانيّ: [البسيط]

قالُوا التحى فامّحتْ بالشَّعر بهجَتُه ... فقلت: لولاَ الدُّجى لم يحسن القمرُ
خطَّت يدُ الحسن فيه فوق وجنتِه: ... هذِي محاسن - يا أهل الهوى - أُخَرُ

وله أيضاً: [الخفيف]

لي حبيبٌ إذا شكوت إليه ... سامني بالهوى عذاباً شديدَا
لستُ أدعو بالشَّعر غيظاً عليه ... خيفةً أن يكون حسناً جديدَا
غير أنِّي أدعو بقلبٍ قريحٍ ... أن أراه مِثلي مُحبّاً عَمِيدَا

وقال غيره: [مخلع البسيط]

قد حلّ في سوقِكَ الكساد ... مذ لاَح في خدِّكَ السَّوَادُ
كأنما الشّعر فيه زرعٌ ... والنَّتْفُ منه لَهُ حَصَادُ

وقوله: «ودواتي بالأقلام»، أي ابتلاه الله أن يُلاطِ به، قال: الفنجديهيّ: أنشدني بعضُ الشعراء بمرْورُوز لبعضهم: [الوافر]

دوادار الأمير له دواةٌ ... كمثل الياسمين بغير صُوفِ
يُرَى قلم الأمير يغوصُ فيها ... مغاص عصيدةٍ في حَلْق صوفي

ونقل لفظ الدواة والأقلام من قول ديك الجن؛ وكان يهوى غلاماً من حِمْص، اسمه بكر، فجلس معه ليلة يتحدّث بها حتى غاب القمر، فقام بكر ليمشي، فقال: [الطويل]

---

(١) الأبيات في ديوان أبي تمام ص ٤٣٢.

دع البدر فليغْرُب فأنت لنا بدرُ ... إذا ما تجلَّى عن محاسنك الشَّعْر
إذا ما انقضى سحر الذين ببابلٍ ... فأنت لنا سحرٌ وريقُك لي خَمْرُ
ولو قيل لي قُمْ فادع أحسنَ مَنْ ترى ... لصِحت بأعلى الصّوت: يا بَكْرُ يا بكرُ!

وكان هذا الغلام شديد التصاوُن والتمنع، فاحتال عليه قومٌ من حِمْص، فأخرجوه إلى متنزَّهٍ، فأسكروه وفسقوا به، فبلغ ذلك ديك الجن فقال: [الكامل]

يا بكْر ما فعلت بك الأرْطَامُ ... يا دارُ ما فعلت بِك الأيَّامُ
في الدار بعدُ بقية نستامها ... أم ليس فيك بقية تُسْتَامُ
شَغَل الظَّلامُ كراكَ في أبوابهمْ ... فتفرَّغت لدواتك الأقْلامَ

وله فيه أيضاً: [البسيط]

قولا لبكر بن مهديٍّ إذا اعتكرتْ ... عساكرُ اللَّيْل بين الطَّاسِ والجَامِ
ألم أقل لك إنَّ الكِبْر مَهْلَكَةٌ ... والبَغْي والعُجْب إفسادٌ لأقْوَامِ
قد كنتَ تفرَق من سهم تعايِنُه ... فصرت غيرَ رَميم رقعةَ الرَّامِي
وكنت تفزع من لمسٍ ومن قُبَلٍ ... فَقَدْ ذللتَ لإسراجٍ وإلجَامِ
إن تَدْمَ فخذاك من ركض فربَّتما ... أمسى وقلبي منكَ الموجع الدّامِي

قال أبو عليّ بن رشيق: كنت أوصي غلاماً وضيئاً، كان يختلف إليّ، وأحذّره من كثرة التخليط، فخرج يوماً في جماعة من أصحابه، فأوقِع به، فأخبرت بذلك، فقلت: [السريع]

يا سوء ما جاءتْ به الحالُ ... إنْ كان ما قالوا كما قالوا
ما أحذق النَّاس بصوغِ الخنا ... صيغ من الخاتم خَلْخَالُ

وهذا من قول ابن المعتز: [الطويل]

مَضَى خالدٌ والمال تسعون درهماً ... وآب ورأس المال ثلْث الدّرَاهِم

وهذا المعنى الخبيث يتبين بعقد التسعين والثلاثين في اليد.

وقال ابن رشيق: [الكامل]

سقطت ثنيتُه فأوجع قلبُه ... لسقوطها وجرى عليه عظيمُ
فإذا مررتَ به فسلَّ فؤاده ... عنها وقُلْ صبراً كذاك الريمُ
عجباً للؤلؤةٍ هَوَتْ من سِلْكِهَا ... والسّلك لا وَاهٍ ولا مفصومُ
أتعدّياً يا خطبُ وهو مصوّن ... أبداً بخاتم ربّه مختومُ

ويستحبّ لمن وُسم بوَسْمة الجمال، أن يكون شديد التصاوُن، قليلَ التبذُّل، فذلك أدْعَى للسلامة، وقد قال ابن وكيع في ذلك: **[البسيط]**

قالوا عشقت كثير البخل ممتنعاً ... فقلت: هيهات عنكم غاب أطيَبُهُ
لو جادهان، وقلت الجود عادَتُهُ ... وإنما عَزَّ لَمَّا عَزَّ مطلبُهُ

فإذا تبذَّل وأجاب كلَّ من دعاه صار عرضةً للظنون، ونبتْ عن محاسنه العيون، لأنّ النفس الحرَّة لا تنفك من غيْرة، وقد قال العباس بن الأحنف: **[الكامل]**

يا قومُ لم أهجرْكُم لملالةٍ ... مِنّي ولا لمقالِ واشٍ حاسدِ(١)
لكنّني جرّبتكمْ فوجدتُكُمْ ... لا تصبرون على طعام واحدِ

وقال أبو الوليد بن حزم: **[الكامل]**

لمَّا استمالك معشرٌ لم أرضَهُمْ ... والقول فيك كما علمتَ كثيرُ
داويتُ دونك مُهجتِي فتماسكتْ ... من بعد ما كادت إليك تطيرُ
فاذهب فغير جوانحِي لك منزلٌ ... واسمعْ فغير وفائِك المشكورُ

وله أيضاً: **[المتقارب]**

يقول وقد لمتُه في الهوى ... فلان، وعرَّضت شيئاً قليلاً:
أتحسدُني؟ قلت: لا، والذي ... أحلَّك في الحبّ مَرعًى وبِيلا
وكيف وقد حلّ ذاك الإزارُ ... وقد سلك النَّاس تلك السبيلا!

وقال محمد بن السريّ: **[الكامل]**

قايستُ بين جماله وفَعالِه ... فإذا الملاحَةُ بالخيانَةِ لا تَفِي
والله لا كلّمتُه ولو أنه ... كالبدْرِ أو كالشَّمس أو كالمكتَفِي

وقال آخر: **[الطويل]**

أيا حسناً أزرتْ قبائح فعله ... عَلَيْهِ كما أزرى الكُسوف على البدرِ
لقد فُقْتَ كلّ الناس حسناً وزينةً ... ولكنّما قَبَّحْتَ ذلك بالغدْرِ

وقال ابن عيينة: **[الكامل]**

ضيعتِ عهد فتًى لعهدكِ حافظٌ ... في حفظِه عجبٌ وفي تضييعكِ
إن تقتليه وتذهبي بفؤادِهِ ... فبحسن وجهكِ لا بحسن صنيعكِ

* * *

(١) البيتان في ديوان العباس بن الأحنف ص ١٠٦.

فقال الغُلامُ: الاصْطِلاءَ بالبَلِيّة، وَلا الإيلاء بهذِ الأليّة، والانقيَادَ لِلْقَودِ؛ وَلا الحِلَفَ بِمَا لَمْ يَحْلِفْ به أَحَدٌ. وَأَبَى الشيخُ إلاَّ تَجْرِيعَهُ اليَمينَ الَّتِي اخْتَرَعَهَا، وَأمقَرَ لهُ جُرَعَها. وَلَمْ يزَل التَّلاَحِي بينُهَا يَسْتَعِرُ، ومَحَجَّةُ التَّرَاضِي تَعِرُ، والغُلامُ في ضِمْنِ تأَبِّيهِ، يَخْلُبُ قلْبَ الوَالِي بتلَوِّيهِ، وَيُطْمِعُهُ في أَن يُلَبِّيهِ، إلى أنْ رانَ هَوَاهُ عَلَى قَلْبِهِ، وألَبّ بِلُبِّهِ، فَسَوَّلَ لهُ الوَجْدُ الَّذِي تَيَّمَهُ، والطَّمَعُ الَّذِي تَوَهَّمَهُ، أنْ يِخَلِّص الغُلاَمَ وَيَسْتَخْلِصَهُ، وَأنْ يُنْقِذَهُ منْ حِبالَةِ الشَّيْخ ثُم يَقْتَنِصَهُ.

* * *

قوله: «الاصطلاء»، أي الاتصال والتلبُّس. والبلية، أراد دعوة الباطل التي ادَّعى عليه الشيخ. والإيلاء: الحَلِف: والأليَّة: اليمين. والقَوَد: قتل النفس بالنفس، فيقول: الصبر على الضرب أو القتل أهون من هذه اليمين التي لم يحلف بها أحد اخترعها: استنبطها. أمقر: أمرَّ، من المقْر؛ وهو الصبر.

وهذه اليمين المخترعة، حكى الأصمعيّ شبهها، فقال: اختصم أعرابيّان عند بعض الولاة في دَيْن، فجعل المدّعَى عليه يحلف بالطلاق والعَتاق، فقال المدّعِي: دعني مَن هذه الأيمان، واحلف بما أقول لك، فقال: ما قولك؟ قال: قل: لا ترك الله لك خُفًّا يتبع خُفًّا، ولا ظِلفاً يتبع ظِلفاً، وحتَّك من أهلِك وولدك، كما يُحاتّ الورق من الشجر؛ إن كان بَقِيَ لي هذا الحقِ قبَلَك. فأعطاه حقّه ولم يحلف له.

وحكى المسعوديّ أنّ الفضلَ بن الربيع قال: صار إليَّ عبدُ الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما، فقال: إنَّ موسى بن عبد الله بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب قد أرادني على بيعته، فأخبرت الرشيد بذلك، فجمع بينهما، فقال الزبيريّ لموسى: سعيتم علينا، وأردتم نقض بيعتنا ودولتنا، فقال له موسى: ومن أنتم! فغلب الرَّشيدَ الضحك حتى رفع رأسه إلى السقف لئلا يظهر منه الضحك، ثم قال موسى: يا أمير المؤمنين، هذا المشنِّع عليّ، خرج مع أخي محمد على جدّك المنصور، وهو القائل [من أبيات]:

قوموا ببيعتكم ننهضْ بطاعتنا إنَّ الخلافة فيكم يا بني الحسنِ

وليست سعايتُه حبًّا لك، ولا مراعاةً لدولتك؛ ولكن بغضاً لنا جميعاً أهلَ البيت، وأنا أستحلفه بيمين، فإن حلف بها أنّي قلت ذلك، فدمي حلال لأمير المؤمنين. فقال له الرشيد: احلف له يا عبد الله، فامتنع، فقال له الفضل: لِمَ تمتنع وقد زعمتَ أنه قال ما ذكرته؟ قال: فإني أحلف له، قال موسى: قل: تقلّدت الحولَ والقوّة دون حول الله وقوّته إلى حولي وقوّتي، إن لم يكن ما قلته حقاً. فحلف له، فقال موسى: الله أكبر! حدثني أبي عن أبيه، عن جده، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما حلف أحد بهذه اليمين وهو

كاذب إلاَّ عجّل الله له العقوبة قبل ثلاث»، وها أنذا بين يدي أمير المؤمنين في قبضته، فإن مضت ثلاث ولم يحدث له حادث، فدمي حلال لأمير المؤمنين.

قال الفضل: فوالله ما صلَّيت العصر من ذلك اليوم، حتى سمعت الصراخ من داره. فدخلت عليه، فوالله ما كدت أعرِفه: لأنه صار كالزِّق العظيم، ثم اسودّ حتى صار كالفحم، فعرّفت الرشيد في الحين، فما انقضى كلامنا حتى عرَفنا أنه قد مات، فبادرت بتعجيله، وتولَّيت الصلاة عليه. فلما وُوريَ في قبره انخسف به، وخرجتْ رائحة مفرطة النّتن، ومرَّت أحمال شوك على الطريق، فأمرت بها فطرحت في قبره، فانخسف ثانية، فأمرت بألواح ساج، فطرحت على قبره وألقى التراب عليها، وانصرفتُ، وأعلمت الرشيد. فأكثر التعجّب، وأحضر موسى؛ فأعطاه ألف دينار، وقال له: لِمَ عدلت عن اليمين المتعارفة عند الناس؟ فقال: أخبرت بالسند المتقدّم عن النبي ﷺ أنه قال: «من حلف بيمين كاذبة مجّد الله فيها، استحيا الله من تعجيل عقوبته، ومن حلف بيمين كاذبة نازع الله فيه حوله وقوّته إلاّ عجّل الله له العقوبة قبل ثلاث».

* * *

قوله: «التلاحي»، السّباب والتشاتم. عليّ رضي الله عنه، قال النبي ﷺ: «من لاحَى الرجال سقطت مروءته وذهبت كرامته، وما زال جبريل ينهاني عن ملاحاة الرجال كما ينهاني من عبادة الأوثان»[1]. وفي المثل: من لاحاك فقد عاداك.

يستعر: يتَّقد. محجّة التراضي: أي طريق الرضا. تَعِرُ: تصعب. وفي ضمن تأبّيه، أي في أثناء كلامه وامتناعه. يخلِب: يخدع ويأخذ قلبه. تلوّيه: انعطافه يطمعه: يدعوه للطمع. يلبّيه: يجيبه لمراده. ورانَ: غلب وغطّى. أبو هريرة رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: «إذا أذنب العبد نُكت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب صقلت، وإن عاد زادت حتى تعظم في قلبه، فذلك الران»[2]، قال الله تعالى: ﴿**كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ**﴾ [المطففين: ١٤].

ألبّ: أقام. لبّه: عقله: سوّل: زيَّن. الوجْد: حرقه القلب. تيّمه: عبّده وذلّله، والمتيّم: المستعبَد لهواه. توهمّه: ظنه. يستخلصه: يختصه لنفسه. حِبالة: آلة الصيد. يقتنصه: يصيده؛ يقول: إنّ هذا الغلام في أثناء كلامه بالتمنع وترك الانقياد للشيخ يُطمع الوالي في الانقياد له، وإنه إذا دعاه لما يريده منه أجابه، وإنما فعل هذا حين رأى إدامة نظر الوالي في وجهه، واستحسانه كلامه، ولو فسَّر الوالي حال الغلام بمنظومٍ لأنشد: **[البسيط]**

---

(١) روى ابن الأثير الجزري، في النهاية في غريب الحديث ٤/ ٢٤٣، الحديث بلفظ: «نهيت عن ملاحاة الرجال».

(٢) أخرجه بنحوه الترمذي في تفسير سورة ٨٣، باب ١، وابن ماجه في الزهد باب ٢٩.

يهدِي لك الدُّرَ من لفظٍ ومبتسمٍ ضربان: منتشر منه ومنظُومُ
يجني الذنوب، وأحنو أن أؤاخذه من أجل ذلك قيل الحسن مرحُومُ

ولأنشد إذا غلب عليه هواه: [البسيط]

مرآك مرآك لا شمسٌ ولا قمرٌ وورد خدّيك لا وردٌ ولا زَهر
في ذمَّة الله قلبٌ أنت ساكنُهُ إن بنت بان فلا عين ولا أثرُ
لولا محلّك من قلبي لما أسفتْ نفسِي عليك، فرفقاً أيُّها القمرُ

هذه الأبيات لأبي الوليد بن حزم؛ وقد كرر معنى البيت الأخير فقال: [الكامل]

أذكيتَ من قلبي بنأيك لوعةً حتى خشيت على محلِّك فيهِ

ومما يتعلق بهذا المعنى قول الآخر: [الطويل]

ولمَّا رماني بالسهام تعمُّداً وفيها نصال الهجر حتى امتلا صَدْرِي
فقلت له لا ترم قلبي فإنَّهُ مكانُك والمرميّ أنت ولا تدرِي

وقال آخر: [الطويل]

حملتُك في قلبي فهلْ أنت عالم بأنَّك محمول وأنت مُقِيمُ!
ألا إنَّ شخصاً في فؤادي محلّه وأشتاقه، شخصٌ عليّ كريمُ

وقال التّهاميّ: [الكامل]

قلبي فداؤك وهو قلبٌ لم يزلْ تُذْكَى شهاب الشّوق في أثنائِهِ
جاورته شرّ الجوار وزرتُه لمَّا حللتُ فناءه بفنائِهِ
حرّق سوى قلبي ودعه فإنني أخشى عليك وأنت في سودائِهِ

وقال آخر: [السريع]

أودع فؤادي حرَقا أودَعِ نفسك تؤذى أنت في اضْلُعِي
أمسك سهام اللّحظ أو فارمِها أنت بما ترى مصابٌ مَعِي
موقعها القلبُ وأنت الذي مسكنُه في ذلك الموضِعِ

* * *

فقالَ للشَّيْخ: هَلْ لكَ فِيما هُوَ ألْيَقُ بالأقْوَى، وَأَقْرَبُ لِلتّقْوَى! فقال: إلاَمَ تُشِيرُ لأقْتَفِيهِ، وَلاَ أقِفُ لَكَ فِيه؟ فقَالَ: أرَى أنْ تُقْصِرَ عن القِيلَ وَالقالِ، وَتَقْتَصر مِنْهُ عَلَى مائةِ مِثقالٍ، لأتَحمَّلَ مِنها بَعْضاً، وأَجْتَبِيَ الباقِيَ لَكَ عَرْضاً، فقالَ الشَّيْخُ:

مَا مِنِّي خِلاف، فَلاَ يَكُنْ لِوَعْدِكَ إخْلاَفٌ، فَنَقده الوالِي عِشرين، وَوَزعَ عَلَى وزَعَتِه تَكْملةَ خمسينَ. وَرَقَّ ثَوْبُ الأصيلِ، وَانقَطَعَ لأجْلِهِ صَوبُ التَّحصِيلِ، فقال له: خُذْ ماراجَ، ودَعْ عَنكَ اللَّجاج، وَعَليَّ في غَدٍ أنْ أتوَصَّلَ، إلى أنْ يَنِضَّ لكَ الباقِي وَيَتحَصَّل، فقالَ الشَيخُ: أَقْبَلُ مِنكَ عَلى أن ألازِمَهُ ليلَتي، وَيَرْعاهُ إنسانُ مُقْلَتي، حَتى إذا أغفَى بعد إسفار الصبْح، بِمَا بَقِيَ مِنْ مالِ الصُّلْح، تَخلَّصت قائبةٌ من قُوب، وَبَرِىء براءة الذِّئب مِن دَم ابن يعقُوبَ، فقال لهُ الوالي: ما أَرَاكَ سُمْتَ شَططاً، وَلاَ رُمْتَ فَرَطا.

قال الحارث بن همام: فلَمَّا رَأيتُ حُجَجَ الشَّيْخ كالحُجج السُّرَيجيَّةِ، عَلِمْتُ أنَّهُ علَمُ السَّرُوجيَّة.

* * *

قوله: «أليق» أي أشكل وأصقل. بالأقوى: بصاحب القوّة. والذي هو أقرب للتقوى، وهو العفو لقوله تعالى: ﴿وَأَن تعفُوا أقرَبُ للتَّقوَى﴾ [البقرة: ٢٣٧]. أقتفيه: أتبعه. لا أقف لك فيه، أي لا أتوقَّف فيما تشير به. تُقصر: تكفّ. عن القيل والقال، أي عن كل كلام. أجتبي: أجمع. عَرْضا: كلّ ما ليس فيه روح من الأمتعة غير العين؛ وهو ليس بنقد من السِّلَع التي يُتجر فيها من متاع ورقيق وغير ذلك. أتحمّل: أضمن، وفلان حميل بكذا، أي ضامن له. إخلاف: كذب وعد. نقَده: أعطاه نقداً. وزّع: فرّق. وزَعَتُه: شُرْطته الذين يكفون عنه الناس، واحدهم وازع مثل كافر وكفرة، وقد وزعته وَزَعاً كففته، وأيضاً دفعته. وقال الحسن البصريّ رحمه الله: لا بدّ للسلطان من وَزَعَة. الأصيل العشيّ. وثوبه: ضوء الشمس، وهو في ذلك الوقت رقيق. صَوْب: وقع، وصاب السهم صوباً وصيًباً: وقع بالرميّة، وصاب السحاب الموضع: أمطر. والتحصيل: أن يحصلّ بقية المال. راج: حضر وتيسّر، ويقال: راج الشيء رَوْجاً فهو رائج إذا جاء جاء سريعاً. قوله: «إنسان مقلتي»، أي سواد عيني. يرعاه: يحفظه وينظره. أَغْفَى: أتى بالبقيَّة، والعفاوة: بقية المرق في القِدْر. تخلَّصت: انفصلت. والقائبة: البيضة. والقُوب: الفرخ، وهذا مثل يضرب للرجلين يفترقان بعد الصّحبة، وجاء مقلوباً لأن الذي ينفصل ويخرج إما هو الفرخ من البَيْضة، والقُوب، من تقوَّب الشيء إذا انتشر، ومنه القوباء لداء الحِزاز. وابن يعقوب هو يوسف عليهما السلام، وبراءة الذئب من دمه، هو ما يحكى أنّ إخوته لما جاءوا أبيهم يبكون على يوسف، علموا أنه لا يصدّقهم، فاصطادوا ذئباً فلطَّخوه بدم، وأتوْه يبكون، وقالوا له: هذا الذئب قد ضرِيَ، أكل أغنامنا وأكَلَ يوسف أَخانا، قال لهم: أطلقوه، ودعا الله يعقوب أَن ينطقه له، فقال للذئب: ادنُ منّي، فجعل يبصبص بذنَبه ويدنو منه، حتى وضع خدّه على فخذ يعقوب، فقال له: لِم

أكلتَ ابني، وفجعتني فيه؟ فقال: لا والله يا نبيّ الله، ما رأيته ولا أكلته، وإني لغريب في أرضكم اليوم، وصلت من مصر في طلب أخ لي فقدته، فأوثقني هؤلاء وساقوني إليك، فقال لهم يعقوب عليه السلام: الذئب مع أخيه أوْفَى منكم مع أخيكم.

قوله: «سُمْتَ»: أي كلّفت. شططًا: شيئاً بعيداً، والشَّطَط: مجاوزة القدر.

ورمت فَرَطاً: طلبت شيئاً متفاوتاً، وكيف لم يسمِّه شططا، وقد حرمَه لذة ليلةٍ مع هذا الغلام أحسن من ليلة الخفاجي حيث يقول: [مخلع البسيط]

وليلة طَلْقَةٍ قضتْني ... من موعدٍ للحبيب ديْنَا
بتْنَا نجرّ الذيولَ فيها ... والخمر تمشي بنا بالهوينَى
أرسل في روض وجنتيْه ... لحظةَ عين تفيض عينَا
كأنّما اللحظ كيمياءٌ ... تُذهب من وجهه لُجَيْنَا
وما توهّمت أنَّ طرفا ... يقلب عين اللجين عينَا

أو ليلة الآخر حين يقول: [الكامل]

لمَّا رأى مَنْ ظلتُ فيه متيمّاً ... جسمي ضئيلاً والفؤاد مولَّهَا
جادت شمائله عليّ بليلةٍ ... أهدت إلى الصبّ المعنّى ما اشتهَى
عانقت فيها البدر ليلةَ تِمِّهِ ... يا من رأى بدراً يعانقه السُّهَا!

[أحمد بن سريج من أئمة الشافعيّة]

قوله: «الحجج السُّريجية» منسوبة إلى أحمد بن سُريج، وهو من كبار أصحاب الشافعيّ، وكان حسن الاحتجاج، مليح المناظرة.

وقال الفنجديهيّ: السُّريجيّة منسوبة إلى الإمام أبي العباس أحمد بن عمر بن سريج إمام أصحاب الشافعيّ على الإطلاق، ومن لا نفسَت ذات دَرّ بمثله في الآفاق، حججُه في أحكام الشرع أوضح الحجج، وأقواها وأمتنها على مرور الأيام والحِجَج، وكان يلقّب بالبازي الأشهب، وبالشافعيّ الثانيّ، لتبحّره في استنباط المعاني، من غوامض الأخبار والمثاني، دلائله في فنون العلم متينة، وبراهينه مبينة.

وقال: رأيت في المنام كأنا أمطِرْنا كبريتاً أحمر، فملأتُ كمِّي وحجري وجيبي منه، فعُبِّر لي أني أُرْزَقُ علماً غزيراً كعِزَّة الكبريت الأحمر.

وسُمِع يتَمثّل بهذه الأبيات: [المتقارب]

فلا تحسد الكلب أكلَ العظام ... فعند الخراءة ما ترحَمُهْ
تراه وشيكاً شكِساً إستهُ ... كلوماً جناها عليه فَمُهْ
إذا ما أهان امرؤٌ نفسَه ... فلا أكرم الله مَنْ يكرِمُهْ

وكان يناظر محمد بن داود، فقال له ابن داود يوماً وقد أكثر عليه السؤال: أَبِلعْني ريقي، فقال له: قد أبلعتك الدِّجْلة والفُرات.

وقال له مرة: أمهلني ساعة، فقال: قد أمهلتك من الساعة إلى أن تقوم الساعة.

وقال له ابن داود يوماً: أكلِّمك من الرِّجْل وتُجيبني من الرأس! فقال له: كذلك البقر إذا حفيتْ أظلافها، وهنت قُرونها.

واجتمع أبو العباس بن سُريج وأبو بكر بن داود الأصبهانيّ في مجلس عيسى بن الجراح الوزير، فتناظرا في الإيلاء، فقال ابن سريج: أنت بقولك: مَنْ كَثُرتْ لحظاته، دامت حسراته، أبصرُ منك في الكلام في الإيلاء، فقال له ابن داود: لئن قلتَ ذلك، فإني أقول: **[الطويل]**

أنزّه في روضِ المحاسن مقلتِي ... وأمنع نفسي أن تنال مُحَرَّما

وأحمل من ثقل الهوى ما لو أنّهُ ... يُصَبُّ على الصَّخْر الأصمّ تهدَّما

ويَنطِقُ طرفي عن مترجم خاطِري ... فلولا اختلاسي رَدَّه لتكلَّمَا

رأيتُ الهوى دعوى من الناس كلِّهِمْ ... فلستُ أرى حبًّا صحيحاً مسلمًا

وقال له ابن سُريج: بم تفتخر؟ ولو شئت قلت: **[الكامل]**

ومُساهِرٍ بالغُنجِ من لَحَظَاتِهِ ... قد بتُّ أمنعُهِ لَذيذ سِنَاتِهِ

أصبُو لِحُسْنِ كلامه وحديثه ... وأكرّر اللحظات في وجَنَاتِهِ

حَتى إذا ما الصبحُ لاح عموده ... ولّى بخاتم رَبِّه وبَراتِهِ

فقال له أبو بكر: أصلح الله الوزير! يحفظ عليه ما قال، حتى يقيم عليه شاهدين عَدْلين، أنه ولّى بخاتمَ ربه وبراءته، فقال له ابن سريج: فيلزمني في هذا ما يلزمك في قولك: **[الطويل]**

* وأمنع نفسي أن تنال محرَّما *

فضحك الوزير، وقال: لقد جمعتُما ظَرْفاً ولطفاً وعلماً وفَهْماً.

اشتملت هذه الحكايةُ على أنَّ هذين الرجلين العالمين على اشتهارهما بالعلم والفضل والدِّين كانا يرتاحان إلى التعشّق على سبيل التظرّف والتزام التعفّف على ما يليق ويشكل بمنصبهما؛ وإذا كان التَّعشُّق بشرط العفاف، فإنّما يزيد الرَّجُلَ الفاضل رقَّة طبع، وحلاوة شمائِل.

وقال ابنُ سريج في مَرَضه الذي مات فيه: أُرِيتُ في المنام البارحة كأنَّ قائلاً يقول: هذا ربُّك يخاطبك، فسمعته يقول: ماذا أجبتم المرسلين؟ فقلت: بالإيمان والتّصديق، قال: فقيل: ماذا أجبتم المرسلين؟ فوقَعَ في نفسي أنه يُراد مني زيادة في الجواب،

فقلت: بالإيمان والتصديق، غير أنا قد أصبنا من هذه الذنوب، فقال: أمَا إنّي سأغفرها لك.

وتُوفّيَ لخمس مضيْن من جمادى الأولى سنة ست وثلمائة، وبلغ سنه سبعاً وخمسين سنة وستة أشهر، ودفن في حجرة، بسويقة غالب ببغداد رحمة الله عليه.

[من شعر النسيب]

ونذكر الآن من نفيس الشعر المضمَّن «مَنْ ظفر من محبوبه بمراده من الوصال، ثم عفَّ عما يخلّ بأهل الجلال»، قال إدريس بن اليمان: [البسيط]

لم تدر ما خلَّدت عيناك في خَلَدِي ... من الغرام ولا ما كابدتْ كَبِدي
أفديك من زائرٍ رام الدنوَّ فلم ... يسطعه من حُرَقٍ في الدّمْع مَتَّقِدِ
خاف العيون، فوافاني على عَجَل ... معطَّلاً جِيدُهُ إلاَّ مِنَ الغَيَدِ
عاطيتُه الكأس فاستحيتْ مدامتُهَا ... من ذلك الشَّنَب المعسولِ والبَرِدِ
حتى إذا غازلتْ أجفانَه سِنةٌ ... وصيَّرته يدُ الصَّهْباء طوعَ يَدِي
أردتُ توسيدَه خدّي وقلّ له ... فقال: كفُّك عندي أفضَلُ الوُسُدِ
فبات في حرمٍ، لا غدر يُزْعِجُهُ ... وبتُّ ظمآن لم أُصْدِرْ ولم أرِدِ
بدرٌ ألمَّ وبدرُ التِّمِّ منمحقٌ ... والأفق محلولكُ الأرجاء من حَسَدِ
تحيَّر الليل فيه، أين مطلعُه ... أما دَرى اللَّيل أن البدر في عَضُدِي!

وقال الرّماديّ: [السريع]

وليلةٍ راقبتُ فيها الهَوَى ... على رقيب غيرِ وَسْنَانِ
والرَّاح ما تنزل عن راحتِي ... وقتاً ومن راحة نَدْمَانِي
وربّ يومٍ قيظه منضجٌ ... كأنَّه أحشاء ظَمآنِ
أبرزَ من خدَّيْهِ لي رشْحَهُ ... طَلاً على وَرْدٍ وسَوْسَانِ
وكان في تحليل أزْرَارِهِ ... أقْوَدَ لي من ألف شَيْطَانِ
فتحتُ الجنَّة من جَيْبِهِ ... فبتّ في جنَّةِ رضْوَانِ
مروءةٌ في الحبّ تنهي بأن ... يُجاهَرَ اللَّهَ بعصيان

وقال سعيد بن حميد: [الخفيف]

زائرٌ زارَنا على غير وعدِ ... أهيف الكَشْحِ، مُثْقَلُ الأردافِ
غالب الخوف حين غلبه الشَّوْ ... ق فأخفى الهوى وليس بخَافِي
غضّ طرفي عنه تقى الله واخترْ ... تُ على بذله بقاء التَّصَافِي

ثم ولّي والخوف قد هزّ عِطْفَيْـ ـهِ، ولم نَخْلُ من لباسِ العَفَافِ

وقال بعض الطالبيين: [الطويل]

رموْني وإيَّاها بشَنْعاء هُمْ بها أحقُّ، أدال الله منهم وَعَجَّلاَ
بأمرٍ تركناه وربِّ محمدٍ جميعاً، فإما عِفَّةً أو تجمُّلاَ

وسنزيد ما يستحسن في العفاف وضده في الثانية عشر.

قوله: «عَلَم السَّرُوجيّة»، أي مشهورها. والعلَم: الجبل.

* * *

فلَبِثتُ إلى أنْ زَهَرَتْ نجومُ الظَّلامِ، وَانتثَرَتْ عُقُودُ الزِّحامِ، ثُمَّ قصَدْتُ فِناءَ الْوَالِي، فإذا الشَّيخُ لِلْفَتى كالِي، فنشَدْتُهُ الله: أهُو أَبو زيد؟ فقال: إي ومُحِلِّ الصَّيْدِ! فقُلْتُ: مَنْ هذَا الْغُلامُ، الَّذِي هَفَتْ لهُ الأحَلاَم، قال: هُوَ في النَّسَبِ فَرْخِي، وفِي المُكْتَسَبِ فَخِّي، قُلْتُ: فَهلاَّ اكتَفيْتَ بمحاسِنِ فِطْرَتِهِ، وكفَيتَ الوالِيَ الافتِنانَ بِطُرَّتِهِ! فقال: لَوْ لم تُبرِزْ جبْهَتُه السِّينَ، لمَا قَنْفَشْتُ الْخَمْسِين، ثُمَّ قالَ: بت الليلة عندِي لنُطفِىء نَارَ الْجَوَى، وَندِيلَ الْهَوَى من النَّوى، فقَدْ أَجمَعْتُ على أن أنْسَلّ بِسُحْرَة، وَأُصْلِي قلْبَ الوَالي نَارَ حَسْرَة.

* * *

لبثت: أقمت. عقود: جمع عقد، أراد ما يعقد من جموع النَّاس في الزّحام. انتثرت: افترقت. زهرت: أضاءت. الفِناء: ما حول الدار. ناشدته: سألته. هفت، أي طارت. الأحلام: العقول. فطرته: خِلْقته. تبرز: تظهر. والطّرّة: قد تقدمت، وشبّه اعتدالَ الشّعر على الجبهة بشكل السين على السَّطر، وأخذه من قول التّهاميّ: [البسيط]

يا رُبّ معنًى بعيد الشأن نَسْلُكُهُ في سلك لفظٍ قريب الفهم مُخْتَصرِ
لفظٌ يكون لِعقْدِ القول واسطةً ما بين منزلة الإسهاب والْخصَرِ
إن الكتابة صارت تحت أُنملهِ والجُود فالتقيا منه على قَدَرِ
تردّ أقلامُه الأرماحَ صاغرةً عكساً، كعكس شُعاع الشّمس للقَمرِ
وفي كتابك فاعذُرْ مَنْ يهيم بِهِ من المحاسن ما في أحسن الصُّوَرِ
الطِّرْس كالخدّ والنونات دائرة مثل الحواجِبِ والسِّيناتُ كالطُّرَرِ

ومن ملح الخبز أرزيّ: [الرمل]

وبنفسي من إذا خمّشته نثر الوردُ عليه ورَقَهْ

وإذا مَسَّتْ يدي طُرَّتَهُ أفلتت منه فعادت حَلَقَهْ

أخذها من حكاية لعمر بن أبي ربيعة؛ حدّث المغيرة بن عبد الرحمن، قال: حجَجْت مع أبي وأنا غلام، عَلَيّ جُمَّة، فجئت عمرَ فسلَّمت عليه، فجلست عنده، فجعل يمدّ الخُصْلة من شعري ثم يرسلها، فترجع على ما كانت عليه، ويقول: واشباباه! حتى فعل ذلك مراراً، ثم قال لي: يا ابن أخي، قد سمعتَنِي أقول في شعري: قالت وقلت. . . وكلّ مملوكٍ لي حرّ إن كنتُ كشفت عن فَرْج امرأة حرام قطّ، فسألت عن رقيقِه، فقيل لي: أما في الحوْك فسبعون سوى غيرهم.

وساير عمرَ عُروة بن الزبير يحدِّثه، فقال: وأين زين المواكب؟ ـ يعنى ابنه محمداً، وكان يُعرف بذلك لجماله ـ فقال عروة: هو أمامك، فركد يطلبه، فقال له عروة: يا أبا الخطّاب، أولسنا أكفاء كراماً لمحادثتك! قال: بلى، بأبي أنت وأمي، ولكني مغرًى بهذا الجمال حيث كان، ثم التفت إليه، وقال: [البسيط]

إنّي امرؤٌ مُولَعٌ بالحسن أتبعُه لا حظَّ لي فيه إلاّ لذَّةُ النَّظَرِ

أخذه العباس بن الأحنف، فقال: [البسيط]

أتأذنون لصبٍّ في زيارتِكُمْ فعندكم شهواتُ السَّمْع والبَصَرِ
لا يضمر السُّوء إن طالت إقامته عفُّ الضمير ولكن فاسق النَّظَرِ

[مما قيل في حلق الشعر]

ومما يتعلق بذكر الشَّعر حِلاقه، والشعر فيه كثير؛ فنلمّ منه باليسير.

وأول من قَرَع هذا الباب ـ فيما يذكر ـ القائل: [الخفيف]

حَلَقُوا رأسَهُ ليكسُوه قُبْحاً خيفةً منهمْ عليه وَشُحّا
كان من قبل ذاك ليلاً وصُبْحاً فمحوْا لَيْلَهُ وأبقوْه صُبْحا

وقال أبو العباس القُرِيعيّ: [الرمل]

كان إلاّ قَمَرا تحتَ دُجَى فانْجَلى اللَّيلُ ولاح القَمرُ
أو كزهْرٍ في كمامٍ كامنٍ شققتْ عنه فتمَّ الزَّهَرُ

وقال أبو العباس بن حَيّون: [الكامل]

حلقوكَ في تغيير حسنكِ رغبةً فازداد حسنُكَ بهجةً وضِياء
كالخمر فُضّ ختامه فتشعشعتْ والشَّمع قُطَّ ذُبَالُهُ فأضاءَ

* * *

قوله: «قنفشت»، أي أخذت بسرعة، تقول: قفشت الشيء، قفشا إذا جمعت عليه

كفَّك بسرعة، وقد انقفشت العنكبوت، إذا دخلت جُحْرها.

قوله: «الجوى»، أي مرض القلب. نُدِيل: نعوّض، والإدالة: أن يكون الشيء لك مرة ولغيرك أخرى وهي من الدَّوْلة. النوى: البعد أو يريد: هلمّ لنجدّد المودَّة في هذه الليلة، ويكون ذلك عِوَضاً من طول الفرّاق، فقد عزمت على أن أنسلّ بالسَّحَر وأفرّ، والإنسلال: الخروج مستخفياً. أُصْلِي قلب الوالي: أجعله متحرّقاً بالتحسر والتفجع.

* * *

قال: فقَضَيتُ اللَّيْلَة مَعَهُ في سَمَرٍ، آنَقَ مِنْ حَدِيقَةِ زَهَرٍ، وَخميلَةِ شجر، حَتَّى إذَا لألأ الأُفُقَ ذَنَبُ السِّرْحان، وَآنَ انبلاجُ الفَجْرِ وحانَ، رَكِبَ مَتْنَ الطَّرِيق، وَأذَاقَ الوالِيَ عذَابَ الْحرِيق، وسلَّمَ إلَيَّ سَاعَةَ الْفِرَاقِ، رُفعَةً مُحْكمَةَ الإلْصَاقِ، وقالَ: ادْفَعْها إلَى الْوَالِي إذا سُلِبَ القَرار، وَتَحَقَّقَ مِنَّا الفِرَار؛ فَفضضتُها فِعْلَ المتملِّس، مِن مِثْلِ صَحِيفةِ الْمُتَلَمِّسِ.

* * *

قَضَيْت: أتممت. سَمَر: حديث بالليل يُسْمَر عليه. آنق: أحسن. حديقة: بستان، ولا تكون إلا تحت حائط أو زَرْب. زَهْر: نَوْر. خميلة: روضة فيها شجر. لألأ: لمع وأضاء. الأفق: جهات السماء. ذَنَب السِّرْحان، هو الفجر الكاذب، وهو ضوء يظهر قبل الفجر دقيق متصعِّد إلى السماء. والسِّرْحان: الذئب، شبّه ضوءه بذَنبه. آن: حَانَ وقَرُب. انبلاج الفجر: ظهور ضوئه. متن: ظهر. الحريق: سلّم: ترك. محكمة الإلصاق: متقنة الطيّ. القرار: السكينة، يريد أنَّ الواليَ إذا أخبر بَهَرِبنَا ذهب عقله، فجعل يتململ ولا يقرّ. فضضتها: كسرت ختامها.

[المتلمس وصحيفته]

والمتلمّس، شاعر مشهور، اسمه جرير بن عبد المسيح، وسمِّيَ المتلمّس بقوله: [الطويل]

فـهـذا أوانُ الـعِـرْضِ جُـنَّ ذبـابُـه ... زنـابـيـرُه والأزرق الـمـتـلـمِّـسُ[1]

وهو مأخوذ من تلمّس الرجلُ الحاجةَ، إذا طلبها سرًّا من غيره، وأصل ذلك من اللَّمْس باليد، كالذي يلمس بيده في الظلام مواضعَ خفيَّة يطلب منها شيئاً ضاع منه، أو كلمس الأعمى شيئاً بيده.

---

(١) البيت للمتلمس في ديوانه ص ١٢٣، والاشتقاق ص ٣١٧، وجمهرة اللغة ص ٧٤٧، وخزانة الأدب ٤/ ١٨٥، ١٨٦، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ٦٦٢، ولسان العرب (لمس)، (عرض)، وبلا نسبة في خزانة الأدب ٦/ ٥٤٦، والخصائص ٢/ ٣٧٧، وسر صناعة الإعراب ٢/ ٥١٠، ويروى «حيٌّ ذُبابُهُ» بدل «جُنَّ ذبابُهُ».

ومن كلام عامّتنا: فلان يتْلمّس، بسكون التاء، أي يَدخل بين الناس باستخفاء ولا يُشْعر به.

والمتلمّسُ أحد الثلاثة الذين اتفق العلماء على أنهم أشعر المقلّين في الجاهلية، وهم: المتلمّس والمسيّب بن عَلَس وحُصين بن الحِمَام.

والمتمّلس، بالميم قبل اللام، هو المتخلّص الذي يطلب السلامة والخلاص بسهولة، وقد أملس إذا خرج من بين القوم هارباً وهم لا يشعرون، وقد أملس الشيء، إذا سقط من يدك ولم تشعر به لملاسته.

والصحيفة: الكتاب. وقصّتها أن المتلمّس وطَرَفة كانا يتنادمان مع عَمْرو بن هند ملك الحيرة ـ وكان سيّىء الْخُلق شديده، وهو الذي حرّق من تميم مائة رجل، فهجوه، فقال فيه المتلمس ـ وكان طرده لشيء بلغه عنه: [الكامل]

أطـردتـنـي حَـذَر الـهـجـاء ولا ... والّـلات والأنـصـاب لا تـئـلُ[1]

أي لا تنجو.

وقال فيه أيضاً: [الكامل]

إن الـخـيـانـة والـمـغـالـةَ والْـخَـنـا ... والـغَـدْرَ نـتـركـه بـبـلـدة مـفـسـدِ[2]

مـلـك يـلاعـب أمّـه وقـطـيـنـهـا ... رِخْـو الـمـفـاصـل أيْـرُهُ كـالـمِـبْـرَدِ

فـإذا حـلـلـت ودون بـيـتـيَ غَـاوَةٌ ... فـابـرِقْ بـأرضـك مـا بـدا لـك وارعُـدِ

وقال طَرَفة: [الوافر]

فـلـيـت لَـنَـا مـكـان الـمـلـك عـمـرٍو ... رَغُـوثـاً حـول قُـبـتـنـا تَـخُـورُ[3]

لـعـمـرك إنّ قـابـوس بـن هـنـدٍ ... لـيـخـلـط مـلـكَـه نَـوْكٌ كـثـيـرُ

في أبياتٍ شهرتُها تنبي وتغني عن ذكرها؛ فاستحيا أن يقتلهما بحضرته، وبينهما إدلالُ المنادمة، فكتب لهما بصحيفتين، وختمهما لئلاً يعلما ما فيهما ـ هو أوّلُ مَنْ ختم الكتاب ـ وقال لهما: اذهبا إلى عاملي بالبحرين، فقد أمرتُه أن يصلَكما بجوائز. فذهبا

---

(١) البيت للمتلمس الضبعي في ديوانه ص ٤٢، ومعجم البلدان (اللات)، والأغاني ٢٤/ ٢٥١، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٦٣٠، والاشتقاق ص ٥٤٣.

(٢) الأبيات في ديوان المتلمس ص ١٤٧، والبيت الثالث في لسان العرب (عصد)، (غوي)، وتاج العروس (عصد)، (غوي)، وإصلاح المنطق ص ١٩٣، وهو بلا نسبة في المخصص ١٤/ ٢٢٨.

(٣) البيتان لطرفة بن العبد في ديوانه ص ٤٨، والبيت الأول في لسان العرب (رغث)، (خور)، وتاج العروس (رغث)، ومقاييس اللغة ٢/ ٤١٦، وتهذيب اللغة ٨/ ٩٠، والمخصص ٧/ ٤٩، ١٧٨، ومجمل اللغة ٢/ ٣٩٩، وأساس البلاغة (رغث).

فمرًا بطريقهما بشيخ يحدِث ويأكل من خبز بيدِه، ويتناول القمل من ثيابه ويقصعه، فقال المتلمّس: ما رأيت شيخاً كاليوم أحمق من هذا! فقال الشيخ: ما رأيتَ من حُمْقى! أخرِج الداء، وآكل الدّواء، وأقتل الأعداء. ويروى: أقتل عدوًا، وأدخل طيّباً، وأخرج خبيثاً، أحمقُ والله منِّي مَنْ يحمل حتفَه بيده.

فاستراب المتلمّس بقوله، وطلع عليهما غلام من أهل الحِيرة من كتّاب العرب، فقال له المتلمّس: أتقرأ يا غلام؟ قال: نعم، ففك الصحيفة فإذا فيها: فإذا أتاك المتلمس فاقطع يديْهِ ورجليْه وادفنه حيًا: فقال لطرفة: ادفع إليه صحيفَتك، فإنّ فيها مثل هذا، فقال طَرَفة: كلا لم يكن ليجترىء عليّ - وكان غِرًا صغير السّنّ - فقذف المتلمس بصحيفته في نهر الحيرة، وقال: [الطويل]

قذفتُ بها في الثِّنْي من جَنْب كافرٍ ... كـذلك أقـنـو كـل قـطّ مـضـلّـل[1]
رضيـت لـهـا بـالـمـاء لَمَّـا رأيتُـهـا ... يـجـولُ بـهـا الـتـيّـار فـي كـل جَـدْوَلِ

وأخذ نحو الشأم وقال: [الكامل]

أَلَقى الصحيفة كيف يخفِّفَ رَحْلَه ... والـزَّاد حـتـى نـعـلَـه ألـقَـاهَـا[2]

أراد: أنه تخفف للفرار، فألقى ما لا يُثقِل، وما لا بدّ للسفر منه.

وقال حين نجا: [الكامل]

مَـنْ مـبـلـغ الـشّـعـراء عـن أخـويـهِـمَ ... خـبـراً فـتـصـدُقَـهـم بـذاكَ الأنـفـسُ[3]
أَوْدَى الـذي علِق الـصـحـيـفـة مـنـهـمَـا ... ونَـجـا - حِـذار حـبـائِـهِ - الـمـتـلـمّـسُ

---

(١) يروى البيت الأول:

وألـقـيـتـهـا فـي الـثـنـي مـن جـنـب كـافـرٍ ... كـذلـك أقـنـو كـلّ قـطّ مـضـلّـلِ

وهو في ديوان المتلمس ص ٦٥، ولسان العرب (كفر)، (قنا)، وتهذيب اللغة ٩/ ٣١٤، ٣١٧، والمخصص ١١/ ٧٤، وتاج العروس (كفر)، (قنا)، وكتاب الجيم ٣/ ١٢٢، والبيت بلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٧٨٧، وكتاب العين ٥/ ٣٥٧.

(٢) البيت للمتلمس في ملحق ديوانه ص ٣٢٧، وشرح شواهد المغني ١/ ٣٧٠، ولأبي (أو لابن) مروان النحوي في خزانة الأدب ٣/ ٢١، ٢٤، والدرر ٤/ ١١٣، وشرح التصريح ٢/ ١٤١، والكتاب ١/ ٩٧، والمقاصد النحوية ٤/ ١٣٤، ولمروان بن سعيد في معجم الأدباء ١٤٦/١٩، وبلا نسبة في أسرار العربية ص ٢٦٩، وأوضح المسالك ٣/ ٣٦٥، والجنى الداني ص ٥٤٧، ٥٥٣، وخزانة الأدب ٩/ ٤٧٢، والدرر ٦/ ١٤٠، وشرح أبيات سيبويه ١/ ٤١١، وشرح عمدة الحافظ ص ٦١٤، ورصف المباني ص ١٨٢، وشرح الأشموني ٢/ ٢٨٩، وشرح قطر الندى ص ٣٠٤، وشرح المفصل ١٩/٨، ومغني اللبيب ١/ ٢٤، وهمع الهوامع ٢/ ٢٤، ٣٦.

(٣) الأبيات في ديوان المتلمس ص ١٨٦، والبيت الثالث في لسان العرب (نقرس)، (أبى)، وتهذيب اللغة ٩/ ٣٩٥، وتاج العروس (نقرس).

أَلْقِ الصحيفة، لا أبا لك إنَّما ... يُخشى عليك من الحِبَاء النِّقْرِسُ

وأما طَرَفة فوصَل إلى البحْرين، فلما قرأ العامل صحيفته، وسأله عن المتلمّس فأخبره بِفراره، عفا عنه لصدْقه ورعايتِه لطابع الملك حيث لم يفكّه.

وقيل: إنه سَجَنه، وبعث إلى عمرو بن هند، وقال له: ما كنت لأقْتُل طَرَفة، وأعادي قبيلته، فإذا أردت قتله، فابعث إليه مَنْ يقتله. ففعل وخُيِّر في قتله؛ فاختار أن يُسقى الخمر، ويُفْصَدَ أكْحَلُه؛ فَفُعِل به ذلك حتى مات نزفاً، ودفن بَهجَر. وقيل في قتله غير ذلك.

وقال البحتري يصدّق ما تقدم: **[الكامل]**

ولقد سكنتُ إلى الصدود من النَّوَى ... والشَّرْيُ أرْيٌ عند طعم الحنظَلِ(١)

وكذاك طَرْفة حين أوجس ضربةً ... في الرأس هان عليه فَصْد الأكْحَلِ

وقال: وهو في السجن يخاطب قومه: **[السريع]**

أسلمني قومي ولم يغضبُوا ... لسوءَةٍ حلّت بهم فادحَهْ(٢)

كلّ خليلٍ كنتُ خالَلْتَهُ ... لا ترك الله له واضِحَهْ

كلّهم أروغُ من ثعلبِ ... ما أشْبَهَ اللَّيْلَة بالْبَارِحَهْ!

وقال يخاطب عمرو بن هند في السجن: **[الطويل]**

أبا منذرٍ كانت غروراً صحيفتي ... ولم أعطِكُمْ بالطَّوْعِ مالي ولا عِرْضِي(٣)

أبا منذرٍ أفنيتَ فاستبْق بعضَنَا ... حَنَانَيْك بعضُ الشَّرّ أهونُ من بَعْضِ

وقتِل وهو ابن عشرين سنة، والعرب تقول: أشعر الناس ابنُ العشرينِ وتعنيه، إلاَّ أنَّ أبا العباس أنشد لأخته ترثيه: **[الطويل]**

عَدَدْنَا لَهُ ستًّا وعشرين حِجَّةً ... فلما توفيَّ واسْتَوَى سَيِّداً ضَخْما(٤)

---

(١) البيتان في ديوان البحتري ص ١٧٤٣.

(٢) الأبيات لطرفة بن العبد في ديوانه ص ١٥، والبيت الثاني في مجمع الأمثال ١/ ٣١٧، وديوان الأدب ٣/ ٢٣١، وتاج العروس (روغ)، وبلا نسبة في لسان العرب (وضح)، ومقاييس اللغة ٦/ ١١٩، وتهذيب اللغة ٥/ ١٥٧، والبيت الثالث في تمثال الأمثال ٢/ ٥٥٠، وجمهرة الأمثال ٢/ ٢٤٧، وجمهرة اللغة ص ٢٧٥، والحيوان ٦/ ٣٠٢، والفاخر ص ٣١٦، وفصل المقال ص ٢٢٧.

(٣) البيتان لطرفة بن العبد في ديوانه ص ٦٦، والبيت الأول في لسان العرب (غرر)، والبيت الثاني في الدرر ٣/ ٦٧، والكتاب ١/ ٣٤٨، ولسان العرب (حنن)، وهمع الهوامع ١/ ١٩٠، وتاج العروس (حنن)، وهو بلا نسبة في جمهرة اللغة ص ١٢٧٣، وشرح المفصل ١/ ١١٨، والمقتضب ٣/ ٢٢٤.

(٤) البيتان في الكامل للمبرد ١/ ٢٥٨.

فُجِعْنَا بِهِ لَمَّا رَجَوْنَا إِيَابَهُ ... على خَيْرِ حالٍ، لا وليداً ولاَ قَحْمَا(١)

وهلك المتلمّس في الجاهليّة بُبصرى.

* * *

فَإِذَا فيهَا مَكْتُوبٌ: [الطويل]

قُلْ لِوَالٍ غَادَرْتُهُ بَعْدَ بَيْنِي ... سَادِماً نَادِماً يَعَضُّ الْيَدَيْنِ
سَلَبَ الشيخُ مَالَهُ، وَفَتَاهُ ... لُبَّهُ، فاصْطَلَى لَظَى حَسْرَتَيْنِ
جَادَ بِالْعَيْنِ حِينَ أَعْمَى هَوَاهُ ... عَيْنَهُ فانْثَنَى بِلاَ عَيْنَيْنِ
خَفِّضِ الْحُزْنَ يا مُعَنَّى فما يُجْـ ... ـدِي طِلاَبُ الآثارِ مِنْ بَعْدِ عَيْنِ
وَلَئِنْ جَلَّ مَا عَرَاكَ كَمَا جَـ ... ـلَّ لَدَى المسلمين رزءُ الحُسَيْنِ
فَقَدِ اعْتَضْتَ مِنْهُ فهماً وحزماً ... واللَّبِيبُ الأريبُ يَبْغِي ذَيْنِ
فاغْضِ مِنْ بَعدِهَا المطامِعَ وَاعْلَمْ ... أَنَّ صَيْدَ الظِّبَاءِ لَيْسَ بِهَيْنِ
لاَ ولا كلُّ طائرٍ يَلِجُ الْفَـ ... ـخَّ وَلَوْ كان مُحْدَقاً بِاللُّجَيْنِ
ولَكَمْ مَنْ سَعَى لِيصطاد فاصطِـ ... ـيدَ ولَم يَلْقَ غَيْرَ خُفَّيْ حُنَيْنِ

* * *

قوله: «غادرته»، أي تركته. يعضّ اليدين: تندماً. سادماً. متغيّراً، والسادم: المتغيّر العقل من الغمّ، من قولهم: ماء سدِم، ومياه سَدِم وأسْدام، أي متغيّرة، وقيل: السَّدِيم: الحزين الذي لا يُطيق ذهاباً ولا مجيئاً، من قولهم: بعير مسدَّم، إذا منِع من الضِّرَاب، فكأنَّ الحزين منع من الذهاب والمجيء، فيقول: تركته يعضّ يديه تندماً وتلهُّفاً. اللظى: لهب النار، وقد لظت النار: عَلاَ لهبُها؛ فيريد أنّ الشيخ أخذ مالَه والفتى عقلَه، فاحترق بنار فَجْعَتَيْن جاد: سَمَح. العين: الذهب. هواه: تعشُّقه وميله: انثنى. رجع. بلا عينين، أي بغير مال ولا بصر. خفّض: سكّن. معنًّى: معذَّب. يجدي: ينفع، والعين ها هنا: الشخص.

* * *

[قصة المثل: طلب أثراً بعد عين]

وقولهم: طلب أثراً بعد عين، كأنّ رجلاً تمكّن من عدوّه أو مِنْ صيد ليرميَه، فتراخى عنه حتَّى فاته، ثم شدّ في طلبه بعد الفَوْت؛ وأوّل مَنْ قال ذلك مالك بن عمرو العامريّ؛ وكان بعض ملوك غسان أخذه وأخاه سماكاً بسببِ قتيلٍ كان له في عمالته،

(١) القحم الرجل المتناهي سناً.

فحبسهما زماناً، ثم قال لهما: إني قاتلُ أحدكما، فجعل كلّ واحد منهما يقول: اقتلني مكان أخي، فقتَل سماكاً وخلّي مالكاً، فقال سِماك حين ظنّ أنه مقتول: [المتقارب]

وأقسم لو قتلوا مالكاً ... لكنتُ لهم حيَّةً رَاصِدَهْ[1]

برأس سبيل على مرقبٍ ... ويوماً على طُرقٍ وَارِدَه

أأُمَّ سماكٍ فلا تجزعي ... فللموتِ مَا تَلِدُ الوَالِدَهْ

وانصرف مالك إلى قومه، فلبث فيهم زماناً. ثم إن ركباً مرُّوا بهم وأحدهم يغنِّي بهذا البيت: [المتقارب]

* وأقسم لَوْ قتلوا مالكا *

فسمعتْ بذلك أمّ سماك، فقالت: يا مالك، قبَّح الله الحياة بعد سماك! اخرج في طلب ثأر أخيك، فخرج فَلَقِيَ قاتل أخيه في ناسٍ من قومه، فقال: مَن أحسّ لي الجمل الأحمر! فعرّفوه، فقالوا له: لك مائة من الإبل، وكُفّ عنه، فقال: لا أطلب أثراً بعد عين، فذهبت مثلاً، ثم حمَل على قاتل أخيه فقتله.

* * *

قوله: «جَلّ»، أي عظم. عراك: قصدك. رزء الحسين: المصاب بقتله حين قتل بكربَلاء.

وحديثه أن معاوية لمَّا مات أرسل إليه أهل الكوفة أن قد حبسنا أنفسنا على بَيْعتك. وطُولب بالمدينة أن يبايع يزيد، فخرج إلى مكة، وأرسل ابنَ عمّه مسلم بن عَقِيل إلى الكوفة وقال له: إن كان حقًّا ما كتبوا به، فعرّفني ألحق بك.

فخرج من مكّة للنصف من رمضان، وقَدِم [الكوفة] لخمسٍ خَلَوْن من شوَّال، وأميرها النّعمان بن بشير، فدخل مستتراً، فبايعه من أهلها ثمانية عشر ألفاً. فكاتبه بذلك. فلمَّا همَّ بالخروج لقيه ابنُ عبَاس رضي الله عنهما، فقال له: يا بنَ عمّ، أهلُ العراق أهل غدرٍ، وإنّما يدعونك للحرب، فقال له: يا ابنَ عمّ، كتب إليّ مسلم باجتماع أهل الكوفة عليّ، فقال له: قد جرّبتهُم، وهم أصحاب أبيك وأخِيك. وقتَلتُك غداً مع أميرهم، إذا بلغ ابن زَياد خبرُك استفزَّهم، فكان الذين كتبوا إليك أشدّ عليك عن عدوّك، فإن أبيتَ إلاّ الخروج فلا تخرجَنّ بنسائك وولدك معك، فإنّي لخائف أن تُقْتَلَ كما قتل عثمان، ونساؤه وولده ينظرون إليه. فردَّ عليه: لأن أُقْتَلَ بموضع كذا، أحبُّ إليَّ من أن أُسْتَحَلّ بمكة.

---

(١) الأبيات لسماك بن عمرو العاملي في لسان العرب (لوم)، وخزانة الأدب ٩/ ٥٣٤.
ويروى صدر البيت الأول:

فأقسم لو قتلوا خالداً

واتّصل الخبر بيزيد، فكتب إلى عُبيد الله بن زياد بتوليتِهِ الكوفة. فخرج مسرعاً، فدخلها في حَشَمه وهو ملثَّم، والناس يتوقَّعون قدومَ الحسين، فجعل عُبيد الله بن زياد يسلِّم على الناس، والناس يقولون: وعليكَ السلام يا ابنَ رسول الله، قدمت خير مقدَمٍ، حتى انتهى إلى القصر.

فحسر اللّثامَ، ففتح له النعمان الباب، وتنادي النّاس: ابن مَرْجانة، فحصبوه بالحصباء، ففاتهم. ووضع الرّصد في طلب مُسلم، فصاح مسلم: يا منصور - وكان شعارهم - فاجتمع له في ساعة واحدة ثمانية عشر ألفاً. فأحاطوا بالقَصْر فقاتلوا ابنَ زياد، فلم يُمسِ المسَاءُ ومعه مائة رجل. فلما رأى تفرّقَهم سار نحو أبواب كِنْدة، فبلغ الباب ومعه ثلاثة، فخرج وليس معه أحد، فبقِيَ حائراً لا يدري أين يتوجّه، فنزل من على فرسه، ودخل أحد أزقَّة الكوفة، فانتهى إلى باب مولاة لمحمد بن الأشعث، فاستسقاها فسقتْه، وأعلمها حاله، فرقَّت له، فآوته وأعلمت محمد بن الأشعث بمكانه، فمشى إلى ابن زياد، فأعلمه، فوجّه معه سبعين رجلاً، فاقتحموا عليه، فقاتلهم مُسلم، وأمنّه محمد بن الأشعث، وحَمله إلى ابن زياد فضرب عنقَه، وبعث برأسه إلى يزيد بن معاوية، فصلَب جُثَّتَه.

وانتهى الأمر إلى الحسين، وقد بلغ القادسيَّة، فهمَّ بالرجوع، فقال له إخوة مسلم: لا نرجع أو نقْتَل، أو نأخذ بثأرنا، فقال الحسين: لا خيرَ في العيش بعدكم، فسار حتى لَقِيَ خيلاً لابن زياد، وعليها عمر بن سعد بن أبي وَقَّاص، فعدَل إلى كربَلاء، وهو في نحو خمسمائة فارس، فلما كثرت العساكر أيقن أنَّه لا محيص له، فقال: اللهمّ احْكُم بيننا وبين قوم دَعَوْنا لينصرونا، ثم هُمْ يقاتلوننا! ثم خطب قومه فقال: يا عبادَ الله، اتقُّوا الله، وكونوا مَن الدنيا على حذرٍ، فإن الدنيا لو بقيت على أحدٍ، أو بقيَ عليها أحد، لكانت الأنبياء أحقَّ بها وبالبقاء، غير أنَّ الله خلقها للفناء، فجديدُها بالٍ، ونعميها مضمحّل، وسرورها مكفهرّ، والدارُ قلْعة، والمنزل تَلْعَة[1]؛ فتزوّدوا فإن خير الزاد التقوى، واتقوا الله لعلكم تفلحون.

ثم قاتل حتى قُتِل رضي الله عنه وفيه ثلاث وثلاثون طعنة وأربع وثلاثون ضربة؛ وتولّى قتله سِنان بن أنس النّخعَيّ، واحتزَّ رأسه، وانطلق به مسرعاً إلى ابن زياد، وهو يقول: **[الرجز]**

أوِقــر ركــابــي فــضــةً وذهــبــا ... إنــي قــتــلــت الــمــلــكَ الــمــحــجَّــبَــا

* قــتــلــتُ خــيــر الــنــاس أُمَّــا وأَبَــا *

وبعث معه الرأس إلى يزيد بن معاوية، وعنده أبو بَرْزة، فجعل ينكت بالقضيب على فيه، وهو يقول: **[الطويل]**

---

(١) التلعة: مجرى الماء من أعلى بطون الأرض.

نـفـلِّـق هـامـاً مـن رِجـالٍ أعـزَّةٍ ... علينا، وهم كانوا أعقَّ وأظْلَما[(١)]

فقال له أبو برْزة: ارفع قضيبك عن فمه، فلقد رأيتُ رسول الله ﷺ يلثمُه.

وقتِل يوم عاشوراء سنة إحدى وستين، وقتِل معه سبعة وثمانون، منهم عليٌّ ابنُه الأكبر، ومن ولد أخيه الحسن عبد الله والقاسم وأبو بكر، ومن إخوته العباس وعبد الله وجعفر ومحمد وعثمان بنو عليّ، ومن بني عمّه جعفر ومحمد وعون أبناء عبد الله بن جعفر. ومن ولد عَقِيل عبدُ الله وعبد الرحمن وجعفر، ودفنهم أهل القادسيّة بعد قتلهم بيوم، وقتلوا هم من أصحاب عمر بن سعد ثَمانية وثمانين.

* * *

قوله: «اعتضت»: اقتلعت من العِوَض. يبغي ذين: يطلب هذين. الظِّباء: الغزلان. يَلِج: يدخل. محدَقاً باللّجين، أي محلّقاً بالفضة، والصائد يفرّق حول الفخ حبَّ القمح وشبهه، فيلقطه الطائر حتى يتوصَّل إلى ما نُصِب له فيقع، فقال: ما كلُّ طائر يُخْدَع، ولو حُلّق له الفخّ بحبّ اللّجين بدلاً من القمح، وإني من هذا الصنف.

قوله: «ولكم مَنْ سعى ليصطاد فاصطيد»، من قول الصابي: [الرجز]

يـا قـمَـراً كـالـخَـشْـف فـي نـظـرتِـهْ ... وكـالـقـضـيـب الـلَّـدْن فـي نُـضْـرَتِـهْ

خِـلْـتـكَ صـيـداً كـان فـي قَـبْـضَـتِـي ... فـصـرتُ مـن صـيـدِيَ فـي قَـبْـضَـتِـهْ

والسابق له كعب بن زهير في قوله: [البسيط]

طـافَ الـرُّمـاة بـصـيـدٍ راعـهـم فـإذا ... بعضُ الرُّماة بنبْل الصيد مقتولُ[(٢)]

* * *

[قصة المثل: رجع بخفي حنين]

وخُفَّا حُنَين، يضرب بهما المثل للخائب الخاسر، واختلف في حُنين، فقال يعقوب: إنه كان رجلاً مُدّعِياً، فجاء إلى عبد المطلب، وعليه خُفّان، فقال: يا عم إني من ولد هاشم، فأنعَمَ النَّظر فيه، وقال: لا وعظام هاشم، ما أرى فيك شمائلَ هاشم، فارجع خائباً خاسراً.

وقيل: كان رجلاً مغنّياً، فدعاه قوم من أهل الكوفة. ليُطربَهم في نزهة، فخرجوا به إلى الصحراء، فضربوه وسلبوا ثيابه، وتركوا عليه خُفيَّهْ؛ فلما رجع إلى زوجته ـ وكانت تنتظر رجوعَه على عادته بما يفضُل من أطعمة النزهة ـ ورأته على تلك الحالة قالت لكل من سألها: رجَع حُنين بخُفَّيه.

---

(١) البيت للحصين بن الحمام في المفضليات ١٢. (٢) البيت ليس في ديوان كعب بن زهير.

وقيل: إنه كان صانعاً، فساومه أعرابيّ بخُفّين، وماكسه حتى أخرجه. فلما ارتحل الأعرابيّ، أخذ حنين إحدى الخفين فوضعَها على الطريق، ثم مشى وألقى الأخرى في موضع آخر على الطريق، وكمن له، فلما مرّ الأعرابيّ بالخُفّ قال: ما أشبه هذه بخفّ حُنين؛ ولو كان معها الأخرى لأخذتُها. فلمّا انتهى إلى الأخرى، نَدِم على ترك الأولى، فأناخ راحلَته، وأخذها ورجع إلى الأولى؛ فلما غاب عَمَد حنين إلى راحلته بما عليها فركبها، ومضى بها، ورجع الأعرابيّ إلى قومه بخُفّين، فكان إذا سئل عن حاله قال: رجعت بخفّيْ حنين فصار مثلاً.

وقيل: كان حُنين لصًّا حقيراً فأُخِذَ وصُلِب، فجاءته أمّه وعليه خفّان فانتزعتهما ورجعت، فقيل: رجعت بخُفّيْن حُنين، أي رضيت منه بذلك.

* * *

فتبصَّرْ ولاَ تَشِمْ كلَّ بَرْقٍ ... ربَّ برقٍ فيهِ صوَاعِقُ حَيْنِ
واغْضُضِ الطَّرْفَ تَسْترِحْ مِن غَرامٍ ... تَكْتَسِي فيهِ ثَوْب ذلٍّ وشَيْنِ
فبلاَءُ الفَتَى اتّباعُ هَوَى النَّفْـ ... ـسِ وَبَذرُ الْهَوَى طَمُوحُ عَيْنِ

قال الراوي: فمزَّقْتُ رُقْعَتَهُ شَذَرَ مَذَرَ، ولَمْ أُبَلْ أَعَذَل أم عذَرَ.

* * *

قوله «تبصر»: أي أحسن النظر. حَيْن: هلاك. والصاعقة: نار ترسل مع الرعد والبَرْق، وجمعها صواعق، وصعق الرجل إذا أصابته، وصعق إذا مات، وقيس تقول: صاعقة، وبنو تميم صاقعة؛ وقد صقع. غرام: عذاب الحب. شيْن: عيب. والبَذْر: زرع الحبّ في الأرض.

طموح: ارتفاع يريد أن أصل العشق مداومة النظر، ألمَّ فيه بقول عيسى عليه السلام: «لا يزني فرجُك ما غضضتَ بصرَك»؛ وقد تقدَّم: من كثرتْ لحظاته دامت حسراته.

وقال سابق البربريّ في اتباعِ الهوى: **[الطويل]**

وهجر الهَوى للمرءِ فاعلم سعادةٌ ... وطُول الهوى رَيْنٌ على القَلْبِ رَائِنُ
فكن دافناً للشَّرّ بالخير تسترِحْ ... من الشرّ إنّ الخير للشرّ دافِنُ

وقال آخر: **[الطويل]**

إذا أنت لم تعصِ الهوى قادَك الهوى ... إلى كلّ ما فيه عليك مقالُ

وقال المتنبي: **[الطويل]**

عزيزٌ أسى مَن داؤه الأعين النُّجلُ ... عناء به مات المحبّون مِنْ قَبْلُ(١)
فمن شاء فلينظر إليّ فمَنظرِي ... نذيرٌ إلى مَنْ ظنَّ أنّ الهوى سَهْلُ
وما هي إلا لحظةٌ بعد لحظةٍ ... إذا نزلت في قلبِه رَحَلَ العَقْلُ

وقال ابن زيدون: [البسيط]

مَنْ يسأل الناس عن حالِي فشاهدُه ... محضُ العيان الّذي يُغني عن الْخَبرِ(٢)
أما الضَّنَى فجنتُه نظرة عنَنٌ ... كأنّها والرَّدَى جاءا على قَدَر
فهمتُ معنَى الهوى من وَحْيِ طرفك لي ... إن الحوار لمفهومٌ مِن الحَوَرِ

وقال العبَّاس بن الأحنف: [الكامل]

الحبّ أوّل ما يكون لجاجةً ... تأتي به وتسوقُه الأقدارُ(٣)
حتى إذا اقتحم الفتى لججَ الهوَى ... جاءت أمورٌ لا تُطاقُ كِبَارُ

فهذا كله يبيّن بيت الحريريّ.

قوله: «مزقت»: قطعت. شذَر مذَر: قِطَعاً متفرقة في كلّ جهة، وأصل الشَّذر قطع الذهب، ومذَر اتباع لها.

لم أُبَل: أي لم أبالِ. عذل: لام. عذر: قَبِل العذْر.

---

(١) الأبيات في ديوان المتنبي ٣/ ١٨٠.
(٢) الأبيات في ديوان ابن زيدون ص ٢٥١.
(٣) البيتان في ديوان العباس بن الأحنف ص ١١٦.

المقامة الحادية عشرة

وهي الساوية

حدّث الحارث بن همام، قالَ: أنسْتُ مِنْ قَلْبِي القَسَاوَةَ، حِينَ حلَلْتُ سَاوَةَ، فأخذت بالخَبَرِ المأثورِ، في مُدَاوَتِهَا بزيارَةِ القُبُورِ.

فلَمّا صرْتُ إلَى مَحلَّةِ الأمْوَاتِ، وَكِفَاتِ الرُفات، رَأيتُ جَمْعاً عَلَى قَبرٍ يُحْفَرُ، وَمَجْنوزٍ يُقْبرُ، فانْحَزْتُ إلَيهِمْ مُتَفَكِّراً في المآلِ، مُتَذَكِّراً مَنْ دَرَجَ مِنَ الآلِ.

فلمَّا أَلْحَدُوا المَيْتَ، وَفَاتَ قوْلُ لَيْتَ، أَشْرَفَ شيْخٌ مِنْ رِبَاوَةَ، متخَصِّراً بهِرَاوَة، وَقَدْ لَفَّعَ وَجْهَهُ بِرِدَائِهِ، وَنَكَّرَ شَخْصَهُ لِدَهائِه.

* * *

الحادية عشرة، تبنى على الفتح كبناء أحد عشر. آنست: أدركت وأحسست.

القَسَاوة: غلِظَ القلب. وقلب قاسٍ وقَسِيّ، أي صلب، وقلوب قاسية وقَسّية؛ وهما عن السكائيّ والفرّاء لغتان بمعنى واحد.

أبو عبيدة: القاسية مأخوذة من القَسْوَة، والقَسِّية التي ليست خالصة الإيمان، كالدرهم القسيّ وهو الذي خالطه غش من نحاس أو غيره، وقد قسا القلبُ يقسُو قَسَاوة، وقَساء: صَلُب.

ساوَة: بلد بينه وبين الرّي اثنان وعشرون فرسخاً، وهي في الطريق ما بين هَمَذان والرّيّ.

الخبر المأثور، أي المحدّث به، وهو قوله ﷺ: «عُودوُا المرضَى، واحضرُوا المقابر، فإنّها تزهّد في الدنيا، وتذكّر الآخرة»[1].

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كنتُ نهيتُكم عن زيارة القبور، ثم بَدَا لِي فزُورُوها، فإنها ترقّق القلب، وتدمع العين، وتذكّر الآخرة»[2].

---

(١) أخرجه البخاري في المرض باب ٤، وأحمد في المسند ٣/٢٣، ٣١، ٤٨، ٣٩٤، ٤٠٦.

(٢) روي بطرق وأسانيد متعددة، أخرجه مسلم في الجنائز حديث ١٠٦، والأضاحي باب ٣٧، وأبو داود في الجنائز باب ٧٧، والأشربة باب ١٧، والترمذي في الجنائز باب ٧، والنسائي في الجنائز باب=

وسأل رجل عائشة رضي الله عنها، فقال: يا أمّ المؤمنين، إن لي داءً فهل عندَكِ دواؤه؟ قالت: وما داؤك؟ قال: القسوة، قالت: بئسَ الدّاءُ داؤك. عُدِ المرضى، وأشهد الجنائز، وتوقَّع الموت.

وقيل لعليّ رضي الله عنه: ما شأنك جاورتَ المقبرة! قال: إني أجدُهم خيرَ جيران صدْق، يكُفُّون الألسنة، ويذكّرون الآخرة.

وكانت عجوز في عبد القيس متعبّدة، فإذا جاء الليل تحزَّمت، ثم قامت إلى المحراب، فإذا جاء النهار خرجت إلى المقبرة؛ فعُوتبت في إتيان القبور، فقالت: إن القلب القاسي إذا جفا لم يليّنه إلا رسوم البِلَى، وإنّي لآتِي القبور؛ فكأني أنظر وقد خرجوا من بين أطباقها، وكأني أنظر إلى تلك الوجوه المتعفّرة، وإلى تلك الأجسام المتغيّرة، وإلى تلك الأكفان الدّسمة.

وقال ميمون بن مهران: خرجت مع عمر بن عبد العزيز إلى المقبرة؛ فلمَّا نظر إلى القوم بكَى، ثم أقبل عليّ فقال: يا ميمون، هذه قبور آبائي بني أميَّة كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لذَّاتهم وعيشهم؛ أما تراهم صَرْعى قد خلت من قَبْلِهِمُ المُثلات، واستحكم فيهم البِلَى، وأصابت الهموم في أبدانهم مقيلاً، ثم بكى وقال: والله لا أعلم أحداً أنعم ممَّن صار إلى هذه القبور وقد أمِنَ من عذاب الله.

استنشد المتوكل أبا الحسن عليّ بن محمد بن موسى بن جعفر بن عليّ بن الحسين، فقال: إني لقليلُ الرّواية في الشعر، فقال: لا بُدّ، فأنشده: [البسيط]

باتُوا على قُلَلِ الأجبال تحرسُهُمْ	غُلْب الرجال فلم تنفعهُم القُلَلُ
واسْتُنْزلُوا بعد عزٍّ عن معاقِلِهِمْ	وأُودِعُوا حُفَراً، يا بئس ما نزلوا!
ناداهُمُ صارخ من بعد ما دُفِنُوا:	أين الأسرَّة والتيجان والحُلَلُ؟
أينَ الوجوهُ التي كانت منعَّمَة	من دونها تُضرَب الأستارُ والكِلَلُ!
فأفْصَحَ القبرُ عنهم حين سِيلَ بهِمْ:	تلك الوجوه عليها الدُّودُ يَقْتَتِلُ
قَدْ طالما أكلُوا دهراً وما شَربوا	فأصبحوا بعد طولِ الأكل قد أُكِلُوا

قال عمر: لو أنْشِد شعراً في أوصاف آبائه وبني عمّه ملوك بني أميّة وانحطاطهم من عزّ المملكة إلى ذل المقبرة، لم يكن إلا هذا الشعر.

أبو الحسن القلويّ كان قد سُعِي به إلى المتوكل، وقيل له إن في بيته سلاحاً وكتباً وغير ذلك، فوجّه إليه بعدَّة من الأتراك، فهجموا عليه على غفلة ممَّن في داره، فوجدُوه

= ١٠٠، والضحايا باب ٣٩، والأشربة باب ٤٠، وابن ماجه في الجنائز باب ٤٧، وأحمد في المسند ١/١٤٥، ٤٥٢، ٣/٣٨، ٦٣، ٦٦، ٢٣٧، ٢٥٠، ٥/٣٥٠، ٣٥٥، ٣٥٧، ٣٥٩، ٣٦١.

في بيت مغلَقٍ عليه وحده، وعليه مسْح شعر، ولا بساط في البيت إلاّ الرَّمل والحصى، وعلى رأسه مِلْحَفة صوف متوجهاً إلى ربه، يترنَّم بالقرآن، فمثلَ بين يدي المتوكل على حاله، والمتوكّل يشرب وفي يده كأس، فلما رآه عظمه وأجلسه إلى جنبه. وعلم أنه لا يوجد عنده شيء مما قيل، فناوله، فقال: يا أمير المؤمنين، ما خامر لحمي ولا دمعي قطّ فأعفني منه، فأعفاه، ثم قال: أنشدني شعراً أستحسنه، فأنشده الأبيات المتقدّمة، فأشفق من حضر عليه من المتوكل. فواللّه لقد بكى المتوكل بكاءً طويلاً، وبكى من حضر، وقال: يا أبا الحسن، أعليك دَين؟ قال: أربعة آلاف درهم، فدفعت إليه، ورُدَّ إلى منزله مكرَّماً، وقال: ما يقولُ ولد أبيك في العباس بن عبد المطلب! قال: وما يقولون يا أمير المؤمنين في رجل افترض الله طاعته على بنيه! فأمر له بمائة ألف درهم، وإنَّما أراد طاعة الله على بنيه فعرّض.

وقال سابق البربري في المعاريض: **[الطويل]**

تعاون على الخيراتِ تظفرْ ولا تكنْ ... على الإثم والعدوان ممَّن يعاونُ[(١)]

وداهنْ إذا ما خفت يوماً مسلّطاً ... عليك، ولا يحتال مَنْ لا يداهنُ

ولا تك ذا لونيْن يبدي بشاشةً ... وفي صدره ضَبٌّ من الغلّ كامِنُ

رجعت إلى عرض المقامة.

عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ، فجلس إلى قبر، وكنت أدنى القوم منه، فبكى وبكينا، فقال: ما يبكيكم؟ قلنا: بكاؤك، قال: هذا قبر أمي آمنة، استأذنتُ ربي في زيارتها، فأذن لي[(٢)]. فاستأذنته في أن أستغفر لها، فأبى عليّ، فأدركني ما يدرك الولد من الرِّقَّة.

وكان عثمان إذا وقف على قبر بكى حتى يبلل لحيته، فسئل عن ذلك، فقيل له: تذكر الجنة والنار ولا تبكي، وتبكي إذا وقفت على قبر! فقال: سمعت رسول الله، ﷺ، يقول: «إنّ القبر أول منازل الآخرة، فإن نجا منه صاحبه فما بعده أيسر، وإن لم ينج منه فما بعده أشدّ»[(٣)].

---

(١) يروى صدر البيت الثالث:

ولا تكُ ذا وجهين يُبدي بشاشة

وهو لسابق البربري في أساس البلاغة (ضبب)، وبلا نسبة في تاج العروس (ضبب)، وكتاب العين ٧/ ١٤.

(٢) أخرجه مسلم في الجنائز حديث ١٠٥، ١٠٦، وأبو داود في الجنائز باب ٧٧، والنسائي في الجنائز باب ١٠١، وابن ماجه في الجنائز باب ٤٨، وأحمد في المسند ٢/ ٤٤١، ٥/ ٣٥٦.

(٣) أخرجه الترمذي في الزهد باب ٥، وابن ماجه في الزهد باب ٢٢.

والمقصود من زيارة القبور الاعتبار للزائر والانتفاع بدعائه للمزَور، ولا ينبغي أن يغفل الزائر عن الدعاء لنفسه وللميت.

وكان رجل يشهد الجنائز، فإذا أمسى وقف على المقابر، فقال: آنس الله وحشتكم، ورحم الله غربتكم، وتجاوز الله عن سيئاتكم، وقَبِل الله حسناتِكم؛ لا يزيد على هذا شيئاً. قال: فأمسيتُ ليلة ولم أدعُ، فبينما أنا نائم إذا خَلْقٌ كثير قد جاؤوني، فقلت: مَنْ أنتم؟ قالوا نحن أهل المقابر، قلت: ما حاجتكم؟ قالوا: إنَّك كنت عودتنا هديَّةً عند انصرافك إلى أهلك، قلت: وما هي؟ قالوا: الدعوات التي كنت تدعو، قلت: فإني أعود لذلك؛ فما تركتها بعد ذلك.

قوله: محلَّة الأموات، هي المقابر التي يحلُّون بها. كفات: قبور وأوعية وكَفتّ الشيءَ: ضممتَه وقبضتَه، وكفات الشيء: ما ضمه وستره، وقوله تعالى: **﴿ألم نجعلِ الأرض كِفَاتاً أحْيَاءَ وأمْواتاً﴾** [المرسلات: ٢٥ ـ ٢٦] قيل: كِفات الأحياء بيوتهم، وكفات الأموات قبورهم. والرفات: العظام البالية، وقال ابن المعتز في مقبرة: **[الطويل]**

وسكَّان دارٍ لا تزاوُرَ بينهمْ ... على قرب بعضٍ في التجاوُر من بَعْضِ[1]
كأنَّ خواتيماً من الطِّين فوقهمْ ... فليس لها حتَّى القيامةِ من فضِّ

وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: **[البسيط]**

انظر لنفسك يا مسكين في مهلٍ ... ما دام ينفعك التفكير والنَّظَرُ
قف بالمقابر وانظر إن وقفْتَ بها ... لله درّك ماذا تَسْتُرُ الحُفَرُ!
ففيهمُ لك يا مغرور موعظةٌ ... وفيهمُ لك يا مغترّ معتَبَرُ!

وقال مالك بن دينار: مررت بالمقابر، فأنشدت أقول: **[المتقارب]**

أتيتُ القبور فناديتُها ... فأين المعظَّم والمُحْتَقَرْ؟
وأين المدِلُّ بسلطانِهِ ... وأين المزكّي إذا ما افْتَخَرْ؟
فنُوديت مِنْ بينهم: لا رأى ... شخوصاً لهم ولا من أَثَرْ!
تفانَوْا جميعاً فلا مخبرٌ ... وماتوا جميعاً ومات الخَبَرْ
فيا سائلي عن أناسٍ مضَوْا ... أما لَكَ فيما ترى مُعْتَبَرْ!
تروح وتغدو بناتُ الثَّرى ... وتمحَى محاسنُ تِلْكَ الصُّوَرْ!

ومما وجد على قبر مكتوباً: **[المتقارب]**

تُناجيك أجداثٌ وهنَّ سكوت ... وسكَّانُها تَحْتَ التُّراب خفوتُ

---

(١) البيتان في ديوان ابن المعتز ص ٢٥، ٢٦.

أيا جامعَ الدنيا لغير بلاغةٍ ... لِمنْ تجمع الدُّنيا وأنت تَمُوتُ؟

ومما وجد على قبر مكتوباً: [البسيط]

إن الحبيبَ من الأحبابِ مختلسٌ ... لا يمنع الموتَ بوَّابٌ ولا حَرَسُ

فكيف تفرح بالدُّنيا ولذَّتِها ... يا مَنْ يُعدّ عليه اللفظ والنَّفَسُ؟

لا يرحَمُ الموت ذا جاهٍ لعزَّته ... ولا الذي كان منه العلم يُقْتَبَسُ

قد كان قَصْرُك معموراً له شَرَفٌ ... فقَبْرُك اليوم في الأجداث مُنْدَرِسُ

ووجد على قبر مكتوباً: [الوافر]

وقفت على الأحبة حين صُفَّتْ ... قبورهُم كأفراسِ الرِّهَانِ

فلما أن بكيتُ وفاضَ دمعِي ... رأت عيناي بَيْنَهُمُ مكانِي

قال أعرابيّ: مَنْ خاف الموت بادر الفوت، ومن لم يقمع النفس عن الشهوات بادرت به إلى الهلكات، والجنة والنار أمامك.

مرض أعرابيٌّ فقيل له: إنك تموت، قال: وإذا مت فإلى أين أذهب؟ قالوا: إلى الله، قال: فما كراهتي أنْ أذهب إلى مَنْ لم أر الخير إلاّ منه!.

وقال أعرابيٌّ: ما بقاء عمر تقطعه الساعات، وسلامة بدنٍ معرّض للآفات! ولقد عجبت للمؤمن كيف يكره الموت وهو ينقله إلى الثواب الذي أحيا له ليله، وأظمأ له نهارَه!.

وقال آخر: مَنْ كانت مطيّتاه الليل والنهار، سارا به وإن لم يَسِرْ، وبلغا به وإن لم يبلغ.

آخر: تصرّف الليل والنهار، لا تبقى معه الأعمار، ولا لأحدٍ فيه الخيار.

* * *

قوله: مجنوز، أي ميّت؛ وحكى ابن سِيدَه قول بعضهم: جنزتُ الميت إذا سترته بالكفن. وقال الحسن ـ لما أُنْذر بجنازة النّوار امرأة الفرزدق ـ للمنذر بها: إذا جنزتموها فآذنوني بالجَنازة، والجنازة من جَنزت وهي بالفتح الميّت، وبالكسر النعش، وقيل معناهما واحد، وهو الميّت والمختار الكسر. يُقْبَر: يدفن. انحزت: ملت. المآل: المرجع. مذكّراً: متذكرّاً. درج: هلك. الآل: الأهل. ألحدوا: دفنوا وألقوْه في اللّحد، وهو حَفير في جانب القبر، وكان رسول الله ﷺ إذا دخل المقبرة يقول: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنّا إن شاء الله بكم لاحقون»[1].

---

(١) روي بطرق وأسانيد متعددة، أخرجه مسلم في الطهارة حديث ٣٩، والجنائز حديث ١٠٣، ١٠٤، وأبو داود في الجنائز باب ٧٩، والنسائي في الطهارة باب ١٠٩، والجنائز باب ١٠٣، وابن ماجه في=

وكان عليّ رضي الله عنه إذا دخَلها يقول: السّلام عليكم يا أهلَ الديار الموحشة والمنازل المقفرة، من المؤمنين والمؤمنات. اللهمّ اغفر لنا ولهم، واعفُ عنّا وعنهم. ثم يقول: الحمدُ لله الّذي جعل الأرض كِفاتاً، أحياءً وأمواتاً، منها خُلِقْنا، وإليها معادُنا، وعليها محشرنا، طوبَى لمن ذكر المعاد، وقَنَع بالكفاف ورضي عن الله.

وكان الحسَنُ البصريّ رحمه الله إذا دخل قال: اللهمّ ربَّ الأجساد البالية، والعظام النَّخِرَة، التي خرجت من الدنيا وهي بك مؤمنة، أدخل عليها رَوْحاً منك وسلاماً منا.

قوله: «أشرف»: أي طلع. والرّبَاوة: الكُدْية. متخصّر: أي جاعلها مما يلي خَصْره. هراوة: عصا. لفع: غطّى. نكّر: غيَّر هيئته. لدهائه: لمكره.

***

فقال: لِمِثْلِ هَذا فَلْيَعْملِ العَامِلُونَ، فاذكِرُوا أيُّها الغَافِلُونَ، وَشَمِّرُوا أيُّها المُقَصِّرُونَ، وَأحْسِنُوا النَّظَرَ أيُّهَا المُتَبَصِّرونَ. مَا لكُمْ لا يَحْزُنُكُمْ دَفْنُ الأتْرَابِ، وَلا يَهُولُكُمْ هَيْلُ التُّرَابِ، وَلا تَعْبَئُونَ بِنوَازِلِ الأحْدَاثِ، وَلا تَسْتَعِدُّونَ لِنُزُولِ الأجْدَاثِ، وَلا تَسْتَعْبِرونَ لِعَينٍ تَدْمَعُ، وَلا تعْتَبِرُونَ بِنَعْيٍ يُسْمَعُ، وَلا تَرْتاعُونَ لإلْفٍ يُفْقَدُ، وَلا تلْتاعُونَ لمناحَةٍ تُعْقَدُ، يُشَيِّعُ أحَدُكُمْ نَعْشَ المَيْتِ، وَقَلْبُهُ تِلْقَاءَ البَيْتِ، وَيَشْهَدُ مُوارَاة نسيبِهِ، وَفِكْرُهُ في اسْتِخْلاصِ نصيبِهِ، وَيُخَلِّي بَينَ وَدُودِهِ ودُودِه، ثم يخلُو بمزمره وعوده.

***

ويقال: قصر فهو مقصّر، إذا ترك الشيء وهو قادر عليه وشمَّر: اجتهد.

والمتبصّر: الناظر في الشيء على وجه التفهّم، فقد يصيب وقد يخطىء، ولذلك قالوا: أحسنوا النظر. الأتراب: الأصحاب المتقاربون في الموالد، كأنّهم قُطعوا من تُربة واحدة، وأكثر ما يقع للنساء، وإذا مات للإنسان صاحبٌ على سِنّه كان أوْقَع لحزنه، فلذا نبَّه بالتِّرب، قال الألبيريّ: **[المتقارب]**

فإنّ الردى غلّ أهل التقى ... فلم يبق إلا الغشومُ العَتِيد
وأوْدَى بكلّ خليل ودودٍ ... فأين، ولا أين، خلٌّ وَدُوذ!
وكن من أخي ثقةٍ قد لحدتُ ... فللّه ما غيَّبتَهْ اللُّحُوذ
وأثكلني الأنسَ ثكلُ اللّذَاتِ ... فصرت كأن غريب وَحيذ

= الجنائز باب ٣٦، والزهد باب ٣٦، وأحمد في المسند ٢/ ٣٠٠، ٣٧٥، ٤٠٨، ٥/ ٣٥٣، ٣٦٠، ٦/ ٧١، ٧٦، ١١١، ١٨٠، ٢٢١.

وكـم مِـن شـقـيٍّ يُـواري الـتـرابَ   وكـم مـن سـعـيـدٍ يُـوارِي الـصَّـعِـيـد!

قوله: «يهولكم»، أي يفزعكم، والهيل: الصبّ الكثير من أعلى إلى أسفل، في مثل كذْس الرمل، وعند صبّ التّراب على الميت تطير القلوب إشفاقاً، وتسيل العيون رحمة، قال أبو العتاهية: **[الوافر]**

بـكـيـتُـكَ يـا أخـيّ بـدمـع عـيـنِـي   فـلـم يُـغْـنِ الـبـكـاء عـلـيـك شَـيَّـا
كـفـى حَـزَنـاً بـدفـنـك ثُـمّ أنِّـي   نـفـضـتُ تـراب قـبـرك مـن يَـدَيَّـا
وكـانـت فـي حـيـاتـك لـي عـظـاتٌ   وأنـت الـيـوم أوعـظُ مِـنـك حَـيَّـا

أبو علي الرازيّ: مررت بصبيان في طريق الشأم يلعبون بالتُّراب، وقد ارتفع الغبار، فقلت: مهلا، قد غبّرتم، فقال صبي منهم: يا شيخ: أين تفِر إذا هيل عليك الترابُ في القبر، فغُشِي عليّ، فأفقت والصبيّ قاعد عند رأسي مع الصبيان يبكون، فقلت له: أعندك حيلة في الفِرار من التراب؟ قال: أنا لا أعلم، ولكن سل غيري، فقلت: ومَنْ غيرُك؟ قال: عقلك. تعبئون: تبالون وتهتمون. والنوازل: جمع نازِلة، وهي المصيبة. الأحداث: ما يحدث على الإنسان من الخير والشر. والأجداث، بالجيم: القبور، واحدها جَدَث وجَدَف. تستعبرون: تبكون. تعتبرون: تتّعظون وتَروْنه عبرة. والنَّعْي: ذكر موت الإنسان، وكانت العرب إذا مات منها سيّد ركب رجلٌ فرسَه، ومشى في الأحياء، فيقول: نعاءِ فلاناً، والناعي: المخبر بموت الرجل، وقد نَعاهُ نعياً. ترتاعون: تخافون. إلف: صاحب، وهو في الأصل مصدر ألفت الشيء إلفاً، فسمِّيَ به، ويقال في معناه: أليف. تلتاعون: تحترقون من الحزن، واللَّوعة: حرقة من الهمّ. المناحة: اجتماع النساء للبكاء على الميت. تعقد: تجمع وتؤلّف. وقلبه تلقاء البيت، أي قلبه مستقبلٌ لبيت الميت، يفكرّ فيما ترك ليرثه. مُوَارَاة: دفْن، وقد واراه، إذا ستره. استخلاص: تحصيل. وَدوده الأول: محبوبه الذي يودّه، ودُوده الثاني: جمع دودة، والواو للعطف.

وقال سابق البربريّ في معنى ما تقدم: **[البسيط]**

نـلـهُـو ونـأمـل أيـامـاً تُـعـدّ لـنـا   سـريـعـة الـمـرّ تـطْـوِيـنَـا ونـطْـوِيـهَـا
كـم مـن عـزيـزٍ سـيَـلْـقَـى بـعـد عِـزَّتِـه   ذُلاً، وضـاحـكـةٍ يـومـاً سـنَـبـكِـيـهَـا
ولـلـحـتـوف تـربِّـي كـلُّ مـرضـعـةٍ   ولـلـحـسـابِ بَـرىَ الأرواحَ بَـارِيـهـا
لا تـبرح النفس تَنعَى وهي سالمة   حـتـى يـقـومَ بـنـادي الـقـوم نَـاعِـيـهَـا
ولـن تـزال طَـوَال الـدهـر ظَـاعِـنَـةً   حـتـى تـقـيـم بـوادٍ غـيـر وَادِيـهـا
أمـوالـنـا لِـذَوِي الـمـيـراث نـجـمـعُـهـا   ودُورُنـا لـخـراب الـدَّهـر نـبـنِـيـهَـا

وقال آخر: **[البسيط]**

اعـمـل وأنْـتَ مـن الـدُّنـيـا عـلـى حـذَرٍ   واعـلـم بـأنَّـك بـعـد الـمـوت مـبـعـوثُ

واعلم بأنّك ما قدَّمتَ من عملٍ ... يُحصَى عليك، وما خلَّفتَ مَوروثُ

وقال الحسن: ابنَ آدم! أنت أسير الدنيا، رضيت من لذّاتها بما ينقضي، ومن نعيمها بما يمضي، ومن مُلْكها بما ينفَد، تجمع لنفسك الأوزار، ولأهلك الأموال، فإذا مِتَّ حملت أوزارك إلى قبرك، وتركت أموالك لأهلك. أخذه أبو العتاهية فقال: [البسيط]

أبقَيْتَ مالك ميراثاً لوارثه ... يا لَيْت شعريَ ما أبقَى لك المالُ

القوم بعدك في حال تسرُّهُمْ ... فكيف بعدهم دارتْ بك الحَالُ!

ملُّوا البكاء فما يبكيك من أحدٍ ... واستحكم القِيلُ في الميراثِ والقَالُ

وقال ابن عبد ربه: [الوافر]

أيا مَنْ عندَه أملٌ طويلٌ ... يؤدِّيه إلى أجل قصيرِ

أتفرحُ والمنيَّة كلَّ يوم ... تُريكَ مكان قبرك في القُبُورِ

هي الدنيا فإن سرَّتك يوماً ... فإنّ الحزن عاقبةُ السُّرُورِ

ستُسلَب كلّ ما جمعْتَ فيها ... كعاريةٍ تُرَدّ إلى المعيرِ

وقال جبلة بن الحويرث: [البسيط]

يا قَلْبُ إنّك في الأحياء مغرورُ ... فاذكر وهل ينفعَنْك اليَوْم تذْكِيرُ[1]

تريد أمراً ولا تدْرِي: أعاجلُه ... خيرٌ لنفسك أم ما فيه تأخِيرُ!

فاستقدِر الله خيراً وارضَيَنَّ به ... فبينما العسر إذ دارتْ مياسِيرُ

وبينما المرء في الأحياء مُغْتبطاً ... إذ صار في الرّمس تعفوه الأعَاصِيرُ

يبكي الغريب عليه ليس يعرفُه ... وذو قرابتِهِ في الحيّ مَسْرُورُ

حتى كأن لم يكن إلاّ تذكُّره ... والدَّهر أيَّتَمَا حين دَهَارِيرُ

وذاك آخر عهدٍ من أخيك إذا ... بالموت ضمَّنه اللَّحْدَ الخَنَاسير

* * *

طَالما أُسِيتُمْ عَلَى انْثِلاَمِ الحبّةِ، وَتنَاسَيْتُمْ اخترامَ الأحِبَّةِ، واستَكَنْتُمْ لاعْتِرَاضِ العُسْرَة، واستَهَنْتُمْ بانقراضِ الأسرَةِ، وضَحِكْتُم عِندَ الدَّفْن، وَلا ضَحِكُكُمْ ساعَة الزّفْنِ، وَتبَخْتَرْتُمْ خلْفَ الجَنائزِ، ولا تبختُرَكُمْ يومَ قبْض الجَوَائزِ، وأعْرَضتُم عَن

---

(١) البيت الأول بلا نسبة في تاج العروس (أذذ)، وفيه «إنك من أسماء» بدل إنك في «الأحياء»، والبيت الثالث لحريث بن جبلة أو لعثير بن لبيد في الدرر ٣/ ١٠٠، ١١٨، وشرح شواهد المغني ١/ ٢٤٤، ولسان العرب (دهز)، وبلا نسبة في جواهر الأدب ص ٢٩٤، وخزانة الأدب ٧/ ٦٠، ودرّة الغواص ص ٧٣، والكتاب ٣/ ٥٢٨، ومجالس ثعلب ١/ ٢٦٥، ومغني اللبيب ١/ ٨٣.

تعدِيدِ النَّوَادِب، إلَى إعْدَادِ المآدِبِ، وَعَنْ تَحَرُّقِ الثَّواكِلِ؛ إلَى التَّأَنُّقِ في المآكِل، لاَ تبالُونَ بِمَن هُوَ بال، وَلا تُخْطِرُونَ ذكْرَ الموْتِ ببالِ، حتى كأنكُمْ قَدْ عَلِقْتُمْ من الحِمام بِزِمام، أوْ حَصَلْتُم مِنَ الزَّمان عَلَى أمانٍ، أوْ وَثِقْتُمْ بِسَلامَةِ الذَّاتِ، أَو تَحَقَّقْتُم مُسالمَةَ هَادِمِ اللَّذَّاتِ؛ كلاَّ سَاءَ ما تَتَوَهَّمُونَ، ثُمَّ كلاَّ سَوْفَ تعلمُونَ!

* * *

قوله: «أسيتم»، أي حزنتم: انثلام: انكسار ونقصان. اخترام: هلاك، يقول: إذا انتقصَ لكم من المال أدنى شيء حزنتم عليه، ولا تحزنُون على نقص أحبابكم.

أنس رضي الله عنه، عن النبيّ ﷺ: «منْ أصْبَحَ حزيناً على الدُّنْيا، أصبح ساخطاً على الله».

قوله: «استكنتم»، ذللتم، واستكان، استفعل من لفظ الكيْن، وهو لحم باطن الفَرْج. اعتراض العسرة: ظهور الفقر. انقراض الأسرة: موت القرابة الزَّفْن: الرقص.

ضحكتم عند الدفن، جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «أن الله تعالى كره لكم العبث في الصلاة، والرفث في الصيام، والضحك في الجنائز».

ورأى ابن مسعود رضي الله عنه رجلاً يضحك في جنازة، فقال: تضحك وأنت في جنازة! والله لا أكلّمك أبداً.

ونظر عبد الله بن ثعلبة إلى رجل يضحك في جنازة مستغرباً، فقال: أتضحك ولعلَّك قد أخذت أكفانك من القصّار!.

وفي الحديث «كثرة الضحك تميت القلب وتُذهب بهاء المؤمن»[(١)].

قوله: «تبخرتم»، أي تعظمتم وأظهرتم الإعجاب في مشيكم. الجوائز: الصِّلات وهم يظهرون في أحسن الثياب عند الملوك ليكثر لهم العطاء.

أعرضتم: تنحيتم، وهو من العَرْض، كأنك إذا لقيت من تكرهُ استقبلتَه بعرضك، أي بجانبك. النوادب: النوائح اللواتي يندبُن الميت أي يبكينه، فيقول: أعرضتم عن الباكيات حين عدَّدْنَ خصال الميت المحمودة، ولم تفكر في تلك الحال. إعداد، أي استعداد. المآدب: المطاعم للأعراس. تحرّق: توجّع. الثواكل: الفاقدات لأحبابهنّ. التأنّق: التحسين، وقد تأنّق في الشيء، إذا احتفل فيه فأعجب به كل من رآه. بالٍ. دارس متغيّر، يريد الميت. ببال: بفكر وخاطر. الحِمام: الموت، وأصله القَدَر. وهو من حُمّ، أي قُدّر، وذات الشيء نفسه وحقيقته. مسالمة: متاركة ومصالحة.

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد باب ٢، وابن ماجه في الزهد باب ١٩، وأحمد في المسند ٢/ ٣١٠.

أبو هريرة رضي الله عنه، قال رسول الله: «أكثروا ذكر هاذم اللذات، قالوا: وما هاذم اللذات؟ قال: الموت»[١].

وقال الألبيريّ في معنى ما تقدّم: [المنسرح]

كم آمنٍ للمنون لاهٍ عن الرَّدَى بات مطمئنَّا
صبَّحه وافدُ المنَايَا فعاين الموت حين عَنَّا
حتى إذا ما قضى بَكَاهُ حميمُه معولا مُرِنَّا
وارَوْه في لحده وسنّوا عليه قَيْد التراب سَنَّا
وانتهبُوا ماله وشنوا الـ ـغارات فيما حَوَاهُ شَنَّا
لمثل هذا فكن معدّا ما قد أعدّ الهداة مِنَّا
وارتقِب الموت فهو حَتْمٌ يخترم الطفل والمسِنَّا

قوله: كلا، زجر، أي ليس الأمر كما ظننتم.

* * *

ثم أنشد: [المنسرح]

أيا مَنْ يَدَّعِي الفَهْمْ إلَى كَمْ يا أخا الوَهْمْ
تُعَبِّي الذَّنْبَ والذَّمّ وتُخْطِي الخَطأَ الجَمّ
أمَا بانَ لَكَ العَيْبْ! أمَا أَنْذَرَك الشَّيْبْ!
وما في نُصْحِهِ رَيبْ ولا سَمْعُكَ قَدْ صَمّ
أَما نادَى بكَ الموتْ أما أسْمَعَكَ الصَّوت!
أما تَخْشَى مِنَ الفَوْت فتَحْتاطَ وتَهتَمّ
فكَمْ تَسْدُر في السَّهْو وتَخْتالُ مِنَ الزَّهْو
وتَنْصَبُّ إلَى اللَّهْوْ كأنَّ الموتَ ما عَمّ

* * *

قوله: [المنسرح]

أيا من يدَّعي الفهم إلى كم يا أخا الوهم

يسمّى هذا من أنواع الشعر المسمّط، أي المفصّل، مأخوذ من السِّمط وهو سلك الجوهر المفصّل بالزمرد والذهب وغير ذلك. الوهم: الغَلَط. الجمّ: الكثير، وعلى

(١) أخرجه الترمذي في القيامة باب ٢٦، والزهد باب ٤، والنسائي في الجنائز باب ٣، وابن ماجه في الزهد باب ٣١، وأحمد في المسند ٢/ ٢٩٣، والطبراني في الجامع الصغير ١/ ٩٠.

قوله: «وتخطي الخطأ الجم»، ذكر الحريريّ في الدرّة أنّ قول الخواصّ: «أخطأ لمن يأتي بالذنب متعمّداً تحريف للفظ والمعنى، ولا يقال: أخطأ إلاّ لمن لم يتعمد الفعل ولمن اجتهد»، فلم يوافق الصواب لقوله ﷺ: «إذا اجتهد الحاكم فأخطأ فله أجرٌ»[(١)] وإنما أوجب له الأجر على اجتهاده في إصابة الحق الذي هو نوع من أنواع العبادة، لا عن الخطأ الذي يكفي صاحبه أن يُعذَر فيه ويرفع مأثَمه عنه، و [اسم] الفاعل من هذا النوع: مخطىء، والاسم الخطأ، قال الله تعالى: **﴿وَما كانَ لمؤمنٍ أن يقتلَ مؤمناً إلاّ خطأً﴾** [النساء: ٩٢] وأما المتعمّد، فيقال فيه: خطِىء فهو خاطىء، والمصدر الخِطء، قال الله تعالى: **﴿إنَّ قتلَهُم كان خِطأً كبيراً﴾** [الإسراء: ٣١]، والاسم منه الخطيئة، ويقع على الصغيرة، قال الله تعالى: **﴿أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين﴾** [الشعراء: ٨٢] إخباراً عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وعلى الكبيرة كقوله تعالى: **﴿وأحاطت به خطيئته﴾** [البقرة: ٨١] الآية: قال أبو محمد الحريريّ: ولي في تضمين هاتين اللفظتين وتخصيص معنييهما المتنافيين: **[البسيط]**

لا تـخـطـونَّ إلـى خِـطء ولا خـطـأ ... من بَعْدَ ما الشيب في فَوْدَيْك قد وَخَطَا

فـأيّ عـذر لـمـن شـابَـتْ مـفـارقُـه ... إذا جرى في ميادين الـهوى وَخَـطَا

وهذه التفرقة منه مستحسَنة، وكذا يقع في أكثر كلامهم، وأما على القطع فلا، لأنه قد حكى الزّجاج وقطرب وابن دريد في الجمهرة أنَّ العرب تقول: خطِئتُ الشيء أخطؤه خطأ، وخطئني وأخطأته خطأ في معنى واحد، قال: **[الكامل]**

والـنَّـاس يـلـحـوْن الأمـيـر إذا هُـمُـو ... خطِئوا الصواب ولا يلام المرشدُ[(٢)]

أمَا: حرف استفتاح وإخبار. بان: ظهر. أمَا أنذرك الشيب، سيأتي مستوفياً.

وقال في الشيب الفقيه الزّاهد أبو عمران رحمه الله: **[الكامل]**

ذهـب الـشَّـبـاب بـجـهـلـه وبـعـارِهِ ... وأتـى الـمـشـيـبُ بـحـلـمـه وَوَقَـارِهِ

شـتَّـان بـيـن مـبـعَّـدٍ مـن ربِّـهِ ... بـغـروره ومـبـشَّـر بـجـوارِهِ

مـا زلـت أمرحُ بـالـشـبـاب جـهـالـةً ... كـالـطِّـرف يـمـرح مـعـجـبـاً بِـعـذارِهِ

وسـحـبـت أثـواب الـبَـطـالـة لاهـيـاً ... وجـررتُ مـن بَـطَـرٍ فـضـول إزارِهِ

حـتـى تـقـلّـص ظـلُّـه فـتـكـشَّـفـت ... عـوراتُـه وبـدا قـبـيـح عَـوَارِهِ

---

(١) روي بطرق وأسانيد متعددة، أخرجه البخاري في الاعتصام باب ٢٠، ٢١، ومسلم في الأقضية حديث ١٥، وأبو داود في الأقضية باب ٢، والنسائي في الأحكام باب ٢، والقضاة باب ٣، وابن ماجه في الأحكام باب ٣، وأحمد في المسند ٤/١٩٨، ٢٠٤، ٢٠٥.

(٢) البيت بلا نسبة في لسان العرب (أمر)، وتاج العروس (أمر).

لم أحظ منه بطائلٍ غير الأسى ... وتندّم منّي على أوزَارِهِ
والآن قد خَط المشيب بمفْرِقي ... بمواعظٍ والحقّ في تذْكارِهِ
والنفس تركب غيّها لا ترعوي ... عنه ولا تُصْغِي إلى إنذارِهِ
لهفي على عُمْرٍ يمرّ مضيّعاً ... محصًى عليّ بليله ونهارِهِ

كان شابٌّ في بني إسرائيل عَبَدَ الله عشرين سنة، وعصاه عشرين سنة، فنظر يوماً في المرآة، فرأى الشيب في لحيته، فساءه ذلك فقال: إلهي أطعتُك عشرين سنة، وعصيتك عشرين سنة، فإن رجعتُ إليك أتقبلني؟ فسمع صوتاً من زاوية البيت: أحببتنا فأحببناك، وتركتنا فتركناك، وعصيتنا فأمهلناك؛ فإن رجعت إلينا قبلناك.

قال ابن وضاح: إذا بلغ الرجل أربعين سنة ولم يتبْ، مسح إبليس على وجهه، وقال: بأبِي وجه لا يفلح أبداً! وأنشدوا: **[الكامل]**

وإذا مضى للمرء من أعوامِهِ ... خَمْسُونَ وَهْوَ إلى التّقي لم يجنحِ
ركدتْ عليه المخزيات وقلن قَدْ ... أرضيتَنا فأقم لذا لا تبرحِ
وإذا رأى إبليس غُرّة وجهِهِ ... حيًّا وقال: فديت من لم يفلحِ

وقال آخر: **[الوافر]**

تُلاحِظُني المنيّة من قريبِ ... وتلحظني ملاحظة الرقيبِ
وتنشر لِي كتاباً فيه طيٌّ ... بخطّ الدهر أسطرُه مشيبِي
كتاب في معانيهِ غموضٌ ... تلوحُ لكلّ أوّاب مُنيبِ
أزال الله يا صاحِي شبابِي ... فعوّضت البغيضَ من الحبيبِ
وبدِّلت التكاسلَ من نشاطِي ... ومن حسن النضارة بالشُّحُوبِ
كذاكَ الشمس يعلوها اصفرارٌ ... إذا جنحت ومالت للغرُوبِ

وهذا القدر كافٍ هنا في ذكر الشيب.

* * *

وقوله: «ريب»، شك. أما أسمعك الصوت، الصوت هنا: النيّاحة على الميت. والفوت: بُعْد الشيء. الاحتياط، من الحوْطة، وهي الوقاية. تسدُر: تتبختر. تختال: تتكبّر. الزهو: الكبر. عمّ: شمل.

ولأبي العتاهية في معناه: **[السريع]**

حتى متى ذو التِّيه في تيهِهِ ... أصلحه الله وعَافَاهُ!
يتيهُ أهل التّيه من جهلهمْ ... وهمْ يموتُونَ وإن تاهُوا
من طلب العزّ ليبقى به ... فإن عزّ المرء تَقْواهُ

لم يعتصمْ باللَّهِ من خِلقه	مَنْ ليس يرجوهُ ويَخْشَاهُ

ولمحمد بن حازم: [الطويل]

فيا شامخاً أقْصِر عِنانك مقِصراً	فإنّ مطايا الدهر تكبُو وتعثُرُ
ستقرَعُ سنًّا أو تعضّ ندامةً	يديك إذا خان الزمان وتبصرُ
ويلقاك رُشْدٌ بعد غيّك واعظٌ	ولكنّه يلقاك والأمر مدبِرُ

[الهزج]

* * *

وَحتَّامَ تَجافِيكْ	وإبطاءُ تَلافيكْ
طِباعاً جَمَّعَتْ فيكْ	عُيوباً شَمْلُهَا انضَمّ
إذا أَسْخَطْتَ مَوْلاَكْ	فَمَا تَقْلَقُ مِنْ ذَاكْ
وَإنْ أَخْفَقَ مَسْعَاكْ	تَلَظَّيْتَ مِنَ الهَمّ
وإنْ لاحَ لكَ النَّقْشُ	مِنَ الأصْفَرِ تَهْتَشُّ
وإنْ مَرَّ بِكَ النَّعْشُ	تَغَامَمْتَ وَلاَ غَمّ
تُعَاصِي النَّاصِحَ البَرّ	وَتَعْتَاصُ وَتَزْوَرّ
وَتَنقَادُ لِمَنْ غَرّ	وَمَنْ مَانَ وَمَنْ نَمّ

* * *

قوله: «تَجافيك»، أي تباعدك من فِعْل الخير. إبطاء: تأخّر. تلافيك: تداركك. طباعاً: أخلاقاً؛ يريد أن أخلاقك قد جمعت فيك عيوباً انضمّ عليك شملها. أخفق: خاب. مسعاك: طلبك ومشيك في اكتساب الرزق. تلظّيت: احترقت واشتعلت، وهو تفّعلت، من اللّظى. الأصفر: الدينار، ونقشه الكتاب الذي فيه. تهتش: تخفّ وتهتزّ طرباً. تغاممت: أظهرت الغمّ. ولا غمّ، أي ليس عندك غمّ على الحقيقة.

كان أبو الدرداء رضي الله عنه إذا رأى جنازة قال: اغدي فإنا رائحون، أو روحي فإنا غادون.

أبو عمرو بن العلاء قال: جلست إلى جرير وهو يملِي على كاتبه: [الكامل]

* ودّع أمامَةَ حانَ منكَ رحيلُ[1] *

---

(١) عجزه:

إن الوداع إلى الحبيب قليلُ

والبيت في ديوان جرير ص ٤٧٢.

ثم طلعت جنازة فأمسك، وقال شيّبتْني هذه الجنازة، فقلت: فلَم تُسابّ الناسَ؟ قال: يبدؤونني، ثم لا أعفو، وأعتدي ولا أبتدي، ثم أنشأ يقول: [الوافر]

تروِّعنا الجنائز مقبلاتٍ ونلهُو حين تذهب مدبراتِ
كروْعةِ هجمة لمغار ذئبٍ فلَّما غاب عادت راتعاتِ

وقال آخر: [الكامل]

وتَعُدُّ كثرة من يموت تعجّباً عمّا قريبٍ سوف تدخُل في العددْ
وأراك تحملهمْ ولست تردّهمْ وكأنني بك قد حُمِلتَ ولا تُرَدْ

قوله: «تعاصي الناصح البرّ»، أي تعاصي مَنْ ينصحك ويبرّك. تعتاص: تتصعب، وهو «تفتعل» من العصيان، على القلب. تزورّ: تنقبض. غرّ: خدع. مان: كذب، ونمّ: مشى بالنميمة.

* * *

[الهزج]

وتَسْعَى فِي هَوَى النَّفْسِ وَتَحْتَالُ عَلَى الفَلْسِ
وَتَنْسَى ظُلْمَةِ الرَّمْسِ وَلاَ تَذْكُرُ مَا ثَمْ
وَلَوْ لاحَظَكَ الحَظُّ لِمَا طَاحَ بِكَ اللَّحْظ
ولاَ كُنْتَ إذَا الوَعْظُ جَلاَ الأحْزَانَ تَغْتَمّ
سُتَذْرِي الدَّمَ لا الدَّمْعْ إذَا عَايَنْتَ ذَا جَمْعْ
يَقِي فِي عَرْصَةِ الجَمْعْ وَلاَ خَالَ وَلاَ عَمّ
كَأنِّي بِكَ تَنْحَطُّ إلَى اللَّحْدِ وتَنْغَطُّ
وقَدْ أسْلَمَكَ الرَّهْطُ إلَى أَضْيَقَ مِنْ سَمّ

* * *

الرمْس: القبر. لاحظك الحظّ: نظرك السعد. طاح بك: أذهبك وأهلكك، واللحظ: النظر بمؤخَر العين، وقد لحظَه لَحْظاً ولاحظته ملاحظة، وكله من اللحاظ، وهو طرف العين ممّا يلي الصُّدغ. وجلاَ: كشف. تُذْرِي: تصبّ وترسل متفرّقاً.

أنس رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: «يأيُّها النَّاس ابكوا فإن لم تبكوا فتباكَوْا، فإنّ أهل النار يبكون في النار حتى تسيل دموعهم في وجوههم كأنها جداول، حتى تنقطع الدموع فتسيل الدماء، فلو أن السفن أجريت في دموعهم لجرَتْ»[١].

---

(١) أخرجه ابن ماجه الإقامة باب ١٧٦، والزهد باب ١٩.

لا جَمْع، أي لا قبيل ولا عشير يحميك ولا يمنعك يوم القيامة. يقِي: يمنع. عَرْصة الجمع: موضع اجتماع الناس في الحشر. تنحطّ تنزل. اللّحْد: حفَير في جانب القبر. وتنغط: تنضمّ وتنقبض، يقال: غططته في الماء إذا أغرقته فيه وغمسته. أسلمَك الرهط: ترَكك قومك. سَمّ: عين الإبرة، يريد ضيقَ القبر على الميت. وقال رسول الله ﷺ: «إن للقبر ضغطة لو نجا منها أحد لنجا منها سعد بن معاذ».

وعن أنس رضي الله عنه، قال: توفيت زينب بنت رسول الله ﷺ، فتبعها رسول الله ﷺ، فساءنا حالُه، فلما انتهينا إلى القبر فدخله، التمع وجهه صفرةً، فلما خرج أسفر وجهه، قلنا: يا رسول الله، رأينا منك شأناً فمِمّ ذلك؟ قال: «ذكرت ضغطة بنتي وشدة عذاب القبر فأتيت فأخبِرتُ أن الله تعالى قد خفّف عنها، ولقد ضغطت ضغطة سمع صوتها ما بين الخافقين». [الهزج]

* * *

هُـنَـاكَ الْـجِـسْـمُ مَـمْـدُوْدُ لِـيَـسْـتَـأكِـلَـهُ الـدُّودُ
إلَـى أنْ يَـنْـخَـرَ الْـعُـودُ وَيُـمْـسِـي الْـعَـظْـمُ قَـدْ رَمّ
وَمِـنْ بَـعْـدُ فَـلاَ بُـدّ مِـنَ الْـعَـرْضِ إذَا اعْـتُـدّ
صِـرَاطٌ جِـسْـرُهُ مُـدّ عَـلَـى الـنَّـارِ لِـمَـنْ قَـدْ أمّ
فَـكَـمْ مِـنْ مُـرْشِـدٍ ضَـلّ وَمِـنْ ذِي عِـزَّةٍ ذَلّ
وَكَـمْ مِـنْ عَـالِـمٍ زَلّ وَقَـالَ الْـخَـطْـبُ قَـدْ طَـمّ
فَـبَـادِرْ أيُّـهَـا الْـغُـمْـرُ لِـمَـا يَـحْـلُـو بِـهِ الْـمُـرُّ
فَـقَـدْ كَـادَ يَـهِـيَ الْـعُـمْـرُ وَمَـا أقْـلَـعْـتَ عَـنْ ذَمّ

* * *

قوله: «ينخَر»، أي يبلى، والعود: تابوت الميت. رمّ: بلِيَ: قال الفنجديهيّ: إلى أن ينخر العود، أي إلى أن يبلَى الجسم الناعم الذي هو مثل القضيب، وقال الألبيريّ: [الطويل]

كأنّي بنفسِي وهي في السَّكَراتِ تـعـالِـجُ أنْ تـرْقـي إلـى الـلَّـهـواتِ
وقد رمّ رحلي واستقلّتْ ركائبي وقـد آذنـتـنِـي بـالـرَّحـيـل حُـداتِـي
إلـى مـنـزلٍ فـيـه عـذابٌ ورحـمـةٌ وكـم فـيـه مـن زجـرٍ لـنـا وعِـظَـاتِ
ومن أعيُنٍ سالتْ على وَجَناتها ومن أوجهٍ في التُّرْبِ مُنعَفِراتِ
ومـنْ واردٍ فـيـه عـلـى مـا يـسـرّه ومـن واردٍ فـيـه عـلـى الـحـسـرَاتِ

قوله: «اعتدّ» أي استعدّ، روى أبو بكر رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ، قال: «يُحْمَلُ

الناسُ يوم القيامة على الصِّراط فيتقادع بهم جَنْبَتا الصِّراط تقادُعَ الفراش في النار، فينَجِّي الله برحمته مَنْ يشاء»[١]. التَّقادع: التَّهافت، كأنَّ كل واحد منهم يقدعُ صاحبَه كَيْ يسبقه. والجسر: بناء على النار يُجاز عليه من جهة إلى أخرى. وأمَّ: قصد. مُرشد: هادٍ. ضلَّ: تحيَّر. الخَطْب: الأمر الشديد. طمّ: عظم. الغُمْر: الجاهل بالأمور. والذي يحلو به المرّ: هو التوبة والأعمال الصالحة التي يصلح بها ما فسد. يهِي: يضعف. أقلعت عن ذمّ، أي رجعت عن أمر مذموم، وقال ابن عبد ربه: **[البسيط]**

بادِرْ إلى التوبة الخلْصَاء مجتهداً ... والموتُ وَيْحك لم يمدُدْ إليك يَدَا
وارقب مِنَ الله وَعْداً ليس يُخلفه ... لا بدّ لله من إنجاز ما وَعَدا

* * *

وَلا تَرْكَنْ إلَى الدَّهْرْ ... وَإنْ لانَ وَإنْ سَرّْ
فَتُلْفَى كَمَنِ اغْتَرّْ ... بأفْعَى تَنْفُثُ السّمْ
وَخَفِّضْ مِنْ تَرَاقِيكْ ... فإنَّ الْمَوْت لاَقِيكْ
وَسَارٍ في تَرَاقِيكَ ... وَمَا يَنْكُلُ إنْ هَمْ
وَجَانِبْ صَعَرَ الخَدّ ... إذا سَاعَدَكَ الْجَدّْ
وَزُمّ اللَّفْظَ إنْ نَدّ ... فَمَا أسْعَدَ مَنْ زَمْ
وَنَفِّسْ عَنْ أخِي الْبَثّ ... وَصَدِّقْهُ إذَا نَثّْ
وَرُمَّ الْعَمَلَ الرَّثّ ... فَقَدْ أفْلَحَ مَنْ رَمْ

* * *

قوله: «لا تركن»: تقول: ركنت إلى فلان، إذا اتخَّذتَه ركناً تلجأ إليه، تلفى: توجَد. اغترَّ: انخدع. تنفث: تبصق عند لَدْغها. خَفِّض: سكِّن. تراقيك ارتفاعك وتكبرك. سارٍ: ماشٍ. والتراقي: العَظْمان المعوجَّان على الصدر. ينْكل: يضعف وينقطع. إن همَّ: إنْ أرادك وهمّ بك، وفي معنى هذا قول أبي نواس ـ قال غانم الورّاق: دخلت عليه قبل وفاته بيوم فقال لي: أمعك ألواحُك؟ قلتُ: نعم، قال: اكتب: **[الخفيف]**

دبّ فيّ السَّقامُ سُفلاً وَعُلْوَا ... وأراني أموتُ عُضْواً فَعُضوا
ليس تمضي من لحظةٍ ليَ إلاَّ ... نقصَتني بمرِّها بي جُزْوَا
ذهبت جِدّتي بطاعةِ نفسي ... وتذكّرتُ طاعة الله نِضوَا
قد أسأنا كلّ الإساءة فاللّـ ... ـهمّ صفحاً عنّا وغفراً وعَفْوَا

(١) أخرجه أحمد في المسند ٥/ ٤٣.

قوله: «نفّس»، أي وسّع نفسه، كأنه خُنِق فضاق نفسه، فأمر بحلّه. أخي البث: صاحب الحزن. نَثَّ: نطق وكشف له سره. رمّ: أصلح، وقد رممت الشيء رمًّا أصلحته. الرثّ: الخلَق.

وَرِشْ مَـنْ رِيشُـهُ انْحَـصّ … بِـمَـا عَـمَّ وَمَـا خَـصّ
وَلاَ تَـأْسَ عَـلَـى النَّـقْـصْ … وَلا تَـحْـرِصْ عَـلَـى الـلَّـمْ
وَعَـادِ الْـخُـلُـقَ الـرَّذْلْ … وَعَـوِّدْ كَـفَّـكَ الْـبَـذْلْ
وَلاَ تَـسْـتَـمِـعِ الْـعَـذْلْ … وَنَـزِّهْـهَـا عَـنِ الـضَّـمْ
وَزَوِّدْ نَـفْـسَـكَ الْـخَـيْـرْ … وَدَعْ مَـا يُـعْـقِـبُ الـضَّـيْـرْ
وَهَـيِّـئْ مَـرْكَـبَ الـسَّـيْـرْ … وَخَـفْ مِـنْ لُـجَّـةِ الْـيَـمْ
بِـذَا أُوصِـيـتُ يَـا صَـاحْ … وَقَـدْ بُـحْـتُ كَـمَـنْ بَـاحْ
فَـطُـوبَـى لِـفَـتًـى رَاحْ … بِـآدَابِـي يَـأْتَـمْ

* * *

رِشْ: اجعل له ريشاً. انحصّ: نتف ريشه، تقول: رشت الرجل، أي أعنتُه وأغنيته. بما عمَّ وما خصَّ، أي بما كثر من العطيّة وقلّ. تأسَ: تحزن: على النَّقْص، أي على النقصان في الصَّدقة والمعروف، ولا تكن أيضاً حريصاً على جمعه ومنعه فمِنَ احتاج إليه، واللمّ: جَمْع المال، ولممت الشيء لمًّا. الرَّذْل: الرديء، يريد: عادِ أخلاق البخل، أو الخلُق السوء.

عائشه رضي الله عنها، قال النبي ﷺ: «ما من مسيء إلا وله توبة، إلا صاحب سوء الخُلق لأنه لا يتوب من ذنب إلاّ عاد في شرّ منه». والبذل: العطاء، وبذلت الشيء بذلاً، أي أبحته عن طيب نفس. والعَذْل: اللوم، أي. من لامك على العِطاء لا تسمعه وأعطِ، وأحسن ما قيل في ردّ العذل على كثرته قول زهير: **[الطويل]**

وأبْيَضَ فياضٍ نداه غمامةٌ … على مُعْتَفِيه ما تُغبّ فواضلُهْ[1]
بكرت إليه غدوةً فرأيتُه … قعوداً إليه بالصّريمَ عواذِلُهْ
يفدّينه طوراً، وطوراً يلمْنَه … وأعْيَا فما يدرين أين مخاتِلُهْ

---

(١) البيت الأول في ديوان زهير بن أبي سلمى ص ١٣٩، وفيه «يداه غمامةٌ» بدل «نداه غمامةٌ»، والجنى الداني ص ٤٤١، وبلا نسبة في لسان العرب (غبب)، وتاج العروس (غبب)، (فضل)، والبيت الثاني في ديوان زهير ص ١٤٠، وفيه «بكرةً فوجدته» بدل «غدوة فرأيته»، والأضداد ص ٤٢، ١٩٥، وشرح شواهد المغني ٢/ ٩٤١، ولسان العرب (حرم)، وتاج العروس (صرم)، وبلا نسبة في مغني اللبيب ٢/ ٦٥٢.

فأقصرن فيه عن كريم مرزَّإٍ صبورٍ على الأمر الذي هو فاعله

قوله «نزِّهْها»، أي باعدها. عن الضمّ، أي عن ضمّ الأصابع على ما في الكفّ، يقول: ابسُطْ كَفَّكَ بالعطية ولا تقبضها على ما فيها شُحًّا، قال ابن عبد رَبّه: **[البسيط]**

يا قابضَ الكفّ لا زالتْ مقبَّضة فما أناملُها للناس أرْزَاقُ
وغب إذا شئت حق لا تُرى أبداً فما لفقدك في الأحشاء إحَراقُ

كأنَّه قَلَبَ بيت ابن دُرِيد في رجل من أهل البصرة: **[الكامل]**

يا مَنْ يقبّل كفّ كل ممخرقٍ هذا ابنُ يحيى ليس بالمخراقِ
قبّل أنامَله فَلَسنَ أناملاً لكنّهنَّ مفاتح الأرزَاقِ

أخذه ابن دُريد من إبراهيم بن العباس الصوليّ يمدح الفضل بن سهل: **[المتقارب]**

لفضل بن سهل يدٌ تقاصَرَ عَنْها المثَلْ
فَبَسْطَتُها للغنى وسَطْوتُها للأجلْ
وباطنُها للنَّدى وظاهرها للقُبَلْ

وسرقه ابن الرومي فقال: **[الكامل]**

أصبحتُ بين خصاصة ومذلَّةٍ والحرُّ بينهما يموتُ ذَليلاَ
فامدُدْ إليَّ يَداً تعوَّد بطنُها بذْلَ النوال وظَهْرُها التقَّبيلاَ

وقال ابن عبد ربه: **[الطويل]**

وما خُلِقَت كَفَّاه إلا لأربعٍ عقائل لم يعقل لهنّ ثوانِي
لتقْبيل أفواهٍ، وإعطاءِ نائلٍ، وتقليب هنديٍّ وحَبْس عنانِ

قوله: «ودَعْ ما يعقب الضير»، أي دع عنك شيئاً يجيئك في أثره ضرر. المركب هنا: السفينة. واليمّ: البحر. واللجّة: معظم الماء، وجعل الميت كالمسافر، وضرب له البحر مثلا لكثرة ما يرى من الأهوال، فأمره بالاستعداد لذلك. يا صاح: يا صاحب. بُحْتُ. نطقت، يريد أنّ كلّ ما قدّم من الوصيّة إنما هو على وجه النصح، كما وُصّي هو بها قبل ذلك، وأراد بقوله: «صاح» كلّ مَنْ يسمع وصيّته، لا صاحباً معيّناً. طوبى: شجرة في الجنة، وهي، عندهم «فُعْلَى» من الطيب. يأتمّ: يقْتَدَى بها في الظاهر، يريد أنه مَن اقتدى بهذه الوصية فَطُوبَى له، وهو يريد: مَنْ حصل آداب المقامات كلها رأَس.

* * *

ثمَّ حَسَرَ رُدْنَهُ عَنْ ساعدِ شَدِيدِ الأسْرِ، قَدْ شَدَّ عَلَيْهِ جَبَائِرَ المَكْرِ لاَ الْكَسْرِ،

مُتَعَرِّضاً للاستماحَةِ، في مَعْرِضِ الْوَقَاحَةِ، فاختَلَبَ بِهِ أُولئِكَ الْمَلأَ، حَتى أَترَعَ كُمَّهُ وَملأَ؛ ثُمَّ انْحَدرَ مِنَ الرَّبْوَةِ، جَذِلاً بالْحَبْوَةِ.

قالَ الراوِي: فَجاذَبْتُهُ مِنْ ورائِهِ، حَاشِيَةَ رِدَائِهِ، فالْتَفَتَ إليَّ مُسْتَسْلماً، وَوَاجَهَنِي مُسَلِّماً، فإذا هوَ شَيْخُنا أبو زَيدٍ بعَيْنِهِ وَمينِهِ، فقلت له: [الهزج]

إلَـــى كَـــمْ يـــا أبـــا زَيْـــدْ أَفـانِـيـنُـكَ فِـي الـكَـيْـدِ
لـيـنـحـاشَ لَـكَ الـصَّـيْـدْ وَلاَ تَـعْـبـا بِـمَـنْ ذَمْ

* * *

قوله: «حسر»، أي كشف. ردنه: كُمّه. الأسر: الخِلْقة، ومنه قوله تعالى: ﴿وشَدَدْنا أَسْرَهُمْ﴾ [الإنسان: ٢٨]؛ أي خلْقهم، وهو من الإسار، وهو القِدّ الذي يشدّ به الأسير، فشُرُك الجلد هي الإسار ـ ويراد بها في الخلقة العَصَب ـ التي يشتدّ بها الجسد وتلتئم بها الأعضاء، وإليها حُكْم حركة البدَن من القيام والقعود، فسبحان الذي أنشأ الخليقة كيف شاء! الاستماحة: الطلب، استفعالة، من مَاحَ الرجلَ يميحه إذا أعطاه، وأصل ذلك من المائح، وهو النازل في قَعْر البئر ليغرف ماءَها ويفرّقه على دِلاَء المستقين، وقد ماح البئرَ ميْحاً. الوقاحة: ترك الحياء وصلابَة الوجه، من الحافرِ الوَقَاح وهو الصّلب. ومِعرضها: موضع عَرْضها ونشرها، وإن كسرت الميم وفتحت الراء فهو ثوب الوَقاحة، لبسه لأنّ المِعْرَض الثوب الذي تُعرَض فيه الجارية للبيع، والوقاحة: إظهاره ذراعه صحيحاً مشدوداً عليه بخرق، ليوهمَ مَنْ رآه أنه مكسور. اختلب: خدع، واحتلب بالحاء: حلب ما عندهم كما تُحلَب الشاة. الملأ: الجماعة. أترع: ملأ. انحدر: هبط، والرّبْوة، لغة في الرُّباوة التي تقدَّمت. جذِلاً: مسروراً. الحبوة: العطيّة. جاذبته: نازعته. ميْنه: كذبه. أفانينك: أنواع كذبك وحِيَلك. ينحاش: ينضمّ ويجتمع، وحُشت الصيد أحوشه، إذا جئتَه من حواليه لتصرفه إلى الحبالة. لا تعبأ، أي لا تبالي، من عبّأت الحلم للجهل، والخيل للحَرْب إذا أعْدَدته، وإذا لم يبال بالشيء لم يستعدّ له.

* * *

فأجابَ مِنْ غَيْرِ اسْتِحْياء، وَلاَ ارْتِيَاء، وَقالَ: [الهزج]

تَـــبَـــصَّـــرْ وَدَعِ الـــلَّـــوْمْ وَقُـــلْ لِـــي هَـــلْ تَـــرَى الْـــيَـــوْمْ
فَـــتَـــى لاَ يَـــقْـــمُـــرُ الْـــقَـــوْمْ مَـــتَـــى مـــا دَسْـــتُـــهُ تَـــمّ!

فقلتُ لهُ: بُعْداً لَكَ يا شَيْخَ النَّارِ، وَزَامِلَةَ الْعارِ، فَمَا مِثْلُكَ في طُلاَوَةِ عَلاَنِيَتِكَ، وَخُبْثِ نِيَّتِكَ، إلاَّ مِثْلُ رَوْثٍ مُفَضَّضٍ، أَوْ كَنِيفٍ مُبيَّضٍ.

ثمَّ تفرَّقْنا، فانْطَلَقْتُ ذَاتَ الْيَمينِ، وَانْطَلقَ ذَاتَ الشِّمَالِ، وَناوَحْتُ مَهَبَّ الْجَنُوبِ، وَناوَحَ مَهَبَّ الشِّمَالِ.

* * *

ارتياء: إبطاء، وهو «افتعال» من رؤية القلب، التي معناها التدبّر والتفكّر، وأصل بابه الهمزة، فنقلها لمكان همزة اللاّم؛ يقول: أجاب من غير فكرة. يقْمر: يغلب، وتقول: قامرتُ الرجلَ قِماراً فقمرتُه أقمُره، أي غلبته. دَسْته، أي حيلته، والدّست: الذي يكون لك فيه الغلَب في الشطرنج، تقول: الدَّست لي، والدَّست عليَّ. ومن ألفاظ عامَّة المشرق أن يقول الرجل لصاحبه: هلمّ نأخذ دستاً. تمَّ: كمل. قوله: «زاملة»، أي حاملة، والزاملة: الدابَّة يحمَل عليها. طُلاوة علانيتك، أي حسن ظاهرك. خبث نيّتك: فساد باطنك، وفي معنى هذا قال لقمان لابنه: احذر واحدةً ـ وهي أهلٌ للحَذَرِ: إيّاك أن ترى أنك تخشى الله وقلبك فاجر؛ يحذِّره من الرياء، وفي الحديث: «من أصلَحَ سريرتَهُ أصلح الله علانيته».

وقيل لرجلٍ مُراءٍ: ما أحسن صلاتَك! قال: ومع هذا فإني صائم! قال الشاعر: **[الرمل]**

وإذا أظهرت شيئاً حسَناً ... فليكن أحسن منه ما يَسُرَ
فمُسِرّ الخير موسومٌ به ... ومُسِرّ الشَّر موسوم بشرّ

وقال محمود الوراق لابن أخيه: **[الوافر]**

تصوّف كي يقال له أمينٌ ... وما معنى التصوّف والأمانَةْ
ولم يُرِدِ الإلهَ به ولكنْ ... أراد به الطريقَ إلى الخِيانَةْ

وقال فيه أيضاً: **[الكامل]**

شمِّر ثيابَك واستعدّ لقائلٍ ... واحكك جبينَك للقضاة بثومِ
وعليك بالفَتْويّ فاجلس عنده ... حتى تصيب وديعةً ليتيمِ

وقال الأبيض الألبيريّ: **[الكامل]**

أهلَ الرياء لبستمُ ناموسكمْ ... كالذئب يُصبح في الظلام العاتِمْ
فملكتُم الدنيا بمذهب مالكٍ ... وقسمتمُ الأموال بابن القاسِمِ
وركبتُمُ شُهْبَ البغالِ بأشهبٍ ... وبأصبغٍ صبغت لكم في العالمِ

وقال آخر: **[الكامل]**

لا شيء أخسر صفقةً من عالم ... لعبت به الدُّنيا مع الجهّالِ

فغداً يفرّق دينه أيدي سَبَا ويُديلُه حرصاً لجمع المالِ
لا خير في كسبِ الحرامِ وقلَّما يُرْجَى الخلاص لكاسبٍ لحلالِ
فخذِ الكفاف ولا تكن ذا فَضْلةٍ فالفضل تُسْأَلُ عنه أيّ سُؤَالِ

قوله: «مفضّض»، مطليٌّ بالفضة. والكنيف: المستراح. ذات: جهة وناحية. ناوَحْت: قابلت. مهبّ: ناحية هبوبها. الجنوب: الريح القبليّة. والشمال [مقابل] الجنوبية.

المقامة الثانية عشرة

وهيَ الدمشقيّة

حكى الحارث بن هَمّام قال: شَخَصْتُ مِنَ الْعِرَاقِ إلَى الْغُوطةِ، وَأَنا ذُو جُرْدٍ مَرْبُوطَةٍ، وجِدَةٍ مَغْبُوطةٍ، يُلْهِينِي خُلوُّ الذَّرْعِ، وَيَزْدَهينِي حُفولُ الضَّرْعِ. فَلَمَّا بَلَغْتُها بَعْدَ شِقِّ النَّفْسِ، وإنْضاءِ الْعَنْسِ، أَلْفَيْتُها كمَا تَصِفُ الأَلْسُنُ، وَفِيها ما تشتَهي الأنْفسُ وَتَلَذُّ الأعْيُنُ، فشَكَرْتُ يَدَ النَّوَى، وَجَرَيْتُ طَلقاً مَعَ الْهَوَى، وَطَفِقْتُ أَفُضُّ فيهَا خُتُومَ الشَّهَواتِ، وَأجْتَنِي قُطُوفَ اللَّذَّاتِ، إلى أَنْ شَرَعَ سَفْرٌ في الإعْراقِ، وَقَدِ أَشْفَقْتُ مِنَ الإغْراقِ، فعادَني عِيدٌ مِنْ تَذْكَار الْوطنِ، والحَنِينِ إلى الْعَطنِ، فقَوَّضْتُ خِيامَ الْغَيْبَةِ، وَأَسْرَجْتُ جَوَادَ الأَوْبَةِ.

* * *

[غوطة دمشق]

شَخَصْت، أي خرجت. الغوطة: موضع بالشّأم خصيب بخارج دمشق، قال رسول الله ﷺ: «ستفتح عليكم الشأم فعليكم بمدينة يقال لها دمشق، هي خير مدائن الشّأم وفسطاط المؤمنين بأرض منها يقال لها الغُوطة»[1]. قال الأصمعيّ: أحسن أنهار الدنيا ثلاثة أنهار: الغُوطة، وسَمَرْقند، ونهر الأُبلَّة، وهو قريب من البصرة، وحشوشها ثلاثة: عُمَان، وأردبيل، وهِيت. وسُمِّيت دمشق باسم صاحبها الذي بناها، وهي إرم ذات العماد.

وقال اليعقوبيّ: مدينة دمشق جليلة المِقْدار قديمة، وهي مدينة الشأم في الجاهلية والإسلام، وليس لها نظير في جميع بلاد الشأم في أنهارها وبساتينها، ومبانيها وكثرة عمارتها. وافتُتِحت في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة أربع عشرة.

وقال شيخُنا ابن جبُيَر: مدينة دمشق هي جنّة المشرق، ومطلع حسنه المونِق، وعروس المدن. قد تحلّتِ بأزاهير الرياحين، وتجلّت في حُلَلٍ سندسيّة من البساتين، وحلّتْ من موضع الحسنِ بمكان مكين، وتجلّت في منصتها بأجمل تزيين، وتشرّفت بأن

(١) أخرجه أبو داود في السنة باب ٨.

آوى الله المسيح وأمَّهُ منها إلى ربوة ذات قرار ومعِينٍ. ظلٌّ ظليل، وماء سلسبيل، ينساب انسياب الأراقم بكل سبيل، ورياض تُحْيي النفوس بنسيمها العليل، تبرز لناظريها بمجتلًى صقيل، وتناديهم: ألا هلمُّوا إلى معرّس للحسن ومقيل، وقد سئمت أرضها كثرة المياه حتى اشتاقت إلى الظمأ، فتكاد تناديك بها الصمُّ الصِّلاب: **﴿اركُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بارد وشراب﴾** [ص: ٤٢]. قد أحدقت البساتين بها إحداق الهالة بالقمر، واكتنفتها اكتناف الأكمام للزهر، وامتدَّت بشرقيّها غوطتُها الخضراء امتداد البصر، فكل موقع لحْظتَه بجهاتها الأربع، نضرتُهُ اليانعة قيْد النظر، ولقد صدق القائلون عنها: إن كانت الجنة في الأرض فدمشق لا شك منها، وإن كانت في السماء فهي بحيث تُسامِتُها وتحاذيها.

وقال فيها البحتري: **[البسيط]**

إذا أردْتَ مـلأتَ الـطّرْفَ مـن بَـلَـدٍ ... مستحسن، وزمان يُشْبِهُ البَلَدَا[١]

يُمْسِي السحاب على أجْبالها فِرَقاً ... ويُصْبِحُ النّبتُ في صحرائِها بَدَدَا

فـلـسـتَ تُـبْـصِـر إلاّ واكـفـاً خَـضِـلاً ... أو يـانـعـاً خـضِـراً، أو طـائِـراً غـرِدَا

كـأنّـمَـا الـقـيـظ وَلّـي بـعـد وَفْـدَتِـهِ ... أو الـربـيـع دنـا مـن بـعـد مـا بَـعُـدَا

* * *

قوله: «جُرْد»، أي خيل قصيرة شعر الجسد. جِدَةٍ: غنًى. مغبوطة: محسودة، أراد مغبوطٌ عليها مالكُها، فقلب. يُلْهِينِي: يدعوني إلى اللّهو. خُلُوّ الذّرْع: فراغ البال والصدر من الهمّ، يزدهيني: يحملني على الزَّهْو. حُفُولُ الضَّرْع: كثرة المال، والضَّرْع للبقرة والشاة بمنزلة الثَّدْي للمرأة، وحُفوله: امتلاؤه باللبن. شقٍّ: مشقة. إنْصاء: إهزال. والعَنْس: الناقة القوية. ألْفَيْتُها: وجدتها النّوَى: البعد والانتقال من بلدٍ إلى بلد، وأراد أنه شكر سفره. ويد النّوى: النعمة التي أنعم بها عليه، بأن أوْصله إلى الغُوطة. الهوى: ما تَهْوَاه النفس وتشتهيه. طفقت: أخذت. أفضّ: أكسر. ختوم: ربوط؛ يريد أنَّ شهوته التي كانت قد شُدَّت ورُبطت أخذ يكسر ختومها ويسرّحها في المآكل والمشارب واللذات. أجتنِي: أجمع. جناة قطوف: ما يجنى من الثمار، وجعله للذّات اتساعاً. شَرَع: أخذ وابتدأ. من شرعت الدّابةُ في الماء، إذا دخلتْه لتشربَ سَفْر: مسافرون، الإعراق: المشي إلى العِراق، أشفقت: خِفْت الإغراق: الفقر من أجل الزاد والمأكل، وكأنه غرق في ذلك، فهو يرجع إلى الغرق والإغراق: المبالغة في الشيء، يقال: أغرق الرجل في القول والرمي بالقوس، إذا بالغ فيهما.

عادَني: زارني. عيد: شوق، وكلّ ما تذكرته واشتقت إليه فهو عيد، كأنه عاد إلى قلبه بعد نسيانه، ونقل لفظ الشاعر: **[الخفيف]**

---

(١) الأبيات في ديوان البحتري ص ٧١٠.

عـاد قـلـبـي مـن الـطّـويـلـةِ عـيـدُ واعـتـرانـي مـن حُـبِّـهـا تَـسْـهِـيـدُ[1]

ابن الأنباري، العيد هنا: الوقت الذي يعود فيه الحزن والشوق، وقال تأبط شرًا: [البسيط]

يـا عِـيـد مـا لـك مـن شـوقٍ وإيـراقِ ومَـرّ طـيـفٍ عـلـى الأهـوال طـرّاقِ

العِيد: ما يعتاد من الحزن والشوق، ومعنى «يا لك من شوق»: ما أعظمك من شوق. الحنين: الشوق. العَطَن: مبارِك الإبل حول الماء، وأراد به بلده. قوّضت: هدّمت. خيام: بيوت. الأوبة: الرجوع، وأراد قطعت أسباب الإقامة.

* * *

وَلَمَّا تَأَهَّبَتِ الرِّفاقُ، وَاسْتَتبَّ الاتّفاقُ، أَلْحنَا مِنَ المَسِير، دُونَ اسْتِصْحابِ الخَفِيرِ، فَرُدْناهُ مِنْ كَلِّ قبيلةٍ، وَأَعْمَلْنَا في تَحْصِيله أَلْفَ حيلَةٍ، فأَعْوَزَ وَجْدَانُهُ في الأَحْيَاءِ، حَتَّى خِلْنَا أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الأَحيَاءِ، فَحَارَتْ لِعَوَزِهِ عُزُومُ السَّيَّارَةِ، وَانتَدَوْا ببَابِ جَيْرُون للاسْتِخَارَةِ؛ فَما زالوا بَيْنَ عَقْدٍ وَحَلٍّ، وَشَزْرٍ وَسَحْلٍ، إلى أن نَفِدَ التَّنَاجِي، وَقَنَطَ الرَّاجِي.

وَكَانَ حِذَتَهُمْ شَخْصٌ مِيَسمُهُ مِيسَمُ الشُّبَّانِ، وَلَبُوسُهُ لَبُوسُ الرُّهْبَانِ، وبِيَدِهِ سُبْحَةُ النِّسْوَانِ، وَفي عَينَيْهِ تَرْجَمَةُ النَّشْوَانِ، وَقَدْ قَيّد لحْظَهُ بالْجَمْعِ، وَأَرْهَفَ أُذُنَهُ لاستِرَاقِ السَّمْعِ. فَلَمَّا أَنَى انْكِفاؤُهُمْ، وقَدْ بَرِحَ لَهُ خَفاؤُهُمْ، قالَ لهم: يا قَوْم لِيُفْرِخْ كَرْبُكُمْ، وَلِيَأْمَنْ سِرْبُكَمْ، فَسَأَخْفُرُكُمْ بِما يَسْرُو رَوْعَكُمْ، ويبْدُو طَوْعَكُمْ.

* * *

استتبّ: تهيّأ وأقام. أَلحَنَا: خفنا. الخفير: المجير، وهو الذي تمشي الرفاق في ذمته، وتسمّيه العامة الغفير. رُدناه: طلبناه. أعوز: عدم. الأحياء الأول: القبائل، والثاني ضدّ الموتى. حالت: تغيّرت. لِعَوزِه: لفقده. عُزُوم: جمع عَزْم، وهو الجِدّ. السّيّارة: الرفقة، وهي فعّالة من السير. انتدوْا: اجتمعوا.

* * *

[باب جيرون]

باب جيرون، من أبواب جامع دمشق، وجيرون هذا هو جيرون بن سعد بن عاد، وهو الذي بنَى دمشق، ونقل إليها الرُّخام، وسمّاها إرم، وعلى هذا نقَلة الأخبار؛ وأنّ

(١) البيت بلا نسبة في لسان العرب (عود)، (طول)، وتاج العروس (عود)، وتهذيب اللغة ٣/ ١٣٢.

إرم ذات العماد هي دمشق، يقال: إنه كان فيها أربعمائة ألف عمود. وقد تقدّم أيضاً أن دمشق سمّيت باسم بانيها، وهو دماشق بن نمروذ بن كنعان، وقيل: بانيها دمشق بن عامر بن لَمَك بن أرفخشذ بن سام بن نوح.

قال اليعقوبيّ: جامع دمشق ليس في الإسلام أحسن منه، بناه الوليد بن عبد الملك في خلافته بالرّخام والذهب سنة ثمان وثمانين، مفروش بالرّخام الأبيض المختم بالأزرق، وسقفه لا خشبَ فيه، مذهَّب كُلُّه، ومنائره ثلاث: واحدة في مؤخر المسجد، مذهَّبٌ كلها من أعلاها إلى أسفلها.

وذكر شيخنا ابن جُبير في وصف هذا الجامع ووصف دمشق غرائب لا يتَّسعُ لها هذا الكتاب، فلنلمّ هنا ببعض ما وصف في هذا الجامع؛ لنَفِيَ بشرطنا. قال: هذا الجامعُ من أشهر جوامع الإسلام حسناً وإتقان بناء، وغرابة صنعة، واحتفال تنميق وتزيين، ومن عجيب شأنه أنه لا يَلُمُّ به نسجُ العنكبوت، ولا تلُمّ به الطير المعروفة بالخطاف، انتدب لبنائه الوليد، ووجّه إلى ملك الروم بالقسطنطينية يأمره بأشخاص اثني عشر ألف صانع من بلاده، وتقدّم إليه بالوعيد في ذلك إن توقّف [عنه]، فامتثل أمرَهُ مُذْعِناً، وشرع في بنائه، وبلغت الغاية في التأنّق فيه، وأنزلت جدره كلها بفُصوص الذهب المعروفة بالفُسَيْفِساء، وخلطت بها أنواع من الأصبغة الغريبة، قد مثلت أشجاراً، وفرّعت أغصاناً منظومة بالفصوص ببديع الصنعة المعجزة وصف كلّ واصف، فجاء يُغْشِي العيون وميضاً وبصيصاً. وبلغت النفقة فيه أحد عشر ألف ألف دينار ومائتي ألف دينار.

وكان أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه صالَحَ النّصارَى لمّا دخلها، بأن أخذ نصف الكنيسة الشرقيّ، فصيّرَه مسجداً، وبقي النصف الغربيّ للنصارى. فأخذه الوليد، وأدخله في الجامع بعد أن رغب إليهم أن يعوّضهم عنه، فأبَوْا، فأخذه قهراً. وكانوا يزعمون أنّ مَنْ يهدم كنيستهم يُجَنّ، فبادر الوليد، وقال: أنا أول مَنْ يُجَنّ في الله، وبدأ الهدم بيده، فبادر المسلمون، فأكملوا هدمها. ثم أرضاهم عمر بن عبد العزيز في خلافته عن الكنيسة بمال عظيم.

وطول هذا الجامع من الغرب إلى الشرق: ذرعه مائتا خطوة، وهما ثلثمائة ذراع، وذرعه في السعة من القبلة إلى الشمال مائة وخمس وثلاثون خطوة، وهي مائتا ذراع، وتكسيره بالمرجع المغربيّ أربعة وعشرون مرجعاً، وهو تكسير مسجد النبيّ ﷺ؛ غير أنّ طوله من القبلة إلى الشمال، وبلاطاته المتّصلة بالقبلة ثلاث، مستطيلة من المشرق إلى المغرب، سعَة كلّ بلاطة منها ثمان عشرة خطوة، وقامت البلاطات على ثمانية وستين عموداً، منها ثمانية أرجل تتخللها واثنتان مرخّمة ملصقة بالجدار الذي يلي الصخرة، وأربع أرجل مرخّمة أبدع ترخيم، مرصّعة بفصوص من الرّخام ملوّنة، قد نظمت خواتيم، وصوّرت محاريب وأشكالاً غريبة قائمة في البلاط الأوسط، دور كلّ رجل منها اثنان

وسبعون شبراً، ويستدير بالصحن بلاط من ثلاث جهاته، سعته عشر خُطا، وعدد قوائمه سبع وأربعون، منها أربع عشرة رجلاً، والباقي سوار، وسقف الجامع كله من خارج ألواح رصاص. وأعظم ما فيه قبة الرصاص المتَّصلة بالمحراب، وهي سامية في الهواء، عظيمة الاستدارة، وقد استقلّ بها هيكل عظيم، هو عماد لها يتّصل من المحراب إلى الصحن والقبّة، قد أُغِصَّتْ بالهواء، فإذا استقبلتها رأيتَ مرأًى هائلاً، ومن أيّ جهة استقبلت البلد تَرى القبة في الهواء، كأنها معّلقة في الجوّ، وعدد شمسياتها الزجاجية المذهبة الملونة أربع وسبعون، فإذا قابلتها الشمس واتصل شعاعها بها انعكس الشعاع إلى كلّ لون منها، واتصل ذلك بالجدار القبليّ، ويتصل بالأبصار منها أشعة ملوّنة هائلة لا تبلغ العبارة تصوّرها، ومحرابه من أعجب المحاريب الإسلامية حسناً وغرابة صنعة يتقد ذهباً كلّه، وقد قامت في وسطه محاريب صغار متصلة بجداره، تحفّها سويريات مفتولات فتل الأسورة، فإنها مخروطة، بعضها أحمر، كأنها مرجان لم يُر شيءٌ أجملُ منها.

وفيها ثلاث مقاصير: مقصورة معاوية، وهي أول مقصورة وضعت في الإسلام، طولها أربعة وأربعون شبراً، وعرضها نصف الطُول. ويليها بجهة الغرب المقصورة التي أحدثت عند زيادة الكَنِيسة فيه، وهي أكبر. والثالثة بالجانب الغربيّ، يجتمع الحنفيَّة فيها للتدريس.

وله أربعة أبواب: باب قبليّ يعرف بباب الزيادة، وباب شمالي يعرف بباب الناطفيين، وباب غربي يعرف بباب البريد، وباب شرقيٌّ يعرف بباب جيرون، وهو أعظمها.

وله وللغربي دهاليز متسعة يفضي كل دهليز منها إلى باب عظيم كانت كلها مداخل للكنيسة، فبقيَت على حالها.

ثم ذكر في الصحن عجائب من الأبنية والقباب والصوامع الثلاث والمياه المدبرّة فيه ما يطول وصفه واختصاره. قال: وهذا الصَّحْن من أجمل المناظر وأحسنها، وفيه مجتمع أهل البلد ومتفرّجهُم ومنتزهّهم، كل عشيّة تراهم فيه ذاهبين وراجعين من باب جَيْرون إلى باب البريد، لا يزالون على هذه الحالة إلى انقضاء صلاة العشاء الأخيرة، منهم مَنْ يتحدّث مع صاحبه، ومنهم مَنْ يقرأ، فهذا دأبهم أبداً بالعشيَ والغداة، وأكثر الاحتفال بالعشي، [فيخيّل لمبِصر ذلك أنَّها ليلة سبع وعشرين من رمضان المعظم لما يرى من احتفال الناس واجتماعهم، لا يزالون على ذلك كل يوم]، وأهل البطالة يسمونهم الحراثين.

وللجامع أربع سقايات في كل جهة سقاية. وأعظمها سقاية باب جيرون.

وذكر أنّ حول باب جيرون من الأبنية الغريبة ما يطول وصفُه، وذكر باب جيرون فقال: يخرج من دهليزه إلى بلاط طويل عريض له خمسة أبواب مقوّسة، لها ستة أعمدة

في جهة اليسار، منه مشهد كبير كان فيه رأس الحسين رضي الله عنه، قبل أن يُنقل إلى القاهرة، وبإزائه مسجد صغير لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، وقد انتظمت أمام البلاط أدراج ينحدر عليها إلى الدهليز، وهي كالخندق العظيم تتصل إلى باب عظيم الارتفاع ينحسر الطرف دونه سموًّا، قد حفّته أعمدة كالجذوع طولاً، وكالأطواد ضخامة، وبجانبي الدّهليز أعمدة قامت عليها شوارع مستديرة، فيها حَوانيت العطّارين وغيرهم، وعليها شوارع مستطيلة فيها الحجر والبيوت للكراء مشرفة على الدهاليز، وفوقها سطح بيت فيه سُكّان الحجر والبيوت، وفي وسط الدَّهْلِيز حَوْض كبير مستدير من الرخام، عليه قبة تقلّها أعمدة من الرخام. وفي وسط الحوض أنبوب صُفْر يزعج الماء بقوّة، فيرتفع في الهواء أزيد من القامة، وحوله أنابيب صغار ترمي الماء علوًّا، فيَخرج منها كقضبان اللجين، فكأنها أغصان تلك الدوحة المائية، ومنظرها أبدع من أن يوصف، وعن يمين الخارج من باب جيرون في جدار البلاط الذي أمامه شبه غرفة، بها هيئة طاقٍ كبير مستدير، فيه طيقان من صفر وقد فتَحت أبواباً صغاراً على عدد ساعات النهار، ودبرت تدبيراً هندسياً، فعند انقضاء ساعة من النهار، تسقط صَنجتان من صُفْر من فميْ بازيّين من صُفْر قائمين على طاستين من صفْر مثقوبتين، فتبصر البازيين يمدّانِ أعناقهما للصنجتين إلى الطّاستين، ويقذفانهما بسرعة، بتدبير عجيب تتخيّله الأوهام سحراً، فعند وقوعهما يُسمع لهما دوي، فيعودان من الأثقاب إلى داخل الجدار إلى الغرفة، ويتعَلّق الباب تلك الساعة بلوْح أصفر، فلا يزال كذلك حتى تنقضي الساعات، فتغلق الأبواب كلها، ثم تعود إلى حَالاتها الأولى. ولها بالليل تدبير آخر، وذلك أنّ في القوس المنعطف على الطيقان المذكورة اثنتي عشرة دائرة من النحاس مخرّمة، في كلّ دائرة زجاجة. وخلْف الزجاجة مصباح يدور به الماء على ترتيب مقدار الساعة، فإذا انقضت عمّ الزَّجاجة ضوء المصباح، وأفاض على الدائرة شعاعاً، فلاحت دائرة محمرة، ثم ينتقل إلى الأخرى، حتى تنقضيَ ساعات الليل، وقد وكلّ بها مَنْ يدير شأنها، فيعيد فتح الأبواب، ويسرح الصّنج إلى موضعه وهي التي تسمى الميقات.

ثم ذكر في باب جيرون، وفي الجامع وفي خارج البلد عجائب ليست من شرطنا، وإنما ذكرنا منها ما دعت إليه الحاجة من ذكر باب جيرون.

* * *

قوله: «الاستخارة» أي طلب الخِيرة، واستخرت الله: سألته أن يهب لي الخِيرة. شَنْزر: عقد. سَحْل: حلّ، وشزرت الحبل شزراً شددت فتله، وسحلت النَّسج سَحْلا أفردت سُداه ولم تفتله. نفد: تم وفرغ. التناجي: التحدّث سِرًّا. قَنطَ: يئس الراجي: الطامع. حِذتهم: قريباً منهم، تقول: داري حِذوه وحذوته وحذته، أي حذاءه. مِيسمه: علامته، وأصل المِيسم المِوْسم، لأنه من وسمت الشيء، فقُلبت الواو ياء لسكونها وكسر ما قبلها. لَبوسه: ثيابه. الرّهبان: العبّاد. والترهُّب: ترك النساء. سُبْحة: خيط ينظم فيه

خرز يعدّ به التسبيح، وكانت لأبي هريرة رضي الله عنه سُبْحة من النوى المجزّع، وهو الذي حُكّ حتى اختلف لونه. وفرغ من سبحته، أي من صلاته وما يتبعها من الذِّكْر. ترجمة: علامة. النَّشوان: السَّكْران. قَيَّد لحظه: ربط نظره، أي شخص فيهم. أرْهف: أحدّ. آن: حان وقرُب، ويروى «ناء» مقلوب «آن». انكفاؤهم: انقلابهم ورجوعهم. بَرَح: انكشف. خفاؤهم: سرّهم.

ليُفرِخْ كربكم: لِيزُولْ ويسكن، ومَثَلُ العرب: أفرخ رَوْعك، ومعناه: انجلى وانكشف كما ينكشف ما في البيضة إذا انشق عن الفَرْخ. وقيل: معنى أفرخ، ذهب.

وقال الفارسيّ في التذكرة: معنى أفرخ رَوْعك: صار له فرخ، وإذا أفرخ الطائر طار، لأنه فارق الحِضْن، وهذا قول حسن.

وقال عروة بن مضرّس: أتيت النبيّ ﷺ بجَمْع قبل أن يصلّي الصبح، فقلت: يا رسولَ الله، طويت الجبلين، ولقيت شدّة، فقال: «أفرخ روْعك، مَنْ أدرك إفاضتنا هذه فقد أدرك الحج»: وقال الأخطل يصف الثّور والكلاب: **[الكامل]**

حتّى إذا ما الثَّوْر أفرخ رَوْعُه ... وأفاق أقبل نحوها بتذمَّرُ[1]

أَضِماً وهَزّ لهنَّ رَوْقيْ رأسِه ... إذْ قد أتيح لهنَّ موتُ أحمرُ

فقوله: «أفاق» بعد «أفرخ روغه» يدلّ على أنه أراد ذهب فزعه وزال ويتذمّر، يحضّ نفسه على الإقدام، يقال: ذمرته إذا حضضتُه. وأضِما، أي غضبان، والموت الأحمر مذكور في المقامة بعد هذه. قوله: «كربكم» أي همكم سربكم، أي جمعكم، أي تأمنوا في نفوسكم. سأخفركم: سأجيركم. يَسْرُو: يكشف ويزيل. رَوْعكم: فزعكم. يبدو: يظهر. طوعكم: منقاداً لكم، وأراد سأجيركم بشيء يزيل عنكم الفزع، ويكون منقاداً لكم، وذلك الشيء هو الكلمات التي يأتى بها.

* * *

قالَ الرَّاوِي: فاستَطْلعْنا مِنْهُ طِلْعَ الخُفارَةِ، وَأَسْنينْا لَهُ الجعالَةَ عَن السِّفارَة، فزعَمَ أَنَّها كَلِماتٌ لقِّنَها في المَنامِ، ليَحْتَرِسَ بهَا منْ كَيْدِ الأنام، فجعَلَ بعْضُنَا يُومِضُ إِلى بَعْضٍ، ويُقَلِّبُ طَرْفَيْهِ بَينَ لَحظٍ وَغَضٍّ، وتَبَينّ لهُ أنّا استَضْعَفْنا الخَبَر، واستَشْعَرْنا الخوَر، فقالَ: ما بَالُكُم اتَّخَذْتُمْ جدِّي عَبثاً؛ وَجَعلْتمْ تِبري خَبَثاً! وَلَطالَما وَاللَّهِ جُبْتُ مَخاوِفَ الأقْطارِ، وَوَلَجْتُ مَقاحِمَ الأَخْطارِ، فَغنِيْتُ بهَا عَنْ مُصَاحَبَةِ خَفِيرٍ، وَاستِصْحابُ جَفِيرِ. ثُمَّ إِنِّي سأنْفِي مَا رَابَكُمْ، وأَستَسِلُّ الْحَذَرَ الّذِي

---

(١) البيتان في ديوان الأخطل ص ٢٣١.

نابَكُمْ، بأنْ أُوافِقَكُمْ في البَدَاوَة، وأرَافِقَكُمْ فِي السَّمَاوَةِ، فَإِنْ صَدَقَكُمْ وَعْدِي، فَأجِدُّوا سَعْدِي، وَأَسْعِدُوا جَدِّي. وَإِن كَذَبكُمْ فمِي، فَمَزِّقُوا أَدَمِي، وَأَرِيقُوا دَمِي.

قال الحارث بن همام: فألْهِمْنَا تَصْديق رُؤْياهُ، وَتَحْقِيقَ مَا رَوَاهُ، فنزعْنا عَنْ مجادَلِتِه، وَاسْتَهَمْنَا على مُعادَلتِهِ، وَفَصَمْنَا بقَولِهِ عُرَى الرَّبائثِ، وَألْغَيْنا اتقَّاءَ الْعابِثِ والْعائِثِ.

* * *

استطلعنا منه طَلِع الخفارة، أي استخبرناه عن خبر الإجارة، قال ابن الأنباريّ: معنى السِّفارة في كلامهم الإصلاح، والسفير: المصلح.

قال الشاعر: **[الوافر]**

ومـا أدَعُ الـسِّـفَـارةَ بـيـن قَـوْمِـي ... ومـا أمْـشِـي بِـغِـشٍّ إنْ مَـشَـيْـتُ

وأسنينا له الجِعالة عن السِّفارة، أي كثّرنا له العطاء ليدلّنا على المجير، وأنْ يكون رسولاً بيننا وبينه. ويمكن أن تكون السِّفارة فِعَالة، من لفظ السَّفير، فيكون اسماً للحِرْفة كالنِّجارة والخياطة. لُقِّنها: حفظها. ليحترس، ليمتنع يُومض: يشير. لحَظ: نظَر بطرف عينيه. غضّ: كسر النظر؛ أي جعلوا يتغامزون عليه استضعافاً لخبره. استشعرنا الخوَر، أي ظهر علينا الفزع والضعف من كلامه. العَبَث: اللعب. تبْرِي: ذهبي، والتِبْر: كل ما لم يصنع من الجواهر من نُحاسٍ وغيره. خَبثاً: فاسداً. جُبْت: قطعت. مخاوف: مواضع الخوف الأقطار: نواحي الأرض. وَلَجْت: دخلت. مقاحم: مهالك، والفحْمة الأمر العظيم لا يركبه أحد لهوْله. الأخطار: جمع خطر، وهو الغرر. جَفِير: جُعبة السهام. رابكم: شكّككم، أستسِلّ: أزيل. الحذر: الخوف. نابكم: قَصدكم. أوافقكم: أساعِدُكم وأمشي معكم مصاحباً لكم. أرافقكم: أسافر معكم، والرفيق: الصاحب في السفر. السماوة: مفازة بين الشأم والعراق، وسماوة كل شيء شخصه، وبذلك سُميتِ السماوة لأنها منازل ثمود، وفيها إلى الآن أشخاص منازلهم وآثارهم. أجدّوه: ردوه ذا جَدّ، وهو السعد والحظّ، والمعنى أنه يقول: إن كان سعدي قليلاً فأجدّوه، أي كَثِّرُوا حظّه بعطيتكم حتى يعود صاحبه كثير السّعْد، وكذلك يقدّر: أسعدوا جَدِّي، فيريد: إنْ صدقتكم وعدي، وسلمتم، فهبوا لي من أموالكم ما يتقوّى به سَعْدي الضعيف، ويكثّر حظِّي القليل. ويقال أيضاً: أجدّ الشيء إذا صيّره جديداً. مزِّقوا: قَطّعوا. أدَمِي: جِلْدي. أريقُوا: صُبّوا.

ألهمنا، أي ألقي في قلوبنا. نزعنا: أقلعنا. مُجادلته: مخالفته. استهمنا: ضربنا السّهام وتخاطرنا على من يركب معه رفيقاً. ومعادلته: الركوب معه في المحمل، وهو أن يركب هذا في الأيمن، وهذا في الأيسر، مأخوذة من العِدْل.

ونذكر هنا حكاية مضحكة تزيد المعادلة بياناً، كان المعتصم يأنس بعليّ بن الجنيد الإسكاف، وكان عجيب الصُّورة والحديث، فقال المعتصم لابن حماد: اذهب إلى ابن الجُنيد، وقل له: يتهيأ ليزاملني، فأتاه فقال له: تهيأ لمزاملة أمير المؤمنين، فإنّ مزاملة الخلفاء كبيرة، فقال: كيف أتهيّأ لها؟ أصيب رأساً غير رأسي! أشتري لحية غير لحيتي! قال ابن حمّاد: شروطها الامتناع عن الحديث والمذاكرة والمنادمة، وألاّ تبصق ولا تسعل ولا تمخط ولا تتنحنح، وأن تتقدّم في الركوب إشفاقاً عليه من الميل، وأن يتقدّمك في النزول، فمتى لم يفعل هذا المعادل كان ومثقلة الرصاص التي تُعدل بها القبّة واحداً، فقال لابن حماد: اذهب قل له ما يزاملك إلا مَنْ أُمُّه زانية. فرجع إلى المعتصم وأعلمه، فضحك وقال: عليّ به، فلما جاء قال: يا عليّ، أبعثُ إليك أن تزاملني فلا تفعل! فقال له: إن رسولك هذا الأرعن جاءني بشروط حسّان السامي وخالويه الحاكمي، فقال: لا تبصق ولا تعطس، وجعل يقرقع بصاداته، وهذا لا أقدر عليه؛ فإنّ رضيت أن أزاملَك، فإذا جاءني الفُساء والضراط فسوت وضرطت، وإلا فليس بيني وبينك عمل. فضحك المعتصم حتى فحص برجليه، وقال: نعم زامِلْني على هذه الشروط، فسار ساعة فلمّا توسط البرّ، قال: يا أميرَ المؤمنين، قد حضر ذلك المتسامح، قال: ذلك إليك، قال: يحضر ابن حمّاد، فحضر، فناوله كمَّه، وقال أجد في كُمي دبيب شيء، فانظر ما هو، فأدخل رأسَه فشمّ رائحة الكنيف، فقال: ما أرى شيئاً، ولكني أعلم أن في جوف ثيابك كنيفاً، والضَّحِك قد ذهب بالمعتصم كلَّ مذهب، وابن الجِنيد يفسو فُساءً متّصلاً، ويقول لابن حماد: قلت: لي: لا تسعل أو لا تمخط، فخَريت عليك، ثم قال: قد نَضِجت القِدْر، وأريد أخْرى، فأخرج المعتصم رأسَه من العماريّة حين كَثُر عليه الضحك، وصاح: ويلك يا غلام، الأرض: الساعة أموت!.

قوله: «فصمنا»، أي قطعنا وحللنا والعرا: عيون من شريط أو غيره يُشَدّ بها فم الخُرْج أو العِدْل، واحدها عروة. والرّبائث: العُلَق، واحدها رَبيثة، وهو ما يثبّت الإنسان ويحبسه عن أمر يريده، وقد ربثتك عن الأمر رَبْثاً، وتربّثت أنا تربّثاً، إذا تثبطت. ألغينا: اطّرحْنا. اتقاء: خوف. العابث: الذي يعبث بأموالهم من أهل الشر فيفسدها، والعابث: المفسد، ويقال: عَبَث بفتح الباء عَبَثاً: وبكسرها عبثاً: لعب واستخف، وعاث عيْثاً: أفسد.

***

وَلَمَّا عُكِمَتْ الرِّحَالِ، وَأَزِفَ التَّرْحَالُ، اسْتَنْزَلْنَا كَلِمَاتِهَ الرَّاقية، لِنَجْعلَهَا الواقِيَة الباقِيَةَ، فقالَ: لِيَقْرَأَ كلّ مِنْكُمْ أُمَّ القرآن، كُلَّمَا أَظَلَّ الْمَلَوَانِ. ثم لِيَقُلْ بِلِسَانٍ خَاضِعٍ، وَصَوْتٍ خَاشِعٍ: اللَّهُمَّ يا مُحْيِيَ الرُّفاتِ، وَيَا دَافِعَ الآفاتِ، ويا واقي المخافاتِ، ويا كريم المكافاةِ، وَيَا مَوْئِلَ الْعُفَاةِ، ويا وَلِيَّ الْعَفْو والمعافاة، صلِّ

عَلَى محمدٍ خاتَم أَنبيائكَ، وَمُبَلِّغِ أَنبيائك، وعَلَى مَصابيحِ أَسْرَتِهِ، وَمفَاتِيح نُصْرَتِهِ، وأعَذْنِي مِنْ نَزَغَاتَ الشَّيَاطِينَ، ونَزَوَاتِ السَّلاطين، وَإِعْنَاتِ الباغين، ومعاناةِ الطَّاغِينَ، وَعُدْوَانَ المعادين، وَغَلَبِ الغالِبِينَ، وَسَلَبِ السَّالِبِينَ، وَحِيَلِ الْمُحْتَالِينَ، وَغِيَلِ الْمُغْتَالِينَ، وَأَجِرْنِي اللَّهُم مِنْ جَوْرِ المجاوِرِينَ، وَمُجَاوَرَةِ الجائرينَ، وَسَطْوَةِ الجَبَّارِينَ، وَكُفَّ عَنِّي أكفَّ الضَّائِمِينَ، وَأَخرجْنِي مِنْ ظُلُمَاتِ الظالمين، وأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عبادِكَ الصَّالحين.

* * *

عُكمت الرحال، أي شدّت الأحمال بالعِكام، والعِكام ما يشدّ به فم العِكْم وهو العِدْل. وقيل: إنّ أصل العِكام كمامة تربط على فم البعير، ومثله اللّجام، يُسْتعار لما يشدّ به المتاع ويقال: عكمت المتاع عكماً شددته في العِكْم، أو شددته بالعِكام، وعكمت البعير شددت عليه العِكْم، أو ربطت العِكام على فمه، وأعكمتك أعنتك. أزِف: دنا وقرُب. استنزلنا: طلبنا منه إنزالها، أي تلطّفنا به ليذكرها الرّاقية: الرفيعة، من رقيّ في الدّرجة، أو المعوّذة لنا، من رَقيت المريض، وهو أشبَه لموافقتها لمعنى الواقية، وهي الكافية، لما يخاف من الشرّ، أظلّ الأمر: قرب ودنا وكأنه ألقي عليك ظلّه. المَلوان: الليل والنهار، والخاضع: الذليل، وخضع خُضوعاً: أقرّ بالذل. والخاشع: المتواضع، وخشع خُشوعاً: خفض صوتَه، ورمى ببصره إلى الأرض، والخضوع قريب منه، إلاّ أنّ أكثر ما يستعمل الخشوع في الصّوت والخضوع في الأعناق. الرُّفات: العظام البالية الآفات: المضرّات. المكافأة: المجازاة. موئل: ملجأ. العُفاة: جمع عافٍ، وهو سائل العفو وليّ العفو: صاحب المغفرة. والمعافاة. المباعدة من الضَّرر، وقد عافاه ممّا يكره وأعفاه. أنبائك: أخبارك، والنبأ الخبر. أسْرته: رهطه، وأراد بالمصابيح المهاجرين، وبالمفاتيح الأنصار. أعذني: أجرني النّزغات: الإفساد، نزغ الشيطان بين القوم، أي أفسد ذات بينهم، والشيطان: البعيد من الخير، من قولهم: دارٌ شَطُون، أي بعيدة، ونوىً شَطُون.

قال النابغة: **[الوافر]**

* نأت بسُعَادَ عنك نَوَى شَطُونُ *[1]

---

(١) عجزه:

فبانت والفؤاد بها رهينُ

والبيت للنابغة الذبياني ص ٢١٨، ولسان العرب (شطن)، ومقاييس اللغة ٣/ ١٨٤، ولزياد بن معاوية في تاج العروس (نبغ)، وبلا نسبة في مجمل اللغة ٣/ ١٥٦.

وقال نابغة بني شيبان: [الوافر]

فأضْحَتْ بِعْدَمَا وَصَلَتْ بدارِ شَطُونٍ لا تُعَادُ ولاَ تَعُودُ

نَزَوات: وثوب، وقد نزا نزواً ونُزُوًّا، إذا وثب، ونزا على الشيء، ارتفع. إعنات: مشقّة. الباغين: المتعدِين، وقد بغى عليه بَغْياً: تعدّى عليه. معاناة: معالجة ومقاساة. الطاغين: المسرفين في الظُّلم والمعاصي، والعادين: المتجاوزين الحدَّ في الظلم. غِيَل: جمع غيلة، وهي الهلاك. والمغتال: المهلك أجِرْني: أمّنّي. سطوة: بطش وتهديد. الضائمين: المذلين.

* * *

اللَّهمَّ حُطني فِي تُربَتِي، وَغُربَتِي وَغَيْبَتِي، وَأَوْبَتِي وَنَجعَتِي، وَرَجْعَتِي، وَتصَرُّفِي وَمُنْصَرَفِي، وَتقَلُّبِي وَمُنْقَلَبِي. وَاحْفَظْنِي فِي نَفْسِي، وَنفَائِسي، وَعِرضِي وَعَرَضِي، وَعَدَدِي وَعُدَدِي، وَسَكَني وَمَسْكَني، وَحَوْلِي وَحالِي، وَمَالِي وَمَآلِي، وَلاَ تُلْحِقْ بِي تغْييراً، وَلاَ تُسَلِّطْ عَلَيَّ مُغِيراً، وَاجْعل لي مِنكَ سُلطاناً نصيراً، اللَّهم احْرُسْنِي بِعَيْنِك وعَوْنِكَ، واخْصُصْنِي بأَمْنكَ وَمَنِّك، وَتَوَلَّنِي باخْتِيارِكَ وَخيْرِك. وَلاَ تَكِلْني إلى كلاءَةِ غيركَ، وَهَبْ لي عَافِيَةً غَيرَ عَافِيةٍ، وَارْزُقْني رَفاهِيَةً غَيْرَ واهِيةٍ. واكْفِنِي مَخاشِيَ اللَّأْواءِ، واكنُفْني بِغَواشي الآلاء، وَلا تُظْفِرْ بِيَ الأعْداء، إنكَ سميعُ الدُّعاء.

* * *

قوله: «اللهم حطْني في تربتي»، أي احفظني في بلدتي. أوبتي: رجعتي. نجعتي: سفري في طلب الرزق. نفائسي: كرائم مالي. عِرْضي: نفسي وعَرَضي: مالي. عَدَدي: أهلي. عُدَدِي: آلاتي، وما أستعدّه. سكني: أهلي. حولي: قوّتي. حالي: بالي. مآلي: مرجعي. منّك: إحسانك. تولّني: كن لي وليًّا. تَكِلْني: تُحْوِجْني. كلاءة: حفظ وحراسة. وعافية: عيش سالم من الآفات.

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: ذكر رسول الله ﷺ البلاَء وما أعدّ الله لصاحبه من الثواب إذا صبر، وذَكَر العافية وما أعدّ الله لصاحبها من الثواب إذا شكر، فقلت: يا رسولَ الله، أُعافَى فأشْكر، أحبُ إليّ من أن أُبتلَى فأصبر، فقال رسول الله ﷺ: نحبُّ معك العافية. غير عافية، أي غير دراسة. رفاهية: غنًى متّسع. واهية: ناقصة ضعيفة. مخاشي: ما يُخشى ويخاف. اللأواء: الشدّة. اكنفني: اسْتُرْني. غواشي: أي ما يتغشّى به، أي يتغطّى. الآلاء: النعم.

* * *

ثمَّ أَطْرَقَ لا يُدِيرُ لَحظاً، وَلاَ يُحيرُ لَفظاً، حتَى قُلْنَا: قَدْ أَبْلَسَتْهُ خَشية، أو أخرَسَتهُ غَشْيةٌ. ثمَّ أقنَعَ رَأْسَهُ، وَصَعَّدَ أَنفَاسَهُ وَقَال:

أُقسِمُ بالسَّماءِ ذاتِ الأبرَاج، وَالأرضِ ذاتِ الْفِجَاج، والماء الثَّجَّاج، والسَّرَاج الْوَهَّاج، وَالْبَحْرِ الْفَجَّاج، والهَوَاءِ والعَجَاج، إنَّهَا لِمَنْ أَيْمَن الْعوَذِ، وأغْنَى عَنكُمْ مِنْ لاَبِسي الْخُوَذِ، مَنْ دَرَسَها عِندَ ابْتِسَام الْفَلَقِ، لَمْ يُشْفِق مِنْ خَطْبٍ إلى الشَّفَقِ، ومَنْ ناجَى بِهَا طَليعة الغَسَقِ، أمِنَ لَيْلَتهُ مِنَ السَّرَقِ.

قال: فتَلقَّنَّاهَا حَتَّى أتْقَنَّاهَا، وَتدَارَسْنَاهَا، لكيْلاَ لاَ نَنساهَا.

* * *

أطرَق، أي نظر إلى الأرض ساكناً، وقد فسَّر قوله: «أطرق» بقوله: «لا يدير لحظاً، ولا يُحِير لفظاً»، فيدير لحظاً يُجيل نظرَه في الجهات الأربع، ويحير لفظاً: يردّ كلاماً، والغَشية: أن يُغْشَى على عقله. أقنع: رفع. صَعِدَ: جعلها تصعَد، أي ترتفع. الأبراج، أي منازل القمر. الفِجاج، أي المسالك، واحدها: فجّ، والفَجّ الطريق الواسع في الجبل، وقيل: هو المّتسع بين مرتفعين، وقيل: هو الفتح بين الشَّيئين: الثَّجّاج: السَّيّال الكثير الصبّ. السراج: الشمس. الوهّاج: الوقّاد المتلألىء، وهو من وَهج النار، وهو اتقادها وحَرُّها، العَجّاج: المصوّت لاضطراب أمواجه. الهواء: ما بين السماء والأرض. والعَجَاج: الغبار. والعُوَذ: الرُّقَى. أغنَى: أجزأ وأكفى، والغنى الكفاية، وأغنى فلان مغني فلان، أي كفاه الحضور وقام مقامه. والحُوذ، بالحاء المهملة الدِّرْع، وينقط الحاء بيض السِّلاح. ابتسام الفلق: ظهور الفجر. يشفق: يخاف. خطْب: أمر شديد. الشّفَق: الحمرة بعد غروب الشمس. ناجي: تكلّم بها سرًّا، طليعة الغسق، أول طلوع الظلام. تلقنّاها، أي فهمناها. أتقناها: أحْكَمْنَاها. تدارسناها، الدَّرْس في كلامهم الرِّياضة والتذليل، وطريق مدروس: كَثُر مشى الناس فيه، فذَلّلوه وأثروا فيه، فمعنى دَرَس القرآن أو الدعاء، ذلّل لسانه وراضَه.

[بعض الأدعية المأثورة]

ونصل هذا الدعاء الذي ذكر أنه مستجاب وصدق إذا صحب الدعاءَ به الإخلاص، والتضرُّع بأدعية يُنتفع بها إن شاء الله تعالى.

كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً قال: «اللهمَّ أنت الصاحبُ في السَّفر، والخليفة في الحَضَر. اللهمّ إنّي أعوذ بك من وَعْثاء السفر، وكآبة المنقلَب، ومن الحَوْر بعد الكَوْر، ومن سوء المنظر في الأهل والمال والولد»[1].

(١) روي بطرق وأسانيد متعددة، أخرجه مسلم في الحج حديث ٤٢٥، ٤٢٦، وأبو داود في الجهاد باب ٧٢، والترمذي في الدعوات باب ٤١، والنسائي في الاستعاذة باب ٤١، ٤٣، وابن ماجه في الدعاء باب ٢٠، والدارمي في الاستئذان باب ٤٢، ومالك في الاستئذان حديث ٣٤، وأحمد في المسند ١/٢٥٦، ٣٠٠، ٢/١٥٠، ٤٠١، ٤٣٣، ٥/٨٢، ٨٣.

وقالتْ أمّ سلمَة رضي الله عنها: مَنْ خرج في طاعة الله تعالى فقال: اللهم إنّي لم أخرُجْ أشِراً ولا بَطَراً، ولا رياء، ولا سمعة، ولكنّي خرجت ابتغاء مرضاتك، واتقاء سَخَطك، فأسألك بحقك على جميع خَلْقك أن ترزقني من الخير أكثَر ممّا أرجو، وتَصْرِفَ عنّي من الشرّ أكثر مما أخاف. استجيب له بإذن الله تعالى(١).

وقالوا: كلمات الفرج عند الكرب: لا إله إلا الله الحليم الكريم، وسبحان الله رب العرش العظيم، والحمد لله رب العالمين.

قال جعفر بن محمد لسفيان الثّوريّ: إذا كثرتْ همومُك فأكْثرْ من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وإذا درت عليك النعم فَأكثِرْ من الحمد لله العالمين، وإذا أبطأ عليك الرزق فأكثِرْ من الاستغفار.

ومن قال في ليل أو نهار: اللهم ربّي لا إله إلا أنت عليك توكلت وأنت رب العرش العظيم ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، أعلم أن الله على كل شيء قدير، وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً، اللهمّ إني أعوذ بك من شرّ نفسي ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها. إنّ ربِّي على صراط مستقيم. . . لم يضرَّهُ شيء.

ومن قال: بسم الله الذي لا يضرُّ مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم، ليلاً أو نهاراً أمن مما يخاف.

ومن قال: سبحان الله وبحمده، ولا حول ولا قوة إلا بالله ثلاث مرات بعد صلاة الصبح أمِنَ مِنَ كلّ غمّ وجُذامٌ وَبرص وفالج.

ومن قال: باسم الله ما شاء الله لا قوة إلا بالله، ما شاء الله كل نعمة من الله، ما شاء الله الخير كلّه بيد الله، ما شاء الله لا يَصْرِف السُّوء إلا الله، من قالها إذا أصبح أمِنَ من الحرق والغَرَق.

ومن دخل على سلطان يخاف سطوته فقال: الله أعزّ وأكبر مما أخاف وأحذر، اللهمّ رب السّموات السّبْع وربَّ العرش العظيم، كُنْ لي جاراً من عبدك فلان، وجوره وأشياعه وأتباعه. تبارك اسمُك وجلّ ثناؤك. وعَزّ جارُك، ولا إله غيرك ثلاثَ مَرات أمن من شره.

وقال المنصور للربيع: عليّ بجعفر، قتلني الله إن لم أقتله! فلما مَثَل بين يديه حرّك شفتيه، ثم قرب وسلم فقال: لا سلّم الله عليك يا عدوّ الله، تعمل عليّ الغوائل في مُلْكي قَتلني الله إن لم أقتلك! فقال: يا أمير المؤمنين إنّ سُليْمانَ أعطى فشكر، وإن أيوب ابتُلِيَ فصبر، وإن يوسف ظُلم فغفر، عليهم السلام، وأنت على أثر منهم، وأحقّ منْ تأسّى بهم. فنكسَ المنصور رأسه مليًا ثم رفع رأسه، وقال: إليّ أبا عبد الله، فأنت القريب

(١) أخرجه ابن ماجه في المساجد باب ١٤، وأحمد في المسند ٣/ ٢١.

القَرابة، وأنت ذو الرحم الواشحة. والسليم الناحية، والقليل الغائلة. ثم صافحه بيمينه، وعانَقَه بشماله، وأجلسه معه على فِراشه، وأقبل يسائله ويحادثه، ثم قال: عَجّلوا لأبي عبد الله إذنَه وجائزتَه وكسوته. فلما خرج أمسكه الربيع وقال له: رأيتك قد حرّكت شفتيك فانجلى الأمر، وأنا خادم السلطان، ولا غنًى لي عنه، فعلّمْني إياه، فقال: نعم، قلت: اللهم احرسني بعينك التي لا تنام، واكنفني بحفظك الذي لا يرام، لا أهلِك وأنت رجائي، فكم من نعمة أنعمتها عليّ قلَّ عندها شكري فلم تحرمني، وكم مِنْ بليَّة ابتُليت بها قلّ عندها صبري فلم تخذلني. اللهمّ بك أدرأ في نحره، وأعوذ بك من شره.

ومن قال إذا سمع المؤذن: رضيت بالله ربًّا، وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبيًّا، غفرت له ذنوبه.

ومن دعاء الأعراب: قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: ما من قوم أشبه بالسَّلف من الأعراب لولا جفاء فيهم.

وقال: غَيْلان إذا أردت أن تسمع الدعاء فاسمع دعاء الأعراب.

وقال الأصمعي: سمعتُ أعرابيًّا بفلاة من الأرض يقول: اللهمّ إن استغفاري إياك مع كثرة ذنوبي لَلؤمٌ، وإن تركي الاستغفار مع معرفتي سعة رحمتك لَعجز، إلهي كم تتحبَّبُ إليّ برحمتك وأنت غني عني، وكم أتبغّض إليك بذنوبي وأنا فقير إليك: يا من إذا وَعَد وفَّي، وإذا أوعد عَفَا، أدخل عظيم جُرْمي في عظيم عفوك، يا أرحم الراحمين.

قال: وسمعتُ آخَر يقول في دعائه: اللهم إنّي أسألك عمَل الخائفين، وخوف العاملين، حتى أتنعمَّ بترك النعيم طمعاً فيما وعدت، وخوفاً ممّا أوعدت. اللهمّ أعذني من سطواتك، وأجِرْني من نقماتك.

قال: ودعتْ أعرابيّة لابنٍ لها خرج مسافراً، فقالت: كان الله صاحبَك في السفر، وخليفتَك في أهلك، وانجح طَلِبَتك، امشِ مصاحَباً مكلوءا، لا أشمت الله بك عدوًّا، ولا أرى فيك لمحبّك سوءاً.

وهذا الباب كثير، وإنما ذكرنا من الأدعية ما جُرّب واستُحسن، والله ينفع بها آمين.
قال أعرابي يصف دعوة: [الطويل]

وساريةٍ لم تسرِ في الليل تبتغي	محلاً ولم يقطع بها البيدَ قاطعُ
سرتْ حيث لم تَسْرِ الرّكاب ولم تنخ	لِوِرْدٍ ولم يقصر لها القيْدَ مانعُ
تحلُّ وراء الليل والليلُ ساقطٌ	بأوراقِهِ فيه سَمِيرٌ وهاجِعُ
تفتّح أبوابُ السماء لوفدِها	إذا قرع الأبواب منهنَّ قارعُ
إذا وفدتْ لم يردِدِ الله وفدَها	على أهلها، والله راءٍ وسامعُ

وإنـي لأرجـو الله حـتـى كـأنـنـي أرى بـجـمـيـل الـظـنّ مـا الله صـانـع

* * *

ثمَّ سِرنا نُزجِي الحَمُولاتِ، بالدُّعوتِ، لا بالْحُدَاة، وَبِحمِي الْحمُولاتِ، بالكلماتِ لا بالكمُماة، وَصَاحبُنَا يَتعهّدُنَا بالعَشِيِّ والْغدَاةِ، وَلاَ يَسْتَنْجِزُ مِنَّا العِدَاتِ، حتى إذا عايَنَّا أطْلال عانة، قالَ لنَا: الإعانة الإعانةَ، فأحضرناه المعلومَ والمكتومَ، وَأرينَاهُ المَعْكُومَ والمختوم، وَقُلنَا له: اقْضِ ما أنْتَ قاضٍ، فمَا تَجدُ فينَا غير راضٍ، فَما استخفّه سوَى الخفِّ وَالهيْن، وَلا حلِيَ بِعَيْنِهِ غيرُ الْحَلْي والْعَين. فاحْتَملَ مِنهُمَا وِقْرَهُ، وناءَ بما يَسُد فْقرَه، ثُم خالَسْنا مُخالَسَة الطَّرَّارِ، وَانْصَلتَ مَنَّا انْصِلاَتَ الفِرَّارِ فأَوْحَشنا فِرَاقِه، وأدْهَشَنا امْتراقُه، ولم نَزلْ نَنشدُه بكلِّ نادٍ، ونَسْتَخبِر عَنهُ كلَّ مُغْوٍ وَهَادٍ، إلى أن قيل: إنه مُذْ دَخلَ عانة، ما زايلَ الْحانة.

* * *

قوله: «نزجي»، أي نسوق. الْحَمولات، بفتح الحاء: الإبل، وبضمَها الأحمال. الحُداة: خدَمة الإبل، بمنزلة المكارين للدوابِّ. نحمي: نمنع الكماة: الشجعان. يتعهّدُنا: يتفقّدنا. يستنجز: يطلب إحضار ما وعد به عانة، بعين غير منقوطة: قرية بالجزيرة كثيرة الأعناب.

وقال امرؤ القيس: **[الكامل]**

* مِنْ خَمرِ عَانَة أو كُروم شِبَامِ *[1]

وأطلالها: آثارها، يريد أنه لمّا أشرف على عانة، قال لهم: أعطُوني ما أستعين به. المعلوم: الظاهر. والمكتوم: المستور. والمعكوم: المجعول في عَكمْ، قال يعقوب: العِكْمَ: نَمَطُ تجعل فيه المرأة ذخيرتَها، أو يكون المعكوم المشدّود بالعِكام، وقد تقدّم آنفا، والمختوم: المطبوع عليه، يريد: أريناه أنواع أموالنا. استخفّ: استحقر. الخِف: الخفيف. الهَيْن: الهيْن. حَلِيَ: حَسُن. الحَلْي: ما يتحلّى به النّساء. والعين: الذهب والفضة، يريد أنه استحقر الخفيف القَدْر الهيّن القيمة، مثل الإمتاع، وشبهها فتركها، وأعجبه الحليّ والذهب فحملهما، أو يكون معنى «استخفّ» وجده خفيفاً، والخِفّ والهَيْن، يريد الخفيف عليه حمله، الهيّن عليه نقله؛ يريد الذهب والجوهر، ويكون قوله

---

(١) صدره:

أُفُـقٌ كـلـونِ دم الـغـزالِ مـعـتَّـقٌ

والبيت في ديوان امرىء القيس ص ١١٥، وهو بلا نسبة في مقاييس اللغة ١/ ١٤٨.

«حَلِيَ بعينه» وما بعده مفسّراً ومؤكداً لاستخفّ وما بعده، وهذا أشبه من الأول.

وقْره: حِمْله. ناء: نهض بثقل. خالسنا: سارقنا وتسلل عنّا. الطّرّار: الذي يشقّ الجيوب ويستخرج ما فيها، والطّرّ: القطع، وقد طر طَرًّا، وطُرّة الشعر منه، لأنها مقطوعة من جملته، مفصولة عنه. والمنتهز الذي يخطف من يدك الشيء بسرعة. انصلَت: انسلّ ولم يشعر به. والانصلات: سقوط السيف من الغِمْد. والفرّار، وهو الزّاووق، ويسمّى الزئبق، سمي فراراً لأنه سريع السَّيَلان لا يستقّر في موضع، والفِرار من كثر فراره. أوحشَنا: أذهب أنسنا أدهشنا: حيّرنا. امتراقه: خروجه مسرعاً، ومُرَق السهم: خوج من القوس، ومن الرميّة. ننشده: نطلبه مغوٍ وهادٍ: مضلّ ومرشد. الحانة: بغير نقط: بيت الْخَمّار أو حانوته، والحان والحانة هي الدسْكَرة التي ذكر، وقال ابن شهيد فيه: **[الكامل]**

يــا رب حــانٍ قــد أدرت بـديـرهِ ... خَمْر الصِّبا مُزجَتْ بصفْوِ خُمُورهِ
في فتيةٍ جعلوا الزِّقاق تكاءَهُمْ ... متصارعين تخشُّعا لكثيرهِ
يُهدى إلينا الراح كُلُّ معصفرٍ ... كالخِشف خفّرَه الْتِماحُ خَفيره
والَى علـيَّ بِطَرْفِهِ وبكفِّه ... فأمال من رأسي لعَبٍّ كبيرهِ
وترنّم الناقوس عند صلاتهِمْ ... ففتحتُ مِنْ عَيْني لرجع هديره

زايل: فارق

***

فأغْرَاني خُبْثُ هَذا القَول بسَبْكِه، والانسِلالِ فِيما لَسْتُ مِنْ سِلْكِه، فأدْلَجتُ إلى الدَّسْكَرة، فِي هَيئةٍ مُنكَّرَةٍ، فإذا الشَّيخُ فِي حُلَّةٍ مُمَصَّرَةٍ، بَينَ دِنانٍ ومِعصَرَةٍ، وحَولَهُ سُقَاةٌ تبهَرُ، وشُموعٌ تَزْهَر، وآسٌ وعَبْهَرٌ، ومِزمَارٌ وَمِزهَرٌ، وهُو تارَةً يَسْتَبدِل الدِّنان، وَطَوراً يَستنطقُ الْعِيدان، وَدَفْعةً يَسْتَنشِقُ الرَّيْحَانَ، وأُخْرَى يُغَازِلُ الْغِزْلاَنَ. فلمَّا عَثَرْتُ عَلَى لَبْسِه، وَتفَاوُتِ بينَ يَومِه من أمْسِه، قُلْتُ له: أوْلَى لَكَ يا مْلعُون، أأنْسِيتَ يَومَ جَيْرُونَ! فَضَحِكَ مُسْتَغْرِباً ثم أنشد مِطْرِباً:

***

أغراني: حَثَّنِي. سَبْكه: تجريبه. الانسلال: الدخول. سلكه: شكله، وانسلكت حبة اللؤلؤ: جرتْ في السِّلك، وهو خيط النظام. أدلجتُ: مشيت بالليل. الدسكرة، بناء كالقصر حوله بيوت يسكنها الخمار والحشم، قال الجعديّ: **[المتقارب]**

ودَسْكـرةٍ صـوتُ أبـوابِـهَـا ... كـصـوت المـواتـحِ بـالـحـوأب
سـبـقـتُ صـيـاح فـراريـجـهـا ... وصـوت نـواقـيـسَ لـم تـضـرَب

بـــرَيّـــةِ ذي عـــتـــبٍ شــارفِ وصـهـبـاء كـالـمـسـك لـم تـقـطَـب

المواتح: البكرات، والحوأب: اسم ماء الفراريج: الديوك عتب: أوتار، وشارف: اسم العَوْد، شبهّه بالشارف من الإبل، لأنها أغنّ صوتاً وأطربه، قال متممّ: [الطويل]

إذا شارف منهنّ قامت فرجّعت حنيناً فأبكى شجوها البرك أجمعَا[1]

ممّصرة: مصبوغة بالمصرة، وهي العصفر قبل أن يوضع فيه الخلّ، فلونها أصفر، فإذا وُضع فيها الخلّ أحمر ما يصبغ به وسمِّي معصفراً. والحُلّة: ثوبان: إزار ورداء، وسُمِّيتْ حُلّة، لأنها تَحلّ على لابسها كما يَحُلُّ الرّجل على الأرض دِنان: جمع دَنّ، وهو نوع من الخوابي طويل الأسفل ضيّقه، ويسمَّى الراقود.

وهذه الحالة التي وَجدَ عليها الحريريّ السَّرَوجيّ بعد ذلك الترهّب الذي كان عليه في أول المقامة لها نظائر لرجال مشاهير بالعلم والفصل.

* * *

[في مجالس الشراب]

حكى الثعالبيّ في يتيمته، وقد ذكر القاضي التنوخيّ فقال: هو أبو القاسم عليّ بن محمد بن داود بن فهم، من أعيان أهل العلم والأدب، وأفراد ذوي الكَرم وحسن الشيم، وكان كما قرأت في فصل للصاحب: إن أردت فإني سُبْحة ناسك، أو أحببت فإني تفاحة فاتك، أو اقترحت فإني مدرعة راهب، أو اخترت فإنّي نخبة شارب.

وكان تقلّد قضاء البَصْرة والأهواز بضع سنين، وكان المهّلبي وغيره من وزراء العراق يميلون إليه جدًّا، ويَعُدُّونه ريحانة الندماء، وتاريخ الظرفاء، يعاشرون منه مَنْ تطيب عشرته، وتلين قشرته، وتكرم أخلاقه، وتحسن أخباره، وتسير أشعاره؛ ناظمةً حاشيتي البّر والبحر، وناحيتي الشرق والغرب. وكان من جملة القضاة الذين ينادمون الوزير المهَّلبيّ، ويجتمعون إليه في الأسبوع ليلتيْن، على اطِّراح الحشمة والتبسّط في القصف والخلاعة، منهم ابن قريعة وابن معروف والقاضي التنّوخي وغيرهم، وما منهم إلا أبيض اللحية طوِيلُها، وكذلك كان المهلبيّ، وإذا تكمّل الأنس، وطاب المجلس، ولذّ السماع، وأخذ الطرب فيهم مأخذه وهَبُوا ثوبَ الوقار للعُقار، وتقلبّوا في أعطاف العيش، بين الخِفّة والطيش، ووُضع بين يدي كلّ واحد منهم طست من ذهب من ألف مثال مملوء شراباً، فيغمس فيه لحيتَه، بل ينقعها حتى تشرب أكثره، ويرشّ بعضهم بعضاً، ويرقصون بأجمعهم، وعليهم مصبّغات الثياب، ومخانق البرم، ويقولون كلما يكثر شربهم هرهر، وفيهم يقول السريّ: [المنسرح]

---

(١) البيت لمتمم بن نويرة في ديوانه ص ١١٧، ولسان العرب (برك)، وتاج العروس (برك)، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٣٢٥.

مجالسٌ ترقص القضاة بها إذا انتشوا في مخانق البَرم

وإذا أصبحوا عادوا لعادتهم في الترهّب والتوقّر والتحفّظ وأبهّة القضاة وحشمة المشايخ الكبراء.

وقال في ابن معروف: كان كما قرأته في فصل للصاحب: شجرة فضل عودها أدب، وأغصانها علم، وثمرها عقل، وعرُوقها شرف؛ تسقيها سماء الحرّية، وتغذوها أرض المروّة، وفيه يقول الصابي: [البسيط]

أقسمت بالله ما يرجى لمعروفِ في الحادثات سوى القاضي ابن معروفِ

ومن شعر ابن معروف: [الكامل]

لو كنت تدرِي ما الذي صنع الهوى والشّوْق في الجسم النّحيل البالِي

لهجرتَ هجري واجتنبت تجنُّبي ووصلت مِن بعد النّعيم وصالِي

وقال القاضي التنوخي في غلام جسيم: [الوافر]

له في كل عضوٍ دِغْصُ رَمْلٍ ثقيل الجسم ذو روحٍ خفيفِ

أأعشق لا عشقت أخَا نحولٍ كأني لست ذا الخلق الظّريف

إذا لمستْهُ كفي لم تلامس سوى جِلْدٍ على عظم ضعيفِ

شرب المأمون وعبد الله بن طاهر، ويحيى بن أكثم القاضي، فتعامل المأمون وابن طاهر على سُكْرِ يحيى فغمَزا به الساقي، فأسكره، وكان بين أيديهم رِزَم من ورد وريحان، فأمر المأمون، فشق له قبرٌ في الرِّزَم وصُيِّر فيه. وعمل بيتي شعر، ودعا قيْنة فجلست عند رأسه، وغنّت بهما وهما:

ناديته وهو حيّ لا حرَاكَ به مكّفنٌ في ثيابٍ من رياحينِ

فقلت: قم، قال: رجلي لا تطاوعني فقلت: خذ، قال: كفي لا تواتيني

فانتبه يحيى لرنة العود فقال: [البسيط]

يا سيّدي وأميرَ الناس كلّهِمُ قد جَار في حكمه مَنْ كان يَسْقِيني

إني غفلْتُ عن السَّاقي فصيَّرني كما تراني سليبَ العقل والدينِ

لا أستطيع نهوضاً قَدْ وَهَى قدمِي ولا أجيب لداعٍ حين يدعوني

فانظرْ لنفسك في قاضٍ يكون لكمْ إني غدوتُ دفيناً في الرّياحين

* * *

والحالة التي وصف بها أبو زيد خَلَعتِ الأمينَ عن الملك، ونقلته إلى المأمون. قال الربيع: قعد الأمين يوماً للنّاس وعليه طيلسان أزرق، وتحته لِبْد أبيض، فوقّع على

ثمانمائة قصَّة، فلقد أصاب فما أخطأ، وأسرع فما أبطأ، ثم قال: يا ربيعُ أتراني لا أحسن التدبير والسياسة، ولكني وجدتُ شمَّ الآس، وشرب الكأس، والاستلقاء من غير نعاس، أشهى إليّ. وكذلك خلعت قبلَه الوليد بن يزيد، وبعده المتوكل وغيرهم من الخلفاء والأمراء، ممّن آثر راحة النفس على تعب السياسة.

قوله: «تبهْر» أي تسقيه بالبَهار، وهو شِبْه الإبريق، وقيل: تبهر، تغلب العقول بحسنها، يقال: بهر بهراً، إذا غلبه، وبَهر القمر السماء: ملأها بنوره تزهر: تضيء. شموع: مصابيح الشمع. آس: ريحان. عَبْهر: نرجس، وقيل: ياسمين، قال عَليٌّ رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «شُموا النّرجس ولو في اليوم مَرّة واحدة، ولو في الشهر مرّةً واحدة، ولو في الدّهر مَرَّةً واحدة، فإنّ في القلب حَبّةً من الجنون والجذام والبرَص، لا يقلعها إلا شم النَّرجس».

وقال عليّ رضي الله عنه: حَبَاني النبيّ ﷺ بالورْد، وقال: «أَما إنه سيّد ريحان الجنّة بعد الآس».

وقال أردشير بن بابك: الورد دُرّ أبيض، وياقوت أحمر، على كراسيّ زبرجد أخضر، بوسَطِّه شذور من ذهب أصفر، له رقة الخمر، ونفحات العطر.

[مما قيل في الأزهار شعراً]

ونذكر هنا طرفاً من المنظوم في الأزهار يليق الموضع بحول الله تعالى، قال محمد بن عبد الله بن طاهر ملمًّا بقول أردشير: **[البسيط]**

كأنهنَّ يواقيتٌ يُطيف بها ... زمُرّد وسطه شذر من الذَّهب

فاشرب على منظر مستطرَفٍ حَسَنٍ ... من خمرةٍ مُزجَتْ كالجمر في اللَّهَبِ

وللمعتمد بن عباد: **[السريع]**

كأنّما ياسمينُنَا الغضُّ ... كواكبُ في السماء تبيَضُّ

والطرُق الحمرُ في جوانبه ... كنهدِ عَذْراءَ مَسَّه عَضُّ

ولأبي الفضل الميكاليّ:

وما ضمَّ شملَ الأنس يوماً كنرجسٍ ... يقوم بعذر اللهو عن خالِع الْعُذْرِ

فأحداقه أحداق تبرٍ وساقُه ... كقامة ساقٍ في غلائله الخُضرِ

ولعضد الدولة: **[البسيط]**

يا طيبَ رائحةٍ من نفحة الخيرِ ... إذا تمزق جِلْبَابُ الدَّيَاجِيرِ

كأنما رُشّ بالما ورد واعتبقتْ ... به دواخن نَدٍّ عند تبخيرِ

كأنّ أوراقه في القدّ أجنحةٌ ... حمرٌ وصفر وبيضٌ من زنابِيرِ

ولعليّ بن بسام: [البسيط]

أما ترى الورْدَ يدعو للورُود على ... حمراء صافيةٍ في لونها صَهَبُ
مَداهنٌ من يواقيت مركَّبةٌ ... على الزبرجَدِ في أفواهها ذهبُ

وقال آخر: [المنسرح]

نرجسة عينها محبَّرةٌ ... لم تكتحل قطُّ آفة الغمضِ
باكرها الطّلّ فهي باهتةٌ ... تنظر فعل السماء في الأرضِ

وللأسعد بن بليط: [السريع]

بنفسجٌ باتت أكفّ الصبا ... تنشره في زرقةٍ لا تُحَدّ
كأنما قُطّ بمنشوره ... رؤوس أقلام من اللازَوَردْ

وقال آخر في نَوْر الباقِلاّ: [البسيط]

نوّارَة البَاقِلاَ إذْا راق منظرُها ... تَحكي الفراشَةَ تنقيطاً وتُرييشا
كأنّما هي ما حول الذبالة إذْ ... مَدّت جناحاً مكان الكفِّ مرقوشا

والباب كثير.

* * *

قوله: «مزهر» عود الغناء. يَسْتبزل: يستسقي منها شراباً، والمِبْزَل الثقب في جانب الخابية تجري منه الخمر صافية، ويبقى العكر في قعرها، قال الأخطل: [البسيط]

لما أتَوْها بمصباح ومِبزَلِهِمْ ... سارتْ إليهم سئورَ الأبجل الضارِي[1]
تدمى إذا طعنوا فيها بجائفةٍ ... وفي الزّجاج عتِيقٌ غير مسطارِ

أراد أن الخمر خرجت خروج الدم من الأبجل، وهو عرق.

وقال ابن حصين: [السريع]

حجبتُ عنها الدّنّ فاستعبرت ... جرياً كما قوّس إحليلُ
كأنها في الكأس منصبّةً ... خيط من الفضة مفتولُ

وقال آخر في قمع الشراب: [المتقارب]

ولما رأى الناس فضل المدامِ ... وخافوا على جُرْمِهَا أن يسيلاَ

---

(١) البيت الأول في ديوان الأخطل ص ٨٢، والكتاب ٤/ ٥٠، ولسان العرب (سور)، (ضرا)، والبيت الثاني في ديوان الأخطل ص ٢٢، ولسان العرب (صطر)، (مصطر)، والمخصص ١١/ ٧٥، وفي الديوان: «غير مصطارِ» بدل «غير مسطارِ».

تـواخـوْا إلـى شـربـهـا بـيـنـهـمْ ... سـبـيـلَ حـفـاظ فـكـنـت الـسَّـبـيـلا

قوله: «يستنطق»، يأمر بضربها ليُسمع صوتها يستنشق: يَشَمّ يغازل: يلاعب. عَثَرت: اطَّلَعت، وأعثرت في معناه. لَبْسه: تخليطه. تفاوت: تباعد. أولى لك: كلمة تهديد معناها: قد وليَك الشرّ فاحذر. والملعون: المطرود، ولعنه الله: طرده، والاستغراب: الضحك الكثير.

ومما يوافق شعره وحاله قول الببغاء: [**الخفيف**]

غـادَنـي بـالـصَّـبُـوح قـبـل الـصَّـبَـاحِ ... واجـر فـي حـلـبـة الـصَّـبـا والـمِـراحِ

عـاصِـنِـيـهـا كـالـجّـلـنـار إذا مَـا ... كُـلِّـلَـتْ مـن حَـبـابـهـا بـالأقـاحِ

في اختصاصِ التفاح بالطيب والخُمْـ ... ـرةِ لاَ فِـي كـثـافـةِ الـتـفـاح

خَـدَمَـتْـهـا الأجـسـام بـالـطـبـع لـمّـا ... شـاهـدتْ قُـرْبَـهـا مـن الأرواح

فـتـدارك بـهـا حُـشـاشـة نـفـسـي ... أو فـحـرّك بـهـا سـكـونَ ارتـيـاحـي

بـيـن ورديْـن مـن بَـنَـانٍ وخـدٍّ ... وشـرابـيـن مـن رُضـابٍ وراحِ

ونـشـيـد مُـسْـتَـنْـبَـطٍ مـن حـديـثٍ ... وغِـنـاء يُـغْـنِـي عـن الاقـتـراح

فـألـذّ الـحـيـاة مـا خـالـط الـعـاً ... قـلُ فـيـهـا فـسـادَه بـصـلاح

وله أيضاً في مثله: [**الخفيف**]

زمَـنُ الـورد أشـرف الأزمـانِ ... وأوَانُ الـربـيـع خـيـر أوانِ

أشرفُ الزهر زارَ في أشرف الدّهـ ... ـر فَـصِـلْ فـيـه أشـرف الإخـوان

وأدرهـا عَـذْرَاء وانـتـهـز الـ ... إمـكـان مـن قـبـل عـائق الإمـكـان

فـي كـؤوسٍ كـأنّـهـا زَهَـر الـخُـشْـ ... ـخاشِ ضَـمَّـت شـقـائـقَ الـنّـعـمـان

واخـتـدعـهـا عـنـد الـنُّـزال بـألـفـا ... ظ الـمـثـانـي ومـطـربـات الأغـانـي

وقال [ابن] وكيع في الخشخاش: [**الوافر**]

وخـشـخـاشٍ كـأنّـا مـنـه نـفـرِي ... قـمـيـص زبـرجـدٍ عـن جِـسْـمُ دُرٍّ

كـأقـداحٍ مـن الـبـلّـوْر صـيـنـتْ ... بـأغـشـيـةٍ مـن الـديـبـاج خـضـرِ

وقال آخر في شقائق النعمان: [**المتقارب**]

كـأنّ الـشـقـائـق إذا بـرّزت ... غـلالـةِ دُرّ وثـوبـاً أحـمّ

قـصـاع مـن الـجـمـر مـشـبـوبـةٌ ... بـأوسـاطـهـا لُـمَـعٌ مـن حُـمَـمْ

* * *

لَـزِمْـتُ الـسِّـفَـارَ وَجُـبْـت الْـقِـفَـارَ ... وَعِـفْـتُ الـنِّـفَـارَ لأجْـنِـي الْـفَـرَحْ

وخُضْتُ السُّيُولَ وَرُضْتُ الْخُيُولَ ... لِجَرِّ ذيولِ الصِّبا وَالْمَرَحْ
ومِطْتُ الْوَقارَ وبِعْتُ العَقارَ ... لِحَسْوِ الْعُقارِ ورَشْفِ الْقَدَحْ
ولَوْلا الطِّماحُ إلَى شُرْبِ رَاحْ ... لَمَا كانَ باحْ فَمِي بالْمُلَحْ

* * *

قوله: «السفار»: مصدر سافرت. جُبْت: قطعت. عِفْت: كرهت خضت: جزت ومشيت فيها. رُضْت: ذَلّلت وركبت. المرَح: النشاط والعجب. مِطْت: نَحّيت وأزلت، ويقال: ماط وأماط: باعد، وأيضاً باعد غيره، والأصمعيّ يقول: ماط هو، وأماط غيرَه. العَقَار: المال الثابت الذي لا يُنقل. حَسْو: شرب. العُقَار: الخمر. رَشْف: مَصّ الطِّماح: ارتفاع النظر. باح: تكلَّم والمُلَح: الكلام الحلو، يريد أنه فعل ما ذكر ليرتاح ويشرب الخمر.

* * *

[مما قيل في الخمر والشراب]

ذكر أبو محمد الحريري في هذا الموضع من المقامات أوصافَ الخمر وفضلها ومنافعها، وذهابها بالهموم والأسقام، وذكر أنها من أفضل الأشياء وأن بيع أشرف الأعلاق فيها سداد، وأن ترك الإصغاء فيها إلى العَذَل رشاد؛ وأن كمال لذّتها مع السُقاة الحسان، والتطّريب بأنواع الغناء والألحان، إلى غير ذلك مما أشار إليه، ونبَّه عليه، وأنا أسوق هنا في وصف الخمر فصلا من كلام الحكماء والأدباء وسائر الأفاضل من الملوك ومهرة الشعراء، جريا معه في أغراضه، حسبما فعلناه في العاشرة في أوصاف الغلمان، وفي الحادية عشرة في فضائل أهل الأديان وأكثر اعتمادي في هذا الفصل على اختيارات انتقيتها من كتاب قطب السرور، وضَمَمْت إليها ما يلائمها من غيره، وهو فصل بديع في بابه.

ذكر مؤلفه في منافع الخمر وفضائلها قول الله تعالى: **﴿ومِنْ ثَمَراتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنه سَكَراً ورزقاً حسناً﴾** [النحل: ٦٧] وقال تعالى في الجنة: **﴿فيها أنهارٌ من ماء غير آسن وأنهارٌ من لَبَنٍ لم يتغيَّر طعمُه وأنهارٌ من خمر لذة للشاربين وأنهارٌ من عَسَلٍ مُصَفًّى﴾** [محمد: ١٥، ١٦] فلم يذكر الماء واللبن إلا بالسّلامة من التغيّر، والعسل إلا بأنه مُصَفًّى، وجعل الخمر لذّة للشّاربين، فكان هذا من التفضيل. وقال تعالى: **﴿يَطُوفُ عليهم وِلْدَانٌ مُخَلّدُون بأكواب وأباريقَ وكأسٍ مِنْ مَعِينٍ لا يُصَدَّعون عنها ولا يُنْزِفُون﴾** [الواقعة: ١٨، ١٩]، فنفى عنها عيوب خمر الدنيا، وهي ذهاب العقل بالسكر والصداع بالْخُمار وذهاب المال، كما قال تعالى في فاكهتها: **﴿لا مَقْطُوعَةٍ ولا مَمْنُوعَةٍ﴾** [الواقعة: ٣٢، ٣٣]، فنفى عنها عيوب فاكهة الدنيا التي تأتي في وقت وتنقطع

في آخر وتمنع إلا بالثمن، وقال تعالى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فيهَا كأساً كانَ مِزَاجُها زَنْجَبِيلا﴾ [الإنسان: ١٧].

وأما ما ذكره تعالى من أنَّ فيها منافع للناس، فإنَّ منافعها لا تحصى كثرة، فمن منافعها ما يصيب النَّاسَ من أثمانها، ولو لم تعصر الأعناب لبارت على أهلها ومنها صلاح الجسم لأنها تروّق الدم وتَفْتِق اللسان، وتزيد في الهِمَّة، وتهوّن الرزيّة، وتمدّ في الأمنية، قال جالينوس: الخمر تدرّ الدم وتصفّي اللون، وتقوّي المنَعة، وتبعث النشاط. وقال أفلاطون: إنما كان النبيذ يثمر السرور، ويولِّد الضحك، ويطيّب النفس لشبهه بالدم، وأنّه يفعل في الجسد إذا اعتدل فعله، لأنه أحمر حارٌ رطب والدم أحمر حارٌ رطب، فإذا صحّ جوهره، وتمّت أجزاؤه ولَّد في النفس السرور والضحك والنشاط.

الحارث بن كلَدة. طبيب العرب: الطِّلاء[1] مصلحة للبدن ومطيبة للنفس، تفتح له العروق أفواهها، كما تفتح الفراخ أفواهها للطعام.

بعث قيصر إلى قُسّ بن ساعدة، فسأله: أيّ الأشربة أفضل؟ فقال: ما صفا في العين، ولذّ على الذوق، وطابت رائحته في الأنف من شراب الكرْم، قال: ما تقول في مطبوخه؟ قال: مرعًى ولا كالسَّعدان، قال: فما تقول في نبيذ الزبيب؟ قال: ميّت أحْيِيَ، وفيه بعض المنفعة، وما يكاد يَحْيَا من مات مرّة، قال: ما تقول في نبيذ العسل؟ قال: نِعْمَ شراب الشيخ للإبردة[2] والمعدة الفاسدة.

قال: فنبيذ التمر؟ قال: أوساخ تدعو إليها ضرورات تُذَمّ عاقبتها في الأبدان، قال: فما الَّذي يذهب بالهموم عند الشراب؟ قال: جوهر فيه لا تبلغه عقول العباد، قال: فما أصلحُ أوقات الشراب؟ قال: أوّل النهار، ألا ترى أنّ الدواء يبكَّر به، والمسافر يُدْلج لحاجته! لأنَّ العقول أول النهار أذكى والفطن أصحُّ، قال: فمنْ أيّ شيء يكون الخُمار؟ قال: من ضعف قوة الجوارح عن جذب ما يصعد إلى الدماغ من البخار حتى يفشيَه الهواء قليلاً قليلاً، قال: فالصِّرف أفضل أم الممزوج؟ قال: الصِّرْف سلطان جائر، والممزوج سلطان عادل، والعادل مصلح، والجائر مفسد، قال: أفتشربه أنت؟ قال: نعم، ولا أبلغ ما يغيّر عقلي، قال: ولم؟ قال: أصونه لسؤال مثلك.

أمر الوليد بن يزيد بحمل ابن شرّاعة من الكوفة، فلما قدِم عليه، قال: يا بن شراعة، والله ما أرسلت إليك، أسألك عن كتاب الله ولا عن سنة نبيه، قال: يا أمير المؤمنين لو سألتَني عنهما لوجدتني حِماراً، قال: أرسلت إليك أَسألك عن القهوة، قال: دِهْقانها الحكيم وطبيبها الرفيق العليم، فاسأل عمّا بدا لك، قال: فأخبرني عن الماء،

(١) الطلاء: من أسماء الخمر.

(٢) الإبردة، بكسر الهمزة والراء: علة من غلبة البرد والرطوبة.

قال: لا بدّ لي منه والكلب والحمار شركائي فيه، قال: فما تقول في اللبن، قال: ما رأيته إلا استحييتُ من أميّ لطول ما أرضعتْنِي إياه، قال: فالسَّويق؟ قال: شراب المحرور والعجلان والمسافر، قال: فنبيذ التمر؟ قال: سريع الامتلاء، سريع الانفشاش، قال: فما تقول في نبيذ الزبيب؟ قال: حومة حاموا بها على الشراب، فلم يصيبوه، قال: فما تقول في الخمر؟ قال: تلك صديقة رُوحي، جلتَّ عن المثْل، تلك التي تزيد النفس إشراقاً، قال: فأنت يابن شراعة صديقي، اجلس، أيُ الطعام أحبُ إليك؟ قال: يا أمير المؤمنين، ليس لصاحب الشراب على الطعام حكم، غير أنّ أنفعه أدسمُه وأشهاه أمرؤه، قال: فأيّ المجالس أحبُ إليك أن يكونَ شربنا فيه؟ قال: ما لم تخفِ الشمسُ أن تحرقه، أو السماء أن تغرقه، ولا تشرب إلاّ على وجه السّماء، فوالله يا أمير المؤمنين ما نادم الناس أصبح من وجهها، قال: فابرز بنا. فلم يُرَ بعد ذلك يشرب إلا تحت السماء.

كان أبو للسَّائب فقيهاً وَرِعاً ظريفاً فسأله بعضُ المجّان، فقال: يا أبا السائب ما تقول في نبيذ الجَرّ؟ قال: اشربْه حتى تُجرّ قال: فنبيذ الدّنّ، قال: اشربهْ حتى تجنَّ، قال: فالدَّاذي؟[1] قال: أحلى من العسل الماذِي، قال: فنبيذ الزبيب والعسل؟ فرفع يديه، وقال: العظمة لله، قال: فما تَقول في الخمر؟ قال: لا أشربها قال: ولم؟ قال: أخاف ألاّ أؤدّيَ شكرها فتنزع مني.

قيل لأبي نواس: صف لنا الأشربة، قال: أمّا الماء فيعظم خطرُه بقدر تعزّزه، وأمّا السويق فبُلغة العجلان، ورويّ الظمآن، وأمّا العسل فنبيل المنظر، سخيف المخبر، وأمّا الخمر فهي شقيقة الرُوح وصديقة النفس ما ارتُضعت ممزوجةً، وصِرْفها غير مأمون على نَهْك البدن وغَرْس السَّقَم المؤدّي إلى العطب.

قالت الهند: إنَّ الشراب مبارك، يزيد في الدّم بحرارته، ويكسر البلغم بحدته، ويشهي الطعام بلطافته، وأما السكر فمحرّم في كلِّ ملّة، وسبيلٌ من سُبُل الضلالة، واسم من أسماء الوسْوَسة، قبيح الأفعال، مذموم الأحوال.

وقالت الحكماء: من فضائل الشراب؛ أنّ كل مشروب وإن راق وصفا وحلا وعُذب، فأوّله طيّب، ثم يعود في نقصان حتى يعود مكروها إلا الشراب، فإنّك كلّما ازددت منه ازددت فيه رغبَة وحبًّا، وكان أوسطه إليك أعجبَ، وآخره أطرب، حتى إذا سرا في العروق برقَّته، وعمَّ البدن بلطافته، ودبَّ في الأعضاء والمفاصل دبيب النمل في نَقَا الرمل، وخادع عقلك فامتلأتَ بهجة وسروراً، وعدت ملكاً محبوراً، تضرب في الخلافة بأوفر سهم، ثم أسلمك إلى النّوم الذي هو حياتُك وصحّتك، فاجتذبت النفس ما

---

(١) الداذي: شراب معروف بكثرة إسكاره.

شاكلها من لطيفه، وأخذ كلُّ عضو قوَّته من كثيفه، ثم لا يزال الهواء يخرج بالأنفاس متصعِّداً ببخاره، ويجذِب ما تحت الدماغ من أستاره، فحينئذ تهبّ بجذَل ونشاط، كأنما أنشِطت من رباط، وذلك تقدير العزيز العليم.

وقالوا: الشراب مصباح الظّلاَم، وشفاء الأسقام، وإذا تمشّى في عظامك جعلك خاليَ الذَّرْع؛ فسيح الباع، رخيَّ البال، قليل الاشتغال، رَحْب الْهِمَّة، واسع النعمة، فهو أخو الصبوة، وقسيم الشهوة، ولو لم يكن من منَنِه عليك إلاَّ أنه إذا مزجته بروحك، وخلطته بدمك، بغَّض إليك الحرص ونصبَه، والشَّرَه وتعبه، وحبَّب إليك المروءة والسماح، وحسَّن لك الفكاهة والمزاح.

وقالوا: الشراب يلذّ لك في السفر كلذته في الحضر، ويطيب استعماله في الصحو، كما يطيب في المطر؛ فهو أصل اللَّذات الذي عليه تتفرَّع، وعنصرها الذي عنه تنبع، وبه تتصل، وإليه ترجع، يردّ الشيوخ في طمع الشبّان، ويدعو الشبّان إلى نشاط النشوان، وقال أبو نواس في ذلك: **[السريع]**

ما العيش إلا في جُنون الصِّبا ... فإن تولَّى فجنونُ المدامْ

راحٌ إذا ما الشيخ والَى بها ... خمساً تردَّى برداء الغلام

فلله درُّ مَن استنبطه ودلّ عليه، وسقياً لمن بحث عنه واهتدى إليه، ماذا أثار وأيّ شيء أظهر!.

قالوا: ومدار قَوامه على اثني عشر شيئاً: المواد الثلاث، والقوى الأربع، والحواس الخمس. فالثلاث: هي نسيم الهواء، وعذوبة الماء، ومألوف الأهواء والأربع هي القوة الجاذبة التي تطيّب الطعام وتبرّده، والماسكة التي تمسكه وتجذبه، والهاضمة التي تهديه وتنضجه، والدافعة التي تدفع إلى كلّ عضو سهمه من جوهره، فتخرج عنه ثقله، والحواس الخمس: البصر والسمع والشم والذوق واللّمس. وكلّ شيء من ذلك تدخله الزيادة والنقص فلا يستغني عمَّا يقويه في حال ضعفه، ويصفِّيه من أوساخه، فلم يجد أهل التجارب الماضون لذلك سبباً أَبْيَن أثراً، ولا أخفّ محملاً، ولا ألطف دبيباً في الأبدان من ماء الكرم، فاستعملوه لذلك استعمالاً دائماً، فهو ريحانة النفس وترياقها، فيُشرب في كل حين، وينفع كل حاسة، وتحيد عنه النوازل والأحزان، وحُقَّ للنَّفْس أن تألفه، وللطبيعة أن تلائمه؛ إذ كان حبيبَها وشقيقَ روحها، فتراه يحدث في النفس الشجاعة والتكرّم والأناة والتحلّم.

ومن علامات الكريم إذا أخذ فيه الشراب الاستحياء والتودّد واللهو والسرور والبذْل لما في يديه، وكسوة جليسه من أنفس ثيابه، وإذا بلغَ المدَى في شربها توسَّد يسارَه، ونام حميداً كريماً.

ومن علامات اللئيم المماراة والسَّفَه، وفَتْل الشارب والتلفّت إلى العربدة وشدة

الغضب، وربما بكى وعوى عُواء الذئاب، ونَبَح نُبَاح الكلاب، فشرْب الماء يحرُم مع مثل هذا، فكيف الشراب!.

ومن فضائله أنه يلائم الطبائع المعتادة في كلّ زمان من فصول السنة، يشربه المحرور ممزوجاً فيبرده، والمقرور صِرْفاً فيسَخِّنَه، واليابس معتدلاً فيرطّبه، والمرطوب صِرْفاً فيجفّفه، فمن شربه في الصيف فيستحبّ له أن يشربَه على خضرة الجنان وتحت الظلال، وعلى المياه وعلى الورد والياسمين والبنفسج والآس والسفرجل والتفاح. وإن كان في الشتاء، فبخلاف ذلك، من الجلوس في الأكْنان واستعمال الكوانين، ولبس الأحمر والمُمَشّق[1] وشمّ فَتِيت المسك والعنبر والمرزنجوش[2].

وأمَّا الربيع والخريف فبين ذلك، لأخذهما من رطوبة الشتاء وحرارة الصيف وإذا اجتمع مع الشراب نغم وألحان على صنوف الملاهي والعيدان، تعاونا على إذهاب الغموم والأحزان، فللّه دَرُّ من استنبطه، ماذا أثار وعلى أيّ شيء دلّ!.

ولم لم يكن الشراب أغلبَ شيء على العقول، وأقربه للقلوب، وألطف محلا في النفوس، وأشدّ ملاءمةً للأجسام، وأجمعه لمحمود الخلال حتى لا تقاربه لذة، ولا تساويه شهوة، ولا تعدله خصلة من خصال المسرّات ـ لما حَملت الأشرافَ وذوي العقول أنفُسهم على معاقرته، لا يردّهم ما ينالهم فيه عن معاودته، من شنيع الأقوال ولوم العذّال، فيما أنفقوا عليه من الذخائر، وبذلوا من الأموال.

كان بالبصرة رجل ذو ضياع فأنفق ماله في الشراب، فباع ضيعته، فلمّا تمَّ البيع قال له المشتري: تأتيني بالعشيّ، أدفع لك المال، وأشاهدك، فقال: لو كنتُ ممَّن يَرى بالعشي ما بعت الضيعة.

قال محمود بن الحسن الكاتب: بعت داري فأصابني مثل هذا، فقلت: **[مجزوء الكامل]**

أَتْلَفتُ مالِي في العُقارِ ... وخَرَجْتُ فيها عن وَقَارِي
حتَّى إذا كُتب الكتا ... ب وجاءني رسل التّجار
قالوا: الشّهادَةُ بالْعَشيّ ونحـ ... ـنُ في صَدْرِ النّهارِ
فأجبتهمْ رُدُّوا الكتا ... ب ولا تِعنَّوْا بانْتظَارِي
لوْ كنت أظهر بالعشيّ لمـ ... ـا سمحتُ ببيع دارِي

وقال ابن الرومي: **[الخفيف]**

أنا أهوى ذاتَ الخُمار على الجيْـ ... ـب وذات الوِشاح والدّمْلجَيْنِ

---

(١) المُمشّق: أي المصبوغ.

(٢) المرزنجوش، وقيل: المردقوش، معرب مردكوش: هو الزعفران.

وأرى في النَّبيذ رأيَ صوابٍ لشيوخ العراق والكوفتيْنِ
وإذا ما الغناء خاض ذوو الألبـ ـاب فيه اعتصمت بالحَرَمَيْنِ
كُلَّما جاءت الرَّخائِصُ فيه كان أخذِي له بكلتا اليدين

وقال العَطَويّ: **[مجزوء الخفيف]**

جارةٌ لي أجارها الـ ـحسْن من كلِّ عائبْ
فهي بين النِّساء كالـ ـبدر بين الكواكبْ
سألتني هل النبيـ ـذ حلالٌ لشاربْ؟
قلت: إي والَّذي يُريـ ـنيكِ دُونَ الرَّقائِبْ
فاشربيه فإن فيـ ـه لإحدى العَجَائبْ
يُنْبِتُ الورد في ريا ض خدود الْكَوَاعِبْ

ولبعض المتقدّمين: **[البسيط]**

منْ ذا يحرّم ماءَ المُزْن خالطَهُ في جوفِ خابيةٍ ماءُ العناقيدِ
إنـي لأكره تشديد الرّواة لنا فيها ويعجبني قولُ ابن مسعودِ

وقال ابن الرومي: **[الطويل]**

أحَلَّ العِراقيُّ النبيذ وشربَهُ وقال: الحرامان المدامَةُ والسُّكْرُ
وقال الحجازيّ الشرابان واحِدٌ فحَّلت لنا بين اختلافهما الخمرُ
سَآخذ منْ قَوْلَيْهِما طرفيْهِمَا وأشربها حِلاً وللوَازِرِ اوِزْرُ

خرج الحسن بن هانىء، ومعه مُطَيط صاحبه، حتى أتيا دَيْر خَمّار، فقال الحسن لمطيط: ادخل بنا نَتَماجن على هذا الخمَّار، فدخلا فسلّما، فردّ عليهما السلام، فقال له الحسن: أعندك خمر عتيقة [يا خمار].

قال: عندي منها أجناس، فأيّ جنس تريد؟ قال: التي يقول فيها الشاعر: **[الخفيف]**

حُجبَتْ خيفةً وَصِينَتْ فجاءَتْ كجِلاء الْعَروسِ بَعْد الصِّيانِ
وكأنَّ الأكفَّ تصبغ من ضو ء سَنَاها بالْوَرْسِ والزَّعْفَرَانِ

فملأ له الخمّار قدَحاً من خمرة صفراء، كأنها ذهب محلول، فشربه الحسن، وقال: أحسن من هذا أريد، فقال له الخمَّار: من أيِّ جنس تريد؟ قال: التي يقول فيها الشاعر: **[الخفيف]**

رقَّقَتْها أيدي الْهَوَاجِرِ حتَّى صَيَّرَتْ جسمَها كجِسْم الْهَوَاءِ
فَهِي كالنّور في الإناء وكالنَّا رِ إذا ما تصير في الأحشاء

فملأ له الخمّار قدَحاً من خمرة كأنها العقيق، فشرِبه، وقال: ارفع من هذا أريد، قال: أي نوع تريد؟ قال: التي يقول فيها الشاعر: [الكامل]

فإذا حَسَا مِنها الوضيع ثلاثةً سَمُح الوضيع كفعل ذي الْقَدْرِ

في لونِ ماءِ المزن إلا أنّها بين الضُّلوع كواقِد الجَمْر

فملأ له الخمَّار قدحاً من خمرة بيضاء، كأنها ماء المزن، فشرب الحسن، وقال للخمَّار: أتعرفني؟ قال: إي والله يا سيِّدي، أنا أعرَفُ الناس بك، قال: فمن أنا؟ قال: أنت الذي يَسْكَر من غيرَ وزْن، فضحك الحسن، وقال لمطيط: ادفع إليه ما معك من النَّفَقة، فأعطاه مائة درهم وانصرف.

وقال أبو عثمان الناجم: دخلتُ على أبي العباس عبد الله بن المعتزّ، وهو مخمور طيِّب النفس، فقال: يا أبا عثمان، أنشدني ما شئت حتى أعارضَك بأحسن منه أو مثله، فأنشدته لأبي نواس: [البسيط]

وعاشق دَنِفٍ نبّهتُه سَحَراً فقام للرّاح والتذْكار مصطبحا

ودارتِ الخمر من صَهْبَاء صافيةٍ فما احتسَى قَدَحاً حتى بكى فَرَحَا

ففكّر ساعة، وضحك وقال: [البسيط]

وقهوةٍ كشُعاعِ الشمس صافيةٍ مثل السَّراب ترى في قعره شَبَحا

إذا تعاطيتَهَا لم تَدْرِ من لَطَفٍ راحاً بلا قدَحٍ أعطيتَ أم قدَحا

وقالوا: ما دَرَارِيع الخزّ والسُّمور بأدفأ من الشراب للمصرور والمقرور.

وقال بعضهم: كنت في منتزّه لي، وإذا شيخ منبخ على عَلْوة معه صبيّ في يوم بارد، فكنت أسمع الصبيّ يقول للشيخ: أعطني فَرْوَتي، فيناوله شيئاً لا أتبيَّنه، فبعثت غلامي ينظر إليه. فإذا عند الشيخ قنّينة، كلّما طلب الصبيّ فَرْوَتَهُ سقاه قدحاً.

قال: وأنشدوا للهُدْهد الأصبهانيّ: [السريع]

إنّا أناسٌ حَسَنٌ ديننا لبيعنا الآجلَ بالعاجلِ

إذا شربْنَا خمسةً خمسةً فقد لبسنا الفَرْوَ من داخِلِ

وقال عمرو الضبابي: [الرجز]

أعْدَدَتُ للّيل إذا الليل بَرَدْ خابيتيْن من طِلاء قد رَكَدْ

* فتطرد الهمَّ وتكفيك الصَّرَد *

وقال آخر: [الطويل]

إذا هبَّت الأرواح فاجْعل دثارها إذا التحف الأقوامُ دكْن المطَارِفِ

ثـلاثـة أرطـالٍ شـرابـاً مـعـتّـقـاً تـكـنّ آمنـا مِنْـهـا ولـست بـخـائِـفِ
فـإنّ دثـار الـمـرء مـن تـحـت جِلْـدِه أخَـفُّ وأدْنـى مِـنْ دثَـارَ الـمـلاحِـفِ

قال الجاحظ: جَلستْ عجوزٌ من العَرب إلى فتيانٍ يشربون، فسقوْهَ قدحاً فطابت نفسها، ثم سَقوْهَا آخر فاحمرّ وجهها وضحكت، ثم سَقوْهَا قدحاً ثالثاً، فقالت: خبروني عن نسائكم بالعراق، أيشربن من هذا الشراب؟ قالوا: نعم، قالت: زَنيْنَ وربِّ الكعبة، والله لا يدري أحدكُم مَنْ أبوه.

وسُقِيَ أعرابيٌ قدحاً من شرابٍ، ولم يكن يعرفه، فحرّكته الأريحيَّة، فسألوه عنها، فقال: والله ما أدري ما هي! غَيْر أنّي أراكم تُحبّبون إليّ وأراني أسرَّ بكم، وما وَهَب إليّ أحد منكم شيئاً.

ومرَّ أعرابيّ بقوم يشربون، فدعوه، فنزل وعقل بَعيرَه. وشرب معهم، فلمَّا أخذ منه الشراب، قام إلى بعيره فنحَره، وشوى لهم من كبِده وسنامه، ثم رفع عقيرته يتغنَّى: [الوافر]

عَـلِّـلانَـي إنـمـا الـدُّنْـيَـا عِـلَـلْ واسـقـيـانـي، عَـلَـلاً بَـعْـد نَـهِـلْ
بـادرا بـالـلَّـهـو يـومـاً صـالـحـاً ودعـانـي مـن عـتـاب وعَـذَلْ
وانـشـلا مـا اغْـبَّـر مـن قِـدْرَيْـكُـمـا واسْـقـيـانـي أبـعـد الله الـجـمـل

وقال إسحاق الموصليّ: سقيت أعرابيّاً نبيذاً، فقال: ما على هذا شيء، يُطَيِّبُ النفس، ويطرد الحزن، ويمنِّي الخير، ويَعِدُ الغنى، ثم أنشأ يقول: [الوافر]

ألاَ خُـذهَـا كـمـاء السزَّعْـفَـرَانِ رَمَـتْـهـا بـالـنُّـحـولِ يـدُ الـزَّمَـانِ
تـصـوغ إذا عـلاهـا الـمـاءَ طـوْقـاً مـن الـيـاقـوتِ فُـصِّـلَ بـالْـجُـمَـانِ
وتـتـرك مَـنْ أراد الـشـرب مـنـهـا صـحـيـحَ الـجسم مُـنْـكَسِـر الـلِّـسَـانِ
كـأنّ الـشـمـس طـالـعـة بـكـفِّـي إذا أخـذتْ زجـاجـتَـهـا بـنـانـي

ومرّ الفرزدقُ بالحكم بن المنذِر بن الجارود؛ فاستسقاه ماء، فقال: هلاّ لبناً يا أبا فراس؟ قال: ذلك إليك، فملأ له عُسًّا من خمر، وأمر فحُلِبَتْ عليه لَقْحة، فصَعِدت الرَّغْوة فوق الشرابُ، وأتاه به، فشربه حتى صَكَّ بالعُسّ جَبهتَه، وانتفخت أوداجُه، واحمرَّت عيناه، فمسح سِبَاله، وقال: جزاك الله خيراً، فإنك ما زلت تُخْفِي الصَّدَقَات ونَعِمّا هي!.

ودخل الأخطل على عبد الملك، فقال: ليت شعري، ما يعجبك من إدمان الخمر، وأوّلها التقطيب والكراهة، وآخرها السُّكر والسفاهة! فقال: ولكن بينهما حالة ما يسرُّنِي بها مُلكك، هذا نظمه الشاعر، فقال: [الخفيف]

إن يـكُـنْ أول الـمـدام كـريـهـاً ويـكـن آخـر الـمـدام صُـدَاعـا

فـلـهـا بـيـن ذا وذاك هـنـاةٌ   وصْـفُـهـا بـالـسـرور لَـنْ يُـسْـتـطـاعَـا

وأنشد ابن قتيبة لأبي محجن الثقفي: **[الطويل]**

إذ مـتُّ فـادفـنّـي إلـى جـنـب كـرمـةٍ   تـروّي عـظّـامـي بـعـد مـوتـي عـروقـهـا

ولا تـدفـنَـنّـي بـالـفـلاة فـإنـنـي   أخـاف إذا مـا مِـتّ ألاّ أذوقـهـا

قال: فأخبرَني مَنْ رأى قبره بأرمينيَة، أنه بين شجرات الكروم، والفتيان يشربون عندها، وينشدون شعره، وإذا جاء قدحه صبُّوه على قبره.

ومنع عمر بن الخطاب رضي الله عنه أهلَ الشام شربَ الخمر. فقال شاعرهم: **[الطويل]**

ألـم تَـر أنَّ الـدّهْـرَ يـعـثُـر بـالْـفَـتَـى   ولا يـمـلـك الإنـسـانُ صَـرْفَ الـمـقـادِرِ

صبرتُ ولم أجزعُ وقد مات إخوتي   ومـا أنـا عـن شُـرْبِ الـمُـدام بـصـابِـرِ

رمَـاهـا أمـيـر الـمـؤمـنـيـن بـحـتـفِـهـا   فـخِـلاّنُـهـا يـبـكـون حَـوْل الـمـعَـاصِـرِ

ورأى ذؤيب السّلمي خمراً أهراقها السلطان، فقال: **[الخفيف]**

يـا لـقـومـي لِـمَـا أتـى الـسـلـطـانُ   لا يـكـن لـلـذي أهـانـوا هـوانُ

سكبوا في التّراب من حَلَبِ الكُرُو   م عُـقـاراً كـأنّـهـا الـزعـفـران

سكبت في مكان نحسٍ لقد صا   دف سَـعْـدَ الـسُّـعُـود ذاك الـمـكـانُ

كيف صبري عن بعض نفسي وهل يصـ   ـبـر عـن بـعـض نـفـسـه إنـسـانُ!

ولمّا انهمك الوليد بن يزيد في الشّراب والتبذّل مع الندماء، اجتمع وجوه بني أميَّة، فلاموه وعنَّفُوه، فقال لهم اسمعوا ما عندي: **[الخفيف]**

أُشْـهِـد الله والـمـلائِـكـة الأبـ   ـرار والـعـابـديـن أهـلَ الـصَّـلاَحِ

أَنـنـي أشـتـهـي الـسـمـاع وشـرب الـرَّا   ح والـعـضَّ فـي الـخـدودِ الـمـلاحِ

والـنَّـديـم الـكـريـم والـخـادم الـفَـا   رِهَ يـسـعـى عـلـيَّ بـالأقْـدَاحِ

وظـريـف الـحـديـث والـكـاعـب الـطَّفْـ   ـلـة تـرتـجّ فـي سُـمـوط الـوِشَـاح

انْصَرِفوا، فيئسوا منه، فدبَّرُوا في إفساد دولته.

ودخل على المأمون عمرو بن مسعدة ورجلٌ من الفقهاء، وبين يَدَيْه جام زجاج فيه رطل شراب، فمدَّ به يدَه المأمون إلى الرجل، فقال: يا أميرَ المؤمنين، والله ما شربتُها ناشئاً فلا تسقنيها شيخاً، فردَّ يده إلى عمرو، فأخذها منه، وقال: الله الله يا أمير المؤمنين، إني آليتُ في الكعبة ألاّ أشرَبها؛ ففكر طويلاً والكأس في يد عمرو، ثم قال: **[الكامل]**

رُدَّا عـلـيَّ الـكـأس إنّـكـمـا   لا تـعـلـمـان الـكـأسُ مـا تُـجْـدِي

لـو ذُقـتَـمـا مـا ذقـتُ مـا مـزجَـتْ   إلا بـدمـعـكـمـا مـن الـوَجْـد

ما مثل نعماها إذا اشتملَتْ إلا اشتمال فمٍ على خدِّ
خوَّفتماني الله رَبكُمَا وكَخِيفتيهِ رجاؤه عندِي
إن كنتما لا تشربان معي خوف العقاب شربتُها وحدي

وقال الحسن بن هانيء وهو الإمام في الخمريات: **[البسيط]**

ساعٍ بكأسٍ إلى ناسٍ على طربِ كلاهما عجبٌ في مَنْظَرٍ عجب
قامت تريني، وأمر الليل مجتمعٌ صبحاً تولّد بين الماء والعنب
كأن صغرى وكبرى من فَواقعها حصباء درٍّ على أرض من الذهب

وله أيضاً: **[الكامل]**

قال ابْغِنِي المصباح قلت له اتّئد حسبي وحسبك ضوءها مصباحَا
فسكبتُ منها في الزُّجاجة شَرْبَةً كانت له حتى الصَّباح صباحَا
مِنْ قهوة جاءتك قبل مِزَاجها عُطُلاً فألبسَها المِزاج وشاحَا
شقَّ البُزَال فؤادَها فكأنَّها أهدتْ إليك بريحها تّفاحَا
فأتتكَ في صور تداولها البِلَى فأزالهنّ وأثبت الأرواحَا

وقال ابن المعتز: **[الطويل]**

ونارٍ قدحْنَاها سراعاً بِسُخْرةٍ متى ما يُرَقْ ماءٌ عليها توقّدِ
يجول حَباب الماء في جَنبَاتها كما جال دمعٌ فوق خدّ مورّدِ

وقال ابن وكيع: **[الطويل]**

وصفراءَ من ماء الكروم كأنّها فراق عدوّ أو لقاء صديقِ
كأنّ الحباب المستدير بطوْقِها كواعب دُرّ في سماء عقيق

الطّوْق: حاشية الكأس.

وقال ابن المعتز في الحَباب وتشبيهه له أحسنُ من تشبيه بجميعه: **[مجزوء الكامل]**

أسْقِي مخدّرةَ الدِّنا ن سُلاف خمرٍ قَرْقَفا
راحاً تخال حَبابَها دُرّا يجول مجوّفا

وقال الحسن: **[مجزوء الرمل]**

بنت عشر لم تعايِنْ غيرَ نارِ الشمس نارَا
ثم سَحَّت فأدارتْ فوقها طَوْقاً فدَارَا
كاقتران الدّرّ بالدرِّ صغاراً وكبارَا
فإذا ما اعترضتْه السـ ـعينُ من حيث استدارَا

خِلْتَه في جَنَبَاتِ الكـ ـأس واواتِ صغارا

وله أيضاً في مثل ذلك: **[مجزوء الكامل]**

والكأس أهواها وإن رُزِئت بلغ المعاش وقلّلَتْ فَضْلِي

ذخرت لآدم قبل خِلْقته فتقدّمته بخطوة القبْلِ

فأتاك شيء لا تلامِسُه إلا بحسن غريزة العقلِ

فإذا علاها الماء ألْبَسها نَمشاً كمثل خلاخل الحجْلِ

حتى إذا سكنت جوانحُها كتبت بمثل أكارع النملِ

خطين من شتى ومجتمعٍ غُفل من الإعجام والشكل

وقال ابن المعتز: **[البسيط]**

كأنّ في كأسها والماءُ يقرعُها أكارعُ النمل أو نقش الخواتيمِ

وقال حبيب: **[الكامل]**

صعُبَتْ وراض المزجُ سَيّءُ خلقها فتعلّمتْ مِنْ حُسْنِ خُلْقِ الماءِ[1]

خَرْقَاء يلعبُ بالعُقُول حبَابها كتلاعُب الأفعال بالأسماءِ

وضعيفةٍ فإذا أصابت فُرْصَةً قتلتْ، كذلكُ قُدْرَةَ الضعفاء

وكأنّ بهجتّها وبهجةَ كأسها نار ونور قُيِّدا بوعَاءِ

أو دُرّة بيضاء بكرٌ أطبقتْ حَبْلاً على ياقوتةٍ حمراءِ

وقال ابن البّال: **[الكامل]**

ومدامةٍ لبست غلالة نَرْجِسٍ وتنفست في الكأس أيّ تنفسِ

باكرتُها والوردُ يوقِظُه النّدى وتبلّ خدّيه عيونُ النَّرْجِسِ

والشمس تنظر من وراء غمامةٍ لبست من الكافور أحسنَ مَلْبسِ

نبّهتها بيد المزاج فأصبحتْ تَرْنُو إليّ بأعين لم تنعسِ

وتوردت حتى توقّد كأسُها فحسبتها في الكفّ جَذْوَة مقبسِ

[مجزوء المتقارب]

* * *

ولا كَانَ سَاقْ دهَائي الرِّفَاقْ

لأرْضِ العِرَاقْ بِحَمْلِ السُّبَخ

---

(١) الأبيات في ديوان أبي تمام ص ٣٨.

فَـــلاَ تَـــغْـــضَـــبَـــنْ ولاَ تَـــعْـــجَـــبَـــنْ
وَلاَ تَـــغْـــتِـــبَـــنْ فَـــعُـــذْرِي وَضَـــحْ
وَلاَ تَـــعْـــجَـــبُـــونْ لِـــشَـــيْـــخٍ أَبَـــنّ
بِـــمَـــغْـــنَـــى أَغَـــنّ وَدَنٍّ طَـــفَـــحْ
فَـــإِنَّ الْـــمُـــدَامْ تُـــقَـــوِّي الْـــعِـــظَـــامْ
وَتَـــشْـــفِـــي الـــسَّـــقَـــامْ وَتَـــنْـــفِـــي الـــتَّـــرَحْ

* * *

قوله: «دهائي»، أي تشيطني ومكري، السّبْح، جمع سبحة، وقد تقدمت تصخبن: ترفعنّ صوتك بالصياح. تعتبن: تلومنّ، وضح: ظهر، أبنّ: أقام. مغنى: منزل، أغنّ: كثير الأشجار، فإذا هَبَّتِ الريح فيها سمعت لها غُنَّةً، ومن هذا قولهم: رَوضةٌ غنّاء، لأن صوت الرّيح يخرج من بين أشجارها، وعشبها أغنّ.

ومن فسّرها بأن الذباب يغني فيها، فهو صحيح في المعنى فاسد في التصريف، لأن يغني أصله (غ ن ى) وأغنّ أصله (غ ن ن) فيريد بالمغنى الأغنّ منزلاً كثير الأشجار.

وفسّره بعضهم كثير الأهل، والأول أولى.

طفح: امتلأ خمراً، المُدام: الخمر، وقوله: «تقوّي العظام، وتسفي السّقام» وقد تجاوز هنا قوم حتى جعلوها من العاهات؛ قال الأقيشر ـ ويروي لأبي نواس: [الطويل]

وَمَقْعَدِ قوم قد مشى من شَرَابِنَا وأعمى سقيناه ثلاثاً فأبصَرا
كُميتٍ كأن العنبر الوردَ ريحها إذا شمّها الحاني من الدّن كبَّرا
توقّدُ في أيدي السقاة كؤوسها إذا ما رآها صائم القوم أفْطَرا

وقال آخر: [الطويل]

أبا هاشمٍ هل لي سبيل إلى التي أرى شربةً منها قواماً لأحْدَبِ

وقوله: «وتنفي الترح»، أي تزيل الحزن.

وقال الحسن بن هانىء في أن الخمر تزيل الحزن والهم: [البسيط]

دعْ عنك لومي فإنّ اللوم إغراءُ وداوني بالتي مِنْها بيَ الدَّاءُ
صفراء لا تنزل الأحزان ساحَتَها لو مسَّها حجرٌ مسَّته سَرَّاءُ
قامت بإبريقها والليل معتكرٌ فظل منْ وجهها في البيت لألاءُ
وأرسلت من فم الإبريق صافيةً كأنّما أخذُها بالعقل إغفاءُ
رقَّتْ عن الماء حتى لا يلائمها لطافة وجَفَا عن شكلها الماءُ

فلو مَزَجْتَ بها نوراً لمازجها ... حتى تولّد أنوارٌ وأضواءُ

وقال البحتريّ: [الكامل]

فاشرب على زهر الرياض يشوبُهُ ... زهر الخدودِ وَزَهْرَةُ الصَّهْباءِ[1]
من قهوة تنْسِي الهموم وتبعث ... الشَّوق الَّذي قد ظلّ في الأحْشَاءِ
يخفي الزجاجة لونُها، فكأنّها ... في الكأس قائمة بغير إناءِ

وقال حبيب: [الكامل]

بمدامة يغدو الفتى لكؤوسِهَا ... حَوْلاً على السَّرَّاء والضَّرَّاءِ[2]
راحٌ إذا ما الراح كُنّ مطيَّها ... كانت مطايا الشّوق في الأحشّاءِ
عنبيّةٌ ذهبيْةٌ سَبَكتْ لها ... ذهبَ المعاني صاغةُ الشّعَراءِ

[مجزوء المتقارب]

* * *

وَأَصْفَى الشُّرُوزْ ... إذا مَا الوَقُورْ
أَمَاطَ سُتُور الْـ ... ـحَيَا واطَّرَحْ
وَأحْلَى الْغَرَامْ ... إذا المُسْتَهَامْ
أزال اكتتَامُ الْـ ... ـهَوَى وَافْتَضَحْ
فَبُحْ بِهَوَاكْ ... وَبَرِّدْ حَشَاكْ
فَزَنْدُ أَسَاكْ ... بِهِ قَدْ قَدَحْ
وَدَاوِ الكُلُومْ ... وَسَلِّ الْهُمُومْ
بِبِنْتِ الكُرُو ... مِ الَّتي تُقْتَرَحْ
وَخُصَّ الْغَبُوقْ ... بِسَاقٍ يَسُوقْ
بَلاَءَ الْمَشُوقْ ... إذَا مَا طَمَحْ

* * *

قوله: «أماط»، أي أزال، اطّرح: رمى بها، وهذا منتزع من قول عليّ بن الخليل: [مجزوء الكامل]

لا تكمُلُ اللَّذّات ... إلا بالقيانِ وبالخمورِ
هتّك الستور فإنّما الّـ ... ـلذات في هَتْك السَّتور

(١) الأبيات في ديوان البحتري ص ٦.
(٢) الأبيات في ديوان أبي تمام ص ٣.

فـــدع الـــعـــواذلَ لا يـــقـــ ـفـن عـلـيـكَ مـن دُون الـصّـدُورِ
واعـــلـــم بـــأنّـــك راجـــعٌ حَـــقًّـــا إلـــى ربٍّ غـــفـــورِ

قوله: «الغرام»، شدة الحب، المستهام: الذي حمله الحبّ على أن يهيم، أي يذهب ولا يدري أين يتوجه. افتضح: اشتهر، يقول: أصفى ما يكونُ السرور إذا أزال الوقور ثياب الحياء واطرحها عنه، وأحلى ما يكونُ العشق إذا أزال العاشق الكتم وشهر نفسه به، ومن هذا قول أبي نواس: **[الطويل]**

ألا فاسقني خَمراً وقُلْ لي هي الخمرُ ولا تسقني سِرّاً إذا أمكنَ الجهرُ
ويُحْ باسم مَنْ تهوَى ودَعْنِي من الكنى فلا خَيْرَ في اللّذات من دونها سترُ

قوله: «زند أساك»، الزند: الذي يقدح به النار، والأسى: الحزن، يقول: يرِّد قلبك بذكر من تهوى، فإنك إن رمت كتمه قدح به زند حزنك.

ونحو هذا ما يحكى أن أبا الفضل الدّارميّ، كان له هوى بغلام، فإذا رآه أنكر حبّه، والغلام يعرف شدّة وجده به، فدمعت يوماً عينا أبي الفضل، فقال له الغلام: دمعك شاهد عليك، فقال: **[الطويل]**

وَهَبْنِيَ قد أنْكَرْتُ حُبَّكَ جَمْلَةً وآلـيـت أنـي لا أروم مـحـطّـهـا
فمن أين لي في الحبّ جرح شهادة سقامي أملاها، ودَمْعي خَطّها!

وقال المتنبي: **[البسيط]**

وكاتم الحبّ يوم البين منهتكٌ وصاحب الدّمع لا تخفى سرائرُهُ[1]

والشعر في هذا كثير، وكله تبع لقول العباس بن الأحنف: **[الخفيف]**

لا جَزِى الله دمع عَينَي خَيْراً وجزى الله كلَّ خير لساني
نَمَّ دمعي فليس يَكْتُمُ شيئاً ورأيت اللّسان ذا كتمان
كنت مثل الكتاب أخفاه طيٌّ فاستدلوا عليه بالعنوان

أما الاشتهار الذي ذكر فإنما يأخذ به أهل التّماجن ومن لا بال له، وأما أهل المروءات والتَّصاون، فغايتهم إعلام المحبوب بشأنهم، وكتمه عن النَّاس، وذلك شديد، ولا يقوم به إلا من كمل عقله، وأما أن يكتمه عن محبوبه كحكاية أبي الفضل، فأشدُّ أحوال هذا الباب أن يكون لمحبوبك أصحاب يألفهم ويألفونه، فيعلمون بشأنك كما فعل أبو الأصبغ بن رشيد المرتكيّ، أنشدنيه الفقيه أبو الحسن بن زرقون: **[المتقارب]**

أبـا قـاسـم إن قَـسَـمْـتَ الـهـوى كـؤوسـاً فـحـظِّـيَ أوفـى الـكـؤوسْ

---

(١) البيت في ديوان المتنبي ٢/ ١١٥.

وبـيـن جُـفـونـكِ بـا قـاتـلـي   وبـيـن فـؤاديَ حَـرْبُ الـبـسُـوس
وبَـيْـنَ الـجـوانـح نـارُ الـجـوى   كـمـا قـد سـمـعـت بـنـار الـمـجـوسْ
أسـارقـك الـلـحـظ فـي خِـفْـيَـةٍ   كـمـا يـتـنـاول قَـيْـدُ الـشّـمـوسْ
فـمـهـمـا بـدَوتُ ومـهـمـا رنـوتُ   فـشـغـل الـعـيـون وشـغـل الـنـفـوسْ
سُـررت بـه بـيـن أصـحـابـه   فـحـدُّوا الـلـحـاظ وهـزُّوا الـرؤوسْ
وهـذا عـلـى خـطـرة فَـذّةٍ   فـكـيـف لـو أنـي نـويـت الـجـلـوسْ

قوله: «داو الكلوم»، يريد جراح قلبه من أنكاد الدهر، ولذلك اتبعه، بـ«سلّ الهموم»، لأنه في معنى «داو الكلوم»، وهذا كقول العطويّ:

أعـجـبـتـنّ أن أنـاخ بـي الـدّهـرِ   فـخـاصـمـتُـه إلـى الأقـداحِ
لا تـذاد الـهـمـومُ أنـشـبـن أظـفـا   راً حـداداً بـشـرب مـاءِ قَـراحِ
أحـمـد الله صـارت الـكـأس تـأسـو   دونَ إخـوانـي الـثـقـات جـراحِـي

قوله: «تقترح» تتمنى. الغبوق: شرب العشي، والمسوق: المحبّ، وطمح: ارتفع بالنظر، يقول: خُصَّ شرابك بالعشي مع غلام حَسَنٍ يسقيك ويبيت معك على شرابك، ويكون لإفراط حسنه، يجلب عذاب العاشق إذا نظره.

ومما قيل في السقاة ووصف الخمر من الشعر المستحسن قول أبي نواس: [الطويل]

إذا عَـبَّ فـيـهـا شـارب الـقـوم خـلـتـه   يـقـبّـل فـي داج مـن الـلـيـل كَـوكَـبـا
تـرى حـيـثُـمـا كـانـت مـن الـبـيـت مَـشْـرقـاً   ومـا لـم تـكـن فـيـه مـن الـبـيـت مَـغْـرِبـا
يـدورُ بـهـا سـاقٍ أغـنّ تـرى لـه   عـلـى مُـسـتـدار الـخـدّ صُـدغـاً مـعـقـربـا
سـقـانـي ومـنّـانـي بـعـيـنـيـه مـنـيـةً   فـكـانـت إلـى نـفـسـي ألـذَّ وأعـجـبـا

وقال ابن الروميّ فأحسن: [الكامل]

ومـهـفـهـفٍ كَـمَـلـتْ مـحـاسـنُـه   حـتـى تـجـاوز مُـنْـيَـةَ الـنَّـفـسِ
تـصـبـو الـكُـؤوس إلـى مـراشِـفِـهِ   وتـضـجّ فـي يـده مـن الـحْـبـسِ
أبـصـرتـه والـكـأس بـيـن فـمٍ   مـنـه وبـيـن أنـامـلٍ خَـمْـسِ
فـكـأنّـهـا وكـأنّ شـاربَـهـا   قـمـر يـقـبّـل عـارض الـشـمـسِ

وقال ابن المعتز: [البسيط]

ظـبـيٌ مُـخَـلًّـى مـن الأحـزان أودعـنـي   مـا يـعـلـم الله مـن حُـزنٍ ومـن قَـلَـقِ
كـأنـه وكـأن الـكـأس فـي يـده   هـلال أوّلِ شـهـر غـاب فـي شَـفَـقِ

وقال أيضاً : [الكامل]

يا حسن أحمد غادياً أمسِ ... بمدامة صفراءَ كالورسِ
وكأنّ كفيه تقسم في ... أقداحنا قِطَعاً من الشمسِ

ولأبي طالب الرَّفاء في معنى آخر : [الطويل]

لها في كفّ شاربها شعَاعٌ ... تطرّف منه مبيضُ البَنَانِ

ولأبي بكر الخالدي : [البسيط]

تُومِي إليك بأطراف مطرَّفة ... فيها خضابان للعُنَّاب والعنب

فهذا في انتقال حُمْرتها لأصابع حابسها، فإذا انتقلت لخدّ شاربها حدث للشعراء في ذلك معنى بديع صنع البديع يسمّى المطابقة، وهو الوصف بالغروب والطلوع وقال في ذلك الطليق المروانيّ : [الرمل]

أصبحت شمساً وفوه مغرباً ... وَيدُ الساقي المحيِّي مَشرقا
فإذا ما غربت في فَمِه ... أطلعت في الخدّ منه شفقا

ولأبي مطروح بن فتوح : [الكامل]

صهباء تغرب إنْ بَدتْ من كفّه ... في فيه ثم تلوح في وَجنَاتهِ

وقال غيره : [السريع]

بَدْرٌ بدا يشرب شمساً بدتْ ... وجِدّها في الحسن من جدِّه
تغرب في فيه ولكنّها ... من بعد ذا تطلع في خَدِّهِ

وقال آخر : [السريع]

أقول والكأس على فِيه وقد ... صوّبها كالكوكب الصائبِ
ذا كوكبٌ يغرب في كوكبٍ ... وَيْلِي عَلَى الطَّالِعِ والغارِب!

* * *

رجعنا إلى ذكر السقاة ـ قال ابن المعتز : [الطويل]

تدور علينا الكأس من كفّ شادنٍ ... له لحظ عين يشتكي السّقم مدنفُ
كأن سلاف الخمر من ماء خَدّهِ ... وعنقودها من شعره الجعْد يُقْطَفُ

وقال أبو بكر الخالديّ : [البسيط]

أهلاً بشمس مُدامٍ مِنْ يَديَ قَمرٍ ... تكامل الحسنُ فيه فهو تَيَّاهُ
كأن حمرتها إذ قام يمزجُها ... من خَدِّه اعْتُصِرتْ أو من ثناياهُ
في وجه فُلٍّ ورَيحانٍ تراح له ... مِنّا قلوبٌ وأبصارٌ وتَهْوَاهُ

النَّرجس الغضّ عيناه وطُرَّتُه ... بنفسج، وجَنَيّ الورد خَدَّاهُ

ولابن الزّقاق: [الطويل]

وساق يحثُّ الكأسَ وَهيَ كأنَّما ... تلألأ منها مثل ضوءِ جبينِه
سقاني بها صرف الحُمَيَّا عشيةً ... وثنَّى بأخرى من رحيق جفونه
هضيم الحشا ذو وَجْنَةٍ عَنْدَ ميَّةٍ ... تريك قطاف الورد في غير حِينِهِ
فأشرب مِنْ يمناه ما فوق خَدّه ... وألثمُ من خدّيه ما في يمينه

وقال الخوارزمي: [الطويل]

وصفراء كالدينار بنتُ ثلاثةٍ ... شمال وأنهار ودهر محّرمُ
مَسَرّةُ محزونٍ وعذر مُعَرْبِدٍ ... وكنز مجوسيّ وفتنة مسلمِ
بدور بها ظبي تدور عُيوننا ... على عينه من شرط يحيى بن أكثمُ

وقال ابن المعتز: [الخفيف]

وندامايَ في شباب وشيب ... أتلفت ما لَهُمْ نفوس كرامُ
بين أقداحهم حديث نضيرٌ ... وهو سحر وما سواه كلامُ
وغناء يستعجل الرَّاحَ بالرَّا ... ح كما تاح في الغُصُون الحمامُ
وكأنّ السقاة بين الندامَى ... ألفاتٌ بين السُّطور قيامُ

* * *

[المتقارب]

وشَادٍ يُشِيدُ ... بِصَوْتٍ تَميدُ
جِبالُ الحَديدِ ... لَهُ إنْ صَدَحْ
وَعَاصِ النَّصِيحْ ... الَّذِي لا يُبِيحْ
وِصَالَ الْمَلِيحْ ... إذا مَا سَمَحْ
وَجُلْ في المِحَالْ ... وَلَوْ بالمُحَالْ
وَدَعْ مَا يُقالْ ... وَخُذْ مَا صَلَحْ
وفَارق أباكْ ... إذا مَا أباكْ
وِمُدَّ الشِّباكْ ... وَصِدْ مَنْ سَنَحْ
وَصَافِ الخَليلْ ... وَنافِ البَخِيلْ
وأولِ الجَميلْ ... وَوَالِ المَنِحْ
وَلُذْ بالمَتابِ ... أمَامَ الذّهَابِ

فَمَنْ دَقَّ بابَ كَرِيمٍ فتحْ

* * *

قوله: «شادٍ»، أي مغنٍّ، يُشيد: يتقن غناءه ويحكمه. تميد: تميل. صدح: رفع صوته بالغناء، والصداح: الصوت الشديد، يقول: وأحضر الخمرَ مغنياً تميل الجبال لحسن غنائه، وهذا مثل ما حكى المنجّم، قال: حكي لي أنَّ إبراهيم بن المهدي، كان أحسن الناس غناء ببرهان، وذلك أنّي كنتُ أراه في مجالس الخُلفاء مثل المأمون والمعتصم يُغَنّي المغنون، فإذا ابتدأ هو لم يبق أحدٌ من الغلمان والمتصرفين وأصحاب الصّناعات والمهن الصِّغار والكبار، إلا وقد ترك ما في يده، وصار بأقرب موضع يمكنه أن يسمعه، فلا يزال مصغياً إليه، لاهياً عَّما كان فيه ما دام يغنّي، فإذا أمسك وغنّى غيره رجعوا إلى أشغالهم، ولا برهان أقوى من شهادة الفطرة، واتفاق الطبائع على الميل إليه مع اختلافها في غير ذلك.

وقال منصور بن المهدي: غنّى أخي إبراهيم الأمين يوماً فقال: [المتقارب]

وكأسٍ شربتُ على لذةٍ ... وأخرى تداويتُ منها بها

لكيْ يعلَمُ النَّاس أني امرؤ ... أتيت الفتُّوة من بابها

وكان الأمين مشرفاً على حمر الوحش، وهو مخمور، وكان من عادته ألاّ يشرب وهو مخمور، فاستوى جالساً وطرب، وقال: أحسنت والله يا عمّ، وأحييت لي طرباً، وغنّى يومئذٍ على أشدّ طبقة ينتهي إليها، وما سمعت مثله قطّ وقد رأيت منه شيئاً عجيباً، لو حُدِّثتُ به ما صدقته، كان إذا ابتدأ يغنِّي أصغت الوحش، ومدَّت أعناقها، ولم تزل تدنو منه، حتى تضع رؤوسها على الدُّكان الذي كنا عليه، فإذا سكت نفر عنَّا، حتى تنتهي إلى أبعد غاية يمكنها التباعُد فيها عنّا، وجعل الأمين يعجب من ذلك.

قوله: «يبيح»، أي يجعله له مباحاً، يقول: أعصِ مَنْ يعذلك في وصل المليح متى سمح بوصله.

وكان أعرابيٌّ قد طال تعشقه لجارية، فقيل له: ما كنتَ صانعاً لو ظفرْتَ به، ولا يرا كما غير الله؟ قال: إذاً والله لا أجعله أهون الناظرين، لكني كنت أفعل بها ما كنتُ أفعله بحضرة أهلها، شكوى وحديث عذب، وإعراض عمّا يسخط الرّبّ، ويقطع الحُبّ، فإن تَلَقِّي وصال المليح، إذا سمح بمثل هذا فعصيان النصيح واجب، وأكثر الناس يرى أن الظفر بالمعشوق يُسقط نصف عشقه، وأن النِّكاح يفسد الحب:

وقال المأمون: [مجزوء الكامل]

ما الحبُّ إلا قُبْلَةٌ ... وغمز كفٍّ وَعَضُدْ

وكتبٌ فيها رُقَي ... أنفذُ من نَفَث العُقَدْ

مَـنْ لـم يـكـن ذا حـبِّـه   فـإنـمـا يـبـغِـي الـولَـدْ
مـا الـحـبّ إلا هـكـذا   إن نُـكِـح الـحـبّ فَـسَـدْ

وقال حبيب في نقيضه وأجاد: [الطويل]

وقالتِ نكاحُ الحبّ يفسد شكله   وكم نكحوا حِبًّا وليس بفاسدِ!

وقالت أمّ الضحاك المحاربية: [الوافر]

شـفـاء الـحـب تـقـبـيـل وَضَـمٌّ   وجـرّ بـالـبـطـون عـلـى الـبُـطـونِ
ورَهْـزٌ تَـمْـهُـلُ الـعـيـنـان مـنـه   وأخـذٌ بـالـمـنـاكـبِ والـقُـرُون

وقال الحسن: [الوافر]

إذا هـجـع الـنِّـيـام فـخـلٌ عـنـي   وعـمّـن كـان أيـصـلـح لـلـدّبـيـب
فـإنـي عـالـم فـطـنٌ أريـبٌ   ولـم يـخـبـرك مـثـلُ فـتـىً أريـبِ
ألـذُّ الـفـعـل تـأخـذه سـروراً   بـمـنـح الـحـبّ أو مـنـع الـرقـيـبِ

وبعد هذا ما يقبح ذكره، وشعر الحسن يكثر في هذا الباب.

وقال ابن الأبّار رحمه الله ـ وذكر أنه فعل بمحبوبه وبرقيبه: [الخفيف]

فـوثـبـنـا عـلـى الـغـزال وثـوبـاً   ودبـبـنـا عـلـى الـرَّقـيـب دبـيـبـا
فـهـل أُبـصـرت أو سـمِـعـت بـصـبٌّ   نـاك مـحـبـوبـه ونـاك الـرقـيـبـا!

وقال ابن بسّام: لقد ظَرُف ابن الأبار، واستهتر ما شاء وقدر، وأظنه لو قَدَر على إبليس الَّذِي تولى له هذا المذهب لَدَبّ عليه.

وابن المعتز كنّى ولم يصرح، فقال: [البسيط]

فـكـان مـا كـان مـمـا لـسـت أذكـرُه   فـظـنَّ خـيـراً ولا تـسـأل عـن الـخـبـر

أين ما قدمناه لابن الأبار من قول الآخر في ضِدّه: [مجزوء الكامل]

ومـنَـعَّـم غـضّ الـقِـطـافِ   عـذبٌ لَـمَـاهُ لـلارتـشـافِ
فَـوَرَدْتُ جَـنَّـة نـحـرِه   ونـعـيـمـهـا دُونَ اقـتـطـافِ
وعـصـيـتُ سـلـطـان الـهـوى   وأطـعـت سـلـطـان الـعَـفَـافِ

وقال ابن الأبار أيضاً: [الكامل]

ومـعـرَّض بـالـغـصـن فـي حـركـاتـهِ   تَـسَـلُ الـقـلـوب الـعـفـوَ مـن لـحـظـاتـهِ
عـاطـيـتُـه كـأسـاً كـأنَّ سُـلافَـهـا   مِـنْ ريـقـه الـمـعـسـول أو وَجَـنَـاتِـهِ
وأطـعـتُ سـلـطـان الـعـفـاف تـكـرّمـاً   والـمـرء مـجـبـول عـلـى عـاداتـه

وقال الشريف الرضيّ فأحسن: [البسيط]

بِتْنَا ضجيعيْن في ثوبيْ هوًى وتُقىً ... يلّفنَا الشَّوقُ من فَرقٍ إلى قَدَمِ
وبات بارق ذاك الثَّغر يوضح لي ... مواقعَ اللَّثْم في داجٍ من الظُّلمِ
وباتت الرِّيحُ كالغْيرَى تجاذبُنا ... على الكثيب فضولَ الرّيط واللّمَمِ
وأكتم الصبح عنها وهي غافلة ... حتّى تكلَّم عصفورٌ على عَلَمِ
فقمت أنفضُ بُرْداً ما تعلّقه ... غيرُ الْعَفَافِ وراء الْغَيْبِ والكَرَمِ

وقال ابن فرج الجيانيّ: [الوافر]

وطائعةِ الوصال صددتُ عنها ... وما الشَّيطان فيها بالمُطَاعِ
بدت باللَّيل سافرةً فباتت ... دَياجي اللَّيْلِ سافِرَةَ القِنَاعِ
وما من لحظة إلاّ وفيها ... إلى فتن القلوب لَنَا دَوَاعِ
فملّكتُ الهوى جَمحات شوقِي ... لأجري في الْعَفَاف على طِبَاعي
كذاك الرَّوضُ ما فيهِ لمثلي ... سوى نظرٍ وشمّ من مَتَاعِ
ولستُ من السّوائم مهملات ... فأتخذ الرِّياضَ من المراعِي

وقال أيضاً فأحسن: [الوافر]

بأيِّهما أنا في الشكر بادي ... أشكر الطيف أم شكر الرُّقَادِ
سَرَى لي فازْدَهى أملي، ولكنْ ... عففتُ فلم أنَلْ مِنْهُ مرادي
وما في النوم من حَرَج ولكنْ ... جريتُ من العفاف على اعتيادِ

كأنه لما عفّ في اليقظة جرى على عادته في النوم، وهذا من قول أبي الطيب: [الطويل]

يردُّ يداً عن ثوبها وهو قادر ... ويعصِي الهوى في طَيْفِها وهو رَاقدُ

وهذا أملك شهوة من التّهامي، وإن كان قد أحسن حيث يقول: [البسيط]

إنّي لأصرفُ طَرْفي عن محاسِنِها ... تكرّماً وأكفّ الكفّ عن لَمَمِ
ولا أهمّ ولي نفسٌ تنازعُني ... أستغفر الله إلا ساعة الحُلُمِ

وقال ابن طباطبا: [الكامل]

يقظاته ومنامُه شَرَعٌ ... كلٌّ بكل منه مشتبهُ
إن همّ في حُلْم بفاحشةٍ ... زجرتهُ عفَّتُه فينتبهُ

أخذه السّريّ، فكتب إلى صديق له، وكان اتهمه بغلام بعثه إليه: [الوافر]

أبا بكرٍ أسأت الظنّ فيمنْ ... سجيّتُهُ التَمَنُّع والخلافُ
وخفتَ عليه في الخلَوَاتِ مِنّي ... ولم يكُ بيننا حالٌ تُخافُ

جفوتُ من الصِّبا ما ليس يُجْفَى وعفت من الهوى ما لا يعافُ
فلو أني هَمَمتُ بقبح فعلٍ لدى الإغفاء أيقظني العَفَافُ

قوله: «جُلْ»، تصرف، المِحَال: المكر. لُذْ: تعلّق وتستر. المُحَال: الباطل، وما لا يمكن ثبوته، ودع ما يقال، أي لا تلتفت إلى مَنْ ينقصك باتّباع لذّاتك، وخذ ما يوافقك ويصلح بك.

وهذا رأي من اشتهر بالمجون كالحسن في قوله: **[الكامل]**

دَعْ عنك ما جدّوا به وتبطَّلِ وإذا لقيت أخا الحقيقة فاهْزِلِ
لا تركبنّ من الذنوب خسيسَها واعمد إذا قاربتها للأنبلِ
وخطيئة تغلو على مُسْتَامِها يأتيك آخرها بطعم الأوَّلِ
حَلّلتُ لا حرج علي حرامَها ولربما حلّلت غير مُحَلَّلِ

وقال ابن وكيع: **[الكامل]**

لا تقبلنّ من الرشيد كلامَهُ وإذا دعاك أخو الغَواية فاقْبَلِ
ودع الترهّب والتجمُّل للورى فالعيش ليس يطيب للمتجمِّل

وقال أيضاً: **[الكامل]**

فارقتُ بعدك عِفتي ووقاري وخلعت في طرق المجون عِذاري
لا تأمرنِّي بالتستّر في الهوى فالعيش أجمع في ركوب العارِ
لا تكثرنّ عَلَيّ إن أخا الحجا بَرِمٌ يقرب الصاحب المكثار

قوله: «أباك»، أي تمنّع منك، سنح: تيسَّر، يقال: سنح الشيء سنوحاً، إذا تيسر صافِ الخليل، أي أخلص الودّ لصاحب، ناف: باعد. أولِ الجميل: ألصق المعروف بمن يستحقه، وقد أولاني فلان المعروف: ألصقه بي، وجعله بينه وبيني، وقيل معنى «أولاني» مَلَكني، من قولهم: هذا وليّ المرأة، أي مالك أمرها. وقيل: معناه عضدني به وقوّاني، من قولهم: بنو فلان ولاة على بني فلان، أي يعينونهم ويعضدونهم، وقيل: أولاني: أنعم عليّ، من الألاء، وهي النّعم، واحدها إلْيٌ وأَلْيٌ، والأصل وليٌ ووَلْيٌ، أبدل من الواو المكسورة همزة، على حدّ «إساد» وأبدل من الواو المفتوحة همزة على حد أحد وامرأة أناة، والِ المِنَح: تابع العطايا، أمام الذهاب: قدّام الموت، يقول: إذا شخت وأيقنت الموت، فاضرب باب التوبة، فإنه يُفْتَحُ لك إذ كلّ كريم بابهُ يفتح.

ابن عباس، قال رسول الله ﷺ: «إن المصلي يقرع بابَ الملك، وإنه مَنْ يداوم قرع الباب يوشك أن يفتح له»، والله تعالى أكرم الكرماء، وبابه باب التوبة. وقال الألبيرِيّ: **[الوافر]**

فلازم قَرْعَ باب التَّوبة دَأباً فإنّ لزومه سبب الدخولِ

* * *

فقلتُ لهُ: بَخٍ بَخٍ لِروايَتِكَ، وأُفٍّ وتُفٍّ لغوايتك، فباللهِ مِنْ أيِّ الأعيْاصِ عَيصكَ، فقَد أعْضَلَني عَويصُكَ؟ فقال: مَا أحِبُّ أنْ أفْصحَ عَني، وَلَكِنْ سَأكنِي. . .

[مجزوء الخفيف]

أنَــا أَطْــروفَــةُ الــزَّمــا ... نِ وأُعْــجُــوبَــةُ الأُمَــمْ

وأنــا الْــحُــوَّل الَّــذِي احْــ ... ـتَـالَ فـي الـعُـرْبِ وَالـعَـجَـمْ

غَــيــر أنِّــي ابــنُ حــاجــةٍ ... هَــاضَــهُ الــدَّهْــرُ فــاهْــتَـضَـمْ

وَأبُــو صِــبْــيَــةٍ بَــدَوْا ... مِــثْــلَ لَــحْــمٍ عَــلَــى وَضَــمْ

وأخُــو الــعَــيــلَــةِ الــمُــعْــ ... ـيِــلُ إذا احْــتَــالَ لَــمْ يُــلَــمْ

* * *

قوله: «بخ بخ»، أي عجب عجب وتُثقِّل وتخفّف، وهي كلمة تقال عند الإعجاب بالشيء. أفّ وتَفّ، الأصمعي: الأفّ وَسَخ الآذان، والتُّف: وَسَخ الأظفار، ثم استعمل ذلك عند كلّ شيءٍ يُضجَر منه.

وقال غيره: الأفّ: القلَّةِ، مأخوذ من الأفَفَ وهو القلة ثم نُسِق التُّف عليه. ومعناه كمعناه، ويقال: لمن يُدْعَى عليه بالخيبة: أفّ وتُفّ لك. وقال ابن الأنباري: إذا أفردت أفّ، ففيها عشرة أوجه: فتح الفاء، وكسرها وضمّها على قياس مُدّ؛ وثلاثتُها بالتّنوين على قياس وَيْل، فنصبه على الدّعاء، ورفعه بالابتداء، وخفضه على التشبيه بالأصوات كمهْ وصهْ، وأفْ كقد، وأفي بضم الهمزة منصوب على الدعاء، وأفي بإضافته إلى نفسه، وأف بضم الهمزة وسكون الفاء تشبيهاً بالأدوات، نحو: هل وبل.

غوايتك: ضلالتك. الأعياص: الأصول، والعيص: بيت الأسد، ويريد: مِنْ أيّ القبائل والبلاد. أعضلني: صُعب عَلَيّ، عَويصك: صعْب أمرك ومشكله. أفصح: أبين. أكنى أوري، أي أدلّ على نفسي بكلام خفيّ. أطروفة: غريبة. الحول: الكثير الحيلة، هاضه: كسره. اهتضم: ظلم ونقص، الوضم أطروفة خشبة الجزار التي يقطع عليها اللحم. والعيلة: الفقر، وعال الرّجل يعيل عِيلة، إذا افتقر، قال الله تعالى: ﴿**وإن خِفتُم عَيْلة**﴾ [التوبة: ٢٨]، وقال الشاعر: **[الوافر]**

ومـا يـدرِي الـفـقـيـر مَـتَـى غـنـاه ... ومـا يـدري الـغـنـيّ مَـتَـى يَـعِـيـلُ[(١)]

والمعيل: الكثير العيال، وقد أعال يُعيل.

* * *

(١) البيت لأحيحة بن الجلاح في لسان العرب (عيل)، وجمهرة اللغة ص ٥٩، ٥٧١، وتاج العروس (عيل)، وجمهرة أشعار العرب ص ٦٥٩، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٩٥٢.

[مما قيل في الخضاب]

قوله: «الريب»، أي لريبة. مسوّد وجه الشيب، نبّه به على قوله في أوّل المقامة: «مِيسمه ميسم الشبان» يريد أنّه خضب شيبه وتشبّه بالفتيان، والخضاب مباح والتدليس مكروه، قال النبي ﷺ: «غيّروا هذا الشيب»[١].

وكان أبو بكر رضي الله عنه يخضب لحِناء والكتَم، وجاء النهي عن الخضاب بالسواد، وروى ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «يكون في آخر الزمان قوم يخضبون بهذا السّواد كحواصل الحمام، ولا يربحون رائحة الجنة»[٢].

ومن كلام المولدين: الخِضاب تذكرة الشباب.

الخضاب أحد الشبابَيْن.

وقال مالك بن أسماء بن خارجة لجارية له: قومي اخضبي رأسي ولحيتي، فقالت: دعني، فقد عييت مما أرقِّعك، فقال: **[البسيط]**

عَيَّرْتني خَلَقاً أبلَيتُ جِدّتهُ ... وهل رأيتِ جديداً لم يَعدْ خَلَقا!

وقال آخر: **[البسيط]**

أليس عندك شكر للّتي جعلت ... ما أبيضّ من قادِماتِ الرَّأسِ كالُحَمم

وجدّدتْ منك ما قد كان أخلقه ... طولُ الزمان وصرف الدّهْرِ والقِدَمِ

وقال آخر: **[الوافر]**

وقائلةٍ تقولُ وقد رأتني ... ترقّع عارِضَايَ من القَتِيرِ

عليك الخضْب علّك أن تُدَانِي ... إلى بيضٍ ترى منهن حُورِ

فقلت لها: المشيبُ نذير عُمرِي ... ولستُ مسوّداً وجه النّذيرِ

وقال عبدان الأصبهاني: **[الخفيف]**

في مشيبي شماتةٌ لَعدَاتي ... وهو ناعٍ منغّصٌ لحيَاتي

ويعيبُ الخِضَابَ قومٌ وفيهِ ... لي أُنسٌ إلى حضور وَفَاتِي

لا وَمنْ يعلم السَّرائر منّي ... ما تطلّبْتُ خَلّة الغانياتِ

إنما رُمتُ أن يغيَّبَ عَنِّي ... ما ترينيه كلّ يوم مراتي

وهو ناعٍ إليّ نفسي ومَنْ ذا ... سرّه أن يرى وجوه النّعاةِ!

وقال آخر: **[الكامل]**

بكرت تحسِّنُ لي سَوَادَ خِضابي ... لو كان ذلك يعيدُني لشبابي

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٣/ ٢٤٧، ٣٣٨.

(٢) أخرجه أبو داود في الترجل باب ٢٠، والنسائي في الزينة باب ١٥، وأحمد في المسند ١/ ٢٧٣.

وإذا أديمُ الوَجْه أخلقه البِلَى لم يُنتفعْ فيه بحسْنِ خِضَابِ
ماذا الّذِي يبدي عليك خضابه وخلاف ما يرضيك في الأثوابِ!

وقال ابن عبد ربّه: **[الوافر]**

إذا فصل الخضاب بكى عليه ويفرح كلّما وصَلَ الخضابَا
كأنْ حمامةً بيْضاءَ ظَلَّتْ تقاتل في مفارِقِه غُرَابَا

وقال ابن الرومي: **[الكامل]**

يا أيّها الرجل المسوّد شعرَه كيما يعدّ به من الشّبان
أقصرْ فلو سوّدت كل حمامة بيضاء ما عدّت من الغِرْيان

وأملح منه قول الآخر: **[الكامل]**

قالت خَضَبت الشَّيْبَ ثم أتيتنا تَبغِي لدينا بالخضابِ ودَادَا
فأجبتُها لم أختضبْ لكِ إنما شَيْبي صَبَغْتُ على الشّباب حِدَادَا

وما أحسن ما قال ابن هانيء الأندلسي: **[الكامل]**

بنتم فلولا أن أغيرّ لِمتِي عبثاً وألقاكم عَلَيّ غضابا
لخضبت شيباً في مفارق لِمَتي ومحوتُ محوَ النَّفْسِ مِنْهُ كِتابا
وخضبتُ مبيضّ الحداد عليكمُ لو أنّني أجدُ البَياضَ خِضَابَا
وإذا أردتَ على المشيب وفادةً فاجعل مطيَّك دونه الأحقَابَا
فلتأخذنَّ من الزَّمان حمامةً ولتدفعنّ إلى الزَّمان غُرابا

* * *

قال الرَّاوِي: فَعَرفتُ حِينئذٍ أنَّهُ أبو زَيْدٍ ذُو الرَّيْبِ وَالغَيْبِ، وَمُسَوِّدَ وَجْهِ الشَّيْبِ، وَسَاءَنِي عُظْمُ تمَرُّدِه، وَقُبحُ تورُّدِه، فقُلتُ لهُ بِلسَان الأنَفةِ، وَإدْلالِ المَعْرفةِ: أَلَمْ يأنِ لَك يَا شَيْخَنا أنْ تُقْلِعَ عَن الخَنَا! فتَضَجَّرَ وَزَمْجرَ، وَتَنكَّرَ وَفكَّرَ، ثمَّ قَال: إنَّهَا لَيْلَةُ مِراح لاَ تلاَح، وَنُهزَةُ شُرْبِ رَاحٍ لا كِفَاح. فعَدِّ عَمَّا بدا، إلَى أنْ نتَلاقَى غَداً، ففَارَقْتهُ فَرَقاً مِنْ عَرْبدَتِهِ، لاَ تعَلُّقاً بعِدَتِهِ، وَبتُّ لَيْلَتِي لاَبِساً حِدادَ النَّدَم، عَلَى نَقْلِي خُطَا القَدم، إلى ابنَةِ الكَرْمِ لاَ الْكَرَمْ، وَعَاهَدتَ اللَّهَ سُبحَانه وَتَعالَى ألاَّ أحْضُرَ بْعدهَا حَانة نَبَّاذٍ، وَلَو أُعْطِيتُ مُلْكَ بَغْداذ، وَألاَّ أشْهَدَ مِعْصَرةَ الشَّرَابِ، وَلَوْ رُدَّ عَلَيَّ عَصْرُ الشَّبَاب.

ثمَّ إنَّا رَحَّلْنَا العِيسَ، وَقْتَ التَّغْلِيسِ، وَخَلَّيْنَا بينَ الشَّيْخَيْنِ وَإبلِيسَ.

* * *

قوله: «تمرده»، تشيطنه، وتمرَّد إذا كثر شرُّه، والمَريد: الخبيث الذي لا يطاق

مكره تورّده: إتيانه بما لا يحلّ، وأصل التورّد قصد الماء. الأنفَه: الغضب يأنِ: يحين ويقرب. الخنَا: الفساد. تضجَّر. اشتدّ غضبه. زمجر: تكلّم بما لا يفهم. تنكَّر: تغيَّر عليّ، ونكّر نفسه كأنّه لا يعرفني. مِراح: طرب ونشاط. تلاح: مشاتمة. نُهْزة: فرصة وغنيمة. كفاح: قتال. فَعَدّ: اصرف واترك. فَرَقاً: فزعاً. عَرْبدته: شرُّه وشغبه. الحداد: ثياب الحزن. الخُطَا: جمع خَطْوة، وهي ما بين القدمين. نبّاذ: خمّار. عَصْر: زمان. رحَّلنا العيس: جعلنا على الإبل رحالها. التّغليس: الخروج في الغَلَس، وهي الظلمة التي بين طلوع الفجر والشمس.

وأظن أنه بنى هذه المقامة على حكاية لأبي دلامة، حكى الأصبهانيّ أنّ موسى بن داود الهاشميّ عزم على الحج، فقال لأبي دلامة: احْجُجْ معي ولك عشرة آلاف درهم، فقال: هاتها، فدفعها إليه، فأخذها وهرب إلى السواد، وجعل ينفقها هنالك في شرب الخمر، فطلبه موسى فلم يقدِرْ عليه، وخشي فَوْتَ الحجّ، وخرج. فلمّا شارف القادسية إذا هو بأبي دلامة خارج من قَرْية إلى أخرى وهو سكران، فأمر بأخذه وتقييده، وطُرِح في محمل بين يديه، فلما سار غير بعيدٍ أقبل على موسى ونادى: **[الكامل]**

يأيّها النّاس قولوا أجمعون معاً: صلّى الإله على موسى بن داودِ
كأنّ ديباجَتَيْ خدّيه من ذهبٍ إذا بدا لك في أثوابه السُّودِ
إنّي أعوذ بداودٍ وأعظُمِه من أن أكلّف حَجًّا يا بْنَ دَاوُدِ
خُبِّرت أن طريق الحج معطشةٌ من الشّراب وما شربي بتصْرِيدِ
والله ما فيّ من أجرٍ فتطلبه ولا الثناء على ديني بمحمودِ

فقال موسى: ألقوه عن المحمل، لعنه الله، فألقِيَ وعاد إلى موضعه بالسَّواد حتى أنفق المال.

وقال آخر: **[الوافر]**

ألم ترني وبشاراً حَجَجْنَا وكان الحجُّ من خير التّجَارَهْ
خرجنا طالبَيْ سفرٍ بعيدٍ فمال بنا الطريق إلى زُرَارهْ
فآب النّاس قد حجوا وبرُّوا وأبنا موقَرِين من الخسارَهْ

وقال أبو نواس في الحج: **[البسيط]**

وقائل: هلْ تريد الحجّ قلت له: نعم، إذا فَنِيَتْ لذّاتُ بغداذِ
وكيف بالحجّ لي ما دمتُ منغَمِساً في بَيْتِ قوَّادة أو بيت نبَّاذِ!

قوله: «وخلينا بين الشيخين أبي زيد وإبليس» من قول الحسن: **[السريع]**

بتُّ وإبليس إلى الصبح في كلِّ الذي يؤثمني خَصْمي

وانظر هذا في الثامنة والأربعين، والله أعلم.

المقامة الثالثة عشرة

وتعرف بالبغداديّة

حدّث الحارث بن همام، قالَ: ندَوْتُ بِضَواحي الزَّوراءِ، مَع مشيخَةٍ مِنَ الشُّعَراءِ، لا يعْلَقُ لَهُمْ مبارٍ بغبَارٍ، وَلا يجرِي معَهُمْ ممارٍ فِي مِضْمارٍ، فأَفَضْنا في حَدِيثٍ يَفضَحُ الأَزْهارَ، إلى أن نَصفنا النَّهار. فلَمَّا غَاضَ دَرُّ الأَفكار، وَصَبَت النّفُوسُ إلى الأوكار، لَمحْنَا عَجُوزاً تُقْبِلُ مِنَ الْبُعْدِ، وَتحضِرُ إحْضَارَ الْجُرْدِ، وَقَدِ اسْتَتْلَتْ صِبْيَةً أنْحَفَ مِنَ المَغَازِلِ، وأضعَفَ مِنَ الجوَازِلِ، فَمَا كَذَّبَتْ إذْ رَأتْنَا، أَنْ عَرَتْنا، حَتَّى إذَا مَا حضَرَتْنَا قَالَتْ:

***

ندوتُ، أي خرجت، ويقال: نَدَتِ الإبل تندّ وإذا خرجت من المشرب ترعى فيما قرب منه، وهو الذي قصد، لأنه أراد أنه خرج مع أصحابه خارجَ البلد يستريحون ثم يرجعون. والضّواحي: المواضع البارزة للشمس.

***

[الزوراء]

والزوراء، هي في الجانب الشرقيّ من بغداد، وسمّيت زوراء لازورار قبلتها، أي لانحرافها. وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «تكون مدينة بين الفرات ودجلة يكون فيها مُلْك بني العباس، وهي الزّوراء يكون فيها حرب مُفظِعة تُسْبَى فيها النساء، وتُذْبَح فيها الرجال كما يُذبح الغنم».

والزّوراء هي بغداد، ويقال لها الزّوراء، ومدينة السلام، ومدينة المنصور، وبغداد وبغداذ وبغدان وبغذان وبغدام وبغذام وبغذاد ـ عن الفراء.

وبعضهم يقول: تفسيره بستان رجل، فبَغْ بستان، ودَاد رجل. وقيل: بَغْ صنم، وداد عطيّة وإنما اختلفت العرب في لفظها إذ لم تكن من كلامها، ولا اشتقاق لها من لغتها، وأشهر لغاتها بغداد، بدالين وبغدان، بالنون. وكان الأصمعيّ رحمه الله لا يقول بغداد، وإنما يقول مدينة السلام، لأنّ بغ عندهم اسم صم، وداد عطيّة بالفارسية فكأنها

عطيّة الصم. وبناها المنصور، وبعث رجالاً يطلبون له موضعاً يبني فيه مدينة، فطلبوا فلم يجدوا، حتى جاء ينزل فنزل على البرّ الذي في الصَّراة، فقال: هذا موضع أرضاه، تأتيهِ الميرة من الفُرات ودِجْلة والصّراة، فوجَّه حينئذ الصنَّاع من الشأم والموْصِل والكوفة وواسط والبصرة، فابتدئت سنة خمس وأربعين ومائة.

وقال محمد بن أبي سهل: لمَّا أراد المنصور بناءَ بغداد، أمرني أن آخذ الطالع، فأخذنا طالعَها، فكان المشتري، فأخبرته بما تدلّ عليه النجوم من طول بِنائها وكثرة عمارتها، ثم قلت: وخَلّةٌ أخرى يا أمير المؤمنين، نجدها على ما تدلُّ عليه النجوم... لا يموت فيها خَلِيفة، فرأيته يتبسَّم، وقال: الحمد لله، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وقيل لرجل: كيف رأيت بغداد؟ فقال: الأرض كلُّها بادية وبغداد حاضرتها.

ابن جبير: بغداد هي المدينة العتيقة، ولم تزل حَضْرة الخلافة العباسيَّة وقد ذهب رسمها ووسمُها، وهي بالإضافة إلى ما كانت عليه قبل إنحاء الحوادث عليها، والتفات أعين النوائب إليها كالطَّلَلِ الدّارس، والأثر الطّامس، أو تمثال الخيال الشَّاخص، فلا حسن فيها يستوقف البَصر، ويستدعي من المستوفز الغَفْلة والنَّظَر، إلا دجلتها التي بين الشرقيَّة والغربيَّة منها كالمرآة المجلوَّة بين صفحتين، أو العقد المنتظم بلبَّتين، فهي تردها فلا تظمأ، وتطلع [منها] في مرآة صقيلة فلا تصدأ. والهواء المنتظم يتولّد بين هوائها ومائها، فهي معروفة بفتن الهوى، إلا أن يَعْصِم الله منها. وكنَّا سمعنا أنْ هواء بغداد يُنبت السرور في النَّفس، ويبعث دائماً على الانبساط والأنس، فلا تكاد تجد فيها إلا جذلان طرباً، وإنْ كان نازح الدار مغترباً، حتى حللت بقرية وزيران، وهي على مرحلة منها، فلما نفحْتنا نوافح هوائها، ونقعنا الغلة ببرد مائها، أحسَسْنا من أنفسنا على حال وحشةِ الانفراد دواعَي من الإطراب، واستشعرنا بواعث فرح كأنه فرحه الغُيَّاب بالإياب، وهفت بنا محركات من الأنس ذكّرتْنا معاهدَ الأحباب في عصر الشباب، هذا للغريب النازح الوطن، فكيف الوافد فيها على أهل وسكن! **[الطويل]**

سَقَى الله بابَ الطَّاق صَوْب غمامةٍ ... وردّ إلى الأوطان كلَّ غريبِ

وبغداد جانبان: شرقيّ وغربيّ ودجلة بينهما. فأما الجانب الغربيّ فقد عمّه الخراب، واستولَى عليه، وهو كان المعمور أولاً، ولكنّه مع خرابه يحتوي على سبع عشرةَ مَحلّه، كلّ واحدة منها مدينة مستقلّة، لها الحمَّامَان والثلاثة، وصلاة الجمعة في ثمان منها، وأكبرها القُرَيّة، وهي على شطّ دِجْلة ومقربة من الجسر، ثم الكَرْخ، وهي مدينة مشهورة، ثم مَحِلّة باب البصرة، وهي مدينة بها جامع المنصور، وهو كبير عتيق البُنْيان، ثم الشارع وهي مدينة، وهذه الأربع أكبر المحِلاّت، والوسيطة بين دِجْلة وبين نهرِ يتفرَّع من الفرات، وينصبُّ في دجلة، يجيء فيها جميعُ المدائن التي يسبقها الفرات. وعلى بابها نهر آخر منه ينصبّ في دِجْلة.

ومنها العتّابية، وهي مدينة يصنع فيها الثّياب العتّابية، وهي حرير وقطن مختلفات الألوان، وأسماء سائر المحلاّت يطول ذكرها، وأمّا الشرقيّة فهي محدثة وهي حفيلة الأسوار، عظيمة الترتيب، تشمل من الخَلْق على بشر كثير لا يحصيهم، إلا الذي أحصَى كلّ شيء عدداً. وبالشرقيّ محلة الرُّصافة، وبها كان بابُ الطّاق المشهور على الشطّ، وبإزائها مَحِلّة كبيرة تعرف بقبر أبي حنيفة رحمه الله، فيها قُبَّة سامية في الهواء بيضاء، فيها قبر الإمام أبي حنيفة، وبالقرب منها قبر الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله.

وحمّامات بغُداد لا تُحصى، أخبرني بعض أشياخها، أن فيها اليوم ألفي حمّام، وأكثرُها مطليّة بالقار، مسطَّحة به، فيخيَّل للناظر فيها أنها رخام أسود صقيل، وأكثر حمامات هذه الجهة على هذه الصفة، لكثرة القار عندهم، وشأنه عجيب، لأنّه مَنْبَع عين بين البصرة والكوفة، يصير القار في جوانبها كالصّلصال، فيجرف ويجلب، وقد انعقد فسبحان خالقه!

وببغداد من المدَارس نحو الثلاثين، ما منها مدرسة إلاّ كالقصر العظيم، وأعظمها النظاميّة. وبساتين بغداد وحدائقها بالغربيّة، ومنها تجلب الفواكه للشرقيّة، والعادة أبداً أن يكون بين الشرقيّة والغربية جسران لجواز النّاس، ومع ذلك فمن يعبر بينهما من النّاس في الزوارِق لا يحصَى، وذلك لكثرة النّاس، وزوارقها لا تحصى، والنّاس ليلاً ونهاراً من معاينة العبور فيها في نزهة متصلة رجالاً ونساء.

وبالجملة فشأن هذه البلدة أعظم من أن يُوصف، وأين هي اليوم مما كانت عليه! هي اليوم داخلة تحت قول حبيب: [الكامل]

* لا أنتِ أنتِ ولا الدّيارُ دِيَارُ *[1]

ثم ذكر ابن جبير أهلَها فذمّهم بكلّ عيب؛ من الكبرياء وبيع الربا، ثم استثنى فقهاءها ووعاظها.

* * *

[مما قيل في الشعر والشعراء]

قوله: «مع مشيخه من الشعراء»، قال الخليل في مدح الشُّعراء: هم أمراء الكلام يصرِّفونه أنَّى شاؤوا وجائز لهم ما لا يجوز لغيرهم من إطلاق المعنى، وتقييده ومدّ مقصوره وقصر ممدوده، والجمع بين لغاته والتفْريق بين صفاته.

وسئل غيرهم عنهم، فقال: ما ظنُّك بقومِ الاقتصاد محمود إلا منهم، والكذب مذموم إلا بينهم!

---

(١) عجزه:

خفَّ الهوى وتولّت الأوطارُ

والبيت في ديوان أبي تمام ص ١٤٤.

وقال آخر: إيّاكم والشاعر، فإنه يطلب على الكذب مثوبة، ويقرع جليسه بأدنى كلمه.

وقال بعض الظرفاء يذمهم: [السريع]

الكلْبُ والشاعر في رتبةٍ ... يا ليت أني لم أكُنْ شاعرًا!
هل هو إلا باسِطٌ كفه ... يستمطر الواردَ والصادِرَا
والله لولا حُرُقاتُ الهوى ... ما كنتُ إلا رَجُلاً تَاجِرَا

وقال ابن الرومّي: [الطويل]

يقولونَ ما لا يفعلون مسبّةً ... من الله مسبوبٌ بها الشعراءُ

وقال أيضاً: [الكامل]

للناس فيما يكلفُون مغارمٌ ... عند الكرام لها قضاء ذمامِ
ومغارم الشعراء في أشعارهمْ ... إنفاق أعمارٍ وهَجْرُ منامِ
وجفاء لذاتٍ، وهجر مكاسبٍ ... لو خولفت حُرسَتْ من الإعدامِ
وتشاغُلٌ عن ذكر ربٍّ لم يزل ... حسنَ الصنائع، سابغَ الإنعامِ

قوله: «مبارٍ»، أي معارض. مضمار: طلَق. ممارٍ: مجادل. أفضنا: اندفعنا. يفضح: يكشف عيوبها. شبّه الجماعات في الآداب بالخيل الجِياد في الطّلَق لا يلحق غبارَهَا مَنْ يجاريها، وجعل حديثهم بحسن تفنّنه يفضح الأزهار متى قرن بها.

* * *

[مجالس الشعراء]

ونجعل تفسيراً لهذا المجلس الموصوف باجتماع الشعراء ما حدث به دِعْبل أنه اجتمع هو ومسلم بن الوليد وأبو الشِّيص وأبو نُوَاس، وهؤلاء مشيخة شعراء عصرهم، فقال لهم أبو نواس: إنَّ مجلسنا هذا قد اشتهر باجتماعنا فيه، ولهذا اليوم ما بعده فلْيأتِ كلُّ امرىء منكم بأحسن ما قال فلينشده، فأنشد أبو الشِّيص: [الكامل]

وَقَفَ الهوى بي حيثُ أنتِ فليس لي ... متأخَّرٌ عنه ولا متقدَّمُ
أجدُ الملامَّة في هواكِ لذيذةً ... حُبًّا لذكْرِكِ فَلْيَلُمْنِي اللُّوَّمُ
أشبهتِ أعدائي، فصرت أحبُّهمْ ... إذ كان حظّي منكِ حظّي منهمُ
وأهنتِنِي فأهنتُ نفسي صاغراً ... ما مَنْ يهونُ عليكِ ممن يُكْرَمُ

فجعل أبو نواسَ يعْجب من حسن الشعر، حتى ما كاد ينقضي عجبه.

ثم أنشد مسلم أبياتاً منها: [الطويل]

فأقسم أنسي الدَّاعيات إلى الصبّا ... فقد فجأتها العين والستر واقعُ

فغطَّت بأيديها ثمارَ نحورِهَا   كأيدي الأُسَارَى أثقلتْها الجوامعُ

قال دعبل: فقال لي أبو نواس: هات أبا عليٍّ وكأني بك قد جئت بأمّ القلادة.. لا تعجبي يا سلم، فأنشدته: [الكامل]

أيـن الشبابُ وأيَّةً سلَكَا   أمْ أيْنَ يُطلبُ؛ ضلَّ أم هَلَكا

لا تعجبي يا سَلْمَ من رجلٍ   ضَحِكَ المشيبُ برأسه فبكى

يا ليت شعري كيف صبرُكما   يا صاحبيَّ إذا دمي سُفِكا

لا تطلبا بظُلامتي أحداً   قلبي وطَرْفِي في دمِي اشْتَرَكا

ثم سألناه أن ينشدنا فأنشد: [البسيط]

لا تَبْكِ لَيْلَى ولا تركنْ إلى هِنْدِ   واشْرَبْ على الوَرْد من حمراءَ كالوَرْدِ

كأساً إذا انحدرتْ في حَلْقِ شاربها   وجدْت حُمْرَتَها في العين والخدِّ

فالخمرُ ياقوتَةٌ، والكأس لؤلؤة   في كفِّ جاريةٍ ممشوقة القدِّ

تَسقيكَ من عَينها خمراً ومن يَدِها   خَمْراً، فما لك من سُكْرَيْن من بُدِّ

لي سكرتان وللندمان واحدةٌ   شيء خُصِصْت به من بينهم وَحْدِي

فلما بلَغ هذا البيت، قاموا فسجدوا له، فقال: أفعلتموها! والله لا أكلمكم ثلاثاً ولا ثلاثاً ولا ثلاثاً! ثم قال: تسعة في هجر الإخوان كثير، وفي بعضها استصلاح للفاسد، وعقوبة على الهفوة.، ثم التفت إلينا وقال: أعلمتم أن حكِيماً عتب على حكيم، فكتب المعتوبُ عليه إلى العاتب: يا أخِي، إن أيام العمر أقلُّ من تحمّل الهجر، نظمَ ذلك الشاعر فقال: [مجزوء الكامل]

العمرُ أقصرُ مدةً   من أن يمحَّقَ بالعتابِ

أو أن يكدِّر ما صفا   منه بهجرٍ واجتناب

وقال ابن طاهر: [الطويل]

إلى كَمْ يكون الصَّدُّ في كلِّ ساعةٍ   ولـمْ لا تملّين القطيعةَ والهجرا!

رويدكِ إنَّ الدَّهرَ فيه بقيةٌ   لتفريق ذاتِ البين فانتظري الدهر!

وقال آخر: [الكامل]

ولقد علمت فلا تكن متجنياً   أن الصدود هو الفراقُ الأوّلُ

حَسْبُ الأحبَّة أن يفرّق بينهم   ريبُ الزمان فما لنا نستعجل!

وقال القاضي عبد الوهاب: [المنسرح]

لا تتعجَّل قطيعتي فكفى   يوماً بذا الدَّهر بيننا مقطعْ

عـمَّـا قـريـبٍ تـجـيءُ فُـرقـتـنـا ثـمَّـت لا مُـلـتـقًـى ولا مـجـمَـعْ

وأخذه الكل من جميل: [الكامل]

ولـعـلَّ أيـامَ الـحـيـاة قـلـيـلـةٌ فـعـلامَ يـكـثـر عَـتْـبُـنَـا ويَـطُـولُ!

قوله: «نصفنا»، أي بلغنا نصفه. غاض: جَفَّ. درّ الأفكار: كلامها، والدّرّ: اللّبن، استعارة لما يتولد من الذهن. صبَتْ: مالت. الأوكار: البيوت هنا. لمحنا: أبصرنا. تُحْضِر: تجري. الْجُرد: الخيل القصيرة الشعر. استتلتْ: جعلتْهم تِلْوَها يتبعونها. أنحف: أقلّ لحماً. الجوازل: فراخ الحمام، واحدها جَوْزل. عرْتنا: قصدتنا.

* * *

حَيَّا اللَّهُ المَعَارِفَ، وَإن لم يَكُنَّ معارِف؛ اعْلمُوا يا مَآلَ الآمِلِ، وَثِمَالَ الأرَامِلِ، أَنِّي مِن سرَوَاتِ القَبَائِلِ، وَسَرِيَّاتِ العَقَائِلِ، لمْ يزَلْ أَهْلِي وَبَعْلِي يَحلُّونَ الصَّدْرَ، وَيَسِيرُونَ القَلْبَ، وَيُمطُونَ الظَّهْرَ، وَيُولُونَ اليَدَ. فَلمَّا أرْدَى الدَّهْرَ الأعْضادَ، وَفَجَع بالْجَوَارِح الأكْبادَ، وانقلَبَ ظَهْراً لِبطْنٍ، نَبا النَّاظِرُ، وَجَفَا الْحَاجِبُ، وذهَبَت الْعَيْنُ، وَفُقِدَتِ الرَّاحةُ، وَصَلَدَ الزَّنْدُ، وَوَهَنَتِ الْيَمِنُ، وَضاعَ اليَسَارُ، وَبانَت المَرَافِقُ، وَلم يَبْقَ لنا ثنيَّةٌ وَلاَ نابٌ، فَمُذِ اغْبَرَّ العَيشُ الأخضَر، وَازْوَرَّ المحبُوبُ الأصْفَر؛ وَاسْوَدَّ يومِي الأبيض، وَابيَضّ فَوْدِي الأسْود، حتَّى رَثَى لنَا العَدُوُّ الأزرَقُ، فَحَبَّذَا المَوتُ الأحْمَر. وتِلْوِي مَنْ تَرَوْنَ عَيْنُه فُرَارُه، وَتَرْجَمانُه اصْفِرَارُه، قُصْوَى بُغْيةِ أَحَدِهِمْ ثرْدَة، وقُصَارَى أُمنِيَّتِه بُرْدَة. وكُنْتُ آلَيْتُ ألاَّ أبذُل الْحُرّ إلاّ لِلْحُرّ، وَلَوْ أني مِتّ مِن الضُّرّ. وقَدْ ناجَتنِي الْقَرُونَة، بأن تُوجد عِندَكُم المَعونة، وآذَنَتْنِي فِراسَةُ الْحَوباءِ، بأنكُم ينابيعُ الحبَاء، فنضَّرَ اللَّهُ امرأً أَبَرَّ قَسَمِي، وَصَدَّقَ تَوَسُّمِي، وَنظَرَ إلَيَّ بِعَيْنٍ يُقْذِيها الجمُود، وَيُقَذِّيها الْجُود.

* * *

للعارف الأول: الوجوه، واحدها معروف. قال الشاعر: [الكامل]

مـتـلـثّـمـيـن عـلـى مـعـارِفِـنَـا نـثـنـي لـهـنَّ حـواشـيَ الـعـصـب

وإن لم يكنَّ معارف، أي وإن كنت لا أعرفهم. مآل: مرجع، وقد آل يؤول أوْلا ومآلا، إذا رجع. والآمل: الراجي. وثِمال: غياث وملجأ. الأرامل: المساكين، يعقوب: هنّ جماعة الرجال والنساء، ويقال لهم: أرامل، وإن لم يكن فيهم نساء. ويقال: جاءت أرْملة من رجال ونساء محتاجين، ويقال للرجال الضعفاء لمحتاجين:

أرْملة، وإن لم يكن فيهم نساء. وأرمل القوم: فَنِيَ زادهُم، وواحد الأرامل أَرْمَل وأَرْملة، وإنما قيل للفاقدة زوجها: أرملة، لأنَّ أمرها يؤول إلى الضيعة والحاجة. سَرَوَات: ساداتٍ، واحدها سراة، والسَّرِيُّ: السيِّد الكبير ذو المروءَة، والسرو: المروءَة، وقد سرىَ سرواً وسَرُو سراوةً: جمع السخا والفضل، قال امرؤ القيس: [الكامل]

* ولَـهَـا عـلـيـه سَـرَاوَةُ الْـفَـضْـلِ *[1]

وأنشد يعقوب: [الكامل]

إن الـسـريّ هـو الـسـريُّ بـنـفـسـه   وابـن الـسـريّ إذا سرى أسْـرَاهـمـا[2]

قال ثعلب: السريّ في كلامهم: الرفيع، مأخوذ من السَّرَاة، وسراة كلّ شيء: أعلاه، وسريات: سيدات. العقائل: كرائم النساء، تريد أن أباها وأمها من السَّادات. البعل: الزوج، وبعل الرجل بُعُولة: تزوّج. الصدر: مقدّم المجلس. القلب: قلب العسكر، والعسكر خمسة أقسام: مقدّمة، وساقة، وميمنة، وميسرة، وقَلْب، وهو محلّ الملوك، أرادت أن قرابتها منهم. يُمْطُون: يهَبُون. الظَّهر: الإبل بأوقارها، وأمطاه: أعطاه دابة يركب مطاها، أي ظهرها. يُوُلون الْيَد: يهبون النعمة. أردى: أهلك. الأعضاد: جمع عَضُد وهو غليظ الذراع الذي بين المرفق والمنكب. فجع: أحزن، وجاء بفجيعة، وهي الرزيَّة يتفجَّع عليها الجوارح: عوامل الجسد كاليد والرجل والعين، تريد أنَّ الدهر إذا أهلك أهلَها فكأنه قطع جوارحَها فتعطّلت منفعتها. انقلب: تحوّل. ظهر البطن: كناية عن الخلاف، أي بعد أن كان مستقيماً انقلب. نبا: ارتفع ولم يستقرّ. الناظر: مَنْ ينظرُ عليها. الحاجب: من يحجبها ويسترها. والعين: الذهب. الراحة: الدّعة والسكون. صَلْد: لم يور نارا، وأرادت انقطاع الخيْر عنها. وهنت: استرخت. اليمين: القوّة. بانت: ذهبت وبَعُدت. المرافق: مَنْ كان يرتفق بحياته ومنفعتِه، والمرافق: كلّ ما ارتفقتَ به من مال وغيره. ثنيَّة: صغيرة من الإبل. ونابٌ: مسنَّة.

وهذا الكلام كُلّه استعارة كما تقدم في الإبرة والمرْود، لكنَّه كني هنا بالجوارح والأعضاء عمّن كان يستعين به من القرابة على الدّهر، ومعاني الأعضاء بيّنة إلا الراحة،

---

(١) يروى البيت بتمامه:

فـلـهـا مـقـلَّـدُهـا ومـقـلَّـتُـهـا   ولـهـا عـلـيـه سـرارة الـفـضـلِ

وهو في ديوان امرىء القيس ص ٢٣٨، ولسان العرب (سرر)، وتهذيب اللغة ١٢/ ٢٨٨، وتاج العروس (سرر).

(٢) يروى البيت:

تـلـقـى الـسـريَّ مـن الـرجـال بـنـفـسـه   وابـن الـسـريّ إذا سـرا أسـراهـمـا

وهو بلا نسبة في لسان العرب (سرا)، وتهذيب اللغة ١٣/ ٥٣، والمخصص ١٥/ ٦٠، وديوان الأدب ٤/ ٧٤، وتاج العروس (سرو).

فإنها بطن الكفّ: والزند: طرف عظم الساعد، والثنيَّة والناب صريحتان، ونبا الناظر: لم ينم، وجفا الحاجب: لم يرسل الجفن على العين فتنام، كما قال بشار: [الوافر]

نَبَتْ عيني عَنِ التغميض حَتّى ... كأنَّ جفونها عنها قِصَارُ[١]

وقال التِّهاميّ: [الكامل]

قَصُرَتْ جفوني أم تباعد بينَها ... أم صوّرت عيني بلا أَشْفَارِ[٢]

قوله: «اغبرّ»، أي علته غُبرة. والأخضر: الناعم. ازورّ: انقبض. الأصفر، هو الدينار. الفَوْد: ناحية الرأس بين الأذن والجبهة، وهذا من قول أعرابيّ ذكر مصيبته فقال: مصيبة والله تركت سود الرؤوس بيضاً، وبيض الوجوه سوداً، وهوّنت المصائب بعدها.

وقال عبد الله بن الزَّبير الأَسَديّ: [الوافر]

رَمَى الحدثان نسوَة آل حرب ... بمقدارٍ سَمَدْن له سُمُودَا[٣]

فردّ شعورهنّ السُّود بيضاً ... وردّ وجوههنّ البيض سودَا

وقال التّهامي: [البسيط]

تُسَوِّدُ الشمس مِنّا بيض أوجِهنا ... ولا تسوّد بيض العذر واللِّمَمِ

وكانَ حالهما في الحكم واحِدةً ... لو احتكمنا من الدُّنيا إلى حَكَمِ

قوله: «رثى» بكى وأشفق. العدوّ الأزرق: أراد الرّوم وهم أعداء العرب. والموت الأحمر: الشديد، ومنه الْحُسنْ أحمر، أي مَنْ أحبّ الحُسْن احتمل المشقة. وفي الحديث: كنّا إذا احمرَّ البأس اتقينا برسول الله ﷺ، فلم يكن أحدٌ أقربَ إلى العدوِّ منه[٤]، فمعناه اشتدَّ، وقيل: معنى الموت الأحمر: القتل، وقد قال الأخطل: [الكامل]

* أن قد أتيح لهنّ موتٌ أحمرُ *[٥]

---

(١) البيت في ديوان بشار بن برد ٣/ ٢٤٩، ولسان العرب (نزا). ويروى «جفت عيني» بدل «نبت عيني».

(٢) البيت في ديوان التهامي ص ٣٠.

(٣) البيتان لعبد الله بن الزبير في ملحق ديوانه ص ١٤٣، ١٤٤، وتخليص الشواهد ص ٤٤٣، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ٩٤١، والمقاصد النحوية ٢/ ٤١٧، ولأيمن بن خريم في ديوانه ص ١٢٦، ولفضالة بن شريك في عيون الأخبار ٣/ ٧٦، ومعجم الشعراء ص ٣٠٩، وللكميت بن معروف في ديوانه ص ١٩١. وذيل الأمالي ص ١١٥، وبلا نسبة في شرح الأشموني ١/ ١٥٩ (البيت الثاني فقط)، وشرح ابن عقيل ص ٢١٧، ولسان العرب (سمد).

(٤) أخرجه مسلم في الجهاد حديث ٧٩.

(٥) صدره:

أضما وهزّ لهنّ رُمَحَى رأسه

والبيت في ديوانه الأخطل ص ٢٣١.

يريد قتل الثور الكلاب، وتقدّم في المقامة قبل هذه، فلما فيه من الدم سُمِّي أحمر، وهو الأظهر من مقصد الحريريّ، لأنه علّق غيره من الصفات باللّون مثل العدوّ الأزرق، والرّوم زرق العيون، فكذلك الموت الأحمر.

أبو عبيدة: الموت الأحمر أن يتغيّر بَصَر الرجل من الهول، فيرى الدنيا في عينيه حمراء ورداء، والموت الأغبر: هو الموت جوعاً، لأنه يغبرّ في عينيه كلَّ شيء، والموت الأسود هو الموت في غُمّة الماء، والموت الأبيض هو موت العافية، قال الخطابي: الموت الأبيض، أي فجأة، لأنه يأخذ الإنسان ببياض لونه.

قوله: «تِلْوِي»، أي خَلْفي وإلى جانبي. عينه: شخصه. فُراره: معرفته، أي شخصه يعرّفكم بحاله، والعرب تقول: عينه فراره للشيء تعرفه إذا أبصرته، والفرّ في البهائم. كشف أسنانها حتى يعرف ما لها من السنّ. ووقع في المقامات فُراره بضم الفاء، وكذا في نوادر أبي عليّ، ووقع في النسخ العِتاق من الأمثال لأبي عبيد: فِراره، بكسر الفاء، وأنشد أبو علي: **[الرجز]**

* هـو الـحـبـيـب عـيـنـه فِـرارُه *[1]

وفسره فقال: نظرك إليه يُغْنيك عن فَرّه لتخبُره، وهما لغتان: فُرارِه وفِرارُه.

قوله: «ترجمانه» المتكلم عنه، يريد أن صفرةَ لونِه تخبِّرك أنّه جائع. قُصوى: غاية. بُغية: طلب. وقصارى أمنيّته، أي منتهى ما يتمنّاه وغايته. بُرْدة: ثوب، أي أقصى ما يُطلب ما يأكل وغاية ما يتمنّى ما يلبس. آليت: حَلَفت. أبذل الحرَّ: أهين الخدّ، الحرّ: الكثير المروءة: ناجتْنِي: حدَّثتني. القَرُونة: النفس. المعُونة: ما يستعان به، آذنتني: أعلمتني. فِراسة الحوْباء: فطْنة النفس. الينابيع: جمع يَنْبُوع، وهو ما يخرج من الماء وينبع. الحِبَاء: العطاء. أبرّ. راعى وأكرم. توسُّمي: نظري وظنّي. يُقذيها: يجعل فيها القذى، والجمود: الشحّ.

وقال بعضهم في ذم التشكيّ إلى المخلوق: **[الرجز]**

لا أشـتـكـي ضُـرِّي إلـى الـنّـا	س وهـم مَـنْ أغـلـمُ
إن إلـهـاً مَـسَّـرَ بـالـضُّـرّ	جـوادٌ مُـنْـعِـمُ
أشـكـو الَّـذي يـرحـمـني	إلـى الَّـذي لاَ يَـرْحَـمُ

الكستجيّ، قال: أملقتُ حتى لم يبق في منزلي إلا جارية، فدخلت دار المتوكل، فلم أزل متفكِّراً، فحضرني بيتان، فأخذت قصَبةً، وكتبت على الحائط الذي كنت إلى جانبه: **[الرجز]**

---

(١) الرجز بلا نسبة في مقاييس اللغة ٤/ ٤٣٩، برواية:

هـو الـجـواد عـيـنُـه فِـرارُه

الّرزقُ مقسومٌ فأجمِلْ في الطَّلبْ ... يأتي بأسبابٍ ومِنْ غيرِ سَبَبْ
فاستَرْزِقِ الله ففي الله غنَى ... الله خيرٌ لكَ من أبٍ حَدِبْ

فركب المتوكّل في ذلك اليوم، وجعل يطوف على الحجر، ومعه الفتح بن خاقان، حتَّى وقف على البيتين، وقال: مَنْ كتب هذا؟ وقرأهما الفتح له، فاستحسنهما، وقال: مَنْ كان في هذه الحجرة؟ فقيل: الكستجيّ، فقال: أغفلنا وأسأنا إليه، فأمر لي بَبدْرتين.

وقال محمد بن مخلد الكاتب: لزمتُ أبا الحسن عليّ بن محمد بن الفرات. أغدو وأروح إلى بابه، لا أحظى بطائلٍ، ولا أصل إلى تصريف ولا نائل، حتى كرهت نفسي، فرأيت هاتفاً في المنام يقولُ لي: **[الرجز]**

يأيُّها المكثر في المطالِبِ: ... اهجرْ تصاريفَ المُنَى الكواذِبِ
إذا أَتى وقت القضاء الغالبِ ... بادرتِ الحاجة كف الطالِبِ

فتركت المسير إليه، فلم يمض لي أسبوع حتى تقلَّد حامد بن العباس الوزارة، فقلَّدني كتابته، فثابت حالي.

* * *

قال الحارثُ بن هَمَّام: فهِمْنَا لِبرَاعة عِبارَتِها، ومُلَح اسْتِعارَتِها، وَقُلنا لَها: قَدْ فَتَنَ كلاَمُكِ، فكيفَ إلحَامُكِ! فقالت: أفَجِّر الصَّخْرَ، ولا فَخْر، فقلنا: إن جَعَلتِنا مِن رُوَاتِكِ، لم نبْخَل بمواساتك، فقالت: لأُرِيَنّكُمْ أوّلاً شِعَارِي، ثمّ لأَرَوِّيَنكُمْ أشعارِي. فأبرزت رُدْنَ دِرْعٍ دَرِيسٍ، وَبرزَت بِرزَة عَجُوزٍ دَرْدَبيس، وأنشَدَت تقول: **[السريع]**

أشكو إلى الله اشتكاء المريضْ ... ريبَ الزّمان المتعدّي البغيضْ
يا قومِ إني مِن أناسٍ غَنُواً ... دَهْراً وجَفْنُ الدّهر عنهم غضيضْ
فخارُهُمْ ليسَ له دافعٌ ... وصيتُهمْ بين الورى مُستفيضْ
كانوا إذا ما نجعةٌ أعْوَزَتْ ... في السَّنةِ الشَّهْباءِ روضاً أرْيضْ
تُشَبّ للسَّارين نيرانُهمْ ... وَيُطعمون الضيف لحماً غريضْ
ما باتَ جارٌ لهم سَاغِباً ... ولا لروْعٍ قال: حال الجريضْ

* * *

قوله «همنا»، أي تحيّرنا. البراعة: الفصاحة. عبارتها: سياق كلامها. مُلَح استعارتها، يريد ما استعارته من تسمية الأشخاص بأسماء الأعضاء. إلحامك: نسجك الشعر. يفجّر الصَّخْر، أي يُخرج من الحجر الماء، ومن البخيل العطاء. مواساتك:

صِلتك، وأصلها أن تجعل صاحبك أُسْوة نفسك. شعاري: ثوبي اللاصق بجسمي، سُمِّيَ شعاراً لأنه يلي شعر الجسد، والظِّهار: الثَّوب الذي يظهر للعيون، والدِّثار: الثوب الذي بينهما. رُدْن: كمْ. درع: قميص. دريس. خلَق. برزتْ: ظهرت. دَرْدَبيس: داهية. ريب: جور. غنُوا: أقاموا. غَضِيض: منكسر. صِيتهم: ذكرهم الحسن، وهو من الصوت، فلما كسرت الصاد أصُيرٌ على وزن الذكر ومعناه، وانقلبت واوه ياء. مستفيض: متحدَّث به مشهور. نُجْعة: مرعى. أعوزت: فقدت. الشهباء: التي أجدبت فلا مطرَ فيها، ولا عُشَب. والرَّوض: الموضع الكثير العشب. أريض: متّسع. تشب: توقد. للسارين: للماشين بالليل: غَريض: طريّ. ساغباً: جائعاً. الرَّوْع: الفزع. الجريض: الغَصّ بالريق عند الموت. حال: منع، أي لا يقول جارهم حال الموت دون الأمن.

* * *

[قصة المثل: حال الجريض دون القريض]

ووفد عبيد بن الأبرص على النعمان الأكبر، وهو ابن الشقيقة وباني الخورنق، فامتدحه فوصله وأكرمه، وكان له يوم نعيم ويوم بؤس في السنة، فورد عليه في ويوم بؤسه، فقال له: ما أخرجك، ثكلتْك أمك! فقال: حضور أجلي، وانقطاع أملي؛ وكانَ مَنْ لقَيه يوم بؤسه لم يخلِّصه من الموت شيء، فاستنشده: **[مخلع البسيط]**

* أقْـفَـرَ مِـنْ أَهْـلِـهِ مَـلْـحـوبُ *[1]

فقال له: حال الْجَرِيض دون القريض، فعزم عليه أن ينشد، فأنشده: **[مخلع البسيط]**

أَقْـفَـرَ مِـنْ أُهَـيْـلِـهِ عَـبِـيـدُ فـالْـيَـوْمَ لا يُـبـدِي وَلاَ يُـعـيـدُ[2]

ثم قال له: اختر، إن شئت أخرجتَ نفسك من الأكحل، وإن شئت من الأبجل، وإن شئت من الوريد، فقال عبيد: **[السريع]**

خَـيَّـرَتـنـي بـيـن سـحـابـات عـاد فـرِدْتُ مـن بـؤسـك شـرّ الـمـراد

---

(١) عجزه:

فـالـقـطـبـيـاتُ فـالـذنـوبُ

والبيت لعبيد بن الأبرص في ديوانه ص ٢٣، وجمهرة اللغة ص ٢٨٤، وخزانة الأدب ٢/ ٢١٨، ولسان العرب (ذنب)، (لجب)، (رمل)، (هزل)، (قطم)، وبلا نسبة في رصف المباني ص ٤٣٥، وتاج العروس (قطب).

(٢) البيت في ديوان عبيد بن الأبرص ص ٤٥، وكتاب العين ٥/ ١٥١، ومقاييس اللغة ٤/ ١٨١، وأساس البلاغة (بدأ)، وجمهرة الأمثال ١/ ٣٥٩، والفاخر ص ٢٥١، ولسان العرب (قفر)، وبلا نسبة في كتاب العين ٢/ ٢١٨.

وكان قتل النعمان لعبيد سببَ قطعه يوم بؤسه، فلم يفعله بعد. [السريع]

* * *

فغيّضَتْ منهمْ صروفُ الرّدَى بحارَ جُودٍ لمْ نخَلْها تفِيضْ
وأودِعَتْ منهم بطونُ الثّرى أسْدَ التحامِي وأُسَاةَ المريضْ
فمحملي بعد المطايا المطا وموطني بعد البقاعِ الحضيضْ
وأفرخي ما تأتلي تشتكي وبؤساً له في كلّ يومٍ وميضْ
إذا دَعَا القانتُ في ليلِهِ مولاه نادَوه بدمعٍ يفيضْ
يا رَازقَ النّعّاب في عُشّهِ وجابِرَ العظم الكسيرِ المهيضْ
أتِحْ لنا اللهمّ مَنْ عِرْضُهُ مِنْ دنسِ الذمّ نقيٌّ رحيضْ
يطفىء نار الجوعِ عنّا ولو بمذْقةٍ من حازرٍ أو مَخِيضْ
فهلْ فتًى يكشِفُ ما نابَهُمْ ويَغْنَمُ الشّكْرَ الطويل العريضْ
فو الذي تعنُو النواصي لَهُ يوم وجوهُ الجمعِ سودٌ وبيضْ
لولاهمُ لم تبْدُ لِي صفحةٌ ولا تصدَّيتُ لنظْمِ القريضْ

* * *

قوله: «غيّضت»، أي أذهبت. والصروف: الطواري تَصْرفك من حالٍ إلى حال. لم أَخَلْهَا: لم أحسبها. أُودعَت: ضمنت. الثرى: التراب. التّحامي: الحماية والمنَعة، وتحاميته: تباعدت منه وتمنّعت عليه. أُساة: أطباء: المطايا: الإبل. المطا: الظهر. محَملي: ما أحمل عليه أثقالي. تقول: صرتُ أحملُ على ظهري بعد أن كان محملي ظهور الإبل. اليفاع: الارتفاع من الأرض. الحضيض: أسفل الجبل. ما تأتلي: تقصّر. بؤساً: ضرًّا. وميض: لمعان. القانت: العابد، والقنوت. طول القيام: يفيض: يملأ العين حتى تفيض بالدمع. النعّاب: فرخ الغُراب، اختصّه من الطير لأنهم يزعمون أنه يخرج من بيضَته أبيضَ الزّغَب، فيراه الذّكَر فيستريب فيضرب أنثاه، وينقرها حتى تفرَّ طائرة فيطير خَلْفها ويتركانه، فيقيّض الله له ذباباً يطيرُ حول عينيْه، فيفتح منقاره ليشرّدها، فتدخل في حلقه، فيتغذّى بها حتى يسودَّ ريشه، فيحنئذ يرجع إليه أبواه، فيكمّلان تربيتَه. ويا رازق النَّعاب، من دعاء داود عليه السلام. المهيض: الذي انكسر بعد الجبر. أتحْ: قدّر. رحيض: مغسول. مَذْقة: جُرعة. حازِر. لبن حامض شديد الحُموضة. والمخيض: اللبن يُمزَج بالماء، ويحرّك، والمَخْض التحريك ليخرج زَبده، وإذا طال مكث المخيض واشتدّت حموضته سمي حازراً. نابهم: نزل بهم. العريض: الواسع العرض. تعنو: تذِل. النّواصي: شعر مقدّم الرأس. صفحة: ناحية العنق. تصدَّيت: تعرَّضت. القريض الشعر.

* * *

قال الرَّاوِي: فوالله لَقَدْ صَدَّعَتْ بأبياتها أعشار القُلوب، واستخرجَتْ خبايا

الجيوب، حتى ماحَها مَنْ دينُه الامتياح، وارْتَاحَ لِرِفْدِهَا مَنْ لم نَخَلْهُ يَرْتاح، فلَمّا افعو عَمَ جيبها تِبْراً، وَأَوْلاها كلٌّ مِنا بِرًّا، تَوَلّتْ يَتْلُوهَا الأصاغر، وفوها بالشُّكْرِ فاغر، فاشرأبّتِ الجماعة بَعْدَ ممرِّها، إلى سَبْرِها، لِتبلوَ مواقِعَ بِرِّها. فكفلْتُ لهم باستنباطِ السِّرِّ المرموز، ونهضتُ أقفُو أثَرَ العجوز، حتى انتهيتُ إلى سوقٍ مغتصّةٍ بالأنامِ، مختصَّةٍ بالزّحام، فانغمستْ في الغُمار، وامّلَسَتْ مِنَ الصِّبْيَةِ الأغمارِ، ثم عاجَتْ بِخِلوٍّ بَالٍ، إلى مسجدٍ خالٍ، فأماطتِ الجلباب، ونفضتِ النّقاب، وأنا ألْمَحُها من خَصاصِ الباب، وأرقبُ ما ستبدِي من العُجَابِ.

* * *

قوله: «صدعت»: شقّت: أعشار: قِطَع: خبايا: ما خبّىء فيها من الدراهم. ماحها: أعطاها. دِينه: عادته. الامتياح: طلب المعروف، يريد مشيخة الشعراء الذين قد مرَّ ذكرهم، وعيش الشعراء إنما هو من الاستجداء والطلب، ومعلوم أنه مَنْ كانت عادته أن يأخذ لا يعطي في الغالب شيئاً، ولذلك قال: من لم نَخَلْه يرتاح، أي من لم نحسب أنه يهتزّ للعطاء، وقد ارتاح، إذا اهتزّ للكرم والعطاء ولذلك قال حبيب: **[الكامل]**

لم يخلِقِ الرّحمنُ أحمقَ لحيةً ... من سائلٍ يرجُو النّدى من سائلِ

وقال آخر: **[الطويل]**

لَموتُ الفتى خيرٌ من الفقرِ للفتى ... ولَلموتُ خير من سؤال بخيلِ

لعمرُكَ ما شيء لوجهك قيمة ... فلا تَلْقَ مخلوقاً بوجه ذليلِ

ولا تسألنْ من كان يسأل مرّة ... فَلَلْمَوتُ خيرٌ من سؤال سَؤولِ

وحدَّث عيسى بن عمر النحويّ، قال: قدمتُ من سفر، فدخل عليّ ذو الرُّمة الشاعر، فعرضت عليه أن أعطيَه شيئاً، فقال: أنا وأنت نأخذ ولا نُعطي.

ومدح أبو الشمقمق مَرْوان بن أبي حفصة فقال له: يا أبا الشمقمق، أنت شاعر وأنا شاعر، وغايتنا جميعاً السؤال.

وكان بشار يعطيه في كل سنة مائتي درهم، فأتاه مرّة، فقال: هلمَّ الجزية يا أبا معاذ، فقال: وَيْحَك! أجِزية هي؟ قال: هو ما تسمع، فقال له بشار يمازحه: أنت أفصح مِنّي؟ قال: لا، قال: فأعلم؟ قال: لا، قال: فأشعر؟ قال: لا، قال: فلَم أعطيك؟ قال: لئلا أهجوك، قال: إن هجوتَني هجوتُك، قال أبو الشمقمق: أو كذا هو؟ اسمع: [الرجز]

إنـي إذا مـا شـاعـرٌ هـجـانِـيـه ... أدخلت في إست أمّه علانيه

بشار يا بشار. . . وأراد أن يقول: يابن الزانية، فأمسك بشّار بفمه، وقال: أراد الله

أن يشتمَني. ثم دفع إليه مائتي درهم، وقال: لا تسمعنّ منك هذا الصبيان.

ولقيتُ بسِجْلمَاسة شاعرَها وعينها الحاج أمدحثر، وكان له شعر رائق، فحُدِّثت عنه أنه قصده يوماً فتى شاعر يستجديه بشعر، فوقع الحَاجّ تحت شعره: [الرجز]

نـحـنُ بـزاةُ الـنـاسِ لا نـصـادُ ... مَـنْ كـان ذا فـهـمٍ بـنـا يَـصْـطَـادُ

ثم كتب له، قطعة من شعره، وقال له: اقصد بها فلاناً فإنه يصلُكَ بما يرضيك، فعلم المقصود بالشعر بنية الحاج، فوصله بما أرضاه.

وعد أبو نواس أبا الطفيل الشاعر وعداً فألحّ عليه، فقال: [الطويل]

وأخْـرَسَ ولاجٍ وغـادٍ ورائـحٍ ... رجـاءَ نَـوَال لـو يُـعـانُ بـجـودِ

وإنـي وإيـاه كـعـريـانَ يـصـطـلـي ... مـن الـطِّـلِّ نـاراً غـيـر ذات وقـودِ

زَوَيْتُ له وجهاً قَطُوباً عن النَّدى ... وألـبـسـتُـه مـن وعـدِه بـوعـيـدِ

فإن كنت لاعن سوء فعلِك مُقْلِعاً ... فـدونـك فـاسـتـظـهـرْ بـنـعـل حـديـدِ

فـعـنـديَ مَـطْـلٌ لا يـطـيـر غـرابـهُ ... مـطـيـر ولا يـدعـى لـه بـولـيـد

قوله: «افعوعم»، امتلأ، وافعوعلُ بينت للمبالغة. تبراً: ذهباً. أولاها: أعطاها. البرّ: الإكرام. فاغر: منفتح. اشرأبّت: تطلَّعت، وتقول: أشرأبَّ الرجل، إذا مدّ عنقَه لينظر. سَبْرها: اختبارها. تبلُو تختبر، يريد أن الجماعة أرادت أن تعرف: هل أوقعتْ إكرامَها فيمن يستحقه أم لا. كفلت ضَمِنت. استنباط: استخراج. المرموز: المخفي. نهضت: تقدَّمت للمشي أقفو: أتبع. مغتصّة: ممتلئة. انغمست: غابت ودخلت. الغُمار: كثرة الخلْق وجماعتهم الَّتي تغمر الأرض، أي تغطِّيها، وردّه ابن الأنباري وجعله من خطأ العامَّة، وقال: إنما تقول العرب دخل في خُمار الناس، بالخاء، وهو جمعهم، إذا استتر بهم، ومنه الخُمَار لتغطية الرأس، ومنه الخمر. وقال يعقوب: هو كلّ ما استتر به الإنسان من شجر أو غيره، فإن كان من شجر خاصَّة فهو الضّرَاء، وحكى بعضهم غُماراً، جعله من غَمر الماءُ الشيء، إذا غطاه. قوله: امّلست: انفلتت بسهُولة، والامَّلاس: أن يسقط الشيء من يدك ولا تشعر به. الأغمار: الجهّال. عاجت: مالت. بخلوُ بال، أي خالية منفردة. أماطت: أزالت. الجلباب: ثوب أوسعُ من الخمار يتجلبب به، أي يلتف فيه والجلباب كالملحفة للمرأة والرداء للرجل. نَضَت: نحّت وَجَّردت: النقاب: ما يغطَّى به الوجه ألمحها: أنظرها. خَصاص: فُرَج، يريد به من شُقوق الباب.

* * *

فلمَّا انسَرَت أُهْبَةُ الخَفَر، ورأيتُ مُحيًا أبي زيدٍ قَدْ سَفَر، فهممتُ بأن أهجم عليه، عَلَى ما أجري إليه، فاسْلَنقى اسلنقاء المتمرِّدِين. ثم رفع عقيرة المغرِّدين، واندفَعَ يُنشِدُ: [المجتث]

يا ليتَ شِعري أَدَهْرِي ... أحاط علماً بقَدْري
وهل دَرَى كُنْهَ غوري ... في الخَدْعِ أم لَيْسَ يَدْرِي
كم قدْ قَمَرْتُ بَنِيهِ ... بحيلتي وبمكْرِي
وكم برزتُ بعرفٍ ... عليهمُ وبنكْرِي
أَصطاد قوماً بوعظٍ ... وآخرين بشِعْرِ
وأستفزُّ بخَلّ ... عقلاً وعقلاً بِخمْرِ
وتارةً أنا صَخْرٌ ... وتارةً أختُ صخرِ
ولو سَلكتُ سبيلاً ... مألوفةً طول عمري
لخاب قِدْحِي وَقَدْحِي ... ودام عُسْرِي وخُسْرِي
فقل لمن لامَ: هذا ... عُذْرِي فدونك عُذْرِي

* * *

انسرَتْ: زالت، ويروى: بفصل سرت عن إن، ومعناه إن أزالت بالهمزة ـ والمنفصل فعل العجوز، والمتصل فعل الأهبة، وهي العُدّة؛ يريد لمّا أن زالت عنها هيئة لباسها التي استترت بها عنا كان الخَفَر وهو الحياء يمنعُها أن تكشف وجهها حتى نعرفَها. محيّا: وجه سفر: انكشف. أهجم: آخذه على غفلة. أعنَفه: أقبَح فعله. اسلنقي: صار على ظهره. المتمردين: الشياطين ومن لا يرجَى صلاحه. عقيرة: صوت. المغرِّدين. المطربين بالغناء، والعقيرة بمعنى معقورة، أي جارحة مقطوعة. كان رجل قطعت إحدَى رجليه فرفعها ووضعها على الأخرى. ورفع صوته فقيل لكلّ مَنْ رفع صوته: قد رفع عقيرَته.

قوله: «يا ليت شعري» معناه: ليت دِرَايتي وفطنتي، ومعنى الشاعر في كلامهم الفطن العالم، وسُمِّي شاعراً، لأنه يفطن لما لا يفطن له غيره. وأجاز الفرّاء: ليتَ شعري أباكَ ما صنع، على معنى: ليتني أعلم أباكَ ما صنع، وأنشد: **[الخفيف]**

ليت شعري مسافر بن أبي عمـ ... ـرو وليتٌ يقولها المحزونُ(١)

ومعناه ليتني أعلم مسافراً.

وقال آخر: **[الخفيف]**

خَمَّر الشيبُ لِمَّتِي تخميرَا ... وحَدَا بي إلى القبور البَعِيرَا
ليت شعري إذا القيامة قامتْ ... ودُعِي بالحساب أينَ المَصِيرا

---

(١) البيت لأبي طالب في الاشتقاق، ص ١٦٦، وخزانة الأدب ١٠/ ٣٦٣، وبلا نسبة في الكتاب ٣/ ٢٦١، ولسان العرب (شعر).

قال ثعلب: المصير منصوب بشِعْرِي، أي ليتني أعلم المصير أين هو، والبعير منصوب بحدا، أي وحدا الشيب البعيرَ إلى القبور بي. كنه: حقيقة. غوري: آخر أمري، وأصل الغَوْر: قعر الحَرجَة والمنخفض من الأرض. قَمَرت: غلبت وخدعت. مكري: خداعي. أستفزّ: أستخف وأخدع، واستفزّه من كذا: أخرجه منه، والخلّ كناية عن الشرّ، والخمر كناية عن الخير، هذا على مذهب العرب. وكانت الخمر أجلَّ ما عندهم، ويقولون: ما عنده خَلٌّ ولا خمر، أي ما عنده شرّ ولا خير، وإذا فسدت الخمر عندهم صارتَ خَلاً، وقد قال في ألغازه: **[مجزوء الوافر]**

وما شيء إذا فسدَا ... تحوَّل غيُّه رشدَا

يريد أنَّ الخمر إذا فسدت، صارت خَلاً، فبعد أن كانت حراماً رجعت حلالا، وزال تأثيرُها في العقول.

صخر: هو ابن الشريد، وأخته الخنساء، فأراد أنه مرَّةَ رجل، ومرَّةً، أخرى امرأة.

ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «أربعة لُعِنوا في السماء: رجل خلقه الله ذكراً فتأنَّث، وامرأة خلقها الله أنثى فتذكرت، تتشبَّه بالرجال. والذي يُضلُّ الأعمى، ورجل حَصُور؛ ولم يجعل الله حَصُوراً إلاَّ يحيى بن زكريا عليهما السلام».

وأما صخر، فهو ابن عمرو بن الحارث بن الشَّريد بن رباح، من بني سُليم بن منصور بن عكْرمة بن خَصَفة بن قيس بن عيلان. وكان في جَماله أجملَ رجل في العرب، وسنذكر لمعة من أخبار صخر وأخته الخنساء في المقامة الأربعين إن شاء الله تعالى.

سلكت سبيلاً: دخلت طريقاً. مألوفة: مركوبة ملتزمة قدْحي: سهمي. قَدْحي: ضربي بالزَّند. عسري: فقري. خسري: ضدّ ربْحي، والخسر: النقص، يريد: لو مشيت على طريقه واحدة أبداً لخسرت وخبت. دونك، أي خذ.

* * *

قال الحارثُ بن هَمَّام: فلَمَّا ظَهَرْتُ على جَلِيَّةِ أمْرِه، وبديعَةِ إمْرِه، وَمَا زخرفَ في شِعْرِهِ مِنْ عُذْرِه، علمتُ أن شيطانَهُ المَرِيد، لا يسمعُ التفنيد، ولا يفعل إلا ما يريد. فثنيتُ إلى أصحابي عِنَانِي، وأبثثْتُهمْ ما أثبتَه عِياني، فَوَجَموا لضيعة الجوائز، وَتَعَاهَدُوا على مَحْرَمَة العجائز.

* * *

جلية: ظاهرة. بديعة: غريبة. إمره: دهائه وعجبه. زخرف: زيَّن. المَريد: العاري من الخير إنما هو شرّ كله. التفنيد: اللوم، وفنّدت فعله، إذا عبتَه. ثنيت: عطفت، وتقول: جاء ثانياً عنانه، إذا بلغ مراده ولم يجهد نفسه. أبثثتهم: أخبرتُهم: أثبته: حققه. عِياني: معاينتي. وَجَمُوا: غضبوا. الجوائز: العطايا. تعاهدوا: تحالفوا. محرمة: منع وحرمان.

المقامة الرابعة عشرة

وهيَ المكيَّة

حكى الحارث بن هَمّام، قال: نهضتُ مِنْ مدينةِ السَّلاَمِ، لحَجّةِ الإسلامِ، فلَمَّا قضيت بعونِ الله التَّفثَ، واستبحتُ الطيبَ والرَّفثَ، صَادَفَ مَوْسِمُ الخيْفِ، معمعانَ الصّيف، فاستظهرْت لِلّضرُورة؛ بما يَقِي حَرّ الظَّهِيرَة، فبينَا أَنَا تَحْتَ طِرَافِ، مَعَ رُفقةِ ظِرَافِ، وَقَدْ حَمِيَ وَطيسُ الحَصْبَاءِ، وَأَعْشى الهجيرُ عَيْنَ الحِرْبَاءِ، إِذْ هَجَمَ عَلَينَا شَيْخٌ مُتسعسِع، يتلوه فتًى مترعرِعٌ، فسلَّم الشَّيْخُ تسليم أديبِ أريبِ، وَحَاوَرَ محاورة قريبِ لاَ غَرِيبِ، فَأُعْجِبْنا بمَا نَثَر مِنْ سمطه؛ وعجبنا من انبساطه قَبْلَ بَسْطِهِ، وَقُلْنَا لَهُ: ما أنتَ! وكيفَ وَلَجْتَ وما استأذنْتَ!

* * *

نهضت، أي تقدّمت، وسمِّي النهوض تقدّماً لسرعة الحركة، وسمَّى المنصور بغدادَ مدينة السلام، لأنّ دجلة يقال لها وادي السلام، ونهر السلام، وأضاف الحجة إلى الإسلام لأنها أحد أركانه، قال النبي ﷺ: «بني الإسلام على خمس»[1]، والحجّ أحدها. التَّفث: ما يلزم الحاجّ من ترك الطِّيب وحِلاق الشعر. والرفث: النكاح. استبحت: استحللت. الموسم: الموضع الذي يجتمع فيه النَّاس من عيد أو سوق. الخيْف: موضع بمكة. معمعان: شدَّة الحرِّ. استظهرت: استعددت، تقول: قد استظهر للشيء بكذا إذا استعدَّ له، وقد تقدَّم آنفاً للحسن: **[الطويل]**

* فدونك فاستظهر بنعل حديدِ *

يقي: يمنع. الظهيرة: حَرُّ نصف النهار، فيقول: بسبب ضرورة الحرِّ جعلت على نفسي سِتْراً يمنع عني حرّ الشمس. طِراف: قبَّة من جلد. ظراف: جمع ظريف، وهو النَّبيل المهذب. حمَي وطيس الحصباء: اشتدَّ حرّ الجنادل لمن وطئها، وأصل الوطيس التنور يحمَى فيطبخ فيه. أعشى: أعمى. الهجير: حرّ نصف النهار. الحِرْباءَ: دويّبة

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان باب ١، ٢، وتفسير سورة ٢، باب ٣٠، ومسلم في الإيمان حديث ١٩، ٢٢، والترمذي في الإيمان باب ٣، والنسائي في الإيمان باب ١٣.

تستقبل الشمس وتدور معها، وانظرها في المقامة السادسة والثلاثين، وقال المعرّيّ: **[الكامل]**

وهجيرة كالهَجْر موجُ سَرابها ... كالبحر ليس لمائه من طُحْلُبِ[1]
أوفي بها الحرْباءَ عوديْ مِنبر ... للظُّهر إلا أنه لم يخطبِ
فكأنه رام الكلام ومسَّه ... عِيّ فأسعده لسانُ الجندُبِ

وقال أيضاً في نحوه: **[الطويل]**

وساحرة الأقطار يجنى سرابُها ... فتَصلب حرباءَ بريًا على جِذْعِ[2]

قوله: «هجم» أي دخل على غفلة. متسعسع: هَرِم متقارب الخطو. مترعرع: شاب متزايد، وترعرع الغلام، أي أخذ في الزيادة في طوله وخلِقته، والرّعرع: الشباب. أريب: عاقل. حاور: راجع الكلام. نثر من سمطه، أبدى من كلامه، وأصل السِّمْط خيط الجوهر. انبساطه: دالّته، وهذا الكلام أصله في البساط، تقول: بسطته فانبسط، فلا يكون الانبساط مطاوعاً إلا بعد الشروع في البسط، يقول: فهذا الشيخ انبسط علينا قبل أن نبسطه، أي دلَّ علينا قبل أن نجعل له السبيل في ذلك. ومما يستحسن من المنظوم هنا قول ابن كناسة: **[المنسرح]**

فيَّ انقباض وحشمة فإذَا ... لاقيتُ أهل الوفاء والكَرَمِ
أرسلتُ نفسي على سجيَّتها ... فقلت ما قلت غير محتشم

قال إسحاق الموصلّي: أنشدَنِي ابنُ كُناسة هذين البيتين، فقلت له: وددت أني سبقتُك إليهما وينقص من عمري سنتان.

ولجت: دخلت.

* * *

فقالَ: أمَا أنا فعافٍ، وطالِبُ إسعافٍ، وَسِرُّ ضُرِّي غير خافٍ، والنَّظرُ إليّ شفيعٌ لي كافٍ، وأما الانسياب، الذي علق به الارتياب، فما هُوَ بعُجاب، إذْ ما على الكرماء من حجاب، فسألناه: أنّى اهتدَى إلينا، وثم استدلَّ علينا؟ فقال: إنَّ للكرام نشراً تنمُّ به نفحاته، وتُرْشِدُ إلى روضة فوْحاته، فاستدللتُ بتأرّج عَرْفِكُمْ، عَلَى تبلُّج عُرفكم، وبشَّرَتي تضَوُّعُ رَنْدكمُ بحسن المنقلَبِ مِنْ عندكُمْ. فاستخبرناه حينئذ عن لُبَانتِهِ، لنتكفَّل بإعانتِهِ.

* * *

عاف: طالب معروف. إسعاف: قضاء حاجتي. الشفيع: الطالب لغيره، يقول:

---

(١) الأبيات في سقط الزند ص ١١٣٢.

(٢) البيت في سقط الزند ص ١٣٥١.

لست أحتاج إليكم مع ظهور سرّي لشفيع، لأن نظركم إليّ يغني عن الشفيع. كافٍ: مغنٍ عن غيره. الانسياب: الدخول بسهولة، وقد تقدَّم أصله في الأولى. الارتياب: الشكّ والإنكار. عجاب: مبالغة في عجب. أنّى: كيف. نَشْراً تنِمُّ به نفحاتُه: طيباً تفوح روائحه وأنفاسه. ترشد: تدلُّ وتهدي. فَوْحاته: روائحه العطرة. والعَرف: الرائحة الطيبة، وتأرّجها: تحركها، وتأرَّج الطِّيب: فاح. تبلَّج: ظهور. عرفكم: معروفكم؛ ولاحظ الحريري في هذا قول العَرْجِيّ: [المنسرح]

يـوم يـقـول الـرسـول قـد أذنـت ... فـأت عـلـى غـيـر رقـبـة فـلـج[1]

أقـبـلـت أهـوى إلـى رحـالـهـم ... أهـدى إلـيـهـا بـريـحـهـا الأرِجِ

قالوا: ويستدل بالطيب على الملوكية في المواطن التي يكون الناس فيها غير معروفين؛ فمن ذلك الحمّام ومعرك الحرب، ومثل هذا الموطن الذي ذكر الحريري في الحج إذا حلّ، قالوا: والطيب دليل لا يكذب ونمّام لا يفسد، والطيب: غذاء الرُّوح، والنفحات الذكية: نشاط النفس، فهو طَبٌّ وطيب، وقال ابن البوَّاب: [الطويل]

إذا أبصرتْكَ العين من بُعْد غاية ... فأوقعتُ شكا فيك أثبتك القلبُ

ولـو أنَّ ركـبـاً يـمَّـمُـوك لـقـادَهـم ... نـسيمُك حتى يَستدلَّ بك الـركـب

وقال السّري الموصليّ: [البسيط]

حُـلِـيُّـهُ وثـنـايـاه وعـنـبـرُه ... كـلٌّ يـنـم عـلـيـه أو يـراقِـبُـهُ

فـلـست أدري إذا مـا سار في أفق ... شـمـائـل الأفـق أذكـى أم جـنـائـبُـهُ

وقال ابن سكّرة: [البسيط]

أهـلاً وسـهـلاً بـمـن زارت بـلا عِـدَةٍ ... تحت الظلام ولم تحذر من العَسَسِ

تستَّرت بالدجى عَمْداً فما استتَرتْ ... ونـاب إشـراقـهـا لـيـلاً عـن الـقَـبَـسِ

ولـو طواهـا الـدُّجى عَنّي لأظـهـرهـا ... بـرق الـلِّثاثِ وعـطـر الـنَّحر والـنـفَـسِ

وأخذه المعتمد بن عباد فقال: [الرجز]

ثـلاثـة مـنـعـتْـنَـا مـن زيـارتـهـا ... خوفُ الوشاة، وخوف الحاسد الحَنِقِ

ضوء الجبين وَوَسْوَاس الحليّ وما ... تـحـوي مـعـاطـفـهـا من عـنـبـر عَـبِـقِ

هـب الـجـبـين بـفـضـل الـكمِّ تـستـره ... والـحـلْـيُ تـنـزعـه، مـا حـيـلـة الـعـرَقِ!

* * *

فقال: إنَّ لي مأرباً، ولفتايَ مطلباً، فَقُلْنَا: كِلاَ الْمُرَامَيْنِ سَيُقْضَى، وَكِلاَكما

---

(١) البيتان لجعفر بن الزبير في العشر والشعراء ص ٥٥٨.

سوفَ يرضى، ولكن الكُبْرِ الكُبْر، فقلنا: أجل، ومن دَحَى السَّبع الغُبْر، ثم وثب للمقال، كالمُنشَطِ من العِقال، وأنشد: [مجزوء الرجز]

إنِّـــي امــرؤٌ أُبْــدِعَ بِـــي	بَـعْـدَ الـوَجَـى وَالـتَّـعَـبِ
وَشُـقَّـتِـي شَـاسِـعَـةٌ	يَـقْـصُـرُ عَـنْـهَـا خَـبَـبِـي
وَمَـا مَـعِـي خَـرْدَلَـةٌ	مَـطْـبُـوعَـةٌ مِـنْ ذَهَـبِ
فَـحِـيـلَـتِـي مُـنْـسَـدَّةٌ	وَحَـيْـرَتِـي تَـلْـعَـبُ بِـي
إنِ ارتَـحَـلْـتُ راجِـلاً	خِـفْـتُ دَوَاعِـي الـعَـطَـبِ
وإن تَـخَـلَّـفْـتُ عَـنِ الـرُّفْـقَـةِ	ضَـاقَ مَـذْهَـبِـي
فَـزَفْـرَتِـي فِـي صُـعُـدٍ	وَعَـبْـرَتِـي فِـي صَـبَـبِ
وأَنْـتُـمْ مُـنْـتَـجَـعُ الـرَّاجِـي	وَمَـرْمَـى الـطَّـلَـبِ
لُـهَـاكُـمْ مُـنْـهَـلَّـةٌ	وَلا انْـهِـلالَ الـسُّـحُـبِ
وجَـارُكُـمْ فِـي حَـرَمٍ	وَوَفْـرُكُـمْ فِـي حَـرَبِ
مَـا لاذَ مُـرْتَـاعٌ بِـكُـمْ	فَـخَـافَ نَـابَ الـنُّـوَبِ

* * *

قوله: «مأرباً»، أي حاجة. المرامِيْن: المطلبين. الكُبْر الكُبْر، أي قدِّموا الأكبر.

ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: «أمرني جبريل عليه السلام أن أقدِّم الأكبر».

أجل: نعم. دحا: بسط. السبع الغبر: الأرضين. المنشَط: المحلول. عِقال: قَيْد البعير، وعَقَدْته بأنشوطة، أي عقدته عقدةً تنحلُّ بجذْبة أو بجذبتيْن، وقولهم: بئر نَشُوط، إذا كان دلوُها يخرُج بجذْبة أو جذبتين، وتسمي عامَّتُنا عقدة الأنشوطة اللخ. أبدِع بي: أي عَطِبْت ناقتي، يقال: أُبْدِعَ بالرَّجل إذ كلَّت إبلُه أو عَطبت. وفي الحديث: إنَّ رجلاً أتى النبيّ ﷺ فقال: احملني فإني أُبدِع بي، فقال النبي ﷺ: «ما عندي ما أحملُك عليه ولكن اذهب إلى فلان فقل له يحملك»، فأتاه فحمله فرجع إليه فأخبره، فقال النبي ﷺ: «مَنْ دَلَّ على خير فله أجر فاعلِه»[1]. قوله: «الوجى»: وجع الحافر من الحَفَى. شُقَّتي شاسعة: سَفْرتي بعيدة. خَبَبِي: مشيتي، وخببٌ الفرس خَبَباً، وهو ضرب من العدْوِ دون الإسراع. الخردل: حبّ معروف في نهاية الصِّغر. مطبوعة: مصنوعة. منسدَّة: منغلقة. العطَب: الهلاك. تخلَّفت: تأخرت. مذهبي: طرِيقي. زفرتي في صُعُد: نَفسي في

(١) أخرجه مسلم في الإمارة حديث ١٣٣، وأبو داود في الأدب باب ١١٥، والترمذي في العلم باب ١٤، وأحمد في المسند ٤/ ١٢٠، ٥/ ٢٧٤، ٣٥٧.

ارتفاع. عبرتي في صَبَب: دمعي في انحدار. المنتجع: الموضع الخصيب الذي يُنتجَع للمرعى، يقول: موضعكم خصيب وأنتم كرام فمن طلب منكم رزقه وجَده. لُهاكم: عطاياكم. منهلّة: منصبَّة. لاذ: تستَّر ولجأ. مرتاع: خائف. والنُّوَب: جمع نائبة على غير قياس، وهي الداهية، وجعل لها ناباً مجازاً وجنّس به، وأصل الناب للسبُع.

* * *

[الرجز]

ولا اسْتَدرَّ آملٌ حِبَاكُمُ فمَا حُبِي
فانْعَطِفوا في قِصَّتِي وَأحْسِنوا مُنقَلَبِي
فلَوْ بَلَوْتمْ عيشَتِي في مطعَمي وَمَشْرَبِي
لساءَكمْ ضُرِّي الّذِي أَسْلَمَني للكُرَبِ
ولو خَبرتمْ حَسَبِي وَنسَبِي وَمذْهَبِي
وَمَا حَوَتْ مَعْرفتي من العُلومِ النُّخبِ
لما اعترتكمْ شُبهةٌ في أَنَّ دَائي أَدَبي
فليْتَ أَنّي لم أكنْ أُرْضِعتُ ثَدْيَ الأدبِ
فقد دهاني شُؤمه وَعقَّنِي فيه أَبي

* * *

استدرَّ: طلب الدَّرَّ وهو اللبن. آمل: راجٍ. حِباءكم: عطاءكم. انعطِفوا: مِيلوا. منقَلبي: مرجعي، يقول: عساكم أن تشفقوا عليَّ وتميل قلوبكم بالرحمة إليَّ حتى يحسن منقلبي من عندكم. بلوتم: جرَّبتم. أسلمني: تركني. الكرب: الهموم. خبرتم: اختبرتم. حَسَبي: شرفي. والحسب آباء أشراف بحسب أو أفعال كريمة. مذهبي: طريقتي. خوت: جمعت. النُّخَب المختارة. اعترتْكم قصدتْكم. شبهة: شكٌّ وحيرة. دهاني: أهلكني وضرّني. شؤمه: نحسه. عقني قطعني وأساء إليَّ بتعليمه، فهو يتطيَّر بأدبه.

[الأدب]

والتَّطيُّر بالأدب مذهب قديم متداول، وقد أشار إليه ابن قتيبة في صدر أدبه:

وقال عمر بن شبَّة: من أعجب العجب ثلاثة مقارنة لثلاثة: الحِرْفة للأدباء، وتباعد المال عن الظرفاء، وإقبال الدنيا على النَّوْكى.

وقيل للحسن البصري رحمه الله: لِمَ صارت الحرفة مقرونة مع العلم، والثروة مقرونة مع الجهل؟ فقال: ليس كما قلتم، ولكن طلبتم قليلاً في قليل فأعجزكم، طلبتم

المال وهو قليل في أهل العلم وهم قليل، ولو نظرتم إلى مَنْ تحارَف من أهل الجهل لوجدتموهم أكثر؛ وقال الحمدوني: [البسيط]

ما ازددتُ من أدبي حرفاً أُسَرَّ به ... إلاّ تزيّدت حرفاً تحته شومُ
كذا المقدَّم في حذق بصنعتِهِ ... أنى توجَّه فيها فهو محرومُ

وقال أبو إسحاق الصّابي. [الطويل]

إذا جمعتْ بين امرأين صناعةٌ ... فأحببت أن تدرِي الذِي هو أحذقُ
فلا تتفقد منهما غيرَ ما جرتْ ... به لهما الأرزاق حين تفرّقُ
فحيث يكون النّقص فالرزق واسعٌ ... وحيث يكون الفضل فالرزق ضَيِّقُ

أخذه عبد الملك بن وهبون، فقال: [الطويل]

يعزّ على العلياء أنّيَ خاملٌ ... وإن أبصرت مني خمودَ شهابِ
وحيث ترى زند النجابة وارياً ... فثمَّ ترى زند السَّعادة كابِي

وقال أبو إسحاق الصّابي: [البسيط]

قد كنت أعجب من مالي وكثرتِه ... وكيف تغفل عنه حِرْفةُ الأدب
حتى انثنت وهي كالغضْبَى تلاحظني ... شَزْراً فلم تبق لي شيئاً من النَّشَبِ
واستيقنت أنها كانت على غَلطٍ ... فاستدركته وأفضت بي إلى الحَربِ
الضبّ والنون قد يُرْجى اجتماعهما ... وليس يُرجَى اجتماع المال والأدَبِ

وقال عليّ بن بسام يَرْثي عبد الله بن المعتز، على ما كان بينهما من العداوة: [البسيط]

لله درُّك من مَيْت بمضيعةٍ ... ناهيك في العلم والآداب والحسَبِ
ما فيه «لوٌّ» ولا «ليت» فتنقصَه ... وإنما أدركته حرفة الأدَب

وكان ابن المعتز قام على المقتدر، فلما ظفر به أمَرَ فَرُمِيَ في صهريج فيه ماء في شدَّة البرد فمات. ومن عجائب الدنيا أنَّ أباه المعتزَّ لما خُلع عن الملك أدخِل حمّاماً، وأغلق عليه فمات من حرّه.

وكما نَفَوْا أنَّ يجتمع المال والفهم في الغالب، كذلك نَفَوْا أن تجتمع النجابة في الولد والوالد في الغالب، قال الشاعر. [المتقارب]

إذا أطلع الدهر حُرًا لبيباً ... فكُنْ في ابنه سَيِّىء الاعتقَادِ
فلست ترى مِنْ نجيب نجيباً ... وهل تلد النَّار غير الرَّمَادِ!

ولما أوجع الفقر والحرمان القاضي عبد الوهاب لأجل أدبه على ما شرطوا في

الأدب، تمنَّى الكفاف ولزوم العلم إلى الممات، فقال: [البسيط]

يا لَهْفَ نفسي على شيئين لو جُمعا ... عندي لكنت إذاً من أفضل البشر

كفاف عيش كفاني ذلّ مسألةٍ ... وخدمة العلم حتى ينقضي عمري

فلما فتح عليه باب الرزق مات، على ما يأتِي ذكره، فسبحان من أنفذ حكمه في خلقه كيف شاء!

* * *

فقلنا له: أما أنت فقد صَرَّحَتْ أبياتُك بفاقَتِكَ، وعَطَبِ ناقَتِكَ، وسَنُمْطيكَ ما يوَصِّلُكَ إلى بَلَدِكَ، فمَا مَأْرَبة وَلَدِكَ؟ فقال له: قُمْ يا بُنَيّ كما قام أبُوكَ، وَفُهْ بما في نَفْسِكَ لا فضَّ فُوكَ. فنهضَ نهوضَ البطلِ للبِرَازِ، وَأَصْلَتَ لِسَاناً كَالعَضْبِ الجَرازِ، وأنشأ يقول: [المجتث]

يا سادة في المعالي ... لَهُمْ مبانٍ مَشِيدَهْ

وَمَنْ إذَا نَابَ خَطْبٌ ... قَامُوا بِدَفْعِ المَكِيدَهْ

وَمَنْ يهونُ عَلَيْهِمْ ... بذْلُ الكنوزِ العتيدَهْ

أريدُ منكمْ شواءً ... وجَرْدَقاً وَعَصِيدَهْ

فإن غَلا فَرُقاقٌ ... بِهِ تُوَارَى الشَّهِيدَهْ

أوْ لَمْ يكن ذا ولا وذا ... فَشَبْعَةٌ مِنْ ثريدَهْ

فإن تعذَّرْنَ طُرًّا ... فَعَجْوَةٌ ونَهِيدَهْ

فأحضِرُوا ما تسنَّى ... وَلَوْ شَظًى مِنْ قَديدَهْ

وَرَوِّجُوهُ فنفسي ... لَمَا يَرُوجُ مُرِيدَهْ

والزَّادُ لا بدَّ منهُ ... لِرحلةٍ لي بعيدَهْ

وأنتُم خيرُ رهطٍ ... تُدْعَوْنَ عِنْدَ الشّديدَهْ

أيديكمُ كلّ يوْمٍ ... لَهَا أيَادٍ جديدَهْ

وَراحُكُمْ وَاصِلاتٌ ... شَمْلَ الصِّلاتِ المقيدَهْ

وبُغْيتي في مَطَاوي ... ما تَرْفِدُونَ زَهِيدَهْ

وَفِيَّ أجْرٌ وَعُقْبَى ... تنفيسِ كربي حَمِيدَهْ

وَلِي نتائجُ فِكْرٍ ... يَفْضَحْنَ كلَّ قَصِيدَهْ

* * *

قوله: «صرحّت» بينت. فاقتك: فقرُك، وتصريح أبياته بعطب ناقته هو قوله، «أبدع

بي» المتقدّم، وفي معناه: أنَّ أعرابيّة خرجت إلى الحجّ، فلما كانت ببعض الطريق عَطِبَتْ ناقتها، فرفعت يديها إلى السماء وقالت: يا ربِّ أخرَجْتَني من بيتي إلى بيتك، فلا بيتي ولا بيتك! قوله: «نمطيك» نعطيك مَطِيَّة. مأربة: حاجة. فُهْ: تكلَّم. فضّ: كسِر. نهض: تقدَّم. أصْلَت: جَرَّد. العضب. الجُراز: السيف القاطع. مَشيدة: مرتفعة. ناب خطب: قصد أمر شديد. والمكيدة، هي الكيد، وكل ما يكاد به فهو مكيدة. وقاموا بدفعها: اقتدروا عليها، يقول: إذا قصِدوا بأمر عظيم وكِيدوا به اقتدروا على دفع الكيد واكتفوْا بمن يريد ضَرَّهم. العتيدة: الحاضرة المذْخورة. رُقَاق: خبز رقيق. توارى: تغطَّى. الشَّهيدة: الشاة المشوية، وقلَّما يؤكَل لحمها إلا بالرُّقاق، وربما سَمَّوا الهريسة شهيدة، وأنشدوا في ذلك: [الطويل]

هلمّوا إلى من عُذِّبَتْ طولَ ليلها ... بأضيقِ سجنٍ في الجحيم تسَّعرُ
وقد جَلَدُوها الحدّ وهي بريّة ... فسيروا إلى دفن الشهيدة تُؤْجَرُوا

وقيل: الشهيدة الدُّجاجة المحشوّة، وقيل: السمكة المحشوّة. طرًّا: جميعاً. عجوة: نوع من التمر الطيِّب. والنّهيدة: الزّبدة، والتمر بالزُّبد شيء يلذ عندهم أكله. تسنّى: حضر. شظّى: قطعة. زَوِّجوه: عِجِّلوه. ولا بدَّ منه، أي قد وجب عليكم فالتزموه لي، تقول: لا بدَّ من كذا، معناه قد ألزمتهُ نفسي وجعلته واجباً عليَّ، من قول العرب: قد أبدَّ الرَّجل القوم، وأَبدَّ الرامي الوحشَ، إذا ألزمهنَّ الحتف، قال أبو ذؤيب: [الكامل]

فأبدهنّ حُتُوفَهُنّ فهاربٌ ... بذَمائه أو باركٌ متجعجعُ[1]

قوله: «أيادِ»: أي نعم. راحكُم: أكفكم. واصلات شَمْل الصّلات: أي تُؤَلّف وتصلُ متفرق العطايا والفوائد. بغيتي: إرادتي. مطاوي ما ترفدون. مطاوي الثوب: معاطفه وما يُطوى منه. وتَرْفدون: تعطون، وتقدير البيت: بغيتي زهيدة أي قليلة في مطاوي عطاياكم، أي ما طلبتُه منكم قليل في أثناء ما تهبون. قوله: «وفيّ أجر»: عن أنس رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أطعم أخاه المؤمن طعاماً وافقَ به شهوته أدخله الله الجنة». وفي حديث عبد الله بن عمرو بن العاص «من أطعم أخاه خبزاً حتى يشبعه وسقاه ماء يرويه أبعده الله من النار سبع خنادق». تنفيس: تفريج وترويح، يقول: عاقبة تفريج همي لمن فرّجه محمودة للأجر الّذي فيها، والثناء بشعري عليه، وعلى هذا رتَّب: «ولي نتائج فكر»: وهي أشعاره الحسان. يفضحن: يَشْهَرْن عُيوبها، يقول: إذا أنشدت شعري افتضحت قصائد الشعراء وتنقصت.

---

(١) البيت لأبي ذؤيب الهذلي في شرح أشعار الهذليين ص ٢٤، ولسان العرب (بدد)، (جعع)، (ذمي)، ومقاييس اللغة ١/ ١٧٦، ٤١٦، وكتاب العين ١/ ٦٨، وأساس البلاغة ذمي، وتهذيب اللغة ١/ ٦٩، ١٤/ ٧٨، ١٥/ ٢٦، وتاج العروس (بدد)، (جعع)، (ذمي)، وبلا نسبة في المخصص ٣/ ٢٣، ٨٠.

قال الحارث بن همام: فلمّا رَأينا الشِّبْلَ يُشْبِهُ الأسد، أرحَلْنَا الوالد وزوّدْنا الوَلد، فقابلا الصُّنعَ بشكرٍ نَشَرَا أرديتَهُ، وأدِّيَا بِهِ دِيَتهُ. ولَمّا عَزَما عَلَى الانطلاقِ. وعَقَدا للرِّحلة حُبُكَ النِّطاق، قلت للشيخ: هَلْ ضاهتْ عِدَتُنا عِدَةَ يعقوب، أو هل بقيتْ حاجةٌ في نفس يعقوب! فقال: حاش لله وَكلاً، بل جَلَّ معروفكُمْ وجَلّى، فقلت له: فَدِنَّا كما دِنَّاك، وأفِدْنا كَمَا أفدناك أيْنَ الدُّوَيْرة، فقَدْ مَلَكْتِنا الحيْرَة!.

* * *

الشّبل: ولد الأسد. أرحلناه: أعطيناه راحلة يركبها. الصنع: الفعل الجميل. نَشَرا أرديته: استعارة لنشر الشكر. أدّيا: أعْطَيَا. ديته: حقّه، يقول: جعلا شكرهما حقًّا لبرّنا ومكافأة لصلتنا، وكأنْ المال الموهوب قد استهلكه الآخذ له، فإن شكر عليه فالشُّكر للواهب هُوَ ديةُ ماله الهالك. وإنما أراد قول النبي ﷺ: «مَنْ نشر معروفاً فقد شكرَه، ومن ستره فقد كفره».

[مما قيل في الشكر]

وفي حديث جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أعْطِي شيئاً فوجد فلْيجْر، ومَنْ لم يجد فليُثْن به، فإن أثنى عليه فقد شكره، وإن كتمه فقد كفره».

وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: «منْ دعاكم فأجيبوه، ومن أتى إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم يجد أحدُكم فليدعُ له حتى يعلم أنه قد كافأه».

وقالوا: إذا قصرت يداك عن المكافأة فَلْيَطُلْ لسانك بالشكر.

وما أحسن قول حبيب في نشر الشكر وذمّ ستره. **[الكامل]**

للنارُ نار الشوق في كَبد الفتى ... والبين يُوقدُه هوىً مسمومُ

خيرٌ له من أن يخامر قلبه ... وهواه معروف امرىء مكتومُ

سَرَق الصنيعة فاستمرّ مُلَعَّناً ... يدعو عليه النّائل المظلومُ

أَوُقَّنعُ المعروف وهو كأنه ... قمرُ الدّجى إني إذاً للئيمُ

مُثْرِ من المال الذي ملّكتَني ... أعناقَهُ ومن الوفاء عديم

فأروحُ في بُرْدَيْن لم يَسْحَبْهما ... قبلي فتًى وهما الغنى واللّومُ

ومن ملح الأعراب؛ أن أعرابياً لصّاً أخذه الحجاج، فضربه سبعمائة سوط، وهو يقول عند كلّ سوط: شكراً يا ربّ، فقيل له: والله ما يمنع الحجاج من تركك إلا كثرة شكرك، أما سمعت الله يقول: ﴿**لئن شكرتم لأزيدنكم**﴾ [إبراهيم: ٧]! فأنشأ الأعرابي يقول: **[الرجز]**

يـا ربّ لا شـكـر فـلا تـزدْنِـي أسـأتُ فـي شـكـرك فـاعـفُ عَـنّـي

بـاعـد ثـواب الـشـاكـريـن مـنـي

ومرّ بشار برجل قد رمحته بغلة فسقط مكسوراً، وهو يقول: الحمد لله والشكر لله، فقال: استزده يزدك من هذه النعم.

وسيأتي نوع آخر من الشعر في الشكر بحول الله تعالى.

* * *

قوله: «حُبْك النطاق»: النطاق والمنطقة: ما يُشدّ على وسطك كالحزام. والحُبُك: خيوط أو شَرَك يُشدُّ بها النطاق، وأراد أنهما تحزّما للارتحال، ويقال: حبكت الشيء حَبْكا: شددته، واحتبكت إزاري: شددته. والمحبوك: المفتول، وحبكته: شددت فتله، والحُبْك: الطرائق في السماء من أثر الغَيْم، والحُبُك أيضاً: التكسير الذي يكون في الرمل والشَّعر والماء.

ضاهت: شابهت. عدتنا: ما وعدناك به من الرّاحلة، ولابنك من الزاد.

* * *

[قصة المثل: مواعيد عرقوب]

عرقوب: رجل من العماليق يضرب به المثل في إخلاف الوعد، وقصّته أنّه أتاه أخ له يسأله شيئاً، فقال له: إذا أطلعت هذه النخلة فلك طلعها، فلما أطلعت أتاه فقال له: دعها حتى تصير بلحاً، فلما أبلحت أتاه، فقال له: دعها حتى تصير زهواً، فلما أزهت قال له: دعها حتى تصير رُطَباً، فلما أرطبت قال له: دَعْها حتى تصير تمراً، فلما أتْمرت عمِد إليها عرقوب من اللّيل فجدّها، ولم يعطه شيئاً.

وقيل: عرقوب هو ابن سعد بن زيد مناة بن تميم، ويقول بنو سعد: هو منّا.

وقيل: هو من الأوس والخزرج، قال علقمة: **[الطويل]**

وقـد وعـدتـك مـوعِـداً لَـوْ وَفَـتْ بـه كـمَـوْعـودِ عـرقـوب أخـاه بـيـثـربِ[1]

---

(١) يروى البيت:

وعـدْتَ وكـان الـخـلـفُ مـنـك سـجـيـةً مـواعـيـد عـرقـوب أخـاه بـيـثـربِ

وينسب البيت لأكثر من شاعر، فهو لابن عبيد الأشجعي في خزانة الأدب ١/ ٥٨، وللأشجعي في لسان العرب (ترب)، (عرقب). ولعلقمة في جمهرة اللغة ص ١١٢٣، وللشماخ في ملحق ديوانه ص ٤٣٠، وشرح أبيات سيبويه ١/ ٣٤٣، وللشماخ أو للأشجعي في الدرر ٥/ ٣٤٥، وشرح المفصل (بروايتين مختلفتين في الصدر)، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ١٧٣، ٢٥٣، ١١٩٨، وشرح قطر الندى ص ٢٦١، والكتاب ١/ ٢٧٢، والمقرب ١/ ١٣١.

وقال كعب بن زهير: [البسيط]

كانتْ مواعيد عرقوب لها مثلاً ... وما مواعيدها إلا الأباطيلُ(١)

* * *

وقال عبد الله بن عمر: خلْف الوعد ثلث النفاق. وحاجة نفس يعقوب: خشية العين على بنيه حين أمرهم أن يتفرّقوا على الأبواب، ولا يدخلوا من باب واحد، لأنهم كانوا في غاية الجمال وكمال الخَلْق، وقال الله تعالى: **﴿مَا كَانَ يُغْنِي عنهمْ من اللَّهِ من شيء إلا حاجةً في نفس يعقوب قضاها﴾** [يوسف: ٦٨]، وأراد الحريريّ: هل بقيت لك حاجة لم تقضها؟ فقال: حاش لله، أي معاذ الله.

ابن الأنباري قولهم: حاشى فلاناً، معناه أستثنيه، وأخرجه من المذكورين الفرّاء: هو من حاشيت أحاشي، ويقال: قام القوم حاشى عبد الله بالنصب والخفض، وحاشى لعبد الله، وحاش وحَشَى، وخفض ما بعدها بإضمار اللاّم لكثرة صحبتها حاشى، كأنها ظاهرة، أو تقول: أضيفت حاشى إلى عبد الله، لأنه أشبه الاسم لّما لم يأت معه فاعل.

كلاّ: معناها الزّجر، أي ليس الأمر كما تظن. جُلّ: عُظْم. وهو من الجلل، والجليل هو العظيم ويكون في غير هذا اليسير وهو من الأضداد، جلّى: سبق معروفكم كل معروف، والمجلّي من الخيل: السابق.

دنّا: جارنا أين الدويرة؟ سأله أين تسكن من البلاد، ملكتنا: غلبتنا، يقول: قد التبس علينا أمرك وتحيرنا فيه.

* * *

فتنَفّس تنفُّس من ادَّكرَ أوطانَهُ، وأنشد والشهيقُ يُلعثِم لسانَهُ: [مجزوء الرمل]

سَرُوج داري ولكنْ ... كيفَ السبيلُ إليها
وقدْ أناخَ الأعادِي ... بها وأخْنَوْا عليها
فوالّتي سِرْتُ أبْغِي ... حطَّ الذُّنوبِ لديها
ما راقَ طَرْفيَ شَيءٌ ... مِذْ غِبتُ عَنْ طَرفيها

ثم غرْورَقتْ عَيناهُ بالدموعِ، وآذنتْ مدامِعَهُ بالْهُموعِ، فكرهَ أن يَسْتَوْكِفَها، ولم يملك أن يكفكفها، فقطع إنشاده المستحلي، وأوجز في الوداع وولّى.

* * *

(١) البيت في ديوان كعب بن زهير ص ٨، ولسان العرب (عرقب)، وجمهرة اللغة ص ١١٢٣، ١١٩٨، وكتاب العين ٢/ ٢٩٦، وتاج العروس (عرقب)، (بطل).

تنفَّس: ردُّ النفس إلى الجوف بصوت ورفعه إلى صدره، والتنفُّس: ضدّ الشهيق، وهو ردّ النفس إلى الجوف بصوت، يلعثم: يلوي ويعقل، ويقال: سأله عن كذا فما تلعثم، أي ما توقّف ولا تلبّث ولا أبطأ، فإذا ذكرت للغريب بلدهُ وهو على بعد منه تنفّس وتلهّف. أناخ: أقام ونزل. أخنوا: أفسدوا، وأتوا على خرابها. والتي يبغي حطّ الذنوب إليها هي مكة. حطّ: إلقاء وإنزال. لديها: عندها، أي إذا حجّ ودعا الله حط ذنوبه عنه.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: «من حجّ هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه»[1].

راق: أعجب. طرفيْها: جهتيها. اغرورقت: امتلأت. آذنت: أعلمت. الهموع: السَّيَلان، يستوكفها: يستدرّها ويجريها، يكفكفها: يردّها، المستحلي: المستعذب. أوجز: اختصر.

* * *

[مما قيل في الحنين إلى الأوطان]

ومما ينتظم بهذا الموضع من ذكر الأوطان والتشوق إليها قوله رفاعة بن عاصم الفقعسي، وأنشدها البكري لامرأة من طيىء: [الطويل]

ألَمْ تعلِمي يا داراً بَلْجَاءَ لَنني … إذا أخصبت أو كان جدباً جنابُها[2]

أحبّ بلاد الله ما بين منعجٍ … إليّ وسلمى أن يصوب سحابُها

بلادٌ بها نيطَتْ عَليّ تمائمي … وأوّلُ أرضٍ مَسّ جلدي ترابُها

قال عليّ بن عبد الكريم النصيبيني: أتاني ابن الروميّ بقصيدته التي يمدح فيها سليمان بن عبد الله بن طاهر، وقال لي: أنصفني وقل الحقّ: أيُّما أحسن قولي في الوطن: [الطويل]

---

(١) روي بطرق وأسانيد متعددة، أخرجه البخاري في الحج باب ٤، والمحصر باب ٩، ١٠، ومسلم في الحج حديث ٤٣٨، والترمذي في الحج باب ٢، والنسائي في الحج باب ٤، وابن ماجه في المناسك باب ٣، والدارمي في المناسك باب ٧، وأحمد في المسند ٢/ ٢٢٩، ٢٤٨، ٤١٠، ٤٨٤، ٤٩٤.

(٢) يروى البيت الثالث:

بلاد بها عقّ الشباب تميمتي … وأوّل أرض مسّ جلدي ترابُها

والبيت لرقاع بن قيس الأسدي في لسان العرب (نوط)، (تمم)، وتاج العروس (نوط)، (تمم)، ولأحد الأعراب في الكامل ص ٨٤٢، ١٣٢٠، ومعجم البلدان (منعج)، ولامرأة من طيىء في سمط اللآلي ص ٢٧٢، وبلا نسبة في لسان العرب(عقق)، وتهذيب اللغة ١/ ٥٩، وتاج العروس (فأس)، (عقق)، وينسب البيت كذلك إلى رفاعة بن قيس، ولأبي النضير الأسدي، انظر سمط اللآلي ص ٢٧٢، ٢٧٣، الهامش، والكامل ص ٨٤٢، ١٣٢٠، الهامش.

ولـي وطـنٌ آلـيـت ألاّ أبـيـعَـه وألاّ أرى غـيـري لـه الـدَّهـرَ مـالـكـا
عـهـدت بـه شرْخ الـشـبـاب ونـعـمـةً كـنـعـمـة قـوم أصـبـحـوا فـي ظلالِكـا
وَحَـبَّـب أوطـان الـرجـال إلـيـهـم مـآربُ قـضّاهـا الـشـبـاب هـنـالـكـا
إذا ذكـروا أوطـانـهـم ذكّـرتـهـمُ عـهـودَ الـصـبّا فـيـهـا فـحـنـوا لـذلـكـا

أو قول الأعرابيّ: أحب بلاد الله . . . الأبيات، فقلت: بل قولك لأنه ذكر الوطن ومحبته، وأنت ذكرت حبّ الوطن والعلّة في ذلك.

وقال ابن الرومي يتشوّق إلى بغداد: [الكامل]

بـلـدٌ صـحـبـت بـه الـشـبـيـبـة والـصِّـبـا ولـبـسـتُ ثـوب الـعـيـش وهـو جـديـد
فـإذا تـمـثـل فـي الـضـمـيـر رأيـتُـه وعـلـيـه أغـصـان الـشـبـاب تـمـيـد

أخذه من قول أعرابي يتشوق إلى بلده: [الطويل]

ذكـرتُ بـلادي فـاسـتـهـلّتْ مـدامِـعَـي بـشـوقٍ إلـى عـهـد الـصِّـبـا الـمـتـقـادم
حـنـنـتُ إلـى ربـع بـه اخـضـرّ شـاربـي وقُـطِّـعَ عـنّـي قَـبْـلَ عَـقْـد الـتَّـمـائـمِ

وقال إسحاق الموصلي: [الطويل]

أتـبـكـي عـلـى بـغـداد وهـي قـريـبـةٌ فكيف إذا ما ازددت عنها غداً بُعْدَا
لـعـمـرُك مـا فـارقـتُ بـغـداد عـن قـلـى لـو أنـا وجـدْنـا مـن فـراق لـهـا بُـدَّا
كفى حزناً أنْ رحت لم أستطع لها وداعاً ولـم أحـدث لـسـاكـنـهـا عـهـدا

وأنشدني أن شيخنا أبو بكر السَّلاميّ وكان يزعم أنهما لأخي الحريري، وقد أحسن قائلهما كائناً منْ كان: [البسيط]

طـيـب الـهـواء بـبـغـدادٍ يـؤرقـنـي شـوقـاً إلـيـهـا وإن عـاقـت مـقـاديـرُ
فكيف أصبرُ عنها اليوم إذ جمعتْ طِـيـب الـهـواءيـن: مـمـدود ومـقـصـورُ

المقامة الخامسة عشرة

وهي الفرضيَّة

أخبر الحارث بن همام قال: أرقتُ ذات ليلة حالكة الجلباب. هامية الرَّباب، ولا أرق صبٍّ طُرِدَ عن الباب، وَمُنِي بصدِّ الأحبابِ، فلم تزَل الأفكارُ يهجْنَ هَمِّي، ويُجلْنَ في الوساوسِ وهْمِي، حتى تمنَّيتُ لَمِضَض مَاءانيتُ، أن أُرْزقَ سَميراً مَن الفُضَلاءِ، ليُقَصِّرَ طُول لَيْلَتي اللَّيلاء، فما انقضتْ مُنَيتي، ولا أغمضتُ مُقْلَتي، حتى قرع الباب قارعٌ، له صوتٌ خاشعٌ، فقلتُ في نفسي: لعلَّ غَرسَ التَّمَنِّي قد أثمرَ، وَلَيلَ الحظِّ قد أقمرَ، فنهضْتُ إليه عَجْلانَ، وقلتُ من الطارِق الآن! فقال: غريبٌ أجَنَّة الليل، وغشيَهُ السيَّلُ، وَيبتغي الإيواء لا غيرَ، وإذا أسحرَ قدَّم السير.

* * *

أرقت: سهرت ولم أنم، وفي حديث زيد بن ثابت: شكوت إلى رسول الله ﷺ أرقاً أصابني، فقال: «قل اللَّهُمَّ غارت النجومُ، وهدأت العيون، وأنت حيٌ قيوم، لا تأخذك سنةٌ ولا نومٌ، يا حي يا قيوم، أهدئني ليلي، وأنم عيني». فقلتها فأذهب الله عنِّي ما كنت أجده.

حالكة الجلباب: سوداء الثوب، هامية الرّباب: سائلة السحاب؛ يريد أن الليلة مظلمة ممطرة، صبّ: عاشق. طرد: نفي. مُنِي ابتلى. صدَّ: هجر. الأفكار: أحاديث النفس. يهجن: يحرّكن. ويجلن: يصرفن والوساوس الفكر المقلقة، وهمي: بالي وخاطري، وقال ابن شهيد في نحو هذه الليلة: **[الكامل]**

ولربّ ليلٍ للهموم تسدَّلت	أستاره فمحا الضِّيا بستورِهِ
كالبحر يضرب موجُه في موجِه	صعبٌ عَلَى العُبَّار وجهُ عبورِهِ
طاولتُه من عَزْمتي بتصبُّر	أثبتُّ همِّي في قرارة كورِه
وبراحة من همتي ذُو كرّة	عَمَدَتْ تُذاكرني بطبع ذكيره
فردٌ إذا انبعثت دياجي جُنْحِه	هوْلاً عليّ خبطت في ديجوره
حتى بدا عبد العزيز لناظري	أملي، فمزَّقتُ الدُّجى عن نوره

وليلة الحريري ضدّ ليلة ابن رشيق في قوله: [الطويل]

ومن حسنات الدّهر عندي ليلة ... من العمر لم تترك لأيّامُنا ذَنْبا
خلوْنا ننفي القذى عن عيوننا ... بلؤلؤة مملوءة ذهبا
ومِلْنَا لتقبيل الخدود ولثمها ... كميل جياع الطَّيْر تلتقط الحبّا

قوله: «تمنيت». ابن الأنباري: في معناه قدرت وأحببت أن يصير إليّ، وهو من المنى وهو القدر، يقال: منى الله لك ما تحبه يَمْنِيه منياً، أي قدّره لك. لمضض، أي لحرقة، عاينت: شاهدت، ويروى «عانيت» أي قاسيت، سميراً: صاحباً يُسمر معه يقصر: يردّها قصيرةً بأنسه وحديثه. الليلاء: الشديدة الطويلة السواد، ولابن الزّقاق في مثل هذا السمير: [الخفيف]

ربّ ليلٍ أُتْحِفْتُ فيه بأنسٍ ... من سمير زَفَّ الحديث عروسا
فاجتنينا مما يحدّث زهراً ... واغتبقنا من خُلْقِه خَنْدريسَا
وانثنى الليل يفضُل الصبح حسناً ... والدّراري يفضُلْنَ فيه الشموسا
ولئن كان لم يَحلْ عن دجاه ... فلقد عاد فحمُه آبنوسا

قوله: «أغمضت مقلتي»، نامت عيني. قرع: ضرب. خاشع: ليّن. أثمر: طلع ثمره، الحظ: البخت. أقمر: صار قمر، يقول: لعلّ بختي قد زال نحسه وأقبل سعده إذ وجدت ما تمنيت، نهضت: تقدمت. الطارق: الآتي بالليل أجنه: ستره. غشيه: غطاه، الإيواء مصدر آويت الرجل، إذا أنزلته على نفسك وضممته، وتقول: أويته وآويت بمعني واحد. أسحر: دخل في وقت السَّحَر، يريد أنه لا يطلب غير المبيت وينصرف في السحر.

***

قال: فلمّا دلّ شُعَاعهُ على شمسه، وَنمّ عُنْوانه بِسرِّ طِرْسِه، وَعَلِمْتُ أنّ مُسامرته غنم، ومُسَاهرته نُعم، ففتحت الباب بابتسَام، وَقلتُ ادخلُوهَا بسَلام، فَدَخلَ شخص قد حنَى الدَّهر صَعْدَتهُ، وَبَلَّ القَطرُ بُرْدَتِهُ، فحيًا بلسانٍ عضبٍ، وبَيان عَذب، ثم شكَر عَلَى تلْبيةِ صَوْتِهِ، واعْتَذر مِنْ الطّرُوْقِ في غَيْر وقْتِهُ، فدانيْتُهُ المِصْبَاحُ المتَّقِدَ، وتأمّلْتُهُ تأمُلَ المنتقدِ، فألفيتهُ شَيخنا أبو زيدٍ بِلاَ رَيْبٍ؛ ولا رجْمِ غَيبٍ، فأحْلَلْتهُ محلَّ مَن أظْفَرَني بِقُصوى الطَّلَب ونقلني من وقذِ الكُرَبِ، إلى روْح الطَّرَبِ، ثُمَّ أخذ يشكو الأيْن وَأخذتُ في كيفَ وأين. فقال: أبلغني ريقي، فقد أتعبني طريقي، فظننتهُ مستبطناً للسَّغَب، متكاسلاً لهذا السَّبَبِ، فأحْضرته ما يُحْضَرُ للضيفِ المفاجِىء، في الليل الدَّاجي.

***

الشّعاع: ما يبدو لك من الشمس إذا ظهرت كالخيال، نمّ: أفشى السرّ: والطّرس: الكتاب. العنوان: ما يكتب على ظهره، يريد أنّ كلام الطارق تدلّ على مراده. والمسامرة. هي المساهرة. غُنْم: غنيمة، نعم: نعمة. بسلام، أي بسلامة وأمن. قوله: «صَعدْته»، الصَّعدة: الرمح الطويل، وكني به عن القامة. برْدته: ثوبه. عضب: قاطع. تلبية: قولي له: لبيّكَ. الطروق: المجيء بالليل. دانيته: قربت منه، تأملته: نظرته المنتقد: المجرب للدراهم، أي نظرته بعين المباحثة، ألفيته: وجدته، ريب: شك. رجم الغيب: رمى الظنّ. أظفرني: مَلّكني. قُصْوى: غاية. هي مؤنث الأقصى أي الأبعد. وَقْذ الكرب. حرقة الهموم: روح الطرب: راحة السرور. الأيْن: التعب كيف: سؤال عن حال. وأيْن: سؤال عن مكان، أي سألته كيف حالك، ومن أين جئت. أبلعني ريقي، أي لا تكثر عليّ السؤال فيجعلني جوابك عن بلع ريقي. السَّغَب: الجوع، وقد سغَب وسغِب جاع. الدّاجِي: المظلم.

* * *

فانقبض انقباضَ المحتشم، وأعرض إعراضَ البشِم، فسؤتُ ظنّاً بامتناعه، وأحفظني حؤول طباعه، حتى كدتُ أُغلِظ لهُ في الكلام، وألسعهُ بحُمةِ الملام، فتبيَّن من لمحات ناظري، ما خامرَ خاطري، فقال: يا ضعيف الثِّقة، بأهل المقة، عَدِّ عما أخطرتهُ بالكَ، واستمعْ إليَّ لا أبالك! فقلت: هاتِ، يا أخا التُّرّهات، فقال: اعلم أني بتُّ البارحةَ حليف إفلاس، ونجيَّ وسواس، فلما قضى الليلُ نحبه، وغوره الصبحُ شُهْبَهُ، غدوتُ وقت الإشراقِ، إلى بعض الأسواق؛ مُتَصَدِّياً لِصَيدٍ يسْنَحُ أو حُرٍّ يَسْمحُ، فلحظتُ بها تمراً قد حسن تصفيفهُ، وأحسن إليهِ مَصِيفُهُ، فجمعَ علَى التّحقيق، صفاءَ الرّحيق، وقنوء العقيق، وقُبالته لِبَأ قدْ بَرَز كالإبريز الأصفر، وانجلى في اللّونِ المُزَعفرِ، فهو يثني على طاهيه، بلسانِ تناهيه، ويصوِّب رأي مُشتريه، ولو نقد حبَّة القلب فيه

* * *

المحتشم: المستحي هنا. أعرض: نحّى وجهه. وتحقيقه: ولَّى عُرضه، أي جانبه. البشم: الكسل من الشّبَع وقد بشم بشماً: مرض من كثرة الأكل. سؤت ظناً: أساء ظني، وظناً المنصوب على التميز فاعل في المعنى، من باب تفقّأ شحماً. أحفظني: أغضبني. حُؤول طباعه: تغيّر أخلاقه. حُمة الملام: سَمّ العتاب. ألسعه: أقرصه بلساني، ولسعته العقرب: ضربته بإبرتها.

لمحات ناظري، أي خطرات عيني، خامر خاطري، خالط فكري المقةِ: الحبّ. عدِّ، أي اصرفه عن نفسك، الترهات: العجائب، وأيضاً الأباطيل، وأصلها الطرق الصغار المتشعّبة عن الطريق الأعظم. حليف إفلاس: ملازم فقر. نجي: محدث. ولما كانت الوساوس تشغل بال الإنسان وتجعله يتحدث وحده جعل نفسه محدّثاً لها. قضى نحبه:

تمّ وانقضى، وقضى الرجل نحبه: مات، والنحب: النذر. وغوّر: غيّب. شهبه: نجومه. والإشراق: الارتفاع الشمس وصفاؤها الأسواق: جمع سوق وسميت سوقاً، لأن الأشياء تساق إليها، وتساق منها، أو لأن سُوق الناس تكثر فيها. والسوق: جمع ساق، والسَّوق بالفتح: مصدر سقت، وبالضم الاسم، متصدياً: متعرضاً.

يسنح: يعرض من جهة اليمين ويزاد بياناً عند ذكر السانح والبارح، يسمح: يجود، لحظت: نظرت، ولحظت: أضيق عيني، أي أبصرت بضيق عيني. تصفيفه، أي جعله صفاً واحداً، وصففت الشيء: جعلته صفّاً واحداً مضموماً.

المصيف: زمن الصيف. الرحيق: الخمر، قنوء: حمرة. العقيق: خرز أحمر.

عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «تختموا بخواتيم العقيق فإنه لا يصيب أحدكم غمّ ما دام عليه ذلك» واللبأ: أول ما يحلب من اللبن وهو لم ينضج. برز: ظهر. الأبريز: الذهب الخالص. المزعفر: المصبوغ بالزعفران.

ويروى: «المعصفر»، وهو المصبوغ بالعصفر، وطاهيه: طابخة: تناهيه غايته وكماله، يقول: هذا اللبأ بحسن صنعته وجودة طبخه كأنه يثني للمشترين على طابخه وإن لم يكن له لسان، فكماله في الحسن وجودته في الصنعة قام له مقام اللسان، ويسمى هذا الكلام بلسان الحال قال الشاعر: **[الكامل]**

ولسان نعمتك التي قلدْتني … بالشكر أبلغ من لسان بياني

وقال المتنبي: **[المنسرح]**

تُنشد أثوابنا مدائِحَهُ … بألسن ما لهنّ أفواهُ[1]

إذا مررنا على الأصمّ بها … أغنته عن مسمعيه عَيْناهُ

أخذه من قول نصيب: **[الطويل]**

فعاجوا فأثنوا بالذي أنت أهلُه … ولو سكتوا أثنتْ عليك الحقائبُ[2]

وقال أبو العتاهية: **[المتقارب]**

أيا عجباً كيف يعصي الإلـ … ـه أم كيف يجحده الجاحدُ![3]

وفي كلِّ شيء له آية … تدلّ على أنه واحدُ

ولله في كلّ تسكينه … وتحريكة في الورى شاهدُ

(١) البيتان في ديوان المتنبي ٤/ ٢٦٥.

(٢) البيت لنصيب في ديوانه ص ٥٩، والأغاني ١/ ٣١٧، وأمالي المرتضى ١/ ٦١، وخزانة الأدب ٥/ ٢٩٦، وشرح شذور الذهب ص ٣٨، والشعر والشعراء ١/ ٤١٨، ولسان العرب (حدث).

(٣) الأبيات في ديوان أبي العتاهية ص ١٠٤، وتاج العروس (عنه).

وقال الفضل بن عيسى الرقاشي: سَلِ الأرضَ: من غرس أشجارك، وشق أنهارك، وجنى ثمارك؟ فإن لم تجبك حواراً، أجابتك اعتباراً.

ومنه سؤال العرب للمنازل الخالية والديار الدارسة، وقال شاعرهم: [الطويل]

وأجهشتُ للتوْبادِ حين رأيتهُ ... وكَبَّر للرحمن حين رآني

وأذريت دمع العين لما رأيته ... ونادى بأعلى صوته فدعاني

فقلت له أين الذين عهدتهمْ ... حواليك في أمن وخصب زمانِ!

فقال مضوا واستودعوني ديارهم ... ومن ذا الذي يبقي على الحدثان!

التّوْباد: جبل بني عامر، وجوابه لهذا الشاعر بالمعنى، فجعله لفظياً مجازاً، وهذه الحالة الدالة التي سماها الجاحظ في أقسام البيان النِّصْبة، قال الجاحظ: جمع أصناف الدلالة على المعاني من لفظ أو غيره خمسة لا تنقص ولا تزيد، أولها اللفظ ثم الإشارة، ثم العقد، ثم الخط، ثم النِّصْبة، والعَقد؛ أخذ العدد في الأصابع.

قوله: «نقد»، أي أعطى نقداً، وهو المال الحاضر، حبّة القلب: سواده.

* * *

فأسرتني الشهوَةُ بأشطانها، وَأسلمَتني الْعَيَمةُ إلى سُلطانها، فَبَقِيتُ أحيَرَ منْ ضَبٍّ، وأذهلَ مِنْ صَبٍّ، لا وُجِدَ يُوصِلنُي إلى نَيلِ المُرَادِ، وَلَذَّةِ الازدرادِ، ولا قدمَ يُطاوعُني على الذهابِ، مع حُرقةِ الالتهَابِ، لكن حَدَاني القَرَمُ وَسَورَتهُ، والسَّغَبُ وفوْرَتُه، عَلَى أن أنتجع كلَّ أرضٍ، وأقتَنَعَ من الوِرْدِ بِبَرْض، فَلَمْ أزَلْ سَحابةَ ذلِكَ النَّهارِ، أُدْلي دلْوِي إلى الأنهارِ، وهي لا تَرجِع ببِلَّةٍ، ولا تَجلِبُ نقع غُلَّة، إلى أن صَفَتِ الشمسُ للغروب، وضعفت النفسُ من اللُّغوبِ، فرحْتُ بكبِدٍ حَرَّى، وانثنيتُ أقدِّمُ رجلاً وأؤخِّرُ أخرى.

* * *

أسرتني: ربطتني كالأسير. أشطانها: حبالها. أسلمتني: تركتني. العيمة: شهوة اللبن. وسلطانها: قدرتها وغلبتها، يريد أنّ الشهوة إلى اللّبأ قهرته حتى تركته مستسلماً لا يملك نفسه.

[الضب]

الضّبّ: يشبه الحرذون، وهو حِرْذون الصحراء وإذا فارق جحره لم يهتد إليه فيتحيّر. فيجعل حجراً عند جُحره، واقفاً ليهتدى به، فإذا أزاله الصائد تحيّر، فجاء فأخذه، وربما قتله بذلك الحجر، قال الشاعر: [الوافر]

وإن الضب ذو دَهي ومكرٍ ... كما اليربوعِ والذئبِ اللعينِ
يرى مِرْداته من رأس ميلٍ ... ويأمن سيل بارقة هتونِ
ويُدخل عقرباً تحت الذنابي ... رواغ الفهد من أسدٍ كمينِ

جعل الذئب لعيناً، لأنّ من رآه صاح عليه، ومرداته: حجره، والعقرب يعدّه الضب للصائد إن أدخل يده في جحره، وأخذ بذنبه، لسعته العقرب، وربما أكل العقارب وترك منها واحداً في باب جحرِه للصائد، قال الشاعر: **[الطويل]**

وأخدعُ من ضبٍّ إذا جاء حارش ... أعدّ له عند الذّنابة عقرَبا[1]

والضبّ، أي وصف بالضلال وقالوا في بيت المتنبي: **[الطويل]**

لقد لَعِبَ البينُ المشتّ بها وبي ... وزودني في السير ما زوّد الضّبا[2]

أراد أنه زودني الضلال عن وطني، الذي خرجت منه، فما أوفق للعود إليه، والاجتماع مع الحبيب.

وقال الواحدي يقول: جعل البين زادي زاد الضب، والضبّ لا يتزود في المفازة، ومعناه: فارقت الحبيب من غير وداع ولا التقاء يكون لي زادا على البعد. ويقال أيضاً: أخدع من ضبّ، وذلك أنه يطمع الصائد في نفسه، فإذا حنق عليه خدع في جحره، ومنه أخذ معنى الخداع.

ويقال فيه: إنه أعقّ من ضبّ، وذلك أنه يأكل أولاده، ويكنى أبا الحِسْل ويسمّي ولده الحسل، وأمثال العرب به كثيرة. ويزعمون أنه كان حكماً في الدوابّ في الزمان، الذي كانت فيه الحيوان تتكلم. وعنه يروون: في بيته يؤتى الحكم، يعني نفسه. وفيه خواص ليست في الحيوان، تزعم العرب أنه لا يشرب الماء، وإذا أخذه العطش صعد ربوة واستقبل الريح، وأنه طويل العمر. ويقولون: إنه أحيا من ضب، يريدون أن حياته لا تكاد تنقضي، وأنه لا يسقط له سن، وأنه أطول الدواب دماً، وإذا ذبح يبقى زماناً، وحينئذٍ يموت، وأن له ذكرين ولأنثاه فرجين.

* * *

«أذهل من ضبّ»: أي أشغل قلباً من عاشق، ووساوس العشق أفضت ببعض العشاق إلى الجنون، وجد: غنى، وقد وجدت وجداً، أي كثر مالي والازدراد: كثرة الأكل، وزردت الطعام وازدردته إذا ابتلعته، الألتهاب: اشتغال نار الجوع. حداني: ساقني، القرم: شهوة اللحم، وأراد به شهوة الأكل. سَوْرته: شدته. وفورة السغب:

(١) البيت بلا نسبة في تاج العروس (خدع).
(٢) البيت في ديوان المتنبي ١/ ٦٠.

غليان الجوع. أنتجع: أمشي في طلب ما آكل، والورد: الحظ من الماء. والبرض: قليل الماء. سحابة ذلك النهار، أي طوال ذلك النهار، كما تقول: بياض يومي، أي يومي كله، أي لم يزل طول يومه يستجدي فلم يُعط شيئاً. نقع غلّة: إرواء عطش صغت: مالت. اللُّغوب: الفشل. حَرَّى: ملتهبة، انثنيت: رجعت.

[المقامة المجاعية]

أطال أبو محمد هذه المقامة حتى كادت تثقل على السامع، وللبديع فيما يتعلق بمعناها مقامة بتراء فلو زيد في البديعية وقصر في الحريرية لاعتدلتا. وها أنا أذكر البديعية هنا بجملتها؛ لرشاقتها وخفّتها.

قال عيسى بن هشام: كنت ببغداد عام المجاعة، فدفعت إلى جماعة قد نظمهم سلك الثريا، وكلهم يطلب شيئاً، وفيهم ذو لثغ في لسانه وفلج في أسنانه فقال: ما خطبك؟ فقلت: حالات لا يفلح صاحبهما، فقير كدّه الجوع، وغريب ليس يمكنه الرجوع، فقال، أي الثلمتين تريد سدها؟ فقلت: الجوع يا سيدي، وقد بلغ منّي مبلغه فقال: ما تقول في رغيف، على خِوان نظيف، ونقل قطيف، على لون لطيف، وخردل حرّيف، إلى شواء ضفيف، يقربه إليك من لا يماطلك بوعد، ولا يعذبك بصدّ. [ثم يعلّك بعد ذلك بأقداح ذهبية، من راح عنبيّة]، أذاك أحب إليك أم أوساط محشوة وأكواب مملوءة، وأنقال معدّدة، وفرش منضدة، [وأنوار مُجَّودة] ومُطْرِبٌ مُجيدٌ، له من الغزال عين وجِيد، فإن لم ترد هذا ولا ذلك، فما تقول في لحم طيريّ، وسمك بحريّ، وباذنجان مقّلي، وراح نقيّ، وتفاح جنيّ، ومضطجع وطيّ، على حذاء نهر جارٍ، وبركة ذات ثرثار.

فقلت: أنا عبد الثلاثة، فقال: وأنا خادمها لو حضرت، فقلت من أيّ الحجرات أنت؟ فقال: **[الكامل]**

من ربعة الإسكندريَّة ... من نَبْعةٍ فيهم زكيّهْ

سَخُفَ الزَّمان وأهلُه ... فركبتُ من سخفي مَطِيّهْ

* * *

وبينما أنا أسعى وأقعد، وأهبُّ وأركد؛ إذْ قابلني شيخٌ يتأوّه آهةَ الثَّكْلان، وعيناهُ تُهْمِلان، فما شغلني ما أنا فيه من داء الذِّيب، والخَوَى المذيب، عَنْ تعاطي مداخلتِه، والطَّمَع في مخاتلتِه، فقلت له: يا هذا، إنّ لُبكائكَ سراً، ووراء تحرُّقك لشراً، فأطلِعْني على بُرَحائِكَ، واتّخذني من نصحائِك، فإنك ستجد مني طَبّاً آسياً، أو عوناً مواسياً، فقال: والله ما تأوُّهي من عيشٍ فاتَ، ولا من دهْرٍ افتات، بل لانقراضِ العلم ودروسهِ، وأفولِ أقمارِه وشموسه، فقلت: وأيّ حادثة نجمَتْ، وقضيّة

استعجَمتْ حتَّى هَاجت لك الأسف، على فقد مَنْ سلف. فأبرز رقعة مِنْ كمّه، وأقسم بأبيه وأُمِّهِ، لقد أنزلها بأعلام المدارِس، فما امتازوُا عَن الأعلام الدَّوَارِس، واستنطق لها أحبارَ المحابر، فخرسوا ولا خرسَ سكّان المقابر، فقلت: أرينها فلعلّي أُغنِي فيها، فقال: ما أبعدت في المرام؛ فربَّ رمية من غير رامٍ، ثم ناوَلنيها، فإذا المكتوب فيها:

* * *

قوله: «أسعى»، أي أمشي مسرعاً، أهبّ وأركد: أتحرك وأسكن، أراد أجري وأقف، وأصل الهبوب والركود للريح، يتأوه: يتوجّع ويقول: آه، وهو قول الحزين. آهة الثكلان: توجّع الفاقد لأحبابه. تهملان: تسيلان، وداء الذئب: هو الجوع، والذئب أصبر السباع على الجوع وأعفّها، وإذا افترس شاة أكل منها شبعة وترك سائرها ولم يرجع إليها، وعافة إن أروح[١] الخوى: خلّو الجوف من الطعام. المذيب: المذهب اللحم والقوى. التعاطي: تناول ما لا تحبّ. ومداخلته: معرفة سرّه. مخاتلته: مخادعته. تحرّقك: توجعك، والبُرَحاء: الشدّة والمشقّة. طَبّاً: حاذقاً. آسيا: طبيباً. مواسياً: معيناً، والمواساة تكون بالنفس أو بالمال، ويشاكل كلامه قول الشاعر: **[الطويل]**

ولا بدّ من شكْوى إلى ذي مروءةٍ يوُاسيك أو يسلِيك أو يتوجّعُ[٢]

افتات: ظلم وجاوز الحدّ. انقراض: انقطاع. دروسه: محوه. أفول: مَغِيب، وكنى بالأقمار والشموس عن مشاهير العلماء، وبأفولهم عن هلاكهم، قال أبو الدرداء رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «موت العالم مصيبة لا تجبر، وثُلْمة لا تسدّ، ونجم طمس، وموت قبيلة أيسر من موت عالم»[٣]، حادثة: نازلة وأمر حَدَث، نجمت: ظهرت. قضية: قصّة، استعجمت. أشكلت. هاجت: حركت. الأسف: الحزن. سلف: مات وذهب. أعلام: مشاهير، وأصلها الجبال يُستدلّ بها على مجاهيل الأرض. المدارس: جمع مَدْرَسة، وهي المحاضر التي يدرس فيها العلم. امتازوا: افترقوا. والأعلام الدّوارس: الجبال المقفرة الخالية من الأشجار والعمران. استنطق: استخبر، وسألهم أن ينطقوا ويجيبوا عنها. أحبار: علماء. خرسوا: سكتوا. أُغْنِي: أقرّب وأنفع. المرام: الطلب.

* * *

(١) أروح: أي أصبحت له رائحة.

(٢) البيت بلا نسبة في تاج العروس (وجع).

(٣) أخرجه بنحوه الدارمي في المقدمة باب ٣٢. بلفظ: «موت العالم ثلمة في الإسلام».

[قصة المثل: رُبَّ رمية من غير رام]

ربّ رمية من غير رام، أي قد يصيب الغرض مَنْ ليس له علْم بالرماية، وهو مثَل، قاله حكيم بن عبد يغوث المنقريّ، وكان حكيم من أَرْمَى الناس، فأقسم يوماً ليَعقرنّ ولا بدّ، فخرج ومعه قوسه فرمَى ولم يصنع شيئاً، فبات ليلَه بأسوأ حال، وفعل في اليوم الثاني والثالث كذلك، فلما أصبح قال لقومه: ما أنتم صانعون، فإني قاتل اليوم نفسي إن لم أعقِر اليومَ مهاةً؟ فقال له ابنه: يا أبت احملني معك، أرْفِدْك، فقال: وما أحمل من رَعِشٍ وهل، جَبانٍ فشل، فانطلقا فإذا هما بمهاةٍ فرماها فأخطأها، ثم مرت به أخرى، فقال له ابنه مطعم: يا أبت ناولني القوس، فغضب أبوه وهمَّ أن يعلُوَه بها، فقال له مطعم: أحمد بحمدك، فإن سهمي سهمُك، فناوله القوْسَ، فرمى مطعم فلم يخطِىء، فقال عند ذلك حكيم: رب رمية من غير رام، وقال: [الوافر]

رماها مطعم من غير علم ... بمسّ القوس لم يخطىء صَلاَهَا
وكان أبوه قد آلَى عليها ... فلم تبرر ألّيته مَهَاهَا

* * *

[الخفيف]

أيها العالم الفقيهُ الذي فا ... قَ ذكاءٍ فما لَهُ من شَبيهِ
أفْتِنا فِي قضيّةٍ حادَ عنها ... كلّ قاضٍ وحارَ كلُّ فقيهِ
رجلٌ ماتَ عَنْ أخٍ مسلمٍ حرٍّ ... تَقِيٍّ من أُمِّهِ وَأَبِيهِ
وله زوجَةٌ لها أَيُّها الحـ ... ـبْرُ أخٌ خالصٌ بلا تَمْويهِ
فحوتْ فَرْضَها وحاز أخوها ... ما تبَقَّى بالإرثِ دونَ أخيهِ
فاشفِنا بالجوَابِ عمّا سَألْنَا ... فهو نصٌ لاَ خُلْفَ يوجَدُ فيهِ

فلما قرأتُ شِعْرها، ولمحتُ سِرَّها، قلت له: على الخبير سَقطْتَ، وعندَ ابن بَجْدَتِها حَططت، إلاّ أَني مضطرمُ الأحشاء، مضطرٌ إلى العَشاء؛ فأكرمْ مثوايَ، ثمَّ استمع فتوَاي؛ فقال: لَقَدْ أنْصَفْتَ في الاشتراطِ؛ وتجَافَيْتَ عن الاشتطاطِ؛ فصِرْ معي إلى مربعي لنَظفرَ بما تبتَغي، وتَنْقَلِبَ كما ينبغي. قال: فصاحبْتُه إلى ذَرَاه، كَما حَكم الله. فأدخلَنِي بيتاً أحرج من التابوت، وأوْهَن من بَيْت العنكبوت، إلاّ أنّه جَبَرَ ضِيقَ ربعه، بتوسعة ذرْعِه، فحكّمنِي في القِرَى، ومطَايِب ما يشترى؛ فقلتُ: أريدُ أزهَى راكبٍ على أشهَى مركوبٍ، وأنفعَ صاحبٍ معَ أضرّ مَصْحُوبٍ.

* * *

قوله: «فاق»، أي فضل. ذكاء: حدّة ذهن. حاد: مال.

قوله: «رجل مات عن أخ..»، البيت.

فائدة ذكر الأخ، إثبات النَّسب، لأن الأجنبيّ لا يرث، وفائدة ذكر المسلم أنَّ أهل دينين لا يتوارثان، وفائدة ذكر الحرّ أن العبد لا يرث الحرّ، وأما التقيّ، فما لقيت من أشياخنا من نبّه عليه، حتى حدّثني به الفقيه أبو العباس اللَّيْثِيّ، عرف بالحضّار، فقال فائدة لطيفة، وهي التحرّز من قاتل العَمْد، لأنه لا يرث وليَّه، فأراد أن موجبات التّوارث قد كملت لهذا الوارث، ومع هذا لم يرث أخاه.

والحِبْر: العالم. تمويه: شكّ وكذب. حَوَتْ: حازت. الإرث: لغةٌ في الورْث، وهو بالهمز بدل من الواو. لمحت: أي نظرت، واللمحة نظرة غير متمكّنة. ابن بجدتها: عالم سرّها، ويقال: بجد في المكان إذا أقام به، والمقيم بالموضع عالم به. وقيل: أصله من قولهم: فلان من أهل البّجد، أي من أهل البادية، وهم العلماء باللسان على ما وضع. حططت: نزلت، والخبير، عالم الخبَر، وهذه أمثال للعالم بحقيقة الشيء. مضطرم: متَّقد. مَثْوَاي: منزلي، وأكرمت مثوَى الضّيف، إذا أحسنت نُزُلَه ووطّأت له. فتواي: ما أفتيك به. الاشتراط والشرط بمعنى. تجافيت: تباعدت. الاشتطاط: مجاوزة الحدّ. مربعي: منزلي. تظفر: تفوز، وأصله من الظُّفْرِ، كأنه إذا ظفر بشيء أنشب أظفاره فيه. تنقلب: ترجع. ذَراه: منزله، وكلّ ما كان من حائط وشبهه ذَرَى. أحرج: أضيق. أوْهَن: أضعف. جبر: أصلح. توسعة ذرعه: سعة خلقه واحتماله. القِرَى: طعام الضّيف. مطايب: جمع طيب، على غير قياس. أَزهى: أعجب، والزَّهو الكِبْر، وكانوا يصفّفون التمرة على اللِّبأ عند بيعه، فيريد بالراكب التمر وبالمركوب اللِّبأ؛ لأنهم يشقّون التمرة ويغترفون بنصفها من القَدَح الذي فيه اللّبأ. ويريد: بأنفع صاحب التمر، وبأضرّ مصحوب اللّبأ، وهذا يوافق قول الأعرابيّ: **[الطويل]**

ألا ليت لي خبزاً من التمر واللِّبا ... وخَيْلاً من البرنيّ فرسانها الزّبد

فأطلب فيما بينهنّ شهادة ... بموت كريم لا يعدّ له لحدُ

والبَرنيّ من أفضل التمر، وقال صُحار الكلبيّ: **[المتقارب]**

أكلت الضِّباب فما عفتُها ... وإنِّي لأهْوَى قديد الغَنَمْ

وركَّبت زبْداً على تمرةٍ ... فنعم الطعام ونعم الأدَمْ

والعرب تقول: على الثمرة مثلها زبداً، وقيل في تفسيره بالعكس، لأنّ الأطباء يقولون: إن التمر مضرٌّ سريع العفن، يولّد السّدَاد[1]، ويقولون أيضاً: إنه حارّ رطب مليّن للبطن يولِّد المني، فيقابل ضررُه نفعَه، وكفى لنا أنه قوتٌ يُكتفى معه بأدنى الطعام، وفيه قوة زائدة، وبالجملة فاللفظ مشكل، وما وجدت من يحققه.

(١) السداد: داء يسد الأنف، ويمنع نسيم الريح.

ويُستملَح من كلام الحريريّ أنه أراد بالراكب وبأنفع صاحب التمر، لأنه قدَّمه في التفسير حين قال: لعلّك تعني ابنة نُخيلَة، مع لِبَإ سخيلة، وليس في الأبيات المتقدمة شاهد على اللِّبأ، لأن حكم الزبد للزوجة، وتعلقه بالتمرة غير حكم اللبأ، فبالحرَى يقرن اللِّبأ بالتمر إذا شقّت، وجعله أضرّ مصحوب لأنه لبن لم ينضج، والنار تقطع بعض ضرره.

وقال الفنجديهيّ: أزهى راكب التمر، أي أحسن منظراً وأكثر حمرة، وأشهى مركوب اللِّبأ وجعل التمر راكباً واللِّبأ مركوباً، لأنّ التّمر يُجْتَنَى من رؤوس النخل، فهو كالراكب، ولأن اللبّاء يَضع تمرات فوق اللِّبأ والرائب، ليزيد رغبة المشتري فيه. وجعل التمر أنفع صاحب، لاكتفاء العرب به عن جميع المطعومات، حتى يبقى أحدهم دهراً لا يأكل إلا التمر، ولا يضرّه ذلك، وجعل اللبأ أضرَّ مصحوب، لأنه يولِّد الصفراء.

وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها: إنا كنا آل محمد ﷺ نمكث شهراً لا نستوقد ناراً؛ إن هو إلا الأسودان: الماء والتمر[1].

وقال ﷺ: «بيت لا تَمْر فيه جياعٌ أهله»[2].

والعرب تستحسن أكل الزّبد مع التمر، قال سفيان الثوريّ: ما رأيت أحسن من زبدة على إزادة.

وقال معاوية لعبد الرحمن بن أبي بكر: أيّ اللقمة أطيب؟ قال: تعضوضة عليها مثلها زبداً، والإزاد نوع من التمر، والتّعضوض تمر أسود.

وقالوا: ما أكلنا تمراً أحمدَ من التّعضوض، أي أشد حلاوة، وتاؤه زائدة.

* * *

فأفْكَرَ سَاعَةً طويلةً، ثم قال: لعَلَّكَ تعْنِي بنت نُخَيلَةَ، معِ لبَإ سُخَيلة، فقلت: إيّاهما عنيت، ولأجلهما تَعَنَّيْت، فنهض نشيطاً، ثمَّ رَبضَ مُسْتشِيطا، وقال: اعلم أصلحك الله، أن الصدق نباهةٌ، وَالكذب عاهةٌ؛ فَلا يحملنّك الجوع الذي هو شعار الأنبياء، وَحِليةُ الأوليَاء على أن تلحق بمن مانَ، وتَتخلَّقَ بالخُلُقُ الذِي يجانب الإيمان، فقَد تجوع الحرّة ولاَ تأكل بثدييْهَا، وتأبى الدنيّةَ وَلو اضطُرّتْ

(١) روي بطرق وأسانيد متعددة، أخرجه البخاري في الهبة باب ١، والرقاق باب ١٧، والأطعمة باب ٦، ٤١، ومسلم في الزهد حديث ١٠، ١٢، وأحمد في المسند ١/ ١٦٤، ٤/ ١٩، ٥/ ٤٢٩، ٦/ ١٠٨، ١٨٢، ٢٣٧.

(٢) أخرجه مسلم في الأشربة حديث ١٥٣، وأبو داود في الأطعمة باب ٤١، والترمذي في الأطعمة باب ١٧، وابن ماجه في الأطعمة باب ٣٨، والدارمي في الأطعمة باب ٢٦، وأحمد في المسند ٦/ ١٧٩.

إليها. ثم إني لست لكَ بزَبون، وَلاَ أُغْضِي عَلى صفقَة مغبون، وها أَنا قد أنذرتُك قبل أن ينهتِكَ السِّترُ، وينعقِد فيما بيننا الوِتْرُ، فلا تُلْغ تدبُّرَ الإنذار، وحذارِ من المكاذبة حَذار.

* * *

قوله: «سخيلة»، السَّخَيلة: ولد الشاة ذكراً كان أو أنثى. تعنّيت: تعبت.

وقال أعرابيّ: أنا أشتهي ثريدة دَكْنَاء من الفلفل، زَقْطاء من الحمّص، ذات جناحين من اللحم، لها جناحان من الفُواق، فأضرب فيها كما يضرب وليّ السوء في مال اليتيم.

وقال رجل لأعرابيّ: ما يسرني لو بتُّ ضيفاً لك، قال: لو بتَّ ضيفاً لي أصبحتَ أبطن من أمّك قبل أن تلدك بساعة.

قيل لأشعب: ما تقول في ثريدة مغمورة بالسمن، مشققة باللحم؟ قال: فأضرب كم؟ قالوا: تأكلها من غير ضرب. قال: هذا ما لا يكون، ولكن لم أضرب أو أتقدم على بصيرة؟.

وقيل لمزبّد ـ وقد أكل طعاماً كظّه: قئه، فقال: وما فيه! خبز نقيّ، ولحم جدي طريّ، امرأته طالق لو وجدت قيئاً لأكلته.

قوله: «نهض»، تقدّم للمشي. نشيطاً: أي خفيفاً، وهي من الأنشُوطة. ربض: نزل. مستشيطاً: شديد الغضب. نباهة: رفعة. عاهة: آفة وعيب. شعار: علامة، وشعار المؤمنين في الحرب «لا إله إلا الله»، أي علامتهم، والأنبياء عليهم السلام منزَّهون عن شهوات المطاعم.

أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «نور الحكمة الجُوع والتباعد من الله الشِّبع، والقُربة إليه حبّ المساكين والدنّو منهم. لا تشبعوا فتطفئوا نور الحكمة من قلوبِكم، ومَنْ بات يصلّي في خِفّة من الطعام، بات حُور العين حوله حتى يصبح».

أبو هريرة رضي الله تعالى عنه: دخلت على النبيّ ﷺ فقلت: «ما أحوجك إلى الجلوس؟ قال: الجوع، فبكيت، فقال: لا تبكِ، فإن شدّة القيامة لا تصيب الجائع إذا ما احتسب».

قوله: «حلية»: صفة يتحلَّوْن بها. وتتخلّق: تتطبّع. يجانب: يباعد. وأشار لقوله ﷺ، قيل: أيكون المؤمن كذَّابا؟ قال: لا.

عمر رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «لا يبلغ صريحَ الإيمان عبدٌ حتى يدَع المزاح والكذب والمِراء، وإن كان محقًّا»(١).

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب باب ٧، والترمذي في البر باب ٥٨، وابن ماجه في المقدمة باب ٧.

وقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: اتقوا الكذب، فإن الكذب يجانب الإيمان.

* * *

[قصة المثل: تجُوع الحرّة ولا تأكل ثدييها]

قوله: «تجوع الحرّة ولا تأكل ثدييها»، أي لا ترضع لبنَها بالأجرة، ثم تأكلها، وهو مثل يُضرب للذي لا يمنعه من صيانته شدّة فقره، وهذا المثل للحارث بن سليل الأسديّ، وكان خطب إلى علقمة بن خصَفة الطائيّ ـ وكان شيخاً فقال علقمة لامرأته: اختبري ما عند ابنتك، فقالت: أي بنيّة، أيّ الرجال أحبُ إليك؟ الكهل الجحجاح الواصل الميّاح، أم الفتى الوضّاح، الذهول الطمّاح؟ قالت: بل الفتى، قالت: إن الفتى يُغيرك، وإن الشيخ يعيرك، قالت: يا أماه إن الفتى شديد الحجاب، كثير العتاب، يا أمّاه أخشى من الشيخ أن يدنّس ثيابي ويبلي شبابي، ويُشمِت بي أترابي. فلم تزل أمُّها بها حتى غلبتْها على رأيها. فتزوَّجها الحارث، ثم ارتحل بها إلى أهله، وإنه لجالس ذات يوم بفناء قُبّته، وهي إلى جانبه إذ أقبل شباب من بني أسد يعتلجون، فتنفسّتِ الصُعَداء ثم بكت، فقال لها: ما يبكيك؟ قالت: ما لي وللشيوخ، الناهضين كالفروخ، من كل حوقل فنيخ، فقال: ثكلتْكِ أمّك! تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها، ثم قال: وأبيك لرُبَّ غارة شهدتِها، وسبيّة أردَفْتُها، وخمرة شربتها، فالحقي بأهلك، فلا حاجة لي فيك.

قولها: «الجحْجاح»: السيد السمح. والميّاح: الكثير المعروف، ويُغيرك يتزوّج عليك، ويُعيرك: يميرك، ويعتلجون: يتصارعون. والحوقل: اللسِن، والفنيح: الضعيف الرِّخو. وقول العامة: لا تأكل ثدييها، أي لا تأكل لحم الثدي خطأ لا وجه له، ويجوز على حذف مضاف تقديره أجْرَ ثدييها أو ثمنهما، أو يكون على المجاز، كأنها إذا أكلت أجرهما فقد أكلتهما، ونحوه قول الشاعر: **[الطويل]**

إذا صبّ ما في القَعْب فاعلم بأنّه ... دم الشَّيْخ فاشْرَب من دم الشَّيْخ أودَعا

يريد رَجُلاً أخذا إبلاً في دية أبيه، فيقول له: إذا شربت لبنها فكأنك تشرب دم أبيك.

قوله: «وتأبى الدنيّة ولو اضطرت إليها»: أي تتمنّع من إتيان الفعل الدنيء، ولو أُلجئت إليه. والزَّبُون: الذي يغلب في المعاملات، فَعُول بمعنى مفعول، لأنه بزين أي يدفع عن استكمال حقه.

أغضى: أسدل جَفْنِي، أي لا أسكت لك على الخداع. أنذرتك: نبَّهتك. ينهتِك: ينقطع. الوتْر: العداوة، وقيل: الفرد، فيكون معنى: «ينعقد بيننا الوتر»، أي يرتبط. وتْري بوترك، أي شخصي بشخصك في هذه المعاملة، أو عند المضاربة معك إن خدعتني. تُلْغ: تترك. الإنذار: التحذير. حَذَارِ، أي احْذَر وخف.

* * *

فقلْتُ: والَّذِي حرَّمَ أكل الرِّبا، وأحَلَّ أكْلَ اللِّبَأ، ما فهْتُ بزور، وَلاَ دَلَّيْتُكَ بِغُرورٍ، وستخبرُ حقيقةَ الأمْرِ، وَتَحْمَدُ بَذْلَ اللِّبَأ والتَّمْر. فهشَّ هشاشةَ المصْدُوقِ، وانطلق مُغِذًّا إلى السوقِ، فما كان بأسْرَعَ من أن أقبل بهما يَدْلَحُ، ووجهه من التَّعَبِ يَكْلَحُ، فوضعَهمَا لَدَيَّ، وَضْعَ الممتنِّ عليَّ، وقال: اضرب الجيشَ بالجَيْشِ، تَحْظَ بِلَذَّةِ العَيْشِ. فحسرت عن ساعِدِ النَّهِم، وحملتُ حملة الفيلِ الملتهِم، وهو يَلْحَظُنِي كما يلحظ الحَنِق، ويودُّ مِنَ الغَيْظِ لو اخْتَنَقَ، حتَّى إذَا هَلْقَمتُ النَّوْعَيْنِ، وغادرتُهما أثراً بعد عَيْنٍ، أَقْرَدْتُ حَيْرَةً في إظلال البَيَاتِ، وَفِكْرَةً فِي جوابِ الأبْيَاتِ، فمَا لَبِثَ أنْ قَامَ، وَأحْضَرَ الدَّواةَ وَالأقْلام، وقال: قَدْ مَلأَتَ الجرابَ، فأَمْلِ الجَوَابَ، وَإلاَّ فتهيَّأْ إن نَكَلْتَ، لاغترامِ مَا أَكَلْتَ، فقُلْتُ له: ما عندِ إلاَّ التَّحقيق، فاكتُبِ الجَوَابَ، وبالله التوفيق.

* * *

الربا: البيع الفاسد.

ابن عباس رضي الله عنهما، قال رسول الله ﷺ: «من أكل درهماً من رباً، فهو مثل ثلاث وثلاثين زنية، ومن نبت لحمه من السُّحت فالنار أولى به»[1].

فُهت: نطقت. زور: باطل. دلّيتك بغرور: يريد أنه لم يعرِّر به بل صدَّقه. ستنخبر: ستجرّب. هش: اهتزَّ. المصدوق: الذي أخبر بالصدق. مغذًّا: مسرعاً، وقد أغذّ إغذاذاً، إذا أسرع. يدلح: يتثاقل في المشي، ودلحَتِ الدَّابة بالحمل دلُوحاً، والسحاب بالماء. نهضت به ثقيلاً. يكلح: يعيش. الممتنّ: المتفضّل. اضرب الجيشَ بالجيشِ، أي اخلطهما عند أكلك لهما. تحظَ: تسعد، حسرت عن ساعد، أي شمرت عن ذراع. النَّهم: الكثير الشهوة والحرص على الأكل. الملتهم: المبتلع لما وجد. يلحظني: ينظرني بطرف عينه. الحنِق: المغتاظ. وحنق حنقاً: اشتدّ غيظه. هلقمت: ابتلعت بسرعة. غادرتهما: تركتهما أثراً بعد عين، أي بعد أن كان الطعام مريئاً ابتلعته فلم يبق غير أثره الإناء.

* * *

[ما شهر من مغربات الزرد][2]

ويليق بهذا الموضع أن نذكر فيه ما شهر من مغرّبات الزرَد، قال الشاعر في أكول: [الوافر]

---

(١) أخرجه بنحوه الترمذي في الجمعة باب ٧٩، والدارمي في الرقاق باب ٦٠، وأحمد في المسند ٣/ ٣٢١، ٣٩٩.

(٢) الزرد: أي سرعة ابتلاع الطعام.

فتضرب خُمسَ كفّك في ثريدٍ ... بِلَقْمٍ منك منكمش الذهَابِ
كأن دويَّهُ في الحلق لما ... يُهمهِمُ صوتُ رعدٍ أو سحاب

وقال آخر: [الطويل]

إذا غرَّد العصفور طار فؤاده ... وليثٌ حديد الناب عند الثرائدِ

وقال آخر: [السريع]

لم تر عيني آكلا مثلَه ... يضرب باليسرَى معاً واليمينِ
تلعب بالقَصْعَة أطرافُه ... لعبَ أخي الشِّطْرنج بالشَّاهِين

فمن مشاهير أهل الزرَد هلال بن أسعر المازني، وهو من شعراء الدَّولة الأمويّة، ذكر الأصبهانيُّ أنه كان عظيم الخلْق شديداً قويًا.

قال أبو عمرو بن العلاء: لم أكُن أرَاهُ حيًا، بل رأيته ميّتاً، فما رأيت على سرير أطول منه.

قال هلال: جعتُ مرَّة، ومعي بعير لي، فنحرته فأكلتُه إلا ما جعلته منه على ظهري، ثم أردت جماع امرأتي، فلم أقْدِرْ، فقالت: كيف تصلُ إليَّ وبيننا بعير!

وحدَّث شيخ من بني مازن، قال: أتاني هلال، فأكل جميع ما في بيتِنا، فبعثنا إلى الجيران نستقرض الخبز منهم، فلمّا رأى اختلافَنا، قال: كأنكم أرسلتم إلى الجيران: أعندكم سَوِيق؟[١] فأتيته بجراب طويل فيه سَوِيق وبَرْنيَّة[٢] فيها نبيذ، فصبَّ السويق كلَّه، وصب النَّبيذ، وازدرد الكل.

ومر على رجل من بني مَازن بالبصرة، ومعه زورق رُطَب، قد ساقها من بُسْتانِه، فجلس على زَوْرَقٍ منها صغير، مغطًى بباريَّة[٣] فقال: آكل من رُطبك؟ قال: نعم، قال: ما يكفيني؟ قال: ما يكفيك، فجلس على الزَّوْرَق يأكل التمر إلى أن اكتفى، فسلَت الباريَّة فإذا الزورق مملوء نوًى.

وقال صدقة بن عبد الله المازني: أولمَ عليَّ أبي لما تزوّجت، فعملنا عشر جفان ثريداً من جَزُور، فكأن أول من جاءنا هلال، فقدَّمت إليه جَفْنَةً فأكلها، ثم أخرى حتى أتَى على عشر جفان، ثم استسقى، فأتى بقربة من نبيذ، فوضع طرفها في شِدْقِه، فأفرغها في جَوْفه، ثم خرج، فاستأنفنا عَمَل الطعام، ومن أعجب ما أكله مائتا رغيف بمكوك[٤] بلَح.

وكانت شبعته تكفيه لخمسة أيام. وكان لا يقاومه أحد في النجدة.

---

(١) السويق: دقيق الحنطة.

(٢) البرنية: إناء من الخزف.

(٣) البارية: الحصير المنسوج، جمعه بواري.

(٤) المكوك: مكيال يسع صاعاً ونصف.

ومنهم سليمان بن عبد الملك، ذكر المسعودي أن شِبْعه[1] كانت كل يوم مائة رطل بالعراقي، وكان ربما أتاه الطبَّاخون بسَفَافيد فيها الدجاج، وعليه جبّة الوشي، فبحرصه على الطعام، كان يدخِل يده في كُمِّه ثم يقبض على الدجاجة، وهي حارّة فيفصلها.

قال الأصمعيّ: ذكرت ذلك للرشيد، فقال: قاتلك الله! ما أعرفك بأخبارهم! لقد كنت أرى الدَّسَم في أكمام جبابه، ولا أدري ما سببه، حتى حدَّثتَني. وكساني منها جُبّة.

وخرج يوماً من الحمام وقد اشتد جوعه [فاستعجل الطعام ولم يكن فرغ منه] فأمر أن يقدّمَ ما لحق من الشواء، ولم يكن فرغ من الطعام شيء، فقُدِّم إليه عشرون خروفاً، فأكل أجوافها مع أربعين رُقاقة، ثم قدِّم الطعام، فأكل مع ندمائه كأنه لم يأكل.

قال الشمردل وكيل عمرو بن العاص رضي الله عنه لما قدم سليمان الطائف، دخل بستانيّ هو وعمر بن عبد العزيز، وأيوب ابنه، فجال في البستان ساعة، ثم قال: ناهيك بمالِكم هذا مالاً! ثم ألقى صدرَه على غصن شجرة، وقال: ويلك يا شمردل! عندك شيء تطعمني؟ فقلت: بلى عندي جدّي، كانت تغدو عليه بقرة وتروح [عليه] أخرى، قال: عَجِّل به ويحك! فأتيته به كأنه عُكّة سمن، فأكله وما دعا عمر ولا ابنه حتى إذا بقي الفخد قال: هلمّ أبا حفص، قال: إني صائم، فأتى عليه، ثم قال: ويلك أعندك شيء؟ فقلت: سبع دجاجات هنديات كأنهن رِئلان النعام[2]، قال: عَجِّل بهنّ، فأتيته بهن، فكان يأخذ برجل الدجاجة فيلقي عظامها بفيه، فلمَّا فرغ منهنّ قال: ويلك! أعندك شيء؟ فقلت: حَريرة[3] كأنها قُراضة ذهب، فقال: عَجِّلْها، فأتيته بها، فجعل يشربها شربا، فلما فرغ تجشَّأ فكأنما صاح في جُبّ، ثم قال: يا غلام أفرغت من غدائي؟ قال: نعم فقدّم إليه ثمانين قدراً، فأكثرُ ما أكل من قِدْر ثلاث لقمات، وأقلّ ما أكل لقمة، ثم مسح يده واستلقى على فراشه، وأذن للناس، وصُفّتِ الموائد، فأكل معهم فما أنكرت من أكله شيئاً. وسبب وفاته أنَّ نصرانيًا أتى بزنبيل مملوء بيضاً، وآخر مملوء تيناً، فقال: قَشِّروا، فجعل يأكل بيضة وتينة، حتى أكل الزِّنبيلين، ثم أتوه بقَصْعة مملوءة محا بسكّر، فأكله فأتخِم، فمات.

ومنهم عمرو بن معد يكرب، دخل على عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، فقال: مِنْ أين أقبلت يا أبا ثَوْر؟ فقال: من عند سيّد بني مخزوم، أعظمها هامةً، وأقلّها ملامةً، وأفضلها حلماً، وأقدمها سلماً، قال: مَنْ هو؟ قال: سيف الله وسيف رسوله خالد بن الوليد، قال: فأيّ شيء صنعت عنده؟ قال: أتيته زائراً فدعا لي بقعْبٍ وفرس وثورٍ، فقال له عمر: وأبيك إن في هذا لشبعاً، قال: لي أو لك؟ قال: لي ولكَ، قال:

(١) شبعه من الطعام: أي ما يكفيه منه ليشبع.

(٢) رئلان النعام: أي فرخ النعام.

(٣) الحريرة: دقيق يطبخ بلبن وسمن.

بلى، فما تقول يا أمير المؤمنين، إني لآكل الجِذْع من الإبل، أنتقيه عظماً عظماً، وأشرب الشَّنّ[١] من اللبن رائباً[٢] أو صريفاً[٣].

* * *

قوله: «أقردت». سكت وخضعت. ما لبث: ما تمهّل. الجراب: وعاء الزاد، وأراد بطنه. أمْلِ، يقال: أمليت عليه إذا ألقيتَ عليه ما يكتب، وأمللت لغة، وقيل: الأصل أمللت، فأبدل من اللام ياء. نكلت: انقطعت.

* * *

[الخفيف]

قـل لِـمَـنْ يـلـغِـز الـمـسـائـلَ إنّـي	كـاشـفٌ سِـرّهـا الـذي تـخـفـيـهِ
إنَّ ذا الـمـيِّـتَ الـذي قـدَّم الـشَّـرْ	عَ أخـا عِـرْسِـهِ عـلـى ابـن أبـيـهِ
رجـلٌ زوَّج ابـنَـه عـن رضـاهُ	بـحـمـاةٍ لـه، ولا غَـزْوَ فـيـهِ
ثـمَّ مـات ابـنُـه وقـد عَـلِـقـتْ مـنـ	ـهُ فـجـاءتْ بـابـنٍ يَـسُـرّ ذَويـهِ
فـهـو ابـن ابـنِـه بـغـيْـرِ مـراءٍ	وأخـو عِـرْسِـهِ بـلا تـمـويـهِ
وابـن الابْـنِ الـصَّـريـحُ أدنـى إلـى	الـجَـدِّ وأولـى بـإرثِـهِ مـن أخـيـهِ
فـلـذا حِـيـنَ مـاتَ أوجـب لـلـزوْ	جـةِ ثُـمْـنَ الـتـراثِ تَـسْـتَـوْفِـيـهِ
وحوى ابن ابنِهِ الذي هو في الأصـ	ـلِ أخـوهـا مـن أمِّـهـا بـاقـيـهِ
وتـخـلّـى الأخ الـشـقـيـق مـن الإرْ	ثِ وقـلـنـا يَـكـفـيـك أن تـبـكـيـه
هـاكِ مِـنّـي الـفُـتـيـا الـتـي يـحـتـذيـهـا	كـلُّ قـاضٍ يـقـضـي وكـلُّ فـقـيـهِ

* * *

لا غَزْوَ: لا عجب. علقت: حملت. ذويه: قرابته، وأضاف «ذوي» إلى المضمر، وهي لغة قليلة، ومنعَها بعضهم، وجوّزها جماعة من أئمة اللغة.

وقال أبو عليّ الفارسيّ. اللهمَّ صلّ على محمد وذويه، حَمَلُوا «ذَوِي» على الأصحاب.

الأزهريّ: سمعت غيرَ واحدٍ من العرب، يقول: كنّا مع ذوي عمرو، يعني مع أصحاب عمرو، وهو كثير في كلام قيس ومَنْ جاورهم.

وقال الحريريّ في الدرة: ويقولون: رأيت الأمير وذوِيه، فيهمُون فيه، لأنّ العرب لم تنطق بذي، الّذي بمعنى صاحب إلاّ مضافاً إلى اسم جنس، كقولك: ذو مال وذو

(١) الشن: القربة.
(٢) اللبن الرائب: أي اللبن الممخوض.
(٣) اللبن الصريف: أي اللبن ساعة يحلب.

نوال، فأمّا إضافته إلى الأعلام أو إلى أسماء الصفات المشتقّة من الأفعال فلم تُسمع بحال، ولهذا لَحَن من قال: صلى الله على محمد وذويه، وكما لم يقولوا: ذو أبي ولا ذو أمّي، واقتصروا على إضافته إلى الجنس، ولهذا لم يرفع السببيّ، لأنه ليس بمشتقّ [من فعل]، فلا يقال: مررت برجل ذي مالٍ أخوه؛ وتصحيحه ذو مال أخوه، لأن النكرة تختصّ بأن توصَف بالجملة.

قوله: «مراء» جدال. تمويه: كذب. الصريح: الخالص. أدنى: أقرب. التّراث: المال الموروث. حوى: حاز. تخلّى: خرج بلا شيء. هاك: خذ. يحتذيها: يتبعها ويعمل بها.

وتقريب هذا اللغز أن تقولَ: رجل وابنه وامرأة وابنتها، تزوّج الرجل البنت، والابن الأمّ، فمات الابن، وقد حملت منه الأم، فوضعت غلاماً، فكان للرَّجل ابن ابنه، ولزوجته أخاً لأم، ثم مات الرَّجل وترك أخاً فورِثَتْ زوجتُه الثمْن، وأخوها من أمّها الباقي، لأنه ابن ابن الميّت، وهو يحجب الأخ، كما كان يحجبه الابن لو كان حيًّا.

ومثله قوله الآخر: [الطويل]

وقـائـلـةٍ أَوْصِ الـغـداةَ فـإنّـنـي ... أرى الموت قد حَطّتْ لديك ركائِبُهْ
فـقـلـت وقـد راعَ الـفُـؤادَ مـقـالُـهـا ... وضاقت بـه خوفَ الـحمام مذاهبُهْ
لك الثُّمنُ إن حانت وفاتي فريضةً ... وسـائر مـا يـبقـى فصنْوُك صاحبُهْ

جوابه: [الطويل]

تـعـلّـم فـإنَّ الـعـلـم أكـبـر مـلـبسٍ ... لـمـن شَـرُفَـتْ أخـلاقُـه ومـذاهـبُـهْ
حـلـيـلـة هـذا أمّـهـا زوجـة ابـنـه ... فـذلـك والإلـغـاز جـمٌّ عـجـائِـبُـه
فـإن ابـنـه صِـنْـوٌ لـزوجـتـه ومَـنْ ... يـقـرّ بـعـرف الـعـلـم تـعـلُـو مـراتـبُهْ
فـمـيراثـهـا ثُـمْـنٌ ولـلصِّنْـوِ ما بَقِي ... كـذلـك يـقـضي مَـنْ تـعـالـتْ مـناقبُهْ

والمتقدّم للسؤال في هذه المسألة عبد الملك بن مروان، وذلك أنه وقف به رجلٌ، فقال: يا أميرَ المؤمنين، أنا تزوّجت امرأةً، وزوَّجْتُ ابني من أمِّها، فامددنا بشيء نستعين به. فقال له: إن أخبرتني كيف يُدْعى ابنُ كلٍّ واحد منكما لابن صاحبه، فأنا أرفدُك، وإلا فلا أعطيك شيئاً. فقال له الرجل: فسَلْ عن ذلك كاتبَك وصاحب شُرْطَتِك، فإن أجاباك، فما تعطيه لي، فادفعه إليهما، وإلا فأنا أعذِر. فسألهما فلم يعرفا ذلك، فابتدر رجلٌ من آخر الصفوف، وقال له: أرأيتَ إن أخبرتك، أتعطِيني ما ذكرتَ للسائل؟ فقال له: نعم، فقال ابن الأب عمّ ابن الابن وابن الابن خال ابن الأب، فوصله.

فهذا أخفّ أمراً في الظاهر من التّوارث الذي فرض الحريريّ، وأشكل في المعنى.

* * *

قال: فلمَّا أثبتَ الجوابَ، واستثبتُّ منه الصَّوابَ، قال لي: أهْلَكَ واللَّيل، فشمِّرِ الذَّيْل، وبادِرِ السَّيْلَ، فقلت: إني بدارِ غُربة، وفِي إيوائي أفْضَلُ قُرْبة، لا سيَّمَا وَقَدْ أغْدَفَ جُنْحُ الظَّلاَمِ، وَسَبَّحَ الرَّعْدُ في الغمام، فقال: اغرُبْ عافَاكَ اللَّهُ إلى حيث شِيت، ولا تطمَعْ في أن تبيت، فقلت. ولِمَ ذاك، مع خُلُوِّ ذَراك؟

قال: لأنّي أنعَمْتُ النَّظَرَ، في التقامِكَ ما حَضَرَ، حَتَّى لَمْ تبْقِ ولَمْ تَذر، فرأيتُك لا تنظُر في مَصْلَحَتِكَ، وَلاَ تَراعِي حفظَ صِحّتِك، ومَنْ أمعَنَ فيما أَمْعَنْتَ، وَتبطَّنَ ما تبطَّنْتَ، لَمْ يَكَدْ يُخْلُصُ مِنْ كِظَّةٍ مُدْنِفة، أوْ هَيْضَةٍ مُتلِفةٍ، فَدَعْنِي بالله كِفافاً، وَاخْرُجْ عَنِّي مَا دُمْتُ معافًى، فوالذي يحيي ويُميت، ما لَكَ عِندي مبيتٌ.

فلمَّا سَمِعْتُ أليَّتَهُ، وبَلَوْتُ بليَّتَهُ، خرجتُ مِنْ بيتِهِ بالرَّغْمِ، وتزوَّدِ الغمِّ، تجودُني السَّمَاء، وتَخْبطُ بِيَ الظَّلمَاءُ، وتنبحني الكلاب، وتتقاذف بي الأبواب، حَتَّى ساقنِي إليكَ لُطْفُ القَضاء، فشكراً ليده البيضاء!

* * *

قوله: «أثبَت» صحّح. استثبتّ، أي وجده ثابتاً. أهلك والليل، كلام للعرب، كأنه قال: بادرْ أهلَك قبل الليل، وتحقيق المعنى في ذلك أنه عطف الليل على الأهل، وجعلهما مبادرَين، ومعنى المبادرة مسابقتك الشيء، كقولك: بادرت زيداً المنزل كأني سابقته إليه، وكأنّ الليل والرجل المخاطب يتسابقان إلى أهل الرجل، فأمره الآمر أن يسابق الليل إليهم، ليكون عندهم قبل الليل. شمّر الذيل، أي ارفع ساقَك، واستعدَّ للمشي. إيوائي: ضمّي. قُرْبة: ما يُتقرَّب به من أعمال البرّ. أغدف: أسبل وأرسل، ومنه قول عنترة: **[الكامل]**

إن تُغْدِفي دوني القِناع فإنّني ... طَبٌّ بأخذ الفارس المتلثّم[1]

وإنما قيل للغراب غُداف لسبوغ ريشه.

وقال رؤبة يخاطب أخاه: **[الرجز]**

* نُبِّتَ من جناحك الغُدافي *[2]

---

(١) البيت لعنترة في ديوانه ص ٢٠٥، ولسان العرب (طبب)، (قنع)، (غدف)، (لأم)، وتاج العروس (طيب)، (عذف)، وكتاب العين ٤/ ٣٩٤، وبلا نسبة في مقاييس اللغة ٤/ ٤١٤، وجمهرة اللغة ص ٦٦٩.

(٢) يروى الرجز:

خُلِقْتَ من جناحك الغدافي ... من القدامى لا من الخوافي

وهو لرؤبة في ديوانه ص ١٠٠، ولسان العرب (غدف)، (قدم)، وتهذيب اللغة ٨/ ٧٦، ٩/ ٤٨، وتاج العروس (غدف)، (قدم)، وبلا نسبة في كتاب العين ٤/ ٣٩٤.

جُنح الظلام: ميله، وجَنَح الليل جنوحاً، وأجنح: مال، وهو من الجناح وكان الطائر إذا عدل عن طريقِ طَيرانه، فيرجع يطير إلى جهة جناحه، قيل له: جَنَح، ثم استعير في الليل وغيره، كما قيل: نكَّب عن طريقه، هي من المنكب، كأنه قال: مال بمشيه إلى جهة مَنْكِبه.

سبَّح: صوت. الغمام: السحاب. اغْرُب: غب وابعد. ذَرَاك: منزلك. أنعمت: بالغت. تراعِي: تحفظ. أمعن: كثر، وتقول: أَمعِنْ لي بحقي: اعترف به وأظهِرْه، مأخوذ من الماء المعين، وهو الجاري الظاهر.

الفرّاء: المعَين من الماعون، أو مفعول من العيون.

تبطَّن: ملأ بطنه. كِظَّة: امتلاء البطن. مدنفِة: ممرضة. هيضة: انطلاق البطن بالقيء والإسهال. كِفافاً: مسالمة، أي كفّ عني شرّك وخيرك. معافًى: سالماً من الآفات.

ألّيته: يمينه. بلوت: خبرت وشاهدت. الرّغم: الذلّ. تجودني: تمطرني والسماء: المطر هنا.

وتذكرت بهذه الحالة خروج السَّلامِيَ من دار الشريف الرضي في عشيَّة ماطرة، فأعطاه كساء استتر به، فلما وصل إلى منزله كتب إليه بقصيدة:

منها: **[الكامل]**

ودَّعتُ دارَك والسماء تجودُنِي ... بيد الغمام فلا يكن بكَ ما بِي
ما كنت إلا جنّةً فارقتُها ... كرهاً فصُبّ عليّ سوط عذابِ
ورأيت غاليةَ الطريق ومِسْكَهُ ... طيباً معدّا لي عَلَى الأبواب
وحمى كساؤك لا عدمت مُعيرَة ... دُرّاعتي وعمامتي وجبابي
فوليت يا بحر السماحة كُسوتِي ... وَوَلِي أخوك الغيثُ بَلَّ ثيابي
فوصلت أشكر ذا وأشكو ذا وبالـ ... ـعينين ما بهما من التَّسْكَابِ

وقال آخر فأحسن: **[الكامل]**

وغمامة نثرتْ دموعاً عندما ... نَثَر النَّسيم جُمانَها تَسْبِيكَا
تهدِي السقوفَ جمانها متفرِّقاً ... وتمدّه عند السُّقوط سلوكا

وقال ابن شهيد فأحسن: **[الطويل]**

ومرتجزِ ألقى بذي الأثل كَلْكَلاً ... وحطّ بجرعاءِ الأبارقِ ما حَطّا
سعى في قياد الرِّيح يسمح للصَّبا ... فألقت على غُبر التِّلاع به مِرْطَا
وما زال يروِي التّرب حتى كسا الرُّبا ... درانِك، والغيطان من نسجه بَسْطَا

وعَنَّتْ له ريحٌ تساقط قَطْرَهُ ... كما نثرت حسناءُ عن جِيدها سِمْطَا

قوله: «تخبط» أي تجعلني أمشي فيها على غير هدى. تتقاذف: تترامى وتتطارح، وجعل الأبواب يرميه بعضها على بعض، لِمّا كان يقرعها ولا تفتح له.

لطف القضاء، أي رفق قدر الله وقضائه. يده البيضاء: نعمته الكريمة، وتقول: لفلان عليّ يد بيضاء أي نعمة، وجمعها أياد.

[شكر النعمة ومما قيل فيها]

قال ابن عباس رضي الله عنهما: قال رسول الله ﷺ: «من أهدى إلى قوم نعمة فلم يشكرُوها له استجيب له فيهم».

قال عبد الله بن المبارك: أقبل نصر بن سيّار: فقال: اللهمَّ إني أهديت إلى بسّام نعمة فلم يَعِذْ لِي بشكرها، فاجعل موتهم قتلاً بالسيف. فبلغني أنه قتِل منهم سبعون رجلاً.

وقال أبو نواس وأتى بمعنى بديع: **[الكامل]**

قد قلت للعباس معتذراً ... من ضعف شكْريه ومعترفا

أنت امرؤ جَلَّلتَنِي نِعَماً ... أوهت قُوى شكري فقد ضَعُفا

فإليك بعد اليوم تقدِمَةً ... لاقتْك بالتصريح مكتنِفَا

لا تحدثنّ إليّ عارفة ... حتى أقومَ بشكر ما سلفا

اعترضه الناشيء في معناه فقال: **[الكامل]**

إن أنت لم تحدِثْ إليَّ يداً ... حتى أقوم بشكر ما سلَفَا

لم أحظَ منك بنائلٍ أبداً ... ورجعت بالحرمان منصرِفَا

وقال طريح: **[الطويل]**

طلبتَ ابتغاءَ الشُكْرِ فيما صنعت بي ... فقصَّرْتُ مغلوباً وإني لَشَاكِرُ

وقد كنت تعطيني الجزيلَ بدايةً ... وإني لما استكثرتُ منك لحاقِرُ

فأرجع مغبوطاً وترجع بالتّي ... لها أوّلٌ في المكرمات وآخرُ

وقال آخر: **[الطويل]**

رهنت يدِي بالشُكر في شكر برّه ... وما فوق شكري للشكور مَزِيدُ

ولو أنّ شيئاً يستطاع استطعتُه ... ولكنّ ما لا يستطاع شديد

وقال إبراهيم بن العباس الصولي: **[المتقارب]**

فلو كان للشكر شخص يبينُ ... إذا ما تأمله الناظرُ

لِمِثْلِهِ لك حتى تراه ... فتعلم إني امرؤٌ شاكرُ

وهذا الباب من الشكر وإن وفَّيناه حقه هنا يأتي متفرِّقاً في الكتاب.

* * *

ولمَّا ذكر البِطْنَة وخطرها، وأنها أوجبتْ عليه خروجَه من منزل ضَيْفه على الحالة التي وصف، أردنا أن نصِلها بما يشاكلها.

ومما جاء في ذم البطنة من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد أن يشتريَ غلاماً وضع بين يديه تمراً، فإن أكل كثيراً قال: «رُدُّوه، فإن كثرة الأكل من الشؤم».

وقيل للتُّسْتَري: الرجل يأكل في اليوم مرة؟ قال: أكل الصدّيقين، قيل: فمرتين؟ قال: أكل المؤمنين. قيل: فثلاثاً؟ قال: قل لأهلك يبنُوا لك مِعْلفاً.

ويقبح أن يكون الرجل وصَّافاً لبطنه وفَرْجه، وإن من المروءة أن يترك الرجل الطعام وهو يشتهيه.

وقال عمرو بن العاص لمعاوية رضي الله عنهما يوم الحكمين: أكثروا الطعام، فوالله ما بَطِن قوم قط إلا فقدوا بعضَ عقولهم، وما مضَتْ عزيمة رجل بات بطيناً.

وقال بعض الحكماء: لكل شيء صدأ وصدأ القلوب شبع البطون.

عزم المعتصم يوماً على الاصطباح، وأمر ندماءه أن يطبخ كلُّ واحدٍ منهم قِدْراً، فدخل عليه غلام ابن أبي دواد، فقال المعتصم: الساعة يأتي ابن أبي دواد، فيقول: فلان الهاشمي، وفلان القرشيّ والأنصاريّ، فيقطعنا بحوائجه عما عزمنا عليه، وأنا أشهدِكم أني لا أمضي له يومي هذا حاجة، فلم يتم الكلام إلا والحاجب يستأذن به، فقال لجلسائه: كيف ترون؟ فقالوا: لا تأذن له، فقال: سوأة لكم! الحمَّى سنة أهون عليَّ من ذلك، ودخل فما هو إلا أن سلمَّ وجلس وتكلم حتى ضحك المعتصم، وسفر وجهه إليه، ثم قال: يا أبا عبد الله، لقَد طبخ كل واحد من هؤلاء قِدْراً، وقد جعلناك حكماً في طبخها، قال: فليحضر كل واحد قدره وآكل، ثم أحكم فيها. فوضعت بين يديه، فأكل من أول قِدْر أكلاً كثيراً، فقال المعتصم: هذا ظلم، قال: وكيف ذاك؟ قال: لأني أراك أمعنت في هذا اللون، وستحكم لصاحبه، فقال: عليّ أن آكل من القدور كلِّها مثله، قال: شأنك، فأكل ثم قال: أمَّا هذه فقد أجاد طباخها، إذ قلَّل خلّها وكثَّر زيتها، ثم أكل من كل قِدْرٍ كذلك، ووصف القُدور كلَّها بصفات حسنة سُرَّ بها أصحابها، ثم قُدِّم الطعام، فأكل مع القوم كما أكلوا، أنظفَ أكل وأحسنَه، وهو يحدِّثهم بأخبار الأكَلةِ في صدر الإسلام، كمعاوية وعبد الله بن زياد، والحجاج وسليمان بن عبد الملك. وعن أَكَلة دهره مثل مَيْسرة التمّار، ودَوْرق القصَّاب، وحاتم الكيَّال، وإسحاق الحمَّامي.

فلما رفعت الموائد قال له المعتصم، وقد أطربه حديثُه: ألك حاجة يا أبا عبد الله؟ قال: رجل من أهل بيتك، وطئه الدهر، وغيَّر حاله، قال: ومَنْ هو؟ قال: سليمان بن عبد الله، قال: قَدِّرْ له ما يصلحه، قال: خمسون ألفاً، قال: قد أنفذت ذلك له، قال: ولي حاجة أخرى، ثم ذكر ثلاث عشرة حاجَة لا يردُّه عن شيء منها، ثم قام خطيباً، فقال: عمَّرك الله يا أمير المؤمنين طويلاً فبعمرِك تُخْصِب جنَّات رعيتك، ويلين عيشهم، وتنمو أموالهم، ولا زلت ممتَّعا بالكرامة والسلامة، مدفوعاً عنك حوادث الأيَّام وغيرها، ثم انصرف. فقال المعتصم: هذا والله يتزين الملك بمثله، ويبتهج بقربه، أما رأيتم كيف دخل، وكيف تكلم، وكيف أكل، ثم انبسط في الكلام، وكيف طاب به أكلنا، ما يَرُدُّ هذا عن حاجته إلاَّ لئيم الأصل، والله لو سألني في مجلسي هذا ما قيمته عشرة آلاف ما رددته عنها، وأنا أعلم أنه يكسبني في الدنيا حمداً، وفي الآخرة ثواباً.

وفيه يقول أبو تمام: **[الوافر]**

لـقـد أَنـسَـتْ مـسـاوىءُ كـلِّ دهـرٍ ... مـحـاسـنُ أحـمـد بـن أبـي دُوَادِ[1]

وهذه الحكاية تنتظم في حكايات أهل الزُّرد المتقدمين في المقامة، وقد احتوت على رجال موصوفين بذلك، ختمنا بها الباب.

* * *

فقُلْتُ له: أَحبِبْ بلقائِكَ المُتاحِ، إلَى قَلْبِيَ المُرْتاحِ، ثمَّ أخَذَ يَفْتَنُّ في حِكاياتِهِ، وَيُشمِطُ مُضْحِكاتِهِ بمبكياتِهِ، إلى أن عَطَسَ أنفُ الصبَّاحِ، وَهَتَفَ دَاعِي الْفَلاَحِ، فتأهَّبَ لإجابةِ الدَّاعِي، ثـمَّ عَطفَ إلى ودَاعِي، فَعُقْتُهُ عَنْ الانبعاث، وقُلْتُ: الضيّافةُ ثَلاث، فَناشدَ وحَرّج، ثمَّ أَمَّ المخرج، وأنشد إذْ عَرَّجَ: **[الخفيف]**

لا تَـزُرْ مَـنْ تـحِـبُّ فـي كـل شَـهْـرٍ ... غَــيْــرَ يــوم ولا تــزدْهُ عَــلَــيْــهِ

فـاجْـتـلاءُ الـهـلالِ فـي الـشَّـهـرِ يـومٌ ... ثــمَّ لا تَــنْــظُــرُ الــعُــيُــونُ إلــيْــهِ

قال الحارث بن هَمَّامٍ: فودَّعْتُهُ بقَلْبِ دامِي الْقُرحِ، وَوَدِدْتُ لَوْ أَنَّ لَيْلَتي بَطيئةُ الصُّبْحِ.

* * *

قوله: «أحْبِبْ»، تعجّب معناه: ما أَحَبَّ لقاءك إلى قلبي. المتاح: المقدَّر، والمرتاح: المهتزّ طرباً. يفتنّ: ينوّع. ويشمِط: يخلط. أنفه: أوله، وجعل للصباح أنفاً عاطساً مجازاً لمّا كان يدفعُ ظلمة الليل. هتف: صاح. داعي الفلاح، هو المؤذّن.

---

(١) البيت في ديوان أبي تمام ص ٧٩.

والفلاح: البقاء. تأهّب: استعدّ. عُقْته: حبسته. الانبعاث: النّهوض.

وذكر أنّ الضيافة ثلاث: لأنه جاء في حديث أبي شريح الْخُزاعي رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرِمْ ضيفَه»(١). وجائزته يوم وليلة، والضيافة ثلاث، ولا يحلّ له أن يثوَى عنده حتى يحرجه، فما أنفِق عليه بعد ثلاث فهو صدقة.

أبو عبيدة: جائزته يوم وليلة، أي يعطِيَ الضيف بعد إكرامه ثلاثَة أيام ما يجوز به يوماً وليلة، يقال: أسفّ بجائزة وجيزة، وجوزة، أي قدر ما يجوز به المسافر من منهل إلى منهل.

ومن ملح باب الضيافة، قال المبرّد: أضاف رجلٌ رجلاً فأطال المقام حتى كرهه، فقال الرجل لامرأته: كيف لنا أن نعلم مقدار مُقامِه؟ فقالت له: ألق بيننا شرًّا حتى نتحاكم إليه، ففعل، فقالت المرأة للضيف: بالذي يبارك لك في غدُوِّك غداً، أيُّنا أظلم؟ فقال: والذي يبارك لي في مقامي عندكم شهراً ما أعلم.

ونزل بَصريّ على مدنيّ، وكان صديقاً له، فألحَّ عليه في الجلوس، فقال المدنيّ لامرأته: إذا كان غداً فإني أقول لضيفنا: كم ذراع يقفز فأقفز، فإذا قفز فأغلقي الباب خلفه، فلمّا كان من الغد، قال له المدنيّ: كم قفزُك يا أبا فلان؟ قال: جيّد، فعرض عليه أن يقفز معه، فأجابه، فوثب المدنيّ من داره إلى خارج أذرعاً، وقال للضيف: ثِبْ أنْت، فوثب الضيف إلى داخل الدار ذراعيْن، فقال له: وثبت أنا إلى خارج الدار أذرعاً، وأنت إلى داخلها ذراعين، فقال الضيف: ذراعان من الدار خير من أربع إلى «برّا».

الأزهريّ: برًّا مولدة.

قوله: «ناشد» حَلَّف. حرّج: وكّد يمينه، أي لا يقيم، والحرَج: الإثم.

ابن الأنباري: تحرّج فلان عن كذا، أي تديّن وضيّق على نفسه، والحرَج عندهم الضيق. أمَّ: قصد. عرَّج: التوى عن الباب منصرفاً. اجتلاء: نظو.

القُرْح: الجرح، وأنشد الثعالبي في هذا المعنى، فقال: **[الطويل]**

عليك بإقلال الزيارة إنّها ... إذا كثرت كانت إلى الهجر مسلكا
فإني رأيت الغيث يسأم دائماً ... ويُسأل بالأيدي إذا هو أمسكا

---

(١) روي بطرق وأسانيد متعددة، وأخرجه البخاري في الأدب باب ٣١، ٨٥، والرقاق باب ٢٣، ومسلم في اللقطة حديث ١٤، والإيمان حديث ٧٤، ٧٥، ٧٧، وأبو داود في الأطعمة باب ٥، والترمذي في البر باب ٤٣، والقيامة باب ٥٠، وابن ماجه في الأدب باب ٥، والدارمي في الأطعمة باب ١١، ومالك في صفة النبي ص حديث ٢٢، وأحمد في المسند ٢/ ١٧٤، ٢٦٧، ٢٦٩، ٤٣٣، ٤٦٣، ٣/ ٧٦، ٤/ ٣١، ٥/ ٤١٢، ٦/ ٦٩، ٣٨٤، ٣٨٥.

وقال رسول الله ﷺ: «زرغِبًا تزدد حبًا»[1].

نظمه الشاعر فقال: [الطويل]

إذا شئت أن تُقْلَى فزر متواتراً ... وإن شئت أن تزداد حبًا فزُرْ غِبًا

وقالوا: قلة الزيارة أمان من الملالة.

وقالوا في ضدّه: ترك الزيارة سبب القطيعة.

وقال عليٌّ رضي الله عنه: الصبر من كرم الطبيعة، والمنّ مفسدة الصنيعة، وترك التعاهد للصديق يكون داعية القطيعة.

وقال عبد الصمد بن المعذَّل في ضدّ هذا: وأن يحافظ على الصداقة بظهر الغيب، ويمدح إبراهيم بن الحسن: [البسيط]

يا مَنْ فدت نفسَه نفسِي وقد جعلت ... له وقاء لمن يخشى وأخشاه

أبلغ أخاك وإن شطَّ المَزَار به ... إنّي وإن كنت لا ألقاه ألقاه

وإنَّ طرفيَ موصول برؤيتِهِ ... وإن تباعد عن مثواي مثواهُ

الله يعلم أني لست أذكُره ... وكيف يذكره مَنْ ليس ينساهُ

لا شيء مما نَرى إلا له شبَهٌ ... وما لكم آلَ إبراهيمَ أشباهُ

عِذراً فهل حسن لم يُنْمِهِ حسنٌ ... وهل فتًى عدلت جدواه جدواهُ

قال أبو العتاهية: [الكامل]

أقِلِلْ زيارتَك الصَّديق ولا تُطِلْ ... إتيانَه فتلجَّ في هِجْرانِهِ[2]

إنَّ الصديق يلج في غشيانه ... لصديقه فَيَلجُّ في عصيانِهِ

حتى تراه بعد طولِ سُرُوره ... وكأنه متبرِّمٌ بمكانِهِ

وإذا تولَّى عن صِيانَةِ نَفْسِه ... رجلٌ تُنُقِّصَ واستُخفَّ بشأنه

وإفراط البرّ بالصاحب داع إلى كثرة الإخجال، ومانع من العودة بعد الانفصال.

وكتب ابن عمار إلى ابن زُرَيقَ، وقد عتب عليه، أن اجتاز ببلده ولم يلقَهَ هذه الأبيات: [البسيط]

لم يلوِعنك عناني سلوةٌ خطرتْ ... ولا فؤادي ولا سمعي ولا بَصَري

لكن عذّتني عنكمْ خَجْلةٌ عَرَضَتْ ... كفانيَ العذر منها بيتُ معتذرِ

---

(١) رواه الزمخشري في الفائق في غريب الحديث ٢/ ٤١٧، وابن الأثير الجزري في النهاية في غريب الحديث ٣/ ٣٣٦.

(٢) الأبيات في ديوان أبي العتاهية ص ٣٣٢.

لو اختصرتمْ من الإحسان زُرْتكُمُ والعذبُ يهْجَر للإفراط في الخَصَرِ

ضمَّن ابنُ عمار هذا البيت أحسن تضمين، وهو للمعرّي، وما قيل في العجز عن الشكر أحسن منه، والإقلال يمنع تلاقِي الأحباب، ويحطُّ من همم ذوي الأحساب، فإنه إذا لم يكن عندك ما تقدِّم بين يدي ضيفك أو زائرك تمنَّيت إذا حلَّ بك ألاّ تراه.

وقال حبيب: [الطويل]

وسِيَّانِ عندي صادفوا لي مطمعاً أعاب به أو صادفوا لي مَقْتَلاَ

وقال ابن الجدّ: [الطويل]

وإني لصبٌّ بالتلاقي وإنما يصد فؤادي عن معاذ يرك العسر
أذوب حياءً من زيارة صاحب إذا لم يساعدني على بَرِّهِ الوفرُ

وفي المقامة التي تلي هذه فنٌّ ثانٍ من الزيارة، تقف عليه إن شاء الله تعالى.

* * *

المقامة السّادسَة عشرة

وتعرف بالمغربيّة

حكى الحارثُ بن همّام، قال: شَهِدْتُ صلاَةَ المَغْرِب، في بعض مساجِدِ المَغْرِب، فلمَّا أَدَّيتُها بفَضْلِها، وشفَعتُها بنفْلِها، أَخذ طَرْفِي رفقةَ قد انتبذُوا ناحِيةً، وامتازُوا صَفْوَةً صافيةً، وهم يَتَعَاطَونَ كأسَ المْنَافَثةِ، وَيَقْتدِحُون زِنَادَ الْمُبَاحَثة، فرغبتُ في مُحادثتِهم، لكلمةٍ تسْتَفادُ، أو أَدَبٍ يُستزادُ، فسَعَيتُ إليْهمْ، سَعْيَ المتطفّل عليهم.

* * *

أدّيتها: تمّمتها، شفَعتها: زَوَجْتُها، يريد أنّه صلّى الفريضَة، ثم صلّى النافلة بفضلِها، يريد أنّه صلاَّها في الجماعة، وهي أفضل من صلاة الفذّ. انتبذوا: انفردوا، وصاروا إلى جهة وزاوية من المسجد. وامتازوا: انفصلوا. صفوة: خياراً. يتعاطوْن: يعطِي بعضُهم بعضاً. المنافثة: المحادثة. يقتدحون، أي يضربونها ويستخرجون نَارَها. المباحثة: المناظرة في العلم.

* * *

[في معنى التطفّل]

المتطفّل: الآتي إلى الطعام من غير أن يُدْعَى، وهو الوارش[١] عند العرب. وتطفَّل: تشبّه بطفيل العرائس، وهو طُفَيل بن دلال الدارميُّ، يسمَّى طفيل الأعراس، وطُفَيل العرَائس، لكثرة دَوَرَانه على حضورها، ومشاهدته لها، والأكل منها، من غير أن يُدْعَى إليه، واسمه مشتقٌّ من الطَّفَل، وهو إقبال الليل على النهار.

أبو عمرو: الطَّفَل: الظُّلمة.

ابن الأعرابيّ: ويقال للطُّفيلي اللُّعموظ، والجمع اللعاميظ.

وطُفيل من بني عبد الله بن غطفان، كان يأتي الأعراس ولم يُدْعَ. ومسكنه بالكوفة، وكان يقول: ودِدْتُ أن الكوفة بركة مُصهرجَة، فلا يخفى عليَّ فيها دخان، فنُسب إليه كل

(١) الوارش: هو الواغل.

من يتطفَّل، نسبةَ مذهب لا نسب، والتطفُّل من أخلاق اللئام، وسجايا الأوغاد، ومنهي عنه في الشرع.

ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ دُعِيَ فلم يُجب فقد عصى الله ورسوله، ومن دخلَ على غير دَعْوى دخل سارقاً وخرج مُغِيراً»[1].

عائشة رضي الله عنها: قال النبيّ ﷺ: «من دخل على قوم لطعام لم يُدعَ فأكل دخل فاسقاً، وأكل حراماً».

***

[من أخبار المتطفلين]

ونسوق هنا فصلا للطفيليّين، يكون في هذه المقامة بمنزلة فضل الأَكَلة في المقامة التي قبل هذه لأن حالتيهما متقاربة.

فمن ذلك ما يحكى عن بشار الطفيليّ أنه قال: رحلتُ يوماً إلى البصرة، فلما دخلتها قيل لي: إنَّ هنا عريفاً للطُّفيليِّين يَبَرُهم، ويكسوهم ويرشدهم إلى الأعمال ويقاسمهم. فسرت إليه فبرَّني وكساني، وقمت عنده ثلاثة أيام، وله جماعة يصيرون إليه بالزّلاّت[2] فيأخذ النّصف، ويعطيهم النّصف، فوجّهني معهم في اليوم الرابع، فحصلت في وليمة، فأكلت وأزللت معي شيئاً كثيراً وجئته به، فأخذ النصف، وأعطاني النصف، فبعت ما وقع لي بدراهم، فلم أزل على هذه الحالة أياماً، ثم دخلت يوماً على عرس جليل، فأكلت وخرجت بزَلَّة حسنة، فلقيني إنسان فاشتراها بدينار، فأخذته وكتمته، وكتمت أمرها. فدعا جماعة من الطفيليّين، فقال: إن هذا البغداديّ قد خان، فظنَّ أني لا أعلمُ ما فعل، فاصفعوه وعرفوه ما كتمنا، فأجلسوني شئت أم أَبَيْتُ، وما زالوا يصفعونني واحداً بعد واحد، فيصفعني الأول منهم، ويشمّ يدي، ويقول: أكل مَضيرة[3]، ويصفعني الآخر ويشمّ يدي، ويقول: أكل كذا، ويصفعني الآخر، حتى ذكروا كلّ شيء أكلته، ما غلطوا بشيء منه، ثم صفعني شيخٌ منهم صفعة عظيمة، وقال: باع الزَّلة بدينار، وصفعني آخر، وقال: هات الدِّينار، فدفعته إليه، وجرَّدَنِي الثياب التي أعطانيها، وقال: اخرج يا خائن في غيرِ حِفْظ الله. فخرجت إلى بغداد، وحلفت ألاّ أقيم ببلد فيه طفيليّة يعلمون الغيب.

ونريد هنا أن نذكر بعض ما اشتهر من حكايات طفيليَّة البصرة، إذ هم أحذقُ خلق الله في باب التطفيل:

---

(١) أخرجه بنحوه الترمذي في الصوم باب ٦٤، وأبو داود في الأطعمة باب ١.

(٢) الزلة: اسم لما تحمل من مائدة صديقك أو قريبك.

(٣) المضيرة: هي مرقة تطبخ باللبن.

بعث المأمون في طَلِبَ عشرة من زنادقة البَصْرة، فَجُمِعُوا فرآهم طُفيليّ، فمضى معهم، فأدخِلوا في سفينة، فدخل معهم، وجيء بالقيود، فَقُيِّدَ معهم، فقال أحدهم: يا طُفيليّ إليَّ هنا، فأقبل عليهم فقال: فديتكم، أيّ شيء أنتم؟ فقالوا له: بل أنت، مَنْ أنت؟ وهل أنت من أصحابنا؟ قال: والله ما أعرفكم، غير أني طفيليّ، خرجت من منزلِي، فرأيت منظراً جميلاً، ونِعمة ظاهرة، فقلت: شيوخ وكهولٌ وشبّان، ما اجتمع هؤلاء إلا لصنيع، فدخلت وسطكم كأني أحدكم إلى هذا الزورق، فرأيته قد فُرِش ومُهِّد، ورأيت سُفَراً[١] مملوءة فقلت: نزهة إلى بعض البساتين والقصور، إن هذا اليوم يوم مبارك، فزدت ابتهاجاً، فجاء هذا الموكّل بكم فقيّدكم، فطار عقلي فما الخبر؟ فضحكوا وفرحوا به، وقالوا له: قد حصلت في الإحصاء، نحن مانيّة على مذهب ماني، القائل بالنور والظلمة، نسير إلى المأمون، فيسألنا عن مذهبنا، ويدعونا إلى التوبة. ويظهر لنا صورة ماني، ويأمرنا أن نَتْفُلَ عليها، ونبرأ منها، فمن فعَل نجَا، وإلا قُتل، فإذا دعيتَ فأخبره باعتقادك، وللطفيليّ مداخلات وأخبار فاقطع سفرنا بها. فكان ذلك. فلما دخلوا على المأمون، دَعاهم بأسمائهم وامتحنهم فأمَرَّ عليهم بالسيف، وتأخّر الطفيليّ وقد استوعب العدّة، فسأل الْمُوَكَّلِينَ بهم، فقالوا: وجدناه معهم، فجئنا به، فقال له: ما خبرُك؟ فقال له: يا أمير المؤمنين، امرأته طالق إن كنت أعرف من أقوالهم شيئاً، إنما أنا رجل طفيليّ، ثم قصّ قصته معهم.

فضحِك المأمون كثيراً، ثم أظهر الصورة، فلعنها وبرىء منها، ثم قال: اعطوها لي حتى أسلح عليها، والله ما أدري ما ماني! أنصرانيّ أم يهوديّ أم مسلم؟ فقال المأمون: يؤدَّب على فرط جهله وتطفيله ومخاطرته بنفسه، فقال: يا أمير المؤمنين بحياتك، إن كنتَ ولا بدَّ عازماً، فاجعل السِّيَاط كلَّها على بطني، فهو الذي حملني على هذا الغَرَر. فعاد إلى الضحك، فاستوهبه منه إبراهيم بن المهدي بحديث في تطفيله يذكر في خبر إسحاق الموصلي، فوهبه له، وأجاز الطفيليّ بجائزة سنيّة.

كان إبراهيم بن المدبّر عاملاً على البَصْرة، وكان له سبعة ندماء لا يأنَسُ بغيرهم، وكلّ واحد منهم منفرد بعلم من العلوم. وكان طفيلي يعرف بابن دَرَّاجٍ، من أكمل الناس أدباً، وأخفِّهم رُوحاً وأَشدِّهم في كلّ مليحة افتنانا. فاحتال ودخَل في جملة الندماء، فخرج إبراهيم، فرآه فقال لحاجبه: قل لهذا الرجل، ألك حاجة؟ فسُقط في يد الحاجب، وعلم أنّ الحيلة تمّتْ عليه، وأنه لا يرضي ابن المدبّر من عقوبته إلا بقتله، فمرّ يجر رجليه، فقال له: يقول لك الأستاذ: ألك حاجة؟ فقال: قل له: لا، فأدخله عليه، فقال: فأيّ شيء أدخلك! أأنت طفيليّ؟ فقال: نعم أصلحك الله! فقال: إن الطفيليّ يحتمل على دخوله على الناس بخصال، منها أن يكونَ لاعباً للشّطرنجِ أو بالنَّرْد، أو ضارباً بالعود، أو

(١) السفرة: طعام المسافر.

بالطنبور، فقال: أيَّدك الله، إنا لما ذكرت في الطبقة العليا، فقال لبعض الندماء: لاعبه بالشطرنج، قال: أعزَّك الله. فإن قُمِرْت[1]؟ قال: أخرجناك، قال: وإن قَمرت، قال: أعطيناك ألف درهم، فقال: أحضرها فإن في حضورها قوةً للنفس، فلعبا بالشطرنج، فغلب الطفيلي، ومدَّ يدَه لأخذ الدراهم، فقال الحاجب: أعزَّك الله، ذكر أنه في الطبقة العليا، وإن فلاناً غلامك يغلبه، فأحْضِر الغلام فغلبه؛ فقالوا له: انصرف، فقال: أحضرُوا النرد، فلوعب به فَغَلَبَ، فقال الحاجب: لكن بوَّابنا فلان يغلبه، فأُحضر البوَّاب فغلبه، فقيل له: اخرج، قال: فالعود؟ فَأُعْطِيَ عُوداً، فضرب فأصاب، وغنى فأطرب، فقال الحاجب: يا سيّدي إن في جوارنا شيخاً يعلّم القيان، هو أحْسَنُ منه، فأحضِر إليه، فكان أطيب منه، فقيل له: اخرج، فقال: فالطنبور؟ فَضَرَبَ ضرْباً لم يُرَ أحْسَنُ منه، فقال الحاجب: إنّ فلاناً المحتكر أطيبُ منه، فأُحضر فكان أحذقَ منه، فقال ابنُ المدبّر: قد تقصَّينا لك بكلِّ جهد، فأبَتْ حرفتُك إلا طَرْحَك، فقال: يا سيّدي، بقيتْ معي فائدة حسنة، فقال: وما هي؟ قال: تأمر أن يحضر قوس بندق مع خمسين بندقة من رصَاص، ويقام هذا الحاجب فأرميه في دُبُره، فإن أخطأته بواحدة، فاضرب عنقِي، فضجَّ الحاجب. ووجد ابن المدبّر شفاء نفسه في عقوبته، فأمر بخشبتيْن، وشدّ الحاجب فوقَهما. وأُعْطِيَ القوس، فِرماه بخمسين بندقة، فما أخطأ دُبُرَه بواحدةٍ منها.

وحُلَّ الحاجب وهو يتأوّه لما به، فقال له الطفيليُّ: يا صفعان، هل على باب الأمير من يحسن مثل هذا؟ فقال له الحاجب: يا قَرْنان إذا كان البُرجاس[2] استي فلا يحسن أحسد مثلك.

قال: وذهب الضّحك بابن المدبّر هو وأصحابه كلَّ مذهب، ثم أعطاه ألف درهم وانصرف.

صحب طفيليٌّ رجلاً في سفر، فلما نزلوا ببعض المنازل، قال له الرجل: خُذْ درهماً وامشي فاشتر لنا لحماً. فقال له الطفيليّ: قم أنت، والله إنّي لتعِب، فاشتر أنت. فمضى الرَّجُل، فاشتراه، ثم قال له الرجل: قم فاطبخه، فقال: لا أحسِن، فقام الرجل، فطبخه، ثم قال الرّجلُ للطفيليِّ: قم فاثرِد، فقال: والله إنّي لكسلان، فترَد الرَّجُل، ثم قال له: قم فاغترف، قال: أخشى أن ينقلب على ثيابي، فغرف الرجل حتى ارتوى الثَّريد، فقال له: قم الآن فكل، قال: نعم إلى متى هذا الخلاف! قد والله استحيَيت من كثرة خلافك. وتقدَّم فأكل.

وقال طُفيل العرائس: ليس في الأرض أكرم من ثلاثة أعواد: عصا موسى عليه السلام، وخِوان الطعام، ومِنبر الخليفة.

---

(١) قُمِرْت: غُلِبْت.

(٢) البرجاس: ما يوضع على رأس الرمح.

ومن وصيَّته لأصحابه: إذا دخلتم عُرساً، فلا تلتفتوا إلى الملاهي، وتخيَّرُوا المجالس، وإن كان العرس كثير الزحام، فليمضِ أحدُكم ولا ينظر في عيون الناس، ليظنّ أهل الرجل أنه من أهل المرأة، وأهل المرأة أنه من أهل الرجل، وإن كان البواب فظًا وقِحاً، فليبدأ به فليأمره ولينهَه من غير عُنف، ولكن بين النصيحة والإدلال.

وقال بُنان الطفيليّ: التمكن على المائدة خير من ثلاثة ألوان.

وسئل بنان: هل تحفظُ من كتاب الله تعالى شيئاً؟ قال: نعم، آية. قيل: وما هي؟ قال: ﴿وإذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ آتِنَا غَداءَنا﴾ [الكهف: ٦٢] قيل: أتحفظ شيئاً من الشعر؟ قال: بيتاً واحداً، قيل: ما هو؟ قال: **[البسيط]**

نزوركمْ لا نكافِئُكُمْ بجفوتكُمْ ... إن الكريم إذا ما لم يُزَرْ زارا

وبعده: **[البسيط]**

يُقرّب الشوق داراً وهي نازحةٌ ... مَنْ عالج الشوق لم يستبعِد الدارا[1]

وقال أبو الورد المحاكمي في طفيلي: **[الوافر]**

طفيليّ يؤم الخبز أنى ... يراه ولو يراه على يَفَاع

ولا يروِي من الأخبار إلاّ: ... «أجيب ولو دعيتُ إلى كُراعِ»

وقال طفيلي أيضاً: **[الخفيف]**

نحنُ قومٌ إذا دعينا أجَبْنَا ... ومتى ننس يَدْعُنَا التَّطْفِيلُ

ونَقُلْ علّنا دُعينا فغُبنَا ... وأتانا فلم يجِدْنا الرّسولُ

وأقبل طفيليٌّ إلى طعام لم يُدْعَ إليه، فقال صاحب الطعام: مَنْ دعاك؟ فأنشده: **[السريع]**

دعوتُ نفسي حين لم تَدْعُنِي ... فالحمدُ لي لا لك في الدعوهْ

وكان ذا أحسنَ من موعدِ ... مُخْلِفُه يدعُو إلى الجفْوَهْ

ودخل طفيليّ في صنيع رجل من القبط، فقال له: مَنْ أرسل إليك؟ فأنشأ يقول: **[البسيط]**

أزوركم لا أكافيكم بجفوتكم ... إن المحبّ إذا ما لم يُزَرْ زَارا

فقال: «زر زارا»، ليس ندري مَنْ هو؟ أخرج من بيتي!

وقال آخر في طفيليّ كوفيّ: **[الطويل]**

زَرَعْنا فلمّا سلّم الله زرعنَا ... وأوْفَى عليه مِنْجَلٌ لحصادِ

(١) البيتان للعباس بن الأحنف في العقد الفريد ٦/ ٢٢١.

بُلينا بكوفيٍّ حليف مَجَاعةٍ أضرّ علينا من دَبي وجرادِ

وحدّث آدم الطويل، قال: دخل حانوتيٌّ غريب يأكل شيئاً من الطعام فتقدّم سائل، فقلت له: ما أكثر تردّدك إليَّ! فقال الغريب الذي في الحانوت: لعلّه كما قال الشاعر: [السريع]

لو طبخت قدر بمطمورةٍ أوفى ذُرَا قصرٍ بأعلى الثُّغُورِ
وكنت بالصين لوافيتَها يا عالم الغيب بما في القدورِ!

حكى المبرّد قال: كان بالبصرة طفيليّ مشهور، وكان ذا أدب وظَرْف، فمرَّ بسكة النَّخَع بالبصرة على قوم عندهم وليمة، فاقتحم عليهم، وأخذ مجلسه مع من دُعِيَ، فأنكره صاحب المنزل فقالوا له: لو تأنّيت أو صبرت يا هذا قبل الدخول حتى يؤذن لك، كان أحسنَ لأدبك، وأعظم لقدرك، وأجلّ لمروءتك؛ فقال: إنّما اتُّخذت البيوت ليُدخل فيها، وَوُضِعت الموائد ليؤكل عليها، والحشمة قطيعة، واطّراحها صلة.

وجاء في الآثار: صلْ مَنْ قطعك، وأعطِ مَنْ منعك، وأحسِنْ إلى مَنْ أساء إليك.

وأنشد: [الخفيف]

كلّ يوم أدور في عرصة الدا ر أشَمُّ القُتَار شمَّ الذبابِ
فإذا ما رأيت آثار عرسٍ أو دخاناً أو دعوة الأصحابِ
لم أعرج دون التقحّم لا أر هب شتماً أو لكزة البوّابِ
مستهيناً بمَنْ دَخَلْتُ عليه غير مستأذنٍ ولا هيَّابِ
ذاك أهنا من التكلّف والغُرْ م وشتم البَقّال والقَصّابِ

كان بالبصرة طفيليٌّ يكنى أبا سلمة، وكان إذا بلغه خبر وليمة، لبس لُبْسَ القضاةِ، وأخذ ابنيْه معه، عليهما القلانس الطِّوال والطيالسة، فيتقدم أحدهما فيدقّ الباب، ويقول: افتح يا غلام لأبي سلمة، ثم لا يلبث حتى يلحقه الآخر، فيقول: افتح ويلك! قد جاء أبو سلمة، ويتلوهما، فإن لم يعرفهم الْبَوَّاب فتح لهم، وإن عرفهم لم يلتفت إليهم، ومع كلّ واحد منهما فِهْرٌ مدوَّر يسمُّونه كيسان، فينتظرونَ مَنْ دُعيَ، فإذا جاء وفتح له طرحوا الفِهر في العتبة، حيث يدور الباب، فلا يقدرون على إغلاقه فيهجمون ويدخلون.

فأكل أبو سلمة يوماً على بعض الموائد لقمةً حارَّة من فالوذج، وبلَعها بشدّة حرارتها، فتجمَّعت أحشاؤه، فمات على المائدة، فقال عبد الصمد بن المعدل يرثيه: [البسيط]

أحزان نفسِيَ عنّي غير منصرمَهْ وأدمعي من جفون العين منسجمَهْ
على صديقٍ ومولًى لي فُجِعت به ما إن له في جميع الصالحين لِمَهْ
كم جفنةٍ مثل دور الحوض مَترعة كَوْماء جاء بها طباخها رَذِمة

قد كـلـلّـتْـهـا شـحـوم مـن قـلـيَّـتـهـا ومـن سـنـامِ جَـزورٍ عـبْـطـة سَـنِـمَـهْ
غيبت عنها فلم تعلم لها خبراً لـهـفـي عليك وعَـوْلي يـا أبـا عَـلِـمَـهْ
ولـو تـكـون لـهـا حَـيـاً لـمـا بـعـدت يوماً عليك ولو في جاحم حُطَمَهْ
قـد كـنـت أعـلـم أن الأكـل يـقـتـلـه لكنني كنت أخشى ذاك من تُخَمَهْ
إذا تـعـمـم فـي شـبـلـيـه ثـم غـدا فـإن حـوزة مَـنْ يـأتـيـه مـصـطـلـمـه

* * *

وقلت لهم: أتقبلُونَ نزيلاً يَطْلُبُ جَنَى الأَسْمَارِ، لا جَنِيَّ الثِّمَارِ، وَيَبْغِي مُلَحَ الحِوَارِ، لا مَلْحَاءَ الْحُوَارِ، فَحلُّوا لي الْحُبَا، وقالوا: مَرْحباً مَرْحباً، فَلَمْ أجلِسْ إلاّ لَمْحَةَ بارقٍ خاطفٍ، أو نُغْبَةَ طائرٍ خائفٍ، حتَّى غشيَنَا جَوَّابٌ، عَلَى عاتقهِ جرَابٌ، فحيَّانا بالكلِمتيْن، وحَيَّا المسجدَ بالتَّسْلِيمَتَيْنِ، ثم قال: يا أولي الألباب، والْفَضْلِ اللُّباب، أما تعلمونَ أن أَنْفَسَ الْقُرُبات، تَنفيسُ الكُرُباتِ، وَأَمْتَنَ أسْبابِ النَّجاةِ، مواساةُ ذوِي الحاجات. وَإِنّي وَمَنْ أحَلّنِي سَاحَتَكُمْ، وأتاحَ لي اسْتِمَاحَتَكُم، لشريدُ محلٍّ قاصٍ، وبريدُ صبيةٍ خماصٍ، فهل في الجماعةِ، مَنْ يَفْثَأُ عَنَّا حُميًّا المجاعةِ؟ فقالوا له: يا هذا، إنّك حضرت بعد العِشاء، ولم يبق إلا فضَلاتُ العَشاء، فإن كنتَ بها قنوعاً، فما تحدُ فينا مَنوعاً، فقال: إنَّ أخا الشدائد، ليقنع بلُفاظات الموائد، ونفاضاتِ المزاوِد. فأمر كلٌّ منهم عبده، أن يُزوِّدهُ ما عِنْدَهُ.

* * *

قوله: «نزيلاً» أي ضيفاً. الأسمار: المذاكرة بالليل. وجَناها: ما يُجْنَى من فوائدها. يبغي: يطلب. مُلَح الحِوار: مليح الكلام، والحِوار: مراجعة القول. مِلْحَاء الحُوار: لحم سنام الفصيل. الحُبا: جمع حَبْوه، وكانت العرب ليس لها في البوادي حيطان تستند إليها في مجتمعهم، فكان الرجل يقيم ركبتيه في جلوسه، فيضع عليها أو يدير بهما ثوباً، ويعقد عليهما يديه، ويستريح إليها، ويقوم ذلك له مقام الاستناد، فيقال لذلك العَقْد: الحَبْوة، فأراد أنهم حَلوا له الحُبَا إكراماً له. لمحة بارق: لمعة برق. خاطف: يخطف العين بسرعة فيمنعها النظر. نُغبة: جَرْعة. غشينا: دخل علينا فجأة. جوَّاب: قطاع للأرض بمشيه. العاتق: ما بين المنكب والعنق. جراب: وعاء للخبز الكلمتين: سلام عليكم. التسليمتين: سلامه عند الدخول وسلامه من الركعتين. وتحية المسجد: أن يركع الداخل فيه ركعتين، وقيل: التسليمتين تسليمة من صلاة المغرب وتسليمة من الركعتين اللّتيْن بعدها. الألباب: الأذهان اللّباب: الخالص. أنفس: أرفع.

القُرُبات: ما يُتقرَّب به إلى الله عز وجل، واحدها قُربة. الكرُبات: الهموم. تنفيسها: تفريجها وإزالتها. أمتن: أقوى وأغلظ. النّجاة: التخلّص. مُواساة: جعلك لهم أسوة نفسك. ساحتكم: موضعكم. أتاح: قدّر. استماحتكم: اجتداءكم والطَّلب منك. شريد: منفّر، والشريد: الهارب. قاصٍ: بعيد. بريد: رسول. خماص. جياع. يَفْثأ: يكسر. حُميَّا المجاعة: حِدّه الجوع. فضَلاَت: بقايا لُفَاظات: ما يُلفظ منها، أي يُطرح. نُفَاضات: ما يُنْفَض من بقية الزاد.

ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «من أكل ما يسقط من الخوان نفى عنه الفقر، وعن ولده الحمق».

والمزاود: أوعية الزاد.

* * *

فأَعْجَبهُ الصُّنعُ، وَشَكَرَ عَلَيْهِ، وَجَلَسَ يَرْقُبُ مَا يُحمَلُ إليه، وثبْنَا نحن إلى استثارة مُلَحِ الأدبِ وعُيونِهِ، واسْتِنْبَاطِ معينِهِ من عُيُونِهِ، إلى أن جُلْنا فما لا يَسْتَحِيلُ بالانعكاس، كقولك: سَاكِب كأس. فتداعينا إلى أن نستنتج له الأفكار، ونَفترعَ منه الأبكارَ، عَلَى أن ينظم الباديُّ ثلاث جماناتٍ في عِقْدِه، ثمّ تتدرّج الزِّيادات مِنْ بَعْدِه، فيربِّعَ ذُو ميمنتِهِ في نظمِهِ، ويسبِّعَ صاحبُ ميسرتِهِ على رَغْمِهِ.

قال الراوي: وكنا قد انتظمْنَا عِدَّةً كأصابعِ الكفِّ، وَتألَّفنَا أُلْفَةَ أصحابِ الكهفِ.

* * *

الصنع: الجميل. وقوله: «وجلس يرقب»، وقال قبل هذا: «فلم أجلس إلا لمحة بارق»، وقال في الثامنة والعشرين، «وجلس حتى خُتِم نَظْمُ التأذين» وأكثر ما صرف الجلوس في مقاماته من قيام.

وقال في الدّرّة: «يقولون للقائم: اجلس، والاختيار على ما حكاه الخليل، أن يقال لمن كان قائماً: اقعد، ولمن كان نائماً أو ساجداً: اجلس. وعَلّل بعضهم هذا الاختيار بأنَّ القعود هو الانتقال من عُلْو إلى سفل، ولهذا قيل لمن أصيب برجلة: مُقْعَد، وإن الجلوس من سفل إلى علو، ومنه قول عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: **[الكامل]**

قُلْ للفرزدَقِ والسفاهة كاسْمِهَا ... إن كنتَ تارك ما أمرتك فاجْلِس

أي اقصد نجداً.

وكان عمر والياً على المدينة فقال للفرزدق: إن كنت تلزم العفاف، وإلا فاخرج إلى نجد.

وحكى أبو عبد الله بن خالويه: قال دخلتُ على سيف الدولة بن حَمْدان يوماً، فلما مَثَلْتُ بين يديه قال: اقعد، ولم يقل: اجلس، فتبينت بذلك اعتلاقه بأهداب الأدب واطّلاعه على أسرار كلام العرب.

والذي نظر هو الوجه، ولهذا جعله على الاختيار، ولم يجعله من اللحن، إلاّ أنه لقرب المعنيين، يجوز أن يكون قد استعمل جلس في المقامات، من القيام.

* * *

يرقب: ينظر ويحرس ثبنا: رجعنا. استثارة: استخراج. مُلح: ما يتلمّح به من الكلام. عيونه: محتاره. استنباط: استخراج. معينه: ماؤه الصافي عيونه: جمع عيْن الماء. وكنى بالمَعِين والعَيْن عن الكلام والقلوب، جُلْنا: تصرّفنا. يستحيل. يتغيَّر الانعكاس: قراءة اللفظة من آخرها. ساكب: صابّ. تداعينا: دعا بعضنا بعضاً. نستنتج: نستدعي منها النّتاج وهو الولد الأفكار: جمع فكْر، وجعل ما يبديه الفكر من الكلام نتاجاً له نفترع: نفتض. حُمانات: جمع جُمانة، وهي حبَّة تعمل من فضة كالدرّة، تتدرَّج: تتمشى. يربِّع: يصنع أربع جمانات. ذو، بمعنى صاحب. يسبّع: يصنع سبعاً رَغْمه: إكراهه وإذلاله. انتظمنا: اجتمعنا. تألّفنا: تصاحبنا وانضمّ بعضنا إلى بعض، ومنه ألّفت الكتاب. والألفة: الصحبة والاجتماع. والكهف: الغار وأصحابه قصتهم معروفة.

* * *

[قصة أهل الكهف]

قال ابنُ عباس في قوله عز وجلّ: ﴿ما يَعلمهُم إلاّ قليلٌ﴾ [الكهف: ٢٢] أنا من أولئك القليل، وهم مكسلمينا ويمليخا، وهو المبعوث بالورِق إلى المدينة، ومرطونس وسارينوس ويوانس وكفشطيوس وقطينوسيسوس، وهو الراعي، والكلب اسمه قِطمْير وهو أنمردون الكروي وفوق القلطي.

وقال أبو شبل: بلغني أنَّ من كتب هذه الأسماء في شيء ووضعه في الحريق سكن الحريق.

وذكر الطبري أنَّهم كانوا في أيام الطوائف على دِين عيسى ابن مريم، وكانوا في حكم ملك للرّوم يُسمَّى دقيانوس يعبد الأصنام، فبلغه عن الفتية مخالفَتهم لدينه، فطلبهم فهربوا منه، فاجتازوا براعي غنم، فأتبعهم بكلبه، فعلموه دينهم، وصاروا إلى ربّهم، فآواهم الليل إلى كهف، فقالوا: نبيت هنا الليلة ثم نصبح فنرى رأينا، فضربَ الله على آذانهم فناموا، وتبعهم الملك فوجدهم في الكهف، فلم يُطِقْ أحدٌ منهم دخوله، فبنى عليهم بابَ الكهف، ففتحه الرّعاء بطول الزمان، فأقاموا فيه ما ذكر الله تعالى، ثم أحياهم الله تعالى بعد ثلاثمائة وتسع، فشكُوا: هَلْ ناموا يوماً واحداً أو بعضه؟ ثم مسَّهم الجوع،

فبعثوا أحدهم بورِقٍ يشتري لهم طعاماً، ووَصَّوْه أن يحترز حتى لا يشعر بهم أحد، فيدلّ عليهم فَيُحْمَلُوا إلى الملك الذي فرُّوا منه أمس فيما ظنوا، فيرجمهم أو يرجعوا إلى دينه، فلمَّا أتى باب المدينة، أنكر أنْ تكون هي التي خرج منها أمس في ظنه لأنها تغيَّرت بمرور بعد زمان عليها، فأنكر أهلها. ثم أخرج الدراهم ليشتريَ طعاماً، فقال له البائع: مِنْ أين لك هذه الدراهم؟ وأمسكه، فقال: خرجتُ أمس مع أصحاب لي فارِّين من هذا الملك ودينه، فبتنا في كهفٍ، وأصبحنا اليوم، فأرسلوني لأشتريَ لهم طعاماً، فاستُرْ علينا، فحمله الرَّجل إلى ملك المدنية يسمع منه، وكان ملكاً صالحاً، نقصَّ عليه القصة، فركب الملك في جملة من الناس ليطلعوا على أمرهم، فدخل على أصحابه، فوجدهم قد عادوا إلى نومهم، فضرب الله على أذنه معهم، فدخل النَّاس فوجدوا أجساماً لا ينكرون منها شيئاً، وكأنهم مستيقظون يكلمونهم، غير أنها بغير أرواح، فقال لهم الملك: هذه آية الله إليكم، فبنوْا عليهم مسجداً يصلون فيه.

* * *

فابْتَدَرَ لِعِظَمَ مِحْنتِي، صَاحِبُ مَيْمَنتي، وقال: لُمْ أَخَامَلّ وَقال مُيَامِنُهُ: كَبِّرْ رَجَاءَ أَجْرِ رَبِّكَ. وقالَ الَّذِي يَلِيهِ: مَن يَرُبَّ إذَا بَرَّ يَنْمُ. وَقَالَ الآخر: سَكِّتْ كلَّ مَنْ نَمَّ لَكَ تَكْسِ.

وأفْضَتِ النَّوبةُ إليَّ، وَقَدْ تَعَيَّنَ نَظْمُ السِّمْطِ السِّبَاعِيّ عَلَيَّ فلَمْ يَزَلْ فِكْرِي يَصُوغُ وَيَكْسِرُ، وَيُثْرِي وَيُعْسِرُ، وَفِي ضِمْن ذَلِكَ أستَطْعمُ، فَلا أَجِدُ مَنْ يُطْعِمُ، إلى أن رَكَدَ النَّسِيمُ، وَحَصْحَصَ التَّسْلِيمُ، فقُلْتُ لأصحابي: لَوْ حَضَرَ السَّرُوجيُّ هذَا المْقَامَ، لَشَفَى الدَّاءَ الْعُقَامَ، فقالوا: لو نَزلتْ هَذهِ بإِياس، لأمْسَك عَلى يَاس. وَجَعَلنَا نُفِيضُ في استِصْعَابِهَا، واستِغْلاَقِ بَابهَا، وذلك الزّورُ المعترِي يَلْحَظُنا لَحْظَ المزدَرِي، ويؤلِّفُ الدّرَرَ وَنَحْنُ لا نَدْرِي.

* * *

قوله: «لعظم محنتي» لعظم بليتي.

* * *

لمْ: من اللوم. مَلّ: من الملل. كبِّره: عظِّم الكبير، وقدّمه على نفسك.

يَرُبّ: يصلَح. بر: أكرم. يَنْمُ: يزيد خيرُه، وترتفع منزلته ونَمَى الشيءُ ينمِي وينمُو نَمَاءً، ونموًّا ونميًّا: زاد، قال الأصمعي: نَمَيْتُ.

حديثَ فلان إلى فلان أنْمِيه، إذا بلّغته على وجه الإصلاح وطلب الخير، وفي

الحديث: «فقال خيراً أو نمى خيراً»(١) أي أبلغ خيراً، أو رفعه، وكلُّ شيء رفعته.

فقد نميته. ورواية ابن ظَفَر: «مَنْ يربّ إذا برّ يَنِمّ»، أي إذا كان البرّ من الناس يمشي بالنميمة فمن يرب فعلا جميلاً ويصلحه.

تَكِسْ: تكن كَيساً، والكَيس: الناقد في أموره، وقيل العاقل. أفضت: وصلت. النَّوبة: الدولة. السِّمْط: الخيط يُعقد فيه اللؤلؤ.

يَصُوغ: يصنع. يُثْرِي وَيَعْسُر، أي يستغني ويفتقر، أي يكثر الكلام مرّة ويقلّل أخرى.

وفي ضمن ذلك، أي في أثنائه وفي مدّته. أسْتطعِم: أطلب طعاماً، هذا أصله، وتقول: أطعمت القارىء إذا وَقف ففتحتُ عليه وأفتيته. واستطعم هُوَ، إذا استدعي ذلك. عليّ رضي الله عنه: إذا استطعم الإمام فأطعموه، أي إذا أُرْتِجَ عليه فافتحوا له.

ركد النسيم: سكنت الريح، يعني كلامه حصحص: تبيّن. التّسليم: الانقياد، أي انقدت للعجز عن الإتيان بها.

المقام: الموقف. العُقَام: الشديد الّذي لا يؤثِّر فيه الدواء، بمنزلة الرحِم العقيم، التي لا تؤثر فيها النطفة فلا تلد.

إياس، تقدّم ذكره. واليأس: ضدّ الطمع.

ولما ذكر هنا إياساً ويأساً، نذكر فصلا ذكره في الدّرة على اللفظتين، قال: ويقولون: أشرف فلان على الإياس من طلبه، فيهِمون كما وَهِم أبو سعيد السكّري، وكان من جِلّة النحويّين، وأعلام العلماء المذكورين، فقال: إن إياساً سُمّيَ بالمصدر، من أيس، وليس كذلك ـ وإنما إياس عند المحققين مصدر آسيتُه، أي أعطيته، والمصدر منه الأوْس، ومنه المواساة، فكأنهم سمّوا إياساً بمعنى تسميتهم عطاء. ووجْه الكلام أن يقال: أشرف على اليأس، لأنّ أصل الفعل منه يئِس على فعِل، قال الله تعالى: ﴿**قد يَئِسُوا من الآخرة كما يئس الكُفّارُ مِنْ أصحاب القبور**﴾ [الممتحنة: ١٣] فأمّا أيس بتقديم الهمزة فمقلوب من يئس واستدلّ شيخنا أبو القاسم بن المفضل النحويّ على صحّة ذلك نأن لفظة يئس، تساوي لفظة اليأس، الذي هو الأصل في نظم الصيغة، فتكون الياء مبدوءاً بها والهمزة مثنىً بها بخلاف تنزّلهما في أيس، فلهذا حكم على أيس أنها مقلوبة من يئس، والمقلوب لا يتصرف تصرّف الأصل ولا يكون له مصدر.

نفيض: نندفع بالكلام. المعترِي: القاصد. يلحظنا: ينظرنا بطرَف عينه. استحقاراً منه لنا. المزدرِي: المحتقر. يؤلّف: يجمع. الدّرر: جواهر الكلام.

* * *

---

(١) أخرجه البخاري في الصلح باب ٢، ومسلم في البر حديث ١٠٠، وأبو داود في الأدب باب ٥٠، والترمذي في البر باب ٢٦، وأحمد في المسند ٦/ ٤٠٣، ٤٠٤.

فلمَّا عثر على افتضاحِنا، ونضوبِ ضَحْضَاحِنا، قال: يا قوْمِ إنَّ من العَناءِ الْعَظيم، استيلادَ العَقيم، والاستشِفْاءَ بالسَّقيم، وفَوْقَ كلِّ ذِي عِلْمٍ عليمٌ. ثمَّ أقْبَلَ عَلَيّ، وقَالَ: سأنوبُ مَنابَكَ، وأكْفِيكَ ما نابَكَ؛ فإن شئتَ أن تنثُرَ، ولاَ تَعْثُرَ، فقُلْ مخاطِبا لِمَنْ ذَمَّ الْبُخْلَ، وأكْثَرَ الْعذْلَ: لُذْ بِكُلِّ مُؤمَّلٍ، إذا لَمّ وَمَلَكَ بَذَل وَإنْ أحْبَبْتَ أنّْ تنْظِمَ، فَقُلْ لِلَّذِي تُعْظم: [مجزوء الرجز]

أُسْ أرْمَـــــــلاً إذَا عَـــــــرَا　　وارْعَ إذَا الْـــمَـــــرْءُ أسَـــــا
أَسْـــنِـــدْ أخَـــا نـــبـــاهَـــةٍ　　أَبِـــنْ إخـــاءَ دَنَّـــســـا
اسْـــلُ جَـــنـــابَ غـــاشِـــمٍ　　مـــشـــاغـــبٍ إن جَـــلَـــسَـــا
اسْـــرِ إذَا هَـــبَّ مـــراً　　وارْمِ بِـــــهِ إذَا رَسَـــــا
اسْـــكُـــنْ تَـــقَـــوَّ فَـــعَـــسَـــى　　يُـــسْـــعِـــفُ وقْـــتٌ نَـــكَـــسَـــا

* * *

عثر: اطّلع. افتضاحنا: اشتهارنا بالعجز. نضوب ضحضاحنا: جفوف مائنا القليل. الاستيلاد: طلب الولد، يقول: إنّ من تعب النفس طلب فائدة من ذهن كليل وقريحة جامدة. نابك: نزل بك. تنثر: تقول نثراً. لُذْ: استتر به والجأ إليه. مؤمّل: مرجوّ لفعل الخير. لمّ: جَمع المال. بذَل: تكرّم على غيره، وهذا اللفظ من المعكوس في النثر بديع، فما ظنك بهذا النظم الرفيع الذي أردفه عليه، فإنه من أشرف حسناته، رحمه الله!.

قوله: «أُسْ» أعط، والأوْس: العطيّة. أرملا: فقيراً أفنى زاده. عرا: قصد. ارع: احفظ الصحبة. أسا: أتى بسوء، وأصله الهمز أساء فسهّل الهمزة، يقول: إنْ قَصَدكَ فقير فصلْه، وإن أخطأ عليك صاحبٌ فلا تقطعه، وارع حقّ الصحبة، ويقال: المرء بالهمز، والمر بلا همز، وبترك الهمز يستقيم الانعكاس في بيت الحريري، ويقال: المرة، قال دعبل: [البسيط]

واحفظ عشيرتك الأدنين إنّ لَهُمْ　　حقًّا يفرّق بين الزّوج والمِرَةِ[1]

وهذا البيت الذي فسرناه وما بعده من الأبيات تقرؤه إن شئت من أوّله، وإن شئت من آخره. وجعل هذا النّمط في عكس الحروف توطئة لما يذكر في المقامة بعد هذا في الرسالة القهقرية، من عكس ألفاظها، من أوّلها إلى آخرها إلا أنّ ذلك العكس بالألفاظ وهذا بالحروف، وكلاهما غاية في بابه، وإنما يذكر الأدباء هذا استملاحاً في كلامهم، وامتحاناً لخواطرهم.

* * *

(١) البيت في ديوانه دعبل الخزاعي ص ٤٧.

[أمثلة من التصحيف وقلب الكلام]

ونريد أن نذكر هنا فصلاً مما يوافقه أو يقاربه على ما شرطناه؛ فمن ذلك أن بعض الأدباء اتّهم صاحباً له بسعاية في جانبه فكتب إليه في المجلس: ساءك نم، فنظره الذي وشى به، فكتب إليه: صحّفه واقلب، فهو والله ما نطق به على لسانك، من بغيك وعدوانك، وهو مقلوب مصحف: منك أتيت، فتضاحكا وتصافيا.

وكتب بعضهم إلى خازن السلطان: [السريع]

قد أقْبَلَ الشهرُ وإقبالُهُ   يأتي بما أجرى تَرْتِيبُهُ
فوجه البرّ ومقلوبه   يَجزْيك عن بَرّك مقلوبُهُ

وكتب بعض الظرفاء إلى صاحب له وهو مقلوب مصحّف: ظبي سراب خشن. فإذا قرأتَه على الولاء من آخره بعد القلب والتصحيف جاء منه: حسُن شراب طيّب.

ومن أنواع المعميّات التّصحيف، ومثاله: أنّ إبراهيم بن المهدي كتب إلى إسحاق الموصليّ: لا يرتج مثل الأسنّة، فكتب إليه إسحاق. لا يرثُ جميل إلا بثينة.

وقال أبو الجهم بن الأنباريّ للحسن بن وهب: ما تصحيف: كلني بيمينك فبعني بحبّتين، فقال: كل شيء منك في عيني حسن.

وغاب صديق عن صديق له، فلمّا لقيَه قال له: عنّ تعبي، فجاوبه: زرعنا يزداد حباً، فالأول قال: غبت عنّي، والثاني قال: زرغِبًّا تزداد حبًّا.

وذكر في بعض مجالس الأدب التصحيف، فقال فتى شابّ: أنا ابن بجدته، فقال بعضهم: ما تصحيف: نصحت فحشي، فقال: تصحيف حسن، فاستغرب إسراعه، فاتهمه شاعر من بَلَنسِية، فقال: ما تصحيفُ بَلنسية؟ فأطرق ساعة، ثم قال: أربعة أشهر، فقال له البلنسيّ: صدق ظّني إنك تنتحل ما تقول ويحك! والفتى يضحك، فقال له: اشعر، فإنك شاعر، فقال: وأي نسبة بين أربعة أشهر وبلنسية؟ فقام وهو يقول: هو ذاك؛ ثم تنبّه بعد انصراف الفتى بعضُ مَنْ حضر، فنظر فإذا أربعة أشهر ثلاث سنة، وهو تصحيف بلنسية، فخجل المنازع، ومضى إلى دار الفتى معتذراً.

كتب بعض وزراء ابن عبّاد إليه يتسخّط الإخوان هذا البيت: [الكامل]

وإذا صفا لك من زمانك واحدٌ   فَهُو المراد، وأين ذاك الواحد!

فوقّع في الكتاب: وأين ذاك الواحد؟ صحّف تعرف: فلمّا قرأه الوزير طار سروراً، ومثَل بالبساط فلثمه بين يديه، وإنما صحّف، وأين، فجاء منه: وأنت، فردّ عليه من كلامه أبلغ جواب.

ومن ملَح ابن عباد في التصحيف، أنه خرج في جملة وزرائه الأدباء، فاجتازوا

بإشبيليّة بالموضع الذي يباع فيه الجير والجبس، فلقيَ هناك جارية من أحسن الناس وأقلّهم حياء. فأقبل ابن عبّاد على ابن عمار، وقال: يا بن عمار الجيارين، فقال ابنُ عمّار: يا مولاي والجبّاسين، فعلم مَنْ حضر أنهما لم يريدا أن يعرّف كلّ واحد منهما صاحبَه بما ذكر، فبحثوا عن مرادهما، فلم يعرفوه، فسألوا: ابن عمّار، فقال له ابنُ عباد: لاتبعها منهم إلا غالية. ثم إن ابن عمار أخبرهم أنّ ابن عبّاد أعجبه حسن الجارية، وعابها بقلة الحياء، فصحّف «الجيارين»، فجاء منه «الحيازين» وصحّفت أنا «الجباسين»، فجاء منه «الخناشين»، فاستغربوا حضور أذهانهما وحسن كنايتهما.

أين هذه الأذهان من رجل مغفّل، كان له ابن يُسمَّى حسناً مسافراً، فاستفتح المصحف يتفاءل له في القدوم، فخرج له «وَحُسْنَ مآب»، فترك التيامن بهذا اللفظ لماب الفتى سالماً، وقال: تصحيف «حسن مآب»: «حسن مات»، فاستدعى أمّ الفتى وخدمه، ونعاه لهنّ فأقمن مناحةً، وجاء الجيران والقرابة يتطلعون حادثتهم، فهو يخبرهم بما تصحّف له، والفتى داخل قد أقبل في أغبط حال وأسرِّها، فاستحمق وصار مثلاً.

* * *

قوله: «أسند» أضفه إليك وقرّبه منك. نباهة: رفعة. أبْن: باعد. دنس: عيب. يقول: صاحبْ مَنْ يشرّفك بذكره الجميل، وباعد من يدنس عِرْضك وتعاب به.

* * *

[مما قيل في الصديق]

وقد قيل: الصاحب رُقْعة في الثوب، فلينظر الإنسان ما يرقّع به ثوبه.

قال ابن رشيق: [المنسرح]

اصحب ذوي القَدْرِ واستعدّ بهمْ ... وعَدِّ عن كلّ ساقط سَفِلَهْ

فصاحبُ المرء شاهدٌ ثِقةٌ ... يقضي به غائباً عليه ولَهْ

ورُقْعة الثّوب حين تَلْبَسُه ... شهرته أو تكون مشتكلَهْ

وفي الحديث: «الأنفس أجناد مجنّدة، وإنها لتشامّ في الهوى كما تشامّ الخيل فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»[1].

ونظم هذا الحديث أبو نواس فقال: [البسيط]

إنّ القلوب لأجنادٌ مُجنّدةٌ ... لله في الأرض بالأهواء تعترفُ[2]

---

(١) أخرجه بلفظ: «الأرواح جنود مجندة»: البخاري في الأنبياء باب ٢، ومسلم في البر حديث ١٥٩، ١٦٠، وأبو داود في الأدب باب ١٦، وأحمد في المسند ٢/ ٢٩٥، ٥٢٧، ٥٣٧.

(٢) البيتان في ديوان أبي نواس ص ٤٠٨.

فما تعارف منها فهْو مؤتلفٌ   وما تناكر منها فهو مختلفُ

وقال طرفه ـ أو عديّ بن زيد: [الطويل]

إذا كنت في قوم فصاحب خيارَهم   ولا تصحب الأردَى فتردَى مع الرَّدِي
عن المرء لا تسأل وسل عن قرينِه   فكلُّ قرين بالمقارن مقتدِي

وقال أبو العتاهية: [الرجز]

اصحب ذوِي الفضل وأَهْلَ الدِّينْ   فالمرء منسوب إلى القرينْ

وقال الخالديّ: [الكامل]

وإذا أرَدْتَ تَرَى فضيلة صاحبٍ   فانظر بعين البحث مَنْ ندمانُهُ
فالمرء مطويٌّ عَلَى عِلاّتِه   طيّ الكتاب وصحبه عنوانُهُ

وممّا يروى لعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: [الهزج]

فلا تَصْحَبْ أخا السّوء   وإيّاك وإيّاهُ[١]
فكمْ من جاهلٍ أوْدَى   حليماً حين آخاهُ
يقاسُ المرءُ بالمرءِ   إذا ما المرء مَا شَاهُ
وفي النّاس مِن النّاس   مقاييسٌ وأشباهُ
وفي العين غنى للعيـ   ـن أن تنطق أفواهُ
وللقلب على القَلْبِ   دليلٌ حين يَلْقَاهُ

وقال ابن رشيق: [مجزوء الكامل]

اختر لنفسك مَنْ تعا   دي كاختيارِكَ مَنْ تُصَادِقْ
إن العدوْ أخو الصديق   وإن تخالَفت الطرائقْ

قوله: «اسل جناب غاشم» يريد جانبْ منزلَ ظالم، ولا تقرّبه. وسلوتُ يتعدى بعن وبنفسه، تقول: سلوت عنه، وسلوته وسليته.

وقال الأسود بنَ يعفُر: [الطويل]

فأقسمت لا أشريه حتى يملّني   بشيء ولا أسليه حتى يفارقا[٢]

---

(١) البيت الأول بلا نسبة في الدرر ٣/ ١٢٠، وهمع الهوامع ١/ ١٧.

(٢) يروى البيت:

فآليت لا أشريه حتى أملَّهُ   بشيءٍ ولا أملاه حتى يفارقا

وهو للأسود بن يعفر في ديوانه ص ٥٣، والأزمنة والأمكنة ١/ ٢٥٧، والمحتسب ١/ ١٥٧، وتاج العروس (سلي)، ونوادر أبي زيد ص ٤٤، وبلا نسبة في شرح شواهد الشافية ص ٤٤١.

قوله: «مُشاغب» مسارع للشرّ. هبّ: تحرك. مِراء: جدال، ومعنى «اسْرِ» اكشف وأَزِلْ، يقول: إذا تعلّق بك وهبّ عليك جدال من صاحب فاكشفه عن نفسك بالمناصحة، وباعد المراء. وتقول: سرَيت الثوبَ عنّي، وسريته، إذا كشفته، قال ابنَ هرْمة: [الطويل]

* سرى ثوبَهْ عني السرى المتخايلُ[1] *

ومنه سُرِّي عن الرجل أي كشف عنه ما كان يجده من الغمّ والغضب، وقد يكون معنَى «اسرِ» باعد وفارق من السُّرَى، وهو سير الليل، فيقول: فارِقْ موضعَ الجدال وباعده. رسا: ثبت، أي إذا سكن الخلاف بين القوم فارْمِ أنت به واتركه، ويروى: «اسْرُ» بالضمّ، أي كن سريًّا، أي سيداً ذا مروءة، إذا هاج الجدال بين القوم فباعده.

وقال سابق البربري: [البسيط]

لا تنفعنّ لجوجاً حين تزجُره ... إنّ اللّجوج له في المال إغراءُ

وَأَغْضِ في حسن عَفْوِ عن نوادره ... فالحرّ فيه عن الآفات إغضاءُ

* * *

[المراء والجدال]

والمراء مدافعة الحقّ وترك الانقياد، لمَا ظهَر منه، وقد يُستعمل بمعنى الجدال، فَمَنْ جادل ليظهر باطلاً فجداله محظور.

وفي الحديث: «من ترك الجدال مُحِقاً بنَى الله له بيتاً في الجنة»[2].

وقال ميمون بن مهران: لا تمارِ مَنْ هو أعلم منك إنه يختزن عنك علمه ولم تضره شيئاً.

وقال لقمان لابنه: مَنْ لا يملك لسانه يندم، ومعنْ يكثرِ المراءِ يُشْتَم، ومن يدخُل مَدَاخل السوءُ يتهّم. يا بنيّ لا تمار العلماء فيمقتوك.

وقال مالك بن أنس رضي الله عنه: المِراء يقسي القلوب ويورث الضغائن وقال بلال بن مسعدة: إذا رأيت الرجل لَجوجاً ممارياً معجباً بنفسه فقد تمت خسارته.

---

(١) يروى البيت بتمامه:

سرى ثوبه عنك الصبا المتخايلُ ... وودّع للبين الخليط المتزايلُ

وهو في ديوان ابن هرمة ص ١٦٦، ولسان العرب (خيل)، (سرا)، وتهذيب اللغة ١٣/ ٥٤، ومقاييس اللغة ٣/ ١٥٤، وتاج العروس (خيل)، (سرو).

(٢) أخرجه بنحوه أبو داود في السنة باب ٤.

ولمسعر بن كدام يخاطب ابنه: **[الكامل]**

إنِّي منحتك يا كِدام نصيحتي ... فاسمع لقول أبٍ، عليك شفيقِ[1]
أمّا المزاحة والمِراء فدعْهُمَا ... خُلُقان لا أرضاهما لصديقِ
إني بلوتُهما فلم أحتَرهُما ... لمجاور جارٍ ولا لرفيقِ

قوله: «اسكن» الزم السكون والوقار. تقوّ: أراد تتقوى، يسعف: يساعد ويوافق. نَكَسَ: قصر بك، يقول: لا تبادر إلى الجِدال، والزم السكون، حتى يتقوّى نظرك، ويظهر لك صوابك، فعسى يوافقك على الإصابة بحسن التدبير وقت كان يصرفك عن الصواب، لو التزمتَ الجِدال.

ومن أعاجيب ابن الرومي قوله في ذم الجِدال: **[الكامل]**

لأولي الجِدالِ إذا غدوا لجدالهمْ ... حجج تضلّ عن الهدى وتَجُورُ
وهنّ كآنية الزجاجِ تصادمتْ ... فهوت وكلّ مكاسر مكسورُ
فالقاتل المقتول ثمّ لِوَهْنِهِ ... ولضعفِه، والآسر المأسور

وقال من شعر يمازح صديقاً له: **[السريع]**

لكنّ في الشيخ غريزية ... يخاصِمُ الله بها في القَدَرْ
ما كان لِمْ كانَ وما لم يكن ... لِمْ يكُنْ فهو كَيِّلُ الْبَشَرْ

* * *

قَال: فلمَّا سَحَرَنَا بآياتِه، وَحَسَرَنَا بِبُعْدِ غَايَاتِه، مَدَحْنَاهُ حتى اسْتَعْفَى، وَمَنَحْنَاهُ إلَى أَنِ اسْتَكْفَى.

ثُمَّ شَمَّرَ ثِيَابَهُ، وَازْدَفَر جِرَابَهُ، وَنَهَضَ يُنْشِدُ: **[الكامل]**

لِلَّهِ دَرُّ عِصَابَةٍ ... صُدْقِ الْمَقَالِ مَقَاوِلاَ
فَاقُوا الأَنَامَ فَضَائِلاَ ... مَأْثُورَةً، وَفَوَاضِلاَ
حَاوَرْتُهمْ فَوَجَدْتُ سَحْـ ... ـبَانَ لَدَيْهِمْ بَاقِلاَ
وَحَلَلْتُ فِيهِمْ سَائِلاَ ... فَلَقِيتُ جُودًا سَائِلا
أَقْسَمْتُ، لَوْ كَانَ الْكِرَا ... مُ حَياً، لَكَانُوا وَابِلاَ

* * *

قوله: «سحرنا» تركنا مسحورين. بآياته. بعَجائبه، يقال: إنّ فلاناً آيةٌ من الآيات،

(١) الأبيات في حماسة البحتري ص ٥٣.

أي عجب من العجائب. حسرنا: قطعنا وأكلنا. والغاية: الطَّلَق، يريد أنا كلّنا في الغايات التي جرى فيها لبعدها؛ ويريد اتساعه في الكلام.

استعفى: قال: عافوني منه. منحناه: أعطيناه. استكفى: قال: يكفيني. ازدفر: حمله على ظهره، والزفر الحِمْلُ على الظهر. جرابَه: وعاء خبزه. عصابة: جماعة. صُدْق المقال، أي صادقين في قولهم، وصدْق جمع صَدُوق، وعدل عن صدوق على جهة المبالغة في صِدْقة. مقاولا: ملوكاً. فاقوا: فضلوا، وزادوا عليهم. فضائلاً: جمع فضيلة، وهي ما تفضُل به غيرك من الأفعال المحمودة مأثورة: متحدَّث بها.

فواضلا: عطايا وأيادي، الواحِدة فضيلة، وفواضل المال: ما يأتيك من مَرَافقتك وعكِسه.

ومن كلام العرب: إذا عزب المالَ قلّت فواضله، أي قلّ انتفاع ربّ الإبل بلبنها إذا بعدت، قال الشاعر:

سأبغيك مالاً بالمدينة إنّني ... أرى عازبَ الأموال قلّت فواضِلُهْ[1]

قوله: «حاورتهم» خاطبتهم.

* * *

[سحبان وائل]

سحبان فصيح العرب، وهو سحبان بن زفر بن إياس بن عبد شمس الوائلي من وائل باهلة، وكان من فصحاء العرب وبلغائها، وبه يضرب المثل في البيان والفصاحة، فيقال: أفصح من سَحْبان.

ودخل عند معاوية وعنده خطباء القبائل، فلمّا رأوْه خرجوا لعلمهم بقصورهم عنه، فقال: **[الطويل]**

لَقَدَ عَلِم الحيّ اليمانون أنّني ... إذا قلت أمّا بعد أنّي خطيبُها[2]

فقال له معاوية: اخطب، فقال: انظروا لي عصاً، فقالوا: وما تصنع بها وأنت بحضرة أمير المؤمنين؟ قال: وما كان يصنَع بها موسى وهو يخاطب ربّه! فأخذه في يده، فتكلّم من الظهر إلى أن كادت صلاة العصر تفوت، ما تنحنح ولاَ سَعل، ولا توقّف ولا ابتدأ في معنًى، فخرج منه وقد بقيت عليه فيه بقية، ولا مال عن الجنس الذي يخطب فيه، فقال معاوية: الصلاة! فقال: الصلاة أمامك، ألسنا في تحميد وتمجيد، وعظة وتنبيه،

(١) البيت بلا نسبة في لسان العرب (فضل)، وتهذيب اللغة ١٢/ ٤١.

(٢) البيت لسحبان وائل في خزانة الأدب ١٠/ ٣٦٩، ٣٧٢، وبلا نسبة في تخليص الشواهد ص ٢٤٨، وخزانة الأدب ١/ ٣١٥، ١١/ ٣٧، ولسان العرب (سحب).

ووعد ووعيد! فقال له معاوية: أنت أخطب العرب، فقال: العرب وحدها! بل أخطب الإنس والجن، فقال له معاوية: كذلك أنت.

وهو أوّل من قال: أما بعد، وأوّل مَنْ آمن بالبعث من الجاهليّة، وأوّل مَنْ توكأ على عصا، وعُمّر مائة وثمانين سنة، وهو القائل يمدح طلحة بن عبيد الله، وهو طلحة الطلحات الخُزاعي فقال فيه: **[مجزوء الكامل]**

يا طلحَ أكرمَ مَنْ مشى ... حسباً وأعطاهمْ لِتَالِدْ[1]

منك العطايا فاعطني ... وعليّ مدحُك في المشاهِدْ

فقال له طلحة: احتكم، فقال: بِرْذَوْنك الورْد، وقصرك بِزَرنْج، وغلامك الخباز، وعشرة آلاف درهم، فقال له: أفّ أف لك! لَمْ تسألني على قَدْري، إنما سألتني على قدْرِك وقَدْر باهلة، والله لو سألتني كلَّ قصرٍ لي وعبد ودابة لأعطيتك.

* * *

[باقل]

قوله: «باقلا»، هو من إياد، قيل من بني مازن. وقال حُميد الأرقط في وصْف ضيف أكثرَ من الطعام: **[الطويل]**

أتانا وما داناه سحبانُ وائلٍ ... بياناً وعلماً بالذي هو قائلُ[2]

فما زال عنه اللّقْمُ حتى كأنه ... من العِيّ لَمّا أن تكلّم باقلُ

والعرب تقول: إنّه لأعيا من باقل، ومِنْ عيّه أنه اشترى ظبياً، فحمله على عُنُقه، فسئل عن ثمنه، فحلّ عنه يديه وفتح أصابعه، وأشار بها ـ وأخرج لسانه ـ يريد أنه بأحد عشر درهماً، ولم يلهَم أن يخبر عن سومه بلسانه ـ ولمّا عُيِّر باقل بفعله قال: **[المتقارب]**

يلومونَ في عيِّه باقلاً ... كأنّ الحماقَةَ لم تُخلَقِ

فلا تكثرُوا العتبَ في عيّه ... فَلَلْعَيّ أجملُ بالأموَقِ

خروج اللسان وفتح البنان ... أخفّ علينا من المنطقِ

الأموق: الأحمق. قوله: «حللت» نزلت. سائلاً: طالباً معروفَهم جوداً: كرماً. سائلاً: جارياً. حياً: مطراً كثيراً.

والوَابل: أشدّ المطر، يريد أنهم كانوا يزيدون عليهم في الفضل.

* * *

(١) البيتان لسحبان بن وائل الباهلي في لسان العرب (طلح)، والتنبيه والإيضاح ١/ ٢٥٦ (البيت الأول فقط)، وتاج العروس (طلح).

(٢) البيتان لحميد الأرقط في لسان العرب (بقل)، وتهذيب اللغة ٩/ ١٧٢، وتاج العروس (بقل).

ثُمَّ خَطَا قِيدَ رُمْحَيْنِ، وَعَادَ مُسْتَعِيذاً من الحَيْنِ، وقال: يَا عِزَّ من عَدِمَ الآلَ، وَكَنْزَ مَنْ سُلِبَ الْمَالَ، إنَّ الغاسِقَ قَدْ وَقَبَ، وَوَجْهَ الْمحجَّةِ قدِ انْتَقَبَ، وَبَيْنِي وَبَيْنَ كِنِّي لَيْلٌ دَامِسٌ، وَطريقٌ طَامِسٌ، فهَلْ مِنْ مِصْبَاحٍ يُؤَمِّنُني الْعِثَار وَيُبَيِّنُ لِيَ الآثار؟

***

خطا: مشى ونقل خطاه. قَيْد: قَدْر. مستعيذاً: مستجيراً. الحيْن: الموت. عدِم الآل: فقد الأهل، يقول: أنتم عِزٌّ لمن فقد أهله، وكنز لِمَن أخذ ماله. الغاسق: القمر.

عائشة رضي الله عنها قالت: نظر النبيّ ﷺ إلى القمر، فقال: «يا عائشة استعيذي بالله مِنْ شرّ هذا، فإنّ هذا هو الغاسق إذا وقب»[1]، يعني مِن شرّه إذا كسف. ووقب القمر: يقبُ وقوباً: دخل في الظلام الذي يكسفه، وكلُّ ما غاب فقد وَقَبَ. المحجَّة: الطريق. انتقب: استتر، وجعل من الظلام نقاباً. وكِنّي: منزلي. دامس: مظلم. طامس: دارس؛ لأن الظلامَ لمّا غطاه كأنه محاه. الآثار: الطرق التي أثر فيها المشي.

***

[مما قيل في الشمع]

قال الصابي في شمعة، وذكر هذا المعنى: [البسيط]

وليلةٍ من محاق الشّهر مُدْجنةٍ ... لا النجمُ يهدي السُّرَى فيها ولا القمرُ
كلفْت نفسي بها الإدلاجِ ممتطياً ... عزماً، هو الصارم الصَّمْصامة الذَّكَرُ
إلى حبيبٍ له في النّفس منزلة ... ما حلَّها قَبْله سمعٌ ولا بَصَرُ
ولا دليل سوى هيفاء مخطَفةٍ ... تَهْدِي الرّكاب وجُنْحُ الليلِ معتكرُ
غصن من الذّهب الإبريز أثمر في ... أعلاه ياقوتة صفراء تستعرُ
تأتيك ليلاً كما يأتي المريبُ فإنْ ... لاح الصبَّاحُ طوتْها دُونَهَا الْجدرُ

وقال آخر في مثله: [الطويل]

لنا شمعة نيطت ذراها بشعلة ... كَحُقّةِ تِبْرٍ عُلِّقَتْ بلسانِهَا
إذا عَثَر الساري بذيلِ من الدُّجا ... نحرنا له قلب الدّجى بسنانِها
تفك قيودَ اللّيلَ عن كل زائرٍ ... فتجري بها الرِّجْلاَن ملء عِنانِهَا
إذا ما أحسّتْ بالصباح تمارضت ... كنرجسةٍ قد أذبلت بمكانِهَا
تموت إذا ما قبّلتْ خدَّ حائطٍ ... فتثبتُ خالا فوقه من دُخَانِهَا

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورتي ١١٣ و ١١٤، باب ١، وأحمد في المسند ٦/ ٦١، ٢٠٦، ٢١٥، ٢٣٧، ٢٥٢.

كأنّ الجراد امتصّ جوهر رُوحها ... ولم يمتنع منها سويدا جنانهَا

وقال النَّمَريّ: **[المتقارب]**

ولمّا دجا الليل مزقته ... بروح ينحُفُ جثمانُهَا

بشمعٍ أعير قدود الرماح ... يحاكي ذَراها وألوانها

غصون من التبر قد ركّبت ... لهيباً يزيِّنُ أفنانها

فيا حسنَ أرواحها في الدجى ... وقد أكلت فيه أبدانها

* * *

قَالَ: فلَمَّا جِيءَ بالمَلْتَمَس، وَجَلَّي الْوُجُوهَ ضَوْءُ الْقَبَسِ، رَأَيْتُ صَاحِبَ صَيْدِنا، هُو أَبو زيْدِنَا.

فقُلْتُ لأصْحَابي: هذا الَّذِي أَشَرْتُ إلى أَنَّه إذا نَطقَ أَصَابَ، وإن اسْتُمْطِرَ صابَ.

فَأتْلعُوا نَحْوَهُ الأعْناقَ، وَأحْدقُوا بِه الأحدَاقَ، وسأَلُوه أنْ يُسَامِرَهُمْ ليْلَتَه، عَلَى أن يَجبُروا عَيْلَتَهُ. فقال: حُبًّا لِمَا أحْبَبتُمْ، ورُحباً بكم إذْ رَحَّبْتُمْ، غَيْرَ أنّي قَصَدْتُكُمْ وَأطْفالِي يَتَضَوّرُونَ منَ الْجُوعِ، وَيَدْعُون لِي بِوَشْكِ الرُّجُوعِ، وَإنِ استَرَاثُونِي خَامَرَهُم الطَّيْشُ، ولَم يَصْفُ لهُمُ العَيْشُ، فَدَعُونِي لأذْهَبَ فأسُدَّ مَخْمَصَتَهُمْ، وَأسيغَ غُصَّتَهُمْ، ثمَّ أنقلِبَ إلَيْكُمْ عَلَى الأثرِ، مُتأهِّباً لِلسَّمرِ إلى السَّحَرِ.

فقُلْنَا لأحدِ الغِلْمةِ: اتَبِعْهُ إلى فِئَتِهِ، لِيَكُونَ أَسْرَعَ لِفَيْئَتِهِ، فانطَلَقَ مَعَهُ مُضْطبِناً جِرابهُ، ومُحَثْحِثاً إيابَه.

* * *

قوله: «الملتمَس»، أي المطلوب وهو المِصْبَاح، والقبس ضوءه. جلا: كشف. صاحب صيدنا، أي الذي اصطاد أموالنا. استُمطر: سُئِلَ المطر. صَاب: وَقَع وقعاً شديداً، وكنى بالمطر الصَّوْب عن العلم الكثير. أتلعوا: مدّواً، وأتلع الرجل: نصبَ عنقه ومدَّها، وتطاول لينظر شيئاً. أحدقوا: حلّقوا وأحاطوا، والأحداق: سواد العين الأعظم: عيلته: فقره يتضوّرون: يَصِيحون. ابن الأنباري: وقولهم: تركته يتضوّر، معناه يظهر الضرّ الذي وقع به بالتقلقل والاضطراب والصياح، فيتضوّر، يتفعّل من الضَّور، والضّور بمعنى الضَّيْر، ويقال: ضرّني يضرُّني ضرًّا، وضارَني يَضيرني ويَضُورني ضيراً وضوراً

بمعنًى. وشْك: سرعة. استراثوني: استبطئوني. خامرهم: خالطهم. الطيش: الخِفّة وذهاب العقل من الجوع. أسدّ مخمصتهم: أزيل جوعهم. والغصة: ما يُختَنق به وإساغتها: تسهيلها حتى تبتلَع. انقلب على الأثر، أي في الحين وفي الطريق الذي أمضى فيه. أرجع: أمشي على أثري فيه مسرعاً، قبل أن يمشي غيري فيغَيّره، فهذا معنى أنقلب على الأثر. متأهّباً: مستعدًا. فيئتِه: رجوعه. مضطبناً: حاملاً على ضِبْنِه وهو خَصْره. محثحثاً: معجّلاً. إيابه: رجوعه.

* * *

فأبطأ بُطْئاً جاوزَ حدَّه، ثمّ عادَ الغلامُ وحدهُ، فقلنا لهُ: ما عندكَ منَ الحديثِ عن الخبيثِ؟

فقال: أخذَني في طُرُقٍ مُتْعِبَةٍ، وَسُبُلٍ مُتشَعِّبَةٍ، حتّى أفضيْنا إلى دُوَيْرَةٍ خَرِبَةٍ، فقال: ها هُنا مُناخِي، ووَكْرُ أفرَاخي. ثُمَّ استفتَحَ بابهُ، واختلَجَ مِنِّي جِرابَهُ، وقال: لَعَمْري، لقَدْ خفَّفْتَ عَنِّي، واستوجَبْتَ الْحُسْنَى مِنِّي، فهاكَ نصيحةً هي منْ نفَائِس النَّصائِحِ، ومغَارِسِ المَصَالِحِ، وأنشد: **[المتقارب]**

إذا ما حَـويْـتَ جَـنَـى نَـخْـلـةٍ ... فـلا تـقْـرَبْـنـهـا إلـى قَـابِـلِ

وَإمَّـا سـقَـطْـتَ عَـلَـى بَـيْـدَرٍ ... فَحَوْصِـلْ مـنَ الـسُّـنْبُلِ الْـحَاصِـلِ

وَلا تَـلْـبَـثَـنَّ إذَا مَـا لـقَـطْـتَ ... فـتَـنْـشَـبَ فـي كِـفَّـةِ الْـحَـابَـلِ

ولا تُـوغِـلَـنَّ إذا مَـا سـبَـحْـتَ ... فـإنَّ الـسَّـلامـةَ فـي الـسَّـاحِـلِ

وَخاطِبْ بِهَاتِ، وَجاوِبْ بِسَوْفَ ... وَبِـعْ آجِـلاً مِـنْـكَ بـالْـعَـاجِـلِ

وَلا تُـكْـثِـرَنْ عَـلَـى صَـاحِـبِ ... فَـمَـا مُـلَّ قَـطُّ سِـوَى الْـوَاصِـلِ

* * *

الخبيث، قال أبو الهيثم: الخبيث: الذكر من الشياطين وجمعه خُبث. أبو عبيدة: الخبيث: ذو الخبْث في تفسيره. متشعّبة: متفرّقة، وتشعَّبَ الطريق: خرجت منه شُعب إلى كل جهة، أي طرق أُخَر، فأراد أنه خُلط عليه بحيث لا يهتدَى إلى منزله، فكان يخرجه من طريق إلى طريق. أفضينا: وصلنا، وهو من الفضاء. مناخي: منزلي، وأصله موضع إناخة البعير. وكر أفراحي: عشّ أولادي. استفتح: ضرب وقال: افتحوا الباب. اختلج: أخذ بسرعة. جرابه: وعاء زاده. الحسنى: الفعل الحسَن. هاك: خُذْ النّفائس: الذخائر: الرّقاع. مغارس: مواضع يُغْرَس فيها. المصالح: جمع مَصْلحة، مفعلة من الصلاح. حويت: جمعت وحزت. جنى نخلة: هو التمر. بَيْدر: أندر الزرع، يسمّى بالشأم أندر، وبالعراق بَيدر. حَوْصِل: اجعل في حَوْصلتك وهي للطائر في الأصل.

كفَّة: شبكة. الحابل: الصائد. تُوغِلنَّ: تكثِرنَّ الدخول. سبخت: عمّت. السّاحل: ما ولِيَ الماء من الأرض، وهو فاعل بمعنى مفعول، لأنّ الماء سحله أي قشره وأخذ عشبه، كما تُسْحَل الحديدة بالمبرد، أي تبرد بالمبرد، والسُّحالة: ما سقَط من المسحول.

وخاطِب بهات: عكس قول الصاحب، وقد أهدى إليه العميريّ قاضي قزوين هدّية وكتبت معها: [الخفيف]

العميريّ عبد كافِي الكفاة ... ومنِ اعتدّ في وجوه القُضَاةِ
خدم المجلس الرفيع بكتب ... مُفْعَمَاتٍ من حسنها مترعاتِ

فوقّع تحتها: [الخفيف]

قد قبلنا من الجميع كتَاباً ... ورددنا لوقْتِها الباقياتِ
لستُ أستغنم الكثير فطبْعي ... قول خُذْ، ليس مذهبي قَوْل هاتِ

قوله: «آجلاً» ضد عاجل. وقوله: «ولا تكثرنَ على صاحب»، أي لا تكثر من الزيارة وأقِلْها خشية الملل. وروى قدامة بن جعفر أنّ رجلاً كتب إلى آخر: إن رأيت أن تحدّد لي موعداً لزيارتك أتوقّتُه إلى وقت رؤيتك فيؤنسني إلى حين، فافعل.

فأجابه الآخر: أخاف أن أعِدَك وعداً يعرِض دون الوفاء به ما لا أملك دفعَه، فتكون الحسرةُ أعظم من الفُرْقة.

فأجابه: إنما أسَرّ بموعدك، وأكون جذلاً بانتظارك، فإن عاق عائق عن إنجاز وعدك، كنتُ قد ربحت السرور لما أحبُّه، وأصبت أجري على الحسرة بما حرمتُه.

[مما قيل في الزيارة والزوار]

ولبعضهم: [الطويل]

أَتى زائراً من غير وعدٍ وقال لي ... أُجِلكَ عن تعذيبِ قلبك بالوعد

ومما جاء في قصر الزيارة قول أبي الشيص: [السريع]

يا حَبّذا الزَّوْر الذي زارا ... كأنه مقتبِسٌ نارَا
نفسي فداءٌ لك من زائر ... ما حلّ حتى قيل قد سارَا
مرَّ بباب الدار فاجتازها ... يا ليتَهُ لو دخل الدارا!

وأنشد الحاتمي والوكيعيّ لجحظة: [الوافر]

بأبي منْ زارني مكتتِماً ... خائفاً من كل حس جَزِعَا
حذِراً دلّ عليه نورُه ... كيف يُخفى الليل بدراً طلعَا
رصد الخَلْوة حتى أمكنَتْ ... ورَعَى السامر حتى هَجَعا

كـابـد الأهـوال فـي زَوْرَتـه ... ثـم مـا سـلّـم حـتّـى ودّعـا

وقال العباس بن الأحنف: [الخفيف]

سألونا عن حالِنا كيف أنتمْ ... فقرنا وداعهمْ بالسؤال

ما أناخوا حتى ارتحلنا فما نفـ ... ـرِق بين النزول والترحالِ

وقال محمد بن أمية الكاتب: [الخفيف]

يا فِراقاً أتى بعقبِ فراقِ ... واتفاقاً جرى بغير اتفاق

حين حطّت ركابهم لتلاقِ ... زُمّتِ العيس منهمْ لانطلاقِ

إن نفسي بالشّام إذ أنت فيها ... ليس نفسِي نفسي التي بالعراقِ

أشتهي أن ترى فؤادِي فتَدْري ... كيف وجدِي بهمْ وكيف احتراقي

[طيف الخيال]

ومن الزوّار طيف الخيال، وهو في الشعر الجاهليّ والمولّد كثير، وسنذكر منه شيئاً يُستَحسن إن شاء الله تعالى، قال قيس بن الخطيم. [الكامل]

أنّى سَرَبْتِ وكنتِ غير سَرُوبِ ... ومقرّبُ الأحلام غيرَ قريبِ(١)

ما تمنعِي يَقْظَي فقد تؤتينه ... في النّوم غير مصرّد محسوبِ

وقال أبو الفرج الكاتب: [الوافر]

خيالك كان أعرف بالغَرام ... وأرأفَ بالمحبِّ المستهامِ

فلو يسطيعُ حين حضرت نومِي ... لكان يزور في غَيْرِ المنامَ

وقال المرتضى: [الوافر]

وزورٍ زارني والليل داجِ ... فعلّلني بباطلِ ذاك حينَا

يريني أنه ثانٍ وسادِي ... مضاجعةً، وزور ما يُرينَا

نَعمتُ بباطل، ويودّ قلبِي ... وَداداً، لو يكونُ لَنَا يقينَا

وقال أيضاً: [المتقارب]

وزورٍ تخطّى جنوب الملاَ ... فناديت: أهلاً بذَا الزائرِ

---

(١) البيتان لقيس بن الخطيم في ديوانه ص ٥٥، والبيت الأول في لسان العرب (سرب)، والتنبيه والإيضاح ١/ ٩٣، وجمهرة اللغة ص ٣٠٩، وأمالي القالي ٢/ ٢٧٣، وتاج العروس (سرب). وأمالي المرتضى ١/ ٣٩٣، وسمط اللآلي ص ٥٢٤، وبلا نسبة في مقاييس اللغة ٣/ ١٥٦، ومجمل اللغة ٣/ ١٣٧.

أتـانِـي هـدوٌّ وعـيـن الـرّقـيـ ـب مـطـروفـة بـالْـكَـرَى الـغـامـرِ
وأحبِبْ به يُسْعِف الهاجعين وتـحـرُمُـه مُـقـلـة الـسَّـاهِـرِ
وعَـهْـدِي بـتـمويه عين المحبّ تـنـمّ عـلـى قَـلْـبِـهِ الـطَّـائِـرِ
فـلـمّـا الـتـقـيـنـا بـرغـم الـرّفـا د مـوّه قـلـبـي عَـلَـى نَـاظِـرِي

قال الرضيّ: قلتُ هذه الأبيات سنة سبع وثمانين وثلاثمائة، وتداول أهلُ الأدب إنشادَها، واستغربوا هذا المعنى، وشهدوا أنه مخترَع لم يسمع، فلما تصفَّحت ديوان شعر أبي سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة، وجدت بخطه في الجزء الثاني من شعره: **[الخفيف]**

إن طـيـف الـخـيـال زارَ طـروقـاً والـمـطـايـا بـيـن الـقَـنَـان وشَـعْـبِ
زارنـي واصـلاً عـلـى غـيـر وعْـدٍ وانـثـنَـى هـاجـراً عـلـى غـيـر ذَنْـبِ
كـان قـلـبـي إلـيـه رائـدَ عـيـنِـي فـعـلَـى الـعـيـن مِـنّـةٌ لـلـقَـلْـبِ
كـان عـنـدي أنَّ الـغـرور لِـطَـرْفِـي فـإذا ذلـك الـغـرورُ لِـقَـلْـبِـي

فلا أدري: هل قصد نظمَها حتى لا يخلِي شعره من هذا المعنى، أو أُنسِي سماعَه مني، وقذف به خاطره، وكثيراً ما يلحق الشعراء ذلك، فيتواردون في بعض المعاني المسبوق إليها، وقد كانوا سمعوها فأنسُوها؛ والخواطر مشتركة، والمعاني معترضة لكل خاطر، وكيفمَا جرى الأمر فالعنصر واحد.

* * *

ثم قال: اخْزُنْهَا في تَامُورِكَ، وَاقْتَدِ بِهَا في أُمُورِكَ، وَبَادِرْ إِلَى صَحْبك، في كلاءَةِ رَبِّكَ، فَإِذا بَلَغْتَمْ، فَأَبْلِغْهُمْ تَحِيَّتي، وَاتْلُ عَلَيْهِمْ وَصِيَّتِي، وقُل لَهُمْ عَنِّي: إنَّ السَّهَرَ فِي الْخُرَافَاتِ، لِمَنْ أَعْظَمِ الآفَاتِ، وَلَسْتُ أُلْغِي احْتِرَاسِي، وَلاَ أَجْلُبُ الْهَوَسَ إِلَى رَأسِي.

قال الرَّاوِي: فلمَّا وَقفْنَا عَلَى فَحْوَى شِعرهِ، وَاطَّلَعْنَا عَلَى نُكْرِه وَمَكْرِه، تلاوَمْنَا عَلَى تَرْكِهِ، وَالاغتِرَارِ بإفْكهِ.

ثمَّ تَفَرَّقنا بوُجُوهٍ بَاسِرَةٍ، وَصَفْقَةٍ خَاسِرَة.

* * *

قوله: «اخْزُنها في تامُورك»، أي اجعلها في قلبك، والتَّامور: حجاب القلب، وقيل: دم القلب. كلاءة: حفظ وكلأه يكلؤه: حفِظه.

الخرافات: أحاديث اللهو والأباطيل، قال الخليل: الخرافة الحديث المستملَح في

الكذب. أبو عبيدة: كان خرافة رجلاً صالحاً سبَتْه الجنّ، فرأى منهم عجائبَ فحدَّث بها، فيقال في كلّ حديث يُستغرَب: كأنه حديث خُرافة.

أُلغي: أترك. احتراسي: تحفّظي. الهَوَس: يبس الرأس، يتولّد من كثرة السهر. فَحْوى: معنى. نُكره: منكره ودهائه. تلاومنا: لام بعضنا بعضاً. الاغترار: الانخداع. إفكه: كذبه. باسرة: عابسة، وبسر وجهه بسوراً: عبّسه. وصفقة خاسرة، أي تجارة ومبايعة ناقصة.

* * *

المقامة السَّابعة عشرة

القهقريّة

حدث الحارث بن همام قال: لحظتُ في بعض مطارِح الْبَيْن، ومطامحِ الْعَيْن، فتيةً عليهم سِيما الْحِجَا، وطِلاوَة نجُومِ الدّجَى. وهم في مماراةٍ مُشتدَّة الهُبُوب، ومباراةٍ مشتطةِ الألْهُوب، فهزَّني لِقَصْدِهِمْ هَوَى المحاضرَةِ، وَاسْتِجْلاءُ جَنَى المناظرَةِ.

فلمَّا التَحَقْتُ بِرَهْطِهِمْ، وَانْتَظَمْتُ فِي سِمْطِهِمْ، قالوا: أَأَنْتَ ممِن يُبْلَى في الْهَيْجاءِ، وَيُلْقِي دَلْوَهُ في الدِّلاَءِ؟ فقلت: بل أنَا من نَظارَةِ الْحربِ، لا منْ أبناء الطَّعْنِ وَالضَّرْبِ. فأضْرَبُوا عن حجاجي، وأفاضوا في الْتَحَاجِي.

* * *

لحظت: نظرت. مطارح: جمع مَطْرَح، وهو الموضع تطرح فيه نفسك، أي ترميها فيه. البين: الفراق، فيريد بمطارح البين البلاد التي طرحه فيها البين ورماه إليها. ومطامح العين: المواضع الحسان التي تطمح فيها العين بالنَّظر، أي ترتفع إليها. سيما الحجا: علامة العقل، والسِّيما من وَسِمَتُ الشيء وَسْماً إذا علمَّته، وأصله «وَسْمَى»، فحوِّلت الواو من موضع الفاء إلى العين. فصار سِوْمي، فقلبت الواو ياء لكسرة ما قبلها. طلاوة: حسن. الدّجا: الظّلمة. المماراة: الخصام. مشتدّة: كبيرة الحركة. والشدّ: الجري. الهبوب: مجيء الريح: مباراة: معارضة. مشتطّة: ممتدّة متجاوزة الحدّ. الألهوب: الجري الشديد، فأراد أن حرَكة الكلام بينهم في المناظرة شديدة. والمحاضرة: مجالسة العلماء. مناظرة: سؤال العالم لتعلم حسن نظره وقدْر معرفته. جناها: فوائدها. رهطهم: جماعتهم. انتظمتُ في سِمْطهم، أي جلست بينهم. يبلَى في الهيجاء: يقاتل في الحروب. النظارة: القوم يقعدون في موضع مرتفع من الأرض ينظرون منه القتال ولا يشهدونه، فأراد أنني ممن يحضر معكم للاستماع، لاَ للمناظرة. الحِجاج: مصدر حاجّة، تقول: حاجحت فلاناً إذا أوردتَ عليه الحجّة وأوردها عليك، فإن غلبتَه قلت: حججتُه. أفاضوا في الأحاجي: اندفعوا في الألغاز.

* * *

وكان في بُحْبُوحَةِ حَلْقَتِهِمْ، وَإِكْلِيلِ رُفْقَتِهِمْ، شَيْخٌ قدْ بَرَتْهُ الْهُمُومُ، وَلوَّحَتهُ السَّمُومُ، حَتَّى عَادَ أَنْحَلَ مِنْ قَلَمٍ، وَأَقْحَلَ مِن جَلَمٍ، إلا أنه كان يُبْدِي الْعُجَابَ، إذا

أجاب، ويُنسِي سَحْبَانَ، كُلَّمَا أَبَانَ. فأُعْجِبْتُ بمَا أُوتيَ مِنَ الإصَابة، وَالتَّبْرِيزِ عَلَى تِلك العِصَابَة، ومَا زالَ يَفْضَحُ كلَّ معمًّى، وَيُصْمِي في كلِّ مَرْمًى، إلى أن خَلَتِ الْجِعَابُ، ونَفِد السؤالُ والجواب.

فلمَّا رأى إنفاضَ القومِ، وَاضطرَارَهم إلى الصَّوم، عَرَّضَ بالمطَارَحَةِ، وَاستأذَنَ في المُفَاتَحةِ.

فقالوا له: حَبَّذَا، وَمَنْ لنَا بذا!

* * *

بُحْبُوحة: وسط. إكليل: دائرة، وأصلها عصابة مكلّلة بالدرّ والياقوت، تعتمد على رؤوس الملوك. رفقتهم: جماعتهم. برته: أذهبت لحمه. لوّحته: غيّرته وأضمرت جسمه. السَّموم: الريح الحارّة. أقحل: أيبس.

جلم: مقصّ، وأكثر ما يستعمل مثنًى، فيقال: جلَمان، والعجب من أبي محمد يقول في الدرَّة: ويقولون: قرضت بالمقراض، وقَصَصت بالمقصّ فيَهمون، كما وهم بعض المحدثين حين قال في صفة مزنون بالقيادة، وإن كان قد أبدع في الإجادة: [السريع]

إذا حبيبٌ صدّ عن إلفهِ ... تيهاً وأعيَا كلَّ رَوَّاضِ
ألّف فيما بين شخصيهِما ... كأنّه مسمارُ مقرَاضِ

قال: والصَّواب أن يقال: مقراضان ومقصَّان وجَلمان، لأنهما اثنان.

فما منعه غيره أباحه هنا لنفسه، فقال: أقحل من جَلم، ولا نقول كما قال: إنه وهَم، بل نقول: إنها لغة قليلة.

قال يعقوب: والجَلم الذي يُجَزّ بهِ، وقال رجل من الأزد في مفرد مقراض:

فعليك ما اسطعت الظّهور بلمَّتي ... وعليّ أن ألقاكَ بالمقراضِ

وقال الراجز في مفرد الجلم: [الرجز]

* وجَلَمٍ كريشة الوقواق *

والوقواق: الخطّاف، والجسم النّحيل يشبّه بالقلم والجلم، وقلَب الشاعر التشبيه وألغز بالقلم، فقال: [المتقارب]

ضئيل الرُّواء كثير الغَناءِ ... من البحر في المنصب الأخْضَرِ
كمثل أخي العشقِ في شخصِه ... وفي لونه من بني الأصْفَرِ

وقال ابن أبي لبابة في جلَم: [الوافر]

ومعتنقيْن ما اتُّهما بعشقٍ ... وإن وُصفا بضمٍّ واعتناق

لعمرو أبيك ما اجتمعا لمعنّى سوى معنى القطيعة والفِرَاقِ

وتقدَّم في الثانية من أبيات المعاني فيه: [البسيط]

ارعت مراتع مدراها على وهَن صنوين إن أفردا لم يرعيا أبدا

أبان: بَيَّن. التّبريز: الظهور والخروج قبلهم.

العصابة: الجماعة. يفضح: يشهر عيبه. معمًّى: مستور. يصمِي: يصيب المقتل.

خلت الجِعاب: أي أفرغ الكلام، والجُعبة: وعاء السهام، فكَنَى بها عن القلوب، وبالسهام عن الكلام الذمي يصدر عنها.

الإنفاض: فَناء الزاد، وقد أنفض القوم، وأراد نفاد ما عندهم من العِلْم. الصوّمْ: السُّكوت والإمساك عن الكلام.

المطارحة، أصلها في الغِناء، وهو ما يأخذه المتعلّم عن المعلّم وعرّض بها، أي ذكرها. المفاتحة: استفتاح الكلام.

* * *

فقال: أتَعْرِفونَ رِسَالةً أرضُهَا سمَاؤُها، وَصُبْحُهَا مَساؤها، نُسِجَتْ عَلَى مِنْوَالَيْن، وَتَجَلَّتْ في لوْنَيْنِ، وَصَلَّتْ إلى جِهتيْن، وَبَدَتْ ذات وجْهيْن، إن بزَغَتْ مِن مَشْرِقهَا، فنَاهِيكَ بِرَوْنَقِهَا، وَإنْ طَلَعَتْ مِن مغْرِبهَا، فيَا لِعَجَبِهَا!

قال: فكأن القوْمَ رُمُوا بالصُّماتِ، أوْ حَقَّتْ عَلَيهِمْ كلمَةُ الإنْصَات. فما نبَسَ مِنْهُمْ إنسانٌ، ولا فَاهَ لأحَدِهم لسانٌ، فحِين رآهم بُكْماً كالأنعَام، وصُمُوتاً كالأصنام، قال لهم: قَدْ أجَّلتُكُمْ أجَل العِدَّة، وأرْخَيْتُ لكُمْ طولَ المدّة، ثمَّ هَا هُنا مَجْمَعُ الشملِ، وَموْقِفُ الفَصْلِ، فإن سمَحَتْ خَواطِرُكُمْ مَذَحْنَا، وإن صَلَدتْ زنَادُكُمْ قَدَحنَا، فقالوا له: واللَّهِ ما لنَا في لُجَةِ هَذا البَحْرِ مَسْبَحٌ، ولا في ساحِلِه مسْرَحٌ، فأَرِحْ أفكارنَا مِنَ الكَدِّ، وَهَنِّيء الْعَطِيَّةَ بالنَّقْدِ، واتَّخِذنَا إخواناً، يثبُون إذا وَثَبْتَ، ويُثِيبُونَ مَتَى استثَبْتَ.

فأطرق ساعةً، ثم قال: سَمَعاً لَكُمْ وَطاعةً، فَاسْتَمْلُوا مِنِّي، وانْقُلوا عَنِّي...

* * *

أرضها سماؤها: يريد أعلاها أسفلها. صبحها مساؤها: أولها آخرها. المنوال: خشبة الحائك، أراد أنها نسجت من الطّرفين، لأنك تبتدئها بالقراءة إن شئت من أولها، وإن شئت من آخرها.

بَزَغَت: طلعت. ناهيك: كافيك.

رونقها: حسنها، والرَّوْنق: صفاء الوجه وحسنه ونعمته.

الصمّات: السكوت، والإنصات مثله. نبَس: تكلم. الأنعام: المواشي.

أجّلتكم: أخّرتكم والعِدّة هنا: عدة الموت، لأنها أطول العدد، ألا ترى أنه أرخى لهم طِوَل المدة؛ والطِّوَل: الحبل. والشّمل: الاجتماع. الفَصْل: القضاء، يقول: قد طوّلت لكم الأمَد لتستخبروا هذه الرسالة، وفي هذا الموضع يكون اجتماعنا ويفصل فيه بين العارف وضده.

خواطركم: أذهانكم. صلَدت: شّحت. قدحنا: ضربنا زند النار، يقول: إن عرفتموها مدحناكم وإن جهلتموها عرّفناها لكم، وجعل صلود الزند كناية عن جمود القرائح.

لُجَّة: معظم الماء. مَسْبح: موضع يُسبح فيه، أي يعام. مَسْرَح: موضع يُسرح فيه، أي يُمشي ويتصرّف. الكد. الجهد والتعب. هنيء: طيّب. النقد: حضور المال. يثبون: يقومون لقيامك. يُثِيبون: يهبون الثواب. استثبت: طلبت الثواب. استملوا: اكتبوا.

* * *

الإنسَانُ صنيعةُ الإحْسَانِ، وربُّ الجميلِ فِعْلُ النَّدْبِ، وَشِيمةُ الْحُرِّ ذخيرةُ الحمدِ، وَكسبُ الشُّكْرِ استثمارُ السَّعادةِ، وعُنْوَانُ الكرمِ تباشيرُ البِشْرِ، واستِعمالُ المُدَارَاةِ يُوجِبُ المُصَافَاةِ، وَعَقْدُ المحبَّةِ يَقْتَضي النُّصْحَ، وَصِدْقُ الحديثِ حِلْيَةُ اللّسَان، وفصَاحةُ النُّطْقِ سِحْرُ الألبَابِ، وَشَرَكُ الهوَى آفةُ النُّفوسِ، وَمَللُ الْخَلائِقِ شَيْنُ الْخَلائقِ، وَسُوءُ الطَّمعِ يبَايِنُ الوَرَعَ، والْتِزامُ الحزَامةِ زِمَامُ السَّلامَةِ، وتَطَلُّبُ المَثالِبِ، شَرُّ المعايبِ، وتَتَبُّع العثَرَات، يُدْحِضُ الموَدّاتِ، وخُلوصُ النِّيّة، خُلاصَة العَطِيَّة. وتهنئةُ النَّوال ثَمَنُ السُّؤال، وتَكَلُّفُ الْكُلَفِ، يُسَهِّلُ الْخَلَفَ، وتيقنُ الْمَعُونَةِ يُسَنِّي المؤونة، وفَضْلُ الصَّدْرِ، سَعَةُ الصدْر، وزينةُ الرُّعَاةِ، مَقْتُ السُّعَاةِ، وجزاءُ المدَائحِ، بثُّ المنَائحِ، ومَهْرُ الوسَائلِ، تَشْفِيع المسَائِل، ومَجْلَبَةُ الْغَواية، اسْتِغْرَاقُ الغَايةِ، وَتجَاوُزُ الْحَدِّ يُكلُّ الْحَدَّ.

* * *

صنيعة: ما يصطنعه الإنسان لغيره من الخير، يريد أن الإنسان أهل الإحسان، وإن عكستَ قلت: الإحسان صنيعة الإنسان، أي إصلاح الإحسان وتتميمه من صنع مَنْ يوصف بالإنسانيّة وقد تقدّم: **[المتقارب]**

* ومـا فـيـهـم مَـنْ يـربّ الـصَّـنـيـع *

وقال أعرابيّ لعبد الملك بن مروان: **[الطويل]**

يـربّ الّـذي يـأتـي مـن الـخـيـر إنـه إذا فـعـل الـمـعـروف زاد وتـمّـمَـا

وليس كبانٍ حين تمّ بناؤه تتبّعه بالنقض حتى تهدّما

فمعنى يربّ، هو قوله: زاد وتمّما.

النّدْب: السيّد الخفيف: شيمة: طبيعة. الذخيرة: الشيء الرفيع من مالٍ أو غيره، والادخار كالاقتناء. استثمار: تناول الثمر: عنوان: دليل: تباشير: أوائل، وتباشير الصبح: طرائق ضوئه في الليل؛ ويقال للطواق التي تراها عَلَى وجه الأرض من آثار الرياح: التّباشير. البشر: طلاقة الوجه. المداراة: خداع القلوب بلطف الكلام، ومداراة الناس: معاملتهم بما يحبّون. المصافاة: إخلاص الصحّبة. عقدها: ربطها. يقتضي: يتضمّن. حلية: زينة. الألباب: العقول. الهوى: ما يهواه الإنسان ويميل إليه. آفة: داء. الخلائق: الناس. شين: عيب. الخلائق: الطبائع، يقول: الملل في الناس يعيب أخلاقهم. سوء الطمع: كثرة الحرص. تباين: تباعد. الورع: الكف عمّا فيه إثم، وقد وَرَع الرجل يَرَع ورعاً ورِعَة؛ إذا كفّ عمّا لا يحلّ، والورَع بفتح الراء: الجبان، وقد وَرع ووَرَع، وقال عروة بن أذينة في ذمّ الطمع: [البسيط]

لقد علمت وخيرُ القول أصدقه بأنّ رزقي وإن لم آتِ يأتيني

أسعى له فيعنيني تطلّبه وإن قعدت أتاني لا يعنيني

لا خير في طمعٍ يدني إلى طبَع وعفة من قوام العيش تكفيني[1]

وأنشد الحريريّ البيت الأول في الدرة: [البسيط]

لقد علمت وما الإسراف من خُلُقي أن الذي هو رزقي سوف يأتيني[2]

قال: فيروِي أكثرهم «الإسراف» بالسين المهملة، وروى بعضهم بالشين المعجمة، ليكون معناه التطلّع إلى الشيء والاستشراف إليه.

* * *

[عروة بن أذينة وهشام بن عبد الملك]

قال: ولهذا البيت حكاية تحثّ على استشعار اليقين، وإعلاق الأمل بالخالق دون

---

(١) البيت الثالث، لثابت بن قطنة في لسان العرب (طبع)، وتاج العروس (غفف)، وأمالي المرتضى ١/ ٤٠٨، وله أو لعروة بن أذينة في تاج العروس (طبع)، والبيت في ديوان عروة بن أذينة ص ٣٨٦، وهو بلا نسبة في لسان العرب (غفف)، ومجمل اللغة ٤/ ٥، ومقاييس اللغة ٤/ ٣٧٥، والمخصص ٣/ ٦٩، ١٢/ ٢٨٨، وديوان الأدب ٣/ ٢٦، وأساس البلاغة (غفف).

(٢) يروى البيت:

لقد علمت وما الإشراف من طمعي أنّ الذي هو رزقي سوف يأتيني

وهو لعروة بن أذينة في ديوانه ص ٣٢٧، والأغاني ١٨/ ٣٣٢. وبلا نسبة في لسان العرب (شرف) وتاج العروس (شرف).

المخلوقين، فحليته بها تحلية لعاطله، ومنبِّهة على صدق قائله؛ وهو ما رويته من عدّة طرق: أن عُروةَ هذا وفد على هشام بن عبد الملك في جماعة من الشعراء، فلما دخل عليه عروة قال له ألست القائل:

لقد علمت وخير القول أصدقه... الأبيات.

وأراك قد جئتَ تضرب من الحجاز إلى الشام في طلب الرزق! فقال له: لقد وعظتَ يا أمير المؤمنين فبالغتَ في الوعظ، وأذكرت ما أنسانيه الدهر. وخرج من فوره إلى راحلته فركبها، ثم نصّها نحو الحجاز.

فمكث هشام يومه غافلاً عنه، فلمّا كان من الليل تعارّ[1] على فراشه، فذكره فقال: رجل من قريش قال حكمة، ووفد إليّ اليوم، فجبّهته ورددته عن حاجته! وهو مع هذا شاعر، لا آمن ما يقول. فلما أصبح سأل عنه، فأخبِر بانصرافه، قال: لا جرم، ليَعلم أنّ الرزق سيأتيه، ثم دعا بمولًى له، فأعطاه ألفي دينار، وقال: الحق بهذا، أين أدركتَه فأعطِه إياها.

قال: فلم يدركه إلا وقد دخل بيته، فقال: أبلغ أمير المؤمنين السلام وقل له كيف رأيت!

* * *

قوله: «الحَزامة»: جودة الرأي، والحازمُ: الجامع لرأيه، المحكم لأموره وأصل الحزم الجمع والشدّ، ومنه الحزمة، وحزمت المتاع جمعتَه وشددته، ومنه الحِزام لأنه يُشدّ به وقد حَزُم الرجل: صار حازماً.

الزّمام: مِقوَد البعير.

المثالب: المساوي، وثلبه: ذكره بسوء. التطّلب: البحث، يريد أن البحث عن عيوب الناس من أكبر العيوب، قال رجل للمستورد الخارجيّ: أريد غلامًا عيّاباً، قال: التمسه بفضل معايب فيه.

وكان يقول: أوّل ما يدلّ على عائب الناس معرفته بالعيوب.

ومعاوية: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنّك إن اتبّعت عوراتِ الناس أفسدتَهم، أوْ كِدْت تفسدهم»[2].

أبو الدرداء: كلمة سمعها معاوية من رسول الله ﷺ نفعه الله بها: «مرّ المسيح صلوات الله عليه بقوم من اليهود، فقالوا له شرّ، فقال خيراً، فقيل له في ذلك، فقال: كلٌّ ينفق مما عنده».

---

(١) تعارّ على فراشه: أي تقلب على فراشه في النوم.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب باب ٣٧.

وكتب الشافعيّ رضي الله عنه لصديق له: [الطويل]

لئن ساءني أن نلتِني بمساءة   لَقَدْ سَرّني أنّي خطرت ببالِك[١]

وأتى الشافعيّ رضي الله عنه مسجداً، فصادف قوماً يغتابونه، فسدّ الباب وقال: [الطويل]

هنيئاً مريئاً غيرَ داء مخامرٍ   لعزّة من أعراضنا ما استحلَّتِ[٢]

وقال الشاعر: [السريع]

ثالبني عمرو وثالبته   فأُثّمَ المثلوب والثالبُ

قلت له خيْراً وقال الخنَى   كلٌّ على صاحبه كاذبُ

قوله: «العثَرات»، السقطات. يُدحض: يبطل، يريد أنّ البحث عن عيوب الصاحب يُبطل مودّته.

أبو بُرْدة الأسلمي رضي الله عنه: خطب رسول الله ﷺ فقال: «يا معشر مَنْ أسلم بلسانه ولم يخلص الإيمان إلى قلبه، لا تذمُّوا النّاس ولا تعيّروهم، ولا تتّبعوا عوراتهم، فإنه من يلتمس عورة أخيه تتبَّعَ الله عورته، ومَنْ تتبع الله عورَته يفضحه في بطن بيته»[٣].

وقال سابق البربريّ: [الوافر]

إذا ما كنت طالب كلّ ذنبٍ   ولم تحْللْ أخاك عن العِتَابِ

تُباعد مَنْ تباعد بعد قربٍ   وصارَ بك الزّمان إلى اجتنابِ

وقال عبد الله بن جعفر: عليك بصحبة منْ إن صحبتَه زانك، وإن غبت عنه صانك، وإن احتجت إليه مانك، وإن رأى منك خَلّة سدّها، أو حسنة عدّها.

وقال الحسن بن وهب: منْ حُقُوق المودَّة أخذ عفو الإخوان والإغضاء عن تقصير إن كان.

وقيل: خيرُ الإخوان مَن إذا نسيتَ ذنبك لم يقرعك به، ومعروفَ عندك لم يمنّ عليك به.

وقال الشاعر: [الطويل]

إذا شئت أن تدَعى كريماً مهذّباً   سنّياً سريًا ماجداً فَطِناً حُرّا

إذا ما بدتْ من صاحبٍ لك زلّة   فكُنْ أنتَ مُحْتالا لزلّته عُذْرا

---

(١) البيت لابن الدمينة في ديوانه ص ١٧.

(٢) البيت لكثير عزة في ديوانه ص ١٠٠، وكتاب العين ٤/ ٢٦٣، ومقاييس اللغة ٢/ ٢١٦، والأغاني ٩/ ٣٨، وأمالي القالي ٢/ ١٠٩، وتزيين الأسواق ١/ ١٢٢، وبلا نسبة في تهذيب اللغة ٧/ ٣٧٦.

(٣) أخرجه الترمذي في البر باب ٨٣، وأبو داود في الأدب باب ٣٥، ٣٧.

قوله: «خلوص النية»، صفاؤها، أي من أخلص لك النية؛ فكأنه قد أعطاك خالص ماله، والخلاصة: ما خَلُصَ من الشيء وصفاً.

النوال: العطاء. الكُلَف: المشقّات. يسنّي. يسهّل. المؤنة: خدمة الضيف وما ينفَق عليه، يقول: من تيقّن أن الله يُعينه على البِرّ أو ما ينويه من الحقوق، سهّل عليه تكلّف المؤن؛ وهو من قول النبي ﷺ: «إنّ الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»[1].

وقال ﷺ: «من عظمت نعمة الله عنده عظمت مؤنة الناس عليه فإن لم يقم بتلك النعمة عَرَّض النعمة للزوال».

وأما معكوس ما قبله، وهو تيقّن الخلف يسهل الكلَف، فمن قوله ﷺ «من أيقن بالخلف جاد بالعطية».

قال محمود الورّاق: [البسيط]

مَنْ ظنّ بالله خيراً جاد مبتدئاً والبخل من سوءِ ظنّ المرء بالله

قالوا: للمعروف ثلاث خصال: تعجيله وتيسيره وستره، فمن أخلَّ بواحدة منها، فقد بخَسَ المعروف حقّه، وسقط منه الشكر.

قوله: «الفضل»، هو الزيادة على قدر الحاجة. الصَّدْر: هو المتقدم في الأمور، مثل الوالي وسيّد القوم، يقول: مَنْ يتصدّر لأمور الناس، ففضلُه وشرفُه سَعة خلقه.

الرّعاة: الولاة. مقت السُّعاة: بغض العمّال الذين يجمعون الزكاة. والسُّعاة أيضاً المشّاؤون بالنميمية للملوك، فيقول: زين الملوك بغض العمال الذين جرت العادة في قديم الزمان وحديثه بظلمهم الناس، فإذا أبغضوهم بحثُوا على أعمالهم الفاسدة، فخافوهم فعدلوا، وأما بغض المشّائين النّميمة للملوك فواجب، لقول النبي ﷺ «لعن الله المِثلب». قيل: ومَن المِثلب يا رسول الله؟ قال: «الذي يَسْعَى بصاحبه إلى سلطان، فيهلك نفسه وصاحبَه وسلطانه»[2].

قوله: «بثّ»، أي نشر. المنائح: العطايا، يقول: جزاء المدح بَذْل المال، وأصل المنائح بذل فوائد الأموال لا الأموال.

مهر: حَقّ، الوسائل، القُرَب، والوسيلة ما تجعله سبباً بينك وبين مَن تريد الوصول إليه مثل الشفيع والهدية في قضاء حاجتك.

المسائل: جمع مسألة، وهي هنا سؤال المحتاج. والمجلَبة: مفْعَلة من الجلب، والمعنى: حق الوسيلة قضاء الحاجة. الغَواية: الضّلالة. استغراق: تجاوز الحدّ،

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر حديث ٣٧، ٣٨، وأبو داود في الأدب باب ٦٠، والترمذي في الحدود باب ٣، والقرآن باب ١٠، وابن ماجه في المقدمة باب ١٧، وأحمد في المسند ٢/ ٢٥٢، ٢٩٦، ٥٠٠، ٥١٤.

(٢) أخرجه بنحوه أحمد في المسند ٢/ ١٧٩، ٢٠٧، بلفظ «الأثلب» بدل «المثلب».

والحدّ: الأوّل الفصل بين الشيئين، وأصله المنْع، والحدّ الآخر حدّ السيف وشبهه.
يكلّ: يضعف.

* * *

وتعدِّي الأدب، يُحبِطُ القُرَب، وتناسِي الحقوق، ينشىء العُقوق، وتحاشَي الرِّيب يَرْفع الرّتَب، وارتفاعُ الأخطَارِ باقْتِحام الأخطار، وتنَوُّهُ الأقدَار بمواتاة الأقدار، وشرفُ الأعمَال في تقصيرِ الآمال، وَإطالة الفِكْرَة تَنْقِيح الحِكمة، ورأس الرِّيَاسةِ تُهَذِّبُ السِّياسة، ومعَ اللَّجاجة تُلْغَى الحاجة، وعند الأوْجَال تَتَفاضَل الرِّجال، وبِتَفَاضُلِ الهِمَمِ تَتفاوت القِيَم، وَبتزيُّد السَّفِير يَهِنُ التَّدبِير، وَبِخَلَلِ الأحوالِ تَتبيَّنُ الأهْوَال، وَبمُوجِب الصَّبر ثَمَرَةُ النَّصْر، واستحقاق الإحْمَادِ بحسب الاجْتِهَاد، ووُجوب الملاحظة، كفاء المُحافظة، وصَفاء المُوالِي بتعهد المَوَالي، وتحلّي المُرُوءاتِ يحفظ الأمانات، واختبارُ الإخوان بتخفيفِ الأحزانِ، ودفع الأعداء بكفّ الأوذاء، وَامتحانُ العقلاء بمقارنة الجُهَلاء، وتبصُّر العواقِب يؤمِنُ المعَاطِب، وَاتقاء الشُّنَعةِ يَنْشُر السُّمْعَة، وَقُبْحُ الجَفاء ينافِي الوَفَاء، وَجَوْهَرُ الأحرار عند الأَسْرَارِ.

* * *

تعدّي: تجاوز. يحبط: يفسد.

ينشىء العقوق: يظهر المقاطعة. تحاشى: تَرْك واعتزال.

الرِّيَب: التُّهم. الرّتب: المنازل الرفيعة، قال بعض الحكماء: ثلاثة لا غُرْبة معهنّ: مجانبة الرِّيَب، وحسن الأدب، وكفّ الأذى.

ونظمها الشاعر فقال: [المتقارب]

يزين الغريبَ إذا ما اغتربْ	ثلاثٌ، فمنهنّ حسن الأدَبْ
وثانية حسنُ أخلاقه	وثالثهنّ اجتناب الرِّيَبْ

وقال عمرو بن العاص رضي الله عنه لدهقان بعض ملوك العجم: بم ينبلُ الرجل عندكم؟ قال: بترك الكذب، فإنه لا يشرفُ إلا من وُثق بقوله. وبقيامة بأهله، فإنه لا ينبُل مَنْ يحتاج أهلُه إلى غيره، وبمجانبة الرِّيَب فإنه لا يعزّ من لا يأمن أن يصادف على سوءة. وبالقيام بحاجات الناس، فإنه مَنْ رُجِيَ الفرج لديه كثرت غاشيته.

قوله: «ارتفاع الأخطار» أي شرف الأقدار والقِيَم. اقتحام: دخول شديد، يقال: فلان يقتحم في الأمور، أي يدخل فيها بغير تثبّت ولا رويّة، وتقحّمت الناقة، إذا ندّت فلم يمسِكْها راكِبها، ومنه قُحْمة العرب، سُمِّيَت قُحمة، لأنهم إذا أجدبوا تركوا البادية ودخلوا الريف.

الأخطار: جمع خَطَر، وهو الغَرَر.

تنوّه: ترفع. مواتاة: موافقة. الأقدار: الأول جمع قَدْر الإنسان، أي منزلته، والأقدار الثاني: جمع قدَر الله تعالى.

وقال الشاعر: **[الكامل]**

الجِدّ أنهضُ بالفَتى مِنْ عقله فانهض بجدٍّ في الحوادث أو ذرِ
ما أقربَ الأشياء حين يسوقها قَدَرٌ وأبعدَها إذا لم تقدَرِ

تقصير الآمال: تقليل الرجاء وكفّه، ومَنْ قلّل الطمع شرُف عمله الفكرة: التدبير. تنقيح: تخليص، وأصله أن تشذب العُقَد من العود أو القصب حتى يستويَ موضعها مع القصب.

قال الشاعر: **[الطويل]**

وطارتْ بصلب قوّضت عند بيتها له أبن ما قوّضت وكعوبُ

صلب: عمود البيت؛ جذبته المرأة لتضربه به فتهدّم بيتها.

تهذب: تخلص: والمهذب: المخّلص من العيوب. والسياسة: حسن المداراة. واللجاجة: ركوب الرأس في الباطل: تُلْفَى: توجد ويروى: «تلغى» و «تلقى»، ومعناهما تُترك وتطرَح. والحاجة: ما يُحتاج إليه، فإن عكست رجعت الحاجة الفقر، يريد: إذا لججت في شيء أدركت حاجتك، وعلى «تلغى» إذا وقعت لجة في حاجتك تركتْ، وعلى العكس: مَن افتقر لجّ في السؤال حتى يعطى.

الأوجال: جمع وَجَل، وهو الفزع، والمعنى، أنّ تفاضل الرجال في الصّبر عند النوازل.

سلمان رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ «ليس شيء خيراً من ألفٍ مثله إلا الإنسان».

وقال الشاعر: **[الطويل]**

ولم أرَ أمثالَ الرّجال تسارعُوا إلى الخير حتى عدّ ألْفٌ بواحدِ

وفي عكسه يقول: الأمور المخوفة تصغر على العظيم وتعظم على الصغير، فعلى قدر ما يفضل الرجل صاحبَه في عزمه وإقدامه تتزايد الأوجال وتنتقض.

وقد قال المتنبي: **[الطويل]**

على قَدْرِ أهلِ العزم تأتي العزائمُ وتأتي على قدر الكرام المكارمُ[1]

---

(١) البيتان في ديوان المتنبي ٣/٣٧٨، ٣٨٩.

وتعظُمُ في عين الصغير صغارُها   وتصغُرُ في عين العظيم العظائمُ

الهمم: جمع همّة. تتفاوت: تتباعد ما بينها. القيَم: المنازل. السفير: الرسول: يهِن: يضعف، والمعنى أن السفير إذا تعدّى فزاد في الحديث ضعف التدبير، ولو عكست لقلت: إن تدبير المرسل إذا اختلّ ضعُف السفير، وإن كان حازماً، وعلى هذا أنشدوا: [السريع]

إذا كنتَ في حاجةٍ مرسلاً   فأرسِلْ حكيماً ولا توصِهِ[1]

وإن ناصحٌ منك يوماً دَنَا   فلا تنأ عنه ولا تُقْصِهِ

وإن باب أمرٍ عليك التوَى   فشاوِرْ لبيباً ولا تعصِهِ

وذو الحقّ لا تنتقص حقَّهُ   فإنّ القطيعة في نقصِه

ولا تحرصنَّ فربّ امرئٍ   حريصٍ مضاع على حِرْصِهِ

قوله: «خلل»، فساد. والإحماد: أن تجد الرجل محموداً.

والاجتهاد: بلوغ الجهد، وهو أقصَى الطاقة، والمعنى: أنّ الرجل يستحق أن يكون محموداً بحسب ما يذل من اجتهاده وطاقته؛ ولو عكست لقلت: الاجتهاد واجبٌ عليك فيما كلفته بحسبِ إحمادك من كلّفك.

الملاحظة: النظر بمؤخَر العين.

المحافظة: التحرّز، والمعنى: إنك إذا أوجبتَ ملاحظة حال المحافظ لك، ففعلك ذلك كفاء محافظته، وإن عكست قلت إن المحافظة لك إذا صفت محافظتُه فهي كفاء ملاحظتك.

المُوالي: الذي يُوالي الخير، والكرم، أي يفعل المرة بعد المرة. تعهّد: تفقّد. المَوَالي: بنو العمّ، وقيل: الموالي معنْ والاك بعتق أو بحلف أو بصحبة، فكلُّ واحد منهما مولًى للآخر، والمُوالي بالضم بالفاعل، والمعنى إذا تعاهدت مَنْ والاك بما أوجبه ولاؤه من رعايته، صفتْ مودته لك، وإن عكست قلت: إن المَوالي يتعهدون مَنْ والاهم.

والصحيح في هذا الموضع أنّ المُوالي الذي يوليك وُدَّه، والمَوالي: العبيد والأتباع.

وسألني الأستاذ المقرىء الحاجّ ابن السّقاط في هذا الموضع، فأجبت بما تقدّم، فقال لي: معنى هذا الموضع غائب عمّن لا يعرف سيرة أهل المشرق، وذلك

(١) الأبيات لطرفة بن العبد في ديوانه ص ٦٤، وللزبير بن عبد المطلب في جمهرة الأمثال ١/ ٩٨، وبلا نسبة في تاج العروس (بستد)، والأغاني ١٧/ ٣٣٧.

أنّ الرجل الشريف حين يصبح عندهم يأمر مواليَه أن يقصدوا نظراءه من الأشراف والأعيان، فيأتون باب الشريف، فيستأذنون عليه، ويدخلون إليه ويقولون له: ينعم مولانا صباحك، ثم يسألونه عن حاله وعمّا حدث عنده ثم يفعلون كذلك بجميع أصحاب مولاهم، وكذلك يفعل مَوالي ذلك المقصود في قصد نظراء مولاهم، فتنضبط بذلك عندهم الرّعايات بين الأصدقاء والأقارب، وتتزايد المودّات بين الأولياء والأجانب. فعلى هذا المعنى يقول في تعهد الموالي، وهو حسن إن شاء الله تعالى.

قوله: «تحلّي»، أي تزيّن. والمروءات، تقدمت. وتخفيف الأحزان: تهوين الطوارىء والنوازل. الأودّاء: والأحباب، يريد أنهم يكفون الأعداء، ورواية ابن ظَفَر «دفع العَداء»، وأنكر «الأعداء»، وقال: العَداء بالفتح والمد: الظلم.

امتحان: اختبار، يقول: إنما يتبيّن لك العاقل بمقارنته وبمصاحبته للجاهل، لأنّه لا يوافقه، وإن عكست قلت: الجاهل إذا صحبَ العاقل تبصّر وانتقى جهلَه.

وقالوا: إذا أردتَ أن تُفْحِمَ عالماً فأحضِرْهُ جاهلاً.

وقال الشاعر: [الكامل]

عَدْوَى البليد إلى الجليد سريعةٌ ... والجمر يُوضعُ في الرماد فيخمَدُ

وقال ﷺ: «ويل لعالمٍ أمرِ من جاهله».

وجاء كيسان إلى الخليل يسأله، ففكَّر ليجيبَه فلمّا استفتح الكلام، قال له: لا أدري ما تقول! فقال الخليل: [الكامل]

لو كنتَ تعلمُ ما أقولُ عَذَرْتَنِي ... أو كنتُ أجهلُ ما تقولُ عَذَلْتُكَا

لكنْ جهلتَ مقالتي فعذلْتَنِي ... وعلمتُ أنك جاهلٌ فعذرْتُكا

تبّصر العواقب: إمعان النظر في عاقبة الأمور. والمعاطب: المهالك، يريد من نظر في عاقبة أمره أمِن ما يحذر.

الشّنعة: الفعل القبيح ينشر ذكره. السّمعة: الذكر الجميل يُسمَع عنك، أو القبيح فينشر في الناس.

الجفاء: سوء الأدب، وثقل الكلام. وينافي: يباعد. الوفاء: ضد الغدر.

* * *

ثم قَال: هَذِه مائتَا لَفْظة، تَحتَوِي عَلَى أدبٍ وَعِظَةٍ، فمنْ سَاقَهَا هَذَا المسَاقَ، فلا مِرَاءَ وَلاَ شِقَاق، وَمَنْ رَامَ عَكْس قَالَبِهَا، وَأنْ يَرَدَّهَا عَلَى عَقِبِهَا، فَلْيَقُلِ: الأسْرَارُ عند الأحرارِ، وَجَوْهَرُ الوَفَاءِ، يُنَافِي الجَفَاءَ، وَقُبْحُ السُّمْعَةِ يَنْشُرُ الشُّنْعة، ثمَّ عَلَى

هَذَا المَسْحَبِ فَلْيَسْحَبْها، وَلا يَرْهَبْها، حتَّى تكونَ خَاتمةُ فِقرهَا، وَآخِرَةُ دُرَرِهَا. وَرَبُّ الإِحْسَانِ صَنِيعة الإنسان.

* * *

تحتوي: تشتمل. عظة: موعظة.

المراء والشقاق، معناهما الخلاف، والعكس ردّ أول الكلام على آخره، وهو الردّ على العِقب كما ذكره، وهو معنى القهقرة الّذي سَمَّى به المقامة، ولذلك لم ينسُبْها إلى بلد. والقهقرة: رجوع الرجل عنك، كما جاء عليك، وذكر أن يرجع إلى خلف، وهو يستقبلك بوجهه، وهو الردّ على العِقب، وذلك أنّ الرجل إذا توجّه مقبلاً إليك، فإنما يقدِّم في مشيه إليك صدورَ قدميه، فإذا تقهقر قدّم في مشيه عَقِبَه، وأصل القَهْقر: الحجر المدحرج، فإذا ضربته تدحرج في جَرْيه، حتى يستقرّ، فإذا أردت أن يرجع إلى الموضع الذي جاء منه ضربته فتدحرج راجعاً إلى جهة موضعه، فشبّه رجوع الرجل على ما وصفنا، وكذلك هذه الرسالة رجوعُ آخرها إلى أولها، مشبّه بذلك.

ولذلك شبّه الأعرابي فرسَه في اجتماعه بالحِجْر[1] فقال: محبوبك مهملج[2] كما تقهقر الأدعج.

والمسحب: الطريق الذي تجرّ فيه الشيء.

يرهبها: يخفها، أي لا يخرج الألفاظ عن طريقها فتختلّ، وذلك أن هذه الرسالة مركّبة كلها من مبتدأ وخبر، فإن وقفت فيها على مبتدأ في أولها أو آخرها أو وسطها، فأقرأه مع ما بعده تجده مستقيماً، واقرأه مع ما قبلَه تجده كذلك، فإن وقفت على خبر مبتدأ فلا يستقيم مع ما بعده، وهو مع ما قبله أبعد، فأراد بقوله «لا يرهبها» لا يبتدىء لفظه بغير مبتدأ فتتَدَاعَى مبانيها، وتبطل معانيها فتفهمه.

والفِقَر في غير الموزون مثل القوافي في الموزون، والفِقر مشتّقة من فَقَار الظهر، لأنها تنقطع على قافيتين أو ثلاثة، وهذا هو الفرق بين الفِقَر والأسجاع إذ الأسجاع كلّها ترجع إلى قافية واحدة من سَجْع الحمام وهو لا يختلف، ولهذا قال المعرّي في الغراب: **[الطويل]**

أتى وهو طيار الجناح وإن مَشَى ... أشاعَ بما أعيا سطيحاً من السَّجْع[3]

وسطيح: كاهن، وكلامه أسجاع.

* * *

قال الراوي: فلمَّا صَدَعَ برِسَالَتِه الفَرِيدَةَ، وَأُمْلُوحَتِهِ المُفِيدة، عَلِمْنَا كَيْفَ

(١) الحجر: الأنثى من الخيل.

(٢) الهملجة: حسن سير الدابة في سرعة.

(٣) البيت في سقط الزند ص ١٣٣٧.

يَتَفَاضَلُ الانْشَاء، وَأَنَّ الفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ. ثُمَّ اعْتَلَقَ كلٌّ مِنَّا بذَيلِه، وَفلَذَ لَهُ فِلْذَةٍ مِنْ نَيْلِهِ، فَأَبَى قَبُولَ فِلْذَتِي، وَقَالَ: لستُ أَرْزَأُ تلامِذَتِي.

فقلتُ لهُ: كُنْ أَبَا زَيْدٍ، عَلَى شُحُوبِ سَحْنَتِكَ، وَنُضُوبِ مَاءِ وَجْنَتِكَ، فقالَ: أَنَا هُوَ عَلَى نُحُولِي وقُحُولِي، وقَشَفِ مُحُولِي، فَأَخَذْتُ فِي تَثْرِيبِه، عَلَى تشْرِيقِه وَتغْرِيبه.

* * *

صدع: كشف وشقّ.

الفريدة: التي لا مثل لها.

أُملوحته، يريد بها الرسالة، والأُملوحة: الكلام المليح، يعجَب له السامع.

والإنشاء: الكتابة.

فَلَذ: قطع فلذة: قطعة، وأصلها قطعة من كبد البعير.

قال الشاعر: [البسيط]

تكفيه حُزّة فِلْذٍ إنْ ألمّ بها ... من الشّواء ويروي شربه الغُمَرُ[1]

نيله: عطائه. أرزأ: أنقص.

والتلميذ: هنا متعلم العلم، ولذلك أبى أن يأخذ منه شيئاً، وهو في كلّ مقامة إذا تعرّض للكُدْية يفرده بالأخذ منه، أو يبتدىء التقدير منه، وذلك أنّ الجماعة في هذه المقامة اشترطوا مناظرته، وابن همام شرَط أنّه من نظّارة الحرب، أي إنّما جلس لينظر ويتعلّم، فلهذا أخذ منهم وتركه، وزاده فائدة التنبيه على أنه أبا زيد، ولذلك قال له: كن أبا زيد، وكن أتى به بلفظ الأمر، ومعناه الدعاء، وفي الحديث: «كن أبا ذرّ» و «كن أبا خَيثمة»[2]، وذلك أن النبيّ ﷺ رأى شخصاً من بعيد، فرجا أن يكون أبا ذرّ الغفاري، فقال: «كن أبا ذرّ» أي جعلك الله أبا ذرّ، فكان ما رجاه النبيُّ ﷺ،

---

(١) يروى صدر البيت:

تُغْنيه حُذّةُ فِلْذٍ إنْ ألمّ بها

وهو لأعشى باهلة في لسان العرب (حذذ)، (حزز) وجمهرة اللغة ص ٥٦، ٩٦، ٦٩٩، ٧٨١، وتاج العروس (حذذ)، (غمر)، (حزز)، وتهذيب اللغة ٨/١٢٩، ١٤/٤٣٢، وديوان الأدب ١/ ١٨٠، وبلا نسبة في لسان العرب (حذذ)، (فلذ)، وجمهرة اللغة ص ٥١٠، ومقاييس اللغة ٤/ ٣٩٤، ٤٥٠، وكتاب العين ٤/٤١٦، وأساس البلاغة (غمر).

(٢) رواه ابن الأثير الجزري في النهاية في غريب الحديث ٤/٢١١، بلفظ: في حديث توبة كعب «رأى رجلاً يزول به السراب فقال: كن أبا خيثمة» أي صرْ، ومنه حديث عمر: أنه دخل المسجد فرأى رجلاً بَذَّ الهيأة فقال: «كن أبا مسلم» يعني الخولاني.

وكذلك كان اللفظ هنا، كأنَّ ابن همام لمَّا أعجِب بفصاحة صاحب الرسالة تمنّى أن يكون أبا زيد، لما عهد من فصاحته فقال: كن أبا زيد، أي جعلك الله أبا زيد الَّذي عهدتُ منه الفصاحة، متى رأيتُه، فصدَّق منه أُمْنِيَته فقال: أنا هو الذي تمنّيت.

والدعاء بلفظ الأمر كثير في كلامهم كقوله: [الطويل]

* ألا أنعم صباحاً أيّها الطلل البالي *(١)

وقول الآخر: [الطويل]

* ألا أنعم صباحاً أيها الربع واسلم *(٢)

أي سلّمك الله من رَبْع، وجعل صباحك ناعماً.

الفنجديهي: كن أبا زيد، أي أنت أبو زيد، ومنه: **﴿كنتمْ خَيْرَ أمةٍ أخرجت للناس﴾** [آل عمران: ١١٠] أي أنتم خير أمة.

شحوب: تغيّر: سَحْنتك: جلدة وجهك وهيئتك. نُضوب: جفوف. والوجْنة: العظم الشاخص تحت العين. قُحولي: يُبْسي. قَشَف: تغيُّر هيئته بترْك النظافة. محولي جفوف جسمي.

تَثْريبه: لومه وتعييب فعله، والتَّثريب بالذنب المؤاخذة به، وأصله الاختلاط والإفساد، وإنما يقول: لا تثريب عليك، من قَدَر فعفا.

* * *

فَحَوْلَقَ واسْتَرْجَع، ثمّ أَنشد منْ قلبٍ مُوجَعٍ: [مجزوء الكامل]

سَـلَّ الـزَّمَـانُ عَـلَـيَّ عَـضْـبَـهْ ... لِـيُـرُوعَـنِـي وَأَحَـدَّ غَـرْبَـهْ

وَاسْـتَـلَّ مِـنْ جَـفْـنِـي كَـرا ... هُ مُـراغِـمـاً، وأَسَـالَ غَـرْبَـهْ

وأجـالـنـي فـي الأُفْـقِ أَطْـ ... ـوِي شَـرْقَـهُ وأَجُـوبُ غَـرْبَـهْ

---

(١) عجزه:

وهل يعمَنْ من كان في العُصُر الخالي

والبيت لامرىء القيس في ديوانه ص ٢٧، وجمهرة اللغة ص ١٣١٩، وخزانة الأدب ١/ ٦٠، ٣٢٨، ٣٣٢، ٢/ ٣٧١، ١٠/ ٤٤، والدرر ٥/ ١٩٢، وشرح شواهد المغني ١/ ٣٤٠، والكتاب ٤/ ٣٩، وتاج العروس (طول)، وبلا نسبة في أوضح المسالك ١/ ١٤٨، وخزانة الأدب ٧/ ١٠٥، وشرح الأشموني ١/ ٦٩، ٢/ ٢٩٢، وشرح شواهد المغني ١/ ٤٨٥. ومغني اللبيب ١/ ١٦٩، وهمع الهوامع ٢/ ٨٣.

(٢) يروى البيت:

ألا أنـعـم صـبـاحـاً أيـهـا الـربـع وانـطـقِ ... وحدّث حـديـث الركـب إن شئت واصدقِ

وهو لامرىء القيس في ديوانه ص ١٦٨، والأشباه والنظائر ٦/ ٢٣٦.

فبكلّ جوٍّ طَلْعَةٌ   في كلّ يومٍ لي وغَرْبَهْ
وكذا المغرّبُ شَخْصُهُ   مُتَغرِّبٌ ونواهُ غَرْبَهْ

ثمّ وَلّى يَجُرُّ عِطْفَيْهِ، وَيَخطِر بيَدَيْهِ، وَنحنُ بَيْنَ مُتَلَفِّتٍ إليه، ومُتهافتٍ عليه، ثمّ لمْ نلْبَثْ أنْ حَلَلْنَا الحُبَا، وتفرَّقْنا أيَادِيَ سَبَا.

* * *

حولق: قال لا حول ولا قوّة إلا بالله. استرجع: قال إنا لله وإنا إليه راجعون.
عضبه: أي سيفه القاطع. ليروعني: ليفزعني.
غَرْبه: حده. استلّ: أزال. كراه: نومه.
مراغِما: مذلّلاً.
غربه: مجرى دِمعه، والغَرْب فيض الدمع.
أجالني: صرفني ومشّاني.
الأفق: نواحي الأرض. أطوى: أقطع. أجوب: أخترق.
جوّ: ناحية غَرْبة، فَعْلة، من الغروب مثل طَلْعة، من الطلوع.
المغرّب: المبعد. المتغرّب: الملازم للغربة.
نواه: سفرته. غربة: بعيده.

* * *

[مما قيل في الغربة والسفر]

ومن أحسن ما قيل في تبعيد السفر قول حبيب: [الطويل]

سَلِي هل عمرتُ الفقرَ وهو سباسبٌ   وغادرت ربعي من ركابي سَبَاسِبَا[1]
وغَرَّبت حتى لم أجد ذكر مشرقٍ   وشرّقت حتى قد نسيتُ المغاربا
خطوبٌ إذا لاقيتهنّ رددنني   جريحاً كأني قد لقيت الكتائبا

وله أيضاً: [البسيط]

ما اليومَ أوّل توديعي ولا الثاني   البين أكبر مِنْ شوقي وأحزاني[2]
دعِ الفراق فإن الدهر ساعده   فصار أملَك من رُوحي لجثماني
خليفة الخضْرم من يربعْ على وطن   في بلدة فظهورُ العيس أوطاني
في الشام أهلي وبغداد الهوى وأنا   بالرّقمتين وبالفسطاط إخواني
وما أظنّ النوى ترضى بما صنعتْ   حتى تبلغني أقصى خراسان

(١) الأبيات في ديوان أبي تمام ص ١٧.
(٢) الأبيات في ديوان أبي تمام ص ٢٢٣.

وقال الحلواني: [الكامل]

يا نفسْ وَيْحَك، في التّغريب ذلَّةٌ فتجرَّعي كأسي هَوًى وهوانِ
وإذا نزلت بدار قوم دارِهِمْ فلهم عليك تعزّز الأوطانِ

وقال ابن شرف: [السريع]

إن ترمك الغُرْبة في معشر قد جُبِل النَّاسُ على بُغْضِهِمْ
فدارِهِمْ ما دمتَ في دارهم وأرضِهِمْ ما دمتَ في أرضِهِمْ

وقال البستي: [البسيط]

لا يعدِم المرء كِنًّا يستكنّ به وَشَبْعةً بين أهليه وأصحابهِ
وَمَنْ نأى عنهُم قلَّت مهابتُه كالليثُ يُحْقَر لمَّا غاب عنْ غَابِهِ

والسابق لهذا المعنى زهير في قوله: [الطويل]

وَمَنْ يغترب يحسِبْ عَدُوًّا صديقَه وَمَنْ لا يكرِّم نَفْسَه لا يكَرَّمِ[1]

وفي قوله: [الوافر]

فقرّي في بلادك إن قوماً متى يَدَعُوا بلادهم يهونوا[2]

يقال: جاء يجرّ عِطْفيه، إذا جاء رخيّ البال متبختراً، وإنما ينظر في عِطَفْيه إذا كان مُعْجباً بنفسه.

وثاني عِطْفَيه، بمعنى متكبّر، والعِطفان: جانبا الثوب، والعِطاف الرّداء، والجمع عُطُف.

ويقال: جاء يجرّ رجليه، إذا جاء مثقلا لا يقدِرُ أن يحمل رجليه.

يخطر بيديه: يحرّكهما عند المشي.

متهافت: متساقط من النّدم على فراقه.

أيادي سبا، يريد في كلّ طريق وجهة.

* * *

[قصة سبأ وسدّ مأرب]

وسبأ هو أبو قبائل اليمن المتفرّقة من سدّ مأرب الذين مزّقهم الله كلَّ ممزّق. وسُمِّيَ سبأ لأنه أوّل مَنْ سبى السَّبْي، وقيل: سبأ اسم أمّهم، ومأرب اسم بلدهم.

وكانت سبأ من أحسن بلاد الله تعالى وأخصبها، وأكثرِها شجراً وماء، وقد ذكر الله تعالى أنها كانتَ جنَّتين عن يمين وشمال، وكانت مسيرة شهر في شهر للمُجدِّ

---

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى في ديوانه ص ٣٢، واللمع ص ٢١٥، وعجزه لأبي المثلم الهذلي في لسان العرب (كرم).

(٢) البيت في ديوان زهير ص ١٩٢.

الراكب، يسير في جنان من أولها إلى آخرها، لا تواجهه الشمس، ولا يفارقه الظلّ، مع تدفّق الماء، وصفاء الهواء، واتّساع الفضاء، فمكثوا ما شاء الله، لا يعاندهم ملكٌ إلا قصموه.

وكانت في بدء الزمان تركبُها السيول، فجمع ملكُ حمير أهلَ مملكته، فشاورهم في دفع السَّيل، فأجمعوا على حفر مسارب له حتى تؤدّيَه إلى البحر، فحشد أهل مملكته حتى صرف الماء، واتّخذ سدًّا في موضع جَرَيان الماء من الجبال، ورصفه بالحجارة والحديد، وجعل فيه مجاريَ للماء في استدارة الذراع، يخترقون منها مقداراً معلوماً من الماء وشِرْباً مقسوماً للأرض، فإذا جاء السيل تصرف في المجاري إلى جنانهم ومزدرعاتهم، بتقدير يعمّهم نفعه.

وقيل: صنعة لقمان بن عاد، وجعله فرسخاً في فرسخ؛ وذكر الأعشى في شعره أن حميراً ابتنته، فقال: **[المتقارب]**

رُخامٌ بنتْه لهم حميرٌ ... إذا جاء ماؤهم لم يَرِمْ[1]

وأروى الزروع وأعنابَهم ... على سِعَةٍ ماؤهم قد قُسِمْ

فعاشوا بذلك في غبطةٍ ... فجاف بهم جارف منهدِمْ

فلما كفروا بأنعم الله، ورأوا أن مُلْكهم لا يبيده شيء، وعبدوا الشمس، بعث الله على سدِّهم فأرة فخرقَتْه. وأرسل عليهم السَّيل، وأباد الله خضراءهم.

ولما انتهى الملك في ولد سبأ إلى عمرو بن عامر مُزيقياء ـ وسمِّيَ بذلك لأنه كان يمزّق في كل ليلة حُلّة كِبْراً من أن تعاد عليه أو يلبسها غيره. وقيل: سُمِّيَ بذلك لأنه مزّق الأزد في البلاد ـ وكان أخوه عمران كاهناً، فأتته كاهنة تُدْعى طريفة فأخبرته بدنوّ فساد السدّ وفيض السيل، وأنذرته، فقال لها: وما آية ذلك؟ فقالت: إذا رأيت جُرَذاً يُكثر بيديه الحفْرَ، ويقلّب برجليه الصخر؛ فاعلم أنه قد اقترب الأمر. فقال: وما الأمر؟ فقالتْ: وعدٌ من الله ينزل يا عمرو، فلتكثر الشكر.

فرأى عمرو يوماً في السد جُرذاً يقلب صخرة، ما يقلِبُها خمسون رجلاً، فرجع وهو يقول: **[الرجز]**

أبصرتُ أمراً هاج لي بَرْح السّقَمْ

مِنْ جُرَذٍ كفحل خنزير أَجَمْ

له مخاليبُ وأنيابٌ قضم

---

(١) الأبيات في ديوان الأعشى ص ٤٣.

أي معوَّجة. فأجمع على الخروج منها، وأعمل الحيلة في بيع مالِهِ، وألاّ بنكر الناس عليه، فقال لابنه: إني صانع طعاماً، وداعٍ إليه أهل مأرب، فاردد عليّ ما أقول لك من الحديث، ففعل ابنه ذلك وردّ عليه بأقبح ردّ، فصاح عمرو: واذُلاه! يُجيبني صبيّ! فحلف ألا يقيم ببلد ضِيَم فيه، فجعل يبيع أمواله.

وبعضهم يقول لبعض: اغتنموا غضبة عمرو، واشتروا منه قبل أن يرضى، فلما اجتمعت له أمواله، أخبرهم بشأن السَّيل، فأجمعوا على الجلاء، فقال لهم عمرانُ أخوه: إني أصف لكم بلْداناً، فاختاروا أيّتها شئتم... فمن كان منكم ذا همّ بعيد، وجمل غير شرودٍ، فليلحق بالشّعب من كرود، فلحق به همْدان.

ثم قال: ومَنْ كان منك ذا سياسة وصبر، على أزمات الدهر، فليلحق ببطن مُرَّ؛ فلحق به خُزاعة.

ثم قال: ومَن كان منكم يريد الراسخات في الوحْل المطعمات في المحل، فليلحق بيثربَ ذات النخل. فنزلها الأوس والخزرج.

ثم قال: ومَنْ كان منكم يريد الخمر والخمير، والأمر والتأمير، فليلحق ببُصرى وسَدِير، وهي من أرض الشأم، فنزلها غسّان.

ثم قال: ومَنْ كان منكم يريد الثياب الرّقاق، والخيل العتاق، والذهب والأوراق، فيلحق بالعراق، فلحق بها مالك بن فهم بن الأزد.

وتخلّف مالك بن اليمان في قومه، حتى أخرجهم السيل فنزلوا نَجْران، وانتسبوا إلى مَذْحج.

ودخلت جماعة منهم إلى معدّ فأخرجتهم معدّ بعد حروب، فنزلوا بجبال السَّراة على تخوم الشأم.

فلمّا تفرّقت في البلاد هذا التفرُّق، ضربت العرب بهم المثل، فقالوا: ذهبوا أيْدي سبأ وأياديَ سبا، أي متفرّقين في كل ناحيَة.

وقيل فيهم: إنهم كانوا مجتمعين يداً واحدة، فلما مزّقهم الله وفرّقهم، صارت يدهم أيادِيَ متفرّقة، وأخذ كل طائفة منهم طريقاً على حِدَة. أو يريد به النعمة، فالمعنى: تفرّقنا كما تفرّقت نعم أهل سبأ.

الزّجاج: سبأ مدينة تعرف بمأرب على ثلاث ليال من صنعاء.

الجوهري: سبأ اسم رجل سُمّيت به البلدة.

وذكر في الدرة أن لفظة التفرّق تستعمل في الأشخاص والأجسام، نحو تفرّق

القوم، وإنّ الافتراق يقال في الأهواء والآراء، كما قال النبيُّ ﷺ: «تفترق أمتي على كذا وكذا فرقة»، فإذا قيل: إن لزيد ثلاثة إخوة متفرّقين، فالمعنى أن كل واحد منهم ببقعة. وإن قيل مفترقين فالمعنى أن أحدهم لأبيه وأمه، والآخر لأبيه، والثالث لأمه؛ وكذلك يقال: فرّق بالتشديد فيما كان من قبَل الجمع، وفَرَق بالتخفيف، فيما يراد به التمييز كقوله: فرق بين الحق والباطل، والحالي والعاطل.

تم الجزء الأول، ويليه الجزء الثاني

وأوله: «المقامة الثامنة عشرة، وتعرف بالسنجارية»

فهرس محتويات

الجزء الأول

من شرح مقامات الحريري



فهرس المحتويات

المقامة الأولى

المقامة الثانية

المقامة الثّالثة

المقامة الرّابعة

المقامة الخامِسَة

المقامة السّادسَة

المقامة السَّابعَة

المقامة الثامنة

المقامة التاسِعَة

المقامة العَاشرة

المقامة الحادية عشرة

المقامة الثانية عشرة

المقامة الثالثة عشرة

المقامة الرابعة عشرة

المقامة الخامسة عشرة

المقامة المجاعية

المقامة السّادسَة عشرة

المقامة السَّابعة عشرة



مقامات الحريري

لأبي العبّاس أحمد بن عبد المؤمن بن موسى
القيسي الشّريشي
المتوفّى سنة ٦١٩هـ

وضع حواشيه
إبراهيم شمس الدّين

الجزء الثاني

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

العنوان : رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
تلفون وفاكس : ٣٦٤٢٩٨ - ٣٦٦١٣٥ - ٦٠٢١٣٣ (١ ٩٦١) ٠٠
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

DAR al-KOTOB al-ILMIYAH

Beirut - Lebanon

Address : Ramel al-Zarif, Bohtory st., Melkart bldg., 1st Floore.
Tel. & Fax : 00 (961 1) 60.21.33 - 36.61.35 - 36.43.98
P.C.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

Dar al-Kotob al-Ilmiyah - Publishing House
P.o.box : 11-9424 Beirut - Lebanon

ISBN 2-7451-2264-9

EAN 9782745122643

No 02265



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقامة الثامنة عشرة

وتعرف بِالسّنجاريّة

حكى الحارث بن همام قال: قفلتُ ذات مرّة من الشام، أنحو مدينة السلام، في ركبٍ من بني نُمَير، ورفقةِ أولِي خيرٍ ومِيْر، ومعنا أبو زيدِ السَّرُوجيّ: عُقْلَةُ العجلان، وَسلْوَة الثكلان، وأعجوبَةُ الزمان، والمشار إليه بالبنان في البيان.

فصادف نزولنا سِنْجار، أن أوْلَمْ بِها أحَدُ التُّجَّارِ، فدعَا إلى مأدُبتِهِ الْجَفَلى، مِنْ أهلِ الْحَضَارَةِ والْفَلا، حَتَّى سَرَتْ دَعْوَتُه إلى القافِلةِ، وجَمَعَ فيها بين الفريضَة والنَّافِلَة.

* * *

قفلت: رجعت من السفر.

* * *

[الشام]

الشأم، ويقال له: شام وشأم، ويذكّر ويؤنث، وينسب إليه شامي وشآم، على فَعَال. ويحكى عن سيبويه شآميّ، وإثبات الألف في النّسب يدلُّ على إثباتها في أصل البناء.

وقيل: ألفُ يمان وشآم عِوَض من ياء النسب، قال طرفة: **[الطويل]**

* شآمية تروي الوجوه بليل *

وقال في الدّرَّة المنسوب إليه على ثلاثة أوجه: شاميّ وهو القياس، وشآم بياء مخففة كالمنقوص، وشآميّ وهو شاذ لأنه يصير بمنزلة المنسوب إلى المنسوب، وكَذلك جوّزت الثلاثة في المنسوب إلى اليمن.

وعلى الشاذّ منها قول العرجي: **[السريع]**

إنّـي أتـيـحـت لـي يـمـانـيـة   إحدَى بني الحارث من مذحج[1]

---

(١) البيت للعرجي في ديوانه ص ١٩، والأغاني ١/١٠٨.

ولم يجز الحريري تأنيث الشام وقال: لفظه مذكر.

وقال ابن الأنباري ـ وذكر الشام والحجاز وغيرهما: فَمنْ أنث من ذلك شيئاً فإنما يذهب به إلى معنى المدينة.

وقالوا: الشأم صفوة بلاد الله.

وقال رسول الله ﷺ لحذيفة ومعاذ: «عليكم بالشأم فإنّ الله قد تكفّل بالشام وأهله»[1].

وسَميت شاماً لأنها عن شامة الكعبة.

ابن الأنباري: يجوز أن يكون مأخوذاً من اليد الشُومي وهي اليُسرى.

وقال قوم: أصله في الكعبة، لأنّ بابها يستقبل المطّلع، فمن قابل طلوع الشمس كانت الكعبة عن يمينه في شقّ الجنوب، والشأم عن يده الشّومي في شّق الشمال.

أبو القاسم الزجاجي: قال: جماعة من أهل اللغة: يجوز ألاّ يهمز، فيقال: شام جمع شامة، سمِّيت بذلك لكثرة قُراها، وتدانِي بعضها من بعض، شبّهت بالشامات.

وقال الشرقيّ سميت بسام بن نوح، لأنه أوَّل مَنْ بناها، فغيّر اللفظ العجمي فجعل السين شيناً.

وقسّمت الشأم خمسة أقسام: الشام الأولى، وأوَّل حدّها من طريق مصر أمج، ثم غزة ثم الرملة، ومدينته العظمى فلسطين وعسقلان، وفلسطين هي الشأم الأولى، ولها بيت المقدس.

الشأم الثانية الأردن، ومدينته العظمى طَبَريّة، وهي بشاطىء البحيرة، واليرموك بين فلسطين والأردن.

والشأم الثالثة الغُوطة، ومدينتها العظمى دمشق، ومِن سواحلها طرابلس الشام.

الرابعة: أرض حمص الشأم.

الخامسة: قِنّسرين، ومدينته العظمى حلب، وهي من قِنّسرين على أربعة فراسخ. وساحلها أنطاكية، مدينة عظيمة على شاطىء البحر داخلها المزارع والبساتين والأنهار.

* * *

قوله: «أنحو» أي أقصد. الركب: اسم لمن يَركب الإبل، كذا قال الخليل.

وقال يعقوب: الرّكب: جمع راكب، وهم أصحاب الإبل خاصّة، ولا يكون الركب إلا أصحاب الإبل، وراكب الفرس فارس، وراكب البغل بغّال، وراكب الحمار حَمّار،

(١) أخرجه بنحوه أحمد في المسند ٥/ ٣٤.

وراكب الفيل فَيّال، والجمع خيَّالة وبغَّالة وحمّارة وفَيَّالة، وتبعه ابن قتيبة في هذا، وخطّأهما جميعاً ابن السِّيد وغيره واحتجوا بقول امرىء القيس: **[السريع]**

إذا ركبوا الخيل واستلأموا تحرّقت الأرض واليوم قَرّ(١)

فقوله: «ركبوا الخيل»، يدلّ على أنه يقال لمن ركب الفرس: راكب.

وما ذكره يعقوب هو الصحيح، لأنّ العرب إذا أفردت لفظ راكب أن ركْب لم يقع في كلامها إلاً على أصحاب الإبل مطلقاً، فإذا أرادت أن توقعه على أصحاب الخيل قيَّدته بذكر الخيل، فقالوا: ركبت الفرس، وراكب الفرس، فيذكّرون الفرس، وعلى هذا أتى: **[السريع]**

* إذا ركبوا الخيل واستلأموا *.

فخفِيت هذه التفرقة على ابن السِّيد، على حظّه الوافر من اللغة.

وقال الحريري في الدّرة: الراكب هو راكب البعير خاصّة، وجمعه رُكبان، فأما الركب والأركوب، فقد جوز الخليل أن يطلق اسمهما على راكبي كلّ دابة إلاّ أنّ الأركوب أكثر من الرّكب عدة وأكثر جماعة.

* * *

[بنو نمير]

وبنو نُمير قبيلة من بني صعصعة، إحدى جمرات العرب، وأشرف بيوت قيس عَيلان، وجمرات العرب ثلاثة، سموا بذلك لأنهم متوافرون في أنفسهم لم يدخلوا معهم غيرهم، والتجمير في كلامهم التجميع؛ وهم بنو نمير، وبنو الحارث بن كعب، وبنو ضبَّة بن أدّ، فطفئت جمرتان وهم بنو ضبَّة لمحالفتها الرّباب، وبنو الحارث لمحالفتها مذحِج، وبقيَت نمير لم تحالف، فهي على كثرتها ومنَعتها، قال شاعرهم: **[الوافر]**

نُميرٌ جمرة العرب الّتي لم تزل في الحرب تلتهب التهابا(٢)

وكان الرجل منهم إذا قيل له: ممّن أنت؟ قال: نميريّ كما ترى، إدلالاً بنسبته، وافتخاراً بمنَعته، حتى قال جرير في الراعي: **[الوافر]**

فَغُضّ الطَّرْف إنك من نُمَيْرٍ فلا كعباً بلغتَ ولا كِلابا(٣)

---

(١) البيت في ديوانه امرىء القيس ص ١٥٤.

(٢) البيت للراعي النميري في ديوانه ص ١٨، وتاج العروس (جمر).

(٣) البيت لجرير في ديوانه ص ٨٢١، وجمهرة اللغة ص ١٠٩٦، وخزانة الأدب ١/ ٧٢، ٧٤، ٩/ ٥٤٢، والدرر ٦/ ٣٢٢، وشحر المفصل ٩/ ١٢٨، ولسان العرب (حدد)، وبلا نسبة في أوضح المسالك ٤/ ٤١١، وخزانة الأدب ٧/ ٥٣١، ٩/ ٣٠٦، وشرح الأشموني ٣/ ٨٩٧، وشرح شافية ابن الحاجب ص ٢٤٤، والكتاب ٣/ ٥٣٣، والمقتضب ١/ ١٨٥.

فصار إذا قيل له مِمّن أنت؟ قال: عامريّ.

ومرّت امرأة بهم، فأحدّوا النّظر إليها، فقال أحدهم: والله إنها لرَسْحاء، فقالت: يا بني نمير، والله ما امتثلتم فيّ واحدة من اثنتين؛ لا قول الله عز وجل: ﴿**قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم**﴾ [النور: ٣٠]، ولا قول جرير: [**الوافر**]

فَغُضّ الطَّرْف إنَّك من نُمَيْرٍ فلا كَعْباً بلغتَ ولا كِلابَا[١]

قوله: «أولي خير»، أي ذوي غنًى. مير: صلةٌ وصدقة. عقلة العجلان: حابس المستعجل.

سلوة الثكلان: مذهب حزن الحزين، يقول: إذا رآه مَنْ هو في شغل معجّل حبسَه، أو حزين أزال حُزْنَه.

البنان: الأصابع، قال رسول الله ﷺ: «كفى بالمرء فتنة أن يشار إليه بالأصابع في دين أو دينا إلاّ منْ عصمه الله».

* * *

[سنجار]

سنجار: بلد بينه وبين قرقيسيا نيّف وثلاثون فرسخاً، وقرقيسيا على الفرات، وهي كورة من كور ديار ربيعة، وفي سنجار فوّهة نهر الخابور، فيمرّ حتى يصبّ في الفرات، وهي على أميال من نَصيبين، وعن يمين طريق الموصِل.

* * *

قوله: «أولم»، أي صنع وليمة، والوليمة: طعام العرس. والمأدبة: طعام يدعَى إليه الناس.

والجفَلى: الناس أجمع.

والحَضارة: ضدّ البداوة، يفتح أوّلها ويكسر. الفلا: القفر، وأراد دعا أهل الحاضرة والبادية. سرتُ: وصلت.

القافلة: الرفقة الراجعة من سفرها، قال الأزهريّ: سُمّيت قافلة تفاؤلاً بقفولها عن سفرها الذي ابتدأت.

وظنّ ابن قتيبة أن عوامّ الناس يغلطون في تسميتهم الناهضين في ابتداء الأسفار قافلة؛ إلا منصرفة إلى وطنها وهذا غلط، وما زالت العرب تسمي الناهضين في ابتداء الأسفار قافلة تفاؤلاً، بأنْ يُيسِّر الله لها القفول وهو شائع عند فصحائهم إلى اليوم.

وأراد بالفريضة، أعيان التجار الذين حضورهم كالفرض، وبالنافلة: المُكارين

(١) تقدم البيت مع تخريجه قبل قليل.

والأتباع، أو يريد بالفريضة مَنْ لا بدّ له أن يدعوه للحضور، مثل القرابة والوجوه والأصحاب، والنافلة لفيف الناس، وأراد أنه حمل لعرسه مَنْ يحبّ ومن لا يحبّ، والهاء من «فيها» ضمير الدعوة، ويروى «فيهما» بالميم.

[الحاضرة والبادية]

وأما ذكر الحاضرة والبادية، فقد أَتينا في ذلك بفصل أدبيّ مستحسَن، ولسنا نحتاج إلى إقامة دليل شاهد على فضل الحاضرة، لأنها محلّ الجمعيات والجماعات، وإليها تجلب الخيرات، وبها تستمدّ البركات، ومنهم العلماء والفضلاء والملوك، إلى ما يطول تعداده، ومَنْ أراد الله به خيراً نقله من البادية إلى الحاضرة، وقد أخبر الله تعالى عن يوسف عليه الصلاة والسلام في قوله: ﴿**وقد أحْسَن بي إذ أخرجَني من السجن وجاء بكم من البَدْو**﴾ [يوسف: ١٠٠] وهذا فيه فضل للحاضرة لا يُدفع إذ قرن الخروج من السجن بالمجيء من البدو، وعدّه من إحسان الله سبحانه وتعالى.

وقف أعرابي على دِعْبل وهو ينشد: [**المتقارب**]

إذا القوس أوترها أَيِّدٌ   رمى فأصاب الكلا والذُّرى[١]

فقال له: ما عنيت؟ فقال دعبل: القوس قوس قُزح، أمطرت الأرض بها، فأعشبت فرعاها المال، فسمنت كلاه وأسنمه، فقال الأعرابي: لله درّكم يا حاضرة! إنكم لتسيرون معنا فتساوون، ولتنكّبون عنا فتفوتون.

وفي ضدّ هذا المعنى قال شبيب بن شبة: كثر قطع الطريق بين مكّة والبصرة، فبعَثني المنصور أقوم في المناهل، وأتكلّم بذمّ البادية، وأوبّخهم بما يردعهم، فلم أرد ماء إلا تكلّمت عليه بما يحضرني، فلا أجدُ مَن ينطق، حتى قمت على ما لبني تميم، فلما انقضى كلامي، قام رجل منهم قال: الحمد لله أفضلَ ما حمدته، وحمده الحامدون قَبْلك أو بعدك، وصلى الله على سيدنا محمد أفضل صلاة وأتمّها وأخصها وأعمّها. ثم إني قد سمعت ما قلت في مدح الحاضرة وأهلها، وذمّ البادية وأهلها، ومهما كان فينا أهلَ البادية من سوء، فليس فينا نقْب الدُور، ولا شهادة الزور، ولا نَبْش القبور ولا نَيْك الذكور.

قال: فأفحمني والله حتى تمنّيت أني لم أخرج لذلك الوجه.

وقال القطامي: [**الوافر**]

فمن تكن الحضارة أعجبته   فأيّ رجال بادية تَرَانَا[٢]

---

(١) البيت بلا نسبة في لسان العرب (أيد).

(٢) البيت للقطامي في ديوانه ص ٧٦، ولسان العرب (حضر)، وبلا نسبة في إصلاح المنطق ص ١١١، ومغني اللبيب ٢/ ٥٠٧، ولسان العرب (بدا).

قال ابن رشيق: ومن أملح ما سمعه الناس في تفضيل البادية على الحاضرة من حلاوة وطلاوة وصحّة معنى، وقرب مأخذ، مأخوذ من قول أبي الطيب: [البسيط]

مَنِ الجآذرُ في زيّ الأعاريبِ ... حُمْرَ الحُلَى والمطايا والجلابيبِ[١]

ثم قال: [البسيط]

ما أوجهُ الحَضَرِ المستحسناتِ به ... كأوْجُهِ البدويّات الرّعابيبِ

حُسْنُ الحِضارة مجلوبٌ بتطريَةٍ ... وفي البداوة حُسنٌ غيرُ مجلوب

أفدِي ظباءَ فلاةٍ ما عرفن بها ... مَضْغَ الكلامِ ولاَ صَبْغ الحواجيب

ولا بَرَزْنَ من الحمَّام مائلةً ... أوراكهنُّ صقيلاتُ العراقيبِ

ومِنْ هوِي كلّ من ليست مخضّبةٍ ... تركت لون مشيبي غير مخضوب

فلو لم تفضل البادية إلا بهذا، لكان فيه مقنع.

* * *

فَلَمَّا أجَبْنا مُنادِيه، وَحَلَلْنا نَادِيه، أحْضَرَ مَنْ أطعمةِ اليد والْيَدَيْن، مَا حَلاَ فِي الْفَمِ وحَلِيَ في الْعَيْن. ثمَّ قَدَّم جَاماً، كأنَّمَا جُمِد مِنَ الهواء، أو جمع من الْهَباء، أَوْ صِيغَ من نور الْفَضَاءِ، أَوْ قُشِرَ من الدُّرَّةِ الْبَيْضاء، وَقَدْ أُودِعَ لَفَائِفَ النَّعِيم، وَضُمِّخَ بالطِّيبِ الْعَمِيمِ، وَسِيقَ إليه شِرْبٌ مِنْ تَسْنِيم، وَسَفَرَ عَنْ مرأى وَسِيمٍ، وأرِجِ نَسَيم.

فَلَمَّا اضطرمَتْ بمحضَرِه الشَّهوات، وقرِمَتْ إلى مَخْبَرِهِ اللَّهَوَاتِ، وشارفَ أَن تُشنَّ عَلَى سِرْبِهِ الْغَارَات، وَيُنَادَى عِنْدَ نَهْبِهِ: يا للثَّارات! نَشَزَ أَبُو زَيْدٍ كَالْمجنون، وَتَبَاعَدَ عَنْهُ تَبَاعُدَ الضّبِّ من النُّونِ، فَرَاوَدْناهُ عَلَى أَنْ يَعُودَ، وَأَلاَّ يكون كَقُدَارٍ في ثمودِ.

* * *

قوله: «ناديه» أي مجلسه. وطعام اليد: الثريد ونحوه. وطعام اليدين: الدجاج الصحاح والشواء ونحو ذلك، وكانت وليمة في الأنصار، فحضرها حسان بن ثابت، وقد كُفّ بصره، ومعه ابنه عبد الرحمن، فلما وضع الطعام، جيء بالثريد، قال حسان لابنه: يا بني، أطعام يدٍ أم طعام يدين؟ قال: بل طعام يد. فأكل، ثم جيء بالشواء، فقال مثل ذلك، فقال: بل طعام يدين فأمسك.

حلاَ: طاب، حَلِيَ: حَسُن، وحلا في الفم، من الحلاوة، وحَلِيَ في العين من الْحِلي المتزيّن به.

(١) الأبيات في ديوان المتنبي ١/ ١٢٩.

وفي الدّرة: العرب تقول: حلا في فمي، وحَلِيَ في عيني، وليس الثاني من نوع الأول، وهو من الحلْي الملبوس، فكأنّ المعنى: حَسُن في عيني كحسن الحلْي الملبوس، وهو من ذوات الياء، والأوّل من ذوات الواو، إلا أن المصدر فيهما جميعاً الحلاوة، والاسم حُلْولاً حالٍ؛ لأنّ الحالي ضدّ العاطل، وهو الذي عليه الحَلْي.

والجام: إناء من زجاج. جُمّد: عقّد وصنع جامداً.

والهباء: غبار الشمس، وهو ما تراه يدخل عليك مع الشمس من شِقّ باب أو كوّة حائط.

صِيغ: صُنِع. نور الفضاء، يعني الشمس، والفضاء؛ الأرض الواسعة، وفي الفضاء يتّسع ضوء الشمس فيبيضّ نورها.

أودِع: ضمن ضمن وجُعل فيه. لفائف النعيم: ما لفّ من الحلوى وطوِيَ بعضه على بعض.

الفنجديهيّ: لفائف النعيم اللّوزينج والقطائف.

ضمّخ: لّطخ. العميم: الكثير. شِرْب: ماء. وتسنيم: أرفع شرابات أهل الجنة. سفَر: كشف.

مرأى وسيم: منظر حسن. أرج نسيم: طِيب الرائحة، والنسيم: الريح الليّنة الهبوب؛ يريد: لمّا أحضر الجام، ساقوا معه ماء عذباً لغسل اليد، ثم كُشف لهم عن الجام، فرأوْا منظراً من الحلواء الملوّنة، ورائحة عطرة من الأفاويه.

وقال في مثل ذلك عبد السلام بن الحسين المأموني: **[البسيط]**

خَبيصةٌ في الجام قد قدّمَتْ مدفونة في اللَّوْز والسّكّرِ
يأكل مَنْ يأكلها خمسةً بكفه فيها ولم يشعُرِ

قوله: «اضطرمت» أي اشتعلت. قرِمت، أي اشتهت.

اللهوات: جمع لهاة وهي أقصى الفم. شارفَ: قارَب وأشرف عليه تُشنّ: تفرّق. سربه: جماعته، ويريد به ما فيه من الحلواء، والسِّرْب: بالكسر: جماعة النّساء، وبالفتح: الإبل في المرعى. الغارات، يريد الأيدي التي تُغير على الطعام. نهبّه: انتهابه بالأيدي وأكل ما فيه. يا للثارات: كلمة ينادي بها العرب إذا ظفروا بأعدائهم الذين لهم عندهم دم. والثأر: الطلب بالدم، وثأرَ بالقتيل: قتل قاتله.

وقال حسان بن ثابت: **[البسيط]**

لتسمعنّ وشيكا في ديارِكُم الله أكبر يا ثاراتِ عثمانا[1]

(١) البيت لحسان بن ثابت في ديوانه ص ٢١٦، ولسان العرب (ثور)، (وشك). وبلا نسبة في خزانة الأدب ٧/ ٢١٠، ورصف المباني ص ٤١، والمنصف ١/ ٦٨.

فالثارات هنا جمع ثأر، وهو المطلوب بالدم، قال: [الوافر]

وكيف تجلّد الأقوام عنه ... ولم يقتل به الثأر المنيمُ[١]

قال أبو عليّ: الثأر: المقتول، سُمِّيَ بالمصدر، كرجل عَدْل، لذلك جُمع بالتاء، وتفسير أبي عليٍّ عكس ما تقدم، وإذا كان منقولاً من المصدر احتمل وصف الفاعل به والمفعول وثارات عثمان محتملة للتفسيرين، فتقديره على قول أبي عليّ: يا مطلوبات عثمان، وعلى القول الآخر: يا طالبات عثمان هذا أوانكم بالجدّ، وتفسير: يا للثارات في المقامة يستقيم على المعنيين، فعلى الأولى معناه: يا مطلوباتِ الجياع، قد تمكنا منك، وعلى الثاني معناه: يا طالبين الأكل؛ قد تمكّنتم من المأكول.

وقوله: «نشز»، أي وثب. وتقدّم في الضبّ أنّه لا يرد الماء، وأَن مسكنه الصحراء.

والنون: الحوت، وهو لا يفارق الماء، وهما لا يجتمعان، وقد تقدم للصابي: [البسيط]

* الضبُّ والنون لا يرجى التقاؤهما *.

وقال الآخر: [الطويل]

فلو أنهم جاؤوا بشيء مقارب ... لقلت هو الشِّكْلُ الموافق للشِّكلِ

ولكنهم جاؤوا بحيتان لجّةٍ ... قوامِسَ، والمكنيّ فينا أبانا الحِسْل

فضرب بتباعدهما المثل.

راودناه: أردناه على الفعل، تقول: راودته على كذا، إذا أردته على فعله. يعود: يرجع. ثمود: أمة صالح عليه الصلاة والسلام.

وقدار: هو عاقر الناقة، يضرب به المثل في الشؤم، فيقال: أشأم من قُدار، ومن أُحَيْمر عاد.

* * *

[قصة ثمود]

وتقريب قصته، أن ثمود كانت تبني في طول أعمارها، فاتخذوا من الجبال بيوتاً فرهين، وبيوتهم إلى وقتنا هذا باقية منحوتة في الجبال ومساكنهم على قدر أجسامهم، ورممهم وآثارهم فيها بادية، فلما بُعِث فيهم صالح، قال له زعيمهم: إن كنت صادقاً فأظهِرْ لنا من هذه الصخرة ناقةً سوداء عشراء، ذات عوف، فأتى الصخرة فتمخّضت

---

(١) البيت بلا نسبة في لسان العرب (جلد)، وتاج العروس (جلد).

كالحامل، وانشقّت عن الناقة. ثم تلاها سَقْبُها[1]، فآمن كثير منهم، وكان شِرْبُها[2] يوماً وشِرْبُهم يوماً، فإذا كان يوم شِرْبها حلبوها، فملؤوا من لبنها كلّ إناء ووعاء، فلما امتنعت إبلهم من الماء يوم شِرْبها استثقلوها، وكان فيهم امرأتان: عنيزة وصدقة، فبذلتا أنفسهما لقُدار على أن يعقر الناقة، وهو قُدار بن قديرة، وهي أمّه وسالف أبوه، وكان قُدار أزرقَ اسمر قصيراً، وكان له صديق اسمه مصدّع بن مهرج، معاون له على ما كان به من الفساد في الأرض، وكانا في تسعة من أهل الفساد، فضرب قُدار عرقوبَها بسيفه، وضرب مصدّع العرقوب الآخر، واستهموا لحمها، فخرجت ثمود تعتذر إلى صالح، وتزعم أنها لا ذنب لها. فقال: انظروا، هل تدركون فصيلها، فعسى أن يرفع عنكم العذاب! فالتمسوه، فصعد إلى جبل يقال له: القارة، وطال الجبل به في السماء، حتى ما تناله الطير، وبكى. ثم استقبلهم، ورغا ثلاثاً، فقال صالح: تمتّعوا في داركم ثلاثة أيام، ذلك وعد غير مكذوب، وآية ذلك أن تصبح وجوهكم في الأول مصفرّة، وفي الثاني محمرّة، وفي الثالث مسودّة. فلما رأوا صدقه أوّل يوم أرادوا قتله، فمنع منهم فلمّا رأوا صدقه في اليوم الثالث تحنّطوا وتكفّنوا وبكوْا وضجّوا، وجعلوا ينظرون من أين يأتيهم العذاب. فصبّحتهم في اليوم الرابع صيحة من السماء، قطعت قلوبهم في صدورهم، فأصبحوا في ديارهم جاثمين، فعقروها يوم الأربعاء، وأصيبوا يوم الأحد، وإنما أصيبوا والمذنب بعضهم، لأنهم رضوا فعله، والنّية أبلغ من العمل ـ وبلادهم بين الشأم والحجاز إلى ساحل البحر الحبشي ومرَّ النبي ﷺ بقربتهم، ونهى الناس عن دخولها، وأراهم مرتقى الْفَصيل.

ولما رأى صالح أنها دار سخط، ارتحل بمَنْ معه إلى مكة، فلم يزالوا بها حتى ماتوا، فقبورهم في غربيّ البيت، بين دار الندوة والحِجْر.

وقال حباب بن عمرو: [البسيط]

كانت ثمود ذوِي عزٍّ ومكرُمَةٍ ... ما إن يضام لهم في النَّاس مِن جارِ
فأهلكوا ناقةً كانتْ لربّهمُ ... قد أنذروها فكانوا غَيْرَ أبرارِ

* * *

فقال: والَّذِي يُنْشِرُ الأمواتَ من الرِّجَامِ، لاعُدْتُ دُونَ رَفْعِ الجام، فَلَمْ نَجِدْ بُدًّا مِنْ تألُّفِهِ، وإبرَازِ حَلِفِهِ، فأَسْلَنَاهُ والعقولُ مَعَهُ شائلةٌ، وَالدُّمُوعُ سَائِلَةٌ، فَلمَّا فَاءَ إلَى مَجْثَمِهِ، وَخَلَصَ مِنْ مَأْثَمِهِ، سَأَلْنَاهُ لِمَ قام، ولأي مَعْنًى اسْتَرْفَعَ الْجَام؟ فقال: إنَّ الزُّجَاجَ نَمَّام، وَإنِّي آلَيْتُ مُنْذُ أعوامٍ، ألاَّ يَضُمَّنِي وَنَمُوماً مَقَام.

فقلنا: وما سَبَبُ يَمِينِكَ الصَّرَّى، وَأَلِيَّتِكَ الْحَرَّى؟

* * *

(١) السقب: ولد الناقة.

(٢) الشرب: النصيب من الماء.

قوله: «يُنشر»، أي يُحيي الموتى ويقيمهم، فيُنشَرُون في الأرض. والرجام: القبور، واحدها رجَم. تألّفه: ضمّة وترك خلافه. إبرار حَلِفه: مراعاة قسَمِه.

أشلناه: رفعناه. شائلة: مرتفعة.

فاء: رجع. مَجْثمه: موضعه، وأصله للطائر.

الصّرّى: العزيمة، ويقال: أصررت على الشيء، عزمت عليه، وهو منّي صرّى وصِرىّ وأصرَى أي عزيمة وجِدّ.

وضلّت ناقة أبي السّمال، فقال: والله لئن لم يردّها الله عليّ لا أصلّي أبداً، فذهب في ابتغائها، فوجدها وقد تعلّق زمامها بشجرة، فقال: علم الله أنها كانت مني صرّى فردّها عليّ.

وقال حبيب: **[الكامل]**

لما رآهم بابكُ دون المُنى ... هَجَر الغَواية بعد طُول وصالِ[1]

تخذ الفِرار أخاً وأيقن أنه ... صرّى عزمٍ من أبي السمّال

يقول: لما رأى كثرة من يحاربه أيقن أن ما تمناه فيهم لا يدركه، فهجر الضلالة، وانهزم، إذ أيقن أن طالبه مُصِرٌ على طلبه.

الحرّى: الوكيدة الشديدة، والكبد الحرّى: اليابسة العاطشة.

وناظر الحريريُّ بهذه المقامةِ مقامةَ المضيريّة في البديعية، ومن هنا إلى أولها مبنيٌّ على تلك.

***

[المقامة المضيرية للبديع الهمذاني]

قال البديع: حدّثنا عيسى بن هشام قال:

كنت بالبَصْرة ومعي أبو الفتح الإسكندريّ، رجل الفصاحة، يدعوها فتجيبُه، والبلاغة، يأمرها فتطيعه. وحضرْنا معه دعوة بعض التّجار، فقدّم مَضيرة[2] نُثني على الحضارة[3]، وتَترجرج[4] في الْغَضارة[5]، وتؤذِن بالسّلامة، وتشهد لمعاوية رحمة

---

(١) البيتان في ديوان أبي تمام ص ٢٦١.

(٢) المضيرة: نوع من الطعام يتخذ من اللحم واللبن الحامض، وربما أضيف إليه الحليب، ثم يوضع عليه التوابل والأبزار.

(٣) أي أن أهل الحضر أقدر على صنعها من البدو.

(٤) تترجرج: أي تموج وتتحرك.

(٥) الغضارة: القصعة.

الله بالإمامة، في قصعة يَكلّ عنها الطَّرف، ويموج فيها الظَّرْف.

فلمّا أخَذَتْ من الخِوان[1] مكانها، ومن القلوب أوطانَها، قام أبو الفتح يلعنُها وصاحبَها، ويمقتها وآكِلَها، ويَثْلِبُها وطابخَها، وظنناه يمزح، فإذا الأمر بالضدّ، وإذا المزاح عينُ الجِدّ، وتنحّى عن الخوان، وترك مساعدة الإخوان، فرفعناها فارتفعت معها القلوب، وسافرت خلفها العيون، وتحلّبت لها الأفواه، [وتلمظت لها الشفاه] واتّقدت لها الأكباد، [ومضى في إثرها الفؤاد]، لكنّا سألناه عن أمرها، وساعدناه على هجرها.

ثم أخذ يذكر لهم المانع من أكلها، كما يذكر الآن السَّروجيّ ومقامة المضيرة طويلة مضحكة.

* * *

فقال: إنّهُ كَان لي جارٌ لسانُهُ يتقرَّب، وَقَلْبُه عَقْرَب، وَلفظُه شَهْدٌ يَنْقَعُ، وَخَبْؤه سَمٌّ مُنْقَع، فمِلتُ لمجاورتِهِ، إلى مُحَاورتِه، وَاغْترَرْت بمكاشرتِهِ، فِي مُعَاشرَتِهِ، وَاسْتَهوَتْنِي خُضْرةُ دِمْنَتِهِ، لِمُنَادَمتِهِ، وَأَغْرَتْنِي خُدْعَةُ سِمَتِه، بمناسمته فمازجْتُه وَعِنْدِي أنَّه جَارٌ مُكاسِرٌ، فبان أنه عُقَابٌ كاسِرٌ، وآنَسْتُهُ عَلَى أَنَّه حِبٌّ مُؤانِسٌ، فَظَهَرَ أَنَّهُ حُبابٌ مُوَالِسٌ، وَمَا لَحْتُهُ وَلاَ أَعْلَمُ أَنَّهُ عِنْدَ نَقْدِهِ، مِمَّنْ يُفْرَحُ بِفَقْدِهِ، وَعاقَرْتُهُ وَلَمْ أَدْرِ أَنَّهُ بَعْدَ فَرِّهِ، مِمَّنْ يُطْرَبُ لمفرِّه.

* * *

قوله: «جار لسانه يتقرّب»، معناهُ يتودّد إليه بلسانه، ويكتم العداوة في قلبه، وهذا ما يذكر بعده.

[مما قيل في الجار]

أبو هريرة عن رسول الله ﷺ: «من أشراط الساعة سوء الجوار تعوّذوا بالله من ثلاث، هنّ العواقر: إمامِ السوء، إن أحسنتَ لم يشكر، وإن أسأتَ لم يغفر، ومِن جار السوء إن رأى حسناً ستره، وإن رأى قبيحاً أذاعه، ومن امرأة السوء، الّتي إن غبْت عنها خانتك، وإن دخلْتَ عليها لسَّنتْك».

قال بعض الفضلاء: الجار السوء يفشِي السّر، ويهتك السِّتر.

وقيل لأهل البحرين: إن كنتم تحبون أن يحبكم الله ورسوله، فحافظوا على ثلاث خصال: صدق الحديث، وأداء الأمانة، وحُسْن الجوار، فإن أذى الجار يمحو الحسنات، كما تمحو الشمس الجليد عن الصَّفاة.

* * *

(١) الخوان: هو الذي يوضع عليه الطعام.

قوله: «ينقع»، أي يَرْوى العطش. ومُنْقَع، أي أُدِيم حبسه، وأنقع سَمّ الحية: ثبت ودام. خَبْؤه: باطنه، وما خبأه من الشرّ.

محاورته: محادثته. بمكاشرته: مضاحكته: معاشرته: مصاحبته.

استهوتني: ذهبت بي. خُضرة دِمنته: حسْن ظاهره، وتقدمت خضراء الدمن.

أغرتني: حرّضتني وألصقتني به. سِمَته: علامته. مُناسمته: مصاحبته، وقرّب نسمتي من نسمته، أي شخصي من شخصه.

مازجته: خالطته. مكاسر: قريب الدار، وكِسْر البيت: جانبه والعُقَاب الكاسر: التي تضم جناحيها، وتهوي على فريستها، فضمّ الجناح هو كَسْره.

وآنسته: أبصرته. حِبّ: حبيب، وكان زيد بن حارثة يسمَّى حِبّ رسول الله ﷺ، أي حبيبه.

وَضَح: تبيَّن. حُباب: حية. موالس: مخادع خائن في صحبته.

مالحته: واكلته، أي أكلت معه الملح، وأصل الممالحة الرّضاع كأنه حين نادمه راضعه الكأس، وملحتِ المرأةُ الصبيَّ: أرضعته.

نَقْده: تجربته. عاقدته: عاهدته، وعقدت يدي على يده.

فرّه: اختباره وكشف سرّه، يريد أن هذا الصاحب كان يظهر مودته، ويسرّ عداوته.

[ممّا قيل في المودّة والإخاء]

وقال الشاعر؛ وهو المغيرة بن حبناء: **[الطويل]**

أُخوكَ الذي لا ينقضُ النأيُ عهدَه ... ولا عند صَرْفِ الدّهر يَزْوَرُّ جانبُهْ[١]

وليس الذي يلقاك بالبِشْرِ والرّضا ... وإن غبت عنه لسّعتك عقارِبُهْ

قال: وأنشد آخر: **[الطويل]**

عليّ لإخواني رقيبٌ من الصّفا ... تبيد الليالي وهو ليس يَبِيدُ[٢]

وإني لأستحيي أخي أن أبرَّه ... قريباً وأن أجفوه وهو بعيد

وقال ابن المعتزّ: **[السريع]**

لم يبق مِمّا فاتني كسبُه ... إلاّ فتًى يسْلَمُ لِي قلبُه

ينأى فلا يذهبه نأيُه ... عنّي ولا يفسده قربُهْ

يكون حسبي من جميع الورى ... في كلّ حال وأنا حسبُهْ

(١) البيتان في أمالي القالي ٢/ ٢٣٠.

(٢) البيتان بلا نسبة في اللآلي ص ٢٧٢.

وقال بشار وزاد معنى: [الطويل]

تـودّ عـدوّي ثـم تـزعـم أنـنـي صديقُك، إن الرأي منك لَعَازِبُ[1]
ولـيـس أخـي مَـنْ وَدّنِي رأىَ عـيـنـهِ ولـكـن أخـي مَـنْ ودّنـي وهـو غـائـب

* * *

وَكانَتْ عِنْدي جَارِيةٌ، لا يُوجَدُ لَهَا في الجمَالِ مُجَارِيةٌ، إن سَفَرَتْ خجِل النّيِّرَانِ، وَصلِيتِ القُلُوبُ بالنِّيرَانِ، وَإنْ بَسَمَتْ أزْرَتْ بالْجُمانِ، وَبِيعَ الْمَرْجَانُ بالمجّان، وإن رَنَتْ هيَّجَتِ البَلابِلَ، وَحَقَّقَتْ سِحْرَ بابل، وإنْ نَطَقَتْ عَقَلَتْ لُبَّ العاقل؛ واسْتَنْزَلَتِ العُصْمَ مِنَ المَعَاقِل، وإن قَرَأت شفَتِ المَفْؤودِ، وأحْيَيتِ المَوءودَ، وَخِلْتها أوتيتْ من مَزَامِيرِ آلِ داود، وَإنْ غَنَّتْ ظَلَّ معْبَدٌ لَهَا عَبْداً، وقيل سحقاً لإسحاق وَبُعْداً، وإن زمَرَتْ أضْحَي زُنام عِنْدها زنيماً، بَعْدَ أن كان لِجيلهِ زعَيماً، وبالإطرابِ زَعِيماً، وإن رَقَصَتْ أَمَالتِ العَمَائِم عن الرّؤوسِ، وَأنْسَتْكَ رَقْصَ الحَبَبِ في الكؤوسِ، فكنتُ أزدري مَعَها حُمْرَ النّعَم، وأُحَلِّي بتملّيها جيدَ النَّعم، وأحْجُبُ مَرْآها عن الشمس والقمر، وأذود ذكراها عن شرائع السَّمَر، وأنا مَعَ ذلِكَ أُلِيحُ، من أنْ تَسْرِيَ بِريّاها ريحٌ، أو يَكْهُنَ بهَا سَطِيح، أوْ ينُمَّ عَلَيها بَرْقٌ مُلِيح.

* * *

قوله: «مجارية»، مباربة معارضة، وفلان يباري الريح جوداً، كأنه يعارضها بفعله، فإذا هبت في زمن الشتاء والجهد، فضرّت المحتاجين تتبّع آثار فسادِها بماله وهباته فأصلحها.

سفرت: كَشَفَتْ وجهها. خجِل: استحيا. النّيّران: الشمس والقمر.

صَلِيت: أُحرقت، يقول: إذا كشفت وجهها افتضحت الشمس والقمر لبديع حسنها، واخترقت القلوب بنيران حبها.

* * *

[مما قيل في وصف النساء]

ونسوق هنا جملة من الشعر المستحسن في أوصاف النسوان: قال الشاعر: [البسيط]

---

(١) البيتان لبشار في أمالي القالي ١/ ٨٣، وليسا في ديوانه.

لما تبدّت من الأستار قلتُ لها سبحان سبحان ربيّ خالقِ الصُّوَرِ
ما كنت أحسِب شمساً غيرَ واحدة حتى رأيت لها أختاً من البَشَرِ
كأنها هي إلا إن يفضلّها حسنُ الدلال وطرف فاتر النظرِ

وقال أعرابي: [الطويل]

إذا حُجبَتْ لم يكفِك البدرُ فقْدها وتكفيك فقدَ البدر إن فُقِدَ الْبَدْرُ
وحسبك من خمر تفوتك ريقها ووالله ما مِنْ ريقها حسبُكَ الخمرُ
وما الصَّبر عنها إن صبرتَ وَجَدْته جميلاً، وهل في مثلها يُحسن الصبرُ!
ولو أن جلد الذّرّ لامسَ جلدَها لكان للمس الذّرّ في جلدها أثرّ

وقال العباس بن الأحنف: [البسيط]

تاهتْ علينا بأنْ تَمَّتْ محاسنُها خَوْدٌ تكمَّلُ في أعطافها الفِتَنُ[1]
هَمَمتْ بإتياننا حتى إذا نظرتْ إلى المِرَآةِ نهاها وجهها الحسنُ
ما كان هذا جزائي من محاسِنِها أغرت بيَ الشَّوَق حتى شفّني الشَّجَنُ

وقال بشار: [الخفيف]

درّة حيثما أديرت أضاءتْ ومشمّ من حَيْثُمَا شُمّ فاحَا
وجناتُ قال الإله لها كو ني فكانت رَوْحا رُوحا ورَاحَا

وله أيضاً: [البسيط]

كأنها يوم رَاحَتْ في محاسنها قارْتَجَّ أسفلُها واهتزّ أعلاها
حَوراء جاءت من الفردوس مقبلةً بالشمس طلعتُها والمِسْك رَيّاها
راحت ولم تعطِه بُرءاً لِمِلّتِه عنها ولو سألته النّفس أعْطَاها
من اللواتي اكتستْ برداً فشقّ لها من حسنها الحسنُ سِرْباً لإفرادّها

وقال السَّلامي: [الطويل]

وفيهنّ سكرى اللّحظ سَكْرَى من الصَّبا يُعاتب حلوُ اللفظ حُلْوا الشَّمائل
أدارت علينا من سُلافِ خدودها كؤوساً وغنَّتنا بصوت الخلاخل

وقال أيضاً [البسيط]

لبيّكَ لبيّكَ داعي اللّهو من كَثَبِ إلى معاطفَ كالأغصان من كُثُبِ
إن السَّوالف كالسّوسان في صُعُدِ إنّ الغدائر كالخلخال في صَبَبِ

(١) الأبيات في ديوان العباس بن الأحنف ص ٢٨٠.

إلى خدود بنات الروم قد برزتْ ... من حجْبها وأدارت أعْيُنَ العَربِ
من كلّ سافرة عن مشرقٍ خجلا ... فيه طرازان من ماءٍ ومن لهبِ
واستضحكت عن لآلٍ أو حصى بَرَدٍ ... يكاد يَقطرُ من مائية الشَّنَبِ
تحدُو بها فتية صيغت وجوههمُ ... من الرِّضا وعواليهمْ من الغضَبِ

وللأمير تميم بن المعز: [البسيط]

ناولتُها شِبْهَ خدِّيها معتّقةً ... صِرفاً كأنّ سناها ضوء مقباس
فقبّلتها وهي ضاحكةٌ ... فكيف تُهدى خُدُودَ النّاس للناس
قلت اشربي فهي دَمْعي، وحمرتها ... دمي، وطابخها في الكأس أنفاسي
قالت فإن كنت من حُبي بكيت دماً ... فأسقنيها على العينين والرّأسِ
يا ليلة بات فيها البدر مُعتنِقي ... وباتت الشمس فيها بعض جلاّسي
وبتُّ مستغنياً بالثغر عن قدحٍ ... وبالخُدود عن التّفاح والآس

وقال أيضاً: [البسيط]

قالتْ وقد نَالها للبين أوجعُه ... والبين صعبٌ على الأحباب موقِعهُ
اجعل يديك على قلبي فقد ضعُفَتْ ... قواه عن حمل ما تحويه أضلُعُهُ
واعطفْ عليّ المطايا ساعةً فعسى ... مَنْ شتّ شملَ الهوى بالوصل يجمعهُ
كأنني يوم وَلّتْ حسرةً وأسى ... غريق بحر يَرَى الشّاطي ويمنعهُ

وقال التهامي: [البسيط]

أهدى لنا طيفُها نجداً وساكنَه ... حتى اقتنصنا ظِبَاء البدو في الحَضرِ
فبات يجلو لنا من وجهها قمراً ... من الْبَرَاقع لولا كُلْفَة القَمرِ
وراعها حرّ أنفاسي فقلت لها: ... هواي نار وأنفاسي من الشّرَرِ
وزاد دُرّ الثنايا دَرَّ أدمعها ... فالتفّ منتظمٌ منه بمنتثِر
ولو قدرت وثوبُ الليل منخرقٌ ... بالصبح رقّعته منهن بالشَّعَرِ
بيضاء يَسحبُ ليلا حسنه أبداً ... في الطّول منه وحسن الليل في القِصَرِ
لو لم يكن أقحوانا ثغرُ مبسمها ... ما كان يَزداد طيباً ساعة السَّحَرِ

ولبعض أصحابنا: [الطويل]

شُدِهْتُ فلا أدري بأيِّ صفاتها ... تقيّد ألباب الورَى وَتُقودها
وأي لآليها أشدُّ نفاسة ... أمنطقها أم ثغرها أم عقودُها!
فللشمس مرآها، وللغصن قدّها، ... وللمسك ريّاها، وللرّيم جيدها

قال الحسن: [الكامل]

وذات خـــدٍّ مـــورّدْ فـتّـانـة الـمـتـجـرَّدْ
تـأمـل الـعـيـن مـنـهـا مـحـاسـنـاً لـيـس تـنـفـدْ
فـبـعـضـهـا فـي انـتـهـاء وبـعـضـهـا يـتـولّـدْ
فـالـحـسـن فـي كـلّ جـزء مـنـهـا مـعـادٌ مـردَّدْ
وكـلـمـا عـدت فـيـهـا تـكـون فـي الـعَـوْدِ أحـمـدْ

* * *

قوله: «أزرت بالجمان»، أي قصرت بحبّ الفضة.

والمرجان: اللؤلؤ الصغار.

والمجان: شيء لا ثمن له، وخذ هذا مجاناً، أي باطلاً؛ أراد أنها إذا ضحكت فبدت أسنانها كانت أحسن مما وصف. وأخذه من قول أبي تمام: [السريع]

وقـهـوةٍ كـوكـبـهـا يـزهـرُ يَسْطَعُ منها المِسْكُ والعنْبَرُ[1]
ورديّـةٌ يـحـثُّـهـا شـادنٌ كـأنـهـا مـن خـدّه تُـعْـصَـرُ
مـهـفـهـف لـم يـبـتـسم ضـاحـكـاً مـذ كـان إلا كَـسَـدَ الـجـوهـر

وقال آخر وذكر المجان: [البسيط]

عثمان يعلم أنّ المدح ذو ثمنٍ لكنه يشتهي مدحاً بمجّانِ
والناس أكيس من أن يمدحوا رجلاً حتى يروا عنده آثار إحسان

رنت: نظرت، البلابل: وساوس الهموم. والسِّحْر، ينسب إلى بابل وقال السَّلامي في هذا المعنى:

أكحِيلة الأجفان بالسِّحر الذّي لولاه ما درت البلابل بابلْ
قد كان قلبي غافلاً عمّا به أودي وقلبُ أخي السّلامة غافلْ
حتى دَهاني منك صدرٌ رامح ذرب سِنَاناه وطرفٌ قاتلْ
ما عِقدك المهنا بجيدك درّة لكن فِرِندٌ في حسامٍ جائلْ

وللأمير تميم بن المعتز: [المنسرح]

وليلةٍ بتُّها على طَرَبِ آخرها مشبِهٌ لأولاها
أقبّل البرق من ثنيّتها وألثم الشمس من محياها

(١) الأبيات في ديوان أبي تمام ص ٣٧١.

سقَتْنِيَ الرّياح وهي خدّاها بأكؤوس السّحر وهي عيناها
إذا أرادتْ مزاجَها جعلت بآخر اللحظ من فمي فاها
فيا لها قهوةً معتّقةً وليس إلا الخدود مأواها
حَبَابها الثغر حين تمزج لي وَنُقْلُها الّلثْمُ حين أُسْقاها

* * *

[ذكر بابل]

وبابل مدينة كان ينزلها ملوك العجم، وهي دار نمروذ بن كنعان، وكانت بابل، من استعظامها واستبشاع أمرها، لا تكاد تحصل، وأسسها نمروذ، وكانت مدينة ضاحكة المنظر، زاهية البناء، واسعة الفناء، جمعت إلى حسن المنظر رصافة البنيان وبهاء المنصب، فكانت سهلة بطحاء مربعة، في كل تربيع حصنان عظيمان، وسورها لا يكاد سامع خبره يصدقه، كان عرضه خمسين ذراعاً، في ارتفاع مائتي ذراع، في دور أربعة وستين ميلاً، وحوله خندق يجري فيه الفرات، وفيها مائة باب نحاس.

وهي أقدم بناء بُنِي بعد الطوفان، ونسب السّحر لها لأن بها هاورت وماروت معلمي السِّحر، فكان يعجبان من بني آدم حيث يعصون الله تعالى على إنعامه عليهم، فابتلاهما الله تعالى فسلط عليهما الشّهوة الآدمية، وحرم عليهما القتل والزنا والخمر؛ وأنزلهما إلى الأرض للحُكم بين أهلها، فجاءتهما الزّهرة في خصام، فوقعت في قلوبهما، فشكا كلّ واحدٍ منهما لصاحبه ما يجده من حبِّها، فأرسلا إليها، فراوداها فأبت حتى يعلماها الاسم الذي يرجعان به إلى السماء، فأبيا عليها، قالت لهما: فاشربا الخمر، فشرباها فسكرا وعلّماها الاسم، وواقعاها، ثم خرجا فوجدا رجلاً، فظنّا أنه ظهر على أمرهما فقتلاه، وتكلمت الزهرة الاسم الذي يرجعان به إلى السماء فرفعت ومسخت كوكباً وخُيِّرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاختارا عذاب الدنيا، فهما يعذبان ببابل، ويعلمان السحر.

وجاءت امرأة إلى عائشة رضي الله عنها، فقالت: يا أم المؤمنين، قالت لي امرأة: هل لك أن أعلِّمك شيئاً يصرف وجه زوجك إليك! فأتت بتيسين، فركبتُ واحداً، وركبت الآخر، وسرنا ما شاء الله فقالت: أتدرين أنك ببابل؟ ودخلت على رجلين، فقالا لي: بُولِي على ذلك الرماد، فذهبت ولم أبل، ورجعت فقالا لي: ما رأيت؟ فقلت: ما رأيت شيئاً، قالا: أنت على رأس أمرك، فرجعت فتشدّدت وبلت؛ فخرج مثل الفارس المقنع، فصعد في السماء، فقالا لي: ما رأيت؟ فأخبرتهما، فقالا لي: ذلك إيمانك فارقك، فخرجت إلى المرأة، فقلت لها: والله ما علّماني شيئاً، ولا قالا لي كيف أصنع، فقالت: فما رأيت؟ قلت: كذا وكذا، فقال: أنت أسحر العرب، اعملية، فقطعت جداول، فإذا

زرع يهتز، فقلت: أفِرك فإذا هو قد يبس، فأخذته وفركته، وقالت: خذيه، واجعليه سويقاً واسقيه زوجك، فلم أفعل شيئاً من ذلك، وانتهى الأمر إلى هذا فهل لي من توبة؟.

ورأت رجلاً من خُزاعة فقالت: يا أم المؤمنين، هذا أشبه الناس بها روت وما روت. روى هذا الحديث بإسناد له ابن قتيبة.

* * *

قوله: «عقلت لبّ العاقل»، اللبّ: العقل، وعقلته: شددته بِعقال، وهو قيد البعير.

والعُصْم: الوعول، والأعصم: التيس الجبلي الذي في يديه بياض، والمعصم: موضع الخلخال.

الخليل: الأعصم الوَعِل، وعصمته: بياض في رجليه.

والمعاقل: قرون الجبال، وأراد أن كلامها لعذوبته يغلب أهل العقول حتى تعدّاهم إلى الوحش، أو يريد بالعصم من له عزمة وهمة من الرجال، فإذا سمعها تذلل لها.

وأخذ هذا من قول أبي بكر بن دريد: **[المنسرح]**

لَوْ ناجَتِ الأعصمَ لا نحطّ لها ... طوعَ القياد من شماريخ الذّرا

أو صابت القانت في مخلولقٍ ... مستصعب المسلك وَعْر المرتقى

ألهاهُ عن تسبيحه ودينه ... تأنيسها حتى تراه قد صَبَا

والسابق إلى هذا المعنى النابغة بقوله: **[الكامل]**

لو أنها عَرَضَتْ لأشمط راهبٍ ... عَبَدَ الإله صَرُورةٍ متعبدِ[(١)]

لرنا لرؤيتها وحُسْن حديثها ... ولخالهُ رشداً وإن لم يُرشدِ

والمفؤود: الذي يشتكي فؤاده، والموءود: المدفون حيّاً، وانظره في الخامسة والثلاثين.

وأراد أنّ حسن صوتها بالقرآن يشفي من مرض الفؤاد، ويحيي الموتى والعرب تزعم في شعرها أنّ إفراط الحسن يحيي الموتى. قال الأعشى: **[السريع]**

لو أسْنَدَتْ مَيْتاً إلى نَحْرها ... قام ولم يُحْمَل إلى قابرِ[(٢)]

---

(١) البيتان للنابغة الذبياني في ديوانه ص ٩٥، والبيت الأول في لسان العرب (صرر) ومقاييس اللغة ٣/ ٢٨٥، ومجمل اللغة ٣/ ٢٢٥، وجمهرة اللغة ص ١٢٥٢، وتهذيب اللغة ١٢/ ١٠٩، وتاج العروس (صرر).

(٢) يروى البيت الأول:

لو أسندت ميتاً إلى قبرها ... عاش ولم ينقل إلى قابرِ =

حتى يقول الناس مما رأوا ... يا عجبا للميِّت الناشر!

وقال توبة بن الحُمَيْر: [الطويل]

ولو أنّ ليلى الأخيليَّة سلَّمتْ ... عليّ وفوقي تُرْبَةٌ وصفائحُ[1]

لسلمت تسليم البشاشة أو زَقَا ... إليها صدًى من جانب القبر صائحُ

وقوله: «مزامير»، المزمار: الصوت نفسه، والجمع مزامير. وقيل: صوابه زمار، ولا يقال زامر، ويقال للأنثى: زامرة ولا يقال: زمّارة، والآلة التي يزمر بها الزّمارة.

وكان داود عليه الصلاة والسلام أحسن خلق الله صوتاً، وإذا قرأ الزبُّور رقت لصوته الوحوش، وحنت حتى تؤخذ بأعناقها وهي مصغية له، وما صنعت الشياطين المزامير والبرابط إلا على صوته.

ومعبد، أطبع المغنين المتقدمين، إسحاق الموصلي أطبع المتأخرين، وفي معبد يقول حبيب: [الطويل]

محاسنُ أوصاف المغنّين جَمَّةٌ ... وما قَصَبَاتُ السَّبْق إلاَّ لِمَعبدِ[2]

* * *

[معبد المغني]

وهو معبد بن وهب، وقيل ابن قطن وأبوه أسود، وكان هو خِلاسيًّا مديد القامة، أحْول.

غنّى في أول الدولة الأموية، وتوفي أيام الوليد بن يزيد.

وكان علّم جارية اسمها ظبية فاشتراها رجل من الأهواز، وذهبت به إلى كلّ مذهب، فماتت وأخذت جواريه أكثر غنائها، فكان من أجلها يفضل معبداً على نظرائه، ويظهر التعصّب له، فسمع به معبد، فخرج إليه حتى أتى البصرة، فصادف الرّجل خارجاً إلى الأهواز في سفينة، فسأله الدخول معه فأمر الملاح أن يُجلسه في مؤخر السفينة،

= وهو في ديوان الأعشى ص ١٨٩، ومقاييس اللغة ٥/ ٤٧. والبيت الثاني في ديوان الأعشى ص ١٩١، ولسان العرب (نشر)، وتهذيب اللغة ١١/ ٣٣٨، ومقاييس اللغة ٥/ ٤٣٠، وتاج العروس (نشر)، وبلا نسبة في المخصص ٩/ ٩٢.

(١) البيتان لتوبة بن الحمير في الأغاني ١١/ ٢٢٩ وأمالي المرتضى ١/ ٤٥٠، والحماسة البصرية ٢/ ١٠٨، والدرر اللوامع ٥/ ٩٦، وسمط الآلي ص ١٢٠. وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ١٣١١، وشرح شواهد المغني ص ٦٤٤، والشعر والشعراء ١/ ٤٥٣، ومغني اللبيب ١/ ٢٦١، والمقاصد النحوية ٤/ ٤٥٣، وهما لرؤبة في همع الهوامع، وليسا في ديوانه، وهما بلا نسبة في الجنى الداني ص ٢٨٦، وشرح الأشموني ٣/ ٦٠٠، وشرح ابن عقيل ص ٥٩٣.

(٢) البيت في ديوانه أبي تمام ص ١٠٣.

وانحدر حتى بلغ إلى فم نهر الأبلة فتغدّوا وشربوا، وأمر جواريه فغنّين، فغنت إحداهنّ للنابغة: **[البسيط]**

بانت سعادُ وأمْسَى حَبْلُها انجذما[1]

ومعبد ساكت في ثياب السّفر، حتى سكتت، فصاح: يا جارية، غناؤك ليس بمستقيم، فغضب مولاها، وقال: وما أنت والغناء! ثم غنَّت الثانية بشعر عبد الرحمن بن أبي بكر: **[الرمل]**

يا بنة الأزديّ قلبي كئيبُ ... مُستهام عندها ما يُنيبُ[2]

ولقد قالوا فقلتُ دعوني ... إنّ مَنْ تَنْهَوْنَ عنهُ حبيبُ

إنّما أفني عظامي وجسمي ... حُبُّها، والحبّ شيء عجيب

فصاح معبد: يا جارية، قد أخللتِ بهذا الصوت إخلالاً شديداً! فازداد غضباً مولاها، وقال: ويلك! أما تكفّ عن هذا الفُضُول! ثم غنَّت أخرى لكُثَيِّر فقالت: **[الطويل]**

خليليّ عوجا سَلّما ساعة معِي ... على الرّبع نقضي حاجة ونودِّعِ[3]

وقولا لقلبٍ قدْ سَلا: راجع الهوى ... وللعين أذرى من دموعك أو دَعِي

فلا عيش إلا مثل عيش مضَى لنا ... مَصِيفاً أقمنا فيه من بعد مَرْبع

فقال معبد: ما قومتنّ صوتاً واحداً، فقال له الرجل: والله ما أراك تدع هذا الفضول بوجه ولا حيلة، وأقسمت بالله لئن عاودته لأخرجنّك من السفينة، فاندفع معبد يغني الصوت الأوَّل، فصاح الجواري: أحسنت والله يا رجل! فأعِده، قال: لا ولا كرامة، ثم غنى الثاني، فقلن لسيدهنّ: هذا والله أحسنُ الناس غناء، فاسأله أن يعيد لعلّنا أن نأخذه، ثم غنّى الثالث فزلزل عليهم السفينة، فوثب الرجل وقبّل رأسه، وقال: أخطأنا عليك، فأسألك أن تنزل إليّ، فأبى فلم يزل به حتى نزل، وقال له: مِنْ أين أخذ جواريك هذا الغناء؟ قال: من جارية أخذت عن أبي عباد معبد، ثم استأثر الله بها، وكانت منّي محل الروح من الجسد، فلذلك أفضل معبداً على جميع المغنيين، فقال له معبد: وإنك لأنت هو! أفتعرفني؟ قال: لا، فصك معبد بيده صلعته، وقال: فأنا والله معبد، وإليك قدمت

---

(١) عجزه:

واحتلّت الشرع فالأجراع من إضما

والبيت للنابغة الذبياني في ديوانه ص ٦١، ولسان العرب (أضم)، (جذم)، وتاج العروس (أضم)، ومقاييس اللغة ١/ ٤٣٩، ومجمل اللغة ١/ ٤١٨، وبلا نسبة في لسان العرب (آ).

(٢) الأبيات بلا نسبة في الأغاني ١/ ٥٠.

(٣) الأبيات لكثير في الأغاني ١/ ٥٠، وليست في ديوانه.

من الحجاز، ولقصدكم بالأهواز دخلت السفينة، والله لا قصَرتُ في جواريك [هؤلاء] حتى أجعلهنّ خلفاً من الماضية، فأكبَّ الرجل والجواري على يديه ورجليه بالتقبيل، ويقولون: «كتمتنا نفسك، حتى أسأنا عشرتك، وأنت مِمّن نتمنَّى من الله أن نلقاه».

ثم وهب له ثلاثمائة دينار وطيباً وهدايا بمثلها، فأقام عنده سنة حتى أخذ عنه جواريه ثم انصرف إلى الحجاز.

قال ابن الكلبي: قدم ابن سريح والغريض المدينة، وكانا في صنعة الغناء من الحذاق، يتعرّضان لمعروف أهلها، فلما شارفاها تقدّما ثقلهما، ليرتادا منزلاً، حتى إذا همّا بمغسلة تغسل فيها الثّياب قرب المدينة، إذا هما بغلام ملتحف بإزارٍ وطرفه على رأسه، وبيده حُبالة يصيد بها الطير، وهو يتغنّى: **[البسيط]**

القصر فالنخل فالجمّاء بينهما ... أشهى إلى القلب من أبواب جيرونِ[1]

فإذا الغلام معبد فلما سمعاه مالا إليه، واستعاداه، فأعاد الصوت، فسمعا شيئاً لم يسمعا مثله قطّ، فقال أحدهما لصاحبه: هل سمعت كاليوم قطّ؟ قال: لا والله، فما رأيك؟ قال ابن سريج: هذا غناء غلام يصيد الطّير، فكيف بمن في المدينة، أمّا أنا فثكلت والدي إن لم أرجع، فرجع ولم يدخلها.

وروى إسحاق أنّ معبداً سافر إلى مكة، فسمع ببطن مرّ غناء، فقصد الموضع، وإذا رجل جالس على حرف بركة فارقٌ شعرهُ حسن الوجه عليه درَّاعة مصبوغة بزعفران، وهو يتغنى: **[الخفيف]**

حِنّ قلبي من بعد ما قد أنَابا[2] ... ودعا الهمّ شجوه فأجابا

ذاك من منزلٍ لسلمى خلاءٍ ... لابس من خلائِه جلبابا

عُجْتُ فيه وقلت للرّكب عوجوا ... طمعاً أن يردّ رَبْعٌ جوابا

فاستثار المنسيّ من لوعة الحـ ... ـبّ وأبدي الهموم والأوصابا

فقرع معبد بعصاه وغنى: **[الكامل]**

مَنَع الحياة من الرجال ونفعَها ... حَدَقٌ تقلّبها النّساءِ مِرَاضُ[3]

وكأنّ أفئدة الرجال إذ رأوا ... حَدَق النساء لنَبْلها أغراضُ

---

(١) بعده في الأغاني ١/ ١١

قد يكتم الناس أسراراً فأعلمها ... وما ينالون حتى الموت مكنوني

والبيت الأخير للمعيطي في لسان العرب (كنن).

(٢) الأبيات في الأغاني ١/ ٤٧.

(٣) البيتان للفرزدق في ديوانه ص ٤٨٨، والأغاني ١/ ٤٨.

فقال الرجل له: أنت معبد؟ قال نعم، وقال له معبد: بالله أنت ابن سريج! قال: نعم، ووالله لو عرفتك ما غنّيت بين يديك.

قال معبد: فلما قدمت مكة، قيل لي: إن ابن صفوان قد جَعَل بين المغنّين جائزة، فأتيت بابه، فطلبت الدّخول، فقال لي آذنهُ: قد أمرني أن ألا آذن لأحد عليه، قلت: فدعني أدنو من الباب، فأغني صوتاً، فقال: أمّا هذا فنعم، فدنوت من الباب، فغنيت، فقالوا: معبد، ففتحوا لي وأخذت الجائزة.

* * *

[إسحاق الموصلي]

وأما إسحاق فذكره صاحب الأغاني، وقال: كان محلّ إسحاق من العلم والأدب والرواية، وتقدمه في الشعر وسائر المحاسن أشهرُ من أن يوصف، وأما الغناء فكان أصغر علومه، وأدنى ما وسم به وإن كان الغالب عليه؛ وهو الذي صحح أجناس الغناء وطرائفها، وميزها تمييزاً لم يقدر أحد عليه قبله ولا بعده، من تدقيق المجاري، وتمييز الأصناف التي جعلوها صنفاً واحداً، وهي في نفسها كذلك، ولكنها تفترق عند متيقظ مثله، وأين مثله! وروي عنه أنه قال: بقيتُ دهراً أُغلِّس إلى هشام أسمع الحديث وإلى الكسائي أقرأ عليه جزءاً من القرآن، وإلى الفرّاء وابن غزالة أسمع اللغة، ثم آتي منصور زلزل، فيطارحني طريقتين أو ثلاثاً، ثم آتي عاتكة بنت شهدة، فآخذ منها صوتاً أو صوتين، ثم آتي الأصمعيّ وأبا عبيدة، فأستفيد منهما وأناشدهما، ثم أصير إلى أبي فأعلمه بما صنعت، وأتغدّى معه، فإذا كان العشي رحت إلى الرشيد.

وروى الحديث، ولقي أهله، مثل مالك بن أنس وسفيان بن عيينة وغيرهما، وسأل المأمون أن يكون دخوله مع أهل العلَم والأدب، لا مع المغنين، فإذا أراده للغناء غنَّاه، فأجابه إلى ذلك.

وقال المأمون: لولا ما سبق لإسحاق على ألسنة الناس من الشهرة بالغناء، لوليته القضاء بحضرتي، فإنه أولى به، وأصدق وأعفّ، وأكثر ديناً وأمانة من هؤلاء القضاة، وكان أجود الناس بالمال وأبخلهم بالغناء، وأعطى لمنصور زلزل لّما علمه الضّرب بالعود أكثر من مائة ألف درهم.

وأهدى له ابن الأعرابي نسخة من النوادر بخطه، فمرّ يوماً على المدائنيّ، فقال: إلى أين يا أبا عبد الله؟ قال: أمرّ على رجل كما قال الشاعر: [المنسرح]

نحمل أشباحنا إلى ملِكٍ نأخذ من ماله ومن أدبِهْ

فقال: ومن هو؟ قال: أبو محمد إسحاق بن إبراهيم.

ومات وهو أشعر أهل زمانه، وقال رأيت جريراً في منامي ينشد شعراً، فلما فرغ

أخذ كُبّة شعر فألقاها في فمي، فابتلعتُها، فتأوّلت ذلك أنه ورثني الشعر.

ومرّ به شيخ وهو في الحديث، فقال لجلسائه: هذا أشبه النّاس بجرير الذي رأيت، فسئل الشيخ، فإذا هو عُمارة بن عقيل بن بلال بن جرير. ومن شعره يفتخر: [الطويل]

إذا كانت الأحرار أصلي ومَنْصِبِي وقام بنصري خازمٌ وابن خازم

عطست بأنفٍ شامخ وتناولتْ يداي الثّريا قاعداً غير قائم

وسمعهما الأصمعي فاستحسنهما، وأعجب بهما وفضلّهما.

ودخل على مروان بن أبي حفصة وهو يتحدث مع أبيه فأنشده: [الطويل]

إذا مضر الحمراء كانت أرُومتي وقام بنصري خازم وابن خازم

عطست بأنف... البيت.

فجعل إبراهيم يحدّث مروان، وهو ساه عنه، فقال: ما لك لا تجيبني فقال: إنك ما تدري ما أفرَغ ابنك في أذني. ووجه إليه أحمد بن هشام بزعفران رطب وكتب إليه: [البسيط]

اشرب على زعفران الرّطب متّكئاً وأنعم نِعْمَتَ بطول اللّهو والطربِ

فحرمة الكأس بين الناس واجبةٌ كحرمة الودّ والأرحام والأدب

فأجابه إسحاق الموصلي: [البسيط]

اذكُرْ أبا جعفرَ حقّاً أمُتُّ بِهِ أنّي وإياك مشغوفان بالأدبِ

وأنّنا قد رَضَعْنا الكأس دِرّتها والكأس حرمتُها أولى من النَّسبِ

وجلس عند إبراهيم بن مصعب للشرب، فسقى الغلمان من حضر وجاء غلام قبيح الوجه بقدح إلى إسحاق، فلم يأخذ منه، فقال له إبراهيم: لِمَ لا تشرب؟ فقال: [البسيط]

أصبَحْ نديمك أقداحاً تسلسِلُها من الشّمول وأتبعها بأقداح

من كفّ رَيْم مليح الوجه ريقتُه بعد الهجوع كمسك أو كتّفاحِ

لا أشرب الراح إلا من يدي رشَإ تقبيلُ راحته تُغني عن الرَّاح

فدعا له بوصيفة تامة الحسن، في زيّ غلام، عليها أقبية ومنطقة، فسقته حتى سَكِر، ثم أمر بتوجيهها إليه بكلّ ما معها إلى داره.

ومن طرف إسحاق، أن كلثوماً العتابي كان من العلم وغزارة الأدب وكثرة الحفظ والترسل والنظم على ما لم يكن عليه أحد، فحضر مجلس المأمون، فوضع بين يديه ألف دينار، وغمز إسحاق بالعبث به، فأقبل إسحاق يعارضه في كل باب ويزيد عليه، وهو لا يعرف إسحاق، فقال: أيأذن أمير المؤمنين في نسبة هذا الرجل، والسؤال عن اسمه؟ فقال: أفعل، فقال له العتابي: ما اسمك ومن أين أنت؟ فقال: أنا من الناس، واسمي كلْ

بَصَل، فقال له العتابي: أما النسبة فمعروفة، وأما الاسم فمنكور، فقال له إسحاق: ما أقلّ إنصافك، أو ما كُلْثوم من الأسماء! فالبصل أطيب من الثوم! فقال له العتابي: قاتلك الله، ما أملحك! ما رأيت كالرجل حلاوة، أيأذن أمير المؤمنين في صلته بما وصلني، فقد والله غلبني؟ فقال له المأمون: بل ذلك موفور عليك، وأمر له بمثله. فانصرف إسحاق إلى منزله، ونادمه العتابي بقية يومه.

وكانت هُشيمة الخمّارة تجيد الشراب، فلما ماتت قال يرثيها: **[الكامل]**

أضحت هشيمة في القُبورِ مقيمةً ... وخلت منازلها من الفتيانِ

كانت إذا هجر الحبيب محبّه ... دُبّت له في السرِّ والإعلان

حتّى يلين لما تريد قيادهُ ... ويصيرَ سيئُه إلى الإحسان

وهو إسحاق بن إبراهيم بن ماهان، أصله فارسيّ، وترك ماهان إبراهيم صغيراً فنشأ في بني تميم.

وهذا الذي ذكرنا نبذة من أدبه.

وأما محاسنه في الغناء فلا يأتي عليها الحصر، قال الواثق: ما غنّاني إسحاق قطّ إلا ظننت أن قد زيد في ملكي؛ وإن إسحاق نعمةٌ من نعم المُلْك، التي لم يحظ أحد بمثلها؛ لو أن له العمر والنشاط ممّا يشتري لاشتريتهما بشطر ملكي.

وحدّث حمّاد ابنه قال: حدثني أبي قال: غدوت يوماً وأنا ضجر من ملازمة دار الخليفة. فركبت بكرةً عازماً أن أطوف في الصّحراء، وأتفرّج، وقلت لغلمانيّ: إن جاء رسول الخليفة فعرفوه أني ركبت في مُهِمّ ومضيت، وطفت ما بدا لي، وغدوت، وعدت، وقد حَمي النّهار، فوقفت في ظلّ جناح شارع لأستريح، فلم ألبث أن خادم جاء يقود حماراً فارهاً عليه جارية تحتها منديل دبيقيّ. وعليها من اللباس الفاخر ما لا غاية وراءه، فرأيت لها شمائل ظريفة وطرفاً فاتراً، فحدّثت أنها مغنية، فدخلت الدار التي كنت عليها واقفاً، فعلقها قلبي علوقاً شديداً لم أستطع معه براحاً، وأقبل رجلان شابان، لهما هيبة تدلّ على قدرهما، وهما راكبان، فأذن لهما فحملني حبُّ الجارية وحسن حالهما أن توسلت بهما، فدخلت معهما، فظنّا أن صاحب الدار دعاني، وظن هو أني معهما، فجلسنا، وأتي بالطعام فأكلنا، وجيء بالشراب، فخرجت الجارية، وفي يدها عود، فرأيت جارية حسناء، فغنت غناء صالحاً، فتمكّن ما في قلبي منها، وشربنا. ثم قمت للبول، فسألهما صاحب المنزل عني، فأنكراني، فقال: هذا طفيلي، ولكنه ظريف، فأجملوا عشرته، فجئت وجلست فغنّت في لحن لي: **[الطويل]**

ذكرتك أنْ مَرَّتْ بنَا أمُّ شادنٍ ... أمام المطايا تشرئبُّ وتسنَحُ

من المؤلفَات الرّمل أدماءُ حُرّةٌ ... شُعاع الضُّحى في وجهها يتوضّحُ

فأدّته أداء صالحاً. ثم غنّت أصواتاً فيها من صنعتي: [مجزوء الخفيف]

الطّلول الدوارسُ فارَقَتْها الأوانِسُ
أوحشتْ بعد أنسِها فهي قَفْرٌ بسَابِسُ

فكان أمرها فيه أصْلَحَ من الأوّل، ثم غنّت من صنعتي في شعري: [الخفيف]

قل لمن صدّ عاتباً ونأى عنك جانِبَا
قد بلغتَ الّذي أرد تَ وإن كنت لاعِبا
واعترفنا بما ادّعيـ ـت وإن كنت كاذبا

فكان أصلح ممّا غنته، فاستعدته منها لأصحّحه. فأقبل عليّ أحد الرجلين، فقال: ما رأيتُ طفيليًا أصفَق وجهاً منك، لم تَرْضَ بالتّطفيل حتى اقترحت! وهذا تصديق المثل، «طفيلي وقد يقترح»، فلم أجبه. وكفّه صاحبُه عني، فلم ينكَفَّ، ثم قاموا للصّلاة فأخذتُ عود الجارية، وأصلحته إصلاحاً محكماً. وعدت إلى موضعي، فصلّيت، ثم عادوا، فعاد ذلك الرجل في عَرْبَدَته عليّ، وأنا صامت، فأخذت الجارية عودَها، وجسّته، فقالت: مَنْ جسّ عودي؟ فقالوا: ما جسَّه أحد، فقالت: والله لقد جسَّه حاذق متقدّم، وشدَّ طبقته، فقلتُ لها: أنا أصلحته، فقالت: بالله عليك خذه، واضرب به، فأخذته منها وضربتُ مبدأ طريق عجيب صَعْب، فيه نَقَرات محكَمة، فما بَقِيَ منهم أحدٌ إلا وثب، وجلس بين يدي، وقالوا: بالله يا سيدي، تُغنّي؟ قلت: نعم، وأعرّفكم بنفسيَ أنا إسحاقي الموصليّ، والله إني لأتيه على الخليفة وأنتم تشتمونني منذ اليوم لأني تملّحْتُ معكم بسبب هذه الجارية! ووالله لا نطقتُ بحرف ولا جلست معكم، أو تخرِجوا هذا المعربد الغثّ، ونهضت لأخرج. فتعلّقوا بي وتعلّقت الجارية بي، فقلت: والله لا أجلس إلا أن يخرَجَ؛ فقال له صاحبه: مِنْ شِبْه هذا حذرت عليك، فأخرجوه، فغنّيت الأصوات التّي غنتّها الجارية من صنعتي؛ فطرب صاحبُ البيت طرباً شديداً، وقال لي: هل لك في أمرٍ أعرضه عليك؟ فقلت: ما هو؟ فقال: تقيم عندي شهراً، والجارية مع ما عليها لك، فقلت: أفعل، فأقمتُ عنده ثلاثين يوماً لا يعرف أحدٌ أين أنا، والمأمونُ يطلبني.

فجئت بذلك منزلي بعد شهر، وركبت إلى المأمون، فقال لي: يا إسحاق، ويحك! أين تكون؟ فعرَّفته الخبر فقال: عليّ بالرجل الساعة، فعرَّفتهم موضعه فأحضره، وقال: أنت رجل ذو مروءة وسبيلُك أن تُعاون عليها، فأمر له بمائة ألف درهم، ونهاه ألاّ يعاشر ذلك المعربد النّذل، وأمر لي بخمسين ألفاً، وقال: أحضِرْ لي الجارية، فأحضرتها فغنّته، فقال: قد جعلتُ لها نوبةً في كلِّ يوم ثلاثاء؛ تغنّي مع الجواري، وأمر لها بخمسين ألف درهم. فربحتُ والله تلك الرّكبة وأربَحْت.

وتشبه هذه الحكاية حكاية إبراهيم بن المهدي، إذ شفع للمأمون في طفيليّ قد

قدّمنا ذكره، فقال إبراهيم: يا أمير المؤمنين، هب لي ذنبَه، وأحدّثك حدثاً عجيباً في التَّطفيل عن نفسي، قال: قل، فقلت؛ خرجت يوماً فمررت في سكك بغداد، فشَمْمتُ رائحةُ أبزار من جناح دار، وقدورٍ قد فاح قتَارُها. فسألت خياطاً: عن ربّ الدار، فقال رجل من التّجار اسمه فلان. فخرجتْ من شُبّاك في الجناح كفٌّ ومعِصم، ما رأيت مثلهما قطّ، فذهب عقلي وبُهتّ، وإذا رجلان نبيلان، فقال الخياط: هذان نديماه، وهما فلان وفلان، فحرّكت دابتي، ودخلت بينهما، وقلت: قد استبطأكما أبو فلان، فأتينا الباب، فدخلنا، فلم يشكّ صاحبُ الدار أنني منهما، فرحّب بي، وأجلسني في أجّل موضع، فأتينا بالألوان، فكانَ طعمُها أطيبَ من رائحتها، فقلت في نفسي: أكلت الألوان وبقِيَ الكفّ. ثم سرنا إلى مجالس المنادمة، فإذا أنبلُ مجلس، وصاحب الدار مقبل باللّطَف والحديث عليّ لمّا ظن أني منهما، فخرجتْ جارية تنثنّي كأنها خُوط بان، فسلمّت وجلست، وأخذت بالعود وجسته، فتبيّنت الْحذق في جسّتها، وغنّت هذا الصوت: [الطويل]

تـوهّـمـهـا طـرْفـي فـأصبـح خـدهـا ... وفـيـه مـكـان الـوهـم مـن نـظـري أُثْرُ
وصـافـحـهـا كـفـي فـآلـم كـفَّـهـا ... فـمـن لـمـس كـفـي في أنـامـلـهـا عَـقـرُ
ومرَّ بفـكـري شـخـصـهـا فـجـرحـتُه ... ولـم أر شـخـصـاً قُـط يـجـرحـه الـفـكـر

فهيّجَتْ بلابلي، وطربت، ثم غنّت: [الطويل]

أشرتُ إلـيـهـا هـل عـلـمـت مـودتـي ... فردّت بطرف العين إنّي على العهد.
فحُدتُ عن الإظهار عـمـداً لـسرّهـا ... وحادت عن الإظهار أيضاً على عمد

فصحت: السلاح! وجاءني ما لم أملك معه نفسي، ثم غنَّت: [الطويل]

ألـيس عـجـيـبـاً أنَّ بـيـتـاً يـضـمّـنـي ... وإيـاكِ لا نـخـلـو ولا نـتـكـلّـمُ
سوى أعينٍ تَشْكُو الهوى بجفونها ... وتـرجـيـع أحـشـاء عـلـى الـنـار تُـضْـرَمُ
إشـارة أفـواهٍ وغـمـز حـواجـبِ ... وتـكـسـيـر أجـفـان وقـلـب مـتـيّـمُ

فحسَدتها على حذقها، فقلت: يا جارية بقيَ عليك شيء، فغضبَتْ ورمت بالعود، وقالت: متى كنتم تُحضِرون مجالسكم البُغضاء! فندمت ورأيت تغيّر القوم، فدعوت بالعود وغنّيْت: [الكامل]

مـا لـلـمـنـازل لا يُـجْـبـن حـزيـنـاً ... أصَـمَـمْـن أم بَـعُـد الـمَـدَى فَـبَـلـيـنـا
راحـوا الـعـشـيّـة رَوحـةً مـذكـورةً ... إنْ مِـتْـن مِـتْـنـا أو بـقـيـنَ بـقـيـنـا

فأقبْلت على رجليّ تقبلهما، وتقول: المعذرة والله يا سيّدي من تغْيير مثلك، وقام مولاها وصاحباه، وصنعوا مثلها، وشربوا بالطاسات طرباً، ثم غنيت: [الطويل]

أفي الحق أنْ أمسِي ولا تَذكرينني ... وقد سجمتْ عيناي من ذكركِ الدَّمَا
إلى الله أشكو بخَلها وسماحتي ... لها عسلٌ منّي وتبذل علقما

فجاء والله من طرب القوم ما حسبتُ له أن يخرجوا من عقولهم، فأمسكت حتى إذا هدأ القوم اندفعت أغنّي:

حذا محبُّكِ مطويٌّ على كَمَدِهْ ... صبٌّ مدامعه تجري على جَسَدِهْ
له يدٌ تسأل الرّحمنَ راحتَه ... مِمّا به ويدٌ أخرى على كَبدِهْ
يا مَنْ رأى كلفاً مستهدفاً أسِفاً ... كانت منيّته في طرفِه ويَدِهْ

فصاحت الجارية: السلاح! هذا والله الغناء يا مولاي. وسكروا، وأمر صاحب الدّار غلمانه بحفظهم إلى منازلهم، وبقيت أشرب معه ـ وكان جيّد الشراب ـ فقال: يا سيّدي ذهب والله ما خلا من أيامي باطلاً إذْ كنتُ لا أعرفك، فمن أنت؟ فأخبرته، فقبّل رأسي، وقال: وأنا أُعجب من هذا الأدب، وأنا منذ اليوم مع الخلافة. ثمّ سألني عن قصتي فأخبرته خبر الطعام والمِعْصم، فأحضر جواريَه [ولا أشعر]. ثمّ قال: ما بقيَ غير أمّي وأختي، ولأنْزِلَنّهما إليك. فعجبت من كرمه، وسعة صدره، فقلت: أبدأ بالأخت، ففعل، فلمّا رأيت معِصمها، قلت: هي هي. فأرسل إلي عشرة مشايخ وأحضر بَدْرتين، وقال: أشهدكم أني قد زوّجت أختي فلانة من إبراهيم بن المهدي، وأمهرتها عنه عشرة آلاف درهم. فدفعت إليه البَدْرة الواحدة، وفرّقت الأخرى على المشايخ، وانصرفوا، وقال: يا سيّدي أمهِّد لك بعضَ البيوت، فأحشمني، فقلت: بل أحملها لي منزلي في عماريّة، فوحقّك يا أمير المؤمنين، لقد حمل إليّ من الجهاز ما ضاق عنه بعض دُوري.

فتعجّب المأمون من كرمه، وأمر بإحضاره فصار من خواصّه.

* * *

قولهُ: «سُحْقاً» أي بعداً.

* * *

[زنام الزامر]

وزنام الزامر هو الذي أحدث الناي، وهو المزمار الذي تدعوه عامتنا بالمغرب الزّلامي، فصحّفوه بإبدال نونه لاما، وإنما هو زناميّ، وقال فيه الشاعر: **[الرمل]**

إنَّ في ناي زنام شغلا ... يشغل العاقل عن نَايِ زِنَامِ

قال القاسم بن زرزور الزامر: حدّثني زنام الزامر، قال: لما اعتل المعتصم علّته التي مات منها، قال: هيّئوا لي الزلال حتى أركبه، فهُيِّىءَ له فركب، وأتى فيمن

معه، فمرّ بدجلة بإزاء منازله، فقال: يا زنام، قلت: لبيك يا أمير المؤمنين! قال: أزمر: [السريع]

يا منزلاً لم تَبل أطلالُهُ حاشا لأطلالك أن تَبْلَى
العيش أوْلَى ما بكاه الفَتى لا بدّ للمحزون أن يَسْلى
لم أبكِ أطلالك لكنني بكيت عيشي فيك إذْ وَلّى

قال: فزمرت وما زلت أردده، وهو ينتحب ويبكي إلى أن خرج، ثم توفِّيَ بعد خمسة أيام.

وزِنام سار المثل بضرب يزمره وإتقان صنعته.

وكان الواثق مولعاً يزمره بعد أبيه المعتصم، حدّث حسين بن الضحاك قال: دخلت على الواثق، فقال: قل الساعة أبياتاً ملاحاً حتى أهبَ لك شيئاً مليحاً، فقلت: في أيّ معنى؟ قال: فما شئت بما ترى بين يديك، فالتفتّ فإذا بساط قد تفتّحت أنواره، وأشرق في نور الصبح، فخجلت وأُرْتِجَ عليّ، فقال الواثق: ألست ترى نُور صباح، وَنَوْر أقاح! ففُتح لي، فقلت: [المتقارب]

ألستَ تَرَى الصُّبح قد أسفَرا ومنسكبَ الغيث قد أمْطَرَا
وأسفرت الأرض عن حُلّةٍ تُضاحك بالأصفر الأحْمَرَا
وتُعمل كأسين في فتيةٍ تطارد بالأصغر الأكبرا
يحثُّ كؤوسهمُ مخطفٌ تجاذِب أردافُه المئزرا
فكلٌّ ينافس في برّه ليفعل في ذاته المنكرا

فضحك، وقال: تستعمل ما قلت يا حسين إلا الفسق فلا ولا كرامة. ثم قال: قوموا بنا إلى حانة الشطّ. فقام إليها، وشرب وطرب، وما ترك أحداً من المغنّين والجلساء إلا أمر له بصلة. وكان من الأيام التي سارت أخبارها في الآفاق، فلما كان من الغد غدوت عليه، فقال: أنشدني ما قلتَ في يومنا الماضي، فأنشدته: [البسيط]

يا حانة الشّطّ قد أكرمت مثْوانا عودي بيوم سرور كالذي كانا
لا تُفقدينا دعاباتِ الأمير ولا طيب البَطالة إصراراً وإعلانا
وهاج زَمْر زُنام بين ذاك لنا شجواً فأهدى لنا رَوْحاً وَرَيْحَانا
وَسَلْسَل الرَّطل عمرٌو ثم عَمّ به السُّـ ـقيا فألحق أُخَرانا بأولانا
لا زلتِ آهلة الأوطانِ عامرةً بأكرم النّاس أعرافاً وأغصانا

ذكرنا هذه الحكاية لظرفها، ولما وقع لزنام من الذكر في شعر حسن.

* * *

قوله: «زنيما»، أي دعيًّا في الزّمر. قال ابن الأعرابيّ: الزنيم ابن الزانية. أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة ولد الزنا ولا شيء من نسله إلى سبعة آباء».

وقال رسول الله ﷺ: «كانت العباد فيما مضى إذا عَبَد الله أحدُهم أربعين سنة يسعَى نورُه بين يديه، فعبد الله عابد أربعين سنة وأربعين، فلم يسع له نور، فابتهل إلى الله تعالى فقال: عبدتك أربعين وأربعين، ولم يسع لي نور؛ فأُرِيَ في منامه أنه لغير رِشدة، فقال: يا ربّ إن كان أبواي أكلاً حُمَاضاً أضرس أنا! فسعى نوره بين يديه».

قوله: «جيله» أي أهل عصره.

الزهيم الأول السيد، والثاني الضامن، أراد أنه يضمن لمن سمعه أن يطربه وقال أبو الفضل الدّارِميّ في زامر أسود: [**البسيط**]

وحالكِ اللّونِ كالليل البهيم لَهُ	فضائل مشرقات الحس كالْفَلَقِ
تخالُ مجلسَنا وجهاً به حسناً	إذ صار فيه كخالٍ معجب لَبِقِ
تراه يحفظ ما يوحَى إليه به	وسرّه أبداً يهوي بمنخرقِ
يحدُو بأنفاسه الأوتار مجتهداً	فتستقيم به الألحان في الطُّرُقِ
أهدى الشّبابُ إليه حسنَ بهجته	فناسب المسك في لونٍ وفي عَبَقِ

الحبب: الفقاقيع تعلو الماء والخمر. أزدري: أحتقر. النَّعَم: الإبل وأكرمها الحمر. أحَلِّي: أزيّن. بتَملّيها: بطول حياتها ومدّتها، والملاوة: المدة، ومنه قوله تعالى: ﴿**وأملِي لهم**﴾ [محمد: ٢٥]. مرآها: رؤيتها. أذود: أدفع. شرائع: طرق. السمَر: الحديث بالليل. أليح: أشفق، تسِري: تسير ليلاً. ريَّاها: رائحتها الطيبة. يكْهن: يشعر ويحسن، وتكهّن الرجل: تحدث عن الغيب.

* * *

[سطيح]

وسطيح الغسّاني أكهن الناس، وأنذر بسيل العرِم، فكان يدرَج جسده كما يدرَج الثوب، خَلاَ جُمجمة رأسه، وإذا مسّت باليد أثرت فيه للِين عظمها.

ومن كهانته أنه لمّا كان ليلة ولد رسول الله ﷺ ارتجَّ إيوان كسرى، فسقطت منه أربع عشرةَ شُرْفة، فأعظم ذلك أهل المملكة، وكتب إلى كسرى صاحبُ الشام أن وادي السماوة انقطع تلك الليلة.

وكتب إليه صاحب اليمن أنّ بحيرة ساوة غاضتْ تلك الليلة.

وكتب إليه صاحب طبريّة أنّ الماء لم يجر تلك الليلة في بحيرة طبريّة.

وكتب إليه صاحب فارس أن بيوت النار خَمدت تلك الليلة، ولم تخمَد قبل ذلك بألف سنة.

فلما تواترت عليه الكتب، أظهر سريره، وبرز إلى أهل مملكته، فأخبرَهم الخبر، فقال المؤبذان: أيها الملك إني رأيت تلك الليلة رؤيا هالتْني، رأيت إبلا صِعاباً، تقود خيلاً عِراباً، حتى اقتحمت دجلة وانتشرت في بلادنا.

قال: فما عندك في تأويلها؟ قال: ما عندي شيء، ولكن أرسل إلى عاملك بالحيرة يوجّه إليك رجلاً من علمائهم فإنهم أصحاب علم بالحدثان. فبعث إليه، فوجّه عبد المسيح بن بُقيلة الغسائي، فأخبره كسرى بالخبر فقال: أيها الملك، ما عندي فيها شيء، ولكن جهِّزني إلى الشأم إلى خالي سطيح. فجّهزه، فلما قدم عليه وجده قد احتُضِر، فناداه فلم يجبه، فقال: [الرجز]

أصمَّ أم يسمعُ غطريفُ اليمنْ ... رسولٌ قَيْلِ العُجم يَهْوِي لِلْوثنْ

يا فاصلَ الخُطّةِ أعيَتْ مَنْ ومَنْ ... أتاك شيخ الحيّ من آل سَنَنْ

* أبيضُ فضفاض الرّداء والرَّسَنْ *[1]

فرفع إليه سطيح رأسه، وقال: عبد المسيح، على جملٍ مُشيح، أقبل إلى سطيح، وقد أوفى على الضريح بعثك مِلك بني ساسان، لارتجاج الإيوان، وخُمود النيران، ورؤيا المؤبذان؛ رأى إبلا صعابا، تقود خيلاً عِرابا، حتى اقتحمت الواد، وانتشرت في البلاد. عبدَ المسيح، إذا ظهرت التلاوة، وغاض وادي السماوة، وظهر صاحب الْهَرَاوة، فليست الشام لسطيح بشام، يملك منهم ملوك وملِكات، بعدد ما سقط من الشرفات، وكلّ ما هو آت آت، ثم قال: [البسيط]

إن كان ملك بني ساسان أفرطهمْ ... فإن ذا الدهر طوراً دهاريرُ[2]

---

(١) الرجز لعبد المسيح الغساني في لسان العرب (سطح)، (فود)، (زلم)، وتهذيب اللغة ٤/ ٢٧٧، وهو في حديث سطيح في تاج العروس (فود)، (عنن)، (منن)، وبلا نسبة في لسان العرب (فوز)، (غطرف)، (عنن)، (منن).

(٢) يروى صدر البيت الأول:

إن يمس ملك بني ساسان أفرطهم

وهو لعبد المسيح الغساني في لسان العرب (سطح) وتهذيب اللغة ٤/ ٢٧٨. ٦/ ١٩٥. ولسطيح في لسان العرب (فرط)، وبلا نسبة في تاج العروس (دهر)، ويروى صدر البيت الثاني:

منهم أخو الصرح بهرام وإخوتهم

وهو لعبد المسيح في لسان العرب (سطح)، وتهذيب اللغة ٤/ ٢٧٨، ويروى البيت الثالث:

فربما ربما أضحوا بمنزلة ... تخاف صولهم الأسد المهاصيرُ

وهو لعبد المسيح في لسان العرب (سطح)، وبلا نسبة في لسان العرب (هصر)، وتاج العروس (هصر)، وفيهما «الهواصير» بدل «المهاصيرُ».

منهم بنو الصَّرح بهرامٌ وإخوته والهرمزان وسابورٌ وسابورُ
فربمّا أصبحوا منهم بمنزلةٍ تَهاب صولَهُمُ الأسدُ اليهاصيرُ
حَثّوا المطيَّ وجِدّوا في رحيلهمُ فما يقوم لهم سَرْجٌ ولا كورُ
والنّاس أبناءَ عَلاّتٍ فمن عَلمُوا أن قد أقلّ، فمحقورٌ ومَهْجُورُ
والخير والشرّ مقرونان في قَرَنٍ والخير متّبع والشرّ محذور

فأتى كسرى فأخبره، فغمّه ذلك، فقال: إلى أن يملك منا أربعة عشر ملكاً، يدور الزمان؛ فملكوا كلّهم في أربعين سنة.

قوله: «ينمّ»: من النميمة. مُليح: كثير الظهور.

* * *

فاتفَق لِوَشْكِ الحظِّ المبخوسِ، وَنكَدِ الطّالعِ المَنْحُوسِ، أنْ أُنْطَقَتْنِي بِوَصْفهَا حُمَيّا المُدَامِ، عِندَ الْجارِ النَّمّامِ. ثمَّ ثابَ الفَهْمُ، بَعدَ أَنْ صَرِدَ السَّهْمُ، فأحْسَسْتُ الْخبَالَ وَالوبالَ؛ وَضيعَةَ ما أُودِعَ ذَلك الغِرْبال، بَيْدَ أني عَاهَدْتُه، عَلَى عَكْم مَا لَفظتُهُ، وَأن يحفظ السِّر وَلَوْ أحفظتُه؛ فزَعمَ أنّه يخزُن الأسرَار، كما يخزُنُ اللَّئيمُ الدّينار، وَأنّه لا يَهْتِكَ الأَسْتارَ، وَلوْ عُرِّض لأن يَلجَ النَّار.

* * *

الحظّ: البخت والنصيب. ووَشْكه: سرعة زواله المبخوس: المنقوص. نكد: مشقّة. الطالع: نجم الإنسان، والطالع يقابله التساقط. حُمَيّا: حدّة ثاب: رجع. صرِد: خرج من قوسه، وأراد بالسهم اللفظ الذي سمع منه جاره الخبال: الفساد. الوبال: الثقل، وهو وبال عليه أي ثقيل في العاقبة، وطعام وبيل: ثقيل متخِم، ومنه استوبلت المدينة إذا لم توافق جسمك وإن أحببتَها، أوْدَع: جعل فيه. والغِربال، معلوم، يشبّه به النّمام حيث لا يمسك ما جعل فيه؛ قال الحطيئة يهجو أمه: **[الوافر]**

تَنَحَّيْ فاجلسِي مني بعيداً أراح الله منك العالَمِينا[1]
أغِربالا إذا استُودعتِ سرًّا وكانوناً على المتحدِّثينا

كانون: أبرد أيام الشتاء، ويريد أنها باردة لحديث.

---

(١) يروى صدر البيت الأول:

فهنا اقعدي مني بعيداً

والبيتان في ديوان الحطيئة ص ١٢٣، ولسان العرب (بدد)، (كنن)، وتهذيب اللغة ٩/ ٤٥٤، ومقاييس اللغة ٥/ ١٢٣، ومجمل اللغة ٤/ ١٩٠، وديوان الأدب ٣/ ٦١، وتاج العروس (بدد)، (غربل)، وبلا نسبة في المخصص ١٢/ ١٣٤.

قال كعب بن زهير رضي الله عنه: [البسيط]

ولا تمسّك بالعهدِ الذي زَعَمَتْ إلا كما يمسّك الماءَ الغرابيلُ[(١)]

وقال في الحماسة: [الطويل]

ولا أكتم الأسرار لكن أنمّها ولا أدع الأَسرار تغلي على قلبي[(٢)]

وإن قليل العقل مَنْ بات ليلة تقلّبه الأسرارُ جنباً إلى جنب

وقال آخر: [البسيط]

أعزز عليّ بأخلاق وُسمْت بها عند البريّة يا فالوذج السُوقِ

تضيق بالسّر ذرعاً إن خُصصت به حتى يرى دائعاً كالنفخ في البوقِ

وقال في ضده: [الطويل]

ومستخبر عن سر ريّا رددته بعمياء من ريّا بغير يقينِ[(٣)]

وقال انتصِحْني إنني لك ناصح وما أنا إن خُبِّرته بأمين

وقال قيس بن الخطيم: [الطويل]

إذا جاوز الاثنين سِرٌّ فإنّه ببثّ وتكثير الحديث قمينُ[(٤)]

يكونُ له عندِي إذا ما ضمنتُه مكان بسوداءِ الفؤاد مَكِين

وقال العباس بن الأحنف: [المتقارب]

تَعتَّيْتَ تطلب ما أستحقُّ به الهجرَ منك ولا تقدِرُ[(٥)]

وماذا يضرّك من شُهرتي إذا كان سرُّك لا يُشْهَرُ

أمِني تخاف انتشار الحديث وحظِّيَ من صونه أوفرُ

---

(١) البيت في ديوان كعب بن زهير ص ٨، وتاج العروس (غربل).

(٢) البيتان لسحيم الفقعسي في ديوان الحماسة ص ١٨٥.

(٣) يروى البيت الثاني:

تقول انتصحني إنني لك ناصحُ وما أنا إن خيَّرتُها بأمينِ

وهو بلا نسبة في لسان العرب (نصح)، والتنبيه والإيضاح ١/ ٢٧٦، وتاج العروس (نصح).

(٤) البيتان لقيس بن الخطيم في ديوانه ص ١٦٢، والبيت الأول لقيس بن الخطيم في حماسة البحتري ص ١٤٧، والدرر ٦/ ٣١٢، وسمط الآلي ص ٧٩٦، وشرح شواهد الشافية ص ١٨٣، ولسان العرب (نثث)، (قمن)، (ثني). والمقاصد النحوية ٤/ ٥٦٦، ونوادر أبي زيد ص ٢٠٤، ولجميل بثينة في ملحق ديوانه ص ٢٤٥، وكتاب الصناعتين ص ١٥١، وبلا نسبة في سر صناعة الإعراب ١/ ٣٤٢، وشرح شافية ابن الحاجب ١/ ٢٦٥، وشرح المفصل ٩/ ١٩، ١٣٧، وهمع الهوامع ٢/ ٢١١.

(٥) الأبيات في ديوان العباس بن الأحنف ص ١٤٦.

ولـو لـم أصنـه لـبُـقْـيَـا عـلـيـك   نـظـرتُ لـنـفـسِـي كـمـا تـنـظـرُ

قوله: «بيد» بمعنى غير. عكَم: ربط. أحفظته: أغضبته. يهتك: يخرق.

* * *

فمَا إن غبرَ عَلَى ذلك الزّمان، إلاّ يوم أو يومان، حَتى بَدا إلى أَمِير تِلْكَ الْمَدَرَة، ووَاليهَا ذي المقْدُرة، أن يَقْصِدَ باب قَيْلِه، مُجدِّداً عَرْضَ خَيْلِه، وَمُسْتَمْطِراً عَارِضَ نَيْلِهِ، وَارْتَادَ أَنْ تَصْحبَهُ تحفَةٌ تُلائمُ هَوَاه، لِيُقَدِّمَها بَينَ يَدَيْ نَجْواه، وَجَعلَ يَبذلُ الجعائل لروّاده، وَيُسَنِّي لِمَنْ يُظفِرُه بمراده، فأسفَّ ذلكَ الجارُ الختَّارُ إلى بذولِهِ، وَعَصى في ادِّراع العَارِ عَذْلَ عذُولِه، فأتَى الْوَالِيَ نَاشِراً أُذُنَيْهِ، وَأَبَثَّهُ ما كُنت أَسْرَرْتُه إليه، فمَا رَاعَنِي إلاّ انْسِيَابُ صَاغِيَتِهِ إلَيّ، وَانْثِيَالُ حَفَدَتهِ عَلَيّ، يسومُنِي إيثارَه بالدُّرة اليتيمة، على أن أَتحكّمَ عَليه في القِيمة، فغَشِيَني من الهَمّ، مَا غَشِيَ فرْعَونَ وَجُنُودَه من اليَمّ.

* * *

غبَر: مضى. المدَرة: البلدة. قَيله: ملكه الأعظم.

مجدّداً عرْض خيله، أي ليعرض عليه ما عنده من الأجناد. والنَّيل، أي العطاء.

ارتاد: طلب. تحفة: هدية. تلائم، توافق. هواه: إرادته. نجواه. حديثه مع الملك.

والْجُعْل: حقّ من دَلّك على حاجة، والجعالة بمعناه، والجعائل جمعها. يُسنّي: ييّسر وأصل الرّوّاد طلاب المرعى، واحدهم رائد، وأصل الوسائل، أسباب الود.

أسفّ: انحط ودنا، وأسفّ الطائر: تدلّى نحو الأرض لشيء يأخذه، وأسفّ الرجل: طلب مذاق الأمور.

والجار الختّار: الخدّاع بذوله: عطاؤه. أدّراعه: لبسه الدرع. ناشراً أذنيه، أي طامعاً، وهو مثَل. أبثّه: قال له سرًا.

قوله: «راعني» أي أفزعني.

انسياب: دخول. صاغيته: حاشيته. ومن يميل إليه.

انثيال: انصباب. حَفدته: أتباعه.

يسومني: يعرض عليّ، إيثاره: تفضيله على نفسي.

الدرّة اليتيمة: الجوهرة النفيسة، وبهذا سمّى الثعالبي كتابه الدرة اليتيمة، أي الدّرّة المنفردة التي لا مثل لها. واليتيمة درّة مشهورة في البيت الحرام أكبر من بيضة الحمامة، استخرجها من البحر كلب جاء ليَلَغ، فتعلّقت مخارتها بفمه، ففضها في البرّ، فهي من عجائب الدّنيا.

ومن عجائبها الحافر، وهو حجر ياقوت، شبْه حافر الفرس ألصقه أمير المؤمنين بمصحف عثمان.

والغريبة الثالثة: فرس ذهب لم يصنعه صانع، إنما وجد في معدن الذهب وهو عند ملك الحبشة بغانة.

والذي غشي فرعون وجنوده من اليمّ، هو الغرق. واليمّ: البحر الذي ذهبت نفوسهم فيه.

[قصة موسى]

ولا بدّ أن نِلمّ بنبذة من خبره، نكمل بها القصّة حسبما شرطنا؛ وذلك أنّ موسى عليه الصلاة والسلام، لمَّا خرج فارًّا من فرعون حسبما قدمناه في الخامسة، توجّه إلى مدين، فبلَغها كالاً جائعاً فقيراً، فوجد الناس يسقُون كما نص الله تعالى: **﴿وَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امرأتين تَذُودان﴾** [القصص: ٢٣]، أي يحبسان غنمهما، فأخبرتاه بأنهما لا يسقيان حتى يُصدر الرعاء، وأن لهما أباً شيخاً كبيراً، فرحِمهما واقتلع الصخرة عن البئر ـ وكان لا يرفعها إلا نفرٌ ـ فملأ وسقى لهما، ثم تولّى إلى ظلّ شجرة مثمرة فقال: **﴿رَبِّ إني لمَا أنزلتَ إليّ مِنْ خَيْرٍ فقيرٌ﴾** [القصص: ٢٤]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: قال هذا موسى، ولو شاء إنسان أن ينظر إلى خُضْرة أمعائه من شدة الجوع لفعل ـ أراد خضرة البقل الذي أكل في طريقه ـ فرجعت الجاريتان بسرعة إلى أبيهما، فأنكر مجيئهما قبل الوقت الذي جرَت العادة بمجيئهما فيه، فأخبرتاه خبر موسى، فأرسل إلى إحداهما فأتته وهي تستحيي منه، فقالت: **﴿إن أبي يدعُوك ليجزيَك أجْرَ ما سقيت لنا﴾** [القصص: ٢٥]. فمشى معها، وهي بين يديه فضرب الريح ثوبها، فنظر إلى عَجيزتها فقال لها: امشي خلفي، ودلِّيني على الطريق، فلما أتى الشيخ سأله عن شأنه، فقصّ عليه قصته فقال: **﴿لاَ تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالمين﴾** [القصص: ٢٥] فقالت التي دعته: **﴿يا أبَتِ استأجِرْهُ إنَّ خَيْرَ من استأجرت القويّ الأمين﴾** [القصص: ٢٦] فقال لها الشيخ: أما القوة فقد خَبَرْتهُ بقلع الصّخرة، فما يدريك أمانته؟ قالت له: إني مشيت أمامه فلم يحبّ أن يخونني وردّني خلفه. فقال له: **﴿إني أُريدُ أن أُنكحَك إحدى ابنتيّ هَاتَيْن﴾** [القصص: ٢٧] إلى آخر القصة.

فلما قضى أجله، وسار بأهله، وكان في شتاء، رُفعت له نار فيما رأى فكانت من نور الله تعالى، فقال لأهلِه: **﴿امكُثُوا إنّي آنستُ ناراً﴾** [القصص: ٢٩]، ومعنى تصطلون، أي من البرد فكان عند إتيانه لها ما أخبَر الله تعالى من أنّه **﴿نُودي أنْ بورك من في النار وَمَن حَوْلَها وسبحان الله رب العالمين﴾** [النمل: ٨]. ثم قال له: **﴿وما تلك بيمينك يا موسى قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي﴾** أي أضرب بها ورق الشجر للغنم **﴿ولي فيها مآرب أخرى﴾** [طه: ١٧ ـ ١٨]؛ من حمل الزاد عليها والسقاء

وغير ذلك، فقال له: ﴿ألقها يا موسى فألقاها فإذا هي حية تسعَى﴾ [طه: ٢٠]. ﴿فلما رآها تهتزّ كأنّها جانٌ وَلَّي مُدْبراً أو لم يعقب﴾ [القصص: ٣١]. أي لم ينظر فنودي: ﴿لا تخف إنك من الآمنين﴾ [القصص: ٣١] الآيات.

فسأل الله تعالى أن يرسل معه أخاه هارون ردأ، أي عوناً لكونه كان أفصح منه لساناً للجمْرةالتي كانت أحرقت لسانَه في صغره، فثقل لسانه فقال تعالى: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بأخِيك﴾ [القصص: ٣٥].

فأقبل موسى إلى أهله فصار بهم إلى مصر، فدخلها ليلاً، فنزل ضيفاً بأمه وأخيه، وهم لا يعرفونه، وهارون غائب، فنزل بجانب الدار، وجاء هارون فسأل عنه أمّه فأخبرته أنه ضيف، فدعاه وأكل معه، ثم سأله: مَن هو؟ فقال: أنا موسى، فقام كلُّ واحد منهما لصاحبه واعتنقه.

فقال له موسى: يا هارون، إن الله قد أرسلني وإياك إلى فرعون، فانطلقْ معي، فقال: سمعاً وطاعة، فصاحت أمهما، وقالت: نشدتكما الله تعالى ألا تذهبا إليه فيقتلكما! فسكّناها ثم انطلقا إليه ليلاً في قول السدّيّ وضربا الباب، فكلمهما البواب، فقالا له: ﴿إنا رسول رب العالمين﴾ [الشعراء: ١٨]، ففزع البواب، فأتى فرعون فأخبره أن مجنونين بالباب يزعمان كذا، فقال: أدخلهما.

وأما ابن إسحاق فحدث أنهما وقفا على باب فرعون، يلتمسان الإذن، يغدوان ويروحان سنتين، وفرعون لا يعرف بهما حتى دخل مُلَةٌ له، فقال له: أيها الملك، إن على الباب رجلاً أنّ له إلهاً غيرك، فقال: أدخلوه، فدخلا وبيد موسى عصاه، فلما وقفا عرفه فرعون، فقالا: ﴿إنا رسول رب العالمين﴾ [الشعراء: ١٦]، فجاوبه بقوله ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً﴾ [الشعراء: ١٨] الآيات، ثم ذكّره أياديَه قِبَله.

فقال له موسى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تمنُّها عليّ أنْ عَبدت بني إسرائيل﴾ [الشعراء: ١٨ ـ ٢٢]، أي اتخذتهم عبيداً، تقتل من شئت وتسترقّ من شئت. فقال له ﴿وَمَا رَبّ العالمين﴾ [الشعراء: ٢٣] فأراه الآية الكبرى في العصا، أن ألقاها فإذا هي ثعبان مبين، ملأت ما بين السماطين فاتحةً فاها، قد صار مِحْجنها على ظهرها، فارفضّ الناس، ومال فرعون عن سريره، فناشد موسى ربّه، فأدخل يده في جيبه، فأخرجها بيضاء كالثلج، ثم ردّها، فعادت هيئتها، ثم وضع يده على الحيَّة فصارت عصاً كما كانت أول مرة، وأخذ فرعون بطنه ـ وكان فيما يزعم يمكث الخمس والسّت ولا يلتمس الخلاء ـ وكان ذلك مما زيّن له أنه ليس له شبيه في الناس ـ فقال لملئه: إن هذا لسحر عظيم، فجمع السحرة، ووعدهم ليوم العيد، وأن يحشر الناس ضحى، يحضرون أمرهم مع موسى، فاجتمعوا لذلك اليوم، فصف خمسة عشر ألف ساحر، كلّ ساحر له نوع من السحر، فخرج موسى يتوكأ على عصاه، حتى أتى الجمع، وفرعون في مجلسه مشرف على وجوه أهل مملكته

فقال لهم موسى: ﴿وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى الله كذباً فيسحتكم بعذاب﴾ [طه: ٦١].

فقال بعضهم لبعض: أهكذا يقول ساحراً فخيروه في أن يلقى أو يلقُوا؟ فقال: بل ألقوا، فخيّلوا بحبالهم وعصيّم أشياء حيّروا بها العقول، من حيّات قد ملأت الوادي، يركبُ بعضُها بعضاً، ونيران تحرق في ظاهرها ما مرّت به وظُلم متكاثفة، كما وصف الله تعالى: ﴿وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وجاؤوا بسحر عظيم﴾ [الأعراف: ١١٦]، ففزع موسى وأخوه لهول ما رأيا وذلك قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ في نفسهِ خِيفة مُوسَى قُلْنَا لا تَخَف إنك أنت الأعلى﴾ [طه: ٦٨] الآيات. فألقى موسى عصاه، فجعلت تَلقف كلّ ما خيلوا به، وكانوا جلبوا آلاتهم في السفن في النيل، فابتلعت السفن، وأقبلَتْ فاتحةً فاها، على قُبّة فرعون بمن فيها، ففروا وتعلّقوا بموسى يستنقذون به. فأخذها موسى، فإذا هي عصاً في يده كما كانت، فوقع السَّحرة سُجّداً قائلين: ﴿آمنا بربِّ هَارُونَ وموسى﴾ [طه: ٧٠] لما تبيّنوا أن أمر العصا إلهي، ليس من تخاييلهم، فقال لهم فرعون: ﴿آمَنتُمْ لهُ قبْلَ أنْ آذَن لكم﴾ [طه: ٧١] إلى قوله تعالى: ﴿والله خَيْرُ وأبقى﴾، أي لا سلطان لك إلا في الدنيا ولا سلطان لك بعدها، ﴿قالُوا رَبَّنا أَفْرِغْ علينَا صَبْراً وَتَوَفَّنا مسلمين﴾ [الأعراف: ١٢٦]، فقتلهم فكانوا أول النهار سحرة وآخره شهداء.

ثم أمر الله تعالى نبيّه موسى أن يخرج بني إسرائيل فقال: ﴿أَسْرِ بعبَادِي لَيلاً﴾ [الدخان: ٢٣].

فأمرهم أن يستعيروا الحليّ من القبط، فخرجوا ليلاً، وألقى الله على القِبْط النوم، حتى طلعت الشمس، وكان موسى على ساقة بني إسرائيل وهارون على المقدّمة، وعدد بني إسرائيل ستمائة ألف وعشرون ألف مقاتل، لا يَعدّون ابنَ العشرة لصغره، ولا ابن الستين لكبَره. وتبعهم فرعون، وعلى مقدّمته هامان وهم في ألف ألف وسبعمائة ألف، فذلك قوله تعالى: ﴿فأرسَلَ فِرْعَونُ في المَدَائِن حاشِرِينَ﴾ [الشعراء: ٣٥]. فَلَمَّا تراءى الجمعان، قالُوا: يا مُوسَى أوذِينَا مِنْ قَبْلِ أن تأتيَنا بالذبح ومن بعدما جئتنا اليوم يدركنا فرعون فيقتلنا! فقال: ﴿كلاً إنّ مَعِي ربي سيهدين﴾ [الشعراء: ٦٢].

فأتى موسى البحر، وكنّاه أبا خالد، فضربه بعصاه، فانفلق فكان ﴿كلُّ فِرْقٍ كالطود العظيم﴾ [الشعراء: ٦٣]، والطود: الجبل، فصار في البحر اثنا عشر طريقاً فدخل كلّ سِبْط طريقَهُ، وكلّ سبط يقول: قتل أصحابنا ففتح الله بينهم قناطر، فنظر آخرهُم إلى أوَّلهم. وجاء فرعون ومَن معه، فأبت خيله أن تقتحم، فاقتحمها جبريل على فرس أنثى، فاقتحمت الخيل في أثره، فلما توسط البحر، أُمِر البحر أن يأخذهم، فانضم عليهم، فلما أدرك فرعون الغرق، قال: ﴿آمَنْتُ أنّه لاَ إلهَ إلاّ الذي آمنت به بنُو إسرائيل﴾ [يونس: ٩٠] وجعل جبريل يدّس الطين في فمه لئلا يتمّ الكلمة، فيرحمه الله، وميكائيل يقول: ﴿الآن وقد عصيت قبل﴾ [يونس: ٩١].

وأخرج الله بدن فرعون ميتاً، حتى عرفه بنو إسرائيل، فهذا هو الذي غشَى فرعون وجنوده من اليمّ.

* * *

وَلَم أزلْ أدَافع عَنهَا وَلا يُغْنِي الدِّفاعُ، وَأَسْتَشْفِعُ وَلا يُجْدِي الاستِشْفاع، وَكلمَّا رَأى مِنِّي ازْدِيادَ الاعْتِياص، وَارتيادَ المَنَاصِ، تجرَّمَ وَتضَرَّم، وَحَرَّقَ عَليّ الأرَّمَ، وَنفْسِي مَع ذلِكَ لاَ تَسْمح بمفارَقَةِ بَدْرِي، ولا بأَن تنزعَ قلْبِي مِنْ صَدْرِي، حَتى آل الوعيدُ إيقاعاً، وَالتقْرِيعُ قِراعاً، فقادنِي الإشفاقُ من الْحَيْنِ، إلى أن قِضْتُه سَوَادَ الْعَيْن، بِصُفْرَةِ الْعَيْن، وَلم يَحْظَ الوَاشي بِغَير الإثمِ وَالشيِّنِ.

* * *

قوله: الاعتياص: أي التصعّب، واعتاص الشيءُ اعتياصاً: تصعّبَ وتلوَّى. المناص: الملجأ والمفرّ.

وتجرّم: أتى الْجرم. وتَضرّم: اشتدّ غضبُه. والأرَّم: الأسنان. وحَرَق: عض بعضَها على بعض، حتى صوَّت، وذلك لشدة الغيظ، وهو مثَل. آل: رجع. الوعيد: التهديد.

قراعا: ضربا، والقراع: الخبط والضرب، والتَّقريع: الأخذ باللسان، يريد: عَدّدوني، فلما أبيت ضربوني.

الحيْن: الموت. قضته: عاوضته وبادلته سواد العين: جاريته التي هي نور عينه.

صفرة العين: لون الدنانير. لم يحظ: لم يأخذ حظوة، وهي النصيب.

والواشي: النّمام، سمِّيَ واشياً لاستخراجه الأخبار وتوصّله إلى معرفتها، من قولهم: فلان يوشّي الخبر، إذا استخرجه؛ وقيل: سمِّيَ واشياً لتحسينه ما ينقُل من الأخبار، وثوب موشًى: محسَّن بما فيه من النُّقوش. وقيل: هو من الشِّيَه، وهي العلامة، كأنه جعل لنفسه علامة من الوصف القبيح، والشين: العيب.

* * *

[من قصص الجاريات المتأدبات]

وعلى وصف الجارية المذكورة بالأدب والجمال نريد أن نسوق فصلاً في الجواري ذوات الأدب ممّن أهدِيت إلى ملك كحال هذه، أولها معه سبب:

حدث الأصمعي قال: بعث لي هارون الرشيد وهو بالرَّقّة، فحُمِلت إليه، فأنزلني الفضل بن الربيع ثم أدخلني عليه وقت المغرب، فاستدناني، وقال لي: يا عبد الملك، وجّهتُ فيك بسبب جاريتين، أهدِيتا إليّ، لهما أدب، أحببت أن تبرِز ما عندهما، وتشير عليّ بالصواب فيهما.

ثم أمر بإحضارهما فأحضرَتا، فرأيت جاريتيْن ما رأيت مثلَهما قطّ، فقلت لإحداهما: ما عندكِ من العلم؟ فقالت: ما أمر الله في كتابه، ثم ما ينظر النّاس فيه من الأخبار والأشعار. فسألتها عن حروفٍ من القرآن، فأجابتني كأنها تقرأ القرآن من كتاب، ثم سألتها عن الأخبار والأشعار والنّحو والعروض، فما قصّرت في جوابي في كلّ فنٍّ أخذتُ فيه، فقلت لها: فأنشدينا شيئاً، فأنشدت: [الطويل]

يا غياثَ العِبَادِ في كلّ مُحلٍ ... ما يريد العباد إلاّ رضاكا

لا ومَنْ شرّف الإمام وأعلى ... ما أطاع الإلَهَ عبدٌ عصاكا

فقلت: يا أمير المؤمنين، ما رأيت امرأة في مَسْك رجل مثلها.

وخبَرْت الأخرى، فوجدتها دونها، فأمر أن تُصْنَع تلك الجارية لتحمَل إليه في تلك الليلة ثم قال: يا عبد الملك، أنا ضَجِر، وأحبّ أن تُسمعني حديثاً مما شهدتَ من أعاجيب الزمان أتفرّج به، فقلت: يا أمير المؤمنين، كان لي صاحب في بَدْو بني فلان، وكنت أغشاه، وأتحدث إليه، وقد أتت عليه ست وتسعون سنة، وهو أصحُّ النفوس ذهناً وأقواهم بَدَنا، فغبت عنه، ثم أتيته فوجدته ناحل البدن، كاسفَ البال، فسألته: ما سبب تغيّره؟ فقال: قَصَدْتُ بعض القرابة، فألفيت عندهم جارية؛ قد طَلَتْ بالورس بدنَها، وفي عنقها طبل تنشد عليه: [الوافر]

محاسنها سهامٌ للمنايا ... مُرَيّشةٌ بأنواع الخطوبِ

ترى ريب المنون بهنّ سهما ... يُصيب بنَصْلِه مُهَجَ القلوبِ

فقلت: [الطويل]

ففي شَفتِي في موضع الطَّبْل ترتعي ... كما قد أبحتِ الطبل في جيدك الحسَنْ

هبيني عوداً يابساً تحت شِقّةٍ ... يمتّع فيما بين نحرِك والذّقَنْ

فلمّا سمعت الشعر، رمت بالطبل في وجهي، ودخلت الخيمة، فوقفت حتى حِميَت الشمس على مفرق رأسي، فلم تخرج، فانصرفت قريح القلب، فهذا التّغيُّر من عشقي لها.

فضحك الرشيد حتى استلقى، ثم قال: ويلك يا عبد الملك! ابنُ ست وتسعين يعشق! فقلت له: قد كان هذا، فقال: يا عباس، أعْطِ عبد الملك مائة ألف درهم، وُرّده إلى مدينة السلام.

فانصرفت، ثم أتاني الخادم، فقال: أنا رسولُ بنتك ـ يعني الجارية ـ تقول لك: إنّ أمير المؤمنين أمر لها بمالٍ وهذا نصيبك، فدفع لي ألف دينار، فلم تزل تواصلني بالبرّ الواصل، حتى كانت فتنة محمد، وانقطع خبرُها عنّي، وأمر لي الفضل بعشرة آلاف درهم.

وحدثَ علي بن الجهم، قال: لما أفضتِ الخلافة إلى المتوكل، أهدى إليه الناس على أقدارهم، فأهدى إليه ابن طاهر جاريةً أديبةً، تسمّى مَحْبوبة، تقول الشعر، وتلحّنه، وتحسِنُ مِنْ كلّ علم أحسنَه، فحلّت من قلب المتوكل محلاً جليلاً، فدخلتُ يوماً للمنادمة، فخرج وهو يضحك. فقال: يا عليّ، دخلت فرأيت محبوبة قد كتبت على خدّها بالمسك «جعفر»، فما رأيت أحسن منه، فقل فيه شيئاً، فسبقتني محبوبة، فقالت وأخذت عودها، وغنّتْ: [الطويل]

وكاتبةٍ بالمِسْكِ في الخد جعفراً ... بنفسي مخطّ المسك مِنْ حَيث أَثَّرا

لئن أَوْدَعَتْ سطراً من المِسْك خَدَّها ... لقد أودعَتْ قلبي من الوجد أسْطُرَا

فيا مَنْ مناها في السَّريرةِ جعفرٌ ... سقَى الله من سقيا ثناياك جعفرَا

ويا مَنْ لمملوكٍ يظل مليكه ... مطيعاً له فيما أسرّ وأجهرا

ويا مَن لعيني مَنْ رأى مثل جعفرٍ ... سَقَى الله صوبُ المُسْكِرَات لجعفرا!

قال: فتقلّبت خواطري، حتى كأنّي ما أحسن حرفاً من الشِّعر، فقلت للمتوكل: أَقِلْني، فقد والله عزب ذهني عني، فلم يزل يعيّرني به.

ثم دخلت عليه بعد ذلك للمنادمة، فقال: يا عليّ، أعلمت أني غاضبت محبوبة، وأمرتها بلزوم مَقْصورتها، ومنعت أهل القصر من كلامها؟ فقلت: يا سيّدي، إن غاضبتّها اليوم، فصالِحْها غداً، فدخلتُ عليه من الْغَدِ، فقال: ويحك يا عليّ! رأيت البارحة في النّوم كأنّي صالحت محبوبة، فقالت جاريته: شاطر، يا سيدي، لقد سمعت الآن في مقصورتها هَيْنَمة، فقال: قم حتى ننظر ما هي، فقامَ حافياً، حتى قربنا من مقصورتها، فإذا هي تغنّي، وتقول: [المنسرح]

أدور في القصر لا أرى أحداً ... أشكو إليه ولا يكلّمني

كأنني قد أتيت معصيةً ... ليست لها توبة تخلّصني

فمَنْ شفيع لنا إلى مَلِكٍ ... قد زارني في الكَرَى وصالَحني

حتى إذا ما الصباح عادَ لنا ... عادَ إلى هجره فصَارَمني

فصفّق المتوكل طرباً، فلمّا سمعته خرجتْ تقبّل رجليه، وتمرّغ خدّها في التراب، حتّى أخذَ بيدها راضياً عنها.

حدثنا أبو عليّ بن الأسكريّ المصريّ ـ وأسْكر هي القرية التي ولد بها موسى عليه السّلام ـ قال: كنت مِنْ جُلاّس تميم بن أبي تَميم، وممن يخفّ عليه، فأُتيَ من بغداد بجارية رائعة فائقة الغِناء، فدعا جلاسه، ومُدّت الستارة، فأمرها فغنّت: [الكامل]

وبدا لَهُ من بعدما اندمَلَ الْهوَى ... برقٌ تألّق موهناً لمعانُهُ

يبدو كحاشيةِ الرّداء ودُونَه ... صعب الذّرى متمنّع أركانُهُ

وبدا لينظر كيف لاح فلم يطق نظراً إليه وصدّه أشجانُهُ
فالنّار ما اشتملت عليه ضُلوعه والماء ما سَمَحَتْ به أجفانُهُ

قال: فأحسنت ما شاءت، وطرب تميم ومَنْ حضر، ثم غنّت:

سَيُسْلِيك عمّا فات دولة مفضلٍ أوائلُهُ محمودة وأواخِرُهْ
ثَنَي الله عِطفَيْه، وألّف شخصه على البرّ مُذْ شُدّت عليه مآزِرُهْ

فطرِب تميم ومَنْ حضر طرباً شديداً، ثم غنّت: [البسيط]

أستودع الله في بغداد لي قمراً بالْكَرْخ مِن فَلَك الأزرار مطلَعُهُ

فأفرط تميم في الطرب جدّاً. ثم قال لها: تمنّي ما شئت، فلك مناك، فقالت: أتمنّى عافية الأمير وسعادته، فقال: لا بدّ والله، فقالت: على الوفاءَ أتمنّى أيها الأمير، فقال: نعم فقالت: أتمنّى أن أغنّي هذه النوبة ببغداد. فتغيّر وجه تميم، وتكدّر المجلس، وقمنا. فلحقني بعضُ خدمه، فردَّني. فلمّا وقفت بين يديه، قال لي: ويحك! أرأيت ما امتحنّا به، ولا بدّ من الوفاء: وما أثق في هذا بغيرك، فتأهبْ لتحملَها إلى بغداد، فإذا غنّت هناك، فاصرفها، فقلت: سمعاً وطاعة، فأصحبها جاريةً سوداء تخدِمها وتعادَ لُها، وأمر لي بناقة وبجمل عليه هودج، فأدخِلْت فيه، وسرنا مع القافلة إلى مكة، فقضينا حجّنا.

ثم لما وردنا القادسية، أتتني السّوداء، فقالت لي: تقول لك سيدتي: أين نحن؟ فقلت: نحن نزول بالقادسيّة، فأخبرتها، فسمعتُ صوتها قد ارتفع بالغناء: [مجزوء الكامل]

لـمّا نزلنا القادسيّـ ـة حيثُ مجتمع الرِّفاقِ
وشممت من أرض الْحِجا زِ نَسِيمَ أنفاسِ الْعِرَاقِ
أيقنت لي ولمن أحـ ـبّ بجمع شَمْلٍ وَاتّفاقِ
وضحكت مِنْ فَرَحِ الّلقا ء كما بكيتُ من الفرَاقِ

فصاح الناس من أقطار الغافلة: أعيدي أعيدي، بالله! فما سُمِع لها كلمة.

فلما نزلنا الياسريّة على خمسة أميال من بغداد في بساتين متَّصلة يَبيتُ الناس بها، ثم يبكّرون ببغداد. فلمّا قرب الصباح إذا بالسوداء قد أتتني مذعورة، فقالت: إن سيدتي ليست بحاضرة، ووالله لا أدري أين هي؟ فطلبتها فلم أجدها، ولا وجدت لها ببغداد خبَراً، فقضيت حوائجي ببغداد وانصرفت إلى تميم، فأخبرته خبرَها، فلم يزل واجماً عليها.

وأخبار القيان كثيرة فلنقتصر على هذا القدر.

* * *

[مما قيل في الوشاة]

ومما جاء في الواشي، ما حُكِيَ أن رجلاً وَشَى برجل إلى بلال بن أبي بردة، فقال للساعي: انصرف، حتى أكشف عمّا ذكرت، فلمّا كشف عن الساعي، إذا هو لغير رِشْدة، قال: نبأنا أبو عمرو ـ وما كَذَبت ولا كُذّبت ـ حدّثني أبي عن جدّي، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الساعي لغير رشدة».

وذُكر السعاة عند المأمون، فقال: لو لم يكن من غيّهم إلا أنهم أصدق ما يكونون أبغض ما يكونون عند الله.

وقال ذو الرياستين: قبول النميمة شرّ من النميمة، لأن النميمة دلالة، والقبول إجازةً، وليس مَنْ دَلّ على شيء كمن قبله وأجازه، وقد جعل الله السامع شريك القاتل، فقال: ﴿**سماعون للكذب**﴾ [المائدة: ٤١].

وقال الشاعر: **[الطويل]**

لـعـمـرُك مـا سـبّ الأمـيـرَ عـدوُّه ... ولـكـنَّـمَـا سـبّ الأمـيـرَ الـمـبَـلِّـغُ

ووشَى واشٍ بعبد الله بن همام السّلولي إلى زياد، فقال له: إنه هجاك، فقال: أجمع بينكما، قال: نعم؛ فبعث إلى ابن همام، وأدخل الرجل بيتاً، فقال زياد: يا بنَ همام، بلغني أنك هجوتَني، فقال: كلاّ، أصلحك الله ما فعلت، ولا أنت لذلك بأهل، فأخرج الرجل، وقال: إن هذا أخبرني، فأطرق ابن همام هُنيهة، ثم أقبل على الرجل فقال: **[الطويل]**

وأنـت امـرؤٌ إمـا ائـتـمـنـتـك خـالـيـاً ... فـخـنـتَ، وإمّـا قـلـت قـولاً بـلا عِـلْـمِ

فـأنـت مـن الأمـر الـذي كـان بـيـنـنـا ... بـمـنـزلـةٍ بـيـن الـخـيـانـة والإثـم

فأعجب زياد بجوابه، وأقصى الواشي ولم يقبل منه.

قال الشاعر: **[الكامل]**

لا تـقـبـلـنّ نـمـيـمـةً مـن قـائـل ... وتـحـفـظـنّ مِـنَ الّـذِي أنـبـاكـهَـا

إن الـذي أنـبـاك عـنـه نـمـنـيـمـةً ... سـيـدِبُ عـنـك نـمـيـمـةً قـد حَـاكَـهـا

عليّ بن أبي طالب: قال رسول الله ﷺ «إن موسى قال: يا ربّ إني حيث ذهبت لا أنصر ولا أخذَل، فأوحى الله إليه: إن في عسكرك غمّازا، قال: يا رب دلّني عليه، قال: يا موسى، أبغض الغماز، فكيف أغمِز!».

قال رسول الله ﷺ: «إن أبغضكم إليّ المشاؤون بالنميمة، المفرقون بين الأحبّة، والملتمسون بين البراءة العيب»[1].

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٤/ ٢٢٧، ٦/ ٤٥٩.

وقال رسول الله ﷺ «أربعة يؤذنون أهل النار على ما بهم من الأذى»، وذكر رجلاً يأكل لحوم الناس، ويمشي بالنميمة(١).

* * *

فعاهَدْتُ اللَّهَ تَعَالَى مُذْ ذلك الْعَهْدِ؛ ألاَّ أحاضر نَمَّاماً من بَعْد، والزُّجَاجُ مخصوصٌ بهذه الطِّبَاع الذَّمِيمة، وَبِهِ يُضْرَبُ المثلُ في النَّميمة؛ فقد جَرى عليه سَيْلُ يَميني؛ ولذلِكُم السَّببِ لَمْ تمتدّ إليهِ يميني. [الطويل]

فلا تعذِلوني بَعْدَ ما قَدْ شَرحتُهُ ... عَلَيَّ أَنْ حَرِمْتُمْ بِي اقْتِطَافَ الْقَطَائِفِ

فَقَدْ بانَ عُذْرِي في صَنِيعِي وإنَّنِي ... سَأَرْتُقُ فَتْقِي من تَليدِي وَطَارِفِي

عَلَى أنّ ما زوّدتُكُمْ من فُكاهَةٍ ... أَلَذُّ من الحَلْوَى لَدَى كُلِّ عارف

* * *

[مما قيل في النميمة]

قوله «والزجاج مخصوص بهذه الطباع الذميمة»، قال السري فيما يتعلق بالزجاج من النَّمّ: [الطويل]

رأيك تبدي للصديق نوافذا ... عدوّك من أمثالها الدّهرَ آمنُ(٢)

وتكشف أسرارَ الأخِلاّء مازحاً ... ويا ربّ مزحٍ راح وهو ضغائنُ

سأحفظ ما بيني وبينك صائناً ... عهودَك إن العهد للمرء صائنُ

وألقاكَ بالبشرِ الجميل مداهناً ... فلي منك خلٌ ما علمت مداهنُ

أنمّ ما استودعته من زجاجة ... يرى الشيء فيها ظاهراً وهو باطنُ

وقال ابن المعتز:

لحى الله امرأ أعطاك سرًّا ... فضيّعه وفضّ الله فاهُ

فإنك كلّما استودعت سرًّا ... أنمّ من الزجاج بما وعاهُ

وقال السري: [البسيط]

أستودِع اللّهِ خلاً منك أو سِعُه ... وُدًا ويُوسعني غشًّا وتمويهَا(٣)

---

(١) روي بطرق وأسانيد متعددة، وأخرجه البخاري في الوضوء باب ٥٥، ٥٦، والجنائز باب ٨٢، والأدب باب ٤٩، وأبو داود في الطهارة باب ١١، والترمذي في الطهارة باب ٥٣، والنسائي في الطهارة باب ٢٦، والجنائز باب ١١٦، وابن ماجه في الطهارة باب ٢٦، والدارمي في الوضوء باب ٦١، وأحمد في المسند ١/ ٢٢٥، ٢٦٦.

(٢) الأبيات في ديوان السري الرفاء ص ٢٦٧.

(٣) الأبيات في ديوان السري الرفاء ص ٢٢٧.

كأن سرًّى في أحشائه لهب | فما يطيق له صَمًّا حواشيها
قد كان صدرك للأسرار جندلة | ضنينة بالذي تُخفي نواحِيهَا
فعاد من بثّ ما استودعت جوهرةً | رقيقة تستشفّ العينُ ما فِيهَا

وله أيضاً: [الوافر]

ثناني عنك ما استشعرت سرًّا | خلالٌ فيك لستُ لها يراضِ(١)
وإنّك كلّما استُودعتَ سرًّا | أنمّ من النّسيم عَلَى الرياضِ

قوله: «وبه جرى المثل في النميمة»، يقال: أنمَّ من الزجاجة على ما فيها، لأنه جوهر لا يكتم ما فيه.

[مما قيل في وصف الذهب والزجاج]

قال الأصبهانيّ: ما زال البلغاء يتعاطوْن وصف هذا الجوهر، فعبّروا عن مدحه وذمّه، فأما ذمه فإن إبراهيم بن سيار النظام أخرجه في كلمتين بأوجز لفظ، وأتمّ معنى، فقال: سريعُ الكسر، بطيء الْجَبْر.

وقال في الذهب: الذهب لئيم، لأن الشكل يصير إلى شكله، وهو عند اللئام أكثر منه عند الكرام.

وأما سهل بن هارون، فكان يوماً بمجلس أحد الملوك، وشدَّاد الحربيّ يعدّد خصال الذهب، فقال: هو أبقى الجواهر على الدَّفْن، وأصبرها على الماء، وأقلّها نقصاً في النار، وهو أوزن من كلّ ذِي وزن، إذا كان في مقدار شخصه، ولو وضعت على ظهر الزئبق في إنائه قيراطاً من ذهب، لرسبَ حتى يضربَ قعر الإناء، وسائر الجواهر تطفو فوقه؛ ولو كان الجوهر ذا وزن ثقيل، ورجح عظيم ولا تشدّ الأسنان المتقلقلة بغيره، ولا يُوضع في مكان الأنوف المصطلمة سواه، ومِيلُه أجود الأميال، والهند تُمِرّه في العين بلا كحل لصلاح طبعه، وعليه مدار التبايع مذ كان التبايع، وهو ثمن لكل شيء، وهو الزرياب(٢) والصّفائح التي تكون في سقف الملوك، والطبخ في قُدوره أغْذَى وأمرَأ.

وسئل عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه عن الكبريت الأحمر؛ فقال: هو الذهب؛ فأدرك سهل بن هارون من الغِيرة والحسد ما دعاه إلى معارضته، فقال يذمّ الذهب، ويفضّل الزّجاج: الذهب مخلوق والزجاج مصنوع، وإن فضله الذهب بالصلابةَ فضَله الزجاج بالصفاء، والزجاج أبقى على الدّفْن، والزجاج نور علويّ، والذهب ميّاع سيّال، ولم تتخذ الناس آنية للشراب أجمَع لما يريدون من الشراب منه، والشراب فيها أحسن منه

(١) الأبيات في ديوان السري الرفاء ص ١٥٧.
(٢) الزرياب: هو الذهب الخالص.

في كلِّ معدن، ولا يفقد معه وجه العديم، ولا يثقل اليد، ولا يرتفع في السَّوْم.

وكان سليمان إذا شرب في إناء كلحت في وجهه مَرَدة الْجِنّ، فعلّمه الله تعالى صنعة القوارير، فحسم عن نفسه تلك الجراءة. ومَنْ كَرع فيه فكأنّما كرع في إناء من ماء وهواء ونور، وقد تقدح النار من كسرِ قنّينة الزجاج إذا كان فيها ماء لأنّ طبع الزجاج والماء، والهواء والشمس واحد، وليس فيما يدور الفلك عليه أقبل لكلّ صِبْغ منه وأجدر ألاّ يفارقه؛ حتى كأن ذلك الصّبْغ جوهرية فيه. ومتى سقط عليه ضياء أنفذه إلى الجانب الآخر، وأعاره لونه، فإن كان الجام ذا لونين، أراك الوشيُ أحسَن من وشى صنعاء، ومن ديباج تُسْتَر وإذا وقع شعاع المصباح على جوهر الزّجاج صار المصباح والقنديل مصباحاً واحداً، وردّ الضياء كل واحد منهما على صاحبه. واعتبروا ذلك بالشُّعاع الذي يسقط على المرآة على وجه الماء، أو على الزجاج، ثم انظروا كيف يتضاعف نوره، وإن كان سقوطه على عين إنسان أعشاه وربما أعماه، قال الله تعالى: **﴿اللَّهُ نور السَّموات والأرْضِ مثلُ نوره كمشكاةٍ فيها مصباحٌ المِصْبَاحُ في زُجاجة الزجاجة كأنها كوكب درّيّ﴾** [النور: ٢٥]، والزيت في الزجاجة نور على نور. قال الله تعالى: **﴿إنّ صرحٌ ممرّد من قَوَارِير﴾** [النمل: ٤٤].

وقال تعالى: **﴿وأكوابٍ كانَتْ قوارير قوارير مِنْ فضّةٍ﴾** [الإنسان: ١٥] فاشتق اسما للفضة منها.

وقال رسول الله ﷺ لحادي بإبله: «يا أنَيس ارفُقْ بالقوارير»[1]، فاشتقّ للنساء اسما منه. وقدورُه أطيبُ طعاماً من قدور الحجارة، وهي لا تصدأ، وإن اتسخت فالماء وحده لها جِلاء، ومتى غسلت عادت جُدُداً.

واسم الذهبُ يتطيّر منه، وإن سقط عليك قتلك. ومِنْ لؤمه سرعته إلى بيوت اللئام، وإبطاؤه عن بيوت الكرام؛ وهو من مصائد الشيطان، ولذلك قالوا: أهلك الرّجال الأحمران، وهو فتّان قتّال لمن أصابه.

فلم يَبْق في المجلس أحداً إلا تحّير من ذلك وتعجّب من بلاغته وحسن بديهته، واحتجاجه في معارضته من غير رويّة، وأيقن أنه ليس دون اللسان حاجز، وأنّه مخراق يذهب في كلّ فنّ، فإذا صح العقل صحّ تقويم اللسان.

قوله «القطائف»، هي ما يجنى من الثمار، يريد بها الحلوى التي حَرّمهم أكلها والرتق: السدّ والإغلاق وهو ضد الفتق، ويقال: هو الفاتق الراتق، أي هو مالك لأمر، فهو يفتح ويغلق ويضيق ويوسع. ورتق: ضمّ وجمع، وامرأة رتقاء: لا يصل إليها

(١) روي بطرق وأسانيد متعددة أخرجه البخاري في الأدب باب ١١٦، وأحمد في المسند ٣/ ١٧٢. بلفظ: «ارفق يا أنشجة ويحك بالقوارير».

الرجال. وقوله تعالى: ﴿أوَ لَمْ يَرَ الّذِين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتْقاً ففتقناهما﴾ [الأنبياء: ٣٠] أي كانتا سماء واحدة، وأرضاً واحدة، فجعلت كل واحدة منهما سبع. وقيل: كانتا معاً ففتقناهما بالهواء الذي بينهما وقيل: فتق السماء بالمطر والأرض بالنبات، فقال: سأسدّ ما خرقته.

قوله: «التليد»، المال القديم. والطريف: المكتسب فكاهة: مُلَح.

* * *

قال الحارث بن هَمّام: فقبلنَا اعتذارَه، وقَبّلنا عِذاره، وقلنا له: قدْماً وقَذتِ النّميمةُ خيرَ الْبَشر؛ حتّى انتشر عن حَمّالةِ الحطب ما انتشر. ثمّ سألناه عمّا أحْدَثَ جارُه القتّات، ودُخْلُله المفتات؛ بَعْدَ أن رَاشَ له نَبْلَ السّعَاية، وجذم حَبْلَ الرّعَايَةِ فقال: أخَذَ في الاستخذاء والاستكانة، والاستشفاع إلَيَّ بذوِي المكانة.

* * *

عِذارُه: شعر خَدّه، شبه بالشوكة التي تقع على خد الفرس. وقد عذرت الفرس عذراً وأعذرته بالعِذار بمعنى ألجمته، وأعذرت اللجام: جعلت له عِذاراً، وأنشد ابن رشيق في معذّر: [مخلع البسيط]

وأسمر اللّون عسجديّ	يكاد يستمطر الجهامَا
ضاق بحمل العِذار ذَرْعا	كالمُهْر لا يعرف اللّجاما
ونكّس الرأس إذ رآني	كآبة واكتسى احتشاما
وظنّ أن العِذار مما	يُزيح عن قلبيَ الْغَرَاما
وما درَى أنه نباتٌ	أنبت في قلبي السَّقاما
وهل ترى عارضَاه إلاّ	حمائلا قُلّدتْ حُسَاما

قوله: «قدِماً وقَذَت»، أي قديماً أمرضت وأوجعت.

حمّالة الحطب: هي أمّ جميل بنت حرب عمة معاوية وامرأة أبي لهب، وكانت تمشي بالنميمة بين النبيّ ﷺ وبين المشركين، وقيل بين زوجها وبين النبيّ ﷺ، وقيل ذلك للماشي بالنّميمة، لأنَّ الحطب يَهيج النار، والنميمة تهيج الشرّر. وقيل: سميت حمالة الحطب لأنّها كانت تطرح الشوك للنبي ﷺ في طريقه، وكانت عوراء وأبو لهب أحول.

والقتات: النمام بالكذب والنّميمة، وقتّ بقتّ قتاً: مشى بالنميمة، ونَمّ ينمّ نمًّا: ضيع الأحاديث ولم يحفظها، وقيل: النميمة من قولهم: جلود نمّت إذا لم تمسك الماء. والقتات أيضاً: المتسمع علَى من ليس يشعر به، وهو القتّات، والنمّام والعسّاسُ والهمّام والغمّاز والمهينم، والمورّش والمِمْأس، وقد مأس يمأس.

دخلله: خاصته العالم بداخل أمره. المفتات: المستبدّ برأيه المتسوّر على ما لا ينبغي له.

راش: جعل لها ريشاً.

السعاية: المشي بالنميمة. جَذَم: قطع الرعاية: حفظ الصداقة. الاستخذاء، الخُضوع والاستكانة: الذلّ. ذوو المكانة: أهل الجاه

* * *

وكنتُ حرَّجتُ عَلَى نفسِي، ألاّ يَسْتَرْجِعَهُ أُنسِي، أو يَرْجِعَ إليَّ أَمْسِي؛ فَلَمْ يكُنْ له مِنّي سوى الرَّدِّ، والإضرارِ على الصَّد، وهُوَ لا يَكْتئبُ مِنَ النَّجْهِ، وَلاَ يتّئِبُ مِنْ وَقَاحَةِ الْوَجْهِ، بَلْ يُلِظُّ بالْوَسائِلِ، وَيُلِجُّ في المسائل؛ فَمَا أَنْقَذَنِي مِنْ إبرامِهِ، ولا أبْعَدَ عَلَيْهِ نَيْلَ مرامِهِ؛ إلا أَبياتٌ نفثَ بِها الصَّدْرِ الْمَوْتُور، والخاطِرُ المبتُورُ؛ فإنَّهَا كَانَتْ مَدْحَرَةً لشَيْطَانِهِ، وَمَسْجَنةً له فِي أَوْطَانِهِ وعِنْدَ انتشارِها بتَّ طَلاَقَ الْحُبور، ودَعَا بالْوَيْلِ والثّبور، ويئسَ من نَشْرِ وَصْلِي الْمَقْبُور؛ كما يَئِسَ الكفَّارُ مِنْ أَصحابِ الْقُبور.

* * *

حرّجْت: أثمت وضيّقت عليها بيمين أكيده. الإصرار: العزيمة. والصّدّ: الإعراض عنه. يكتئب: يهتمّ. النَّجْه: الجفاءَ وتغليظ الكلام. يَّتئِب: يرجع. يُلظّ: يكثر اللزوم بها. ويقال: ألظ بالشيء، إذا لزمه.

إبرامه: ثِقَله. نفَث: نطق وتكلم. الموتور: المظلوم. المبتور: المقطوع بالهم. مَدْحرة: مدفعة ومبعدة، ودحَرتُ الشيء دحوراً ودَحْراً: أبعدته ودحِرَ هو: بُعد. بتّ: قطع وأمضى، وجعله بتًا وهو ما لا رجعة له فيه.

الحبُور: السرور، وحَبَرْته حَبْرَتُهُ: سرَرته الثبور: الهلاك، وثبر الله العدو ثبوراً: أهلكه. يئس: قطع رجاءه. نشرَ: أحيا. المقبور: المدفون. الكُفّار: الدافنون للموتى.

* * *

فناشَدْناه أنْ يُنْشِدَنا إياها، وَيُنْشِقَنَا ريَّاهَا، فقال: أجَلْ، خُلِق الإنسان من عجل، ثم أنشد لاَ يَزْويهِ خجل، ولا يَثْنيه وَجَلَ: **[الخفيف]**

ونـدِيـم مَـحَـضـتُـه صِـدْق وِدّي	إذْ تَـوَهّـمْـتُـه صَـدِيـقاً حَـمِـيـما
ثـمَّ أولَـيـتُـه قـطـيـعـةِ قـالٍ	حيـن ألـفـيتـهُ صَديقاً حـمـيـما
خـلْـتُـهُ قَـبْـلَ أنْ يـجـرِّبَ إلْـفـاً	ذا ذمـامِ فـبـانَ جِـلْـفـاً ذَمِـيـمـا

وَتَـخَـيّـرتُـهُ كَـلِـيـمـاً فَـأمْـسَـى مِـنْـهُ قَـلْـبِـي بِـمَـا جَـنَـاهُ كَـلِـيـمَـا

* * *

ناشدناه: سألناه وجعلناه. يُنشِقَنا ريّاها: يشممنا رائحتها. أجل، حرف جواب بمعنى نعم.

خلق الإنسان من عجل: قال أبو عليّ: هو على القلب، معناه: خلق العَجَلُ من الإنسان، قال الزّجَاج: ويدلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿**وَكان الإنسانُ عَجُولاً**﴾ [الإسراء: ١١] ومثله: ﴿**وقد بَلَغنيَ الكِبَرُ**﴾ [آل عمران: ٤٠] أي بلغت الكبر، ومثله: ﴿**فاختلَطَ بهِ نباتُ الأرض**﴾ [الكهف: ٤٥].

قال الشماخ: [**البسيط**]

* ليًا كَمَا عُصِبَ العِلْبَاءُ بالعود *(١)

أي العود بالعلباء.

وقال القطامي: [**الوافر**]

* كما بَطّنتَ بالفدَن السَّياعا *(٢)

أي بَطَّنتَ بالسياع بالْفدَن وهو الطّين بالتبن، والفَدن: القَصْر. وقال ابن مقبل: [**البسيط**].

* وابتُذِلَتْ وَقع المحاجن بالمهرية الذُّقُن*(٣)

أي ابتُذِلت المهرية يوقع المحاجن، ومن جعل العَجَل الطين، فَلا قلب فيه، وأراد: لم يصبروا عن الآيات لعجلتهم في طلبها.

---

(١) يروى البيت بتمامه:

مـنـه وِلـدْتُ ولـم يـؤشـب بـه نـسـبـي لـمّـا كـمـا عُـصِـبَ الـعـلـبـاءُ بـالـعـودِ

وهو للشماخ بن ضرار في ديوانه ص ١٢٠، والأزهية ص ١٩٨، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٣٦٧، والمنصف.

(٢) يروى البيت بتمامه:

فـلـمـا أن جـرى سِـمَـنٌ عـلـيـهـا كـمـا طـيَّـنـت بـالـفـدنِ الـسـيـاعـا

وهو للقطامي في ديوانه ص ٤٠، وأساس البلاغة (فدن)، وجمهرة اللغة ص ٨٤٥، وشرح شواهد المغني ٢/ ٩٧٢، ولسان العرب (تيز)، (سيع)، ومغني اللبيب ٢/ ٦٩٦.

(٣) تمامه:

قـد صرّح الـسَّـيْـرُ عن كـتـمـان وابـتـذلـت وقـعُ الـمـحـاجـن بـالـمـهـريـة الـذُّقُـنُ

والبيت لابن مقبل في ديوانه ص ٣٠٣، وشرح شواهد المغني ١/ ٣١٦، ولسان العرب (كتم)، (حجن)، (ذقن)، والمحتسب ١/ ٢٣٧، وهو بلا نسبة في المخصص ٢/ ٤١٨.

وقوله: يزويه، أي يقبضه خجل: حياء، وقد خجل إذا استحيا. يثنيه: يَرُدّه. وَجَل: خوف.

محضته، أي أخلصته. توهّمته: حسبته. والحميم: الخاصّ من الإخوان، والحميم الثاني: الماء الحارّ السخن.

والصّديد: الدم المختلط بالقيح. أوليته: ألصقت به. القطيعة: البعد قال: مبغض. إلفاً: صاحباً. ذمام: عهد. بان: تبيّن جِلْفاً: جافياً. ذميماً. مذموماً. كليما الأوّل مكلَّماً، والثاني مجروحاً.

* * *

[مما قيل في الغدر وقلة الوفاء]

وقد أَكثر الناس من التشكّي بغدر الإخوان وقلة الوفاء منهم على قديم الزمان وحديثه، ونسوق منه ما يليق بهذا الموضع:

قال سفيان الثوري رحمه الله تعالى لصديق له: هل بلَغك شيء تكرهُ ممّن لا تعرف؟ قال: لا، قال: فأقلل مِمّن تعرف.

الجاحظ: قرىء على باب شيخ من أهل الرّيّ: جزى الله من لا يعرفنا ولا نعرفه خيراً، كأنه اتقى من ثقاته.

وقال امرؤ القيس بن حُجْر: [الطويل]

إذا قلتُ هذا صاحبٌ قد رضيتُه ... وَقَرَّت به العينانِ بُدّلتُ آخَرَا[1]

كذَلك جدِّي، ما أصاحبُ صاحباً ... من النّاس إلا خانني وتغيَّرا

وقال النابغة: [الطويل]

ولستَ بمستبق أخا لا تلمُّهُ ... على شَعَثٍ، أيّ الرّجال المهذّبُ[2]!

ولمّا انحرف ابن الزيات عن إبراهيم بن العباس الصولي، تحامَاه الناس أن يلقوْه، وكان الحارث بن سنجر صديقاً له، فهجره من ذلك، فكتب إليه: [الطويل]

تغيّر لي فيمن تغيّر حارثٌ ... وكم مِنْ خليلٍ غَيَّرتهُ الحوادِثُ[3]

---

(١) البيتان في ديوان امرىء القيس ص ٦٩، والبيت الأول في لسان العرب (أخر)، وتاج العروس (أخر).

(٢) البيت للنابغة الذبياني في ديوانه ص ٢٨، ولسان العرب (شعث)، (بقى)، وتهذيب اللغة ١/ ٤٠٦، ٦/ ٢٦٦، ٩/ ٣٤٨، وكتاب العين ٥/ ٢٣٠، وجمهرة اللغة ص ٣٠٧، وجمهرة الأمثال ١/ ١٨٨!، وفصل المقال ص ٤٤، والمستقصى ١/ ٤٥٠، ومجمع الأمثال ١/ ٢٣، ومقاييس اللغة ١/ ٢٧٧، وأساس البلاغة (بقي)، وتاج العروس (بقي).

(٣) الأبيات في ديوان الصولي ص ١٨٢.

أحارث إن أشركتُ فيك فطالما ... نعمِنَا وما بيني وبينك ثالثُ

وكتب لابن الزيات: **[الوافر]**

أخي بيني وبين الدّهـ ... ـر صاحبُ أيّنا غلبا[1]
صديقي ما استقام فإن ... نبَا دهرٌ عليّ نبَا
وثبتُ على الزمان به ... فعاد به وقد وَثبا
ولو عاد الزمان لنا ... لعاد أخاً به حَدِبَا

وكتب إليه أيضاً: **[المتقارب]**

وكنتَ أخي بإخاءِ الزمانِ ... فلمّا نبا صرتَ حرباً عَوانا[2]
وكنتُ إليك ألوم الزمانَ ... فأصبحُ فيك ألوم الزَّمانا
وكنتُ أُعِدّك للنائباتِ ... فأصبحت أطلبُ منك الأمانَا

وقال أبو فراس: **[الطويل]**

أقّلب طرفي لا أرى غيرَ صاحبٍ ... يميلُ مع النَّعماء حيث تَميلُ[3]
وصِرْنَا نرى أنّ المتارِك محسنٌ ... وأن خليلاً لا يضرّ خليلُ
تصفّحْتُ أحوالَ الرجال فلم يكنْ ... إلى غير شاكٍ في الزمان وُصُولُ
أكلّ خليل هكذا غير منصفٍ ... وكل زمان بالكرام بخيلُ!

وله أيضاً: **[الطويل]**

إذا الخلّ لم يهجُرك إلاّ ملالةً ... فليس له إلا الفِراقَ عتابُ[4]
إذا لم أجد في بلدةٍ ما أريده ... فعندي لأخرى عزمَةٌ وركابُ
بمن يثق الإنسان فيما ينوبُه ... ومِنْ أين للحرّ الكريم صِحَابُ!
وقد صار هذا الناس إلا أقلهُم ... ذِئاباً على أجسادهنّ ثيابُ

وقال الخباز البَلَويّ: **[الطويل]**

ألا إنّ إخواني الذين عهدتُهُمْ ... أفاعي رمالٍ لا تقصّر في اللَّسْعِ
ظننت بهم خيراً فلمّا بلوتُهم ... نزلت بوادٍ منهمُ غير ذِيَ زَرْعِ

ولابن هارون القرطبيّ: **[الكامل]**

ذهب الوفاء فلا وفاءٌ يرتجَى ... تلقى الصديق من الوفا عُرْيانَا

---

(١) الأبيات في ديوان الصولي ص ١٥٥.
(٢) الأبيات في ديوان الصولي ص ١٦٦.
(٣) الأبيات في ديوان أبي فراس الحمداني ص ٣٤.
(٤) الأبيات في ديوان أبي فراس الحمداني ص ٣٨.

يعطيك ودًّا صادقاً بلسانه وَيُجِنّ تحت ضلوعِه ألوانا

وقال المعرّي: [الوافر]

فظنّ بسائر الإخوان شرًّا ولا تأمَنْ على سرٍّ فؤادا[1]
فلو خبَرتهمُ الجوازء خُبْرِي لما طلعت مخافة أن تُكَادَا
تجنّبت الأنام فلا أواخِي وغيتُ عن الأنام فلا أعادَى
ولَمَّا أن تجهّمني مُرادِي جريتُ مع الزّمان كما أرادا
وهوّنت الخُطوبَ عَلَيَّ حتّى كأنّي صِرْت أمنحها ودادا

وله أيضاً: [البسيط]

والخلّ كالماء يبدِي لي ضمائرَه مع الصفاء ويخفيها مع الكدر

وكتب المعتصم صاحب المرية إلى ابن عمار: [الطويل]

وزهّدنِي في النّاسِ معرفتي بهمْ وطولُ اختيارِي صاحباً بعد صَاحِبِ
فلم تُرنِي الأيام خِلاً تَسرّني مباديه إلا ساءني في الْعَوَاقِبِ
ولا قلت أرجوه لدفعِ ملمّةٍ من الدهر إلا كان إحدى المصائبِ

وقال البحتري: [الكامل]

أما العداة فقد أَرَوْك نفوسَهُمْ فاقصد بسوء ظنونك الإخوانا

وقال أيضاً: [المجتث]

أما العدوّ فَيُبْدِي ما عنده ويكاشفْ[2]
لكن توقَّ وحاذر من الصَّدِيق الملاطِفْ

وقال منصور بن إسماعيل التميمي الفقيه: قال ابن رشيق: [المجتث]

لو قيل لي خذ أماناً من حادثات الزمانِ
لما أخذت أماناً إلا من الإخوانِ

وهذا الباب لا يحصَى كثرة. [الخفيف]

* * *

وتظّنيتُه مُعيناً رحيماً فتبيّنتُه العيناً رجيما
وتراءيتُه مُريداً فجلّى عَنه سَبْكِي له مَريداً لئيما
وتوسَّمْتُ أنْ يَهُبَّ نسيماً فأَبَى أن يَهُبّ إلاّ سَمُوما

(١) الأبيات في سقط الزند ص ٥٥٩.
(٢) البيتان في ملحق ديوان البحتري ص ٢٦٠٩.

بتَّ مِنْ لَسْعِهِ الذي أَعجز الرَّا ... قِي سليماً وباتَ مِنّي سليمَا
وهذا نهجُه غَداةَ افترقْنا ... مستقيماً والجسمُ مِنّي سقيمَا
لم يكن رائعاً خصِياً ولكنْ ... كان بالشرّ رائعاً لي خصيمَا
قلتُ لِمَّا بلوتُه: ليتَهُ كا ... نَ عَديماً ولم يكن لي نديمَا
بَغْضَ الصُّبْحَ حينَ نمَّ إلَى قَلْـ ... ـبي لأنَّ الصَّبَاح يُلْفَى نَمُومَا
ودعاني إلى هوى اللَّيْل إذ كا ... نَ سوادُ الدُّجى رقيباً كتومَا
وكفَى مَنْ يَشِي ولو فاه بالصِّدْ ... قِ أثاماً فيما أتاهُ ولومَا

* * *

قوله: «تظنَّيته» أي حسبته، وأبدل من إحدى نونيه ياء.

لعيناً: رجيماً: شيطاناً مبعداً مرجوماً بالنجوم، وقيل: الرجيم: المرجوم أي المشتوم المسبوب، من قوله سبحانه وتعالى: ﴿لئن لم تنتهِ لأرْجُمَنَّك﴾ [مريم: ٤٦]، أي لأسبنّك وقيل: الرجيم الملعون، وهو مذهب أهل التفسير، فمعنى اللعين والرجيم واحد.

تراءيته: ظننته، من تراءى لي الشيء: ظهر بعض الظهور. مُريداً: محبًّا. جَلَّى: كشف. سبكي: تجربي. مَريداً: كثير الشرّ. خبيثاً. لئيماً: وضيع القدر خسيس الهمة.

توسّمت: ظننتَ، وتوسمّت فيه الخير، أي رأيت فيه سَمْتَه، أي علامته والنّسيم: الريح اللينة. والسّموم: الحارّة. لَسْعه: ضرّه. سليم: الأول ملدوغ والثاني سالم: ورائع: الأول حسن المنظر، والثاني مفزع. بلوتُه: جرّبته عديماً غير موجود. يلفَى: يوجَد. هوى. حُبّ. رقيباً: حافظاً. يشي: ينمّ. فاه: نطق.

قوله: بغّض الصبح، وهو من المثل: الليل أخفى للويل، وقالوا: أنمّ من الصبح، لأنه يهتك حجاب الظلام. وقال بعض الحكماء لابنه: اجعل نظرك في العلم ليلاً لأن القلب في النهار كالطائر، وهو في الليل ساكن، فما ألقَيت فيه من شيء وعاه.

[مما قيل في الليل]

فأما أكثر الشعراء فهم إلى الليل أفزع، ومن النهار أنزع، لأن الليل أجمع لشتات الهموم والفكر، وأجلب لشوارد الأحزان والذكر.

قال امرؤ القيس: [الطويل]

وليلٍ كموجِ البحر أرخَى سُدُولَه ... عَلَيّ بأنواع الهُمومِ لِيَبْتَلِي(١)

---

(١) البيت لامرىء القيس في ديوانه ص١٨، وخزانة الأدب ٢/ ٣٢٦، ٣/ ٢٧١، وشرح شواهد المغني ٢/ ٥٧٤، ٧٨٢، وشرح عمدة الحافظ ص٢٧٢، والمقاصد النحوية ٣/ ٣٣٨، وبلا نسبة في أوضح المسالك ٣/ ٧٥، وشرح الأشموني ٣/ ٣٠٠، وشرح شذور الذهب ص ٤١٥.

وقال النابغة: [الطويل]

وصـدرٍ أراح الـلـيـل عـازبَ هـمِّـهِ تضاعف فيه الحزنُ من كلِّ جانبِ[١]

وقال قيس بن ذريح: [الطويل]

نـهـارِي نـهـار الـنـاس حـتـى إذا بـدا ليَ الليل هَزّتْنِي إليك المضاجعُ[٢]

وقال الطرماح بن حكيم: [الطويل]

ألاَ أيّـهـا الـلـيـل الـطـويـل ألا أصْبِـح بصُبْحٍ، وما الإصباح فيك بأروحِ[٣]

بَلَى إن لـلـعـيـنـيـن فـي الـصـبـح راحَـةً لـطـرحِـهِـمَـا طـرَفَـيْـهِـمَـا كـلَّ مـطـرَح

وقال ابن المعتز: [البسيط]

لا تـلـق إلا بـلـيـلٍ مَـنْ تـواصِـلُـهُ فـالـشـمـس نـمّـامَـةٌ والـلـيـل قـوّادُ[٤]

كـم عـاشـقٍ وظـلام الـلـيـل يـسـتُـره لاقَـى الأحـبـة والـواشـون رُقّـادُ

وقال المتنبي وأجاد: [الطويل]

كـم زورةٍ لـك فـي الأعـراب خـافِـيَـةٍ أدهَى وقد رقدوا من زَوْرة الذِّيبِ[٥]

أزورهـم وسـواد الـلـيـل يـشـفـع لِـي وأنـثـنـي وبـيـاضُ الـصـبْـحُ يُـغْـرِي بـي

وهذا البيت أميرُ شعره على كثرة الجيّد فيه. والبديع فيه أنه قابل الشطر الأول بالثاني حرفاً بحرف، فقابل «أزورهم» بقوله: «أنثني»، و «سواد الليل» ببياض الصبح، «ويشفع لي» بـ «يُغْري بي».

وحكى ابنُ جني قال: حدثني المتبني وقت القراءة قال قال لي ابن خِزابة وزير كافوز: أعلمت أني أحضرت كتبي كلها، وجماعة من أهل الأدب يطلبون من أين أخذت هذا المعنى، فلم يظفروا به! وكان أكثرَ مَنْ رأيتُ كتباً.

---

(١) البيت للنابغة الذبياني في ديوانه ص ٤١، وأساس البلاغة (عزب)، وبلا نسبة في تاج العروس (عزب).

(٢) البيت ليس في ديوان قيس بن ذريح، وهو لابن الدمينة في ديوانه ص ٨٨، وأساس البلاغة (هرر)، والأغاني ١٧/ ١٠٥.

(٣) يروى البيت الأولى:

ألا أيـهـا الـلـيـل الـذي طـال أصـبـح بـبـمّ ومـا الإصـبـاح فـيـك بـأروح

وهو للطرماح في ديوانه ص ٩٦، ولسان العرب (بمم)، وتاج العروس (بمم). وديوان المعاني ١/ ٣٤٦، وزهر الآداب ص ٧٤٨، ومعجم البلدان (بمّ)، ومعجم ما استعجم ١/ ٢٧٩.

(٤) البيتان في ديوان ابن المعتز ١/ ٧٧.

(٥) البيت في ديوان المتنبي ١/ ١٦١.

قال ابن جني: ثم إنيّ عثرت على الموضع الذي أخذ منه، فوجدتهُ لابن المعتز مصراعاً بلفظ [ليّن] صغير [جدًا] جرى فيه معنى بيت المتنبي كله على جزالة لفظه وحسن تقسيمه وهو: [البسيط]

* فالشَّمس نَمّامة والليل قواد *

قال: الثعالبي إما أن يكون ألمّ به فحسّنه وزينه، فصار أولى به، أو عَثَر على الموضع الذي عثر عليه ابن المعتز فأربى عليه في جودة أخذه، وأن يكون قد افترع المعنى وابتدعه، فلِلّه درّه! وناهيك بشرف لفظه وبراعة نسجه!

قال: ولبعض أهل العصر بيت يجمع خمس مطابقات ولا يستقل إلا بإنشاد بيتين قبله وهو: [الطويل]

عذيري من الأيام مدّت صروفَها إلى وَجْهِ مَنْ أهوى يدُ المسخِ والمحو

وأبدت برأسي طالعاتٍ أرى بها سهامَ أبي يحيى مسدَّدة نَحوي

فذاك سواد الخط ينهى عن الهوى وهذا بياضُ الوخْط يأمرُ بالصَّحْوِ

وقال ابن رشيق: [الخفيف]

أيّها الليلُ طِرْ بغير جَناحِ ليس للعين راحةٌ في الصَّبَاحِ

كيف لا أبغضُ الصّباح وفيه بان عني أولو الوجوهِ الصِّبَاحِ

وقال المتنبي: [الطويل]

وكم لظلام الليل عندك من يدٍ تخبّر أن المانويّة تَكْذبُ[1]

وقاك أذى الأعداء تسري إليهمُ وزارك فيه ذو الدّلال المحجّبُ

المانويّة هم الثّنويّة، وهم الذين يقولون: إن الخير كله من النور، والشّر كله من الظلام، فكذّبهم بأن وجد الخبر في الظلام حيث ستره من أعدائه، ووقاه شرّهم، وكان عوناً على زيارة حِبّه، ووجد الضدّ في النور، وهذا كله يجري في نمط بيت الحريري.

* * *

قال: فلما سمع ربُّ البيت قريضَهُ وَسَجْعهُ، وَاسْتَمْلَحَ تقريظَهُ وَسَبْعَهُ، بوّأَه مَهادَ كَرامتِهِ، وصَدَّرَه عَلَى تَكْرِمَتِهِ. ثمّ اسْتَحْضرَ عَشْرَ صحافٍ من الغَرب، فِيهَا حَلْواءُ القَنْدِ والضَّرَبِ؛ وقال له:

لا يستوي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصحابُ الجنَّةِ، وَلا يَسَع أَنْ يُجْعَلَ البَرِيءُ كذِي

(١) البيتان في ديوان المتنبي ١/ ١٧٨، ١٧٩.

الظِّنَّةِ، وهَذِهِ الآنية تتنزّلُ مَنْزِلَةَ الأبرارِ، في صَوْنِ الأسْرَارِ، فلاَ تُولِهَا الإبعادَ، وَلاَ تُلْحِقْ هُوداً بعادٍ.

* * *

قوله: «قريضة» أي شعره، وتقدّم السجع.

تقريظه وسبعه: المدح والذمّ، ويقال: سَبَعَه يسبَعه، إذا رماه بقبيح، من قولهم: سبعت الذئب إذا رميته، وقيل: معنى سبعت قلت له قولاً غمّهُ وذُعِر منه، ويقال: سبعت الوحش: ذعرتها، والأسد أفزعته.

بوّأه: أنزله، مهاد: فراش. صدّره: قدّمه وأجلسه في صدر وسادته.

التكرمة: الوسادة وما يجلس الضيف المكرم عليه ودخل عمر على سلمان رضي الله عنهما فألقى له وسادة. فقال: ما هذا يا أبا عبد الله؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقوله: «ما من امرىءٍ مسلم يدخل عليه أخوه المسلم، فيلقي إليه وسادةً إكراماً له وإعظاماً، إلاّ غفر الله تعالى له».

قوله: «استحضرَ»: أمر بإحضارها. الغَرَب: نوع من الخشب كريم. القَنْد: عصارة قصب السكر. والضرَب: العسل الأبيض.

الظِّنة: التُّهمة، أراد بالبريء آنيةَ الغَرَب، وبالمتَّهم جامَ الزجاج.

والأبرار: الأخيار. صون: حفظ. تُولِها: تلصق بها.

عاد: قوم هود، وأراد: لا تساو بين هود وهو مؤمن، وبين قومه وهم كفّار، فهم أضداد كالبريء والمتهم فقد خرج من نوعهم، وإن كانت جنسية الآدمية والقرابة تجمعهم، وكذلك الزجاج والغَرَب يجتمعان في الآنية والوعاء، ويختلفان في الاحتواء على ما فيهما من الإخفاء والإظهار.

* * *

[هود عليه السلام وقومه]

وهو هود بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح. وعاد هو ابن عوص بن إرم بن سام بن نوح، وكانوا أهل أوثان ثلاثة يعبدونها من دون الله، وكانوا ثلاث عشرة قبيلة باليمن، فدعاهم هود إلى عبادة الله تعالى، فكذّبوه وعصوْه، وكانوا جبابرة أقوياء، طولُ الرجل منهم مائة ذراع، وطول أقصرهم ستون ذراعاً، قال الله تعالى: **﴿وَزَادَكُم في الخَلْقِ بَسْطَةً﴾** [الأعراف: ٦٩]. أي عظما وطولاً وقوة وشدة، وعظهم هود عليه الصلاة والسلام، وقال لهم: **﴿أتبنون بكل ريع آية تعبثون﴾** [الشعراء: ٢٨] الآية، فكان جوابهم أن قالوا: **﴿مَنْ هو أشد منا قُوّةً﴾** [فصلت: ٦٥]، وقالوا: **﴿سَوَاءٌ علينا أوعظت أم لم**

تكن من الواعظين﴾ [الشعراء: ١٣٦]. وقالوا: **﴿يا هود ما جئتنا ببيّنةٍ وَمَا نَحْنُ بتاركِي آلهتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحن لَكَ بمؤمِنين﴾** [هود: ٥٣] الآيات، واسْتكبروا ولم يؤمنوا، فحبس عنهم القطر ثلاث سنين حتى جُهدوا.

فأوفدوا وفْداً يستسقون لهم، فبعثوا قَيْل بن عنز، ونعيم بن هَزّال، ومَرثد بن سعد، وكنيته أبو سعد، وجُهْلمة بن الخبيريّ، ولقمان بن عاد، ومع كلّ رجل منهم رهط من قومه، فلما قربوا من مكة نزلوا على معاوية بن بكر العقيليّ ـ وكانوا أخوالاً له وصهراء ـ فأنزلهم وأكرمهم شهراً، يشربون الخمر وتغنّيهم قينتان له يقال لهما: الجرَادتان. فلما رأى معاوية طول مقامهم عنده؛ وقد بعثهم قومهم للبلاء الّذي نزل بهم شقّ عليه ذلك، وقال: هلك أصهاري وأخوالي، والله ما أدري ما أصنع بهم! وإني أستحي أن آمر بالخروج مَنْ عندي فيظنون أنه ضاق بي مقامهم عندي، فقال شعراً وأعطاه للجرادتَين فغنّتاهم به، وهو: **[الوافر]**

ألا يا قيلُ ويحكَ قم فهيمْ … لعلّ الله يُصْبِحُنا غماما[1]
فيسقي أرضَ عادٍ إنّ عاداً … قد امسوْا لا يبينُونَ الكلاما
وإنّ الوحش تأتيهمْ جهاراً … فلا تخشى لعادِيهمْ سِهَامَا
وأنتم هاهنا فيمَ اشتهيتمْ … نهاركُمُ وليلكمُ التّمَامَا
فقبّح وفدكمْ من وفدِ قوم … ولا لُقُّوا التحيّة والسلامَا

فقال بعضهم لبعض: إنما بعثكم قومكم لما نزلَ بهم، فادخلوا الحرم. فاستسقوا، فقال مَرْثد بن سعد: والله لا تسقون حتى تطيعوا نبيكم، فقال له جهلمة: **[الوافر]**

أبا سعد وإنّك من قَبيلِ … ذوي كرم وإنّك من ثَمُودِ
أتأمرنا لنترك دين رِفْدِ … وزَمْل آل صُدٍّ والوفود
ونترك دين آباء كرام … ذوي رأي ونتبَع دينِ هود!
فإنّا لا نطيعك ما بقينا … ولسنا فاعلين لما تريدُ

ثم قال لمعاوية: امسك مَرثداً عنا، لا يدخلنّ مكة معنا وهو على دين هود. فدخلوا مكة، وخرج مَرْثَد، فأدركهم قبل أن يدعُوا، فقال: اللهمّ لا تدخلني في شيء مِمّا يدعوك به وفدُ عاد.

وقيل: قال: اللهمّ إن كان هود صادقاً فاسقنا، فقد هلكنا، فأنشأ الله سحائب ثلاثاً: بيضاء، وحمراء وسوداء، ونودي من السحائب: يا قيل، اخْتَر لنفسك ولقومك، قال: لقد اخترتُ السّحابة بالسوداء، لأنها أكثر السحاب ماء فنودي: اخترت رماداً رِمْددا، لا

---

(١) البيت الأول بلا نسبة في كتاب العين ٤/ ٦٠.

يُبقي من عادٍ أحداً، فساق الله سبحانه وتعالى السحابة السوداء إلى عاد فاستبشروا، وقالوا: هذا عارضٌ مُمطِرنا، فسخرت عليهم سبع ليال ريحٌ صرصر، فلم تَدَعْ منهم أحداً إلاّ هلك.

ولما خرجت الريح عليهم، قال سبعة منهمّ: تعالوا نقف على شفير الوادي فترُدّها، فجعلت الريح تأخذ الواحد منهم فترميه حتى يدقّ عنقه، فتركتهم كما قال الله تعالى: ﴿كأنَّهمْ أعجازُ نَخْلٍ خاوية﴾ [الحاقة: ٧]. واعتزل هود وَمنْ معه من المؤمنين في حظيرة، ما يصيبهم منها إلا نسيم يُلينُ البشرة، وتلذّه الأنفس، وإنها لتمرّ من عاد بالظعن بين السماء والأرض.

ورجع وفد عاد، فنزلوا على معاوية، فأتاهم راكب على ناقة في الليلة الثالثة من مصابهم، فأخبرهم الخبر، فقالوا: وأين فارقت هود؟ فقال: بساحل البحر، وخُيِّرُوا حين دعوا بمكة لأنفسهم، فقال لقمان: يا ربّ أعطني عُمْراً، فعمّره الله عمر سبعة أنسر، يأخذ الفرخ إذا خرج من بيضته فيغذّيه حتى يموت، ثم يأخذ آخر حتى بَقِيَ السابع، فقال له ابن أخيه: ما بقيَ من عمرك؟ قال: عمرْ هذا النّسر، وهو لِبَد ـ ولِبَد بلسانهم ـ الدّهر. فلما لم يستطع لِبَد النهوض مع النسور، أيقن لقمان بالموت، فماتا جميعاً.

واختار قبل أن يصيبه ما أصاب قَومَه، فاقتلعته الريح فقتلته.

وقال مرثَد: يا رب أعطني برًّا وصدقاً وعمر هود، فعمِّر مائة وخمسين سنة.

* * *

ثمَّ أمَرَ خادِمَهُ بنقْلِها إلى مَثْوَاه، لِيَحْكُمَ فِيهَا بما يَهْوَاه.

فأقبل علينا أبو زيد، وقال: اقرؤوا سورة الفَتْحِ، وأبشِرُوا بانْدِمالِ القَرْح؛ فقَدْ جَبَرَ اللهُ ثُكْلَكُمْ، وَسَنَّى أكلَكُمْ، وَجَمَعَ في ظِلِّ الحلْوَاءِ شمْلَكُمْ، وَعَسى أن تكرهُوا شيئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكم.

ولمّا هَمّ بالانْصِرَاف، مال إلى اسْتِهدَاء الصِّحَاف، فقَال للآدِب: إن مِن دلائلِ الظّرْف، سَمَاحَةَ المهْدِي بالظّرْف، فقال: كلاهُما لَكَ وَالغُلامِ، فاحْذِف الكلامَ، وَانْهَضْ بِسَلام. فوثَبَ في الجَوَابِ، وَشكَرَ شُكْرَ الرَّوْضِ للسّحَابِ.

* * *

قوله: «مثواه»، أي منزله. وقال: اقرؤوا سورة الفَتح، أي لأن الله سبحانه وتعالى قد فتح عليكم. اندمال القرح: الجرح. جَبَر: أصلح. ثكلْكم: حزنكم على فقدكم الحلواء بسببي، والحلواء: كل طعام عُولج بحلاوة، وتمدّ وتقصر. شملكم: عددكم المفترق. وفي معنى الآية قال بعضهم: [الكامل]

لا تـكـره الـمـكـروه عـنـد نـزولـه إنّ الـمـكـاره لـم تـزل مـتـبـايـنَـهْ
كـم مـن يـدٍ لا تـسـتـقـلّ بـشـكـرهـا لله فـي طـيّ الـمـكـاره كـامِـنَـهْ

الآدب: صاحب العرس.

الظّرف: جودة الرأي. الأصمعي وابن الأعرابيّ: الظّريف: البليغ الجيّد الكلام، وقالا: الظرف في اللسان، واحتجّا بقول عمر رضي الله عنه أنه إذا كان الرجل ظريفاً لم يقطع، أي إذا كان بليغاً احتجّ عن نفسه بما يسقط عنه الحد، قال الكسائيّ رحمه الله تعالى وفي الوجه، يقال لسان ظريف ووجه ظريف. غيره: الظريف الحسَن الوجه والهيئة.

المهدِي: مرسل الهدية، والظَّرْف: الوعاء. احذف: اقطع بعضه. انهض: تقدّم. وَثَب: بالغ وعجّل جوابه. الرَّوض: موضع العشب والأنوار.

* * *

ثمَّ اقْتَادَنَا أبو زيدٍ إلَى حِوَائِهِ، وَحَكَمْنَا فِي حَلْوائِه، وَجَعَلَ يُقَلِّبُ الأوانِي بِيَدِه، وَيَفُضُّ عَدَدَهَا عَلَى عدَدِه، ثمَّ قال: لسْتُ أَدْرِي أأَشكُو ذَلكَ النَّمّام أَم أَشكرُ، وَأَتناسَى فَعْلَتَهُ الَّتِي فَعَلَهَا أم أَذْكرُ، فإنَّهُ وَإن كانَ أَسْلَفَ الجَرِيمَة، وَنَمْنَمَ النَّمِيمَة، فَمِنْ غَيْمِهِ انْهَلّتْ هَذِه الدِّيمة، وبسَيْفِهِ انحَازَتْ لِي هَذِه الغنِيمَة. وَقَدْ خَطر ببالِي، أَنْ أَرجعَ إِلَى أَشبالِي، وَأَقْنَعَ بِما تَسَنَّى لي، وَألاَّ أُتعِبَ نَفْسِي ولا أجْمَالِي، وَأَنا أُوَدِّعَكُمْ وَادعَ مُحافظ، وَاسْتَوْدِعكُمْ خَيْرَ حافظ.

ثم استوى عَلَى رَاحِلَتِه، رَاجعا في حافِرَتِه، وَلاَوِياً إلى زافِرَته.

فغادَرَنا بَعْدَ أنْ وَخَدَتْ عَنسُهُ، وزايَلَنَا أُنسُه، كَدَسْتٍ غابَ عَنْهُ صَدْرُه، أوْ ليلٍ أفَلَ بَدْرُه.

* * *

حواؤه: موضعه، والحِواء: أخبية قريب بعضها من بعض، ويفضّ: يفرّق. وأسلف الجريمة: قدّم الذنب. نمنم: زيّن، والنمنمة: النقش. غيمه: سحابة. انهلّت: سالت. الدِّيمة: العطية هنا، وانظر معنى هذا الشك الطارىء عليه في السابعة والعشرين في قوله: **[الرمل]**

* يـا أخـي الـحـامـل ضَـيْـمِـي *

محافظ: راعٍ للمودة. أستودعكم: أترككم وديعة في يده. خير حافظ: هو الله سبحانه وتعالى يشيرُ لقوله تعالى: ﴿**فالله خير حافظاً**﴾ [يوسف: ٦٤]. استوى عليها، أي

ركبها، وقال في الدّرة: الراحلة تقع على الجمل والناقة، والهاء فيها للمبالغة. كالتي في داهية وراوية، وسمِّيت راحلة لأنها تُرْحل، أي يشد عليها الرَّحْل، فهي فاعلة بمعنى مفعولة، كما جاء في التنزيل: ﴿**عيشة راضية**﴾ [الحاقة: ٢١]، بمعنى مرضية، و ﴿**لا عَاصِمَ اليومَ مِن أَمْرِ الله**﴾ [هود: ٤٣]، أي لا معصوم، و﴿**من ماءٍ دَافق**﴾ [الطارق: ٦] أي مدفوق، و ﴿**حَرَماً آمناً**﴾ [القصص: ٥٧] أي مأموناً، كما جاء مفعول بمعنى فاعل في قوله تعالى: ﴿**حجاباً مستوراً**﴾ [الإسراء: ٤٥] أي ساتراً، ﴿**وكانَ وَعْدُهُ مأتِيًا**﴾ [مريم: ٥١]، أي آتيا.

في حافرته: في الطريق الذي جاء منه. لاوياً: عاطفاً. زافرته: قرابته. وخدَت: أسرعت. عنسه: ناقته الصلبة، ومنه عنست المرأة، إذا طال مكثها لا تتزوج. زايلنا: فارقنا. دست: مجلس. صدره: أعيانه. أفل: غاب.

المقامة التاسعة عشرة

وهيَ النَّصِيبيَّة

روى الحارث بن هَمَّام، قال: أَمْحَلَ العِرَاقُ ذاتَ العُوَيْمِ، لإِخْلافِ أنْوَاءِ الغَيْم، وتحدّث الرّكْبانُ بريف نَصيبين، وَبُلَهْنيَة أهْلِهَا المخصبين.

* * *

أمحل: أجدب، أي لم ينزل فيه مطر. إخلاف الأنواء، يريد النجوم التي من عادتها أن تطلع بالمطر، وأخلفتْ: لم تجىء بمطر. الركبان: أهل الأسفار. ريف: خصب.

* * *

[مدينة نصيبين]

نصيبين مدينة ديار ربيعة العظمى، وهي مطلّة على جبل الجوديّ الذي استوت سفينة سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام عليه، وهو جَبَلٌ عالٍ مستطيل.

أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «زُويَتْ لي الأرض، فرأيت مدينة أعجبتني، فقلت: يا جبريل، أيّ مدينة هذه؟ قال: نصيبين، فقلت: اللهمّ عجِّل فتحها».

قال اليعقوبيّ: هي مدينة عظيمة كثير الأنهار والجنّات والبساتين، ولها نهر عظيم يقال له الهَرْماس، عليه قناطر حجارة قديمة روميّة، وأهلها قوم من ربيعة من بني تغلِب، افتتحها غَنم بن عِياض في خلافة عمر رضي الله عنهما سنة ثمان عشرة.

قال شيخنا ابن جبير: مدينة نصيبين شهيرة العتاقَةِ والقِدَم، ظاهرها شباب، وباطنها هَرَم، جميلة المنظر، متوسطة بين الكبر والصّغَر، أمامها وخلفها بسيط أخضر مَدَّ البصر، قد أجرى الله فيه مذانب من الماء تسقيه، وتطرّد في نواحيه، وتحفّ بها عن يمين وشمال بساتين ملتفّة الأشجار، يانعة الثمار. وينساب بين يديها نهر قد انعطف عليها انعطاف السِّوار، والحدائق، تنتظم حافتيه، وتفِيء ظلالها الوارفة عليه، فرحم الله أبا نواس حيث يقول: **[البسيط]**

طابتْ نَصيبين لي يوماً فطِبتُ لها ... لَيتَ حظّي مِن الدنيا نصيبينُ

فخارجها رياضيّ الشمائل، أندلسي الخمائل، برق نضارة وغضارة، ويأتلق عليه رونق الحضارة. وداخلها شعث البادية باديةٌ عليه، فلا مطمح للبصر إليه، لا تجد العين

فيه فسحة مجال، ولا مسحة جمال. وهذا النهر ينساب إليها من عين معينة، منبعها بجبل قريب منها، تنقسم منها مذانب تخترق بسائطها وعمائرها، ويتخلّل البلد منها جزء يفترق على شوارعها، ويلج في بعض ديارها، ويخترق جامعها منه ميزاب ينصبُّ في صهريجين، أحدهما وسط الصحن، والآخر عند الباب الشرقي، ويفضي إلى سقايتين حول الجامع. وعلى النّهر جسر معقود من صمّ الحجارة، متّصل بباب المدينة القبلي، وفيها مدرستان ومارستان واحد.

* * *

قوله: وبلهنية أهلها المخصبين، البلهنية: رخاء العيش.

[مما قيل في وصف الرياض شعراً]

ونريد أن نصل ما نذكره من خصب نصيبين بأشعار مستحسَنة في أوصاف الرياض تقع كالصفة لها، قال إبراهيم بن العباس الكاتب: [المتقارب]

تـأمـلْ سـمـاء أظـلّـت عَـلَـيْـ ... ـكَ فـيـهـا مـصـابـيـحـهـا تَـزْهَـرُ
وأرضـاً تـقـابـلـهـا بـالـعَـرو ... سِ والـمـرجُ بـيـنـهـمـا جـعـفـر
وَمَـسْـحَـبُ نـور غـداة بـالـربيـ ... ـع أنـفـاسُـه الـمِـسْـك والـعـنـبرُ
خـلالَ شـقـائـقـه أصـفـرٌ ... وأضـعـافُ أصـفـرِه أحـمـرُ
والـمـاء مـطّـرِدٌ بـيـنـهـا ... يـضـيـق بـآذيّـه الـمـصْـدَر
ولـلـنّـاطـقـاتِ بـأكـنـافـهِ ... دواعِـي اشـتـيـاق ومـسـتـعـبَـرُ
يـشـارفـه الـبـرّ مـن جـانـبٍ ... ومـن جـانـب بـحـره الأخـضَـرُ
مـجـال وحـوش ومـرسـى سفيـنٍ ... فـيـا عَـذْبَ لـهـو ويـا مـنـظَـرُ
ويـا حـسـن دنـيـا ويـا عـز مُـلْـكِ ... يـسـوسـهـم الـمـلـك الأكـبـر
إمـامٌ بـه أمـرَ الآمـرو ... نَ بـالـعُـرفِ واستُـنـكِـر الـمـنـكَـرُ

وأنشد السيرافي: [الطويل]

ومجلس فتيانٍ إلى جنب حافة ... بقطْرُ بلّ بين الرِّياض الحدائقِ
تناصِي ميادينا له أحدقَتْ بهِ ... مواخرها موصولة بالجواسِقِ
وحفّ بريحان وكَرْم مُعَرَّش ... ونهر وأشجار ونَخل بواسِق
ووَرْدِ ونَسرين وآسٍ وَسَوْسَنٍ ... أفاطيره محفوفة بالشَّقائقِ
تزخرفُ بالنّوار حتى كأنما ... بِهِ جنّة محفوفة بالنّمارق

وقال كُشاجم: [البسيط]

وروْضة صنّفَ النّوار جوهره ... فيها فما شئت من حُسْن ومن طيبِ

كأنّ ما تجتنيه مِنْ زخارفها   أخلاق مستحسنِ الأخلاق محبوبِ
ما انفكّ للعين فيها أعين ذرُفٌ   تبكِي بدمع من الأنواء مَسْكوبِ
حتّي كأنّ أفانين النبات بها   على الميادين ألوانُ اليعاسيب
كان غُدُرَانها بالرّوض محدقَةَ   تحبير ثوبٍ من الموشيّ منصوبِ

ولتميم بن المعتز: **[الطويل]**

وقاذفة بالماء في وسْطِ بركَةٍ   قد التحفت لحاف في الظّلّ سَجْسَجَا
إذا اقْذَفتْ بالماء سلْته مُنْصُلاً   وعاد عليها ذلك النّصل هَوْدَجَا
تحاول إدراك النجوم بقذفها   كأنّ لها قلباً على الجوّ محرَجا
لدى روضةٍ جاد السّحاب ربوعها   فزخرفها بين الرياض ودَبّجَا
على نرجس غَضّ يلاحظ سَوسَنا   وآسٍ ربيعيٍّ يناغِي بنفسَجَا
كأن غُصون الأقحوان زمرّد   تعمَّمَ بالكافور ثم تتوَّجا
ونوار نَسْرينٍ كأنّ نسيمه   من المسك في جوّ السماء تأرّجا

قال أبو البحتري: تعرضت لأبي فحمة ـ وكان مجنوناً ببغداد ـ له بديهة حسنة، فقلت له: كيف أنت يا أبا فحمة؟ فأَنشأ يقول: **[الكامل]**

أصبحتُ منك على شَفَا جُرُفِ   متعرّضاً لموارد التَّلفِ
وأراك نحوي غير ملتفتٍ   متَحرّفا عن غير منحرَف
يا مَنْ أطال بهجره كلَفِي   أسفِي عليك أشدُّ مِن كَلِفي

فأخرجت قبضة نرَجس من كمي، فأخذها وشمّها ملياً، وأنشأ يقول:

لما تزوّجت الجنوب بهاطلٍ   حوْنٍ هتونٍ زبرج دلاَّح
أضحى يلقّحها بوسميّ الصبَّا   فاستثقلت حملا بغير نكاح
حتى إذا حان المخاض تفجّرَتْ   فأتت بِوُلْدَانِ بلا أرواح
حاك الربيع لها ثياباً وشّيتْ   بيد الندى وأناملِ الأزْواح
من أصفرٍ في أزهرٍ قد زانهُ   تبْرٌ على وَرَقٍ من الأوضاح
رِكِّبْنَ في عقد الزَّبرْجد فاغتدى   نحو الغزالة ناظراً بملاح

* * *

[فصل أشعار المجانين]

ويتصل بهذه الحكاية فصلٌ في ذكر ما يستحسن من أشعار المجانين، فإن أبا محمد ذكر في هذه المقامة المصابين، وذكر المجانين في غيرها، لئلا يخلّ بما شرطنا. قال

بعض الأدباء: كان رجلٌ من أهل الأدب، قد ذهب عقله بالمحبّة، [وخلفه دابة تدور معه، فاستوقفته] وقلت له: يا أبا فلان، ما حالك، وأين النعمة؟ قال: تغيّر قلبي بالحبّ فتغيرت النعمة، ثم بكى وأنشأ يقول: [البسيط]

أرَى التجمّل شيئاً لستُ أحسِنُهُ ... وكيف أخفي الهوى والدّمع يعلنُهُ
أم كيف صبر محبٌ قلبُه دَنِفٌ ... الشوق يُنحله والهجرُ يحزنه
وإنه حين لا وصلٌ يساعفه ... يهوى السلوّ، ولكن ليس يمكنُهُ
وكيف ينسى الهوى مَنْ أنت فتنتُه ... وفترة اللحظ من عينيك تفتنه

فقلت: أحسنت والله، فقال: قف قليلاً، فوالله لأطرحنّ في أذنيك أدباً أثقل من الرصاص، وأخفَّ على الفؤاد من ريش النعام، فوقفت، فأنشد: [البسيط]

للحبّ نار على قلبي مضرّمةٌ ... لم تبلغ النّارُ منها عُشرَ معشارِ
الماء ينبع منها في محاجرنا ... يا للرّجال لماء فاض من نار!

وأنشد أيضاً: [المتقارب]

أعاد الصدود فأحَيا الغليلاَ ... وأبدَى الجفاء فصبراً جميلا
وأحسِب نفسي على ما تَرَى ... ستلقَى من المهجر غمًّا طويلا
وأحسب قلبي على ما بدا ... سيذهب مني قليلاً قليلا

قال الحسن بن هانىء: رأيت مانياً الموسوس فأنشدني: [الخفيف]

شعر حَيٍّ أتاك من لفظ ميْتٍ ... صار بين الحياة والموتِ وَقْفَا
قد برتْ جسمَه الحوادثُ حَتَّى ... كاد عن أعين البريّة يخفَى
لو تأمّلتني لتُبصر شَخْصِي ... لم تبيّن من المحاسن حَرْفا

ثم أتيت جعيفران الموسوس، وهو شيخ كبير من بني هاشم، عليه قطيفة، وفي عُنقه غُلّ من ذهب، فقال: من أين جئت يا حسن؟ فقلت: من بيت مانوية: فقال: في حر أم مانوية! وقال لي اكتب: [البسيط]

ما غرّد الديك ليلاً في تنبّهه ... إلا حثثتُ إليك السَّيرَ مَجْهودَا
ولا هدت كلّ عين لَذَّ راقِدُها ... بنومةٍ في لذيذ العيش ممهودا
إلا امتطيْت الدّجى شوقاً إليك ولو ... أصبحتُ في حَلقَ الأقيادِ مصفودا
أسعى مخاطرة بالنّفس يا أملي ... والليل مدّرع أثوابه السُّودا
فلم ترِقّ ولم ترثِ لذي دنفٍ ... زودته حرُقات القلب تزويدا
هيهات لا غَدْر في جنٍّ ولا بشر ... من الخلائق إلا فيك موجودا

ثم قال لي: خرّق رقعةً مانويّة، فخرقنها، ثم مضيت فلقيت عرددا المصاب، وحوله الصبيان، وهو يلطم وجهه، ويقول: يأيها الناس، الفِرَاق مرّ المذاق، فقلت: يا أبا محمد، من أين أقبلتَ؟ فقال شيّعت الحاجّ إذ كان لي فيهم سَكَن، وقلت في ذلك: [الطويل]

هُم ارحلوا يومَ الخميس غُدَيّةً ... وودعتهمْ لَمَّا استقلُّوا وَوَدَّعُوا
فلما تولّوا ولّت النّفس مَعْهمُ ... فقلت: ارجعي قالت: إلى أين أرجع؟
إلى جسدٍ ما فيه لحم ولا دمٌ ... وما هو إلاَّ أعظمٌ تتقعقعُ
وعينان قد أعماهما الحزن والبُكَا ... وأذن عَصَتْ عُذّالها ليس تسمَعُ

وجعيفران من مجانين الكوفة، أعطاه رجل درهماً، وقال له: قل شعراً على قافية الجيم، فقال بديهاً: [مجزوء الخفيف]

عادَنِي الهمُّ فاعتلجْ ... كلُّ هَمٌّ إلى فرجْ
سلِّ عنك الهموم بالـ ... ـكأسِ والراحِ تنفرجْ

وهو القائل: [المجتث]

ما جعفرٌ لأبيه ... ولا له بِشَبيهِ
أضحى لقوم كثير ... فكلُّهُمُ يدَّعِيه
هذا يقول بُنَيِّي ... وذا يخاصِم فيه
والأمُّ تضحك منهم ... لِعِلْمِها بأبيه

وقال ماني: [البسيط]

مِن الظّباءُ ظباء عَمّها السُحُبُ ... وَحَلْيُها الدُرُّ وَالياقوت والذَّهَبُ
يا حسن ما سرقت عيني وما انتهبتْ ... والعين تسرق أحياناً، وتنتهبُ
إذا يَدٌ سرقت فالحدّ يقطعها ... والحدّ في سَرَقِ العَين لا يجبُ

وله أيضاً: [الطويل]

له وجَنات في بياض وحمرةٍ ... فحافاتها بيضٌ وأوساطها حُمْرُ
رِقاق يجول الماء فيها كأنّها ... زُجاج أجيلت في جوانبها الخمرُ

وأشعار المجانين في هذا الباب أكثر من أن تحصى.

* * *

فَاقْتَعَدْتُ مَهْرِيًا، وَاعْتَقَلْتُ سَمْهَرِيًا، وَسِرْتُ تَلْفِظُنِي أَرْضٌ إِلَى أَرْض، وَيَجْذِبُنِي رَفْعٌ مِنْ خَفْضٍ، حَتَّى بَلَغْتُها نِقْضاً عَلَى نِقْضٍ. فَلَمَّا أَنْخْتُ بِمَغناهَا

الخَصيبِ، وَضَرَبْتُ فِي مَرْعَاها بِنَصِيبٍ، نويتُ أَنْ أُلْقِيَ بِهَا جِرَاني، وَأَتَّخِذَ أَهْلَهَا جِيرَاني، إلى أن تَحْيَا السَّنَةُ الجمادُ، وَتَتَعَهَّدَ أرْضَ قَوْمِي العِهَاد، فَوَاللَّهِ مَا تَمَضْمَضَتْ مُقْلَتِي بِنومِهَا، ولاَ تَمَخَّضَتْ لَيْلَتي عن يَوْمِهَا، دُونَ أَنْ أَلْفيتُ أبا زيدٍ السَّرُوجيَّ يجولُ في أرجاء نَصِيبين، وَيَخْبِطُ بهَا خَبْطَ المُصابين وَالمُصِيبينَ، وهو يَنْثُر مِن فِيه الدُّرر، وَيحتلِبُ بكفَّيْهِ الدِّرَرَ. فوجَدْتُ بهَا جِهَادِي قدْ حَازَ مَغْماً، وَقِدْحِي الفَذَّ قَدْ صار تَوْأَماً، وَلَمْ أَزلْ أَتْبَعُ ظِلَّهُ أينمَا انبعَثَ، وَأَلْتَقِطُ لَفْظَهُ كلَّمَا نَفتَ، إلى أنْ عَرَاه مَرَضٌ امْتَدَّ مَدَاهُ، وَعَرَقَتْهُ مُدَاه، حَتى كَادَ يَسْلبُه المَحْيَا، ويُسْلِمُهُ إلى أبي يَحْيى.

* * *

قوله: «اقتعدت مهريًّا»، أيِ، ركبت بعيراً منسوباً إلى مَهْرة، قبيلة من قضاعة، إبلهم أنجب الإبل، زعموا أنه كان يلقّحها الوحش، وهي إبل متوحشّة صغار بيض، تكون بين عُمَان والشِّحْر، وتزعم العرب إنها إبل الجن لسرعتها، فبقيت أنسالها في بني مَهْرة. قال أبو عبيدة: المهريّة من الإبل تسير أربعمائة ميل كل يوم، ثم نسبَت العرب إلى مَهرة كل بعير نجيب.

اعتقلت: حبست، والاعتقال: أن تحبس الرّمح بين ركابك وساقك تلفظني: ترميني. رفع: مرتفع: خفض: منخفض. يجذبني: يسوقني لنفسه. نِقضاً على نقض: هزيل على هزيل؛ وأخذ هذا اللفظ من قول أبي الشيص يصف شدّة السير: [الكامل]

أكَلَ الوجيفُ لحومهمْ ولحومَها ... فأتوك أنقاضاً على أنقاضِ
ولقد أتتك على الزمان سواخطاً ... فرجَعْنَ عَنْك وهنّ عنه رَوَاضِي

وقال حبيب في معناه: [الطويل]

وركبٍ يساقون الرّكاب زجاجة ... من السَّيْر لم تَقْصِدْ لها كَفُّ قاطبِ[1]
وقد أكلوا منها الغواربَ بالسرَى ... وصارت لها أشباحهم كالغوارِب

ولحبيب أيضاً: [الطويل]

وركب كأمثال الأسنَّة عرسّوا ... على مِثْلِها والليلُ تسطو كواكبُهْ[2]
على كلِّ روّاد المِلاط تهدّمت ... عريكته العلياءُ وانضمّ جانبُهْ
رعته الفيافي بعدما كان حقبةً ... رعاها، وماءِ المزن ينهلُّ ساكبه

(١) البيتان في ديوان أبي تمام ص ٤١.

(٢) الأبيات في ديوان أبي تمام ص ٤٤.

فكم جزْع وَادٍ جَبَّ ذِرْوة غاربٍ وبالأمس كانت أتمكَتْه مذائبهْ

قوله: «أنخت» بركت. مغناها: موضع سكناها. نويت: قصدت. جِراني صدري، والجِران: باطن عنق البعير، يقول: لما أخذ نصيباً في مرعاها، أضمر أن يقيم بها ريثما يأتي أرضه المطر. الجماد: التي لا مطر فيها. تتعهد: تتفقّد وتزور. العِهَاد. كثرة المطر.

وتمضمضت العين بالنوم، إذا خالطها ودبَّ فيها، وتمخّضت المرأة: أضرّ بها وجعُ الولادة، وتقول: تمخّضت المرأة عن زوجها إذا حَمَلَتْ بالولد عنه، وتمخضت بولدها إذا تحرّكت به ودنتْ ولادتها، وإذا استعير هذا المعنى لليلة صار تمخّضها عن اليوم السابق لها، كأن اليوم ألقي في الليلة ما كان فيه من الحيوان فتحرّكت به؛ فيريد أنه لم ينقص يومي الذي وردتُ فيه نصيبين حتى وجدت فيه أبا زيد قبل أن أدخل في ليلتي، ولأجل هذا قال قبل هذا: تمخّضت مقلتي بنومها، أراد أنه لقيه قبل الليلة التي ينام فيها، ولو قال: تمخضّت بيومها للزم أن يكون اليوم الذي يأتي بعدها، كأنَّها كانت تحمله فتلده إذا طلع صبحه من حيث إنه متصل بها، ولو جعلت «عن» بمعنى الباء لانقلب إلى هذا المعنى، وإنما دل الكلام على صحة المعنى الأوّل، وأصله المَخَض بالتّحريك، ومنه: مخضت اللبن مَخْضاً، حرّكته لإخراج زَبده، ومخَضَت المرأة وتمخّضت: تحرّك ولدها ليخرج، ثم يستعار ذلك للأيام وغيرها، فأما استعارة حمل الولد فكقول عمرو بن حسان في النعمان: **[الوافر]**

أجدّك هل رأيت أبا قبيسٍ أطال بقاءه النَّعم الرّكامُ[1]

تمخّضت المنون له بيومٍ أتى، ولكلّ حاملةٍ تمامُ

النّعم الركام: الإبل الكثيرة، وصُفِّر قابوس، تصغير الترخيم، وجعل المنيّة حاملاً باليوم الذي هلك فيه وجعل اليوم ولدها على جهة الاستعارة، وقال حبيب في معناه: **[البسيط]**

حتى إذا مخّض اللّهُ السّنينَ لها مخْضَ الحليبة كانَتْ زُبْدَةَ الْحِقبِ[2]

فهذه استعارة من مخْض اللبن، أراد أن السنين تحرّكت لهذه البلدة، أي كانت تمرَّ عليها فلا تنالها بمكروه حتى وجدها المسلمون كالزّبدة في حسنها ولذّتها فأكلوها باستباحة مَنْ فيها.

---

(١) البيت الأول لعمرو بن حسان في لسان العرب (كثر)، (مخض)، (طوق)، والبيت الثاني لعمرو بن حسان في حاشية يس ٢/ ٢٨٦، وبلا نسبة في إصلاح المنطق ص ٣، ٣٤٢، والإنصاف ٢/ ٧٦٠، وجمهرة اللغة ص ٦٠٨، وشرح عمدة الحافظ ص ٧٣٦.

(٢) البيت في ديوان أبي تمام ص ٨.

قوله: «ألفيت»، أي وجدت. يجول: يتصرّف. أرجاء: نواحي. يخبط: يسأل الناس، وأصل الخبط نفض ورق الشجر، يُنض للإبل فيخزن ثم يدقّ لها في زمن الشّتاء، ويبلّ بالماء فتعلفه، ثم يستعار الخبط للمعروف، وقال زهير بن أبي سلمى: [البسيط]

وليس مانعَ ذي قربى وذِي نَسَبِ ... يوماً ولا مُعْدِماً مِنْ خَابِطٍ وَرَقا(١)

يقال: خبطتُ الرجل، أي سألته، وخبط الرجل بالأمر: لم يهتد لصوابه، والبعيرَ: ضرب بيده الأرض، والشيءَ: ضربته، والدابّةَ الأرض: شدّت وطأها، والشيطانُ الإنسانَ: صرعه.

قوله: «المصابين» أي المجانين. والمصيبين: الواجدين لما يطلبون، والمصيب أيضاً ضدّ المخطىء، والمفعول مُصاب، فيريد أنه يجول في نواحيها مسرعاً كالمجنون، أو كالمتيقّن بوجود حاجته.

الدُّرَر: الجواهر، والدِّرر: اللبان، أراد أنه يتكلم بكلام حسن فيأخذ به العطايا، قِدْحِي الفَذّ، أي سهمي المنفرد. توأما: زوجا، وأراد أنه كان منفرداً فصار يأبى زيد زوجاً. انبعث: نهض وتوجّه. نفث: نطق. عراه: قصده. امتدّ مداه، أي طالت مدته. عرقته: أخذت لحمه. مُداه: سكاكينه. بُسْلِمُه: يتركه، وأبو يحيى: كنية الموت، وقد تقدّم في المقامة قبل سهام أبي يحيى مسددة نحوي.

* * *

[ثواب المريض]

أبو هريرة رضي الله تعالى عنه: قال رسول الله ﷺ: «من مات مريضاً مات شهيداً، ووُقِيَ من فتنة القبر، وغُدِيَ وَرِيح عليه برزقه من الجنة»(٢).

وقال: «مرض يوم يكفّر ذنوب ثلاثين سنة»(٣).

وقال النبي ﷺ: «الصداع والحمّى يصيب الإنسان وإن ذنوبه مثل أُحُد فما يفارقه حتى لا يدع من ذنوبه وزن خردلة».

أنس رضي الله تعالى عنه، قال: قال: رسول الله ﷺ: «المريض إذا برىء وصحّ

---

(١) يروى صدر البيت:

وليس مانع ذي قربى ولا رحم

وهو لزهير بن أبي سلمى في ديوانه ص ٥٣، ولسان العرب (خبط)، وتهذيب اللغة ٢/٢٥١، ٧/٢٥٠، وجمهرة اللغة ص ٢٩١، وأساس البلاغة (خبط)، وتاج العروس (خبط)، وبلا نسبة في لسان العرب (عدم)، وتاج العروس (عدم).

(٢) أخرجه ابن ماجه في الجنائز باب ٦٢.

(٣) أخرجه بنحوه الدارمي في الرقاق باب ٥٦.

من مرضه كان كمثل البردَةَ تقع من السماء في صفاء لونها»[١].

* * *

فوَجَدْتُ لِفَوْتِ لُقْيَاهُ، وَانقِطَاعِ سُقْيَاه، مَا يَجِدُه الْمُبْعَدُ عَنْ مَرَامِهِ، وَالْمُرْضَعُ عِنْدَ فِطَامِهِ، ثمَّ أُرْجِفَ بأنّ رَهْنَهُ قَدْ غَلِقَ، وَمِخْلَبَ الحِمَامِ بِهِ قَدْ عَلِقَ، فَقلِقَ صَحْبُهُ لإرْجَافِ المُرْجِفِينَ، وَانثالوا إلَى عَقْوَتِهِ مُوجفينَ: [المتقارب]

حَيَارَى يَمِيدُ بِهِمْ شجُوهُمْ كأنَّهُمُ ارْتَضَعُوا الخَندريسَا
أسالوا الْغُرُوبَ وَعَطُّوا الجيوبَ وَصَكّوا الخدود وَشَجُّوا الرؤوسَا
يَوَدُّون لَوْ سالمتْهُ المنون وغالتْ نفائسهُم والنُّفوسَا

* * *

قوله: «سقياه»، أي فوائده التي كان يسقيه بها. مرامه: حاجته. فطامه: قطعه عن الرضاع. أرجف: تحدث، والإرجاف: خوض الناس في الفتنة وحديثها. وغلِق: كَفّ، وكان من فعل الجاهلية أن يقول الراهن لمن يمسك رهنه: إن لم آتك إلى كذا فالرّهن لك فإن أتاه بالدَّيْن بعد الأمد قال له: قد غَلِق الرهن.

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يغلَق الرهن، له غُنْمُه وعليه غُرْمُه»[٢].

المخلب: ظفر الطائر الصائد. الحِمام: المنون. انثالوا. انصبّوا واندفعوا. عقوته: موضعه وأصلها فناء الدار.

موجِفين: مسرعين. حيارى: جمع حيْران، والحيرة: التردّد في الأمر وعدم التّهدّي له، قال الواثق:

لا يك السُّقْمُ ولكن كان بي وبنفسي وبأميّ وأبي
قيل لي إنك صُدِّعتْ فما خالطت سَمْعِيَ حتى دِير بي

وقال آخر:

أنا مذ خبرت بالعِلَّـ ـةِ والله عليلُ
ليت حُمّاكِ بِجسمي ولك العمر الطويلُ

يميد: يميل. شجوهم: حزنهم. الخندريس: الخمر. أسالوا الغروب: أجروا الدموع، والغَرْبة: الفيضة من الدمع، والجمع غروب: عطوا: شقوا. صكّوا: لطموا:

---

(١) أخرجه الترمذي في الطب باب ٣٤.

(٢) أخرجه ابن ماجه في الرهون باب ٣، ومالك في الأقضية حديث ١٣.

شَجُوا: جرحوا. يودّون: يتمنّوْن. سالمته: تركته وصالحته، وأصله الصلح. المنون: المنيَّة. غالت: أهلكت. نفائسهم: كرائم أموالهم.

[مما قيل في عيادة المريض]

ونذكر هنا من الشعر ما يوافق هذا الموضع:

دخل أبو دَهمان القيسيّ يوماً على بعض الأمراء يعوده، فأنشده: **[الطويل]**

بأنفسِنا لا بالطّوارف والتُّلْدِ ... نَقيك الّذي تُخْفِي من السُّقْم أو تبدِي

بنا معشرَ الْعُوّاد ما بك من أذًى ... فإن أشفقوا ممّا أقول فبي وحدِي

ودخل محمد بن عبد الله بن طاهر على المتوكل يعوده، فقال: **[البسيط]**

الله يدفعُ عن نفس الإمام لنا ... وَكُلّنا للمنايا دُونَهُ غَرَضُ

فليت أن الذي يَعْرُوهُ من مرضٍ ... بالعائدين جميعاً لا به المرضُ

ففي الإمام لنا من غيره عِوَضٌ ... وليس في غيره مِنْهُ لَنَا عِوَضُ

وكتب المعتصم إلى عبد الله بن طاهر: **[الكامل]**

أعززْ عليَّ بأن أَراك عليلاَ ... أو أن يكون لك السَّقام نَزيلاَ

لوددتُ أني مالكٌ لِسَلامَتِي ... فأعيرُها لك بُكْرَةً وأصيلا

فتكونَ تبقى سالماً لسلامتي ... وأكونَ ممّا قد عراك بديلاَ

هذا أخ لك يشتكي ما تشتكي ... وكذا الخليل إذا أحبّ خليلا

هذا الشعر على فتوره شرفُ بمنصب قائله.

وكان المعتصم أميًّا لأن أباه هارون الرشيد ندبه في صِغَرِهِ للتعلّم فسمعه يوماً يقول وقد مَرَّتْ به جنازة: ليتني مكانك ولا أرى هذا البلاء، فقال له: لا أندبك إلى شيء تتمنَّى الموت من أجله؛ فلهذا لم يكن له علم بالأدب كأخويه الأمين والمأمون.

ولأبي العباس المبرّد: **[الخفيف]**

يا عليلُ أفديك من ألم العِـ ... ـلّةِ هَلْ لي إلى اللقاء سَبِيلُ

إنّ يَحُلْ دونك الحجاب فمَا يُحْـ ... ـجَب عنّي وبِكَ الضّنَى والنُّحولُ

ولأبي تمام في مالك بن طوق: **[المنسرح]**

أَلْبَسَكَ الله منه عافيةً ... في نومِك المعتَرَى وفي أَرَقِكْ

يُخْرِج من جسمك السَّقَام كما ... أُخرِجَ ذمُّ الفعال من خُلُقِكْ

ولابن عبد ربه: **[البسيط]**

يا مَنْ عَلَيْهِ حجابٌ مِن جَلاَلَتِهِ ... وإن بَدَا لَكَ يوماً غَيْرَ مَحْجُوب

ما أنت وحدك مكسوّاً ثياب ضنًى — بل كلّنا لك مِن مُضنًى وَمَشْحُوبِ
ألقَى عليك يداً للضرّ كاشفةً — كَشَافُ ضُرِّ نبيّ الله أيوبِ

* * *

قال الراوي: وَكنتُ فيمَنِ التفّ بأَصْحَابِهِ، وأَغذّ إلى بابه، فلمّا انتهينا إلى فِنائه، وتصدَّيْنا لاستنشاء أنبائه، برزَ إلينا فَتَاهُ، مفترّةً شَفَتاه، فاستطلْعنا طِلْعَ الشّيخ في شَكاتِه، وَكُنْهَ قُوَى حَرَكَاتِهِ، فقال: قد كان في قبضةِ المرْضة، وَعَرْكة الوعْكة، إلى أن شَفَّهُ الدَّنف واستشفّه التَّلَف، ثمَّ منَّ الله تعالى بتقويةِ ذَمَائه، فأفاقَ مِنْ إغمائه. فارجعوا أدراجَكم، وانْضُوا انْزِعَاجَكُمْ، فكأنْ قد غَدَا وَرَاح، وساقاكم الرَّاح. فأعظمنا بُشْرَاه، واقتَرحْنَا أن نَرَاه، فدخل مؤذناً بنا، ثمَّ خرَجَ آذناً لنا، فلقِينا منه لَقًى، ولساناً طلقاً، وجلسنا مُحْدِقِينَ بسريره، محدّقِينَ إلى أساريره.

* * *

قوله: «أغذ»، أي أسرع. تصدّينا: تعرَّضنا. الاستنشاء: الاستطلاع. أنبائه: أخباره. برز: خرج. مفترّة: ضاحكة. استطلعناه: سألناه أن يُطلِعَنا. طِلع الشيخ في شكاته: خبر مرضه. كُنه: حقيقة. عرْكه الوَعْكة: شدة المرْضة، وعركتُ الشيء: دلكته بيديك وحَكَكته، ووعكته الْحُمّى: كسرتْه. وشفّه الدنف: أضعفه المرض ونقص جسمه استشفّه: استقصى بقية قوته. ذَمَائه: قوى نفسه إغمائه: ذهاب عقله من الضعف. ارجعوا أدراجَكم، أي في الطريق الذي جئتم فيه. انضُوا انزعاجكم، أي أزيلوا زعَجكم وطَيْشَكم، والانزعاج: ضد القرار. أعظمنا بشراه، أي وجدنا ما بَشرنا به عظيماً، والبِشارة بكسر الباء: ما بُشِّرَت به، والبُشارة بضمها: ما يُعْطَى على البِشارة. والبَشارة بفتحها: الجمال، وفلان بَشيرُ الوجه، أي حسنه، وعند أكثرهم أن لفظ «بشّرته» لا يستمل إلا في الإخبار في الخير، وليس كذلك، بل يستعمل في الخير والشرّ قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيم﴾ [التوبة: ٢٤]، والعِلة في ذلك أن البشارة إنما سميت بذلك لاستبانة تأثير خبرها في بشرَة مَن بُشِّر بها، وقد تتغيّر البشرة للمساءة بالمكروه، كما تتغيّر عند المسرّة بالمحبوب، إلا أنه إذا أُطْلِق لفظها وقع على الخير؛ كما أنّ النذارة يُطلق لفظها في الشر، وهذا ذكره الحريري في الدّرّة قال ابن عُزيز: البشرى: والبشارة إخبار بما يسر، قال تعالى: ﴿لهم البشرى﴾ [يونس: ٦٤].

اقترحنا: طلبنا، واقترحت الشيء: فعلته قبل أن يُفعل. مُؤذناً: معلمَا. لقًى: طريحاً. طلْقاً: فصيحا. محدقين: محلّقين، وأحدق القوم بالشيء إذا أحاطوا به واحتفُّوا

حَولَه. وحدّقوا، أي نظروا إليه نظراً شديداً، فهم محدِقون إليه، أي ناظرون، والحَدَقة: سَواد العين الأعظم. والأسارير: تكاسير جلد الوجه.

* * *

أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من عاد مريضاً فجلس عنده قدر ساعة، أعطاه الله تعالى أجْر عمل سنة لا يعصيه فيها طرفة عين»(١).

وقال رسول الله ﷺ: «عيادة المريض إذا دخلتَ عليه، أن تضعَ يدَك على رأسه وتقول: كيف أصبحت؟ أو كيف أمسيت؟ وإذا دخلت عليه تغمّدَتْك الرحمة، وإذا خرجت من عنده خُضْتَها مقبلاً ومدبراً» ـ وأومأ بيديه إلى حَقْويْه(٢).

أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن عاد المريض خاض الرحمة، فإذا جلس عنده انغمَس فيها»(٣).

وقال رسول الله ﷺ: «إذا دخلتم على مريض فنفّسوا عليه في أجله، فإنّ ذلك لا يردّ شيئاً وهو يطيّب نفس المريض»(٤).

نفّسوا: وسّعوا عليه بطول عمره.

ودخل كُثَيّر على عبد العزيز بن مروان يعوده فقال له: لولا أن سرورك ما يتمّ بأن تسلَم وأسقم أنا، لدعوت ربي أن يصرف ما بك إليّ؛ ولكن أسأل الله لك أيها الأمير العافية، ولي في كنفك النعمة. فضحك وأمر له بمال فخرج وهو يقول: [الكامل]

ونعودُ سيّدَنا وسيّدَ غيرِنا ... ليت التشكي كان بالعوّادِ
لو كان يُقبَل فِدْيَةٌ لفديتُه ... بالمصطفى من طارِفِي وتلادِي

وكتب آخر إلى عليل: [البسيط]

نُبّئت أنك معتلٌّ فقلت لهم ... نفسي الفداءُ له من كُلّ مَحْذُورِ
يا ليت عِلّتَه بي غيرَ أنّ له ... أجر العليل وأنّي غير مأجورِ

* * *

(١) روي بطرق وأسانيد متعددة، أخرجه مسلم في البر حديث ٤٠، ٤٢، وأبو داود في الجنائز باب ٨، والترمذي في البر باب ٦٤، وابن ماجه في الجنائز باب ٢، وأحمد في المسند ١/ ١٢١، ١٣٨، ٢٣٩، ٣/ ٣٠٤، ٤٦٠، ٥/ ٢٤١، ٢٧٧، ٢٨١.

(٢) أخرجه البخاري في المرض باب ١٥، والترمذي في الجنائز باب ٢.

(٣) أخرجه مالك في العين حديث ١٧.

(٤) أخرجه الترمذي في الطب باب ٢٥، وابن ماجه في الجنائز باب ١.

فَقَلَّبَ طَرْفَهُ في الْجَمَاعَةِ، ثُمَّ قال: اجْتَلُوهَا بِنْتَ السَّاعَةِ، وأنشد: [الكامل]

عَـافَـانِـي الـلَّـهُ وَشُـكْـراً لَـهُ ... مِـنْ عِـلَّـةٍ كَـادَتْ تُـعَـفِّـيـنـي
وَمَـنَّ بِـالْـبُـرْءِ عَـلَـى أَنَّـهُ ... لاَبُـدَّ مِـنْ حَـتْـفٍ سَـيَـبْـرِيـنِـي
مَـا يـتـنـاسَـانـي، وَلَـكِـنَّـهُ ... إلـى تَـقَـضِّـي الأكْـلِ يُـنْـسِـيـنِـي
إنْ حُـمَّ لَـمْ يُـغْـنِ حـمـيـمٌ وَلا ... حِـمَـى كُـلَـيْـبٍ مِـنْـهُ يَـحْـمِـيـنـي
ومـا أبـالِـي إن دَنـا يَـوْمُـهُ ... أَم أُخِّـرَ الْـحَـيْـنُ إلـى حِـيـن
فـأيُّ فـخـرٍ فـي حـيـاةٍ أرى ... فـيـهَـا الْـبَـلاَيَـا ثـمَّ تـبـلـيـنِـي

* * *

قوله: قلّب طرفه، أي حوّل عينيه بنظرهم. اجتلوا: انظروا، ونسَب الشعر للساعة لمّا قيل فيها. عافاني: أي سلّمني. تعفّيني: تهلكني. منّ: أنعم. حَتْف: هلاك. تقضِّي الأكل: تمامه وآخره. يُنسِيني: يؤخِّرني، والأصل الهمزة فسهّله للشعر. حُمّ: قدّر. حميم: صاحب.

[حِمى كليب]

حمى كليب؛ هو ابن ربيعة أخو مهلهل الشاعر وخال امرىء القيس، وكان أعزَّ الناس في العرب. وبلغ من عزه فيهم أنه اتخذ جَرْو كلب، فإذا نزل بمنزل فيه كلأ قذف ذلك الجَرْو فيه، فعوى فحيثُما بلغ عُواؤه لا يرعى أحد عشب ذلك الموضع إلا بإذنه، وإذا جلس لا يمرُّ أحد بين يديه إجلالاً له، ولا يُخشَى أحدٌ في مجلسه غيرُه، ولا توقد نارٌ غير ناره، ولا يُجيرُ تغلَبيّ ولا يكْريّ رجلاً، ولا يحمي حمًى ولا يُغير إلا بإذنه.

وكان يحمِي الصيد فيقول: صَيْد كذا في جواري، فلا يصيب أحد منه شيئاً، وكان قد حَمَي حمًى لا يطؤه إنسان ولا بهيمة، فدخل فيه يوماً فطارت قُنبرة بين يديه من عَلَى بيضها، فقال لها: **[الرجز]**

يـا لـكِ مـن قُـنـبـرة بـمـعْـمَـرِ ... خلاَ لـكِ الـجـوّ فـبـيـضـي واصْـفـري
* ونـقـري مـا شـئـت أن تـنـقِّـري *[1]

---

(١) الرجز لطرفة بن العبد في ديوانه ص ٤٦، ولسان العرب (عمر)، (قبر). (نقر)، (جوا)، وجمهرة اللغة ص ٧٩٥، والحيوان ٣/ ٦٦، ٥/ ٢٢٧، والشعر والشعراء ١/ ١٩٤، وتاج العروس (عمر)، (نقر)، (جوا)، (الياء)، وتهذيب اللغة ٢/ ٣٨٤، ١١/ ٢٢٨، ولكليب بن ربيعة في لسان العرب (قبر)، (يا)، والتنبيه والإيضاح ٢/ ١٨٤، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٧٧٢، والخصائص ٣/ ٢٣٠، ورصف المباني ص ٢٢١، والعقد الفريد ٣/ ١٢٧، ٤/ ٣٤، والمنصف ١/ ١٣٨، ٣/ ٢١، والمخصص ١٢/ ٣٩.

وكانت امرأته جليلة بنت مرّة بن شيبان، وكان لمرّة - وهو من بني بكر - عشرة من الولَد، منهم الحارث وجسَّاس ونَضْله وهمَّام، فجاءت جساساً خالة له اسمها البَسوس، التي يقال فيها: أشأم من البَسوس، فنزلت عليه، ولها ابن وناقة تُسمَّى سراب، بفصيلٍ لها، فدخل الحِمى يوماً، فوجد بيض القُنبرة قد وطئتهْ سَراب فكسرته، فسأل عنها فأخبِر أنها لخالة جساسٍ، فقال: أو قد بلغ من قدره أن يُجير دون إذني! يا غلام، ارمِ ضَرْعها، فخرقه بسهم، وقتل فصيلها، ثم طرد إبل جساس، ونفاها عن المياه، عن شُبَيْثٍ والأحصّ (غديرين) حتى بلغ غَدير الذّئاب. فجاء جساس، فقال: نفيت عن المياه مالِي، حتى كدت تهلكه! فقال: إنّا للمياه شاغلون، فقال: هذا كفعلك بناقة خالتِي وفصيلها، فقال: أو قد ذكرتَها! أما إنّي لو وجدتها في غير إبلِي مرّة استحللت تلك الإبل لها، فعطف عليه جَسّاس فرسه، فطعنه، فلمّا أحسَّ الموت، قال: يا جساس، اسقني ماء. فقال: تجاوزت شُبيثاً والأحصّ، واحتزّ رأسه، وأمال يديه، وجاء. فقالت أخته لأبيها: إنّ جَسّاساً جاء خارجة ركبتاه، قال أبوها: والله ما خرجتَا إلا لأمرٍ. فلما وصله قال: ما وراءك يا بُنيّ؟ قال: طعنت طعنة لتشغلنّ شيوخ وائل رقصاً. قال: قتلتَ كليباً؟ قال: نعم، قال: وددتُ أنّك وأخوتَك مِتمُّ قبل هذا، ما بنا إلا أن تتشاءم بنا وائل، ثم لقي أخاه نَضْلة فقال: **[الوافر]**

وإنـي قـد جـنيـتُ عـلـيك حـربـاً تَـغِـصُّ الـشّـيـخ بـالـمـاء الْـقَـرَاح

فأجابه أخوه نضلة:

فـإن تـك قـد جـنـيـتَ علـيّ حـربـاً فـــلا وانٍ ولا رثُّ الـــسِّـــلاح

وكان أخوه همّام قد آخى مهلهلاً أخا كليب، وعاهده ألاّ يكتمه شيئاً، فجاءته أمَةٌ له، وعنده مهلهل، فأسرّت إليه الخبر، فقال له مهلهل: ما قالت لك أمَتُك؟ فقال: زعمت أنّ أخي جساساً قتل كليباً، فقال: است أخيك أضيق من ذلك. وتحمّل القوم، وغدا مهلهل في ثأر أخيه بالخيل، واجتمعت أشراف تَغْلب، وأتوا مُرّة، فتكلموا معه في القِصاص من جَسّاس وإخوته، فذهب مُرّة إلى الدية، فغضبت تَغْلِب ووقعتْ في الحرب، فدامت بينهم أربعين عاماً.

وكان فيما بينهم خمس وقائع: أوّلها يوم عُنيزة وآخرها قتل جَسّاس، وذلك أنه لما اجتمع نساء تَغلِب للمأتم قالوا لأخته: رحِّلي جليلة عن مأتمكِ، فإنّ قيامها شماتةٌ بنا، وعار علينا، فقالت لها: اخرجي يا هذه من مأتمنا، فإنك شَقيقة قاتلنا، فلما رحلت قالت أخت كليب: رِحْلَة المعتدي، وفراق الشامت! ويلٌ غداً لآل مرّة، من الكرّة بعد الكرّة.

فلما بلغ ذلك جليلة قالت: وكيف تشمت الحرّة بهتك سِتْرها، وترقّب وِتْرها! أسعد الله جَدّ أختي، أفلا قالت: نقرة الحياء، وخوف الاعتداء!

وجاءت وهي حامل، فولدت غلاماً وسمّته بالهجرس، وربّاه جسّاس، فكان لا

يعرف أباً غيره، فزوّجه ابنَته، فوقع بينه وبين بكريّ كلام، فقال له البكريّ: ما أنت بمنتهٍ حتى ألحقك بأبيك. فأمسك عنه، ودخل إلى أمه فسألها فأخبرته، فلما أوَى إلى فراشه، وضع أنفه بين ثدي زوجته، وتنفّس تنفيسةً تنفَّطَ ما بين ثدييها من حرارتها، فقامت الجارية فِزعةً، فدخلت إلى أبيها فأعلمته، فقال: ثائر وربّ الكعبة.

فلما أصبح أرسل وراء الهجرس، فأتاه فقال له: إنما أنت ولدي ومعي، وقد كانت الحرب في أبيك زماناً طويلاً حتى كدنا نتفانَى، وقد اصطلحنا الآن، فانطلِقْ معي حتى نأخذ عليك ما أخِذَ علينا، قال: نعم، ولكن مثلي لا يأتي قومَه إلا بسلاحه، فأتيا جمعاً من قومهما، فقصّ عليهم جسّاس ما كانوا فيه من البلاء، وما صاروا إليه من العافية، ثم قال: وهذا ابن أختي قد جاء ليدخل فيما دخلتم فيه، فلما قُدِّموا للعقد أخذ بوسط رمحه، وقال: وفرسي وأذنيه، ورمحي ونَصْليه، وسيفي وغِراريه، لا يترك الرجل قاتل أبيهِ وهو ناظر إليه. ثم طعن جساساً فقتله، ولحق بقومه وكان آخر قتيل فيهم.

وقد قيل في صورة قتل كليب غير ما ذكرنا، وحكايات الجاهلية كثيرة الاضطراب، وقد نسب شعر القنبرة لطرفة.

وقال النابغة الجعديّ وذكر قتل كليب وحذَّر به عقالاً العقيلي: **[الطويل]**

كليْبٌ لعمري كانَ أكثر ناصراً ... وأبصرَ حزماً منك ضُرِّج بالدَّمِ[1]

رمى ضرع نابٍ فاستمرّ بطعنةٍ ... كحاشية الْبُرْد اليمانِي المسهّمِ

فقال لجساسٍ: أغثني بشربةٍ ... تُدارك بها منّا عليّ وأنعمِ

فقال: تجاوزت الأحصّ وماءه ... وبطنَ شُبيث وهو ذو مترسَّمِ

الترسّم: اتباع الماء في قعر البئر، يقول: أيّ افتخار في حياة تعرض عليّ فيها الامتحانَات، ثم بعد هذه المشقات تردّنِي إلى الكبر والشيخوخةِ؛ فلم أبال، أدنَا الموت أم تأخّر، إذ المآل إلى الهَرم القائد إلى الموت. وأشار بهذا إلى قول النمر بن تَوْلَب: **[الطويل]**

يودّ الفتى طولُ السلامة جاهداً ... فكيف ترى طولَ السلامة يفعلُ!

وإلى قول حميد بن ثور: **[الطويل]**

أرَى بصري قد رابني بعد صحّةٍ ... وحسبك داءً أن تصحّ وتسلَمَا

وجاء: كفي بالسلامة داء.

وجاء في أجر البلايا قوله ﷺ: «إن الرجل ليصيبه البلاء حتى يمشي في الناس ما له خطيئة».

---

(١) الأبيات في ديوان النابغة الجعدي ص ١٤٣.

أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الهوى والبلاء والشهوة معجونة بطينة آدم».

* * *

قال: فدعَوْنَا لهُ بامْتِدادِ الأجَلِ، وارتدادِ الْوَجَل، ثمَّ تَدَاعَيْنَا إلى الْقِيَامِ، لاتقَاء الإبْرَام، فقال: كلاً بل الْبَثُوا بياضَ يَوْمِكم عِندِي، لتَشْفُوا بالمفاكَهَةِ وجْدِي، فإنَّ مُنَاجاتَكم قُوتُ نَفْسِي، وَمِغْنَاطيسُ أُنسِي. فتحرّينا مَرْضَاتَهُ، وَتَحَامَيْنَا مُعَاصَاتَهُ، وَأقبَلْنَا عَلَى الْحَدِيثِ نمخُض زُبْدَه، وَنُلْغِي زَبَدَه، إلَى أَنْ حَانَ وَقت الْمَقيلِ، وَكَلَّتِ الألْسُنُ مِنَ الْقالِ وَالْقِيلِ. وَكَانَ يَوْماً حَامِي الوديقَة، يَانِعَ الْحَديقةِ، فقال: إنّ النُّعَاسَ قَدْ أَمَالَ الأعنَاق، وَرَاودَ الآماق، وهو خَصْمٌ أَلَدُّ، وَخِطْبٌ لا يُرَدّ؛ وفصُلوا حَبْلَهُ بالْقَيْلولَةِ، وَاقْتَدُوا فيهِ بالآثار المنقولة.

* * *

قوله ارتداد الوجل، أي إزالة الخوف. واتقاء الإبرام: خشية التثقيل.

* * *

[تخفيف العيادة]

قال بعضهم: **[الوافر]**

إذا ما عُدتَ محموماً فخَفف ... فتخفيف العيادة خير عَادَهْ

وقال رسول الله ﷺ: «أخفّوا العيادة، وأقلّوا الجلوس؛ والتعزية يوم».

أبو القاسم الوزير بن عيسى، قال: أنشدني أبو بكر أحمد بن موسى بن مجاهد، وقد جئته عائداً، وأطال قوم عنده الجلوس، فقال لي: يا أبا القاسم، عيادة ثم ماذا؟ فصرفت مَنْ حضر، ثم هممت بالانصراف معهم، فأمرني بالرجوع، ثم أنشدني عن محمّد بن الجهم: **[البسيط]**

لا تُضْجِرنّ مريضاً جئتَ عائِدَهُ ... إن العيادة يومٌ إثر يومينِ

وسلْه عن حاله، وادعُ الإله لهُ ... واقْعد بقدر فُوَاقٍ بين حَلْبين

مَنْ زارَ غِبًّا إذاً دامت مودّته ... وكان ذاك صلاحاً للخليلينِ

وقال آخر: **[البسيط]**

عيادة المرء يوم بعد يومينِ ... وجلسةٌ لك مثل اللّحظ بالعينِ

لا تُبرمَنْ مريضاً في مُساءلة ... يكفيك من ذاك تَسْآلٌ بحرفيْنِ

مرض يحيى بن خالد، فكان إسماعيل بن صبيح إذا دخل عليه يعوده وقف عند رأسه، ودعا له، ثم يخرج ويسأل الحاجبَ عن منامه وطعامه وشرابه. فلما أفاق قال: ما عادني إلا إسماعيل بن صبيح، ودعا له.

وممّن زاد على التخفيف فقطع الزيارة عبيد الله بن عبد الله بن طاهر، مرض أخوه محمد بن عبد الله فلم يعده عبيد الله، فكتب له محمد: [الكامل]

إنـــي وجـدتُ عـلـى جـفـا ... ئـك مِـنْ فـعـالـك شـاهـدَا

إنّـي اعـتـلـلـتُ فـمـا وجـدْ ... تُ سـوى رسـولِـك عـائـدا

ولـو اعـتـلـلـتَ فـلـم أجـد ... سـبـبـاً إلـيـك مـسـاعِـدَا

لاسـتـشـعـرتْ عـيـنـي الـكَـرَى ... حـتـى أعـودَك راقـدَا

فأجابه عبيد الله أخوه: [الخفيف]

كـحِـلـت مـقـلـتـي بـشـوْك الـقَـتـادِ ... لـم أذق مـذ حُـمِـمْـتَ طـعـم الـرّقـادِ

يـا أخـي الـحـافـظ الـمـودّة والـثّـنـا ... زل مـن مـقـلـتـي مـكـانَ الـسَّـواد

مـنَـعـتـنْـي عـلـيـك رقّـة قـلـبـي ... مـن دخـولـي عـلـيـك فـي الـعُـوَّادِ

لـو بـأذنـي سـمـعـت مـنـك أنـيـنـاً ... لـتـفـرّى مـن الأنـيـن فـؤادي

ومرض حماد عَجْرد، فعاده أصحابه إلا مطيع بن إياس، وكان خاصًا به، فكتب إليه يقول: [الوافر]

كـفـاك عـيـادتـي مـن كـان يـرجـو ... ثـواب الله فـي صِـلَـةِ الـمـريـضِ

فـإن تـجِـدتْ لـك الأيـام سـقـمـا ... يـحـول جـريـضُـه دون الـقَـريـضِ

يـكـن طـول الـتـأوّه مـنـك عـنـدِي ... بـمـنـزلـة الـطّـنـيـن مـن الـبَـعـوضِ

فـمـا نـفـسـي عـلـيـك تـذوب حُـزنـاً ... ومـا دمـعـي عـلـيـك بـمـسـتـفـيـضِ

ولمحمد بن عبد الله في محبوب له مرض: [المنسرح]

ألـيـسـك الله مـنـه عـافـيـةً ... تـغـنـيـك عـن دعـوتـي وعـن جَـلَـدِكْ

سـقـمـك ذَا لا لـعـلـة عـرضـتْ ... بـل سـقـم عـيـنـيـك دبّ فـي جَـسَـدِكْ

فـيـا مـريـض الـجـفـون أخـيِ فـتًـى ... قـتـلـتَـه بـالـجـفـون لا بـيـدِكْ

وقال آخر في محبوب له تركت الحمّى على فِيهِ أثراً: [المنسرح]

يـا أمـلِـي كـيـف أنـت مـن أمـلـكْ ... وكـيـف مـا تـشـتـكـيـه مـن سـقَـمِـكْ

هـذان يـومـان لـي أعـدّهـمـا ... مـذ لـم تَـلُـحْ لـي بُـرُوق مـبـتـسَـمِـكْ

حـسـدت حـمـاك حـيـنَ قـيـلَ لـنَـا ... بـأنـهـا قـبّـلـتـك فـوقَ فـمِـكْ

وقال العباس بن الأحنف: [الكامل]

قالت: مرضت فعُدْتها فتبرّمَتْ — وهي الصحيحة والمريضُ العائدُ[١]

والله لو أنّ القلوب كقلبها — ما رقّ للولد الضعيف الوالد

قوله: «البثوا»، أي أقيموا. بياض يومكم، أي طوله، وبياض النهار: ضوءه: مناجاتكم: محادثتكم.

مغناطيس، حجر يجلب الحديد تقول له العامة حجر المسّ. تحرّينا، أي قَصدنا. تحامينا: تباعدنا. نمخُض زبْده: نحرّك ونجمَع فوائده، وكني بالزبد، وهو جمع زبدة عن خيار الكلام. نُلغي زَبّده: نترك ما لا خير فيه، وزبد الماء: ما يعلوه من الرغْوة. المقيل: النوم في وقت القائلة. حامي الوديقة: شديد الحرّ. يانع الحديقة: ناعم الرّوضة، والحديقة كلّ بستان محلّق بحائط أو زرب. راود: طالَب. الآماق: العيون، وأصله طرف العين من جهة الأنف. والْخِطب: من يخطب المرأة. والقيلولة: الرقاد في القائلة. والآثار: الأحاديث.

* * *

[مما قيل في القيلولة]

قلنا وقال: يقال: قال يقيل قيلولة ومقيلاً: نام نصف النهار.

أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله عليه وسلم «ثلاث مَنْ ضبطهن ضبط الصوم: من تسحّر، وقال: وشرب بعد ما يأكل».

وعنه قال: قال رسول الله ﷺ «قيلوا فإن الشياطين لا تقيل». ودخل العباس على ابنه وهو مضطجع، فضربه برجله، وقال: قم لا نامت عيناك! تنام في ساعة يقسَّم فيها الرزق! وإنّما النوم على إحدى خصال: خُرق أو حمق، أو خلق، فنومة الحمق بعد العصر، لا ينامها إلا سكران أو شيطان، ونومة الخرق نومة الصبح، ونومة الخلق نصف النهار».

ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «استعينوا بقيلولة النهار على قيام الليل، وبالسَّحور على صيام النهار».

قال الراوي: فاتَّبعنا ما قال، وقلنا وقال: فضرَب الله على الآذان، وأفرغَ السِّنَة في الأجْفَانِ؛ حتى خرجنا من حُكم الوُجود، وصُرِفنا بالهجود عن السُّجود، فمَا اسْتيقظْنَا إلاّ والْحَرُّ قَدْ باخ، واليومُ قَدْ شاخ، فتكرَّعْنَا لصلاة الْعَجْمَاوَيْن، وأدّيْنَا ما حَلَّ من الدَّيْن.

---

(١) البيتان في ديوان العباس بن الأحنف ص ٨١.

ثم تحثحثنَا للارْتحال، إلى مُلْقَى الرِّحال، فالتفت أبو زيدٍ إلى شِبْلِهِ، وَكَان عَلَى شَاكِلَتِهِ وَشَكْلِهِ، وَقال: إنّي لإخال أَبا عَمْرة، قد أضْرَم في أحْشَائِهِم الْجَمْرَة، فاستَدْعِ أبا جامع، فإنَّه بُشْرَى كلِّ جائع، وَأَرْدِفْهُ بأَبي نُعَيْم، الصَّابِرِ عَلَى كلِّ ضَيْم، ثمَّ عَزِّزْ بأَبي حَبِيب المحبَّبِ إلى كلِّ حبيب، الْمُقَلَّبِ بَيْنَ إحراقٍ وتعذيب، وَأَهِبْ بأَبي ثَقيف، فحبَّذا هُوَ مِنْ أليف، وَهَلُمَّ بأبي عَوْن، فَمَا مِثْلُهُ مِنْ عَوْنٍ، وَلَوِ استحضرْتَ أبا جميل، لجَمَّل أَيّ تجميل.

* * *

قوله: «السّنة»، النوم، الهجود: الرقاد. باخ: سكن حرّه. تحثحثنا، أي تحرّكنا. ملقَى الرحال: موضعها. شبله: ولده. شاكلته: طريقته. شكله: مثله، وتكون الشاكلة والشكل واحداً وجمع الشكل أشكال وشكول.

إخال: أحسب، وكنَّى الجوع أبا عُمرة، لأنه يعمر كلّ جوف؛ قيل لمدني: أتعرف أبا عمرة؟ قال: كيف لا أعرفه وقد تربع في كبدي.

وقال الراجز: [الرجز]

حلّ أبو عَمْرة وَسْطَ حُجْرَتي وحلّ نسج العنكبوت بُرمَتِي(١)

أضرم: أوقد، وكنَّى الخوان ـ وهو المائدة ـ أبا جامع للاجتماع حوله للأكل. وأردفه: جيء به خلفه، وكنى الحُوّاري، وهو الدرمك أبا نُعيم، لأن خبزه أنعم الأخباز وأصفاها.

الضيّم: الذلّ، وجعله صابراً على كل ذلّ، لأنه لا يصل من صورة البر إلى الخبز إلا بعد علاج شديد، وتغير له من حال إلى حال.

وفسر معنى أبي حبيب بقوله: المحّبب إلى كل لبيب. وقوله: المقلّب بين إحراق وتعذيب، يريد أنّ ما ولي من الجدي النار وقت شبِّه احترق، وما لم يلِها أدركه حرّها فأنضجه وأسال وَدَكه، فذلك تعذيبه.

أهِبْ: ادْعُ به وصِحْ به.

وكنّى الخل أبا ثقيف لأنه يثقف الطعام، أي يحذقه فيطيب للأكل.

أليف: صاحب، وإنما قال: حبذا هو من صاحب، لقوله ﷺ: «نعم الإدام الخل»(٢).

---

(١) الشطر الثاني من الرجز بلا نسبة في المخصص ١٢/٢٨٨.

(٢) أخرجه أبو داود في الأطعمة باب ٣٩، والنسائي في الأيمان باب ٢١، وابن ماجه في الأطعمة باب ٣٣، والدارمي في الأطعمة باب ١٨.

وكنّى الملح أبا عون، لأنه يُستعان به على أكل الطعام، وطعام بلا ملح لا يؤكل، وقد أشار إلى هذا بقوله: فما مثله من عَوْن.

وكنى البقل أبا جميل لأنه يحسِّن بحضرته الإدام ويزيّنه، أو لأنه يذهب الجميل، وهو وَدَك اللحم فيخفّ للأكل وقوله: لجمّل أي تجميل، أليق بالتفسير الأول، ولا يمتنع من الثاني؛ وحدث واثلة أن رسول الله ﷺ قال: «أحضروا موائدكم البقل فإنه مطردة للشيطان مع تسميةِ الله تعالى».

أبو الفضل بن مالك: يعجبني البقل على المائدة فإذا رأيت السِّكباج نسيت البقل. السكباج: لحم بخلّ، والسّكّ بالفارسية، الخلّ، والباج اللحم، وسمي السكباج بأمّ القرى لأنه من أجلّ أطعمتهم.

* * *

وَحَيِّ هَلْ بأمِّ الْقِرَى، الْمُذَكِّرةِ بِكِسْرَى، وَلاَ تتناسَ أَمْ جَابرٍ، فَكم لَهَا مِنْ ذاكِرٍ، وَنَادِ أمَّ الْفَرَجِ، ثم افْتِكْ بها ولا حَرَجَ، وَاخْتِمْ بأَبي رَزِين، فهو مَسْلاَةُ كلِّ حَزِينٍ، وَإِنْ تَقْرُنْ به أَبا الْعَلاء، تَمْحُ اسْمَكَ مِنَ الْبُخلاء. وَإِيَّاكَ وَاسْتِدْنَاءَ الْمُرْجفيْن، قبل اسْتِقْلالِ حُمُولِ الْبَيْنِ، وَإِذَا نَزَعَ الْقَوْمُ عَنِ المِرَاسِ، وصافَحُوا أَبا إياس، فأَطِفْ عَلَيْهِمْ أَبَا السَّرْوِ، فَإِنَّهُ عُنْوان السَّرْوِ.

* * *

وأمّ الشيء: معظمه وجليله، ومنه أمّ القرآن الحمد لله، وأمّ القرى لمكة المشرّفة، وأمّ الشيء أجلّه، والقِرى: طعام الضيف، فكأنه قال: عَجِّل بطعام فاضل يقدّم للضيف.

وكسرى ملك الفرس، وجعلها تذكّرته، لأنه أوّلُ مَنْ صنعت له، فاستعملها، وأمر بإجادة الصنعة في طبخها، وقيل: إن غيره طبخها واستعملها في زمن كسرى فنُسبت إليه.

وكنى الْجَوْزَابَةَ بأم الفرْخ، وهي خبزة توضع في التنُّور ويعلّق عليها طير أو لحم، فيسيلُ ودَكه فيها ما دامت تطبخ، فتفرج عنك هَمَّ الإدام فلا تحتاج إليه فهي خبزٌ بإدامه.

افتكّ بها ولا حرج، أي كُلْها ولا إثم عليك، وإن كان اللفظ يعطيك معنًى آخر، فالمراد به هذا.

وكنى الخبيصَ أبا رَزين لفضله في الطعام وشرفه ورجحان ثمنه، وجعله آخر ما يؤكل، والرزين من الرّجالِ: الكثير الوقار، وقرن به الفالوذج، لأنه نوع منه؛ قال بعض الطفيلية: الحلواء مثل الملك، يدخل بيتاً فيه قوم جلوس ليس فيه متسع لأحد، فإذا نظروا إلى الملك تضايقوا وأوسعوا له.

وكان عبد الله بن جُدْعان سيّداً شريفاً في قريش، فوفد على كسرى وأكل عنده

الفالوذج، فسأله عنه فقيل له: هو الفالوذج، قال: وما هو؟ قيل لُباب البرّ مع عسل النّحل، فقال: ابغُوا لي غلاماً يصنعه فأتوه به فابتاعه، وقدم مكة فصنع بها الفالوذج، فوضع الموائد بالأبطح إلى باب المسجد، ثم نادى: ألاَ من أراد الفالوذج، فليحضر! فكان فيمن حضر أمية بن أبي الصلت، وكان يمتدحه كثيراً فقال فيه: **[الوافر]**

لِكُلِّ قبيلةٍ رأس وهادٍ وأنت الرأسُ تقدمُ كلَّ هادي[1]

له داعٍ بمكة مشمعلّ وآخر فوق دَارَتِهِ ينادي

إلى رُدُحٍ من الشِّيزى مِلاءٍ لُبابَ البرّ يلبك بالشهاد

ولُباب البرّ: خالص القمح، ويسمى النّشا. يلبك: يخلط، والشهاد: العسل، والفالوذج: الذي رأيت يسجلماسة هو العسل والسمن يوضعان على النار، ثم يعقدان بالنشا، ثم يلوّن الكلّ بالزعفران فيجيء متعقّق الحمرة، فيقطع قطعاً على قدر أكبر التمر، وفي شكله، ويؤتَى به في الأعراس بعد الشواء، ويؤتى بالخبيص آخراً، وخبيصهم في غاية البياض ليس كخبيص الأندلس، ويُقرّص قُرصاً على قدر صغار الجبن، فمن رآها على بعد لم يشكّ أنها جُبْن. ويعدّ رجال المائدة، ويؤتَى بطبق كبير فيوضع بين أيديهم، وأمام كل رجل قرصته، فلا يكاد يكملها بالإكل لإفراط حلاوتها. وأكثر أطعمة أهل القبلة مستملاةٌ من أطعمة أهل المشرق؛ وكذا أكثر أحوالهم من مبَانيهم وأشكال ديارهم وسطُوحها، واستعمال الإبل في السواقي والطواحين، ودقّ النوى لعلفها نعم، وعلى أنّ البربرية غالبة على ألسنة أهل القبلة فهم يستعملون كثيراً من ألفاظ أهل العراق، يقولون لفرق الناس الشّماسك، وكذا تسمية أهل سجلماسة، ويسمون البرّادة التي لشرب الماء بُوقالا، وكذا تسمية أهل سجلماسة، وجمع البوقال بواقيل، قال الحسن بن هانىء: **[البسيط]**

أضمرتُ للنيل هجراناً ومقليةً إذ قيل لي إنما التّمساح في النّيل

فَمَنْ رأى النيل رأيَ العين من كثبٍ فلا أرى النيل إلا في البواقيل

وكان رأى التمساح أَخذ رجلاً، فهجا النيل. والبرَّادة عندهم آنية من صُفْر، فيها مخاطيف يعلّق فيها البواقيل، وترفع للهواء فيبردُ فيها الماء.

---

(١) الأبيات في ديوان أمية بن أبي الصلت ص ٢٧، والبيت الثاني لأمية في لسان العرب (دور)، (شمعل)، (ردم)، وديوان الأدب ٣/ ٣٤٠، ومجمل اللغة ٤/ ٢٦٣، وجمهرة اللغة ص ٥٠٢، وتاج العروس (دور)، (جدع)، (شمعل)، ولعبد الله بن الزبعري في ملحق ديوانه ص ٥٥، وتهذيب اللغة ١٤/ ١٥٤، وبلا نسبة في مقاييس اللغة ٢/ ٣١٢. والبيت الثالث لأمية بن أبي الصلت في أساس البلاغة (ردح)، وجمهرة اللغة ص ٥٠٢، وسمط الآلي ص ٣٦٣، ولسان العرب (رجح)، (ردح)، (شهد)، (لبك)، (ردم)، والمعاني الكبير ١/ ٣٨٠، ولأبي الصلت في المستقصى ١/ ٢٨١، ولأمية أو لأبي الصلت في الدرر ١/ ٢٤٩، ولابن الزبعري في لسان العرب (شيز)، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٨١٢، والمقرب ١/ ١٦٣.

قوله: المرجفين، الطست والإبريق، لأنّ لهما عند أخذهما صوتاً، بنقر أحدهما في الآخر، فكأنّ ذلك الصوت يرجف، أي يخبر بتمام الطعام والحث على القيام.

أبو بكر الصفار: حضر مجنون بالكوفة طعامَ قوم، فجلس يأكل، فجعل الغلام يحرّك الطشت والإبريق، فقال: من هذا الذي يرجف بنا قبل انقضاء عملنا؟

بينما طفيلي يأكل، سمع صوت دقّ الأسنان، فامتنع من الأكل فقيل له: ألا تأكل؟ قال: حتى يسكن هذا الإرجاف الذي أسمع.

وقيل لطفيليٍّ:ممَّ اصفرّ وجهك؟ قال: من فترة بين قَصْعتين، مخافة أن تكون قد فنيت.

استقلال: ارتفاع. حمول البين، أي إبل الفراق، ويريد بها الموائد لأنها إذا ارتفعت يفرق أهل المجلس، فيقول: إياك أن تقربهما قبل أن ترتفع الموائد، فيتهيأ الناس للغسل والانصراف، فإن غسلت الأيدي والموائد باقية توّهم أن ثمّ طعاماً يُستأنف أكله.

نزع: زال وتنحّى. المراس: غسل الأيدي وذَلك بعضها ببعض.

صافحوا: باشروا، والغَسُول قد تقدّم في السابعة.

أطف: اجعله يطوف وقد بيّن لما كناه أبا السرو، أنه من فعل السريّ من الرجال، وعنوان السرو: دليل المروءة.

* * *

قال: ففقه ابنه لطائف رموزه، بلطافة تمييزه، فطاف علينا بالطيبات والطيب، إلى أن آذنت الشمس بالمغيب. فَلَمّا أجمعنا على التّوْديع، قُلْنَا له: أَلَمْ تَر إلى هَذَ اليومِ البديع، كيف بَدَا صُبْحُهُ قمطريراً، ومُسْيُهُ مستنيراً! فسجَد ثم رفع رأسه، وقال [مجزوء الكامل]

لا تــيــأَسَــنْ عــنــد الــنُّــوَبْ	مــن فَــرْجــةٍ تَــجْــلــو الــكُــرَبْ
فــكــلَــمْ سَــمــومٍ هــبّ ثـــ	ـمَّ جَــرَى نَــسِــيــمــاً وانــقــلــب
وسَــحَــابِ مــكــروه تَــنَــشَّــى	فــاضْــمَــحَــلَّ ومــا سَــكَــب
ودُخَــانِ خَــطْــبٍ خــيــفَ مِــنْــ	ـهُ فــمــا اســتــبــانَ لــه لَــهَــبْ
وَلَــطَــالَــمَــا طَــلَــعَ الأَسَــى	وَعَــلَــى تــفــيــئَــتِــهِ غَــرَب
فــاصــبِــرْ إذا مــا نــابَ روْ	عٌ فــالــزّمــانُ أبــو الــعَــجَــب
وتــــرجَّ مـــــن رَوْحِ الإلــــــ	ـهِ لــطــائــفــاً لا تُــحْــتَــسَــبْ

قال: فاسْتَمْلَيْنا منه أبياته الغُرّ، ووالَيْنَا لله تعالى الشكر، وودَّعناهُ مسْرُورين ببُرْئِه، مغْمورين ببرِّه:

* * *

قوله: «فقه»، أي فهم لطائف: دقائق. رموزه: إشاراته الخفية، والرّمْز: الإشارة بالشفتين أو العينين. آذنت: أعلمت. أجمعنا: عزمنا. البديع: العجيب. قمطريرا: مظلما، ورجل قمطرير: شديد العبوس، واقمطرّ القوم: اشتدوا. الصُّبْح والمُسّى: اسمان لوقت زوال الظلام والضياء مستنيراً: كثير الضوء.

والنُّوَب: النوازل. فُرْجة: راحة. تجلو الكُرَب: تزيل الهموم، وأنشدوا في هذا المعنى: **[الخفيف]**

لا تضيقن في الأمور فقدَ تُكْـ ـشفُ غَمّاؤها بغير احتيالِ[1]
رُبّما تكرَهُ النفوس من الأمـ ـر له فَرْجَة كحل العِقالِ

كذا أنشدوه فَرْجَة بالفتح، والفُرْجة بالضم في الحائط وشبهه، وبالفتح في الأمر، وانظر هذا البيت في الأربعين في أخبار [أبي] عمرو بن العلاء.

سَموم: ريح حارة. نسيماً: ريحاً ليّته. تنشئ: ابتدأ وظهر. اضمحلٌ: زال. سكب: أمطر خطْب: أمر شديد. لهب النار: اشتعالها بغير دخان، وفي هذا المعنى قال أبو نواس: **[الكامل]**

خَفِّضْ عليك ولاَ تكُنْ قَلِق الْحَشَا مـمّـا يـكـون وعَـلّـهُ وعَـسَـاهُ
فالدّهر أقصر مُدّة مما تَرَى وعساك أن تُكْفَى الّذي تَخْشَاهُ

وقال أيضاً: **[الرمل]**

حَسّن الظنّ بمَنْ قد عَوّدَكْ كلّ إحسان وقوّي أوَدَكْ
إن ربا كان يكفيك الدي كان بالأمس، سيكفيك غَدَكَ

الأسى: الحزن. تفيئته، أي حينه، وقال الزّبيدي في الأبنية: جاء على تفيئة ذلك، وتفِئتهُ حينه ووقته. والرّوْح. الرزق: والرَّوْح: السرور والفرحَ، والروْح: بَرْد نسيم الراحة.

اللطائف: جمع لطيفة، وهي رِفق الله تعالى بعباده وإحسانه إليهم، واللطيف: الرفيق والمحسن، وأراد في البيت: ارجُ في شدائدك الله، فله الطاف كثيرة لا تحصى بالعِدّة، فبعد العسر يُسر.

* * *

(١) البيت الأول لأمية بن أبي الصلت في ديوانه ص ٤٩، ولسان العرب (فرج)، وتاج العروس (فرج)، والبيت الثاني لأمية بن أبي الصلت في ديوانه ص ٥٠، والأزهية ص ٩٥، وحماسة البحتري ص ٢٢٣، وخزانة الأدب ٦/١٠٨، ١١٣، ١٠/٩، والدرر ١/٧٧، وشرح أبيات سيبويه ٢/٣، والكتاب ٢/١٠٩، ولسان العرب (خرج)، وله أو لحنيف بن عمير أو لنهار ابن أخت مسيلمة الكذاب في شرح شواهد المغني ٢/٧٠٧، ٧٠٨، والمقاصد النحوية ١/٤٨٤، وله أو لأبي قيس=

[في الفرج بعد الشدّة]

وأنشد أبو حاتم في معنى أبيات المقامة: [الوافر]

إذا اشتملتْ على اليأسِ القلوبُ ... وضاقَ لِمَا به الصَّدْرُ الرَّحيبُ
وَوُطِّنَتِ المكاره واطمأنّت ... وأرست في مكامنها الخطوبُ
ولم تَرَ لانكشاف الضُّرّ وجِهاً ... ولا أغنى بحيلته الأريبُ
أتاك على قُنوطٍ منه غَوْثٌ ... يمنّ به اللّطيف المستجيبُ
وكلّ الحادثات إذا تناهت ... فمقرونٌ بها الفرجُ القريبُ

قال أبو بكر بن الأنباري: أنشدني إسماعيل القاضي: [مجزوء الكامل]

لا تعتبنّ على النّوائبْ ... فالدّهر يُرْغِمُ كلَّ عاتِبْ
واصبِرْ على حَدَثانِهِ ... إن الأمورَ لها عواقِبْ
ولكلّ صافيةٍ قذًى ... ولكلّ خالصة شوائبْ
كم فَرْجةٍ مطويّةٍ ... لك بين أثناء النَّوَائِبْ
وَمَسرّةٍ قد أقبلتْ ... من حيث تُنتظر المصائبْ

قال القاضي رحمه الله: ما عرض لي همّ فادح، فذكرت تلك الأبيات، إلا رجوت من الله الفرج، ثم تؤولُ عاقبة ما أحذره إلى فاتحة ما أوثر.

قال عليّ الكاتب: أصبحت يوماً مغموماً غمًّا لا أعرف سَبَبه، فجاءني رحل بظهر حُوار وإذا فيه: [مجزوء الكامل]

روّح فؤادك بالضُّحى ... ترجع إلى رَوْح وطيبِ
لا تيأسن وإن ألـ ... ـحّ الدهر من فرج قريب

قال: فزال عني الهمّ، ووجدت طعم الفرج.

وحكى الأصمعيّ رحمه الله تعالى قال: بِتُّ ليلةً بالبادية وحيداً مغموماً، فلما انْتهى الليل سمعت قائلاً يقول ولم أر شخصه: [الكامل]

فرج القضاء بكفّ مَنْ ... بقضائه نَزَل البلاءُ
واصبر فكلّ شديدةٍ ... لا بدّ يتبعُها رَخاءُ

وقال آخر: [الرمل]

سوفَ تبلى كلّ جِدّة ... وستقضى كلّ مدّة

= صرمة بن أبي أنس أو لحنيف في خزانة الأدب ١١١٤/٦، ولعبيد بن الأبصر في ديوانه ص ١٢٨، وبلا نسبة في أساس البلاغة (فرج)، وأمالي المرتضى ٤٨٦/١، والبيان والتبيين ٣/ ٢٦٠.

إنــمــا الــدهــر عــنــاءُ وعــوارٍ مــســتــردّهْ
شــدّة بــعــد رخــاءٍ ورخــاءٌ بــعــد شــدة

وقال آخر: [الرمل]

خــف إذا أصــبــحــت تــرجُــو وارجُ إن أصــبــحــت خــائِــفْ
رُبَّ مــكــروه مــخــوَّفٍ فــيــه لِــلَّــهِ لــطــائــفْ

* * *

قوله: استملينا: كتبنا. الغرّ: الحسان. والَيْنا. تابَعنا. مغمورين: مغطين. برئه. إفاقته. برّه: إحسانه وإكرامه.

وحَيَّهْل: قال ابن الأنباري: فيها ست لغات.

قال عبد الله بن مسعود. إذا ذكر الصالحون فحيّهلاً بعمر، ومعناه أقبلوا على ذكر عمر، فتنوّن هَلاً وتنصبه على المصدر، كأنه قال: مرحباً به.

الثاني: تفتح حيَّ وَهَل وتبنيها كخمسة عشر.

الثالث: تسكن هاء «هلا» هذه الشبهة لكثرة الحركات.

الرابع: حيّهل بتسكينهما جميعاً كبَخْ بخْ.

الخامس، حيّهل إلى عمر: أي هلموا إلى ذكره.

السادس: حيهلي على عمر: أي أقبلوا على ذكره.

تفسير ألفاظ ما تضمنته هذه المقامة من كلمات لغوية وكنى طفيلية وكنايات صوفية

قوله: ذات العويم، يعني به الزمان المتقادم، ومثله ذات الزمن.

والسمهرية: الرماح، وفي تسميتها بذلك قولان: أحدهما أنها سميت بذلك لصلابتها، من قولهم: اسمهرّ الشيء، إذا اشتدّ وقيل إنّها منسوبة إلى سمهر زوج رُدَينَة، وكانا جميعاً يقوِّمان الرماح بسوق هَجَر فَنُسِبَتْ إليهما.

وقوله: نقْضاً على نِقض: أي مهزولاً على مهزول.

و «الجِران» باطن العُنق، وقيل منه يُعمل السباط.

وقوله: فضرب الله على الآذان، أي أنَامنا، ومنه قوله عز وجل ﴿**فضربنا على آذانِهِمْ في الكَهْفِ**﴾ [الكهف: ١١]، أي أنمناهم. وقيل في تفسيره منعناهم السمع.

وقوله: تكرَّعْنَا لصلاة العجْمَاوَيْن، أي غسلنا أكارعنا، وهو كناية عن الضوء،

والعجماوان: صلاتا الظهر والعصر، سُمِّيتا بذلك لإسرار القراءة فيهما، ومنه الحديث: «صلاة النهار عجماء»[١].

وقوله: هلمَّ، أي قل هلّم، وهي تأتي بمعنى هاتِ وبمعنى أقبل، والأفصح أن يوحد لفظهما مع المذكر والمؤنث والاثنين والجمع، وبه نطق القرآن في قوله تعالى: **﴿والقائلين لإخوانهم هَلُمَّ إلينا﴾** [الأحزاب: ١٨]، ومن العرب من يقول للمذكر الواحد هَلُمّ، وللاثنين هَلُمّا، وللجمع: هلمّوا، وللمؤنث الواحدة هلمّي وللاثنتين هَلُمَّا، وللجمع هَلْمُمْن.

وقوله: حَيَّهَل: أي عجِّل وأسرع، يقال: حيّ هلْ بفلان بتسكين اللام وفتحها، وتنوينها وبإثبات النون معها، ومعه قول ابن مسعود في عمر رضي الله عنه: إذا ذكر الصالحون فحَيّ هَلاً بعمر، وفي حَيَّهَل لغات أُخر أضربنا عن ذكرها، إذا ليس هذا موضع استيفاء شرحها.

فهذا تفسير الألفاظ اللغوية.

وأمَّا تفسير الكنى الطفيلية والكنايات الصوفية:

فأبو يحيى، كنية الموت.

وأبو عمرة: كنية الجوع، ويكنى أيضاً أبا مالك.

وأبو جامع: الخوان.

وأبو نعيم: الخبز الحوّاري.

وأبو حبيب: الجدي.

وأبو ثقيف: الخل.

وأبو عون: الملح.

وأبو جميل: البقل.

وأمّ القرى: السِّكْباج.

وأم جابر: الهريسة.

وأم الفرج: الجوذاب.

وأبو رَزِين: الخبيص.

وأبو القلاء: الفالوذق «كذا في الأصل».

وأبو إياس: الغسول.

والمرجفان: الطست والإبريق. وأبو السرو: البخور.

---

(١) رواه ابن الأثير الجزي في النهاية في غريب الحديث ٣/ ١٨٧، من حديث الحسن.

المقَامَةُ العِشرُون

وهيَ الفَارقيّة

حكى الحارث بن همَّام قال: يَمَّمْت مَيافارِقين، مع رُفْقَةٍ موافقين، لا يُمارُون في المُنَاجَاة، ولا يَدْرُون مَا طَعمُ المُدَاجاة، فكُنتُ بهِمْ كَمَنْ لَمْ يَرِمْ عَنْ وَجَارِه، ولا ظَعَنَ عن أليفِهِ وجَاره. فَلَمَّا أَنَخْنَا بها مطايا التَّسْيار، وانتقَلْنَا عَنِ الأكْوَارِ إلَى الأوْكارِ، تَواصَيْنا بتَذْكَارِ الصُّحْبَةِ، وتناهينا عن التَّقاطُع في الغُربة، واتَّخَذْنَا نَادِياً نَعْتَمِرُهُ طرَفَي النَّهارِ، ونتهادى فيه طرُفَ الأخبَار، فبينا نَحْنُ بِه في بَعْضِ الأيامِ، وقَدِ انتَظَمْنَا في سِلْكِ الالْتئَام، وَقَفَ عَلَيْنَا ذُو مِقْوَلٍ جَرِيّ، وجرْسٍ جَهْوَرِيّ، فحيّا تَحِيَّة نفَّاثٍ في العُقَدِ، قَنَّاصٍ للأُسْدِ والنَّقَد، ثم قال:

* * *

يمّمت: أي قصدت.

[ميافارقين]

ميّافارقين، بلدة منها إلى نصيبين ثلاثون فرسخاً، وميافارقين بديار بكر، وهي من كُور الجزيرة، وكان تملّكها سيفُ الدولة، وذكَرها المتنبي، فقال:

نجانفَ عن ذات اليمين كأنَّها　　　تَرِقُّ لميَّافارقين ونرحمُ

الفنجديهي: سمعتُ بعضَ الأدباء يقول: سُمّيت ميافارقين، لأنّ ذا الرمَّة أو غيره من العشاق، لو وصل إليها بالاتّفاق، وشاهد وجوه أهلها الملاح، والعيون السقيمة الصحاح، وعاين رشاقة القدود، ولباقة الخدود، وسواد الطّرَر، وبياض الغُرر، وسمرة الشّفاه اللعس، وحمرة الوجنات والجباه المُلْس، لقال لصاحبته: مَيَّافارقيني، ولا ترافقيني، فلا يجوز التيمم مع وجود الماء، ولا حاجة إلى الدواء بعد البرء والشفاء.

* * *

قوله: «يمارون» أي يجادلون ولا يخالفون. المناجاة: المحادثة المداجاة: المساترة بالعداوة. لم يرم: لم يزل. يقال ما رامني ولا يريمني، أي لم يبرح عني ولا زال، ولا يقالُ إلاّ منفيًا وَجاره: بلده، وأصله الجحْر: ظعن: رحل. أليفه: صاحبه. الأكوار:

الرحال. الأوكار: البيوت، يريد أنهم أتمّوا سفرهم وبلغوا الوطن، فتركوا النقلة وأقاموا في البيوت. تناهينا: نهى بعضُنا بعضاً. نادياً: مجلساً. نعتمره طرفي النهار، أي نجلس فيه بالغدوّ والعشيّ طُرَف: غرائب. السِّلك: خيط النظام. وانتظمنا: اجتمعنا فيه. الالتئام: الاتفاق، يقال: لسان جريء مقدم على الكلام. جرس: صوت. جَهْوريّ: عالٍ. نفّاث: ساحر، والعُقد: ما يعقِدها السَّحرَة وينفثُون عليها بالبصاق قنّاص: صائد. النَّقَد: غنم صغار. [السريع]

* * *

عِـنْـدِيَ يـا قـوم حـدِيـثٌ عَـجِـيـبٌ	فـيـهِ اعـتـبـارٌ لـلَّـبـيـبِ الأريـبْ
رأيـت فـي ريـعـان عُـمْـري أخـا	بـأسٍ لـه حَـدُّ الـحـسـام الْـقَـضِـيـبْ
يُـقْـدِمُ فـي الـمـعـرك إقـدام مَـنْ	يُـوقِـنُ بـالـفـتْـك ولا يـسـتـريـبْ
فـيُـفْـرِجُ الـضِّـيـق بـكـرَّاتِـه	حتَّـى يـرى مـا كـان ضنكـا رَحيـبْ
مـا بـارز الأقـران إلا انـثـنـى	عَنْ مَوْقِف الطَّعْنِ برمْح خَضِيبْ
ولا سَـمَـا يَـفْـتَـحُ مُـسْـتَـصْـعـبـاً	مُستغـلِـقَ الْبَـابِ مَنيـعـاً مَـهِـيـبْ
إلا ونُـودِي حِـيـن يَـسـمُـو لَـهُ	نَـصْـرٌ مـن الله وفَـتْـحٌ قَـريـبْ
هـذا وكَـمْ مِـنْ لَـيْـلَـةٍ بَـاتَـهَـا	يَمِيسُ في بُرْدِ الشَّباب الْقَشِيبْ
يـرتـشـف الـغـيـدَ وَيَـرْشُـفْـنَـهُ	وَهُوَ لَدَى الْكُلِّ الْمُفَدَّى الحبيب
فَـلَـمْ يَـزَلْ يَـبْـتـزُّه دَهْـرُهُ	مـا فـيـه مـن بَطْشٍ وعُـودٍ صَـلِـيـبْ
حَـتَّـى أصـارتْـهُ الـلَّـيـالـي لَـقًـى	يـعـافُـهُ مَـنْ كـانَ مَـنْـهُ قَـريـبْ
قـد أعْـجـزَ الـرَّاقِـي تَـحْـلِـيـلُ مَـا	بِـهِ مِـنَ الـدَّاءِ وأعْـيَـا الـطَّـبِـيـبْ
وصـارم الـبـيـضَ وصـار مُـنْـهُ	مِنْ بَعْدِ ما كان المجابَ المجيبْ
وآض كـالـمـنـكـوسِ فـي خَـلْـقِـهِ	ومَنْ يَعِشْ يَلْقَ دواهِي المَشِيبْ
وهـا هـو الـيـوم مـسـجًّـى فـمـنْ	يَرْغَبُ في تكفِينِ مَيْتٍ غَريبْ

* * *

واللبيب والأريب: كلاهما بمعنى العاقل. رَيْعان: أول. أخا بأس: صاحب شدة الحُسام القضيب: السيف القاطع. المعرَك: موضع القتال، وأراد به فروج الأبكار. الفتك: سَفْك الدم، وهو أيضاً ركوب الرجل ما همّ به. كرّات: دفعات ورجَعات. ضنكا: ضيقا. رحيب: واسع. بارز: قاتل الأقران: الأمثال في الشدّة وغيرها. انثنى: رَجَع. خَضِيب: مخضوب، يريد أيضاً افتضاض الأبكار. سما: ارتفع وقام. منيع، أي صعب ممنوع مهيب: مخوف. يميس: يتبختر. يرتشف: يقبِّل ويمصّ ريقهنّ. والترشّف: المصّ الكثير. والغِيد: جمع غَيْداء، وهي اللينة المفاصل من النّعمة، وقيل:

المائلة العنق في نعمة. يبتزّه: بجرّده. والبطش: القوة والتناول الشديد. صليب: قويّ شديد. لقًى: طريحاً. يعافه: يستثقِله ويكرهه. تحليل: إذهاب وإزالة، وتحّلل الداء: ذهب شيئاً فشيئاً. أعيا: غلَب. صارم: قاطع. البيض: النساء الحسان. المجاب: الذي تجيبه النساء لحاجته منهنّ. والمجيِب: الذي يجيبهن لحاجتهنّ منه. آض: رجع: المنكوس: المردود إلى حالته الأولى من الضعف، وأشار إلى قوله تعالى: **﴿اللَّهُ الَّذِي خلقكُم مِنْ ضَعْف ثمَّ جَعَلَ من بعدِ ضعفٍ قُوَّةً ثمَّ جعلَ من بعد قُوَّةٍ ضعفا وشيبة﴾** [الروم: ٥٤]، فردّه إلى الحالة الأولى، وهذا هو النّكس في الخلق، والنَّكس في المرض أن يمرض، ثم يبرأ ثم يمرض والنُّكس في السهام: أن ينكسر السهم، فيُجعل في الجعبة محوّلاً الكسر إلى فوق، فإذا أدخل الرامي يده في الجعبة ليأخذ سهماً فوجده محوّلاً تركه وأخذ غيره. دواهي المشيب: حوائج الشيخ من الضعف والعلل وغير ذلك.

ونذكر هنا من الأدب ما يليق بالموضع.

* * *

[الضعف والكبر]

دخل المستوغر بن ربيعة على معاوية وهو ابن ثلاثمائة سنة، فقال: كيف تجدك يا مستوغر؟ فقال: أجدني قد لان منّي ما كنت أحبّ أن يشتدّ، واشتدّ مني ما كنت أحبّ أن يلين، وابيضّ مني ما كنت أحبّ أن يسوّد، واسودّ مني ما كنت أحبّ أن يبيض، ثم أنشأ يقول: **[الرجز]**

سـلـنـي أنـبـئـك بـآيـات الـكِـبَـرْ　　نَـوْمُ الـعَـشَـاء وسُـعَـالٌ بـالـسّـحَـرْ

وقـلـة الـطـعـم إذا الـزاد حَـضَـرْ　　وتـركـك الـحسـنـاء مـن قـبـل الـظُّـهُـرْ

* والناس يَبْلَوْن كما تَبلَى الشَّجَرْ *.

ثم قال: ألا أخبركم بجيّد العنب؟ هو ما زَوِيَ عمودُه، واخضر عوده، وتفرّق عنقودُه. ألا أخبرك بجيّد الرُّطَب؟ هو ما كبر لحاه، وصغر نواه، ورقّ سَحَاه.

وفي الزبور: مَنْ بلع السبعين اشتكى من غير علة.

وقال ابن أبي معن: **[البسيط]**

مـن عـاش أخـلـقـت الأيـام جِـدَّتـه　　وخـانـه ثـقـتـاه الـسّـمـع والـبـصـرُ

* * *

قوله مسجًّى: أي مغطى.

ووصف في أوّل الشعر ذكره بالشدة وفي آخره باللين، وأذكر من الصفتين ما يكون من شرط ما ذكر.

حكى أبو زياد الكلابي، قال: كان عندنا أبو الغريب شيخاً فتزوّج ولم يُولم، فاجتمعنا على باب خِبائه فصحنا: أولِمْ ولو بيربوع، أو بقرد مجذوع، قتلَتنا من الجوع: فأولم، فلما عرّس غدونا عليه فقلنا: [الرجز]

يا ليت شعري عن أبي الغريبِ إذ باتَ في مجاسدٍ وطيبِ
معانقاً للرشأ الرَّبيبِ أأخمد المحفار في القليبِ

* أم كان رخواً يابس القضيبِ *

فصاح: يابس القضيب والله! ثم أنشأ يقول: [البسيط]

سقياً لعهد خليلٍ كان يأدم لِي زادي ويُذهبِ عن زوجاتِيَ الغضَبْ
كان الخليل فأضحى قد تخوّنه مرُّ الزمان وتَطعاني به الثُّقَبْ
يا صِاح أبلغ ذوِي الزوجات كلِّهمُ أن ليس وصلٌ إذا انحلّتْ عُرَا الذَّنَبْ

والقوافي وقعت في لفظ يعقوب موقوفة. وعُرَا الذنب: عُروق الذكر.

وكان أبو البيداء الأعرابيّ عِنِّيناً، وكان يتجلّد ويقول لقومه: زوّجوني امرأتين، فيقولون: أمَا واحدة كفاية! فيقول: أمّا لي فلا، فزوّجوه أعرابيّة، وقالوا له: إن كفتك وإلا زوّجناك الأخرى، فدخل بها، وأقام عليها أسبوعاً فزاره إخوانُه في اليوم السابع، فقالوا له: يا أبا البيداء، ما كان من أمرك في الأوّل؟ فقال: عظيم جداً، فقالوا: ففي اليوم الثاني، فقال أعظم وأجلّ، قالوا: ففي اليوم الثالث، قال؛ لا تسألوا، فقالت امرأته من وراء السِّتْر: [الكامل]

كان أبو البيداء ينزو فيْ الوَهَقْ حتى إذا ما حلّ في بيت أفَقْ
فيه غزال حسن الدَّل خَرِقْ مارسه حتى إذا ارفضّ العرَقْ

* تكّسر المفتاح وانسدّ الْغَلَقْ *

الوَهَق: حبْل يفتح فيه عين واسعة تؤخذ بها الدابة، والأفَق الجِيد. وينزو: يمتدّ ويقصر.

وتزوّج الفرزدق بامرأة من مجاشع، فعجز عنها فقال: [البسيط]

يا لُهفَ نفسِي على نَعظٍ فجعتُ به حين التقى الرَّكَبُ المحلوق والرَّكَبُ[١]

ما أبعد ما بين حالته هذه وبينها وقد لقيتْه جارية، فنظرها نظَرا شديداً، فقالت له: ما لك تنظر، فوالله لو كان لي ألف حِرٍ ما طمِعْتَ في واحد، قال: ولم يا لخناء؟ قالت: لقبح منظرك وسوء مخيرك فيما أرى، فقال لها: أما والله لو خبَرْتني لغفر مخبري على

(١) البيت للفرزدق في تاج العروس (ركب) وليس في ديوانه، وفي التاج «بالركبِ» بدل «والرَّكَبُ».

منظري، ثم كشف لها وأراها مثل ذراع البَكْر، فكشفت له عن مثل سنام البَعير، فتسنَّمها، وقال: [السريع]

أدخلت فيها كذراع البكْرِ مُدَمْلج الرأس شديد الأسْرِ
زاد على شبرٍ ونصف شبر كأنما أولجته في جَمْرِ

وسمع بشار كلام امرأة، فأحبّها وأرسل لها أن تواصله، وألحّ عليها، فقالت لرسوله: أي معنى له فيّ أولِي فيه، وهو أعمى لا يراني، فيعرف جمالي، وهو قبيح الوجه لا حظّ لي فيه! فليت شعري لأيّ شيء يطلب وصال مثلي! فأدّى إليه الرسول كلامَها، فقال عُدْ إليها فقل لها: [الكامل]

أيْرِي له فضل على آيارهم وإذا أشطّ سجدن غير أوابِي[1]
تلقاه بعد ثلاث عشرة قائماً نظر المؤذن شكَّ يوم سحابِ
وكأنَّ هامةَ رأسه بِطِّيخةٌ حُملت إلى ملك بدجْلة جابِي

وعشق امرأة وتردّد رسوله إليها حتى أبرمها، فشكتْه إلى زوجها، فقال: أجيبيه وعِديه إلى هنا، ففعلت ووجَّهت له، فجاء ولم يعرف بزوجها، فقال لها: ما اسمُك بأبي أنت وأمي! فقالت: أُمامة، فقال: [الكامل]

أمامة قد وُصفت لنا بحسن وإنا لا نراك فألمسينا

فوضعت يده على أيْر زوجها، وقد أنعظ لحسن حديثها معه، ففزع ووثب قائماً وقال: [الوافر]

عليّ ألَيةٌ ما عشتِ حيًّا أمسك طائعاً إلاّ بعودِ
ولا أهدي لأرضٍ أنت فيها سلام الله إلا مِنْ بعيدِ
طلبتُ غنيمةً فوضعت كفِّي على أيرٍ أشدَّ من الحديدِ
فخير منكِ مَنْ لا خير فيه وخير من زيارتكُم قُعودِي

فقبض زوجها عليه، وقال: هممت أن أفضحك، فقال: كفاني فديتك ما فعلت بي، والله لا أعود لمثلها أبداً.

سمع الحكم بن عبدل امرأة تتمثل بقوله: [الطويل]

وأغسِر أحياناً فتشتدّ عسرتِي فأدركَ ميسور الغنى ومعي عِرْضِي

فقال لها: يا أخيّة، أتعرفين قائل هذا الكلام؟ قالت: هو ابن عبدل، قال: أفتعرفينه عيناً؟ فقالت: لا، والله، فقال: أنا هو، والذي أقول: [الطويل]

---

(١) الأبيات في الأغاني ٣/ ٢٠٢.

وأنعِظ أحياناً فينقد جلدهُ وأعِذله جُهْدِي فلا ينفع العذلُ
وأزداد نَعْظاً حين أسمع جارتي فأوثقه كل ما يثوب له عقلُ
ورُبتَما لم أذرِ ما حيلتي بهن إذا هو آذاني وَغرّبه الجهلُ
فآويته في بطنِ جاري وجارتي مكابرة قُدْماً وإن رغِمَ الفحلُ

فقالت المرأة: بئس الجار والله للمغيّبة أنت، قال: إي والله وللتي معها زوجها وابنها وأخوها، أين قول هذا على إسلامه من قول عنترة على جاهليته: [الكامل]

وأغضّ طرفي ما بدتْ ليَ جارتي حتى يواري جارتِي مأواهَا[1]
إني امرؤ سمْح الخليقة ماجدٌ لا أتبع النفس اللجوج هَوَاهَا

وقال أبو الرقعمق: [الرمل]

كل يوم أنا من أيْرِيَ في أمْرِ عِجَابِ
ليس يخليني مَن همٌ وحزن واكتئابِ
عينه في كلّ من دبّ على وجه التّرابِ
لم يدع لي ذهباً إلاّ رماه بالذّهابِ
وابتدى المشؤم أن يَغـ ـمَل في بيع الثّيابِ
لعنة الله عَلَيْـ ـه وبراغيث الكِلاَبِ

وللمفجع البصري في ضد ما تقدم، والمفجّع صاحب ابن دريد، والقائم مقامه بالبصرة في الإملاء: [الخفيف]

لِيَ أَيْر أراحني الله مِنْهُ صار همي به عريضاً طَويِلا
نام إذ زارني الحبيب عِناداً ولَعَهدِي به ينيك الرَّسُولا
حُسِبَتْ زورة عليّ لِحَيْين وانصرفنا وما شفينا غَلِيلا

ولراشد بن إسحاق: [الخفيف]

طالمنا قمنت كالمنارة نهتز اهتزازاً تسمو إليه العيونُ
ربّ يوم رفعتُ فيه ثيابي فكأنّي في مشيتي مختونُ
فحنتْ قوَسك الخطوب وأفنتـ ـك فتونٌ تفنى عليها الفُنُونُ
لم يَدَعْ منك حادثُ الدهر إلا جلدة كالرّشاء فيها غضونُ
تتثنّى كأنّها صولجانٌ أو كما حُرّفَتْ من الخطّ نونُ

---

(١) البيتان في ديوان عنترة ص ٩١.

وله أيضاً فيه: [البسيط]

كأنه حين أطويه وأنشره ... سير يُلَفُّ على دوّامة الزِّيقِ
وإن يقم قلت قشاةٌ معتفقة ... أوْ عروة رُكِّبَتْ في رأس إبريقِ

وله أيضاً فيه: [البسيط]

أيرٌ ضعيف المتن رثّ القوى ... لو شئت أن أعقده لانعقدْ
إنْ يُمْسِ كالبقلة في لينها ... فطالما أصبح مثل الوَتِدْ

وله أيضاً فيه: [الطويل]

ينام على كَفِّ الفتاة وتارةً ... له حركات ما يُحِسُّ بها الكفُّ
كما يرفع الفرخ ابن يومين رأسَهُ ... إلى أبويه ثم يُدركه الضَّعْف

الفنجديهي: سمعت الحافظ أبا جعفر المروزيّ يقول: مازحت شيخنا نجيب بن ميمون الواسطيّ يوماً ـ وكان شيخاً دمثاً ظريفاً ـ فقلت له: أخبرني هل بَقِيَ ـ من سلطان الهوى شيء؟ وهل نقوم للخدمة العكازة الميمونية؟ فقال: آه آه، ثم أنشدَ: [الطويل]

تعقّف فوق الخُصْيتين كأنّه ... رَشأُ على رأس الركيّة ملتفُّ
كفرخ ابن ذي يومين يرفع رأسَه ... إلى أبويْهِ ثم يدركه الضعفُ

وأنشد أيضاً: [البسيط]

يقوم في الليل عند البول منحنياً ... كأنه قوس نَدَّافٍ بلا وَتَرِ
ولا يقوم إذا نبّهتُه سحراً ... كما تقوم أيور الناس في السَّحر

ثم بكى بكاء شديداً، وذكّرنا ووعظَنا.

وهذه الأبيات المنسوبة لراشد بن إسحاق كلها من قصائد له مطوَّلة في هذا الفنّ، وأكثر شعره فيه، وله فيه شعر كثير؛ ومنه انتزع الحريري قصيدته في هذه المقامة

* * *

ثمَّ إنه أعلنَ بالنحيب، وبكى بكاءَ المحبِّ عَلَى الحبيبِ. وَلَمَّا رقأَتْ دَمْعَتُه، وانفثأتْ لَوْعَتُهُ، قال: يا نُجْعَةَ الرُّوَّادِ، وَقُدْوةَ الأجوادِ، وَاللَّهِ ما نطقْتُ بِبُهْتان، وَلاَ أَخبرتكُمْ إلاّ عَنْ عِيان، وَلَوْ كانَ في عَصَايَ سَيْرٌ، وَلِغيْمِي مُطَيْر؛ لاستأثرتُ بما دَعَوْتُكُمْ إليه، وَلَمَا وَقَفْتُ مَوْقِفَ الدَّالِّ عليه، ولَكِنْ كيفَ الطَّيَرَان بلاَ جَنَاحِ، وَهَلْ عَلَى مَنْ لا يَجِدُ مِنْ جُناح!

* * *

قوله: «أعلن» أي رفع صوته. والنحيب: البكاء. وفي بكاء المحب على الحبيب يقول الشاعر وزاد معنى: [المتقارب]

أتتني تؤنّبني في البُكاءِ فأهلاً بها وبتأنيبهَا
تقول وفي قولها حكمةٌ أتبكي بعين تراني بهَا!
فقلت: إذا استحسنتُ غيركم أمرت البكاء بتأديبهَا

قوله: رقأت، أي انقطعت. انفثأت: انكسرت وسكنت. لوعته: حرقته. النجعة: المرعى. الروَّاد: الطالبون لها. بهتان: باطل. عيان: معاينة.

قوله: «في عصاي سير» مثل يضرب لمن ليس عنده منفعة ولا له قوَّة. والسير: الشراك يدخل في ثقب في رأس العصا ويعقد منه حَلقة، يدخل فيها يده التي تمسك العصا، فتكون أشدَّ لاعتماده عليها، وضربه بها، فجعل عصاه عاطلة من سيرها، وهو يريد أن لا منفعة عنده.

وأنشدُوا: [الرجز]

يا لكَ من هِمَّةٍ وَخَيرْ لو كان لي في عصاي سَيْرْ
صبراً على النائبات صبراً ما يصنع الله فهو خيْرْ
فمن قليل بدا كثيرٌ كم مطر بدؤه مُطَيْرْ

* * *

[مما قيل في العصا]

وذكر الجاحظ فوائد العصا، فمنها: سئل يونس عن قول الله عز وجل: ﴿**وليَ فيها مآربُ أخرَى**﴾[طه: ١٨] فقال: لست أحيط بجميع مآرب موسى، لكني أذكر جملة تدخل في باب الحاجة إليها:

من ذلك أنها تُحسَل للحيَّة والعقرب والذئب والفحل الهائج، ويَتَوكأ عليها الكبير والسقيم والأقطع والخطيب والأعرج، فتنوب للأعرج عن ساق أخرى [وتنوب] للأعمى عن قائده. وهي للقصّار والدّباغ وهي المِفأد لِلمَلّة ومحرَاك للتّنُّور، ولدقّ الجصّ والسمسم، ولخبط الشجر، وللشرطيّ والمكاريّ، وللراعي غنمه، وللراكب مركبه، ووتِد في الحائط، وتركزها فتجعلها قبلة، وإن شئت مظلّة، وتدخلها في عروة المزود وطرفها في يدك، والثاني في يد صاحبك، وإن كان فيها زُجّ كانت عَنزة، فإن زدتَ شيئاً، كانت عُكّازاً، فإن زدت شيئاً كانت مِطْرَدا، وإن زدت شيئاً كانت رمحاً.

وكانت آيات موسى صلوات الله وسلامه عليه في عصاه، وكانت لا تفارق يد سليمان عليه الصلاة والسلام في مقاماته، حتى سلّط الله الأرَضة وهو ميت فسقط، فكانت للجنّ آية.

وكان الحكم بن عبدل أعرج أحدب هجَّاء خبيث الهجاء، وكان الشعراء يقفون بأبواب الملوك فلا يؤذَن لهم، وكان يكتب على عصاه حاجتَه ويبعث بها، فلا تُؤخّر له حاجة، فقال يحيى بن نوفل: [الطويل]

عصا حَكمٍ في الباب أوَّل داخل ... ونحنُ على الأبواب نُقصَى وتُحجَبُ
وكانت عصا موسى لفرعون آية ... وهذي لعمر الله أدهى وأعجَبُ
تُطاع فلا تعصَى ويُحذر أمرُها ... ويُرغب في المرضاة منها وتُرْهَبُ

فضحك الناس منها وشاعت بالكوفة، وصارت ضُحكة، فاجتنب أن يكتب عليها.

وكان لابن عبدل صديق أعمى يقال له يحيى ابن عُلَيّة، وكان ابن عبدل قد أقعِد، فخرجا ليلة إلى منزل بعض إخوانهما، وابن عبدل يُحمَل والأعمى يقاد، فلقيهما صاحب العَسَس، فأخذهما وحبسهما. فنظر ابن عبدل إلى عصا ابن علية في الحبس إلى جانب عصاه، فضحك وقال: [مجزوء الكامل]

حَبْسي وحَبْسُ أَبِي عُلَيَّـ ... ـة من أعاجيب الزَّمانِ
أعمى يُقاد ومقعَدٌ ... لا الرِّجْل منه ولا اليدانِ
يا من رأى ضَبّ الفلا ... ةِ قعيد موتٍ في مكانِ
طِرفي وطِرفُ أبي عُلَيّـ ... ـة دَهْرَنَا متوافقانِ
من يفتخر بجواده ... فجيادنَا عُكَّازَتانِ

وقال أيضاً: [الطويل]

أقول ليحيى ليلة السجن سادراً ... ونومي به نوم الأسير المقيَّدِ
أعِنّي على حِفظ النُّجوم ورعيها ... أُعنك على تحبير شِعْرٍ مُقَصَّدِ
ففي حالتينا عِبرة وتفكُّرٌ ... وأعجب من ذا حبس أعمى ومقعدِ
كلانا إذا العكاز فارق كفّه ... يُنيخ صريعا أو على الكفّ يسجُد
فعكَّازُة تهدى إلى السُّبْلِ أَكْمَها ... وأخرى مقام الرّجل قامت مع اليَدِ

وولي إمْرة الكوفة أعرج ووليَ شرطتها أعرج، فقصد الأميرَ ابنُ عبدل وهو أعرج، ووجد سائلاً أعرج فقال: [الكامل]

ألقِ العصا ودَع التخامع والتمِسْ ... عملاً فهذي دولة العُرْجَانِ
لأميرنا وأمير شرطتنا معاً ... يا قومنا لكليهما رِجْلانِ
فإذا يكون أميرنا ووزيرُنا ... وأنا فإنّ الرابع الشيطانُ

فبعث إليه الأمير بمائتي درهم فضة وسأله أن يكفّ.

وكثيراً ما تصرّف الشعراء في ذكر عصا موسى عليه السلام على أغراضهم، فمنها ما يحسن ومنها ما يقبح. وقال ابن سارة: [البسيط]

ولي عصاً من طريق الذمّ أحمدُها ... بها أقدّم في تأخيرها قَدَمي
كأنّها وهي في كفّي أهُشُّ بها ... على ثمانين عاماً لا على غنمي
كأنني قوسُ رامٍ وهي لي وَترٌ ... أرمي عليها سِهامَ الشّيب والهرمِ

وقال أبو بكر البلَوِيّ: [الطويل]

كأنَّ يميني حين حاولتُ بسَطها ... لتوديع إلفي والهوى يصرُف الدَّمْعَا
يمين ابن عمرانٍ وقد حاول العصا ... وقد جعلت تلك العصا حَيَّة تسعَى

قال ابن رشيق: كنت أميل إلى قينة اسمها ليلى، فعشقها بعضُ خُدّام الحصون، وكان يَحْسَب خدمتها وكنسها منزله لا يثلم جاه متوليها فنهيته عنها فلم ينته، فقلت فيه: [الخفيف]

ظنَّ أنَّ الحصونَ مُلك سليما ... نَ وليلَى بجهله بلقيسَا
وله في العصا مآربُ أخرى ... حاش لله أن تكون لموسى

وقال الصابي: [الكامل]

يُبدِي اللّواطَ مغالطاً وعِجانه ... أبداً لأغراضْ الورى يستهدفُ
فكأنه ثعبان موسى إذ غدا ... لحبالهِمْ وعصيِّهم يتلقّفُ

وقال الصاحب: [السريع]

هذا ابن مَتُّويَة له آية ... يبتلع الأيْر وأقصى الخصى
يكفُر بالرسل جميعاً سوى ... موسى بن عمران لأجل العصا

وقال أبو الفرج الأصبهاني في القاضي الأندنجي، والشمس منه عكازة فلم يعطها إيّاه: [البسيط]

اسمعْ حديثيَ تسمعْ آيةً عَجَبا ... لا شيء أعجب منه يَبْهَرُ القِصصَا
طلبتُ عكازة للرِّجْلِ تحملني ... ورُمتها عند من يخفي العصا فعَصى
وكنت أحسبه يهوى عصا عَصَبٍ ... ولم أكن خلته صبًّا بكل عصا

ولما قدم قتيبة بن مسلم والياً على خراسان سقطت المخصرة من يده، فتطيّر به أهل خراسان، فقال: يا أهل خراسان ليس كما ظننتم، ولكن كما قال الشاعر: [الطويل]

فألقت عصَاها واستقرّ بها النّوى ... كما قرّ عيناً بالإيابِ المسافر

وأما قول الشاعر: [الطويل]

وبكفيكَ ألاّ يرحل الضيفُ لائماً ... عصا العبد والبئرُ الّتي لا تميهُهَا

فقال يعقوب: البئر هنا حفرة تجعل فيها المَلّة وتجعل عليها الخبزة، والعصا تقلّب بها الخبزة على المَلّة، وينفض بها الرماد.

وقال آخر: **[الطويل]**

إذا جاء ثقاف يجرُّ قَنَاتَهُ طويلَ العصا نكّبته عن شياهِنا

فالثّقاف الرسول بين المريب والمريبة، يأتي كالسائل، فإذا وقف ثقف الأرض بعصاه، فإذا سمعت المرأة ذلك خرجت إليه، فأبلغها الرسالة، فثقفه علامة بينهما وأراد بالشياه النساء.

قوله: «غيمي»، أي سحابي. مُطَير: تصغير مطر، أي لو كان لي قوة ومال لآثرت بذلك نفسي. استأثرت: اختصصت. جناح: إثم.

* * *

قال الرَّاوي: فطفِق القومُ يأتمرون فيما يَأْمُرُونَ، ويتخافتُون فيه يأتون، فتوهَّمَ أنَّهم يتمالؤون على صَرْفِه بِحِرْمان، أو مطالبته بِبُرْهان، ففرط منه أنْ قال: يا يلامع القاع، ويَرامع البِقَاع، ما هذا الارْتِيَاءُ، الَّذي يأباه الحَيَاءُ، حتى كأنكم كلُفِّتم مَشقَّة لا شُقَّة، أو استُوهِبْتُم بلدةً لا بُرْدة، أوْ هُزِزْتُم لِكُسْوَةِ البيت، لا لِتَكْفِين الميْت، أُفٌ لمن لا تندى صَفاتُه، ولا تَرْشَحُ حَصَاتُه!

فَلَمَّا بَصُرَتِ الجَمَاعَةُ بِذَلاَقتِهِ، وَمَرَارَةِ مَذَاقَتِهِ، رَفَأه كلٌّ مِنهمْ بنَيْلِهِ، وَاحْتَمَلَ طَلَّهُ خَوْفَ سَيْلِهِ.

* * *

يأتمرون: يتشاورون. يتخافتون: يتكلمون سراً. فيما يأتون، أي فيما يفعلون معه. توهم ظنَّ. صرَفه. ردَّه.

حِرْمان: خيبة. بُرهان: حجَّة. فرط: سبق: يَلاَمع: جمع يَلْمعَ وهو السراب. القاع: منخفض الأرض. يَرامع: جمع يَرْمَع وهي الحصى البيض، وقيل الحجارة الرخوة.

البِقاع: جمع بقعة، وأراد أن لهم ظاهراً وليس لهم خبرة، كالسراب يخيَّل أنه ماء ولا حقيقة له، واليرمع تظنه فضة وهو حجر.

الارتياء: تدبير الرأي، وأصله الهمز لأنه من الرأي. استوهبتم: طلبت منكم هبة. بردة: ثوب يلبس. هَزَزتم: حرَّكتم. البيت: الكعبة.

أف: خيبة، وقد تقدم أن الصخرة والحصاة يكنى بهما عن يد البخيل ذلاقته: حدّة لسانه. رَفَأه: وصله. والطل والسّيل هنا: القليل والكثير.

* * *

قال الحارث بن همام: وكَانَ هذَا السائِلُ واقفاً خَلْفِي، ومحتجباً بظهري عن طَرْفي. فلمّا أرضاه القوم بِسَيْبِهِمْ، وحقّ عليَّ التَّأَسّي بهِمْ خلعت خاتمِي مِنْ خِنْصَرِي، وَلفتُّ بَصَرِي، فإذا هو شيخنا السَّروجِيُّ بلا فِرْية ولا مِرْيَة، فأيقنتُ أنها أُكْذُوبة تكذّبها، وأحْبولَةٌ نَصبَها، إلا أنّني طويتُه على غَرِّهِ، وَصُنْتَ شَغَاهُ عَنْ فَرِّه، فحصبتُهُ بالخاتَم، وقلت: أرْصِدْه لنفقة المآتِم، فقال: واهاً لَكَ فما أضْرَمَ شعلتك، وأكثر فعلتك، ثم انطلق يسعى قُدْما، ويهرول هَرْولَته قِدْماً.

* * *

سيبهم: عطاؤهم. وحق: وجب. التأسّي: الاقتداء. خلعت: جذبت وأخرجت. الخنصر: الأصغر من الأصابع، ويليها البنصر ثم الوسطى ثم السبابة وتسمى المسبَّحة والمشيرة، ثم الإبهام، وقال أبو العلاء المعرّي: **[المتقارب]**

شغلت عن المرء من خمسة اثـ ... ـنيتن فخصّهما المفخر

يُشار إليك بسبّابة ... وتثني على فضلك المخِنْصَرُ

فمن أجل ذا رُفعتْ هذه ... إلى خالق الخلْق تستغفرُ

ومن أجل ذا كُسَيتْ خاتما ... يزين وعُرّيَتِ البنصر

وقال صريع الغواني يلغز بخاتم: **[الطويل]**

وأَبيض أمّا رأسه فمدوَّرٌ ... نَقِيٌّ وأمّا جسمه فَمَعَارُ

ولم يُتّخذْ إلا لتسكن وسطه ... خضيبة رأس ما عليه خُمَارُ

لها أخوات أربع هنَّ مثلها ... ولكنها الصغرى وهن كبارُ

لفتّ: رددت. فرية: كذب. مرية: شكّ، وتقول: بين القوم أكذوبة يتكاذبون بها، أي أحاديث كذب. تكذّبها: استفعلها. أحبولة: آلة يصاد بها. وطويته على غَرّه، أي سترت عليه طريقته الملتزمة من الحيل، والغَرّ بالنقط: كسور الثوب، يقال: اطو الثوب على غَرّه، أي على كسور طيّه الأولى.

جابر: قال النبي ﷺ: «طيّ الثوب راحته».

صنت: حفظت وكتمت: شغاه: عَيْبه. فَرّه. كشفه. والشّغا: بروز سنّ على أخواتها، وخروج الحنك الأعلى على الأسفل.

وحصبته: رميته، والحصباء: الحصى الصغار، وحصبته: رميته بالحصباء، فاستعاره للخاتم.

أرصده: أعده. واهاً: عجباً. ما أضرم شعلتك، أي ما أكبر توقّد ذهنك، والشعلة

لسان النّار، وإنما تعجبّب منه لأنه قد عرفه وأعلمه أنه قد عرف مكره حين قال له: أرصده، ثم ستر عليه، وأهل الشرق يتختَّمون ويتصدقون بخواتمهم. وفي البديعية بعد تشك تقدم من أبي الفتح: قال ابن هشام: فوالله ما أنسني عن وحدتي إلا خاتم ختمت به خنصرَه، فلما تناوله أنشأ يقول: [الكامل]

وممنطقٍ من نفسِه ... بقلادة الجوزاء حُسْنا
متألف من غير أسـ ... ـرته على الأيام خِدْنَا
كَمُتَيَّم لَقِيَ الحبيـ ... ـب فضمَّه شغفاً وحزنا
عِلْقٌ سَنِيٌّ قدره ... لكنَّ مَنْ أهداهُ أسنَى
أقسمت لو كان الورى ... في المجد لفظا كنتَ معنى

قال: فتبعته حتى سفرت الخلوة وجهها، فإذا والله أبو الفتح، والطلا زغلوله، فقلت أبا الفتح، شبت وشبَّ الغلام، فأين الكلام، وأين السلام؟ فقال: [المتقارب]

غريباً إذا جمعتنا الطريقُ ... ألوفاً إذا نظمتنا الخيامُ

قوله، يسعى، أي يسرع المشي. قُدْماً: أي قدامه وقبالته. يهرول: يسرع، والهرولة جري بين المشي والعدو. قِدْماً، أي قديماً وأوّلاً، ومعناها كما فعل في أول مرة حين سعى قدماً.

* * *

فنزعْتُ إلى عِرفانِ مَيِّتِه، وَامْتِحانِ دَعْوى حَمِيَّتِه، فقرعْتُ ظُنْبُوبي، وَأَلْهَبْتُ أُلْهُوبي، حتى أدركتُه عَلَى غَلْوة، واجْتَلَيْتُهُ في خَلْوة، فأخذتُ بجُمعِ أردانِه، وَعُقْتُهُ عَنْ سَنَنِ مَيْدانِه، وقلت له: والله ما لك مِنِّي مَلْجأ وَلا مَنْجَى، أَوْ تُرِيَنِّي مَيّتَك المُسجَّى، فكشف عَنْ سَرَاوِيله، وأشارَ إلى غُرمولِهِ. فقلت له: قاتلك الله! فَمَا ألعبك بالنُّهَي، وأخيَلَكَ على اللُّهي! ثم عُدْت إلى أصحابي عود الرَّائد الذي لا يكذبُ أهلَه، ولا يبرقِش قولَه، فأخبرتهم بالذي رأَيتُ وما ورَّيتُ ولا رَاءَيْت، فقهقهوا منْ كيت وكَيْت، ولَعَنُوا ذلك المَيْت!

* * *

نزعت: اشتقت. امتحان: تجربة. قرعت: ضربت. ظنبوب: مقدّم عظم الساق، ويقال: قرع لهذا الأمر ظنبوبه، إذا أسرع وجدَّ فيه، ويبيِّنه قول سلامة بن جندل: [البسيط]

كنا إذا أتانا صارخ فَزَعٌ ... كان للصُّراخُ له قَرْعَ الظنابيبِ[1]

(١) البيت لسلامة بن جندل في ديوانه ص ١٢٣، ولسان العرب (ظنب)، (فزع)، ومجمل اللغة ٣/ =

أي كانت إغاثتنا له إسراعنا في نصرته. ألهبت: أشعلت. ألهوبي: شدة جربي. والغلوة: مقدار رمية السهم. اجتليْتُه: نظرتُه. بجُمع أردانِهِ، أي بجميع أطراف ثَوْبه. عقته: صرفته عن وجهه. سَنَن: طريق. مَيْدانه: موضع جرية وطَلَقِه. مَلجأ: موضع يُلْجَأ إليه. مَنْجى: موضع تنجو فيه. غُرْموله: ذَكَره. قاتلك الله، أي قتلك الله؛ وأكثر ما يقع فاعلت على الاثنين، وقد يكون عن الواحد، نحو ناولت وسافرت؛ وقيل: معنى قاتله، لعنه، وقيل عاداه. النُّهَي: العقول، واحدها نُهيْة، ومنه نهيتُه عن كذا فانتهى. واللُّها: العَطايا، واحدها لَهْوة، وأصله القَبْضة من الطعام، تُجعَل في فم الرَّحَا. يكذب: يحدِّث بالكَذِب: يُبَرْقِش: يُزيِّن، والبرقشة التّزيين بألوانِ شتى. ورَّيت، يقال: روّيت الخبر أُوَرّيه توريةً: سترتُه وأظهرت غيره، وفي الحديث الشريف، أنه ﷺ كان إذا أراد سفراً، ورَّى بغيره، وهو مأخوذ من الورَاء، كأنه جعل الخبر وراءه ولم يُظْهِرْه. راءيت: استعملتُ الرياء، يريد أنَّه صَرَّح لهم بذكر العورة، ولم يُكَنِّ عنها. فقهقهوا: أكثروا الضحك.

أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «إياك وكثرة الضحك فإنه يُميت القلب»[1]. والقهقهة من الشيطان والتبسم من الله من كيت وكيت، أي من هذه القِصَّة التي أسمعهم؛ وكيتَ وكيتَ، كناية عن الحديث المدمج المتداخل. والله أعلم.

= ٣٦٥، وأساس البلاغة (صرخ)، وتاج العروس (ظنب)، (فزع)، وكتاب العين ٨/ ١٦٥، وتهذيب اللغة ١٤/ ٣٩٠، والكامل ص ٣، وشرح اختيارات المفضل ص ٥٨٨، وسمط اللآلي ص ٤٧، والبيان والتبيين ٣/ ٤٥، ٨٤، ومجمع الأمثال ٢/ ٩٣، والمستقصى ٢/ ١٩٦، وبلا نسبة في مقاييس اللغة ٣/ ٤٧٠، ٤/ ٥٠٢، والمخصص ٢/ ٥٣، وجمهرة اللغة ص ٥٨٦، ٨١٤.

(١) أخرجه الترمذي في الزهد باب ٢، وابن ماجه في الزهد باب ١٩، وأحمد في المسند ٢/ ٣١٠.

المقامة الحادية والعشرون

وهي الرازيّة

حَدَثُ الحارث بن هَمّام قال: عُنيتُ مُذْ أَحْكَمْتُ تَدْبيرِي، وَعَرَفْتُ قَبيلِي مِنْ دَبيرِي، بأن أُصْغِيَ إلى الْعِظَاتِ، وأُلْغِيَ الْكِلَم الْمُحْفِظَاتِ، لأَتَحَلَّى بمحاسِنِ الأَخْلاَقِ، وَأَتَخَلَّى مِمَّا يَسِمُ بالأَخْلاَقِ. وَمَا زِلْتُ آخُذَ نَفْسِي بِهَذَا الأَدَبِ، وَأَخمِدُ بِهِ جَمْرَةَ الْغَضَبِ؛ حَتى صَارَ التَّطَبُّعُ فِيهِ طِبَاعاً، والتَّكَلُّفُ لَهُ هَوًى مُطَاعاً.

عُنيت، أي شغلت. أحكمت: أتقنت. قَبيلي من دَبيري، أي ما أُقْبِلُ عليه من أمرِي وما أدبِر عنه. ابن الأنباري: ما يعرف قبيلاً من دَبيرٍ، أي ما يعرف الإقبال من الإدبار، أي ما يعرف ما أقبل به من القبَل إلى الصدر مِمّا أدبر عنه. وقيل: معناه: ما يعرف الشاة المقابلة من المدابرة، والمقابلة التي شُقَّ أذنُها إلى قُدّام، والمُدابرة التي شق أذنها من مؤخّرِها، وترك ما قطع معلقاً إلى خلف لا يَبين.

أُصغِي: أميل. العظات: هي المواعظ. أُلغي: أترك. الكلِم: جمع كلمة المحفِظات: المُغْضبات. أتحلَّى: أتزيَنّ وأتصف. وأتخلى: أزول وأتفرغ، وتخليت من كذا: تركته. يسم: يُجعلِ سمَة. الإخلاق: العيوب وتمزيق العِرْض وأصله في الثوب. أخمد: أسكن

[الطبع والتطَبُّع]

والتطّبع له في الطبيعة أثر، وإن لم تذهب الطبيعة بالجملة، لأنه اتفقت العرب والعجم على قولهم: الطبع أملَك. وكان ملك من ملوك الفرس، له وزير مجرّب حازم، فكان يَعْرف اليُمْن في مشورته، فهلك وقام ابنُه بعده، فلم يرفع به رأساً، فذُكر له مكانته من أبيه، قال: كان أبي يغلط فيه، وسأريكم ذلك فأحضره، وقال له: أيُّهما أغلب على الرجلُ؟ الأدب أو الطبيعة؟ فقال: الطبيعة لأنها أصل والأدب فرع، وكلّ فرع يرجع إلى أصله. فدعا الملك بسُفْرةٍ فوضعت، وأقبلت سنانير بأيديها الشمع، فوقفت حول السفرة، فقال له: اعتبر خطأك وضعف مذهبك، متى كان أبو هذه السنانير شمّاعاً؟ فقال له: أمهلني في الجواب إلى الليلة المقبلة، فقال: لك ذلك، فخرج الوزير، وأمر غلامه أن يسوق له فأرة فساقها حيّةً فربطها بخيط وعقدها في سينيّة. فلما راح إلى الملك وضعها

في كمّه، ودخل فأحضر السفرة والسنانير فألقى لها الوزير الفأرة، فاستبقت السنانير إليها، وتطاير الشمع حتى كاد البيت يضطرم عليهم ناراً، فقال للملك: كيف رأيت غلبه الطبع للأدب! قال: صدقت ورجع له ما كان عليه أبوه. وقال ذو الإصبع: [البسيط]

كلّ امرىءٍ راجع يوماً لشيمتهِ ... وإن تخلّق أخلاقاً إلى حين

وقال المتنبي: [الطويل]

أبِي خلق الدنيا حبيباً تُديمه ... فما طلبي منها حبيباً تردّه؟[١]

وأيسر مفعول فعلت تغيُّراً ... تكلُّف شيء في طباعك ضدّه

وقال العرجيّ: [البسيط]

يأيّها المتحلّي غير شيمته ... ومن شمائله التبديل والمَلَقُ[٢]

ارجع إلى خلقك المعروف ديدنُه ... إنّ التخلّق يأتي دونه الخُلقُ

وقال المتنبي أيضاً: [المتقارب]

يراد من القلب نسيانكمْ ... وتأبى الطباع على الناقِلِ[٣]

وقال الشريف: [الكامل]

هيهات لا تتكلفنّ لِي الهوى ... فضَح التَطَبُّعُ شيمةَ المطبوع[٤]

وقال ابن طاهر الأندلسي: [البسيط]

نَقْل الطباع من الإنسان ممتنعٌ ... صعب إذا رامه من ليس من أَرَبِهْ

يريد شيئاً وتأباه طبائعه ... والطَّبْع أملك للإنسان من أدبِهْ

فيريد أنه راض نفسه على اتباع الخير وبعد الشرّ، حتى انقادت له إلى ما يريد، والتطبُّع استعمال غير ما في طبعك، والتكلّف استعمال ما لا تقدر عليه إلا بمشقة.

* * *

(١) البيتان في ديوان المتنبي ٢/ ١٩.

(٢) يروى البيت:

يا أيها المتحلّي غير شيمته ... إنّ التخلُّف يأتي دونَه الخُلُقُ

وهو لسالم بن وابصة في لسان العرب (خلق)، وتاج العروس (خلق)، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ٧١٠، ورواية صدر البيت فيه:

عليك بالقصد فيما أنت فاعله

والبيت بلا نسبة في ديوان الأدب ٢/ ٤٥٦، وزهر الأكم ١/ ١٤٨.

(٣) البيت في ديوان المتنبي ٣/ ٢٢.

(٤) البيت في ديوان الشريف الرضي ١/ ٤٩٦.

فَلَمَّا حَلَلْتُ بالرَّيّ، وَقَدْ حَلَلْتُ حِبَا الْغَيّ، وَعَرَفْتُ الحَيَّ من اللَّيّ، رَأيْتُ بِها ذَاتَ بُكْرَة، زُمْرَة فِي إِثْرِ زُمْرَةٍ، ، وَهُمْ مُنْتَشِرُونَ انتشارَ الْجَرَادِ، وَمُسْتَنُّونَ اسْتِنانَ الجياد، وَمُتَوَاصِفُونَ وَاعِظاً يَقْصِدُونه، وَيُحلُّونَ ابْنَ سَمْعُونَ دُونَهُ.

[الرّيّ]

قوله: «فلما حللت بالريّ»:

الريّ: أرض على جادّة خُراسان، واسم مدينة الريّ المهديّة، سمِّيت بهذا الاسم، لأنّ المهدي تولاّها في خلافة المنصور لما توجّه إلى خراسان لمحاربة عبد الجبار بن عبد الرحمن الأزديّ، وبها ولد الرشيد، والمهديّ أقام بها عدة سنين، فشيَّد بناءها وأتقنه، وأرضع نساء الوجوه من أهلها الرشيد. وأهلُ الريّ أخلاط من العرب، والعجم قليل فيها. وافتتحها قرط بن كعب الأنصاريّ في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه. ويشرب أهلها من عيون كثيرة وأودية عظيمة، وبها واد عظيم يأتي من بلاد الديلم يقال له نهر عيسى، ولكثرة مياه البلد كثرت ثماره وجنّاته وأشجاره، وله رساتيق[1] وأقاليم. ونسِب إليها الرازيّ، وهو من شاذّ النسب.

وكتب الحجّاج إلى قتيبة بن مسلم: ما يقيمك بأرض الفراعنة والجبابرة! سرْ إلى خراسان، أرض الفِضّة والعقيان، والجواري الحسان.

* * *

وتقدَّم الحبا. والغيّ: الضلال، والعرب تقول: ما يعرف الحيّ من الليّ، والحوّ من اللوّ، تقوله لمن تستجهله وتنفي عنه الفِطْنة، وتصريفها أنّ الحيّ مصدر حويت الشيء حزتَه وجمعته، ولويت الرجل: مطلتَه ومنعتَه حقّه لوًّا وليًّا ولَياناً، فالحيّ مدح والليّ ذم، فكأنه إذا قال: عرفت الحيّ من الليّ إنما قال: عرفت الخير من الشرّ، وما يضرّ مما ينفع، وعرفت الحيّ من الليّ. وقَبِيلي من دَبِيري، إنما يستعملان في النفي. وتجوّز أبو محمد في استعمالهما في الإيجاب حيث كان أصلا للنفي.

الزّمرة: الجماعة، وتقول: فلان إثْرَ فلان أي خلفه وقريباً منه، كأنه يتبع أثره إذا رفع هذا قدمه وضع الآخر قدمه في الموضع. منتشرون: متفرقون مستنُّون: جارون. متواصفون: يصفه بعضهم لبعض.

* * *

[ابن سمعون الواعظ]

ابن سمعون: هو أبو الحسن محمد بن أحمد بن إسماعيل بن عيسى بن إسماعيل

---

(١) الرساتيق: القرى، معرب.

المعروف بابن سمعون، الواعظ. وكان وحيدَ عصره وفريد دهره في الإخبار عمّا هجس في الأفكار، وليًّا من الأولياء الأخيار، كلامه في الوعظ نافع، ونصحه في القلوب ناجع، ومجاله في تصاريف الكلام على الخواطر رَحْب واسع. وكان يقال له: الشيخ المنطَق بالحكمة.

وحدّث أبو الطاهر محمد بن عليّ العلاف قال: حضرت ابنَ سمعون يوماً وهو في مجلس الوعظ على كرسيّه، وكان أبو الفتح القوّاس جالساً إلى جنب الكرسيّ، فغشيه النعاس فنام، فأمسك أبو الحسن عن الكلام ساعة حتى استيقظ أبو الفتح ورفع رأسه، فقال له: رأيتَ النبيّ ﷺ في نومك؟ فقال نعم، فقال أبو الحسن: لذلك أمسكت عن الكلام خوفاً أن تنزعج وتَنقطع عن الكلام الذي كنتَ فيه.

وذكر أبو عليّ الهاشميّ، قال: حكى لي مولى الطائع لله تعالى، قال: أمرني الطائع أن أوجّه إلى ابن سمعون فأحضره دار الخلافة، ورأيت الطائع على صفةٍ من الغضب ـ وكان يُتّقى في تلك الحال، لأنّه كان ذا حدّة ـ فبعثت إلى ابن سمعون وأنا مشغول القلب لأجله، فلما حضر، أعلمت الطائع حضورَه ـ فجلس مجلسه، وأذن له في الدخول فسلّم عليه بالخلافة، ثم أخذ في وعظه فأوّل ما ابتدأ به أن قال: روِي عن أمير المؤمنين عليّ ابن أبي طالب رضي الله عنه. . . وذكر خبراً، ولم يزل يجري في ميدان الوعظ حتى بكىَ الطائع وسمع شهيقه، وابتلّ منديله بين يديه بدموعه، فأمسك ابن سمعون حينئذ، ودفع إليّ دُرْجاً فيه طيب وغيره، فدفعته إليه وانصرف. وعدت إلى الطائع، وقلت: يا مولاي، رأيتك على صفة من الغضب على ابن سمعون، ثم انتقلتَ عنها عند حضوره، فما السبب؟ فقال: رُفِع إليّ أنه ينتقص عليًّا رضي الله عنه، وأحببت أن أتيقّن ذلك، فإن صح منه قلتُه، فلمّا حضر بين يديّ افتتح كلامه بذكره والصلاة عليه، وأعاد في ذلك وأبدى، وقد كان له مندوحة في الرواية عن غيره وترك الابتداء به، فعلمت أنه وُفِّق لما تزول به عنه الظنّة، وتبرَأ ساحته عندي، ولعله كوشف بذلك.

وله كتاب المجالس وهو كله أحاديث متصلة الأسانيد.

ومن كلامه أَن القلب بمنزلة المرآة فإذا أصابتها لطْخة عولجت بالزّيت، فإذا زادت زيد فيها من حتات الآجرّ، فإذا زادت جُليَت بالحديد، فإذا زادت على ذلك حتى ركبها الصدأ لم يكن لها بُدٌ من عرضها عَلَى النار حتى يتم جلاؤها.

توفِّيَ ابن سمعون في ذي القعدة سنة سبع وثمانين وثلثمائة، ودفن بداره بشارع العباسي، فلم يزل هناك حتى نقل يوم الخميس الحادي عشر من رجب سنة ست وعشرين وأربعمائة ودفن بباب حرب ببغداد. وقيل: إن أكفانه لم تكن بِليتْ بعد.

* * *

فلـم يتكاءدْني لاستـماعِ الـمواعظ، واخْتِبَارِ الْوَاعِظ؛ أنْ أقاصِيَ اللاَّغطَ،

وأحْتَمِلَ الضَّاغِط. فأصْحَبْتُ إصحابَ المِطْواعَة، وانْخَرطْتُ في سِلْكِ الجماعَةِ؛ حَتَّى أَفْضَيْنَا إلى نادٍ جَمع الأَمِيرُ والمأمُور، وَحَشَدَ النَّبية والمغْمورَ، وفي وَسَطِ هَالَتِهِ، وَوَسْطِ أهلَّتِهِ، شَيْخٌ قَدْ تَقوّسَ واقْعَنْسَسَ، وتَقَلْنَسَ وتَطَلَّسَ؛ وَهُوَ يَصْدَعُ بوعْظٍ يَشْفِي الصّدُورَ، وَيُلِينُ الصُّخورَ؛ فَسَمِعْتُهُ يَقُول، وَقَدِ افتَتَنَتْ بِهِ العُقُول.

* * *

قوله: يتكاءدني، أي يشقّ علي أقاصي: أباعد. اللاغط: الصائح بكلام لا يُفهم، والضاغط: الذي إذا زاحمك ضغطك لحائط أو غيره حتى ينقطع نَفَسُك، يريد أنه لم يمنعه ما أصابه من السبّ والصياح به والضغط واللكز من مزاحمة الناس حتى قرب من الواعظ.

ويبين هذا قوله في الخمسين: «ولم أزل أتنقل في المراكز، وأغضى لّلاكز والواكز» أصحبت: انقدت. المِطْواعة: المنقادين المطاوعين. والانخراط: دخول الإنسان في الأمر بغير علم. وتقدّم السلك.

أفضينا: وصلنا، وأراد أنّ هذا المجلس جمع العامة والأمير، ومَنْ له ذكر رفيع وشهرة. ومَنْ هو مجهول مخمول. وأراد بالهالة حلْقة الناس، وبالأهلّة أشراف الناس والعلماء. وحرّك السين من «وسَط»، مع الهَالة لأنها دارة وساحة العرب تقول: فلان جلس وسَط الدار واحتجم وسَط الرأس بالتحريك، وسكّن مع الأهلة لأنه أراد معنى بيْن، والعرب تقول: جلس وسْط القوم، فحملوه على بَيْن، لمّا حلّ محلّها وكان في معناها، ولا يجوز جلس بين الدار، فلهذا لا يقال جلس وسْطَها بالتسكين.

تقوّس: انحنى. اقعنسس: تقبّض واحدودب. والقَعَس: دخول الظهر وخروج الصدر، والحَدَب ضدّه وبيّنه الراجز بقوله [الرجز]

* أقعس يمشي مشية التقاعس *.

تقلْنَس: لبس القلنسوة. تطلس: لبس الطيلسان وهو كساء أخضر يلبسه الخواص. يصدع: يشقّ.

* * *

ابن آدمَ، ما أغْرَاكَ بما يَغُرّكَ، وأضْرَاكَ بِمَا يَضُرُّكَ، وَأَلْهجَكَ بِمَا يُطْغيكَ، وَأَبْهجَكَ بِمَنْ يُطْرِيكَ. تُعْنِي بِمَا يُعَنِّيكَ، وَتُهْمِلُ ما يَعْنِيكَ، وَتَنْزِعُ في قَوْسِ تَعَدِّيكَ، وَتَرْتَدِي الحِرْصَ الَّذِي يُرْدِيكَ؛ لا بالْكَفَافِ تَقْتَنِع، وَلاَ من الحَرام تَمْتَنِع، ولا لِلعِظَاتِ تَسْتَمِعُ، وَلاَ بالوعيد تَرْتَدِع. دَأْبُكَ أَنْ تَتَقلَّبَ مَعَ الأَهْواءِ، وَتَخْبِطَ خَبْطَ الْعَشْوَاءِ، وَهَمُّكَ أن تدأبَ في الاحِتَراثِ، وَتَجْمَعَ التُراث للوُرّاث؛ يُعْجِبكَ التَّكَاثُرُ

بِمَا لَدَيكَ؛ وَلاَ تَذْكُرُ ما بين يَدَيْكَ، وَتَسْعَى أبداً لِغارَيْكَ، وَلاَ تبالِي أَلَكَ أم عَلَيْكَ أتظنّ أن سَتُتْرَكَ سَدًى، وَألاَّ تحاسبَ غداً؛ أم تَحْسِبُ أَنَّ الْمَوْتَ يقبلُ الرُّشا، أو يُمَيِّزُ بين الأَسَدِ والرَّشَا. كلاَّ واللَّهِ لَنْ يَدْفَعِ المنون، مالٌ ولا بَنُون؛ وَلاَ يَنفَعُ أَهْلَ الْقبُورِ؛ سِوَى الْعَمَل المبْرور، فطوبى لِمَنْ سَمِعَ وَوعَى؛ وَحَقَّقَ ما ادَّعَى؛ ونَهى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى، وَعَلِمَ أَنّ الفائز مَنِ ارْعَوَى، وَأنْ لَيْسَ للإنسانِ إلاَّ ما سَعَى، وأن سَعْيَه سَوْفَ يُرَى. ثُمَّ أنشدَ إنشادَ وَجِل، بصَوْتٍ زَجِلٍ:

* * *

قوله: «ما أغراك»: ما أكثر لصوقك. يغرّك: يدلّك على الغرَر. أضراك: أشدّ ملازمتك. ألهجك: أشدّ حبك.

يطغيك: يردك طاغياً متجاوزاً قدرك. أبهجكْ: أشدّ سرورك. يُطريك: يمدحك في وجهك، والنفس ميالة كثيرة الانخداع بمَنْ يعظّم شأنها ويثني عليها، فرّارة ممن يحقرها ويذمها، ولذا قال ﷺ: «احْثُوا التراب في وجوه المداحين» تذليلا لهم بذلك حيث أكسبوا غيرهم عزة النفس والكبر. قال الشاعر: **[الكامل]**

وخدعته بخديعة لمّا أبى والحرّ يُخْدَعُ بالكلام الطيّبِ

تعني: تشتغل. يعنّيك: يتعبك. تنزع: ترمي. تعدّيك: ظلمك الحرص: أسوأ الطمع. يرديك: يهلكك.

* * *

[بعض الحكم والمواعظ]

كعب بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ذئبان جائعان أُرْسِلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والسَّرف لدينه»(١).

قال رسول الله ﷺ: «اقتربت الساعة ولا يَزْداد الناس إلا حرصاً على الدنيا ولا تزداد منهم إلا بعداً».

وقال محمود الوراق: **[الرمل]**

كم إلى كم أنت للحرْ صِ وللآمال عبدُ

ليس يجدي الحرْص والسعْـ ـيُ إذا لم يكُ جِدُّ

(١) أخرجه الترمذي في الزهد باب ٤٣، والدارمي في الرقاق باب ٢١، وأحمد في المسند ٣/ ٤٥٦، ٤٦٠.

مــا لــمــا قــدره الــلـــه مـــن الأمـــر مَـــرَدُّ

وفي كتاب للهند: لا ينبغي للملتمس من عيشه إلا الكفاف الذي يدفع به الحاجة عن نفسه، وما سوى ذلك فإنما هو زيادة في غمِّه.

وقالت الحكماء: أقل الدنيا يكفي، وأكثرها لا يكفي.

وقال أبو ذؤيب: **[الكامل]**

والـنَّـفـسُ راغـبـةٌ إذا رغَّـبْـتَـهـا وإذا تُـرَدّ إلـى قـلـيـل تـقـنـعُ[1]

وقال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه لابنه: يا بُنيّ، إذا طلبتَ الغنى فاطلبه بالقناعة، فإنها مال لا ينفد، وإياك والطّمع فإنما هو فقر حاضر. وعليك باليأس فإنك لم تيأس من شيء قطّ إلا أغناك الله عنه.

وقال: الغنيّ من استغنى بالله والفقير من افتقر إلى الناس.

قال ابن أبي حازم رحمه الله تعالى: **[البسيط]**

استغن بـاللّٰهِ لا تَـضْـرَعْ إلى النَّـاسِ واقـنـع بـيـأسٍ فـإن الـعـزَّ فـي الـيـاسِ

واستغن عن كلّ ذي قربى وذي رَحِمٍ إنّ الـغـنـيّ مَـن اسـتـغـنـى عـن الـنـاس

ومن دعاء عمر رضي الله عنه: اللهم، لا تكثر لي من الدنيا فأطغَى، ولا تقلّل لي منها فأنسى، فإنّه ما قلّ وكفى، خير ممّا كَثر وألهى.

وقالوا: ثمرة القناعة الراحة، وثمرة الحرص التعب.

وقالوا: لا غنى إلا غنى النفس.

وقال رسول الله ﷺ: «عندك ما يكفيك وأنت تطلب ما يطغيك! لا بقليل تقنع، ولا بكثير تشبع. يا بن آدم، إذا أصبحت آمناً في سربك معافًى في بدنك، عندك قوت يومك فعلى الدنيا العفاء»[2].

وقيل لأبي حازم: ما مالُك؟ فقال: مالان: الغنَى بما في أيدي، واليأس مما في أيدي الناس.

وقيل لآخر: ما مالُك؟ فقال: التجمّل في الظاهر والقصد في الباطن.

ومما قيل من الشعر في معنى ما تقدّم، قال محمود الورّاق: **[السريع]**

---

(١) البيت لأبي ذؤيب الهذلي في الدر ٣/ ١٠٢، وشرح اختيارات المفصل ص ١٦٩٣، وشرح أشعار الهذليين ١/ ٧، وشرح شواهد المغني ١/ ٢٦٢، ومغني اللبيب ١/ ٩٣، وبلا نسبة في همع الهوامع ١/ ٢٠٦.

(٢) أخرجه الأخير من الحديث، الترمذي في الزهد باب ٣٤، وابن ماجه في الزهد باب ٩، بلفظ: «إذا أصبح آمناً في سربه معافى في جسده».

يا عائب الفقر ألا تزدجرْ عيبُ الغنى أكبرُ لو تعتبرْ
من شرف الفقر ومن فضله على الغنى لو صحّ منك النظر
أنك تعصي الله تبغي الغِنَى وليس تعصي الله كي تفتقرْ

وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر: [الطويل]

ومن سرَّه أنْ لا يرى ما يسوءه فلا يتَّخذْ شيئاً يخاف له فَقْدَا
فإنّ صلاح المرء يرجع كلُّه فساداً إذا الإنسان جاز به الحدَّا

وقال البحتري: [الوافر]

إذا ما كان عندي قوت يومٍ طرحتَ الهمّ عني يا سعيدُ
ولم تخطر هموم غدٍ ببالي لأن غداً له رزق جديدُ

وقال ابن طباطبا: [الرمل]

إنّ في نيل المُنَى وَشْكُ الرَّدَى وقياس القصد ضدّ السَّرفِ
كسراج دُهْنه غَمْرٌ له فإذا غرّقْتُه فيه طُفِي

وقال آخر: [الكامل]

وإذا نبا بيَ منزل جاوزتُه واعتضت منه غيره ليَ منزِلا
وإذا غلا شيء عليّ تركته فيكون أرْخَصَ مما يكون إذا غلا

* * *

قوله: «ولا بالوعيد ترتدع» أي لا تكفّ عن غيّك ولا ضلالك بما تخوّف به من أهوال الآخرة. دأبَكَ، أي عادتك. الأهواء: جمع هوى، وهو ما تحبّه النفس وتميل إليه. تخبط: تمشي على عماية. العَشْواء: الناقة التي لا تبصر. تدأب: تداوم الاحتراث: الكسب. التراث: المال الموروث.

وفي معناه أنه وجد على حائط مكتوباً: ابنَ آدم غافص[1] الفرصة عند إمكانها، وكل الأمور إلى وليّها، ولا تحلّ في قلبك همَّ يوم لم يأت إن يكن من أجلك، يأتك الله برزقك فيه، ولا تجعل سعيَك في طلب المال أسوة المغرورين، فربّ جامع لبعل حليلته. واعلم أن تقتير المرء على نفسه توفيرٌ منه على غيره، فالسعيد من اتّعظ بهذه الكلمات. قال بديع الزمان: [المتقارب]

أيا جامعَ المال من حَلّه يَبيت ويُصْبح في ظِلِّهْ
سيؤخذ منك غداً كلّه وتُسْألُ من بعد عن كلِّهْ

---

(١) غافص الرجل مغافصة: أخذه على حين غرة.

وله أيضاً: **[مجزوء الخفيف]**

يا حريصاً على الغنى ... قاعداً بالمراصِدْ
لستَ في سعيك الّذي ... خضت فيه بقاصدْ
إن دنياك هذه ... لستَ فيها بخالدْ
بعد هذا فإنما ... أنت ساعٍ لقاعدْ

وقال سابق البربري: **[الطويل]**

فحتى متى تلهو بمنزل باطلٍ ... كأنك فيه ثابتُ الأصل قاطنْ
وتجمع مالاً تأكل الدهر دائباً ... كأنك في الدنيا لغيرك خازنْ

وقال زجال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن فلاناً جمع مالاً، قال: فهل جمع له أياماً! أخذه الشاعر فقال: **[البسيط]**

ارفه يعيش فتًى يغدو على ثقةٍ ... إنّ الذي قَسَمَ الأرزاق يرزقُهُ
فالعِرْض منه مصونٌ لا يَدنِّسهُ ... والوجه منه جديد ليس يخلُقهُ
جمعت مالاً ففكِّر هل جمعت له ... يا جامع المال أياماً تفرّقُهُ
المال عندك مخزون لوارثِه ... ما المال مالك إلا حين تنفِقُهُ

قوله: «التكاثر» أي كثرة المال، تقول: تكاثر المال تكاثراً: جاز الحدَّ في الكثرة.

أبو سعيد عن النبي ﷺ: «من أمسى وأصبح وهمّه الدينار والدرهم تكاثراً حشر مع اليهود والنصارى، والذين قالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر».

تسعى لغاريك: تجهد في كسبك لتدرك شهوة بطنك وفرجك، وهما الغاران، قيل: هما الفرج والفم. وقيل: الحنكان: الأعلى والأسفل؛ وأخذ اللفظ من قول الشاعر: **[الطويل]**

ألم تر أنّ الدهر يومٌ وليلة ... وأن الفتى يسعى لغَاريه دائِبا[1]

قوله سدًى، أي مهمل مسيّب. الرُشا بالضم: جمع رِشوة وهي العطية تَدفع بها مضرَّةَ من يقدر عليكَ. الرّشا، بالفتح: الغزال. كلاّ: زجر. المنون: هي المنيّة، المبرور: المتقبّل. وَعَى: حفظ الوصية. ما ادعى، أي ما ادعاه من أنه قبِل الوصية.

---

(١) البيت بلا نسبة في لسان العرب (غور)، والمخصص ١٣/ ٢٢٤، وديوان الأدب ٣/ ٣٣٤، ومجمل اللغة ٤/ ٢٩، وأساس البلاغة (غور) وتاج العروس (غور)، ويروى البيت:

ألم ترى أنّ الدهر يوم وليلة ... وأنّ الفتى يمسي بحبليه عانيا

وهو بهذه الرواية لمعروف بن ظالم في لسان العرب (حبل).

وحققه: داوم عليه بعمله. ارعوى: رجع وتاب. ما سعى: أي ما عمل وتعب فيه. الفائز: الظافر بحاجته. وَجِل: خائف. زجل: شديد، وزجل الصوت زجلاً: ارتفع وأيضاً طرّب.

وقال أبو العتاهية فيما تقدّم من ذكر الموت: [مجزوء الرمل]

بين عيني كلّ حين ... علَم الموت يلوحُ
كلنا في غفلة والـ ... ـموتُ يغدو ويروحُ

وقال البديع: [مجزوء الرمل]

إنما الدّنيا غرور ... ولمن أصغى نصيحُ
ولسان الدهر بالوعـ ... ـظ لواعيه فصيحُ
نحن لاهون وآجا ... لُ المنايا لا تريحُ

* * *

[الطويل]

لَعَمْرِكَ ما تُغْنِي الْمَغاني وَلاَ الْغِنَى ... إذَا سَكَنَ الْمُثْرِي الثرى وثَوَى بِهِ
فَجُدْ في مَرَاضِي اللّهِ راضياً ... بما تَقْتَنِي مِنْ أجْرِه وثوابِهِ
وبادِرْ به صَرْفَ الزّمانِ فإنَّهُ ... بمخْلَبِهِ الأشغَى يَغُولُ ونابِهِ
وَلاَ تأمَنِ الدَّهرَ الخؤونَ ومكرَهُ ... فَكَمْ خاملٍ أخْنَى عليه ونَابِه
وعاصِ هَوَى النَّفسِ الَّذِي ما أطاعَهُ ... أخُو ضَلَّةٍ إلاَّ هَوَى من عِقَابِهِ
وحافِظْ عَلَى تَقْوى الإلَهِ وَخَوْفِهِ ... لتَنْجُوَ مِمَّا يُتَّقَى مِنْ عِقابِهِ
ولا تَلْهَ عَنْ تذكارِ ذَنبِكَ وابْكِهِ ... بِدَمْعٍ يُضَاهِي الْمُزْنَ حَالَ مَصَابِهِ
وَمَثِّلْ لعنيكَ الْحِمامَ ووقْعَهُ ... وَرَوْعَةَ مَلْقَاهُ وَمَطْعَمَ صابِهِ
وإنّ قصَارى مَنزِلِ الحيّ حُفْرَةٌ ... سَتَنْزِلُهَا مسْتَنْزَلاً عَنْ قبابِهِ
فواهاً لِعَبْدٍ ساءَهُ سوءُ فِعلِهِ ... وأبْدَى التَّلاَفِي قبلَ إغلاق بَابِهِ

* * *

قولهُ: لعَمرك، العَمر البقاء، فأقسم به كأنه قال: وحق بقائك الكريم عليّ المحبَّب إليّ.

المغاني: المنازل الشريفة. المثري: الكثير المال. الثّرَى: التراب النديّ، وأثرى صار له كثير من المال كالثري في كثرته. ثوى: أقام. جُدْ: تكرّم بمالك. تقتني: تكتسب، أي لا تنفع المنازل الرفيعة البناء ولا المال الكثيرة إذا آل الحال إلى الموت. بادر: سابق. صَرَف: تقلّب.

الأشغى: المعوجّ. يغُول: يهلك. نابه: ضرسه. الخؤون: الكثير الخيانة. النابه والنبيه، من النباهة وهي الجلالة والرفعة، والخامل ضدّه. وأخنى عليّ: أخذ مالي. ضُلّة، أي ضلالة، وهوى: سقط. عقابه الأول جباله، والثاني عذابه تلْهُ: تشتغل. يضاهي: يشابه. الوبْل: أكثر المطر. حال مَصابه، أي حال وقوعه، والمَصاب: مصدر صاب يصوب صوباً ومَصاباً. الحِمام: الموت. روعة: فزع صاحبه حين يلقاه. صابه: مرّه، والصاب شجر مرّ. وقصارى: آخر ونهاية، كأنه قصر عندها أي جلس فلم يجاوزها. واهاً: عجباً. التلافي: التدارك لما فات إغلاق بابه، أي موته.

[لقاء ملَك الموت]

وفي روعة ملقاه يُحكى أنّ إبراهيم عليه السلام، قال لملك الموت: هل تستطيع أن تُريَني صورتك التي تقبض عليها روح الفاجر، قال: لا تستطيع ذلك، قال: بلى، قال: فأعرض عني، ثم التفت، فإذا هو برجل أسود قائم الشعر منتن الريح، أسود الثياب، يخرج من فيه ومن منخريه لهيب النار والدخان. فغُشِيَ على إبراهيم عليه السلام، ثم أفاق وقد عاد إلى صورته: فقال إبراهيم: لو لم يكن للفاجر عند موته إلا صورتك لكان حسبه.

وفي مطعم صابه، يحكى أنّ إبراهيم عليه السلام قال له الله تعالى: كيف وجدت الموت يا خليلي؟ قال: كسفّود جُعل في صوف رطب، قال: أما إنّا هونّا عليك. وقال لموسى عليه السلام: كيف وجدت الموت؟ قال كعصفور يقلى على المقلى، لا يموت فيستريح، ولا يَطير فينجو. وفي رواية: كشاة تُسْلخ من جلدها وهي حية.

وقال كعب الأحبار لعمر رضي الله عنهما، وقد سأله أن يحدّثه عن الموت، قال: الموت يا أمير المؤمنين كغصن كثير الشّوْك، أدخل جوف رجل، فأخذَت كلّ شوكة بعرْق، ثم جذبه رجل شديد الجذب، فأخذ الغصن ما أخذ، وأبقى ما أبقى.

وكان النبي ﷺ عند موته يقول: «إن للموت لَسَكَرات، اللهم هوّن عليّ سَكَرات الموت»[١].

وقالت عائشة رضي الله عنها: «لا أغبط أحداً يهون عليه الموت بعد الذي رأيته من موته ﷺ»[٢].

فهذه حال أحبابه فكيف بمن غمر في بحار المعاصي! اللهم عفوك.

وشعر المقامة مزدوج القوافي، وعارضه الزاهد بن عمران فقال: [السريع]

---

(١) أخرجه بلفظ: «اللهم أعني على سكرات الموت»: ابن ماجه في الجنائز باب ٦٤، والترمذي في الجنائز باب ٧، وأحمد في المسند ٦/ ٦٤، ٧٠، ٧٧، ١٥١.

(٢) أخرجه الترمذي في الجنائز باب ٨.

ما لي وللدنيا وعلمي بها غرّارة خدّاعة ما لي
تغرني حتّى إذا مُكِّنَتْ تعبثُ في نفسي وفي مالِي
هِمْتُ بها حبا فقد أفسدت ما كان من صالح أعمالي
أعمى الهوى قلبي وحبِّي، لها رأس خطاياي وأعمالي
تبكي على الفائت من حظّها عيني بتشكاب وإهمالي
يا ربّ زهّدني في حبها ولا تؤاخذني بإهمالي

وله في مثله: **[السريع]**

ارغب عن الدنيا وأوصافِهَا مشوبة جاءتك أوصافيَهْ
قتل أولي الألباب من فعلها فاصغ إلى نصحي وأوصافيَهْ
ما بالغنى يغترّ ذو فطنةٍ كلاً ولا يغترّ بالعافيَهْ
كم من غِنًى قد عاد فقراً وكم عافية قد أصبحت عافيَهْ

وله أيضاً: **[السريع]**

ما الزهد يا قوم ـ فلا تجهلُوا ـ بلبس أسمالٍ وأخلاقِ
لكنه لُبْس ثياب التقى في حسن آداب وأخلاقِ

وله أيضاً: **[الطويل]**

خليليّ لا يغُرزك مِنّي ظاهري ومهما سألت الله فاسألْهُ لِي صَفْحَا
فلو كنت ذا علم كعلمي بباطني لأضربت عن ذكري أيادي النهى صفحَا
ولكن أرى الله الجميل بفضله فلم يفش لي سرّاً ولم يُبْد لي صفحا

وقال بعض الزهاد لصاحبه: إني أحبك في الله، فقال له: لو علمت مني ما أعلم من نفسي لأبغضتَني في الله.

وله أيضاً: **[المتقارب]**

تحفظ بدينك لا تبتذلْهُ ولا تلْفِ عرضَك عِرْضاً كليما
وعدِّ عن الذنب لا تأتِه وبادر بإصلاح ما منك لِيما
فأنت ابن عمران موسى المسيء ولستَ ابن عمران موسَى الكليما

وقال غيره: **[مجزوء الكامل]**

لا تأمن الدهر الخؤو ن وخَف بوادر بَغْتَتِهْ
فالموت سهم مرسلٌ والعمر قَدْر مَسَافتِهْ

* * *

قال: فظلّ القومُ بَيْنَ عَبْرَةٍ يَذْرونَها، وتَوْبةٍ يُظْهِرُونَها؛ حَتَّى كادَتِ الشَّمْسُ تَزُولُ، والفريضَةُ تَعُول. فلمّا خشعتِ الأصوات، والتأمَ الإنصاتُ، واستكنَّت العَبراتُ والعِبارَات؛ استصرخ مستصرخٌ بالأمير الحاضِر، وَجَعَل يجأَرُ إليه من عامِلِهِ الجائرِ، والأميرُ صاغٍ إلى خَصْمِهِ، لاهٍ عَنْ كَشْفِ ظُلْمِهِ.

فلما يَئِسَ مِن رَوْحِهِ، استنهض الواعِظَ لنصحه؛ فَنَهض نَهْضَةَ الشِّمِّير، وأنشد مُعَرِّضاً بالأمير.

* * *

قوله: «عبرة يذرونها»، أي دمعة يصبّونها. وتَعُول: تزيد وتضيق، يريد يضيق وقتها، ويدخل عليها وقت غيرها فترجع صلاتين. خشَعت: ذلَّت. التأم الإنصات: اتّصل السكوت. استكنّت العبَرات والعِبارات، أي سكن البكاء والكلام. استصرخ مستصرخ، أي استغاث مستغيث. يجأر: يصيح. يريد أنّ رجلاً تشكّى للأمير من عامل له ولاّه عليهم، فجار، فمال الأمير مع الوالي، وترك المشتكي. وقوله: صاغ، أي مائل. ولاهٍ: أي تاركٌ ومشتغل. يئس: قطع رجاءه. رَوْحه: نصرته وعدله الذي يريح المشتكي، والرّوْح: الفرح والسرور. استنهض: سأله النهوض لينصح الأمير.

عائشة رضي الله عنها: قالت: قال رسول الله ﷺ: «من كان ذا وصلة لأخيه المسلم إلى السلطان في مبلغ برّ، وتيسير عسير، أعانه الله على إجازة الصراط: يوم دحض الأقدام».

الشِّمِّير: الماضي في أموره: معرِّضاً: من التعريض وهو أن تخاطب غيره وأنت تريده.

* * *

[الكامل]

عَجَباً لِراجٍ أن ينالَ وِلايَةً ... حتّى إذا ما نَالَ بُغيَتَهُ بَغَى
يُسْدِي ويُلْحِمُ في المظالم والغاً ... في وِرْدِها طوراً وطوراً مُولِغا
ما إن يبالِي حِينَ يتّبع الهوى ... فيها أأصلَحَ دينَهُ أم أوتَغا
يا ويحَهُ لو كان يُوقِنُ أنّهُ ... ما حالةٌ ألاّ تحولُ، لَمَا طَغَى
أوْ لَوْ تبيَّن ما ندامَةُ مَنْ صَغَا ... سَمْعاً إلى إفْكِ الوشاةِ لَمَا صَغَا
فانْقَدْ لمن أضحى الزمام بكفِّهِ ... وتغاضَ إن ألغى الرّعايةَ أوْلَغا
وازْعَ المُرارَ إذَا دَعَاكَ لِرَغْيِهِ ... وَرِدِ الأُجاجَ إذا حماكَ السَّيِّغا
واحمل أذاه ولو أمضك مَسُّه ... وأَسَالَ غَرْبَ الدَّمعِ منكَ وأفْرَغا

فَلَيُضحكنْكَ الدَّهرُ منه إذا نبا ... عَنْهُ وشبَّ لِكَيْدِه نارَ الوَغى
ولينزلنَّ به الشَّمَاتُ إذا بدا ... مُتخلِّياً مِنْ شُغْلِهِ مُتَفرِّغا
وَلَتأويَنَّ له إذا ما خَدُّه ... أضحى على تُرْبِ الهوانِ مُمَرَّغا

نال بغيته: أي أدرك ما طلب. بغى: جار وظلم. يُسدي ويلحم، أي متصرّف في المظالم طولاً وعرضاً، ومقبلاً ومدبراً. والسّدي: خيوط الثوب طولاً، واللحمة خيوطه عرضاً: والغاً: شارباً. وردها: ماؤها. مولغاً: مسقياً غيره، ويريد أنه يباشر الظلم بنفسه تارة، ويوليه غيره أخرى. أوتغ: أفسد وأهلك.

يا ويحه، قال الأزهري رحمه الله تعالى: ويْح كلمة رحمة، وويل كلمة عذاب، والفرق بين ويح وويل أنّ ويح تقال لمن وقع في بليّة، يُرحَم ويدْعى له بالتخلص منها. وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «ويحكِ»، فجزعت فقال لي: «يا حميراء، إن ويح كلمة رحمة فلا تجزعي منها ولكن اجزعي من الويل».

يوقن: يحقق. تحول: تتغير. طَغَى: ارتفع وجاز الحدّ في الجوْر. صغى: مال. إفك. كذب. الوشاة: جمع واشٍ، وقد تقدم. انقد: أطع، يقول: من أصبح حاكمك فاتبعه وأطع له. تغاضَ: تغافل. ألغى: ترك. الرعاية: المحافظة للحقوق. لغا: أخطأ وقال قبيحاً، ثم قال: إن حَمَلك على الذل فاحتمله، وكُنِّي برعي المُرار عنه. رِدِ الأجاج: اشرب الماء المّر والملح. حماك السَّيِّغا: منعك العذب السهل للشرب. أمضّك: أحرقك وصيّرك مهموماً، والمضّ التوجع من قول أو جرح. مسَّه: وقعه بجسمك. والغرب: فيض الدمع، والغرْب: الدلو.

* * *

[الكامل]

هذا لَهُ ولَسَوْفَ يُوقَفُ موقفاً ... فيه يُرَى ربُّ الفصاحة أَلْثَغا
ولَيُحشَرَنَّ أذلَّ مِنْ فقعِ الفَلاَ ... ويحاسَبنَّ على النقيصةِ والشّغا
ويؤاخذَنَّ بما اجتنَى ومن اجتبَى ... وَيُطَالَبنَّ بما احْتَسى وبما ارتَغَى
ويناقشَنَّ على الدقائق مثل ما ... قد كان يصنع بالورَى بلْ أبْلَغَا
حَتَّى يَعَضَّ على الولايةَ كفَّهُ ... ويودُّ لو لم يبْغِ مِنْهَا ما بَغَى

* * *

هذا له، إشارة إلى ذل العزل. الألثغ: الأخرس المحبوس اللسان، وهو أيضاً الذي يُبْدِل الباء والراء غيناً. وربّها: صاحبها. والفقع: ضرب من الكمأة مَنْ وطئه كسره لضعفه، وهو الفُقّاع، وبه يضرب المثل، فيقال: أذلّ من فقع بقرقر.

الشّغا: الزيادة. اجتنى: جمع أموال الناس وضبطها لنفسه. اجتبَى: اختار، يريد أنه يطالب بما أخذ من الدنيا ويحاسب على الوالي الذي اختاره وولاّه.

احتسى: شرب الحسوة من اللبن بعد الحسوة. ارتغى: شرب الرّغوة، أي يؤاخذ بالقليل والكثير والظاهر والباطن. يناقش: يبحث عليه ويخرج ما عنده. أبلغ: أزيد. يبغ، يدرك ويطلب.

[الولاية والولاة]

ونذكر هنا فصلاً من الآداب يحتوي على الولاية والعزل والتشكّي من الولاة، حسبما تضمّن هذا الموضع في المقامة.

قال رسول الله ﷺ: «ستحرصون على الإمارة، وتكون حسرة وندامة فنعمت المرضعة، وبئست الفاطمة»[١].

أراد عمر رضي الله عنه أن يستعمل رجلاً فبدر الرجل يطلب العمل فقال: قد كنّا أردنا لذلك، ولكن مَنْ طلب هذا العمل لَمْ يُعَنْ عليه.

ولقيَ عمر رضي الله عنه أبا هريرة رضي الله عنه فقال: ألا تعمل؟ فقال: ما أريد العمل، قال: قد طلبه مَنْ هو خير منك، يوسف الصديق عليه السلام قال: ﴿**اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم**﴾ [يوسف: ٥٥].

قال المغيرة بن شعبة: أحِبّ الإمرة لثلاث: لرفع الأولياء، ووضع الأعداء ولستر خاص الأشياء. وأكرهها لثلاث: لروعة البريد، وذلّ العَزْل وشماتة الأعداء.

وقال أمير لأعرابيّ: قل الحق وإلاّ أوجعتُك ضرباً، قال: وأنت فاعمل به، فوالله لَمَا وعدك الله على تركه أعظم مما توعَّدتَني به.

وذُكِر أهل السلطان عند أعرابيّ، فقال أما والله إن اعتزّوا في الدنيا بالجَور لقد ذلوا في الآخرة بالعدل، ولقد رضوا بقليل، فإن عوضاً من كثير باقٍ، وإنما تزلّ القدم حيث لا ينفع الندم.

تظلم رجلٍ للمأمون من عاملٍ له، فقال له: يا أمير المؤمنين، ما ترك لنا فضة إلا فضّها، ولا ذهباً إلا ذهب به، ولا ماشية إلا مشى بها، ولاَ غلّة إلا غلّها، ولا ضيعة إلا أضاعها، ولا عِلْقاً إلا علقه، ولا عِرْضاً إلا عرَض له، ولا جليلاً إلا أجلّه، ولا دقيقاً إلا دقه. فعجب المأمون من فصاحته، وقضى حاجته.

قحطبة بن حميد: إني لواقف على رأس المأمون يوماً، وقد جلس للمظالم فكان آخر من دخل عليه وتقدم إليه امرأة وقد همَّ بالقيام، عليها أُهبَة السفر وثياب رثّة. فوقفت بين يديه، وقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، فنظر المأمون إلى

(١) أخرجه البخاري في الأحكام باب ٧، والنسائي في البيعة باب ٣٩، والقضاة باب ٥، وأحمد في المسند ٢/٤٤٨، ٤٧٦.

يحيى بن أكثم، فقال يحيى: وعليك السلام يا أَمَة الله، تكلمي في حاجتك، فقالت: [البسيط]

يا خير منتصفٍ يُرجَى له الرّشَدُ ويا إماماً به قد أشرق البلدُ
تشكو إليك عميدَ الملكِ أرملةٌ عَدَا عليها فلم يُترك لها سَبَدُ
وابتزّ مني ضياعي بعد منعتِها ظلماً وفرّق منّي الأهل والولدُ

فأطرق المأمون حيناً ثم رفع رأسه فقال: [البسيط]

في دون ما قلتِ زال الصَّبْرُ والجلدُ عنّي وأقرِح منّي القلبُ والكَبِدُ
هذا أوان صلاة العصر فانصرِفي واحضري الخصم في الوقت الذي أعِدُ
والمجلس السبت أن يقضَ الجلوس لنا نُنصِفْكِ منه وإلا المجلسُ الأحدُ

فجلس يوم الأحد، فكانت أوّل من تقدم إليه، فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين، فقال: وعليك السّلام، أين الخصم؟ فقالت: واقف على رأسك، وأشارت إلى ابنه العباس، فقال: يا أحمد بن أبي خالد، خذ بيده فأجلسه معها للخصومة. ففعل. فجلس، فجعل كلامُها يعلو كلامَه فقال لها: أحمد يا أمة الله، أنت بين يدي أمير المؤمنين وتكلِّمين الأمير، فاخفضي من صوتك، فقال له المأمون: دعها يا أحمد فالحقّ أنطقها والباطل أخرسه. ثم قضى لها بردّ ضياعها وظلَّم العباس. وأمر لها بنفقة وبكتاب إلى عامل بلدها أن يحسن معاونتها.

قال أبو العيناء: كان عيسى بن فرخان شاه يتيه عليّ في وزارته، فلما صُرِف رهبني، فلما لقيني سلّم عليَّ فدنوت منه وقلت له: والله لقد كنتُ أقنع بإيمائك دون بيانك، وبلحظك دون لفظك، والحمد لله على ما آلت إليه حالتك، فلئن أخطأتْ فيك النعمة فلقد أصابتْ فيك النقمة، وإن كانت الدنيا أبدت مقابحها بالإقبال عليك، فلقد أظهرت محاسنها بالانصراف عنك، ولله المنة إذ أغنانا عن الكذب عليك، ونزّهنا عن قول الزور فيك، فقد والله أسأتَ حَمْلَ النِّعم، وما شكرت حَقّ المنعم. فقيل له: يا أبا عبد الله، لقد أبلغت في السّب، فما كان الذنب؟ فقال: سألته حاجة أقلّ من قيمته، فردّني عنها بأقبح من صورته.

وقال ابن الروميّ في أبي الصقر، وكان قد مدحه فلم يرفع به رأساً: [الكامل]

فلئن نُكِبَتْ لطالما نُكِبَتْ بك همة لجأت إلى سَنَدِكْ
لو تسجد الأيام ما سجدت إلا ليوم فتّ في عَضُدِكْ
يا نعمة ولّت غضارتُها ما كان أقبح حسنَها بيدِكْ
فلقد غدت بَرْداً على كبدي لما غدت حرًّا على كبدكْ

وقال فيه: [السريع]

خفّض أبا الصقر فكم طائرٍ خرَّ صريعاً بعد تحليقِ

زُوِّجتَ نعمى لم تكن كفؤها ... فصانها اللَّهُ بتطليقِ
لا قدّستْ نعمى تَسَرْبلتَها ... كم حُجّةٍ فيها لزنديقِ

وقال فيه قبل النكبة: **[الوافر]**

غدا يعلو الجيادَ وكان يعلو ... إذا ما استفره السبت الطِّراقا
أعنَّتها الشسوع فإن عراها ... حفاءُ الكدّ أنعلها طراقَا
فَزُوِّج بعد فقر منه نُعْمَى ... أراني الله صُبْحتَها طلاقا

ومن غرائب التكاتب في العزل، ما كتب به أحمد بنِ مهران إلى معزول: بلغني أعزّك الله انصرافُك عن عملك، فسررت بذلك، ولم أستفظعه لعلمي بأن قدرَك أجلّ وأعلى من أن يرفَعك عمل تتولاه، أو يضعك عزل عنه، والله لو لم تختر الانصراف، وترد الانعزال، لكان في لطف تدبيرك، وثقوب رويّتك، وحسن تأتِّيك، ما تزيل به السبب الداعي إلى عَزْلك والباعث على صرفك، ونحن إلى أن نهنّئَك بهذا الحال، أولى بنا من أن نعزّيَك؛ إذْ أردت الصرفَ فأوتيته، وأحببت الاعتزال فأعطيته، فبارك الله لك في منقلبك وهنّأك النعم بدوامها، ورزقك الشكر الموجب المَزيد لك فيها.

كان أبو شراعة لا يسأل ابن المدبّر حاجة إلا قضاها، ولا يشفع لأحد إلا شفّعه، فلما عُزل إبراهيم بن المدبر عن البَصرة شيَّعه الناس، فردَّهم حتى لم يبق إلا أبو شراعة، فقال يا أبا شراعة، غاية كلّ مودّع الفراق. فانصرف راشداً مكلوءاً من غير قلِيَ والله ولا ملل. وأمر له بعشرة آلاف درهم. فعانقه أبو شراعة وبكى وأطال، ثم قال وهو أحسن ما قيل في التهنئة بالعَزل: **[الرمل]**

يا أبا إسحق سِرْ في دَعَةٍ ... وامض مكلوءاً فما منك خَلَفْ
ليت شعري أيّ أرض أجدَبتْ ... فأريحتْ بك من جهد العَجَفْ
نزل اللطف من الله بهمْ ... وحُرمناكَ بذنب قد سَلَفْ
إنما انت ربيع باكرٌ ... حيثما صرّفه الله انصرفْ

ومن ملح هذا الباب أنّ بعض الوزراء قلّد ابن حجاج عملاً، فخرج إليه يوم الخميس، وتبعه كتاب عزله يوم الأحد، فقال فيه: **[مجزوء الكامل]**

يا من إذا نظر الهلا ... لُ إلى محاسِنه سَجَدْ
وإذا رأته الشمس كا ... دت أن تموت من الحسدْ
يوم الخميس بعثتَنِي ... وصرفتني يوم الأحَدْ
والناس قد غنوا عـ ... ـليّ لمّا خرجت من البلدْ
ما قام عمرو في الولا ... ية قائماً حتى قعدْ

* * *

ثم قال: أيّها المتوشِّحُ بالوِلاَية، المترشِّحُ للرِّعايةِ؛ دَعِ الإدلال بدَوْلَتِك، والاغترارَ بِصَوْلَتِك؛ فإنّ الدّولة ريح قُلّب، والإمْرَةَ بَرْقٌ خُلّب. وإن أسْعَدَ الرّعاة، مَنْ سَعِدَتْ بهِ رعيّتُه، وأشقاهُمْ في الدّارَيْنِ مَنْ ساءَت رعايتُه؛ فلاَ تَكُ مِمّنْ يَذَرُ الآخرةَ وَيُلْغِيها، وَيُحِبُّ الْعَاجِلةَ وَيبْتَغِيها، وَيَظْلِمُ الرَّعِيّةَ وَيُؤْذِيها؛ وإذا تَوَلّى سَعَى في الأرْض لِيُفْسِدَ فيها؛ فوالله ما يَغْفُلُ الدّيان، وَلاَ تُهْمَلُ يا إنسان، ولا تُلْغَى الإساءةُ ولا الإحْسَان؛ بل سَيُوضَعُ لَكَ الميزانُ، وكَمَا تَدِينُ تُدَانُ.

قال: فوجَمَ الوالِي لما سَمِع، وامتُقِعَ لونُه وانْتُقِعَ، وجعل يتأفّفُ من الإمْرَة، ويُرْدف الزّفْرةَ.

[اللثغ من الشعر]

وذكر اللثغ، وللشعراء في اللثغ ما يستحسن، قال ابن شهيد: [الكامل]

مرض الجفون ولثغةٌ في المنطق ... شيآن جرّا عِشْق من لَم يَعْشَقِ
ينبي فينبو في الكلام لسانُه ... فكأنه من خمر عينيهِ سُقِي
لا يُنعش الألفاظَ من عثراتِها ... ولو أنها كتِبت له في مهرَقِ

وأحسن ما في وصفه قول الرماديّ: [الكامل]

لا الراء تطمع في الوصال ولا أنا ... الهجر يجمعنا فنحن سواءٌ
فإذا خلوت كتبتها في راحتِي ... فبكيت منتحباً أنا والراءُ

اخذه أبو القاسم بن العريف، فقال: [الخفيف]

أيها الألثغ الذي شفّ قلبي ... جُدْ بحرف ولو نطقت بسبِّي
هجرك الراء مثل هجرِي سواء ... فكلانا معذّب دون ذنبِ
فإذا شئت أن أرى لي مثالا ... في غرامي خططتُ راءَ بجنبي

* * *

قوله: «المتوشّح» أي المحتزم. والمترشح: المهيىء للرعاية أي لحفظ الناس. الاغترار الانخداع. صوْلتك: عزّك وقهرك، يقال: صال الرجل على قِرْنه، والفحْل على إبله، أي قهر وعلا، والفحل أيضاً عض، وربما همز فعل الفعل. قُلّب، أي متقلّب. خلّب: خادع لا ماء فيه، يريد أنّ الولاية تنقل من إنسان إلى آخر. تلغى: تهمل. العاجلة: الدنيا لأن خيرها معجّل. تولّى: صار والياً. سعى: مشى مسرعاً.

ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن ولِيَ من أمر أمتي شيئاً

فحسنتْ سريرتهُ رُزِق الهيبة في قلوبهم، وإذا بسطت يده لهم بالمعروف رزق المحبة منهم، وإذا أنصف الضعيف من القويّ قوّى الله سلطانه وإذا عدل مدّ في عمره»(١): وقال رسول الله ﷺ. «آفة الدين ولاة السوء، أيّما والٍ وَلِيَ شيئاً من أمور المسلمين فلم ينصح لهم، ولم يجتهد كنصيحته وجهده لنفسه، كبّه الله تعالى على وجهه يوم القيامة».

وقال رسول الله ﷺ: «ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة ولا الآخرة للدنيا، ولكن مَنْ أخذ من هذه وهذه».

الديان: المجازي وهو الله سبحانه وتعالى، لأنه يجزي العباد على أعمالهم.

وقال الألبيريّ: **[الكامل]**

كل امرىءٍ فيما يدين يدانُ ... سبحان من لم يخل منه مكانُ
يا عامرَ الدنيا ليسلكنَها وما ... هيَ بالتي يبقى بها سكانُ
تفنى وتبقَى الأرض بعدك مثل ما ... يبقى المناخ وترحَلُ الركبانُ
أأسرّ في الدنيا بكلّ زيادة ... وزيادتي فيها هي النقصانُ

تهمل: تترك همَلاً. وجَم: سكت غاضباً وامتُقع وانتُقع: تغيّر وذهب الدم من وجهه، ويقال في معناهما: انتقع واهتقع.

يتأفف: يقول: أُف أُف، وذلك فعل النادم المهموم. الزفرة: النفخة من الهمّ.

* * *

ثم عَمَدَ إلَى الشَّاكي فَأَشْكَاهُ، وإلى المشكوّ مِنه فأَشْجَاهُ، وألطفَ الواعظَ وحَبَاه، واسْتَدْعَى منه أن يَغْشاهُ، فانقلب عنه المظلومُ منصوراً، والظّالم مَحْصُوراً، وبَرَز الواعظ يتهادَى بَيْنَ رُفْقَته، ويتَبَاهَى بفوزِ صَفْقتِه. واعتقبتُه أخْطُو متقاصراً، وأريه لَمْحاً باصِراً. فلمّا استشفّ ما أُخِفيه، وفطِن لتقلّبِ طَرْفِي فيه، قال: خيرُ دَلِيلَيْكَ مَنْ أرشد، ثم اقترب منّي وأنشد: **[الرجز]**

أنا الذي تعرفُه يا حارثُ ... حِدْثُ ملوكٍ فكِهٌ منافثُ
أُطرب ما لا تُطِرب المثالثُ ... طوراً أخو جِدٍّ، وطوراً عابثُ
ما غيّرتْني بَعْدَكَ الْحَوادِثُ ... ولا التحى عودِي خَطْب كارِثُ
ولا فَرَى حدِّي نابٌ فارثُ ... بل مخلَبِي بكل صيد ضَابثُ
وكل سَرْح فيه ذئبي عائِثُ ... حتّى كأنّي للأنامِ وارِثُ

* سامهمُ وحامهمْ ويافثُ *

* * *

(١) أخرجه أحمد في المسند ١/ ١٤٣.

أشكاه: أنصفه ورفع عنه شكواه، وفي الحديث: «شكونا إلى رسول الله ﷺ حرّ الرمضاء فلم يُشْكِنا»[(١)]. أي لم يزل شكوانا، أي شكوا إليه ما يصيب أقدامَهم من شدّة الحر في صلاة الظهر، وسألوه تأخيرها إلى الإبراد، فلم يجبهم إلى ذلك، وأنشد يعقوب: [الرجز]

* ونشتكي لو أنها تُشكينا *

* * *

والمشكو إليه الوالي الذي اشتكى إليه. أشجاه: آذاه وأبكاه. ألطف: برّه وأكرمه. حباه: أعطاه الحِباء. يغشاه: يزوره. محصوراً: محبوساً. يتهادى: يمشي متثاقلاً مشي الوقار. يتباهى: يتعاظم بفوزِ صفقته، بظفر قصته مع الوالي. وفاز فوزاً: ظفر بخير دنياه وأخراه، وأصل الصفقة في البيع هو أن تضربَ بيدك على يد مبايعك. اعتقبته: مشيت خلفه، كأنك تطأ بصدور قدميك مواطىء عقبيه. أخطو متقاصراً: أي أمشي مستخفياً متشبّهاً بالقصار. لمحا باصراً: أي نظراً شديداً. استشفّ: استقصى. فطن: تنبّه وشعر. أرشد: دلّ، يقول: إذا كان لك دليلان، فخيرهما مَنْ هداك الطريق، فلما رآه ينظر وتشكك فيه. قال: خير دليليك من دلّك عليّ. اقترب: قرب.

حِذْث ملوك، أي يحدِّثهم بما يطربون. فكه: طيب الحديث، والفكه المزّاح الحسن الخلق، وفكه فكها وفكاهة: طابت نفسه وكثر ضحكه، قال الشاعر: [الكامل]

فكهٌ إلى جنب الخوان إذا غدت   نكباء تقطع ثابت الأطنابِ[(٢)]

أبو عبيدة: رجل فكه: يأكل الفاكهة، وفاكه: عنده فاكهة.

وقال الشاعر أيضاً: [الكامل]

فكه العشيّ إذا تأوّب رحلُه   صيف الشتاء مسامحٌ بالميسرِ[(٣)]

أي يأكل الفاكهة وقرىء «فاكهين وفكهين»: قال الفراء رحمه الله تعالى: معناهما واحد أي معجبين بما آتاهم ربهم، كطمع وطامع، وفكه وتفكه إذا تعجّب ومنه: ﴿فظلتم تفكّهون﴾ [الواقعة: ٦٥] وقيل: معناه تندمون.

قوله: منافث، أي محادث. المثالث: من أوتار العود. طوراً: حيناً. عابث: لاعب. الحوادث: ما يحدثه الدهر من خير أو شر. التحى: قشر. خطب كارث: أمر ثقيل صعب. فَرَى: قطع. نابي: ضرسي. فارث: مفتّت للكبد، قال الشاعر: [مجزوء الوافر]

---

(١) أخرجه بنحوه، مسلم في المساجد حديث ١٨٩، ١٩٠، والنسائي في المواقيت باب ٢، وابن ماجه في الصلاة باب ٣، وأحمد في المسند ١٠٨/٥، ١١٠.

(٢) البيت بلا نسبة في لسان العرب (فكه)، وأساس البلاغة (فكه)، وتهذيب اللغة ٢٦/٦.

(٣) البيت لصخر بن عمرو بن الشريد في أساس البلاغة (فكه).

هَــوَى مــن صــخــرة صــلْــدِ ففــرث تــحــتــهــا كــبــده

وفرثت الكرِش: أخرجت ما فيها من الزبل. ضابث: قابض عليه. السرح: لمواشي تغدو راعية في المسرح وتروح منه. عائث: مفسد آكل لها.

* * *

[سام وحام ويافث]

وسام وحام ويافث، أولاد نوح عليه الصلاة والسلام، وفيهم نزلت: ﴿**وَجَعْلنَا ذُرِّيَتهُ هم الباقين**﴾ [الصافات: ٧٧] وبذلك جاءت الأخبار، وهم لأمٍّ واحدة. وأصاب حام امرأتَه في السفينة. فدعا نوح عليه السلام أن يغيّر الله نطقته، فجاءت بالسودان.

وذكر أهل التوراة أنّ نوحاً عليه السلام شرب وانتشى وتعرّى، فأبصر حامٌ عورتَه، فاطّلع عليه أخواه، فأخذا رداءه فألقياه على عواتقهما، ومشيا على أعقابهما، فوارياه، فعلم نوح عليه السلام بذلك، فقال: ملعون كنعان بن حام، عبد العبيد يكون لأخويه، ومبارك سام، ويكثر الله يافث.

وفي تفسير النّقاش أن نوحاً لما أهبط من السفينة، نام فبدت عورتُه فنظر إليها حام فضحك، ولم يغيّر عليه يافث ونظر ذلك سام، فزجره وغطّى عورة أبيه، فلما استيقظ أخبره، فدعا نوح ابنه حاماً فقال: يا بنيّ غيّر الله ماء صلبك، فلا تلد إلا السودان. وقال ليافث: جعل الله ذريتك عبيداً لأولاد سام، وقال لسام: جعل الله منك الأنبياء والصالحين والملوك. فكان سام القيّم بعد أبيه في الأرض، ونزل وسطها، نزل الحرم إلى اليمن إلى الشام. ومن ولده الأنبياء كلهم عربيها وعجميها. ومن ولده عاد وثمود وطسم وجديس والعماليق ويعرب وجرهم، وهم العرب العاربة، لأن العربيّة لسانهم التي جبلوا عليها، ويقولون لبني إسماعيل العرب المتعرّبة، لأنهم إنما تكلموا بها حين سكنوا بين أظهرهم، ومن العماليق الجبابرة بالشأم والفراعنة بمصر.

سعيد بن المسيّب: سام ولده العرب وفارس والروم وفي كلٍّ خير، وأما يافث فمن ولده الصقالبة وبرجان والأسبان والترك والخزر ويأجوج ومأجوج.

ابن المسيب: وليس في واحد من هؤلاء خير وأما حام فمن ولده السند والهند وأجناس السودان كلّها مثل كوش والزّنْج والزغاوة والحبشة والزطّ والقِبْط بن كنعان بن حام، والخلاف كثير.

* * *

قال الحارث بن همام: فقلت له: تالله إنك لأبو زيد، ولقد قمتَ لِلّهِ ولا عَمْرو بنَ عُبيد. فهشّ هشاشة الكريم إذا أُمّ، وقال: اسْمَعْ يابْنَ أمّ؛ ثم أنشأ يقول: [السريع]

عــلــيــك بــالــصّــدْق ولــو أنّــهُ أحــرقــك الــصّــدق بــنــارِ الــوعــيــدْ

وابْـغِ رِضـا الله، فـأغـبـى الـورى   من أسخط المولى وأرضَى العبيدْ

ثم إنه وَدَّعَ أخدانه، وانطلق يسحبُ أرْدَانه. فطلبناه من بَعْدُ بالرّيّ، واستنشرنا خبره مِنْ مَدَارج الطيّ؛ فما فينا مَنْ عَرَفَ قَرَارَهُ، ولا دَرَى أيُّ الجراد عَارَهُ.

* * *

[عمرو بن عُبَيد الزاهد]

قوله: «ولا عمرو بن عبيد»، هو الزاهد الذي كان يسكن بالبصرة ويجالس الحسن البصري؛ حتى حفظ عنه شيئاً كثيراً من علومه، واشتهر فضله بصحبته، وكان له سمت وإظهار زهد.

ورآه الحسن يوماً فقال: هذا سيد شباب أهل البصرة إن لم يحدّث. ثم اعتزله ونهى عنه، فقال بالعزل ودعا إليه، وترك مذهب أهل السنة، واعتزل الحسن البصريّ، ونُسِبت إليه المعتزلة.

فأما قيامه الذي ذكَره فهو دخوله على المنصور في جماعة من أهل العلم، فاستشارهم في أمرٍ، فكلهم أشار عليه بمراده إلا عمراً فإنه لم يَصْحَبْهُمْ ونصحه، فقال: يا أمير المؤمنين إنّ هذا الأمر لو كان باقياً لأحد قبلك لما وصلك، **﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد ارم ذاتِ العماد﴾** [الفجر: ٧]، قال: فبكى المنصور حتى بلّ ثوبه، فقال الربيع: يا عمرو، غممتَ أمير المؤمنين، فقال عمرو: إن هذا - يعني الربيع - صحبك عشرين سنة، ما نصحك يوماً واحداً، وما عمل وزراؤك بشيء من كتاب الله تعالى. فقال له المنصور: فماذا أصنع؟ هذا خاتمي في يدك، فخذه أنت وأصحابك، فاكفوني فقال عمرو: ادعُنا بِعَدْلِكَ تسمح أنفسنا بعوْنك، ببابك ألف مظلمة، اردد منها واحدة حتى نعلم أنك صادق.

ويروى أنه قال له المنصور: أعنّي بأصحابك، فقال: ارفع عَلَم الحقّ يتبعك أهله. ثم قال له المنصور: ما حاجتك يا أبا عثمان؟ فقال له: تأمر برفع هذا الطيلسان عني، فرُفع. وكان أمر المنصور أن يطْرَح عليه عند دخوله. فقال له: لا تدَعْ إتياننا، قال: نعم، لا يضمّني وإياك بلد إلا أتيتُك، وإن بدتْ لي حاجة إليك سألتك، ولكن لا تعطِني حتى أسألك، ولا تَدْعُنِي حتى آتيَك، قال: إذا لا تأتيَنا أبداً، فلما وَلّوْا للخروج، أتبعهم المنصور بصره، ثم قال: **[مجزوء الرمل]**

كـلّـكـم يـمـشـي رُوَيْـدْ   كُـلـكُـم حـابـل صَـيْـدْ

* غـيـر عـمـرو بـن عُـبَـيْـدْ *

وكان جدُّه باب من سبي فارس، وكان أبوه عبيد بن باب نسّاجا، ثم تحوّل فصار للحجّاج شُرطيًا بالبصرة. وكان فظًا غليظاً خسيساً، وبلغه أن الناس إذا رأوا ابنه قالوا: هذا خير الناس، ابن شرّ الناس، فقال: صدقوا، أنا كآزر وابني كإبراهيم.

وقال إسحاق بن الفضل: بينما أنا واقف إلى جنب عُمارة بن حمزة بباب المنصور، إذ

طلع عمرو بن عبيد على حمار، فنزل ونحّى البساط برجله، وجلس دونه، فقال لي عمارة: لا تزال بصرتُكم ترمينا بأحمق، فما فصَل كلامه من فيه حتى خرج الربيع، وهو يقول: أين أبو عثمان عمرو بن عبيد؟ فوالله ما دلّ على نفسه حتى أرشِد إليه. فأتكأه يده، ثم قال: أجب أمير المؤمنين جعلني الله فداءك! فمرّ متوكئاً عليه، فقلت لعمارة الذي استحمقه: قد دُعيَ وتركنا، فقال: كثيراً ما يكون مثل هذا، فأطال اللّبث، ثم خرج الربيع، وعمرو متوكىء عليه، وهو يقول: يا غلام، حمار أبي عثمان. فما برح حتى أقرّه على سرجه وضمّ إليه ثوبه، واستودعه الله عز وجل. فأقبل عمارة على الربيع، فقال: لقد فعلتم اليوم بهذا الرجل فعلاً لو فعلتموه بوليّ عهدكم لكنتم قد قضيتم حقه. قال: فما غاب والله عنك مما فعله أمير المؤمنين أكثر وأعجب. قال: فإن اتّسع لك الحديث فحدّثنا، فقال: ما هو إلا أن سمع أمير المؤمنين بمكانه، فما أمهل حتى أمر بمجلس ففرش لبودا، ثم انتقل هو والمهديّ إليه، وعلى المهديّ سواده وسيفه، ثم أذن له. فلما دخل عليه سلّم بالخلافة، فرد عليه، وما زال يدنيه حتى أتكأه فخِذه وتحفى، ثم سأله عن نفسه وعن عياله؛ يسمّيهم رجلاً رجلاً وامرأة امرأة، ثم قال: يا أبا عثمان عِظْنِي، فقال: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم * بسم الله الرحمن الرحيم ﴿**والفجر وليال عشر والشفع والوتر والليل إذا يسرِ هل في ذلك قسم لذي حِجْر**﴾ إلى قوله تعالى: ﴿**إن ربك لبالمرصاد**﴾ [الفجر: ١٤] يا أبا جعفر، فبكى المنصور رحمه الله تعالى بكاء شديداً، وكأنه لم يسمع تلك الآية الشريفة إلا تلك الساعة، فقال: زدني، قال إن الله سبحانه وتعالى أعطاك الدّنيا بأسرها فاشْترِ نفسك منه ببعضها، وإن هذا الأمر الذي صار إليك إنما كان في يد مَنْ كان قبلك ثم أفضى إليك، وكذلك يخرج منك إلى من هو بعدك، وإني أحذّرك ليلة تتمخّض صبيحتُها عن يوم القيامة. قال: فبكى والله أشدّ من بكَائه الأوّل حتى رجف جنباه، فقال له سليمان بن مالك: رفقاً بأمير المؤمنين لقد أتعبتَه في هذا اليوم، فقال له عمرو: بمثلك ضاع الأمر وانتشر، لا أبالك! وماذا خفتَ على أمير المؤمنين إنْ بكَى من خشية الله تعالى. قال: فأنت والله الصادق البرّ، قد أمرت لك بعشرة آلاف درهم تستعين بها على سفرك وزمانك، فقال: لا حاجة لي بها، قال: والله لتأخذنّها، قال: والله لا آخذها، فقال له المهديّ: يحلف أمير المؤمنين وتحلف! فأقبل على المنصور فقال: مَنْ هذا الفتى؟ فقال: هذا ابني محمد، وهو وليّ عهد المؤمنين، فقال: والله لقد سمّيته اسماً ما استحقّه عملُه، وألبستَه لبوساً ما هو من لبوس الأبرار، ولقد ملّكته أمراً، أمْتَعُ ما يكون به أشغل ما يكون عنه. ثم التفت إلى المهديّ وقال: يابن أخي، إذا حلف أبوك حلف عمك، لأن أباك أقدر على الكفّارة من عمك. ثم قال: يا أبا عثمان، هل من حاجة؟ قال: نعم، قال: ما هي؟ قال: لا تبعث إلي حتى آتيَك، قال: إذا لا نلتقي. قال: عن حاجتي سألتني، ثم استحفظه الله عز وجل وودّعه، وانصرف. فلما ولّي أتبعه المنصور بصره وهو يقول: [مجزوء الرمل]

* كـلـكـم يـمـشـي رُوَيْـدْ *

الأبيات.

وقال إسماعيل بن مسلمة أخو القعنبيّ: رأيت الحسين بن أبي جعفر بعبّادان في المنام، فقال لي: يعقوب ويونس بن أبي عبيد في الجنة، فقلت: فعمرو بن عبيد، فقال: في النار، ثم رأيته في الليلة الثانية والثالثة كذلك، فقلت له في الليلة الثالثة: فعمرو بن عبيد؟ فقال: في النار، كم أقول لك!

* * *

قوله: «هش» أي فرح. أُمّ: قُصِد. الوعيد: التهديد. أغبى الورى: أجهل الناس به، قال المنصور: والله ما عزّ ذو باطل، ولو طلع في جبينه القمر، ولا ذلّ ذو حق ولو أصفق العالم عليه.

وفي معنى قوله: «وابغ رضا الله. . .» البيت. أنّ ابنَ هبيرة شاور الحسن البصريّ، فقال: يا أبا سعيد، ما تقول في كتب تأتينا من عند يزيد بن عبد الملك، فيها بعض ما فيها، فإن أنفذتُها خفت سخط الله، وإن لم أنفذها خفت على دمي. فقال الحسن: يا بنَ هبيرة، خف الله في يزيد، ولا تخف يزيد في الله، فإن الله مانعك من يزيد، ولا يمنعك يزيد من الله. يا بنَ هبيرة، لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. فاعرض كتاب يزيد على كتاب الله سبحانه وتعالى، فما وافقه فنفذه، وما خالفه فلا تنفذه. فقال: صدقتني ورب الكعبة.

وشاور معاوية الأحنف في استخلاف يزيد، فسكت، فقال: ما لك لا تقول؟ فقال: إن صدقناك أسخطناك، وإن كذبناك أسخطنا الله عز وجل، فسخطك أهون علينا من سخط الله تعالى. قال: صدقت.

وكتب أبو الدرداء إلى معاوية: أمّا بعد، فإنه مَنْ يلتمس رضا الله بِسخَط الناس كفاه الله مؤنة الناس، ومَنْ يلتمس رضا الناس بسخط الله وَكَله الله إلى الناس.

وكتبت إليه عائشة رضي الله تعالى عنها: أما بعد فإنه من يعمل بسخط الله تعالى يصير حامدُه من الناس ذامّاً له. والسلام.

قوله: «أخدانه» أصحابه. ويسحب أردانه: يجرّ أذياله. استنشرنا: طلبنا أن ينشر لنا. والمدرجة: الورقة تكتب فيها الرسالة، ويدرج فيها الكتاب، وأضافها إلى الطيّ لأنّها تطوَى على ما فيها من الكتاب، فكأنه قال مما أدرِج في الورق من الكتاب وطُوِيَ عليه، يريد أنه أرسل فيه الرسائل إلى البلاد، فلم يعرف له موضع قرّ فيه وثبت. عاره: ذهب به وأتلفه.

ويكنون بالجراد عن الناس، فكأنه قال: ما يدري أيّ الناس ذهب به. ويقال: عارت عينه، صارت عوراء، ووعرتها أنا: فقأتها؛ فكأنه ذهب كما تذهب العين وهذا بضعف. والله أعلم بالصواب.

المقامة الثانية والعشرون

وَهي الفُراتيَّة

حكى الحارث بن همام قال: أَوَيْتُ فِي بعضِ الفتَراتِ، إلى سِقْيِ الفُراتِ، فلقيتُ بِهَا كُتَّاباً أبْرَعَ من بنِي الْفُرات، وأعذب أخلاقاً من الماء الفُرَات. فأَطفتُ بِهِمْ لِتَهَذُّبِهِمْ، لاَ لِذَهَبِهِم، وكاثرتُهم لأدَبِهِمْ، لا لمآدبهمْ. فجالَسْتُ مِنْهمْ أَضْرَابَ قَعْقَاعِ بن شَوْرٍ، وَوَصَلْتُ بِهِمْ إلى الكَوْرِ بعد الحَوْرِ؛ حَتَّى إنَّهُمْ أَشْرَكونِي في الْمَرْبَعِ وَالْمَرْتَعِ، وأحَلُّونِي محلَّ الأُنْمُلَةِ مِنْ الإصبع. واتخذوني ابنَ أُنْسِهِمْ عِنْدَ الْوِلاَيَةِ والْعَزْل، وخازنَ سِرّهِمْ في الجِدِّ والهزل.

* * *

أويت، أي ملت وانضممت. الفترات: جمع فَتْرة، وهي الهدنة والسكون؛ فكأنه قال: مشيت في بعض السنين الآمنة. والفترة أيضاً: ضعف الأعضاء، والفترة أيضاً ما بين نبيّ ونبيّ.

* * *

[سقي الفرات]

وسقي الفرات بلاد يسقيها الفرات، والفرات نهر يشقّ بلاد الروم وبلاد العراق، ويقع في البحر الحبشيّ، وجريانه خمسمائة فرسخ.

وقال الرّشاطيّ: ابتداء الفرات وفوّهته من قالِيقَلا من بلاد إرمينيّة، ثم يسير إلى منبج من كور قنّسرين إلى سُميساط، ثم إلى مَلَطْية، ثم إلى كيسوم من أرض الرّقة، ثم إلى الرّقة وقرقيسيا والرحبة وكور الفرات، ثم إلى الأنبار، ثم إلى الكوفة، ويلتقي مع الدّجلة ما بين واسط والبصرة، ومنها انصبابها إلى البحر، وجريانهما من الشمال إلى الجنوب.

وقال شيخنا ابن جبير: هذا النهر كاسمه فرات، وهو من أعذب المياه وأخفّها، وهو نهر كبير زخّارٌ، تصعد فيه السفن وتنحدر. وأما سِقيه في أحواز بغداد فنبين لك قدره. فذكر أنه عاينه في طريقه من الكوفة إلى بغداد، وأنه رحل مع أمير الحاجّ من الكوفة يوم السبت.

قال: ونزلنا قريب الظهر على نهر منسرب من الفرات، ورحلنا من ذلك الموقع، وبتنا ليلة الأحد سَلخ محرّم بقرية من الحِلّة، ثم جئناها يوم الأحد وهي مدينة عتيقة الموضع، مستطيلة متّصلة بالفرات من جانبها الشرقي، وهي على شاطئه، ويمتد بطولها. ولها أسواق حَفِيلة جامعة للمزافق، قوية العمارة وديارها بين حدائق النخيل، وألفيْنَا بها جسراً معقوداً على مراكب كبار متصلة من الشطّ إلى الشطّ، أمر الأمير بعقدها اهتماماً بالحاجّ، فعبرناها، ونزلنا على الفرات على فرسخ من البلد، والطريق من الحِلّة إلى بغداد أحسن طريق وأجملها في بسائط وعمائر تتصل بها القرى يميناً وشمالاً، ويشق هذه البسائط أغصان من [ماء] الفرات تسقيها، فللعين في هذه الطريق مسرح انشراح، وللنفس مزاد انبساط وانفساح.

ومن مدينة الحِلّة يتسلسل الحاجّ أرسالاً وأفواجاً، لا يعرج المتأخر على المتقدم، فحيثما شاؤوا نزلوا، ومن جملة الدواعي لافتراقهم كثرة القناطر المعترضة في طريقهم إلى بغداد لا تكاد تمشي ميلا إلا ونجد قنطرة على نهر متفرّع عن الفرات، فلو زاحم ذلك البشر تلك القناطر دفعةً، لتراكموا وقوعاً بعضاً على بعض.

فرحلنا من الحِلّة ضحوة يوم الاثنين أوّل يوم من صفر، ونزلنا بعصره بقرية تعرف بالقنطرة، كثيرة الخِصْب، كبيرة المساحة، متدفقة فيها جداول الماء، وارفة الظلال بشجرات الفواكه، من أحسن القرى وأجملها، بها قنطرة محدودة تصعد إليها وتنحدر عنها على فرع من فروع الفرات، فعُرِفت القرية بها.

ثم رحلنا عنها بسحَر الثلاثاء، ونزلنا ضحوة بالفراش؛ قرية كثيرة العمارة يشقها الماء وحولها بسيط أخضر جميل المنظر، والقرى من الحِلّة إلى بغداد على صفة الفراش في الحسن والاتساع.

ثم رحلنا منها ونزلنا عشيّ النهار بزَريران، وهي قرية من أجمل قرى الأرض وأحسنها منظراً، وأفسحها ساحة وأوسعها اختطاطاً، وأكثرها بساتين ورياحين وحدائق من نخيل، ولها سوق تقصر عنه أسواق المدن. وحسبك من شرفها أن دجلة تسقي شرقيّها والفرات يسقي غربيّها، وهي كالعروس بينهما.

ومن شرفها أن بإزائها إيوان كسرى، وهو بناء عالٍ في الهواء على مقدار الميل منها وأمامها بيسير مدائنه. واجتزنا سحراً على المدائن، فعاينّا من طولها واتباعها مرأى عجيباً.

ونزلنا قافلين بصرصر، وهي أخت زَرِيران حسنا، يمرّ بجانبها القبلي نهر متفرع من الفرات وهي من القرى التي تملأ النفوس حسناً وجمالاً، لها أسواق حفيلة، وجامع وجسر معقود على مراكب من الشطّ إلى الشطّ وهي من بغداد على ثلاثة فراسخ، ورحلنا منها قبل الظهر؛ وجئنا بغداد قبل العصر، على بساتين وبسائط يقصر الوصف عنها، فمن

أراد أن يعرف قدر سِقْي الفرات فليقف على هذا الفصل الذي ذكرناه.

وقوله: «كتاباً أبرع من بني الفرات»، أي أحذق وأزيد فضيلة.

[بني الفرات]

والفرات رجل من عجْل كان له أبناء مشاهير بالكتابة والحذاقة والبراعة، وتقلّد الوزارة، قال في بعضهم صالح بن موسى رحمه الله: [المجتث]

آل الفرات نداهُم ... على الفرات يزيدُ

وأنت فضلك فيهم ... وعليك منه شهودُ

وقال ابن المعتز في علي بن محمد بن الفرات: [الطويل]

أبا حسنٍ ثبَّت في الأمر وطأتي ... وأدركتني في المعضلات الهزاهزِ

وألبستَني درعاً عليَّ حصينةً ... فناديت صرف الدهر: هل من مبارِز!

وقال عليّ بن بسام: [الطويل]

وقفت شهوراً للوزير أعدّها ... فلم تثنه نحْوي الحقوق السوالفُ

فلا هو يرعاني رعاية مثلِه ... ولا أنا أستحيي الوقوف وآنفُ

وكان موسى بن الفرات عاملاً لأحمد بن الخصيب وزير المنتصر بن المتوكل، واستوزر المقتدر أبا الحسن عليّ بن محمد بن الفرات ثلاث مرات، يعزله ثم يردُّه وقُتِل المقتدر وأبو الفتح الفضل بن جعفر بن الفرات وزيره.

وتولّى بعض دواوين المقتدر أبو طالب بن جعفر بن الفرات والحسن بن أبي الحسين بن الفرات. فكان محل آل الفرات، الوزارة والكتابة والبراعة والحذاقة.

وحُكِيَ أن بعض الأدباء جوّز بحضرة الوزير أبي الحسن بن الفرات أنّ السين تقام مقام الصاد في كلّ موضع فقال له الوزير: أتقرأ: ﴿**جنات عدن يدخلونها ومن صلَح من آبائهم**﴾ [الرعد: ٢٣]، أو «ومن سلح؟» فخجل الرجل وانقطع.

ومثل هذه النادرة أن النضر بن شميل مرض، فدخل عليه قوم يعودونه، فقال له رجل منهم: يكنى أبا صالح: مسح الله ما بك، فقال له: لا تقل مسح بالسين ولكن بالصاد بمعنى أذهب، وهو كلام العرب. فقال أبو صالح إن السين تبدل من الصاد كالصراط والسراط وصقر وسقر، فقال له النضر: فأنت إذا أبو سالح! فخجل الرجل.

قوله: «أعذب من الماء الفرات» أي أحلى، والماء الفرات: العذب الحلو أطفت: أي ألممت ونزلت. لتهذُّبهم: لظرفهم وتخلصهم من عيوب الجفاء كاثرتهم: صاحبتهم فكثّرت عددهم بي. مآدبهم: طعامهم. أضراب: أمثال.

* * *

[القعقاع بن شور]

القعقاع بن شور، قال المبرّد: هو رجل سيد من عبد الله بن دارم، وكان إذا جالسه جليس فعرفه بالقصد إليه جعل له نصيباً في ماله، وأعانه على عدوّه، وشفع له في حاجته، وغدا إليه بعد المجالسة شاكراً له؛ حتى شهر بذلك.

قال الفنجديهيّ: هو القعقاع بن شور بن عمرو بن ذهل بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن عليّ بن بكر بن وائل الشيباني، وهو من الأجواد والأسخياء، يضرب به المثل في حسن المجالسة والمعاشرة وإتيان الجليس بالشيء النفيس.

قال أبو عبيد: وكان من جلساء معاوية، فأهدى إلى معاوية هدايا يوم المهرجان فيها جامات ذهب وفضة، فدفعها إلى جلسائه ودفع إلى القعقاع جام ذهب، وفي القوم أعرابيّ إلى جنب القعقاع، فدفع إليه لجام فأخذه الأعرابي ونهض ينشد: [الوافر]

وكنت جليس قعقاع بن شوْرٍ ... ولا يشقى بقعقاع جليسُ[1]
ضحوك السن إن نطقوا بخيرٍ ... وعند الشرّ مطراق عبوسُ

[مما قيل في البر في الجليس شعراً]

ومما يستحسن في البر بالجليس قول صاعد اللغويّ: [مجزوء الوافر]

لي من سرّ بني العبا ... س خلّ وجليسُ
شهد المجد عليه ... أنه العِلْق النفيسُ
فإذا جالسته لم ... تدر مَنْ منّا الجليس

وقال كشاجم: [مجزوء الوافر]

جليس لي أخو ثقةٍ ... كأنّ حديثه حبره[2]
يسرك حسن ظاهره ... وتحمد منه مختبره
ويستر عيبَ صاحبه ... ويستر أنه ستره

وقال آخر: [مجزوء الوافر]

جليس لي له أدب ... رعاية مثله تجبُ
لو انتُقدت خلائقه ... تبهرج عندها الذهب

---

(١) البيت الأول بلا نسبة في لسان العرب (قعع) وتاج العروس (شور)، (قعع)، ومجمع الأمثال ٢/ ٢٤١، والبيت الثاني بلا نسبة في تاج العروس (قعع)، وفيه «إنْ أمروا» بدل «إنْ نطقوا».
(٢) الأبيات في ديوان كشاجم ص ٧١.

وقال آخر: [الخفيف]

لي صديق غلطت بل ليَ مولًى ... مَنْ لمثلي بأن يكون صديقي
نتلاقَى التقاءَ روحٍ بروحٍ ... بضروب التقبيل والتعنيق
ليس في الأرض من يميز منا ... عاشقاً في اللقاء من معشوقِ

أين ما وصف به القعقاع من قول والبة المشهور: [السريع]

قلت لنَدماني على خلوة ... أذنِ كذا رأسك من راسِيَا
ونم على وجهك لي ساعة ... إني امرؤ أنكح جُلاّسيا

والبة بن الحباب شيخ الحسن بن هاني أدّبه صغيراً، فتخلّق بخلقه. وقال الحسن: [الخفيف]

وجليس كأنّ في وجنتيْه ... كلُّ شيء تسمو إليه النفوسُ
قد أصبنا منه فتستغفِر الله كثيراً ... وقد يصاب الجليسُ

[الحوْر والكور]

قوله: الكَوْرِ والْحَوْر، أي الزيادة والنقصان، وكلام العرب: نعوذ بالله من الحوْرِ بعد الكَوْر، أي من النقصان بعد الزيادة، فقلب اللفظ على مراده، وهو من كَوْر العمامة، وهو استعارة من نقض الأمر، كنقض العمامة بعد كَوْرها وهو شدّها، وكار عمامته: شدّها على رأسه وجمعها وحاربها فنقضها وأفسدها.

وأمر الحجاج رجلاً على جيش، ثم بعثه مرة أخرى تحت لواء أمير آخر، فقال: هذا الحوْر بعد الكَوْر، فقال له الحجاج: وما الحوْر بعد الكوْر؟ قال: النقصان بعد الزيادة، فعلَى هذا أكثر أهل اللغة.

وقيل معناها: نعوذ بالله من الخروج عن الجماعة بعد كوننا في الكوْر، وهو الاجتماع، من كار عمامته جمعَها في رأسه. وحارها: أفسدها.

ويُروى «بعد الكَوْن»، من قولهم: حار بعد ما كان، أي كان على حالة جميلة فرجع عنها. وقيل: معناه نعوذ بك من خروجنا عن الجماعة بعد الكوْن على الاستقامة فحُذف للعلم به.

* * *

في المرتع والمربع، يعني المأكل والمنزل، والمرتع الاتساع في الأكل الكثير والشرب، والمربع: المنزل في الربيع، من ربعت في الموضع أقمت فيه. الأنملة: طرف الأصبع أي عظموه ورفعوه فوق رؤوسهم.

ابن أنسهم، أي الذي يأنسون به. عند الولاية والعزل: أي زمن العمل والعطل. خازن: كاتم وحابس.

* * *

فاتَّفَقَ أنْ نُدِبوا في بعضِ الأوقاتِ، لاستقراء مَزارِعِ الرُّزْدَاقاتِ، فاختاروا مِنَ الجوارِي المنشآت، جاريةً حالكةَ الشِّياتِ، تَحْسَبها جاريةً وَهِيَ تمرّ مرّ السّحَاب، وتنسابُ في الحَبَاب كالحُباب. ثمّ دَعَوْني إلى المرافقة، فلبَّيْتُ بلسان الموافقة.

* * *

نُدبوا، أي دعوا. استقراء، أن تتبّع. الرزداقات: العمالات والأنظار، وأراد أنهم خرجوا عمالاً على الزرع، وكل موضع أو قرية انفصل عن المدينة بعمله فهو رزداق ورستاق ومخلاف وكورة، فالرزداق بخراسان وهو فارسيّ عربيّ، والمخلاف لليمن، والكورة لغيرهما من الأرضين.

الجواري: السفن. المنشآت: المصنوعات. حالكة الشيات: مسودّة اللون، والشية في الفرس لون يخالف لونه كالغرّة والتحجيل وغير ذلك، فأراد أن موضع البياض في غير السفينة هو منها أسود فهي كلها سوداء جامدة: ساكنة.

[وصف السفن]

وركب السَّلاميّ دجلة في زورق، ولم يكن رأى دجلة قبل ذلك فقال: **[الوافر]**

ومَيدانٍ تجول به خيولٌ ... تقود الدَّراعين ولا تُقادُ
ركبت به إلى اللذات طِرفاً ... له جسمٌ وليس له فؤادُ
جرَى فحسبت أن الأرض وجهٌ ... ودِجْلة ناظر وهو السَّوَادُ

وقال القاضي التنوخيّ يصف دِجْلة في الظلام: والقمر يلمع عليها، وينتظم في سِلْك أبيات السَّلاَميّ رحمه الله تعالى: **[الكامل]**

أحسِنْ بدجله والدّجى متصوّبُ ... والبدر في أفق السماء مغرّبُ
فكأنها فيه بساطٌ أزرقٌ ... وكأنه فيها طراز مُذهَبُ

وقال منصور بن كيغلغ: **[الكامل]**

كم ليلةٍ سامرتُ فيها بدرَها ... من فوق دِجْلة قبل أن يتغيَّبا
والبدر يجنح للأفول كأنه ... قد سلّ فروق سيفا مُذْهَبا

وتسميته للسفينة جارية، لجريانها على الماء، قال تعالى في السفن العظام: **﴿ومن آياته الجوارِ في البحر كالأعلام﴾** [الشورى: ٣٢].

ولبعضهم: [الكامل]

يا من تأهّبَ مزمعاً لِرَواح ... متيّماً بغدادَ غير ملاح
في بطن جاريةٍ كفتْك بسيرها ... رَقّلان كل شَناحة وشَناح
فكأنها والماء ينطح صَدْرَها ... والخيزرانة في يد الملاّحِ
جَوْنٌ من العِقبَان يبتدر الدّجى ... يهوى بصوت واصطفاقِ جَنَاحِ

الشَّناح: الجمل التامّ الخلق.

وقال عبد الجليل بن وهبون يصف الأصطول: [الكامل]

يا حسنَها يوماً شهدتُ زِفافها ... بنت الفضاء إلى الخليج الأزْرَقِ
من كلّ لابسة الشباب مُلاءةً ... حسب اقتدار الصّانع المتأنّقِ
ومجاذفٍ تحكي أراقم رَبْوةٍ ... نزلت لتكرع في غدير مُتْأقِ
والماء في شَكْلِ الهواء فلاَ تَرَى ... في شَكْلِهَا إلاّ جوارحَ تلتقي

ولابن حريق: [الكامل]

وكأنما سكن الأراقمُ جوفها ... من عهد نوح صاحب الطوفانِ
فإذا رأين الماء يطفح نضنضتْ ... من كلّ خَرْقٍ حَيَّةٌ بلسانِ

* * *

قوله: ينساب، أي تمشي بسلاسة. الحَباب: طرائق الماء. والحُباب، بالضم: الحيّة. وتشبيهه المشي السهل بحباب الماء أفشى وأعرف من تشبيهه بمشي الحية، وتشبيهه بمشي الحية قد استعمل، وهو متمكن في المعنى، وبه وقع التشبيه هنا في المقامة، وقال امرؤ القيس في تشبيهه بحَباب الماء: [الطويل]

سموتُ إليها بعد ما نام أهلُها ... سُمَوّ حَباب الماء حالاً على حالِ(١)

وقال ابن الروميّ: [البسيط]

فصغت ذلك من قولي إلى قمرٍ ... يلهو بمكتحلٍ طوراً ومُخْتَضِبِ
جرت تُدافع من وَشْيٍ لها حسن ... تدافُعَ الماء في وشنيٍ من الحَبَبِ

وقال عمر بن أبي ربيعة في مشي الحية: [الطويل]

فلمّا فقدت الصوت منهم وأطفِئَتْ ... مصابيحُ شُبّتْ بالعشاء وأنوُرُ(٢)

---

(١) البيت لامرىء القيس في ديوانه ص ٣١، وتاج العروس (حبب)، وبلا نسبة في لسان العرب (حبب)، وتهذيب اللغة ٤/ ١٠.

(٢) الأبيات في ديوان عمر بن أبي ربيعة ص ٦٦.

وغاب قُميْرٌ كنت أرجو غيوبَه وَروّح رُعْيَانٌ وهوّمُ سُمّرُ
وخُفّض عني الصوت أقبلت مشية الـ ـحُباب وركني خيفة القوم أزْوَرُ

ثبت في الكتب الصحاح ضم الحاء وقول الأعرابيّ: [الوافر]

من المتصدّيات لغير سوء تسيل إذا مشت سَيْلَ الحُبابِ

يروى بالفتح والضم. وابن الإفليلي يأبَى إلا الضم.

وقال أبو القاسم بن هانىء فجمع بين التشبيهين: [الكامل]

قامت تميسُ كما تدافع جَدْوَلُ وانساب أيْمٌ في نقاً يتهيَّلُ
وأتت تُزَجّي ردفها بقوَامها فتأطّر الأعلى وماج الأسفلُ

وقال آخر ورفع الاحتمال: [السريع]

لما دنا الليل بأرواقه ولاحت الجوزاء والمرزِمُ
أقبلت والوطء خفيف كما ينساب في مكمِنه الأرقمُ

وما أحسن قول ابن شهيد في معناه: [المتقارب]

ولمّا تمكن من سُكْرِهِ ونام ونامت عيون العَسَس
دنَوتُ إليه على رِقْبَةٍ دنوّ محبٌ دَرَى ما التمسْ
أدِبّ إليه دبيب الكرى وأسمو إليه سموّ النَّفَسْ
أقبّل منه بياضَ الطُّلى وأرشف منه اللَّمَى واللَّعَسْ

* * *

فلمّا تورّكنا على المطيّة الدهماء، وتبطنّا الوليّة الماشية على الماء، ألْفَيْنَا بها شيخاً عليه سَحْقُ سِرْبال، وسِبٌّ بال، فعافت الجماعة محضَره. وعَنَّفتْ مَنْ أحضره، وَهَمّتْ بإبرازِه من السّفينةِ، لولاَ ما ثابَ إليها من السَّكِينة؛ فلمّا لَمَحَ مِنَّا استثقالَ ظِلّهِ، واسْتَبرادَ طَلّهِ، تعرَّضَ للمنافثة فصُمِّت، وحَمْدَلَ بعد أن عَطِسَ فمَا شُمِّت.

* * *

قوله: المطية الدهماء، هي السفينة السوداء. وتورّكناها: قعدنا عليها متكئين. وتبطّنا: دخلنا بطنها. الوليّة المطيعة. وأوهم لِقول الناس: فلان وليٌّ يمشي على الماء، فلما كانت مطيعة لخدامها ماشية على الماء سماها وليّة. ألفينا: وجدنا. سحق سربال، أي قميص خَلَق. والسِّب: الخمار. فيريد أنّ عليه مئزرا أو خماراً بالياً، والمئزر كالخمار

للمرأة. عافت: كرهت. عنّفت: لامت وأغلظت له القول، والعنف ضدّ الرفق. ثاب: رجع.

قال الفرّاء رحمه الله تعالى: معنى السكينة الطمأنينة.

أبو عبيدة: هي فعيلة من السّكون. وتشبه حالة أبي زيد هنا في إهانته أوّلاً وإكرامه آخراً حالة مَعْبَد في دخول السفينة، وقد تقدّمت في الثامنة عشرة.

لمح: رأى. والظلّ، يوصف بالثقل مبالغة في ثقل صاحبه، يقال للمستثقَل: ظلك عليّ ثقيل، أي أخف ما يمكن أن يوجد منك الظلّ السريع الانتقال يثقل علينا، فيُصوّر شخصك أي منزلته من الثقل، وإنما يتصور ثقل الظل حقيقة إذا أخذ عليك إنسان عين الشمس في زمن البرد أو ضوءها وأنت تنظر ما يدفىء.

[مما قيل في الثقلاء]

ومما قيل في ثقيل: [مجزوء الرمل]

أنت يا هذا ثقيلٌ ... وثقيلٌ وثقيلُ
أنت في المنظر إنسا ... نٌ وفي المخبر فيلُ
لو تعرضت لظلٍّ ... فسَد الظلّ الظليلُ

وكان الأعمش إذا حضر مجلسه ثقيل يُنشد: [المتقارب]

فما الفيل تحمله ميّتاً ... بأثقلَ من بعض جلاّسِيَا

وذكر ثقيلا كان يجلس إلى جانبه، فقال: والله إني لأبغض شقّي الذي يليه منّي.

وكان حماد بن سلمة إذا أري مَنْ يستثقله قرأ: ﴿**ربنا اكشف عنّا العذاب إنا مؤمنون**﴾ [الدخان: ١٢].

عائشة رضي الله عنها: نزلت آية في الثّقلاء: ﴿**فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث**﴾ [الأحزاب: ٥٣].

الشعبي: من فاتته ركعتا الفجر فليعلن الثقلاء.

وكان أبو هريرة رضي الله عنه إذا رأى ثقيلاً قال: اللهمّ اغفر له وأرِحْنا منه.

قيل لجالينوس: لم صار الرجل الثقيل أثقل من الحمل الثقيل؟ قال: لأن ثقله على القلب دون الجوارح، والحمل الثقيل يستعين القلب بالجوارح عليه.

وقال طبيب للحجاج: إياك ومجالسة الثقلاء، فإنا نجد في الطبّ أن مجالستهم حُمّى الروح.

وقال حكيم لآخر: لا تصحبنّ ثقيلاً، فمن يصحبه فإنما يعذّب روحه.

وقيل: سخنة العين النظر إلى الثقلاء.

وكان بعضهم إذا رأى ثقيلاً غُشِيَ عليه. وكان آخر إذا رأى ثقيلاً غمّض عينيه.

وكان بعض الظرفاء إذا رأى ثقيلاً قال: قد جاءكم الجبل، فإن جلس عندهم قال: قد وقع عليكم.

وسمع الأعمش كلام ثقيل فقال: مَنْ هذا الذي يتكلّم وقلبي يتألم.

قال رجل لخالد بن صفوان: أتستثقل فلاناً؟ قال: أوّه كدتَ والله أن تصدع قلبي بذكره، والله لهو أثقل من شراب الترنجبيل بماء التين في أيام الحكاك بعقب التخمة وأوان الحجامة.

سلّم ثقيل على بعض الظرفاء فقال: وعليك السّلام شهراً.

قعد ثقيل عند ظريف، فسئِل عن ذلك، فقال: كانت نفسي قد شمخت عليّ فأردت أن أهينها بذلك.

وقال رجل لغلام هاشمي: يا بغيض، فشكاه إلى أبيه، فقال: قد علمتُ أنك بغيض، فكرهت أن أقوله لك حتى يكون بغضك بإسنادك.

وسئل إنسان له ثلاث بنين ثقلاء: أيّ بنيك أثقل؟ فقال: ليس بعد الكبير أثقل من الصغير إلا الأوسط.

كان أبو العتاهية يقول لابنه محمد: أنت والله يا محمد ثقيل الظلّ، مظلم الهواء جامد النسيم، بارد حامض منتن.

قال سهل بن هارون: مَنْ ثقّل عليك نفسَه، وغمك سؤاله فأعِرْه أذناً صماء، وعيناً عمياء.

وأنشدوا: [السريع]

مشتملٌ بالبُغْضِ لا تَنثني ... إليه لحظاً مقلةُ الرامقِ[1]

يظلّ في مجلسنا قاعداً ... أثقل من واشٍ على عاشقِ

وقال بعضهم: [الكامل]

يا مَنْ تبرّمت الدنيا بطلعتِهِ ... كما تبرّمت الأجفان بالسُّهدِ

إني لأذكره حيناً فأحسبُه ... من ثقله جالساً مني على كِبدِي

ولبعضهم: [مجزوء الخفيف]

نظر العين نحوه ... ـ علم الله ـ يُمرضُ

فإذا ما أردتُم ... أن تروه فغمّضوا

---

(١) البيتان بلا نسبة في زهر الآداب ص ٤٤٢.

لا تـصـبـكـم مـلـمّـة والـمـلـمّـات تـعـرِضُ

وقال بعضهم: [مخلع البسيط]

شخصك في مقلة النديمِ أوحش من نحسَةِ النجومِ
يا رجلاً وجهه علينا أثقل من مِنّةِ اللئيمِ
إني لأرجو بما أقاسي منك خلاصي من الجحيمِ

وقال بعضهم أيضاً: [المتقارب]

ولي خلّتان على هامتِي جلوسُهما مثلُ حدّ الوتِدْ
ثقيلان لم يعرِفا جِفَّةً فهذا الصُّدَاع وذاك الرمدْ

والأشعار في الثقلاء كثيرة وفي كتب الآداب مشهورة، فلنقتصر على هذه النبذة.

قوله: استبراد طلّه. الطّل: أضعف المطر، وهو الرذاذ، وأكثر نزوله ساكناً بغير ريح، ولا برَد في الغالب يكون معه، فكنَى هنا بالطّل عن كلامه القليل، وإنه عندهم بارد الحديث، وإن كان ما جاء منه ثقيل مؤذٍ.

وقد جاء في ذلك: [المتقارب]

ولو مازج النار في حرّها حديثك أطفأ منها اللهبْ

وقال آخر في شعر الصولي: [السريع]

داري بلا خيش ولكنني عقدت من خيشيَ طاقيْنِ
دارٌ متى ما اشتد بي حرّها أنشدت للصّوليّ بيتينِ

وكلامه: [الطويل]

ويوم كتنور الطهاة سجرتُه على أنه منه أحرّ وأوقدُ
ظللتُ به عند المبرّد جالساً فما زلت في ألفاظه أتبرّدُ

لقي برد الخيار المغني أبا العباس المبرد في يوم ثلج بالجسر، فقال له: أنت المبرّد وأنا برد الخيار، واليوم كما ترى: اعبُر بنا لا يهلك الناس من الفالج بسببنا. وقال كشاجم رحمه الله تعالى: [المتقارب]

غناء مديح بأرض الحجاز يطيب وأما بحمصٍ فلا
لبرد الغناء وبرد الهواء فإن جمعا خفت أن يقتلا

قوله: تعرّض، أي تهيأ. المنافثة: الكلام معهم. صُمّت: سُكّت. ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «موقع حديث الرجل من القوم كموقعه من قلوبهم».

حمدل: قال الحمد لله. ما شُمّت: ما أدخل عليه السرور بقولهم: يرحمك الله تعالى.

ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من عطس أو تجشأ فقال الحمد لله على كل حال دُفع بها عنه سبعون داء أهْونها الجذام».

[في تشميت العاطس]

وقال النبي ﷺ: «إذا عطس أحدكم فليقُل الحمد لله، والذي يشمّت: يرحمك الله، وليقل هو: يهديكم الله، ويصلح بالكم»[(١)].

ومما يستظرف من حديث العطاس أن صوفيًا في بلدنا كان حافظاً للشعر، فلا يعرض في مجلسه معنى إلا وينشد عليه شعراً، فاتفق أن عطس رجل بمحضره، فشمّته الحاضرون، فدعا لهم، فرأى الصوفيّ أن تشميته قطع إنشاده بما لا يشاكله من النظم، وإن لم يشمته كان تقصيراً في البر. فأصبح للطلبة راغباً أن ينظم له هذا المعنى، فقال الوزير الحسيب أبو عمرو بن محمد: **[السريع]**

يا عاطساً يرحمك الله إنْ ... أعلَنتَ بالحمد على عَطْسَتِكْ
ادع لنا ربّك يغفر لنا ... وأخلِص النية في دعوتِكْ
وقل له يا سيّدي رغبتي ... حضور هذا الجمع في حضْرَتِكْ
وأنت يا ربّ النداء والندى ... بارك ربّ الناس في ليلتك
فإن يكن منك لنا دعوة ... فأنت محمود على عَوْدَتِكْ

وهذا الوزير الشريف إنما يصرف شعره في أوصاف الغزلان، ومخاطبات الإخوان.

وكتب إليّ يستهديني كتاب العقد: **[الطويل]**

أيا مَنْ غدا سلكا بجيد معارفه ... ومَنْ لفظُه زهر أنيق لقاطِفِه
محبُّك أضحى عاطلَ الجِيد فلتجُدْ ... بعقد على لبَّاته وسولِفِه

وتوعَّك في بعض الأعياد فعاده من أعيان الطلبة جملة، فلما همّوا بالانصراف أنشدهم ارتجالاً: **[الكامل]**

لله درّ عصابةٍ أمجادِ ... شَرُفَ النداء بقصدهم والنَّادِي
لما أشاروا بالسّلام وأرْبَعُوا ... أنشدتهم وصدقت في الإنشادِ
في العيد عدتم وهو يوم عرُوبة ... يا فرْحَتي بثلاثة الأعْيَادِ

* * *

(١) أخرجه الدارمي في الاستئذان باب ٣٠، وليس فيه لفظ «تجشأ».

فأَخْرَدَ ينظُرُ فيما آلتْ حالُه إليه، وينتَظِرُ نُصْرَةَ المبغيِّ عليه. وجُلنا نحْنُ في شجُونٍ، من جِدٍّ ومُجُونٍ؛ إلى أنِ اعترضَ ذكرُ الكتابتَيْن وفضلِهما، وتِبيانِ أفْضَلِهما، فقال قائل: إن كتبةَ الإنشاءِ أَنبلُ الكُتّاب؛ ومالَ مائلٌ إلى تفضِيل الحسَّاب. واحتدَّ الحِجاج، وامتدّ اللَّجَاج؛ حتَّى إذا لم يَبْقَ لِلْجِدَالِ مَطْرَحٌ، ولا لِلمراءِ مَسْرَحٌ؛ قال الشيخ: لَقَدْ أكثرتُمْ يا قومُ اللَغَط، وأثَرْتُمْ الصّوَاب والغلط، وإنّ جَليَّةَ الحُكْمِ عندي، فارتضوا بِنَقْدِي، ولا تَسْتَفْتُوا أحداً بَعْدِي.

* * *

قوله: أخرد: أي سكت ذلاً، ويروى: خرد، أي سكت حياء واستتر، تقول: أخردت وخَردت من حرّ الشمس. أي استترت، وأقْرد من لفظ القرد أو القراد، وأخرد من لفظ الخريدة. آلت: رجعت. المبغيّ عليه أي المظلوم، وأراد أن ينظر النُصرة على أعدائه، من قوله تعالى: ﴿ثم بُغِي عليه لينصرنّه الله﴾ [الحج: ٦٠] جُلنا: تصرّفنا. شجون: ضروب من الكلام، ومنه: الحديث شجون، أي فنون، ومشتبك بعضه ببعض. وفي الحديث: «الرحم شجنة من الله»، معناه القرابة مشتبك بعضها ببعض، كاشتباك العروق. اعترض: تصلّب وظهر. الإنشاء: الكتابة. وكتبة الإنشاء هم كتبة بين يدي السلطان وهم المترسّلون. أنبل: أعظم قدراً. والحُسّاب. كتبة الزمام.

احتدّ: اشتدّ. والحجاج: المحاجّة واللجاج: ركوب الرجل على الباطل، مطرح: موضع يطرح فيه. المراد قد تقدّم. آثرتم: فضلتم. جليّة: بيان. نقدي: تمييزي.

* * *

اعْلمُوا أنّ صناعَةَ الإنشاءِ أَرْفَع، وصِناعة الحِسَابِ أنْفَع، وقَلَم المكاتبةِ خاطب، وقَلَمَ المحاسبةِ حاطِب، وأساطِيرَ البلاغةِ تُنْسَخُ لِتُدْرَس، ودَسَاتيرَ الحُسْباناتِ تُنْسَخُ وتُدْرَس. والمنشِيء جُهَيْنَةُ الأخبار، وحَقيبةُ الأسرارِ، ونجيُّ العُظماءِ، وكبيرُ الندماء، وقلمُه لِسَانُ الدَّوْلَة، وفارِسُ الجَوْلة، ولُقْمَانُ الحِكْمَةِ، وتَرْجُمان الهِمّةِ. وهُوَ البشيرُ والنّذِيرُ، والشَّفِيعُ والسَّفِيرُ. به تُسْتَخْلَصُ الصَّياصِي، وتُمْلَكُ النَّواصي، ويُقْتَادُ العاصِي، ويُسْتَدْنَى القاصِي، وصاحِبُهُ بَرِيء مِنَ التّبِعَاتِ، آمِنٌ كَيْدَ السُّعَاة، مُقَرّظٌ بَيْنَ الجَماعَاتِ، غيرُ مُعَرَّضٍ لِنَظْمِ الجماعات.

* * *

قوله: خاطب، أي جامع للكلام. حاطب: جامع للحطب، يريد أنّ المنشيء كالخطيب يختار من الكلام النفيس فيسرقه، ولا يبالي كاتب الحساب بما كتب، ويكون

حاطب بمعنى مجمع للمال. أساطير: أحاديث، وهي جمع أسطار، وأسطار: جمع سطر. وقيل: الأساطير: جمع أسطورة وإسطارة. دساتير: أزمَّة. تدرس: تَمحَى أو تُترك حتى تتغيّر.

[قصة المثل: عند جهينة الخبر اليقين]

جهينة الأخبار، أي العارف بها. واختلفوا في المثل، قال الأصمعي رحمه الله تعالى: جُفَينة بالجيم والفاء.

وقال أبو عبيدة رحمه الله تعالى: حُفينة، بحاء غير معجمة.

وقال ابن الكلبي: جُهينة بالجيم والهاء، وهو الصحيح.

وأصله أنَّ حصين بن عمرو بن معاوية بن كلاب خَرَج يطلب فُرصة فاجتمع برجل من جُهينة يقال له الأخنس بن كعب، فنزلا في بعض منازلهما. وتعاقدا ألاّ يلقيا أحداً إلا سلبَاه، وكلاهما فاتك يحذر صاحبه، فلقيا رجلاً، فسلباه كلَّ ما معه فقال لهما: هل لكما أن تردّا عليّ بعض ما أخذتما منّي وأدلّكما على مغنم؟ فقالا: نعم، قال هذا رجل لخميّ قدم من بعض الملوك بمغنم كثير، وهو خلْفي في موضع كذا، فردّا عليه بعضَ ماله، وطلبا اللخميَّ، فوجداه نازلاً في ظل شجرة وقدّامه طعامه وشرابه، فحيَّاه وحيّاهما، وعرض عليهما الطعام، فنزلا وأكلا، وشربا مع اللخميّ. ثم إن الأخنس ذهب لبعض شأنه، فلما رجع أبصر سيف صاحبه مسلولاً، واللخميّ يتشحّط في دمه، فسلّ سيفه، وقال: ويحك! قتلتَ رجلاً قد تحرّمنا بطعامه وشرابه! فقال: اقعد يا أخا جهينة، فلهذا وشبهه خرجنا. ثم إنّ الجهنّي شغلَ صاحبه بشيء، ثم وثب عليه فقتله، وأخذ متاعه ومتاع اللخميّ. ثم انصرف إلى قومه راجعاً بماله، وكانت لحصين أخت تسمَّى صخرة، فكانت تبكيه في المواسم وتسأل عنه فلا تجد مَنْ يخبرها بخبره، فقال الأخنس حين أبصرهَا: **[الوافر]**

وكم من فارس لا تزدريه ... إذا شَخَصَتْ لرؤيته العيونُ
علوتُ بياض مفرِقه بعَضبٍ ... فأضحى في الفلاة له سكون
يذلّ له العزيز وكلّ ليثٍ ... من العِقْبان مسكنُه العرينُ
فأضحت عرسه ولها عليه ... بُعَيْدَ هدوء رقْدتها أنينُ
كصخرة إذ تسائل في مراحٍ ... وفى جرم وعلمُهما ظنونُ
تسائل عن حصينٍ كلّ ركب ... وعند جُهينة الخبر اليقينُ[1]

---

(١) البيت للأخنس الجهني في لسان العرب (جفن)، وتاج العروس (جفن)، ولغصين في لسان العرب (جفن)، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٨٩٠، وتاج العروس (جهن).

فمن يك سائلاً عنه فعندي　　　لسائله الحديث المستبينُ

مراح وجرَمْ: قبيلتان.

حقيبة: وعاء. نجيّ: متكلم. النُّدماء: الجلساء على الخمر، يريد أن أصحابه أعيان وأشراف. النذير: المخوّف. السفير: الرسول بين القوم. تستخلص: تملك وتحصل. الصَّياصي: الحصون. النواصي: الرؤوس، وأصل الناصية شعر مقدّم الرأس. القاصي: البعيد. التّبعات: المطالبات. السّعاة جمع ساعٍ، وهو جابي الصدقة. مقرّظ: ممدوح. نظم الجماعات: تجميل الحساب، والجماع: الأخلاط وضروب من الناس، والجماع: كل شيء انضم بعضُه إلى بعض وتجمّع؛ أراد أنّ كاتب التراسيل قد أمن من مكر عمّال الزّكوات الذين يسرقون مال الرعيّة والسلطان ولا يعرّض لأن يؤلف ما افترق من الخراج حتى يصير جماعات.

* * *

فلمّا انْتَهى في الفَصْلِ، إلَى هَذَا الفَصْل، لَحَظَ من لمَحَاتِ القَوْمِ أنَّهُ ازدَرَع حُبًا وبُغْضاً، وأرْضَى بعضاً وأحْفَظَ بعضاً. فعقَّبَ كلامه بأن قَالَ: إلاَّ أنَّ صِناعَةَ الحِسَاب مَوْضُوعَةٌ على التّحقيقِ، وصِناعَةَ الإنشاءِ مَبْنِيَّةٌ عَلَى التّلفيقِ، وقَلَمَ الحاسِبِ ضَابِط، وقَلَمَ المنشىء خَابِط. وبين إتاوةِ تَوْظِيف المعاملاتِ، وتِلاَوةِ طَوَامير السِّجِلاّت، بَوْنٌ لا يُدْرِكُهُ قياس، ولا يَعتَوره التِباس، إذ الإتَاوةُ تَملأُ الأكياس، والتِّلاَوةُ تفرِّغُ الرَّاسَ، وخراجُ الأوَارِجِ، يُغْني النّاظِرَ، واستخراجُ المدارج يُعَنّي النّاظر.

* * *

الفصل، أي القضاء والحُكم، وأراد أنه فصل في القضاء بين الصنفين من الكتاب. إلى هذا الفصل، أي إلى هذا الحدّ. والفرق، فالأول من فصل الحاكم بين الخصمين فصلاً: قضى، والثاني من فصلت بين الشيئين فَصْلاً وفصولاً: فرقت، يريد أنه فصل بين الكلام المتقدّم والكلام المستأنف، وأراد أنه ازدرع في قلوب كَتَبة الإنشاء حبّه لمدحه لهم، وفي قلوب كتبة الحساب بغضه لمّا قصّر بهم، فأخذ يستأنف مدحهم.

أحفظ: أغضب. عقّب: أتبع، وأراد بالتحقيق أن صنعة الحساب برهانية محققة. والتلفيق: ضمّ شيء لطيف إلى مثله، ولفقت الشيء تلفيقاً ضممتَ بعض أجزائه إلى بعض. ضابط: محقق، والضبط الأخذ بشدة، ورجل ضابط للشيء، إذا قويَ عليه فلم يُفْلت منه. خابط: مغرّر، وخبط: مشى على غير هداية.

الإتاوة: الخراج والجباية إلى بيت المال. توظيف: تقسيط. ووظّف على الناس

الغرم: قسَّطه عليهم، والوظيفة: نصيبك الذي تغرمه. المعاملات: أنواع من علم الحساب، وأصلها مصدر عاملت الرجل معاملة إذا وافقته على بيع أو كراء أو إجازة أو غير ذلك مما يتعامل به الناس بعضهم مع بعض. تلاوة: قراءة. طوامير السجلات: بطائق التّرسيل، والطّومار: الكتاب. بون: بعد. يعتوره: يتداوله ويقصده. التباس: شك. الأكياس: أوعية الدراهم. والإتاوة: رشوة العمّال: قال النبي ﷺ: «هدايا العمال رشوة». تغرّغ الرأس: تهوّسه بكثرة الدروس والسهر. الأوارج: أزمّة الخراج. وقيل: صِنْف من الخراج. الناظر: العامل فيها، وأورجها، إذا تولى عملها والقيام بها. المدراج: الرسائل، سمِّيت بذلك لأنها تُدْرَج، أي تطوى على ما فيها، واستخراجها: تتبع معانيها بجودة النظر ودرس ألفاظها. يعنّي: يتعب. الناظر: سواد العين، يريد أنّ كاتب الزمام في راحة وهو يملي على أكياسه بالدراهم. وكاتب الرسالة متعوب قليل المال.

* * *

ثمّ إن الحسبَة حَفَظةُ الأموالِ، وحَمَلَةُ الأَثْقَال، والنّقلة الأَثْبَاتُ، والسَّفَرةُ الثِّقات، وأعَلامُ الإنصاف والانْتِصاف، والشُهُود المَقَانِع في الإخلاف، ومنهم المستوفِي الذي هُوَ يدُ السُّلْطَان، وقُطب الدِّيوان، وقِسْطَاسُ الأعمال، والمُهَيْمِنُ عَلَى العُمّال، وإليه المآبُ في السِّلم والهَرْج، وعليه المدارُ في الدّخْلِ والخَرْج، وبه مناطُ الضّرِّ والنّفْع، وفِي يدِه رِباطُ الإعطاءِ والمنْع.

ولـولا قلـم الحسَّاب، لأودت ثَمرَةُ الاكتِسَاب، ولاتَّصَلَ التَّغَابُن إلى يوم الحِسَابِ. ولَكَانَ نِظامُ المعاملاتِ مَحْلولاً، وجُرْحُ الظُّلاَماتِ مَطْلُولاً، وجِيدُ التَّنَاصُفِ مغلولاً، وسَيْفَ التَّظَالُمِ مَسْلُولا. على أنَّ يَراعَ الإنشاءِ متقوِّل، ويراعَ الحِسَابِ متأوّل. والمحاسِب مُنَاقِش، والمنشِيء أبو بَرَاقش، ولكليهما حُمَةٌ حِينَ يَرْقَى، إلى أن يُلْقَى ويُرقَى، وإعنَاتٌ فِيما يُنْشَا، حتَّى يُغْشَى وَيُرْشَى؛ إلاَّ الذينَ آمنوا وعملوا الصالحاتِ وقليلٌ ما هُمْ.

* * *

النَّقلة: الأثبات، أي هم على يقين وثبات فيما ينقلون. السَّفَرة: الكتبة. الثّقات: الأمناء. أعلام الإنصاف: يريد المشاهير بإنصاف السلطان من الناس والناس منه، وتقول: أنصفت الرجل: أعطيتَه حقّه، وانتصفت منه: أخذت حقك. والمقانع: الذين يُقنع بفعلهم، أي يرضى. والإخلاف: جودة الزرع، تقول: أخلف الزرع، إذا طاب؛ وردّ على أصحابه أضعاف ما نفق عليه. المستوفي: رأس المشارب. قطب: أصل. وقُطْب

القوم سيّدهم الذي يدبر أمرهم ويدورون على رأيه، بمنزلة قطب الرحى الذي تدور عليه. الديون: دار كتاب الخراج، وهو فارسيّ معرّب. قسطاس: ميزان؛ يريد أنه ميزان العمل الذي يعتدل به.

المهيمن: الشاهد. المآب: الرجوع. السِّلْم والهرْج: الصلح والحرب. المدار: المعوّل، أي عليه أن يعول في إدارة ما يدخل على السلطان من المال من رعيته، وما يَخرج عنه من لوازم الأجناد وغيرهم، وفلان كثير الدخل والخرْج، إذا كثُر ما يدخل عليه من الفوائد وما يخرج عنه من الإنفاق.

مناط: تعلّق. أودت: هلكت. نظام: خيط. مطلولاً: هدراً أي باطلاً لا حق فيه. التناصف: أخذ الحق وإعطاؤه، واستعار له عنقاً، وجعله مغلولاً؛ أي محبوساً بغلّ. التظالم: ضدّ التناصف. يراع: أقلام. متقوّل: منحول ما يقوله. متأوِّل: مدبّر؛ يريد أنّ الملك يلقي للكاتب مقصده، فيحسن الكاتب الألفاظ ويرتّبِ الفِقَر، فيزيد في كتابته ألفاظاً على ما حدّ له بالضرورة، فتلك الزيادات ضرب من التقوّل وهو أن يقول على الرجل ما لم يقل، وكاتب الحساب لا يحتاج إلى تقوّل. مناقش: مباحث. أبو براقش: أي يأتي بأنواع مختلفة، وأبو براقش: طائر فيه ألوان شتّى، مشتق من البَرْقَشة، وهي النقش والرقم، يقال: برقَشت الثوب. وأنشد سيبويه وعزاه أبو عمرو بن العلاء لبعض بني أسد: **[مجزوء الكامل]**

إن يـبـخـلـوا أو يـحـسـنـوا أو يـعـذروا لا يـحـفـلـوا[1]
يـغـدوا عـلـيـك مـرجّـلـيـ ـن كـأنـهـم لـم يـفـعـلـوا
كـأبـي بـراقـش كـل حـيـ ـن لـونـه يـتـخـيّـلُ

وأبو براقش وأبو قلمون، كنية للرجل الكثير التلوّن، القليل الارتباط، وأصل أبي قلمون كنية لثياب إبريسم تنسج بمصر والروم، تتلوّن للعيون ألواناً شتى. وفي البديعية: **[المجتث]**

أنـا أبـو قـلـمـون فـي كـل لـون أكـون

---

(١) يروى البيت الأول:

إنْ يـنـجـلـوا أو يـجـبـنـوا أو يـغـدروا لا يـحـفـلـوا

والبيتان الأول والثاني، لبعض بني أسد في خزانة الأدب ٩/ ٩١، والكتاب ٣/ ٨٧، ولسان العرب (برقش)، وبلا نسبة في الإنصاف ٢/ ٥٨٤، والبيان والتبيين ٣/ ٣٣٣، وديوان المعاني ١/ ١٨٢، وذيل الأمالي ص ٨٣، وشرح أبيات سيبويه ٢/ ٢٠٦، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ٥١٥، وشرح المفصل ١/ ٣٦، وكتاب الصناعتين ص ٦٠١، والبيت الثالث للأسدي في لسان العرب (برقش)، والتنبيه والإيضاح ٢/ ٣١٢، وتاج العروس (برقش)، وبلا نسبة في أساس البلاغة (برقش)، (خيل).

حُمَة بالتخفيف: سمّ وشرّ. يَرْقَى: يصعد في منزله، ويرتفع في أصابع الكاتب حين يكتب به. يُرْقَى: إشارة للرشوة لأنها تسكن شرّة، كما تسكن الرقية الوجع، إعنات: مشقّة. يُنْشَى: يكتب. يُغْشَى: يُقصَد ويدخل عليه.

[حَائك الكلام]

هذه المقامة بناها أبو محمد على حكاية حائك الكلام المشهور، لأنهم حقروه أولاً في السفينة ثم عظموه آخراً بعد الاختبار.

ونذكر الحكاية وإن طالت لموافقتها المقامة: حدّث عمرو بن مسعدة[١] أنّ المعتصم لمّا رجع من الثغر، وصار بناحية الرّقة قال لي: ما زلتَ تسألني في الرخّجي[٢] حتى ولّيتُه الأهواز، وقعدَ في سُرّة الدنيا يأكلها خضماً وقضماً، ولم يوجّه إلينا بدرهم واحدٍ، اخرج إليه من ساعتك، واحلف ألاّ تقيم ببغداد إلاّ يوماً واحداً، فحلفت له، وقلت في نفسي: أبَعْدَ الوزارة أصير مستحثًا لعَالم خراج! ولم أجد بدًا من طاعته. فخرجت إلى بغداد، ففرش لي زورق، وغُشّيَ بالسّلخ[٣]، فلما صرت عند دير هزْقل، وإذا رجل يصيح: يا ملاح، رجلٌ منقطع، فقلت للملاح: قرب إلى الشطّ، فقال: هذا شحاذ، وإن قعد معك، آذاك فأمرت الغلمان فأدخلوه في كوثل الزّورق[٤]، فلما حضر الغداء دعوتُه فأكل أكل جائع، إلاّ أنه نظيف، فلما رُفِع الطعام، أردت أن يستعمل معي ما يستعمل العوامّ مع الخاصة؛ أن يقوم فيغسل يده في ناحية، فلم يفعل، فغمزه الغلمان فلم يفعل، فقلت: يا هذا، ما صناعتُك؟ فقال: حائك، فقلت في نفسي: هذه شرٌّ من الأولى، ثم قال لي: جُعِلت فداك! سألتَني عن صناعتي فأخبرتُك، فما صناعتك؟ فقلت: هذه والله أعظم، فكرهت ذكر الوزارة فقلت: كاتب.

فقال: الكاتب على خمسة أصناف: كاتب رسائل ويحتاج أن يعرف الفصل من الوصل، والتهاني والتعازي والصدور وجملاً من الإعراب. وكاتب خراج يحتاج إلى أن يعرف الزرع والمساحة والتقسيط والحساب. وكاتب جند، يحتاج إلى أن يعرف شِيَاتِ الخيل وحُلَى الناس وكاتب شرطة يحتاج إلى أن يَعْرِف الجراح والقصاص والدّيات، وكاتب قاضٍ يحتاج إلى أن يعرف الفقه والوثائق وما يتعلق بذلك، فأيهم أنت أعزك الله تعالى؟

قلت: كاتب رسائل، قال: فأخبرني؛ إن كان لك صديق تكتب له في المحبوب

---

(١) من المعروف أن عمرو بن مسعدة بن سعيد هو أحد وزراء المأمون، وقد توفي سنة ٢١٧ هـ في حياة المأمون، وأن المعتصم ولي الخلافة في رجب سنة ٢١٨ هـ. ولعل هنا خطأ.

(٢) هو عمر بن فرج الرخجي من كتاب المأمون.

(٣) السلخ: الجلد.

(٤) كوثل الزورق: مؤخره.

والمكروه، فتزوّجتْ أمه، كيف تكتب إليه؟ تهنيه أو تعزيه؟ قلت: والله لا أدري، وهو بالتعزية أولى، قال: صدقت، فكيف تعزيه؟ قلت: والله لا أدري وهو بالتعزية أولى، قال: صدقت، فكيف تعزيه؟ قلت: والله لا أدري.

قال: فلستَ بكاتب رسائل: فأيهم أنت؟ قلت: كاتب خراج، قال: فما تقول وقد ولاَّك السلطان عملاً، فجاء قوم يتظلّمون من بعض عمالك، فأردت أن تُنصِفهم، وكنت تحب العدل وتؤثر حسن الأحدوثة، وكان لأحدهم قراح[1] فأردت مساحته؟ قلت: أضرب العطوف في العمود. قال: إذن تظلم الرجل، قلت: فأمسح العمود على حدة، والعطوف على حدة، قال: إذن تظلم الناس، قلتُ: والله فما أدري؟ قال: فلستَ بكاتب خراج، فأيهم أنت؟ قلت: كاتب جند.

فقال: فما تقول في رجلين اسم كل واحد منهما أحمد، أحدهما مقطوع الشفة العليا، والآخر مقطوع السفلى كيف تكتب عليهما؟ قلت: أكتب أحمد الأعلم وأحمد الأعلم. قال: وكيف ورزق هذا مائة درهم ورزق الآخر ألف درهم، فيقبض هذا على دعوة هذا، فتظلم صاحب الألف، قلت: والله ما أدري! قال: فلستَ بكاتب جند، فأيهم أنت؟ قلت: كاتب قاض.

قال: فما تقول في رجل توفّي وخلّف زوجة وسُرّية، وللزوجة بنت وللسُّريّة[2] ابن، فتنازعتا فيه، فقالت كلّ واحدة منهما هذا ابني وقالت واحدة هذا ابني، كيف تحكم بينهما وأنت خليفة القاضي! قلت: والله ما أدري؟ قال: فلستَ بكاتب قاض، قال: فأيّهم أنت؟ قلت: كاتب شرطة.

قال: فما تقول في رجل وَثَب على رجل، فشجّه شجّةً موضحة[3]، فوثب عليه المشجوج فشجَّه شجّةً مأمومة[4]، فقلت: لا أعلم، وقد سألت ففسِّر لي ما ذكرت.

قال: أما الرجل الذي تزوّجت أمه، فتكتب إليه: أما بعد فإنّ أحكام الله تعالى تجري بغير محابّ المخلوقين، والله يختار للمخلوق، فخار الله لك في قبضها إليه، فإن القبر أكرم لها، والسلام.

قال: وأما القراح فتضرب واحداً في واحد في مساحة العظوف، فتمّ بابه.

قال: وأما المقطوع العليا فتكتب عليه أحمد الأعلم، وعلى المقطوع السفلى أحمد الأشرم، وأما المرأتان فيوزن لبنهما، فأيتهما كان لبنها أخفّ فهي صاحبة البنت. وفي المُوضحة خمس من الإبل، وفي المأمومة ثمانية وعشرون.

---

(١) القراح: المزرعة ليس فيها بناء ولا شجر.
(٢) السرية: المملوكة يتسراها صاحبها.
(٣) الموضحة: الضربة التي بلغت العظم.
(٤) المأمومة: الضربة التي بلغت أم الرأس.

قلت: فما نزع بك إلى هنا؟ قال: ابن عم لي كان عاملاً على ناحية فخرجت إليه فلقيته معزولاً، فخرجت إلى بعض النواحي اضطرب في المعاش، قلت: أليس قد ذكرت أنك حائك! قال: أنا أحوك الكلام، ولستُ بحائك الثياب. فلما بلغنا الأهواز أمرتُ الحجام فأحفي من شعره، وأدخل الحمام، فكسوته من ثيابي، وكلمت الرخّجي فيه في الأهواز فأعطاه خمسة آلاف درهم، ورجع معي.

فقال لي المعتصم: ما كان من خبرك في طريقك؟ فأخبرته خبري، ثم خبر الرجل، فقال: هذا لا يُستغنى عنه، فلأيّ شيء يصلح؟ قلت: هو والله يا أمير المؤمنين أعلم الناس بالمساحة والهندسة، فولاّه البناء، فكنت ألقاه في الموكب النّبيل فينزل عن دابته فأمنعه، فيقول: يا سبحان الله! إنما هذه نعمتك، وبك أفدتها.

ومثل إيهامه هنا أنه حائك إيهام أبي زيد في التاسعة أنه نظّام.

***

قال الحارث بن همام: فلمّا أَمْتَعَ الأسْمَاعَ، بِما راقَ وراعَ، استنْسَبْنَاهُ فاسْتَرَاب، وأبَى الانتِسَابَ، ولو وَجَد منساباً لأنسَاب. فحصَلْتُ مِنْ لَبْسِهِ عَلَى غُمّة؛ حتّى ادّكرتُ بَعْدَ أُمّة. فقلتُ: والّذِي سَخَّرَ الْفَلَكَ الدّوّار، والْفُلْكَ السَّيّار، إنّي لأجِدُ ريحَ أبي زيْد، وإن كنتُ أعْهَدُهُ ذَا رُواءٍ وأيْدِ.

فتبسَّمَ ضاحِكاً مِنْ قَوْلِي، وقَالَ: أنا هُو على اسْتِحالةِ حَالِي وحَوْلي؛ فقلْتُ لأَصْحَابِي: هذا الَّذِي لاَ يُفْرَى فرِيُّهُ، ولا يُبَارَى عبقريُّهُ. فخطبُوا منه الوُدّ، ويَذلُوا لَهُ الْوُجْد؛ فرغِبَ عن الأُلْفة، ولم يرغب في التّحفَة، وقال: أمّا بَعْدَ إن سَحَقْتُمْ حقِّي، لأجْلِ سَحْقِي، وكَسَفْتُمْ بالِي، لإخْلاَقِ سِرْبالِي، فَمَا أراكُمْ إلاّ بالْعَيْنِ السّخِينةُ، ولا لكمْ مِنّي إلا صُحْبَة السفينة.

***

قوله: «أمتع الأسماع» أي متّع الآذان ولذّذها، ومنه يقال في الكتابة: أبقاك الله وأمتع بك، ومعناه: أطال الله عمره، من الماتع وهو الطويل عند العرب، ومنه متّع النهار، أي علا، وقال الأنصاريّ. [الكامل]

واهاً لأيام الصِّبا وزمانِه لو كان أمتَع بالمقام قليلا!

ونُبَلاء الكتاب يكتبون بها إلى الأتباع والأدنياء، ولا يكتبون بها إلى الأكفاء والأعلَون.

***

[من أخبار الأدباء والشعراء]

وكتب محمد بن عبد الملك الزيات إلى عبد الله بن طاهر كتاباً في صدره: وأمتع بك، فكتب إليه ابن طاهر: [المنسرح]

أحُلْتَ عما عهدت من أدبكْ ... أم نلتَ ملكاً فتِهْتَ في كتبكْ

أم قد ترى أنَّ في ملاطفة الـ ... ـإخوان نقصاً عليكَ في أدبكْ

إنْ جفا كتاب ذي مقةٍ ... يكون في صدره: وأمتع بكْ

أتعبتَ كفّيْك في مخاطبتي ... حسبك ممّا لقيت من تعبكْ

فأجابه ابن الزيات: [المنسرح]

كيف أخون الإخاء يا أملِي ... وكلّ شيء أنال من سبَبكْ

إن يك جهل أتاك من قِبلِي ... فعدْ بفضلٍ عليّ من حسبكْ

أنكرتَ شيئاً ولستَ فاعله ... ولن تراه يُخَطُّ في كتبكْ

فاعف فدتك النفوس عن رجلٍ ... يعيش حتى المماتِ في أدبكْ

ومن ملح أجوبة ابن الزيات أنّ الحسن بن وهب مرض فلم يعده، ولا تعرف خبره، فكتب إليه الحسن: [الخفيف]

أيّهذا الوزير أيدك الله ... وأبقاك لي زماناً طويلا

أجميلاً تراه يا أكرم النا ... س لكيما أراه أيضاً جميلا

إنني قد أقمت عشراً عليلاً ... ما ترى مرسلاً إليّ رسولا

إن يكن يوجب التعهد في الصحـ ... ـبة منّا عليّ منك طويلا

فهو أولى يا سيّد الناس برًّا ... وافتقاداً لمن يكون عليلا

فأجابه ابن الزيات: [الخفيف]

دفع الله عنك نائبة الدّهْـ ... ـرِ وحاشاك أن تكون عليلاَ

أشهد الله ما علمت وماذا ... ك من العذر جائزاً مقبولا

ولعمري أن لو علمت فلا رمْـ ... ـتُك حَوْلاً لكان عندي قليلاَ

فاجعلن لي وإلى التعلّق بالعذْ ... ر سبيلاً إن لم أجد لي سبيلا

فقديماً ما جاد بالصَّفح والعفـ ... ـو وما سامح الخليل خليلا

وكتب بعض الكتاب إلى صديق له يعاتبه على ترك عيادته: [الكامل]

يا جافياً ترك السؤال بعبدهِ ... نفسي فداؤك من ملولٍ قاطعِ

اعتلّ عبدك من تشكّى رأسه ... ستًّا وأردفها بيوم سابعِ

فحبستَ رسلك عن تعهد علتّي ... وقطعتَ من سبب الوصالِ مطامعي
وعلمتُ منك تمادياً في جفوتي ... فرجعتُ في عفوي كأحسن راجعِ

فأجابه الآخر: [الكامل]

لا والّذي قسم الجمال بفضِله ... فحبَاك منه بالضِّياء اللامع
ما إن علمتُ بعلَّةٍ لك سيدي ... إلا بخطِّك في القريضِ البارعِ
وإذا أتتك رسالتي فقرأتَها ... فأقبل فديتك من مُقرّ خاضعِ

وكان الحسن بن وهب يتعشَّق غلاماً لأبي تمام روميًا، وكان أبو تمام يتعشق غلاماً للحسن خَزَريًا، فرآه أبو تمام يعبث بغلامه، فقال: والله لئن أعنقت في الرّوم لأركضنَّ إلى الخزر، وما أشبّهك إلاّ بداود وأشبّه نفسي بخصْمه، فقال الحسن: لو كان هذا منظوماً خفناه، والمنثور عارض لا حقيقة له، فقال أبو تمام: [البسيط]

أبا عليّ لصرف الدهر والغِيَرِ ... وللحوادث والأيام والعِبَرِ
أذكرتَنِي أمر داودٍ وكنتُ فتًى ... مصرّف القلب في الأهواء والذِّكَرِ
أعندك الشمس لم يَحْظَ المغيب بها ... وأنت مضطرب الأحشاء بالقمرِ
إن أنت لم تترك السير الحثيثِ إلى ... جآذر الروم أعنقنا إلى الخزر

وكان الحسن يكتب لابن الزيات، فلما وقف على ما بينهما من أمر الغلامين، تقدّم إلى بعض ولده، وكانوا يجلسون عند ابن وهب أن يُعْلموه ما يدور بينهما، فعزم غلام أبي تمام على الحجامة، فكتب إلى الحسن يعلمه بذلك، ويسأله توجيه نبيذ مطبوخ فوجّه إليه مائة دنٍّ ومائة دينار وخلعة وبخوراً وكتب إليه: [الخفيف]

ليتَ شعري يا أمْلَح النّاس عندي ... هل تداويتَ بالحجامة بَعْدِي!
دفع الله عنك لي كلَّ سوء ... باكرٍ رائح وإن خنت عهدي
قد كتمتُ الهوى بمبلغ جهدِي ... فبدا منه غير ما كنتُ أبدي
وخلعتُ العِذار فليعلم النا ... س بأنّي إليك أصفِي بودّي
وليقولوا بما أحبوا إذا كنـ ... ـت وَصُولاً ولم تَرُعْنِي بصدّ
مَنْ عذيري من مقلتيك ومن إشـ ... ـراق وجهٍ من تحت حمرة خدٍّ

ووضع الرقعة تحت مصلاّه، وأعلم ابن الزيات خبرها، فأرسل في الحين، وشغله بشيء، ووجّهَ مَنْ جاءه بها. فلما قرَأها كتب فيها على لسان أبي تمام: [الخفيف]

ليتَ شعري عن ليتَ شعرك هذَا ... أبهزلٍ تقوله أم بجِدّ
فلئن كنتَ في المقال محقًّا ... يا بن وهب لقد تطرّفت بعدِي
وتشبّهت بي وكنت أرى أنّـ ... ـي أنا العاشق المتيمّ وحدي

إن مـولاي عـبـد غـيـري ولـولا شـؤم جَـدّي لـكـان مـولايَ عـبـدِي

ثم قال: ضعوا الرقعة مكانَها، فلما قرأها الحسن قال: إنا لله افتضحنا عند الوزير. وأعلم أبا تمام، فتلقّياه فقالا: إنا جعلنا هذين الغلامين سبباً لتكاتبنا بالأشعار، فقال لهما: ومَن يظن بكما غير هذا! فكان قوله عليهما أشدّ.

محمد بن إسحاق: قلت لأبي تمام: غلامُك أطوع للحسن من غلامه لك، قال: إني أعطي غلامه قيلاً وقالا، ويعطي غلامي ثياباً ومالاً، وقال أبو تمام في غلامه: [السريع]

يـا عـمـرو قـل لـلـقَـمَـرِ الـطـالـع اتّـسـع الـخـرق عـلـى الـراقـع

يـا طـول فـكـري فـيـك مـن حـامـلٍ لـرقـعـة مـفـكـوكـة الـطـابـع

مـا أنـتَ إلا رشـا جـؤذرٌ حـلّ بـمـغـنـى أسـدٍ جـائـع

قوله: راق، أي أعجب. راع: أفزع لإفراط حسنه. استنسبناه: سألناه عن نفسه، وهذا من قول النبي ﷺ «إذا جاء الرجلُ الرجل، فليسأله عن اسمه واسم أبيه وممن هو، فإن ذلك أوصل للمودة»(١). استراب: دخلَته الريبة. منساباً: موضعاً يدخل فيه. لبسه: تخليطه. وغمة القلب: ما يعطيه من الشك أو الهمّ، فأراد أنّه لبّس عليه فلم يعرفه.

ادّكرت، أي ذكرت. أمّة: حين. الفلَك: مدار النجوم. والفُلْك السيَّار: أي السفينة السريعة. والفُلْك لفظ يقع للواحد والجمع. أعهده: أعرفه. رواء: فتوّة وحسن هيئة. أيد: قوّة. استحالة: تغير. الحول: القوة، وأيضاً الحيلة. ولو خاطبه ابن همام بشعر لكان للشريف الرضي في جوابه للصابي، وقد شكا إليه الهرم والجلوس في المحفّة وامتناعه من التصرف، فقال: [الطويل]

لَئِنْ رام قَبْضاً من بنانك حادثٌ لقد عاضنا منك انبساطُ جنانِ(٢)

وإن أقـعـدتْـك الـنـائـبـات فـطـالـمـا سَرَى مـوقَـراً مـن مـجـدك الـمـلـوَانِ

وإن هدّمتْ منك الخطوب بمرّها فـثـمَّ لـسـان لـلـمـنـاقـب بـانِ

قوله: «لا يُفري فَرِيَّه»، أي لا يقطع قَطْعَه ولا يعمل عمله، قال الحوافزان:

وما ارتعشت كفّي ولا طاش ضَرْبُها إذا طـرحـوا بـالـفـارس الـمـتـهـلِّـل

ولـكـنـهـا إذْ ذاك تـفـري فـريَّـهـا وتـقـرع رأس الـفـارس الـمـتـقـتِّـلِ

يُبَاري عبقريَّه: يجاري جنيَّه، ولفظ الحريري كله منتزع من الحديث الصحيح قال رسول الله ﷺ «رأيت فيما يرى النائم كأني على بئر وأرى جميع الناس، فجاء أبو بكر

(١) أخرجه الترمذي في الزهد باب ٥٤.

(٢) الأبيات في ديوان الشريف الرضي ص ٩٤٤.

فنزل ذَنُوباً أو ذنوبين. وفيه ضعف، والله يغفر له. ثم جاء عمر رضي الله عنه فاستحالت بيده غرباً، فلم أر عبقرياً من الرجال يفري فريَّه، حتى ضرب الناس بأعطانهم»(١). يقال رجل عبقريّ، أي كامل قويّ، والعبقريّ أيضاً الحسَن من كل شيء. الوجْد: المال. رغِب عن الألفة، أي تباعد عن الصحبة. ولم يرغب في التحفة، أي لم يطمع في العطيّة، أي لم يقبل عطيَّتَهم ولا صحبتهم. سَحَقْتُم: نقضتم وغيّرتم. سحقي: ثوبي البالي. وكسفتم بالي: تنقّصتم حالي وغيرتموها. سربالي: قميصي. السخينة: الساخطة الحارة الدمع.

* * *

ثم أنشد: **[الكامل]**

اسمَعْ أخيَّ وصيّةً مِنْ ناصحٍ ... ما شابَ محضَ النُّصْحِ مِنْهُ بِغِشّهِ
لا تعجَلَنْ بقضِيّةٍ مبتُوتَةٍ ... في مَدْحِ مَنْ لم تَبْلُهُ أو خَدْشِهِ
وقِفِ القضِيّةَ فيه حتَّى تَجْتَلِي ... وَصْفَيْهِ في حالَيْ رضاه وبطشِهِ
ويبينَ خُلّبُ بَرْقِهِ مِنْ صِدقِهِ ... للشائمينَ، ووبْلُهُ مِنْ طَشّهِ
فهناكَ إن تَرَ ما يشينُ فوارِهِ ... كَرَماً وإن تَرَ ما يَزِينُ فأفْشِهِ
ومَن استحقَّ الارتقاءَ فرقِّهِ ... ومن اسْتَحَطَّ فحُطَّهُ في حَشِّهِ
واعلمْ بأنَّ التِّبْرَ في عِرْقِ الثَّرَى ... خافٍ إلى أنْ يُسْتَثَارَ بنَبْشِهِ
وفضيلةُ الدينارِ يَظْهَرُ سِرُّها ... مِنْ حَكّهِ لا مِنْ ملاحَةِ نقشِهِ
ومن الغباوةِ أن تُعَظِّم جاهلاً ... لِصقَالِ ملبسِهِ ورونقِ رقْشِهِ
أو أن تُهينَ مهذَّباً في نفسِهِ ... لدروسِ بِزّتِهِ ورَثّةِ فُرشِهِ
ولكم أخٍ طِمْرَيْنِ هِينَ لفضلِهِ ... ومفوّفِ البُرْدَينِ عِيبَ لفحشِهِ
وإذا الفتَى لم يَغْشَ عاراً لم تكُنْ ... أسمالُهُ إلاّ مراقِيَ عرشِهِ
ما إن يضرّ العضبَ كونُ قِرابِهِ ... خَلَقاً ولا البازي حقارة عُشِّهِ

* * *

شاب: أي خلط، ومَحْضه: خالصه. وغشه: عيبه وفساده.

وللزاهد بن عمران في النصيحة: **[مجزوء الكامل]**

---

(١) روي بطرق وأسانيد متعددة، أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي ﷺ باب ٥، ٦، والتعبير باب ٢٨، ٢٩، والتوحيد باب ٣١، والمناقب باب ٢٥، ومسلم في فضائل الصحابة حديث ١٧، ١٩، والترمذي في الرؤيا باب ١٠، وأحمد في المسند ٢/٢٨، ٣٩، ٤٥، ٨٩، ١٠٢، ١٠٧، ٣٦٨، ٥/٤٥٥.

اسمع أُخيّ نصيحتي	والنُّصح من أصل الديانَهْ
لا تعرضنّ إلى الشها	دة والوساطة والأمانَهْ
تسلم من أن تُعْزَى لزو	رٍ أَوْ فضولٍ أو خِيانَهْ

وقال آخر فيمن لا يقبل النصيحة: **[المتقارب]**

إذا ما هُديت امرأ مخطئاً	أضلّ السبيلَ إلى قصدِهِ
ولم تُلفه سامعاً قابلاً	فحسّن له المشي في ضِدِّه

وقوله: «لا تعجلن»، وما بعده من قول الشاعر: **[البسيط]**

لا تمدحن امرأ حتى تجرّبه	ولا تذمّنّه من غير تجريبِ

ولابن عمران أيضاً: **[الكامل]**

تحرّ سبيل القصد في الناس ولتكنْ	على حذر منهم ولا تُسِيء الظَّنّا
ولا تمدحنَّ مَنْ لم تجرّب ولا تَقُل	على غير علم ذاك من ذاكمُ أسْنَى
فما كلّ مَنْ يرضيك ظاهر حاله	لدى الخبر محموداً وقد يُحمَدُ الأدْنَى

القضية: الحكم. مبتوتة: مقطوعة. تَبْلُه: تجرّبه. خدشه: عيبه وإذايته. تجتلي: تنظر. بطشه: صولته عند الغضب، يقول: لا تحكم بشيء على أحدٍ حتى تجرّبه في الشدة والرخاء. وقال رجل لعمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: إن فلاناً لرجُلُ صدقٍ، قال: أسافرت معه؟ قال لا، قال: فهل كانت بينك وبينه خصومة؟ قال: لا. قال: فهل ائتمنتَه على شيء؟ قال لا. قال: فأنت الذي لا علم لك به، وإنما أراك رأيتَه يرفعُ رأسه ويَخْفضه في المسجد. يَبين: يظهر. خُلّب: كاذب. الشائمين: الناظرين إلى البرق. وبله: مطره الكثير. طشه: مطره القليل. يشين: يعيب. واره: استره. كرماً: أي تكرّماً منك عليه. أفشه: حدّث به وانشره. الارتقاء: الترفيع. رقّه: ارفعه. استحطّ: اتّضع. حُشّه: كنيفه وهو المستراح. التّبر: الذهب قبل السَّبْك. يستثار: يستخرج. النّبش: البحث عليه. الغباوة: الجهالة. رونق رقشِه: حسن زينته. مهذّباً: مخلصاً. دروس: إخلاق. بزّته: لُبسته. رثّة: ضعف. طمرين: ثوبين خَلَقين. هِيبَ: حِيف. مفوّف: مزين. لفحشه: لقبح كلامه. يَغْش عاراً: يدخله. أسماله: ثيابه البالية. مراقي: سلالم ومدارج. عرشه: سريره ومنزلته. العضب: السيف. قرابه: جفنه.

ومما ينتظم في هذا السلك أنّ النجّاد العدَوِيّ دخل على معاوية في عباءة فاحتقره، فقال: يا أمير المؤمنين إن العباءة لا تكلمّك، إنمّا يكلمك مَنْ فيها، ثم تكلّم فمَلأ سمعه بياناً، ثم خرج ولم يسأله شيئاً، فقال معاوية: ما رأيتُ رجلاً أحقر أوّلاً، ولا أجلّ آخراً منه.

وقال بعضهم : [البسيط]

إنـي وإنْ كـنـت أثـوابـي مـلـفّـقَـةٌ ... لـيـسـت بـخـزٍّ ولا مـن نـسـج كَـتّـانِ
فـإن فـي الـمـجـد همّاتي وفي لغتي ... فـصـاحـةً، ولـسـانـي غـيـرُ لـحّـانِ

وقال آخر : [الكامل]

هل ينفعنْك بعد شيبك في الهوى ... تـوقـيـر مـكـتـسـبٍ ولُـبْـس ثـيـاب
هيهات ما فخر المهنَّد في الوغي ... بــحــلــى غــمــدٍ فــوقــه وقِــرَابِ

وقال الخابزرزي : [البسيط]

لا تـنـظـرنّ إلـى أثـوابِ مـغـتـربٍ ... نـائـي الـمـحـلّ بـعـيـد الأهـل والـدَّارِ
وانـظـر إلـيـه إذا مـا قـام فـي مـلأ ... بـمـنـطـقٍ لـذوي الألـبَـاب سَـحَّـارِ

وقال المعري : [الطويل]

وإن كـان فـي لـبـس الـفـتـى شـرف لـه ... فـمـا الـسـيـف إلا غِـمْـدُه والـحـمـائـلُ[١]

وقال أبو هِفّان : [الطويل]

لَـعَـمْـري لـئـن بـيـعـت فـي دار غـربـةٍ ... ثـيـابِـيَ إن ضـاقـت عـلـيّ الـمـآكـلُ
فـمـا أنـا إلا الـسـيـف أخـلـق جـفْـنـه ... لـه حـلـيـة مـن نـفـسِـه وهـو عـاطـلُ

وقال لبيد : [الطويل]

أصبحت مثلَ السيف أخلق جَفْنُه ... تقادم عهد القين والسيفُ قاطعُ[٢]

وقال النَّمَري : [الطويل]

فـإن تـك أثـوابـي تـمـزَّقـن عـن بـلًـى ... فإني كنصل السَّيف في خلق الْغَمْدِ

كان بالكوفة رجل يعرف بأبي ذؤيب، وكان مقصداً للشعراء، فدخل مجلسه محمد ابن حازم الباهليّ، وعليه ثياب رَثّة، وهم يتكلمون في معاني الشعر، فسأله ابن حازم عن بيت للطِرّماح، فردّ أبو ذؤيب جواباً محالاً، وهو في ذلك كالمزدري لابن حازم، فوثب مغضَباً فقيل له: ماذا فتحتَ على نفسك الشرّ؟ أتدري من احتقرت؟ قال: لا قيل: هو أخبث الناس لساناً، وأهجاهم، هذا ابن حازم، فوثب حافياً حتى لقيه وحلف أنه لم يعرفه واستقاله فأقاله، وقال : [الكامل]

أخـطـا عـلـيّ وردّ غـيـرَ جـوابـي ... وزري عــلــيّ وقــال غــيــر صــوابِ

(١) البيت في سقط الزند ص ٥٢٦.
(٢) البيت في ديوان لبيد بن ربيعة ص ١٧١.

وسكتّ من عجبٍ لذاك فزادني فيما كرهت بظنّه المرتابِ
وقضى عليّ بظاهرٍ من كُسْوةٍ لم يدرِ ما اشتملت عليه ثيابِي
من عِفَّةٍ وتكرّم وتجملٍ وتجلدٍ لمصيبةٍ وعقابِ
لكنه رجعت عليه ندامةً لما يسبّ وحاف مضَّ عتابي
فأقلته لمّا أقرَّ بذنبه ليس الكريم على الكريم بنابِ

وكان ابن حازم ساقط الهمة، يرضيه اليسير على انطباعه في شعره.

وقال حماد بن يحيى: قال لي ابن حازم يوماً: ما بقي عليّ شيءٌ من اللذات إلاّ بيع السنانير: فقلت له: ويحك! وأيّ في ذلك من اللذة؟ قال: يعجبني أن تجيء العجوز الرّعناء تخاصمني، وتقول: هذا سَنّوري سرق، فأخاصمها، فتشتمني، فأشتِمُها وأغيظها ثم أنشد: **[المجتث]**

صِلْ خمرةً بخمّارِ وصِلْ خماراً بخمرِ
وخذ نصيبك من ذَا وذا إلى حيثُ تدري

فقلت: إلى أين ويحك! فقال: إلى النار يا أحمق.

* * *

ثُمَّ ما عَتَّم أنِ اسْتَوْقفَ الملاّحَ، وصَعِد من السّفِينَةِ وسَاحَ، فندم كلٌّ مِنَّا عَلَى ما فرّط في ذاتِهِ، وأغْضَى جَفْنَهُ على قَذَاتِهِ، وتعاهَدْنا على ألاّ نحتِقرَ شخْصاً لرثاثَةِ بُرْدِه، وألاّ نزدَرِي سيفاً مخبوءاً في غمدِهِ.

* * *

قوله «ما عتّم»، أي ما أبطأ ولا تأخّر، ويقال: عَتّم القِرَى، إذا تأخر، وأعتم حاجته: أخّرها، ومنه صلاة العتَمة لتأخرّ وقتها. استوقف الملاّح: أمر خادم السفينة بالوقوف. صعد: ارتقي وارتفع. ساح: ذهب في الأرض. في ذاته: أي في نفسه. أغضى جفنه: سدّ عينه. قذاته: عاره وعيبه الذي تلقّى به السروجيّ عند الدخول في السفينة. والقذاة: ما يسقط في العين فيوجعها. نزدري: نحتقر. لرثاثة بُرْده: لإخلاق ثوبه. الله تعالى الموفق.

المقامة الثالثة والعشرُون

وَهي الشِّعريّة

حَكَى الحارثُ بن هَمّام، قال: نبَا بِي مَألَفُ الْوَطَنِ، في شَرْخِ الزَّمَن؛ لِخَطْبٍ خُشِي، وَخَوْفٍ غَشِي؛ فأرَقْتُ كَأسَ الكرَى، ونَصَصْتُ ركابَ السُّرَى، وجُبْتُ في سَيْرِي وُعُوراً لَمْ تُدَمِّثْها الخُطَا، ولا اهْتَدَتْ إلَيْهَا الْقَطَا؛ حَتَّى وَرَدْتُ حِمَى الخِلاَفَة، والحَرَمَ الْعَاصِمَ من المخافَة، فَسَرَوْتُ إيجاسَ الرَّوْعِ واسْتِشْعَارَهُ، وتسْربَلْتُ لِبَاس الأمْنِ وشِعَاره. وقصرتُ هَمّي على لَذَّةٍ أَجْتَنِيها، وَمُلْحَةٍ أَجْتَلِيهَا. فبرزتُ يوماً إلى الْحَرِيم لأرُوضَ طِرْفِي، وأجِيلَ في طُرُقِهِ طَرْفِي؛ فإذا فُرْسَانٌ متتالون، وَرِجَالٌ مُنْثالونَ، وشيخٌ طويلُ اللِّسانِ، قَصِيرُ الطَّيلَسانِ، قَدْ لَبَّبَ فتًى جديد الشباب، خَلَقَ الجِلْبَابِ؛ فركَضْتُ فِي إثْرِ النَّظارة؛ حتّى وافينَا بابَ الإمارة، وهناك صاحبُ المعونةِ متربّعاً في دَسْتِهِ، ومروِّعاً بِسَمْتِهِ.

***

قوله «نبا بي» أي قَلِق ولم يوافقني. الوطن: المنزل. ومألفه. موضع الاجتماع به والتأليف فيه.

شرْخ: أوّل، أراد في أول زمانه وشبابه. خطْب: أمر مخوّف. خُشِي: خِيفَ. وغَشِي: نزل وغطّى.

أرَقْت: هرقت، وجعل للكرى وهو النوم كأساً مجازاً، وكنى بهرقها عن إزالة النوم عن عينه. نَصصْت: رفعت وحرّكت ركاب السّرى: إبل السّير. جُبْت: قطعت. وعوراً: طُرقاً صعبة. تدمّثها: تسهّلها وتليّنها. الخُطا هنا: الأقدام، وقوائم الحيوان. والقطا: طائر وقد تقدم. وهدايتها: فيما زعموا أنها تترك فراخها بالصحراء، وتذهب عند طلوع الشمس لطلب الماء من مسيرة عشرين ليلة فما دونها، فيَرِدْنه ضحْوةَ يومهنّ فيحملن الماء لفراخهنّ فينهُلنهنَ ثم يرجعن بعد الزوال إلى تلك المسافة، فيشربن ويأتين فراخهنّ في عشية يومهنّ فيسقينهنّ عللاً بعد نهَل، ولا يخطئن مواضع فراخهنّ، فيقال لذلك: أهْدَى من القطا، قال الشاعر: [الطويل]

تميم بطرق اللؤم أهدى من القَطَا ... ولو سلكتْ سُبْلَ المكارم ضَلّتِ[1]

ولو أنّ بُرغوثاً على ظهر قملة ... رأته تميمُ يوم زحفٍ لولّتِ

وقال حميد بن ثور: [الطويل]

كما اتصلتْ كدْراء تسقِي فراخها ... بِعَرْدَةَ رِفْهاً والمياه شُعوب[2]

فجاءت ومَسْقاها الذي وردتْ به ... إلى الصدر مشدود العِصَامِ كئيبُ

تبادر أطفالاً مساكينَ دونها ... فَلاً لا تخطّاه الرقابُ رغِيبُ

وصفن لها غوثاً بأرض تنوفةٍ ... فما هي إلاّ نهلة وتؤوبُ

قوله: «حمى الخلافة»، هي بغداد. الحرم: موضع الأمن. العاصم: المانع. سروت: أزلت. إيجاس الروع: إحساس الفزع والخوف. واستشعاره، استفعال من شعرت بالشيء. تسربلت: لبست سِرْبالاً. قصرت همي: حبست همتي وإرادتي. مُلَحهُ: طُرْفة وشيء عجب. أجتليها: أنظرها. الحريم: موضع متسع حول قصر الملك يجتمع فيه أجناده وغيرهم. أروض: أعلّم وأسوس. طِرْفي: فرسي. أجيل: أمشي. متتالون: متتابعون. منثالون: منصبون لكثرة جريهم. الطيلسان: ثوب خَزّ أخضر. لبّبَ: جعل في عنقه ثوباً وقاده به، وأخذ بتلابيبه وهي أطوق ثوبه، والتلابيب مأخوذة من اللبّة وهي وسط الصدر. جديد الشباب، أي فتّي السن، وتقدم الجلباب.

ركضت في أثر النظارة، أي خلف الناظرين لما يفعل به، ومن شأن الغوغاء والعامة إذا رأوا محبوساً أو مضروباً أن يتبعوه ويتكاثروا عليه. ونظر عمر رضي الله عنه إلى قوم يتبعون رجلاً مُريباً، فقال: لا مرحباً بهذه الوجوه التي لا تُرى إلاّ عند الشرّ. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ما اجتمعوا قطّ إلا ضَرُّوا ولا تفرقوا إلاّ نفعوا، قيل له: قد علمنا ضرّ اجتماعهم. فما نفع افتراقهم؛ قال: يذهب الحجّام إلى دكانه، والحدّاد إلى كِياره، وكلّ صانع إلى صنعته. وقال دعبل: [البسيط]

ما أكثَر الناس لا بلْ ما أقلّهمُ ... والله يعلم أنّي لم أقُلْ فَندا[3]

إني لأفتح عيني حين أفتحُها ... على كثير، ولكن لا أرى أحدا

ومرّ علي بن الجهم بمبرسم، والناس قد تجمّعوا حوله، وحلّقوا به، فلما رآهم المبرسم أخذ بِعنان فرسه وأنشأ يقول: [الكامل]

---

(١) البيتان للطرماح في عيون الأخبار ١/ ٣١١، وهما ليسا في ديوانه.

(٢) البيت الأول في ديوان حميد بن ثور ص ٥٣، ولسان العرب (شمظ)، وتاج العروس (شمظ)، وتهذيب اللغة ١١/ ٣٣٣، وهو بلا نسبة في المخصص ٩/ ١٥٤، وجمهرة اللغة ص ١٣٠٣.

(٣) البيتان في ديوان دعبل ص ٦٣.

لا تحفلن بمعشر الهـ ... ـمج الذين تراهمُ
فبحق مَنْ أبلي بهم ... نفسي ومن عافاهمُ
لو قيس مولاهم بهم ... كانوا إذا مولاهمُ

ثم نظر حوله، فرأى غلاماً جميل الوجه، حسن اللبسة، فهجم عليه وشقّ ثيابه وهو يقول: [الكامل]

هذا السعيد لديهمُ ... قد صار بي أشقاهمُ

وافينا: وصلنا. صاحب المعونة: والي الجنايات، وقال الرستميّ: وَلِيَ فلان المعونة، أي ولي العون، أي ولاّه السلطانَ عَوْنَه على حفظ المدينة ولفظها مفعولة وهي بتأويل المصدر بمنزلة قولهم: ماله معقول، أي عقل ولا مجلود أي جلد.

مروّعاً بسمته، أي مفزعاً بهيئته ووقاره.

* * *

فقال لَهُ الشَّيْخُ: أعَزَّ اللّٰهُ الوالِي، وجَعَلَ كَعْبَهُ العالي، إنّي كَفَلْتُ هَذَا الْغُلاَمَ فَطِيماً، وربَّيْتُهُ يتيماً؛ ثمَّ لَمْ آلُهَ تعليماً. فَلَمَّا مَهَرَ وَبَهَرَ، جَرَّدَ سَيْفَ الْعُدْوَانِ وَشَهَرَ، وَلَمْ أَخَلْهُ يَلْتَوِي عَلَيَّ ويتقِح، حِينَ يَرْتَوِي مِنِّي وَيَلْتَقِحُ. فقال له الفَتَى: عَلاَمَ عَثَرْتَ مِنِّي؛ حتَّى تنشرَ هذا الخزْيَ عَنِّي، فواللّٰهِ ما سَتَرْتُ وَجْهَ بِرِّكَ، وَلاَ هَتَكْتُ حِجابَ سِتْرِكَ، وَلاَ شَقَقْتُ عَصَا أمْرِك، وَلاَ أَلْغَيْتُ تِلاَوَةَ شُكْرِكَ.

فقالَ له الشيخُ: وَيْلَكَ وأيُّ رَيْبِ أَخزَى مِنْ رَيْبِكَ، وهَلْ عَيْبٌ أَفْحَشُ مِنْ عَيْبِكَ، وقَدِ ادَّعَيْتَ سِحْرِي واستلْحقتَهُ، وانْتَحَلْتَ شِعْرِي واسْتَرَقْتَهُ، واستراقُ الشِّعرِ عند الشعراء، أفظعُ من سَرِقةِ البيضاءِ والصَّفراء، وغَيْرَتُهُمْ عَلَى بناتِ الأفكار، كغيرتِهِمْ على البناتِ الأبكار. فقال الوالِي للشَّيخ: وهَلْ حِينَ سَرَقَ سَلَخ، أم مَسَخ أم نسخ!

* * *

جعل كعبه العالي، أي جعل أسفل شيء منه يعلو أرفع شيء في غيره. كفلته: ضممته وقمت بمؤنته.

أبو هريرة رضي الله عنه، قال النبي ﷺ «أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين ـ وهو يشير بإصبعيه ـ وخير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه، وشرها يتيم يساء إليه»[١].

---

(١) أخرجه البخاري في الطلاق باب ٢٥، والأدب باب ٢٤، ومسلم في الزهد حديث ٤٢، وأبو داود في الأدب باب ١٢٣، والترمذي في البر باب ١٤، ومالك في الشعر حديث ٥، وأحمد في المسند ٢/ ٣٧٥، ٥/ ٣٣٣.

أبو أسامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من مسح على رأس يتيم لم يمسحه إلا لله، كانت له بكل شعرة مرَّت عليها يده حسنة، ومن أحسن إلى يتيم أو يتيمة كنت أنا وإيّاه في الجنة كهاتين ـ وفرّق بين إصبعيه»(١).

فطيما: أي صغيراً كما منع الرضاع. لم آله: أي لم أقصر في تعليمه. مَهَر: ظهر وصار ماهراً أي حاذقاً. بَهَر: غلب أمثاله. العدْوان: الظلم. يلتوي: ينعطف، لضرّي وهو من فعل الحيَّة إذا أتبعها الرجل التوث عليه لتلسعه. يتّقح: يسقط حياؤه. يلتقح: يشرب لبن لقحتي، واللقحة: الناقة ذات اللبن. عثرت: اطلعت. الخزي: العار والشرّ، والخزي: الهوان. هَتَكْتُ: خرقت. حجاب سترك: أي ثوب طاعتك. ولا شققت عصا أمرك، أي ما خالفت حكمك، وشقّ فلان العصا: خرج عن الأمر مخالفاً. وشقّ عصا المسلمين: فرّق جماعتهم، والأصل في العصا الائتلاف والاجتماع، ومنه قولهم للمطمئن: ألقى العصا، وقيل شَقُّ العصا: صار منها في شقّ وخرج عن الجماعة، وفسر قوله تعالى: ﴿**شاقُّوا الله ورسوله**﴾ [الأنفال: ١٣] بالمباينة، لأن من صار في شق عن شق صاحبه فقد باينه، وقيل: معنى شقّ العصا رهب إلى شقّها أي كسرها، فجيء بالشقّ الذي هو من صفة العصا؛ وفي ضمنه المجاهرة بالخروج عن الجماعة قال الشماخ: **[الطويل]**

تصدّع شعب الحيّ وانشقّت العصا ... كذاك النوى بين الخليط شقوق(٢)

ألغيت: تركت. تلاوة: قراءة، والريب: الريبة والتهمة. أخزى: أضرّ، وأكثر هواناً. أفحش: أقبح. ادّعيته: نسبته لنفسك وليس لك. سحري: بديع كلامي. استلحقته: ألحقتَه بنفسك. انتحلت: ادّعيت. أفظع: أمرّ. البيضاء والصفراء: الفضة والذهب. بنات الأفكار: هي الأشعار. سلخ: أخذ المعنى. مسخ: قلب الكلام وغيَّره. نسخ: نقله بعينه.

والقائلون بالتناسخ لهم ألفاظ تشبه هذه، وهي النسخ والمسخ والرسخ والفسخ؛ فالفسخ عندهم أن يحوّل الأدنى إلى الأعلى، والمسخ أن يحوّل الأعلى من الحيوان إلى الأدنى، والرسخ ردّ الحيوان جماداً، والفسخ أن يتلاشى فلا يكون شيئاً، وقال شاعرهم: **[الوافر]**

تعوّذْ بالإله من الممسوخ ... وسله أن تكونُ من النُسوخِ(٣)

لقد خاب الذي أضحى وأمسى ... يُنقَّلُ في فسوخٍ أو رسوخِ

وقال المعري: **[الطويل]**

وقال بأحكام التناسخ معشرٌ ... غلَوْا فأجازوا الفسخ في ذاك والرَّسْخا(٤)

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٥/ ٢٥٠.

(٢) البيت في ديوان الشماخ ص ٢٤٢.

(٣) البيتان بلا نسبة في شرح اللزوميات ١/ ٢٢٤.

(٤) البيت في اللزوميات ص ٢٢٥.

[السرقات الشعرية]

وتقسيم الحريري السرقة في قوله: سلخ ومسخ ونسخ، يدخل تحت أحكام السرقات التي عدَّها أبو محمد الحسين بن علي بن وكيع رحمه الله تعالى في كتابه المترجم بالمنصف في الدلالات على سرقات المتنبي، فإنه جعلها عشرين وجهاً عشرة أوجه يُغفر في سرقتها ذنب الشاعر للدلالة على فطنته.

الأول منها استيفاء اللفظ الطويل في الموجز القصير، كقول طَرَفة: [الطويل]

أَرَى قبر نحّامٍ بخيلٍ بماله كقبر غويٍّ في البطالة مفسدِ[1]

اختصره ابن الزِّبَعْرى، فقال: [الوافر]

والعطيَّات خِساس بينهمْ وسواء قبر مثرٍ ومُقِلْ[2]

ففضل صدر بيته وجاء ببيت طرفة في عجز بيت أقصر منه بمعنًى لائح ولفظ واضح.

الثاني: نقل اللفظ الرذل إلى الرشيق الجزل، كقول العباس بن الأحنف: [الرمل]

زعموا لي أنها باتت تُحَمّ ابتلى الله بهذا من زعمْ[3]

اشتكت أكمل ما كانت كما يُكْسَفُ البدر إذ ما قيل تَمْ

فهذا معنى لطيف أخذه ابن المعتز فقال: [الطويل]

طوى عارضُ الحمَّى سَنَاهُ فحالاَ وألبس ثوباً للسّقام هُزَالاَ

كذا البدرُ محتومٌ عليه إذا انتهى إلى غايةٍ في الحسنِ عاد هِلاَلاَ

الثالث: ما قبح مبناه دون معناه إلى ما حسن مبناه ومعناه، كقول أبي نواس: [الرمل]

بُحَّ صوتُ المال مِمّا منك يدعو أو يصيحُ[4]

ما لهذا آخذٌ فوْ ق يديه مَنْ يصيحُ

معناه صحيح ولفظه قبيح، أخذه مسلم فقال: [البسيط]

تظلم المال والأعداء من يده لا زال للمال والأعداء ظَلاَّما

فجوّد الصنعة وجمع بين تظلمين كريمين، ودعا للممدوح بدوام ظلمه للمال

---

(١) البيت في ديوان طرفة بن العبد ص ٣٣، ولسان العرب (نحم)، وتهذيب اللغة ٤/ ٣٨١، وتاج العروس (نحم)، وهو بلا نسبة في كتاب العين ٣/ ٢٥٢.

(٢) البيت في ديوان عبد الله بن الزبعرى ص ٤١، وتاج العروس (لبط)، وهو بلا نسبة في المخصص ٣/ ٩٣.

(٣) البيتان في ديوان العباس بن الأحنف ص ٢٥٢، وديوان المعاني ٢/ ١٦٥.

(٤) البيتان في ديوان أبي نواس ص ٧٠.

والأعداء، وكلّ ذلك مليح جزل نقل عن ضعيف المبنى.

الرابع: عكس ما يصير بالعكس ثناء بعد ما كان هجاء، كقول البلاذري: [الكامل]

قد يرفع المرء اللئيم حجابُهُ ضعةً ودون الرُفْ منه حجابُ

معكوسه: [الكامل]

ملكٌ أغرّ محجّبٌ معروفه لا يُحجبُ

الخامس: استخراج معنى من معنى احتذى عليه وإن فارق ما قصد إليه، كقول أبي نواس في الخمر: [مخلع البسيط]

لا ينزل الليل حيث حلّتْ فدهرُ شُرّابِهَا نَهارُ(١)

احتذاه البحتري وفارق مقصده، فجعله في محبوب، فقال: [مخلع البسيط]

غاب دجاها وأيّ ليل يدجو علينا وأنت بدر

السادس: توليد كلام من كلام لفظهما مفترق، ومعناهما متفق، كقول أبي تمام: [الطويل]

لأمرٍ عليهم أن تَتِمّ صدورُه وليس عليهم أن تَتِمّ عواقبهْ(٢)

أخذه من قول الأعرابيّ، أنشده الأصمعيّ رحمه الله تعالى: [الوافر]

فكانَ على الفتى الإقدامُ فيها وليس عليه ما جَنَتْ الْمَنُونُ(٣)

فجرد لفظه مَنْ أخذ منه، وهو في معناه متفق معه؛ وهذا من أدل الأقسام على فطنة الشاعر.

السابع: في توليد معانٍ مستحسنات في ألفاظ مختلفات، وهذا من أشذّ باب وأقلّه وجوداً، وإنمّا قلّ لأنّه من أحق ما استعمَل فيه الشاعر فطنته؛ كقول أبي نُوَاس: [الرمل]

واسْقِنيهَا من كُمَيْتٍ تَدَعُ اللّيلَ نهارَا(٤)

ثم قال أيضاً: [مخلع البسيط]

لا ينزل الليل حيث حَلّتْ فدهرُ شُرَّابها نهارُ(٥)

---

(١) البيت في ديوان أبي نواس ص ٢٧٤.

(٢) البيت في ديوان أبي تمام ص ٤٤.

(٣) يروى صدر البيت:

فإن على الفتى الإقدام فيها

وهو بلا نسبة في لسان العرب (منن)، وأساس البلاغة (منن)، وتاج العروس (منن).

(٤) البيت في ديوان أبي نواس ص ٢٧٤.

(٥) ديوانه ص ٢٧٤.

ثم قال أيضاً: [الكامل]

قال ابغني المصباح قُلت له اتئِد حسبي وحسبك ضوءُها مصباحا[١]

فكل هذه معان متقاربات وألفاظ متشابهات، مولّد بعضها من بعض.

الثامن: مساواة الآخذ المأخوذ منه في الكلام حتى لا يزيد نظام على نظام، وإن كانَ الأوّل أحقَّ به لأنه ابتدع، والثاني اتّبَع، من ذلك قول العكوّك في فرس: [الرجز]

مطّرد يرتجّ من أقطارِه كالماء جالت فيه ريحٌ فاضْطَرَبْ

فذكر ارتجاجه، ولم يذكر سكونه، فأخذه ابن المعتزّ فقال: [الكامل]

فكأنه موجٌ يذوب إذا أطلقتَه، فإذا حبسَتَ جَمدْ

فجمع بين الصفتين.

التاسع: مماثلة السارق المسروق بزيادته في المعنى ما هو من تمامه؛ كقول أبي حيّة: [الطويل]

فألقت قناعاً دونه الشَّمْسُ واتَّقَتْ بأحسن موصولَيْن: كفٌ ومِعْصَمِ

أخذه من قول النابغة: [الكامل]

سَقَط النَّصِيف ولم ترد إسقاطَهُ فتناولته واتَّقَتْنا بالْيَدِ[٢]

فلم يزد النابغة على اتقائها باليد، وزاد عليه أبو حيَّة بقوله: «دونه الشمس» وخَبَّر عن المتَقّي بأحسن خبر فاستحقّه.

العاشر: رُجْحَانَ السَّارق على المسروق منه بزيادة لفظ على لفظ مَنْ أخذ عنه، كقول حسان: [الكامل]

يُغْشَوْنَ حتى ما تهرّ كلابُهُمْ لا يَسألون عن السَّوَادِ المقبلِ[٣]

وقال أبو نواس رحمه الله تعالى: [الطويل]

إلى بيت حانٍ لا تهرّ كلابُهُمْ عليّ ولا يخشون طول ثوائي

ولا فرق بين المعنيين.

---

(١) ديوانه ص ٢٥٦.

(٢) البيت للنابغة الذبياني في ديوانه ص ٩٣، والشعر والشعراء ١/ ١٧٦، والمقاصد النحوية ٣/ ١٠٢، ولسان العرب (نصف)، وبلا نسبة في شرح الأشموني ١/ ٢٥٩.

(٣) البيت في ديوان حسان بن ثابت ص ١٢٣، وخزانة الأدب ٢/ ٤١٢، والدرر ٤/ ٧٦، وشرح أبيات سيبويه ١/ ٦٩، وشرح شواهد المغني ١/ ٣٧٨، ٢/ ٩٦٤، والكتاب ٣/ ١٩، ومغني اللبيب ١/ ١٢٩، وهمع الهوامع ٢/ ٩، وتاج العروس (جبن)، وبلا نسبة في شرح الأشموني ٣/ ٥٦٢.

والسرقات المحمودة أكثر من أن تحصر.

ونريك وجه السرقات المذمومة، وهي كالمحمودة عشرة أقسام:

الأول: نقل اللفظ القصير إلى الطويل الكثير، كقول سالم الخاسر: [السريع]

أقْبَلْنَ في رأد الضحى بِنا يَسْتَرنَ وجْهَ الشَّمْس بالشَّمْسِ

أخذه الثاني فقال: [الكامل]

وإذا الغزالة في السماء تعرَّضتْ وبدا النهار لوقته يترحَّلُ
أبدتْ لعينِ الشمس عيناً مثلها تلقى السماء بمثل ما تستقبل

المعنى صحيح والكلام مليح؛ غير أنه تطويلٌ تضييق، والبيتان جميعاً نصف بيت سالم.

الثاني: نقل الرشيق الجزل إلى المستضعف الرذْل، كقول القائل: [المنسرح]

كأنّ ليلى صبير غادية أو دُمْيَةٌ زيِّنَتْ بها البِيَعُ

أخذه أبو العتاهية فقال: [السريع]

كأنّ عتَّابَةَ من حُسْنِها دُمية قَسٍّ فتنت قَسَّهَا

فقصر لفظه عن الفصاحة، ومعناه عن الرجاحة.

الثالث: نقل ما حَسُنَ معناه ومبناه إلى ما قبح مبناه ومعناه، كقول امرىء القيس: [الطويل]

أَلَمْ تَرَياني كُلَّما جئتُ طارقاً وجدتُ بها طيباً وإنْ لَمْ تطَيَّبِ[1]

فأتي بمالاً يعلم وجوده في البشر من وجود طيب ممّن لم يمسّ طيباً، وجاء ببيتٍ في مراده، حسن النظام مستوفي التمام، أخذه كُثَيِّرٌ، فقال:

فما رَوْضَةٌ بالحسن طيبة الثَّرَى يمجّ النَّدَى جَثْجَاثُها وعَرَارُهَا[2]
بأطيبَ من أرْدَانِ عزّة موهِناً إذا أوقِدَتْ بالمندل الرطب نارُهَا

فطوّل وحسَّن، وقصّر غاية التقصير، وأخبر أنها إذا تطيّبت كالروضة في طيبها، وذلك مما لا يعدم في أقل البشر تنظيفاً.

---

(١) البيت في ديوان امرىء القيس ص ٤١، والأشباه والنظائر ٨/ ٨٥، ولسان العرب (ندل)، (محل)، ويروى «ألم تَرَ أنّي» بدل «ألم ترياني».

(٢) البيتان لكثير عزة في ديوانه ص ٤٢٩، ٤٣٠، وجمهرة اللغة ص ١١١٨، والخصائص ٣/ ٢٨١، والأغاني ١٥/ ٢٧٤، وبلا نسبة في لسان العرب (جثث)، وتاج العروس (جثث)، ويروى البيت الثاني:

بأطيب من فيها إذا جئت طارقاً وقد أوقدت بالمجمر اللَّدْنِ نارُها

وهو بلا نسبة في لسان العرب (جثث)، وتاج العروس (جثث).

الرابع: عكس ما يصير بالعكس هجاء بعد أن كان ثناء، كقول أبي نواس رحمه الله تعالى: [مجزوء الرمل]

فـهـو بـالـمـال جـوادٌ وهـو بـالـعِـرْضِ شـحـيـحُ[1]

عكَسَه ابن الرومي فقال:

مـا شـئـت مـن مـال حـمًـى يـأوِي إلـى عِـرْض مـبـاحِ

الخامس: نقل ما حسنت أوزانه وقوافيه إلى ما قبح وثقل على لسان راويه، كقول مسلم رحمه الله تعالى: [الكامل]

أمّا الـهِـجاء فـدقّ عـرضُـك دونـهُ والـمدْحُ عنك كما علمتَ جليلُ
فـاذهبْ فأنت طليق عِرْضِك إنَّه عِـرْضٌ عـزِزتَ بـه وأنـت ذلـيـلُ

أخذه أبو تمام فقال: [الخفيف]

قـال لـي الـنَّـاصِـحُـونَ وهـو مـقـالٌ ذمّ مـن كـان جـاهـلاً إطـراءُ
صـدقـوا فـي الـهِـجَـاءِ رفـعـةَ أقـوا م طـغـامِ فـلـيـس عـنـدِي هِـجَـاءُ

فبين الكلامين فرق بعيد.

الثامن: نقل العذب من القوافي إلى المستكره الجافي، كقول أبي نواس: [المديد]

فـتـمـشّـتْ فـي مـفـاصـلـهِـمْ كـتـمـشّـي الـبـرء فـي الـسَّـقَـمِ

فهذا الكلام أتم بهاء من قول مسلم: [البسيط]

تجري محبَّتُها في قلبِ عاشقها جَرْي المعافاة في أعضاء منتكِسِ

التاسع: نقل ما يصير على التفتيش والانتقاد إلى تقصير وإفساد، كقول القائل: [الكامل]

ولـقـد أروح إلـى الـنـجـار مـرجّـلاً مـدلـي بـمـا لـي لـيـنـا أجـيـادي[2]

وإنما له جِيد واحد، وهذا وإن جاز عند بعض العرب، فهو عند الآخرين غير حميد ولا سديد.

---

(١) البيت في ديوان أبي نواس ص ٧٠.

(٢) يروى البيت:

ولـقـد أروح إلـى الـتِّـجـار مـرجّـلاً مَـذِلاً بـمـا لـي لـيِّـنـاً أجـيـادي

وهو للأسود بن يعفر في ديوانه ص ٢٩، ولسان العرب (تجر)، (مذل)، والمخصص ١٣/ ٢٣٤، وتهذيب اللغة ١٤/ ٤٣٥، وشرح اختيارات المفضل ص ٩٧٤، وتاج العروس (مذل)، وأساس البلاغة (مذل)، وبلا نسبة في لسان العرب (جيد)، وجمهرة اللغة ص ٧٠١.

العاشر: أخذ اللفظ والمعنى وهو أقبح السرقات وأدناها وأوضعها.

وقد أكثر الشعراء ذم السرقة والسارق، وأول من ذمَّ ذلك طَرَفة حين قال: [البسيط]

ولا أُغير على الأشعار أسرقها عنها غنيتُ وشرّ الناس مَنْ سَرقا[1]

وقال الأعشى: [المتقارب]

فكيف أنا وانتحالي القوا في بَعْدَ المشيبِ، كفى ذاك عارا[2]

ومن سرقة اللفظ والمعنى، ما يحكى عن أبي المعافى أنه لما مدح أبا العباس محمد بن إبراهيم الإمام بقوله: [الوافر]

إليك بمدحتي يا خير أبنا رسول الله مَنْ تَلِدُ النّساءُ

ستأتيك المدائح من رجالٍ وما كفٌّ أصابعُها سواءُ

فأخذه آخر وغيّره بأن وضع الرجال موضع النساء، وغيّر عجز البيت الآخر فقال: [الوافر]

* كما اختلفت إلى الغَرَضِ النّبَالُ *

فاستعدي عليه أبا المعالي صالح بن إسماعيل، وهو على شُرْطة محمد بن إبراهيم بالمدينة، فقال: [البسيط]

ما سارقُ الشعر فيه وَسْمُ صاحبه إلاّ كسارق بيتٍ دونَه غَلَقُ

بَلْ سارق البيت أخفى حين يسرِقُه والبيت يستره من ظلمةٍ غَسَقُ

من جيّد الشعر أن يخفى لسارقه وجيّد الشعر قد سارت به الرفَقُ

فقال صالح: فما تحب أن أفعل به؟ فقال: تحلّفه عند منبر النبيّ ﷺ ألاّ ينشد هذا الشعر إلا لي.

وكان محمد بن زهير يشرب، فإذا سكر لا يفيق إلا بإنشاد الشعر، فأمر يوماً جبّار ابن محمد الكاتب أن ينشده، فأنشده أبياتاً لأبي نواس ادعى أنه قائلها وهي: [الخفيف]

صاحِ ما لِي وللرسوم القفارِ ولِنَعْتِ المطيّ والأكوارِ

شغلتني المدام والقصْف عنها وسماع الغناء والمزمارِ

ومضى في الشعر، وأبو نواس قاعد، فوثب وتعلّق به قدّام محمد بن زهير، وأنشأ يقول: [الخفيف]

---

(١) البيت في ديوان طرفة بن العبد ص ٢١٦.

(٢) البيت في ديوان الأعشى ص ١٠٣، وتخليص الشواهد ص ١٠٣، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ٧٠٩، وشرح شواهد الإيضاح ص ٢٧٣، ولسان العرب (نحل)، وهو بلا نسبة في رصف المباني ص ١٤، ٤٠٣، وشرح المفصل ٤/ ٤٥، والمعرب ٢/ ٣٥.

أغْـدِنـي يـا مـحـمـد بـن زهـيـر ... يـا عـذاب الـلّـصـوص والـذّعـارِ
يـسـرق الـسـارقـون لـيـلاً وهـذا ... يـسـرق الشـعـر جـهـرة بـالـنّـهـارِ
صـار شـعـري قـطـيـعـة لـجـبـارِ ... أفــهــذا لــقــلــة الأشــعــار!
قـل لـه فـلـيُـغِـزْ عـلـى شـعـر حـمّـا ... د أخـي الـفـتـك أو عَـلَـى بـشّـارِ

وسرق محمد بن يزيد الأموي شعراً لحبيب، فقال حبيب: [الخفيف]

مَـنْ بـنـو مـجـدلٍ مَـنِ ابـنُ الـحـبـاب ... مَـنْ بـنـو تـغـلـبِ غَـدَاة الـكُـلاب
مَـنْ طـفـيـلٌ وعـامـر ومـن الـحـ ... ـارث أو مَـنْ عـتـيـبـة بـن شـهـابِ
إنـمـا الـضـيـغـم الـهـصـور أبـو الأشـبـ ... ـال جـبّـار كـل جـيـش وغـابِ
مَـنْ عَـدَتْ خـيـلـه عـلـى سـرح شـعـرِي ... وهـو لـلـحـيـن راتـع فـي كِـتـابـي
غـارة أسـخـنـت عـيـونَ الـمـعـانـي ... واسـتـبـاحـتْ مـحـارمَ الآدابِ
لـو تـرى مـنـطـقـي أسـيـراً ولأصـ ... ـبـحـتَ أسـيـراً لِـعـبْـرةِ وانـتـحـاب
يـا عـذارَى الأشـعـار صـرتـرّ مـن بـعـ ... ـدي سـبـايـا تُـبَـعْـنَ فـي الأعـرابِ
طـال رهـبـي إلـيـك يـا رب يـا ربّ و ... رغـبـي إلـيـك فـاحـفـظ ثـيـابـي

وعارض أبو أحمد عبد الله بن عبد الله بن طاهر قصيدة البحتريّ، فاستعار من ألفاظها ومعانيها ما أوجب أَن قال البحتري: [المنسرح]

مـا الـدّهـر مـسـتـنـفـدٌ ولا عـجـبُـهْ ... تـسـومـنـا الـخـسـفَ كـلّـه نُـوَبُـه[1]
نـال الـرضـا مـادح ومـمـتـدَحٌ ... فـقـل لـهـذا الأمـيـر مـا غـضـبُـهْ
أجـلـى لـصـوص الـبـلاد يـطـردُهُـمْ ... وظـلّ لـصُّ الـقـريـض يـنـتـهـبُـهْ
اردُدْ عـلـيـنـا الـذي اسـتـعـرتَ وقـل ... قـولـك يُـعـرفْ لـغـالـبِ غـلـبـه

واستعدى ابن الرومي العلاء بن عيسى على البحتريّ، فقال: [البسيط]

قل للعَلاَء بن عيسى والذي نصلت ... به الدواهي نصول الآل في رجَبِ[2]
أيـسـرقُ الـبـحـتـريّ الـنـاسَ شـعـرَهُـمُ ... جهراً وأنت نكال اللّص ذي الرِّيبِ
وتـارة يـتـرزُ الأرواح مـنـطـقُـه ... فـالـقـوم مـا بـيـن مـقـتـول ومـغـتـصبِ
نَـكِّـلْـهُ إنّ أنـاسـاً قـبـلـه ركـبُـوا ... بـدون مـا قـد أتـاه بـاسـقَ الـخـشـبِ
إذا أجـاد فـأوجِـبْ قـطـع مِـقْـوَلِـهِ ... فـقـد دهـا شـعـراء الـنـاس بـالـحـرَبِ
وإن أسـاء فـأوجـبْ قـتـلـه قـوَداً ... بـمـن أمـات إذا أبـقـى عـلـى الـسـلـبِ

(١) الأبيات في ديوان البحتري ١/ ٢٠٧.
(٢) الأبيات في ديوان ابن الرومي ص ٤١٤.

يسيء عفًا فإن أُكْدث وسائله | أجاد لصًا شديد البأس والكلبِ
حيّ يغير على الموتى فيسلبُهُمْ | حرَّ الكلام بجيش غير ذي لجبِ

وقال فيه ابن الحاجب: **[الخفيف]**

والفتى البحتريّ يسرق ما قا | ل ابن أوسٍ في المدْحِ والتَّشْبِيبِ
كلّ بيت له يجوّد معنا | ه فمعناه لابن أوسٍ حبيبِ

ولابن الحاجب أيضاً: **[الخفيف]**

هل إلى محنة تخبر مَنْ فا | ضلنا في القريض والمفضُولُ
محنة تفضح اللصوص وتقضِي | بالّذي فيهم قضَى التنزيلُ
سارق المال تقطع الكفُّ منه | واللسان السروق منها بديلُ
ليسود الذي يحق له السو | دَ دُمنّا ويرذل المرذولُ

وبلغ الصاحبَ بن عبّاد أن بعضهم سرق شعره، فقال أبلغوه عني: **[مجزوء الخفيف]**

سرقت شعرِي وغيري | يُضَام فيه ويُخدَعْ
فسوف أجزيك صَفْعاً | يَكلّ رأساً وأخدعْ
فسارقُ المالِ يُقْطَع | وسارق الشِّعر يُصْفعْ

فاتخذ السارق لذلك جملاً وهرب من الرّيّ.

وبين السريّ الموصليّ والخالديين مستظرفات في هذه السرقات، اشتهرت في كتب الآداب، فلنلمّ ببعض ما قال السري فيهما وفيه يقول الثعالبيّ: السريّ وما أدراك ما السريّ، صاحب الشّعر الجامع بين عقود الدرّ، والنافث في عُقَدِ السِّحْر؛ ولله درّه! ما أعذب بَحره، وأصفى قطرَه، وأعجب أمرَه! وقد أخرجت من شعره ما يكتب على جبهة الدّهر، ويعلّق في كعبة الظرف. وكتبت منه محاسن وملَحاً، وبدائع وطرفاً، كأنها أطواق الحمام وصدور البزاة البيض، وأجنحة الطواويس وسوالف الغزلان، ونهود العذارى الحسان، وغمزات الحدق الملاح.

قال يتظلَّم إلى سلامة بن فهد من الخالديين: **[الطويل]**

تحيّف شعري يا بن فهدٍ مصالتٌ | عليه فقد أعدمتُ منه وقد أثْرَى
وفي كل يوم للغبيَّيْن غارةٌ | تروّع ألفاظي المحجّلة الغرّا
إذا عنّ لي معنى تضاحك لفظه | كما ضاحك النوّار في روضه الغُدُرا
غريب كنشر الرّوْض لمّا تبسمت | مخائله للفكر أودعته سَطْرا
فوجه من الفتيان يمسح وجْهَه | وصدرٌ من الأقوام يسكُنه الصَّدْرا

تناوله مثرٍ من الجهل معدمٌ   من العلم معذور متى خلع العذرا
لأطفأتما تلك النجوم بأسْرِها   وأدنستما تلك المطارف والأزْرَا
فويْحكما هلاً بشطرٍ قنعتما   وأبقيتما لي في محاسنه الشَّطْرَا

وقال يخاطب أبا الخطاب، وقد سمع أن الخالديّين يرجعان إلى بغداد: [الكامل]

بكرتْ عليك معرَّة الأعراب   فاحفظ ثيابك يا أبا الخطاب
وَردَ العراق ربيعةُ بن مكَدّم   وعُتَيْبة بن الحارث بن شهاب
أفعندنا شكّ بأنّهما هما   في الفتك لا في صحة الأنساب
جلبا إليك الشعر من أوطانه   جَلْب التِّجَار طرائف الأجْلاَب
شنّا على الآداب أقبح غارةٍ   جرحت قلوب محاسن الآداب
فحذار من حركات صِلّي غارة   وحذار من فتكات ليثي غاب
تركت غرائب منطقي في غربة   مسبيّة لا تهتدي لإياب
أعزز عليّ بأن أرى أشلاءها   تدمي بظفر للعدوّ ونابِ
جرحي وما ضُربت بحدّ مهنّدٍ   أسرى وما حُملتْ على الأقتاب
إنْ عزّ موجود الكلام عليهما   فأنا الذي وقف الكلامُ ببابي
كم حاولا أمرِي فطال عليهما   أن يدركا إلاّ مثارَ ترابي

والقصيدة طويلة جمعتُ منها ما وافق الغرض، وسنلمّ بشيء منها في الثالثة والثلاثين بعون الله تعالى.

وقال يتظلم منهما لأبي البركات: [البسيط]

يا أكرمَ الناس إلا أن تعدّ أبا   فاتَ الكرام بآيات وآثارِ
أشكو إليك حليفي غارة شهرَا   سيف العقوق على ديباج أشعاري
ذئبين لو ظفرا بالشِّعر في حَرَم   لمزّقاه بأنياب وأظفارِ
سلاّ عليه سُيُوفَ البغي مصلَتةً   في جَحفلٍ من شَنِيع الظّلْم جرّارِ
وأرخصاه فظل العطر مُتَّهَماً   لديهما يُشترى من غير عطّارِ
إن قَلّداك بدرٌ فهو من نخبي   أو ختَّماك فياقوتي وأحجاري
كأنه جنة راقت حدائقها   بين الغبيّين في نار وإعصار
عار من النسب الوضاح منتسب   في الخالديين بين الخِزْي والعارِ

وشتّان بين قول السريّ في أبي بكر وأبي عثمان ابني هشام الخالديين، وبين قول الثعالبي فيهما حين قال: إنّ هذين لساحران، يُغربان فيما يجلبان، ويُبْدِعان فيما يصنعان،

وكان ما يجمعهما من أخوّة الأدب مثل ما ينظمهما من أخوّة النسب، وهما في الموافقة والمساعدة يجيئان بروح واحدة، ويشتركان في قول الشاعر وينفردان، ولا يكادان في السفر والحضر يفترقان، وكانا في التساوي، كما قال أبو تمام: **[المتقارب]**

رضيعي لِبانٍ شريكي عِنَانٍ ... عتيقي رهانٍ حليفي صَفَاءِ

بل، كما قال البحتري: **[الكامل]**

كالفرقديْن إذا تأمّل ناظرٌ ... لم يَعْلُ موضع فَرْقَدٍ عن فَرْقَدِ

بل كما قال الصابي: **[الطويل]**

أرى الشاعريْن الخالديّين نَشَرا ... قصائد يفني الدهر وهي تخلُدُ
جواهر من أبكار لفظ وعُونِه ... يقصّر عنها راجِزٌ ومقصِّدُ
تنازع قوم فيهما وتناقضوا ... ومرّ جدال بينهم يتردّد
فطائفة قالت سعيد مقدّمٌ ... وطائفة قالت لهم بل محمدُ
وصاروا إلى حكمي فأصلحت بينهمْ ... وما قلت إلاّ بالتي هي أرشَدُ
هما لاجتماع الفضلُ زوجٌ مؤلف ... ومعناهما من حيث ألفت مفردُ
كذا فرقدا الظلماء لمّا تشاكلا ... عُلاً أشْكَلاَ ذاك أم ذاك أمجدُ
فزوْجهما ما مثله في اتفاقه ... وفردُهما بين الكواكب أسعد
فقاموا على صلْح وقال جميعهم ... رضينا وساوى فرقدَ الأرض فرقدُ

وأفاضل الشأم والعراق، بعضهم يفضل السريّ عليهما، وبعضهم يفضلهما.

فهذا كله فصل في السرقات مستظرف، احتوى على فوائد من علم الأدب، وهي عشرون وجهاً والعشرون وجهاً في السرقة جلبتها من كتاب الوكيعي على اختصار.

* * *

فقال: والذي جعل الشِّعْرَ ديوانَ العرب، وَتُرْجُمَانَ الأدب، ما أحدث سِوَى أنْ بَتَر شَمْل شَرْحِهِ، وأغار على ثلثيْ سَرْحه. فقال له: أنشدْنا أبياتكَ بِرُمَّتِها؛ لِيَتَّضِحَ ما اخْتَاره مِنْ جملتها؛ فأنشد: **[الكامل]**

يا خاطِبَ الدُّنْيا الدَّنِيّةِ إنَّها ... شَرَكُ الرَّدَى وقَرَارَةُ الأكدارِ
دارٌ مَتَى ما أضْحَكَتْ فِي يَوْمِها ... أبْكَتْ غداً بُعْداً لَها مِنْ دارِ
وإذا أظَلَّ سَحَابُها لَمْ يَنْتَفِعْ ... مِنْهُ صَدًى لَجِهَامِه الغَرَّارِ
غارَاتُها ما تَنْقَضِي وأَسِيرُها ... لا يُفْتَدَى بِجلالَةِ الأخْطَارِ
كَمْ مُزْدَهٍ بِغُرُورِها حَتَّى بدا ... مُتَمَرِّداً مُتَجاوِزَ المِقْدارِ

قَلَبَتْ له ظهْرَ المجَنِّ وأَوْلَغَتْ ... فيهِ المُدَى ونزتْ لأخذِ الثّارِ
فَارْبأ بِعُمْرِك أنْ يَمُرَّ مُضيَّعاً ... فيها سُدًى مِنْ غيْرِ ما اسْتِظْهَارِ
واقطَعْ عَلائقَ حُبِّهَا وطِلابِهَا ... تَلْقَ الهُدَى ورفاهَةَ الأسْرَارِ
وارقُبْ إذا ما سَالَمَتْ من كَيْدِها ... حَرْبَ العِدَا وتَوَثُّبَ الْقَدَّارِ
واعْلَمْ بأنَّ خطُوبَهَا تَفْجَا ولَوْ ... طَالَ المَدَى وَوَنَتْ سُرَى الأقْدَارِ

* * *

قوله: «والذي جعل الشعر ديوان العرب»، أي كتاباً تدوّن فيه أخبارهم، قال النبيّ ﷺ: «إن هذا الشعر جَزْل من كلام العرب به يعطى السائل ويكْظَم الغيظ وبه يؤتى القوم في ناديهم». وعنه ﷺ أنه قال: «إنّ من الشعر لحكمة»[1] رواه ابن عمر رضي الله عنه قال: تعلّموا الشعر فإن فيه محاسنَ تُبتغى ومساوي تُتَّقى. وحكمة للحكماء ويدلّ على مكارم الأخلاق.

قوله: «يا خاطب الدنيا الدنية»، أي التي لا خير فيها، شرك: مصائد. الردى: الهلاك. قرارة: موضع يَستقِرّ فيه الماء. الأكدار: ما يتكدر به الماء الصافي.

أظلّ: دنا وقرب. ينتقع: يرتوي. صدى: عطش. جهامه: سحابه الذي لا ماء فيه. الغرّار: الخدّاع. تنقضي: تنقطع وتتم، أراد أن الدنيا تُهْلِكِ مَنْ فيها، فكنى بالأسير عن ذلك وأسير الموت لا يُفْدَى. الجلائل: جمع جليلة وهي الشيء الرفيع، وتقدمت الأخطار. مزدَهٍ: مُعجب. غرورها: خداعها. متمرداً: متجاوزاً الحد في الفساد.

المجنّ: التّرس. أولغت: جعلتها تلغ الدم. المدى، جمع مُدْية: السكين. نزت: وثبت عليه. الثأر: طلب الدم، وأراد أنها لما بسطت الأرزاق للإنسان فأعجِب بها، وركب رأسه في الفساد تحوّلت عليه، وسقت سِكِّينها من دمه، والعرب تقول: قلبت له ظهر المَجِنّ، أي غيّرت له حالي، وهو مثل يضرب للمحاربة بعد المسالمة، وأصله في الحرب، لأن الرجل إذا صالح صاحبه جعل بطن مِجَنّه مما يلي صاحبه المصالح، فإذا حاربه قلب له ظهره للقتال. ومن جواب رسالة المهلب إلى الحجاج: وزعمت أني إنْ لم ألْقَهُمْ في موضع كذا أسرعت إلى صدر الرمح، فلو فعلتُ لقلبتُ إليك ظهر المجن، ثم إذاً كانت الواقعة، فهذا يبيّن ما ذكرناه.

ارْبأ بعمرك، أي ارفع عنها نفسك واحتفظ فيها بعمرك، وتقول: ربأتُ القومَ أي صرت لهم ربيئة، وهو الحارس لهم، والمربأ: الموضع المشرف الذي يقعد فيه الناظر،

---

(١) روي بطرق وأسانيد متعددة، أخرجه البخاري في الأدب باب ٩٠، والترمذي في الأدب باب ٦٩، وابن ماجه في الأدب باب ٤١، والدارمي في الاستئذان باب ٦٨، وأحمد في المسند ١/ ٢٦٩، ٢٧٣، ٣٠٣، ٣٠٩، ٣١٣، ٣٢٧، ٣٣٢، ٣/ ٤٥٦، ٥/ ١٢٥.

فمعنى ازبأ بنفسك: أي ارتفع بموضع ممتنع واحترس فيه لتنجو. سُدًى: مهملاً. استظهار: استعداد، وقد استظهرت بالشيء فظهرت به وأظهرتُه إذا جعلتَه خلف ظهرك حماية ووقاية، والظهير المعاون. والعلائق: كلّ ما يعلق القلب بحب الدنيا. والرفاهة: الخفض والعيش الهنيء. الأسرار: البواطن، يريد أنّ سرّ الإنسان وخاطره إذا قطع علائق الدنيا كان مترفّهاً خالي السر والبال. أرقب: أحرس. سالمتْ: صالحت. كَيْدَها: مكرها. الغدار: الذي يؤمِّنك فإذا أمنتَه خانك. وتوثبه: تهيُّؤه للوثب عليك. خُطوبها: أمورها ونوازلها. تفجأ: تأتي على غفلة. ونت: فترت: والسري: مشي الليل. الأقدار: ما يقدره الله على العبد من خير أو شر، فيقول: إذا أمنتْك الدنيا من مكرها، فلا تأمنها فخطوبها تأتي على غفلة بعد أمد طويل، وضمّن هذا الشعر وصايا في التحذير من الدنيا.

* * *

[التحذير من الدنيا وغرورها]

ونسوق هنا من النظم والنثر ما ينتظم في سلك ما نظم، قال النبيّ ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»[1].

وقال: «الدنيا حلوة خضرة، فمن أخذها بحقها بورك له فيها، ومن أخذها بغير حقها كان كالآكل الذي لا يشبع»[2].

وقيل لعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: صف لنا الدنيا، فقال: ما أصف من دار أوّلها عناء وآخرها فناء، حلالها حساب، وحرامها عذاب؛ من استغنى فيها فُتِن، ومن افتقر فيها حزن.

وقال ابنه محمد ابن الحنفيّة: من كرمت عليه نفسه هانت عليه الدنيا.

وقيل لبعض الحكماء: صف لنا الدنيا، فقال: أملٌ بين يديك وأجل مطلٌّ عليك، وشيطان فتّان، وأمانيّ جَرّارة العنان، تدعوك فتستجيب، وتزجرها فتخيب.

وقيل لآخر: صف لنا الدنيا، فقال: ناقضة للعزيمة، مرتجعة للعطية، كل مَنْ فيها يجري إلى ما لا يدري.

وقال هارون الرشيد: لو قيل للدنيا: صفي نفسك، ما وصفتْ نفسها بأكثر من قول أبي نواس: **[الطويل]**

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد حديث ١، والترمذي في الزهد باب ١٦، وابن ماجه في الزهد باب ٣، وأحمد في المسند ٢/ ١٩٧، ٣٢٣، ٣٨٩، ٤٨٥.

(٢) أخرجه الترمذي في الفتن باب ٢٦، والزهد باب ٤١، وابن ماجه في الفتن باب ١٩، والدارمي في الرقاق باب ٣٧، وأحمد في المسند ٣/ ٧، ١٩، ٢٢، ٤٦، ٦١، ٦/ ٦٨.

إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تكشَّفتْ لـه عن عـدوٍّ فـي ثـيـاب صـديـق[١]

وقال آخر: [السريع]

يـا خـاطـب الـدنـيـا إلـى نـفـسـه تـنـحَّ عـن خـطـبـتـهـا تـسـلـمِ
إن الـذي تـخـطـب غـدّارة قـريـبـة الـعـرس مـن الـمـأتـمِ

وقال أبو العرب الصقلي: [الوافر]

ولا يـغـررك مـنـهـا حـسـن بُـرْدٍ لـه عـلَـمـان مـن عـلـم الـذَّهَـابِ
فـأوّلـه رجـاءٌ مـن سَـرابٍ وآخـره رداء مـن تـرابِ

وقال أبو العتاهية: [الرجز]

أصـبـحـت الـدنـيـا لـنـا فـتـنـةً والـحـمـد لله عـلـى ذَلِـكَـا[٢]
قـد أجـمـع الـنـاس عـلـى ذَمِّـهـا ومـا أرى مـنـهـمْ لـهـا تـاركَـا

وله أيضاً: [الوافر]

هـي الـدنـيـا إذا كـمـلـت وتـمَّ سـرورهـا خـذلـتْ
وتـفـعـل فـي الـذيـن بـقُـوا كـمـا فـيـمـنْ مـضـى فـعـلـتْ

وقال المتنبي: [الخفيف]

أبـداً تـسـتـردّ مـا تـهـب الـدّنـ ـيـا فـيـا لَـيْـت جـودَهـا كـانَ بـخْـلا[٣]
وهي معشوقة على الغدر لا تحـ ـفـظ عَـهْـداً وَلاَ تُـتَـمِّـمُ وصْـلاَ
كـلّ دمـع يـسـيـل مـنـهـا عـلـيـهَـا وبـفـك الـيـديـن عـنـهـا تـخـلّـي
شِـيَـم الـغـانـيـات فـيـهـا فـلا أد رِي لـذا أنَّـث اسـمَـهـا الـنـاسُ أم لا

وله أيضاً: [المتقارب]

فـذي الـدار أخْـوَن مـن مُـومـسٍ وأخـدعُ مـن كِـفَّـةِ الـحـابِـل[٤]
تَـفَـانَـى الـرجـال عـلـى حـبِّـهـا ومـا يـحـصُـلـون عـلـى طـائِـل

وقال المعري: [الطويل]

وجَـدْنَـا أذى الـدنـيـا لـذيـذاً كـأنـمـا جَنَى النحل أصنافُ الشقاء الذي نَجْني
عـلـى أم دَفْـرٍ غـضْـبـة الله إنّـهـا لأجدر أنثى أن تخون وأن تُخْنِي
كـعـاب دُجـاهـا فـرعُـهـا ونـهـارهـا محيًّا لها قامت له الشَّمْسُ بالحُسْن

---

(١) البيت في ديوان أبي نواس ص ١٩٢.
(٢) البيتان في ديوان أبي العتاهية ص ١٨٦.
(٣) الأبيات في ديوان المتنبي ٣/ ١٣١.
(٤) البيتان في ديوان المتنبي ٣/ ٣٣.

كأنّ بنيها يولدون وما لَها ... حَليلٌ فتخشى العار إن سمحت بابْنِ

وقال ابن عبد ربه: [الطويل]

ألا إنّما الدّنيا غضارة أيكةٍ ... إذا اخضرّ منها جانبٌ جَفَّ جَانِبُ
هي الدار ما الآمال إلا فجائع ... عليها ولا اللذات إلا مصائبُ
فلا تكتحلْ عيناك فيها بعَبرةٍ ... على ذاهبٍ منها فإنّك ذاهِبُ

وقال أبو العتاهية: [الطويل]

رضيت بذي الدنيا ككل مكاثرٍ ... ملحٌ على الدنيا وكل مفاخرِ
ألم ترها تَرْقِيه حتى إذا سما ... فَرَتْ حَلْقَهُ منها بَشفرةِ جازِرِ

وقال أبو بكر البلويّ: [السريع]

إنّ الذي أصبح لا والدٌ ... له على الأرض ولا والِدَهْ
قَدْ مات مِنْ قبلهما آدم ... فأيّ نفس بعده خالَدهْ
إن جئت أرضاً أهلها كلّهم ... عُورٌ فغمِّض عينك الواحدَهْ

وقال ابن عمران: [السريع]

أُفٍّ لدنيا قد شُغِفْنا بها ... جهلاً وعقل للهوى متبعْ
فَتّانةٌ تخدع طُلاّبها ... فلا تكن مِمّنْ بها يَنْخَدِعْ
أضغاث أحلام إذا حُصِّلت ... أو كوميض البرق منها لمعْ

وقال ابن قاضي ميلة: [المتقارب]

لدنياك نورٌ ولكنه ... ظلام يَحَارُ بِهِ المبصرُ
فإن عشت فيها على أنها ... كما قيل قنطرة تُعبَرُ
فلا تعمرنّ بها منزلاً ... فإن الخراب لما تُعْمِرُ
ولا تذخرنّ خلاف التقى ... فتفنى ويبقى الذي تَذْخَرُ

ابن عمران: واعلم أن الإنسان لا يحب شيئاً إلا أن يجانسه في بعض طباعه، وإن الدنيا جانست الإنسان في بعض طبائعه فأحبَّها بكله.

وقال: [الطويل]

نُراعُ لذكر الموت في حال ذِكْرِهِ ... وتعترض الدنيا فنلهو ونَلْعَبُ
ونحن بنو الدنيا خُلِقْنَا لغيرها ... وما كنت منه فهو شيء محبّبُ

وقال إبراهيم بن أدهم: [الطويل]

نُرَقِّعُ دنيانا بتمزيق ديننا ... فلا ديننا يبقى ولا ما نُرَقِّعُ

فـطـوبـى لـعـبـدٍ آثـر الله ربـه وجـاد بـدنـيـاه لـمـا يـتـوقَّـع

وهذا مثل قول أعرابيٍّ وقد قيل له: كيف أنت في دينك؟ فقال: أخرِقه بالمعاصي، ولا أرقّعه بالاستغفار.

وللأعمى التطيليّ: **[البسيط]**

تنافس الناس في الدّنيا وقد عَلِمُوا أن سوف تقتلهمْ لذاتهمْ بَدَدَا

قل للمحدّث عن لقمان أو لِبَدٍ لم يترك الدهر لقماناً ولا لِبَدَا

وللذي همّه البنيان يرفعه إن الردى لم يغادر في الثّرى أحدَا

ما لابن آدمَ لا تفنى مطالبه يرجو غداً وعسى ألاّ يعيش غَدَا

تأمل هذه المقاطع فإنها تضمنت حكماً وآداباً وكل قطعة منها لها تعلّق بشعر الحريري إما باللّفظ أوْ بالمعنى.

* * *

فقال الوالي: ثمّ ماذا، صنع هذا؟ فقال: أقْدَمَ للؤمة في الْجَزَاء، على أبياتِي السُّدَاسيّةِ الأجزاء، فحذف منها جُزْأيْنِ، ونقصَ من أَوْزَانِها وَزْنَيْن؛ حتَّى صارَ الرُّزْءُ فيها رُزأيْنِ. فقال له: بَيّن ما أخذ، ومن أيْنَ فَلَذ؟ فقال: أرْعِني سمعك، وأخْلِ للتّفهم عَنّي ذَرْعَك؛ حتّى تتبيّن كيف أضْلَت عليّ، وتقدِّرَ قدْر اجترامِهِ إليّ، ثم أنشد، وأنفاسه تتصعّد: **[مجزوء الكامل]**

يا خاطب الدنيا الدنيّـ ـةِ إنّها شَرَكُ الرَّدَى

دارٌ متَى ما أضحكتْ في يومها أبكتْ غدا

وإذا أظلَّ سَحَابُهَا لم يَنتفعْ منه صدَى

غارَاتُها ما تنقَضِي وأَسيرُها لا يُفْتَدَى

كم مُزْدَهٍ بغرُورِها حتَّى بَدَا مُتمرِّدا

قَلَبَتْ له ظهر المجَنِّ وأوْلَغتْ فيه المُدَى

فاربأ بِعُمْرِك أنْ يَمُرَّ مُضَيَّعاً فيهَا سُدَى

واقْطَعْ علائق حُبِّهَا وطِلاَبِهَا تَلْقَ الهُدَى

وارقُبْ إذا ما سَالَمَتْ من كَيْدِها حَرْبَ العِدَا

واعلم بأنّ خطوبَهَا تفجَا ولو طالَ الْمَدَى

فالتفتَ الوالي إلى الغُلاَم وقال: تبًا لَكَ مِنْ خِرِّيجٍ مارق، وتلْمِيذٍ سَارِق! فقال الْفَتى: برئت من الأدَب وبنيه، ولحقتُ بِمَنْ يناوِيه، ويقوّضُ مبانيه؛ إن كانتْ أبياته نَمَتْ إلى عِلْمي، قبل أن ألّفتُ نظْمِي؛ وإنما اتّفق تواردُ الخاطِر، كما قَدْ يَقع الحافر على الحافر.

* * *

قوله: أقدم أي تقدم. لؤمه في الجزاء: يريد أنه جازاه على ما فعل معه من الخير مجازاةَ لئيم، فسرق شعره. السداسية الأجزاء، لأن عروضها من الكامل، وأجزاؤها متفاعلن ستّ مرات. الرّزء: المصاب. فَلَذ: قطع. أرِعْني سمعك: أي اسمع مني. ذَرْعَك: بالك وقلبك. أصلَت: جرد سيفه. تتصعّد: تتطلع إلى فوق. الخِرِّيجُ: الذي خرّجه معلمه، وفلان خِرّيجك، أي الذي خرج بتهذيبك وتعليمك. مارق: خارج عن الطاعة. وتلميذ: طالب متعلم. برئتُ: زُلت وانفصلت. يناويه: يعاديه. يقوّض: يَهْدِم. نَمَتْ: اتصلت. ونميت الحديث: أسندته. ألّفت نظمي: جمعت شعري.

توارد الخواطر: تواطؤ الأذهان، أي وقع لذهن الفتى من الكلام ما وقع لذهن الشيخ، مثل الحافر الذي وقع على الحافر.

وهذا الكلام يُعزَى لأبي الطيب المتنبي، وسئل عن اتفاقات الخواطر، فقال: الشعر مَيْدان، والشعراء فرسان، فربّما اتفق توارد الخواطر، كما قد يقع الحافر على الحافر.

قال الأصمعي رحمه الله تعالى: قلت عمرو بن العلاء: أرأيت الشاعرين يتفقان في المعنى ويتواردان في اللفظ لم يلق أحدهما صاحبه، ولا سمع شعره؟ فقال لي: تلك عقول رجال توافقت على ألسنتها.

[توارد الخواطر]

ومن مشهور ذلك ما وقع في القصيدتين البائيتين لامرىء القيس وعلقمة، وكذلك اتفاقه مع طرفة في قوله: **[الطويل]**

وقوفاً بها صحبي على مطيّهم يقولون لا تهلك أَسًى وتجلّدِ[1]

وقال امرؤ القيس وتجمّل[2].

---

(١) البيت في ديوان طرفة بن العبد ص ٣٠.

(٢) أي قول امرىء القيس:

وقوفاً بها صحبي عليّ مطيَّهمْ يقولون لا تهلك أسًى وتجمَّلِ

والبيت من الطويل، وهو في ديوان امرىء القيس ص ٩، وبلا نسبة في رصف المباني ص ٢٦٨.

ومن توارد الخواطر قول ربيعة بن مقروم. [الكامل]

لو أنها عرضت لأشمطَ راهبٍ عَبَدَ الإله صَرورةٍ متبتلِ[(١)]

وقال النابغة: «صرورة متعبد»[(٢)].

وقال: [الكامل]

لرنا لرؤيتها وحُسْنِ حديثها ولهمَّ من تاموره يتنزّلُ[(٣)]

وقال النابغة: [الكامل]

لرَنا لرؤيتها وحُسْن حديثها ولخاله رشداً وإن لم يَرْشُدِ[(٤)]

تاموره: صومعته.

ومن ذلك ما حكى أبو عليّ أنه خرج جرير والفرزدق مردَفَين إلى هشام بن عبد الملك، فنزل جرير يبول، فتلفَّتت الناقة فضربها الفرزدق وقال: [الوافر]

إلامَ تلفّتين وأنت تحتي وخيرُ النّاس كلّهُمُ أَمَامي[(٥)]

مَتَى تَردى الرِّصافة تستريحي من التّهجير والدَّبَر الدَّوَامِي

ثم قال: الآن يجيء جرير، فأنشده البيتين فيردّ عليّ: [الوافر]

تَلفّتُ أنها تحت ابن قينٍ إلى الكيرين والفأس الكهَام

متى تأت الرصافة تَخْزَ فيها كَخِزْيك في المواسِمِ كلّ عامِ

قال: فجاء جرير والفرزدق يضحك، فقال: ما يُضْحِكُكَ يا أبا فراس؟ فأنشده البيتين، فقال جرير: تلفت أنها البيتين.. كما قال الفرزدق سواء، فقال: واللّهِ لقد قلت

---

(١) البيت لربيعة بن مقروم الضبي في ديوانه ص ٢٦٧، ولسان العرب (بتل). وتهذيب اللغة ١٤/ ٢٩١، والحيوان ١/ ٣٤٧، وبلا نسبة في كتاب العين ٨/ ١٢٤.

(٢) أي قول النابغة الذبياني:

لو أنها عرضت لأشمط راهبٍ عبد الإله صرورةٍ متعبِّدِ

والبيت من الكامل، وهو في ديوان النابغة ص ٩٥، ولسان العرب (صرر)، ومقاييس اللغة ٣/ ٢٨٥، ومجمل اللغة ٣/ ٢٢٥، وجمهرة اللغة ص ١٢٥٣، وتهذيب التهذيب ١٢/ ١٠٩، وتاج العروس (صرر).

(٣) يروى صدر البيت:

لدَنا بهجتها وحُسْنِ حديثها

وهو لربيعة بن مقروم الضبي في ديوانه ص ٢٦٧، ولسان العرب (تمر).

(٤) البيت في ديوان النابغة الذبياني ص ٩٦، وفيه «لدنا» بدل «لرنا».

(٥) البيتان في الأغاني ٩/ ١٦٩.

هذين البيتين، فقال جرير: أما علمت أن شيطاننا واحد.

ومرّ رجل بالفرزدق بالمِرْبَد فقال: من أين أقبلت؟ قال: من اليمامة، قال: فأيّ شيء أحدث ابن المراغة؟ فأنشده: [الكامل]

* هاج الهوى لفؤادك المهتاجِ *

فقال الفرزدق: [الكامل]

* فانظر بتُوضح باكِرَ الأحداجِ *

فقال الرجل: [الكامل]

* هذا هوًى شغف الفؤاد مبرّحٌ *

فقال الفرزدق: [الكامل]

* ونوًى تقاذف غير ذات حِلاجِ *

فقال الرجل: [الكامل]

* إنّ الغرابَ بما كرهتَ لمولعٌ *

فقال الفرزدق: [الكامل]

* بنوى الأحبّة دائم التشحاجِ *

فقال الرجل: هكذا والله قال: أفسمعتها من غيري؟ قال: لا ولكن هكذا ينبغي أن يقال، فقال: أما علمت أن شيطاننا واحد.

ودخل الفرزدق على امرأة من عُقَيل فحدّثها، وأقبل فتًى من قومها كانت تألفه، فدخل فأقبلت عليه تحدّثه، وتركت الفرزدق، فغاظه ذلك، وقال للفتى: أتصارعني؟ قال: ذلك إليك فقام الفرزدق فلم يلبث أن أخذه الفتى مثل الكرة فصرعَهُ، وجلس على صدره، فضرَط الفرزدق، فوثب الفتى عنه وقال: هذا مقام العائذ بك، والله ما أردتُ ما جرى، فقال: والله ما بي ذلك، ولكن كأني بابن المراغة جرير قد بلغه الخبر، فقال: [الطويل]

جلستَ إلى ليلَى لتحظَى بقُرْبها ... فخانك دَهرٌ لا يزال خؤونُ

فلو كنت ذا حزم شددتَ وكاءها ... كما شدَّ خرقا بالدلاص قيونُ

فلما بلغ الخبر جريراً قال البيتين.

وأمر سليمان بن عبد الملك الفرزدق أن يضرب رقاب أسرى فاستعفاه، فلم يفعل، وأعطاه سيفاً لا يقطع فضرب به عنق روميّ فنبَا السيف، فضحك سليمان ومَنْ حوله، فجلس وهو يقول: [البسيط]

أيعجَبُ النَّاسُ أنْ أضحكتُ سيِّدَهُمْ ... خليفةَ الله يُسْتَسْقَى به المطرُ
لم ينبُ سَيْفِيَ عن رُعْبٍ ولا دهشٍ ... عن الأسير ولكِنْ أخر القَدَرُ

ثم قال: ما إن يعاب فرس إذا كبا، ولا يعاب صارم إذ نبا، ثم جلس وهو يقول: كأني بابن المراغة قد بلغه الخبر فقال: [الطويل]

بسيفِ أبِي رَغْوَانَ سيفِ مجاشعٍ ... ضربتَ ولم تَضْرِب بسيفِ ابن ظالِم
ضربت به عند الإماء فأرعِشَتْ ... يداك وقالوا محدث غيرُ صارم

ثم قال: كأني يا أمير المؤمنين بابْن القَيْن قد أجابني فقال: [الطويل]

ولا نقتلُ الأسْرَى ولكنْ نَفُكُّهُمْ ... إذا أثقل الأعناقَ حملُ المغارمِ

فأخبر الفرزدق القصة، فقال: [الطويل]

كَذَاكَ سيوفُ الهند تنبو ظُبَاتُها ... وتقطع أحياناً مناطَ التَّمَائِم
ولا نقتل الأسرى ولكنْ نفكّهمْ ... إذا أثقل الأعناق حملُ المغارِم
وهل ضَرْبَةُ الروميّ جاعلةٌ لكم ... أباً عَنْ كليبٍ أو أبا مثل دارِمِ

فهذا إن صح من أعجب اتفاق الخواطر.

وقال الأقيشر: [الوافر]

جريتُ مع الهوى طَلق العتيقِ ... وهان عليّ مأثور الفُسوقِ
وجدتُ ألذَّ عارية الليالي ... قِرَان النّغم بالوترِ الخَفُوقِ
ومسمعةً إذا ما شئت غَنّتْ ... متى نزل الأحبَّة بالعقيقِ
تمتَّعْ من شباب ليس يَبقى ... وصل بِعُرَا الصَّبُوح عُرَا الغَبوقِ

وقال أبو نواس رحمه الله تعالى: [الوافر]

جَرَيْتُ مع الهوى طلق الجمُوحِ ... وهلَ عليّ مأثورُ القبيحِ[1]
وجدتُ ألذَّ عارية الليالي ... قران النغم بالوتر الفصيح
ومسمعةً إذا ما شئت غنَّت ... متى كان الخيام بِذي طلوح
تمتَّع من شباب ليس يَبقى ... وصل بعرا الغبوق عُرا الصَّبُوح

ومن ذلك ما نسب السري للخالدي فيما قدّمناه من سرقة شعره، قال السريّ: [الكامل]

وكأنّ كأس مدامها ... لما ارتدت بحبابها

---

(١) الأبيات في ديوان أبي نواس ص ٢٥٧.

تــوريــد وجــنــتــهــا إذا ... مــا لاح تــحــت نــقــابِــهــا

وقال أبو بكر الخالدي: [مجزوء الرمل]

فــكــأن الــكــأس لــمّــا ... ضــحــكــت تــحــت الــحَــبــابِ

وَجْــنَــةٌ حَــمــراء لاحــت ... لــك مــن تــحــت الــنــقــابِ

وقال السري في وصف جام فيه فالوذج: [الطويل]

بأحمرَ مبيضّ الزجاج كأنه ... رداء عروس مشربٌ بخلوق

له في الحشا برد الوصال وطيبه ... وإن كان تلقاه بلون حريقِ

كأنّ بياض اللّوز في جَنَباته ... كواكِبُ دُرٌّ في سَمَاءِ عَقيقِ

وقال أبو بكر الخالدي: [الطويل]

مُداماً كأنّ الكفَّ من طيبِ نَشْرِها ... وصُفرتها قد خُلِّقَتْ بخَلُوق

نُعاينها نَوْرا علاه تجسّدٌ ... ونشربها نادراً بغير حريق

كأنّ حَبَاب الماء في جَنَبَاتِها ... كواكبُ لاحتْ في سماءِ عَقِيقِ

وقال السري رحمه الله تعالى: [الوافر]

رأتْ شيباً يُصاحبني فصدّت ... وكان جزاؤه منها العُبوسَا

وقالت إذْ رأت للمُشطِ فيه ... سواداً لا يشاكله نفيسا

تلقّ العاج منه بمشط عاج ... ودع للآبنوس الآبنوسا

وقال أبو عثمان أيضاً: [الخفيف]

وقفتني ما بين هَجْرٍ وبُؤسِ ... وانثنت بعد ضِحكةٍ بعُبُوسِ

ورأتني مشطت عاجاً بعاج ... وهي الآبنوس بالآبنوس

وهذا إما توارد أو تسابق، والتسابق أشبه بهم.

* * *

قال: فكأن الوالي جوزّ صدق زعمه، فندم على بادرة ذمّه؛ فظلّ يفكر فيما يكشف لَهُ عن الحَقائِق، ويميزُّ به الفائق مِن المائق، فلم ير إلا أخذهما بالمناضلة، ولزّهما في قرن المُساجَلَة، فقال لَهُما: إن أردتما افتضاح العاطل، واتضاح الحقّ من الباطل، فتراسلا في النَّظمِ وتبارَيَا، وتجاولا في حَلْبَةِ الإجازة وتَجَارَيَا؛ لَيَهْلِكَ مَنْ هلك عن بيّنة، ويحيا مَنْ حيَّ عن بيّنة؛ فقالا له بلسانٍ واحد، وجوابا متوارد: قد رضينا بسبرك، فمرنا بأمرِك.

فقال: إنّي مولعٌ من أنواع البلاغة بالتجنيس، وأراه لها كالرئيس؛ فانْظما الآن عشرة

أبيات تُلحمانها بَوشيهِ، وترصّعانها بحيله، وضمّناها شرح حالي مع إلف لي بديع الصّفة، ألمى الشّفه، مَليحَ التثنّي، كثير التِّيهِ والتجنّي، مُغْرًى بتناسي العهد، وإطالة الصدّ، واختِلافِ الوعْد؛ وأنا له كالعبد.

* * *

قوله: زعمه، الزعم قول معه اعتقاد، بادرة: سابقة وهي الكلمة الرديئة تبدر من المتكلم. الفائق: الفاضل، وفاق الناس، فضلهم وعلاهم بقول أو علم. المائق: الأحمق الضعيف التدبير. المناضلة: المراماة. لزّهما: ضمهما وشدّهما. قرَن: حبل يقرن بين الشيئين.

[المساجلة]

المساجلة: أن يستقي ساقيان فيخرج كلّ واحد منهما من الماء مثل ما يخرج الآخر، فأيهما نكل فقد غلب، وقال الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب: **[الرمل]**

مَنْ يُسَاجِلُني يساجلْ ماجد ... يملأ الدلو إلى عَقْد الكَرَب[١]

وأنا الأخضر مَنْ يعرفني ... أخضر الجلدة من بيت العربْ

ومرَّ الفرزدق بالفضل، وهو يستقي وينشد البيتين، فشمّر ثيابه عن نفسه، وقال: أنا أساجلُك، ثقةً بنسبه، فقيل له: هذا الفضل بن العباس، فردّ ثيابه وقال: ما يساجلُه إلا من عَضَّ أير أبيه. ثم صارت المساجلة يقصد بها قصد المفاخرة، وأراد هنا بالمناضلة والمساجلة، أن يقول هذا بيتاً، وهذا بيتاً حتى يُعلم لمن الغَلَب. وأكثرُ ما جرت به العادة فيها بأنصاف الأبيات كما شهر في قصة امرىء القيس والتوأم حين قال امرؤ القيس: **[الوافر]**

* أحارَ تَرى بُرَيْقاً هبّ وهنا *

فقال التوأم:

كنار مَجوسَ تَسْتَعِرُ اسْتِعارا[٢]

---

(١) البيت الأول للفضل بن عباس بن عتبة في لسان العرب (سجل)، وتهذيب اللغة ١٠/ ٥٨٦، وتاج العروس (كرب)، (خضر)، (سجل)، وجمهرة اللغة ص ٤٧٥، وبلا نسبة في كتاب العين ٥/ ٣٦٠، وديوان الأدب ٢/ ٣٩٠، والبيت الثاني لعتبة بن أبي لهب في لسان العرب (خضر)، وللفضل بن العباس اللهبي في التنبيه والإيضاح ٢/ ١١٧، وسمط اللآلي ص ٧٠١، والفاخر ص ٥٣، والمؤتلف والمختلف ص ٣٥، وتهذيب اللغة ٧/ ١٠٦، وأساس البلاغة (خضر)، وتاج العروس (خضر)، وجمهرة اللغة ص ٥٨٧، ٦٨٥، وبلا نسبة في مقاييس اللغة ٢/ ١٩٥، ومجمل اللغة ٢/ ١٩٨، وتهذيب اللغة ٧/ ١٠٣.

(٢) يروى البيت:

أحارِ أريك برقاً هبَّ وهناً ... كنار مجوس تستعر استعارا =

ثم مضيا على القطعة بالأنصاف حتى كملت، وهي مشهورة.

قال أبو العيناء: وقف علي غلام يسألني ما أحسبه بلغ الحلم ولا قاربه وخرج غلام لي أسود قد اغتسل، وهو يرعد، وكان خبيثاً، فأومأتُ إلى الأسود فقلت: [الرجز]

كـــأنـــه ذئـــب غـــضَـــى أزَلُّ

فقال الغلام: [الرجز]

بـــابَ الــنّــدى يــضــربُــهُ والــطَّــلُّ

فوصلته بدارهم وانصرف.

واجتاز ابن أبي الخصال مِنْ بلده شقورة بأبدة، وهو صبيّ صغير يطلب الأدب، فأضافه بها القاضي ابن مالك، ثم خرج معه إلى حديقة معروشة، فقطف لهم منها عنقوداً أسود، فقال القاضي: [مجزوء الرجز]

انْــظُــرْ إلــيــه فــي الــعَــصَــا

فقال ابن أبي الخصال: [مجزوء الرجز]

كـــرأس زنـــجـــيٌّ عـــصـــا

فعلموا أنه سيكون له شأن في البيان.

ومثل ذلك ما حدّثني به الشيخ الفقيه أبو الحسين بن زرقون عن أبيه أبي عبد الله أن أبا بكر بن المبجل وأبا بكر بن الملاح الشبليين، كانا متواخيينْ متصافِيَيْن، وكان لهما ابنان قد برعا في الطلب، وحازا قصب السبق في حلبة الأدب، فتهاجى الابنان بأقذع هجاء، فركب ابن المبجل في سَحَرٍ من الأسحار مع ابنه عبد الله فجعل يعتبه على هجاء ابن الملاح، ويقول له: قطعت ما بيني وما بين صَفِيي أبي بكر بإقذاعك في ابنه، فقال له ابنه: إنه بَدَأني، والبادىء أظلم، وإنما يجب أن يُلحى مَنْ بالشّر تقدّم، فعذره أبوه؛ فبينما هما على ذلك إذ أقبل على وادٍ تنقّ فيه ضفادع، فقال أبو بكر لابنه أجز: [الوافر]

تَـــنِـــقّ ضـــفـــادع الـــوادي

فقال ابنه:

بـــصـــوتٍ غـــيـــر مـــعـــتـــاد

= وهو مملط، صدره لامرىء القيس، وعجزه للتوأم اليشكري في ديوان امرىء القيس ص ١٤٧، ولسان العرب (مجس) وتاج العروس (ملط)، وهو لامرىء القيس في شرح شواهد الإيضاح ص ٤٣٨، والكتاب ٣/ ٢٥٤، وبلا نسبة في لسان العرب (مجس)، وما ينصرف وما لا ينصرف ص ٦٠، والمقرب ٢/ ٨١.

فقال الشيخ :

كـأنّ نـقـيـق مـقـولـهـا

فقال ابنه :

بـنـو الـمـلاح فـي الـنـادي

فلما أحست الضفادع بهما صمتت، فقال أبو بكر :

وتـصـمـت مـثـل صَـمْـتِـهـمُ

فقال ابنه :

إذا اجـتـمـعـوا عـلـى زادِ

فقال أبو بكر :

ولا غَـوْثَ لـمـلـهـوف

فقال ابنه :

ولا غـيـث لـمـرتـاد

والإجازة بالأبيات بكمالها كثيرة مشهورة.

وحكى الماورديّ أنّ الناس تذاكروا حفظ السّر بمجلس عبد الله بن طاهر فقال عبد الله : [الطويل]

ومستودعي سِرّاً تضمّنتُ ستْرهُ   فأودعته من مستقرِّ الحشى قَبْرَا

فقال ابنه عبيد الله، وهو صبيٌ : [الطويل]

وما السرّ في قلبي كثاوٍ بحفرة   لأني أرى المدفون ينتظر الحَشْرَا
ولكنني أخفيه حتى كأنه   من الدهر يوماً ما أحطتُ به خُبْرا

وحكى الفقيه أبو الحسن أنّ أباه حدثه أن الأديب أبا الطاهر بن أبي ركبْ، حضر عنده بَسَبْتة بقرية شنان في عَقب شعبان لاستقبال رمضان، فأكل مع مَنْ حضر ضروباً من الأطعمة والألوان، فقال أبو الطاهر رحمه الله تعالى لأبي عبد الله بن زرقون أجز : [الطويل]

حمدت لشعبان المبارك شعبةً   تسهِّلُ عنيّ الجوع في رمضانِ

فقال أبو عبدالله رحمه الله تعالى : [الطويل]

كما حَمِدَ الصبُّ المتَيَّمُ زورة   أطاق لها الهجران طولَ زمانِ

فقال أبو الطاهر : [الطويل]

دَعَوها بشبعانية فلو أنهم   دَعَوها بشعبانية لكفاني

وحدثني أيضاً أن أباه شيخنا الفقيه أبا عبد الله المذكور قعد مع صهره أبي الحسن عبد الملك بن عياش الكاتب على بحر المجاز، وهو مضطرب الأمواج، فقال له أبو الحسن: أجز: **[الوافر]**

ومـلـتـطـمِ الـغـوارب مـوجَـتُـه بـوارحُ فـي مـنـاكـبـهـا غـيـومُ

فقال أبو عبد الله **[الطويل]**

تـمـنَّـع لا تـعـوم بـه سـفـيـنٌ ولـو حـدَقـت بـه الـزهـر الـنـجـومُ

* * *

قوله: «افتضاح العاطل»، أي شهرة الفارغ من قول الشعر، تراسلا: تجاريا، والتَّراسل في الغناء والنشيد، أن يتجاذب الصوتَ المغنِّيان، والترسل في الخيل، أن ترسل فرسين في الطلق.

تباريا: تجاريا، وتجاولا: تصرّفا. والحلبة يأتي ذكرها في المقامة، وأراد تجارياً في العشر كما يتجارى خيل الحلبة في الميدان، بسبرك: قياسك وتجربتك لنا. متوارد: متسابق متتابع. والتجنيس: أن تكون الألفاظ متناسبة والمعاني متباينة. تلحمانها: تنسجانها. وشيه: رقمه. ترصّعانها: تزينانها. وكلّ ما خرزته أو عقدته فهو مرصع. إلف: معشوق يألف ويؤنس به. بديع: غريب. ألمى: أسمر، واللّمى أن تتعتّق حمرة الشفة حتى تضرب إلى السواد. والتثني: الانعطاف. التيه: الإعجاب والاحتقار بغيره، التجنيّ: ادعاء الجناية على عاشقه، وذلك أن المعشوق يحسب كل ما يفعله عاشقه ذنباً عليه وجناية ليتوصّل بذلك إلى هجره ثم سمّى الصدّ والإعراض تجنياً. مغرى: مولع. والتناسي: استعمال النسيان. أراد أنه يعِد عاشقه بالزيارة وغيرها فإذا ذكر بها قال: نسيت. والصدّ: الإعراض.

* * *

قال: فبرز الشيخ مجليّاً، وتلاه الفتى مُصَليّاً؛ وتجارياً بيتاً فبيتاً على هذا النَّسَق، إلى أن أكمل نظم الأبيات واتسق، وهي: **[الطويل]**

وأحَـوَى حـوى رِقّـي بـرقّـةِ ثـغـره وغـادرنـي إلـفَ الـسُّـهـادِ بـغَـدْرِهِ

تـصدّى لِقـتـلـي بـالـصدود وإنـنّـي لَـفِـي أسْره مُذْ حـاز قـلـبِـي بـأسْرِه

أصَـدِّقُ مـنـه الـزُّورَ خـوف ازوراره وأرضى اسْتِماعَ الهَجْرِ خشية هَجْرِهِ

وأستَعذبُ التّعذيبَ منه وكلّما أجَـدَّ عـذابـي جَـدّ بـي حُـبُّ بِـرّه

تـنـاسَـى ذمامِـي والـتـناسِـي مـذمّـةٌ وأحـفَـظَ قَـلْـبـي وهـو حـافـظ سِـرِّهِ

وأعـجب مـا فـيه الـتَّـبـاهي بَـعُـجْـبِهِ وأكـبِـرُه عـن أن أفُـوهَ بِـكـبْـرِه

لـه مِـنّـيَ الـمدحُ الّـذي طـابَ نـشـرُهُ ولـي مـنـه طـي الـودّ مـن بـعـد نـشـرِهِ

ولو كان عَذْلاً ما تجنّى وقد جنَى   عليّ وغيري يجتنِي رشْفَ ثغرِه
ولولا تثنيه ثنيتُ أعِنتِي   بادراً إلى مَنْ أجْتَلِي نُور بَدْرِه
وإني على تصريف أمري وأمرِه   أرى المرّ حُلْواً في انقيادِي لأمْرِه

* * *

على هذا النسق، أي على هذا التتابع والانضمام، اتّسق: انضمّ واجتمع. ونسقت الشيء بالشيء ضممته إليه، أحوى: أسمر الشفة، والحوّة: حمرة تضرب إلى السواد، يقال: شفة حوّاء حمراء. رِقّي، أي ملكي، والرّق الملك، ورقّ الرجلُ رِقّاً: صار عبداً، برقّة لفظه: بحلاوة كلامه. غادرني إلف السهاد: تركني صاحب سهر. بغدره: بقلة وفائه. تصدّى: تعرَّض. أسَره: حبسه. بأسره: بجملته. والزور: الكذب. ازوراره: انقباضه، والهُجر: الفحش. أستعذب: أستطيب. أجدّ عذابي: جدّد عذابي. جدّ: زاد واجتهد. برّه: إكرامه. يريد متى زادني عذاباً وهجراناً زدت فيه حبّاً وبرّاً. ذمامي: عهدي. مذمّة: عيب. أحفظ: أغضب. التباهي: التفاخر. أكبره: أعظمه وأراه كبيراً، أفوه: أنطق. نشره: تحرّك رائحته. رَشْف ثغرِهِ: تقبيلُ أسنانه، ثنيت: عطفت. أعنّتِي: جمع عنان. أجتلي: أنظر. نور بدره: حسن وجهه يقول: لولا حسن تثنيه لتركته وملت إلى غيره. ثم قال: وإني على ما يلقاني به من الهجر والجفاء وألقاه به من البرّ والصفاء. ليرجع عندي المرّ من أفعاله حلواً في اتباعي لما يُحبّ ويأمر به. وقد أنشدوا في ذلك: [الطويل]

لِئن ساءني أن نلتنِي بمساءةٍ   لقد سرّني أني خطرت ببالكِ

وقال في مثله: [الكامل]

وأهنتني فأهنتُ نفسي صاغراً   ما مَن يهون عليك ممن يكرمُ

فهذه غاية الانقياد لمراعاة مراد الحبيب.

وقال الشاعر: [الكامل]

ولقد منحتكُم المودّة محضةً   وكتمت ما اشتملتْ عليه ضلُوعِي
جازيتموني بالوصال قطيعةً   شتّان بين صنيعكُمْ وصَنيعي
فإذا أتيتك زائراً متشوقاً   قصُر الطريق وطال عند رُجوعي

وفي معنى قوله: «له منّي المدح»، يقول ابن رشيق، وزاد معنى مستظرفاً:

أرَاكَ اتّهمت أخاك الثّقهْ   وعندك مقت وعندي مِقَه
وأثني عليك وقد سؤتَنِي   كما طيَّب العودُ مَنْ أحرَقَهْ

وقال ابن زيدون: [الطويل]

بني جَهْورٍ أحرقْتُمُ بجفائكمْ   جناني فما بال المدائح تعبَقُ

تَعدّونني كالعنبر الندّ إنّما تطيب لكم أنفاسُه حين يحرَقُ

وهما وإن توارداً على هذا المعنى، فإنما أخذاه من قول حبيب: [الرجز]

لولا اشتعال النار فيما جاورتْ ما كان يُعرَف طيبُ عَرفِ العُودِ

* * *

ونذكر هنا جملة من الشعر الرائق المستظرف الفائق، تنسحب على أوصاف الغلام المذكور، وتتعلق بشعر الحريريّ من جهة التجنيس، أو من جهة الانقياد للمحبوب وإن جفا وصدّ.

ونبدأ بذكر حكاية أبي إسحاق الحصري لتعلقها بما انبنت عليه المقامة من توارد الخواطر.

وكان أبو إسحاق يختلف إلى بعض مشيخة القيروان، وكان الشيخ كلفاً بالمعذّرين وهو القائل: [الكامل]

ومعذَّرين كأنَّ نبتَ خدودهمْ أقلامُ مسك تستمدّ خَلُوقا

قرنوا البنفسج بالشقيق وَنَظَّموا تحت الزبرجد لؤلؤاً وعقيقا

فهمُ الذين إذا الخلّي رآهم وجَد الهوى بهم إليه طريقا

وكان يختلف إليه غلام من أعيان أشراف القيروان، وكان به كلفاً، فبينما هو عنده والحصري قد أخذ في الحديث إذ أقبل الغلام وهو يقول: [الكامل]

في صورةٍ كَمَلت فخلت بأنَّها بدرُ السماء لِستةٍ وثَمانِ

يعشَى العيون ضياؤها فكأنَّها شمس الضحى تَعْشَى بها العينانِ

فقال الشيخ: يا حصري، ما تقول فيمن هام بهذا القدّ، وصبا لهذا الخدّ؟ فقال الحُصري: الهيمان والله بهذا غاية الظرف، لا سيما إذا شام كافورة خدّه ذلك المسك الفتيت، وهجم على صبحه ذلك الليل البهيم، والله ما خلت سواده في بياضه إلا بياض الإيمان في سواد الكفر، أو غيهباً في ضوء الفجر، فقال للحصري: صِفْه، فقال: مَنْ ملك رقّ القول حتى انقاد له صعابه فذل له جموحه حتى سطع له شهابه، أقعدُ مني في ذلك، فقال: صِفه، فإني معمل في ذلك فكري، فأطرق ساعة، فقال الحصريّ: [مجزوء الرجز]

أورد قلبي الرَّدَى لامُ عِذارٍ بدا

أسود كالكفرِ في أبيضَ مثلِ الهُدى

فقال له الشيخ: أراك اطَّلعت على ضميري، أو خضت بين جوانحي، فقال له الحصري: ولم ذاك؟ قال: لأني قلت: [مجزوء الرجز]

حَـرّكَ قـلـبـي فـطـاز صـولـج لام الـعِـذاز
أسـودُ كـالـلـيـل فـي أبـيـضَ مـثـل الـنـهـاز

فهذه غاية في بابه.

وقال السّريّ: [الوافر]

بلاني الحبّ فيك بما بَلاَني فشأني أن تفيض غروبُ شاني
أبيت الليل مرتقباً أناجي بِصدْق الوجد كاذبة الأمانِي
ويشهد لي على الأرَق الثريّا ويعلم ما أقاسي الفرقدانِ
ستصرف طاعتي عمّن نهاني دموع فيكَ تَلْحَى مَنْ لحاني
ولم أجهل نصيحتَه ولكن جنونِ الحب أحْلَى في جناني
فيا ولع العواذِلِ خَلِّ عني ويا كفّ الغرامِ خذي عناني

وهذا مما يأخذ بمجامع القلوب، ويحتوي على النوعين من المعنى المطلوب.

وقال السَّلامي: [البسيط]

ما ضنَّ عنك بموجود ولا بَخَلا أعزُّ ما عنده النَّفس التي بَذَلا
يحكي المطايا حنيناً والهجِير جَوًى والمُزْن دمعاً وأطلال الديار بِلَى

وقال أيضاً: [الوافر]

مُنيت بمنْ إذا منيت أفضت مناي إلى بنفسج عارضيْهِ
وفاضت رحمة لي حين ولّى مدامعُ كاتِبيّ وكاتبيْه

وله في غلام بدويّ: [الخفيف]

تعلّقته بدويَّ للّسانِ والوجه والزِّيّ ثَبْتَ الجَنَانِ
أعانق مَنْ قدّه صَعْدةً ترى اللحظ منها مكان السِّنانِ
أدار اللثامَ على خدِّه فأهدى الشقيقَ إلى الأقحوانِ
ومسك ذوائبه سائل على آس ديباجه الخسرواني
أحيِّيه بالورد والياسمـ ـين فيصبو إلى الشَّيخ والأيْهُقَانِ

وله في غلام غَزِّيّ رام: [الكامل]

قمرٌ من الأتراك تحسب أنه الـ ـخَود الحصان على أقبَّ حِصانِ
يرمي بِلَحْظيهِ القلوب وسهمُه فعجبت كيف تشابه السهمانِ
بطلٌ حمائله كعارضه وحا جبُه الأزجُّ كَقَوسهِ المِرْنانِ
حيَّيْتُهُ فدنا فأمطر راحتي قبَلا فليت فمي مكان بناني

وللشريف الرضي: **[الكامل]**

يا صاحبَ القَلبِ الصحيح أما اشتفِي ... ألم الهوى من قلبيَ المصْدُوعِ[1]
أأسأت بالمشتاق حين ملكتَه ... وجزيت فرطِ نِزَاعه بنُزوع
وتركتني ظمآن أرشف غُلَّتي ... وأسفِي على ذاك اللَّمى الممنوعِ
قلبي وطرفي منك هذا في حِمَى ... قيظٍ وهذا في رياض ربيعِ
كم ليلة جرّعته في طولها ... مَضَض الملام ومؤلم التقريعِ
تفلي أنامله التراب تعلُّلاً ... وأناملي في سِّنّيَ المقْرَوعِ
أبكي ويبسم والدّجى ما بيننا ... حتى أضاء بثغره ودمُوعي
قمرٌ إذا استعجلته بعتابه ... لبس الغروب فلم يعد لطلوعِ
لو حيث يستمع السرار وقفتما ... لعجبتما من عِزِّه وخضوعي
أعزز عليّ إذا امتلأت من الكرى ... أنّي أبيتُ بليلةِ الملسوع

وللوزير ابن المغربي: **[الكامل]**

دَنِفٌ بمصر وبالعراق طبيبُه ... يُضنيه طولُ بعاده ويذيبُه
ما ناله إلا الذي هو أهلُه ... إذ غاب عن بلد وفيه حبيبُه
لزم السّهادَ تحيّرا وتَلدُّداً ... وتأسفاً إذ أوبقته ذنوبه
زعم الفراق دعا به فأجَابهُ ... ونعم دعاه فلا أراه يجيبُه

وله أيضاً: **[مجزوء الكامل]**

ولقد أراه في الغدي ... ـر يشقه من جانبيْه
والماء مثل السيف وهـ ... ـو فرنده في صفحتيْه
صبغت بياض النيل حمـ ... ـرةُ وردةٍ في وجنتيْه

ولابن الزقاق: **[الطويل]**

تَمَنَّيْتُ مَنْ أهوى به وهو قاتلي ... وربّ مُنًى للمرء فيها مناياه
قسا فرمانِي عن قسيّ حواجبٍ ... تنوبُ لها دأباً عن الرشق عيناهُ
أذلنَا دماءً في هواه وأدمعاً ... وضنّ لنا ظلماً بظَلم ثناياهُ
فما بَرِحَ الشّوق المبرّحُ ساميا ... لأخوَى حَوَى كلَّ المحاسنِ مرآهُ
فمنظُره والثّغر منه وعَرْفُهُ ... وقامته والرِّدفُ منه وخَدّاه

(١) الأبيات في ديوان الشريف الرضي ١/ ٤٩٧.

لشمْسِ الضحى والدّرّ والمسْك نفحةٌ وغُصْنِ النقا والدّعص والورد أشباهُ

وقال أيضاً رحمه الله تعالى: [الكامل]

ومهفهفٍ نبت الشّقيق بخَدِّهِ واهتزّ أملودُ النَّقَا في بُرْدِهِ
ماء الشبيبة والجمال أرقُّ مِنْ صَقْلِ الحُسَام المنتضَى وفرِنْدِه
يُحيي الأنام بلمحةٍ من وصْلِه من بعد ما وردوا الحمام بصدّه
إن كنت أهديتَ الفؤاد له فقلْ أيّ الجوى لجوانحي لم يُهدِهِ

وقال أيضاً: [المتقارب]

أرقُّ نسيم الصَّبا عَرْفُهُ وراقَ قضيبَ النقا عِطْفُهُ
ومرّ بنا يتهادى وقد نضا سيفَ أجفانهِ طَرْفُهُ
ومدّ لمبسمه راحةً فخلت الأقاح دنا قَطْفُهُ
أشار لتقبيلها في السّلاَم فقالَ فمي ليتني كَفُّهُ

ولإدريس بن اليماني: [الطويل]

وذي لَعَسٍ للأقحوان ثناياهُ وللورد خدّاه وللآس صُدْغاهُ
وللسَّوسن الريّان صفحة خدِّه وللظَّبي عَيناهُ وللمِسكِ ريَّاهُ
فريد جمالٍ تمّ لي توأم الهوى به ولكلّ العاشِقِينَ فرداه

ولبعض أصحابنا: [الخفيف]

كُفّ عني الملامَ يا مَنْ يلومُ إنّ لوم الشجيّ في الحبّ لُومُ
جُلّ همي بأن أهيم حياتي صغرت همة امرىء لا يهيمُ
أبدا أطلبُ الغرام مجدّاً فكأني إلى الغرام غريمُ
إن ربما رمت برامة قلْبي مُقْلَتَاهُ حبِّي لَهُ لا يريمُ
صحّ حُبِّي واعتلّ جسمي فحسبي أنّ كلّي إلى هواهُ سَقِيمُ

وكلّ ما تضمنت هذه الجملة مع قطعة الحريري من التذلّل والخضوع إلى المجبوب، فهو حكم الباب، والمجمع عليه عند ذوي الألباب. إلا قوله: «وغيري يجتني رشف ثغره»، فإن أكثر أهل هذا الشأن يأبون أن يكون المحبوب بين عاشقين، وينسبون محبّة إلى خساسة الهمة، ويعتدونها على المحبوب من أكبر التهمة، قال امرؤ القيس: [الكامل]

إني بحبْلِك واصلٌ حَبْلي وبريش نَبْلِكِ رائشٌ نَبْلي[1]

---

(١) البيتان لامرىء القيس في ديوانه ص ٢٣٩، والبيت الأول لامرىء القيس في شرح أبيات سيبويه ١/ =

مـا لـم أجـدك عـلـى هـدى أثـرٍ   يـقـرو مـقـصّـك قـائـف قـبـلـي

يقول: أنا أديم من مُواصلتك ما لم أجِدْ غيري يتبعك طمعاً في مواصلتك. وقال أبو ذؤيب: [الطويل]

تـريـديـن كـيـمـا تـجـمـعـيـني وخـالـداً   وهل يُجْمَعُ السّيْفانِ ويحك في غمدِ(١)

فهذا قد أبى الشركة على التساوي، فكيف الإقامة على الجور الذي ذكر الحريري. وقد قدمنا في العشرة للمولدين فنّاً غير هذا، على أن المحبوب إذا كان حسن الخلق حسن القبول زاد في أبّهة جماله، كما أنّ الجفاء في المحبوب والخلق الذميم يطمس نور حسنه وينقص من كماله، وأنشدوا: [الطويل]

أيـا حَـسَـنـاً أزرت قـبـائـحُ فِـعـلـه   عليه كما أزْرَى الكسوفُ على البدرِ

وقال عبد الصمد المصري: [المتقارب]

فـلـو زُيّـن الـحـسـنُ مـن وجـهـه   بـهـجـر الـصّـدود ووصـل الـوصـالِ
لـتـمَّ ولـكـنّ مـا إن أرى   جـمـيـل الـمـحـيـا جـمـيـل الـفـعـالِ

وقال آخر: [الوافر]

صَحَا عن حبّك القلب المشوقُ   فـمـا يـصـبـو إلـيـكِ ولا يـتـوقُ
جـفـاؤك كـان عـنـك لـنـا عـزاء   وقـد يُـسْـلِـي عـن الـولـد الـعـقـوقُ

فهذه جملة كافة.

[أنواع البلاغة في صناعة الشعر]

ونرجع إلى ذكر أنواع البلاغة في صناعة الشعر التي سّماها المحدثون صنعة البديع، والشعراء يتفاضلون في سياقها والاقتدار عليها، وهي في أشعار العرب موجودة، وفي الشعر المولّد أكثر، وأنا آتي منها بما للناظر فيه كفاية بعون الله سبحانه وتعالى، ونبدأ منها بالتجنيس الذي أولع به الحاكم في المقامة.

التجنيس

هو اتفاق اللفظ أو أكثره واختلاف الحكم، قال أبو بكر حازم بن حازم: التجنيس أن تجيء الكلمة تجانس آخرى في بيت شعر أو كلام، وهو من أضيق أنواع البديع، فمنه

= ٤٠٦، ولسان العرب (حبل)، وللنمر بن تولب في ملحق ديوانه ص ٤٠٥، وبلا نسبة في رصف المباني ص ٤٤٧، والكتاب ١/ ١٦٤.

(١) البيت لأبي ذؤيب الهذلي في خزانة الأدب ٥/ ٨٤، ٨/ ٥١٤، والدرر ٤/ ٦٨، وشرح أشعار الهذليين ١/ ٢١٩، ولسان العرب (ضمد)، وللهذلي في إصلاح المنطق ص ٥٠، وبلا نسبة في همع الهوامع ٢/ ٥.

قوله تعالى: ﴿**وأسلمت مع سليمان**﴾ [النحل: ٤٤]، ﴿**وأقِمْ وجهك للدين**﴾ [الروم: ٤٣] وفي الحديث «عُصَيّة عصت الله ورسوله، وغِفار غفر الله لها، وأسلم سالمها الله، والظلم ظلمات يوم القيامة».

وقال خالد بن صفوان لرجل من بني عبد الدار: هشمتك هاشم، وأمّتك أمية، وخزمتك مخزوم، وأنت من عبد دارها، ومنتهى عارها، فتح لها الأبوابَ إذا أقبلت، وتغلقها إذا أدبرت.

والتجنيس أنواع، فمنه تجنيس اللفظ وهو ما تقدم، ومنه تجنيس الخطّ وهو ما يصح تصحيفه، كقوله تعالى: ﴿**وهمْ يَحسبون أنّهُمْ يحسنون صنعاً**﴾ [الكهف: ١٠٤].

وفي حديث سعد بن أبي وقاص: لما أسلمت راغمتني أمي، فهي مرة تلقاني بالبِشْر، ومرة تلقاني بالبسْرِ.

البحتري: من سعادة جدّك، وقوفك عند حدّك.

وفي رسالة: عاد إلى المسامحة والمحاسنة، بعد المشامخة والمخاشنة، وقال البحتريّ: [**الطويل**]

ولم يكنِ المغترّ بالله إذ سرَى ... لِيُعْجز والمعتزّ بالله طالبه[1]

وقال البحتريّ أيضاً: [**الطويل**]

وحالاً كريش النَّسر مهما رأيته ... جناحاً لشهمٍ عاد ريشاً على سهمِ

ومنه تجنيس السمع كقوله تعالى: ﴿**وُجوهٌ يومئذٍ نَاضرة إلى رَبِّها ناظرة**﴾ [القيامة: ٢٢] ومن رسالة: لم يكن لأمره مضيعاً، ولا لسرّه مديعاً.

البستي: مَنْ لم يكن لك نسيباً، فلا ترجُ منه نصيباً. ومَنْ لم يكن لك صدره بالحاجات فسيحاً، فلا تسمع له بها لساناً فصيحاً. وقال: [**الطويل**]

أبوك كريم غير أنك سابقٌ ... مداه فلا ضيمٌ عليك ولا ذمّ

فلا يَعجبنّ الناس مما أقوله ... وأقضي به فالغيث يقدمه الغَيْمُ

وقال المعرّي رحمه الله تعالى: [**البسيط**]

أعوذُ بالله من قومٍ إذا سمعوا ... خيراً أسرّوه أو شرّاً أذاعوه

وخالد بن سنان ليس ينقصُه ... من قدره الكون في حيّ أضاعوه

ومنه تجنيس المضارعة، فمنه من رسالة: أنابه بين احتفاء واحتفال، وبين ذكر مطرٍ مطرب. وثنا مغرٍ مغرب.

---

(١) البيت في ديوان البحتري ص ٢١٥.

وقال أبو تمام: [الطويل]

يمدّون من أيدٍ عواصٍ عواصمٍ تطول بأسياف قواضٍ قواضبِ[١]

وقال المعرّي: من اتقى الله فهو السالم الساري.

وقال ابن عمار: [الطويل]

إذا ركبوا فانظره أوّل طاعنٍ وإن نزلوا فانظره آخرَ طاعم

وباب التجنيس فاق الناس فيه حبيب، والناس له تبع، كما انفرد بحسن القطع في آخر قصائده، فلا يكاد الشاعر الماهر يزَيد بيتاً في آخر قصائده في الغالب.

كما انفرد الحسن بحسن الابتداء فله ابتداءات لا يجاري فيها، كما انفرد ابن المعتز بجودة التشبيه يكاد على كثرته في شعره ألا يسقط له تشبيه واحد، كما انفرد المتنبي بلطف التخلص من التغزّل إلى المدح، ومن تجنيس حبيب قوله: [الطويل]

عداك حرّ الثغور المستضامة عن برد الثغور وعن سلسالها الحَصِبِ[٢]

السلسال العذب والحصب: الجاري على الحصباء؛ شبه الريق به، ففي هذا البيت من صنع البديع التجنيس والطباق والتتميم والترديد والتبليغ، وتأتي هذه الأنواع في هذا الفصل، وحبيب أكثر الناس استعمالاً لصنع البديع، ومن شعره يُتعلَّم، وقال أيضاً: [البسيط]

كم نيل تحت سناها من سَنَا قمرٍ وتحت عارضها من عَارِض شنبِ[٣]

وقال أيضاً: [الكامل]

يا من تدمّي عينه تلك الدمى فيه ويقمر ليلة الإقمار

أخذه البحتري فقال: [البسيط]

جافي المضاجع لا ينفكُّ في لجَبٍ يكاد يُقْمرُ من لألائه القمرُ[٤]

وأنشد أبو علي الفارسي في نوادره لأبي الغول الطهوي يصف سحابا: [الخفيف]

وقري كلّ قرية كان يقرو ها قرى لا يجفّ منه القِرى

وفي المقامات من التجنيس كثير، وفي هذا الشرح منه ما يُستظرف ويستبدع، فمما يستحسن منه قول السريّ يمدح سيف الدولة: [الوافر]

أغرّتك الشّهاب أم النهارُ وراحتُك السحاب أم البحارُ

خلقت منيّة ومُنًى فأضحت نمور بك البسيطة أو تمارُ

(١) البيت في ديوان أبي تمام ص ٤٢.

(٢) البيت في ديوان أبي تمام ص ١٠.

(٣) ديوان أبي تمام ص ١١.

(٤) البيت في ديوان البحتري ص ٩٥٨.

تحلِّي الدينَ أو تحمي حماه   فأنت عليه سُور أو سوارُ
سيوفك من شكاة الثغر برءٌ   ولكن للعِدى فيها بوارُ
وكفّاك الغمام الجود يسري   وفي أحشائه ماء ونارُ
فيمنَى من سجيتها المنايا   ويُسْرَى منَ عِطيّتها اليسار

ومن الشعر الذي جمع إلى التجنيس حسن التقسيم والطباق جواب الصابي أبا أحمد الشيرازي، من شعر يشتكي له نقرساً أصابه وأوله: [المتقارب]

إلى الله أشكو ضنًى شفّني   وكم قبله من ضَنًى قد شفاني

فأجابه الصابي: [المتقارب]

عنَاني من الهم ما قَدْ عناني   فأعطيتُ صَرْف الليالي عِناني
ألفْتُ الدموع وعفت الهجوعَ   فعيناي عينان نَضّاختانِ
لسقم ألحّ على سيِّدٍ   به قد غفرتُ ذنوبَ الزَّمان
وكيف سطا بهما واستطا   ل وأرض بساطهما النّيران
وهلاً تجاوزه قاصداً   إلى عصبة عُصِبَتْ بالهوانِ
إذا ما سعى لطلاب العلا   فكلّ أوانٍ همّ في توان
أتتني بالأمس أبياته   تعللّ روحي بروح الجنان
كبرْد الشباب وبَرْد الشرا   بِ وطَلّ الأمان وَنَيْل الأماني
وعهد الصِّبا ونسيم الصَّبا   وصَفو الزمان ورجع القيانِ
أجبت عن الشّعر مسترسلاً   بطبع شجاع وقَلْبِ جَبَانِ
ولولا سكوني إلى فضله   قبضت بناني بقبض اللّسانِ

وقال أبو الفتح البستي: [المتقارب]

إنَّ أسيافنا العضاب الدوامي   صيَّرت ملكنا قرينَ الدَّوَام
باقتسام الأموال من وقت سام   واقتحام الأموال من وقت حام

التشبيه

وقد أوردنا في هذا الكتاب منه كل غريب، والتشبيهات على ضروب مختلفة، فمنها تشبيه الشيء بالشيء صورة وهيئة، ومنها تشبيهه به معنى، ومنها تشبيهه به لوناً، ومنها تشبيهه به صوتاً، ومنها تشبيهه به حركة وسرعة، فالأول كقوله: [الطويل]

كأنّ قلوب الطير رطباً ويابساً   لَدَى وكْرها العُنّابُ والحشَفُ البالِي[1]

---

(١) البيت لامرىء القيس في ديوانه ص ٣٨، وشرح التصريح ١/ ٣٨٢، وشرح شواهد المغني ١/ ٣٤٢، =

أجمع أهل العلم بالشعر كأبي عمرو بن العلاء والأصمعي، أن أحسن التشبيه ما يقابل به تشبيهان في بيت واحد، وأن أحداً لم يقل ذلك كبيت امرىء القيس، كأن قلوب الطير. وقال بشار: ما زلت مذ سمعت قوله: كأن قلوب الطير أراود نفسي أن أشبه شيئين بشيئين ولا أستطيع ذلك إلى أن قلت: **[الطويل]**

كأنَّ مَثَار النَّقْع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبهْ

ويا بعد ما بين البيتين على أن بيت بشار غريب، ولا أحفظ للبيتين ثالثاً، إلا أن بشاراً قد قال أيضاً: **[البسيط]**

من كل مشتهر في كف مشتهر كأن غرّته والسيف نجمان

وأما تشبيه المعنى فكتشبيه الشجاع بالأسد والجميل بالقمر، وكقوله: **[الطويل]**

وكالسيف إن لاينتَه لان متنه وحدّاه إن خاشنتَه خَشِنان

واللون كقول ابن هرمة: **[الطويل]**

وليلٍ كسربال الغراب ادّرعتهُ إليك كما أخْتَّ اليمانيّ أجدل

والصوت كقول النابغة: **[البسيط]**

له صَرِيف صريف القعو بالمسَدِ[1]

والحركة والسرعة، كقول امرىء القيس: **[الطويل]**

كجُلمود صخرٍ حطَّه السيلُ من علِ[2]

وربما امتزجت هذه المعاني بعضها ببعض، فإذا اتفق في الشيء المشبه معنيان أو ثلاثة معانٍ من هذه الأوصاف قويَ التشبيه، وتأكد الصدق فيه، وأصدق التشبيهات ما إذا

= ٢/ ٥٩٥، ٨١٩، والصاحبي في فقه اللغة ص ٢٤٤، ولسان العرب (أدب)، والمقاصد النحوية ٣/ ٢١٦، والمنصف ٢/ ١١٧، وتاج العروس (بال)، وبلا نسبة في الأشباه والنظائر ٧/ ٦٤، وأوضح المسالك ٢/ ٣٢٩، ومغني اللبيب ١/ ٢١٨، ٢/ ٣٩٢، ٤٣٩.

(١) صدره:

مقذوفةً بدخيس النحض بازلُها

وهو للنابغة الذبياني في ديوانه ص ١٦، وجمهرة اللغة ص ٥٧٨، ٧٤١، ٩٤٤، والدرر ٣/ ٧٦، وشرح أبيات سيبويه ١/ ٣١، وشرح الأشموني ٢/ ٥٠٧، والكتاب ١/ ٣٥٥، ولسان العرب (صرف)، (قذف)، (بزل)، (قعا)، وبلا نسبة في مجالس ثعلب ص ٣٢٠، وهمع الهوامع ١/ ١٩٣.

(٢) صدره:

مكرٍّ مفرٍّ مقبلٍ مدبرٍ معاً

والبيت في ديوان امرىء القيس ص ١٩، ولسان العرب (علا)، وكتاب العين ٧/ ١٧٤، والكتاب ٤/ ٢٢٨، وبلا نسبة في المخصص ١٣/ ٢٠٢، وأوضح المسالك ٣/ ١٦٥.

عكس لم ينتقض، بل يكون كل مشبه بصاحبه مثل صاحبه، ويكون صاحبه مشبهاً به صورة ومعنى، كقول امرىء القيس: [الطويل]

نَظَرْتُ إليها والنجومُ كأنّها مصابيحُ رُهبانٍ تُشَبُّ لِقُفَّالِ[(١)]

فتشبيهُ النجوم بالمصابيح لفرط ضيائها صحيح، وتشبيه المصابيح بالنجوم صحيح، وربما أشبه الشيء صورة، وخالفه معنى. وقد تقدّم ذكر ذلك في الثانية، وربما قاربه وداناه وشابهه مجازاً لا حقيقة.

وأدوات التشبيه كأنّ والكاف ومِثْل، وتسقط الكاف مع المصدر فيشبّه بالمصدر، وقد يشبّه بقولهم: تخاله وتحسبه، فما كان منه صادقاً قيل فيه «كأنه» أو كذا، وما قارب الصدق قيل فيه: تراه أو تخاله؛ فإذا حققتَ هذا الفصل انكشفت لك أسرار التشبيه، وقد تقدّم نوع من التشبيه في الثانية، وسيأتي في الأربعين تشبيهات الغريب العقم في حكاية الأصمعي.

الاستعارة

هي من العارية لأنّ الشاعر يُعير المعنى ألفاظاً غير لفظه الموضوع له، وهي على ثلاثة أوجه: أحدهما يستعيره الشاعر من الألفاظ على سبيل التمثيل وتتميم المعاني، وهذا الضرب يعدّ في البديع ومحاسن الشعر، وهو كثير في كلامهم، وعليه انبنى كتاب المقامات، وقلّما يوجد بيت يخلو منه، وما جاء منه في القرآن سماه بعضهم مجازاً وأباه بعضهم، نحو قوله تعالى: **﴿واخفض لهما جَنَاح الذّلّ من الرّحْمةِ﴾** [الإسراء: ٢٤]، **﴿واشْتَعَلَ الرَّأس شَيْباً﴾** [مريم: ٤] وقال النبي ﷺ: «دبّ إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء»[(٢)].

وقال امرؤ القيس: [الطويل]

* وليلٍ كَموْجِ البحرِ أرخى سُدُولَه[(٣)] *

وقال علقمة وهو بديع: [البسيط]

* والصبح بالكوكب الدريِّ منحور[(٤)] *

---

(١) البيت في ديوان امرىء القيس ص ٣١، وخزانة الأدب ١/ ٣٢٨، والدرر ٤/ ١٣، وهو بلا نسبة في همع الهوامع ١/ ٢٤٦.

(٢) أخرجه الترمذي في القيامة باب ٥٦، وأحمد في المسند ١/ ١٦٥، ١٦٧.

(٣) عجزه:

عليَّ بأنواع الهموم ليبتلي

والبيت لامرىء القيس في ديوانه ص ١٨، وخزانة الأدب ٢/ ٣٢٦، ٣/ ٢٧١، وشرح شواهد المغني ٢/ ٥٧٤، ٧٨٢، وشرح عمدة الحافظ ص ٢٧٢، والمقاصد النحوية ٣/ ٣٣٨، وبلا نسبة في أوضح المسالك ٣/ ٧٥، وشرح الأشموني ٢/ ٣٠٠، وشرح شذور الذهب ص ٤١٥.

(٤) صدره:

أوْرَدْتُهم وصدور العيس مُسْنَفَةٌ =

وقال زهير في الحرب: [الطويل]

* ضَروس تُهِرّ الناس أنيابها عُضْلُ(١) *

وقال عمرو بن كلثوم: [الطويل]

ألا أبلغ النعمان عني رسالةً فمجدك حولي ولومك قارحُ

وقال الحسن: [الكامل]

في مجلسٍ ضحك السُّرور به عن ناجذيه وحَلّتِ الخمرُ

وقال العباس بن الأحنف: [البسيط]

قد سحبَ الناس أذيال الحدِيث بنا وفرّق الناس فينا قولَهم فرقا(٢)

فكاذب قد رمى بالظنّ غيرَكمُ وصادق ليس يدْرِي أنه صدقا

الثاني: أن ينتحل الشاعر قولاً لغيره فيدخله في شعره، وهذا هو الاجتلاب الذي نفاه جرير عن نفسه بقوله: [الوافر]

ألم تعلم مسرَّحِيَ القوافي فلا عِيًّا بهنّ ولا اجتلابا(٣)

الثالث: أنه يستعير الشاعر ألفاظاً كان غنياً عنها، والمعنى غير مفتقر إليها، ويسمى الحشو والاستعانة، ويحسن بقدر ما يتحمل من الفوائد ويقبح إذا فرغ منها.

الإشارة

قال قدامة: الإشارة هي اشتمال اللفظ القليل على المعاني الكثيرة باللمحة الدالة، ولم يأت أحد منها بمثل قول زهير: [الوافر]

وإني لو لقيتك فاجتمعْنَا لكَان لكلّ منكَرة كِفاءُ(٤)

وقال امرؤ القيس: [الطويل]

على هَيْكل يعطيكَ قبل سؤاله أفانين جَرْيٍ غيرَ كزٍّ ولا وانِ(٥)

= والبيت لعلقمة الفحل في ديوانه ص ١١٣، وأساس البلاغة (نحر)، وبلا نسبة في لسان العرب (نحر)، وتاج العروس (نحر).

(١) صدره:

إذا لَقِحَتْ حربٌ عوانٌ مُضرّةٌ

والبيت في ديوان زهير بن أبي سلمى ص ١٠٣.

(٢) البيتان في ديوان العباس بن الأحنف ص ١٦٩.

(٣) البيت لجرير في ديوانه ص ٦٥١، وشرح أبيات سيبويه ١/ ٩٧، والكتاب ١/ ٢٣٣، ٣٣٦، ولسان العرب (جلب)، (سحج)، وبلا نسبة في لسان العرب (يسر)، والمقتضب ١/ ٧٥، ٢/ ١٢١.

(٤) البيت في ديوان زهير بن أبي سلمى ص ٨١.

(٥) البيت في ديوان امرىء القيس ص ٩١.

فتأمل ما اشتملت عليه لفظة «أفانين» مما لو عُدَّ كان كثيراً، وما اقترن به من جميع أصناف الجودة طوعاً من غير طلب ولا مسألة، ثم نفى عنه الكزازة والونى، وهما أكبر عيوب الخيل.

والإشارة من غرائب الشعر ومُلحه ولا يأتي بها إلا شاعر مبرز، وتسمَّى اللمحة الدالة، وأصلها الاختصار، وهي أنواع، فمنها الوحي، كقول جاهلي في يزيد بن الصَّعق: **[المتقارب]**

تركت الركاب لأربابها ... وألزمت نفسي على ابن الصعقْ[1]

جعلت يديّ وشاحاً له ... وبعض الفوارس لا تُعتنقْ

فقوله: «جعلت يدي وشاحاً له» إشارة بديعية دالة على الاعتناق بغير لفظة.

الإيماء

ومنها الإيماء، فمن ملحه قول قيس بن ذريح: **[الطويل]**

أقول إذا نفسي من الوجد أَصْعدَتْ ... لها زَفْرَةٌ تعتادني هِيَ ما هيا[2]

وقول كثير: **[الطويل]**

تجافيتِ عنّي حين لا لي حيلةٌ ... وغادرتِ ما غادرتِ بين الجوانحِ[3]

فقوله: «غادرت ما غادرت» إيماء مليح.

التلويح

ومنها: التلويح، ومن أجوده قول النابغة في طول الليل: **[الطويل]**

تطاولَ حتّى قلتُ ليس بمنقضٍ ... وليس الذي يَرْعى النُّجومَ بآيبِ[4]

فالذي يرعى النجوم هنا الصبح، أقامه مقام الراعي، يغدو فتذهب الإبل والماشية، فتلويحه هذا عجب في الجودة، ومنه قول المجنون: **[الطويل]**

لقد كنت أعلُو حبّ ليلى فلَم يَزلْ ... بيَ النقض والإبرامُ حتى علانيا[5]

فلوَّح بالصحة والكتمان، ثم بالسقم والاشتهار تلويحاً عجيباً.

التعريض

ومنها التعريض، كقول عمرو بن معد يكرب: **[الطويل]**

---

(١) البيتان بلا نسبة في كتاب الصناعتين ص ٣٦٧.

(٢) البيت في ديوان قيس بن ذريح ص ١٦٠.

(٣) البيت في ديوان كثير عزة ص ٥١٥.

(٤) البيت في ديوان النابغة الذبياني ص ٤٠، وفيه «تقاعس» بدل «تطاول»، وأساس البلاغة (قعس).

(٥) البيت في ديوان قيس بن الملوح ص ٢٩٤.

فلو أن قومي أَنطَقتْنِي رماحهمْ نطقت ولكنّ الرماح أجرَّتِ[(١)]

أي لو أن قومي صدقوا في القتال وطعنوا برماحهم أعداءُهم لنطقتُ بمدحهم، ولكنهم صرفوها عن أعدائهم منهزمين، فكأنها أجرّت لساني، أي شقته كما يُجَرُّ لسان الفصيل، فكأنها أسكتتني. فهذا تعريض ينوب عن التصريح، وأخذه أبو بكر بن دريد فقال: [**الخفيف**]

يا بني مالك عقلتُمْ لساني كيف يجرِي المقيّد المعقولُ[(٢)]

إن سلكتمْ إلى الفَعال سبيلاً وضَحتْ لي إلى المقال سبيلُ

ومن التعريض قوله: [**الطويل**]

بني عمِّنا لا تذكروا الشِّعر بعدما دفنتم بصحراء الغمير القوافيا[(٣)]

ومنه قول حميد بن ثور وقد تقدّم: [**الطويل**]

أَرَى بصرِي قد خانني بعد صحّةٍ وحسبُك داء أنْ تَصِحّ وتسلمَا[(٤)]

التفخيم

ومنها: التفخيم، كقول الغنَوي: [**الطويل**]

أخي ما أخي لا فاحشٌ عند بيتِه ولا وَرَعٌ عند اللّقاء هَيُوبُ

ونحو هذا حكاية الأعرابي في نوادر أبي عليّ حين سئل: أله بنون؟ فقال: نعم، وخالقهم لم تقم عن مثلهم منجبة؛ فلمّا ذكر أسماءهم قال: جهم وما جَهْم، غَشَمَشم وما غَشَمْشم، عشرب وما عشرب.

ومن هذا التفخيم ما يجيء على التهويل والتعظيم نحو قوله تعالى: ﴿**الحاقّة ما الحاقّة**﴾ [الحاقة: ١] و ﴿**القارعة ما القَارعة**﴾ [القارعة: ١] وهو كثير في كلام العرب.

ومما جاء في الإشارة على معنى التشبيه قول الأعرابي يصف لبناً ممذوقاً: [**الرجز**]

* جاؤوا بمَذْقٍ هَلْ رأيتَ الذئب قطْ[(٥)] *

---

(١) البيت في ديوان عمرو بن معديكرب في ديوانه ص ٧٣، ولسان العرب (جرر)، ومقاييس اللغة ١/ ٤١١، ومجمل اللغة ١/ ٣٨٩، وتهذيب اللغة ١٠/ ٤٧٦، وتاج العروس (جرر)، وهو بلا نسبة في كتاب العين ٦/ ١١٤.

(٢) البيتان في ديوان ابن دريد ص ١٠٢.

(٣) البيت لسويد الحارثي في البيان والتبيين ٢/ ١٨٦.

(٤) البيت في ديوان حميد بن ثور ص ٧.

(٥) قبله:

حتى إذا جنَّ الظلامُ واختلطْ

والرجز للعجاج في ملحق ديوانه ٢/ ٣٠٤، وخزانة الأدب ٢/ ١٠٩، والدرر ٦/ ١٠، وشرح التصريح=

فأشار إلى تشبيه لونه إذا غلب عليه المذق بلون الذئب كما صرح به الآخر حين قال: [الطويل]

فيشربهُ مذقاً ويسقى عيالَهُ سحاباً كأقراب الثعالب أَوْرَقَا[1]

المطابقة

أبو الفرج عليّ بن الحسين، قلت لأبي الحسن عليّ بن سليمان الأخفش ـ وكان أعلم مَنْ شاهدته بالشعر: طائفة وهم الأكثرون تزعم أن الطباق ذكر الشيء وضدّه، فيجمعهما اللفظ لا المعنى، وطائفة تقول: هو اشتراك المعنيين في لفظ واحد، مثل قول زياد الأعجم: [الطويل]

ونُبِّئتهم يَسْتَنْصِرُونَ بكاهلٍ وللؤم فيهم كاهِلٌ وَسنامُ[2]

فكاهل قبيلة وكاهل للعضو، فقال: من ذا الذّي يقول هذا؟ قلت: قدامة وغيره، فقال: هذا يا بني هو التجنيس، ومن ادعى أنه طباق فقد ادعى خلافاً على الخليل والأصمعيّ، قلت: أفكانا يعرفان هذا! فقال: سبحان الله، وهل غيرُهما في علم الشعر وتمييز خبيثه من طيبه! قلت: فأنشدني أحسن طباق للعرب، فقال: قول عبد الله بن الزُّبير الأسديّ: [الوافر]

فردّ شعورهن السّودَ بيضا وردّ وجوههنّ البيض سودا[3]

وقال أبو الفرج: وأنا أقول إن أحسن بيت قيل فيه: [البسيط]

للسّود في السود آثار تركنَ بها لمعاً من البيض يثني أعين البيضِ

يعني أن اللّيالي بمَرُورهنّ تبيّض سواد الشعر.

قال أبو حاتم: سألت الأصمعي عن صنعة الشعر، فذكر في بعض قوله المطابقة، وقال: أصلها وَضْع الرجل في موضع اليد، فقلت: أنشدني أحسن ما قالت العرب في ذلك فقال: قول زهير [البسيط]

= ٢/ ١١٢، والمقاصد النحوية ٤/ ٦١، وبلا نسبة في الإنصاف ١/ ١١٥، وشرح ابن عقيل ص ٤٧٧، ولسان العرب (خضر)، (مذق)، والمخصص ١٣/ ١٧٧، وأساس البلاغة (ضيح).

(١) البيت بلا نسبة في لسان العرب (سجج)، (مذق)، (ورق)، وتهذيب اللغة ٩/ ٧٧، ١٠/ ٤٤٩، والمخصص ٥/ ٤٦، وتاج العروس (سجج)، (ورق). ويروى «يشربه محضاً» بدل «فيشربه مذقاً».

(٢) البيت لزياد الأعجم في كتاب الصناعتين ص ٣١٦.

(٣) البيت لعبد الله بن الزبير في ملحق ديوانه ص ١٤٤، وتخليص الشواهد ص ٤٤٣، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ٩٤١، والمقاصد النحوية ٢/ ٤١٧، ولأيمن بن خريم في ديوانه ص ١٢٦، ولفضالة بن شريك في عيون الأخبار ٣/ ٧٦، ومعجم الشعراء ص ٣٠٩، وللكميت بن معروف في ديوانه ص ١٩١، وذيل الأمالي ص ١١٥، وبلا نسبة في شرح الأشموني ١/ ١٥٩، وشرح ابن عقيل ص ٢١٧.

لَيثٌ بِعثَّر يصطاد الرجال إذا ... ما كذب الليث عن أقرانه صَدَقَا[١]

وقيل: المطابقة أن يأتي الشاعر بلفظتين مختلفتين في المعنى واللفظ في بيت واحد أو في كلام، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ في القِصَاصِ حياة﴾ [البقرة: ١٧٩]. وقال رسول الله ﷺ للأنصار: «إنكم لتَكثرون عند الفزع وتقلّون عند الطمع»[٢].

وقال عليّ رضي الله عنه: من رضي عن نفسه كثر من يتسخّط عليه.

وقال: أعظم الذنوب ما صغر عند صاحبه.

وقال الحسن: كثرة النظر إلى الباطل تذهب بمعروف الحق.

وقال الفرزدق: **[الكامل]**

لعن الإله بني كليبٍ إنّهمْ ... لا يغدرون ولا يفُون لجار[٣]

يستيقظون إلى نهيق حميرهمْ ... وتنام أعينهُمْ عن الأوتارِ

وقال حبيب: **[الطويل]**

يرى العلْقم المأْدومَ بالعزّ أَريةً ... يمانية والأريُ بالضَّيْمِ علقما[٤]

التقسيم

ومنها التقسيم. قال أبو الحسن عليّ بن هارون بن علي بن حماد بن إسحاق الموصلي: هو أن يستقصي الشاعر تفصيل ما ابتدأ به فيستوفيَه، فلا يغادر قسماً يقتضيه إلا أورده، وإلى هذا كان يذهب أهلنا، وأحسن ما قيل في ذلك قول زهير: **[البسيط]**

يَطعنهمْ ما ارتموا حتى إذا اطعَّنوا ... ضارب حتى إذا ما ضاربوا اعْتَنَقَا[٥]

وقول عنترة: **[الكامل]**

إن يلحقوا أكرُرْ وإن يستلحموا ... أشدد وإن يُزْمَوْا بضنْكٍ أنزلِ[٦]

---

(١) يروى عجز البيت:

ما الليل كذَّب عن أقرانه صدقا

وهو في ديوان زهير بن أبي سلمى ص ٥٤، ولسان العرب (كذب)، (عثر)، والتنبيه الإيضاح ٢/ ١٦١، وتهذيب اللغة ١٠/ ١٧٤، وجمهرة اللغة ص ٤٢١، وتاج العروس (كذب)، (عثر)، والبيت بلا نسبة في ديوان الأدب ١/ ٨٤.

(٢) رواه ابن الأثير الجزري في النهاية في غريب الحديث ٣/ ٤٤٣.

(٣) البيت الثاني في ديوان الفرزدق ص ١/ ٣٦٠، وأساس البلاغة (يقظ).

(٤) البيت في ديوان أبي تمام ص ٢٩٤.

(٥) البيت لزهير بن أبي سلمى في ديوانه ص ٥٤، ولسان العرب (وصل)، وتهذيب اللغة ١/ ٢٥٣، وكتاب العين ١/ ١٦٨، ومقاييس اللغة ٤/ ١٦٠، وبلا نسبة في لسان العرب (عنق).

(٦) البيت في ديوان عنترة ص ٦٥.

أبو العيناء: أجمع علماء الشعر أن أحسن تقسيم أتى به متقدم قول عمر بن أبي ربيعة: [الطويل]

تهيمُ إلى نُعْمٍ فلا الشَّمْل جامعٌ ... ولا الحبلُ موصولٌ ولا أنت تصبُرُ[1]

ولا قرب نعمٍ إن دنت لك نافعٌ ... ولا بُعدها يُسْلِي ولا أنت مُقْصِرُ

المبرد: لم أسمع أحسن من تقسيم لقيس بن ذريح، وهو:

وقد كان فيها للأمانة موضعٌ ... وللكفّ مرتاد وللعين مَنْظَرُ[2]

وقد تقدم في شرح الثانية بيت المتنبي في التقسيم وهو: بدت قمرا... البيت. ونسج على منواله الزاهر فقال: [الطويل]

سَفَرْنَ بُدُورا وانتقبنَ أهِلَّةً ... ومِسْنَ غُصونا والتفتنَ جآذرا

وأطلعن في الأجياد بالدر أنجما ... جعلن لحبّاب القلوب ضرائرا

وقال الناشي: [الطويل]

رأيت على أكوارنا كلَّ ماجد ... يرى كلّ ما يفنى من المال مغنَما

ندوّم أسيافاً ونعلُو قواضبا ... وننقضّ عِقبانا ونَطْلُع أنجمَا

وقال السَّلامِيّ: [البسيط]

ما ضَنّ عنك بموجود ولا بَخِلاَ ... أعزُّ ما عنده النفس التي بَذَلاَ

يحكي المطايا حنيناً والهجير جوًى ... والمزن دمعاً وأطلال الديار بلَى

والتقسيم في الشعر كثير.

التسهيم

قال عليّ بن هارون: هذا لقب نحن اخترعناه، وصفة الشعر المسهّم أن يسبق المستمع إلى قوافيه قبل أن ينتهي إليها راويه، حتى لو سَمِع الشطر الأوّل استخرج الآخر قبل أن يسمعه، وأحسن ما قيل في ذلك قول جندب أخت عمرو ذي الكلب ترثي أخاها: [المتقارب]

فأقسمتُ يا عمرُو لو نَبّهاك ... إذاً نبها مِنْك دَاءً عُضَالا[3]

إذا نَبّهَا ليْثَ عِرّيسةٍ ... مُفِيتا مُفِيدا نفوساً ومالاَ

وخَرْقٍ تجاوزت مجهولَة ... بوجناء حَرْفٍ تشكّى الكَلاَلا

فكنت النهار به شَمْسَهم ... وكنتَ دجى اللّيل فيه الهلالا

---

(١) البيتان في ديوان عمر بن أبي ربيعة ص ٩٢.

(٢) البيت في ديوان قيس بن ذريح ص ٨٧، وفيه «وللقلب» بدل «وللكف».

(٣) الأبيات في كتاب الصناعتين ص ١٤٢، وأمالي المرتضى ٢/ ٢٤٣.

قال الحاتميّ: فانظر إلى ديباجة هذا الكلام، ما أصفاها، وإلى تقسيماته ما أوفاها، وانظر إلى قوله: مفيتا مفيداً، ووصفها إياه بالشمس بالنهار والهلال بالليل، تجد المطيع الممتنع القريب البعيد.

التتميم

هو أن يذكر الشاعر معنى فلا يترك شيئاً يتم ويتكامل الإحسان معه فيه إلا أتى به، وأحسن ما قيل في ذلك قول طرفة: **[الكامل]**

فَسَقَى ديارَكِ غيرَ مُفْسِدِهَا ... صَوْبُ الرَّبيعِ ودِيمَةٌ تَهْمِي[١]

فقد تم الإحسان في المعنى الذي ذهب إليه بقوله: «غير مفسدها» ويتلوه قول خليفة بن نافع العَنَزي: **[الطويل]**

رجال إذا لم يقبل الحق منهمُ ... ويعطوه عادوا بالسُّيوف القواطع

فالمعنى تم بقوله «ويعطوه»، ولولاه كان ناقصاً.

وقال حبيب: **[الكامل]**

حتّى لقد ظنّ الغواة وباطل ... أنى تجسّم فيّ روح السَّيِّدِ[٢]

فتمّ الإحسان في المعنى الذي أراد بقوله: «وباطل»، والسيد الحميري له في الشيعية مذهب رديء، والغواة هنا القائلون بالتناسخ. يقول: لإفراطِ حبهم في أهل البيت، توهّم الغواة أن روح السّيد تجسم فيّ، وتوهُّمهم باطل.

الترديد

هو تعليق الشاعر لفظة في البيت بمعنى، ثم يرددها فيه بعينها ويعلقها بمعنى آخر، وأكثر ما يستعمله المحدَثون، وأجمعوا أن أباحيّة النميريّ سبق إلى الإحسان جميع من تقدَّمه وتأخَّر عنه في قوله: **[الطويل]**

أَلاَ حيّ من أجل الحبيب المغانيَا ... لبسن البِلَى مِمّا لبسن اللَّيَالِيَا[٣]

إذا ما انقضى للمرء يوم وليلة ... تقاضاه شيء لا يملّ التقاضيا

ابتدأ بالمصراع الأول فأحسن الابتداء، وردّد في المصراع الثاني فأحسن في

---

(١) البيت لطرفة بن العبد في ديوانه ص ٨٨، وتخليص الشواهد ص ٢٣١، والدرر ٤/ ٩، ومعاهد التنصيص ١/ ٣٦٢، وبلا نسبة في لسان العرب (همي)، وهمع الهوامع ١/ ٢٤١.

(٢) البيت في ديوان أبي تمام ص ١١٤.

(٣) يروى صدر البيت الثاني:

إذا ما تقاضى المرءَ يومٌ وليلةٌ

وهو بلا نسبة في لسان العرب (قضى)، وتاج العروس (قضى).

الترديد، ثم ابتدع في البيت الثاني ما ليس لأحد مثله.

أبو تمام: لا أعلم أحداً أحسن صنعة في الترديد من زهير في قوله: [البسيط]

مَنْ يَلْقَ يوماً على عِلاَّته هَرِماً يَلْقَ السَّماحةَ منهُ والنَّدى خلقا(١)

الحاتمي: وأحسن الخليع الباهلي في الترديد بقوله: [الطويل]

لقد ملأت عيني بحسن محاسنٍ مَلأنَ فُؤادي لوعةً وهُمُومَا

التجريد

وهو أن يجرّد الشاعر موصوفه من صفته، ويسندها لأجنبي في الظاهر، وهو يريد الأول في المعنى، مثل قول الأعشى: [المنسرح]

يا خيرَ مَنْ يركب المطيّ ولا يَشرب كأساً بكفِّ مَن بَخِلا(٢)

فظاهره أنه لا يشرب كأساً بكفّ رجل ينسب إلى البخل إنما يشربها بكف كريم، وذلك الكريم هو الممدوح في المعنى، فجرّده في الظاهر، وهو يريد بكفّ بخيل من نفسه. وأبو عليّ الفارسي اختار لهذه الصنعة اسم التجريد، ومنه قول طرفة: [الرمل]

جازتَ البيدَ إلى أرحُلِنا آخرَ الليل بَيْعفُورٍ حَذِرْ(٣)

يعني بيعفور حذر، من نفسها. وقال الأخطل: [الطويل]

رَبِيع حياً ما يستقل بحمله سؤوم ولا مُسْتَنْكِش البحر ناضِبُهْ

أي ما يستقل بحمله سؤوم من نفسه، أي ليس بملول، وقال النابغة. [الكامل]

لم يحرَمُوا حسن الغذاء وأمّهمْ طَفحَتْ عليك بناتقٍ مِذْكَارِ(٤)

ومما يتعلق بنوع من التجريد قول امرىء القيس: [السريع]

«على لاحب لا يهتدي بمناره»(٥)

---

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى في ديوانه ص ٥٣، والإنصاف ٦٨/١، وخزانة الأدب ٢/ ٣٣٥، وسر صناعة الإعراب ٢/ ٨٣١، وبلا نسبة في المقتضب ٤/ ١٠٣.

(٢) البيت في ديوان الأعشى ص ٢٢٥.

(٣) البيت لطرفة في ديوانه ص ٥٠، ولسان العرب (خدر)، (عفر)، (رحل)، وتهذيب اللغة ٧/ ٢٦٥، ومقاييس اللغة ٢/ ١٦٠، ٤/ ٣٧٢، ومجمل اللغة ٢/ ١٦٣، وديوان الأدب ٢/ ٢٣٢، وكتاب العين ٢/ ٣٤٢. ويروى «خِدْرٌ» بدل «حَذِرْ».

(٤) البيت للنابغة الذبياني في ديوانه ص ٥٨، ولسان العرب (دحق)، (نتق)، وتهذيب اللغة ٤/ ٣٥، وكتاب العين ٣/ ٤٢، وأساس البلاغة (طفح)، وتاج العروس (نتق)، وبلا نسبة في مقاييس اللغة ٥/ ٣٨٧، والمخصص ٤/ ٣٠، ويروى «بناتقٍ» بدل «بتائقٍ».

(٥) عجزه:

إذا سافه العودُ الديافيُّ جرجرا

=

فظاهره أن المنار الذي يهتدي به إلى الطريق لا يهتدي به. وهو في المعنى قد جرّد الطريق من المنار، وإنما أراد: ليس به منار أصلاً، فليس ثَمّ اهتداء، فنفي المسبب الذي هو الاهتداء، وأثبت السبب الذي هو المنار في اللفظ، واتكل على قوّة دلالة المعنى، وأن مراده نفي سبب الهداية الذي هو المنار فتنتفي الهداية، ومثله قول النابغة: **[البسيط]**

يحفّه جانباً نيقٍ ويُتبعُه ... مثلَ الزجاجة لم تُكْحَلْ من الرمدِ[1]

أي ليس بها رمد فتحتاج إلى كحل.

وقال الراجز: **[الرجز]**

* ولم يقلِّب أرضَها البيطَارُ[2] *

وقال الله عز وجل ﴿**ولم يكن له وليّ من الذل**﴾ [الإسراء: ١١١] وهو كثير في الكلام.

التتبيع

وهو أن يريد الشاعر معنًى فلا يأتي باللفظ الدال عليه، بل بلفظ تابع له، فإذا قال التابع أبان عن المتبوع، وأبدَعُ ما في ذلك قول عمر بن أبي ربيعة: **[الطويل]**

بَعِيدَة مهوَى القُرْطِ إمَّا لنوفلٍ ... أبوها وإمَّا عبدُ شمسٍ وهاشم

ذهب إلى طول العنق، فلم يذكره بلفظ خاص به أتى بمعنى دلّ به على طوله، وهو قوله: «بعيدة مهوى القرط». ومثله قول الآخر: **[الطويل]**

نعلّق في مثل السَّواري سُيُوفنا ... وما بينها والكفّ مهوًى نَفَانِفُ[3]

فأراد نعلّق سيوفنا في أعناق مثل السواري في الطول والاعتدال، وما بين العنق

= والبيت لامرىء القيس في ديوانه ص ٦٦، ولسان العرب (ديف)، (سوف)، (لحف)، وتهذيب التهذيب ٥/ ٧٠، ١٣/ ٩٢، ١٤/ ١٩٨، وأساس البلاغة (سوف)، وتاج العروس (ديف)، (لحف)، (سوف)، وبلا نسبة في لسان العرب (نسا)، ومقاييس اللغة ٢/ ٣١٨، ومجمل اللغة ٢/ ٣٠٤.

(١) البيت في ديوان النابغة الذبياني ص ٣٤.

(٢) الرجز لحميد الأرقط في جمهرة اللغة ص ٩٧، وسمط اللآلي ص ٩١٥، وشرح شواهد الإيضاح ص ٤٨٩، ولسان العرب (قلب)، (حبر)، (أرض)، والمعاني الكبير ص ١٥٥، وتاج العروس (قلب)، (حبر)، وبلا نسبة في إصلاح المنطق ص ٧٣، وجمهرة اللغة ص ٢٧٥، ٣٤٩، ١٠٢٩، ولسان العرب (رجح)، وتهذيب اللغة ٩/ ١٧٥، ١٢/ ٦٢، وتاج العروس (رجح)، ومجمل اللغة ٢/ ١٣٠، ومقاييس اللغة ٢/ ١٢٧، ٥/ ١٧، والمخصص ٧/ ١٦٧، وكتاب العين ٧/ ٥٦.

(٣) البيت لمسكين الدارمي في ديوانه ص ٥٣، وفيه «تنائفُ» بدل «نفانفُ»، والحيوان ٦/ ٤٩٤، والمقاصد النحوية ٤/ ١٦٤، وبلا نسبة في الإنصاف ٢/ ٤٦٥، وشرح الأشموني ٢/ ٤٣٠، وشرح عمدة الحافظ ص ٦٦٣، وشرح المفصل ٣/ ٧٩، ولسان العرب (غوط)، وتاج العروس (غوط).

والكفّ طول كثير، فكنى عن طول القامة بغير لفظه الخاص به، وأبدع ما في التتبيع قول امرىء القيس: [الطويل]

* نؤوم الضحى لم تنتطق عن تَفَضّلِ[(١)] *

فدلّ على ترفهها، وأن لها مَنْ يكفيها المؤنة باللفظ التابع لذلك.

التبليغ

وسمّاه قوم الإيغال، وهو أن يأتِيَ الشاعر بالمعنى في البيت تاماً قبل انتهائه إلى القافية، ثم يبلغ القافية بزيادة مفيدة تزيد معنَى البيتِ براعة.

قيل للأصمعيّ رحمه الله تعالى: مَنْ أشعرُ الناس؟ قال: منْ يأتي إلى اللفظ الخسيس فيجعله بلفظ حسناً أو ينقضي كلامه قبل القافية فإذا احتاج إليها أفاد بها معنى، مثل قول ذي الرُّمة: [الطويل]

أظن الذي يُجْدِي عليك سؤالها دموعاً كتبديد الجمان المفصَّلِ[(٢)]

فتم كلامه، ثم احتاج إلى القافية فقال: المفصّل فزاد شيئاً.

ومن التبليغ قول امرىء القيس: [الطويل]

كأنّ عيونَ الوحِش حَوْلَ خِبائنا وأرحُلِنا الجزْع الّذي لمْ يُثَقَّبِ[(٣)]

فقد أتى على التشبيه قبل القافية، وزاد بقوله: «الذي لم يثقّب» بلوغاً إلى الغاية القصوى في الجودة، وكذلك قوله: [الطويل]

إذا ما جَرَى شأوَيْنِ وابتلَّ عِطْفُه تقول هزيز الريح مرَّت بأثأبِ[(٤)]

فمرَّت بأثأب زيادة على التشبيه التام، والأثأب شجر يكون للريح في أغصانه حفيف شديد، فأفادت الزيادة في التشبيه معنى بديعاً. وقال زهير: [الطويل]

كأنّ فُتات العِهْنِ في كل منزل نَزْلَن به حَبُّ الفنا لم يُحَطَّمِ[(٥)]

---

(١) صدره:

وتُضحي فتيتُ المسك فوق فراشها

والبيت لامرىء القيس في ديوانه ص ١٧، وسر صناعة الإعراب ٢/ ٥٧٥، ولسان العرب (عنن)، وتاج العروس (فضل)، وبلا نسبة في أدب الكاتب ص ٥١٣، ورصف المباني ص ٣٦٧.

(٢) البيت في ديوان ذي الرمة ص ٥٠١، وفيه «كتبذير» بدل «كتبدير».

(٣) البيت لامرىء القيس في ديوانه ص ٥٣، ولسان العرب (جزع)، وأساس البلاغة (جزع)، وكتاب العين ١/ ٢١٦، وتاج العروس (جزع).

(٤) البيت لامرىء القيس في ديوانه ص ٤٩، وشرح التصريح ١/ ٢٦٢، ولسان العرب (هزز)، والمقاصد النحوية ٢/ ٤٣١، وبلا نسبة في الأشباه والنظائر ٥/ ٢٢٠، وأوضح المسالك ٢/ ٧١.

(٥) البيت لزهير بن أبي سلمى في ديوانه ص ١٢، ولسان العرب (فتت)، (فنى)، والمقاصد النحوية ٣/ ١٩٤، وبلا نسبة في شرح الأشموني ١/ ١٥٩.

وسمى أصحاب البديع هذه الزيادة في آخر البيت الإيغال والتبليغ، وفي حشوه المبالغة والتتميم.

التصدير

هو أن يبدأ الشاعر بكلمة في البيت ثم يعيدها في عجزه، أو في النصف منه، ثم يردّدها في النصف الآخر عنه، فإذا نظم الشعر على هذه الصنعة أمكن استخراج قوافيه قبل أن يطرق أسماع مستمعيه، وأحسن ما فيه قول عامر بن الطفيل: [الطويل]

وكنْتَ سَناما في فزارة تامكاً ... وفي كلّ قوم ذروة وسنامُ[1]

التامك: الشديد، وقال الآخر: [الطويل]

سريع إلى ابن العمّ يلطم وجهه ... وليس إلى داعي الندى بسريع

وقال آخر: [الطويل]

جَهول إذا أزرى التحلّم بالفتى ... حليمُ إذا لم يزر بالحسب الجهلُ

والتصدير والترديد المتقدم يسميه كثير من البلغاء ردّ الإعجاز إلى الصدر.

الاستثناء

قيل إن أول من بدأ به النابغة، وأحسن كل الإحسان في قوله: [الطويل]

ولا عَيْب فيهم غير أنّ سيوفهمْ ... بهنّ فلولٌ من قِراع الكتائبِ[2]

وهذا كقول الجعدي: [الطويل]

فتًى كُملت أخلاقُه غير أنه ... جواد فما يُبْقى من المال باقِيَا[3]

فتًى تمّ فيه ما يسرّ صديقَه ... علَى أنّ فيه ما يسوء الأعاديا

ويستحسن قول أبي هفان: [الطويل]

فإن تسألي عنّا فنحنُ حلى العلا ... بني دارمِ والأرْض ذات المناكبِ

---

(١) البيت في ديوان عامر بن الطفيل ص ١٢٦.

(٢) البيت للنابغة الذبياني في ديوانه ص ٤٤، والأزهية ص ١٨٠، وإصلاح المنطق ص ٢٤، وخزانة الأدب ٣/ ٣٢٧، ٣٣١، ٣٣٤، والدرر ٣/ ١٧٣، وشرح شواهد المغني ص ٣٤٩، والكتاب ٢/ ٣٢٦، ومعاهد التنصيص ٣/ ١٠٧، وهمع الهوامع ١/ ٢٣٢، وبلا نسبة في الصاحبي في فقه اللغة ص ٢٦٧، ولسان العرب (قرع)، (فلل)، ومغني اللبيب ص ١١٤.

(٣) البيتان للنابغة الجعدي في ديوانه ص ١٧٣، والبيت الأول في الأزهية ص ١٨١، وأمالي المرتضى ١/ ٢٦٨، وخزانة الأدب ٣/ ٣٣٤، ٣٣٦، والدرر ٣/ ١٨٢، وديوان المعاني ١/ ٣٦، وشرح أبيات سيبويه ٢/ ١٦٢، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ١٠٦٢، وشرح شواهد المغني ٢/ ٦١٤، والشعر والشعراء ١/ ٢٩٩، والكتاب ٢/ ٣٢٧، ولسان العرب (وحح)، وبلا نسبة في الأشباه والنظائر ٨/ ١٩٣، والصاحبي في فقه اللغة ص ٢٦٧، وهمع الهوامع ١/ ٢٣٤.

ولا عيب فينا غير أنّ سَمَاحَنا أضرّ بنا والبأس في كل جانب
فأفنى الردى أعمارنا غير ظالمٍ وأفنى النّدى أموالنا غير غائب

ويسمى هذا تأكيد المدْح بما يشبه الذم.

الالتفات

إسحاق الموصلي قال: قال لي الأصمعي رحمه الله تعالى: أتعرف التفات جرير؟ قلت: لا، فأنشدني: [الوافر]

أتنسى إذ تودّعني سُلَيمى ببطن بشامةٍ سُقِيَ البَشَامُ[1]

ألا تراه مقبلاً على شعره، ثم التفت إلى البَشَام فدعا له!

الاعتراض

ويسمى الالتفات، وهو أن يكون الشاعر آخذاً في معنى، فيعدل عنه آخذاً في غيره قبل أن يتم الأول، ثم يعود إليه فيتمه، فيكون فيما عدل إليه مبالغة في الأولّ وزيادة في حسنه.

قال ابن المعتز: الالتفات انصرافُ المتكلم عن الإخبار إلى المخاطبة، وعن المخاطبة إلى الإخبار، ومن أحسن ما في قول ذلك قولُ النابغة: [الوافر]

ألا زعمتْ بنو عبس بأني - ألا كذبت - كبير السنّ فانِ

وقيل: بل قول كثير: [الوافر]

لَونّ الباخلين وأنتِ منهم رأوْكَ تَعلَّموا منكِ العطايا[2]

فقوله: «ألا كذبت» وقوله: «وأنت منهم» اعتراض بيّن أول الكلام وآخره، وفيه زيادة حسنة، ويستحسن قول الآخر: [الوافر]

فإني إن أفتك يفتك مِنّي فلا يسبق به عِلْق نفيس

فقوله: «فلا تسبق به» اعتراضٍ لطيف في معناه وموضعه، ويسمى هذا أيضاً وما تقدم من قول طرفة الحشو المفيد.

ومنه قول الأخطل: [البسيط]

وأقسَم المجد حقّاً لا يحالفهم حتى يحالف بطنَ الراحة الشَّعَرُ[3]

---

(١) يروى البيت:

أتذكر يوم تصقل عارضيها بفرعِ بشامةٍ سُقي البشامِ

وهو لجرير في ديوانه ص ٢٧٩، ولسان العرب (عرض)، (بشم)، وتهذيب اللغة ١/ ٤٦٧، ١١/ ٣٨٤، وتاج العروس (عرض)، (بشم)، وديوان الأدب ١/ ٣٥٣.

(٢) البيت في ملحق ديوان كثير عزة ص ٥٠٧ .

(٣) البيت في ديوان الأخطل ص ١١٢.

فقوله: «حقاً» حشو أفاد معنى حسناً، وكذلك قول امرىء القيس: [الطويل]

كأنَّ عُيونَ الوَحْشِ حول خِبائنا وأرحلنا الجَزْع الذي لم يُثقَّبِ[١]

فحول خبائنا وأرحلنا لو سقط لكان التشبيه تاماً والوزن ناقصاً، فأورده حشواً، وفيه زيادة بارعة رائعة، وهي الإخبار عن كثرة الصيد والتمدّح بأنه مرزوق في صيده، وما أحسن قول ابن المعتزّ رحمه الله تعالى: [الطويل]

وخيل طواها السَّيْرُ حتَّى كأنها أنابيب سُمْرٌ من قَنا الخطِّ ذبَّلُ[٢]

صَبَبْنا عليها ظالمينَ سياطَنا فطارت بها أَيدٍ خِفاف وأرجلُ

فوقع «ظالمين» أحسن موقع لأنه نفى بذلك عنها هجنة البطء، وأخذه من قول أعرابي: [الطويل]

وعوْد قليل الذنب عاودتُ ضربَه إذا هاج شوقي مِن مَعَاهِدِها ذكرُ

وقلت له ذلفاء ويحَك سبّبت لك الضرب، فاصبر إن عادَتَك الصَّبْرُ

فحسّنه ابن المعتز ما شاء. وأما الحشو القبيح، فكقول أوس بن حجر: [الطويل]

وهُمْ لمقلٌ المال أولاد عَلّةٍ وإن كان محضاً في العمومة مُخْوِلا[٣]

فذكره للمال مع قوله: «مقلّ» حشو لا فائدة فيه، وكذلك قول الهذلي رحمه الله: [مجزوء الوافر]

ذكرت أخي فعاودني صداع الرأس والوصبُ[٤]

فذكرُ الرأس مع الصداع حشو لا فائدة فيه، وأهجن منه قول الأعشى: [الكامل]

فرميتُ غفلَة قَلْبِه عن شأنه فأصبتُ حَبّة قلبها وطحالَها[٥]

---

(١) البيت في ديوان امرىء القيس ص ٥٣، ولسان العرب (جزع)، وأساس البلاغة (جزع)، وكتاب العين ١/ ٢١٦، وتاج العروس (جزع).

(٢) البيتان في نهاية الأرب ١١/ ٥٩، وديوان المعاني ٢/ ١٠٧.

(٣) البيت لأوس بن حجر في ديوانه ص ٩١، وجمهرة اللغة ص ١٥٦، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ٢٩٦، ومعاهد التنصيص ١/ ١٣٥، وكتاب الصناعتين ص ٣٥، ١٠٨، وبلا نسبة في لسان العرب (علل) وتاج العروس (علل).

(٤) يروى البيت:

ذكرت أخي فعاودني رُداعُ السُّقمِ والوَصَبُ

والبيت لأبي العيال الهذلي في شرح أشعار الهذليين ص ٤٢٤، وتهذيب اللغة ٢/ ٢٠٤، ولسان العرب (ردع)، وفيه «والوصبِ» بدل «والوَصَبُ» وهذا خطأ، والبيت من قصيدة مضمومة الروي.

(٥) يروى صدر البيت:

فرميت غفلة عينهِ عن شاته

فتكريره ذكر القلب لا فائدة فيه، وهجّنه بذكر «طحالها». ودون هذا قول ديك الجنّ: **[الكامل]**

فتنفّست في البيت إذ مَزَجَتْ ... بالماء واستلّت سَنا الذهبِ[(١)]
كتنفّس الريحان مازجَه ... ماورد جوْر ناضر الشُّعَبِ

فذكر الماء مع المزج حشو لا فائدة فيه، وأخذه من قول أبي نواس: **[الكامل]**

سلبوا قناع الطين عن رمقٍ ... حيّ الحياة مشارف الحتفِ[(٢)]
فتنفّست في البيت إذ مزجَتْ ... كتنفّس الرّيحان في الأنفِ

فلم يذكر أبو نواس الماء مع المزج، وذكره ديك الجنّ فقصّر عنه، وزاد الحسن عليه بذكر الأنف حسْناً. وذكر ديك الجنّ ماء الورد مع الريحان ولم يذكره الحسن، لأن ذكاء الريحان أكثر ما يكون إذا أصابه بلَل، لكنه في ذكره ماء الورد زيادة الورد معنى بلا شك، إلاّ أنه قد انضاف إليها العيوب المتقدّمة. ومع هذا فالحسن قد استوفَى المعنى في بيت واحد، وديك الجنّ في بيتين، وصاحب بيت أبداً عندهم باتفاق أشعر، كقول امرىء القيس: **[الطويل]**

أَراهنّ لا يُحْبَبْنَ مَنْ قلّ ماله ... ولا مَنْ رأين الشَّيْب فيه وقوّسَا[(٣)]

فما احتوى عليه هذا البيت، أتى به علقمة في ثلاثة أبيات مشهورة، وإن كان المعنى أبسطَ وأجلّ فالفضل لصاحب البيت، والزمان واحد، لأنّ مَنْ قال علقمة سرقه فقد أخطأ، فأما إذا كان السابق مستوفِيَ المعنى في بيت واحد، ويسوقه المتأخر في أبيات فالكلام في هذا، كقول امرىء القيس: **[الطويل]**

نَمُشُّ بأعراف الجياد أكُفَّنَا ... إذا نحن قمنا عن شِواء مُضهَّبِ[(٤)]

أخذه عَبدة بن الطبيب فقال: **[البسيط]**

لَمّا نزلنا نصبنا ظلّ أَخْبية ... وفار باللّحم للقوم المراجيلُ[(٥)]

= وهو للأعشى في ديوانه ص ٧٧، ولسان العرب (حبب)، (شوه)، وكتاب العين ٣/ ٣١، وبلا نسبة في تهذيب اللغة ٤/٨، وتاج العروس (حبب)، وأساس البلاغة (حبب).

(١) البيتان في ديوان ديك الجن الحمصي ص ٢٠٩.

(٢) البيتان في ديوان أبي نواس ص ٣٠٣.

(٣) البيت في ديوان امرىء القيس ص ١٠٧، ولسان العرب (قوس)، وكتاب العين ٥/ ١٨٨، ومقاييس اللغة ٥/ ٤٠، وتهذيب اللغة ٩/ ٢٢٣، وأساس البلاغة (قوس)، وتاج العروس (قوس).

(٤) البيت في ديوان امرىء القيس ص ٥١، ولسان العرب (ضهب)، (مثث)، (مشش)، ومقاييس اللغة ٣/ ٣٧٤، والتنبيه والإيضاح ٢/ ٣٢٥، وكتاب العين ٦/ ٢٢٥، ٨/ ٢١٧، وجمهرة اللغة ص ١٤٠، ٣٥٦، وتاج العروس (ضهب)، (مثث)، (مشش)، (عرف)، ويروى «نمثُّ» بدل «نمشُّ».

(٥) الأبيات في ديوان عبدة بن الطبيب ص ٧٣، والبيت الأول بلا نسبة في الإنصاف ١/ ٢٩.

وَرْدٌ وأشقر لم يُنْهِئه طَابِخُهُ ... ما غَيّر الغليُ منه فهو مأكول
ثمّتَ قُمْنَا إلى جُرْدٍ مسوّمة ... أعرافهنّ لأيدينا مناديلُ

وقال عبد الملك يوماً لجلسائه، وكان يجتنب غير الأدباء: ما خير المناديل؟ فقال قائل: مناديل مصر كأنها قَيْض البيض، وقال آخر: مناديل اليمن، كأنها أنوار الربيع، فقال عبد الملك: ما صنعتما شيئاً، أفضل المناديل ما قال أخو تميم - يعني عبدة - وأنشد الأبيات، وهي مع جودتها قصّرت عن بيت امرىء القيس. وكذلك قول طرفة: **[الرمل]**

تَطْرد القُرّ بحَرٍّ صادق ... وعليك القَيْظِ إن جاء بقُرّ[1]

وقال الأعشى: **[المتقارب]**

وتَبْرد بَرْدَ رداء العَرُو ... س بالصّيف رَقْرَقْتَ فيه العبيرا[2]
وتسخن ليلة لا يستطيعُ ... نُباحاً بها الكلبُ إلا هريرا

الاستطراد

البحتري: أنشد أبو تمام لنفسه يهجو عثمان بن إدريس الشامي: **[البسيط]**

وسابحٍ هَطِلِ التّعداء هتّانِ ... على الجِراء أمينٍ غيرِ خَوّانِ[3]
أظمى الفُصُوصِ ولم تظمَأ قوائمه ... فخلّ عينيك في ظمآن ريّانِ
فلو تراه مُشيحاً والحصى فِلَقٌ ... بين السنابك من مَثْنَى وَوُحْدَانِ
أيقنت إن لم تثبّت أن حافرَه ... من صَخْرِ تدمُر أو من وَجْهِ عثمان

ثم قال: ما هذا من الشعر! قلت: لا أدري، فقال: هذا هو الاستطراد، فقلت: فما معنى ذلك؟ فقال: يريك وصف الفرس، وهو يريد هجاء عثمان، فأخذه البحتري، فقال في فرس: **[الكامل]**

يهوِي كما تهوِي العُقاب وقد رأتْ ... صيْداً وينقضّ انقضاض الأجْدِلِ[4]
ما إن يعاف قذًى ولو أوردتَهُ ... يوماً خلائق حمدويه الأحْوَلِ

وكان حمدويه عدوًّا لممدوحِه، فاستطرد به. ويقال: إن البحتري لما عُيِّر بسرقة هذا البيت أزاله من شعره. وقال دِعْبل: **[الطويل]**

---

(١) البيت في ديوان طرفة ص ٥٣، ولسان العرب (عكك)، وجمهرة اللغة ص ١٢٥، وكتاب العين ١/ ٦٦، وتاج العروس (عكك).

(٢) البيتان في ديوان الأعشى ص ١٤٥، والبيت الأول في الأنصاف ٢/ ٢٨٩، ولسان العرب (عبر)، (رقق)، (ردى)، وأدب الكاتب ص ٣٨، والبيت الثاني في خزانة الأدب ١/ ٦٦، والدرر ٣/ ١٥٢، وهو بلا نسبة في مغني اللبيب ٢/ ٥٩٢، وهمع الهوامع ١/ ٢١٩.

(٣) الأبيات في ديوان أبي تمام ٤/ ٤٣٤ (طبعة المعارف).

(٤) الأبيات في ديوان البحتري ص ١٧٤٥.

فلو أنني أصبحت في جود مالك وعـزّتـه مـا نـال ذلـك مَـطْـلِـبـي[1]
فـتـى شَـقِـيـتْ أمـوالُـهُ بـسـمـاحِـه كـمـا شـقـيـت قـيـس بـأرمـاح تـغـلِـب

فخرج في استطراده من مدح إلى ذم، وهو مقلوب استطراد زهير في قوله: [البسيط]

إن الـبـخـيـل مـلـوم حـيـث كـان ولــ ـكـنّ الـجـواد عـلـى عِـلاّتـه هَـرِمُ[2]

فخرج من ذم إلى مدح. وقال جرير: [الوافر]

تـرى بَـرَصـاً بـمـجـمـع أسْـكـتَـيْـهِ كـعـنـفـقـةِ الـفـرزدق حـيـن شـابـا[3]

والسابق إلى هذا المعنى والناس له تبع السموأل حيث قال: [الطويل]

وإنّـا أنـاس لا نـرى الـقـتـل سُـبّـة إذا مـا رأتـه عـامـرٌ وسَـلُـولُ[4]

ومما يُستحسَن، قول بشار: [الطويل]

خليليّ من كَعْبٍ أعينا أخَاكـما عـلـى دَهْـرِه، إنّ الـكَـريـم مُـعِـيـن[5]
ولا تـبـخـلا بُـخْـلَ ابـن قَـذْعَـة إنـه مـخـافـة أن يُـرجَـى نـداه حـزيـن
إذا جـئـتـه فـي حـاجـة سـدّ بـابـه فـلا تَـلْـقَـهُ إلاّ وأنـتَ كَـمِـيـنُ

فقف على هذه الجملة من صناعة البديع، ففيها كفاية بعون الله سبحانه وتعالى.

* * *

وأما قوله: فبرز الشيخ مجلّياً، وتلاه الفتى مصلّياً، فأصل ذلك في الخيل. ونذكر من ذلك جملة تليق بهذا الموضع، وينتظم المجلّي والمصليّ في حكاية الرشيد مع المأمون.

[قصة فرسي الرشيد والمأمون]

وذلك أن الرشيد أجرى الخيل يوماً بالرّقة فوقف متلوّما حتى طلعت، فإذا في أولها

---

(١) البيتان في ديوان دعبل بن علي ص ٢٦.
(٢) البيت في ديوان زهير بن أبي سلمى ص ١٥٢، ولسان العرب (علل)، (هرم)، وتاج العروس (علل)، (هرم)، ويروى «إنّ النجيل» بدل «إنّ البخيل».
(٣) يروى صدر البيت:
تـرى بـرصـاً يـلـوح بـإسـكـتـيـهـا
وهو لجرير في ديوانه ص ٨١٧، ولسان العرب (أسك)، وتاج العروس (أسك)، وبلا نسبة في المخصص ٣٨.
(٤) البيت للسموأل بن عادياء في ديوانه ص ٩١، وبلا نسبة في لسان العرب (سلل)، والمخصص ١٧/٤١، وتاج العروس (سلل).
(٥) الأبيات في ديوان بشار بن برد ص ٩٧.

فَرَسان في عنان واحد، فتأملهما، فقال: فرسي والله. ثم تأمل وقال: وفرس ابني عبد الله، فجاء الفَرسَان أمام الخيل؛ فرسه السابق وفرس المأمون المصلّي، فسُرّ بذلك الرشيد سروراً عظيماً، قال الأصمعيّ: فقلت للفضل: يا أبا العباس، هذا من أيامي، فاحتل حتى توصلني، فقال الفضل: يا أمير المؤمنين، إن الأصمعي قد أعدّ في أمر الفرسين شيئاً يريد به سرور أمير المؤمنين، فقال: هات يا أصمعيّ، فقلت: يا أمير المؤمنين، كنتَ وابنك اليوم وفرساكما، كما قالت الخنساء ـ وقد قيل لها: كيف تفضلين أخاك على أبيك؟ فقالت: [الكامل]

جــارى أبــاه فــأقــبــلا وهــمــا	يــتــعــاوران مُــلاءةَ الــحُــضْــر[1]
وهُــمــا كــأنــهــمــا وقــد بــرزا	صَــقْــران قــد حَــطّــا إلــى وَكْــرِ
حــتــى إذا جــدّ الــجِــراء وقــد	ســاوت هــنــاك الــغُــدر بــالــعُــذْرِ
وعــلا هُــتــاف الــنــاس: أيــهــمــا؟	قــال الــمــجــيــب هــنــاك: لا أدري
بَــرَقَــت صــحــيــفــة وجــه والــده	ومــضــى عــلــى غُــلَــوَائــه يــجــري
أولــى فــأولــى أن يــســاويــه	لــولا جــلال الــســنّ والــكــبــر

قيل لأبي عبيد: ليس هذا في مجموع شعرها، ، فقال: العامة أسقط من أن يجودوا عليها بمثل هذا. فقولها: «ملاءة الحُضر» تعني بها غُبرة الفرسين التي أثاراها جعلتهما كملحفة يرتديانها ويتجاذبانها، وسيأتي من أخذ منها هذا المعنى ومن سبق إليه في الأربعين.

[مراتب الخيل]

ومراتب الخيل في الحلبة: السابق منها يسمى المجلّي ثم المصلّي ثم المسلّي، ثم التالي ثم المُرتاح ثم العاطف ثم الحظيّ، ثم المؤمَّل، ثم اللطيم، ثم السُّكيت.

قال الأصمعيّ وأبو عبيدة: لم نسمع في سوابق الخيل اسماً لشيء منها ممّن يوثق بعلمه إلا الثاني واسمه المصلّي، قال الأصمعي: هو من الصَّلا وهو جانب ذَنَبه، والعاشر واسمه السُّكَيْت، وما سواهما فإنما يسمى الثالث والرابع إلى التاسع.

وكان عند المتقي العباسي فتًى راوية للخبر والشعر يأنس به، فقال ليلة لجلسائه: عودوا إلى ذكر الخيل، فقال الفتى: يا أمير المؤمنين، حدّثني كلاب بن حمزة العقيليّ: قال: كانت العرب ترسل خيلها أراسيل، عشرة عشرة، والقصب سبعة سبعة، فلا يدخل الحجرة من الخيل إلا ثمانية: الأول السابق المجلي لأنه جَلَى عن وجه صاحبه الكرب. والثاني المصلّي لأنه وضع جحفلته على قطاة المجلّي، وهو صلاه، والصّلا عُجب الذنب.

---

(١) الأبيات في ديوان الخنساء ص ١٣٨.

والثالث المسلّي؛ لأنه كان شريكاً في السبق فسلّى عن صاحبه بعضَ همّه، والرابع التالي، لأنه تلا المسلّي دون غيره، والخامس المرتاح وهو المفتعل من الراحة، لأن في الراحة خمس أصابع، فلما كان الخامس على خامسة الأصابع سمي مرتاحاً، والسادس حَظِيّ، لأنه نال حظاً فحظي به وإن قلّ، لأن رسول الله ﷺ أعطى السادس نصيباً وهو آخر حظوظ الحلبة، وسمي السابع العاطف لدخوله الحجرة لأنه قد عطف بشيء وإن خَسّ إذ كان قد دخل الحجرة، الثامن المؤمّل، على القلب والتفاؤل، كما سُمِّيَ اللّديغ سليما فسمي مؤمّلا لقربه من ذوات الحظوظ. التّاسع اللطيم، لأنه لو رام الحجرة لُطِم دونها، لأنه أعظم جُرْماً من السابع والثامن. العاشر السُّكَيْت، لأن صاحبه يعلوه خشوع وذلة ويسكت خزياً وعيًّا، وكانوا يجعلون في عنقه حَبْلاً، ويحملون عليه قرداً يركضه ليعيّر بذلك صاحبه.

أبو عبيدة يشدد السُّكّيت، وسمي سكّيتاً لأنه آخر العدد الذي يقف عليه العادّ والسّكت الوقوف، وسُمِّيتْ حَلْبة، لأن العرب تحلب إليها خيولها أي تضمِّرها.

وأنشد ابن الأنباري أبياتاً تجمعها وهي قوله: **[الكامل]**.

جاء المجلّي والمصلّي بعده ... ثم المسلّي بعده والتّالي

والخامس المرتاح ينقص عَدْوُه ... والعاطف الصهّال كالرِّئبال

نسقا وقاد حظيّها في صَهْوَةٍ ... ذاك المؤمل غير ذي الأشكال

ثم اللطيم يقودها بجميعها ... قبل السّكَيْت العاشر الذَّيّالِ

[في وصف الخيل]

ونذكر هنا جملة مقاطيع في أوصاف الخيل يكمل بها الغرض المقصود، قال امرؤ القيس: **[الطويل]**

إذا ما ركبْنا قال ولْدان أهلِنا ... تعالوا إلى إن يأتِنَا الصيد نَحْطبِ[1]

وقال عُمَارة بن عقيل: **[الخفيف]**

وأرى الوحش في يميني إذا مَا ... كان يوماً عِنانُه بِشِمَالي

وقال حبيب: **[الخفيف]**

مخلّق وجْهه على السّبَقِ تَخْـ ... ـلِيقَ عروسِ الأبناء للعُرْسِ[2]

(١) البيت لامرىء القيس في ملحق ديوانه ص ٣٨٩، وخزانة الأدب ٤/ ٢٩٣، وسمط اللآلي ص ٦٧، وشرح شواهد المغني ص ٩١، والمحتسب ٢/ ٢٩٥، وبلا نسبة في أمالي المرتضى ٢/ ١٩١، والجنى الداني ص ٢٢٧، وجواهر الأدب ص ١٩٢، وشرح الأشموني ٣/ ٥٥٢، ومغني اللبيب ص ٣٠.

(٢) البيتان في ديوان أبي تمام ص ١٦٩، ١٧٠.

تَقتل عشراً من النعام به ... بواحد الشدّ واحد النَّفَس

وقال أيضاً: [السريع]

إن زار ميداناً مضى سابقاً ... أو نادياً قام إليه الجلوسْ[1]

نرى رزانَ القوم قد أسْمَجَتْ ... أعْيُنَهمْ في حُسْنِه وهْيَ شُوسْ

كأنما لاح لهم بارقٌ ... في المَحَلِ أو زُفَّتْ إليهم عَرُوسْ

سام إذا استعرضته زانه ... أعْلَى، رطيبٌ وقرارٌ يبيسْ

كأنما خامره أولَقٌ ... أو عارضت هامته الخندريسْ

عوّده الحاسد بخلاً به ... ورَفْرَفَتْ خوفاً عليه النُّفُوسْ

وقال البحتري: [الكامل]

وأغرّ في الزمن البهيم محجّلٍ ... قد رُحْتُ منه على أغرّ محجّلِ[2]

كالهيكل المبنيّ إلا أنه ... في الحُسنِ جاء كَصُورةٍ في هيكل

ذَنب كما سَحَب الرداء يذبُّ عن ... عُرْفٍ، وعرف كالرداء المسبَلِ

تُتَوهَّمُ الجوزاء في أرساغِه ... والبدر غرة وجهه المتهلِّلِ

وتراه يَسْطعُ في الغبار لهيُبُه ... لوناً وشذاً كالحريق المشعَلِ

هزِج الصَّهيل كأن في نَغماتهِ ... هَزّات مَعْبد في الثَّقيل الأوّلِ

مَلَك العيونِ فإن بدا أعطينَه ... نظر المحبّ إلى الحبيب المقبلِ

وقال عبد الله بن المعتز: [الكامل]

ولقد وطئت الغيث يحمِلُني ... طِرْفٌ كلون الصّبْح حينَ وقدْ

يمشي ويعرض في العِنان كما ... صدف المعشَّق ذو الدلال وصَدّ

جماع أطراف الصُّوار فما الـ ... ـأُخْرى عليه إذا جرى بأشدّ

بلّ المها بدمائهنّ ولَمْ ... يبتلّ منه بالحميم جَسَدْ

وكأنه موج يذوب إذا ... أطلقته وإذا حسبت جَمَدْ

وقال المتنبي: [الطويل]

وعَيْني إلى أذني أغرّ كأنّه ... من الليل باقٍ بين عينيه كوكبُ[3]

له فضلةٌ عن جسمه في إهابه ... تجيءُ على صدر رحيب وتَذْهَبُ

---

(١) الأبيات في ديوان أبي تمام ص ١٧٩.

(٢) الأبيات في ديوان البحتري ص ١٧٤٤.

(٣) الأبيات في ديوان المتنبي ١/ ١٧٩.

شققتُ به الظلماء أُدْنِي عنانه فيطغى وأُرخِيه مِرَاراً فيلعبُ
وأصرع أيّ الوحوش قفّيْتُه به وأنزل عنه مثله حين أركبُ
وما الخيلُ إلاّ كالصديق قليلة وإن كثرت في عين من لا يجرّبُ
إذا لم تعاين غير حُسْنِ شِياتِها وأعضائها فالحسن عنك مغيَّبُ

وقال ابن نباتة يصف فرساً أغرّ حمله سيف الدولة عليه: **[الكامل]**

قد جاءنا الطِّرف الذي أهديته هاديه يعقد أرضه بسمائه[1]
تختال منه على أغرّ محجلٍ ماء الدياجي قَطْرَةٌ من مائِه
وكأنما لطمَ الصباح جبينه فاقتصَّ منه فخاض في أحشائهِ
لا تعلق الألحاظ في أعطافه إلا إذا كَفْكَفْتَ من غُلَوَائِهِ

وقال أيضاً: **[الوافر]**

وأدهم يستمدّ الليل منه وتطلع بين عينيه الثريا
سرى خلف الصباح يطير مشياً ويطوي خلفه الأفلاك طيّا
فلما خاف وشك الفوتِ منه تشبّث بالقوائم والمحيَّا

وقال أبو منصور، يخاطب أبا الفضل الميكالي: **[الكامل]**

يا مهدي الطِّرف الجواد كأنما قد أنعلوه بالرياح الأربع
لا شيء أسرعُ منه إلا خاطري في شكر نائلك اللطيف الموقع
ولو أنني أنصفت في إكرامه لجلال مُهْدِيه الكريم الأرْوَعِ
أقضمته حَبّ القلوب لحبّه وجعلت مربطه سواد الأدْمُعِ
وخلعتُ ثم قطعت غير مضيّق بُرْدَ الشباب لجلّه والبرقعِ

وقال القسطلي: **[الكامل]**

سامي التَّلِيل كأنّ عقد عذاره في رأس غصن البانة الميَّادِ
يهدي بمثل الفرقدينْ وناب عن رعي السِّمَاك بقلبه الوقادِ
فكأنما أطأ الأباطح والرُّبا بعقاب شاهقةٍ وحيّة وادِ
وكأنه من تحت سَوطي خارجاً في الرَّوْع شعلة قادحٍ بزنادِ

ولأبي تمام الأندلسي: **[الكامل]**.

وأقبّ تتّقد البروق إذا جرى من غيظها حسداً بأن لم تلحقِ

---

(١) الأبيات لابن نباتة السعيدي في نهاية الأرب ١٠/ ٦٤.

مَلَك الرياحَ قوائما فجرى بها فيكاد يأخذ مغرباً من مشرقِ

وقال فيه أيضاً: [الطويل]

وتحتيَ ريح تسبق الريح إن جرتْ وما خلتُ أن الرّيح ذاتُ قوائمِ

وله في المدى سبْقٌ إلى كلّ غاية كأنّ لنا فيه نفوذ عزائم

وهمّةِ نفس نزهَتْها عن الونى فيا عجباً، حتى العلا في البهائم!

وكان للمتوكل ببطليوس فرس أخضر أغرّ محجل على كَفلَه ست نقط بيض، فبذل كل شاعر في وصفه جهده، فما سبق الغاية إلا البّجليّ بقوله: [الرمل]

حمل البدر جوادٌ سابحٌ تقف الريح لأدنى مهله

وكأنّ الصبح قد خاض به فبدا تحجيله مِن بَلَلِه

لبس اللّيل قميصاً سابغاً فالثريّا نقط في كَفَله

كلّ مطلوب وإن طالت به رجله من أجله في أجله

والباب لا يدخل تحت الحصر، فلنكتف بهذا القدر.

* * *

فلّما أنشداها الوالي مَتَرَاسِلَيْن، بُهِتَ لذكاءَيْهِمَا المتعادِلين.

وقال: أشهد بالله أنّكُما فرقدا سماء؛ وكزَنْدَيْنِ في وعاء، وأن هذا الحدَث لَيُنْفِقُ مِمّا أتاهُ الله، ويسْتغني بوجُدْه عَمَّنْ سِوَاه. فَتُبْ أيُّها الشَّيْخُ مِنْ اتّهامِه، وثُبْ إلى إكْرامِهِ.

فقال الشيخ: هيهات أن تراجعه مِقَتِي، أو تغلَق به ثِقَتِي وقدْ بَلَوتُ كفرانَهُ للصّنيعِ؛ ومُنيت منه بالعُقُوقِ الشّنيع. فاعترضه الفتى وقال: يا هذا، إن اللّجاجَ شؤم، والحَنَقَ لُؤم، وتحقِيق الظّنة إثم، وإعناتَ البريء ظُلْم. وهَبْنِي اقْتَرفْتُ جَريرة، أو اجترحْتُ كبيرة؛ أما تذكرُ ما أنشدْتَنِي لِنَفْسَكَ، في إبَّانِ أنسِكَ.

* * *

قوله: «بُهِت»، أي تحير. المتعادلين: المتماثلين، وشبَّههما بالفرقدين لرفعتهما وتوقدهما، وأخذ الحريري هذا التشبيه من البحتري في قوله: [الكامل]

كالفرقدين إذا تأمّل ناظر

وتقدّم في الثانية، وبالزّندين لما فيهما من النار، وفي هذين من الذكاء وجعلهما في وعاء، يريد: متى التمسهما الإنسان وجد فيما وقعت عليه يده حاجته.

وجْده: غناه وما عنده من العلم. ثب: ارجع، هيهات، معناها بُعد، مقتي: محبتي، تعلق به ثقتي، يريد: لا أثق به بعد ما جربته، وبلوت كفرانه للصنيع، أي جرّبت قلة شكره لفعل الجميل معه مُنيت: بليت. العقوق: المقاطعة. الشنيع: المشتهر بالقبيح.

[كفران الصنيع]

ونسوق هنا في كفران الصنيع فصلا يليق بهذا الموضع، قال رسول الله ﷺ: «من عباد الله عباد لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم» قلنا: من أولئك يا رسول الله؟ قال: «المتبرىء من والديه رغبة عنهما، والمتبرىء من ولده، ورجل أنعم الله عليه نعمة فكفرها»(١).

وفي التوراة: من صنع معروفاً إلى أحمق فهى خطيئة تُكتب عليه.

وقال الحجاج لابن الكلبي: أخبرني عن خمسة أشياء أضيعت في الدنيا. قال: نعم أصلح الله الأمير! سراج يوقد في شمس، ومطر جوْد في أرض سبخة، وامرأة حسناء تزُفّ إلى عِنّين، وطعام اجتهد صاحبه في صنعته فقدمه إلى سكران أو شبعان، ومعروف تصنعه إلى رجُلٍ لا يشكرك عليه.

عائشة رضي الله عنها: قال رسول الله ﷺ: «لا تنفع الصنيعة إلا عند ذي حسب ودين، كما لا تنفع الرياضة إلا في نجيب».

المدائني: خرج فتيان في صيد لهم فأثاروا ضبعة فنفرت ومرّت، فاتبعوها، فلجأت إلى بيت رجل، فخرج إليهم بالسيف مسلولاً، فقالوا له: يا عبد الله، لِمَ تمنعنا من صيدنا؟ فقال: إنها استجارت بي. فخلُّوا بينها وبينه، فنظر إليها فإذا هي مهزولة مضرورة، فجعل يسقيها اللبن صبوحاً ومقيلاً وغبوقاً، حتى سمنت وحسنت حالها، فبينما هو ذات يوم متجرد عَدَتْ عليه فشقت بطنه وشربت دمه، فقال ابن عمّ له: [الطويل]

ومنْ يصنع المعروف في غير أهلهِ ... يلاقي الذي لاقَى مُجير أمّ عامِر
أعد لها لـمّا استجارتْ بقربه ... مع الأمن ألبان اللّقاح الدرائرِ
فأشبَعَها حتى إذا ما تَمَكّنتْ ... فرتْه بأنيابٍ لها وأظافرِ
فقل لذوي المعروف، هذا جزاء مَنْ ... يُوجّهُ معروفاً إلى غير شاكرِ

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله بعبد خيراً جعل صنائعه ومعروفه في أهل الحِفاظ، وإذا أراد به سوءاً جعلها في أهل المضائع» وقال حسان: [الكامل]

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٣/ ٤٤٠، بلفظ: «متبرٌ من والديه راغب عنهما».

إنّ الصنيعة لا تكون صنيعةً ... حتى يصَاب بها طريق المصنعِ[1]

فقال رسول الله ﷺ: «صدقت»، وأنشد عبد الله بن جعفر هذا البيت فقال: هذا رجل يريد أن يبخّل الناس؛ أمطِر المعروف مطراً، فإن صدفت موضعه فهو الذي قصدت، وإلاّ فكنت أحقَّ به.

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: لا يُزَهِّدَنك في المعروف كفر من كَفَره، فإنه يشكرك عليه من لم تصنعه إليه.

وقال رسول الله ﷺ: «اصنع المعروف إلى مَنْ هو أهله، وإلى من ليس أهله، فإن أصبت أهله فقد أصبت أهله، وإن لم تصب أهله فأنت أهله». وقد قال الحريري بعد هذا: **[مجزوء الكامل]**

واحفظ صَنِيعك عنده ... شَكَر الصنيعة أم غَمَطْ

أي لا تفسد معروفك بالمنّ؛ شكره من أنعمت عليه أم كفره. وغمط: ستر. وهو ضد شكر.

قوله اعترضه، أي واجهه وقابله: شؤم: نحس وطِيَرة، الحنَق: الغضب. الظِّنة: التهمة، قال رسول الله ﷺ: «ثلاث لازمات أمتي: سوء الظن، والحسد والطيرة». قيل: ما يذهبهنّ؟ قال: «إذا ظننت فلا تحقق، وإذا حسدت فاستغفر، وإذا تطيرت فامض»[2]. إعنات: مشقة. هبني: احسبني، اقترفت واجترحت، معناهما اكتسبت. جريرة: جناية. إبَّان أنسك، أي وقت أنسي بك. **[مجزوء الكامل]**

سامِحْ أخاكَ إذا خَلَطْ ... منه الإساءة بالغَلَطْ

وتجَافَ عن تَعْنيفِه ... إن زاغَ يوماً أو قسطْ

واحْفظْ صَنيعَك عنده ... شَكَرَ الصنيعة أم غَمَطْ

وأطِعْه إن عاصَى وهُنْ ... إنْ عزَّ وادْنُ إذا شَحَطْ

واقْنَ الوفاء ولو أخَلَّ ... بما اشترطتَ وما اشْتَرَطْ

واعْلَمْ بأنَّكَ إن طَلَبْـ ... ـتَ مهذباً رُمْتَ الشَّطَطْ

من ذا الذي ما ساء قطُّ ... ومِنْ له الحُسْنَى فقطْ

أو ما ترى المحبوبَ والْـ ... ـمَكْرُوهَ لُزَّا في نَمَطْ

---

(١) البيت ليس في ديوان حسان بن ثابت، وهو بلا نسبة في لسان العرب (صنع)، وتهذيب اللغة ٢/ ٣٩، وتاج العروس (صنع)، وكتاب العين ١/ ٣٠٥.

(٢) رواه ابن الأثير الجزري في الفائق في غريب الحديث ٣/ ١٥٣، بلفظ: «ثلاثٌ لا يسلم أحدٌ منهن: الطيرة والحسد والظن. قيل: فما نصنع؟ قال: إذا تطيّرت فامضِ، وإذا حسدت فلا تَبْغِ، وإذا ظننت فلا تُحقِّق».

كـالـشـوكِ يـبْـدُو فـي الـغـصـو نِ مـع الـجَـنـيّ الـمُـلْـتـقـطْ
ولَـــذَاذة الــعــمــر الــطَّـــو يـل يـشُـوبُـهـا نـغـصُ الـشَّـمَـط
ولـــو انـــتـقَـدْتَ بـنـي الـزّمـا نِ وَجَـدَتْ أكـثـرهـم سَـقَـطْ
رُضْـتُ الـبَـلاغـةَ والـبـرا عـةَ والـشـجـاعَـةَ والـخِـطَـطْ
فـوجَـدْتُ أحْـسَـنَ مـا يُـرَى سَـيْـرَ الـعُـلُـوم مَـعـاً فَـقَـطْ

تجاف: تباعد. تعنيفه: لومه. زاغ: مال. قسط: جار.

قوله: وهُنْ إن عَزّ، لفظ المثل: إذا عز أخوك فهن، يُروَى بضم الهاء وكسرها، فالضمْ من هان يهون، قال ابن أحمر: **[الوافر]**

ذَبَبْتُ لـهـا الـضَّرَاء وقُـلْـت أبـقـى إذا هـزّ ابـنُ عـمـك أن تـهُـونَـا[١]

ورواه بالكسر أبو عبيد وثعلب، وقال أبو عبيد: معناه أن مياسرتك صديقك ليست بضيمٍ يركبك، فتدخلك منه حميَّة. إنما هو حسن خُلق وتفضّلٌ منك، فإذا عاسرك فياسرْه، فالضيم الّذي ذكر هو الهوان بعينه. قال ابن درستويه: معناه إذا صار أخوك عزيزاً قوياً عليك فأطِعْه واخضع له، تسْلَمْ من ظُلمه. رواية الكسر من هَان يَهين، ويكون معنى عزّ تصعَّب واشتدّ لا من العزة، ومعناه إذا صعب أخوك فلِنْ له، والمثل لهذيل بن هبيرة؛ وسببه أنه أغار على ضبّة فغنم، وأقبل بالمغانم، فقال له أصحابه: اقسمها بيننا، فقال: أخاف أن يدرككم الطلب، فأبوْا، فعندها قال المثل. ونزل فقسّمها.

قوله شحط، أي بَعد، واقْن الوفاه: أي الزمه، وقنِيتُ الحياء بكسر النون أقنيه قنيانا، ألزمته. أخلّ: نقص. بما اشترطت وما اشترط، أي بما جعلتما بينكما من علامة، ومنه أشراط الساعة أي علاماتها ومنه الشّرط لأن لهم علامة يعرفون بها. مهذباً: مخلصاً. والشَّطَط: محاوزة القدر، قال الفضيل بن عياض: مَنْ طلب أخاً بلا عيب بقيَ بلا أخ.

قال الحارث المحاسبي: ثلاثة أشياء عزيزة أو معدومة: حُسْن الوجه مع الصيانة، وحسن الخلق مع الدِّيانة، وحسن الإخاء مع الأمانة. وقال النابغة: **[الطويل]**

ولـسـتَ بـمـسـتـبْـقٍ أخـاً لا تـلـمّـه على شعثٍ، أيّ الرجال المهذبُ![٢]

---

(١) يروى البيت:

دببـت لـهـا الـضـرّاء وقـلـت أبـقـى إذا عـــزّ ابـــن عـــمـــك أن تـــهـــونـــا

وهو في ديوان ابن أحمر ص ١٦٥، ولسان العرب (عزز)، وتاج العروس (عزز).

(٢) البيت للنابغة الذبياني في ديوانه ص ٢٨، ولسان العرب (شعث)، (بقى)، وتهذيب اللغة ١/ ٤٠٦، ٦/ ٢٦٦، ٩/ ٣٤٨، وكتاب العين ٥/ ٢٣٠، وجمهرة اللغة ص ٣٠٧، وجمهرة الأمثال ١/ ١٨٨، وفصل المقال ص ٤٤، والمستقصى ١/ ٤٥٠، ومجمع الأمثال ١/ ٢٣، ومقاييس اللغة ١/ ٢٧٧، وأساس البلاغة (بقي)، وتاج العروس (بقي).

وقال يزيد بن محمد المهلّبي: **[الطويل]**

ومَنْ ذا الذي تُرضي سجاياه كلها كفى المرء فضلاً أن تعدَّ مَعايُبهْ[١]

قوله: «قطّ» بمعنى الدهر والأبد، والحسنى: الفعل الحسن. فقط: حسب. لزا: ربطاً النمط: ثوب من الصوف المصبوغ، والنّمَط الطريق، تقول: الزم هذا النمط، والنمط النوع من العلم والخير، فيريد أن الخير والشر قد نظما في سلك واحد، فإذا أتى يوم يُرضي أتى بعده يومٌ يسخط.

الجنّي: الطِريّ مما يجنى، فعيل بمعنى مفعول، وأصل مجنىّ مجنوي فأُعِلّ. والملتقط: من قولك لقطت هذه الفاكهة واحدة واحدة، أي اخترتها وانتخبتها.

أبو أمامة، قال: قال النبي ﷺ: «إنّ الناس اليوم كشجرة ذات جنًى، ويوشك الناس أن يعودوا كشجرة ذات شوك إن ناقدتهم ناقدوك، وإن تركتهم لم يتركوك، وإن هربت منهم طلبوك»، قيل؛ فكيف المخرج من ذلك؟ قال: «تقرضهم من عرْضك ليوم فقرِك»[٢]، وأنشد عمر بن الجعد: **[مجزوء الرمل]**

طِبْ عن الأمّة نفساً وارض بالواحدة أُنْسَا

لست بالواجد حسًّا أو تردّ اليوم أمسا

ما وجدنا أحداً يسـ ـوَى على الخبرة فَلْسَا

قوله: «نغص» تكدير العيش، ونغص الرجل إذا لم يتم له أمره وتكدّر عيشه. يشوبها: يخالطها. الشَّمَط: اختلاط الشيب بالسواد وانتقدت: فتشت. والسَّقَط: من لا خير فيه.

وللزاهد بن عمران في معنى الأبيات الحريري رحمه الله: **[الوافر]**

إذا وغْدٌ جفاك فلا تَلُمْهُ لأنّك إن فعلتَ أثرت جِيفَهْ

وإن يصُل الكريمُ عليك فاصفحْ ستعطفه أصالته الشريفه

ومَنْ يك بين ذاك فأغضِ عنه تنل مجداً ومرتبةً مُنيفَه

وسُلْ الضغن إن آنستَ ضِغْناً ببسط الوجه والحيَل اللّطيفة

أخذ البيتين الأولين من قول حاتم: **[الطويل]**

وأغفُر عوراءَ الكريم ادّخارَه وأُعرِض عن شتم اللّئيم تَكَرُّما[٣]

* * *

---

(١) البيت في تاج العروس (حبر).

(٢) رواه بنحوه ابن الأثير الجزري في النهاية في غريب الحديث ٥/ ١٠٤، بلفظ: «إنْ نقدت الناس نقدوك».

(٣) البيت لحاتم الطائي في ديوانه ص ٢٢٤، وخزانة الأدب ٣/ ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، وشرح أبيات=

قال: فجعل الشّيخ ينضنض نَضْنَضَة الصِّلّ، ويُحملِقُ حَمْلَقَة البازي المُطِلّ، ثم قال: والّذي زيَّنَ السّماءَ بالشّهُبِ، وأنْزَلَ الماءَ من السّحُبِ، ما رَوغِي عن الإصْطِلاح؛ إلا لتوَاقِّي الافتضاح، فإنّ هذا الفَتَى اعْتادَ أن أمُونهُ، وأراعي شؤونه، وقد كانَ الدَّهرُ يسُحّ، فَلَمْ أكُنْ أشُحّ؛ فأمّا الآن فالوقتُ عَبُوس، وحَشْو العَيْشِ بُؤس؛ حتّى إن بزّتي هِذْهِ عارة، وبيتي لا تطُورُ به فارَة.

قال: فرقَّ لمقالهما قَلْبُ الوالي، وأوى لَهُما من غَيْر اللَّيالي، وصبَا إلى اختصاصِهما بالإسعاف، وأمر النَّظارة بالانصراف.

* * *

قوله: «يُنضنض» يحرك لسانه. الصِّلّ: الحية. يحملق: ينظر بحملاقه وهو باطن جفنه، وذلك نظر الغضبان. المطِلّ: المشرف على فريسته، الشهب: النجوم. رَوغِي: فراري. توقِّي: خشية. الافتضاح: الشهرة. أمونه: أتكلف لوازمه. أراعي: أحفظ. شؤونه: أموره. يسحّ: يصب الرزق. الحشو: ما حُشِي به. بؤس: ضر. بزّتي: ثوبي. عارة، أي عارية. تطوره: تقرب منه؛ يريد أن الفأرة ليس لها فيه ما تأكل، وأخذ هذا المعنى من قول امرأة وقفت على قيس بن سعد بن عبادة، فقالت: أشكو إليك قلة الجُرذان، فقال: ما أحسن هذه الكناية! املؤوا بيتها خبزاً ولحماً وسمناً. وقد أعاد هذا المعنى منظوماً في الثالثة والثلاثين، فقال: [السريع]

وأمحلَتْ رَبْعِي حتى خلتْ ... من ربعي الممحِل جُرذَانهُ

وحكى الفنجديهيّ بسنده إلى أبي محمد الحسن بن إسماعيل الضرَّاب، قال: كنت قاعداً أنسخ في السراج، وبين يديّ قدح فيه ماء، وظرف فيه كعك وزبيب ولوز، فجاءت فأرة فأخذت لوزة فمضت، ثم عادت فأخذت أخرى فبدّدت الماء الذي كان في القدح، فعادت الفأرة فكببتُ القدح عليها واشتغلت بشغلي ساعة، فإذا فأرة أخرى قد جاءت فشقشقت وبقيت ساعة على ذلك، والفأرة الأخرى تشقشق من داخل القدح، فلم تجد حيلة في خلاصها، فمضت أختها، فأتت بدينار فوضعته ووقفت، ولم أرفع القدح عن الفأرة، فمضت وأتت بدينار آخر، ووقفت ولم أرفع القدح، ففعلت ذلك إلى أن أتت بسبعة دنانير، ووقفتْ ساعة، ولم أخلّ عن الفأرة، فمضت وأتت بقرطاس فارغ فعلمت أنها لم يبق عندها شيء فخلَّيت عن الفأرة.

= سيبويه ١/ ٤٥، وشرح شواهد المغني ٢/ ٩٥٢، وشرح المفصل ٢/ ٥٤، والكتاب ١/ ٣٦٨، ولسان العرب (عور)، واللمع ص ١٤١، والمقاصد النحوية ٣/ ٧٥، ونوادر أبي زيد ص ١١٠، وبلا نسبة في أسرار العربية ص ١٨٧، وخزانة الأدب ٣/ ١١٥، وشرح ابن عقيل ص ٢٩٦، والكتاب ٣/ ١٢٦، ولسان العرب (خصص)، والمقتضب ٢/ ٣٤٨.

قال الفنجديهيّ: رويت هذه الحكاية عن أشخاص وأشياخ ثقات.

وعلى ذكر الفأرة والجرذان كتب أبو حفص الورّاق رقعة إلى الصاحب، منها: وحال عبد مولانا في الحنطة مختلفة، وجرذان دارة عنها منصرفة، فإن رأى أن يخلط عبده بما أخصب عنده فعل إن شاء الله تعالى. فوقّع فيها: «أحسنت يا أبا حفص قولا، وسنحسن إليك فعلاً، فبشّر جرذان دارك بالخصب، وأمنها من الجدب، فالحنطة تأتيك في الأسبوع، وليست عن غيرها من النفقة بممنوع. إن شاء الله تعالى».

قوله: «أوى»: أشفق. غِيَر: تغيّرَ وهو من تغيُّر الحال، وهو اسم واحد بمنزلة الجمع، والغَير مذكّر وجمعه أغيار. هذا قول الكسائي. ويجوز أن يكون جمعاً، واحدته غِيَرة وهذا قول ابن عمرو، يقال للدية: غيرة لأنها تغير الفؤاد إلى الرّضا به. صَبَا: مال. الإسعاف: قضاء الحاجة. النَّظّارة: الناس الناظرون إليه.

* * *

قال الراوي: وكنت مُتشوقاً إلى مَرْأى الشّيخ لعلّي أعلمُ عِلْمَهُ، إذا عاينت وَسْمَه، ولم يَكُنِ الزِّحَام يُسْفرُ عنهُ. ولا يَفْرَجُ لي فأدْنوَ منه، فلما تقوَّضتِ الصّفوف، وأجْفَل الوقُوف، توسّمتهُ فإذا هو أبو زيدٍ والفتى فتاه، فعرفتُ حينئذٍ مَغْزاه فيما أتاه، وكِدْتُ أنقضّ عليه، لأستعْرِفَ إليه. فَزَجَرَني بإيماء طَرْفِهِ، واستوقَفَني بإيماء كفّهِ.

* * *

متشوقاً: متطلعاً. وَسْمه: علامته. يسفر: يكشف، يفرج: يفتح لي فرجة. تقوَّضت: تفرَّقت، وأصلها الهدم. أجفل: أسرع المشي. توسمّته: نظرته. مغزاه: مذهبه ومقصده. انقضّ: انحط وانصبّ أستعرف إليه: أعرفه بنفسي. زجرني: انتهرني. إيماض: إشارة بالعين خفية، وكثيراً ما يصرف الحريري في المقامات تنبيه أبي زيد لابن همام على نفسه بخفيّ الإشارة المغنية عن تصريح العبارة، وهو مذهب للعرب، ونبلاء أهل الأدب، وقد قالوا: رُبّ كناية تغني عن إيضاح، رُبّ لحظ يدل على ضمير.

[في إشارة اللحظ]

وفي إشارة اللحظ يقول الشاعر: **[الطويل]**

أشارت بطرف العين خيفة أهلها ... إشارة محزونٍ ولم تتكلمِ[1]

فأيقنتُ أن اللحظ قد قال مرحباً ... وأهلاً وسهلاً بالحبيب المتيّمِ

وقال أبو نواس: **[مجزوء الكامل]**

لهفي على النّجل العيونِ ... النُّهْد القُبّ البطونِ

(١) البيتان لعمر بن أبي ربيعة في ديوانه ص ٢، ٤، وبلا نسبة في شرح شذور الذهب ص ٣٦.

النـاطقات عن الضمير لنا بألسنة الجفونِ

وقال المهدي بن المنصور: [الطويل]

ومُطلع من نفسه ما يسرّه عليه من اللحظ الخفيّ دليلُ
إذا هو لم يُبدِ الذي في ضميره ففي اللحظ والإيماء منه رسولُ

وقال تميم بن المعتز: [مجزوء الكامل]

سبحان مَنْ خلق الخدو د شقائقاً تُتَنَسَّمُ
وأعارها الألحاظ فهْي بلحظها تتكلَّمُ

وقال آخر: [البسيط]

العين تبدي الذي في نفس صاحبها من المحبّة أو بغضٍ إذا كانا
والعين تنطق والأفواه صامتةٌ حتى ترى من ضمير القلب تبيانا

وقال أعرابي: [الوافر]

وليل لم يقصّرْهُ رقادٌ وقصّر طولَه وصلُ الحبيب
بمجلس لذةٍ لم نَقْوَ فيه على شكوى ولا عدِّ الذنوبِ
بخلنا أن نقطّعه بلفظٍ فترجمت العيُون عن القلوبِ

وقال الحسن بن بشير: [السريع]

أما تَرَى لي ناظراً شاهداً بالحبّ، والأعينُ رُسْلُ القلوبِ
ودون إلحاح جفُوني هوّى يخبّر عَمّا في ضمير الكئيبِ
وأنت لا شك به عالمٌ لأنّ عندَ اللحظ علم الغيوبِ

وقال الأحوص: [البسيط]

ودّعتُهنّ ولا شيء يراجِعُنِي إلا البنان وإلاّ الأعين السُّجْمُ[1]
إذا أردن كلامي عنده عرضتْ من دونه عبراتٌ فارعوى الكلِمُ
مستّدات وقد مالت سوالفها وما بهنّ سوى مَسِّ الهوى ألم

وقال ماني الموسوس: [الوافر]

بنانُ يدٍ تُشير إلى بنانِ تَجَاوَبتا وما تتكلّمانِ
جَرَى الإيماء بينهما رسولا فأحكم وحيَه المتناجيانِ
فلو أبصرتنا لغضضت طَرْفاً عن المتحدّثين بلا لسانِ

---

(١) الأبيات في ديوان الأحوص ص ٢٢٢.

والباب لا يحصى كثرة فلنقتصر على هذه اللمعة.

وقوله: «واستوقفني بإيماء كفه»: أي أمرني بالوقوف، والإيماء: الإشارة.

* * *

فلزمتُ مَوْقِفي، وأخّرْتُ مُنصَرَفي، فقال الوالي: ما مَرامُك، ولأيّ سَبَبٍ مَقَامُكَ؟ فابتَدَرهُ الشيخ وقال: إنّهُ أنيسي، وصاحبُ مَلْبُوسي. فَتَسمَّحَ عِنْدَ هذا القول بتأنيسي، ورَخّص في جُلوسي، ثمّ أفاض عَلَيْهما خِلْعَتَين، وَوَصَلَهُما بنصاب من العين، واسْتَعْهَدهُما أن يَتَعاشَرا بالمعروف، إلى إظِلالِ اليَوْمِ المخُوفِ. فنهضَا مِنْ ناديه، مُشيدينِ بِشُكرِ أياديهِ، وتبِعْتُهُمَا لأعرف مثواهما، وأتزوّد من فحواهما. فلَمّا أجزنا حِمَى الوالي، وأفضيْنَا إلى الفضاءِ الخالي، أدركني أحَدُ جَلاَوزتِهِ، مُهِيباً بي إلى حَوْزَتِهِ، فقلتُ لأبي زيد: ما أظُنُّهُ اسْتَحْضرَني إلاّ لِيَسْتَخْبِرَني، فماذا أقولُ؟ وفي أيّ وادٍ معه أجُولُ؟ فقال: بيِّنْ لَهُ غَبَاوةَ قَلْبِهِ، وتلعابي بُلبِّهِ؛ ليَعْلَمَ أنّ ريحه لاقتْ إعصاراً، وجدْوَلَهُ صادف تياراً، فقلتُ: أخافُ أن يتّقِدَ غضبُهُ فَيَلْفَحكَ لَهَبُهُ، أو يسْتَشْري طَيْشُهُ، فَيَسري إليكَ بَطْشُهُ، فقال: إني أرْحَلُ الآن إلى الرُّها، وأنى يلتقي سُهَيْلٌ والسُها!.

* * *

مرامك: مرادك، مقامك: تلبّثك ووقوفك. أنيسي: صاحبي الذي أتأنس به. فتسمّح بتأنيسي، أي أولاني منه المؤانسة، رخّص: ليّن وسهل. أفاض: صبّ. خلعتين: كسوتين. والنصاب: عشرون ديناراً، والعين: الذهب. استعهدهما: استحلفهما. يتعاشرا: يتصاحبا. إظلال: قرب ودنو. اليوم المخوف: يوم موته. ناديه: مجلسه. مُشيدين: رافعين بشكره أصواتهما. أياديه: نعمه. مثواهما: مسكنهما. فحواهما: معنى كلامهما، ويروى: «نجواهما» أي سرّهما. أجزنا: خلّفنا، أفضينا: وصلنا. الفضاء: المتّسع من الأرض. جلاوزته: شرطه، واحدهم جلواز والجلاز عقب ملويّ على القوس، وجلزت القوس والسوط والسكين: عصبتهما بالعقب، فسمّوا جلاوزة، لأنهم يعصبون بالسياط الناس عند الضرب، أو لأن السياط لا تفارق أيديهم، والجلز: السّدّ، وهم يربطون الناس ويشدّونهم، مهيباً: داعياً. حوزته موضعه الذي يحميه ويحوزه، استحضرني: طلب حضوري، ويستخبرني: يسألني خبره. أجول: أتصرف وأمشي، أي علّمني في أي عرض من الحديث آخذ معه، غباوة: جهل،ورجل غبيّ غير فطِن. تَلعابي بلبّه، أي لعبي بعقله، والتّلعاب بنية للمبالغة. يستشري: ينتشر. طيشه: خفته من الغضب. يسري: يسير. بطشه: إيقاعه وتناوله بما يكره.

الرُّها: بلد من كورة الجزيرة تجاورها الرّقة وحرّان، سميت باسم صاحبها الرها بن

البلوي بن مالك بن ذعر، وهو أوّل من نزلها. وقال اليعقوبيّ: الرُّها من ديار مضر، وهي مدينة رومية ذات عيون كثيرة منها عجيبة، تجري الأنهار وبها الكنيسة التي للنصارى، وهي إحدى عجائب الدّنيا الموصوفة، وكان بالرّها رجل ضعيف الحال متجمّل بين الناس، فخرج ذات يوم من منزله وعليه جبّة له، فلقيه سائل، فسأله شيئاً يدفئه، فقال: والله ما أملك غير جُبّتي هذه فقال السائل: ألا تحب أن تكون من الذين قال الله تعالى في حقهم: ﴿**وَيؤْثِرُونَ على أنفسهم ولو كَانَ بهم خَصَاصَة**﴾ [الحشر: ٩]، فدفعها إليه.

أنّى: كيف. سهيل والسها: كوكبان لا يلتقيان، لأن السها نجم خفيٌّ في بنات نعش، وبنات نعش لا تغرب أبداً في بلاد أرمينية وفي سمتها بلاد الشام والمغرب والأندلس، وسهيل لا يرى في شيء من هذه البلاد إلا رؤية لا يعتدّ بها في أيام قلائل، فلا يلتقي سهيل والسها بوجه، وإنما أخذ هذا من لفظ عمر بن أبي ربيعة حيث قال: **[الخفيف]**

أيُّها المنكحُ الثريا سهيلاً ... عَمْرَكَ الله كيف يلتقيانِ(١)

هي شامية إذا ما استقلّت ... وسُهَيْلٌ إذا استقلّ يمانِ

والثريا هذه بنت عليّ بن عبد الله بن الحارث، وكانت موصوفة بالجمال وكان عمر يشبّب بها، فتزوجها سهيل بن عبد الرحمن بن عوف الزهري فنقلها إلى مصر؛ فضرب لها عمر المثل بالكوكبين، وأبدل الحريري لفظ الثريا بالسها، وأفاد عدم الالتقاء، وسهيل هو كوكب أحمر يخيّل إليك لشدة اضطرابه به أنه يستدير، وقال المعرّي في صفته فأحسن: **[الخفيف]**

وسهيلٍ كوجنة الحِبّ في اللوْ ... نِ وقلْبِ المحبِّ في الخفقَانِ(٢)

مستبدّاً كأنه الفارس المعـ ... ـلَمُ يبدو مُعارض الفرسانِ

يُسْرِعُ اللمح في احمرار كما تُسـ ... ـرع باللمح مقلةُ الغضبانِ

ضرّجَتْهُ دماً سيوف الأعادي ... فبكت رحمةً له الشَّعريانِ

قدماه وراءه وهو في العجـ ... ـز كسَاعٍ ليستْ له قدمانِ

قالو: ولا تقنع عين بعير على سهيل إلا مات من حينه.

وقد أشار المعري إلى هذا في قوله:

لا تحسَبَنْ إبلي سهيلاً طالعا ... بالشأم فالمرئيّ شعلة مقبِس

---

(١) البيت الأول لعمر بن أبي ربيعة في ملحق ديوانه ص ٥٠٣، والأغاني ١/ ٢١٩، وأمالي المرتضى ١/ ٣٤٨، وخزانة الأدب ٢/ ٢٨، والشعر والشعراء ٢/ ٥٦٢، ولسان العرب (عمر)، والمقاصد النحوية ٣/ ٤١٣، وللنعمان بن بشير في ديوانه ص ١٤، وبلا نسبة في المقتضب ٢/ ٣٢٩، ويروى «يجتمعانِ» بدل «يلتقيانِ»، والبيت الثاني بلا نسبة في تاج العروس (شأم).

(٢) الأبيات في سقط الزند ص ٤٣٣.

ومتى طلع صرفت الإبل كلها وجوهها عن مطلعه وقابلته بأعجازها: وقال المتنبي: **[الوافر]**

وتـنـكـر قـتـلـهـمْ وأنـا سـهـيـل　　　　طـلـعـتُ بـمـوت أولاد الـزنـاء[1]

وفي معنى تخويف ابن همام للسروجي بعقاب الوالي ما حُدّث أن أبا الحسن العباس بن حيون، دخل عليه في السجن مَنْ أعلمه أن إبراهيم بن الأغلب يريد قتله، فلم يجد مفراً، فقال لمعلمه يالخبر، وأحسن في قوله: **[الوافر]**

تـخـوّفُـنـي بـمـخـلـوق ضـعـيـفٍ　　　　يـهـاب مـن الـمـنـيـة مـا أهـابُ

لـــه أجـــلٌ ولـــي أجـــل وكـــلٌّ　　　　سيبـلـغ حيـث بـلّـغـه الـكـتـابُ

***

فلَّما حضرتُ الوالي وقَدْ خَلاَ مَجْلِسُهُ، وانجلَى تَعْبِسَهُ، أخذَ يَصفُ أبا زيدٍ وفضلَهُ. ويَذُمّ الدّهرُ له، ثمّ قال: نشدْتُكَ الله، ألَسْتَ الَّذِي أَعَارَهُ الدِّسْت؟ فقلتُ: لا والَّذِي أحَلَّكَ في هذا الدَّسْت، ما أنا بصاحب ذَلِك الدَّسْت؛ بَلْ أنت الّذي تمّ عليه الدَّسْت، فازْوَرّتْ مُقْلَتاهُ، واحمَرَّتْ وَجنَتَاهُ، وقال: والله ما أعجزَني قطُّ فَضْحُ مُريب، لا تكْشيف معيب؛ ولكن ما سمعتُ بأنَّ شيخاً دَلَّس، بَعْد ما تطلَّس وتقلَّس، فبهذا تم له أن لبس، أفتدري أين سَكَعَ، ذلك اللُّكعَ؟ قلت: أشفق مِنْك لتعدي طوره فظعن عن بَغْدَاد من فوره. فقال: لا قرّب الله لَهُ نَوي، ولا كَلأه أينَ ثَوَى؛ فما زاولت أشَدَّ منْ نُكْرهُ، ولا ذُقتُ أمرّ من مكرِه، ولولا حزمةُ أدبه، لأَوْغَلْتُ في طلبه، إلى أن يقع في يدي فأوقع به، وإني لأكره أن تشيع فعلته بمدينة السَّلام، فافتضحْ بين الأنام، وتحبط مكانتي عند الإمام؛ وأصير ضُحْكَةً بين الخاصّ والعامّ، فعاهَدَني على ألا أفوهَ بما اعْتَمد، ما دُمْتُ حِلاً بهذا البَلَدِ.

قال الحارث بن همام: فعاهَدْتُهُ مُعَاهَدَة مَنْ لاَ يتأوّل، ووفَيْتُ له كما وفَى السَّمَوْأل.

***

قوله: «انجلى»، أي زال وانكشف. نشدتك: حلّفتك. الدّست الأول هو الثوب، والثاني: المجلس، والثالث هو الأول، والرابع هو الخداع والحيلة، وقدمه في الحادية عشرة حيث قال: متى مادَسْته تمّ. ازورّت مقلتاه: اعوجّت عيناه وتغيّر نظرهما. والوجنتان: ما أحاط بالعين من أسفل. أعجزني: غلبني. فضح مريب: كشف متهم. تطّلس: لبس الطيلسان، وهو من لباس الخواص، وهو كساء خزّ. لبّس: خَلط. سكع:

(١) البيت في ديوان المتنبي ١/ ١٢.

ذهب اللُّكَع: اللئيم العاجز، قال بعض أهل العلم: كان يقال: خمس خصال، من أقبح شيء فيمنْ كنّ فيه: الحدَّة في السلطان، والكبْر في ذي الحسب، والبخل في الغنيّ، والحرص في العالم، والفسق في الشيخ، وثلاث هن أحسن شيء فيمن كنّ فيه: تُؤدَةٌ لغير ذلّ، وجود لغير ثواب، ونصَب لغير الدنيا.

أشفق: خاف. تعدّى طوره: تجاوز قدره. ظعن: رحل. فوره: حينه. نوى: بعد وسفر. كلأه: حفظه. ثوى: أقام. زاولت: حاولت. نكره: منكره. مكره: خداعه. أوغلت: أبعدت. أوقِع به: أتناوله بالشرّ والمكروه والضّرب.

وقال أبو حازم في معنى دعاء الوالي على السّروجيّ: **[مخلع البسيط]**

إذا استقلتْ بك الرِّكَابُ ... فحيث لا درّت السَّحابُ

زالت سراعاً، وزلت تجري ... ببينك الظَّبيُ والغُرابُ

بحيثُ لا يُرْتَجى إيابٌ ... وحيث لا يبلغ الكتابُ

والذي استعمل الناس في الدعاء على الغائب ألاّ يرجع قولُ زهير: **[الطويل]**

* لَدَى حيثُ ألقتْ رحلَها أمّ قشعمِ[1] *

وقال آخر: **[الوافر]**

كما سار الحمار بأمّ عمرو ... فلا رجعت ولا رجع الحمارُ

ومثل هذا رقْية المرأة إذا سافر زوجها، قالت: نافرك القمر، وظل الشجر، شمال تشمله، ودَبُور تدبره، ونكباء تنكبه: شبك ولا انتقس، وتعس ولا انتعش. ثم ترمى أثره بحصاة ونواة وروثة وبعرة وتقول: حصاة حصّ أثره، ونواة نأت داره، وروثة راث خبره، وبعرة تبعره، ولو أوغل في طلبه كما ذكر فأدركه لأنشده السَّروجي: **[الطويل]**

فإنك كالليل الذي هو مدركي ... وإن خِلْتُ أنَّ المنتأى عنك واسِعُ

وقال المعري: **[الطويل]**

إذا ما أَخَفْتَ المرءُ جُنّ مخافةً ... وأيقن أنّ الأرض كِفَّة حابِل[2]

يرى نفسه في ظل سَيْفِكَ قائماً ... وبينكما بُعْد المدى المتطاول

---

(١) يروى البيت:

فشدُّوا ولم تفزع بيوت كثيرة ... إلى حيث ألقت رَحْلها أم قشعم

وهو لزهير بن أبي سلمى في ديوانه ص ٢٢، وخزانة الأدب ٣/ ١٥، ٧/ ٨، ٩، ١٣، ١٧، والدرر ٣/ ١٢٧، وشرح شواهد المغني ١/ ٣٨٤، ولسان العرب (قشعم)، وبلا نسبة في مغني اللبيب ١/ ١٣١، وهمع الهوامع ١/ ٢١٢.

(٢) البيتان في سقط الزند ص ١٠٧٥.

وقال محمد بن هانىء رحمه الله تعالى: [الطويل]

فلا مهجة في الأرض منك منيعة ... ولو قطرت من ريق أرقَط شَجْعَم(١)

ولو أنها نِيطَتْ بمخلَب طائر ... ولو أنها باتت على قرن أعْصَم

وقال أشجع السُّلَمِي في الرشيد، حين بعث لإدريس بن عبد الله العلويّ من اغتاله بالمغرب: [الكامل]

أتظنّ يا إدريس أنك مُفلِتٌ ... كيدَ الخلافة أو يقيك حِذارُ

إن السيوف إذا انتضاها عزمُهُ ... طالت وتقصُر دونه الأعمارُ

هيهات ألاّ أن تكون ببلدةٍ ... لا يُهتدى فيها إليك نهارُ

ولأبي العرب الصقلي: [الطويل]

كأنّ بلاد الله كفُّك إن يَسِرْ ... بها هارب تجمع عليه الأناملا

فأين يفرّ المرء عنك بجرمِه ... إذا كان يطوي في يديك المراحلا

قوله: تشيع، أي تتصل، يقال: شاع الخبر في الناس، أي اتصل بكل واحد، فاستوى علم الناس به، ويقال: سهم شائع ومشاع، إذا كان في جميع الدار فاتصل كل جزء منه بكلّ جزء منها، وأصله في الناقة، يقال: أوزعت الناقة ببولها إيزاعاً، إذا فرّقته، فإذا أرسلته متصلاً، قيل: أشاعت به. تحبط: تسقط وتبطل مكانتي: منزلتي. ضُحْكة: يضحك الناس به وتسكين عينها للمفعول، وتحريكها للفاعل. أفوه: أنطق. اعتمد، أي قصد من الخداع. حِلاً: مقيماً. يتأول: يحتال ليمينه فيحملها في الباطن على غير ما أوقعها في الظاهر عليه، فيريد أنه ثبت له اليمين.

* * *

[قصّة السموأل]

السموأل، هو ابن عاديا، يُضرب به المثل في الوفاء، وقصة وفائه أن امرأ القيس، لما ألحّ المنذر في طلبه لحق بعمرو بن جابر بن مازن يستجير به، فقال له: يابن حُجْر، إني أراك في خللٍ من قومك، وأنا أنفس بك، أفلا أدلك على رجل لم أر أحسن جواراً منه؟ فدلَّهُ على السموأل بتيماء، ووصف له حسبه وحصنَه، فقال: ومَنْ لي به؟ فقال: أُصحبك من يوصلك إليه، فأصحبه الربيع بن ضبع ـ وكان الربيع يأتي السموأل ويمدحه فيحمله ويعطيه ـ فمشوا حتى قدموا على السموأل، فأنشدوه أشعاراً فعرف حقَّهم، وأنزل هنداً بنت امرىء القيس في قبة من أدم، وأنزل القوم في مجلس له براح، فكان عنده ما شاء، ثم طلب أن يكتب له للحارث بن أبي شمر الغسانيّ بالشّام ليوصِّله إلى قيصر،

(١) البيتان في ديوان ابن هانىء ص ١٢٥.

ففعل، فاستودعه بنته وأدراعه الخمس، وهي الفضفاضة، والصافية، والمحصنة، والحريق، وأم الذيول، وكنَّ لبني آكل المرار، وهم أجداده يُتوارثن ملِكاً عن ملك. فمضى إلى قيصر، وأقام عنده حتى جهزه بجيوش، ثم بعث له بالحلَّة المسمومة، فلما لبسها تقطع لحمه، ومات. فلما بلغ خبر موته المنذر قصد تيماء حصن السموأل، فبعث إليه أن يعطيَه أدراع امرىء القيس وما ترك عنده من المال، فقال له: إنما أدفع ذلك لابنته ولورثته، فحاصره في الحصن، حتى أخذ ابناً له صغيراً، فقال للسموأل إما أن تعطيَني ما ترك امرؤ القيس أو أقتل ابنك وأنت تنظر إليه، فقال له: والله لا وفيت له في حياته، وأغدره بعد وفاته! اذهب، فشأنك يا بني فافعل به ما شئت، فذبحه وهو ينظر إليه، ولم يرض بالغدر، فلما جاء الموسم ذهب بالدروع فدفعها لابنته وورثته، وقال: [الوافر]

وفيتُ بأدرع الكِنديّ إني ... إذا ما خان أقوامٌ وفيتُ

وقالوا إنه كنز عظيم ... ولا والله أغدر ما حييتُ

بنَى لي عادياً حصناً حصيناً ... وبئراً كلّما شئت استقيت

فضرب به المثل في الوفاء. وانظر في الثلاثين ابتداء الحكاية.

المقامة الرابعة والعِشرُون

النّحويَّة

حكى الحارث بن همام قال: عَاشَرْتُ بقطيعة الرَّبيع، في إبَّانِ الرَّبِيعِ، فتيةً وجوهُهُمْ أَبْلَجُ من أنواره، وأخلاقُهُمْ أَبْهَجُ مِنْ أزْهارِهِ، وألفاظُهُمْ أرَقُّ مِنْ نسيمِ أسْحَاره.

فاجتليتُ مِنْهُمْ مَا يُزْرِي على الرَّبيعِ الزَّاهِر، ويُغْنِي عَنْ رنَّاتِ الْمَزَاهِرِ؛ وكنّا تقاسَمْنَا عَلَى حِفْظِ الودادِ، وحَظْرِ الاستبدادِ، وألاّ يَتَفرَّدَ أحَدُنا بالْتذاذ، ولا يَسْتأثِر ولو بِرَذاذ. فَأجمَعنَا في يومٍ سَمَا دَجْنُهُ، وَنَمَا حُسْنُهُ، وحَكَمَ بالاصطباحِ مُزْنُهُ، عَلَى أنْ نَلْتَهِيَ بالْخُرُوجُ، إلى بعض المرُوج؛ لِنُسرّح النَّوَاظِر، في الرِّياضِ النّواضِر، ونَصْقُلَ الخواطِر، بشيمِ المَوَاطِرِ؛ فَبَرَزْنا ونَحنُ كالشّهورِ عدّه؛ وكنّا كندمانَى جَذِيمةَ مَوَدَّة.

* * *

عاشرت: صاحبت.

قطيعة الربيع: بلد معروف، والربيع حاجب المنصور ومولاه، وهو [والد] الفضل ابن الربيع بن يونس بن محمد بن عبد الله بن أبي فروة، وكان أقطعه المنصور بلداً بالعراق فبناه، وبنى الناس معه، حتى صار فيه عمارات كثيرة، وهي مَحِلّة قريبة من كوخ بغداد في أعلى غربية بغداد، فنُسِبتْ إلى الربيع.

إبّان: وقت. فصل الرَّبيع: النّوار. أبلج: أحسن لوناً وأنعم. أنواره: أزهاره، ونوَّر النبات وأنور صار فيه النّوْر، وأبهج: أحسن لوناً، والبهجة: حسن اللونِ ونسيمُ السَّحر ريحه اللينة الباردة، وفي حديث عن النبي ﷺ: «يقول الله تعالى للجنّة كلّ يوم: طيبي لأهلك فتزداد طيباً»، فذلك البَرْد الذي تجده الناس بسحَر ذلك اليوم.

وقال ابن عمّار في نسيم السَّحَر على الرياض فأحسن: **[الطويل]**

ويومٍ لَـنَـا بـالـسّـدّ بـيـن مـعـاطـفٍ	مـن الـنّـهـر تـنـساب انـسيابَ الأراقـمِ
بحيث اتخذنا الروض جاراً تزورُنا	هـدايـاه فـي أيـدي الـرّيـاح الـنَّـواسِـم

يبلّغنا أنفاسَه فيردّها بأعْطِر أنفاس وأذكى لناسمِ
تَسير علَيْنَا ثم عنّا كأنّها حواسدُ تمشي بينَنَا بالتّمائم

اجتليت: نظرت. يزري: يقصر، وتقول: زريتُ عليه إذا عبتَ عليه ما فعل، وأزريتُ به قصَّرْت. الزاهر: الناعم. رنات: أصوات. المزاهر: عيدان الغناء. تقاسمنا: تحالفنا. حَظْر: منع. الاستبداد: الانفراد بالشيء. يستأثر: يختص. رذاذ: أقل المطر، أي اتفقوا ألاّ ينفرد واحد بشيء دون أصحابه. أجمعنا: عزمنا. سما دَجْنُه: ارتفع سحابه. نما: زاد. الاصطباح: شرب الخمر بالسّحر. مزنه: مطره، وفي مثل بكورهم يقول عبد الجبار الصّقلي: **[السريع]**

بادِرْ إلى اللّذاتِ وارْكَبْ لها سوابقَ اللّهو ذوات المراحْ
من قبل أنْ ترشف شمسُ الضّحى ريقَ الغوادي من ثُغور الأقاحْ

نلتهي: نتسلى ونتفرج. والمروج: المواضع المنخفضة الخصيبة، واحدها مَرْج، وسمي مَرْجاً، لأنّ البهائم تمرج فيه أي تسيب. نسرّح: نسِيب. النواظر: العيون، وبالضّاد واعم الأزهار. والخواطر: الأذهان. شيم المواطر: نظر السحاب. برزْنا: خرجنا، وجعل خروجهم في السَّحر، لأن أول النهار أحمد أوقات الشرب، فقال: أوّل النهار، ألا ترى الدّواء يبكّر به، والمسافر يُدلج لحاجته، لأن العقول أوّل النهار أزكى، والفطن أصحّ، وقال العَطَويّ: **[الخفيف]**

قبَّح الله أوّلَ الناس سنّ الشرب ظهراً ماذا أتى من خسارِ!
مجلس مونِقٌ وكأس وندما ن وتأخيرها إلى الإظهار
نكتة في السرور بادية الشّـ ـيْن لأهل العقول والأبصار
إنّ شرب النبيذ سيرٌ إلى اللّهـ ـو وخير المسير صَدْرُ النّهار
ما رأينا لنشوة الصبح شكلاً كنديم مساعد وعُقار
وغناء يفتّ في عضد الحلـ ـم ويُزري على النُّهى والْوَقَارِ
وأحاديث في خلال الأغاني كانفتاح الرّياض غِبَّ النّهار

وبعضهم يمدح الغَبوق، ويذم الصبوح، وابن المعتز ممّن يذهب إلى ذلك.

[نديما جذيمة]

قوله: كندماني جذيمة، أي صاحبيه على الخمر، واسمهما مالك وعَقيل، وجذيمة ابن مالك بن تَيْم الأزديّ، وكان مَلك أيام الطوائف بشاطىء الفرات وما والى ذلك إلى السواد ستين سنة.

قال ابن الكلبي: جذيمة: أول من ملك قُضاعة بالحيرة، وأوّل من حَذَا النعال

وأدلج من الملوك، ورُفِع له الشمع، وكان من أفضل ملوك العرب رأياً، وأظهرهم حزماً، وهو أوّلُ من استجمع الملك له بأرض العراق، وغزا بالجيوش، وكان به بَرَص، فكنّت العرب عن البَرص إعظاماً فقالت له: جَذيمة الوضّاح، وجَذِيمة الأبرش.

وكان غزا طسْماً وجديساً في منازلهم، فصادف حسان بن تُبّع، قد أغار عليهما، فانصرف جذيمة. وصادفت خيول تبع سرّية له فقتلوهم، فبلغ الخبر جذيمة فقال: **[المديد]**

ربّـمـا أوفـيـتُ فـي عَـلَـم ... تـرفَـعْـنَ ثـوبـي شِـمَـالاتُ[1]

فـي فـتـوٍّ أنـا كـالـئـهُـمْ ... مِـنْ بـلايـا غـزوةٍ مـاتُـوا

لـيـت شـعـري مـا أمـاتـهـمُ ... نـحـنُ أسـريـنـا وهـم بـاتـوا

وكان جذيمة قد تنبّأ وتكهّن، واتخذ صنمين، وسماهما الضيزنين، ومكانهما بالحيرة معروف.

وغزا إيادا بعين أباغ، فبعثوا قوماً منهم سرقوا منهم الضيزنين، وأصبحوا بهما في إياد، فأرسلوا إليه: إن صنميك أصبحا عندنا، زهداً فيك ورغبة فينا، فأعطنا عهداً ألا تغزوَنا، ونردهما إليك. ففعل.

وكان بلغه أن غلاماً من لَخمْ يسمى عديّ بن نصر مقيم في أخواله من إياد، وله ظرف ولُبّ وأنه لحسنٌ أن ينادم الملك، ويقوم بمجلسه. فاشترط على إياد أن يبعثوا مع الصنمين بعديّ بن نصر، وكان له جمال وظرف، فدفعوه إليه معهما فضمَّه إلى نفسه. وكان ينادمه ويَسقيه فتعشَّقته رَقاش أخت جذيمة، فبعثت إليه: إذا سقيتَ أخي واستنشَى، فاخطبني لك، وأشهِدْ عليه، ففعل فلما طرب جذيمة خطبها، فأنعم عليه، وأشهد عليه، فقال له: عرّس بأهلك، ففعل، فلما أصبح غَدا على جذيمة مضرّجاً بالطّيب، فقال له: ما هذه الآثار؟ فقال: آثار العرس، قال: وأيّ عرس؟ قال: عرس رقاش، فأكبّ جذيمة على الأرض، وفرَّ عديّ، وطلبه جذيمة فلم يدركْه. وقيل: ظَفِر به. وقال لرقاش: **[الخفيف]**

---

(١) البيت الأول لجذيمة الأبرش في الأزهية ص ٩٤، ٢٦٥، والأغاني ١٥/ ٢٥٧، وخزانة الادب ١١/ ٤٠٤، والدرر ٤/ ٢٠٤، وشرح أبيات سيبويه ٢/ ٢٨١، وشرح التصريح ٢/ ٢٢، وشرح شواهد الإيضاح ص ٢١٩، وشرح شواهد المغني ص ٣٩٣، والكتاب ٣/ ٥١٨، ولسان العرب (شيخ)، (شمل)، والمقاصد النحوية ٣/ ٣٤٤، ٤/ ٣٢٨، وأوضح المسالك ٣/ ٧٠، ورصف المباني ص ٣٣٥، وشرح الأشموني ٢/ ٢٩٩، وشرح التصريح ٢/ ٢٠٦، وشرح المفصل ٩/ ٤٠، وكتاب اللامات ص ١١١، ومغني اللبيب ص ١٣٥، ١٣٧، ٣٠٩، والمقتضب ٣/ ١٥، والمقرب ٢/ ٧٤، وهمع الهوامع ٢/ ٣٨، ٧٨، والبيت الثاني لجذيمة الأبرش في طبقات فحول الشعراء ص ٣٨، ولسان العرب (فتا)، وبلا نسبة في سر صناعة الإعراب ص ٥٨٨، وكتاب اللامات ص ١١٢، والممتع في التصريف ص ٥٥١.

حَدِّثينـي رَقاشُ لا تَكْـذِبيني أبِحُـرٍّ زنيـتِ أمْ بهجيـنِ
أم بعبـدٍ فأنتِ أهـلٌ لعبـدٍ أم بـدونٍ فـأنت أهـلٌ لـدونِ

فقالت له: [الخفيف]

أنت زوَّجْتَني وما كنتُ أدري فأتاني النّساء للتزيينِ
ذاك من شُرْبك المدامة صِرْفاً وتماديك في الصّبا والمجون

فحبسها في قصرها، فاشتملت على حَمْل فأتت بغلام، وسمته عمراً، وربَّته حتى ترعرع، فجمّلته وعطّرته وألبسته كسوة مثله، ثم أزارته خاله فأعجب به، وألقيت عليه محبّته، وخرج جذيمة في سنةٍ قد أكمأت، وبُسط له في روضة، وعمرو مع غِلمة يجتنون الكمأة، فكانوا إذا أصابوا كمأة طيبة أكلوها، وإذا أصابها عمرو، خبأها ثم أقبلوا يتعادَوْن وعمرو يقدمهم، ويقول: [الرجز]

هـذا جنـايَ وخيـارُه فيـهْ إذ كلّ جانٍ يـدُه إلى فيـهْ[1]

فالتزمه جذيمة، وحلّ منه بمكان. ثم إن الجنّ استهوته، فطُلِب زماناً، وأرسَل فيه في الآفاق، فلم يجد له خبراً. ثم إن عمراً أوفى على مالك وعقيل ابني فارج بن مالك بن كعب بن القيس بن حمير بن قضاعة، وقد نزلا منزلاً، وهما متوجّهان إلى خاله جَذيمة، ومعهما قَيْنة، يقال له أم عمر، وهي تغنّيهما وتسقيهما، فرأت عمراً وقد تلبّد شعره وطالت أظفاره، وساءت حاله، فاحتقرته فرمت إليه بكُراعٍ من طعامها، وناولتْهما، وأوكأت زِقَّها ولم تناول عمراً شيئاً، فقال عمرو: [الوافر]

صَدَدْتِ الكأس عنّا أمّ عمرٍو وكان الكأسُ مجراها الْيَمِينا[2]
وما شرّ الثلاثة أمّ عمرٍو بصاحبك الّذي لا تصبحِينا
فما شرب الشّراب كمثل عمرو وما نال المكارم فاصبَحينا
فإلاّ تنكري عمراً فإني أنا ابن عديّ حقاً فاعرفينا

---

(١) الرجز لعلي بن أبي طالب في ديوانه ص ٢١٣، والمخصص ١٧/ ٣٣، ولسان العرب (جني)، وبلا نسبة في تهذيب اللغة ٦/٥٩، ١١/ ١٩٥، وديوان الأدب ٤/ ٨٩.

(٢) البيت الأول لعمرو بن كلثوم في ديوانه ص ٦٥، وشرح شواهد الإيضاح ص ١٧٢، والكتاب ١/ ٢٢٢، ٤٠٥، ولسان العرب (صبن)، ولعمرو بن معديكرب في ملحق ديوانه ص ٢١٣، ولعمرو بن عدي أو لعمرو بن كلثوم في خزانة الأدب ٨/ ٢٧٢، والدرر ٣/ ٨٧، وبلا نسبة في شرح شذور الذهب ص ٣٠٢، وهمع الهوامع ١/ ٢٠١، والبيت الثاني لعمرو بن كلثوم في ديوانه ص ٦٦، والأغاني ٢٥/ ٢٥٢، وبهجة المجالس ١/ ٢٨١، وجمهرة أشعار العرب ١/ ٣٩٠، والخزانة ٣/ ١٧٨، ٨/ ٢٧٢، وشرح ديوان امرىء القيس ص ٣٢١، وشرح القصائد العشر ص ٣٢٣، وشرح المعلقات السبع ص ١٦٦، وشرح المعلقات العشر ص ٨٨، وبلا نسبة في الإمتاع والمؤانسة ١/ ١٤٣، ولسان العرب (وبل).

وخـالـي لا أبـالـك ذُو الـمـعـالـي　　جـذيـمـة كـيـف ويـحـكِ تـنـكـريـنـا!

فقالا له: مَنْ أنت يا فتى؟ أنا عمرو بن عديّ، فضمّاه إليهما، وغسلا رأسه، وأخذا من شعره. وقلّما أظفاره، وألبساه بعض الثياب التي كانت معهما، وقالا: ما كنا نُهدي جذيمة أنفسَ من ابن أخته، ثم وَرَدا به على جذيمة فسرّ به سروراً شديداً وقال: لهما تمنّيا، فسألاه أن يكونا نديميْه ما عاش وعاشا، فنادماه أربعين سنة، ما أعادا عليه حديثاً، فضرِب بهما المثل في تأكيد الألفة، ونال مالك بن نويرة في مالك: **[الطويل]**

وكـنّـا كـنـدمـانـى جَـذِيـمـة حِـقْـبـة　　من الدّهر حتى قيل لن يَتَصَدَّعَا(١)

فـلـمّـا تـفـرقـنـا كـأنـيّ ومـالـكـاً　　لـطول اجتمـاع لـم نَـبِتْ لـيـلـةً مَـعَـا

وتمثلت بهما عائشة رضي الله عنها عند قبر أخيها عبد الرحمن.

وقال أبو خراشٍ الهذلي يرثي أخاه: **[الطويل]**

تـقـول أراه بـعـد عُـرْوَة لاهـيـاً　　وذلـك رزء لـو عـلـمـت جـلـيـلُ(٢)

فلا تـحسبي أنْ قـد تـناسيت عـهـدَه　　ولـكـنّ صـبـري يـا أمـيـمَ جَـمـيـلُ

ألـم تـعـلـمـي أن قـد تـفـرّق قـبـلَـنـا　　خـلـيـلاً صـفـاءٍ: مـالـكٌ وعـقِـيـلُ

وغزا جذيمة عمرو بن الظرب بن حسان بن أذينة السميذع العمليقي من العماليق، ومنهم قوم من حمير. وكان ملَك الجزيرة وملك الحَضْر، وهي مدينة قديمة بين دِجْلة والفرات، فهزم جذيمة جيوش عمرو وقتله وفرّق جموعه، وقال في ذلك شاعرهم: **[البسيط]**

كـأنّ عـمـرو بـن بـرقـا لـم يـكـن مـلـكـاً　　ولـم تـكـن حـولـه الـرّايـات تـخـتـفِـقُ

لاقـي جـذيـمـة فـي شـعـواء مـشـعـلَـةٍ　　فـيـهـا حـراشِـفُ بـالـنـيـران تـرتـشـقُ

[الزباء]

فملكت بعده الزّباء ابنته واسمها نائلة.

قال ابن الكلبيّ: ولم يكن في عصر الزباء أجمل منها جمالاً، وأكمل منها كمالا،

---

(١) البيت الأول لمتمم بن نويرة في ديوانه ص ١١١، وتاج العروس (حبر)، (صدع)، والبيت الثاني لمتمم بن نويرة في ديوانه ص ١٢٢، وتاج العروس (فرق)، وأدب الكاتب ص ٥١٩، والأزهية ص ٢٨٩، والأغاني ١٥/ ٢٣٨، وجمهرة اللغة ص ١٣١٦، وخزانة الأدب ٨/ ٢٧٢، والدرر ٤/ ١٦٦، وشرح اختيارات المفضّل ص ١١٧٧، وشرح شواهد المغني ٢/ ٥٦٥، والشعر والشعراء ١/ ٣٤٥، وبلا نسبة في الجنى الداني ص ١٠٢، ورصف المباني ص ٢٢٣، وشرح الأشموني ٢/ ٢١٩، وشرح التصريح ٢/ ٤٨، ولسان العرب (لوم)، ومغني اللبيب ١/ ٢١٢، وهمع الهوامع ٢/ ٣٢، وتاج العروس (لوم).

(٢) الأبيات لأبي خراش الهذلي في شرح أشعار الهذليين ص ١١٩٢.

وكان لها شعر إذا مشت يتدلّى وراءها، وإذا نشرته جلّلها، فسمِّيت الزباء، لكثرة شعرها، فجمعت خيل أبيها وغزت بالجيوش مَنْ حواليها من الملوك، فذلّلتهم، فضُرب بها المثل فقِيل: أعزّ من الزباء، واشتهر عنها علوّ الهمة، وسموّ القدرة، وقوّة المنَعة، ومَضاء العزم، وبذْل الأموال. فلما استحكم مُلْكها أرادت أن تغزُوَ جذيمة لتُدرك فيه ثأر أبيها، فنهتها أختها زَبيبة عن ذلك وقالت: لا طاقة لكِ به، ولكن ابْنِي أمرَك فيه على المكر والحيَلِ. فبعثتْ إلى جذيمة تخطبه على نفسها، ليتّصل ملكه بملكها، فيصيرا بذلك أعزَّ الملوك ـ وكان بلغه عن جمالها ما أطمعه في الظَّفَر بها ـ فأخبر أرباب دولته بمخاطبتها إيّاه، فكلّهم أشار عليه أن يتزوَّجها، إلاّ قصير بن سعد بن عمرو ـ وكان لبيباً عاقلاً له عزم وحزم، وكان خازنَه وعميد دولته ـ فإنه قال له: هذا رأي فاتر، لأن الزباء قتلتَ أباها والدم لا ينام، ولك في بنات الملوك الأكفاء متّسع، فقال له الملك: إنّ النفس إلى ما تحبّ توّاقة، وإن كان القدَر قد جرى بشيء فلا مفرّ عنه.

وكتبت إليه الزباء تطلب منه قدومه عليها للنكاح، وقالت له: لولا أنّ السعي في مثل هذا للرّجال أجمل، ولهم ألزم، لسرتُ إليك. وأهدت مع كتابها من العبيد والسلاح والأموال والذهب هديّة سنية؛ فلما وصلت أبهجتْه، وحسب أن ذلك لفرط رغبتها فيه، فشاور قومه وابن أخته عمرا، فشجعوه على المسير إليها، واستخلف عَمْراً على ملكه، وسار في خواصّه حتى نزلوا بالفُرْضة، فشاور خواصّه وقصيرا في الجملة، فأشاروا عليه بالمسير إلا قصيراً، فإنه قال: أيّها الملك كلُّ عزم لا يؤيّد بحزم فآخره إلى فساد؛ ولولا أن الأمور تجري على المقدور، لعزمت على الملك ألاّ يفعل، فقال جذيمة: الرأي مع الجماعة، فقال قصير: أرى القدَر سابق الحذر، ولا يطاع لقصير رأي. فلما قرب من ديارها أرسل إليها يعلمها بموضعه، فأظهرت السرور به، وأخرجت له هدايا وأنواعاً من الأطعمة والأشربة، فقال لقصير: كيف ترى؟ فقال قصير: مَنْ لم ينظر في العواقب لم يأمن المصائب، فاستدرِك الأمر قبل فوته، وارجع فإنّ في يديك بقية تستدرِك بها الصّواب، وإن كنتَ لا بدّ فاعلاً فإن القوم إنّ تلقَّوْك غداً يجيء قوم ويذهب قوم، فالأمر في يديك، وإن تلقَّوك صَفّيْن فإذا توسطتَهم وأحدقوا بك، فقد ملكوك، وهذه العصا ـ وهي فرس لجذيمة تستبق الطير ـ فسأعرضها لك فاركبها لتسلم عليها، فإنه لا يُشَقّ غبارها، فأرسلها مثلاً.

فلما كان غد لقوه صفين، فلّما توسطهم انقضُّوا عليه، فقال لقصير: صدقتَ فما الرأى: فقال له: بقّة تركتُ الرأي، وهذه العصا، اركبها، فشغلَه الأمر عنها فلما رأى قصير الجيوش تسير بجذيمة أعطى العصا عِنانها، فهوت به هُوِيّ الرّيح، فتطاول إليه جذيمة ينظره، فقال: ويل له جذيمة؛ فجرت به إلى غروب الشمس.

ـ قال الأصمعي رحمه الله تعالى: لم تقف حتى جرت ثلاثين ميلاً، ثم وقفت

فبالت، فبُني على الموضع بُرْج يسمى برج العصا ـ وأشرفت الزباء من قصرها تنظر إلى جذيمة، وهو يساق، فقالت: ما أحسنَكَ من عروس يزف إليّ! فدخلوا به إليها، وحولها ألف وصيفة، لا تشبه واحدة صاحبتها في خَلْق ولا زيّ، وهي بينهنَّ كالقمر حفت به النجوم، فأمرت بالأنطاع فُبسطت، وقالت للوصائف: خذن بيد سيدكنّ وبَعْل مولاتكنّ، فأجلِسنه على الأنطاع، ففعلن به ذلك، ثم كشفت له عن شَعْرتها، فرأى شعرها قد طال حتى عقدته من وراء ظهرها، فقالت له: يا جذيمة أشوار ذات عروس؟ قال: بل شوار بظراء تِفَلة، وأمْر غدر قد بلغ المدى، فقالت: والله ما ذاك من عدم المواس، ولكنها شيمة أناس.

ثم أمرت به فسقي بالخمر حتى أخذت فيه، وكانت الملوك لا تضرب أعناقها إلاَّ في الحرب، ثم أمرت أن تقطع رواهشه[1]، وقالت: تحفّظن بدمه، لأنه إن قطرت من دمه قطرة في غير الطشت طُلبَ بدمه، فجرى دمه في طشت ذهب، فلما ضعفت يداه سقطتا، فقطرت على النّطع من دمه قطرات، فقالت: لا تضيّعُوا دم الملوك، فقال لها «لا يحزنك دمٌ ضيّعه أهله»، فذهبت مثلا، فقالت: إن دماء الملوك شفاء من الكلَب، ووالله ما وفّي دمك ولا شفي قتلُك، ثم أمرت به فدفن.

وكان عمرو بن عدي يخرج كلّ يوم لبعض الحيرة، يستطلع أمر خالِه، فنظر يوماً إلى فارس قد أقبل، فأشرف عليه قصير، فقال له: ما وراءك؟ فقال له: سعى القدر بالملك إلى حتفه، فاطلب بثأره، فقال عمرو: وأيّ ثأر يُطلب من الزّباء، وهي أمنع من عُقاب الجوّ! فقال قصير: والله لا أنام عن طلب دمه ما لاح نجم، فاجْدَع أنفي واضرب ظهري، ودعني وإياها. فقال عمرو: ما أنت لذلك بأهل، وقد علمتُ نصحَك لخالي. فقال: خلّ عني إذاً، فجدَع أنفه ولَحِق بالزباء، فقالت: ما جاء بك؟ فأشار بظهره وأنفه ـ فقالت العرب: «لأمر ما جدع قصير أنفه!» فقالت: يا قصير، بيننا دم خطير، فقال: يا ابنة الملوك العظام لا ثأر ولا قوَد، ولقد أتيت فيه على ما يأتي مثلك في مثله، وقد جئتك مستجيراً بك من عمرو فإنه علم أني أشرت على خاله بالمجيء إليك، فجدع أنفي وأذني، وأوجع ظهري، وحال بيني وبين مالي وولدي، فاستجرتُ بك لعلمي أنّي لا أكون مع أحد أثقلَ عليه منك، فقالت له: أهلاً وسهلاً ـ وكان يبلُغها من رأيه وحزمه ـ فاحتضّنْه وأنزلته واصطفته، فلما وثقت به، أخذت تستشيره في أمورها. فقال لها يوماً: إن عمرا يطلبك بخالِه، والرأي أن تتخذي نفقاً لعلك تحتاجين إليه، فقالت له: إنّي قد اتخذته تحت سريري، وخرجت به تحت سرير أختي ـ وكان الفرات يشق بين قصيريهما ـ فأظهر لها السرور، ثم قال لها: إنّ لي بالعراق أموالاً كثيرة تصلح بالملوك فإن جهزتِني بمال للتجارة، توصلت فيه إلى أخذ تلك الذخائر وننقلها إليك، فجهّزته. فاحتال حتى

(١) الرواهش: عروق ظاهر الكف.

وصل إلى عمرو، فجهّزه بطُرَف من الجواهر والخزّ والديباج والأسلحة، فرجع بها، فلما تحققت نصحه، أرسلته إلى العراق ثالث سفرة ليضرب لها بها عدّة من السلاح، ويشتري لها خيلاً وعبيداً لتجهز جيشاً إلى مَنْ حواليها من الملوك فمشى فيما أمرتْه به، وتوصل إلى عمرو، وقال: قد أصبتُ الفرصة من الزّبّاء، فقال عمرو: قل اسمع، ومر افعل، فأنت طبيب هذه القَرْحة، فقال: الرجال والمال، فقال: حكمك فيما عندي مسلّط، فعمد إلى ألفي رجل من أهل القتال، وجعلهم في غرائر سود، وجعل سلاحهم السيوف والحَجَف[1]، وجعل رؤوس الغرائر مربوطة من داخلها، وجعل عمرا في الحملة، وساق الخيل والعبيد، فلما قاربها بعث إليها البشير بسلامة قصير وكل ما جاء به، فسألت عن العِير أين نزل؟ فقيل لها: بالغوير ـ وكانت تنظره من غير طريق الغوير ـ فقالت: عسى الغوير أبؤسا، وتقدّم قصير، فدخل عليها فبشّرها، فرقيَتْ سطحاً عالياً لتنظر مجيء الإبل، فنظرت قوائمها تسوخ في الأرض لما عليها من الأثقال، فقالت: يا قصير: [الرجز]

مـا لـلـجـمـال مـشـيُـهـا وئـيـدَا	أجـنـدلاً يـحـمـلـن أم حـديـدا![2]
أم صَـرَفـانـا بـارداً شـديـدا	أم الـرجـال جُـثَّـمـا قـعـودا

وكانت قالت لجواريها: إني أرى الموت الأحمر في الغرائر السود، فذهبت مثلاً.

فدخلت الجمال المدينة، فجسّ بواب بمخصرة في يده غرارة على آخر بعير، فأصابت المخصرة خاصرة رجل فضرَط فصاح: الشرّ الشرّ، فأظهروا علامة كانت بينهم، فحلّوا رؤوس الجوالق، فخرج منها ألفا دارع بألفي سيف، فصاحوا: يا لثأر الملك المقتول غدراً! وهربت الزباء تطلب النفق إلى تحت الفرات، فسبق عمرو إلى بابه مع قصير، وكانت صورة عمرو مصورة في جانبها، فعندما رأته عرفته، وكانت جعلت تحت فصّ خاتمها سمّ ساعة فمصّت الفَصّ، وقالت: بيدي لا بيد عمرو. فسقطت، وعمرو وقصير يضربانها بالسيف، فماتت بين السم والسيف، فاستباحوا بلدها بما فيه، واستولى عمرو على مملكتها. واتخذ عمرو الحيرة دار ملكه، وتوارثها بنوه واحداً واحداً إلى النعمان بن المنذر، وهو الذي أدرك زمن المصطفى ﷺ وقتله كسرى، وهو آخرهم،

---

(١) الحَجَف، بالتحريك: التروس من جلود بلا خشب ولا عقب.

(٢) الرجز للزباء في لسان العرب (وأد)، (صرف)، (زهق)، وأدب الكاتب ص ٢٠٠، والأغاني ١٥/ ٢٥٦، وأوضح المسالك ٢/ ٨٦، وجمهرة اللغة ص ٧٤٢، ١٢٣٧، وخزانة الأدب ٧/ ٢٩٥، والدرر ٢/ ٢٨١، وشرح الأشموني ١/ ١٦٩، وشرح التصريح ١/ ٢٧١، وشرح شواهد المغني ٢/ ٩١٢، وتاج العروس (وأد)، (صرف)، وشرح عمدة الحافظ ص ١٧٩، ومغني اللبيب ٢/ ٥٨١، وللزباء أو للخنساء في المقاصد النحوية ٢/ ٤٤٨، وبلا نسبة في همع الهوامع ١/ ١٥٩، ومقاييس اللغة ٦/ ٧٨، وكتاب العين ٧/ ١١١، والمخصص ١٢/ ٢٦، وأساس البلاغة (وأد).

وكان مقتل والد الزباء عند بعث عيسى عليه السلام. وقال ابن دريد: [الرجز]

وسيفُ عمرو استَغلتْ به همتُه ... حتى رمى أبعدُ شأو المرتَمَى

فاستنزل الزّباء قسراً وهي من ... عُقاب لوح الجوّ أعلى منتهى

* * *

إلى حديقةٍ أخذتْ زُخْرَفَها وازّيّنَتْ، وتنوَّعتْ أزاهيرُها وتلوّنتْ، ومعنا الكميتُ الشَّموس، والسقاةُ الشُّموس والشّادِي الذي يُطرِبُ السَّامِعَ ويُلْهِيهِ، وَيَقْرِي كُلَّ سَمْعٍ ما يشتهيهِ. فَلمّا اطمأنّ بنا الجُلُوسُ، ودَارَتْ علينا الكُؤوس، وَغَلَ عَلَيْنَا ذِمْرٌ، عَلَيْهِ طِمْرٌ، فتجهّمناهُ تَجهُّمَ الغِيدِ الشِّيبَ، ووجَدْنا صَفْوَ يومنا قدْ شِيبَ.

* * *

[مما قيل في الرياض والبساتين]

قوله: إلى حديقة أخذت زخرفها وازينت.

نُريد أن نصل باب الرياض والبساتين، إذ هي جامعة ألوان لم تدخلها الصنعة، ولم تمازجها الكلفة، مع بديع أزهارها التي سماها الله سبحانه وتعالى زينة، وزخرفاً فقال تعالى: ﴿حتّى إذَا أخذت الأرضُ زخرفها وازّيَنَتْ﴾ [يونس: ٢٤]، وأن نجتنِيَ فيه بعض ما قالت العرب، ونقلته الرواة من الشعر المستحسن، والتشبيه المشاكل، فإن جُلّ النفوس مستأنسة به ونازعة إليه، ومرتاحة لذكره، ومشتاقة إلى زمانه، ولا تكون الرياض مونقة، والأزهارُ مشرقة، إلاّ في اعتدال الزمان، وجدّة الأيام، وهي إذا حلّت الشمس في برج الحمل، كما قال الحسن: [المنسرح]

أما تَرى الشمسَ حلَّت الحَملاَ ... وقام وزنُ الزمان واعتدلاَ

فاشرب على جدّة الزمان وقدْ ... أصبح وجه الزمانِ مقتبلا

وغنّت الطيرُ بعد عُجْمَتِها ... واستوفت الخمرُ حولَها كَمَلا

قال الأصمعي رحمه الله تعالى: سألت أعرابيًا عن الغيث، فقال: عُصِّلت الحياض، وأشرقت الرياض، وأخرجت الأرض زخرفها، وأنبتت من كل زوج بهيج.

وقيل لأعرابيّ: أيّ شيء رأيتَ أحسن؟ فقال الأعرابيّ: ظباء راتعة، في رياض يانعة، والشمس طالعة.

وقيل لآخر: صف لنا الربيع وأوجز، فقال: هو صديق النّفس بريحانه، ومِلك الطّرف بريعانه، مع أنه أشكل بالشبيبة، وباعث الشهوة البعيدة.

وقال إبراهيم بن السدّي: خرجت أريد نزهة نهر الأُبُلّة مما يلي كاظمة تميم وقصر

مَعْبد، حتى غوّرت في مبنى أتخيّل الرياض، وأجيل ناظري في مساقط الغيث، حَتى دفعتُ إلى أعرابيّ عند روضة غناء، عميم نبتها، زاهر نورها، يطيف بها، فقلت: يا أعرابيّ، أحسنٌ عندك ما ترى؟ فقال: كلاً والله، سماء مظلّة وأرض مقلة، تضحك هذه عن بكاء هذه، فما شئت من درّة بيضاء، وياقوتة حمراء، وزمردة خضراء، قد نظمتها أيدي المزن في نحور الصعيد.

وقال يزيد بن ماهان الأوسيّ: أتيت أرض السماوة في أنفِ من الربيع، وقد اكتهل النبت فلما جزتُ ساحةَ الحيّ دفعت إلى جوار كأنهنّ دُمي العاج، يمشين كقضيب البان، وبين أيديهنّ روضة مشرقة، وهنَّ يَطُفْنَ بها، ويهبْن الولوج فيها. فقلت: ما لكنّ لا تلِجن الروضة، فهي أوطأ لأقدامكنّ، وأقرب لإثارة أرَجها من أنوفكنّ؟ فقالت إحداهن: أحرام عندكَ أن يطأ بعضنا خدود بعض؟ قلت: بلى والله، قالت: فوجْه الأرض أحق بالتحريم أن يحصد أو يُتَوسّد.

وبعث الحجاج إلى عبد الملك بجاريتين، وكتب إليه: هما عندي بمنزلة روضتين من رياض السّماوة، جاد الربيع أوّله وآخره عليهما، فاعتمّ نبتهما، ونوَّر زهرهما، وحسُن منظرهما، وقد بعثت إلى أمير المؤمنين بهما مباركاً له فيهما.

وقد ذكرت الشعراء الغيثَ والرياض بألفاظ مستحسنة، ومعان مستظرفة، وتمثيل رائع، وتشبيه رائق، يبعث السرور، وينفي لوعة المحزون، ويجلب أريحية الفتوة والشباب، فنذكر هنا من محاسن أشعارها ولطائف مذاهبها في ذلك ما نرجو به أن يفيَ بالغرض الذي قصده وضمّنه الحريريّ صدرَ هذه المقامة ونوافقه، ونشرح منزعَها الشريف في ذلك ونحقّقه إن شاء الله تعالى.

أنشد السِّيرافيّ رحمه الله تعالى يصف روضة: [البسيط]

نضّاخة تملأ العينين بهجتُها ... فيحاء حُفّتْ بأنواع الرياحينِ
في ظل آس وجرجير ونرجسةٍ ... وسوسَن زان وردا بين نسْرِينِ
وكرْمة ذات أعنابٍ مذلّلة ... من كلّ أقطارها تحت الأفانينِ
شبَّهت فيها العناقيد التي بقيتْ ... أولاد زنجية فُطْسَ العرانينِ
فتارةً مِن يواقيت منضَّدةٍ ... وكالزَّبرجد في بعض الأحايينِ
فعينها غَدَق وماؤها غبقٌ ... وريحها ريح مسك الهند والصينِ
فيها زرابيّ قد بُثَّتْ ملمَّعة ... يضحكن عن زهر أنواع البساتينِ

فعارضه حسن الكوفيّ، فقال: [البسيط]

كأنّها كاعبٌ حسناءَ أبرزَها ... عيد فلم تألُ في طيبٍ وتزيينِ
تبرّجَت لتروقَ الناسَ بهجتها ... فالناس ما بين مبهوت ومفتونِ

والأيـك مـائـلـة الأغـصـان زائـدة   قـد كـسـيـت زخـرفـا حـمرَ الأفـانـيـنِ
إذا الرَّخاء جرت في نَوْرها لفظت   قُـراضـةً مـن حـريـر الـريّ والـصـيـنِ
كـأنـمـا ألـبِـسـت أكـمـامـهـا حُـلـلاً   مـن وشـي إسـكـندرٍ أو مِنْ نـصـيـبـيـنِ

وقال عليّ بن الجهم: **[البسيط]**

لم يَضْحك الروض إلا حين أعجبه   حسنُ النّباتِ وصوتُ الطّائِر الغَرِدِ
بـدا فـأبـدى لـنـا دنـيـا مـحـاسِـنـهـا   وراحـت الـراح فـي أثـوابـهـا الـجُـدُدِ
ما قابلتْ قُضُب الريحان طلعتَه   إلا تـبـيَّـن فـيـه ذلـة الـحـسـدِ
بين الـنـديـمـين والـخُـلـينِ مـسـرعة   وسـيـره بـيـد مـوصـولـة بـيـدِ
فـبـادرتْـه يـد الـمـشـتـاق تَـسْـنُـده   إلـى الـتـرائـب والأحـشـاء والـكـبِـد
لا عــذّب الله إلا مَــنْ يــعــذّبــه   بـمـسـمـع بـارد أو صـاحـب نَـكِـدِ

وقال البحتريّ: **[الطويل]**

سقى الغيثُ أكناف الحمَى من مَحَلّةٍ   إلى الحِقْف من رمل اللّوى المتفاودِ(١)
ولا زال مـخـضَـرٌ مـن الـلـون يـانـع   عـلـيـه بـمـحـمـرٌ مـن الـنَّـوْر حـاشـدِ
يـذكـرنـا رؤيـا الأحـبـة كـلّـمـا   تـنـفـس فـي جُـنْـحِ مـن الـلـيـل بـاردِ
شـقـائـق يـحـمـلـن الـنـدى فـكـأنّـه   دموع الـتـصـابـي فـي خـدود الـخـرائـدِ
ومـن لـؤلـؤ كـالأقـحـوان مـنـظـمِ   عـلـى نُـكَـتٍ مُـصـفـرَّة كـالـفَـرائـدِ

وقال أيضاً: **[الخفيف]**

وكـأنّ الـحـوادث والأقـحـوان الـ   ـغـضّ نـظـمـان: لـؤلـؤٌ وفـريـدُ(٢)
قـطـرات مـن الـسـحـاب ورَوْضٌ   نـشـرت وردهـا عـلـيـه الـخـدودُ

وقال أيضاً: **[الطويل]**

وقد نَبّه النّوروزُ في غَسَقَ الدجى   أوائـل وَرْدٍ كـنَّ بـالأمـس نُـوّمـا(٣)
ومـن شـجـرٍ رَدَّ الـربـيـع لـبـاسَـهُ   عـلـيـه كـمـا نـشَّـرْت بُـرْداً مـتـنَـمَـمـنـا

وقال الحسن بن وهب: **[الكامل]**

طـلَـعَـتْ أوائـلُ لـلـرَّبـيـع فـبـشَّـرَتْ   نَـوْرَ الـريـاض بـجـدَّةٍ وشَـبـابِ
وغدا السحاب يكاد يسحب في الثّرى   أذيـال أسـحـمَ حـالـك الـجـلـبـابِ

---

(١) الأبيات في ديوان البحتري ص ٦٠٣.
(٢) البيتان في ديوان البحتري ص ٧٢٢، ٧٢٣.
(٣) البيتان في ديوان البحتري ص ٢٠٩٠.

يَبْكي فيضحك نورهنّ، فيا لَهُ ... ضحك تحسَّر عن بكاء سحابِ
وترى السماء إذا أجدَّ ركابُها ... فكأنما التحفتْ جَنَاح غُرَابِ
وتَرَى الغصون إذا الرياح تأرَّجَتْ ... ملتفَّةً كتعانقُ الأحباب

ولأبي زرعة الدمشقي: **[الطويل]**

وقد أخذت زهر الرِّياض حُليَّها ... وألبست الأرضَ الفضاءَ الزخارفُ
لُجين وعِقيان يروق وجوهرٌ ... تؤلِّفه أيدي الربيع اللطائفُ
تهادي التلاع الغور مِسْكاً وعنبراً ... تؤديه أنفاسُ الرياحِ العواصفُ
كأنَّ أباريق المُدامة بينها ... من المنظر الأعلى ظباءٌ رَواعِفُ

ولبكر بن حماد: **[المتقارب]**

فسقياً لأيَّامِنا الذاهباتِ ... لقد فارقتنا بصَفْوِ الهَوَى
وهذا الربيع ورَيْعَانُه ... يجَدِّدُ عهداً لها قد مَضَى
يذكّرني الورد حمرَ الخدودِ ... ولُعْسَ الشِّفاه إذا ما بَدَا
وسَوْسَنه صحن خد الفتا ... ة إذا برزتْ لمحبٌّ أتى
ونشر الرِّياح رياح الحبيبِ ... تباعَدَ موعدُه أو دَنَا
يجود بها الطّلُّ وشي النّبات ... وينظمه بلآلِي النَّدى

ولمحمد بن يزيد: **[البسيط]**

وروضة صنف النوَّار جوهرَها ... فيها كما شئت من حسن ومن طيبِ
كأنَّ ما تجتنيه من زخارفِها ... أخلافُ مستحسن الأخلاق محبوبِ
ما انفك للعين فيها أعينٌ ذرف ... تبكي بدمع من الأنواء مسحوبِ
حتى كأن أفانين النّبات بها ... على الميادين ألوان اليَعَاسيبِ
كأنَّ غدرانها بالروض محدقةٌ ... تحبير ثوبٍ من الموشِيِّ مخضوبِ

وقال كشاجم: **[الوافر]**

إلَى الرَّوض الذي قد زينته ... شآبيب السَّحائب بالبكاء
بكين عليه فابتهجت رُباه ... تباهى في زخارف نسج ماء
كأن الأقحوان بجانبيه ... عذارى يَبْتَسِمنَ من الحياء

وقال ابن الزَّقاق: **[البسيط]**

وحدائقِ خُضْرِ المعاطف أُلْبِسَتْ ... من حسن بهجتها ثياب زَبَرْجَدِ[1]

(١) البيتان في ديوان ابن الزقاق ص ١٤٠.

جَرَّت عليه الشمسُ فَضْل ردائها … فيُرَى زبرجدهنّ تحت العسجد

وقال أيضاً: [المنسرح]

وروضةٍ عاطر بنفسجُها … عطَّرها وشيُها وسندسُهَا[1]

لما غذتْها السَّحابُ دِرّتها … من فوق حَوْذانِها ونَرْجسها

خاف عليه الغمامُ حادثةً … فسلَّ سيف البرق يحرسُها

وقال أيضاً: [الخفيف]

نُثِر الورد في الغدير وقد دوّ … حَهُ بالهبوب نَشْر الرِّياحِ[2]

مثل درع الكمي مَزَّقها الطَّعْـ … ـنُ فسالت دماه بِجِرَاحِ

وقال أيضاً: [الكامل]

وقزازة زَرْقاء راق صفاؤُها … قد ضم زهر الجلنار رداؤها[3]

فاعجب لراح كأسُها من فضَّة … ما إن تسيل وقد يسيلُ إناؤها

ومن ملح الأدباء وما تصرفوا به في الأنوار ما كتب به أبو دلف إلى ابن طاهر يعاتبه: [الطويل]

إخاؤكم كالورد ليس بدائم … ولا خير فيمن لا يدومُ له عهدُ

وعهدي لكم كالآس حسناً وبهجةً … له ورق خضر إذا فَنى الوَرْدُ

فأجابه ابن طاهر: [الطويل]

وشبَّهتَ ودّي الورد فيما تذمّه … وهل زهرة إلاَّ وسيدُها الوَرْدُ

إخاؤكم كالآس مرّ مذاقُه … وليس له في الريح قبلٌ ولا بَعْدُ

ولم يأت أحد بأخبث من تشبيه ابن الرومي في ذمّ الورد:

كأنه سُرمٌ بغل حين أبرزَهُ … بعد الخراء وباقي الرَّوْث في وسطه

وقال أبو الشيص: [البسيط]

يا من تَجَلّى بريحانٍ ينادمه … من بين ورد وخيريّ ونَسْرِينِ

وياسمين وعودٍ ما يغيره … ما كان أحسن ذا لو لم يكن دوني

وقال أبو المعلى الطائي: [الطويل]

كأن عيونَ النور زُيِّنَّ بالندى … عيونٌ تراسلن الدموع على عذلي

---

(١) الأبيات في ملحق ديوان ابن الزقاق ص ٢٩٤.

(٢) ديوان ابن الزقاق ص ١٣٠.

(٣) ديوان ابن الزقاق ص ٢٨٣.

وقال أيضاً: [الطويل]

تَرَى للنّدى فيه مجالا كأنّما ... نثرن عليه لؤلؤاً فتبدّدَا

قوله: حديقة، أي بستان. زخرفها، أي زينتها. تنوَّعت أزاهيرها: اختلفت أنواع أزهارها.

وهذه الحديقة التي ذكر من حسنها، مثل البستان الذي دخله عُروة بن الزبير مع عبد الملك بن مروان ـ وكان عروة معرِضاً عن الدنيا ـ فحين رأى في البستان الوصف الذي ذكر الحريري قال: ما أحسن هذا البستان! فقال له عبد الملك: أنت والله أحسن منه، لأنه يؤتى أكله كلَّ عام وأنت تؤتي أكلك كلَّ يوم، وكان عبد الملك يجب عروة ويعظّمه، على ما بين الزبيريَّة والمروانية من التباغض.

وقال لابن شهاب حين وفد عليه: عند من طلبت؟ قال: عند سعيد بن المسيب وسليمان بن يسار وقبيصة بن ذؤيب، فقال عبد الملك: فأين أنت من عروة بن الزبير! فإنه بحر لا تكدّره الدلاء. قال ابن شهاب: فلم أبارح عروة بعد حتى مات.

قال ابن وكيع في وصف ما ذكره الحريري: [الطويل]

ألست تَرى وشْيَ الربيع تنمْنما ... وما صنع الرّبعيّ فيه ونظّما

وقد حكت الأرض السماء بنورِها ... فلم أر في التشبيه أيُّهما سَمَا

فخضرتها كالجوّ في حسن لونِهِ ... وأنوارها تحكي لعينيك أنجما

فمن نرجسٍ لما رأى حُسْنَ نفسه ... تداخله عجب به فتبسَّما

وأبدي على الورد الجنّي تطاولا ... وأظهر غيظ الورْد في خدْه دما

وزهر شقيق نازع الوردَ فضلَه ... فزاد عليه الورد فضلاً وقدَّما

فظل لفرط الحزن يلطِم خدّه ... فأظهر فيه اللّطم جمراً مضرّما

ومن سوسنٍ لما رأى الصِّبغ دونه ... على كل أنواع الرياض تقسّما

تجلبب من زرق اليواقيت حُلّة ... فأغرب في الملبوس فيها وأحكما

وأنوار منثور يخالف شكلُها ... فصار بها شكلُ الربيع منمنما

جواهر لو قد طال فيها حياتُها ... رأيت بها كلّ الملوك مختما

وقالوا أبو بكر البلويّ: [البسيط]

وروضةٍ بات ظَلُّ الغيث ينسجُها ... حتّى إذا التحمت أضحى يدبِّجُهَا

يبكي عليها بكاء الصبّ فارقه ... إلفٌ فيضحكها طوراً ويُبهجُها

إذا تنفّس فيها ريحُ سوسَنِها ... وفاح مثل خُزاماها بنفسجُها

أقول فيها لساقينا وفي يدِه ... كأس كشعلة نار إذ يوهِّجُها

لا تمزجنْها بغير الريق منك فإنْ تبخل بذاك فدمعي سوف يمزجُها
أقلّ ما بي من عينيك أنَّ يدي إذا دنت نحو قلبي كاد ينْضجُها

وقال الوزير المهلّبيّ: [الكامل]

الورد بين مضمَّخٍ ومضرّجٍ والزّهر بين مكلَّلٍ ومتوَّجِ
طلع النهار فلاح نَوْر شقائقٍ وبدت سطور الورد بين بنفسجِ
والثلج يهبط كالنّثار فقم بنا نصبحْك بابنة كرمة لم تمزجِ
فكأنَّ يومك في غلالة فضةٍ والنبت من ذهب على فَيْروزجِ

وقال السري: [الكامل]

وحديقة يُنْسيك وشي بُرُودها حتى تشبِّهها سبائب عبقرِي
يجري النّسيم خلالَها فكأنما غُمِستْ فضولُ ردائها في العنبرِ
طارت قلوبُ المحل تخفِقُ بينَها بخفوق رايات السحاب الممطرِ
طارتْ عقيقة برقه فكأنما صدعتْ ممسك غيْمِهِ بمعصفرِ

وقال السّلامي: [الكامل]

نَسَبُ الرِّياض إلى الغمام شريفُ ومحلُّها عند النسيم لطِيفُ
أو ما ترى طرق البروقِ توسّطتْ أفقاً كأنَّ المزن فيه شنوفُ
واليومُ من خَجل الشقيق مضرّجٌ خَجِلٌ ومن مرض النسيم ضعيفُ
والأرض طرسٌ والرياض سُطورُه والزهر شكلٌ بينها وحروفُ
فأدِرْ سقيت الرِّيّ جامَكَ إنه يومٌ على كبد الزمان خفيفُ

قوله: الكميت، يعني الخمر. الشّموس: التي فيها حدَّة. والشُّموس: السقاة الذين وجوههم كالشمس، وللسّلامي في ذلك: [البسيط]

وظبية من بنات الأنس في يدِها ووجهها للصِّبا والحسن خاتام
قد حللت لؤلؤ الأزرار عن دُرَرِ لهن في ثغرها الفضيّ أتوام
وزارت الأرضَ منها مقلتان لها وحشِيّتان وعذب الريق بسَّامُ
والكأس للسكر التبريّ صائغةٌ والماء للحبب الدرِّيّ نظّامُ
بتْنَا نكفكف بالكاسات أدمعَنا كأننا في حُجور الرَّوض أيتامُ

وهذه أشعار غريبة عجيبة، ولابن سكرة في ذلك: [البسيط]

اشرب ففي اليوم فضلٌ لو علمتَ به بادرت باللّهو واستعجلتَ بالطَّرَبِ
ورد الخدود وورد الروض قد جُمِعا والغيم مبتسم والشمس في الحجبِ

لا تحبس الكأس واشربها مشعشعة ... حتى تموت بها موتاً بلا سببِ

وقال سيف الدولة وذكر قوس قُزح: [الطويل]

وساقٍ صبيح للصَّبُوح دعوتُه ... فقام وفي أجفانه سِنَةُ الغَمْضِ

يطوف بكاساتِ العقار كأنجم ... فمن بين منقضٍ عليها ومنفضّ

وقد نشرت أيدي الجنوب مَطارفاً ... على الجوّ دُكْناً والحواشي على الأرضِ

يطرِّزُها قَوْس السماء بأصفرٍ ... على أخضرٍ في أحمرٍ تحت مبيضٍّ

كأذيال خَوْدٍ أقبلت في غلائلٍ ... مصبَّغة والبعضُ أقصرُ من بعضِ

وهذه من التشبيهات الملوكية التي لا يحضر السوقة مثلها. وقال ابن الزقاق: [المنسرح]

وشادنٍ طاف بالكؤوس ضحًى ... فحثَّها قد وضَحا[1]

والرَّوض يُبدي لنا شقائقَهُ ... وآسه العنبريّ قد نفَحَا

قلنا وأين الأقاح؟ قال لنا ... أودعته ثَغر مَنْ سقى القدَحَا

فظلّ ساقي العقار يحجزه ... عنّا فلمّا تبسَّم افتضحا

وقال أيضاً: [البسيط]

نَبّهتُه ونجومُ الليل زاهرة ... والفجر منصدعٌ والصُّبْحُ قد لاحا[2]

والليل منهزم ولّتْ عساكره ... والرَّوْض مبتسمٌ والزهد قد فَاحَا

فقام يمسحُ عينيْهِ براحتِه ... فخِلْتُهُ في ظلامِ الليل مِصْبَاحَا

قوله الشادي: المغني. يلهيه: يشغله ويزيل همه. يقري: يعطي ويهدي. سمع: أذن. ولبعضهم في غلام مغن ـ وأجاد: [الوافر]

فديتك يا أتمَّ الناس ظَرْفَا ... وأصلحهم لمتّخذٍ حبيبا

فوجهُك نزهة الأبصار حُسْناً ... وصوتك أمتع الأصوات طيبا

وسائلةٍ تسائل عنك قُلْنا ... لها في وصفك العجب العجيبَا

رنا ظبيا وغَنَّى عندليبَا ... ولاح شقائقا، ومشى قضِيبَا

وقال ابن الزقّاق: [الطويل]

يذكّرني تحنانُ شدو غنائه ... على الأيْك تَحْنَان الحمام المغرّدِ[3]

له نغمات أفحمت كلّ صادحٍ ... وصوتُ نشيدٍ قد شجا كلّ منشدِ

(١) الأبيات في ديوان ابن الزقاق ص ١٢٤.
(٢) ديوان ابن الزقاق ص ٢٩٢.
(٣) ديوان ابن الزقاق ص ٢٩٢.

فدعْ كل ما حُدِّثت عن صوت مَعْبَدٍ وطارحْ نشيداً عن نشيدِ ابن معبدِ

قوله: اطمأن، أي استقر وسكن. وغلَ: دخل، والواغل الداخل على الشّراب ولم يُدْع إليه. ذِمر: شجاع، والذمر أيضاً: الخبيث ذو الدهاء، وهو مخفف من ذمْر، وهو الشجاع، والجمع أذمار، ومنه فلان حامي الذمار، معناه: يحمي ما يلزمه أن يحميه، وسمي ذمارا الأنّ الإنسان يذمر نفسه، أي يحرضها به، وذمرتُ الرجل أذمره، إذا حرَّضته. طمْر: خلَق. تجهّمناه: عبسنا له، والجهامة: العُبوس، ويقال: تجهّمني فلان بكذا، يتجهّمني بمعناه.

[مما قيل في الشيب والشباب]

الغيد: النساء الحسان اللينات الأعناق. الشّيب: الشيوخ، الواحد أشيب. شيب: كدّر ونغص، وأوَّل من نطق بهذا المعنى امرؤ القيس بقوله: **[الطويل]**

أراهنّ لا يُحبِبن من قلّ ماله ولا من رأين الشّيْب فيه وقَوَّسا(١)

وعلقمة في قوله: **[الطويل]**

إذا شاب رأسُ المرء أو قلّ مالُه فليسَ له من ودّهِنّ نصيبُ(٢)

وقال حبيب في هذا المعنى فأحسن: **[الخفيف]**

لعِبَ الشيب في المفارق بل جـ ـدّ فأبْكى تُماضراً ولعوبَا(٣)

يا نسيبَ الثَّغام ذنبُك أبقَى حسناتي عند الحسان ذنوبَا

ولئن عبنَ ما رأين لقد أنـ ـكرْنَ مستنكراً وعِبْنَ مَعِيبا

لو رأى الله أن للشيب فضلاً جاورته الأبرار في الخلد شيبا

وقال علي بن الجهم: **[الخفيف]**

أنكرتْ ما رأت برأسي وقالتْ أمشيبٌ أم لؤلؤ منظومُ

قلتُ أوْلاهُمَا برأسي فأنَّتْ أنَّةَ يستثيرها المهمومُ

حسرتْ عنّي القِناعَ ظلُومُ فتولّتْ ودمعُها مَسْجُومُ

وقال عمرو الوراق: **[مجزوء الكامل]**

لا تطلُبنْ أثراً بعينِ فالشيب إحدى الميتتينِ

---

(١) البيت في ديوان امرىء القيس ص ١٠٧، ولسان العرب (قوس)، وكتاب العين ١٨٨/٥، ومقاييس اللغة ٥/ ٤٠، وتهذيب اللغة ٩/ ٢٢٣، وأساس البلاغة (قوس)، وتاج العروس (قوس).

(٢) البيت لعلقمة بن عبدة في ديوانه ص ٤٣، وشرح اختيارات المفضل ص ١٥٩٠.

(٣) الأبيات في ديوان أبي تمام ص ٢٥.

أبـدى مـقـابـح كـل شـيـ ـنِ ومـحـا مـحـاسـنَ كـلّ زيـنِ
فـإذا رأيـتَ الـغـانـيـا ت رأيْـنَ مـنـك غـراب بـيـنِ
ولـربـمـا نـافـسـن فـيـ ـك وكـنّ طـوعـاً لـلـيـديـنِ
أيـام هِـمّـتـك الـشـبـا ب وأنـت سَـهْـلُ الـعـارضـيـنِ

الفنجديهي: من أحسن ما سمعت في هذا المعنى قول ابن البياضي، رحمه الله تعالى: [الكامل]

عرض المشيب بعارضيَّ فأعْرَضُوا وتقوّضت خِيم الشباب فقوّضُوا
فكأنّ في الليل البهيم توسّطوا حفرا وفي الصبح المنير تقبَّضُوا
ولقد رأيتُ وما رأيت بمثله بيناً غراب البين فيه أبيضُ

وقال حبيب وزاد في الشيب نقاء الخد: [الكامل]

راحتْ غواني الحيّ عنك غوانياً يلبسْنَ نَأياً تارة وصُدُودا(١)
من كلِّ سابغة الشباب إذا بدتْ تركت عميد القريتين عميدا
أزرينَ بالمُرْدِ الغطارف بدِّنا غيداً أَلِفْتَهُمُ لدانا جيدا
أحلى الرجال من النساء مواقعاً مَنْ كان أشبههم بهنّ خدودا
حتى إذا ما الشعر سوّد وجهه عاد المسوّد بينهنّ مَسُودَا

هذا من قول الأعشى: [الكامل]

وأرَى الغواني لا يواصِلْنَ امرأ فقد الشباب وقد يصِلْنَ الأمْرَدَا(٢)

ولحبيب ـ وروي لأبي دلف: [الكامل]

نظرت إليّ بعين من لم يعدلِ لمّا تمكّن طرفُها من مَقْتَلِي
لما رأت وضَح المشيب بلحيتي صدّت صدود مفارق متحمِّلِ
فجعلت أطلب وصلَها بتلطّف والشّيب يغمزها بألاّ تفعل

وقال محمد بن أمية: [الطويل]

رأين الغوانِي الشَّيْب لاح بعارضِي فأعرَضْنَ عَنِّي بالخدودِ النِّواضر
وكنَّ إذا أبصرنني أو سمعنني دنَونَ فرفَّعن الكوى بالمحاجِرِ

---

(١) الأبيات في ديوان أبي تمام ص ٨٧.
(٢) البيت في ديوان الأعشى ص ٢٢٧.

وللشريف الرضيّ رحمه الله: [الكامل]

قالُوا المشيب فعِمْ صباحاً بالنّهي ... واعقِرْ مِراحك للطّروق الزائِر[1]
لو دام لي ودّ الكواعب لم أبلْ ... بطلوع شيب وابيضاضِ غدائِر
لكنّ شيب الرأس إن يك طالعا ... عندي فوصْلُ البيض أوّل عابِر
إن أعرضت عنه الخدود فطالَمَا ... عطفتْ له بسوالف ومحاجِر
ولقد يكون وماله من عاذلٍ ... واليوم عاد وماله من عاذرِ
كان السّواد سواد عين حبيبه ... فغدا البياض بياضَ عين الناظرِ
لو لم يكن في الشيب إلاّ أنه ... عذر الملول وحجة للهاجرِ

وقال أيضاً: [الوافر]

لجام الشيب ثنى لي جيادِي ... وربّاني لعذّالي وراضَا[2]
لو عنّي الخدود من الغواني ... وغمّض عَنّي الحدَقَ المِراضا
وصار بياضُه عندي سواداً ... وكان سوادُه عندي بياضا

ودخل أبو دُلف على المأمون، وقد ترك الخضاب، فغمز جارية عنده أن تعبَث به، فقالت: شبتَ يا أبا دلف، إنا لله وإنا إليه راجعون! فسكت عنها، فقال له المأمون: أجبها، فأطرق برأسه ثم رفعه، فقال: [البسيط]

تهزّأتْ إذْ رأت شيبي فقلتُ لها ... لا تهزئي من يَطُلْ عمْرٌ به يشبِ
شيب الرجال لهم زين ومكرمةٌ ... وشيبكنّ لكنّ الويل فاكتئبي
فينَالكنّ ـ وإن شيب بدا ـ أربٌ ... وليس فيكنّ بعد الشيب من أربِ

* * *

إلاّ أنَّهُ سَلَّمَ تَسْلِيمَ أُولِي الفَهْمِ، وَجَلَسَ يَفُضُّ لَطَائِفَ النَّثْرِ والنَّظْمِ، وَنَحْنُ نَنْزَوِي من انبِساطِهِ، ونَنْبِرِي لِطَيّ بِساطِهِ، إلى أَنْ غَنَّى شادِينَا المُغْرِب، ومغرّدنَا المُطْرِب: [الوافر]

إلامَ سُعَادُ لا تَصِلينَ حَبْلِي ... وَلاَ تَأْوِينَ لِي مِمَّا أُلاَقِي
صَبَرْتُ عَلَيْكِ حَتَّى عِيلَ صَبْرِي ... وكَادَتْ تبلغُ الرُّوحُ التَّراقِي
وها أَنَا قَدْ عَزَمتُ على انتصافٍ ... أُسَاقِي فِيهِ خلِّي ما يُسَاقِي

---

(١) الأبيات في ديوان الشريف الرضي ص ٣٧٠.
(٢) الأبيات في ديوان الشريف الرضي ص ٤٢٢.

فـإن وَصْـلاً أَلـذُّ بـه فَـوَصْـلٌ وإنْ صَـرْمـاً فـصَـرْمٌ كـالـطَّـلاَقِ

قال: فاستفهَمْنَا العابث بالمثاني، لِمَ نصب الوصْل الأوّلَ ورفعَ الثاني؟ فأَقْسَمَ بتُرْبةِ أبَوَيْه، لقد نَطَقَ بما اختاره سِيبويه.

قوله: «يفضّ» يكسر. لطائم: أوعية الطيب، وجعلها للكلام مجازاً. ننزوي ننقبض. وننبري: نبادر. لطيّ بساطه: لقطع كلامه. المغرب: الحسن الغناءَ الآتي بالغريب فيه. والشادي والمغرّد واحد وهو المغني. المطرب: الآتي بالطَّرب وهو الاهتزاز بالسرور، وقد يكون من شدة الحزن، وقال ابن رشيق في مغنّ: **[الخفيف]**

غـنـنـي يـا مـجـوّد الـخـلـق عـنـدِي: «حـيّ بـحـدا ومَـنْ بـأكـنـاف نـجـدِ»
واسقني ما يصير ذو البُخْلِ منها حـاتـمـاً والـجـبَانُ عـمـرَو بـن مـعـدِي
في زمان الشباب عاجلني الشيـ ـبُ فـهـذا أوائـل الـدنّ دُرْدِي

وقال البجلي في مغنية: **[الوافر]**

ولاعـبـةِ الـوشـاح بـغـصـن بـانِ لـهـا أثـر بـتـقـطـيـع الـقـلـوبِ
إذا اسـتـولـت طـريـق الـعـود نـقـراً وغـنَّـتْ فـي مـحـبٍّ أو حـبـيـبِ
فـيـمْـنَـاهـا يـفـدِّيـهـا فـؤادي ويُـسْـرَاهـا تُـفَـدِّيـهـا ذنـوبِـي

قوله: تأوين، أي تشفقين. عِيل: غلب، وأنث الروح لأنه ذهب به إلى النفس، قال ابن ظفَر: الرُّوح الذي يكون به الحياة، وإذا فارق الجسد كان الموت، والنفْس التي بها العقل وهي المقبوضة عند النوم، ولا معنى للإكثار في هذا لأن الشارع ليس له فيه قول يعوّل عليه، ولا للحواس على إدراكه حَوْل فنهتدي إليه.

التراقي: العظمان المعوجّان أعلى الصدر: خِلّي: صاحبي. صرم: قطيعة، ويستقبح عندهم مجازاة الحبيب على إساءته، كبيت امرىء القيس: **[الطويل]**

* فسُلّي ثيابي من ثيابك تَنْسُلِ[1] *

وقول طرفة: **[الرمل]**

وإذا تـلـسُـنُـنـي ألْـسُـنَـهَـا إنَّـنِـي لـسـت بـمـوهـون فـقـرْ[2]

---

(١) صدره:

وإنْ كـنـت قـد سـاءتـك مـنّـي خـلـيـقـةٌ

والبيت لامرىء القيس في ديوانه ص ١٣، وأساس البلاغة (ثوب). وكتاب الجيم ٧/ ٢٥٧، ولسان العرب (ثوب)، وبلا نسبة في لسان العرب (نظف)، وتاج العروس (ثوب).

(٢) البيت في ديوان طرفة بن العبد ص ٥٣، ولسان العرب (فقر)، (لسن)، (وهن)، وتهذيب اللغة ٦/ =

وقول الأعرابيّ: **[الكامل]**

إن كان أهلك يمنعونك رغبةً عنّي فأهْلِيَ بي أضنُّ وأرغبُ

والمستحبّ عندهم قول ابن ربيعة: **[الوافر]**

ألا يا منْ أحبُّ بكلّ نفسي ومَنْ هو من جميع الناس حَسْبِي
ومن يظلم فأغفره جميعاً ومَنْ هو لا يهمّ بغفر ذَنبِي

وقال أبو نواس: **[الوافر]**

جنان تَسُبّني - ذكرتِ بَخَيرٍ - وتزعم أنني رجل خبيثُ[1]
وأن مودتي كذب ومينٌ وأني للذي يُطْوَى بَثوثُ
وما صدقت ولا ردّ عليها ولكنّ الملول هو النكوث
ولي قلبٌ ينازعني إليها وشوق بين أضلاعي حثيثُ
رأت كَلَفِي بها ودوامَ عهدي فمَلَّتني كذا كانَ الحديثُ

وقال ابن شهيد: **[البسيط]**

كَلِفت بالحب حتى لو دنا أجَلي لما وجدتُ لطعْمِ الموتِ من ألَمِ
وعاقني كَرَمِي عمّن ولهتُ به ويلي من الحبّ أو ويلي من الكرم

وأطرب من شعر المقامة لغناء، ما حكي أن القاضي أبا عبد الله محمد بن عيسى من بني يحيى، خرج إلى حضور جنازة، وكان رجل من إخوانه ينزل بقرب مقبرة قريش، فعزم عليه بالميل إليه، فنزل وأحضر له طعاماً، وغنّت جاريته: **[الكامل]**

طابت بطيب لثاتك الأقداحُ وزها بحمرة وجهك التفّاحُ
وإذا الربيع تنسَّمَتْ أرواحهُ نَمّتْ بعَرْفِ نسيمك الأرواحُ
وإذا الحنادس ألبست ظلماءها فضياء وجهك في الدَّجى مِصْبَاحُ

فكتبها القاضي طرباً بها على ظهر يده، ثم خرج. قال الراوي: فلقد رأيته يكبّر على جنازة والأبيات على ظهر يده.

وقال إبراهيم بن المهدي: دخلتُ يوماً على الرشيد وفي رأسه فضلة خُمار، وبين يديه المغنون، فقال: يا إبراهيم، بحقّي عليكَ غنّني، فأخذت العودَ فغنيتُه من أشعار جرير: **[الكامل]**

= ٤٤٦، ١٢/ ٤٢٦، وكتاب العين ٧/ ٢٥٦، وديوان الأدب ٢/ ١٣٧، وتاج العروس (فقر)، (لسن)، (وهن)، ومقاييس اللغة ٥/ ٢٩٥، وفيه «نثر» بدل «فقر» ومجمل اللغة ٤/ ٢٧٥، وهو بلا نسبة في المخصص ٢/ ١١٣، وأساس البلاغة (لسن).

(١) الأبيات في ديوان أبي نواس ص ٣٦٩.

أسرى لخالدة الخيال ولا أرَى شيئاً ألذّ من الخيالِ الطارقِ[1]
إن البليّة من تملّ حديثه فاتبع حديثك من حديث الوامقِ
أهواك فوق هوى النّفس ولم يَزَلْ مذ بنْتِ قلبي كالجناح الخافقِ
شوقاً إليك ولم تجار مودتي ليسَ المكذّب كالحبيب الصادق

وقال ابراهيم الموصلي لابن جامع: لو هذا طلب الغناء كما نطلبه، ما أكلنا معه الخبز، فقال ابن جامع: صدقت.

ومما ينتظم في هذا النمّط ويغنّى به قولُ الآخر: [البسيط]

قال الوشاة لهند عن تصارمنا ولست أنسى هوى هندٍ وتنساني
قد قلت حين بدا لي بخلُ سيدتي وقد تتبع في بثي وأحزاني
هل تعلمين وراء الحب منزلة تُدْنِي إليك فإنّ الحب أقصاني

والحريري لم يتعرض بشعره في هذا، لأنه بنى البيت في المسألة، لكن فيما ذكرناه زيادة بيان، وأنه يجب أن يختار المغني، ما يتلقّى للغناء من كل جهاته بالاستحسان.

قوله: العابث بالمثاني، أي اللاعب بأوتار عود الغناء. ومما يستحسن في وصف العود قول ابن القاضي: [البسيط]

جاءت بعود تناغيه ويُسعدها فانظر بدائع ما خصّت به الشجرُ
غنّت على عودها الأطيار مفصحةً غضا فلمّا ذوى غَنّى به البشرُ
فلا يزل عليه أو به طربٌ يهيجه الأعجمان: الطير والوتر

وقال ابن شرف: [الطويل]

سقى الله أرضا أنبتت عودك الذي زكت منه أغصانٌ وطابت مغارِسُ
تغنّى عليه الطير والعود أخضرٌ وغنى عليه الغِيدُ والعود يابسُ

ومما قيل في ذم مغنّ: [الكامل]

لو أبصرتْ عيناك بشراً جالساً والعود في يده يبثُّ وساوسا
لرأيت منه فتى تحبّ بأن ترى في الرأس منه مشاورا وَطَنافِسَا
فإذا تربّع ـ لا تربع بعدها ـ وبدا يحرّك عودَه متنافسا
فكأنّ جُرْذان المدينة كلها في عوده يقرضن خبزاً يابسَا

---

(١) الأبيات في ديوان جرير ص ٣٨٩، والبيت الثاني لجابر في لسان العرب (ومق).

المثاني: أوتار بالعود، معروفة على سائر أوتاره. بتربة أبويه، يريد عظامهما التي تصير ترابا في القبر، ولذلك أقسم بالقبر.

[سيبويه]

وأما سيبويه ففارسيّ، مولى لبني الحارث بن كعب، واسمه عمرو بن عثمان بن قنبر، وتفسير سيبويه بالفارسية ريح التفاح، وهو لقب له لأنه كان من أطيب الناس رائحة، وأجلِّهم وجهاً، وقد أشرنا إلى ذلك في العاشرة. وقيل: معنى «سي» ثلاثون و «بويه» رائحة التفاح، فكأنّ معناه: الذي ضعف طيب رائحته ثلاثين مرة. وقيل: إن أمه كانت ترقّصه بذلك وهو صغير فلزمته.

وولد بالبيضاء، وهي قرية بشيراز من عمل فارس ونشأ بها، وقدم البصرة في أوّل أيامه ليكتب الحديث، فلزم حَلْقة حماد بن سلمة فاستملى عليه يوماً قول النبيّ ﷺ: «ليس من أصحابي إلا مَنْ لو شئت لأخذت عنه ليس أبا الدرداء» فقال سيبويه: ليس أبو الدرداء، بالرفع، وظنه اسم ليس، فقال حمّاد: لحنتَ يا سيبويه، ليس هذا حيث ذهبت، إنما ليس هنا استثناء، فقال سيبويه: سأطلب علماً ليس يلحّنني فيه أحد، فلزم الخليل، فبلغ في علم النحو الغاية، وضُرِب به في ذلك المثل وهو أوّل مَنْ بسط طريقته، وشرّع شريعته، وكتابهُ الإمام في النحو، الذي لم يُصنع قبله ولا بعده مثله، وغاية لأئمة فهمه. وأخذه الأخفش عنه.

وقيل ليونس: ألّف سيبويه كتاباً نحواً من ألف ورقة في علم الخليل، فقال: متى سمع سيبويه هذا كله! فأُتِي بكتابه، فنظر فيه فقال: يجب أن يكون صدق عن الخليل، كما صدق فيما حكاه عنّي.

وناظر الأصمعيّ سيبويه، فغلبه الأصمعيّ بلسانه فقال يونس: الحقّ مع سيبويه.

وكانت في لسانه حبسة، وقلمه أبلغ من لسانه. قال أبو زيد: كان سيبويه يختلف إليّ وهو غلام له ذؤابتان، وإذا قال في كتابه: حدّثني مَنْ أثق به، فإنما يعنيني.

قال الأخفش: كان سيبويه إذا وضع شيئاً من كتابه عرض عليّ وهو يرى أنّي أعلم منه، وكان أعلم منّي.

والأخفش هذا هو سعيد بن مسعدة مولى بني مجاشع، يكنى أبا الحسن، وهو الذي أخذ الكتاب عن سيبويه، وهو أكبر من سيبويه، وصحب الخليل. وأما الأخفش الكبير شيخ سيبويه فهو عبد الحميد بن عبد المجيد، يكنى أبا الخطاب وهو الأخفش الكبير، ويونس هو ابن حبيب، يكنى أبا عبد الرحمن مولى بني ضبّة، أخذ النحو عن حماد بن سلمة وعن أبي عمرو بن العلاء، وقيل: إنه جاوز المائة في سنّه ولما فاق سيبويه في علم النحو أهلَ عصره، وبرّز فيه على نظرائه من أهل دَهْرِه، سمع أن الكوفيين ظهروا ببغداد

عند الرشيد بعلم النحو، وهم الكسائي وأصحابه، فقصدهم ببغداد، وناظرهم بحضرة الرشيد وبحضرة يحيى بن برمك.

وناظره الكسائيّ، وقيل الفراء بحضرة الكسائي في المسألة الزنبورية المشهورة، وقد ذكرناها في الرابعة والثلاثين، وكان ـ فيما ذكر ـ الظهور لسيبويه، وتراضوْا بينهم بشهادة الأعراب الحاضرين بباب الخليفة، فقدم الكوفيون بجانبهم عند الخليفة للأعراب من لغتهم أن يجيبوا بموافقة قول الكوفيين، فأجابوا بذلك، فخرج سيبويه خجلاً وكاد يموتُ غمًّا، فزعموا أنهم شفعوا للرشيد لئلا يرجع مغلوباً خائباً فأمر له بعشرة آلاف درهم، فانبعث إلى الأهواز ولم يعرّج على البصرة. فأقام هناك مدة مديدة إلى أن مات.

وحكي أنه لما انصرف عنهم مغموما لَقِيَ الأخفش سعيد بن مسعدة، فأخبره بتألبِهم عليه، فدخل الأخفش، فسأل الكسائيّ عن مائة مسألة فخطّأه فيها كلّها، فقال له: أنت سعيد بن مسعدة؟ فقال: نعم، فسأله أن يؤدب أولاده فأجابه. وقرأ عليه الكسائي كتاب سيبويه، وأعطاه سبعين ديناراً.

ويروى أنه لما بلغ الكسائيّ موتُه، قال للرشيد: يا أمير المؤمنين، أدِّ عني ديتَه، فإني أَخاف أن أكون شاركت في موته.

وقيل: إنه مات من ذَرَب المعدة.

وقيل: إنه لما خرج عنهم سأل مَنْ يرغب من الملوك في النحو، فقيل له: طلحة ابن طاهر بخراسان، فقصده، فلما انتهى إلى ساوة مرض ومات.

ولما احتُضر وضع رأسه في حِجْر أخيه، فقطرت دمعة من دموعه على خدّه، فرفع عينيه إليه، وقال: **[الطويل]**

أُخيَّيْنِ كنا فرّق الدهر بيننا ... إلى الأمد الأقصى، ومَنْ يأمنِ الدَّهرا!

ثم قال عند موته: **[المتقارب]**

نؤمّل دنيا لنبقَى بها ... وتأتي المنية دونَ الأمَلْ

حَشيشا يروّي أصولَ الفسيلِ ... فعاش الفسيلُ ومات الرّجُلْ

وفيه أنه مات بشيراز وقُبِر بها سنة ثمانين. وقيل سنة أربع وتسعين ومائة قال أبو سعيد الصولي: رأيْت على قبره مكتوبا لسليمان بن يزيد: **[الكامل]**

ذهب الأحبة بعد طول تَزوارِ ... ونأى المزارُ فأسلموك وأسْرَعُوا

تركُوك أوحشَ ما تكون بقفرةٍ ... لم يؤنسوك وكربةً لم يَدْفَعُوا

قُضِي القضاء وصرت صاحبَ حُفْرَةٍ ... عنك الأحبّة أعرضوا وتصدّعوا

***

فتشعَبَتْ حِينئذٍ آراء الجمْع، في تجويز النَّصبِ والرّفع، فقالت فرقةٌ: رفعهما هو الصّواب، وقالت طائفة: لا يجوز فيهما إلا الانتصاب، واسْتَبْهَمَ عَلَى آخرين الجواب، واستعَرَ بينهم الاصْطِخاب، وذلِك الواغل يبدي ابتسامَ ذي معرفة، وإن لم يَفُهْ ببنت شفة، حتّى إذا سكنتِ الزّماجر، وصَمَتَ المزجور والزّاجر. قال: يا قوم، أنا أنبِّئكمْ بتأويلهِ، وأميّز صحيح القول مِنْ عليله؛ إنه لَيجوز رفع الوصلين ونصبُهما، والمغايرة في الإعراب بينهما، وذلك بحسب اختلاف الإضمار، وتقدير المحذوف في هذا المضمار. قال: ففرط من الجماعة إفراط في مماراته، وانخراط إلى مباراتِهِ.

* * *

قوله: تشعبت، تفرقت، وشَعَبتُ الشيء: فرّقته وجمعته، وهو من الأضداد. ورجل شعاب: يضم ويجمع. آراء: جمع رأي. واستبهم: استغلق. استعر: اتقّد. الاصطخاب: اختلاط الأصوات، وقد صخب صخباً. بنت شفة: كلمة.

[مما ورد في اختلاف النحويين]

ومثل اختلاف هذه الجماعة على المعاني في رفع «وصل» وخفضه، اختلاف أصحاب الواثق على جارية غنّت بحضرته: **[الكامل]**

أظلـومُ إنَّ مـصـابَكُـمْ رَجُـلاً أهـدَى الـسَّـلامَ تـحـيـةً ظـلـمُ

وذكر الحريري في الدرّة: أن أبا العباس المبرد ذكر أن أبا عثمان المازني قصده بعضُ أهل الذمة ليقرأ عليه كتاب سيبويه، وبذل له مائة دينار، فامتنع أبو عثمان من قبول بذله، فقلت له: جعلت فداك! أتترك هذه النفقة، مع فاقتك وشدّة إضاقتك؟ فقال: إن هذا الكتاب يشتمل على ثلثمائة كذا وكذا آية من كتاب الله تعالى، ولستُ أرى أن أمكّن منه ذمّيًا، غيْرةً على كتاب الله وحميّة له.

قال: فاتفق أن غنّت جارية بحضرة الواثق بقول العرْجي: أظلوم... البيت، فاختلف مَنْ بالحضرة في إعراب «رجل» فمنهم من نصبه بأن على أنه اسمها، ومنهم من رفعه على أنه خبرها، والجارية مُصِرّة على أن شيخها أبا عثمان لقّنها إياه بالنصب، فأمر الواثق بإحضاره. قال أبو عثمان: فلما مَثَلْتُ بين يديه قال: ممّن الرجل؟ قلت: من بني مازن، قال: من أيّ الموازن؟ أمازن تميم أم مازن قيس؟ أم مازن أم ربيعة؟ فقلت: من مازن ربيعة، فكلمّني بكلام قومي وقال لي: باسمك؟ يريد ما اسمك ـ وهم يقلبون الميم باء والباء ميماً إذا كان في أول الأسماء ـ فكرهت أن أجيبه على لغة قومي لئلا أواجهه بالمكر، فقلتُ: بكر يا أمير المؤمنين، ففطن لما

قصدته وأعجب منه، ثم قال: ما تقول في قول الشاعر: **[الكامل]**

* أظلوم إن مصابكم رجلاً[1] *

أترفع «رجلاً» أم تنصبه؟ فقلت: بل الوجه النصب، قال: ولم ذلك؟ فقلت: «إن مصابكم رجلاً» مصدر بمعنى إصابتكم. فأخذ اليزيديّ في معارضتي فقلت: هو بمنزلة قولك: إن ضربكم زيداً ظلم، فالرجل مفعول بمصابكم ومنصوب به، الدليل عليه أن الكلام معلّق إلا أن تقول «ظلم» فيتمّ. فاستحسنه الواثق وقال: هل لك من ولد؟ قلت: نعم، بنيّة يا أمير المؤمنين، قال: ما قالت لك عند مسيرك؟ قلت: أنشدت قول الأعشى: **[المتقارب]**

أيا أبتَا لا تَرِمْ عندنا ... فإنا بخير إذا لم تَرِمْ[2]

أرانا إذا أضمرتك البلا ... د نُجْفَى وتُقطع منا الرحِمْ

قال: فما قلتَ لها؟ قال: قلت قول جرير: **[الوافر]**

ثِقي بالله ليس له شريكٌ ... ومِنْ عند الخليفة بالنّجاحِ[3]

قال: أنت على النجاح إن شاء الله تعالى. ثم أمر لي بألف دينار وردّني مكرماً.

قال أبو العباس: فلما عاد إلى البصرة قال: كيف رأيتَ يا أبا العباس! رددْنا لله تعالى مائة فعوّضنا بألف.

قال الحريريّ: فهذه الحكاية ترغّب في اقتباس الأدب ودراسته حيث استعطف المازنيّ الواثق ببيت الأعشى حتى اهتزّ لإحسان صلته.

---

(١) يروى البيت بتمامه:

أظليم إنّ مصابكم رجلاً ... أهدى السلام تحيَّةً ظُلْمُ

وهو للحارث بن خالد المخزومي في ديوانه ص ٩١، والاشتقاق ص ٩٩، ١٥١، والأغاني ٩/ ٢٢٥، وخزانة الأدب ١/ ٤٥٤، والدرر ٥/ ٢٥٨، ومعجم ما استعجم ص ٥٠٤، وللعرجي في ديوانه ص ١٩٣، ودرة الغواص ص ٩٦، ومغني اللبيب ٢/ ٥٣٨، وللحارث أو للعرجي في إنباه الرواة ١/ ٢٨٤، وشرح التصريح ٢/ ٦٤، وشرح شواهد المغني ٢/ ٨٩٢، والمقاصد النحوية ٣/ ٥٠٣، ولأبي دهبل الجمحي في ديوانه ص ٦٦، وبلا نسبة في الأشباه والنظائر ٦/ ٢٢٦، وأوضح المسالك ٣/ ٢١٠، ومجالس ثعلب ص ٢٧٠، وهمع الهوامع ٢/ ٩٤.

(٢) يروى صدر البيت الأول:

أبانا فلا رمت من عندنا

والبيتان للأعشى في ديوانه ص ٩١، والبيت الأول في لسان العرب (ريم)، وتاج العروس (ريم)، والبيت الثاني في تاج العروس (ضمر)، وأساس البلاغة (ضمر)، وتهذيب اللغة ١/ ٣٧، وكتاب العين ٣/ ٢٢٤، ولسان العرب (ضمر).

(٣) البيت في ديوان جرير ص ٩٨.

قال: وفي أخبار النحويين أيضاً أنّ المازنيّ سئل بحضرة المتوكل عن قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أُمّكِ بغيًا﴾ [مريم: ٢٨] فقيل له: كيف حذفت الهاء من «بغيا» وفعيل بمعنى فاعل، تلحقه الهاء، نحو فتيّ وفتية وغنيّ وغنيّ، فقال: إن «بغيا» ليست «فعيلاً» إنما هو فعول بمعنى فاعل، لأن الأصل «بَغوى» ومن أصول التصريف أنه متى اجتمعت الياء والواو في كلمة وسبقت إحداهما بالسكون قلبت الواو ياء، كشويته شيًّا، ويوم وأيام، وهذا أصل مطرد لم يشذّ منه إلا القليل، فعلى هذه القضية تحذف الهاء وجوباً لأنها بمعنى «باغية»، كما تحذف من «صبور» لأنها بمعنى «صابرة».

قال المازنيّ: حضر يعقوب عند الواثق وقد حاز منزلة العلماء، فقال لي الواثق: سله عن مسألة، فقلت له: ما وزن «نكتل»؟ فقال: «نفعل»، فقلت له: غلطت، ثم قال لي: فسّره. فقلت: أصله «نكتيل»، فقلبت الياء ألفاً للفتحة قبلها وسكنت اللام للجزم، لأنه جواب أمر، فحذفت الألف لالتقاء الساكنين، فقال الواثق: هذا الجواب لا جوابك يا يعقوب، فلما خرجنا قال لي يعقوب: ما حملك على هذا وبيني وبينك المودة؟ فقلت: والله ما ظننت أنه يعزب عنك مثل هذا! فانظر كيف لم يثبتْ يعقوب الأوزان على ثبوت قدمه في العلم.

لقي هارون الرشيد الكسائيّ في بعض طرقه فوقف عليه، وتحفّى بسؤاله عن حاله، فقال: أنا بخير يا أمير المؤمنين، ولو لم أجد من ثمرة الأدب إلا ما وهب الله تعالى لي من وقوف أمير المؤمنين عليّ لكان ذلك كافياً محتسباً.

ودخل أبو يوسف رحمه الله تعالى وهما في مذاكرة وممازحة، فقال: يا أمير المؤمنين، إنّ هذا الكوفيّ قد غلب عليك، فقال: يا أبا يوسف إنه ليأتيني بأشياء يشتمل عليها قلبي، وتأخذ بمجامعه، فقال الكسائيّ: يا أبا يوسف، هل لك في مسألة؟ فقال: في نحو أو في فقه؟ فقال: بل في فقه، فضحك هارون حتى فحص برجليه، وقال: تُلقِي على أبي يوسف الفقه؟ فقلت: نعم، ثم قال: يا أبا يوسف، فما تقول في رجل قال لزوجته: أنت طالق إن دخلت الدار؟ قال: إذا دخلت الدار طلقت، قال: أخطأت يا أبا يوسف! فضحك الرشيد ثم قال: فكيف الصواب؟ قال: إذا قال: «أنْ» وجب الفعل، دخلت بعد أو لم تدخل، وإذا قال «إن» بالكسر لم يجب ولم يقع الطلاق.

دخل الفراء على الرشيد فتكلم فلحن مرات، فقال له جعفر: يا أمير المؤمنين، إنه قد لحن، فقال الرشيد للفراء: أتلحن يا يحيى؟ فقال: إنّ طبع أهل البدو الإعراب وطباع أهل الحضر اللحن، فإذا حفظت أو كتبت لم ألحن، وإذا رجعت إلى الطبع لحنت، فاستحسن الرشيد كلامه وعلم أنه الحق.

وهذا القدر من المناظرة النحوية كاف.

* * *

قوله: الزماجر، أي الأصوات من الجوف كصوت الأسد، الواحدة زمجرة. صمت: سكت. المزجور: المنهيّ، والزاجر: الناهي، وزجرته: انتهرته. أنبّئكم بتأويله: أخبركم بتفسيره. المغايرة: المخالفة، وهي من لفظ «غير». المضمار: الموضع يختبر فيه جري الخيل. فَرْط: تجاوز الحدّ. مماراته: مخاصمته. انخراط: اندفاع وانطلاق، وخرط عبده: أطلقه على أذيّة الناس، والمرأة نكحها، والشجرة نثر ورقها بيده. مباراته: معارضته.

* * *

فقال: أمّا إذْ دَعَوْتُم نَزَالِ، وتلبَّبْتُمْ لِلنّضال؛ فما كلمةٌ هِيَ إن شِئْتمْ حرفٌ مَحْبوبٌ، أو اسمٌ لِمَا فِيهِ حرفٌ حَلُوب؟ وأَيّ اسم يتردّد بَيْنَ فردٍ حازمٍ، وجَمْعٍ مُلازَم؟ وأيّةُ هاءٍ إذا التحقَتْ أماطتِ الثِّقَل، وأطْلَقتِ المُعتقَل؟ وأيْنَ تدْخلُ السِّينُ فتعزلُ العاملَ، من غير أن تجامِلَ؟ وما منصوبٌ أبداً على الظَّرْف، لا يَخْفِضُهُ سِوَى حَرْف؟ وأيّ مضافٍ أخلّ من عُرَى الإضافة بعُرْوة، واختلف حُكْمُهُ بين مَساءٍ وغُدوة؟ وما العاملُ الّذِي يتّصل آخرهُ بأوَّلِه، ويعملُ معكوسُه مثلَ عَمَلِه؟ وأيّ عامِلٍ نائبه أرحبُ منه وكْراً، وأعظمُ مَكْراً، وأكثَر لِلّه تعالى ذكراً؟ وفي أيّ موطنٍ تَلْبَسُ الذُّكران براقعَ النّسوان، وتبرز رَبَّاتُ الحِجَال بعمائم الرجال؟ وأيْنَ يجب حفظ المراتب، على الْمَضْرُوب والضارب؟ وما اسم لا يُعرفَ إلاّ باستضافَةِ كلمتين، أو الاقتصار مِنْه على حَرْفيْن وَفي وصفه الأول الْتِزام، وفي الثَّاني إلْزام؟ وَمَا وَصْفٌ إذا أُرْدِف بالنون، نقص صاحِبُهُ في الْعُيُون، وَقُوِّمَ بالدُّون، وَخرَجَ من الزَّبون، وتعرَّضَ لِلْهُونِ؟

فهذه اثنتا عشرة مسألة، وفْقَ عَدَدِكُمْ، وزِنةَ لَدَدِكُمْ، ولَو زِدْتُمْ زدْنا، وَإن عُدْتمْ عُدْنا.

* * *

نزالِ، أي انزلوا للحرب، ولذلك بُنيت على الكسر لأنها في معنى فعل الأمر، وهي كلمة تقال في الحرب ولها مقامان: الأول أن ينزلوا من ظهور الإبل إلى ظهور الخيل، والثاني أن ينزلوا من ظهور الخيل إلى الأرض؛ وذلك أشدّ ما يكون للحرب. تلبَّبْتم: تحزمتم. النضال: المراماة بالسهام. حرف: ناقة. حلوب: لها لبن. حازم: مشمر، أخذ بالثقة. أماطت: أزالت. المعتقل: المحبوس. تجامل، أي تلقى المعزول بجميل. أخلّ: نقص. معكوسه: مقلوبه. نائبه: القائم مقامه. أرحب منه وكراً: أوسع

موضعاً. مكراً: تصرفا. الحِجال: جمع حَجَلة، وهي الستر. المراتب: المواضع. استضافة: إضافة أُردف: جُعل رِدْفه، أي خلفه. قوّم: قدرت قيمته. الدون: الحقير. الزَّبون: الكريم الكثير دفع العطايا، أي أُخرِج من هذه الصفة. والهون: الهوان. وفْق: موافقة. لددكم: خصامكم. عدتم: رجعتم للخصام.

ومن ملح ابن رشيق في مليح نحويّ: [السريع]

إن زارني يوماً على خلوة	أو زرتُه في موضعٍ خالِ
كنت له رفعاً على الابتدا	وكان لي نصباً على الحال

وقال الميكالي: [البسيط]

أفدى الغزال الّذي في النّحو كلمني	مجادلاً فاجتنيتُ الشهد من شَفَتِهْ
وأورد الحججَ المقبولُ شاهدُه	مناظراً ليُريني فَضْلَ معرفتهْ
ثم اتفقنا على رأيٍ رضيت به	والرفع من صفتي والخفض من صفته

* * *

قال المخبرُ بهذه الحِكاية: فورَدَ علينا من أحاجيه التي هَالَتْ، لمّا انْهَالَتْ، مَا حَارَتْ له الأفكار وحَالَتْ. فَلَمَّا أعْجَزَ الْعَوْمُ في بَحْرِه، واسْتَسْلَمَتْ تمائمنا لِسِحْرِه، عَدَلْنَا عن استثقال الرُّؤْيةِ له، إلى اسْتِنْزَالِ الرِّوَايةِ عَنْه، ومِن بَغْيِ التبرُّم به، إلا ابتغاءِ التَعَلم مِنْه.

فقالَ: والذِي نَزَّل النحْوَ في الْكلاَم، مَنزِلةَ المِلْحِ في الطَّعَام، وَحَجَبَهُ عَنْ بَصَائِر الطَّغام؛ لا أنلتكمْ مَرَاما، وَلاَ شَفَيْتُ لَكُمْ غَرَاماً، أَو تخوِّلَنِي كُلُّ يدٍ، وَيختصني كُلٌّ مِنْكُمْ بيدٍ. فلم يبقَ في الجماعَةِ إلاَّ مَنْ أذْعَنَ لِحُكْمِهِ، وَنَبَذ إليه خُبْأَة كُمِّهِ. فلمَّا حَصَلتْ تَحتَ وكَائِهِ، أضْرَمَ شُعْلَةَ ذكائِهِ، فكشف حينئذٍ عَنْ أَسْرَار أَلْغَازِه، وَبَدَائع إعْجازِه، ما جَلاَ بِهِ صَدَأَ الأذهَان، وجَلَّى مَطْلَعَه بنورِ البرهان.

قال الرّاوِي: فهِمْنا، حِينَ فَهِمْنَا، وَعَجِبْنَا إذْ أُجِبْنَا، وَنَدِمْنَا على ما ندِّمنَّا. وَأخَذْنَا نَعْتَذِر إليْهِ اعْتِذارَ الأكياس، ونُعْرِضُ عَلَيْهِ ارْتِضَاعَ الْكَأس. فقال: مأربٌ لا حَفَاوَة، وَمشربٌ لم يَبْقَ له عنْدِي حلاَوَة، فَأَطَلْنَا مُرَاوِدَتَهُ، وَوَالَيْنَا مُعاوَدَتَهُ.

* * *

أحاجيه: ألغازه: هالتْ: عظُمت في النفوس. انهالت: انصبّت، وانهال الرمل: انصبّ أعلاه إلى أسفله. الأفكار: الأذهان. حالت: تغيرت. استسلمت: انقادت.

تمائمنا: معاذاتنا، وهي الأحراز. عَدَلْنا: ملنا. الروية: الفكرة. استنزال: طلبه بتلطّف. بغْي: ظلم. ابتغاء: طلب. التبرم: الاستثقال، وبرم بالأمرَ بَرماً: ضجر، والبَرَم: البخيل الذي لا يدخل في الميسر. والبصيرة: اليقين والمعتقَد وجمعها بصائر، والطغام: الأوغاد وأرذال الناس. أنلتكم: أعطيتكم. مراماً: مراداً. تخولني: تملّكني وتعطيني. يختصني: يفردني. بيد، أي نعمة. أذعن: انقاد وذلّ. نبذ: رمى. خُبْأة كمه: ما خبيء فيه. بدائع: غرائب. إعجازه: ما عجز به. جَلاَ: كشف. صدأ: وسخ. جلّى: أوضح. البرهان الحجّة. همنا: تحيرنا لحسن ما سمعنا، وهام الرجل: ذهب في غير طريق. فهمنا، من الفهم، أي عرفنا. نَدّ: سبق وخرج، يريد الخصام الذي بدروه به وردُّوا كلامه، ونَدّ أصله شَرد البعير. قوله: الأكياس: الحذّاق العقلاء. ارتضاع: شرب. مأرب: حاجة، قال يعقوب: قال الأمويّ: ومن الأمثال: مأرب لا حفاوة، يضرب للرجل إذا كان يتملّقك، أي إنّما بك حاجة إليّ لا حفاوة لي. قال ابن سيده: مأرب بيننا، يكون واحداً وهو السابق، ويكون جمع مأربة، من الجمع الذي يفارق واحده بالهاء. حفاوة: تهمّم، وقد حفيت بك، أي تهمّمت واعتنيت. ومشرب لم يبق له عندي حلاوة، قال الشاعر في معناه: **[الطويل]**

ولم أجتنبْ شرب المُدام لعلّةٍ ... ولم ألحق الصَّهباء ذمًّا ولاَ عَذْلاَ
تنافرني أن صرتُ ضدًّا لشكلها ... فليستْ لنا أهلا، ولستُ لها أهلا

وقال ابن رشيق: **[البسيط]**

قرعت سنّي على ما فاتنِي ندماً ... من الشبّاب ومَنْ باللّهو للشّيب
فقد رددت كؤوس الرّاح مترعةً ... على السقاة وكانت جلّ مشروبي
أنزّه السمعَ والعينين في نغم ... ومنظر عابثٍ بالحسن والطِّيبِ
من كلِّ لافظةٍ بالدرّ باسمةٍ ... عنه محلاةِ نوعٍ منه مثقوبِ
أيام تصحبني الغِزْلان آنسةً ... هذا على أنني أغْدَى من الذِّيب

والسابق لردّ الكأس لعلة الكبَر أيمن بن خُرَيم بن فاتك الأسديّ في قوله: **[الطويل]**

وصهباء جرجانية لم يَطُفْ بها ... حنيفٌ ولم يسعر بها ساعةً قِدْرُ[1]
ولم يحضر القَسّ المهينمُ نارَها ... طُروقاً، ولم يشهد على طبخها حبْرُ
أتاني بها يحيى وقد نمت نومَةً ... وقد غابت الشِّعرَى وقد جَنَح النَّسْرُ

---

(١) يروى البيت الأول:

وصهباء ميسانية لم يُقَمْ بِها ... حنيف ولم تَشْغَرْ بها ساعةً قِدْرُ

وهو بلا نسبة في لسان العرب (تغر)، وتاج العروس (تغر)، وتهذيب اللغة ٨/ ٨١.

فقلت اغتبقها أو لغيريَ فاسِقها ... فما أنا بعد الشّيب ويحك والخمرُ
تعفّفت عنها في السّين التي خلت ... فكيف التّصابي بعدما كلأ العُمْرُ
إذا المرء وفّى الأربعين ولم يكنْ ... له دون ما يأتي حياءٌ ولا سِتْرُ
فدعه ولا تنفس عليه الّذي ارتأى ... وإن جرّ أسباب الحياة لَه الدّهرُ

قال الهيثم بن عديّ: كنا نقول بالكوفة: من لم يروِ هذه الأبيات فلا مُروءة له، أنشدَها أبو عليّ في نوادره. وأنشد أيضاً: **[المتقارب]**

رأيتُ النّبيذ يُذلّ العزيز ... ويكسو التقيّ النّقيّ اتّساخا[1]
فهبني عذرتُ الفتى جاهلاً ... فما العذر فيه إذ المرء شاخا

وأنشد أيضاً في نوادره لمن حرّم الخمر على نفسه في الجاهلية مروءةً جملة أشعار، شهرتُها في الكتاب أغنت عن ذكرها، وأين شرف أولئك في جاهليّتهم ـ على أن الخمر مباحة لهم ـ من مجون جماعة من الإسلاميّين ـ على تحريمها عليهم ـ مثل الرّمادي في قوله: **[الطويل]**

أفي الخمر لامت خلّتي مستَهامها ... كفرتُ بكأسي إن أطعت ملامها
لمحمولة في الفلك في جنّة المنى ... قد أوصى لنوح غرسها وضِمَامَها
فخادعَهُ إبليس عنها لعلمه ... بها فرأى كتمانها واغتنامَها
ففاز بثلثيها ونوح بثلثها ... ولولا مضيّ عنه لم يكُ رَامَها
له حظ أنثى وهو حظٌ مذكّرٌ ... قليل لعيني أن أطيل انسجامها
وإنا لَوِتْرانِ وقد مات جدنا ... عنينا وإنا لا نجيز اقتسامها

أخذ هذا من خبرٍ يروى، أنّ نوحاً عليه الصلاة والسلام لما نزل من السفينة، نازعه إبليس أصلَ العنب، فاصطلحا أنَّ لنوح الثلث ولإبليس الثلثين.

ولما قيل للحسن: نزعتَ عن اللهو إلى التوبة، قال: **[البسيط]**

قالوا نزعت ولمّا يعلموا وطرِي ... في وصل أغيدَ ساجِي الطَّرْفِ ميّاسِ
كيف النزوع وقلبي قد تقسَّمه ... لحظ العيون ولون الراح في الكاسِ
إذا نزعت إلى رشدٍ تكنّفني ... رأيان قد شغلا يُسْرِي وإفلاسي
فاليسر في القصف واللذات أخلسها ... والعمر في وصل مَنْ أهوى من النّاس
لا خير للعيش إلا في المجون مع ... الأكفاءِ في الورد والخيريّ والآس
ومسمع يتغنّى والكؤوس لَها ... حثٌ علينا بأخماس وأسداس

---

(١) البيتان بلا نسبة في أمالي القالي ٢/١٣٩.

يا موريَ النار قد أعيت قوادحُه	أقبس إذا شئت من قلبي بمقْياسِ

* * *

فَشَمَخَ بأنفه صَلَفاً، ونأى بجانبه أنفاً، وَأنشد: [البسيط]

نَهَانِيَ الشَّيْبُ عَمَّا فيهِ أَفراحِي	فكيفَ أجمعُ بينَ الرَّاحِ وَالرَّاحِ
وَهَلْ يجوز اصطباحِي مِنْ معتّقةٍ	وَقَدْ أَنَارَ مَشِيبُ الرَّأسِ إصباحِي
آليتُ لا خامرتنِي الخمرُ ما عَلِقَتْ	رُوحي بجسْمِي وَألفاظِي بإفصاحِ
ولا اكتستْ لي بكاسَاتِ السُّلافِ يدٌ	وَلا أَجَلْتُ قِداحِي بينَ أقْداحِ
وَلاَ صَرَفتُ إلى صِرْفٍ مُشَعشعةٍ	هَمِّي ولا رُحْتُ مُرْتاحاً إلى رَاحِ
وَلاَ نَظَمْتُ عَلَى مشمولةٍ أبداً	شَمْلي ولا اخترت نَدْماناً سِوَى الصَّاحِي
مَحَا المشيبُ مِراحِي حَينَ خَطَّ على	رَأسِي، فأبْغِض به من كَاتِبٍ ماحِي
ولاحَ يَلْحَى عَلَى جَرْيِ العِنانَ إلى	مَلْهًى فَسُحْقاً لهُ مِنْ لائحٍ لاحِي
ولو لَهوتُ وفَودِي شائبٌ لخَبَا	بَينْ المصابيحَ من غَسَّان مُصْبَاحِي
قومٌ سَجاياهُم توقيرُ ضيفهُمُ	والشيْبُ ضيفٌ لَهُ التوقيرُ يا صاحِ

ثمّ إنه انساب انسيابَ الأيْم، وأجْفَلَ إجفالَ الغَيْم. فعلمت أنَّه سِرَاجُ سَرُوج، وبَدْرُ الأدَبِ الذي يَجْتابَ البرُوج. وكان قُصَارانا التحرُّقَ لبُعْدِه، والتفرّقَ مِنْ بَعْدِه.

* * *

قوله: «شمخ»، أي تكبر ورفع أنفه. صلفا: قِحة وصلابة وجه، وفي فلان صلَف، أي قلة انطباع وموافقة إذا أردت منه شيئاً تهاون بك، والتصليفان: ناحيتا العنق، كأنه إذا كلمّته في شيء أعرض عنك، ولوى عنك صليفَه، والصّلف مجاوزة قدر الظّرْف، وفي الشهاب: آفة الظرف الصّلف. ناء: نهض، ويروى: نأى، تباعد. أنَفاً: غضبا، وأنفت من كذا تنزهت عنه وترفعت، وأصله من رفع الأنف، فكأنه رفع أنفه تيهاً عليهم وتكبرا عن منادمتهم لاحتقارهم له أولا قبل اختباره، ثم تبدّلهم آخر بعد اعتباره؛ واعتذر لذلك بالشيب.

ونذكر هنا فصلاً أدبيًا يأتي على جميع أغراض هذه الأبيات:

قال بعض الظرفاء يذم الخمر: الشراب: أول الخراب، ومفتاح كلّ باب، يمحق الأموال، ويذهب الجمال، ويهدم المروءة، ويوهن القوّة، ويضع الشريف، ويذل العزيز، ويبيح الحرائر، ويفلس التجار، ويهتك الأستار، ويُورِث الشَّنار.

وقال بعضهم لابنه: كثرة الشراب تكسد القلب، وتقلّ الكسب، وتغيّر اللّب، واعلم أن الظمأ الذابح، خير من الريّ الفاضح.

وقال يزيد بن محمد المهلبي يذمه: [الطويل]

لعمرُك ما يحصى على الناس شرّها ... وإن كان فيها لذة ورَخاء
مراراً تريك الغيّ رشداً، وتارةً ... تخيل أنّ المحسنين أساؤوا
وأنّ الصديق الماحض الودّ مبغَضٌ ... وأنّ مديح المادحين هجاء
وجرّبت إخوان النبيذ فقلّما ... يدوم لإخوان النبيذ إخاء

وقال ابن الرومي: [الطويل]

مودّة إخوان النبيذ سلافةٌ ... يبولونها عند انقضاء المجالسِ
فبينا نراهم أهلَ ألْفٍ وأثرة ... وبينا نراهمْ بينهمَ حربُ داحسِ
فأما إذا ناديتَهم لملمّة ... فناد التَّصاوير التي في الكنائس

ولهذا كتب الحسن إلى صديق له يستهدي منه مشروباً: [السريع]

لمّا رأيت الحظَّ للقاعدِ ... والنّاس من واشٍ ومن حاسِد
خلوت في بيتي وحدي ولا ... أقلّ في الأعداد من واحد
فابعثْ بها تشغلني واكفني ... رؤية هذا العالم الفاسد

وقال أيضاً: [السريع]

خلوت بالخمر أناجيها ... أشرب منها وأعاطِيها
نادمتُهَا إذ لم أجد صاحباً ... أرضاه أن يشركني فيها
شربتُها صِرْفاً على وجهها ... فكنت ساقيها وجانيها

قيل لبعضهم: لم لا تتخذ لك نديماً؟ قال: لأنه مأخوذ من النَّدم.

واختلفوا في اختيار استعمال النديم، فمنهم من اختار نديماً واحداً، ومنهم مَن انتهى في الاختيار إلى ستة بالساقي وصاحب البيت، وما زاد على ذلك فمذموم بإجماع منهم. قال: وأنشدوا في ذلك: [الطويل]

وخير النَدامى سِتّة من ذَوِي الحِجَى ... فخمسة إخوانٍ وآخر يَمْنَعُ
ويحمد في الإخوان مَنْ كان محسناً ... بصوتٍ يغنيه ولا يتّمنّع

* * *

قوله: نهاني الشيب، جعله الناهي عن اللذات، لأنه الداعي إلى الفناء والنذير بالموت، وما يقول بغير هذا إلا متكلّف عذر، كقول أعرابي ـ ويروى لإبراهيم بن المهدي:

لقد جَلّ قدر الشيب أنْ كان كلما ... بدت شيبة يعري من اللهو مَرْكَبُ

وقال المعذَّل: [الخفيف]

لاح شيبي فَظِلْت أمرحُ فيه مرح الطِّرْف في اللجام المحلّى
وتولّى الشباب فازددت ركضاً في ميادين باطلٍ إذْ تولّى
إنّ من ساءه الزمان بشيبٍ لأحق أمره بأن يتسلَّى
أتراني أسوء نفسيَ لمّا ساءني الدهر، لا لَعَمرِيَ كلاّ

وقال البحتري يعتذر منه: [الخفيف]

عيّرتني بالشيب وهي رمتهُ في عذارِي بالصدّ والاجْتِنابِ[1]
لا تَرَيْه عاراً فما هو بالشّيـ ـب ولكنّه جلاء الشباب
وبياض البازيّ أصدق حسناً إن تأمّلْتَ من سوادِ الغراب

أخذه ابن رشيق فقال: [الوافر]

وإن لم تعجبني ببياض شَعْرٍ فلا تستغربي بَلَق الغرابِ
تعافين المشيب وليس هذا ولكن هذهِ شيةُ الشَّبَابِ

وقال حبيب يتشكاه: [الخفيف]

أصبحتْ روضةُ الشباب هشيماً وغدت ريحهُ البليلُ سَمُوما[2]
شعلة في المفارق استودعتني في صميم الفؤاد ثكلا صميمَا
غُرّةٌ بُهمةٌ ألا إنما كُنْـ ـتُ أغرًّا أيام كنت بَهيما
دقّة في الحياة تُدْعَى جلالاً مثل ما سُمِّيَ اللديغ سليما

وقال مسلم بن الوليد: [البسيط]

الشيب كره وكره أن يفارقني أعجب بشيء على البغضاء مورود
يمضي المشيب فلا يأتي له خلفٌ والشَّيْب يذهب مفقوداً بمفقود

أخذه سليمان بن وهب حين نظر إلى المرآة، فقال: عيب لا عدمناه. وقال أبو الفتح البستّي: [الكامل]

يا شيبتي دُومي ولا تترحّلِي وتيقّني أني بوصلك مولَعُ
قد كنت أجزع من حُلولك مدّة والآن من خوفِ ارتحالك أجزعُ

وزاد أبو الطيب على هذا فقال: وذكر أنه يتمنّى الشيب في زمن الشباب: [الطويل]

---

(١) الأبيات في ديوان البحتري ص ٨٤.
(٢) الأبيات في ديوان أبي تمام ٣/ ٢٢٣ (طبعة المعارف).

مُنَى كُنَّ لي أنَّ البياض خضابُ ... فيخفى بتبييض القرونِ شَبَابُ[١]
ليالِيَ عند البيض فَوْدايَ فتنةٌ ... وفخر وذاكَ الفخر عنديَ عابُ
فكيف أذمُّ اليوم ما كنت أشتهِي ... وأدعو بما أشكوه حين أجاب

كأنّ أبا الطيب نسي ما قاله في الشيب في الزمن الذي زعم أنه كان يشتهيه ويتمنّاه: **[البسيط]**

أبعَدْ بعدتَ بياضاً لا بياضَ له ... لأنت أسْود في عيني من الظّلمِ[٢]

وقال ربعيّ: **[المنسرح]**

مَنْ كان يبكي الشباب من أسفٍ ... فلست أبكي عليه من أسفِ
كيف وشَرْخ الشباب أوقفَنِي ... يوم حسابي مواقف التَّلَفِ
لا صَحِبتُ شِرّة الشباب ولا ... عَدِمْتُ ما في المشيب من خَلَفِ

وقال ابن رشيق: **[مخلع البسيط]**

أراك للشيب ذا اكتئابِ ... فأينَ تمضِي عن الصواب
إن كنت ترعى الوفاء حقًّا ... فالشيب أوفى من الشَّبَابِ

وحقيقة الأمر أنه ما زال الناس يكرهون الشيب ويذمُّونه، نثراً ونظماً. لما فيه من دليل الفناء، والهجنة عند النساء، وقطع اللذات بالرُّقبة والحياء، ويحبون الشباب ويمدحونه، لما فيه من عذرة الجاهل، وإتيان العاجل، وحسن الشمائل؛ إلا أن لطف الحذاق من الشعراء في تحسين ما كانوا يكرهون، وتقبيح ما كانوا يمدحون رياضةً للنفوس، وتوسعاً في القول، كما قال أحدهم: **[الطويل]**

تفاريق شيب في العذار لوامعٌ ... وما حُسْنُ ليلٍ ليس فيه نجوم!

وقالوا: في الشيب استحكام الوقار، وتناهي الحلال، وميسم التّجربة، فهذه مقاصدهم فقف عليها.

قوله: أفراحي: جمع فرح، الراح: الخمر، والثاني جمع راحة، وهي الكفّ. معتقة: خمر قديمة شديدة الحمرة. أنار: بيّض. إصْبَاحي: احمرار شعري، والصبحُ: حمرة الشعر، وضعه موضع السّواد، لأنّ كِلَيْهِمَا من حلية الشباب، وحمله على هذا ما ضمن الشيب من التحسين فيقول مستفهماً: هل يجوز شربي في البكور من خمر صافية في حال تغيير الكبَر شبابي، وتبديله حلية الشباب بحلية الشيوخ. خامرتْني: خالطتْني. إفصاحي: تبييني. السُّلاف: الخمر. وأجلت: صرّفت. قِداحي: سهام الميسر. أقْدَاح:

---

(١) الأبيات في ديوان المتنبي ١/ ١٨٨.

(٢) البيت في ديوان المتنبي ٤/ ٣٥.

جمع قِدْح، وهو الكأس. صرفت: رددت. صِرْف: خمر. مشعشعة: رقيقة المزيج. هِمّتي: إرادتي. رُحْتُ: مشيتُ بالعشيّ. مرتاحاً: مهتزًّا من الطرب، وارتاح: وجدَ راحة الطلب أو خِفّة الكرم. نظمت: جمعت. مشمولة: خمر، وهي الشَّمول، سمِّيت بذلك لاشتمالها على عقل صاحبها، وقيل: لأنها تشمل القوم بريحها، أي تعمُّهم. وقيل: لها عصفة كعصفة الريح الشمال. شملي: مجموع أمري، والندمان: هو النديم. الصاحي: المُفيق من سكره. مَحَا: أزال. مراحي: طَرَبي. خطّ: كتب. أبغِضْ به، أي ما أبغضه إليّ. لاح: ظهر يلْحَى: يلوم ويغلظ القول. جَرْى العنان، أي انهماكي في الملاهي. مَلْهى: لهو. سُحْقاً: بعداً. لائح: ظاهر في الرأس. لاح: شاتم وعائب، يريد أن شيبه لاح في رأسه فلحاه على اللهو والصِّبا. فَوْدِي: جانب رأسي. شائب: فيه الشيب. خبا: طفىء وسكن ضوءه. غسان: قبيلة. وأحسن ما سمعت في شيب الفوْد، وفي وخط المشيب الّذي ذكر، قول عبد الرحيم بن هارون: **[الوافر]**

رأيت الشيب مبتسماً بفودِي ... فـفاضتْ أدمعِي بـدم الفؤاد
وعمري كلّ يوم في انتقاصٍ ... وذاك النقص لقّب بالزياد
ولي خطٌّ وللأيام خط ... وبينهما مخالفة المِداد
فأكتبه سواداً في بياض ... وتكتبه بياضاً في سواد

أنشدها الفنجديهيّ وقال عند إنشادها: ولعبد الحميد أبيات، كأنها روضات جنات.

قوله: سجاياهم، أي طبائعهم. يا صاح، أراد يا صاحب فرخّم لكثرة الاستعمال. ولما جعل غسان من عادتهم توقير الضيف، والشيب ضيف وجب عليه توقيره. ومراعاة مثل هذا العموم قد تقدّم له في ذم الزجاج الذي جرت عليه سبيله، وأخذ هذا من قول دعبل: **[الوافر]**

أحبّ الشيب لمّا قيل ضيفٌ ... كحبّي للضُّيُوف النّازلينا[1]

وقال المتنبي في ذم هذا الضيف: **[البسيط]**

ضيفٌ ألَمَّ برَأسي غير محتشِمِ ... والسيفُ أحسنُ فِعْلا منه باللِّمَمِ[2]
أبعَدْ بعِدت بياضاً لا بياض لهُ ... لأنت أسودُ في عينِي من الظُّلَمِ

وقال محمود الورّاق: **[الكامل]**

للضيف أن يُقرَى ويُعرفَ حقُّه ... والشيّب ضيفٌ فاقْرِه بخضابِ
وافي بأصدقِ شاهد ولربّما ... وافي المشيب بشاهد كذّاب

---

(١) البيت في ديوان دعبل بن علي ص ١٥٠.

(٢) البيتان في ديوان المتنبي ٤/ ٣٥.

فافسخ شهادته عليك بخضبة تنفي الظنون بها عن المرتاب
فإذا دنا وقت الرحيل فخلّه والشيّب يذهب فيه كلّ ذهاب

وقوله: والشيب ضيف له التوقير، قام وكيع لسفيان فنكِر قيامه إليه فقال: أتتكر عليّ قيامي إليك، وأنت حدّثتني عن عمرو بن دينار، عن أنس بن مالك رضي الله عنهم: قال رسول الله ﷺ: «إنّ من إجلال الله عزّ وجلّ إجلال ذي الشيبة المسلم». قال: فأخذ سفيان بيده، فأقعده إلى جانبه.

وعن أنس رضي الله تعالى عنه، قال: قال النبي ﷺ: «ما أكرم شابٌّ شيخاً لِسنّه إلا قيّض الله تعالى له من يكرِمه عند كبَر سنه».

وقال ﷺ: «أوحَى إليّ ربي يقول: الشيب على عبدي المؤمن نور من نوري، وأنا أكرَم مِنْ أن أحرق نوري بناري».

وحدث محمد بن مسلم الخوّاص الرجل الصالح. قال: رأيت يحيى بن أكثم القاضي في المنام، فقلت له: ما فعل الله بك؟ قال: أوقفني بين يديه، وقال: يا شيخ السوء، لولا شيبتُك لأحرقتك بالنار، فأخذني ما يأخذ العبد بين يدي مولاه، فلما أفقت قالها ثانية وثالثة، فلما أفقت قلت: يا ربّ، ما هكذا حُدِّثت عنك، فقال تعالى: وما حُدِّثتَ عني؟ قلت: حدثني عبد الرزاق، قال: حدثني معمر بن راشد، عن ابن شهاب الزّهري، عن أنس بن مالك، عن نبيّك محمد ﷺ عن جبريل، عنك يا عظيم؛ أنك قلت: ما شاب لي عبد في الإسلام شيبة إلا استحييَت منه أن أعذبه بالنار، فقال الله عزّ وجلّ: صدق عبد الرزاق وصدق معمر، وصدق الزّهري وصدق أنس وصدق نبيِّي وصدق جبريل، أنا قلت ذلك، انطلقوا به إلى الجنة.

* * *

تفسير ما أودع هذه المقامة من النكت العربية والأحاجي النحوية

أما صدر البيت الأخير من الأغنية الذي هو: «فإن وصلاً ألذّ به»؛ فإنه نظير قولهم: المرء مجزيٌّ بعمله، إن خيراً فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ، وهذه المسألة أودعها سيبويه كتابَه وجوّزَ في إعرابها أربعة أوجه:

أحدها ـ وهو أجودُها ـ أن تنصب: «خيراً» الأول وترفع الثاني. وتنصب: «شرًّا» الأول وترفع الثاني، ويكون تقديره: إن كان عملهُ خيراً فجزاؤه خير، وإن كان عمله شرًّا فجزاؤه شرّ، فتنصِب الأوّل على أنه خبر كان، وترفع الثاني على أنه خبر مبتدأ محذوف. وقد حذِفت في هذا الوجه «كان» واسمها لدلالة حرف الشّرط الذي هو «إن» على تقديرهما. وحذف أيضاً المبتدأ لدلالة الفاء التي هي جوابُ الشرط عليه؛ لأنه كثيراً ما يقع بعدها.

الوجه الثاني: أنْ تنصبهما جميعاً، ويكون تقدير الكلام: إن كان عملهُ خيراً فهو يُجزى خيراً، وإن كان عمله شرًّا فهو يجزى شرًّا؛ فينتصب الأوَّل على أنه خبر «كان» وينتصب الثاني انتصاب المفعول به.

والوجه الثالث: أن ترفعهما جميعاً، ويكون تقدير الكلام: إن كان في عمله خير فجزاؤه خير، فيرتفع «خير» الأوّل على أنه اسم «كان» ويرتفع «خير» الثاني على ما بُيِّن في شرح الوجه الأول.

وقد يجوز أن يرتفع «خير» الأول على أنه فاعل «كان» وتجعل «كان» المقدّرة ها هنا هي التامّة التي تأتي بمعنى حدث ووقع، فلا تحتاج إلى خبر كقوله تعالى: ﴿**وإنْ كَانَ ذُو عُسرَةٍ فَنظِرَةٌ إلى مَيسَرَةٍ**﴾ [البقرة: ٢٨٠]، ويكون التقدير في المسألة: إن كان خيرٌ فجزاؤه خير، أي إن حدث خير فجزاؤه خير.

والوجه الرابع: وهو أضعفها أن ترفع الأوّل على ما تقدّم شرحه في الوجه الثالث، وتنصب الثاني على ما بُيّن ذكره في الوجه الثاني، ويكون التقدير: إن كان في عمله خير فهو يجزى خيراً، وعلى حسب هذا التقدير والمقدّرات المحذوفات فيه يجري إعراب البيت الذي غُنّي به. ومما ينتظم في هذا السّلك قولهم: المرء مقتول بما قُتِل به؛ إن سيفاً فسيف، وإن خِنْجَراً فخنجر.

وأما الكلمة التي هي حرف محبوب أو اسم لما فيه حرفٌ حلوب، فهي «نعم»، إن أردت بها تصديق الأخبار أو العِدة عند السؤال فهي حرف، وإنْ عنيتَ بها الإبل فهي اسم. والنَّعم تذكر وتؤنث وتُطلق على الإبل وعلى كلّ ماشيةٍ فيها إبل. وفي الإبل الحرْف وهي الناقة الضامرة، سُمّيت حرفاً تشبيهاً لها بحرْف السيف. وقيل: إنها الضخمة تشبيهاً لها بِحَرف الجبل.

وأما الاسم المتردد بين فرد حازم وجمع ملازم، فهو: سراويل، قال بعضهم: هو واحد وجمعه سَراويلات، فعلى هذا القول هو فرد، وكنَى عن ضَمّه الخَصْر بأنّه حازم.

وقال آخرون: بل هو جمع، واحده سِرْوال، مثلِ: شملال وشمَاليل، وسِرْبال وسَرابيل، فهو على هذا القول جمع.

ومعنى قوله: ملازم، أي لا ينصرف؛ وإنما لم يَنْصرف هذا النوع من الجمع، وهو كلّ جمع ثالثه ألف وبعدها حرف مشدّد، أو حرفان أو ثلاثة أوسطها ساكن لثقله وتفرّده دون غيره من الجموع بأن لا نظير له في الأسماء والآحاد، وقد كني في هذه الأُحْجِية عَمَّا لا ينصرف بالملازم، كما كني في التي قبلها عمَّا ينصرف باللازم.

* * *

وأما الهاء التي إذا التحقت أماطت الثقل، وأطلقت المعتقل، فهي الهاء اللاحقة

بالجمع المقدّم ذكره، كقولك: صيارفة وصياقلة، فينصرف هذا الجمع عند التحاق الهاء به، لأنها قد أصارته إلى أمثال الآحاد، نحو: رفاهية وكراهية فخفّ بهذا السبب وصُرِف لهذه العلة. وقد كني في هذه الأحجية عمًّا لا ينصرف بالمعتقل، كما كني في التي قبلها عمًّا لا ينصرف باللازم.

وأما السين التي تعزل العامل من غير أن تجامل، فهي التي تدخل على الفعل المستقبل وتفصل بينه وبين أن، التي كانت قبل دخولها من أدوات النصب، فيرتفع حينئذٍ الفعل وتنتقل أن عن كونها الناصبة للفعل إلى أن تصير المخففة من الثقيلة، وذلك كقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ [المزمل: ٢٠]، وتقديره: علم أنه سيكون.

وأما المنصوب على الظرف الذي لا يخفضه سوى حرف، فهو: «عند» إذ لا يجرّه غير «منْ» خاصة، وقول العامة: ذهبت إلى عنده لَحْن.

وأما المضاف الذي أخلّ من عُرَى الإضافة بعزوة، واختلف حكمه بين سماء وغدوة، فهو «لَدُن» ولدن من الأسماء الملازمة للإضافة، وكلّ ما يأتي بعدها مجرور بها إلاّ غُدوة، فإن العرب نصبتْها بلدن لكثرة استعمالهم إياها في الكلام، ثم نوَّنتها أيضاً ليتبيّن بذلك أنّها منصوبة، لا أنّها من نوع المجرورات التي لا تنصرف، وعند بعض النحويين أن «لَدُن» بمعنى «عند»، والصحيح أنّ بينهما فرقاً لطيفاً، وهو أنّ «عند» يشتمل معناها على ما هو في ملكك ومكْنَتِك، ممّا دنا منك وبَعُد عنك ولدن يختصّ معناها بما حضرك وقرُب منك.

وأما العامل الذي يتصل آخره بأوله، ويعمل معكوسه مثل عمله، فهو: «يا»، ومعكوسها «أي»، وكلتاهما من حروف النداء، وعملهما في الاسم المنادى سيَّان، وإن كانت «يا» أجوَل في الكلام، وأكثر في الاستعمال. وقد اختار بعضهم أن ينادي بأيْ، القريب فقط كالهمزة.

وأما العامل الذي نائبه أرحب منه وكرا، وأعظم مكرا، وأكثر لله تعالى ذكرا، فهو باء القَسَم؛ وهذه الباء هي أصل حرُوف القسم بدلالة استعمالها مع ظهور فعل القسم في قولك: أقسم بالله، ولدخولها أيضاً على المضمر، كقولك: بكَ لأفعلنّ؛ وإنما أُبْدِلت الواو منها في القَسَم لأنهما جميعاً من حروف الشفة؛ ثم لتقارب معنييهما؛ لأنَّ الواو تفيد الجمع والباء تفيد الإلصاق، وكلاهما متَّفق، والمعنيان متقاربان. ثم صارت الواو المبدلة من الباء أدْوَر في الكلام وأعْلَق بالأقسام؛ ولهذا ألغز بأنها أكثر لله تعالى ذِكْراً. ثم إن الواو أكثرُ موطناً من الباء، لأن الباء لا تدخل إلا على الاسم، ولا تعمل غير الجرّ، والواو تدخل على الاسم والفعل والحرف. وتجرّ تارة بالقسم وتارة بإضمار ربّ. وتنتظم أيضاً نواصب الفعل وأدوات العطف فلهذا وصفها برُحب الوكر وعظم المكر.

وأما الموطن الذي يلبس فيه الذّكران براقع النسوان، وتبرُز فيه ربّات الحجال بعمائم الرجال، فهو أوّل مراتب العدد المضاف، وذلك بين الثلاثة إلى العشرة، فإنه يكون مع المذكّر بالهاء، ومع المؤنث بحذفها، كقوله تعالى: ﴿سَخَّرها عليهمْ سَبْعَ ليالٍ وثَمَانِيةَ أيّام﴾ [الحاقة: ٧] والهاء في غير هذا الموطن من خصائص المؤنث، كقولك: قائم وقائمة وعالم وعالمة، فقد رأيت كيف انعكس في هذا الموطن حكم المذكر والمؤنث حتى انقلب كل منهما في ضدّ قالبه، وبرز في بزّةِ صاحبه.

وأما الموضع الذي يجب فيه حفظ المراتب عن المضروب والضارب، فهو حيث يشتبه الفاعل بالمفعول لتعذّر ظهور علامة الإعراب فيهما أو في أحدهما، وذلك إذا كانا مقصورين مثل موسى وعيسى، أو من أسماء الإشارة نحو ذاك وهذا. فيجب حينئذٍ لإزالة اللّبس إقرار كل منهما في رتبته، ليعرف الفاعل منهما بتقدمه، والمفعول بتأخّره.

وأما الاسم الذي لا يفهم إلا باستضافة كلمتين، أو الاقتصار منه على حرفين فهو «مهما» وفيها قولان: أحدهما: أنها مركبة من «مه» التي هي بمعنى اكفف، ومن «ما» والقول الثاني ـ وهو الصحيح ـ أنّ الأصل فيها «ما» فزيدت عليها «ما» أخرى، كما تزاد على «إنّ» فصار لفظها «ماما»، فثقل عليهم توالي كلمتين بلفظ واحد، فأبدلوا من ألف «ما» الأولى «ها» فصارتا «مهما». ومهما من أدوات الشرط والجزاء، ومتى لفظت بها لم يتمّ الكلام، ولا عُقِل المعنى إلا بإيراد كلمتين بعدها، كقولك: مَهما تفعل أفعل وتكون حينئذ ملتزماً للفعل، وإن اقتصرتَ منهما على حرفين وهما «مه» التي بمعنى اكْفُفْ، فهم المعنى وكنت ملزماً مَنْ خاطبته أن يكفّ.

وأما الوصف الذي إذا أردف بالنون نقص صاحبه في العيون، وَقُوّم بالدونَ، وخرج من الزّبون، وتعرّض للهُون، فهو «ضيف» إذا لحقته النون استحال إلى «ضيفن» وهو الذي يتبع الضيف ويتنزّل في النقد منزلة الزَّيْف.

المقامة الخامسة والعشرون

وَتعرف بالكَرَجِيَّة

حكى الحارث بن همام قال: شَتَوْتُ بالكرَج لِدَيْنٍ أَقْتَضِيه، وأرَبٍ أَقْضيه، فبلوت من شتَائها الكالِح، وصِرّها النّافح، ما عَرَّفني جَهْدَ البلاء، وَعَكَفَ بي على الاصْطِلاء؛ فَلَمْ أكُن أُزايِلُ وِجَارِي، وَلاَ مُسْتَوْقَدَ نَارِي، إلاّ لضرُورةٍ أُدْفَعُ إلْيهَا، أوْ إقامَةِ جماعةٍ أُحَافِظُ عَلَيْهَا، فاضْطرِرْتُ في يومَ جوّهُ مُزْمَهِرّ، وَدَجْنُهُ مكفهِّر إلى أن بَرَزْتُ من كِنانِي، لِمُهِمّ عَنَاني؛ فإذا شيخٌ عَارِي الجِلْدَة، بادِي الجُرْدَة، وقد اعتمَّ بِرَيطَة، واسْتَثْفَرِ بفُوَيْطَة، وَحَواليهِ جمعٌ كثيف الحواشي، وهو ينشدُ وَلاَ يُحَاشِي.

* * *

شَتَوْت: أقمت في الشتاء.

[الكرج]

والكرَج: مدينة معروفة، وبشدة البرد موصوفة، وهي بين أصبهان وهَمَذان، وقد تقدم برد همذان في الأولى، ومن همذان إلى نهاوند مرحلتان، ومن الكرَج إلى مدينة أصبهان ستون فرسخاً. وهي منازل عيسى بن إدريس بن معقل العجليّ، ولم تكن في أيام العجم مدينة مشهورة، وإنما كانت في عداد القرى العظام من رساتيق كورة أصبهان، فنزلها العجليّون فبنوا بها الحصون والقصور، وجعلها أبو دلف مدينة عظيمة.

وقال أبو دلف: دخلت على الرّشيد، فقال لي: يا قاسم، ما خبر أرضكَ؟ قلت: خراب يباب، خرّبها الأكراد والأعراب، فقال قائل: هذا آفة الجبل وهو أفسده، فقلت: فأنا أصلحه. قال الرشيد: وكيف ذلك؟ قلت: أفسدتهُ وأنت عليّ وأصلحه وأنت معي. ففعل ذلك، وعمّر الكرَج، حتى صار دار أجناد، ومحلّ وفود وقُصّاد.

وقال عليّ بن جبلة: زرته في الجبل، فلما حللت بالكرَج، أظهر من برّي وإكرامي أمراً مفرطاً، حتى تأخّرت عنه تأخراً كبيراً. فوصل إليّ معقل بن عيسى، فقال: يقول الأمير: انقطعتَ عني، وأحسبك استقلَلتْ برّي، فلا يغضبنّك ذلك، فسأزيدُ فيه حتى ترضى فقلت: والله ما قطعني عنه إلا إفراطه بالبرّ. قال: وكتب إليه في ذلك:

هجرتُك لم أهجُرك من كفر نعمةٍ وهل يُرتجى نَيْلُ الزيادة بالكفر
ولكنَّني لما أتيتك زائراً فأَفرطت في بري عجزت عن الشكر
فآليت لا آتيك إلاّ مسلِّما أزورك في الشهرين يوماً وفي الشهر
فإن زدتَني برًّا تزايدت جَفْوة ولم تلقني طول الحياة إلى الحشرِ

فلما وصلت إليه، قال: قاتله الله ما أشعره، وأدق معانيه! فأَجابني لوقته، وكان حسن البديهة: [الطويل]

ألا ربّ ضيفٍ طارق قد بسطته وآنسته قبل الضيافة بالبشرِ
أَتاني يرجّبني فما حال دونَه ودون القِرَى والعرف من نيله ستري
وجدتُ له فَضلا عليّ بقصده إليّ وبرًّا راد فيه على برّي
فزوّدته مالا يقلّ بقاؤه وزودني مدحا يَدُوم مع الدهر

وبعث إليّ بها وبأَلف دينار مع وَصِيفة، فقلت حينئذ: [مخلع البسيط]

إنما الدنيا أبو دلَفٍ بين مبداه ومُحْتَضَرهْ
فإذا ولّى أبو دلَفٍ ولّت الدنيا على أثره
ملك تندى أنامله كانبلاج النّور عن مَطَره
مستهلٌّ عن مواهبه كابتسام الزهر عن زهَرهْ
جبلٌ عزَّت مناكبهُ أمنَتْ عدنان في ثَغرِهْ
كلّ من في الأرض من عَربِ بين باديه ومحتضرهْ
مستعيرٌ منه مكرمة يكتسبها يوم مفتَخِرهْ

والبيت الثاني أحفظ المأمون علَى ابن جبلة حتى سلّ لسانه من قفاه.

* * *

قوله: أقتضيه، أي أجمعه. أرب: حاجة. بلوت: قاسيت. الكالح: الشديد، وكلح كلوحاً: أبدى أسنانه عند العبوس، والبرد الشديد يبدي الأسنان عند رعده. صرّها: بردها الشديد. النافح: المتحرك بالريح الباردة. جهد البلاء: مشقة الضرّ، ويقال: بلغ جهده، أي أقصى قوته، فأراد بجهد البلاء المشقة التي يتمنّى الإنسان عندها الموت، وكان رسول الله ﷺ يستعيذ منه(١).

أبو هريرة رضي الله تعالى عنه: علّمني رسول الله ﷺ هذا الدعاء: «اللّهم إني أعوذ

(١) لفظ الحديث: «كان رسول الله ﷺ يتعوذ من جهد البلاء»، أخرجه البخاري في الدعوات باب ٢٨، والقدر باب ١٣، ومسلم في الذكر حديث ٥٣، والنسائي في الاستعاذة باب ٣٤، ٣٥.

بك من سوء القضاء، وجهد البلاء، ودرك الشقاء، وشماتة الأعداء»[(١)]؛ وروي في «جهد البلاء»، أنه القتْل صبراً.

أنس رضي الله تعالى عنه يرفعه قال: قتْل الصبر جهد البلاء.

وقال ﷺ: «جهد البلاء أن تحتاج إلى ما في أيدي الناس فيمنعوك».

مجاهد قال: كنت جالساً عند عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بالكوفة، فأُتِيَ برجل أن يضرب عنقه، فقلت: هذا والله جهد البلاء، فقال: والله ما هذا إلا كشَرْطة حجام بمشراط، ولكن جهد البلاء فقر مدقع بعد غِنًى مُوسع.

الأحنف: جهد البلاء خمسة: خادم مذموم، وحطب رطب، وبيت يصف، وخوان ينتظر، وجبار على الباب يدق.

عكف بي على الاصطلاء: ألزمني التسخُّن بالنار وعكف على الشيء عكوفاً: لزمه. أزايل وجاري: أفارق بيتي، والوجار جحر الضبع. إقامة جماعة، أي حضور الصلاة مع الجماعة، وبردشكير بغرناطة كان أشد على ابن صارة ـ حيث منعه الصلاة ـ من برد الكرَج على ابن همام حيث يقول ابن صارة: **[الطويل]**

أحلّ لنا تركَ الصلاة بأرضكمْ ... وشرب الحميَّا وهي شيء محرّمُ

فراراً إلى نار الجحيم فإنها ... أرقّ علينا من شكير وأرحمُ

لئن كان ربي مُدْخِلِي في جهنّمٍ ... ففي مثل هذا اليوم طابت جهنّمُ

جوّه مزمهرّ: هواؤه بارد، والزمهرير: البرد. دَجْنه مكفهرّ: سحابه متَراكم مظلم. كناني: بيتي: مهمّ: أمر لا يؤخر. عناني: عرض لي وقصدني. الجرْدة: الجلدة التي تجرّد عنها ثوبها، وفلان حسن الجردة والتجرّد، أي حسن العري، وقيل: الجردة الثوب المتَجرّد البالي. والريطة عند العرب: شيء رقيق، شبه الملحفة، ولذلك سُمِّيَ به المرأة، ولا معنى لهذه الصفة لأنه قد وصفه بالعرْي، وإنما أراد هنا شبه الكراز لفظ مغيّر عن أصله كالفوطة عندنا، ضرب مما يعتمّ به، وهي مغيّرة عن أصلها، وإنما أصل الفوطة ثوب يجلَب من الهند غليظ، وتصغيرها فُويطة، يلبسه أهل مصر وأهل المشرق كما يلبس أهل المغرب وأهل الأندلس الإحرام والمئزر. واستثفر: بالثوب إذا لواه على فخِذيه، ثم أخرجه من بينهما، فشدّه في حُجْزته، واستثفر الكلب بذنَبه: جعله بين فخِذيه فتخيل صورة السروجيّ هنا التي نهاية في القبح على ما يتصف به أبداً، وقد لوَى على رأسه قطعة من عمامة بالية، واستثفر بمثلها، فلا تجد له مثلاً إلا ما قال أبو دلامة في نفسه: **[الوافر]**

---

(١) أخرجه البخاري في القدر باب ١٣، ومسلم في الذكر حديث ٥٣، والنسائي في الاستعاذة باب ٢٤، ٣١، ٣٢، ٣٤، ٣٥، وأحمد في المسند ٢/ ١٧٣، ٢٤٦.

إذا لبس العمامة كان قردًا ... وخنزيراً إذا نزع العمامه

وأين هذا من قول ابن رشيق في غلام معتمّ بعمامة حمراء: [مجزوء الكامل]

يا من يمرّ ولا تمرّ به ... القلوب من الحرقْ
بعمامة من خدّه ... أو خدّه منها سَرَقْ
فكأنه وكأنها ... قمرٌ أحاط به شفق
شغل الجوارح والجوا ... نح والخواطر والحدَقْ

وقال السَّلامي في عمامة: [البسيط]

حسناء ضافية، بيضاء صافيةٌ ... كأنَّ رونقها في صارم ذكرِ
يزين أطرافها طرز كما رقمت ... على المجرَّة طرز الأنجم الزُّهرِ

كثيف: خشن منضمّ بعض حواشيه إلى بعض من الكثرة. يحاشى: يستثنى.

* * *

[الرجز]

يا قومِ لا ينبئكُمْ عَنْ فَقْرِي ... أصدقُ مِنْ عُرْيِي أوانَ القُرِّ
فاعْتبروا بما بدا من ضُرِّي ... باطِنَ حَالِي وخَفيَّ أمري
وحاذروا انقلابَ سِلْمَ الدّهرِ ... فإنّني كنتُ نَبِيَه القدْرِ
آوِي إلى وَفْرٍ وَحَدٌّ يَفْرِي ... تفيدُ صُفرِي وتُبيدُ سُمْرِي
وتشتكي كومِي غداةَ أقرِي ... فجرّدَ الدّهرُ سيوفَ الغدْرِ
وشنَّ غاراتِ الرزايا الغُبْرِ ... ولم يَزَلْ يَسْحَتُنِي ويَبْرِي
حتّى عفتْ دارِي وَغاضَ دَرِّي ... وبارَ سِعْري في الورى وشِعْري
وَصِرْتُ نِضْوَ فاقةٍ وَعُسْرِ ... عَارِي المَطَا مجرَّدًا مِن قشْرِي
كأنني المِغزلُ في التَّعَرِّي ... لا دِفْءَ لي في الصِّنّ والصّنَّبرِ
غيرُ التّضحّي واصطلاء الجمْرِ ... فهل خِضمٌّ ذو رداءِ غَمْرِ
يسْتُرنِي بِمُطْرَفٍ أو طِمْرِ ... طِلابَ وجه اللّهِ لا لشكرِي!

* * *

ينبىء: يخبر. أوان القرّ: وقت البرد. حاذروا: خافوا. سِلْم: صلح. نبيه القدر: رفيع المنزلة. آوى: ارجع. وفر: مال كثير. يفري. يقطع. تفيد: تأتي بالفوائد. صُفرِي: دنانيري. تُبيد: تتلف. سُمْرِي: رماحي. كَوْمي: إبلي، والكوْماء: الناقة العظيمة السنام أقري: أطعم الأضياف، أي تشتكي إبلي من كثرة ما أنحرها للضيفان.

شنَّ: فرّق. الرزايا: المصائب. الغبر: الآتية في الزمان المحل. يَسحَتُني: يستأصل مالي. يبري: يقطع لحمي. عَفَتْ: درست. غاض: ذهب وجفّ. درّي: لبن إبلي. بار: كسد وضاع. سعري: سوقي. نضو: هزيل. فاقة: حاجة وفقر. عسر: ضِيق حال. المطا: الظهر. قشري: ثيابي. والدفء: ذهاب البرد، وقد دفيء يدفأ، أي سخن وذهب برده. الصِّنُّ والصنّبر: يومان من أيام العجوز، وهي سبعة: أربعة من آخر فبراير، وثلاثة من أول مارس. وقال الشاعر فجمعها: **[الكامل]**

كُسِعَ الشتاءُ بسبعةٍ غُبْرِ ... بالصِّنِّ والصِّنَّبرِ والوبْرِ[1]

وبآمرٍ وأخيه مؤتمرٍ ... ومعلِّلٍ وبمطفيءِ الجمرِ

التَّضحّي: الجلوس للشمس. خضمّ: كريم، شبِّه بالبحر، وهو الخضمّ. ذو رداء غمر: ذو عطاء كثير. مطرَف: ثوب مربّع في طرفه عَلَم.

الفرّاء: قيل مُطْرَف لأنه أطرِف، أي جُعل في طرفيه العلمان. طِمْر: ثوب خلَق.

ثمّ قَالَ: يا أرْبابَ الثَّراء، الرَّافلينَ في الفِرَاء؛ مَنْ أُوتِي خيراً فلينفِقْ، وَمِنَ استطاعَ أن يُرْفِقَ فَلْيُرْفِق؛ فإنّ الدُّنيا غَدُور، والدَّهْرَ عَثُور، وَالمُكْنَةُ زَوْرَةُ طَيْف، وَالفرصَة مُزنَةُ صَيْف. وَإنّي وَالله لَطَالَمَا تَلَقَّيْتُ الشّتَاء بكافاته، وَأعْدَدْتُ الأُهَبَ لَهُ قَبْلَ موافاتِهِ، وَها أنَا اليَوْمَ يا سَادَتِي، سَاعِدِي وِسَادَتِي، وجِلْدَتِي بُرْدَتِي، وحَفْنَتِي جَفْنَتِي، فلْيَعْتبِرِ العَاقِلُ بحالِي، وليبادِرْ صَرْفَ اللَّيالِي؛ فإِنَّ السَّعِيدَ مَنِ اتَّعَظَ بِسَواه، واستعدَّ لِمسْرَاه.

* * *

أرباب الثراء: أصحاب المال. الرّافلين: الماشين بخُيلاء وتبختر. الفِرَاء: جمع فروة. أوتي: أعطي. خيراً: مالاً. يُرفق: يعين، وأرفقته: أعطيته ما يرتفق به. غَدُور: كثيرة الخداع. عَثور: واقع بأهله. المكنة: الغِنَى.

طيف: ما يرى في النوم.

ابن الأنباري: في طيف الخيال قولان: قيل: أصله طيّف فخفّف، وقال الأصمعي رحمه الله تعالى: هو مصدر طاف، وبه أخذ السهيليّ رحمه الله تعالى، فقال: هو مصدر طاف الخيال يَطيف طيْفا، ولا يقال: منه طائف على فاعل، لأنه لا حقيقة للخيال، إنما

(١) البيتان لأبي شبل الأعرابي في لسان العرب (كسأ)، (أمر)، (عجز)، (كسع)، والتنبيه والإيضاح ٢/ ٧٩، وتاج العروس (أمر)، والبيت الثاني لابن أحمر في ملحق ديوانه ص ١٨٥، ولابن أحمر أو لأبي شبل في تاج العروس (عجز)، ولسان العرب (عجز)، وبلا نسبة في لسان العرب (طفأ)، (علل)، وجمهرة اللغة ص ٣٣١.

هو توّهم وتخيّل. فإن كان شيء له حقيقة قلت: فيه طائف، نحو قوله تعالى: ﴿**فطاف عليها طائف من ربك**﴾ [القلم: ١٩]، لأن الذي طاف عليها له حقيقة، ويقال: إنه جبريل عليه الصلاة والسلام. وأما قوله تعالى: ﴿**إذا مسّهم طيف من الشيطان تذكروا**﴾ [الأعراف: ١، ٢] فقد قرىء ﴿**طائف**﴾ أيضاً فطائف لأن له حقيقة، وطيف لأنه غرور الشيطان وأمانيه تشبه بالخيال وما لا حقيقة له، فتحصل من هذا ثلاث مراتب الخيال، ولا حقيقة له فيعبّر بالطيف، ويقال في وسوسة الشيطان: طائف وطيف، وما عدا هذين فهو باسم الفاعل، ولا يعبَّر عنه بطيْف فقف عليه. الفرْصة: ما تهيأ لك وتيسّر لك من مطالبتك. مزنة صيف، أي سحابة لا دوام لها، وأراد قول عمران بن حطّان: [**الطويل**]

أرى أشقياء النّاس لا يسمُونها ... على أنهم فيها غراب وجوعُ

أراها وإن كانت تُحَبُّ فإنها ... سحابة صيف عن قريب تَقَشَّعُ

ولما ولِيَ بلال بن أبي بردة البصرة، كان إذا اجتاز في مواليه بخالد بن صفوان يقوله: [**الطويل**]

* سحابة صيفٍ عن قريب تقشّعُ *

فبلغ قوله بلالا، فقال: والله لا تقشع حتى يصيبك منها شؤبوب، فردّه ثم ضربه مائة سوط.

كافات: جمع كاف، وأراد بها آلته وما يستعدّ له بها وهي الأهب التي أراد. موافاته: مجيئه وحضوره. ساعدي: ذراعي. بردتي: ثوبي، الحفنة: ما يملأ الكفّ. الجفنة: الصحفة، فليتعظ، أي يعتبر ويجعلني عبرة. صرف: تقلّب. استعد: أعدّ. لمسراه: مثواه. وقال الألبيري في هذا المعنى: [**المنسرح**]

وذي غنى أوهَمته هِمَّتهُ ... أنَّ الغنى عنه غير منفصلِ

فجرَّ أذيال عُجْبِهِ بَطَراً ... واختال للكبرياء في حُلَلِ

بزَّته أيدي الخطوب بزّتَه ... فاعتاض بعد الجديد بالسَّمَلِ

فلا تثق بالغنى فآفته الفقـ ... ـر وصرف الزمان ذو دُوَلِ

كفى بنيل الكفافِ مِنْهُ غِنًى ... فكفّ به الدهر غَيْرَ مُحْتَفِلِ

[مقامة البديع البخارية]

ومن مقامات البديع: حدثنا عيسى بن هشام قال: أحلّني جامع بخارى يومٌ وقد انتظمتُ مع رفقة في سِلك الثُريا. وحين احتفل الجامع بأهله طلع إلينا ذو طِمْرَيْن، قد أرسل صوانا، واستتلى طفلاً عريانا، يضيق بالضرّ وسعُه، ويأخذه القرّ ويدعُه، لا يملك غير القشرة بردة، ولا يكتفي لحماية رعدة، فوقف الرجل وقال: لا ينظر لهذا الطفل إلاّ مَن الله طفّله، ولا يرقّ لهذا الضرّ إلاّ مَنْ لا يأمن مثله. يا أصحاب الجدود المفروزة،

والأردية المطروزة، والدُّور المنجّدة، والقصور المشيّدة. إنكم لن تأمنوا حادثاً، ولن تعدَموا وارثاً، فبادروا الخير ما أمكن، وأحسنوا مع الدهر ما أحسن، فقد والله طَعِمْنا السّكباج[1]، وركبنا الهملاج[2]، ولبسنا الديباج[3]، وافترشنا الحشايا بالعشايا، فما راعنا إلا هبوب الدهر بغدْرِه، وانقلاب المجنّ لظهره، فعاد الهملاج قَطوفا[4]، والديباج صوفا، وهلمّ جرا إلى ما تشاهدون من حالي وزيّي؛ فها نحن نرتضع من الدهر ثدي عَقِيم، ونركب من الفقر ظهر بَهيم، فلا نرنو إلاّ بعين اليتيم، ولا نمدّ إلاّ يدَ العديم. فهل من كريم يجلو غياهب هذه البؤوس، ويفُلّ شَبا هذه النحوس. ثم قعد مرتفِقا[5]، وقال للطفل: أنت وشأنك، فقال: ما عسى أنْ أقول وهذا الكلام لو لقيَ الشّعر لحلقه، أو الصخر لفلَقه، وإن قلباً لم ينضجه ما قلت لنيء، وقد سمعتم يا قوم، ما لم تسمعوا قبل اليوم فليَشغَلْ كلٌّ منكم بالجود يده، وليذكر غده، واقياً بي ولده، وامنحوني أشكركم، واذكروني أذكركم. وتمامها في العشرين.

* * *

فقيل له: قَدْ جلوتَ علينا أدَبك، فاجْلُ لنا نسبَك، فقال: تبًّا لمفتخِرٍ، بعَظْمٍ نَخِر، إنَّمَا الفخرُ بالتّقَى، والأدبِ المُنْتَقَى؛ ثم أنشد: **[الطويل]**

لَعمرُكَ ما الإنسانُ إلاَّ ابنُ يَوْمِهِ ... علَى ما تجلَّى يَوْمُه لا ابنُ أمْسِهِ

وما الفخرُ بالعظمِ الرَّمِيمِ وإنّما ... فخَارُ الذي يبغي الفخار بِنَفسِهِ

ثمَّ إنّه جلَسَ مُخقَوقِفاً، واجرنْثَمَ مُقَفْقِفاً. وقال: اللّهمّ يا مَنْ غَمَر بنوالِه، وَأمَرَ بسؤالِه؛ صلِّ على محمد وآلِه، وأعنّي على البردِ وأهْوَالِه، وأتِحْ لي حُرًّا يؤثِرُ من خَصاصة، ويُواسِي ولو بقُصَاصة.

* * *

قوله: «جلوت»، أظهرت وكشفت. أجلُ: اكشف وبيّن عنه. تبًّا: خسرانا. نَخِر: بالٍ. المنتقى: المختار. تجلّى: تبدّى وظهر. الرّميم: البالي. يبغي: يطلب.

وقوله: «تبًّا لمفتخر، بعظم نخرٍ»، كانت العرب تتفاخر بالأحساب، وتتعاظم بكرم الآباء، فنزل القرآن العظيم بترك ذلك في قوله تعالى: **﴿إنما المؤمنون إخوة﴾** [الحجرات: ١٠] و**﴿أكرمكم عند الله أتقاكم﴾** [الحجرات: ١٣]. وقال رسول الله ﷺ في حِجة الوداع: «أيها الناس، إنما الناس إخوة وليس لعربيّ على عجميّ فضل إلا

(١) السكباج: لحم يطبخ بالخل ويجعل معه مرق.
(٢) الهملاج: الدابة السريعة.
(٣) الديباج: الحرير.
(٤) القطوف: الدابة البطيئة في سيرها.
(٥) قعد مرتفقاً: أي قعد في مكان عالٍ.

بالتقوى. أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، وأكرمكم عند الله أتقاكم»[(١)]، فلذلك قال: إنما الفخر بالتقى.

وقال عليّ كرم الله وجهه ورضي عنه: **[البسيط]**

الناس من جهة التمثيل أكفاء ... أبوهم آدمٌ والأمّ حوّاءُ

فإن يكن لهم من قبل ذا نسبٌ ... يفاخِرون به فالطين والماءُ

وقال عامر بن الطفيل: **[الطويل]**

وإني وإن كنتُ ابن سيّد عامرٍ ... وفي السرِّ منها والصريح المهذّبِ[(٢)]

فما سودَتْني عامرٌ عن ولادة ... أبى الله أن أسمُو بأمّ ولا أبِ

ولكنّني أحمي حِماها وأتّقي ... أذاها وأرْمي مَنْ رماها بمنكِبِ

فهذا مع إمكانه الفخر بالآباء لم يفخر إلا بنفسه. وأخذه عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب فقال: **[الكامل]**

لَسْنا وإن أحسابُنا كرمتْ ... يوماً على الأحساب نَتّكِلُ

نبني كما كانت أوائلنا ... تبنِي ونفعل مثل ما فعلوا

وهذا مثل قول الحسن رضي الله تعالى عنه وقد أجزل صلةَ شاعر، فليم في ذلك فقال: أتراني خفت أن يقول: إني لست ابن فاطمة بنت النبي ﷺ، ولا ابن عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه، ولكني خفت أن يقول: لستَ كمثلهما فيصدّق ويحمَل عنه، ويبقى مخلّداً في الكتاب محفوظاً على ألسنة الرواة، فقال الشاعر: أنت والله يا بن رسول الله أعرف بالمدح والذم مني.

قوله: والأدب المنتقى؛ حدّث يحيى بن أكثم قال: بينما أنا جالس مع المأمون إذ دخل الدار فتى، أبدع الناس زيًّا وهيبة ووقاراً، وهو لا يلتفت إعجاباً بنفسه، فنظر إليه المأمون، فقال: يا يحيى إنّ هذا الفتى لا يخلو أن يكون هاشميًّا أو نحويًّا، ثم بعثا مَنْ يتعرف ذلك منه. فعاد الرسول فأخبر أنه نحويّ. فقال المأمون: يا يحيى؛ أعلمت إن علم النحو قد بلغ بأهله من عزة النفس وعلوّ الهمة منزلة بني هاشم في شرفهم! يا يحيى، مَنْ قعد به نسبه قام به أدبه.

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير، تفسير سورة ٤٩، باب ٥، وأحمد في المسند ٥/ ٤١١.

(٢) الأبيات في ديوان عامر بن الطفيل ص ٢٨، والبيت الثاني في الحيوان ٢/ ٩٥، وخزانة الأدب ٨/ ٣٤٣، ٣٤٥، ٣٤٨، وشرح شواهد الشافية ص ٤٠٤، وشرح شواهد المغني ص ٩٥٣، وشرح المفصل ١٠/ ١٠١، والشعر والشعراء ص ٣٤٣، ولسان العرب (كلل)، والمقاصد النحوية ١/ ٢٤٢، وبلا نسبة في الأشباه والنظائر ٢/ ١٨٥، والخصائص ٢/ ٣٤٢، ومغني اللبيب ص ٦٧٧، ويروى «عن وراثة» بدل «عن ولادةٍ».

قال: وأنشد الشاعر: [المنسرح]

كـنِ ابـنَ مَـنْ شـئـت واتّـخـذ أدبـا ... يُـغـنِـيـك مـأثـورهُ عـن الـنَّـسـبِ
إنّ الـفـتـى مـن يـقـول هـا أنـا ذا ... لـيـس الـفَـتَـى مـن يـقـول كـان أبـي
مـالـيَ عـقـلـي وهـمـتـي حَـسَـبِي ... مـا أنـا مـولَـى ولا أنـا عـربـي
إن انـتـمـي مـنـتـم إلـى أحـدٍ ... فـإنـنـي مُـنْـتَـمٍ إلـى أدبـي

وتكلم رجل عند عبد الملك بكلامَ ذهب فيه كلّ مذهب، فقال له وقد أَعجبه: ابن مَنْ أنت يا غلام؟ فقال: ابن نفسي يا أمير المؤمنين، التي نلت بها هذا المقعد منك، قال: صدقت. أخذه ابن دريد فقال: [الرجز]

كـن ابـن مـن شـئـت وكـن مـؤدّبـاً ... فـإنـمـا الـمـرء بـفـضـل حِـسِّـه
ولـيـس مَـنْ تـكـرمـه لـغـيـره ... مـثـل الـذي تـكـرمـه لـنـفـسِـه

وقالت عائشة رضي الله عنها: كل كرم دونه لؤم، فاللؤم أولى به، وكل لؤم دونه كرم فالكرم أولى به ـ يعني أن أفعال الإنسان إذا كرمت لم يضرّه لؤم آبائه، وإذا لؤمت لم ينفعه كرم آبائه. وقال المعرّي: [السريع]

لـو عـرفَ الإنـسـان مـقـداره ... لـم يـفـخـر الـمـولَـى عـلـى عـبْـدِهِ[1]
لـولا سـجـايـاه وأخـلاقـه ... لـكـان كـالـمـعـدوم فـي وُجْـدِهِ
ومـجـده أفـعـالـه لا الـذي ... مـن قـبـلـه كـان ولا بـعـدِه

قوله: ما تجلّى يومه، أي على ما ظهر وانكشف يومه من أفعاله المحمودة أو المذمومة. محقوقفاً: منحنياً. اجرنثم: انقبض. مقفقفاً: مرتعداً، ويقال: قفّ شعره إذا ارتفع من ذعر أصابه. وقفّ جلدي من هذا الحديث إذا اقشعر من استشناع ما سمع.

غمر بنواله، أي غطّى بعطاياه. وأمر بسؤاله: يريد قوله تعالى: **﴿واسألوا الله من فضله﴾** [النساء: ٣٢]. آله: أهله. أهواله: شدائده ومخاوفه. أتح: قدِّر. يؤثِر: يفضِّل غيره على نفسه. خصاصة: جوع، وهذا منتزع من القرآن.

* * *

قالَ الرّاوي: فلمّا جَلّى عن النَّفْسِ العِصامِيّة، والمُلَح الأصْمِعيّة، جعلتْ مَلامِحُ عينِي تَعْجُمُهُ، ومَرامِي لَحْظِي تَرْجُمُهُ، حتَّى استبنتُ أنَّهُ أبو زَيْدٍ، وأنّ تعرّيَهُ أحبولَةُ صَيْدٍ. ولَمَحَ هُو أنَّ عِرْفانِي قَدْ أدْرَكَهُ، ولَمْ يأمَنْ أنْ يَهْتِكَهُ، فقالَ: أُقسِمُ بالسَّمَرِ والقمَرِ، والزُّهْرِ والزَّهرَ، إنّهْ لَنْ يَسْتُرَنِي إلاّ مَنْ طَابَ خِيمُهُ، وأُشرِبَ ماء

(١) الأبيات في سقط الزند ص ١٠١٦.

المروءةِ أديمُهُ. فعقَلْتُ ما عَناهُ، وإنْ لم يَدْرِ القومُ مَعْناهُ، وَسَاءَني ما يعانيهِ من الرّعدة، واقْشِعْرَارِ الجلْدَةِ. فَعَمَدْت لِفَرْوَةٍ هِيَ بالنّهَارِ رِياشي، وفي اللّيلِ فِرَاشِي فنضوتُها عَنّي، وقلتُ له: اقْبَلهَا مِنّي؛ فما كذبَ أن افْتراهَا، وعَيْنِي تَرَاها. ثم أنشد: [السريع]

لِـلّـهِ مَـنْ ألْـبَـسَـنِـي فـروةً أضـحـتْ مـن الـرِّعْـدَةِ لِـي جُـنَّـهْ
ألـبَـسـنـيـهَـا واقـيـاً مُـهْـجَـتـي وُقِّـيَ شـرَّ الإنـس والـجِـنّـهْ
سَـيَـكْـتَـسِـي الـيـومَ ثـنـائـي وَفـي غـدٍ سَـيُـكْـسَـى سُـنْـدُسَ الـجَـنَّـهْ

* * *

والعصامية: منسوبة إلى عاصم بن شهبر بن الحارث الجرميّ، حاجب النعمان بن المنذر الذي يقول له النابغة: [الوافر]

فـإنّـي لا ألام عـلـى دخـولٍ ولـكـن مـا وراءك يـا عـصـامُ[1]

ولم يكن عصام شريفاً، ولا نشأ في قومه، ولكن كان من أشدّ الناس بأساً، وأفصحهم لساناً، وأحزمهم رأياً، وأقربهم إلى النعمان، وقال له رجل يوماً: كيف بلغتَ هذه المنزلة من الملك وأنت دنيء الأصل؟ فقال: [الرجز]

نـفـسُ عـصـامٍ سـوّدت عِـصَـامَـا وعـلّـمَـتـه الـكـرّ والإقـدامـا
* وصـيّـرتـه سـيّـدا هـمـامـا[2] *

ويقال: كن عصاميا ولا تكن عظاميا، أي افتخر بنفسك لا بآبائك الذين ماتوا وبقيَت عظامهم. فكلّ من ليس له شرف قديم، وشرف بنفسه، يقال له عصاميّ.

وكانت لرجل عند الحجاج حاجة، فوُصِف بالجهل والحمق، فأراد أن يختبرَه، فقال: أعصاميٌّ أنت أم عظاميّ؟ فقال له الرجل: عصاميّ عظاميّ، فظنَّ أنه يريد افتخاره بنفسه لفضله وبآبائه لشرفهم، فقال الحجاج: هذا من أفضل الناس، وقضى حاجته ثم جرّبه بعد ذلك، فوجده أجهل الناس، فقال له: أصدِقني وإلا قتلتُك، أجبتَنِي بعصاميّ وعظاميّ، فقال له الرجل: لم أعلم معناهما، فخشيت أن أقول أحدهما فأخطىء، فقلت في نفسي: أقولهما معاً، فإن ضرّني أحدهما نفعني الآخر، فقال الحجاج: المعاذير تصيّر الغبيّ خطيباً، فذهبت مثلاً.

(١) البيت في ديوان النابغة الذبياني ص ١٠٥، ومقاييس اللغة ٤/ ٣٣٤.

(٢) الرجز لعصام بن شهبر في تاج العروس (شهبر)، وبلا نسبة في لسان العرب (عصم)، ومقاييس اللغة ٢/ ١٧٥، ٤/ ٣٣٤، وتاج العروس (عصم).

وسمع المأمون رجلاً يفخر بنفسه وهو ناقص، فقال: أنت عظامي لا عصاميّ.

ولهذا أشار بما تقدم من قوله «تبًا لمفتخر، بعظم نخِر»، يريد أن عصاما ساد بنفسه لا بآبائه، وكذلك السَّروجيّ لم يفخر إلا بنفسه.

الأصمعية: التي حكاها الأصمعيّ، وقد مرّ من مُلح الأصمعيّ في هذا الكتاب جملة كافية بحمد الله تعالى. والأصمعيّ عِصاميّ لأنه من باهلة، وهي أهجن قبيلة في العرب وألأمها، وذكر المبرّد في كامله جملة أخبار في أمثالها، قال فيها الشاعر: **[المتقارب]**

ولو قيل للكلب يا باهِلي ... عوى الكلبُ من لؤم ذاك النَّسَبْ

وهو مع ذلك خامل المنشأ، وقد ذكرنا في الأربعين خمول أبيه إلا أنه ساد الناس بنفسه أدباً وعلماً وديناً. ومن مُلَحه أنه قال: بينما أنا في طرق البصرة إذا أنا بكناس يكنس كنيفاً، وإذا هو يقول: **[الطويل]**

فإياك والسكنى بأرض مذلّةٍ ... تعدّ مسيئاً فيه إن كنت مُحسنا

فنفسك أكرِمْها وإن ضاق مسكن ... عليك بها فاطلب لنفسك مسكنا

قال: فوقفت عليه، فقلت: والله ما بقيَ عليك من الهون شيء إلا وقد أهنتَها به، فما الذي نلتَ من كرامتها؟ قال: والله لكنس ألف كنيف أحسن من القيام على باب مثلك ساعة.

الأصمعيّ: كان أعرابيان متواخيان بالبادية؛ ثم إن أحدهما استوطن الريف، واختلف إلى باب الحجاج، فولاّه أصبهان. فسمع أخوه خبره فضرب إليه، فأقام ببابه حيناً لا يصل إليه، ثم أذن له بالدخول، فأخذه الحاجب فمشى به وهو يقول: **[الوافر]**

فلستُ مسلّماً ما دمتُ حيًّا ... على زيد بتسليم الأميرِ

فقال زيد: لا أبالي، فقال الأعرابيّ: **[الوافر]**

أتذكر إذ لحافُك جلدُ شاة ... وإذ نعلاكَ من جلد البعيرِ

فقال: نعم، فقال الأعرابيّ: **[الوافر]**

فسبحان الّذي أعطاك ملكاً ... وعلّمك القعود على السرير

تعْجمه: تختبره. مرامي لحظي: نظرات عيني وسهام نظري، واحد المرامي مَرْماة، وهي السهم.

ترجمه: ترميه وتقع عليه. أحبولة: شبكة. يَهتكه: يكشفه. السّمرَ: ظل القمر، ثم سُمِّي حديث الليل سمرا به. الزُّهر: النجوم. خِيمه: طبعه. أشرب: سقي. المروءة: الفعل الجميل. أديمه: وجهه، ويقال: أشرب فلان حبّ فلان، إذا خالط حبُّه قلبه. ما

عناه: ما أراده، يريد أنه لما قال: لن يسترني، إنما أراد لن يستر عليّ هذه الحيلة التي أريد بها خداع الناس بعد ما عرفها إلا مَنْ هو كما وصف.

وقال النبيّ ﷺ: «من رأى عورة أخيه فسترها كان كمن أحيا موؤودة من قبرها»(١).

ساءني: شقّ عليّ. يعانيه: يقاسيه. اقشعرار: انقباض وارتعاد. عَمَدت: قصدت. رياشي: لباسي. نضوتها: جرّدتها. افتراها: اتخذها. جُنّة: ستراً ووقاية. واقياً: صائناً. مهجتي: نفسي. وقِّيَ: كُفِيَ. الجِنّة: الجنّ. سندس: ثياب خضر.

* * *

قال: فَلَمّا فتَنَ قُلُوبَ الجماعة، بافتنانِهِ فِي البَرَاعَةِ أَلْقَوْا عَلَيْهِ مِنَ الفراءِ المغشّاة، والجبابِ المَوشّاة، ما آدَهُ ثِقَلُه، ولَمْ يَكَدْ يُقِلّهُ، فانْطَلَقَ مُسْتَبْشِراً بالفرَج، مُسْتَسْقِياً لِلْكَرَج، وتبعتُهُ إلى حَيْث ارتفعتِ التقيَّة، وبَدتِ السَّماءُ نَقِيّة، فقلتُ له: لَشدَّ ما قرَسك البرْد. فلاَ تتعرّ مِنْ بَعْد، فقال: وَيْكَ! لَيْسَ من العَدْلِ، سُرْعَة العَذْلِ، فَلاَ تَعجلْ بلومٍ هُوَ ظُلْمٌ، وَلاَ تَقْفُ ما لَيْسَ لكَ بِهِ عِلْمٍ؛ فوالّذِي نَوَّر الشّيْبه، وَطَيَّبَ تُرْبَةَ طَيْبة، لَوْ لَمْ أتعرَّ لَرُحْتُ بالخَيْبة، وصَفِر العَيْبَةِ.

* * *

افتنانه: تنوّعه. البراعة: الجودة والفصاحة. المغشاة: المغطّاة بغيرها من الثياب. الموشّاة: المزيّنة بالرقم. آده: أثقله. يقلّه: يرفعه. مستسقياً: داعياً بأن يسقيها الله تعالى. التقية: الخشية.

قوله: بدت السماء نقية، مَثَل ضرِب لخلوّ الموضع من الناس وظهوره فيه وحده. ويْك، أي عجباً لك. العَذَل: اللوم.

تقف: تتبع، يقال: قفوت أثره أقفوه قفواً، إذا تتبعتَه، ومنه: قَفَا فلان فلاناً إذا أتبعه بكلام قبيح، ويقال: قَفَاه بالتخفيف.

أبو عبيدة رحمه الله تعالى: أصل القَفْوُ والتّقافي: البهتان يَرْمِي به الرجل صاحبه، واحتج بحديث حبان بن عطية: «مَنْ قفا مؤمناً بما ليس فيه حبسه الله تعالى في ردغة الخبال حتى يأتي بالمخرج»(٢). قال الفراء رحمه الله تعالى: القفو: مأخوذ من القيافة، وهو تتبع الأمر، يقال: قاف القائف يقفُو قيافة، فهو قائف، بتقديم الفاء على الواو، كما قالوا في جَذَب: جبذ، وقرىء: ﴿ولا تَقُفْ﴾ [الإسراء: ٣٦] مثل تَقُلْ. نَوَّر: بيّض.

---

(١) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار باب ٢٤، وأبو داود في الأدب باب ٣٨، وأحمد في المسند ٤/ ١٤٧، ١٥٣، ١٥٨.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٨٢.

[طيبة]

طيبة مدينة النبي ﷺ، وطيّب الله تربتها بأن صيّرها موطناً لنبيه ﷺ، في حياته ومستقرًّا له بعد مماته. وذكر شيخنا ابن جبير المدينة فقال: للمدينة المكرّمة أربعة أبواب وهي تحت سورين في كلّ سور باب يقابله آخر: باب الحديد، وباب الشريعة، وباب القبلة، وباب البَقِيع، وبين سورها الغربيّ وخندق النبي ﷺ مقدار غَلوْة، وبين السور والخندق عين النبي ﷺ، وعليه حَلَق عظيم مستدير، ومنبع العين وَسَطه، كأنه الحوض المستطيل، وتحت العين سقايتان بينهما جدار لطهر الناس وغسل أثوابهم، والعين للاستقاء والعين تمد السقايتين، وتهبط إليهما على خمس وعشرين درجة، وماؤها يعم أهل الأرض فضلاً عن أهل المدينة. وبمقربة من الحوض ممّا يلي الحوض حجر الزيت، يقال: إنّ الزيت رشح للنبي ﷺ من ذلك الحجر. وبالقرب منه بئر بضاعة وبإزائها من الجهة اليسار جبل الشيّطان حيث صرخ يوم أُحُد: قتل نبيكم. وعلى شفير الخندق حصن العزّاب، وهو خرب. كان عمر رضي الله عنه بناه لعزّاب المدينة، وأمامه لجهة الغرب على بعد بئر رُومة التي اشتراها عثمان رضي الله عنه بعشرين ألفاً. وداخل باب الحديد سقاية يهبط إليها على أدراج، وهي بمقربة من الحرم المكرّم، وبقبليّ الحرم دار مالك بن أنس رضي الله عنه. ويُطِيف بالحرم شارع مبلط بالحجر المنحوت، وفي جوفي المدينة جبل أُحد على ثلاثة أميال منها، وبقبليّة مسجد حمزة، وقبره برحبة بجوفي المسجد، وبإزائه قبور الشهداء، وحوله تربة حمراء أنزل فيها سورة الفتح الشريفة، وشرقي المدينة بَقِيع الغَرْقد، وإذا خرجت على باب البقيع تلقي على يسارك قبر صفيّة عمة النبي ﷺ وأم الزبير، وأمامها قبة مختصرة البناء على قبر مالك بن أنس. وأمامه قبر السلالة الطاهرة إبراهيم ابن النبي ﷺ عليه قبة بيضاء وعلى يمينها قبر عبد الرحمن بن عمر، الذي جلَده أبوه الحدّ فمات، وبإزائه قبر عَقِيل بن أبي طالب وعبد الله بن جعفر، وبإزائه روضة صغيرة فيها ثلاثة من أبنائه ﷺ، ويليها رَوْضة العباس والحسن رضي الله عنهما، وعليها قبة مرتفعة في الهواء، وقبراهما مرتفعان على الأرض مغشيان بألواح ملتصقة أبدع التصاق، مرصعة بالصفائح الصّفر مسكوكة بمسامير على أبدع صفة، وعلى هذا الشكل قبر إبراهيم عليه السلام ابن النبي ﷺ، وفي آخر البقيع قبر عثمان بن عفان الشهيد، وعليه قبة مختصرة البناء، وبمقربة منه قبر فاطمة بنت أسد أم عليّ كرم الله وجهه، ومشاهد البقيع أكثر من أن تُحْصَى لأنها مدفن الصحابة رضي الله عنهم. وقبل المدينة على نحو الميلين قُباء، وكانت مدينة كبيرة متصلة بالمدينة المكرّمة، وبها المسجد الذي أسس على التقوى وهو مربع مستوى الطول والعَرْض له باب واحد من جهة الغرب، وهو سبع بلاطات في الطول، ومثلها في العرض، وفيه صومعة طويلة بيضاء تظهر على البعد، وفي وسطه مبرك الناقة بالنبيّ ﷺ، عليه حلق قصير شبه الروضة، يتبرّك الناس بالصلاة فيه وفي صحنه مما يلي القبلة شبه محراب على مسطبة، وهو أوّل موضع ركع فيه النبي ﷺ،

وفي قبليّة دار بني النجار، وهي دار أبي أيوب الأنصاريّ، ويليها دار عائشة رضي الله تعالى عنها، وبإزائها دار عمر ودار فاطمة ودار أبي بكر رضي الله عنهم أجمعين ورضي عنّا بهم، وبإزائها بئر أريس حيث تفَل فيه النبي ﷺ فعاد عذباً بعد أن كان أُجاجاً، وفيه وقع خاتمه من يد عثمان رضي الله عنه، وحديثه مشهور، وفي آخره تلٌ مشرف يعرف بعرفات لأنه كان موقف النبي ﷺ يوم عَرَفة، ومنه زويت له الأرض فأبصر الناس بعرفات. ويدخل من التل على دار الصّفة، وبها كان عمار وسلمان وأصحابهما. والطريق من قبل قُباء إلى المدينة بين حدائق النخل المتصلة، والنخيل تحدق بالمدينة من جهاتها، وأعظمها جهة القبلة والشرق، وأقلها جهة الغرب. وآثار المدينة وقباء لا تحصى. فلمّا خص الله تعالى تربة طيبة بصفوة عباده أقسم الحريري بمن طيّبها.

صفر العيْبة: خلو الوعاء.

* * *

ثمَّ نَزَعَ إلى الفِرَار، وتَبرقَعَ بالاكْفهِرار، وقال: أما تعَلمُ أنّ شِنْشِنتِي الانتِقَالُ من صَيْدٍ إلى صَيْد، والانعطافُ مِنْ عَمْرٍو إلى زيدٍ، وأراكَ قَدْ عُقْتَنِي وعَقَقْتَنِي، وأفتّنِي أضْعَاف ما أفذْتَني، فاعْفنِي عافَاكَ اللّهُ مِنْ لْغوكَ، واسْدُدْ دُونِي بابَ جدِّكَ ولَهْوِك. فجبذتُهُ جَبْذَ التِّلعَابة، وجَعْجَعْتُ به للدُّعابة، وقلتُ له: واللهِ لَوْ لم أوارِك، وأُغَطِّ عَلَى عَوَارِك، لَمَا وَصَلْتَ إلى صِلَة، ولانَقَلبْتَ أكْسَى مِنْ بصلة، فجازني عن إحسانِي إلَيْك، وَسَتْرِي لَكَ وَعَلَيك، بأنْ تَسْمَحَ لِي بردِّ الفرْوة، أوْ تَعرِّفَنِي كَافاتِ الشَّتوَة. فنظرَ إليّ نَظَرَ المتعجّب، وازمَهَرَّ ازمِهْرَار المتغضِّب، ثمّ قَال: أمَّا رَدُّ الفَرْوةِ فأبعدُ مِنْ رَدِّ أمسِ الدَّابرِ، والميتِ الغابرِ.

* * *

نَزَعَ: مال وحنّ. وتبرقع: ستر وجهَه. الاكفهرار: العبوس. شِنشنتي: طبيعتي. الانعطاف: الرجوع. عقتني: حبستني. عققتني: قطعتني. أفتّني: حرمتني. أفدتني: أكسبتنِي فائدة. اعفني: أرِحْني وعافِني. لغوك: باطلك. التلعابة: كثرة اللعب ورجل تِلْعابة: حسن اللعب مزّاح، وفي الحماسة: **[الطويل]**

هُوَ الظفر الميمون إن عاد واغْتَدَى ... به الركب والتِّلعابةُ المتحبِّبُ(١)

---

(١) يروى صدر البيت:

هو الظَّفَرُ الميمون إنْ راح أو غدا

وهو للعجير السلولي في لسان العرب (ظفر)، وتاج العروس (ظفر)، وبلا نسبة في أساس البلاغة (ظفر).

جعجعت: صحت ودعوت به، والجعجعةُ: رُغاء الإبل. الدُّعابة: المزاح. أوارِك: أسترك. عوارك: عيبك. صلة: عطية. ستري لك، أي ثوبي، وأراد بعليك، سكوتي عنك حين قلت: لن يسترني إلا من طاب خِيمه. ازمهرّ: توقدت عيناه غضبا. المتغضّب: المستعمل الغضب. الدابر: الماضي. والغابر: الذاهب.

* * *

وأمّا كافاتِ الشَّتْوَة، فسبحَانَ مَنْ طبَع على ذِهْنِك، وأوْهَى وعاء خزْنك، حَتَّى أنسِيتَ ما أنشدتك بالدَّسْكرَة، لابن سُكّرَة: [البسيط]

جاء الشِّتَاء وعِنْدِي مِنْ حوائجه سبعٌ إذَا القطرُ عَنْ حاجاتنَا حبسَا
كِنٌّ وكيسٌ وكانونٌ وكاسُ طِلاً بعد الكبَاب وكُسٌّ ناعمٌ وكِسَا

ثمّ قال: لَجَوابٌ يَشفي، خيرٌ من جلبَابٍ يُدْفِي؛ فاكتفِ بِمَا وَعَيْتَ وانْكفِي. ففارَقته وقَدْ ذهبتُ فرْوتِي لِشقوتِي، وحَصَلْت عَلَى الرِّعْدَة طولَ شَتْوتِي.

* * *

وقوله: سبحان من طبع، معناه تنزيهاً لك يا ربنا من الولد والصاحب والشريك، أن نزهناك من ذلك، وانتصابه على المصدر، كأنك قلت: سبحت الله تسبيح، فجعلت «سبحان» في موضع التسبيح، ومعنى طبع على قلبك، أي غشّاه الصدأ والدنس والوسخ، قال الله تعالى: ﴿**فَطُبِعَ على قُلوبِهِمْ**﴾ [المنافقون: ٣] وقال: ﴿**كذلكَ يطبع الله على قلوب الّذين لا يَعْلمون**﴾ [الروم: ٥٩]، وفي الحديث «نعوذ بالله من طمع يدني إلى طبَع»[1]. وقال الشاعر: [البسيط]

لا تطمعنْ طمعاً يدني إلى طَبَعٍ إن المطامع فقر والغنى ياسُ

وأنشد يعقوب: [البسيط]

لا خير في طمَع يُدنِي إلى طبَع وغُفّةٌ من قوام العيش تَكْفيني[2]

والذهن: قوّة إدراك العقل. أوهى: أضعف. خزنك: تثقيفك وحرزك. الدسكرة: هنا قرية معروفة بينها وبين بغداد على طريق خراسان ستة عشرة فرسخاً.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٥/ ٢٣٢، ٢٤٧، بلفظ: «استعيذوا بالله من طمع يهدي إلى طَبَع».

(٢) البيت لثابت بن قطنة في لسان العرب (طبع)، وتاج العروس (غفف)، وأمالي المرتضى ١/ ٤٠٨، وله أو لعروة بن أذينة في تاج العروس (طبع)، وهو في ديوان عروة بن أذينة ص ٣٨٦، وبلا نسبة في لسان العرب (غفف)، ومجمل اللغة ٤/ ٥، ومقاييس اللغة ٤/ ٣٧٥، والمخصص ٣/ ٦٩، ٢/ ٢٨٨، وديوان الأدب ٣/ ٢٦، وأساس البلاغة (غفف).

[ابن سكّرَة]

وابن سكّرَة من شعراء اليتيمة قال صاحبها: ابن سكرة الهاشميّ هو أبو الحسن محمد بن عبد الله بن محمد. شاعر متسع الباع، في أنواع الإبداع، فائق في قول الظرف والملح، أحد الفحول والأفراد، وجالَ في ميدان المجون والسخف بما أراد. وكان يقال ببغداد: إن زماناً جاد بابن سكرة وابن الحجاج لسخيّ جدّاً، وما أشبِّههما إلا بجرير والفرزدق في عصرهما. ويقال إن ديوان ابن سكرة يربو على خمسين ألف بيت.

ومن شعره في غلام في يده غصن نُوار: **[المنسرح]**

غصن بانٍ بدا وفي اليدّ مِنه ... غصن فيه لؤلؤ منظومُ
فتحيّرت بين غصنين في ذا ... قمر طالع وفي ذَا نجوم

وله في غلام يعرف بابن برغوث: **[الوافر]**

بُليت ولا أقول بمَنْ لأني ... إذا أنا قلت مَنْ هُو تعشقوه
حبيب قد نفى عنّي رُقادي ... فإن غمّضت أيقظني أبوهُ

وله في غلام أعرج: **[الكامل]**

قالوا بليت بأعرج فأجبتُهُمْ ... العيب يحدث في غُصونِ البان
ماذا عليّ إذا استجدتْ شمائلاً ... وروادفا تغني عن الكُثْبَانِ
إني أحبُّ جلوسَه وأريده ... للنوم لا للجرْي في الميْدَانِ
في كلّ غصن منه حسن كامل ... ما ضرّني إن زلّت القدمان

وله في غلام سميّه: **[الوافر]**

إذا باسمي دُعيت حننت شوقاً ... وذكّرني به الداعي حَبيبي
فليت كما اتفقنا في الأسامي ... وألفتها اتفقنا في القلوبِ

وله أيضاً: **[المتقارب]**

بنفسي عِذار بَدَا طالعا ... على ناضر الورد ما أمْلَحَا
كتمت هواه زَمان الصِّبا ... وبوَّحت بالحبّ لمّا التحى
وقالوا محا الشعر لمّا بدا ... محاسنه منه واستقبحا
فقلت لهمْ ما محا حسنه ... ولكنّ صبريَ عنه محا

وله في مثله: **[الخفيف]**

وغزال لولا تَميمة شعر ... ذكّرته لقلت بعض الجوارِي
شاربٌ أشرَبَ الصبابة قلبي ... وعذار خلعتُ فيه عذاري

وله في مثله أيضاً: **[الخفيف]**

مَنْ عذيري من شادنٍ لا يراني ... وهو روحي أهلاً لردّ السلام
أنا من خده وعينيه والثغـ ... ـر ومن ريقِه البعيد المرام
بين وردٍ ونرجس ولآل ... أقحوان وبابليّ مُدام

وله في مثله أيضاً: **[المنسرح]**

في وجه إنسانة كلفت بها ... أربعة ما اجتمعنَ في أحدِ
الخدّ ورد والصُّدغ غالية ... والريق خمر والثّغر من بَرَدِ

وله في مثله أيضاً: **[الوافر]**

لقد أمسكت من عمر بن يحيى ... بحبل ما أخاف له انبتاتا
حَبَاني في الحياة ورمّ حالي ... وأوصَى بي أبا حسن وماتا
فكنت مجاوراً للبحرِ منه ... فلمَّا مات جاورتُ الفُراتا

وله في وزير المهلبي: **[البسيط]**

لا عذَّب الله ميتاً كان ينُعِشني ... فقد لقيت بضرّي مثل ما لاَقَى
طواه موتٌ طوَى عني مكارمَهُ ... فذقت من بعده بالفقر ما ذاقا

وقال فيه أيضاً: **[الطويل]**

مضى ملك عمّ البرية جودُه ... رؤوف وإن راع الأسود شفيقُ
سكرتُ بنعماه وجود وزيرهِ ... فقالت لي الأيام: سوف تذوقُ

وقال رحمه الله أيضاً: **[الوافر]**

لقد كان الشباب فكان غضًّا ... له ثَمَرٌ وأوراق تظلُّكْ
وكان البعضَ منك فمات فاعلم ... مَتَى ما مات بعضُك مات كُلُّكْ

ويا بعد ما بين حاله وقت قوله: جاء الشتاء... البيتين. وبين حاله وقت موت المهلبي، وقد أدرك فاقة، فسئل عما أعدّ للشتوة فقال: **[مجزوء الرمل]**

قيل ما أعددت للبر ... د فقد جاء بشِدّهْ
قلت: درّاعة عُزي ... تحتها جُبّة رعده

* * *

قوله: «إذا القطر عن حاجاتنا حبسا»، في معنى ذلك أن الحسن بن وهب تأخر عن ابن الزيات وهو يكتب له، فاستبطأه فكتب الحسن إليه: **[الخفيف]**

أوجب العذرَ في تراخي اللقاء ... ما ترى بي من هذه الأَنواءِ

لسـت أدري مـاذا أقـول وأشـكُـو ... مـن سـمـاء تـعـوقـنـي عـن سـمـاء
غير أنـي أدعـو علـى تـلـك بـالثُّكـ ... ـلِ وأدعـو لـهـذه بـالـبـقـاء
فـسـلام الإلـه أهـديـه مـنّـي ... لـك غـضًّـا يـا سـيِّـد الـوزراء

كان لابن عبد ربه فتى يهواه، فأعلمه أني راحل غداً، فلما أصبح عاقه عن السفر تكاثُرُ المطر، فانجلى عن ابن عبد ربه همّه، وكتب إليه: [البسيط]

هـلاّ ابـتـكـرت لـبـيـن أنـت مـبـتـكـرُ ... هـيـهـات يـأتـي عـلـيـك الله والـقـدَرُ
ما زلتُ أبكِي حذار البين ملتهباً ... حتى رثا لي فيك الريح والمَطرُ
يـا بَـرْده من حيَـا مُزْنٍ عـلـى كـبـدٍ ... نـيـرانـهـا بـغـلـيـل الشَّـوق تـسـتـعِـرُ
آلـيـت ألاّ أرى شـمـسـاً ولا قـمـراً ... حتى أراك، فأنـت الـشـمـس والـقـمـر

وعد ابنَ رشيق محبوبُهُ الصائغ أن يكون عنده يوم عيد فصلّى وارتقبه، فإذا بالسماء قد أرعدت وأبرقت، فكتب إليه: [البسيط]

تـجـهّـم الـعـيـد وانـهـلّـتْ مـدامـعُـهُ ... وكنت أعهد منه البشر والضِّحكَا
كـأنـه جـاء يـطـوِي الأرض من بَـعَـدٍ ... شـوقـاً إلـيـك فـلـمـا لـمْ يَـجِـدْك بـكَـى

وكتب السَّلاميّ إلى أصحابه والمطر قد قطعه عنهم: [الوافر]

قـطـعـتـكـمُ بـرَغـم الـمـجـد شـهـراً ... أشـدُّ عـلـيَّ مـن شـهـر الـصّـيـامِ
وكـيـف أزوركـم والـمـزنَ تَـبْـكـي ... عـلـى داري بـأربـعـةٍ سِـجَـامِ
وكـانـتْ مـنـزلاً طـلـق الـحـمـيّـا ... فـصـارت واديـاً صـعْـبَ الـمـرَام
تـهـافـتَ ركّـع الـجـدران فـيـهـا ... سـجـوداً لـلـرُّعـود بـلا إمـام
أنـادي كـلـمـا ارتـفـعـت سـحـاب ... فـأبـكـتـنـا الـبـوارق بـابـتـسـامِ
حـوالـيـنـا بـذاك ولا عـلـيـنـا ... كـفـانـا الله شَـرَّكَ مـن غـمـام

كنّ، أي بيت. كيس: وعاء الدراهم. كانون: حيث تجعل النار فيه. طِلا: خمر. كباب: لحم يشرح ويشوى، وكبّبتُه: فعلت ذلك به، وقيل: الكباب قطع الكرِش تلوي عليها المصارين، وأراد بها ها هنا شواء اللحم. والكُسّ: اسم فرج المرأة وليس بعربي، قال الفنجديهي رحمه الله تعالى: سمعت بعض الفضلاء يقول: كتب ابن سكّرة في يوم مطر إلى صديق له: [البسيط]

يـوم مـطـيـر وعـنـدي مـن خـواطـرِه ... سبعٌ إذا القطر عن حاجاتنا حُبسا
حـروف كـافـاتـهـا فـيـهـا مـقـومـة ... إذا تـلاهـا الـفـتـى ذو الـلـبّ أو درسا
لِـنٌّ وكـيـس وكـانـون وكـأس طِـلا ... مـع الـكـبـاب وكُـسّ نـاعـم وكِـسـا
فلو مطرت البحار الدَّهْرَ لم ترني ... أقـول: أحـسـن هـذا الـيـوم بـي وأسـا

وزاد ابن مسعود عليه كافا ثامنة فقال: **[الطويل]**

وكم ليلة في شهر كانونَ بتُّها ... أعانق من حِبِّي بها الدِّعْصَ والغُصُنَا
سمعت من الكافات فيها ثمانياً ... فما شئت من مرأى أنيق حوى الحسَنا
كباباً وكيزاناً وكيساً وكاعباً ... كساءً وكوباً والكوانين والكسا

كما نقصه الأمير تميم بن المعز السابعة، فقال: **[الطويل]**

إذا هبّ سلطان المرِيسيّ ضاحكاً ... سُحَيراً وحلّ الغرب كلَّ نقابِ
وَزَرَّ على الأرض الغمامُ ثيابَهُ ... فقم والقه في عُدّة وحرابِ
بكِنّ وكانون وكأس مدامة ... وكيس وكُسٍّ وافرٍ وكباب

نقلت أبيات ابن مسعود من شرح شيخنا ابن اللبان، قال: ولما جمعنا في أيام الشتاء ما جمعنا من الكافات، قلت في ضدها من الحرّبيتين، جمعت فيهما من الراءات ثمانية وهي: **[البسيط]**

عندي فديتُك راءات ثمانية ... ألقي بها الحرَّ إنْ وافى وإن بَرَدا
رَقٌّ ورُوح ورَيْحان وريق رشاً ... ورفرف ورياض ناعم وردا

جلباب: ثوب يلبس على الثياب. اكتف: اقتنع. وعيت: حفظت. انكفي: ارجع إلى موضعك. طول: مدة. والله تعالى أعلم.

وتعرف بالرقطاء

حدّث الحارثُ بن همّام قال: حَلَلْتُ سُوقَ الأهْوَاز، لابساً حُلَّةَ الإعْوَاز، فلبثت فيها مُدّة، أكابدُ شدّة، وأُزجِّي أياماً مُسودَّة، إلى أنْ رأيتُ تَمادِيَ المقام، من عوادِي الانتقام، فرَمَقْتُها بعين القالِي، وفارَقْتُها مفارَقَةَ الطَّلَلِ البالِي. فظعَنْتُ عَنْ وَشَلِهَا كميشَ الإزارِ، رَكْضاً إلى المياهِ الغِزَارِ؛ حَتَّى إذا سِرْتُ مِنْهَا مَرْحلَتَيْنِ، وَبَعُدْتُ سُرَى لَيْلتَيْنِ، تَراءَتْ لِي خَيْمةٌ مَضْرُوبة، ونارٌ مَشْبوبة، فقلتُ: آتِيهِمَا لَعَلِّي أنقعُ صَدًى، أو أَجِدُ على النارِ هُدًى.

***

حللت: نزلت. الأهواز: مدينة واسعة لها سبع كور بين البصرة وفارس، قال الرّشاطي: الأهواز: متصلة بالجبل وأصبهان، وقيل: إن الأهواز بلد مَنْ سكنَ قصبتَه، ضعف عقله ولزمتْه الحمَّى.

حُلة الإعواز: ثوب الفقر، والحُلَّة إزارٌ ورداء، ولا يقال لثوبٍ واحدٍ: حُلّة. لبثت: أقمت. أكابد: أقاسي. أزجّي: أسوق. مسودّة: شداد مشؤومة. تمادي: دوام وطول. المقام: الإقامة. عوادي: جمع عادية، من العُدْوان وهو الظلم. والانتقام: العذاب والنكاية. رمقتها: نظرتُها. القالي: البغيض. الطلل: ما شخص من آثار الدار. ظعنت: ارتحلت. وشَلها: ماؤها القليل. كميش: مشمّرٌ، وانكمش في طلب حاجته: أسرع فيها، والإزار والمئزر: ما يلبس عَرَضاً من السراويل، ولا تعرف العرب السراويل، ووجدها أعرابي فظنّها قميصاً، فأدخل يديه من على ساقيها، والتمس من أين يخرج رأسه فلم يجد فرمى بها، وقال: هذا قميص الشيطان.

قوله: راكضاً، أي جارياً، وهمزة ماء مبدلة من هاء «مياه». الغزار: الكثيرة. سُرى ليلتين، أي سرت مقدار ما يسار فيه ليلتين. تراءت: ظهرت. مشبوبة: موقودة. أنقع صدى: أروي عطشاً. أجد على النار هدى، أي أجد عليها مَنْ يُرْشدني إلى الطريق.

***

فلمّا انتهيتُ إلى ظِلِّ الخيْمَةَ، رأيتُ غِلْمَةً رُوقَةً، وشارَةً مَرْمُوقَةً، وشَيخاً عَلَيْهِ

بزةٌ سَنيّة، ولَدَيْهِ فاكِهَةٌ جنيّة. فَحَيَّيْتُهُ ثمّ تَحَامَيْتُهُ. فَضَحِكَ إليّ، وأحْسَنَ الرَّدَّ عَلَيّ، وقال: ألاَ تَجْلِسُ إلَى مَنْ تَرُوقُ فاكِهَتُهُ، وَتَشوقُ مفاكَهَتهُ! فَجلست لاغتنام مُحاضَرَتِهِ، لا لالْتِهام ما بِحَضْرتِهِ، فحينَ سَفَرَ عَنْ آدَابِهِ، وكَشَرَ عَنْ أنيابِهِ، عَرَفْتُ أَنَّهُ أبو زيدٍ بحسنِ مُلَحِهِ، وقُبْح قَلَحِهِ. فتعارفنا حينئذٍ، وحفَّتْ بِي فَرْحتان ساعتئذٍ، ولَمْ أَدْرِ بأيِّهِما أنا أضْفَى فرَحاً، وأوفَى مَرَحاً! أَبإِسْفارِهِ، مِنْ دُجُنَةِ أسفارِه، أم بِخِصْبِ رِحَالِهِ، بَعْدَ إمْحَالِهِ.

* * *

رُوقة: حساناً، وغلام روقة، إذا أعجبك، وغلمان رُوقة، الواحد والجمع سواء، وقيل: رُوقة لفظ مفرد والجمع رُوق، والهاء للمبالغة. شارة: هيئة حسنة يشار إليها. مرموقة: محبوبة. بزّة سنية ثياب حسان، والبزّة والبَزّ أفضل الثياب: جَنيّة: طرية كما اجتنيت. حَيَّيْتُهُ: سلّمت عليه. تحاميته: تباعدت عنه. تروق: تعجب. تشوق: تشوّق وتدعو إلى الطرب. مفاكهته: ممازحته، وفاكهتُه: حدّثته بما يعجب. التهام: ابتلاع. سَفَر: كشف وبيّن أنه من أهل الأدب. كشَر عن أنيابه: كشف عن أسنانه عند الضحك. مُلَحه: مليح كلامه. قَلَحه: صفرة أسنانه. تعارفنا: عرّفته من أنا وعرفني من هو. حفّت: أحاطت. والمرَح: شدة الفرح؛ وأوفى مرحاً، أي أكمل طرباً ونشاطاً. إسفاره: طلوعه وإضاءته. دجنة: سواد وظلام. أسفاره: جمع سفر. رحاله: أوقاره، يصف كثرة ماله، وأنه إذا نزل منزلاً أخصب بكثرة أحماله. إمحاله: جدبه.

* * *

وتاقَتْ نَفْسِي إلى أنْ أفضَّ خَتْمَ سِرِّه، وَأَبْطُنَ داعِيَةَ يُسْرِه، فَقْلتُ لَهُ: مِنْ أينَ إيابُكَ، وإلى أيْنَ انِسيَابُكَ، وبِمَ امتلأتَ عِيابُكَ؟ فقال: أمّا المقْدَمُ فمِنْ طُوس، وأمّا المقْصَدُ فإلى السُّوس. وأمَّا الْجِدَةَ الَّتِي أصَبْتُهَا، فَمِنْ رسالةِ اقتضيتُهَا. فسألْتُهُ أَن يَفْرُشَنِي دِخْلَتَهُ، وَيَسْرُدَ عَلَيَّ رِسَالتَهُ، فقالَ: دون مرامِكَ حَرْبُ الْبَسُوس، أو تَصْحَبَنِي إلَى السُّوس. فَصَاحَبْتُهُ إليهَا قَهْر، وعكفتُ عليهِ بِهَا شهراً، وَهُوَ يَعُلّني كاسَاتِ التعليل، ويجرّني أعِنّةَ التَّأمِيلِ.

* * *

تاقت: اشتاقت. أفضّ: أكسر. ختم: ربط وشد. أَبْطُن: أعرف باطنه. يُسره: غناه. إيابك: رجوعك. انسيابك: ذهابك. عيابك: أوعية متاعك.

طوس: مدينة منها إلى نيسابور مرحلتان، قال اليعقوبي: مدينة طوس العظمى،

يقال لها لوبان، وبها قبر الرشيد، وبها توفّيَ الرضا عليّ بن موسى بن جعفر بن محمد بن عليّ بن الحسين، وهي من ثغور الجبال المتصلة بخراسان، ومجاورتها أيضاً مدينة أصبهان، وهي عظيمة.

وأما السوس، فمدينة بأرض فارس، تعمل بها الثياب السُّوسية من الخزّ، قال الرشاطي: السوس من كُور الأهواز، والسوس في بلاد الغرب، وذكر الجاحظ أن من طنجة إليها عشرين يوماً.

وسوسة من بلاد إفريقية على البحر، تُصنع بها ثياب رفاع، والسوس اسم مشترك، والذي قصد الحريري منهما الأولى.

الجِدة: الغنى. اقتضبتها: ارتجلتها. يُفْرِشني دخلته: يبسط لي باطن أمره، وأفرشتك حديثي: بسطته لك وبيّنته. يسرد: يقرأ. مرامك: مطلبك. وتقدّمت حرب البسوس في التاسعة عشرة.

عكفت: أقمت. يعلني: يسقيني مرّة بعد مرة، والتعليل أن يطمعك في قضاء حاجتك فإذا تقاضيتَه أظهر لك عِلَلاً وعوائق ثم يمنيك، فمتى ما جئتَه اعتلَ لك بعلة مانعة من قضاء حوائجك.

يجرّني: يعلّقها بي ويجعلني أجرّها. أعنّة: جمع عنان. التأميل: مصدر أمَّله، إذا رجاه وحقق له أمله.

* * *

حَتَّى إذا حَرِجَ صَدْرِي، وَعِيلَ صَبْرِي قُلْتُ له: إنَّه لَمْ يَبْقَ لَكَ عِلّة، وَلاَ لي في المُقَام تَعِلّةٌ، وفي غَدٍ أَزْجُرُ غُرَابَ الْبَيْنِ، وأَرْحَلُ عَنْكَ بِخُفَّيْ حُنَين، فقال: حَاشَ لِلَّهِ أَنْ أُخْلِفَكَ، أوْ أخالِفَك؛ وَمَا أرجأتُ أنْ أحَدِّثَكَ إلاَّ لأَلْبَثَكَ. وإذَا كُنْتَ قَدِ اسْتَرَبْتَ بعِدَتي، وأغْرَاكَ ظَنُّ السُّوءِ بمباعَدتي، فأَصِخْ لِقَصَصِ سِيرتي الممتَدّة، وأضِفْها إلَى أَخْبَارِ الفرج بَعْدَ الشِّدَّةِ.

فَقلْتُ لَهَا: هاتِ فَمَا أَطْوَلَ طِيَلَكَ، وَأَهْوَلَ حِيلَكَ. فقال: اعْلَمْ أنَّ الدَّهْرَ الْعَبُوس، أَلْقَانِي إلَى طُوس، وأنا يَوْمَئِذٍ فقيرٌ وقِيرٌ، لاَ فتيلَ بها ولا نَقير، فأَلجأَنِي صَفَرُ اليدَيْنِ، إلَى التَّطَوُّقِ بالدَّيْن، فادَّنتُ لسُوء الاتّفَاقِ، مِمَّنْ هُوَ عَسِرُ الأخلاَقِ، وتَوَهَّمْتُ تَسَنِّيَ النَّفَاقِ، فتوَسّعْتُ فِي الإنفاقِ، فَمَا أَفقتُ حَتَّى بَهَظَنِي دَيْنٌ لَزِمَنِي حقُّهُ، وَلاَزَمَنِي مستحقُّهُ، فَحِرْتُ في أمْرِي، وَأَطْلَعْتُ غَرِيمِي على عُسْرِي.

* * *

حرِج صدرُه، إذا ضاق. عيل: غلب، وعالني الأمر يَعُولني عَوْلاً: غلبني. وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه: «وإنْ خِفتُمْ عائلة» أي خصلة تَعُولكم وتغلبكم. تعِلّة: ما تبديه من العلل في اعتذارك لمن يتقاضاك، وفي غد أزجر غراب البين، أي التفاؤل به لفراقك، وإنّما ينسبون الفراق للغراب، لأنهم إذا ارتحلوا عن موضع اجتمعت الغِربان فيه يلتقطنَ ما تركوا من بقايا طعامهم وزبل دوابهم، وإذا أخذوا في هَدْم البيوت للرحيل وأبصرهم الغراب صاح رغبة فيما يلتقط، فيقولون عند ذلك: نعِقَ غراب البين، فصاروا يتشاءمون به، وزجْر الطير يذكر في الثامنة والثلاثين. قال المعرِّي في صدق التفاؤل بالغراب: **[الطويل]**

نبيّ من الغربان ليس على شرْعِ	يخبِّرنا أن الشُّعوب على صدعِ
أُصَدّقه في مِرْيةٍ وقد امترتْ	صحابة موسى بعد آياته التسعِ
كأنّ بفيهِ كاهناً أو منجّماً	يخبّرنا عما لَقِينا مِن الْفَجْعِ
وما كان أَفْعَى أهل نجران مثْله	ولا كان للإنسِ الفضيلة في السَّمْعِ
أتى وهو طيّار الجناح وإن مَشَى	أشاح بما أعْيَا سطيحاً من السَّجْعِ

قوله: أخلفك، أكذب وعدك. أرجأت: أخّرت. لألبّثك: لأثبطك وأجعلك تقيم معي. استربت: تشكّكت، وداخلتك الريبة. أغراك: حرّضك وألصقك. أصِخْ: أسمع: قَصَص: خير وحديث. سيرتي: عادتي. أضفها: ضمّها. وأخبار الفرج بعد الشدة أن ينزل بالإنسان شدّة فيشرف منها على الهلاك ثم ينزل الله تعالى تفريجَها، فالحديث بها يسمى خبر الفرج بعد الشدة.

قصص في الفرج بعد الشدة

ومنها ما جاء في حديث أنس رضي الله عنه، قال: كان رجلٌ على عهد النبيّ ﷺ يتّجر من بلام الشام إلى المدينة، ولا يصحب القوافل توكلاً منه على الله تعالى، فبينا هو جاءٍ من الشام عرض له لصّ على فرس، فصاح بالتاجر: قِفْ، فوقف التاجر، وقال له: شأنك بمالي، فقال له اللصّ: المال مالي، وإنما أريد نفسَك، فقال له: أنظِرْني حتى أصلّي، قال: افعل ما بدا لك. فصلّى أربع ركعاتٍ ورفع رأسه إلى السماء يقول: يا ودود يا ودود، يا ذا العرش المجيد، يا مبدىء يا معيد، يا فعّالاً لما يريد، أسألك بنُور وجهك الذي ملأ أركان عَرْشك، وأسألك بقدرتك التي قدّرت بها على جميع خلقك، وأسألك برحمتك التي وسعت كلّ شيء، لا إله إلا أنت يا مغيث أغثني، ثلاث مرّات. وإذا بفارس بيده حَرْبة، فلمّا نظره اللص ترك التاجر ومضى نحوه فلما دنا منه طعنه، فأذْراه عن فرسه ثم قتله، وقال للتاجر: اعلم أني ملك من السماء الثالثة، لمّا دعوتَ الأولى سمعنا لأبواب السماء قعقعة فقلنا: أمرٌ حدث، ثم دعوتَ الثانية، ففتحت أبواب السماء

ولها شَرَر، ثم دعوت الثالثة، فهبط جبريل عليه السلام ينادي: مَنْ لهذا المكروب؟ فدعوت الله أن يولِّيَني قتله. واعلم يا عبد الله أن مَنْ دعا بدعائك في كلّ شدّة أغاثه الله، وفرَّج عنه. ثم جاء التاجر إلى النبي ﷺ، فأخبره الخبر، فقال: «لقد لقنك الله أسماءه الحسنى التي إذا دُعي بها أجاب، وإذا سُئل بها أعطى».

وقال عمرو السرايا: كنت أعبرُ في بلاد الروم وحْدِي، فبينا أنا نائم إذ ورد عليّ علج فحرّكني، ثم قال: يا أعرابيّ، اختر إمّا مسايفة، وإما مطاعنة، أو مصارعة! فقلت: المسايفة والمطاعنة لا معنى لهما، ولكن المصارعة، فلم ينهنهني أن صرعني وقعد على صدري، وقال: أيّ قتلة تريد أن أقتلك، فذكرت الدعاء ورفعت رأسي إلى السماء، وقلت: أشهد أن كلّ معبود مّا دون عرشك إلى منتهى الأرضين باطل، عزّ وجهك الكريم؛ فقد ترى ما نزل بي. وأُغْمِيَ عليّ، فأفقت والرومي قتيل إلى جانبي، فقمت، وكنت أعلّم الناس هذا الدعاء.

ووَجّه سليمان بن عبد الملك محمد بن يزيد إلى العراق، فأطلق أهل سجون الحجاج وضيَّق على يزيد بن أبي مسلم كاتبه. فظفر به يزيد لمّا وَلِيَ إفريقيّة، فجعل محمد يقول: اللهم احفظ لي إطلاق الأسرى، وإعطاء الفقراء، فلما دنا يزيد منه وفي يده عنقود، قال: يا محمد ما زلت أسأل الله أن يُظفرني بك. فقال له محمد: وما زلتُ أستجير الله منك، قال: فوالله ما أجارك ولا أعاذك منّي. ووالله لأقتلنّك قبل أن آكل هذه الحبّة من العنب؛ ووالله لو رأيت ملكاً يريد قبض روحك لسبقته إليها. وأقيمت الصلاة فوضع حبَّة العنب بين يديه، وتقدّم فصلّى بهم، وكان أهل إفريقية اجتمعوا على قتل يزيد، فلما ركع ضربه رجل بعمود حديد فقتله، وقال لمحمد: اذهب حيث شئت.

وقال حماد الراوية: كنت منقطعاً إلى يزيد بن عبد الملك، وكان أخوه هشام يجفوني في أيامه لذلك، فلمّا مات يزيد، وأفْضَت الخلافة إلى هشام خفتُه، فمكثت في بيتي سنة؛ لا أخرج إلا لمن آمن إليه من إخواني سرّاً. فلمّا لم أسمعْ أحداً يذكرني في السنة أمِنت فخرجت، وصلّيت الجمعة في الرّصافة، فإذا شُرْطيّان قد وقفا عليّ، وقالا: يا حمّاد، أجب الأمير يوسف بن عمر، فقلت في نفسي: مِنْ هذا كنت أخاف، ثم قلت للشرطيين: هل لكما أن تَدَعاني حتى آتي أهلي فأودّعهم وداع مَنْ لا يرجع إليهم أبداً، ثم أسير معكما إليه؟ فقال: ما إلى ذلك من سبيل، فاستسلمت في أيديهما، وسرت إلى يوسف بن عمر وهو في الإيوان الأحمر، فسلمت عليه فردَّ عليّ السلام ورمى إليّ كتاباً فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله هشام أمير المؤمنين إلى يوسف بن عمر. أما بعد فإذا قرأتَ كتابي هذا فابعث إلى حماد الراوية مَنْ يأتيك به من غير تروّع ولا تتعتع، وادفع إليه خمسمائة دينار وجملاً مهرِيًا يسير عليه اثنتي عشرة ليلة إلى دمشق، فأخذت الدنانير وجعلت رجلي في غَرْز جمل أعدّه لي، ووافيت دمشق لاثنتي عشرة ليلة،

واستأذنت على هشام، فأذن لي، فدخلت عليه فوراً في دار مفروشة بالرّخام، وبين كلّ رخامتين قضيب من ذَهب، وهو جالس على طِنفَسةٍ حمراء، وعليه ثيابٌ حمر من الخزّ، وقد تضمّخ بالمسك والعنبر، فسلّمت عليه، فردّ عليّ السلام واستدناني فدنوت منه، حتى قبّلت رجله، فإذا جاريتان لم أرَ مثلهما قط، في أذنَيْ كلّ واحدة منهما حَلْقتان فيهما لؤلؤتان تُوقدان، فقال: كيف أنت يا حماد وكيف حالك؟ فقلت: بخير يا أمير المؤمنين، قال: أتدري فيم بعثت إليك؟ قلت: لا، قال: في بيت خطر ببالي لم أدر مَنْ قائلُه، قلت: وما هو؟ قال: [الخفيف]

ودَعَوْا بالصَّبوح يوماً فجاءت ... قَيْنَةٌ في يمينها إبريقُ[1]

فقلت: هو لعديّ بن زيد في قصيدة له، قال: أنشدْنيها فأنشدته: [الخفيف]

بَكَرَ العاذلون في وَضَح الصبـ ... ـح يقولون لي: أما تستفيقُ[2]

ويلومون فيك يا ابنة عبد اللّـ ... ـه والقلْب عندكم موثوقُ

لستُ أدري إذ أكثروا العذل فيها ... أعدوّ يَلُومني أم صديقُ!

حتى انتهيت إلى قوله: [الخفيف]

ودعوا بالصبوح يوماً... البيت.

قدّمته على سُلافٍ كعين الدّ ... يك صَفَّى سلافَها الرَّاوُوقُ

مُرّة قبل مزجها فإذا ما ... مُزِجت لذَّ طعمَها مَنْ يذوقُ

وطفا فوقها فقاقيعُ كاليا ... قوت حمرٌ يزينها التَّصفيق

ثم كان المزاج ماء سحابٍ ... لا صِرًى آجنٌ ولا مَطْروقُ

قال: فطرب، ثم قال لي: أحسنتَ والله يا حماد! ثم قال لإحدى الجاريتين: اسقيه، فسقتني شربة ذهبت بثلث عقلي، ثم قال: أعده فأعدته، عليه، فاستخفّه الطرب حتى نزل عن فرشه، ثم قال للأخرى: اسقيه، فسقتنِي شربة فذهب ثلث آخر من عقلي، ثم قال: سَل حاجتك، فقلت: إحدى الجاريتين، فقال: هما جميعاً لك، ثم قال للأولى اسقيه، فسقتنِي شربةً سقطتُ منها فلم أفق إلا والجاريتان عند رأسي وعشرة من الخدم مع كلّ واحد بَدْرة، فقيل لي يقول: لك أمير المؤمنين: انتفع بهذا في سفرك، فأخذتها والجاريتين وعاودت أهلي.

وذكر أبو محمد هذه الحكاية في الدرّة وقال: هذه حكاية تنشر مآثر الأجواد، وترغّب المتأدب في الازدياد. وهذه النبذة دالة على أخبار الفرج بعد الشدّة فلنقتصر عليها.

* * *

(١) البيت لعدي بن زيد في ديوانه ص ٧٨، ولسان العرب (برق)، (طرق)، وتاج العروس (برق).

(٢) الأبيات في ديوان عدي بن زيد ص ٧٦.

قوله: ما أطول طيلك، أي ما أكثر حيلتك. يقال ذلك للكثير الدهاء والتصرّف والطِّيَل: الحبْل. أهول: أخوف وأغرب وقِير: إتباع لفقير، وفائدة الإتباع المبالغة في معنى الأوّل، وذلك أنك تقول: فلان فقير فيكون له الشيء اليسير من المال، فإذا قلت: وقير، فليس له شيء البتة. وقيل: معنى وقير مثقَل بالدين مُوقَرٌ به، والإتباع قصد لأنه فسره بقوله: لا فتيل لي ولا نقير، كأنّ إنساناً توهم أن له شيئاً فذكر وقيراً لنفسه، ثم زاده بياناً بما بعده، ولأنه ذكر استئناف الدّين بعد ذلك.

ويكون الوقير أيضاً من الوقْر في العظم، وهو الكسر كأنه مكسور العظم، كما أن الفقير أصله المكسور الفَقار. والفتيل: الخيط الذي في شِقّ النواة مثل الفتيلة، والنقير الفرض الصغير الذي في ظهرها، وفيه كالنقطة ومنه تنبت النخيل، والقطمير: اللفافة التي عليها، وهي القشرة اللطيفة.

صَفَر اليدين: فراغهما من المال. التطوّق: لُبْس الطول: أراد أنه لبِس من الدّيْن طوْقاً. ادَّنت: أخذت الدَّيْن، والاتفاق، ضدّ الاختلاف. عسر: صعب. توهّمت: حسبت. تسنى: تيسر. النَّفَاق، ضد الكساد. توسّعت: كثّرت. بهظني: غلبني وثقل عليّ حقه: واجبه.

أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ: إن أبواب الرزق مفتوحة إلى باب العرش فينزل الله تعالى إلى عباده أرزاقهم على قدر نفقاتهم، فَمنْ قلّل قُلِّل له، ومن كثّر كثّر عليه.

مستحقّه: صاحبه. فحرت في أمري، أي في همّ الدّين، وقال النبي ﷺ: «علمني جبريل دعاء في الدّين، وهو أن يصلّي إذا زالت الشمس أربع ركعات، يقرأ في كل ركعة بأم الكتاب وآية الكرسي وقل هو الله أحد، فإذا سلّم قرأ: «قل اللهم مالك الملك تُؤتي الملك مَنْ تَشَاء وتنزعُ الملك مِمّن تشاء وتُعِزّ مَنْ تشاء وتُذِلُّ مَنَ تشاء بيدك الخير إنّك على كل شيٍّ قدير * تُولِجُ اللَّيل في النهارِ وتُولِج النهار في الليل تخْرِج الحيّ مَنْ الميت وتخرج الميت من الحيّ وترزق مَنْ تشاء بغير حساب»، ثم يقول: يا فارج الهمّ يا كاشف الغمّ، يا مجيب دعوة المضطر يا رحيم الدنيا والآخرة، ارحمني رحمة تغنيني بها عمَّن سواك واقضِ دَيْني؛ فإن الله تعالى يقضي دينه عنه وفيها اسم الله الأعظم».

غريمي: صاحب دَيني، سُمِّيَ غريماً لإدامته التقاضي وإلحاحه وملازمته مَنْ عليه الدين، ويكون الغريم أيضاً المطلوب بالدّيْن، لازم له كما قال الشماخ: **[الوافر]**

تلوذ ثعالب الشرّفين منها ... كما لاذ الغريم من التّبيع[1]

عسري: فقري.

* * *

(١) البيت في ديوان الشماخ ص ٢٢٧، ولسان العرب (بتع).

فَلَمْ يُصدقَ إِمْلاَقِي، وَلاَ نَزَعَ عَنْ إرهاقِي، بَلْ جَدَّ في التَّقَاضِي، ولَجّ فِي اقْتيَادِي إلى القاضي. وكلَّمَا خَضَعْتُ له في الْكَلام، واسْتَنْزَلتُ مِنْهُ رفْقَ الكِرَام، ورَغْبَتُهُ فِي أنْ يَنْظُرَ لي بُمِيَاسَرَة، أَوْ يُنْظِرَني إلى مَيْسَرَة. قال: لا تَطْمَعْ فِي الإنْظَارِ واحْتِجَانِ النُّضارِ، فَوَحَقِّكَ ما تَرَى مَسَالِكَ الخَلاَصِ، أو تَرِيَنِي سَبائكَ الخِلاَصِ. فَلَمَّا رأيتُ احْتِدَادَ لَدَدِه، وألاَّ مَناصَ لي مِنْ يَدِهِ، شاغبتُهُ، ثمّ واثبتُه، ليرافِعَنِي إلى وَالِي الجَرائم، لاَ إلَى الحاكم في المظالِم، لمَا كان بَلَغَني من إفضالِ الْوَالِي وفَضْلِهِ، وتَشدُّدِ القاضِي وَبُخْلِهِ. فَلَمَّا حَضَرْنا بابَ أَمِير طُوس، آنستُ ألاَّ بأْسَ وَلاَ بُوس. فاسْتَدْعَيْتَ دواةً بَيْضاءَ، وأنْشَأْتُ رسالةً رَقْطَاءَ؛ وَهِي:

* * *

ومثله إملاقي، وأملقَ: ذهب مالُه، مشتق من الملقات وهي الصخور المُلْس، كأنه افتقر حتى لم يبق له ما يلبس إلاّ جلده الأملس. نزع: كفّ. إرهاقي: تكليفي ما لا أطيق، وأرهقتُه: كلّفته مشقة، والرَّهَق: الظلم. جَدّ: عزم واجتهد، التقاضي: طلب المال. لج: عزم وركب رأسَه. استنزلت: طلبت. رفق الكرام: لطفهم وحنانهم على الفقير. مياسرة: لين ومساهلة. يُنظِرني: يؤخرّ بي والإنظار الإمهال، وفي حديث عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «من أنظر معسراً أظلّه الله في ظلّه يوم لا ظلّ إلاّ ظله».

ميسرة: غنى. احتجان: اختزان، واحتجنت الشيءَ: ضممته بالمِحْجَن، وهو عود معقّف. النّضار: الذهب. مسالك الخلاص. طرُق النّجاة سبائك: فقَر وقطع. الخِلاص، بالكسر: الذهب الخالص. احتداد: اشتداد، وقد احتدّ. لدده: خصامه وإلحاحه. مناص: مخلص ومفرّ، وناص عن قرينه نوْصاً ومناصاً، إذا فزع وفرّ، وما أحسن ما قال العبديّ في محمد بن إبراهيم يشكو غريماً لازمه: **[الرمل]**

اقض عنّي يا بن عمّ المصطفى	أنا باللهِ مِنَ الدَّيْنِ وبِكْ
مِنْ غريمٍ فاحشٍ قد عزّني	أسود الوجه لعرضي منتهكْ
أنا والظلُّ وهو ثالثُنا	أينما زلتُ من الأرض سَلَكْ

شاغبته: شاررته، أي أوقعت بيني وبينه الشغاب. واثبته: ضاربته ووثبت إليه، ووثب إليّ والي الجرائم: حاكم الجنايات، والحاكم في المظالم: هو القاضي. إفضال: إنعام فضُله: جوده وكرمه. وتشدّد: بخل، ورجل شديد ومِشْداد، أي بخيل، قال الله تعالى: ﴿**وإنه لحبِّ الخير لشديد**﴾ [العاديات: ٨]، أي لبخيل من أجل حبه الخير وهو المال، أو تشدّد شدته على من تعين قبَله حق. آنست: علمت وأحسنت بأس: ضُرّ. وبوس: شدّة. بيضاء: ورقة يكتب فيها؛ ولابن الزّقاق فيها: **[الوافر]**

وواضحة كمثل النصل تجري ... مع الإبصار كالماءِ القَرَاحِ[١]
ترى حُبُك المداد بجسم نَورٍ ... كمخضرّ الفرند على الصّفاحِ
كأنّ سواده في صفحتيها ... بقايا الليل في وَجْهِ الصّبَاحِ

رقطاء: فيها حرف منقوط وآخر غير منقوط، والرقطاء عندهم الدّجاجة المرقشة، وهي المنقَّطة بسواد وبياض، ومنه قيل للنهر أرقط؛ لأن فيه تنقيطاً خلاف لونه، ولو شكر لمعطيه الدَّواة لأنشد هذه الأبيات، وهي لابن سكرة: **[البسيط]**

أخ مزجت بروحي روحَه وجَرَى ... منه كجري دمِي في الجسم أفْدِيهِ
أهْدَى إليّ دواة لو كتبتُ بها ... دهري أياديه لم تنفد أياديهِ

وهذه الرسالة التي أنشأها أبو محمد أبدع فيها بما أراد، وأغرب بها وأجاد.

وننشد من الشعر النّفيس في مدح الرسائل ما يجري لها كالوصف، ويسري بذكرها طيب العَرْف، فمن ذلك قول أبي تمام: **[الوافر]**

مدادٌ مثل خافية الغرابِ ... وقرطاس كرقراقِ السَّرَابِ[٢]
وألفاظ كألفاظ المثاني ... وخطّ مثل وَشْم يد الكَعَابِ
كتبت ولو قدرت هوًى وشوقاً ... لكنت إليك سطراً في الكتاب

وله في كتابٍ جاء من الحسن بن وهب: **[الوافر]**

لقد جلّى كتابك كل بَثٍّ ... جَوٍ وأصاب شاكلة الرّمي
وكان أغضّ في عيني وأندى ... على كبدي من الزّهرِ الجنيّ
وأَحسن موقعاً مني وعندي ... من البشرى أَتتْ بعد النّعِيّ
فكائن فيه من معنى خطيرٍ ... وكائن فيه من لفظ بَهِيّ
فيا ثلج الفؤاد وكان رضْفاً ... ويا شبَعي برونقه وريِيّ

من أبيات كلها عيون، وفيما ذكرنا دليل على ما تركنا.

وقال أبو نواس في كتاب ورد عليه من صديق: **[البسيط]**

ووارِدٍ ورد إنشاء يؤكّده ... صدوره عن سليم الورد والصَّدْرِ
شدّت بتيجانه منه على نزه ... تقسّم الحسن بين السمع والبَصر
عذوبة صدرت عن منطقٍ ينع ... كالماء يخرج ينبوعاً من الحجرِ
وروضة من رياض الفكر دبّجها ... صوبُ القرائح لا صَوْبٌ من المطر

---

(١) الأبيات في ملحق ديوان ابن الزقاق ص ٢٩١.

(٢) البيت الأول للحسن بن وهب في ديوان المعاني ٢/ ٨٣، وليس في ديوان ابن الزقاق.

كأنما نشرتْ أيدي الرّبيع بها ... بُرْداً من الوشي أو ثوباً من الحِبَرِ

ولابن طاهر في ابن ثوابة: [البسيط]

في كل يوم صدور الكتب صادرةٌ ... عن رأيه وندى كَفَّيْه عن مَثَلِ

عن خط أقلامهِ خط القضاء على الأعـ ... ـداء بالموت بين البيضِ والأَسَلِ

لعابها عَسَلٌ في الصدر تبعثه ... وربما كان فيه النفع للعِلَلِ

كأنَّ أسطارها في بطن مُهْرَقةٍ ... نَوْرٌ يضاحك دمع الواكف الخضِلِ

وقال بعضهم: [الوافر]

كتاب فيه من غُرَرِ المعاني ... قلائد لا تنظمها اليدانِ

إذا نشرت صحائفه تجلَّتْ ... بروضتها أزاهيرُ المعانِي

ترود العين منها في مَرَادٍ ... مريع جاده فيض البنان

كأن مجال عين الفكرِ فيهِ ... مجال اللحظ في غُرَر الحسانِ

وقال آخر: [الطويل]

يدير على القرطاس أسمر مرهفاً ... إذا دار لم تلحق به البيضُ والسُّمْرُ

كأنَّ المعاني روضة وهو غيثُها ... فمهما سقي أغصانها ضحِك الزَّهْرُ

وقال الرماديّ: [مجزوء الكامل]

قلم الوزير وكفّه ... هذا يصول وذا يطولُ

أضحى كليث خفيَّة ... ودواته للَّيث غيلُ

* * *

أخلاقُ سَيِّدِنا تُحَبّ، وبِعقْوتِه يُلَبّ، وقربُهُ تُحَف، ونأيه تَلَف، وخلّتُهُ نَسَب، وَقِطيعَتُهُ نَصَب، وغربُه ذَلِق، وشُهْبُهُ تأتلق، وَظَلْفهُ زانَ، وقويمُ نَهْجِهِ بَانَ، وذهنُه قَلّب وَجَرَّبَ، ونَعْتُهُ شَرّقَ وغرَّب. [الخفيف]

سَيِّدٌ قُلَّبٌ سَبوقٌ مُبِرٌّ ... فَطِنٌ مُغْرِبٌ عَزوفٌ عَيُوفُ

مُخْلِفٌ مُتْلِفٌ أَغَرُّ فريدٌ ... نابِهٌ فاضِلٌ ذَكِيٌّ أَنُوفُ

مُفْلِقٌ إن أبان، طبٌّ إذا نا ... بَ هِياجٌ وجَلَّ خَطْبٌ مخوفُ

* * *

قوله: أخلاق سيدنا تحب، حسن أخلاق الإنسان من كمال سعادته، وكرم فضيلته، وكان رسول الله ﷺ يقول «اللهمّ كما حسَّنت خَلْقي فحسِّن خُلُقي» مع أن الله عز وجل يقول فيه: ﴿وإنَّك لَعَلَى خُلُقٍ عظيم﴾ [القلم: ٤].

قوله: وبعقوته يلَبّ، أي بمنزله يقام لحماية الممدوح من يلوذ به وإكرامه له. وقربه تحف، أي من قرب منه أتحفه وهاداه، ومن بَعُد منه فقد الأمْنَ فهلك. والنأي: البعد، ولمّا كان القربُ سبباً للتّحف والنأي سبباً للتلف، جعل نفس القرب والبعد هما الحياة والموت. خَلّته: صداقته. نسب، أي هو للصديق بمنزلة النسيب، قيل لبزرُجُمْهِر: مَنْ أحبّ إليك: أخوك أم صديقك؟ فقال: لا أحبّ أخي إلا إذا كان صديقي. وقال أكثم بن صيفي: القرابة تحتاج إلى مودّة، والمودة لا تحتاج إلى قرابة. وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: القرابة قد تقطع، والمعروف قد يكفر، وما رأيت كتقارب القلوب، أخذه ابن مناذر فقال: **[الخفيف]**

قدْ يُقطَع الرحم القريب وتُكـ ـفر النعمى ولا كتقارب القلبين

يُدْني الهوى هذا، ويدني ذا هوًى فإذا هما نفس تُرَى نفسيْنِ

أخذه أبو تمام فحسَّنه فقال: **[الطويل]**

فإنّ الفتى في كلّ حال مناسِبٌ مَنَاسبَ روحانيةً مَنْ يشاكلُ[(١)]

ولن تَنْظم العِقدَ الكعابُ لزينة كما تنظم الشملَ الأشتَّ الشمائلُ

وقد تقدَّم حديثِ: «الأرواح جنود مجندة»[(٢)]، ونظم الحسن له.

وقال الشاعر: **[الكامل]**

لا خيرَ في قربَى بغير مودّةٍ ولربّ منتفعٍ بودّ أباعدِ

وإذا وجدت من البعيد مودَّةٍ فامْدُدْ له كفَّ القبول بساعدِ

قوله: وقطيعته نصب، أي عداوته همٌّ وتعب، وقد قال أبو تمام: **[الطويل]**

وإلا فأعلِمْه بأنك ساخطٌ ودعه فإنّ الخوف لا شك قاتِلُهْ[(٣)]

غربه: أي حدّه. ذِلق، أي حادّ. شهبه: نجومه، يعني أخلاقه ومكارمه. تأتلق: تضيء وظَلَفه: منعه وكفه، وظلفت نفسي عن الشيء: منعتها منه. زان: يزين، يقول إن قمعه من تجاوز قدره ومنعه مَنْ سأل ما لا يحبّ زُيّن بالممنوع، وشرّف بالمقموع، فتأديب الملوك لا عارَ به، وإنما العار أن يهينك كفؤك، ومَنْ لا حكم له عليك. وقال المتنبي: **[الطويل]**

ومِنْ شرف الإقدام أنك فيهمُ على القتل موموق كأنّك شاكدُ[(٤)]

---

(١) البيتان في ديوان أبي تمام ص ٢٥٦.

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء باب ٢، ومسلم في البر حديث ١٥٩، ١٦٠، وأبو داود في الأدب باب ١٦، وأحمد في المسند ٢/ ٢٩٥، ٥٢٧، ٥٣٧.

(٣) البيت في ديوان أبي تمام ص ٢٣٢.

(٤) البيتان في ديوان المتنبي ١/ ٢٧٦.

وإنّ دما أجريته بك فاخِرٌ ... وإنّ فؤادا رُعْتَهُ لك حامدُ

وقال حبيب: [الكامل]

خشعوا لصولتك التي هي عندهم ... كالموت يأتي ليس فيه عارُ[(١)]

وقال آخر: [الطويل]

وإنّ أمير المؤمنين وعتبه ... لَكَالدَّهْر لا عارٌ بما فعل الدّهْرُ

وإذا تزين بمنعه، فما ظنك بعطائه! على أن اليد القابلة للجدوى، وهي اليد السفلى، لا تنفك عن حشمة أو ذلة، وقد اعتذروا لهذا المعنى، قال أبو تمام: [الطويل]

رأيتُ رجائي فيك وحدك همة ... ولكنه في سائر الناس مطمع[(٢)]

وقال أيضاً: [البسيط]

تُدْعَى عطاياه وَفْراً وهي إن شهرتْ ... كانت فخاراً لمن يعروه مؤتنِفا[(٣)]

ما زلت منتظراً أعجوبة زمناً ... حتى رأيت نوالاً يقتضي شرفَا

وقال إبراهيم بن العباس: [الطويل]

إذا طمعٌ يوماً عراني منحتُه ... كتائب يأس كَرّها وطرادَها[(٤)]

سوى طمعٍ يدني إليك فإنّه ... يبلغ أسباب العلا مَنْ أرادَها

وقال الخريمي: [الطويل]

عطاؤك زين لامرىء إن أصبته ... بخير وما كلّ العطاء يزينُ[(٥)]

وليس بعار لامرىءٍ بذلُ وجهه ... إليك كما بعضُ السؤال يشينُ

وقال أبو الطيب: [الوافر]

وفيضُ نواله شرفٌ وزينٌ ... وفيضُ نوال بعض الناس ذمّ

وقال ابن أبي خالد: [الخفيف]

شرف للشريف منك نوال ... رُبَّ نيل تَعافُهُ الأحرَارُ

---

(١) البيت في ديوان أبي تمام ص ١٤٦.

(٢) البيت في ديوان أبي تمام ص ١٩٢.

(٣) ديوان أبي تمام ص ٢٠١.

(٤) البيتان في ديوان الصولي ص ١٨٣.

(٥) البيتان لأمية بن أبي الصلت في ديوانه ص ٦٣، والبيت الأول في الاشتقاق ص ١٤٤، وديوان المعاني ١/ ٤٦، والأغاني ٨/ ٣٤٢، وهو بلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٨٣١.

فزاد بقوله: للشريف على من سبق.

قوله: قويم نهجه، أي مستقيم طريقه. بان تبين. قلّب: بحث. شرّق وغرّب: أي مشى بوصفه المادحون شرقاً وغرباً، وأنشد المتنبي وزاد فيه معنى: [الطويل]

ستحيا بك السّمّار ما لاح كوكبٌ ... وتحدو بك السفّار ما ذرّ شارقُ[1]

تخلّى من الدنيا ليُنْسَى فما خلَتْ ... مغاربُها من ذكره والمشارق

قلّب: درّب بالأمور، وفلان حوّل قلّب، إذا كان متصرّفاً في أموره، نفاعا لأوليائه، ضرّاراً لأعدائه، كأنه لمعرفته بالأمور قد حوّل الأمور وقلبها. ومبرّ، أي غالب لأعدائه. فطن: ذكي. مُغْرِب: يأتي بالغرائب. عزوف: نزيه النفس بعيد من الريب. عيوف: كاره للدنايا. والمتلف عند العرب: الذي يتلف ماله بالجود. والمخلف: الذي يخلف ما أتلف بالإغارة على الأعداء، وأخذ أموالهم، يصفه بالشجاعة والكرم. وقال البحتريّ: [الطويل]

بأَرْوَعَ من طيٍّ كأن قميصَه ... يُزَرُّ على الشيخين زيد وحاتم[2]

سماحاً وبأسا كالصواعق والحيا ... إذا اجتمعا في العارض المتراكم

وقال ابن الروميّ: [المنسرح]

لم تخلني قط من صنائعك الـ ... ـغرّ ولا من حروبك الضّرْسِ

تصرّف الغيث في صواعقه ... وتارة في سِجاله البجْسِ

وقال البحتريّ: [الطويل]

ضحوك إلى الأبطال وهو قريعهمْ ... وللسيف حدّ حين يسطو ورونقُ[3]

حياة وموت واحد منتهاهمَا ... كذلك غمر الماء يُروِي ويُغرقُ

وقال ديك الجن: [الكامل]

هو عارض زجلٌ فمن شاءَ الحَيا ... أرضى، وَمَنْ شاء الصواعق أغضبا[4]

وقال أبو مسهر: [البسيط]

تحيا الأنام به في الجدب إن قحطوا ... جوداً وتشقى به يوم الوغى الهام

كالمزن يجتمع الحالان فيه معاً ... ماء ونار، وإرهام وإضرامُ

وقال ابن الروميّ: [الكامل]

والناس طرًّا بين مرتقب ... سطواته ومؤمل نفْعَهْ

---

(١) البيتان في ديوان المتنبي ٢/٣٤٨.

(٢) البيتان في ديوان البحتري ص ١٩٧١.

(٣) ديوان البحتري ص ١٤٩٦.

(٤) البيت في ديوان ديك الجن الحمصي ص ١٥٠.

كـالـعـارض الـتـهـبـت صـواعـقـه   وسـقـي الـبـلاد فـلـم يـدع بُـقْـعَـهْ

قوله: أغرّ: مشهور. فريد: ليس له نظير. نابه: رفيع الذكر. ذكي: متوقد الفطنة، ويروى: «زكيّ»، وهو الطاهر العفيف، وقيل: هو المتزيد في الخير، والزّكاء: النماء والزيادة. أنوف: كثير الحمية والغضب لما يستراب منه. مفلق: فصيح، وأفلق: جاء بالفلق، وهي الداهية كأنه جاء من الفصاحة بما لا يطاق. أبان: بيّن كلامه. طبّ: حاذق حسن التدبير. ناب هياج: حدث شر واختلاف. جلّ خطب: عظم أمر. مناظم: جمع منظوم. تأتلف: تجتمع، يريد أن ما ينظم في شرفه من المدائح يأتلف بلا تكلّف على الشعراء لكثرة صفات الفضل والسؤدَد، كما قال حبيب: **[البسيط]**

تـغَـايَـر الـشِّـعـر فـيـه إذ سـهِـرتُ لَـهُ   حتى ظننتُ قوافيه ستقتتلُ[1]

وقال أبو الطيب: **[الطويل]**

لك الحمد في الدرّ الذي لِيَ لفظه   فـإنـك مـعـطـيـه وإنّـي نَـاظـمُ[2]

وقال آخر: **[الخفيف]**

ما لقينا من فَضْل جود ابن يحيى   صَـيّـر الـنـاس كـلـهـم شـعـراءَ

* * *

مَنَاظِمُ شَرَفِهِ تأْتَلِف، وشُؤبوبُ حِبائه يَكِف، ونائل يَدَيْهِ فَاضَ، وشُحُّ قَلْبِهِ غَاضَ، وخِلْف سَخَائِهِ يُحْتَلَب، وذَهَب عِيَابِهِ يُحْتَرَب. مَنْ لَفَّ لِفَّهُ فَلَجَ وَغَلَبَ، وتاجِرُ بابِهِ جَلَب وخَلَبَ. كفّ عَنْ هَضْم بَرِي. وبريء مِنْ دنسٍ غَوِي، وقَرَنَ لِيَانَه بِعِزّ، ونكّبَ عَنْ مَذْهَب كَزّ. لَيْسَ بوثّابٍ عِنْدَ نُهْزَةِ شَرّ، بَلْ يَعِفّ عِفّةَ بَرّ. **[الكامل]**

فـلِـهَـذا يُـحَـبُّ ويُـسْـتَـحَـقُّ عَـفـافُـهُ   شَـعَـفـاً بـه فـلـبـابُـهُ خَـلاَّبُ
أخـلاقُـهُ غُـرٌ تـرفّ وفُـوقُـه   فُـسـوقٌ إذا نـاضـلْـتَـه غـلاَّبُ
سُـحُـجٌ يَـهِـشّ وذو تـلافٍ إن هَـفَـا   خِـلٌّ فـلـيـسَ بـحـقـه يُـرْتَـابُ
لا بـاخـلٌ بـل بـاذلٌ خِـرَقٌ إذا   يُـعْـتَـرُ، بَـرْزٌ لا يـلـيـه بـابُ
إنْ عَـضَّ أَزْلٌ فَـلَّ غـربَ عِـضَـاضِـهِ   بـمـنـابِـهِ فـانـحـتّ مـنـهُ نـابُ

* * *

شؤبوب حبائه: دفع عطائه، والشؤبوب: دُفَع المطر. يكف: يقطر ويسقط. نائل:

---

(١) البيت في ديوان أبي تمام ص ٢٢٧.

(٢) البيت في ديوان المتنبي ٣/ ٣٩١.

عطاء. فاض: سال وخرج على الأرض. غاض: غاب وجفّ والخِلْف: حلمة الضَّرْع الذي يُحلب منه اللبن، وهو أيضاً اسم للضّرع. سخائه: جوده. عيابه: جمع عيبة يُحترب: يستلب، أي لكثرة جوده كأنّ ماله يسلبه القاصدون له. من لفّ لِفّه، أي من التف به ودخل في جماعته، واللّف: لفيف الناس، ولفّ القوم: اجتمعوا والتفّ بعضهم ببعض، وأخذ هذا اللفظ من قول الأعشى: **[الطويل]**

وقد ملأت بكرٌ وَمَنْ لَفّ لِفّها ... نُباكاً فأحواض الرّبا فالنواعصا[١]

بكْر قبيلة، ومَنْ لفّ لِفّها، أي مَن التفّ بها. فلج، أي ظفر بما أحبّ. جلب: ساق، أي التاجر الذي يقصد بابه بما جلب إليه من الفوائد يجازيه على ذلك بالعطاء الكثير، فلكثرة ما أخذ فكأنه قد خدعه، والملك المفضال يوصف أنه يُخدع لكثرة هباته، وقيل لعرَابة: بم سدت قومك؟ قال: أنخدع لهم في مالي. هضم: نقص، أراد أنه لا يهضم ولا يظلم من لم يذنب إليه. غَوِي: ضالّ مفسد. ليانه، أي لين خلقه. بعزّ. بمنع وبعظم، والعزة في اللغة: الشدة والمنَعة، والعزَاز: الأرض الصلبة، يريد أن الأمير إذا انبسط لم يهب، وإذا اشتدَّت سطوته لم يُؤْلَف، فحالة هذا الممدوح بين العزة واللين.

وقال أبو تمام: **[الكامل]**

المجدُ شيمتُه وفيه فكاهةٌ ... سمحٌ ولا جدّ لمن لم يلعبِ[٢]

شرِسٌ يتبع ذاك لينُ خليقةٍ ... لا خيرَ في الصَّهبَاءِ ما لم تقطّبِ

نَكَب: عدل ومال. مذهب: طريق: كزّ: بخيل قليل الخير. وثّاب: عجول كثير الوثوب. نُهزة: فرصة وغنيمة. ويعفّ: يكف نفسه. بَرّ: مطيع لله، أراد أنه عفيف عن المحارم. قوله: شعفا، أي حبا يطلب الغاية، وشعاف القلب: أعلاه. يريد أن عفافه بلّغه غايةَ الحبّ من القلوب، وفلان مشعوف بفلان، إذا ذهب به حبّه كل مذهب. الفراء: هو من الشّعف، وهي رؤوس الجبال، واحدها شعفة، فكأنَ معنى شعف بفلان، ارتفع حبه إلى أعلى موضع فيه.

لبابه: خالصه. خلاب: آخذ للنفس غالب عليها. غُرّ: حسان. ترفّ: تتلألأ وتشرق، والرفيف: بريق اللون. وفُوقه: سهمه والفُوق: طرف السهم الذي يلي الوتر. ناضلته: راميته، يقول: سهمه غلاّب لمن راماه. سحج: سهل الخلق. يهشّ: يهتزّ طربا. تلاف: تدارك. هفا: زلّ وسقط، والهفوة: الزلة. خِلّ: صاحب. يرتاب: يشكّ. خِرق: كريم جواد يتخرّق في العطاء. يعتر: يقصد. بَرْز: ظاهر غير محتجب. قال

---

(١) البيت في ديوان الأعشى ص ١٩٩، ولسان العرب (نعص)، ومقاييس اللغة ٥/ ٢٠٧، ومجمل اللغة ٤/ ٢٤٧، وتاج العروس (نعص)، (لفف)، (نبك).

(٢) البيتان في ديوان أبي تمام ص ١٣.

الفنجديهيّ: رجل بَرْز، أي عفيف عاقل كريم. لا يليه باب، أي لا يحتجب ببابه دون قصاده.

[مما قيل في الحجاب]

[الكامل]

شاد الملوكُ قصورهم وتحصَّنُوا ... من كلّ طالب حاجة أو راغبِ
غالوْا بأبواب الحديد لعزها ... وتنافسوا في قبح وجه الحاجب
فإذا تلطَّف للدخول عليهمُ ... راجٍ تلقَّوْه بعذرٍ كاذبِ
فاطلب إلى ملك الملوك ولا تكن ... باديَ الضراعة طالباً من طالبِ

هي لمحمود الورّاق.

وقال أبو مسهر: أتيت أبا جعفر محمد بن عبد الكافي فحجبني، فكتبت إليه: [البسيط]

إني أتيتكَ للتسليم أمسِ فلمْ ... تأذَنْ عليك لِيَ الأستارُ والحجبُ
وقد علمتُ بأني لم أردّ ولا ... والله ما ردّ إلا الحلم والأدبُ

فأجابني بهذا القول: [البسيط]

لو كنتَ كافأت بالحسنى لقلت كما ... قال ابن أوس وفيما قاله أدبُ
ليس الحجاب بمقصٍ عنك لي أملاً ... إنّ السماء ترجّى حين تحتجبُ

وقال حبيب: [الطويل]

سأترك هذا الباب ما دام إذنه ... على ما أرى حتى يلين قليلاَ
فما خاب مَنْ لم يأتِه متعمداً ... ولا فاز من قَدْ نال منه وصولاَ
ولا جعلت أرزاقنا بيد امرىء ... حمى بابه من أن يُنال دخولا
إذا لم أجد للإذن عندك موضعاً ... وجدت إلى ترك المجيء سبيلا

وحُجِب أبو العتاهية عن بعض الهاشميين، وقال له: تكون لك عودة فقال: [الطويل]

لئن عدتُ بعد اليوم إني لظالمُ ... سأصرف نفسي حيث تُبغَى المكارمُ
مَتى يظفرِ الغادي إليك بحاجةٍ ... ونصفك محجوبٌ ونصفك نائم!

قال المتنبي: [الكامل]

أصبحتَ تأمرُ بالحجاب لخلوةٍ ... هيهات لستَ على الحجاب بقادرِ[1]

(١) الأبيات في ديوان المتنبي ٢/ ١٣٧.

مَنْ كان ضوء جبينه ونوالِهِ   لم يحجبا لم يحتجبْ عن ناظرِ
فإذا احتجبتَ فأنت غير محجّبٍ   وإذا بَطَنْتَ فأنت عينُ الظاهر

وقال جرير: [الكامل]

قومٌ إذا حضر الملوكَ وفودُهم   نُتِفَتْ شواربهُمْ على الأبواب(1)

وقال آخر: [الطويل]

نهيت جميع الناس عن كلّ خطة   يدبِّرها في رأيها ابنُ هشامِ
فلمّا وردنا الباب أيقنت أنّنَا   على الله والسلطان غيرَ كرام

وقال آخر: [الطويل]

وكل خفيف الشأن يدعى مشمّراً   إذا فتح البوّاب بابك إصبعَا
ونحن الجلوس الماكثون توقّراً   حياء إلى أن يفتح الباب أجمعَا

قوله: عض أزل، أي اشتد زمان، والأزل: ضيق العيش من الجدب والقحط، وعضّ: قبض بأسنانه. فلّ: كسر. غرْب: حدّ. بمنابه: بكفايته. انحتّ: انكسر. ناب: سنّ، يقول: إن عضت الشدائد الناسَ وأضرتْ بهم دفعها وكسر أنيابها بمواهبه وخيره لمن أفقرته. ومن مليح ما قيل في هذا المعنى قول المتنبي: [الكامل]

أظمتْنِيَ الدّنيا فلمّا جئته   مستسقيا مطرتْ عليّ سحائبَا(2)
حالٌ متى علم ابنُ منصور بها   جاء الزمان إليّ منها تائبَا

نقل المتنبي اللفظ والمعنى من قول أبي تمامٍ: [الكامل]

كثرت خطايا الدهر فيّ وقد يرى   لنداك وهو إليّ منها تائبُ(3)

وألمّ به الحصني أيضاً في قوله: [الطويل]

وقد تحسنُ الأيّام بعد إساءةٍ   ويذنب صَرف الدهر ثم يتوبُ

وقال ابن المعتز: [المتقارب]

وعوّقني الدهر عن قُربه   زمانا فقد تاب عن ظلمه

وقال ابن الرومي: [الطويل]

أساءت لي الأيام يا بن محمّد   وهنّ إليّ اليوم معتذرات
رأين مطافي حول عفوك عائداً   فهنّ لما أبصرنه حذرات

---

(1) البيت في ديوان جرير ص ٥٦.

(2) البيتان في ديوان المتنبي ١/ ١٢٥.

(3) البيت في ديوان أبي تمام ص ٢٩.

وقال أبو تمام: **[الطويل]**

إذا العيس لاقت بي أبا دلف غداً ... تقطع ما بيني وبينه النوائب

وقال أبو نواس: **[الطويل]**

أخذتُ بحبلٍ من حبال محمدٍ ... أمنتُ به من طارق الحدثَانِ

تغطّيت من دهري بظلّ جناحِه ... فعيني ترى دهري وليس يرانيَ

فلو تسأل الأيام عَنّي ما دَرَتْ ... وأين مكاني ما عرفن مكانِي

وقال أيضاً: **[الخفيف]**

أنا في ذمّة الخصيب مقيمٌ ... حيث لا تهتدي صروفُ الزمانِ

قد عرفْنا من الخصيب خلالاً ... آمنتنا طوارق الحدَثانِ

كيف أخشى من الليالي اغتيالاً ... ومكاني من الخصيب مكانِي

* * *

وجَدِيرٌ بمَنْ لَبَّ وفَطَنَ، وقَرَبَ وشَطَن، أن أَذعَنَ لِقَرِيعِ زَمَن، وجَابِرِ زَمِن، مُذْ رَضِعَ ثَدْيَ لِبانِهِ، خُصَّ بإفاضَةِ تَهْتَانِه. نَعَش وفرَّج، وضافَرَ فأبْهَج، ونافَرَ فأزْعَجَ، وفاءَ بحقٍّ أبْلَج، أتْعَبَ مَنْ سَيَلِي، وقُرِّظَ إذْ هُزَّ وَبُلِي، وتَوَّجَ صفَاتِهِ، بِحُبِّ عُفَاتِهِ. **[مجزوء الرجز]**

فَلاَ خَلاَ ذَا بَهْجَةٍ ... يَمْتَدُّ ظِلُّ خِصْبِهِ

فإنه بَرٌّ بِمَنْ ... آنَسَ ضَوْءَ شَهْبِهِ

زانَ مَزَايا ظَرْفِهِ ... بِلُبْسِ خوفِ ربِّهِ

* * *

قوله: جدير، أي حقيق. لبّ: كان لبيباً وعاقلاً. شَطن: بَعُد. أذعَن: ذلّ وانقاد. القريع: السيد يدفع ضرّ الزمن ويقرعه. جابر زَمِن، أي مغني فقير، والزمِن الفقير الذي لازمه الفقْر أو المريض الذي لازمه المرض، وبه زمانة، وأصل ذلك من لزمن. لبانه، أي لبن أمّه، وقال في الدرة. وقولهم: الرضيع الإنسان ارتضع بلبنه، صوابه بلبانه، لأن اللّبن هو المشروب، واللّبان، هو مصدر لابنه، أي شاركه في شُرْب اللبن، هذا معنى كلامهم الذي نحوا إليه ولفظوا به. التّهتان: سيّلان المطر، وإفاضته: صبّه، وأراد في لبن أمه، أرتضع الجود فداوم عليه، كقول المتنبّي: **[المتقارب]**

سموْا للمعالي وهم صِبيةٌ ... وسادوا وقادوا وهم في المهودِ[1]

---

(١) البيت في ديوان المتنبي ١/ ٣٤٥.

وقد غلط المتنبي في هذا، ونُسب فيه إلى الكذب والمحال الفاضح، لأن سيادة الأطفال في المهود وقوْد الجيوش من أمْحلِ المحال، وهذا وإن كان ظاهره كذلك، فقد اتسعت العرب وأهل الأدب في هذا القدر، وأقاموا تخيّل النجابة في المولود في مهده مقام وجودها في كبره. ثم إذا وجدوا صفة الكمال في الرجل التامّ حكموا بكمالها، لأنه رضعها في ثدي أمه، أو غذي بها في بطنَ أمه، ألا ترى قوله: تعلمت العلم قبل أن يقطع سرّك وسرَرُك، وقبل أن يقطع ذاك، كان في بطن أمّه، وهذا لم ينكره أحد، ومن شعر الحماسة في الذي رأى المهلب في مهده فقال: [الطويل]

خذوني به إنْ لم يَسُدْ سرواتهمْ ويبرع حتى لا يصاب له مثلُ

وفيها أيضاً: [الطويل]

لئن فرحت بي معقل عند شيبتي لقد فرحت بي بين أيدي القوابل

وذلك لتخيّل النجابة فيه في ذلك الوقت، ألا ترى ما تثبت نِساء العرب من بلوغ السيادة لأبنائهنّ عند ترقيصهن، وانظر إلى ذلك إن شئت في فصل نظمناه في كتابنا الموضوع لاختصار نوادر أبي عليّ، فقد سقط عن المتنبي والحريري بهذا ما عِيب عليهما، وقال سوار بن أبي شراعة: [الرمل]

تعرف السّودَدَ في مولودهم وتراه سيّداً إن أيفعا

نَعَش: رفع الضعيف بجوده. فرّج: أزال همه. ضافر: فاخر. أبهج: أدخل السرور على أحبابه إذا كان له الغلب. نافر: حاكم في النسب.

وكانوا في الجاهلية إذا تنازع الرّجلان الشّرف تنافرا إلى حكمائهم فيفضّلون الأشرف، وسميت منافرة لأنهم كانوا يقولون عند المفاخرة: أيّنا أعزّ نَفراً.

[منافرة عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة]

وأشهر منافرة في الجاهلية منافرة عامر بن الطّفيل بن مالك بن جعفر بن كلاب مع علقمة بن عُلاثة بن عوف بن الأحوص بن جعفر، حين قال له علقمة: الرياسة لجدّي الأحوص، وإنما صارت إلى عمك أبي براء من أجْله، وقد أسنّ عمك وقعد عنها، فأنا أوْلى بها منك. وإن شئت نافرتُك، فقال عامر: قد شئت والله؛ لأنا أكرم منك حسباً، وأثبت نسباً، وأطول قصباً، فقال علقمة: أنافرك وإني لبرّ وإنّك لفاجر، وإني لولود وإنك لعاقر، وإني لعفٌّ وإنك لعاهر، وإني لوافٍ وإنك لغادر؛ فقال عامر: أنافرك؛ أنا أسنى منك سنّة، وأطولُ قمّة، وأحسن لمّة، وأجعدُ جمّة، وأبعد هِمّة. فقال علقمة: أنت جسيم وأنا قضيف[1]، وأنت جميل، وأنا قبيح؛ ولكن أنافرك أنا أولى بالخيرات منك.

---

(١) القضيف: النحيف.

فخرجت أمّ عامر فقالت: نافره أيُكما أولى بالخيرات، ففعلوا على أن جعلوا مائة من الإبل يعطاها الحكم الذي ينفر عليه صاحبه، فخرج علقمة ببني خالد بن الأصفر وبني الأحوص ومعهما القباب والجزور والقدور؛ ينحرون في كلّ منزل يطعمون، وخرج عامر ببني مالك، وقال: إنها المقارعة عن أحسابكم، فاشخصوا: بمثل ما شخص به، وقال لعمه أبي براءِ: أعنّي، فقال: سُبّنِي، فقال لا أسبّك وأنت عمّي، فقال: وأنا لا أسبُّ الأحوص وهو عمّي، ولكن دونك نعلي، فإني ربعت فيها أربعين سنة؛ ولم ينهض معه. فجعلا منافرتهما إلى أبي سفيان بن حرب بن أميّةَ، ثم إلى أبي جهل بن هشام، فلم يقولا بينهما شيئاً، ثم رجعا آخر إلى هرِم بن قطبة بن سيار بن عمر الفزاريّ، فقال: لعمري لأحكمنّ بينكما، فأعطِياني موثقاً أطمئن إليه أن ترضيَا بحكمي، وتسلّما ما قضيت بينكما. ففعلا، فأقاموا عنده أيّاماً فأرسل إلى عامر فأتاه سرًّا، فقال: قد كنت أحسب أنّ لك رأيا، وأن فيك خيراً، وما حبستك هذه المدة إلا لتنصرف عن صاحبك؛ أتنافر رجلاً لا تفتخر أنت وقومك إلا بآبائه! فما الذي أنت به خيرٌ منه؟ فقال عامر: نشدتك الله والرحم، ألاّ تفضل عليّ علقمة، فوالله لئن فعلتَ لا أفلح بعدها، هذه ناصيتي فاجُززْها واحتكم في مالي، فإن كنت ولا بدّ فاعلاً فسوّ بيني وبينه، فقال له ما قال لعامر، فقال له: أتفاخر رجلاً هو ابن عمّك في النسب وأبوه أبوك وهو مع ذلك أعظم منك غَناء وأحمد لقاء، وأسمح سماحا! فما الذي أنت به خير منه! فردّ عليه علقمة ما ردّ عامر وانصرف وهو لا يشك أنه ينفّر عامراً عليه. فأرسل هرِم إلى بنيه وبني أخيه، وقال لهم: إني قائل غداً بينهما مقالة، فإذا فرغت فليطرد بعضكم عشر جزائر فلينحرْها عن علقمة، وليطردْ بعضُكم مثلها فلينحرْها عن عامر، وفرّقوا بين الناس لا يكون بينهم جماعة. ثم أصبح هرِم فجلس مجلسه وأقبل عامر وعلقمة حتى جلسا، فقال هرِم: إنكما يا بني جعفر قد تحاكمتما إليّ؛ أنتما كركبتي البعير الآدم الفحْل تقعان على الأرض معا، وليس فيكما واحد إلا وفيه ما ليس في صاحبه، وكلاكما سيد كريم. ولم يفضّل واحداً منهما على صاحبه لئلا يجب بذلك شرّاً بين الحيّين، ونحرت الجزر وفرّقت على الناس.

وعاش هرم حتى أدرك خلافة عمر رضي الله عنه، فقال: يا هرم، أي الرجلين كنت مفضلاً لو فعلت؟ فقال: لو قلت ذلك اليوم عادت جزعة، ولبلغت شعفات هَجَر، فقال عمر: نعم مستودع السرّ أنت يا هرم، مثلك فليستودع العشيرة أسرارهم، والحكاية طويلة، وقال فيه الأعشى: [السريع]

حكّمتموه فقضى بَيْنَكُمْ ... أبلجُ مثلُ القمرِ الباهرِ[1]

لا يقبل الرّشوة في حكمِه ... ولا يبالي غَيْرةَ الخاسِر

قوله: فاء، أي رجع. أبلج: بيّن ظاهر. أتعب من سَيَلي، يقول إن الأمير الذي

(١) البيتان في ديوان الأعشى ص ١٤١.

يأتي بعده في تعب لأنه يروم أن يفعل مثل ما فعل فيعجز عنه، وأعاد هذا المعنى منظماً في السابعة والثلاثين حين قال: **[السريع]**

سماحُهُ أزري بمن قبلَه وعَذْلُه أتعب مَنْ بعدهُ

أخذه من قول رجل قال لأحد الأمراء، وقد عزل عن عمله: أصبحتَ والله فاضحاً متعباً، أما فاضحاً فلكلّ وال قبْلك بحسن سيرتك، وأما متعباً فلكل والٍ بعدك أن يلحقك.

قرّظ: مدح. هزّ: حرك بالثناء عليه. بلى: جرّب. توّج صفاته، أي زيّنها وشرفها، عُفاته: قصاده، بهجة: سرور، وكنى بخصبه عن ماله ودعا له بالبركة والكثرة إذا جعله ممتدّ الظل، برّ: مكرم. آنس: أبصر. شهيه: نيرانه الساطعة. واحدها شهاب، وأصل هائه التثقيل فخففّت، وكانت العرب، توقد النيران فيقصدها الأضياف بالليل، أراد أنه كثير الإكرام لمن يقصد ناره، وأخذ اللفظ من قوله تعالى: **﴿آنس من جانب الطُّورِ ناراً﴾** [القصص: ٢٩]

مزايا: فضائل. ظرفه: حسن هيئته وعذوبة لسانه، وهو مصدر ظرُف يظرُف ظرفاً فهو ظريف، فمن قال: الظريف البليغ، وقصره على اللسان لم يَجزْ له أن يقول: ما أظرف زيد؟ على الاستفهام، ومن جعل الظرف حسن الوجه والهيئة جاز له ذلك، وكذلك مَنْ جعل الظرف عاماً فيكون معناه: أي شيء فيه من الظرف؟ أوجهه أم هيئته أم ذكاؤه وبلاغته؟.

بلُبس: اختلاط، أراد أنه يخلط الهزل بالجد، والمزاح وخفّة الطرب بالانقباض والحشمة، وقد تقدم في صفة التنوخي مثل هذا. والمزايا: جمع مزية وهي التمام والكمال، وأصلها من الزيّ.

* * *

فَلْيَهْنِ سَيِّدَنا فَوْزُه بِمَفَاخرَ تَأَثَّلَتْ وَجلَّتْ، وفوقُهُ بِصَنَائعِ تَمَّت ونمَّتْ، ويُلائِمْ قرْبَ حَضرته، غَوْثُ رِقِّهِ بحظٍّ مِنْ حَظْوَتِهِ؛ فإِنَّهُ تَلِيدُ نَدْب، وشَرِيدُ جَدْب، وجريح نوَبٍ أثَّرَتْ، وناظِمُ قَلائدَ تَسيَرتْ، إذا جاشَ لخُطبةٍ فَلاَ يُوجَدُ قائل، ثمّ قسٌّ ثَمَّ باقِل.

فإن حَبَّر قلتَ: حِبَرٌ نُمْنِمَت، وخِلْتَ رياضاً قَدْ نَمَتْ، هذا ثمّ شِرْبُهُ بَرْض؛ وقوتُه قَرْض، وفَلْقُهُ غَسَقَ، وجلبابه خَلَق، وقد قلقَ لِتوغّرِ غريمٍ غاشم، يَسْتَحِثُّهُ بحقٍّ لازم؛ فإِنْ مَنَّ سَيِّدُنا بكفهِ، بهباتِ كفِّهِ، توشَّحَ بِمجدٍ فاقَ، وباء بأجرْ فكّي مِن وثاق.

لا خَلَتْ سجايا خُلُقِهِ، تَرْفُدُ شائمَ برقِهِ، بِمَنْ رَبٌّ أزليّ، حيٌّ أبَديّ.

* * *

فوزه: ظفره. تأثلت: تقدمت واتصلت. جلّت: عظمت. فوقهُ: سبقه صنائع: أفعال جميلة. نمت: اشتهرت. يلائم: يوافق. حضرته: موضعه الذي يحضر فيه، والقرَب: جمع قرية، وهي ما يتقرب به من أعمال البر إلى الله تعالى ومن الهدايا إلى الملوك، غوث: إغاثة وكشف ضرّ. رقّه: عبده. حظّ: نصيب. حظوته: مكانته ورفعته، تليد ندب؛ تقول: ندبت القوم دعوتهم، يريد أنه عبد الدعوة التي دعاه بها خصمه إلى الوالي، والتّليد من العبيد: ما ولد عند غيرك ثم اشتريته صغيراً، فكبر عندك، وجعل نفسه عبداً للدعوة لما تعبّد بها، أو يريد بالتليد القديم، فإن التليد والتالد المال القديم، وللنّدب: الهمّ، من ندبت الميت ندباً، فيريد أنه قديم همّ، ورجل ندب، أي خفيف في قضاء الحوائج لأصحابه، فيريد على هذا بتليد ندب، أي خفيف ومن هذه صفته فقد وجبت حرمته. وشريد جدب: طريد فقر وجوع، والجدب ضد الخصب، نوب: نوازل، أثّرت: أبقت به أثراً وأثرها أخذها ماله حتى عاد فقيراً، فمن نظره رأي أثر النوائب عليه، ناظم قلائد: قائل قصائد، ورسائل تسيّرت: مشت في الناس والبلاد، جاش لخطبة: تحرك صدره للكلام بها، يريد أنه إذا أراد قول خطبة ازدحم الكلام في صدره وارتفع، كما يجيش القِدر، أي يغلي، ونقدم هذا الكلام.

قسّ: فصيح العرب، ويأتي ذكره في الأربعين، ثمّ، معناه هنالك، باقل، تقدم، يريد أن قسا على فصاحته لو حضر مع الموصوف لنظم أو نثر لرجع في عيّ باقل، والعادة إنما يذكر معه سحبان للزوم الرسالة وقال حبيب وذكر ثلاثة من أصحابه عبد الله ابن طاهر: أول: **[الكامل]**

حازوا خلائق قد تيقّنت العلا ... كلّ التيقّن أنهنّ نجومُها[1]

ثان: **[الكامل]**

لو أن باقلاً المفهَّهَ ينبِري ... في مدحها سهلت عليه حزُومها

ثالث:

ولو أن سحبانا يسحب ذيله ... في ذمها لم يدر كيف يذيمها

حبّر: قال شعراً أو رسالة. وأصل حَبّر: وشّى وزين، حِبَر: ثياب موشاة. نُمِنمتْ: زينت ورقمت. نمّت: تحركت بالروائح العطرة.

وقال الصابي في المهلبي وكأنه يصف هذا الكلام: **[الخفيف]**

---

(١) البيت في ديوان أبي تمام ص ٣١١.

وإن استنطق الأنامل جاءتْ ببيان كالجوهر المنضودِ
في سطور كأنّما نشرتْ يمنـ ـاه منها عصائباً مِنْ بُرودِ
فِقَرٌ لم يزل فقيراً إليها كلُّ مبدي بلاغة ومعيدِ
يَغتدِي البارع المفيد لديها لاحقاً بالمقصّر المستفيد
ببيان شافٍ ولفظ مصيب واختصارٍ كافٍ ومعنى سديدِ

وله في مثله أيضاً: [الطويل]

وكم من يد بيضاءِ حازت جمالها يدٌ لك لا تسودّ إلا من النقْسِ
إذا رقّشت بيضَ الصحائف خِلْتَهَا تطرّز بالظلماء أردية الشمسِ

وقال السريّ رحمه الله تعالى: [الكامل]

شغلتك عن حسن الشآم مدائحٌ حسنت فما تنفك تطرب سامعا
زهر إذا صافحن سمع معاندٍ خَفَض الكلام وغضّ طرفاً خاشعا
جاءتكَ مثلَ بدائع الوشيِ الذي ما زال في صنعاء يتعب صانعا
أو كالربيع يريك أخضر يانعاً متورّداً شرقاً وأصفر فاقعا

وله أيضاً في مثله: [البسيط]

سأبعث الحمد موشياً سبائبهُ إلى الأمير صحيحاً غير مؤتشبِ
إنّ المدائح لا تهدى لِناقدها إلا وألفاظها أصفى من الذهب
كم رُضتَ بالفكر منها روضة أنفاً تفتّح الزهر فيها عن جنَى الأدب
لفظ يروح له الريحان مطّرحاً إذا جعلناه ريحانا على النخب

قوله: شِربه، أي حظه من الماء، بَرْض: قليل. قرض: سلف، والقرض ما أخِذ ليعوض منه. وفلقه: ضوء صبحه، غسق: ظلام، يريد أن حاله متغيرة. جلبابه: ثوبه. خَلق: بالٍ. توغّر: توقدّ واشتدّ غضبه، والتّوغر: التوقد، الشدّة الغيظ، والوغر شدة الحر، غاشم: ظالم جافّ. يستحثه: يستعجله، لازم: واجب، منّ: أنعم وأحسن، بكفّه: برده عني، هبات: عطايا. توشح: تحزم وتزين، وتوشح الرجل بثوبه: جعله موضع الوشاح وتحزم، فاق: فضل بهذا المجد كل أحد. باء: رجع، فكّي: إنقاذي. وثاق: شدّ وربط، سجايا: طبائع، ترفد: تصل وتعين، والرّفد: المعونة: شائم برقه: راجي خيره ونازل أمره، ونزّل البرق منزلة الجود لأنه يأتي بالمطر والمطر يشبَّه به الجود: بمنّ: بإحسان وإنعام، أزليّ: قديم. أبديّ باقٍ مع الأبد وهو الدهر.

وإذ قد فرغنا من شرح هذه الرسالة على صعوبتها، فإنا نعتذر إلى مَنْ وقف على شرحنا لها من صعوبة هذا المقام، فإن هذه الرسالة وأمثالها إنما يؤتى بها على جهة المُلَح

والاقتدار، لا على أنها من نفيس الكلام الفصيح، ألا ترى الحريريّ كيف اعتذر في مثلها حيث قال: أجلّ الأبيات العرائس، وإن لم يكنّ نفائس؛ ولا شك أن الشارح لمثل هذه الرسالة يقارب تعب منشئها في أنه يغوص على تلك الاستعارات البعيدة، فيريد أن يبرز المعنى في غاية البيان، واللفظ في أغلبها موضوع على غاية الإبهام، فوقع التمانع، فلا يصل إلى عبارة متوسطة تتعلق بالمعنى، ولا تبعد من اللفظ إلا بعد جهد، فهذا عذرنا في هذه الرسالة الرقطاء والقهقرية والخيفاء المتقدمتين، وما علمت أحداً شرحها شرحنا ولا بلغ منها مبلغنا، ولله منشئها من عالم بارع! فما اتفق له إنشاؤها إلا بعد التبحّر في علوم اللغات حتى كأنَّ أبا حفص بن برد يخاطبه بهذه الأبيات: [البسيط]

أبا العلاء استمع تعريضْ ذي مقةٍ ... أهدي لك الودّ محضاً غير مقطوبِ

أنت الذي لم نُعاشر مثلَهُ رجلاً ... في العلم والظرف والآداب والطيبِ

تحصيل فضلك للحسّاد معجزة ... وكُنْهُ علمك شيء غير محسوبِ

أمّا اللغات فما يعقوب يبلغ ما ... وعيت منها ولا أشياخُ يعقوبِ

* * *

قالَ: فَلَمَّا استشفَّ الأميرُ لآلِيهَا، وَلَمَحَ السِّرّ المودَعَ فيها، أوْعَزَ في الحال بقضاءِ دَيْني، وفصلَ بين خَصْمِي وبيني، ثمّ اسْتَخْلَصَني لِمُكاثَرتِهِ، واختصَّني بأثرِته، فلبثت بِضعَ سنين أنعم في ضيافته، وأرتعُ في ريف رأفتهِ؛ حتَّى إذا غَمرتْني مواهِبُهُ، وأطال ذيلِي ذَهبُهُ، تَلَطَّفت في الارتِحَالِ، على ما ترى مِنْ حُسْنِ الحال.

قال: فقلت لهُ شكراً لِمَنْ أتاحَ لَكَ لُقيان السَّمحِ الكَريم، وأنقذكَ مِنْ ضغطةِ الغريم، فقال: الحمدُ لله عَلَى سَعادَةِ الجدِّ، والخلوصِ مِنْ الخَصْمِ الألدِّ، ثم قال: أيُماء أحبُّ إليكِ؟ أن أحذِيَكَ من العطاء، أم أتحفَكَ بالرسالة الرَّقْطاءِ، فقلت: املاء الرسالة أحبُّ إليَّ، فقال: وهو وحقِّكَ أخفّ عليَّ، فَإنَّ نِحْلَةَ ما يلجُ في الآذان، أهونُ مِنْ نِحْلَةِ ما يخرجُ من الأرْدَان. ثمَّ كأنَهُ أنِفَ واستَحيا، فجمعَ لي بَيْنَ الرِّسالة والحُذْيا، ففزتُ مِنهُ بِسَهْمَينِ، وفصلت عنه بِغُنْمَيْنِ، وأبت إلى وطني قرير العينِ، بما حزتُ من الرسالة والعين.

قوله: استشفّ، نظر، لآليها: جواهر كلامها، لمح: رأى. المودع: المضمّن المجعول، وعنى بالسرّ ما ذكر من النقط لحرف والترك لآخر، أوعز: تقدم، فصل: قطع، استخلصني: ضمنّي وأنقذني منه. لمكاثرته: لزيادة عدده، يريد أن الأمير خلّصه من غريمه وضمه إليه، وجعله فيمن حواليه فكثروا به. اختصني بأثرته: أفردني

بعطيته، وآثرني بها على غيري. لبثت: أقمت، بضع سنين: قال أبو عبيدة رحمه الله: البضع من واحد إلى أربعة، وقال الأخفش: من واحد إلى عشرة، وقال الفراء: ما دون العشرة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: البضع من الثلاثة إلى عشرة، قال رسول الله ﷺ لأبي بكر لما نزلت ﴿**في بضع سنين**﴾ [الروم: ٤]: «البضع ما بين السبع والتسع»[1]، قال ابن سلام: فلما انقضت سبع سنين ظهرت الروم على فارس، وقال أبو محمد في الدّرة: البضع أكثر ما يستعمل فيما بين الثلاث إلى العشر، وأسرّ ذلك إلى النبي ﷺ في تفسير قوله تعالى ﴿**وهُمْ مِنْ بعد غَلَبهم سيغلبون في بضع سنين**﴾ [الروم: ٣، ٤]، وذلك أنّ المسلمين كانوا يحبون أن تظهر الروم على فارس، لأنهم أهل الكتاب والمشركون يميلون إلى أهل فارس، لأنهم أهل أوثان، فلما بشّر الله المسلمين بأنّ الروم سيغلبون سُرّ المسلمون، ثم إن أبا بكر رضي الله عنه أخبر مشركي قريش بما نزل عليهم، فقال له أمية بن خلف: خاطرني على ذلك، فخاطره على خمس قلائص في مدة ثلاث سنين، ثم أتى النبي ﷺ فسأله عن البضع، فقال: ما بين الثلاثة إلى العشرة، فأخبره بخطاره مع ابن خلف. فقال له: ما حملك على تقريب المدة؟ قال: الثقة بالله ورسوله، فقال له: عد إليهم فزدهم في الخطر، وازدد في الأجل، فزدهم قلوصين وزادوه سنتين، فظفرت الروم بفارس قبل انقضاء الأجل الثاني تصديقاً لتقدير أبي بكر رضي الله عنه. ويقال البضع بغير هاء للمؤنث مثل خمس وبضعة للمذكر مثل خمسة.

أرتع: آكل وأتنعم، والريف: الخصب، والرأفة: الرفق. غمرتني مواهبه: غطّتني عطاياه، وأراد بإطالة ذيله كثرة ماله حتى صار منه فضول، وصار يجرّ ذيله تبختراً. تلطفت: تسللّت برفق، أتاح: قدّر. لقيان: لقاء. الضُغطة: التضييق، وضغطه: ضيَّق عليه، الجَدّ: الحظ والسعد. الألدّ: الشديد الخصومة. أحذيك: أعطيك. أتحفك: أهديك. وإملاء الرسالة: إلقاؤه عليه ليكتبها. نِحلة: عطية، يلج: يدخل، الأردان: الأكمام. أنف: كبُر ذلك عليه واستنكفه، والحذيا: العطية فصلت: زلت، أبْتُ: رجعت. قرير العين: مسروراً بالفائدة. حزت: جمعت وصار في حوزي، أي في ملكي. والعين: الذّهب الأحمر.

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير، تفسير سورة ٣٠، باب ١، ٣.

المقامة السَّابعة والعشرُون

وَهيَ الوَبَرِيّة

حكى الحارثُ بن همّامٍ، قالَ: ملْتُ في ريّق زَمَاني الّذي غَبَر، إلى مُجاوَرَةِ أهل الوَبَر؛ لآخذَ أخْذَ نُفُوسِهِم الأبيّةِ، وألْسِنتِهِم العربيَّةِ، فشمّرتُ تَشمِيرَ مَنْ لا يألو جُهْداً، وجعلتُ أضربُ في الأرض غوْراً ونجداً؛ إلى أن اقْتَنَيْتُ هَجْمَةً من الرَّاغية وثَلَّةً من الثَّاغية، ثمَّ أوَيْتُ إلى عَرَبٍ أردَاف أقيال، وأبناء أقوالٍ، فأوطَنُوني أمنع جَنَابٍ، وفلّوا عنّي حَدّ كلِّ نَابٍ، فما تأوّبني عندهم همّ، ولا قَرَعَ صفاتي سَهْمٌ.

* * *

غبَر: تقدم. أهل الوبر: أصحاب البوادي: الذين مالهم الإبل، وكنى بالوبر عنها. الأبيّة: العزيزة التي تأبى الذلّ، يألو جهداً: يقصّر في الاجتهاد، أضرب: أمشي في الأرض. وغوراً ونجداً: مرتفعاً ومنخفضاً، اقتنيت: اكتسبت لنفسي لا للبيع.

وشرح الحريري ألفاظاً في المقامة فنقتصر فيها على شرحه إلا بقدر ما يزيد الكلام بياناً، مثل قوله: آخذ أخذ نفوسهم، أي أتخلّق بأخلاقهم وطباعهم، ويقال لو كنت مثلنا لأخذت بأخذنا، بكسر الهمزة وفتحها، أي بخلائقنا وشكلنا، واستعمل فلان على الشأم وما أخذ أخذه، أي وما والاه وكان حيّزه، وقوله: إرداف أقيال؛ يفسّر القيْل بالملك وبردف الملك، وقيل: القيل بالمشرق كالقائد بالأندلس والرِّدافة في الجاهلية كالوزارة في الإسلام، والرِّدافة: بأن يرتدف مع الملك على مركوبه، وأن يستخلفه في موضعه متى غزا، أويت: رجعت واتخذته مأوى، أوطنوني: أنزلوني. جناب: جانب، فلّوا: كسروا. ناب: ضرس. تأوّبني: أتاني ليلاً، ولا قرع صفاتي سهم، أي لم ينلني ضرّ.

* * *

إلى أن أضْللْتُ في ليلةٍ مُنيرَةِ البَدر، لِقْحَةً غزيرَة الدّرّ؛ فَلَمْ أطِبْ نَفْسَاً بإلغَاءِ طَلَبِها، وإلقَاءِ حَبْلِها عَلَى غاربها؛ فتدثّرتُ فَرَساً مِحضَاراً، واعتقَلتُ لَدْناً خَطّاراً، وسَرَيْتَ لَيْلَتي جَمْعَاء، أجوبُ البيْدَاء، وأقتري كُلَّ شجراءَ ومرْدَاء، إلى أن نَشَرَ الصُّبحُ راياته، وحَيْعَل الدَّاعي إلى صلاتهِ، فنزلتُ عَنْ مَتْنِ الرَّكوبة، لأداء

المكتوبة، ثمّ حُلْتُ في صَهْوَتِها، وفررتُ عَنْ شخوتَها، وسِرْتُ لا أرى أثراً إلا قَفَوتُهُ، ولا نشَزاً إلا عَلَوْتُهُ، ولا وادياً إلا جَزَعتهُ، ولا راكباً إلاَّ استَطْلَعْتُهُ، وجدِّي مع ذلك يذهب هدراً، ولا يجدُ وردُه صدراً، إلى أن حانَتْ صَكةُ عَميّ، ولفحُ هجيرٍ يُذهِلُ غَيْلاَنَ عَنْ ميّ.

* * *

أضللت: أتلفت، وضلت الناقة وأضلّها ربُّها، منيرة: مضيئة. اللقحة: الناقة لها لبن. غزيرة الدّرّ: كثيرة اللبن، إلغاء: ترك غاربها: أعلى سنامها، اللدن: الرمح اللّين. الخطار: الطويل المضطرب. واعتقلت الرمح: جعلته ما بين سرجك ورجلك، أجوب البيداء: أقطع القفر. وفسر «حيعل» بأنه قول المؤذن: حي على الصلاة حيّ على الفلاح، وشاهده: **[الطويل]**

ألا ربّ طيف بات منكِ معانقي إلى أن دعا داعي الصلاة فحيعَلا[1]

وقال آخر: **[الوافر]**

أقول لها ودمع العين جارٍ ألم تحزنك حيعلةُ المنادي[2]

ومعنى حيّ، هلمّ وأقبل، والفلاح: الفوز، وأفلح الرجل، إذا فاز وأصاب خيراً، والمفلحون: الفائزون، وقيل: الفلاح البقاء، أي أقبلوا على بيت البقاء في الجنة. والمفلحون: الباقون، والصلاة: المعلومة، والصلاة: الرحمة كقوله تعالى **﴿أولئك عَلَيهِمْ صَلَوات مِن رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾** [البقرة: ١٥٧]، وكقوله عليه الصلاة والسلام: «اللّهمّ صل على آل أبي أوفى»[3] والصلاة بمعنى الدعاء كالصلاة على الميت، وكقوله ﷺ: «إذا دُعي أحدكم إلى طعام فليجب فإن كان مفطراً فليأكلْ وَمَنْ كان صائماً فليصلْ»[4] أداء: قضاء. حُلْت في صهوتها: ركبت ظهرها ووثبت عليها، فررت: كشفت، قفوته: اتّبعته. نشزا: مرتفعاً، استطلعته: استخرته وسألته. جديّ: عزمي واجتهادي، هدراً: باطلاً. ورده صَدراً، أي سؤاله خبراً والورد إتيان الماء والصدر: الرجوع عنه، لفح: تحرك، هجير: حرّ. يذهل: يشغل.

---

(١) البيت بلا نسبة في لسان العرب (حصل)، (هلل)، وكتاب العين ١/ ٦٠، وتاج العروس (حيعل)، ويروى «داعي الصباح» بدل «داعي الصلاة».

(٢) البيت بلا نسبة في لسان العرب (حعل)، (هلل)، وتاج العروس (حيعل)، وديوان الأدب ٢/ ٤٨٨، وكتاب العين ١/ ٦٠.

(٣) أخرجه البخاري في المغازي باب ٣٥، والدعوات باب ١٩، ٣٣، ومسلم في الزكاة حديث ١٧٦، وأبو داود في الزكاة باب ٧، والنسائي في الزكاة باب ١٣، وابن ماجه في الزكاة باب ٨، وأحمد في المسند ٤/ ٣٥٣، ٣٥٥، ٣٨١، ٣٨٣.

(٤) أخرجه الترمذي في الصوم باب ٦٤، وأبو داود في الأطعمة باب ١.

[ذو الرمة وميّ]

غيلان اسم ذي الرُّمة، وهو غيلان بن عُقْبة بن بيهس بن مسعود بن حارثة، عداده في الرِّباب، والرباب: عدّي بن عبد مناة وتيم بن عبد مناة وعُكْل، وهو عوف بن عبد مناة، وثور بن عبد مناة، وضبة بن أدّ وهو عمهم، وأد بن طابخة بن الياس بن مضر، وسمي ذا الرُّمة، لقوله يصفُ وتِداً: [الرجز]

وغير مرضوخ القفا موتود ... أشعثَ باقي رُمةِ التقليد[1]

نعم فأنت اليوم كالمعمودِ ... من الهوى أو شبه المورودِ

بميّ ذات المبسم المبرودِ ... والمقلتين وبياض الجيدِ

وقيل: سُميّ به لأنه خشي عليه من المسّ، فأتى به الرجل من الحيّ فكتب له معاذة علّقت في عنقه، وشدت بحبل، وقيل: سمعته بذلك خرقاء التي يذكرها في شعره، وذلك أنه رآها وهي في جوار على سنّها فأعجبته وأدام الالتفات إليها ثم قال لها: يا جارية اخرزي لي هذه القربة. فعلمت مراده، فقالت له: إني خرقاء، فولّى وفي يده قطعة حبل بالٍ فنادته: يا ذا الرّمة إن كنتُ خرقاء، فجاريتي صناع، فاذهب إليها، فمضى عليه ذو الرمة، وسمّاها في شعره خرقاء، فمضت عليها.

وهي ميّ بنت عاصم بن طلبة بن قيس بن عاصم، وتُكنى أم ثور، وغلبت عليه حتى عرف بها، فقيل غيلان ميّ كما قيل كثيّر عزة.

وأول أمره مع ميّ ـ فيما حكى الأصبهاني عن أمة لأمّ ميّ ـ قالت: كنا نازلين بأسافل الدَّهناء ورهط ذي الرُّمة مجاورون لنا، فجلست مية تغسل ثياباً لها ولأمها، في بيت رث فيه خروق، وهي فتاة أحسن مَنْ رأيته حين بدا ثدياها، فلما فرغت لبست ثيابها وجلست عند أمها، وأقبل ذو الرمُّة ينشد ضالة، فدخل وجلس ساعة ثم خرج، فقالت مية: إني لأرى أنّ هذا العذري قد رآني منكشفةً واطلع عليّ من حيث لا أشعر، فإنّ بني عذرة أخبث قوم في الأرض ـ فاذهبي فقصي أثره، فقالت: قصصت أثره فوجدته قد تردّد أكثر من ثلاثين مرة، كل ذلك يدنو فيطلع عليها، ثم يرجع على عقبه ثم يعود فأخبرتها بذلك، ثم لم ينشب أن جاءنا شعره فيها من كلّ وجه ومكان.

وحدّث أيضاً بسنده عن عمارة بن ثقيف أنّ ذا الرمة حدَّثه أن أوّل أمره معها أنه خرج مع أخيه وابن عمّه في بغاء إبل لهم، فوردوا على ماء، وقد جهدهم العطش، قال: فأتيت خباء عظيماً أستسقي لهما ماء؛ فإذا عجوز جالسة في رواقه، فالتفتت وراءها وقالت: يا ميّ، اسق الغلام، فدخلت عليها وهي تنسج شُقّة، فقالت لي: لقد كلفك

---

(١) الرجز في ديوان ذي الرمة ص ٣٢٨ ـ ٣٣٠، ولسان العرب (رمم)، وتهذيب اللغة ١٥/ ١٩٢، وجمهرة اللغة ص ١٢٦، وتاج العروس (رمم).

أهلك السفر، على ما أرى من حداثة سنك، ثم قامت تصبّ في ركوتي ماء وعليها شوذب، فلما انحطت على القربة رأيت مرأي لم أر أحسن منه، فلهوت بالنظر إليها، وهي تصبّ الماء فيذهب يميناً وشمالاً، فقالت العجوز: يا بنيّ ألهتك ميّ عما بعثك له أهلك، أما ترى الماء يذهب يميناً وشمالاً؟ قلت: أما والله ليطولنّ هيامي بها ثم أتيت بالماء أخي وابن عمي فلففت رأسي، وانتبذت ناحية وقلت: **[الرجز]**

قد سَخِرتْ أخت بني لبيدَ ... منّي ومن سَلْم ومن وَليدِ[1]

رأت غلاميْ سفر بعيد ... يدرعان الليل ذا السدود

مثل ادّراع اليلمق الحديد

وهي أول قصيدة قلت: ثم مكثتُ أهيم بها في ديارها عشرين سنة.

وأما ابن قتيبة فقال: مكثت ميٌّ تسمع شعر ذي الرُّمة ولا تراه، فجعلت لله أن تنحر بَدَنه يوم تراه ـ وكانت من أجمل الناس ـ فلما رأته دميماً أسود صاحت: واسوأتاه! واضيعة بدنتاه! فقال: **[الطويل]**

على وجه ميّ مَسْحةٌ من مَلاحةٍ ... وتحت الثياب الشَّينُ لو كان باديا[2]

فكشفت عن جسدها، قالت: أشيناً ترى لا أُمّ لك! فقال: **[الطويل]**

ألم تر أن الماء يخبث طعمه ... وإن كان لون الماء أبيضَ صافيا

فقالت له: قد رأيت ما تحت الثياب، فلم يبق إلا أن أقول لك: هَلُمّ فذق ما وراءه، فوالله لا ذقت ذلك أبداً، ثم صلح الأمر بينهما، فعادا لما كانا من حبّهما.

وهو شاعر مجيد مكثر وصّاف للأطلال والديار والصبر على قطع القفار. أبو الفرج: كان سليمان بن أبي شيخ، رواية لشعر ذي الرّمة، فأنشد يوماً قصيدة له وأعرابي من بني عدي بسمعه فقال: أشهد أنك فقيه تحسن ما تلوته، وكان يحسبه قرآناً.

وكان أهل البادية يعجبهم شعره، وكان جرير والفرزدق يحسدانه، وقال حماد الرواية: ما أخرّ القوم ذكره إلا لحداثة سنه، وأنهم حسدوه.

وقال أبو المطرّف: لم يكن أحد منهم في زمانه أبلغ منه، ولا أحسن جوابا، وكان كلامه أحسن من شعره.

وقال مولى لبني هاشم: رأيته بسوق المربد وقد عارضه رجل فقال: يا أعرابيّ ـ يهزأ به ـ أتشهد بما لم تر! قال: نعم قال: بماذا، قال: إن أباك ناك أمك.

---

(١) الرجز في ديوان ذي الرمة ص ٣٢٨ ـ ٣٣٠.

(٢) البيت في ديوان ذي الرمة ص ١٩٢١، ولسان العرب (مسح)، وتهذيب اللغة ٤/ ٣٤٩، ومعجم البلدان (الملا)، ووفيات الأعيان ٤/ ١٢، ومعاهد التنصيص ٣/ ٢٦١، والعقد الفريد ٦/ ٤١٣، والأغاني ١٨/ ٣٠.

الأصمعي: ما أعلم أحداً من العشاق شكا أحسن من شكوى ذي الرّمة، مع عفّة وعقل.

أبو عبيدة: يخبر ذو الرّمة فيحسن الخبر، ثم يردّ على نفسه فيحسن الرّد، ثم يعتذر فيحسن التخلص. مع حسن إنصاف في الحكم وعفاف.

وقال ذو الرّمة: من شعري ما ساعدني فيه القول ومنه ما أجهدت نفسي فيه، ومنه ما جننت فيه جنوناً، فأما الذي طاوعني فيه القول فقولي: **[الطويل]**

خليليّ عوجا في صدور الرواحلِ ... بجمهور حُزْوى فابْكيا في المنازل[1]

لعلّ انحدار الدمع يعقب راحة ... من الوجد أو يشفي نجيَّ البلابل

وأما ما أجهدت نفسي فيه فقولي: **[البسيط]**

أأن توسَّمت من خرقاء منزلةً ... ماءُ الصبابة من عينيك مسجومُ[2]

كأنها بعد أحوالٍ مَضينَ لَها ... بالأشيمين يمانٍ فيه تسهيمُ

وأما الذي جنت فيه جنوناً فقولي: **[البسيط]**

ما بال عينك منها الماء يَنْسَكبُ ... كأنه من كُلَى مفرّيةٍ سربُ[3]

براقة الجيد واللبّات واضحةٌ ... كأنها ظبية أفضى بها لببُ

زَينُ الثياب وإن أثوابها استُلِبَتْ ... فوق الحشية يوما زانها السلبُ

إذا أخُو لذة الدنيا تبطّنها ... والبيتُ فوقهما بالستر محتجبُ

ساقت بطيّبة العِرْنين مارنها ... بالمسك والعنبر الهنديّ مختضب

لمياء في شفتيها حُوّة لَعَسٌ ... وفي اللّثات وفي أنيابها شَنَبُ

كحلاء في بَرَج، بيضاء في دَعَج ... كأنها فضة قد زانها ذهبُ

وهذه القصيدة من المطولات التي نيّفت على المائة وربعها، وتصرّف فيها ما شاء من أوصاف الأطلال والديار والثور والحمار والكلاب والظبي وغير ذلك. وفي خلال ذلك يأتي بتشبيهات بديعات، وهو أشعر الشعراء الإسلاميين في التشبيه. وكان يقول: إذا قلت «كأنّ» فلم أجد مخرجاً فقطع الله لساني.

---

(١) البيتان في ديوان ذي الرمة ص ٢٩٥.

(٢) البيتان في ديوان ذي الرمة ص ٣٧١، والخصائص ٢/ ١١، والصاحبي في فقه اللغة ص ٥٣، ولسان العرب (رسم)، (عنن)، (عين)، ومجالس ثعلب ص ١٠١، ويروى «أعن ترسَّمَتْ» بدل «أأن توسّمَتْ».

(٣) الأبيات في ديوان ذي الرمة ص ٩، والبيت الأول في لسان العرب (سرب)، (غرف)، (عجل)، ومقاييس اللغة ٣/ ١٥٥، والمخصص ٧/ ١٢٨، وبلا نسبة في تهذيب اللغة ١٢/ ٤١٥.

واحتذى في ذلك حذوه من المولدين ابن المعتز، وقصده الحريري في هذا الموضع لمعنيين: أحدهما لأنه كان صادقاً في حبِّ مية فكان لا يشغله عنها شيء، لا مثل كثير عزة وغيره ممن لا يصدق في حبه، والثاني أنه يكثر في شعره صبره على قطع الهواجر لمية مثل قوله: **[الطويل]**

وهاجرةٍ من دون مَيّة لم تقلْ ... قَلوصي بها والجندب الجون يَرْمَحُ[1]

إذا جعل الحرباءُ مما أصابه ... من الحرّ يلوي رأسه ويُرَنّحُ

لئن كانتِ الدنيا عليّ كما أرى ... تباريح من ميّ فَلَلْموت أروحُ

ولما شكوت الحب كيما تثيبني ... بودّي قالت إنما أنت تمزحُ

فذكر الحريري أن هذه الهاجرة شغلته عن ذكر ميّ حتى طلب ظلاً يلوذ به.

* * *

وكان يوماً أطول من ظِلّ القناة، وأحرّ من دمعِ المقلات فأيقنتُ أني إن لم أستكن من الوقدة. وأستحمّ بالرّقدة، وأدنَفِني اللغوب، وعَلَقتْ بي شعوب، قعجت إلى سَرْحةٍ كثيفة الأغصان، وريقة الأفنان، لأغوِّر تحتها إلى المغيربان؛ فوالله ما استروحَ نفسي، ولا استراحَ نفسي حَتّى نظرتُ إلى سَانحٍ، في هيئة سَائح؛ وهو ينتجعُ نُجعتي، ويشتدُّ إلى بقعتي، فكرِهتُ انعياجه إلى معاجي؛ فاستعذتُ بالله مِنْ شرِّ كلِّ مُفاجىء، ثمَّ ترجّيْتُ أن يتصدَّى منشداً، أو يتبدَّى مُرشداً فلما اقتربَ من سَرْحتي، وكاد يُحلُّ بساحتي، ألفيتُه شيخناً السّروجيّ، مُتّشِحاً بجرابه. ومضطغناً أُهْبَةَ تجوابه، فآنسني إذ ورد، وأنساني ما شرَدَ، ثمَّ استوضحتهُ من أين أثره، وَكيفَ عُجرهُ وبجره.

* * *

أستكنّ: أستتر وأطلب كِنا. الوقدة: شدة الحرّ، أستَجمّ: أستريح فأتقوى. أدنفني: أمرضني. اللغوب: التعب.

وذكر طول اليوم القصير وأنشد عليه في الشرح: «ويوم كظل الرمح...»، وذكر أنّ اليوم القصير يوصف بإبهام القطاة، ولم ينشده عليه شيئاً، وقال جرير: **[الطويل]**

---

(١) الأبيات في ديوان ذي الرمة ص ١٢١٢، والبيت الأول في لسان العرب (رمح)، وتهذيب اللغة ٥/٥٣، وهو بلا نسبة في المخصص ٨/١٧٧، وكتاب العين ٣/٢٢٦، ويروى «ومجهولة» بدل «وهاجرةٍ».

ويـوم كـإبـهـام الـقـطـاة مـحَـبـبٍ إلـيّ صِـبـاه غـالـبٍ لـي بـاطُـلُـه[1]
رزقنا به الصَّيْد الغزير فلم يكنْ كـمـن نـبـلـه مـحـرومـةٌ وحـبـائـلـهْ
وذلـك يـومٌ خـيـرُه قـبـل شـره تـغـيّـب واشـيـه وأقـصـر عـاذِلُـهْ

قال الأصمعي: قال لي خلف الأحمر: ويحه فما ينفعه حين يؤولُ إلى الشرّ! قلت: فكيف يجب أن يقول؟ قال: خيره دون شره، قلت: والله لا أرويه بعدها إلا هكذا.

عُجْتُ: ملت. سَرْحة: شجرة، كثيفة: ملتفتة الأغصان. وريقة: كثيرة الورق. والأفنان: الأغصان، أو ما تفرع منها. وما أحسن ما نظم في الفرار من الحرّ إلى الظل المنازي كاتب مروان صاحب ميافارقين حين قال: [الوافر]

وَقَـانَـا وقْـدةَ الـرَّمْـضَـاء روضٌ سـقـاه مـضـاعـف الـطّـل الـعـمـيـمِ
قـصـدنـا دَوْحـهُ فـحـنـا عـلـيـنـا حُـنُـوَّ الـوالـدات عـلـى الـفـطـيـمِ
يـراعـي الـشـمـس أنّـى قـابـلَـتْـنـا فـيـحـجـبـهـا ويـأذنُ لـلـنـسـيـمِ

وهذا ما يتعلق بالغرض، وزاد فيه معنى بديعاً بقوله: [الوافر]

ويـسـقـيـنـا عـلـى ظـمـأ زلالاً ألـذ مـن الـمـدام مـع الـكـريـمِ
يَـرُوع حـصـاه حـالـيـة الـغَـوانِـي فـتـلـمـس جـانـب الـعـقـد الـنـظـيـمِ

تأمل هذه الصفة تجدها غاية في بابها، وتخيّلْ هذه الجارية كيف نظرت بياض الحصى في الماء، فارتاعت وحسبت عقدها تناثر، فالتمسته بيدها.

وقال السرّي فأحسن: [الطويل]

أدِرْهـا فـفـقـد الـلّـوم إحـدى الـغـنـائـم ولا تـخـش إثـمـاً لـسـتَ فـيـهـا بـآثـمِ
ولا عـيـش إلا فـي اعـتـصـامٍ بـقـهـوة يَرُوح الفتى منها خضيبَ المعاصم
ولا ظـل إلا ظـلّ كَـرْم مـعـرّشٍ تغنيك من قُطْرَيْه وُرْقُ الحمائمِ
سماء غصونٍ تحجب الشمس أن ترى عـلـى الأرض إلا مـثـل نـثـرِ الـدَّراهـمِ

وقال ابنُ لُبّال في متنزهٍ بشريش يسمى أجّانة: [الطويل]

أيـا حـبـذا إجـانـة كـيـفـمـا اغـتـدتْ زمـان ربـيـع أو زمـان عـصـيـرِ
مذانب ماء كـالّـلجين على حصىً كـدرّ بـلا ثـقـب أغـرَّ نـثـيـرِ
ورمـل إذا مـا ابـتـلّ بـالـمـاء عِـطـفُـه غـنـيـنـاً بـه عـن عـنـبـر وذرور

---

(١) يروى البيت الأول:

ويـوم كـإبـهـام الـقـطـاة مُـمَـلّـحٌ إلـيّ صبـاه مـعـجـبٍ لـي بـاطـلُـه

وهو بلا نسبة في كتاب العين ٢/ ٢٩٧.

وتين كما قامت على حَلَماتها ... نهودُ عذارى الزنج فوق صدورِ
كأن القباب الخزّ فيها عرائسٌ ... على سُرُرٍ مفروشة بحريرِ

وله أيضاً عفا الله تعالى عنه: [الطويل]

كأنّ جني القوطيّ في رونق الضُّحى ... وقد حملته راحة الورقاتِ
نهود عذارى زُحزحت عن مقرّها ... فقامت على الأطراف والحلماتِ

قوله: استروح نفسي، أي استنشقت الريح فتنفست فيه من التعب، أي ما سكنتْ عنّي أنفاس التعب، واستروحت الشيء، وجدت ريحه، سائح: عابر يسيح في الأرض، أي يمشي في جهاتها، ويقال للمكدي: سائح، لأنه يسيح في طلب الكدية. ينتجع نجعتي، أي يقصد قصدي في طلب الراحة. والانتجاع: طلب المرعى. يشتدّ: يجري. بقعتي: موضعي. انعياجه: انعطافه. معاجي: مكاني الذي عجت إليه. مفاجىء آت على غفلة. يتصدّى: يتعرّض. منشداً: دالاً على الشيء، تقول: نشدت الضالة طلبتها، وأنشدتها: دللت عليها طالبها. مرشداً: هادياً للطريق. ساحتي: موضعي الذي أنا فيه. ألفيته: وجدته. متّشحاً بجرابه، أي جعل جرابه موضع الوشاح. أهبة تجوابه، أي عدة جولانه. ورد: وصل ما شرد: ما نفر، يعني الضالّة. استوضحته: سألته أن يوضحَ لي أمره.

* * *

فأنشد بديهاً، ولم يقل إيهاً: [الخفيف]

قُلْ لِمُسْتَطْلِعٍ دَخِيلَةَ أمْرِي ... لَكَ عِنْدِي كرامَةٌ وَعَزازَهْ
أنا ما بين جوبِ أرضٍ فأرضٍ ... وَسُرَى في مفازةٍ فَمَفازَهْ
زادِيَ الصَّيدُ والمطيةَ نَعْلِي ... وَجِهازِي الجرابُ والعُكازَهْ
فإذا ما هبطتُ مصراً فَبَيْتي ... غُرْفَةُ الخان والنَّديمُ جُزَازَهْ
لَيْسَ لي ما أساءُ إن فاتَ أو أحز ... نُ إن حَاوَلَ الزَّمانُ ابْتِزَازَهْ
غير أني أبيتُ خِلْواً مِن الهمّ ... ونَفْسِي عن الأسَى مُنْحَازَهْ
أرقدُ اللَّيْلَ ملءَ جفني وقلبي ... باردٌ من حَرَارة وَحزازَهْ
لا أبالي من أيّ كأسٍ تفوّقـ ... ـتَ ولا ما حلاوةٌ من مَزَازَهْ
لا ولا أستجيزُ أن أجعل الذلّ ... مجازاً إلى تَسَنِّي إجازهْ
وإذا مَطْلَبٌ كسَا حُلّةَ العا ... رِ فَبُعداً لِمَنْ يَرُومُ نَجازَه
وَمَتى اهتزّ للدناءةِ نِكسٌ ... عَافَ طبعي طباعَهُ وَاهْتِزَازَهْ
فالمنايا ولا الدنايا وخيرٌ ... مِنْ ركوبِ الخَنا ركوبُ الجِنَازَهْ

* * *

بديهاً: مرتجلاً من غير فكرة، المستطلع: الذي يحب أن يطّلع على الأمر دخيلة أمري: باطنه، عزازة: عزة ورفعة. جوب: قطع. سرى: مشى الليل. مفازة، قال الأصمعيّ: هي المهلكة سميت بذلك تفاؤلاً لسالكها بالفوز، كما سُمّي اللديغ سليماً تفاؤلاً بالسلامة، قال ابن الأعرابي: هي مأخوذة من فوز الرجل، إذا هلك، والعرب تسمي النعل مطيّة مجازاً حيث يستعان بها على قطع المفازة، وأنشد أبو عليّ الفارسي رحمه الله: **[الطويل]**

رَوَاحِلُنا ستٌّ ونحن ثلاثة ... نجنّبهنّ الماء في كلِّ مَشْرَبِ

وقال أبو نواس: **[الطويل]**

إليك أبا العباس يا خيرَ مَنْ مشى ... عليها امتطينا الحضرميّ الملسَّنَا[1]

قلائِصَ لم تعرف حنيناً إلى طَلاً ... ولم تدْرِ ما قرع الفنِيق ولا الهِنَا

وأخذه أبو الطيب فقال: **[المنسرح]**

لا ناقتي تقبل الرديف ولا ... بالسَّوْط يوم الرّهان أُجهِدُها[2]

شِراكها كُورها ومِشْفَرها ... زمامُها والشُسُوع مِقْوَدُها

أشدّ عصف الرياح يسبقه ... تحتِيَ من خَطْوِها تأيّدُها

وكان السُروجي أكثر عدّة من أبي الشمقمق في قوله: **[الخفيف]**

كلما كنتُ في جموع فقالوا ... قرّبوا للرّحيل قرَّبْتُ نعلي

أترى أنّني من الدهر يوماً ... لي فيه مطية غير رِجْلي

حَيثما كنتُ لا أخلف رَحْلاً ... مِنْ رآني فقد رآني ورحلي

ومن أبيات المعاني في نعل: **[الطويل]**

وسوداء المناسب يمتَطيها ... أخو الحاجات ليس له نَكيرُ

فيحملُها وتحمله وفيها ... منافع حيث يبتدر السَّفِرُ

على أن السّفير ينال منها ... فيرقعها إذا جَدّ المسيرُ

السفير: ورق الشجر، والمِسْفَرة المكنسة. والجهاز: ما يحتاج إليه المسافر من العِدة. والعكّازة، العصا مصرا: بلداً. الخان: الفندق. والنّديم: الصاحب على الشّراب، وجزازة، قيل: إنه خليعٌ مشهور عندهم، وهذا لا يبعد. وأخبرني الأستاذ أبو ذرّ وغيره أنها القراطيس الصغار، يكتب للناس فيها صفة حاله فيستجديهم بها، فيريد أن نديمه إذا دخل بلدة قطع من قرطاس يجزّها ورقة كبيرة يكتب فيها بما يجلب ممّا يؤكل ويشرب،

---

(١) البيتان في ديوان أبي نواس ص ٧٦.

(٢) الأبيات في ديوان المتنبي ١/ ٣٠١.

والجزازة: ما يسقط من الشيء تجزّه، كالقصاصة ما يسقط مما يُقصّ. والنُّحاتة والقُلامة وغير ذلك، فلما كانت القطعة الصغيرة تسقط من الورقة سمَّوها جُزازة. ثم اشتهر عندهم ما صغر من القراطيس بهذا الاسم، قال الفنجديهيّ: جزازة، أي قطعة كاغد عليها شيء مكتوب، والجزازة: ما يقطع من الشيء، قال: وأنشد بعضهم: **[الوافر]**

وقالُوا كيف حالُك قالتُ حالِي ... تُقضى حاجتي وتفوت حاجِي

نديمي هرَّتي وسميرُ أنسي ... دفاتيري ومعشوقِي سراجي

أُساء: أصاب فيه بسوء، وأحزن عليه، حاول: طلب، ابتزازه: تجريده وإزالته. خِلْو: فارغ البال. الأسى: الحزن. منحازة: متنحية ومنعزلة ومنقبضة، وانحاز: انعزل. ملء جفني: أي أرقد هنيئاً لقلة همي، فتمتلىء عيني بالنوم، وهو من قول المتنبي: **[البسيط]**

أنام مِلءَ جُفوني عن شوارِدِها[1]

والحزَازَة في القلب: تأثير الهمّ كأنه يحزّ فيه، أي يقطع، وقال الشاعر: **[الطويل]**

إذا كان أولاد الرجال حزازة ... فأنتَ الحلالُ الحلو والبارد العذبُ[2]

والحزازة هنا: الولد السوء، ولا شيء أنكى للقلب من هَمّه، والحزازة أيضاً الحقد والغيظ، وفي قلبي منه حزازة أي حرقة وحزن. تفوّقت أي شربت فواقها، وهو أخذه ما فيها شيئاً فشيئاً، وما بين عَبّةٍ وعَبّة فواق؛ وأصله ما بين حَلْبة من الضّرع وحلبة. مزازة: بين الحموضة والحلاوة. مجازاً: طريقاً يجاز عليه. تسنّي: تيسر. إجازة: عطية وصلة. يروم: يطلب. نجازه: قضاءه وتمامه، ولبعضهم في هذا المعنى: **[مخلع البسيط]**

أشدُّ من عَيْلَةٍ وجُوع ... إغضاء حرّ على الخضوعِ

فقنعِ من الدّهر قوت يوم ... وأنت بالمنزلِ الرفيعِ

ولا ترد ثروة بمالٍ ... يُنَالُ بالذلّ والخشوع

وارْحَلْ إذا أجدبْت بلاد ... منها إلى الخِصْب والربيع

الدناءة: الفعل القبيح. نِكس: دنيء، عَاف: كَره. اهتزازه: طربه وخفته.

ولبعضهم في هذا المعنى: **[الوافر]**

ويجتنب اللبيبُ ورود ماءٍ ... إذا كان الكلابُ يَلْغنَ فيه

كما سقط الذباب على طعامٍ ... فتتركه ونفسُك تشتهيه

---

(١) عجزه:

ويسهر القوم جرّاها ويختصمُ

والبيت في ديوان المتنبي ٣/ ٣٦٧.

(٢) البيت لعكرشة العبسي في سمط اللآلي ص ٦٢٩، وبلا نسبة في تهذيب اللغة ٣/ ٤١٣.

وقال أبو محمد المصريّ يخاطب المعتمد وقد فرّ منه: [المتقارب]

رحلتُ وفي قلب جَمْرُ الغَضَى وهجري لكمْ دُونَ شكٍّ صوابُ
كما تهجرُ النفسُ حُرَّ الطعام إذا ما تساقط فيه الذبابُ

المنايا ولا الدنايا، أي إتيان المنية ولا فعل الدنية، قال أوس بن حارثة: مَلَك المنيّة ولا الدنية، في وصية طويلة، والمنية معناها المقدورة المحكوم بها، وهي مفعولة من المُنَى وهو المقدَّر والقدَر، يقال: مَنَاك الله بما يسرّك، وأصلها ممنووة فصُرفت مفعولة فعيلة، كمطبوخ وطبيخ، وأدغمت الياء في الياء. الخنا: الفساد. الجنازة: النعش.

* * *

ثمَّ رَفَعَ إليَّ طَرْفَهُ، وَقَالَ: لأمرٍ مَا جَدَعَ قَصِيرٌ أنْفَهُ، فأخبرتُهُ خبَر ناقتي السَّارِحَة، وما عَانيتُهُ في يَومِي وَالْبَارِحَه، فقال: دَعِ الالتفات، إلى ما فات، والطِّمَاحَ إلى ما طَاحَ، وَلاَ تأسَ عَلَى ما ذَهَبَ، ولو أنَّهُ وادٍ مِنْ ذَهبٍ، وَلاَ تَسْتَمِلْ مَنْ مَالَ عن ريحك، وأضْرِم نَارَ تبَارِيحكَ، ولو كانَ ابْنَ بُوحِكَ، أو شقِيقَ رُوحِكَ، ثُمّ قَالَ: هَلْ لَكَ فِي أن تَقيلَ، وتتَحَامَى القالَ والقيل؟ فإنّ الأبْدَان أنضاءُ تَعب، والهاجرةَ ذاتُ لَهَبٍ، ولَنْ يَصْقُلَ الْخاطرِ، وينَشِّطَ الْفَاتِر، كَقَائلةِ الْهَوَاجر، وخصوصاً في شَهْرِي ناجِر، فقلْتُ: ذاك إليكَ، وما أريدُ أَنْ أشقَّ عليك، فافترشَ التُّرْب واضطجَعَ، وأظهَرَ أن قَدْ هَجع، وارتَفقتُ عَلَى أنْ أحْرُس، ولا أنعَس، فأخذَتنِي السِّنة؛ إذْ زُمَّتِ الألسِنة، فَلَمْ أُفِقْ إلاّ واللَّيْلُ قَدْ تولّج، والصُّبحُ قَدْ تبلَّجَ، ولا السَّرُوجيّ ولا المُسرج.

* * *

قوله: «لأمرٍ مّا جَدَعَ قصير أنفه» أي ما جدع قصير أنفه إلا لمعنى، وكذلك أنت ما خرجت في هذا الوقت لشدّة حرّه إلى هذه القفار المخوفة إلاّ لمعنى، فأخبرني به، فلذلك قال: «فأخبرتُه خبر ناقتي»، وأيضاً فإنّ أوّل الكلام يدلّ عليه، لأنه قال: فاستوضحته من أين أثره، فأخبره السَّروجي في الشعر بقصته، فلما أكملها سأل ابنَ همام عن قصته، فأخبره بالناقة الضائعة. والسارحة: التي سرحت، أي مشت حيث شاءت. عاينته: شاهدته ورأيته. الالتفات: النظر إلى جهة. والطماح: ارتفاع العين بالنظر وطاح: ذهب وتلف. لا تأس: لا تحزن. ولا تستمل: تستدع حبّه وأن يميل إليك بودّه. مال: انحرف. عن ريحك: عن طريقك وهواك. أضرم: أوقد. تباريحك: أحزانك. تقيل: تنام في القائلة تتحامى: تتباعد عنها. أنضاء: جمع نِضْو وهو المهزول، أي قد أهزل التعب أبداننا. الهاجرة: القائلة سُمِّيت هاجرة لأنها تَهْجُر البرد، أو لأنها أكثر حرًّا من

سائر النهار، يقال: فلان أهجر من فلان، إذا كان أضخم منه. لهب: نار.

وشهري ناجر: يونيه ويوليه، وهما أشد الحرّ. قال الأزهريّ: هما حَزيران وتمّوز، النّجران: العطشان. ابن سيده: ظن قوم أنهما حَزيران وتموز، وهذا غلط، وإنما هما وقت طلوع نجمين من نجوم القيظ.

الليث: كل شهر في صميم الحرّ فاسمه ناجر، لأن الإبل تنجرّ فيه، أي تشتدّ عطشاً حتى تيبس جلودها، فلا تكاد تروي من الماء.

هجع: رقد. وارتفقت: توكأت على مرفقي. السِّنة: النوم القليل. زُمّت: ربطت ومنعت. فأولج: دخل. تبلّج: أضاء وظهر. المسرج: الفرس عليه سرجه.

* * *

فبتّ بَلَيْلَةٍ نابغيّة، وأحزانٍ يَعْقُوبيَّة، أسَاوِرُ الوُجُوم، وأساهِرُ النُجُوم، أفكِّرُ تارَةً في رُجْلَتِي، وأخرَى في رَجْعَتِي، إلى أن وَضحَ لي عِنْدَ افترارِ ثَغْرِ الضَّوْء في وَجْه الجوّ، راكِبٌ يَخِدُ في الدّوّ، فألمعتُ إلَيْهِ بثوْبي، وَرَجَوْتُ أنْ يُعَرِّج إلى صَوْبي، فَلَمْ يَعْبأ بِإلماعِي، ولا أوَى لالْتِيَاعِي، بَلْ سَارَ على هِينَتِهِ، وأصمْانَي بِسَهْم إهانَتِهِ، فأوفضتُ إلَيْهِ لأسْتَرْدِفَه، وأحتَمِلَ تَغطْرُفَهُ. فلمّا أدْرَكْتُهُ بَعْدَ الأيْنِ، وأجلتُ فيهِ مَسْرَحَ الْعَيْنِ، وَجَدْتُ ناقتِي مطيته، وضالّتِي لُقْطتَه، فَمَا كذَّبْتُ أنْ أذرَيْتُه عَنْ سَنامِهَا، وجَاذَبْتُه طَرَفَ زمامِها، وقلتُ له: أنا صاحِبُهَا وَمُضِلُّهَا، ولِي رسْلهَا ونَسْلُهَا، فلا تكُنْ كأشعب، فتُتْعِبَ وَتَتْعَب.

* * *

أساور: أواثب. الوجوم: السكوت على غيظ، والمعنى: أنّ الغيظ إذا اشتدّ عليه عالج كَظمَه ودفعه عن نفسه، فكأنه يواثبه. أساهر: أسامر، والسهر امتناع النوم. الرُّجْلة، بضم الراء: القُدْرة على المشي، ورجل يرجل رجلاً ورجلةً، إذا مشى في السفر وحده بلا دابةً. وضح: تبيّن. افترار: انكشاف، وافترّ كشف أسنانه عند الضحك. يخد: يسرع. الدوّ: الصحراء، والراكب: من يركب البعير. والجوّ: نواحي السماء. يعرّج إلى صوبي: يميل إلى جهتي وقصدي. يعبأ: يبال. إلماعي: إشارتي، وهو مصدر ألمعت إليك، أي أشرت إليك، فإذا بعد عنك الرجل فلم يسمع صوتك جردت ثوبك وأشرت إليه، والإشارة بالثوب هي الإلماع. أوى: أُشفق. التياعي: تحرّقي وتوجعي. هينته: سكينته. أصماني: أصاب مقتلي. إهانته: احتقاره. أوفضت: أسرعت. أستردفه: أطلب إليه أن يُرْدفني. تغطرفه: تكبّره، والغِطْريف: السيّد العظيم. الاين: الفتور. أجلت: صرفت. مسرح: موضع تسرحها وجَولانها بالنظر. واللقطة: ما يجده الإنسان قد سقط

لغيره، فيأخذه ويلتقطه. أذريته: رميت به عنها. مضلّها، أي الذي ضلّت له. رِسْلها: لَبنها.

[أشعب وبعض نوادره]

أشعب: الطماع، رجل مدنيّ صاحب نوادر وملاءٍ وله صنعة في الغناء، وكان أبخل الناس وأكثرهم طمعاً. ويقال في المثل. أطمَع من أشعب. ولهذا قال الحريريّ: فلا تك كأشعب، أي لا تطمع في أخذ الناقة فتكون مثله في طمعه في مال غيره. فتتعب من تعلقت له بشيء، وتتعب، أنت معه في المخاصمة.

ومن حكايات أشعب: قال سالم بن عبد الله بن عمر لأشعب: ما بلغ من طمعك؟ قال: لم أنظر إلى اثنين يتسارّان في جنازة إلا قدّرت أن الميت أوصى لي بشيء.

وقال له ابن أبي الزناد: ما بلغ من طمعك؟ قال: ما زفَّت بالمدينة امرأة، إلا كنست بيتي رجاء أن يُغلط بها إليّ.

وكانت عائشة بنت عثمان كَفَلَتْه مع ابن أبي الزناد، فقال أشعب: تربّيت معه في مكان واحد، وكنت أسفل ويعلو حتى بلغنا ما ترون.

وقيل لعائشة: هل آنستِ من أشعب رشداً؟ فقالت: أسلمته منذ سنة في البزّ، فسألته بالأمس: أين بلغت في الصناعة؟ فقال: يا أمّه، قد تعلمت نصف العمل وبقي نصفه، تعلمت النّشر في سنة، وبقيَ عليّ تعلّم الطيّ.

وسمعته اليوم يخاطب رجلاً وقد ساومه قوس بندق، فقال: بدينار، فقال أشعب: والله لو كنت إذا رميت عليها طائراً وقع في حجري مشويًّا مع رغيفين، ما اشتريتُها بدينار، فأيّ رشد يؤنس منه!

ونظر إلى رجل يعمل طبقاً، فقال له: أسألك بالله إلاّ ما زدتَ في سَعته طوقاً أو طوقين، فقال له الرجل: ما معنى ذلك؟ فقال: لعلّه أن يُهْدَى إليّ يوماً فيه شيء:

وقيل له: أرأيت أطمع منك؟ قال: نعم، خرجت إلى الشأم مع رفيق لي، فتلاحينا عند دير فيه راهب، فقلت له: الكاذب منّا، أيْرُ الراهب استه، فنزل الراهب من صومعته وقد أنعظ، فقال: أيكما الكاذب؟ ثم قال: دعوا هذا، امرأتي أطمع مني ومن الراهب، فقيل له: وكيف ذلك؟ فقال: إنها قالت: ما يخطر على قلبك شيء يكون بين الشك واليقين إلاّ وأنا أتيقّنه، ودعوا هذا، شاتي أطمعُ منّي ومنها، قيل: وكيف؟ قال صعدت على سطح، فنظرت إلى قوس قزح فظنّته حبل قتّ، فأهوت إليه فسقطت فاندقت عنقها.

وقيل له: هل رأيت أطمع منك؟ قال: كلبة آل فلان، رأت رجلاً يمضغ عَلَكاً فتبعته فرسخين، تظن أنه يأكل شيئاً.

وقيل له: ما بلغ من طمعك؟ قال: أضجرني الصبيان يوماً، فأردت أن أشغلهم عنّي،

فقلت لهم: إن بموضع كذا عرساً، فامضوا نحوه. فلما ذهبوا ظننت أن ثَمّ عُرْساً، فتبعتهم.

وقال ابن شرف: [البسيط]

وما بلوغ الأماني في مواعدها إلا كأشعب يرجو وعدَ عرقوبِ
وقد تخالف مكتوب القضاء به فكيف لي بقضاءٍ غير مكتوبِ

وقال ابن حجّاج: [السريع]

فديتُ مِنْ نفسي مَنْ كلّما لقيته والحق لا يغْضَبُ
فقلت: يا عرقوب أطمعتني فقال: لُمْ نفسك يا أشعبُ

* * *

فأخذَ يَلْذَعُ ويَصِي، ويَتّقِحُ ولا يَسْتَحْيِي، وبينما هو ينزو ويَلِين، وَيَسْتَأْسِدُ وَيَسْتَكين؛ إذ غشينا أبو زيد لابساً جِلْدَ النّمر، وهاجماً هجوم السَّيْلِ المنهمر، فخفتُ واللّهِ أن يكون يَوْمُه كأمسه، ويَبْدره مِثلَ شَمْسه، فألحقَ بالقارظينِ، وأصِيرَ خَبَراً بَعْدَ عَيْن. فَلَمْ أرَ إلاّ أن أذكَرْتُهُ العهود المنسيّة، والفعلة الإمسيّة، وناشَدْتُه الله: أَوَافى للتّلافي، أم لما فيه إتْلافِي؟ فقال معاذ الله أن أجْهِزَ عَلَى مَكْلومِي، أو أصِلَ حَرُورِي بِسَمُومي؛ بل وافيتُكَ لأخبُرَ كَنْه حالك، وأكون يميناً لشمالك. فسكن عند ذلك جَاشي، وانْجَاب اسْتِيحَاشِي، وأطلعتُه طِلْعَ اللّقحة، وَتَبَرْقُعَ صَاحِبي بالْقِحَة.

* * *

قوله: يتّقِح، أي يبدي الوقاحة. ينزو: يقفز. يستأسد: يتشبّه بالأسد فيتقوّى. يستكين: يذلّ، يريد أنه كان مرة يتقوّى ومرّة يذلّ. غشينا: جاءنا فجأة. لابساً جلد النمر، أي وقحاً شجاعاً. هاجماً: آتياً على غفلة. المنهمر: الكثير الانصياب، وتقدّم أثر خبر بعد عين، الإمسية: المنسوبة إلى أمس ـ الفنجديهي: رأيت بخط الحريريّ النسبة إلى أمس إمسيّ، وهو من شاذ ـ النسب ـ ناشدته: حلّفته. أُوافَى: أُجاء وأوتَى. التلافي: التدارك قبل فوته. معاذ الله، أي أستجير بالله ممّا ذكرت. أجهز: أتم عليه. مكلومي: مجروحي، وفي أخبار عليّ رضي الله عنه أنه ما أجهز على مكلوم قط. أخبر: أعلم. كنه: حقيقة جاشي: نفسي، قاله ابن سيده: وقيل: الجأش القلب، وقيل: رباطتُه وشدّته عند الشيء يسمعه، ما يدري ما هو. وقيل: جاشي: رَوْع قلبي واضطرابه عند الفزع. واستوحش من الشيء: لم يأنس به. انجاب: انقشع وزال. أطلعته طِلْعها، أخبرته سرها وعلوت طِلْع الأكمة، أي مكاناً يطلع منه على ما حولها ويُشرف عليه والقحة: صلابة الوجه، كأنه جعل منها بُرقعاً على وجهه.

* * *

فنظر إليه نَظَر ليث العرّيسة، إلى الفريسة. ثمّ أشرع قِبَله الرّمح، وأقسَم له بمن أنار الصُّبح، لئن لم ينجُ منجى الذّبَابِ، ويَرْض مِنَ الغَنِيمة بالإيابِ، ليوردَنّ سِنانه وَريدَه، وليفجعَنَّ به وليدَه وَوَدِيدَه. فنبذ زمام الناقة وحاصَ، وأفلت وله حُصاص، فقال لي أبو زيد: تسلّمْها ونسنّمها، فإنها إحدى الْحُسْنيَيْن، وويلٌ أهون من وَيْلَيْنِ.

قال الحارث بن همام: فحِرْتُ بين لومِ أبي زيدٍ وشُكرِه، وزنة نفعِه بضرّه. فكأنه نُوجيَ بذاتِ صدرِي، أو تكهّن ما خامَرَ سرّي. فقابلني بوجهٍ طليق، وأنشد بِلسانٍ ذليق: [مجزوء الرمل]

يـا أخـي الـحـامـلَ ضَـيْـمِـي ... دون إخـــوانـــي وقَـــوْمِـــي

إن يـــكـــن ســـاءك أمـــســـي ... فـــلـــقـــد ســـرّك يـــومـــي

فـــاغـــتـــفـــر ذاك لـــهـــذا ... واطّـــرحْ شُـــكْـــرِي ولَـــوْمـــي

ثـم قـال: أنا تَئِقٌ؛ وأنت مئِق، فكيف نتّفق! وولّي يفرِي أديم الأرض، ويركضُ طَرْفَه أيّما ركْض، فما عددْتُ أن اقتعدت مَطيَّتِي، وعُذْت لِطيّتي، حتى وصلتُ إلى حِلّتي، بعد اللتَّيا والّتي.

* * *

العِرّيسة: مأوى الأسد. والفريسة: الصيد يفترسه، أي يكسر عنقه، وهي أكيلة الأسد. أشرع: صوّبَ. أنار: نَوّر. ينج منجَى: يخلص مخلص، وشبه خلوصه بخلوص الذباب، لأنه يقع على الجسد أو الطعام فيتقذّرُ الإنسان بمقرّه فيشرده، وهو واجد عليه، فينجو الذباب، سالماً بعد أذَايته.

[مما قيل في الذباب والبعوض شعراً]

وأخذه من قول إبراهيم بن العباس الصولي لمحمد بن الزيات: [المتقارب]

كـنْ كـيـف شـئـت وقُـلْ مـا تـشـا ... وأبـرِقْ يـمـيـنـاً وأرعِـدْ شـمـالا

نـجـا بـك قـومـك مَـنْـجَـى الـذبـاب ... حـمـتـه مـقـاذِيـره أن يُـنَـالا

وأخذه إبراهيم من قول الآخر: [السريع]

أسـمـعـنـي عـبـدُ بـنـي مـسـمـعٍ ... فـصـنْـتُ عـنـه الـنّـفْـسَ والـعِـرْضـا

ولـم أُجـبْـه لاحـتـقـاري لـه ... ومَـنْ يَـعَـضّ الـكـلـب إن عـضـا!

ومن قول الآخر: [البسيط]

قوم إذا ما جنى جَانيهمُ أمنوا ... لِلُؤمِ أحسابهم أن يُقتَلوا قَوَدا

وهو كثير، وإنما اخترع إبراهيم لفظ الذباب.

وعرّض ـ أي بعض الأدباء ـ على صاحب له بمحضر جماعة شعراً، فجعل يعرِض عن محاسن الشعر ويتتبع مواضع النقد حسداً، فقال له صاحب الشعر: أراك كالذباب تُعرِض عن المواضع السليمة وتتبع قروح الجسد.

وقال ابنُ الروميّ: [المجتث]

تـأمُّـل الـعـيـبِ عـيـبُ | مـا بـالـذي قـلـتَ ريـبُ
والـشِّـعـر كـالـشَّـعـر فـيـه | مـع الـشَّـيْـبَـة شـيـبُ
فـلـيـصـفـح الـنـاس عـنـه | فـطـعـنـهـمْ فـيـه عـيـبُ

ومنكيات الذباب لابن آدم كثيرة، منها نزوله على الوجه عند النوم، فيلقَى منه بلاء، أو في الصلاة فيصير أضرّ من إبليس للتشاغل، وأما إذا تساقط في الطعام فتنغيصه وتنفيره للطباع أضرار لا تَخفى، وقد قدّمت آنفاً في ذلك من الشعر شيئاً، ولذلك تضرب العرب المثل فتقول: أجرأ من ذباب، لأنه ينزل على الأسد والأمير.

ونذكر هنا ما هو أشدّ أذاية منه وهو البعوض، ولولا أنّ أيامه قلائل لأخلى البلاد، قال ابن رشيق يتشكّاه: [الكامل]

يـا ربّ لا أقـوى عـلـى دفـع الأذى | وبك استعنت على الضعيف المؤذِي
مـا لـي بـعـثـتَ إلـيّ ألـفَ بـعـوضـة | وبـعـثـتَ واحـدةً إلـى نـمـروذِ!

وقال ابن شرف: [الكامل]

لـك مـنـزل كـمـلـت بـشـارتـه لـنـا | لّـلـهـو لـكـن تـحـت ذاك حـديـث
غـنّـى الـذبـاب وظـلّ يـزمِـر حـولـه | فـيـه الـبـعـوض ويـرقـص الـبـرغـوث

وقال آخر: [مخلع البسيط]

لـيـلُ الـبـراغـيـث والـبـعـوضِ | لـيـلٌ طـويـلٌ بـلا غـمـوض
فـذاك يـنـزو بـغـيـر رقـصٍ | وذا يُـغـنّـي بـلا عـروضِ

وقوله: ويرضي من الغنيمة بالإياب، منقول من قول امرىء القيس، وقد طوّفت. . .[1] البيت. وهو مشهور. يوردنّ: يُدْخلنّ. وريده: صفحة عنقه، والوريدان:

---

(١) يروى البيت بتمامه:

وقـد طـوّفـت بـالآفـاق حـتـى | رضـيـت مـن الـسـلامـة بـالإيـابِ

والبيت من الوافر، وهو لامرىء القيس في ديوانه ص ٤٣، ولسان العرب (نقب)، وجمهرة الأمثال ١/ ٤٨٤، والعقد الفريد ٢/ ١٢٦، والفاخر ص ٢٦٠، وكتاب الأمثال ص ٢٤٩، والمستقصى ٢/ ١٠٠، ومجمع الأمثال ١/ ٢٩٥، وتهذيب اللغة ٩/ ١٩٧، وتاج العروس (نقب)، ويروى «وقد نقّبتُ»، بدل «وقد طوّفت».

العرقان يجري فيهما النَّفَس، وهما في مقدّم العنق، وفجعته المصيبة فجعاً: أوجعته فهو فجيع ومفجوع، وموت فاجع، والفجيعة: الرزيّة الموجعة. يفجعنّ: يحزننّ. وليده: ابنه. وديده: صاحبه. نبذ: رمى. حاص مال إلى الهرب، ويقال: حاص يحيص حيصاً، إذا عدل، ومنه ﴿ما لهمْ مِنْ مَحِيص﴾ [إبراهيم: ٢١]، أي من ملجأ ومحيد. تسلّمها: خذها. تسنّمها: اركب سنامها. إحدى الحسنيين، أي المسرتين، ولو رجع له الفرس لكملتا له، فالناقة إحداهما. بذات صدري: علم بحاجة نفسي وبحقيقة ما أضمرته في صدري. تكهن: علم. خامر: خالط. طليق: مستبشر. ذليق: حديد. ضيمي: ذلّي وضرّي. ساءك: أحزنك. اطّرِحْ: اترك، وقد أعاد هذا في السابعة والثلاثين فقال: وهبها لا خطأ ولا إصابة.

وسأل الحطيئة عتيبة النهّاس العجليّ فردّه، فقال له قومه: عرّضتنا ونفسك للشر، هذا الحطيئة، وهو هاجينا أخبث هجاء، فقال: ردّوه، فردّوه، فقال: كتمتَنا نفسَك ولك عندنا ما يسرّك، ثم قال له: مَنْ أشعر الناس؟ فقال: الذي يقول: **[الطويل]**

وَمَنْ يجعلِ المعروفَ من دُونِ عِرْضِه ... يَفِرْهُ ومنْ لا يتّق الشتمَ يُشتَمِ[1]

فقال: له: وهذه من مقدمات أفاعيك. ثم قال لوكيله: اذهب به إلى السوق فابتغ له كلَّ ما أحبَّ، فعرض عليه الخزّ ورقيق الثياب، فعرض هو إلى الأكسية الغلاظ فاشترى له ما أراد، فرجع إلى عتيبة، فقال له اسمع: **[الطويل]**

سُئِلْتَ فلم تبخلْ ولم تعطِ طائلاً ... فسيان لا ذمٌّ عليك ولا حَمْدُ[2]

وأنت امرؤ لا الجود منه سجيّة ... فتُعْطِي وقد يُعْدِي على النّائل الوَجْدُ

وامتدح أبو تمام إبراهيم بن المهديّ، فوجده عليلاً، فقبل منه المدحة وأناله ما يصلحه، وقال له: عسى أن أقوم من مرضي فأكافئك، فأقام شهراً ثم كتب له: **[المنسرح]**

إنّ حراماً قبول مدحتنا ... وترك ما نَرْتجي من الصَّفَدِ

كما الدنانير والدراهم في الـ ... ـبيع حرام إلاّ يداً بيد

فقال لحاجبه: أعطه ثلاثين ألفاً، وجئني بدواة، فكتب إليه: **[الطويل]**

عاجلتَنا فأتاك عاجلُ برّنا ... قُلاًّ ولو أمهلتَنا لم نُقْلِلِ

فخذ القليل وكن كأنك لم تقُلْ ... ونكون نحن كأنّنا لم نفعل

وقال الخوارزمي: **[الوافر]**

ولمّا أن رأيت ابنيْ وليدِ ... وبينهما اختلافٌ في الفَعالِ

---

(١) البيت في ديوان الحطيئة ص ٣٠.

(٢) البيت الثاني بلا نسبة في لسان العرب (عدا).

وهبت قبيح ذا لجميل هذا ... وأسلمت العواقب للّيالي
إذا اليدُ أحسنت منها يمينٌ ... تسوّغنا لها ذنب الشمّال

قوله يفري: أي يقطع. أديم الأرض: وجهها. يركض طِرْفه: يجري فرسه. أيّما، صفة لمصدر محذوف، وفيه معنى التعجب من كثرة جريه، تقديره: يركض ركضاً، أيّ ركض. اقتعدت: ركبت القَعُود، وتقدمتُ في الأولى ما عدوت: ما جاوزت، أي ما عملت شيئاً قبل القعود على الناقة. حِلّتي: موضعي الذي هو سكني ونزولي. وحلّ. نزل.

تفسير ما أودع هذه المقامة من الألفاظ اللغوية والأمثال العربية

قوله: «ريّق زماني ورائقه» يعني أوله، وقد يخفف فيقال «ريق».

وقوله: «آخذ أَخْذَ نفُوسِهم الأبيّة»، يعني أقتدي بهم، يقال: أخذه، بكسر الهمزة وفتحها.

والهجْمة، نحو المائة من الإبل.

والثلّة: القطيع من الغنم.

والراغية: الإبل. والثاغية: الشاء، ومنه قولهم: ما له راغية ولا ثاغية، أي لا ناقة له ولا شاء.

وقوله: «أرداف أقيال»، أي يخلفُون الملوك إذا غابوا.

وقوله: «أبناء أقوال»، أي فصحاء، يقال للمِنْطيق: إنه ابن أقوال.

وقوله: «فتدثّرت فرساً محضاراً»، التدثُّر: الوثوب على ظهر الفرس، والمِحْضار والمِحْضير: الشديد العَدْو، مأخوذ من الحُضْر، وهو العدو.

وقوله: «أقتري كلَّ شجراء مرداء» الاقتراء: تتبّع الأرض. والشجراء: ذات الشجر، والمراد الخالية من النبات، ومنه اشتقاق الأمْرَد، لخلوّ وجهه من الشّعر.

وقوله: «حَيْعل الدّاعي إلى صلاته»، يعني قول المؤذن: حيّ على الصلاة حيّ على الفلاح، والمصدر منه الحيعَلة، ومثله من المصادر الهيلَلة والحمْدلة. والحوْقلة والبسْملة والحسْبَلة والسَّبْحلة والجَعْلَفة؛ فالهيللة حكاية قول: لا إله إلاّ الله. والحمدلة: حكاية قول: الحمد لله. والحسبلة حكاية قول: حسبنا الله، والسبحلة حكاية قول: سبحان الله. والجعلفة حكاية قول: «جُعلت فداك».

وقوله: «فنزلت عن مَتْن الرّكوبة»، يعني المركوبة، يقال: ناقة رَكوب ورَكوبة وحَلوب وحَلوبة، وقد قرىء: «فمنها ركوبتهم».

والصَّهْوة: مقعد الفارس. والشّحْوَة: الخطوة. والجَزع: قطع الوادي عَرْضاً.
وقوله: «صكّة عميّ» يعني قائم الظهيرة، وقد اختلف في أصله، فقيل: كان عميّ رجلاً مغواراً، فغزا أقواماً عند قائم الظهيرة، وصكّهم صَكّةً شديدة، فصار مثلاً لكل مَنْ جاء ذلك الوقت، وقيل: المراد به الظّبي، لأنه يسْدِر في الهواجر، ويذهب بصرُه، فيصطك، وكذلك الحية، واصْطكاك الظبي بما يستقبله كاصطكاك الأعمى، ثم صُغّر الأعمى تصغير الترخيم، فقيل: عُمَيّ؛ كما صغّروا أسْوَد وأزهر، فقالوا: سويد وزهير.

وقوله: «وكان يوماً أَطْوَلَ من ظلّ القناة»، يوصف اليوم الطويل بظلّ القناة، كما يوصف اليوم القصير بإبهام القطاة، والعرب تزعم أنّ ظل الرّمح أطول ظلّ، ومنه قول شبرمة بن الطفيل: **[الطويل]**

ويومٍ كظلّ الرمح قصّر طوله ... دم الزقّ عنا واصطفاق المزاهرِ[(١)]

وقوله: «أحرّ من دمع المقلات» المقلات هي المرأة التي لا يعيش لها ولد، فدمعها أبداً حارّ لحزنها، لأنه يقال: إن دمعة الحزن حارة ودمعة السرور باردة، ولهذا قيل للمدعوّ له: أقرّ الله عينه، مأخوذ من القرّ وهو البرد، وقيل للمدعوّ عليه: أسخن الله عينه، مأخوذ من السّخنة، وهي الحرارة، وقيل: إن إقرار العين مأخوذ من القرار؛ فكأنه دعا له أن يُرزق ما يقرّ عينه حتى لا تطمح إلى ما لغيره. وكانت الجاهلية تزعم أن: إن المقلات إذا وطئت على قتيل شريف عاش ولدها، ولهذا أشار بشر بن أبي خازم في قوله: **[الطويل]**

تظلّ مقاليتُ النساء يطأنه ... يَقُلْن: ألا يلْقَى على المرء مِئزَرُ[(٢)]

وقوله: «عَلِقَتْ بي شَعوب» يعني المنية، ولا يدخل هذا الاسم أداة التعريف، مثل دجلة وعرَفة.

وقوله: «لأغور تحتها إلى المُغَيربان»، التقدير: النزول إلى القائلة؛ كما أن التعريس: النُّزول آخر الليل للتهويم أو الاستراحة.

والمُغَيْربان، تصغير المغرب، وكان قياس تصغيره المغيرب، إلاّ أنّ العرب ألحقت آخره ألفاً ونوناً على طريق الشذوذ.

وقوله: «مضطغناً أهبة تَجْوابه»، الاضطغان: أن يحمل الشيء تحت حضنه، والاضطبان أن يحمله تحت ضِبنه، والضِّبْن: ما بين الإبط والكشح، وكلاهما متقارب.

---

(١) البيت لابن الطثري في ديوانه ص ٨١، ولسان العرب (صفق)، وأساس البلاغة (رمح)، وقال ابن بري: البيت لشبرمة بن الطفيل وليس لابن الطثرية.

(٢) البيت لبشر بن أبي خازم في ديوانه ص ٨٨، وإصلاح المنطق ص ٧٦، وشرح شواهد الإيضاح ص ٤١٣، ولسان العرب (قلت)، والمعاني الكبير ص ٩٣٠، وبلا نسبة في مجالس ثعلب ١/ ٧١.

ويقال: أول مراتب الحمل الإبط ثم الضبّن، وهو أسفل الإبط ثم الحضن، وهو عند الجنب.

والتجواب مصدر جاب، وجميع المصادر التي جاءت على «تَفْعال» هي بفتح التاء إلاّ قولهم: تِبْيان وتِلْقاء لا غير، وزاد بعضهم: تِيصال.

وقوله: «عُجَرِي وبُجَرِي» يريد به جميع أمري الظاهر والباطن، وأصل العجر العُقدَ الناتئة في العصب، والبجر: العُقد الناتئة في البطن.

وقوله: «ولم يقل إيهاً» أي لم يأمرْني بالكفّ، يقال: للمستزاد: إيه. وللمستنكف: إيهاً.

وقوله: «لأمرٍ ما جدع قصير أنفه»، قصير هو مولى جذيمة الأبرش، وكان جَدَع أنفه بيده حين قتلت الزباء مولاه، ثم أتاها وأوهمها أن عمرو بن عديّ ابن أخت جذيمة، هو الذي جدَع أنفه اتهاماً له بأنّه غشَّ خاله جذيمة إذ أشار عليه بقصْدها، فَحَظِيَ بهذا القول عندها حتّى جّهزته مراراً إلى العراق؛ فكان يأتيه بالطُّرف منه إلى أن استصحب في آخر نوبة الرجال في الصناديق، وتوصَّل إلى قتلها، والأخذ بثأر مولاه منها. وقصته مشهورة.

وقوله: «ولو كان ابن بُوحك» يعني ولد الصُلب، إشارة إلى أنه ولد في باحة الدار؛ وهي عرّصتها، وجمعها بُوح. وقيل: إن البوح من أسماء الذكَر.

وقوله: «في شهريْ ناجر» هما شهرا الحرّ، وقيل: إنها حَزِيران وتمُّوز. وأنكر ابن دريد هذا القول، وقال: هما طلوع نجمين.

وقوله: «بت بليلةٍ نابِغية» أومأ به إلى قول النابغة: **[الطويل]**

فبتّ كأنّي ساورتني ضئيلة ... من الرُّقش في أنيابها السمُّ ناقع[1]

وقوله: «فألمعت إليه بثوبي» يعني أشرت إليه، يقال منه: ألمع ولمع بمعنى.

وقوله: «يلدع ويصيء»، هذا مثل يضرب لمن يظلم ويشكو، يقال: صاءت العقرب تصيء صِيئاً وصَيئاً بفتح الصاد وكسرها؛ إذا صوّتت، وكذلك الفرخ، وما أحسن قول ابن الرومي في هذا المعنى: **[البسيط]**

تشكي المحبّ وتشكو وهي ظالمة ... كالقوس تُصْمِي الرّمايا وهي مِرْنَانُ

---

(١) البيت للنابغة الذبياني في ديوانه ص ٣٣، وخزانة الأدب ٢/ ٤٥٧، والحيوان ٤/ ٢٤٨، والدرر ٦/ ٩، وسمط اللآلي ص ٤٨٩، وشرح شواهد المغني ٢/ ٩٠٢، والكتاب ٢/ ٨٩، ولسان العرب (طور)، (نذر)، (نقع)، ومغني اللبيب ٢/ ٥٧٠، والمقاصد النحوية ٤/ ٧٣، وتاج العروس (طور)، (نذر)، (نقع)، (ضؤل)، وأساس البلاغة (نقع)، وبلا نسبة في شرح الأشموني ٢/ ٣٩٤، وهمع الهوامع ٢/ ١١٧.

وقوله: «ينزو ويلين»؛ هذا مثل يضرب لمن يتعزز ثمّ يذلّ، ويقال: إن أصله أن الجدي ينزو وهو صغير فإذا كبر لان.

وقوله: «لابساً جلد النمر»، هذا مثل يضرب للمتّقح الجريء، لأن النمر أجرأ سَبْع وأقله احتمالاً للضيم، ومن هذا اشتقاق قولهم: تنمّر، أي صار مثل النّمِر.

وقوله: «فألحق بالقارظين» الأصل في القارِظ الذي يجني القرَظ، وهو النبات المدبوغ به؛ والقارظان المشار إليهما أحدهما من عَنزة والآخر من النّمر بن قاسط، خرجا يجنيان القَرَظ فلم يرجعا، ولا عُرف لهما خبر، فضُرِب بهما المثل لكل غائب لا يُرْجَى إيابه، وإليهما أشار أبو ذؤيب في قوله: **[الطويل]**

وحتّى يئُوب القارظان كِلاهما ويُنْشَرَ في القتلى كليبٌ لوائِلِ[1]

وقوله: «حَروري بسَمُومي»، الحَرور: الرّيح الحارة ليلاً، والسَّموم: الريح الحارة نهاراً، وقد يقام أحدهما مقام الآخر مجازاً. وقال بعضهم: الحَرور يكون ليلاً ونهاراً، والسموم يختصّ بالنهار.

وقوله: «لَيْث عِريسة» يعني مأوَى السبع، ويقال فيه. عرّيس وعرّيسة بإثبات الهاء وحذفها، كما يقال: غاب وغابة وعَرين وعَرينة. فأمّا الغِيل والخِيس فلم يلحقوا بهما الهاء.

وقوله: «أفلت وله حُصاص» هذا المثل يضرب لمن نجا من هلكة أشفى عليها بعد ما كاد يَهْوِي فيها. والحُصاص: الْعَدْو، وقيل إنه الضراط.

وقوله: «ويلٌ أَهْوَن من ويلين»، هذا المثل يضرب تسلية لمن ناله بعض المكروه، ومثله قول الراجز: **[الطويل]**

أبا منذرٍ أفنيت فاسْتَبْقِ بعضنا حَنَانيك بعضُ الشرّ أهون من بعضِ[2]

وقوله: «أنا نئق، وأنت مئق، فكيف نتفق»، هذا المثلُ يضرب للمتنافيين في الخلق؛ فإنّ النّئق هو الممتلىء غيظاً؛ مأخُوذٌ من قولهم: أتأقت الإناء؛ إذا ملأته. والمئق هو الباكي؛ فكأن النئق ينزع إلى الشر لغيظه، والمئق يضيق ذرعاً باحتماله، ومثله قول بعضهم: أنا كلِف، وأنت صِلف، فكيف نأتلف!

وقوله: «لطيّتي» يعني لقصدي ووجْهتي، وقد يقال فيها: طِيَة، بالتخفيف.

---

(١) البيت لأبي ذؤيب الهذلي في شرح أشعار الهذليين ص ١٤٧، ولسان العرب (قرظ)، وتهذيب اللغة ٩/ ٦٨، وتاج العروس (قرظ)، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٧٦٣، وديوان الأدب ١/ ٣٥٤.

(٢) البيت لطرفة بن العبد في ديوانه ص ٦٦، والدرر ٣/ ٦٧، والكتاب ١/ ٣٤٨، ولسان العرب (حنن)، وهمع الهوامع ١/ ١٩٠، وتاج العروس (حنن)، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ١٢٧٣، وشرح المفصل ١/ ١١٨، والمقتضب ٣/ ٢٢٤.

وقوله: «بعد اللَّتَيَّا والتي» اللَّتيا تصغير الّتي، وهو على غير قياس التصغير المطرد؛ لأنّ القياس أن يضمّ أول الاسم إذا صُغّر، وقد أُقِرّ هذا الاسم على فتحته الأصلية عند تصغيره، إلاّ أنّ العرب عوّضته عن ضمّ أوله، بأن زادت ألفاً في آخره، وأجرت أسماء الإشارة عند تصغيرها على حكمه، فقالت في تصغير الذي والّتي: اللّذيا واللّتيا؛ تصغير ذا وذاك. وقد اختلف في معنى قولهم: بعد اللتيا والتي، فقيل: هما من أسماء الداهية. وقيل: المراد بهما بعض صغير المكروه وكبيره.

المقامة الثامنة والعِشرُون

وهيَ السَّمَرْقَنْدِيّة

حدّث الحارث بن همام قال: استَبْضَعْتُ في بَعْضِ أسفاري الْقَنْد، وقصدتُ به سَمَرْقَند؛ وكنت يومئذٍ قويمَ الشَّطَاطِ، جَمُومَ النَشَاطِ، أرمي عَنْ قَوْسِ المِرَاحِ، إلى غَرضِ الأفراح، وأستعينُ بماء الشبّاب، على مَلامِح السّرابِ، فوافيتُها بُكْرة عَرُوبة، بعد أن كابدتُ الصُّعوبة، فسعيتُ وَما وَنَيْتُ، إلى أن حَصَل البيت. فلّما نقلت إليه قَنْدي، وملَكتُ قول عِنْدِي، عُجت إلى الحمّام على الأثَر، فأمطتَ عَنِّي وَعْثَاء السّفَر، وأخذت في غُسْلِ الجمْعة على الأثَرِ.

* * *

استبضعتُ: اتخذت بضاعة. القَنْد. عسل السكر.

[سمرقند]

وسَمَرْقَنْد: بلد عظيم من بلاد خراسان، غزاها ملك من ملوك اليمن اسمه شمر، فملَكها وهَدمها فسمِّيت شمركند، بمعنى خرابة شمر، ثُم عرِّبت فقيل: سمرقند، وأهلها السُّغد. وفي رواية أنه لما انتهى إلى السُّغد قاتلهم أياماً تحوّلوا إلى مدينتهم فحاصرهم حولاً حتى افتتحها عنوة، فقتَل منهم وسبَا وهدمها، ثم ثاب له رأي، فأمرَ ببنائها، فبُنيَتْ خيراً مما كانت، ثم أمر بصخرة فبُنيت عند بابها، وكتب عليها: هذا بناء ملك العرب لا العجم، شَمِر الملك الأشمّ. ووُحد في سورها لوْح من نحاس فيه كتاب، وهو: «هذا ما أمر ببنائه شمر»، وقد تقدّمَ أن فرغانة من أعمالها التي هي آخر خراسان، وبين سَمَرْقند وبغداد ستة أشهر، وتقدم أن مدينة سمرقند من أحسن بلاد الله تعالى، ولما أشرف قتيبة ابن مسلم عليها، فرأى ما أدهشه لإفراط حسنها. قال: كأنها السماء في الخُضْرة، وكأنّ قصورها النجوم والزهرة، وكأن أنهارَها المجرّة.

* * *

قوله: قويم الشَّطَاط، أي معتدل القامة: جموم النّشاط، أي كثير القوة والخفة. والمراح: النشاط. والأفراح: جمَع فرح، وماء الشباب: نَضارة الفتوّة ونعمة الصبا. ملامح السراب: مواضع يلمح السراب فيها، أي يلمَع ويظهر، فأراد أنه استعان بقوّة فتوّته على قطع الصحراء. وافيتها: أتيتُها.

[يوم عَروبة]

عروبة، اسم يوم الجمعة، سُمِّيَ بذلك لحسنه حيث كان موسماً، وهو من قولهم: جاريةٌ عَروب أي حسناء، وكانت العرب تسمّي أيام الأسبوع بأسماء يجمعها بيتان وهما: **[الوافر]**

أؤمل أن أعيش وأنّ يومي ... بأوّلَ أو بأهْوَن أو جُبارِ[1]

أو التّالي دُبار فإنْ أفُتْهُ ... فمؤنس أو عَروبة أو شِيارِ

وعَروبة من الأسماء التي تدخلها الألف واللام مرّة وتسقط منها أخرى، قال الشاعر: **[الكامل]**

* يوم كيوم عَروبة المتطاولِ[2] *

وقال آخر: **[البسيط]**

* يوم العَروبة أورادا بأورادِ[3] *

وحكوا أن سيبويه، كان في حلقة بالبصرة فتذاكروا شيئاً من حديث قتادة، فذكر سيبويه حديثاً غريباً، وقال: لم يرو هذا إلاّ سعيد بن أبي العَروبة، فقال له بعض الفضلاء: ما هاتان الزيادتان؟ ـ يعني الألف واللام في العروبة ـ فقال سيبويه: هكذا ينبغي أن يقال، لأن العَروبة هي يوم الجمعة، فمَنْ قال: عَروبة فقد أخطأ. قال محمد بن سلاّم: فذكرت ذلك ليونس بن حبيب، فقال: أصاب: سيبويه لله درّه.

وسُمِّيَ يوم الجمعة لما جاء في حديث سلمان قال: قال رسول الله ﷺ: «لِمَ سُمّيَ يوم الجمعة؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: لأن فيه جَمع أبوك آدم»[4]. وقال بعضهم فذكر عروبة: **[الكامل]**

---

(١) البيتان بلا نسبة في الإنصاف ٢/ ٤٩٧، وجمهرة اللغة ص ١٣١١، والدرر ١/ ١٠٣، ولسان العرب (عرب)، (جبر)، (دبر)، (شبر)، (أنس)، (هون)، والمقاصد النحوية ٤/ ٣٦٧، وهمع الهوامع ١/ ٣٧.

(٢) يروى البيت بتمامه:

وإذا رأى الروّاد ظلّ بأسقفٍ ... يوماً كيوم عروبة المتطاولِ

وهو لابن مقبل في ديوانه ص ٢٢١، وتاج العروس (سقف) ومعجم البلدان (أسقف)، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٣١٩، ١٣١١، والأزمنة والأمكنة ١/ ٢٧١.

(٣) صدره:

نفسي الفداءُ لأقوام هم خلطوا

والبيت للقطامي في ديوانه ص ٨٨، وجمهرة اللغةً ص ١٣١١، والأزمنة والأمكنة ١/ ٢٧١، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٣٢٠، ومقاييس اللغة ٤/ ٣٠١.

(٤) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٣١١، بلفظ: «لأي شيء سُمّي يوم الجمعة».

في العيد زار، وكان يوم عَروبةٍ ... يا فرْحتي بثلاثة الأعيادِ

وكان المتوكل صاحب بطليُوس ينتظر وفود أخيه عليه من شنتيرين يوم الجمعة، فأتاه يوم السبت، فلمّا تلقاه عانقه، وأنشد: **[الوافر]**

تخيّرتِ اليهودُ السبت عيداً ... وقلنا في العَروبة يوم عيدِ

فلما أن طلعتَ السبت فينا ... أطلت لسَانَ محتجّ اليهود

وقال ابن الرومي: **[الطويل]**

وَحبَّب يومَ السَّبت عندي أنني ... ينادمني فيه الذي أنا أحببتُ

ومن عجب الأشياء أنّيَ مسلم ... حنيف ولكنْ خير أياميَ السبتُ

* * *

قوله: كابدت، أي قاسيت، سَعَيْت وما ونيت: خرجت وما فترت، ويقال: ونى يني، أي ضعف، والونى الضعف والفتور والإعياء. ملكت قول عندي، يريد أن المسافر في الطريق لا يحسب ماله مِلْكاً له حتى يدخل المدينة، لأنه متعرّض للهلاك في الطريق، فإذا دخل المدينة وحصل في بيته ملكه فصار «ملكت قول عندي» عبارة عن سلامة ماله وخلاصِهِ من حوادث الأسفار نحو الغرق والنهب والغرق والغضب، أو يكون عبارة عن الحصول في البيت يقول: عندي كذا، أي في بيتي.

عُجتُ، أي ملت على الأثر، أي في الحين، ورجع على الأثر أي أتى مستعجلاً، كأنه مشى على أثره في طريقه قبل غيره، فمعنى عجت إلى الحمام على الأثر، أي دخلته على الفور في الحال. وقد ذكرنا باباً أدبياً من الشعر في الحمام في الرابعة، ونذكر هنا فيه فنا آخر من الأدب.

[مما قيل في الحمّام]

قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: «ستفتح عليكم أرض الأعاجم، وتجدون فيها بيوتاً يقال لها الحمامات، فلا يدخلها الرجل إلا بإزار، وامنعوا النساء أن يدخلنها إلا مريضة أو نفساء»[1].

وروي أن عبيد بن قرط الأسديّ، دخل مع صاحبين له بلداً فيها حمام فأحب صاحباه دخوله فيها، فنهاهما عبيد، فأبيا إلا دخوله، فلما دخلاه رأيا فيه رجلا يتنوّر، أي يستعل النّوْرة فسألاه عنها. فأخبرهما بإذهابها الشّعر، فاستعملاها فلم يحسنا فأحرقتهما وأضرّت بهما فقال عبيد: **[الكامل]**

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الأدب باب ٣٨، وأبو داود في الحمّام باب ٣، والترمذي في الأدب باب ٤٣، والدارمي في الاستئذان باب ٢٣، وأحمد في المسند ٣/ ٣٣٩، ٦/ ١٣٢، ١٣٩، ١٧٣، ١٧٩، ٢٦٧.

لعمرِي قد حذّرْتُ قرطا وجاره ... ولا ينفع التحذيرُ من ليس يحذرُ
نهيتهما عن نوْرةٍ أحرقْتهما ... وحمام سوء نارُه تتسعّرُ
فما منهما إلا أتاني موقعاً ... به أثر من مسها يتقشّرُ
أحذّكما لم تعلما أنّ جارَنَا ... أبا الحِسْل بالبيداء لا يتنوّرُ
ولم تعلما حمّامنا في بلادنا ... إذا جعل الحرباء في الجدب يحضُر

ورد أعرابيّ البصرة، فنزل على ابن عمّ له، فلما رأى البصريّ شَعَثَ الأعرابيّ، أراد أن ينظّفه، فقال له يوم جمعة: إنّ الناس يتطّهرُون للجمعة، ويتنظّفون، ويلبسون أحسن الملابس، فتعال أدخلْك الحمّام لتتنظّف من قشَف السفر والبادية، وتتطهّر للصلاة، فدخل معه الحمام، فعندما وطىء الأعرابيّ فرش أوّل بيت في الحمام، لم يحسن المشي عليها لشدة ملاستها فزلق، وسقط لوجهه، وصادفت جبهته حرف مدخل البيت، فشجّه شجّةً منكرة فخرج مرعوباً وهو ينشد، ودماؤه تسيل: **[الكامل]**

وقالوا تطهّرْ إنّه يومُ جمعةٍ ... فأبتُ من الحمّام غيرَ مطهّرِ
تزوّدتُ منه شَجّةً فوق حاجبي ... بغير جهاد بئسما كان متجري
يقول ليَ الأعراب حين رأينَنِي ... به لا بظبي بالصَّريمة أعفَرِ
وما تعرف الأعراب مشياً بأرضها ... فكيف ببيت ذي رخام ومرمَرِ

وقال ابن سكّرة: دخلت حماما، فخرجت وقد سُرِق مداسي، فعدت إلى داري حافياً وأنا أقول: **[الوافر]**

إليك أذمّ حمّام ابن موسَى ... فإن فاق المُنَى طيباً وحرّا
تكاثرت اللّصوص عليه حتى ... ليحفى منْ يطيفُ به ويعرَى
ولم أفقد به ثوباً ولكن ... دخلت محمداً وخرجت بشْرَا

يريد بشْراً الحافي، وكان من كبار الزهاد، ولزم المشي حافياً فلقّب به.

* * *

وقوله: أمطت، أي أزلت. وعثاء السفر: شدته ومشقته، وفي الحديث: «اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنقلب»، وأصله من الوعث، وهو الدَّهَس، أي الرمل الدقيق. وقيل: الوعث الرمل تغيب فيه القوائم، وقيل: هو الطريق الخشن الصعب. بالأثر، أي بالحديث المرويّ. وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «من اغتسل يوم جمعة غسل الجنابة ثم راح في الساعة الأولى فكأنما قرّبَ بَدَنة، ومَنْ راح في الثانية فكأنّما قرّب بقرة، ومن راح في الثالثة فكأنما قرّب كبشا، ومَنْ راح في الرابعة

فكأنما قرَّب دجاجة، ومَن راح في الخامسة فكأنَّما قرَّب بيضة، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر».

* * *

ثمّ بادَرْتُ في هيئة الخَاشِع، إلى مَسجِدِها الجَامِع، لألْحَقَ بمَنْ يَقْرُبُ من الإمام، ويُقرِّب أفْضَلَ الأنعام، فَحظِيتُ بأن جلَّيتُ في الحَلْبة، وتَخيَّرْتُ المركز لاسْتِمَاع الخطبة، ولم يَزَلِ النَّاسُ يَدْخلُونَ في دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً، ويَرِدُونَ فرادَى وأَزْوَاجاً؛ حَتَّى إذا اكْتَظَّ الجامع بحفْلِهِ، وأَظَلَّ تساوِي الشَّخْصِ وَظِلِّهِ، برَزَ الخطيبُ في أُهْبَتِهِ، متهادِياً خَلْفَ عُصْبتِه، فارتَقى في منبر الدّعْوَة، إلى أن مَثَلَ بالذِّرْوة؛ فسلَّمَ مشيراً باليمين، ثم جَلَس حَتَّى خُتِمَ نظمِ التأذين.

* * *

الأنعام: هي الإبل والبقر والغنم. وقال في الدرة: فرّقت العرب بين النعم والأنعام، فجعلت النّعم اسماً للإبل خاصة وللماشية التي فيها الإبل، وتذكر وتؤنث، وجعلت الأنعام اسماً لأنواع المواشي مثل الإبل والبقر والغنم. حظيت: سعدت. جلّيت: سبقت. والحلبة: جماعة الخيل، وأراد بها الناس المبادرين للصلاة، وأنه سبقهم. المركز: الموضع تنتظر فيه الصلاة. دين: طاعة. أفواجاً: جماعات. يردون: يأتون الجامع. اكتظّ: امتلأ وضاق بأهله. حفله: اجتماع الناس فيه. أظل: دنا قرب. تساوي الشخص وظِلّه، يريد حديث عمر رضي الله عنه: أن صلِّ الظهر إذا صار ظلك مثلك. برز: خرج. أهبته: عدّته للصلاة. متهادياً: متمايلاً لوقاره. عصبته: جماعة المؤذنين. ارتقى: طلع. مثل بالذروة: جلس بأعلى المنبر أو ظهر بأعلاه. والماثل: اللاطىء بالأرض أو القائم المنتصب، وهو من الأضداد، وسمي المنبر منبراً لارتفاعه وعلوّه من النبر، وهو ارتفاع الصوت، ونبر الرجل نبرة: تكلم بكلمة فيها علوّ، وأنشد أبو الحسن بن البراء: **[الكامل]**

إنـي لأسـمـع نـبـرةً مـن قـولـهـا ... فـأكـاد أن يُـغْـشَـى عـلـيّ سـرورا[1]

مشيراً باليمين، مذهب الشافعي رضي الله عنه أن الخطيب إذا جلس على المنبر، أشار إلى الناس بيمينه مسلّماً من غير كلام. قال ابن عمر رضي الله عنهما: انطلقت مع النبي ﷺ إلى مسجد قُباء، فصلّى فيه، فخرج عليّ صهيب، فقلتُ: يا صهيب، كيف كان رسول الله ﷺ يردّ مَنْ يسلّم عليه؟ قال: يشير بيده[2].

---

(١) البيت بلا نسبة في لسان العرب (نبر)، وتهذيب اللغة ١٥/ ٢١٤، وتاج العروس (نبر).

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة باب ١٧٠، وأحمد في المسند ٣/ ١٣٨.

قوله: جلس، قال الخليل: يقال لمن كان قائماً: اقْعد، ولمن كان نائماً أو ساجداً: اجلس، وهذا صحيح لأنّ القعود هو الانتقال من علو إلى سفل، ولهذا يقال لمن أصيب برجله: مُقعَد، والجلوس هو الانتقال من سُفل إلى علو، ورجل جالس: آتٍ نجداً، وهو المكان المرتفع. وذكره الحريري في الدرّة. ختم: أُكْمِل.

* * *

ثُمّ قام وقال: الحمدُ لِلَّهِ الممدوحِ الأسماء، المحمود الآلاءِ، الوَاسِعِ العَطَاءِ، المدْعُوِّ لحسْمِ اللأْوَاءِ، مَالِك الأُمم، ومُصوِّر الرِّمَم، وأهل السّمَاح والكرَم، ومُهلِك عادٍ وإرَم، أدْرَكَ كلّ سِرٍّ عِلْمُه، ووسِعَ كُلَّ مُصِرٍّ حِلمُه، وعمَّ كلّ عالِم طَوْلُه، وهَد كلّ ماردٍ حولُهُ. أَحْمَدُه حَمْدَ مُوَحِّدٍ مُسْلِم، وأدْعُوه دعاءَ مؤمّلٍ مُسَلِّم، وهُوَ اللَّهُ لاَ إلَهَ إلاَّ هُو الواحِدُ الأحَد، العادِلُ الصمَّد، لاَ وَلَدَ لَهُ وَلاَ والِدٍ، ولاَ رِدْءَ مَعَهُ وَلاَ مُسَاعِد، أرسل محمداً للإِسلامِ مُمَهِّداً، وللملَّةِ مُوَطِّداً، وَلأَدِلَّةِ الرُّسُلِ مؤكِّداً، وللأَسْوَدِ والأَحْمَرِ مسدّداً.

* * *

قوله: الآلاء، أي النعم الواسعة الكثيرة. حسم اللأواء: قطع الشدة. الرّمم: العظام البالية. مصورها: منشيء صورها، وأراد قوله تعالى: ﴿**قُلْ يُحييها الذي أنشأها أوّل مرّة**﴾ [الأنعام: ٦]، عاد وإرم: أمّتان قديمتان، وقيل: إرم قبيلة من عاد فيها مملكة عاد. وقيل إرم: اسمٌ لقبائل كثيرة، كالعماليق وطسْم وجديس هلكوا، وهم من ولد إرم ابن سام بن نوح، ومن لم يصرف إرم جعله اسماً للقبيلة. وقال سابق البربريّ في ذهاب الأمم: [**البسيط**]

وكيف يأمَنُ ريبَ الدهر مرتهَنٌ ... بعذوة الدّهر إن الدهر عَدّاءُ
ألقى على الجيل مِنْ عادٍ كلاكِلَهُ ... وقوم هود فهم هامٌ وأصداءُ

وقال أيضاً: [**البسيط**]

أين الملوك التي عن خطْبها غفلتْ ... حتى سقاها بكأس الموت سَاقِيها
غرّت زمانا بملك لا دوامَ له ... جهلاً كما غرَّ نفساً مَنْ يمنِّيها
وصبّحت قوم عاد في ديارهِم ... بمقطع يوم عادتهمْ عوادِيها
وتُبّعا وثمود الحِجْرِ غادرهمْ ... ريب المنون رمِيما في مغانيها
فكيف يبقى على الأحداث غابرنا ... كأننا قد أظَلْتَنَا دواهيها

وقال الألبيريّ: [**الكامل**]

أين الملوك وأين ما جمعوا ومَا ... ذخَرُوه من ذهب المتاع الذاهبِ

ومن السوابغ والصّوارم والقنا ... ومن الصواهل: بُدَّنٍ وشوازبِ
كانتِ سوابقها تحمّل منهم ... أقمار أندية وأسد كتائبِ
كانوا ليوثَ خفِيّةٍ لكنّهم ... سكنوا غياض أسنّة وقواضبِ
قصفتهمُ ريحُ الرّدى ورمتهمُ ... كفّ المنون بكلّ سهم صائبِ

قوله: مصرّ، أي مقيم على الذنب. والعالم: كل مخلوق، وأراد به الحيوان. طوْله: فضله هدّ: أذلّ وأهلك، وهد البناء: كسرَه وهدمه. والمارد: العاتي وهو المبالغ في الطغيان والفساد والكثير الشرّ. حوله: قوته، مؤمّل: راج. مسلّم: مفوّض. الصمد، من أسماء الله تعالى والسيّد المطاع، والصمد: الذي لا يولدُ له، وقيل: الصمد الذي لا جوف له.

وقال ابن الأنباريّ: أجمع أهل اللغة بلا خلاف على أنّ الصمد الذي ليس فوقه أحد، الذي يصمد إليه الناس في أمورهم، وأنشد لورقة بن نوفل: **[البسيط]**

سبحان ذي العرش سبحانا يدوم لهُ ... ربّ البرية فردٌ واحد صمدُ[1]

وأنشد: **[الطويل]**

* بعمرو بن مسعود وبالسيّد الصمدْ[2] *

وأنشد: **[البسيط]**

* ولا رهينة إلا سيّد صمدُ *

وأنشد: **[البسيط]**

* خذها حُذيف فأنت السيّد الصمَدُ[3] *

---

(١) يروى البيت:

سبحانه ثم سبحاناً يعود له ... وقبلنا سبّح الجوديُّ والجُمُدُ

وهو لورقة بن نوفل في الأغاني ٣/ ١١٥، وخزانة الأدب ٣/ ٣٨٨، ٧/ ٢٣٤، ٢٣٦، ٢٤٣، والدرر ٣/ ٦٩، ولأمية بن أبي الصلت في ديوانه ص ٣٠، والكتاب ١/ ٣٢٦، ولسان العرب (سبح)، (جمد)، (جود)، ومعجم ما استعجم ص ٣٩١، ولزيد بن عمرو بن نفيل في شرح أبيات سيبويه ١/ ١٩٤، وبلا نسبة في شرح المفصل ١/ ٣٧، ١٢٠، ٤/ ٣٦، والمقتضب ٣/ ٢١٧، وهمع الهوامع ١/ ١٩٠.

(٢) صدره:

ألا بكَّرَ الناعي بخيري بني أسدْ

والبيت لسبرة بن عمرو الأسدي في التنبيه والإيضاح ٢/ ١١٩، وجمهرة اللغة ص ٦٥٧، وسمط اللآلي ص ٩٣٣، وبلا نسبة في لسان العرب (صمد)، (خير)، والمخصص ١٢/ ٣٠١، ١٧/ ١٥٢، وديوان الأدب ١/ ٢٠٩، وتهذيب اللغة ١٢/ ١٥٠، وإصلاح المنطق ص ٤٩، وأمالي القالي ٢/ ٢٨٨.

(٣) صدره:

عَلَوتُهُ بحسام ثم قلت له =

قوله: ردء: معين وأردأتك على الأمر: أعنتك. مساعد: موافق لمراده. ممهداً: باسطاً. والملّة: الدين. الأحمر، أراد به الأبيض وأراد لكلّ الناس، وقيل: الأحمر العجم مثل الروم والفرس، لأنهم بيضٌ تعلُوهم حمرة، والأسود العرب، لأنهم لسكناهم الصحارى تغلِب السمرة على ألوانهم.

* * *

وَصَل الأرْحَامَ، وعَلَّمَ الأحكامَ، وَوَسَمَ الحلالَ والحرَام، وَرَسم الإحلال والإحرام، كرّم الله مَحَلَّهُ، وكَمَّلَ الصلاةَ والسّلامَ له، ورحم آلَهُ الكُرَماء، وَأهْلَهُ الرُّحَمَاء، ما هَمرَ رُكَامٍ، وَهَدَر حَمَام، وَسَرَحَ سوام، وسطا حُسَام. اعْمَلُوا رَحِمكم الله عَمَل الصُّلَحَاء، واكْدَحوا لِمَعَادِكُمْ كَدْحَ الأصِحّاء، وارْدَعُوا أهواءكُمْ رَدْعَ الأعداء، وأعِدُّوا لِلرحلَة إعدادَ السُّعَداء، وادّرعوا حُلَلَ الوَرَع، وداووا عِلَلَ الطَمع، وسَوُّوا أوَدَ العَمَل، وعاصوا وَساوس الأمل، وصوّرُوا لأوْهامِكمْ حُؤولَ الأحْوال، وَحُلولَ الأهوالِ، ومُساورة الأعلال، ومصارَمة المآلِ والآل.

* * *

الأرحام في الأصل: الفروج، ثم يكنى بها عن القرابات لِلّذين بينهم رَحِم. وسم: بيّن، وجعل له علامة، والسِّمة: العلامة. رسم: كتب وبيَّن وأصل الرسم الأثر، ورسمت الشيء: أثرت به أثراً. الإحلال: الدخول في الحِلّ. الإحرام: الدخول في الحرَم، وأراد أنه علم موضع الحِلّ والحرم. آله: أهله. هَمَر رُكام: انصبَّ سحاب. هَدَر: صوَّت. وسرح: تفرَّق في المرعَى، سوام إبل راعية. ساط: اهتزَّ ليقطع. اكدحوا: اعملوا، والكدح عمل الإنسان من خير وشرّ، واكتسابه للدنيا والآخرة. لمعادكم، أي ليوم بعثكم، والمعاد المرجع. الأصِحَّاء: جمع صحيح. اردعوا: كُفُّوا. اِدّرعوا: البسوا الخوف. أوَد: اعوجاج. وساوس الأمل: أحاديث الطمع والرجاء. أوهامكم: نفوسكم. حؤول: تغير. حلُول: نزول. الأهوال: المخاوف. مساورة: مواثبة. الإعلال: الإصابة بعلّة، مصارمة: مقاطعة. الآل: الأهل والقَرابة.

* * *

وادّكرُوا الحِمَامَ وسَكْرَةَ مَصْرَعِهِ، والرَّمْسَ وهَوْل مَطْلَعِهِ، واللَّحْدَ ووحْدَةَ مُودَعِهِ، والمَلَكَ وَرَوْعَةَ سُؤالِهِ وَمطْلَعِهِ. والمَحُوا الدّهْرَ وَلُؤْمَ كَرِّه، وَسُوءَ مِحَالِهِ

= والبيت لعمرو بن الأسلع العبسي في بصائر ذوي التمييز ٣/ ٤٤٠، وبلا نسبة في لسان العرب (صمد)، ومقاييس اللغة ٣/ ٣١٠، ومجمل اللغة ٣/ ٢٤١، وتاج العروس (صمد)، وكتاب العين ١٠٤/٧.

وَمَكْرِه. كَمْ طَمَسَ مَعْلَماً، وأمَرَّ مَطْعَماً، وطَخْطَحَ عَرَمْرَما، وَدَمَّرَ مَلِكاً مُكَرَّما.

* * *

اذّكروا الحِمام: اذكروا الموت. الرَّمس: تراب القبر. هول مطلعِه: خوف ما يراه الإنسان فيه. اللّحد: الحفيرة في جانب القبر. مُودَعه: المجعول فيه، كأنه وديعة فيه. الملَك: منكر ونكير، اللذانِ يفتِنان الناس في قبورهم. روعة: تقريع وتخويف. المطلع: المأتي.

قال الجوهريُّ، رحمه الله تعالى: يقال: أين مطلع هذا الأمر؟ أي مأتاه، وهو موضع الاطِّلاع من إشراف إلى انحدار، وجاء هو المطلع في الحديث، حَدَّث واثلة بن الأسقع وغيره قالوا: خطبنا رسول الله ﷺ، فقال: «يأيها الناس، اذكروا الموتَ وهولَ مطلعه وما تقدمون عليه من أعمالكم، فإنما أنتم عابرو سبيل إلى دار الخلود. ازهدوا في دنيانا قصة غير زائدة، مفرقة غير مجمعة، وارغبوا في دار لا تخرَب قصورُها ولا يبلى سرُورها، ولا يموت ساكنها. أعمار أهل الجنة: أبناء ثلاث وثلاثين سنة، مكحّلون يأكلون ويشربون، لا يخرج من أجوافهم شيء إلا يعرقون، عرقهم ذلك ومسك، فلم أر مثل الجنة، نام طالبها، ولم أر مثل النار، نام هاربها».

وقال ابن سُكَّرة: [الطويل]

محمَّدُ ما أعددتَ للترب والبِلَى ... ولِلمَلكين الواقفيْن على القبرِ
وأنت مصرٌّ لا تراجع توبةً ... ولا ترعوي عما يُذمُّ من الأمر
سيأتيك يومٌ لا تحاول دفعَه ... فقدّم له زاداً إلى البعث والحشرِ

وتقدّم البابُ موفًّى حقه في الحادية عشر.

[الأمل والطمع ومما قيل فيه شعراً]

نذكُرُ هنا بعض ما قيل في الأمل والطمع المانعين للناس من أعمال البر قال أبو العتاهية: [الهزج]

تعلَّقتُ بآمالِ ... طوالٍ أيّ آمالِ[1]
فأقبلت على الدهر ... ملحًّا أيَّ إقبالِ
أيا هذا تجهز لـ ... ـفراق الأهل والمالِ
فلا بدَّ من الموت ... على حالٍ من الحال

وقال أبو تمام: [الطويل]

أتأمُل في الدنيا تجدّ وتعمُرُ ... وأنت غداً فيها تموتُ وتُقبَرُ[2]

---

(١) الأبيات في ديوان أبي العتاهية ص ٢١٣.
(٢) الأبيات في ديوان أبي تمام ص ٤٨٢.

تُلَقِّحُ آمالاً وترجو نتاجَها ... وعمرك مما قد تُرَجِّيه أقصرُ
وهذا صباح اليوم ينعاك ضوءُه ... وليلته تنعاكَ لو كنت تشعرُ
تحُوم على إدراك ما قد كفيتَه ... وتقبل بالآمال فيها وتدبرُ
رزقك لا يعدُوك إمَّا معجّلٌ ... على حاله يوماً وإمّا مؤخَّر

وقال محمود الوراق: [المنسرح]

علام يسعى الحريص في طلـ ... ـب الرزق بطولِ الرواح والدَّلَجِ
يا قارع الباب ربّ مجتهد ... قد أدمن القَرْع ثم لم يلَجِ
فاطوِ على الهمّ كفَّ مصطبرٍ ... فآخرُ الهم أوّل الفرجِ

وقال عبد الصمد بن المعذّل: [المتقارب]

وأعلم أنَّ بنات الرجا ... تحلُّ العزيز محلّ الذليلِ
وأن ليس مستغنياً بالكثـ ... ـير مَنْ ليس مستغنياً بالقليلِ

قوله: المحوا: انظروا. كرّه: رجوعه. محاله: شدَّته ومعاداته وخداعه. طمس: محا وأذهب. معلماً: موضعاً مرتفعاً، تعلم به الجهة التي هو فيها. طحطح: أهلك وفرَّق. عرمرماً: جيشاً كبيراً. دمّر: أهلك، والدمار: الهلاك.

[الدهر وما قيل فيه]

ونذكر بعض مَنْ ذمّ الدهر من ملوك الإسلام.

من ذلك أنَّ سليمان بن عبد الملك لبس في يوم الجمعة لباساً شهر به، ودعا بتخت فيه عمائم، وبيده مرآة، فلم يزل يعتمّ بواحدة بعد أخرى، وأرخى سدولها، وأخذ بيده مخصرة، واعتلى منبره ناظراً في عِطفَيْه، وجمع حشمه، وقال: أنا الملك الشاب، السيد الحبحاب، الكريم الوهاب. فتمثَّلتْ له إحدى جواريه، فقال: كيف ترين أمير المؤمنين؟ فقالت: أراه مُنَى النفس وقُرَّة العين، لولا ما قال الشاعر: [الخفيف]

أنت نعم المتاع لو كنت تبقَى ... غير أن لا بقاء للإنسان
أنت خِلْوٌ من العيوب ومما ... يكره الناس غير أنك فاني

فدمعت عيناه، وخرج على الناس باكياً، فلما فرغ من صلاته رجع ودعا الجارية، وقال لها: ما حملك على ما قلت؟ قالت: والله ما رأيتك ولا دخلت عليك. فأكبر ذلك، ودعا بقية جواريه فصدَّقْنَهَا على ذلك، فراعه ذلك ولم يبق إلا مُديدة حتى مات.

الفضل بن الربيع، قال: كنت مع المنصور في السفر الذي مات فيه، فنزلنا بعضَ المنازل، فدعا بي وهو في قُبَّته إلى حائط، وقال: ألم أنهكم أن تَدَعُوا العامة تدخل هذه

المنازل: فيكتبون فيها ما لا خير فيه، قلت: وما هو؟ قال: ألا ترى ما على الحائط مكتوباً: **[الطويل]**

أبا جعْفرِ حانتْ وفاتك وانقضتْ سنوك، وأمر الله لا بدَّ نازلُ

أبا جعفر، هل كاهن أو منجّم يردُّ قضاءَ الله أم أنت جاهل؟

فقلت: والله ما على الحائط شيء، وإنه لنقيٌّ أبيض، قال: والله، قلت: والله. قال: إنها والله نفسي نعت إليّ الرحيل، بادر بي إلى حرم الله وأمنه هارباً من ذنوبي وإسرافي على نفسي، فرحلنا، وثقل حتى بلغ بئر ميمون، فقلت له: قد دخلت الحرم، قال: الحمد لله، وقُبِض من يومه، ولمّا حضرته الوفاة، قال: هذا هو السلطان، لا سلطان من يموت.

عليّ بن يقطين، قال: لمّا كنا مع المهديّ بماسبذان، قال لي: أصبحت جائعاً فائتني بأرغفة ولحم بارد، فأكل ونام في البهو، فما استيقظ إلا لبكائه، فبادرنا فقال: أما رأَيتم ما رأيت، وقف عليّ رجل لو كان في ألفٍ ما خَفِيَ عليَّ، فقال: **[الطويل]**

كأنّي بهذا القصرِ قد باد أهلُه وأوحش منه رَبعُهُ ومنازلُهْ

وصار عميد الملك من بعد بهجةٍ إلى قبرِه تُحثَى عليه جنادلهْ

فلم يبقَ إلا ذكرهُ وحديثه ينادى عليه معولاتٌ حلائلُه

فما أتت عليه عشرة أيام حتى توفّي.

قال الأصمعيّ: دخلت على الرشيد يوماً، وهو ينظر في كتاب، ودموعه تنحدر على خده، فالتفت وقال: اجلس، أرأيت ما كان منّي؟ قلت: نعم، قال: أما إنه لو كان من أمر الدنيا ما رأيت هذا، ثم رمى إليّ به، فإذا فيه مكتوب لأبي العتاهية: **[الكامل]**

يا مؤثِرَ الدنيا بلذّتِها والمستعدَّ لمن يفاخرُهُ[1]

نِلْ ما بدَا لك أن تنال من الـ ـدُّنيا فإنَّ الموتَ آخرُه

هل أنت معتبر بمن خَربتْ منه غداة قضَى عساكرُه

وبمَنْ خلتْ منه أسرَّته وبمن خلت منه منابرُهُ

أين الملوك وأين غيرهُمُ صاروا مصيراً أنت صائرهُ

ثم قال: كأنّي أخاطَب بهذا دون كلّ الناس، فلم يلبثْ إلا قليلاً حتى مات.

ولمّا رجع المأمون من غزوته التي افتتح فيها أربعة عشر حِصْناً نزل على عين تعرف بالعشيرة، ينتظر رجوعَ رسُلِه من الحصون، فأعجبه برْدُ مائها وصفاؤه، وحسن

(١) الأبيات في ديوان أبي العتاهية ص ١٢٣.

بياضه وكثرة الخضرة والْخِضب بالموضع، وجلس على خشب بُسِط له على الماء، وطُرِحَ فيه درهم، فقرأ كتابته في قرار الماء لصفائه، ولم يقدر أحدٌ يدخل الماء لشدّة برده، فلاحت سَمَكَةٌ نحو الذراع، كأنها سبيكة فضة، فنزل بعض الفرَّاشين فأخذها، فاضطربتْ في يده وتململتْ، ووقعت في الماء، فنضح منه على صدر المأمون، ثم أخذها ووضعها بين يديه في منديل، تضطرب، فأمر بأن تُقْلَى الساعة، فأخذته رعدة من ساعته، ولم يقدِرْ يتحرّك، فَغُطِّيَ باللحف، وهو يرتعد، ويصيح: البرد، فأتِيَ بالسمكة فلم يقدر عليها، وسال على جسمه عرق كالرّب لم يعرفه الأطباء، فلما ثقل قال: أخرجوني أنظر إلى عسكري، وأنظر إلى مالي وملكي، وذلِك ليلاً، فأشرف على الجيش وانتشاره ونيرانه: فقال: يا مَنْ لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه، فلما ثقلَ رنا بطرفه نحو السماء، وقد امتلأت عيناه دموعاً، فقال: يا من لا يموت ارحم مَنْ يموت، وقُضِيَ عليه من ساعته.

وكان كثيراً ما ينشد: [المتقارب]

ومَنْ لم يزلْ غرضاً للمنو ... ن تتركُه ذات يوم عميدَا
وإن أخطأتْ مرة نفسُه ... فيوشك مخطئها أن يعودَا
فبينا يحيد وتخطئنَه ... قصدن فأعجلنه أن يحيدَا

وذكر أبو المواريث قاضي نصيبين، أنه رأى في المنام ليلة قائلاً، يقول: [البسيط]

يا نائم الليل في جثمان يقظانِ ... ما بالُ عينيك لا تبكي بتَهْتَانِ
إن الليالِيَ لم تُحسِن إلى أحدٍ ... إلا أساءَتْ إليه بعد إحسانِ
هلا رأيتَ صروفَ الدهر ما فعلتْ ... بالهاشِميِّ وبالفتح بن خاقانِ

ـ يعني المتوكل ووزيره الفتح بن خاقان ـ قال: فأتى البريد بقتلهما في تلك الليلة.

وقال سابق البربريّ: [البسيط]

وربَّ أغيدَ ساجِي الطّرْف معتصبٍ ... بالتاج نيرانه للحرب تستعرُ
يظلُّ مفترشَ الدّيباج محتجباً ... إليه تبنى قباب الملك والحجرُ
قد غادرته المنايا فهو مستلَبٌ ... مجندل تِرب الخدّين منعفِرُ

* * *

هَمُّه سَكُّ الْمَسَامع، وَسَحُّ الْمَدَامِعِ، وإكداءُ المطامِع، وإرداءُ المُسْمِع والسَّامِعِ عَمَّ حُكْمُهُ المُلُوكَ وَالرِّعاعَ، وَالمسُودَ وَالمُطَاعَ، وَالمحسُودَ والحُسّاد، وَالأساوِدَ وَالآساد، ما مَوَّل إلاَّ مالَ، وَعَكَسَ الآمال، وَمَا وَصَل إلاَّ وَصَالَ،

وَكَلَمَ الأوْصالَ، وَلاَ سَرَّ إلا وَسَاءَ، وَلَؤُمَ وَأَسَاءَ، وَلاَ أَصَحّ إلاّ وَلَّدَ الدَّاء، وَرَوّع الأوِدَّاء.

اللَّهَ اللَّهَ، رَعاكُمُ اللَّهُ! إلاَمَ مُدَاوَمَةُ اللّهْو، وَمُوصَلَةُ السّهْو، وَطُولُ الإصْرَار، وَحَمْلُ الآصَار، وَاطّرَاحُ كلاَمِ الحُكَمَاء، وَمُعَاصاةُ إلهِ السَّمَاء!

* * *

همّه: مراده. سك المسامع: قطع الآذان، وقد سك أذنَه، إذا استأصلَها بالقطْع، والمقطوع الأذن، يقال له: أسَكّ، وسككتُ الشيء فاستكَّ، أي سددتَه فانسدَّ. سحّ: صبَّ. إكداء: قطْع ومنْع. إرداء: إهلاك. الرعاع: سقط الناس. المسُود: مَنْ ليس بسيِّد. المطاع: الذي يقول ما أراد فيطاع ولا يعصى، الأساود: الحيَّات. والآساد: جمع أسد. موّل: أعطى مالاً. مال: انحرف وخرج عن طريقه. عكس: قلب. الآمال: جمع أمل وهو الرجاء، وقال مسلم بن الوليد: **[البسيط]**

الدَّهر آخذُ ما أعطى مكدِّرُ ما ... أصفَى ومفسِدُ ما أهوَى له بيدِ

فلا يغرَّنْك مِنْ دهر عطيّتُهُ ... فليسَ يَتْرُكُ ما أعطى على أحد

وقال أبو تمام: **[الطويل]**

أقول لنفسي حين مالت بصفوهَا ... إلى خطراتٍ قد نَتَجْنَ أمانِيَا[1]

فهبْنِي من الدنيا ظفرتُ بكلِّ ما ... تمنَّيتُ أو أُعطِيتُ فوقَ مُنَائِيَا

أليسَ اللّيالي غاصباتِي مُهْجَتِي ... كما غصبتْ قبْلِي القرون الخوالِيا

قوله: صَال: صاح وهدر. كَلَم: جرح. الأوصال: المفاصل، وهو موصّل عظم عضو في عضو. لَؤُم: صار لئيماً. روّع الأودَّاء: أفزع الأحباب. السَّهْو: الغلط. الإصرار: الإقامة عَلَى الذنب. الآصار: الأثقال، يريد إثقال الذنوب. اطِّراح: تَرْك ورمي.

* * *

أَمَا الْهَرَمُ حَصَادُكُمْ، والْمَدَرُ مِهَادُكُمْ! أما الحِمامُ مُدْرِكُكُمْ، والصِّرَاطُ مسلكُكُمْ. أمَا السَّاعَةُ مَوْعِدُكم، والسَّاهِرَةُ مَوْرِدُكُمْ! أمَا أهْوَالُ الطَّامّة لَكُمْ مُرْصَدَة! أما دارُ الْعُصَاةِ الحُطَمَةُ المؤصَدَة، حَارِسُهُم مَالِك، وَرُواؤهم حَالِك، وطَعَامُهُمُ السُّمُوم، وهَواؤهُم السَّمُوم. لاَ مَالَ أسْعَدَهم وَلاَ وَلَد، ولا عَدَدَ حَمَاهُمْ وَلاَ عُدَد.

(١) الأبيات في ديوان أبي تمام ص ٤٨٤.

أَلا رحِمَ اللَّهُ امرأ مَلَكَ هَوَاهُ، وأمّ مَسَالِكَ هُدَاه، وأحْكَمَ طاعة مولاه، وكدَّ وكدَح لِرَوْحِ مأواه، وعَمِلَ ما دامَ العُمرُ مُطَاوِعاً، والدَّهر موادِعاً، والصّحَة كامِلَة، والسَّلامَةُ حَاصِلة، وإلاّ دَهَمَه عدمُ المرام، وحَصَرُ الكَلاَم، وإلمام الآلاَم، وحُموم الحِمام، وهُدوء الحواس، ومِراس الأرْمَاس.

* * *

مسلككم: طريقكم. السَّاهرة: وجه الأرض، وقيل الأرض البيضاء. المورد: موضع الماء الذي يَرِدُه الناس والبهائم، ولا غناء لأحد عن قصد الماء، فجعل الساهرةَ مورداً على هذا المعنى. أهوال الطّامَّة: مخاوف القيامة وما فيها من الْهَوْل والخوفِ، وأصابت الناس طامّة أي داهية وأمر عظيم، وقد طَمّ الأمر، إذا عظم وجاوز الحدَّ. مُؤْصَدة: مُعَدَّة ينتظرون بها والْحُطَمة: التي تحطم الناس، أي تَكسِرُهم، يعني جهنم أعاذنا الله منها، وهو اسم علم من أسماء جهنم دخلته اللام إيذاناً بالصفة. المؤصَدة: المغلقة. رواؤهم: منظرهم الحسن. حالك: أسود. السُّموم: جمع سَمّ. والسَّمُوم: الريح الحارة. أمّ: قصد. أحكم: أتقن. كدح: عمل. رَوْح مأواه: راحة مسكنه. موادعاً: متاركاً ومصالحاً. قال ابن عمر رضي الله عنهما: قال رسول الله ﷺ لرجل يعظه «اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتَك قبل سَقمَك، وفراغك قبل شغلك، وغِنَاك قبل فَقْرَك، وحيَاتك قبل موتك».

دهمه: غشيه وأتاه فجأة، ودهمه يدهَمه لغة. المرام: المطلب. حصر: حبس. إلمام: نزول. الآلام: الأسقام. حُمُوم الحمام: دنوّ الموت. هدوّ: سكون. الحواس: الإدراكات، وهي التي يحسّ بها الإنسان الأشياء ويدركها وهي خمسة: العين يدرك بها النظر، والأنف والأذن يدرك بها الشم، والسَّمع واللسان واليد يدرك بهما الذوق، واللّمس، فيريد أن هذه الجوارح تَسْكُن بالموت ولا تتحرَّك.

[مما قيل في دنو الأجل وعجز الطب حياله]

وننشد هنا أبياتاً لها بالموضع بعض تعلّق، ونذكر فيها الأطباء الذين لا حيلة لهم في الموت، قال عدي بن زيد: **[الخفيف]**

أيـن أهـل الـديـار مـن قـوم نـوحٍ	ثـم عـادٌ مـن بـعـدهـم وثـمـودُ[1]
بـيـنـمـا هُـمْ عـلـى الأسرّة والأنـمـ	ـاط أفـضـت إلـى الـتـراب الـخُـدودُ
والأطـبـاء بـعـدهـم لـحـقـوهـمْ	ضـلّ عـنـهـم سَـعـوطـهـم والـلـدودُ

(١) الأبيات في ديوان عدي بن زيد ص ١٢٢.

وصحيحٌ أضحى يعود مريضاً وهو أدنى للموتِ ممن يعودُ

وقال الخليل بن أحمد: **[المتقارب]**

فكن مستعدًّا لداعي الفناءِ فإن الذي هو آت قريبْ

وقبلك داوَى المريضَ الطبيبُ فعاش المريض ومات الطبيبْ

ولابن الروميّ ـ وفصده بعض الأطباء، فزعم أن الفصد زاد في علّته، فقال: **[الكامل]**

غلِط الطبيبُ عليّ غلطة مُوردٍ عجزت موارِدُه عن الإصدار

والنَّاس يلحَوْن الطبيب وإنَّما غَلَطُ الطبيب إصابة المقدارِ

وقال غيره: **[السريع]**

قد قُلْتُ لما قال لي قائلٌ قد صار نُعمان إلى رمسِهِ

فأين ما يُذكَرُ من طبِّه وحذقه بالماء مع جَسِّهِ!

هيهات لا يدفع عن غيره من كان لا يدفع عن نفسِهِ

ومنه قول الآخر: **[الطويل]**

أقول لنعمان وقد ساق طِبُّه نفوساً نفيسات إلى باطن الأرْضِ

أبا منذرٍ أفنيت فاستبقِ بعضَنَا حَنَانيك بعضُ الشرّ أهون من بعضِ[1]

ويحكى أن القاضي ابن منظور بلغه أن أبا العلاء بن زهر مرض فضحك، وقال: فأين طبُّه؟ فبلغت أبا العلاء فقال: **[الكامل]**

قالوا ابن منظورٍ تبسَّم هازئا لمّا مرضت فقلت يعثر من مشَى

قد كان جالينوس يمرض دائماً فمن الإمام المرتضى قبل الرّشا

وقال المتنبي: **[السريع]**

لا بُدّ للإنسان مِن ضَجْعةٍ لا تقلب الإنسان عن جَنْبِهِ[2]

ينسى بها ما مرّ من عُجبهِ وما أذاق الموت من كربهِ

نحن بنو الموتَى فما بَالُنَا نعافُ ما لاَ بدّ من شربه

تبخل أيدينا بأرواحنا على زمانٍ هي من كَسْبِهِ

---

(١) البيت الثاني لطرفة بن العبد في ديوانه ص ٦٦، والدرر ٣/ ٦٧، والكتاب ١/ ٣٤٨، ولسان العرب (حنن)، وهمع الهوامع ١/ ١٩٠، وتاج العروس (حنن)، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ١٢٧٣، وشرح المفصل ١/ ١١٨، والمقتضب ٣/ ٢٢٤.

(٢) الأبيات في ديوان المتنبي ١/ ٢١٠.

فهذه الأرواح من جَوِّهِ ... وهذه الأجساد من تربه
يموت راعي الضأن في جهله ... موتة جالينوسَ في طِبِّهِ

أصيب الجرمي في عينيه فقال: [الرمل]

إذا ما مات بعضُك فابْكِ بعضاً ... فبعض الشيء من بعض قريبُ
يمنّينِيَ الطبيبُ شفاء عينِي ... وما غيرُ الإله لها طبيبُ

* * *

قوله: مِراس، أصله معالجة الشيء الشديد، وكل شيء التصق بشيء واحتكَّ به فقد مارسه. ومرست الدواء بالماء: دلكته. والأرماس: القبور، واحدها رمْس، فيريد بها ما يَلْقاه الإنسان في قبره من الدواهي، وتقدَّمت في الحادية عشر، ويروى: الأمراس: جمع مرس، وهو حبل من ليف يُفتل على ثلاثة. مراسه: جريانه على البَكْرة، فالبكرة تأكل قوته كلَّ يوم فتقطعه، كما أن الأيام تأكل قوة ابن آدم فتقطعه، فإذا مات أكل بدنه القبر.

* * *

واهاً لها حَسْرةً أَلَمُها مؤكّد، وأمَدُها سَرْمَد، ومَمَارِسُها مُكَمد، ما لولَهِهِ حاسم، وَلاَ لِسَدَمِه راحم؛ ولا مِمَّا عَرَاه عَاصِم، الهمَكم اللَّهُ أحْمَدَ الإلْهَام، وردّاكُمْ رِدَاءَ الإكرام، وأحلَّكم دَارَ السَّلاَم، وأسْأَلُهُ الرّحمةَ لَكُمْ ولأَهْلِ مِلّةِ الإسْلاَم، وهُوَ أسْمَحُ الكِرَام، والمسلِّم والسَّلاَم.

* * *

آها: كلمة توجع. حسرة: فجيعة، والهاء في «لها» كناية عن الحسرة أضمرها بشريطة التفسير، أي ما أعظمها من حسرة، آها، أي تأوُّها. ألمها مؤكد، أي وجعها شديد متتابع. سرمد: دائم. ممارسها: معالجها ومخالطها. مكمد: مهموم محزون. ولهه: حزنه. حاسم: مزيل قاطع. سدمه: حيرته، عراه: قصده. عاصم: مانع. ألهمكم: ذكرّكم ونبهّكم. أحلّكم: أنزلكم. دار السلام: الجنة، من دخلها سلم من العذاب وبقي في سلامة. ملة: دين. أسمح: أكرم. السلام: الذي هو من أسماء الله سبحانه وتعالى، ومعناه المسلم لعبده أو هو على حذف المضاف، ومعناه ذو السلام، أي صاحب السَّلام، ويحتمل أن يريد به اللفظة التي يقطع بها الكلام، كما تقول لمن تقطع كلامه: والسلام، أي لا زيادة عندي على هذا، أو أردت: والسلام عليكم. فحذفت اختصاراً.

وفي تأويل «السلام عليكم» وجهان: أحدهما أنه اسم الله بمعنى «الله تعالى

عليكم»، أي على حفظكم، أو بمعنى السلامة عليكم، فالسلام جمع سلامة.

قال ابن الأنباريّ: السلام في كلام العرب على أربعة أقسام: السلام التسليم، تقول: سَلَّمت سلاماً، والسلام الله تعالى، والسلام جمع سلامة، والسلام شجر عظام واحدها سَلاَمَة قال الأخطل: **[الطويل]**

ورابيةُ السكران قفرٌ فما بها لهم شبحٌ إلاّ سلامٌ وحَرْملُ[1]

* * *

قَالَ الحارثُ بن هَمَّام: فَلَمَّا رأيت الْخُطبَة نخبةً بِلاَ سَقَط، وَعَرُوساً بِغَيْرِ نُقط، دَعَاني الإعْجَابُ بِنَمَطِهَا العجيب، إلى استِجْلاَءِ وجْهِ الخطيب، فأخَذْتُ أَتَوَسَّمُهُ جِدًّا، وأُقَلِّبُ الطَّرْف فِيهِ مُجدًّا، إِلَى أَنْ وَضَحَ لِي بِصِدْقِ الْعَلاَمات، أَنَّهُ شيخنَا صاحب الْمقَامات، وَلَمْ يَكُنْ بُدٌّ من الصَّمْت، في ذلك الْوقْتِ؛ فأمسكتُ حتَّى تحلَّلَ من الْفَرْضِ، وحَلَّ الانتشارُ في الأرضِ، ثمَّ واجَهْتُ تِلْقَاءه، وابتَدَرْتُ لِقَاءه.

فلَمَّا لِحَظَنِي خَفَّ في القيام، وأخفَى في الإكرام؛ ثمَّ اسْتَصْحَبَنِي إلى دارِه، وأَوْدَعَنِي خصائِصَ أسرارِه، وحِينَ انتشَرَ جَناحُ الظَّلاَم، وحَانَ ميقات الأنام، أحْضَرَ أباريقَ الْمُدَام، مَعْكُومَةً بالفِدَامِ فقلتُ: أَتَحْسُوهَا أمام النَّوم؛ وأنتَ إمَامُ القوم! فقال: مه؛ أنا بالنَّهار خطيب، وبالليلِ أطيب، فقلتُ: واللَّهِ ما أدري: أأعجبُ من تسلِّيك عَنْ أناسِك، ومسْقَط رَاسِك، أم من خطابتِكَ مع أدْناسِك ومدَارِ كاسِك.

* * *

نخبة: مختارة. سقَط: لفظ رديء. استجلاء: نظر. أتوسمه: أنظر سِمَتَهُ، أي علامته التي يعرف بها. جدّا: كثيراً. مجدّا: مجتهداً. وضح: تبيّن. ذو المقامات: صاحب المجالس. البُدّ: الفرار، قال الفراء رحمه الله تعالى: يقال: لا بُدّ اليوم من قضاء حاجتي، أي لا فرار، ويقال: ليس لهذا الأمر بدٌّ، أي لا محالة. الصمت: السكوت والإنصات لاستماع الخطبة فرض عند الشافعي رضي الله عنه لقوله تعالى: **﴿وَإِذَا قُرِىءِ الْقُرْآنُ فَاستمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾** [الأعراف: ٢٤١] أي لاستماع الخطبة.

وقال جماعة من المفسرين: إنه إنما نزلت الآية في السكوت لاستماع الخطبة.

---

(١) البيت في ديوان الأخطل ص ٢، والسكران موضع، والحرمل: نبت.

أبو هريرة رصي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قلتَ لصاحبك والإمام يخطب: أنصت فقد لغوْت»(١).

أبو هريرة وأبو سعيد، أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ خرج إلى الجمعة وعليه الوقار، ثم رجع، ثم أنصت إلى أن جلس الإمام، فلم يتكلم حتى ينزل، ثم صلّى الجمعة غفر الله له ما بينه وبين الجمعة التي تليها»(٢).

تحّلل من الفرض: تخلص من الصلاة. الانتشار: انحلال الجموع من الصلاة وانبساطهم على الأرض. ميقاته: وقته. معكومة: مشدودة، وعكمت البعير شددت فمه، والوِعاءَ: شددت رأسه. الفِدام: خرقة يشدّ بها فم الإبريق ليصغّي ما فيه. تحسوها: تشربها. وأنت إمام القوم: توبيخ له على قبح فعله مع الفضل الذي سَبق له، والعيب الكبير يصغر في حق أهل الريب، كما أنَّ الصغير يعظُم في حق أهل المروءات، وقال المتنبي في المعنى وإن كان من غير الباب: **[الطويل]**

وما يُوجع الحرمان من كفّ حازمٍ ... كما يوجع الحرمانُ من كف رَازِقِ(٣)

وقال المخزومي: **[البسيط]**

والعيبُ في الجاهل المغمورِ مغمورُ ... وعيبُ ذي الشَّرف المذكور مذكورُ

كفوفةِ الظّفر تخفَى من حَقارتها ... ومثلها في سواد العين مشهور

وقال إبراهيم بن المهديّ: **[الكامل]**

لولا الحياء وأنني مشهورُ ... والعيب بالرجُلِ الكبير كبيرُ

لحللتُ منزَلة الذي يحتلّه ... ولكان منزلُنا هو المهجورُ

مه: اسكت، ومعنى قوله: أنا بالنهار خطيب، وبالليل أطيب، مما وقع في كتاب مفتاح السرور والأفراح، حكاية عن بعضهم أنه قال: رأيت قاصًا يقص غداةَ يوم، ثم رأيته بالعشيّ في حانة والقدَح في يده، فقلت: ما هذا؟ فقال: أنا بالغداة قاصّ، وبالعشيّ عاص.

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة باب ٣٦، ومسلم في الجمعة حديث ١٢، وأبو داود في الصلاة باب ٢٢٩، والترمذي في الجمعة باب ١٦، والنسائي في الجمعة باب ٢٢، والعيدين باب ٢١، وابن ماجه في الإقامة باب ٨٦، ومالك في الجمعة حديث ٦، والدارمي في الصلاة باب ١٩٥، وأحمد في المسند ٢/ ٢٤٤، ٢٧٢، ٢٨٠، ٣٩٣، ٣٩٦، ٤٨٥، ٥١٨، ٥٣٢.

(٢) روي بطرق وأسانيد متعددة، أخرجه البخاري في الجمعة باب ١٩، ومسلم في الجمعة حديث ٢٦، وأبو داود في الطهارة باب ١٢٧، والدارمي في الصلاة باب ١٩١، وأحمد في المسند ٣/ ٨١، ٥/ ٤٢٠.

(٣) البيت في ديوان المتنبي ٢/ ٣٤٢.

ومن ذلك ما كتب به يحيى بن خالد لابنه الفضل حين بعث فيه أهلُ خُراسان كتاباً إلى الرشيد: إنه مستغل بالصيد وإدمان اللذات؛ فرمى به إلى يحيى وقال: يا أبتِ اكتب إليه بما يردعه، فكتب على ظهر الكتاب:

حفظك الله يا بنيّ، وأمتع بك. فقد انتهى إلى أمير المؤمنين ما أنت عليه من التّشاغل بالصيد وإدمان اللذات، فعاوِدْ ما هو أليقُ بك وأزين لك، فإنه من عاد إلى ما يزِينه، وترك ما يشينه، لم يعرفه أهل دهره إلا به. وقد قلت أبياتاً فالتزمها، وإن جاوزتَها عزلتك عن سخط، ولم أكلمك حولاً، وكتب إليه: [السريع]

انصب نهاراً في طلاب العُلا ... واصبر على فقد لقاء الحبيبِ
حتى إذا الليل أتى مقبلاً ... واستترتْ فيه عيونُ الرقيب
فباشِرِ الليل بما تشتهي ... فإنّما الليلُ نهار الأريب
كم من فتى تحسبه نَاسكاً ... قد لقيَ الليل بأمر عجيبِ
ألقى عليه الليلُ أثوابه ... فبات في لهوٍ وعيش خصيب
ولذة الأحمق مشهورة ... يرصدها كلّ حسود رقيب

فامتثل ما فيها حتى عزِل عنها.

وقال الحلواني في ضده: [الكامل]

أنت الّذي قسَم الزمان لنفسِه ... قسمين بين رياسة ومَتابِ
أعطَى لمرتبة العلاء نَهارَه ... منها وجنح اللّيْلِ للمحراب

وقال الفنجديهي في قوله: أنا بالنهار خطيب وبالليل أطيب، معناه أنا صالح المنظر، فاسد المخبَر، أنظر في مرآة المراءات، وأسّر مساواة المساءات، وأديم المناجاة جلْوة، وأقيم المداجاة خلوة، آمر الناس بالرّشاد، وأنا أتوسَّد وسادة الفساد.

وقال ابن عمر رضي الله عنهما: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أحسن الصلاة حين يراه الناس، ثم أساءها حين يخلو، فتلك استهانة يستهين بها ربه».

قوله: تسليك عن أناسك، أي اشتغالك عن أهلك وبلدك، وهو مسقط رأسه، أي الموضع الذي سقط فيه رأسُه عند ولادته. خطابتك: فصاحتك في خطبتك. إدناسك: عيبك وتلطيخ عرضك. مدار: دورانه في أيدي الشاربين.

* * *

فأشاحَ بِوَجْهِهِ عَنِّي، وقال: اسْمَعْ مِنِّي: [المنسرح]

لاَ تَبْكِ إلْفاً نأَى ولا دَارا ... ودُرْ مَعَ الدَّهْرِ كَيْفَما دارَا
واتّخِذ النَّاسَ كُلَّهُمْ سَكَناً ... وَمَثِّلِ الأرْضَ كُلَّهَا دارَا

واصْبِرْ عَلَى خُلْقِ مَنْ تُعاشِرُه ... وداره فالـلّـبـيـبُ مَـنْ دَارَى
وَلاَ تُضِعْ فُرْصَةَ السُّرُور فَمَا ... تَـدْرِي: أَيَـومـاً تـعـيـش أم دارَا
واعْـلَـمْ بـأنّ الـمـنونَ جَـائِـلَـةٌ ... وقَـدْ أدارَتْ عـلـى الْـوَرَى دارا
وأقْـسَـمَـتْ لا تـزال قـانـصـةً ... مـا كـرَّ عَـصْـرُ الـمـحْـيَـا ومَـا دَارَا
فـكـيـفَ تُـرْجَـى الـنَّـجاةُ مـن شَرَكٍ ... لـم يَـنْـجُ مِـنْـهُ كِـسْـرَى ولا دارَا

***

أشاح: نحّى معرضاً، وأشاح في الأمر: صمم عليه. إلفاً: صاحبا. نأى: بَعُدَ، يقول له جوابا لِلَومة: لا تبك صاحباً بَعُد عنك، ولا منزلاً تغرّبتَ عنه، وتقلّبْ مع الدهر كما يتقلب مع أهله. ودُرْ، من الدوران سكناً: أهلا وإلفا تسكن إليه. ومثّل الأرض كلها داراً، أي بلدا، والدار البلد في قوله تعالى: ﴿**فأصْبَحُوا في دارهم جاثمين**﴾ [العنكبوت: ٣٧] ﴿**وتمتعُوا في داركم**﴾ [هود: ٦٥] داره: لاينْه وسايسْه. اللبيب: العاقل دارَى: أحسن مخالطة الناس، وأصلُها الخداع، تقول العرب: دريت الصيد أدريه درياً، وداريته أداريه مداراةً، والدرية بعير يقعد عنده الصائد، يستتر به فيجيء الصيد فيأنس بالبعير، فيرميه من قرب. وكان الحسن يقول: المداراة تستحلب مودة القلوب فتخدعهم في عقولهم. وفي الحديث: «أحبُّ الناس تحبّباً إلى الله أكثرهم تحبُّبا إلى الناس» وفيه: «إذا أحب الله عبداً حبَّبه إلى الناس».

وقال ابن عبد ربه: **[الكامل]**

وجهٌ عليه من الحياء مهابةٌ ... ومحبَّةٌ تجري مع الأنفاسِ
وإذا أحبَّ الله يوماً عَبْدَه ... ألقى عليه محبة للناس

كتب عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه إلى سعد بن أبي وقاص: إن الله، إذا أحبَّ عبداً حبَّبه إلى الناس، واعتبرْ منزلتك من الله بمنزلتِك من الناس، واعلم أنَّ مالك من الله بمنزلة ما للناس عندك.

وقال بعضهم: أتيت الخليل فوجدته على طِنِفسةٍ صغيرة، فوسَّع لي، فكرهت أن أضيّق عليه فتأخرت، فأخذ بعضدي، وقدّمني إلى نفسه، وقال: لا يضيق سمّ الخياط بمتحابين ولا تسع الأرض متباغضين، أخذه ابن عبد ربه فقال: **[البسيط]**

صِلْ مَنْ هويت وإن أبدَى مباغضةً ... فأطيب العيش وصلٌ بين إلفَيْنِ
واقطع حبائل خدنٍ لا تلائمه ... فقلَّما تسع الدنيا بغيضين

ولأبي محمد بن أبي الوليد المالقي: **[البسيط]**

صيّر فؤادك للمحبوب منزلةً ... سَمُّ الخياط مجال للمحبّين
ولا تسامح بغيضاً في معاشرة ... فقلّما تسع الدنيا بغيضَيْنِ

ولابن الزقاق [الطويل]

ألا اذنُ وإن ضاق الندىّ فإنه ... رحيب بودّ ضُمّنته الأضالعُ
يضيق الفضا عن صاحبين تباغضَا ... وسمُّ خياطٍ بالحبيبين واسع

وقال التهامي: [المنسرح]

بين المحبّين مجلسٌ واسعْ ... والودّ حال يقرّب الشاسعْ
والبيت إن ضاق عن ثمانية ... متّسِع بالوداد للتاسِعْ

فرصة: نهزة وغنيمة. داراً: دهراً وقال السّرِيّ: [البسيط].

قم فانتصفْ مِنْ صروف الدّهرِ والنّوَبِ ... واجمع بكأسِك بين اللّهو والطرَبِ
واخلع عذارك واشربْ قهوة مُزجت ... بقهوة الفَلَجِ المعسول والشَّنبِ
تَوِّج بكأسك قبل الحادثات يدِي ... فالكأس تاج يدِ المثرِي من الأدب

جائلة: دائرة

[كسرى]

كسرى، اسم ملك الفرس، وكسرى ملك الموت أنو شروان بن قُباذ بن فيروز بن يزدَجرد بن بهرام، الملك العادل، ملك العرب والعجم، كان موصوفاً بالعدل، معروفاً بحسن الرعاية والفضل، وشهرته في كتب الآداب مغنية في ذكره عن الإطناب. قيل: كان مولد نبينا محمدﷺ لاثنتين وأربعين سنة مَضَتْ من ملكه، وملَك تسعاً وأربعين سنة.

وكسرى أبرويز بن هرمز أنو شروان، كان ملكاً شديد البطش، نافذ الرأي، قد بلغ من الظّفر ومسالمة الدهر حداً لم يبلغه ملك من الملوك، كان ملكه ثماني وثلاثين سنة.

وفي سنة ثلاثين مِنْ مُلْكه بُعِث نبينا ﷺ.

وحدّث خالد بن ربوة ـ وكان رأساً في المجوس، فأسلم ـ قال: كان كسرى إذا ركب ركب معه رجلان، فيقولان له ساعتئذ: أنت عبد ولست بربّ، فيشير برأسه أن نعم، فركب يوماً، فقالا ذلك له فلم يُشرْ برأسه، فشكواه إلى صاحب الشرطة، فركب ليعانبه. وكان كسرى قد نام فلما وقع صوت حوافر الدوابّ في أذنه استيقظ، فدخل عليه صاحب الشرطة، فقال: أيقظتموني، إني رأيت كأنه رُقِيَ بي فوق سبع سموات، فوقفت بين يدي الله تعالى، وإذا رجل بين يديه، عليه إزار ورداء، فقال لي: سلِّم مفاتيح خزائن الأرض إلى هذا، ألست المأمور بكذا فلم تفعل! وإني أردت أن أقولها فاستردَّها منه فأيقظتموني. وصاحب الإزار والرداء هو نبينا محمد ﷺ.

وبعَث له رسول الله ﷺ عبد الله بن حذافة بن قيس، وكتب له: بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله النبيّ إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتّبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، أدعوك بدعاية الله عزَّ وجل فإني رسولُ الله إلى الناس كافة لأنذِر مَن كان حيًّا ويحق القول على الكافرين، فأسْلِمْ تَسْلَمْ، فإن أبيت فإن إثم المجوس عليك.

فلما قرأ الكتاب شقّه، وقال: يكتب إليّ بهذا وهو عبدي! فبلغ الخبرُ رسول الله ﷺ فقال: «مزّقه مزّق اللَّهُ ملكه» أو قال: «اللَّهم مزّقهم كل ممزَّق»[(١)].

ثم كتب كسرى إلى باذان، وهو على اليمين: أن أبعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجُلين جَلْدَين يأتياني به. فبعث باذان قهْرمانه ـ وكان كاتباً حاسباً، وهو بابومة، وبعث معه برجل من الفُرس، وكتب معهما إلى رسول الله ﷺ، يأمره أن ينصرف معهما إلى كسرى، وقال لبابومة: ويْلك! انظر مَن الرجل، وكلِّمه، وائتني بخبره. فخرجا حتى قدما الطائف، فسألا عنه فقالوا: هو بالمدينة، واستبشرَ أهلُ الطائف، وقالوا: نصب له كسرى، كفيتم الرجل، فخرجَا حتى قدم المدينة على رسول الله ﷺ فكلّمه بابومة وقال: إنّ شاهنشاه ملك الملوك كسرى كتبَ إلى باذان يأمره أن يبعث إليك مَنْ يأتيه بك، وقد بعثني إليك لتنطلِق معي، فإن فعلتَ كتبت فيك إلى ملك الملوك بكتاب ينفعُك، ويكفُّ عنك به، وإن أبيتَ فهو مَنْ قد عَلمت، وهو مُهلكك ومهلك قومك، ومخرّب بلادك. فقال لهما: ارجعا حتى تأتياني غداً.

وأتى رسول الله ﷺ الخبر أن الله تعالى قد سلّط على كسرى ابنَه شيرويه، فقتله في ليلة كذا في شهر كذا، بعد ما مضى من الليل كذا سلّط الله عليه ابنه، فقتله. فقالا: هل تدري ما تقول؟ فإنا قد خفنا منك ما هو أيْسر من هذا، أفنكتب به عنك ونخبر الملك؟ قال: نعم، أخبراه ذلك عني وقولا له: إن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ ملك كسرى، وقولا له: إن أسلمتَ أعطيتك الناس تحت يدك، وملّكتك على قومك من الأبناء. فخرجا مِنْ عنده حتى قدما على بَاذان، فأخبراه الخبر، فقال: والله ما هذا بكلام ملِك، وإني لأرى الرجل نبيًّا، فإن كان ما قال حقاً، فهو نبيّ مرسل، فإن لم يكن فسأرى فيه رأياً. فلم يلبث أن قدم عليه كتاب شيرويه، وفيه: أمَّا بعد، فإني قد قتلت كسرى ولم أقتله إلا غضباً لفارس، ممَّا كان استحلّ من قتل أشرافهم؛ فإذا جاءك كتابي هذا فخذ لي الطاعة ممَّن قبلك، وانظر إلى الرجل الذي كتب لك فيه، فلا تهجه حتى يأتيَك أمري فيه، فقال باذان: إنَّ هذا الرجل لَرسول الله ﷺ، فأسلم وأسلمت الأبناء من فارس.

---

(١) أخرجه البخاري في العلم باب ٧، والجهاد باب ١٠١، والمغازي باب ٨٢، والآحاد باب ٤، وأحمد في المسند ١/ ٢٤٣، ٣٠٥.

وكسرى أنوشروان هو الذي بنى سورَ الأبواب وهو من عجائب الدنيا فلما بناه هادته الملوك وكاتبته. وهو الذي افتتح كثيراً من بلاد الشأم الرومية، ونقل منها الرخام إلى العراق. وقيل: إن النبي ﷺ ولد لاثنتين وعشرين سنة من ملكه، وقيل: إنه ولد في آخر ملكه كما قدّمنا.

ثم ولي من بعده ابنه هرمز، وكان مضعَّفا، غزته الملوك وطمعت فيه، ثم خلعتْه الفرس، وسملَت عينيه.

وعقد الملك لابنه أبرويز في حياته، فبعد حروب شديدة اجتمع لأبرويز أمره، وكان وزيره بُزُرْجمهر أكثر الفرس حكماً ومواعظ.

وفي ملكه كانت وقعة ذي قاربين بكر بن وائل، والهرمز صاحب أبرويز، لأربعين سنة لمولد النبي ﷺ. وقيل إنها كانت في غزوة بدر ـ وقال النبيّ ﷺ: «هذا يوم انتصفت فيه العرب من العجم وبي نصِرت».

وكان على مربط أبرويز خمسون ألف دابّة وألف فيل، فخرج في أحد أعياده، وقد صفّت له الجيوش وأحدقت به مائة ألف فارس دون الرجّالة، وصُفّت له الفِيَلة، فلما بَصُرت به سجدت له، فما رفعت رؤوسها حتى رفعت خراطيمها بالمحاجن، فأعلم بذلك وقال: وددت أنها فارسية، ولم تكن هندية، انظروا إلى أدبها من بين سائر الدواب. ثم هدم الله تعالى هذا الملك العظيم بالإسلام، قال الألبيري: **[الكامل]**

فطفِ البلاد لكي ترى آثارَ مَنْ ... قد كان يعمُرُها من الأقيالِ

عصفت بهم ريحُ الرَّدَى فذرتهمُ ... ذَرْوَ الرياح الهُوج حقف رمالِ

فتقطعت أسبابهم وتمَزَّقَتْ ... ولطالما كانوا كنظم لآلي

قيل لأبرويز ـ وكان حكيماً: ما شهوةُ ساعة؟ قال: الجماع، قيل: فما شهوة يوم؟ قال: دخول الحمام، قيل: فما شهوة جمعة؟ قال: غسل الثياب، قيل: فما شهوة شهر؟ قال: تجديد الثياب، قيل فما شهوة سنة؟ قال: تزوج الأبكار قيل: فما شهوة الأبد؟ قال: أمّا في الدنيا فمشاهدة الإخوان، وأما في الآخرة فنعيم الجنة.

ونظر إلى قذاة في طعام، فدعا الطباخ فقال: ما هذا؟ فقال: حاولته بالليل في وقت لم يكن فيه ماء معين، فأمر بضرب عنقه، فغضب الطباخ؛ وقال: يا بن الأشتوربان ـ تفسيره يا بن سائس الدواب ـ فعفا عنه، وقال: إنا معشر الملوك نعاقب في الصغير، ونعفو عن الكبير.

[دارا بن بهمن]

وأما دار بن دارا بن بهمن، وهو آخر ملوك الفرس الأول، فإنه كان ضخم الملك، ذا قدرة ومكانة، وهو الذي بنى بأرض الجزيرة مدينة دارابجرد، وكانت جنده ستمائة

ألف، ولقبه الإسكندر بالجزيرة، فدارتْ بينهم الحروب أربعين يوماً، وخندق داراً على عسكره خَمْس خنادق، وجعل على كلّ خندق اثني عشر ألف رجل، وكانت النوبة لا تصيب الرجل إلا يوماً في كل خمسة أيام، فوجد الإسكندر من ذلك وجداً شديداً، فبعث إلى دارا: إنّا كدنا نتفانى، ورأيت رأياً فيه البقاء لنا ولك، وذلك أن تفرج لي، فأخرق صفّك خرقا إلى جانب بلادك وأرجع إلى بلادي، فإنا لا نرى الفرار من الزحف، وهو عار لا يغسل. فأجابه دارا: لا سبيل إلى ذلك. فلما رأى الإسكندر ذلك وضع البرنس، وحسر عن رأسه، وقال: يا معشر الروم، هذا هو العجز والذلّ عن الانتصار، هل فيكم من يحتال لي في هذا الأمر، وله نصف مال الروم والعجم، ونصف ما في بيوت الأموال؟ فقد أدركتني الحمية. فبلغ الخبر إلى صاحب حرس دارا فقال: أنا أفعل ذلك وآخذ مالا عظيماً. فلما التحم القتال حمل على دارا فطعنه بحربة في ظهره، فوقع على الأرض وانهزم عسكر دارا. فجاء الإسكندر ووضع رأس دارا في حجره، ومسح التراب عن وجهه، وقبّله وبكى، وقال: الحمد لله الذي لم يجعل قتلك على يدي، ولا على يد أحد من جندِي؛ فسلْ ما بدا لك، أقضه، فقال له دارا: من حاجتي عندك ألاّ تخرب بيوت النيران، وأن تنصفَني مِنْ قاتلي قبل موتي، فإنه إن بقي عندك سيكفر معروفك، كما كفَر معروفي. فقال له الإسكندر: حاجتي عندك أن تزوّجني بنتك روشنك، فقال دارا: على أن تجعل الملك من بعدك لولدك منها، فأجابه إلى ذلك وزوّجه ابنته، وأخذ الإسكندر قاتله وقطعه أربع قطع، واستولَى على جميع مملكته.

وملك دارا أربع عشرة سنة، وقيل: ست سنين، وقسم الإسكندر غنائم عسكره في ثلاثين يوما. وشاور الإسكندر معلمه أرسطاطاليس في أن يقتل من بقي من الفرس، فقال له: لا تفعل، ولكن ولّ على كلّ جهة شريفاً من أهلها فيتنافسون، فلا يجمعهم مُلك أبداً، ففعل فهم ملوك الطوائف، حتى انتزع اردشير منهم الملك، وقال: إنّ كلِمةً فرقتنا خمسمائة سنة وتسع عشرة سنة ـ يعني كلمة أرسطاطاليس ـ لكلمة بالغة.

وملوك الفرس الأول ستة عشر ملكاً، وملوك الفرس الثواني اثنان وثلاثون، منهم امرأتان. وملك بعد أردشير سابور، وهو من عظمائهم، ففتح الحصونَ ومدن المدن، وبنى الإيوان وهو بالجانب الشرقيّ من المدائن، وهو من عجائب البنيان، وعجائب الفرس كثيرة، وفي هذه النبذة غُنية توافق ما شرطنا.

* * *

قَالَ: فلمّا اعْتَوَرتْنَا الكؤوس، وَطَرِبتِ النُّفوس، جَرَّعَني الْيَمِينَ الغَمُوس، عَلَى أن أحْفَظ عليهِ النّاموس. فاتَّبعتُ مَرامَه، ورَعَيْتُ ذمامَه، ونزَّلتُه بين الملاء مَنْزِلَة الْفضَيل، وسَدَلْتُ الذَّيل عَلَى مَخازِي اللَّيل، ولم يَزَل ذلِكَ دابَه ودابي، إلى

أنْ تهَيَّأ إيابي. فوَدَّعْتُهُ وَهُوَ مُصرٌ عَلَى التَّدْليس، وَمُسِرُّ حَسْوَ الخَنْدرِيس.

* * *

قوله: اعتورتنا، أي قصدتنا ودارت علينا.

الغَموس: الشديدة، وهي في الجاهلية التي تغمس صاحبها في العارِ، وفي الإسلام تغمس صاحبها في الأوزار، والغمسُ ارتباط الشيء في ماء، أو صِبْغ حتى اللقمة في الخلّ.

والغَموس قيل إنها اليمين التي يقطع بها الرجل حق غيره فيحلف كاذباً. الليث رحمه الله: هي اليمين التي لا استثناء فيها، وفي الحديث: «اليمين الغموس تدع الديار بلاقع»[1]، أي قفراً فارغة مِنْ كلّ رزق.

والناموس: إظهار فعل الخير، وتنامس الرجل إذا ظهر بما لا يعتقد، وأصل النَّمس الستر، وكلّ شيء سترت به شيئاً فهو ناموس له، وناموس الرجل صاحب سره، ويقال: لصاحب سرّ الخير ناموس ولصاحب سر الشر جاسوس. قال أبو عبيدة: هما بمعنى.

غيره: الناموس: صاحب سر الملك، وقد نمس ينمس نمسا، ونامسته منامسة. مرامه: مطلبه ومراده. رعيت ذمامه: حفظت حقّه، وما بيني وبينه مما يجب أن يراعى. الملأ: الجماعة.

[الفضيل بن عياض]

الفضيل: هو ابن عياض التميميّ، كنيته أبو عليّ، وهو ممَّنْ شهر بالزهد والخير، وهو من رجال رسالة القشيري، قال صاحبها أبو علي: خراساني من ناحية مَرْو، ولد بسمرقَنْد، ومات في الحرم سنة سبع وثمانين ومائتين.

وكان شاطراً يقطع الطريق، وسبب توبته أنه عشق جارية فبينما هو ذات يوم يرتقي الجدار إليها، إذ سمع تالياً يتلو: **﴿ألَمْ يأنِ للذين آمنوا أن تخشَع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق﴾** [الحديد: ١٦]، فقال: يا رب قد آن، فرجع فأوى إلى خربة، فإذا فيها رفقة فقال بعضهم: نرتحل، وقال بعضهم: حتى نصبح، فإن فضيلاً في الطريق فيقطع علينا، فأمَّنهم وسار معهم حتى بلغوا، وجاور الحرم.

قال الفضيل: إذا أحبّ الله عبداً أكثر همَّه، وإذا أبغض عبداً وسَّع عليه دنياه.

وقال: الكامل المروءة من برّ والديه، وأصلح ماله، وأنفق ماله وأنفق من فضله، وأكرم إخوانه، وحسَّن خلقه، ولزم بيته.

---

(١) رواه ابن الأثير الجزري في النهاية بلفظين: الأول: «اليمين الكاذبة تدع الديار بلاقع» النهاية في غريب الحديث ١/ ١٥٣، واللفظ الثاني: «اليمين الغموس تذر الديار بلاقع» النهاية ٣/ ٣٨٦.

وقال: إذا رأيتُ الليل مقبلاً فرحت، وقلت: أخلو بربي، وإذا أبصرت الصبح استرجعت كراهة أن يجيء مَنْ يشغلني.

واطلع عليه بعض إخوانه من كوّة ولحيته تقطر دموعاً، فقال: يا هؤلاء، ليس هذا زمن حديث إنما هو زمن: احفظ لسانك، وعالجْ قلبك، واخف مكانك، وخذ ما تعرف، ودع ما تنكر.

وقال: لو أنَّ الدنيا بحذافيرها عُرضت عليَّ لا أحاسب بها لكنت أتقذّرها كما يتقذّر أحدكم الجيفة إذا مرَّ بها أن تصيب ثيابه.

وقال: ترك العمل لأجل الناس رياء، والعمل لأجل الناس هو الشرك.

قال أبو عليّ سليمان الداراني: صحبت الفضيل ثلاثين سنة، ما رأيته ضاحكاً ولا متبسِّماً إلا يوم مات ابنه عليّ، فقلت له في ذلك، فقال: إن الله تعالى إذا أحبَّ أمراً ابتلاه.

وقال: إني لأعصي الله فأعرف ذلك في خلق حماري.

وأخباره كثيرة، وهذه اللمعة دالة عليها.

قوله: سدلت، أي أرخيت. مخازي: قبائح، وما يخزى عليها فاعلها لو اطّلع على فعله. دأبه ودأبي: عادته وعادتي. إيابي: رجوعي. مصر: مقيم. التدليس: تلبيس الأمر وكتمان العيب.

ويشبه عذل ابن همام السروجي في شرب الخمر ثم مساعدته إياه بعد لومه وشربه معه، قول ابن أبي ربيعة، وهو أحسن ما قيل في المساعدة: **[الوافر]**

وخلٍّ كنتُ عينَ النصح منه ... إذا نظرت ومستمعا سميعَا[1]

أطاف بغيِّه فنهيت عنها ... وقلت له: أرى أمراً شنيعا

أردت رشادَه جَهْدي فلّما ... أبى وعصى أتيناها جميعا

وقال أعرابي: **[الطويل]**

وكنت إذا علقت حبال قومٍ ... صحبتهمُ وشيمتي الوفاء

فأحسنُ حين يحسِن محسنوهم ... وأجتنب الإساءة إن أساؤوا

أشاء سوى مشيئتهم فآتي ... مشيئتَهم وأترك ما أشاءُ

(١) الأبيات في ديوان عمر بن أبي ربيعة ص ٤٩٥.

المقامة التاسعة والعشرُون

وهي الواسطيَّة

حكى الحارث بن همَّام قال: ألجأني حُكْمُ دَهْرٍ قاسِط، إلى أنْ أَنْتجعَ أَرْضَ وَاسِط، فقصدْتُها وأنا لا أعرفُ بها سَكَناً، وَلاَ أمْلِكُ فِيها مَسْكَناً. ولمَّا حَلَلْتُها حُلَول الحوتِ بالبيداء، والشَّعرة البيضاء في اللِّمَّةِ السوداء، قادني الحظُّ النّاقِص، والْجَدُّ الناكِص، إلى خانٍ يَنزِله شُذّاذ الآفاق، وأخلاطُ الرِّفاق، وهو لِنظَافةِ مَكَانِهِ، وظَرافةِ سُكّانِه، يرغِّبُ الْغريِبَ في إيطانِهِ، ويُنْسِيهِ هَوَى أوطانِهِ فاستفردْتُ مِنه بحجْرَة، ولمْ أَنافس في أُجْرَة، فما كانَ إلاّ كلمْحِ طَرْف، أو خَطِّ حرف؛ حتَّى سمعتُ جارِي بيتَ بيْت، يقول لنزيله في البيت:

* * *

ألجأني: اضطرني. قاسط: جائر. أنتجع: أقصد لطلب الرزق.

[واسط]

واسط: بلد معروف بناه الحجاج وسط المسافة التي بين البصرة والكوفة، منها إلى كل واحدة منهما خمسون فرسخاً، وسكنه، ومات فيه.

قال اليعقوبيّ: واسط مدينتان على حافتي دجلة، فالمدينة القديمة التي هي: منازل الدهاقين هي الشرقية من دجلة، وهي مدينة كَسْكَر وابتنى الحجاج مدينة في الجانب الغربيّ، وجعل بينهما جسراً من السفن، وبنى بها قصره والقبة الخضراء التي يقال لها خضراء واسط والمسجد الجامع، وعليها سور، ونزلتها الولاة بعد الحجاج. وهي بين البصرة والكوفة والأهواز متوسطة، فسمِّيت واسط بذلك.

قال الطبريّ خرج الحجاج يرتاد منزلاً لأهل الشام، فأمعن حتى نزل أطراف كَسْكَر، فبينما هو كذلك؛ إذ هو براهب قد أقبل على أتان له، فعبر دِجْلة، فلما كان بموضع واسط، تفاجَّت الأتان فبالت، فنزل الراهب فاحتفر ذلك البول وحمله حتى رمى به دجلة، وذلك بعين الحجاج، فقال: عليّ به، فلما أتاه قال: ما حملك على ما صنعت؟ فقال: إنا نجد في كتبنا أنه يُبنى في هذا الموضع مسجد يُعبد الله فيه ما دام أحد في

الأرض يوحّده، فاختط الحجاج مدينة واسط، وبنى المسجد في ذلك الموضع، وذلك سنة ثلاث وثمانين.

* * *

قوله. سكنا، أي صاحبا يُسكن إليه ويُؤنس به، والمسكن: المنزل الذي يُسكن فيه. البيداء: الصحراء، أراد أنه غريب ليس له صاحب ولا منزل كالحوت في الصحراء. واللمّة: الْجُمّة من الشعر تُلِمّ بالمنكب. قادني: ساقني. الحظ: النصيب. والْجَدّ: السعد. الناكص: الراجع إلى خلفه، يريد أنّ سعده يمشي إلى جهة خْلف، ونكص ينكُص: رجع القهقرى. خان: فندق. والشذّاذ: الغُرباء الذين شذّوا عن أوطانهم، أي فروا منها وبعدوا، والشّذّاذ التفرق، وكلمة شاذة: مفترقة من جنسها، وشذّ الرجل: انفرد عن أصحابه. والآفاق: النواحي. أخلاط الرفاق: من لا يتخصص منهم ولا يتعين. إبطانه: سكناه. هوى أوطانه: حب بلاده. استفردت: سكنتها منفرداً. والحجرة: البيت، أنافس: أغال، من قولهم: نفستُ عليه بالشيء، إذا ضننتَ به، ولم تحبّ أن يصير إليه. لمح الطرف: نظر العين. بيت بيت، أي بيته ملاصق بيتي، وهما اسمان جعلا كاسم واحد، وبنيا على الفتح. نزيله: النازل معه.

* * *

قَمْ يا بُنَيّ، لاَ قَعَدَ جَدُّكَ، وَلاَ قام ضِدُّكَ، واسْتَصْحِبْ ذا الوجْهِ البَدْرِيّ، واللَّونِ الدُّرّيّ، والأصْلِ النقيّ، والجِسْمِ الشقيّ، الَّذِي قُبِضَ ونُشر، وسُجِنَ وشُهرَ، وسُقِيَ وفُطِم، وأُدْخِلَ النَّارَ بَعْدُ ما لُطِمَ ثم ارْكُض إلى السّوق، رَكْضَ المشوق، فقَايِضْ به اللاقِحَ المُلْقِح، المُفْسدَ المُصْلِح، المُكْمِدَ الْمُفرِّح، المُعنَّى المُرَوِّح، ذَا الزَّفيرِ الْمُحْرِق، والْجَنِينِ المُشْرِق، واللَّفْظِ المقْنع، والنُّبْلِ المُمْتِع، الّذي إذا طُرِق، رَعَدَ وبرق، وباحَ بالحُرَق، ونفث في الخِرَق.

* * *

جَدك: سعدك. ضِدّك: عدوك المخالف لك. البدريّ: الأبيض المستدير كالبدر، يريد الرغيف، شبّهه بالبدر في بياضه واستدارته. وقال ابن الرومي: مررتُ بخباز يبسط الرّقاق كأسرع من رجوع الطرف، ما بين أن ترى العجين في يده كالكرة حتى يندَحِي فيصير كالقمر، إلا مقدار لحظة، فشبّهت سرعة انبساطها، بسرعة الدائرة في الماء يقذف فيه بالحجر فقلت: [البسيط]

ما أنْسَ لا أنْسَ خبّازاً مررتُ به ... يدحُو الرّقاق كوشك اللمح بالبصر
ما بين رؤيتها في كفّه كرةً ... وبين رؤيتها قوراء كالقمر

إلا بمقدار ما تنداحُ دائرة ... في صفحة الماء يُرمى فيه بالحجر

* * *

[الغلمان وما قيل فيهم شعراً]

ويتعلق بهذا ما قيل من الشعر فيمن ليس له نباهة من الغلمان: كان ابن وضاح جالساً مع جملة من الأدباء، فمرّ بهم غلام نظيف يبيع الخبز، فلم يتّجه لأحدٍ فيهِ شيء إلاّ ابنُ وضاح، فإنه قال: **[المجتث]**

خابز الخبْزِ ظريفُ ... عذبت فيه الحتوفُ

خامل الأنساب لكنْ ... هو في الحسن شريف

خَضره أهيفُ شختٌ ... وكذا الغزلان هِيف

من يخاصم مقلتيه ... حُكِّمت فيه السيوف

ونظر إدريس بن اليماني إلى غلام وسيم بالحمَّام عليه أسمال، فقال: **[الطويل]**

توشّح بالظلماء وهو صباحٌ ... وأمرض بالأجفان وهي صِحاحٌ

وظلّ فؤادي طائراً عن جوانِحي ... وليس له إلاّ الغرامُ جناحُ

قضيبُ صباح في وِشاح دُجنَّةٍ ... ألا ليتني تحت الوشاح وشاحُ

ولا عجب أن أفسدَتْني جُفونه ... فكلّ فساد في هواه صَلاَحُ

وقال الرَّصافي: **[الطويل]**

يقولون لي يوماً وقد مرّ ضارباً ... بمعوَلِهِ ضرَب المرجَّم بالْغَيْبِ

تعلّمَ صَفَّارا فقلت: استعارها ... غدّاة رَنَا من صِبْغة العاشق الصَّبِّ

يعود النحاس الأحمر التّبر عسجداً ... بكفّيه عند السبك والمدّ والضَّرْبِ

فحمرتُه مشتقة من حَيائِهِ ... وصفرتُه مما يخافُ من الْعَتْبِ

قوله الدريّ: الأبيض الذي يشبه الدّرّ في لونه، ويقال: كوكب دُرّيّ منسوب إلى الدرّ، مشبَّهاً به لصفائه وحسنه، بضمّ الدال وتشديد الياء، ودُري بالضم والهمز، ودِريء بكسر الدال مع الياء ومع الهمزة، ودرّىء بالفتح والهمز، فمن كسر وهمز فهو فُعِيل، من درأ الكوكب، إذا جرى في أفق السماء، ومن كسر بلا همز فلأجل الياء بعد الراء، ومَنْ ضم وهمز فخطَّأه الفراء، قال: فُعيل ليس في أبنية العرب، وأثبته سيبويه. قال أبو عبيدة: أصله دَروى مثيل سَبُوح، فجعلوا الواو ياء، وجعلوا الضمة قبلها كسرة، ومثله عُتوّ وعِتيّ.

قوله: الأصل النقيّ، يعني القمح الذي صنع منه كان نقيًا من الزبل وغيره. وشقاء جسمه، قد فسّر في التاسعة عشر، وهو الآن يبيّن بعض شقائه، فقبض ونشر. وقت العجن،

أو وقْت الخبز، لأنه يقطع قبضة ثم يُبْسَط للخبز. سجن: خُزن قمحه في المخازن. وشُهِر: أبرز منها للسوق وشُهر على الناس، أو يكون سجنه الفُرْن، وشهرته البيع في السوق، أو عندما يُطاف به على الأسواق: وقال المعريّ يلغز في القمح: [الطويل]

وسمراءَ في بيضِ الحسان شريتُها ... بصُفرٍ من العين الشّبيهة بالشمس

وقد غيِّبت في الْخِدْر عصراً مصونة ... محجبة عن أعين الجن والإنس

فلمّا بدت عنه بدت سيمةُ النَّوى ... عليها ولم تجزع لحادثة الأمس

فأهلاً بأنثى لم تردّ يد لامسٍ ... بسوء ولا أبدت نفاراً من اللّمس

سُقِيَ: جُعل الماء عليه للعجين. فُطِم: قطِع عنه الماء. لطِم: سُوِّيَ بالكفّ، وعامتنا تشدّد الطاء. اركُض: اسرِع. المشوق: الكثير الشوق، وشاقَك الشيءُ يشوقك، إذا هاجك. قايضْ: عاوِض، وقايضت الرجل فعلتَ معه ما يُفعل معك. اللاّقح في الأصل: الناقة يعلوها الفحل، فتحمل منه ولقحت: حملت، والملقّح: الفحل يعلوها عند السفاد، وقد بَيّن أنه يريد حجر الزند، جُعل لاقحا لأنه حامل بالنار، وملقِحاً لأنَّ به تخرج النار من الزند، فكأنه ألقحه بالنار، أي جعَلها فيه. والزّند أيضاً لاقح ملقِح، لأن النار لا توجد في واحد منهما على انفراده، والنار تُصلح في موضع وتُفسد في آخر؛ فلذلك وصفه بهما. والمعنى: المتعِب بإحراقه. المروِّح: المدخل الراحة بإصلاحه، وإن جعله للزند، فمعناه إذا شحّ، ومروِّح إذا أورى، ونحوه. المكمِد، أي المحزن. المفرّح: ضدّه. والزّفِير. التّنفس، وزفرة الحَجَر هي النار، وهي تحرق كلَّ ما تعلّقت به، وهو الجنين، أي المستور في الحجر، فإذا ظهر أشرق وأضاء. واللفظ: صوت الحَجَر في الزّند، فإذا أبدى النار أقنعك واكتفيت به. وهو نيْله، أي عطاؤه. والممتِع: الكثير وقليل النار كثير، وقد قال الأعرابيّ: إنَّ السِّقْط يحرق الدوحة، أراد ما يسقط من الزّند من النار الضعيفة يحرق الشجر الكثير الملتف. طُرِق: ضُرب. رَعد: صوَّت. برق: لمعت ناره. باح: أظهر ما يسرّ فيه. الحرَق: التهاب القلب بالهمّ، فكنى به عمّا في الحجر من النار. نفث: بزق. الخِرَق: التي تسقط فيها نار الزند؛ وهذه ألفاظ كلّها متقاربة، بعضها يفسّر بعضاً، لأنها من مليح الكلام.

* * *

قال: فلمَّا قَرَّتْ شِقْشِقةُ الهادِر، ولَمْ يَبْقَ إلاَّ صَدَرُ الصَّادِر، بَرَزَ فتًى يمِيسُ، وَمَا معه أَنِيس، فرأيتُها عَضْلَةً تَلْعَبُ بالعُقولِ، وتُغْري بالدّخُول في الفضولِ، فانطلْقتُ في أثَرِ الْغلاَم، لأخْبُرَ فَحْوَى الكلاَم، فَلَمْ يَزَلْ يَسْعَى سَعْيَ الْعَفَارِيت، وينفقَّدُ نَضَائِدَ الْحوانيت، حتّى انْتَهَى عِنْدَ الرَّواح، إلى حجارة القدَّاح. فَنَاوَلَ بائِعَها رَغيفاً، وتناوَل مِنْهُ حَجَراً لطيفاً. فعجبت مِنْ فطانةِ المرسِلِ والمُرْسَل، وعَلِمْتُ أَنَّهَا

سَرُوجية وإن لَمْ أسأل، ومَا كذَّبتُ أن بادَرْت إلى الخان؛ مُنطَلِقَ الْعِنان؛ لأنظُر كُنْهَ فَهمِي، وهَلْ قَرْطسَ في التّكهُّن سَهْمِي؛ فإذا أنا في الفِرَاسةِ قارِسِ، وأبو زيدٍ بوصِيدِ الخانِ جالس. فتهادَيْنَا بُشْرَى الالتقاء، وتقارَضنا تحية الأصدقاء.

* * *

قرّت: سكنت. الهادر: الفحل. وشِقْشقته: ما يخرج من لهاته. وتقدّمت في الأولى، ويزعمون أنها لا توجد عند نحر الفحل، وكذلك بيضه لا يوجد، قال: وأنشد بشر بن المعتمر: **[السريع]**

خـصـيـتـه تـطـلّ مـن حـظـمِـه ... عـنـد حـدوث الـذّبـح والـنَّـحـرِ
مـا إن يـرى الـراؤون مـن بـعـدهـا ... شِـقْـشِـقَـةً مـائـلـة الـهـدْرِ

وأراد به: سكَت المتكلّم. صدَر الصادر: خروج الخارج من الماء بعد شُرْبه. برز: خرج. يميس: يتبختر ويتثنى. عَضْلة: داهية وأمرٌ صعب. تُغري: تحرّض وتلصق. فحوى: معنى. يسعي: يجري. العفاريت: شرّ الشياطين وأدْهاها. نضائد: ما جعل شيئاً على شيء. الرَّوَاح: العشِيّ. القدَّاح: حجر الزند تقدح النار منه. ناول: أعطى. لطيفاً: دقيقاً. فطانة: ذكاء. وما كذَّبت، أي ما خيّبت. منطلق العنان: مسيَّب حيث شاء. كنه: حقيقة. قرطس: أصاب الغرَض مرة بعد أخرى، والقرطاس يُجعل غرَضاً، فإذا توالى ضربه قيل: قُرْطس. والتكهن: الحديث بما يكون. والفِراسة: النظر بالظّن. وصيد الخان: فناء الفندق، وقيل بابه، من أوصدت الباب، أغلقته، وقيل: عَتَبة بابه. تهادينا: أهديته وأهداني. البشرى: السرور، أي فرح كل واحد منا بصاحبه. فتهادينا البشرى: تقارضنا: اندفعنا بالسَّلام، يريد حالة الصديقين إذا التقيا بعد سفر، فيبالغ كلُّ واحد منهما في سلام صاحبه ويتابعه. والتحية: السلام، ومنه التحيات لله، ومنه قوله تعالى: ﴿**وإذَا حُيِّيتمْ بتحيَّة فحيُّوا بأحسنَ منها**﴾ [النساء: ٨٦]، أي سُلِّم عليكم. وقيل: التحية: المُلْك، وكان الملك يُحَيَّا بأنعم صباحاً، وأبيت اللعن، وقيل: معناه البقاء لله، وقال زهير بن جناب: **[الكامل]**

مِنْ كـلّ مـا نـال الـفـتـي قـد نـلـتُـه ... إلا الـتـحـيـة مـن إلـه قـادرِ

أي البقاء.

ثـمَّ قالَ: ما الَّذِي نَابَكَ، حَتَّى زايلتَ جنابَكَ؟ فقلت: دهرٌ هاضَ، وجَوْرٌ فاض. فقال: والَّذِي أنزلَ الْمَطَرَ من الغمام، وأخرج الثَّمَرَ من الأكمام؛ لَقَدْ فَسَدَ الزَّمان، وعَمَّ الْعُدْوانُ، وعُدِمَ المعْوَان، واللَّهُ المُسْتَعَان؛ فكيفَ أَفلَتَّ، وَعَلَى أيِّ وَصْفيكَ أجفلت! فقلتُ: اتخذتُ اللّيْلَ قميصاً، وأدلجتُ فيه خميصاً. فأطرقَ

ينكتُ في الأرض، ويفكّر في ارتيادِ القرْض والفرْض. ثمَّ اهتزَّ هِزّة مَنْ أكثبهُ قَنَص، أو بَدَتْ لَهُ فُرَص، وقال: قَد عَلِقَ بقلبي أن تُصَاهِرَ مَنْ يأسُو جِراحَك، ويَرِيشُ جناحَك، فقلت: وكيفَ أجمع بَيْنَ غُلٍّ وقُلّ، ومَنِ الّذِي يَرْغَبُ في ضُلّ ابن ضُلّ! فقال: أنا المشيرُ بِكَ وإليك، والوكيل لَكَ وعَليك، مع أنّ دين القوم جبرُ الكسير، وفكّ الأسيرِ، واحتِرام العَشِير، واستنصاحُ المُشير؛ إلاّ أنهم لو خَطَبَ إليهمْ إبراهيمُ بن أدْهم، أو جبَلة بن الأيهم؛ لمَا زوّجوه إلاّ على خمسمائة دِرْهم، اقتداءً بِمَا مَهَرَ الرسول ﷺ زوجاتِه، وعَقَدَ بِهِ أنكحةَ بناتِه؛ على أنّك لَنْ تُطَالَبَ بِصَدَاقٍ، ولا تُلْجأ إلى طلاقٍ. ثمَّ إنّي سَأَخْطبُ في موقفِ عَقْدِك، ومجمع حَشْدِك، خطبةً لَمْ تفتُق رَتْقَ سَمْع، ولا خُطِب بمثلها في جَمْع.

* * *

نابك: نزل بك. جنابك: بلدك وناحيتك، والجناب: فناء الدار. هاض: كسر. فاض: كثر. الغمام: السحاب. والثمر: الثمار. وأكمامها: ما يكون فيها ثمرها، وكل ما وارى شيئاً فهو كمام له وكمّ. عمّ: شمل. العدوان: الفساد. المعوان: ما يستعان به. وقال الشاعر: **[الكامل]**

لله دَرّ أبيك أيّ زمانِ ... أصبحت فيه وأيّ أهل زمانِ

كلُّ يدانيكَ المحبة جاهلاً ... يعطي ويأخُذُ منك بالميزانِ

فإذا رأَىٰ رُجْحَان حَبّة خردلٍ ... مالت مودّتُه مع الرجحانِ

وقال ابن لنكك: **[المنسرح]**

نحنُ مع الدهر في أعاجيبِ ... فنسأل الله صَبْرَ أيوبِ

أقفرتِ الأرضُ من محاسنها ... فابكِ عليها بكاءَ يعقوبِ

وَصْفَيْك: حالَيك من الخير والشرّ، وهي حالة السفر. أجفلْت: هربت مسرعاً، والإجفال: الهروب، ثم قال: مشيت في ظلام الليل، فصار لِي كالقميص. ادّلجت: مشيت في السحر. خميصاً: جائعاً. أطرق: أمال رأسه ساكناً. ينكُت: يخطّ في الأرض. ارتياد: طلب. الفرض من العطية؛ ما فرضت على نفسك عطاءه، على ألا تجازَى عليه. والقرض: ما أعطي من غير فرض.

قال الحريريّ: القرض بالقاف: ما يستعاد عوضه، والفرض بالفاء: ما لا عوض فيه، وأنشد في الدرّة لأبي عبد الله النّمريّ يرثي أبا عبد الله الأزديّ: **[الوافر]**

مضى الأزديّ والنَّمرِيّ يمضي ... وبعض الشَّكْلِ مقرون ببعضِ

أخـي والـمـجـتـنِـي ثـمـرات ودّي ... وإن لـم يـجـزنـي قَـرْضـي وبـرضِـي
وكـانـت بـيـنـنـا أبـداً هـنـات ... تـوفّـر عـرضَـهُ فـيـهـا وعِـرْضِـي
ومـا هـانَـتْ رجـال الأزد بـعـدِي ... وإن لـم تـدنُ أرضـهـمُ مـن ارضـي

الهنات: كناية عن المنكرات، فأراد أنه أمال رأسه إلى الأرض مفكراً، وجعل يخط فيها بيده أو بعود، وهو فعل المهموم الكثير الفكر، كما قال امرؤ القيس: **[الطويل]**

ظَـلْـلْـتُ ردائي فـوق رأسِـي قـاعـداً ... أعدّ الحصَى ما تنقضي عبراتي[1]

فلم يرد أنه يعدّها ليعلم كم فيها، وحاله من البكاء والحيرة تنفي الثبات على العدد، وإنما أراد أنه كان يعبث فيها بيده اشتغالاً، وفي قلبهِ من الهمّ ما غلب على الصبر، وقد بالغ ذو الرمّة في بيان هذا المعنى بقوله: **[الطويل]**

عـشـيّـة مـا لـي هـمّـةٌ غـيـر أنّـنـي ... بلقط الحصى والخطّ في الدار مولَعُ[2]
أخـطّ وأمـحـو تـارةً وأعـيـدُه ... بـكـفّـي والـغـربـان فـي الـدّارِ وقَّـعُ

وقال ابن جعيل في ذلك: **[الكامل]**

لا يـنـكُـتـون الأرض عـنـد سؤالـهـمْ ... لـتـطـلّـب الـعِـلاّت بـالـعـيـدانِ
بـل يـبـسـطون وجـوهَـهُـمْ فـترى لـهـم ... عـنـد الـسـؤال كـأحـسـنَ الألـوان

وقال الشريف الرضيّ فأحسن: **[الكامل]**

تـفـري أنـامـلُـه الـتـراب تـعـلـلاً ... وأنـامـلـي فـي سِـنِّـيَ الـمـقـروع[3]

قوله: أكثبه، أي دنا منه. قَنَص: صيْد. فرص: جمع فرصة، وهي كالغنيمة. يأسو: يطبّ. يريش: يجعل عليه الريش. الغُلّ: الزوجة هنا.

وقالت عائشة رضي الله عنها: إنما النساء أغلال فلينظر أحدكُم غلاً يجعلُ في عنقه.

وتقول العرب للمرأة السيّئة الخلق: غُلّ قِمل.

وعوتب الكسائي في ترك التزوّج فقال: وجدت معاناة العِفّة أَيْسر من معاناةِ العيال.

القُلّ: القلة وضُلّ ابن ضُلّ: مجهول لا يعرف، وفلان ضُلّ إذا كان مجهولاً متمكنا في الضلال. المشير بك وإليك، يقال: أشار به إذا رفعه وأشار النارَ وأشار بها وتشوّرها، أي رفعها، فمعنى أنَا المشير بك، أي أَرفَعُ قدرك، وأعظِم منزلتك، أي أثني عليك بخيرِ

---

(١) البيت في ديوان امرىء القيس ص ٧٨، والمخصص ١٣/ ٢٠٧.

(٢) البيتان في ديوان ذي الرمة ص ٧٢٠، ٧٢١، ولسان العرب (خطط)، والمخصص ١٣/ ٢٦، ٢٠٧، وتهذيب اللغة ٦/ ٥٥٧، وتاج العروس (خطط).

(٣) البيت في ديوان الشريف الرضي ١/ ٤٩٧.

في غيبتك عند إصهارك، والمشير إليك إذا حضرت، أشرت إليك أن تتزوّج فيهم إذا رأيتهم أكفاءك.

والوكيل لك عليهم حتى يزوّجوك، والوكيل عليك، لتمتثل ما آمرك به من الزواج فيهم، وحسبنا الله ونعم الوكيل. قيل فيه: الكافي هو، قال الفراء: يكون المعنى: كافينا الله ونعم الكافي، كقولك: رازقنا الله ونعم الرازق. ابن الأنباريّ وهو أحسن في اللفظ من قولك: كافينا الله ونعم الوكيل. دينهم: عاداتهم. جبر: إصلاح. فكّ: حلّ. احترام: إعزاز وتقريب، وهو افتعال من الحرمة، أي يجعلونه في حرمتهم، العشير: الصاحب. استنصاح المشير، أي مَنْ أشار عليهم بشيء رأوه ناصحاً.

[إبراهيم بن أدهم]

إبراهيم بن أدهم، هو من شيوخ الصوفية، وهو من رجال رسالة القشيريّ، قال صاحبُها: فمنهم أبو إسحاق إبراهيم بن أدهم بن منصور بن إسحاق البلخيّ من كُورة بلخ، من أبناء الملوك.

وحدث إبراهيم بن بشار، قال: صحبت إبراهيم بن أدهم بن منصور بن إسحاق البلخيّ بالشام، فقالت له: يا أبا أسحاق، خبِّرني عن بدء أمرك كيف كان؟ فقال: كان أبي من ملوك خراسان، وكنت شابًا، فركبت يوماً على دابّة ومعي كلب، وخرجت إلى الصيد فأثرت ثعلباً، فبينا أنا في طلبه، إذ هتف بي هاتف: ألهذا خلقت أم بهذا أمرت؟ ففزعت ووقفت، ثم عدت فركضت الثانية، ففعل مثل ذلك ثلاث مرّات، ثم هتف بي من قَرَبوس السرج: لا والله ما لهذا خلقت، ولا بهذا أمِرْت. قال: فنزلت وصادفت راعياً لأبي، فأخذت منه جُبّة من صوف، فلبستها وأعطيته الفرس، وما كان معي. ثم دخلت البادية متوجِّهاً إلى مكة، فبينا أنا يوماً في مسيري إذا برجل يسير، وليس معه إناء ولا زاد، فلمّا أمسى وصلّى المغرب حرّك شفتيه بكلام لا أفهمه، وإذا أنا بإناء فيه طعام وإناء فيه شراب، فأكلت وشربت، وكنت على ذلك معه أياماً، وعلّمني اسم الله الأعظم، ثم غاب عني، وبقيت وحدي أنا ذات يوم مستوحش من الوَحْدة، دعوت الله فإذا أنا بشخص آخذ بحُجْزتي، فقال لي: سَلْ تُعطَ، فراعني صوته، فقال: لا روعة عليك ولا بأس، أنا أخوك الخِضر إنّ أخي داود علّمك اسم الله الأعظم فلا تدعُ على أحد بينك وبينه شحناء فتهلكه، ولكن ادع الله به أن يقوّيَ ضعفك، ويؤنس وحشتَك، وتجدّد به في كلّ يوم نيّتك ورغبتك، ثم تركني وانصرف.

وصحبه سفيان الثوريّ والفضيل بن عياض ودخل الشأم ومات بها. وكان يأكل من عمل يده، مثل الحصاد وحفظ البساتين.

وكان كبير الشأن في الوَرَع، وقال: أَطِبْ مطعمك ولا عليك، ألاّ تَقوم بالليل ولا تصوم بالنهار.

وكان عامة دعائه: اللهم انقلني من ذلّ معصيتك إلى عز طاعتك.

وقال لرجل في الطّواف: اعلم أنك لا تنال درجة الصالحين حتى تجوز ستّ عقبات، وهي أن تغلق باب النعمة وتفتح باب الشدة، وتغلق باب العزّ وتفتح باب الذلّ، وتغلق باب الراحة وتفتح باب الجهد، وتغلق باب النوم وتفتح باب السهر، وتغلق باب الغنى وتفتح باب الفقر، وتغلق باب الأمن وتفتح باب الاستعداد للموت.

وقال محمد بن المبارك الصوريّ: كنت مع إبراهيم بن أدهم في طريق بيت المقدس، فنزلنا وقت القيلولة تحت شجرة رمّان، فصلّينا ركعات، فسمعت صوتاً من أصل الرمان: يا أبا إسحاق، أكرمنا بأن تأكل منا شيئاً، فطأطأ رأسه فقال ذلك ثلاث مرات، ثم قال: يا محمد، كن شفيعاً إليه ليتناول منّا شيئاً، فقلت: يا أبا إسحاق، لقد سمعتَ، فقام وأخذ رمانتين، فأكل واحدة وناولني الأخرى، فأكلتها وهي حامضة، وكانت قصيرة، فلمّا رجعنا مررنا بها وهي شجرة عالية ورُمّانها حلو، وهي تثمر في كلّ عام مرتين، وسمَّوْها رمانة العابدين.

وركب إبراهيم في مركب، فهاجت ريح شديدة، فلفّ إبراهيم رأسه بعباءة وطرح نفسه مع الناس، فسمعوا صوتاً من البحر يقول: لا تخافوا ففيكم إبراهيم بن أدهم، وصاح الناس في المركب: أين إبراهيم بن أدهم؟ ثم سكنت الريح، فخرج وما عرفوه.

قال له رجل: من أين كسبك؟ فقال: [الطويل]

نرقّع دنيانا بتمزيق ديننا ... فلا ديننا يبقى، ولا ما نرقِّعُ

وأخباره في كتب التصوّف كثيرة تطول

[جبلة بن الأيهم]

وأما جبلة بن الأيهم بن جبلة بن الحارث الأوسط بن ثعلبة بن الحارث الأكبر بن عمرو بن جَفْنة، وفي نسبه اختلاف.

وهو آخر ملوك غسان، وكان طوله اثني عشر شبراً، فإذا ركب مسح الأرض بقدميه.

ولما أراد أن يُسلِم كتب إلى عمر ليستأذنه في القدوم عليه، فسُرّ بذلك وكتب إليه: أن أقدم، فلك ما لنا وعليك ما علينا، فخرج في مائة فارس من عَكّ وجفنة، فلما دنا إلى المدينة ألبسهم ثياب الوشي المنسوجة بالذهب الأحمر والحرير الأصفر، وجلل الخيل بجلال الديباج، وطوّقها أطواق الذهب والفضة، ولبس تاجه وفيه قُرْطا مارية، فلم يبق في المدينة إلا من خرج إليه، وفرح المسلمون بقدومه وإسلامه.

ثم حضر الموسم مع عمر، فبينما هو يطوف بالبيت إذ وطىء على إزاره رجل من فزارة فحلّه، فالتفت إليه جبلة مغضَباً، فلطمه فهشم أنفه، فاستعدى عليه الفزاريّ عمر،

فقال: ما دعاك إلى أن لطمت أخاك؟ فقال: إنه وطىء إزاري، ولولا حرمة هذا البيت لأخذت الذي فيه عيناه، فقال له عمر: أمّا أنت فقد أقررت، فإما أن تُرضيَه وإما أن أقيدَه منك، قال: أتقيدُه مني، وهو رجل سوقة! قال: قد شملك وإياه الإسلام، فما تفضله إلا بالعافية، قال: قد رجوتُ أن أكون في الإسلام أعزَّ مني في الجاهلية، فقال: هو ذاك، قال: إذاً أتنصّر. قال: إن تنصّرت ضربت عنقك. واجتمع وفد فزارة ووفد جَبَلة، وكادت تكون فتنة، فقال جبلة: أنظرني إلى غد يا أمير المؤمنين. قال: ذلك إليك.

فلما كان في جُنْح الليل خرج في أصحابه إلى القسطنطينية فتنصّر. وأعظم هِرَقْلُ قدومَه وسُرّ به وأقطع له الأموال والرِّباع، فلما بعثَ عمر رضي الله عنه رسوله إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام فأجابه إلى المصالحة، ثم قال للرسول: أرأيت ابن عمّك الذي أتانا راغباً في ديننا؟ يعني جبلة، قال: لا. قال: الْقَه ثم ائتني وخذ الجواب. فذهب فوجد على باب جَبلة من الجمع والحجاب والبَهْجة مثل ما على باب قيصر.

قال: فتلطّفتُ في الأذن حتى دخلتُ عليه: فرأيت رجلاً أصهب اللحية فأنكرته، فإذا هو قد دعا بسُحالة الذهب فذرّها على لحيته، حتى عاد أصهب، وهو قاعد على سرير من قوارير. فلما عرفني رفعني معه على السّرير، وجعل يسائلني عن المسلمين، فقلت: قد أُضعِفوا أضعافاً على ما تعرف، وسأل عن عمر رضي الله عنه، فقلت: بخير حال، فاغتمّ بسلامة عمر، فانحدرتُ عن السرير فقال: لِمَ تأبى الكرامة؟ فقلت: إن رسول الله ﷺ نهى عن هذا، قال: نعم ﷺ، ولكن نقِّ قلبك من الدّنس ولا تبالِ علام قعدت، فطمعت فيه عند صلاته على النبيّ ﷺ فقالت: ويحك يا جبلة ألا تُسلم! وقد عرفتَ الإسلام وفضله؟ قال: أبعدَ ما كان مني! قلت: نعم، قد فعل رجل من فزارة أكثر مّما فعلت، ارتدّ وضرب أوجه المسلمين بالسيف ثم أسلم، وقبل منه وخلّفْتُه بالمدينة مسلماً.

قال: زدني من هذا، إن كنت تضمن لي أن يزوّجَني عمر ابنته ويولِّيَني الأمر من بعده، رجعت إلى الإسلام. فضمنت له التزويج، ولم أضمن الخلافة. فأومأ إلى وصيف بين يديه، فذهب مسرعاً فإذا موائد الذهب قد نُصبت بصحائف الفضة، فقال لي: كُلْ، فقبضت يدي، وقلت: إن رسول الله ﷺ نهى عن الأكل في آنية الذهب والفضة، فقال: نعم ﷺ، ولكن نقّ قلبك، وكلْ فيما أحببت. فأكل في الذهب والفضة، وأكلتُ في الخلَنج. ثم جيء بطشت من الذهب، فغسل يديه فيها، وغسلت في الصُفر. ثم أومأ إلى خادم عن يمينه، فذهب مسرعاً، فسمعت حسًا، فإذا خدمٌ معهم كراسيّ مرصعة بالجواهر، فوُضِع عشرة عن يمينه وعشرة عن يساره. وإذا عشر جوار في الشعور، عليهنّ ثياب الوشي، مكسّرات في الْحَلي، فقعدن عن يمينه، وقعد مثلهن عن يسارِه، وإذا بجارية قد خرجت كالشمس حسنًا، وعلى رأسها تاج عليه

طائر، وفي يدها اليمنى جَام، وفيه مسك وعنبر فتيت، وفي يدها اليسرى جام فيه الورد، فصفرت للطائر، فوقع في جام ماء الورد، فاضطرب فيه، ثم وقع في جام المسك، فتمرّغ فيه، ثم طار فوقع على صليب في تاج جبلة، فرفرف حتى نفض إما في ريشه عليه، وضحك جبلة من شدة السرور ثم قال للجواري اللاتي عن يمينه: بالله أضْحِكْننا فاندفعن يغنين، تخفق عيدانهنّ يقلن: [الكامل]

لله درّ عــصــابــة نــادمــتــهُــمْ ... يـومـاً بِـجـلِّـقَ فـي الـزمـان الأوّلِ[1]

يسقُونَ منْ ورد البريصَ عليهمُ ... بَرَدَى يصفِّق بالرحيق السلسل

أولاد جفنة حول قبر أبيهمُ ... قبر ابن مارية الكريم المفضلِ

يُغْشَوْن حتى ما تهرّ كلابهمْ ... لا يسألون عن السواد المقبل

بيض الوجوه نقيّةٌ أحسابُهُمْ ... شمّ الأنوف من الطّراز الأولِ

فضحك ثم قال: أَتدري من قائل هذا؟ قلت: لا، قال: حسان بن ثابت شاعر رسول الله ﷺ:

ثمّ قال للاتي عن يساره: بالله أبكيننا، فاندفعن بعيدانهنّ يَغنِّين: [الخفيف]

لمن الدار أقفرتْ بِعُمانِ ... بين أعلى اليرموك والصَّمَّانِ[2]

ذاك مغنى لآل جفنة في الدّهـ ... ـر وحقٌّ تعاقبُ الأزمانِ

قد أراني هناك دهراً مكيناً ... عند ذي التاج مَجْلِسي ومكاني

ثَكِلَتْ أمّهم وقد ثكِلَتْهمْ ... يوم حَلُّوا بحارث الجُولان

---

(١) الأبيات لحسان بن ثابت في ديوانه ص ١٢٢، ١٢٣، والبيت الأول في لسان العرب (جلق)، وتاج العروس (جلق)، وبلا نسبة في مقاييس اللغة ١/ ٤٧٥، والبيت الثاني في جمهرة اللغة ص ٣١٢، وخزانة الأدب ٤/ ٣٨١، ٣٨٢، ٣٨٤، ١١/ ١٨٨، والدرر ٥/ ٣٨، وشرح المفصل ٣/ ٢٥، ولسان العرب (برد)، (برص)، (صفق)، ومعجم ما استعجم ص ٢٤٠، وبلا نسبة في أمالي ابن الحاجب ١/ ٤٥١، وشرح الأشموني ٢/ ٣٢٤، وشرح المفصل ٦/ ١٣٣، ولسان العرب (سلسل)، وهمع الهوامع ٢/ ٥١، والبيت الثالث في لسان العرب (جفن)، (مرا)، وتاج العروس (فضل)، (جفن)، (مرى)، وبلا نسبة في كتاب العين ٦/ ١٤٦، والبيت الرابع في خزانة الأدب ٢/ ٤١٢، والدرر ٤/ ٧٦، وشرح أبيات سيبويه ١/ ٦٩، وشرح شواهد المغني ١/ ٣٧٨، ٢/ ٩٦٤، والكتاب ٣/ ١٩، ومغني اللبيب ١/ ١٢٩، وهمع الهوامع ٢/ ٩، وتاج العروس (جبن)، وبلا نسبة في شرح الأشموني ٣/ ٥٦٢، والبيت الخامس في لسان العرب (طرز)، (أنف)، وتهذيب اللغة ١٣/ ١٧٨، ومقاييس اللغة ٣/ ٤٤٦، وتاج العروس (طرز)، (أنف)، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٧٠٤.

(٢) الأبيات في ديوان حسان بن ثابت ص ٣٢٢، ويروى البيت الأول:

لمن الدار أوحشت بمغانِ ... بين أعلى اليرموك فالخمانِ

وهو في لسان العرب (خمم)، وتاج العروس (خمم)، (بلس)، (أفق)، والأغاني ١٥/ ١٥٠، ومعجم البلدان (أفيق)، (سكاء).

ودنا الفِصْح فالولائد ينظمـ ـن سِراعاً أكِلّةَ المرجان

فبكى حتى سالت الدموع على لحيته، ثم قال لي: وهذا لحسان أيضاً، ثم أنشأ يقول: [الطويل]

تنصَّرت الأشراف من أجلِ لطمةٍ وما كان فيها لو صبرتُ لها ضَرَرْ
تكنّفني فيها لجاج ونخوةٌ وبعتُ بها العينَ الصحيحة بالعَوَرْ
فيا ليت أميّ لم تلدْنِي وليتني رجعت إلى الأمر الذي قال لي عُمَرْ
ويا ليتني أرعى المخاضَ بقفرةٍ وكنت أسيراً في ربيعة أو مُضَرْ
ويا ليت لي بالشأم أدنى معيشةٍ أجالس قومِي ذاهبَ السمع والبصرْ

ثم سألني عن حسان، أحيٌّ هو؟ قلت: نعم. ثم أمر بمال وكسوة ونُوق موقورة برًّا، وقال: أقرئه سلامي، وادفع له هذا إن وجدته حيًّا، وإن وجدته ميّتاً، فادفعه إلى أهله، وانحر الجمال على قبره.

قال: فلما قدمت على عمر أخبرته الخبر، فقال: هلاّ ضمنتَ له الأمر، فإذا أسلم قضى الله علينا بحكمه! ثم بعثت إلى حسان، فأقبل وقد كُفّ بصره، فلما دخل قال: يا أمير المؤمنين إني وجدتُ ريح آل جفنة، قال: نعم، هذا رجل أقبل من عنده قال: هات يا بن أخي ما بعث به إليّ معك؟ قلت: وما علمك؟ قال: إنه كريمٌ من عصبة رجال كرام مدحتُهم في الجاهليّة، فحلف ألاّ يلقى أحداً يعرفني إلا أهدى إليّ معه شيئاً. فدفعته إليه وأخبرته بأمره في الإبل، فقال: وددت أني كنت ميتاً فنحرت على قبري، ثم أخذها وانصرف وهو يقول: [الكامل]

إنّ ابنَ جفنة من بقيّةِ معشرٍ لَم يَغذُهم آباؤهم باللُّومِ
لم يَنسني بالشام إذ هو ربُّها كلاّ ولا متنصِّراً بالرومِ
يعطي الجزيل، ولا يراه عنده إلا كبعض عطية المذموم
وأتيته يوماً فقرّب مجلسي وسقي وروّاني من الخرطوم

وذُكِر أنّ رسول عمر لما أرسله إلى قيصر، قال: وأمرني أن أضمن لجبلة ما شرط، فلمّا قدمت القسطنطينية وجدت الناس منصرفين من جنازته، فعلمت أن الشقاء قد غلب عليه.

وحُدّثت أن صاحب بَرْطونة اليوم من ذرّيته. وذكر الثعالبيّ أنه وجد للصّابي فصلاً من كتاب استظرفه جدًّا، يذكر صلةً وصلت إليه من الصاحب، وهو: وصل أطال الله بقاء سيدنا أبو العباس أحمد بن الحسين، وأبو محمد أحمد بن جعفر بن شعيب حاجّين، فعرّجا إليَّ ملمّين، وعاجا عليّ مسلّمين، فحين عرفتهما، وقبل أن أردّ السلام عليهما مددت اليد إلى ما معهما، كما مدّها حسان بن ثابت إلى رسول جبلة بن الأيهم، ثقةً منّي

بصلته، وشوقاً إلى تكرمته، واعتماداً لإحسانه، وألفاً لموارد إنعامه، وتيقّناً أن الخطرة مني على باله، مقرونة بالنّصيب من ماله، وأن ذِكْراه، مشفوعة بجدواه.

رجع ما انقطع. فيريد أنه لو خطب لهؤلاء القوم ابنُ أدهم على زهده وفضله، أو ابن الأيهم على ملوكيته وعزته لسوَّوْا بينهما في الصَّداق اقتداء بالنبيّ ﷺ.

[المغالاة بالصدقات]

وجاء في الترمذيّ أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لا تغالُوا في صَدُقات النساءِ، فإنها لو كانت مكرمة أو تقوى عند الله، لكان أولاهم بها نبيّ الله ﷺ، وما أعلم أنّ رسول الله ﷺ نكح شيئاً من نسائه، على أكثر من اثنتي عشرة أوقية[١].

قال ابن عيينة: والأوقية عند أهل العلم أربعون درهماً، واثنتا عشرة أوقية أربعمائة وثمانون درهماً.

وفي غير الترمذي أن النبيّ ﷺ قال: «تياسروا في الصَّداق»[٢] وكانت صدقات أزواج النبي ﷺ على عظم قدره، وعلّو مرتبته اثنتي عشرة أوقية ونشًّا، والنَّشّ عشرون درهماً، فذلك خمسمائة درهم.

وروي عن عمر رضي الله عنه: أنه حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: ألا لا تغالوا في صَدُقات النساء، فإنه لا يبلغني عن أحد أنه ساق أكثر من شيء ساقه رسول الله ﷺ، أو سيق إليه إلاّ جعلت فضل ذلك في بيت المال. فعرضتْ له امرأة فقالت: يا أمير المؤمنين، كتاب الله أحق أن يُتّبع أو قولك؟ قال: كتاب الله تعالى. ثم قال: فيم ذلك؟ قالت: الله تعالى يقول: **﴿وآتيتم إحداهنّ قِنطَاراً فَلاَ تأْخُذُوا مِنهُ شَيْئاً﴾**[النساء: ٢٠]، فقال عمر رضي الله عنه: كلّ أحد أفقه من عمر! ثم رجع إلى المنبر، فقال: إني كنت نهيتُكم عن أن تغالوا في صدقات النساء، فليفعل كلّ رجل منكم في ماله ما أحبّ[٣].

فرجع عمر عن اجتهاده إلى ما قامت عليه الحجة فأباحه للناس واستعمله في نفسه، فأصدق أم كلثوم بنت عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهم أربعين ألفاً والقنطار ألف دينار ومائتا دينار؛ إلا أن المياسرة في الصداق أحبّ عند أهل العلم من المغالاة.

ومن الملح في صداق خمسمائة، ما حدّث به ابن أبي شيبة قال: كان حجاج جارنا، فسمعته يقول لأبيه: تزوجَتْ أمي على خمسمائة درهم، وبقيت أنا لك ربحاً، فقال له أبوه: من سخنة عين هذا الربح أخشى.

* * *

(١) أخرجه بنحوه الدارمي في النكاح باب ١٨، ورواه ابن الأثير الجزري في النهاية في غريب الحديث ٣/ ١٨.
(٢) رواه ابن الأثير الجزري في النهاية في غريب الحديث ٥/ ٢٩٦.
(٣) رواه ابن الأثير الجزري في النهاية في غريب الحديث ٣/ ١٨.

قوله: مَهرَ: يقال: مَهرَ المرأة يمهَرها، وأمهرها: عيّن لها مهراً. لن تطالَب بصداق، أي أن القصة ليس لها حقيقة. فليس ثَمّ من يطالبك بصداق ولا طلاق. حشدك: جمعك، وأصله مصدر، ثم استعمل لجماعة الناس. تفتُق: تشق. رتْق: غلق والسمع: الأذن.

* * *

قال الحارث بن همّام: فازْدَهاني بِوصْفِ الخُطبةِ المتلُوّة، دُونَ الخِطْبة المجلوَّة؛ حتى قلت له: قدْ وَكَلْتُ إليك هذا الخَطْب؛ فدبِّره تَدْبير من طبّ لمن حَبّ. فنهضَ مُهَرْولاً، ثُمّ عادَ مُتهلِّلاً، وقال: أبْشِرْ بإعتَابِ الدَّهْر، واحتِلابِ الدَّرّ؛ فقدْ وُلِّيتُ الْعَقْد، وأكفِلْتُ النَّقْد، وكأنْ قَدْ ثَمّ أخذ في مواعَدَةِ أَهلِ الخان، وَاعْداد حَلْواءِ الخِوانِ. فلمَّا مَدَّ اللّيلُ أطْنَابَه، وأغلق كُلُّ ذي بابِ بابَه، أَذَّنَ فِي الجماعة: ألاَ احْضُروا فِي هذِه السّاعَة؛ فلمْ يَبقَ فيهمْ إلاَّ مَنْ لَبَّى صَوْتَه، وحَضرَ بيتَه. فلما اصْطَفُّوا لَدَيْهِ، واجْتَمعَ الشاهِدُ والمشهودُ عليه، جَعَل يرفع الاصْطرْلاب ويَضَعُه، ويلحظُ التّقويم وَيَدَعُه، إلى أَن نَعَس القوْم، وغَشِيَ النَّوْم، فقلتُ له: يا هذا ضعِ الفاسَ في الرّاس وخلّص الناس من النُّعاس. فنظر نظرَةً في النُّجوم، ثمّ انتشط من عُقْلَة الوُجُوم، وأقْسَم بالطُّور، والكتابِ المسْطور؛ لَيَنْكَشِفَنَّ سِرُّ هَذَا الأمْرِ المسْتُور، ولَيَنْتشِرَنَّ ذِكْرُه إلى يَوْم النَّشور. ثمَّ إنَّه جَثَا عَلَى رُكْبَتِهِ، واسْتَرْعَى الأَسْمَاعَ لخطْبَتِهِ.

* * *

ازدهاني: دعاني إلى الزهو، وهو العُجب والكبر، أي أعجبت بوصفها، المتلوّة: المقروءة، الخِطبة: الزوجة المخطوبة. المجلوّة: التي كشف وجهها لينظر إليها. وكَلْت: أسندت إليك، وجعلتك القائم. الخطب: الأمر.

طبّ: أصلح حال العليل. فيقول: دبّر هذا الأمرَ تدبير الطبيب أمرَ حبيبه إذا كان عليلاً، وطبّه أي عناه، وقيل: معنى طبّ حذق بالشيء وجاد فيه ذهنُه، والطّبّ: الحاذق بالأمر، فيكون معناه، دبِّر أمري تدبير المميّز الحاذق أمرَ حبيبه.

قال ابن الأنباريّ: قولهم: مَنْ حبّ طبّ، أي من أحب حَذَق وفطِن واحتال لمن يحب، والطِّبّ في اللغة: الحِذْق والفطنة، ورجل طبيب وطبّ، إذا كان حاذقاً، وسمِّي الطّبيب لفطنته.

ومعنى حَبّ أحبّ. وقال البصريون: لا يقال: حبّ يُحِبّ، وجاء عنهم: محبوب،

على فعلٍ لا يُتكلم به. الكسائي والفراء: يقال: حببت وأحببت، وحبّ في المثل يدلّ على صحته. والبصريون يقولون. حبّ إتباع لطبّ.

مهرولاً: مسرعاً. متهلّلاً: مستبشراً. إعتاب: إرضاء. الدّرّ: اللّبن. ولّيت العقد، أي أعطيت النكاح، أي جعلني أبو الزوجة وليًّا لها. أُكْفِلت النقد، أي جعلت كفيلاً على أخذه، والكفيل: الضامن، أو يكون معنى أُكْفِلْت: ضمن لي وأُعطيت كفيلاً. والنّقد: المال الحاضر. وكأن قد، أي وكأن قد أحضر المال وتيسّر النكاح. الخوان: المائدة. أذّن: صاح. لبى: أجاب وقال: لبيك. الأَصطرلاب: آلة للمنجّمين يأخذون بها الأوقات. يلحظ: ينظر. التقويم: التعديل. غَشِيَ النوم: غطّى العيون وَخمرها. ضع الفاس في الرأس، أي اقصد إلى عين الخبر، وهي كلمة تقال عند التوكيد في العزم على الأمر، ومعناه: اقطع ما تريده من الأمر وافعله.

والذي نظر نظرة في النجوم، هو إبراهيم عليه الاسلام، لأنه تفكر ما الذي يصرفهم عنه إذا كلّفوه الخروج معهم، فقال: إني سقيم. انتشط: انحلّ. والعُقلة: ما ينشب فيها الإنسان فتعقله، ويقال: لفلان عُقلة يعتقل بها الناس، وذلك إذا صارعهم عقل أرجلَهم. والوجوم: العبوس والحزن الشديد، أراد أنه كان في تقويمه طالع نحس، فكان معبّساً حزيناً، فلما زالت ساعته ودخلت ساعة طالع سعد، استبشر وزال عبوسه، وإنما عقد هذا النكاح ليلاً لأن قصدَه المكر، ولأنهم كانوا يختارون نكاح آخر النهار على أوله. قال بعض العلماء: ذهبوا في ذلك إلى اتّباع السنة في الفأل، فآثر الناس استقبال الليل بعقد النكاح، تيمّناً بما فيه من الهدوّ والاجتماع على صدر النهار، لما فيه من التفرق والانتشار، وذهبوا إلى تأويل القرآن لأن الله سمّى الليل في كتابه ﴿**سكَناً**﴾ [الأنعام: ٩٦]، ﴿**وجعل النهار نشوراً**﴾ [الفرقان: ٤٧] كما يستحبون النكاح يوم الجمعة للاجتماع، وقال الشاعر: **[الوافر]**

ويوم الجمعة التنعيم فيه وتزويج الرّجال من النساء

الطور: جبل موسى عليه السلام الذي آنس من جانبه النّار وكلّمه الله عنده. سرّ هذا الأمر، أراد ما أضمره لهم من الخِداع، أي أنه سينكشف ويتحدّث به إلى يوم القيامة. جثا: يجثو جُثُوًّا: جلس على ركبتيه. استرعى: استدعى. الأسماع: الآذان، ويقال: أرعني سمعك، أي اسمع مني، وأخلِ أذنيك لاستماع حديثي.

* * *

وقال: الحمد لِلّهِ الملِك المحمود، المالِك الوَدُود، مصوّرِ كلِّ مولودٍ، ومآلِ كلِّ مَطْرود، ساطِحِ المِهاد، وموطِّدِ الأَطواد، ومرسل الأمطار، ومُسَهِّلِ الأوطار، عالِم الأسرار ومُدْرِكها، ومدمِّر الأملاكِ ومُهْلِكها، ومكوّرِ الدّهور ومكرّرها، ومُورِدِ الأمورِ ومُصْدِرِها. عمّ سَماحُه وكَمَل، وهَطَل رُكامه وهَمل، وطَاوَع السُّؤل

وَالأمَل. وأوسَع المرْمِل والأرْمَل. أَحْمَدُه حمداً ممدوداً مداه، وَأُوَحِّده كما وَحّدَه الأوّاه، وَهو اللَّهُ لا إله للأُمم سِواه، وَلا صَادِعَ لِمَا عدّلَه وَسوّاه. أَرْسلَ محمداً عَلماً لِلإسلام، وَإماماً للحكّام، وَمُسدِّداً للرّعاعِ، ومعطِّلاً أحكام وَدٍّ وسُواع، أعْلَمَ وعلَّم، وحَكم وأحْكم، وأصّلَ الأصُولَ وَمَهَّد، وأكّد الوُعود وأَوْعَد؛ واصل اللَّهُ لَهُ الإكرام، وأوْدَعَ روحه دار السَّلاَم، ورحم آلَه وأهلَه الكرام؛ ما لَمَع آل، ومَلَع رال، وطلع هلال، وسُمِع إهْلال.

* * *

قوله: مآل، أي ملجأ. مطرود: مَنْفِيّ. ساطح: باسط. المهاد: الأرض. موطّد الأطواد: مثبّت الجبال. والأوطار: الحاجات. مدمّر الأملاك: أي مهلك الملوك، والأملاك: جمعَ مِلِك.

[التطير من الدنيا والزهد فيها]

وهذا كما قال عدي بن زيد: **[الخفيف]**

أينَ كسرى كسرى الملوكِ أنوشِرْ ... وانَ أم أيـن قَـبْـلَـه سـابـورُ[1]

وبنو الأصفر الكرام ملوك الرّوم ... لـم يـبـق مـنـهـمُ مَـذكـور

وأخو الحَضْر إذ بنَاهُ وإذ دجـ ... ـلـة تـجبَى إلـيـه والـخـابـور

وتفكّر ربّ الخورنق إذ أشـ ... ـرف يـومـاً ولـلـهـدى تـذكـيـرُ

لم يهْبُه رَيْبُ المنون فباد الـ ... ـمُـلـك عـنـه فـبـابُـه مـهـجـورُ

ثم بعد القلاع والملك والإمـ ... ـرَةِ وارتـهـمُ هـنـاك الـقـبـورُ

ثم راحُوا كأنهم قصبٌ جفّ ... فـألـوتْ بـه الـصَّـبَـا والـدَّبـورُ

وقال الأسود بن يعفُر: **[الكامل]**

ولقد علمتُ لو أنّ علمِي نافِعِي ... أن السـبـيـل سـبـيـل ذي الأعـوادِ[2]

مـاذا أؤمـل بـعـد آل مـحـرّقٍ ... تـركـوا مـنـازلـهـمْ وبـعـد إيـادِ

---

(١) الأبيات في ديوان عدي بن زيد العبادي ص ٨٧، والبيت الثاني في لسان العرب (صفر)، (كلس)، وتاج العروس (صفر).

(٢) الأبيات في ديوان الأسود بن يعفر ص ٢٦، ويروى صدر البيت الأول:

ولقد علمت سوى الذين نبّأتني

وهو في لسان العرب (عود)، وجمهرة اللغة ص ٦٦٧، وتهذيب التهذيب ٣/ ١٢٦، وتاج العروس (عود)، وشرح اختيارات المفضل ص ٩٦٦، ومعجم البلدان (أنقرة).

جَرت الرياحُ على محلِّ ديارهمْ ... فكأنَّهُمْ كانوا على ميعادِ
ولقد غنُوا فيها بأكرم غنية ... في ظلّ ملك ثابت الأوتادِ
فإذا النّعيم وكلّ ما يُلْهَى به ... يوماً يصير إلى بِلًى ونفادِ

الأصمعيّ: أصيب في حفير حول الحيرة تابوت، فيه رجُلٌ عليه خُفَّان، وعند رأسه لوح فيه: أنا عبد المسيح بن حيان بن بقيلة. [الوافر]

حلبتُ الدهر أشَطَره حيَاتِي ... ونلتُ من المُنَى فوق المزيدِ
وكافحت الأمور وكافحتْني ... ولم أخضع لمعضلةٍ كؤودِ
وكدت أنال بالشّرف الثريا ... ولكن لا سبيل إلى الخلود

دخل أرطأة بنُ سهيَّة على عبد الملك، فقال: كيف حالك؟ ـ وكان قد أسنّ ـ فقال: ضَعُف حالِي، وقلَّ مالي، وكثر منيّ ما كنت أحبّ أن يقلّ، وقلّ منّي ما كنت أحبّ أن يكثر، قال: فكيف أنت في شعرك؟ فقال: والله ما أغضب، ولا أطرب، ولا أرهب، وما الشعر إلا من نتائج هذه، على أنّي القائل: [الوافر]

رأيت المرء تأكلُه الليالي ... كأكل الأرض ساقطةَ الحديدِ
وما تبغي المنيّة حين تأتِي ... على نفس ابن آدم من مزيدِ
وأعلم أنَّها عمّا قليلٍ ... ستُوفِي نذرها بأبي الوليدِ

فارتاع عبد الملك، ثم قال: بل تُوفي نذرها بك، ما لي ولك! قال: يا أمير المؤمنين لا تُرَعْ، فما عَنيتُ إلاّ نفسي، فقال: أما والله لتلِمّنّ بي.

وأبو الوليد كنية لعبد الملك ولأرطأة.

* * *

والتكوير: إدخال الليل على النّهار والنّهار على الليل، وكوّرتُ الشيء رددتَه، ولويتَ بعضَه على بعض. هطل وهَمَل، معناهما صبّ. الرّكام: السحاب المتراكم. السُّؤل: المطلوب. أوسع: أغنى. المرمِل: الذي نَفِد زاده. الأرمل: الفقير، أو الذي ماتت زوجته، أو التي مات زوجها، يقال لها أرمل وأرملة، ومنع قوم أن يقال للفاقد زوجته: أرمل، وأجازه بعضهم.

مداه: غايته. الأوّاه: إبراهيم عليه السلام، وهو من التأوّه، وهو التوجّع والتحزّن والنطق بأوّاه أوّاه! صادع: مفسد، والصدع: الشقّ في زجاجة أو حائط. علمَا، أي إماما يهتدى به. مسدّداً: مصلحاً. والرعاع: السقّاط والضّعفة من الناس. وَدّ وسُواع: صنمان. حكم: قضى. أحكم: أتقن. أصّل: ثبّت الأصول. مَهّد: سوّى ووطّأ. الوعود: جمع وعد. أوعد: هدّد وخوّف. واصل: داوم. أودع روحه دار السلام: أدخله الجنة. آل:

سراب. مَلَع: أسرع. رال: فرخ النعام. إهلال: رفع الصوت بالتلبية بمكة.

* * *

اعْمَلُوا رعاكم اللَّهُ أصلحَ الأعمال، واسْلُكوا مسالِكَ الحلال، واطّرِحوا الحرَام ودعُوه، واسْمَعُوا أمْرَ الله وَعُوه، وَصِلُوا الأرحام وراعوها، وعاصُوا الأهواء وارْدَعُوها، وصَاهروا لُحُمَ الصَّلاَحِ والْوَرَع؛ وصَارِمُوا رَهْطَ اللَّهْوِ والطَّمَع. ومُصاهِرُكُمْ أَطْهرُ الأحْرارِ مَوْلِداً، وأسْرَاهُمْ سؤدُداً، وَأَحْلاَهُمْ مَوْرِداً، وَأَصَحُّهُمْ مَوْعِداً. وَهَا هُوَ أَمَّكُمْ، وَحَلَّ حُرَمَكُمْ، مُمْلِكاً عَرُوسَكُمُ المكرّمة، وماهراً لها كما مَهَرَ الرَّسولُ أُمَّ سلمَة، وَهُو أكرَمُ صِهْرٍ أودِعَ الأَوْلاَد، ومُلِّكَ ما أَرَادَ، وماسَهَا مُمْلِكُهُ وَلاَ وَهِم؛ ولا وُكِسَ مُلاحِمُهُ ولا وُصِم، أسأل الله لكم إحماد وصاله ودوام إسعَادِه، وألهَمَ كلاً إصلاح حالِه والإعدادَ لمعادِه. ولهُ الحمدُ السَّرْمَدُ، والمدْح لِرسولِهِ محمد.

* * *

اطّرحوا: اتركوا وارموا به. عُوه: احفظوه. الأرحام: القرابات، الواحد رَحِم، والأرحام من النساء الواحد رحم، راعوها: احفظوها وحاموا عليها. الأهواء: دواعي النفس. ارْدَعُوها: كُفّوها. صاهروا: ناكحوا. لحم: قرابات، ولحمة النسب: التحام القرابة وانضمامها. صارموا: قاطعوا. مصاهركم: خَتَنُكم المتزوّج إليكم. أسراهم: أشرفهم وأكثرهم مروءة، وقد سَرِيَ فهو سريّ. أمّكم: قصدكم. حلّ: نزل. حرمكم: بلدكم وموضعكم، الذي هو كالحرَمِ في أمته. مُمْلكاً: متزوّجاً، والإملاك: التزويج الذي تُمْلَك به المرأة.

قال ابن هشام: أمّ سلمة بنت أمية بن المغيرة، تزوّج بها رسول الله ﷺ قبل وقعة بدر في سنة اثنتين من التاريخ، واسمها هند بنت أمية زاد الركب بن المغيرة، وفي حديث أنس رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ تزوج أمّ سلمة على متاع قيمته عشرة دراهم.

سها: أخطأ. مُمْلِكه: منكحه الذي أعطاه وليّته. وَكْس: غبن، ووَهِم في الحساب: غلط فيه، وملاحمه: أي مصاهره. وُصِم: عِيب، والوصْم: العيب، وأحمد الرجل احماداً، أي صار أمره إلى الحمد، أراد أنه من أهل الأحساب فلا ينقص مَنْ يصاهره. الإعداد للمعاد، أي الاستعداد لليوم الذي يعاد فيه إلى نشأته الأولى. السّرمد: الدائم. والرسول: الذي يتابع أخبار الذي بعثه، أخذا من قولهم: جاءت الإبل أرسالا، أي متتابعة، ويثنّى رسولان، ويجمع رسل. ومنهم من يوحده في كل حال، قال الله تعالى: ﴿**أنا رسولُ رب العالمين**﴾ [الأعراف: ١٠٤] وحده، لأنه في معنى الرسالة، وأنشد: **[الطويل]**

فأبلغ أبا بكر رسولاً سريعة　　فما لك يا بن الحضرميّ وما ليا(١)

قال الفراء رحمه الله وحدّه اكتفاء بالرسول من الرسولين، وأنشد: **[المتقارب]**

أَلِكْنِي إليها وخير الرسو　　ل أعلمُهمْ بنواحي الخبَرْ(٢)

أراد الرّسل، فاكتفى بالواحد عن الجمع.

* * *

[من خطَب النكاح]

وإذ كملت الخطبة فلنسق من خطب النكاح ما يحسن بالوضع.

ومن مشاهير الخطب فيه خطبة أبي طالب في تزويج النبي ﷺ من خديجة رضي الله عنها وهي:

الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم، وزَرْع إسماعيل، وجعل لنا حَرَماً آمناً وبيتاً محجوجاً، وجعلَنَا الحكامَ على الناس. ثم إن محمد بن عبد الله ابنُ أخي، ممّن لا يوازن فتى في قريش إلا رجح به برًّا، وفضلاً، وكرماً وعقلاً، ومجداً ونبلاً، وإن كان في المال قُلّ فإنما المال ظلّ زائل، وعارية مسترجعة، وله في خديجة بنت خويلد رغبة، ولها فيه مثل ذلك وما أحببتم من الصَّداق فعليّ.

فهذه الخطبة من أفضل خطب الجاهلية.

وعن يحيى بن أكثم: أراد المأمون أن يزوج ابنته من عليّ الرضا، فقال: يا يحيى تكلم، فأجللت أن أقول: أنكحت؛ فقلت: يا أمير المؤمنين، أنت الحاكم الأكبر والإمام الأعظم، وأنت أوْلى بالكلام، فقال:

الحمد لله الذي تصاغرت الأمور بمشيئته، ولا إله إلا الله إقراراً بربوبيته، وصلى الله على سيدنا محمد عند ذكره وعترته. أما بعد، فإن الله سبحانه قد جعل النكاح ديناً، ورضيه حكماً، وأنزله وحياً، ليكون سبباً للمناسلة وإني قد زوّجت ابنة المأمون من عليّ ابن موسى الرضا، وأمهرتها أربعمائة دينار، اقتداء بسنة رسول الله ﷺ، وانتهاء إلى ما درج إليه السلف الصالح، والحمد لله رب العالمين.

وحضر المأمون إملاكاً وهو أمير، فسأله مَنْ حضر أن يخطب، فقال: الحمد لله، والصلاة على المصطفى رسوله، وخير ما عُمل به كتاب الله: **﴿وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم﴾** [النور: ٣٢]، ولو لم يكن في المناكحة آية منزّلة ولا

---

(١) البيت بلا نسبة في المخصص ١٧/ ٣٠.

(٢) البيت لأبي ذؤيب الهذلي في شرح أشعار الهذليين ص ١١٣، ولسان العرب (لوك)، (رسل)، والمخصص ١٢/ ٢٢٥، وبلا نسبة في لسان العرب (ألك)، (نحا)، وتاج العروس (ألك).

سنة متّبعة إلاّ ما جعل الله في ذلك من تأليف البعيد، وبرّ القريب، لَسارع إليه الموفّق المصيب، وبادر إليه العاقل اللبيب.

وفلان قد عرفتموه في نسبٍ لم تجهلوه، خطب إليكم فتاتكم فلانة، وقد بذل لها من الصداق كذا، فشفِّعوا شافعنا، وأنكوا خاطبنا، وقولوا خيراً تحمدوا عليه وتؤجروا فيه.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم.

وخطب رجل من بني أمية إلى عمر بن عبد العزيز أخته، فأطال، فقال عمر: الحمد لله ذي الكبرياء، وصلّى الله على محمد خاتم الأنبياء، أما بعد فإن الرغبة منك دعت إلينا، وإن الرغبة منا فيك أجابت بنا، وقد أحسن بك ظناً مَنْ أودعك كريمته، واختارك ولم يختر عليك، وقد زوّجناك على كتاب الله تعالى، إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان.

وكان الحسن البصريّ رحمه الله يقول في خطبة النكاح بعد الحمد والثناء.

أما بعد فإن الله تعالى جمع لهذا النكاح الأرحام المنقطعة، والأنساب المفترقة، وجعل ذلك في سنة من دينه، ومنهاج من أمره، وقد خطب فلان إليكم، وعليه وعليكم من الله نعمة، وهو يبذل من الصدق كذا، فاستخيروا الله، وردوا خيراً، يرحمكم الله!

الأصمعي رحمه الله: كانوا يستحسنون من الخاطب أن يطيل ليدل على الرغبة، ومن المخطوب إليه الإنجاز ليدل على الإجابة.

* * *

فلمّا فرغ من خطبته البديعةِ النِّظَام، الْعَرِيَةِ من الإعجامِ، عَقد العَقْدَ على الخُمسِ المئين، وقال لي: بالرِّفاءِ والبنين. ثمَّ أحضَر الحَلْوَاء التي كانَ أعدَّها، وأبْدَى الآبدَة عندَها. فأقبلتُ إقبالَ الجماعة عَلَيْها، وكِدْتُ أهْوِي بيدي إليها، فزجَرَنِي عن المُؤَاكلَة، وأنهضنِي للمُنَاولة؛ فوالله ما كان بأسْرَعَ من تَصَافُح الأجفان، حتَّى خرَّ القومُ للأذقان. فلمّا رأيتُهُم كأعجازِ نخلٍ خاوية، أو كصَرْعَى بنتِ خابية؛ علِمْتُ إنَّهَا لإحْدَى الكبر، وأمُّ العبر؛ فقلتُ له: يا عُدَيّ نفسِهِ، وعُبَيْدَ فَلْسِه، أَعدَدْتَ للقومِ حَلْوَى، أَم بَلْوَى؟ فقال: لم أعْدُ خبيص البَنْج، في صِحَافِ الخَلَنْجِ. فقلتُ: أقسِمُ بمَنْ أطْلَعَها زُهْراً، وهَدَى بِهَا السَّارين طُرًّا؛ لَقَدْ جئتَ شيئاً نُكْراً، وأبقيت لَكَ في المخزيات ذكراً!

* * *

قوله: البديعة النظام: أي الغريبة التأليف. العريّة من الإعجام، أي العاطلة من النقط. الرِّفاء: السكون والالتحام، ويُدْعى للمتزوّج، فيقال له بالرِّفاء والبنين، أي بالاتفاق مع الزوجة ووجود البنين مما يكون منها، وهو من رفأتُ الثوب، إذا ضممتَ بعضه إلى بعض، ومن رَفَوْتَ الرّجل إذا سكنتَه، قال أبو زيد رحمه الله: هو من المرافاة غير مهموز، وهي الموافقة.

تزوّج عَقِيل بن أبي طالب فقيل له: بالرِّفاء والبنين، فقال: قال رسول الله ﷺ: «إذا رفأ أحدكم أخاه فليقُل: على الخير والبركة، بارك الله لك وبارك عليك»[(١)].

الآبدة: الداهية، وجاء بآبدة، أي بكلمة أو خصلة وحشية منكرة، واشتقاقه من الأوابد، وهي الوحش، وكذلك الآبد، يقال: أبد الشاعر، إذا أتى بالعويص في شعره، فمعنى أبدى الآبدة، أي أظهر الداهية التي يبقى ذكرها على الأبد. زجرني: نهاني. أنهضني: أقامني وقدّمني. المناولة: إعطاء الطعام. تصافح الأجفان: غلقها وفتحها بسرعة، كقولك: طرفة العيون. خروا للأذقان، أي سقطوا على وجوههم، والذّقن مجمع اللَّحيين يعبَّر به عن الوجه، لأن العرب تسمِّي الشيء ببعض ما فيه، وإذا خَرّ على وجهه، فأقرب شيء إلى الأرض ذقنه، فخصّه بالذّكر لهذا، قال الله تعالى: ﴿**يخرُّون للأذقان سُجدًا**﴾ [الإسراء: ١٠٧] أعجاز: أصول. خاوية: فارغة متأكّلة، ويقال: خاوية ساقطة بالية. صرعى: قتلى، وأراد به السكارى، وبنت الخابية: هي الخمر، ومعنى الخابية التي تخبأ فيها الأشياء، مأخوذ من خبأت، فبُنيت على ترك الهمز، ويقال: خبأت الشيء وخبّأته وخبَّيته، وقرأت الشيء وقريته. إحدى الكبر: واحدة من الكبائر. أم العبر: أي أعظم الدواهي، وما يُتعظ به. لم أعدُ: لم أتجاوز. الخبيص: نوع من الحلواء. البَنج: نبات يسكر منه، وهو لبن الخشخاش البريّ المعروف بالأفيون. والخلنج: ضرب من الخشب. زُهراً: مضيئة، يعني الكواكب. السارين: الماشين بالليل. طرًّا: جمعاً. نُكراً: منكراً. والمخزيات: جمع مخزية، وهي الخصلة الرديئة يختزي صاحبها متى ذكرتْ له، والخزي الهوان.

* * *

ثمّ جِزْتُ فِكْرَةً في صَيُّورِ أَمْرِه، وخيفةً من عَدْوَى عَرِّه، حتى طَارَتْ نَفْسِي شَعَاعاً، وأُرْعِدَتْ فَرَائِصِي ارتياعاً. فلمّا رأى استِطَارَةَ فَرَقِي، واستِشاطةَ قَلَقي،

---

(١) أخرجه بنحوه أبو داود في النكاح باب ٣٦، والترمذي في النكاح باب ٧، وابن ماجه في النكاح باب ٢٣، والدارمي في النكاح باب ٦، وأحمد في المسند ٢/ ٣٨١، ورواه ابن الأثير الجزري في النهاية في غريب الحديث ٢/ ٢٤٠، بلفظ: «كان إذا رَفَّأ الإنسان قال: بارك الله لك وعليك، وجمع بينكما على خير».

قال: ما هذا الفِكْرُ المُرْمِض، والرَّوْعُ المُومِض؟ فإنْ يكُنْ فِكْرُكَ في أَجْلِي، من أجْلِي؛ فأنا الآن أَرتع وأطفِر، وأُقوِي هَذِهِ البُقْعَةَ مِنِّي وأُقْفِر، وكَمْ مِثلِها فارقتُها وهي تَصْفِر؛ وإن يَكُنْ نظراً لِنَفْسِك، وحَذَراً من حَبْسِك، فتناوَلْ فُضالَةَ الخَبيص؛ وَطبْ نفساً عن القميص؛ حتَّى تأمَن المُسْتَعْدِيَ وَالمُعْدِي، وَيتمَهَّدَ لَكَ المقامُ بَعْدِي؛ وإلا فالمفرّ المفرّ؛ قبل أن تُسْحَبَ وتُجَرّ: ثم عَمَدَ لاستخراج ما في البيوت، من الأكياسِ والتخوت. وَجَعل يَسْتَخْلِص خالصةَ كلّ مخزون، ونخبة كلّ مَذْرُوعٍ وَموزون؛ حتى غادر ما ألغاه فخُّه، كعظمٍ استُخرج مُخّهُ.

* * *

صَيُّور: آمال ورجوع، أي ما يصير إليه أمره. عدوى عَرّه، أي انتقال ضرره، والعرّ: الجرب، والعَدْوَى انتقال المرض إلى الصحيح، ومعناه عند العرب: إذا كان الجرَب بواحدة من الإبل سرى في غيرها، وفي الصحيح قال رسول الله ﷺ: «لا عَدْوَى ولا طيَرة ولا صَفَر ولا هامة، ولا يورد مُمْرِض على مُصحّ». فقال أعرابي: يا رسول الله، فما بال الإبل التي تكون في الرمل، كأنّها الظباء فيجيء البعير الأجرب فيدخل فيها فيجربها كلَّها؟ وقال: فمن أعدى الأوّل. وقال النابغة: **[الطويل]**

فلا تتركنّي بالوعيد كأنني ... إلى الناس مطليٌّ به القار أجْرَبُ[1]

فأراد أنّه خاف أن يؤخذ بذنب السَّروجيّ. شَعاعاً: متفرقة في كلّ جهة، يقال نفسٌ شَعاع، أي تفرقت هِمّتها، ورأيٌ شَعاع، أي متفرّق. والفرائص: جمع فريصة، وهي بَضْعة عند الكبدِ تُرْعد عند الفزع، قال امرؤ القيس: **[الطويل]**

* وتُرْعدُ منهنّ الكُلَى والفريصُ *[2]

ارتياعاً: فزعاً. استطاره فرَقي: انتشار فزعي. واستشاطة: التهاب واحتراقٍ. المُرمض: المحرق، وهو من لَفْظ الرَّمْضَاء. والرَّوْع: الفزع. المُومض: الذي يَدَع صاحبه مبهوتاً شاخص البصر من شدته، وأومضت المرأة بعينها إذا برقت. الأجَل،

---

(١) البيت للنابغة الذبياني في ديوانه ص ٧٣، وأدب الكاتب ص ٥٠٦، والأزهية ص ٢٧٣، والجنى الداني ص ٣٨٧، وخزانة الأدب ٩/ ٤٦٥، والدرر ٤/ ١٠١، وشرح شواهد المغني ص ٢٢٣، ولسان العرب (إلى)، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٧٩٨، وجواهر الأدب ص ٣٤٣، ورصف المباني ص ٨٣، وشرح الأشموني ٢/ ٢٨٩، ومغني اللبيب ص ٧٥، وهمع الهوامع ٢/ ٢٠.

(٢) صدره:

فيشربنَ أنفاساً وهنّ خوالفُ

والبيت في ديوان امرىء القيس ص ١٨٣.

بالتحريك: التأخير؟ وبتسكينها الجناية يقول: إن تفكّرت في تأخيري من الهرب بسبب جنايتي، فالآن أجمع أموالهم وأفرّ، قال الفنجديهيّ إن يكن فكرك في أجْلي، أي في جنايتي، يقال: أجَلَ الرَّجل عليهم شرًّا يأجَل ويأجل أجِلا أي جناية. وهيّجه من أجْلِي أي من جرّائي. أرتع: آكل أموالهم. أطفر: أفر هارباً، وطفر: وثب وسار مسرعاً. أُقوي. وأقفر: معناهما أُخْلِي موضعي، وأقفر الرجل من أهله: انفرد عنهم وبقي وحده والدّار خلت وكذلك أقوتْ وقَوِيَتْ وأقفرت الأرض من الكلأ، ورأسه من الشعر، وجسده من اللّحم، وأقوى وأقفر لا يتعدّيان. تصفر: تصوت، وهذا عجزُ بيت لتأبّط شرًّا، وصدره: **[الطويل]**

* فأبت إلى فَهْمٍ وما كدت آيبا(١) *

تصفِر، أي تنفخ ندماً على فوتي، والنادم على الشيء يتابع النفخ، يقول: كَمْ مثل هذه الخصلة فارقتُهَا، وهي تصفر تَنَدُّماً على ما فاتها. تناولْ: خذ. فضالة: بقية. طب نفساً، عنه، أي لتكنْ نفسُك طيبة على فقده، فإنّك إذا أكلت الخبيص، سَكِرْت فجرّدتك فصرت في جملة مَنْ أُكِلَ ماله فتأمن بذلك. المستعدِي: هو الشاكي. والمعدي: هو الحاكم، ويقال: استعديت الحاكم فأعداني، أي استعنته فأعانني. يتمهّد: يتوطّأ. المفرّ المفرّ: أي بادر الفرار، وتُسحب، هو تجَرّ. الأكياس: أوعية الدراهم والدنانير. التُّخوت: أوعية الثياب. يستخلص: يختار. خالصة: خيار، وكذلك نخبة. مذروع: مكيل بالذّراع، يعني الثياب. موزون: يعني الجواهر وما في معناها ممّا يباع بالوزن، مثل العطريات وغيرها من شبهها. الفخّ: آلة للصيد يحسن أن يكنى به عن المكيدة.

* * *

فلمّا همّن ما اصطفاه ورزّم، وشمَّر عن ذِرَاعَيْهِ وتحزّم؛ أقبل عليّ إقبال من لَبِسَ الصَّفَاقة، وخلَع الصداقة، وقال: هل لك في المصاحبةِ إلى البَطِيحة، لأزوِّجَك بأخرى مَليحة. فأقسمتُ له بالذِي جعله مباركاً أينما كان، وَلَمَ يجْعَلْهُ مِمّن خانَ في خان؛ إنّه لا قِبَل لي بنكاح حُرّتين، ومُعاشرةِ ضُرّتين. ثم قلت له

---

(١) عجزه:

وكم مثلها فارقتها وهي تصفرُ

والبيت لتأبّط شراً في ديوانه ص ٩١، والأغاني ٢١/ ١٥٩، وتخليص الشواهد ص ٣٠٩، وخزانة الأدب ٨/ ٣٧٤، ٣٧٥، ٣٧٦، والخصائص ١/ ٣٩١، والدرر ٢/ ١٥٠، وشرح التصريح ١/ ٢٠٣، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ٨٣، وشرح شواهد الإيضاح ص ٦٢٩، ولسان العرب (كيد)، والمقاصد النحوية ٢/ ١٦٥، وبلا نسبة في شرح ابن عقيل ص ١٦٤، وهمع الهوامع ١/ ١٣٠.

قول المتطلّع بطباعهِ، الكائلِ له بصاعِهِ: قد كفتْنِي الأولى فخراً، فاطلب آخر للأخرى.

فتبسّم مِن كلامِي، ودَلف لالْتِزَامِي. فلويتُ عنه عِذاري، وأبدَيت له ازْورَاري، فلمّا بَصُرَ بانقباضِي، وتجلّى له إعراضي أنشد:

* * *

همّن: شدّه بالهِمْيان وهو نوع من التّكة. اصطفاه: اختاره. رزّم: جعله رُزمة، والرّزمة في كلام العرب: التي فيها ضُروب من الثياب وأخلاط يقال: رازم الرجل في أكله، إذا أخلط بعضه ببعض، ورازمت علَف الدّابة: خلطته، وقد يريد به ما شدّ على وسطه من المال بهمْيانه. الصفافة: صلابة الوجه. خلع: أزال.

البَطِيحة: قرية عامرة بقرب البصرة من جهة واسِط، وبينها وبين البصرة وواسط جهة كبيرة، تعرف بالبطاح وتتوسطها البطيحة.

معاشرة ضرتين: مصاحبة زَوْجَين. المتطبّع بطباعه: المتخلّق بخلقه. الكائل له بصاعه، أي الذي أعطاه مِن الهزل مثل ما أعطاه. دلف: أسرع. التزامي: معانَقتي وضمي له. لوبت: عطفت، أي أعرضت عنه بوجهي. ازْوِرَاري: انقباضي. تجلّى: ظَهَر. إعراضي: تركي إقبالي عليه. **[مجزوء الكامل]**

* * *

يــا صــارفــاً عَــنِّـي الــمــودّ ةَ والــزَّمــان لَــهُ صــروف
ومــعــنِّــفِــي فــي فَــضْــح مَــنْ جــاوَزْتُ تــعــنِــيــفَ الْــعَــسُــوفْ
لا تــلــحَــنِــي فــيــمَــا أتــيــ ــتُ فــإنَّــنــي بــهــمُ عَــروفْ
ولــقــدْ نــزلــت بــهــمْ فــلــمْ أرَهُــمْ يُــراعــون الــضــيــوفْ
ويَــلَــوْتُــهُــمْ فــوجــدتُــهُــمْ لــمَّــا سَــبَــكْــتُــهــمُ زُيــوفْ
مــا فــيــهــمُ إلاَّ مــخِــيــ ــفٌ إنْ تَــمَــكَّــنَ أو مَــخُــوفْ
لا بــالــصــفّــي ولا الــوَفــيّ ولا الــحــفــي ولا الــعَــطُــوفْ
فــوثــبــتُ فــيــهــمْ وثــبــةَ الــذّئــ ــبِ الــضّــرِيّ عــلــى الــخــروفْ
وتــركــتــهــمْ صَــرْعــى كــأنّــهُــمُ سُــقُــوا كــأس الــحُــتــوفْ
وَتــحــكّــمــتُ فــيــمــا اقــتــنَــوْ هُ يــدِي وهــمْ رُغــمُ الأنــوفْ

* * *

صارفاً: منحنياً: المودّة: المحبّة. صروف: دفوع. معنّفي: موبخي ولائمي.

فَضَح: كشف. والعسوف: الآخذ بجهالة قبل التجربة. تلحني: تلمني. يُراعون: يحفظون حقوقهم. بلوتُهم: خبرتهم، ومثله سبكْتُهم. زيوف: دراهم رديئة، يريد أنهم قوم لا خير فيهم. مخيف: مضرّ مفزع. إن تمكّن: ارتفع وكانت له مكانة. مخوف: لا يقدم عليه خوف ضرره. الصّفي الوفيّ. الصادق الود. الحفيّ: المكرم لصديقه المعتني به. العطوف: الرحيم. الضريّ: المعتاد الذي ضريَ أخذ الخرفان. صرعَى: مطرحون على الأرض. والحتوف: جمع حَتْف وهو الهلاك. اقتنوه: اكتسبوه. رغم: إذلال.

[* * *]

[مجزوء الكامل]

ثـمَّ انـثـنـيـت بـمـغـنـم ... حُـلْـو الـمـجـانـي والـقُـطُـوفْ

وَلَـطَـالَـمَـا خـلـفـتُ مـكـ ... ـلومَ الـحـشَـا خَـلْـفِـي يـطـوفْ

وَوَتَـرتُ أربـاب الأرا ... ئِـكِ وَالـدَّرائـكِ والـسُّـجـوفْ

ولَـكَـمْ بـلـغـتُ بـحـيـلـتِـي ... مـا لـيـس يُـبَـلـغُ بـالـسـيـوفْ

ووَقـفـت فـي هـولٍ تُـرا ... عُ الأسْـدُ فـيـه مـن الـوقُـوفْ

وَلَـكَـمْ سَـفَـكـتُ وكـم فـتـكـ ... ـتُ وكـم هَـتَـكْـتُ حِـمَـى أَنـوفْ

وكـم ارتـكـاضٍ مـوبـقٍ ... لِـي فـي الـذّنـوب وكَـمْ خـفـوفْ

لـكِـنَّـنـي أعْـدَدْتُ حُـسْـ ... ـنَ الـظّـنِ بـالـمـولـى الـرؤوف

* * *

انثنيت، أي رجعت. المجاني: ما يجنى من الثمار. والقُطوف: ما يقتطف منها، وهي جمع قُطْف وهو العنقود. خلّفت: تركت خلفي. مكلُوم: مجروح. الحشى: إسقاط الجوف. وترت: أخذت منهم ثأري وحقي. أرباب الأرائك: أصحاب الأسرَّة. والدرائك: البُسط. السّجوف: جمع سِجْف، وهو الستر، والأرائك: جمع أريكة، والدّرانك واحدها درنُوك. الهول: الأمر المفزع. تراع: تفزع، وفيه: متعلقه وقوف، يريد أن الأسد تفزع أن تقف في الهول الذي وقفَ فيه. سفكت: قتلت. فتكت: عتيت. هتكت. قطعت. رَحِمِي: ما يحمي ويمنع. أَنوف: كثير الأنفة والحمية. ارتكاض: جري واضطراب وتحرُّك. موبق: مهلك. خفوف: إسراع. الرؤوف: الكثير الرفق والرحمة.

[الاعتراف بالذنب والطمع في رحمة الله]

قال ابن رشيق في معنى هذا الخروج بعد تَعْديد ذنوبه: [البسيط]

إذا أتـى الله يـوم الـحـشـر فـي ظُـلـلٍ ... وجـيء بـالأمـم الـمـاضـيـن والـرسـلِ

وحـاسـب الـخـلـق مَـنْ أحـصـى بـقـدرتـه ... أنـفـاسـهـم وتـوفّـاهـم إلـى أجـلِ

ولم أجد في كتابي غير سيئة تسوءني وعسى الإسلام يسلمُ لي
رجوتُ رحمة ربيّ وهي واسعة ورحمة الله أرجى لي من العملِ

ولابن لنكك: [الوافر]

إذا خفق اللواء عليّ يوماً وقد أخذ امرؤ القيس اللواءَ
رجوت الله لا أرجو سواهُ لعلّ الله يرحم من أساءَ

وقال ابن الزّقاق: [المجتث]

يا عالم السرّ مني اصفحْ بفضلِك عنّي
منّيت نفسي بعفو مولايَ منك ومنّي
وكانَ ظني جميلاً فكن إذاً عندَ ظنّي

وقال رسول الله ﷺ حاكياً عن الله تعالى: «أنا عند ظنّ عبدي بي فليظنّ بي ما يشاء»[1].

توفي رجل على عهد رسول الله ﷺ، وكان مسرفاً على نفسه، فلما حضرته الوفاة رفع رأسه فإذا أبواه يبكيان عليه، فقال لهما: ما يبكيكما؟ قالا: نبكي لإسرافك على نفسك، قال: فلا تبكيا، فوالله ما يسرني أن الذِي بيد الله من أمري بأيديكما. فأتى جبريل عليه السلام النبيّ ﷺ فأخبره أن فتى توفِّيَ اليوم، فأشهده فإنه من أهل الجنة، فاستكشف رسول الله ﷺ أبويه عن عمله، فقالا: ما علمنا عنده شيئاً من خير إلا أنه قال عند الموت كذا.

قال: من ها هنا أتي حُسنُ الظنّ بالله من أفضل العمل عنده[2].

وعن أنس رضي الله عنه قال النبي ﷺ: «لا يموتَنّ أحدكم حتى يُحسن ظنه بالله تعالى، فإن حسنّ الظنّ ثمن الجنة»[3].

أبو هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ أنه قال: «حسن الظنّ مِنْ حسن العبادة»[4].

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد باب ١٥، ٣٥، ومسلم في التوبة حديث ١، والذكر حديث ٢، ١٩، والترمذي في الزهد باب ٥١، والدعوات باب ١٣١، وابن ماجه في الأدب باب ٥٨، والدارمي في الرقاق باب ٢٢، وأحمد في المسند ٢/ ٢٥١، ٣١٥، ٣٩١، ٤١٣، ٤٤٥، ٤٨٠، ٤٨٢، ٥١٦، ٥١٧، ٥٢٤، ٥٣٩، ٣/ ٢١٠، ٢٧٧، ٤٩١، ٤/ ١٠٦.

(٢) أخرجه بنحوه أبو داود في الجنائز باب ١٣، والأدب باب ٨١، والدارمي في الرقاق باب ٢٢.

(٣) أخرجه مسلم في الجنة حديث ٨١، ٨٢، وأبو داود في الجنائز باب ١٣، وابن ماجه في الزهد باب ١٤، وأحمد في المسند ٣/ ٢٩٣، ٣١٥، ٣٢٥، ٣٣٠، ٣٣٤، ٣٩٠.

(٤) أخرجه أبو داود في الأدب باب ١٨، والترمذي في الدعوات باب ١١٥، وأحمد في المسند ٢/ ٢٩٧، ٣٠٤، ٣٥٩، ٤٠٧، ٤٩١.

وكان محمد بن نافع الواعظ صديقاً لأبي نواس، قال: فلما بلغني موتُه أشفقت عليه، فرأيته في النوم، فقلت: أبا نواس، فقال: لاتَ حين كِناية! قلت: الحسن، قال: نعم، قلت: ما فعل الله بك؟ قال: غفر الله لي، قلت: بأيّ شيء؟ قال: بتوبة تبتها قبل موتي، بأبيات قلتها، قلت: أين هي؟ قال. عند أهلي. فسرت إلى أمّه، فلما رأتني أجهشت بالبكاء، فقلت: إني رأيت كذا، فكأنها سَكَنَتْ، وأخرَجت إليّ كتباً مقطعة، فوجدت بخطه كأنه قريب: **[الكامل]**

يا ربّ إن عظمت ذنوبي كثرةً ... فلقد علمت بأنّ عفوك أعظمُ

إن كان لا يرجوك إلا محسن ... فمن الّذي يدعو ويرجو المجرمُ

أدعوك ربّ كما أمَرت تضرّعاً ... فإذا رددتَ يدي، فمن ذا يَرْحَمُ!

ما لي إليك وسيلة إلا الرجا ... وجميل ظنّي، ثم إني مسلمُ

وإنما قال: «لات حين كناية» لأنّ العرب لا تكني الميت إنما تدعوه باسمه، قال الراجز: **[الرجز]**

وقام نسوة بجنب حُفْرَتِي ... بنات أختي وبنات إخوتي

* يدعون باسمي وتناسوا كنيتي *

وقال آخر: **[الطويل]**

فقد جعلتْ تُدْعَى كلاب بن جعفرٍ ... بأسمائها لأبا لكنى لا تُجِيبُها

* * *

قال: فلمّا انتَهى إلى هذَا البيتِ لَجَّ في الاسْتِعبَار، وألَظَّ بالاستغفارِ، حتَّى اسْتَمَالَ هَوَى قلبي المنحرف، وَرَجَوْت لَهُ ما يُرْجى للمقترِف المعترِف. ثمّ إنَّهُ غَيَّض دمعَه المُنهلّ، وتأبّطَ جِرابَهُ وانسَلّ، وقال لابنهِ: احتملِ الباقِي، واللّهُ الواقِي.

قال المخبر بهذه الحكاية: فلمّا رأيتُ انْسِيابَ الحيّةِ والحُيَيَّة، وانتهاءَ الدّاءِ إلى الْكَيّة، عَلِمت أَن تَرَيّثِي بالخان، مجلبة للهوانِ، فضممتُ رُحَيْلِي، وجمعتُ للرِّحْلةِ ذَيْلي، وبت ليلتِي أسرِي إلى الطِّيب، وأحتسِبُ اللَّهَ عَلَى الخطيب.

* * *

قوله: لجّ في الاستعبار، أي أكثر في البكاء. ألظّ: ألحّ، وألظّ به: دار عليه. استمال: استعطف وأماله إليه. المنحرف: المائل عنه. المقترف: المكتسب الإثم، ويقال: قرَف فلان فلاناً، إذا ألصق به عيباً وكسبه ذنباً، واقترف فلان ذنباً، أي اكتسبه وألصقه بنفسه. المقترف: المقرّ بذنبه.

أبو هريرة رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: «إن لله عزّ وجلّ ملائكة يترحمّون على المقرّين على أنفسهم بالذّنوب».

وروى أبو ذرّ عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه: «ابن آدم إنك إن يبلغ ذنبك عنان السماء، ثم تستغفرني أغفر لك ولا أبالي»[(١)]. غيّض: جفّف وغيّب، من غِيض الماء إذا انتقص وجفّ. المنهلّ: السائل. تأبط: أي جعله تحت إبطه. انسلّ: خرج مخفياً نفسه متحرزاً أن يراه أحد. انسياب: مشي لا يحسُّ به. الحيّة: يعني الشيخ، وسماه حية لإذايته أهل الخان بالبنج: فجعله كسم الحية فيمن ألقته، ويقال أيضاً في تصغير الحية حُوّية، وأصلها الواو لأنها من تحوّت أي تلوّتْ، وقيل: هي من الحياة لطول عمرها. انتهاء الداء إلى الكيّة: مثل يضرب لانتهاء الداء إلى أقصاه، تقول العرب: آخر الطبّ الكي، تريد أنّ المريض يعالج بكلّ دواء فلا يوافقه فإذا عولج بالكي لم يبق بعده دواء، وإلا فهو الموت، فيريد أنه إن أقام بعدهما انتهى إلى هوان وعذاب. وتريُّثي: تثبطي، وتريّث بالمكان: أطال الجلوس فيه، مجلبة، أي سبب جلبه وسوقه رُحيَلَه: يريد متاعه وصغّره لفقره وقلّة ما عنده، ورحل الإنسان ماله ومتاعه في السفر، أسري: أمشي بالليل. الطيّب: قرية بالعراق بمقبرة واسط بينها وبين البطيحة المتقدمة، وسميت الطّيب لطيب هوائها وخصبها.

احتسب: أدعو وأقول: حسيبه الله، ومجازيه على قبيح أفعاله، والاحتساب طلب الأجر، فمعنى أحتسب الله على الخطيب، طلب إلى الله تعالى الثواب بإنكاري على الخطيب، والله تعالى ربِّيَ عليه توكلت وإليه أنيب.

(١) أخرجه بنحوه الترمذي في القيامة باب ٤٨.

المقامة الثلاثون

وهي الصُّوريّة

حَكَى الحارث بن همّام، قال: ارتحلت من مدينة المنصور، إلى بلدة صور؛ فلّما حَصلْتُ بها ذا رفْعةٍ وخفض، ومالكَ رفعٍ وخفض؛ تقتُ إلى مِصْر توقَانَ السقيم إلى الأساة، والكريم إلى المواساة؛ فرفضت عَلائق الاستقامة، ونفضت علائق الإقامة، واعْرَوريت ظهر ابن النّعامة، وأجفلت نحوها إجفال النّعامة. فلّما دخلتُها بَعْدَ معاناة الأيُن، ومداناة الحَيْن، كَلَفَ بها كَلَفت النَّشوان بالاصْطِبَاح، والحيران بتنفُّس الصَّباح.

* * *

[أبو جعفر المنصور]

قوله: مدينة المنصور، هي بغداد، والمنصور هو أمير المؤمنين أبو جعفر بن محمد ابن عليّ بن عبدالله بن عباس، استخلف بعد أخيه السفاح، وبويع له يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلتْ من ذي الحجة سنة ثلاث وثلاثين ومائة. وهو ابنُ إحدى وأربعين سنة وعشرة أشهر، وكان حاجًا وقت وفاة السفاح، فَعَقد له البيعة عمُّه موسى بن عليّ بن عبد الله بالأنبار، وورد الخبر على المنصور في أربعة عشر يوماً.

وقد بشّر به النبي ﷺ، ونظر إلى عمه العباس، فقال: هذا عمي أبو الخلفاء الأربعين أجود قريش كفّاً، ومن ولده السّفاح والمنصور والمهدي.

وقال المنصور: رأيتُ في المنام كأني في المسجد الحرام، فنودي: أين عبد الله؟ فقمت أنا عبد الله بن يحيى نستبق، حتى وصلنا إلى الدرجة العليا، فجلس هو وأخذ بيدي، فأصعدت، وأدخلت الكعبة، فإذا رسول الله ﷺ جالس ومعه أبو بكر وعمر وبلال. قال. فأقعدني وأوصاني بأمّته، عممني، فكان كورُها ثلاثاً وعشرين كوراً، وقال: خذها إليك أبا الخلفاء إلى يوم القيامة.

وقال المنصور: الخليفة لا يصلحه إلا التقوى، والسلطان لا يُصْلِحه إلا الطاعة، والرعيّة لا يصلحها إلاّ العدل، وأولى الناس بالعفو أقدرُهم على العقوبة، وأنقصُ الناس عقلاً مَنْ ظَلَم مَنْ هو دونه.

وولد المنصور في سنة خمس وتسعين في اليوم الذي مات فيه الحجاج، ومات بمكة ببئر ميمون لستٍّ خَلَوْن من ذي الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة.

* * *

[مدينة صور]

صور: مدينة بالشأم، بينها وبين دمشق ثلاثون فرسخاً.

وقال شيخنا ابن جبير: مدينة صور يضرب بها المثل في الحصانة، لا تُلقي لطالبها بيد طاعة ولا استكانة، قد أعدّها الإفرنج مفزعاً لحادثة زمانهم، وجعلوها مثابة لأمانهم. وحصانتها ومناعتها أعجب ما يحدّث به، وذلك أنّها راجعة إلى بابين، أحدهما في البر والثاني في البحر، والبحر يحيط بها إلا من جهة واحدة، فالبري يفضي إليها بعد ولوج ثلاث أبواب أو أربعة، كلها في ستائر مشيدة محيطة بالباب، والبحريّ يُدخل إليه بين بُرْجَيْن مشيّدين إلى مرسى له، ليس في البلاد أعجب منه وصفاً، يحيط به سور المدينة من ثلاثة جوانب، ويحدق به من جانب آخر جدار معقود بالجصّ، والسفن تدخل تحت السّور وترسي فيه، ويعترض من البُرْجين المذكورين سلسلة عظيمة معقودة تمنع عند اعتراضها الداخلَ والخَارج، ولا مجال للمراكب إلا عند إزالتها، وعلى الباب حرّاس، لا يدخل الداخل ولا يخرج إلا على أعينهم، فشأن هذا المرسَى شأنٌ عظيم، وعند الباب البرّي عين معينة، تنحدر إليها على أدراج، والآبار والجباب بها كثيرة، لا تخلو دار منها، ولا بساتين بها إنما تُجلَب لها الفواكه من أقطارها التي بالقرب منها.

ولها أعملة متصلة، والجبال بالقرب منها معمورة بالضياع، ومنها تجيء الثمرات إليها، وللمسلمين الباقين بها مسجدان.

وأعلمني أحد أشياخنا أنها أخذت من أيديهم سنة ثمان عشرة وخمسمائة بعد محاصرة طويلة، وبها كانت دار الصنعة ومنها تخرج مراكب المسلمين للغزو.

* * *

قوله: ذا رفعة، أي عزّة ومكانة، خفض: طيب عيش، ومعنى مالك رفع وخفض، أي صاحب أحمال ترفع على الإبل في السفر وتحطّ عنها للنزول، ويريد أنه ذو قدرة وتمكّن يخفض ويرفع من أراد، قوله: تُقْت، أي اشتقت.

[مصر]

مصر: قال الهمذاني: سميت بمصر بن هرمس بن هروس جدّ الإسكندر.

وقال أهل اللغة: المصر الحدّ فسمّيت مصر لأنها حد بين المشرق والمغرب. ابن دريد كل بلد عظيم مصر، نحو البصرة والكوفة.

طول مصر من الشّجرتين اللتين بين أمج والعريش إلى أسوان، وعرضها من برقة

إلى أيلة، فهي مسيرة أربعين ليلة. وافتتحت كلها في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، على يَدَي عمرو بن العاص بن وائل السهميّ.

ولما افتتحت مصر، أتى أهلها إلى عمرو، فقالوا له: أيها الأمير، إن لنيلنا هذا سنّة لا يجري إلا بها، فقال لهم: ما ذاك؟ فقالوا له: إذا كان اثنتا عشرة ليلة تخلو من بئونه من أشهر العجم، عمدنا إلى جارية بكر بين أبويها فأرضينا أبويها، وحملنا عليها من الحلي والحلل أفضل ما يكون، ثم ألقيناها في النيل. فقال لهم عمرو: إن هذا لا يكون في الإسلام، وإن الإسلام يهدم ما قبله. فأقاموا بؤنة وأبيب ومسرى ـ وهي أسماء ثلاثة أشهر للقبط ـ لا يجري النيل فيها لا قليلاً ولا كثيراً، حتى همّوا بالجلاء منها. فلما رأى ذلك عمرو بن العاص كتب بذلك إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه. فكتب عمر بطاقة، وكتب إلى عمرو: إني بعثت إليك بطاقة فألقها في النيل. فأخذ عمرو البطاقة فإذا فيها: من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل مصر، أمّا بعد، فإن كنت إنما تجري من قِبَلك فلا تجرِ، وإن كان الله الواحد القهار، هو الذي يجريك، فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك. فألقى البطاقة في النيل قبل يوم الصليب بيوم وقد تهيّأ أهلُ مصر للجلاء، فلّما ألقى البطاقة في النيل أصبحوا يوم الصليب. وقد أجراه الله تعالى ستة عشر ذراعاً في ليلة واحدة، فقطع الله تعالى تلك السنة السوء من أهل مصر.

قال ابن جبير: ومدينة مصر كبيرة عامرة، مختلفة الأسواق من المدن التي سارت بأوصافها الرّفاق، وهي على شط النيل، وعلى النيل في مقابلتها قرية كبيرة الشأن، كثيرة البنيان، تعرف بالجيزة، وتعترض بينهما جزيرة فيها مساكن حسان وعلاليّ مشرفة، وهي مجتمع لهو أهل مصر ومنتزَّههم، وبينها وبين مصر خليج يذهب بطولها نحو الميل، ولا مخرج له. وبالجزيرة جامع يُخَطب فيه.

[مقياس النيل]

ويتصل بهذا الجامع المقياس الذي يعتبر فيه قدر زيادة فيض النيل كل سنة، وابتداؤه من شهر بئونة، ومعظم انتهائه أغشت وآخرها أول أكتوبر.

والمقياس: عمود رخام سُمّر في موضع ينحصر فيه الماء عند انتهائه إليه، وهو مفصَّل على اثنتين وعشرين ذراعاً، وكل ذراع مفصلة على أربعة وعشرين قسماً أقساماً متساوية تعرف بالأصابع، فإذا استوى الماء تسع عشرة ذراعاً في الفيض، فهي الغاية عندهم في طيب العام، وربما كان الماء فيها كثيراً لعموم الفيض، والمتوسط ما استوى سبع عشرة ذراعاً وهو أحسن ممّا زاد عليه.

والذي يستحق به السلطان خراجه ست عشرة ذراعاً فصاعداً، وعليها تُعْطَى البشارة للذي يراقب الزيادة في كلّ يوم، ويعلم بها مياومة، وإن قصر عن ست عشرة فلا يجيء

لذلك السلطان في ذلك العام، ولا خراج إلا ما يعوّل عليه، وبقرية الجيزة يوم الأحد سوق عظيمة يتحدث بها.

[الأهرام]

وعلى نحو سبعة أميال في الصحراء التي يفضى منها إلى الإسكندرية، الأهرامُ القديمة، المعجزة البناء الغريبة المنظر، المربّعة الشكل، كأنها القباب المضروبة قد قامت في جو السماء، لا سيما الاثنان منها في سعة الواحد منهما من ركنه إلى ركنه ثلثمائة خطوة، وست وستون خطوة محدّدة الأطراف في رأي العين، وربما أمكن الصعود إليها على خطر ومشقة، فتلفى أطرافها المحددة كأوسع ما يكون من الرحاب، قد أقيمت من الصخور العظام المنحوتة ورُكِّبت تركيباً بديع الإلصاق، يكاد يُعجز أهلَ الأرض نقض بنيانها.

[بعض معالم مصر]

وبمصر أيضاً المسجد المنسوب إلى عمرو بن العاص، وبها الجبّانة المعروفة بالقرافة، وهي من عجائب الدنيا، لما تحتوي عليه من مشاهد الأنبياء، وأهل البيت والصالحين والعلماء وذوي الكرامات من أهل الزّهد.

وبها قبر آسية امرأة فرعون، وبها مساجد معمورة بالليل والنهار، يَبِيت بها الصالحون.

وبها قبر الشافعيّ محمد بن إدريس الإمام رضي الله عنه، وهو من المشاهد العظيمة احتفالاً واتساعاً.

والمشهد العظيم الشأن الذي بالقاهرة، حيث رأسُ سيدنا الحسين بن عليّ رضي الله عنهما، هو في تابوت من فِضّة مدفون، قد بُني عليه بنيان يقصر الوصف عنه، مجلّل بأنواع الدّيباج، محفوفٌ بأمثال العمد الكبار، شمعاً أبيض أكثرها موضوع في أتوار الفضة، وحُفَّ أعلاه كلُّه بأمثال التفافيح ذهباً في مصنع شبه الروضة، يبهر الأبصار حسناً وجمالاً، وفيه من أنواع الرّخام المجزّع الغريب الصنعة، البديع، الترصيع، ما لا يتخيله المتخيلون، والمدخل إليها على مسجد على مثالها في التأنق، حيطانه كلُّها رخام، وأغرب ما فيه حجر موضوع في الجدار الذي يستقبله الداخل، شديد السواد والبصيص يصف الأشخاص كلها كأنه المرآة الهندية، ولتزاحم الناس على القبر انكبابهم عليه وتمسّحهم به وبالكسوة التي عليه مرأى هائل.

وأخبار مصر كثيرة فلنقتصر على هذه النبذة.

* * *

الأساة: الأطباء، المواساة: أن يجعلك أسوة نفسه في ماله فيقاسمك فيه. رفضت:

تركت. علائق: أسباب تتعلق به فتحبسه. نفضت: أزلت واطّرحت، ونفضت ثوبي من الغبار: أزلته عنه. عوائق: موانع. وهي ما يصرف الإنسان عن وجهه الذي يمرّ فيه ويريده، اعروريت: ركبته عريا.

ابن النعامة: الطريق، وقيل صدر القدم قال عنترة: [الكامل]

وابـنُ الـنـعـامـة عـنـد ذلـكَ مَـرْكَـبِـي[1]

وقيل: ابن النعامة الساق، وقيل: عِرق في الرِّجل وقيل الفرس الفارة. أجفلت: أسرعت. النعامة: واحدة النعام. معاناة: مقاساة. الأيْن: الفتور من التّعب مداناة الحيْن: مقاربة الهلاك. كلِفت بها، أي أحببتها وولعت بها. النّشوان: السكران، يريد أنه فرح فرحَ السكران، إذا أصبح للشراب، وهو الاصطباح والمهموم بالليل إذا طلع ضوء النهار انجلى همه، فجعل بياض الفجر. تنفّس أي انتشر في الظلام.

فبينما أنا يوماً بها أطُوف، وتحْتِي فَرسٌ قَطُوف؛ إذْ رأيت على جُرْدٍ من الخيل، عُصْبَةً كَمَصَابيح اللّيل؛ فَسَألتُ لانْتِجاع النّزهة، عن الْعُصْبِة والوِجهة؛ فقيلَ: أمّا القومُ فشهود، وأما المقصِدُ فإملاكٌ مَشهود؛ فحدَتْنِي مَيْعَهُ النَّشَاط، على أنْ سِرْتُ مع الْفُرّاط؛ لأفوز بحلاوَةِ اللُّقاطِ، وأحُوزَ حَلْواءَ السِّمَاط: فأفْضَيْنَا بَعْدَ مُكابَدَةِ الْعَناء، إلى دارِ رفيعةِ البِناء، وسِيعةِ الفِناء، تشهدُ لبَانيها بالثراء والسَّناء. فلمَّا نزلنا عَنْ صَهواتِ الخيُول، وقَدَّمْنا الأقْدَام لِلدّخول، رأيتُ دِهْليزَها مُجللاً بأطمارِ مخرَّقة، ومُكَلَّلاً بمخارِفَ مُعَلَّقة، وَهُنَاكَ شخصٌ عَلَى قطيفة، فوق دَكّةٍ لَطِيفة.

* * *

قَطوف: متقارب الخطو، كأنه يقطف خطوه، أي يقطعه. جُرْد: مُلْس، والأجْرَد: القصير الشعر. عُصْبة: جماعة. مصابيح: سُرُج، ويريد بها النجوم. قوله: الوجهة كالجهة، وهو كلّ موضع استقبلتَه وقصدْتَه وتوجّهتَ إليه. إملاك: نكاح، وأمْلَك الرجُل إملاكاً: تزوج، وأملكه غيرُه: زوّجه. وشهدنا إملاكه، أي عرسه.

---

(١) صدره:

فـيـكـون مـركـبـك الـقـعـود ورحـلـه

والبيت لعنترة بن شداد في ديوانه ص ٢٧٤، والمخصص ١٣/ ٢٠٦، وجمهرة اللغة ص ٩٥٣، ولخزز بن لوذان السدوسي في لسان العرب (نعم)، ولعنترة أو لخزز بن لوذان في تاج العروس (نعم)، ولسان العرب (عتق)، وبلا نسبة في مقاييس اللغة ١/ ٣٠٥، ٥/ ٤٤٦، ومجمل اللغة ٤/ ٤١٥، والمخصص ٢/ ٥٧، ١٢/ ٤٢، وكتاب العين ٢/ ١٦٢.

ابن عمر رضي الله عنهما، قال النبي ﷺ: «مَنْ شَهِد إملاك امرىءٍ مسلم، فكأنما صام يوماً في سبيل الله واليوم بسبعمائة»[١] مشهود: أي محضور. حدَثْني. ساقَتْني. مَيْعة: حدّة ونشاط، والميعة أوّل الشباب، وأوّل جَرْي الفرس، وميعة كلّ شيء معظمه. والفرّاط: السبّاق المتقدّمون، الواحد فارط. اللُّقاط: ما يلتقَط من العرس مما ينثر فيه للحاضرين، نحو الكعك والخَبيص، وما يُنثَر فيه يسمى نثراً، وكان نثار العرب في عرسهم التمر. أحُوزُ: أحصل. السّماط: السوق التي جوانبها صفّان متقابلان، والسماط أيضاً أن يصطفّ العسكر صفّين متقابلين، والسماط في الطعام: أن تلصق مائدة بأخرى، ويجلس الناس عليها صفين متَقابليْن، والسماط الصفّ منه، ومنه سِمْط الجوهر، ومنه الشِّعر المسمط، وهو الذي أبياته مفصلة على أجزاء متقابلة، وقد نبّهنا عليه في الحادية عشرة. مكابدة: مقاساة، وهي من الكبَد كأنّ الكبِد يتعب بها. والعَنَاء: التعب. رفيعة البناء، قال النبيّ ﷺ: «إذا أراد الله بعبد هوانا أنفق ماله في البناء»[٢].

قال النبي ﷺ: «مَنْ بنى بناء في غير ظلم ولا اعتداء، أو غرس غرساً في غير ظلم ولا اعتداء؛ فإن أجره جارٍ ما انتفع به أحد من خلق الرحمن»[٣].

وقال بعضُ الحكماء: إذا أيسر الرجل ابتلي بثلاثة أشياء: صديقه القديم يجفوه، وامرأته يتزوّج عليها، وداره يهدمها ويبنيها.

وعلى قوله: أما القوم فشهود، جاء فيهم حديث ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «أكْرِموا الشهود، فإنّ الله عز وجل يستخرج بهم الحقوق، ويدفع بهم الظلم».

قوله وسيعة، أي واسعة، والفِناء: الساحة، وهي ما حول الدار. الثراء: كثرة المال. السناء: الشرف والرفعة. صهوات: ظهور. دِهليز: مدخل الدار، الذي تسميه عامتنا الأسطوان، والأسطوان عند العرب: السواري، واحدها أسطوانة: وأنشد أبو موسى الحامض في نوادره وذكر الدّهليز فقال: [السريع]

أويت في الدهليز مذ أربعٍ ... ولم أكن آوي الدهاليزَا

خبزي من السوق وشعري لكمْ ... تلك لعمري قسمةٌ ضِيزَى

مجلّلاً: مغطًى. أطمار: ثياب خَلقة. مكلّلاً: محلقاً. مخارف: قفيف أو نعاليق للغرباء، يجعلون فيها ما يأخذونه من الصدقة، والمخارف عند العرب: جمع مخرف،

(١) رواه ابن الأثير الجزري في النهاية في غريب الحديث ٤/ ٣٥٩.

(٢) أخرجه بمعناه الترمذي في القيامة باب ٤٠.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٣/ ٤٣٨.

وهي قُفَيْفة تشبه الزّنبيل، يُخْتَرف فيها الرّطب، أي يُجتنى فيها. قطيفة: نوع من البسط. دَكّة: هي الدكان.

* * *

فَرَابَنِي عُنوان الصّحيفة، ومَرأى هذه البِدْعة الطّريفة، ودَعَانِي التَّطيّر بتلك المناحِس، إلى أن عمدتُ لذلك الجالس؛ فعزمت عَلَيْه بمصرّف الأَقْدار، ليعرّفَني مَنْ ربُّ هذه الدار، فقال: لَيْس لَهَا مالِكٌ مُعَيَّن، ولا صاحبٌ مُبيّن، إنما هِي مِصْطَبة المقيّفين والمدَرْوِزين، ووليجةُ المُشقْشِقين والمُجَلْوِزِينَ. فقلت في نفسي: إنا لِلّهِ على ضَلّةِ الْمَسْعَى، وإمْحَالِ المرْعَى؛ وهَمَمْتُ في الحالِ بالرُّجْعَى، لَكنّي اسْتَهْجَنْتُ الْعَوْدَ من فَوْرِي، والقَهْقَرَةَ دونَ غيري، فولَجْتُ الدّار مُتجرّعاً الْغُصَص، كما يَلجُ العصفورُ الْقَفَص، فإذا فيها أرائك مَنْقُوشة، وَطنَافِسُ مَفْرُوشَة، ونَمارِقُ مَصْفوفة، وسُجوفٌ مَرْصوفَة، وقد أقبلَ المُملِكُ يمِيسُ في بُرْدتِهِ، وَيَتَبَهْنَسُ بَيْنَ حَفدَتِهِ، فحِين جَلَسَ كأنَّهُ ابنُ ماءِ السَّمَاء، نادَى منادٍ من قِبَلِ الأحماء: وحُرْمةِ سَاسَان، أستاذِ الأَسْتَاذِين، وقُدْوة الشحّاذين، لا عَقَدَ هَذَا الْعَقْد المُبجَّل، في هَذَا اليوم الأغَرِّ المحجّل، إلاّ الذي جال وجَابَ، وشبَّ في الكُدْيةِ وشاب.

* * *

رابني: شككني وخوّفني. عُنوان: دليل. الصحيفة: الكتاب، أَراد تطيّرت بتلك المخارف، وأراد أنها دار خيبة وحرمان. وكان ابن همام في هذه القصة طفيليًا على ما وصف به نفسَه من الرفاهية، وربما يتولّع أهل الظرف والأدب بمثل هذا، فقد حكينا عن إبراهيم بن المهديّ وإسحاق الموصليّ مثلَ هذا في أخبار الطفيليين على منادمتهما للخلفاء وكثرة أموالهما.

البدعة: الشيء المبدع الذي لم يفعل قبله مثله. والطريفة: الغريبة المستظرفة. التطيّر: التشاؤم. المناحس: جمع منحوس وهو الذي لا يفارقه النحس، وأراد به المخارق والأطمار التي قدم. مصرّف الأقدار: هو الله تعالى. ربّ الدار: مالكها أو الناظر في إصلاحها ما ذكره ممّا لا يفهم له معنى فهو بسطة المكدين. وقيل المقيفون جمع مُقيف، وهو الذي يقفو آثار الناس، أي يتبعهم يطلب لهم شيئاً، ويدعو لهم. والمدروزين: المكدين، ودروزة كلمة أعجمية معناها الكُدْية. والمُشَقْشِق: الذي يحاكي أصوات الطيور فتجتمع إليه فيصطادها. والمجلوز والجلواز: الشُرطيّ الذي يتصرّف حول السلطان.

قوله: وليجة، أي مدخل، والوليجة: الموضع الذي يلج الإنسان فيه، أي يدخله

أو كهف يستتر فيه. القهقرة: الرجوع إلى خلف. ضَلّة: ضلاله. المسعى: المشي بعجلة، أراد أنّ مشيه كان لغير فائدة. إمحال: يبوسة وجفوف. فَوْرِي: حَيْني من قبْل أن أسكن. الغُصَص: جمعُ غصّة، وهي ما يختنق بها، وتجرّعها صعب. أرائك. سُرُر مزيّنة. طنافس: بُسُط. ونمارق: مخادّ. سجوف: سُتُور. مرصوفة: مضمومة ملتصقة، وجعل البيت بهذه الأمتعة الكثيرة لأنه بيت عرس، فهي تستعدّ له، وإن كان قد رأى في دهليزه مرقّعات تدلّ على فقر، فإن الغرباء في البلاد يعلّقون مُرَقّعاتهم في دهليز الفندق، وبيته في غاية الرفاهية، والدار المذكورة، إنما كانت فُندقاً للفقراء الغرباء والمُكْدِين. والجالس في دهاليزها: خادم الفُندق، وحين سأله عنها أخبره أنها ليس لها ربٌّ معيّن، إنما هي دار المكدِين والمحارَفين. وقيل لأحد المكدين: أتبيع مرقّعتك؟ فقال: هل رأيتَ صائداً يبيع شبكته!

المُمْلِك: العروس. يميس: يتبختر ويتبهنس، مثله في المعنى. حَفَدته: خدمه وأتباعه. ويقال: حَفد العبد يحفِد حفداً، إذا خدم. وفي الدعاء: «وإليك نسعى ونحفِد»، أي نخدمك ونعمل لك، وقال الشاعر: **[الكامل]**

حَفَدَ الولائدُ بينهنّ وأسلمتْ بأكفّهنّ أزمّةَ الأجمالِ[1]

أبو عبيدة، يقال: حفد يحفِد، وأحفد يُحفد، وفسّر طاوس قوله تعالى: **﴿بنينَ وحَفَدَة﴾** [النحل: ٧٢]، أي خدماً، فهو مطابق للغة، وفسّره ابن مسعود رضي الله عنه بالأختان، وهو مطابق لما في المقامة، لأن المكدين لا خدم لهم. وقال الفراء رحمه الله: الحفَدة: جمع حافد، ككامل وكَمَلة.

[المنذر ابن ماء السماء]

ابن السماء، الجوهريّ: ماء السماء لقب عامر بن حارثة الأزدي أبو عمرو مزّيقياء، الذي خرج من اليمن لما أحسّ بسيل العَرِم، وسُمِّي ماء السماء، لأنه كان إذا أجدب قومُه مانهم، أي كفاهم مؤنتهم، حتى يأتيهم الخِصْب، فكأنه خَلَفٌ من ماء السماء. وقيل لولده: بنو ماء السماء، وهم ملوك الشأم، والعرب تُسَمّي أيضاً بني ماء السماء، لأنّهم يعيشون بماء السماء، قال الأزهريّ رحمه الله: السّماوة ماء بالبادية، وكان اسم أمّ المنذر ماءَ السماء، فسمّته العرب ابنَ ماء السماء.

وهو المنذر بن امرىء القيس بن عمرو بن عديّ، وأمه ماء السماء، وهي امرأة من النَّمِر بن قاسط، سُمّيت بذلك لجمالها. ولما ملك كسرى الذي اسمه قباذ بن فيروز، خرج في أيامه رجل يقال له مَزْدك، فدعا الناس إلى الزندقة وإباحة الحرم، وألاّ يمنع أحدٌ

---

(١) البيت للفرزدق في زيادات الطبعة الأولى من جمهرة اللغة ص ٥٠٤، الهامش، وليس في ديوانه، ولجميل بثينة في ملحق ديوانه ص ٢٤٦، وبلا نسبة في لسان العرب (حفد)، وكتاب العين ٣/ ١٨٥.

أخاه ما يريده. فدعا قباذ المنذرَ ليدخل في هذا المذهب، فأنِف، وأبى المنذر هذا الفعل الخسيس، فطرده قباذ من مملكته، ونفاه عن الحيرة. ودعا الحارثَ بن عمرو بن حُجْر آكل المرار، فأجابه. وكان الحارث شديد الملك، فشدّد له ملكه، وكانت أَم أنوشروان بين يدي قباذ يوماً، فدخل عليه مَزْدك، فلما رآها قال لقُباذ: ادفعها إليّ لأقضي حاجتي منها. قال له قباذ. دونَكَها، فوثب إليه أنوشروان، فلم يزل يسأله أن يهب له أُمَّه حتى قبَّل رجليه، فتركها له. فلما هلك قُباذ: وتولَّى أنوشروان، وجلس في مجلسه أقبل المنذر إليه، وأذِن للناس، فدخل عليه مَزْدك، ودخل عليه المنذر، فقال أنوشروان: كنت أتمنَّى أمنيّتين، أرجو أن يكون الله تعالى قد جَمَعهما لي، فقال مزدك: وما هما أيها الملك؟ قال: تمنّيت أن أملك فأستعمل هذا الرجل الشريف ـ يعني المنذر ـ وأن أقتل هؤلاء الزنادقة، فقال له مَزْدك: أو تستطيع أن تقتل الناس كلّهم؟ فقال: إنك لها هنا يا بن الزانية! والله ما ذهب نتن ريح جَوْربك من أنفي، مذ قبّلت رجليك إلى يومي هذا، وأمر به، فقتل وصُلِب. وقتل في ضحوة واحدة من الزنادقة مائة ألف، وصلَبهم، وطلب الحارث، فخرج هارباً بجميع ما معه، وأخذ المنذر في طلبهم، فأخذ من بني آكل المرار ثمانية وأربعين رجلاً، فضرب رقابهم وألحّ في طلب امرىء القيس، فلحق بالسموأل.

وتمام القصة في الثالثة والعشرين.

* * *

قوله: الأحماء، أي الأختان. ساسان: شيخ المكدين، قال الفنجديهيّ: ساسان هو أستاذ المكدِين ومقدّمهم، وواضع طرائقهم ومعلّمهم. قال أبو الفتح إسماعيل بن الفضل ابن الإخشيد السراج المكدِي في كتابه: حدثنا أبو بكر البطايرني المكدِي، حدّثنا محمد ابن علي بن أحمد الفقيه المكدِي، حدثنا مليك بن صالح المكدِي، قال: سمعت طرارة المكدي، قال: قال ساسان: ألا أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى؟ قلت: بلى، قال: هي الكدية.

وقوله: أستاذ الأستاذين، حدّث أحمد بن الحسن، قال: كنت عند أبي الحسن بن أبي الفضل، فدخل رجل فذكر أنه شاعر، فقال: الشعراء ثلاثة: شاعر وشُعرور وشعرة، فأما الشاعر فالمفلق، والشّعرور المستملح، والشعرة المستثقَل لرداءة شِعره. والأستاذون ثلاثة: أستاذ في الدين كالعلماء والفضلاء، وأستاذ في الدنيا كالوزراء والعمال والولاة، وأستاذ لا دين عنده يتعلّم منه ولا دنيا ينتفع بها، كالحجام، يسمى أستاذاً والبنّاء والملاح، وبنو ساسان: ملوك الفرس.

قُدْوة: مقدّم. الشحاذين: المكدين والشّحّاذ: الملحّ في المسألة، وشحذت السيف بالغَت في صقالته. المبجّل: المعظّم، يقال: بجّلته تبجيلاً، أي عظمته تعظيماً، مأخوذ من البجيل والبَجال، وهو الرجل الضخم، وفي الحديث: «أصبتم خيراً تجبيلاً»، أي كثيراً

ضخماً. الأغرّ: المشهور لحسنه. المحجّل: الأبيض. شب: ترعرع ونشأ.

فأعجبَ رهْطَ الصّهْرِ ما أشارُوا إليه، وأذِنُوا في إحْضَارِ المنصوصِ عليه، فَبَرزَ حينئذ شيخٌ قدْ أمالَ المَلوانِ قامَتَه، ونوّر الفَتَيان ثَغامَتَه، فتباشرتِ الجماعَةُ بإقبالِهِ، وتبادَرَتْ إلى استقبالِه، فلمّا جَلَس على زُرْبِيّته، وسكنتِ الضوضاءُ لهَيْبتِهِ، ازْدَلَف إلى مَسْنَدِه، وَمَسَحَ سَبَلَتَهُ بيده، ثم قال: الحمد للهِ المبتدِىء بالإفْضَال، المبتدِع للنَّوال، المتقرَّبِ إليه بالسؤال، المؤمَّل لتحقيق الآمال، الّذي شَرَع الزّكاةَ في الأموال، وزَجَر عن نَهْر السّؤّال، ونَدَبَ إلى مواساة المضطر، وأَمَرَ بإطْعَامِ الْقَانع والمُعترّ، ووصفَ عباده المقرّبين، في كتابه المبين، فقال وهو أصدق القائلين: ﴿**والّذين في أموالهم حقٌّ مَعْلومٌ للسّائِلِ والمحرُومِ**﴾ [الذاريات: ١٩].

أحْمَدهُ عَلَى ما رزقَ من طُعْمَةٍ هَنِيَّة، وأَعُوذُ بِهِ من اسْتِمَاعِ دعْوَةٍ بلا نيّة. وأشْهَدُ ألاّ إلهَ إلاّ اللّهُ وحده لا شريكَ له، إلهاً يَجْزِي المتصدّقين والمُتَصدّقات، ويمحَقُ الرِّبا وَيُرْبي الصدقات...

* * *

المَلَوان والفتيان: الليل والنهار. وثَغامته: شَعْرته. نوّرها: بَيّضها. والثَّغام: نبت أبيض، وهو ضرب من البهمَى، منابته الجبال، إذا يَبس ابيضّ بياضاً شديداً.

أبو حنيفة: تنبت الثغامة خيُوطاً طُوالاً دِقاقاً من أصل واحد، فإذا جفّت ابيضّت كلها، وإذا أمحل الثغام، كان أشدَّ بياضاً، ويشبَّه به الشيب، قال المرار الفقعسيّ: **[الكامل]**

أعلاقَةً أمّ الوليِّد بعد ما ... أفنان رأسك كالثّغام المُخْلِسِ(١)

وقال حسان رضي الله عنه: **[الكامل]**

إمّا نَرَىٰ رأسي تغيّر لونُه ... شمطاً فأصبح كالثّغام المحولِ(٢)

(١) البيت للمرار الأسدي في ديوانه ص ٤٦١، والأزهية ص ٨٩، وإصلاح المنطق ص ٤٥، وخزانة الأدب ١١/ ٢٣٢، ٢٣٤، والدرر ٣/ ١١١، وشرح شواهد المغني ٢/ ٧٢٢، والكتاب ١/ ١١٦، ٢/ ١٣٩، ولسان العرب (علق) (ثغم)، (فنن)، وتاج العروس (علق)، (ثغم)، (فنن)، (ما) وبلا نسبة في الأضداد ص ٩٧، ورصف المباني ص ٣١٤، وشرح شافية ابن الحاجب ١/ ٢٧٣، ومغني اللبيب ١/ ٣١١، والمقتضب ٢/ ٥٤، والمقرب ١/ ١٢٩، وهمع الهوامع ١/ ٢١٠.

(٢) البيت في ديوان حسان بن ثابت ص ٣١٠.

والثّغام: مرعى، وتُعْلَفه الخيل، وقال بشر وذكر الخيل: [الوافر]

فبـاتـت لـيـلـة وأديـم يـومٍ ... على البُهْمَى يَجُزّ لها الثّغاما[1]

قوله: زُرْ بيته: طِنفسته، والجمع الزّرابي، وقيل هي الوسائد، وقيل الثياب الموشاة. والضّوضاء: الأصوات. ازدلف: قَرُب. مسنده: موضع إسناده. سبَلته: لحيته، وقيل شاربه.

وهذه الخطبة التي ذكر، ليس فيها لفظ إلا وهو يتضمّن إشارة للكُدية.

قوله: المبتدِع، أي الفاعل له قبل أن يفعل. النّوال: العطاء. المؤمَّل: المرجوّ. شرع: فرض: ونَهر السؤّال، من قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ﴾ [الضحى: ١٠]، وقال ابن عمران: [الكامل]

إنّ ابـن آدم حـيـن يـلـحِـف سـائـلٌ ... يـنـقـد مـن حَـنَـقٍ عـلـيـه فـيـنـهـرُهْ

والله إن يـقـصـده عـبـد مـلـحِـفٌ ... بـسـؤالِـهِ يـدنـيـه مـنـه ويـشـكُـرهْ

فـسـلِ الإلـه ولُـذْ بـه لا تـنـسَـه ... فـالله يـذكُـر عـبـدَه إذ يـذكُـرُهْ

وقال أيضاً: [الرجز]

سـؤالـنـا دعـاؤنـا لـلـجـنَّـه ... لـهـم عـلـيـنـا بـالـقـبـول مِـنَّـه

مَنْ سـال مـنـهـم ويـك أعـطـيـنـه ... ولـو بـتـمـرة فـواسـيـنَّـهْ

أو أجـمِـلِ الـردّ لا تـنـهـرنَّـهْ ... وإن يـكـن يُـلـحـف فـاعـذرنَّـهْ

* وادْع لـه الله وصَـبِّـرَنَّـه *

قوله: نَدَب: أي دَعا وحرّض. المضطر: الشديد الحاجة. القانع: المتذلل عند السؤال. والمعترّ: المتعرّض للمعروف. والمحروم: الذي لا يسأل أحداً شيئاً وهو محتاج. طُعمة هنيّة: الكدية، لأنّ فائدتها تحصل بلا تحمّل تكلّف ولا مشقة. دعوة بلا نيّة: قولك للسائل: الله يعطيك ووسّع الله عليك ونحوه، وأنشدوا فيهم: [مجزوء الرمل]

ورجـالٌ ونـسـاءٌ ... وبـنـات وبَـنُـونـا

وإذا يـدعَـى لـهـم يـو ... مـاً تـراهـم يـغـضـبـونـا

وقال آخر: [الطويل]

ألـم تـرنـي أَبـغـضَـتْ لـيـلـى وذكـرهـا ... كـمـا أبـغـض الـمـسـكـينُ دعوةَ سائِلِهْ

لأن السائل لا يطلب من المسؤول الدعاء، إنما يطلب ما يشبع الأمعاء.

ومما يُستظرف من هذا ما حَكَى الأصمعيّ. قال: مرّ بي أعرابيٌّ سائلاً، فقلت له:

(١) البيت ليس في ديوان بشر بن أبي خازم.

كيف حالك؟ قال: أسأل الناس إلحافاً فيعطوني كُرْهاً، فلا يُؤجَرون على ما يعطوني، ولا يُبارك لِي فيما آخذ، والعمر بين ذلك فان، والأجل قريب والأمل بعيد.

سأل أعرابي رجلاً يكنى أبا عمرو عند داره، فقال: يرزقك الله، فعاد إليه يوماً آخر فقال بمثل ما قال أمسِ وتنحنح، ففلتَتْ منه ضرطة، فقال الأعرابيّ: [الرجز]

إن أبا عمرو لمكبوس الوسَطْ إذا سألناه تمطّى وضَرَطْ

* إعطاؤه: يرزقك الله فَقَطْ *

قوله: أشهد أن لا إله إلا الله، أي أعلم وأبين، ومنه: شهد الله، أي أعلم وبيّن أنه لا إله إلاّ هو، ومنه: شهد الشاهد عند الحاكم، أي بَيّن له ما عنده وأعلمه الخبر. يمحق: يزيل ويستأصل. الربا: الحرام وأصله الزيادة. ويُرْبي: يزيد ويكثر، أي يضعفها له.

* * *

وأشْهَدُ أنّ محمداً عبدُه الرّحيم، ورسُوله الكريم، ابتعثه لِيَنْسَخَ الظُّلْمَة بالضّياء، وَيَنْتَصِفَ لِلفقراءِ من الأغنياء، فرَفَقَ صلَّى الله عليه وسلّم بالمِسْكين، وخَفَض جناحَهُ لِلْمُسْتَكين، وفَرَض الحقوقَ في أموالِ المُثْرين، وبَيَّن ما يَجب لِلْمُقِلّين على المكْثِرين، صلَّى الله عليه صَلاَةً تحظيهِ بالزُّلْفة، وعَلَى أَصْفيائه أهلِ الصُّفة. أما بعد: فإن اللّهَ تعالى شرع النِّكاح لتتعفَّفُوا، وسنَّ التّناسُل لكي تتضاعفوا، فقال سبحانه: **﴿يأيُها النَّاس إنا خلقناكُم من ذَكرٍ وأُنثى وجعلناكُمْ شعوباً وقبائل لتَعَارفوا﴾** [الحجرات: ١٣] وهذا أبو الدّرّاج، ولاّج ابن خرّاج، ذو الوجه الوَقَاح، والإفْكِ الصُّراحِ، والْهَرِيرِ والصِّياح، والإبرام والإلحاح، يخطب سَلِيطَةَ أهْلِهَا، وشريطة بَعْلِها؛ قَنْبِس بنت أبي الْعَنْبس، لِمَا بَلغَه من التِحافِها بإلحافها، وإسْرافِها في إسْفافِها، وانكماشِهَا على معاشها، وانتعاشها عند هِراشها. وقد بَذَل من الصَّدَاقِ شِلاَّقاً وعُكَّازاً، وصِقَاعاً وكرَّازاً، فأنكحوه إنكاحَ مثلِه، وصِلُوا حَبْلَكُمْ بحبله، **﴿وإنْ خفتُمْ عَيْلةً فسَوْفَ يغنيكُم اللّهُ منْ فضله﴾** [الإسراء: ٢٤].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكمْ، وَأسألُه أن يكثر في المصاطب نَسْلَكُمْ، ويحرس من المعاطب شَمْلَكُمْ.

* * *

ينسخ: يزيل. المسكين: الضعيف الذليل. وخفَض جناحه: ألان جانبه، فهو مثلٌ للإشفاق والحنان، وأصله أنّ الطائر إنما يخفض جناحه على فراخه، ويُلحفها به شفقة

عليها، قال الله تعالى: ﴿واخفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤]. واستكان: خَضَع وذلّ، وهو استفعل من كان، أصله استكوْن، نقلت حركة الواو إلى الكاف، فانقلبت الفاء لتحرّكها في الحكم وانفتاح ما قبلها فهي في الأصل كاستقام وبابه، أو يكون افتعل من السكون لأن الخاضع يقلّل الكلام، وأصله استكن، فوصلت فتحة الكاف بألف كقوله: [الرجز]

* قلت وقد جرت على الْكَلْكَالِ *[1]

أراد الكلكل، وقال تعالى: ﴿فما استكانوا لربِّهم وما يتضرَّعُون﴾ [المؤمنين: ٧٦] وأنشد أبو علي: [البسيط]

* فمَا اسْتكَانَ لما لاَقَى ولا خَضَعَا

قوله: المثرين: الأغنياء. الزلفة: القربة، يُقرَّب بها إلى الله تعالى. أصفيائه: أحبابه.

الصُفّة: تشبه: القبلة، والصّفّة كالسقيفة، وكان أصحاب رسول الله ﷺ الغرباء يظعنون إليه من الجهات، وليس عندهم شيء، فيسكنون سقائف المسجد، فكان رسول الله ﷺ يحرّض الناس على الصَّدقة عليهم، وكان يجلس لهم، فيعلّمهم القرآن. وخصّهم الحريريّ بالذّكر لأنّ لهم حالة يشبهون بها المُكْدِين؛ من لباس الخُلْقان، والعيش من صدقات الناس؛ فهم يتأسَّوْن بأهل الصُفة، ويجعلونهم حجّةً على مَنْ زَجرهُم.

ومما يحسن أن ينشد في هذا المعنى قول ابن عمران: [البسيط]

السائلون عيال الله والمال لِلّـ ـه فابذله فيهم خابَ مَنْ لَؤُما
فجدْ على ثقةٍ بالله من خَلَفٍ يا ويح مَنْ كان للرحمن متّهِمَا!
واحذر من الردّ إن الله يمقته من غير عذرٍ وشؤم الشحّ قد عَلِمَا

الشعوب: جمع شَعب، وهو أكبر من القبيلة. الدرّاج، كناه بذلك لكثرة حركته. ولاّج: كثير الوُلوج على الناس للكُدية. خرّاج: كثير الخروج في طلب رزقه، والولاّج: الخرّاج الّذي يُحسن الدخول في أموره والخروج منها، ويقال: فلان ولاّج خرّاج، إذا كان متصرّفاً في أموره نفّاعاً لأوليائه، ضرّاراً لأعدائه. والإفك: سوءِ الكذب. الصُراح: الظاهر البيّن، يريد أنه إذا وصف حالته في كُدْيته لا يتكلّم إلا بالكذب. الهَرير: كثرة

---

(١) يروى الرجز بتمامه:

أقول إذْ خرّتْ على الكلكال يا ناقتا ما جُلْتِ من مجالِ

وهو بلا نسبة في الإنصاف ص ٢٥، والجنى الداني ص ١٧٨، ورصف المباني ص ١٢، وشرح الأشموني ٢/ ٤٨٥، ولسان العرب (كلل)، والمحتسب ١/ ١٦٦، وتهذيب اللغة ١٥/ ٦٦٥، وجمهرة اللغة ص ٢٢٢، وتاج العروس (كلل).

الصياح والشرّ، وهرير الكلب: صوته دون نُباحه من قلّة صبره على البرد. والإبرام: الإثقال والإضجار، يريد أنه يوالِي الصياح على من يكديهم ويثقل عليهم بالعتب على ترك الصَّدَقة حتى يفتدوا منه. والإلحاح: المداومة والإكثار من السؤال.

وقدم الحطيئة المدينة في سنة مجدبة، فمشى أشرافها بعضُهم لبعض، خوفاً من لسانه، وقالوا: قدم علينا هذا الرجل، وهو يأتي الشريف منّا، فإن أعطاه جَهَد نفسه، وإن حرمه هجاه، فجمعوا له بينهم أربعمائة دينار فأتوْه، فقالوا: هذه صلة آل فلان، وهذه صلة آل فلان، فأخذها، وظنوا أنهم قد كفوه المسألة، فإذا هو يوم الجمعة قد استقبل وهو يقول: مَنْ يحملني على بغليْن كفاه الله كيّة النار.

السَّليطة: الحديدة اللسان، وقد سلُطت فهي سَليطة. شريطة: موافقة بعلها، أي زوجها، أي جاءت على شرط زوجها، فهي مثله في خصالها كلّها. قَنْبِس: اسمها، وهو من القبَس، وهي الشعلة، كأنها لحدّتها شعلة نار تحرق ما مرّت به. عنبس: من العبوس، ونونه ونون قنبس زائدتان. التحافها: ارتدائها والتوائها فيه. إلحافها: إلحاحها في السؤال. إسفافها: تساقطها على ما تجمع من الناس، والإسفاف: التَّتبع لمداق الأمور، والإسفاف: الدخول في الأمر الدنيء، وقد أسفَّ: تعرّض للأمر الدنيء. انكماشها: انحفازها واجتهادها. انتعاشها: قيامها وارتفاعها. هراشها: مشارّتها لقرابتها، والمهارشة أصلها للكلاب، وهي أن يترافع الكلبان ويتنابحا، ويعضّ كل واحِد صاحبه، فجعل مدافعتها عند الشرّ لأقرانها ومضارتها كالهراش للكلاب، ولا تكمل عندهم نجابتها، حتى تفوق أقرانها في الشرّ والسبّ بالقبائح وضرب الكفّ على ذلك، وإلا فهي ناقصة. بذَل: أعطى. شلاّقاً: ثوب مرقع، وليس بعربيّ، وقيل هو شِبْه المِخْلاة، وقيل هو خريطة تُجعل فيها كِسَر الخبز. عُكّازاً: عصا تُقْرع بها الأبواب، وتضرب بها الكلاب. صِقَاعاً: خرقة بالية تجعلها على رأسها. كرّازاً: إناء تعلّقه في ذراعها، تجعل فيه الصدقة. وقيل: الكرّاز إناء لشرب الماء، وتسمّيه عامتنا الكرازة، فكان صداق هذه المرأة ثوباً مرقَّعاً تلبسه للكُدْية. وخرقة بالية لرأسها وعصا تَقْرع بها الأبواب، وإناء إما أن تجعل فيه ما يَدِقّ من الصدقة أو تجعل فيه ماء لشربها عند طوافها للكُدْية، والكرّاز هو الخُرْج، والكرّاز: كبش يَحْمِل عليه الراعي أداته. عَيْلة: فقرا. شملكم: عددكم. المعاطب: المهالك.

وخطَّأ أبو محمد في الدرة من يذهب من الخواصّ بالعيْلة إلى العيال، وقال: إنما العيْلة الفقر، بدليل قوله تعالى: ﴿وإنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ [التوبة: ٢٨] وتصريف الفعل منه عال يَعيل فهو عائل، والجمع عالة، وفي التنزيل العزيز: ﴿ووجَدَك عائلاً فأغْنَى﴾ [الضحى: ٨]، وفي الحديث: «لأن تَدَع ورثَتك أغنياء خيرٌ من أن تتركهم عالة يتكففون الناس». وأما الذين يعالون فيهم عيال، واحدهم عيّل كجيّد وجياد، وجمع عيال على

عيائل كركاب وركائب، وأعال فهو معِيل: كثر عياله، وعالَهم يعولهم. وفي الحديث: «ابدأ بمن تعول»، ومن كلام العرب: والله لقد عُلْتُ حتى علت أي صنت عيالي حتى افتقرت. وأما قوله تعالى: ﴿ذَلك أَدْنَى أن لا تَعُولوا﴾ [النساء: ٨] فمعناه ألاَّ تجوروا. وقال بعض العرب لحاكم حُكِم عليه بما لم يوافقه: والله لقد عُلتَ عليّ في الحكم، أي جرت، ومَنْ فسّر في الآية ﴿تعولوا﴾ أنّ معناه تكثُر عيالكم فقد وَهَم.

* * *

[عهد الصابي في التطفيل]

وإذْ فرغنا من تفسير هذه الخطبة الهزلية، وقد قدّمنا أن ابن همام في هذه المقامة طفيليّ، فنذكر هنا العهد الذي كتب الصابي بأمر معز الدولة لمحمّد بن فريعة الطفيليّ ببغداد، وقد استخلفه على التطفيل؛ فإن هذا العهد يوافق خطبة المقامة في كثير من أغراضها.

وذلك عهد عهده محمد بن عبد الرحمن إلى الفضل بن النعمان، حين استخلفه على سُنّته، واستنابه على حياطة رسومه وسنته؛ من التطفيل على أهل مدينة السلام، وما يتصل بها من أرباضها وأكنافها، وما يجري معها مِنْ سوادها وبياضِها وأطرافها، لما توسّمه فيه من قلة الحياء، وشدّة اللقاء، وكثرة اللقم، وجودة الهضم.

وأمره أن يتوسّم اسم التطفيل ومعناه، ويعرف مغزاه ومنحاه ويتصفّحه تصفّح الباحث عن حظه بمجهوده، غير القائل فيه بتسليمه وتقليده، فإنّ كثيراً من الناس قد نسب صاحبه للشَّرَه والنَّهم، وحمله على الجشع والقَرَم، فمنهم من غلط في استدلاله، فأساء في مقاله، ومنهم مَنْ شَحّ بماله، فدفع عنه باحتياله، وكلا الفريقين مذموم، وجميعهما مُليم ملوم، ولا يتعلقان بعذر واضح، ولا يتعرّيان من لباس فاضح. وقد عُرِفت يا أخي بالتطفيل، ولا عار فيه عند ذوي التحصيل، لأن التطفيل مشتق من الطَّفَل، وهو وقت المساء وأوان العشاء، فلما كَثُر استُعمل في صدر النهار وعجزه، وأوله وآخره، كما قيل: القمران للشمس والقمر، وكما قيل العمران لأبي بكر وعمر.

وأمره أن يعتمد موائد الكبراء والعظماء بعراياه، ويبسط الأمر بسراياه، فإنه يظفر من إرادته بالغنيمة الباردة، ويصل بها إلى الغريبة الشاردة. فيجد بها من ظرائف الألوان، الملذّذة للسان، وبدائع الطعوم، السائغة في الحُلقوم، ما لا يجده عند غيرهم، ولا يناله إلا لديهم، لحِذْق صناعتهم وجوْدة أدواتهم، وخِصْب ناديهم، وكثرة ذاتِ أيديهم؛ والله يوفر من ذلك حظّنا، ويُسَدّد نحوه لحظنا، ويوضّح عليه دليلنا، ويسهّل إليه سبيلنا.

وأمره أن يجتلب التّكرِمة ممن يحصل منهم ودّه، ويستدعي بالتلطف نائله ورِفْده، وكثيراً مَا يتّفق ذلك للمداخلين، ويتيسر للمتوصّلين.

وأمره أن يصادق قَهارمة الدور ومدبّريها، ويرافق وكلاء المطابخ ومُدِيريها، فإنهم يملكون من أصحابهم أزمّة مطاعمهم ومشاربهم.

وأمره أن يتعهد أسواق المتسوّقين ومواسم المتبايعين؛ فإذا رأى وظيفة قد زيد فيها، أو أطعمة قد احتُشد منها، أتبعها إلى القصد بها، وشيّعها إلى المنزل الحاوي لها، واستعلَم ميقات الدعوة، ومَنْ يحضرها من أهل اليسار والثروة.

وأمره أن يجتنب مجامع العوامّ المقلين، ومحافل الرّعاع المقتّرين، وألاّ ينقل إليها قدما، ولا يغفر لمآكلها فماً، فإنها عصابة تجتمع على مضَض النفوس والأحوال. وقلة الأحلام والأموال، وفي التطفيل عليها إحجاف بها يؤلم وإزراء بمروءة التطفيل يثلم.

وأمره أن يحوز الخِوان إذا حصل، والطعام إذا نُقل، حتى يعرف بالحَدْس والتخمين عدد الألوان في الكثرة والقلة، وافتنانها في الطِّيب واللذة، فيقدّر لنفسه أن يشبع مع آخرها، وينتهي عند انتهائها، فلا يفوته نصيب من كَثيرها وقليلها، ولا يخطئه الحظّ مِنْ دقيقها وجَليلها. ومتى أحسّ بنقلة الطعام وحجْره، أمعن في أوّله إمعان الكيّس في سعيهِ، والرشيد في أمره، فإنه إذا فعل ذلك سلم من عواقب الأغمار الذين يكفون طرفا، ويقلّون تأدباً، ويظنون أن المائدة تُبلِغُهم إلى آخر حاجتهم، وتنتهي بهم إلى حدّ غايتهم، فلا يلبثون أن يخجلوا خجلة الوامق الراغب، وينقلبوا بحسرة الراهق الخائب.

وأمره أن يروضَ نفسه، ويغالط حِسّه، ويضرب عن كثير مما يلحقُه صَفْحاً، ويطوي دونه كشحاً، ويستحسن الصَّمَم عن الفحشاء، ويغمض عن اللقمة الخشناء، وإن أتته الوكْزة في حلقه، صبر عليها لأجل الوصول إلى حقه، وإن وقعت الصفعة في رأسه، عضّ عليها بمواقع أضراسه، وإن لقيه لاق بالجفاء، قابله باللطف والصفاء، إذا كان ولج الأبواب، وخالط الأصحاب، وجلس مع الحضور، واختلط بالجمهور، فلا بّد أن يلقاه المنكِر لأمره، ويمرّ به المستغرب لوجهه، فإن كان حرّا حسناً أمسك وتذمّم، وإن كان فظًا غليظاً هَمْهَم وتكلّم. وأن يستعمل مع المخاطَب له الملاينة، وأن يجتنب عند ذلك المخاشنة ليردّ غيظه ويقلّ حده، ويكفّ غَرْبَه ويأمن سعيه. وأمره أن يتعهد الجوارشات المعدّة للعدد، والمقويّة للمعد، المشهيّة للطعام، المسهلة سبيل الانهضام، وأن يكون في اتخاذها كالكاتب الذي يخطّ أقلامه، والفارس الذي يَصقُل حسامه.

وأمره إذا غشيَ أبوابَ الملوك وأهل السلطان، أن يصانع البوّابَ والحجاب ويخدم القوّاد والكتّاب، فإذا دخل السواد الأعظم، توسط الجمع لا يتأخر ولا يتقدّم، بعد أن يجمل ثيابه، ويحسِّن كلامه وجوابه، فطعام الأمراء تُدْعَى إليه الحفلاء احتفالا، وُيتَكَفّل بالوفود على العموم اكتفالاً.

فهذا العهد مطابق لأحوال هذه المقامة.

[من الخطب الهزلية]

ومما يتصل بخطبة المقامة من الخطب الهزلية ما حدّثوا:

أن رجلاً خطب إلى قوم، وجاء يخطب، فاستفتح خطبة النكاح بحمد الله فأطال، ثم ذكر خلق السموات والأرض واقتصر، ثم ذكر القرون حتى ضجر مَنْ حضر، ثم التفت إلى الخاطب فقال: ما اسمُك أعزك الله؟ فقال: والله قد نسيت اسمي من طول خطبتك، وهي طالق ثلاثاً إن تزوَّجتُها بهذه الخطبة. فضحك القوم وعقدوا له في مجلس آخر.

أنكح خالد بن صفوان عبدَه أمتَه، فقال له العبد: لو دعوت الناس فخطبت. قال: ادعهم أنت، فدعاهم، فلمّا اجتمعوا تكلّم خالد، فقال: إن الله أعظمُ وأجلّ من أن يُذكر في نكاح هذين الكلبين، وأنا أشهدكم أني قد زوّجت هذه الزانية من هذا ابن الزانية.

خطب مُصعب بن حيّان خطبة نكاح، فحصِر فقال: لقّنوا موتاكم «لا إله إلا الله». فقالت له الجارية: عَجّل الله موتك، ألهذا دعوناك!.

خطب ثقيل في تزويج فأطال، فقام واحد من القوم، وقال: إذا فرغ الثقيل، بارك الله لكم، فإن عليّ شغلاً أريد المبادرة فيه. وخطب رجل امرأة، فجعل يخطب ويُنعِظ، فضرب رأس ذكَره بيده وقال: مَهْ! إليك يُساق الحديث.

* * *

فلمَّا فرغ الشيخُ من خُطْبَتِه، وأبْرَمَ لِلخَتَن عَقْدَ خِطْبته، تَسَاقَطَ من النِّثار ما اسْتَغْرَق حَدَّ الإكثار، وأغرى الشَّحِيحَ بالإيثار. ثم نهض الشيخ يَسْحَبُ ذَلاذِله، ويَقْدُمُ أراذِلَهُ.

قال الحارث بن هَمّام: فتبعتُه لأنْظُرَ عُرْجَة القوم، وأُكْمِلَ بَهْجَةَ اليوم. فعاج بهم إلى سِمَاطٍ زَيّنتْهُ طُهاتُه، وتناصَفَتْ في الحُسْنِ جهاتُه. فحِينَ رَبَعَ كلُّ شخصٍ في رِبْضتِهِ، وَطَفِقَ يَرْتَعُ فِي رَوْضتِهِ، انْسَلَلْتُ مِن الصّف؛ وفرَرتُ من الزَّحفِ فحانت من الشيخ لَفتَةٌ إليّ، ونظرَةٌ هجم بها طَرْفُهُ عَلَيّ، فقال: إلى أيْنَ يا بُرَم؟ هَلاً عاشَرْتَ مُعاشرةَ مَنْ فيهِ كرَم! فقلت: والّذي خلَقَها طِباقاً، وطَبَّقها إشراقاً لا ذقتُ لَمَاقاً، ولاَ لُسْتُ رُقَاقا، أو تخبرَني: أيْنَ مَدَبُّ صِباك، ومن أيْنَ مَهَبُّ صَباك؟ فتنفَّس الصُّعَدَاء مراراً، وأرسل البكاء مِدْراراً، حتَّى إذا استَنْزَفَ الدَّمع، اسْتَنْصَتَ الجمع، وقال لي: أرعِني السَّمْع.

* * *

قوله: أبرم، أي أحكم وسدَّد والخَتَن: وليّ الزوجة مثل الأب والأخ وابن العم،

فهم الأختان، وكل شيء من قبَل الزوج، فهم الأحماء، واحدهم حمًا مثل قفًا، وحمو مثل أبو، وحَمد مهموز، والأصهار تجمعهمْ.

والخِطبة: مراسلة المرأة للزواج. والنِّثار: ما نُثِر عليه من الدراهم، وقد نثرت الشيء نثراً إذا رَميْتَ به متفرقاً، وأصحابُ الزوج تدخلهم حميّة عند ذلك فينثر كلُّ واحد منهم من الدراهم ما أمكنه، فَتُجْمَع ويُشترى منها أنواع الأطعمة، ولذلك قال: أغرى الشحيحَ بالإيثار: أي حرّضه على أن يتكرّم. واستغرق: جاوز. وحدّث ابنُ قتيبة عن أبي عثمان، قال: مررت بمحضر قد اجتمع فيه خلق كثيرون، فسألت بعضَهم: ما جمعهم؟ فقال: هذا سيّد الحي تزوج منا فتاةً، فتكلّم الشيخ فقال: الحمد لله ﷺ أما بعد؛ فإن الله جعل المناكحة ـ التي رضيها فعلا، وأنزلها وحياً ـ سبب المناسلة، وإن فلاناً ذكر فلانة، وبذل لها من الصَّدَاق كذا، وقد زوّجته إياها، وأوصيته بوصية الله فيها، ثم قال: هاتوا نِثَاركم، فقلِبت على رؤوسنا غرائر التمر.

قوله: ذلاذله، أي أطراف ثوبه، والذلذل: ما يلي الأرض من أسفل القميص، أراذله: جمع أرذل، وهو الدنيء، والرَّذْل والمرذَل والرّذيل: الدّون. والعُرْجة: التعريج، ويقال: ما عليه عُرْجة ولا تعريج، أي إقامة. وبهجة الشيء: حسنه ونضارته. وعاج: مال. والسِّماط: كلُّ مُسْتَوٍ على نسق، وصُفُّ الناس سماط وأراد به المائدة. والطّهاة: الطبّاخون من النّاس. تناصفت: اعتدلت، وأنصف كلُّ جزء مِنها صاحبَه، والتناصف: اعتدال الحسن. رَبَع: جلس، يقال: ربعت بالمكان: أقمت به، وربعت الحجَر: رفعته باليد، لأنظر شدتي. وربَع: وقف وتحبس. ربضته: موضعه الذي يقعد فيه، والرِّبضة: القطعة الغليظة من الثّريد. يرتع: يأكل، وفلان يرتع، أي هو مخصب لا يعدم شيئاً يريده. الروضة: موضع العشب، وأراد بها ما بين أيديهم من الطعام. الزّحف: الضرب والوثوب إلى الشرّ، وأراد أنه لما جلس كلُّ انسان أن يأكل خشيَ هو إن جلس للأكل أن يغرم ويشتهر بأنه طفيليّ، فيحتاج أن يتدَافع، وأن يتواثب مع صاحب الحانوت في ثمن ما أكل، ففرّ من ذلك. والزحف: مشي الأعمى. لفتة: نظرة بالتواء، كأنه يلوي عنقه فينظر، ولفت إليه لفتاً والتفت: صرف وجهه إليه. وهجم: دَخَل عليه بغتة. بُرَم: بخيل، وهو الذي لا يدخل مع القوم فيما دخلوا فيه من المغرَم. والمعاشرة: ترك المخالفة في الصحبة. طِباقاً: جمع طبق، أي هي طبق فوق طبق، يعني السماء. وطبّقها: ملأها وعمّها، يقال: طبّقِ الغيمُ تطبيقاً إذا أصاب بمطره جميعَ الأرض. إشراقاً: نوراً وضوءاً. لَمَاقا، الأصمعي رحمه الله: هو ما يُشرب، فإن أردت نفيه، قلت: ما ذقت لمَاقا، وأنشد: **[الوافر]**

كبرقٍ لاح يُعجب مَنْ رآه ... ولا يشفي الحوائمَ من لَمَاقِ[1]

---

(١) البيت لنهشل بن حري في ديوانه ص ١١٧، ولسان العرب (ذوق)، (لمق)، وتاج العروس (لمق)، =

الحوائم: العطاش، وحكى يعقوب أن اللّماق يَصْلُح في الأكل والشرب، قال ابن كيسان: هو الشيء اليسير من الطعام والشراب.

لست رُقاقاً: أكلت خبزاً مرقّقا، وَاللَّوْس: تتبع بقية الشيء الحلو في فمك. ابن سيده: لاس لوْساً: تتبّع الحلاوة، فأكلها، وما ذاقَ لوْسا ولا لواساً، أي ذواقاً، ولا يلوس كذا، أي لا يتناوله.

أو تخبِرني: حتى تخبرني. أين مدبّ صِباك، يريد أين ولدت فدببت صغيراً. مهبّ صَباك: مجيء ريحك، وأراد أين بلدك. الصّعداء: التنفس بتوجّع وهي من فعل المهموم. استنزف الدمع: استفرغه بالبكاء حتى انقطع، ونزف وأنزفه: أفناه بالبكاء، واستنصت: أمرهم بالسكوت.

* * *

[الرمل]

مَسْقَطُ الرَّأسِ سَروجُ	وبِهَا كُنْتُ أَمُوجُ
بلدةٌ يوجَدُ فيهَا	كلُّ شيءٍ وَيروجُ
وِرْدُها من سَلْسَبيلٍ	وَصَحَارِيهَا مُرُوجُ
وبنُوها ومغانيـ	ـيهِمْ نجُومٌ وَبرُوجُ
حَبَّذا نفحَةُ رَيّا	هَا وَمَرآها البهيجُ
وأزاهيرُ رُبَاهَا	حِينَ تنجابُ الثّلُوجُ
مَنْ رآها قال مَرْسَى	جَنَّةِ الدُّنيا سَروجُ
ولِمَنْ ينزَاحَ عَنهَا	زَفَراتٌ ونشيجُ
مِثلُ ما لاقيتُ مُذْ زحْـ	ـزَحَنِي عَنهَا الْعُلُوجُ
عَبْرَةٌ تَهمِي وَشجوٌ	كُلَّمَا قَرَّ يَهيجُ
وهمومٌ كُلَّ يومٍ	خَطْبُهَا خَطْبٌ مَرِيجُ
ومَساحٍ في التَّرَجّي	قَاصِرَاتُ الْخَطْوِ عُوجُ
لَيتَ يَوْمِي حُمَّ لمَّا	حُمّ لي مِنهَا الخرُوجُ

مَسْقط الرأس، يريد الموضع الذي سقط فيه رأسه عندما ولِدَ. أموج: أتصرّف وأتحرّك، والمائج: المضطرب. يروج: يتعجّل. وِردها: ماؤها. السلسبيل: عين في

= وتهذيب اللغة ٩/ ١٧٩، وديوان الأدب ١/ ٣٨١، وجمهرة اللغة ص ٩٧٤، وأساس البلاغة (لمق)، وجمهرة الأمثال ١/ ٢٣، ومجمع الأمثال ١/ ٤١، ولكعب بن جعيل في المستقصى ٢/ ٢٢٣، وبلا نسبة في مجمل اللغة ٤/ ٢٥١، والمخصص ٩/ ١٠١، ١٣/ ٢٤٩، ومقاييس اللغة ٥/ ٢١٢.

الجنة، والسلسبيل الخمر. والمروج: المواضع الخصبة. مغانيهم: منازلهم. والبروج: منازل القمر، وأراد أنهم في الحسن والرفعة كالنجوم، وأن دورهم في العلوّ والاستواء كالبروج.

وسبقه الحلواني القيرواني إلى هذا التشبيه، فقال يتشوّق إلى القيروان بعد خرابها: **[الخفيف]**

ليتَ شعري وليت حرف تمنٍّ ... رُبّما علل الفؤاد السَّقِيما

كيف يا قَيْروان حالُك لمّا ... نثر البين سلكَكِ المنظوما

كنتِ أمّ البلاد شرقاً وغرباً ... فمحا الدهر وشْيَكِ المرقوما

نحن أولادها ولكنَ عَقَقْنَا ... بعد أن لم نُطِقْ بها أن نقيما

دِمَنٌ كانت البروج وكنَّا ... أَمُراً في قِبابها ونُجوما

وقال السريّ يتشوق إلى الموصل وكان بحلب: **[الكامل]**

أمحلّ صَبْوتنا دعاء مشوقِ ... يَرْتاح منك إلى الهوى الموموقِ

فمتى أزورُ قباب مشرفة الذُّرا ... فأدور بين النَّسر والعيّوقِ

وأرى الصّوامع في غوارب أكْمُها ... مثل الهوادج في غوارب نُوقِ

محمّرة الْجُدْرانِ ينتح طيبُهَا ... فكأنّها مبنيّة بخَلُوقِ

حُمْراً تلوح خلالَها بيض كَمَا ... فُصّلت بالكافور بين عقيقِ

ظلّين: ظلّ هوى وظلّ حديقِ ... كلف تذكّر قبل ناهية النّهى

فتفرّقت عبَراته في خدّه ... إذ لا مجير له من التفريقِ

وقال الثعالبي: ما نظرت إلى الصوامع مذ برزت من نيسابور إلا ذكرت بيتَه، فأرى الصوامع، واستأنفت العجب من حسن هذا التشبيه وبَراعته.

* * *

قوله: نفحة ريّاها، أي حركة رائحتها الطيبة. مرآها البهيج: منظرها الحسن، وأزاهير رُباها: أنوارِ كداها، وهي جمع أزهار، وأزهار جمع زهر، وهو النَّورْ. تنجاب: تَزُول.

ثم قال: سَرُوج هي الموضع الذي أرست به جنة الدنيا، أي ثبتت فيه فكأنه قال: جنة الدنيا هي سَروج. وسَروج هذه بلد بقري وعمارات، وهي من بلاد الجزيرة وكورها المشهورة، والجزيرة انقسمت قسمين: ديار ربيعة وديار مضر، وسَروج من كور ديار مضر، وهي ثغرية إذا كان للمسلمين قوّة يملكونها، وإذا ضعفوا غلبَهم الروم، عليها وهي كثيرة الثلج والبرَد.

قوله: ينزاح: يبعد. النشيج: البكاء. والزفرة: تنفّس المهموم. زحزحني: نَحّاني. تهمِي: تسيل. شَجْو: حزن. قرّ: سكن. يهيج: يتحرك. خطْبها: أمرها مَرِيج: مختلط. مساع: مواضع تصرفه، ويكون المسعى مصدراً بمعنى السّعي. قاصرات، أي قصيرة، وكذا استعمالها لأن فعلها قصُر، واسم فاعلها فعيل مثل ظرف فهو ظريف. الخَطْو: جمع خطوة. عوج: مغوجّة. يومي حمّ، أي يوم موتي قدّر، أراد: ليت أني مت ولا أرى خروجي منها.

أنسى رضي الله عنه قال النبي ﷺ: «لا يتمنّين أحدكم الموت لضرٌ نزلِ به، فإن كان لا بدّ فاعلاً، فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي: وتوفّني إذا كانت الوفاة خيراً لي»(١).

جابر رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «لا تمنّوا الموت فإن هول المطلع شديد، وإن من السعادة أن يطول عمر العبد، وأن يرزقه الله الإنابة»(٢) وفي معنى وصفه سروج وبكائه عليها، قال الحصريّ الأعمى يتشوق إلى القيروان: [البسيط]

أيا سقى الله أرض القيروان حياً ... كأنه عبراتي المستهلاّتُ
فإنّما لذة الجنات تربتها ... مسكيّة وحصاها جوهرياتُ
أرض أريضة، أقطار مباركةٌ ... لله فيها براهينٌ وآيات

وحدّثني الفقيه أبو عبد الله بن زرْقون في بستانه بطريانة، أيام قراءتي عليه النّوادر والكامل، وكان رحمه الله ذاكراً بالطريقة الأدبية، مع تميّزه بالطريقة الفقهيّة، فدارت بيني وبينه في إحدى العشيات أنواع من المذاكرات في فنون أدبيات، فاهتزّ رحمه الله، وهشّ، وأظهر السرورَ بي ـ وأنا يومئذ غلام ما بَقَل عِذَاري ـ فقال: لقد علمتَ أن بيني وبينك أخوّة، قلت: وكيف ذاك يا سيدي؟ فقال: إني وُلدت ببلدك شَرِيش؛ فزدت بالحديث غبطة، واستزدت منه، فقال لي: ومع ذلك فثَمَّ قصة مستظرفة:

اعلم أني كنت اجتزت بَشَريش قافلاً من العَدْوة، مع الفقيه أبي بكر عبد الله بن العربيّ رحمه الله. فلما صرنا في بطاحها، وبين كَرْماتها وجنانها، أخذ الفقيه أبو بكر يثني عليها بكلّ لسان، على كثرة ما رأى من البلدان، ويقول: إن الأشياء التي جمعت فيها لا تكاد تجتمع في بلدة، من كثرة الزّرع والضّرع والزيت والعصير والملح وغير ذلك، فقلت له: أعلمت أني ولدت بها؟ فقال لي أبو بكر: أتقول أنت الآن: [مجزوء الرمل]

* مسقط الرأس شريشُ *

---

(١) أخرجه البخاري في الدعوات باب ٣٠، وأبو داود في الجنائز باب ٩، والترمذي في الجنائز باب ٣، وابن ماجه في الزهد باب ٣١، والنسائي في الجنائز باب ١، وأحمد في المسند ٣/ ١٠١، ١٠٤، ١٩٥، ٢٠٨، ٢٤٧، ٢٨١.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٣/ ٣٣٣.

فقلت له مجيزا: [مجزوء الرمل]

* وبــــهـــا كـــنـــت أعـــيـــشُ *

فقال أبو بكر: [مجزوء الرمل]

* بـــلـــدة يـــوجـــد فـــيـــهـــا *

فقلت: [مجزوء الرمل]

* كـــلّ شـــيء ويَـــرِيـــش *

فقال أبو بكر: [مجزوء الرمل]

* وِردهـــا مـــن ســـلـــســـبـــيـــلِ *

فقلت: [مجزوء الرمل]

* وصـــحـــاريـــهـــا عـــريـــشُ *

ثم سرنا في طريقنا على قوافي السّروجية، فرددناها شريشية، وقطعنا بها الطريق ونحن لا نشعر، فكانتْ أسرّ عشيّة رأيت، بمجالسة مثل هذا الفاضل وسنّه قد نيّف على الثمانين بسنتين، يحدّثني عن ابن عربي وابن عبدون الكاتب ونُظَرائهم، في رياض كلّها نزهة على نهر إشبيليّة، وهي أمامنا على بهجتها وجمالها، مادحاً لي ولبلدي، ليدخل عليّ بذلك المسرّة، نسأل الله أن يبلغه غاية السرور في دار البقاء.

* * *

قال: فلمّا بيّنَ بَلَدَهُ، ووعَيْتُ ما أَنْشدَه. أَيقَنْتُ أنَّهُ عَلاّمَتُنا أبو زيْد، وإن كانَ الهرَمُ قَدْ أوثقه بقَيْدِ. فبادَرْتُ إلى مُصَافَحتِه، واغتنمْتُ مؤاكَلَتَهُ مِنْ صَفْحَتِهِ، وظَلْتُ مُدَةَ مقامِي بمصر أعْشُو إلى شُوَاظِهِ، وأحْشُو صَدَفَتَيّ مِنْ دُرِّ الفاظِهِ، إلى أن نَعَب بيننا غُراب البَيْن، ففارقتُه مفارقة الجفنِ للعين.

* * *

قوله: وَعيت، أي حفظت. عَلاّمتنا: عالمنا المشهور بالعلم. أوثَقَه: ربطَه وشدّه، وقد تقدّم هذا القبيل من الهرم في أخبارٍ وأشعار حسانٍ، مصافحته: معانقته ووضع كفّي على كفّه.

ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «أيُّما امرئٍ يُصافح أخاه ليس في صَدْرٍ واحدٍ منهما على أخيه إحْنَة لم تتفرّق أيديهما حتى يغفر الله لهما ما مضى من ذنوبهما»[1].

---

(١) رواه ابن الأثير الجزري في النهاية في غريب الحديث ١/ ٢٧.

الإِحْنة: الحقد.

اغتنمتُ: حسبتُها غَنيمة. مؤاكلته: الأكل معه.

ابن عمر رضي الله عنهما: طعام السخيّ دواء، وطعام الشحيح داء.

ظلْتُ، أي دمت، قال تعالى: ﴿الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً﴾ [طه: ٩٧]، أي دُمْتَ عليه مقيماً. قال سيبويه رحمه الله: أصله: ظَلِلت. الليث: يقال: ظلَّ نهاره صائماً. ولا تقول العرب: ظلّ إلا لكلّ عملٍ بالنّهار، كما لا تقول: باتَ إلاّ للعمل باللّيل. أعْشُو: أنظر ببصرٍ ضعيف. شواظه. ناره، والشُّواظ لهبُ النّارِ الّذي لا دخان فيه. صَدَفَتيّ: أذُني. نعبَ: صاح. البيْن: الفراق، والغُراب إذا صاح عندهم تشاءموا به، وقد تقدَّم ذلك. مفارقة الجفن للعين، أي مسرعاً بقدر ما تفتح عينَك.

المقامة الحادَية والثلاثون

وَهي الرّمليَة

حكَى الحارثُ بن همّامٍ قال: كنتُ في عُنفُوَانِ الشبَّاب، وَريْعَانِ العيشِ اللُّبَاب، أقْلَى الاكْتِنَان بالغابِ، وأَهْوَى الاندِلاقَ مِنَ الْقِرَاب؛ لِعِلْمِي أنّ السَّفَر، يَنْفُجُ السُّفر، ويُنْتِجُ الظَّفَر، ومُعَاقَرةَ الْوَطنِ تَعْقِرُ الفِطَنَ، وتَحْقِرُ من قَطَن، فَأَجَلْتُ قِدَاحَ الاسْتِشَارة، واقْتَدْحَتُ زِنادَ الاسْتِخَارة، ثم اسْتَجَشْتُ جأشاً أثبتَ من الحِجارة. وأصْعَدْتُ إلى سَاحِلِ الشام للتِّجارة، فَلَمَّا خَيَّمْتُ بالرَّملة، وَأَلْقَيْتُ بِها عَصَا الرِّحْلَةِ، صَادَفْتُ بِهَا رِكَاباً تُعَدُّ لِلسُّرَى، ورِحَالاً تُشَدّ إلى أمِّ الْقُرَى.

* * *

عنفوان وَرَيْعَان، معناهما أول. اللباب: الخالص. أَقْلَى: أبغض. الاكتنان: الاستتار والإقامة في الكِنّ. والغاب: الشجر المتلفّ، وهو بيت الأسد، وأراد به بلدته، وأنه كان يَكْره الإقامة بها ويحبُّ السفر. أهوى: أحِبّ. الاندلاق: الخروج بسرعة وسهولة. والقِراب: وِعَاءٌ يُجْعَلُ فيه السيف، وهو غمده. السُّفَر: جمع سُفرة، وهي التي يجعل فيها الخبز ويضّم عليها بَحلَق، وتستعمل في السَّفر. يَنْفُج: يُكثر، أي تكثر المأكولات في السفر فتنفُج به. يُنتج: يولّد. الظَّفَر: الفوز بالحاجة. معاقرة الوطن: ملازمة بلد الإنسان. تعقِر الفِطَن: تميت القلوب وتبلد الأذهان. قطن: سكن وأقام، فيريد أن الإقامة في بلد الإنسان تُحَقِّر شأنه وتبلدُ خاطره.

[الوطن ومما قيل فيه شعراً]

قال الشاعر: **[الكامل]**

أنفِقْ من الصَّبر الجميل فإنه	لم يخش فقراً مُنْفِقٌ من صَبْرِهِ
والمرء ليسَ ببالغٍ في أرضه	كالصَّقْر ليس بصائد في وَكْرهِ

وأنشد الفَنجديهيّ: **[مجزوء الكامل]**

نَـقِّـل ركـابـك فـي الْـفَـلاَ ... ودَعِ الـعـوالـي والـقُـصُـورْ
فـمـحـالـفـو أوطـانِـهـم ... أشـبـاه سـكّـان الـقـبـورْ
لـولا الـتـغـرُّب مـا ارتـقـى ... دُرُّ الـبـحـور إلـى الـنُّـحـورْ

وقالوا: مَنْ لم يصاحب البّر والفاجر، ولم يؤدبه الرخاء مرّة والشدة أخرى، ولم يخرج من الظّلّ إلى الشمس، فلا ترجُه. وتقدم مثل هذا في التاسعة.

وقال أبو العباس الأعْمَى: [البسيط]

مَلِلْتُ حمصَ وملّتني فلو نطقتْ ... كما نطقتُ تلاحَيْنَا على قَدَرِ
وسوّلت لي نفسي أنْ أفارِقَها ... والماء في المزنِ أصفَى منه في الْغُدُرِ
أما اشتفت مِنّيَ الأيام في وطني ... حتى تضايق بي ما عزّ من وطري
ولا قضتْ من سواد العين حاجَتَهَا ... حتى تكرَّ على ما كان في السَّفَرِ

وقال البحتريّ: [الطويل]

ولَيْسَ اغترابي من سجستَان أنّني ... عدمت بها الإخوان والدَّارَ والأَهْلا[(١)]
ولكنَّني مالي بها من مُشاكلٍ ... وإنَّ الغريب الفَرْد مَنْ يعدَم الشّكْلا

ولأبي الفتح البستي عفا الله عنه: [الكامل]

مَا أَنْصَفَتْ بغدادُ حيّن توحّشت ... لنزيلها وهي المحلّ الآنَسُ[(٢)]
لم يَرْعَ لي حقَّ القرابة بُحْتُرٌ ... فيها ولا حقَّ المروءة فارسُ

وتعقّب عليه المعرّي في هذا فقال في أبي القاسم عليّ بن المحسّن التّنوخِيّ القاضي: [البسيط]

ذمَّ الوليدُ ولم أذْمُمْ جوارَكُمْ ... فقال ما أنصفتْ بغدادُ حُيّيتا[(٣)]
فإن لقيتُ وليداً والنوى قُذُفٌ ... يوم القيامة لم أعْذِمه تبكيتَا
أحسنت ما شئت في تأنيسِ مغتربٍ ... ولو بلغت المدى أحسَنْتَ ماشِيتَا

وقال أبو الفتح البستيّ: [الطويل]

وما غُرْبَة الإنسان في شُقّة النّوى ... ولكنّها والله في عدم الشّكْلِ
وإني غريب بين بُستَ وأهِلها ... وإن كان فيها أسْرَتِي وبها أهلِي

---

(١) البيت في ديوان البحتري ص ٢٦٢٩.

(٢) البيتان للبحتري في ديوانه ص ١١٣٣.

(٣) الأبيات في سقط الزند ص ١٦٤١، ١٦٤٢.

ولأبي بكرْ بن بقيّ: [البسيط]

أقمتُ فيكم على الإقتار والعَدِمِ ... لو كنت حرًّا أبيَّ النَّفْس لم أقِمِ
فلا حَدِيقتكُمْ يُجْنَى لها ثَمرٌ ... ولا سماؤكمُ تَنْهَلُّ بالدِّيَمِ
أنا امرؤٌ إن نَبَتْ بي أرضُ أندلسٍ ... جئت العراق فقامت لِي على قدمِ
ما العيش بالعلم الإحالة ضعفَت ... وحُرفةٌ وُكِلَتْ بالقُعْددِ الهرمِ

وللفقيه أبي محمد بن حزم: [الطويل]

ولي حول أكناف العراقِ صَبابةٌ ... ولا غَرْوَ أن يستوحش الكلِفُ الصَّبُّ
فإن يُنزل الرحمن رَحْلِيَ بينهمْ ... فحينئذ يبدو التأسّف والكرْبُ
هنالك يَدْرِي أن للبعد قصةً ... وأنّ كساد العلم آفتُه الْقُرْبُ

* * *

قوله: أجَلْت، أي صرّفت. قداح: سهام. الاستشارة: مشاورة غيره في رأيه، وإجالة القداح تأتي في الثالثة والأربعين، واستعار هنا لمن يستشيره في أمر السفر قداحاً، فإن وافق رأيَه فكأنّه خرج له على السهم: «افعل» وإن خالفه فكأنه خرج عليه «لا تفعل». اقتدحت: ضربت. زِنَاد: ما يكون فيه النار. الاستخارة: طلب الخِيرة من الله تعالى. استجشت: حَرّكت. جأشا: نفسا، وهي في سكونها عن السفر كالحجر فلا تتحرّك للسفر. أصعدت: طلعْت. خيّمت: أقمت.

الرَّمْلة: بلدة بالشام، سَمّتها العرب بالرّملة لمّا غلب عليها الرمل، وهي من كُور فلسطين، بينها وبين بيت المقدس ثمانية عشر ميلاً، وكانت لدّ مدينة فلسطين القديمة، فلما وَلِيَ الخلافة سليمان بن عبد الملك ابتنى مدينة الرّملة، وخرّب لدّ، ونقل أهلَ لدّ إليها، فصارت الرملة مدينة فلسطين.

ألقيت: تركت. الرِّحلة: الارتحال، وكني بإلقاء العصا عن الإقامة بعد أن تهيّأ.

أم القرى: مكة. وكنا نوينا ترك ذكر مكة لشهرتها، ثم وجدنا شيخنا ابن جُبير قد ذكر فيها أشياء قَلّ مَنْ يضبطها، فأثبتناها إعلاماً لمن أحبَّ استطلاعها، وتبرّكا بذكر البيت الشريف أعزه الله تعالى.

[مكة المكرمة]

قال شيخنا: مكة بلد قد وضعها الله تعالى بين جبال محدِقة بها، وهي في بطن وادٍ، مدينة كبيرة مستطيلة لها ثلاثة أبواب:

باب المعلّى يخرَج منه إلى الجبّانة بالموضع الذي يعرف بالحَجُون عن يسار المارّ إليها جبلٌ في أعلاه ثنيّة، عليها علَم يشبه البرجَ منها إلى العمرة، وتعرف الثنيّة بكَدَاء،

وهي التي جعلها حسّان موعد خيل الإسلام في قوله: [الوافر]

* تُثيرُ النَّقعَ موعِدُها كَداءُ[1] *

ومنها دُخِلَتْ مكة يوم الفتح، قال رسول الله ﷺ: «ادخلوها من حيث قال حسان».

والحَجون هو الذي قال فيه الحارث بن مُضاض: [الطويل]

كَأنْ لم يكُنْ بين الحَجُون إلى الصفا أنيسٌ ولم يسمُرْ بمكّة سامرُ[2]

وعن يسار المارّ إليها جبل، وفي جبّانة الحَجُون مدفن جماعة من الصّحابة دُثِرت اليومَ قبورهم، وفيها بقيّة علم ظاهر، وهو موضع خشبة عبد الله بن الزبير، كان في موضعه بناءٌ مرتفع، فهدَمَهُ أهلُ الطائف غيرةً منهم على ما كان يجدّد من لعنة الحجاج صاحبَهم وعن يمينك إذا استقبلتَ الجبّانة مسجد في مَسِيلٍ بين جبلين، وهو الذي بايعت الجنّ فيه النبيّ ﷺ، وعلى باب الحَجُون طريق الطائف والعراق، والصُّعود إلى عرفات، والباب بين الشرق والشمال مائلاً إلى الشرق.

الباب الثاني: باب السفلى إلى جهة الجنوب، عليه طريق اليمن، ومنه دخل خالد ابن الوليد، يوم الفتح.

الباب الثالث: باب العُمرة يعرف بالباب الزاهر، عليه طريق المدينة والشأم وجُدّة، وهو غربيّ، ومنه يُخرَج إلى التّنعيم، وهوَ على فرسخ من مكة، وهو أقرب ميقات للمعتمرين، وطريقه حسن، فيه الآبار العذبة المسماة بالشُّبَيكَة.

وعلى ميل من مكة في طريق التّنعيم يُلْفَى مسجد بإزائه حَجَر كالمصطبة، يعلوه حجر آخر مسند، فيه نقش داثر، يقال إن النبي ﷺ قعد عليه مستريحاً عند مجيئه من العمرة، يمسح الناس خدودهم به تبرّكاً. وبعده بغَلْوة على يسار الطريق قبر أبي لهب وامرأته، قد علاهما جبلان عظيمان من الصَّخر لرجم الناس على قديم الدهر.

وعلى قدر ميل يُلفَى الزاهر، وهو مبنيٌّ على جانبي الطريق، يحتوي على دارٍ وبساتين لأحد المكيّين، وفيه مكان مستطيل، عليه كيزان الماء، ومراكن مملوءة، وهي القصارِي للشرب والطّهور، وفيه منفعة كبيرة للمعتمرين.

وعلى جانبي الطريق في الزاهر أربعة أجبُال: جبلان، من هنا وجبلان من هنا،

---

(١) صدره:

عدمنا خيلنا إنْ لم تروها

والبيت في ديوان حسان بن ثابت ص ٧٣، ولسان العرب (كدا)، وجمهرة اللغة ص ١٠٦٠، ومعجم ما استعجم ص ١١١٧، وتاج العروس (كدا).

(٢) البيت لعمرو بن الحارث بن مضاض أو للحارث الجرهمي في لسان العرب (حجن)، وبلا نسبة في قطر الندى ص ١٥٩.

يُذكر أنها التي جعل إبراهيم عليه السلام أجزاء الطير عليها، ثم دعاها عند قوله: ﴿رَبِّ أرني كَيفَ تُحيِي الموتى﴾ [البقرة: ٢٦].

وعند إجازتك بالزّاهر تمرّ بالوادي المعروف بذي طُوَى، كان ابن عمر رضي الله عنهما يغتسل فيه عند دخوله مكة، وفيه نزل النبيُّ عليه الصلاة والسلام عند دخوله، وفيه مسجد إبراهيم عليه السلام، وفيه آبار تعرف بالشُّبيكة. ثم تخرج من الوادي إلى أعلام، وهي أحجار موضوعة بين الحِلّ والحرم، كالأبراج المصفوفة، فداخلُها إلى جهة مكة حَرَم، ووهي كالأبراج، وآخذةٌ من أعلى جبل، يعترض عن يمين الطريق في [التوجّه] إلى العُمرة، وينشق الطريق إلى جبل عن يساره، وهما ميقات المعتمرين، [وفيها مساجد مبنية بالحجارة] وخارجها بنحو غَلْوتَيْن مسجد عائشة رضي الله عنها.

ومن جبال مكة جبال أبي قُبيس، وهو على الحرَم في الجهة الشرقية يقابل الحجر الأسود، في أعلاه مسجد عليه سطح يشرف على مكة، ويُظهر حسنَها وحُسْنَ الحَرم واتساعه وجمال الكعبة، وهو مستودَع الحجر الأسود من الطوفان، حتى أدّاه إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وفيه قبر آدم عليه السلام، وهو أحد أخشَبَيْ مكة، والأخشب الثاني المتصل بقُعَيْقِعان في الجهة الغربيّة، وفيه موقف النبي ﷺ، عند انشقاق القمر.

ومن جبالها حراء، على مقدار فرسخ، ومشرف على مِنًى، وهو مرتفع في الهواء، كان متعبَّد النبيّ ﷺ، وهو الذي اهتّز تحته، فقال: اسكن حراء، فما عليك إلا نبيّ وصدّيق وشهيدان، لعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضي الله عنهما، وفيه نزلت أول آية من القرآن، وهو آخذ من المغرب إلى الشمال، وعلى طرفه الشماليّ جبّانة الحَجُون المتقدمة.

ومن جبالها جبل ثَوْر، وهو في الجهة اليمانية على فرسخ أو أزيد، وفيه الغار الذي أوى إليه النبيّ ﷺ، وعلى مقربة من الغار قبة جبريل، وهي عمود منقطع من الجبال، قد قام شبه الذراع المرتفعة مقدار نصف القامة، وانبسط من أعلَى شبه الكفّ، كأنّه قبّة مبسوطة، يستظلّ تحتها نحو العشرين رجلاً، ومن مكة إلى مِنًى نحو خمسة أميال.

ومنًى مدينة عظيمة الآثار واسعة الاختطاط، وقد خرِبت اليوم إلاّ منازل يسيرة محَدَثة للنزول، كان الطريق إليها الميدان اتساعاً وانفساحاً. وأوّل ما يلقى المتوجّه إليها بقربها مسجد البَيْعة التي عقدها العباس للنبي ﷺ على الأنصار، ثم يُفْضِي بها إلى جَمْرة العقبة، وهي أوّل منًى وعليها مسجد، وبها عَلَمٌ منصوب شبه أعلام الحرَم المذكورة، يجعله الرامِي عن يمينه مستقبِلاً مكة، ويرمي بها سبعَ حصيات يوم النحر أثر طلوع الشمس، ثم ينحر أو يَذْبَح، ويحلّق أو يُقصّر، ومنًى كلّها مَنْحَر، ويحلّ له كلّ الأشياء إلا النساء، وبعدها الجمرة الوسطى، وبها أيضاً عَلَم، وبين الجمرتين قدر غَلْوة، وبعدها بمقدار غلوة الجمرة الأولى التي ترمى وقت الزوال ثاني يوم النَّحر بسبع حَصَيات، وفي

الوسطى بسبع، وفي جمرة العقبة بسبع، فتلك إحدى وعشرون حَصاة، ويُفْعَل ذلك في ثالث يوم النحر، فتلك اثنتان وأربعون حَصاة، وسبع تقدّمت يوم النحر فتكمل تسع وأربعون حَصاة.

وفي أثر ذلك ينفضّ الحاجّ إلى مكة، وعند الجمرة الأولى يُلْفَى مجرى الذَّبيح عليه السلام، وفي موضع المجرى حَجَرٌ ملصق بجدارٍ فيه أثر قَدَم صغيرة، يقال إنها أثر قدمه، عند تحرّكه لأنَ له الحجر إشفاقاً، فيقبّله الناس ويلمسونه تبرّكا به.

ومسجد الخيْف آخر مِنًى، وهو متّسع الساحة، كأكبر ما يكون من الجوامع، وصومعته في رحبة المسجد، وله في القبْلة أربع بلاطات، وهو مسجد مشهور البركة، ومن مِنًى إلى المزدلفة نحو خمسة أميال، والمزدلفة تسمى المشعر الحرام وجمعاً فلها ثلاثة أسماء. ووادي محسّر حدٌّ بين المزدلفة ومنًى. والمزدلفة بسيط من الأرض فسيح حولها صهاريج للماء، وفي وسط البسيط حلَق في وسطها قبّة، في أعلاها مسجد يصعد إليه على أدراج من جهتين، يزدحم الناس عليه للصلاة فيه عند مبيتهم بها، وبين المزدلفة وعرفات أزيد من خمسة أميال.

وعرفات بسيط من الأرض [على] مدّ البصر، لو حُشِر الخلائق فيه لوسعهم، تحدِقُ به جبال كثيرة. وفي آخر البسيط جبل الرّحمة، وهو موقف الناس، والعلمَان قبله، فما أمامهما إلى عرفات جبل، وما دونهما حَرَم.

وجبل الرحمة منقطع عن الجبال، قائم في البسيط، فهو كلُّه حجارة. وكان صعب المرتقى، فأحدثوا فيه من أربع جهاته أدراجاً وطيئة يصعد فيها بالدوابّ الموقرة. وفي أعلاه قبّة تنسب لأم سلمة رضي الله عنها، وفي وسطها مسجد يحدِق به سطح فسيح السّاحة جميل المنظر، يزدحم الناس عليه للصلاة فيه، فيشرف منه على بسيط عرفات، وفي أسفله عن يسار القبلة دار عتيقة البنيان، فيها غُرَف، لها طِيقان تنسب إلى آدم عليه الصلاة والسلام. وعن يسارها مسجدٌ صغير. وبمقربة من العلمين مسجد إبراهيم عليه الصلاة والسلام، بقي منه الجدار القبلّي يخطب فيه الخطيب يوم الوقفة، ثم يجمع بين الظهر والعصر، ثم يقف الناس بعد جمعهم الظّهر والعصر باكين داعين متضرّعين، حتى يغيب قُرْص الشمس، ثم يدفع الإمام المالكيّ بالناس بالنّفْر دفعاً ترتجّ منه الجبال، فيصلُّون بمزدلفة المغرب والعشاء الآخرة، فيبِيتون بها، والدنيا كلها شموع مُسْرجَة، فإذا صلّوا الصبح غدْوة النحر وقفوا داعين.

ومزدلفة كلّها موقف إلا وادي محسِّر، فإن فيه تقع الهَرَولة إلى منًى، فإذا بلغوا منًى رموا بها جمرة العقبة.

ثم يَنْفِر الناس إلى البيت المكرّم إلى طواف الإفاضة، وهو كمال الحجّ.

وأما البيت المكرّم فهو قريب من التربيع، له أربعة أركان: ركن ينظر إلى الشرق

وفيه الحجرَ الأسود، ومنه ابتداء الطّوَاف. يبعد الطائف عنه قليلاً، والبيت عن يساره، ثم يُلفَى بعد ذلك في طوافه الرّكن العراقيّ، وهو ناظر إلى الشمال. ثم الركن الشاميّ، وهو ناظر إلى المغرب، ثم الركن اليمانيّ، وهو ناظر إلى الجنوب، ثم يعود إلى ركن الحجر الأسود، وذلك شوط واحد.

وباب البيت في السَّفح الذي بين ركن الحجرَ والركن العراقيّ، وهو قريب من الحِجْر بعشرة أشبار، وما بين الحِجْر والباب يسمّى الملتَزم، وهو موضع استجابة الدعاء، ويرتفع الباب من الأرض أحد عشر شبراً ونصفاً، والباب من فضّة، مذهّب بديع الصَّنْعة، يستوقف الأبصار حسناً، وعُضادتاه كذلك، وعلى رأسه لوحُ ذهب خالص إبريز في سعة نحو شبرين، وله نقّارتا فضة، كبيرتان يتعلّق عليهما قفل الباب، والباب ناظر إلى الشرق، وسعته ثمانية أشبار، وطوله ثلاثة عشر شبراً، وغِلَظ الحائط الذي ينطوي عليه الباب خمسة أشبار، وداخل البيت مفروش بالرخام المجزّع، وحيطانه كلّها رخام مجزّع، قد قام على ثلاثة أعمدة من السَّاج، مفرِطة الطول، بين كلّ عمود وعمود أربع خُطاً، ودائرة البيت كلّه من نصفه الأعلى مطليٌّ بالفضة المذهبة، يُخَيَّل إليك أنها صفيحة ذهب لغلظَها بالجوانب الأربع.

وللبيت خمسة مصابيح، وعليها زجاج عراقيٌّ بديع النقش، أدرجت في وسط السقف، ومع كل ركن مضوأ، ويُلفِي الداخل من الباب عن يساره ركن الحجر الأسود وباب الرحمة، هو الذي يصعد عليه إلى السطح.

والمقام حجر مغشَّي بالفضة، ارتفاعه ثلاثة أشبار، وسعته شبران، أعلاه أوسع من أسفله، وآثار القدَمين والأصابع فيه، صُبَّ لنا فيه ماء زمزم، فشربناه منه.

ومن الباب إلى الركن العراقيّ حوض طوله اثنا عشر شبراً وعرضه خمسة أشبار، وارتفاعه شبر، هو علامة موضع المقام، وهو مصبّ ماء البيت.

وموضع المقام الذي يصلّى فيه ما بين الباب والركن العراقيّ، وموضع المقام قبّة حديد موضوعة إلى جانب قبّة زمزم ترفع في أشهر الحجّ، وتنزال قبة الخشب، لأنها أجمل، لازدحام الناس. ومن ركن الحجر إلى الركن العراقيّ أربعة وخمسون شبراً، ومن الحجر الأسود إلى الأرض ستة أشبار، فالطويل يتَطامن لتقبيله، والقصير يتَطاول له.

وموضع الطواف مفروش بحجارة مبسوطة كأنها الرخام: سود وحمر وبيض، تتّسع عن البيت مقدار تسع خطاً، وسائر الحرم مفروش برمل أبيض، وطواف النساء في آخر الحجارة المفروشة.

والحِجْر ستة أذرع وهو الذي تركته قريش من البيت، وعليه جدار دوره تسع وعشرون خطوة، وهي أربعة وسبعون شبراً من داخل الدويرة، ودور جداره كلّه مجزّع بديع الإلصاق من الرخام، وهو مفروش بالرخام الجزّع البديع التفاريع والتقاطيع، فمرآه عجيب.

والحرم له ثلاثمائة سوار من الرخام، وذرْع الحرَم في الطول أربعمائة ذراع، وفي العرض ثلاثمائة ذراع، فتكسيره ثمانية وأربعون مرجعاً، وله تسع صوامع وتسعة عشر باباً، أكثرها مفتّح على الأبواب، منها باب الصفا، وهو مفتح على خمسة أبواب، وهو أكبرها، وعليه يُخرَج إلى السعي بين الصفا والمروة. وللصفا أربع عشرة درجة، وللمروة خمسة، وما بين الصفا والمروة ميل، وهو اليوم سوق جميل، يجمع الفواكه بمكّة وحوانيت الباعة يمين وشمال فلا يكاد الساعون يخلصون للسعي لكثرة الزحام.

وقبّة بئر زمزم تقابل الحجر الأسود، منها إليه أربع وعشرون خطوة، وداخلها مفروش بالرخّام الأبيض وتنور البئر في وسطها من رخام دوره أربعون شبراً، وارتفاعه أربعة أشبار ونصف، وغلَظه شبر، وعمقه إحدى عشرة قامة، وعمق الماء سبع، وباب القبة ناظر إلى الشرق.

ثم ذكر في البيت وما يتصل به من البئر من ذلك غرائب من صنع الرخام والنقوش وغير ذلك أشياء لا يسع كتابنا ذكرُها، فلنقتصر على هذا القدر.

* * *

فعصَفَتْ بِي ريحُ الغَرامِ، واهْتَاجَ لي شوقٌ إلى البيت الحرَام؛ فزمَمْت نَاقتِي، ونبذْتُ عُلقِي وعَلاَقَتِي: [الوافر]

وقُـلْـتُ لِـلاَئِـمـي أَقْـصِـر فـإنِّـي ... سـأخْـتَـارُ الـمَـقَـامُ عَـلَـى الـمُـقَـامِ

وأنـفِـقُ مـا جـمـعـتُ بـأرْضِ جَـمـعٍ ... وأسْـلُـو بـالـحَـطِـيـمِ عـن الـحُـطَـامِ

ثمَّ انتظمتُ مَعَ رُفْقَةٍ كنُجومِ اللَّيْل، لَهُمْ في السَّيْر جَرْيَةُ السَّيْلِ، وإلى الخيرِ جَرْيُ الْخَيْل؛ فلم نَزَلْ بين إدْلاَجٍ وتأويب، وإيجافٍ وتَقْريب، إلَى أنْ حَبَتْنَا أيْدِي الْمَطَايَا بالتُّحفة، في إيصالنا إلى الجُحْفَةِ؛ فَحُللنَاها مُتَأهِّبينَ لِلإحْرَام، مُتبَاشِرِينَ بإدْرَاكِ الْمَرَامِ، فَلَمْ يَكُ إلاّ أن أَنَخنَا بِهَا الرَّكائب، وحَطَطْنَا الْحقَائب، حتّى طَلَع عَلَينَا مِنْ بين الْهِضَاب، شَخصٌ ضاحِي الإهَابِ؛ وهو يُنَادِي: يا أهل ذا النادِي، هَلُمَّ إلى ما يُنجِي يَوْمَ التَّنَادِي. فانْخَرَطَ إليْهِ الحجِيجُ وَانْصَلتُوا، واحتفُّوا به وأَنْصتُوا. فلمّا رَأَى تَأثُّفَهُمْ حَوْلَه، واستِعْظَامَهُمْ قَوْلَه، تَسَنَّم إحْدَى الآكام، ثم تَنحْنَحَ مُسْتَفْتِحاً لِلْكَلاَمِ، وقال:

* * *

قوله: عصفت، تحرّكت واشتدّت. الغَرام: الشوق. اهتاج: تحرّك. زممت: شددت زمامها. نبذت: رميت. عُلَقِي: ما يتعلق به ويُمسكه عن إرادته. عَلاَقَتي: ما

يتعلّق بقلبي. أَقْصِرْ: كفّ. المَقام: مقام إبراهيم عليه السلام. المُقام: الإقامة. وجَمْع: اسم المزدلفة، سمِّيت بذلك لاجتماع الناس فيها. الحطيم: حَجَرٌ بمكة. الحُطام: كسب الدنيا. انتظمتُ: ارتفقت. كنجوم الليل، أي هم أشراف وأهل أحساب. جَرْية: انصباب. الإدْلاج: سَيْر الليل. تأويب: سَيْر النهار. إيجاف: إسراع. تقريب: جَرْيٌ متقارب. حبتْنا: أوصلتنا وأعطتْنا. التُّحفة: الهديّة. إيصالنا: توصُّلنا.

الجُحفة ميقات أهل الشأم ومصر والمغرب، وبينها وبين البحر ثمانية أميال.

حللناها: نزلنا فيها. الإحرام: الدخول في الحرَم. متباشرين: يبشِّرُ بعضُنا بعضاً. بإدراك المرام: بلوغ الحاجة. أنخنا الركائب: بركنا الإبل بالأرض. حططنا الحقائب. أنزلنا الأحمال عن ظهورها. الهِضاب: الكُدَى، واحدتها هَضبْة. ضاحي الإهاب: بارز الجلد، أي ثوبه خَلَق لا يستره. النّادِي: المنزل. هلّم، أي أقبلوا. يوم التّنادي، أي يوم البعث لاجتماع الناس فيه، أو لأنه ينادي للحساب. انخرط: اندفع بسرعة. الحجيج: اسم لجماعة الحجّاج. انصلتوا: خرجوا إليه مسرعين. احتَفُّوا: استداروا: وأنصتوا: سكتوا. تأثّفهم: اجتماعهم وثبوتهم حتى صاروا له كالأثافيّ للِقدْر. استطعامهم قوله: استدعاءَهم كلامه. تسنمّ: ارتفع عليها، وأصل «تسنّم» ركب البعير، الآكام: الكُدَى.

* * *

يا مَعْشَرَ الحُجّاج، النَّاسِلينَ من الفِجاج، أَتَعْقِلُونَ مَا تُواجِهُون، وإلَى مَنْ تَتَوَجَّهُون! أمْ تَدْرُونَ عَلَى مَنْ تَقْدَمونَ، وَعَلاَمَ تُقْدِمونَ! أتَخالُونَ أنَّ الحجَّ هُوَ اختيارُ الرَّواحِل، وقَطْعُ الْمَرَاحِل، واتّخاذ الْمَحامِل، وإيقَارُ الزَّوامِل! أم تَظُنُّونَ أنَ النُّسكَ هُوَ نَضْوُ الأرْدَانِ، وإنْضاءُ الأبْدَان، وَمُفَارَقَةُ الْوِلْدانِ، والتَّنائي عن الْبُلْدَانِ: كَلاً واللَّهِ، بل هُوَ اجْتِنَابُ الْخَطِيّة، قبل اجْتِلاَب الْمَطِيّة، وإخْلاَصُ النِّيَّةِ، في قَصْدِ تِلْكَ الْبَنِيَّة، وإمْحَاضُ الطَّاعَة، عِنْدَ وُجْدَانِ الاسْتِطَاعَة، وإصْلاَحُ الْمُعامَلاَتِ، أمام إعمالِ اليَعْمُلات!

* * *

الناسلين: المسرعين. الفِجَاج: الطرق. وتعقلون: تفهمون. تواجهون: تَسْتَقبلون بوجوهكم، يريد البيت، إلى مَنْ تتوجهون: تقصِدون. الرواحل: الإبل. المراحل: المواضعُ يُرحل إليها وينزَل فيها. المحامِل: آلات من خشب يركب عليها، واحدها محمَل، يقال: إن الحَجّاج أوّلُ من أحدثها، ولذلك قال الشاعر: [الرجز]

أوّلُ عـبـدٍ صـنـع الـمـحـامـلا أخـزاه ربّـي عـاجـلاً وآجـلا(١)

قوله: لزوامل: جمع زاملة، وهي البعير وغيره من الدوابّ يحمَل عليها الطعام. وإيقارها: رفع الأوقار عليها، وهي الأحمال، والوِقْر: الحِمْل. النسُك: التعبّد، نَضو الأردان، تجريد المخيط من الثياب. التنائي: التباعد. اجتناب بُعْد، واجتنبته: بعدت عنه وتركته. الْخَطِيّة: الذنب؛ يريد أن أوّل ما يجب على الحجاج أن يقدّموا التوبة. والبنيّة، هي الكعبة. إمحاض: إخلاص. وُجْدان: إصابة. الاستطاعة: القدرة على الشيء، وهي شرط وجوب الحج. المعاملات: الأفعال التي يتعامل بها الناس بينهم من المبايعات وغيرها، وأراد إصلاح فعل العبد بينه وبين ربه. إعمال اليَعْمُلات: استعمال الإبل للمشي، واليَعْمُلة: الناقة تعمل كثيراً في المشي.

* * *

فوالّذِي شَرَعَ المناسِكَ للنّاسِك، وأرْشَدَ السَّالِكَ في اللّيْل الحالِك، ما يُنْقِي الاغتِسَالُ بالذَّنُوبِ، مِنَ الانغِمَاس في الذُّنوبِ، وَلاَ تَعْدِلُ تُعْرِيةُ الأجْسَام، بِتَعْبئَةِ الأجْرَام، وَلاَ تُغْنِي لِبْسَةُ الإحْرَامِ، عَنِ المُتَلَبِّسِ بالْحَرَامِ، ولا يَنْفَعُ الاضِطباع بالإزار، مَعَ الاضْطِلاَعِ بالأَوْزَارِ، ولا يُجْدِي التَّقَرُّبُ بالْحَلْق، مع التَقلُّبِ في ظُلْم الْخَلْقِ، وَلاَ يَرْحَضُ التَّنَسُّكُ في التَّقْصِير، دَرَنَ التَّمَسُّكِ بالتَّقْصِيرِ، وَلاَ يَسْعَدُ بِعَرَفَة، غَيْرُ أَهْلِ الْمِعْرفةِ، ولا يَزْكُو بالخَيْفِ، مَنْ يَرْغَبُ في الْحَيْفِ، وَلاَ يَشْهدُ المقامَ، إلاَّ من اسْتَقَام، وَلاَ يَحْظَى بِقَبُولِ الحَجّة، مَنْ زَاغ عَنِ المحجّة، فرَحِمَ اللَّهُ امْرَأً صَفا، قَبْلَ مَسْعَاهُ إلى الصّفَا، وَوَرَدَ شَرِيعَةَ الرِّضَا، قَبْلَ شُرُوعِهِ على الأَضَا، ونزَعَ عن تَلْبِيسهِ، قَبْلَ نَزْعِ مَلْبُوسِهِ، وفاضَ بمعروفِهِ، قَبْلَ الإفاضةِ مِنْ تَعْرِيفهِ. ثمَّ رَفَع عَقِيرَتَهُ بِصَوْتٍ أسْمَعَ الصُّمّ، وكادَ يُزَعْزِعُ الْجِبَالَ الشُّمَّ.

* * *

شرع: فرض. المناسك: مواضع الذبح والنّحر، والنّاسك: الذي يأتي بنُسْك، وهو ما يُذبح أو ينحَر في الحرم. أرشد السالك: على الطريق للمشي فيها. الحالك: الشديد السّواد. الذَّنوب: الدَّلو. الانغماس: الغطس، يريد أن التطهّر لا يزيل الذّنوب. وما أحسن قول الحُلوانيّ في غلام وسيم أراد النهوض للحج: [المنسرح]

---

(١) يروى الشطر الأول من الرجز:

أول مـن اتـخـذ الـمـحـامـلا

وهو بلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٥٦٧، وتاج العروس (حمل)، والكامل ص ٣٥٩.

يـا طـالـبَ الـحـجّ وهـو ذو صِـغَـرِ عـجـلـتَ فـاسـتـأنِـهِ إلـى الـكـبَـر
إن كـنـتَ تـبـغـي مـثـوبـةً فـعـسـى تـحـمِـل لـي قُـبـلـةً إلـى الـحـجـرِ
وإن رمـيـت الـجـمـار فـارم بـهـا كـلَّ فـؤاد عـلـيـك لـم يـطـرِ
فـقـال دعـنـي وزمـزمـاً فـعـسـى أغـسـل عـن وجـنـتـي دم الـبـشـر

قوله: تَعدل، أي تقاوم وتساوي. الأجرام: الأجسام، واحدها جِرْم. تعبئة الأجرام: تحمُّل أعباء الذنوب. لِبْسة: هيئة اللباس. التلبّس: التعلّق والاختلاط. الاضطباع: الاشتمال والالتحاف، واضطبع الرجل بثوبه، إذا أدخله تحت عضُده الأيمن وألقاه على منكبِه الأيسر، والاضطلاع: القيام بها. والأوزار: أثقال الذنوب. يجدِي: ينفع. يَرْحَض: يغسل. التقصير: الأخذ من الشّعر. دَرَن: وسخ. التمسّك: التعلق. التقصير: التضييع، وترك الاجتهاد، عَرَفة: يوم من أيام الحج، سُمِّيت بذلك لأن آدم عليه السلام لما أهبط من الجنة، نزل بالهند، وحوّاء بجُدّة فالتقيا بعَرفة، فسمِّيَ موضع التقائهما ويوم التقائهما عَرَفة، وقيل: هي من العرف وهو الصَّبْر، ورجل عارف، أي صابر، فسُمِّيَ الموضع عرفة لصبْر الناس على القيام به للدعاء. وقيل: هي من العَرْف، وهو الرِّيح الطّيّبة، لأنها طيِّبة بنسبتها إلى منًى لما بِمنًى من أقذار الفروث والدماء لأن بمِنًى يُنحر الهدي. يزكو: يكون نامياً، والزكاء: النماء والصلاح. والخَيْف: موضع بمكة سمي بالخَيْف، وهو ما ارتفع من الأرض عن موضع السّيل، وانحدر عن غِلظ الجبل. والحَيف: الظلم. يحظى: يسعد ويظفر. زاغ: مال وخرج. المحجَّة: الطريق المستقيم. صفا: خلص قلبه. مَسْعاه: سعيه وجَرْيه. الصفا: صخرة بمكة. ورد: دخل. شريعة الرّضا: طريقة الخير، والشريعة في النهر والغدير: الطريق. يهبط عليه إلى الماء، وبه سمِّيت شريعة الدين لأنه طريق موصِّل إلى الله تعالى، فورَد الشريعة، دخل فيها، ووصل إلى الماء، وشرعت الدوابّ في الماء: دخلت فيه. الأضا: الغُدْران. نزع: زال وكفّ. تلبيسِه: تخليطه، والإفاضة: آخر الطواف. تعريفه: وقوفه بعرَفة. عقيرته: كناية عن صوته يُزعزع: يحرِّك. الشمّ: المرتفعة.

* * *

وأنشد: [البسيط]

مـا الـحـجّ سَـيْـرُكَ تـأويـباً وإدْلاَجـا ولا اغـتـيـامُـكَ أجـمـالاً وأحْـدَاجـا
الحجُّ أن تَقْصِدَ البيتَ الحرَام على تـجْـرِيـدكَ الـحـجَّ لا تَـقْـضِـي بـه حـاجـا
وتَـمْـتَـطِـي كـاهِـلَ الإنـصـافِ مُـتَّـخِـذاً رَدْعَ الـهَـوَى هـاديـاً والـحـقَّ مـنـهـاجـا
وأنْ تـواسِـي مـا أُوتـيـتَ مَـقْـدُرَةً مَـنْ مَـدَّ كَـفًّـا إلـى جَـدْواكَ مـحـتـاجـا
فـهـذه إن حَـوتْـهـا حَـجّـةٌ كَـمُـلَـتْ وإن خـلاَ الـحـجُّ مِـنْـهـا كـان إخـداجـا

حَسْبُ المرائينَ غَبْناً أنَّهُمْ غَرَسُوا ... وما جَنَوْا ولَقُوا كدًّا وإزعاجا
وأنَّهُمْ حُرِموا حِرْزاً ومَحْمِدةً ... وألحموا عِرْضَهُمْ مَنْ عاب أو هَاجَى
أُخَيَّ فابْغِ بما تُبْدِيهِ من قُرَبِ ... وَجْهُ الْمُهَيْمِنِ ولأْجَا وخَرَاجَا
فليْسَ تَخْفَى على الرَّحْمَنِ خافيةٌ ... إن أخلص العبدُ في الطاعات أوداجي
وبَادِرِ الْمَوْتَ بالْحُسْنَى تقدِّمُهَا ... فما يُنَهْنِهُهُ دَاعِي الموتِ إن فاجا
واقْنَ التَّوَاضُعَ خُلْقاً لا تزايِلُه ... عَنْكَ اللَّيَالِي ولَوْ أَلْبَسْنَكَ التاجا
ولا تَشِمْ كُلَّ خالٍ لاحَ بارِقُهُ ... ولَوْ تَرَاءَى هَتُونَ السَّكْبِ ثَجَّاجا
ما كُلُّ داعٍ بأَهْلٍ أن يُصاخَ له ... كَمْ قَدْ أَصَمَّ بنعي بَعْضُ مَنْ ناجَى
وما اللَّبيبُ سِوَى مَنْ باتَ مُقتنعاً ... بِبُلْغةٍ تُدْرِجُ الأَيَّامَ إدْراجا
فكُلُّ كُثْرٍ إلى قُلٍّ مَغَبَّتَهُ ... وكُلُّ نازٍ إلى لِينٍ وإن هاجا

* * *

اعتيامك: اختيارك. أُحْدَاجاً: جمع حِدْج، وهو ما يجعل على ظهر البعير، يُركب عليه. حاجاً: جمع حاجة. تمتطي: تركب. كاهل: مقدّم الظهر. رَدْع: كفّ وردّ، هادياً: دليلاً. منهاجاً: طريقاً. تواسي: تعطِي. جَذْواك: عطيتك. حَوَتْها: جمعتها. إخداجا: نقصاناً. المرائين: المظهِرين الخير، وهم على خلافه. وحَسْب، بمعنى يكفي. كدًّا: عجلة وشدّة. الإزعاج: ضد السكون والقرار، وأزعجته: لم تدعه يستقرّ. حرزاً: تحصيل، وأحرزه: جعله تحت حِرْز. ألحموه: أمكنوه من لحمه. العِرْض: ما يسبّ من الرجل أو يمدح. هاجى: شاتم وسابّ.

[الرياء والمراؤون]

ومما قيل في الرياء: قال رسول الله ﷺ: «إيّاكم والشِّرْك الأصغر. قالوا: وما الشرك الأصغر؟ قال: الرياء»(١).

وقال ﷺ: «لا رياء ولا سُمْعة مَنْ يسمع يسمِّع الله به»(٢).

وقال ﷺ: «من أسرّ سريرة ألبسه الله رداءها؛ إن خيراً فخير، وإن شرًّا فشرّ».

وقال: «مَنْ أصلح سريرته، أصلح الله علانيته».

وقال الشاعر: [الرمل]

---

(١) أخرجه بنحوه الترمذي في النذور باب ٩، وابن ماجه في الفتن باب ١٦، وأحمد في المسند ٥/ ٤٢٨، ٤٢٩.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق باب ٣٦، والأحكام باب ٩، ومسلم في الزهد حديث ٤٧، ٤٨، والترمذي في النكاح باب ١١، وابن ماجه في الزهد باب ٢١، وأحمد في المسند ٣/ ٤٠، ٥/ ٤٥.

وإذا أظهرت شيئاً حسناً فليكُنْ أحسنَ منه ما تُسِرْ
فمُسِرُّ الخير موسومٌ به ومُسِرّ الشرّ موسوم بشرْ

وقال يحيى بن أكثم: [الطويل]

يقول لي القاضي معاذ مشاوراً وولّى امرأً فيما يرى من ذَوي الفضلِ
بعيْشِك ماذا تحسبُ المرء فاعلاً فقلت وماذا يفعل الذئب في النّحْلِ!
يدقُّ خلاياها ويأكُل شهدَها ويترك للزُّنبّال ما كان من فضلِ

وأنشد الفرزدق: [الوافر]

رئيس السوق محمود السَّجايا يقصّر عن مدائِحه البليغُ
نسمّيه بيحيى وهو ميْت كما أن السليمَ هو اللديغُ
يعاف الوِرْد إن ظمئت حَشَاهُ وفي مال اليتيم له ولوغُ

وللأبيض في الفقهاء المرائين:

أهلَ الرياء لبستمُ ناموسكمْ كالذئب يُدلِج في الظلام العاتِمِ
فملكتمُ الدنيا بمذهب مالكٍ وقسمتمُ الأموال بابن القاسمِ
وركبتمُ شُهْبَ البغال بأشهبٍ وبأصبغٍ صبغت لَكُمْ في العالمِ

وله في نحوه أيضاً: [الكامل]

قل للإمام سنا الأئمة مالكٍ نورُ العيون ونزهةُ الأسماعِ
لله درّك من هُمامٍ ماجدٍ قد كنت راعينَا فنعم الرّاعي
فمضيتَ محمود النّقيبة طاهراً وتركتنا قنَصاً لشرِّ سباعِ
أكلوا بك الدنيا وأنت بمعزلٍ طاوي الحشى متكفِّت الأضلاع
تَشكوك دنيا لم تزل بك بَرَّةً ماذا رفعت بها من الأوضاع!

وفي الإسرائيليات: جاءت عصفورة، فوقفت على فخّ، فقالت له: ما لي أراك منحنياً؟ قال: لكثرة صلاتي انحنيت، قالت: فما لي أراكَ بادية عظامُك؟ قال: لكثرة صيامي بدتْ عظامي، قالت: فما هذا الصوف عليك؟ قال: لزهادتي لبست الصوف، قالت: فما هذه الحبّة في يدك؟ قال: قربان إن مرّ بي مسكين ناولتُه إيّاها، قالت: فإني مسكينة، قال: خِذيها فقبضت على الحبة، فإذا الفخ في عنقها، فصاحت: قعِي قعي. تفسيره: لا غرني مراء بعدك أبداً.

قال الشاعر: [مخلع البسيط]

نعوذ بالله من أناسٍ تشيَّخُوا قَبْل أن يَشيخُوا

تـقـوّسـوا وانـحـنـوْا ريـاءً ... فـاحـذرهـمُ إنّـهـمْ فـخـوخُ

وكان صائد يصيد العصافير في يوم بارد، فكان يذبحها والدموع تسيل، فقال عصفور لصاحبه: لا بأس عليك من الرجل، أما تراه يبكي! فقال له الآخر: لا تنظر دموعه، وانظر ما تصنع يداه.

وراءى بعضهم ثم هتك الله ستره، فقال: [السريع]

بـيـنَـا أنـا فـي تـوبـتـي مـقـبـلاً ... قـد شـبّـهـونـي بـابـن دوّادِ
وقـد حَـمـلـتُ الـعـلـم مستظهراً ... وحـدّثـوا عـنـي بـإسـنـاد
إذ خـطـر الـشـيـطـان بـي خَـطْـرةً ... نَـكَـسْـتُ مـنـهـا فـي أبـي جـاد

ابن دوّاد: عابد بمكة.

صلّى رجل مراءٍ فقيل له: ما أحسن صلاتك! قال: ومع ذلك فإني صائم.

وقال طاهر بن الحسين لأبي عبد الله المروزيّ: كم لك منذ نزلت العراق؟ قال: منذ عشرين سنة، وأنا أصوم الدهر منذ ثلاثين سنة، قال: يا أبا عبد الله سألناك عن مسألة فأجبتنا عن مَسألتيْن.

وأمر عمر لرجل بكيس، فقال: آخذ الخيط؟ فقال عمر: ضع الكيس.

وكتب رجل عند الحسين كتاباً فقال: أتجعلني في حلٍّ من تراب الحائط؟ فقال: يا أخي بلّ ورعك لا يتكسّر.

وأخبارهم كثيرة.

* * *

قوله: ابْغِ أي اطلب: القُرَب: أفعال البرّ التي تقرب من الله تعالى، واحدها قُرْبة. ولأجاً وخرّاجاً، أي كيف تصرّف فيها. داجي: ساتر العداوة ونافق. الحسنى: اسم للفعل الحسن، وتكون الحسنى مؤنثة الأحسن فتلزمها اللام، كالكبرى والأكبر وبابه، وتكون الحسنى كالبُشْرى والرُّجعى.

ينهنه يزجر ويكفّ. فاجَى: جاء بغتة، ولبعضهم: [المتقارب]

وهـل نـحـن إلاّ مـرامـي الـسّـهـامِ ... ويـحـفـزُهـا نـابـلٌ دائـبُ
طَـرائِـدُ تـطـلـبـنـا الـنـائـبـات ... ولا بـدّ أن يُـدْرِك الـطـالـبُ
حـبـائـلُ لـلـدّهـر مـبـثـوثـةٌ ... يُـردّ إلـى جـذبـهـا الـهـاربُ

وقال آخر في معناه: [الوافر]

تـحـارِبـنـا جـنـود لا تُـجـارَى ... ولا تـلـقـي بـآسـاد الـحـروبِ
تـفـوّق أسـهـمـاً عـن ظـهـر غـيـبٍ ... ومـا أغـراضـهـا غـيـر الـقـلـوبِ

فـأنّـي بـاحـتـراس مـن جـنـودٍ ... مـؤيـدة تـمـدّ مـن الـغـيـوب

وقال ابن جبلة: [الكامل]

وأرى اللّيالي ما طوتْ مِنْ شِرَّتي ... زادتـه فـي عِـظَـتِـي وفـي إفـهـامـي

وعلـمت أنَّ المرءَ من سُننِ الردى ... حيـث الـرمـيّـة مـن سـهـام الـرامـي

قوله: اقْنَ، أي اكتسب والتزم. خُلُقاً: طبيعة.

وقال ﷺ: «مَنْ تواضع لله رفعه الله»[1].

وقالت الحكماء: كلّ ذي نعمة محسود عليها إلا المتواضع.

وقال عبد الملك: أفضلُ الرجال مَنْ تواضع عن رفعة، وعفا عن قدرة، أنصف عن قوّة.

وقال رجل لبكر بن عبد الله: علِّمني التواضع، فقال له: إذا رأيتَ مَنْ وأكبرُ منك فقُلْ: سبَقني إلى الإسلام والعمل الصالح فهو خير مني، وإذا رأيتَ هو أصغر منك، فقل: سبقته إلى الذُّنوب فهو خير مني.

وقال أبو العتاهية: [البسيط]

يـا مـن تـشـرّفَ بـالـدنـيـا ولـذّتِـهـا ... ليس التشرّفُ رفعَ الطِّينِ بالطِّينِ[2]

إذا رأيـت شـريـفَ الـقـوم كـلّـهـمِ ... فـانـظر إلى مَلِكٍ في زيّ مسكيـن

وقال أبو الفتح البستيّ: [البسيط]

من شاء عيشاً رغيداً يستفيدُ به ... فـي ديـنـه ثُـمّ فـي دنـيـاه إقـبـالا

فـلـيـنـظـرنّ إلـى مَـنْ فـوقـه أدبـاً ... ولـيـنـظـرنْ إلـى مَـنْ دونـه مـالاَ

قوله: لا تشِمْ، أي لا تنظر. خالٍ: سحاب. لاح بارقه، ظهر برقه: تراءى: تظاهر. هَتُون: كثير الماء. السّكْب: الصَّبّ ثجاجاً: صبّاباً، ثج الماء يثج نجا وثجحتُه أنا. يُصاخ: يسمع. أصمّ: كسب الصمم. والنّعيّ: الخبر بالموت. ناجى: حَدّث. اللبيب: العاقل. بُلْغة: قوت يوم. تدرج تَطْوِي. كُثْرٍ: كثرة. قُلّ: قلة. مغبّته: عاقبته وآخره ناز: مرتفع، ونزَا الفحل ينزو نزوًا: قفز على الأنثى. لِين: فتور. هاج: اضطرب، ويروى: «وكل نازٍ إلى لين» وهو الصحيح، أخذه من المثَل: فلان ينزو ويلين، يقول: لا ننخدع بما يكون له ظهور في ملبسه وهيئته، فقد يخيب ظنك وتقلّ فائدته، أو يكون مضرًا لا نَفاعاً كما قد ينادي بك، فتظنّ النداء لمنفعة، فإذا سمعته فاجأك بمصيبة. وأخذ لفظ «كم قد أصمّ بنعي» من قول أبي تمام: [الطويل].

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٣/ ٧٦.

(٢) البيتان في ديوان أبي العتاهية ص ٢٧٤.

أصمّ بك الناعي وإن كان أسمَعَا فأصبح مغْني الجود بعدك بلقعا[١]

والسابق إلى هذا المعنى جَزْو بن ضِرار، أخو الشماخ بقوله: **[الطويل]**

أتاني فلم أسرُرْ به حين جاءني حديثٌ بأعلى القُبَّتين عجيبُ[٢]

تصامَمته حتّى أتاني بقيْنةٍ وأفرغ منه مخطىء ومصيبُ

وقال المتنبي: **[البسيط]**

طوَى الجزيرة لَمّا جاءني خبرٌ فزعت منه بآمالي إلى الكذبِ[٣]

حتى إذا لم يَدَعْ لي صدقه خبَراً شَرِقتُ بالدمع حتى كاد يشرقَ بِي

أشار بعد ذلك بالبيتين إلى القناعة، وأن كثير الدنيا مصيره إلى قليل، وقد تقدم أمثال هذا.

وقال أبو تمام: **[الخفيف]**

يا قليلَ البقاء في هذه الدا ر إلى كَمْ يغرّك التسويفُ[٤]

عجباً لامرىءٍ يذلّ لذي الما لِ، ويكفيه كلّ يوم رغيفُ

ولابن عمران: **[الكامل]**

عجباً لنا نبغي الغنَى والفقرُ في نَيْلِ الغنى لَوْ صحّت الألباب

فيما يبلّغني المحلَّ كفايةٌ والفضل فيه تَكاثرٌ وحسابُ

* * *

قال الرّاوِي: فلمّا ألقَحَ عُقُمَ الأفهامِ، بِسحْر الكلام، استَرْوحْتُ ريحَ أبي زيد، ومادَ بِي الإرتِياحُ إليه أيَّ مَيْدٍ، فمكثتُ حَتَّى اسْتَوْعَبَ نَثَّ حِكْمَتِهِ، وانْحَدَرَ مِنْ أَكَمَتِهِ. ثمَّ دَلَفْتُ إليه، لأَتَصفّحَ صَفَحَاتِ مُحْيّاه، وأَستشِفَّ جَوْهَرَ حُلاَه؛ فإذا هُوَ الضّالَة التّي أَنْشُدُها، ونَاظِمُ الْقَلائِدِ الّتِي أَنْشَدَها، فعانقتُه عِناقَ اللاّمِ لِلأَلِف،

---

(١) البيت في ديوان أبي تمام ص ٣٧٤.

(٢) يروى عجز البيت الثاني:

كتابٌ بأعلى القنتين عجيبُ

وهو لجزء بن ضرار الغطفاني في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ٣٤٣، والمقاصد النحوية ٣/ ٣٨، ويروى البيت الثاني:

تصامَمته حتى أتاني نعيُه وأُفزع منه مخطىءٌ ومصيبُ

وهو بلا نسبة في لسان العرب (صمم)، وتاج العروس (صمم).

(٣) البيتان في ديوان المتنبي ١/ ٨٧، ٨٨.

(٤) البيتان ليسا في ديوان أبي تمام.

ونزَّلتُهُ مَنْزلَةَ الْبُرءِ عِنْدَ الدَّنِف. وسألته أن يُلازمَني فأبَى، أو يُزَامِلَنِي فنَبَا، وقال: آليتُ في حَجَّتِي هذه ألاَّ أحْتَقِب وَلاَ أعْتَقِب، ولا أكْتَسِبُ ولا أنتَسِب، ولا أرتفِقَ وَلاَ أرَافِق، وَلاَ أوافِقَ مَنْ ينافق.

ثم ذهب يُهَرْوِل، وغَادَرَنِي أُوَلْوِل.

فلمْ أزَل أقْرِيهِ نظري، وأودّ لو يَمْشِي عَلَى ناظِرِي، حَتَّى توقَّلَ أحَدَ الأطواد، وَوَقفَ للْحجِيجُ بالمِرْصاد.

فلمّا شاهَدَ إيضَاعَ الرُّكبان في الكثبانِ، وَقَّع بالبنَان على البنان.

* * *

قوله: فلما أقلح عُقْم الأفهام، أي جعل العقيم منها حاملاً بالعلم والفهم. استروحْت: شممت فوجدت رائحته. مادَ: مال. الارتياح: الطّرب. مكثت: أقمت. أستوعب: أستوفي: نثّ: نشر. أكمته: كُدْيته[1]. دلفت: أسرعت. أتصفّح: أنظر. صفحات محيّاه: جهات وجهه. أستشفّ: أبالغ النظر فيها. جوهر حُلاه: خلقة صفاته. أنشدها: أطلبها. القلائد: جمع قلادة، وهي ما يُجعل في العنق من سلوك الجوهر وغيرها، ومنه تقليد البُدْن بمكة، وتقلّدت بالسيف: جعلته في عنقي، وقلّدتك الأمر: جعلتُه في عنقك، وناظم القلائد: جاعلها في خيطها، ويعني بالقلائد ما نثر من وعظه، وأنشده من شعره ـ وصدق لَعَمْرِي إنّ كلامه المنظوم والمنثور أبْهى من القلائد في أعناق الخرائد.

وقوله: عناق اللام للألف، أمّا بخط المغرب فلا معانقةَ بينهما إلا في الطرفين، وربما وقعت في بعض هذا الخطّ كالصليب، وفي بعضه لا التقاء بينهما البَتّة، وإنما يريد صورة لام ألف بالخطّ الكوفيّ، وهما بذلك الخط متعانقان متلازمان من الأعلى إلى الأسفل. وأخذ اللفظ من قول بكر بن خارجة: **[البسيط]**

يـا مَـنْ إذا قـرأ الإنـجـيـل ظـلّ لـه ... قلب الحنيف عن الإسلام منصرفا

رأيت شخصك في نومي يعانِقُني ... كـمـا تـعـانـق لامُ الـكـاتـب الألـفـا

[العناق ومما قيل فيه شعراً]

ونذكر هنا ما يستحسن في العناق، قال البحتريّ: **[الرجز]**

تـلـك نُـعْـمٌ لـو أنـعـمـت بـوصـالٍ ... لشكرنا في الوصل إنعام «نعمِ»[2]

---

(١) الكدية: الأرض الغليظة.

(٢) البيتان في ديوان البحتري ص ١٩٤.

نسِيَتْ موقف الجِمَارِ وشخصا ... نا كشخصٍ، أرمي الجمارَ وترمِي

وقال أيضاً: [المتقارب]

ولم أنسَ ليلتنا في العنا ... قِ لَفَّ الصَّبَا بقضيب قضيبا(١)

كما مرّت الريح في سيرها ... فطوراً خفوقاً، وطوراً هبوبا

وقال ابن المعتز: [السريع]

كأنما عانقتْ ريحانةً ... تنفَّسَتْ في ليلها الباردِ(٢)

فلو ترانا في قميص الدُّجَى ... حسِبتَنا من جَسَدٍ واحدِ

وقال عليّ بن الجهم: [الطويل]

سقى الله ليلاً ضمنا بعد هجعةٍ ... وأدنى فؤاداً من فؤاد معذَّبِ(٣)

فبتْنا جميعاً لو تُراق زجاجةٌ ... من الماء فيما بيننا لم تسرّبِ

وقال ابن عبدوس الفاسي: سرتُ يوماً إلى ابن الجهم، فأنشدني البيتين في العناق، فاقتدح زندي لإيراد مثله، فقلت: [البسيط]

لا والمنازلِ من نجدٍ وليلَتنا ... بعيد إذ جسدانا بيننا جَسَدُ

كم رام فينا الكرى مع لطف مسلَكهِ ... نوماً فما انفكّ لا خدٌّ ولا عضدُ

ما أنصفوني، دعوْني فاستجبتُ لهم ... حتى إذا قرّبوني منهمُ بَعُدوا

أخذ هذا البيت من قول الآخر: [البسيط]

أشكو الذين أذاقوني مودّتهمْ ... حتى إذا أيقظوني للهوى رَقَدُوا(٤)

وقال أبو نواس: [الطويل]

لبسنا رداء الليل والليل راضعٌ ... إلى أن تردّى رأسُه بمشيبِ

وبتْنا كغصنيْ بانةٍ عصفتهما ... مع الصّبَح ريحَا شمال وجنوب

إلى أن بَدَا ضوء الصباح كأنه ... مبادي نصولٍ في عذارٍ خضيبِ

فياليلُ قد فارقتَ غير مذمّمٍ ... ويا صبْح قد أصبحتَ غير حبيبِ

قال صالح بن موسى: [السريع]

لي سيّد ما مثله سيّدٌ ... تصدّتِ الحمّى له فاشتكى

---

(١) ديوان البحتري ص ١٥٠.
(٢) البيتان في ديوان ابن المعتز ص ٧٧.
(٣) البيتان في ديوان علي بن الجهم ص ٩٥.
(٤) البيت للعباس بن الأحنف في ديوانه ص ٨٤.

عـانـقـتـه عـنـد مـوافـاتِـهـا ... والأفـق بـالـلـيـل قـد اخـلَـولَـكـا
فـجـاءت الـحـمّـى لـعـاداتـهـا ... فـلـم تَـجِـدْ مـا بـيـنـنـا مَـسْـلَـكـا

ولابن الرومي: [الرمل]

طـالـمـا الـتـفَّـتْ إلـى الـصـبْـ ... ـح لـنـا سـاقٌ بـسـاقِ
فـي نـقـابِ مـن ودادٍ ... ولـثـامٍ مـن عـنـاقِ

وقال أيضاً: [الطويل]

أعـانـقـهـا والـنـفـس بـعـد مـشـوقـةٌ ... إلـيـهـا وهـل بـعـد الـعـنـاق تـدانِ!
وألـثـم فـاهـا كـي تـموتَ حَـرارتـي ... فـيـشـتـدّ مـا ألْـقـى مـن الـهـيَـمَـانِ
كـأنّ فـؤادي لـيـس يـشـفـي غـلـيـلَـه ... سـوى أن يُـرى الـروحـانِ مـمـتـزجـان

وقال ابن المعتز: [الكامل]

يـا رُبَّ فـتـيـانٌ صـحـبـتـهـمُ ... لا يـرفـعـون لـسَـلْـوةٍ قـلـبـا
لـو تـسـتـطـيـع قـلـوبـهـم نـفـذَتْ ... أجـسـامـهـم فـتـعـانـقـت حُـبًّـا

وقال ابن رشيق: [الكامل]

ومهفهفٍ يحميه عن نظر الورَى ... غيرانُ سُكْنَى الموت تحت قِبابِه
فلثمتُ خدًّا منه ضرّم لوعتِي ... وجعلت أُطفِىء حرّها برُضابه
وضممتُه للصَّدر حتى استوهبت ... مني ثيابي بعضَ طِيب ثيابِهِ
فكأنّ قلبي من وراءِ ضلوعِه ... طرباً يخبِّر قلبه عمّا بِه

وقال ابن لُبّال: [الكامل]

ما كنت أحسب قبل رؤية وجهِه ... أن البدورَ تدور في الأغصان
غازلتُه حتى بدا لي ثغرُه ... فحسبته دُرًّا على مرجانِ
كم ليلةٍ عانقته فكأنّما ... عانقت مِنْ عِطْفَيْهِ غُصن البانِ
يطغى ويلعب عند عَقْدِ سواعدِي ... كالمهر يلعب عند ثَنْيِ عَنانِ

وقال آخر: [البسيط]

مشتاقةٌ طرقَتْ في الليل مشتاقَا ... أهلاً بمن لم تَخُنْ عهداً وميثاقا
يا زائراً زار من قُرْبٍ على بُعْدٍ ... آنستَ مستوحشاً لأذقت ما ذاقا
يا ليلُ عرّج على إلْفَيْن قد جعلا ... عقد السَّواعدِ للأعناق أطواقا

وقال ابن الزقّاق: [الطويل]

ومرتجَّةِ الأعطاف أمّا قوامُها ... فلَدْنٌ، وأمّا رِدْفُهَا فرَدَاحُ

سريتُ فبات اللَّيلُ من قِصَرٍ بها يطير وما غيْرُ السرور جناحُ
وبتّ وقد زارت بأنعم ليلةٍ يعانقني حتى الصَّبَاحِ صباح
على عاتقي من ساعِدَيْها خمائلٌ وفي خَصْرِها من ساعديّ وشاحُ

ونظير هذا قول برهون الغرناطيّ: **[البسيط]**

لله درّ ليالٍ ما أحَيْسِنَها وما أحَيسِنَ منها لَيْلَةَ الأحدِ
لو كنتَ حاضِرَنا فيها وقد غفلتْ عينُ الرقيب فلم تنظر إلى أحَدِ
أبصرتَ شمس الضحَى في ساعدي قمَرٍ ريمٌ موسّدةٌ في ساعديْ أَسَدِ

وقال ابن قاضي ميلة: **[الكامل]**

حيث التقى أسدُ العرين وظبيةٌ تحت اللحاف وصارِمٌ وسِوَارُ
قالت أرى بيني وبينك ثالثاً ولقد عهدتك للدخيل تغارُ
أأمِنْتَ نشرَ حديثنا فأجبتُها هذا الذي تُطْوَى له الأسْرَارُ

أخذ هذا من قول امرىء القيس: **[الطويل]**

تجافَى عن المأثور بيني وبينَها وتُدْنِي عليَّ السَّابِرِيّ المضلّعا[1]

يعني بالمأثور السيف.

قوله: الدّنِف: المريض. يُزَاملني: يرادفني، والزَّميل: الرّديف نَبَا. ارتفع وامتنع. أحتقب: أركب موضع الحقيبة، وهي ما يعلّق خلف الراكب، فيريد أنه حلف ألاّ يكون رديفاً، ويريد بأحتقب أتّخذ حقيبة للزّاد، يريد أنه لا يحمل زاداً اتكالاً على ما عند الله تعالى. أعتقب: أركب عقبة يعني نَوْبة، وهما يعتقبان ويتعاقبان، إذا ركب أحدُهما فجاء الآخر فكان مكانه، والاعتِقاب: ركوب واحد ونزول آخر.

ولحاتم في المعنى: **[الطويل]**

وما أنا بالساعي بفضل زمامِها لتشربَ ماء الحوض قبل الركائبِ[2]
وَما أنا بالطّاوي حقيبةَ رحْلها لأبعثها خِفا وأنزل صاحبي
إذا كنتَ رَبًّا للقلُوص فلا تَدَعْ رفيقك يمشي خلفها غير راكب
أنِخها فأردفه فإن حملتكما فذَاك وإن كان العقابُ فعاقبِ

---

(١) البيت في ديوان امرىء القيس ص ٢٤٢، وأساس البلاغة (ضلع)، وتاج العروس (ضلع)، وبلا نسبة في كتاب العين ١/ ٢٨٠.

(٢) الأبيات في ديوان حاتم الطائي ص ١١٨، والبيت الثاني في أساس البلاغة (حقب)، وفيه «وأترك صاحبي» بدل «وأنزل صاحبي».

أرتفق: أستعين أرافق: أطلب رفيقاً. يُهَرْول: يسرعُ المشي. غادرني: تركني أولول: أَصِيحُ: يا ويلي. أقريه: أتبعه. توقَّل: صعد. الأطواد: الجبال. بالمرصاد: بمضيق الطريق بحيث يرتصد فيه جميع الناس، والمرصد والمرصاد عند العرب الطريق. إيضاع: سرعة، وقد أوضع في سيره: أسرع كأنه يهتزّ ويركُض. الكُثْبَان: أكداس الرمل. رقع: ضَرَب بالبنان على البنان، أي صفّق بيديه، وقد تطلق البنان مراداً بها اليد، قال الله تعالى: ﴿**واضربوا مِنهُمْ كلَّ بنَان**﴾ [الأنفال: ١٢]، أي الأيدي والأرجل.

وأنشد الفَنْجديهيّ: **[الوافر]**

أقامـوا الـدِّيـدبـانَ عـلـى يـفـاعٍ ... وقـالـوا لا تَـنَـمْ لـلـدَّيْـدبَـانِ
إذا أبـصـرت ضـيـفـاً مـن بـعـيـدٍ ... فـوقِّـع بـالـبـنـان عـلـى الـبـنـان
تـراهـم خـشـيـة الأضـيـاف خُـرْسـاً ... يـقـيـمـون الـصـلاة بـلا أذان

* * *

واندفع ينشد: **[الخفيف]**

لَـيْـسَ مَـنْ زارَ راكِـبـاً ... مِـثْـلَ سـاعٍ عـلـى الْـقَـدَمْ
لا ولا خـادمٌ أطـا ... ع كـعـاصٍ مـنَ الـخـدَمْ
كـيـفَ يـا قـومِ يَـسْـتَـوِي ... سَـغْـيُ بـانٍ ومَـنْ هـدَمْ
سـيـقِـيـمُ الـمـفـرِّطُـو ... نَ غـداً مـأتَـمَ الـنَّـدَمْ
ويـقـول الـذي تـقـرَّ ... بَ: طـوبَـى لـمـنْ خَـدَمْ
وَيـلـكِ يـا نـفـسُ قـدِّمِـي ... صـالـحـاً عـنـد ذي الـقـدَمْ
وازْدَرِي زخـرفَ الـحـيـ ... ـاةِ فـوُجـدانُـه عَـدَمْ
واذكُـرِي مـصـرعَ الـحِـمَـا ... مِ إذا خـطـبُـه صـدَمْ
وانـدُبِـي فِـعلَـكِ الـقـبـيـ ... ـحَ وسِـحِّـي لـه بـدمْ
واذْ بُـغِـيـهِ بـتـوبَـةٍ ... قـبـلَ أن يَـحْـلَـمَ الأدَمْ
فـعَـسَـى الله أن يـقـ ... ـيـكِ الـسَّـعِـيـرَ الّـذي احـتـدَمْ
يَـوْمَ لا عَـثْـرَة تُـقـا ... لُ ولا يَـنْـفـعُ الـسَّـدَمْ

* * *

قوله: ليس من زار راكباً... البيت. يريد أن ثواب الماشي في الحجّ أكثر من ثواب الراكب.

وقال ابن عباس لبنِيه: اخرجوا من مكّة مشاة، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنّ للحاجّ الراكب بكلِّ خطوة تخطوها راحلته سبعين حسنة، وللماشي بكل خطوة

سبعمائة حسنة من حسنات الحَرَم، قالوا: يا رَسول الله، وما حسنات الحَرَم؟ قال: الحسنة منها بمائة ألف».

وقوله: سَعْى بانٍ ومَنْ هَدَم، من قول بشار: **[الطويل]**

متى يبلغ البنيانُ يوماً تمامَه إذا كنتَ تبنيه وآخرُ يَهْدِم

المفرّطون: المقصّرون. مأتم: مناحة. ويك: تعجّب. ازدرِي: احتقري. زخرف: زينة. وُجدان، مصدر وجدت الشيء. اندبي: أبكي. الحِمام: الموت. مصرعه: طَرْحه للميت بالأرض. خطبة: أمره الشديد. صَدم: ضرب، والصَّدْم: ضرب الشيء الصلّب بمثله، وأراد أنه أصاب، من قولهم: صدمهم أمر، أي أصابهم. سِخّي: صُبّي. يحلم: يتثقب. الأدَم: الجلد، وهو مثل يُضرب للشيء يفوت، قال الشاعر: **[الوافر]**

* كدابغةٍ وقد حلم الأديمُ[1] *

السَّعير: النار المتَّقدة. احتدم: التهب واشتد اتقّاده. السّدَم: همٌّ مع ندم.

* * *

ثمّ إنّه أغْمَدَ عَضْبَ لِسَانِهِ، وانْطَلَقَ لِشأنِهِ، فما زِلْتُ في كُلِّ موردٍ نَرِدُه، ومُعَرَّسٍ نَتَوَسّده، أتَفَقَّدُهُ فأفقِدُهُ، وأسْتنجِدُ بِمَنْ يَنْشُدُهُ فَلاَ يَجِدُه، حتَّى خِلْتُ أَنّ الجِنَّ اخْتَطَفَتْهُ، أو الأرْضَ اقْتَطَفَتْهُ، فما كابَدْتُ في الْغُرْبةِ، كهذهِ الكُرْبة، ولا مُنيتُ في سَفْرَة، بمِثْلِهَا مِنْ زَفْرَة.

* * *

عضب: حدّ، وأراد بإغماده سكوته. لشأنه: لأمره. مورِد: موضع الماء. نردُه: نقصِده. معرّس: موضع النزول بالسَّحَر للاستراحة. نتوسّده: ننزل فيه. أتفقّده: أطلبه، والتفقّد طلب المفقود، قال الله تعالى: **﴿وتَفقَّد الطَّيْرَ﴾** [النمل: ٢٠]، طلبه بعد ما فقده. أستنجد: أستعين. ينشده: يطلبه. اختطفته: أخذته، بسرعة. اقتطفته: اقتطعته. كابدت: قاسيت. الكربة: الهمّ. مُنيت: بُليت. زفرة: تنفّس المهموم.

ولأبي طالب الرّقّيّ في غلام محرِم: **[الطويل]**

ومشتملِ عِطْفَيْ عفاف وفتنةٍ يرى قَتْلَ مَنْ يهوى إلى النُسك مَسْلَكا

---

(١) صدره:

فإنك والكتاب إلى عليّ

والبيت للوليد بن عقبة بن أبي عقبة في ديوانه ص ٧٠، ولسان العرب (حلم)، وجمهرة اللغة ص ٥٦٥، وديوان الأدب ٢/ ٢٥٠، وتاج العروس (أدم)، وبلا نسبة في تهذيب اللغة ٥/ ١٠٧، ومقاييس اللغة ٢/ ٩٣، ومجمل اللغة ٢/ ١٠٢، والمخصص ٤/ ١٠٨.

جَنَى اللحظُ من خدّيه وَرْداً مكفوراً ... ومِنْ عارضيه ياسميناً ممسَّكَا

فيا رائحاً منه بأوفر فتنةٍ ... تجهَّز لعام بعد هذا لعَلكا

وقال صالح بن موسى: [السريع]

عشقتُ صوفيًّا له شاهدٌ ... يقيم عذْري عند عُذَّالِي

قد عُبِدِ اللَّهُ بأحواله ... فليتَه ينظُر في حالِي

المقامة الثانية والثلاثون

وَتعرف بالطيبيَّة

حكى الحارث بن همام، قال: أجْمَعتُ حين قَضَيتُ مَنَاسِكَ الحجّ، وأَقَمْتُ وظائف الْعَجّ والثَّجِّ، أن أقْصِدَ طَيْبَة، مع رُفْقَةٍ مِنْ بني شَيْبَة؛ لأَزورَ قَبْرَ المُصْطَفى، وَأَخرُجَ من قَبيلِ مَنْ حَجَّ وَجَفَا، فأُرْجِفَ بأنَّ الْمَسَالِكَ شَاغِرَة، وَعَرَبَ الْحَرَمينِ مُتَشاجِرَة، فحِرْتُ بَيْنَ إشْفَاقٍ يُثَبِّطُنِي، وأَشْوَاقٍ تُنشِّطُنِي؛ إلى أنْ أُلْقِيَ فِي رُوعِي الاسْتِسْلاَم، وتغليبُ زِيَارَةِ قَبْرِه عَلَيْهِ السَّلاَمَ فَأَعْتَمْتُ الْقُعْدَةَ، وَأَعْدَدْتُ الْعُدَّةَ، وَسِرْتُ والرُّفقَةَ، لاَ نَلْوِي على عُرْجَةٍ، وَلاَنَنِي في تأوِيبٍ ولا دُلْجَةٍ، حَتَّى وَافيْنَا بنِي حرْب، وقد آبُوا مِنْ حَرْب، فأزْمَعْنَا أَنْ نَقَضِّي ظِلَّ الْيَوم، فِي حلّةِ الْقَوْم.

* * *

أجمعت: عزمتُ عليه كأنه جَمع نفسه له. ومناسك الحج: متعبّداتُهُ. وظائف: لوازم، والوظيفة: النصيب الذي يلزمك عزمُه. العجّ: رفع الصوت بالتَّلبية، وكانوا في الجاهلية إذا أتَمُّوا حجَّهم يتفاخرون بمآثر آبائهم، فأمِرُوا بالثناء على الله تعالى. والثّجّ: إراقة الدماء، وعجّ يعِجّ عَجًّا وعجيجاً: رفع صوته، وثَجَجْتُ الدمع، أثجّه: أسلته، وهو لازم ومتعدّ. وسئل رسول الله ﷺ عن أفضل الأعمال فقال: «العجّ والثّج»[1].

طَيْبة: مدينة النبي ﷺ. بنو شيبة: حَجَبة البيت، وشيبة هو عبد المطلب، وسُمّيَ بذلك، لأنه نشأ بالمدينة عند أخواله صغيراً، فلما مات أبوه هاشم ذهب إليه المطلب، فأتى به فرآه معه أهلُ مكة فقالوا: ما هو إلا عبد اشتراه، فغلب عليه عبدُ المطلب. جَفَا أراد به قول النبي ﷺ: «مَنْ حَجّ البيت ولم يَزُرْني، فقد جفاني، ومَنْ زارني بعد وفاتي فكأنما زارني في حياتي».

وقال رسول الله ﷺ: «من جاءني زائراً لا يهمّه إلا زيارتي كان حقًّا على الله أن

(١) أخرجه الترمذي في الحج باب ١٤، وتفسير سورة ٣، باب ٦، وابن ماجه في المناسك باب ٦، ١٦، والدارمي في المناسك باب ٨.

أكون له شفيعاً يوم القيامة»[١]. وفي رواية: «مَنْ زار قبري وجَبَتْ له شفاعتي»[٢].

وأرجَف الرَّجل: خاض في الفتنة والأخبار المسيئة. وشغَر الطريق: خلا من حُماته والمدينةُ خلتْ من حماتها، وبلد شَاغر، بعيد من القاضي والسلطان، فلا يمتنع مِنْ غارة أحد، والشّغر: التفرقة، ومنه: خرجوا شَغَر بَغَر، أي تفرّقوا، وشغر عن بلده شغراً وشغاراً، إذا طرحوه ونفوْه، واشتغرَتِ الحربُ بينهم: اتَّسعتْ وعظمت، وامرأة شاغرة، إذا رفعت رجليْها لكلِّ من نكحها، والمعنى أنّ المسالك شاغرة، أي أنّ الطرق مضطربة خالية من حماتها. الحرمين: مكة والمدينة. متشاجرة؛ مختلفة. إشفاق: خوف. يثبِّطني: يحبسني. تنشِّطني: تحرّضني. رُوعي: نَفْسي. الاستسلام: الانقياد لأمر الله تعالى. أعتمت: اخترت. القُعْدة: الراحلة المتّخذة للركوب. تلوِي: تعطف. عُرْجة: شيء يُشغل ليُعَرج عليه. نَنِي: نفتر، وتأويب ودُلجة: مشي النّهار والسَّحر، والدُّلجة، بضم الدال: الاسم من الإدلاج، وهو سير جميع الليل، والتأويب: سير النهار أجمع، والدَّلجة؛ بفتح الدال من الإدلاج بوزن الافتعال؛ وهو أن يسير من آخر الليل. يعقوب: خرجنا بدُلجة ودَلَجْة: إذا خرجوا في آخر الليل. وافينَا: وصلنا. آبوا: رجعوا. أزمعنا: عزمنا. نقضِّي: نتِمّ، أراد عزمنا على أن ننزل ونتمّ بقية يومنا عندهم، وظلُّ الشيء إنما يبقى ببقائه. والحِلَّة. النزول، والقوم: اسم للجمع، والحِلّة هيئة الحلول، والحِلّة مجلس القوم ومجتمعهم، لأنّهم يحلّونه، والجمع حِلال، والحِلّة جماعة بيوت الناس.

* * *

وبينما نَحْنُ نَتَخَيّرُ الْمُناخَ، ونَرُودُ الوِرْدَ النُّقَاخ، إذْ رَأَيْنَاهُمْ يَرْكُضُونَ، كَأَنَّهُمْ إلى نُصُبٍ يُوفِضُون، فَرَابَنَا انْثِيالُهُمْ، وسَأَلْنَا مَا بالُهُمْ؟ فقيلَ: قَدْ حَضَر نادِيَهُمْ فقيهُ الْعَرَبِ؛ فإهرَاعُهُمْ لِهَذَا السَّبَب؛ فقلْتُ لِرُفقَتِي: أَلاَ نَشْهَدُ مَجْمَعَ الحَيّ، لنتبيَّنَ الرُّشْدَ من الْغيّ! فقالوا: لَقَدْ أَسمَعْتَ إذْ دَعَوْتَ، ونَصَحْتَ وَمَا أَلَوْت.

* * *

المُناخ: موضع النزول. نَرُود: نطلب. الوِرْد النُّقاخ: الماء البارد العذب، وأنشد أبو عليّ: **[الوافر]**

تـركـتُ الـنَّـبـيـذ لأهـل الـنـبـيـذِ   وأصـبـحـت أشـرب عـذبـاً نُـقـاخـا

سُمّي نقاخا، لأنه ينقخ الفؤاد ببرده، أي يكسره. يركضون: يجرون مسرعين. نُصب: صنم، كانوا في الجاهلية ينصبونه، ويذبحون عليه لأوثانهم، وجمعُه أنصاب،

(١) أخرجه الترمذي في المناقب باب ٦٧، ومالك في فضائل المدينة حديث ٣.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٤/١٠٨.

والنَّصَب: الشرّ، قال الله تعالى: ﴿بِنُصْبٍ وعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١]. يُوفضون: يُسرعون. إهراعهم: إسراعهم، وأهرع: أسرع فزِعاً مرتعداً. وَيُهْرَعون: يُستحثُّون. ألوتُ: قصرت.

ثمَّ نَهَضْنَا نتَّبعُ الْهَادِي، وَنَؤُمُّ النَّادِي، حتَّى إذا أَظْلَلْنا عَلَيْهِ، واسْتَشْرَفْنَا الفَقِيهَ المنهودَ إليه، أَلْفَيْتُهُ أبا زَيْدٍ ذَا الشُّقَر والبُقَرِ، والْقَوَاقِرِ والْفِقَر، وقدْ اعْتَمَّ الْقَفْدَاء، واشْتَمَلَ الصَّمَّاء، وقَعَدَ القُرْفَصَاء، وأَعْيَانُ الحيّ بِهِ مُحْتَفُّونَ، وأخْلاَطُهُمْ عَلَيْهِ مُلْتَفُّونَ، وَهُوَ يقول: سَلُونِي عن المُعْضِلاَتِ، واسْتَوْضِحُوا منِّي المُشْكِلاَت، فوالَّذِي فَطَرَ السَّمَاء، وعَلَّمَ آدَمَ الأسْمَاء، إنِّي لَفَقِيهُ الْعَرَبِ الْعَرْباء، وأعْلَمُ مَنْ تحتَ الْجَرْبَاءِ. فَصَمَدَ لَهُ فتًى فتيقُ اللِّسَانِ، جَرِيءُ الْجَنَانِ، وقال: إنِّي حاضرتُ فُقَهاءَ الدُّنيا، حتَّى انْتَخَلْتُ مِنْهُمْ مائة فُتْيَا، فإنْ كُنتَ مِمَّنْ يَرْغَبُ عن بناتِ غَيْر، ويَرْغَبُ مِنَّا في مَيْرٍ، فاسْتَمِعْ وأجِبْ، لِتُقَابَلَ بِمَا يَجِب، فقال: اللَّهُ أَكْبَرُ، سَيَبِينُ الْمَخْبَر، ويَنْكَشِفُ المُضْمَر، فاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ.

* * *

الهادىء: الدليل. نؤمّ: نقصد. النادي: مجتمَع القوم. أظللنا: قربنا منه ودنوْنا وأشرفنا عليه. استشرفنا: نظرنا وتأمّلنا، والإستشراف: أن تضع يدَك على حاجبك من الشمس إذا أردت النَّظر إلى شيء يبعدُ منك. المنهود: المقصود، ونهدت إليه ونهضت بمعنًى، ونَهَد ينَهد نَهَداً، أي شخص ونهض. وقيل: أكثر ما يستعمل هذا في الحرب، يقال: نهد إلى العدوّ، إذا نهض ليقاتله. ألفيتُه: وجدته. ذا الشُّقر والبُقر: صاحب الدواهي، يقال: جاءنا بالشُّقَر والبُقر، إذا جاء بالكذب المستفظَع، وجاء بالشّقَارى والبُقّارَى، أي بالكذب. والفواقر: قواصم الظَّهر، يراد بها الدواهي، والفاقرة: الكاسرة للفَقار، وهو عظم الصُّلْب. والفِقَر في النثر، مثْلُ القوافي في الشعر. القَفْداء، بالقاف قبل الفاء: أن يلفّ عمامته على رأسه ولا يرسل منها شيئاً. ابن سيده: القَفْداء: والقَفْد، إذا لوى عمامته على رأسه، ولم يُسْدِلها، قال الأزهريّ رحمه الله تعالى: العمّة القَفْداء معروفة، وهي الميْلاء، والسنّة أن يتعمّم ويُسْدِل خلف ظهره.

ابن عمر رضي الله عنهما. كان النبي ﷺ إذا تعمّم سدَلَ عمامته بين كتفيه[1]. والصَّمَّاء: أن تُجلِّل نفسك بالثوب غير المخيط، ولا ترفع شيئاً من جوانبه، فتكون فيه فُرْجة تخرج منها اليد، وإنما نَهَى عن ذلك مخافةَ أن تصيبَه شدّة في تلك الحالة، وهو لا يقدِر على إخراج يده، فيدفعها فيهلِك.

---

(١) أخرجه الترمذي في اللباس باب ١٢، بلفظ: «إذا اعتمَّ سدل عمامته بين كتفيه».

وقال الفنجديهيّ: رأيتُ بخط الحريريّ: اشتمل الصَّمَّاء، أي التحف بثوب جَلّل جسده، وقيل لها صمّاء لأنها لا منفذ فيها كالصخرة الصماء، التي لا صَدْع فيها ولا خَرْق، وهي عند الفقهاء أن يشتمل بثوبٍ واحد ليس عليه غيره، ثم يرفعه من أحد جانبيه فيضعه على مَنكبِيه، فتبدو عورته، فنُهي عن ذلك.

وقال الأزهريّ: هذا أصَحّ الكلام، والفقهاء أعلم بتأويل هذا. والقُرْفُصاء: أن يقعد على إليَتيْه، وينصب ساقيه، ويلصق فخِذيه ببْطنه ويحتبي بيديه فيضعهما على ساقيه، قاله أبو عبيد. وقيل: هي جلسة المحتبِي، ثم يرفع فَخِذَيْه وركبتيه إلى صدره، ويدير يديه عَلَى ساقيه، ويشدّهما، فإذا فعلت ذلك بالرجل وشدّدت يديك عليه، فقد قرفصتَه.

الفنجديهي: رأيت بخط الحريريّ: معناه أن يَحْتَبِيَ بيديه، قال أبو أمامة: كان النبيّ ﷺ يجلس القُرْفصاء فيضع يده اليمنى على الشمال عند المفصل[1]. وتقرفَص الرّجل، إذا جمع يديه وانضمّ من جَرَب أو قروح به.

أعيان: أشراف. محتفّون: محلّقون، والمنزل محفوف بالناس إذا اجتمعوا بحفافيه، أي بجانبيه. والأخلاط: الدُّون من الناس. والمعضِلات: الغامضات من الكلام الصَّعْب. واستوضحوا، أي طلبوا منّي إيضاحها، أي بيانها. فَطَر: خلق، وفطر الله الخلق ابتدأ خلقهم، قال ابنُ عباس: ما كنت أدري ما فاطرُ السموات والأرض حتى احتكم إليّ أعْرابيّان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتُها، أي ابتدأتها، وقال الله تعالى: ﴿**إلاَّ الذِّي فَطَرَنِي**﴾ [هود: ٥١] أي خلقني. ويتفطّرن: يتشقَّقن، وانفطرت: تشقّقت. وعلّم آدم الأسماء كلّها، أي علمه أسماء كل شيء من المخلوقات. وفقيه العرب، أي عالمهم، وقال تعالى: ﴿**ليتَفَقَّهُوا في الدين**﴾ [التوبة: ١٢٢] أي ليكونوا علماء به، وكلّ عالم بشيء فهو فقيه فيه، ويقال: فقهت عنك، أي فهمت، وفقهت فقهاً، أي صرت فقيهاً، وهو الحاذق بما يعلمه، وفقهت الرجل: غلبته في الفقه، العَزْباء: الخالصة، وهذا الإدّعاء الذي يُدعى الآن يسمى انتحال العلم.

وقال بعض الحكماء: لا ينبغي لأحد أن ينتحل العلم.

وقال مقاتل بن سليمان يوماً، وقد دخلَته أبّهة العلم: سلوني عمّا تحت العرْش إلى أسفل الثرى، فقال له رجل: ما نسألك عن شيء من ذلك، إنّما نسألك عما معك في الأرض، أخبِرْني عن كلْب أهل الكهف ما كان لونه؟ فأفحمه.

ولما شُهِرتْ تآليفُ ابن قتيبة، ولُحِظ بعين العالم المتفنّن، صَعِد المنبر، وقد غَصَّ المحفل واعتلى، تبريزاً على علماء وقته، مع فضل جاه اشتمل به من السلطان، فقال:

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب باب ٢٢، بلفظ: «رأت النبي ﷺ وهو قاعد القرفصاء»، ورواه ابن الأثير الجزري في النهاية في غريب الحديث ٤/ ٤٧. بلفظ: «فإذا رسول الله ﷺ جالس القرفصاء».

ليسألني مَنْ شاء عمّا شاء، فقام إليه أحد الأغفال، فقال له: ما الفتيل والقِطمير؟ فلم يُحر جواباً، وأفحَمه ونزل خجلاً، وانصرف إلى منزله كسلاً. فلما نظر اللفظتين وجد نفسه أذْكَرَ الناس بهما، وهذا من عقاب العُجْب.

ورأيت في بعض الأخبار أنّ ابنَ قتيبة سُئِل عن حرف لغة فلم يعلمْه وقت السؤال ـ وكان أبيض مشرباً بحمرة ـ فلما وجد الحرف غلبت الحمرة على وجهه، حتى طفىء أسفاً على فَوْتِ الحرْف وقت الحاجة، ولعله كان ما قدَّمنا في الحكاية.

وقال قتادة: ما سمعت قطّ شيئاً إلا حفظتُه، ولا حفظت قطّ شيئاً فنسيته. ثم قال: يا غلام هات نعلي، فقال: هما في رجليك، ففضحه الله.

وقال قَتَادة: حفظت ما لم يحفظ أحدٌ قطّ، ونسيت ما لم ينس أحد قطّ، حفظت القرآن في سبعة أشهر، وقبضت على لحيتي، وأنا أريد أن أقطع ما تحت يدي، فقطعت ما فوقها.

وكان بشريش رجل من أهل الدين والورَع، وحجّ في أيام أبي حامد وصحبه، ففاتت صلاة الصبح يوماً لأحد أصحابه، فلامه على ذلك، فاعتذر له صاحبه فلم يعذِره. ثم قال له عَلَى معنى الترغيب: كَمُلتْ لي اليوم عشرون سنة، ما فاتتني صلاة الصبح في جماعة، فلمّا كان في اليوم الثاني أدرك الحاج من صلاة الصبح ركعةً واحدة، فلما لَقِيَهَ صاحبه بعد الصلاة قال له: هذا كما رأيت. وإنما ذكرت عملك على معنى التبصرة والإرشاد، فلو ذكرتَه على غير ذلك لفاتتك، وإذا كان موسى كليم الله قد عاتبه الله على الانتحال، حين سئل: أيّ الناس اليوم أعلم؟ قال: أنَا، وابتُلي بالسفر حتى لقي الخِضْر، وجلس إليه راغباً في أن يعلّمه، والخضر لا ينبسط له في التعليم، ونقَر عصفور في البحر، فقال له الخَضِر: ما علمي وعلمك في علم الله تعالى، إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر.

وروي عن عبد الملك بن حبيب من طريق وهب بن منبّه: أنّ الله تعالى قال لموسى عليه السلام: أتدري لم كلَّمتُك؟ قال: لا يا ربّ، قال: إني اطلَّعت على قلوب العباد فلم أرَ فيها قلباً أشدّ تواضعاً من قلبك، قال المنجم: **[السريع]**

لـكـل شـيء فـي الـورى آفـةٌ ... وآفـة الـمـرء مـن الـكِـبْـرِ

وقال آخر: **[الكامل]**

الـكُـبْـر يـأسٌ والـتـواضـع رفـعـةٌ ... والـمزح والـضحك الـكثير سقـوط

والـحـرصُ فـقـر والـقـنـاعـة رفـعـةٌ ... والـيـأس مـن روح الإلـه قـنـوطُ

فينبغي لكل عاقل أن يقول: ما أمر الله تعالى رسوله ﷺ بقوله: **﴿ربِّ زدني علماً﴾** [طه: ١١٤]، ولا يَرَى لنفسه حظًا، ويشكر الله تعالى على ما أعطاه فهو بالأدب أليق، وبالشرع أوفق.

ومن سخيف الشعر في الانتحال: **[الطويل]**

وما عنَّ لي من غامض العلم غامضٌ … مَدَى الدَّهر إلاّ بتَّ منه على عِلْمِ

وقال عديّ بن الرّقاع: **[الكامل]**

وعلمت حتى ما أشاورُ عالماً … عن علم واحدةٍ لكي أزدادها[1]

وسمعه كُثيّر ينشده الوليد بن عبد الملك، فقال له: كذبت وربّ البيت الحرام، فليمتحنك أمير المؤمنين في صغار الأمور دون كبارها، حتى يتبّين جَهلُك، وما كنتَ قطّ أحمق منك اليوم حين تظنّ هذا في نفسك.

وقال أبو موسى المنجم: ما أحدٌ تمنّيت أن أراه، فلمّا رأيته أمرت بصَفْعِه إلا عديًا، فقيل له: ولم ذلك؟ قال: لقوله هذا البيت، كنت أعرض عليه أصناف العلوم، فكلمّا مرّ عليه بشيء لا يحسنُه أمرت بصفعه.

قوله: وأعلم مَنْ تحت الجرباء: سُمِّيَت السماء جرباء، لأن النجوم فيها كالجَرَب في البدن.

وقال ابن الروميّ في غلام يَهْواه وخرج عليه جُدَريٌّ، وأشار إلى جرب السماء: **[الوافر]**

وقالوا شأنه الجُدَرِيّ فانظرْ … إلى وجهٍ به أثر الكلومِ

فقلت: ملاحةٌ نُثِرت عليه … وما حُسْنُ السّماء بلا نجومِ!

وقال أبو بكر بن السراج في الفتح بن مسروق البلخيّ، وقيل: قالَهما في ابن ياسر المغنّي، وكان من أحسن الناس وجهاً: **[السريع]**

لي قمر جُدِّر لمّا استوَى … فزاده حسناً وزاتْ الهمومْ

كأنَّما غنّى لشمس الضحى … فنقّطته طرباً بالنجومْ

وقال آخر: **[البسيط]**

كأن آثار تجديرٍ بوِجْنَتِهِ … عشر معوّرة في صحف ورّاقِ

* * *

وقال ذو الوزارتين أبو الوليد بن زيدون:

قالَ لي اعتلّ مَنْ هويتَ حسودُ … قلت أنتَ العليلُ ويْحَكَ، لا هُو

ما الّذي تنقِمُونَ من بثَرَاتٍ … ضاعفتْ حسنَهُ وزانت حلاهُ

وَجْهُه ـ في الصَّفاء والرقة ـ الماء … ءُ، فلاَ غَرْوَ أنْ حَبابٌ علاهُ

---

(١) البيت في الأغاني ٨/ ٣٣.

قوله: صمَد، أي قصد. فَتِيق: طَلِيق. جريء الجنان: ماضي القلب قويّه. انتخَلْت: اخترت. الفتيا: لغة في الفَتْوى، وهما اسمان يُوضعان موضع الإفتاء، تقول: إفتاء وفُتْيَا وفَتْوى.

بنات غير، كناية عن الكذب. الفنجديهيّ. رأيت بخط الحريريّ: بَنَات الغير: الكذب.

الفرّاء: يقال للرجل، أبو بنات عبر، وهو الباطن بعين مهملة وباء منقوطة، واحدة.

مَيْر: رزق وصلة، وأصله جَلْب الطعام للأكل. الله أكبر: حكَى أهل اللغة أنّ معناه كبير، وقال الفرزدق: **[الكامل]**

إنّ الَّـذِي سَـمَـكَ الـسَّـمَـاءَ بَـنَـى لَـنَـا ... بـيـتـاً دعـائـمُـه أعـزُّ وأطْـوَلُ(١)

أي عزَيزة طويلة:

قال معن بن أوس: **[الطويل]**

لَـعَـمْـرُكَ مـا أدري وإنّـي لأوْجَـلُ ... عَـلَـى أيّـنـا تَـغْـدُو الـمـنـيّـة أوّلُ(٢)

أي لوجل، وقال النّحويون: الكسائي والفراء وهشام معناه: أكبرُ من كل شيء، فحذفت مِنْ لأنّ أفعل خبر، كقولك: أبوك أفضل وأعقل، أيْ من غيره، ولو كان اسماً لم يحذف منه شيء، ألا ترى أن مَنْ قال: أخوك أفضل لم يقل إن أفضل أخوك، فحذفت «مَنْ» في الخبر، لأن الخبر يدلّ على أشياء غير موجودة في اللّفظ، نحو أخوك قام، فيدلّ على المصدر والزمان والمكان والاسم لا يحذف منه شيء يدلّ عليه. والمخبَر، مصدر خبرت خَبْرَةً ومخْبَراً، إذا جرّبتَه، فأراد: سيتبيّن لك بالتجربة ما ادّعيته من العلوم، وينكشف لك ما أضمرته منها. اصْدَع: تكلّم وأظهر، وصدعتُ بالحق تكلّمتَ به جهاراً، وقوله تعالى: ﴿**فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ**﴾ [الحجر: ٩٤] أي أظهرْ دينك.

---

(١) البيت في ديوان الفرزدق ٢/ ١٥٥، والأشباه والنظائر ٦/ ٥٠، وخزانة الأدب ٦/ ٥٣٩، ٨/ ٢٤٢، ٢٧٦، ٢٧٨، وشرح المفصل ٦/ ٩٧، ٩٩، والصاحبي في فقه اللغة ص ٢٥٧، ولسان العرب (كبر)، (عزز)، وتاج العروس (عزز)، والمقاصد النحوية ٤/ ٤٢، والبيت بلا نسبة في شرح الأشموني ٢/ ٣٨٨، وشرح ابن عقيل ص ٤٦٧.

(٢) البيت لمعن بن أوس في ديوانه ص ٣٩، وخزانة الأدب ٨/ ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٨٩، ٢٩٤، وشرح التصريح ٢/ ٥١، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ١١٢٦، ولسان العرب (كبر)، (وجل)، والمقاصد النحوية ٣/ ٤٩٣، وتاج العروس (وجل)، وبلا نسبة في الأشباه والنظائر ٨/ ١٤٠، وأوضح المسالك ٣/ ١٦١، وجمهرة اللغة ص ٤٩٣، وخزانة الأدب ٦/ ٥٠٥، وشرح الأشموني ٢/ ٣٢٢، وشرح شذور الذهب ص ١٣٣، وشرح قطر الندى ص ٢٣، وشرح المفصل ٤/ ٨٧، ٦/ ٩٨، ولسان العرب (عنف)، (هون)، والمقتضب ٣/ ٢٤٦، والمنصف ٣/ ٣٥، وتاج العروس (عنف)، (هون).

وإنما اعتمد الشيخ أبو محمد الحريري في شرح الألفاظ التي ألغز بها على الوجه المعمّى؛ ولنشرح ما سوى ذلك مما اشتملتْ عليه إن شاء الله تعالى.

* * *

قال: ما تَقُولُ فِيمَن تَوَضَّأَ ثُمَّ لَمَسَ ظَهْرَ نَعْلِهِ؟ قال: انتقَض وُضوءُهُ بِفِعْلِهِ (النَّعْل: الزَّوجة).

قال: فإن توضّأ ثُمَّ أَتْكَأَهُ الْبَرْد؟ قال: يجدِّدُ الوُضوءَ من بَعْدُ (الْبَرْد: النوم).

قال: أَيَمْسَحُ المتوضّىء أُنْثَيَيْه؟ قال: قَدْ نُدِبَ إليه، ولم يوجَبْ عليه. (الأنْثيان: الأُذُنان).

قال: أيجُوز الوضوء مِمّا يَقْذِفُهُ الثُّعبان؟ قال: وهَلْ أنظف مِنْهُ لِلْعُرْبَان! (الثُّعبان: جمع ثَغْب، وهو مَسيلُ الوادي).

قال: أَيُسْتَبَاحُ ماءُ الضَّرير؟ قال: نعم، وَيُجتَنب ماءُ الْبَصِير. (الضَّرير: حَرْف الوادي. والبَصير: الكَلْب).

قال: أيحِلّ التَّطَوُّف في الرَّبيع؟ قال: يُكْرَهُ ذلك لِلْحَدَثِ الشَّنيع. (التَّطوُّف: التَّغوُّط. والرَّبيع: النَّهْر الصَّغير).

* * *

قوله: لمسَّ، جرَّ أَصابعه عليها. أتكأه: جعله مُتّكِئاً. يقذفه: يطرحه من بطنه. والضّرِير: الأعمى. والبَصِير: البَصَر.

والطّوف: مصدر طاف حَوْل الشيء إذا دار به. والحدَث: الغائط، وجعله شنيعاً لأن الإنسان إذا فعله في الماء ظهر على وجه الماء فكانت به شنعة، واستُقذر الماء فلم يستعمل، وإن كان مباحاً استعماله.

* * *

قال: أيجب الغُسْلُ على مَنْ أمْنَى؟ قال: لا ولو ثنّى. (أمْنَى: نزل مَنْي، ويقال منه: مَنَى وأمْنَى وامْتَنَى).

قال: فَهَلْ يجبُ عَلَى الجُنُب غَسْلُ فَرْوَتِهِ؟ قال: أجل وَغَسْلُ إبْرَتِهِ (الفرْوَة: جِلْدَةُ الرَّأسِ، والإبْرَةُ: عَظْمُ المِرْفَق).

قال: أيجبُ عَلَيْهِ غَسْلُ صَحِيفتِه؟ قال: نعم كَغَسْلِ شفتِهِ (الصَّحيفة: أسِرَّةُ الْوَجْه).

قال: فإن أخَلَّ بِغَسْلِ فَأسِهِ؟ قال: هو كما لَوْ أَلْغَى غَسْلَ رَأسِه (الفأس: العَظْم المشرِفُ عَلَى نُقْرةِ القفا).

قال: أيجوزُ الغُسْلُ فِي الجرابِ؟ قال: هو كالْغُسْلِ في الجِباب. (الجِراب: جَوْفُ البئر).

قال: فما نَقولُ فيمن تيمّم ثم رأى رَوْضاً؟ قَالَ: بَطَلَ تَيَمُّمُهُ فليتوضّأ (الرَّوْض ها هنا: جَمْع رَوْضة، وهي الصُّبابَة تَبْقَى في الحوْضِ).

* * *

أخلّ: نقص. نُقْرَة: حُفرة. الرَّوض: مواضع الغيث. والصُّبابة: البقيّة.

* * *

قال: أيجوزُ أن يَسْجُدَ الرَّجل في العَذِرَة؟ قال: نعم ولْيجانب الْقَذِرَة (العَذِرة: فناءُ الدار).

قال: فهَلْ له السُّجودُ عَلَى الخِلاَف؟ قال: لا، ولا عَلَى أَحدِ الأطراف. (الخِلاَف: لكُم).

قَالَ: فإنْ سَجَدَ على شِمَالِهِ؟ قال: لا بأسَ بِفعَاله. (الشِّمال: جمع شَمْلَة).

قال: فهلْ يجوزُ السُّجود عَلَى الكُرَاعِ؟ قال: نَعَمْ، دُون الذِّرَاع (الكُراع: ما اسْتَطَالَ من الحَرّة، وهي أرضٌ ذاتُ حجارةٍ سودٍ).

قال: أيُصَلِّي عَلَى رَأسِ الْكلْب؟ قال: نَعَمْ، كَسَائِر الْهَضْبِ (رأس الكلب: ثَنِيّةٌ مُعْروفَة).

قال: أيجوزُ للدّارِسِ حَمْلُ المصاحِف؟ قال: لا، ولا حَمْلُها في الملاحِف. (الدَّارِس: الحائض).

قال: ما نقول فيمَن صلّى وعَانتُه بَارِزَة؟ قال: صَلاَته جائِزة. (الْعَانة: الجماعة من حُمُر الوحش).

* * *

والكُراع: الرِّجْل، وكُراع كلِّ شيء طرفه. والْحَرّة: أرض فيها حجارة سُود. والهُضب: جمع هَضَبَة وهي الصخرة العظيمة، والكُذْية الصغيرة، وقيل: الهضبة الجبل

المنبسط على وجه الأرض، وقيل: الجبل الطويل المتّسع والجمع هضاب. ثَنيّة: عَقَبة.

* * *

قال: فإن صَلَّى وعَلَيْهِ صَوْمٌ؟ قال: يُعِيدُ ولَوْ صَلَّى مائة يوم. (الصَوْم: ذَرق النَّعام).

قال: فإن حَمَل جِرْواً وصَلَّى؟ قال: هُوَ كما لَوْ حَمَلَ باقِلّي. (الجِرْو: الصّغار من القِثَّاء والرّمان).

قَالَ: أتَصحُّ صَلاةُ حَامِلِ الْقَرْوة؟ قَالَ: لا، ولو صَلَّى فَوْقَ المَرْوة (القَرْوَة: مَيلَغَةُ الْكَلْبِ).

قَالَ: فإنْ قَطَر عَلَى ثوْب المُصَلِّي نَجْو؟ قال يَمْضِي في صَلاَتِهِ ولا غَرْو. (النَّجْو: السَّحَاب الّذِي قدْ هَرَاقَ ماءه).

قال: أيجوزُ أن يَؤُمَّ الرِّجالَ مُقَنَّع؟ قَالَ: نعم، ويؤمُّهُمْ مُدَرَّع. (المقنَّع: لابس المِغْفَر، والمدرَّع: لابس الدِّرْع).

قال: فإن أمَّهُمْ مَنْ في يَدِه وَقْفٌ؟ قال: يُعِيدُون ولَوْ أنَّهم ألف (الوَقف: السِّوَارُ من الْعَاج أو الذّبْل، وأراد أنّه لا يَجُوز للرجال الائتمامُ بالنِّساء).

الميلغَة: ما يَشْرب فيه الكلب الماء، وهي من وَلغ الكلبُ، إذا تَناول الماء بلسانه والقَرْوة: نَقِير من خشب تشرب منه الكلاب. والقِثّاء: هو الفَقُّوس. والنَّجْو: هو الحدَث لا غَرْو: لا عجب. والمقنَّع: لابس القِناع، يريد المرأة. والوقْف: ما وُقِف وحبس من الأموال على المساكين والمساجد. والذّبل: جلد السُّلَحفاة البريّة، ويقال: إنها تعظم، فربّما يضع التاجر ليلاً عليها حمله يظنّها صخرة فترتحل به، ويستعمل من الطّبق الذي عليها خلاخل للحشَم والعبيد. والعاج عَظم الفيل.

* * *

قال: فإن أمَّهُمْ مَنْ فَخِذُهُ بادِية؟ قال: صَلاتُهُ وصَلاَتُهُمْ ماضية. (الفخِذ: العشيرة، وبَادِيةٌ، أي يسكنون البَدْو، واختار بعض أهل اللغة تسْكين الخاء مِنْ هذه الفَخِذ، ليحصُل الفرق بينها وبين العضو).

قال: فإنْ أمَّهُمَ الثور الأجمّ؟ قال: صَلِّ وخَلاَكَ ذمّ. (الثَّور: السَّيِّد. والأجَمّ: الذي لا رُمْحَ معه).

قال: أيَدْخُلُ القَصْرُ في صَلاَةِ الشَّاهِدِ؟ قال: لا، والغَائبِ الشاهد. (صلاة الشّاهِد: صلاة المغرب، سُمِّيَتْ بذلك لإقامتها عِنْد طُلُوع النجم، لأنّ النّجْم يُسمَّى الشاهد).

قال: أيجوز لِلْمَعْذُورِ أنْ يُفْطِرَ في شَهْرِ رَمَضان؟ قال: ما رُخِّصَ فيه إلاّ للصبّيان. (المَعْذُورُ: المخْتُون، وهو أيضاً المُعذّر).

قال: فَهلْ للمعرِّسِ أنْ يأكُلَ فيه؟ قال: نَعَمْ بِمْلِء فِيهِ. (المعرِّس: المسافِر الّذي ينزل في آخر ليله لِيَسْتَرِيحَ ثمّ يرتحل).

قال: فإنْ أفْطَر فيه العُرَاة؟ قال: لا تُنْكِرُ عليهمِ الوُلاة. (العُراة: الّذِينَ تأخذهم الْعُرَواء، وهي الحمّى بِرِعْدَةٍ).

* * *

قال: فإنْ أكَلَ الصَّائمُ بَعْدما أَصْبَحَ؟ قَالَ: هُوَ أَحْوَط له وأصْلَحَ. (أصبح، أي استصْبَحَ بالمصبَاحِ).

قال: فإنْ عَمَدَ لأن أكَلَ ليلاً؟ قال: لِيُشَمِّرْ لِلْقَضَاء ذَيْلاً. (ذكر ابن دُرَيد أنّ اللّيل فَرْخ الحُبارى، وقَالَ غيرُهُ: هُوَ وَلَدُ الكرَوان).

قال: فإن أَكَلَ قَبْل أن تتوارَى البيْضَاء؟ قَالَ: يلزمُه والله القضاء. (البَيْضاء من أسْماء الشّمس).

قال: فإن اسْتَثَارَ الصَّائمُ الكَيْد؟ قال: أَفْطَرَ وَمَنْ أحَلَّ الصَّيْد. (الكَيْد: القيء. واستثاره، أي اسْتَدْعاه).

قال: أَلَهُ أنْ يُفْطِرَ بإلْحَاحِ الطَّابِخ؟ قال: نعم لا بطاهِي الْمَطَابِخ. (الطَّابِخ: الحُمّى الصَّالب).

قال: فإن ضحِكَتِ المرأةُ في صَومْها؟ قَالَ: بَطَلَ صَوْمُ يَوْمِهَا. (ضَحِكت ها هنا، أي حاضتْ، ومنه قوله تعالى: ﴿فضحِكَتْ فَبَشّرنَاهَا بإسْحَاقَ﴾ [هود: ٧١].

قال: فإن ظَهَرَ الجُدَرِيّ عَلَى ضَرَّتِها؟ قال: تُفْطِرُ إنْ آذَنَ بمضرّتها. (الضَّرّة: أَصْلُ الإبْهَامِ، وأصْلُ الثّدْيِ أَيْضاً).

الطَّاهي: طابخ اللّحم. والصَّالب: الحمّى لا ترعد، وإلحاحها: ملازمتها.

الجُدَرِيّ: قروح صغار تخرج على الصبيان. وضَرّتها: شريكتها في زوجها.

* * *

قال: ما يجبُ في مالة مِضْباحٍ؟ قال: حُقَّتانِ يا صاح. (المِصْباح: النّاقة التي تُصبح في المبْرك).

قال: فإن مَلَكَ عَشرَ خَنَاجر؟ قال: يُخْرِج شاتين ولا يُشاجر. (الخناجِر: النُّوق الغِزار الدّرّ، واحدتها خِنْجَر وخُنْجُور).

قال: فإن سَمَحَ للسّاعِي بِحَميمَتِه؟ قال: يا بُشرَى لَهُ يَوْمَ قيامَتِه. (السَّاعِي: جابِي الصَّدَقة، والحَميمَة: خِيارُ المَال).

قال: أَيَسْتحِقُّ حَمَلَةُ الأوْزَارِ من الزَّكاةِ جُزًّا؟ قَالَ: نَعَمْ إذا كَانُوا غُزًّى. (الأوْزار: السِّلاَح. وغُزًّى: جمع غازٍ).

قال: أيجوز للحاجِّ أنْ يَعْتَمِرَ؟ قال: لا، ولا أنْ يَخْتَمِرَ. (الاعتمارُ: لُبْس العِمارَة، وهِيَ العمامة، والاختمار: لبس الخِمار).

قال: فَهَلْ لَهُ أن يَقْتُلَ الشُّجاع؟ قال: نعم، كما يقتل السِّباع. (الشُّجَاع: الحيّة).

* * *

الحِقّة: التي استحقّت أن يركب عليها. والخناجر: نوع من السّكاكين الكبار. ويشاجر: يخالف. والجابي: الجامع للصدقة، ومنه الجباية.

والأوزار: أثقال الذنوب. والغُزّي: هؤلاء الرّماة بالنشّاب. ويَعْتَمِر: يحجّ بعمرة. ويختمر: يستعمل الخبز المختمر.

* * *

قال: فإنْ قَتَلَ زَمَّارَةً في الحرَمِ؟ قَالَ: عَلَيْهِ بَدَنَةٌ مِنَ النَّعَمِ. (الزَّمَّارة: النَّعَامة واسْمُ صَوْتِها الزِّمَّار).

قال: فإنْ رَمَى ساقَ حُرٍّ فجدَّلَهُ؟ قال: يُخرِج شاةً بَدَلَهُ. (سَاق حُرّ: ذَكَر القَمَارِي).

قال: فإن قَتَل أَمَّ عَوْفٍ بَعْدَ الإحرَام؟ قَالَ يتَصَدَّقُ بِقُبْضَةٍ مِنْ طَعَامٍ. (أم عَوْف: الجَرادة).

قال: أيجبُ عَلَى الحاجِّ اسْتِصْحَابُ الْقَارِبِ؟ قالَ: نعم، ليسوقَهُمْ إلى الْمَشَارِبِ. (القارِب: طالبُ المَاء بالليْلِ).

قَالَ: ما تَقُولُ في الْحَرَامِ بَعْدَ السَّبْتِ؟ قَالَ: قدْ حَلَّ في ذَلِكَ الوْقتِ. (الحَرَام: المحرَّم، والسَّبْتُ: حَلْق الرَّأس. وحَلَّ، من تحليل الْحَجّ).

قال: ما تقولُ فِي بَيْعِ الكمَيت؟ قال: حَرَامٌ كبَيْعِ الميْتِ. (الكُمَيْت: الخَمْر).

* * *

والزَّمارة: المرْأة تَضْرب بالمزمار. والبَدَنة الناقة، سُمِّيت بذلك لضخامتها وبَدُن الرّجُل ضَخُم. جَدّلَهُ: قتله وطرحَه على الجِدالة، وهي الأرض. ومن أبيات اللّغز في الجرادة:

ومـا صَـفْـرَاءُ تُـكْـنَـى أمّ عَـوْفٍ كـأنّ سُـوَيْـقَـتَـيْـهـا مِـنْـجـلاَنِ

والقارب: السفينة الصغيرة. والكُمَيْت: الفرس الأسود العُرْف والذَّنَب. والكُمْتَة: حُمْرَة تضرب إلى السواد.

* * *

قال: أيجوز بَيْعُ الخلّ بلحْم الجَمْل؟ قال: ولا بلحْم الْحَمَل. (الخلّ ابنُ المخاض، ولا يحلّ بيعُ اللّحم بالْحَيوان، سواء كان من جِنْسه أو مِنْ غير جنسه).

قال: أيحِلّ بيعُ الهَدِيّة؟ قال: لا ولا بَيْعُ السَّبِيّة. (الهديَّة، بالتَّشديد: ما يُهْدَى إلى الكعبة، ويقال فيها هَدْيَة، بتسكين الدّال وتخفيف الياء. والسبيَّة: الخمرْ).

قال: ما تقول في بيع العَقِيقة؟ قال: محظورٌ على الحقيقة. (العَقِيقة: ما يُذْبحُ على المولود في اليوم السَّابع من وِلادته).

قال: أيجوز بيعُ الدَّاعي، على الرَّاعي؟ قال: لاَ، ولاَ على السَّاعي. (الدَّاعي: بقية اللّبن في الضَّرْع، والسَّاعي: جَابِي الصَّدَقة).

قال: أيُبَاع الصَقْر بالتَّمر؟ قال: لاَ، ومالِك الخلْق والأَمْر. (الصَّقْر: الدِّبس).

قال: أيَشْترِي المسْلِم سَلَب المُسْلِمَاتِ؟ قال: نَعَم، ويورَثُ عنه إذا مات. (السَّلَب: لِحاء الشَّجر، وهو أيضاً خُوصُ الثُّمام).

* * *

والحَمل: الخروف. والعَقِيقة: خَرَزة حمراء. محظور: ممنوع. والصَّقْر: من جوارح الطير. الدِّبْس: عسل التّمر. خَوص: ورق. الثُّمام: شجر ضعيف وَرَقُه كورق الدَّوْم مزدوجة.

* * *

قال: فهل يجوزُ أَنْ يُبتَاع الشَّافِع؟ قال: ما لجوازه من دافع (الشافع: الشاة التي يتبعها سَخْلُهَا).

قال: أيُبَاعُ الإبريقُ على بني الأصْفَر؟ قال: يُكْرَه كبيع المَغْفَر. (الإبريق: السَّيف الصّقيل الكثير الماء. وبنو الأصفر: الرّوم).

قال: أيجوز أن يبيعَ الرّجل صيفيّه؟ قال: لا، ولكِنْ ليبعْ صفيَّهُ. (الصيفيّ: الولد على الكِبَر، والصفّي: الناقة الغزيرة الدّرّ).

قال: فإنِ اشتَرَى عبْداً فبانَ بأمّه جِراح؟ قال: ما فِي رَدّهِ من جُناح. (الأمّ: مُجْتَمعُ الدّمَاغ).

قال: أتثبت الشُّفْعَة للشريك في الصحراء؟ قال: لا، ولا للشْرِيكِ في الصَّفْرَاء. (الصّحْرَاء: الأتان التي يُمازج بياضَها غُبْرة والصّفرَاء: النّاقة).

قال: أيحِلّ أنْ يُحْمَى ماءُ البِئْرِ والْخَلاَ! قال: إن كان في الْفَلاَ فَلاَ. (يُحْمَى: يمنع. والخَلاَ: الكَلأ).

* * *

الإبريق: آنية الخمر. الصَّيْفيّ: ما ولد في زمن الصيف. والصَّفيّ: الصاحب الخالص. والدّرّ: اللبن. وبان: ظهر. وجَنَاح: إثم. والأتان: الأنثى من الحمير.

* * *

قال: ما تقول في مِيتة الكافِرِ؟ قال: حِلٌّ للمقيم والمسافر. (الكافر: البحر، وميتته، السَّمَكُ الطَّافِي فوق مائِه).

قال: أيجوز أن يُضَحّي بالحُول؟ قال: هو أجْدَرُ بالقُبُول. (الحُول: جمع حائل).

قال: فهلْ يُضَحّي بالطَّالِق؟ قال: نعم، ويُقْرَى منها الطارِق. (الطالق: الناقة تُرْسل ترعَى حيث شاءت).

قال: فإنْ ضَحّى قبل ظُهورِ الغَزَالَة؟ قال: شاة لحم بلا مَحَالةٍ. (الغَزَالة: الشمس). قال بعضهم: يقال: طلعت الْغَزالة. ولا يقال: غَرُبَت، وضدَّها الجَوْنة، تسمَّى بها عند مغيبها، لأنها تسودُّ حين تغيب، كما قال الشاعر: [الرجز]

* تـبـادر الـجـوْنـة أن تـغـيـبـا[1] *

قال: أيحِلّ التَّكسّب بالطَّرْق؟ قال هو كالقِمَار بلا فرق. (الطَّرْق: الضَّرب بالحَصَى، وهو من أفعال الكَهَنة).

قال: أَيسلِّم القائمُ على القَاعِد؟ قال: محظُورٌ فيما بين الأَبَاعِد. (القاعد: التي قعدت عن الحيْض أو عن الأزْواج).

* * *

والطّافي: المرتفع على وجه الماء. والحُول: جمع أحْوَل وحَوْلاء. أجْدَر: أحق. والطَّرْق: السَّيْر بالليل. محظور: ممنوع.

* * *

قال: أيَنَامُ العاقِلُ تحت الرّقيع؟ قال: أحْبِبْ به في الْبَقيع. (الرّقيع: السّماء، وعَنَى بالبقيع المدينة).

قال: أيُمْنَعُ الذِّمّي مِنْ قتلِ الْعَجُوز؟ قال: معارضتُه في الْعَجوز لا تجوز. (العَجُوز: الخمر. وقتلها: مَزْجُها).

قال: أيجوز أنْ ينتقل الرّجُلُ عِنْ عِمَارَةِ أبيه؟ قال: ما مُجرِّز لخاملٍ ولا نبيه. (العِمارة: القَبيلة).

قال: ما تقول في التهَوُّد؟ قال: هو مفتاح التزَهّد. (التَّهَوُّد: التّوبة، ومنه قوله تعالى: ﴿**إنّا هُدْنا إليكَ**﴾ [الأعراف: ١٥٦].

---

(١) يروى الرجز:

يـبـادر الأشـبـاح أن تـغـيـبـا والـجـونـة الـبـيـضـاء أن تـؤوبـا

وهو للخطيم الضبابي في لسان العرب (جون)، وللأجلح بن قاسط الضبابي في النقائض ص ٩٢٩، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ١٣٠٣، وتاج العروس (أوب)، (جون)، والأزمنة والأمكنة ٢/ ٣٩، وأمالي القالي ١/ ٩، وسمط اللآلي ص ٤١.

قال: ما تقول في صَبْرِ الْبَلِيّة؟ قال: أَعْظِمْ بِهِ من خَطِيّة. (الصَّبْر: الحبس. والبليّة: الناقةُ تحبَس عند قبر صاحبها، فلاَ تُسْقَى ولا تُعلَف إلى أن تموت، وكانت الجاهلية تزعُمُ أنَّ صَاحِبَها يُحْشَرُ عليها).

قال: أيحِلّ ضربُ السَّفير؟ قال: نعم، والحمْلُ على المستشير. (السَّفير: ما تساقط من ورق الشجر. والمستشير: الجمل السَّمين، وهو أيضاً الجمل الّذي يعرف اللاّقِحَ من الحائل).

* * *

والرّقيع: الأحمق الذي يتخرّق عليه رأيه حتى يحْتاج إلى أن يرقّع، ثم كثر حتى صار الرّقيع الماجن القليل الحياء، فأراد: أيرقُد عاقل تحت رقيع؟ فقال: ما أحسن ذلك، إذا كان في البقيع؛ هذا معناه في الظاهر، وما قصد به قد فسره. والبقيع في الأصل: كلّ موضع فيه أصول أشجار مختلفة. التّهوّد: الدّخول في دين اليهوديّة. عمارة أبيه: ما كان أبوه يعمره من دار يسْكنها ومال يعمره السَّفِير: الرسول. المستشير: المسترشد الذي يستشيرك في أموره والحمل عليه إهانته وظلمه. اللاّقح: الحامل بالولد، والحائل: ضدّهما.

* * *

قَالَ: أيُعَزِّر الرَّجُلُ أباه؟ قال: يفعلُه البَرّ ولا يأباه. (التَّعزير: التَّعظيم والنُّصرة والتوقير).

قال: ما تقول فيمن أفقر أخاه؟ قال: حبّذا ما توخّاه. (أفقره: أعاره ناقة يركب فقَارها).

قال: فإن أغرَى وَلَدَهُ؟ قال: يا حُسْنَ ما اعْتمده! (أعْرَاه: أعطاه ثمرة نخلة عاماً).

قال: فإن أصْلَى مملوكَهُ النّار؟ قال: لا إثمَ عَلَيْهِ ولا عار. (المملوك: العَجين الذي قد أُجِيد عَجْنُه حَتّى قوِيَ).

قال: أيجوز للمرأة أن تصرم بَعْلَهَا؟ قال: ما حَظَرَ أحدٌ فعلها. (البَعْل: النّخْل الذي يشرب بعروقه من الأرض).

قال: فهل تؤدَّب المرأة على الخجل؟ قل: أجل. (الْخَجَل: سوء احتمال

الغنى، ومنه قوله ﷺ للنساء: «إنكن إذا جعتُنَّ دَقَعْتُنَّ، وإذا شبعتُنَّ خجلتُنَّ»[١].

قال: ما تقول فيمن نحَتَ أَثْلَةَ أخيه؟ قال: أثِمَ ولو أُذِنَ له فيه. (نَحتَ أَثْلَته، إذا اغتابه وقَدَح في عِرْضه).

* * *

يعزّر: يؤدّب، والتّعزيز: ضرب دون الحدّ. والبَرّ: المكرِم لأبيه. توخاه: قصده، وكذلك اعتمده. أصْلاَه: جعله فيها. تصرّم: تقطع وتباعد، وأصل الصَّرْم القطع. بعلها زوجُها. حظر: منع. الخجَل: الاستحياء. وأراد بسوء احتمال الغنى، أن تكون مبذِّرةً لمالِها سفيهةً، فكأنّ الغنى لمّا أتاها لم تحتملهْ فأفسدته نحَت: نجَز. أثلة: شجرة.

* * *

قال: أيحجُر الحاكم على صاحب الثّور؟ قال: نعم، ليأمن غائلة الجور. (الثَّوْر: الجنُون).

قال: فهل له أن يضرب على يد اليتيم؟ قال: نعم، إلى أن يستقيم. (يقال: ضرب على يده، إذا حَجَر عليه).

قال: فهل يجوز أن يتّخذ له ربَضاً؟ قال: لا، ولو كان له رِضَا. (الرَّبَض: الزوجة).

قال: فمتى يبيع بَدَنَ السّفيه؟ قال حِينَ يَرَى له الحظَّ فيه. (البَدَن: الدّرع القصيرة).

قال: فهل يجوز أن يبتاع له حُشًّا؟ قال: نعم، إذا لم يكن مُغشًّى. (الحُشّ: النخل المجتمع).

قال: أيجوز أن يكونَ الحاكم ظالماً؟ قال: نعم، إذا كان عالماً. (الظَّالم: الذي يشرب اللبن قبل أن يروّب ويخرجُ زبَده).

قال: أيُستقْضى مَنْ ليست له بصيرة؟ قال: نعم، إذا حسُنت منه السِّيرة. (البصيرة: التّرس).

---

(١) رواه ابن الأثير الجزري في النهاية في غريب الحديث ٢/ ١٢٧.

قال: فإن تَعرى من العَقْل؟ قال: ذاك عنوان الفضل. (العَقْل: ضرب من الوشي).

* * *

غائلة: ضَرر. الرّبض: بقاع من الأرض تباع وتشترى. الحُشّ: الكَنِيف. مغشّى: يغشاه الناس ويدخلونه. البصيرة: اليقين والنَّظَر السديد. السِّير: العادة. عُنْوان: دليل وعلامة.

* * *

قال: فإن كان له زَهْوُ جَبَّار؟ قال: لا إنكارَ عليه ولا إكبار. (الزهو: البُسْر المتلوّن. والجبّار: النخل الذي فات اليد وضدّه القاعد).

قال: أيجوز أن يكون الشّاهد مريباً؟ قال: نعم، إذا كان أَرِيباً. (المُرِيب: الّذي يكثر عنده اللبن الرائب).

قال: فإنْ بان أنّه لاط؟ قال: هو كما لو خاط. (لاطَ الحوض، إذا طيّنه).

قال: فإن عُثِر على أنه غَرْبَل؟ قال: تُرَدّ شهادته ولا تُقبل. (غَرْبل، أي قِتل)، ومنه قول الراجز: [الرجز]

* ترى الملوك حوله مغربله[1] *

قال: فإن وضح أنّه مائن؟ قال: هو وصفٌ له زائن. (المائِن ها هنا: الذي يَعُول ويكفي المؤونة، من مان يَمُون، لا مِنْ مَانَ يَمين).

قال: ما يجب على عابدِ الحق؟ قال: يحلّف بإلَه الخلق. (العابد ها هنا: الجاحد: والحقّ: الدِّين).

قال: ما تقول فيمن فقأ عَيْن بلبل عامداً؟ قال: تُفقَأ عينُه قولاً واحداً. (البُلْبل: الرّجل الخفيف).

قال: فإن جرح قطاة امرأةٍ فماتت؟ قال: النّفس بالنفس إذا فاتت. (القَطة: ما بين الْوَرِكَيْن).

* * *

(١) الرجز لعامر الخصفي في تاج العروس (غربل)، وللصحاري في تاج العروس (ضرم)، وبلا نسبة في لسان العرب (ثكل)، (حرمل)، (رعبل)، (غربل)، وتهذيب اللغة ٨/ ٢٤٣، وجمهرة اللغة ص ١١٣٢، ومقاييس اللغة ٢/ ٥٠٩، ومجمل اللغة ٢/ ٤٨٤، والمخصص ٦/ ١١٤.

والزَّهو: التكبّر والإعجاب. الأريب: العاقل. لاط: عمل عمل قوم لوط. وضح: تبين. مائن: كاذب. القَطَاة: نوع من الحمام، وفقأ العين: أخرجها والبُلْبل، طائر.

* * *

قال: فإن أَلْقَتِ الحامِلُ حشيشاً من ضَرْبِهِ؟ قال: ليَكفَر بالإعناق عن ذنبه. (الحشيش: الجنين المُلْقَى ميتاً).

قال: ما يجب على المختفي في الشرع؟ قال: القطع لإقامة الرّدع. (المختفي: نبّاش القبور).

قال: فما يصنع بمن سرق أساودَ الدار؟ قال: يُقطع إن ساوَيْن رُبْع دينار. (الأساود: الآلات المستعملة كالإجّانة والقِدْر: الجَفْنة).

قال: فإنْ سَرَقَ ثميناً من ذَهَب؟ قال: لا قَطْع كما لو غَصَب. (الثمين: الثُمْن، كما يقال في النصف: نصيف، وفي السُدْسِ سَدِيس).

قال: فإن بانَ على المرآة السّرقَ؟ قال: لا حَرَج عليها ولا فرقَ (السَّرَق: الحرير الأبيض).

قال: أينعقِدُ نِكاحٌ لم يَشْهَدْه القوارِي؟ قال: لا والخالق الباري. (القوَارِي: الشهود لأنهم يَقِرُون أي الأشياء، أو يتّبعونها).

قال: ما تقول في عريسٍ باتت بلَيْلَةٍ حُرّة، ثم رُدّتْ في حَافِرتها بسُحْرَة؟ قال: يجب لها نصف الصّدَاق، ولا تلزمُها عِدّة الطلاق.

(يقال: باتت العروس بليلَةٍ حرّة، إذا امتنعت على زوجها؛ فإن افتضّها قيل: باتت بليلة شيباء. والرّد في الحافرة بمعنى الرجوع في الطريق الأوّل، وكَنَى به عن طلاقها قبل وِرْدَها إلى أهلها).

* * *

الحشيش: نبات يابس. الرّدْع: الكفّ والمنع. الأساود: الحيات. الثّمين: الرفيع الثمن.

القواري: طيور خضر، وقد بين هو أنه أراد بالقَواري الشّهود، ويقال: المسلِمون قواري الله في الأرض أي شهرده، وقال جرير: **[الكامل]**

* المسلمون لِمَا أقولُ قَوارِي[1] *

---

(١) يروى البيت بتمامه:

ماذا تعدُّ إذا عددت عليكم والمسلمون بما أقول قواري

وهو لجرير في ديوانه ص ٨٩٧، وأساس البلاغة (قرو).

وباتت العروس بليلة شَيْبَاء، إذا غشيها زوجها.

الفنجديهي: رأيت: بخط الحريري رحمه الله تعالى: [الخفيف]

طيّبوها ولم أطيّب بِطيبِ ... ربّ منعٍ ألذّ من إعطاء

بتّ في دِرْعِهَا وباتت ضجيعي ... في بصير وليلة شَيْبَاءِ

البصير هنا: قطعة من دم:

وقد أتينا على ما في هذه المسائل من الغريب في الظاهر، وأمّا مَا قصده من المعمّى فهو مفسّر في الأصل، وقد أَحسن أبو محمد في هذه الفتاوَى وبلغ منه الاقتدار والاتساع فوق المراد، وإن كان لا يوصف فيها الابتداع، فقد أحسن في الاتّباع.

[الملاحن والمعاريض]

والسابق إلى هذا المعنى أبو بكر بن دُرَيْد رحمه الله تعالى في كتاب سمّاه بالملاحن، وهي من اللّحْن، وهو أن تورِّيَ بلفظ عن لفظ.

ثم تمم تلك الأغراض وحسّنها أحمدُ بن عبيد الله في كتاب سَمّاه بالمنقذ.

وفائدة حفظ هذه الأغراض أن يخوِّف الرجل أو يروِّعه أمير ظالم أو مسلّط غاشم، فيتخلّص منه بهذه المعاريض. فأما أن يقطَع بها حقّ مسلم فلا سبيلَ إليها، ومعتَمدُهم فيها حديث عمران بن حصين أنّ النبي ﷺ، قال: «إن في المعاريض مندوحةً عن الكذب»[1].

وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «عجيب لمن يُحْسِن المعاريض كيف يكذب، ولمنْ لاحَن النّاس كيف لا يعرف جوامع الكلم!»[2].

وقول النبيّ ﷺ لطلائع المشركين حين لقُوه في نفر من أصحابه، فقالوا: ممّنْ أنتم؟ قالوا: من ماء، فتركوهم، وأراد ﴿فَلْيَنْظُرِ الإنْسَانُ مِمّ خُلِقَ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دافِقٍ﴾ [الطارق: ٦].

وقوله ﷺ في مُزاحه لإحدى عماته «إن الجنة لا تدخلها عجوز»، فلمّا جزعت قال لها «إن الله تعالى يخلقهم يود القيامة أبكاراً».

وقال لامرأة: «ما فعل زوجُك الذي في عينيه بياض»؟ فلمّا جزعت قال: لها: «أو ليس في كلّ عين بياض»؟

وقال له رجل: احْمِلْني، قال: ما عندي إلا ولد الناقة، فقال: وما أصنع بولد الناقة؟ فقال ﷺ: «وهل الإبلُ إلا من النوق!».

فاستُجِيزت المعاريض على هذا النحو من المزاح أو التخويف.

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب باب ١١٦، ورواه ابن الأثير الجزي في النهاية في غريب الحديث ٣/ ٢١٢.

(٢) رواه ابن الأثير الجزري في النهاية ٣/ ٢١٢.

ومن ذلك أنَّ بعض العرب أُدخِل على الواثق، وكان يقول بخَلق القرآن ويعاقبُ منْ خالفة، فقال له، ما تقول في القرآنُ، فتصامَم عليه، فأعاد السؤال، فقال: من تَعْني يا أمير المؤمنين؟ فقال: إيّاك أعني، فقال: مخلوق ـ يعني نفسه، وتخلّص منه.

وقال لآخر من الصالحين: ما تقول في القرآن؟ فأخرج يده، وجعل يعدّ أصابعه، ويقول: التّوراة والإنجيل والقرآن هؤلاء الثلاثة مخلوقة. فعنَى أصابعه، وتخلّص منه.

وتعذّر على رجل لقاء المأمون في ظُلامة، فصاح على بابه: أنا أحمد النبيّ المبعوث. فأدخل إليه، وأُعلم أنه تنبّأ فقال له: ما تقولُ؟ فذكر ظلامته، فقال: له ما تقول فيما حُكِي عنك؟ فقال: وما هو؟ ذكروا أنّك تقول إنَّك نبي، فقال: مَعاذ الله، إنّما قلت: أنا أحمد النبيَّ المبعوث، أفأنت يا أمير المؤمنين مّمن لا يحمده؟ فاستظرفه، وأمر بإنصافه.

وخرج شُرَيح القاضي من عند زياد، وتركه يجُود بنفسه، فسأله الناس عن حاله، فقال: تركتُه يأمر وينهي، فجزعوا لسَلاَمَتِه، فما راعهمْ إلا صياح النّائحات عليه. فسئل شُريح عن قوله، فقال: تركته يأمر بالوصيّة، وينهي عن البكاء.

وسُئِل ابن شُبْرمة عن رجل ليُسْتَعمل، فقال: إن له شرفاً وقدماً وبيتاً. فنظروا فإذا هو ساقط سفلة، فقيل له في ذلك، فقال: شرفُه أذناه، وبيته الّذي يأوي إليه وقدَمه الذي يمشي عليه.

وقال صاحب المنقذ:

إذا حلفْت بالأيمان اللازمة لك، فانو بالأيمان الأيدي، قال تعالى: **﴿عَنْ أيمانهم وعن شَمائلهم﴾** [الأعراف: ١٧]. فإن قلت: كلُّ امرأة طالق فاعْنِ الطّالق من الإبل، وهي التي يطْلِقها الراعي، والطّالق الّتي يحمل عليها عِقالها.

فإن قيل: احلف بظَهار امرأتك كَظُهْر أمّك، فاعْنِ بالظّهر ما يُركَب من الخيل والبغال والحمير، ولا جناح عليه في ركوب دوابّ أمه.

فإن قال: احْلِفْ بما لك على المسلمين صدَقة، فاعْنِ ما لك على المساكين من دَيْن، وليس لك عليهم شيء.

فإن أحلفك بأنّ كلّ مملوك لك حرّ. فالمملوك: الدّقيق الملتوت بالماء أو الزيت أو السمن.

فإن قال: كلّ غلام لك حرّ. فالحرّ: الحيَّة الذَّكَر، والحرّ من الرمل الّذي ما وطىء، والحرّ: ذكر الحمام، قال حُميد. **[الطويل]**

* دَعتْ سَاقَ حُرٍّ ترحةً وترنّما[1] *

---

(١) صدره:

وما هاج هذا الشوق إلاّ حمامةٌ

والبيت لحميد بن ثور الهلالي في ديوانه ص ٢٤، ولسان العرب (حرر)، (سوق)، (حمم)، =

فإن أحلفك بأنّ كل جارية لك حرّة، فالجارية السفينة، والريح والشمس.

فإن قال: احلف وإلا كلّ أمة لك حُرّة، فالحرّة الأذن، والحُرّة السحابة الغزيرة المطر.

فإن أحلفك: وإلا فما لك حبس، فحبس بلد معروف، قال ابنُ حِلِّزة: **[الكامل]**

* لمن الديار عَفَوْن بالحبس[1] *

فإن قال: وإلاّ فهو كافر. فالكافر الليل، أو البحر أو الزرّاع للبَذْر، قال الله تعالى: **﴿أعَجَبَ الكُفّارَ نباته﴾** [الحديد: ٢٠]، وأصله الساتر.

وتقول: كلّ امرأة تزوجتُها فقد طلّقتها بتاتاً. فتزوّجت اتخذْت زوْجاً من النبات أي لوناً، وقال الله تعالى: **﴿وأنبتْنَا فيها من كلِّ زوج بَهيج﴾** [ق: ٧]. وقال تعالى: **﴿فأخرجْنَا به أزواجاً من نباتٍ شَتّى﴾** [طه: ٣]، وطلّقتَها ألبستَها الطلق، وهو قبة من جلود والنبات: الزاد.

وتقول: ما تطيّبت ولا تمسّكَت. فتطيّبت أتيت الطِّيب، وهو بلد بين واسط والسوس، أو طَيْبة مدينة النبي ﷺ. وتمسّكت: لبِست مَسْكا وهو الجلد، أو تفعّلْت من الامتساك.

وتقول: ماله قِبَلي درهم ولا دينار. فدرهم قبيلة من رَبيعة، لهم خُطّة في البصرة، ودينار اسم رجل معروف.

وماله قبَلي ثوب ولاَ شُقّة ولا قميص. الثّوب: الرجوع، من ثاب يثُوب، والشُّقّه: البعد. والقميص: غشاء القلب.

وماله قِبَلي شَيءٌ بوجه من الوُجوه، ولا بسبب من الأسباب. الشيءُ: مصدر شويت اللحم. والوجوه صور مختلفة من التَّصاوير. والوجه: المقصِد، والجمع وجوه، والأسباب: الحبال.

وما أوصيتُ إليه، وما أوصى إليّ. أوصى دخل في الواصِي، وهو بيت متّصل بعضه ببعض.

= ومقاييس اللغة ٢/ ٦، ومجمل اللغة ٢/ ٨، وتاج العروس (حرر)، (علط)، (سوق)، (وحى)، وبلا نسبة في كتاب العين ٣/ ٢٤.

(١) عجزه:

آيــاتـهـا كـمـهـارق الـفـرسِ

والبيت للحارث بن حلزة في ديوانه ص ٤٨، وتاج العروس (حبس)، ولسان العرب (هرق)، وفيه «الحبشِ» بدل «الفرسِ»، وشرح اختيارات المفضل ص ٦٣٢، وشعراء النصرانية ص ٤١٩، ومعجم ما استعجم ص ٤٢٠.

ولا أعلم له داراً ولا عَقاراً؛ فدارَا: بلد معروف بالجزيرة، قال الشاعر: [مجزوء الرمل]

ولقد قلتُ لرجْلِي بينَ حرّانٍ ودَارَا
اصبري يا رجُلُ حتّى يَرزُق اللّهُ حِمَارا

والعَقار: النّخل:

ولا أعرف للمرأةْ بعْلاً ولاَ وليًا. فالبعْل: النخل أو الشجر، يَشْرب بماء السحاب، والوَلِيّ: يَلِي الوَسْمِيّ.

وتقول: ما اشتريتُ لفلانة ضَرّتك قميصاً، ولا إزاراً ولا رداءً، ولا قِناعاً ولا غِلالة، ولا حَلّيْتها خاتماً ولاَ خُلْخالاً ولا طوْقاً ولا سِواراً؛ ولا قرّطتها ولا شنَّفْتُها ولا كسوْتها، ولا جلست مع قَيْنة ولا مغنّية ولا ضاربة بعود ولا بطبل ولا رَباب، ولا سمعت زَمّارة ولا ذقت نبيذاً فالقميص غِشاء القلب، والرّداء السيف أو الدَّين أو الغطاء، والإزار: قُبُل المرأة أو جسم الرجل، قال الشاعر: [الوافر]

* فدًى لك من أخي ثقةٍ إزارِ[1] *

والإزار: العفاف، والقِناع: جمع قنُع، وهو طبق يجعل عليه الفاكهة. وفي الحديث: إنّ الربيع ابنة معوذ أتت النبيّ ﷺ بقناع من رُطب وآخر من زَغَب فأكل منه[2]، والزّغَب: القِثّاء. والغِلالة: مسمار من مسامير الدّروع؛ قال: [الطويل]

* فهنَّ وضاءٌ صافياتُ الغلائلِ[3] *

والغِلالة: الجماعة من الناس، والخاتَم: شعرات بيض في قوائم الفرس. والسِّوار مصدر ساورت الرّجُلَ. والخلخال: الرَّمْل الجريش. والطَّوْق: المصدر من الطاقة،

---

(١) صدره:

ألا أبلغ أبا حفصٍ رسولاً

والبيت لبقيلة الأكبر الأشجعي، وكنيته أبو المنهال، في لسان العرب (أزر)، والمؤتلف والمختلف ص ٦٣، وعجزه في لسان العرب (أزر)، منسوباً إلى جعدة بن عبد الله السلمي، وبلا نسبة في شرح اختيارات المفضّل ص ٢٥٠، وشرح شواهد الإيضاح ص ١٦٢، ولسان العرب (قلص).

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٦/ ٣٥٩.

(٣) يروى البيت بتمامه:

عُلين بكديونٍ وأُشعِرنَ كُرّةً فهنّ إضاءٌ صافياتُ الغلائلِ

وهو للنابغة الذبياني في ديوانه ص ١٤٧، وجمهرة اللغة ص ١٢٦، ١٢٤٥، وخزانة الأدب ٣/ ١٦٧، ولسان العرب (وضأ)، (كرر)، (غلل)، (كدن)، (أضأ)، والمعاني الكبير ص ١٠٣٦، وتاج العروس (وضأ)، (كرر)، (غلل)، (كدن)، (أضأ)، وبلا نسبة في شرح المفصل ٥/ ٢٢، والمعاني الكبير ص ١٠٣٣.

وقرّطتُها من القُرْط، وهو العَلَف الرّطب تأكله الدّواب، فإذا يبس فهو القَتّ. وشَنَفَتُها جعلتُها مُشنَفة أي مبغَضة، من شنفت الرّجُلَ، إذا أبغضتَه. وكسوتها: ضربت كُسَاها، وهو جانبها، وجانب كلّ شيء كساه والجمع أكساه، والقَيْنة: هزْمة بين الوَرِكيْن وعُجْب الذّنَب من الفرس، والعُود الذي يُتبخّر به، والزَّمارة: الفاجرة، ومنه نهى النبي ﷺ عن كسب الزمَّارة[1]، والزّمّارة: الغُلّ، وفي خبر الحجاج: أتى سعيد بن جُبير وفي عنقه الزّمارة، أي ساجور، والطبل: السّلة التي يجعل فيها الطعام، والطّبْل: الخراج. والمغنّية: ناقة تضرب بنابها، والرَّباب: سَحَاب متراكب قريب من الأرض. والنّبيذ: مَا نبذته النعام أو الحمير بأرجلها من الحصى.

وتقول: مالي مركوب وما بعت عبداً، وقد افتقرت حتى ما في مِلْكي نفقةُ يوم مالي، بمعنى مِلْكي، ومركوب: ضُرِبت ركبتُه، وثنيّة بالحِجاز. وعَبْد: جبل من جبال طيِّء. وافتقر: اشتدّ فَقاره أو كَسَر فَقار جَدْي أوَ حَمَل، والمِلك: الحجة.

وتقول: ما أضعْتُ عملكَ ولا قصّرتُ ولا أهملتُ ولا فرّطتُ ولا سامحتُ أحداً، ولا تركتُ واجباً، ولا ارتفقت بحبّه، ولا أبقيتُ غايةً في مناصحتك. أضعْت: كَثُرت ضياعي. وفَرّطت: بعثت فارطاً، وهو طالب الماء، وقَصَرت: بنيت قصراً. وأهْمَلْت: كثُرت هَواملي، وهي الإبل السارحة في المَرْعى بلا راعٍ. وسامحتُ: نظرتُ أيّنا أكرم. والواجب: السَّاقط، وارتفقت: نِمْتُ على مِرْفَقي، والغايَةُ: رايةُ الحمار.

وتقول: ما شتمت له أَبي ولا عمًّا ولا عمّة، ولا خالاً ولا خالة، ولا صحبتُه، ولا شاهَدْته ولا راسلتُه، ولا شاربته، ولا نادمتُه، ولا رأيتُه منذ دَهْرِ

أَبى: داء يأخذ المعزى، قال: **[الطويل]**

* أَبى لا إخال الضّأن منه نواجِيا[2] *

وعمّ: قطعة من الناس، وقرية بالشام، والعمّة النخلة، قال ﷺ: «نعمت العَمّة لكم النخلة»[3]، وقيل لها عَمّة لأنها خُلِقت من بقية طينة آدم عليه السلام. والخال: السحاب، والخالُ من البُرود، والخالُ من الخِيلان، والخالةُ: جمع خالٍ من الكِبْر. وصحبتُه: منعته؛ قال تعالى: ﴿وَلاَ هُمْ مِنّا يُصْحَبُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٣]، أي يمنَعون. وشاهدته: أكلت معه الشّهد، وراسلته: شربت معه الرِّسْل، وهو اللبن، وشاربته من

---

(١) رواه ابن الأثير الجزري في النهاية ٢/ ٣١٢. وقال: الزمّارة: هي الزانية.

(٢) صدره:

فقلت لكنّاز تدكّلْ فإنه

والبيت لابن أحمر في ديوانه ص ١٧٢، ولسان العرب (دكل)، (أبي)، وتهذيب اللغة ١٠/ ١١٩، ١٥/ ٦٤، وجمهرة اللغة ص ١٠٩٠، وتاج العروس (أبي)، وبلا نسبة في مقاييس اللغة ١/ ٤٦.

(٣) رواه بنحوه ابن الأثير الجزري في النهاية ٣/ ٣٠٣، ولفظه: «أكرموا عمتكم النخلة».

الشوارب، ونادمته من النَّدَم، ورأيتُه: ضربت رئتَه، ودَهْر: قبيلة من إياد.

وتقول: ما كتبتُ له حرْفاً، ولا خططت له بقلم، ولا شتمته ولا هجوته، ولا افتريتُ عليه، ولا أعرف عليه سوءاً. الحرْف الناقة المضمَرة، والقَلم: القِدْح، قال الله تعالى: ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقلامَهم﴾ [آل عمران: ٤٤]، يعني قِداح الميسر. والشّتْم: قبْح الوجه، وهجوته: أزلت نعمتَه، وهو الهَجَى مقصور، وافتريتُ: لبست الفَرْو، والسّوء: البَرص.

وتقول: رأيته في السّوق متوفًّى مقبوراً، وما أخذ دواء ولا معجوناً. فالسوق: أصول الشجر وأعَنَاقها. متوفًّى دائماً. مقبوراً: مبخَّراً بالعود الهنديّ الذي فيه قبر، أي رخاوة. والدواء والدَّاوية: جلدة اللبن، والمعجون: المضروب على عِجانه.

وتقول: هو مجنون مُصاب، قد غُلّ مراراً، فما اعتذرتُ له، ولا تنصّلت، لأنه ليس من الأجواد، ولا الشُّجعان الذين يُقْدَح في أنسابهم. المجنون: المستور. مصاب: مجدّر من صاب يصوب، وغَلّ من الغُلّة، واعتذر وتنصّل؟ اتخذ عِذاراً ونَصْلاً. والأجواد: العطاش. والشّجعان: الحيّات، والأنساب: أسنان المُشْط.

وتقول: رأيت الجيش بالثّغر، والفارس في الفوارس، فما أفضِّلُ عليه أحَداً من العرب والعجم. الجَيْش: الغَلَيان، والثّغر: شَجَرٌ له شوْك، والفارس: الحسن الفِراسة، والفوارس: كُثْبان رمل، والعرب: فَساد المعدة، وعَرِبَتْ معدتُه. والعَجَم: النّوى.

وما أكلتُ دابتي شعيراً. الشعير: جمع شَعيرة، وهو مسمار من الفِضّة في قائم السّيف.

والباب متسع وفيه تأنُّس لما ذكره أبو محمد.

* * *

ومن المعاريض، أن الحجاج لما أخرَج ابنَ القبعثري من سِجْنه قال له: سمنتَ يا غضبان، قال: القيْد والرَّتْعَة[1]، والخفض والدعة، ومَنْ يكن ضيفَ الأمير يسْمَن، قال: لأحملنّك على الأدهم قال: مثل الأمير يحمل على الأدهم والوَرْد والكُمَيت. قال: إنه حديد، قال: لأَن يكون حديداً خيرٌ من أن يكون بليداً، قال: اضربوا به الأرض، قال: ﴿مِنهَا خَلَقْناكم وفيهَا نُعيدكم﴾ [طه: ٥٥] قال: جُرّوة، قال: ﴿بسم الله مجراها ومرساها﴾ [هود: ٤١]، قال: احملوه على الأيدي فلما حمِل قال: ﴿سبحان الذي سَخَّر لنا هذا﴾ [الزخرف: ١٣]، فضحك الحجاج وقال: غَلبنا هذا الخبيث، خلّوه إلى صفحي عنه، قال: ﴿فاصْفَحْ عَنهم وقُلْ سَلامٌ﴾ [الزخرف: ٨٩].

وقال خالد بن الوليد لعبد المسيح بن عمرو الغسّاني ـ وهو ابن ثلاثمائة وخمسين

(١) الرتعة: الاتساع في الخصب.

سنة ـ من أين أقصى أثرك؟ قال: من صُلْب أبِي، قال: مِنْ أين خرجت؟ قال: من بَطْن أمي، قال: فعلام أنت؟ قال: على الأرض، قال: فقيم أنت؟ قال: في ثيابي، قال: أتعقل لا عقلت! قال: إي والله وأقيّد، قال: ابنُ كم أنت؟ قال: ابن رجل واحد، قال: فما سنُّك؟ قال: عَظْم، قال: ما تزيدني مسألتك إلاّ عِيًّا، قال: ما أجبتك إلا عن مسألتك.

الربيع بن عبد الرحمن، قلت لأعرابيٍّ: أتهمز إسرائيل؟ قال: إني إذاً لَرَجلٍ سوء؛ أراد قوله: ﴿هَمّازٍ مشّاءٍ بنميم﴾ [القلم: ١١]، قلت: أتجرّ فلسطينَ؟ قال: إني إذاً لقويّ!.

خلف الأحمر: قلت لأعرابيّ: ألقي عليك بيتاً؟ قال: على نفسك فألقِه.

قيل لأعرابي: أتهمز الفأرة؟ قال: الهرّ يهمزُها.

ودخل رجل من محارب قيس على عبد الله بن يزيد الهلالي عامل إرمينيَة، وقد بات على قربٍ من غدير فيه ضفادع، فقال عبد الله: ما تركَتْنا شيوخ محارب ننام في هذه الليلة لشدة أصواتها. فقال المحاربيّ: أصلح الله الأمير إنها أضَلّت برقعاً، فهي في بغُائه. أراد الهلاليّ قول الأخطل: **[الطويل]**

تـنـقُّ بـلا شـيء شـيـوخ مـحـاربٍ ... وما خِلْتها كانتْ تَرِيشُ ولا تَبْري[1]

ضَفادعُ في ظَلْماءِ ليلٍ تجاوَبَتْ ... فدل عليها صوتُها حيَّةَ البحرِ

وأراد المحاربيّ قول الآخر: **[الخفيف]**

لِكُلّ هِلاليٍّ من اللؤم برقعٌ ... ولابن هلالٍ برقعٌ وقميصُ

وهذا النحو من التعريض كثير.

وقال أبو الحسن بن سراج رحمه الله تعالى: **[السريع]**

يا ضَرّة الشمس التي أشرقَتْ ... قد أشرقتْ حجّة مُشْتاقِكْ

لَحْظُك أو خَصْرُك قد ضَمِنَا ... ما ضمنتْ عهدةُ ميثاقِكْ

ثَأْرُ الهوى يطلبه ثائرٌ ... مصرعه ما بين أحداقِكْ

لا تذخري أنْفَس صوتٍ فقد ... يُرْغَبُ في أنفس أعلاَقِكْ

رفقاً بمَنْ مُلّكته في الهوى ... فإنه آخرُ عُشّاقِكْ

فأنفس أعلاق المرأة معلوم، والظّرْف كلّه في قوله: «فإنه آخر عُشّاقك» يعرّض أنها أسَنّتْ فلا عاشق لها من بعده. والقينة: التيّ داعبها ومازحها تفهم ما خوطبت به، لأنها

(١) البيتان في ديوان الأخطل ص ١٣٢.

تلميذة ولاّدة بنت المكتفي، وولاّدة شاعرة بارعة التّنْدير، فمن تندّرها قولُها في ذي الوزارتين ابن زيدون عاشقها تعرّض له بشيء كان يُزَنّ به: [السريع]

مـا لابـن زيـدون عـلـى فَـضْـلِـهِ ... يـغـتـابـنـي ظـلـمـاً ولا ذَنْـبَ لِـي

يَـلـحَـظُـنـي شَـزْراً إذا جـئـتُـه ... كـأنّـمـا جـئـت لأخـصِـي عَـلِـي

وعَليٌّ صَبيُّه، وكان يمزح معه.

* * *

فقال له السّائل: لِله دَرُّكَ من بحرٍ لا يُغَضْغِضُه الماتح، وَحَبْر لا يبلُغُ مدحَه المادح؛ ثمّ أطرَق إطراقَ الحَيِيّ، وأرمّ إرمام العَييِّ فقال له أبو زيد: إيه يا فتى! فإلى متى وإلى متى! فقال: إيهِ لمْ يبْق في كنانتي مِرْماة، ولا بَعْد إشراقِ صُبْحِكَ مماراة؛ فباللّهِ أيّ ابن أرْض أنت؟ فما أحسن ما أبَنْت! فأنشدَ بلسانٍ ذَلِق، وصوتٍ صَهْصلِقٍ: [مجزوء الوافر]

أنـا فـي الـعـالـم مُـثْـلـه ... ولأهـل الـعِـلْـمِ قِـبْـلَـهْ

غَـيْـرَ أنّـي كُـلَّ يـومٍ ... بَـيْـنَ تَـغْـريـسٍ ورِحْـلَـهْ

والـغـريـب الـدار لـو حَـلّ ... بـطُـوبَـى لـم تَـطِـبْ لـه

ثمّ قال: اللهمّ كما جعَلْتنا ممن هُدِيَ ويَهْدِي، فاجعلهم مِمَّنْ يهتدِي ويُهدِي.

فساق إليه القومُ ذوْداً مع قَيْنَةٍ، وسألوه أين يَزُورَهُم الفيْنة بعد الفيْنة. فنهض يُمَنِّيهُمُ الْعَوْد، ويُزجِيّ الأمَة والذَّوْد.

* * *

قوله: يغضغضه: ينقصه. الماتح: المستقي من أعلى البئر، والمائح، بالياء من قعرها. حَبْر: عالم. أطرق: أمال رأسه ساكتاً. وأرمّ: سكت. العييّ: الذي إن كلّمتَه لم يُحسن ردَّ جوابه. إيه: بمعنى زدني من سُؤالك.

ابن السريّ: إذا قلت: «إيهِ يا رجل»، فإنما تأمره أن يزيدَكَ من الحديث المعهود بينكما، كأنك قلت: هات الحديث، وإن قلت إيهٍ: بالتنوين، فكأنك قلت: هات حديثاً ما، فإلى متى سكوتك؟ مرماة: سهم يرمي به السَّبَق، وقيل: هو سهم مدوّر النّصل. بعد إشراق صبحك، أي بعد ظهور فضلك. وإشراق ضوء. مماراة: شك. أبَنْت: بيَّنت. ذَلِق: حديد. صَهْصَلق: شديد. مُثلة: مغيّر الخلق، فهي «فُعْلَة» من المثل، ويقال المُثْلة والمثل بمعنى.

* * *

[قباح الوجوه]

ونذكر على قوله: «أنا في العالم مثلة»، فصلاً في ذكر قباحِ الوجوه من العلماء وغيرهم.

فمنهم الجاحظ، وأراد المتوكل أن يعلِّم بنيه الثلاثة ولاة عهده، فأدخِلَ عليهم، فارتاعوا من قبح وجهه، فأخرِج عنهم بعنف.

وحكى المسعوديّ: أنّ الجاحظ قال: ذُكِرْتُ للمتوكّل لتعليم بعض ولده، فلما رآني استبشع منظري، فأمر لي بعشرة آلاف درهم وصَرَفني.

وقال الحمدونيّ: [الكامل]

لو يُمَسخُ الخِنزيرُ مسخاً ثانياً ... لرأيتَه في دون قُبْحِ الجاحِظِ
رجُلٌ ينوب عن الجحيم بوجهه ... وهو العدوّ لكلّ عينٍ لاحظِ

قال الأصمعيّ رحمه الله: دخلتُ يوماً على جعفر بن يحيى، فقال لي: هل لك يا أصمعيّ من زوجة؟ قلت: لا، قال: فجارية؟ قلت: للمهنة، قال: فهل لك أن أهب لك جارية نظيفة؟، قلت: إني لمحتاج إلى ذلك. فأمر بجارية فأخرجَتْ وهي في غاية الحسن والجمال والهيئة والظَّرف، فقال لها: قد وهبتُك لهذا، وقال لي: خذ هذه، فشكرته، وبكت الجارية، وقالت: يا سيّدي، أتدفعني لهذا الشيخ مع ما أرى من سَمَاحَتِك وقبح منظره! وجَزِعَتْ جزعاً شديداً، فقال لي: يا أصمعيّ، هل لك أن أعوّضك منها ألفَ دينار؟ فقلت: ما أكره ذلك، فأمر لي بها، ودخلت الجارية، فقال لي: يا أصمعيّ، أنكرت عليها شيئاً، فأردت عُقُوبتَها بك، ثم رحِمتُها منك، فقلت: أيّها الأمير، أفلا أعلمتَني قبل ذلك، فإنِّي لم آتك حتى سَرّحتُ لحيتي، وأصلحت وجهي وعَمِتي، فلو عرفتُ الخبر لسرت على هيئتي وخِلقتي، فوَالله لو رأتني كذلك ما عاودتْ شيئاً تنكره أبداً.

وما ضرّ من ذكرنا قُبْحَهم مع العلم الذي زينّهم الله به، وكذا ينبغي لِمَنْ خُلِق قبيح الصورة أن يستعمل لها الأخلاق الحِسان، والأفعال الحسان، لئلاّ يجمع بين قبيحين.

كان الأوَيْقِص المخزوميّ أقبَح الناس خِلْقة، وما رُوِي مثله في العفاف والزهد. وكان قاضي مكة، فقال يوماً لجلسائه: قالت لي أمّي: يا بنيّ إنك خُلِقت خِلقةً لا تصلُح معها لمجالسة الفتيان في بيوت القيان، فعليك بالدِّين، فإنّ الله تعالى يرفع به الخَسيسة، ويتمّ به النقيصة. فنفعني الله بكلامها، فوُلِّيت القضاء.

وروي أن أمّ مالك بن أنس أوصته بمثل هذه الوصية، حين أراد أن يتعلّم الغناء في حَدَاثته، فتكره وتعلّم العلم، فذهب به حيث بلغ.

وكان عطاءُ بن أبي رَبَاح أعور أسود أفطس أشلّ أعرج، ثم عَمِيَ. وأمُّه سوداء

تسمَّى بَركة، وقيل لأهل مكة بعد موته: كيف كان عطاء بن أبي رباح فيكم؟ قالوا: كان مثل العافية التي لا يعرَف فضلها حتى تُفقد.

وكان في خلقة أبان بن عثمان كلّ عَيب، وكان يُضرَب بعُيوبه المثَل في المدينة.

كان معن بن زائدة أميرَ اليمن يوماً جالساً إذ أتته امرأة من بني سَهْم، ومعها ابن صغير يتبعُها، ويطأ أذيالها، فقالت: أصلح الله الأمير! إن عَمّي زوّجني مَنْ ليس بكفء، فقال: مَن هو؟ فقالت: ابن ذي مناجب؟ فقال: عليَّ به، فدخل أقبح مَنْ خلَق الله، وأشوهَهم خَلْقاً، فقال: مَنْ هذه منك؟ قال: امرأتيّ، قال: خلّ سبيلها، ففعل، فأطرق معن ساعة، ثم رفع رأسه فقال: **[الطويل]**

لَعَمْري لقد أصبحتْ غير محبَّبٍ ... ولا حسنٌ في عينها ذو مناجبِ

فما لُمْتُها لمّا تبيَّنت وجهه ... وعيناً له خَوْصاء من تحت حاجب

وأنفاً كأنفِ البَكْر يقطُر ناتئاً ... على لحية عَضْباء منه وشاربِ

أتيت بها مثل المهاة تَسُوقها ... فيا حسنَ مجلوب ويا شرّ جالبِ

وكان تزوجها بمكّة وقدم بها اليمن. والصبيّ هو ابن جامع المغنّي المشهور.

وحكى البحتريُّ في نوادره عن رجل سمّاه قال: مررت بامرأة من أجمل الناس، معها رجل من أقبحهم، فقلت لها: يا أمَة الله، مَنْ هذا منك؟ قالت: رجُليَه، فقلت: ومَنْ قرَنك به؟ قالت: أخيَه، فقلت: **[الوافر]**

جزى الرحمن عنك أخاك شرًّا ... فقد أخزاك في الدنيا وزادَا

فلم أرَ مُغزِلاً قُرِنَتْ بكلبٍ ... ولا خزًّا بطانتُه بجَادا

وقال آخر: **[الطويل]**

ألا رُبَّ بيضاء المحاجِر طَفْلةٍ ... تُسَاق إلى وَغْدٍ من القوم تنبالِ

يقولون جرَّتها إليك قرابَةٌ ... فويح العذارى من بني العمِّ والخال!

وقال آخر: **[مجزوء الرمل]**

لابن عبد النور وجهٌ ... صار للقُبْحَ ملاَذا

قال قرد إذْ رآه ... لعنة الله على ذا

وقال في بشار: **[الطويل]**

تُواثب أقماراً وأنتَ مشوّهٌ ... وأقرب خلق الله من شَبَهِ القِرْدِ

وكان بشار ضخماً قبيح الوجه، جاحظ الحدَقتين، أقبح الناس عمًى ومنظراً فقال فيه حَمَّاد عجرد: **[مجزوء الوافر]**

ألا مَـنْ مُـبْـلـغٌ عـنـي الـ ـذي والـدُه بُـرْدُ
إذا مـا نُـسِـبَ الـنَّـاس فـلا قَـبْـلٌ ولا بَـعْـدُ
وأعـمـى يـشـبُـه الـقِـرْدَا إذا مـا عَـمِـيَ الـقِـرْدُ

فقال: بشار عندما سمع هذا البيت: ما أخطأ ابن الزانية من حين شبَّهني بقرد وجعل يبكي ويقول: ما حيلتي! يراني ويشبّهني، ولا أراه فأشبهه! وبعده: **[مجزوء الوافر]**

ولـو تُـلْـقِـيـهِ فـي صَـلْـدٍ صـفًـا لا نْـصَـدِعَ الـصَّـلْـدُ
هـو الـكـلـب إذا مـا مـا ت لـم يُـوجَـدْ لـه فَـقْـدُ

وأنشده رجل قول حماد: **[الطويل]**

دُعـيـتَ إلـى بُـرْدٍ وأنـت لـغـيـره وهـبـك لـبُـرْدٍ نـكـتُ أمـك مـن بُـرْدِ

فقال: هاهنا أحد؟ قال: لا، قال: أحسن والله ابن الزانية، ولقد تَهَيّأ له في بيت واحد عليّ خمسةَ معانٍ من الهجو، وهي: «دعيتَ إلى برد» معنى «وأنت لغيره» معنى ثان، و «هبك لبرد» معنى ثالث، «نكت أمك» شتم واستخفاف مجرّد، وهو معنًى رابع، ثم ختمها بقوله: «من بُرْد» فأتى بالطامّة الكبرى.

وأوجُع ما مرّ عليه من قول حماد: **[السريع]**

لـو طُـلِـيـتْ جـلـدتُـه عَـنْـبـراً لأفْـسـدَتْ جِـلْـدَتُـه الـعَـنْـبَـرا
أو طُـلِـيـتْ مِـسْـكـاً ذكـيًّـا إذاً تـحـوَّل الـمـسـك عـلـيـه خَـرَا

كان حفص بن أبي بردة أفطس أعفص مقبَّح الوجه، وكان حماد صديقه، فتناشدوا الشعر يوماً، فطعن حفص على مرقّش، فقال حماد: **[الطويل]**

لقد كَانَ في عيْنيك يا حفصُ شاغلٌ وأنـف كـثِـيـل الـعُـوذِ عـمّـا تـتـبَّـع
تَـتَـبَّـعُ لـحـنـاً فـي كـلام مـرقّـش ووجْهك مبنيُّ على اللّحْنِ أجمعُ
فـأذنـاك إقـواء وأنـفـك مُـكْـفَـأٌ وعـيـنـاك إيـطـاء، فـأنـت الـمـرقَّـعُ

أخذ تشبيه الأنف بالثَّيل من قول كَعْب في الوليد بن عبد الملك: **[المتقارب]**

فَـقَـدْتُ الـولـيـدَ وأنـفـاً لـه كـثِـيـل الـبَـعـيـرِ أبـى أنْ يـبـولاَ

قال أبو زيد: رأيت أعرابيًا كأنّ أنفه كوزٌ من عِظَمه، فرآنا نضحك، فقال لنا: ما يضحككم! فوالله لقد كنتُ في قومٍ يسمُّوني الأفطَس.

وقال الشاعر: **[المتقارب]**

إذا أنـت أُقْـبـلْـت فـي حـاجـةٍ إلـيـه فـكـلّـمـه مـن خـلـفِـهِ
فـإن أنـت واجـهـتَـه بـالـكـلا م لـم يُـسـمـع الـصَّـوْت مـن أنـفِـهِ

وقال آخر: **[مجزوء الرمل]**

إنَّ عــيــســى أنــف أنــفِــه أنــفــه ضِــعــف لِــضــعْــفِــه
لــو تــراه راكــبــاً والــ ــأنــفُ قــد جــال بــعِــطــفِــهِ
لــرأيــت الأنــف فــي الــسَّــر ج وعــيــســى رِدْفُ أنــفِــهِ

وقال الحسن في جعفر بن يحيى: **[البسيط]**

ذاك الـوزيـر الـذي طـالـت عـلاوتـه كـأنّـه نـاظِـرٌ فـي الـسيـف بـالـطـول

وقال أبو عليّ الخليع: **[الكامل]**

سـابـور وَيْـحـك مـا أخَـسـ ـك بـل أخَـصّـك بـالـعـيـوبِ!
وَجـهٌ قـبـيـح فـي الـتـبـسّـم كـيـف يـحـسُـن فـي الـقـطـوبِ!

كان جحظة البرمكي ناتىء العينين جدًا، قبيح الوجه، فقال فيه ابن الروميّ: **[الكامل]**

نـبئتُ جـحـظـة يَـسـتـعـيـر جـحـوظَـهُ مـن فـيـل شِـطْـرَنْـجٍ ومِـنْ سَـرَطَـانِ
يـا رحـمـةً لـمـنـادمـيـه تـحـتـمـلـوا ألـم الـعـيـون لِـلـذَّةِ الآذان

وكان طيّب الغناء، وحضر مجلسه عليّ بن بسام، فتفرّق القوم المخادّ، فقال جحظة: ما لي لا أُعطَى مخدّة؟ فقال له ابن بسام: غنّ فالمخادّ كلها إليك تصير، وقال فيه: **[السريع]**

يـا مَـنْ هـجْـونـاه فـغـنّـانـا أنـت وحـقّ الله أهْـجَـانـا
سـيّـانِ إن غَـنّـى لـنـا جـحـظـةٌ أو مَـرّ مـجـنـون فـزنّـانـا

وله فيه أيضاً: **[السريع]**

لـجـحـظَـة الـمـحـسـن عـنـدي يـد أشـكـرهـا مـنـه إلـى الـمـحـشـرِ
لـمَـا رآنـي رَذْ بِـرْزَذَوْنَـهُ وصـانـنـي عـن وجـهـه الـمُـنـكَـر

كان الحطيئة قبيح المنظر، كثير الشرّ، فالتمس يوماً إنساناً يهجوه فلم يجد، فجعل يقول: **[الطويل]**

أبـتْ شـفـتـايَ الـيـومَ إلاّ تـكـلّـمـاً بـشـرٍ فـمـا أدري لـمـن أنـا قـائـلُـهْ

فاطّلع في ماء فرأى وجهه، فقال: **[الطويل]**

أرَى لِـيَ وَجْـهـاً قـبّـح الله شـخـصَـه فـقُـبِّـح مـن وجـهٍ وقُـبِّـحَ حـامـلـه[1]

---

(١) البيت والذي قبله في ديوان الحطيئة ص ٢٥٧، والبيت الثاني في لسان العرب (قبح)، (شوه) وتاج العروس (قبح)، وكتاب العين ٤/ ٦٨.

نظر إلى هذا إسماعيل بن معمر القراطيسيّ فقال: [السريع]

ويْلِي على ساكن شطّ الصراة ... من وجنتيه شمتُ برق الحياه
ما تنقضِي من عَجَبٍ فِكْرَتي ... من خصلة فرّط فيها الولاةْ
ترك المحبِّين بلا حاكمَ ... لم يقعدوا للعاشقين القضاه
وقد أتاني خبَرٌ ساءني ... مقالها في السرّ: واسوءتاه!
أمثل هذا يبتغِي وصلَنا ... أما يرى ذا وجْهَهُ في المِرَاةْ!

وقال الأصبهانيّ: إن القراطيسيّ سأل العباس بن الأحنف فقال له: يا أبا الفضل، هل قلتَ في معنى قولي هذا شيئاً؟ فقال: قلت: [السريع]

جاريةٌ أعجبها حُسْنُها ... ومثلُها في النَّاس لم يخلقِ
خبّرتها أني محبٌّ لها ... فأقبلتْ تضحك من منطقي
والتفتتْ نحو فتاةٍ لها ... كالرَّشأ الوَسْنَان في قَرْطَقِ
قالت لها قولي لهذا الفتى: ... انظر إلى وجْهك ثم اعشقِ

وقال الصّقليّ في صفة عذول قبيح: [الطويل]

رأى وجه مَنْ أهوى عذولي فقال لي ... أجلّك عن وجهٍ أراه كريها
فقلت له بل وجه حِبِّي مرآةٌ ... فأنت تَرَى تمثالَ وَجْهِك فيها

ولابن القابلة السّبْتي: [الطويل]

ووجه حبيبٍ رقّ حسناً أديمُه ... يرى الصبُّ فيه وجهه حين ينظُرُ
تعرّض لي عند اللقاء به رشَا ... تكاد الحُميَا من محيّاه تقطرُ
ولم يتعرضْ كَيْ أراه وإنما ... أرادَ يُريني أنّ وجهَكَ أصفرُ

ولبعض المصريين في غلام يهواه: [الكامل]

يجري النَّسيم على غِلالة خدِّه ... وأرقّ منه ما يمرُّ عليهِ
ناولته المرآة ينظر وجْهَهُ ... فعكست فتنةَ ناظرَيْه إليهِ

وقال الرّماديّ: [الكامل]

وإذا أراد تنزُّهاً في روضة ... أخذ المرآةَ بكفٍّ فتنزّها

كان للفضل بن سهل وصيفة ظريفةٌ كثيرة المُلَح والنَّوادر، وكانت ساقيتَه، وكان أبو نواس يولع بها ويمازحها، فقال لها يوماً: إني أحبّكِ وتبغضينني فلم ذلك؟ فقالت له: وجهُك والحرام لا يجتمعان، فقال: [الوافر]

مذكّرة مؤنّثة مَهَاةٌ ... إذا برزت تشبّهها غلاما

تَعَافُ الماء والعَسلَ المصفَّى ... وتشرب من فُتُوّتها المُدَاما
تقول للحظها يا سيفُ أبْشِر ... ستروي من دم وتشقّ هامَا
وقائلةٍ لها في وجه نصحٍ ... علام قتَلتِ هذا المستهاما؟
فكان جوابها في حسن مسٍّ: ... أأجمع وجه هذا والحراما!

ومن ملح ابن لنكك في أهاجي أبي رياش: [الوافر]

على القبح الفظيع أبو رياشٍ ... يعاشرنا بأخلاقٍ ملاحِ
يُبيح أكفَّنا أبداً قفاه ... فنصفَعُه على وَجْهِ المزاحِ

وله فيه أيضاً: [الكامل]

قل للوضيع أبا رياشٍ لا تبلْ ... تِهْ كلّ تيه بالولاية والعملْ
ما ازددت حين وليتَ إلا خسَّةً ... كالكَلْب أنجس ما يكون إذَا اغتسل

* * *

قوله: تَعريس، أي نزول آخر الليل. يهدي: الأول يرشد، ويدلّ على الطريق، ويقال؛ هداه يَهْدِيه هدًى في الدّين، وهداه يهديه هِداية في طريق يَهْدي: يعطي هدية، ويقال: أهداه هدِيّةً يُهديها إهداءً، إذا أعطاها. الّذود: ما بين الثلاث إلى العشر من الإبل، ولا تكون إلاّ إناثاً. قيْنَة: جارية مغنية ويقال: القيْنة الأمَة، كانت مغنّية أو غيرَ مغنّية. الفينة: الساعة والحين، ويقال: إني لآتيه الفيْنة بعد الفيّنة، وفينة بعد فيْنة، يستعمل بالألف واللام وبتركهما، أي أديم الاختلاف إليه الحين بعد الحين والوقتْ بعدَ الوقت. يُزَجّي: يسوق السّفيه: البطّال المشتغل باللهو.

قال الحارث بن همّام: فاعترضْتُه، وقلت له: عَهْدِي بكَ سَفيهاً، فمتى صرت فقيهاً! فظلَّ هُنَيهةً يجول، ثم أنشأ يقول: [المتقارب]

لَبِسْتُ لِكُلِّ زمانٍ لَبُوسَا ... ولابسْتُ صَرْفَيْهِ: نُعمَى وبُوسَا
وعاشَرْتُ كلَّ جليسٍ بِما ... يُلائمهُ لأرُوقَ الجليسا
فعِنْد الرُّواةِ أدير الكلامَ ... وبين السّقاةِ أديرُ الكؤوسَا
وطوراً بوعْظي أُسيلُ الدُّموعَ ... وطَوْراً بلهْوِي أسُرُّ النُّفُوسا
وأقري المسامع إمَّا نَطَقْتُ ... بياناً يقودُ الحرُون الشَّمُوسا
وإن شئتُ أرْعَفَ كفِّي اليراعَ ... فساقَطَ دُرًّا يُحَلِّي الطُّروسَا
وكم مشكلاتٍ حَكَيْن السهَّا ... خفاء فصِرْنَ بكشفِي شُمُوسا
وكم مُلحٍ لي خَلَبْنَ العقولَ ... وأسأرْنَ في كلْ قلبٍ رسيسا

وعَـذْرَاءُ فُـهْـتُ بِـهَـا فـانْـثَـنـى		عـلـيـهـا الـثَّـنـاءُ طـلـيـقـاً حَـبِـيـسـا

* * *

هنيهة: سويعة، تصغيّر هنةَ، ويقال في تصغيرها. هُنيّة وهُنيهَة، كما تصغَّر سنة سُنَيّة، وسُنيْهة. يجول: يتصرّف. لبوسا: ثوباً يشاكله، أخذه من قول النابغة: [الرجز]

البِـس لـكـلّ حـالـة لـبـوسَـهـا		إمـا نـعـيـمَـهـا وإمّـا بـوسَـهـا[1]

لابست: خالطت. صَرْفَيْهِ: حالَيه من الخير والشر. عاشرت: صاحبت يلائمه: يوافقه. أروق: أعجب، والصَّرْف اسم لحادث الدهر، لأنه يصرف الأشياء عن وجوهها. طوراً: مَرّة. أقْرِي المسامع: أعطي الآذان، وأجعل فيها البيان. إمّا نطْقت، أي إن نطقت الحَرون: الذي يأبى المشي والانقياد. الشَّمُوس: الذي إذا نخس وثب، وقيل: الذي يمنع الركاب. اليَرَاع: الأقلام: أرعفها: أسالها بالمداد. يُحْلِي: يزيّن. الطّروس: الكتب، سُمّيت بذلك لأنها ممحوّة، والمطروس: الممحُوّ. قال رؤبة: [الرجز]

* كـمـا رأيـت الـطّـلَـل الـمـطـروسا[2] *

[القلم ومما قيل فيه]

وعلى ذِكْر اليراع قال محمد بن عبد الملك بن صالح الهاشميّ في قلم: [الطويل]

وأهيفَ طاوي الكَشْحِ أسمرَ ناطقٍ		لـه جَـولاَنٌ فـي بـطـون الـمـهـارقِ
كـأنّ الـلآلـي والـزَّبَـرْجـد نُـطْـقَـهُ		ونـوْرَ الْـخُزامى في عيون الـحدائق
إذا استعجلتْه الكفّ أمطر خالُهُ		بـلا صـوت إرعـاد ولا صوب بـارقِ

وقال ابن عبد ربه: [المنسرح]

بـكـفّـه سـاحـرُ الـبـيـان إذا		أدَارَه فـي صـحـيـفـةٍ سَـحَـرا
مـهـفـهـفٌ تَـزْدَهِـي بـه صـحـفٌ		كـأنـمـا حُـلِّـيَـت بـه دُررا
يـكـاد عـنـوانـهـا لـروْعَـتِـه		يُـنْـبيك عن سرّهـا الـذي استـترا

وقال التِّهاميّ: [الكامل]

يَلْقَى العِدَا من كُتْبِه بكتائبٍ		يـجـرُرْنَ مـن زَرَدِ الـحـروف ذُيـولا

---

(١) الرجز ليس في ديوان النابغة الذبياني، وهو بيهس الفزاري في التنبيه والإيضاح ٢/ ٣٠١، وتاج العروس (بهنس)، (لبس)، (نعم)، وبلا نسبة في لسان العرب (لبس)، وأمثال العرب ص ١١١، وجمهرة الأمثال ١/ ١٩٧، وخزانة الأدب ٧/ ٢٩٦، ١١/ ١٠٣، والفاخر ص ٦٢، والمستقصى ١/ ٣٠٤، والوسيط في الأمثال ص ٤٠، ٨٩.

(٢) الرجز في ديوان رؤبة ص ٧١.

فترى الصحيفة حِلْيةً وَجِيَادَها أقلامَهُ وسَريرهنّ صَهِيلا
في كفّه قلم أتمُّ من القنا طولاً وهنّ أتم منه طولا

وله أيضاً: [الخفيف]

وإذا راش بالأنامل منه قلماً واستمدّ ساء وَسرَّا
قلمٌ دبّر الأقاليم حتّى قال فيه أهلُ التناسخ إمْرَا
يتبع الرمحُ أمَره فابن عشريـ ـن ذراعاً بالرأي يخدُم شبرا

السها: نَجْم خفيّ. خَلَبنَ: خدعن. أسأرْنَ: أبقين، والسؤر. البقية وفي الحديث: «إذا أكلتم فأسئروا»(١)، وأخذت سائره، معناه بقيّته. الرسيس: أوّل بَرْد الحمَّى، يريد أن هذه المُلَح لعذوبتها إذا حلّت في القلب أحدثت فيه حَركة وهِزّة، وإذا سمع ذو الذكاء كلاماً مستظرفاً من نثر أو نظم وجد له دَبِيباً وقشْعريرة، وأخذ «وكم مشكلات»، من قول علي رضي الله عنه: [الوافر]

إذا المشكلات تصدَّيْنَ لي كشفتُ حقائقها بالنَّظَرْ(٢)
وإن برقت في مخِيل الصَّوا ب عمياءُ لا يجتليها البَصرْ
مقنَّعةً بغيوب الأمور وضعتُ عليها صحيح الفكرْ
لساناً كِشقْشِقَةِ الأرحَبِّي أوْ كالحسام اليمانيّ الذَّكَرْ
وقلبا إذا استنطقَتْه الغُيُوبُ أمرَّ عليها بِوَاهي الدُّرَرْ

عذراء: قصيدة بكْر، لم يُسبق إليها فُهْت: نطقت. انثنى: رجع. طليقاً: منتشراً في الناس. حبيساً: موقوفاً عليها لا يتعدّاها لغيرها.

[مما قيل في الشعر شعراً]

ومدْح الشعراء للشعر بابٌ شأوه بعيد، وسنذكر لحبيب ـ وهو المبرّز فيه ـ ولغيره ما يستحسن ويُستجاد، قال حبيب: [الكامل]

جاءتْكَ من نَظْم اللّسان قلادةٌ سِمْطَانِ فيها اللُّؤلُؤ المكْنُون(٣)
حُذِيتْ حذاء الحضْرِميّة أُرهفَتْ وأجادَها التَّخْصِيرُ والتبيينُ
إنسيّة وحشيّة كَثُرتْ بها حركات أهل الأرض وهي سكونُ
أمّا المعاني فهي أبْكَارٌ إذا فُضّت ولكنّ القوافيَ عُونُ

---

(١) رواه ابن الأثير الجزري في النهاية ٢/٣٢٧، بلفظ: «إذا شربتم فاسئروا».
(٢) الأبيات في ديوان علي بن أبي طالب ص ٩٠، والبيت الأول في تاج العروس (أمع).
(٣) الأبيات في ديوان أبي تمام ص ٣٣٠، ٣٣١.

وقال أيضاً: [الطويل]

فـوالله لا أنـفـك أهـدى قـصـائـداً إلـيـك يـحـمِـلْـنَ الـثَّـنـاء الـبـجَّـلا[1]
يُـحـاك بـهـا بُـرْدٌ عـلـيـك مـجـدَّدٌ وتـحـسـبـه درًا عـلـيـك مُـفَـصَّـلا
أَلـذّ مـن الـسّـلْـوَى وأطـيـب نَـفْـحَـةً من المسك مفتوقاً وأيسر محملا
أخـفَّ عـلـى سـمـعٍ وأثـقـلَ قـيـمـةً وأقصرَ في سَمْع الجليس وأطْوَلاَ

وقال البحتريّ: [الطويل]

تَـطُـوعُ الـقـوافـي فـيـكُـم فـكـأنّـمـا يطير إليكُم من عُلُوٌ قصيدُها[2]
وكم ليَ من محبوكةِ الوشِي فيكُم إذا أُنشدت قام امرؤ يَسْتَعِيدُها

وقال أيضاً: [الطويل]

ألستُ الموالي فيكَ نظمَ قصائدِ هي الأنجم اقْتَادَتْ مع اللّيل أنجمَا[3]
ثـنـاء تـخـالُ الـروض مـنـه مـنـوِّراً ضحَى وتخالُ الوشي فيه مُسَهَّما

وقال أيضاً: [الطويل]

إلـيـك الـقـوافـي نـازعـاتٍ قـواصـداً يُسيَّرُ ضاحي وشِيها ويُنمْنَمُ[4]
ومشرقةٍ في النَّظْم غُرّاً يزيدُها بـهـاءً وحـسـنـاً أنّـهـا لـك تُـنـظَـمُ
ضـوامِـنْ لـلـحـاجـات إمّـا شـوافـعـاً مـشـفَّـعـةً، أو حـاكـمـاتٍ تـحَـكَّـم

وقال عليّ بن الجهم: [الطويل]

ولـكـنّ إحـسـان الـخـلـيـفـة جـعـفـرٍ دعاني إلى ما قلت فيه من الشِّعْر[5]
فسار مسيرَ الشمس في كلِّ بلدةٍ وهبَّ هبوبَ الريح في البرّ والبحرِ

ولابن الرومي يهجو: [الكامل]

خـذهـا إلـيـك مَـنـيـحـةً سـيّـارةً فـي الـنّـاس مـن بـادٍ ومـن مـتـحـضّـرِ
تـغـدو إلـيـك بـحـاصـبٍ وبـتـاربٍ وعـلـى الـرّواة بـلـؤلـؤ مـتـخـيَّـرِ

وقال السريّ الموصلي: [الوافر]

أتـتـك يـجـول مـاءُ الـطـبـع فـيـهـا مـجـالَ الـمـاء فـي الـسَّـيْـفِ الـصَّـقِـيـلِ
قـوافٍ إن ثَـنَـتْ لـلـمـرء عِـطْـفـاً ثـنـي الأعـطـافَ فـي بُـرْدٍ جـمـيـل

(١) ديوان أبي تمام ص ٢٥٥.
(٢) البيتان في ديوان البحتري ص ٦٥٥.
(٣) ديوان البحتري ص ١٩٨٤.
(٤) ديوان البحتري ص ١٩٣١.
(٥) البيتان في ديوان ابن جهم ص ١٤٧.

وقال أيضاً: [الكامل]

شرقتْ بماء الطبع حتى خلتُها شرِقت لرونقها بِتِبْرٍ ذائبِ
ويقول سامعها إذا ما أنشِدت أعقود حَمْدٍ أم عقود كواكبِ

وقال أيضاً: [الكامل]

ألفاظُها كالدرّ في أصدافِهِ لا بَل تزيدُ عليه في لألائه
من كلِّ رائعة الجمال كأنّما جاد الشّباب لها برونقِ مائِهِ
والشعر بحرٌ حُزتَ أنفَسَ دُرِّهِ وتنافس الشعراء في حَصْبَائِه

وقال أيضاً: [الكامل]

لفظ صَقَلْتُ متونَهُ فكأنه في مشرِقات النَّظْم دُرّ سِخَابِ
وكأنما أجريت في صَفَحَاتِهِ حرّ اللُّجين وخالص الزِّرْيَابِ
أغربْتُ في تحبيره فَرُواته في نزهة منه وفي استغرابِ
وقطعت منه شبيبةً لم تشتغل عن حسنة بَصباً ولا بتَصابِ
وإذا ترقرق في الصحيفة ماؤه عَبَق النسيم فذاك ماء شبابي
يُصغي اللّبيبُ له فيقسم لُبَّهُ بين التَّعجُّب منه والإعجاب
جِدٌّ يطير شرارُه، وفُكَاهةٌ تَستعطف الأحباب للأَحباب

قال يحيى بن أكثم لمحمد بن حازم: ما في شعرك شيء غير أنك لا تطيله، فقال: [الوفر]

أبَى لِيَ أن أطيلَ الشّعر قصدي إلى المعنى وعلمِي بالصَّوابِ
فأبعثُهنّ أربعة وخمسًا مثقّقة بألفاظ عِذابِ
خوالدَ ما حدَا ليلٌ نهاراً وما حَسُن الصِّبا بأخي الشّباب
وهنّ إذا وَسَمْتُ بهنَّ قوما كأطواق الحمائم في الرِّقابِ
وهنّ إذا أَقَمْتُ مسافراتٌ تَهاداها الرُّواة مع الرَّكابِ

* * *

[المتقارب]

عَلَى أنّني مِنْ زَمانِي خُصِصْتُ بكَيْدٍ ولا كيْدَ فِرْعَوْنَ موسى
يُسَعَّر لي كلَّ يومٍ وغًى أطا منْ لظاها وطِيساً وطِيسا
ويَطْرُقنِي بالخُطوبِ الَّتِي يُذِبْنَ القُوَى ويُشِبْنَ الرؤوسا
ويدنى إليَّ البعيد البغيضَ ويُبعد عنّي القريبَ الأنيسَا

ولـولا خـسـاسَـةُ أخـلاقِـه لـمـا كـان حَـظّـيَ مِـنْـه خـسـيـسـا

فقلت له: خفِّض الأحزانَ، ولا تَلُمِ الزمان، واشكُرْ لمن نقلَك عن مذهبِ إبليسَ، إلى مذهَبِ ابن إدريس.

* * *

قوله: على أنني، أي مع أنني. وقوله: ولا كيد فرعون موسى، أضاف فرعون إلى موسى، لأنّ الفراعنة كانوا جماعة.

وقال النبي ﷺ: «إنّ لكل أمة فرعوناً، وفرعون هذه الأمة أبو جهل»(١).

وفرعون موسى، كان أكبر الفراعنة كيداً وأطولَهُمْ عمراً، وأعتاهم على الله، وأسراهم مملكةً.

ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال موسى عليه الصلاة والسلام: يا ربّ، أمهَلْتَ فرعون أربعمائة سنة، وهو يقول: أنا ربّكم الأعلى، ويكذّب بآياتك ويجحد رسلك! فأوحى الله تعالى إنه كان حسنَ الْخُلُق سهْل الحجاب، فأحببت أن أكافئه.

وأما عذابه لبني إسرائيل فقد قدمناه في الخامسة.

ومما يحكى عنه أنّه كان يأمر بالقَصَبِ فيشقّ، ويُجعل أمثال الشفار، ثم يضيف بعضَه إلى بعض، ثم يؤتى بالحبالَى من بني إسرائيل فيوقَفْن عليه، فيحزّ أقدامهنّ، حتى إن المرأة لتضع ولدها فيقع بين رجليها، فتظَلّ تطؤه تتّقي به حدَّ القَصَب عن رجليها.

قال وهب بن منبِّه: بَلَغَنِي أنه ذبح في طلب موسى تسعين ألف ولد ونسَب الثعالبيّ المفسر فرعونَ، فقال: هو أبو العباس الوليد بن مصعب بن الرّيان بن أراشه بن ثروان بن عمرو بن قاذم بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح عليه السلام.

قوله: يُسَعّر، أي يهيّج. وغَى: حرب. لظاها: حرّها. وطيساً: شدة، وحَمِيَ الوطيس: اشتدت الحرب، وأصله تَنّور من حديث يطبخ فيه، فشبِّهت شدّة الحرب وحرارتها به. وقيل: هو حفرةٌ يُخْتَبَزَ فيها. والوطيس: الوطء الشديد، والبلاء الذي يطسّ الناس، أي يدقهم ويقتلهم.

يطرقني: يقصدني ليلاً. الخطوب: الأمور الشداد. خساسة: حقارة حَظي: نصيبي.

ومما قيل في معنى قوله: ويدني إليّ البعيد البغيض. . البيت. . قول الزاهد بن عمران: [البسيط]

إلـمـام كـلّ ثـقـيـل قـد أضـرّبـنَـا نـروم نـقـصَـهـمُ والـشـيءُ يـزدادُ

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ١/ ٣٠٩، ٤٠٣، ٤٤٤.

ومَنْ يخفّ علينا لا يلمّ بنا وللثقيل مع السَّاعات تَرْدَادُ

ويقرب منه قول الشاعر: [الطويل]

وكيف يودّ القلب مَنْ لا يودّه بلى قد تريدُ النفس مَن لا يريدُها

وقال عديّ بن الرقاع: [الكامل]

تَبلتْك أخت بني لؤي إذ رمَتْ وأصاب نَبْلُك إذ رميتَ سِواها[1]

وأعارها الحدَثان منك مودّةً وأعار غيرَك وُدَّها وهَوَاها

وهذا من قول الأعشى: [البسيط]

عُلِّقْتُها عرَضاً وعُلِّقت رجُلاً غيري، وعُلِّق أخرى غيرَها الرَّجُلُ[2]

وقال مسلم بن الوليد ـ وهو صريع الغواني، وكان خاملاً فولاّه بنو سهل جرجان فشرُف ـ فقال: [البسيط]

أهلَ الصفاءِ نأيتمْ بعد قُرْبكُم فما انتفعتُ بعيش بعدكم صافِي[3]

وقد قَصَدْتُ ندى مَنْ لا يوافقني فكان سهمي عنه الطّائش الطافي

أردتُ «عمراً» وشاء الله «خارجةً» أما كفَى الدّهرَ من خُلْفي وإخلافي!

ولهذا أشار ابن شرف بقوله: [الكامل]

سَلْ عن رضاي عَنِ الزّمان فإنّهُ كرضا الْفَرَزْدق عن بني يَرْبُوعِ

لله حالٌ قد تنقّل عهدُها كخلاف نَقْل الدهر حال صريعِ

دارت دراريّ الخطوبِ قواصداً حتى نظرن إليَّ من تَرْبِيعِ

وله أيضاً يتشكّى: [البسيط]

ما لي أجاذُب ذي الدنيا مولِّيةً فكلّ ثوب عليها قُدّمن دبُرِ

أتى الزمان على يأسٍ به لبَنِي الدُّنْـ ـيَا كبشْرى بمولود على كِبَرِ

وقال أيضاً: [البسيط]

إني وإن عَزّني نيلُ المنى لأرَى حِرْصَ الفتى خَلّةً زيدت على العدمِ

---

(١) البيتان لعدي بن الرقاع في اللآلي المصنوعة ص ١٣٩.

(٢) يروى عجز البيت:

غيري وعلّقَ أُخرى ذلك الرَّجُلُ

وهو للأعشى في ديوانه ص ١٠٧، والأشباه والنظائر ٥/ ١٥٢، وشرح التصريح ١/ ٢٨٦، ولسان العرب (عرض)، (علق)، وتاج العروس (علق)، والمقاصد النحوية ٢/ ٥٠٤، وبلا نسبة في أوضح المسالك ٢/ ١٣٦.

(٣) الأبيات في ديوان صريع الغواني ص ٣٢٧.

تقلّدتني الليالي وهي مدبِرةٌ   كأنني صارمٌ في كفّ منهزمِ

وقال جحظة: [البسيط]

ضاقت عليّ وجوه الرأي في نفرٍ   يلقوْن بالجحد والكفران إحسانِي
أقلّب الطرف تصعيداً ومنحَدَراً   فما أقابل إنساناً بإنسانِي

وقال أيضاً: [المتقارب]

لقد مات إخوتِي الصالحون   فما لي صديقٌ وما لي عمادُ
إذا أقبل الصبحَ ولّى السرورُ   وإن أقبل الليل ولّى الرقادُ

قوله: خَفّض، أي سَكّن.

* * *

[الإمام الشافعي]

وابن إدريس هو الإمام الشافعيّ محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف، يلتقي نسبُه مع بني هاشم وبني أميّة في عبدِ مناف.

وقال ﷺ: «نحن وبنو المطّلب كهاتين» ـ وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى مضمومتين.

وحاصرت قريش بني المطلب مع بني هاشم في الشِّعْب.

وكان الشافعي أعلَم الناس وأورعَهم وأعبدهم، وأجودهم، فإن أردت أن تقف على حفظة ومبلغ علمه، فانظر رحلته.

ووصفه بعضُ أهل العلم فقال: هو شقيق رسول الله ﷺ في نَسَبِه وشريكُه في حَسَبِه.

زوّج المطلب ابنَه هاشماً الشّفاء بنت هاشم بن عبد مناف أخيه، فولدت له عبد يزيد جدّ الشافعي رضي الله عنه، فكان يقال لعبد يزيد: المحضُ لا قذًى فيه، فولَد الشافعيَّ رضي الله تعالى عنه هاشمان: هاشم بن المطلب وهاشم بن عبد مناف، فالشافعيّ ابن عم النبيّ ﷺ وابن عمَّتِه، لأن الشفاء أخت عبد المطلب، فهي عمة النبي ﷺ.

وأسلم السائب جدُّه يوم بدر، وكان صاحب راية بني هاشم بن عبد مناف أسِرَ وفدَى نفسه، فأسلم، فقيل له: لِمَ لَمْ تُسلِم قبْلِ أن تَفْتَدِي؟ فقال: ما كنت أحرمُ المؤمنين طمعاً لهم فيّ.

قال أبو ثور: ما رأيتُ ولا رأى الراؤون مثله.

وقال أحمد بن حنبل: ما صلّيت صلاة منذ أربعين سنة إلا وأنا أدعو الله للشافعيّ.

وقال له ابنه: أيّ رجل كان الشافعيّ حتى تدعو له هذا الدعاء؟ فقال: يا بنيّ كان كالشَّمس للدنيا، أو كالعافية للناس.

وحدَّث صالح بن أحمد بن حنبل قال: مشى أبي مع بَغْلَةِ الشافعيّ في ركابه، فبعث إليه يحيى بن معين فقال له: يا أبا عبد الله، أما رضيتَ إلا أن تمشي مع بغلته! فقال: يا أبا زكرياء، لو مشيتَ من الجانب الآخر لكان أنفع لك، وما يمسّ أحدٌ محبرةً إلا وللشافعي في عُنُقِه مِنّة.

وقال الشافعيّ رضي الله عنه: ما شبِعْتُ منذ ست عشرة سنة، لأنّ الشِّبَع يثقِّل البدن، ويقسِّي القلب، ويزيل الفِطْنة، ويجلِب النوم، ويضعف صاحبه عن العبادة.

وقال: ما حلَفْتُ بالله لا صادقاً ولا كاذباً.

وقال: ما ناظرتُ أحداً قطّ فأحببت أن يخطىء، وما كلّمت أحداً إلا أحببت أن يوفّق ويُسَدّد ويعان، ويكون عليه من الله رعاية وحفظ وما كلّمت أحداً إلا وأنا لا أبالي أن يُبَيِّن الله الحقَّ على لسانه أو لساني وما أوردتُ الحجة على أحدٍ، فقبِل مني إلا هبْته واعتقدت محبَّته، ولا ثابرني على الحق أحدٌ ودافع الحجة إلا سقط من عيني ورفضته.

وكان يختم القرآن في رمضان ستين مرّة كلّ ذلك في الصلاة.

وقال الكرابيسيّ: بتُّ معه غير ليلة فكان يصلّي نحواً من ثلث الليل، فما رأيته يزيد على خمسين آية، فإذا أكثر فمائة آية. وكان لا يمّر بآية فيها رحمة إلا سأل الله لنفسه ولجميع المسلمين، ولا بآية عذاب إلا تعوّذ منها وسأل النجاة منها لنفسه ولجميع المسلمين.

وقال عمر بن عبد الله البَلَويّ: جلسْنا يوماً نتذاكر الزّهاد والعبّاد والعلماء، وما بلغ من زهدهم وفصاحتهم وعلمهم، فبينما نحن كذلك إذ دخَل علينا عمر بن نباتة، وقال: فيم تتحاورون؟ فأعلمناه، فقال عمر: والله ما رأيت رجلاً قطّ أوْرعَ ولا أخشَع ولا أصبَح ولا أسمح، ولا أعلم ولا أكرم ولا أجمل، ولا أجَلّ ولا أفضل، من محمد بن إدريس الشافعيّ، خرجت أنا وهُو والحارث بن اللبيد إلى الصّفا، وكان الحارث صاحب صالح المُرّي، وكان من المتّقين الخاشعين، وكان حسن الصوت، فقرأ **﴿هذا يَوْمَ لا يَنْطِقُون ولا يُؤْذَنُ لَهُمْ فيَعْتَذِرون﴾** [النازعات: ٣٥، ٣٦] فرأيتُ الشافعي رضي الله عنه قد تغيّر لونه، واقشعرّ جلده واضطرب اضطراباً شديداً، ثم خرَّ مغشيًّا على وجهه، فلما أفاق جعل يقول: أعوذ بك من مقام الكاذبين، وأعراض الغافلين! اللهم خضعتْ لك قلوبُ العارفين، وذَلّت لك قلوب المشتاقين، اللهم هب لي جُودَك، وجَلِّلْني بسِتْرك، واعف عن تقصيري بكرم وجهك. ثم قمنا وتفرّقنا.

وقال الربيع بن سليمانَ، سمعت الشافعيّ رضي الله عنه، يقول: أتى عليّ عيد وليس عندي نفقة، فاستسلفت سبعين ديناراً لنفقة أهلي، فبينا أنا كذلك إذ أتاني رجل من

قريش يشتكي إلي الحاجة فأخبرته خبرِي، وقلت له: خذ ما تحبّ، فقال لي: ما يقنعني إلاّ أكثر من هذه الدنانير، فقلت له: فخذها، وبتُّ وما معي دينار ولا درهم، فبينا أنا في منزلي إذ أتاني رسول جعفر بن يحيى البرمكي يقول: أجب الوزير، فأجبته. فقال: ما شأنك في هذه الليلة؟ يهتف بي هاتف كلّما دخلت في النوم، يقول: الشافعيّ الشافعيّ، فأخبرته بالخبر، فأعطاني خمسمائة دينار، ثم قال: أزيدك فأعطاني خمسمائة أخرى، فلم يَزَلْ يزيدني حتى أعطاني ألفي دينار. ومن جُوده أن سوطه وقع من يده، فأعطى مَنْ ناوله إياه خمسين دينار وورد مكة بعشرة آلاف درهم، فضرب خباءه خارجَها، فأتاه الناس، فما برح من موضعه حتى فرَّقها.

وكان شاعراً مجيداً، قال أبو القاسم بن الأزرق: دخلت عليه، فقلت له: يا أبا عبد الله، أما تنصفنا! لك هذا الفقه تفوز بفوائده، ولنا هذا الشعر، وقد جئتَ تُداخلنا فيه! فإمّا أفردتَنا أو أشركتنا في الفقه، وقد أتيتُ بأبيات إن أجزتَها بمثلها تبت من الشّعر، وإن عجزتَ تُبْ منه، فقال لي: إيه يا هذا، فأنشدته هذا الكلام: **[الكامل]**

مـا هَـمـتـي إلا مـقـارعـةُ الـعِـدَا ... خَـلَـق الـزمـان وهِـمَّـتـي لـم تـخـلُـقِ
والنّاس أعينهم إلى سبب الغِنى ... لا يـنـظـرون إلـى الـحـجـا والأولَـقِ
لكنَّ مَنْ رُزق الحجا حُرِم الغنى ... ضـدّان مـفـتـرقـان أيّ تـفـرق
لـو كـان بـالـحيـل الـغنى لوجدْتُنِي ... بـنـجـوم أقـطـار الـسـمـاء تـعُـلِـقـي

فقال الشافعيّ رضي الله تعالى عنه: ألا قلت كما أقول ارتجالاً: **[الكامل]**

إن الـذي رزق الـيـسـار فـلـم يَـنَـلْ ... حـمـداً ولا أجـراً لـغـيـرُ مـوفَّـقِ
فـالـجِـدّ يـدنـي كـلَّ أمـر شـاسـعٍ ... والـجـدّ يَـفْـتَـح كـلَّ بـاب مُـغْـلَـق
فـإن سـمـعـت بـأنّ مـجـدوداً حـوى ... عُـوداً فـأثـمـر فـي يـديـه فـحـقّـقِ
وإذا سـمـعـت بـأنّ مـحـرومـاً أتـى ... مـاء لـيـشـرَبـه فـغـاض فـصـدّق
وأحـقّ خـلـق الله بـالـهـمّ امـرؤ ... ذو هـمّـةٍ يُـبْـلَـى بـعـيـشٍ ضـيِّـقِ
ومـن الـدلـيـل عـلـى الـقـضـاء وكـونِـه ... بُؤس اللبيب وطيبِ عيش الأحَمَقِ

فقلت له: لا قلتُ شعراً بعدها.

قال المبرِّد: كان الشافعيّ رضي الله عنه أشعرَ الناس وآدب الناس، وأعرفهم بالفقه والقراءات، ولقد أخبرني بعضُ أصحابي أنه مات ولدٌ لعبد الرحمن بن مهديّ، فكتب إليه الشافعي رضي الله عنه: يا أخي، عَزِّ نفسك بما تُعزِّي به غيرك، واستقبح من فعْلك ما تستقبحه من غيرك. واعلم أن أمضّ المصائب فقدُ سرور، وحرمان أجر، فكيف إذا اجتمعا مع اكتسابِ وزرْ! فتناول حظّك يا أخي إذا قرب منك قبل أن تطلُبَه وقد نأى عنك، ألهمك الله عند المصائب صبراً، وأحرز لنا ولك بالصبر أجراً، وكتب إليه: **[البسيط]**

إنــي أعــزّيـك لا أنّــي عـلـى ثـقـة ... مـن الـحـيـاة ولـكـنْ سُـنَّـة الـدِّيـنِ
فـمـا الـمـعـزَّى بـبـاقٍ بـعـد ميّـتـه ... ولا الـمـعـزِّي وإن عـاشـا إلـى حـيـن

وقال أيضاً: [البسيط]

علمي معِي حيثما يَممْتُ ينفعني ... قـلـبـي وعـاء لـه لا بـطـنُ صُـنْـدُوقِ
إن كنتُ في البيت كان العلمُ فيه معي ... أو كنتُ في السّوقِ كانَ العلمُ في السّوق

وقال أيضاً: [الوافر]

ومـنـزلـةُ الـسَّـفـيـهِ مـن الـفـقـيـهِ ... كـمـنـزلـة الـفـقـيـه مـن الـسَّـفِـيـهِ
فـهـذا زاهـدٌ فـي قُـرْب هـذا ... وهـذا فـيـه أزهـدُ مـنـه فـيـه
إذا غـلـب الـشـقـاء عـلـى سفـيـهٍ ... تـقـطـع فـي مـخـالـفـة الْـفَـقِـيـه

وناظرَ الشافعيّ محمد بن الحسن الكوفيّ بالرَّقة فقطعه الشافعيّ، فبلغ ذلك هارون الرشيد، فقال: أما علم محمد بن الحسن إذا ناظر رجلاً من قريش، أنه يقطعه؛ سائلاً أو مجيباً، والنبيّ ﷺ يقول: «قدّموا قريشاً ولا تقدّموا عليها، وتعلمّوا منها ولا تعَلّمُوها»، فإن علم العالم منها يَسَعُ طباق الأرض. وكان الشافعيّ يعظّم محمد بن الحسن لعلمِه، واستعار شيئاً من كتبه فلم يسعفه بذلك، فكتب إليه الشافعيّ رضي الله تعالى عنه: [مجزوء الكامل]

قُـلْ لـلّـذي لـم تَـرَعـيـ ... ـنَـا مَـنْ رآه مـثـلَـهُ
ومـن كـأنّ مـن رآ ... ه قـد رأى مـن قَـبـلَـهُ
الـعـلـم يـنـهـي أهـلَـه ... أن يـمـنـعـوه أهـلَـهُ
لـعـلّـه يـبـذُلـه ... لأهـلـه لـعـلّـه

فبعث إليه بما سأل.

وقال في الفقيه ابن عبد الحكم وقد اعتَلّ فعاده: [مجزوء الكامل]

مَـرِضَ الـحـبـيـبُ فـعـدْتـه ... فـمـرضـت مـن حَـذَرِي عَـلَـيْـهِ
شُـفَـي الـحـبـيـبُ فـعـادنـي ... فـشـفـيـت مـن نـظـري إلـيـه

وقال أبو سعيد: سمعت الشافعي رضي الله عنه يقول بيتين وهما: [الطويل]

إنـي أرى نـفـسـي تـتـوق إلـى مـصـرِ ... ومِن دُونـهـا عَـرْضُ الـمـهـامـه والـقَـفْـرِ
فـوالله مـا أدري أَلـلـخـفـض والـغـنـى ... أقـاد إلـيـهـا، أم أقـاد إلـى الـقـبـر!

قال: فوالله ما كان إلا قليل حتى سيق إليهما جميعاً.

ورأيته بعد وفاته، فقلت له: ما فعل الله بك؟ فقال: أجلسني على كرسيّ من ذهب ونثر عليّ اللؤلؤ الرّطب.

وقال المُزَنيّ: دخلت عليه غداة وفاته فقلت له: كيف أصبحت يا أبا عبد الله؟ قال: أصبحتُ من الدنيا راحلاً، ولإخواني مفارقاً، ولكأس المنية شارباً، ولا أدري إلى الجنة تصير نفسي فأهّنيها أم إلى النار فأعزّيها! ثم أنشأ يقول: **[الطويل]**

ولَمَّا قسا قلبي وضاقَتْ مذاهبي جعلت الرَّجا منّي لعفوك سُلَّمَا

تعاظَمني ذنبي فلمّا قرنته بِعَفْوك ربِّي كان عفوُك أعظما

وكانت وفاته في رجب ليلة الجمعة سنة أربع ومائتين، ودفن في صبيحتها وهو ابن أربع وخمسين سنة، وصلّى عليه السَّري بن الحكم أمير مصر، ودفن بها نحو قبور الشهداء في مقبرة بني عبد الحكم وعند رأسه عمود من الحجر كبير، وفيه مكتوب: «هذا قبر محمد بن إدريس الشافعيّ أمين الله».

وقال الشافعيّ: أظلم الظالمين لنفسه مَنْ تواضع لمن لا يكرمُه، ورغِب في مودة من لا ينفعه، وقَبِل مدح من لا يعرفه.

وقال: مَنْ غلبت عليه شدة الشهوة بحبِّ الدنيا لزمتْه العبودية لأهلها، ومن رضيَ بالقنَع زال عنه الخضوع.

وقال الربيع بن سليمانُ: سمعت الشافعيّ يقول: **[الطويل]**

وأنزلني طُولُ النوى دارَ غُرْبةٍ يجاورني مَنْ ليس مثلي يشاكِلُهْ

أخامقةٍ حتى يقال سجيّةٌ ولو كان ذا عقْلٍ لكنت أعاقله

قال: وسمعته ينشد: **[الطويل]**

صُنِ النفس واحملها على ما يَزِينُهَا تَعِشْ سالماً والقولُ فيك جميلُ

ولا تولينّ الناس إلا تجمّلاً نَبَا بك دهرٌ أو جفاكَ خليلُ

وإن ضاق رزق اليوم فاصبرْ إلى غدٍ عسى نكباتُ الدهر عنك تزولُ

ولا خيرَ في ودّ امرىءً متلوّمٍ إذا الريحُ مالتْ مال حيث تَميلُ

وما أكثر الإخوانِ حين تعدُّهمْ ولكنّهم في النائبات قليلُ!

قال: وسمع رجلاً يَشْفَهُ على رجل من أهل العلم، فقال لأصحابه: نزّهوا أسماعكم عن استماع الخَنَى، كما تنزّهون ألسنتكم عن النطق به، فإن المستَمِع شريك القائل، وإنّ السفيه ينظر إلى أخبث شيء في وعائه، فيحرِص على أن يفرغه في أوعيتكم.

نظم بعضه هذا المعنى، فقال: **[المتقارب]**

فسمْعَك صُنْ عن سَمَاع الخَنَى كصوْنِ اللِّسان عن النُّطْق بهْ

فإنك عند استماع الخَنَى شريكٌ لقائله فانتبهْ

وكان الحسن البصريّ رحمه الله، إذا خطب الحجاج، وذكر السّلَف، يتكلّم تشاغلاً

عن خطبته، فقيل له في ذلك، فقال: إن السامع والمتكلم شريكان، ألم تسمع قول الشاعر: **[المتقارب]**

فــجــاء بــه نــاطــق مــنــهــمُ   بــلــيــغٌ ومــســتــمِــعٌ صــامِــتُ
فــكــلٌّ لــه حــظّــه أنــه   أعــان مَــعَ الــنــاطــق الــســاكــتُ

وقال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود: **[السريع]**

إن كــنــتَ لا تــرهــب ذمّــي لــمــا   تــعــلــم مــن صَــفْــحِــي عــن الــجــاهــل
فــاخــش ســكــوتــي إذ أنــا مــنــصــتٌ   فــيــك لــمــســمــوعــي خــنــى الــقــائــل
فــالــســامــع الــقــوْل كــمــن قــالــه   والــمــوكّــل الــمــأكــول كــالآكِــل

وذكر الفنجديهيّ الشافعيّ، فقال: هو إمام الأنام، ونظام الإسلام، أحد الأئمة الأربعة الأطواد، الشامخة في الدين الأجواد، رضيع لبان النبوّة، أفضل العلماء، وأعلم الفضلاء، وصدر البدور وبدر الصدور، وهادي الدّعاة، وداعي الهداة، إكسير العلوم، وإكليل الرسوم. عِلْم العلماء شظيّةٌ من عِلْمه، وحلم الحلساء جَذْوَةٌ من حلمه، وعقائد الأصول مقتدَحة من زناد كلماته، وقواعد الفروع مقترحة من عداد نغماته، فارس هَيْجاء المشكلات، ومقوّم عَوْجاء المعضلات، منبع السُّنن، ومتّبع السَّنن، فاز بغلبات الأقران، وحاز قَصَبَاتِ الرّهان، بطهارة الأعراق، ودماثة الأخلاق، وفخامة شرف الأمومة، وكرامة طرفي الأبوّة والعمومة، درّة الأصداف، من صميم آل عبد مناف، كشف الظّلمة عن الأمة، وصرف عنهم المظلمة المدلهمّة، بعلم كالبحر اللجّيّ، ورأي كالبدر في اللّيل الدجيّ، مذهبه مؤيَّد بنصوص القرآن، وفصول الفرقان، أسَّس بُنيانه على تقوى من الله ورضوانه، فهو بين المذاهب والأديان، كالناظر في الأجفان والسمع في الآذان، والعقل في الإنسان، والعدل للسلطان، أحلّه الله محلّ القُدْس، وأدلى إليه سحاب الأنس. . في كلام أكثر من هذا.

* * *

فقال: دَعِ الهِتَار، ولا تهتِك الأستار، وانهضْ بنا لِنَضْرِبَ إلى مسجد يَثْرِب، فعسى أن نَرْحَضَ بالمزارِ، درَن الأوْزار فقلت: هيهات أن أَسِيرَ، أو أَفْقهَ التفسِير، فقال: تاللّهِ لقدْ أوجَبْتَ ذِمَماً، وطلبت إذ طلبت أَمَماً. فهاكَ ما يشفي النَّفس، ويَنْفي اللَّبس، قال: فلمَّا أوضح لي المعمّى، وكَشَفَ عَنّي الغُمّى، شدَدْنا الأكْوَار، وسِرْت وسار. ولم أزل مِنْ مسامَرَته، مدّة مسَايَرَتِه، فيما أنساني طعْمَ المشقّة، وودِدْتُ معه بُعْدَ الشُّقة، حتّى إذا دَخَلْنَا مدِينة الرّسول، وفزنا من الزِّيارةِ بالسُّول، أشأم وأعْرَقتُ، وغرّب وشرَّقْتُ.

* * *

قوله: دع الهِتار: أي اترك تمزيق العِرْض، وفلان يهاتر فلاناً، أي يسابّه بالباطِل من القول، والقبيح من اللفظ، وأصل الهَتْر سقَط الكلام والباطل، والمهاترة: القول الذي ينقض بعضه بعضاً، وأُهتِر الرجل فهو مهتَر، إذا أولِع بالقول في الشيء، واستُهتر، فهو مستهتَر: ذهب عقله فيه، وانصرفت إليه همته. تهتِك: تخرق وتكشف، يريد أنه لما عرض له بنقائصه قال له: دع كشف العيب، فليس هذا موضعه. انهض: تقدم. لنضرب: لنمشي في الأرض. نَرْحض: نغسل. المزار: زيارة قبر النبي ﷺ. درَن الأوزار: وسخ الذنوب. هيهات: معناه بَعُدَ ذلك عنك. أفقه: أفهم، وذِمَمَا: جمع ذمّة، وهي العهد. أمَمًا: شيئاً قريباً، والأمَم: القصد. هاك: أي خذ. المعمّى: المغطّى المشكِل المعنى، وأراد به شرح المائة الفتيا الملغِزة. ويقال لمن يطلب ما يمكن ولم يشتطّ: طلب أمَماً قال عبيد الله بن قيس الرقيّات: [المنسرح]

كوفيّةٌ نازح محَلّتها لا أَمَمٌ دارها ولا صَقَبُ[1]

الصَّقب: القرب. الغُمّى: هي الغمة التي تغطّي على الذهن، والمعمَّى الأمر الملتبس. الأكوار: ما هو للإبل كالبراذع للدواب. الشُّقة: السفر البعيد. والسُّول: المراد، أشأم وأعرقت: قصدَ الشأم وقصدتُ العراق.

[فضل زيارة قبر النبي ﷺ]

ونذكر هنا فصلاً في زيارة القبر المعظّم وتوديع زائره له ووصف الروْضة والمسجد وذكْر يثرب، وهي مدينة النبي ﷺ ومهاجَره، سمّاها طيّبة لما كان اشتقاقها من التّثْريب. وكان ﷺ يغيّر الأسماء التي تدلّ على الاستقباح إلى ضدّها[2].

وقال ﷺ: «مَنْ زار قبري وجبت له شفاعتي» ابن عمر رضي الله عنهما: يثرب أرض مدينة الرسول في ناحية منها.

وقال شيخنا ابن جبير في روضته ﷺ: شاهدنا الرّوضة المكرّمة، وقد وقع الأذان بوصول صدر الدين رئيس الشافعيّة الأصبهانيّ الذي ورث النّباهة والوجَاهة في العلم كابراً عن كابر، المعروف برئيس العلماء، توارثه عن أبٍ فأبٍ، وقد غَصّ الحَرم بالمنتظرين، وقد أعِدّ له كرسيّ بإزاء الرّوْضة المقدسة، فصعد وحضر قرّاؤه أمامه، فابتدؤوا بالقراءة بنغمات عجيبة، وتَلاَحين مطربة بهيجة، وهو يلحظ الرّوْضة المقدَّسة، ويُعلن بالبكاء. ثم أخذ في خطبةٍ من إنشائه سحريّة البيان، وسلك في أساليب من الوعظ باللّسان، وأنشد

---

(١) البيت في ديوان ابن الرقيات ص ٢، وفيه «ولا سقبُ» بدل «ولا صقبُ»، ولسان العرب (صقب)، وتهذيب اللغة ٨/ ٣٨٣، والأغاني ٥/ ٨٧، وتاج العروس (صقب)، وبلا نسبة في كتاب العين ٨/ ٤٣٠، ومقاييس اللغة ١/ ٣٠.

(٢) أخرجه الترمذي في الأدب باب ٦٦، بلفظ: «أنّ النبي ﷺ كان يغير الاسم القبيح».

أبياتاً بديعة من قوله، كان يردّد منها هذا البيت، ويشير إلى الروضة المعظَّمة المطهرّة **[الكامل]**

هاتيك روضتُه تفوح نسيماً ... صلُّوا عليه وسلِّموا تَسْلِيما

وتمادَى في وعظه إلى أن أطار النفوس من خشيةٍ ورقّةٍ، وهو يعتذر من التقصير، لهول ذلك المقام ويقول: عجباً لألكَنِ العجم، كيف ينطق عند أفصح العرب. وتهافتت الأعاجم عليه معلنين بالتوبة، وقد طاشت ألبابُهم، ودِهشت عقولهم، فيلقُون نواصِيهَم بين يديه، فيستدعي الجلمَيْن، ويجزُها ناصية ناصية، وكلّما جزّ ناصية كساها عمامة، فتوضع عليه للحين عمامة أخرى، ثم ختم مجلسه، بأن قال: معشر الحاضرين، قد تكلّمت لكم ليلة بحرَم الله، وهذه الليلة بحرم رسوله؛ ولا بد للواعظ من كُدْيَة، وأنا أسألكم حاجة وإن ضمنتوها إلي أرقتُ لكم ماء وجهي في ذكرها. فأعلن الناس بالاسعاف وشهيقهم قد علا، فقال: حاجتي أن تكشِفُوا رؤوسكم، وتبسطوا أيديكم، ضارِعين لهذا النبي الكريم في أن يرضى عُني ويسترضي الله عزّ وجل لي. ثم أخذ في تَعداد ذنوبه، والاعتراف بها، فأطار الناس عمائمهم، وبسطوا أيديهَم للنبي ﷺ، داعِين له باكين متضرّعين؛ فما رأيت ليلة أكثر دموعاً، ولا أعظم خشوعاً من تلك الليلة. ثم انفضّ المجلس.

قال ابن جبير رحمه الله: ثم كان في اليوم التالي لهذه اللّيلة وداعُنا للروضة المكرّمة، فيا له وداعاً، ذهلت له النفوس ارتياعاً، حتى طارت شَعاعاً، وما ظنّك بموقف ينادَى بالتوديع فيه سيدُ المرسلين، وخاتم النبيين، ورسولُ رب العالمين! إنه لموقفٌ تنفطر فيه الأفئدة، وتطيش له الألباب المتَّئدة، فوا أسفاه وأسفاه! كلٌّ يبوح لديه بأشواقه، ولا يجدُ بُدًّا من فراقه، فما تستطيع إلى الصبر سبيلاً، ولا تسمع في ذلك المقام إلاّ رنَّةً وعويلاً، وكلٌّ بلسان الحال ينشد: **[مخلع البسيط]**

محبَّتي تقتضِي مَقَامِي ... وحالتي تقتضي الرَّحِيلا

بوّأنا الله بزيارة هذا النبيّ الكريم منزلَ الكرامة، وجعله شفيعاً لنا يوم القيامة، وأحلنَّا بفضله في جواره الكريم دار المَقامة.

ثم ذكر الرّوضة المقدَّسة مع المسجد العتيق الذي احْتَوى على الروضة، فقال: المسجد المبارك مسجد رسول الله ﷺ مُستطِيلٌ، وتحفُّه من جهاته الأربع بلاطات مستطيلة، ووسطه كلّه صحن مفروش بالحَصى والرّمل، وفي الصحن خمس عشرة نخلة، فالجهة القبلية لها خمس بلاطات مستطيلة من غَرْب إلى شرق، والجنوبيّة كذلك، على الصفة المذكورة والشرقيّة لها ثلاث بلاَطات، والغربيّة لها أربع بلاطات. وطول المسجد مائة خطوة وست وتسعون خطوة، وسعته مائة وست وعشرون خطوة، وعددُ سَواريه مائتان وتسعون، وهي أعمدة متصلة بالسُّمْك دون قسيٍّ تنعطف عليها، فكأنّها دعائم

قوائم، وهي من حَجَرٍ منحوت قطعاً قطعاً، مُلَمْلَمَة مثقوبة[١] توضع أنثى في ذكر، ويفرغ بينهما الرصاص المذاب إلى أن يتصل عموداً قائماً، وتُكسى بِغلالة جير، ويبالَغ في سَفْلها ودَلْكها، فتظهر كأنها رخام أبيض، وتحفّ بالبلاط المتّصل بالقبلة من البلاطات الخمس مقصورة تكتَنفه من غرب إلى شرق، والمحراب فيها، وعلى رأس المحراب حجر مربّع أصفر قدرَ شبر في شبر، ظاهر البريق، يقال: إنه كان مرآة كسرى. وفي أعلى داخل المحراب مسمار مثبّت في جداره، فيه شِبْه حُقّ صغير لا يعرف من أيّ شيء هو، ويزعمون أنه كان كأس كسرى. ونصف جدار القبلة الأسفل رخام موضوع أزاراً على إزار مختلف الصَّنعة واللون، مجزّع أبدع تجزيع. والنصف الأعلى من الجدار مزيّن كلّه بفصوص الذهب المعروفة بالفُسَيْفِساء، قد نتج الصانع فيه نتائج غريب من الصَّنْعة، تضمّنت تصاوير أشجار مُختلفة الصفات، مائلة الأغصان بثمرها، والجداران الشرقي والغربي النّاظران إلى الصحن مُجَرّدان أبيضان مُقرفَصان، قد زُيِّنا برسم يتضمّن أنواعاً من الأصبغة إلى ما يطول وصفه من الاحتفال في هذا المسجد المبارك.

وفي الجهة الشرقية بيتٌ مصنوع من عُود لمبيت بعض سَدَنتِه، وسدنَتُه فتيانٌ أحابيش صقالبُ ظراف الهيئات، نظاف الملابس، والمؤذِّن الرّاتب فيه أحد أولاد بلال، وفي جوف الصَّحْن قبّة كبيرة تُعرَف بقبّة الزيت، هي مخزن لجميع آلات المسجد.

وله تسعة عشرة باباً لم يبقَ منها مفتوحاً سوى أربعة: اثنان في الغرب، ويُعرَفان بباب الرحمة، وباب الخشية، واثنان في الشرق: باب جبريل، ويقابله دار عثمان التي استُشهد بها، وباب الرّجاء. وفي الشرق خمسة مغلقَة، وفي الغرب كذلك، وفي الجنوب أربعة وفي القبلة واحدٌ صغير، وله ثلاث صوامع إحداها في الركن الشرقيّ على هيئة الصوامع، واثنتان في ركني الجهة الجنوبية صغيرتَان على هيئة بُرْجين، والرَّوضة المقدّسة مع آخر الجهتين، الجهة القبلية ممّا يلي الشرق، وقد انتظمت من بلاطاته ممّا يلي الصّحن في السعة اثنين ونيّفت إلى البلاط والثالث بمقدار أربعة أشبار، ولها خمسة أركان بخمس صفحات، وشكلُها شكلٌ عجيبٌ لا يكاد يتأتّى تصويرُه ولا تمثيله، والصَّفحات الأربع محرّفة عن القبلة تحريفاً بديعاً، لا يتأتّى لأحد معه استقبالها في صلاته، لأنه ينحرف عن القبلة، والذي اخترع ذلك في تدبيرها مخافة أن يتّخذها الناس مصلّى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وأخذت من الجهة الشرقية سعة بلاطتَين، وانتظم داخلها من أعمدة الأبلطة ستة، وسعة الصفحة القبلية منها أربعة وأربعون شبراً، وسعة الصفحة الشرقية ثلاثون شبراً، ومن الركن الشرقيّ إلى الركن الجنوبيّ صفحة سعتها خمسة وثلاثون شبراً، ومن الركن الجنوبيّ إلى الغربي صفحة سعتها تسعة وثلاثون شبراً، ومن الركن الغربيّ إلى القبليّ صفحة سعتها أربعة وعشرون شبراً، وفي هذه الصفحة صُندوق

---

(١) الململم: هو الحجر المجتمع الأملس.

آبنوس مختَّم بالصندل، مصفَّح بالفضة، مكوكب بها طوله خمسة أشبار، وعرضه ثلاثة أشبار، وارتفاعه أربعة، وهو قُبالة رأس النبي ﷺ، فجميع سعة الروضة من جميع جهاتها مائة شبر، واثنان وسبعون شبراً، وهي مؤزَّرةٌ بالرخام البديع النحت الرائع النعت، وينتهي الإزار منها إلى نحو الثلث أو أقلّ يسيراً، وعليه من الجدار المكرم ثلث آخر، قد علاه تَضميخ المسك والطِّيب مقدار نصف شبر مسوّداً متراكباً، متشقّقا مع طول الأزمنة والأيام، والذي يعلُوه من الجِدار شبابيك عُود متَّصلة بالسُّمْكَ الأعلى، لأنّ أعلى الروضة متّصل بسُمْك المسجد، وإلى حيّز إزار الرخام تنتهي الأستار، وهي لازورديّة اللون، مختَّمة بخواتم بيض مثمَّنة ومربعة، وفي داخل الخواتيم دوائرُ مستديرة، ونُقَط بيض تحفّ بها، فمنظرها منظر بديع الشَّكل. وفي أعلاها رسم مائل إلى البياض، وفي الصفحة القبلية أمام وجه النبي ﷺ مسمار فضّة، هو قبالة الوجه المكّرم، فيقف الناسُ أمامه للسّلام، وإلى قدميه ﷺ رأس أبي بكر رضي الله عنه، ومما يلي كتفي أبي بكر رأس عمر رضي الله عنهما، فيقف المسلِّم مستدبر القبلة، ومستقبل الوجه الكريم، فيسلِّم ثم ينصرف يميناً إلى وجه أبي بكر، ثم إلى وجه عمر رضي الله تعالى عنهما.

وأمام هذه الصفحة المكرّمَة نحو العشرين قِنْديلاً معلّقة من الفضة، وفيها اثنان من ذهب، وفي جوفَي الروضة حوضٌ صغير مرخّم في قبلته شكل محراب، قيل: إنه بيت فاطمة رضي الله تعالى عنها، ويقال: هو قبرها، وعن يمين الرّوضة المكرّمة المنبر الكريم، ومنه إليها اثنتان وأربعون خطوة، وهو في الحوض المبارك الّذي طوله أربع عشرة خطوة، وعرضه ستّ خطا، وهو مرخّم كلّه وارتفاعه شبر ونصف، وارتفاع المنبر نحو القامة أو أزيد وسعته خمسة أشبار، وطوله خمس خطوات، وأدراجه ثمانية، وبابه على هيئة الشبّاك مقفَل يُفتح يوم الجمعة، وطوله أربعة أشبار ونصف شبر.

والمنبر مغشّى بعود الآبنوس، ومقعد النبي ﷺ من أعلاه ظاهرٌ، وقد طبق عليه لوح من الآبنوس غيرُ متّصل به، يصونه من القعود عليه، يدخل الناس أيديَهم إليه، ويمسحونه. تبركاً بلمْسِ ذلك المقعد الكريم، وعلى رأس رجْل المنبر اليمني، حيث يضع الخطيب يده حلقة فضة مجوّفة مستطيلة تشبه حَلْقة الخياط، لكنها أكبر لاعبة تستدير في موضعها، يزعمون أنها كانت لُعبة للحسن والحسين في حال خطبة جدِّهما، صلوات الله عليهم أجمعين.

وفي الرّوضة الصغيرة التي بين القبر والمنبر، جاء الأثر أنها روْضة من رياض الجنة، وقدرُها ثمان خُطا، ويتزاحَمُ الناس في هذه الرّوضة للصلاة، وبإزائها لجهة القبلة عمود، يقال إنه مُطْبق على بقية الجِذْع الّذي حَنّ للنبيّ ﷺ وقطعة منه في وسط العمود ظاهرة، يقبّلها الناس، ويمسحون خُدُودهم فيها وعلى حافتها في القبلة منها صندوق كبير للشَّمْع والأنوار التي توقد أمام الرّوضة كلّ ليلة، ومصلّى الإمام في الروضة الصغيرة

المذكورة إلى جانب الصندوق، وبينها وبين الروضة الكبيرة محمَل كبيرٌ مدهون عليه مُصْحَفٌ كبيرٌ في غِشَاء مقفل، هو أحدُ المصاحب الأربعة التي وجّه بها عثمان إلى البلاد.

وبإزاء المقصورة لجهة المشرق خزانتان كبيرتان محتويتان على كتب ومصاحف موقوفة على المسجد، ويليها في البلاط الثاني دفّةٌ لجهة الشرق، وَدَفّة مطبقة على وجه الأرض إلى سرداب يهبط إليه على أدراج تحت الأرض، يُفْضِي إلى خارج المسجد إلى دار أبي بكر، وهو كان طريق عائشة رضي الله عنهما إليها. وذلك الموضع هو موضع الخُوخة المُفْضية لدار أبي بكر رضي الله عنه التي أمر النبي ﷺ بإبقائها، وبإزاء دار أبي بكر دار عمر وابنه عبد الله بن عمر رضي الله عنهم أجمعين.

وفيما ذكرناه كفاية، والله تعالى أعلم.

تم الجزء الثاني، ويليه الجزء الثالث

وأوله: «المقامة الثالثة والثلاثون، وهي المقامة التفليسية»

فهرس المحتويات

المقامة الثامنة عشرة

المقامة التاسعة عشرة

المقَامَةُ العِشرُون

المقامة الحادية والعشرون

المقامة الثانية والعشرون

المقامة الثالثة والعشرُون

المقامة الرابعة والعِشرُون

المقامة الخامسة والعشرون

المقامة السّادسَة والعِشرُون

المقامة السَّابعة والعشرُون

المقامة الثامنة والعِشرُون

المقامة التاسعة والعشرُون

المقامة الثلاثون

المقامة الحادَية والثلاثون

المقامة الثانية والثلاثون



مقامات الحريري

لأبي العبّاس أحمد بن عبد المؤمن بن موسى
القيسي الشُّريشي
المتوفّى سنة ٦١٩هـ

وضع حواشيه
إبراهيم شمس الدّين

الجزء الثالث

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

العنوان : رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت

تلفون وفاكس : ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ - ٦٠٢١٣٣ (١ ٩٦١) ٠٠

صندوق بريد: ١١ - ٩٤٢٤ بيروت - لبنان

DAR al-KOTOB al-ILMIYAH

Beirut - Lebanon

Address : Ramel al-Zarif, Bohtory st., Melkart bldg., 1st Floore.

Tel. & Fax : 00 (961 1) 60.21.33 - 36.61.35 - 36.43.98

P.C.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

Dar al-Kotob al-Ilmiyah - Publishing House

P.o.box : 11-9424 Beirut - Lebanon

ISBN 2-7451-2264-9

EAN 9782745122643

No 02265



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقامة الثالِثَة والثلاثون

وتعرف بالتَّفْليسيَّة

حَكَى الحارث بن همّام، قال: عاهَدْتُ اللَّهَ مُذْ يَفَعْتُ، أَلاّ اؤخِّر الصَّلاة ما اسْتَطَعْت؛ فكنتُ مَعَ جَوْبِ الفَلَوَاتِ، ولَهْوِ الْخَلَوات، أُراعِي أَوْقَاتَ الصَّلاَة، وأُحَاذر مِنْ مأتم الْفَواتِ. وإذا رافقْتُ في رِحْلَة، أو حَلَلْتُ بحِلّةٍ، مَرْحَبْتُ بِصَوْتِ الدَّاعِي إلَيْهَا، واقْتَدَيْتُ بِمَنْ يُحَافِظُ عَلَيْهَا.

فاتَّفَق حين دخلتُ تَفْلِيس، أن صَلّيْتُ مَعَ زمْرَةٍ مَفالِيس فلمَّا قضيْنَا الصَّلاَة، وأزْمَعْنَا الانفِلاَت، بَرَز شيخٌ بادِي اللّقوَةِ، بالِي الكُسْوةِ والقَوّة، فقال: عَزَمْتُ عَلَى مَنْ خُلِقَ مِنْ طينة الحُرِّية، وتفوَّق دَرَّ الْعَصبيّة، إلاَّ ما تكلّف لِي لُبْثَةً، واسْتَمعَ منّي نَفْثَةً، ثم له الخيارُ مِنْ بَعْد، وبيدِه الْبَذْل والرّدّ. فَعَقَدَ لَهُ الْقَوْمُ الحُبَا، وَرَسَوْا أَمْثَالَ الرّبا.

يفعت: شببت ولم أبلُغ الحُلم، وقاربت ذلك.

ابن أبي الخيْر: يفَع الغلام وأيْفَع، إذا كان ابنَ سبع سنين، فإذا ناهز الحُلُم قيل: مُراهق وكوكب، فإذا أدرك قيل: فيه حَزَوّر.

غيره: غلامَ يفعة غضُّ الشباب، وجاريَةٌ يفعة، والجمع أيفاع وأيفُع، فهو يافع على غير قياس. قال ابنُ سيده رحمه الله: ولم يقل أحدٌ منهم يَفَع الغلام، ولا مُوفع، ومثله أبْقَل الموضع، وأوْرَس، والوَرْس: نَبْتٌ أصفر. جوب: قطع. الخلَوات: حيث يخلُو للذاته. أراعِي أحفظ. مأثم: إثم. الفوات فوت الوقت. رافقت في رحلة: صاحبت في ارتحالٍ وسفر. حَلَلْتُ: نزلت ببلدة. والحِلَّة: جماعة البيوت، والحِلّة: القوم الْحُلول والجمع حِلال. مَرْحبت: قلت مَرْحَباً. الدَّاعي: هو المؤذِّن.

[فضل الصلاة في وقتها]

وجاء من الأثر في تأخير الصلاة قوله ﷺ: «إنّ الرجل ليصلّي الصلاة وما فاتَهُ وقتها، ولَمَا فاته من وقتها أعظمُ أو أفضلُ من أهله وماله»[1]. فهذا وقد أدرك آخر الوقت سيندم على فوات أوله.

---

(١) أخرجه مالك في الوقوت حديث ٢٣.

وقال عليه الصلاة والسلام: «الوقت الأوّل من الصلاة رضوان الله، والثاني عفو الله»(١)، فقال أبو بكر رضي الله عنه: رِضْوان الله أَحبُّ إليّ من عفوه. وإنّما قال ذلك لأن عفو الله لا يتُصوَّر إلا عند اكتساب خطيئة.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبيّ ﷺ، أنه ذكر الصلاة يوماً فقال: «مَنْ حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة من النار، ومن لم يحافظ عليها كان يومَ القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبيّ بن خلف»(٢).

وقال عليه الصلاة والسلام: «إنّ الذي تفوته صلاة العصر؛ فكأنما وَتَر أهله وماله»(٣).

وكتب عمر رضي الله عنه إلى عمّاله: إن أهمّ أموركم عندي الصَّلاة، من حفظها وحافظ عليها حفظ دينَه ومن ضيّعها فهو لما سواها أضيَع.

وجاء في القرآن: **﴿فَخَلَفَ مِنْ بعدِهِمْ خَلْفٌ أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيّا﴾** [مريم: ٥٩]، وفي التّفسير: لم يتركوا الصّلاةَ وإنما أضاعوا وقتها.

وقال ﷺ: «لا تفريط في النوم، وإنما التفريط في الّذي يؤخّر الصلاة إلى وقت الأخرى»(٤).

وسُئِل النبيّ ﷺ عن الّذين هم عن صلاتهم ساهون، فقال: «هم الذين يؤخّرون الصلاة عن وقتها»(٥).

وممّا يُستظرف من هذا الباب أنّ المنصور قيل له: إن أبا دُلامَة لا يحضر الصلاة، لأنه معتكفٌ على الخمر، وقد أفسَد فتيانَ العسكر، فلو أمرتَه بالصلاة معك لأصلحتَه وغيره. فلمّا دخل عليه قال: أبو دلامة الماجن! قال: يا أمير المؤمنين، ما أنا والمجون، وقد ساورْت بابَ قبري، فقال: عني من استكانتك وتضرّعك وإياك أن تفوتك صلاة الظهر والعَصْر في مسجدي، فإن فاتَتْك لأحْسِنَنّ أدبَك، ولأطيلنّ حبسَك. فوقع في شرّ أمر، فلزم المسجد أياماً

---

(١) أخرجه الترمذي في المواقيت باب ١٣، بلفظ: «الوقت الأول من الصلاة رضوان الله، والوقت الآخر عفو الله».

(٢) أخرجه الدارمي في الرقاق باب ١٣، وأحمد في المسند ٢/١٢٩.

(٣) أخرجه البخاري في المواقيت باب ١٤، ومسلم في المساجد حديث ٢٠٠، وأبو داود في الصلاة باب ٥، والترمذي في المواقيت باب ١٤، والنسائي في المواقيت باب ٩، وابن ماجه في الصلاة باب ٦، والدارمي في الصلاة باب ٢٧، ومالك في الصلاة حديث ٢١، وأحمد في المسند ٢/٨، ١٣، ٦٤، ١٢٤، ١٤٥، ١٤٨.

(٤) أخرجه بنحوه مسلم في المساجد حديث ٣١١.

(٥) أخرجه بنحوه مسلم في المساجد حديث ٢٤١، ٢٤٣، والنسائي في الإمامة باب ٥٥، وابن ماجه في الإقامة باب ١٥٠، والدارمي في الصلاة باب ٢٥، وأحمد في المسند ٦/٧.

ثم كتب رقعةً ودفعها إلى المهديّ، فأوصلها إلى أبيه وفيها: [الطويل]

ألم تعلَما أنّ الخليفةَ لزَّني ... لمسجدِه والقَصْرِ ما لي ولِلْقَصْرِ

أصلّي به الأولى جميعاً وعصرَها ... فويلي من الأولى، وَويلي من الْعَصرِ!

أصَليهما بالكُرْه في غير مسجدِي ... فما ليَ في الأولى وفي العصر من أَجْرِ

يكلّفني مِنْ بعدما شبتُ توبةً ... يحطُّ بها عنّي الثَّقِيلَ من الوِزْر

ووالله ما لي نيَّةٌ في صلاتها ... ولا البرّ والإحسان والخيرُ من أمري

لقد كانَ في قومِي مساجدُ جَمّةٌ ... ولم ينشرح يوماً لغِشيانها صَدْرِي

وما ضرّه ـ والله يغفر ذنبه ... لو أن ذنوبَ العالمين على ظهري!

فقال: صدقَ دَعوُه يُضّل مَنْ يشاء، وما يضرّني ذلك! والله لا يفلح هذا أبداً، فدعوه يفعل ما يشاء.

وكان الجمَّاز منقطعاً إلى أبي جَزْء الباهليّ، فتناسك أبو جَزْء، فقال للجمَّاز: لا أحِبّ أن تخالطني إلا أن تتنسّك فأظهر النُسْك، ثم كتب إليه:

قد جفاني الأمير كي أتقرَّى ... فتقرّيتُ مكرهاً لجَفَائِهِ

والّذي أنطوى عليه المعاصي ... علم الله نَّيتي من سمائِهِ

ما قِراة لمكرَهِ بقراةٍ ... قد رواه الأمير عن فُقَهائِهِ

ومن مجون أبي نواس أن الأمير لما نهاه عن الخمر وحَبَسه، فكلّمه فيه الفضل بن الربيع، وأخرجه كتب إليه: [الخفيف]

أنتَ يابن الربيع علّمتنِي الخيْـ ... ـرَ وعَوَّدْتَنِيه والخيرُ عادَهْ[1]

فارعوى باطلِي وراجعَنِي الحـ ... ـلُم فأحدثتُ رهبةً وزَهَادَهْ

لو تراني ذكرت بي الحسن البصـ ... ـريّ في حال نسكه أو قَتَادَهْ

المسابيح في دراعي والمُصْـ ... ـحف في لَبَّتِي مكانَ القِلاَده

فإذا شئت أن ترى طرفة تَعْـ ... ـجب منها مليحةً مستفَادَهْ

فادْعُ بي لا عدمتَ تقويمَ مثلي ... فتأمَّلْ بعينك السَّجَّادَهْ

لو رآها بعضُ المرائين يوماً ... لاشتراها يَعدّها للشهادَهْ

أثرٌ لاحَ للصَّلاة بوجْهي ... تُوقن النفس أنه من عِبَادَهْ

وأذِن بشار لأصحابه والمائدة بين يديه، فأكل ولم يدعُهُم لطعامه، ثم دعا بطشتَ وكَشَف عن سوءَته فبال، ثم حضر الظهر والعصر والعشاء الأولى والآخرة، فلم يُصَلِّ

(١) الأبيات في ديوان أبي نواس ص ١٤٥.

فقالوا له: أنت أستأذنا وقد رأينا منك أشياء أنكرناها عليك. قال. وما هيَ؟ قالوا: دخلنا والطعام بين يديك فلم تُدعُنَا إليه، قال: إنما أذنت لكم لتأكلوا، ثم ماذا؟ قالوا: دَعَوْت بالطشت ونحن حضورٌ فبُلْت ونحن نراك؛ فقال: أنا مكفوف وأنتم بصراء وأنتم المأمورون بغَضّ البصر دُوني، ثم ماذا؟ قالوا: حَضَرتِ الصلاةُ فلم تصلّ، فقال: إنّ الذي يقبُلها تفَاريق يقبلها جملة. هذا على أنه القائل: [الطويل]

ألم تر أنّ الدهر يقدح في الصَّفَا ... وأنّ بقائي إن حييتُ قليلُ
خَليلُك ما قدّمت من عَمل التُّقى ... وليس لأيّام المنون خليلُ
فعش خائفاً للموت أو غير خائفٍ ... على كلِّ نفس للحِمَام دليلُ

وقال الحسن رحمه الله تعالى: [الوافر]

وندمانٍ يرى غبناً عليه ... بأن يمسي وليس له انتشاء
إذا نبهّتَه من نوم سِكْرٍ ... كفاه مَرّةً منك النداءُ
إذا ما أدركتْه الظهر صلّى ... فلا ظهرٌ عليه ولا عشاءُ
يُصلّي هذه في وقت هذي ... فكلّ صلاته أبداً قضاءُ

[مدينة تفليس]

تفليس: مدينة بإرمينيَة بينها وبين قَالِي قَلاَ ثلاثون فرسخاً، ومن قالي قلا ابتداء الأنهار العظام، أوّلَها الفرات ـ وقد تقدّم ـ يأخذ من قالي قلا فرسخين، ثم يشقّ مغرّباً إلى دَبيل إلى وَرْثان، ثم يصبّ إلى بحر الخزَر، والثاني الكبير يخرج من مدينة قالِي قَلاَ، ثم يشقّ إلى مدينة تَفْلِيس مشرّقاً إلى مدينة بَرْدعة وأرضها، ثم يقرب من بحر الخزَر، فيلتقيّ مع الرسّ ويصيران نهراً واحداً.

ويقال: إن خَلْف الرسّ ثلاثمائة مدينة خراب، وهي التي ذكرها الله تعالى، وأصحاب الرسّ بعُث إليها حنظلة بن صفوان فقتلوه، فأهلكوا. وقيل في أصحاب الرسّ غير ذلك.

وإرمينيَة مقسومة على ثلاثة أقسام، فالقسم الأوّل مدينة دَبِيل، ومدينة قالي قلا، ومدينة خِلاَط، ومدينة شِمْشَاط، ومدينة السوَّاد، والجزء الثاني مدينة بَرْدعة، ومدينة البَيْلُقان، ومدينة قيلة، ومدينة الباب والأبواب والثالث مدينة خَزْوان ومدينة تفْليس. والمدينة التي تعرف بمسجد ذي القرنين، وافتتحت إرمينيَة في خلافة عثمان، وافتتحها سليمان بن ربيعة الباهليّ في سنة أربع وعشرين.

عُصْبة: جماعة. مفاليس: فقراء، وأفلسَ الرجل: صار صاحبُ فلوس بعد أن كان صاحب دنانير. أزمعنا الانفلات: عزمنا على الخروج. اللقوة: داء يأخذ في الوجه، والفُوَاق: ما بين الحلبتين. درّ العصبيّة: لبن الحمّية، وهو مَثَل. نفثة: كلمة. البذل:

العطاء. والردّ: المنع. الحبا: عقد اليدين على الركبتين. رَسَوْا: ثبتوا الرّبا: الكُدَى.

* * *

فَلَمَّا آنَسَ حُسْنَ إنْصَاتِهِمْ، وَرَزَانَةَ حَصَاتِهِمْ، قال: يا أُولِي الأبْصَار الرَّامِقة، والْبَصَائر الرَّائقة؛ أَمَا يُغني عن الخَبر العِيان، ويُنْبىء عن النّار الدّخانُ؛ شيبٌ لائح؛ وَوَهْنٌ فادِح، ودَاءٌ وَاضِح، والباطِنُ فَاضح.

ولقد كنتُ واللّهِ ممَّن مَلَكَ ومَالَ، ووليَ وآل، ورَفَد وأنال، ووصَل وَصال؛ فلم تَزَلِ الجوائحُ تَسْحَت، والنّوَائب تَنْحَت؛ حتَّى الْوَكْرُ قفرٌ، والكفُّ صِفْرٌ، والشِّعار ضُرّ، والعيْشُ مُرّ؛ والصّبْيَةُ يتضاغَوْن من الطَّوى، ويتمَنَّونَ مُصَاصة النَّوى ولم أَقُمْ هَذَا المقَامَ الشَّائن، وأكْشِفْ لكُمُ الدَّفائن؛ إلاّ بَعْدَ ما شَقيت ولُقيت، وشِبتُ مِمَّا لَقِيت؛ فَلَيْتَني لم أَكُنْ بقِيتُ. ثمَّ تأوَّهَ تأوُّهَ الأَسِيف، وأنشد بصوتٍ ضعيف. . . .

* * *

آنس: أبصر. إنصاتهم: سكوتهم، رزانة حصاتهم: رجاحة عقولهم، والحصاة يكنى بها عن العقل، قال طرفة: **[الطويل]**

وإنّ لسان المرء ما لم يكنْ لهُ　　　حَصَاةٌ على عَوْرَاتِهِ لدليلُ[(١)]

الأبصار الرّامقة: العيون الناظرة. البصائر: جمع بصيرة وهي المعتَقد. الرائقة: المعجِبة. العيان: المعاينة، يقول: معاينتك الشيء تُغني عن خبرته.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال النبي ﷺ: «ليس الخبَر كالمعاينة»[(٢)].

ينبىء: يخبر. لائح: ظاهر. وَهَن: ضعُف. فادح: مثقل بَيْن. فاضح: أي صاحبه في شهرة وفضيحة. ملك: كان ملكاً أو ملك الأموال العظام فصار ذا مِلك: مال: صار ذا مال. ولِيُ: صار والياً. آل: ساس، أي صار يسوس الناسَ، أي يكون عليهم أميراً، قال عمر رضي الله عنه: ألنا وإيل علينا. رِفْد: وَهَب الرفد. أنال: أعطي النّيل والنوال، يقال: منه نلته وأنلته وصل: أعطى صِلة، والرّفد والنّوال: العطاء. والإيالة: السياسة، آل الأميرُ رعيّته أحسن

---

(١) البيت في ديوان طرفة بن العبد ص ٨١، ولسان العرب (حظرب)، وأساس البلاغة (حصي)، وكتاب العين ٧/ ١٧٧، وتاج العروس (حصي)، وهو لكعب بن سعد الغنوي في لسان العرب (حصي)، ولكعب بن سعد الغنوي أو لطرفة في تاج العروس (حصو)، وبلا نسبة في المخصص ٣/ ١٩، ومقاييس اللغة ٢/ ٧٠، وتخليص الشواهد ص ٣٤٦.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ١/ ٢١٥، ٢٧١.

سياستهم، وآل مالَه يؤوله: أصلحه. صال: بطش وهدّد، وصال الفحل: هَدَر في قطيعه. الجوائح: المصائب. تَسحت: تستأصل الأموال تنحت: تنجر وتأخذ. النوائب: النوازل. الوكر: قعر المنزل: صِفْر: خالية من الدَّرَاهم. الشِّعَار: اللباس: يتضاغوْن: يصيحون، والضّغاء صياح الذئب إذا جاع، والضّغاء: البكاء بذلّ وخشوع. الطَّوَى: الجوع. مصاصة: ما يمصّ منه. الشائن: العائب صاحبَه. شَقِيت: أدركني الشقاء، لُقيت: أصابتني لَقْوة. تأوّه: توجّع، وقال أوّه. الأسيف: الحزين **[السريع]**

* * *

أشكو إلى الرَّحْمَنِ سُبْحَانهُ ... تَقَلُّبَ الدَّهرِ وعُدْوَانَهُ

وحادثاتٍ قَرَعَتْ مَرْوتي ... وقَوَّضَتْ مَجْدِي وبُنْيَانَهُ

واهْتَصَرَتْ عُودِي ويَا وَيْلَ مَن ... تَهتَصِرُ الأحداثُ أغصانَهُ

وأمْحَلَتْ رَبْعي حتَّى جَلَتْ ... مِنْ رَبْعِيَ المُمحِلِ جِرْذَانَهُ

وغادرتْنِي حائراً بائراً ... أُكَابِدُ الفَقْرَ وأشجانَهُ

من بَعدِ ما كنتُ أَخا ثَرْوةٍ ... يَسْحَبُ في النّعمةِ أردانَهُ

يختبطُ العَافون أوراقَهُ ... ويحمد السَّارُون نيرانَهُ

فأَصْبَحَ اليومَ كأَنْ لم يكنْ ... أعانَهُ الدَّهْرُ الذي عانَّهُ

وازورَّ مَنْ كان له زائراً! ... وعاف عافي الْعُرْفِ عِرْفَانَهُ

فهل فتَى يحزنُهُ ما يَرَى ... من ضُرِّ شيخ دهرُهُ خانَهُ

فيَفرِجِ الهمَّ الَّذي هَمَّه ... ويُصْلِحَ الشأن الذي شانَهُ

* * *

عدوانه: ظلمه. قرعتْ مَرْوتي: ضربت صخرتي، وأراد بها نفسه. قوّضت: نقضت وهدمت. اهتصرت: كسرت وحتّتت، وهَصْرُ الغصن: تعطُّفه وانحناؤه، وضرب بالمَرْوة والعود أمثالاً وهو يريد جسده وماله. أمحلته: جعلته مَحْلاً. جلَت: طردتْ. الممحل: الذي لا نبات فيه ولا رزق. جرذانه: فئرانه، وقد تقدّم فائدة هذا المعنى. بائراً: هالكاً. أكابد: أقاسي. أشجانه: أحزانه. أخا ثروة: صاحب غنى. يسحب. يجرّ. أردانه: أذياله. يختبط: يطلب. العافون: الطالبون للرزق، وخبطت الورق: ضربتُها بالعصا، فتسقط فتعلفُها الإبل، فيضرب بها المثل لعطية الكريم، وأنشد زهير: **[البسيط]**

وليس مانِعَ ذِي قُرْبَى وذي رَحِمٍ ... يوماً ولا معدماً من خَابِطٍ وَرَقا[١]

---

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى في ديوانه ص ٥٣، ولسان العرب (خبط)، وتهذيب اللغة ٢/ ٢٥١، ٧/ ٢٥٠، وجمهرة اللغة ص ٢٩١، وأساس البلاغة (خبط)، وتاج العروس (خبط)، وبلا نسبة في لسان العرب (عدم)، وتاج العروس (عدم).

السارون: الماشون بالليل. عانه: أصابه بالعين. ازورّ: انقبض. عاف: كَرِه: عافي العُرْف: طالب المعروف. عرفانه: معرفته. همّه: أذابه وشَانَهُ: عابه.

ومن كلام العرب في هذا الباب، ما حَكَى الأصمعيّ رحمه الله: أنّ الأعراب أصابتْهم سنوات كثيرةٌ جدْبة، فدخلت طائفة منهم البَصْرة وبين أيديهم أعرابّي يقول: أيّها الناس، إخوانكم في الدين، وشركاؤكم في الإسلام، عابرُ وسبيل وفلاَّل بؤس، وصَرْعى جَدْب، تتابعت علينا سنون ثلاث غيَّرت النِّعم، وأكلت النَّعَم، فأكلنا ما بقي من جلودها فوق عظامها، فلم نزل نعلِّل بذلك نفوسنَا، ونمنّي بالغيث قلوبَنا، حتى عاد مختاراً، وعاد إشراقُنا ظلاماً، فأقبلنا إليكم يصرَعنا الوعر، وينْكينا السهل، وهذه آثار مصائبنا لائحة في قَسَمَاتنَا. فرحم الله متصدّقاً منْ كثير، أو مواسياً من قليل، فلقد عَظُمت الحاجة، وكَسِفَ البال، وبلغ المجهود، والله يجزي المتصدّقين.

وقف أعرابّي على حَلْقة يونس النحويّ، فقال: الحمدُ لله، وأعوذ به أن أُذْكَّر به وأنساه، إنّا أناس قَدْ قدمنا هذه المدينة: ثلاثون رجلاً، لا ندفن ميّتاً، ولا نتحوّل عن منزل، وإن كرهناه، فرحم الله عبداً تصدّق على ابن سبيل، ونضْوِ طريق، وفَلَّ سَنة، فإنه لا قليل من الأجر، ولا غنى عن الله. ولا عمل بعد الموت، يقول الله تعالى: ﴿**مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فيضاعفه له**﴾ [البقرة: ٢٤٥] و [الحديد: ١١]، إن الله لا يستقرض من عَوَزٍ، ولكن ليبلوَ أخبارَ عباده.

قال الأصمعيّ رحمه الله: وقف أعرابيّ علينا، فقال: تتابعت علينا سنون، بتغيير وانتقاص، فما تركت لنا ضِيَعاً[١] ولا رَيْعاً[٢]، ولا نافطَة ولا عافطة[٣]، ولا ثاغيْة[٤] ولا راغية[٥]، فأماتت الضَّرْع وأفنت الزَّرع، وعندكم من فضل الله نعمة فأعينوا مِنْ عطيّة الله إياكم، وارحموا أبا أيتام، وأنضاء زمان، فلقد خلَّفْتُ أقواماً لا يمرّضون مريضَهم ولا يكَفِّنون ميتهم، ولا ينتقلون من المنزل وإن كرهوه، ولقد مشيت إليكم حتى انتعلتُ الدماء، وجُعْت حتى أكلت النوى المحرِقة.

وقفت أعرابية على عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فقالت: إنّي أتيت من أرض شاسعة، تهبطني هابطة، وترفعني رافعة، في ملحّات من البلايا، بَرَيْنَ لحمِي، وهضْن عظمي، وتركتني والهة، وقد ضاق بي البلد، بعد الأهل والولد، وكثرة العدد، لا قرابة تؤويني، ولا عشيرة تحميني فسألتُ أحياء العرب: مَن المرتجى سَيْبُه، المأمون عيبُه، الكثير نائلُه، المكفّي سائله، فدُلِلْت عليك، وأنا امرأة من هوازنَ، فقدت الوالد والرّافد، فاصنع في أمري واحدة من ثلاث: إمّا أن تحسِنَ صفَدَي[٦]، وإما أن تقيم

---

(١) الضيع، جمع ضيعة: هي العقار.
(٢) الربع: مسيل الوادي من كل مكان مرتفع.
(٣) النافطة والعافطة: هي النعجة.
(٤) الثغاء: هو صوت الغنم.
(٥) الرغاء: هو صوت البعير أو الناقة.
(٦) الصفد: هو العطاء.

أَوَدِي[1]، وإما أن تردّني إلى بلدي، فقال: بل أجمعهنّ لك ففعل بها ذلك.

خرج المهديّ يطوف بالبيت بعد هَدْأة من الليل، فسمع أعرابيّةً من جانب المسجد، وهي تقول: قوم متظلمّون، نبتْ عنهم العيون، وَفَدَحَتْهم الديون، وعضّتهم السُّنون، بادت رجالهم، وذهبت أموالهم، أبناء سبيل، وأنضاء طريق، وصية الله ووصية رسوله ﷺ، فهل من آمرٍ بخيرٍ كلأه الله في سفره، وخَلَفه في أهله! فأمر لها بخمسمائة درهم.

ومما جاء في ذم السؤال: قال رسول الله ﷺ: «لأَنْ يأخذ أحدُكم حبلَه فيحتطب فيه أهونُ من أن يأتيَ رجلاً أعطاه الله من فضلِه، فيسأله؛ أعطاه أو منعه»[2].

وقال ﷺ: «مَنْ فتح على نفسه باباً من السؤال، فتح الله عليه سبعين باباً من الفقر»[3].

وقال أكثم بن صيفي: كلّ سؤال وإن قلّ أكثر من كلّ نوال وإن جلّ.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المساكين لا يعودون مريضاً، ولا يشهدون جنازة، ولا يحضرون جمعة، وإذا اجتمع الناس في أعيادهم ومساجدهم يسألون الله من فضله، اجتمعوا يسألون الناس ما بأيديهم.

سأل سائل بمسجد الكوفة فلمُ يعْطَ شيئاً، فقال: اللهمّ إنك بحاجتي عالم لا تعلَّم، أنت الذي لا يعوزك نائل، ولا يلحفُك سائل، ولا يبلغ مدحك قائل؛ أسألك صبْراً جميلاً، وفرجاً قريباً، وبصراً بالهدى، وقوّة فيما تحب وترضى فتبادروا إليه بالعطية، فقال: لا والله لا أرزؤكم الليلة شيئاً، ثم خرج وهو يقول: **[الكامل]**

ما نال باذلٌ وجهَه بسؤالِه ... عوضاً ولو نال الغِنَى بسؤالِ

وإذا النّوال مع السؤال وزنتَه ... رَجَح السؤال، وخفّ كلّ نَوَالِ

وإذا بُليت ببذل وجهكَ سائلاً ... فابذله للمتكرّم المِفْضَال

وقال بعض الأدباء: المخذولُ مَنْ كان له إلى اللئام حاجة.

وأنشد الجاحظ في نوادره لأعرابيّ: **[الكامل]**

سير النّواعج باللّميعة في الضّحَى ... يمشي الذليلُ بها على بلبْالِ

(١) الأود: الاعوجاج.

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة باب ٥٠، ٥٣، والبيوع باب ١٥، والمساقاة باب ١٣، والترمذي في الزكاة باب ٣٨، والنسائي في الزكاة باب ٨٥، وأحمد في المسند ١/ ١٢٤، ٢/ ٢٤٣، ٢٥٧، ٣٠٠، ٣٩٥، ٤١٨، ٤٧٥، ٤٩٦.

(٣) أخرجه الترمذي في الزهد باب ١٧، وأحمد في المسند ١/ ١٩٣، ٤١٨، ٤/ ٢٣١. بلفظ: «لا يفتح الإنسان على نفسه باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر».

خيرٌ من الطمع الدنيء ويجلسٍ | بفناء لا طلق ولا مِفضالِ
فابثُثْ حوائجكَ للمليك فإنه | يغنيك قبل تخشُّعٍ بسؤالِ

* * *

قال الراوي: فصَبتِ الجماعةُ إلى إنْ تَسْتَثْبِتَه، لتَسْتَنْجِشَ خُبْأتَه، وتَسْتَنْفِضَ حَقِيبتَه، فقالت له: قَدْ عَرَفنا قَدْر رُتَبَتِك، ورأَيْنا دَرّ مُزْنِتِك؛ فعرِّفْنَا دَوْحَةَ شُعبَتِك، واحْسِرِ اللِّثامَ عن نِسْبَتِك. فأَعْرَضَ إِعْرَاضَ مَنْ مُنِيَ بالإعْنَاتِ، أو بُشِّر بالْبنَات، وجَعلَ يَلعَنُ الضَّرُورات، ويتأفَّفُ مِنْ تَغَيُّض المرُوءات. ثم أَنْشَدَ بلفظ صادِعٍ، وجَرْسٍ خادِعٍ: [المتقارب]

لَعَمْرك ما كلّ فرع يدلُّ | جناهُ اللَّذيذ على أصْلِهِ
فَكُلْ ما حَلاَ حِينَ تُؤتَى بهِ | ولا تَسْألِ الشَّهْدَ عَنْ نَحْلِهِ
وميِّز إذا ما اعْتَصَرْتَ الكرومَ | سُلاَفَةَ عَصْرِك من خَلّةِ
لِتُغْلِي وتُرخِصَ عن خِبْرةٍ | وتَشْتَري كلاًّ شِرًا مثلِهِ
فعارٌ على الفَطنِ اللَّوْذَعيّ | دُخُولُ الغميزةِ في عَقْلِهِ

* * *

قوله: تَسْتَثْبِته: تحقق مَنْ هو. تستنجش، تستخرج، والنَّجش: استخراج الشيء المجهول المستور. وقيل: تنفير الوحْش، وهو من الأوّل، لأنّ تنفير المطمئن كإظهار الكامن. خبْأته: سرّه الّذي أخبرهم بظاهره حيث قال: كيت وكيت.

الحقيبة: وعاء يعلّقه الرجل خلف رَحْلِه، يجعل فيه ما يعز عليه ممّا يحتاج أن يتناوله متى شاء، وأراد بها ها هنا موضع سِرّه تستنفض: تنثر ما فيها رتبتك: قدرك ومنزلتك. دَرّ مُزْيتك: ماء سحابك، وأراد ما أبدى لهم من البلاغة. دوحة: شجرة. شعبتك: فرعك وغصنك. احْسِر: ازِل واكشف. اللّثام: ما يُجعَل على الأنف والفم، يريد عرّفنا أصلك، ومن أين أنت. مُنِيَ: بُلِيَ. الإعنات: المشقة، وعنَّتَه وأعنته: كلّفته ما يشقّ عليه وبُشّر بالبنات: أُخبِر بولادتِهِنّ، وقد أخبر الله تعالى أن مَنْ بُشّر بالأنثى ظلْ وجهُه مسودًّا وهو كظيم، يتوارَى مِنَ الْقَومِ من سُوء ما بشّر به. وقد تقدّم وأد البنات وهو دسّهنّ في التراب.

وقال النبي ﷺ من طريق عقبة بن عامر: «لا تَكرهوا البنات فإنهنّ المؤنسات الغاليات»[١]. وقال عليه الصلاة والسلام «أحبّوا البنات، فإنيّ أبو البنات»، وإنّ الرجل إذا

(١) أخرجه أحمد في المسند ١٥١/٤.

ولدت له ابنَةٌ هبط إليها مَلَكان فمسحا على ظهرها، وقالا: ضعيفة خرجت من ضعيف، مَنْ أعان عليكِ لم يزل يصاب إلى يوم القيامة.

قوله: يتأفف، يقول: أف أف، وهو من فعل المهموم الملهوف. تغيُّض المروءات: ذهاب الأفعال الحسان. صادع: شديد يشقّ الأذن. جرس: صوت. جناه: ما يجتنى منه. الشهد: الْعَسَل، أي كل العسل، ولا تسلّ عن النّحل التي صنعته، ولا مِنْ أين هو، ضربه مثلاً لترك سؤالهم عنه، إذ أفادهم. سُلافة: خمر لم تُعْصَر. عصرك: تعصيرك. خِبرة: معرفة وتجربة. اللَّوْذَعِيّ: الذّكي. الغميزة: ضعف التدبير والنَّظر، لأنّ الذي لا يحسن التدبير، والنّظر إذا سقط غمزه الناس وعابوه.

* * *

قال: فازدَهَى الْقَوْمَ بذَكَائِهِ، واخْتَلَبَهمْ بِحُسْنِ أدَائه مع دائه، حتَّى جمعوا له خَبَايا الخُبَن، وخفَايا الثُّبَن، وقالوا له: يا هذا، إنَّك حُمْتَ على رَكِيَّةٍ بَكِيَّةٍ، وتعرّضت لِخَلِيَّةٍ خَلِيَّة. فخذ هذه الصُّبابة، وهَبْهَا لا خَطَأً ولا إِصَابة.

فنزّلَ قُلَّهُمْ مَنْزِلَةَ الكُثْر، ووصَلَ قبولَهُ بالشُّكْرِ ثم تولَّى يجرُّ شِقَّهُ، ويَنْهَبُ بالخَبطِ طُرْقَهُ.

قال المخبِرُ بهذهِ الحِكايَةِ: فصُوِّرَ لي أَنّهُ مُحيلٌ لحَلْيته مَتصَنِّعٌ في مِشْيتِهِ. فنهضْتُ أَنْهَجُ مِنْهَاجه، وَأَقْفُو أدْرَاجَه؛ وهُوَ يَلْحَظْني شَزْراً، ويَوسِعُني هَجْراً؛ حتَّى إذا خَلاَ الطريق، وأَمْكَن التَّحقيق، نَظَر إليَّ نَظرَ مَنْ هَشَّ وَبَشَّ، وما حضَ بَعْدَ ما غَشّ، وقال: إنّي لإخالُكَ أخَا غُرْبَة، ورائدَ صُحْبَة؛ فهلْ لك في رفيقٍ يَرْفُق بِكَ ويُرفِق، وَيَنْفُقُ عليك ويُنْفِق؟ فقلت له: لو أتاني هذا الرفيقُ لَوَ أتاني التَّوفيق. فقال لي: قدْ وَجَدْتَ فاغتبط، واسْتَكْرَمتَ فارتبِطْ.

* * *

ازدهى: دعاهم إلى الزهو والإعجاب به. ذكائه: حدّة ذهنه. اختلبهم: خدعهم. الخبْن: أطراف الثوب، كالكم وغيره، والثُّبَنُ: أطراف الرداء وشبهه، والْخبْنة في الثوب المخيط، وقد خبنته عطفته وكففته بالخياطة، وقيل: الخَبْن القْبض، والخُبْنة لما يلي من حُجْزة السراويل والإزار، والجمع خُبَن، والثُّبنة ما يلي الظهر من السراويل والإزار. حُمْتَ: حلقت. ركية: بئر. بكية: قليلة الماء. خلية: جَبْح النحل حيث كان من حجر أو شجر، وقيل الخلية الخشبة المنقورة لها خاصة، والخلية في غير هذا السفينة، فشبهّت خلية النحل بها خلية: فارغة، الصُّبابة: الشيء القليل إذا أخذ منه بكثرة. الخبط: أراد به

أخذ الأموال بالسؤال، يقال: خبطت الشجرة خبطاً، نفضتُ ورقَها، أراد أنه كان يجرّ جانبه المعلّ، فكل مَنْ مرّ به وسأله رحِمه. محِيل: مغيّر. حِلْيَتُه: خلقته وصفاته. نهضت: تقدّمت للمشي. أنهج منهاجه: أمشي في طريقه. أقفو أدراجه: أتبع آثاره. يلحظني: ينظرني.

شزراً، أي في جهة بمؤخر عينه. قال ابن الأنباريّ: نظر إليّ شزراً، أي نظر إليّ، من جانب عينه من شدّة العداوة والبغضاء، يقال: شزر يشزَر، إذا نظر من جانب عينه من العداوة أو من الفَرَق. ويُوسعني هجراً، أي يكثر تجنّبي ومباعدتي. هشّ: خفّ واهتزّ. بشّ: حسن اللقاء، ويقال: بش فلان بفلان، إذا سرّ به وفرح وانبسط إليه؛ ويقال: تبشبش به بمعنى بشَّ به، والبشاشة والهشاشة الطلاقة والتبسُّم. ما حض: أخلص ودّه، غشّ، ضد أخلص، ويقال: غشّه، أي عمل فيما يحبه شيئاً قليلاً وخلَطه بما يسوءه، أخذ من الغشش، وهو الشراب الكدر. إخالك أحسبك رائد: طالب. يرفق بك: يلاطفك ويكون بك رفيقاً. يرفق: يوليك مرافقة، أي يعينك بماله حتى يجد معها الرفق. لو أتاني: لوافقنِي. اغتبط، أي كن به مغتبطاً أي محبًا في بقائه، والغِبْطة: حسن الحال استكرمت فارتبط، أي اتَّخذت كريماً، وجاء هذا اللفظ في حكاية ذكرها أبو عليّ، وهي أنّ فتى من العرب جاء إلى أمّه، وقد عمِيت فقال لها: يا أمّه، إني اشتريت فرساً، فقالت: صفه لي، قال: إذا استقبل فظّبي ناصب، وإذا استدبر فهِقْلٌ[١] هاضب[٢]، وإذا استعرض فسِّيد[٣] قارب[٤]، موالي المسمعين، طامح الناظرين، مدعلق الطُّبيين، قالت: أجدْت إن كنت أعربت، قال: إنه مشرف التّليل، سبط الخصيل، وهواه الصهيل، قالت: أكرمت فارتبط.

* * *

ثمّ ضَحِك مليًّا، وتمثّل لي بشراً سَوِيًّا؛ فإذا هو شيخَنا السَّرُوجيّ، لا قَلَبَة بجسمه، ولا شبهةَ في وَسْمِه؛ ففرحتُ بلُقْيتِهِ، وكَذِب لَقْوَته، وهَمَمْتُ بمَلاَمَتِهِ، على سوءِ مَقَامِتِه، فشحَا فاه، وأَنْشدَ قبل أن ألحاه: [المتقارب]

ظَهَرْتُ بَرثٌ كَيْمَا يقالُ ... فقيرٌ يُزَجِّي الزَّمانَ المُزَجَّى

وأظْهَرْتُ للنَّاس أنْ قَدْ فُلِجْتُ ... فكَمْ نال قلبِي بِهِ ما تَرَجَّى

ولولا الرَّثَاثَةَ لم يُرْثَ لي ... ولولاَ التَّفَالُجُ لم أَلْقَ فُلْجا

ثمّ قال: إنّه لم يَبْقَ لِي بهذِه الأرْض مَرْتَعٍ، ولاَ في أَهلها مطمع؛ فإن كنتَ

---

(١) الهقل: هو الفتي من النعام.
(٢) الهضب: نوع من السير.
(٣) السِّيد: هو الذئب.
(٤) القارب: نوع من السير.

الرفيق، فالطريق الطَّريقَ. فسِرْنا مِنْها مُتَجرِّدِيْن، ورافقتُه عَامَيْن أَجْرَدِيْن. وكنتُ على أن أصحبه ما عِشتُ، فأَبَى الدَّهرُ المُشِتّ.

* * *

قوله: مليًا، أي طويلاً. قُلبة: عِلّة. قال الكسائي رحمه الله: ما به قُلْبة، أي شيء يقلقه فينقلب من أجله على فراشه لغمّه. وقال الفراء رحمه الله: ما به من وجع يُخاف عليه منه، من قولهم: قلُبَ الرجل إذا أصابه وجع في قلبه، فلا يكاد ينقلب منه قال الأصمعيّ رحمه الله: معناه ما به داء، مأخوذ من القُلاب، وهو داء يصيب الإبل في رؤوسها فيقلبها إلى فوق. شبهة: التباس وتغيّر. وسمْه: صفاته. الُلقيَة: المرّة الواحدة من اللقاء. وقال في الدّرة: العرب تقول: لقية ولقاءة ولقاية، إذا أردوا المرّة الواحدة، فإن أرادوا المصدر، قالوا: لقيته لقاء ولَقًى ولُقِيًّا، هذا وأنشد: **[الطويل]**

وإنّ لقاها في المنام وغيره وإنْ لم تجد بالبَذْلِ عندي لرابحُ[1]

وخطّأ من يقول: لقيته لقاءة واحدة، وأغفل أنّ سيبويه قال في كتابه: أتيته إتيانةً، ولقيته لقاءة واحدة.

واللقوة: استرخاء اللّحى وعَوَجه. مقامته: مجلسه الذي كدى به شَحَافاه: فتحه قال جرير:

وُضِع الخزير فقيل أين مجاشع فشحا جحافِلَه جُراف هَبْلَعُ[2]

الخزير، بنقط الخاء ثم زاي: دقيق يلبك بشحْم، وجراف الشيء سخونة. ألحاه: ألزمه. يزجّي: يسوق. المزجي: القليل الخير، وهذا كما قال: لبست الخميصة أبغي الخبيصة. فُلجت: صبت بفالج. الرثاثة: سوء الحال. التفالج: استعمال الفالج، وهو خَدَرٌ يصيب الجسد. فلجاً: فوزاً وظفراً. مَرْتع: موضع يَرْعى فيه. مِنْجَرِدَيْن: مُسْرعين، وانجرد الرجلُ في سيره، إذا جدّ في الذهاب. أجردين: تامّين كاملين، وسرتُ يوماً وشراً وحوْلاً أجرد، وجريداً أي تاماً، قال سُويد بن كراع: **[الطويل]**

وجَشّمني خوف ابن عفان ردَّها فثقَّفتُها حولاً جريداً ومَرْبعا

المشتّ: المفرّق.

---

(١) البيت بلا نسبة في لسان العرب (لقا)، وتاج العروس (لقي).

(٢) البيت في ديوان جرير ص ٩١٣، ولسان العرب (خزر)، (هبلع)، (جرف)، وتاج العروس (خزر)، (جشع)، (هبلع)، (جرف)، (جحفل)، وهو بلا نسبة في ديوان الأدب ٢/ ٥١، وكتاب العين ٢/ ٢٨٢.

المقامة الرّابعة والثلاثون

وَتعرف بالزَّبِيديّة

أخبر الحارث بن همّام، قال: لمَّا جبتُ البيدَ إلى زَبيد، صحبَني غلامٌ قد كنت رَبَّيْتُه إلى أن بلَغَ أشدَّهُ، وثَقَفتُه حتّى أكملَ رُشْدَه.

وكان قد أنِسَ بأخلاقي، وخَبَر مجالبَ وِفَاقي؛ فلم يكُنْ يتخطّى مرامِي، ولا يُخطِىء في المرامِي؛ لا جرم أنّ قُرَبَهُ الْتَاطتْ بِصَفرِي، وَأخلصْتُه لحضَرِي وسَفَرِي، فألوَى به الدَّهرُ المُبيدُ، حين ضمَّتْنَا زبيد.

* * *

جُبْت: قطعت. البِيد: الصحارى.

زَبيد: بلدة باليمن بينها وبين صنعاء أربعون فرسخاً، وليس في اليمن بعد صنعاء أكبر منها، ولا أغنى من أهلها، ولا أكثر خيراً، واسعة البساتين، كثيرة المياه والفواكه من الموز وغيره، وهي برّية لا ساحلية.

وبلغ أشدّه: أي بلغ الحلم، وقيل ثلاثين سنة. قال الأزهريّ رحمه الله تعالى: الأشدّ في كتاب الله تعالى على ثلاث معان: أما قوله تعالى في قصة يوسف عليه السلامَ **﴿ولَمّا بُلَغ أشدَّه آتيناه حُكْماً وعلْماً﴾** [يوسف: ٢٢] فبلوغه مبلغ الرجال، وكذا في اليتيم، حكمه أن يحفظ عليه ماله حتى يبلغ أشّده، وبلوغه أشده أن يُؤنس الرّشد منه مع أن يكون بالغاً.

وأما قوله تعالى في قصة موسى عليه الصلاة والسلام **﴿وَلَما بلغ أشدَّه واسْتَوَى﴾** [القصص: ١٤] فقرن بلوغ الأشد بالأستواء وهو أن تجتمع قوّته، ويكتهل وذلك من ثمان وعشرين إلى ثلاث وثلاثين سنة، وذلك منتهى الشباب. وأما قوله تعالى **﴿حَتّى إِذَا بلَغ أشدّه وبلغ أربعين سنة﴾** [الأحقاف: ١٥] فهي نهاية بلوغ الأشد، وعندها بُعِث محمد ﷺ، وقد اجتمعتْ حكمته وتمام عقله، فبلوغ الأشدّ محصور البداية محصور النهاية ما بين ذلك.

ثقفته: قوّمته وحَذَقته. خبر: أي جرّب وعَرَف. مجالب وفاقي: أي عَرف من أين يُجلب ما يوافقني. يتخطّى: يتجاوز. مرامي: مرادي ومَقْصدي لا جرم، أي لا محالة

ولا بدّ، ثم صارت بمعنى حقًّا. قُرْبة: ما يُتقرب به إلى من المبّرة. التاطت: لصقت. بصفري: بنفسي وقلبي، والصَّفَر دود في البطن، إذا جاع الإنسان عضّت شراسِيفَه، وهي رقيق البطن، قال أعشى باهلة: [البسيط]

* ولا يَعضّ على شُرْسُوفِه الصَّفَرُ[1] *

فيريد أن هذا الغلام مهذّب يأتي بمحاولاته على الوفاق، ويقرب الطعام من مولاه وقت الحاجة، ومن حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنّ النبي ﷺ قال: «نعمّا للمملوك أن يتوفاه الله، بحسن عبادة ربه، وطاعة سيّده نعما له»[2].

وقال عليه الصلاة والسلام: «إذا نصح العبد لسيده وأحسن عبادة رَبِّه فله أجران»[3].

أخلصته: أفردته. ألوى: ذهب به وأهلكه. المبيد: المهلك. وننشد هنا أبياتاً لابن الحضرمي في غلام هلك للمتوكّل ببطليوس: [الرجز]

غالتْه أيدي المنايا ... وكُنّ في مقلتيّه
وكان يَسْقي الندامى ... بطرفه ويَدَيْه
غُصن ذَوَى وهلالٌ ... جاء الكسوفُ عليْه

ويُستحسن لابن همام أن ينشد في وصف هذا الغلام: [الخفيف]

حين تمَّت آدابهُ وتردَّى ... برداءٍ من الشَّباب جديدِ
وسقاه ماء الشبيبة فاهْتـ ... ـزّ اهتزاز الغصن النّديّ الأملودِ
وسمت نحوه العيون وما كَا ... نَ عليه لزائدٍ من مَزيدِ
وكأنّي أدعوه وهو قريبٌ ... حين أدعوه من مكان بعيدِ

وأنشد بعضهم: [الطويل]

نأى آخر الأيام عنك حبيبٌ ... فللعين سَحُّ دائم وغروب
كأن لم يكن كالغصْنِ في مَيْعة الضُّحى ... سقاه الندى فاهتزّ وهو رطيبُ

---

(١) صدره:

لا يتأرّى لما في القدر يَرْقُبه

والبيت لأعشى باهلة في لسان العرب (صفر)، (أرى)، وتاج العروس (صفر)، (أرى)، وتهذيب اللغة ١٢/ ١٦٧، ١٥/ ٣١٣، وديوان الأدب ١/ ٢١٢، وكتاب العين ٧/ ١١٣، وللحارث الباهلي في كتاب العين ٨/ ٣٠٣، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٧٤٠، ١٠٩٤، ومقاييس اللغة ١/ ٨٨.

(٢) أخرجه مسلم في الأيمان حديث ٤٦، وأحمد في المسند ٢/ ٣١٨، ٣٩٠.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٤٢٥، ٤/ ٤٠٥.

وريحان صدري كانَ حين أَشَمهُ ومؤنس قَصْري كان حين أغيبُ
وكانت يدي ملآنه ثم أصبحتْ بحمْد إلهي وهيَ منه سليبُ

* * *

فلمَّا شالتْ نَعامتُه، وَسَكَنَتْ نَأْمتُه، بقيتُ عاماً، لا أسيغَ طعاماً، ولا أُريغُ غُلاَماً، حتَّى ألجأتنِي شَوَائبُ الْوَحْدَة، وَمَتَاعِبُ الْقَوْمَةِ والْقَعْدَةِ؛ إِلى أَن أَعتاضَ عن الدُّرّ الْخُرَز، وارتادَ مَنْ هُوَ سِدَادٌ مِنْ عَوَزٍ؛ فقصَدْتُ مَنْ يَبيع العبيدَ، بِسُوقِ زَبيد، فقلتُ: أريدُ غلاماً يُعْجبُ إذا قُلِّبَ، وَيُحمْدُ إذَا جُرِّب؛ ولْيَكُنْ مِمَّنْ خَرَّجَهُ الأكْياس، وأَخرَجه إلَى السُّوقِ الإفلاَسِ؛ فاهْتَزَّ كلُّ مِنْهُمْ لِمَطْلَبِي وَوَثَب، وبَذَل تَحْصِيلَهُ عَنْ كَثَب. ثمَّ دارت الأهِلّة دَوْرَهَا، وتقلَّبَتْ حَوْرَها وكَوْرها، وَمَا نجزَ من وَعُودِهِمْ وغدٌ، ولا سَحَّ لهَا رَعْد.

فَلَمَّا رأيتُ النَّخَّاسِين، ناسِينَ أو مُتَنَاسِينَ، علمتُ أَنْ لَيْسَ كلُّ مَنْ خَلَق يَفْرِي، وأَنْ لَنْ يَحُكَّ جِلْدِي مثلُ ظُفْرِي. فَرَفَضْتُ مَذْهبَ التَّفويض، وبَرَزْت إلى السوُّق بالصُّفْر والبِيض.

* * *

شالت نعامته، أي ارتفع نعشه. ويقال في المصلوب: شالت نعامته، أي ارتفعت خشبتُه، وشالت نعامة القوم، أي ولَّوْا منهزمين، وهو مثَلٌ يُضْرَب للانهزام وللهلاك وللتفرّق. وأنشد الشاعر: **[الكامل]**

تَلقى خصاصةَ بيننا أرماحُنا شالتْ نعامةُ أيِّنا لم يفعلِ

يخاطب أعداءه وقد وافقهم، يقول: هلّم نلقى في الفُرْجة الّتي بيننا أرماحنا، ونضرب بالسيوف، هلك وانهزم مَنْ لم يفعلْ، يدعو عليه وينسب ذلك للنعامة، لأنّ النعام موصوف بالسُّخف والرِّق والشراد. فإذا قالوا: شالت نعامتُهم، وخفّتْ نعامتهم، ورَقّ رأيهُم، فمعناه إذا تركُوا مواضعهم بجلاء أو بموت. ويقال: أَحَمقُ من نعامة، لأنها تنشر للطعام، فربما رأت بيضةَ نعامةٍ أخرى وحدها فتحضُنها، وتنسى بيضتَها، ثم تجيء الأخرى فترى على بيضتها غيرها، فتمضي لوجهها، وإياها عني ابن هَرْمة بقوله: **[المتقارب]**

كتاركة بيضَها بالعراء وملبسةٍ بيض أخرى جَناحا[1]

(١) البيت لإبراهيم بن هرمة في ديوانه ص ٨٧، والحماسة الشجرية ٢/ ٩٠٢، والحماسة البصرية ٢/ ٢٧٧، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ٧٣٧، وشرح عمدة الحافظ ص ٦٧٥، وكتاب الصناعتين ص ١٢٣، ١٤٥، وعيون الأخبار ٢/ ١٠٢، ولسان العرب (شحح)، (جهز)، (هنبق).

قاله الجاحظ:

وأما أبو عبيدة فقال: عنّى الحمامة. وقال ابنُ الأعرابيّ، بيضة البلد الّتي سَار بها المثل هي بيضة النعامة التي تتركها فلا تهتدى إليها فتفسد فلا يقربها شيء. قال الراعي: **[البسيط]**

لو كنتَ من أحد يُهْجَى هجوتكمُ ... يا بنَ الرّقاع ولكن لست من أحدِ[1]

تأبَى قضاعة أن ترضَى لكمْ نسباً ... وابنا نزار فأنتمْ بيضةُ البلدِ

قوله: نأمته، أي حركته التي تنمو بحياته. وزعموا أنّ النّامّة بوزن العامّة، عِرْق اليَافوخ. أسيُغ طعاماً: استسهِلُ بَلْعَه. أرِيغ غلاماً: أطلبه. السِّدَاد: اسم ما يسدّ به الشيء، مثل سِداد القارورة وهو صمامها، وسِداد الفقر ما يذهبه ويكتفي به من المال، وسِداد الثّغر ما يذهب خوفه من الخيل والرجال، والسَّداد بالفتح: الإصابة في المنطِق، وقال يعقوب: السَّداد والسِّداد بمعنًى واحد، وسنعيد ذكره في أخبار العرجي.

والعَوَز: فقد الشيء فإنه أراد عبداً يَسُدّ به فَقْد غلامه الميِّت. إذا قُلّب أي إذا قلِبت خلقته وجدت كلّ جزء منها حسناً. خرّجه: حَذّقه وربّاه الأكياس: أهل الفطنة والحذق. والإفلاس: الفقر. وثب: قفز وعجِل إلى المشي. بذل: أعطى، تَحصِيله: وجوده وحصوله. كَثَبِ: قرب يريد أنه أعطى من نفسه القدرة على حصُوله في أقرب مدة. دارت الأهلة دورها، أي كملت السّتة وكمَلَت الأهِلّة فيها بالطلوع. كَوْرها وحَوْرها: زيادتها ونقصانها، وقد تقدّم الكُور والحوْر. نجز: حضر. سَحّ: أمطر.

النخّاسين: الدلاّلين للعبيد والدواب. ثعلب: أُخِذ من النَّخْس وهو الدفع، فمعنى النّخاسين الذين يشترون العبيد ليدفعوهم إلى غيرهم. ليس كلُّ مَنْ خَلق يفرِي، مثل، وخلق قدّر، يقال: خلق الصانع الجلد، إذا قدر ما يقطع منه، وقيل: الخَلْق: القَطْع، والفَرْي: القطع أيضاً، ولكن تقديراً، فمعنى المثَل: ليس كلّ من قطع شيئاً قّدر ما يقطع به، ويفرِي أيضاً: يُحسن القطع على جهة الإصلاح. قال زهير: **[مجزوء الكامل]**

ولأنْتَ تفرِي ما خلقْتَ وبعـ ... ـضُ القوم يَخْلُق ثم لا يَفْرِي[2]

---

(١) البيت الأول في ديوان الراعي النميري ص ٧٩، ولسان العرب (بيض)، (رقع)، وتاج العروس (بيض)، (رقع)، والبيت الثاني في ديوان الراعي ص ٢٠٣، ولسان العرب (بيض)، وتهذيب اللغة ٣/ ١٢٤، ١٢/ ٨٥، والحيوان ٤/ ٣٣٦، وتاج العروس (بلد)، (بيض) وهو بلا نسبة في لسان العرب (دعا)، وتاج العروس (دعا).

(٢) البيت في ديوان زهير بن أبي سلمى ص ٩٤، ولسان العرب (خلق)، (فرا)، وتهذيب اللغة ٧/ ٢٦، ١٥/ ٢٤٢، ومقاييس اللغة ٢/ ١٤، ٤/ ٤٩٧، وديوان الأدب ٢/ ١٢٣، وكتاب الجيم ٣/ ٤٩، والمخصص ٤/ ١١١، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٦١٩، وتاج العروس (فرا).

ويقال أيضاً: خلق الشيء صنَّفه، وفَرَاه: أفسده، وأراد ليس كلّ الناس يحسن شراء العبيد.

قوله: لا يحك جِلْدى مثل ظفري هو مثل يضربُ في ترك الاتكّال على الناس، قال الإمام الشافعيّ رضي الله عنه: [مجزوء الكامل]

مـا حـكَّ جـلـدكَ مـثـل ظُـفْـرِكْ ... فـتـولَّ أنـتَ جَـمـيـعَ أمْـرِكْ[1]

وإذا قَـصَـدْتَ لـحـاجـةٍ ... فـاقـصـد لـمـعـتـرف بَـقَـدْرِكْ

رفضت: تركت. التفويض: أن يتّكل الرجل على غيره ويسلِّم أمره إليه. الصُّفْر والبيض: الدّنانير والدراهم.

* * *

فإنّي لأسْتَعْرِضُ الغِلْمَان، وأسْتَعْرِفُ الأثْمان، إذْ عارَضنِي رجلٌ قد اخْتَطَمَ بلِثامٍ، وقَبَضَ عَلَى زَنْدِ غُلام، وقال: [الرجز]

مَنْ يَشْتَرِي مِنِّي غُلاَماً صَنَعاً ... فـي خَـلْـقِـه وَخُـلْـقِـهِ قَـدْ بَـرَعـا

بـكـلِّ مـا نُـطْـتَ بـه مُـضْـطِـلـعـا ... يَـشْـفـيـك إن قـال وإن قـلـتَ وعَـى

وأن تُـصِـبْـكَ عَـثْـرةٌ يُـقـلْ لـعَـا ... وإن تَـسُـمْـهُ الـسَّـعْـيَ فـي الـنـار سَعَى

وإن تُـصـاحِـبْـهُ ولَـوْ يـومـاً رَعَـى ... وإن تُـقـنِّـعْـهُ بِـظِـلْـفٍ قَـنِـعـا

وهو على الكيْسِ الذي قَدْ جَمعا ... مـا فـاه قـطُّ كـاذِبـاً ولا ادّعَـى

ولا أجـابَ مـطـمـعـاً حـيـن دعـا ... ولا اسـتـجـاز نَـثّ سِـرٍّ أودِعَـا

وطَـالِـمـا أبْـدَعَ فـيـمـا صَـنَـعـا ... وفـاق فـي الـنـثـر وفـي الـنَّـظـمِ مَـعـا

والـلَّـهِ لـو ضَـنْـكُ عَـيْـشٍ صَـدَعـاً ... وصِـبْـيَـةٌ أضـحَـوْا عُـراةً جُـوَّعـا

* ما بعتُه بمُلكِ كِسْرَى أجْمعَا *

قال: فَلَمَّا تأمّلتْ خَلْقَهُ الْقوِيم، وحُسْنَهُ الصَّميم، خِلتُه مِنْ وِلْدَانِ جَنّةِ النَّعِيم، وقُلْتُ: ما هذا بشراً إنْ هذا إلاَّ مَلَكٌ كريم.

* * *

استعرض: أطلب أن يُعرَض عليّ، وعارضني: قابلني. أسْتَعرِف: أطلب معرفته. اختطَم: جعَل اللّثام على طرف الأنف ـ وهو الخَطْم والخُرطوم للسباع ـ واللثام: ما كان

(١) البيتان في ديوان الإمام الشافعي ص ١١١، والبيت الأول في تاج العروس (حكك).

على الأنف من النقاب. والزَّنْد: طرف عظم الساعد المتّصل بالكفّ، فهو قد قبض على أرقّ موضع في الذّراع. الصّنَع. الحاذق بالصناعة، والمرأة صَنَاع. برع: فَضَل وفاق غيره. نُطْتَ: عَلِقت. مضطلعاً: مكتفياً قويًّا عليه. وعى: حفظ. لعاً، كلمة تقال للعاثر ـ يعني: أقال الله عثرتك، وسلّمك الله ـ تَسُمْه السَّعْى: تكّلفه المشي. رَعى: حفِظ الصحبة. الظِّلْف للشاة بمنزلة الحافر للدّابة. الكَيْس الحاذق. فاه: تكلّم.

ثم قال: لم يدعه الطمع قطّ فأجابه. استجاز: استحلّ. نَثّ: نشر، أبدع: أغرب وأتى بما لم يُسبَق إليه. ضَنْك: صَدْع: كسر، وأنشدوا في هذا المعنى: **[الطويل]**

وقد تُخرِجُ الحاجاتُ يا أمَّ مالكٍ عـلائـقَ مـن ربٍّ بـهـنّ ضَـنِـيـنِ

خلْقه القويم: المعتدل القامة. الصميم: الخالِص، وهو فعيل، من صمّ الشيء إذا لم يكن فيه فُرْجة ولا خلَل. خِلْته: حسبته.

[الغلمان وعشّاقهم]

وننشد في هذه المقامة في الغلمان ما له سبب وتعلّق بذكر يوسف عليه السلام، أو يكون الغُلام مملوكاً حتى يوافقَ غرَضَ المقامة.

كان شفيع غلامُ المتوكل أحسنَ الفتيان وأظرفهم، وكان المتوكلّ يُجَنّ به جنوناً، فأحبّ يوماً أن ينادم حسين بن الضحاك، وأن يرى ما بقيَ من شهوته ـ وكان قد أسنّ ـ فأحضره وسقاه حتى سَكِرَ، وقال لشفيع: اسقه، فسقاه وحيَّاه بوردة، وكانت على شفيعٍ ثياب مورّدة. فمدَّ حسين يده إلى ذراع شفيع، فقال المتوكل: أتخمِش أخصَّ خدمِي بحضرتي، فكيف لو خلوْتَ به! ما أحوجك إلى الأدب! وكان قد غمز شفيعاً على العبَث به، فدعا بدواة فكتب: **[الطويل]**

وكـالـوردة الـحـمـراء حـيَّـا بـوردةٍ من الورد يمشي في قَراطقَ كالْوَرْدِ
لـه عـبَـثـات عـنـد كـل تـحـيّـةٍ بكفّيه تستدعي الحليم إلى الوجدِ
تـمـنّـيت أن أُسْقَى بعينيْه شَرْبةً تُذَكّرني ما قد نسيتُ من العهدِ
سقَى الله دهراً لـم أبِتْ فيه ليلةً خليًّا ولكن من حبيبٍ على وَعْدِ

ثم دفعها لشفيع فأعطاها المتوكل، فاستمْلَحها وقال: أحسنت والله يا حسين! ولو كان شفيع ممّن تجوز هبته لوهبتُه لك؛ ولكن بحياتي يا شفيع إلاّ كنتَ ساقيَه بقيّة يومنا. وأمر له بمال كثير.

وكان لمعز الدولة غلام تركيّ، وكان وضيءَ الوجه، منهمكاً في الشراب، ولفرْط ميل مولاه إليه جعله رئيس سرّيةٍ جرَّدها لحرب بني حمدان، وكان المهلبيّ يستظرفه ويستحسنه، فقال: **[مجزوء الكامل]**

ظـبـيٌ يُـروق الـمـاءُ فـي وجَـنَـاتـه ويـروقُ عـودُهْ

ويــكــادُ مــن شــبَـه الــعــذا ... رى فــيــه أن تــبــدُو نــهــودُه
نــاطــوا بــمــعْــقِــدِ خَــصْــرِه ... ســيــفــاً ومِــنــطــقــة تــئــودُهْ
جــعــلــوه قــائــدَ عــســكَــرٍ ... ضــاع الــرّعــيــلُ ومَــنْ يــقــودُهْ

فكانت الدائرة على جيش الغلام، كما أشار إليه، ولو غزاهم بالسّلاح الذي أمر به البغاء غلاماً غازياً وهو: **[البسيط]**

يــا غــازيــاً أتــت الأحــزانُ غــازيــةً ... إلـى فـؤاديَ والأحـشـاءِ حـيـن غَـزَا
إن بــارزتْــك رمــاةُ الــرّوم فــارمــهــمُ ... بسهم عينيْك تقتُلْ كلَّ مَنْ برزا

لــكــان الــظــافــر الــغــالــب

وكان بديع غلام عمير المأموريّ أحسن خلق الله وجهاً، وكان الوزير ابن الزّيات مفتوناً به، فاجتاز عليه راكباً بآلة الحرب، فقال فيه: **[السريع]**

راحَ عــلــيْــنَــا راكــبًــا طِــرْفَــهُ ... أغــيــدُ مــثــل الــرّشــأ الآنــس
قد لبسَ القرطقَ واستمسكتْ ... كــفّــاه مــن ذِي بَــدَنٍ مــائــسِ
وقُــلِّــدَ الــسيــف عــلــى غُــنْــجِــهِ ... كــأنــه فــي وقــعــةِ الــدَّاحِــسِ
أقــول لــمّــا أن بــدا مــقــبــلاً: ... يــا لــيــتــنــي فــارسُ ذا الــفــارِسِ!

وقال ابنُ الزقاق: **[الكامل]**

ومــهــنَّــدٍ عَــضْــبٍ بــراحــةِ أغْــيَــدٍ ... في جفنه عضبٌ يَقُدُّ مفاصِلِي
يــســطــو بــذاك وذا فــيــغــدُو قِــرْنــهُ ... بــهــمــا صــريــعَ لــواحــظٍ ومــنــاصِــل
ماضٍ كلا السَّيْفين لكنْ لحظُه ... أمــضــى وإلاَّ فــاســألــنّ مَــقَــاتِــلــي

وكان لأبي عيسى بن الرشيد غلام اسمه يُسْر، وكان آيةً في الجمال، وكان صالح أخوه يتعشّقه، فبلغت لأبي عيسى قصةٌ جرت بينهما، فحجبه ومنعه أن يخرج من داره إلا بحافظ، وكاد حسين بن الضحاك يموت فيه عِشْقاً، فقال فيه: **[مجزوء الرمل]**

ظــنّ مــن لا كــان ظَــنًّــا ... بــحــبــيــبــي فــحــمَــاهُ
أرصَــد الــبــابَ رقــيــبْــيــ ... ــن لــه فــاكــتــنــفَــاهُ
فــإذا مــا اشــتــاق قــربــي ... ولــقــائِــي مــنَــعــاهُ
جــعــل الله رقــيــبــيــ ... ــهِ مــن الــسّــوءِ فِــدَاهُ

وقال فيه: **[الخفيف]**

إنّ مَنْ لا يرى وليس لا يرانِي ... نُصْبَ عيني ممثَّلٌ بالأماني
يــأبــى مَــنْ ضــمــيــرُه وضــمــيــرِي ... أبداً بالمغيبِ يَنْتجِيَانِ

نحن شخصانِ إن نظرتَ وروحَا ... ن إذا ما اختبرت ممتزجانِ
فإذا ما هممت بالأمر أو هـ ... ـمّ بشيء بَدَأتُهُ وبَدَأني
كان وِفْقاً ما كان منه ومنّي ... فكأنّي حكيتُه وحَكانِي
خطراتُ النّفوس منّا سواءٌ ... وسواءٌ تحرُّك الأبدانِ

وجاءه يوماً فتحدّث معه، فأشار لتقبيله، فقال له بشير: إياك والتعرّض لي وانجُ بنفسك، وكانت فيه عَرْبدة، فقال فيه حسين: [الخفيف]

أيها النّفّاث في الْعُقَدِ ... أنا مطويٌّ على الكَمَدِ
إنما زخرفتَ لي خُدَعاً ... قدحَتْ في الرُّوح والجسدِ
ما لأُنس كان مبتذَلاً ... منك لي بالأمسِ لم يعُدِ
يوم تعطيني وتأخذُها ... دونَ نُدْماني يداً بِيَدِ
ذاك يومٌ كان حاسدُنا ... فيه معذوراً على الحسَدِ

* * *

ثمّ استنطقتُه عنِ اسْمِهِ، لا لِرغبَةٍ في عِلْمِهِ؛ بل لأنْظُرَ أيْنَ فَصَاحتُه من صَبَاحَتِهِ، وكَيْفَ لَهْجَتُهُ مِنْ بَهْجَتِه؛ فلمْ يَنْطِقْ بحُلْوةٍ ولا مُرَّةٍ، ولا فَاهَ فَوْهَةَ ابنِ أَمَةٍ ولا حُرَّةٍ. فضربتُ عَنهُ صفحاً، وقلتُ له: قُبْحاً لِعيِّك وشُقْحاً، فغارَ في الضحْكِ وأنجد، ثمَّ أنغضَ رأسَهُ إلَيّ وأنشد:

يا مَنْ تَلهّبَ غيظهُ إذْ لم أَبُحْ ... باسْمِي له، ما هكذَا مَنْ يُنْصِفُ
إنْ كانَ لا يُرْضيكَ إلاَّ كَشْفُهُ ... فأصِخْ لَهُ، أنَا يوسُفٌ أنا يوسفُ
ولَقدْ كشفْتُ لَكَ الغِطَاءِ فإن تكُنْ ... فَطِناً عَرَفْتَ وما إخالُكَ تعرِفُ

قال: فسَرَّى عَتْبي بشِعْرِه، واستبَى لُبِّي بسحْره؛ حتَّى شُدِهْتُ عن التحقيق، وأُنْسِيتُ قِصَّةَ يوسفَ الصِّدِّيق؛ ولم تَكُنْ لِي هَمٌ إلاَّ مساومَةَ مَوْلاَه فيه، واستطْلاَعَ طِلْعَ الثَّمَنِ لأُوَفيه. وكنتُ أَحسِبُ أَنَّهُ سَيَنْظُرَ شَزْراً إلَيّ، ويُغْلِي السِّيمَةَ عَلَيَّ؛ فما حَلَّق إليّ حيثُ حَلّقتُ، ولا اعْتَلَقَ بما به اعْتَلَقْت؛ بل قال: إنَّ الغلام إذا نَزُرَ ثمنه، وخَفَّتْ مُؤَنُه، تَبرَّكَ بِهِ مولاه، والْتحفَ عَلَيْهِ هَواه، وإنّي لأوثِرُ تحبيبَ هَذَا الغلام إليك، بأن أخفِّفَ ثمنه عَلَيْك، فزِنْ مائتي درهم إن شئتَ، واشكُرْ لي ما حييتُ. فنَقدتُه المبْلَغَ في الحال، كما يُنقَدُ في الرَّخيصِ الحلاَل، ولم يَخْطرْ لي ببالٍ، أَنَّ كُلَّ مُرْخصٍ غال.

* * *

قوله: استنطقته، أي سألته أن ينطق. صَبَاحته: حُسْنه. لهجته: لفظه، وأصلها طرف اللسان، فكنى بها عن حلاوته. بهجته: حسنه ونضارته، وأصلها حسن اللون. لم ينطق بحلْوةٍ ولا مرّةٍ، أي بكلمة جيدة ولا رديئة. فَاه: نطق ضربتُ عنه: أعرضت عنه. صفحاً، أي أوليته صفحة وجهي، وهي جانبه، شُقْحاً، اتباع لقبح، وقيل: هي من شَقَح البُسْر، إذا تغيّرت خضرته بجمرة أو صفرة، وهو أقبح ما يكون في رأي العين، وقيل: هو من شَقَحْتُ العود إذا كسرتَه، وقال: هو من أشقاح الكلاب، وهي أدبارها، ويقال: قُبحا وشُقحا بضم أولهما وفتحه. غارَ: أتى الغوْر، وهو المنخفض من الأرض أنجد: أتى نجداً، ومعناه بالغ في الضحك وذهب في جهاته. أنغض رأسه، أي حرَّكه؛ كأنه يهدّد ويستخفّ به. تلتهب: اشتغل أبُحْ: أتكلم. أصِخْ: استمع. أنا يوسف، أي أنا حرّ مثل يوسف صلوات الله عليه، إذْ باعَه إخوته سرَّى عَتْبي: أزال لومي استبى لبِّي: أي تملّك عقلي بسِحْره وحلاوةِ كلامه شُدِهت: تحيَّرت، وهو مقلوب دهشت التحقيق: التمييز، وهذا كما قال الشاعر: **[الطويل]**

والله ما فتنتْ نفسي محاسنُه ... إلاَّ وقد سحرتْ ألفاظُه أُذني

ما تُصدِرُ العينُ عنه لحظةً مللاً ... كأنه كلّ شيء مرتَضَى حسَنِ

استطلاع طلعة: استخبار خبره، والسؤال عَنْ قدره، لأوَفِّيَه: لأعطيَه كاملاً وافياً. شزراً: نظر فيه إعراض. السّيمة: السَّوْم، وهو السؤال عن الثمن. ما حَلّق إليَّ حيثُ حلّقت، أي ما دار إليَّ حيث دُرْت، أي ما كان عنده شيء مما ظننتُ به من طلبه سوْماً غالياً. نَزُر: قلَّ. مُؤَنه: لوازمه وما يحتاج إليه. تبرّك: رآه مباركاً، والبركة: الكثْرة والسعةَ. التحف: انضمّ هواه: حبّه. أوثر: أفضّل.

فَلَمّا تحقّقَتِ الصّفقة، وحقّعتِ الفُرْقة، هَمَلتْ عَيْنَا الغلام، ولا هُمولَ دَمْعِ الغمام، ثم أقبل على صاحِبه وقالَ: **[الوافر]**

لحاكَ اللّهُ هَلْ مثلي يباعُ ... لكيما تشبَعَ الكرِشُ الجياع

وهل في شِرعَةِ الإنصافِ أنّي ... أُكلّفُ خُطّةً لا تُستطاعُ

وأنْ أُبلَى بروْعٍ بعد رَوْعٍ ... ومثلي حينَ يُبْلَى لا يُراعُ

أمَا جرَّبتَنِي فخَبْرتَ مِنّي ... نَصَائحَ لم يمازِجْهَا خِدَاعُ

وكم أرْصَدْتَنِي شَرَكاً لصيَدٍ ... فعدتُ وفي حبائِلِي السِّبَاعُ

وَنُطْتَ بِي المصاعِبَ فاستَقَادتْ ... مطاوِعةً وكانَ بِهَا امتناعُ

* * *

تحقّقت الصفقة: تمَّ البيع. هَمَلت: سالَتْ. الغَمام: السحاب. لحاه الله: لعنه وأبعده، ولحيت الرجل: لمتُه، وأصله من لحوْت العود ألحوه ولحيته ألحاه، إذا قشرته، وأنشد ابن الأعرابيّ في نوادره: **[الكامل]**

لَحَوْتُ شُمّاساً كما تُلحَى العصا سبًّا لو انّ السبّ يُدْمِي لَدَمِي[١]

ويقال: لاحَاه ملاحاة ولحاً، أصلها المبالغة، ثم كثرت حتى جُعلت كلّ ممانعة ومدافعة ملاحاة. الكرش: العيال، وكرش الرجل عيالُهُ وصغار ولده، ويقال في المعيل: عليه كِرش منثورة، وإذا أكثرت المرأة أولادَها قيل: نثرنَ كَرَشها، وقد قدّم أن صبيته جوّع. الشِّرعة: الطريق. والخطّة، مثل القصة: الأمر يقع بين القوم أُبلَى: أُمتحَن. الرّوع: الفزع، لأنه يصيب الرّوْع وهو القلب. يمازجها: يخالطها. أرصدتني: جعلتني رصداً، والرصد: مَنْ يرقبك وأنت لا تعلم فإذا جئتَه هجم عليك. والشَّرَك: آلة الصيد. حبائلي: شباكي نطت: علّقت. المصاعب: الأمور الشاقّة. استقادت: انقادت **[الوافر]**

وأيُّ كريهَةٍ لَمْ أُبلِ فيهَا وغُنْم لم يكُنْ لِي فيه باعُ

وما أبْدَتْ لِيَ الأيامُ جُرْماً فيُكْشفَ في مصارَمتِي القناعُ

ولم تعثر ـ بحمد الله ـ مِنِّي علَى عَيبٍ يُكَتَّمُ أو يُذَاعُ

فأنَّى سَاغَ عِندكَ نبذُ عَهْدِي كما نَبذتْ بُرايَتَها الصَّناعُ

ولِمْ سَمَحَتْ قَرونُك بامتهاني وأنْ أُشْرَى كما يُشْرَى المتاعُ

وهَلاَّ صُنْتَ عِرْضِي عنه صَوْني حَدِيثَكَ يوم جَدَّ بَنا الْوَدَاعُ

وقلت كمن يُسَاوِمَ فيّ هذا سَكابِ فما يُعارُ ولا يباعُ

فما أَنا دُونَ ذاكَ الطِّرفَ لكِنْ طباعُكَ فوقَهَا تَلْكَ الطِّباعُ

على أنّي سأنشِدُ حين بَيْعي أضاعُوني وأيّ فتًى أضاعُوا

* * *

أبل: أبالغ وأجهد نفسي فيه. غُنْم: غنيمة جُرْم: ذنب مصارمتي: مقاطعتي، وكشفت في الأمر القناع، إذا جهدت فيه وبالغت. تعثّر: تطلع: يكتَّم: يستر. يذاع: يفشي و «بِحمْد الله» في البيت، وقعتْ اعتراضاً بين العامل والمعمول، كما وقعت في التاسعة والأربعين اعتراضاً بين المبتدأ وخبره في قوله: «وأنت ـ بحمد الله ـ وليّ عهدي» وتعلّقها بمحذوف تقديره: ابتدىء بحمد الله، أو أفتتح بحمد الله الذي خلّصني من عيبُ يعْثَر لي عليه، أو الذي جعلك وليّ عهدي، ومنه: سبحان الله وبحمده، معناه أنزّه الله وابتدىء بحمده، أو أفتتح بحمده، ودخلت الواو هنا لغير معنى العطف، ألا ترى أنّك لو قلت: سبحان الله وحمده، لكان المعنى: أسبّحه تسبيحاً وأحمده حمداً، هكذا يقتضي ما جاء من المصادر منصوباً في هذا الباب، وفي قولنا: وبحمده لا يكون المعنى ما تقدم في المنصوب، ولكن الباء آذنت بمعنى ابتدأت، أو أبدأ بحمد الله، كأنّك قلت: حمدت الله على إلهامه إيايَ تسبيحه، وتأمّل قوله تعالى: ﴿**يُسَبِّحُون بحمْدِ رَبِّهِمْ**﴾ [غافر: ٧].

(١) البيت بلا نسبة في لسان العرب (لحا)، وتهذيب اللغة ٥/ ٢٣٩.

قوله ساغ: أي سهل. نبذ: ترك. البُراية: ما يتساقط من العود إذا نُجِر، ومن القلم إذا بُرِي، وكذا يأتي في مثل البُرَادة والنُّحاتة ونحوها الصَّنَاع: الحاذقة بالصَّنعة، والرجل صَنَع بغير ألف. قَرونك: نفسه. سمحتْ: جادت أُسْرَى: أُباع. عنه، أي عن البيع. صوني حديثك، أي صيانتي للحديث الذي أحدَثت من بيعي وأنا حرّ يوم جَدّبَنا الودَاع، أي في هذه الساعة التي تريد أن تودّعني فيها. سكَاب: اسم فرس لرجل من العرب من بني تميم، سأله بعض الملوك أن يبيعَها منه، فأبى عليه وقال: [الوافر]

أبِيتَ اللّعن إن سَكَابِ عِلْقٌ ... كريمٌ لا يُعَار ولا يباعُ[1]

مفَدّاة مكرّمة علينا ... يُجاع لها العِيال ولا تجاعُ

الطِّرف: الفرس الكريم، يقول: لست أنا دون الفرس، لكن طباع مالكه أفضل من طباعك، حيث كان يجيع عياله ويشبعه، ولم يهنه بالبيع كما أهنتَني به.

[العرجي]

وعَجُز البيت الأخير صدر بيت لعبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان رضي الله عنهم، وهو العرْجِيّ، سُمِّيّ بذلك لأنه وُلد بالعَرْج من مكة، وقيل: بل كان له بها مال، وكان يُكثر الاختلافَ إليه، فنُسب إليه. يكنى أبا عمرو، وهو شاعر مطبوع بالغزل مجيد ويشبِّه في غَزَلِه ومقصِدِهِ بعمر بن أبي ربيعة، وكان يهوى جيْداء أم إبراهيم بن هشام المخزومي، ولها يقول: [البسيط]

أبصرتُ وجهاً لها في جِيده تلَعٌ ... تحتَ العقود وفي القُرْطين تَشْهيرُ[2]

وجهٌ تحيّر فيه الماء في بشَر ... صافٍ له حين أبدته لنَا نورُ

ولها يقول: [الوافر]

إلى جَيْداء قد بَعثُوا رسولاً ... ليخبِرَها فلاَ صَحِبَ الرَّسولُ[3]

كأنّ العام ليس بعام حجٌ ... تغيَّرت المواسمُ والشُّكُولُ

ولها يقول: [السريع]

عوجي علينا ربّةَ الهوْدَجِ ... إنك إن لا تَفْعَلي تحَرجي[4]

---

(١) يروى عجز البيت الأول:

نفيسٌ لا تُعارُ ولا تباعُ

وهو بلا نسبة في لسان العرب (سكب)، وتاج العروس (سكب).

(٢) البيتان في ديوان العرجي ص ١٠٥، وفيه «تشميرُ» بدل «تشهيرُ».

(٣) البيتان في ديوان العرجي ص ١٩٠، وفيه «ليحزنها» بدل «ليخبرها».

(٤) ديوان العرجي ص ١٧.

فالحجّ إن حَجَّتْ وماذا منًى وأهله إنْ هي لم تحجج!
فما استطاعت غير أن أومأتْ نحوي بعينيْ شادنٍ أدعَجِ

وقال أيضاً: **[الكامل]**

باتَا بأنعم ليلةٍ حتّى بَدَا صبح يلوّح كالأغرِّ الأشقَرِ[1]
فتلازَما عند الفراق صبابةً أخْذَ الغريم بفضْل ثوب المعسِر

فلمّا شاع نسيبُه بها قبض عليه ابنها محمد عند ولايته الحجاز، بسبب طَلِبة عليه، فضربه بالسياط وألقى الزّيتَ على رأسه، وأوقفه للناس في الشمس، حتى غُشِيَ عليه، وسجنه بضع سنين حتى مات في سجنه، فقال في السجن: **[الوافر]**

أضاعوني وأيَّ فَتًى أضاعُوا ليوم كريهةٍ وسِدادِ ثغْرِ[2]
وخَلَّوْني ومعتَرَك المنايا وقد شرعتْ أسنَّتُهم لنحرِي
كأنّي لم أكنْ فيهم وسيطاً ولم تكُ نسبتي في آل عمرو
أُجَرَّر في المجامِع كلّ يوم فيالله مظلمِتي وقَسْرِي!
عسَى الملك المجيب لمن دعاه ينجيّني ويعلم كيف شكري
فأجزِي بالكرامة أهلَ ودِّي وأجزِي بالعَداوة أهل وِتري

فلما أفضت الخلافة إلى الوليد بن يزيد بن عبد الملك، قبض على محمد بن هشام وأخيه إبراهيم ودعا لهم بالسّياط، فقال له محمد: أسألك بالقرابة! قال: وأيّ قرابة بيني وبينك؟ قال: فاسألك بصهر عبد الملك! فقال: لم تحفظه، فقال: يا أميرَ المؤمنين إنّ رسول الله ﷺ نهى أن يُضْرب قرشِيٌّ إلا في حدٍّ، فقال: ففي حدّ أضربُك وقوَدٍ، قال: وما ذاك؟ قال: أنت أوّلُ من سَنَّ ذلك على العَرْجي وهو ابن عمي وابن أمير المؤمنين عثمان بن عفان، فما رعيت [حَقّ] جَدّه ولا نسبَه بهشام من قِبَل أمِّه، اضربْهما يا غلامُ، فضربهما ضرباً مبرِّحاً، وأُثقِلا بالحديد ووجّه بهما إلى يوسف بن عمر، وأمره بتعذيبهما، فضربهما حتى ماتا.

وغنى إسحاق الموصلي الرشيدَ قوله: **[الوافر]**

* أضاعوني وأيَّ فتى أضاعوا *

فسأل عن سبب هذا الشعر، فأخبره بحديث العرْجي، قال إسحاق: فرأيته يتغيّظ، فلما أخبرته بما فُعل بابنيْ هشام، جعل وجهه يُسفر وغيظه يسكن، ثم قال: يا إسحاق، لولا ما حدّثتَني به من فعل الوليد، لما تركت أحداً من أماثل بني مخزوم إلا قتلتُه بالعرْجيّ.

---

(١) ديوان العرجي ص ١٧٨.
(٢) ديوان العرجي ص ٣٤.

ومن جيدّ شعر العَرْجّي: [الطويل]

فهل أنت آتٍ أهل ليلى فناظرٌ ... لذنب جفوْني، أم جفوني تجرّمَا[١]
فإن يكُ من ذنبٍ ففي ذاك حكمهُم ... وحسب امرىء في حقه أن يُحَكّمَا
كمِثْلِ شهاب النّار في كفّ قابسٍ ... إذا الريح هبَّتْ وهو كابٍ أضرما

ومن جيده: [الكامل]

أخبِرتُ أنّكِ قلتِ نقتله ... لا تفعلنّ، فدتكُمُ نفسي[٢]
والله لا آتي لكم سَخَطاً ... حتى أغيَّب في ثَرَى رمسي
والله لا أنسى تطوّفَها ... تهتزّ بين كواعب خمس
كالبدر صُورتها إذا انتقبت ... وإذا سفَرت فأنت كالشمس

ومنه: [البسيط]

حُورٌ بعثْنَ رسولاً في ملاطفة ... ثَبْتاً إذا أسقط النَّسَّاءةُ الوَهِمُ[٣]
فجئت أمشي على هولٍ أُجشَّمُه ... تجشُّمُ المرء هَوْلاً في الهَوى كَرَمُ
أمشي كما حرّكتْ ريحٌ يمانيةٌ ... غصناً من البانِ رطْباً طَلَّهُ الرَّهَمُ
حتّى جلست إزَاءَ البَيْت مكتتِماً ... وطالَبُ الحاج تحت الليل يكتتم
فبت أُسقَى بأكواسٍ أعَلُّ بها ... من باردٍ طاب منه الطّعم والنَّسَمُ

وفي معنى قوله: أمشي كما حرّكت. البيت يقول ابن دعبل: [السريع]

قالتْ لقد أعييتنا حُجَّةً ... فأتِ إذا ما هَجَعَ السَّامِرُ
واسْقُطْ علينا كسُقوط النَّدَى ... ليلة لا ناهٍ ولا آمِرُ

وقال الواثق: [السريع]

قالت إذا الليل دَجَا فأتِنا ... فجئتُها حين دجا الليلُ
خفِّفي وطء الرِّجل من حارسٍ ... ولو دنا حلّ به الويْلُ

ومن ظَرْف العرجيّ، أنه وعد هوى له أن تزوره في منتزهٍ، فجاءته على أتان ومعها جارية لها، وجاء العرْجيّ على عَيْرٍ ومعه غلام، فواقعها العرجيّ، ثم خرج فرأى الغلام يواقع الجارية والعَير على الأتان، فلما نظر الحال قال: هذا يوم غاب عُذّالُه.

* * *

(١) ديوان العرجي ص ٣٦، وفيه «تعرّما» بدل «تجرّما».
(٢) ديوان العرجي ص ١٤٨.
(٣) ديوان العرجي ص ٢.

[التضمين]

ويسمَّى أخذ الحريريّ شطر بيت العرْجيّ التّضمين، وليس بسرقة. والتّضمينُ يكون في بيت وفي شطر بيت، والشُّعراء تتولَّع به كثيراً، وهو من صنعة البديع، فمن الثاني قول الأخطل: [الكامل]

ولقدْ سما للخرّميّ فلم تقلْ ... بعد الونى لكن تضايقَ مقدَمِي

ومثله قول الآخر: [الطويل]

وجُزْتُ على باب الأميرِ كأنّني ... قفَا نَبْك من ذِكْرى حبيب ومَنْزِلِ

ومن تضمين بيت بكماله قول الحسن بن هانيّ: [البسيط]

إنّي عجبْت وفي الأيام معتبَرٌ ... والدَّهر يأتي بألوان الأعاجيبِ

من صاحبٍ كان دنياي وآخرتي ... عدَا عليَّ جِهاراً عَدْوَةَ الذِّيبِ

قد كان لي مثلٌ لو كنتُ أعقِلُه ... من رأى غالب أمرٍ غير مغلوبِ

لا تَمْدَحنَّ امرأً حتى تجرِّبَهُ ... ولا تذمّنّه من غير تجريبِ

فضمّن هذا البيت.

قال ابن حجاج: [الكامل]

قد قلت لما أنْ رجعتُ مُوَلِّياً ... ومعِي مدَابيرٌ من الكتَّابِ

نحن الذّين لهم يقال وكلّنا ... فَلّ العصا وطريدة الحجاب

قومٌ إذا قصدوا الملوك لمطلبٍ ... نتِفتْ شواربُهمْ على الأبواب

وقال ابن رشيق: سألني بعض أصحابي أن أضمّن له قول الشاعر:

فإن فخرتَ بآباء لهمْ شرفٌ ... قلنا صدقت، ولكن بئسَ ما وَلَدُوا

ولا أزيد على بيت واحد، فقلت: [البسيط]

أصبحت من جملة الأشراف إن ذُكِرُوا ... كواحد الآس لا يزكُو له عدَدُ

والتضمين كثير.

* * *

[قصة النضر بن شميل مع المأمون]

وعلى بيت العرْجيّ: [الوافر]

* أضاعوني وأيّ فتّى أضاعوا *

حديث النضر بن شميل، قال: كنتُ أدخل على المأمون في سَمَرِه فدخلتُ ذات

ليلةِ وعليّ أطمار أخلاق، فقال: يا نَضر، ما هذا التقشّف! تدخل على أمير المؤمنين في هذه الخُلْقان؟ فقلت: أنا شيْخٌ ضعيف، وحَرّ مَرْوَ شديد، فأتبّرد بهذه الخُلْقان، قال: لا، ولكنك قشِف، فيُحمَل منك هذا على التقشف. ثم أجرينا الحديث، فقال: حدّثَنا هشيم، عن مجاهد، عن الشعبيّ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا تزوج الرجل المرأةَ لدينها ولجمالها وكمالها، كان فيها سَدادٌ من عَوَز» فأورده بفتح السين، قلتُ: يا أمير المؤمنين، حدّثنا عوف بن أبي جَميلة الأعرابيّ، عن الحسن عن عليّ بن أبي طالب رضوان الله عليهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا تزوج الرّجل المرأة لدينها ولجمالها وكمالها كان فيها سِدادٌ من عوز»، وكان المأمون متكئاً فاستوى جالساً، وقال: كيف قلت يا نضر «سِداد»؟ قلت: سِداد لأنّ «السَّداد» هنا لحن، قال: أو تلحّنني! قلت: إنما لحنَ هشيم ـ وكان لحَّانة ـ فتبع أمير المؤمنين لفظَه، فقال: فما الفرق بين السَّداد والسِّداد؟ قلت: السَّداد القصد في الدين والسبيل والسِّداد بالكسرْ البلغة في الشيء، وكلّ ما سددتَ به شيئاً فهو سِداد، قال: أو نعرف العرب ذلك؟ قلت: نعم هذا العرجي من ولد عثمان، يقول: **[الوافر]**

أضاعوني وأيّ فتى أضاعُوا ... ليوم كريهةٍ وسِداد ثَغْرِ

ثم أطرق مليّاً، وقال: قبّح الله من لا أدب له! ثم تجارينا الحديث، فقال: كيف روايتك للشعر؟ قلت: قد رويت الكثير منه، قال: فأنشدني أحسنَ ما قالته العرب في الحِلْم فأنشدته: **[الطويل]**

إذا كان دُوني مَنْ بُليتُ بجهلِه ... أبيْتُ لنفسي أن أقابل بالجَهْلِ

وإن كان مثلي في محلٍّ من العلا ... هويت إذا حلْماً وصفحاً عن المِثْلِ

وإن كنتُ أدنى منه في الفَضْل والحِجا ... رأيتُ له حقَّ التَّقدّم والفضل

فقال: ما أحسن ما قال! فأنشِدْني أحسن ما قالته العرب في الحزم فأنشدته: **[الطويل]**

على كلّ حالٍ فاجعل الحزم عُدّة ... لِمَا أنت باغية وعوناً على الدَّهْرِ

فإن نلتَ أمراً نِلْتَه عن عزيمةٍ ... وإن قصّرت عنه الحقوق فمن عُذْرِ

قال: فما أحسن ما قال! فأنشِدْني أحسنَ ما قالته العرب في إصلاح العدوَ حتى يكون صديقاً، فأنشَدته: **[الطويل]**

وذِي غيسلة ساءلتُه فقهرتُه ... فأوقرته منّي بعبء التحمُّلِ

ومَنْ لا يدافع سيئات عدوّه ... بإحسانه لم يأخذ الطَّول من عَلِ

ولم أر في الأشياء أسرعَ مهلكاً ... لضغنٍ قديم مِنْ ودادٍ معجّلِ

فقال: ما أحسن ما قال! فأنشدني أحسن ما قالته العرب في السّكوت فأنشدته: [الكامل]

إني ليهجرُني الصديق تجنّباً ... فأريه أن لهجرِه أسبابا
وأراه إن عاتبته أغريتُه ... فيكون تركي للعتاب عتابا
وإذا بليتُ بجاهل متحكّم ... يجد المحال من الأمور صَوابا
أوليتُه منّي السكوتَ وربّما ... كان السكوت عن الجواب جوابا

فقال: ما أحسن ما قال! ثم قال: ما ما لك يا نضر؟ قلت: أرَيْضَةٌ بمرو. الرّوذ اتصابها وأتمزّزها، قال: أفلا نفيدك مالاً معها؟ قلت: إن رأى ذلك أمير المؤمنين، فإني لذلك لمحتاج.

فأخذ القرطاس وكتب وأنا لا أدري ما يكتب، ثم قال: كيف تأمر إذا أردت أن تُتْرب الكتاب، قلت: يا غلام أتْرِب الكتاب، قال: فهو ماذا؟ قلت: مترَب، قال: فمن السَّحاة، قلت: يا غلام اسحُ الكتاب، قال: فهو ماذا؟ قلت: مسحًى، قال: فمن الطين، قلت: يا غلام طِنِ الكتاب، قال: فهو ماذا؟ قلت: مَطين ومُطان، فقال: هذه أحسن من الأولى، ثم قال: يا غلام أتربه واسحه وطِنْه. ثم صلّى بنا العشاء، ثم قال لغلامه: امض معه إلى الفَضْل بن سهل بهذا الكتاب، فلمّا قرأه قال: بمَ استأهلت أن يأمر لك أمير المؤمنين بخمسين ألف درهم؟ وما سبب ذلك؟ فأخبرته الحديثَ على جهته، فقال: لحنْتَ أميرَ المؤمنين، فقلت: كلاّ إنما لحن هشيم ـ وكان لَحّانة ـ فتبع أميرُ المؤمنين ألفاظه، وقد تتبع ألفاظه الفقهاء ورواة الأخبار. فعجّل لي ما في الكتاب، وأمر لي من عنده بأربعين ألف درهم، فانصرفت بتسعين ألف درهم بحرف استفاده مني.

وهذا الخبر جاء في أخبار النحويين. وذكره الحريري في درّة الغواص بأخصر مما ذكرناه، ثم قال بإثر الخبر: وقد أذكرني هذا المثل أبياتاً أنشدنيها أحد أشياخي رحمهم الله لأبي الهيذام: [الرمل]

لي صديق هو عندي عَوَزْ ... من سداد لا سِداد مِنْ عَوَزْ
وجهُه يذكّرني دار البلى ... كلّما أقبل نحوي وضَمَزْ
وإذا جالسني جرّعني ... غُصص الموت بكُربٍ وعَلَزْ
يصف الودّ إذا شاهدني ... وإذا غاب وشَى بي وهَمَزْ
كحمار السّوء يبدِي مرحاً ... فإذا سيق إلى الحمْل غَمَزْ
ليتني أُعطيتُ منه بدلاً ... بنصيبي شَرّ أولاد المَعِزْ
قد رضينا بيضةً فاسدةً ... عِوَضاً منه إذ البيع نَجَزْ

* * *

[أبو حنيفة والإسكاف]

وكان لأبي حنيفة رحمه الله جارٌ إسكاف بالكوفة، يعمل نهاره أجمع، فإذا أجنّه الليل رجع إلى منزله بالخمر ولحم أو سمك، فيطبخ اللحم أو يشوي السمك، حتى إذا دبّ الشراب فيه رفع عقيرَته يُنشد: [الوافر]

أضاعُوني وأيّ فتى أضاعُوا ... ليوم كريهة وسِدَاد ثَغْرِ

فلا يزال يشرب ويردّد هذا البيت، حتى يغلبَه النوم.

وكان أبو حنيفة رحمه الله يصلّي الليل كلَّه، ويسمع جلبته وإنشاده، ففقد صوته ليالي، فسأل عنه فقيل له: أخذه العسس منذ ثلاث ليال، وهو محبوس، فصلّى الفجر وركب بغلته، ومشى فاستأذن على الأمير، فقال: ائذنوا له، وأقْبِلوا به راكباً، ولا تَدَعوه ينزل حتى يطأ البساط، ففُعِل به ذلك، فوسَّع له الأمير مجلسَه، وقال له: ما حاجتك؟ فقال: لي جارٌ إسكاف أخذه العسس منذ ثلاث ليال، فتأمر بتخليَته؟ فقال: نعم، وكلّ مَنْ أخِذَ من تلك الليلة إلى يومنا هذا، ثم أمر بتخليتهم أجمعين. فركب أبو حنيفة وتبعه جاره الإسكاف، فلما أوصله داره، قال له أبو حنيفة: أتُرانا يا فتى أضعناك؟ قال: لا بل حفظت ورعيت جزاك الله خيراً عن صحبة الجوار ورعاية الحق، ولله عليَّ ألاَّ أشرب الخمر أبداً، فتاب ولم يَعُد إلى ما كان عليه.

[من أخبار الجواري والغلمان]

ومما يوافق هذا الموضع في المقامات من ظرف الحكايات التي تضمنت بيع المماليك عند الضرورات، وما للأجواد من جزيل الهِبات، مما ذكروا من أحسن أخبار الغلمان أن جعفر بن يحيى عرِض عليه في بعض متوجّهاته مملوك من مماليك رجل جَفاه السلطان، فقبَض ماله، وأمر ببيع مماليكه، فعرُض عليه من جملتهم غلام كما طرّ شاربه، أجمل الناس، يديُر بين فكَيْه لساناً أبْيَن من الصبح قال جعفر: فقلت له: ما اسمك؟ قال: ماهر، فقلت له: وما صنعتك؟ قال: الأدب والغناء والشعر وما شئت من بعد، فسألته عن ثمنه، فقال: خمسمائة دينار للضرورة، قال: فأدّيت ثمنه، وسألته أن يُسْمِعَني شيئاً من غنائه، فأخذ العُود وغنّى: [الطويل]

حملتُمْ جبالَ الحُبّ فوقي وإنّني ... لأعجز عن حمل القميص وأضْعفُ

ظفرتمْ بكتمانِ اللسان فمن لكمْ ... بكتمان عين دمعُها الدَّهرَ يذْرِفُ!

فأطربني غناؤه، وشجاني فأجزته، ووهبت له وخلعت عليه، وأمرته بمعادلتي. فلما اجتزتُ منزل مولاه بمقدار ميل، أنشأ يقول: [الطويل]

وما كنت أخشى معبداً أن يبيعَني ... بشيء ولو أضحتْ أنامُلُه صِفْرا

أخوهم ومولاهمْ وحاملُ سرِّهِمْ ... ومن قد ثوى فيهمْ وعاشرهم دهرَا

أشوقاً ولمّا تمض لي غير ساعةٍ ... فكيف إذا خبّ المطيّ بنا شهرا!

فقلت: يا غلام، أتعرف منزل مولاك من ها هنا؟ فقال: هيهات، وهل تخفي معالم الصبّ! فقلت: اذهب فأنت حرّ لوجه الله تعالى، ووهبت له ألف دينار، فقال لي زميلي: أمثل هذا يُعتق؟ فقلت: أوَ مثله يُملَك! فولّى وهو يقول: [البسيط]

لا يوجدُ الخير إلا في معادنه ... والشرّ حيث طلبت الشرّ موجودُ

وحدّث ابن عائشة قال: كان لرجل من قَيْس عَيْلان جارية، وكان بها معجَباً، ولها مكرِماً فأصابته حاجة وجهد، فقالت له: لو بعتَني فإن نلت طائلا عدت به عليك، فعرضها للبيع، فعرضت على عمر بن عبد الله بن مَعْمر المذحجيّ، فأعجبتْه فاشتراها بمائة ألف درهم، فلما مضت لتدخل القصر ودّعت مولاها وأنشدته: [الطويل]

هنيئاً لك المالُ الذي قد أصبتَه ... ولم يبق في كفّي إلا تفكُّرِي

أقول لنفسي وهي في كرب غشيةٍ ... أقلّيّ فقد بان الحبيب أو اكثرِي

إذا لم يكن للوصل عندك حيلة ... ولم تجدِي بدّا من الصَّبْر فاصبرِي

فأجابها مولاها: [الطويل]

فلولا قعود الدهر بي عنك لم يكنْ ... لفرقتنا شيءٌ سوى الموت فاعذرِي

أءُوبُ بحزنٍ من فراقك موجعٍ ... أناجي به قلباً طويل التّفكّرِ

عليك سلام لا زيارة بيننا ... ولا وَصْلَ إلا أن يشاءَ ابنُ مَعْمَرِ

فقال ابن معمر: قد شئت، خذ بيدها فهي لك وثمنها.

* * *

قال: فلمّا وَعى الشَّيْخ أبياتَهُ، وعَقَل مُنَاغَاتَهُ، تنفّسَ الصُّعَداء وبَكَى حتَّى أَبْكَى البُعَدَاء؛ ثمّ قال لي: إنّي أُحلُّ هذا الغلامَ محلَّ ولَدِي، وَلاَ أُمَيِّزُهُ عن أفْلاَذِ كَبِدِي؛ ولولا خلُوّ مُراحِي، وخُبوّ مصْباحِي؛ لَمَا دَرَجَ عن عُشّي، إلَى أن يُشيِّع نعشي، وقَدْ رأَيتُ ما نَزَل به من لَوْعَةِ البَيْنِ، والمؤمِنُ هَيْنٌ لَيْن، فهلْ لك في تَسْلِيَةِ قَلْبِهِ، وتَسْرِيَةِ كَرْبِهِ؛ بأن تعاهِدَني عَلَى الإقالةِ فيه مَتَى اسْتَقَلْتُ؛ وألاَّ تَسْتَثْقِلَنِي إذا ثَقَّلت؛ ففي الآثارِ المُنْتَقَاة، المَرْوِيةِ عن الثّقاتِ: مَنْ أَقالَ نادماً بيعَتهُ، أَقالَهُ اللّهُ عَثْرَته.

قال الحارثُ بن هَمام: فوعَدْتُهُ وَعْداً أَبرزَهُ الْحَيَاء، وفي القلب أَشْياء، فاسْتَدْني

حينئذٍ الْغُلاَمَ إِلَيْه، وقَبَّلَ ما بَيْنَ عَيْنَيْه، وأنشدَ والدَّمْعُ يَرْفَضُّ من جَفْنَيهِ: [الرجز]

خَفِّضْ فَدَتْكَ النَّفْسُ ما تُلاَقِي ... مِنْ بُرَحاء الوجْدِ والإشفاقِ

فَمَا تَطولُ مُدّةُ الفِراقِ ... ولا تني ركائب التّلاَقِي

* بحُسْنِ عَوْنِ القادِرِ الخلاَّقِ *

* * *

قوله: عقل مناغاتَه، أي فهم كلامَه، والمناغاة تكليم الطفل بما يهوَى ويفرح به، فإذا ردّدَ الصبيّ كلامك أو حاكاك فقد ناغاك. الصُّعَدَاء: ارتفاع نَفَس المهموم. أفلاذ: قِطَع يريد أولاده، والفَلْذة: قطعة من الكبد، ولِفَرْط الإشفاق به والمحبة في الولد، يخاطبه أبواه بقلبي وكبدي. وقالوا: أولادنا أكبادنا، وقال الشاعر: [الرجز]

وإنما أولادُنا بينَنا ... أكبادُنا تمشي على الأرْضِ

مُراحي: موضع إبلي ودوابّي، وكنى بخلوّ المراح عن الفقر وذهاب المال. درج: مشى. لوعة البين: حُرْقة الفراق. هَيْن لَيْن، هما مع الازدواجِ مخففّتان، فإن أفَردتا شدّدتا. قوله: لمَا دَرَج عن عُشّي، يقول: لولا الفقر ما بعتُه ما دمتُ حيًّا. وتسرية كربه: إزالة همّه. المنتقاة: المختارة. المدوّنة: المكتوبة المجموعة، والحديث معروف من طريق أبي مريرة رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ أقال نادماً بيعتَه أقاله الله عثرته»[1]، أي عفا عن زَلّته أبرزه: أظهره، ويريد بقوله: وفي القلب أشياء: أنه أضمر ألاّ يقيله أبداً يرفضّ: يسقط متفرّقاً. خَفِّض: سَكّن. بُرَحاء: شدّة. الوجد: الحزن الإشفاق: الخوف. تَني: تَفْتُر.

* * *

ثمّ قال له: أَسْتَوْدِعكَ مَنْ هُوَ نِعْمَ المولَى. وشمَّرَ ذَيلِه وَوَلَّى. فلبِثَ الغُلاَمُ فِي زفيرٍ وعَويل، رَيْثَما يَقْطَعُ مَدَى ميل. فلما اسْتَفَاق، وكفكفَ دَمْعَه المُهْرَاق، قال: أتَدْرِي لِمَ أعْوَلْتُ وعَلاَمَ عَوَّلْتُ؟ فقلتُ: أظُنُّ فِرَاق مَوْلاَكِ، هو الذي أَبْكاكَ فقال: إنَّكَ لَفِي وادٍ، وأَنا في وادٍ، ولَكَمْ بين مُريدٍ ومُراد، ثم أنشد: [الرجز]

لَمْ أَبْكِ واللَّهِ عَلَى إلْفٍ نَزَحْ ... وَلاَ عَلَى فوتِ نعيمٍ وفرَحْ

وإنَّما مَدْمَعُ أَجفانِي سَفَحْ ... عَلَى غَبيٍّ لحظُهُ حِينَ طمح

وَرَّطَهُ حَتَّى تعنَّى وافتَضَحْ ... وضيَّعَ المنقُوشَة البِيضَ الوَضَحْ

(١) أخرجه أبو داود في البيوع باب ٥٢، وابن ماجه في التجارات باب ٢٦، وأحمد في المسند ٢/ ٢٥٢، بلفظ: «من أقال مسلماً أقاله الله عثرته».

وَيْكَ أَمَا نـاجَتْكَ هـاتيكَ المُلَحْ ... بـأَنَّـنِـي حُـرٌ وبـيـعِـي لَـمْ يُـبَـحْ

* إذْ كانَ في يُوسُفَ معنًى قَدْ وَضَحْ *

* * *

زَفِير: أنفاس مرتفعة. عويل: بكاء. ريث: قَدْرَ. مدَى: غاية. والمِيل: قَدْر مدّ البَصر من الأرض، ويقال إنه ألفُ خطوة من خُطا البعير، والفرسخ: ثلاثة أميال، والبريد أربعة فراسخ. استفاق: استراح وخفّ ما يجده. كفكف: ردّ وأذهب. المُهَراق: المصبوب. أعولت: بكيت بصوت عالٍ، وأعول إعوالاً: صاح، ورفَع صوته، وعوّلت على كذا اتّكلت عليه، وعلى الله معوَّلي اتّكالي، وقال الشاعر: [**الطويل**]

* ولَيْسَ على رَيْب الزَّمان معوّلُ[١] *

كم بين مُريد ومُراد، يريد أنّهما متقاربان في اللفظ، متباعدان في المعنى، لأنّ المريد في الشيء المحبّ فيه، ِالمُراد الشيء المطلوب، وهو المحبوبُ، فأنت قد تُريد الشيء فتُمنَعه، وغيُرك قد يراد له فيأباه ولا يريده، فاللفظان متضادّان، فيقول: التبس عليك سرّ بكائي فظننتَ أنه عاى فراق مولاي. فتفطن الآن أنّه على سُخْف عقلك، كما التبس اللفظان على غير ناقد، فإذا تفطّن لهما تباعدا عليه، والمريد عند أهل الإرادة المبتدي، والمُراد المنتهى، فالمريد هو الذي نُصب للتعب والمقاساة، والمراد الّذي لقيَ الأمر من غير مشقة، فهو مرفوق به مرفَقٌ، وقيل: المريد متحمِّل والمراد: محمول.

الجنيد: المريد تتولاّه سياسة المعلّم، والمراد تتولاّه رعاية الحق، لأن المُريد يسير، والمراد يطير، فمتى يلحق السائر الطائر! القُشيريّ: كلّ مريد في الحقيقة مُراد، لأنه إذا أراده الحق للخصوصية، وفقِه للإرادة، ولكنهم فرقوا بينهما.

قوله: إلف، أي صاحب. نَزَح: بَعُد سَفَح: جرى. غبيّ: جاهل لَحظه: نظره. طمح: ارتفع. ورّطه: أنشبه، والوَرْطة: أهْوِية تكون في رأس الْجَبَل يشقّ على مَنْ وقع فيها الخروجُ منها وتورّطت الماشية: وقعتْ في الوَرْطة، قال طُفيل: [**الطويل**]

تـهـابُ طريـقَ الـحق تـحـسـب أنـه ... وُعُـورٌ وراطٌ وهـو بَـيْـدَاءُ بَـلْـقَـعُ[٢]

---

(١) يروى البيت:

ودع عـنـك رعـمـاً قـد أتـى الـدهـر دونـهـا ... ولـيـس عـلـى دهـر لـشـيء مـعـوّل

وهو بلا نسبة في كتاب العين ٢/ ١٣٨، ٢٤٨، وأساس البلاغة (عول).

(٢) يروى البيت:

تـهـاب طـريـق الـسـهـل تـحـسـب أنّـه ... وُعُـورُ وراطٍ وهـو بـيـداء بَـلْـقَـعُ

والبيت في ديوان طفيل الغنوي ص ٨٩، ولسان العرب (ورط)، وتهذيب اللغة ١٤/ ١٥، وتاج العروس (ورط).

وقيل: الورطة: الوحْل تقع فيه الغنم، فلا يمكنها التخلّص، ثم ضرب مثلاً في كلّ شدّة يقع فيها الإنسان، وأورطت فلاناً فتورّط هو، أي وقع فيما يعسُر التخلّص منه.

أبو عمرو: الوَرْطة الهلكة، قال الرّاجز: **[الرجز]**

إن تـأت يـومـاً مـثـلَ هـذي الـخُـطَّـهْ تـلاقِ مـن ضَـرْبِ نـمـيـرٍ وَرْطَـهْ[١]

قوله: تعنّى، أي تعب. افتضح: اشتهر، والوَضَح: الشديدة البياض النقية، أي ضيَّع الدراهم المنقوشة البيض، والوضَحُ: البيان والضوء والغُرّة والفضّة والدرهم الصحيح، وقيل: إنه وصف الدراهم بالمصدر، كما قال: امرأة زُورٌ وكَرَم. ويك: عَجَباً لك. وقوله: هاتيك، يقال للمذكّر: ذا، وهو للقريب، وذاك لما هو أبعد، وذلك لأبعد الثلاثة، وللمؤنث ذه وذي وذ، بلا ياء، وتاوتي وهي للقريبة، وتيك للتي هي أبعد منه، وتلك وتالِك لأبعدهنّ، وتدخل ها التنبيه على كلّ ما ليس فيه لام، لأن اللام موضوعة للبعيد، وها موضوعة للقريب، فلا يجمع بينهما، نحو هذا وهذاك وهاتا، وشاهده: **[الوافر]**

* ولَـيْـسَـتْ دارُنـا هـاتـا بـدارِ[٢] *

وهذه وهذي وهذِ وهاتيك، وشاهده قولُ ذي الرُّمة: **[الطويل]**

قـد احتـمَـلـتْ ميٌّ فـهاتِـيك دارُها بها السُّحم تَرْدى والحَمَامُ المطوَّقُ[٣]

قوله: لم يبح، أي لم يجعل مباحاً.

أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة أنا خصمُهم، ومَنْ كنت خصمَه خصمتُه: رجل عاهد ثم غدر، ورجل باع حرًّا، ورجل استأجر أجيراً فلم يوفّه أجره»[٤]. وَضَح: تبيّن.

* * *

---

(١) الرجز بلا نسبة في لسان العرب (ورط)، وتهذيب اللغة ١٤/ ١٥، وأساس البلاغة (ورط).

(٢) صدره:

ولـيـس لـعـيـشـنـا هـذا مـهـاةٌ

والبيت لعمران بن حطان في ديوانه ص ١١٢، والمخصص ١٥/ ١٠٧، وأساس البلاغة (مهمه)، وتاج العروس (مهه)، وتخليص الشواهد ص ١٢١، وخزانة الأدب ٥/ ٣٦١، ٣٦٢، وشرح أبيات سيبويه ٢/ ٢٧٠، وشرح شواهد الإيضاح ص ٦٠٤، وشرح شواهد المغني ٢/ ٩٢٦، والكتاب ٣/ ٤٨٨، ولسان العرب (مهه)، والمقتضب ٢/ ٢٨٨، ٤/ ٢٧٧، وبلا نسبة في مغني اللبيب ٢/ ٦٢٧، ومقاييس اللغة ٥/ ٢٦٨، ومجمل اللغة ٤/ ٢٩١.

(٣) البيت لذي الرمة في ديوانه ص ٤٥٩، وشرح شواهد الإيضاح ص ٦٠٢، وبلا نسبة في الدرر ١/ ٢٣٦، وهمع الهوامع ١/ ٧٦.

(٤) أخرجه البخاري في البيوع باب ١٠٦، والإجارة باب ١٠، وابن ماجه في الرهون باب ٤، وأحمد في المسند ٢/ ٣٥٨.

قال: فتمثَّلتُ مقالَهُ في مِرْآة المُدَاعبِ، ومعرِض المُلاعِب، فتصَلّب تَصَلُّبَ المُحِقِّ، وتبرّأَ مِنْ طينة الرِّقّ. فجُلْنَا في مُخَاصَمة، واتّصَلَتْ بُملاكَمة، وأَفضتْ إلي مُحَاكَمة: فلّما أوْضَحْنَا لِلْقَاضِي الصُّورةَ، وتَلَوْنا عَلَيْه السُّورَةَ، قال: أَلاَ إنَّ مَنْ أَنْذَرَ، فقدْ أَعذَر، ومَنْ حَذَّرَ كَمَنْ بَشَّر. ومَنْ بَصَّر فما قَصَّر؛ وإنَّ فيما شَرَحْتُمَاه لَدَليلاً عَلَى أَنَّ هذا الغلامَ قدْ نَبّهك فَمَا ارعَوَيْتَ، ونَصَحَ لَكَ فمَا وَعَيْت. فاسْتُرْ دَاء بَلَهِك واكتُمْهُ، ولُمْ نَفْسَكَ ولاَ تَلمْهُ، وحَذَارِ من اعْتِلاَقِهِ، والطّمَع في استِرْقَاقه، فإِنَّهُ حُرُّ الأدِيم، غيرُ معرَّض للتَّقْوِيم.

وقد كان أبُوه أحْضَرَه أَمْسِ، قُبَيْلَ أُفُولِ الشَّمْسِ، واعْتَرَفَ بأنَّه فَرْعُهُ الَّذِي أَنْشَاهُ، وأَلاّ وارثَ سِواه، فقلت للقاضِي: أَوَ تعرفُ أباه، أخزاه الله! فقال: وهَلْ يُجْهَلُ أبو زيدِ الَّذِي جُرْحُهُ جُبَار، وعند كُلِّ قاضٍ له أخبارٌ وإخْبار، فتحرقْتُ حينئذٍ وحَوْلَقْت، وأفقْتُ ولكِنْ حِينَ فاتَ الوقتُ، وأَيقنتُ أَنَّ لئَامَهُ كَان شَرَكَ مكيدَتِهِ، وبيتَ قَصيدَتِهِ. فنكّسَ طرفي ما لَقِيت، وآليت أَلاَّ أعامِلَ ملثَّماً ما بقيت.

* * *

تمثّلْت: تصوّرت. المداعب: الممازح. والمَعرَض بفتح الميم: الموضع الذي تُعرَض فيه الأشياء، والمَعْرِض الثوب تُعْرَض فيه الجارية. تصلّبَ: تقوّى، وهو «تَفعّل» من الصَّلابة وهي الشدة. والأرض الصُّلبة: القوية. ولا أعلم أحداً خالف في هذه الرواية إلا ابنُ ظَفَر فإنه رواه: «تصلّت» بالتاء بنقطتين، وفسره بتجرّد وجدّ، وكل جادّ مجاهد مسرع في أمره: فهو مُتَصلّت فيه، فذكروا أنه تصحف عليه اللفظ، فشرحه على تصحيفه. المحقّ: صاحب الحق. الرّق: العبوديّة: وذكَر الطينة لأنها أصل الخَلق. وتبرّأ منها، تباعد. جُلْنا: تصرّفنا. ملاكَمة: مدافعة ومُضاربة، واللّكم: الضرب بجُمْع الكفّ. أفضت: اتّصلت. أوضحنا: بيّنّاً. الصُّورة: القصة. تَلَوْنا: قرأنا وذكرناها له. أنذر: أعلم. أعذر: أتى بعُذْر، ويقال: قد أعذر من أنذر، أي قد بلَغ أقصى العذر مَنْ أنذرك، وعُذِّر الرجل فهو معذِّر، إذا اعتذر ولم يأت بعذر. ومنه قوله تعالى: ﴿**وَجَاءَ المعذّرون من الأعراب**﴾ [التوبة: ٩٠] ارعويت: رجعت عن جهلك وانكففت. بلَهك، غَفْلتك وجهلك. حَذَارِ، أي احذر أنْ تتعلّق به. استرقاقه: تملّكه وتعبّده، ومنه قولهم: سوق الرقيق، ومنه سُمِّيَ العبد رقيقاً، لأنهم يرقْون لمالكهم ويخضعون له ويذلّون: والأديم: الجلد. للتقويم: لمعرفة قيمته. أفول: غُروب. أنشاه: أحدثه وولّده. جُبَار: باطل. إخبار: إعلام. وأخبار: جمع خبَر، وأخبره: أعلمه. تحرقّت: عضضت أسناني حتى صوّتت من شدة الغيظ.

حَوْلقت: قلتُ: لا حول ولا قوة إلا بالله. أفقت: انتبهت، وأنشد الفنجديهيّ في معنى هذا: [السريع]

يفتضِحُ الجاهلُ لكنَّهُ   من بعد ما غرّبه الناصحُ
ويصلح ابنُ السوء لكنَّه   من بعد ما مات الأبُ الصالحُ

قوله: وأيقنت أن لثامه كان شَرَك مكيدته، أي شبكة حيلته. وبيت القصيدة: أحسن بيت فيها، فأراد أن حيلته كانت لثامه، نكّس طرفي: أي كسر عيني، وأمال نظري.

* * *

ولَمْ أزَلْ أتأَوّه لخُسْرِ صَفْقَتِي، وافْتضاحِي بين رُفْقَتِي. فقال لي القاضي، حِينَ رأى امْتِعَاضِي، وتبيَّنَ حَرَّارْ تِمَاضي: يا هَذا، ما ذَهَب من مالِكَ ما وَعَظَك، ولا أجْرَمَ إلَيْك منْ أيقظَك. فاتّعظْ بما نابَك، وكاتِمْ أصْحَابَكَ ما أصَابَك؛ وتذكّرْ أبداً ما دَهَمْك، لتقِيَ الذِّكْرَى دَرَاهِمَك، وتخلّقْ بتخلُّق مَنِ ابتُلِيَ فَصَبرَ، وتجلّت له الْعِبر فاعتبرَ.

قال الحارث بن هِمَّام: فودّعتُه لابساً ثوْبَ الخجل والحَزَن، ساحباً ذيلَي الْغَبْن والْغَبن، ونويتُ مكاشفة أَبي زيدٍ بالْهَجْر، ومصارمتَه يَدَ الدهر. فجعلتُ أتنكَّبُ عَنْ ذَرَاه، وأَتجنَّب أَنْ أرَاهُ؛ إلى أنْ غَشيَنِي في طريقٍ ضيّق، فحيَّاني تحيَّة شَيِّق، فمَا زِدتُ على أن عَبَسْت وما نبسْتُ، فقال لي: ما بالُك شَمَخْتَ بأنْفِك على إلْفِك! فقلت: أَنسيتَ أَنَّك احْتَلْتَ وَخَتَلت، وفَعَلتَ فَعْلتَك الَّتي فَعَلْت! فأَضْرط بي مُتهَازِيا، ثم أَنشد متلافياً:

* * *

أتأوّه: أتوجع. رفقتي: أصحابي، امتعاضي: توجعي. ارتماضي: حرقة قلبي من شدّة الهمّ، ولا يكون الممتعِض كاظماً، فلا بدّ من ظهور الكربْ عليه، وأمْرٌ ممعِض وماعضٌ، أي ممضّ كارب.

قوله: ما ذهب من مالك ما وعظك، هو مثل، ومعناه إذا ذهب من مالك شيء حذرك أن يحلّ بك مثله، فتأديبه إياك عِوَض من ذهابه، أجرم: أذنب. نابك: نزل بك. دهمك: غَشِيَك. تجلت: ظهرت. العبَر: العلامات المخوّفة، واعتبرت بالشيء إذا اتعظّت به، الخجل: الحياء. ساحباً: جارّاً. الغبن: بسكون الباء في البيع، وبفتحها في الرأي، يريد أنه غبن في رأيه وبيعه، قال في الدّرة: الغبن بإسكان الباء في المال، وبفتحها في الرأي والعقل. نويت: أضمرت. مصارمته: مقاطعته، وصرمتُ فلاناً:

قطعت ما بيني وبينه من المودة، والصَّرْم: القطع، وقيل للّيل: صريم، لانقطاعه عن النهار، وهو في تأويل مَصْرُوم أي مقطوع، وكذلك الصّريم من الرمل، وهو الذي انقطع من معظمهِ.

يد الدهر: أي أبدَ الدهر.

أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحلّ للمسلم أن يهجُرَ أخاه فوق ثلاثة أيام والسابق إلى الجنة»[1]. ذَراه: جهته. غَشِيَني: قصدني وأتاني على غفلة. شيّق: شديد الحبّ، ما نبستُ: ما تكلّمت، شمخت: رفعت أنفك كبراً، وشمخ: تكبّر. ختلت: خدعت، وخاتل في معنى ختَل، وأصل المخاتلة المشي للصيد قليلاً قليلاً خفية لئلاً يُسمع حسّك، ثم جُعلت مثلاً لكل شيء وُرِّي به وسَتَر على صاحبه، متلافيا: متداركا للألفة. **[مجزوء الكامل]**

* * *

يــا مَــنْ بَــدَا مِــنْــهُ صُــدُو	دُ مُــوحِــشٌ وَتَــجــهُّــمُ
وغَــدا يــريــشُ مَــلاَوِمــاً	مِــنْ دونــهــنّ الأسْــهُــمْ
وَيَــقــول: هــل حُــرٌّ يُــبــا	عُ كــمــا يُــبــاعُ الأدهــمُ
أقْــصِــرْ فــمــا أنــا فــيــهِ بِــدْ	عــاً مــثــل مــا تَــتَــوهَّــمُ
قــدْ بــاعــت الأســبــاطُ قــبْــ	ـلِــي يــوســفــاً وهــمُ هــمُ
هــذا وَأقْــسِــمُ بــالــتّــي	يَــسْــري إلَــيــهــا الــمُــتْــهِــمُ
وَالــطَّــائــفــيــن بِــهــا وهُــم	شُــعْــثُ الــنَّــوَاصِــي سُــهَّــمُ
مــا قــمــتُ ذاك الــمــوقــف الــ	ـمُــسْــخِــزِي وَعِــنْــدَي دِرْهِــمُ
فــاعــذرْ أخــاكَ وكُــفّ عَــنْــ	ـهُ مَــلاَمَ مَــنْ لا يَــفْــهَــمُ

* * *

تجهم: عُبوس. مَلاَوما: جمع مَلام أو ملاوِمة، وهي اللوم والعتاب، يريد أنّ لومه أنفذ من السّهام. الأدهم، قيل: أراد به الفرس وقصد لونه للقافية، وقيل: أراد العبد الأسود. بِدْعاً، أي أوّلاً أي ما أنا أوّل من فعل ذلك. الأسباط: إخوة يوسف عليه السلام. وهم هم: أي وهم أنبياء لم يتغيّروا عن مراتبهم، ويقال: هو هو، أي هو كما عهدتهَ لم يتغير.

(١) روي بطرق وأسانيد متعددة، أخرجه البخاري في الأدب باب ٥٧، ٦٢، والاستئذان باب ٩، ومسلم في البر حديث ٢٣، ٢٥، ٢٦، وأبو داود في الأدب باب ٤٧، والترمذي في البر باب ٢١، ٢٤، وابن ماجه في المقدمة باب ٧، وأحمد في المسند ١/١٧٦، ١٨٣، ٣/١١٠، ١٦٥، ١٩٩، ٢٠٩، ٢٢٥، ٤/٢٠، ٣٢٧، ٣٢٨، ٥/٤١٦، ٤٢١، ٤٢٢.

[يوسف بن يعقوب عليه السلام]

وقد جرى ذكر يعقوب والأسباط في المقامات في مواضع، وبنى هذه المقامة على ذكر يوسف وجماله وبيع إخوته إياه، ونريد أن نلمّ بطرَف من أخبارهم على شرط الكتاب.

ذكر أهلُ الأخبار أنّ يعقوب ـ وهو إسرائيل عليه السلام ـ تزوج بنت خاله ليا بنت ليّان بن بتويل، فولدتْ له روبيل وشمعون ولاوي ويهوذا وغيرهم، ثُم تُوفِّيتْ وخلفَ على أختها راحيل، فولدت له يوسف وبنيامين، وكان يوسف وأمه قد قُسِم لهما من الحسن شطْرُه، فكفلتْ يوسف عمّتهُ، وكانت أكبر ولد إسحاق، وكانت عندها مِنْطقة لإسحاق يتوارثونها على قدر أسنانهم. فلّما ترعرع يوسف أراد يعقوب أخذه منها، وقال لها: والله لا أقدر على الصَّبر عنه، فقالت له: والله لا أقدر على صَرْفِه إليك، فلما رأت عزمه على أخذه، حزمت المنطقة تحت ثياب يوسف وهو نائم، ثم ادّعت فقدها فطُلِب فوجدت عنده، وكان من سنتهم أن مَنْ سرق شيئاً أخذ فيه، فتركه لها حتى ماتت. فلمّا رجع إلى أبيه شُغِل به عن سائر بنيه، فحسَدُوه، فسألوا أباهم إرساله معهم للنزهة، بعد أن ضَمِنوا حفظَه، فأخرجوه إلى البريّة، وأخذوا يضربونه، وكُلّما ضربه واحدٌ استغاث بآخر، فيضربه الآخر. فلما كادوا يقتلونه منعهم يهوذا، وذكّرهم بما ضمنوا لأبيه من حفظه، فانطلقوا فأدلوه في الجبّ، وهو يقول: يا أباه لو تعلم ما يصنع بابنك بنو الآباء! وكان بعض إخوته لأمّه، فجعل يتعلق بشفير الجبّ، فربطوا يديه، وألقوْه فيه، فقالوا له: ادع الشمس والقمر والأحد عشر كوكباً ينجُوك، ثم أرادوا أن يَرْضخوه بصخرة، فمنعهم يهوذا، وكان يأتيه بالطعام خِفْيةً منهم. ثم مرّت سيارة فأدلى واردُهم دلوه فتعلّق به، فلما رآه بشّر به السيارة. وقال السُّديّ: إنّ الذي أخرجه إنما دعا صاحباً له اسمه بشرى، فأتى إخوته الذين أخرجوه وقالوا: إنه عبد لنا، فباعوه منهم بعشرين درهماً على أن يُخرجوه من أرض الشأم، فشرطوا لإخوته أن يغرّبوه، ويذهبوا به إلى مصر، فحينئذ رجعوا إلى أبيهم عشاء يبكون.

فهذه قصة بيع الأسباط يوسف على اختصار.

ثم إنّه لمّا بلغ مصرَ من العزيز، وكان فرعون ـ وهو الريّان بن الوليد ـ قد ولاّه خزائنها، فكان من قصته مع امرأة العزيز ومن حبّها فيه ومن دعائها إياه لنفسها، ومن تأبّيه من ذلك واستنزالها إياه؛ حتى هم بها، ورؤيته برهان ربّه ـ وهو رؤيته صورة يعقوب يعضّ على إصبعه، وقيل: إنه رأى في الحائط مكتوباً: «ولا تقربوا الزنا» ومبادرته الباب فارّاً منها، وقدّها قميصه من دُبر، ووجوده العزيز على باب الدّار جالساً مع ابن عمّ له، وهو الشاهد من أهلها ـ وقيل: إنه كان صبيّاً في المهد ـ واشتهار أمرهما بمصر، حتى تحدّثت به نسوة في المدينة، وقلن: امرأة العزيز تُرَاود فتاها عن نفسه، وإحضارها لهنّ وإعدادها لهنّ ما يتّكئن عليه ـ

وقيل: المتّكأ الأترج - وأمرها له أن يخرج عليهنّ، وإعظامهنّ إياه حتى شغلن بع عن أنفسهن، وقطّعن أيديَهُنّ وقلن: حاش لله ما هذا بشراً، تنزيهاً له عن أن يأتيَ - مثله ريبة، فكان من هذا الخبر ما قص الله في القرآن ونَطَقَتْ به التّفاسير والأخبار.

ثم إن امرأة العزيز قالت للعزيز: إن عبدك فَضَحني في الناس فإما سجنته، وإمّا برزتُ للناس أعتذر عن نفسي، فحبسه، فدخل معه رجلان أحدهما خبّاز الملك والآخر نديمه. وكان لمّا بلغ الحلم آتاه الله حُكْماً وعلماً من العبارة، فكان في السِّجن يفسر الرؤيا للمسجونين، ويمرّض مرضاهم، ويُوَسّع على من ضاق عليه مكانه، فقال أحد الفتيين لصاحبه: هلمّ نُجَرّب هذا العبد، فسألاه من غير أن يريا شيئاً، وقالا له: إنا نراك من المحسنين في معاشرتك أهل السجن، فقال لهما: أمّا أحدُكما فينادم الملك، وأما الآخر فيُصلَب، فقالا له: ما رأينا شيئاً، فقال لهما: قضي الأمر فيكما، ثم قال للذي ظن أنه ناجٍ منهما: اذكرني عند رَبّك. وأخبره أني محبوس ظلماً، فأوحى الله تعالى إليه: إن اتخذتَ من دوني وكيلاً لأطيلن سجنك، فعوقب بالسجن حيث همَّ بامرأة العزيز، وبإطالته حيث اتكل في أمره على غير ربه.

ثم كان من رؤيا الملك وجِهْل أهل دولته وتفسير يوسف لها، وقول الملك: ائتوني به وتأبّيه الخروج حتى يسأل النِّسوة عن شأنه وشهادتهنّ عند الملك بتبرئته واعتراف امرأة العزيز بأنها راودته، وقوله في العزيز: **﴿ليَعْلَم أنّي لم أخنْه بالغيب﴾** [يوسف: ٥٢].

ويقال إن جبريل قال له عند ذلك: ولا يوم هممتَ بما همَمتَ به! فقال: **﴿وما أبرّىء نفسي إن النَّفس لأمارة بالسُّوء إلاّ مَا رَحِم ربي﴾** [يوسف: ٥٣] الآية. واستخلاص الملك إياه لنفسه، وجعله على خزائن أرضه؛ ما اشتهر قرآناً وتفسيراً. ويقال إن العزيز مات في تلك المدة، وإن يوسف تزوّجها، وقال لها: أَلَيْسَ هِذِا خيراً؟ فقالت: لا تلمني، كنت امرأة حسناء في مُلْكٍ ودُنْيا، وكان صاحبي لا يأتي النساء، وكنت كما جعلك الله في حُسْنك، فغلبَتْني نفسي على ما رأيت.

فيزعمون أنّه وجدها عذراء، وأنها ولدت له ابنين.

ثم أجدبت الأرض، فأتاه إخوته منتجعين، فكان من أمره معهم، وإحسانه إليهم في الكيل. وطلبه لهم أن يأتوه بشقيقه بنيامين، ورجوعهم موقرين، ورغبته إياهم في إرساله معهم، وأخذه بسرقة الصُّواع وتأذّيهم بذلك، ورجوعهم إلى أبيهم وتوالى الحزن على يعقوب بفقد ابنيه، وأمره لبنيه أن يرجعوا طالبين ليوسف وأخيه، ودخولهم على يوسف أذلاّء صاغرين، وتعريفه إياهم بمكانه، وبعثه بالقميص إلى أبيه، وجمع شملهم بعد طُولِ مدّة الفراق ما نصّ الله تعالى أنه عبرةٌ لأولي الألباب، ولولا أنّ الأمر في كتب التفسير أشهر من أن يجهَل، لفسّرناه فصلاً فصلاً.

* * *

قوله: أقسم بالتي يَسْرِي إليها المُتْهِم ـ يعني مكّة ـ والمُتهم الآتي تِهامة، وتِهامة اسم مكة، وقال: الأصمعيّ: سمعت العرب تقول: إذا انحدرتَ من ذات عِرْق فقد أتهمت، شعْثٌ سُهْم: أي متغيّرة ألوانهم وشعورهم.

قوله: اعذر أخاك، قال زيد بن عليّ: ثلاثة لا يجتمعن إلا في كريم: حُسْن المحضر، واحتمالُ زلاتِ الإخوان، وقلة الملالة للصديق.

* * *

ثمّ قال: أمّا معْذرتي فقدْ لاحتْ، وأمّا دراهِمُك فقدْ طاحَتْ؛ فإنَ كان اقْشِعَرارُكَ منِّي، وازوِرَارُكَ عَنِّي، لفَرْطِ شَفقتِكَ عَلَى غُبَّرِ نَفَقَتِك. فلسْتُ مِمَّنْ يَلْسَعُ مَرَّتَيْن، وَيُوطِيءُ عَلَى جَمْرتَيْنِ، وإن كنت طويتَ كَشْحَكَ، وأطَعْتَ شَحَّكَ. لِتَسْتَنْقِذَ ما عَلِق بأشْراكِي، فَلْتَبْكِ عَلَى عَقْلِكَ البواكي.

قال الحارث بن همّام: فاضطرّني بلفظهِ الغالب، وسِحْره الغَاب، إلى أن عُدْت له صَفيّاً، وبه خفِيّاً، ونبذتُ فعلتهُ ظْهِرياً، وإن كانَتْ شيئاً فَرِيّاً. لاحت: ظهرت. طاحت: هلكت اقْشعَرارُك: انقباضك. والقُشعريرة: رِعْدة وانقباض. ازوارارك: انقباضك وَميْلك، لفرط شفقتك، لكثرة خوفك، غبّر نفقتك: أي تخاف على مَا بَقِي من نفقتك وإن أخذها. يُوطِيء، أي يجعل غيره يطأ الجمر، أي لا أضرّ مرتين، والكَشح: الخَصْر، وقيل: الجنْب. وقيل: هو اسم لما بَيْن الأضلاع، ورأس الوَرِك، وكلُّها متقاربة، وطوى كشحه على أمر، واستمرّ عليه، وطوى كشحه، مثل يضرب للمجانبة والمكاتمة، قال الشاعر: **[الوافر]**

طَوَى كشحاً خليلُك والجناحا ... لبينٍ منك ثُمَّ غدًا وراحَا[1]

والشحّ: البخل مع الحِرص، واضطرني: ألجأني، الخالب: الخادع، صفيّاً: صاحباً مخلصاً. حفيّاً: معيناً، كريماً: مكرِماً، نبذت: رميت وطرحت ظِهْريّاً. أي خلف ظهري، واتخذ ظهرياً، أي عُدة يستظهر بها، أي يجعلها خَلْف ظهره حتى متى احتاجها استعملها فَرِيّاً: عجباً ومنكراً، والفريّ: الأمر العظيم، والفريّ الكذب.

ومما جاء في الشعر على أخبار يوسف عليه السلام.

قال ابن الزقاق: **[الكامل]**

بأبي وغير أبي أغنُّ مُهَفْهَفٌ ... مهضوم ما خَلْف الوشاحِ خَميصُهُ
لبِس الفؤادَ فمزّقَتْهُ جفونُه ... فأتى كيوسف حين قُدّ قميصهُ

---

(١) البيت بلا نسبة في لسان العرب (كشح)، وتاج العروس (كشح)، وفيهم «صراحا» بدل «وراحا».

وقال أيضاً: [مجزوء الرجز]

وسافرٍ عن قمرٍ ... مبتسم عن دُرَرِ
لو لاح للحور وقد ... سلّ حُسامَ الحَوَرِ
لقُدّ منه شغفاً ... قَميصُه مِنْ دُبُرِ

ومن المُلَح في ذلك قول ابن حجاج في بختيار: [المنسرح]

فديت وجه الأمير من قَمَرِ ... يجلو القَذى نُورُه عن البَصَرِ
إنّ زليخا لو أبصرتْكَ لما ... ملّت إلى الحشر لذة النّظر
بل وحياتي لو كنتَ يوسفَها ... لم تكُ من تهمة العزيز بَرِي
فإنني عالم بأنّك لو ... شَمَمْتَ ريّا نسيمها العَطِرِ
سبقتَها واندلَقْتَ تتبعُها ... من بين تلك البيوت والحجر
ولم تزل بالكدّين تنقُرُها ... من قبل وقت العشا إلى السَّحَرِ
طبعك كالماء في سُهولتِه ... لكن أبو الزِّبْرِقان من حجر
إنّ الملوك الشّباب ما خُلِقوا ... إلاّ صلابَ القِياش والكَمَرِ

وقال آخر: [البسيط].

قميص يوسف لمَّا قُدّ من دُبرٍ ... كانت براءته فيه من كذب
وفي قميصك لمّا قد من دُبرٍ ... ممّا يدلُّ على الفحشاء والرِّيَبِ

وقال آخر في الحسن بن وهب: [البسيط]

إذا لقيتَ نبي وهب بمنزلةٍ ... لم تدر أيّهما الأنثى من الذَّكَرِ
مؤدّبون على الفحشاء من صِغَرٍ ... مدرّبون على النَّكْراء من كِبَرِ
قميص أنثاهُمُ ينشقُّ من قُبلٍ ... وقميص ذُكْرانهم تنقدّ من دُبُرِ
محنّكونَ ولم تقطَع سرائرُهمْ ... بين الحواضِنِ والدّايات بالكَمرِ

المقامة الخامسة والثلاثون

وتعرف بالشيرازيّة

حكى الحارث بن همّامٍ قال: مَرَرْتُ في تَطْوافِي بِشِيراز، على نادٍ يَسْتَوْقِفُ المُجْتاز، ولو كان على أوْفازٍ؛ فلم أستَطِعْ تَعَدِّيه، ولا خَطَتْ قَدَمِي في تَخَطِّيهِ؛ فَعُجَتْ إليه لأَسْبُكَ سَرَّ جوْهره؛ وأنْظُرَ كَيْفَ ثَمَرُهُ من زَهَرِه، فإذا أهلُه أفراد، والعائجُ إليْهم مُفَاد. وبينما نحنُ في فكاهةٍ أطربَ من الأغاريد، وأطيبَ من حَلَبِ العَنَاقيد، إذ احْتَفَّ بنا ذو طِمْرَيْن، قد كاد يُناهِزُ العُمْرَيْن، فحيَّا بِلِسَانٍ طليق، وأبان إبانَةَ مِنْطِيق ثم احتبَى حُبْوَةَ المُنْتَدِين، وقال: اللّهُمَّ اجْعَلْنا من المهتدين. فازْدَرَاهُ القومُ لِطِمْرَيْهِ، ونَسُوا أنّ المرء بأصْغَرَيْه.

* * *

التّطواف: مصدر طوّفت حول الشيء، إذا أكثرتَ المشي حولَه. وقد طفتُ به وأطفتُ، وإذا درت وأكثرت ذلك قلت: طوّفت.

وشيراز: مدينة فارس العظمى، وهي مدينة جليلة عظيمة، ينزلها الولاة ولها سعة حتى إنه ليس فيها منزل، إلاّ وفيه لصاحبه بُستان فيه جميع الثمار والرياحين والبُقول، وكلّ ما يكون في البساتين. وشُرْب أهلها من عيون تجري في أنهارٍ تأتي من جبالٍ يسقط عليها الثلج.

قوله: ناد: مجلس. يَستوقِف: يحبس ويجعله يَقِف. المجتاز: خاطر الطريق المارّ عليه.

أو فاز: انحفاز وعجلة، ومنه قولهم: قعد مستوفزاً، معناه قعد على وَفزٍ من الأرض، والأوفاز: جمع وَفْز وهو ألاّ يطمئن في قعودَ. قال الجوهري رحمه الله تعالى: تقول نحن على أوْفاز، ولا تقول على وفَز، ومعناه ألا تلقاه مُعَدّاً.

الأزهريّ: الوفْزة: الوثبة بعَجلة، وقَعَد مستوفزاً، إذا رفع أليَتَيْه ووضع رُكبتيه ولم يطمئن.

تعدّيه: تخطّيه وجوازه. وخَطَتْ: مشت، عُجْتُ: مِلْت. أسبُكَ. أُجرّب سرّ

جوهره: أراد باطن أهله إذ كانوا في الظاهر ذوي مناظر، فأراد أن يعرف: هل هم أهل علوم وآداب، . حتى يكملوا في الظاهر والباطن، أم أمرهم على خلاف ذلك، وبيّن ذلك بقوله: كيف ثمره من زهره، فكنى بالزّهر عن ظاهرهم، وبالثّمر عن سرِّهم الباطن، وسرّ كل شيء: باطنه وخالصه، وقال المعرّي: **[البسيط]**

فلا يغرّنْك بِشرٌ من سواه بدا ولو أنار، فكم نَوْرٌ بلا ثَمَرِ[1]

قوله: أفراد، أي كبراء لا نظير لهم، فمن مال إليهم استفاد، وأفراد: نجوم الدَّراري، والعائج: المائل. فكاهة: حديث مطرب. الأغاريد: أصوت الطير، ويطلقون على ما كان فيه حنان ورقة منها اسم التَّغريد والغناء، إلا الحمام فإنهم يسمُّونَ أصواتَهَا غناء وتغريداً وبكاء ونياحاً، ويأخذونه من حال السامع لها، وقرىء على أبي الحسن بن السراج قولُ سُوَيد بن الأعلم: **[الوافر]**

لقد تركتْ فؤادك مستجنّاً مطوّقةٌ على فَنَنٍ تَغَنّى

يَميل بها وتركبه بلحنٍ إذا ما عنّ للمحزون أنّا

فقال: إنما تكون أصوات الحمام على ما في نفس المستمع، فإذا سمعها مَنْ يطرب سمّاها غناءً، وإذا سمعها مَنْ يحزن سماها بكاء.

وقال ابن قاضي ميلة مصدِّقاً لما قاله ابنُ السّرّاج: **[الوافر]**

لقد عَرَض الحمام لنا بسجْعٍ إذا أصغى له ركبٌ تلاحَى

شجا القلب الخلّي فقال غَنّى وبرّح بالشّجيّ فقال ناحا

وسبقه المعرّي بقوله: **[الوافر]**

بأرضٍ للحمامة أن تغنَّى بها ولمن تأسف أن تَنوحَا[2]

وقد قدّمنا في شرح الصدر فصلاً للحمام، وما أحسَن قول البحتريّ: **[البسيط]**

حَيّتْكِ عَنّا شَمال طافَ طائفُها في جنة نفحَتْ روْحاً وريحانا

غنَّت سُحَيراً فناجى الغصنُ صاحبَه سِرّاً بها، وَتَداعى الطير إعلانا

وُرقٌ تغنّى على غصن مهدلةٍ تسمُو بها وتمسّ الأرض أحْيَانا

تخال طائرها نشوانَ من طرَبٍ والغصن من هِزّةِ عِطْفَيْهِ نِشْوَانا

وهذا ديباجة أبي عبادة. وحلَب العناقيد: الخمر. احتفّ: انتظم. طِمْرين، أي ثوبين خَلَقين، يناهِز: يقارب. العُمْرين: ثمانين سنة، وذلك أن الإنسان من الشبيبة إلى

(١) البيت في سقط الزند ص ١٣٩.

(٢) البيت في سقط الزند ص ٢٤٥.

الأربعين في نماء وزيادة وقوة، ومن الأربعين إلى الثمانين في نقص، فالبالغ الثمانين قد استوفى عُمْرَيِ الزيادة والنقص، وسئل ذو الرّمة عن سنِّهِ، فقال: بلغتُ نصف عمر الهَرِمِ أربعين سنة، وقيل: العمر ستون سنة، لقوله عليه الصلاة والسلام: «أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين»(١).

ومن حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ: «مَنْ أتت عليه ستون سنة فقد أعذر الله إليه»(٢). فالعمران على هذا مائة وعشرون سنة، والحكماء يزعمون أنه منتهى ما يبلغ عُمر ابن آدم، والأظهر من سياق المقامة أنه أراد الأول، لأن مَنْ قارب مائة وعشرين سنة لا يلتذ بخمر ولا بغيره وهو يزعم في المقامة أنه يحاول شربها الغناء وغير ذلك.

قوله: أبانَ: بيَّن. مِنْطيق: فصيح، اجتبى حبوتهم، أي جلس مثل جلوسهم المنتدين: أهل المجلس. ازدراه: احتقره.

أصغريه: قلبه ولسانه، وقيل لهما الأصغران لصغر حجمهما مِنْ بين الأعضاء لفضلهما وشرفهما على الأعضاء، قال عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: ولكنّي مدرّب الأصغرين، ولجلبهما القيام والكمال، كأنه قال: المرء يقوّم أموره بلسانه وقلبه، ويكمل المرء بهما، قال الأصمعيّ رحمه الله تعالى: كان ضمرة بن أبي ضمرة قصيراً، وكان يقول: المرء بأصغريه، بقلبه ولسانه.

* * *

وأخذوا يتدَاعَوْنَ فصْلَ الخِطاب، ويَعتدُّون عُودَهُ من الأحطاب، وهو لا يُفيضُ بِكلِمةٍ، ولا يُبِينُ عن سِمَة، إلى أن سَبَر قرائحَهمْ، وخَبَر شمائلَهُمْ وراجِحَهُمْ. فحين استخرَج دَفائِنَهمْ، واستنثَلَ كَنَائِنَهُمْ، قال: يا قوم لو عَلِمْتُمْ أنّ وراء الفِدَام، صَفْوَ المُدَام، لَمَا احتقرتُم ذا أخْلاَق، وقُلْتُمْ ما لَهُ مِنْ خَلاَق، ثمَّ فَجَّر مِنْ يَنَابيعِ الأدب، والنّكتِ النُّخب، ما جلَب بَهِ بدَائِعَ العَجب، واستوْجَب أن يُكتَبَ بذَوْب الذّهَب، فلمَّا خَلَب كُلَّ خِلْبِ، وقَلَب إليه كُلَّ قَلْب، تحلْحَل، ليرْحَلَ، وتأهَّب، ليذهب، فَعِلقَتِ الجماعَةُ بذَيْلِهِ، وعاقتْ مَسْرَب سَيْلِهِ، وقالت له: قدْ أريتَنا وَسْم قِدْحِك، فخبِّرنا عَنْ قَيْضكَ ومُحِّك، فصمَتَ صُموت من أُفْحِم، ثم أعْوَلَ حَتَّى رُحِم.

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات باب ١٠١، وابن ماجه في الزهد باب ٢٧.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٣٢٠، ٤١٧.

قال الرّاوي: فلمّا رأيتُ شَوبَ أبي زيدٍ وَرَوْبَهُ، وأسلُوبَه المألوفَ وصَوْبَه، تأمّلتُ الشيخ على سُهُومَةِ مُحَيَّاه، وسُهُوكَةِ رَيّاه، فإذا هو إيّاه.

❋ ❋ ❋

يتداعَوْن: يدعو بعضُهم بعضاً إلى ذكر الفصاحة، والأشبَه أن يكون من الأدعيّة؛ وهي الأحجّية والأغلوطة، كأنهم يتحاجَوْن. وفصل الخطاب، كناية عن الفصاحة، يعتدّون: يحسبون، الأحطاب: جمع حَطَب، ولا يقال للعود حطب حتى يجفّ ماؤه وييبس، فأراد أنهم حسبوا أبا زيد من جنس الحطب لا نضارة فيه، كأنه لا علم عنده، وقال الشاعر: **[الطويل]**

إذا العود لم يثمرْ وإن كان شعبةً	من المثمرات اعتدَّه الناسُ للحطبْ

يُفيض: يتكلم ويندفع في القول، وفاض لسانه وأفاض، أي أبان. يبين: يبيّن. سِمَة: علامة. سَبَر: قاس وجرّب. قرائحهم: أذهانهم. خَبَر: جرّب، شائلهم: ناقصهم. راجحهم: وافيهم، والشائل من الدراهم: الناقص الذي يشول به الميزان أي يرتفع، والراجح ضده. وقال في الدّرة: الشائل: المرتفع، وأنشد: **[السريع]**

يا قومِ مَنْ يعذر في عجردٍ	القاتل المرء على الدّانِق
لمّا رأى ميزانه شائلاً	وجاه بين الأذن والعاتق

استنثل كنائنهم: استخرج ما عندهم، والكنانةُ: جعبة السهام. الفِدام: خرقة تُجعل على فم الإبريق ليصفوَ الخمر بها، أخلاق: ثياب بالية. خَلاَق: نصيب وافر من الخير. ينابيع: مخارج الماء من العيون. النّكت: المعاني الغامضة، والنكتة: نقطة في شيء تخالف لونه، فإذا كانت في الكلام فهي عيونه، النُّخَب: المختارة، بدائع: غرائب، ذوب الذهب: ما ذاب منه، ولو أنشدهم شعراً يوافق مجلسهم لم يكن إلا أبيات الناشىء: **[البسيط]**

كأنهمْ في صدورِ الناس أفئدةٌ	تُحِسّ ما أخطروا فيها وما اعتمدُوا
يُبْدُون للنّاس ما تخفي ضمائرُهمْ	كأنهم وجدوا منها الذي وَجَدُوا
دلّوا على باطن الدنيا بظاهرِها	وعلم ما غاب عنهمْ بالّذي شهِدُوا
مطالع الحق ما مِنْ شبهة غسقتْ	إلا ومنهمْ لديها كوكبٌ يَقِدُ

أو أبيات ابن شهيد حيث قال: **[مخلع البسيط]**

وفتيةٍ كالنّجوم حسناً	كلُّهمْ شاعِرٌ نبيلُ
متّقد الجانبين ماضٍ	كأنّه الصارم الصقِيلُ
رامُوا انصرامِي عن المعالِي	والقرب من دونها كليلُ

فـاشـتـدّ فـي إثـرهـا مِـسَـحٌ كـلّ كـثـيـر بـه قـلـيـلُ
فـي مـجـلـس شـأنـه الـتّـصـافـي تـطـيـش فـي وصـفـهِ الـعُـقـول

قوله: خلَب، أي خدع. والخَلْب: الحجاب الذي بين سَواد القلب وسواد البطن. تَحَلْحَل: تحرّك، وأصله للبعير إذا حرّكته للقيام تقول له: حل حل. عاقتْ: منعتْ وحَبَسْت. مَسْرب: طريق مَسِيل الماء، وسرب يسربُ سروباً: مضى على وجهه في سفر بعيد، وسرب الماء يَسْرُب سَرَباً ومسرباً فهو سَرِب: سال، والمعنى منعتْه المشي، وسم قِدْحِك: علامة سهمك، والقِدْح السهم قبْل أن يُراش ويركّب نصله. وأرْويتَنا من نضحك، أي أسقيتنا من بَلَلِكَ، والنضح: الرشّ الخفيف: قَيْضك ومُحّك، أي ظاهرك وباطنك، لأن القَيْضَ قشرة البيضة العليا وقلبها الأصفر هو المحّ، بحاء غير منقوطة.

الفنجديهي: عن قَيْضِك ومُحَّك أي عن نسبك وبلدك. صمْتُ: سكت. أفحم: غلبَ وقطع عن الكلام. أعول: بكى. وشوْب أبي زيد وزوْبه، أي تخليطه في حِيَله، والشوْب: الخلط، تقول: شُبْت الماء باللبن، أي خلطتهما والرَّوْب: اتخاذ الرائب، والشَّوْب: اللبن الممزوج بالماء هنا، والرَّوْب: الخالص. ويقال: ما عنده شوْب ولا روْب، أي لا مرقَ ولا لبن، وقيل: الشوب، العسل، والرَّوْب اللبن: وفلان يَشُوب ويرُوب، أي يخلط ويصفّي، وأصله يَرِيب، قلبت «يروب» طلباً للازدواج، يضرب مثلاً لمن يخلط في القول والعمل والشّوْب والرَّوْب جميعاً: الخلط، وراب الرجل روباً: اختلط عقله ورأيه. أسلوبه: طريقه. المألوف. الملتزَم. صَوْبه: قصده وجانبه وصوابه. سهومة محيَّاه: تغيّر وجهه، سُهُوكة ريّاه: نتن رائحته من النحر وغيره. وقوله: فإذا هُو إياه: استعمل إيّاه، وهو ضمير ومنصوب في موضع الرفع، وهو غير جائز عند سيبويه، وجوّزه الكسائيّ في مسألة مشهورة جرت بينهما.

[مسألة نحويّة]

قال الفنجديهيّ: سألت شيخنا العلامة إمام النحاة جمال العلماء، أبا محمّد عبد الوهاب بن بَرّي بن عبد الجبار المقدسي عن شرحها، فقال أيده الله: سألتَ شرح الله صَدْرَك، وأعلى في منازل الشرف قَدْرك، عن المسألة التي جرت بين سيبويه والكسائيّ، وهي قوله: «كنت أظنّ أن العقرب أشدُّ لسعةً من الزنبور فإذا هو «إياها»». وسألتَ عن وجهْ النصب في «إياها» عند من أجاز ذلك، فاعلم أن مذهب النحويين البصريين في مثل هذه المسألة أن يكون ما بعد إذا مرفوعاً بالابتداء والخبر، فيقال: فإذا هو هي، على حدّ ما في الكتاب العزيز: **﴿فإذا هي بَيْضاء للناظرين﴾** [الأعراف: ١٠٨]. وقوله: **﴿فإذا هِي ثُعبانٌ مبين﴾** [الشعراء: ٣٢]. فإذا هنا ظرف مكان وليست كالزمانيّة، وسأفرّق بينهما، وتقديرها في نحو: خرجت فإذا زيد قائم: خرجت فبالحضرة زيد قائم، والعامل في إذا، قائم، وإن شئت نصبتَ قائماً على الحال، وجعلت الخبر في إذا، كما تقول: خرجت

فإذا زيدٌ قائم فالقائم بالرفع على الخبر والنصب على الحال، ومذهب الكوفيين في الحال أن تكون نكرةً ومعرفة، ومن هنا منع سيبويه من إيّاها في المسألة،، لأن المضمر لا يقع حالاً لتعريفه وعدم الاشتقاق فيه، والحال تكون نكرة مشتّقة، والكوفيون يجيزون والنصب على معنى: خرجت فإذا زيد قائماً. والأقرب عندي أن يريدوا فإذا هو موجود إياها، فحذف الخبر وهو موجود لدلالة الكلام عليه، ومثل هذا عندهم: لئن ضربته ليضربنّه السَّيِّد الشريف، فينصبون السيَّد بإضمار، فإذا حملته على هذا تخرّج.

وحكي عن أبي زيد أنه سمع هذه المسألة من العرب، بنصب «إياها»، فإذا صح أنه سمعها فهذا وجه، ويجوز في قياس قولهم: أن يكون على إسقاط الكاف، وهم يروون في الخبر: «ذَكاة الجنين ذَكاة أمه»[١]، بنصب «ذكاة» يقدرون كذكاة أمّه، فتقديرها فإذا هوكَهَا، أي فإذا الزنبور كالعقرب، وهم يجيزون إدخال الكاف على الضمير، وسيبويه يمنعه إلاّ في الشعر كقول العجّاج: **[الرجز]**

وأم أوعـــالٍ كـــهـــا أو أقـــربـــا[٢]

وقال رؤبة: **[الرجز]**

فــلا أرى بــعــلاً ولا حــلائــلا كَـهْـو ولا كَـهُـنّ إلا حـاظـلا[٣]

وأجاز بعضُ النحويين أن يكون «إيّاها» كنايةً عن الجملة، التقدير: فإذا هو لسعته كلسعتها، فكنى عن الجملة بقوله: «إياها» وينصب على الحال، لأنها كناية عن الجملة، وهي نكرة فتصير في حُكم النكرة، كما صارت الهاء في: ربَّه رجلاً نكرة في المعنى، لكونها كناية عن نكرة، ولذا دخلت «رُبّ» عليها، وهي لا تدخل إلاّ على نكرة، فهذا ما

---

(١) أخرجه أبو داود في الأضاحي باب ١٧، والترمذي في الصيد باب ٧، وابن ماجه في الذبائح باب ١٥، والدارمي في الأضاحي باب ١٧، وأحمد في المسند ٣/ ٣١، ٣٩، ٤٥، ٥٣.

(٢) قبله:

خـلّـى الـذنـابـات شـمـالاً كَـثَـبَـا

والرجز للعجاج في ملحق ديوانه ٢/ ٢٦٩، وأوضح المسالك ٣/ ١٦، وتاج العروس (وعل)، وجمهرة اللغة ص ٦١، وخزانة الأدب ١٠، ١٩٥، ١٩٦، وشرح أبيات سيبويه ٢/ ٩٥، وشرح شواهد الشافية ص ٣٤٥، والكتاب ٢/ ٣٨٤، ومعجم ما استعجم ص ٢١٢، والمقاصد النحوية ٣/ ٢٥٣، وبلا نسبة في شرح الأشموني ٢/ ٢٨٦، وشرح ابن عقيل ص ٣٥٦، وشرح المفصل ٨/ ١٦، ٤٢، ٤٤.

(٣) الرجز لرؤبة في ديوانه ص ١٢٨، وخزانة الأدب ١٠/ ١٩٥، ١٩٦، والدرر ٥/ ٢٦٨، ٤/ ١٥٢، وشرح أبيات سيبويه ٢/ ١٦٣، وشرح التصريح ٢/ ٤، والمقاصد النحوية ٣/ ٢٥٦، وللعجاج في الكتاب ٢/ ٣٨٤، وليس في ديوانه، وبلا نسبة في أوضح المسالك ٣/ ١٨، وجواهر الأدب ص ١٢٤، ورصف المباني ص ٢٠٤، وشرح الأشموني ٢/ ٢٨٦، وشرح ابن عقيل ص ٣٥٧، وشرح عمدة الحافظ ص ٢٦٩، وهمع الهوامع ٢/ ٣٠.

يقتضيه وجه النصب في «إياها» على ما ذكره الكوفيون، والفرقُ بين إذا الزمانية والمكانية من أوْجُهٍ:

أحدها أنّ الزمانية تقتضي الجملة الفعلية لما فيها من معنى الشّرط، والمكانية تقع بعدها الجملة الابتدائية أو المبتدأ وحده.

والثاني: أنّ الزمانية تقتضي جواباً والمكانية لا تقتضيه.

والثالث: أنّ الزمانية مضافة إلى الجملة التي بعدها، والمكانية ليست مضافة إلى ما بعدها، بدليل خرجت فإذا زيد فزيد مبتدأ وإذا خبره.

والرابع: أنّ الزمانية تكون في صدر الكلام، نحو إذا جاء زيد فأكرمه، والمكانية لا يبُتَدأ بها إلا أن تكون جواباً للشرط، كالفاء في قوله: **﴿وإنْ تُصِبْهمْ سَيِّئة بما قدمت أيديهم إذا هُمْ يقنطون﴾** [الروم: ٣٦].

والخامس: أنّ الزمانية تقتضي الاستقبال والمكانية تقتضي معنى الحضور، لأنها للمفاجأة والمفاجأة للحاضر دون المستقبل.

انقضى الكلام عليهما على جهة الاختصار.

* * *

فكتمتُ سِرَّه كما يُكتَمُ الدّاءُ الدخيل، وسترتُ مكرَه وإن لم يكن يُخيل؛ حتَّى إذا نَزَعَ عن إعوالِهِ، وقد عَرف عُثورِي على حالِه، رمَقنِي بعينِ مِضْحاكٍ، ثمَّ طفِق يُنْشِدُ بِلِسَان مُتَباكٍ. **[الرجز]**

أستغفرُ الله وأعنُو لَهُ	من فَرَطاتٍ أثقَلَتْ ظَهْرِيَهْ
يا قوم كم من عاتقٍ عانسٍ	مَمْدوحةِ الأوصاف في الأندِيَهْ
قتلتها لا أتَّقِي وارثاً	يطلُبُ منِّي قَوَداً أو دِيَهْ
وكلّ ما اسْتُذنِبْتُ في قَتْلِها	أحَلْت بالذَّنب على الأقضِيَهْ
ولم تَزَلْ نَفْسِيَ في غِيِّها	وقَتْلِها الأبْكارَ مُسْتشرِيَهْ

وقوله: الدّاء الدخيل، وهو الذي لا يُتكلَّم به استقباحاً أو لمحلّه، يُخيل: يشتبه ويشكل، وخال يخيل: اشْتَبه. نزع: كفَّ، إعوَالِهِ: بكائه. عثُوري: اطلاعي. رمقني: نظر إليّ. بعين مضحاك، أي كثير الضحك. مُتَبَاكٍ: مستعمل للبكاء بتكلّف، أعنو: أذلّ، فرطات: سقطات وزلاّت. عاتق: شابة قد أدركت ولَمْ يَبْن بها زوجها، بل هي بِكْر، ويريد بها الخمر التي لم يفضّ أحد خاتَمها، وعانس: طالت إقامتها في بيت أبيها، الأندية: المجالس. القَوَد: قتل النفس بالنفس. استُذنِبتُ: نُسبت إلى الذنب: الأقضية: جمع قضاء، أي كلما قيل لي: فعلت هذا الذنب؟ قلت: إنما هو قضاء الله وقَدَره، وأخذ هذا المعنى من قول الحُسَين بن الضحاك: **[الوافر]**

واتـركـي الـعَـذْل عـلـى مَـنْ قَـالَـهُ   وانسبي جَوْري إلى حكم القَضَا

ولهذا البيت حكاية أدبية، قال الحسينُ؛ كانت لي نَوْبة في دار الواثق، فبينا أنا نائم ذات ليلة، إذْ جائني خادم من خدّام الحرَم، فقال لي: إن أمير المؤمنين يدعوك، فقلت له: وما الخبر؟ قال: إنه كان نائماً إلى جَنْب حظيّته فقام وهو يظنُها قائمة، فألمُ بجارية أخرى، وعاد إلى فراشه، فغضبت حظيته وتركتْه حتى نام، ثم قامت، ودخلت حجرتَها فانتبه وهو يظنّها عنده، فطلبها فلم يجدْها، فقال: مَنِ اختلس كريمتي، ويحْكم أين هي! فأخبرناه أنّها قامت غَضْبَى ومضت إلى حجرتها. فدعا بك، قال: فمضيت مع الرّسول وروّيت أبياتاً في طريقي، فلما جئته خبّرني القصة، وقال لي: قل في هذا شيئاً، ففكّرت هُنيْهة كأنّي أقول شعراً، ثم أنشدته الأبيات: [الرمل].

غَـضِـبَـتْ أن زرتُ أخـرى غَـضـبـةً   فـلـهـا الـعُـتْـبـى عـلـيـنـا والـرِّضـا
يـا فـدتْـك الـنـفـس كـانـت هـفـوةً   فـاغـفـرِيـهـا واصـفـحـي عَـمّـا مَـضَـى
واتـركـي الـعَـذْل عـلـى مَـنْ قـالـه   وانسبي جَوْرِي إلى حِكم القضا
فـلـقـد نـبّـهـتْـنِـي مـن رقـدتـي   وعـلـى قـلـبـي كـنـيـران الـغـضـى

فقال: أحسنتِ بحياتي، أعدها عليّ يا حُسين، فأعدتها عليه حتى حفظها، وأمر لي بخمسمائة درهم، فقام ومضى إلى الجارية فأنشدها الأبيات فتراضيا، فكان بعدُ إذا رآني تبسَّم لموقع الأبيات ونجحِها عند الجارية، والإحالة على القضاء بالذَّنْب هو مذهب الجَبِرية فمن فعل منهم ذنباً قال: لا ذنب لي، إنما قُدِّر عليّ ومذهب القدريّة خلافه: قال الشاعر في ردّه: [الطويل]

إذا أذنـبـوا قـالـوا مـقـاديـرُ قُـدِّرَتْ   ومـا الـعـار إلا مـا تـجـرُّ الـمـقـادِرُ

وقوله: غيّها، أي فسادها. مستشرية: لاحية مصمّمة. واستشرَى الشيء: انتشر، واستشرَى في أمره: لجّ فيه.

[وأْد البنات]

والقتل الذي ذكره للبنات هو الوأد الذي كانت تفعله الجاهلية، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وإذا المَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ بأيّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٩].

والمَوْؤُودَةُ: التي تُدْفَن حيّة، فتنقل بالتراب، والوأد: القَتل.

وورد قيس بن عاصم المِنقريّ على رسول الله ﷺ، فقال له: بعض الأنصار عن وأده البنات، فقال قيس: ما ولدتْ لي بنتٌ إلا وأدتها، وما رحمت منهنَّ إلا واحدة ولَدَتْها أمها، وأنا في سَفَرٍ، فدفعتها إلى أخوالها، وقدِمْت فسألت عن الحمل، فأخْبِرت أنها ولدت ميتاً. ومضت سنون، حتى ترعرعت، فزارت أمها ذات يوم، فدخلتُ فرأيتُها قد ضَفَرتْ شعرها، وجعلت في قرونها شيئاً من الخَلُوق، ونظّمت عليها ودعاً، وألبستها

قلادة، وجعلت في عنقها مخنقة، فقلت: مَنْ هذه الصبيّة فقد أعجبني حُسْنَها؟ فبكتْ ثم قالت: هذه ابنتك، كنت خبّرتك أنّي ولدت ميتاً، وهذه التي ولدت، فجعلتها عند خالها، وبلغتْ لهذا المبلغ. فأمسكتُ عنها حتى اشتغلت أمها، ثم أخرجتها يوماً، فحفرتُ حفرة فجعلتها فيها، وهي تقول: يا أبت أتغطّيني بالتراب! حتى واريتُها وانقطع صوتها، فما رحمت واحدة منهنّ ممن وأدتُ غيرها، فدمعتْ عينا رسول الله ﷺ وقال: «إنّ مَنْ لا يَرْحَمْ لا يُرْحَم»[1].

وذُكرَ أن قيساً وأدَ بيده بضع عشرة ابنة، وكان السبب في وأد البنات أن المشمرج اليَشْكَريّ أغار على قوم قيس، فسبا نساء فيهنّ ابنته وابنة أخيه، فدخل قيس إليهم فسألهمْ أن يهبوهما له، فوجد المشمرج قد اصطفاهما لنفسه، فسأله إياهما، فقال: قد جعلت أمرهما إليهما، فإن اختارتَاك فخذهما، فاختارتا المُشَمْرِج، فانصرف فوأد كلّ ابنة له خوفاً من الفضيحة، فاقتدت به العرب في ذلك.

قال الهيثم: إن الوأد كان مستعملاً في قبائل العرب قاطبة، كان يستعمله واحد ويتركه عشرة، فجاء الإسلام، وقد قَلّ إلا في تميم.

وقيل: كان الوأد في تميم وقيس وبكر وهوازن وأسد، لقول رسول الله ﷺ: «اللهم اشدد وطأتك على مُضَر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف»[2]، فأجدبوا سبع سنين حتى أكلوا الوبر بالدم، ولهذا جاء تحريم الدم، وهذا خبر بيِّن أنّ الوأد كان للحاجة لا للأنَفة، وبه نزل القرآن، قال الله تعالى: **﴿وَلاَ تَقْتُلوا أولادَكُمْ خَشْيَةَ إملاق﴾** [الإسراء: ٣١]، وقال: **﴿ولا يقتُلْنَ أولادهنّ﴾** [الممتحنة: ١٢].

ومن ذَكَرَ أنه كان أنَفةً وأنه كان في تميم، وَمَنْ جاورهم فيحتج بحديث أبي عبيدة، أن تميماً منعت النعمان الإتاوة، فوجّه إليهم أخاه الريان، وجَلْ من معه من بكر بن وائل، فاستاق النَّعم وسبَى الذَّراري. وفي ذلك يقول المشمرج اليشكريّ: **[البسيط]**

لـمّا رأوا رايـة الـنـعـمـان مـقـبـلـةً ... قـالـوا ألا لـيْـتَ أدنـى دارِنـا عـدَنُ

يـا لـيـت أمّ تـمـيـم لـم تـكـن عـرَفَـتْ ... مُـرّاً وكـانـت كَـمَـن أودى بـه الزَّمـنُ

وقال النعمان في جوابه: **[البسيط]**

لله بـكـرٌ غـداةَ الـرَّوْع لـو بِـهُـمُ ... يُرْمَى ذُرا حـضـن زالـت بـهـم حضَنُ

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب باب ١٨، ٢٧، ومسلم في الفضائل حديث ٦٥، وأبو داود في الأدب باب ١٤٥، والترمذي في البر باب ١٢، وأحمد في المسند ٢/ ٢٢٨، ٢٤١، ٢٦٩، ٥١٤.

(٢) أخرجه البخاري في الأذان باب ١٢٨، والاستقاء باب ٢، والجهاد باب ٩٨، والأنبياء باب ١٩ وتفسير سورة ٣ باب ٩، وسورة ٤ باب ٢١، والأدب باب ١١٠، والإكراه في المقدمة، ومسلم في المساجد حديث ٢٩٤، ٢٩٥، وأبو داود في الصلاة باب ٢١٦، والوتر باب ١٠، والنسائي في التطبيق باب ٢٧، وابن ماجه في الإقامة باب ١٤٥، وأحمد في المسند ٢/ ٢٣٩، ٢٥٥، ٢٧١، ٤١٨، ٤٧٠، ٥٠٢، ٥٢١.

إذا لا أرى أحداً في الناس يُشبههمْ ... إلا فوارس خامت عنهمُ اليمنُ

فوفدت إليه تميم، فأناب إليهم، وأحب البُقيا، وقال: [البسيط]

ما كان ضرّ تميماً لو تغمّدها ... من فضلنا ما عليه قَيْسُ عَيْلانِ

فسألوه النساء، فقال: كلّ امرأة اختارت أباها رُدّت إليه، وإن اختارت صاحبها تُركت عنده فكلّهن اخترنَ آباءهنّ إلاّ ابنة قيس بن عاصم، اختارت صاحبها عمرو بن المشرج، فنذَر قيس: ألاّ تولد له ابنة إلا قتلها. فهذا شيء يَعْتَلّ به من وأد البنات، ويقول،: فعلناه أنفة، وقد كذَّب بما أنزل الله تعالى في القرآن المجيد. وأين فعلُ قيس في الوأد وقساوة قلبه من فعل صعصعة بن ناجية بن عقال جدّ الفرزدق! فإنه أتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إني كنت أعمل عملا في الجاهلية لنفسي، أينفعني ذلك اليوم؟ قال: وما عملك؟ قال. أضللتُ ناقتين عُشَرَاوَيْن، فركبت حملاً ومضيت في بُغائهما: فرُفِع لي بيت فقصدته، فإذا شيخ جالس بفناء الدار، فسألته عنهما، فقال: هما عندي، وقد أحيا الله تعالى بهما قوماً من أهلك مُضَر، فجلستُ عنده ليَخرجا إليّ، فإذا عجوز قد خرجت من كِسْر البيت، فقال لها: ما وَضَعَتْ؟ فإن كان ذَكَراً شاركناه في أموالنا، وإن كان أنثى وأدناها! فقالت: وضعت أنثى، فقلت: أتبيعنيها؟ فقال: وهل تبيع العرب أولادها! قال: فقلت: إنما اشتري حياتَها لا رِقّها، فقال: بكم؟ فقلت: احتكم، قال: الناقتين والجمل، قلت: ذلك لك، على أن يبلغني وإياها الجمل، ففعل فآمنتُ بك يا رسول الله، وقد صارتْ لي سنّة في العرب، أشتري كلّ موؤودة بناقتين وجمل، فعندي إلى هذه الغاية ثمانون ومائة مؤوودة، قد أنقذتها، فقال رسول الله ﷺ: «لا ينفعك ذلك، لأنك، لم تبغِ وجه الله، وإن تعمل في إسلامك عملاً صالحاً تُثَبْ عليه».

وقال الفرزدق يفتخر بفعل جدّه على جرير: [المتقارب]

ألم تر أنا بنو دارمٍ ... زُرارة منّا أبو مَعْبَدِ

ومنّا الذي منع الوائداتِ ... وأحيا الوئيد فلم تُوأدِ[1]

أيطلب مجدَ بني دارمٍ ... عطيةُ كالجُعَل الأسوَدِ

قَرَنْبي يحكّ قفا مُقْرِفٍ ... لئيمٌ مآثره قُعْددِ

ومجد بني دارمٍ دونه ... مكان السِّماكين والفرْقِد

وعطية هو أبو جرير، ويأتي في الأربعين.

وجاء في الحديث الترغيب في إكرام البنات، قال رسول الله ﷺ: «مَنْ ابْتُلي بشيء من هذه البنات، فأحسنَ إليهنّ كن له سِتْراً من النار»[2]. وفي طريق آخر «مَنْ كان له ثلاث بنات،

---

(١) الأبيات في ديوان الفرزدق ١/ ١٧٣، والبيت الأول في الكتاب ٢/ ٢٣٤.

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة باب ١٠، ومسلم في البر حديث ١٤٧، والترمذي في البر باب ١٣.

وثلاث أخوات أو بنتان، أو اختان، فأحسنَ صحبتهنّ واتّقى الله فيهنّ، فله الجنّة»[1].

ولبعضهم تهنئة بمولودة: اتصل بي خبر المولودة، كَرّم الله غُرَّتَها، وأنبتها نباتاً حسناً؛ وقد علمتُ أنهنّ أقربُ إلى القلوب، وإن الله عز وجل قد بدأ بهن في الترتيب، فقال سبحانه: **﴿يَهبُ لِمَنْ يَشَاءُ إناثاً ويَهِبُ لِمَنْ يشاء الذُّكور﴾** [الشورى: ٤٩]، وما سّماه الله تعالى هبةً فهو بالشّكر أوْلَى، وبحسنِ التقبّل أحرى.

وقال بعض الشعراء: **[المتقارب]**

أُحِبّ البنات وحُبّ البنا ... تِ فَرْضٌ على كلّ نَفْسٍ كريمَهْ
فإنّ شعيباً من أجل ابنتَيْـ ... ـه أخْدَمه الله موسَى كليمَهْ

وفي الحديث: «دَفْن البنات من المَكْرَمات».

عزّى رجلٌ يحيى بن خالد في حُرْمة له، فقال: أيها الوزير دَفْنُ الحُرَم من النِّعم، ثم قال: **[الوافر]**

تَمَزَّ إذا رُزِئْتَ فَخَيْرُ درع ... يسربَل للمصائِب دِرْعُ صَبْرِ
فلم أر نعمةً شملت كريماً ... كعورَة مسلم سُتِرَتْ بِقَبْرِ

وقال عمر بن أبي علقمة المريّ: **[الرجز]**

إنّي وإن سِيق إلى المَهْرُ ... ألفٌ وعَبْدان وذوْدٌ عَشْرُ
أحَبُّ أصهاري إليّ القبرُ

وقال إسحاق بن خلف: **[البسيط]**

لولا أميمةُ لم أجزعْ من العَدَم ... ولم أجُبْ في الليالي حِنْدسَ الظُّلَمِ
تهوَى حياتي وأهوى موتَها شفقاً ... والموتُ أكرم نَزّالٍ على الحُرَمِ

وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر: **[الطويل]**

لكلِّ أبي بنتٍ يراعِي شُؤونَها ... ثلاثة أصهارٍ إذا ذُكِرَ الصِّهْرُ
فبيتٌ يغطّيها وبعلٌ يصونُها ... وقَبْرٌ يُواريها وخيرُهمُ القَبْرُ

وقال آخر: **[الكامل]**

لا تيأسنْ منها فقد زوّجتها ... كفؤا وضَمِنْت الصَّدَاق مَلِيكَا

* * *

[الرجز]

---

(١) أخرجه الترمذي في البر باب ١٣، وأبو داود في الأدب باب ١٢١، وابن ماجه في الأدب باب ٣، وأحمد في المسند ٣/ ٤٢، ٤/ ١٥٤.

حتّى نَهانِي الشَّيْبُ لَمّا بَدَا في مَفْرِقِي عن تِلْكُمُ المَعْصِيهْ
فلم أُرقْ مذْ شاب فَوْدِي دماً من عاتِقٍ يَوْماً ولا مُصْبِيَهْ
وها أنذا الآنَ على ما يُرَى منّي ومِنْ حِرْفَتي المُكْدِيهْ
أرُبُّ بِكْراً طَالَ تَعْنِيسُها وحَجْبُها حتّى عن الأهويهْ
وهي على التَّعْنِيس مَخْطُوبةٌ كخِطبَةِ الغانيةِ المُغْنِيهْ
ولَيْسَ يَكْفِينِي لتجهيزها على الرِّضا بالدُّونِ إلا مِيَهْ
واليدُ لا تُوكَى على دِرْهَمٍ والأرْضُ قفرٌ والسَّماء مُصْحِيَهْ
فهلْ معِينٌ لي على نَقْلِهَا مصحوبةً بالقَيْنَةِ المُلْهِيَهْ
فيغْسِلَ، الهمَّ بصابونِهِ والقَلْبَ من أفكارِه المضنِيَهْ
ويقتني منّي الثناء الّذي تَضُوعُ رَيّاهُ مع الأدعيَهْ

* * *

قوله: فَوْدِي، أي ناحية رأسي. مُصبية: لها صَبْوة. أو يصبو إليها مَنْ رآها، وجعل الخمر مُصبية، لأنها تغْلب شرَّابها فتصيرَّهم سكارى، عقولهم عقول الصبيان، فهي تلعبُ بهم كما تلعب الأمّ بصبيانها، حِرَ فَتِي: صنعتي المكدية: الصعبة، وأكدى الحافرُ: بلغ كدية، فرفع عن الحفر آيساً من الماء ثم استعُير لغير ذلك أرُبّ؛ أصلِح، تَعْنيسها: إقامتها بغير زوج.

قال عمر رضي الله تعالى عنه، عن رسول الله ﷺ: «مكتوب في التوراة: مَنْ بلغتِ ابنته اثنتي عشرة سنة، فلم يزوجها فأصابت إثماً فإثم ذلك عليه»[1].

وقال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ بلغ له ولد النكاح وعنده ما ينكحه به فلم ينكحه، فأصاب إثماً فالإثم بينهما»[2]، ويعني بها خمراً قديمة حجبها عن الأهوية، لئلا يُفسَّدها الهواء.

قوله: مخطوبة: مطلوبة. الغانية: البارعة الجمال التي غَنِيتْ بحسنها عن الزينة، قال الرُّستمي: أصلها في ذات الزوج التّي استغنت بزوجها، ثم قيل في غير ذات الزوج. قال عمارة: هي الشابّة التي تعجب الرجال ويعجبونها، المُغَنية: التي نشأت في الغنى، وأغنى بمعنى استغنى، والمغنية أيضاً: التي تغني زوجها عن غيرها لكمال خصالها. توكأ: تُشدّ وتربط، والوكاء: الخيط يشدّ به فم الوعاء.

ورواد عبدٌ في الجاهلية ابنةَ سيِّده عن نفسها، فأمكنته حتى بلغ أربه منها، ثم

---

(١) أخرجه الدارمي في المقدمة باب ٢٠.

(٢) أخرجه بنحوه البخاري في النكاح باب ٩.

عمِدتّ إليه فجبّته، فقال لها أبوها في ذلك، فقالت: من ورد غير مائه، صدَر بمثل حالهِ، إنّ العبد لمن نوكه قد ابتذل إناء لم يوكِه، فقال أبوها: يا بنيه لا شللاً ولا عمى.

وميّه: مخدوفة اللام، ولا يدري أواو لامها أم ياء، قوله صاحب العين وقال ابن الأعرابيّ: أمأيت القومَ، وأمأيتُهم: صاروا بي مائة، ففي مأيت دليل قاطع على أن اللام ياء.

وقال الفراء رحمه الله تعالى وكُراع: أصلها مِئية، وأنشد: **[البسيط]**

فقلتُ والرّكب قد تُخْطِيه منيّتُه أدنى عطيات آبائي مئياتُ[1]

قوله: قَفَر: غير عامرة. مُصحية: زال سحابها، ضربه مثلاً للخلوّ من المال، فلا في أرضه خصب فتعمر من أجله، ولا في سمائه سحاب فيرجى خيرها، وقد تقدّم لغيمي مطر.

القيْنة الملهية: الجارية المغنيّة. وهي في كلام العرب الأمَة، مغنِّية كانت أو غيرَ مغنّية قال زهير: **[البسيط]**

ردّ القيانِ جِمالَ القوم فاحتملوا[2]

واشتقاقها من قُنتُ الشيء أقينة قَيْناً؛ إذا لممته، قال الشاعر: **[الطويل]**

ولي كَبِدٌ مجروحةٌ قد بدا بها صدُوع الهوى لو أن قيناً يَقِينُها[3]

ولهذا سمِّيَ الصّواغ والحداد قيْناً، والماشطة قيْنة.

قوله: فيغسل الهمّ بصابونه: يعني فينفي هَمِّي بالخمر لأنها تنفي الهمَّ والحزن والغم كما يغسل الصابون وسخ الثوب، المضنية: الممرّضة. يقتني: يكتسب، تضوّعَ

---

(١) يروى البيت:

فقلت والمرءُ تخطيه مَنيّتُه أدنى عطيته إيّاي ميآتُ

وهو لتميم بن مقبل في المقاصد النحوية ٢/ ٣٧٦، وليس في ديوانه، وله أو لأبي شبل الأعرابي في الدرر ٢/ ٢٣٧، وبلا نسبة في تذكرة النحاة ص ٥٠٨، والدرر ٦/ ٣٢٥، ولسان العرب (ضربج)، وهمع الهوامع ٢/ ٢٣٩.

(٢) عجزه:

إلى الظهيرةِ أمرٌ بينهم لَبِكُ

والبيت لزهير بن أبي سلمى في ديوانه ص ١٦٤، ولسان العرب (ردد)، (لأك)، (لبك)، (قين)، وتهذيب اللغة ٩/ ٣٢٠، ٣٢١، ١٠/ ٢٦٢، ١٤/ ٦٥، وجمهرة اللغة ص ٣٧٧، وكتاب العين ٥/ ٣٧٧، وكتاب الجيم ٣/ ٢١٣، وتاج العروس (لبك)، (قين)، وبلا نسبة في المخصص ١٢/ ٣٢٥.

(٣) البيت لرجل من الحجاز في تاج العروس (قين)، ولسان العرب (قين)، وبلا نسبة في مجمل اللغة ٤/ ١٣٥، ومقاييس اللغة ٥/ ٤٥، وديوان الأدب ٣/ ٤١١.

ريّاه: تتحرك رائحته، يريد أنه يكتسب منه السامع الدعاء، فيثني عليه ثناء حسنا في الدنيا ويدعو له بالآخرة، ويقال: ضاعَ المسك يضُوع، أي انتشرت رائحته، وقول الشاعر: **[الطويل]**

وما هو إلا المِسْكَ عند ذوِي الحجى ... يَضُوع وعند الجاهلينَ يضيُع

قال الراوي: فلمْ يَبْقَ في الجماعة إلا مَنْ نَديتْ له كفُّهُ، وانباعَ إليه عُرْفُه، فلّما نجحتْ بغيتُه، وكَمُلَت مِئَتُه، أخذ يُثنِي عليهمْ بصالح، ويُشمِّر عن ساق سارح؛ فتبعته لأسْتعرفَ رَبِيبَةَ خِدْرِه، ومَنْ قتل في حِدْثان أمره، فكأنَّ وَشْكَ قيامِي، مثَّلَ له مَرَامي، فازدلَف منِّي، وقال: أفقَه عنِّي: **[الخفيف]**

قَتْل مِثلي يا صاحِ مَزْج المُدام ... لَيْسَ قَتْلِي بلَهْذمٍ أو حُسامِ
والّتي عُنِّسَتْ هي البكرُ بنتُ الكَرْ ... مِ لا البكرُ بنت الكرامِ
ولتجهيزها إلى الكأس والطَّا ... سِ قيامي الَّذي تَرَى ومُقَامي
فتَفَّهمْ ما قلُته وتَحكَّمْ ... في التْغاضي إن شئت أو في الملاَمِ

ثم قال: أنا عِرْبيدٌ، وأنت رِعْديد، وبينَنَا بَوْنٌ بَعِيد، ثمَّ ودَّعني وانطلقَ، وزوَّدني نظرةً من ذي عَلَق.

* * *

ندِيت: كرمت. انباع: سال، عُرْفه: معروفة. نجحت: انقضت وتمت، بغيته: طَلبتِه، طَفِق: أخذ وجعل، سارح: ذاهب، يريد أنه شمرّ لليسر، وأضاف ساقاً لسارح، وهو يريد: عن ساق رجل سارح، أي ذاهب. ربيبة خدره، أي التّي رباها في بيته، ورَبيبة الرجل بنت امرأته من غيره، وقيل لها ذلك لأنه يربيّها فهي «فعيلة» بمعنى مفعولة، فأصلها مربوبة، ويقال: ربّ فلان فلاناً وربّاه وربَّبَه وتربَّبه بمعنى واحد، حدثان: أول وَشْك: سرعة، مرامي: مرادي ومطلبي. ازدلف: قَرُب، ويقال: قلت الخمر، إذا مزجتَها وقد فسره بقوله: مزج المدام.

[مما قيل في الخمرة]

قال الأخطل: **[الطويل]**

فقلت اقتلُوها عنكمُ بِمَزَاجها ... وأحْبِبْ بها مقتولةً حين تُقْتَلُ[1]

---

(١) البيت في ديوان الأخطل ص ٢٦٣، وإصلاح المنطق ص ٣٥، والدرر ٥/ ٢٢٩، ولسان العرب (قتل)، (كفى)، وبلا نسبة في أسرار العربية ص ١٠٨، وشرح ابن عقيل ص ٤٦١، وهمع الهوامع ٢/ ٨٩.

وكان الأخطل خليعاً، فأثنى هنا على الممزوجة، وقال في التي لم تمزج: [الوافر]

وكأس مثل عين الديك صرفٍ ... تُنسي الشاربين لها العُقُولا
إذا شرب الفتى منها ثلاثاً ... بغير الماء حاوَل أن يَطُولاَ
مشَى قرشيَّةً لا شكّ فيها ... وأرخى من مآزره الفُضُولا

* * *

وأصبح عبد الملك يوماً في غداةٍ باردةٍ، فأنشد هذه الأبيات، ثم قال: كأن الأخطل الآن في حانوت خمار محلّل الإزار، مستقبلَ الشمس، ثم بَعَثَ من يطلبه بدمشق، فوجده كما وصف.

وقال له يوماً: ألا تُسْلِم فنفرض لك في الفيء ونعطيك عشرة آلاف درهم؟ قال: فكيف بالخمر؟ قال له عبد الملك: وما تصنع بها، وإنّ أوّلها مُرّ وآخرها سُكْر! قال الأخطل: وفيما بين هاتين منزلة ما يسرّني لك بها.

وقال حسان بن ثابت رضي الله عنه وقد أُعطِي كأس خمر ممزوجة: [الكامل]

إنّ التي ناولتِني فرددتُها ... قُتِلَتْ - قُتِلتَ - فهاتها لم تُقتل[1]
كِلْتاهما حلَب العصير فعاطِني ... بزُجاجة أرخاهما لِلْمَفْصَلِ

فدعا بالقتل على الذي أعطاها له ممزوجة.

وذكر الحريري في الدّرة البيتين، وقال في قوله: «أرخاهما» القياس: أشدّهما إرخاء للمفصل، لأن أصل هذا الفعل أرخى، فبناؤه ليس مقيساً كما قالوا: ما أحوجه إلى كذا فبنوا من حوج، إن كان قياسه: ما أشدّ حاجته.

ولهذين البيتين حكاية يحسن أن نعقبهما بروايتها، ونضوع نشرهما بنشر مُلَحِها، وهي ما رواه أبو بكر محمد بن القاسم الأنباريّ عن أبيه، قال: حدثنا الحسن بن عبد الرحمن الربعيّ قال: حدثنا أحمد بن عبد الملك بن السماك السعديّ قال: حَدّثنا أحمد بن ظبيان الحائز، قال: اجتمع قوم على شراب لهم، فغنّاهم مغنيهم بشعر حسان: «إن التي» البيتين، فقال بعضهم: امرأتي طالق إن لم أسأل الليلة عبيد الله بن الحسن القاضي عن عِلّة هذا الشعر، لم قال: «إن التي»، فوحّد، ثم قال: كلتاهما، فثنّى؟ فأشفقوا على صاحبهم وتركوا ما كانوا عليه، ومضوا يتخطّوْن القبائل، حتى انتهوا إلى بني شقرة وعبيد الله بن الحسن يصلّي، فلما فرغ من صلاته قالوا: قد جئناك في أمرٍ قد دعتْنا إليه ضرورة، وشرحوا له خَبَرَهُم، وسألوه الجواب، فقال: [الكامل]

* إنّ الّتي ناولْتِنِي فرددتها *

---

(١) البيتان في ديوان حسان بن ثابت ص ١٢٤، ولسان العرب (قتل)، وأساس البلاغة (قتل)، وتاج العروس (قتل)، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٤٠٧، ومقاييس اللغة ٥/ ٧٥، والمخصص ١١/ ٨٨.

عَنَى بها الممزوجة بالماء، ثم قال: من بعد: كلتاهما حلَب العصير، يريد الخمر المحتلبة من العنب، والماء المتحلب من السحاب، المكنّى عنها بالمعصرات في قوله تعالى: ﴿**وأنزلنا من المُعْصرات ماءً ثَجَّاجا**﴾ [النبأ: ١٤]، قال الشيخ الإمام الأجلّ الأوحد العالم أبو محمد أدام الله سعادته: فهذا ما فسره به عبيد الله بن الحسن.

وقد بقي في الشعر ما يحتاج إلى كشف سرّه، وتبيان نُكتَه، أما قوله: [**الكامل**]

إن التي ناولتني فرددتها ... قتلت قتلت...

فإنه خاطب به السّاقي الذي كان ناوله كأساً ممزوجة، لأنه يقال: قتلتُ الخمر إذا مزجتَها، فكأنه أراد أن يعلمه أنه قد فطن لما قد فعله ثم ما اقتنع منه بذلك حتى دعا عليه بالقتل في مقابلة المزج، وقد أحسن كلّ الإحسان في تجنيس اللفظ ثم إنه عقّب الدعاء عليه بأن استعطى منه ما لم تقتل ـ يعني الصِّرف ـ التي لم تمزج.

وقوله: أرخاهما للمفصل، يعني اللِّسان، وسُمِّي مِفْصَلاً بكسر الميم، لأنه به يفصل بين الحق والباطل، وليس فيما اعتمده عبيد الله بن الحسن من الإسماح وخفض الجناح، ما يقذف في نزاهته أو يغض من نُبْلِه وبراعته.

ويضارع هذه الحكاية في وطأة القضاة المتقشفين للمستفتين وتلاينُهم في مواطن الّلين، ما يحكى أن حامد بن العباس، سأل عليّ بن عيسى في ديوان الوزارة عن داء الخُمار، وعن دوائه، فأعرض عن كلامه، وقال: ما أنا وهذا المسألة! فخجل حامد منه، ثم التفت إلى قاضي القضاة أبي عَمرو، فسأله عن ذلك فتنحنَحَ القاضي لإصلاح صوته، ثم قال: قال الله تعالى: ﴿**وَما آتاكم الرَّسُولُ فخُذُوه وَما نهاكم عنه فانتهوا**﴾ [المائدة: ٤١]، وقال النبي ﷺ: «استعينوا على الصناعات بأهلها»[١]، والأعشى هو المشهور في الجاهلية بهذه الصناعة، قال: [**المتقارب**]

وكأسٍ شَربْتُ على لذَّةٍ ... وأخرى تَدوَيْتُ مِنْهَا بِهَا[٢]

لكي يعلَم النّاسُ أنّي امرؤ ... أتيت المروءة من بابِها

ثم تلاه أبو نواس في الإسلام، فقال: [**البسيط**]

دعْ عنك لومي فإنّ اللوم إغراء ... وداوني بالّتي كانَتْ هي الدَّاءُ[٣]

---

(١) أخرجه بمعناه البخاري في الصلاة باب ٦٤.

(٢) البيتان في ديوان الأعشى ص ١٧٣، ويروى البيت الأول:

وكأس شربت على لذةٍ ... دهاق ترنَّح من ذاقها

وهو بلا نسبة في أساس البلاغة (رنح)، وتاج العروس (رنح).

(٣) البيت في ديوان أبي نواس ١/ ٢١، وخزانة الأدب ١١/ ٤٣٤، والدرر اللوامع ٤/ ١٤٢، ومغني اللبيب ص ١٥٠، وهمع الهوامع ٢/ ٢٩، وبلا نسبة في لسان العرب (شفع).

فأسفرَ حينئذ وجه حامد، وقال لعليّ بن عيسى: ما ضرّك يا بارد أن تجيبَ ببعض ما أجابَ به قاضي القضاة، وقد استظهر في جواب المسألة بقوله سبحانه أولاً، ثم بقول الرسول عليه الصلاة والسلام ثانياً، وبيّن الفتيا وأدّى المعنى، وتفصى من العهدة، فكان خجل عليّ بن عيسى من حامد بهذا الكلام أكثر من خجل حامد منه، لِمَا ابتدأه بالمسألة وتبع حسان مسلمُ بن الوليد، فقال وأحسن: **[الطويل]**

إذا شئتما أن تسقياني مُدامةً ... فلا تقتلاها كلّ مَيتٍ محرّمُ[1]

خَلطنا دماً من كَرمة بدمائِنا ... فأظهرَ في الألوان منّا الدمَ الدمُ

وقال أبو نواس في الصّرف: **[الخفيف]**

وكُمَيْتٍ أرَقَّها وهَجُ الشمـ ... ـس وصيفٌ يفنَى بها وشتاءُ

لم يَشِنْها الطاهي بطبخ ولا غيّر ... ها عن طبيعةِ الكَرْم ماءُ

وقال فيه أيضاً **[الطويل]**

توارثْ عن الأبصار من عهد آدمٍ ... حِذاراً لكون الماء يوماً قرينُها

فصُنْها عن الماء القرح وأسقِني ... فإنك إن لم تسقِني متّ دُونها

وعلى أنه القائل: **[الطويل]**

ألا دارِها بالماء حتى تلينها ... فلن تكرمَ الصّهباء حتى تهينَهَا

وقال أبو نواس لإخوانه في مرض موته: إياكم والخمر صرفاً فإنها أحرقت كبدي، قال ابن رشيق: **[الكامل]**

قِدْرُ المُدامة فوق قِدر الماء ... فارغَبْ بكأسك عن سِوَى الأكفاءِ

ما لي ومَزْجَ الرّاح إلاّ في فمي ... بالرّيق من فم غادةٍ حسناء

ذاك المِزاج وإن تَعَدَّاني الّذي ... في لُمزنْ من ذي رقّةٍ وصفاء

أشهى وأبلغ في الفؤاد مَسَرّةً ... من غيره وأدبّ في الأعضاءِ

لِي الصِّرْفُ إن مَزجَ النّديم ولم أكُنْ ... مستأثراً فيها عن النُّدماءِ

وقال أيضاً: **[السريع]**

قلت لمن ناولَنِي مُزةٍ ... ما بِيَ حُبّ الغِيدِ بل حُبُّها

لا تسقي راحَكَ ممزوجة ... واشرب فما يمكنني شربُها

ما راحتي في الرّاح إن غُيِّرتْ ... دعها كما جاء بها رَبُّها

---

(١) البيتان في ديوان حسان بن ثابت ص ١٧٩.

ونصلُ بهذا النَّمط، ما قيل في نبيذ الزبيب، قال أبو الأسود الدؤليّ: [الطويل]

دع الخمر يشربها الغواةُ فإنّني رأيتُ أخاها مغنياً بمكانِها[1]

فإن لا يكنْها أو تكنْه فإنّه أخوها غَذَتْهُ أُمُّهُ بلبانِها

يقول: إن لا يكن الزبيب الخمر أو الخمر الزبيب، فإنهما أخوان غذيا بلبن واحد وهي الحبة التي هي أصل العنب والزبيب؛ فأحدهما ينوب مناب الآخر، وأنشد الحامضي: [الطويل]

تركتُ الحميَّا لستُ أختار شربَها وما حاجتي في أن أسرّ الأعاديا

ولكنّ أخرى من نبيذٍ معتَّق يمَنّيك إن أكثرت منه الأمانيا

أخو الخمرِ من عنقودها غير أنهمْ إذا قطعوها جَفَّفُوه لياليا

وقال المأمون: نقلت هذا المعنى بأبيات ملوكية لا تحضر السوقة بمثلها: [الوافر]

صلّى النَّدمان يوم المهرجانِ بكأسٍ من معتّقةِ الدِّنانِ

بكأس خمر وإنِّي عتيقٌ فإنّ العبد عبْد خمروانِي

وجنبنِّي الزّبيبين طرّا فشأن ذوِي الزّبيب خلاف شأنِي

فأشربُها وأزعمها حراماً وأرجو عفوا ربٍّ ذي استنانِ

ويشربها ويزعُمها حلالاً وتلك على الشّقِيّ خَسارتان

سأل رجل شريحاً القاضي: هل النبيذ حلال أم حرام؟ فقال: حلال، قال: قليله خيرٌ أم كثيره؟ قال: قليلة، قال الرجل: ما رأيت حلالاً وقليله خير من كثيره إلا هذا.

وقال قُتيبة بن مسلم لقاضي مَرْو: بلغني أنك شربتَ النبيذ، قال: نعم أصلحك الله! أشربُ منه ما يسلِّي العقل ويُطيب النفس، ويُغني عن الماء، ويهضم الطعام، قال: فما أبقيت؟ قال: أبقيت أخبَثَه وأرداه، الاتّكاء على الشمال، ومنادمة الرجال، والاختلاف إلى المبالِ.

وترك رجل النبيذ فقيل له: لِمَ تركته وهو رسول السرور إلى القلب؟ قال: ولكنه بئس الرسولُ لم يبْعثُ إلى الجوف فيذهب إلى الرأس.

* * *

(١) البيتان في ديوان أبي الأسود الدؤلي ص ١٦٢، ٣٠٦، والبيت الأول في لسان العرب (كون)، وتاج العروس (كون)، وبلا نسبة في المخصص ١٣/ ٢١٩، والبيت الثاني في أدب الكاتب ص ٤٠٧، وإصلاح المنطق ص ٢٩٧، وتخليص الشواهد ص٩٢، وخزانة الأدب ٥/ ٣٢٧، ٣٣١، والرد على النحاة ص ١٠٠، وشرح المفصل ٣/ ١٠٧، والكتاب ١/ ٤٦، ولسان العرب (كون)، (لبن)، والمقاصد النحوية ١/ ٣١٠، وبلا نسبة في الإنصاف ٢/ ٨٢٣، وشرح الأشموني ١/ ٥٣، والمقتضب ٣/ ٩٨، والمقرب ١/ ٩٦.

قوله لَهذم: هو سِنان الرُّمح، بنت الكرم: الخمر، وتجهيزها: حملها، والطاس: إناء الخمر كالإبريق يصبّ منه الشراب في الكأس، وجمعه طاسات، وقال الناشي:

وكأنما الطاسات ممّا حَوْلَها ... من نورها يَسْبَحْنَ في ضَحْضَاحِ
لو بُثَّ في غسق الظلام ضياؤها ... طلع المساء بغُرَّة الإصباح

[مما قيل في الغناء]

وقدّم في المقامة أنه لا يجهزها إلا مصحوبة بالقينة، أي لا يشربها إلا بالغنَاء، وقد ذمّوا الغناء ومدحوه، فأما ذمه، فقال الكنديّ: الغناء بِرْسام حادّ، لأن المرء يسمع فيطرب، فيسمح فيفتقر، فيغتمّ فيمرض فيموت.

وقال يزيد بن الوليد: إياكم والغناء فإنه يُسقط المروءة، وينقص الحياء، ويبدي العَورة، ويزيد في الشهوة، وإنه لينوب عن الخمر، ويصنع بالعقل ما يصنع به السّكر وأن كان ولا بد فجنّبوه النساء، فإنّ الغناء داعية الزنا.

وأما مدحه فقال ربيعة بن عبد الرحمن: السماع مطربة، وهو من نتيجة العقل، فمن كرِه السماع، دلّ بذلك على قلة عقله.

وقال بعض الفلاسفة، وجعلت اللّذات خمساً في خمس، فجعل اللمس لليدين والشم للمنخرين، والسمع للأذنين، والذوق للسان، واللون للعينين، وعلى كل جارحة تعب من اللذات إلا النّغمة، فإنه لا تعب على الأذنين فيها، ولذلك صار النّاس كلُّهم عربيّهم وعجميّهم، صغيرهم وكبيرهم مشتركين في الإصاخة إلى النّغمة الحسنة، والصوت المستمتع، متباينين في غير ذلك، وقد يوجد أكثرها في أكثر الحيوان كالخيل يصفر لها عند الشرب، فتشرب والإبل يحدَى لها فتنقاد، قال الشاعر: **[الوافر]**

فليس الشّراب إلاّ بالملاهِي ... وبالحرَكَاتِ في بَمٍ وزِيرِ
فلا تشربْ بلا طَربٍ فإنّي ... رأيتُ الخيلَ تشربُ بالصَّفِيرِ

وقال آخر: **[الخفيف]**

فانظر إلى الإبلِ الّتي ... هي - وَيْكَ - أغلظُ منك طَبْعا
تُصغِي إلى صوت الحدا ... ةِ فتقطع الفَلَواتِ قطعا

قوله: التغاضي أي التغافل، عِرْبيد: سيىء الأخلاق عند سُكْرِه، وهو الّذي يؤذِي بيده ولسانه أصحابه، رعدِيد: جَبَان فزاع. بَون: فضل ومزّية من ذي عَلَقٍ، أي من صاحب محبّة؛ هو مثل يضرب لمن ينظر بودّ ومحبة ابن طريف: العلق: الحبّ، وعلِق فلانٌ فلانة، أي أحبَّها. والله الموفق.

المقامة السّادسة والثلاثون

الملَطيَّة

أخبر الحارث بن همّام قال: أَنَخْتُ بِمَلطِيَّةَ مطية البَيْن وَحَقِيبَتي مَلأَى من الْعَين؛ فجعلتُ هِجِّيرايَ، مُذْ ألقيتُ بِها عَصاي؛ أن أتوَرّدَ مواردَ الْمَرَحِ، وأتصَيّد شَواردَ المُلْحَ؛ فلَمْ يَفتْني بِهَا مَنظرٌ ولا مَسْمَع؛ ولا خَلاَ مِنِّي مَلْعَبٌ ولا مَرْتَع؛ حَتَّى إذا لم يَبْقَ لِي فيها مأرب، ولاَ في الثَّواءِ بِهَا مَرْغَبٌ، عَمَدْتُ لإنفاقِ الذّهَب في ابتياعِ الأُهَب، فَلمّا أكمَلَتُ الأعداد، وتَهَيَّأ الظَّعْنُ فيِها أو كادَ، وَجَدَتُ بِها تِسعةَ رَهْطٍ قد سبئوا قهوة، وارتبؤوا رَبوة، ودَمَاثَتُهُمْ قَيْدُ الألحاظ. وفُكاهَتُهُمْ حُلْوَةُ الألفاظِ، فنحوتَهُمْ طَلَباً لمُنَادَمتِهِمْ لا لَمُدَامَتِهمْ، وشغِفاً بممازَجَتِهِمْ لا بزُجَاجَتِهمْ.

* * *

أَنَخْتَ المِطيّة: صيّرتها باركة بالأرض.

[ملطية]

مَلَطِيَّة: بلد بالجزيرة ذات أنظار وقُرى، بينها وبين الرّقّة خمسون فرسخاً، والرَّقّة: أمّ قرى الجزيرة، وذكرها المسعودي في شعره فقال: **[الطويل]**

ولـم يـحـلـبـوهـا مـن وراء مَـلَـطْـيَـةِ تــصــدَّع أجــبــالٌ بــهــا وأكــامُ

وقيل: مَلَطْية في ثغره الشأم.

قال اليعقوبيّ: ملطية هي المدينة العظمى، وكانت قديمة فأخربها الرّوم، فبناها المنصور سنة تسع وثلاثين ومائة، وجعل عليها سوراً واحداً، ونقل إليها عدّة قبائل من العرب، قال: وهي في مستو من الأرض يحيط بها جبال الروم، وماؤها من عيون وأودية من الفرات، وخففها المتنبي ضرورةً فقال: **[الطويل]**

وكـرّتْ فـدّرت فـي دمـاء مـلـطـيـة مَـلَـطْـيَـةُ أمٌ لـلـبـنـيـن ثَـكُـولُ(١)

قوله: ملطيّة البين، يريد ناقة السفر، أي أقام بها وترك السفر. الحقيبة: وعاء

---

(١) البيت في ديوان المتنبي ٣/ ١٠٢.

الرحل، والعَيْن: الذهب. هجَيرَاي: عَادتي، وألقى بها عصاه، أي أقام بها وترك السفر. أتورّد: أطلب وأدخل، وتوردت الإبل الماء: دَخلتْه قِطعةً قطعة. والمرح: النشاط. شوارد: نوافر، وأراد أنه أتْبَع نفسه جميعَ اللذات بملطّية وشاهدَها، مرتع: موضعٌ خصيب كثير الطعام، مأرب: حاجة. الثّواء: الإقامة. عمدت: قصدت، ابتياع الأهَب: اشتراء العُدد للسَّفَر. الظّعن: الارتحال. الرَّهْط. الجماعة من ثلاثة إلى عشرة، سبَؤوا قهوةً: اشتروا. ارتبؤوا ربوة: طلعوا كُدْيةً، وقال الحسن: **[الطويل]**

وفتيانِ صِدْقٍ قد صرفتُ مطيَّهمْ ... إلى بَيْت خَمّارٍ نزلْنَا به ظُهْرَا

أتينا يهوديا تجمّل ظاهراً ... ويُضْمِرُ في المكنون من سِرّاه الشَّرّا

فجاء بها زيْتيَّةٍ ذهبيّةً ... فلم نستطعْ دون السُّجود لها صَبْرَا

خَرجْنا على أنّ المقُام ثلاثةٌ ... فطابتْ لنا حتى أقمنا بها شهرا

وقال في شراء الخمر بثيابه: **[الطويل]**

نجوتَ من اللص المغيرِ بسيفهِ ... إذا ما رماه بالتِّجار سَبيلُ

واصَلتُ خمّارا عليّ بخمرة ... فراح بأثوابي ورُحْتُ أميلُ

وقال الأمير تميم بن المعز: **[الطويل]**

شَربْنا على نَوْح المطوّقة الوُرْقِ ... وأرْديةِ الرّوْضِ الملفَّفَةِ البُلْقِ

معَتَّقة أفنى الزمان وجودَها ... فجاءت كفوْت الَّلحْظِ أو رقّةِ العِشْقِ

كأنّ السحاب الغرّ أصبَحْن أكؤساً ... لنا وكأنّ الرَّاحَ فيها سَنَا البرق

فبتنا نحثّ الكأس حثّاً وإننا ... لنشربُها بالحثّ صِرْفا ونَسْتَسْقي

إلى أن رأيت النّجم وهو مغرِّبٌ ... وإقبال رايات الصَّباح من الشَّرقِ

كأنّ سوادَ الليل والفجر طالعٌ ... بقيّة لَطخِ الكُحل في الأعين الزُّرقِ

وأحسن في هذا المعنى ما شاء، إلا أنه جعل شربنا في الرّوض على نوح الحمام، ولو عوّض من لفظ «النوح» لفظ الغناء أو التغريد لكان أتمّ لِلذّته، كما قال ابن الروميّ: **[الطويل]**

وأذكى نسيم الروض ريعانَ ظِلِّهِ ... وغنّى مغنّي الطَّيرِ فَرَجَّعَا

وكانت أهازيج الذّباب هناكُم ... على شدوات الطير صوتاً موقّعا

وقال آخر: **[الطويل]**

وكأسٍ كريق الإلف شَعْشَعها به ... وعيْشيَ مِنْ هذا الشَّرَاب المشَعْشَع

إذا ما شَرِبنا كأسَهَا صبّ فضلَها ... على رَوضِنا للمُسمِع المُتَخلعِ

المسمع: المغنّي، يعني به الذباب الذي ذكره عنترة في قوله: **[الكامل]**

فترى الذباب بها يُغني وحده ... هَزجاً كفعل الشَّارب المترنِّم[١]

وإنما ذكر الحريريّ الربّوة، لأن النّبات فيها أحسن وأسلم من نبات الانخفاض، لأن نبات الانخفاض وَخِم، قال الله تعالى: **﴿كمَثَلِ جنَّةٍ بِرَبوةٍ أصابها وابلٌ فآتَتْ أُكُلَها ضعفين﴾** [البقرة: ٢٦٥]، وقال المتنبي: **[الطويل]**

* نحنُ نَبتُ الرّبَّا وأنت الغمام[٢] *

قوله: دماثتهم قيد الألحاظ، أي سهولة أخلاقهم تقيِّد عيون الناظرين إليهم؛ حتى لا ينظروا إلى غيرهم، قال ابن المعتز: **[السريع]**

مَنْظَرهُ قَيْدُ عُيونِ الوَرَى ... فليس خَلْقٌ يتلَقاهُ

نحوتهم: قصدتهم، شغفاً: حُبّاً.

* * *

فلمَّا انتظْمتُ عاشِرهُمْ، وأضحَيت معاشِرَهم، ألفِيتُهمْ أبناء عَلاتٍ، وقذَائفَ فَلَوَاتٍ؛ إلا أنّ لُحمَة الأدب، قد ألَّفَتْ شَمْلَهُمْ أُلفَةَ النّسب؛ وسَاوَتْ بينهم في الرُّتبِ؛ حتَّى لاحُوا مِثْلَ كواكبِ الجوْزاء، وبدوا كالجملة المتناسبةِ الأجزاء، فأبهجني الاهتداءُ إليهم وأحْمَدْتُ الطّالعَ الّذي أطلَعني عَلَيْهِمْ، وطَفِقْتُ أُفيضُ بقدحِي مع قِداحِهِمْ، وأسْتَشفي برياحِهِمْ لأبراحِهِمْ، حتَى أدْتَنا شُجونُ المُفَاوضة، إلى التَحاجي بالمُقايَضَةِ، كقولك إذا عنيت بِهِ الكرامات: ما مثل النَّوْم فات؛ فأنشأنا نَجْلو السُّهَا والقمر، ونجني الشَّوكَ والثَّمر.

* * *

انتظمت: سرت معهم في نظام واحد، والنظام الجوهر. معاشرهم: مصاحبهم ألفيتهم: وجدُتهم، أبناء عَلاّتٍ، أي غرباء من بلاد مختلفة، وبنو العلاّت: الذين أبوهم واحد وأمّهاتهم شتى قذائف فَلَوات، أي قد رمت بهم القفار، والطرق المختلفة واحدتها قذيفة، وهي التي يُقذف أي يرمى بها. لحمة، أي قرابة. ألفت شملهم: أي جمعت

---

(١) يروى صدر البيت:

وخلا الذباب بها فليس ببارح

وهو في ديوان عنترة ص ١٩٧، وأساس البلاغة (هزج).

(٢) صدره:

أين أزمعت أيهذا الهمامُ

والبيت في ديوان المتنبي ٣/ ٣٤٣.

متفرقهم، وجعل للأدب لحمة مجازاً، وجعل الأدب يجمعهم كما يجمع بني العلاّت الأب، والبلاد تفرّقهم، كما تفرّق بني العَلاّت الأمهات.

[المودة بين الشعراء]

وهذا نحو ما يحكى أنّ دِعْبَلاً ذُكر عند عليّ بن الجهم فكفّره ولعنه، وقال: كان يَظْهَر على أبي تمام وهو خير منه، ديناً وشِعْراً، فقال له بعض من حضر: لو أن أبا تمام أخوك ما زدْت على مدحك له، فقال: إن لم يكنْ أخي في النَّسَب، فهو أخي في المودّة والأدب، أما سمعت ما خاطبني به وأنشد لأبي تمام: [الكامل]

إن كان يجمعنا الإخاءُ فإننا ... نَغْدُو ونَسْري في إخاء تالدِ[1]

أو يَفْترق نسبٌ يؤلف بيننا ... أدب أقمْناه مقامَ الوالِدِ

وكرّر أبو تمام هذا المعنى، فأحسَن بقوله: [البسيط]

ذُو الُودّ مني وذو القربى بمنزلةٍ ... وإخوتي أسوةٌ عندِي وخِلاَّني

عصابة جاورتْ آدابُهم أدبي ... فهم وإن فُرِّقوا في الأرض جيرانِي

أرواحُنا في مكانٍ واحدٍ وغدت ... أجسامنا في عِرَقٍ أو خُرَاسَانِ

وأنشد إسحاق الموصلي: [الطويل]

يقولونَ لي هَلْ من أخٍ أو قَرابةٍ ... فقلت لهم إن الشُّكول أقاربُ

نَسيبي في رأيي وعزمي ومَذْهَبي ... وإنْ باعدَتنا في الولاءِ المناسبُ

وليس أخي إلا الصحيحُ ودادهُ ... ومَنْ هو في وَصْلِي وقُرْبي راغبُ

وكان لسليمان بن وهب نديم يأنس به، فعرْبَدَ عليه ليلة فاطّرحه وجفاه فوقف له بالطريق، فلما مرّ به وثب إليه، ثم قال: أيّها الوزير، لا تَكُن في أمري إلا كما قال عليّ ابن الجهم: [البسيط]

القوم أخدانُ صَدْقٍ بينهم نسبٌ ... من المودة لم يعدَلْ به نسبَ

تراضعوا دِرةَ الصَّهباء بينهمُ ... فأوجبوا لرَضيع الكأس ما يجبُ

لا يحفظون على السَّكرانِ زَلَّتَهُ ... ولا يريبكَ من أخلاقهم رِيَبُ

فقال: قد رضيت عنك رضا صحيحاً، فعُدْ لشأنك.

قوله الرتب: أي المنازل الرفيعة، مثل كواكب الجوزاء، أي في الإضاءة والرفعة، والجملة المتناسبة الأجزاء، أي المتَّفِقة، يعني مقاديرهم في الفضل وغيره متساوية لا تفاضل بينهم، كالجملة التي لا مزية لبعضها على بعض، وأقل جملة حسابية أجزاؤها

(١) البيتان في ديوان أبي تمام ص ٨٦.

متناسبة لا كسر في بعضها ولها النّصف والثلث والربع، والخمس والسدس والسبع والثمن والتسع والعشر هي ألفان وخمسمائة وعشرون، ونصفها ألف ومائتان وستون وثلثها وثلاثمائة ثمانمائة وأربعون، وربعها ستمائة وثلاثون، ألف وخمسها خمسمائة وأربعة، وسدسها أربعمائة وعشرون وسبعها ثلاثمائة وستون، وثمنها ثلاثمائة وخمسة عشر، وتسعها مائتان وثمانون وعشرها مائتان واثنان وخمسون.

قوله: أبهجني، أي أفرحني أحمدت: وجدته محموداً. الطّالع: النجم الذي يسعد به صاحبه وينحس على زعمهم. طفقت: أخَذْت. أفيض بقدحي: أضرب بسهمي، وهذا من فعل الميسر. وأراد أنه يمشي كلامه مع كلامهم ويدخل مداخلهم. أدّتنا: أوصلتنا. شجون المفاوضة. طرق المراجعة في الكلام، والشجون في الكلام، تداخله، واختلاط بعضه ببعض، والتفاوض: الاندفاع في الحديث، وفي المثل: الحديث ذو شجون، أي ذو فنون وأصله من الشجر المشجون، وهو الشَّجر الذي التفَّ بعضه ببعض. التّحاجي: التفاطن. المقايضة: المعاوضة والمقارضة. الكرى: النوم فات، بمعنى مات وأراد أنّ هذا النوع من الألغاز هو أن يُؤتى بلفظٍ عوضاً من لفظ آخر يتوارد معه على معنى واحد، والمماثلة التّي بينهما إنما هي موافقة المعنى. نجلو: نكشف. السها: نجم خفّي، وقرن السها في خفائه مع القمر في ظهوره، إنما يشير إلى قولهم في المثل: أُريها السها وتريني القمر، وأواد أنهم يأتون بلفظة ظاهرة المعنى، وأخرى خفية، فلا يتمّ لهم شيء.

* * *

وبينا نحن نَنْشرُ القَشِيبَ والرَّثَّ، ونَنْسُلُ السَّمينَ والغَثّ، وغَلَ عَلَيْنَا شيخٌ قد ذَهَبَ حِبْرُه وسِبرُه، وبقي خُبْرهُ وسَبْرُه؛ فَمثَلَ مُثولَ مَنْ يَسْمَعُ ويَنْظُرُ، ويلتقِطُ ما تَنْثُر، إلى أن نُفِضَتِ الأكياسُ، وحَصْحَصَ الْيأسُ.

فَلَمَّا رأى إجبالَ القرائح، وإكداءَ الماتِحِ والمائحِ، جَمْعَ أذيالهُ، وولاّنا قذَاله، وقال: ما كلُّ سَوْدَاءَ تَمْرة، ولا كُلُّ صَهْبَاءَ خَمْرَة، فاعتلقنا بِهِ اعتِلاقَ الحِرباءِ بالأعْوادِ، وَضَرُبنا دون وجَهَتِهِ بالأسْدَاد، وقلنا له: إنّ داء الشَّقِّ أن يُحاصَ، وإلاّ فالقِصَاصَ القِصَاصَ؛ فلا تَطْمَعْ أنْ تَجْرَحْ وتَطرَحْ، وتنهرَ الفتق وتُشْرَح، فلَوَى عِنَانَهُ راجعاً، ثُمَّ جَثَمَ بمَكانِهِ راصِعاً، وقال: أمَّا إذا استثرْتُمونِي بالبحث، فَلأَحْكُمْ حُكمَ سُليمان في الحَرْث.

* * *

القشيب: الثوب الجديد. الرّثّ: الخَلَق: ننشُل: نخرج النشيل، وهو لحم يطبخ بلا تابل ثم يُنشل، أي يخُرج بالمِنْشَل، وهو حديدة معقفة، ذهب حبره وسبره: هيئته

ولونه، قال الفراء: من قولهم: جاءت الإبل حسنة الإحبار والإسبار، قال الأصمعي رحمه الله: هي الجمال والبهاء وآثار النعمة، يقال: فلان حسن الحبْر والسَّبْر، إذا كان جميلاً حسن الهيئة، وفي الحديث: يخرج من النار رجل قد ذهب حبره وسَبْره، أي قد ذهب جماله وبهاؤه، وسمي الحَبْر حَبْراً لأنه يزين الكتاب، ويحسن القرطاس، وحَبّرت الشيء زينته، وقيل إنه سُمِّي حَبْراً لأنه يؤثر في القرطاس، فيكون علامة فيما يقع فيه، ويقال للأثر؛ حبرة وحُبار.

والسَّبْر: الأصل واللون والهيئة والمنظر، والسَّبْر ما يدلّ به على لون الدابة وكرمها، ويروي حِبره وسبره، بكسر أوّلهما وفتحه، فإذا كسرا كانا اسمين، وإذا فتحا كانا مصدرين، وحَبْره علمه، وسَبْره قياسه، مثل: تمثّل قائماً. الأكياس: أوعية الدراهم، ونفضت: ألقي ما فيها، وأراد فارغ كلامهم. وحَصْحَص: تبيّن، اليأس: ضد الرّجاء. إجبال القرائح: انقطاعها عن الكلام. إكداء: صعوبة، وأصل هذا في البئر، فأوّل ما يرشح من مائها هو القريحة، ثم نقل إلى الطّبيعة والذهن، وأجبل الحافر: إذا حال بينه وبين الماء جبل، وأكْدَى: حال بينه وبينه كُدية، والجبل والكدية حجارة وصلابة تَعْرِضَ في البئر، لا يمكن حَفْرُها معها، ثم يقال: أكدى أي قَل خَيره وأجبل الشاعر، أي انقطع شعره. وأكدى فلان عطائي، أي قطعه وقلّل خيره، ومنه قوله تعالى: **﴿وأعْطَى قليلاً وأكْدَى﴾** [النجم: ٣٤]. والماتح: المستسقي على فم البئر، والمائح: النازل إلى قَعْرِها ليملأ الدّلاء ويفرّق بينهما بنقطتي الحرف الّذي قبل آخرهما، فمتى كانتا فوق الحرف، فالمستسقي فوق البئر لكثرة الماء، ومتى كانتا تحته فالمستسقي في قعر البئر ليملأ الدلو بيده، وذلك لقلّة الماء، وإذا تكاثرت الدِّلاء عليه، وكَثُر صياح النّاس عليه من رأس البئر، وكل يرغبه ليملأ دلوه، فيأخذ دَلْوَ مَنْ لا مال له فيضرب به رجا البئر، أي جانبه ليرتدع الناس عنه، ثم يضرب مثلاً للمُهان، قال الشاعر: **[الوافر]**

فــلا يُـرمَــى بــي الــرَّجَــوانِ إنّــي ... أقـلّ الـقـوم مَـنْ يُـغْـنِـي مَـكَـانِـي[(١)]

وقالت جارية من العرب تستعطفه: **[الرجز]**

يــأيّــهــا الــمــائــحُ دلــوِي دُونَــكَــا ... إنّـي رأيـتُ الـنّـاس يَـحْـمَـدُونَـكَـا[(٢)]

---

(١) البيت لعبد الرحمن بن الحكم في الاقتضاب في شرح أدب الكاتب ص ٣٦٦، وبلا نسبة في أدب الكاتب ص ٢٥٧، ولسان العرب (رجا).

(٢) الرجز لجارية من بني مازن في الدرر ٥/ ٣٠١، وشرح التصريح ٢/ ٢٠٠، والمقاصد النحوية ٤/ ٣١١، وبلا نسبة في لسان العرب (ميح)، وأسرار العربية ص ١٦٥، والأشباه والنظائر ١/ ٣٤٤، والإنصاف ص ٢٢٨، وأوضح المسالك ٤/ ٨٨، وجمهرة اللغة ص ٥٧٤، وخزانة الأدب ٦/ ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٧، وذيل السمط ص ١١، وشرح الأشموني ٢/ ٤٩١، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ٥٣٢، وشرح شذور الذهب ص ٥٢٢، وشرح عمدة الحافظ ص ٧٢٩، وشرح المفصل ١/ =

ومن أمثالهم: أبصر من المائح يا ستّ الماتح.

وأنشد الفنجديهيّ: [السريع]

يا مائح العين عُدِمْت الرَّدَى من حوض هذِي العين كَمْ تَسْتَقِي

مِنْ شيمةِ الماء انحدارٌ فِلَمْ ماء جفوني أبداً يَرْتَقِي

قوله: جمع أذياله: شمر ثيابه للقيام. قذاله: قفاه.

ما كلّ سوداء تمرة، مَثَل. والسوْداء تستعمل للتمرة والفحمة فيقول: ما كل الكلام سهل فتتعاطونه وما كلّ ما جئتم به بفائق فيدخل في باب المقايضة، وهو مثلٌ يضرب في موضع التهمة.

والصهباء: من أسماء الخمر، والصُّهبة أن تعلوَ الحمرَة شُقَرة وأصوله سود.

[مما قيل في الحرباء شعراً]

الحِرْباء: دوّيبّة تستقبل الشمس بوجهها إذا استوتْ في كبد السماء، وإنْ لم يتأتّ لها الفرصة بوجهها تململتْ وتقَلَّبَتْ، ولم تزل في قلق حتى تميل الشمس، فتستقبلَها ـ أعني قُرْصها ـ بوجهها حتى تغرب وهي في طول يومها، لا تأكل شيئاً، فإذا جاء الليلُ ذهبت تبغي ما تأكل، والأنثى منها حرباءة.

وقال أبو عبيدة: الحرباء تستقبل الشمس برأسها أبداً، يقال: إنما تفعل ذلك لتقيَ جَسَدَها برأسها، وقيل: الحرباءَ ذكَر أمّ حُبين، وفي صدره استرخاء وقُرْب من الأرض، فإذا حميت الأرض بالشمس خاف على صدره أن تحرِقه الأرض للزوقه بها، فيصعد على عود شجرة، فليتزمه بيديه، ويجعله بينه وبين الشمس، ويضرب به المثل في التّشبث بما تعَلق به، وذلك أنّه إذا تعلّق بعود التزمه، وقبضَ عليه فلا يفارقه، حتى يستوثِقَ من آخر، فيُضرب المثل به، فيقال: أحزم من الحرباء. وقال قيس بن الحدادية: [البسيط]

بانت سعادُ فأمسى القلبُ مشتاقاً وأقلقتها نوى الإزماع إقلاقَا

واحتثّ حاديهم بزلاً مخيسّةً كُوم الذّرا مدد الأعضاد أفياقَا[1]

أنّى أُتيحَ لها حِرباء تَنْضُبَةٍ لا يرسل الساق إلا مُمْسكاً ساقَا

والساق: ساق الشجرة، والتّنْضب: شجر يتعلّق بأعواده الحرباء، فيقال حرباء

= ١١٧، ومعجم ما استعجم ص ٤١٦، ومغني اللبيب ٢/ ٦٠٩، والمقرب ١/ ١٣٧، وهمع الهوامع ٢/ ١٠٥، وتهذيب اللغة ٥/ ٢٧٩، ومقاييس اللغة ٥/ ٢٨٧.

(١) البيت الثالث لأبي دؤاد الإيادي في ديوانه ص ٢٣٦، ولسان العرب (حرب)، والتنبيه والإيضاح ١/ ٦٠، وتاج العروس (سوق)، وجمهرة الأمثال ١/ ٤٠٨، وللحارث بن دوسر في المستقصى ٢/ ٢٦٩، وبلا نسبة في لسان العرب (نضب)، (سوق)، (علق)، والمخصص ٤/ ٢٥، ٨/ ١٠٣، وتاج العروس (نضب)، (علق)، وديوان المعاني ١/ ١٣٨، والحيوان ٦/ ٣٦٧.

تنضبه، كما يقال: ذئب غَضَى. وقال الأزهري رحمه الله تعالى: الحرباء دويّبة على خِلْقَةِ سام أبرص، ذات أربع قوائم دقيقة الرأس مخطّطة الظهر، وأكثر الشعراء من ذكر الحرباء وتشبيهها، ومن جَيّد ذلك قُول ذي الرّمّة: **[الطويل]**

ودوّيَّـةٍ جَـرْدَاء جَـدّاء خـيّـمـت ... بها هفوات الصَّيْف من كلِّ جانبِ[1]
كـأنّ يـديْ حـربـائـهـا مـتـشـمـساً ... يَـدَا مـذنِـبٍ يـسـتـغـفـر الله تـائـبِ

وقال آخر: **[الطويل]**

وقـد جـعـل الـحـربـاءُ يـصـفـرّ لـونُـه ... ويخضرّ من لفح الهجير غَباغبُهْ[2]
ويـشـبَـح بـالـكَـفّـيـن حـتـى كـأنـه ... أخـو فـجـوة عـالَـي به الجِذْعَ صالبُهْ

وقال أيضاً: **[الطويل]**

يظلّ بـهـا الـحـربـاءُ لـلـشـمـس مـائـلاً ... عـلـى الـجَـذْلِ إلاّ أنـه لا يُـكَـبِّـرُ[3]
إذا حـوّل الـظـلُّ الـعـشـيّ رأيـتَـهُ ... حنيفاً وفي قرن الضّحَى ينتصَّرُ
غـداً أكـهـب الأعـلَـى وراحَ كـأنـه ... من الضّحّ واستقباله الشمس أخضر

أخبر أنه يدور مع الشمس في وقت الزوال، حتى تكون الشمس في حذاء القبلة، فكأنّه باستقباله لها في ذلك الوقت مُسْلِمٌ يصلّي لها، وفي الضّحى تكون في وجه المشرق، فكأنّه نصرانيّ فيستقبلها بصَلاته.

قال ابن الروميّ: **[الكامل]**

مـا بـالُـهـا قـد حَـسُـنَـتْ ورقـيـبُـهـا ... أبـداً قـبـيـحٌ قـبـح الـرُّقَـبـاء
مـا ذاك إلاّ أنّـهـا شـمـسُ الـضـحـى ... أبـداً يـكـون رقـيـبـهـا الـحـربـاء

قوله: وجهته، أي جهته. والسدّ: الحاجز بين الشيئين. يحاص: يخاط، ويقال: حاص ثوبَه وعين صقره وشقوق رجليْه حَوْصاً وحياصة: خاطها، وقيل: الحوص:

---

(١) البيتان في ديوان ذي الرمة ص ٧٨.

(٢) يروى البيت الأول:

إذا جـعـل الـحـربـاءُ يَـبْـيـضُ رأسُـهُ ... وتـحـضـرّ مـن شـمـس الـنـهـار غـبـاغـبُـه

وهو بلا نسبة في لسان العرب (غبب)، والمخصص ٨/ ٣٥، وتاج العروس (غبب).

(٣) البيت الأول في ديوان ذي الرمة ص ٦٣١، ولسان العرب (حول)، ولزهير بن أبي سلمى في لسان العرب (مثل)، وتاج العروس (مثل)، وليس في ديوان زهير، والبيت الثاني في ديوان ذي الرمة ص ٦٣٢، ولسان العرب (حول)، (ولى)، وتهذيب اللغة ١٥/ ٤٥٢، وديوان الأدب ٢/ ٣٨١، وتاج العروس (حول)، والبيت الثالث في ديوان ذي الرمة ص ٦٣٣، ولسان العرب (ضحح)، وتاج العروس (ضحح)، وديوان الأدب ٣/ ٣٠.

الخياطة بعد رقعة، ولا يكون إلا في جلْد، وأنشد يعقوب: [الرجز]

تـرى بـرجـلـيْـه شُـقُـوقـاً فـي كـلَـغْ   مـن بـاريءٍ حِـيـصَ ودامٍ مُـنْـسَـلِـغْ(١)

الكَلَع: الوسخ، ومنسلع: متشقق. القصاص: أخذ الحق في الجنايات. وتنهر: توسّع فترِده كالنّهر. الفَتْق: الخرق. وتسْرَح: تذهب. لوى عنانه: أماله وعَطفه. جثم: برك. راصعاً: لاصقاً بالأرض والرَّصع: تباعد ما بين الركبتين، ورصع بالشيء يرصَع رُصوعاً إذا لازمه. استثرتموني: طَلبتموني واستخْرَجتُم ما عندي. والبحث: المناقشة في السؤال، وأصله الصّيد تقول: استثرتُ الصيدَ؛ إذا بحثتُ عليه حتى تقيمه من مرقده.

[حكم سليمان في صاحب الحرث وصاحب الغنم]

قوله: حكم سليمان في الحرث. كان سليمان عليه السلام، فيما ذكروا أبيض، وضيئاً، جسيماً كثير الشّعر، يلبس من الثياب البياض. فلما بلغَ مبلغَ الرجال، كان أبوه في أيام مُلكه يُشاوره في أموره، وكان هذا الحكم ـ فيما ذكر عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ أن رجلين دخلاً على داود عليه السلام، أحدهما صاحب حرث، والآخر صاحب غنم، فقال صاحب الحرث: يا نبيّ الله، انفلَتتْ غنم هذا في زرعي ليلاً، فرتَعَت في حرثي، فلم تستبق منه شيئاً، فقال له داود: اذهب، فإن الغنم لك، فملّكه رقابها بما أكلت من حَرْثه، فلما خرجا من عنده خطراً على سليمان عليه السلام، فأخبراه بقضاء أبيه، فقال: لو وُليتُ أمركما لقضيت بغير هذا. فأخبر داود عليه السلام، فدعاه وقال له: كيف كنت تقضي بينهمَا؟ فقال: أدفع الغنم إلى صاحب الحرْث، فيكون له رِسْلها ونَسلُها وصوفُها، ويبذر صاحبه لصاحب الحرث مثل حرثه، فإذا صار الزرع كهيئته يوم أكل، أخذ غنَمه. فقال داود: القضاء ما قضيتَ به، وحكم بقضاء سليمان عليهما السلام.

وقال ابن مسعود وشريح ومقاتل: أراد بالحرْث الكرْم، وأن الغنم أكلت قضبانه، فأفسدته، فحكم بها داود لصاحب الكرْم، ولم يكن بين الغنم والكرم تفاوت، فمرُّوا بسليمان عليه السلام، وهو ابن إحدى عشرة سنة، فقال: يعمل الراعي في إصلاح الكرْم حتى يعود كهيئته، ثم يأخذ غنمه.

ومن عجائب حكم سليمان عليه السلام ما رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: بينا امرأتان معهما ابناهما، إذ جاء الذئب، فذهب بأحدهما، فقالت: هذه إنما ذهب بابنك، وقالت الأخرى: إنّما ذهب بابنك، فاختصما إلى داود عليه السلام، فقضى به للكبرى فمرّتا على سليمان، فأخبرتاه، فقال عليه السلام: «ائتياني

---

(١) الرجز لحكيم بن معية في لسان العرب (سلع)، (كلع)، وله أو لأبي محمد الفقعسي في تاج العروس (سلع)، ولسان العرب (طبع)، ولعكاشة السعدي في تاج العروس (كلع)، وبلا نسبة في لسان العرب (قسس)، وديوان الأدب ٢/ ٤٢٥.

بسكين أشقّه بينكما، فقالت الصغرى: لا ويرحمك الله، هو ابنها، فقضى به للصُّغرى»(١) قال أبو هريرة رضي الله عنه: والله إن كنت سمعت بالسكين قبل ذلك، ما كنت أقول إلا المُدْية.

قوله: الشمائل: الخلائق والطباع. والشّمول الذهبية: الخمر الحمراء.

* * *

[مما قيل في الخمر شعراً]

وذكر في هذه المقامة أنهم سبؤوا قهوة، وذكر ها هنا أنها في لونها حمراء، والعرب تتمدّح بشرب الخمر السبيئة، وتصفها بالحمرة، كقول الأعشى، وهو في أوصافها في الجاهليّين، كالحسن في الإسلاميين، وحبُّه فيها صدَّه عن الإسلام: [الكامل]

وَسَبَيْئَةٍ مِمّا تعتّق بابلٌ ... كدمِ الذبيح سلْبتُها جِرْيالَها(٢)

وقوله: [المتقارب]

فقمنَا ولمّا يَصْحُ دِيكُنَا ... إلى خمرة عند حَدَّادِهَا(٣)

فقلت له: هذه هاتِها ... بأدماءَ في حَبْلِ مُقْتَادِها

فقامَ فصبَّ لنا قهوةً ... تسكّنُنَا بعد إرعادِهَا

كُمَيْتٌ تكشّف عن حُمْرَةٍ ... إذا صُرِّجَت بعد إزبادها

فجال علينا بإبريقه ... مخضّبُ كفٍّ بِفرْصَادِها

فَرُحْنَا تنعّمنا نَشْوَةٌ ... تجُوز بنا بعد إقصادها

وقال أبو ذؤيب: [الطويل]

ولا الرّاح راحُ الشام جاءت سَبِيّةً ... لها غاية تهدِي الكريمَ عُقَابُهَا(٤)

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء باب ٤٠، والفرائض باب ٣٠، ومسلم في الأقضية حديث ٢٠، والنسائي في القضاة باب ١٤، ١٥، وأحمد في المسند ٢/ ٣٢٢، ٣٤٠.

(٢) البيت في ديوان الأعشى ص ٧٧، وتهذيب اللغة ١/ ٢١١، ومقاييس اللغة ١/ ٤٢٥، ٤/ ٢٢١، وأساس البلاغة (جرل)، ولسان العرب (عتق)، (جرل)، وتاج العروس (عتق)، (جرل)، وكتاب العين ١/ ١٤٦، وفيه «حربالها» بدل «جريالها» وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ١٠٩٩، والمخصص ١١/ ٢١٠، ويروى «وسبيئةٍ» بدل «وسبئيّة».

(٣) الأبيات في ديوان الأعشى ص ١١٩، والبيت الأول في لسان العرب (حدد)، وهو بلا نسبة في مجالس ثعلب ص ٢٦٧، والبيت الثاني في لسان العرب (رمم)، ومقاييس اللغة ٢/ ٣٧٩، وأساس البلاغة (قود)، والبيت الرابع في لسان العرب (صرح)، (صفق) ومقاييس اللغة ٣/ ٣٤٧، وكتاب العين ٣/ ١١٦.

(٤) البيت الأول لأبي ذؤيب الهذلي في شرح أشعار الهذليين ١/ ٤٤، ولسان العرب (عقب)، (سبي)، =

عقارُها كما التِّبر ليستُ بِخَمْطَةٍ ... ولا خَلَّةٍ يكوِي الشروبَ شِهَابُها

وقال الحسن: [الطويل]

وخَمّارٍ أنختُ عليه ليلاً ... قلائصَ قد تَعِبْنَ من السِّفار

فجمجَم والكَرَى في مُقْلَتَيْهِ ... كمخمورٍ شكَا ألم الْخُمَارِ

ابْن لي كيفَ سِرْتَ إلى حريمي ... وثوبُ اللّيلِ مصبوغٌ بقَارِ

فقلتُ له ترفَّقْ بي فإنّي ... رأيتُ الصُّبْح من خَلَلِ الدِّيارِ

فكان جوابُه أن قَالَ كلاً ... وما صُبْحٌ سوء صُبْحِ العُقَارِ

وقام إلى الدِّنان فسدَّ فاها ... فعاد الليلُ مسدولَ الإزَارِ

وقال عبد الصمد: [الطويل]

وخيمةِ نَاظُورٍ تَحُفُّ بِرَوْضةٍ ... يُحْييكَ منها وردُها والبَنَفْسَجُ

وأشْمَطَ أعلَى وسطِها بعد هجعةٍ ... تراهُ بها من قره يتشنّجُ

دعوتُ فلبيّ وهو بالصوتِ عارفٌ ... وأقبل نحو البابِ يزْهُو ويهرجُ

فقلت له المصباح إن كنت مسرِجاً ... فقال: قفوا فالخمر في الكأس تُسْرِجُ

* * *

اعْلَمُوا يا ذَوِي الشَّمائِلِ الأدَبِيّة، وَالشُّمُوعِ الذهبيّة، أَنَّ وَضعَ الأُحْجِيَّة، لامتحانِ الألْمعِيّة، واسْتِخْرَاج الخبيّة الخَفيّة، وشَرْطُهَا أن تَكُونَ ذاتَ مُماثلَةٍ حَقِيقيّة، وألفاظٍ معنوِّية، ولطيفةٍ أَدَبِيّةٍ؛ فمتَى نافَتْ هَذَا النَّمَط، ضَاهتِ السَّقَط، ولَمْ تَدْخُلِ السَّفَطَ؛ ولم أرَكُمْ حَافَظْتُمْ عَلَى هَذِهِ الحُدُودَ، ولا مِزْتُمْ بين المقبولِ والْمَرْدُودِ، فقلنا له: صَدَقْتَ، وبالحقّ نَطَقْتَ؛ فَكِلْ لَنَا مِنْ لُبابِكَ، وأفِضْ عَلَيْنَا مِنْ عُبابِكَ؛ فقال: أَفْعَلُ لِئَلاّ يَرْتابَ المبِطْلونَ، ويَظُنُّوا بِي الظُّنون.

* * *

قوله: «لامتحان الألمعية»، أي لاختبار الفطنة. نافتْ: باعدت. النّمط: النوع، يقال: الزم هذا النَّمط، أي هذا المذهَب والفنّ والطريق. ضاهت: شابهت. السَّقَط: رديء المتاع وما لاَ يُعَبأ به. والسّفط: وعاء لجميع الثياب الرفيعة، وسفط العلوم: الكتُب، أي لم تكتب ولم تدوّنْ في الكُتب. مِزْتم: فرّقتم. لُبابك: خالص ما عندك. أفِضْ: صُبّ. عبابك: بحرك، وعبّ البحر عُبَاباً هَاجَ واضطرب: يرتاب: يَشُكّ.

* * *

= والبيت الثاني لأبي ذؤيب في شرح أشعار الهذليين ص ٤٥، ولسان العرب (نبأ)، (خمط)، (خلل)، والمخصص ١١/ ٨.

ثمّ قَابلَ ناظورةَ القوم، وقال: [المجتث]

يــا مَــنْ سَــمَــا بــذكــاءٍ فــي الــفــضــلِ وَارِي الــزّنــادِ
مــاذا يــمــاثِــلُ قــولــي: جُــــوعٌ أَمِــــدَّ بــــزادِ

ثم ضحك إلى الثاني وأنشد: [المجتث]

يــا ذا الّــذي فــاق فَــضْــلاً ولــم يُــدَنِّــسْــهُ شَــيْــنُ
مــا مــثــلُ قــولِ الــمــحــاجِــي: ظَــهْــرٌ أَصــابــتْــهُ عَــيْــنُ

ثم لحظ الثالث وأنشأ يقول: [مجزوء الرجز]

يــا مَــنْ نــتــائــج فِــكْــرِه مــثــل الــنــقــود الــجــائــزهْ
مــا مــثــلُ قــولــك لــلّــذِي حــاجَــيْــتَ: صــادف جــائــزهْ

ثم أتْلَع إلى الرابع وقال: [الهزج]

أَيــا مُــسْــتَــنْــبِــطَ الــغــامــضِ مِــنْ لُــغْــزٍ وإضــمــارِ
أَلا أكــشِــفْ لــيَ مــا مــثــلُ: تــنــاوَلْ أَلْــفَ ديــنــارِ

ثم رمى إلى الخامس ببصره، وقال: [مجزوء الرجز]

يــا أيــهــذا الألْــمــعِــيّ أَخُــو الــذّكــاءِ الــمــنــجلِــي
مــا مــثــل أَهْــمَــلَ جِــلْــيَــةً بَــيِّــنْ هُــديــتَ وعَــجِّــلِ

ناظورة القوم: كبيرُهم الّذِي ينظرون إليه. سما: ارتفع. ذكاء: جَوْدة الذِّهن. واري: مبدي النار، أي زنده متى ضرب أوْرَى ناراً. فاق: فَضلَ غيرَه. النتائج: ما يولّده الفكر من الكلام. النقود: الدراهم. أتلع: مهّد عنقه ونصبه، وتلع الرجل يتلَع تلعاً: أخرج رأسه من شيء كان فيه. مستنبط: مستخرج. الغامض: الخَفيّ، وغمض غموضاً: دقَّ وأحوج إلى النظر، والألمعيّ: هو الذّكي، أي صاحب الفطنة.

* * *

ثم التفت لِفْتَ السادس وقال: [مجزوء الكامل]

يــا مَــنْ تُــقــصِّــرُ عــن مــدا هُ خــطــا مُــجــارِيــهِ وتــضــعُــف
مــا مــثــل قــولِــك لــلّــذِي أَضْحَى يحاجِيك: أكفُفِ أكفُفِ

ثم خَلَج السابعَ بحاجبه وقال: [مخلع البسيط]

يــا مَــنْ لــه فِــطْــنــةٌ تَــجَــلّــتْ ورُتْــبَــةٌ فــي الــذّكــاءِ جَــلّــتْ
بَــيِّــنْ فــمــا زِلْــتَ ذا بــيــان ما مثل قولي: الشّقيق أَفْلتْ

ثم اسْتَنْصَتَ الثّامِنَ وأَنشد: [مجزوء الكامل]

يــا مَــنْ حــدائــق فــضــلِــهِ مَــطْــلُــولَــةُ الأزهــارِ غَــضَّــهْ
مــا مِــثْــلُ قــولِــكَ لِــلْــمُــحَــاجِــي ذِي الــحِــجَــى: مــا اخــتــارَ فِــضّــهْ

ثم حدج التاسع ببصره، وقال: [مجزوء الكامل]

يــا مَــنْ يــشــارُ إلَــيْــهِ فــي الــقَــلْــبِ الــذَّكِــيِّ وفــي الــبــراعَــهْ
أَوضِــحْ لــنــا مــا مــثــلُ قــوْ لِــكَ لــلــمــحــاجِــي: دُسْ جــمــاعَــهْ

قال الرّاوي: فَلَمَّا انتهى إليّ، هَزّ مَنْكِبَيّ، وقال: [مجزوء الكامل]

يــا مَــنْ لــه الــنُّــكَــتُ الــتــي يُــشْــجِــي الــخــصــوم ويــنــكُــتْ
أنــت الــمــبــيــنُ فــقــل لــنــا مــا مــثــلُ قــولــي: خــالِــيَ اسكُــتْ

التفتِ لفت، أي قصد قصده بالنظر، ولفت عنقه إليّ، أي لواها ناظِراً إليّ. مداه: غايته. خلج: غمز، وقال الراجز: [الرجز]

* قـد خـلـجـتْ بـحـاجِـبِ وعـيـنِ[1] *

تجّلت: ظهرت. جّلت: عظمت. واستنصت: سكّت. حدائق: بساتين مطلولة: أصابها الطَلّ. غضّة: ناعمة. الحِجَا: العقل. حَدَج: رمى. البراعَة: الفصاحة ووفور العقل. يشجي: يغصّ، والغصَص: الاختناق. ينكت: يَقْلِبُهُمْ على رؤوسهم، وطعنه فَنَكَتَه: ألقاه على رأسه، وعند القضاعيّ يشجي، وينكت، أي يسكت على ذلك.

* * *

ثمَّ قال: قدْ أَنهلتُكُمْ وأمْهَلْتُكُمْ، وإنْ شِئتُمْ أن أَعُلَّكُمْ عَلَلْتُكم.

قال: فَألجأنا لَهَبُ الْغُلَلِ، إلى اسْتِسْقَاءِ الْعَلَلِ؛ فقال: لَسْتُ كَمَنْ يَسْتَأثِرُ على نَدِيمِهِ، وَلاَ مِمَّنْ سَمْنُهُ في أديمِهِ. ثم كرَّ على الأول وقال: [مخلع البسيط]

يــا مَــنْ إذا أَشْــكَــلَ الــمــعــمَّــى جَــلَــتْــهُ أفــكــارُه الــدقــيــقَــهْ
إن قَــالَ يــومــاً لَــكَ الــمُــحــاجِــي: خــذ تِــلْــكَ مــا مــثْــلُــه حــقــيــقَــهْ

ثمّ ثَنَى جَيدَه إلى الثاني، وقال: [مجزوء الرجز]

يــا مَــنْ بَــدَا بــيــانُــهُ عــن فــضــلِــهِ مــبــيّــنَــا

---

(١) الرجز لحبينة بن طريف العكلي في لسان العرب (خلج)، والتنبيه والإيضاح ١/ ٢٠٢، وتاج العروس (خلج).

مـــاذا مـــثـــالُ قـــولِـــهـــم: حـــمـــارُ الـــوحـــش زُيّـــنَـــا

ثم أوحى إلى الثالث بِلَحْظِهِ، وقال: [مجزوء الكامل]

يـــا مَـــنْ غـــدا فـــي فـــضـــلِـــهِ وذكـــائِـــهِ كـــالأصْـــمَـــعِـــي

مـــا مـــثـــل قـــولـــك لّـــلِـــذي حـــاجـــاك: أنـــفـــق تَـــقْـــمَـــعِ

ثم حَمْلق إلى الرابع وأنشد:

يـــا مـــن إذا مـــا عـــويـــصٌ دجـــا أنـــار ظـــلامَـــهْ

مـــاذا يـــمـــاثـــل قـــولـــي: اســـتـــنْـــشِ ريـــحَ مُـــدامَـــهْ

ثم أومض إلى الخامس، وقال:

يـــا مَـــنْ تـــنـــزّه فـــهـــمُـــه عـــن أن يُـــرَوِّي أَوْ يُـــشـــكَّـــا

مـــا مـــثـــل قـــولِـــك لـــلـــذي أضحى يُحاجي: غَـطّ هَـلْـكـيَ

* * *

أنهلتكم: أسقيتُكم، والنّهلَ: الشّرب الأوّل، والعَلَل: الشرب الثاني أعُلُكم: أسقيكم عَلَلاً. لهبُ الغَلَل، أي حرّ العطش. يستأثر، أي يخصّ نفسه بشيء دون أصحابه. سَمْنُه في أديمه: أي خَيْره موقوف عليه، والأديم هنا: زقّ السمن، وأصل المثل: سمنكم هُريقَ في أديمكم، أي خيركم موقوف عليكم؛ قاله أبو عبيدة. وخطأ البكريّ في تفسير الأديم بالزّقّ، وقال: إنّما الأديم هنا طعامكم المأدوم، فعيل بمعنى مفعول، أي خيرهم راجع إليهم، وهو قول الأزهريّ رحمه الله ولم ينكر الأوّل، وهو مثلُ يُضرب للبخيل ولمن لا يتعدّاه خيرُه، وينفق على نفسه دون غيره. وقمعه يقمَعُه: ضربه بالمِقمعة، أي قهره وكفّه، وقمع الشرابُ وأقمع: مرّ في الحلق مرًّا بغير جَرْع. كرّ: عطف: جيده: عنقه. أوحى: أشار. حملق: أحدّ النّظر. عويص: صعب. دَجَا: اسودّ. أنار: جعل فيه النور. تنّزه: تباعد. يروّي: يفكر، وقد روّأت الحديث، إذا دبَّرْتَهُ وهيَّأته.

* * *

ثم أقبل إلى السادس، وأنشد: [مجزوء الخفيف]

يـــا أخـــا الـــفِـــطْـــنـــةِ الّـــتـــي بـــانَ فـــيـــهـــا كـــمـــالُـــهُ

ســـار بـــالّـــلـــيـــلِ مُـــدّةً أيّ شـــيء مِـــثـــالُـــه

ثم نَحَا بَصره إلى السابع، وقال: [المجتث]

يـــا مَـــنْ تـــحـــلّـــى بـــفـــهـــمِ أقـــامَ فـــي الـــنّـــاسِ سُـــوَقَـــه

لــك الــبــيــان فــبــيِّــنْ ... مــا مــثــلُ: أحْــبِــبْ فــرُوقَــهْ

ثمّ قَصَدَ قَصْدَ الثامِنِ، وأنشد: [مجزوء الكامل]

يــا مَــنْ تــبــوَّأ ذِرْوةً ... فــي الــمــجــدِ فــاقَــتْ كُــلَّ ذِرْوهْ

مــا مــثــل قــولــك: أعــط إبْــ ... ـريــقــاً يــلــوحُ بِــغَــيْــرِ عُــرْوه

ثم ابتَسَم إلى التاسع، وقال: [مجزوء الكامل]

يــا مَــنْ حَــوَى حــســن الــدِّرا ... يــةِ والــبــيــان بــغــيــر شَــكِّ

مــا مــثــل قــولــك لــلــمُــحــا ... جِي ذي الــذَّكــاءِ: الــثــورُ مِــلْــكِــي

ثم قبض بجُمعه على رُدْنِي، وقال: [الكامل]

يــا مَنْ ســمــا بــثــقــوبِ فِــطْــنَــتِــهِ ... فــي الــمُــشْــكِــلاتِ ونــور كَــوْكَــبِــهِ

مــاذا مــثــال صَــفِــيــر جَــحَــفَــلَــةٍ ... بَــيِّــنْــهُ تِــبــيــانــاً يَــنُــمُّ بِــهِ

* * *

بان: تبين. تحلّى: تزيّن. تبوَّأ: نزل. والذِّروة: أعلى الشيء. ثقوب: نفوذ.

* * *

قال الحارثُ بن هَمَّام: فلمَّا أَطْرَبنا بِمَا سمعناه، وَطَالَبنا مكاشفَةَ مَعْنَاه. قلنا له: لسنا من خيْلِ هذا الميْدَان، ولا لنا بحلّ هذه العُقَد يَدان، فإن أَبَنْت مَنَنْت، وإن كتمتَ غمْمت. فَظَلَّ يُشاورُ نَفْسَيْهِ، ويُقَلِّبُ قِدْحَيْهِ، حتى هان بذل الماعون عليه.

فأقبل حينئذٍ على الجَماعَة وقال: يا أَهْلَ الْبَلاَغةِ والْبَراعة، سَأُعَلِّمُكُمْ ما لم تكونوا تَعْلَمُونَ، ولا ظننتُمْ أَنَّكُمْ تُعَلَّمُونَ. فأوكُوا عليه الأوْعِية، وروِّضوا بِهِ الأَنْدِية. ثم أخذ في تفسيرٍ صَقَلَ بِهِ الأذهان، واسْتَفْرَغَ مَعَه الأردان، حتَّى آضتِ الأفهامُ أَنْوَر من الشَّمْس، والأكمامُ كأنْ لم تَغْنَ بالأَمْسِ.

* * *

أبنت: بَيّنت. مننت: أفضلك علينا. نفسيه: أراد أنّه يردّد رأيه: هل يفعل أو لا يفعل؟ فكأنّ له نفسيْن، يردّد المشورة عليهما حتى يظهر لهما الرأي الأرجح فيهما فيبني عليه. وقال حويرث العبديّ: [الطويل]

لكلّ أمرىءٍ نفسان نفسٌ كريمة ونفس فيعصيها الْفَتى أو يطيعُها

وقد تقدّم معنى يقلّب قدحيه. الماعون: المعروف، وقال يونس: الماعون في الجاهليّة: كلّ عطيّة ومنفعة، وفي الإسلام الزكاة والطاعة. وقال ابنُ عباس: الماعون المعروف كلّه حتى ذكَرَ القِدْر والقَصْعة والفأس.

وحكى الفَنجديهيّ عن ابن عباس: الماعون العاريّة، وقال الماعون: اسم جامع لمنافع البيت، كالقِدْر والفأس والماء والمِلح ونحوها، وقال الأعشى: **[المتقارب]**

بأجود منه بمَاعونِهِ إذا ما سماؤهم لم تَغِمْ(١)

والأظهر فيه، أنّه من العون، وأصله معوون بوزن «مفعول»، فقدّمت الواو التي بعد العين، فصار موعون، ثم قلبت ألفاً كما قيل: يا جل. وحكى الغراء عن بعض العرب: الماعون الماء، فيكون على هذا مفعولاً من العين، ويُعَلّ كما علّ من العوْن، أو يكون فاعولاً، من مَعن الماءُ، إذا سال. وهو أيضاً قول مَن اشتقه من قولهم: مُمْعِنٌ هرباً، أو من قولهم: عين معَين. قال قُطرب: ماعون فاعُول من المعن، وهو الشيء اليسير، ومنهم من قال: أصله معونة، والألف بدل الهاء.

قوله: أوْكُوا: أي شدّوا. روّضوا: زيّنوا، واجعلوها مثل الرياض. الأردان: الأكمام. آضت: رجعت أذهانهم مضيئة بالفهم وزال عنها الالتباس. تغْنَ بالأمس، يريد أنّ أكمامهم كانتْ بالأمس ممتلئة بالدراهم، فتفرّغت اليوم إذ وهبوا له ما فيها.

* * *

ولما هَمّ بالمَفَرّ، سُئِل: أَين المفَرّ؟ فتنفّس كما تَتَنفَّسُ الثّكُول، ثم أنشأ يقول: **[مجزوء الرمل]**

كُلّ شِعْبٍ لِيَ شِعْبُ وبه رَبْعِيَ رَحْبُ

غَيْرَ أَنّي بِسَرُوجٍ مُسْتَهامُ الْقَلْبِ صَبُّ

هي أرضي البِكْرُ والجَوُّ الّذِي مِنْهُ المَهَبُّ

وإلى روضتِها الغَنَّاءِ دُونَ الرَّوْضِ أَصْبُو

ما حَلاَ لي بعدَها حُلْوٌ ولا اعْذَوذَبَ عَذْبُ

قال الرّاوي: فقلت لأصحابي: هذا أبو زيدٍ السَّرُوجي، الّذي أدْنَى مُلَحِهِ

(١) البيت في ديوان الأعشى ص ٨٩، ولسان العرب (معن)، وتاج العروس (معن).

الأحاجي، وأخذتُ أصِفُ لَهُمْ حُسْنَ تَوْشيَتِهِ. ثمّ التفتُّ فإذا بِهِ قَدْ طَمَر، وناءَ بما قَمَر؛ فعجِبْنا مما صَنع إذْ وَقَعَ، وَلَم نَدْرِ أين سَكَعَ وصَقَعَ.

* * *

المفرّ: المهرب. المقَرّ: المنزل والبلد. الثّكول: المرأة الثَّكْلَى الفاقدة لأحبابها. شِعْب، أي طريق، أي كلّ بلد لي بلد. ربْعِي رَحْب، أي منزلي متّسع. المستهام: الذي غلب الحبّ على قلبه فخرج هائماً على وجهه لا يَدْري أين يتوجّه، وهام يَهِيمُ: ذهب عقله فخرج في غير الطريق، وقيل: الهائم: العليل القلب، الّذي يجد في قلبه هُياماً، وهو وَجعٌ يَجِدُه البعير، فلا يروَى من شرب الماء: قال عروة بن حزام: **[الطويل]**

بي اليأس أو داء الهُيَام أصابني ... فإيّاك عنّي لا يكُنْ بك ما بيا[1]

أو يكون من التهويم، وهو هجوم النوم، وهو في الأوجه الثلاثة اسم مفعول، وكان قياسه مستهيماً إلاّ أنه لما كان كأنه مغلوب على ذلك، جاء على هذا وحذف «به» لدلالة المعنى. والصّبّ: العاشق. البِكْر: التي ولدت بها. الجوّ: اسم لنواحي السماء. مهبّ الريح: موضع هُبوبها من الجوّ، وأراد بلدته التي يجيء منها ويخرج عنها للبلاد. الغَنّاء: الكثيرة الأشجار، وتقدّمت علّتها. أصبو: أميل. أدنى: أقل. توشيته: تزيينه كلامه. مشيئته: إرادته. طَمَر: وثب، وهو من الأضداد يقال: طمرتُ الشيءَ: سترتُه، وطمر الجرح سَفُل وعَلاَ أيضاً، ومنه قيل للبرغوث طامر، لنزوّه وارتفاعه. ناء: نهض. قَمَر: حازه بالقمار. سكع: مشى مَشْيَ المتعسِّف. صَقع: ذهب، وقيل: لم يدر أين ذهب. والسَّكع: الذهاب على غير هداية، والصُّقع: الناحية من الأرض، وما أدري أين صَقع، أي أيّ ناحية قَصد من الأرض.

* * *

[في تفسير الأحاجي]

إذا أردت أن تعرف المماثلة في هذه الأحاجي فتنظر «جوعٌ أمِدّ بزاد» فتقابله بطوامير، فتقسم هذه اللفظة، فتقابل القسم الأول وهو «طوا» بقولك: «جوع» فتجده مثله في المعنى، وتقابل بالقسم الثاني، وهو «مير» قولك: «أمد بزاد»، فتجده مثله في المعنى، والميْر الإمداد بالزاد، ومير الرجل: أعطى نفقة وقوتا لعياله، فهذه المماثلة

(١) يروى عجز البيت:

فإيّاك عني لا أصبك بدائيا

وهو برواية المؤلف لمجنون ليلى في ديوانه ص ٢٢٨، وبالرواية الأخرى لعروة بن حزام في مقدمة ديوانه ص ٧٧، وسمط اللآلي ص ٩٥٠، ولسان العرب (سلل)، وتاج العروس (سلل)، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٩٩٥، ١١٠٩، والمخصص ١٤/ ٢٢.

الحقيقية التي قدّم، وكذلك تقابل «ظهر أصابته عين» بقولك: «مطاعين»، فتجد المَطَا الظهر، وعِينَ الرجل: أصيب بالعين، وكذلك صادف جائزة، هي ألفي صلة، وألفي هي: صادق، والجائزة هي الصِّلة، تصل بها مَنْ قصدك. وإن تركت الألفاظ منظومة بغير تقسيم، ينتج منها معنًى آخر فيقال لك: ما الطوامير؟ فتقول: الكتب، الواحد طُومار، والمطاعين: جمع مِطْعَان، وهو الكثير الطّعن، والفاصلة، الّتي تقع بين شيئين فتفصل هذا من هذا والفاصلة في العروض: توالي أربعة أحرف أو ثلاثة متحركة بعدها ساكن، وهكذا هي المقايضة في هذه المقامة، تصل اللفظة فيكون لها معنى، وتفصلها فيكون لها معنًى آخر.

وأنا أفسّر معنى المتصلة إذ المنفصلة قد وقع تفسيرها في المقامة قوله: هادية، أي مرشدة، تقول: هدْتنِي الطريق فهي هادية. والغاشية: ما يغشَى القلب، أي يغطيه من الهمّ والسّقَم، والغاشية أيضاً القوم يَغْشَوْنك، أي يقصدونك ويزورونك، والغاشية: القيامة، والغاشية: المرأة تغشاك وتزورك، والغاشية غشاء القلب، والغاشية: غشاء السَّرْج.

والمهمة: القفر، والأخطار: جمع خَطَر، وهو الغَرَر، والأخطار: المنازل الشريفة. والأبارقة: جمع إبريق، وهو إناء معروف، والأبارقة أيضاً: السُّيوف الصقيلة، واحدها إبريق، والطافية: الجيفة تطفو على وجه الماء أي تطلع عليه.

الفرازين: وزراء الفُرْس الواحِد فرْزان، ومنه فرزان الشطرنج، الذي تسميّه العامة «فرزا»، لأنه وزير الشاه، والشاه في كلام الفرس المَلِك. وقمْت: معناه كففت.

والمنتقم: الفرح بمصيبة غيره. والرَّحْراح من الأواني: الواسع القصير الحديد، ورَحْرَاح: موضع معروف. والصُّنْبُور: النخلة الطويلة العُنُق القليلة الحمل، والصُّنبور أيضاً: العفاص الذي يجعله السّقاء في فم القربة، ويشدّ عليه ويفرغ منه الماء، والصُّنبور أيضاً: اللئيم، والصُّنبور من الناس مَنْ ليس له نسْل.

والسَّرَاحِين: الذئاب الواحد سِرْحان. الأُسكوب: المطر الكثير الصبّ والأُسكوب والأسكاب: قطعة خشب فيها قرص تُجعل في خرْق الزّق. والمقلاع: آلة يُقلع بها الشيء. والله الموفق.

تفسير الأحاجي المودعة هذه المقامة

أمّا جوع أمِدَّ بزادٍ، فمثله طَوامير، وأما ظَهْرٌ أصابته عين، فمثله مَطاعين، وأما صادف جائزة فمثله الفاصلة، وأمّا تناول ألف دينار، فمثله هادية، وأمّا أُهْمِل حَلْية فمثلُهُ الغاشية.

وأمّا اكفُف اكفف، فمثله مَهْمَه، وأما الشقيق أفلت فمثله أخطار.

وأمّا ما اختار فضة فمثله أبارقة؛ لأن الرّقَة من أسماء الفضة، وقد نطق بها النبي ﷺ فقال: «الرّقَة ربع العشر»(١).

وأمّا دس جماعة فمثله طافية، وأمّا خالي اسكت فمثله خالصة؛ لأنك إذا ناديت مضافاً إلى نفسك جاز لك حذف الياء وإثباتها ساكنة ومتحرّكة؛ وقد حذُف هاهنا حرف النّداء، كما حذفه في أصل الأحجيّة، وصهْ بمعنى اسكت، وأما خُذْ تلك فمثله هاتيك.

وأمّا حمار وحش زُيّنا، فمثله فَرازين، لأن الفرأ حمار الوحش، ومنه الحديث: «كلّ الصيد في جوف الفرا»(٢).

وأمّا قوله: أنفق تقمع، فمثله منتقم؛ لأنّ الأمر مَنَ مان يَمُون مُنْ. مضارع وقمت تقِم.

وأمّا استَنشِ ريح مدامه، فمثله رَحْراح؛ لأن الأمْرَ من استدعاء الرائحة رُح. وأما غطّ هَلْكى فمثله صنبور؛ لأن البورهُم الهلْكى، وفي القرآن ﴿**وَكُنتُمْ قوماً بُوراً**﴾ [الفرقان: ١٨].

وأما سار بالليل مدة؛ فمثله سَراحين.

وأما أحْبب فَرُوقة؛ فمثله مِقْلاع، لأن الأمر من وَمق ويمق مُقْ، والّلاع: الجبان؛ يقال: فلان هَاعٌ لاعٌ؛ إذا كان جباناً جَزُوعاً.

وأما أعط ابريقاً يلُوح بغير عُروة، فمثله أُسْكُوب؛ لأن الأوس الإعطاء والأمر منه أس. والكوب: الأبريق بغير عُروة.

وأما الثّور ملكي، فمثله اللآلي؛ لأن الّلأي على وزن القنا هو ثور الوحش. وأما صفير جَحْفلة، فمثله مكاشفة؛ لأن المُكاء الصّفير؛ قال تعالى: ﴿**وَمَا كان صَلاتُهُمْ عِنْدَ البيت إلاّ مُكَاءَ وتَصْدِيةً**﴾ [الأنفال: ٣٥]. والأصل في المكاء المدّ؛ ولكنه قَصَره في هذه الأحجية، كما حذف همزة الفرا في أحجيته، وكلا الأمرين من قصر الممدود، وحذف همزة المهموز جائز.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ١/١٢، بلفظ: «وفي الرّقة ربع العشر».

(٢) رواه ابن الأثير الجزري في النهاية في غريب الحديث ٣/٤٢٢، بلفظ: «أنه قال لأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب: كلُّ الصيد في جوف الفراء».

المقامة السّابعة والثلاثون

وتعرف بالصَّعْديّة

حكى الحارثُ بن همّام قال: أصْعدْتُ إلى صعْدة، وأنا ذُو شَطاطٍ يحكي الصّعدة، واشتدادٍ يبذُر بناتِ صَعْدة؛ فلّما رأيتُ نُضْرَتَها، ورعَيْت خُضْرَتَها، سألتُ نَحارير الرُّواة، عمّا تَحْويه من السَّراة، ومعادِن الخيرات؛ لأتَّخْذَه جَذْوَةً في الظلمات، ونجدةً في الظُّلامات، فنُعِتَ لي قاضٍ بها رحيبُ الْباع، خَصِيبُ الرِّباع، تميميّ النَّسب والطباع؛ فلم أزلْ أتقرَّبُ إليه بالإلمامِ، وأتنَفّقُ عليه بالإجْمام؛ حتَّى صَرتُ صَدَى صَوتهِ، وسَلْمان بيتِه.

* * *

أصعدت: طلعتُ وارتفعتُ، قال يعقوب: الإصعاد إلى نجد واليمن والحجاز، والانحدار إلى العراق والشام وعُمان. وقال الأخفش: أصعد في البلاد: سار فيها ومضى، وأصله الذهاب في الصعود وهو الأرتفاع، ثم توسّعوا في ذلك، وقال الفرّاء رحمه الله تعالى في ابتداء الأسفار والمخارج، تقول: أصعدنا من مكّة إلى بغداد، وأصعدنا من بغداد إلى خراسان، فأما في السُّلم فتقول: صعدت فيه لا أصعدت. قال يعقوب رحمه الله: صعّد الجبل وأصعد في البلاد: انحدر فيها وصَعِد: ارتقى.

وصَعْدة: مدينة عظيمة باليمن، بينها وبين صنعاء ستون فرسخاً، وتحكُم فيها صنعةُ الجلود، والجلد الصّعدِي في غاية الجودة، ويضرب المثل بحسن نسائها.

الشَّطاط: طول القامة. والصعدة: الرمح. اشتداد: جري. يبذُر: يسبق. بنات صَعْدة: حمر الوحش. نُضرتها: خصبها ونعمتها، والنضرة: صفاء اللون وبريقه، نحارير: علماء، والنَّحرير، الماهر والحاذق الّذي جرّب الأمور وعرفها، وهو اسم يجمع وجوها من المدح، فيفسّر النحرير بالعالم والمفلِق والحاذق والماهر والعادل. والسَّراة: السادة، وهو جمع سَرَيّ، وهو السيد الشريف، وجمع فَعِيل على فَعَلة عزيز لا يُعرف غير هذا، الجَذوة: الجمرة الغليظة العظيمة وجيمها بثلاث حركات، ويجمع ثلاثتها، نحو جَذا وجُذا وجِذا. نجدة: قوّة وعوناً، الظُّلامات: جمع ظُلامة، وهو ما يشتكيه المظلوم، رَحيب الباع: واسع العطاء، فكَنَى بالباع عن

ذلك، والعرب إذا وصفَت الرجل بالسخاء، قالوا: هو رحيب الباع، وطويل الباع، وكريم الباع، والباع والبوع بَسْط اليد بالمعروف، وقد باع يبوع منه، ويقال للبخيل: قصير الباع. خصيب الرِّباع، أي هو كثير المال فجمع له كرمه كثرة ماله، فالناس يجدون في كَنَفِه الخِصْب وقد يراد بخصيب الرباع نافق سوق الأحكام فالمتعلّق به يجد الخصب.

تميميّ النّسب، أي من بني تميم وشرك الطباع مع النّسب، وهو يريد أنه كامل تام في خلقه، فنسب قبيلته لتميم، وطباعه التّمام والكمال فغلّب أحدهما، وشرك بينهما للقرب، قال ابن شرف: فيما يلِمّ بهذا التشريك، ويحسن أن يمدح قاضي المقامة به لجوده: **[البسيط]**

جاوِزْ عليًّا ولا تحفِلْ بحادِثَةٍ ... إذا ادّرعتَ فلا تسألْ عن الأسَلِ
اسم حكاه المُسمَّى في الفَعال فقدْ ... حاز العليّينِ من قولٍ ومن عَمَلِ
فالماجد السيّد الحرّ الكريم له ... كالنّعت والعطف والتوكيد والبدلِ
زان العُلا وسواه شأنَها، وكذا ... تميّز الشَّمسُ في الميزان والحَمَلِ
وربّما عابَهُ ما يفخرُون به ... يُشْنَا من الخَصْر ما يُهْوى من الكَفَلِ
سلْ عنه وانطِق به وانظر إليه تجدْ ... ملء المسامع، والأفواهِ والمُقَلِ

فإنه أراد بقوله: «حاز العلّيين» أي حاز عليًّا بالاسمية، والعلوّ بالفعلية، وهذا مثل ما تقدم للحريريّ: **[الخفيف]**

جاد بالعين حين أعمى هَواه ... عينَه فانثَنى بلا عَيْنَيْنِ

فقد أوقع التشبيه على شيئين، يتفّقان في اللفظ، ويختلفان في المعنى، وقد أنشدنا فيما تقدم لبعض المتأخرين: **[البسيط]**

فكيف أصبر عنها اليوم إذ جَمَعتْ ... طيب الهواءين ممدودٍ ومقصورِ

فالمقصود هوى النفس، والممدود الهواء الذي بين السماء والأرض، وقد قدّمنا في تفسير قول الحريري، وحيّا المسجد بالتَّسليمتين، أنّ السلام الواحد على مَنْ في المسجد عند دخوله، والثاني تحليل الصلاة.

وقوله: هنا تميميّ النسب والطباع من هذا القبيل، وأكثره في كلام المولدين، وهو مستعمل في كلام العرب، ولا يبعد أن يكون من هذا قولهم: التقى الثريان، فإنهم يريدون بذلك كثرة المطر، وأنه يبلغ في الأرض إلى التراب الندي، فالثرى الواحد المطر، والثاني التراب النَّدي، على أنه يحتمل أن يريد بذلك أنّ التراب اليابس لَما بَلّه المطر، حتى لحق بالتراب النَّدي، صار اليابس منهما يسمّى «ثرى» فقيل: التقى الثريان، وقال النابغة: **[الوافر]**

وقـد أبـقَـتْ صُـروف الـدّهـر منّـي كـمـا أبقت من السَّيْف اليماني[١]
يُـصَـمِّـمُ وهـو مـأثـور جُـرازٌ إذا جُـمـعـت بـقـائِـمـه الـيـدان

فسَّره أبو عبيد البكري وغيره: بأنه أراد بذلك الجارحة، والأيدُ الذي هو القوّة، فجمع على الأخفّ، فهذا من قبيل ما قدمناه، ولا يحضرني الآن غير هذا من كلام العرب.

قوله: الإلمام، أي تخفيف الزيارة. أنفّق، أتخرّج، والنَّفّاق ضدّ الكساد. الإجمام: الزيارة صدى صوته، أي متى دعاه وجده حاضراً مجيباً له، والصدى: صوت الجبل الذي يرِدّ عليك إذا صحتَ.

وابن همام في هذا المقامة شُرَطيّ القاضي.

[سلمان الفارسيّ]

وسَلْمان الذي ذكره، هو سلمان مولى رسول الله ﷺ وخادمه، ويعرف بسلمان الخير، قالت عائشة رضي الله عنها: كان لسلمان رضي الله عنه مجلس مع رسول الله ﷺ ينفرد به في الليل، حتى كاد يغلبنا عليه.

وقال عليه السلام: «أمرني ربي بحُبِّ أربعة، وأعلمني أنه يحبُّهم: عليّ، وأبو ذرّ، والمقداد، وسَلْمان»، رضي الله تعالى عنهم.

وأتى أبو سفيان على سلمان وصهيب وبلال، فقالوا: ما أخذتْ سيوف الله من عنُق عدوّ الله مأخذَها، فقال أبو بكر رضي الله عنه: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم! وأتى النبي ﷺ فأخبره، فقال: يا أبا بكر، لعلّك أغضبتهم، لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبتَ ربّك، فأتاهم أبو بكر رضي الله عنه فقال: يا أخوتاه، أأغضبتكم؟ فقالوا: لا، ويغفر الله لك.

وكان من أبناء أساورة فارس، وأصله من رَامهرمز، وقيل: كان من أصبهان، وكان يطلب دينَ الله ويتبع مَنْ يرجو ذلك عنده، فدان بالنصرانية وغيرها، وقرأ الكتب، وصبرَ في ذلك على مشقات نالته، وكلّها مذكورة في إسلامه في كتب السِّيَر.

وقيل: تداوله في ذلك بضعة عشر ربّاً، حتى أفضى إلى النبيّ ﷺ فاشتراه من قوم من اليهود.

وأوّل مشاهدِه الخندق، وهو الذي أشار بحفرِه، فقال أبو سفيان وأصحابه: هذه مكيدة ما كانت العرب تكيدُها.

وسئل عليّ عنه فقال: علم العلم الأول، بحر لا ينزف، هو منّا أهل البيت، وفي رواية: هو مثل لقمان الحكيم، وكان فاضلاً حبْراً زاهداً عالماً متقشفاً.

---

(١) البيتان للنابغة الجعدي في أمالي القالي ١/ ٧١، واللآلي ص ٢٤٦، وخزانة الأدب ١/ ٥١٣.

وتعلّم عَملَ الخوص، فقيل له: لم نعمل هذا وأنت أمير! وقد أجري عليك رزق، فقال: إني أحببت أن آكل من عمل يدي. وكان يتصدق بما يرزق من بيت المال، وكانت له عباءة يفترش بعضها ويلبس بعضها.

وقال ﷺ: «لو كان الدِّين في الثريا لناله سلمان».

أبو هريرة رضي الله عنه، كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ، فقرأ سورة الجمعة، فلما قرأ: ﴿**وآخرين مِنهُمْ لَما يلحقوا بِهِمْ**﴾ [الجمعة: ٣] ـ وفينا سلمان ـ وضع يده على سلمان، ثم قال: «لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجل من هؤلاء».

وتوفِّيَ في آخر خلافة عثمان رضي الله عنه، وما ترك شيئاً يورث عنه. وفضائله كثيرة.

وعلى قولهم لأبي بكر: «لا، ويغفر الله لك»، قال أبو محمد في الدّرة: وربما أجاب المستخبر بلا النافية، ثم عقبها بالدعاء له، فيستحيل الكلام إلى الدعاء عليه، كما روي أنّ أبا بكر رضي الله عنه رأى رجلاً، بيده ثوب، فقال: أتبيع هذا؟ فقال لا عافاك الله، فقال أبو بكر رضي الله عنه لقد علمتم لو تعلمون! فهلا قلت: لا وعافاك الله!.

قال أبو محمد: والمستحسن ما قال يحيى بن أكتم للمأمون، وقد سأله عن أمر فقال: لا؛ وأيد الله أمر أمير المؤمنين.

وحكي أنّ الصاحبَ بن عباد لمّا سمع هذه الحكاية، قال: والله لهَذه الواو أحسنُ من واوت الأصداغ، في خدود المُرْد الملاح.

* * *

وكنت مع اشتيارِ شُهدِه، وَانْتِشَاق رَنْدِه، أشْهَدُ مشاجر الخصوم، وأسفرُ بين المعْصُومِ منهم والموْصُوم، فبينَما القاضِي جالسٌ لِلإسجال، في يَوْم المحْفَلِ والاحْتِفَال؛ إذ دَخَلَ شَيْخٌ بالي الرِّياش، وبادِي الارتِعَاش؛ فتبصّرَ الحَقْلَ تبصُّرَ نَقَّاد، ثم زعم أنَّ لهُ خَصْماً غيرَ منقاد؛ فلم يكن إلا كَضَوءِ شرارة، أو وَحْي إشارة؛ حتّى أُحْضِرَ غلام، كأنَّهُ ضِرْغام فقال الشيخ: أيَّدَ الله القاضي، وعَصَمَهُ من التغاضِي، إن ابني هذا كالقلم الرّدِي، والسَّيْفِ الصَّدِي، يجهل أوصاف الإنصاف، ويَرْضعُ أخلافَ الخِلاَفِ، إن أقدمتُ أحجَمَ، وإذا أعْرَبتُ أعْجَم، وإن أذكيتُ أخْمَدَ، ومَتى شَوَيت رمَّدَ؛ مع أني كَفَلتهُ مذ دبَّ، إلى أن شَبَّ، وكنت له الطفَ مَنْ رَبيَّ ورَبَّ فأكبر القاضي ما شكا إليه، وأطرف بِهِ مَنْ حَوَاليْه، ثم قال: أشْهَدُ أنّ العُقوق أحدُ الثُّكلَيْن، ولرُبَّ عُقم أقرُّ لِلعَين.

* * *

قوله: اشتيار؛ أي استخراج عسله، وأراد اجتناء منفعته. انتشاق: شمّ، يقال: نشق الريح الطيبة نشقاً وانتشق: وتنشق: شمها، الرَّنْد: شجر طيّب الرائحة، قال ابن دريد رحمه الله: هو الآس، وقال الجوهري رحمه الله: ربما سُمِّيَ العودُ رَنداً، مشاجر الخصوم: مواضع الخصام التي يتشاجر فيها الخصمان؛ أي يمتزج كلام هذا بكلام هذا، من الشَّجْر، واحدها مَشجَر، وقد يرُاد بها المصدر، وجمع لاختلاف أنواعه، أسفر: أمشي بينهم بالصلح المعصوم: المحفوظ من الوقوع فيما يحذر، وأصل العصمة في كلامهم المنع، وعصمته من كذا، إذا منعته. ﴿**وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ**﴾ [المائدة: ٦٧]، أي يمنعك، الموصوم: ذو الوصْم، وهو العيب، فأراد أنه يُصلح بين أهل الخير والشرّ. للإسجال: للحكم، وأسجل القاضي على نفسِه بالحكم، وسجَّل، إذا كتب على نفسه، فأراد أنه جلس للحكم في العقود والسجلات، ومحفل القوم: مجتمعهم، والاحتفال: كثرة النَّاس واجتماعهم، ومعنى احتفل الرجل: جَمع، وأراد: يكثر من الشيء الذي قصد، وجمع المحفل محافل، ومنه الشاة المحفلة، وهي التي يحبس لبنها أياماً في ضرعها لا تحلب. الرياش: الثياب. تبصّر الحفل: نظر الجمع وشخص فيهم، نقّاد: مفتش، كأنه ينقُد ببصره الرجال، ويريد أنّه نظر من شرط القاضي أهل الحزم والجراءة، فأخبرهم بقصّة ابنه، فانطلقوا فأتوا به، ونقّاد الدراهم: الذي يُمْعِن النظر فيها والتقليب لها، ليميز جيدها من رديئها، وحي إشارة، يريد إشارة العين، إذا غمزت مَنْ تريد أن يفهم إشارتك دون غيره، والوحي: الإيماء الخفي. ضِرْغام: أسد في عظم خلقته وشدته، التغاضي: التغافل والسكوت عن الظلم، الصَّدى: الذي علاه الصّدأ، وهو وسخ السيف، والأخلاف جمع خلَف، وهو ما يجلب منه اللبن ويقبض عليه الحالب، قال ابن دريد: وقيل: الخلف للناقة كالضَّرْع للبقرة: أحجم: تأخر، أعربت: أوضحت، أعجم: أبهم ولبّس أذكيت: أوقدت. أخمد: أطفأ، وخمدت النار: أطفىء لهبُها، كفلته: ربيّته. دبّ. مشى مشي صغيرة على يديه ورجليه. شبَّ: صار شاباً ألطف: أشفق وأرق، ربّ: أصلح، يريد أنه أصلح أحواله، وأحسن تربيته تحرُّزاً من أن ينسبه القاضي إلى تقصير. أكبر: رآه كبيراً، أطرف: أعجب، وجعلهم يستطرفون خبره. الثكلين: الفقدين، يريد أنّ الرجل إذا عقه ولده ولم يبرّه فكأنه قد فقده.

[عقوق الوالدين]

ومما جاء في العقوق: كان جرير الشاعر أعقَّ الناس بأبيه، وكان بلال ابنه كذلك، فرجع جرير بلالاً في الكلام، فقال له بلال: الكاذب بيني وبينك ناك أمّه، فأقبلت أمّه عليه، وقالت: يا عدوّ الله، تقول هذا لأبيك! فقال جرير: دعيه، فكأنه سمعه مني وأنا أقولها لأبي.

وممنّ شُهر عنه العقوق بوالديه الحُطيئة الشاعر، قال يهجو أباه: **[الوافر]**

لــحــاكَ الله ثــمّ لــحــاك حَــقّــا أبــاً ولَــحــاكَ مــن عَــمٍّ وخَــالِ[(١)]
فبئس الشيخ أنت لَدَى المخازِي وبئس الشيخ أنت لدى المعالي
جـمـعـتَ الـلـؤم لا حـيّـاك ربـي وأبــوابَ الـسَّـفـاهـة والـضَّـلال

وقد تقدّم هجو نفسه وأمه.

وممن هجا أباه وغيره عليّ بن بسام، وما سلِم من هجائه أمير ولا وزير، ولا كبير ولا صغير، ومما قال في أبيه: **[الخفيف]**

هبك عُمِّرتَ عُمْرَ عشرين نَسْراً أتــرى أنــنـي أمـوت وتـبـقـى!
فـلـئـن عـشـتُ بـعـد مـوتـك يـومـاً لأشـقّـن جـيـب مـالـك شـقـا

وقال فيه أيضاً: **[الطويل]**

بعثتُ لأستهديك عَيْراً ولم أكن عَـلِـمْـتُ بأنّ العَيْرُ صَر لنا صِهْرا
فـوجَّـه بـه كـي نـشـترك في ركـوبـه فـتـركـبـه بَـطْـنـاً وأركـبُـه ظـهـرا

وقال فيه أيضاً: **[الرمل]**

شِـدُت داراً خـلـتـهـا مـكـرّمـةً سـلّـط الله عـلـيـهـا الْـغَـرَقـا
وأرانـيـكَ صـريـعـاً وسْـطَـهـا وأرانــيــهـا صـعـيـدا زَلَـقَـا

وقال فيه أيضاً: **[البسيط]**

بَـنـى أبـو جـعـفـر داراً فـشـيَّـدَهـا ومـثـلـه لـخـيـار الـدّور بـنّـاءُ
فـالـجـوع داخـلـهـا والـذلّ خـارجـهـا وفـي جـوانـبـهـا بـؤسٌ وضـرّاءُ
ما ينفع الدار من تشييد حائطِها ولـيـس داخـلـهـا خـبـزٌ ولا مـاءُ

وكذب، كان أبو جعفر محمد بن نصر بن منصور بن بسام في نهاية السّودَد والمروءة والنظافة، رجل مترفٌ نبيل المركب، مليح الملبس، ظريف الغلمان، له همة في تشييد البنيان، وما رثاه ابن الرومي به يدلّ على كذب ابنه، قال ابن الرومي فيه: **[الكامل]**

أوْدَى مـحـمـد بـن نـصـرٍ بـعـدمـا ضُـرِبَـتْ بـه فـي جـوده الأمـثـال
مـلـكٌ تـنـافـست الـعـلا فـي عـمـره وتـنـافـسـتْ فـي مـوتـهِ الآجـالُ
مَـنْ لـم يـعـاين سيرَ نعش محمدٍ لـم يـدر كـيـف تُـسـيَّـر الأجـبـالُ
ودَخــرتــه لــلــدهــر أعــلــم أنّــهُ كـالـحِـصْـنِ فـيـه لـمـن يـؤول مـآل
وتـمـتـعـتْ نـفـسـي بـروح رجـائـه زمـنـاً طـويـلاً والـتـمـتـع مـالُ

---

(١) الأبيات في ديوان الحطيئة ص ١١٩.

ورأيتُه كالشمس إن هي لم تُنلْ   فالرِّفق منها والضياء ينالُ
لهفي لفقدك يا محمّد إنه   فُقِدَتْ بك النّفحات والأنفالُ
بالله اقسمُ إنّ عمرك ما انقضى   حتى انقضى الإحسانُ والإجمال

ولابن بسام يعزّي أبا القاسم بن وهب في ابن مات له: **[مخلع البسيط]**

قل لأبي القاسم بن وهبِ   أتى بك الدَّهر للعجائبْ
ماتَ لك ابنٌ وكان زيناً   وعاش ذو الشَّيْن والمعايِبْ
حياةُ هذا كموت هذا   فليس تخلو من المصائب

وقد تقدَّم هجوه في أخيه.

ومن حسن التعطف على الابن العاق، قول إبراهيم الصابي، وكان ابنه يعقّه: **[البسيط]**

أرضى عن ابني إذا ما عقّني حَذَراً   عليه أن يغضبَ الرحمنُ من غَضَبي
ولستُ أدري بم استحقّقت من وَلَدِي   إسخانَ عيني وقد أقررتُ عينَ أبي!

* * *

قوله: ولرب عُقْم، العُقْم ألاّ تلد المرأة.

فقال الغُلام؛ وقد أمعضَه هذا الكلام: والذي نصب القُضاة للِعَدْل، وملَّكَهُمْ أعنَّة الفضْلِ والفَصْل، إنه ما دعا قطّ إلا أمّنت، ولا ادَّعَى إلا آمنتُ، ولا لَبَّى إلاَّ وأحرمتُ، ولاَ أوْرَى إلا وأضرَمْت؛ بَيْدَ أنَّهُ كَمَنْ يَبْغي بَيْضَ الأنُوق، ويطْلَب الطَّيَران مَن النُّوق فقال له القاضي: وبمَ أعْنَتَكَ، وامتحنَ طاعَتِك؟ قالَ: إنَّهُ مُذ صَفِرَ من المال، ومني بالإمحال، يَسْومني أن أتلمَّظَ بالسُّؤال، وأسْتَمْطِر سُحُبَ النَّوال؛ لَيفيضَ شِرْبَهُ الذي غاض، وَينْجبر من حَالِه ما انهاضَ، وقد كان حِينَ أخذَني بالدَّرْس، وعَلَمَني أدبَ النَّفس، أشربَ قلبي أنَّ الحِرْص مَتْعَبة، والطَّمَعَ مَعتبة، والشره مَتْخَمة، والمسألة مَلأمَة.

* * *

أمعضه: أوجعه وأغضبه، وأمعض من ذلك وامتعض: غضب وشقّ عليه وأوجَعه، ادّعى: نسب لنفسه ما شاء، وفلان مُدَّع وفعله الدعوى آمنت: صدقت ما ادّعاه لبّى: من تلبية الحاج إذا صاح: لبَّيك لبّيك. أحْرمت: صرت محرماً. أورى: أظهر له النار من الزند، أضرمت: أوقدت، بيد: غير الأنوق: ذكر الرّخم ولا بيض له، فكأنه طلب أمراً لا يكون أبداً، ومثله: طلب الأبلق العقوق، والأبلق الذكَر والعقوق من الخيل: التي امتلأ

بطنها من حملها؛ يقال للأنثى: قد أعقت وهي معقّ وعَقوق؛ فكأنه طلب أمراً لا يكون أبداً، لأنه لا يكون الأبلق عَقوقاً.

ويقال: إن رجلاً سأل معاوية أن يزوجه أمه هنداً، فقال: أمرها إليها، وقد أبت أن تتزوّج، قال: فولّني مكان كذا وكذا، فقال معاوية متمثلاً: [**الخفيف**]

طلب الأبلق العَقوق فلمّا لم ينله أراد بيضَ الأنوقِ[1]

والأَنوق: طائر أبيض في شواهق الجبال، فبيضها في حرزٍ لا يُطمَع فيه فمعناه طلب ما لا يكون، وأما طلب الطّيران من النوق فمثل الأول، وهو لا يمكن قوله: أعنتك، أي أتعبَكَ، وكلْفك ما يشقّ عليك، من عنتَ البعير يعنت عنتا، إذا حَدَث في رجله كَسْر بعد الجبر، فلا يمكنه التّصرّف إلا بمشقة. قال أبو عبيد رحمه الله: عنّته: أضرّ به، والعَنْت: الضرر، قال: وأعنتَه أيضاً، أهلكه وقال أحمد بن عبيد: أعنَته: شدّد عليه، والعنت: التّشديد.

ابن عَزيز: عَنت: هلاك، وأصله المشقة والصعوبة، ومنه قولهم: أكمة عَنُوت، إذا كانت صعبة المسالك، وقوله تعالى: ﴿**لأَعْنَتَكُم**﴾ [البقرة: ٢٢]، أي لأهلككم، ويجوز أن يكون المعنى لشدّد عليكم وتعبّدكم بما يصعب أداؤه عليكم، كما فعل بمن قبلكم. امتُحِن: ابتُلي، صَفِر: خلا، مُنِيَ: بُليَ. الإمحال: الجدب والفقر، يسومني: يكلفني. أتلمَّظُ بالسؤال، أي أكثر الكلام به، والتلمُّظ: تتبُّع ما بقيَ في الفم من الطعام باللسان بعد الأكل سُحب: جمع سَحابة، النوال: العطاء، قال ابن الأنباري رحمه الله: النَّول والنوال: المنفعة والحظ، ونِلْت الرجل: إذا نفعته. وأنلته حظاً ونالني فلان: نفعني، وقولهم: ما كان نولك أن تفعل كذا؛ أي ما كان لك منفعة في هذا الفعل، ونولك: منصوب خبر كان وأن نفعل اسم كان أو بالعكس. يفيض: يسيل ويكثر. شِربه: ماؤه، وأراد به ماله: غاض: جفّ، انهاض: انكسر. أشرب: روى وسقى. الحرص: كثرة: الطمع والطلب للدنيا، والشّرَه: الحرص الكثير. متخمة: مفسدة، والمسألة: سؤال ما في أيدي الناس. ملأمة: لؤم.

* * *

ثم أنشدني من فِلَقِ فيه، ونحتِ قوافيه: [**السريع**]

إرضَ بأدْنى العَيْشِ واشكُرْ عليهِ شكر مَن القُلُّ كثير لدَيْهِ
وجانِبِ الحرْصِ الذي لَمْ يَزَلْ يَحُطُّ قَدْرَ المتراقِي إليهِ
وحامِ عَنْ عِرْضِك واسْتَبْقهُ كما يحامي اللَّيْثُ عن لِبْدَتيهِ

(١) البيت بلا نسبة في لسان العرب (أنق)، (عقق)، وتهذيب اللغة ١/ ٦٢، ٩/ ٣٢٤، وجمهرة اللغة ص ٣٧١، ومقاييس اللغة ١/ ١٤٩، وتاج العروس (أنق)، ويروى «لم يجده» بدل «لم ينله».

واصْبِرْ عَلَى ما نابَ من فاقةٍ صَبْرَ أُولى العَزْمِ وأغْمِضْ عَلَيْه
ولا تُرِقْ ماءَ المحيَّا ولَوْ خوَّلك المسؤولُ ما في يديهِ
فالحرُّ مَنْ إن قَذيَتْ عَيْنَهُ أخفي قذى جَفْنَيْهِ عن ناظِرَيْهِ
ومَنُ إذا أخْلَقَ ديباجُهُ لَمْ يَر أنْ يُخلِق دِيباجتَيْهِ

* * *

فِلق: شقّ من بين شفتيه، نحت: نجر، أراد إنشاء قصائده. والقوافي، من قفوت الشيء، إذا تتبعته، وسميت بذلك الاتباع بعضها بعضاً. القلّ: القلّة. المتراقي: المرتفع، لبْدتيْه. شعر متلبد على كَفَله وبين كِتفيه، ناب: نزل. فاقة: فقر. أغمض، أي استره واغفل عنه، والمحيّا: الوجه، خولك: ملكك. الناظر: سواد العين، فيريد أنه إذا وقع في عينيه قذى وهو السقط على شِدَّة إذايته، احتمله الحرّ الكريم وصبر عليه، وأخفاه من ناظريه: تجلد، أي أخفي أذى بعض العينين عن بعض، وهذا غاية في المبالغة، ديباجه: ثوبه، والديباج: ثوب رفيع، ديباجتيه: خدّيه، وقيل ديباجة الخدّ حسن بشرته، وأخلق الشيء، وأخلقه غيره لازم ومتعدّ: يقول: إذا افتقرتَ وبلي ثوبك فلا تبذل وجهك لأحد، ولا تهنه بالسؤال، وهذا من قول حبيب: **[البسيط]**

ذلّ السؤال شجاً في حَلْق معترضٌ من دونه شَرَقٌ من خَلْفِه حَرَضُ[1]
ما ماء كفك إن جادت وإن بخلت من ماء وجهي إذا أفنيتهُ عِوَضُ

وقال في ابن الزيات: **[البسيط]**

اغطَى ونطفة وجهي في قراراتها يَصُونها الوَجَناتُ الغضّة القُشُبُ[2]

ويقول: لم يخلق وجهي سؤال، فوجهي غضّ جديد، والنطفة: ماء الوجه الذي نهى الحريري عن إراقته حين قال: **[السريع]**

ولا تُرِق ماء المحيَّا ولو خوّلك المسؤولُ ما في يَدَيْهِ

[أبو تمام وعبد الصمد بن المعذل]

قال الصوليّ: كان حبيب رحمه الله تعالى لا يجيب هاجياً، ترفُّعاً عنه، فانحدر إلى البصرة والأهواز يمدح من بهما، فكتب إليه عبد الصمد بن المعذل: **[الخفيف]**

أنت بين اثنتين تبرز للنّاس بكلتيهما بوجهٍ مُذَالِ
لَسْتَ تنفكَ طالباً لوصَالِ من حبيب أو طالباً لِنَوالِ

---

(١) البيتان في ديوان أبي تمام ص ١٤٩.
(٢) البيت في ديوان أبي تمام ص ٤٨.

أيّ مـاء لـحـرّ وجـهـك يـبـقـى بـيـن ذلّ الـهـوى وذلّ الـسـؤال

فلما قرأ الشعر قال: قد شغل هذا ما يليه، ولا أرب لنا فيه.

وحكى الأصبهانيّ قال: جمع مجلسٌ أبا تمام وعبد الصمد، وكان عبد الصمد سريعَ القول، وفي أبي تمام بطء، فأخذ عبد الصمد قرطاساً، وكتب: أنت بين اثنتين، الأبيات، ورمى بها إلى أبي تمام، فأخذه وخلا به طويلاً، وجاء وقد كتب فيه: [الكامل]

أفـيّ تـنـظـم قـولَ الـزُّور والـفَـنَـدِ وأنـت أنْـزرُ مِـنْ لا شـيء فـي الـعَـدَدِ

أشْرجتَ قلبك من بغض على حُرَقٍ كـأنـهـا حـرَكَـاتُ الـرُّوحِ فـي الـجَـسَـد

فقال له عبد الصمد: يا ماصّ بَظْر أمه، أخبرني عن «لا شيء» في العدد كيف يكون؟ وعن قولك: «أشرَجْتَ قلبك»، أعيبة أو خُرْج، فأشْرجَه، عليك لعنة الله.

فانقطع أبو تمام انقطاعاً ما رئِيَ مثله.

وحكاية الصوليّ أولى بالصحة من هذه، وليس عبد الصمد من رجال أبي تمام، ولا له من التصرّف في أنواع الشعر ما لأبي تمام، وصنعُ البديع وَقَفٌ عليه، ولو صحّت الحكاية فلا يحكم بالنّدرة، لكن يحكم بالجملة، واستعمال ديوان حبيب في مجالس العلماء شاهد على فضله، على أنّ ما جمعنا لعبد الصمد في هذا الكتاب غاية في بابه. فلنرجع إلى ما قيل في ذل السؤال.

[ذل السؤال]

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سأل وعنده ما يغدّيه أو يعيشه فإنما يستكثر من جَمْرِ جَهَنّم»[١].

وقال الحسن بن علي رضي الله عنهما: حسبك من السؤال أنه يضعف لسان المتكلم، ويكسر قلب الشجاع البطل، ويوقف الحرّ الكريم موقف العبد الذليل، ويذهب بنضرة اللون، ويمحو الحسب، ويحبّب الموت، ويمقت الحياة.

الأصمعي رحمه الله: سمعت أعرابياً يقول: المسألة طريق المذّلة، تسلب الشريف عزة والحسيب حسبه.

وقال معاوية لعبد الله بن الزبير: أنشدني ثلاثة أبيات غريبة، فقال أنشدكها بثلاثين ألفاً تدفعها إليّ، فقال: حتى تنشد فأسمع، فأنشده أبيات الأفوه الأوديّ: [الوافر]

بـلـوتُ الـنّـاسَ قـرنـاً بـعـد قـرنٍ فـلـم أرَ غـيـر خَـتْـلٍ أو قـتـالِ[٢]

---

(١) أخرجه أبو داود في الزكاة باب ٢٤، وأحمد في المسند ٤/ ١٨١، بلفظ: «فإنه يستكثر من نار جهنم».

(٢) الأبيات في ديوان الأفوه الأودي ص ٢٣.

ولم أرَ في الخطوب أشدّ ضرّاً ... وآذى مِنْ مُعاداة الرِّجال
وذقت مرارة الأشياء طرّاً ... فما شيء أمرُّ من السؤال

ثم قال له: أسمعتك وأنت الحكَم، فحكَم له، وأمر له بثلاثين ألفاً.

وينظر إلى ما نسبه ابن المعذل لحبيب من إضافة ذل السؤال، ما أضافه له عليّ بن الجهم من ذل الأعتذار، وقال يعتذر للمتوكل: **[الخفيف]**

إنّ ذلَّ السؤال والاعتذارِ ... خُطةٌ صَعْبَةٌ على الأحْرَارِ
ليس من باطلٍ تورّدها المر ... ءُ ولكن سوابقُ الأقدارِ
فارْض للسائل الخضوعَ وللقا ... رِف ذنباً بذلّة الاعتذار
إن تجافيتَ منعماً كنتَ أولى ... مَنْ تجافَى عن الذّنوب الكبارِ
أو تعاقبْ فأنت أعرف با ... لله وليس العِقابُ منك بعارِ

وقال أيضاً: **[الطويل]**

هي النفس ما حمَّلْتَها تتحمَّلُ ... وللدهر أيّامٌ تجورُ وتعدِلُ
وعاقبة الصبّر الجميل جَميلةٌ ... وأكمل أخلاق الرجال التفضّلُ
ولا عارَ أن زالت عن المرء نعمة ... ولكنَّ عاراً أن يزول التجمُّلُ
وما المال إلا حسرةٌ إن تركتَه ... وغُنْم إذا قدَّمتَه متعجَّلُ

* * *

قال: فعبس الشَّيخُ واكفهرّ، وانْدَرَأ على ابنه وهرَّ وقال له: صَهْ يا عُقَق، يا مَنْ هو الشَّجَي والشَّرق، ويكَ، أتُعَلِّمُ أمَّكَ البِضاع، وظئْرَكَ الإرضاع! لَقَد تحكَّكَتِ العَقْرَبُ بالأفْعَى، واسْتَنَّتِ الفِصَالَ حَتَّى القرْعَى، ثم كأنه ندِم على ما فرط مِنْ فيه، وحَدَتَهُ المِقَةُ على تلافِيه، فَرَنا إليه بعين عاطفٍ، وخُفَضَ له جَناح مُلاطِف، وقال له: وَيْكَ يا بُنيَّ، إنَّ مَنْ أُمِرَ بالقناعة، وزجَرَ عن الضَّرَاعة، هم أربابُ البضاعَة، وأولو المكسبة بالصناعة؛ فأما ذوو الضَّرورات، فقد استثنىَ بهم في المحظورات؛ وهَبْكَ جهِلْتَ هَذَا التأويل، ولم يَبْلغْك ما قيل، ألست الذي عارضَ أباه، فيما قالَ وما حابَاه!

قوله: اكفهر، اشتدّ عبوسه، ووجهٌ مكفهر: منقبض كَالح، لا يُرى فيه أثر بشر ولا فرح اندرأ: اندفع على ابنه بالشتم، هرّ: كشر وجهه وعبسه، صه: اسكت، يا عُقَق: يا كثير العقوق، ويقال: عق أباه يعقه عقوقاً، فهو عاق، ويعدل إلى عُقَق للمبالغة، كعامر وعمر، وعقّ أباه: لم يطعه وقطع رحمه. ولما قُتل حمزة عمّ النبي ﷺ ورضي الله عن

عمه، مرَّ به أبو سفيان، فطعنه بالرمح في شِدقِهِ، وقال: ذق عُقَق، أي ذق جزاء فِعْلَك يا عُقَق والعق: القطع والشق.

وقال عليه الصلاة السلام: «ثلاثة لا يدخلون الجنة: العاقُّ لوالديه، والدَّيُّوث، وَرَجُلة النساء»[1].

قوله: الشَّجَا: الاختناق بالطعام، الشّرق بالماء والطعام والشراب، بهما قوام العيش، فإذا عرض فيهما ذلك فقد عرضت مشقة وأذيّة في موضع الالتذاذ، وكذلك الولد العاق، وهو أذيّة في موضع راحة، وما أحسن قول القائل: **[مخلع البسيط]**

قَرابةُ السُّوءِ داء سُوءٍ ... فاحملْ أذاهمْ تَعِشْ حميدا

فمن تكن قَرْحةٌ بفيه ... يَصْبِرْ على مَصِّه الصَّديدا

البُضاع: النكاح والجماع ظئرك: مرضعتك، تحكّكت: لصقت بها وحلقَتْ حواليها، استنّت: جَرَب متتابعة في سنن، وهو الطريق والمذهب، ومنه فلان يستنّ، أي يجري على أيّ أمر شاء، لا يزجره عنه زاجر. وقيل: استنّت، أي سمنت، من قولهم: سنّ الراعي إبله؛ إذا أحسن رَعيها فأسمنها، فكأنه حسَّنها وصقلها. القرعى: التي يصيبها القَرَع في رأسها، والقرعى: جمع قريع، مثل مرضى ومريض، وهذه أمثال تضرب لمن يتشبه بغيره، ولا يقوي قوّته.

فرّط: سبق حدته: ساقته المِقَة: المحبة، تلافيه: تداركه بالعطف عليه رنا: نظر: عاطف: راحم، ملاطف، أي رفيق به، أي حسَّن كلامه وأنسه وخفض الجناح؛ يكنى به عن لين الجانب ويك: عجباً لك! زجر: نهى الضراعة: التّذلل، وضرع ضراعة فهو ضارع، تضرّع: تذلل وتخشع، البضاعة: التجارة. المحظورات: الممنوعات، وأراد بالاستثناء ما أحلّ الله من المحرمات لأهل الضرائر، ويروى: سوّغوا في المحظورات، أي رخّصوا لهم فيها هبك: أحسبك التأويل: التفسير، ولم يبلغك ما قيل، يعني في إباحة السؤال للمضطر، وهو قول الناس: الضرورات تبيح المحظورات، ويصدّقه قوله تعالى: **﴿فَمَنْ اضْطُرَ في مخمصة﴾** [المائدة: ٣]، وقال عليه الصلاة والسلام: «إنما المسألة كُدوح يكدح بها أحدكم وجهه إلا مسألة من ذي سلطان أو في أمر لا بدّ منه»[2]، عارضه: قابله بنقيض ما قاله. حاباه: اختصّه بهذه الوصية، أي جعل هذا الشعر وصية لمن سمعه، ويقال: حابى فلان فلاناً، إذا مال إليه واتّصل به، أخذ من حَبيّ السحاب، وهو السحاب الذي يدنُو بعضه من بعض وقيل حباه: خصه باليل أخذه من الحبوة، وهي

---

(١) أخرجه النسائي في الزكاة باب ٦٩، وأحمد في المسند ٢/ ٦٩، ١٢٨، ١٣٤.

(٢) أخرجه أبو داود في الزكاة باب ٢٦، والنسائي في الزكاة باب ٩٢، وأحمد في المسند ٢/ ٩٤، ٥/ ١٩، ٢٢.

العطية يحبوها الرجل صاحبه، ويخصّه بها قال اليزيدي: ثلاثة إن لم تظلمهم ظلموك: ابنك، وزوجك، وخادمك. [البسيط]

* * *

لا تَقْعُدَنَّ على ضُرٍّ وَمَسْغَبةٍ ... لِكي يقال عَزيزُ النَّفْسِ مُصْطبِرُ

وانْظُرْ بِعَيْنِكَ هَل أرضٌ مُعَطَلّةٌ ... من النَّباتِ كأرض حَفَّها الشَّجرُ

فَعَدَّ عَمَّا تُشِيْرُ الأغْبِيَاءُ بِهِ ... فأيُّ فضلٍ لِعُودٍ ما لَهُ ثَمَرُ

وَارْحَلْ رِكابَكَ عن ربْعٍ ظمئتَ بَهِ ... إلى الجناب الَّذي يِهْمِي بِهِ المطَرُ

واسْتَنْزِلِ الرِّيّ من دَرِّ السَّحابِ فإنْ ... بُلَّتْ يَدَاكَ به فَلْيَهنِكَ الظَّفرُ

وإنْ رِدِدْتَ فَمَا في الرَّدِّ مَنْقَصَةٌ ... عليْكَ، قد رُدَّ موسىَ قَبْلُ والخَضِرُ

* * *

مسغبة: جوع. حفّها: حلّقها، يريد أنّ الأرض ذات الخصب تُقصَد لما فيها من الأرزاق، والأرض المُعَطّلة من النبات ـ وهي الجدبة ـ يفرّ عنها، وكذلك الغنيّ يُكَرم لمالِه، والفقير يهجر ويهان.

[فضل المال]

ومما جاء في فضل المال، قال رسول الله ﷺ للمجاشعيّ: «إنْ كان لك مالٌ فلك حسب، وإن كان لك خلُق فلك مروءة، وإن كان لك دينٌ فلك كرم».

وقال حكيم لابنه: يا بنيّ أوصيك، عليك بطلب المال، فلو لم يكن إلا أنه عزّ في قلبك، وذلٌ في قلب عدوّك.

وقال آخر لابنه: يا بنيّ أُوصيك باثنتين لن تزال بخير ما تمسّكت بهما: درهمك لمعاشك، ودينك لمعادك.

وكان سعد بن عبادة يقول: اللهمّ ارزقني حمداً ومجداً، فإنه لا مجدَ إلاّ بفَعَال، ولا فعال إلاّ بمال.

وقالوا: المال آلة للمكارم، وعون على الزمان، ومتألّف للإخوان، ومَنْ فقدَه قلّت الرغبة إليه والرهبة منه.

قال سفيان الثوريّ: المال سلاح المؤمن في هذا الزمان.

وكان لأحيحة بن الجُلاَح بالزَّوراء ثلاثمائة ناضح، فدخل بستاناً له، فمرّ بتمْرة فلقطها، فَلِيمَ على ذلك، فقال: تمْرة إلى تمرة تمَرات، وَجَمل إلى جمل ذَوْد. ثم أنشد يقول: [البسيط]

إنّي مقيمٌ على الزَّوراء أعمرُها إن الحبيب إلى الإخوان ذو المالِ[١]
استغن أو مت ولا يغرُرْك ذو نشَبٍ من ابن عمٍّ ومن عمٍّ ومن خال
كلّ النداء إذا ناديتُ يَخْذُلُني إلاّ النداء إذا ناديتُ يا مالي

وقال عروة بن الورد: **[الوافر]**

ذرِيني لِلْغِنَى أسْعَى فإنّي رأيتُ النَّاسَ شرّهُمُ الفقيرُ
وأدناهم وأهونُهُمْ عليهم وإن أمسى له حَسَبٌ وخِيرُ
يُباعده القريب ونَزْدَرِيه حليلتُه ويقهره الصغير
ويلقى ذو الغنى وله جلال يكاد فؤادُ لاقِيهِ يطيرُ
قليل ذنْبه والذّنب جمٌّ ولكنْ للغنى ربٌّ غفورُ[٢]

ومن أمثال بغداد: المال المال، وما سواه محال.

قوله: الأغبياء: الجهال، وأراد بهم الّذين يأمرون بالبخل. ظمئت: عطشت. والركاب: الإبل. والجَناب: الجانب والناحية. يهمِي: يسيل والرِّيّ: الشبَع من الماء، والصَّوْب وقع الماء. والظفر: الفوز بالحاجة، يقول: فارق أرضك واغترب في طلب المال، واسأل الكرماء يعطوك.

وقال الشاعر: **[الطويل]**

سأُعمِل نصَّ العيس يوماً ليكفِني غِنَى المال يوماً أو غِنَى الحَدَثانِ[٣]
فَلَلموتُ خيرٌ من حياة يُرى بها على المرءِ بالإقلالِ وَسْمُ هَوانِ
إذا قال لم يُسْمَعْ لحسْن مقالهِ وإن لم يقل قالوا عديمُ بيانِ
كأنّ الغنى في أهله يجعل الفتى بغير لسانٍ ناطقاً بلسان

وأشار بقوله: «قد ردّ موسى قبل والخضر، إلى قوله تعالى: **﴿حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا﴾** [الكهف: ٧٧].

---

(١) يروى البيت الأول:

إني أقيم على الزوراء أعمرُها إنّ الكريم على الإخوان ذو المالِ

وهو لأحيحة بن الجلاح الأنصاري في لسان العرب (زور)، وتاج العروس (زور).

(٢) يروى البيت الأخير:

قليلٌ عَيْبُهُ والعينُ جمٌّ ولكنّ الغنى ربٌّ غفورُ

وهو في ديوان عروة بن الورد ص ٩٢، والعقد الفريد ٣/ ٢٩، وبلا نسبة في الإنصاف ١/ ٦٤.

(٣) البيت الأول لأعرابي من باهلة في البيان والتبيين ١/ ٢٣٤، وعيون الأخبار ١/ ٣٤، والكامل ١/ ٤١٠، وبلا نسبة في مقاييس اللغة ٥/ ٢٧٦، وأساس البلاغة (مني).

وفي نسب الخضر اختلاف، منهم مَنْ جعله من قابيل بن آدم، ومنهم من يجعل بينه وبين سام بن نوح خمسة آباء، ويجعله من ذريّة سام، وقال عليه الصلاة والسلام: «إنما سُمِّيَ خضراً لأنه جلس على فروة بيضاء، فإذا هي تهتَزّ خضرة»(١). والفروة: الأرض البيضاء، وقصته مع موسى مشهورة. وقيل إن موسى صاحبه غير موسى بن عمران. وقال موسى للخضر حين فارقه: عظني فقال: لا يراك الله حيث نَهَاك، ولا يفقدُك حيث أمرك، فكما تذهب بأمل صادق فتخيب، قد تذهب بأملٍ كاذب فتصيب، وتذهب للحقير، وتدرك الجليل. وقد ذهب موسى ليقتبس ناراً، فكلّمه ربه. وقد تقدّم هذا.

قال ابن عبد ربه: مما جُبِل عليه الحرّ الكريم، ألاّ يقنع من شرف الدنيا والآخرة بشيء مما انبسط له من أمر الدنيا، بل يكون أمله فيما هو أسنى درجة وأرفع مرتبة، ولذلك قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وهو عامل بالمدينة لدُكين الراجز: إن لي نفساً توّاقةً، فإذا بلغك أني صرت إلى أشرف من منزلتي فأتني. فلما صار خليفة أتاه، فقال: أنا أعلمتك أن لي نفساً توّاقة، وأنّ نفسي تاقت إلى أشرف منازل الدنيا منزلة، فلما بلغتُها وجدتها تَتُوق إلى أشرف منازل الآخرة منزلة.

ومن الشاهد لهذا المعنى أنّ موسى عليه السلام لمّا كلمه ربه تكليماً سأله، النظر إليه إذْ كان ذلك ـ لو وصل إليه ـ أشرف من المنزلة التي نالها؛ فالحرّ الكريم لا يقنع بمنزلة إلا رجاء أشرف منها قال: ومن قولنا في هذا المعنى: **[البسيط]**

والحرّ لا يكتفي أبداً من نيل منزلةٍ حتى ينال الّتي من دونها العطبُ
يسعى بِه أملٌ من دونه أجلٌ إن كَفَّه رهبٌ يدعو به رغبُ
لذاك ما سأل موسى ربّه: أرني أنظرْ إليك وفي تسآله عجبُ
يبغي التزيّد فيما نالَ من كرم وهو النجيّ لديه الوحْيُ والكُتُب

وقال حبيب: **[الطويل]**

ذريني وأهوالَ الزمان أقاسِها فأهواله العظمى تليها رغائبُه(٢)

❊ ❊ ❊

قال: فلمَّا أن رأى القاضي تنافِيَ قول الفتى وفعلِهِ، وتَحَلِّيَهُ بما لَيْسَ من أَهله، نَظَر إليه بعينِ غَضْبَى، وقال: أتِميمِيًا مرةً وقيسيًا أخرى! أفٍّ لمن ينقُضُ ما يقول، ويتلوَّنُ كمَا تتلوَّن الغُولُ. فقال الغلام: والّذِي جَعَلك مفتاحاً لِلْحَقّ، وفتَّاحاً

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء باب ٢٧، والترمذي في تفسير سورة ١٨، باب ٣، وأحمد في المسند ٢/٣١٢، ٣١٨.

(٢) البيت في ديوان أبي تمام ص ٤٤.

بين الخلق؛ لقد أُنسِيت مذ أسِيت، وَصَدِئ ذهني مذ صَدِيت؛ على أَنَّهُ أَينَ البابُ الفتُح، والعَطَاءُ السُّرُح! وهَلْ بين مَنْ يتبرعُ باللُّهَا، وإذا اسْتُطعِم بقول: ها!

قال له القاضي: مَهْ فمع الخواطِيء سَهْمٌ صائِبٌ، وما كل بَرْقٍ حالِب. فميِّزِ البُرُوق إِذَا شِمْت، ولا تَشْهَدْ إلاَّ بما عَلِمْت.

قوله تحلّيه: تزيّنه، وقوله: أتميميًّا مرة وقيسيًّا أخرى، مثل يضرب لمن يتناقض فيما يقول، تقديره: أتنسَب مرةً لتميم وتنسَب مُرّةً لقيس! وتميم وقيس قبيلتان عظيمتان، وبينهما أبداً مكافحات ومقاتل، وتميم هذا ابن مرّة بن آدّ بن طابخة بن إلياس بن مضر، وقيس بن الياس، قال أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا الدرداء، إذا فاخرت ففاخرْ بقُرَيْش، وإذا كاثرت فكاثر بتميم، وإذا حاربت فحارب بقيس، إلاّ أَن وجهها كنانة، ولسانها أسد، وفرسانها قيس، ألاَ إن لله فرساناً في سمائه وهم الملائكة، وفرساناً في الأرض وهم قيس، وإنّ آخر من يقاتل على الإسلام حين لا يبقى إلا ذكره، ومن القرآن إلا رسمه، رجل من قيس». قلت: يا رسول الله، من أيّ قيس؟ قال: «من سُلَيم». وفي البديعية: **[مجزوء الخفيف]**

إنّ حالي مع الزما ... ن كحالي مع النَسَبْ
أنا أُصحى مع النبيـ ... ـطِ وأُمْسِي مَعَ العربْ
نسبي في يد الزما ... ن إذا سامه انقلبْ

وقال زفر بن الحارث لعمران بن حِطّان: أزيديًّا مرة، وأوزاعيًّا أخرى! وقال عمران ابن حِطّان: **[البسيط]**

فاعِذر أخاك ابن زنباعٍ فإنّ له ... في النائبات خطوباً ذات ألوانِ
يوماً يمانٍ إذا لاقيتُ ذا يمنٍ ... وإن لقيتُ معدِّيًا معدناني[١]

وقال آخر: **[البسيط]**

أفي الولائد أولادٌ لواحدةٍ ... وفي العيادة أولادٌ لعَلاَّتِ[٢]

قوله: يتلوّن، أي يتغير ويتنوّع. والغُول: ساحرة الجن، وهو يتصوّر في صور شتى. وأخذه من قول كعب بن زهير: **[البسيط]**

---

(١) البيت الثاني لعمران بن حطان في خزانة الأدب ٥/ ٣٥٧، وشرح شافية ابن الحاجب ٢/ ١٤.

(٢) يروى صدر البيت:

أفي الولائم أولاداً لواحدةٍ

وهو بلا نسبة في شرح أبيات سيبويه ١/ ٣٨٢، والكتاب ١/ ٣٤٤، ولسان العرب (علل)، والمقتضب ٣/ ٢٦٥، والمقرب ١/ ٢٥٨.

فما تدومُ على حالٍ تكونُ بها ... إلاّ كما تلوّنُ في أثوابها الغُولُ[١]

وتزعم العرب أنه إذا انفرد رجل في الصحراء ظهرت له في خِلْقة إنسان، ولا يزال يتبعها حتى يضلّ الطريق، فتدنو منه، وتتمثل في صور مختلفة فتهلكه رَوْعاً. وإذا أرادت أن تضلّ الناس أوقدت ناراً فيُبصرها الساري فيقصدها، فتفعل ذلك وتروِّعه، فإن كان الذي يأتيها شجاعاً مِقْدَاماً تحامل وتبعها، فإذا رأت ذلك لم تضرّه، وجلس يصطلي بنارها وهي معه. وقال تأبّط شراً: [المتقارب]

وأدهَمَ قد جبتُ جِلبابه ... كما اجتابت الكاعب الخيْعَلا[٢]

إلى ضوء نارٍ تنوّرتُها ... فبتّ لها مدبراً مُقْبِلاَ

فأمسيتُ والغُول لي جارةٌ ... فيا جارنا أنت ما أهْوَلا

فمن يك عن جارتي سائلاً ... فإنّ لها باللِّوى منزلا

قال أبو عمرو رحمه الله بات تأبّط شرًّا ليلة ذات ظلمة ورعد وبرق بواد يقال له: رحَى بطان، فلقيَه الغول ـ وهو سبعٌ من سباع الجنّ ـ فما زال يقاتلها حتى قتلها، فقال: [الوافر]

ألاَ مَنْ مبلغٌ فتيان فَهْمٍ ... بما لاقيتُ عند رحَى بطانِ

فإنّي قد رأيت الغُول تهوِي ... بسَهْب كالصَّحيفة صَحْصحان

فشدَّت شدَّة نحوي فأهوَى ... لها كفِّي بمصقولٍ يمانِي

لها عينان في رأسٍ قبيح ... كرأس الهرّ مشقوق اللسان

وساقاً مخدَج وشَواةِ كلب ... وثوبٌ من عباءٍ أو شِنَان

قالوا: وخِلْقَتُهَا خلقة إنسان ورجْلاها رجلا حمار، فإذا صاح بها الرَّجُل: رجلي حمار! نهقت نهيقاً لا تخطىء السّبسب والطريق، وفرّت منه.

وانظر في التاسعة والأربعين ذكر القطرب وفيه شيء مستطرَف.

قوله: فَتَّاحاً، أي حاكماً. وافتح بيننا، أي احكم بيننا، والفتّاح: الناصر، والفتح: النصر. والحاكم بنصر المظلوم. أسيت: حزنت صدىء ذهني، أي تغطى بالغفلة، من الصَّدأ، وهو ما يعلوه من الدَّرَن. وصَديتُ، غير مهموز أصدى صدًى، وأراد مذ افتقرت

---

(١) البيت في ديوان كعب بن زهير ص ٨، والمخصص ١٧/ ٥، والمذكر والمؤنث للأنباري ص ٤١١، وهو بلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٩٦١، ٩٨٨.

(٢) يروى صدر البيت الأول:

وأدهم قد جبت ظلماءَهُ

وهو لحاجز السروي في لسان العرب (فعل).

علاني الوسخ، وصحبني النسيان. والفُتُح: الكَثير الفَتْح الواسع الذي لا يغلق في وجه قاصده. السُرُح. الكثير الذي يسرح صاحبه في أنواع الجود، والسرح: السهل السريع، وناقة سَرُوح: مسرعة في سيرها يتبرع: يتفضّل بجوده متطوعاً، وتبرّع: تطوّع. اللها: العطايا. ها معناها: خذ وتناول. وذكر أبو محمد هذه اللفظة في الدّرة فقال: ويقولون لمن يُناول شيئاً ها، بقصر الألف، فيلحنون فيها، لأن الألف ممدودة كما جاء في الحديث: «الذهب بالذهب رباً إلا هاء وهاء»[1]. ويجوز فيه فتح الهمزة وكسرها مع المدّ ولا تقصر إلا إذا اتصلت بها كاف الخطاب، فيقال: هاك؛ كما يروى أن علياً رضي الله عنه آب إلى فاطمة رضي الله عنها من بِعْض مواطن الحرب، وسيفه يَقْطر دماً، فقال: **[الطويل]**

* أفاطمَ هاكِ السيف غيرَ مذمَّمِ[2] *

وعند النحويين أنّ المد فيها بدل من كاف الخطاب، لأنّ أصل وضعها أن تقترن كاف الخطاب بها. فساقها أبو محمد هنا مقصورة بغير كاف، ووقع فيما زعم أنه لحن. فإن قيل: لعلّها لما وقعت في فقرة موقوف عليها، يحتمل فيها ذلك، فنقول: إنه قد أردفها على فقرة قبلها مقصورة بإجماع، وهي اللها فسوّاها معها؛ على أن أهل اللغة حكوْا في اللفظة أربع لغات: ها مقصورة كما في المقامة، وهاء بالمدّ مع فتح الهمزة وكسرها. وسمع رجل أبا العتاهية ينشد: **[مجزوء الكامل]**

فانظر بطرفك حيث شئـ ـت فلن تَرَى إلا بخيلا

فقال: قد بخّلت الناس كلّهم، فقال: كذِّبني أنت بواحد منهم سخيّ.

قوله: مه: اكفف. الخواطىء: السهام تخطىء الغرَض، وهذا مثل يضرب لمن يكثر الخطأ ويأتي أحياناً بالصواب. خالب: خادع شِمْت البرق: نظرت سحابه أينَ يمطر. أعظم: جعله عظيماً.

* * *

فلمّا تبيّن للشَّيْخ أَن القاضيَ قد غضبَ للكِرَام، وأَعْظَمَ تَبْخيل جَميع الأنام؛ علم أنه سَيَنْصُرُ كلمتَه، ويُظْهِرُ أكرُومتَه، فما كذَّب أن نَصَب شَبَكَتَهُ، وشَوَى في الْحريق سَمَكتَه، وأنشأ يقول: **[السريع]**

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع باب ٥٤، ٧٦، وابن ماجه في التجارات باب ٤٨.

(٢) يروى البيت:

أفاطمَ هاءِ السيف غير مذمَّمِ فلستُ برعديدٍ ولا بلئيم

وهو لعلي بن أبي طالب في ديوانه ص ١٧٤، وجمهرة اللغة ص ٢٥١، وشرح المفصل ٤/ ٤٤، وبلا نسبة في سر صناعة الإعراب ١/ ٣١٩، والمحتسب ١/ ٣٣٧.

يـأَيُّـهـا الـقـاضـي الَّـذِي عِـلْـمُـهُ وحِـلْـمُـهُ أَرْسَـخُ مِـنْ رَضْـوَى
قَـدِ ادَّعـى هـذا عَـلَـى جَـهْـلِـهِ أَنْ لَـيْـس فـي الـدُّنْـيَـا أَخـو جَـدْوى
ومـا دَرَى أَنَّـك مـن مَـعْـشَـرٍ عـطـاؤهـم كـالـمَـنِّ والـسَّـلْـوى
فـجُـدْ بـمـا يَـثْـنِـيـه مُـسْـتَـخْـزِيـاً مـمَّـا افـتـرى مِـن كـذِبِ الـدَّعْـوَى
وأَنْـثَـنِـي جَـذْلانَ أُثْـنِـي بـمـا أَوْلَـيْـتَ مـن جَـدْوَى ومـن عَـدْوَى

* * *

والحريق: ما تحرقه النار من الحشيش والعِيدان، وناره ضعيفة لا تدوم. السمك: كبش الماء، فلا يستوي إلاّ على نارٍ قوية فربّما شوى سمكته ما دام لهب النار موجوداً، فإذا سكن اللهب لم يتمكن من شيِّها لعدم الجمر في الحريق، فيريد أنّه حرّض القاضي بالشعر على الكرم، حين اهتزّ للكرام، وغضب من تبْخيلهم فهزَّه بهذا الشعر ليجود عليه قبل أن يسكن، فربّما يبدو له ألاّ يجود. أرسخ: أثبت رضوى: جبل بالمدينة سَهْل مشتق من الرضوان، كأنّ الذي يصعده راضٍ عنه لقلة المشقّة في صعوده. أخو جدوى: صاحب عطية وكَرَم. المنّ والسلوى: طعام كان يَنْزل على بني إسرائيل، وقيل: المنّ الترنجبين والسلوى. السماني، وهو طائر. يثنيه: يردّه. مستخزياً: صاغراً خاضعاً. ويروى «مستخدياً»، والخدية: الاستحياء، أو يكون بمعنى مهاناً، والخزي: الهوان افترى: كذب واستبعد أنثني جذلان: أرجع فرحاً. أوليت: أعطيت. جدوى: إعانة، أي أرجع بالجدوى، وبإعانتك لي عليه حتى يتوب من عقوقه.

* * *

قال: فهشَّ القاضي لقولِهِ، وأَجْزَلَ له من طَوْلِهِ، ثمّ لفَتَ وَجْهَهُ إلى الغُلام، وقدْ نَصَل لَهُ أَسْهُمَ الْمَلاَم، وقال لَهُ: أرأيْتَ بَطْلَ زَعْمِك، وخَطَأَ وَهْمِك! فلا تَعْجَلْ بَعْدَها بذَمّ، وَلاَ تَنْحَتْ عُوداً قبل عَجْم، وإيَّاك وَتَأَبِّيك، عن مُطَاوعَةِ أبيك، فإنَّك إن عُدْتَ تَعُقُّهُ، حاقَ بك منّي ما تستحِقُّه، فسُقِط الفتَى في يَدِهِ، ولاذَ بحَقْوِ وَالِدِه، ثم نَهَضَ يُحْفِد، وتَبِعَهُ الشَّيْخُ يُنْشِد: [السريع]

مَـــنْ ضــامــه أَو ضَــارَهُ دَهْــرُهُ فـلـيَـقْـصِـد الـقـاضِـيَ فـي صَـعْـدَهْ
سَـمَـاحُـهُ أَزْرَى بِـمَـنْ قَـبْـلَـهُ وعَـدْلُـهُ أَتْـعَـبَ مَـنْ بـعْـدَهْ

* * *

هشَّ: فرح. أجزل: أكثر. طَوْله: إفضاله وهباته. ولفت: ردّ نصل: جعل له نصالا، وأنصلها: نزع نصالها، والنَّصْل: حديدة السهم. بطل زعمك، أي بطلان قولك. وهمُك: ظنك. تنحت: تنجر. عَجْم: اختبار، أي حتى تعلم: هَلْ هو قويٌّ أو ضعيف،

يقول: لا تعتب أحداً حتى تجرّبه. قوله: وإياك وتأبّيك عن مطاوعة أبيك، أي احذر أن تمتنع عن مطاوعة والدك، فإنك ومالك لأبيك.

جابر رضي الله عنه: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال يا رسول الله، إن أبي أخذ مالي، فقال له: «اذهب، فائتِني به»، فأوحي إلى النبي ﷺ أن يسأل الشيخ عن شيء في نفسه، قاله في شأن ابنه. فلمّا جاء الشيخ، قال له النبيّ ﷺ: «ما بال ابنك يشكوك؟ أتريد أن تأخذ ماله»! فقال: سله يا رسول الله، هل أنفقتُه إلا على نفسي أو على إحدى عماته أو خالاته! فقال له النبي ﷺ: «دَعْني من هذا، أخبرني عن شيء قلتَه في نفسك، ما سمعتّه أذناك»، فقال: يا رسول الله، ما زال الله يزيدنا بك يقيناً، لقد قلتُ في نفسي شيئاً، ما سمعته أذناي، وأنشد يقول: **[الطويل]**

غذوتُك مولوداً وُعلُتك يافعاً — تُعَلّ بما أجني عليك وتنهلُ[١]

إذا ليلةٌ ضاقتك بالسَّقْم لم أبتْ — لسقمك إلاّ ساهراً أتململُ

كأني أنا المطروق دونَك بالّذِي — طُرِقت به دُوني فعيناي تَهمل

تخاف الرّدى نفسي عليك وإنها — لتعلم أن الموت وقت مؤجّلُ

فلما بلغتَ السنّ والغاية التي — إليها مدى ما كنتُ فيك أؤمِّلُ

جعلتَ جزائي غلظةً وفظاظةً — كأنك أنت المنعِم المتفضِّل

فليتك إذْ لم ترعَ حق أبوّتي — فعلتَ كما الجار المجاور يَفْعَلُ

قال: فحينئذ أخذ النبي ﷺ بتلابيب ابنه، وقال: «أنت ومالك لأبيك»[٢].

قوله: حاق، أي نزل، تقول: حاق به المكروه والشؤم يَحِيق حيْقا، نَزَلا به.

ابن عرفة: وجبا عليه وألزماه، قال الأزهري رحمه الله: الحيق ما يحيط بالإنسان من سوء عمله ومكروه فعله، وقوله تعالى: ﴿**وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السّيّىء إلاَّ بِأَهْلِهِ**﴾ [فاطر: ٤٣]، أي لا ترجع عاقبة مكرهم إلا عليهم. سُقِط في يده، يقال ذلك للنادم المتحيّر، ويقال: سُقِط في يده وأُسْقِطَ في يده، إذا ندم على فعله، وتحسّر عليه، واليَد هنا: الندم، وقوله: سَقَط الفتى في يده، قال جماعة من أهل اللغة: صوابه: سُقِط في يده من غير تسمية الفاعل، لأن الفعل مسند إلى المجرور. وقال الأزهري رحمه الله: إنما حَسَّنَ سُقِط في يده بضم السين، غير مسمًّى فاعلُه الصلة، وهي في يده، ومثله قول امرىء القيس: **[الكامل]**

* دع عنك نهبا صِيح في حَجَراته[٣] *

---

(١) الأبيات لأمية بن أبي الصلت في ديوانه ص ٤٥، والبيت الأول في تاج العروس (عول).

(٢) أخرجه ابن ماجه في التجارات باب ٦٤، وأحمد في المسند ٢/ ١٧٩، ٢٠٤، ٢١٤.

(٣) عجزه:

ولكن حديثاً ما حديث الرواحلِ =

أي صاحَ المنّهب في نواحيه، وكذلك المراد سقط الندم في يده. وقال أبو القاسم الزجاجي: سُقِط في أيديهم نظم لم يُسمع قبل القرآن، ولا عرفته العرب، فيوجد في أشعارها وخفي على الإسلاميين قال أبو نواس: **[الرجز]**

* ونشوة سقطت منها في يدي *

وأخطأ في استعمالها، لأن فعلت لا يُبنَى إلا مما يتعدّى، لا يقال: رغبت ولا غضبت، إنما يقال رغب فيّ وغضب عليّ. لاذ: لجأ وتستّر، ولاذ فلان بفلان: تستر به ودار حوله، وبعضهم يقول: ألاذ، والأولى هي الغالبة، واللواذ مصدر لاوَذ، ولذا أثبتت الواو، ولو كان مصدر «لاذ، لقلت لياذاً، كقمت قياماً».

بحقو: بخَصْر، وجمعه أحقاء وحقاء. وحفد يحفد أسرع. ضامه: أذله. ضارَه: ضرّه: أزرى: قصّر. وتقدم معنى البيت في الرسالة السادسة والعشرين.

* * *

قال الرَّاوِي: فحِرْت بين تعريف الشّيْخ وتنكيرِه، إلى أنِ احْرَوْرَف لمَسِيرِهِ، فناجَيْتُ النَّفْسَ باتّباعه، وَلَوْ إلى رِبَاعِهِ، لَعَلِّي أَظْهَرُ عَلَى أَسرارِه، وأعرفُ شَجَرَةَ نَارِهِ، فنبذت الْعُلَق، وَانطَلقْت حيث انْطَلَق، ولم يَزَلْ يخْطُو وأعْتَقِب، ويُبْعِدُ وأَقترب، إلى أَن تَرَاءَى الشَّخْصَان، وحقَّ التَّعَارُف على الخُلْصَان، فأَبْدَى حينئذٍ الاهتِشاش، وَرَفَعَ الإرْتِعاش، وقال: مَنْ كاذبَ أخاه فَلاَ عاشَ. فعرفت عِنْد ذلك أَنَّه السَّرُوجي بِلاَ مَحالةَ، وَلا حُؤولة حالَة. فأَسْرعْتُ إليه لأصافِحَهُ، وأستعرِفَ سانِحَهُ وبارِحَهُ؛ فقال: دونك ابنَ أخيكَ الْبَرّ، وترَكَنِي ومَرّ. فلم يَعْدُ الفتى أن أن افترّ، ثمّ فرَّ كما فرَّ، فَعُدْتُ وقد اسْتَبنتُ عَيْنَهُمَا، ولكِنْ أَيْنَ هما!

* * *

احرورف: مال وانحرف: ناجيت: حدّثت. رباعه: دياره. شجرة ناره، يريد أصل جبلَّتِه. أعتقب: أمشي خلْقه واتّبِع عَقبه. تراءى: ظهر، وخُلْصان الرجل: صديقه الّذي خلصت له مودّته. الاهتشاش: الطّرب والبِشر. الارتعاش: الرِّعْدة، يريد أن داءه كذب لا حقيقة له محاله: حيله حؤول: تَغيّر. أصافحه: أعانقه وأسلّم عليه. أستعرف سانِحه

= والبيت لامرىء القيس في ديوانه ص ٩٤، وخزانة الأدب ١٠/ ١٥٩، ١١/ ١٧٧، والدرر ٤/ ١٤٠، وشرح شواهد المغني ١/ ٤٤٠، ولسان العرب (صيح) (حجر)، (رسس)، (سقط)، ومغني اللبيب ١/ ١٥٠، والمقاصد النحوية ٣/ ٣٠٧، وهمع الهوامع ٢/ ٢٩، وبلا نسبة في الجنى الداني ص ٢٤٤، والمقرب ١/ ١٩٥.

وبارحه، أي أطلب منه أن يعرّفني بخيره وشره. والسانح من الطير والوحش ما مرّ على ناحية يمينك، والبارح ما مرّ على ناحية يسارك وقيل: السانح ما أولاك ميامِنه، والبارح؛ ما أولاك مياسره، وأكثر العرب تتبرك بالسّانح وتتشاءم بالبارح، وبعضهم يتبرّك بالبارح، ويتشاءم بالسانح، والسانح: الذي يمرّ عليك عن ميامنك إلى مياسرك، فيمكن للطّاعن طعنه، وللرامي رميه، فالذي يتميَّنّ به يرى أنه رِزْق حاصل، والذي يُتَشاءم به يرى أنّه عاطب وهالك، والبارح بالضّدّ، فالأول يَرَى أنه فائت، ورامِيه خاسر فيتشاءم به، والثاني يرى أنه سالم غير عاطب، فيتَيَمّن به، والذين يتيمّنون بالبارح ويتشاءمون بالسانح أهل نجد، والذين يضادّونهم أهل العالية.

قوله: دونك، أي خذه واقصده. البرّ: والبار: الكثير الإكرام لأبويه. افترّ: ضحك. استبنْت: عرفت. عينهما: شخصهما، وجعله آخر المقامة بَرًّا له لموافقته له في الحيَل، وَجَرت العادة بأنّ الأب إذا كان نجيباً، فالابن بالضدّ ولهذا قال الشاعر: [المتقارب]

إذا أطلع الدّهْر حرًّا نجيباً ... فكن في ابنه سَيِّىء الاعتقادْ

فلست ترى مِنْ نجيب نجيباً ... وهل تترك النّار إلا الرماد!

المقامة الثامنة والثلاثون

وهيَ المَرْوِيَّة

حكى الحارثُ بن هَمّام قال: حُبِّبَ إليّ مُذْ سَعَتْ قَدَمِي، ونفثَ قَلَمِي، أن أَتّخذ الأدب شِرْعة، والاقْتباس منه نُجْعَة؛ فكنت أنقّبُ عن أَخبارِه، وخَزنَة أَسرارِه؛ فإذا ألفت منهُمْ بغيَة الملتمس، وجَذْوة المقتبِس، سَدَدْت يدي بَغَرْزِهِ، واستنزَلْتُ منه زَكاةَ كنزِه؛ على أَنِّي لم أَلقِ كالسَّرُوجيّ في غزارَةِ السُّحْب، وَوَضْع الْهَناء مواضِعَ النُّقْب؛ إلاَّ أَنَّهُ كانَ أَسْيَرَ من المثل، وأسْرَعَ من القَمرِ في النُّقَل، وكُنْتُ لِهَوَى مُلاقاتِه، واستحسان مَقَاماتِهِ، أرغبُ في الاغتراب، وأستعذب السَّفَرَ الَّذِي هو قِطعة من العذابِ.

***

قوله: نفث، أي كتب، والنّفْث ما تلقيه من فيك من البُصَاق الغليظ، فشبّه ما يلقيه القلم من المداد بالنّفْث، هذا ظاهر اللفظ، وإنما أراد في المعنى بالقلم ذَكَره، ونفثه منيّه، فكنَى عن البلوغ بذلك، فهو يريد وقت الحلم، وهو الوقت يَقْوى فيه على المشي في الأسفار، والتصرف؛ كذا فسره لنا بعض حُذَّاق أشياخنا، وفسرّه الفنجديهي على ظاهره، فقال: معنى مذ سعت قدمي نفث قلمي، مذ قدرْت على المشي والكتابة والنظم والنثر. شِرْعة: طريقة وشريعة وعادة، ومعناه: أصرف همتي إلى علم اللغة والعربية. قال الشافعي رضي الله عنه: مَنْ تعلّم القرآن عظمت قيمته، ومن نظر في الفقه نَبُل مقداره، ومَنْ تعلّم اللغة رقّ طبعه، ومن تعلّم الحساب جَزل رأيه، ومن كتَب الحديث قويَت حجته ومن لم يصنْ نفسَه، لم ينفعه عمله.

الاقتباس: الاكتساب وهو افتعال، من القَبس. نجعة: طلب المرعى، أي جعلت طلب الأدب لي غذاء ورزقا. أنقب: أبحث. أحبْاره: علمائه. ألفيت: وجْدت. بغية: حاجة. الملتمِس: الطالب للشيء. جَذْوة: جمرة عظيمة. والمقتبس: الطالب للنار، والغرْز: للرجْل، كالرّكاب للسرْج، ومعنى شددت بغرزه، أي تمسكت بركابه وبالغت في خدمته، روى ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبيّ ﷺ: «مَنْ أخذ بركاب رَجُل لا يرجوه ولا يخافه غفر له».

غزارة: كثرة، والسّحب: جمع سحابة، كَنَى بها عن كثرة العلم. الهناء: القَطِران. النُّقْب: جمع نُقْبة وهو أوّل ما يبدو من الجَرَب، وهو مثلٌ لمَنْ وضع الشيء في موضعه، أرَاد أنه ماهر، أي حاذق يعطي كلّ طالب ما يستحقه ويشفيه من سؤاله، لأن الجهل في القلب بمنزلة الدّاء، فهذا يوقع بيانه بموضع الجهل، فيبرأ صاحب ذلك من دائه، ووضع الهناء مواضع النقب، عَجُزُ بيت لدريد بن الصمَّة، وكان خرج فرأى الخنْساء الشاعرة تهنأ: ذُوداً لها، ثم نَضَتْ ثيابَها واغتسلت وهو يراها ولا تراه فقال: [الكامل]

حَيُّوا تُماضرَ واربَعُوا صَحْبِي وقِفُوا فإنّ وقوفكم حَسْبِي[1]

ما إن رأيتُ ولا سمعتُ به كاليوم طاليَ أيْنُقٍ جُرْبِ

متبذِّلاً تبدُو محاسنُه يضع الهَناء مَواضع النقبِ

وتُماضر اسم الخنساء: قوله: أسيَر من المثل، أي أنه لا يستقرّ ببلد. النقل، يريد انتقاله في المنازل فلا يقيم بمنزلة سوى ليلة، وينتقل في الثانية إلى أخرى، فأراد أنّ أبا زيد لا يستقرّ ببلد إلاّ ما يستقرّ القمر بمنزله وهي ليلة واحدة، بل هو أسرع من القمر في ذلك، وإنما خُصّ القمر به لأنّه أسرع الكواكب ثقلةً من برُجْ إلى بُرْج، إذ لا يمكث في البرج إلا يومين أو ثلاثاً، والبرج منزلتان وثلث، والشمس تمكث في البرج ثلاثين يوماً، وعطارد يمكث فيه سبعة عشر يوماً، والمشتري اثني عشر شهراً وزُحَل ثلاثين شهراً، والمرِّيخ شهراً ونصفاً، والزُّهرة ستة وعشرين يوماً، والرأس والذنب ثمانية عشر شهراً، ذلك تقدير العزيز العليم.

قوله: وأستعذب السفر الذي هو قطعة من العذاب: هو حديث صحيح، رواه مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «السفر قطعة من العذاب، يمنع أحدكم نومه وطعامه وشرابه، فإذا قضى أحدكم نُهْمَتَه من وجهته فليعجّل الرجوعَ إلى أهله»[2]. النُّهمة. بلوغ الهمة والشهوة والحاجة، ورجل منهوم بكذا مولَع به.

* * *

---

(١) الأبيات في ديوان دريد بن الصمة ص ٣٤، والبيت الأول في الأغاني ١٥/ ٦١، وتاج العروس (مضر)، والشعر والشعراء ص ٣٥٠، وبلا نسبة في الخصائص ٣/ ١٩٧، والممتع في التصريف ١/ ٩٦، والبيت الثاني في الأغاني ١٠/ ٢٢، وإصلاح المنطق ص ١٢٧، وشرح شواهد الإيضاح ص ٥٧٨، ١٢٩، وشرح شواهد المغني ص ٩٥٥، وشرح المفصل ٨/ ١٢٨، وبلا نسبة في الأشباه والنظائر ٢/ ١٨٨، وجمهرة اللغة ص ٣٧٤، ومغني اللبيب ص ٦٧٩، والبيت الثالث في لسان العرب (نقب)، وديوان الأدب ١/ ١٥٠، وتاج العروس (نقب)، وبلا نسبة في مقاييس اللغة ٥/ ٤٦٦.

(٢) أخرجه البخاري في العمرة باب ١٩، والجهاد باب ١٣٦، والأطعمة باب ٣٠، ومسلم في الإمارة حديث ١٧٩، والدارمي في الاستئذان باب ٤٠، ومالك في الاستئذان حديث ٣٩، وأحمد في المسند ٢/ ٢٣٦، ٤٩٦.

فلمّا تطوّحتُ إلى مَرْو، ولا غرْوَ، بشّرَني بمَلْقَاهُ زَجْرُ الطَّيْر، وَالفأل الَّذي هو بَرِيدُ الخَيْر؛ فلم أَزَلْ أنشُده في المحافل، وعند تلقِّي القَوَافل. فلاَ أَجِدُ عنه مُخبِراً، ولاَ أَرَى له أَثَراً ولا عِثْيَراً، حتى بلغ اليأسُ الطمعَ وَانْزَوَى التأميلُ وانقطَع، فإنّي لذاتَ يوم بحضْرة والي مَرْو، وكان ممَّن جَمَع الفضلَ والسَّرْو، إذْ طَلَع أبو زَيْدٍ في خَلقٍ مِمْلاَق، وَخُلق مَلاّق. فحيّا الوالِيَ تحيَّة المُحْتَاجِ، إذَا لقِي ربَّ التاج، ثم قال له:

اعلم وقيتَ الذّم، وكفيتَ الهمّ؛ أَن من عُذِقَت به الأعمال، أعلِقت به الآمال، وَمَن رُفِعَتْ له الدّرجات، رُفِعَتْ إليه الحاجات. وَأَنّ السعيد مَنْ إذا قَدرَ، وَوَاتَاه القَدَر، أَدَّى زكاة النِّعم، كما يؤدِّي زَكاة النَّعَم، والتزمَ لأهْل الحَرَم، ما يُلْتزمَ للأهل والحَرَم. وقد أصبَحتَ بحمد اللّهِ عَمِيد مِصْرِك، وعمادَ عَصْرِك، تَزْجَى الرّكائب إلى حَرَمِك، وتُرْجَى الرّغائب من كَرَمِك، وتُنْزَل المطالبُ بساحتك، وتُسْتَنْزَلُ الرّاحة من راحتِك، وكان فضلُ الله عليك عَظيماً، وإحسانُه لديك عميماً.

* * *

قوله: تطوّحت، يقال: تطوّح في البلاد: ذهب به ها هنا وها هنا، فأراد بقوله: تطوّحت: رميت بنفسي إليها.

[مرو][١]

مَرْو: بلدة بخُراسان، جليلة لها قرى ومحِلاّت، وتسمَّى أمّ خُراسان، وهي دار خلافة المأمون، ومنها خرج أبو مسلم صاحب الدعوة، يُنسب إليها. الثّوْب مَرْوِيّ والرجل مَرْوزيّ، وهو شاذ النسب، ومن مَرْو إلى مَرْو[٢] خمس مراحل، وعلى مرو نهر فوّهته بالسَّابيان، وهو جبل عظيم الارتفاع، تسيل منه أنهار تخترق بلاد خُراسان، منها وادي خُوَارزم، مسيرته أربعون يوماً، ووادي القندهار مسافته شهر، ونهر سجستان، مسافته شهر، ونهر مَرْو، مسافته شهر، ونهر هَرَاة مسافته عشرون يوماً، ونهر بَلْج مسافته اثنا عشر يوماً، وبلخ هي متوسّطة خراسان، منها إلى فرغانة ثلاثون مرحلة مغربًا، وإلى سجستان مما يلي القبلة كذلك وإلى كابول وقندهار كذلك، وإلى خوارزم كذلك. وأهل مَرْو أطبع الناس على البُخْل ثم أهل خراسان، قال ثمامة: ما رأيت الدّيكَ يأكل في بلد

(١) هي مرو الشاهجان.
(٢) أي من مرو الروذ إلى مرو الشاهجان.

قطّ إلا وهو يدعو الدجاجة إلى الحَبّ، ويلفظ الحب إليها، إلاّ بمَرْو، فإنني رأيته يأكلُ وحده، فعلمت أنّ لؤمهم كثير جدّاً، وهو فيهم طبع، ورأيتُ بها طفلاً صغيراً، بيده بيضة، فقلت له أعطنيها، فقال لي: ليست تسعُها في يدك، فعلت أنّ المنع طبع مركّب فيهم.

لا غرو: لا عجب. زَجْر الطير. التفاؤل بها، وفسّر الشافعيّ رضي الله عنه قوله النبيّ ﷺ «أقرّوا الطيرَ على مكِناتها»[1]. لأن الرجل كان في الجاهلية، إذا أراد الحاجة أتى الطائر في وَكْرِه فنفَّره، فإن أخذ ذات اليمين مضى لحاجته، وإن أخذ ذات الشمال رجع. فنهى النبيّ ﷺ عن ذلك وقال: «لا عَدْوى ولا طيَرة، ويعجبني الفأل» قيل: ومَا الفأل؟ قال: «كلمة طيبة»[2].

[الزجر والعيافة]

وزجْر الطير التّيامن بها، والتشاؤم. وكان عند العرب قوّة زائدة وإدراك، فينظر الزّاجر منهم للطائر، ولمّا يفعل، فيستقري من ذلك ما يتيامَن به ويتشاءم منه، مثل ما يحكى عن أمية بن أبي الصَّلت أنه كان يشرب مع إخوان له في قصر غَيْلان بالطائف؛ إذ سَقَط غراب على شرف القصر، فنعب نعبة، فقال له أميّة: بفيك الكثْكث ـ وهو التّراب، فقال له إخوانه ما يقول؟ قال: يقول: إذا شربتَ الكأس الذي في يدك مِتّ. ثم نعب نَعْبة، فقال أميّة نحو ذلك، فقالوا له: وما يقول؟ قال: زعم أنّ علامةَ ذلك أن يقع على هذه المزبلة تحت القَصْر، فيستثير عظماً، فيشجَى به فيموت. فبينما هم يتكلّمون، إذ وقع الغراب على هذه المزبلة ليلتقط، فاستثار عظماً، فأراد أن يبتلعه، فشجَى به فمات، فانكسر أميّة، ووقع الكأس مِنْ يده، وتغيّر لونه، فجعلوا يعيّرونه عليه، ويقولون: ما أكثر ما سمعنا بمثل هذا، وكان باطلاً! فألَحُّوا عليه، حتى شرب الكأس، فمال في شقّ فأغمي عليه، ثم أفاق، وقال: لا بريء فأعتذِر، ولا قويّ فأنتصر، ثم زهقت نفسه.

وحكى المدائني قال: خرج كُثيّرٌ من الحجاز يريد مصر، ليزور عَزّة، فلما قرُب منها رأى غراباً على شجرة ينتف ريشه، فتطيّر من ذلك، فلقيَه رجل من بني لَهَب فقال: يا أخا الحجاز، ما لك كاسفَ اللون؟ فذكر له ما رأى، فقال: إنك تطلب حاجة لا تدرِكُها. فقدِم مصر، والناس منصرفون من جنازة عزّة فقال: **[الطويل]**

رأيتُ غُراباً ساقطاً فوق بانةٍ ... ينتّف أعْلَى ريشه ويُطايرُه[3]

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٦/ ٣٨١.

(٢) أخرجه البخاري في الطب باب ٤٣، ٤٤، ومسلم في السلام حديث ١١٠، وأحمد في المسند ٢/ ٢٦٦، ٢٦٧، ٤٠٦، ٤٥٣، ٥٢٤.

(٣) يروى البيت الأول:

رأيت غراباً واقعاً فوق بانه ... ينشنش أعلى ريشه ويطايره

وهو بلا نسبة في لسان العرب (نشش)، وتاج العروس (نشش)، والمخصص ٨/ ١٣١.

فقلت ولو أنّي أشاءُ زجرتُه بنفسيَ لِلّهبِّي فهل أنت زاجرُه
فقال غرابٌ لاغترابٍ من النوى وفي البانِ بَيْنٌ من حبيب تجاورُه
فما أعيَف اللِّهبيّ لا دَرّ دَرُّه وأزْجَره للطيّر، لا طار طائِرُه

وممن زجر لنفسه بشرّ ذو الرُّمة فقال: **[الطويل]**

رأيتُ غراباً ساقطاً فوق قَضبَةٍ من القُضْبِ لمَ يَنْبُتْ لها ورقٌ خضرُ(١)
فقلتُ غرابٌ لاغتراب وقضبةٌ لقَضْب النوى، تلك العيافةُ والزّجْرُ

وممن زجر بخير أبو حيّة، حين قال: **[الطويل]**

وقال صِحابي هُدهدٌ فوق بانةٍ هدًى وبيان بالنَّجاح يلوحُ
وقالوا دمٌ، دامت مواثيق بيننا ودَامَ لنا حلو الصفاء صَرِيحُ
وقالوا حمامات، فحُمّ لقاؤها وطلحٌ فزيرت والمطيُّ طُلوحُ

ومن مُلح الزّجر زجر أبي نواس، وذلك أنه استخفى عنه أصحابه، وكان لا يفارقهم، ووجّهوا رسولاً إليه، فرمى له ظهر قرطاس من وراء الباب، غير مكتوب، وخرموه بزيرٍ، وختموه بقار، وأمروا الرسول أن يرمِيَ إليه الكتاب من وراء الباب، فاستعلم موضعَهم، وتعرف حالهم، وكتب إليهم: **[الوافر]**

زجرت كتابكمْ لمّا أتاني بمرّ سوانحِ الطّيْرِ الجوارِي
نظرتُ إليه مخروماً بزيرٍ على ظهرٍ ومختوماً بقارِ
فعِفت الظّهر أهيف قُرْطَقِيًّا يَحارُ الطَّرْف منه باحْورَارِ
وكان الزّيرُ ذَا شذْوٍ مصيب وقارُ الختم من قَارِ العُقار
فطِرتْ إليكمُ يا أهلَ وُدِّي بقَلب من هواكمْ مستطارِ
فكيف ترونني وترَوْن زَجْرِي ألستُ من الفلاسفة الكبارِ!

وما أحسن قول ابن قاضي مِيلة وجمع الوصفين: **[الطويل]**

ولمّا التقينَا مُحرمين وسيرُنا بَلبّيكَ يطْوى والرّكائبُ تَعْسِفُ
فقلت لِتِرْبيها أبلغاها بأنني بها مستهامٌ قالتا: نتلَّطفُ
تفاءلتُ في أن يطوى طارقُ الهوَى بأنْ عنّ لي منها البَنان المطرَّفُ
وأمّا دماء الهَدْيِ فهو تواصُلٌ يدومُ ورأيٌ في الهوَى يتألّفُ
وفي عَرَفاتٍ ما يخبّر أنّني بعارفةٍ من نَيْل وصلكِ أُسَعَفُ
وتقبيل ركنِ البيت إقبالُ دَوْلةٍ لنا وزمانٌ بالمودّة يعطِفُ

---

(١) البيتان في ملحق ذي الرمة ٦٦٧.

وأبلغتُها ما قلْته فتنهَّدَتْ … وقالتْ أحادِيثُ العيافة زُخْرُفُ
لئن كنت ترجُو في مِنَى الفوزَ بالمُنَى … فبالخَيْفِ من أعراضنا نتخوّفُ
وقد أنذر الإحرام أنّ وصالنا … حرامٌ وأنّا عن مرادِك نُصْرَفُ
فهذا وَقَذْفي بالحَصا لك منذرٌ … بأنّ النوى لي عن ديارِكَ تَقْذف
فبادِرْ نفارِي ليلةَ النَّفر إنّه … سريع وقُلْ مَنْ بالعيافة أعرَف

* * *

قوله: أنشُده، أي أطلبه والمحافل: الجموع. والقوافل: الرفاق الرواجع. عثْيراً: غباراً. اليأس: قطع الرجاء. انزوى: انقبض. التأميل: الترجّي، وهو مصدر أمل الخير، أي ترجَّاه. انقمع: انكفّ. السَّرْو: السيادة. مملاق: فَقير. ملاّق: متلطِّف في كلامه. عُذِقت: عُلِّقَتْ وشدِّدت به، وعذق شاته يعذقها، إذا ربط في صوفها خرقة تخالف لونها. الدرجات: المنازل الشريفة.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «خُلقان يحبُّهمَا الله، وهما السخاء والسماحة، وخلقان يُبغضهما الله، وهما البخل. وسوء الخلق. وإذا أراد الله بعبد خيراً استعمله على قضاء حوائج الناس».

وقال خالد بن صفوان: لا تسأل الحوائج ثلاثة لا تُسْألها: كذوباً، فيقرّب بعيداً ويبعِّد قريباً، ولا أحمق فإنّه يريد أن ينفعك فيضرّك، ولا رجلاً له إلى صاحبك حاجة، فإنه يصيِّر حاجتك بطانة لحاجته.

واتاه: وافقه وطاوعه. أدّى: أعطى. زكاة النَّعم: الإبل والشاء، أي أعطى الصنائع والمعروف.

الحُرَم: جمع حرْمة، أراد بذلك أهلَ الصِّيَانةِ والعفاف.

الفنجديهي: الحرَم أقوام محترَمون، والحرَم الثاني: الأهل والقرابة، ومَن يحرُم على الإنسان نكاحُه أو أتركه لضياعه عميد: سيّد.

مصرك: بلدك، والمصْر: الحدّ، ويكتب أهل نجد: اشترى فلان من فلان الدار بمُصورِها، أي بحدودها.

قطرب: هو مأخوذ من مَصَرْت الناقة أمصُرها مَصراً، إذا حَلَبْتَها، وجعلتَ ضَرْعَها بين إصبعين، فخرج من اللبن شيء قليل، فيسمّى مِصْراً لأن الناس يجيئون إليه ثم يثبتون، أوّلَ فأوّلَ وقيل: المصر العلامة.

العماد: ما يقوم عليه الخِباء، شبَّهه في قيامه بالأمور بالعماد.

تُزْجَى: تساق. الرّكائب: الإبل. حرمك: بلدك وموضعك الّذي تحميه. الرغائب: العطايا ساحتك: فناء دارك. راحتك: كفّك.

ونذكر من الأحاديث ما يوافق هذا الفصل الذي قدّمنا تفسيره.

قال النبيّ ﷺ «مَنْ عظُمت نعمة الله عليه عَظُمت مؤنة الناس إليه، فإن لم يَقُمْ بتلك المؤنة عرَّض النّعمة للزوال:

عمرو بن العاص: والله لَرجُلٌ ذكّرني، ينام على شِقّة مرّة، وعلى الأخرى أخرى، يراني موضعاً لحاجته لَهوُ أوجب عليّ حقاً؛ إذا سألها مني أن أقضيهَا له.

وقف العتَّابي بباب المأمون، فجاء يحيى بن أكثم، فقال له: إن رأيتَ أن تِعلِم أمير المؤمنين بموضعي! قال: لست بحاجب قال: لقد علمتُ ولكنك ذو فضل وذو الفضل مِعْوان، قال: سلكت بي غير طريقي، قال: إنّ الله تعالى ألحقك بجاه ونعمة فهما مقيمان عليك بالزيادة إن شكرتَ، وبالتغيّر إن كفرت، وأنا اليوم لك خير منك لنفسك، أدعوك إلى ما فيه زيادة نعمتك، وأنت تأبَى ذلك، ولكل شيء زكاة، وزكاة الجاه بذلُه للمستعين.

وأما قوله: تزجى الركائب إلى حرَمك، فهو كثير في الشعر، ونذكر منه شيئاً يبين حالة القصد لهذا الاسم، وقال الحسن يمدح الأمين: [البسيط]

أقولُ والعيس تعروْرِي الفلاَة بنا ... صعْر الأزّمة من مَثْنىً وَوُحْدان[1]

يا ناقُ لا تسأمِي أو تبلُغِي مِلكاً ... تقبيلُ راحته والركن سِيّانِ

محمدٌ خير مَنْ يمشي على قدمٍ ... مِمّن برا الله من إنسٍ ومِنْ جانِ

محمد بين أملاكٍ تفضّله ... ولادَتَانِ من المنصور ثنتان

تنازع الأحمدان الشّبْه فاشتبها ... خَلْقاً وَخُلقاً كما قُدَّ الشِّرا كان

سيّان لا فرق في المعقول بينهما ... معناهما واحدٌ والعِدّة اثنان

وقال حبيب: [الطويل]

إلى أحمدَ الممدوح أمّتْ بنَا السُّرَى ... نواعبُ في عُرْضِ الَفَلاَ ورواسمُ[2]

إلى سالم الأخلاق مِنْ كلِّ عائبٍ ... وليس له مال من الجود سالمُ

جدير بألاَّ يصبح المال عنده ... جديراً بأن يبقى وفي الأرض غارم

وقال آخر: [الطويل]

سأُجهد عَزمِي والمطايا فإنّني ... أرى العَفْوَ لا يُمْتاحُ إلا من الْجُهْدِ[3]

سَرَيْنَ بنَا رهْواً ووخْداً وإنما ... يظلّ ويُمسَى النّجح في كنف الوخدِ

---

(١) الأبيات في ديوان أبي نواس (الحسن بن هانىء) ص ٦٥.

(٢) الأبيات في ديوان أبي تمام ص ٢٨٦.

(٣) الأبيات لأبي تمام في ديوانه ص ١٢٨، ١٢٩.

قواصدُ بالسير الحثيث إلى أبي المـ ـغيث فما تنفك ترْقُلُ أو تُخْدِي
إلى مُشرق الأخلاق للجود ما حوَى ويحوي وما يخفى من الأمر أو يُبْدي
فتًى لم يزل تُقْضَى به طاعة الندى إلى العيشة الغراء والسُّؤدِدِ الرغد

وقال فيها معتذراً: [الطويل]

أتاني مَعَ الركبان ظنٌّ ظننتُه لَفَفْتُ له رأسي حياءً من المجْدِ
ومن زمن ألبستَنِيه كأنّه إذا ذكرَت أيامُه زمنُ الوردِ
أُسَرْبِلُ هجرَ القول من لَوْ هَجَرته إذاً لهجاني عنه معروفة عندي
كريمٌ متى أمدحْه أمدحه والورى معي ومتَى ما لمتُه لمتُه وَحْدِي

وقال أبو الطيب: [الوافر]

فلم تلقَ ابنَ إبراهيم عَنْسِي وفيها قوتُ يوم للقُرادِ[1]
فلمّا جئته أعلَى محلّي وأجلسني على السَّبْع الشدادِ
تهَّللَ قبلَ تسليمي عليه وألقى ماله قبلَ الوِسَادِ
كأنَّ الهامَ في الهيجا عيونٌ وقد طُبِعت سيوفك من رقادِ
وقد صغْتَ الأسنّة من همومٍ فما يَخْطِرن إلا في فؤادي

وقال أبو الهنديّ: [الوافر]

سألناه الجزيلَ فما تأنّى وأعطى فوق مُنْيَتِنَا وزادا
وأحسنَ ثم أحسنَ ثم عُدْنا فأحسن ثم عدتُ له فعادَا
مراراً ما قصدتُ إليه إلاَّ تَبسَّم ضاحكاً وَثَنَى الوسادا

وقال أبو الطيب: [الوافر]

ولمّا قلَّت الإبلُ امتطينا إلى ابن أبي سليمانَ الخطوبا[2]
مطايا لا تَذِلّ لِمَنْ عليها ولا يبغي لها أحَدٌ رُكوبا
وترتع دُون نبتِ الأرض فينا فما فارقتُها إلا جديبَا
إذا نُكِبَتْ كِنَانَتُهُ استبنَّا بأنْصُلها لأنْصِلهَا نُدُوبا
يُصِيب ببعضها أفواق بعضٍ فلولا الكَسْرُ لاتَّصلتَ قضيبا
ألستَ ابن الأولى سعِدُوا وَسادُوا ولم يلدُوا امرَا إلاَّ نَجيبا
ونالوا ما اشتهوْا بالحزم هَوْناً وصاد الوحشَ نملُهُمُ دَبيبا

(١) الأبيات في ديوان المتنبي ١/ ٣٥٧.

(٢) الأبيات في ديوان المتنبي ١/ ١٤٠.

وما ربحُ الرِّياض لها ولكنْ كساها دفنهُمْ في التُّرْبِ طيبَا

ومن المدح قول السّرِيّ في أبي الحصين القاضي: [الوافر]

لقد أضحتْ خِلالُ أبي حُصَينٍ حصوناً في الملمَّات الصعابِ
كساني ذيلَ نائِلِهِ وآوَى غرائب منطقي بَعْدَ اغترب
فكنتُ كروضةٍ سُقيت سحاباً فأثنت بالنّسيم على السّحاب

وقال بديع الزمان وشاعر الأوان: [البسيط]

يا سيّد الأُمرَا فخراً فما مِلكٌ إلاّ تمنّاك مولًى واشتهاك أبا
وكاد يحكيك صوبُ الغيث منسكباً لو كان طلق المحيَّا يُمْطِرُ الذَّهبَا
والدّهر لو لم يخُنْ والشمس لو نطقتْ واللّيث لو لم يصد والبحرُ لو عَذُبا

هذه الجملة كافية وكأنها تفسير ما أجمل من ذكر ممدوحه.

* * *

ثمّ إنّي شيخٌ ترِبَ بَعْدَ الاتراب، وعَدِمِ الإعْشاب، حين شاب قصدتُك من مَحَلَّةٍ نازحة؛ وحالةٍ رَازِحة، آمل من بَحْرِك دُفْعة، وَمِنْ جاهِكَ رفعة. والتأميلُ أفضل وسائِلِ السائل، ونائلِ النائل؛ فأوجِبْ لي ما يجب عليك، وأحسنْ كما أحسَنَ اللّهُ إليك. وإيَّاك أَن تَلْوِيَ عِذَارك، عَمّن ازدارَك، وأمّ دارَك، أَو تَقْبِضَ راحك؛ عمَّن امتاحَك، وامتار سَمَاحك؛ فوالله ما مَجد من جَمَد، وَلا رَشد من حَشَد؛ بل اللبيب مَنْ إذا وَجَد جَاد، وَإن بَدَأَ بعائدةٍ عاد؛ والكريمُ مَنْ إذا استُوهب الذَّهَب، لم يهبْ أَن يَهَب.

ثمّ أَمسَك يُرَقبُ أُكْلَ غَرْسِهِ، ويرصُدُ مَطْيَبَةَ نَفْسِهِ وأحب الوالِي أن يعلمَ: هل نُطفتُه ثَمَد، أم لقريحته مَدد! فأطرَقَ يُرَوِّي في استيراءِ زَنْدِه، واستشفافِ فِرِنْدِهِ، والتبس على أَبي زيد سِرُّ صَمْتَِه، وإرْجاءِ صِلَتِه، فتوغّر غضباً، وأنشد مقتضِبا.

* * *

قوله: تَرِب، افتقر فلم يبق له ما يقعدُ عليه غيرَ التراب. والاتراب: الاستغناء، وأترب: صار له من المال بكثرة التراب. والإعشاب: إصابة العشب، وأراد به المال. مَحَلَّة: منزل يحلّ فيه.

نازحة: بعيدة. رازحة: كالّه من الهُزال، ورزح رُزْحاً: كلَّ من العمل.

ابن الأنباري: رزح فلان: ضَعُف، وذهب ما في يده، وأصله من رَزَحَتْ إبلُ فلان

وكلابه، إذا ضعفت، ولزقت بالأرض، وقيل: هو من المرزَح، وهو المطمئن من الأرض، فكأنّ الرُازح قد لزمه، وضعف عن الارتقاء إلى العلوّ. آمل: أرجو. جاهك: عزّك. والوسائل: جمع وسيلة، وهوَ الشَّفيع، فجعل تأميلَه أفضلَ وسيلة. نائل: عطاء، والنّائل: المعطِي، ونِلْتُ له بالعطاء أنول وأنلت أُنيلُ، ورجل نالٌ ورجلان نالان[١]، ورجال أنوال، ونلتُه أنوله نَوْلاً أعطيته، قال الأعشى: **[المتقارب]**

ينـولُ العـشـيـرةَ مـا عـنـده ويـغـفـر مـا قـال جُـهّـالُـهـا[٢]

تلوِي عِذارك: تعرض بوجهك. ازدارك، بمعنى زارك، واستعمل قصدَك راحك: جمع راحة، وهي باطن الكف. امتاحك: استسقاك وأراد طلب معروفك، قال الرّاجز: **[الرجز]**

أفـلـح سـاق بـيـدْيـكَ امـتـاحـاً وقـرَّ عـيـنـاً ورجـا الـفـلاحـا

قوله: امتارَ: استجلب منك الرزق. سماحك: جودك. مَجُدَ: كَرُم، وصار ماجداً، أي شريفاً، ومُجد يمجُد، مجداً فهو ماجد، ومجد مجادة فهو مجيد وقيل: المجد تكرّم الآباء خاصة، وقيل: الأخذ من الشرف والسؤدد ما يكفي وقيل كَرم الفعل. جمد: بخل. حشد: جمع المال اللبيب: العاقل. وجد: استغنى. جاد: تكرّم عاد: فَعلها مرة بعد أخرى، وقد تقدم منظوماً لم يهب: لم يخف أن يهب: أن يعطي، وهذا كله قصد فيه التجنيس فجاء منه بكل بديع.

قوله: نطفته ثمَد، أي قليل.

الأزهري: النطفة تقال للماء القليل والكثير، ورأيت أعرابياً شرب من ركية غزيرة الماء فقال: والله إنها لنُطْفة باردة، والثمد: الماء القليل الذي لا مدَد له. قريحته: ذهنه. أطرق: أي أمال رأسه للفكرة. في استيراء زنده: في استخراج ناره، وأراد طلب ما عنده من العلم والاستشفاف: الاستقصاء في النظر والتأمل فيما يبْصر، واستشف الثوب: جعله طاقاً واحداً، أو رفعه في ظل حتى ينظر: أكثيف هو أم رقيق، واستشفَّه: رأى ما وراءه، والاستشفاف: النظر إلى كلّ شيء صقيل. الفِرِنْد: جوهر السيف، وأراد أن الوالي أعجب بكلامه، فأراد أن يعلم هل كان في حفّظه لغيره أو ارتجله لنفسه. صَمَتَتِه: سكتته. إرجاء: تأخير. توغّر: توقّد مقتضباً: مرتجلاً: **[البسيط]**

* * *

لا تَـحْـقِـرَنْ أبيْـتَ الـلّـعْـنَ ذَا أدبٍ لأَن بَـدَا خَـلَـق الـسِّـربـال سُـبُـروتَـا

ولا تَـضِـعْ لأخي الـتـأمـيـل حُـرْمَـتَهُ أَكـانَ ذا لَـسَـنٍ أَم كَـان سِـكِّـيـتـا

---

(١) رجل نالٌ: أي رجل جواد كثير النائل.

(٢) البيت في ديوان الأعشى ص ١٦٩.

وانْفَحْ بِعُرْفِكَ مَنْ وافَاكَ مُخْتَبِطاً ... وانْعَشْ بِغَوْثِكَ من الفيتَ مَنْكوتا
فخيرُ مالِ الفتىَ مالٌ أشاد له ... ذكراً تناقَلَهُ الرُّكْبانُ أَوْ صِيتَا
وما عَلى المشترِي حمداً بموهبةٍ ... غَبْنٌ ولو كان ما أَعْطَاهُ يَاقُوتا
لَوْلاَ المروءَةُ ضَاقَ العُذْرُ عن فِطنٍ ... إذا اشْرَأَبَّ إلى ما جَاوَزَ القُوتَا
لكِنَّهُ لابتناءِ المجْدِ جَدٌّ ومِنْ ... حُبِّ السَّمَاحِ ثَنَى نحو العُلاَ لِيتَا

* * *

قوله: أبَيْتَ اللعن، تحية ملوك الجاهليّة، قال ابن الأنباري رحمه الله في تفسيرها قولان: أحدهما أبيت أن تأتِيَ من الأشياء ما تستحق اللّعْن عليه، فاللّعْن منصوب، والآخر ـ وهو أردأ القولين ـ أن تكون الألف بمعنى «يا»، وبيت من البيوت مضاف إلى اللعن، لأن بعضهم يخفض اللعن، وتقديره: يا بيت اللّعنِ: سمة للملك، نقل من الوجه الأول لكثرة الاستعمال، ألا ترى أنها تعطي معنى النداء في البيت، وتقديره: يا ملك أو يا أمير، ويتضمّن معناه الدعاء، أي جعلك الله مّمن يكره اللعن؛ ولذا وقع اعتراضاً بين اللفظين؛ الأول طالب للثاني، كما قال ابن محلّم: [السريع]

إنّ الثّمانين ـ وبُلِّغتَها ـ ... قدْ أحوجتْ سمعي إلى تَرْجمانْ[1]

سَبْروتا: فقيراً محتاجاً، والسَّبْروت: الفقير الذي لا ثياب له. ذا لَسَنٍ، أي فصيحاً. سِكِّيتاً: عَيِيًّا كثير السكوت. انْفَحْ بعُرْفك، أي ارم بمعروفك انعش بغوثك، أي ارفع بعطيتك، والغوْث الإغاثة، وهي المبادرة بالنصرة لمن جاء يستغيثك. والإنعاش أن ترى رجلاً قد أهوى للسقوط فترفعه، أو افتقر فتجبره. منكوتاً: ملقّى على رأسه، ونُكِت الرجلُ فهو منكوت، إذا ضُرِب فأسقِط على رأسه. قوله أشاد: أي رفع.

صيتاً: ذكراً حسناً وقال النبيّ ﷺ: «إذا أردتم أن تعلموا ما للعبد عند الله فانظروا ما يتبعه من حسن الثناء»[2].

وقيل لبعض الحكماء: ما أحمد الأشياء؟ قال: أن يبقى للإنسان أحدوثة حسنة.

أكثم بن صَيْفيّ: إنما أنتم خَبر، فطيِّبُوا أخباركم، أخذه حبيب فقال: [البسيط]

وما ابنُ آدم إلا ذكرُ صالحةٍ ... أو ذكر سّيئة يسرِي بها الكَلِمُ
أمَا سمعتَ بدهرٍ باد أمّتُه ... جاءت بأخبارها من بعدها أُمَمُ

---

(١) البيت لعوف بن محلم في الدرر ٤/ ٣١، وشرح شواهد المغني ٢/ ٨٢١، وطبقات الشعراء ص ١٨٧، ومعاهد التنصيص ١/ ٣٦٩، وبلا نسبة في شرح شذور الذهب ص ٥٩، ومغني اللبيب ٢/ ٣٨٨، ٣٩٦، وهمع الهوامع ١/ ٢٤٨.

(٢) أخرجه مالك في حسن الخلق حديث ٥.

الأحنف: ما ادّخرت الآباء للأبناء، ولا أبقت الموتى للأحياء شيئاً أفضل من اصطناع المعروف عند ذوي الأحساب.

وقيل لمعاوية: أيّ الناس أحبّ إليك؟ قال: مَنْ كانت له عندي يد صالحة، قيل: فإن لم تكن؟ قال: فَمَنْ كانت لي عنده يد صالحة.

قال بُزُرْجُمِهْر: إذا أقبلتْ عليك الدنيا فأنفق منها فإنّها لا تفني، إذا أدبرتْ عنك فأنفقْ منها، فإنها لا تبقى بأخذ هذا المعنى الشاعر فقال: [البسيط]

لا تبخلنّ بدُنْيا وهي مقبلةٌ ... فليس ينقصها التّبذير وَالسَّرَفُ
فإنْ تولّت فأحرَى أن تجود بها ... فالحمد منها إذا ما أدبرتْ خَلَفُ

وقال آخر: [الطويل]

إذا جادت الدّنيا عليك فجُدْبها ... على النَّاس طُرًّا قبْل أن تتفلّتِ
فلا الجودُ يفنِيها إذا هي أقبلتْ ... ولا الشحُّ يُبقيها إذا هي ولَّتِ

وكان سعيد بن العاص يقول على المنبر: مَنْ رزقه الله رزقاً حسناً، فلْينفِقْ منه سرًّا وجهْراً، حتى يكونَ أسعد الناس به: فإنما يتركُ ما يترك لأحَدُ رجلين؛ إمّا لمصلح فلا يقل عنده شيء، وإمّا لمفسد فلا يبقى له شيء. أخذه الشاعر فقال: [الكامل]

اسعَدْ بمالِكَ في الحياة فإنّما ... يبقى خلافك مصلحٌ أو مفسدُ
فإذا جمعتَ لمفسدٍ لم تُغْنِهِ ... وأخو الصلاح قليله يتزَيَّد

[المروءة]

قوله: لولا المروءة، المروءة هي الأفعال الشريفة، التي يجب أن يقال للرجل بها مرء، مثل الرّجولة للأفعال التي يستحقّ الرجل أن يقال له بها رجل.

وقال النبيّ ﷺ: «لا دينَ إلاّ بمروءة».

وقال عمر رضي الله عنه: المروءة، مروءتان: ظاهرة وباطنة، فالظّاهرة الرياش والباطنة العفاف.

قدم وفدٌ على معاوية رضي الله عنه، فقال لهم: ما تعدون المروءة؟ قالوا: العفاف وإصلاح المعيشة، قال: اسمع يا يزيد!

وقال النبيّ ﷺ: «تجاوزُوا لذوي المروءات عثراتهم، فوالله إنّ أحدهم ليعثر وإنّ يده بيد الله»[١].

---

(١) أخرجه بمعناه أبو داود في الحدود باب ٥، وأحمد في المسند ٦/ ١٨١، بلفظ: «أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم».

عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: إنّا معشرَ قريش، نعدّ الحلم والجود سؤدُدا، ونَعدّ العفاف وإصلاح المال مروءة.

أنوشِرْوان: المروءة ألاّ تعمل عملاً في السّر تستحيِي منه في العلانية. غيره: المروءة اسم جامع للمحاسن كلها.

وقالوا: المروءة العفّة والحُرْفة.

قوله: اشرأبّ: تشوّف، والتّشوّف أن تسمع بالشيء وتتطلّع أن تراه، وتمتدّ أن تنظر إليه، يقول: لولا الأفعال الجميلة كان عذر الفطن الحاذق يضيق عليه إذا سئل وقيل له: قد جاوز مالُك قوتَك، وفضل عن مؤنتك، فلِمَ تجهَد في طلب المال، وترغب في الزيادة منه. قال: فالمروءة توسّع عليه عذرَه، فيقول ذو المروة. إنما اكتسِبه لأنفقَه في البرّ، وبيّن هذا بقوله: «ثَنى نحوَ الغِنَى لِيتا» واللِّيت: صفحةُ العنق فيقول: إنما ثَنَى عنقَه، وأمالَهَا حبًّا في السماح.

وقد سَبقه إلى هذا التّهاميّ بقوله: [الطويل]

ولولا العطايا أنّها سُنّةٌ له ... لما قال للدّنيا إذا عثرتْ: لعًا
فإن باشر الدنيا فللجود نالَها ... وإن هجر الدنيا فعنها ترفّعا

فزاد بقوله: «وإن هجر الدنيا» معنى حَسَناً.

وقالوا: نعم العون على المروءة المال.

وقال الأحنف بن قيس: [المتقارب]

فلو مُدَّ سَرْوِي بمال كثيرٍ ... لجدتُ وكنتُ له باذلا[1]
فإن المروءة لا تُستطاعُ ... إذا لم يكنْ مالُها فاضِلا

وقال آخر: [البسيط]

لولا شماتة أعداءِ ذوِي حسدٍ ... أو أن أنال بنفعِ مَنْ يُرَجِّيني
لما خطبتُ إلى الدنيا مطالِبَها ... ولا بذلتُ لها عِرْضي ولا ديني

[البسيط]

* * *

وما تنشَّقَ نَشْرَ الشُّكر ذو كرمٍ ... إلاّ وأَزْرَى بِنَشْرِ المِسْكِ مفتوتا
والحمدُ والبُخْلُ لم يُقْضَ اجتماعُهما ... حتى لقدْ خِيلَ ذا ضبًّا وذا حُوتَا
والسَّمْحُ في الناسِ محبوبٌ خلائقه ... والجامد الكفّ ما ينفَكُّ مَمْقُوتا

---

(١) البيتان في البيان والتبيين ٣/ ٢٩٢.

وللشَّحِيح على أموالِهِ عِلَلٌ ... يوسعنَهُ أبداً ذمًّا وتَبْكِيتَا
فَجُد بما جمعتْ كفَّاك من نشبٍ ... حتَّى يُرَى مُجْتَدِي جَدْواك مَبْهُوتا
وَخُذْ نصيبك مِنْهُ قَبْلَ رائِعَةٍ ... من الزَّمانِ تريكَ العُودَ مَنْحُوتا
فالدهرُ أنْكَد من أن تَسْتَمِرَّ بهِ ... حالٌ، تَكَرَّهْتَ تِلْكَ الحالَ أم شِيتا

فقال له الوالِي: تالله لقَدْ أحْسَنْتَ، فأيّ ولد الرَّجُلِ أنت؟ فنظَرَ إلَيْه عَنْ عُرْض، وأنشد وهو مُغْضٍ: [المنسرح]

لاَ تَسْأَلِ المرْءِ مَنْ أبوهُ ورُزْ ... خلالَهُ ثمَّ صِلْهُ أو فاصْرِمِ
فما يَشِينُ السُّلاَفَ حين حَلاَ ... مذاقُها كَوْنُها ابنَةَ الحِصْرِمِ

* * *

قوله: تنشّق، أي شم. نشر: راحة. أزرى: عاب. مفتوتاً: مدقوقاً، يقول: لَشكْر المعروف عند أهل الجود أعطرُ من ريح المسك إذا فتّ فانتشرت رائحته.

وقال إبراهيم الشيبانيّ: كنت أرى رجلاً من وجوه أهل الكوفة، لا يجفُّ لِبْدُه، ولا يستريح قلبه في طلب حوائج الناس، وإدخال المرافق على الضعيف، فقلت له: أخبرني عن الحال التي هَوّنتْ عليك هذا التّعب في القيام بحوائج الناس، ما هي؟ قال: قد والله سمعت تغريدَ الأطيار بالأسحار في فروع الأشجار، وسمعتُ خُفُوق أوتارِ العيدان وترجيع أصوات القِيان، فما طربت من صوتٍ قطّ طَربِي من ثناءٍ حسن، بلسانٍ حسن، على رجل قد أحسن، وما سمعتُ أحْسنَ من شكر حرّ لرجلُ حرّ، ومِن شفاعة محتِسبٍ لطالبٍ شاكر، فقلت له: لله أبوك! لقد حُشِيت كرماً، فلذة السمع هنا بمنزلة الشم في البيت.

خيّل: حسب، والضبّ والحوت قد تقدّما في الثامنة عشر.

قوله: الجامد الكفّ: هو البخيل، وهو ضدّ السَّمْح. ممقوتاً: مبغوضاً. عِلَل: أعذار. يُوسِعْنَه ذمًّا، أي يكثرن ذمه، التبكيت: الهوان والتوبيخ جُدْ: تكرّم. نشَب: مال مجتدي جدواك: طالب عَطاياك. مبهوتاً: متحيِّراً، يريد أنه يعجب من كثرة ما تعطيه فيتحيّر وما يدري كيف يشكرك!

[ذم البخل ومدح الكرم]

ومن مدح الكرم وذم البخل قالوا:

لو لم يكن في الكرم إلا أنه من صفات الله عز وجل.

وقال النبيّ ﷺ: «إنّ الله يحبّ الجود ومكارم الأخلاق ويذمّ سَفْسَافها»[1].

(١) أخرجه الترمذي في الأدب باب ٤١، بلفظ: «إنّ الله جواد يحب الجود»، وفي النهاية في غريب=

وقيل لقوم من العرب: مَنْ سيّدكم؟ فقالوا: فلانٌ على بخلٍ فيه، فقال عليه الصلاة والسلام: «وأيّ داء أدوى من البخل»(١)!

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

وقال المأمون لمحمد بن عباد: أنت متْلاف، فقال: مَنَع الجود سوء ظن بالمعبود، يقول الله عز وجل: ﴿وَمَا أَنفَقْتُمْ مِن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهو خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

وقال كسرى: عليكم بأهل السخاء والشجاعة؛ فإنهم أهلُ حسن الظن بالله، ولو أن أهل البخل لم يدخل عليهم من ضرّ بخلهم ومذمة الناس لهم وإطباقُ القلوب على بغضهم، إلا سوى ظنِّهم بربهم في الخَلَف لكان عظيماً، أخذه محمود الوارق فقال: **[الطويل]**

مَـنْ ظـنّ بـالله خـيـراً جـاد مـبـتـدئـاً ... والـبـخـل مِـنْ سـوء ظـنّ الـمـرء بـالـلّـهِ

وخوّف بخيلٌ سَخِيًّا الإملاق والفقر، فردّ عليه السخيّ، يقول: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُم الفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءَ وَاللهُ يَعِدُكُم مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً﴾ [البقرة: ٢٦٨].

وقال الحسن والحسين لعبد الله بن جعفر: إنك قد أسرفتَ في بذل المال، فقال: بأبي أنتما وأميّ! إن الله عوّدني أن يتفضّل عليّ، وعوّدته أن أتفضّل على عبيدة، فأخاف أن أقطع العادة فيقطع عني عادته.

قوله: وخذ نصيبك منه قبل رائعة. الرائعة الشيبة، لأنها تروّع الإنسان أي تفزعه، وتعلمه أنها تأتيه بالكبَر والهرم. والعود المنحوت، أراد به الجسم اليابس لأنّ الهرم يُذهِب نعمة الجسم، وأصل المنحوت المنجُور.

وأراد بقوله: خُذ نصيبَك قولَهُ عليه الصلاة والسلام: «يقول ابن آدم: مالي مالي، ومالَه مِنْ مالِهِ إلا ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو أعطى فأمضى»(٢).

[مما قيل في الشيب]

وقال الشاعر في الرائعة: **[البسيط]**

أهـلاً بـرائـعـةٍ لـلـشـيـب واحـدةٍ ... تـفـنـي الـشـبـاب وتـنـهـانـا عـن الـغَـزَلِ

وقال أبو الطيب المتنبي: **[الكامل]**

راعـتْـك رائـعُـة الـمـشـيـب بـعـارِضـي ... ولَـو انـهـا الأولَـى لـراعَ الأسـحـمُ(٣)

= الحديث لابن الأثير الجزري ٢/ ٢٧٣: «إنّ الله يحب معالي الأمور ويبغض سفاسفها»، وفي حديث آخر: «إنّ الله رضي لكم مكارم الأخلاق وكره لكم سفاسفها».

(١) أخرجه البخاري في الخمس باب ١٥، والمغازي باب ٧٣، وأحمد في المسند ٣/ ٣٠٨.

(٢) أخرجه مسلم في الزهد حديث ٤، وأحمد في المسند ٢/ ٣٦٨، ٤١٢.

(٣) البيتان في ديوان المتنبي ٤/ ١٢٣.

لو كانَ يمْكِنُني سَفَرْتُ عن الصِّبا ... فالشّيب من قَبلِ الأوان يُكَتَّمُ

وفي رواية ابن جني: «رائعة البياض»، وقال: هي أول شعرة تطلع من الشيب. وأنشد ابن الأعرابي «أهلاً برائعة للشيب» وأنشد غيره «برائعة بيضاء» أي بشعرة تطلع من المشيب بيضاء تروع الناظر، وهذا أصوب من الوجه الآخر، وقال كُثَيِّر: [الكامل]

كَذَب العواذل بل أردْنَ خِيانتي ... وبدتْ روائع لِمَّتِي وقُتومُ[(١)]

وقال الألبيري: [الوافر]

بصُرتُ بشيبةٍ وخطت بِلَيْلِي ... فقلت لها تأهَّبِي للرحيلِ

ولا يَهُنِ القليل عليك منها ... فما للشيب وَيْحَك من قليلِ

فكَمْ قد أبصرتْ عيناك مُزْناً ... أصابك طلها قبلَ النّزولِ

فلا تحقِرْ بنوْر الشَّيب واعلمْ ... بأنّ القطر يَبْعَثُ بالسُّيولِ

وقال أبو بكر البلويّ: [السريع]

نُكِبْت في شِعري وشَعري وما ... نفسي في صبري بمنكوبَهْ

إذا دنْت بيضاءُ مكروهةٌ ... منّي نأت سوداء محبوبَهْ

وقال كُشاجم فأحسن: [الوافر]

نظرتُ إلى المرأة فروَّعتْنِي ... طلائع شيبتين لدَى المتابِ

فأمّا شيبة ففزعتُ منها ... إلى المقراضِ من حبّ التَّصابِي

وأمّا شيبة فصفحتُ عنها ... لتشهد بالبراءة من خِضَابِي

فيا لكَ من مشيبٍ قد تبدَّى ... أقمت به الدَّليل على شبابِي

وقال البحتريّ: [الخفيف]

وأبتْ تركي الغديّاتُ والآ ... صالُ حتى قضيْن بالمقراضِ[(٢)]

شعراتٌ أَقُصُّهنّ ويرجِعْـ ... ـنَ رجوعَ السِّهام في الأغراض

وقال ابن المعتّز: [الطويل]

ألستَ ترى شيباً برأسِي شاملاً ... ونتْ حيلتي عنهُ وضاقَ به ذَرْعِي

كأنّ المقاريض التي يعتوِرْنَهُ ... مناقير طير تنتقِي سُنبل الزَّرْعِ

---

(١) البيت في ديوان كثير عزّة ص ٢٠٦.

(٢) البيتان في ديوان البحتري ص ١٢٠٩.

وقال رجل من الأزد: [الكامل]

ولقد أقولُ لشيبةٍ أبصرتُها ... في مَفْرِقي فمنحتُها إعراضِي

عنّي إليكِ فلستُ منتهياً لقدْ ... عَمَمْتُ منك مفارِقي ببياضِ

هل لي سَوى عشرينَ عاماً قَدْ مَضَتْ ... مَعْ ستةٍ في إثرهِنّ مواضِي

ولقلّما أرتاع منكِ وإنّني ... فيما هويتُ وإن وزعتِ لماضِي

فعليك ما اسْطَعْتِ الظّهورَ بِلمَّتِي ... وعليّ أن ألقاكِ بالمقْرَاضِ

وقال أبو نواس: [الكامل]

وإذَا عَدَدْتُ السنَّ كم هِي لم أجدْ ... للشّيب عذراً أنْ يُلِمّ برأسي

وقال أبو دلف: [البسيط]

في كلّ يوم أرَى بيضَاء قد طلعتْ ... كأنما نبتتْ في ناظِر البَصَرِ

لئن قرضتُك بالمقراضِ عن بَصري ... لمَا قَرضتُك عن همِّي وعن فكرِي

وقال كشاجم: [الطويل]

أخي قمْ فعاونّي على شيبةٍ بغتْ ... فإنيَ منها في عَذَاب وفي حَرْبِ

إذا ما مَضى المنقاش يأتي بها أتَت ... وقد أخذت من دونها جارةَ الجنب

كحان على السّلطانُ يَجزَى بذنبهِ ... تعلّق بالجيران من شدَّة الرُّعْبِ

ولأبي الفضل الدارميّ: [الخفيف]

شيبةٌ نغّصَتْ عليّ شبابي ... فتعمَّدتُ نَتفَها غيرَ وانِ

قلتُ ماذا كذا العمرُ التّصابي ... لشَبَابي أجلْ عند الحسانِ

فأجابت جَرَى من الرّسْم للسلـ ... ـطان أخذ البراءِ مِثلِ الجانِي

فإن ازددتَ في الجفاء فلا تنـ ... ـكرْ قدومي عليك مَعْ إخواني

وهذ مثل قول الآخر: [الطويل]

وزائرةٍ للشيب لاحتْ بعارضي ... فبادرتُها بالقُطْفِ خوفاً من الحَتْفِ

فقالت على ضعفِي استطلت ووحْدتي ... رويدَك حتى يلحق الجيشُ من خَلْفِي

فلم يك إلا عن قريبٍ فأقبلَتْ ... وعمّت جميعَ الرأس رَغْماً على أنفِي

فوا أسفا لو كان يُغْنِي تأسّفِي ... على زمنٍ ولّى ونحنُ على حرفِ

وقال الرّماني: [الكامل]

وثلاثِ شَيْبَاتٍ طَلَعْنَ بمفرقي ... فظننتُ أن نزولهنّ رَحِيلِي

طلعت ثلاثٌ في طلوع ثلاثةٍ ... واشٍ ووجهُ مراقب وعذولِ

فعزلْنَنِي عن صَبْوَتي فلئن ذللـ ـتُ لقد سمعتُ بذلّة المعزولِ

وفي معنى قول أبي نواس: «وإذا عددت السن كم هي» قال المعري: [الخفيف]

عجبتْ هندُ من تسرُّع شيبي قلت هذا عَقْبي فِطام السُّرورِ

عوّضتني يد السّفاسف من مِسْـ ـكِ عِذارى ريشاً من الكافورِ

كأنّ لي في انتظار شَيْبي حسابٌ غالطتْني فيه صُرُوفُ الدُّهُورِ

وقال ابن الملح الشِّبْليّ: [الكامل]

طَلع المشيبُ بلّمتي فتعجّبوا من كدّه وَتَعجبُوا من مُهْلَتِهْ

ما شبت من كبَر ولكن مَنْ يبتْ دنفاً ومشتاقاً يشِبْ من ليلتِهْ

وقال أبو عثمان الخالديّ: [المتقارب]

فديتُكِ ما شبتُ من كَبْرةٍ وهذي سِنِّي وهذا الحسَابُ

ولكن هجرتِ فحلَّ المشيبُ ولو قد وصلتِ لحلَّ الشَّباب

وهذا القدر كاف.

* * *

قوله: فالدهر أنكد... البيت يقول: إن كنت غنياً أو فقيراً فتلك حالٌ لا تدوم، كرهتَ أو رضيتها.

وقوله: أيّ ولد الرجل أنت، هذا الكلام إنما يقع في باب النفي، قال يعقوب: تقول العرب: لا أدري أيُّ ولد الرجل هو؟ يعنون بالرّجل آدم وولده الناس، فكأنه قال: ما أدري أيّ الناس هو.

عُرْض: جانب. مغضٍ: مغمض عينه، يريد أنه لم يعجبه سؤاله، فلم يقبل عليه بنظرِه، ولاَ بإنشاده. ورُزْ، بالراء قبل الزاي، معناه اختبرْ واطلب قال ابن الأنباري: رزت ما عنده، أي طلبتُه وأردته، قال الزُّبيديّ: الرّوْز قريب من التحقيق، والروز أن تأخذ الصنجة بيدك، فترفعها لتختبر ثقلها، قال الشاعر: [الوافر]

وإنّ الله رازَ حلوم قيسٍ فلّما ذاق خِفَّتها قَلاها

وقال الأعشى: [مجزوء الكامل]

فمشى ولم يخش الأنيـ ـس فرازها وخَلاَ بها

اضْرِمْ: اقطع الصحبة. السُّلاف: الخمر الخالصة. الحصرم: الحامض، لأنَّ عود العنب حامض، ويتولّد عنه شيء لذيذ، وتقدّم معنى البيتين.

وأما وجود الأشياء مع أضدادها مثل الحلاوة مع أصلهُ مرٌّ فله نظائر، قال حبيب: **[البسيط]**

* والنار قد تُنتضَى من ناضِرِ السَّلَم[١] *

وقال المتنبي: **[الوافر]**

فإن الماء يَجْرِي من جمادٍ   وإن النار تخرج من زنادِ[٢]

وقد يجري أيضاً خلاف العادة في الأشياء، فقد يتشابه الشيئان من جهة، ويتباعدان من أخرى.

قال المعرّي: **[البسيط]**

قد يَبْعدُ الشيءُ من شيء يُشابِهُه   إنَّ السماءَ نظير الماء في الزَّرَقِ[٣]

قال المتنبي وقد سبقه إليه: **[الوافر]**

وقد يتقارب الوصفان جدًّا   وموصوفاً هما مُتبَاعدان[٤]

وما أحسن قول ابن صارة: **[البسيط]**

يا مَنْ يعذِّبني لمّا تملّكَنِي   ماذا تريد بتعذيبي وإضراري

تروقُ حسناً وفيك الموت أجمعُه   كالصَّقل في السَّيْف أو كالنورِ في النار

وقال ابن عبدون أستاذ بلَنْسِية: **[البسيط]**

يا مَنْ محيَّاهُ جَنات مفتَّحةٌ   وهجره لي ذنب غيرُ مغفورِ

لقد تناقَضْتَ في خَلْق وفي خُلُقٍ   تناقضَ النار بالتدخين والنُّورِ

* * *

قَال: فقرّبَه الوالِي لبيانِه الفاتِن؛ حتى أحَلّه مَقْعَدَ الخاتِن. ثم فَرَض له من سُيُوب نَيْلِهِ، ما آذن بطولِ ذَيْلهِ، وقِصَرِ ليلهِ. فَنَهَض عنه بِرُدْنٍ مَلآن، وقلْبٍ جذلان، وتبعتُه حاذِياً حَذْوَهُ، وَقافياً خَطْوَهُ، حتَّى إذا خَرَج من بابِهِ، وَفَصَل عن غابِهِ، قلت له: هُنِّئْتَ بما أوتِيتَ، ومُلِّيتَ بما أُوتيتَ فأسفر وَجِههُ وتَلالاَ، وَوَالى شكراً لِلَّهِ تعالى، ثم خطَر اختيالاً، وأنشد ارتجالاً: **[الطويل]**

---

(١) صدره:

أخرَجتموه بكرهٍ من سجيَّتِه

والبيت في ديوان أبي تمام ص ٢٦٩.

(٢) البيت في ديوان المتنبي ٢/ ٣٦٥.

(٣) البيت في سقط الزند ص ٦٨٨.

(٤) البيت في ديوان المتنبي ٤/ ٢٥٥.

مَنْ يَكُنْ نال بالحماقة حظّاً أو سَماً قَدْرُه لطيبِ الأصولِ
فبفضلي انتفعتُ لا بِفُضولي وبقوْلي ارتفعتُ لا بقُبولي

ثمّ قال: تعساً لِمَنْ جدَبَ الأدب، وطُوبَى لمن جدَّ فيه ودأب، ثم ودَعنِي وَذَهَب، وَأَوْدَعَنِي اللّهَب.

* * *

قوله: مقعد الخاتن: كناية عن القرب، كما أن مَزْجَرَ الكلب كناية عن البعد. سيوب: عطايا، وأصلها الكنوز والمعادن. نَيْلِه: ماله الموهوب، وفي كتاب العَيْن: أنلت المعروف ونلته ونوّلته واسم ما تهب النَّوال والنَّيْل. آذن: أعلم. طول ذيله: كثرة ماله. قصر ليله: يريد قلة همه، لأنّ المهموم لا ينام فيطول ليله، ووصف الليل بالطول والقصر، وله باب مشهور في كتب الأدب تركنا ذكره لشهرته وكثرته، وعلّته راجعة لما ذُكِر من أن لَيْلَ السرور قصيرٌ، وليل الهمّ طويل.

[مما قيل في الليل شعراً]

وحدث إسحاق الموصليّ قال: دخلت على الرشيد وهو مُستلقٍ على قفاه وهو يقول: أحسن والله فتى قريش وظريفها وشاعرها، قلت: فيمَ ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال في قوله: [البسيط]

لا أسأل الله تغييراً لما فعلتْ نامت وقد أسهرتْ عينيَّ عيناها
فاللّيل أطولُ شيء حين أفقِدُها واللّيل أقصر شيءٍ حين ألقاها

ثم قال: أفتعرفه؟ قلت بصوت ضعيف: لا، قال: بحقي عليك؟ قلت: نعم هو الوليد بن يزيد، فقال استر ما سمعتَه مني، وإنه ليستحق أكثرَ مما وصفته به.

ولبعضهم وأجاد: [الكامل]

إنّ اللّيالِيَ للأنام مطيّةٌ تُطْوَى وتُنشر بينها الأعمارُ
فقصارهُنّ مع الهموم طويلةٌ وطِوالهُنّ مع السرورِ قصارُ

وأنشد الفنجديهي للمطرافي: [البسيط]

أخو الهوى يستطيلُ الليلَ مَن سهرِ واللّيل في طولِه جارٍ على قَدَرِ
لَيْلُ الهوى سَنَةٌ في الهجر مدَّتُه لكنّه سنة في الوصل من قِصَرِ

وأنشد السَّلامي رحمه الله: [البسيط]

ليلي وليلى سَواءٌ في اختلافهما قد صيَّراني جميعاً في الهوى مثلا
يجود بالطول ليلي كلّما بخِلَتْ بالطَّوْل ليلَى وإن جادتْ به بَخِلا

وقال ابن أبي دباكل: [الوافر]

يطولُ اليومُ لا ألقاكِ فيه وحولٌ نلتقي فيه قَصِيرُ

وتبَعه بشار، فقال وأحسن: [البسيط]

لا أظلم الليلَ ولا أدّعِي أنّ نجوم الليل ليست تغورْ

ليلي كما شاءت فإن لم تَزُرْ طال وإن زارتْ فليلي قصيرُ

تصرُّف الليل على حكمها فهو على ما صرَّفَتْهُ يَدُورْ

وزاد ابن العريف الزاهد على هذا المعنى، فقال وأحسن: [الخفيف]

لستُ أدري أطال ليلي أم لا كيف يدري بذاك مَنْ يتقَلَّى

لو تفرغت لاستطالة ليلي ولرعْيِ النجوم كنتُ مُخِلا

إن للعاشقين عن قصر الليـ ـل وعن طوله من الهمّ شُغْلا

قوله: ردن، أي كم. جذلان: مسرور. حاذياً حذوه، أي متّبعاً له جاعلاً قدمي موضع قدمه، فيّتسع فيه، فيقال: حذوت حَذْوَه، أي فعلت مثل فعله، وأصله في حَذْو النعل بالنعل، وقد تقدم.

قافياً: متبعاً فَصل: زال وخرج. غابه: موضعه، والغاب الشجر الملتفّ يتّخِذ الأسد فيه بيْتاً. مُلِّيت: أطيل لك ومتّعت به، من الملاوة، وهو الحيْن أوليت: أعطيت. أسفر: أضاء، ومثله تلألأ، إلاّ أن معناه أبلغ، وأصل تلألأ: ابيضّ، فأشبه بياض اللؤلؤ، وصفاءه، يريد أنّه انبسط وجهه وحسنت خلقته لما دعا له. والَى: كَرّر. خطر اختيالاً: جرّ أثوابه إعجاباً بنفسه. سما قدره: ارتفعت منزلته. طيب الأصول: شرف الجدود. الفُضُول: الحمْق والدخول فيما لا يعني. والقُيُول: مَنْ دون الملك، واحدهم قَيْل، وأراد بهم الأجداد الأشراف، وطابق بين الحماقة والفضول، وبين طيب الأصول والقبول، وسلخه من قول المتنبي: [البسيط]

ما بقومِي شرفتُ بل شَرُفوا بِي وبنفسي ارتفعتُ لا بجُدُودِي[1]

أشار إلى نسبه من ملوك كندة.

قال: آخر: [الرمل]

أيها الفاخر جهلاً بالحسبْ إنّما الناس لأمٍّ ولأبْ

إنما الفخر بعقل راجحٍ وبأخلاق حسانٍ وأدبْ

ذاك مَنْ قد فاخر النّاسُ به فاق مَنْ فاخر منهمْ وغَلَبْ

(١) البيت في ديوان المتنبي ١/ ٣٢٢.

وقال الحكيم بن قنبر: **[البسيط]**

لا خير فيمن له أصلٌ بلا أدبٍ حتّى يكون على ما نابه حَدِبا
كم مِنْ حسيبٍ أخي عِيٍّ وطمطمةٍ فَدْمٍ لدى القوم معروفاً إذا انتسبَا
في بيت مكرمةٍ آباؤه نُجُبٌ كانوا الرؤوس فأضحى بعدهم ذَنَبَا

وقد تقدمت نظائره.

قوله: تَعْسا، أي هلاكاً. جدب: عاب، وفي الحديث: «جدب ابن الأثير بالسمرَ بعد العِشاء»(١) أي عابه، وقال ذو الرّمة **[الطويل]**

إذا نازعتك القولَ مَيّةُ أو بَدَا لك الوجه منها أو نَضَا الدِّرْعَ سالِبُهْ(٢)
فيالك من خدٍّ أسيلٍ ومنطقٍ رَخيمٍ ومِنْ خلق تعلل جادبُهْ

قوله: دأب، أي دام عليه. أودعني: ضمنني، وجعله في قلبي اللّهب: جَمْر النار.

ومما يتعلّق بما قدمناه من الشعر قول جحظة: **[الوافر]**

أرى الأعياد تتركني وتَمْضِي وأُوشك أنّها تبقَى وأمضِي
علامة ذاك شيبٌ قد عَلاني وضعفي عند إبرامي ونَقْضِي
وما كذبَ الّذي قد قال قبلي إذا ما مرّ يوم مرّ بعضِي
أرى الأيام قد ختمتْ كتابي وأحسبها ستتبعه بفضٍّ

وعلى قوله: «إذا ما مرّ يوم مرّ بعضي» قال بعضُ بني حمدان: **[مخلع البسيط]**

المرء وقت له تناهٍ مقدّرٌ طوله وعَرْضُهْ
فكلّما مرّ منه يوم فإنّما مرَّ منه بعضُهْ

وجحظة مطبوع الشعر، هو القائل في أبي بكر بن دريد: **[البسيط]**

فقدتُ بابن دريدٍ كلَّ فائدةٍ لمّا غدا ثالثَ الأحجار والتُّرَبِ
وكنت أبكي لفقد الجود مجتهداً فصرت أبكي لفقد الجودِ والأدَبِ

أين هذا من قول الفرزدق يرثي سائساً، أنشده أبو محمد في الدرة: **[الطويل]**

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الصلاة باب ١٢، وأحمد في المسند ١/ ٣٨٩، ٤١٠، بلفظ: «جدب لنا رسول الله السمر بعد العشاء».

(٢) البيتان في ديوان ذي الرمة ص ٨٣٤، والبيت الثاني في لسان العرب (جدب)، وتاج العروس (جدب)، وتهذيب اللغة ١٠/ ٦٧٣، وديوان الأدب ٢/ ١٤٢، ومقاييس اللغة ١/ ٤٣٥، ومجمل اللغة ١/ ٤١٤، والأغاني ١٨/ ٥٧، وديوان المعاني ١/ ٢٣٤، وأمالي القالي ١/ ٩٥، وذيل الأمالي ص ١٢٤، ١٦٣، وسمط اللآلي ص ٢٩٨، وكتاب العين ٦/ ٨٧، وهو بلا نسبة في المخصص ١٢/ ١٧٢، وجمهرة اللغة ص ٢٦٤، ومجالس ثعلب ص ٢٢٨.

لـيبـك أبـا الـخـنـسـاءِ بـغـلٌ وبـغـلـةٌ ومـخـلاة سـوء قـد أضِيـع شـعـيرُهـا
ومَـجْـرَفـة مـطـروحـة ومـحِـسَّـة ومـقـرعـة صـفـراء بـالٍ سـيـورهـا

أخذه منْ قول زيد الخيل يرثي عبداً له: [السريع]

أمّـا تـعـاورَتـك الـرّمـاح فـلا أبـكـيـك إلا لـلـدّلـو والـمـرسِ[1]

وقد قدّمنا فصلاً في التشاؤم بالأدب في قوله، فقد دهاني شؤمه وأثنى عليه هنا بقوله: تعساً لمن جَذَب الأدب، وطوبى لمنّ جدّ فيه وأدب

[مما قيل في الأدب والأديب]

ونذكر هنا فصلاً مقنعاً في مَدحِه، حسبما شرطنا من الجري معه على أغراضه. قال العلاء بن أيوب كان يقال: مَثَلُ الأديب ذي القريحة، مثلُ دائرة تُدَار من داخلها، فهي في كلّ دارةٍ تدار تتّسع وتزدادِ عِظَماً، ومثلُ الأديب غير ذي القريحة مثلُ دائرة تُدَار من داخلها، فهي عن قليل تبلغ إلى باطنها.

أوصى بعض الحكماء بَنيهِ، فقال لهم: الأدب أكرمُ الجواهر طبيعةً، وأنفسُها قيمة، يرفع الأحساب الوضيعة، ويفيد الرغائب الجليلة، ويُغْنِي من غيره عشيرة، ويكثر الأنصارَ من غير رزيّه، فالبَسوه حُلّة، وتزيّنوا به حِلّيَة، يؤنسكم في الوحشة، ويجمع القلوب المختلفة.

وقال شبيب بن شبّة: اطلبوا الأدب فإنه مادّة للعقل، دليل على المروءة صاحب في الغربة، مؤنس في الوحشة، حلية في المجلس.

وقال الخليل: مَنْ لم يكتسب بالأدب مالاً اكتسب به جمالاً.

وأنشد الأصمعيّ رحمه الله: [البسيط]

إن يك لـلعقـل مـولـود فـلست أرَى ذا العقل مستوحشاً من حادث الأدَبِ
إنـي رأيـتـهـمـا كـالـمـاء مـخـتـلـطاً بـالـتّرب تظهـر عـنه زهـرة الـعُـشُـبِ

وقال عبد الملك لبنيه: عليكم بالأدب، فإنكم إذا احتجتم إليه كان لكم مالاً، وإن استغنيتم عنه كان لكم جمالاً.

ابن المقفع: إذا أكرمك الناس لمالٍ أو لدنيا، فلا يعجبنَّك، فإنّ تلكَ كرامةٌ نزول

---

(١) يروى صدر البيت:

إمّـا تـقـرّش بـك الـسـلاح فـلا

وهو لأبي زبيد الطائي في ديوانه ص ١٠٥، ولسان العرب (قرش)، وجمهرة اللغة ص ٧٢١، ٧٣٢، وطبقات فحول الشعراء ص ٦١٠، والشعر والشعراء ص ٣٠٨، والكامل ص ٩٩٢، والأغاني ١٢/ ١٦٠.

بزوالهما، ولكن ليعجبتك إذا أكرموك لدين أو أدب.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كفاك من علم الدين أن تعرف ما لا يسع جهله، ومن علم الأدب أن تروِي الشاهد والمثل.

وقال بُزُرْجُمِهر: ما ورَّثت الآباءُ الأبناءَ خيراً من الأدب، لأن به يكسبون المال، وبالجهل يتْلِفونه.

وقال: حسنُ الخُلق خير قرين، والأدب خير ميراث، والتقوى خيرُ زاد.

وقالوا: ثلاث لا غربة معهنّ. مجانبة الرِّيَب، وحسن الأدب، وكفّ الأذى. وقال يُزُرْجُمهر: من كثر أدبه كثر شرفه، وإن كان قبلُ وضيعاً، وبعد صيته، وإن كان خاملاً، وسادَ وإنْ كان غريباً، وكثرت الحاجة إليه وإن كان فقيراً.

وقال عمر رضي الله عنه: من أفضل ما أعطيَتْه العرب الأبيات، يقدّمها الرجل بين يدي حاجتهِ، فيستعطف بها الكريم ويستنزل بها اللئيم.

وقالوا: الأدب أدَبَان. أدب الغريزة، وهو الأصل وأدب الرّواية وهو الفرع، ولا يتفّرع الشيء إلا عن أصله، ولا ينمو الأصل إلاّ باتصال المادّة.

وقال حبيب فأحسن: [الطويل]

وما السَّيْفُ إلاّ زَبْرَةٌ إن تركتَه ... على الخِلْقة الأولى لمَا كان يقطُع[1]

وقال آخر: [المنسرح]

ما وهبَ الله لامرىء هِبَةً ... أفضلَ من عقله ومن أدَبِهْ

هُمَا كمال الفتى فإن فُقِدَا ... ففقْدُه للحياة أحْسَنُ بِه

وقالوا: إذا كان الرجل طاهر الأدب، طاهر المنبت، تأدّب بأدبه، وصلح بصلاح أهله وولده.

وقال الشاعر: [الطويل]

رأيت صلاح المرء يُصلِحُ أهلَهُ ... ويَغْديهمْ عند الفساد إذا فَسَدْ

يعظَّم في الدنيا لأجل صلاحِه ... ويُحْفَظُ بعد الموت في الأهل والولَدْ

(١) البيت في ديوان أبي تمام ص ١٢٨.

وهي العُمَانيّة

حدَّثَ الحارثُ بن هَمّام، قال: لهِجْتُ مُذِ اخضَرَّ إزارِي، وَبَقَل عِذارِي، بأَنْ أَجُوبَ البَرَارِي، على ظهورِ المَهَارِي، أُنجدُ طوراً، وأسْلُك تَارَةً غوراً؛ حَتَّى فَلَيْتُ المعَالِمَ والمجاهلَ، وبَلَوْتَ المنازِلَ وَالمَنَاهِل، وأدْمَيْتُ السَّنابِكَ والمناسِمَ، وَأَنضيتُ السَّوابِقَ والرَّواسم فَلمّا مَلِلتُ الإصْحَارَ، وقَدْ سَنَحَ لِي أَرَبٌ بِصُحَار، مِلْتُ إلى اجْتياز التَّيار، واخْتِيارِ الفُلْكِ السَّيَّار، فَنَقْلتُ إلَيْهِ أساودي، واستصحبتُ زادِي ومَزَاوِدِي، ثم ركبتُ إليه ركوبَ حاذر ناذرٍ، عاذلٍ لنفسه عاذِر فلمَّا شَرَعْنا في القُلْعَة، ورفَعْنَا الشُّرُعٌ لِلسُّرْعَةِ، سَمِعْنَا مِنْ شاطِىء المَرْسَى، حِينَ دَجا اللَّيْلُ وأَغْسَى، هاتفاً يقول: يا أَهْلَ ذا الفُلْكِ القَوِيم، المزجَّى في الْبَحْرِ الْعَظيم، بِتَقْدِيرِ العَزِيزِ العَلِيم، هَلْ أدُلّكُمْ على تجارة تُنْجِيكُمْ مِنْ عذَابٍ أليمٍ! فَقُلْنا: أقَبِسْنَا نارَكَ أَيُّها الدّليلُ وأَرْشِدْنا كما يُرْشِدُ الخليلَ الخليلُ.

* * *

لهجتُ أي اشتدّ حبّي، وأصله في الفصيل إذا رضع أمه، يقال: لَهِج بضَرْع أمِّه، إذا لزمَه ليرضعه، اخضرّ إزاري، كنى به عن الشباب، وكانت العرب إذا بلغ منها الغلام الحلُمَ وأشعر لبس الإزار لِيَسْتُر عورته. بقل عذاري: اخضرّ شاربي، وبدا الشعْر في وجهي أخضر مثل البقْل.

[مما قيل في العذار]

ونذكر هنا شيئاً مما قيل في العِذار، قال أبو نُواس: **[الكامل]**

مِنْ أينَ للرشأ الأغنّ الأحْوَرِ ... في الخدّ مثل عِذاره المتحيّر

قمر كأنّ بعارضَيْه كليهما ... مِسْكاً تساقطُ فوق وردٍ أحمر

وقال أيضاً: **[مخلع البسيط]**

قَدْ كَانَ بَدْرَ السَّماء حسناً ... فالنَّاس في حبِّه سواءُ

فــــزاده ربُّــــه عِــــذَاراً ... تــمَّ بـه الـحـسـنُ والـبـهـاءُ
لا تــعـجـبـوا، رَبُّـنـا قـديـرٌ ... يـزيـدُ فـي الـخـلـق مـا يـشـاءُ

وقال ابن رشيق: **[السريع]**

هَـمَّـتْ عـذارَاهُ بـتـقـبـيـلـهِ ... فـاسـتـلّ مـن عـيـنـيـه سَـيْـفَـيْـنِ
فـذلـك الـمـحـمّـر مـن خـدّه ... دمٌ جـرى بـيـن الـفـريـقَـيْـنِ

وقال غيره: **[مجزوء الكامل]**

قــمــرٌ كــأنّ قَــوَامَــه ... مــن قــدّ غـصـنٍ مـسـتـرَقُّ
وكــأنّـمــا قــلــم الــزمــرّ ... وفــي عَــوَارِضِـهِ مـشـقُّ

ولأبي الفضل الدارميّ: **[الرجز]**

إذا الّـذي خَـطّ الـجـمـالُ بـوجـهـه ... خَـطَّـيْـن هـاجَـا لـوعـةً وبَـلاَبـلا
مـا صَـحّ عـنـدي أنّ لـحظَـك صـارمٌ ... حـتـى رأيـتُ بِـعـارضـيْـك حَـمَـائِـلا

وقال أيضاً: **[الرمل]**

قـلـتُ لـلـمـلْـقِـي عـلـى الـخّـد ... يـــن مِـــنْ وردٍ خُـــمَـــارا
أســبــل الــصُّـدغُ عــلــى خــدًّ ... يــك مــن مــسـكٍ عِــذارا
أم أعــان الــلــيــلَ حــتّــى ... غــلــب الــلــيــلُ الــنَّـهــارا
قــال مــيــدان جــرى الــحــســـ ... ـنُ عــلــيــه فــاســتــدارا
ركــضـــتْ فــيـــه عــيـــونٌ ... فــأثـــارتـــه غُــبـــارا

قوله: أجوب، أي أقطع البراري: الصّحارى. المهارِي: إبل كرام أنجد: أطلع، والنَّجْد: المرتفع. والغور: ضدّه، وقد أنجد وغار. أسلك: أدخل وأمشي. فليْت: قطعت المعالم: المواضع المعلومة، والمجاهل، ضّدها. بلوْت: جرّبت. المناهل: مواضع المياه. السنابك، أطراف الحوافر المناسم: جمع منسِم، وهو مقدّم خُفّ البعير. أنضيت: أهزات. السوابق: الخيل الرواسم: الإبل السريعة، ورسَمَت الناقة فهي رَاسمة، إذا أثّرت في الأرض من شدة وطئها، قال أبو عبيد رحمه الله: إذا ارتفع السير عن العَنَق قليلاً، فهو التّزيد، فإذا ارتفع عن ذلك، فهو الذّميل، ثم الرَّسِيم. الإصحار: الدّخول للصحراء، يريدَ مَلِلْت من سفر البر. سنح: ظهر وعرض. ارَب: حاجة.

[صُحَار]

صُحَار: سوق عُمان، وهي مدينة كبيرة على ساحل البحر، مُرْساها فرسخ في فرسخ، وبلاد عُمان ثلاثون فرسخاً، ما ولي البحر سهول ورمال، وما تباعد عنه حزون

وجبال، وهي مدن، منها مدينة عمان وهي حصينة على الساحل، ومن الجانب الآخر مياه تجري إلى المدينة، وفيها دكاكين التُّجار مفروشة بالنُّحاس مكان الآجرّ، وهي كثيرة النخل والبساتين وضروب الفواكه والحنطة والشعير والأرز وقصب السكر، وفي الأمثال: مَنْ تعذّر عليه الرزق فعليه بعُمان، وفي أحوازها مغاص اللؤلؤ. وعُمان من أحواز اليمن سُمِّيت بعمان بن سبأ.

الفنجديهيّ: صحار اسم بلدة بكورة عُمان وهي قصبتها ممَّا يلي الجبل.

* * *

التيَّار: البحر. الفُلْك: السفينة السّيّار: الكثير المشي، والفُلْك يكون واحداً وجمعاً، ويذكّر ويؤنث.

أساودي: أمتاعي، لأنها تسوّد الأرض بظلها، وهي جمع أسودة، وأسودة جمع سَواد، وسواد الأمير ثَقلُه. أبو عبيد: كُلّ شخص سَواد، من متاع أو إنسان أو غيره. الحاذِر: الخائف. ناذر: حالف، وأراد به الذي ينذر بخير إن سلّمه الله تعالى من هَوْل البحر. عاذل وعاذر، يريد أنه يعذِل نفسه عن التغرير بدخول البحر ومقاساة أهواله، ويعْذِرُها لكثرة المتاجر. شرَعنا في القُلْعة: أخذنا في قَلْع المراسي، ورفع القلع وهي الشّرُع قوله: أغْشَى، أي أظلم هاتِفاً، أي صائحاً. القويم: المستقيم. المُزْجِّي: المسوق المسير، قال الله تعالى: ﴿**رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الفُلْكَ فِي الْبَحْرِ**﴾ [الإسراء: ٦٦] أي يسيّرها، وأزجاه: إذا ساقه. أقبسْنَا: أعطنا أرْشِدْنَا: دُلّنَا، قاله الأزهري رحمه الله.

* * *

فقال: أَتَسْتَصْحِبُونَ ابْنَ سَبيلٍ، زَادُهُ فِي زَبِيلٍ، وَظِلُّهُ غيرُ ثَقيلٍ، وَما يَبْغِي سِوَى مقيل. فأجمعنَا عَلَى الجُنُوحِ إِليهِ وَألاَّ نَبْخَلَ بالماعُونِ عَلَيْهِ.

فَلَمَّا استوى على الْفُلْكِ، قالَ: أعُوذِ بمالِك الْمُلْكِ، مِنْ مَسَالِكِ الْهُلْكِ. ثُمَّ قالَ: إنَّا رَوِيْنا في الأخبار، المنقولَةِ عن الأحْبارِ، أنَّ الله تَعالَى ما أخذَ على الجُهَّالِ أَن يَتَعَلَّمُوا، حَتى أخذَ على الْعُلَماء أنْ يُعَلِّمُوا، وإن مَعِي لَعُوذَةً، عن الأنبياء مأخُوذة، وعِنْدِي لكُمْ نصيحَة، بَراهينُها صَحِيحة، وَما وَسِعَنِي الكتمان، وَلاَ مِنْ خِيمِي الحِرْمان فتدَبَّرُوا الْقَوْلَ وتفهّموا، واعْمَلُوا بِما تُعَلَّمُونَ وعَلِّمُوا.

ثمّ صاحَ صَيْحَةُ المباهِي، وقال: أَتَدْرُون ما هي! هِيَ واللَّهِ حِرْزُ السَّفْر، عِنْدَ مَسِيرِهِمْ في الْبَحْرِ، وَالْجنَّةُ مِن الْغَمّ، إذا جاشَ مَوْجُ الْيَمّ، وبهَا اسْتَعْصَمَ نوحُ مِن الطُّوفان، ونجا ومَنْ معه من الحيوان؛ عَلَى ما صَدَعَتْ بِهِ آيُ القرْآنِ. ثـم قرأ بَعْدَ أَساطيرَ تلاَها، وزخارفَ جلاَها، وقال: ارْكبوا فيها باسم اللَّهِ

مَجْرَاهَا ومُرْسَاهَا. ثُمَّ تنفَّسَ تَنَفُّسَ الْمُغْرَمِين، أَو عِبادِ اللَّهِ المكرَمِين.

وقَالَ: أَمَّا أَنا فقدْ قُمْتُ فيكُمْ مَقامَ المبلِّغين، ونصحتُ لَكُمْ نُصْحَ المبالِغين، وسَلَكْتُ بِكُمْ مَحَجَّةَ الرَّاشِدِينَ، فاشْهَدِ اللَّهُمَّ وأَنتَ خيرُ الشاهدينَ.

* * *

ابن سبيل: هو المسافر الذي انقطع به، وهو يريد الرجوعَ إلى بلده، ولا يجد ما يتبلّغ به، فله سهم في الصدقات. زَبيل: قُفّه من جلود، وألغز به بعضهم فقال: **[الوافر]**

وذي أذنيـن لا يـقـتـات قـوتـاً وجـوفٍ لـلـحـوائـج واحـتـمـالِ

يـكـلّـف شـغـل أهـل الـبـيت طُرًّا وتُـحـمـل فـيـه أقـوات الـعـيـال

تُـسِـرُّ إلـيـه فـي الأسـواق سِـرًّا فـلا يُـفـشـيـه إلا فـي الـرِّحـالِ

ظله غَيْر ثقيل، أي هو خفيف الروح، وقد تقدّم معنى استثقال ظلّه في الثانية والعشرين، ويريد بظلّه شخصه كما يسمَّى الشخص سواداً، لأنه يسوّد الأرض بظلّه.

قال زياد بن عبد الله: قيل للشافعي رضي الله عنه: هل تمرض الرُّوح؟ قال: نعم من ظلّ الثقلاء قال: فمررت به يوماً وهو بين ثِقيلين، فقلت كيف الروح؟ قال: في النَّزْع.

وقال الهيثم بن عديّ: النّظر إلى الثقيل حُمَّى الروح. مقيل: موضع جلوس في القائلة. الجنوح: الميل، والماعون اسم للمطر. وأنشد أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه: **[الوافر]**

يـمـجّ صـبـيـره الـمـاعـون مَـجًّـا إذا نـسـم مـن الـهـيـف اعـتـراهُ[١]

والماعون الزكاة، قال الرّاعي: **[الكامل]**

قـومٌ عـلـى الإسـلام لـمّـا يـمـنـعـوا مـاعُـونَـهـم ويـضـيّـعـوا الـتَّـهـلـيـلا[٢]

مسالك: طرق ابن عباس رضي الله عنهما، قال رسول ﷺ: «أمان لأمتي من الغرق إذا ركبوا في السفن أن يقولوا: بسم الله الملك، **﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾** [الأنعام: ٩١]، الآية **﴿بسم الله مَجْرَاهَا وَمَرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لغفور رحيم﴾**» [هود: ٤١].

---

(١) البيت بلا نسبة في لسان العرب (معن)، وتهذيب اللغة ٣/ ١٧، والمخصص ٩/ ١٢١، وتاج العروس (معن).

(٢) البيت للراعي النميري في ديوانه ص ٢٣٠، وفيه «قومي» بدل «قومٌ»، ولسان العرب (معن) وفيه «التنزيلا» بدل «التهليلا»، وتاج العروس (معن)، وبلا نسبة في لسان العرب (هلل)، وتهذيب اللغة ٥/ ٣٦٨، وتاج العروس (هلل).

وقوله: إن الله تعالى ما أخذ على الجهَّال أن يتعَلموا حتى أخذ على العلماء أن يعلِّموا، قيل: معنى أخذ: أوْجَب، وأراد قوله تعالى: **﴿وإذ أخَذَ اللَّهُ ميثاقَ الَّذينَ أُوتوا الكتاب لَتُبَيِّنُنَّه للناس ولا يَكْتُمُونَهُ﴾** [آل عمران: ١٨٧].

أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «ما آتى الله تعالى عالماً علماً إلا أخذ عليه الميثاق ألاّ يكتمه» قال الحسن بن عمر: أتيت الزُّهريّ بعد أن ترك الحديث، فألقيتُه على بابه، فقلت: إمَّا أن تحدِّثَني وإما أن أحدثك، قال: حَدِّثني، فقلت: حدّثني الحكم ابن عيينة، عن يحيى بن الجزار، قال: سمعتُ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: ما أخذ الله على الجهال أن يتعلّموا حتى أخذ على العلماء أن يعلِّموا، قال: فحدّثني بأربعين حديثاً.

قوله: عُوذة، أي ما يتعوّذ به الإنسان من الحِرْز وشبهه. براهينها: حُجَجها خيمِي: طبعي. الحرمان: منع الفوائد. المُبَاهي: المفاخِر الكثير الإعجاب السَّفْر: المسافرون. الجُنّة، الستر. جاش: تحرّك وهاج. اليمّ: البحر. استعصم: امتنع. الطوفان: الماء العامّ. صدَعَتْ: نطقت آي: جمع آية، وتقدمت الأساطير، هي الأباطيل. زخارف: أشياء مُزَيّنة المغرمين: المعذبين، والمُغْرَم المولع بالحب وغيره. الرَّاشدين: الهادين للطريق.

* * *

قال الحارث بْنُ هَمَّام: فَأَعْجَبَنَا بَيَانُهُ البادِي الطُّلاَوة، وعَجَّتْ لَه أصواتُنا بالتِّلاوَةِ، وَأنَسَ قَلبِي مِنْ جَرْسِهِ، مَعْرِفَة عَيْنِ شَمْسِه فقُلْتُ لَهُ: بالَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ اللُّجِيَّ؛ أَلَسْتَ السّروجيّ! فقال لي: بلى، وَهَلْ يَخْفَى ابْنُ جَلاَ! فأَحْمَدْتُ حينئذٍ السَّفَر، وسَفَرْتُ عَنْ نَفْسِي إذْ سَفر، ولَمْ نَزَلْ نسيرُ والْبَحْرُ رَهْوٌ، والجوُّ صَحْو، والعيش صَفْو، والزَّمانُ لَهْو، وأَنَا أَجِدُ للقيانِهِ، وَجْدَ المُثْرِي بعِقيَانِهِ، وأفرحُ بمنَاجَاتِهِ، فَرَحَ الْغَرِيقِ بِمَنْجاتِهِ، إِلَى أَنْ عَصَفَتِ الجنُوب، وعَسَفت الخنوب، ونَسِيَ السَّفْر مَا كَانَ وجاءَكُمُ الموجُ مِنْ كلِّ مكان؛ فمِلْنَا لِهَذَا الْحَدَثِ السَّائر، إلى إحْدَى الجزائرِ؛ لنُريح ونَسْتَرِيح، رَيْثَمَا تُواتِي الرِّيح.

فتمادَى اعتياصُ المُسَير؛ حَتى نفِدَ الزَّادُ غير اليَسير؛ فقال لي أبو زَيد: إنَّهُ لَنْ يُحْرَز جَنَى العودِ بالقعود، فهل لَكَ في استثارَةِ السُّعُودِ بالصعودُ! فقلْتُ لَهُ: إنِّي لأتْبَعُ لَكَ مِنْ ظِلّك، وأطوَعُ مِنْ نِعْلكَ.

* * *

الطُّلاوة: الحسن والقبول. عُجّت: ارتفعت. آنس: أحسّ وأدرك. جرسه: صوته الخفيّ. عين شمسه: حقيقة نفسه ومعرفته اللجي: وهي معظم الماء.

[طوفان نوح عليه السلام]

ونذكر هنا بعد ما حدث من طُوفان نوح عليه السلام:

ذكر أهلُ الأخبار أن نوحاً عليه السلام أوّلُ نبيٍّ بعُثِ، وأنّ قومه كانوا أهلَ أوثان، يعبدونها من دون الله، فبعِث لهم نوح فدعاهم إلى الله، فكانوا يبطشون به، ويستخفّون به، وهو يقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون. فلمّا كثر استخفافُهم به، قال: ﴿رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾ [نوح: ٢٦]، فأوحى الله إليه أن اصنع الفلك فإنهم مغرقون. فأقبل على قَطْع الخشب وضَرْب الحديد وتهيئة العود بالقَار وغيره، فصنعه من خشب السّاج، وجعل طوله ثمانين ذراعاً وعرضه خمسين ذراعاً، وطوله في السماء ثلاثين ذراعاً. وكان قومه في خلال صنعة السفينة يأتونه أفواجاً، يستخفُّون عقله، ويعدُّون فِعْلَه من جنونه، ويقولون له: عملت سفينة في البرّ، فيقول لهم: سوف تعلمون. فلما اطمأنوا في الفلك فار التّنور من الهند، وقال الشعبي رحمه الله من الكوفة. وفتِحت أبواب السماء بماء منهمر، وتفجَّرت الأرض عيوناً، فكان بين إرسال الماء وارتفاعه أربعون يوماً، فلما بلغ الماء إليهم أووْا إلى الجبال، فكانت الجبال تستقبلُهم بالحجارة، وتغرِقُهمْ في الماء، فماتوا غرقى، وارتفع الفُلْك، وجعل يجري في موج كالجبال، ودار الأرضَ كلها في ستة أشهر وعشر ليال. ويقال: إنهم ركبوها لعشر ليالَ مَضيْنَ من رجب، ونزلوا يوم عاشوراءَ من المحرّم، فلذلك صام الناس يوم عاشوراء، وأتت السفينة الحرَم فدارت به أسبوعاً، ولم يبق شيء الخلائق ولا من الشجر إلاّ هلك، إلا نوح ومَنْ معه، وإلاّ عوج بن عنق ـ فيما يزعم أهل الكتاب ـ وانتهت آخرا إلى الجوديّ، وهو جبل بالحصْنين من أرض الموْصل فنزلت عليه.

* * *

قوله: ابن جلا، أي المشهور المعروف، يقال للرجل إذا كان عالي الشرف واضح الأمر لا يخفى مكانه: هو ابن جَلا، أي هو الذيِ الأمور بنفسه، وأوضحها، قال سحُيَم ابن وثيل: [الوافر]

أنـا ابـنُ جـلاَ وطَـلاَّعُ الـثـنـايـا متَى أضعَ العمامة تعرِفُوني[1]

وكان صاحبَ غارات، يطلع فيها من ثَنِيَّة الجبل على قومه؛ قال ثعلب: العمامة تُلْبس في الحرب وتُوضع في السَّلم؛ قال ابن الأعرابيّ: يقال للسّيد: ابن جلا، قال سيبويه رحمه الله: جَلاَ فعل ماض، كأنه يعني الذي جلا، أي أوضح وكشف.

---

(١) البيت لسحيم بن وثيل الرياحي في الأصمعيات ص ١٧، والشعر والشعراء ٢/ ٦٤٧، والكتاب ٣/ ٢٠٧، وبلا نسبة في أمالي ابن الحاجب ص ٤٥٦، وشرح قطر الندى ص ٨٦، ولسان العرب (ثنى)، (جلا)، ومجالس ثعلب ١/ ٢١٢.

قوله: أحمدْت، أي وجدته محموداً. سَفَرْت: كشفت وأزَلْت الهم سَفَر: عرّفَنا بنفسه، ويقال: سفرتُ عن نفسي كما سَفَر، أي عرّفته شخصي كما عرفني هو شخصه ونفسَه. وهو: ساكن، ويقال: فعل ذلك رَهْوَا، أي ساكناً من غير تشدّد، قال تعالى: ﴿**واترك الْبَحْرَ رَهْواً**﴾ [الدخان: ٢٤] والرَّهْو عند العرب الساكن، يقال: جاءت الريح رَهْوَا، أي ساكنة، ويجوز أن يكون رَهوا من نُعت موسى عليه السلام، أي أتركه على هيْئَتِك، أو يَكون من نعت البحر، أي دَعْه يا موسى ساكناً واقفاً ماؤه واعبره. الجوّ: ناحية. السماء صحو: نقيّ من السحاب المثرِي: الغني. والعِقْيَان: الذهب ينبت نباتاً. عصفت الريح: اشتدّت الجُنوب: الريح القبلية. عسفت: جاءت من كلّ جانب، والعسفُ ركوب الأمر على جهالة. والخبوب، بخاء معجمة، جمع خِبّ، وهي الرواية الصحيحة عن ابن جَهور وغيره، وهو هَيْج البحر واضطراب الماء، وهو الذي صحّحه الفنجديهيّ كأن أبا عمرو القَسْطَليّ شاهدَ هذه الحالة من هول البحر فوصفه بقوله: **[الطويل]**

إليك شحنّا الفُلْك تهوِي كأنّها ... وقد ذُعِرتْ من مغرب الشّمس غربانُ

على لُجَجٍ خضرٍ إذا هبّت الصبّا ... ترامَى بنا فيها ثَبيرٌ وثَهْلانُ

مواثلَ يرعى في ذراها مواثلٌ ... كما عُبِدَتْ في الجاهلية أوثانُ

تقاتل مَوْجُ البحر واليم والدُّجى ... تموجُ بنا فِيها عيونٌ وآذانُ

ألا هلْ إلى الدنيا معادٌ وهل لنا ... سوى البحر قبرٌ أو سوى الماء أكفانُ

وقال آخر: **[الرمل]**

وسماءٍ في الثّرى مخضلّةٍ ... لا زَوَرْدِّيةٍ ما فيها صفا

غَطَّتِ الأرضَ فلم تتركْ لنا ... من فَضَاءِ الأرض إلاّ طَرَفا

فكأنّ الأرض فيها عائمٌ ... غاب إلاّ هامةً أو كتِفا

وكأنّ الموج فيها عسكرٌ ... لَبِسوا لأما وغالَوْا حُجُفا

خافقٌ راجفةٌ أحْشَاؤه ... كحشَا المهجورِ يهفو أسَفَا

قوله: نسي السَّفْر ما كان، أي نسوا ما كان من طِيب العيش بصفو الصحو قولُه: الحدَث الثائر، أي الأمر الطارىء. لنريح، أي لنُريح أنفسَنا من تعب الهوْل والخوف، وأراحَ الرجلُ: استراحَ وأراح غيرَه، وأراحَ الريحَ وأروحَها واسْتَرْوَحها: وجدَها. رَيْث: قَدْر، والرّيث اللُّبْث والبُطء. تُواتِي: توافق اعتياص: التواء وتصعّب. نفِدَ: فَنِيَ اسْتِثَارة: استخراج، يقول: هل لك فى إدراك الحظّ بالخروج من السفينة إلى البريّة.

* * *

فَنَهَدْنا إلى الجزيرة، على ضُعفِ من المرِيرَة؛ لنركُضَ في امتراءَ المِيرَة؛

وكِلانَا لا يَمْلِك فَتِيلاً ولا يَهْتَدِي فِيهَا سبيلاً؛ فأَقْبَلْنا نَجُوس خِلاَلِهَا، ونتفيّأ ظِلاَلَهَا، حتَّى أَفْضَيْنا إلى قَصْرٍ مَشيدٍ، له بابٌ مِنْ حَدِيد، ودُونَه زُمْرَةٌ من عَبيد. فَنَاسَمْنَاهُمْ لنتَّخِذَهُمْ سُلَماً إلى الارْتقاء، وأَرشية للاسْتقاء؛ فألْفينَا كُلاً منهم كَئيباً حسيراً؛ حتَّى خِلْناه كسيراً أو أَسِيراً. فقلنا: أَيَّتُها الغِلْمة، ما هذه الغُمَّة؟ قلم يُجيبوا النِّداء، ولا فَاهُوا بِبَيْضَاء ولا سَوْداء، فلمَّا رأينَا نَارَهُم نارَ الحُبَاحِب، وخُبْرَهُم كَسَرَاب السَّباسِب، قُلْنا: شَاهَتِ الوُجُوه، وَقَحُ الُلكعُ وَمَنْ يرجوه فابْتدرَ خادمٌ قد علَتْهَ كَبْرَةُ، وعَرَتْه عَبْرة، وقال: يا قوم، لا تُوسِعُونا سبًا، ولا تُوجِعُونا عَتْباً؛ فإنا لَفِي حُزنٍ شَامِلٍ وشُغْلٍ عنِ الحديثِ شَاغل، فقال له أبو زيد: نَفِّسْ خِنَاقَ الْبَثّ، وانفِثْ إن قَدَرْتَ عَلَى النَّفْث، فإنك ستجد مِنِّي عَرّافاً كافياً، وَوَصَّافاً شافياً.

* * *

نهَدْنا: تقدَّمْنا المِريرة: قُوّ النفس. نركُض، بفتح أوّلها، وأصل الرّكْض، تحريك القوائم، ومنه ﴿واركُضْ بِرِجْلِك﴾ [ص: ٤٢]، ولهذا قيل للجنين إذا اضطرب في بطن أمه: قد ارتكض، ومن مُشْكل أبيات المعاني: **[الرجز]**

قد سبق الحلْبَةَ وهو راكِضُ ... فكيف لا يسبقِ وهو رابضُ(١)

المراد: أنّ أمه سبقت الجياد وهي حامل به، فأضاف السَّبْقَ إليه لاتصاله بها، وأراد براكض تحريكه قوائمهِ في مقرّه، والرَّكْض يستعمل في الخيل وغيرها فيقال: ركضَ البعيرُ برجله، والطائر بجناحه.

قوله: امتراء، أي استخراج. المِيرة: جَلْب الرزق، ومار الرجل على أهله مَيْراً: جلب لهم القوت.

نجوُس خلالها؛ نطوف في طرقها، قال الليث وابن سيده: الجوس والجَوسان: التردّد في خلال الدّور والبيُوت، وقال الأصمعيّ والأزهريّ وأبو عبيدة: جاسوا الموضع: وطئوه، وفلان يجوس بني فلان، أي يطؤهم يطلب فيهم وقال الطّبري والنّقّاش والزّجاج والثعالبي: ﴿فجاسُوا خِلالَ الديار﴾ [الإسراء: ٥]، أي طافوا بين بيوتهم، يقتلونَهم ويطلبونهم، ذاهبين وجائين. والخلل: الفرْجة بين الشيئين، والجمع خِلال. تَتَفيّأ: نستظلّ، وتفيّأ به: استظلّ به، وتفيّأ: تقلّبَ أفضينا: وصلنا. مَشِيد: مرتفع البناء،

---

(١) يروى الرجز:

قد سبق الجياد وهو رابضُ ... فكيف لا يسبق وهو راكضُ

وهو بلا نسبة في تاج العروس (ركض)، وجمهرة اللغة ص ٧٥١.

والشِّيد: الجصّ. زمرة: جماعة ناسمناهم: قربنا منهم، وناسَمه: سارَّه وَشامَهُ، وناسمت الرجلَ: قرّبت نسمتَك من نَسَمته، وتحدّثت معه سرًا: أرشية: حبالاً. الارتقاء: الصعود. المَسْك: الجلد، يريد أنه شديد التوجّع، وهذا كما تقول: لقيت فلاناً في ثوب نمِر، أو في جلد أسد، أي لقيته بادي الشرّ، قال الشاعر: **[الطويل]**

فطوراً ترانا في مُسُوكِ جِيَادنا وطوراً ترانا في مُسُوك الثَّعالِبِ[1]

قال البكريّ: الخيل توصف بالإقدام والثعالب بالرَّوغان، فيريد أنهم مُقْدِمُون على أعدائهم يوماً، ورائغون عنهم يوماً. وقال الأستاذ: أي أُسِرُوا فكُتِفوا بجلود خيلهم المعقورة وفي جلود الثعالب، كناية عن خُبْث الأسير فاهوا: نطقوا. سوداء: كلمة رديئة نار الحباحب: ما تطاير من الشَّرَر في الهواء بتصادم حجرين أو بضرب حافر في حَجَرٍ، وتلك نارٌ لا منفعة فيها، وقيل: الحُباحب رجل بخيل كان يُوقِد ناراً ضعيفة لئلا يُقصَد، فإن أحسّ بإنسان أطفأها لئلا يَقتبِس أحدٌ من ناره، وقيل: نار الحباحب نار سراجة، ولبخله كان إذا جاء أحد يوقد منه أطفأها، وقال عبد الصمد بن المعذّل في أخيه: **[مجزوء الخفيف]**

ليت لي منك يا أخي جارةٌ من محاربِ
نارُها كلَّ شَتْوةٍ مثلُ نارِ الحُباحِبِ[2]

يريد جارةَ القطاميّ التي يقول فيها: **[الطويل]**

إلى حيزبونٍ تُوقِد النّارَ بعدما تَلَفَّعَتِ الظَّلْماءَ من كلِّ جانبِ
فلمّا تنازعْنا الحديثَ سألتُها عن الحيّ قالت: معشرٌ من محاربِ
ألا إنما نيران قومي إذا شَتَوْا لطارقِ ليل مثل نار الحُباحِب

وقيل: الحُباحبُ ذباب يطير بالليل، له شعاع كالسراج. قوله: خُبرهم، الخُبر بضم الخاء، مصدر خبرت أَخبُر إذا امتحنت، والسباسب والبَسَابس: الأرض المستوية، واحدها سَبْسَب وبَسْبَس. شاهَتِ الوجوه: قَبُحت الوجوه وفي الحديث: «أخذ عليه الصلاة والسلام قبضةً من تُرابِ يَوْمِ بدر فحثاها في وجوه المشركين، وقال: شاهت

---

(١) يروى البيت:

فيوماً ترانا في مسوكِ جيادنا ويوماً ترانا في مسوك الثعالبِ

وهو بلا نسبة في لسان العرب (مسك)، وتهذيب اللغة ١٠/٨٦، وتاج العروس (مسك).

(٢) البيت الأول للقطامي في ديوانه ص ٤٦، ولسان العرب (حزبن)، والشعر والشعراء ص ٧٢٧، والأغاني ٢٤/٢٣، ومعاهد التنصيص ١/١٨١، والبيت الثالث للنابغة الذبياني في ملحق ديوانه ص ٢٢٨، ولسان العرب (حبحب)، وتاج العروس (حبحب)، وبلا نسبة في المخصص ١١/٢٦، ويروى «نيران قيس» بدل «نيران قومي».

الوجوه»[١]، ويقال شاهَ وجهُ الرجل يشوُه شوْهاً وشَوْهة، قبح، ووجهٌ مشوّه، أي مقبَّح، ورجل أشوه وامرأة شوهاء. واللُّكَع اللئيم، وقد لكع لكعا فهو ألكع، ولُكَع ولكيع، إذا لؤم وحَمُق وامرأة لَكَاع ولَكِيعة. قوله: علتْه كَبْرة، أي أسن وكَبِر. وعرته عَبْرة، أي غشيته دَمْعة والخادم: الخصيّ، موصوف بطول العمر وسُرعة الْعَبْرة، قال الهيثم بن عديّ: في الخَصيّ عشر خصال لا تجتمع في غيره: التّهمة، والنميمة، والشّرَه، وسُرعة الدمعة، وطول العُمْر، وكِبَر القَدَم، والتبرّي من الصلع، والإجارة في الصغر، والقيادة في الكِبر، والاسترخاء في المقعدة وسعة الحجر. لا توسعون سَبًّا، أي لا تكثروا شتَمَنا عتبا لوما وموجدة، وعتبت عليه أعتب عتباً وعتاباً، وأعتبه: أرضاه، والعُتْبَى الرضا، واستعتبته طلبت إليه أن يعتب، وقال النابغة: **[الطويل]**

* وإن تك ذَا عُتْبي فمثلُك يُعْتِب[٢] *

وقال حبيب: **[الطويل]**

سَرَتْ تحمل العُتْبي إلى العَتْب والرّضا إلى السّخط والعذر الجميل إلى الحِقْدِ[٣]

الخِناق: الحبل يُخَنق به كالعقال للجمل يُعْقَل به. نفّس: روّح وحلي عن المخنوق. والبَثّ: الحزن. انْفُث: تكلّم، وأصله ابصُق، عرّافاً: كثير المعرفة، والعَرّاف: العالم بالشيء، وأصله الكاهن.

* * *

فقال لَهُ: اعْلَم أنّ ربَّ هذا الْقَصْرِ هو قِطْبُ هَذِهِ الْبُقْعة، وشاهُ هذه الرّقْعة؛ إلاَّ أَنَّهُ لَمْ يخْلُ مِن كَمَدٍ، لخُلِوِّه مِن ولَدٍ؛ ولم يزلْ يستكْرِمُ الْمَغَارِسِ، ويتخيَّر من المفارِشِ النَّفائِس؛ إلى أَنْ بُشِّرَ بحَمْل عَقِيلَة، وآذَنَتْ وَقْلَتُهُ بفَسِيلة، فُنذِرَت لَهُ النُّذور، وأُحْصِيَتِ الأيّام والشُّهُور. ولمَّا حَانَ النِّتَاج، وصِيغَ الطَّوْق والتّاج، عَسُرَ مَخاضُ الْوَضع، حَتَّى خيفَ عَلَى الأَصْل والفَرْع؛ فَمَا فينَا مَنْ يَعْرفُ قراراً، وَلاَ يَطْعَمُ النَّوْم إلاَّ غِرَاراً. ثمَّ أَجْهَشَ بالبُكَاءِ وَأَعْوَلَ، وردَّدَ الاسْتِرْجاعَ وطوَّل. فقال لَهُ أبو زيد: اسْكَنْ يا هذا واسْتَبْشِر، وَأَبْشِر بالْفَرج وبَشِّر؛ فعندي عزيمةَ الطَّلْق، الّتي

---

(١) أخرجه مسلم في الجهاد حديث ٨١، والدارمي في السير باب ١٥، وأحمد في المسند ١/٣٠٨، ٣٦٨، ٥/٢٨٦، ٣١٠.

(٢) صدره:

فإن أكُ مظلوماً فعبدٌ ظلمته

والبيت في ديوان النابغة الذبياني ص ١٤.

(٣) البيت في ديوان أبي تمام ص ٢١٥.

انْتَشَر سَمْعُها في الْخلْق. فتبادَرَتِ الْغِلْمة إِلَى مَوْلاَهُم، متباشرينَ بانْكِشافِ بَلْوَاهُم، فلم يكُنْ إلاّ كَلاَ ولاَ، حَتى بَرزَ مَنْ هَلْمَمَ بنا إليه فَلَمَّا دَخَلْنا عَلَيْه، وَمَثَلْنا بَيْنَ يَدَيْهِ، قال أَبو زيد: لِيَهْنِكَ منالُكَ، إن صَدَق مَقالُكَ، ولَمَ يفِلْ فالُك.

* * *

قُطْب هذه البقعة، أي رئيس هذه الأرض، وقطب القوم: سيّدهم الذي يلجؤون إليه.

وشاه هذه الرقعة: مَلِك هذه الجزيرة، وأراد بالرقْعة سُفْرة الشطرنج، وشاهها: ملِك جيشها الذي يتصرّف في بيوتها كيف شاه، وقد أحسن مَنْ قال فيها: **[البسيط]**

أرضٌ مربعةٌ حَمْراءُ من أدَمٍ ... ما بين خِلَّيْن موصوفَيْنِ بالكرَمِ
تذاكَرَا الحرب فاحتالاَ لها شَبَهاً ... من غير أن يَسْعَيَا فيها لسفكِ دمِ
هذا يُغير على هذَا وذاك عَلَى ... هذا يُغير وعيْن الحرْب لَم تَنم
فانظر إلى فِطَنٍ جاشتْ بمعرفةٍ ... في عسكرين بلا طَبْلٍ ولا علَمِ

قوله: كَمَد، أي حزن. المغارس والمفارش: النساء، كأنّ النُّطَف تغرَسُ فيهنّ فيكثر الولد منها النّفائس: الكرائم. عَقِيلة: خَيّرة، والعقيلة درّة البَحْر، وبه سُمِّيَت المرأة لكرمها وشرفِها، وكل كريمة من النساء والإبل والخيل فهي عَقيلة. الرَّقْلة: النّخْلة الطويلة. الفَسِيلة: نُخَيلة تكبّر في أصل النخل، أراد أنّ المرأة حملت بولد. نذرت النذور، أي وَعِدَتْ بفعل خير إن سلم الحمل. أحصِيت: عددت، وعلم ما بقيَ منها. حان النّتاج: قرب وقت الولادة صبغَ: صُنِع. الطَّوْق: الثوب يلبسه المولود بغير جيب، ولمّا سبَق إلى جذيمة ابن أخته عمرو، وكان له طَوْقٌ يلبسه في الصِّغر، فقال له: البسه فلم يَسَعْه، فقال: شبّ عمرو عن الطوق، فذهبت مثلاً، قال ابن القَبْطُرْنة في الحكم بن حزم، وكّلفه ذلك ابن سراج: **[الطويل]**

رأى صاحبي عَمْراً فكلّف وصْفَه ... وحّملني من ذاك ما ليس في الطَّوْقِ
فقلت له: عمرو كعمرو فقال لي ... صَدَقْتَ ولكن شبّ هذا عن الطَّوْقِ

عَسُر: صعب. مخاض: تحرّك الولد عند الولادة، وقيل: وجع الولادة القَرار: السكون. الغِرَار: النوم القليل؛ وهو من غَرّ الطائرُ فرخَه يَغُرّه، إذا أطعمه شيئاً بعد شيء، وأخذه من قول الشاعر: **[الرمل]**

لا أذوقُ النَّومَ إلاّ غِراراً ... مثل حَسْو الطَّير ماء الثَّمادِ

ولا يَطْعَمُ النّوم، أي لا يذوقه، ويقال: طعمه وتطعمه: ذاقه، وفي المثل: تَطعَّم تُطْعم، أي ذُقْ تَشْتَهِ. أجهش: أي تَهَيَّأ للبكاء، والإجهاش: تغيّر الوجه عند إرادة البكاء.

أعوَل: رفع صوتَه بالبكاء. الاسترجاع، قد تقدّم الطَّلْق: وجع الولادة، سُمِّيَ طَلْقاً على التفاؤل للمرأة بالانطلاق بالولَد. سمعُها: ذكرها الجميل. تبادرت: تَسَابَقَتْ.

وجمْع غلام غِلْمة وغلمان. البَلْوى: البلاء. كَلاَ وَلاَ، أي كاللفظ بها، وهي كناية عن قلة اللّبث وسرعة الأمر، ويُضرب بلا المثل، فيقال: أخف من لا على اللسان، وأقل من لا في اللفظ، وقال جرير: **[الطويل]**

يكون نزول القوم فيها كَلاَ ولاَ غِشاشاً ولا يُدْنُونَ رِجْلاً إلى رجلِ[١]

غِشاشاً، أي قليلاً. ويقال: لقيه على غِشاش، أي على عجلة، وقال الكُمَيْت: **[الطويل]**

كلاَ وكذا تغميضُهمْ ثم هجتُمُ لَدَى حِينَ أن كانوا إلى النَّوم أفْقَرا[٢]

يقول: كان نومُهم في القلة والسرعة، كقول القائل: لا وذا.

وقال الحسن رحمه الله: **[الخفيف]**

يا عاقد القَلْب مِنِّي هلاّ تذكَّرْت خِلاًّ
تركتَ مِنِّي قليلاً مِنَ القليلِ أقَلاًّ
يكادُ لا يتجزَّى أقلّ في اللفظ مِن لاَ

وفي أبيات البديع: **[الطويل]**

وأرْوَع أهداه لِيَ اللَّيلُ والْفَلاَ وخمس تمسّ الأرض لكنْ كَلاَ وَلاَ

جعل قوائم فرسه وهي الخمس تمسّ الأرض في المشي كلا ولا على اللسان قوله: برَز، أي خرج. هلمم: دعا، وقال لنا هلمّ مَثَلْنا: وَقَفْنا، ومثَل بين يديه: انتصب قائماً. منالك: عطاؤك ولم يفل فالك: لم يخطىء رأيك، وفال رأيه فيولةً: ضَعُفَ وأخطأ

* * *

فاسْتَحضَر قلماً مَبْرِيًّا، وزَبَداً بحْرِيًّا، وَزَعْفَرَاناً قَدْ دِيفَ، في ماء وردِ نظِيف؛ فَمَا إنْ رجِع النَّفَس، حتّى أَحْضِرَ ما الْتَمَس، فسجَد أبو زيدٍ وعفّر، وسَبَّحَ وَاسْتَغفر، وأَبْعَد الحاضِرينَ ونفَّر ثمّ أخذ الْقَلَمَ واسْحَنْفَر، وكتب على الزَّبَدِ بالمُزَعْفَرِ: **[الخفيف]**

أَيُّها الجنين إنِّي نصيحٌ لك، والنُّصْحُ مِنْ شروطِ الدِّينِ
أنتَ مستعصِمٌ بِكِنٍّ كنين وقرارٍ من السُّكُونِ مَكينِ

---

(١) البيت في ديوان جرير ص ٤٦١، وهو بلا نسبة في أساس البلاغة (غشش)، ويروى «رجلاً إلى رحلِ» بدل «رجلاً إلى رجلِ».

(٢) البيت في ديوان الكميت ١/ ٢٩٩، ولسان العرب (لا)، وتاج العروس (لا).

مـا تـرى فـيـهِ مـا يـروعـكَ مـن إلـ ـفٍ مـداجٍ ولا عَـدُوٍّ مُـبـيـنِ
فـمـتـى مـا بـرزتَ مِـنـه تَـحَـوَّلْـ ـتَ إلـى مـنـزلِ الأذى والـهُـونِ
وتَـرَاءَى لـكَ الـشَّـقـاءُ الّـذِي تَـلْـ ـقَـى فـتـبـكِـي لـه بـدمـعٍ هَـتُـونِ
فـاسـتـدِمْ عـيْـشَـك الـرغـيـدَ وحَـاذِرْ أن تـبـيـع الـمـحـقـوقَ بـالـمـظـنُـونِ
واحـتـرِسْ مـن مُـخـادعٍ لَـك يَـرْقِـيـ ـكَ لِـيُـلْـقِـيـكَ فـي الـعـذاب الـمُـهِـيـنِ
وَلَـعـمـرِي لَـقَـدْ نـصـحـتُ ولـكِـنْ كَـمْ نَـصِـيـحٍ مُـشـبَّـهٍ بـظَـنـيـنِ

* * *

والزّبَد: حجر معروف، وهو شديد البياض دقيق الثقب جدًا، يوجد عائماً على وجه الماء يصرف في الأكحال. وقالت الحكماء: من خصائص الزّبد البحريّ أنه إذا عُلِّق على امرأة ماخض سَهُل عليها الولادة، ويكون في بحر اليمن. ديفَ: خُلِط. التمس: طلب غفَر: جعل وجهه على الأرض، والعَفَر التراب. اسْحَنْفَر: جدّ وشمر للكتابة، ويقال: اسحنفر في الأمر، إذا تحفز فيه. وقالت جارية من العرب. [السريع]

يـا أمّـتـا أبـصـرَنِـي راكـبٌ مُـسْـحـنْـفِـرٌ فـي مَـسْـرَبٍ لاحِـبِ[1]
مـا زلـتُ أحـثُـو الـتّـرب فـي وجـهِـهِ عـمـداً وأحـمـي حَـوْزَةَ الـغـائـبِ

فأجابتها أمها: [السريع]

الـحُـصْـن أوْلَـى لـو تـأبّـيـتـه من حَـثْـيك الـتّـرب عـلى الـراكـب[2]

مسرب طريق لاحب بَيّن. الغائب: زَوْجها. الحصن: العفَّة. تأبَّيته: تعمّدته وقَصَدْته. المزْعفَر: المداد من الزَّعْفران. الجنِين: الولد في بطن أمه. النّصح: ضدّ الغش؛ قال الخَطابي: النَّصيحة كلمة جامعة معناها حيازة الحظّ للمنصوح، وقيل: أصلُها من نَصَح الرجل ثوبَه، أي خاطه، والنِّصَاح: الخيط، شبَّهوا فعل النَّاصح بالخيط الذي يلائم الخَلَل والفتوق، والتوبة النصوح[3]، كأنها ترقّع ما خرقته المعصية. مستعصم:

---

(١) البيت الأول لصبية من بنات العرب في المقاصد النحوية ٤/ ٢٢٦، ولسان العرب (أيا)، وبلا نسبة في جواهر الأدب ص ٩٧، والمحتسب ٢/ ٢٣٩، والبيت الثاني لامرأة من العرب في مجمل اللغة ٢/ ١٢٠، ١٥٢، وتهذيب اللغة ٥/ ١٨٠، ولسان العرب (حوز)، (أيا)، ومقاييس اللغة ٢/ ١١٨، وتاج العروس (أيا).

(٢) البيت لامرأة قالته لابنتها في ديوان الأدب ١/ ١٦٠، ٤/ ٨٢، ومجمل اللغة ٢/ ١٢٠، ١٣٨، ولسان العرب (أيا)، وبلا نسبة في لسان العرب (حصن)، (حثا)، والمستقصى ١/ ٣١٢، ومجمع الأمثال ١/ ٢١١، ومقاييس اللغة ٢/ ١٣٧، والمخصص ٤/ ٤، ١٠/ ٦٤، ١٤/ ٢٣، وتهذيب اللغة ٥/ ٢٠٩، وتاج العروس (حصن)، (حثا)، (أيا).

(٣) أي قوله تعالى: ﴿ولقد راودته عن نفسه فاستعصم﴾ [يوسف: ٣٢].

مستمسك ممتنع، واستعصم في ذكر يوسف: امتنع وتأبّى. كِنّ: موضع يكَنّ فيه. كَنِين: ساتر، والكنين: المستور. والقرار: المكان المطمئنّ الذي يَسْتقِرّ فيه الماء، وأراد به الرَّحِم. يُروعك: يفزعك. إلف: صاحب. مداح: يَظْهر الحُبَّ، ويضمر خلافَه، وداجاه: ساتَره بالعداوة. بَرَزَتَ: خرجت. الأذى: الضرر. الهُون: الهَوان. تَراءى: تظاهر. هَتُون: كثير السَّيلان. وهتنتِ السّماء: صبّت. الرَّغِيد: الواسع. المحقوق: الّذي لا يُشَكّ فيه. المظْنُون: المشكوك فيه؛ فهو يُشِير على الصبيّ أن يُقيمَ في بَطْن أمه ولا يخرج للدُّنيا. ظَنِين: متّهم.

* * *

ثمَّ إنَّه طَمَسَ المكْتُوبَ عَلَى غَفْلَة، وَتَفَل عَلَيْه مائة تَفْلَة، وشدَّ الزَّبَدَ في خِرْقَةِ حَرِيرٍ، بعْدما ضَمَّخَها بعَبِير، وَأَمَر بتَعْليقها على فَخِذِ الماخِضِ، وألاَّ تعلقَ بِهَا يَدُ حائض، فلم يَكُنْ إلاَّ كَذَوَاقِ شَارِب أَو فَوَاق حالِب، حتَّى انْدَلَق شَخْصُ الولَد، لخِصِّيصَي الزَّبَد، بقُدْرَةِ الواحدِ الصَّمد.

فامتلأ الْقَصْرُ حُبوراً، وَاستُطِيرَ عَميدُهُ وعبيدُه سُرُوراً، وأحاطتِ الجماعة بأبي زيدٍ تُثْنِي عليه، وتُقبِّلُ يَدَيْهِ، وَتَتَبَرَّكُ بمسَاسِ طِمْرَيْه؛ حتَّى خُيِّلَ إلَيّ أَنَّهُ الْقَرَبِيُّ أُويْس، أَو الأَسَدِيُّ دُبَيْس.

* * *

طمَس: غطّى، وطمست الدار إذا غَطّى التراب آثارها ومحَاها. والتَّفَل: نفخ يخرجُ معه بُصاق متفرّق، وأوله البَزْق ثم التّفْل، ثم النَّفْث، ثم النفخ.

ضمَّخَها: لطَّخها عَبِير: أخلاط من الطّيبِ الماخض: الحامل. ولا تَعْلَقُ بها يد حائض، تمويه بأن مكتوبه من القرآن والحائض لا تمسّه. الذَّواق: مسّ الطعام أو الشراب بلسانك. الفُوَاق: ما بين الحَلبتين من الوقت، لأنّ الناقة تُحْلَب ثم تترَك ساعة يرضَعُها فصيلُها لتدرّ ثم تحلَب. انْدَلَق: خرج بسرعة، وكلّ شيء يدرّ خارجاً بسرعة فقد اندلق، واندلق السّيْفُ من غِمْدِه إذا سقط من غير أن يسلّ. خِصِّيصي الزّبد، أي خاصّيته التي ينفرد بها عن الأحجار، واختصصتُ بالشيء: انفردتُ به، وجاءني خصيِّصيَ القوم، مقصوراً، أي خاصّتهم، وخصَصْتُه بالشيء خصوصاً وخُصوصيّة وخِصّيصَي.

ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «ما وُلِدَ في أهل بيت غلام إلا أصبح فيهم عِزٌّ لم يكن».

وقال ﷺ: «مَنْ وُلد له مولود فأذَّن في أذنِه اليمنى وأقام في اليسرى، دفعت عنه أم الصبيان».

حُبوراً؛ سروراً، واستُطِير: داخلَه السرور. عميدُه: سيّده طِمْرَيه: ثوبيه.

وذكر ابن قُتيبة بسندٍ متصل بابن عباس رضي الله عنهما، أنه قال: مَرَّ عيسى ابن مريم عليه السلام على بقرةٍ قد اعترض ولدُها في بطنها، فقالت: يا كلمةَ الله، ادعُ الله أن يخَلِّصَنِي، فقال: يا خالقَ النّفس من النَّفْس، ويا مُخرج النَّفسَ من النَّفْس، ويا مخَلِّص النَّفْس من النَّفْس خلِّصها، فألقت ما في بطنها، فإذا عسرت على المرأة ولادتُها فيكتب على مكيال، ثم تعطاه المرأة.

وذكر الفَنْجديهيّ بسندٍ متصل بأبي هريرة رضي الله عنه، قال: بينا عيسى ويحيى عليهما السلام في البرية إذْ رَأيا وحشيّةً ماخضاً، فقال عيسى ليحيى: قل تلك الكلمات: جَنّة ولدت مريم، مَرْيم وَلَدَت عيسى، الأرض تدعوك يا ولد، اخرج يا ولد، اخرج.

قال حمّاد بن زيد: فما يكونُ في الحيّ امرأةٌ ماخض، فيقال هذا عندها إلاّ ولدتْ، حتّى الشاة التي يتعسَّر وضعها، فيقال هذا عندها، فلا تبرح حتى تضع.

يونس بن عبيد الله: اللهمّ أنت عُدّتي عند شِدَّتي، وأنت صاحبي عند كُرْبَتِي، وأنت وليّ نعمتي، مَنْ قالها عند النُّفَساء إذا عسر عليها ولدها، أو على بهيمة، أذن الله تعالى في خروجه.

وذكر عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إذا عسر على المرأة ولادتُها، فليكتبْ لها بسم الله لا إله إلا الله الحليم الكريم، سُبْحانَ الله رب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين ﴿**كأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لم يلْبثُوا إلاَّ عشيَّةَ أو ضحاها**﴾ [النازعات: ٤٦] ﴿**كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لم يَلْبَثُوا إلا ساعةً من نهارٍ بلاغ فهلْ يُهْلَكُ إلا القوم الفاسقون**﴾ [الأحقاف: ٣٥].

قال سفيان: يكتب هذا في جام وتُسقاه.

وذكر عن أبي الزّناد قال: كنت مِئْنَاثاً، فقيل لي استغفر الله إذا جامعت، ففعلت فوضع لي بضعة عشر ذكرا.

قوله خُيّل: أي شبّه.

[أويس القرني]

وأويس القَرَنيّ بَشّر به النبي ﷺ، وهو من التّابعين.

وفي صحيح مسلم: إنّ أهل الكوفة وفَدُوا على عمر رضي الله عنه، وفيهم رجل مِمّنْ كان يسخر بأويس، فقال عمر رضي الله عنه: هل ها هنا أحد من قَرَن؟ فجاء ذلك الرجل، فقال عمر: إن رسول الله ﷺ قال: «إن رجلاً يأتيكم من اليمن يقال له أويس، لا يدع باليمن غير أمٍّ له، وقد كان فيه بياض، فدعا الله، فأذهبه الله عنه إلا

موضع الدينار أو الدرهم، فمن لَقِيَه منكم فليستغفرْ لكم»[١].

وفيه عن أُسَيد بن جابر، قال: كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا أتاه أمداد أهل اليمن سأل: أفيكم أويس بن عامر؟ حتى أتى على أويس، فقال: أنت أويس بن عامر؟ قال: نعم، قال: من مُرَادٍ، ثم من قرن؟ قال: نعم، قال: فكان بك بَرَصٌ فبرئتَ منه إلاّ موضع الدرهم؟ قال: نعم، قال: ألك والدة؟ قال: نعم، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يأتي إليكم أوَيْس بن عامر، مع أمداد أهل اليمن، من مُراد ثم من قرن، وكان به بياض فبرِىء منه إلا موضع الدرهم، له والدة هو بها بارٌّ لو أقسم على الله لأبّره، فإن استطعت أنَ يَسْتَغْفِر لك فافعل»[٢]، فاستغفرْ لي فاستغفر له، فقال عمر رضي الله عنه أين تريدُ؟ فقال: الكوفة، قال ألا أكتب لك إلى عاملها؟قال: أكون في غير النّاس أحبُّ إليّ. قال: فلما كَانَ في العام القابل حَج رجل من أشرافهم، فوافى عمرَ رضي الله عنه، فسأله عن أُوَيس، فقال: تركتُه رثَّ البيت، قليل المتاع. قال: سمعت رسول الله ﷺ يقولُ: «يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن من مُراد ثم من قَرَن، وكان به بَرَص فبرىء منه إلا موضع درْهم، له والدة بها بارّ، لو أقسم على الله لأبَّره، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل» فأتى أويساً فقال: استغفر لي، فقال: أنت أحدث عهداً بسفر صالح؟ قال: نعم، قال له: لقيت عمر؟ قال: نعم، فاستغفر له، ففطن له الناس، فانطلق على وجهه، قال أسَيْد: وكسوته بُرْدة، فكان كلما رآه إنسان قال: من أين لأوَيسٍ هذه البُرْدة!.

وفي كتاب الإحياء: أنّه لما ولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: أيّها الناس، مَنْ كان من أهل العراق فليقمْ، فقاموا، فقال: اجلسوا إلاً مَنْ كان من قَرَن؟ فجلسوا إلا رجلاً واحداً، فقال له عمر رضي الله عنه قَرَنيٌّ أنت؟ قال: نعم، قال: أتعرف أويساً؟ قال: نعم، وما تسأل عن ذلك يا أمير المؤمنين؟ والله ما فينا أحمق ولا أجنّ ولا أحوج منه! فبكى عمر رضي الله، ثم قال: ما قلت، إلاّ أنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يدخل في شفاعته مثل ربيعة ومضر». ولمّا كان عند أهله كالمجنون بَنَوْا له بيتاً على باب دارِهِمْ، فكان تأتي عليهم السّنة لا يرْون وجهه، كان يخرج أوّل الأذان ويأتي بعد العشاء الآخرة، وكان طعامُه أن يلقط النّوى، فكلّما أصاب حَشَفةً خبأها لإفطاره، فإن أصاب ما بقوته باع النّوى، وتصدّق به، وإلاّ اشترى منه ما يقوته. وكان لباسه قطع الأكسية من المزابل، يلفقُ بعضَها إلى بعض، ثمّ يلبسها، وإذَا مرَّ بالصبيان رجموه، يظنُّون أنه مجنون، ولهذا أعظَّم النبي ﷺ حرمته، فقال: «إني لأجد نفس الرحمة من قبل اليمن». إشارة إليه.

---

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة حديث ٢٢٣.

(٢) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة حديث ٢٢٤، ٢٢٥، وأحمد في المسند ١/٣٨، ٣/ ٤٨٠.

[الأمير دبيس بن صدقة]

وأما دُبَيس فهو الأمير سيف الدولة بن مَزْيد الأسديّ، وقيل: دبيس بن صدقة بن مزيد، وذكر أبو الحسن عليّ بن الحسين بن أبي طالب الباخرزيّ الأمير أبا الأعز دبيس ابن عليّ فقال: خدمتُه ببغداد، وعبرتُ إليه أختَ يده الجواد ـ يعني دجلة ـ وهي زاخرة الأمداد، فإذا باحة للطارقين مباحة، وراحة في كَفِّها للعفاةَ رَاحَة، وقباب التفّت بها غابُ القنا، واشترك مع أسودها الناس في فرائس الغنى.

قال الفنجديهيّ: سمعت بعضَ أهل الفضل يقول ببغداد: لما سمع الأمير دبيس، أن الرئيس أبا محمد الحريري ذكرهُ في مقاماته، وأورد فيها بعض صفاته، أنفذ إليه من الخلع السنيّة، والجوائز الهنيّة ومزية العطية، ما عجز عنه الوصف، وكلَّ عنه الطرف، واقتضاه علوّ همته، وسموّ قدرته. ثم عصى دبيس على الإمام المسترشد بالله أمير المؤمنين أبي منصور الْفَضْل بن المستظهر بالله، وسعى في إراقة دمه، وجَمَع العساكر وحشد، وقصد بغداد في عسكر عظيم، وعاث في أطرافها، وأفسد في أكنافها، فخرج المسترشد بالله أمير المؤمنين من دار الخلافة، واجتمعت إليه الأجناد، وظهر إليه وحمل عليه، فهُزم دبيس وعسكره، وانتهى إلى الحِلّة المزيدية، فانْتهبَها، وذلك في المحرّم في سنة سبع عشرة وخمسمائة. وانهزم دبيس في خواصّ من أصحابه وغلمانه خوفاً من الخليفة، ومرَّ نحو الشام ثم قتل الأمير دبيس بن صدقة بن مزيد في سنة ثلاثين أو في سنة تسع وعشرين، قتله السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه لأمور أنكرها وأسباب امتعض لها، نُسبت إليه.

ثمّ انثالَ عليهِ من جوائز المجازاة، ووصَائِلِ الصِّلاتِ، ما قَيض له الغِنَى، وبيَّضَ وجْهَ المُنَى، ولم يَزَلْ يَنْتَابُه الدَّخل، مذ نُتِج السَّخْل؛ إلى أنْ أُعْطِيَ الْبَحْرُ الأمان وتَسَنَّى الإتمامُ إلى عُمَان؛ فاكتفَى أَبو زيدٍ بالنِّحلَة، وتأهَّبَ للرّحلة؛ فلم يَسْمَحِ الوالِي بحركتِه، بعد تجْرِبة بَرَكَتِه، بل أَوْعَزَ بضمِّه إلى حُزانَتِه، وأَن تُطْلَقَ يَدُه في خزانَته.

قال الحارث بن همّام: فلمّا رأَيتُه قَدْ مال، إلى حَيْث يُكْتَسَبُ المال، أَنْحَيْتُ عليهِ بالتّعنيف، وهَجّنتُ له مفارقَةَ المألَفِ والأَليف، فقال: إليك عنّي، واسمَعْ مِنّي.

* * *

قوله: انثال، أي انصبّ. جوائز: عطايا وصائل: متّصلات غير منقطة، والوصائل: ثياب حمر مخّططة تُصْنَع باليمن يلبسها النساء، قال الشاعر: **[الطويل]**

* لـهـا حُـبُـكٌ كـأنـهـا مـن وصـائـلِ *

فيّض: قُدِّر وساق ينتابه، أي يقصده ويأتيه مَرّةً بعد أخرى.

الدخْل: العطايا التي تدخل إليه من قبل الأمير وغيره، ورجل كثير الدخل: إذا كثر دخول الرزق عليه. والسَّخْل: الولد.

ومما يستحسن في التهنئة بمولود قول الحُلوانيّ: **[البسيط]**

نجْم تولّد من شمسٍ ومن قمرٍ وأين مَنْ أبواه الشَّمْس والقَمَرُ
شمس العفافِ ومجد البدْرِ بينهما تولّد النور إلاّ أنه بشرُ

أخذه من قول ابن الرومي: **[السريع]**

شمس وبَدْرٌ ولَدَا كَوْكَباً أقسمت بالله لقد أنجبا

وجاء الرّمادي يُهنِّىء الفقيه ابن العطار بمولود، فقال: **[البسيط]**

يَهْنِيكَ ما زادتِ الأيام في عددِكْ من فلذةٍ بَرزتْ بالسَّعْد من كَبِدِكْ
كأنَمَا الدهرُ دهرٌ كان مكتئباً من انفرادك حتى زادَ في عَدَدِكْ
لا خلّفتك الليالي تحت ظِلّ ردًى حتى ترى ولداً قد شبَّ من وَلَدِكْ

قوله: «تَسَنّى الإتمام، أي تيسّر إتمام المشيء والإقلاع. اكتفى: اقتنع. النِّحلة العطية. أَوْعَزَ وَوَعز، تقدم، يعقوب: لا يقال. وَعَز بالتّخفيف. حُزَانتِه: جماعته، وعياله الذين يتحزَّنون لنكبته ولفقده، ويحزن هو لِضَيْعَتِهِمْ. أنحيت: ملت عليه وقصدته به. التعنيف: اللوم والأخذ باللسان. المألف: البلدة وموضع الألفة. الأليف: الصَّاحب. إليك عني: تباعد عني: **[الكامل]**

* * *

لا تَصْبُونَّ إلى وَطَنْ فِيهِ تُضَامُ وتُمْتَهَنْ
وارْحَلْ عن الدارِ الَّتِي تُغْلِي الوِهادَ على القُنَنْ
واهْرَبْ إلى كنٍّ يَقِي ولو أنَّهُ حِضْنا حَضَنْ
واربأ بنفْسك أن تقيـ ـمَ بحيث يَغْشاك الدّرَنْ
وجُبِ البلادِ فأيُّها أَرْضاك فاخْتَرْهُ وَطنْ
وَدعِ التذكُّرِ للمعا هِدِ والْحنِينَ إلى السَّكَنْ
واعلمْ بأنّ الحُرّ في أوطانِهِ يَلْقَى الغَبَنْ
كالدرِّ في الأصداف يُسْـ ـتَزْرَى ويُبْخَسُ في الثَّمَنْ

* * *

تَصْبُونَّ: تَمهلَنَّ، وصبوت إليه مِلْتُ بالمحبّة. تُضَام: تذل. تمتهن: تحتقر، وقال محمد بن بشر في هذا المعنى: **[الوافر]**

إنّـمـا أزْرَى بـقـدري أنـنـي ... لـسـتُ مـن بَـابـةِ أهـلِ الْـبَـلَـدِ
لـيـس مـنـهـم غـيـر ذي مـقِـلـيَـةٍ ... لـذوي الألـبـاب أو ذِي حَـسَـدِ
يـتـحـامـوْن لـقـائـي مـثـلَ مـا ... يـتـحـامـوْن لـقـاءَ الأسَـدِ
مـطـلـعـي أثـقـل فـي أعـيـنـهـمُ ... وعـلـى أنـفِـسـهـمْ مـن أُحُـدِ
لـو رأوْنـي وسـط بـحـرٍ لـم يـكـنْ ... أحـدٌ يـأخـذ مـنـهـم بـيـدِي

وقال البحتريّ: **[الوافر]**

أشـرّق أم أغـرِّب يـا سـعـيـدُ ... وأنـقـص مـن زَمـاعِـي أم أزيـدُ[1]
عَـدَتْـنِـي عَـنْ نـصـيـبـيـنَ الْـعَـوَادِي ... فـبـخـتـي أبـلـةٌ فـيـهـا بَـلـيـدُ
وأخـلـفـنـي الـزمـان عـلـى رجـالٍ ... وجـوهـهـمُ وأيـديـهـمْ حـديـدُ
لـهـم حُـلَـلٌ حسُـنّ فـهـنّ بـيـضٌ ... وأخـلاق سَـمُـجْـنَ فـهـنَّ سـود

وممن نبا به بلده القاضي أبو محمد عبد الوهاب، خرج من بَغْداد يريد مصر، فشيّعَه أكابرها، ومن أصحاب محابرها جملة موفورة، فقال لهم: والله لو وجدت بين أظهركم رغيفين كلَّ يوم، ما عدلتُ ببلدكم بلوغ أمنية، والخبز عندهم يومئذ ثلاثمائة رطل بدينار، وقال: **[الطويل]**

سـلامٌ عـلـى بـغـدادَ مِـنّـي تـحـيَّـةٌ ... وحُقّ لـهـا مني الـسَّـلامُ الـمـضـاعَـفُ
لـعـمـرُك مـا فـارقـتُـهـا قـالـيـاً لـهَـا ... وإنـي بـشـطَّـيْ جـانِـبَـيْـهـا لـعـارفُ
ولـكـنـهـا ضـاقـت عَـلَـيَّ بـرُحْـبـهـا ... ولـم تـكـن الأقـدار مـمّـن يُـسَـاعِـفُ
فـكـانـتْ كَـخـلٍّ كـنـت أهـوى دنـوَّهُ ... وتـأبَـى بـه أخـلاقُـه فـيـخـالـفُ

وقال أيضاً: **[البسيط]**

بـغـدادُ دار لأهـلِ الـمـال واسـعـةٌ ... ولـلـمـفـاليس دار الضَّـنْـكِ والـضيِّقِ
قـد صِرتُ أمشي مـهـاناً في أزقّتِهَا ... كـأنـنـي مـصـحـفٌ فـي كَـفِّ زنـديـقِ

قوله: الوِهَاد والقُنن: الانخفاض والارتفاع، والقُّنة: أعلى الجبل، والوَهْدَةُ القعدة من الأرض تجري إليها مياه جهاتها. حَضناً: جانباً حصيناً مانعاً. أربأ، أي ارتفع. يغشاك: يُغَطيّك. الدَّرَن: الوسخ المعَاهِد: منازل سكناء. الحنين: الشوق. السَّكَن: الأهل. الأصداف: محالّ الجوهر. يستزرى: يستحقر. يبخس: ينقص، ومعنى هذه الأبيات يقول: أرحل عن بلد يعلو فيه قدر أصاغر الناس قدرَ أكابرهم، ولا تُقِمْ فيه على الهوان، وارفع قدر نفسك من أن تقيم بموضع توسّخك فيه الإهانة، فإنّ المرء حيثُ يضع

---

(١) الأبيات في ديوان البحتري ص ٥٨٠.

نفسه، وطُفْ بالبلاد، واختر وطناً ما أرضاك، فإنّ الحرّ يضيع في وطنه، ولا يعرف قدره.

الأصمعيّ: سمعتُ بعضَ العرب يقول: الفقر في الوطن غربة، والغنى في الغربة وطن.

ونظر أبو الحسن إلى برذونٍ يُستَقَي عليه، فقال: المرء حيث يضع نفسه، لو هَملَج هذا لم يُبْلَ بما تروْن.

الزبير رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول «إن العِباد عباد الله، والبلاد بلاد الله، فحيثما وجدتَ خيراً فأقم، وأحمد الله»[١].

وقال هلال بن العلاء الرّقيّ: **[مجزوء الكامل]**

لا تجزعنّ وإن نأتْ … أرضٌ تُنالُ بها المحبَّهْ
وطنُ الغريب يَساره … والفقرُ في الأوطان غرْبَهْ

وقال آخر: **[مخلع البسيط]**

أشدّ من فاقةِ الزّمَانِ … مقام حُرٍّ على الهوانِ
فاسترزق الله واستغنِهِ … فإنه خيرُ مستعانِ
فإن نبا منزلٌ بحرٍّ … فمن مكانٍ إلى مكانِ

وقال آخر: **[البسيط]**

شرّق وغرّب تجد من غادرٍ بدلاً … فالأرض من تربةٍ والنّاسُ من رجُلِ

وقال آخر: **[البسيط]**

مَنْ ضاق عنك فأرض الله واسعةٌ … عن وجه كلّ مضيق وجه منفرجِ
خيرُ المذاهب في الحاجات أنجحُها … وأضيق الأمر أدناه من الفرجِ

* * *

ثمَّ قَالَ: حَسْبُكَ ما استمعتَ، وحبَّذَا أَنتَ لَوِ اتبَّعَتَ. فأَوضحتُ له معاذيري، وقُلت له: كُنْ عَذِيرِي. فعَذَرَ واعتَذَر، وزوَّدَ حتَّى لم يَذَرْ، ثمَّ شيّعنِي تَشْيِيع الأقارِب، إلى أَنْ ركبتُ في القارِب فودَّعْتُه وأَنا أشكرُ الفِراقَ وَأَذُمُّه، وَأَوَدُّ لو كان هلكَ الجنِين وأمُّه.

* * *

(١) أخرجه أحمد في المسند ١/١٦٦، بلفظ: «البلاد بلاد الله والعباد عباد الله».

حسبك: يكفيك. أوضحت: بيّنت. معاذيري: أعذاري، والعَذِيرةُ: العذر، ويقال: عذيرك من كذا، بمعنى هلمّ معذرتك منه، وقيل: العذير بمعنى عاذر، فَعِيل بمعنى فاعل، أي هلمّ لمن يعذرك منه.

ثعلب: العذير، مصدر بمعنى النّكير، ومعنى عذيري منه، أي مَنْ يعذِرني منه!

وعذَر: قَبِل العذر. والله أعلم.

المقامة الأربعُون

وَهي التّبرِيزيّة

أَخبر الحارِثُ بنُ هَمّام، قالَ: أَزْمَعْتُ التبْريز مِنْ تَبْرِيزِ، حِينَ نَبَتْ بالذَّليلِ والعَزِيز، وَخَلَتْ من المُجيرِ والْمُجِيز؛ فبينَمَا أَنا فِي إعْدَادِ الأُهْبَة، وارْتيادِ الصُّحبة، أَلْفيْتُ بها أَبا زيدِ السَّرُوجيّ مُلْتَفًّا بِكِسَاءِ، ومحتفًّا بِنِسَاءِ، فسألتُه عَنْ خَطْبه، وإلى أيْنَ يسْرُبُ مَعَ سِرْبه؛ فأَوْمَأَ إلى امرأةٍ مِنْهُنَّ باهِرَةِ السُّفور؛ ظاهِرَةِ النُّفور، وقال: تزوّجتُ هَذِه لِتُؤنِسَنِي في الْغُرْبَةِ، وَتَرْحَضَ عَنِّي قَشَفَ الْعُزْبة، فلَقِيتُ مِنْهَا عَرَق الْقِرْبَةِ، تَمَطُلنِي بِحَقِّي، وتُكَلِّفُنِي فَوْقَ طَوْقِي، فأنَا مِنْهَا نِضْوُ وَجًى، وحِلْفُ شَجْوِ وشجًى. وهَا نَحْنُ قَدْ تَسَاعَيْنَا إلى الْحَاكِم، لِيَضْرِبَ عَلَى يدِ الظَّالِم؛ فإنِ انتَظَمَ بَيْنَنَا الوِفاق، وإلاّ فالطّلاقُ والانْطِلاق.

قال: فملت إلى أن أخْبُرَ لِمَن الْغَلَب، وكَيْفَ يكون المُنْقَلَب! فَجَعَلْتُ شُغْلِي دَبْرَ أُذنِي، وصَحِبتُهمَا وإنْ كُنْتُ لاَ أُغنِي.

* * *

أزمعتُ: عزمتُ، والزَّمَاع الْعَزْم، والتَّبْريز: الخروج إلى البراري، وهي الأرضُ الفضاء بلا شجر. تَبْرِيز: قرية من كُوَر أذربيجان من عمل خُراسان، بينهما وبين المراغة عشرون فرسخاً.

نبَتْ: قلعت وارْتَفَعْت المجير: الذي يُجيرُكَ من النّاس ويكفيك شرَّهم، والمجيز: الواهب الجائزة وهي الصِّلة ارتياد: طلب مُحَلِّقاً. محّلقاً. خطْبه: أَمْرِه يسربُ: يذهب، وسِرْبه: جماعة نسائه. أومأ: أشار. باهرة: ظاهرة. والسُّفور: كَشف النّقاب عن الوجه. تَرْحَض: تغسل، ورَحَض الثوبَ يَرْحَضُه غسله قشَف: تغيّر، ورجل متقَشّف: لا يتعهد الغسل والنظافة. والقَشف: سوء العيش. وَمَطلَه حقَّه، كناية عن جماعه لها، والمَطْل في الأصل: والمدّ، يقال: مطل الْقَيْن الحديد يمطُله مَطْلاً إذا، مدّه وطوّله، فمعنى يَمْطُلني: تطوّل عليّ. والطَّوْق: الطاقة. نِضْو وَجًى: هزيل من الجفاء، وأراد به شرَّها وما يلقاه منها. حِلْف شَجْو: صاحب حزن. والشَّجا: الاختناق بالعظْم وهو شيء صعب: ليضرب على يدِه: ليكفَّه ويمنعه

* * *

فلمَّا حضَرا الْقَاضي؛ وكان مِمَّنْ يَرَى فضلَ الإمساك، ويَضِنُّ بنُفاثَةِ السِّواك، جَثَا أَبو زَيْدٍ بَيْنَ يَدَيْه، وقال: أَيَّدَ الله القاضي وَأَحْسَن إليه، إن مَطِيَّتِي هذه أَبِيَّةُ الْقِيادِ، كثيرةُ الشِّرَادِ؛ مع أَنِّي أَطوعُ لهَا مِنْ بَنَانِهَا، وأَحْنَى عَلَيْهَا مِنْ جَنَانِها. فقال لها القاضِي: وَيْحَكِ! أمَا علِمْتِ أَنَّ النُّشوزَ يُغْضِبُ الرَّبَّ، ويُوجِبُ الضَّرب! فقالت: إنَّهُ مِمَّنْ يَدُور خَلْفَ الدَّارِ، ويأَخُذ الْجارَ بالجار، فقال له القاضي: تبًّا لك! أَتَبْذُرُ في السِّباخ، وتَسْتَفْرِخ حَيْثُ لا إفْراخ! اعزُبْ عنِّي، لا نَعِمَ عَوْفُكَ، ولا أَمِنَ خَوْفُكَ، فقال أبو زيد: إنَّهَا وَمُرْسلِ الرِّياحِ، لأَكْذَبُ من سَجَاح!

فَقالَتْ: بل هُوَ ومَنْ طَوَّقَ الحمامَة، وَجَنَّحَ النَّعَامَة، لأَكْذَبُ مِنْ أَبِي ثُمامة، حِينَ مَخْرَقَ بالْيَمَامَةِ!

* * *

لا أُغْنِي، أي لا أنفع، الإمساك: الشح، يضِنّ: يبخل، والنفاثة: ما تطرحُه من فيك من السّواك بعد الانتفاع به، وهذا وإن كان في غاية البخل مُنتَزعٌ من قول الشاعر: **[الطويل]**

لقد بخلتْ حتى لو أنّي سألتُها	قَذَى العين من ضَاحي التراب لَضنَّتِ

وقال آخر في معناه: **[السريع]**

يبخل بالماء ولوْ أنه	منغمسٌ في وَسَطِ النِّيلِ
شجًّا فلا تطمع في خَيْره	ولو توسَّلْتَ بجبريلِ

وقال آخر: **[البسيط]**

ما كنتُ أحسِب أن الخبز فاكهةٌ	حتى نزلتُ على أوْفَى بنِ منصورِ
يا حابس الرَّوْث في أعقاب بَغْلَتِه	خوفاً على الحَبّ من لَقْط العصافير

وهذا الباب مستوفًى في الرابعة والأربعين:

ومما يُستظرف من لفظ السوِّاك، قول بعض الظرفاء: **[الخفيف]**

قد هجرتُ السِّوَاك من أجل أنّي	إن ذكرتُ السِّواكَ قلتُ سِواكَا
وأحِبّ الأراك من أجْلِ أنّي	إن ذكرتُ الأراك قلت أرَاكَا

جَثَا: برك، أيّد: قوّى مطيّتي: زَوْجَتي، أبِيّة: صَعْبة ممتنعة على قائدها. الشِّراد: النفور، أحْنى: أعطف وأرْحَم. جَنانها: قلبها.

النُّشوز: عصيان الزوج ومخالفته، والنُّشوز أصله الارتفاع. ووَيْح، معناها التوبيخ والتقبيح، وتستعمل أيضاً للترحّم، وقوله: ويوجب الضرب من قوله تعالى: ﴿**واللاَّتي**

تَخافُونَ نُشوزَهُنّ فعظِوهُنّ واهجروهن في المضاجع واضْرِبُوهُنّ﴾ [النساء : ٣٤] فنشوزهنّ : عِصْيَانُهِنّ . الأزهريّ : النُّشوز : كراهة كلّ واحد من الزوجين صاحبه ، ونشزَتْ تنشزُ فهي ناشز .

ابن عمر رضي الله عنهما قال النبيّ ﷺ : «لا تُسْكِنُوا النّساء الغرَف فيشرفن ، ولا تعلّموهنّ الكتابة ، واستعينوا عليهنّ بالضرب» .

ابن عباس رضي الله عنهما ، قال رسول الله ﷺ : «عَلقُوا السوط حيث يراه أهل البيت» .

ووصّى بعضَ أهله فقال : «أنفِقْ على أهلك من طَوْلِك ، ولا ترفع عصاك عنهم ، وأخِفْهم في الله» ؛ فمعنى لا ترفع عصاك ، أي لا تترك تأديبهم في الله تعالى . قوله : ويأخذ الجْار بالجْار ، العرب تسمي فَرْج المرأة بالجار ، ودُبرها جار الجار ، وأخذه الحريري من قول أعرابي جاء لامرأته وقد اغتلم واشتدّت شهوته ، فأنعظ ، فلما قرب منها وهجم عليها قالت له : إني حائض ، قال لها : فأين الهنَة الأخرى؟ ثم حمل عليها وهي تدافعه وتسبّه ، وهو ماض في شغله ينشدها : **[الرجز]**

كلاّ وربِّ البيت ذي الأسْتَارِ لأهتِكَنّ حلق الحتَّارِ

* قد يؤخذ الجارُ بذنب الجارِ[1] *

قال الخليل : الحتّار : ما استدار من طَوْق الجفن ، وكذلك حتّار الظّفر والدبر ، ومما يبيّن هذا المعنى قول الشاعر : **[الكامل]**

جَارُك قَدْ يجنِي عليكَ وقَدْ تُعْدِي الصِّحَاحَ مبارِكُ الجُرْبِ[2]

ولربَّ مأخوذٍ بذنب قَرينِهِ ونجا المقارَف صاحبُ الذّنبِ

أتبذر : أتزرع ، والبَذْر الحَبوب تزرع : السَّباخ : الأرض ذات الملح والرَّشْح ، وهي لا تنبت شيئاً لملوحتها وقلة جفافها ، وأراد : أتزرعُ نطفتَك في موضعٍ لا يقبل الولد ، تسْتَفْرِخ : تلتمس عمل الفرخ . اعزب : غب .

طوّق الحمامة : جعل لها طَوْقاً ، والحمام عند العرب ذوات الأطواق نحو الفواخِت والورَاشين والقماريّ ، ودخلت الهاء على أنه واحد للجنس لا للتأنيث .

---

(١) الرجز بلا نسبة في لسان العرب (حتر) ، وتاج العروس (حتر) ، وكتاب العين ٣/ ١٩٠ .

(٢) يروى صدر البيت الأول :

جانيك من يجني عليك وقد

وهو لذؤيب بن كعب بن عمرو في الاشتقاق ص ٢٠٢ ، ونسبه بعضهم لعوف بن عطية ، وهو بلا نسبة في لسان العرب (جنى) ، وتهذيب اللغة ١١/ ١٩٦ ، وجمهرة اللغة ص ٢٦٦ .

الليث: تقول العرب: حمامة ذكر، وحمامة أنثى، والجميع الحمام.

الشافعي: كلّ ما عبَّ وهَدَر فهو حمام، يدخل فيه القماري والوراشين؛ سواء كانت مطوّقة أو غير مطوّقة، آلفة أو وحشية، وهذا القول كأنّه الأكثر لأنّ النبيّ ﷺ كان يأمر بأخذ الحمام التي تستفرخ في البيوت، وليست ذوات أطواق، وكان يسمِّيها حماماً، وكان في منزله حمام أحمر، اسْمُه وَرْدان، وقد قدّمنا فصلا في الحمام في الصدر.

مَخْرَق الرجل: أوهم أنه على حق وصواب، وهو على خلافه.

[قصة مسيلمة الكذاب وسجاح التميمية]

وأورِدُ هنا في شرح تزويج مسيلمة بسجَاح ما يبيّن سخف نبوتهما، وإن كان الحريري قد أشار إلى ذلك في هذه المقامة.

كان مسيْلمة بن حبيب الحنفيّ، ثم أحد بني الدِّبل، قد تسمّى بالرحمن في الجاهلية، وكان من المعمَّرين.

ذكر وثيمة بن موسى أن مسيلمة تَسمَّى بالرحمن قبل أن يولَد عبد الله أبو رسول الله ﷺ، ولمّا بُعِث رسول الله ﷺ كانت قريشٌ تقول: إنّما يعلّم محمداً رجلٌ يقال له الرحمن، فنزلت ﴿وَهُمْ يَكْفُرُون بالرَّحْمنِ﴾ [الرعد: ٣٠] وكانت بنو تميم قد تخاذلت في أمر الرِّدة بعد موت النبي ﷺ واختلفوا في ذلك اختلافاً شديداً، فبينما هم على ذلك إذ فاجأتْهم سجاح بنت الحارث مقبلة من الجزيرة، تقود بني ربيعة. فأتاهم أمرٌ كان أعظمَ مِمّا هُمْ فيه من الاختلاف، وكانت سَجَاح تميميّة وبنو أبيها في تغلب، وادَّعت النبوّة بعد وفاة النبي ﷺ في الجزيرة، فاجتمعتْ عليها بنو تميم ورؤساء تغلِب، فادَّعت أنّها أنزل عليها. «يا أيّها المؤمِنُون المتقون، لنا نصف الأرض ولقريش نصفها، ولكنَّ قريشاً قوم يبغون». فاجتمعت تميم كلها تنصرُها، فكان فيهم الأحنف وحارثة بن بدر ووجوه بني تميم، وكان مؤدّبها شبيبَ بن ربعيّ الرياحيّ، فقالت: «أعِدُّوا الركاب، واستعدوا للنّهاب، ثم اغدوا على الرِّباب، فليس من دونهمْ حجاب». فصمدت إليهم، وقتلت فيهم قتلاً كثيراً، ثم قالت لأجنادها: اقصدوا اليمامة، فقيل لها إن شوكة أهل اليمامة قويَّة شديدة وقدَ غُلظ أمرُ مسيلمة، فقالت: «يا معاشر تميم، اقصدوا اليمامة، فاضربوا فيها كل هامة، وأضرموا ناراً ملهامة، حتى تتركوها سَوْداء كالحمامة»، وإنّ الله تعالى لم يجعل هذا الأمر في ربيعة - تعني نبوّة مسيلمة - وإنما جعلها في مُضَر، واقصدوا هذا الجمع، فإذا قصدتموه عكّرتمْ على قريش.

فسارت في قومها، وهم عدد لا يحصى، وبلغ مسيلمةَ الخبرُ، فضاق به ذرعاً، وتحصَّن في حِجْر حصن اليمامة، وأحاطت به جيوشها، فأرسل في وجوه قومه، وقال: ما ترون؟ قالوا: نسلِّم هذا الأمر لها، فإن لم نفعل فهو البوار. فقال لهم بدهائه:

سننظر. ثم بعث إليها، وقال: إنّ الله قد أنزل عليك وحياً وعليّ، فهلمّي نجتمع فنتدارس ما أنزل الله، فمن عرف الحق تَبِعه، واجتمعنا، فأكلنا العرَب أكلاً بقومي وقومك. فأنعمت له، فأمر بضرب قبّة من أدَم، فضُرِبت وأمر بالعود المندليّ فبُخّرت به، وقال: أكثروا من الطيب، فإن المرأة إذا شمّتْ رائحته ذكرت الباه. وأتتَه إلى القبة، وقالت: هات ما أنزَل عليك ربك، فقال: «ألم تر كيف فعل ربك بالحُبْلى، أخرج منها نسمةً تَسْعى، ومن بين صِفاقٍ وحَشَى، من بين ذكر وأنثى، وأمات وأحيا، إلى ربكم يكون المنتهى». قالت: وما ذاك؛ قال: «ألم تر أن الله خلقَنا أفَراجاً، وجعل لنا النساء أزواجاً، فنولِجُ فيهنّ قعسا إيلاجاً، ونخرجه منهنّ إذا شئِنا إخراجاً»، قالت فبأيّ شيء أمر ربك؟ قال: [الهزج]

ألا هُبِّي إلى المخدعْ فقد هُيِّي لك المضجعْ[1]
فإن شئتِ ففي البيت وإن شئتِ ففي المخدَعْ
وإن شئتِ سَلَقْنَاكِ وإن شئتِ على أرْبَعْ
وإن شئتِ بثُلثيه وإن شئتِ به أجْمَعْ

قالت: بل به أجمع. قال: كذلك أوحى إليّ. فواقعها فلمّا قام عنها قالت: إنّ مثلي لا يُنْكَح هكذا، فيكون وَصْمةً على قومي، ولكنّي مسلمّة لك النبوّة، فاخْطبني إلى أوليائي يزوّجوك، ثم أقود معك تميماً. فخرج وخرجت معه، واجتمع الحيّان: حنيفة وتميم، فقالت: سَجَاح: إنّه قرأ عليّ ما أُنْزِل عليه، فوجَدْتُه حقاً، فتبعتُه، ثم خطبها فزوّجوه منها.

وقال الأغلب العجليّ في ذلك: [الرجز]

قد لقيَتْ سَجاحُ من بعد العمَى ملوّحاً في العين مشدودَ القُوَى
كأنّ عِرْق أَيْرِهِ إذا بدا حبل عجوز ضفرت سَبْعاً قُوَى
ما زال عنها بالحديث والمُنَى والخُلقِ السَّفْسَافِ يَرْدَى في الرَّدَى
قال: ألا أدخِلُه؟ قالت: بَلَى فشام فيها مثلَ محراب الْعَصَا
تقول لمّا غاب فيها واستوَى لمثل هذا كنت أَحْسِيك الْحَسَى

واليمامة بلدُ الزرقاء وسيأتي ذكرها في الخمسين، فعلى نحو ما ذكرنا من أمر سجاح، ذكَرَها أكثرُ أهلُ الأخبار.

وقال الفنجديهيّ: سَجَاح بنت الحارث بن سويد بن عِقْيان، من بني يربوع، كنيتها

---

(١) يروى صدر البيت الأول:

ألا قومي إلى المخدع

والأبيات لمسيلمة الكذاب في تاج العروس (خدع)، (سلق)، وجمهرة اللغة ص ٨٩٤، والأغاني ٣٩/٢١.

أم صادر، ادّعت النبوّة بعد وفاة النبي ﷺ في الجزيرة في بني تغلِب، فاستجابوا لها، وتبعها قوم من تميم، وظهر أمرها حتى هابتْها العرب وصالحتها، لتجوز في بلادهم حيث شاءت. فسمعت بمسيلمة في اليمامة، فقالت لقومها «عليكم باليمامة، دُفّوا إليها دفيف الحمامة، فإنها غزوة صرامة، لا تلحقكم بعدها ملامة».

وبلغ مسيلمةَ خبرُها فهابها، وخاف إن هو شُغِل بها غلبه ثمامة بن أثال وشرحبيل على حُجْر اليمامة إذ هما من قِبَل أبي بكر رضي الله عنه، فأرسل إليها يستأمنها على نفسه، فأمَّنته فجاءها في أربعين من بني حَنيفة، فقال لها: نصف الأرض لي، والنصف الذي كان لقريش صار لك، فقالت: لا يردّ النصف إلا من جَنف، فاحمل النّصف. فصالحها على أن يحمل إليها نصف غلاَّت اليمامة من تلك السنة، وعلى أن يُسلِفَها ثمن غلات السنة المقبلة. فقبلت منه، وقدِم لها مغلّ تلك السنة، ورجعت إلى الجزيرة، فلم تزل في بني تغلِب حتى نَقَلَهُمْ معاوية عام انفراده بالملك إلى الكوفة، فانتقلت معهم، وحسن إسلامها.

[أبو الأسود الدؤلي وامرأته]

وأظن أن الحريريّ صوّر تخاصمَ زوجة أبي زيد معه على تخاصم أبي الأسود الدؤليّ مع زوجته عند معاوية.

حدث أهل الأخبار قالوا: كان أبو الأسود كبيراً عند معاوية، وكان معاوية يجالسه ويُدْنيه، ويسأله فيجيبه فيما يعلم، فبينما هو ذات يوم عند معاوية وقد قدم المدينة إذ دخلت عليه امرأة بَرْزَة فقالت: أصلح الله أمير المؤمنين وأمتع به! إنّ الله جعلك خليفة في البلاد، ورقيباً على العباد، يُسْتَسْقى بك المطر، ويُسْتَنْبت بك الشجر، ويُؤمَّن بك الخائف، ويُرْدَع بك الجانف. أنت الخليفة المصطفى، والأمير المرتضى؛ فنسأل الله لك النعمة في غير تغيير، والبركة من غير تقتير؛ فقد ألجأني إليك يا أمير المؤمنين أمرٌ ضاق بي عنه المخرج، من أمر كرهتُ عاره، لمَّا أردتُ إظهاره، فليكشف عني أمير المؤمنين، ولينصفنِي من الخصم، وليكن ذلك على يديه، فإني أعوذ بك وبحَقْوَيْك من العار الوبيل، والأمر الجليل؛ الذي يشتدّ على الحرائر، ذوات البيوت الأخاير.

فقال لها معاوية: مَنْ هذا الذي أشعركِ شنارَه؟ قالت: أمر طلاقٍ جائر، من بعْلٍ غادر، لا تأخذه من الله مخافة، ولا يجد بأحد رأفة: قال: ومَنْ بعلُكِ؟ قالت: هو أبو الأسود. فالتفت معاوية إليه فقال: أحقٌّ ما تقول هذه المرأة؟ فقال: إنّها تقول من الحق بعضاً، وليس أحد يطيق عليها نقضاً. أما ما ذكرتْ من أمر طلاقها فحق، وسأخبرك عن ذلك بصدق، أنا والله ما طلَّقتُها لريبة ظهرتْ، ولا مِنْ هفوةٍ حضرت؛ ولكن كرهت شمائلها، فقطعت حبائلها. قال: فأيّ شمائلها كرهتِ؟ قال: إنك تهيِّجها عليّ جواب

عتيد، ولسان شديد. قال: لا بدّ من جوابها، قال: هي يا أميرَ المؤمنين كثيرة الصَّخب، دائمة الذّرَب، مُهينة للأهل، ومُؤذِية للبَعْل؛ إن ذكَر خيراً دفنته، وإن ذكَر شرّاً أذاعتْه، تخبر بالباطل، وتَطِير مع الهازل، لا تنكِل عن عَتْب، ولا يزال زوجها معها في تعب؛ فقالت: أما والله لولا حضور أمير المؤمنين، ومَنْ حضر من المسلمين، لرددت عليك بوادرَ كلامِك بنوادرَ تردَعُ كلَّ سهامك. فقال معاوية: عزمتُ عليك لما أجَبْتِه! فقالت: هو والله يا أمير المؤمنين سؤول جهول، ملحاح بخيل، إن قال فشرّ قائل، وإن سكت فقَدْمٌ غائل، ليثٌ حين يأمن، ثعلب حين يخاف، شحيحٌ حين يُستضاف، إن التُمِسَ الجود عنده انقمع، لما يعلم من لؤم آبائه، وقصر رشائه، ضيفه جائع، وجاره ضائع، لا يحمي ذِماراً، ولا يُضْرم ناراً، ولا يَرعى جِواراً، أهون الناس عليه مَنْ أكرمه، وأكرمهم عليه من أهانه.

فقال معاوية: ما رأيت أعجبَ منها. انصرفي رواحاً، فلمّا كان العشي جاءت، فلما رآها أبو الأسود قال: اللهمّ اكفني شرَّها، فقالت: كفاك الله شرِّي، وأرجو ألاّ يعيذك من شرّ نفسك. قال: ناوليني هذا الصبيّ حتى أحمله، قالت: ما جعلك الله بأحقَّ من يحمل ابني مني. فوثب فانتزعه منها، فقال معاوية: مهلا يا أبا الأسود. قال: يا أمير المؤمنين حملتُه قبل أن تحمِلَه ووضعته قبل أن تضعه، وأنا أقوم عليه في أدبه، وانظر في أوَده، أمنحه علمي، وألْهِمه حلمي؛ حتى يكمل عقله، ويستحكم قِبلُه، قالت: كلاً أصلحك الله! حمَله خِفًّا، وحملته ثِقْلاً، ووضَعه شهوة، ووضعته كُرْهاً. حجري فناؤه، وبطني وعاؤه، وثديي سقاؤه، أكلؤه إذا نام، وأحفظه إذا قام.

فقال معاوية: ما رأيت أعجبَ من هذه المرأة! فقال أبو الأسود: يا أمير المؤمنين، إنها تقول من الشعر أبياتاً فتجيدها، قال: فتكلّف أنت لها أبياتاً لعلك أن تقهرها بالشعر، فقال أبو الأسود: [**الخفيف**]

مَرْحباً بالّتي تجور علينا ... ثمَّ أهلاً بالحاملِ المحمولِ
أغلقتْ بابها عليّ وقالت ... إن خير النِّسا ذواتُ البعولِ
شغلتْ قلبها عليّ فراغا ... هل سمعتم بفارغٍ مشغولِ!

فقالت: [**الخفيف**]

ليس مَنْ قالَ بالصواب وبالْحـ ... ـقّ كَمَنْ حاد عن منار السبيلِ
كان حجري فِنَاءهُ حين يُضحي ... ثم ثديي سقاؤه بالأصيلِ
لستُ أبغي بواحِدي يا بن حربٍ ... بدلاً ما رأيته والجليلِ

فقال معاوية رضي الله عنه: [**الخفيف**]

ليس مَنْ قد غذاه طفلاً صغيراً ... وسقاه من ثديه بالجدُولِ

هــي أولــى بــه وأقــربُ رحــمــاً مــن أبـيـه وفـي قـضـاء الـرَّسـولِ

ثم دفعه معاوية إليها.

* * *

فزفَرَ أبو زيدٍ زَفيرَ الشُّوَاظ، واسْتَشَاطَ استِشَاطَةَ المغتاظ، وقال لها: وَيْلَكِ يا دَرفَارِ يا فَجَار، يَا غُصَّةَ الْبَعْل والجَار، أَتَعْمَدِين في الْخَلْوةِ لِتَعْذِيبِي، وتُبدِينَ في الحفلَةِ تكْذِيبي!

وقد علمتِ أنّي حِينَ بَنَيْتُ عَلَيْكِ، ورَنَوْتُ إليكِ، أَلْفَيتُكِ أقْبَحَ مِنْ قِرْدَة، وأَيْبَسَ مِنْ قِدَّة، وأَخْشَن من لِيفَة، وأنتَنَ مِنْ جِيفَة، وأثقَلَ مِنْ هَيْضة، وأَقْذَرَ مِنْ حِيضَة، وأَبْرَزَ من قِشْرَة، وأبرَدَ مِنْ قِرّة، وأَحْمَقَ من رِجْلة، وأَوْسَعَ من دِجْلة؛ فَسَتَرْتُ عَوَارَكِ، ولم أُبدِ عارَكِ. عَلَى أنّه لَوْ حَبَتْكِ شَيْرِينُ بجمالِها، وزُبَيْدَةُ بمالِهَا، وبِلقيسُ بِعَرْشِهَا، وبُوران بفَرْشِهَا، والزَّبّاء بمُلكِها، ورَابعة بِنُسْكِها، وخندِفُ بِفخْرِها، والخَنساء بِشِعْرها في صَخرِها، لأنفْتُ أَنْ تَكُونِي قعِيدَةَ رَحْلِي، وَطَرُوقَةَ فَحْلِي.

* * *

قوله: زفر: أي تنفّس بغيظ، والزَّفْر والزّفير ردّ النفس في جوفه حتى تنتفخ عروقه قال ابن عرفة: الزَّفير من الصدر والشّهيق من الحلْق. الشُّواظ: النار بغير دخان وزفيره: صوت اتقّاده. استشاط: اشتدّ غيظه وانتشر في جسده.

يا فَجَار: ابن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «مَنْ قذف امرأته جُلِد يوم القيامة مائة جلدة بسياط من نار»[1].

والغُصّة: ما يختنق به. والبعْل: الزوج، وأراد أنّها مؤذية يشقي بها زوجها وجارها، كما يشقى صاحب الغُصّة. تعمِدين: تقصدين. الخَلْوة. الانفراد. والحفْلة: الاجتماع. بنيتُ عليك، أي تَزَوّجتك، وكانت العرب إذا تزوّج الرجل بَنَى على أهله قُبَّة، فيسمّى دخول الزوج بغاءَ لذلك. رنوتُ: نظرتُ ألفيتك: وجدْتُك. قِدّة: شراكة تُقَدُّ من جلد غير مدبوغ. واللِّيفة، واحدة ليف النخل، وهي التي تكون بين الجرائد. هَيْضة: هي التخمة تؤول إلى القيء والإسهال وقِشْرَة الشيء: ما علا عليه.

ودِجْلة: نهر العراق، وعليه بغداد والبصرة، وواسط على جَرْفها، ويجري على وجه الأرض أربعمائة فرسخ. ولم يحمل الحريريّ مبالغة السعة على هذه؛ وإنما أراد

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٥/ ١٥٥.

دجلة العوراء؛ وهي التي انْتَشر ماؤها في البطاح، حتى صارت سعتها هنالك ثلاثين فرسخاً في مثلها.

وقال ابن سُكَّرة يهجو امرأة بالسَّعة: **[البسيط]**

لا تعذُليني على ما كَان من مَلَلٍ ... مَنْ ذا يراكِ ولا يصبُو إلى المَلَلِ

إن كنت أبصرتُ أشْنَى منك في بصري ... فلا بلغتُ الّذي أهواه مِنْ أمِلي

البحر أنت، وأيْرى ليس من سَمَكٍ ... وليس بيني وبين البحر من عملِ

قال هشام بن عبد الملك للأبرش الكلبيّ: زوِّجْني امرأة من كلْب، فزوّجه، فقال له ذات يوم يهزل معه: تزوّجنا إلى كلْب، فوجدنا في نسائهم سعة، فقال الأبرش: يا أميرَ المؤمنين، إن نساء كلبٍ خُلِقْنَ لرجال كلب.

وسمع رجل من كِنْدَة رجلاً يقول: وجدنا في نساء كندة سعة، فقال: إنّ نساء كندة مكاحل فقَدَتْ مَرَاودها.

قيل: لامرأة تُطَلَّق كثيراً: ما بالُك تُطَلّقين أبداً؟ قالت: يريدون الضّيق: ضَيّق الله عليهم.

قوله: فسترت عَوارك، ابن عباس، قال النبي ﷺ: «ما مِنْ مُسْلِم اطّلع على عورة مسلم فأذاعها عليه شماتة وعدواناً إلا كان حقاً على الله أن يَفْضَحه عاجِلاً أو آجلا، ومَنْ سترها عليه كان حقًّا على الله أن يدخله في ستره وحجابه يوم تُبْلَى السرائر وتُخْرَج المخبآت». حَبَتْك: أي خَصّتك.

وشيرين هي بنت أبرويز بن هرمز، وكانت آية في الجمال، وغاية في الحسن والكمال، فاقت نساء زمانها صيانةً وظَرْفاً، وَبهرتْهنّ ملاحةً ولُطْفاً، وخلّفت في العراق آثاراً منها قصر شيرين، ولها قصة منظومة مشهورة بالعجمية.

[امرأة هارون الرشيد]

وزبيدة: هي بنت جعفر بن عبد الله بن أبي جعفر المنصور، زوجُها هارون الرشيد، وجدّها المنصور، وعَمّها المهدي، وابنها الأمين؛ فكانت الخلافة قد اكتنَفّها، وليس في بني هاشم عباسيّة وَلَدَتْ خليفة إلا هي. ولدت في حياة المنصور، فسمِّيت أَمَة العزيز.

وكان المنصور يرقّصها ويقول: يا زُبَيْدة أنت زبيدة! فغلَب ذلك على اسمها، وكانت أموالها لا تحصى، وأنفقت في سبيل الله وفي الحج وفي بناء المساجد والقناطِر ما لم ينفقه أحد قبلها؛ فمن ذلك ما أنفقت في حفرها للعين المعروفة بعين المْشاش بالحجاز، فإنّها حفرْتها، ومهَّدَتْ الطريق لها في كلِّ رفع وخفض، حتى أجرتها من مسافة اثني عشر ميلاً، فأحصى ما أنفقت فيها فوجد ألف ألف وسبعمائة ألف دينار، دون ما كان في وقت الشغل بها في البذل، وما عمَّ أهلَ الفاقة، ولها في طريق مكة من العراق آثار

كثيرة في مصانع حفرتْها، وبِرَكٍ أحدثتها، تنزل وفود الحج عليها، فلا تجد ماء إلى فيها، فيشربون ويسقُون إبلَهم، ويتزوّدون وهم في الكثرة أعداد لا يحصيهم إلا خالقُهم، والكل داعون لزبيدة إلى زماننا هذا.

وأما آثارها الملوكية، فإنّها أوّلُ من اتّخذت الآلات من الذهب والفضة المكلّلة بالجوهر. وبلغ ثوب وشي اتّخذ للباسها خمسين ألف دينار.

وهي أول من اتخذ القباب من الفضة والأبنوس، وكلاليبها من الذهب، ملبسة بالوشي والديباج، وأنواع الحرير الملوّن، وهي أوّل مَن اتخذ الخفاف المَرصّعة بالجوهر، وشماع العنبر. ولما أفضي الأمر إلى ابنها الأمين رفع منازل الخدَم ككوثر وغيره، فلمّا رأت حُبّه فيهم اتخذت له الجواري المقدودات الحسان الوجوه، وعمّمت رؤوسهنّ، وجعلت لهن الطّرَر والأصداغ والأقفية، وألبستهن الأقبية والقراطق والمناطق، فبالت قدودهنّ، وبرزت خُصورهن، وبعثت بهنّ إليه، فاستحسنهنّ وأبرزهنّ للناس، فسمُّوهنّ الغلاميات.

وأخبارها كثيرة، وعندما قُتِل الأمين دخل عليها بعضُ خدمها، فقال لها: ما يُجْلسك وقد قتِل أمير المؤمنين؟ فقالت: ويلك وما أصنع؟ قال: تخرجين وتأخذين بدمه، كما خرجت عائشة تطلب بدم عثمان، فقالت: اخسأ لا أمّ لك! ما للنساء وطلب الدماء! ثمّ أمرت بثيابها فسُوّدَت ودعت بدواة، فكتبت إلى المأمون: **[الطويل]**

أخيرَ إمام قام من خير عنصُرِ ... وأفضل راقٍ فوق أعواد منْبَرِ
ووارثَ علم الأوّلين وفخرَهم ... إلى الملك المأمون من أمّ جعفرِ
كتبتُ وعيني تَسْتَهِلُّ دموعها ... إليك ابن عمي من جُفوني ومحجرِي
أصِبْتُ بأدنى الناس منك قرابةً ... ومن زال عن عيني فقلّ تصبُّري
أتى طاهرٌ، لا طهّر الله طاهراً، ... فما طاهر في فعله بمُطهِّر
فأبرزني مكشوفة الوجه حاسراً ... وأنهب أموالي وحرّق أدؤرِي
يعزّ على هارون ما قد لقيتُه ... وما نالني من ناقص الخلق أعورِ
تَذَكّرْ أميرَ المؤمنين قرابتي ... فديتُك من ذي قربةٍ متذكّر
فإن كان ما أبدى لأمر أمرته ... صبرتُ لأمر من قَدِيرٍ مُقَدَّرِ
وإنْ كان ما قد كان منه تعدّياً ... عليّ أمير المؤمنين فغيّرِ

فلمّا قرأها المأمون، بكى بكاء شديداً، ثم قال: إنّي لأَقول كما قال عليّ أمير المؤمنين حين بلغه قتلُ عثمان رضي الله عنهما: والله ما أمرتُ، ولا رَضِيتُ، اللهمّ جَلِّلْ قلب طاهر حزنا.

قال إبراهيم الحربي: رأيتها في المنام، فقلت لها: ما فعل الله بك؟ فقالت: غفر

لي، فقلتُ: بما أنفقت في طريق مكة؟ فقالت: أما النفقات فرجعت أجُورَها إلى أربابها، وغفر لي بنيّتي.

[بوران بنت الحسن بن سهل وامرأة بالمأمون]

وأما بُوران فهي خديجة بنت الحسن بن الحسن بن سهل، تزوّجها المأمون على يد إسحاق الموصليّ، وفي هذا التزويج قِصّة الزَّبيل وهي طويلة ظريفة، نذكرها على جهة الاختصار، حدّث إسحاق الموصليّ قال:

بينا أنا ذات يوم عند المأمون، وقد خلا وجهُه، وطابت نفسه، فقال: يا إسحاق، هذا يوم خلوة وطيب، فقلت: طيب الله عيش أمير المؤمنين، وأدام سرورَه وفرحَه. فأخذَ بيدي، وأدخلني في مجالس غير التي كنّا فيها، فأخذنا من لذاتنا وشرابنا حتى غَرُبت الشمس، فقال: قد عَزَمْتُ على دخلة إلى دار الحرم، فلا تَرِمْ حتى آتيك، فنَهض وبقيتُ إلى عامة الليل، وكان المأمون أشغفَ خلق الله بالنساء، وأشدَّهم ميلاً إليهنّ، فقلت في نفسي: هو في لذة وأنا في غير شيء، وتذكرتُ صبيّةً اشتريتُها، وكنت عزمت على افتضاضها فنهضت إلى الباب، فقال الحاجب: أين تريد؟ فقلت: الانصراف، قال فإن طلبَك، قلت هو من لذة السرور في شُغْلٍ عن طلبي، فقيل لي: إن غلمانك استبطؤوك وانصرفوا. فجيء بدابة، فركبْتُها ومشيت، فأحسست بالبول، فعمدت إلى زقاق لأبول، فبلْتُ وقمت لأتمسح بالحيطان إذا أنا بشيء معلّق من تلك الدور، فنهضت فإذا بزبِيل[1] كبير بأربع آذان، ملبس ديباجاً، فقلت: إنّ لهذا سبباً، وبقيت أتروّى في أمره، ثم قلت: والله لأجلسنّ فيه كائناً ما كان، فجلست، فلمّا أحَسّ بي الذين يرقبونه، جذبوه إلى رأس الحائط، فإذا أربع جوار يَقُلن لي: انزل بالرّحب والسعة، فمشتْ بين يديّ جارية بشمعة، حتى نزلتُ إلى دار نظيفة إلى مجالس مفروشة، لم أرَ مثلَها إلاّ في دار ملك، فجلست فما شعرت إلاّ بعد ساعة، حتى أزيلت ستور كانت في ناحية الدار، وإذا وصائف يتماشين، في أيديهنّ الشمع، وبعضهنّ بمجامر يحرق فيها العود، وبينهنَّ جارية تتهادى كأنَّها البدر الطالع، فنهضتُ قائماً، فقالت: مرحباً بك من زائر! وجلست. ثم استطردتْ إلى سؤالي أبدع استطراد، فقلت: انصرفت من عند بعض إخواني، وغَرنّي الوقت، وحرّكني البول، فعدلتُ إلى هذا الزقاق، فوجدت زبيلاً معلّقاً، فحملني النبيذ أنْ جلست فيه، فإن كان خطأً فالنبيذ أكسبَنِيه، قالتْ: لا ضيرَ، أرجو أن تحمَد عاقبة أمرك، قالت: فما صناعتك؟ قلت: بزّاز من بغداد، قالت: فهل رويت من الأشعار شيئاً؟ قلت: شيئاً ضعيفاً، قالت: فذاكِرْنا، قلت: إن للداخل حشمةً ولكن تبدئين، قالت: صدقْت، فأنشدْتني لجماعة من القدماء والمحدَثين من أجود أقاويلهم، وأنا مستمِع لا أدري مِمّ

(١) الزبيل: وعاء أو قفة.

أعجب! أمِنْ حسنها، أم من حُسْن روايتها وجودة ضبطها للغريب، أم من اقتدارها على النّحو ومعرفة أوزان الشعر! ثم قالت: أذَهَب ما كان عندك من الحَصَر؟ قلت: إي والله، قالت: فإن رأيت أن تنشدنا، فأنشدتُها لجماعة من القدماء ما فيه مقنع، فاستحسنتْ ذلك ثم قالت: والله ما ظننت أن يوجد في أبناء السوقة هذا!

ثم أمرت بالطعام فأُحْضِر، وقالت: الممالحة أول الرضاع، فدونك. وجعلتْ تقطّع وتضع بين يديّ، وفي المجلس من صنوف الرياحين، وغرائب الفواكه ما لا يكون إلا عند سلطان، ودعت بالشّراب، فشربتُ قَدَحاً، ثم سكبتْ لي قدحاً، فشربت، ثم قالت: هذا أوان المذاكرة بالأخبار وأيام الناس، فاندفعتُ فقلت: بلغني أنه كان كذا، وكان رجل يقال له كذا، حتى أتيت على عدة أخبار حسان، فسُرّت بذلك، وقالت: كَثُر تعجُّبي أن يكون أحدٌ من التجار يحفظ مثل هذا، وإنّما هذه أحاديث ملوك، فقلت: كان لي جار يُنَادَم الملوك، فإذا تعطّل حضرتُ معه، فربّما حدّث بما سمعتِ، فأخذتها عنه. فقالت: لَعمرْي لقد أحسنتَ الحفظ، وما هذا إلا لقريحة جيّدة، وأخذنا في المذاكرة إذا سكتّ ابتدأتْ هي، وإذا سكتَتْ ابتدأتُ أنا، حتى قطعنا عامة الليل، وبخور العود يَعْبق، وأنا في حالة لو توهمها المأمون لطار فرحاً. فقالت: إنك من الرجال وضيء الوجه، بارع الأدب، وما بقيَ عليك إلا شيء واحد. قلت: وما هو؟ فقالت: لو كنت تترنّم ببعض الأشعار! فقلت: والله لقديماً كِلْفتُ به ولم أرزَقه، فأعرضت عنه، وفي قلبي منه حزازة، وكنت أحبّ أن أسمع في مجلسي هذا منه شيئاً لتكمل ليلتي، قالت: كأنّك عرّضت بنا! قلت: والله ما هو تعريض، قد بدأتِ بالفضل وأنتِ جديرةٌ باستتمامه. فأحْضِر عودٌ بأمرها، فغنّت بصوت ما سمعت كحسنه، مع حسن أدائه، وجَوْدة الضرب. فقلتُ: والله لقد أكمل الله فيك خلالَ الفضل وحَبَاكِ بالكمال الراجح، والعقل الوافر، والأخلاق الرضيّة والأفعال السنية. قالت: هل تعرف هذا الصوت ومَنْ غنّى فيه؟ قلت: لا والله، قالت الشعر: لفلان، وكان سببه كذا والغناء لإسحاق، قلت: وإسحاق هذا جُعِلْتُ فداك في هذا الحال! قالت: بخٍ بخٍ! إسحاق بارع هذا الشأن، قلت: سبحان الله! لقد أعطَى هذا ما لم يعطَه أحد، قالت: فكيف لو سمعتَ هذا الصوت منه! فلم نزل كذلك حتى إذا انشقّ الفجر أقبلت عجوز كأنها دَايةٌ، لها، قالت: أي بنيّة، إن الوقت قَدْ حضر، فنهضتْ عند قولها، فقالت: مصاحباً، لتستر ما كنا فيه، فإن المجالس بالأمانات، فقلتْ: جُعِلت فداك، أفأحتاج إلى وصية في ذلك! وودعتها وجارية بين يديّ إلى باب الدار، ففُتح لي، وخرجت إلى داري فصلّيت الصبح، ونمتُ.

فأنْبَهني رسول المأمون فسِرْتُ إليه، فلما رآني، قال: يا إسحاق، تشاغلنا عنك، فما كان حالك؟ قلت: اشتريت صبيّةً وكنت معلّقَ القلب بها، فمضيتُ لها، وشربت معها ونِمْت، فقال: يتهيّأ مثل هذا، فهل لك فيما كنا فيه أمسِ! فقلت: وما يمنع من ذلك؟ فنهضتُ إلى مجلس أمس؛ فلما كان العشاء قال: لا ترِمْ، فإني أجيئك ونهض، فتأمّلت

ما كنت فيه البارحة، فإذا هو شيء لا يصبر عنه إلا جاهل؛ فخرجتُ. فقال الغلمان: الله الله، فإنه أنكر علينا تخلِيتَك، فوعدتُهم أن آتيَ قبل أن يجيء، وأن خروجي لعذر، وفي الحين أرجع.

فنهضت إلي الزَّبيل فجلست فيه، فرُفع بي إلى موضع البارحة، فإذا هي قد طلعت، فقالت: لقد عاودت، فقلت: ولا أظنّ إلاّ أني قد ثَقَّلت، فقالت: مادح نفسه يقرئك السلام، قلت: فهفوة فمنِّي بالفضل. قالت: قد فعلنا، ولا تَعُد، فأخذنا في مثل الليلة السالفة من المذاكرة والمناشدة وغريب الغناء منها إلى الفجر.

فانصرفتُ إلى منزلي وصليت ونمت، فأنبهني رسولُ المأمون، فلمّا رآني قال: أبيت إلا مكافأة لنا! فقلت: والله يا أمير المؤمنين ما ذهبت إلى ذلك، ولكن ظننت أن أمير المؤمنين قد تشاغل عني بلذّته، وأغفل أمري، وجاء الشيطان، فذكّرني أمر تلك الملعونة، فبادرت قال: فما كان منك؟ قلت: قضيت الحاجَة منها، قال: فقد انقضى ما كان بقلبك منها، وواحدةٌ بواحدة، والبادي أظلم. قلت: بل أنا أظلم، وإليك المعذِرة، قال: لا تثريبَ عليك، فهل لنا في مثل حالنا أمس؟ قلت: إي والله، فقمنا إلى موضعنا إلى الوقت، فقال: يا إسحاق ما عزمُك؟ قلت: لا عذرَ لي، قال: فعزمت عليك لنجلس حتى أجيء، فإني عازم على الصَّبوح، وقد نغّصتَ عليّ منذ يومين، قلت: فالليلة إن شاء الله، فما هو إلا أن غاب وجالتْ وساوسي، فلمّا تذكّرت ما كنت فيه البارحة هان عليّ ما يلحقني من سَخَطِه؛ فوثبت مبادراً، فوثب إليّ جند الدار، وحبُست، فقلت: الله الله! إني معلّق البال ببعض ما في منزلي، فقالوا: ما إلى تركك من سبيل، فلم أزل أرغّب هذا وأقبّل يدَ هذا، ووهبت خاتمي لهذا، وردائي لهذا، وخرجت أعدُ وحاسراً حتى وافيت الزّبيل، فقعَدتُ فيه، فرُفِعْتُ إلى موضعي، وأقبلت، فقالت: صديقنا! قلت: إي والله، قالت: أجعلتَها دارَ مقامْ؟ فقلت: جُعِلْت فِدَاك! حتى الضيافة ثلاث، فإن رجعتُ فأنْتم في حلٍّ من دمي. قالت: والله لقد أتيتَ بحُجَّة، ثم جلسنا في مثل تلك الحال، فلمّا قرُب الوقت علمت أن المأمون لا بُدّ أن يسألني، ولا يقنع مني إلا بشرح القصَّة، فقلت لها: أراك ممّن يعجب بالغناء، ولي ابن عمٍّ أحسنُ منّي وجها، وأظرف قدًّا، وأكثر أدباً، وأنا حسنة من حسناته، وهو أعرف خلق الله بغناء إسحاق الموصلي، قالت: طفيليّ وتقترح؟ قلت لها: أنت المحكمّة، قالت: إن كان ابنُ عمك على ما تصف فما نكره معرفتَه، ثم جاء الوقت فنهضتُ فلم أصل إلى داري إلاّ ورسل المأمون قد هجموا عليّ، وحملوني حملاً عنيفاً، فوجدته على كرسيٍّ وهو مغتاظ، فقال: يا إسحاق أخروجًا عن الطاعة! قلت: لا والله قال: فما قصَّتك وما هذا الانحراف؟ فأصدقْني، قلت: في خلوة، فأومأ إلى مَنْ بين يديه فتنحَّوْا فحدثته الحديث وقلت له: قد وعدتُها في أمرك، قال: قد أحسنت، ولولا ذلك لنكّلت بك، فقلت: قد سلّم الله، فأخذنا في لذتنا في ذلك اليوم، وهو لا يسمع مني غيرَ حديثها، فلم يتمّ النهار إلا والمأمون معلّق القَلب، فلما جاء

الوقت سِرْنا وأنا أوصيه وأقول: تجنَّب أن تظهرني بحضرتها، ودعني من نخوة المُلْك، وكن لي تبعاً، وهو يقول: نعم ويلك! وإن قالت: غنّ كيف أصنع؟ قلت: أنا أدفعها عنك.

ثم سرنا إلى زبيلين فقعدنا فيهما، فرُفعنا إلى الموضع، فأقبلت فسلّمت، فما تمالك إذ رآها أن بُهِت في حسنها، وقالت لي: والله ما أنصفْتَ ابن عمك إذ لم ترفع منزلته، وكان قد قعد دوني، فقالت: ارتفع فديتُك، أنت جديد، وهذا قد صار من أهل البيت، فنهض إلى صدر البيت، وأقبلتْ تُذاكره وتناشده وتمازحه، وهو يَظْهر عليها في كل فن. ثم أحضِر النّبيذ فشربنا، وهي مقبلة عليه ومسرورة به، وهو أكثر، وأخذتِ العود فغنَّتْ صوتاً، وقالت: وابن عمك هذا من التجار؟ قلت: نعم، قالت: إنّكما لغريبان. فلما شرب المأمون ثلاثة أرطال داخله الفرح والطرب، ثم رأيتُه ينظر إليّ نظر الأسد إلى فريسته، فصاح: يا إسحاق، فنهضت وقلت: لبيك يا أمير المؤمنين! قال: غنّ هذا الصوت، فلمّا علِمتْ أنه الخليفة نهضت إلى كِلَّةٍ مضروبة، فدخلتها، فلما فرغتُ من الصوت، قال: انظر مَنْ ربّ هذه الدار؟ فسألت عجوزاً، فقالت: هو الحسن بن سهل، فقال؛ عليّ به، فغابت العجوز ساعة وإذا الحسن قد حضر، فقال له: ألك ابنة؟ قال: نعم بوران، قال: فزوّجتها! قال: لا والله، قال: فأني أخطُبها إليك، قال: هي أمَتُك، وأمْرُها إليك، قال: قد تزوّجتُها على نقد ثلاثين ألفاً نحملها إليك صبيحة يومنا، فإذا قبضْت المال فاحملها إلينا، قال: نعم، ثم خرجنا.

فقال: يا إسحاق لا يقف على ما وقَفْتَ عليه أحد، فسترتُ الحديث إلى أن مات المأمون: فما اجتمع لأحد ما اجتمع لي في تلك الأربعة الأيام مجالسة المأمون بالنهار، ومجالسةَ بُوران بالليل، ووالله ما رأيتُ أحداً من الرجال في ملوكهم مثل المأمون، ولا شاهدت امرأة تقارب بُوران فهماً وعقلاً، وما أظن أحداً وقف من العلوم على ما وقفت عليه.

وفي المسعودي: انحدر المأمون إلى فم الصِّلح في شعبان سنة تسع ومائتين، وأملك بخديجة بنت الحسن بن سهل، ونَثَر الحسن في ذلك الإمْلاك ما لم ينثره قطّ ملك في جاهلية ولا إسلام، نثر على الهاشميين والقواد والكتّاب بنادق مسك، فيها رقاع بأسماء ضياع، وجوار وأسماء ديار ودوابّ وغير ذلك، فإذا وقعت البندقة بيد الرجل، فتحها فيجدها على قدر سعده، ثم ينثر بعد ذلك الدنانير والدراهم ونوافج المسك على عامة الناس، وأنفق على المأمون وعلى جميع قواده، فلما أراد المأمون الانصراف إلى مدينة السلام قال له: يا أبا محمد، سلْ حوائجك، قال: نعم يا أمير المؤمنين، أسألك أن تحفظ عليَّ مكاني من قِبَلك، فأمر المأمون أن يحمل له خراج فارس والأهواز لسنة.

وذكر الحريريّ في الدّرة أن المأمونَ لمّا بنى على بُوران، فرِش له حصير منسوج

بالذهب ما مَسّه أحد، وعليه در منثور، فوجَّه الحسن إلى المأمون أن هذا نِثار يجب أن يُلْتَقَط، فقال المأمون لمن حوله من بنات الخلفاء: شرّفن أبا محمد، فمدّت كل واحدة منهنّ يدها، فأخذت دُرَّةً وبقيَ باقي الدرّ يلوح على الحصير المذهب، فقال: قاتل الله أبا نُواس، لقد شبّه بشيء ما رآه قط، فأحسن في وصف الخمرة والحباب الذي فوقها فقال! [البسيط]

كأنّ صُغرى وكُبْرى من فواقِعها ... حَصْباءُ درٍّ على أرض من الذّهبِ

فكيف لو رأى هذا معاينة!

ويقال: إن الحسن بن سهل نثر في ذلك العرس على المأمون ألف حبّة جوهر، وأشعل بين يديه شمعة عنبر، وزنها مائة رطل، فأمر له المأمون بمائة ألف ألف درهم، وأقطعه مدينة فم الصِّلح، وهي قريبة من واسط، وكان العُرْس بها.

وذكر المبرّد أن الملاحين الذين تصرَّفوا في هذا العرس نيّفوا على السبعين ألفاً، وكانت جراية السلطان عليهم، ولمَا بنَى المأمون على بُوران وأراد غشيانها حاضت، فقالت: أتى أمر الله فلا تستعجلوه! فنام في فراش آخر، فلمّا أصبح دخل عليه أفاضل ندمائه يهنؤونه ويدعون له فأنشدهم بديها: [المديد]

فارس في الحرب منغمِسٌ ... عارف بالطَّعن في الظُّلَمِ

رامَ أن يُدْمِي فريستَه ... فاتَّقَتْهُ من دم بدمِ

وأكثر الشعراء في ذلك الإملاك، وأستظرف منها قولَ ابن أبي حازم الباهليّ: [مجزوء الخفيف]

بارك الله للحسَنْ ... ولبُورانَ في الخَتَنْ

يا بنَ هارون قد ظفرْ ... تَ ولكنْ ببنت مَنْ!

فلما وصلت إلى المأمون قال: لا والله ما نَدْرِي أخيراً أراد أم شرًّا.

ويشبه هذا أن رجلاً أتى رجلاً خياطاً بثوب ليقطع له منه قميصاً، فقال: والله لأفصلنّه لك تفصيلاً، لا يُدْرَى أقميص هو أم قَباء؟ ففعل ذلك، فقال له صاحب الثوب: وأنا والله لأدعونّ لك دعاء لا يُدرَى ألك هو أم عليك؟ وكان الخياط يسمّى بِشْراً، وكان أعور، فقال: [الرمل]

خاط لِي بشرٌ قَبَاءْ ... لَيْتَ عينيه سواءْ

وأتت المأمون بجهاز لم يُسمع بمثله قطّ كان فيه الفُرُشُ منسوجةً بالذهب.

وقال إبراهيم بن العباس الصّوليّ يهنىء الحسن بمصاهرة المأمون: [البسيط]

هنَّتك أكرومةٌ جلَّلت نعمتَها ... أعلت وليّك واجتثَّتْ أعادِيكا

ما كان يُحبَى بها إلا الإمام ولا كانت إذا قُرِنَتْ بالخَلْق تعدوكا

وماتت بُوران في سنة إحدى وسبعين ومائتين، وقد بلغت ثمانين سنة.

وثَمّ بُوران أخرى وهي بنت كسرى، وأمها مريم بنت قيصر، ملكت سنةً ونصفاً، وليست المعنيّة في المقامة.

* * *

[بِلقيس وعرشها]

وأما بِلقيس فهي ابنة شراحيل بن أبي سرْح بن الحارث بن قيس بن صيّفي بن سبأ، وكان سبب مراسلة سليمان إليها أنه فقد الهدهد، وبه يُعرَف قُرْب الماء من بُعده، فنزل سليمان عليه السلام بمفازة، فدعا بالهدهد فلم يُوجَدْ، فقال وهو غاضب ﴿مَا لِيَ لاَ أَرَى الْهُدْهُدَ﴾ [النمل: ٢٠] الآيات. وكان الهدهد قد مرّ بعرش بِلقيس وبساتينها، فلمّا رجع تلقَّته الطير، فقالوا: تَوَعَّدَكَ رسول الله بنتْف ريشك أو بذبحك، فينقطع نسلُك، فقال: وما استثنى؟ قالوا: بلى، قال: ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ [النمل: ٢١]، أي بعذر مبين فأتى سليمانَ فقال: ما غَيَّبك عني؟ قال: ﴿أحطتُ بما لم تحِطْ به﴾ [النمل: ٢٢] حتى بلغ ﴿فانظُرْ مَاذَا يَرْجعون قالَ سَنَنظُر أصدقْتَ﴾ [النمل: ٢٨] الآيات فوجّهه بالكتاب، فوافَقها في قصرها، فسدّ عليها بالكتاب ضوء طاق، فالتفتت فألقى إليها الكتاب، فأخذته وغطَّته بثوب، ونادت في قومها فقالت: ﴿يأيُها الملأ﴾ [النمل: ٢٩] الآيات، فقالوا لها: ﴿نحن أولو قوة...﴾ [النمل: ٣٣] الآيات. ثم قالت: إن قَبِل الهدية فهو مَلِكٌ من ملوك الدنيا وأنا أعزّ منه، وإن لم يقبلها فهو نبيّ من عند الله.

فلما رجع بالهدية قال سليمان: ﴿أتمِدُّونَنِ بمالٍ﴾ إلى ﴿وهم صاغرون﴾ [النمل: ٣٧]. فلما رجع إليها رسلُها بالخبر، خرجتْ فزعة في قومها ـ قال ابن عباس رضي الله عنهما: ومعها ألف قَيْل، وأهل اليمن يسمون القائد القَيْل ـ مع كل قَيْلٍ عشرة آلاف. وكان سليمان مهيباً لا يبدؤه أحدٌ بشيء حتى يسأل عنه، فخرج فرأىَ رهَجاً قريباً منه، فقال: ما هذا؟ قالوا: بلقيس، قال: وقد نزلت منّا بهذا المكان. ثم قال: ﴿أيُّكُمْ يأتِينِي بعَرْشِهَا﴾ [النمل: ٣٨] فأتاه به الذي عنده علم الكتاب قبل ما قطع كلامه، وصرفَ بصَره، فرآه مستقِرًّا عنده، فقال: هذا من فضل ربي. ثم جاءت بِلقيس وقعدت إلى سليمان، فقيل لها: ﴿أهَكَذَا عَرْشُك﴾ [النمل: ٤٢] فنظرتْ إليه وقالت: ﴿كأنّه هو﴾ [النمل: ٤٢] ثم قالت: تركته في قصري والجنود محيطة به، فكيف جيء به! وكانت شعراءَ الساقين، فقالت الجن: إن نكَحَها سليمان فولدت له غلاماً ما ننفكّ من العبودية أبداً، فهلمّ نبني له بنياناً، فيرى شَعْرَها فيه فلا يتزوّجها، فبنوا له صَرْحاً أخضر من قوارير كأنه الماء، وجعلوا في باطن طرائقه كلّ شيء من الدواب والسمك وغيره، وأُلقِيَ لسليمان كرسي في أقصاه، فلما رأى منه ما رأى قعد عليه، ودعا بها، فلما رأت صور

السمك فيه حسبتْه لجّة، وكشفتْ عن ساقيها. فأبصر شَعْرَها سليمان، فصرف بصره عنها، وقال إنه صرح ممرّد من قوارير، فقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ [النمل: ٤٤] الآية. فقال سليمان للجن: ما يُذهِب الشعر؟ فقالوا: له النُّوْرة، فاستنكحها سليمان عليه السلام.

وذكر ابن إسحاق أنّها لمّا أسلمت، قال لها سليمان: اختاري رجلاً من قومك أزوّجكه، فقالت: ومثلي يُنكح، وقد كان لي من الملك والسلطان ما كان! فقال لها: ما ينبغي أن تحرّمي ما أحَل الله لك، فزوّجها ذا تُبّع ملك هَمْدان، ومّلكه اليمن، وردّها معه، فلم يزل ملك اليمن حتى مات سليمان. وكانت بلقيس من بيت المملكة، قيل: إنها ولدها أربعون ملكاً، واختلف في أمها فقيل: إنسيّة وقيل جنّية.

وأما عرشها، وهو سريرها، فقيل: كان طولُه ثمانين ذراعاً، وعرضه كذلك. وكان عرشها صفائح من ذهب وفضة قد ركبت فيه فُصُوصُ الياقوت الأحمر والزّبرجد الأخضر والدرّ واللؤلؤ، وكان له قائمتان من ياقوت وقائمتان من زَبَرْجد، والملك لله وحده، الذي سخر لسليمان هذا الملك العظيم ومَنْ أحضر له هذا العرش العظيم قبل رجع الطرف!

وذكر الحريري في الدرّة: أن صواب لفظ «بِلقيس» أن تكسر باؤه لأن كل أعجمي يُعرّب فقياسه أن يلحق بأمثلة كلام العرب، قال: وعلى ذلك بِلقيس.

وقرأت في أخبار سيف الدولة أن الخالديّين مدحاه، فبعث إليهما وصيفاً ووصيفة، مع كلِّ واحد منها بَدْرَة وتَخْت من ثياب مصر والشام، فكتبا إليه: [الكامل]

لم يَغْدُ شكرك في الخلائقِ مطلقاً	إلا ومالُك في النَّوال حَبيسُ
خوَّلْتنا شمساً وبدْراً أشرقت	بهمَا لدينا الظلمة الحِنْديسُ
رَشأٌ أتانا وهو حُسْناً «يوسفٌ»	وغزالة هي بهجةً «بِلقيْسِ»
هذا ولم تقنع بذاك وهذه	حتى بعثتَ المال وهو نفيسُ
أَتتِ الوصيفةُ وهي تحمل بَدْرةً	وأتى على ظهر الوصيفِ الكيسُ
وكسَوْتَنا مما أجادت حَوْكَهُ	مصرٌ وزادت حُسْنَهُ تَنّيس
فغدا لنا من جودك المأكول والمـ	ـشروبُ والمنكوحُ والملبوسُ

فلما قرأها سيف الدولة قال: أحسنا، إلا في لفظ «المنكوح»، إذ ليستْ مما يخاطب بها الملوك.

وهذا من بديع نقده المليح وشواهد ذكائه الصريح.

وأما الزّبّاء: فقد تقدّم ملكها في الرابعة والعشرين.

* * *

[رابعة العدوية]

وأما رابعة فهي بنت إسماعيل العدويّة، وكانت قد بلغت من النّسك والفضل والزهد منزلة شريفة، وكانت منوَّرة البصيرة، مطهَّرة السريرة، حَظيَتْ بالمكاشفات الربانية، وكان سفيان الثوريّ يذهب إليها ويسألها عن مسائلَ دينية، ويعتمد عليها، وخطبها عبد الواحد ابن زيد، فقالت له بعد أن حجبته أياماً ثم أذنت له: يا شهوان، أي شيء رأيته فيّ من آية الشهوة! ألاَ خطبتَ شَهْوانية مثلك!

وقال أبو سليمان الداراني: بتّ ليلة عند رابعة العدوية، فقامت إلى محراب لها، وقمت إلى ناحية من البيت فلم تزل قائمة إلى السَّحَر، فقلت: ما جزاء من قوّانا على قيام هذه الليلة؟ قالت: جزاؤه أن نصوم له غداً.

وزارها أصحابها، فذكروا الدنيا وأقبلوا على ذمّها، فقالت: اسكتوا عن ذمّها، فلولا موضعها من قلوبكم ما أكثرتم من ذكرها! ألا مَنْ أحبَّ شيئاً أكثر من ذكره.

واحتاجت رابعة إلى شيء فقيل لها: لو بعَثْتِ إلى فلان؟ قريب لها فقالت: والله لا أطلب الدنيا ممّن يملكها، فكيف مِمّن لا يملكها!

وحدّث جعفر بن سليمان قال: أخذ بيدي سفيان الثوريّ فقال لي: سربي إلى المؤدّبة التي لا أجدني أستريح إذا فارقتها ـ يعني رابعة ـ قال: فلما دخلت عليها، رفع سفيان يديه، وقال: اللّهمّ إنّي أسألك السلامة! فبكت رابعة، فقال لها: ما يبكيك؟ فقالت: أنتَ عرّضتَنِي للبكاء، فقال لها وكيف ذلك؟ فقالت: أمَا علمتَ أن السَّلامة من الدنيا تَرْكُ ما فيها، فكيف وأنت متلطّخ بها!

وقال سفيان الثوري لرابعة رحمة الله عليهما: ما حقيقة إيمانك؟ قالت: ما عبدته خوف النار، ولا رجاء الجنة، فأكون كالأجير السوء، بل عبدتُه حبًّا له وشوقاً إليه، وقالت في معنى ذلك: [المتقارب]

أحبّك حُبّتيْن: حبَّ الهوى	وحُبًّا لأنَّك أهلٌ لذاكَ
فأمّا الذي هو حبّ الهوى	فشُغْلِي بذكرك عمَّن سواكَ
وأمّا الذي أنت أهلٌ له	فكشفك لي الحجْبَ حتى أراكَ
فلا الحمد في ذا ولا ذا ليا	ولكنْ لك الحمدُ في ذا وذاكَ

وقيل لها: كيف حبّك لرسول الله ﷺ؟ فقالت: شغلني حبُّ الخالق عن حبّ المخلوقين.

ودخل سفيان عليها وهي قائمة تصلّي، فلم تعرِّج عليه، ودخل جعفر ـ وكان يخدمها ـ فقال لسفيان: أيُّ شيء دارَ بينك وبينها؟ قال: ما كلّمَتِني. فقال لها: يا سبحان الله! الشيخ جاء إليك فما كلّمِته، فقالت: إن العبد إذا كان مقبلاً على الله عزّ وجلّ كان

الله مقبلاً عليه، وقد كنتُ مقبلة على الله عزّ وجلّ، ولست أشكّ في إقباله عليّ، فأيما أحبّ إليك أن أكون مقبلةً على الله ويكون مقبلاً عليّ، أو أقبل على هذا؟ ثم قالت: الله أكبر.

وقال لها رجل: إني أحبك في الله، فقالت: فلا تَعْصِيَ الذي أحببتِني له وأنشدت: [الوافر]

أتضمنُ يا فتَى تركَ المعاصِي وأرهنه الكفالَة بالخَلاَصِ
أطاع الله قومٌ فاستراحُوا ولم يتجرَّعوا غُصَصَ المعاصِي

* * *

[خندف]

وأما خندف، فهي ليلَى بنت حُلْوان بن عمران بن الحافِ بن قضاعة، وهي امرأة إلياس ابن مضر، ولدَتْ منه عمراً وهو مدركة، وعامراً وهو طابخة، وعميراً وهو قَمْعة، فندّت لهم إبل، فخرجوا في طلبها فأدركها عمرو، فسُمِّيَ مدركة، واقتنص عامر أرنباً فطبخها، فسمِّيَ طابخة، وانقمع عمير في بيته فسمِّيَ قمعة، فلما أبطؤوا عليها خرجَتْ في إثرهم، فقالت: ما زلت أخندف في إثركم؟ فلقِّبت خندف، والخندفة بالهرولة، وهي أمّ عرب الحجاز، وجميع ولد إلياس من خندف، ولخندف يُنسبُون، وجميع ولد مضر من إلياس وخندف، فمن مدركة كنانة وأسد ابنا خُزَيمة، ومن طابخة ضبّة بن طابخة، ومزينة والرِّباب، وهم عديّ وتميم بن مرّ بن أد بن طابخة، وثور وعُكْل بن مدركة، وقُرَيش وهو في كنانة.

ومنها سيد ولد آدم رسول الله ﷺ، إلى ما في كنانة من الشجعان المشاهير في الجاهلية.

ومن طابخة تميم، وهي أكبر قبيلة في العرب وأشجعها، وهي عدد لا يحصى، وعزٌّ لا يدرك.

وقال المنذر بن ماء السماء ذات يوم وعنده وفود قبائل العرب وَدَعا ببُرْدَيْن فقال: ليلبس هذيْن البردين أكرم العرب وأشرفهم حسباً وأعزّهم قبيلة، فأحجم الناس، فقام الأحمر بن خلف بنَ بَهْدَلة بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم، فلبس أحدَهما وارتدى الآخر، فقال له المنذر: ما حجتك فيما ادعيت؟ قال: الشرف من نزار في مضر، ثم في تميم، ثم في سعد، ثم في بَهْدلة، قال: هذا أنت في أصلك، فكيف أنت في عشيرتك؟ قال: أنا أبو عشرة وعم عشرة وخال عشرة قال: هذا أنت في عشيرتك، فكيف أنت في نفسك؟ فقال: شاهد العين شاهدي، ثم قام فوضع قدمَه في الأرض، وقال: من أزالها فله مائة من الإبل، فلم يقم إليه أحد، وفي ذلك يقول الفرزدق: [الطويل]

فـمـا تـمّ فـي سـعـدٍ ولا آل مـالـكٍ غـلام إذا مـا قـيـل لـم يـتـبـهـدَلِ(١)
لـهـم وهَـبَ الـنـعـمَـانُ بـردى مـحـرّق بـمـجـد مـعـدّ والـعـديـدِ الـمـحـصَّـلِ

فلخندف هذا الفخر في الجاهلية ثم النبوّة، ثم الملك إلى يوم القيامة وفيها يقول الراجز: [الرجز]

* وخـنـدف هـامـة هـذا الـعـالـمِ(٢) *

* * *

[الخنساء]

وأما الخنساء فهي تُماضر بنت عمرو بن الشريد، من سَراة قبائل سُليم بن منصُور ابن عكرمة بن خَصَفة بن قيس عيْلان، قدمتْ على رسول الله ﷺ مع قومها بني سُلَيم، ولسُلَيْم في الإسلام سابقة حسنة، حضر منهم مع رسول الله ﷺ فَتْح مكة وحرب حُنين ألف رجل.

وذكروا أن رسول الله ﷺ كان يستنشد الخنساء ويعجبُه شعرها، فكانت تنشده وهو يقول: هيه يا خنساء! ونظرَتها عائشة رضي الله عنها، وعليها صِدَارٌ من شَعر، فقالت: يا خنساء، أتلبسين الصِّدار وقد نهى عنه رسول الله ﷺ؟ فقالت: لم أعلم بنهي رسول الله ﷺ وكان للصِّدار سبب، كان زوجي رجلاً مِتْلافاً فأملق، وأراد أن يسافر، فقلت له: أقم حتى آتي أخي صخراً، فأتيته فشاطرني، ماله فأتلفه زوجي، فعدت إليه فعاد بمثل ذلك، فأتلفه زوجي، فعدت إليه في الثالثة والرابعة، فقالت له زوجته: إن هذا المال متلَف، فامنحها شرار مالك، فقال: [الرجز]

والله لا أمـنَـحُـهـا شـرارَهـا وهـي حَـصـان وقـد كـفـتـني عَـارَهـا(٣)
ولـو هـلـكْـتُ خـرّقَـتْ خـمـارهـا واتّـخـذت مـن شـعـرهـا صِـدارَهـا

فلما هلك اتّخذت هذا الصّدار.

وقيل لجرير: مَنْ أشعر الناس؟ قال: أنا، لولا هذه الفاعلة ـ يعني الخنساء ـ قيل له: فبِمَ فضلتْك؟ قال بقولها: [البسيط]

---

(١) البيتان في ديوان الفرزدق ص ٧٤٤.

(٢) الرجز للعجاج في ديوانه ١/ ٤٦٢، ورصف المباني ص ٥٦، وسر صناعة الإعراب ١/ ٩٠، وشرح المفصل ١٠/ ١٢، ١٣، وشرح شواهد الشافية ص ٤٢٨، ولسان العرب (بيت)، (علم)، وجمهرة اللغة ص ٦٤٩، وبلا نسبة في رصف المباني ص ٤٤٧، وشرح شافية ابن الحاجب ٣/ ٢٠٥، والممتع في التصريف ١/ ٣٢٤، ومقاييس اللغة ٤/ ١١٠.

(٣) الرجز لصخر بن عمرو السلمي في الشعر والشعراء ص ٣٥٣، والكامل ص ١٣٩٧، وخزانة الأدب ١/ ٤٣٥، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٦٢٩.

إنّ الزمان وما تفنى عجائبُه ... أبقى لنا ذنباً واستُؤصِل الرّاسُ[١]
أبقى لنا كلّ مجهول وفجّعنا ... بالحالين فهمْ هامٌ وأرماسُ
إن الجديدين في طول اختلافِهما ... لا يَفْسُدان ولكن يَفسُد الناسُ

فأجمع علماء الشعر أنه لم تكن قطّ امرأة قبلها ولا بعدها أشعرَ منها.

وكان النابغة الذبياني يجلسُ لشعراء العرب بعُكَاظ على كرسيّ، ينشدونه فيفضل من يرى تفضيلَه، فأنشدته في بعض المواسم فأُعجب بشعرها، وقال لها: والله لولا أنّ هذا الأعمى أنشدني قبلك ـ يعني الأعشى ـ لفضّلتك على شعراء هذا الموسم.

وكان بشار يقول: لم تقل امرأة شعراً إلاّ ظهر الضعف فيه، فقيل له: أَوَ كذلك الخنساء؟ فقال: تلك كان لها أربع خصى.

ومن جيّد ما رثت به صخراً قولُها: [الوافر]

ألا يا صَخْرُ إن أبكيتَ عيني ... لقد أضحكتَنِي دَهْراً طويلا[٢]
بكيتُك في نساءٍ معولاتٍ ... وكنتَ أحقَّ مَنْ أبْدَى العويلاَ
دفعتُ بك الجليلَ وأنت حيٌّ ... فمن ذا يَدْفَعُ الخَطْبَ الجليلاَ
إذا قَبُح البكاء على قتيلٍ ... رأيت بكاءك الحسنَ الجميلاَ

ومنه: [الوفر]

يؤرّقني التذكّرَ حين أمسِي ... ويردَعُني عن الأحزان نُكْسِي[٣]
على صخرٍ وأيّ فتًى كصخرٍ ... ليوم كريهة وطِعان خَلْسِ
ولم أر مثله رُزْءًا لجن ... ولم أر مثله رزءاً لإنسِ
يذكّرَني طلوعُ الشمسِ صخرا ... وأبكيه لكلّ غروب شمسِ
ولولا كثرةُ الباكين حَوْلِي ... على إخوانهم لقتلتُ نِفْسِي
وما يبكون مثل أخي ولكنْ ... أعزّى النَّفس عنهُ بالتأسي

ومنه أيضاً: [السريع]

أبعْدَ ابن عمرو من ال الشَّريـ ... ـد حَلَّتْ به الأرض أثقالَها[٤]
لعَمْرُ أبيه لنعْمَ الفتى ... إذا النفس أعجبها مالَها

(١) الأبيات في ديوان الخنساء ص ١٥٥.
(٢) الأبيات في ديوان الخنساء ص ٢٢٥، ٢٢٦، والبيتان الثالث والرابع في لسان العرب (بكا)، وتاج العروس (بكى).
(٣) الأبيات في ديوان الخنساء ص ١٥٠.
(٤) ديوان الخنساء ص ٢٠١.

فــإن تــك مُــرّة أودتْ بــه فــقــد كـان يـكـثـر تـقـتـالَـهـا
فـخـرّ الـشـوامـخ مـن فَـقْـدِه وزُلــزلــت الأرضُ زلــزالَــهــا

ومنه أيضاً: [المتقارب]

أعــيــنّــي جــوداً ولا تــجُــمــدَا ألا تـبـكـيـانِ لـصـخْـرِ الـنَّـدى[1]
ألا تـبـكـيـانِ الـجـريء الـجـمـيـلَ ألا تـبـكـيـان الـفـتـى الـسـيّـدا
طـويـلُ الـنـجـاد رفـيـع الـعِـمـا د سَـادَ عـشـيـرتَـه امْـرَدَا

ومنه أيضاً: [المتقارب]

تـعـرّفـنـي الـدهـر نـهـشـا وحـزّاً وأوجـعَـنـي الـدَّهْـر قـرعـاً وغـمـزا[2]
وأفـنـى رجـالِـي فـبـادوا مـعـاً فـأصـبـحـتُ مـن بـيـنـهـم مـسـتـفَـزّا
كـأنْ لـم يـكـونـوا حِـمَـى يُـتّـقـى إذ الـنـاس إذا ذكَ مَـنْ عَـزّبَـزا
وكـانـوا سَـراةَ بـنـي مـالـكٍ وفـخـرَ الـعـشـيـرة مـجـداً وعِـزّا
جـززنـا نـواصِـيَ فُـرسـانِـهـا وكـانـوا يَـظـنُّـون ألاّ تُـجَـزّا
وَمَـنْ ظـنّ مـمّـن يـلاقـي الـحـرو ب ألاّ يـصـابَ فـقـد ظـنَّ عَـجْـزا

ومنه أيضاً: [البسيط]

يـا صـخـرُ ورّادَ مـاء قـد تـبـادَرَهُ أهـل الـمـوارِدِ ومـا فـي وِرْده عَـارُ[3]
مشى السَّبَنْتي إلى هَوْجاء معضلةٍ لـه سـلاحـان أنـيـابٌ وأظـفـارُ
ومـا عـجـولٌ عَـلَـى بَـو تـحـنّ لـه لـهـا حـنـيـنـان إعـلان وإسـرارُ
تَـرْتـع مَـا رَتَـعَـتْ حتـى إذا ادّكَـرتْ فـإنـمـا هـي إقـبـال وإدبـارُ
يـومـاً بـأوجَـع مـنـي حـيـنَ فـارقـنـي صـخـرٌ فـلـلـدهـر إحـلاءٌ وإمـرارُ
وإنّ صـخـرا لـوالـيـنـا وسـيِّـدُنـا وإنّ صـخـراً إذا نـشـتُـو لـنـحّـارُ
وإن صـخـراً لـتـأتـمُّ الـهـداةُ بـه كـأنـه عـلـمٌ فـي رأسـه نـارُ

وحدث المفضل قال: كنت جالساً يوماً على باب منزلي، أحتاج إلى دِرَهم واحد، وعليّ دين عشرة آلاف درهم، إذا جاءني رسول المهديّ، فقال: أجب أمير المؤمنين، فقلت في نفسي: وما بعثه إلي! لعلّ ساعياً سَعَى بي عنده، ثم دخلت منزلي، ولبست ثيابي، وسرتُ إليه فلما مثلت بين يديه أومأ إليّ بالجلوس، فلما سكن جأشي، قال لي: يا مفضّل، ما أفخرُ بيت قالته العربُ؟ فأُرْتجَ عليّ ساعة، ثم قلت: يا أمير المؤمنين قول الخنساء، فاستوى جالساً وكان متكئاً، فقال: أيّ، [بيت هو؟] فقلت قولها: [البسيط]

---

(١) ديوان الخنساء ص ٤١. (٢) ديوان الخنساء ص ١٤٣. (٣) ديوان الخنساء ص ٧٥.

وإنّ صخراً لتأتمّ الهداةُ به ... كأنه علمٌ في رَأسِهِ نارُ

فقال: قد قلت له فأبى عليّ ـ وأومأ إلي إسحاق بن بزيع ـ قلت: الصواب مع أمير المؤمنين، ثم قال: يا مفضل، حدِّثني فحدَّثته حتى انتصف النهار، قال: أنشدني، فأنشدته قول الحسين بن مُطير الأسديّ: **[الطويل]**

وقد تَغدِرُ الدنيا فيضحى غنيُّها ... فقيراً وَيثرى بعد بؤسٍ فقيرُها[1]

وكمْ قد رأينا من تَغَيُّر عيشةٍ ... وأخرى صفا بعد كَدٍ غديرها

فلا تقربِ الأمر الحرام فإنه ... حلاوته تَفْنى ويبقى مريرُها

وكان المهدي رقيقاً فبكى، وقال: يا مفضّل، كيف حالك؟ فقلت: كيف يكون حال مَنْ عليه عشرة آلاف درهم، وليس معه منها درهم واحد، قال: يا إسحاق، أعطه عشرة آلاف درهم قضاء لدينه، وعشرة آلاف درهم يستعين بها على حاله، وعشرة آلاف درهم يصلح بها من شأنه.

ورأى عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه الخنساء، تطوفُ بالبيت محلوقَةَ الرأس، تبكي وتلطم خدها، وقد علَّقت نعل صَخْرٍ في خمارها، فوعظها فقالت: إني رُزئت فارساً لم يُرْزأ أحدٌ مثله، فقال: إن في الناس من هو أعظم مرزأة منك، وإنّ الإسلام قد غطّى ما كان قبله، وإنه لا يحلّ لك لطمُ وجهك ولا كشف رأسك، فكفَّتْ عن ذلك وقالت: **[الوافر]**

هَريقي مِنْ دُمُوعك واستفيقي ... وصبراً إنْ أطقْتِ ولَنْ تُطيقي[2]

وقُولي إنّ خيرَ بني سُليمٍ ... وأكرمَهم بصحراء العقيقِ

ألا هل تَرْجِعَنَّ لنَا الليالي ... وأيامٌ لنا بِلوَى الشَّقِيقِ

وإذ فينا معاوية بن عمرٍو ... على أدْمَاء كالجمل الفَنيقِ

فنبكيه فقد أودَى حميداً ... أمينَ الرأي محمودَ الصَّديق

فلا والله لا تسَلُوك نفسي ... لفاحشةٍ أتيتُ ولا عُقوقِ

ولكنِّي رأيت الصبر خيراً ... من النَّعْلين والرأس الحليق

وأما أبو العباس المبرّد فقال: وقالت الخنساء ترثي أخاها معاوية بن عمرو، وكان أخاها لأبيها وأمها، [وكان صخر أخاها لأبيها] وكان أحبّهما إليها.

---

(١) يروى البيت الثاني:

وكائن ترى من حال دنيا تغيَّرت ... وحالٍ صفا بعد اكدرارٍ غديرُها

وهو لابن المطير الأسدي في لسان العرب (كدر)، وتاج العروس (كدر).

(٢) الأبيات في ديوان الخنساء ص ١٧٣.

واستحق ذلك الأمور: منها أنه كان موصوفاً بالحلم مشهوراً بالجود، معروفاً بالتقدم والشجاعة، محظوظاً في العشيرة، ثم أنشد الأبيات المتقدّمة.

وكان صخر أجملَ رجل في العرب، وكان سبب قتله أنه جمع جمعاً، أغار على بني أسد بن خزيمة، فنذروا به والتقوا، واقتتلوا قتالاً شديداً، فارفضّ أصحاب صخر عنه، فطعنه ربيعة بن ثور الأسديّ، فأدخل جوفه حلقاً من الدِّرع، فاستقلّ منها وسار إلى أهله فاندمل عليه الجرح، ونتأ منه مثل اليد، فأضناه ذلك حولاً، فسمع سائلاً يقول لامرأته: كيف صخر اليوم؟ فقالت: لا حيٌّ فيرجى، ولا ميت فينعَى، ولقد لقينا منه الأمرّين ـ وامرأته بديلة الأسدية وكان سباها من بني أسد، واتخذها لنفسه ـ فلما سمع قولها علم أنها بَرِمَتْ منه، ورأى تحزّن أمه عليه، فقال: **[الطويل]**

أرَى أمَّ صخرٍ لا تجفُّ دموعُها ... وَمَلَّتْ سُليمى مضجعِي ومَكانِي[1]

وما كنت أخشى أن أكونَ جِنازة ... عليك، ومَنْ يغترَّ بالحدَثَانِ

أهَم بأمر الحزم لو أستطيعهُ ... وقد حيل بين العير والنَّزَوَانِ

لَعَمري قَدْ نبّهتِ مِنْ كان نائماً ... وأسمعتِ مَنْ كانتْ له أُذنانِ

فأي امرىء ساوى بأمِّ حليلة ... فلا عاش إلا في شَقًى وَهَوَانِ

ثم عزم على قطع ذلك الموضع، فلما قطعه يئس من نفسه، فقال: **[الطويل]**

أجارتَنا إنّ الخطوب قريبُ ... على الناس، كلَّ المخطئين تصيبُ

أجارتَنا إنّا غريبان هاهنا ... وكلّ غريب للغريب نسيبُ

فلما مات دفن في أرض بني سُليم بقرب عَسيب.

وحضرت الخنساء القادسية مع بنيها وهم أربعة رجال، فقالت لهم من أوّل الليل: يا بني إنكم أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين، والله الذي لا إله إلا هو؛ إنكم لَبَنو رجلٍ واحد، كما أنّكم بنو امرأة واحدة، ما خنت أباكم، ولا فضحت خالكم، ولا هجَّنت حسبكم، ولا غيرت نسبكم، وقد تعملون ما أعدّ الله تعالى للمؤمنين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين، واعلموا أنّ الدار الآخرة خيرٌ من الدار الفانية، يقول الله عز وجل: **﴿يأيّها الّذين آمنو اصبروا وصابروا وَرَبِطُوا واتقوا الله لعلّكُمْ تُفلحون﴾** [آل عمران: ٢٠٠]، فإذا أصبحتم غدا إن شاء الله سالمين فاغدوا لقتال عدوِّكم مستبصرين، وبالله على

(١) البيت الثاني لصخر بن عمرو في الأغاني ١٥/ ٧٦، وبلا نسبة في لسان العرب (جنز)، وتهذيب اللغة ١٠/ ٦٢٢، وكتاب العين ٦/ ٧٠، ومقاييس اللغة ١/ ٤٨٥، والبيت الثالث لصخر أيضاً في الأصمعيات ص ١٤٦، وخزانة الأدب ١/ ٤٣٨، والشعر والشعراء ١/ ٣٥٢، ولسان العرب (نزا)، وبلا نسبة في مغني اللبيب ٢/ ٥١٦، والمنصف ٣/ ٦٠، والبيت الرابع بلا نسبة في كتاب العين ٤/ ٦٠.

أعدائه مستنصرين، فإذا رأيتم الحرب قد شمّرتْ عن ساقها، وجلّلت ناراً على أوراقها، فتيمموا وطيَسها وجالدوا رسيسها، تظفروا بالغنم والكرامة في دار الخلد والمقامة، فلما أضاء لهم الصبح باكروا مراكزهم فتقدموا واحداً بعد واحد يُنشدون أراجيزَ يذكرون فيها وصية العجوز لهم، حتى قُتِلوا عن آخرهم، فبلغها الخبر، فقالت: الحمد لله الذي شرّفني بقتلهم، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر الرحمة.

وكان عمر بن الخطاب يعطيها أرزاق بنيها الأربعة، وكان لكلٍّ منهم مائتا درهم، حتى قُبض رضي الله تعالى عنه.

وقوله: قعيدة رحلي، أي امرأة بيتي، وناقةٌ طروقة: بلغت أن يطرقها الفحل. وأنفت. استنكفت وكرهتْ.

* * *

قال: فتذمرَّتِ المرأة وتنمّرتْ، عن ساعَدَها وشَمَّرَت، وقالت له: يا ألأمَ من مادر، وأشْام مِنْ قاشِر، وأجْبَنَ من صَافِر، وَأطيْشَ من طامر؛ أتَرْميني بشَنارِك، وتَفْري عِرضِي بشِفارِك، وأنت تعلمُ أنك أحقَرُ مِنْ قُلامَة، وأعْيبُ من بَغْلة أبي دُلامة، وأفضحُ مِنْ حَبْقة، في حَلْقة، وأحيرُ من بقّة في حُقّة.

وهَبْكَ الحسنَ في وَعْظِه ولَفْظِه، والشعبيَّ في عِلمِه وحفظِه، والخليلَ في عَرُوضه ونحوه، وجريراً فِي غَزَلِهِ وهِجْوه، وقسّاً في فصاحتِهِ وخطابته، وعبد الحميدَ في بلاغته وكتابتِهِ، وأبا عمرو في قراءتِه وإعرابه، وابنَ قريبٍ في روايته عن أعرابه؛ أتَظُنِني أرضَاك إماماً لِمْحرابي، وَحُساماً لَقِرابي، لا والله ولا بَوَّاباً لِبابي، ولا عَصَاً لجِرابي.

* * *

تذمرت: غضبت، وتذمّر الرجل، إذا رأى ما يكرهه فغضب وتهدّد، والذّمْر: اللوم والحضّ، وذمر قائد الجيش أصحابه يذمرهم، إذا لامهم وأسمعهم ما يكرهون ليجدّوا في القتال، تنمّرت: تغيَّرت وتشبهّت بالنمر، ولا يُوجد النَّمر إلا مستنكراً غضبان، ونمِر الرجل وتنمر: تنكّر وتغيّر. حسرت عن ساعدها: شمَّرت عن ذراعها. أطيش: أخفّ والطيش: خِفّة العقل.

والطامر: البرغوث، يقال له طامر بن طامر، قال الأصمعيّ: كنت بالبادية فرأيت أعرابياً قد بسط كساءه ليفلّيه في الشمس، فوقفتُ أنظر إليه، فجعل يأخذ البراغيث، ويدَع القمل، فقلت له: لم تأخذ بعضاً وتدع بعضاً؟ فقال: أبدأ بالفرسان ثم أعكّر على الرجّالة.

سمع رسول الله ﷺ رجلاً يسبُّ برغوثاً، فقال: «لا تسبه فإنّه نبّه نبيّاً من الأنبياء لصلاة الفجر».

أبو الدرداء رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «إذا آذاك البراغيث، فخذ قَدَحاً من الماء، واقرأ عليه سبع مرات، ﴿وَمَا لَنَا أَلاّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هدانا سبلنا﴾ [إبراهيم: ١٢] إلى قوله: ﴿المتوكلّون﴾، فكفّوا شركّم وأذاكم عنّا، ثم ترشّ الماء حول فراشك، فإنك تبيت الليلة آمناً من شرّها».

شنارك: عيبك وعارك: تفري: تقطع، وفرى، يستعمل في القطع على جهة الإصلاح، وقد جاء هنا في الإفساد، ومنه قوله الشاعر: [الطويل]

فَرى نائباتُ الدهر بيني وبينَها وصَرْف الليالي مثلَ ما فُرِيَ الجِلْدُ

ابن سيده: فَرَى الشيء يفريه فرياً وفرّاه تفريةً، كلاهما شقه وأفسده وأفراه أصلحه، والمتقنون من أهل اللغة، يقولون: فرى: شقُ الإفساد وأفرى للإصلاح وقيل: أفراه أفسده، وفراه: قطعه للإصلاح قال الأصمعيّ رحمه الله؛ أفرى الجلدَ مَزقه وأفسده، يُفريه إفراء، وفرى المزادة يفريها فرياً: خرزها، القُلامة: ما يقص من الظُّفر، وبها يتعلق وسخه، فهي مع حقارتها مستقذَرة.

[أبو دلامة]

وأما أبو دُلامة، فاسمه زند ـ بالنون ـ ابن الجون، وهو كوفي أسود، مولى لبني أسد، أدرك آخر أيام بني أميّة، ونبغ في أيام بني العباس، ومدح السَّفاح والمنصور والمهدي، وكان صاحب نوارد ومُلَح، وكان خليعاً فاسد الدين، رديء المذهب، وقد تقدّم له شيء من ذلك في الصَّلاة والحجّ، ونذكر له هاهنا شيئاً في الصيام، ونضيف له فنوناً من سائر مُلَحه.

وأما بغلته فكانت جامعة لعيوب الدوابّ كلها، وكانت أشْوَهَ الدُّوابّ خِلْقَةً في منظر العين وأسوأها خلقاً في مخبرها، فكان إذا ركبها تبعه الصبيان يتضاحكون به، وكان يقصد ركوبها في مواكب الخلفاء والكبراء، ليضحكهم بشماسها؛ حتى نظم فيها قصيدته المشهورة وهي: [الوافر]

أبْعدَ الخيل أركَبُها كراماً وبعد الفُرْهِ مِنْ مِنْ حُضْر البغالِ
رُزِقتُ بُغَيْلَةً فيها وِكالٌ وليتهُ لم يكنِ غَيْرَ الوِكال
رأيتُ عيوبَها كَثُرَتْ وغالتْ وإن أكْثَرْتُ ثمَّ من المَقالِ
لُيحصِيَ منطقي وكلام غيري عُشَيْرَ خصالِها، شرُّ الخصال
فأهْوَنُ عَيْبِها أنّي إذا ما نزلتُ وقلت: أمشي لا تُبالِي
تقومُ فما تَبُتّ هناك شِبْراً وترْمَحُني وتأخذ في قِتالي

وحِينَ ركبتُها آذيت نفسي ... بضربٍ باليمين وبالشمالِ
وبالرّجلَيْن أركُضُها جميعاً ... فيا لك في الشقاء وفي الكلالِ
أتاني خائبٌ يَسْتَامُ منيّ ... عريق في الخُسَارةِ والضّلالِ
وقال تبيعُها؟ قلتُ ارتَبَطْها ... بحكمك إنّ بيعي غَيْرَ غالِ
فأقبل ضاحكاً نحوي سروراً ... وقال أراك سَهْلاً ذَا جمالِ
هلمّ إليّ يَخْلُوُ بي خِدَاعاً ... وما يدري الشّقيُّ بمن يُخَالِي
فقلت بأربعين فقال أحسِنْ ... إليّ فإن مثلكَ ذو سِجَالِ
فأتْرُكُ خمسةً منها لعلَمي ... بما فيه يصيرُ من الخبَال
فلمّا ابتاعها مني وبُتّت ... له في البيع غيرِ المُسْتَقَالِ
أخذتُ بثوبه وبرئتُ ممّا ... أُعدّ عليه من سُوء الخلالِ
بَرِئتُ إليك من مَشَشٍ قديم ... ومن جَرَدٍ ومن بَلَلِ المخالي
ومن فَتْقٍ بها في البطن ضخمٍ ... ومن عُقالها ومن انفتَالِ
ومِنْ قطع اللسان ومن بياضٍ ... بعينيْها ومن قَرْض الحبالِ
ومن عضّ الغُلام ومن خِراطٍ ... إذا ما همّ صحبُك بارتحال
وأقطَى من فُريخ الذّر مشيا ... بها عَرَنٌ وداء من سُلال
وتكسرُ سراجها أبدا شِماساً ... وتقمص للإكاف على اغتيالِ
ويُذْبرُ ظهرها من مَسّ كفّ ... وتهزم في الجمام وفي الجلال
تظلّ لِرَكْبِةٍ منها وقيذاً ... يخاف عليك من وَرَمِ الطّحال
ومِشْفِارٌ تقدّم كلَّ سرج ... تصيّر دَفيْهِ على القَذَال
وتَخفَى لو تسيرُ على الحشايا ... ولو تمشي على دَمِثِ الرِّمَالِ
إذا استعجلتها عَثُرَتْ وبالتْ ... وقامتْ ساعة عند المبال
وتضرِط أربعين إذا وقفنَا ... على أهل المجالس للسُّؤال
فتقطع منطِقي وتحول بيني ... وبين حديثهمْ فيما توالي
وتذعَرُ للدّجاجة إذ تراها ... وتنفر للصّفير، وللخَيَال
فأمّا الاعتلاف فأذْنِ منها ... من الأتبان أمثال الجبال
وأما القَتّ فأت بألف وَقْرٍ ... بأعظم حملِ أحمال الجمال
فلستُ بعالفٍ منها ثلاثا ... وعندك منه عودٌ للخلال
وإن عطشت فأوردها دُجَيْلاً ... وإذا أوردتَ أو نهري بلالِ
فذاك لريِّها سُقيتْ حميما ... وإنْ مدّ الفُرات فللنّهالِ

وكـانـت قـارحـاً أيّـام كـسـرى | وتـذكُـر تُـبّـعـاً عـنـد الـفـعـالِ
وقـد دَبَـرتْ ونُـعـمَـانٌ صـبـيّ | وقَـبْـل فِـصـالـه تـلـك الـلـيـالـي
وتَـذْكـرُ إذ نـشَـا بـهِـرَام جُـورٍ | وعـامِـلَـه عـلـى خَـرْج الـجَـوَالـي
وقـد مَـرّت بـقَـرْنٍ بـعـد قَـرْنٍ | وآخـرُ عـهـدهـا لـهـلاك مـالـي
فـأبْـدِلَـنـي بـهـا يـا ربّ طِـرْفـاً | يـزيـن جـمـالُ مِـشْـيـتـهِ جَـمَـالِـي

وأنشدها المهدي: فقال: لقد أقلت من بلاء عظيم، فقال: والله يا أمير المؤمنين لقد مكثت شهراً أتوقع صاحبها أن يردّها، فقال المهديّ لصاحب دوابه: خيّره بين مركبين في الإصطبل، فقال: إن كان الاختيار إليّ فقد وقعت في شرّ من البغلة، ولكن مره يختر لي، ففعل.

وفي القصيدة ألفاظ من الغريب أبينها، فمنها يقال: واكلتِ الدابة وكالا: أساءت السير. ورمحت ترمح: ضربت برجليها والمشُش: داء في قوائمها. والجرد استرخاء العَصَب، والعُقَّال: أن تنقبض القوائم ولا تنبعث، والخِرَاط: الجماح، والعَرَنْ: حكة وشقاق في القوائم، وقد عرن عَرَنا، وقمص يقمص ويقمص قمصاً وقماصاً: رفع يديه معاً وطرحهما معاً، وعجن بيديه، وقطا بقطو: قارب الخطو.

وكان لأبي دلامة بِرْذونٌ أعجف محطم هرِم، فدخل على المهدي يوماً وبين يديه سَلَمة الوصيف، فقال: يا أمير المؤمنين، إني جلبتُ لبابك مهراً ليس لأحدٍ مثله، وأحببت أن أهديه لك، فإن أحببت أن تشرّفني بقبوله! فأمر بإدخاله، فخرج وأدخل برذونه، فقال له المهدي: أيّ شيء هذا ويلك! ألم تزعم أنه مُهْر، فقال له أبو دلامة: أو ليس هذا سلمة الوصيف قائم بين يديك تسميه الوصيف وله ثمانون سنة! فإن كان سَلَمة وصيفاً فهذا مُهْر، فجعل المهديّ يضحك وسَلَمة يشتمه، فقال له المهديّ: ويلك! إن لهذه أخوات، والله ليضحكنّ بك في المحافل، فقال: والله يا أمير المؤمنين لأفضحنه، فليس في مواليك أحد إلا وقد وصلني غيره، فما شربت الماء له قطّ فحكم عليه المهديّ أن يشتري نفسه بثلاثة آلاف درهم، فقال له سلمة، على ألا تعاود، فقال أبو دلامة: أفعل، فحملها إليه.

ومما ينتظم بهذا النّمط أن محمد بن عبيد الله بن خاقان حملَ أبا العيناء على فرس، فكتب إلى أبيه: أعلم الأمير أعزه الله أن أبا محمد أراد أن يبرّني فعقّني، وأن يُركبني فأرجلني، وأمر لي بدابة تقف للنّبرة، وتعثر بالبعرة، كالقضيب اليابس عجفاء، وكالمهجور البائس دنفاء، قد أذكر الرواة عروة العذريّ والمجنون العامريّ، مباعداً أعلاه لأسفله، حباقه مقرون بسعاله، فلو أمسك لترجيّت، ولو أفرد لتعزيت، ولكنه يجمعها في الطريق المعمور، والمجلس المشهور، كأنه خطيب مرشد، أو شاعر منشد، يضحك من فعله النّسوان، ويتناعى من أجله الصبيان، فمن صائح يصيح: داوه بالطباشير، ومن قائل

يقول: نقّ له الشعير، قد حفظ الأخبار وروى الأشعار، ولحق العلماء في الأمصار، فلو أعين بنطق لروَى بحق وصدق، عن جابر الجعفيّ وعامر الشعبي، ولم أوت من أمر الأمير أعزه الله وإنما أُتِيتُ من كاتبه الأعور؛ الذي إذا اختار لنفسه أصاب وأكثر، وإذا اختار لغيره أخبث وأنزر، فإن رأى الأمير أن يبدلني ويريحني بمركوب يضحكني كما أضحك منّي، يمحو بحسنه وفراهته، ما سّطره العيب بقبحه ودناءته، ولست أذكر سرجه ولجامه، لأن الأمير أكرم من أن يسلب ما يهديه، وينقص ما يمضيه. فوجّه إليه ببرذوْن بسرجه ولجامه، ثم اجتمع بابنه محمد عنده، فقال له عبيد الله: شكوت دابة محمد، وقد أخبرني أنه يشتريه الآن منك بمائة دينار، وهذا ثمنه لا يؤخّر عنك، فقال: أعز الله الوزير! لو لم أكذب مستزيداً، لم أذهب مستفيداً، وإني وإياه لكما قالت امرأة العزيز: **﴿أنَا راودْتُه عن نفسه وإنَّه لمنَ الصَّادِقِينَ﴾** [يوسف: ٥١].

وقال ابن رشيق في بغل: **[الرجز]**

أوصِيكَ بالبغل شرًّا ... فإنه ابن الحمارِ
لا يصلُح البغل إلا ... للكدِّ والأسفار
كالعبد إن لم تُهِنْهُ ... جَنَى على الأحرارِ
ما اعتاض بغلاً بِطِرْفٍ ... إلاّ أخو إدبارِ

وله أيضاً فيه: **[الطويل]**

فأوصيكمو بالبغل شرًّا فإنّه ... من الْعَيْرِ في سوء الطِّباع قريبُ
وكيفَ يَجيء البغلُ يوماً بحاجةٍ ... تَسُرّ وفيه للحمار نصيبُ!

وله من قصيدة: **[الكامل]**

أوْ بَغلةٍ سفواءَ تعرض للفتى ... فتخال تحت السَّرْج أمَّ غزالِ
سألتُ إلى الأم النجابَة من أبٍ ... وزهتْ على الأعمام والأخوال
وكأنها قد أفرِغت في قالبٍ ... لا أنها خُلِقَتْ على تِمْثَالِ

وله من قصيدة أيضاً: **[المتقارب]**

كأنّي بعضُ نُجوم السَّماءِ ... تصعَّد في الجوّ ثم انحدرْ
على رسلةٍ من هِبَاتِ الملو ... كِ سَفْوَاءَ ملمومةً كالحجرْ
تَعاونَ في جَدْلِ أعضائها ... بنو أخْدَرٍ وبنات الأغرْ

ولمحمد بن يسير الخارجيّ في بغلة: **[الكامل]**

نَزَعتْ عن الخيلِ العَتَاق نجاءها ... منها وعِتْقَ سوالفٍ ولَبَانِ
ولها من الأعيار عند مسيرها ... قِحَةٌ وطولُ صَبَارَةٍ ومِرَانِ

رجعنا إلى أخبار أبي دلامة.

يحكى أنّ المهديّ أو المنصور ـ أنشده ما أعجبه، فكساه طيلساناً وأمر له بمال، وعاهده ألاّ يشرب الخمر، فحلف له وخرج إلى بني داود بن عليّ فضحكوا به. وقصّ عليهم خبره فسقوْه حتى أسكروه وأخرجوه، فأعلِم المهديّ الخبر، فأرسل فيه، وأمر الرّسول بسجنه وتخريق ساجِه، وألاّ يمكن من قرطاس ولا مداد، ففعل به الرسول ذلك، فانتبه في جوف الليل فنادى جاريتَه فقال له السجان: طعنة في كبدك فقال له: ويلك! مَنْ أنت، وأين أنا؟ فقال له: سَلْ نفسك أين كنت عشاء أمس؟ فاستحلفه مَنْ أنت؟ فقال: أنا السّجان، بعث بك أمير المؤمنين وأنت سَكْران، فأمرني أن أحبسَك مع الدجاج، فقال: أحبّ أن تُسرِج لي سراجاً، وتأتيَني بداوة وقرطاس، ولك عندي صِلة، فقال له أما السِّراج فنعم، وأما القرطاس والدواة، فقد أمِرْت ألاّ أمكّنَك منهما. فلما أتاه بالسِّراج وجد ساجَه مخرَّقاً ملّطخاً بإزبال الدجاج، ورأى نفسه جالساً بينها، فقال له: ادع لي ابني دلامة، فدعاه، فأمره أن يجيدَ حلاقة رأسه، وأن يأتيَه بفَحْمة، ففعل، فكتب على رأس ابنه: [الوافر]

أمِنْ صهباءَ صافيةِ المِزاجِ	كأنّ شُعاعَها لهبُ السِّرَاجِ
تَهشّ لها القلوب وتشتهيها	إذا برزتْ تَرقرقُ في الزُّجاجِ
أقاد إلى السجون بغير جُرْمٍ	كأني بعضُ عمّال الخراجِ
ولو معهم حبست لكان خير	ولكنّي حُبِسْتُ مع الدَّجَاجِ
أمير المؤمنين فدتك نفسي	ففيم حبستني وخرقت ساجي
على أني وإن لاقيت شرًّا	لخَيْرِك بعد ذاك الشرّ راجي

ثم قال: يا أمير المؤمنين، هذه أمانة، فإذا قرأتَهَا فمزّق الرقعة. ثم أمر دُلامة أن يدخل عَلَى أمير المؤمنين ويقرئه ما في رأسه، فأتى الباب وصاح: دعوة المظلوم، فعلم أمير المؤمنين بمكانه فأمر بإدخاله، فكشف رأسه، وقال: إن ظُلامتي مكتوبة في رأسي، فأُدْنِيَ منه حتى قرأها فاشتدّ ضحكه، وعجب من حيلته وأمر بإخراجه، وقال: ما كان أحوج هذه الرقعة أن تُمزَّق، ثم وصله بصلة، ونهاه أن يوجَد سكران.

وخرج المهديّ يتصيّد ومعه عليّ بن سليمان، فسنحَ له قطيع من الظّباء، فأرسِلتْ الكلابُ وأجْرَيتِ الخيل، فرمى المهديّ سهماً فصرع ظبياً، ورمى عليّ بن سليمان سهماً فصرع كلباً، فقال أبو دلامة: [الرمل]

قَدْ رَمَى المهديّ ظبياً	شَقَّ بالسَّهْمِ فُؤادَهْ
وعليّ بن سليما	ن رمَى كلباً فصادَهْ
فهنيئاً لهما كلُّ امرِ	ىء يأكل زادَهْ

فضحك المهديّ حتى كاد يسقط.

ومن مُلحه، أنه دخل على المهديّ، وعنده وجوه بني هاشم، فقال: أنا أعطى الله عهداً لئن لم تَهْجُ واحداً ممّن في البيت لأقطعنّ لسانك، فنظر إلى القوم، فكلمَّا نظر إلى واحد غمزه بأن عليه رضاه، قال: فعلمت أني وقعتُ، وأنها عزْمَةٌ من عزماته لا بدّ منها، فلم أرَ أدعى إلى السَّلامة من هجاء نفسي، فقلت: **[الوافر]**

ألاَ أبـلِـغْ لـديـك أبـا دُلاَمَـهْ ... فـلـيـسَ مـن الـكـرام ولا كَـرَامَـهْ
إذا لـبـس الـعـمـامـة كـان قـرداً ... وخـنـزيـراً يـكـون بـلا عِـمَـامَـهْ
جـمـعـتَ دمـامـةً وجـمـعـت لـؤمـاً ... كـذاك الـلـؤم تـتـبـعـه الـدّمَـامَـهْ
فـإنْ تَـكُ قـد أصـبـتَ نـعـيـمَ دُنْـيـا ... فـلا تـفـرحْ فـقـد دَنَـتَ الْـقِـيَـامَـهْ

فضحكوا، ولم يبق أحد إلاّ أجازَه.

وخرجت له صبيّة فأخذها على كتفه، فبالت عليه فرمى بها، وقال: **[الوافر]**

بَـلَـلْـتِ عـلـيّ - لا حـيِّـيت - ثـوبـي ... فـبـالَ عـلـيـك شـيـطـان رجـيـمُ
فـمـا ولـدتْـك مـريـمُ أمّ عـيـسـى ... ولا ربّـاك لـقـمـانُ الـحـكـيـمُ
ولـكـن قـد تـضُـمُّـك أم سـوء ... إلـى لَـبّـاتِـهـا وأبٌ لـئـيـمُ

ولمّا خرجت الخيزران إلى الحج تلقّاها، فصاح: الله الله في أمري! فسألته عن أمره فقال: إني شيخ كبير، وأجرُك فيّ عظيم، تهبَين لي جارية تُؤنسني وترْفُق بي، وتُريحني من عجوز عندي، قد أكلت رِفْدي، وأطالت كدّي، وقد عزف جلدَها جلدي، وتمنّيت بُعْدَها، وتشوقت فَقْدَها، فوعدته بها، فلمّا جاءت من الحجّ دخل على أم عُبيدة حاضنة موسى وهارون، فدفع إليها رقعة، فدفعتْها إلى الخيزُران وفيها: **[مجزوء الرمل]**

أبْـلـغِـي سـيّـدتـي إن ... شـئـتِ يـا أمّ عَـبِـيـدَهْ
أنّـهـا أرشـدهـا الله ... وإن كـانـت رشِـيـدَهْ
وعـدتْـنـي قـبـل أن تـخـرُ ... ج لـلـحـجّ وَلِـيـدَه
إنّـنـي شـيـخٌ كـبـيـرٌ ... لـيـس فـي بـيـتـي قـعـيـدَهْ
غـيـر عَـجْـفَـاءَ عـجـوزٍ ... سـاقُـهـا مـثـل الـقَـدُيـدَهْ
وجْـهُـهـا أقـبـح مـن حـو ... تٍ طـرِيٍّ فـي عـصـيـدَهْ
مـا حـيـاتـي - مـع أُنـثـى ... مـثـلِ عـرسـي - بـحَـمِـيـدَهْ

فضحكت واستعادت «حوتاً في عصيده» وهِي تضحك، ثم قالت لجارية: خذي ما عندك في قَصري وأمشي إليه. فلمّا بَلغها الرسول منزلَهُ لم يجده، فدفعها إلى امرأته، ودخل دُلامة وأمّة تبكي، فسألها فأخبرته وقالت: إن أردتَ بري يوماً من الدّهر، فاليوم.

قال لها: قولي ما شئتِ أفعله، قالت: تدخل إلَيها، وتُعلِمها أنّك مالكها، فتطؤها فتحرُم عليه، وإلاّ شغلتْه فجفاني وجفاك. ففعل، وجاء أبو دُلامة فسألها عنها، فقالت: هي في ذلك البيت، فدخل ومدّ يده إليها، وذهب ليقبّلها، فرأت شيخاً محطّماً قبيح الوجه، فقالت: تنحّ وإلاّ لطمتُك لطمةً دَقَقْتُ بها أنفَك. فقال: وبهذا أوصْتك سيدتك؟ فقالت: إنها بعثَتنِي إلى فتًى من صفته كذا وكذا، وقد نالَ حاجتَه مني آنفاً. فعلم أنه دهاء من دلامة وأمه، فخرج ولطمه ولَبّبه. وحلف ألاَّ يفارقه إلاّ إلى المهديّ، فمضى على تلك الحالة حتى دخل إلى المهديّ، فقال له: ما بالك ويحك! فقال له: عمل بي هذا ابنُ الخبيثة ما لم يعمله أحد بأبيه، ولا يرضيني إلا أن تقتله، وأخبره الخبر. فضحك المهديّ حتى استلقَى، وأبو دلامة يقول: يعجبك فعله، فتضحك منه! فقال: عليّ بالسيف والنّطع، فقال دلامة: اسمع حجتي يا أمير المؤمنين، كما سمعتَ حُجّته، فقال: هاتِ، فقال: هذا الشيخ أصفقُ الناس وجهاً، وهو ينيك أمي منذ أربعين سنة فما غضبت، ونِكْت جاريتَه مرة واحدة فغضب. فضحك المهديّ أشد من ضحكه الأوّل، فقال: دعها له [يا أبا دلامة]، وأنا أعطيك خيراً منها، فقال: على أن تخبأها بين السماء والأرض، وإلاّ ناكها كما ناك هذه، وحلف لدلامة إن عاد ليقتلّنه.

وجاء دُلامة لأبيه في محفل، وجلس بين يديه، وقال للجماعة: إنّ شيخي كما ترَوْن قد كَبِر سنّة، ورقّ جلده ودقّ عظمه، وبنا إلى حياته حاجة، وأنا لا أزال أشير عليه بشيء يُمسِك رمقَه، ويبقي قوّته؛ فيخالفني. وأرغب إليكم أن تسألوه قضاء حاجة فيها صلاح جسمه، فقالوا: حبًّا وكرامة، فأخذوا أبا دلامة بألسنتهم، فقال: قولوا له الخبيث فليقُلْ ما يريد، فستعملون أنه لم يأتِ إلاّ ببليّة. فقال: إنما يقتله كثرة النَّيْك، ولا يدفعه عنه إلا الخصاء، فتعاونوني عليه حتى أخصيَه، فضحكوا منه كثيراً، وقالوا لأبيه: قد سمعتَ فما عندك؟ فقال: قد عرّفتكم أنّه لم يأت بخير، وقد جعلتُ أمه حكماً بيني وبينه، فقوموا إليها، فدخلوا عليها وقَصُّوا القصّة عليها، فأقبلت على الجماعة وقالت: إن ابني أبقاه الله، قد نصح أباه وبرَّه، وأنا إلى بقاء أبيه أحوج منه إليه؛ إلاّ أنّ هذا الأمر لم تقع فيه تجربة عندنا، ولا جرت به عادة، وهو قد ادّعى معرفة ذلك، فليبدأ بنفسه فليخصِها، فإذا عوفي ورأينا ذلك قد أبقَي عليه أثراً محموداً، استعمله أبوه على علم، فجعل القوم يضحكون ويَعْجَبُون من اتفّاقهم في الخُبْثُ.

وأمره المهديّ أن يلزم المسجد في رمضان، وقال له: إن تأخّرت فلشرب الخمر، ولئن علمتُ ذلك لأقتُلنّك، فشق عليه ذلك، وتشفّع إليه بكل إنسان، فلم يشفعه، فأدخل إلى رِيْطه رقعة، وكان المهديّ لا يخالفها ـ وفيها: **[الوافر]**

أبلغا رَيْطةَ أنّي ... كنت عبداً لأبيها

فمضى يرحمه اللـ ... ـه وأوصَى بي إليها

جاء شهرُ الصوم يمشي مِشيةً لا أشتهيها
قائداً القبلة ليذْ ركأنيّ أبتغيها
تنطح القِبْلة شهراً جَبْهتي لا تأتليها
فاطلبي لي فرَجاً مِنْ ـها وأجْري لك فيها

فضحكت، وقالت: يصبر حتى تمضي ليلة القَدْر، فقال: إذا مضت ليلة القدْر فِنيَ الشهر. وكتب إليها: [الرمل]

خافِي إلهكِ في نفسٍ قد احْتُضِرَتْ قامت قيامتُها بين المصلِّينا
ما ليلةُ القَدْرِ من هَمِّي فأطلبَها إني أخاف المنايا قبل عِشْرينا
لا بارك اللّهُ في خيرٍ أؤمّلُهُ في ليلةٍ بعد ما قمنا ثلاثينا
يا ليلَة القَدْرِ قد كَسَّرْتِ أرجلَنا يا ليلة القَدْرِ حقًّا ما تُمنينّا!

فلما قرأتها ضحكت، ودخلت إلى المهديّ فشفّعها فيه. وأخباره كثيرة.

* * *

وعلى قوله: جاء شهر الصوم قال أبو القاسم الثعالبيّ: أنشدنيه الفقيه أبو الحسن بن زرقون: [الهزج]

أشَهْرَ الصَّوْمِ ما مثلك عندِ الله مِنْ شَهْرِ
على أنك حرّمت علينا لذّة السُّكْرِ
وقرْع الكأس بالكأس ورشفَ الثَّغر بالثَّغْرِ
وإنّي والّذي شرَّ فَ أوقاتَك بالذِّكْرِ
وما أمسى يصلّي فيـ ـك من شَفْعٍ ومِن وِتْرِ
لمسرورٌ بأن تَفْنى على أنّك من عُمْرِي

وقال ابن المعتز: [المتقارب]

تجلّى عِشاءَ هِلالُ الصِّيامِ بنحس على الكأس والبرْبَطِ
وكم من فتًى راحَ بين القيا ن نَشْوَان ذا فرح مُفْرِطِ
وكان نشيطاً فلمّا رآ ه همَّ بهمٍّ ولم يَنْشَطِ
فأعرض عنه كما أَعْرَضَت فتاةٌ عن الجانب الأشْمَطِ

وقال ابن رشيق: [الخفيف]

لاحَ لي حاجب الهلاك عِشاءَ فتمنّيت أنّنِي من سَحَابِ
قلت أهلا وليس أهلا لما قُلْـ ـت ولكن أسمعتُها أصحابي

مـظـهـرٌ حُـبّـهُ وعـنـديَ بُـغْـضٌ   لـعـدوّ الـكـؤوس والأكـوابِ

الحبْقَة: الضّرْطة، والحلقة جماعة الناس، وربما تؤدّي فضيحتُها أمام القوم إلى أن يموتَ صاحبها غمًّا، وقد وُجد ذلك.

* * *

[طرائف متفرقة]

وحَبَق أعرابيّ في جماعة فاستحيا، فأشار نحو استه، وقال: إنها خَلْف نَطقتْ خُلْفاً.

وذكر الحريريّ أن مطيع بن إياس ويحيى بن زياد وحماد الراوية كانوا يشربون ذات يوم، ومعهم نديم لهم، فبرزت منه فَلْتة، فخجل وغاب عنهم أياماً، فكتب إليه مطيع: **[البسيط]**

أمِنْ قَلُوصٍ غدت لم يؤذِها أحدٌ   إلاّ تـذكّـرهـا بـالـرَّمْـل أوطـانـا
خانَ العِقال لها فانبتّ إذْ نَفَرَتْ   وإنّـمـا الـذنـب فـيـه لـلـذي خـانـا
أظهرتَ منك لنا هُجراً ومعتبةً   وغبتَ عنا ثلاثاً لَسْت تَغْشَانا
هوّن عليك فما في الناس ذو إبل   إلاّ وأيـنـقـه يَـشْـرُدْنَ أحـيـانـا

دخل أبو الفضل بديع الزمان على الصّاحب بن عبّاد، ففرح به، وأجلسه معه على سريرة فَحبَق البديع حَبْقة منكرة، ثم أراد أن ينفيَ عن نفسه التّهمة، فقال: يا مولانا هذا صرير التخت، فقال له: بل صفير «التّحت»، فخرج البديع خجلاً، وانقطع عن الوصول إليه فكتب إليه الصاحب: **[البسيط]**

قل للصفيري لا تذهب على خجلٍ   من ضَرْطَةٍ أشبهت نايًا على عُودِ
فإنّها الريح لا تسطيع تدفَعُها   إذ لستَ أنت سليمان بن داود

تزوّج أعرابيٌ امرأة، فلما دخل عليها عابثها، فضرَطت، فخرجت غضبي إلى أهلها، وقالت: والله لا أرجع إليه أو يفعل ما فعلت، فقال لها: عودي لأفعل، فعادت، فعابثها فضرَطت أخرى، فقال: **[السريع]**

طـالـبْـتـنِـيَ دَيْـنـاً قـديـمـاً فـلـمْ   أقـضـيـكِ حـتـى زدتِ فـي قـرضِـكْ
فـلا تـلـومـيـنـي عـلـى مُـطْـلـهِ   إن كـان ذا دأبَـك لـم أقـضِـكْ

قيل لأعرابّي: ما تقول في الضرطة؟ فقال: لا بأس بها، وربما سببت الضرطة وأنا راكع في الصلاة.

قدم أبو علقمة الأزديّ على الفضل بن عبد الرحمن الهاشميّ بالبصرة، فقال: الفضل لجلسائه: إذا جلسنا على المائدة وأبو علقمة معنا فليضرِطْ أحدكم ثم الآخر ثم

الآخر، وليكن بين كلّ ضرطتين فرجة، فلما وُضعت المائدة فعلوا ذلك، فأخذ أبو علقمة المائدة، وقام بها، فقيل له: إلى أين يا أبا علقمة؟ قال: إلى الكنيف، فمن أراد منكم أن يخرأ كان قريباً.

وجلس ثقيل إلى بشار، فضرَط بشار ضَرْطَة منكرة، فظن الرّجل أنها فلتة، فمشى في حديثه، فضرَط بشار ثانية وثالثة، فقال له: ما هذا يا أبا معاذ؟ قال: رأيتَ أو سمعتَ؟ قال: قال: بل سمعت، كلّ ما سمعت ريح لا تصدق حتى تَرَى.

***

قوله: حُقّه، أي وعاء الطِّيب، ويقال له: حقّ والجمع حِقاق، وتبدل عامتنا من قافه كافا، والروائح العطِرة مضرّة بهذه الهوام المنتنة، وقد قال المتنبي: [البسيط]

بذي الغَباوة من إنشادِها ضررٌ تضرّ كما تضرّ رياح الورد بالْجُعَلِ[1]

قوله هبك، أي حسبك.

***

[الحسن بن أبي الحسن البصري]

وأما الحسن فهو أبو سعيد بن أبي الحسن البصريّ، وهو من التابعين. ولد بالمدينة لسنتين بقيتاً من خلافة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، وأمّه اسمها خَيْرة، وكانت مولاة لأمّ سلَمة زوج النبي ﷺ، فكانت تُعْطِيه ثديهَا إذا اشتغلتْ أمه، فدرّ ثديها له باللبن، فأظهر الله تعالى بركة ذلك اللبن عليه. وأبوه مولًى لامرأة من الأنصار، وقيل إن أبويْه كانا مملوكين لرجل من بني النّجّار، فتزوج امرأة في بني سَلمة من الأنصار، فساقهما إليها من مَهْرها فأعتقتهما، وكان أحسنَ النَّاس لفظاً، وأبلغهم وعظاً، وكان زاهداً عالماً مقدّماً في العلم والدين على نظرائه من التابعين.

وكان الحجّاج له معظِّماً ومتعجّباً من فصاحته، ولم ينفكّ من مجلس وعظ أو تدريس علم، إلى أن مات رحمه الله تعالى.

وقال أبو عمرو بن العلاء: ما رأيت قطُّ أوعظَ ولا أفصحَ من الحسن البصريّ.

وقال أبو أيوب السّختيانيّ: ما سمع أحد كلامَ الحسن البصريّ إلاّ ثقُل عليه كلام الرجال.

قال حُميد: قال لي الشعبيّ ونحن بمكة: أحبّ أن اختلِيَ بالحسن، فقلت: ذلك للحسن، فقال: إذا شاء، فجاء الشعبيّ، فقلت له: ادخل عليه، فإنه في البيت وحده،

---

(١) البيت في ديوان المتنبي ٣/ ٤٠.

فقال: أحبّ أن تدخُلَ معي، فدخلنا فإذا الحسنُ قبالة القِبْلة يقول: يا بن آدم، لم تكن فكُوِّنت، وسألت فأعطِيت، وسئلت فمنعتَ، فبئس ما صنعت! ثم يذهب فيرجع بُعَيد ذلك حتى أعادها مراراً، فقال لي الشعبيّ: يا هذا انصرف فإن الشيخ في غير ما نحن فيه.

ولما دخل على الحجّاج فقال له: ما تقول في عليّ وعثمان؟ قال: أقول فيهما ما قال مَنْ هو خيرٌ مني بين يديْ مَنْ هو شرٌ منك، قال: ومَنْ ذلك؟ قال: موسى وفرعون حيث قال له فرعون: **﴿فما بالُ القُرُون الأولَى قالَ علمُها عِنْدَ ربّي في كتاب﴾** [طه: ٥١].

الشعبي قال: قدمنا على الحجاج في البصرة في جماعة من قُرّاء الشام والعراق في يوم صائف شديد الحرّ، وهو في آخر ثلاثة أبيات، فدخلنا الأوّل فإذا فيه الثلج والماء قد أرسل فيه، وفي الثاني أكثر وفي الثالث أكثر، والحجاج قاعد على سريره وعنبسة بن سعيد إلى جانبه فجلسنا على الكراسيّ، ودخل الحسن آخر مَنْ دَخَل، فقال الحجاج: مرحباً بأبي سعيد! خلع قميصَك، فجعل الحسن يعالج زرّ القميص فأبطأ به، فطأطأ له الحجاج رأسَه تلُطفاً به حتى حلّه، وجاءت جاريةٌ بدُهْنٍ فوضعته على رأس الحسن وحده، فقال له الحجاج: يا أبا سعيد، ما لي أراك منهوكَ الجسم، لعلّ ذلك من قلة نفقة وسوء ولاية! ألاَ نأمر لك بنفقة توسِّع بها على نفسك، وخادم لطيف! فقال: إني من الله تعالى لَفِي سَعة ونعمة وإني منه لفي عافية، ولكن الكبَر والحرّ، فأقبل الحجاج على عَنْبسة، وقال: لا والله، بل العلم بالله والزهد فيما نحن فيه، فلم يسمعها الحسن، وسمعتها أنا لقُرْبي من عَنْبسة، وجعل الحجاج يسأله حتى ذكر عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه فنال منه ونِلنَا منه مرضاةً له، وفَرَقاً من شرّه، والحسن عاضٌ على إبهامه، فقال له: ما لي أراك ساكتاً؟ فقال: وما عسى أن أقول: فقال: أخبِرْنا برأيك في أبي تراب، قال: إني سمعت الله عز وجل يقول: **﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الّتِي كُنتَ عليْهَا إلاّ لنعلم مَنْ يتبع الرَسولَ مِمَّنْ ينقلِبُ على عَقِبَيْه وإنْ كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله وما كان اللّهُ ليضيعَ إيمانكم إن الله بالنّاس لرؤوف رحيم﴾** [البقرة: ١٤٣] فعليٌّ ممّن هدى الله، ومن أهل الإيمان وابن عمّ نبي الله ﷺ وختَنه على بنته، أحبّ الناس إليه، وصاحب سوابق مباركات سبقتْ له من الله عز وجل، لن تستطيع أنت ولا أحدٌ من الناس يحظرها عليه، ولا يحول بينه وبينها. فتغيّر وجه الحجاج وقام مغضَباً عن سريره، ودخل بيتاً خَلْفه وخرجنا وأخذْت بيد الحسن، فقلت: يا أبا سعيد، أغضبت الأمير، وأوغرت صدره، فقال: إليك عني يا عامر، ألستَ شيطاناً من الشياطين إذ توافقه في رأيه! ألا صدقت إذْ سُئِلْت أو سَكَتّ فسلِمت! فقلت: قلتها والله، وأنا أعلم بما فيها، قال الحسن: فذلك أعظم في الحجّة عليك، وأشدّ في التَّبِعة. ثم خرجت إلى الحسن التّحف والطّرَف، وكانت له المنزلة واستخفّ بنا وجفانا، فكان أهلاً لما أتى إليه، وكنّا أهلاً لما أتى إلينا، فما رأيت مثل الحسن بين العلماء إلا مثل الفرس العربيّ فيما بين المقارِف، وما شهدنا بط مشهداً إلاّ بَرَز علينا بفضله، وقال لله، وقلنا موافقة للولاة، وكان يقول: جَدِّدوا هذه الأنفس فإنها

سريعة الدثور، واقْدَعُوها فإنها طامحة وإنكم إن لم تقدعوها تنزعْ بكم إلى شر غاية.

وقال لمطرّف بن عبد الله بن الشِّخير: عظ أصحابك، فقال له: إني أخاف أن أقول ما لا أفعل، فقال له: يرحمك الله، وأيّنا يقول ما يفعل! يودّ الشيطان أنه ظفر بهذه منكم، فلم يأمرْ أحد بمعروف ولم ينه عن منكر.

ونظر إلى الناس في مصلّى البصرة يضحكون ويلعبون في يوم عيد، فقال: إن الله تعالى جعل الصوم مضماراً لعبيده، ليستبقوا إلى طاعته، ولَعَمْرِي لو كشف الغطاء لشُغل محسن بإحسانه، ومسيء بإساءته عن تَجْديد ثوب أو ترجيل شعر.

ومات في سنة عشرة ومائة وله تسعون وتقدم موتَ ابن سيرين بمائة يوم، ومات في رجب ليلة الجمعة.

وقال عبد الواحد بن زيد: رأيت ليلة مات الحسن في النّوم أبواب السماء كأنها مفتّحة، وكأنّ الملائكة صفوف، فقلت: أن هذا لأمرٌ عظيم، فقال لي قائل: ألا إنّ الحسن البصريّ قدِم على الله وهو عنه راض!.

وسمع بعض أصحابه في منامه ليلة مات كأنّ منادياً ينادي في السماء: ﴿**إنّ الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين**﴾ [آل عمران: ٣٣]، واصطفى الحسن البصري على أهل زمانه

[عامر بن شراحيل الشعبي]

والشعبيّ، اسمه عامر بن عبد الله بن شرَاحيل بن عبيد بن ذي كبار الشعبيّ من شعب هَمْدَان، وكنيته أبو عمرو، منسوب إلى شعبان بن عمرو، وهو من حِمْير، فمن كان منهم باليمن فهو حميريّ، ويقال: له شعبانيّ، ومَنْ كان بالعراق فهو هَمْداني، ويقال له شعبيّ. وولد لستٍّ سنين من خلافة عمر رضي الله عنه سمع عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه والحسنَ والحُسين وجماعة من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، وهو كوفيّ، وبه يُضْرَب المثل في الحفظ، فيقال: أحفظ من الشعبيّ.

وقال الزُّهريّ: العلماء أربعة: سعيد بن المسيّب بالمدينة، وعامر الشعبيّ بالكوفة، والحسن البصريّ بالبصرة، ومكحول بالشأم.

وقال ابن شُبْرُمة: سمعت الشعبيّ يقول: ما كتبتُ سوداء في بيضاء إلى يومي هذا، ولا حدّثني رجل قطّ بحديث إلا حفظته، ولا أحببتُ أن يُعيدَه عليّ.

وقال الشعبيّ لأصحابه: ما أروى شيئاً أقلّ من الشعر، ولو شئت لأنشدتكم شهراً لا أعِيد.

وكان الشعبيّ فقيهاً عالماً حافظاً أديباً، وقال: لولا ما زوجت في الرحم ما قامت لأحدٍ معي قائمة.

وكتب عبد الملك إلى الحجاج أن ابعث إليّ رجلاً يَصْلُح للدين والدنيا، أتّخذه سميراً وجليساً، فبعث إليه بالشعبيّ، فلما دخل عليه وجده مغتمًّا، فقال: ما بال أمير المؤمنين؟ قال ذكرت قول زهير: **[الطويل]**

كأني وقد جاوزتُ تسعين حِجّةً ... خلعتُ بها عَنّي عِذَارَ لجامِي

رمتْني بناتُ الدهر من حيث لا أرى ... فكيف بمن يَرْمِي وليس برامِ[١]

فلو أنني أُرْمَى بنبلٍ رميتُها ... ولكنّني أُرْمَى بغير سهامي

على الراحتين تارة وعلى العصا ... أنوءُ ثلاثاً بعدهنَّ قيامِي

فقال له الشعبي: ليس كذلك، ولكن كما قال لبيد بن ربيعة: **[الطويل]**

كأنّي وقد جاوزت سبعين حجةً ... خلعت بها عن مَنْكِبيّ رِدَائيا[٢]

فلما بلغ سبعاً وسبعين، قال: **[البسيط]**

باتت تَشكيَّ إليّ الموت مجهشَةً ... وقد حملتُك سبعاً بعد سبعينا[٣]

فإن تراخَتْ ثلاثاً تبلغِي أملاً ... وفي الثلاث وفاءٌ للثمانينا[٤]

فلما بلغ التسعين، قال: **[الكامل]**

ولَقَدْ سَئِمْتُ من الْحياةِ وطُولِها ... وسؤال هذي النّاسُ كيف لبيدُ

وغَنيتُ سبتاً قبل مجرى دَاحِسٍ ... لو كانَ للنَّفْسِ اللّجوج خُلودُ

فلما بلغ عشرين ومائة، قال: **[الطويل]**

أليسَ وَرَائيِ إن تراخَتْ منيَّتي ... لزومُ العصا تُحنَى عليها الأصابعُ[٥]

---

(١) البيت الثاني لعمرو بن قميئة الضبعي في ديوانه ص ٤٥، ومقاييس اللغة ٢/ ٣٠٦، والأبيات ليست في ديوان زهير بن أبي سلمى.

(٢) البيت في ملحق ديوان لبيد بن ربيعة ص ٣٦١.

(٣) البيتان في ديوان لبيد بن ربيعة ص ٣٥٢، والبيت الأول في لسان العرب (جهش)، وجمهرة اللغة ص ٤٧٩، وتاج العروس (جهش)، وكتاب العين ٣/ ٣٨٣، ومجمل اللغة ١/ ٤٦٧، وهو بلا نسبة في مقاييس اللغة ١/ ٤٨٩.

(٤) البيتان في ديوان لبيد ص ٣٥، والبيت الأول في خزانة الأدب ٢/ ٢٥١، ولسان العرب (نصب)، والبيت الثاني في لسان العرب (سبت)، (عمر)، (جرا)، وكتاب العين ٧/ ٢٣٩، والمخصص ٢/ ٦٤، وتاج العروس (سبت)، (عمر)، (جرى).

(٥) يروى عجز البيت الأول:

لزوم العصا تثنى عليها الأصابعُ

وهو في ديوان لبيد ص ١٧٠، ولسان العرب (ورأ)، (وري)، وتهذيب اللغة ١٥/ ٣٠٤، والبيت الثاني في ديوان لبيد ص ١٧١، ولسان العرب (ركع)، ومقاييس اللغة ٢/ ٤٤٥، وكتاب العين ١/ ٢٠٠، والمخصص ١٣/ ٨٧، وتاج العروس (ركع)، وفي الديوان «أدبُّ» بدل «أنوء».

أخبِّر أخبارَ القُرون الّتي مَضَتْ أنوءُ كأنّي كلّما قمتُ راكعُ

فلما بلغ ثلاثين ومائة حضرته الوفاة، فقال: [الطويل]

تمنَّى ابنتايَ أن يعيش أبوهُمَا وهل أنا إلاّ من ربيعةَ أو مُضَرْ[1]

فَقُوما فقولاَ بالّذي أنا أهلُه ولا تخمِشَا خداً ولا تَحْلِقَا شَعَرْ

وقُولاَ هو المرءُ الّذِي لا صديقَهُ أضاعَ ولا خَانَ الْخَلِيلَ ولاَ غدرْ

إلى الحوْلِ ثم اسمُ السَّلام عليكما ومَنْ يبكِ حولاً كاملاً فقد اعْتَذَرْ

قال الشعبيّ: فلقد رأيت السرور في وجه عبد الملك طمعاً أن يعيشها.

وقال الحريري في الدُّرَّة: حدثني أحد شيوخي أن ليلى الأخيليَّة كانت تتكلم بلغة بَهْراء، فتكسر حرف المضارعة، فتقول: «أنت تِعْلم» فاستأذنتْ يوماً على عبد الملك بن مروان وبحضرته الشعبيّ، فقال: أتأذن لي يا أمير المؤمنين في الغَضّ منها؟ فقال: افعل، فلما استقرّ بها المجلس قال لها الشعبيّ: يا ليلَى، ما بال قومك لا يَكتنون! فقالت: ويحك أما نِكْتَني - بكسر النون - فقال: لا والله ولو فعلتِ لاغتسلت، فخجلتْ عند ذلك، واستغرق عبد الملك في الضحك.

الأصمعي: وجّه عبدُ الملك الشعبيّ إلى ملك الروم في بعض الأمور، فاستكبر الشعبيّ، فقال له: مِنْ أهل بيت الملك أنت؟ قال: لا فلما أراد الرجوع إلى عبد الملك حمّله رقعة لطيفة، وقال له: إذا بلّغتَ صاحبك جميع ما يحتاج إلى معرفته من ناحيتنا فادْفَع إليه هذه الرقعة، فلمّا رجع إلى عبد الملك ذكر له ما احتاج إلى ذكره، ونهض. فلما خرج ذَكر الرقعة، فرجع فقال: يا أمير المؤمنين إنّه حَمَّلنِي إليك رقعة أنسِيتُها، فدفعها إليه ونهض فقرأها عبد الملك، وأمر بردِّه فقال: أعلمت ما في الرقعة؟ قال: لا، قال: فيها عجبتُ من العرب كيف ملّكت غير هذا! أفتدري لم كتب إليّ بهذا؟ قال: لا، قال: حسدني عليك، فأراد أن يُغْرِيني بقتلك، فقال الشَّعبيّ: لو رآك يا أميرَ المؤمنين ما استكبرني. فبلغ ذلك ملك الروم، فذكر عبد الملك وقال: لله أبوه! والله ما أردت إلا ذلك.

وكان الشعبيّ خرج مع عبد الرحمن بن الأشعث على الحجّاج، فلما هُزِم عبد الرحمن أُتِيَ به موثقاً مع الأسرى، وكان حكُم الحجاج فيهم: مَنْ أقرّ أنه كافرٌ أبقاه، ومن أقرّ أنه مسلم قتله. قال: فلما جئتُ باب القصر لقَيَنِي يزيد بن مسلم كاتبه، فقال: إنا لله

---

(١) الأبيات في ديوان لبيد ص ٢١٣، والبيت الأول في الأغاني ١٥/ ٣٠٥، وأمالي المرتضى ١/ ١٧١، ٢/ ٥٥، والبيتان الثاني والثالث في لسان العرب (عذر)، وتهذيب اللغة ٢/ ٣٠٦، وتاج العروس (عذر)، والبيت الرابع في الأشباه والنظائر ٧/ ٩٦، والأغاني ١٣/ ٤٠، والخصائص ٣/ ٢٩، والعقد الفريد ٢/ ٧٨.

يا شعبيّ، لِما بين دفتيك من العلم! وليس بيوم شفاعة، فقلت له: وما المخرج؟ فقال بُؤْ للأمير بالشِّرْك والنفاق، وبالحرَى أن تنجو، فلمّا دخلتُ على الحجاج قال لي: وأنت يا شعْبيّ ممن حرج علينا! قلت: أصلح الله الأمير! أحْزَن بنا المنزل، وأجدَب بنا الجَنَاب، واستحْلَسْنَا الخوف، وضاق الملك، وخبطتنا فتنة، لم نكنْ فيها بررة أولياء، ولا فَجَرة أقوياء، قال: لله أبوك! لقد صدقت والله ما بررتم بخروجكم علينا، ولا قويتُم خلّوا سبيلَه.

وكلم ابنَ هبيرة في قوم حبسهم، فقال: إن كنت حبستَهم بباطل، فالحقُّ يُطْلِقهم، وإن كنتَ حبستَهم بحقٍّ فالعفو يَسَعُهم.

ودخل عليه رجل من النَّوْكَى، وهو جالس مع امرأة، فقال: أيُكما الشعبي؟ فقال له: هذا، فقال: ما تقول أصلحك الله في رجل شتَمني في أوّل يوم من رمضان هل يُؤْجر؟ فقال له الشعبيّ: أما إن كان قال لك: يا أحمق، فأرجو له الأجر.

وسأله آخر، فقال: ما تقول في رجل أدخل إصبعه في أنفه في الصلاة، فخرج عليها دم، أترى له أن يحتَجم؟ فقال: الحمد لله الذي نَقَلَنا من الفقه إلى الحجامة.

وسأله آخر، كيف كانت تسمى امرأة إبليس؟ قال ذلك نكاح لم نشهده.

ودخل الحمّام فرأى داود الأودِيّ بلا مئزر، فغمّض عينيه، فقال له داود: مَتَى عميت يا أبا عمرو؟ فقال: مذ هتَك الله سترك. ومات في سنة أربع ومائة وهو ابن اثنتين وثمانين سنة.

[الخليل بن أحمد الفراهيدي]

والخليل رحمه الله هو أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد البصرِيّ الفراهيديّ ينسب إلى فراهيد بن مالك بن فَهْم بن عبد الله بن مالك بن نصر الأزدي ويقال: اليَحْمَديّ. واليحمَد بطن من الأزْد.

وكان الخليل من أزهد الناس وأعلاهم نفساً، وأشدِّهم تعفُّفاً، ولقد كان الملوك يقصِدُونه ويتعرّفون إليه لينال منهم، فلم يفعل، وكان يعيش من بُسْتانٍ له خلّفه عليه والده، وكان يغزو سنة ويحج أخرى، حتى جاءه الموت.

محمد بن حميد، قال: تزوَّجت إلى جيران الخليل، فنزلتُ عليهم، فكنت أسمع قرآن الخليل طول الليل، فقالوا لي: ما عرفنا من هذا الرجل إلا ما ترى، وإنه ليغيب عَنّا في غزوٍ وَحَجّ فنتوحّش إليه، وقالوا: لا يجوز الصراطَ بعد الأنبياء والصحابة أدَقُّ ذهناً من الخليل. وكانت تلك الفضيلة فيه ببركة اسم أبيه، لأنه أوّل من تَسَمّى بأحمد بعد رسول الله ﷺ.

أبو عاصم: دخلت عليه قبل وفاته بأيام، فقال: والله ما فعلت قطّ فعلاً أخاف على

نفسبي منه وكان لي فضل فكر، صرفته إلى جهةٍ وَدِدْت أني كنت صرفتُه إلى غيرها. وما علمت أني كذبت متعمّداً قطّ، وأرجو أن يغفر الله لي التأوّل.

واجتمع أدباء من كلّ أفق، فجعل أهل بلد يرفعون علماءهم، ويقدّمونهم حتى جَرَى ذكر الخليل، فلم يبق أحد إلا قال: الخليل أذكى العرب، وهو مفتاح العلوم ومصرّفها.

النّضر: ما رأى الراؤون مثل الخليل، ولا رأى الخليل مثل نفسِه. وكان أشعثَ الرأس، شاحبَ اللون، قشِف الهيئة، متخرّق الثياب، متقلّع القدمين، مغموراً في الناس لا يُعْرف.

محمد بن الفضل: كان بالبصرة رجل يعطِي دواءً لظلمة البصر، فينتفع به الناس، فمات فأضَرَّ ذلك بمن كان يستعمله، فذُكر للخليل فقال: أله نسخة؟ فقالوا: لم نجدها، قال: فهل كان له آنية يعمله فيها؟ قالوا: نعم، إناء يجمع فيه أخلاطاً، قال: فجيئوني به، فجعل يتشَمّمه، ويخرج نوعاً نوعاً حتى أخرج خمسة عشر نوعاً، ثم سأل عن جمعها ومقاديرها فعرفه مَنْ كان يعالج مثله فعمله، وأعطاه الناس، فانتفعوا به مثل تلك المنفعة. ثم وجدت النسخة في كُتب الرجل، فإذا فيها ستة عشر خَلطا، فلم يغفل إلا عن خلّط واحد.

وكتب إليه ملك اليونان كتاباً باليونانية، فخلا به شهراً حتى فَهِمه، فقيل له في ذلك، قال: قلت: لا بدّ أن يفتتح الكتاب باسم الله تعالى وما أشبهه، فبنَيت أوّل الحروف على ذلك حتى انقاستْ لي.

النَّضر بن شميل. جاء رجل من حَلقْه يونس، فسأل الخليل عن شيء، فأطرق يفكِّر، فقالوا له: ما هذا مما يحتاج إلى فكْر يفكّر فيه! فقال لهم: فما الجواب عندكم؟ قالوا: كذا، قال: فإنه يزيدكم في الجواب كذا، قالوا: يقول كذا، يقول: كذا، فانقطعوا، فقال: ما أجبت بجواب قطّ إلا وأنا أعرِف آخر ما عليّ فيه.

وكان يخرج من منزِله فلم يشعر إلا وهو في الصحراء، ولم يردْها لشغله بالفكْر.

وقال النضر: سمعت الخليلَ يقول: الأيام ثلاثة: فمعهود وهو أمس، ومشهود وهو اليوم، وموعود وهو غد.

وقال الخليل: إذا نسِخ الكتاب ثلاثَ نُسخ ولم يعارَض به تحوّل بالفارسية.

ورأى مع رجل دِفْتراً وفيه خطّ دقيق، فقال لصاحبه: أيِسْت يا هذا من طول عمرك!.

وقال: إن لم تعلّم الناس ثوباً فعلِّمهم لتدرس بتعليمهم علمك، ولا تجزع من تفرّع السؤال، فإنّه ينبّهك على علم ما لم تعلم.

وقال: أكثِر من العلم لتفهمْ، واختر قليلاً منه لتحفظ.

وكان يقول: إذا خرجتُ من منزلي لقيت أحدَ ثلاثة، إمّا رجلاً أعلم بشيء مني، فذلك يوم فائدة، أو مثلي فذلك يوم مذاكرة، أو دُوني فذلك يوم ثواب.

وقال: من الناس مَنْ يدري ويدري أنه يدري، فذلك عالم فاتّبعوه، ومنهم مَنْ لا يَدْري ولا يدري أنه لا يَدْرِي، فذلك جاهل فاحذروه، ومنهم مَنْ يدري ولا يدري أنه يدري، فذلك ضالٌ فأرشدوه.

وكان يقول: إذا أردت أن تعلم خطأ معلمّك من صوابه فجالس غيره.

وقال: أنا أول مَنْ سمَّى الأوعية ظروفاً؛ لأنّها جُعِلت ظرفاً للأدب والنظافة.

وقال: أدركت بعض ما أنا فيه باطّراح الحشمة بيني وبين المعلَّمين، ومَنْ رَقّ وجهه في طلب العلم رَقّ علمه.

وقال: إذا أخطأ بحضرتك مَنْ تعلم أنه يأنف بإرشادك فلا تردّ عليه خطأه، فإنك إذا نبّهته على خطئه أسرعتْ إفادته، واكتسبْت عداوتَه.

وقال: اجعلْ ما تكتب بيتَ مال، وما في صدرك للنفقة.

وقال: العلوم أقفال والسؤالات مفاتيحها.

وقال: النّاس في سجن ما لم يتمازحوا.

وقال: الرجل بلا صديق، كاليمين بلا شمال.

وقيل له: إن استفساد الصديق أهونُ من استصلاح العدو، فقال: نعم، كما أن تخريقَ الثوب أهونُ من نَسْجِه.

وقيل له: ما الجود؟ فقال: بذل المجهود، قيل له: فما الزهد؟ قال: ألاّ تطلب المفقود، حتى تفقد الموجود.

وقال: الدنيا أمَد، والآخرة أَبد.

وقال: حسب امرىءٍ من الشرّ أن يرى في نفّسه فساداً لا يصلِحه، ومَنْ علم بفساد نفسه علم بصلاحها، وأقبح التحوّل أن يتحوّل المرء من ذنب إلى غير توبة ولا إقلاع عنه.

وقال: الدنيا أضداد متجاورة وأشباه متباينة، وأقارب متباعدة، وأباعد متقاربة.

وقال: ثلاثة أشياء أنا أحبُها لنفسي ولمن أحبّ رشده: أحبّ أن أكون بيني وبين ربي من أفضل عباده، وأكون بيني وبين الخليقَة مِنْ أوسطهم، وأكون بيني وبين نفسي من شرّهم. وقال عبد الله بن داود: لو كتب شيء بالذهب لكتب هذا.

ونظر في فقه لأبي حنيفة، فقيل له: كيف ترى؟ فقال: أرى جدًا وطريق جدّ، ونحن في هزل وطريق هزل.

وقال عبد الله بن داود: لقد نال الناس بالخليل وعلمه الرّغائب، وإنه لبينَ أخصاص البصرة، يَزهد فيما يُرْغب فيه.

وقال: ثلاثٌ يُنْسِين المصائب: مَرّ الليالي، والمرأة الحسناء، ومحادثة الرجال.

النّضر: سمعت الخليل يقول؛ التواني إضاعة، والحزم بضاعة، والإنصاف راحة، واللجاج وَقاحة.

وكان له غلام كثير الخلاف عليه، فقال له يوماً: قُمْ، فقال: لا أقوم، فقال: اقعد: فقال: لا أقعد، قال: فأيّ شيء تصنع؟ قال: لا أصنع شيئاً ويشبه هذا قولُ الشاعر في امرأته: [الطويل]

سكتُّ فقالتِ لمْ سكتّ عن الحقِّ ... وقلْتُ فقالت: ما دَعَاك إلى النُّطْقِ

فأومأتُ هل من حالٍ بين ذاوذا ... فقالت وذا الإيماء أيضاً من الحُمْقِ

فلم أر لي إذ حلّت الغربَ راحةً ... من الشرّ إلا في الهروب إلى الشَّرْقِ

فلما أتيت الشَّرْق ألفيتُها به ... وقد قعدتْ لي منه في ضيّق الطُّرْقِ

وإنما أكثرنا من أخباره لأنّها آداب، وحِكَمٌ مَن اقتدى بها اهتدى، وما تركناه من أخباره أكثر، وذكْر النحو والعروض مؤخّر إلى الخمسين إن شاء الله تعالى:

ولتقدّمه في العلم ضربت الشعراء به المثل، فمن ذلك قول أبي تمام يهجو عياش ابن لهيعة: [الوافر]

ولو نشر الخليلُ له لعمّتْ ... بلادتُه على فِطَنِ الخليل[1]

فما أدري عَمائي عن رشادي ... دَهَاني أم عماك عن الجميلِ

وقال آخر: [مجزوء الكامل]

يا مَنْ يزيد تمقُّتاً ... وتباغُضاً في كل لحظَهْ

والله لو كنتَ الخليـ ... ـلَ لما رَوَيْنا عنك لَفْظَهْ

وأنشد المبرد: [الكامل]

لم تدرِ ما علمُ الخليل فتقتدِي ... ببيان ذاكَ ولا حدودَ المَنْطِق

وقال المعرّي: [الطويل]

إذا قيل نُسْكٌ فالخليل ابن آزرٍ ... وإن قيل فهمٌ فالخليل أخو الفُهْم

ابن مزاحم الشاعر: كان الخليل صديقاً لي، فدخلت عليه يوماً؛ فقال: أجِزْ [الطويل]

* رأيت غنى الإنسان نفساً زكية *

(١) البيتان في ديوان أبي تمام ص ٣٠٥.

فقلت: [الطويل]

* مُطَهَّرَةٌ من كلِّ رِجْسٍ وبَاطِلِ *

فقال: [الطويل]

* ففي عاجل الدنيا مديح ورفْعةٌ *

فقلت: [الطويل]

* وخيرٌ عظيم عاجلٌ بعد آجلِ *

فقال: والله جئت بما في نفسي، ثم قال: [الوافر]

كأنّك كنت قد خامرْت قلبِي فجئتَ بما شَفَيْتَ به الْغَليلا
رأيتَ براعة الإيجاز أشفَى فصارَ كثيرُ غيرِك لي قليلا

وله: [البسيط]

العلمُ يذْكِي عقولاً حين يصحبُها وقد يزيدُهما طولُ التجاريبِ
وذو التأدُّب في الجهَّال مغتربٌ يَرَى ويَسْمَعُ ألوانَ التَّعاجِيب

وكان صديق سليمان بن حبيب، وأنشده الشعراء، فتشاغل عنهم سليمان، فذكروا ذلك للخليل فكتب إليه: [الكامل]

لا تقبلنّ الشِّعر ثم تعقُّه وتنام والشُّعراء غير نيامِ
واعلم بأنّهمُ إذا لم ينصَفوا حكمُوا لأنفسهم على الحُكّامِ
وجناية الجاني عليهم تَنْقَضِي وكلومهمْ تبقى علَى الأيّامِ

* * *

[جرير بن عطية الخطفي]

وأما جرير فهو ابن عطيّة بن الخطَفي. شاعر من فحول العرب، واتفقت العلماء على أنّ أشعر الإسلاميين جرير والفرزدق والأخطل، وأكثرُهم على تفضيله عليهما. وسأذكر لك شيئاً من غَزَلِه وهجوه، نستدلّ به على منزلةِ شرفه في الشعر: ورأت أمه وهي حامل به كأنها ولدت حبلاً من شَعْر أسود، فلما سقط جعل ينزُو فيقع في عنق هذا فيخنُقه حتى فعل ذلك برجال كثيرة، فانتبهتْ فازعةً فأوّلت الرؤيا، فقيل لها: تلدين غلاماً شاعراً ذا أسْرٍ وشدة وشكيمة وبلاء على الناس، فلما ولدته سمتْه جريراً، باسم الحبل الذي رأته، فهاجاه ثمانون شاعراً، فغلَبهم.

وقال جرير: ما عشقتُ ولو عَشِقْتُ لنسبت نسيباً تسمعُه العجوز فتبكي على ما فاتها من شبابها. قالوا: وأرقُّ ما جاء في النسيب قوله: [البسيط]

إنّ العيون الّتي في طرفها حَوَرٌ قتلْنَنا ثم لم يحيين قَتْلانا[١]
يَصْرَعن ذا اللّبّ حتى لا حَرَاك له وهنّ أضعفُ خلق الله أركانا
أتبعتُهم مُقْلةَ إنسانها غرِقُ هل ما ترى تاركٌ للعين إنسانا!

ومثل هذا أوجب على الحريري أن يذكر جريراً بالغزل، وإلا فقد أُخِذ عليه في ذكر جرير بالغزل، وإنما الذي اشتهر في زمانه بالغَزَل مثل عمر بن أبي ربيعة وكثيّر عزة وجَميل وقَيس بن ذريح وأمثال هؤلاء، وإنما اشتهر جرير بالمدح والهجو، ولانطباعه قد جاء في شعره من الغزل الرقيق كثير، وإن كان تكلُّفاً إذ لم يعشق. قال الجاحظ: كان الفرزدق مشتهراً بالنساء، ومع ذلك فليس له بيت واحد في النّسيب، وكان جرير عفيفاً لم يعشق امرأة قط، ومع ذلك فهو أغزل الناس شعراً.

وسئل الفرزدق عنه فتنفّس حتى كادت حيازيمه تنشَق، ثم قال: قاتلة الله! فما أحسن ناحيتَه وأشرَد قافيتَه، والله لو تركوه لأبكى الشابّةَ على أحبابها، والعجوز على شبابها، ولكنهم هزُّوه فوجدوه عند الهراش نابحاً، وعند الجراء قارحاً، ولقد قال بيتاً، لأن أكون قلتُه أحبّ إليّ ممّا طلعت عليه الشمس، وهو: **[الوافر]**

إذا غضبتْ عليك بنو تميمٍ حسبتَ النّاس كلَّهم غضابا

وقال مسعود بن بشر: قلت لابن مناذر: مَنْ أشعر الناس؟ قال: من إذا شئتَ جدّ، وإذا شئت لعب، وإذا شئت أطمعك لعبه، وإذا رمْتَه بعُد عليك، وإذا جدَّ فيما قصد له آيسك من نفسه. قلت: مثل مَنْ، قال: مثل جرير إذ يقول حين لعب: **[الكامل]**

إنّ الذين غَدَوْا بلبّك غادروا وشَلاً بعينك لا يزال معينا[٢]
غيَّضْنَ من عبراتهنّ وقلنَ لي ماذا لقيتَ من الهوى ولقينا!

ثم قال حين جدّ: **[الكامل]**

إنّ الذي حَرَم المكارم تغلباً جعل الخلافة والنبوّة فينا[٣]
مضرٌ أبي وأبو الملوك فهل لَكُمْ يا خُزْرَ تَغْلِبَ من أبٍ كأبينا
هذا ابنُ عمي في دمشق خليفةٌ لو شئتْ قادَكُمُ إليّ قَطِينا

---

(١) الأبيات في ديوان جرير ص ١٦٣، والبيت الأول في شرح شواهد المغني ٢/ ٧١٢، والمقاصد النحوية ٣/ ٣٦٤، والمقتضب ٢/ ١٧٣.

(٢) البيت الأول بلا نسبة في لسان العرب (وشل)، وتاج العروس (وشل)، والبيت الثاني في ديوان جرير ص ٣٨٦، وتاج العروس (غيض)، وهو بلا نسبة في لسان العرب (غيض).

(٣) البيت الأول في ديوان جرير ص ٣٨٧، ولسان العرب (أذن)، والبيتان الثاني والثالث في ديوان جرير ص ٣٨٨.

فلما بلغ عبد الملك هذا، قال: ما زاد ابن المراغة أن جعلني شُرْطيّاً له! أما إنه وقال: «لو شاء ساقكم» لسُقْتُهُمْ إليه كما قال.

ونزل الفرزدق حين قدم على الأحْوص فقال: ما تشتهي؟ قال شواء وظلاً وغناء، قال: ذلك لك، ومضى به إلى قينة فغنّته: **[الوافر]**

ألا حيّ الديار بسَعدَ إنّي أحبُّ لحبِّ فاطمة الدّيارا[1]

إذا ما حلّ أهلُكِ يا سُليمَى بدارة صُلْصلٍ شَحَطُوا مَزَارا

أراد الظاعنون ليحرمُوني فهاجوا صَدْع قلبيَ فاستطَارا

فقال: ما أرقّ أشعاركم يا أهل الحجاز! قال: أو تدري لمن هذا؟ قال: هو لجرير يهجوك، قال: ويلٌ لابن المراغة! ما كان أحوجه مع عَفافِه إلى صلابة شعري، وأحوجني مع فسوقي إلى رِقة شعره، وفي الفرزدق منها: **[الوافر]**

وكنتَ إذا نزلتُ بدار قومٍ رحلتَ بخَزْيةٍ وتركْتَ عارا[2]

وقال جرير: **[الطويل]**

لقد طال كتماني أمامة حبَّها فهذا أوان الحبّ تَبْدُو شواكُلُه[3]

وإني وإن لام العواذلُ مولعٌ بحبّ الغَضا مِن حُبّ مَنْ لا يزايلُهُ

ولما استقرّ الحبّ القتْ بيَ العصا ومات الهوى لمّا أصيبت مقاتُله

وقلن تَزَوّجْ لا يكن لك حاجة وقلبك لا تشغل وهُنّ شواغِلُه

وقال أيضاً: **[الكامل]**

يا أخت ناجيةَ السّلامُ عليكُم قبل الرّحيل وقبل لوم العُذّلِ[4]

لو كنتُ أعلم أنّ آخرَ عهدِكُمْ يومُ الفراق فعلتُ ما لم يفعلِ

---

(١) الأبيات في ديوان جرير ص ٨٨٦، والبيت الأول في جمهرة اللغة ص ٦٤٥، ومجمل اللغة ٣/ ٦٨، وتاج العروس (سعد)، وهو بلا نسبة في مقاييس اللغة ٣/ ٧٥.

(٢) البيت لجرير في ديوانه ص ٨٨٧، ولسان العرب (خزا)، وتاج العروس (خزي).

(٣) الأبيات في ديوان جرير ص ٩٦٤، ويروى صدر البيت الرابع:

وقلن تَرَوّحْ لا يكن لك ضيعةٌ

وهو في لسان العرب (ضيع)، وتهذيب اللغة ٣/ ٧٢، وتاج العروس (ضيع).

(٤) يروى البيت الأول في ديوان جرير ص ٤٤٣:

يا أم ناجية السلام عليكم قبل الرواح وقبل لوم العُذَّلِ

ديوان جرير ص ٢٧٩، والبيت الثالث في لسان العرب (عرض)، (بشم)، وتهذيب اللغة ١/ ٤٦٧.

وقال أيضاً: [الوافر]

بـنـفـسـي مَنْ تـجـنّـبُـه عـزيـز عـلـيّ ومَـنْ زيـارتُـهِ لِـمَـامُ[١]
ومَـنْ أمـسـي وأُصـبِـح لا أراه ويَـطْـرُقـنـي إذا هَـجَـع الـنِّـيـامُ
أتـذكـر إذ تـودّعـنـا سُـلَـيـمَـى بـفـرع بـشـامـةٍ سُـقِـيَ الـبَـشَـامُ

وقال أيضاً: [الكامل]

لا تـكـثـرنّ إذا جَـعَـلْـتَ تـلُـومـنـي لا يـذهـبـنّ بـفـعـلـك الإكـثـارُ[٢]
كـان الـخـليطُ هُـم الـخـليطُ فزايلُوا ولـقـد تـبـدّل بـالـديـار ديـارُ
لاَ يَـلْـبَـثُ الْـقُـرَنـاءُ أن يـتـفـرّقـوا لـيـلٌ يـكـرّ عـلـيـهـمُ ونـهـارُ

ومن هجوه في الراعي: [الوافر]

فـغـضّ الـطـرف إنّـك مـن نُـمـيـرٍ فـلا كـعـبـاً بـلـغـت ولا كِـلاَبَـا[٣]

وعندما قال هذا البيت وثب قائماً حتى أصاب السقف رأسه، وقال: أخريتُه والله وغصصته، وقدّمت أخويه عليه، والله لا يفلح بعدها، وكان كما قال، ما أفلح بعدها هو ولا نمير.

وقال في جندل بن الراعي: [الوافر]

أجـنـدلُ مـا تـقـول بـنـو نـمـيـرٍ إذا مـا الأيرُ في است أبيك غابا[٤]

وأنشد القصيدة والفرزدق واقف، فلما بلغ إلى قوله: [الوافر]

* تَـرَى بـرصـاً بـأجـمـع إسـكـتَـيـهـا *

وضع الفَرزدق يده على فيه، وغطى عنفقته فقال: [الوافر]

* كَـعَـنْـفَـقَـةِ الـفـرزدق حـيـن شـابـا *

فانصرف الفرزدق وهو يقول: اللهمّ أخزِه، ولقد علمت حين بدأ البيت ألاّ يقول غيرها، ولكن طمعتُ ألاّ تأتيَهُ.

وقال في ابن لجا: [البسيط]

---

(١) ديوان جرير ص ٨٦٤، والبيت الثالث بلا نسبة في لسان العرب (لبث).

(٢) البيت في ديوان جرير ص ٨٢١، وجمهرة اللغة ص ١٠٩٦، ولسان العرب (حدد)، وهو بلا نسبة في الكتاب ٣/ ٥٣٣.

(٣) البيت في ديوان جرير ص ٨٢١، وخزانة الأدب ١/ ٧٢، وهو بلا نسبة في سر صناعة الإعراب ٢/ ٦٧٧.

(٤) البيت في ديوان جرير ص ٨١٧، ولسان العرب (أسك)، وتاج العروس (أسك)، وهو بلا نسبة في المخصص ٢/ ٣٨.

تَعَرّضتْ تيم لِي عمداً لأشتِمها كما تَعَرَّض لاسْتِ الخاريء الحجرُ[١]
يا تيمَ تَيْمَ عديّ لا أبالكُمُ لا يلقينّكُمُ في سوءةٍ عمرُ

وقال يذكر أمه: [البسيط]

تقول والعبدُ مسكين يُزَحِّرُها رفقاً فِداً لك أنت النّاكح الذكَرُ[٢]

وبينا جرير ينشد في زوجته: [الكامل]

لولا الحياء لعادني استعبارُ ولزرت قبركِ والحبيبُ يُزَارُ[٣]
كانت إذا هَجَر الضجيعُ فراشَها كُتِمَ الحديثُ وعفّت الأسرارُ
لا يلبث القرناءُ أن يتصدّعوا ليلٌ يكرّ عليهمُ ونهارُ

إذ طلع الأخوص فقطع إنشاده، ورفع صوته، يقول: [الوافر]

عَوَى الشعراء بعضهمُ لبعضٍ عليَّ فقدْ أصابهمُ انتقامُ[٤]
إذا أرسلتُ صاعقةً عليهمْ رأوا أخرى تحرّق فاستدامُوا
فمصطَلَمُ المسامع أو خَصِيٌّ وآخرُ عظمُ هامَتِيهِ حُطَام

ثم عاد. فقيل: لم فعلت هذا؟ قال: إني نَهيت الأحوص أن يعين الفرزدق [عليّ] وإني والله يا بني عمرو بن عوف ما تعَوذت من شاعر قط، ولولا حقكم ما تعوذْتُ منه.

الأصمعيّ: حدثني أبي قال: رأى رجل جريراً في المنام، فقال: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي، قال: بماذا قال بتكبيرةٍ كبّرت الله في الخمر ـ وهو ماء بالبادية ـ قال: فما فعل أخوك الفرزدق؟ قال: هيهات أهلكه قذفُ المحصنات.

قال الأصمعيّ: لم يَدَعْه في الحياة ولا في الممات، وتوفّيَ سنة أربع عشرة ومائة.

* * *

[قس بن ساعدة الإيادي]

وأما قسّ بن ساعدة الإياديّ، فيضرب به المثل في الفصاحة والخطابة، فيقال: أبلغ من قُسّ، وهو أسقفّ نَجْران، وهو من حكماء العرب، وكان مؤمناً بالله ومبشّراً برسوله، وهو أول مَنْ خطب متوكِّئاً على عصا، وأوّلُ مَنْ كتب: من فلان إلى فلان، وفيه يقول الأعشى: [الطويل]

---

(١) البيت في ديوان جرير ص ٢١٠، ولسان العرب (خور).
(٢) ديوان جرير ص ٢٢٦.
(٣) الأبيات في ديوان جرير ص ٨٦٢، والبيت الأول في لسان العرب (حيا).
(٤) الأبيات في ديوان جرير ص ٢٨٠.

وأفصح من قُسّ وأجرى مِنَ الذي بذى العين من خَفَّان أصْبَح خادرا[١]

ولمّا قدم وفد بكر على رسول الله ﷺ، سألهم عن رجل كان فيهم نازلاً، يقال له: قُسّ بن ساعدة الإياديّ، قالوا: هلك، فقال رسول الله ﷺ: «لقد رأيتُه بعكاظ يخطُب على جمل له أوْرق وهو يقول: أيّها الناس اجتمعوا، واسمعوا وعُوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكلّ ما هو آت آت، ليلٌ موضوع، وسقف مرفوع، ونجوم تغور، وبحر يمور. أمّا بعد، فإنّ في السماء لخبراً، وإنّ في الأرض لعبراً، ما لي أرى الناس يموتون ولا يرجعون، أرضُوا بالإقامة فأقاموا، أم تركوا كما هم فناموا أقسَم بالله قسٌّ قسماً حقا، فما حَنَثَ ولا أثم، إنّ لله ديناً هو أرضى من ديننا، هذا الذي نحن عليه، ثم قال أبياتاً ما أحفظها»، فقال رجل من الأنصار: أنا شاهد يا رسول الله، بأبي أنت وأمي! قال: فأنشدنا، قال: سمعته يقول: **[مجزوء الكامل]**

في الذّاهبين الأوّلين من القُرون لَنَا بصائرْ[٢]
لمّا رأيت مواردًا للموت ليسَ لها مصادرْ
ورأيتُ قومي نحوها تمضي الأصاغرُ والأكابرْ
لا يرجع الماضي ولاَ يبقى من الباقين عابرْ
أيقنتُ أني لا محالة حيثُ صار القوم صائرْ

وقال صاحب الأغاني فيه هو قسّ بن ساعدة بن عمرو بن عدي بن مالك بن أيدعان ابن النَّمِر بن واثلة بن الطَّمَّان بن عَبْد مناة بن يقدم بن أفصى بن دُعْميّ بن إياد.

وكان يفِد على قيصر زائراً فيكرمه ويعظِّمه، فقال له قيصر: ما أفضلُ العلم؟ قال: معرفة الرجل بنفسه، قال: فما أفضل العقل؟ قال: وقوف المرء عند علمه، قال: فما أفضل الأدب؟ قال: استبقاء الرجل ماءَ وجهه: قال: فما أفضل المروءة؟ قال: قلة رغبة المرء في إخلاف وعده، قال: فما أفضل المال؟ قال: ما قُضِيَ به الحقّ.

ابن عباس رضي الله عنهما: وفد الجارود بن عبد الله في وفد عبد الْقَيْس، وكان سيِّداً في قومه معظَّماً في عشيرته، فآمن وآمن قومه، فسرّ النبي ﷺ بهم، ثم قال: «يا جارود، هل في جماعة عبد القيس مَنْ يعرف لنا قُسّا»؟ قال: كلنا نعرفه يا رسول الله، وأنا كنت مَنْ بينهم، أقفو أثره، وأطلع خبرَه، كان قُسّ سِبْطاً من أسباط العرب، صحيح

---

(١) لم أجد البيت في ديوان الأعشى.

(٢) البيت الأول لقس بن ساعدة في تاج العروس (بصر)، وأساس البلاغة (بصر)، وبلا نسبة في لسان العرب (بصر)، وتهذيب اللغة ١٢/ ١٧٧، وكتاب العين ٧/ ١١٨، والبيت الرابع لقس بن ساعدة أيضاً في الأغاني ٥/ ١٩٣، وحماسة البحتري ص ٩٩، وخزانة الأدب ٩/ ١٨٨، ولسان العرب (محل).

النسب، فصيحاً، ذا شيمة حسنة، عُمِّر سبعمائة سنة، يتقفّر القِفار، ولا تِكُنُّه دار، ولا يُقرّه قرار، يتحسَّى في تقفّره بعضَ الطعام، ويأنس بالوحوش والهوامّ، يلبس المُسوح ويتبع السياح على منهاج المسيح، لا يغيّر الرّهبانية، مقرٌّ بالوحدانية، تُضربُ بحكمته الأمثال وتكشف به الأهوال، وتتبعه الأبدال، أدرك رأس الحواريّين سمعان، فهو أول من تألّه من العرب وأعْبَدُ مَنْ تَعبّد في الحِقَب، وأيقن بالبعث والحساب، وحذّر سوء المنقلب والمآب، ووعظ بذكر الموت، وأمر بالعمل قبل الفوت، الحَسَن الألفاظ، الخاطب بسوق عكاظ، العارف بشرق وغرب، ويابس ورَطْب، وأجاج وعذب، كأنّي أنظر إليه، والعرب بين يديه، يقسم بالربّ الذي هُو له: ليَبلغنّ الكتاب أجله، وليوفّينّ كلّ عامل عملَه، ثم أنشأ يقول: **[الخفيف]**

هـاج لِـلْـقَـلْـب مـن هـواه ادّكـارُ ... ولـيـالٍ خـلالـهـنّ نـهـارُ
ونـجـوم يـحـثّـهـا قـمـر الـلّـيْـ ... ـل وشـمْـسٌ فـي كـلّ يـوم تـدارُ
ضـوءُهـا يـطـمـس الـعـيون وإرعـا ... دٌ شـديـد فـي الـخـافـقـين مُـشـارُ
وغـلام وأشـمـطٌ ورضـيـعٌ ... كـلّـهـم فـي الـتـراب يـومـاً يُـزارُ
وقـصـور مـشـيَّـدة حـوت الـخـيـ ... ـرَ وأخـرى خَـوَتْ فـهـنَّ قِـفـارُ
وكـثـيـر مـمَّـا تـقـصـرُ عـنـه ... حـدسـةَ الـنّـاظـر الـذي لا يـحـارُ
والَّذي قد ذكرت دل على الله نفوساً لها هدًى واعتبارُ.

فقال النبيّ ﷺ: «على رِسْلِك يا جارود، فلستُ أنساه بسوق عكاظ، على جمل له أوْرَق، وهو يتكلّم بكلام مونق، ما أظنّ أحفظه، فهل فيكم يا معشر المهاجرين والأنصار مَنْ يحفظ لنا منه شيئاً»؟ فوثب أبو بكر قائماً، وقال: يا رسول الله، أنا أحفظه وكنت حاضراً بعُكَاظ حين خطب فأطنبْ، ورهّب ورغّب، وحذّر وأنذر، وقال في خطبته: أيُها الناس اسَمعُوا وعُوا، وإذا وعيْتم فانتفعوا، إنه مَنْ عاش مات، ومَنْ مات فات، وكلّ ما هو آت آت، مَطَرٌ ونبات، وأرزاق وأقوات، وآباء وأمهات، وأحياء وأموات، وجَمْع وشتات، وآيات بعد آيات، إنّ في السماء لخبراً، وإنّ في الأرض لِعَبراً. ليلٌ داج، وسماء ذات أبراج، وأرض ذات رتاج، وبحار ذات أمواج، مالي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون! أرضوا بالمقام فأقاموا، أم تُرِكوا هناك فناموا! أقسم قُسُّ بالله قسماً حقًّا لا آثماً فيه ولا حانثاً، إنّ لله ديناً هو أحبّ إليه من دينكم الذي أنتم عليه، ونبيًّا قد حان حينُه، وأظَلكُم أوَ أنهُ وأدرككم إبّانُه، فطوبى لمن آمن به فهداه، ووَيْلٌ لمن خالفه وعصاه! ثم قال: تبًّا لأرباب الغفلة من الأمم الخالية، والقُرون الماضية! يا معشرَ إياد، أين الآباء، والأجداد، وأين المريض والعوّاد، وأين الفراعنة الشّداد؟ أين مَنْ بنى وشيد، وزخْرَف ونجّد، وغرّه المال والولد! أين مَنْ بَغَى وطغَى، وجمع فأوعى، وقال: أنا ربّكم الأعلى

ألم يكونُوا أكثرَ منكم أموالاً، وأطولَ منكم آجالاً، طَحنَهم الثَّرى بكَلْكله، وَمزّقهم بتطاوله، فتلِكْ عظامهم بالية، وبيوتهم خاوية، عَمّرتها الذئاب العاوية كلاّ بلْ هو المعبود، ليس بوالد ولا مولود، ثم أنشأ يقول:

في الذاهبين الأولين... الأبيات المتقدمة. قال: ثم جلس أبو بكر رضي الله عنه، وقام رجل ذو هامة عظيمة، وقامة جسيمة، فقال: يا سيّدَ المرسلين، وصفوةَ ربّ العالمين، لقد رأيت من قُسّ عجباً؛ أشرف بي جملي على وادٍ، وشجر من شجر عاد، مُورقة مونقة، وقد تهدّل أغصانها. قال: فدنوت منه، فإذا بُقسّ في ظل شجرة، بيده قضيب من أَرَاك ينكُت به الأرض وهو يترنّم، ويقول: **[البسيط]**

يا ناعِيَ الموت والملحود في جَدَثٍ	عليهمُ من بقايا خَزِّهم خِرَقُ
دعْهم فإنّ لهم يوماً يُطاحُ بهمْ	فهم إذا انتبهُوْا من نومهم فِرَقُ
حتى يعودوا بحالٍ غير حالهمُ	خَلْقاً جديداً كما مِنَ قبلها خُلِقُوا
منهم عراةٌ ومنهم في ثيابهمُ	منها الجديد ومنها المنهَجُ الخَلَقُ

قال: فدنوت منه، وسلَّمت عليه، فردَّ عليّ السلام، وإذا بعينٍ خرارة، في أرض خوارة، ومسجد بين قبرين، وأسدين عظيمين، يلوذان به، ويتمسّحان بأثوابه، فأراد أحدهما أن يسبق إلى الماء، وتبعه الآخر يطلب الماء، فضربهُ قسُّ بالقضيب، وقال: ارجع ثكلتْك أمّك! حتى يشرب الذي وَرَد قبلَك. فرجع ثم ورد بعده، فقلت له: ما هذان القبران؟ قال: هذان قبر أخوين لِي كانا يعهدان الله معي في هذا المكان، لا يُشركان بالله شيئاً، فأدركهما الموت فقبرتُهُماً، وها أنا بين قبريهما، حتى ألْحقَ بهما. ثم نظر إلى السماء فتغرغرت عيناه بالدموع، وانكبّ عليهما، وجعل يقول: **[الطويل]**

خَلِيليّ هبّا طالَمَا قد رَقَدتُما	أجِدَّ كما لا تقضيان كَرَاكُمَا
ألم تعلما أني بسَمْعانَ مفردٌ	وما لِيَ فيها من خليلٍ سواكمَا
مقيم على قبريْكما لستُ بارحاً	طولَ اللّيالي أو يُجيبَ صداكمَا
أبكيكمَا طول الحياة وَما الّذي	يردّ على ذي عَوْلَةٍ إن بَكَاكمَا
كأنكما والموت أقرب غاية	بروحيَ في قبريكما قَدْ أتاكُما
أمِنْ طول نومٍ لا تجيبان داعياً	كأنّ الذي يسقي العَقَار سَقَاكُما
فلو جُعلت نفس لنفسٍ وقايةً	لجدُتْ بنفسي أن تكون فِدَاكُما

فقال رسول الله ﷺ: «رحم الله قُسًّا، إني لأرجو أن يَبْعثه الله أمةً وحده».

***

[عبد الحميد الكاتب]

وأما عبد الحميد، فهو ابن يحيى بن سعيد، كاتب مروان بن محمد، آخر ملوك في أمية، وكتب أيضاً للمنصور. وقيل إنه قتِل مع مروان.

وكان رأساً في الكتابة، ومقدماً في الفصاحة والخطابة، بليغاً مرسلاً، وقال فيه ابن عبد ربه: كتب عبد الحميد بن يحيى لعبد الملك بن مروان، وكتب لسليمان بن عبد الملك، وليزيد بن عبد الملك، ثم لم يزل كاتباً لخلفاء بني أمية؛ حتى انقضت دولتُهم.

وعبدُ الحميد أوّل مَن فَتقَ أكمام البلاغة، وسهّل طرقها، وفكّ رقاب الشعر.

وقال له مروان حين أيقنَ بزوال ملكه: قد احتجتُ أن تصير مع عدوّي، وتظهر الغدر بي؛ فإنّ إعجابهم بآدابك يدعوهم إلى حسن الظنّ بك، فإن استطعتَ أن تنفعني في حياتي، وإلاّ لم تعجز عن حفظ حُرْمتي بعد وفاتي. فقال له عبد الحميد: إنّ الذي أشرت به عليّ أنفعُ الأمرين لك، وأقبحهما لي، وما عندي إلا الصبر حتى يفتح الله لي ولك، أو أقتل معك. ثم قال: **[الطويل]**

أسِرُّ وفاءً ثم أظهرِ غَدْرَةً فمن لي بعذر يُوسِعُ الناسَ ظَاهِرُهْ

وعبد الحميد هو صاحب الرسائل والبلاغات، وهو أوّل من أطال الرسائل، واستعمل التحميدات في فصول الكتب، واستعمِلت بعده، وهو القائل: البلاغة تقرير المعنى في الأفهام، من أقرب وجوه الكلام.

ولم يزَلِ الشُعراء ومَهَرة الكتبة يضربون ببلاغته وكتابته الأمثال في كتبهم وأشعارهم في القديم والحديث، كفضل الصاحب وقرنائه، مع طَبْع سَمْح ولفظ عذب، وصلة نثر ينظم، فإن شاء قال: أنا الوليد، وإن شاء قال: أنا عبيد، وإن شَاء قال: أنا عبد الحميد، وإن شاء قال: أنا سعيد.

وقيل: بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد.

* * *

[أبو عمرو بن العلاء]

وأما أبو عمرو فهو ابن العلاء بن عمار بن عبد الله بن الحُصين بن الحارث بن جَلْهم بن خُزاعيّ بن مازن بن مالك بن عمرو بن تميم: واسمه وكنيته واحد في الأشْهَر.

الفنجديهيّ: اخْتُلف في اسمه على تسعة عشرة قولاً، فقيل: اسمه محمد أو حميد أو حمّاد أو عثمان أو سفيان أو غير ذلك، وأصحّها زَبّان.

واختُلف في مولده. فقيل: ولد سنة خمس وستين بمكة في أيام عبد الملك بن مروان: وقيل: سنة سبعين.

أبو عبيدة: كان أبو عمرو أسَمَر طويلاً ضَرْب اليدين، حادّ النظر، ما رأيت مثلَه قبله ولا بعده في فهمه ولا علمِه، وكان صاحِبَ غريب ونحو وعلم، وهو أحد الأئمة في القراءة، وعنه أخذ يونس والأصمعيّ وأبو عبيدة. وفيه يقول الفرزدق: **[البسيط]**

ما زِلْتُ أغلقُ أبواباً وأفتحُها حتى أتيتُ أبا عمرو بن عمّارِ(١)

وقال ابن مجاهد: كان أبو عمرو مقدّماً في عصره، عالماً بالقراءة ووجوهها، قدوة في العلم باللّغة، إمام الناس في العربية.

وكان مع ذلك متمسكاً بالآثار، ولا يكاد يخالف في اختياره ما جاء من الأئمة قبله، متواضعاً في علمه.

وقال أبو عبيدة: كان أبو عمرو أعلَم النّاس بالقرآن والعربية وأيّام العرب وأنسابها وشعرها، وكانت دفاتره ملء بيت، فلمّا تنسَّك أحرقها، وجعل على نفسه أن يختم القرآن في كلّ ثلاث ليال، فلما أسنّ اختلط بالناس، واحتاجوا إليه فعوّل على حفظه، فأمْلَى من حفظه كتب الناس ووقَع عليه الإجماع.

روى الأصمعيّ عن أبي عمرو قال: كنتُ اسمر مع مسلم بن قتيبة الباهليّ وكان يعجبه الرّويّ على السين، فأنشدتهُ ليلة ستين قصيدة على السين لستيّن شاعراً، اسمهم عمرو.

الأصمعيّ: كان لأبي عمرو كلَّ يوم من غلّة داره فَلْسَان: فلس يشتري به كوزاً، وفلس يشتري به ريحاناً، يشرب في الكوز يومه، ويشمُّ الريحان يومه، فإذا أمسى تصدّق بالكوز، وأمر الجارية أن تجفّف الريحان وتدقّه في الأشنان.

الأصمعيّ: قال أبو عمرو: كنت في ضيعتِي، فاشتدّ عليّ الحرّ، فكنت أُدور في سِذْرِ فيها نصفَ النهار، فسمعت قائلاً يقول: **[الطويل]**

وإنّ امرءًا دنياه أكبرُ همه لمستمسكٌ منها بحبلِ غرورِ(٢)

فقلت: إنسيّ أم جنّي؟ فما أجابني، فنقشته في خاتمي، فكان نقشَ خاتمه.

الأصمعيّ: كنت واقفاً بالمِرْبَد، وإذا أنا بأبي عمرو، فلما بَصُر بي مال إليّ، فقال: ما وقوفك هنا يا أصمعيّ؟ قلت: إني أحبّ المِرْبد وأكثرُ الجلوس فيه، فقال: الزمْه، فإنه

---

(١) البيت للفرزدق في أدب الكاتب ص ٤٦١، وسر صناعة الإعراب ٢/ ٤٥٦، ٥٢٨، وشرح أبيات سيبويه ٢/ ٢٦١، والكتاب ٣/ ٥٠٦، ٤/ ٦٣، ٦٥، ولسان العرب (غلق)، والبيت ليس في ديوان الفرزدق، وهو بلا نسبة في الأشباه والنظائر ١/ ١١٨.

(٢) يروى البيت:

وإنّ الذي يمسي ودنياه همُّه لمستمسك منها بحبل غرورِ

وهو لهاني بن توبة الشيباني (الشويعر) في لسان العرب (حمد)، (شعر).

يشدّ النظر ويجلو البصر، ويجمع بين ربيعة ومضر. ثم أردت الانصراف، فقال: إلى أين يا أصمعيّ؟ فقلت: إلى صديق لي، فقال: إمّا لفائدة أو لعائدة أو لمائدة وإلاّ فلا. ثم قال لي: مالي أراك بلا عمامة؟ قلت: لا عمامة لي، فنزع عمامته عن رأسه فدفعها إليّ، فكبُرَ ذلك عليّ، فقال لي: إنّ لي بدلَها إحدَى عشرة عمامة، ثم قال لي: الزم العِمامة، فإنّها تشد الّلامة، وتحفظ الهامة، وتزيد في القامة، ثم استخرج من كُمّة كيساً فدفعه إليّ ثم قال: يا أصمعيّ، لا زلتم بخيرٍ ما دمتم تأمرون بالمعروف، وتنهوْن عن المنكر، فإذا تركتم ذلّك سلّط الله عليكم أقواماً غلاظاً فِظاظاً، خِبْرتكم على قدر معرفتكم.

وأما قراءته وإعرابه المذكوران في المقامة، فإن شجاع بن نصر، قال: قلت لأبي عمرو: كيف طلبت قراءة القرآن؟ قال: لم أزل أطلب أن أقرأه كما قرأه رسول الله ﷺ، وكما أنزِل عليه، فقلت له: وكيف ذلك؟ قال: هرب أبي من الحجّاج، وأنا شابٌ، فقدمنا مكة، فلقيت بها عدّة من التابعين مِمّن قرأ على أصحاب رسول الله ﷺ، مثل مجاهد وسعيد بن جُبير وعطاء وغيرهم، فقرأت عليهم القرآن، وأخذت العربية عن العرب الّذين سبقونا باللحن، فهذه التي أخذت بها قراءة رسول الله ﷺ، فاشدُدْ يَدك بها.

وقال: خرج أبي هارباً من الحجّاج إلى اليمن، فإنّا لَنسِيرُ في الصحراء باليَمَن إذ لحقنَا لاحقٌ يُنشد: **[الخفيف]**

رُبّما تجزع النّفوس من الأمـ ـر له فَرْجَةٌ كحلّ العِقالِ[1]

فقال له أبي: ما الخبر؟ فقال: مات الحجاج، فأنا بقوله: «فَرْجة» بفتح الفاء أشدّ سروراً مني بموت الحجاج، فقال أبي: اصرف ركابنا إلى البصرة.

الفنجديهيّ: رأيت في بعض الفوائد أنّ الحجاج قال لأبي عمرو: ما وجه قراءتك: **﴿إلاَّ مَنِ اغْتَرَف غَرْفَةً﴾** [البقرة: ٢٤٩] بفتح الغين؟ فقال: ابلعي ريقي، فقال: قد أبلعتُك الفرات. وقال: قاتل الله ابن أم الحجاج، لئِنْ لم تأتِني بالجواب إلى خمسة عشر يوماً لأقتلنّك شرّ قتلة، ووكلّ به موكلين، فخرج أبو عمرو يطوف في أحياء العرب، فلم يجد له حُجّةً إلى يوم وعده، فجرّه الموكّلون به ليُرجعوه إلى الحجاج، فسمع راعياً ينشد: رَبّما تجزع النفوس. . . . البيت، فقال له أبو عمرو: كيف تنشد هذا البيت: له فَرْجة أو فُرجة، فقال: فَرْجة وفُرْجة، وكذلك كلّ ما جاء على فَعْلة، فلنا فيه ثلاث لغات، فقال له أبو عمرو: فما سببِ إنشادك هذا البيت في هذا الوقت؟ فقال: إنّا كنّا خائفين من

(١) البيت لأمية بن أبي الصلت في ديوانه ص ٥٠، وحماسة البحتري ص ٢٢٣، والكتاب ٢/ ١٠٩، ولسان العرب (فرج)، وله أو لحنيف بن عمير أو نهار ابن أخت مسيلمة الكذاب في شرح شواهد المغني ٢/ ٧٠٧، ٧٠٨، والمقاصد النحوية ١/ ٤٨٤، وله أو لأبي قيس صرمة بن أبي أنس أو لحنيف في خزانة الأدب ٦/ ١١٥، ولعبيد بن الأبرص في ديوانه ص ١٢٨، وبلا نسبة في أساس البلاغة (فرج)، والبيان والتبيين ٣/ ٢٦٠.

الحجاج، وقد بَلغنا نعيُه، قال: والله لا أدري بأيهما كنت أشدَّ فرحاً، بوجداني الجواب والحجّة لقولي واختياري، أم بموت الحجّاج!.

سفيان بن عيينة: رأيت رسول الله ﷺ في المنام، فقلت له: يا رسول الله، قد اختلفت عليّ القراءات، فبقراءة مَنْ تأمرني أن أقرأ؟ قال: بقراءة أبي عمرو بن العلاء.

وقال أبو العباس بن سُريج: من أراد أن يتظرّف فعليه بمذهب الشافعي، وقراءة أبي عمرو بن العلاء وشعر ابن المعتز، فقيل له: قد عرفنا مذهب الشافعيّ وقراءة أبي عمرو ابن العلاء، فأنشدنا من شعر ابن المعتزّ ما يوجب الظَّرف فأنشد: **[المنسرح]**

كنت صَبَاحِي قرير عينٍ فصرتُ أمْسِي صَرِيع بَيْنِ
بعين نفسي أصبتُ نفسِي فالله بيني وبين عيني

وكان يقول: إنّما نحن فيمن مضى، كبقل في أصول نَخْل طوال.

وقال أبو عمرو: ناظرت عمرو بن عبيد في الوعيد، فقال: إن الله تعالى لا يُوعدنا بشيء فيخلفه، فقلت له: يا أبا عثمان، ليس لك علم باللغة، إنّ خلف الوعيد عند العرب ليس بخلف، وأنشد: **[الطويل]**

وإني وإن أوْعَدْته أو وَعَدْته ليَكذب إبعادي ويَصْدق مَوْعِدي[1]

وقال أبو عمرو: كنت رأساً والحسن حيّ. وتوفِّيَ بالكوفة سنة أربع وخمسين ومائة، وهو ابن ست وثمانين سنة، وعلى قبره مكتوب «هذا أبو عمرو بن العلاء مولى بني حنيفة».

وإنما قيل هذا لأن أمه كانت من بني حنيفة.

أبو عبيدة: دخل أبو عمرو على سليمان بن عبد الملك، فسأله عن شيء فصدَقه فيه، فلم يعجبْه ما قال، فخرج أبو عمرو وهو يقول: **[المتقارب]**

أنفت من الذلّ عند الملوكِ وإن أكرموني وإن قرّبُوا
إذا ما صدقت لهم خفتهُمْ ويَرْضَوْن منّي بأن يكذبوا

وقال أبو بكر بن مجاهد: رأيت أبا عمرو في المنام، فقلت: ما فعل الله بك؟ فقال لي: دعني مما فعل الله بي، مَنْ أقام ببغداد على السنّة والجماعة ومات، نُقل من جنة إلى جنة.

***

---

(١) يروى عجز البيت:

لمخلف إيعادي ومنجز موعدي

وهو لعامر بن الطفيل في ديوانه ص ٥٨، ولسان العرب (وعد)، (ختا)، وتاج العروس (ختأ).

[الأصمعي]

وأما ابن قُريب، فهو أبو سعيد عبد الملك بن قُرَيب بن عليّ بن أصمع، وإلى أصمع هذا يُنسب. وأصمعُ فخِذٌ من بني قتيبة بن معن بن أعْصَر بن سعيد بن قيس بن عَيْلان، وبنو معن هُمْ بنو باهلة وباهلة، امرأة من هَمْدان تزوّجت معناً فنُسب ولده إليها. والأصمع في اللغة الضّامر الذي ليس بمنتفخ، ومنه الصَّوْمعه لضُمرها، وتدقيق رأسها، ومثله قولهم: جاء بثريدة مصمّعة؛ إذا رققَها وأحَدْ رأسها، وسهم متصمّع: متلطّخ بالدم، فانضمَّت قذَذُه.

وكان الأصمعيّ حافظاً عالماً عارفاً بأشعار العرب وأخبارها، كثير التطوّف بالبوادي لاقتباس علومِها وتلقّي أخبارها، فهو صاحب غرائب الأشعار، وعجائب الأخبار، وقدوة الفضلاء، وقبلة الأدباء، قد استولى على الغايات، في حفظ اللغات، وضبط العلوم الأدبيّات، صاحب دين متين، وعَقْل رصين، وكان خاصًا بالرشيد، آخذا لِصلاتَه كثيراً، وقد تقدّم في هذا الكتاب من الحكايات المسنَدة إلى الأصمعيّ، ما يدلْ على تبحّره وحفظه.

ومن حكاياته عن أعرابه على ما أشار له الحريريّ هنا: حدّث الأصمعي رحمه الله، قال: أعرابي: حُسْن التدبير مع الكفاف، أكفى من الكثير مع الإسراف.

الأصمعي: سمعت أعرابيًا يقول: مَنْ كساه الحياء ثوبه، أخفى على الناس عيبَه، الأصمعيّ: قال أعرابيٌ: من اقتصد في الغنى والفقر، فقد استعدّ لنائبات الدهر.

قال: وقال أعرابيٌ: عداوة الحكيم أقلّ عليك ضَرَراً من مودّة الجاهل منهم.

قال: وقال أعرابيٌ: أعجزُ النَّاس مَن قَصر في طلب الإخوان، وأعجز منه مَنْ ضيَّعَ مَنْ ظَفِر به منهم.

وقال: تزوّج أعرابيٌ إلى بعض الحاضرة، فلمّا كان ليلة دخوله بها، إذا هي أدماء مجدورة، فخرج مِن البيت وهو ينشد ويقول: [السريع]

زَوَّجْتَنِي أدماء مجدورةً ... كأنها من خَشب البيتِ
قبيحة الوجهِ لها منظرٌ ... يفرّ منه ملَكُ الموتِ

قال: وجَرى بين أعرابيّ وبين امرأته كلام بالمِرْبد، فشتمتْه، فقال لها: اسكتي، فوالله ما شَعْرُكِ بوارد، وما فوكِ ببارد، ولا ثديك بناهد، ولا بطنُك بوالد، ولا الخير فيك بزائد، ولا الشرّ فيك بواحد، وما أنا لك بحامد، ولا بعد موتك بواجد.

ونذكر بعد ذلك حكايته المشهورة مع الرشيد ووزرائه، ويحتمل طولها لما احتوتْ عليه من غرائب الآداب، وكان مجلسَ مذاكرة بين أفراد، فأظهر كلّ رجل منهم أفضلَ ما يذكر.

حدث الأصمعيّ قال: استدعاني الرّشيد في بعض الليالي، وقد تصرَّمتْ قطعة من الليل، فراعتني رسلُه، ولم أفتأ أن مثلت بين يديه، وإذا في المجلس يحيى بن خالد وجعفر والفضل، فلمّا لحظني الرشيدُ استدناني، فدنوت منه فتبيّن ما لبسَني من الوجل، فقال لي: ليُفْرِخ رُوعك، فما أردناك إلا لما يُراد له مثلك، فمكثتُ هُنيهَة إلى أن ثابت إليّ نفسي بعد أن كادت تطير شَعاعاً، فقال: إني نازعتُ هؤلاء القوم في أشعر بيت قالته العرب في التّشبيه، ولم يقع إجماعُنا على بيت، فأردناك لفصل هذه القضية، واجتناء ثمرة الخِطَار فيها فقلت: يا أميرَ المؤمنين، إن التعيين على بيت واحد في نوع واحد ـ قد وسعت العرب فيه، وجعلته معَلمَا لأفكارها، ومستراحاً لخواطرها ـ لَبَعِيدٌ أن يقع النص عليه، ولكن أحسنُ الناس تشبيهاً امرؤ القيس في قوله: **[الطويل]**

كأنّ قلوبَ الطَّيْرِ رَطْباً ويابساً ... لَدَى وكرها العُنّابُ والحَشَفُ البالِي[(١)]

وفي قوله: **[الطويل]**

كأنّ عُيونَ الوحش حولَ خبائِنا ... وأرحِلنا الجَزْع الّذي لم يثقَّبِ[(٢)]

وفي قوله: **[المتقارب]**

ولو عن نَثَا غيرِه جاءني ... وجُرْح اللسان كجرح اليدِ[(٣)]

وفي قوله: **[الطويل]**

سموتُ إليها بعد ما نام أهلُها ... سُموّ حَباب الماء حالاً على حالِ[(٤)]

فالتفت إليّ يحيى، وقال: هذه واحدة، قد نصّ على امرىء القيس أنّه أبدعهم تشبيهاً. قال يحيى: هي لك يا أمير المؤمنين، ثم قال لي الرشيد: فما أبدع تشبيهاته عندك؟ قلت: قوله يصفُ فرسا: **[المتقارب]**

كأن تَشَوّفَه بالضحى ... تَشَوُّفُ أزرق ذي مِخْلَبِ

إذا قرعته حلالٌ له ... تقول سلبت ولم تسلبِ

فقال: هذا حسن، وأحسن منه قوله: **[الطويل]**

فَرُحْنَا بكابْنِ الماء يُجْنَبُ وسطنا ... تصوّب فيه الْعَيْنُ طوراً وترتَقي[(٥)]

---

(١) البيت في ديوان امرىء القيس ص ٣٨، والصاحبي في فقه اللغة ص ٢٤٤، ولسان العرب (أدب).

(٢) البيت في ديوان امرىء القيس ص ٥٣، ولسان العرب (جزع)، وكتاب العين ١/ ٢١٦.

(٣) البيت في ديوان امرىء القيس ص ١٨٥، ولعمرو بن معديكرب في ملحق ديوانه ص ٢٠٠، ولامرىء القيس أو لعمر بن معديكرب في سمط اللآلي ص ٥٣١.

(٤) البيت في ديوان امرىء القيس ص ٣١، وبلا نسبة في لسان العرب (حبب)، وتهذيب اللغة ٤/ ١٠.

(٥) البيت في ديوان امرىء القيس ص ١٧٦، وأدب الكاتب ص ٥٠٥، ولسان العرب (كوف).

فقال جعفر: يا أمير المؤمنين، ما هذا التحكّم؟ قال الرشيد: وكيف؟ قال: يذكر أمير المؤمنين ما وقع اختياره عليه، ونذكر ما اخترناه، ويكون الحكم واقعًا بعد، فقال الرشيد: أمرضت، فاستحسنها ـ يقال: أمرض الرجل: إذا قارب الصواب ـ ثم قال الرشيد: بل تبدأ يا يحيى، فقال يحيى: أحسن الناس تشبيهاً النابغة في قوله: **[الكامل]**

نظرتْ إليك بحاجةٍ لم تقضِهَا نَظَرَ السَّقيم إلى وجوهِ العُوّد[1]

وفي قوله: **[الطويل]**

فإنّك كاللّيلِ الّذي هو مُدْرِكِي وإنْ خلتُ أنّ المنتأَى منك واسِعُ[2]

وفي قوله: **[البسيط]**

مِنْ وحش وجرة موشىُّ أكارعُه طاوِي المصير كَسَيْف الصَّقَيْلِ الفردِ[3]

فقال الأصمعيّ: أما تشبيهه مرض الطّرف فحسن، إلاّ أنه هجّنه بذكره العلة، وتشبيهه المرأة بالعليل. وأحسن منه قول عدي بن الرقاع العامليّ: **[الكامل]**

وكأنّها بَيْنَ النساءِ أعارها عينيه أحورُ من جآذِرِ جاسِم[4]

وَسْنَانُ أقصَدهُ النعاس فرنّقتْ في عينِه سِنَةٌ وليس بنائِم

وأما تشبيه الإدراك بالليل، فقد تساوَى الليل والنهار فيما يدركانه، وإنما كان سبيله أن يأتيَ بما ليس له قسيم، حتى يأتي بمعنىً ينفرد به، ولو قال قائل: إنّ قول النمري في هذا أحسن، لوجد مساغاً إلى ذلك حيث يقول: **[الطويل]**

فلو كنتُ بالعنقاء أو بسِنامها لخلتك إلاّ أن تُصدّ تراني

وأما قوله: **[البسيط]**

* طَاوِي المصيرِ كَسَيْفِ الصَّيقَلِ الْفَرِدِ *

فالطرّماح أحق بهذا المعنى، لأنه أخذه فجوّده وزاد عليه، وإن كان النابغة اخترعه، وقول الطرماح: **[الطويل]**

يَبْدُو وتُضْمِرُه البلادُ كأنه سيف على شرفٍ يُسَلّ ويُغْمَدُ[5]

---

(١) البيت في ديوان النابغة الذبياني ص ٩١.

(٢) البيت في ديوان النابغة الذبياني ص ٣٨، ولسان العرب (طور)، (نأى)، وكتاب العين ٨/ ٣٩٣.

(٣) البيت في ديوان النابغة الذبياني ص ١٧، وبلا نسبة في لسان العرب (فرد)، وتهذيب اللغة ١٤/ ٩٩.

(٤) البيت الأول لعدي بن الرقاع في ديوانه ص ٩٩، ولسان العرب (جسم)، والبيت الثاني في ديوان عدي ص ١٠٠، ولسان العرب (نعس)، (رنق)، (وسن).

(٥) البيت في ديوان الطرماح ص ١٤٦، وأساس البلاغة (ضمر)، والحيوان ٣/ ٤٦٥، وكتاب الصناعتين ص ٨٥، ٢٥٣.

فقد جمع في هذا البيت استعارة لطيفة بقوله: «وتضمره البلاد» وتشبيهه اثنين بقوله: «يبدو وتضمر» «ويسلّ ويغمد»، وجمع حسن التقسيم وصحة المقابلة.

قال الأصمعيّ: فاستبشر الرشيد وبَرَقَتْ أسارير وجهه، حتى خلتُ برقا يُومض منها، وقال ليحيى: فضلْتُك ورب الكعبة، فانتقع يحيى، فكأنّ الرّماد ذرّ على وجهه، قال الفضل: لا تعجل يا أمير المؤمنين، حتى أمرّ ما قلته بسمعه، فقال: قل، قال: أحسن الناس تشبيهاً طرفة في قوله: [**الطويل**]

ووجهٌ كأنّ الشمسَ ألقتْ رداءَها عليه نقيّ اللون لم يتخدّدِ[١]

وفي قوله: [**الطويل**]

يشقُّ حَباب الماء حَيزومُها بها كما قسَم التّربَ المفايلُ باليدِ[٢]

قال: فقلت: هذا حَسَن وغيره أحسن منه، قد شركه في هذا المعنى جماعة من الشعراء، وبعد فطرفة صاحب واحدة، لا يُقطع بقوله مع التجوّز، وإنما يعدّ من أصحاب الواحدة قال: ومَنْ أصحاب الواحدة؟ قلت: الحَارث بن حِلّزة في قوله: [**الخفيف**]

آذنتنا ببينها أسْمَاءُ رُبّ ثاوٍ يُملُّ منه الثّواءُ[٣]

والأسعر الجعفي في قوله: [**الطويل**]

هل دان قلبك من سُلَيمى فأشتفِي ولقد عنيت بحبِّها فيما مضى

والأفوه الأوديّ في قوله: [**الرمل**]

إنَ تَرىْ رأْسي فيه قَذَعٌ وشَواتِي خلة فيها دوارُ[٤]

وعلقمة في قوله: [**الطويل**]

* طحَا بك قلبٌ في الحِسَان طروبُ[٥] *

وسويد بن أبي كاهل في قوله: [**الرمل**]

---

(١) البيت في ديوان طرفة بن العبد ص ٢١، ولسان العرب (ردى).

(٢) البيت في ديوان طرفة بن العبد ص ٢١، ولسان العرب (حبب)، (فيل)، وكتاب العين ٣/ ٣٢، ٨/ ٣٣٥.

(٣) البيت للحارث بن حلزة في ديوانه ص ١٩، والأغاني ١١/٣٦، وشرح القصائد السبع ص ٤٣٢، وشرح القصائد العشر ص ٣٧٠، وشرح المعلقات السبع ص ٢١٦، وشرح المعلقات العشر ص ١١٩، ولسان العرب (أذن)، (قفا)، (قوا).

(٤) البيت في ديوان الأشعر الجعفي ص ١١.

(٥) عجزه:

بُعَيْدَ الشباب عصر حان مشيبُ

والبيت لعلقمة الفحل في ديوانه ص ٣٣، ولسان العرب (طحا).

بَسَطَتْ رابعةُ الحبلَ لنا فوصلْنا الحبلَ منها فاتَّسَعْ

وعمرو بن كلثوم في قوله: [الوافر]

ألا هُبِّي بصحنك فاصْبَحِينا ولا تُبْقِي خُمورَ الأندرينا[1]

وعمرو بن معد يكرب في قوله: [الوافر]

أمِنْ ريحانَة الدّاعي السميعُ يُؤَرِّقني وأصحابي هُجُوعُ[2]

فاستخفّت الرشيدَ الأريحيّة، وقال: ادنه، فإنّك جُحَيش وحدك، وزدتَ في عيني نبلا، فقال جعفر: [الرجز]

* لبِّثْ قليلاً يدرك الهيجا حَمَلْ[3] *

يعرّض بأنه قد يجوز أن يدرك ما يحاوله، فقال له الرشيد: فاتتك والله السوابق، وجئت سُكَيْناً ذا زوائد أربع، قال: ورأيت الحميّة في وجهه، فقال جعفر: على شريطة حلمك. قال: أتراه يسع غيرَك ويضيق عنك؟ فقال جعفر: لست أنصُّ على شاعر واحد أنّه أحسن الناس في بيت تشبيهاً، ولكن قول امرىء القيس: [الطويل]

كأنّ غُلامِي إذْ علاَ حَالَ مَتْنهِ على ظهر بازٍ في السَّماء محلّقِ[4]

وقولِ عديّ بن الرقاع: [الكامل]

يَتَعاوران من الغُبار ملاءةً غَبْراء محكمةً هُمَا نَسَجَاها[5]

تُطْوَى إذا وَرَدَا مكاناً جاسياً وإذا السّنابك أسهلت نَشَراها

وقول النابغة: [الطويل]

بأنّك شمسٌ والملوكُ كواكبٌ إذا طلعت لم يبدُ منهنَّ كوكبُ[6]

قال الأصمعيّ: قلت: هذا حسن كُلُّه بارع، وغيرُه أحسن منه، وإنما يجب أن يقع

---

(١) البيت في ديوان عمرو بن كلثوم ص ٦٤، وخزانة الأدب ٣/ ١٧٨، ولسان العرب (مدر)، (ندر)، (صحن).

(٢) البيت في ديوان عمرو بن معديكرب ص ١٤٠، والأصمعيات ص ١٧٢، والأغاني ١٠/ ٤، ولسان العرب (سمع).

(٣) الرجز لحمل بن سعدانة بن عليم العليمي في تاج العروس (حمل)، وبلا نسبة في لسان العرب (حمل).

(٤) البيت في ديوان امرىء القيس ص ١٧٣، والمخصص ١٤/ ٢٣٣، وبلا نسبة في لسان العرب (حول).

(٥) البيتان في ديوان عدي بن الرقاع ص ٥٠، وأساس البلاغة (جسأ)، والطرائف الأدبية ص ٩٦.

(٦) البيت في ديوان النابغة الذبياني ص ١٣.

التعيين على ما اخترعه قائله فلم يُتعرَّض له، أو تعرّض له شاعر، فوقع دونه، فأمّا قول امرىء القيس: [الطويل]

* على ظَهْرِ بازٍ في السَّمَاءَ محّلقِ *

فمن قول أبي دواد: [الطويل]

إذا شاء راكبُه ضمّه كما ضمّ بازي السماء الجناحُ(١)

وأما قول عدي: [الكامل]

* يَتَعَاوران من الغُبارِ ملاءةً *

فمن قول الخنساء: [الكامل]

جارَي أباه فأقبلا وهُمَا يتعَاوران مُلاءة الحُضْرِ(٢)

وأول من نطق به جاهلي من بني عقيل، قال: [الطويل]

ألا يا ديارَ الحيّ بالبَرَدَانِ عَفَتْ حِجَجٌ بعدي لهنّ ثماني(٣)
فلم يبق منها غير نؤى مهدّم وغير أثافٍ كالرّكِي دِفانِ
وآثار هابٍ أوْرق اللون سافرتْ به الرِّيح والأمطار كلَّ مكانِ
قِفارٌ مَرَوْرَاةٌ يَحارُ بها القطا ويَضحي بها الجابانِ يَعْتِركان
يُثيران من نَسْجِ الغُبار عليْهما قميصيْن أسمالاً ويرتديان

وشارك عديًّا أبو النجم، وأورده في أحسن لفظ، قال يصف عَيْراً وأتاناً وما أثاراه من الغبار بعدْوِهما: [الرجز]

ألْقَى بجنْب القَاع من حِيالِها سرباً له وانشام في سِرْبَالِهَا

وأما قول النابغة: [الطويل]

* بأنَّك شمس والملوك كواكبٌ *

فقد تقدّمه فيه شاعر قديم من شعراء كندة يمدح عمرو بن هند، وهو أحقّ به من النابغة؛ إذْ كان أبا عُذْرَتِه، فقال: [الطويل]

---

(١) يروى البيت:

إذا شاء فارسه ضمَّه كما ضمّ بازي السماء الجناحا

وهو في ديوان أبي دؤاد الإيادي ص ١٣.

(٢) البيت في ديوان الخنساء ص ٢٥٩.

(٣) الأبيات في خزانة الأدب ٣/ ٢٧٦، ومعجم البلدان ٥/ ٣.

كادتْ تميد الأرض بالناس إذ رأَوْا لعمرو بن هند غضبةً وهو عاتبُ
هوَ الشمس وافتْ يوم سعد فأفضلَتْ على كلّ ضوء والملوك كواكبُ

قال: فكأنّي والله ألْقَمْت جعفراً حَجراً. فاهتزّ الرشيد فوق سريره، وكاد يطير عُجْباً وطرباً، وقال: والله، لِله دَرّك يا أصمعيّ، اسمع الآن ما كان وقع عليه اختياري، فقال: ليقل أمير المؤمنين أحسن الله توفيقه، فقالَ: عيّنت على ثلاثة أشعارِ، أقسم بالله إني أملك السبق بأحدها، فقال يحيى: خَفّض على هينتك، فأبى الله إلا أن يكون لك الفضل، ثم قال الرشيد: أتعرف يا أصمعيّ تشبيهاً أفخرَ وأعظم في أحقر مشّبه وأصغره في أحسن معرض، من قول عنترة الذي لم يسبقه إليه سابق، ولا نازعه منازع، ولا طمع في مجاراته طامع، حين شبّه ذباب الرّوض العازب في قوله: [الكامل]

وخلا الذبابُ بها فليس ببارِحٍ غِرداً كفعل الشّارب المترنّمِ[1]
هزِجاً يحكّ ذِراعَهُ بذراعِه فعلَ المُكِبّ على الزنّاد الأجْذمِ

ثم قال: يا أصمعيّ هذا من التشبيهات العُقْم التي لا تنتج، شبهّت بالريح العقيم التي لا تُنتِج ثمرة، ولا تلقح شجرة، فقلت: كذلك هو يا أمير المؤمنين، وبمجدك آليت ما سمعت قطّ أحداً يصف شعراً بأحسن من هذه الصفة، ولا استطاع بلوغ هذه الغاية، فقال: مهلاً، لا تعجلْ أتعرف أحسن من قول الحُطيئة يصف لُغام ناقته، أو تعْلم قبله أو بعدهُ شّبه تشبيهَهُ حيث يقول: [الطويل]

تَرَى بين لَحيَيْها إذا ما تَرَغّمَتْ لُغاماً كَنَسْج العنكبوت الممدّدِ[2]

فقلت: والله ما علمتُ أحداً تقدّمه إلى هذا التشبيه، أو أشار إليه بعده ولا قبله، قال: أتعرفُ بيتاً أبدعَ وأوقعَ من تشبيه الشّماخ لنعامةٍ سقط ريشها، وبقي أثره في قوله: [البسيط]

كأنّما مُنْثَنَى أقماع ما مَرَطَتْ من العِفَاءِ بِليتَيْهَا الثّآليلُ[3]

فقلت: لا والله يا أمير المؤمنين، فالتفت إلى يحيى، فقال: أوَجَب، فقال: وجَب، فقال: أأزيدك؟ فقال: وأيّ خبرٍ لَم يزِدْني منه أمير المؤمنين! قال: وقول النابغة الجعديّ: [الطويل]

رمَى ضَرْع نابٍ فاستهلّ بطعنةٍ كحاشية البُرْدِ اليماني المسهَّمِ[4]

---

(١) البيتان في ديوان عنترة ص ١٩٧، والبيت الأول في أساس البلاغة (هزج)، والبيت الثاني في لسان العرب (قدح).

(٢) البيت في ديوان الحطيئة ص ٤٩، ولسان العرب (رغم)، وتاج العروس (رغم).

(٣) البيت في ديوان الشماخ ص ٢٧٨.

(٤) البيت في ديوان النابغة الجعدي ص ١٤٣.

ثم التفت إلى الفضل، فقال: أوجب؟ قال: وجب، قال: أزيدك، قال ذلك لأمير المؤمنين، قال: قول الأعرابيّ: [الطويل]

بـه ضـرب أنـداد الـعـطـايـا كـأنّـه   مـلاعـبُ ولـدانٍ تـحـطّ وتـمـضَـغُ

ثم التفت إلى جعفر، فقال: أوجب؟ قال: وجب، قال: أزيدك، قال: لأمير المؤمنين علوّ الرأي، قال: قول عديّ بن الرقاع: [الكامل]

تُـزْجِـي أغـنّ كَـأنّ إبْـرَةَ رَوْقِـه   قـلـم أصـابَ مـن الـدَّواةِ مِـدَادَهَـا[1]

فقلت: يا أمير المؤمنين، هذا بيت حَسَدَ عديًا عليه جرير، قال: وكيف ذلك؟ قلت: زعم أبو عمرو بن العلاء أن جريراً قال: لما ابتدأ عديٌّ ينشد: [الكامل]

* عرفَ الدِّيارَ تَوَهُّماً فاعتادَها[2] *

فقلت في نفسي: ركب والله مركباً صعباً، سيُبْدِع فيه، فما زال يتخلّص من حَسَنٍ إلى حسن، إلى أن قال: [الكامل]

* تـزجِـي أغـنَّ كـأنَّ إبْـرَة رَوْقِـهِ *

فرحمتُه، وظننت أن مادته تَقْصُر به، فلما قال: [الكامل]

* فـلـم أصـابَ مِـنَ الـدَّوَاةِ مِـدَادَهَـا *

حالت الرحمةُ حَسَداً، فقال: لله أبوك يا أصمعيّ؟ ثم أطرق ورفع رأسَه، وقال: أتراك تعينني في انحطاطك في هواي؟ فقلت: كلا يا أمير المؤمنين، إنّك لتجلُ عن ذلك، قال: انظر خمساً، قلت: قد نظرت، قال: فالسَّبْق لمنْ؟ قلتُ: لأمير المؤمنين، قال: فقد أسهمتُ لك في العُشْر والعُشر كثير، ثم رمَى بطرفه إلى يحيى، وقال: المال الساعة، وأوْلى لك! فما كان ساعة حتى حضرت البِدَرُ بيني وبينه، ورأيت ضوء الصبح قد غلب على ضوء الشمع، فأشار إلى خادم على رأسه، كم هي؟ فقال: ثلاثة آلاف ألف درهم، فقال: دونك احتمل ثلاثين ألفاً إلى منزلك، ونهض عن مجلسه، وأمر الخَدَم، بمعاونتي على حَمْله، فكانت أسعدَ ليلة ابتسم فيها الصباح عن أحدٍ بالغنى.

فهذه الحكاية تدلّك على تبحره في علوم العربية وسعة حفظه.

* * *

تبع ابن الرّمادي عنترَة في قوله: «وخلا الذباب» بقوله: [الطويل]

---

(١) البيت في ديوان عدي بن الرقاع ص ٣٥، ولسان العرب (بلد)، (قرش)، (زجا).

(٢) عجزه:

مـن بـعـد شـمـل الـبـلـى أبـلادَهـا

والبيت في ديوان عدي بن الرقاع ص ٣٣، ولسان العرب (بلد)، والأغاني ١/ ٢٩٠.

وكأسٍ كريق الإلف شَعْشَعَها به ... وعيشي مَن هذا الشَّراب المُشَعْشَعِ
إذا ما شربنا كأسنا صُبّ فضلُها ... على روضِنا للمسمِع المتخَلعِ

وقال ابن الرومي: [الطويل]

وأذكى نسيمُ الروض ريعانَ ظلّه ... وغَنّي مغنِّي الطير فيه فرجَّعا
وكانتْ أهازيجُ الذباب هنا كم ... على شَدَواتِ الطير صوتاً موقَّعَا

وكان أبوه قُريب بخلافِه، كان نذلاً خسيساً، وكان عطاء الملك أتى بجماعة من البصرة إلى قُريب فوجدوه ملتفًا بكساء، نائماً للشمس، فوكزه برجْلِه، وصاح به: قم يا قَريب ويلك! قال: ألقِيتَ أحداً من أهل العلم قطّ أو من أهل اللغة أو الفقهاء أو من المحدّثين؟ قال: لا والله، قال لِمَنْ حَضَر: اشهدُوا على ما سمعتم، لا يقول لكم غَداً الأصمعيّ أو بعد غد: أنشَدنَي والدِي أو حَدّثني؛ ففضحه.

* * *

ومن حكاياته عن أبيه قال الأصمعيّ: حدثني أبي قال: أتِيَ عبدُ الملك بن مَرْوان برجل مع بعض مَنْ خرج عليه، فقال: اضربوا عُنقَه، فقال: يا أميرَ المؤمنين، ما هذا جزائي منك، قال: وما جزاؤك؟ قال: والله ما خرجت مع فلان إلاّ بالتطيّر لك، وذلك أتى رجل مشؤوم، ما كنت مع رجل قط إلا غُلِب وهُزِم، وقد بان لك صحة ما ادّعيت به، وكنت عليك خيراً لك من مائة ألف معك. فضحك منه وخلّى سبيله.

وكان للأصمعيّ بنٌ ظريف، فقيل له يوماً: أين أبوك؟ فقال: في بيته يكْذِب على الأعراب.

ومرض الأصمعيّ فعاده أبو ربيعة ـ وكان يحب أهلَ الأدب ـ فقال له: أقْرِضْني خمسة آلاف درهم، ففعل، وقال: أتشتهي غير هذا؟ فقال: نعم، فصًّا حسناً، وسيفاً قاطعاً، وبِرْذوناً حَسَناً وسَرْجاً محلًى، فبعث بذلك إليه.

وكان إسحاق الموصلّي يعظّمه ويقرأ عليه، فدخل الأصمعيّ يوماً على الفضل بن يحيى وإسحاق ينْشدِه في صفة فرس: [الرجز]

كأنّه في الجلّ وهو سامِ ... مشتملٌ جاء من الحَمامِ
يَسور بين السَّرج واللجامِ ... سور القطامي إلى الحِمّامِ

فقال الأصمعيّ: هات بقيّتَها، فقال له إسحاق: ألم تقل لي: ما بقي منها شيء فقال: ما بقيَ إلاّ عيونها. ثم أنشد بعد ذلك ثلاثين بيتاً، فغضب إسحاق وعرّف الفضلَ قِلّةَ شكره لعارفة، وبخلَه بما عنده، وأخذ يصف فضلَ أبي عبيدة ونزاهته، وبذله لما عنده، واشتماله على علوم العرب، فأنفذ إليه الفضل مالاً جليلاً، واستقدمه من البصرة، وسعى بالأصمعيّ عند الرشيد؛ حتى حَطّ منزلته. وقال إسحاق يهجوه: [الوافر]

أليس من العجائب أن قِرْداً ... أُصَيْمِعَ باهليًّا يستطيلُ
ويزعُمُ أنه قد كانَ يُفتي ... أبا عمرو ويسألُه الخليلُ
إذا ما قال: «قال أبي» عَجِبْنا ... لما يأتي به ولِمَا يَقُولُ
وجَلَله عطاءُ المُلْك عاراً ... تَزُولُ الرَّاسِياتُ ولاَ يزُولُ
فقل لأبي ربيعة إذْ عصاني ... وحادَ به عن القَصْدِ السبيلُ
لقد ضاعتْ بُرودُك فاحْتَسِبْها ... وضاع الفَصّ والسَّيْف الصّقِيلُ
فأما الخمسة الآلاف فاعلمْ ... بأنك غبنها لا تستِقبلُ

والأصمعيّ لا يقدح هذا القدر في جانبه، لأنّ بعض محاسنه يغطّي على كل مساوئِه.

وكان منشؤه بالبصرة، وبِها تُوفِّيَ سنة تسع عشرة ومائتين وبلغ ثمانيا وثمانين سنة.

قوله: محرابي، وما بعده في معناه، يعني فَرْجَها. والإمام وما بعده، يعني به ذكره. وسمِّيَ محرابُ المسجد محراباً لأنه يباعد مَنْ ليس من أهله أن يقربَه، إذْ هو أرفع ما في المسجد، وفلان حَرْب لفلان، أي مباعد له. والقِرَاب: وعاءٌ من جلْد يُجعل فيه السيف مع غمده. والقِراب: وعاء الزاد.

* * *

فقال لهما القاضِي: أَرَاكُمَا شَنًّا وَطَبقَة، وحِدَأَةَ وبُنْدُقَة، فاترك أَيُّها الرَّجُلُ اللَّدَد، واسْلُكْ في سَيْرِك الجَدَد. وأمَّا أَنْتِ فكُفِّي عن سِبابِه، وقِرِّي إذا أَتَى البيتَ مِن بَابِهِ.

فقالت المرأةُ: واللَّهِ ما أَسْجُنُ عنه لِساني، إلا إذَا كَساني، ولا أرفَعُ له شِرَاعي، دُونَ إشْبَاعي. فحلف أبو زيدٍ بالمحرِّجَات الثّلاث، إنَّهْ لا يمْلِكُ سِوَى أَطْمارِهِ الرِّثاث.

فنظر القاضي في قَصَصِهما نَظَر الألْمَعِيِّ، وَأَفْكَرَ فِكْرَةَ اللَّوْذَعِيّ. ثُمَّ أَقْبَلَ عليهما بوجهٍ قَد قَطَّبَهُ، ومِجَنٍّ قَد قلَبَهُ، وقال: ألم يكفِكُما التَّسَافُهُ في مَجْلِسِ الحُكْم، والإقدامُ على هذا الجُرْم، حتَّى تراقَيْتُما في فُحْشِ المُقَاذَعة، إلى خُبْثِ المُخَادَعَة! وايمُ الله لَقَدْ أَخْطأَتْ اسْتُكُمَا الْحُفْرَة، ولم يُصِبْ سَهْمُكما الثُّغْرَة؛ فإنَّ أميرَ المؤمنين، أعزّ الله ببقائِه الدِّين، نصبَني لأقْضِيَ بين الخُصمَاءِ؛ لاَ لأقْضيَ دَيْنَ الغرماء. ووَحقِّ نعمتِه الَّتِي أَحَلَّتْنِي هَذَا المحلَّ، ومَلَّكَتْنِي العَقْدَ والحلّ، لئن لم

تُوَضِّحَا لِي جَلِيّةَ خَطْبِكما، وخَبِيئةَ خِبِّكُما، لأنَدِّدَنَّ بكُما في الأمْصَارِ، ولأجعلنّكما عِبْرَةً لأولي الأبصار.

* * *

واللَّدَد: شدّة الخصومة. الجَدَد: الأرض الصّلبة، والمعنى في قوله: أسلك في سيرك الجدَد، جامعُها في الفرج لا غيره، وفي المثل: مَنْ سَلك الجَدَد أمِنَ العثار.

قِرّي: اسكني. البيت، كناية عن فرجها. من بابه، يريد ألاّ يأخذَ الجار بالجار. وقولها: إلا إذا كساني، قال النبي ﷺ: «اعْرُوا النّساء يلزمْنَ الحِجال»[1].

والشِّراع: قَلْع السفينة، وأرادت برفعه كشفَ ثيابها ورفع رجليها حين يطؤها، وقال أبو نواس في معناه: **[المتقارب]**

تـرفَّـق قـلـيـلاً قـد أوجـعـتـنـي ... وألـحـقـتَ قُـرْطِـي بـخَـلْـخِـالَـيـهْ

والقُرْط في الأذن، والخلخال في الرجل، فانظر متى يجتمعان. وقال ابن الرومي في ذلك: **[البسيط]**

يا أحمد بن سعيد لو بَصُرْتَ بها ... إذا الأكـفّ لـسـاقَـيْـهـا خَـلاَخـيـلُ

وقال البحتريّ: **[المنسرح]**

لـم تَـخْـطُ بـاب الـدِّهْـلـيـز خـارجـةً ... إلا وخَـلْـخَـالُـهـا مـع الـشُّـنـفِ[2]

وقال ابن الروميّ: **[الكامل]**

لـو أنّ رجـلـيْ عِـرْسـنـا يـداهـا ... مـا أخـطـأتْـهـا رحـمـةٌ تـغـشـاهـا

قـد خُـلِـقـت مـرفـوعـةً رِجْـلاهـا ... كـأنّـمـا يَـسْـتـغـفـران الـلَّـهَ

وله أيضاً: **[الرجز]**

شـيـخ لـنـا يـكـنـى أبـا حَـفْـصَـلِ ... أقْـرَنُ مـثـل الأيّـل الأثْـوَلِ

تَـبـيـت فـي مـنـزلـه نـسـوةٌ ... يـلـبـسْـنَ ثـوب الـلـيـل كـالـمـنـزلِ

يـعـمـلـن فـيـه عـمـلاً صـالـحـاً ... يـرفـعـه الله إلـى أسـفـلِ

يـسـتـغـفـر الـنّـاس بـأيـديـهـمُ ... وهـنّ يـسـتـغـفـرن بـالأرْجُـلِ

قال الأصمعيّ: قلت لأمَةٍ ظريفة: يا جارية هل في يديك عمل؟ قالت: لا، ولكن في رجلي.

---

(١) رواه ابن الأثير الجزري في النهاية في غريب الحديث ١/ ٣٤٦.

(٢) البيت في ديوان البحتري ص ١٤١١.

والمحرِّجات الثلاث: هي الطّلاق والعِتْق والمَشْي إلى مكة، وقيل: هي الطّلاق الثلاث ومحرّجات: فيها حَرَج، أيْ إثم وضيق.

وحدّث أبو حاتم، عن الأصمعيّ عن عيسى بن عمر، قال: اشتكى رجل امرأته، فقال له شيخ من بني نصر، كان أسنّ منه: ألا نكشِفها بالمحرّجات ـ يعني الطلاق ـ قال: قاتلك الله! فما أغرّك، وعليّ الطلاق ثلاثاً.

حدثنا أبو بكر محمد بن أسد الدبليّ قال: سمعت أبا فتان الدارع يقول: الطلاق الثلاث البتّ لازم لي، لقد سمعتُ أبا عبيدة معمر بن المثنى يقول: الطلاق الثلاث، البَتُّ لازم لي، لقد سمعت أبا عمرو بن العلاء، يقول الطلاق الثلاث البَتّ لازم لي، إن كانت العرب قالت أحْكم من هذه الأبيات: **[الكامل]**

كُنْ للمكارِه بالْعَزاء مقنّعاً ... فلعلّ يوماً لا ترى ما تَكرهُ

فلربّما استتر الفتى فتنافستْ ... فيه العيون وإنه لمموّهْ

ولربّما خزن الكريمُ لسانَه ... حذرَ الجواب وإنَّه لمفوّهُ

ولربما ابتسم الكريم من الأذى ... وفؤاده من حَرِّه يتأوّه

قوله: أطماره الرّثاث، أي ثيابه الخلقة. الألمعيّ: المتوقد الحاضر الذِّهْن.

ابن الأعرابي: الألمعيّ: الذي إذا لمع له أوّلُ الأمر عرف آخرَه، فيكتفي بظنّه دون تعيينه. واللوذعيّ: الفِطن الذّكيّ الظريف الحدِيد الفؤاد. قَطّبه: عبسّه. مجنّ: تُرْس. وقلَبه، كناية عن إبداء الشرّ بعد الخير، وقد تقدّم. التَّسَافُه: الإفحاش. والشمّ. الجُرْم: الذنب. المقاذعة: المشاتمة بما فَحش. الثُّغْرة: الحفيرة في أصل الْعُنُق. خِبّكما: خداعكما وغشّكما. أنددنّ: أسمع الناس بما يَنالكما عندي من المكروه، ونَدّدَ به: شتمه وأسمعه القبيح. الأمصار: البلاد. عبرة: موعظة. أولي الأبصار: أهل العقول.

* * *

فأطرقَ أبو زيدٍ إطراقَ الشُّجاعِ، ثم قال له: سَمَاعِ سَمَاعِ: **[الرجز]**

أنا السَّرُوجِيّ وَهَذِي عِرْسِي ... وَلَيْسَ كُفْأَ البدرِ غيرُ الشَّمْسِ

وما تنافَى أُنْسُها وَأُنسي ... ولا تَناءى ديْرُها عَنْ قُسِّي

ولا عَدَتْ سُقْيَايَ أرْضَ غرْسِي ... لَكِنَّا مُنذ ليالٍ خمسِ

نُصْبِحُ في ثوبِ الطَّوَى وَنُمسي ... لا نعرفُ المضغَ ولا التَّحَسّي

حَتى كأنَّا لِخُفُوتِ النَّفْسِ ... أَشْبَاحُ مَوتَى نُشِرُوا من رَمْسِ

فحينَ عَزَّ الصَّبْرُ والتَّأسّي ... وَشَفَّنَا الضُّرُّ الأليمُ الْمَسِّ

قُمْنَا لِسَعْدِ الْجَدِّ أو لِلنَّحْسِ ... هَذَا المقَامَ لاجْتِلاَبِ فَلْسِ

والْفقْرُ يُلْجِي الحرَّ حين يُرْسِي   إلى التَّجَلّي في لباسِ اللَّبْسِ
فهذه حالِي وهذا دَرْسِي   فانظُرْ إلى يَوْمِي وسلْ عن أمسِي
وأمْرُ بِجَبْرِي إن تَشا أوْ حَبْسي   ففي يَدَيْكَ صِحتِّي ونُكْسي

* * *

أطرق: أمال رأسَه ساكناً. الشُّجاع: الحيّة. سماع سماع، أي اسمع مِنّي، كُفْء البدر: أي نظيره، والكفء: النَّظير والمِثْل. دَبْرها: فرجها. قُسّي: ذَكَري. وأصل الدّيْر للنصارى، والقَسّ والقِسيس: عالمهم وعابدهم. عَدَتْ: جارت وخرجت عن طريقها. والسُّقيا: الشرب، وهي هنا مصدر بمعنى السَّقي. والتحسّي: شرب الحَسْوة، وأراد بالمضغ والتحسّي أكلَ الخُبْز واللحم، وحَسْو مرقه. وقيل: المضغ في الرَّخاء والحسْو في الشدّة، كاستعمالهم فيها حسَوْ السَّخينة وغيرها. وعزّ: قَلّ. التأسِّي: الاقتداء بالغير، وقد تأسّى تأسّيا إذا اقتدى بفعل غيره وتصبّر، وهذا بابُ غلبت عليه الخنساء بقولها: **[الوافر]**

وَلَوْلاَ كَثْرَةُ الباكينَ حَوْلِي   على إخوانهمْ لَقَتَلْتُ نفسِي[1]
وما يبكونَ مثل أخي ولكنْ   أعزّي النَّفس عنه بالتأسيّ

فزاد عليه ابن العباس الروميّ، في المعنى وبيّنه حتى استحقّه حيث قال: **[الوافر]**

رأيتُ الدَّهْرَ يجرح ثم يأسُو   يؤسّي أو يعوّض أو ينسّي
أبت نفسي الهُلاعَ لرزء شيء   كَفى رزءاً لنفسي رُزْءُ نفسِي
أتجزَعُ وحشةً لفراق إلفٍ   وقد وَطَنتُها لحلول رَمْسِي

فذهب في هذه الأبيات كلّ مذهب، ثم أراد أن يُظهر ما عنده من فضل المنّة وحُسْنِ التّصرف، فقال: **[الخفيف]**

يا شَبابي وأينَ مِنّي شبابي   آذنتْني أيامُه بانقضابِ
ومعزّ عن الشّباب مؤسّ   بمشِيب اللّذّات والأصحابِ
قلت لما انتحى يَعُدّ أساه   بمصابِ شبابه بمصابِ
ليس تأسو كلومُ غيري كلومِي   ما به ما به وما بِيَ ما بِي

وكرّر هذا المعنى فأحسن ما شاء، وذهب فيه مذاهب أخرى، فقال: **[الطويل]**

خليليّ قد عَلّلتمانيَ بالمُنَى   وأنعمتما لو أنَّنِي أَتَعَلَّلُ
أللناس إيثاري وإلاّ فما الأسى   وعيشِكما إلاّ ضلالٌ مُضَلّلُ

---

(١) البيتان في ديوان الخنساء ص ١٥٣.

وما راحة المرزُوء في رزء غيره أيحمل عنه بعضَ ما يتحمَّلُ!
كِلاَ حاملَيْ أو في الرزية مثْقلٌ وليس معيناً مثقلَ الظَّهْر مثقلُ
وضربٌ من الظلم الخفيّ مكانه تعزّيك بالمرزوء حين تأمّلُ

ولابن رشيق: [المتقارب]

رأيتُ التّعزِّيَ مما يَهيجُ على المرء ساكنَ أوصابِهِ
وما نال ذو أسوة سلوةً ولكن أتى الحزن من بابِهِ
تفكّر في مثل أرزائِه فذَكَّرَهُ ما به ما بِهِ

وقال ابن رشيق: أخذتُه من قول عمر بن أبي ربيعة: [الوافر]

وذو الشَّوْق القديمِ وإن تعزَّى مشوقٌ حينَ يَلقَى الْعَاشقينا

وأخذه عمر من قول متمم بن نويرة: [الطويل]

وقالوا أتبكِي كلَّ قبر رأيتَه لِقَبْرٍ ثوى بين اللِّوى والدَّكَادِكِ
فقلت لهمْ إنّ الأسى يَبْعَثُ الْبُكَا دَعُوني فهذا كلّه قبر مالك

* * *

خُفوت: ضعف النفس من شدة الجوع، وخَفَتْ خفوتاً: ضعف وسكن ومات. والأشباح: الأشخاص، وأصل الشَّبَحَ الشخص تبصره على بعد، فلا تعرف ما هو، ويقع الشَّبح على كلِّ شخص مرئيّ. نُشِروا: أُحيوا. رمْس: قبر، والمسّ: لصوق جارحة بأخرى. الجَدّ: الحظ والنصيب. يُرْسي: يثبت ويقيم. التجلّي: البروز والظهور. اللَّبس: التخليط. درسي: ثوبي الخَلَق الجبر: أن تُغْنِيَ الرَّجل من فقر، أو تصلح عظمه من كَسْر، وجبره الله: سدَّ مفاقرَه. والنُّكس: بضم النون: عَوْد المرض بعد القوّة، ونكس نُكْساً.

* * *

فقال له القاضي: لِيَثُبْ أُنسُك، ولْتَطِبْ نفسُكَ، فَقَدْ حَقَّ لكَ أَن تُغْفَرَ خَطِيَّتُك، وتُوَفَّرَ عَطِيَّتُكَ. فثارتِ الزّوجَة عِندَ ذلك واستطالَتْ، وأشارت إلى الحاضِرين وقالت: [السريع]

يا أهْلَ تبريزَ لَكُمْ حَاكِمٌ أَوْفَى على الحُكّام تَبْرِيزَا
ما فيه مِنْ عَيْبٍ سِوَى أَنَّهُ يَوْمَ النَّدَى قِسْمَتُهُ ضِيزَى
قصدتهُ والشيخُ نبغي جَنَى عُودٍ له ما زَال مَهْزُوزا
فسرّحَ الشّيْخَ وَقد نَالَ مِنْ جَدْواه تخصيصاً وتمييزا

وردّني أخيب من شائم برقاً خفا في شهر تموزا
كأنه لم يدر أني التي لقنت ذا الشيخ الأراجيزا
وأنني إن شئت غادرته أضحوكة في أهل تبريزا

* * *

ليثُبْ: أي ليرجع. تُوفَّر: تكثر. ثارت: ظهرت، وأفشت سرَّها. واستطالت: جرحت بلسانها، وأعلتْ كلامها. أوفى: أشرف عليهم وزاد. تبريزاً: ظهوراً وسَبْقاً. ضِيزى: غير مستوية، فيها بخس ونقصان، وقد ضَازَ الحاكم، إذا جار، وضازه يضيزه ضَيْزاً، إذا نقصه ومنعه حقه. ويحكى أن مزيداً المدني ـ ويكنى أبا إسحاق ـ صلّى يوماً، فلمّا فرغ من صلاته قالت امرأته: اللهم أشْرِكْني في دعائه، فقال مزيد اللهمّ اصلبْني، فقالت امرأته: أمّا عَلى هذا فلا، فقال يا ضَرّاطة، تلك إذاً قسمةٌ ضيزى.

قوله والشيخَ: منصوب على المفعول معه. نبغي: نطلب. النَّدى: الكرم. وجَنَى العود: ما يجنى من ثمره، وأرادات كرم القاضي. ما زال مهزوزاً، أي ما زال القاصدون يهزّون عودَه فيتساقط عليهم جَنَاه، فمعنى ما زال مهزوزاً، أي مطلوب منه العطايا. جَذْواه: عطاياه تخصيصاً: ترفيعاً. تمييزاً: تعييناً، وقد تخصَّص الرجل: تشبَّه بالخواصّ، وتعيَّن: تشبّه بالأعيان. شائم: ناظر للبرق. خَفِيَ: لمع. تمّوز: يوليه بالسريانية، وهو أشدّ الشهور حَرًّا. لقنت: فهمت وحفظت. غادرته: تركته. أضحوكة: يَضحك به من رآه.

* * *

قَالَ: فلمَّا رأى الْقَاضِي اجتراءَ جَنانِهِمَا، وانْصِلاَتَ لِسانِهِمَا، علم أنَّهُ قَدْ مُنِيَ مِنْهُمَا بالدَّاءِ الْعَياء، والدَّاهِيَةِ الدَّهْيَاء؛ وأنّه مَتَى مَنَحَ أحَدَ الزَّوجَيْنِ، وَصَرَفَ الآخَرَ صِفْرَ الْيدَيْن، كَانَ كَمَنْ قَضى الدَّيْن بالدَّيْنِ، أوْ صَلَّى الْمغرِبَ رَكْعَيْن. فَطَلْسَمَ وطَرْسَمَ، واخْرَنْطَمَ وَبَرْطَم، وَهَمْهَمَ وَغَمْغَمَ، ثمَّ الْتَفَتَ يَمْنَةً وشامة وتَمْلمَلَ كآبَةً وَنَدَامة، وأخذَ يذُمُّ الْقضَاءَ وَمَتَاعِبَه، ويُعَدِّد شَوائِبَه ونَوائِبَه، ويُفَنِّد طالِبَهُ وَخَاطِبَهُ. ثمَّ تنفَّسَ كما يتَنَفَّسُ الْحَرِيب، وَانْتَحَبَ حَتَّى كادَ يفضحُه النّحِيب، وقال: إن هَذَا لَشَيءٌ عَجِيب! أَأُرْشَقُ فِي مَوقفٍ بِسَهْمَيْن! أأُلزَمُ في قضيّةٍ بمَغْرَمَيْن! أَأُطِيقُ أَنْ أُرْضِيَ الخَصْمين، ومِنْ أَيْنَ ومن أَيْنَ!

* * *

اجتراء: إقدام وتشجّع جَنانَهما: قلبهما، يريد أنهما لم يهاباه. انصلات لسانهما: خروجه بالكلام وطاقتُه بالشرّ، وانْصَلت السيف؛ تسْلل من غِمْده وخَرَج. مُنِيَ: بُلِيَ.

الدَّاء العياء: الذي يعيي الطبيب. والدَّاهية: كل أمر فظيع لا يُطاق. الدهياء: مبالغة وتأكيد لمعنى الدَّاهية، أي الداهية الشديدة. مَنْح: إعطاء. صِفْر: فارغ. ومَنْ قَضى الدَّين بالدَّين، فكأنّه ما قضاه وأنشدوا:

إذا كنتَ تقضي الدَّيْن بالدَّيْن لم يكُنْ قضاء ولكن كان غُرْماً على غُرْمِ

تململ: توجّع وتقلّب. كآبة: حزن وهمّ. شوائب: ما يكره ويختلط به. نوائبه: نوازله. يفنّد: يُخطِّىء. الحريب: المحزون المسلوب مالُه، وقد حَرَبه، إذا سلبه «فعيل» بمعنى «مفعول». انتحَب: بكى. يفضحه: يشهره. أرشق: أرمي، والرِّشْقِ جملة السهام تُرْمَى مجتمعة، وقال لبيد: [الرمل]

فرميت القومَ رِشْقاً صائباً ليس بالطّيْش ولا بالمفْتعلْ(١)

وإذا وقعت السهام مجتمعة عند الغَرَض سُمِّيت رِشْقاً، القضية: القضاء والحكومة. المغرَم والغَرامة واحد.

* * *

ثمَّ عَطَفَ إلَى حاجِبهِ، المُنْفِذِ لمآربه، وقال: ما هَذا يومُ حُكْم وَقَضَاء، وفَصْلٍ وَإمْضَاء؛ هذا يوم الاعْتِمَام، هَذَا يوم الاغترام، هذا يَوْمُ الْبُحْرَان، هذا يومُ الخُسْرَان، هذا يومٌ عَصيب، هذا يومٌ نُصابُ فيه ولا نُصيب؛ فأرِحْني من هَذَيْنِ المِهْذَارَيْن، واقْطَعْ لِسَانَهُمَا بدينارَيْن. ثمّ فرِّق الأصحاب، وأَغْلِق الباب، وأشِعْ أَنَّهُ يومٌ مَذْموم، وَأَنَّ القاضِيَ فيه مهموم، لِئلاً يَحْضرَني خصُوم.

قال: فأمّنَ الحاجِبُ عَلَى دُعائِهِ، وتباكى لبكائِهِ ثم نَقَدَ أَبا زيدٍ وعِرْسه المِثْقالَين، وقال: أشْهَدُ إنّكُما لأحْيَلُ الثَّقَلَين؛ ولكِن احتِرمَاً مجَالِسَ الحكّام، واجْتَنِبَا فِيها فُحْشَ الكَلاَم؛ فما كلُّ قاضٍ قاضِي تَبْريز، ولا كُلُّ وقتٍ تُسْمَعُ الأرَاجيز، فقالاَ له: مثْلُكَ مَنْ حَجَب، وشُكْرُك قد وَجَب، ونَهضَاً وَقَدْ حظِيَاً بدينارَيْن، وأَصْلَيَا قَلْبَ القاضِي نارَيْن.

* * *

(١) يروى عجز البيت:

ليس بالعصل ولا بالمقتعل

وهو في ديوان لبيد ص ١٩٤، ولسان العرب (روق)، (عصل)، (فعل)، (رقم)، ويروى أيضاً:

ليس بالعصل ولا بالمقتعل

مآربه حوائجه. البُحْران: كاليوم السابع من المَرض، والبُحران عند الأطباء: مدافعة عظيمة تقع بين الطبيعة والعِلّة، وبَحَر الرجل بحراً، إذا اجتهد في العدْوِ طالباً أو مطلوباً، فانقطع وضعُف. ورجل بحر: مسلول ذاهب اللحم. عَصِيب: شديد. المهذارين: الكثيرين الكلام بلا فائدة. اقطع لسانهما، أي صِلْهما حتى ينقطع بالدينارين كلامهما، وهذا اللّفظ الذي هو قَطع اللسان بالصِّلة قد نطق به رسول الله ﷺ حين أعطى المؤلّفة قلوبهمُ من نَفْل حُنين، مائة مائة، وأعطى العباس بن مِرْداس أباعر، فسخطها وقال: [المتقارب]

أتـجـعَـلُ نَـهْـبِـي ونَـهْـبَ الـعُـبَـيْـ	ـدِ بـيـن عُـيـيـنـة والأقْـرَعِ[1]
ومـا كـان حـصْـنٌ ولا حـابـسٌ	يـفـوقـان مِـرْداسَ فـي مـجـمـعِ
ومـا أنـا دون امـرىء مـنـهـمـا	ومَـنْ يُـخْـفَـضِ الـيـوم لـم يُـرْفـعِ

فقال ﷺ: «اقطعوا عني لسانه». فأعطِيَ حتى رضي وقد جاء في النوادر في حكاية ليلى الأخيَلية حين قال الحجاج: يا غلام اذهب إلى فلان، فقل له يقطع لسانها، فأمر بإحضار الحجام، فقالت: ثكلتك أمك! إنما أمَرَك أن تقطع لساني بالصِّلة، وهي لفظة مستعملة عند مَنْ له أمرٌ ونهي.

قوله: أمَّن، قال: آمين، ومعناه الرغبة في الإجابة. تباكى: استعمل البكاء. الثَّقَلَيْن: الإنس والجن، والواحد ثَقَلَ وثِقْل كمثَلَ ومِثْل، وأصله ما يُحمَل من الشيء الثقيل، فقيل لهما: ثَقَلان، لأنهما كالثَّقَل على الأرض. والفحش في القول كالفاحشة في الفعل. نهضا: تقدما. شكرك قد وجب: يقال: وَجَب البيع والحقّ، معناه وقع، وعنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ [الحج: ٣٦] أي وقعت على الأرض وسقطت. ووجب الحائط: سقط، ووجب قلبُه: فزع وخفَق. حَظِيَا: سَيِّدا. أصْلَيَا: أوْقَدا وألْصَقا به.

تفسير ما أودع هذه المقامة
من الألفاظ اللغوية والأمثال العربية

قوله: «لقيتُ منها عَرَقَ القِرْبة»، هذا مثَلٌ يُضرب لِمَنْ يَلْقَى شِدّةً من الأمْرِ الّذي يُزاوِلُهُ، كما أن حامِلَ القِربةِ يَلْقَى جَهْداً حتّى يَعْرَق.

وقوله: «جعلتُه دَبْرَ أُذُني»، يعني طرحْته، وهو كقوله تعالى: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

---

(١) الأبيات في ديوان العباس بن مرداس ص ٨٤، والبيت الأول في لسان العرب (نهب)، (عبد)، والبيت الثاني في الأغاني ١٤/ ٢٩١، والإنصاف ٢/ ٤٩٩، ولسان العرب (ردس).

وقوله: «أكْذب مِنْ سَجاح» يعني الّتي تنبّأت في عهد مُسَيْلمة الكذاب، وسارتْ إليه لتُناظره وتختبرَه ثم آمنت به، ووهبتْ نَفْسَها له؛ وهذا الاسمُ، مبنيٌّ على الكسر، مثل حَذَامِ وقطامِ، لكونِه من الأسماء المعدُولة، واشتقاقه من السَّجاحَة، وهي السُّهولة، ومن قولِهم: مَلَكْتَ فأسجِحْ.

وقولها: «أكْذبُ من أبي ثُمامة»، هذه كنية مُسيلِمة الكذاب، وكان تنبّأ باليمامة. ومَخْرق بها، إلى أن سار إليه خالدُ بن الوليد رضي الله عنه فقتله.

وقوله: «لا نَعِمَ عَوْفك». العَوْف: الحال، والعَوْف أيضاً الذِّكر، ويُدْعَى للباني على أهله فيقال له: «نَعِمَ عَوْفُك».

وقوله: «يا دفارِ يا فجارِ». هذان الاسمان معدولان من دَافرة وفاجرة، والدّفْر: النَّتن؛ وبه سُمِّيَت الدّنيا أم دفر؛ وكلّ ما سُمِّيَ بصفة غالبة، ثم عُدِل بها إلى «فعَال»، بُنِي على الكسر عند النداء، كقولك: يا لَكاعِ يا خباثِ، يا دَفارِ يا فجارِ، ولا يجوز استعمال ذلك في غير النداء إلاَّ في ضرورة الشعر، كقول الحطيئة: **[الوافر]**

أطــوِّف مــا أطــوّف ثــم آوِي إلـى بـيـت قـعـيـدتـه لَـكَـاعِ[1]

وأما قوله: «أحْمَقُ من رِجْلة»، فهي ضرب من الحِمْض تَنْبُت في جاري السَّيْل فيجرفُها.

وأمّا قولها: «الأمُ من مادِر»، فهو رَجُلٌ من بني هلال بن عامر؛ كان اتّخذ حَوْضاً لِسَقْيِ إبله، فلمّا رَوِيَتْ سَلَح فيه، ومَدَره بسَلْحِه؛ لئلا يَنْتفع به مَنْ بعده.

وأما قولها: «أشأَم من قاشر»؛ فإنّه فحلٌ كان في قبائل سعد بن زيد بن مناة بن تميم، ما طرق إبلاً إلاّ ماتت. وقيل: المرادُ به العام المجدب، وسُمِّيَ قاشِراً لقَشْره ما على وجْه الأرض من النبات.

وأما قولها: «أجبن من صَافِر»، فقد اختُلف في تفسيره، فقال بعضهم: عَنَى به كل ما يصفْرُ من الطير، وخصَّ بالجُبْن لكثرة ما يتّقيه من جوارح الجوّ ومصايد الأرض. وقيل: إنّه طائر بعَينِه؛ إذا جنّه الليل تعلّق ببعض الأغصان، ولم يَزَلْ يصفرُ طولَ ليلته خوفاً على نفسه من أن ينام فيُؤخذ. وقيل: إنه الذي يصفر بالمرأة لريبةٍ وهو يجبن وقتَ صغيره مخافة أن يُظهَر على أمره. وقيل: إنّ المُراد به في المثل المصفورُ بِهِ؛ وهو الذّي ينذر بالصَّفير ليهرب، فعلَى هذا القول فاعل هنا بمعنى مفعول، كقوله تعالى: ﴿مِن مَاءٍ دافِقٍ﴾ [الطارق: ٦] أي مَدْفُوق وكقولهم: راحلة بمعنى مَرْحِولة، وهو كثير في كلامهم، وقد جاء «مفعول» بمعنى «فاعل»، كقوله

(١) البيت في ملحق ديوان الحطيئة ص ١٥٦، والدرر ١/ ٢٥٤، وهو لأبي الغريب النصري في لسان العرب (لكع)، وبلا نسبة في شرح ابن عقيل ص ٧٦.

تعالى: ﴿حِجَاباً مَستوراً﴾ [الإسراء: ٤٥]، أي ساتراً. وكقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مأتياً﴾ [مريم: ٦١].

وأما قوله: «أَطْيَشُ من طَامِر»، فالمُراد بهِ البُرغوث؛ ويسمَّى طَامر بن طامر؛ لكثرة وُثوبه.

وأما قول القاضي: «أرَاكُما شَنًا وطَبَقة، وحِدَأة وبنُدقة»، فإنه أراد به أن كلاً منكما كفء لصاحبه وقاوم له. ولكل من المثَلْين تفسير مختلف فيه. أما شَنٌّ وطبقة؛ فإن العلماء مختلفون في معنى قولهم: «وافق شنٌّ طبقة»، فقال الأكثرون: إنّهما قَبيلتان؛ فشنٌّ هو ابن أفصى بن دُعميّ بن جَدِيلة بن أسد بن رَبيعة بن نزار. وطبقةَ حيٌّ من إياد؛ وكانت طَبَقة لا تُطاق، فأوقعت بها شَنّ، فانقصفتْ منها.

وقال بعضهم: كان شَنٌّ رجلاً من دُهاة العرب، وكان ألْزَمَ نفسه ألاّ يتزوَّج إلاّ بامرأةٍ تلائمه، فكان يجوبِ البلاد في ارتياد طَلِبته، فصاحَبَه رجلٌ في بعض أسفاره، فلمَّا أخذ منهما السيَّر، قال له شنٌّ: أتحمِلني أم أحملك؟ فقال له الرجل: يا جاهل وعلي يحمِل الرّاكب الراكب! فأمسك وسارَا حتى أتيَا على زرع، فقال له شَنّ: أترى هذا الزّرعَ أكِل أم لا؟ فقال له: يا جاهل، أما تراه في سنبله! فأمسك إلى أن استقبلتْهما جَنَازة، فقال له شنّ: أترى صاحبها حيًّا أم لا؟ فقال: ما رأيتُ أجهلَ منك، أتراهم حَمَلوا إلى القبر حيًّا! ثمّ إنهما وصلا إلى قرية الرجل، فصار به إلى منزله، وكانت له بنت تسمَّى طبَقة، فأخذ يُطرِفها بحديث رفيقه، فقالت له: ما نطق إلا بالصواب، ولا أستفهمَك إلا عما يَستفهم عن مثله ذَوُو الألباب. أما قوله: أتحملني أم أحملك، فإن أراد: أتحدِّثني أم أحدِّثك، حتّى نقطعَ الطريق بالحديث. وأما قوله: أترى هذا الزرع أكِل أم لا؟ فإنه أراد: هل استسلف أربابُه ثمنه أم لا! وأمّا استفهامُه عن حياة صاحب الجنازة، فإنّه أراد به: فخلّف عَقباً يَحيا ذكرُه به أم لا. فلمّا خرج إلى الرّجل حدّثه بتأويل ابنته كلامه، فَخَطبها إليه، فزوّجه إياها، فلمّا سار بها إلى قومِه وخبَروا ما فيها من الدَّهاء والفِطْنة قالوا: وافق شَنٌّ طَبَقة، فسار مثلاً.

وحُكِيَ عن الأصمعيّ، سئل عن تفسير هذا المثل فقال: أظنُّ أنّ الشّنَ وعاء من أدَم كان قد استشنّ، فلمّا اتُّخذ له غطاء وافقه، ضرِب فيه هذا المثل.

وأمّا حِدَأة وبندقة؛ فإنّه يقال في المثل المضروب لمن يفزَعُ بعدوّه أو يُبْلَى بنظيره: حدأ حدأ أو وراءك بندقة؛ وكان الأصل حدأة بإثبات الهاء، فرخّم في النداء وقد اختلف في المراد بهما، فقيل: الحدأة هو الطائر المعروف، وبُندقة الرامي.

وقيل: إنهما قبيلتان من سعد العَشيرة، فأغارت حِدَأة ـ وكانت تنزل بالكوفة ـ على بُندقة، وكانت تنزل باليمن، فنالتْ منهم، ثمّ كرتْ بندقة على حِدَأة فأنحت عليهم.

وروى بعضهم هذا المثل: حَداً حَداً، غير مهموز، على مثال عصا وقفا، وزَعَم أنّه اسم القبيلة.

وأما قوله: «أخطأتْ استكما الحفرة»؛ فإنّه مثل يُضْرَب لمن يُخْطِىءُ في مقصِده ويضع الشيء في غير موضعه.

وأمّا قوله: «طلسم وطرسم»، فمعنى طلسم كرِه وجهه، ومَعْنى طرسم أُطْرق.

وقوله: «اخرنطم وبرطم» أي غضب وقطَّب وجهه.

وقيل: معنى اخرنطم غضب مع تكبّر. ومعنى بَرْطم غضب مع تعبّس.

وأما قوله: «همهم وغمغم» أي لم يبيّن الكلام.

المقامة الحادية والأربعُون

وهي التِّنِّيسيّة

حدَّث الحارث بن هَمَّام قال: أَطَعْتُ دَوَاعِي التَّصَابي، في غُلَوَاءِ شَبَابي؛ فَلَمْ أَزَلْ زِيراً لِلْغِيد، وأُذُناً لِلأَغَارِيدِ؛ إِلَى أَنْ وَافَى النَّذِير، وَوَلَّى العَيْشُ النَّضير؛ فقرِمْتُ إِلَى رُشْدِ الانتِبَاه، وَنَدِمْتُ عَلَى ما فرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ، ثُمَّ أَخَذْتُ فِي كَسْحِ الهَنَاتِ بالْحَسَنَاتِ، وَتَلافِي الْهَفَوَاتِ قَبْلَ الْفَوَاتِ؛ فمِلْتُ عَنْ مُغَادَاةِ الْغَادَاتِ، إِلَى مُلاَقَاةِ التُّقَاةِ، وَعَنْ مُقَانَاةِ الْقَيْنَاتِ، إِلَى مُدَانَاةِ أَهْلِ الدِّيَانَاتِ، وَآلَيْتُ أَلاَّ أَصْحَبَ إِلاَّ مَنْ نَزَعَ عَنْ الْغَيّ، وَفَاءَ مَنْشَرُهُ إِلى الطَّي، وَإِنْ أَلْفَيْتُ مَنْ هُوَ خَلِيعُ الرَّسَنِ، مَدِيدُ الوسَنِ، أنأيتُ دَارِي عَنْ دَارِهِ، وفرَرْتُ عَنْ عرِّهِ وَعَارِهِ.

* * *

أطلْعتُ دواعَي التَّصابِي، يقال: أطعت كذا، وطعت له، أي انقدت. والمطيع: المنقاد، والتَّصابي: التّظاهر بالصِّبا والتشاغل به. ودواعيه: ما يدعوه إليه، وغُلَوَاء الشباب: أوله وسرعته، أراد: مِلْت إلى اللهو واللعب في أوّل شبابي، فلمّا أتى الشيبُ أحببت الرجوعَ إلى الخير. زيراً: كثير الزيارة. والغِيد: جمع غَيْداء، وهي اللّينة العنُق والمفاصل من النِّعمة. أذناً للأغاريد، أي كثير الاستماع للغِناء، وفلان أذُن، إذا كان يستمع من كلّ قائل، ويقبل منه. وافى: أتى، والنَّذير: الشيب، لأنه منذر الإنسان بتمام العمر، أي يُعلمه. وَلّى: رجع وزال. النَّضِير: الناعم، يريد زَمَن الشَّباب.

ونؤخِّر ذكر الشيب، فإنه يؤدّي إلى تغيير شرح المقامة، ونتكلم هنا على ذهاب الشّباب.

[البكاء على ذهاب الشباب]

قال أبو عمرو بن العلاء: ما بكَتِ العربُ شيئاً ما بَكَتِ الشباب، وما بلغتْ به ما يستحقّه.

الأصمعيّ: من أحسن ألفاظ الشعر المراثي والبكاء على الشباب، قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: الدنيا العافية، والشباب الصحة.

ومن ألفاظ أهل العصر: الشَّباب باكُورة الحياة، وروائح الجنة في الشباب. أطيب العيش أوائله؛ كما أنّ أطيب الثمار بواكرها.

قال الصوليّ: قد أكثر في ذكر الشّباب القدماءُ وأهل الإسلام. وأجمع الحُذّاق بالشعر وتمييز الكلام وألفاظه؛ أنه لم يُقَلْ فيه أحسنُ من قول منصور النَّمَرِيّ، ووقع الإجماع عليه، فما ضرّ تأخّره، وهو: [البسيط]

مَا تَنْقَضِي عبرةٌ منِّي ولا جَزَعُ ... إذا ذكرت شباباً ليس يَرْتَجِعُ[(١)]
بانَ الشبابُ وفاتَتْنِي مسرَّتهُ ... صروفُ دهرٍ وأيامٌ لها خُدَعُ
ما كنتُ أوفِي شبابي كُنْهَ غُرَّتِهِ ... حتَّى انْقَضَى فإذا الدّنيا له تَبَعُ
إن كنتِ لم تَطْعَمِي ثُكْلَ الشَّباب ولَمْ ... تَشْجَىْ بغصَّتِه فالعذر لا يقعُ
أبْكِي شَبَاباً سُلِبناه وكان ولاَ ... توفِي بقِيمَتِه الدّنيا ولا تَسَعُ
ما واجه الشَّيْبُ من عينٍ وإن رَمَقَتْ ... إلاّ لها نبوةٌ عنه ومُرتَدعُ

وقال أبو نواس: [الكامل]

كانَ الشَّبَابُ مِطَيَّةَ الْجَهْلِ ... ومحسِّنَ الضَّحِكَاتِ وَالْهَزْلِ[(٢)]
كان الجمالَ إذا ارْتَدَيْتُ به ... وخرجتُ أخْطِرُ صُيِّتَ النعل
كان البليغَ إذا نَطَقْتُ به ... وأصاخت الآذان للمُمْلِي
كان المشفّعَ في مآربه ... عند الحِسَان ومُدْرِك التَّبْل
والْبَاعثي والنّاس قد رَقَدُوا ... حتى أكُون خليفةَ الْبَعْلِ

وقال جحظة: [السريع]

واهاً لأيّام الشَّبا ... بِ وما لَبِسْنَ منَ الزخارفْ
وزَوالهِنّ بمَا عرفـ ... ـت من المنَاكِرِ والمعارف
أيام ذكرك في دوا ... وين الصِّبا صَدْرَ الصحائف

وقال ابن أبي حارثة: [البسيط]

ولّى الشَّبَابُ فخلِّي العينَ تَنْهَمِلُ ... فقدُ الشّبابِ بفقْد الرُّوحِ مُتَّصِلُ
لا تكذبنَّ فما الدّنيا بأجمعها ... من الشَّبابِ بيومٍ واحدٍ بدلُ

وقال آخر: [الكامل]

شيئان لو بكت الدِّمَاءَ عليهما ... عيناي حتى تؤذِنَا بذَهَاب

---

(١) الأبيات في الأغاني ١٣/ ١٤٥، وأمالي المرتضى ٢/ ٦٠٦.

(٢) الأبيات في ديوان أبي نواس ص ٣١١.

لم أبلغ المعشارَ من حَقَّيْهِمَا: فقدُ الشَّباب وفُرْقة الأحباب

أعرابي: [الكامل]

يا طيبَ أيّامِ الشَّبَابِ وعَصْرِهِ لو يُسْتَعَارُ جَدِيدُه فيعارُ
ما كان أقصرَ ليلَه ونهارَه وكذاك أيامُ السُّرورِ قِصارُ

وقال ابن عبد ربه: [الكامل]

قالوا شَبَابُكَ قد مَضَتْ أيَّامُه بالعيشِ قُلتُ وَقَدْ مَضَتْ أيامِي
لله أيةُ نعمةٍ كان الصِّبا لو أنها وُصِلَتْ بطُول دَوام
حَسَرَ الشَّبابُ قناعَه عن رأسه وصحا العواذلُ بعد طُولِ مَلاَمَ
فكأنّ ذاك الْعَيْشَ ظِلٌّ غمامةٍ وكأنَّ ذاك اللَّهْوَ طولُ مَنَام

وقال أيضاً: [الوافر]

صِبائي كَيْفَ صِرْتَ إلى نَفَادِ وبُدِّلْتَ البياضَ من السَّوادِ
فما أبْقَى الحوادثُ منك إلا كما أبقت من الْقَمَرِ الدّآدي
فراقُك عرّف الأحْزَانَ قلْبي وفرّق بين عيني والرُّقاد
زمانٌ كان فيه الرُّشدُ غيًّا وكان الغيّ فيه من الرّشاد
يقبِّلني بدَلٍّ مِنْ قَتُولٍ ويُسعِدُني بوصلٍ من سُعَادِ
وأجنُبُه فيعطِينِي قِياداً وَيَجْنُبني فأعطيه قيادِي

قال الفرزدق: [الكامل]

إنَّ الملامةَ مثل ما بَكَرتْ بها من تحت ليلتِها عليك نَوَارُ[1]
قالت: وكيف يميل مثلُك للصِّبا وعليك من سِمَةِ الحليم عِذَارُ
والشَّيْبُ ينهضُ في الشَّباب كَأنَّه ليلٌ يصيح بجانبيه نَهَارُ
إنّ الشباب لرابح مبتاعُه والشَّيْب ليس لبائعيه تِجَارُ

قال إسحاق الموصليّ: قال لي المعتصم: لقد فَضَحك الشيب في عارضيْك، فقلت: نعم يا سيّدي، وبكيت ثم قلت: [المتقارب]

تولّى شبابُك إلا قليلا وحلَّ المشيب فصَبراً جَمِيلا
كَفَى حَزَناً بفراق الصِّبا وإن أصبَح الشَّيْب منه بديلا

---

(١) الأبيات في ديوان الفرزدق ١/ ٣٧٢، والبيت الثالث في لسان العرب (نهر)، (ليل)، والتنبيه والإيضاح ٢/ ٢٢٠.

فلمّا رأى الغانيات المشيـ ـبَ أغضين دوني طَرْفاً كَحيلا
سأندُب عَهْدَ انقضاء الصِّبا وأبكي الشَّباب بكاءً طويلا

وغنّيتُها. فبكى المعتصم، وقال: لو قدرتُ على ردِّ شبابك لفعلتُ ولو بشَطْرِ مُلْكي؛ فلم يكن لكلامه عندي جواب إلاّ أنْ قَبَّلتُ البساط بين يديه.

وأبْكَى بيت وَرَد في فقد الشباب قول أبي الغُصْنِ الأسديّ: **[الوافر]**

أتأمُلُ رَجْعةَ الدُّنيا سفاهاً وقد صار الشَّباب إلى ذهابِ
فليْتَ الباكياتِ بكلِّ أرضٍ جُمِعْنَ لنا فنُحْنَ على الشَّباب

وقال سَلاَمة بن جندل، وهو جاهليّ: **[البسيط]**

أوْدَى الشَّباب حميداً ذُو التَّعاجيبِ أوْدَى وذلِكَ شأوٌ غَيْرُ مطلوبِ[1]
ولَّى حثيثاً وهذا الشَّيْبُ يطلبه لو كان يدركه رَكْضُ اليَعَاقِيبِ
أوْدى الشَّباب الّذي مجدٌ عواقبه فيه نَلَذّ ولا لذّاتِ للشيبِ

وقال سَلاَمة أيضاً: **[البسيط]**

يا خَدُّ أمْسَى سواد الرأس خالَطُه شَيْبُ القَذال اختلاطَ الصَّفْو بالكَدَرِ[2]
يا خَدّ أمست لُبانات الصبا ذهبتْ فلستَ منها على عَيْنٍ ولا أثرِ
كان الشباب لحاجاتٍ وكنّ له فقد فرغتُ إلى حاجاتيَ الأُخَرِ

وأنشد أبو العيناء: **[الكامل]**

ما في يديّ من الصِّبا إلاّ الصَّبابةُ والأسَفْ
جاء الشباب فما أقا م ولا ألمّ ولا وَقَفْ
كان الشَّبَابُ كزائرٍ ملّ الزيارة وانصرفْ

والباب لا يُحْصَى كثرة.

قوله: قِرمت لكذا، أي اشتدّت شهوتي إليه، وأصله شدّةُ الشهوة إلى اللحم. والرُّشْد والرَّشَد واحد. فرّطت: ضيّعت، وفرّط في الشيء: قدّم فيه التقصير والعجز، وهو من قولهم: فَرَطَ الفارطُ في طلب الماء، أي تقدّم القومَ إليه. وقرىء: ﴿**يا حَسْرَتَنا**

---

(١) الأبيات في ديوان سلامة بن جندل ص ٨٨، ٨٩ والبيت الأول في المخصص ١٢/١٤٧، ١٦/١١٣، وشرح اختيارات المفضل ص ٥٦٦، والبيت الثاني في لسان العرب (عقب)، (ركض)، ومقاييس اللغة ٢/٢٩، والمخصص ١٦/١١٣، والبيت الثالث في تخليص الشواهد ص ٤٠٠، والشعر والشعراء ص ٢٧٨.

(٢) الأبيات في ديوان ابن مقبل ص ٧٣، وجمهرة اللغة ص ٣٤٦، وفي الديوان «يا حُرّ» بدل «يا خدُّ»، والبيت الثاني في أساس البلاغة (تلو)، ومقاييس اللغة ١/٣٥١.

على مَا فَرَطْنَا فيها﴾ [الأنعام: ٣١]، بتخفيف الراء، ومثله: ﴿يا حسرتا على ما فَرَطت في جَنْبِ الله﴾ [الزمر: ٥٦]، ومعنى القراءتين التقصير في جَنْب الله، أي في حقه، وقيل: في أمر الله، وقيل في طاعته.

ابن الأعرابيّ: في قرب الله. الفراء: الجَنْب: القرب، والْجَنب معظم الشيء وأكثره، ومنه: هذا قليل في جنْب مودّتك. الزجّاج: أي على ما فرّطت في الطريق الذي هو طريق الله الّذي دعاني إليه.

وكَسْع الهَنَات، أي طرْد القبائح والقاذورات، والهَنَات، كناية عن الفواحش والأفعال القبيحة، مأخوذ من الْهَنِ، وهو الفرْج، وكَسْعُها: دَفْعها وإزالتها، والكَسْع أي أَن تضرب بيدك على دُبُر الشيء، وكَسَعْتُهم بالسيف، إذا اتَّبَعْت أدبارهم، فكأنه أزال القبائح عن نفسه ثم أتبعها بالدّفع والضّرْب؛ حتى نفاها بحسناته، والكَسْع أيضاً: أن تضرب الشيء بصَدْر قدمك وقد كَسَعْتُه. الأصمعيّ: الكسع: سرعة المرّ، وكسعته بكذا: جعلتُهُ تابعاً له.

تلافِي: تَدَارُك. الْهَفَوات: السّقطات والزَّلاَّت، وقد هفا الرَّجُلُ، إذا فعل المنكر وما يُكْرَه. الفوات: الموت. مغاداة: مباكرة، وقد غاداه: أتاه بالغدوّ، والغَادات: النَّواعم من النساء، الواحدة غادة، والتقاة: الخائفون، الواحد تقيّ، وقوله تعالى: ﴿إلاّ أنْ تتّقُوا منهم تُقَاةً﴾ [آل عمران: ٢٨]، يجوز أن يكون الأتقياء، ويجوز أن يكون مصدراً، وهو أجود القولين: تقيتُه، واتّقيتُه تُقَى وتَقِيَّةً وتُقاً وتِقاء، أي حذرته، والاسم التقوى. مقاناة: مخالطة وملازمة، وهي مفاعلة من القَيْنة، وهي الجارية المغنّية، والجمع قَيْنات. مداناة: مقاربة ديانات، هي من الدِّين، أراد بها الطاعة. آلَيْت: حلفت. نزع: زال وكفّ. الغيّ: الضلال. فاء: رجع. مَنشَره: انتشاره في الصِّبا واللهو. ألفيت: وجدت. خليع الرّسَن: مسيّب في المعاصي، لا يكفُّه عن إتيانها عقل ولا دين، وخَلَعْتُ رَسَنَ الدَّابة: تركْتُها ترعى حيث شاءت سائبة، ومثله خَالِع العِذَار، وخلع عِذاره، أصلُه في الدَّابّة إذا خُلِع عِذارُها فسُيِّبت، فإن انْفلَت رسنُها الذي تمسكها به ففرّت، قيل: جرّت رسَنَها، وفلان يجرّ رسنه، وبابه في الاستعارة أنه مسيَّب في الشهوات مجاهر بها. مديد الوَسن: طويل النَّوم، أي فارغ البال من ذكْرٍ أو صلاة بالليل أو قراءة. أنأيت: أبعدت. عرّه: جربه ودائه، يريد أنه حَلَف ألاّ يصاحب إلاّ مَنْ كَفَّ عن الصِّبا واللهو والنساء، ومتى وجد أهل اللهو والغزل فرَّ عنهم وتركهم، وقال الألبيريّ فأحسن: **[مجزوء الكامل]**

مَنْ حاد عن نهج الهدى ... فأضلَّ قصْدَ سبيلِهِ
فتوقّ خَلّته فدِيـ ... ـنُ المرءِ دِينُ خليلِهِ

وله أيضاً: **[الوافر]**

ألاَ خَبَرٌ بمنتزح النَّواحِي ... أطير إليه مقصوصَ الجناحِ

وأســألــه وألــطــفــه عَــسَــاه	سَيَأسُو ما بـدِيـنـيَ مـن جِـرَاحِ
ويجلُو ما دَجَى من ليل جَهْلي	بـنـور هُـدًى كـمـنـبـلـج الـصَّـبَـاح
فـأبـصـق فـي مـحـيَّـا أم دَفْـرِ	وأهـجـرُهـا وأدفـعـهـا بـرَاحِـي
وأصـحُـو مـنْ حُـمـيَّـاهـا وأسلُـو	عـفـافـاً عـن جـآذرهـا الْـمِـلاَح
وأصـرفُ هـمَّـتي بـالـكـفِّ عنـهـا	إلـى دار الـسَّـعـادة والـنَّـجـاح

* * *

فَلمَّا أَلْقَتْنِي الْغُرْبَةُ بِتنِّيس، وَأَحَلّتْنِي مَسْجِدَهَا الأَنِيس، رَأَيْتُ ذَا حَلْقَةٍ مُلْتَحِمَة، وَنَظَّارَةٍ مُزْدَحِمَةٍ؛ وَهُوَ يَقُولُ بِجأشٍ مَكِينٍ، وَلِسَانٍ مُبِينٍ: مِسْكِينٌ ابنُ آدَمَ وَأَيُّ مِسْكِينٍ! رَكَنَ من الدّنْيَا إِلَى غَيْرِ رَكِينٍ، وَاسْتَعْصَمَ مِنْهَا بِغَيْرِ مَكِينٍ، وَذُبحَ مِنْ حُبِّهَا بِغَيْرِ سِكّينٍ، يَكْلَفُ بِهَا لِغَبَاوَتِهِ، وَيَكْلَبُ عَلَيْهَا لِشَقَاوتِهِ، وَيَعْتَدُّ فيها لمُفَاخرَتِهِ، وَلاَ يتزوّد مِنْهَا لآخِرتِهِ.

أُقْسِمُ بِمَنْ مَرجَ الْبَحْرَيْنِ، وَنَوَّر الْقَمَرَيْنِ، وَرَفَعَ قَدْرَ الْحَجرَيْنِ: لَوْ عَقَلَ ابنُ آدَمَ، لَمَا نَادمَ، وَلَوْ فَكّرَ فِيمَا قَدَّمَ، لَبَكَى الدَّم، وَلَوْ ذَكَر الْمُكافآت، لاسْتَدْركَ مَا فَاتَ. وَلَوْ نَظَرَ في المآل، لحسَّنَ قبح الأَعْمَال.

يَا عَجباً كُلَّ الْعجبِ، لِمَنْ يَقْتَحِمُ ذَاتَ اللَّهب، في اكْتنَازِ الذَّهبِ، وَخَزْنِ النَّشب، لِذَوِي النَّسَب. ثمّ من الْبِدْعِ الْعَجِيب، أَن يَعِظَكَ وَخْطُ الْمَشِيب، وَتُؤْذِنَ شَمْسُكَ بِالْمَغِيبِ، وَلَسْتَ تَرَى أَنْ تُنِيب، وَتهذِّبَ الْمَعِيب.

* * *

[تنّيس]

تِنّيس بلدة كبيرة، وهي جزيرة أحدقت بها بحيرة يتَّصل بها النيل، فتعذب عند زيادته ستة أشهر، وتملح ستّة أشهر، ويتَّصل بها خليج دمياط، وخليجها ينقسم على شرقيها غربيّها، ويلتقيان فى البحيرة، فيسيرون بسفنهم من دمياط إلى تِنّيس؛ دخولهم لها وخروجهم بريح واحدة محكَمة. وأهل تِنّيس ذوو يسار، وأكثرهم حاكة. وثياب الشروب التي تُصْنَع بها وبدمياط لا يُصْنَع مثلها في الدنيا، وليس في الدنيا طراز كَتَّان يبلغ الثوب منها دون أن يعين بذهب مائة دينار، غير طراز تِنّيس ودمياط، ويكتفي ثوبها بقصّارة يوم واحد في البحيرة فيبيضّ. قال الْيَعقوبي: مدينةِ تِنِّيس يحيط بها البحر الأعظم الملح ولها بحيرة يأتي ماؤها من النِّيل، وهي مدينة قديمة بها تُعمل الثياب الرفيعة الصِّفاق والعَصْب والبُرود والوشْي، وبها مَرْسَى المراكب الواردة من الشام والمغرب.

قوله: ملتحمة، أي منضمة ملتصقة. ذا حلقة: يريد واعظاً قد حلّقه الناس والنَّظّارة: النّاظرون إليه. جَاشَ: تنفّس. مكين: شديد. مبين: مفصح. أيّ مسكين: ترحّم عليه لكثرة مسكنته وتعجّب منه. رَكَن: سكن ولجأ. ركين شديد: قويّ يُركن إليه، ورجل ركين، أي وَقورٌ بيِّن الركانة، والركين: الثابت. مكين: عزيز له مكانة، أي منزلة رفيعة. ذُبح من حبِّها بغير سكين: إشارة لعذابه فيها ومحنته، لأنّ السِّكين تذبح المذبوح من ساعته، ومَنْ يُذبح بحجَر أو عُود أو غير ذلك، فهو في تعذيب.

أبو موسى: قال النبي ﷺ: «مَنْ أحبّ دنياه أضرّ بآخرته، ومن أحبَّ آخرته أضر بدنياه، فآثر ما يَبْقى على مَا يفْنى»[1].

وقال سفيان بن عيينة: ويلَكُمْ يا علماء السوء، لا تكونوا كالمنخُل يخرُج منه الدقيق الطيب فيمرّ ويمسك النُخالة، فكذلك أنتم تُخرِجون الحكمة من أفواهكم، ويبقَى الغِلّ في صدوركم، ويحكم! إنّ الذي يخوض النَّهر لا بدّ أن يصيب ثوبَه الماء وإن جَهَد ألاّ يصيبه، كذلك مَنْ يحبّ الدنيا لا ينجو من الخطايا.

يَكْلَف، أي يولع بها ويشتدّ حبُّه فيها. غباوته: جهله. يكلَب: يشتدّ حرصه، وكَلَب على الشيء: ألحّ في طلبه، وأصله من الكَلب وهو السُعر في الكلاب. يعتدّ: يستعدّ. مَرَج: خَلط، وقيل: أرسلهما وخلاّهما كما تسرح الدابة في مرعاها. والقمرين: الشمس والقمر، غلَّب لفظ القمر لخفّته بالتذكير وإن كانت الشمس أنْوَر، وهي أصْلُ لنُور القمر، ولهذا قال المتنبي: **[الوافر]**

وَمَا التَّأنيثُ لاسم الشمس عيْبٌ ... ولا التَّذكير فخرٌ للهلال[2]

أراد أنّ الشمس أنور وأضوأ، فما يضرّها تأنيث اسمها، وما ينفع الهلال تذكيرُ اسمه، وهو ناقص عنها، فلخفَّة لفظ القمر غُلِّب، كما قالوا: العمران لأبي بكر وعمر، وأبو بكر أفضل من عُمر باتّفاقِ من أهل السنَّة، فغلَّبَ لفظ عمر لخفَّنه بإفراده وقلة حروفه.

[القمر ومما قيل منه]

ومما يحسُنُ موقعه مع قوله: ونَوّر القمرين؛ أنّ أعرابيًا أضلَّ الطريق فمات جَزَعاً، وأيقن بالهلاك، فلما طلع القمر اهتدَى، ووجد الطريق، فرفع إليه رأسَه ليشكُره، فقال له: والله ما أدري ما أقول لك، ولا ما أقول فيك! أقول: رفعك الله، فالله قدْ رفَعك، أم أقولُ: نَوَّرك الله، فالله قد نَوَّرك، أم أقول: حسّنك الله، فالله قد حسَّنك، ولكن ما بقي إلاّ الدعاء أنْ يُنسِيء الله في أجلك، وأن يجعلني من السوء فداءك.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٤/ ٤١٢.

(٢) البيت في ديوان المتنبي ٣/ ١٨.

وضَلَّتْ ناقة لأعرابيّ في ليلة مظلمة، فأكثر في طلبها، فلم يجدها، فلما طلع القمر وانبسط نوره وجدَها إلى جانبه ببعض الأوْدية، وقد كان اجتاز بموضعها مِراراً فلم يرها لشدّة الظلام، فرفع رأسه إلى القمرِ، وقال: **[البسيط]**

ماذا أقول وقولي فيك ذو خطرٍ ... وقد كفيتَنِي التَّفْصيل والجملا
إن قلت لا زلت مرفوعاً فأنت كذا ... أو قلت زَانك ربِّي، فهو قد فَعَلا

ومما قيل في ذمّه: عربد بعض المجّان على القمر، فقال: والله إنك لتفتّت الكَتَّان، وتُغير الألوان، وتصفِّر الأسنان، وتخثّر الأبدان، وتسدّد الآذان، وتفضح السّكران، وتظهر الكتمان وتقلق الصبيان، وتبيض الأرجُوان، وتلحس الزعفران، وتهزل الحِيتان، وتمحق الأدمغة بالنقصان.

وقال ابن المعتز يذمه: **[الكامل]**

يا سارق الأنوارِ من شَمْسِ الضُّحَى ... يا مُثْكِلِي طيبَ الكرى ومنغصِي
أمّا ضياءُ الشمس فيك فناقصٌ ... وأرى حرارة نارها لم تنقصِ
لم يظفرِ التَّشبيه فيك بطائل ... متسلخ لوناً كلون الأبرص

قوله: الحجرين، أي الذهب والفضة. وقيل الحجرَ الأسود ومقام إبراهيم عليه السلام. نادم: صاحب، والنَّدِيم الصاحب على الخمر. المكافآت: المجازاة. المآل: المرجع. ذات اللهب: صاحبة النار، يعني جهّنم. يقتحم: يترامى فيها، وهذا من قول رسول الله ﷺ: «إنّي لآخذ بِحُجَزِكم عن النار، وأنتم تقتحمون فيها، كما تقتحم الفراش والجنادب»[1].

الخَزْن: الجمع. البِدْع: الحدث لم يكن ثم كان، وقد ابتدعت الشيء: أحدثته، وسقت الناس إلى فعله. وَخَط: اختلط، وقدَ وَخَط الشيب الشَّعر، إذا خالطه وفَشَا فيه. وتؤذن: تعلم. شمسك بالمغيب: نفسك بالذهاب. تنيب: ترجع وتتوب. تهذب: تخلّصه من العيب. والمعيب: الكثير العيب. يرشد: يهدي ويدلّ الطريق.

[الدنيا ومما قيل فيها]

ونذكر هنا شيئاً مما قِيل في الدّنيا موافقةً للحريريّ، ثم نعود إلى ذكر الشيب:

ومن خُطبة قَطَرِيّ بن الفُجاءة في ذم الدنيا:

ألستم في مساكن مَنْ كان أطولَ منكم أعماراً، وأعدّ عَدِيداً، وأوضح آثاراً، وأكثر جنوداً، وأعدّ عتاداً، وأطولَ عماداً؛ تعبَّدُوا للدّنيا أيّ تعبُّد، وآثروها أيّ إيثار، وظعنوا

---

(١) روي بطرق وأسانيد متعددة، أخرجه البخاري في الرقاق باب ٢٦، ومسلم في الفضائل حديث ١٧، ١٨، والترمذي في الأدب باب ٨٢، وأحمد في المسند ١/ ٣٩٠، ٤٢٤، ٢/ ٢٤٤، ٣١٢، ٥٤٠، ٣/ ٣٦١، ٣٩٢، ٥/ ٤٠.

عنها بالكُرْه والصَّغَار، فهل بَلغكم أنّ الدنيا أسمحتْ لهم نفساً، وأغنت عنهم بحِيلة، بل أرهقتهم بالحوادث، وضعْضَعتهم بالنوائب، ودهمتْهم بالمصائب، أرأيْتُم مكرها بمن دان لها وآثرها، وأخلد إليها، يقول الله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ [هود: ١٥]، إلى قوله: ﴿وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٦].

وقال رسول الله ﷺ لأبي هريرة رضي الله عنه: «ألاَ أريك الدنيا جمعاء بما فيها؟ قال: قلت: بلى، فأخذ بيدي، وأتى وادياً من أودية المدينة، فإذا مَزْبَلَة فيها رؤوس الناس وعَذِرات وخِرَق، فقال: يا أبا هريرة، هذه الرؤوس كانت تحرص حرصكم، وتأمُل أمَلكم، ثم هي اليوم عظام، ثُمَّ غداً رماد، وهذه العذِرات ألوان أطعمتهم اكتسبوها من حيث اكتسبوها فقذفوها في بطونهم، فأصبحت والنَّاس يتحامُونها، والريح تصفقها، وهذه عظام دوابّهم التي كانوا بها ينتجعون أطراف البلاد، فمن كان باكياً على الدنيا فليبك» فما بَرِحْنا، حتى اشتدّ بكاؤنا.

مرّ أبو عثمان الدّباغ، برجلٍ على كنيف، فقال له: إلى هذا انتهت دنيا القوم..
وقال الشاعر: **[الكامل]**

ولقد سألتُ الدارَ عن أخبارِهِمْ ... فتبسَّمتْ عَجَباً ولم تُبْدِي
حتى مررتُ على الكَنِيف فقال لي ... أموالُهم ونوالُهُمْ عِنْدي

ويُروى أنّ عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام مرّ بجمجمة فضربها برجله، وقال: تكلَّمِي بإذن الله، فقالت: يا رُوحَ الله، أنا مَلِكٌ زمن كذا، فبينما أنا جالس في مُلْكِي، عليّ تاجي، وحولي حَشمِي وجنودي على سريري، إذ بَدَا لي مَلك الموت وظهر، فزال عنّي كلّ عضوٍ من موضعه، ثم خرجَتْ إليه نفسي.

ولبعض الزّهاد: **[الكامل]**

دُنْيا تُخادِعُنِي كأ ... نّي لَسْتُ أعرِفُ حالَها
مَدّت إليّ يمينَها ... فقطعتُها، وشِمالَها
منع الإلَهُ حرامَها ... وأنا اجْتَنَبْتُ حَلالَهَا
ورأيتُها مُحْتَاجَةً ... فوهبتُ جُمْلَتَها لهَا

ولبعضهم: **[الوافر]**

هَبِ الدّنيا تساقُ إلَيْكَ عفواً ... ألَيْس مصيرُ ذاك إلى انتقالِ
وما دُنْيَاك إلاّ مثلُ فيءٍ ... أظَلَّكَ ثمّ آذَنَ بالزَّوالِ

أبو العتاهية: **[البسيط]**

يا مَنْ ترفَّع بالدُّنيا وزينتِها ... ليس التّرفُّع رَفْعَ الطِّينِ بالطِّينِ

إذا أرَدْتَ شريفَ القوم كُلّهم ... فانْظُرْ إلى مَلِكٍ في زِيِّ مِسْكِين
أرى أناساً بأدنى الدِّين قد قَنَعُوا ... ولا أراهم رضُوا في العيش بالدُّون
فاسْتغْن بالله عن دنيا الملوك كما اسْـ ... ـتَغْنَى الملوكُ بدنياهُم عن الدِّين

وقال التّهاميّ: [الكامل]

حُكْمُ المنيَّةِ في البريّة جاري ... ما هَذه الدُّنيا بدارِ قَرارِ[١]
بَيْنَا يُرَى الإنسان فيها مخبِراً ... حتى يُرَى خبراً من الأَخبار
طُبعتْ على كدرٍ وأنت تريدها ... صَفْواً من الأقذار والأكْدَارِ
ومكلّف الأيّام ضِدَّ طباعِها ... متطلِّبٌ في الماء جَذْوَة نارِ

وقال أبو حاتم: إنّما بيني وبين الملوك واحدة؛ أمّا أمسِ فلا يجدون لذته، وأنا وإيَّاهم في غد على وجَل، وإنما هو اليوم، فما عسى أن يكون اليوم! أخذه أبو العتاهية فقال: [البسيط]

حَتّى متى نحن في الأيّام نحسَبُها ... وإنما نحنُ فيها بين يَوْمينِ[٢]
يومٌ تولَى ويومٌ نحنُ نأمُلُه ... لعلّه أجلبُ الأيام للحيْنِ

ولحاتم: [الطويل]

هل الدَّهر إلا اليومُ أو أمسِ أو غدُ ... كذا الدَّهر فيما بينَنَا يترددُ
تردّ علينا ليلةً بعدَ يومها ... فلا عمرُنَا يَبْقَى ولا الدّهر يَنْفَدُ

وللفقيه الباجي: [المتقارب]

إذا كُنْتُ أعلم علماً يقيناً ... بأنّ جميع حياتي كساعَهْ
فِلَمْ لا أكون ضنيناً بها ... وأجعلُها في صلاحٍ وطاعهْ!

وله أيضاً: [الطويل]

تبلغْ من الدُّنيا بأيْسَرِ زادِ ... فإنك عنها راحلٌ لمَعادِ
وغُضّ عن الدّنيا وزخرف أهلها ... جفونَك واكحُلْهَا بطيب سهادِ
وجَاهدْ عن اللّذات نفسَك جاهداً ... فإنَّ جهاد النَّفس خيرُ جِهَادِ
وما هي إلا دارُ لهوٍ وفتنةٍ ... وإنّ قصارى أهلها لِنَفَادِ

وقال آخر: [الوافر]

وما أهلُ الحياة لنا بأهْلٍ ... ولا دارُ الفَنَاء لَنَا بدارِ

---

(١) الأبيات في ديوان علي بن محمد التهامي في ديوانه ص ٤٧، والبيت الأول في تاج العروس (تهم).
(٢) البيتان في ديوان أبي العتاهية ص ٢٧٢.

ومـــا أمـــوالُـــنـــا إلاّ عَـــوارٍ سيأخذها المعيرُ من المُعَارِ

ولأبي العتاهية: [الكامل]

قطعتُ منكِ حبائل الآمالِ وحططتُ عن ظهر المطيّ رِحَالِي

ووجدتُ بَرْد اليأس بين جَوانِحي فأرحتُ من حَطّي ومِنْ ترْحَالِي

فالآن يا دُنْيا عرَفتُكِ فاذهبِي يا دارَ كلّ تنقُّلٍ وزوالِ

والآن صار ليَ الزمَان مؤدّباً فغدا وراحَ عليّ بالأمثالِ

يأيُّها البَطَلُ الّذي هو من غدٍ في قبره متفرّق الأوْصالِ

حِيَلُ ابن آدمَ في الأمورِ كثيرةٌ والموت يقطع حِيلَةَ المحتالِ

وللقاضي أبي حفص بن عمران: [المديد]

أيها المغتَرُّ بالزَّمَنِ في هواه خالع الرَّسَنِ

حبّك الدنيا وزينتها فتنة عَمَّتْك بالفتَنِ

ظَلْتَ والحالاتُ شاهدةٌ عاكفاً منها على وَثَنِ

فاهجرنْها إنّ زينتَها زينةٌ شانت ولم تزنِ

خدعتْك إنها قبُحتْ باطناً في ظاهرِ حَسَنِ

واسْلُ عن حرصٍ وعن طَمعٍ أملاً يردي وعنِ وعَنِ

ولتقدّم ما تُسرّ به قبل طول البَثّ والحَزَنِ

فكأنّ أُخْرَاك ما برحَتْ وكأنّ دنياك لم تَكُنِ

* * *

ثمّ اندفع يُنْشِدُ، إنشادَ مَنْ يُرْشِد: [السريع]

يَا وَيْحَ مَنْ أَنْذَرَهُ شَيْبُهُ وَهُوَ عَلَى غَيِّ الصِّبَا مُنْكَمِشْ

يَعْشُو إِلَى نَارِ الْهَوى بَعْدَمَا أَصْبَحَ مِنْ ضُعْفِ القُوَى يَرْتَعِشْ

وَيمْتَطِي اللَّهْوَ وَيَعْتَدُّهُ أَوْ طَأماً يَفْتَرِشُ الْمُفْتَرِشْ

لَمْ يَهَبِ الشَّيْبَ الذي ما رَأى نجومَهُ ذُو اللُّبِّ إلاَّ دُهِشْ

وَلاَ انْتَهى عَمّا مَا نَهَاهُ النُّهَى عَنْهُ وَلاَ بَالَى بِعِرْضٍ خُدِشْ

فَذَاكَ إِنْ مَاتَ فَسُحْقاً له وَإِنْ يَعِشْ عُدَّ كأنْ لم يَعِشْ

لاَ خَيْرَ في محيا امرىءٍ نَشْرُهُ كَنَشْرِ مَيْتٍ بَعْدَ عَشْرٍ نُبِشْ

* * *

قوله: يا ويح من أنذره شيبه، ويح كلمة ترحم؛ أنذره: أبلغه وحذّره. غيّ: ضلال. منكمش: مسرع إليه ملازم له، وقد كَمَشَ الرّجُل وانكمش في أمره: استمرَّ ومَضَى فيه مسرعاً.

ومن قولهم في الشيب

في هذا المعنى ما قال أكثم بن صيفيّ: الشيب عنوان الموت.

وقال العتابيّ: الشَّيْبُ نذيرُ الموت.

وقال النُّميريُّ: هو عِنْوان الكبَر.

قيس بن عاصم: هُو خِطام المنيّةُ.

محمود الوراق: الشّيْب إِحْدى الميتتين.

المعتز بن سليمان: الشيب موت الشَّعْر، وموت الشَّعر عِلَّةٌ لموت البشَر.

أعرابيّ: كنت أنكر السوداء، فيا خير مبدول ويا شرَّ بدَلٍ! أَخذه حبيب فقال: [الخفيف]

شابَ رأسي وما رأيتُ مشيب الرّأ ... سِ إلاَّ مِنْ فَضْل شَيْبِ الفُؤادِ[1]

وكذاك الرؤوس من كلّ بؤسٍ ... ونعيم طلائعُ الأجْسَادِ

طال إنكاريَ البياضَ وإنْ عُمّـ ... ـرتُ شيئاً أنكرتُ لون السَّوَادِ

زارني شخصُه بطلعة ضَيْمٍ ... عَمَّرَتْ مجلسِي من العُوَّادِ

قيل للنبي ﷺ: عجّل عليك الشيب يا رسول الله، فقال: «شيَّبتني هود وأخواتها»[2].

وقيل لعبد الملك: عَجَّل عليك الشيب يا أميرَ المؤمنين، فقال شيَّبني ارتقاء المنابر وتوقُّع اللحن.

وقيل لشاعر: عَجّل عليك الشيب، فقال: كيف لا، وأنا أعصِرُ قلبي في عملٍ لا يُرْجَى ثوابه، ولا يؤمن عقابه.

وقال محمود الوراق رحمه الله: [المتقارب]

بَكَيْتُ لقُرْبِ الأَجَلْ ... وَبَعْد فواتِ الأَمَلْ

ووافدِ شَيْبِ طرَا ... بَعقْبِ شبابِ رَحَلْ

شبابٌ كأَنْ لم يكُنْ ... وشيبٌ كأَنْ لم يَزَلْ

---

(١) الأبيات في ديوان أبي تمام ص ٧٥.

(٢) أخرجه الترمذي في تفسير سورة ٥٦، باب ٦، بلفظ: «شيبتني هود والواقعة».

وقال حبيب: [الطويل]

غَدَا الشَّيبُ مُخْتَطًّا بفوديَّ خُطَّةً ... طريقُ الرَّدَى منها إلى النَّفس مَهْيَع[1]
هو الزوْرُ يُجْفَى والمُعاشِرُ يُجْتَوَى ... وذُو الإلف يُقْلَى والجديد يرقَّعُ
له مَنْظَرٌ في العين أبيض ناصعٌ ... ولكنَّه في القلبِ أسودُ أسفَعُ
وَنَحْنُ نُرَجِّيه على السخط والرضا ... وَأَنْفُ الفتى من وجْهِه وهو أجْدَعُ

وقال ابن عبد ربه: [الوافر]

شَبَابُ المرء تُنفِدُه اللَّيالي ... وإنْ كانت تَصِيرُ إلى نَفَادِ
فأسْوَدُه يعود إلى بياضٍ ... وأبيضُه يعودُ إلى سَوَاد

أخذ هذا من قول المستوغِر بن ربيعة حين دخل على معاوية، وهو ابن ثلاثمائة سنة، فقال: كيف تجدك يا مستوغر؟ قال: أجدني قد لآن مني ما كنت أحبّ أن يشتدّ، وابيضّ منّي ما كنت أحبُّ أن يسودّ.

وقال ابن عبد ربه: [البسيط]

أَطلالُ لهْوِك قد أقوتْ مغَانيها ... لم يبقَ من رَسْمِها إلا أثَافيها
هذِي المفارق قد قامت شواهدُها ... على فنائك والدُّنيا تُزَكِّيها
للموت سفتَجَةٌ فيها معنونة ... لم يبق للموت إلا أنْ يسحِّيها

* * *

قوله: يعشو، أي ينظر ببصر ضعيف. يمتطي: يركب. يعتدّه: يحسبه. المفترش: المضطجع على الفراش، يريد أنه يركب اللّهو فيلتذّه ويجده وطيئاً. يَهَب: يَخَفْ. اللّب: العقل: دُهِش: تحيّر. النُّهى: جمع نُهْية، وهي العقل ينهَى عن القبيح، وينتهي به إلى حسن الرأي في الأمور، ويقال: نهاه عن ذلك نُهاه، أي عقله.

وأنشد أبو طاهر السِّلَفِيّ، قال: أنشدني القاضي أبو محمد بن الحسن بن نصر بن مرهف النَّهاونديّ، قال: أنشدني الأديب المدنيُّ لنفسه في نفسه: [الخفيف]

لِي عَلَى النَّاسِ فضلُ نظم ونثرٍ ... مَنْ أَبَاهُ هجوتُه وَأَبَاهُ
وإذا ما أتى صفعتُ قفاهُ ... وقفَا مَنْ أعانه وَقفاهُ
رحم الله من أراد مُحَالاً ... فنهاهُ عن المحال نُهَاهُ

قوله: خُدِش، أي ذمّ وسُبّ، وأصل الخدْش الأثر في الجِلْد، ثم اتُّسع فيه، فجُعِل للعِرْض. سحقاً: بعدا، والنَّشْرُ: الرِّيح؛ طيّبة كانت أو خبيثة. نُبِش: أُخْرِج، وكل مدفون

(١) الأبيات في ديوان أبي تمام ص ١٩٠.

أَخرجتَه فقد نبشتَه. وأَخذ هذا البيت من قول ابن المعتز: [الطويل]

تـبـحَّـثْـتُ عـن آثـاره فـكـأنَّـمَـا ... نـبشـت عـلـيـه بـعـد ثـالـثـةِ الـدَّفْـنِ

وله: [الكامل]

أُثنِي عليك بمثل ريحك ميِّتاً ... في عـقـبِ يـوم تـزفُّـك الأعـوادُ

وأخذ هذا وهذا من قول عمر بن عبد العزيز: لو رأيتني بعد ثالثة! وتقدّم في الحادية عشرة [السريع]

وَحَـبَّـذَا مَـنْ عِـرْضُـه طَـيِّـبٌ ... يَـرُوقُ حُـسْـنـاً مِـثْـلَ بُـرْدٍ رُقِـشْ

فَـقُـلْ لِـمَـنْ قَـدْ شَـاكَـهُ ذَنْـبُـه: ... هَـلَـكْـتَ يَـا مِـسْـكِـينُ أَوْ تَـنْـتَـقِـشْ

فـأَخْـلِـصِ الـتَّـوبـةَ تـطْـمِـسْ بِـهَـا ... مِـنَ الْـخـطَـايَـا الـسُّـودِ مَـا قَـدْ نُـقِـشْ

وَعَـاشِـرِ الـنَّـاسَ بِـخُـلْـقٍ رِضـاً ... وَدَارِ مَـنْ طَـاشَ وَمَـنْ لـم يَـطِـشْ

وَرِشْ جـنـاح الْـحُـرِّ إن حَـصَّـهُ ... زَمَـانُـهُ، لاَ كَـانَ مَـنْ لـم يَـرِشْ

وَأَنْـجِـدِ الـمَـوْتَـور ظـلْـمـاً فَـإِنْ ... عَـجَـزْتَ عَـنْ إِنْـجَـادِهِ فَـاسْـتَـجِـشْ

وَانْـعَـشْ إِذَا نَـادَاكَ ذُو كَـبْـوَةٍ ... عَـسَـاكَ فِـي الْـحَـشْـرِ بـهِ تَـنْـتَـعِـشْ

وَهَـاكَ كَـأسَ الـنُّـصْـحِ فَـاشـربْ وَجُـدْ ... بِـفَـضْـلَـةِ الـكَـأسِ عَـلَـى مَـنْ عَـطِـشْ

* * *

يروق: يُعْجِب: بُرْد: ثوب. رُقِش: رقِم وَزُيِّن، تقول: رقشتُ يدَ المرأة بالحنَّاء والحائطَ بالأصباغ والقرطاسَ بالْمِداد، وشبه هذا شاكَه ذنبُه، يقال: شاكه يشُوكه، إذا دخل فيه شَوْكة، قال الشاعر: [الكامل]

لا تـنـقُـشَـنّ بـرجـلِ غـيـرك شَـوْكـةً ... فتَقِي برجلِكَ رِجْلَ من قَدْ شَاكَها[١]

فشاكها، أَدْخَلَ فيها الشوك، وشَاكَتْه الشوكة: دخلت فيه، وشُكْتُه أنا، إذا أدخلتَ الشوكة في جسمه، فإنْ أصابك الشَّوك قلت: شاكني الشَّوْك يشوكُنِي شَوْكاً. وانتقشت حقِّي من فلان، إذا استخرجتَه ولم تترك منه شيئاً.

وقال ﷺ: «وإن شيك فلا انتقش»[٢]، فشِيك أصابه الشوك ومعناه إذا وَقع في شرٍّ فلا يخلص منه.

تَنْتَقِش: تخرج الشَّوْكة وتبحث عليها، وأوْ بمعنى إلاَّ. والمناقشة: البحث والاستقصاء، ومنه مناقشة الحساب، وبذلك سمي المِنْقاش، وقال ابنُ الرومي: [الطويل]

---

(١) البيت ليزيد بن مقسم الثقفي في تاج العروس (شوك)، وبلا نسبة في لسان العرب (نقش)، (شوك).

(٢) أخرجه ابن ماجه في الزهد باب ٨.

إذا رُمْتُ بالمنقاشِ نَتْفَ أشاهِبي أتيح لها من بينهنَّ الأباهمُ
يُرَاوِغ منقاشِي نجومَ مسايحي وهنَّ بعيني طالعاتٌ نَوَاجِمُ

تطْمِس: تمحو. ونقش: كتب، والنَّقش يستعمل في مثل الخشب والحائط والصَّخْر، والنَّقْش: الفتح والتأثير في نفس المنقوش. وقال الألبيريّ في معنى هذا البيت: **[الكامل]**

مَنْ لَيْسَ يسعى في الخلاص لنفسِه كانت سعايته عليها، لا لَهَا
إنّ الذنوب بتوبةٍ تُمْحَى كَمَا يمحُو سجودُ السَّهْوِ غفلةَ مَنْ سها

قوله: عاشر، أي صاحبْ. دارِ: عامِلْه بما يحبّ، وَامْشِ على غَرضِه طاش: خَفَّ عقْلُهُ، ورجل طَيّاشٌ غير مقتصد في قوله، وهو مِنْ طاش السهم، إذا لم يصب ووقع على غير قَصْد، ومثله قول أعرابيّ لبنيه: عاشرُوا النَّاسَ مُعَاشرةً إذا غبتم حنُّوا إليكم، وإن متُّمْ بكُوا عليكم؛ وهذا من قول الشاعر: **[الطويل]**

وأكرمْ كريماً إن أتاك لحاجةٍ لِفاقَتِه إن العضاة تَرُوحُ[1]

وقال الأضبط بن قريع: **[المنسرح]**

لا تهين الفقيرَ عَلَّك أنْ تَرْكَعَ يوماً والدّهر قد رَفَعَهْ[2]

رش الجناح: اكسه الريش، والمعنى أصلِح حال الحرّ إذا افتقر. حَصّه: نتفه. أنجِد: قوّ وأعِنْ، والموتور: المظلوم الَّذي قتِل له أخ أو ولد أو نسيب. اسْتَجِشْ: اجمع جيشاً، والمعنى: إذا لم تقدر على إعانة مظلوم، فتوسَّط لمن يُعينه. انعش: ارفع. كبوة: سَقْطة وعثرة. تنتعش: ترتفع وتقوم من عَثْرتكَ. هاكَ: خذ، والمعنى خذ كأس النصيحة فاشربْهَا فإذا رويتَ فاسْقِ غيرك. ولا يقال كأس إلاّ إذا كان فيها شراب.

* * *

قال: فَلمَّا فَرَغَ من مُبْكِيَاتِهِ، وَقَضَى إنشادَ أبياتِه، نَهضَ صَبِيٌّ قَدْ شَدَنَ، وَأَعْرَى الْبَدَنَ، وَقَالَ: يَا ذَوِي الْحَصَاة، وَالإِنْصَاتِ إِلَى الْوَصَاةِ، قَدْ وَعَيْتُم الإِنْشَاد، وَفقَهْتُم الإرشاد، فَمَنْ نَوَى مِنكُمْ أَنْ يَقْبَلَ، وَيُصْلِحَ الْمُسْتَقْبَلَ، فَلْيُبِنْ بِبِرّي عن نِيَّتِهِ، وَلاَ يَعْدِلْ عَنّي بعطيَّتِه؛ فوالذي يَعلم الأسرار، ويغفِرُ الإِصْرار؛ إِنَّ سِرِّي لَكمَا

(١) البيت بلا نسبة في أساس البلاغة روح.

(٢) البيت للأضبط بن قريع في الأغاني ٦٨/١٨، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ١١٥١، وبلا نسبة في الإنصاف ٢٢١/١، وشرح ابن عقيل ص ٥٥٠، ولسان العرب (قنس)، (ركع)، (هون)، واللمع ص ٢٧٨.

تَرَوْنَ، وإنَّ وَجْهِي لَيَسْتَوْجِبُ الصَّوْن؛ فأَعينُونِي رُزِقْتُم الْعَوْنَ.

قال: فأَخَذَ الشَّيْخُ فيما يَعْطِفُ عَلَيْهِ الْقُلُوبَ؛ ويُسَنِّي لَهُ الْمَطلُوب؛ حَتَّى أَنْبَطَ حَفْرُهُ، وَاعْشَوْشَبَ قَفْرُهُ. فَلَمَّا أَنْ تَرَعَ الْكِيسُ؛ انْصَلَتَ يَمِيسُ، وَيَحْمَدُ تِنِّيس، ولم يَحْلُ لِلشَّيْخِ المُقَام، بَعْدَمَا انْصَاع الغلام. فَاسْتَرْفَعَ الأَيْدِي بالدُّعاءِ، ثُمَّ نَحَا نَحْوَ الانْكِفَاء.

* * *

قوله: قضى، أي أتمّ. نهض: قام وتقدّم. شَدَن: اشتدّ وقوِيَ، وأصله في الظَّبْي والصبيّ، تقول: شَدَن الظبيُ، إذا اشتدّ وترعرع، وكذلك الصبيّ قال عمر بن أبي ربيعة: [البسيط]

إِذْ تَسْتَبِيك بمصقولٍ عوارضُه ... ومقلتيْ جُؤْذَرٍ لم يَعْدُ أنْ شَدَنَا[1]

أراد أنّه ترعرع للمشي وَالرَّعْي. أعْرَى البدن: تركَه عُرياناً. ذوِي الحَصَاة: أهل العقول: والإنصات: السكوت وحسن الاستماع، والوَصَاة، بمعنى الوصيّة كالتقاة بمعنى التقيّة، وأصلها «وقيّة» قُلِبت الواو تاء والياء ألفاً، والواو إذا انضمّت في أول الكلمة كنتَ بالخيار، إن شئت تركتَها، وإن شئتَ قلبْتَها، ولهذا تُرِكت في الوَصاة. وقيل الوَصَاة بفتح الواو في الوصيَّة، وبضمّها جمع واصٍ كراعٍ ورُعاة، وعيتم: حفظتم. فقهتم: فهمتم الإرشاد: الهداية: أي قد فهمتم ما دللتم عليه من الخيْرِ فافعلوا. نوى: قَصَد وأضمر، وهو من النيّة، وأراد بالمستقبل، ما يستقبلُه من أفعاله. فلْيبن: فليفصح ويبيّن. ببرِّي: بإكرامي. عن نيّته: عن قصده وصِدْق باطنه. يعدِلْ: يَمِلْ. الإصرار: الإقامة على الذنب، سرِّي لكما تروْن، أي هو ظاهر لكم غير مستتر. الصَّوْن: الحْوطة فيما يعطف عليه القلوب، يريد أنه أخذ في كلام تحنّ به للصبيّ قلوب الناس. يسنِّي: يسهل ويُيَسّر. أنبط: أخرج الماء. القَفْر: ما لا نبات فيه. اعشوشب تغطّى بالعشب، يريد أنه استغنى بعد الفقر، وضرب بأنْبَط واعشوشب المثل. ترَع: امتلأ، والكِيس: وعاء الدراهم انْصَلت: تسلّل وخرج بسهولة. يميس: يتمايل ويتبختر. انصاع: ذهب مسرعاً وانفتل راجعاً. استرفع: طلب رفعها. نحا نحو الانكفاء، أي قصد قَصْد الانصراف.

* * *

قال الرَّاوي: فارْتَحْتُ إِلَى أَنْ أُعْجِمَهُ، وَأُحِلَّ مُتَرْجَمَهُ، فتبعتُه وهو يَشْتَدُّ في سَمْتِهِ، ولا يَفْتُقُ رَتْقَ صَمْتِهِ؛ فلمَّا أَمِنَ المُفَاجِي، وَأَمْكَنَ التناجِي، لَفَتَ جِيدَه إِلَيَّ،

(١) البيت في ديوان عمر بن أبي ربيعة ص ٣٠٧.

وسَلَّمَ تَسْلِيمَ الْبَشاشَةِ عَلَيّ، ثم قال: أراقَكَ ذَكَاءُ ذَاكَ الشُوَيْدِن؟ فقلْتُ: إي والمؤمِنِ الْمُهيْمِنِ؛ قَالَ: إِنَّهُ فتى السَّروجِيّ، وَمُخْرِجِ الدُّرِّ مِنَ اللجِّيّ. فقلت: إِنَّكَ لشَجَرَةُ ثَمرَتِهِ، وشُوَاظَ شَرَرِتِهِ. فصدَّق كَهَانتي، وَاسْتَحْسَنَ إبانَتِي. ثمَّ قال: هَلْ لَكَ في ابْتِدَار الْبَيْتِ؛ لنَتنَازَعَ كَأسَ الكُمَيْت؟ فقلت له: وَيْحَكَ! **﴿أتأْمُرُونَ النَّاس بالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسكُمْ﴾** [البقرة: ٤٤]، فافتَرَّ افترارَ مُتَضَاحِك، وَمَرَّ غير مماحِك. ثُمَّ بَدَا لَهُ أَنْ تراجَعَ إِلَيَّ، وقال: احْفَظْهَا عَنِّي وَعَلَيّ: **[السريع]**

اصْرِف بِصِرْفِ الرَّاحِ عَنْكَ الأسَى ... وروِّحِ القَلْبَ ولا تَكْتَئِبْ

وَقُلْ لِمَنْ لامَكَ فيما بِهِ ... تَدْفَعُ عَنْكَ الهَمَّ: قَذْكَ اتَّئِبْ

قوله: ارتحت، أي اشتهيت وطربت. أعجُمه: أَخْبُره. مترجَمه: ملتبسه. يشتد: يجري. سمته: طريقه. يفتق رتق: يشقّ غلق. صمته: مبهم أمره والفتْق: الخرْق، والرَّتْق: الإغلاق، وهو ضدّه، وذلك أن يضمَّ المتخرّق بعضَه إلى بعض. التّناجِي: التّحادث. لفت جيده: عطف عنقه. البشاشة: الخِفَّة وإبداء السرور. أراقك؟: أأعجبك؟ ذكاء: حِذْق، والذَّكاء: توقّد الذهن. الشُّوَيدِن: تصغير شادن، وأراد ابنهَ. والمؤمن المهيمن، هو الله تعالى، والإيمان: التصديق. وقال أبو بكر بن العربي: الباريء تعالى مؤمن بتصديقه لنفسه بقوله، وذلك حقيقتُه، قال الله تعالى: **﴿شَهِد الله أنه لا إله إلاّ هُوَ﴾** [آل عمران: ١٨]، أو بتصديقه لرسله بإظهار المعجزة، أو لأوليائه بإظهار الكرامة، وهما مجازان، والمهيمن: الرقيب الحافظ.

الكسائي: المهيمن: الشهيد. أبو عبيدة: الرقيب، وقد هَيْمَن هيمنة. ابن الأنباري: القائم على خلقه، قال الشاعر: **[الطويل]**

ألا إنّ خير الناس بعد نبيهمْ ... مُهيمنه التَّالِيه في العُرْف والنُّكْرِ(١)

أي القائم على الناس بعده، وأصله «مؤيمن» فأبدلوا من الهمزة هاء كما قالوا: أَرَقْت وهَرَقْت. وفي مثل مدح هذا الغلام بالذكاء قال الفضل بن جعفر: **[الطويل]**

فإن خَلَّفَتْهُ السنّ فالعقل بالغٌ ... به رتبةَ الكهْلِ المرشّحِ لِلمجْدِ

فقد كان يحيى أوتيَ الحكم قبلَه ... صبيًا وعيسى كلم النّاس في المهدِ

وقال البحتريّ: **[البسيط]**

لا تنظرنَّ إلى العبّاس من صِغَرِ ... في السنّ وانظر إلى المجد الَّذي شادَا(٢)

---

(١) البيت بلا نسبة في لسان العرب (همن)، وتهذيب اللغة ٦/ ٣٣٤.

(٢) البيتان في ديوان البحتري ص ٦١٠، وفيه «لا تنظرنّ إلى الفياض» بدل «لا تنظرنّ إلى العباس».

إنّ النّجوم نجومُ الجوِّ أحقرُها في العين أكثرُها في الجوِّ إصعادًا

[من نوادر الولدان]

ولمَّا ذكَر لهذا الصبيّ من فصاحة اللسان وبراعة البيان ما ذكر، وجب علينا أن نذكر من نوادر الولدان فصلاً كافياً يؤنس بما ذَكَر، لئلا نخلّ بما شرطناه، فقد تروى للولدان نوادر، ربما عجزت عنها الكهول ذوو البصائر.

حكى الخطَّابيّ أنه قدِم على عمر بن عبد العزيز وفدٌ فيهم شاب، فتحوّس للكلام، فقال عمر: كبِّروا كبِّروا، أي ليتكلَّم الكبراء منكم، فقال: الغلام يا أميرَ المؤمنين، لو كان [الأمر] بالسنِّ لكان في المسلمين من هو أسنُّ منك.

قال عمر: صدقت! تكلّم.

فتحوّس: فتهيَّأ للكلام.

وفي رواية: قدم وفد الحجاز على عمر فقدَّموا غلاماً منهم للكلام، فقال عمر: مهلاً، ليتكلَّم مَنْ هو أسنُّ منك، فقال الغلام: مهلاً يا أمير المؤمنين، إنَّما المرء بأصغريه: قلبِه ولسانه، فإذا منح الله العبد لساناً لافظاً وقلباً حافظاً فقد أجاد له الْحِلية. قال: تكلَّم، قال: نحن وفود الشكر، لا وفود المرزِئة، لم تُقْدِمْنَا إليك رغبة ولا رهبة، لأنّا أمِنّا في زمانك ما خفنا، وأدركنا ما طلبنا.

ودخل محمد بن عبد الملك بن صالح على المأمون حين قُبِضت ضياعهم وهو غلام صغير، فقال: السَّلام عليك يا أميرَ المؤمنين، محمد بن عبد الملك، سليلُ نعمتك وابن دولتك، وغصنٌ من أغصان دوحتك؛ أفتأذن لي في الكلام؟ قال: نعم. فحمِد الله تعالى وصلّى على نبيه، ثم قال: أمتعنا الله بحياطة ديننا ودنيانا، ورعاية أقصانا وأدنانا، ببقائك يا أميرَ المؤمنين، ونسأله أن يزيد في عمرك من أعمارنا، وفي أثرك من آثارنا، ويقيَك الأذى بأسماعنا وأبصارنا، هذا مقام العائذ بظلِّك، الهارب إلى كنَفك وفضلك، الفقير إلى رحمتك وعدلك. ثم سأل حوائجه فقضاها.

وقَحطَتِ البادية أيام هشام بن عبد الملك؛ فوفد علَيه رؤوس القبائل فجلس لهم، وفيهم صبيٌّ، ابن أربع عشرة سنة، يسمَّى درواس بن حبيب، في رأسه ذؤابة، وعليه بُرْدة يمانية. فاستصغره هشام وقال لحاجبه: ما يشاء أحدٌ أن يصل إلينا إلا وصل، حتى الصبيان! فقال درواس: يا أميرَ المؤمنين، إنّ دخولي لم يُخلَّ بك ولا انتقصك، ولكنَّه شرَّفني، وإن هؤلاء قدِمُوا لأمرٍ فهابوك دونه، وإن الكلام نشر، والسكوت طيّ لا يُعرَف إلا بنشره؛ فأعجبه كلامه، وقال: انشرْ لا أمّ لك! فقال: إنا أصابتنا سنون ثلاثة، فسنة أكلت اللحم، وسنة أذابت الشحم، وسنة أنْقَت العظم[1]، وفي أيديكم فضول أموالٍ،

(١) النقى: منح العظم، وأنقت العظم: أي أخرجت النقى منه.

فإن كانت لله عز وجل ففرّقوها على عباده، وإن كانت لهم فلا تحتبسوها عنهم، وإن كانتْ لكم فتصدّقوا بها عليهم؛ فإن الله يجزي المتصدّقين، ولا يضيع أجر المحسنين؛ وإنّ الواليَ من الرعيّة كالروح من الجسد، لا حياة له إلا به.

فقال هشام: ما ترك الغلام في واحدة من الثلاث عذراً، وأمر بمائة ألف دينار ففُرِّقَتْ في أهل البادية، وأمر له بمائة ألف درهم: فقال: ارْدُدْها في جائزة العرب، فما لي حاجة في خاصّة نفسي دون عامّة المسلمين.

أحمد بن يحيى: حدّثني السدريّ أن نُميراً غزت حَنِيفة فغنمتْ، وتبعتْهم حنيفة فهزموهم، وردُّوا غنائمَهم، فلقيتُ غلاماً منهم، فقلت: كيف صنع قومك؟ فقال: تبعوهم والله، وقد أحقبوا كل جُمالية خَيْفَانة، فما زالوا يخصفون أخفاف المطيّ بحوافر الخيل حتى لحقوهم بعد ثالثة. فجعلوا المرّان أرشيةَ الموت، فاستقَوْا بها أرواحَهم.

وهذا كلام فصيح كثير الاستعارة. أحقبوا: أُردِفوا بموضع الحقيبة، والجُمَالية المرأة الجميلة: وخصف: خرز، وتشبيه المرّان ـ وهي الأرماح ـ بالأرشية وهي الحبال حَسَن.

وجلس خالد القسريّ يوماً للشعراء على الفرات، فأنشدوه وأخذوا الجوائز وانصرفوا، ولم يبق إلاّ غلام، فقال خالد: يا غلام، أشاعر أنت؟ قال: لا ولكني مُتعلّم، وقد قلتُ شيئاً، قال: هات، فأنشأ يقول: **[الطويل]**

ألا هَلْ تَرى مَوْجَ الفُرَاتِ كأَنَّه ... جِبال سُرورٍ قد أتينَكَ عوّما
وما ذاك من عاداته غيْرَ أنه ... رأى شيمةً من جارِه فتعلَّما

وكان بقي على البساطَ فَضْلة مال، فقال له خالد: اطوِ البساط بما عليه، فأخذه الغلام بما عليه.

ورأى بعضُ الملوك غلاماً يسوق حماراً، وهو يعنُف عليه، فقال: ارفُق يا غلام، فقال: أيها الملك، في الرفق مضرّة عليه، قال: وما مضرّتُه؟ قال: يطول طريقه، ويشتدّ جوعه، وفي العنف عليه إحسانٌ إليه، يخفّ حمله، ويطول أكله. فأعجِب به، وقال: قد أمرت لك بألف درهم، قال: رزقٌ مقدور، وواهب مأجور. قال: وقد أمرت بإثبات اسمك في حَشَمِي، قال: كُفِيتُ مؤونة، ورزقت بها معونة، قال: لولا صغرك لاستوزرتُك، قال: لم يعدم الفضل من رزِق العقل، قال: أفتصلح لذلك؟ قال: إنما يكون الحمد أو الذمّ بعد التجربة، ولا يعرف الإنسان نفسَه حتى يبلُوَها، فاستوزره فوجده ذا رأي صائبٍ.

دخل الفرزدق ـ وهو غلام يافع ـ على سعيد بن العاص، وقد أنشد أشعاراً والحطيئة حاضر فأنشده: **[الوافر]**

ترى الغرّ الجحاجِح من قُرَيشٍ إذَا ما الأمرُ في الحدَثان عالا[١]
قياماً ينظرون إلى سعيدٍ كأنهُمُ يَرَوْن به الهِلالا

فقال الحطيئة: هذا والله الشعر، لا ما تعلّل به نفسك هذا اليوم، يا غلام أدركتَ مَنْ قبلَك، وسبقت مَنْ بعدَك، وإن طال عمرك لتبرِّزنّ، ثم قال له: هل أنجدَتْ أُمُّكَ يا غلام، قال: لا بل أنجد أبي، فوجده لقِناً حاضر الجواب فأعجبَه.

وكان للفرزدق نديم يسمى زياداً الأقطع، فأتى بابه، فخرجتْ له بُنيَّة له صغيرة اسمها مكية، فقال لها: ابنة مَنْ أنتِ؟ قالت: ابنة الفرزدق، قال: فما بالك حبشيَّةٌ؟ قالت: فما بال يدك مقطوعة؟ قال: قُطِعت في حرب الحَرورية، قالت: بل قطعت في اللصوصية، فقال: عليك وعلى أبيك لعنة الله، ثم أخبِر الفرزدق بالخبر، فقال: أشهد أنها ابنتي حقاً، ثم قال: [الرجز]

سامِ إذا ما كنت مَخْمِيَّهْ بدارِميٍّ أُمُّه ضَبِّيَّهْ
* صَمَحْمَحٍ مثل أبي مكِّيَّهْ[٢] *

وقرعَ بابَ عديّ بن الرقاع جماعة من الشعراء، فخرجتْ إليهم بُنيَّة له صغيرة فقالت: ما تريدون من أبي؟ فقالوا: جئنا لنُهاجيَه، فقالت: [الطويل]

تَجمّعتُمُ من كلِّ أوْبٍ ووجهة على واحدٍ لا زلْتُمُ قِرْنَ واحدِ[٣]

فأفحمتهم، ورجعوا بأخزى حالة.

وقال معاوية لعمرو بن سعيد وهو صغير: إلى مَنْ أوصى بك أبوك؟ فقال: إنّ أبي أوصى إليّ ولم يوصِ بي. أخذه بعضهم فقال: [المتقارب]

وكنتُ النجيب لدى ناجِلي فأوصى إليّ ولم يوصِ بِي

قال يحيى بن يزيد: استنشدتُ غلاماً، فأنشدني أرجوزة، فقلت: لمن هذه؟ فقال: لي. فزجزته فأنشأ يقول: [الرجز]

إني وإنْ كنتُ صغير السِّنِّ وكان في العين نُبُوٌّ عنّي

---

(١) البيتان في ديوان الفرزدق ص ٦١٨.

(٢) يروى الرجز:

شاهدْ إذا ما كنت ذا محميَّه برجل مثل أبي مكيَّه

وهو للفرزدق في أساس البلاغة (حمي).

(٣) يروى صدر البيت:

تجمعتم من كل أوبٍ وحاضرٍ

وهو لابنة عدي بن الرقاع في الشعر والشعراء ص ٦٢٢، وذيل الأمالي ٣/ ٧٠، والكامل ص ٣٤٣، والأغاني ٩/ ٣٥٤، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ١٠٢٩.

فـإنّ شـيـطـانِـي أمـيـرُ الـجـنّ　　　يـذهـب بـي فـي الـقـول كـلّ فـنّ

الأصمعيّ رحمه الله: قال وقف عليّ غلام بحمَى ضريّة، ما ظننتُه يجمع بين كلمتين، فقلت: له: ما اسمك؟ قال: حُرَيقيص، فقلت له: ما كفى أهلَك أن سمَّوْك حرقوصاً حتى صغروا اسمك! فقال: إن السِّقْط ليحرق الحرَجة، فعجبت من جوابه. فقلت: أتنشد شيئاً من أشعار قومك؟ قال: نعم أنشد لمرَّارنا: [الكامل]

سكَنُوا شُبَيْثاً والأحَصَّ فأصبحتْ　　　نـزلـتْ مـنـازلَـهـم بـنـو ذُبْـيَـانِ

وإذا يـقـال أتـيـتُـمُ لـمَ يـبْـرَحُـوا　　　حـتـى تـقـيـم الـخـيـل سوق طِعَـانِ

وإذا فـلان مـات عـن أكـرومـةٍ　　　رفـعـوا مـعـاوزَ فـقـره لـفـلانِ

قال: فكادت الأرض تسوخ لحسن إنشاده وجودة الشعر، فحدّثت الرشيد الحديث فقال: وددتُ يا أصمعيّ لو رأيتُ هذا الغلام، فكنت أُبلغُه أعلى المراتب. فهذا الغلام سُمِّيَ بحقير مصغر، وهو في معناه جليل معظَّم.

ويُنظر إلى هذا من باب الضدّ ما حدّث أبو العباس عن الرياشيّ عن الأصمعيّ، قال: مرّ بنا أعرابيّ، وهو ينشد ابناً له، فقلت له: صِفْه، فقال: ديمري، فقلنا: لم نره، فلم نلبث أن جاء بجُعَلٍ على عنقه، فقلنا له: لو سألتَ عن هذا لأرشدناك، ما زال هذا اليوم بين أيدينا.

الأصمعيّ: قيل لأبي المِخَشّ: أما كان لك ابن؟ فقال: المِخشّ، قيل: وما كان المِخَشّ؟ قال: أشدقَ خُرْطمانيًا، إذا تكلّم سال لعابه، كأنما ينظر من فلسين، وكأنّ ترقوته بُوان أو خالفة، وكأن مشاش منكبيه كِركرة جمل؛ ففقأ الله عينيّ هاتين إن كنت رأيتُ أحسنَ منه قبله أو بعده، وأنشد: [المنسرح]

نـعـم ضـجـيـع الـفـتـى إذا بَـردَ الـلـيـ　　　ـل سُـحـيـراً وقَـرْقَـفَ الـصَّـرِدُ

زيَّـنـهـا الله فـي الـفـؤاد كـمـا　　　زُيِّـن فـي عـيـن والـدٍ ولـدُ

وقال أبو المِخَشّ: كانت لي ابنة تجلس معي على المائدة فتُبرز كفًّا كأنها طَلْعة، في ذراع كأنّها جمارة، فلا تقع عينها على أكلة نفيسة إلاّ خصَّتْني بها، فزوَّجتُها، وصار يجلس معي على المائدة ابن لي، فيبرز كفًّا كأنّها الكرنافة، في ذراع كأنها سُباطة، فلا تقع عيني على أكلة نفيسة إلا سبقتْ يدُه إليها قبلي.

المخشّ: الذي ينخشّ في القوم، يدخل معهم وهم يأكلون، وأراد بمثل الفَلْسَيْن عَوَر عينيه. وقيل حُفْرتهما. خُرطمانيًا: طويل الأنف، وسيلان اللعاب يدلّ على قوة النفس. البُوَان: عمود في مقدّم البيت، والكرنافة: طرف الكَرَب العريض المتّصل بالنخلة كأنها كتف.

اليزيديّ: أوَّلُ ما ظَهَر من نجابة المأمون وسَداده أني كنت أؤدّبه فوجّهت إليه يوماً

ليخرج، فأبطأ، فقلت لسعيد الجوهريّ وهو في حُجْرة: إن هذا الفتى قد اشتغل بالبطالة، فقال سعيد: قوِّمه بالأدب، فلما خرج ضربتُه ثلاث دِرَرٍ، فإنه لَيبكِي إذا بجعفر بن يحيى قد استأذَن عليه، فوثب إلى فراشه مسرعاً، وهو يمسح عينيه، فجلس ثم قال: ليدخلْ، فدخل، فقمت من المجلس وخشيتُ أن يشكوَني إلى جعفر، فألقى منه ما أكره، فأقبل عليه بوجهٍ طَلْق وحادثَهُ وضاحَكه، فلما هَم بالحركة قال: يا غلام، دابّته، ورجعت. فقال: ما حَمَلك أن قمت عنا! فقلت: خفت أن تشكوَني إليه فيوبّخني، فقال: إنا لله يا أبا محمد! ما كنت أطلِع الرشيد على هذا، فكيف أطلع جعفراً على أني أحتاج إلى أدب! يغفر الله لك. فكنت أهابه بعد ذلك.

وشُكِي إلى معلم عبد الرحمن بن حسان بصبيان، فضربهم حتى انتهى إلى عبد الرحمن، فهدّده فقال: **[البسيط]**

اللّهُ يعلم أنّي كنتُ معتزلاً ... في دار حسّان أصطاد اليعاسيبا

فتركه. وبلغ حسان، فضمّه إليه وقال: أنت والله ابني حقًّا فِداك أبي وأمي!.

ودخل عليه يوماً يبكي من لسْعة زنبور، فقال له: ما يبكيك؟ فقال: لسعني طائر كأنه ملتفٌ في بُرْدَى حَبَرة، فقال: قلتَ والله يا بُنَيّ الشعر.

وجاءت سكينة بنت الحسين أُمَّها الرباب وهي تبكي، فقالت: ما لك؟ فقالت: سَرَبَتْ بي طُويرة فلسعتْني بأبيرة.

ويروى: مرّت بي دُبَيرة، تصغير دَبْرَة وهي النحْلة.

* * *

قوله: اللجيّ: البحر. شُواظ: لهب النار. والكِهانة: بالكسر: حرفة الكاهن، وبالفَتْح فعل الكاهن، وهو المصدر، والكاهن: المخبِر بالغيب.

وافترّ: تبسّم. متضاحك: مستعمل الضحك. مُمَاحك: لجوج، أي مشى غير غاضب.

احفظها عني، أي حَصّلها وعِهَا. وعليّ، أي اكتمها واسترها، وقامت الواو مقام تكرير الفعل. اصرف: أزل ونَحِّ. صِرْف الراح: خالص الخمر الأسى: الحزن. تكتئب: تهتم وتحزن. قَدْك: حسبك. اتّئب: ارتجع وكفّ وقيل: معناه اسْتَحْيِ، يقال منه: وأبَ واتّأب، أي خزِيَ واستحيا والأبة والمؤبة: الخزْي والحياء والانقباض، وأوْأبه واستأبه: ردّه بخزيٍ وعار، والتاء فيها مبدلة من واو، فأصل اتّأب أوتأب فأبدلت الواو تاء وأدغمت في التاء بعدها، وهي من وَأب الحافر يَئِب وَأباً إذا انضم. وحافرٌ وَأب، أي خفيف، والتؤبة مأخوذة من أتأب: وقال حبيب: **[الكامل]**

قَدْك اتّئِبْ أربيت في الغُلَوا ... كم تعذلون وأنتُم شجوى

فهذا يبيّن لك موقعها في المقامة.

وعلى قوله تعالى: ﴿أتأمُرُونَ النَّاس بالبرِّ وتَنسَوْنَ أنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤]، قال: أنس: قال رسول الله ﷺ: «مررت برجالٍ ليلة أُسْرِيَ بي، تُقْرَض شفاههم وألسنتُهم بمقاريضَ من نار، فقلت: مَنْ هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الخطباء من أمّتك الذين يأمرون الناس بالبرّ وينسون أنفسهم»[١].

أبو أمامة عن رسول الله ﷺ: «إنّ الذين يأمرون الناس بالبرّ وينسَوْن أنفسهم يُجرُون قصَبَهُم في نار جهنم، فيقال لهم: مَنْ أنتم؟ فيقولون: نحن الّذين كنا نأمر بالبر وننسى أنفسنا»[٢].

قال أبو العتاهية في منصور بن عمار وكأنّه يخاطب واعظ المقامة: **[البسيط]**

يا واعظَ النّاس قد أصبحت متّهماً ... إذ عبْت منهم أموراً كُنْتَ تأتِيَها

كالملبَس الثوبَ من عُرْيٍ وعورتُه ... للنّاس باديَةٌ ما إن يُوارِيها

وأعظمُ الأمر بعد الشّرك تعلمُه ... في كلِّ نفسٍ عماها عن مساويها

عِرْفانُها بعيوبِ الناس تبصرُها ... منهم ولا تبصر الْعَيْبَ الّذي فِيَها

ومن لزوميات المعري: **[الوافر]**

رُوَيْدَكَ قد خُدِعْتَ وأنت كهلٌ ... بصاحب حيلةٍ يعظ النِّساءَ[٣]

يحرّم فيكُم الصهباء صُبْحاً ... ويشربها على عمْدٍ مساء

يقول لكم: غدوتُ بلا كِسَاءٍ ... وفي لذّاتها رَهَنَ الكِسَاءَ

إذا فعل الفتى ما عنه يَنْهَى ... فمن جهتين لا جهةٍ أساءَ

[الخمريات]

ونذكر هنا من الأبيات الخمريات ما يأتي على معنى البيتين اللذين أنشد، قال الحسن: **[السريع]**

ما مثل هذا اليوم في حسنِهِ ... عطّل من لهوٍ ولاَ ضَيّعَا[٤]

هل لك أن تغدُو على قهوةٍ ... تُسرِع في المرء إذا أسرَعَا

ما وجَدَ النّاس ولا جربوا ... للهمّ شيئاً مثلها مُدْفِعَا

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٣/ ١٢٠، ٢٣١، ٢٣٩.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب باب ٩، وتفسير سورة ٥، باب ١٣، ومسلم في الجنة حديث ٥٠، ٥١.

(٣) اللزوميات ص ٥١.

(٤) الأبيات في ديوان أبي نواس ص ٣٠٣.

وله أيضاً: [الطويل]

حَلَبْتُ لأصحابي بها دِرَّةَ الصِّبا ... بصفراء من ماء الكروم شَمُولِ[1]
إذ ما أتَتْ دونَ اللَّهاة من الفتَى ... دعا هَمُّه من صدره برحيلِ

وله: [البسيط]

دع ذا فديتُك واشربْها معتَّقةً ... صفراء تعبق بين الماءِ والزَّبَدِ
من كفِّ مختصر الزُّنّار معتدلٍ ... كغصنِ بانٍ تثنَّى غيرَ ذي أوَدِ
لو كان لومُك نصحاً كنت أقبَلُه ... لكنّ لومَك محمولٌ على الحسَدِ

وقال الصابي: [الوافر]

كَوْكَبُ الإصباح لاحَا ... طالعاً والدِّيك صَاحَا
فاسْقِنيها قهوةً تأ ... سُو مِنْ الهمّ جِراحَا
ذاتَ نشرٍ كنسيم الرَّوْ ... ض غِبَّ القَطْر فاحَا
يا غلامي ما أرى فيـ ... ـك ولا فيها جُنَاحَا

وله من أبيات يصف فيها مجلس شراب: [المتقارب]

كأنَّ الكُؤوس بأيدي السُّقاةِ ... سيوفٌ لها بالدِّماء احمرارُ
كأن تَسْكَابَهَا في الزُّجاج ... حريق لها من حُبَابٍ شرارُ
فلمَّا برزن إلى الهمّ فيـ ... ـه ولِي بالسُّرور عليه اقتدارُ
جرى الضربِ مختلفاً بيننَا ... فمات وعِشْتُ وقد نِيلَ ثارُ

وقال أبو بكر البلوي: [مجزوء الرمل]

ومدامٍ كست الكأ ... س من النور وِشَاحَا
ظَهَرَتْ في جُنْحِ ليلٍ ... فكأنّ الفجر لاحَا
لم يكن وقتَ صباحٍ ... فحسِبْنَاهُ صَبَاحَا

وقال أبو بكر الخالديّ: [الكامل]

ما عُذْرُنا في تركِنَا الأعنَابا ... سقط النَّدى وصفَا الهواءُ وَطابَا
فأدِمْ لذاذة عيشِنَا بمُدَامَةٍ ... زادتْ عَلَى هَرَمِ الزَّمَانِ شَبَابَا
سَفَرتْ وغاب حَبابُها من لُحَظِهَا ... فعَلاَ محاسِنَها فصارَ نِقَابَا

ولابن المعتزّ: [الطويل]

ونارٍ قدحْناها سِراعاً بسُحْرَةٍ ... متى ما يُرَقْ ماءٌ عليها توقَّدُ

---

(١) ديوان أبي نواس ص ٣١٠.

يجولُ حَبابُ الماءِ في جَنَباتِها ... كما جالَ دمعٌ فوق خدٍّ مُورَّدْ

* * *

ثم قال: أما أنا فسأنطلق، إلى حيث أصطبح وأغْتَبِقُ؛ وإذا كنتَ لا تَصْحَب، وَلاَ تُلائَمُ مَنْ يَطْرَب؛ فَلَسْتَ لِي برفيق، وَلاَ طَرِيقكَ لِي بِطَرِيق؛ فَخَلِّ سَبيلي وَنَكّب، ولا تنقِّرْ عَنِّي ولا تنقِّب؛ ثم وَلَّى مُدْبِراً ولَمْ يُعَقِّبْ.

قال الحارث بن همام: فالْتَهَبْتُ وَجْدَ عند انطلاقِهِ، وَوَدِدْتُ لَوْ لَمْ أُلاَقِهِ.

* * *

قوله: أصطبح، أشرب صَبُوحاً وهو شُرْب الغُدُوّ. وأغتبق: أشرب غَبوقاً، وهو شُرْب العَشيّ، تلائم: توافِق. نكِّب: تنحَّ عن طريقي واجعله لجهة منكِبك. تنقّر وتنقّب: تبحث وتفتش، وقد نقَّرتُ عن الأمر إذا طلبتَ علم باطنه ونقَّبت عنه، إذا بحثت عليه بظنّك حتى تستخرج سرَّه، وفلان نقَّاب، أي فطِن ذَكِيٌ يحدِّث بالغائب، والتَّنقِيب في البلاد: تطلُّع أحوالِ أهلها وتجريب أمورهم. وَلّى: أدبر، وترك طريقه الذي كان يستقبله. يُعَقِّب: ينظر. والوجْد: الحزن. والتهبتْ. اشتعلت. ودِدْتُ: تمنّيت.

ومما قيل في ترك الوداع: [الخفيف]

صدَّني عن حلاوة التَّشييعِ ... اجتنابي مَرارَة التَّوديعِ
لا يفي أُنسُ ذا بوحشة هذا ... فرأيت الصَّوابَ تركَ الجميعِ

المقامة الثانية والأربعُون

وهي النّجرانيّة

حكى الحارث بن همام قال: تَرَامَتْ بي مَرَامِي النَّوَى، وَمَسَارِي الْهَوَى؛ إلى أَنْ صِرْتُ ابْنَ كلِّ تُرْبة، وأخا كلِّ غُرْبة؛ إلا أنِّي لم أكن أقطع وادياً، ولا أَشْهَدُ نادِياً؛ إلاَّ لاقتباسِ الأدب المُسْلِي عن الأشجان، المُغلِي قيمةَ الإنسان؛ حتى عُرفَتْ لي هذه الشِّنشِنة، وتناقلتْهَا عَنِّي الألسِنة، وصارَتْ أَعْلَقَ بِي مِنَ الْهَوَى ببنِي عُذْرَة، والشجاعَةِ بآل صُفْرَة.

* * *

ترامت بي: رمتْنِي هذه إلى هذه وهذه إلى هذه. والمرامي: المواضع التي ترميه. والمساري: مواضع السُّرَى، وهو سير اللَّيْل، وهو جمع مَرْمَى ومَسْرَى، ويكون المَرْمَى والمسْرَى مصدرين. والنَّوى: الغربة والبُعْد عن الأهل، أراد أنّ البلاد والجهات ترميه بلدة إلى بلدة، وجهة إلى جهة، فهو أبداً في الجوَلان. وابن كلّ تربة، أي ينسَب لكل بلدة لكثرة ما يظهر فيها. نادياً: مجلساً. الاقتباس: الاكتساب. المُسْلِي: المذهب للهَمّ، وتسلّيت عن الهَم: نسيته. والأشجان: الأحزان، وقد تقدم شرح هذه المعاني وتكَرّر. الشِّنْشِنَة: الطبيعية. أعلق: ألصق.

[بنو عذرة]

وبنو عُذْرة: قبيلة معروفة من قبائل العرب، وهم أولاد عُذْرة بن سعد بن هُذَيْم بن زيد بن ليث بن سُويد بن أسلم بن الحافِ بن قضاعة.

الفنجديهيّ: عُذْرة قبيلة من العرب، يستلذُّوْن مرارةَ العشْق مثل الضربِ، جُبِلت المحبة في طينتهم، وجُنيتِ المودّة من لينتهم، وصار الهوى وصفَهم الذي لا ينفك، ورهائن قلوبهم من حرارات الشوق لا تُفَكّ، استأرهم العشق أسراً، واستأصلهم الحب قهراً وقسراً؛ فمنهم من يموت مِنْ أُوام غرامه، ومنهم مَنْ يموت بهُيَام سَقامه.

ومن مشاهيرهم جَمِيل بن عبد الله بن مَعْمَر العُذْريّ صاحب بثينة بنت عبد الله العُذْرِيّة، وعروة بن حزام صاحب عفراءِ بنت مالك العذريِّين.

وقال: سعيد بن عتبة الهمْدانيّ: قلت لأعرابيٍّ: ممن أنت؟ قال: من قوم إذا عشقوا

ماتوا، قلت: عُذْرِيّ؟ قال: عُذْرِيّ وربِّ الكعبة، قلت: ومِمّ ذاك؟ قال: لأنّ في نسائنا صَباحة، وفي فِتْيَاننا عفّة.

وسئل أعرابي منهم فقيل له: ما حدّ الحب عندكم؟ فقال: أعينٌ تَتَلاحظ وألسن تتلافظ، وعِدَات تتَقضّى، وإشارات تدل على السخط والرّضا. قيل له: فالمباضعة؟ قال: ذلك طلب الولد، الحبّ إذا نُكِح فسد.

سفيان بن زياد: قلت لامرأة من عُذْرة ـ ورأيت بها هوًى غالباً حتى خفت عليها الموت: ما بال العِشْق يقتلكم معاشرَ عَذرة من بين أحياءِ العرب؟ قالت: فينا جمال وتعفُّف، فالجمال يحملنا على العفاف به، والعفاف يورثنا رقّة القلب، والعشق يفني آجالنا وإنا نرى محاجِرَ لا تروْنَها.

أبو عمر بن العلاء: حدَّثني رجل من تميم، قال: خرجت في طلب ضالَّة لي، فبينما أنا أدور في أرض بني عُذْرة أنشدُها، إذَا ببيت منعزل عن البيوت، وفي كِسْرِه شابٌ مغمّى عليه، وعند رأسه عجوز بها بقيّة جمال، ساهمة تنظر إليه، فسلَّمت عليها، فردَّت السلام، فسألتُها عن ضالَّتي فلم تعلم بها، فقلت: مَنْ هذا الفتى؟ فقالت: ابني، فهل لك في أجرٍ لا مؤنة فيه؟ فقلت: والله إني أحِبُ الأجر وإن رُزِئت، فقالت: إن ابني هذَا يَهْوَى ابنة عمٍّ له، علقها وهما صغيران، فلما كَبِرت خطَبها غيرُه، فأخذه شبيه الجنون، فخطبها إلى أبيها، فمنعه وزوَّجها غيرَه، فنحل جسمُه واصفرّ لونه، وذهب عقله، فلما كان منذ خمس زُفَّتْ إلى زوجها، فهو كما ترى مغمّى عليه، لا يأكل ولا يشرب، فلو نزلتَ إليه فوعظْته! قال: فنزلت إليه فلم أدَعْ موعظة إلا وعظتُه بها، حتى قلت له: إنهنّ الغواني صاحبات يوسف، الناقضات العهد، وقد قال فيهن كثيّر: **[البسيط]**

هـل وصْـلُ عَـزَّة إلا وصـلُ غـانـيـةٍ ... في وصل غانية مِنْ وَصْلِهَا خَلَفُ[1]

قال: فرفع رأسه محمرَّة عيناه كالمغضَب، وهو يقول: لست ككثيرٍ، إن كثيِّراً رجل مائق، وأنا وامق، ولكني كأخي تميم حيث يقول: **[الطويل]**

ألا لا يـضرّ الـحبّ مَنْ كـان صابراً ... ولـكـنّ مـا اجـتـاب الـفـؤادَ يَـضِـيـرُ

أَلا قـاتـلَ الله الـهـوَى كـيـف قـادنِـي ... كـمـا قـيـد مـغـلـولُ الـيـديـن أسـيـرُ

فقلت له: فإنه قد جاء عن نبينا ﷺ أنه قال: «من أصيب منكم بمصيبة فليذكر مصابه بي»[2] فأنشأ يقول: **[الوافر]**

ألا مـا لـلـمَـلـيـحـةِ لـم تَـعُـدْنِـي ... أبُـخْـلٌ بـالـمـلـيـحـة أم صـدودُ!

مـرضـتُ فـعـادَنِـي أهـلـي جـمـيـعـاً ... فـمـا لـك لـم تُـرَىْ فـيـمـن يـعـودُ!

---

(١) البيت في ملحق ديوان كثير عزة ص ٥٠٥.

(٢) أخرجه الدارمي في المقدمة باب ١٤.

فقدتُك بينَهم فبكيت شوقاً وفقد الإلف يا أملي شديدُ
وما استبطأت غيرك فاعلميه وحولي من ذوي رحمي عَديدُ
ولو كنتِ المريض لكنتُ أسعَى إليكِ وما يهدِّدُني الوعيدُ

ثم شَهق شهقة، وخفت خفته، فداخلني أمرٌ ما داخلني مثله قطّ، والعجوز تبكي، فلما رأتْ ما حلّ بي قالت: يا فتى، لا تُرعْ؛ مات والله ولدي بأجلِه، واستراح من تَباريحه وغُصَصِه، فهل لك في استكمال الصَّنيعة؟ قلت: قولي.

ما أحببتِ، قالت: تأتي البيوت فتنعَاه إليهم، ليعاونوني على رَمْسِه، فإني وحيدة، فركبتُ فرسِي، وأتيت البيوت، رافعاً صوتي بنعيه، فلم ألبث أن خَرجتْ لي جارية، أجملُ مَا رأيت من النساء، ناشرةٌ شعرها، حديثة عهد بعُرس، تقول: بفِيك الحجر المصمَت! مَنْ تَنْعَى؟ قلت: أنعَى فلاناً، قالت: أو قد مات! قلت: إي والله قد مات. قالت: فهل سمعتَ له قولاً؟ قلت: اللهمَّ شعراً، قالت: وما هو؟ فأنشدتها أبياته، فاستعبرت وأنشأت تقول: [الوافر]

عَدَا بي أن أزورَك يا مُرادي معاشرُ كلُّهُمْ واشٍ حسود
أشاعوا ما علمتَ من الدَّواهي وعابونا وما فيهمْ رشيدُ
فأمَّا إذ ثويتَ اليوْم لَحْداً وكلُّ الناس دورهُم لحودُ
فلا طابت ليَ الدنيا فُوَاقاً ولا لهمُ ولا أثْرَى الْعَدِيدُ

ثم شهقت شهقة، فوقعت مغشيًّا عليها، وخرجت النساء من البيوت فاضطربتْ ساعة، وماتت.

فوالله ما برحتُ حتى دفنتُهما جميعاً.

هشام بن عروة: أذن معاوية للنَّاس يوماً فكان فيمن دخل عليه فتًى من بني عُذْرة، فقام بين السِّماطين وأنشأ يقول: [الطويل]

أتيتكَ لمَّا ضاق في الأرض مسلكي وأنكرتُ مِمَّا قد أُصِبتُ به عَقْلِي
ففرِّج كلاك الله عنِّي فإنَّني لقيت الذي لم يلقَهُ أحدٌ قَبْلِي
وخذ لي هداك الله حَقِّي من الذي رماني بسهم كان أهونُهُ قتلِي
وكنت أرجِّي عدلَهُ إذا أتيتُه فأكثر تَرْدادي مع الحبس والكَبْلِ
فطلقتُها من جُهْدِ ما قد أصابني فهل ذا أميرَ المؤمنين من العْدلِ!

فقال له معاوية: اذنُ بارك الله عليك، ما خطبك؟ قال: أطال الله بقاء أمير المؤمنين، إني رجل من بني عُذْرة، . تزوَّجتُ ابنة عمّ لي. وكانت لي صِرْمَةٌ(١) من الإبل

(١) الصرمة: الجماعة من الإبل ما بين العشرين والثلاثين.

وشُويهات، فأنفقت ذلك عليها، فلما أصابتني نائبات الزمان وحادثات الدهر رغبَ عنِّي أبوها ـ وكانت جاريةً منها الحياء والكرَم، فكرهتُ مخالفة أبيها ـ فأتيت عاملك عبد الرحمن ابن أم الحكم فذكرتُ ذلك له. وبلَغه جمالها، فأعطى أباها عشرة آلاف درهم وتزوَّجها، وأخذني فحبسني، وضيَّق عليّ، فلمَّا أصابني مسُّ الحديد وألم العذاب طلقتُها، وقد أتيتك يا أميرَ المؤمنين، وأنت غياث المحروب، ومعيد المسلوب، فهل من فَرَج؟ ثم بكى وهو يقول: **[مجزوء الرمل]**

في القلب مِنِّي نارُ ... والنَّار فيها شرارُ
وفي فؤاديَ جمرٌ ... والجمر فيه احمرارُ
والجسم منِّي نحيلٌ ... واللَّون فيه اصفرارُ
والعين تبكِي بِشَجْوٍ ... فدمعها مِدْرَارُ
والحُبّ داء عسِيرٌ ... فيه الطبيب يَحَارُ
حملتُ منه عظيماً ... فما عليه اصطبارُ
فليس ليلي ليلاً ... ولا نهارِي نَهَارُ

فرق معاوية له؛ وكتب إلى ابن أم الحكم كتاباً غليظاً وفي آخره: **[البسيط]**

ركبتَ أمراً عظيماً لست أعرفُه ... أستغفرُ الله من جَوْرِ امرىء زانِي
قد كنتَ تُشبِه صوفياً له كتب ... من الفرائض أو آيات فرقانِ
حتى آتاني الفتى العذريّ منتحِباً ... يشكو إليّ بحقٍّ غيرِ بُهْتَانِ
أُعطِي الإله عهوداً لا أخيس بها ... أولا فبرّئت من ديني وأيْمَاني
إن أنت راجعتَني فيما كتبتُ به ... لأجعلنَّك لحماً بين عِقْبَانِ
طلِّق سعاد وفارقْها بمجتمَعٍ ... وأشهدْ على ذاك نَصْراً وابنَ ظَبْيَانِ
فما سمعتُ كما حُدِّثتُ من عَجَبٍ ... ولا فعالُك حقًّا فعل إنسانِ

فلما ورد الكتاب على ابن أم الحكم، تنفّس الصُعَداء، وقال: وددت لو أن أمير المؤمنين خلَّى بيني وبينها سنة، ثم عرض عليّ السيف، وجعل يُؤامر نفسه في طلاقها فلم يقدِرْ، فلما أزعجه الوفد طلَّقها ثم قال: يا سعاد اخْرُجي، فخرجت شَكِلَةً غَنِجَةً ذات هيئَة وجمال، فلمَّا رآها الوفد قالوا: ما تصلُح هذه إلا لأمير المؤمنين لا لأعرابيٍّ، وكتب الجواب: **[البسيط]**

لا تحنثنّ أميرَ المؤمنين فقد ... أُوفِي بعهدك في رفق وإحسانِ
فما ركبتُ حراماً حين أعجبني ... فكيف سُمِّيتُ باسم الخائن الزانِي!
فسوف تأتيكَ شمسٌ لا خفاءَ بها ... أبهى البرية من أنْسٍ ومِنْ جَانِ

حوْراء يقصر عنها الوصف إذ وُصِفَتْ أقــول ذلــك فــي ســرٍّ وإعــلانِ

فلما وردتْ على معاوية، قال: إن كانت أعطِيتْ حسن النغمة مع هذه الصفة، فهي أكملُ البريَّة، فاستنطقها، فإذا هي أحسنُ الناس كلاماً، وأكملهم شكلاً ودلاً، فقال: يا أعرابّي، هل من سُلُوٍّ عنها بأفضل الرغبة؟ قال: نعم إذا فرَّقْت بين رأسِي وجَسدِي، ثم أنشأ يقول: [البسيط]

لا تجعَلَنِّي والأمثال تُضرَب بِي كالمستجير من الرَّمْضاءِ بالنار

اردد سعادَ على حَيْرانَ مكتئبٍ يُمْسِي ويصبح في همٍّ وتَذْكَارِ

قد شَفَه قلقٌ ما مثله قلقٌ وأسِعرَ القلبُ منه أيَّ إسعارِ

والله والله لا أنسى محبَّتَها حتى أغيَّب في رَمْسٍ وأحجار

كيف السلوُّ وقد هام الفؤاد بها وأصبح القلب عنها غير صَبّارِ

فغضب معاوية غضباً شديداً، ثم قال لها: اختاري مَنْ شئت، أنا أو ابن أم الحكم أو الأعرابيّ؛ فأنشأت تقول: [الرجز]

هذا وإن أصْبَح في أَطْمَارِ أو كان في بعضٍ من الْيَسَار

أكبرُ عندي من أبي وجارِي وصاحبِ الدِّرهم والدينار

* أخشى إذا غَدَرْتُ حَرَّ النارِ *

فقال له معاوية: خذها لا بارك الله لك فيها، فأخذها وأنشأ يقول: [الرجز]

خَلُّوا عن الطّريق للأعرابي ألم ترقّوا وَيْحَكُمُ لما بي!

فضحك معاوية وأمر له بعشرة آلاف درهم، وأدخِلتْ لبعض قصوره حتى انقضتْ عِدَّتُها من ابن أمِّ الحكم، ثم دفعها للأعرابيِّ.

وقال بعضهم: كنت سائراً في بلاد عُذْرة فولجتُ بعضَ أوديتهم وإذا شابُّ حسنُ الوجه، بيده زمام ناقة، عليها هودجٌ مسجَّف، به جارية، ومن وراء الناقة خمس قلائص، وقد رفع عقيرته ينشد ويقول: [الكامل]

ته كيف شئتَ وسِرْ على مهلٍ كلُّ الْجَمال عليك يا جَمَلُ

عليَّ أنَّك لا ترى كلَلاً ما دام فوقك هذه الكِلَلُ

فسلّمتُ عليه، فردَّ، وسألته وسألني وتناشدنا، واتصل الأنس بيننا، وسرنا غير قليل، فرأى قانصاً في أحبولته ظبيٌ، فلما رآه يضطرب في الأحبولة أُجْهِش بالبكاء، وأنشأ يقول: [الطويل]

وذكَّرني مَنْ لا أبوحُ بحبِّه محاجرَ ظُبي في حُبالةِ قانِص

فقلتُ وجَفْنُ العين يجري بِعَبْرَةٍ ولحظي إلى عينيه لحظةُ شاخِص

ألا أيُّهذا القانص الظبيَ خَلِّه ... وخذ عِوَضاً منه جيادَ قلائِصِي
خفِ الله لا تحبسْه إنّ شبيهه ... حياتي قد أرعِدَتْ منه فرائِصِي

فقال القانص: الله إن فعلت؟ قال: الله، فأرسل الظبي، واستاق القلائص.

وحدث رجل من بني عذرة قال: كان فينا فتًى ظريف غزِل، كثيراً ما يتحدَّث إلى النساء، فهوِيَ جاريةً من الحيِّ، فراسلها فأظهرتْ له جفوة، فوقع مضنًى مُدنَفاً وظهر أمره، وتبيَّنَ دَنفُه، ولم يزل النساء من أهلها وأهله يكَلّمْنَها فيه، حتى أجابت، فسارت إليه عائدةً ومسلِّمة، فلما نظر إليها تحدّرت عيناه بالدموع، وأنشأ يقول: [الطويل]

أريتُكِ إن مرَّت عليك جنازتي ... تروح بها أيدٍ طوالٌ وتسرعُ
أما تَتْبَعين النَّعش حتى تسلِّمي ... على رمس مَيْتٍ بالحفيرةُ يودعُ!

فبكت رحمة، وقالت: والله ما ظننت أن الأمر بلغ بك هذا، فوالله لأساعدنَّكَ ولأداوِمنّ على وصالك، فهملتْ عيناه بالدموع، وأنشأ يقول: [الطويل]

دَنَتْ وظِلالُ الموت بيني وبينَها ... وَمنَّتْ بوصلٍ حيث لا ينفع الْوَصلُ

ثم شهِق شهقة فخرجت نفسه، قال: فوقعت عليه تلثُمه، ثم رجعت عنه مغشيًّا عليها، فما مكثت بعده إلاّ أياماً حتى ماتَت.

قال حماد الراوية: انصرفت من جنازة لبعض السّكاسك، فإذا بصبيٍّ من عُذرة ظريف، حَسَن الوجه، صَغِير السِّنّ، موصوف بقول الشعر، فوقفْنَا فسلَّمنا، فقام إعظاماً لنا، فقلت: أنشدنا شيئاً، فكأنه استحيا، فقلت له: لا بدَّ، فأنشدَنا: [مجزوء الرمل]

هل من الحبِّ مجيرٌ ... من ملاحٍ يعتدُونَا
قد شكْونا بخضوعٍ ... عَذْلَ قوم يعذِلُونَا
في جوًى نلقاه مِمَّنْ ... لا يبالي ما لَقِينَا
وبكَيْنا بدموعٍ ... أغرقت منّا الجفونا

قال حماد: فكدت أرقص طرباً وقلت: فداؤك عمُّك! وجلسنا إليه تعجُّباً من رقته وجماله وفصاحته، فأنشدنا: [الرمل]

ولقد أرسلتُ دمعي شاهداً ... ثم صيَّرت إليها المشتكَى
فتولت، ثم قالت شغلي ... كلُّ مَنْ شاء تبكي! فبكَى

قال حماد: قلت له: فديتك، تحبُّ هذه الجارية؟ قال: يا عمّ، والحبُّ عيب! إن كان عيباً تركته. ثم قال: يا عمّ إذا قرأت أو بلغَني أحاديثُ قومي مثلُ عروة وجَميل، أفلا أشتهي أن أكون واحداً منهم! فانصرفنا عنه متعجبين.

[آل أبي صفرة]

قوله: والشجاعة بآل أبي صفرة، أبو صفرة هو ظالم بن سراقة بن كنديِّ بن عمرو ابن عدي، ويتّصل بعمرو مزيقياً، ثم بأزدِبا، وأزددبا ما بين عُمان والبحرين، وكانوا أسلموا ثم ارتدوا في خلافة أبي بكر، فبعث إليهم أبو بكر عِكْرِمة بن أبي جهل، فقاتلَهم وسبى ذراريَّهم وبعث بهم إلى أبي بكر، وأبو صُفْرة غلام، فحبسهم أبو بكر، فلما تُوُفي أطلقهم عمر، فنزل أبو صُفْرة البصرة، فشرُف بها.

وروى بعضُهم أنَّ أبا صُفْرة طلب من عمر أن يولِّيَه عملاً، فسأله عن اسمه فقال: ظالم بن سرّاق، فقال: تظلم أنت ويسرق أبوك! ولم يولّه عملاً تطيُّراً باسمه.

والمهلَّبية تزعم أنَّ أبا صُفرة قدم على النبيِّ ﷺ، وعليه حُلّةٌ صفراء يسحبها خلفه ذراعين. وله طول ومنظر وفصاحة، فأَعْجَب النبيَّ ﷺ ما رأى من جماله وخُلُقه، فقال له: «مَنْ أنت؟» قال: أنا قاطع بن سارق بن ظالم بن عمرو بن شهاب بن مرة بن الهلقام ابن الجلندي بن المستكبر بن الجلندي، الذي كان يأخذ كل سفينة غصْباً، فقال له النبيَّ ﷺ: «أنت أبو صُفْرة، ودع عنك ظالماً وسارقاً»، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسوله حقًّا، إنَّ لي لثمانية عشر ذكراً، ورزِقت بآخرهم بنتاً سميتُها صُفْرة.

وأما أولاد أبي صُفْرة، فكانوا كُتَّاباً شجعاناً أبطالاً حماةً، منهم أبو سعيد المهلَّب. وذكروا أنَّ أبا صُفْرة وفَد على عمر رضي الله عنه ومعه عشرة من ولده ـ والمهلَّب أصغرهم ـ فتوسَّمهم عمر، ثم قال: هذا سيِّد ولدك المهلَّب، والمهلَّب هو صاحب حروب الأزارقة، وولاَّه عبد الملك خراسان بعد الأزارقة سنة تسع وسبعين، ومات سنة ثلاث وثمانين، واستخلف يزيدَ ابنه عليها، فأقرّه عبدُ الملك عليها سنتين أو ثلاثاً. وغزا يزيد جرجان في خلافة سليمان بن عبد الملك سنة سبع وتسعين، في ثلاثين ألف مقاتل، فقاتلهم أشهراً، ثم صالحهم على أن يُعطوا خمسمائة ألف درهم كلَّ عام، يؤدونها إليه، ثم غزا سنة ثمان وتسعين طَبَرِستان، فصالحهم على سبعمائة ألف درهم وأربعمائةِ وِقْر زعفران وأربعمائة رجل مع كلِّ رجل بُرْنس وطيلسان وخاتم فضة، وسَرَقة حرير وكسوة، فقبل ذلك وانصرف عنهم. ثم غدر أهل جرْجان بمن خلَّف عليهم من المسلمين فقتلوهم، فلما فرغ من طَبَرِستان سار إليهم، فقاتلهم شهراً، ثم نزلوا على حكمه، فقتَل مقاتِلتَهم، وسبى ذراريَّهم وصلبهم فرسخين، وقاد منهم اثني عشر ألفاً إلى وادي جرجان، فقتلهم وأجري الماء في الوادي على الدَّم، وعليه أرحاء بدمائهم تطحن، واختبز وأكل، وكان قد حلف على ذلك.

الأصمعيّ: قبض الحجاج على يزيد، وأخذه بسوء العذاب، فسأله أن يخفّف عنه العذاب على أن يعطيَه كلَّ يوم مائة ألف درهم، فكان دأبَه أنه إذا أدّاها تركه، وإلاّ عذَّبه إلى الليل، فجمع يوماً مائة ألف درهم، يشتري بها عذابه، فدخل عليه الأخطل فأنشده: **[الطويل]**

أبا خالدٍ بادت خراسانُ بعدكمْ وقال ذَوُو الحاجات أين يزيد؟
فما سُقِي المَرْوان بعدك قَطْرةً ولا اخضرّ بالمرْوَين بعدك عُودُ
وما لسرير بعد ملكك بهجةٌ ولا لجواد بعد جودك جودُ

فأعطاه المائة الألف. فبلغ ذلك الحجاج، فدعا به، وقال: يا مروزيّ، أكل هذا الكرَم وأنت بهذه الحالة؟ قد وهبتُ لك عذاب اليوم وما بعده.

ابن عبد الحكم: أخبرنا الشافعيّ قال: طَعن يزيدُ بن المهلَّب رجلاً من الخوارج، فصرعه فوثب الخارجيُّ بالسيف، وهو يقول: **[الطويل]**

وإنَّا لقومٌ لا نعوِّد خيلَنا إذا ما التقينا أن تحيد وتنفِرَا
ونُنكرُ يوم الروع ألوانَ خيلنا من الدم حتى نَحسِبَ الوَرْد أشقرا
وليس بمعروف لنا أن نردَّها صحاحاً ولا مستنكَرٍ أن تُعقَّرا

قال يزيد: فكرهت أن أقتُلَ مثلَه، فانصرفت عنه. وقتِل يزيد يوم الجمعة لاثنتي عشرة خلت من صفر سنة اثنتين ومائة، وهو ابن سبع وأربعين سنة.

وقيل للمهلَّب: بم نلتَ ما نلتَ؟ قال: بطاعة الحزْم، وعصيان الهوى. وقيل لأبي إسحاق الهمْدانيِّ: لم رويتَ عن المهلَّب؟ قال: لأني لم أر أميراً أبْيَنَ منه تقيَّة ولا أشجع منه، ولا أبعد ممَّا يكره، ولا أقرب ممَّا يحبّ.

ومرَّ المهلَّب بقوم فعظَّموه وسوَّدوه، فقال رجل: ألِهذا الأعور تسوّدون! والله لو خرج إلى السوق ما زادت قيمته على ألفي درهم، فسمعه المهلَّب، فقال لبعض مَنْ معه: أتعرف الرجل؟ قال: نعم، فلما انتهى إلى مجلسه أرسل إليه بألفي درهم. فقال له: لو زدتَنا في القيمة لزدناك في العطيَّة، فخجل الرجل، وعرف منزلته.

وللمهلَّب وبنيه وإخوته في حروب الأزارقة مشاهد ما شوهدت قطُّ في جاهلية ولا إسلام.

وقتَل المهلَّب وأولاده وإخوته ومَنْ معه من الأزارقة في ليلة واحدة أربعة آلاف وثمانمائة، وانهزم بقيَّتُهم مع قَطَريٍّ، فنفاهم إلى أقاصي البلاد حتى قُتِل قَطَريٌّ ومَنْ معه.

وسئل المهلب عن ابنيه: أيُهما أشجع أيزيد أم حبيب؟ فقال: إن الولد ربَّما سبق رأيُ أبيه فيه، وقَطَريٌّ قد مارسهما، فسلوه عنهما. فلمَّا كان من الغد واصطفُّوا للقتال صاح رجل: يا أبا نعامة، فقال: أفرجوا له، ثم قال: قد سمعتَ فقل؛ فقال: إنَّا سألنا الأميرَ عن ابنيه يزيد وحبيب: أيُّهما أشجع، فقال: سلُوا أبا نعامة، فقال: على الخبير سقطتَ، أمَّا صاحب الكرِّ والفرِّ والإقدام والإحجام، وصحَّة التدبير ومبارزة الكميِّ المدجَّج فالحرون يزيد، وأمَّا إذا التقت غياطيل الليل، وخفتت الأصوات إلاّ الغماغم، وقُرِع الحديد بالحديد فالخيار حبيب.

ـ الغَيطَلة التباس الظلام، وخفتت: سكنت. والغمغمة: أصوات الأبطال في القتال ـ.

وسأل الحجاج كعب بن مَعْدانَ الأشقريّ حين وفد عليه بالفتح، فقال له: أخبِرني عن بني المهلَّب، فقال: المغيرة فارسهم وسيدهم، وكفى بيزيد فارساً وشجاعاً، وجوادهم وسخيُّهم قبيصة، وما يستحي الشُّجاع أن يفرَّ من مُدْرك، وعبد الملك سمٌّ ناقع، وحبيب موت ذُعاف، ومحمد ليث غاب. وكفَاك بالمفضَّل نَجْدة. فقال: كيف كانوا في البأس؟ قال حماة السَّرْح نهاراً، فإذا أَلْيَلُوا ففرسان البَيات. قال: فأيُّهم كان أنجد، قال: كانوا كالحلْقة المفرغة لا يُدْرَى أين طرفها.

وحين وفَد المهلَّب على الحجاج أجلسه إلى جانبه، وأظهر إكرامه، وقال: يا أهلَ العراق، أنتم عبيد المهلب، ثم قال له: أنت والله كما قال لَقِيط الإياديُّ: [البسيط]

وقـلِّـدوا أمـركـمْ لله دَرُّكُـمُ ... رَحْبَ الذِّراع بأمرِ الحرب مُضْطَلِعا
لا مترَفاً إن رخاً في الأمر ساعده ... ولا إذا عـضّ مكـروهٌ بـه خَشَعَا
ما زال يحلُب هذا الدهر أشطُرَه ... يكون متَّبِعاً طَوراً ومتَّبَعَا
حتَّى استمرَّت على شَزْرٍ مرارَتُهُ ... مستحكم الرأي لا قحْماً ولا ضَرَعَا

فقام رجل وقال: أصلح الله الأمير! والله لكأنّي أسمع الساعة قَطَرِيًا يقول للمهلَّب كما قال لقيط الإياديُّ... وأنشد الأبيات، فامتلأ الحجاج سروراً....

وقال له الحجاج: اذكر لي الذين أَبْلَوْا وصف لي بلاءَهم، فقدَّم بنيه، وقال: والله لو تقدَّمهم أحد في البلاء لقدَّمْتُه عليهم، ولولا أن أظلِمهم لأخَّرْتُهم. فقال له الحجاج: نعم إنهم لسيوفٌ من سيوف الله تعالى في الأرض.

وقال يوماً عبد الملك للشعراء: تشبِّهونني مرة بالأسد الأبخر، والجبل الأوعر، والبحر الأجاج وبالصقر والباز، ألا قلتم كما قال كعب الأشقريّ في المهلب وبَنِيه: [الوافر]

بـراك الله حـين بـراك بـحـراً ... وفَـجَّـر مـنـك أنـهـاراً غِـزارَا
بنوكَ السَّابقون إلى المعالي ... إذا مـا أعـظـم الـنَّـاسُ الـفَـخـارَا
كـأنـهُـم نـجـومٌ حـول بـدرٍ ... دَجـوجـيٍّ تـكـمَّـل واسْتَـدَارَا
مـلـوكٌ يـنـزلـون بـكـلِّ ثـغـرٍ ... إذا مـا الـهـام يـوم الـرَّوْع طَـارَا
رزانٌ في الأمور ترى عليهمْ ... من الشيخ الشمائِل والنِّجارَا
نـجـوم يُـهـتـدى بـهـمُ إذا مـا ... أخو الغمرات في الظلماءِ حارَا

وفي ديوان الحماسة: [البسيط]

آلُ المهلَّب قومٌ خُوِّلوا شرفاً ... مـا نَـالـه عـربـيٌّ لا ولا كـادَا

لو قيل للمجد حِدْ عنهم وخلِّهمُ بما احتكمتَ من الدُّنيا لما حَادَا
إنّ المكارم أرواح يكون لها آلُ المهلَّب دُونَ الناس أجْسَادَا

ولبعضهم: **[الوافر]**

إذا كان المهلَّب من ورائي هَدَا لَيْلي وقَرَّ له فؤادي
ولم أخش الدنيَّة من أناس ولو صالوا بقوّة قوم عَادِ

وتُوُفِّيَ المهلب بفنجَديّه بصحراء راغول سنة ثلاث وثمانين؛ فبعد أربعمائة وثلاثين من وفاته، رأى بعضُ علماء فنجديّه في المنام كأنَّ المهلَّب يقول: الله، الحقْني قَبْلَ أن يأخذني روذمرو ـ وهو نهر عظيم يعْبَر عليه بالسفن ـ وانقلني إلى بعض مقابر المسلمين، وأنا مدفون على شاطىء هذا النهر الكبير في الموضع الفلاني، وقد حفر الماء تحت قبري، وقرب أن يأخذَني، فلما أصبح الرجل أخذ جماعةً من أصحابه معهم المساحي والفؤوس فمضوا إلى ذلك الموضع، وحفروا حتى وصلوا إلى قالبه فكشفوا التراب عنه، فكانت عظامه ما بليتْ بَعْد، فدفنوه بمقبرة مذونة.

قال الفنجديهي: وهي محلتنا؛ وسمعت معنى هذه الحكاية من والدي رحمه الله.

* * *

فلمَّا ألقيتُ الجِرَانَ بِنَجْرَان، واصطفيت بها الْخُلاَّنَ والجيرانَ، اتخذتُ أنديتَهَا مُعْتَمِري، ومَوْسِمَ فُكَاهَتي وَسَمَري؛ فكنتُ أتَعَهَّدُها صَبَاحَ مَسَاء، وأَظْهَرُ فيها على ما سَرَّ وساء؛ فبينما أنا في نادٍ مَحْشُودٍ، وَمَحْفِلٍ مَشْهُودٍ؛ إذْ جَثَم لَدَينا هِمّ، عليه هِدْم؛ فَحَيَّا تَحِيَّةَ مَلِق، بِلِسَانٍ ذَلِق؛ ثم قال: يا بُدورَ المحافل، وبُحُورَ النَّوافِل، قَدْ بَيَّنَ الصُّبْحُ لِذِي عَيْنَيْن، وناب العيانُ مَنابَ عَدْلَيْنِ، فماذا تَرَوْنَ؟ فيما تَرَوْنَ أتُحْسِنُونَ الْعَوْنَ، أم تَنْأَوْنَ إذْ تُدْعَوْنَ! فقالوا: تالله لَقَدْ غِظْتَ، ورُمْتَ أن تُنْبِطَ فغِضْتَ.

* * *

قوله: بنَجران: بلد من كُوَر نجد ممَّا يَلي بلاد اليمن، سُمِّيَتْ بنجران بن زيد بن سبأ. اصطفيْت: اخترت. الخُلاَّن: الأصحاب. تخذت، بمعنى اتَّخذت. أنديتها: مجالسها ومجتمع أهلها. مُعْتَمَري: موضع زيارتي، واعتمرت الموضع: قصدته وزرته. مَوْسم: عيد. فكاهتي: ممازحتي. سَمَري: حديثي بالليل. أتعهّدها: أتفقّدها صباح مساء: اسمان مركّبَان جُعِلا كخمسة عشر، وأراد يزورُها في الصباح والمساء. ناد محشود: مجلس مجموع الأهل، ومثله المحفل المشهود. جَثَم: برك. هِمّ: شيخ هَرِم، قد أذهبَ الكِبَرُ قُوَّتَه، ولحمه، وتقول: هَمَمْتُ الشَّحم: أذبته، ومنه قولهم: هذا الأمر لا

يَهمُني، بفتح الياء وكسر الهاء، أي لا يذيبني، ومن قال بضمّ الياء فمعناه لا يقلقني. هِدْم: ثوب خَلَق كأنَّهُ هدمه البِلَى. مَلِق: متلطّف في كلامه. ذَلق: حديد. النَّوافل: العطايا. بيّنَ الصبح لذي عينين، مثَل، ويريد أنَّ الليل يتساوى في ظلمته الأعمى والصحيح، فإذا ظهر ضوء الصبح أبصر الأشياء مَنْ له بصر، وقيل معنى بَيّن الصبح، أي تَبَيّن، والعِيان: المشاهدة، وعاينته: شاهدته، أي أنتم ممَّن لا يخفى عليكم حالي، يريد أنَّ المعاينة تغني عن الشهود العدول. فماذا ترون: فما رأيكم؟ وهي من رؤية القلب. فيما تَرَوْن، أي فيما تنظرون وتبصرون، وهو من رؤية البصر. وقال الفنجَدِيهي في شرحه: فما ترون؟ أي فما تظنُّون فيما تَرَوْن؟ أي فيما تبصرون. تنأوْن: تبعدون. غظت، من الغيظ، أي لقد حَرَّكتَ غيظاً. رُمْت أن تنبط أردت أن تخرج ماء. غِضْتَ. غيّبتَه وجَففته، والغَيْض نقيض الفَيْض، وغاض الماء: ذهب في الأرض.

* * *

فناشدَهُم الله عَمَّا ذَا صَدَّهُمْ؛ حَتَّى اسْتَوْجَبَ رَدَّهم؛ فقالوا: كُنَّا نتناضَلُ بالألْغاز؛ كَمَا يُتَنَاضَلُ يَوْمَ البِرَاز؛ فما تمالَكَ أنْ شَعَّثَ مِنَ المنْضُولِ، وَأَلْحَق هَذَا الْفَضْلَ بِنَمَطِ الْفُضُولِ.

فَلَسَنَتْهُ لُسُنُ الْقَوم، ووخزوهُ بأسِنَّةِ اللوْم، وأخذ هو يَتَنَصَّلُ من هَفْوَتِهِ، ويتندَّمُ عَلَى فَوْهَتِهِ، وهُمْ مُضِبُّونَ على مؤاخذتِهِ؛ وَمُلَبُّونَ دَاعي مُنابذتِهِ، إلى أن قال لهم: يا قوم؛ إن الاحتمالَ مِنْ كَرَم الطَّبْع، فَعَدُّوا عَنِ اللذعِ والْقَذْعِ، ثُمَ هَلُمَّ إلى أن نُلْغِز، ونحكِّمَ المبرِّز.

* * *

ناشدهم: حَلَّفهم. صَدَّهم: صرفهم وأزالهم. نَتَنَاضل: نترامى. البراز: القتال والألغاز: جمع لُغز، وهو الكلام المعمَّى، وألغز، إذا عمَّى كلامه فلم يُفهم ما يقصده، وأصلُه من اللُّغز وهو الحَجر الملوِيُّ. ما تمالك: ما أبطأ ولا مَلك نفسه.

شَعَّث: غَبَّر، ويُروى «شَعَّب». من المنضول أي نقصه وفرقه، والمنضول: المرميّ، أي قبَّح فعلَهم ومراماتهم. الفنجديهيّ: شعَّثَ الدهرُ ماله، أي أخذه، والمنضول: المغلوب في النِّضال، والمعنى فما صَبَر عن تشعِيث همِّ المغلوب ونصرِه وتخليصه عمَّا أرْتِج عليه من اللُّغز، ويقال: شَعَّثَ منه، أي عابه وتنقَّصه، وكأنه عاب المنضول كيف أرْتِجَ عليه شيء سهل! وهذا تفسير حسن، إلاَّ أنّ مساق كلام الحريري أدلُّ على التفسير الأوَّل.

نمَط: نوع. لَسَنَهُ: أخذه بلسانه. لُسْن القوم: فصحاؤهم. وخزُوه: طعنوه.

يتنصَّل: يتبرَّأ ويعتذر. هَفوته: سقطته. فوْهته: كلمته الّتي فاه بها، أي نطق. مُضِبُّون: مقيمون ملتزمون، وأضبَّ على الشيء: لازمه. مُؤاخذته: إنشاب الشرِّ معه، وتواخذ الرجلان: آخذ كلُّ واحد منهما صاحبَه بضرب أو شتم. مُلبّون. مجيبون. منابذته: متاركته ومهاجرته، وقد نبذتُ الشيء؛ إذا رميتَه من يدك. الاحتمال: الصبر على الجفاء. عَدُّوا: انصرفوا وتنحَّوْا. اللذع: إحراق القلب باللوم والعتب. والقَذْع: السَّبّ. نُلغِز: نعمِّي الكلام ونلبسه على السامع. المبرِّز: الغالب.

* * *

فسَكن عِنْدَ ذلك توقُّدُهُمْ، وانحلَّتْ عُقَدُهُمْ، ورَضُوا بمَا بِهَا شرط عَلَيْهِمْ ولَهُم، واقترحوا أن يكون أوَّلَهُمْ، فأمسك رَيْثَمَا يُعْقَدُ شِسْعٌ، أو يُشَدُّ نِسْع، ثم قال: اسمعوا وُقِيتُمُ الطَّيْش، وَمِلِّيتُمُ الْعَيش، وأنشدَ مُلْغِزاً في مِرْوحَةِ الخيش: [الطويل]

وجارِيةٍ في سَيْرِها مُشْمَعِلَّةٍ	وَلكِنْ عَلَى إثْرِ الْمَسِيرِ قُفُولُهَا
لهَا سائقٌ مِنْ جِنْسِهَا يَسْتَحِثُّهَا	عَلَى أنَّهُ في الاحْتِثاثِ رَسِيلُهَا
تُرَى في أَوانِ القَيْظِ تَنْطُفُ بالنَّدى	وَيَبْدُو إذا وَلَّى الْمَصِيفُ قُحُولُهَا

* * *

ريث، أي بُطْء. شِسْع: شراكة النعل. أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «لن ينقطع شِسْع أحدكم إلا من ذنبٍ عليه، فليستغفر الله وليرجع فإنها مصيبة عرضت عليه». والنِّسع: شراكة مضفورة على هيئة النعال، ويشدّ بها الرَّحْل وغيره.

وُقيتم: كفيتم. الطيش: خفة العقل. مُلِّيتم: طُوّل لكم. الخيش. ثياب خشنة من الكتان، وهذه المروحة تستعمل ببلاد العراق تكون شِبْه الشراع للسفينة، وتعَلق من سقف البيت، يشدُّ فيها حبل وُيدار بهامشيها، وتُبَلُّ بالماء وترشُّ بماء الورد، فإذا أراد الرجل في القائلة أو الليل أن ينام جَذَبها بحبْلها، فتذهب بطول البيت وتجيء؛ فيهبّ على الرجل منها نسيم طيِّب الريح بارد فيذهب عنه أذى الحرِّ ويستطيب به النوم وهي فوقه ذاهبة وجائية، ولذلك سَمَّاها جارية. ومُشْمعِلّة: سريعة الذهاب. قفولها: رجوعها. والسائق: الشريط الذي يسوقها إذا جُذبت به. يستحثّها: يستعجلها، ومن جِنْسها، أي هو من كَتّان مثلها أوْ من قِنَّب. والاحتِثاث: التَّعجيل. رَسِيلُها، أي مرسلها، ويرسَل معها لزاوية البيت ويرجع معها، والرَّسِيل: الفرس يرسل مع آخر في السباق. أوَان القيظ: وقت الصيف. تَنْطُف: تقطر، ونطُف الماء: سال وقطر، والندى: الرشّ الضعيف. وقُحُولها: يبسها. ولَّى: أدبر، وإذا ولَّى الحَرُّ لم يُحْتَجْ إليها، فلا تُرَشُّ ولا تستعمل فتيبس. وللسريِّ الموصليّ فيها: [الطويل]

ومبثوثة في كلِّ غربٍ ومشرقٍ لها أمَّهاتٌ بالعراق بواطن
يحرِّك أنفاسَ الرِّياح حراكُها كأنَّ نسيم الروض فيهنَّ كامنُ

وله أيضاً: [الطويل]

وخيش كما انجرَّت ذيولُ غلائلٍ مصندلة يختال فيها الكواعب
وقد أطلعتْ فيها الشمال وانثنتْ مُقَيَّدَةً عن جانبيها الجوانب

وممَّا يكْتب على مروحة الكفِّ: [مجزوء الرمل]

أنا في الكفِّ لطيفَهْ مسكني قصرُ الخليفهْ
أنا لا أصلح إلا لظريفٍ أو ظريفهْ
أو وصيف حسن القدِّ شبيهٍ بالوصيفهْ

وفيها أيضاً: [الرجز]

إنني أجلُبُ الرِّيا ح وبي يدفع الخجلْ
وحجاب إذا الحبيبُ ثَنى الرَّأس للقُبَلْ

***

ثُمَّ قال: وَهَاكُمْ يا أولِي الْفضْلِ، وَمَراكزَ الْعَقْلِ، وأنْشَدَ مُلْغِزاً في حابول النَّخْلِ: [مجزوء الوافر]

وَمُنْتَسِبٍ إلى أمٍّ تنشَّأ أصْلُهُ منْهَا
يُعَانِقُهَا وقد كانَتْ نفتْهُ بُرهةً عَنْهَا
بِهِ يَتَوصَّلُ الجاني ولا يُلْحَى ولا يُنْهَى

***

قوله: هاكم، أي خذوا. مراكز العقل: مواضعه ومحالّه، كأنَّ العقل رُكِّزَ فيهم. والحابول: حبل يُصْعَد به على النخل يُعْمَل من لِيفها، وهو حبل يُعْقَد حَلْقة، ويدخل فيها الرجل ويدرِّجه على النَّخْلَة شيئاً شيئاً عند طلوعه حتى يصير بأعلاها، وحبل النخل ليس فيه شيء من الملاسة ولا في النخلة ذلك، فله بها استمساك، ولذلك جعله معانقاً لها، لأنه استدار بها، وقيل له: حابول لأنه لا يُستعمل إلا للصُّعود على النخيل، فَرْقاً بينه وبين الحبْل المستعمل لكلِّ شيء، ولمَّا كان يُصْنع من ليف النخل، جعل النَّخْلة أمه. برهة: زماناً. والجاني: الذي يجني الثَّمَر، ألغز به وأوهم أنه الذي يجني جناية. يُلْحَى: يلام ويسبّ.

ثم قال: ودُونكُمُ الخفيَّةَ العَلَم، المعتكرةَ الظُّلَم، وأنشد مُلْغِزاً في القلم: [الوافر]

ومأمومٍ بِهِ عُرِفَ الإمامُ كما باهت بِصُحْبَتِه الكرامُ

لَـهُ إذْ يَـرْتَـوِي طـيَـشـانُ صـادٍ ... ويَـسْـكُـنُ حـيـنَ يـعـروه ٱلأوَامُ
ويُذْري حِيـنَ يُسْتَسْعَى دُمُوعـاً ... يَـرُقْـنَ كَـمَـا يـروق الابـتـسـامُ

* * *

قوله: العَلم، أي الرَّقْم في الثوب، فأراد أنها خفيَّة في اللغز، فعلمها الذي تُعْرَف به خَفِيَ. والمعتكرة: الشّديدة السواد. ومأموم: برأسه آمة، أي شجّة، يريد الشقَّ برأسه، والإمام: أمير المؤمنين، وجعله معروفاً بالقلم، لأنّ القلم يبدِي أسرار الملك وأخباره في كتبه. وقيل: الإمام الكتاب، من قوله تعالى: ﴿يومَ نَدْعُو كلَّ أناسٍ بإمامِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١]، أي بكتابهم، وقيل بنبيهم، ولا يمتنع أن يريد بالمأموم المتَّبع، وإمامه. الذِّهن الذي يملي عليه، أو يد الكاتب به، وقيل: سمَّاه مأموماً، لأنه يؤم القرطاس، أي يقصده ويتبعه والإمام كتاب الله سبحانه وتعالى لأنه يتَّبَع ويؤتّم به، ويُقتدى بما فيه. باهَتْ: افتخرت. والكرام: الكتبة لقوله تعالى: ﴿بأيدي سَفَرةٍ * كرام بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٦ ـ ١٧]. ولا مرتبة أشرف من مرتبتهم بعد الإمرة، ولذلك قال الصابيُّ: [الطويل]

وقـد عـلـم الـسُّـلـطـان أنّـي لـسـانـهُ ... وكـاتـبـه الـكـافـي الـسَّـديـد الـمـوفَّـقُ
أوازِره فـــيـــمـــا عَـــرَا وأمـــدُّه ... بـرأيٍ يُـرِيـه الـشَّـمْـسَ والَّـلـيـلُ أغْـسَـقُ
فـيـمـنـاي يـمـنـاه ولـفـظـي لَـفْـظُـه ... وعـيـنـي لـه عـيـنٌ بـهـا الـدَّهـرَ يَـرْمُـقُ

طَيَشَان صاد، أي جوَلان عاطش، وطاش: خفَّ. يَعْرُوه: يقصده. والأوامُ: العطش، يريد أن القلم إذا ارتوى بالمداد أسرع في الكتابة وإذا جفَّ توقف وأمسك. يَرُقْنَ: يُعجِبْنَ. ونظر المأمون إلى جارية تكتب، فقال: [الطويل]

وزادَتْ لـديـنـا حُـظْـوَةً حـيـن أطـرقـتْ ... وفي إصْبَعَيْـهـا أسـمرُ الـلـون أهْـيَـفُ
أصـمُّ سـمـيـع سـاكـنٌ مـتـحـرِّك ... يَـنَـالُ جـسـيـماتِ الـعـلا وهـو أعـجَـفُ

وقال العَلَويّ: [الطويل]

إذا ما الـتـقـيـنـا وانـتـضـيـنـا صَـوَارِماً ... يـكـاد يـصـمُّ الـسـامـعـيـن صَـريـرُهَـا
تَسَاقط في القرطاس منها بدائعٌ ... كـمـثـل الـلآلـي نـظـمُـهـا ونـثـيـرُهـا

ثُمَ قَالَ: وَعَلَيْكُمْ بِٱلْوَاضِحَةِ الدَّلِيل، الفاضحة ما قيل، وأنشد مِلغزاً في الميل: [الطويل]

ومـا نـاكِـحٌ أخْـتَـيْـنِ جَـهْـراً وَخُـفْـيـةً ... وَلَـيْـسَ عَـلَـيْـهِ فـي الـنِّـكـاحِ سَـبـيـلُ
مَتَى يَغْشَ هَذِي يَغِشَ في الحال هذه ... وإن مـال بَـعْـلٌ لـم تَـجِـدْه يـمـيـلُ
يَـزِيـدهـا عِـنْـدَ الـمـشـيـبِ تَـعَـهُّـداً ... وبِـرًّا وهـذا فـي الـبـعـول قـلِـيـلُ

* * *

قوله: الواضحة، أي البينة. الفاضحة، أي المبدِية لعيب ما قيل قبلها من اللغز. والميل: المِرْود. والأختين: العينين. ليس عليه سبيل، مع أنَّ الجمع بين الأختين. لا يجوز. يَغشَ: يدخل لها. مالَ: عدل وزال عنها. والبَعْل: الزوج. تعهُّداً: تفقّداً. برًّا: إكراماً. يريد أنَّ الأبصار عند الكبَر يضعف نظرها فتحتاج إلى الكحل. وقيل: عبَّر بالمشيب عن مَرَهِ العين وهو فَسَادُها من ترك الكحل.

* * *

ثمَّ قال: وهذه يا أولي الألباب، معيار الآداب، وأنشد ملغِزاً في الدُّولاب: [الوافر]

وجـافٍ وهـو مـوصـولٌ ... وَصـولٌ لَـيْـسَ بـالـجـافـي

غـريـق بـارز فـأعـجَـبْ ... لـه مـن راسـبٍ طـافـي

يَـسُـحُّ دُمُـوعَ مـهـضـومٍ ... ويـهـضِـم هَـضْـمَ مِـتْـلافِ

وتُـخْـشَـى مِـنْـهُ حِـدَّتُـهُ ... ولـكِـنْ قـلـبُـهُ صـافـي

* * *

أولي الألباب، أي أهل العقول. معيار: مقياس يعبَّر به، وتقول: عايرت المكاييلَ، إذا قست بعضها ببعض، وساويتَ بينها. والدُّولاب: الناعورة. والجافي: الثقيل، يريد أنَّ الدولاب جافٍ في نفسه وخلقته، وليس بجافٍ لسرعة حركته ودوَرَانه. وموصول: ليس من عُودٍ واحد. وَصُول، يعني للرياض بمائة ولهذه المنفعة صُنِع. قوله: ليس بالجافي، يعني إذا فارق الماء عاد إليه لا يجفوه، والجفاء يكون في الخلقة والخلق، يقال: رجل جافي الخلقة، أي غليظ، وجافي الخلُق إذا كان كَزًّا غليظ العشرة، وجفا الشيء يجفو جفاء: لم يلزم مكانه، وجفا جنبُه عن الفراش: لم يطمئنّ، ويَجْفوه، ضدّ يصله، جَفوة: مرة واحدة، وجفاء مصدر عام، ورجل وَصولٌ: كثيرالوصْل.

وقال الرُّصافي في هذا المعنى فأحسن: [مخلع البسيط]

وذي حـنـيـنٍ يـكـاد شـوقـاً ... يـخـتـلِـسُ الأنـفـس اخْـتِـلاَسَـا

إذا غـدا لـلـريـاض جـاراً ... قـال لـه الـمـحْـلُ: لا مِـسَـاسَـا

يـبـتـسِـمُ الـرَّوضُ حـيـن يَـبْـكِـي ... بـأعـيـنٍ مـا رأيْـنَ بـاسَـا

مـن كـلِّ جـفـنٍ يـسـلُّ سـيـفـاً ... صـارَ لـه غِـمْـده رئـاسَـا

ولأبي الفضل بن الأعلم في قواديس الساقية: [السريع]

ونُـسَّـكٍ كـعـبـتـهـم حـفـرة ... مَـنْ فـارق الـحـفـرة يـبـكِـيـهَـا

حـتـى إذا مـا أنـفـدُوا دَمْـعَـهُـمْ ... خـرُّوا عـلـى رؤوسـهـم فـيـهـا

وقال أعرابي في ساقية: [الكامل]

بـاتـت تـحـنُّ ومـا بـهـا وَجْـدِي ... وأحـنُّ مـشـتـاقـاً إلـى نَـجْـدِ

فدموعها تحيَا الرِّياضُ بها ودموع عيني أحرقت خدِّي

قوله: غريق بارز، يريد أن بعضه يَغرَق في الماء وبعضه يبرز منه، وهو معنى راسب طافي، لأنك تقول: رسبَ الشيء في الماء، إذا هبط في قعره وسَفُل فيه، وطفا، إذا ارتفع على وجه الماء. يسحّ: يصبُّ. مهضوم ويهضم: ينقص. متلاف: مبذِّر للمال، يريد كثرة أخذه للماء وإراقتَه له. حدَّته: سرعة جريه، لأنه إن نشب بأحدٍ في جريه أهلكه. وقلبه صافي، لأنه ليس من الحيوان فيعتقد شرًّا إن أحرِج. ولابن سعد الخير البلنسيّ بن دولاب: [البسيط]

لِلَّهِ دُولابٌ يفيض بسلسلٍ في روضةٍ قد أينَعَتْ أَفنَانَا
قد طارحتْه بها الحمائم شجْوَها فيجيبها ويراجع الألحانَا
وكأنه دنِفٌ يدور بمعهدٍ يبكي ويسأل فيه عَمَّن بانَا
ضاقت مجارِي دمعه عن جفنِه فتفتَّحت أضلاعُه أجْفانَا

ولبعض أصحابنا: [المنسرح]

وقَدُه الحسن في محاسنها للعين قيْدٌ وللحجا شَرَكُ
تَبْكِي فتبدِي حنين ذي نسُكٍ بعد التَّصابي وما بها نُسُك
إذا بكت في الرِّياض من طرب بَدَا بوجهِ الأزاهر الضَّحِكُ
كأنَّ ما انهلَّ من مدامعها رجومُ شُهْبٍ يُقِلُّها فَلَكُ

* * *

قال: فلمَّا رَشَقَ، بالْخَمْسِ الَّتِي نَسَقَ، قال: يا قوم تَدَبَّرُوا هذه الخمس، واعْقِدُوا عليها الخَمْسَ، ثُمَّ رَأْيَكُمْ وَضَمَّ الذَّيل، أو الازْدِيَادَ من هَذَا الكَيْل. قال: فاسْتَفَزَّتِ الْقَوْمَ شَهْوَةُ الزِّيادة، على ما أُشربوا من البلادة، فقالوا: إنَّ وقوفَنَا دُونَ حَدِّكَ، ليُفْحِمُنَا عن اسْتيراءِ زَنْدِك، واسْتِشْفَافِ فِرِندِكَ، فإن أتممت عَشْراً فَمِنْ عِنْدك؛ فاهْتَزَّ اهْتِزَازَ مَنْ فَلَجَ سَهْمُه، وانخزلَ خَصْمُهُ. قوله: رَشَق، أي رمى، مأخوذ من رَشْق السهام، يقال: رَشَقتُ رشقاً، أي رَمَيْتُ، والرِّشق بالكسر: اسم للسهام، وهو اسمٌ للهَدَفِ الَّذِي يرمونه. نَسَق: تابع واحداً بعد واحد، وكلُّ شيء تبع بعضه بعضاً على السواء فهو نَسَق. ضَمّ الذيل: التشمير. الفنجديهي: ضمّ الذيل كناية عن الاكتفاء بهذه الأحاجي الخمس، والسكوت عن طلب الزيادة، يريد بالازدياد من الكيل، أن يزيدهم من حسن الأحاجي.

واستفزّتْهم: استدعتهم واستخفَّتهم، الزَّجّاج في قوله تعالى: **﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ منهم بصوتِكَ﴾** [الإسراء: ٦٤] أي استدعه لتستخفَّ به إلى إجابتك، واستفزَّه: ختله حتى ألقاه في مهلكة. أُشرِبوا: سُقُوا ودُوخلوا وخولطوا، وكلُّ لون خالط لوناً آخر فقد أشربَه.

والْبَلاَدَة: التَّحير في الأمر، والبليد المتحيِّر: الذي لا يدري أين يتوجه، الأصمعيّ: البليد: الذي يضرب بإحدى بلدتيه على الأخرى من الغمِّ عند المصيبة. والبَلْدَة هي الرَّاحة، يقال: تبلَّد الرجل، إذا تحيَّر وضرب بإحدى يديه على الأخرى، يريد أَنَّ البلادَةَ مَشَتْ فيهم وأُشرِبتهم.

* * *

ثُم افتتح النُّطْقَ بالْبَسْمَلَةِ، وأنشد مُلْغِزاً في المزمَّلة: **[الطويل]**

ومسرورةٍ مغمومةٍ طولَ دهرِها ... وما تَدْرِي ما السرور ولا الغَمُّ

تُقَرَّبُ أحياناً لأجل جَنينِهَا ... وَكَمْ ولدٍ لولاه طُلِّقتِ الأمُّ

وتُبْعَدُ أحياناً وما حالَ عَهْدُهَا ... وإبْعَادُ مَنْ لم يَسْتَحِلْ عَهْدُهُ ظُلْمُ

إذا قَصُرَ اللَّيْلُ اسْتُلِذّ وصالُها ... وإن طالَ فالإعراضُ عن وَصْلِهَا نُعْمُ

لَهَا مَلْبَسٌ بادٍ أَنيقٌ مُبَطَّنٌ ... بِمَا يُزْدَرَى لَكِنْ لَمَا يُزْدرَى الْحُكْم

* * *

قوله: المزمَّلة، أي الملفقة، وقد زُمِّلت، إذا لفِّفتْ، وهي آنية يُبرّد فيها الماء، شبه الخابية، تستعمل بأرض العراق وتوضع عليها لفائف ثياب خشنة، وتُغَشَّى بجلد أو ثوب مزيَّن، حسنٍ لنظر العين، ومن تحته تلك الأغشية الخشنة الَّتِي لها السرّ والحكم في تبريد الماء. ومَسْرورة، أي محمولة على سرير، وهم يجعلون تحتها مِرْفعاً من عود أو حديد، تَرْتَفِع به عن الأرض فهو سريرها، وكذلك رأيتُ خوابيَ الماء بسجِلْماسة، كلها على أسرّة عود. وقيل مسرورة: مغمومة مغطاة، وسرير الكمأة: ما غطاها من التراب. والغم: ضِدّ السرور. جنينها: ولدها، أراد به الماء. وحال: تغيَّر. عهدها: التقاؤها وقربها. غُنْم: غنيمة. أنيق: مُعْجِب. يزدرى: يحتقر، وأراد بالحكم معنى تبريد الماء، وأراد أن ما بدا منها للناظر فهو غشاء حين يعجب مَنْ رَآهُ، وهو قد بطِّن بلفائفَ غِلاَظٍ مستحقرة، ولها معنى تبريد الماء، وقال السريّ الموصليّ في المزمّلة: **[الطويل]**

وحافظة ماء الحياة لفتيةٍ ... حياتهم أن تُسْتَلذَّ المشارب

تسربُلُها أجْفَى اللباس وإنَّما ... يليق بها أفوافُه والسباسب

على جسدٍ مثل الزَّبَرْجَد لم يزل ... يشاكله في لونه ويناسب

إذا استودعت حُرَّ اللجين سبائكاً ... تصوَّب في أحشائها وهو ذائب

فهذه القطعة وقطعة المقامة تدل على تفسيرنا، وبه كان يفسر شيخنا ابن جهور رحمه الله، حدّثنا بذلك شيخنا أبو بكر بن أزهر عنه. وأما الفنجديهي ففسر المزمّلة بتفسير غير مرضيّ، وذلك أنه قال: المزمَّلة موضع يغطَّى؛ ويحشى تِبْناً، ويوضع في وسط التّبن وعاء في القيظ يُبقي الماء بارداً، ويترك ثقبه في وسط الموضع لدخول الجرة

فيها، ولهذا قال: «مسرورة» أي مقطوعة السرَّة، وهو من سُرَّ الصبي، إذا قطَعت القابلة سُرَّته.

* * *

ثُمَّ كَشَرَ عن أنيابه الصُّفر، وأنْشَد مُلْغِزاً في الظُّفْر: [الوافر]

وَمَـرْهُـوبِ الـشَّـبَـا نـامٍ ... ومـا يـرعـى ولا يَـشْـرَبْ

يُـرَى فـي الـعَـشْـرِ دون الـنَّـحْـرِ ... فـاسْـمَـعْ وصْـفَـه واعْـجَـبْ

كَشَر: كشف. أنيابه: أضراسه. الصُّفْر، يريد أنه لا يتعهدها بالسِّواك، فلذلك اصفرَّت وتلك الصفرة تسمى الْقَلَح، وقد قال في السادسة والعشرين: «بحسن مُلَحِه وقبح قَلَحِه». مرهوب: مخوف. الشَّبَا: الحدَّ. نام: زائد، والظفر إذا تُرِك بغير تقليم طال. وما يرعى، يريد أن نمو الخلْق وزيادته إنما هو بما يتغذى به من الأكل والشرب، وهذا يكبر ويزيد من غير غذاء. والعَشْر في الظاهر: عَشْر ذي الحجة. والنّحر: يوم النحر أي يوم العيد فأراد أن هذا المرهوب الشَّبا إنما يظهر في العَشْر خَاصَّةً، فإذا جاء يوم العيد وطول السنة بعده لم يظهر، وإنما يعني بالعَشْر الأصابع. والنَّحر: العُنق، أي أنّ الأظفار خُلِقت في الأصابع لا في العنق، أو يريد أن الظفر يرى في الأصابع العشر في عشر النَّحر من ذي الحجة.

* * *

ثُمَّ تخازُرَ تخازُرَ الْعِفْرِيت، وأنْشَدَ مُلْغِزاً في طاقةِ الْكِبْرِيت. [الوافر]

وَمَـا مَـحْـقُـورَةٌ تُـدْنَـى وتُـقْـصَـى ... ومـا مِـنْـهَـا إذا فـكَّـرْتَ بُـدُّ

لَـهَـا رأسـانِ مُـشْـتَـبِـهَـانِ جِـدًّا ... وَكُـلٌّ مِـنْـهُـمَـا لأخِـيـه ضِـدُّ

تُـعَـذَّب إن هُـمَـا خُـضِـبَـا وتُـلْـغَـى ... إذا عَـدِمـا الْـخِـضَـابُ وَلاَ تُـعَـدُّ

* * *

قوله: تَخَازر، أي نظر بمؤخر عينيه مستقلا لذلك، وهو نظر المحتقر لمن ينظر المنكر عليه. والعفريت: الشيطان المؤذي، وهو الرئيس من الجن، والكبريت، معروف فارسيّ معرّبٌ. وطاقاته: قضبانه التي تجعل شيئاً على شيء وهو الوقود الذي يشعَل به المصباح. تُقْصى: تبعد. جدًّا، أي كثيراً، ويريد بالرأسَيْن طرفي قضيب الوقيد اللذين ينغمسان في الكبريت، وجعلهما ضدَّين لأن هذا في طرف وهذا في طرف، فقد تباعدا وضدّ الشيء بعيد عنه، وجعلهما متشبهين؛ لأن شكل الطرفين وهما الرأسان شكل واحد. وخُضِبا: غمسا في الكبريت. وتُلْغَى: تهجَر وتترك، وقال ابن رشيق: [البسيط]

إنْ كنت تنكر ما منك ابتليت به ... فـإنَّ بُـرْءَ سـقـامـي عـزَّ مـطـلـبُـهُ

أشِرْ بعودٍ من الكبريت نحو فمي وانظر إلى زفراتي كيف تُلْهِبُه

* * *

ثُمَّ تخمَّطَ تخمُّطَ الْقَرْمِ، وأنْشَدَ مُلْغِزاً في حَلَب الكرْم: [مجزوء الوافر]

ومـا شَـيءٌ إذَا فَـسَـدَا تـحـوَّل غَـيُّـهُ رَشَـدَا
وإن هــو راق أوصـافـاً أثَـارَ الـشَّـرَّ حَـيْـثُ بـدا
زَكِـيُّ الْـعِـرْقِ وَالِـدُهُ ولَـكِـنْ بِـئْـسَ مـا ولَـدَا

* * *

قوله: تَخَمَّط، أي تكبّر وتهيّأ للقول، وأصل التَّخَمُّط للقرم، وهو فحل الإبل، وتخمَّط: تهيّأ للهدير وأخذ في الصِّياح والهجوم على الإبل. وحَلَب الكَرْم، أراد الخمر، لأنها تُحْلَب من العنب. والحلب: اللبن المحلوب، يقول: الخمر إذا فسدت صارت خلا، فحلّ استعمالها، فقد صار غيُّها وهو فسادها رشداً، أي صلاحاً، وقال أبو بكر بن الْقَبطُرْنة في خمرٍ له فسدت فصارت خلاً: [الطويل]

أبا حسنٍ إني فجِعتُ بصاحبٍ أنيس يسلّي الهمّ عند احتلالِهِ
غدتْ بنت بِسطام بن قيس بدنّها وأمست كجسم الشَّنْفَرَى بَعْدَ خالِهِ

قوله: «غدت بنت بِسطام بن قيس»، أي صهباء، لأن بسطام بن قيس يكنى أبا الصهباء. وقوله: «وأمست كجسم الشنفرى»، أي خَلاً، لأنه يريد قول الشَّنْفَرى: [المديد]

* إنّ جسمي من بعد خالِيَ خَلٌّ[1] *

أَي مختلّ.

وقال آخر في ذلك: [البسيط]

حَسِبْتُها بنتَ بسطام لها أرجٌ ثم افتضضت ختاماً من أبي سَلَمَهْ

عرّض بأبي سلمة الْخَلاَّل.

ومن التعريض المركّب على هذا المعنى قول الشاعر: [المتقارب]

شربتُ مداماً تسرّ التريفَا فأصبحت تجرّع خلا ثقيفا

---

(١) يروى البيت:

فاسقنيها يا سواد بن عمروٍ إنّ جسمي بعد خالي لخلُّ

والبيت للشنفرى في ديوانه ص ٨٤، وملحق ديوانه ص ٨٩، ولسان العرب (سلع)، (خلل)، ولتأبط شراً في ديوان الحماسة للتبريزي ٢/ ١٦٣، وتاج العروس (خلل)، ولابن أخت تأبط شراً في العقد الفريد ٣/ ٣٠٠، والحيوان ٣/ ٧٠، ولخلف الأحمر في شرح ديوان الحماسة للتبريزي ٢/ ٨٣٨، وبلا نسبة في مقاييس اللغة ٢/ ١٥٦.

وصرت حجازاً جديب المحَلِّ		وقد كنت للطالب الخِصْب رِيفَا

وقال آخر: [الرمل]

يا عُقاراً صار خلاً		وملاذاً للبعوضِ
سِرْ فما لي فيك حظٌّ		كان ذا قبل الحموضِ
ما أبالي بعد أكل الزّبـ		ـد من طَرْح المخيضِ

قوله: راق أوصافاً، أي حسنت أوصافه وحسنُها أن توصف بالرّقة والصفاء والحمرة والقِدَم وقوة الفعل، يقول: فإذا كانت أوصافه معجبة أوْقَد الشر حيثما حضر فإذا فسدت أوصافه صلح. زكيّ العِرْق: كريم الأصل، والزكاء: النماء والزيادة، أي كثير الفضل والخير، وأراد أنها شجرة مباركة يكون منها العنب والزبيب والرّبّ، ولكنها تلد ولد سوء، وهو الخمر، وأخذ هذا المعنى من قول الشاعر: [البسيط]

فإن فخرتَ بآباء لهمْ شرفٌ		قلنا صَدَقْتَ، ولكن بئس ما ولدُوا

أو يريد لذّة العنب.

* * *

ثُمَّ اعْتَضَدَ عَصَا التَّسْيَار، وأَنْشَدَ مُلْغِزاً في الطَّيَّار: [المتقارب]

وذِي طَيْشَةٍ شِقُّهُ مائلُ		وما عابَهُ بِهِمَا عاقِلُ
يُرَى أبداً فوق عِلِّيَّةٍ		كما يَعْتَلِي المَلِكُ العادِلُ
تساوَى لَدَيْهِ الحصا والنُّضَارُ		وَمَا يَسْتَوِي الحقُّ والباطِلُ
وأعْجَبُ أوصافه إنْ نَظَرْتَ		كما يَنْظُرُ الكيِّسُ الفاضِلُ
تَرَاضَى الخصومُ به حاكماً		وَقَدْ عَرَفوا أنَّهُ مائلُ

* * *

قوله: اعْتَضَد، جعلها تَحتَ عَضُدِه. التَّسْيار: السَّير. والطَّيَّار: ميزان معروف عندهم، يرجِّحه أيسر شيء؛ فلِخفَّته سُمِّيَ الطيّار. وقيل: الطَّيّار. ميزان الدراهم المعروف عندهم بالقارسطون. الفنجديهي: الطيَّار: لسان الميزان.

طَيْشَةٍ خفة. شِقُّه: نصفه وجانبه، فيريد بالظاهر: وذي حمق وخفة أصابه خَدَر وفالج، فيبس جنبه فمال على الجانب الصحيح، ومع ذلك لا يُرَىَ أبداً إلا في مكان مرتفع عالياً كما يَفْعَل الملك، والحجارة والذهب عنده سواء. والنُّضَار: الذهب، ثم قال: وإذا نظرت إليه نظر كَيِّسٍ حاذق رأيت في وصفه عجباً حين كان الناس يتراضوْن بحكمه مع معرفتهم بأنه ناقص الْخِلْقة، لا يعدل في حكمه إنما هو ميّال مع أحد الخصمين. والعلِّية: اليد التي يمسك عليها الميزان.

[من الألغاز]

وقال أبو نواس يلغز: [السريع]

واسم عليه جُنَنٌ للصبا ... وضمّه للوصف دوّارُ
فضحتُ عنه سرَّ كتمانِه ... وكان من شأنيَ إظهارُ
يُحذَف أول مبتدأً لاسمه ... ثم يكون الوصف إضمار
فذاك عل في لعلّ وفي ... قولك في حارث: يا حار
فهو بحذف ذا وترخيم ذا ... أح لمن تلذعه النار

الاسم راحة، يحذف أوَّل حرف وآخر حرف، ويبقى أح، وهو من لذعته النار.

وقال آخر: [السريع]

ويلي من الحبِّ وويلاهُ ... مُلِّكَ قلبي وتناساه
مَنْ ثالث العنبر بعضُ اسمه ... ورابع العنبر أولاهُ
وقوله عند سؤالي له: ... ما في اسمه والحافظ الله؟

الاسم رعبلان. وأنشد ابن إسحاق النحويّ: [الكامل]

حلف الحبيب عليَّ لا سميتُه ... فكنّيته وأطعتُ خوف تغاضِبِه
ظبي إذا ما زارني حلَّ اسمُه ... قلبي وذاك من عجيب عجائبهِ
ويكون إن رخّمته وجزمته ... وقلبته ما تشتهي من صاحبه
ويكون بعد الجزم إن فكرت في ... التَّصْحيف مقلوباً أشدُّ معايبهِ

الاسم فرجة. وأشدّ معايبه فرج، وهو ما يشتهي من صاحبه، إذا حذفت الهاء.

وقال ابن شرف: [السريع]

ما آكلٌ يعطَى على أكلةٍ ... إعطاءَ إقلالٍ وإكثار
لُقْمَتُه قيمتها وحدَها ... من غير خلفِ ألفُ دينار

هو فرج المرأة.

وله في المرآة: [الرمل]

ما يقول الشيخ في شي ... ء تراه ويراكا
ثم لا تلقاه إلا ... حين لا يلقى سواكا

وله أيضاً في الإبرة: [الرجز]

ضئيلة الجسم لها ... فعل متين السَّبَب

حــافِــرُهــا فــي رأســهــا وعــيــنــهــا فــي الــذَّنَــبِ

ولغيره في الميزان: [الوافر]

وقاضٍ قد قضى في الأرض عدلٌ لــه كــفٌّ ولــيــس لــه بَــنَــانُ
رأيتُ الناسَ قد قَبِلوا قَضَاهُ ولا نُطقٌ لديه ولا بَيَانُ

وقال العلويّ الأصبهاني يلغز في النَّسر الواقع: [الطويل]

وركب ثلاث كالأثافي تعاوَرُوا دُجَا الليل حتى أومضَتْ سِنَةُ الفجر
إذا اجتمعوا سميتَهُم باسم واحدٍ وإن فرِّقوا لم يُعرَفوا آخرَ الدَّهرِ

وأنشد الحاتمي في الخفاش وهو طائر الليل: [الطويل]

أَرَى عُلَماء النَّاسِ لا يعرفونني وقد ذهبوا لِلْعِلْم في كلِّ مَذْهَبِ
بجلدةِ إنسان وصورة طائرٍ وأظفار يَرْبوعٍ وأنياب ثعلبِ

وأنشد في الطائر وظله: [الوافر]

عجبت لطائرٍ في الحوم طارَا وكانَا واحداً فاثنين صارا
فهذا طائر في الجوِّ يهوِي وذا مستأنس لَزِمَ الْقَرَارا

وأنشدوا في مصراع الباب: [الطويل]

عجبتُ لِمَحرُومَيْنِ من كلِّ لَذَّةٍ يبيتان طولَ اللَّيْلِ يعتَنِقَانِ
إذا أمسيا كانا على الناس مرصداً وعند طلوع الشمس يفترقانِ

وأنشدوا: [الطويل]

فما مَيْتٌ أحْيَا به الله مَيْتاً ليخبر قوماً أُنذِرُوا ببيانِ
وعجفاء قد قامتْ لتُنْذِر قومها وأهل قُراها رهبة الحدَثانِ

الميت الأوّل بقرة بني إسرائيل، والميت الثاني الذي ضرب ببعضها والعجفاء نملة سليمان عليه السلام.

والألغاز أكثر من أن يأتيَ عليها الحصر.

* * *

قال: فظلّتِ الأفكارُ تهيمُ في أوْدِيةِ الأوهام، وتجول جَوَلاَنَ المستهام، إلى أن طال الأمَد، وحَصْحَصَ الكَمَد. فلَمَّا رَآهُمْ يَزْنِدُون وَلاَسنا، ويَقْضُون النَّهارَ بالمُنَى، قال: يا قوم؛ إلام تَنْظُرون، وحتَّامَ تُنْظَرُونَ! أَلَمْ يأنِ لكم اسْتِخْرَاجُ الْخَبيّ، أو اسْتِسْلاَمُ الْغبِيّ! فقالوا: تاللّهِ لَقَدْ أعْوَصْتَ، ونَصَبْتَ الشَّرَكَ فقنصْتَ؛ فتحَكَّمْ كَيْفَ شِيت، وحُزِ الْغُنْمَ والصِّيت، فَفَرَضَ عن كُلِّ معمًّى فَرْضاً، واسْتَخْلَصَهُ

مِنْهُ نضًّا. ثم فتح الأقْفالَ، ووسم الأغفَال، وحَاوَلَ الإجْفَالَ. فاعْتَلَقَ مِذْرَةُ الْقَوْم، وقال له: لا لُبْسةَ بَعْدَ اليوم. فاسْتَنْسِبْ قَبْلَ الانْطِلاَق؛ وهَبْهَا مُتْعَةَ المطلاق، فأطْرَقَ إطراقَ مُريب، ثم أنشد والدَّمْعُ مُجيب.

* * *

قوله: تهيم أي تتحيّر والهائم: الذي يركَبُ رأسه ويمشي على غير هداية. الأوهام: جمع وَهْم وهو ما تتوهمه وتتصوره في نظر مسألة مشكلة، إما خطأ وإما صواباً، وأراد أن أفكارهم كانت تتحيَّر في نظر ألغازه ولا تهتدي. تَجُول: تتصرَّف. المُستهام: العاشق الذي ذهب به الحبُّ كلَّ مذهب. حصحص: تبيَّن الكمد: الحزن والهمّ. يَزْنِدُون ولاسَنَا: يقدحون الزَّند، ولا يظهر لهم ضوء، أي تضرب أذهانهم الألغاز، فترجع بلا فَهْم. ويقضون: يقطعون يومهم بأمانيّ لا محصول لها.

[مما قيل في التمني]

قال عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه: إيَّاك والمنى فإنها بضائع النَّوْكَى، وتثبِّط عن الآخرة والأولى، وأشرف الغنى ترك المُنى.

عليّ بن عبيدة الزنجاني: الأمانيُّ مخايل الجهل.

وقال غيره: الأمانيُّ تخدعك وعند الحقائق تَدَعُك.

وفي ضدِّه: أفلاطون: التمني حلم المستيقظ وسلوة المحروم.

غيره: الأمل رفيق مؤنس إنْ لم يبلِّغْك فقد ألهاك.

قيل لأعرابيٍّ: ما أمتع لذات الدنيا؟ قال: ممازحة الحبيب، ومحادثة الصديق، وأمانيُّ تقطع بها أيامك. وأنشد الثعالبيّ: **[السريع]**

ولا تكن عبدَ المنى فالمُنَى ... رؤوس أموالِ المفاليسِ

وقال مسلم بن الوليد: **[الطويل]**

وأكثر أفعال الغواني إساءة ... وأكثر ما تلقى الأماني كواذبَا

وأنشد أبو تمام في ضدِّه: **[الطويل]**

مُنًى إن تكنْ حَقًّا تكن أحسنَ المنى ... وإلا فقد عشنا بها زمناً رغْدا

أمانيّ من لَيْلَى حِسَاناً كأنما ... سقتني بها ليلى على ظمأ بَرْدَا

ابن المعتزّ يصف ساقياً: **[البسيط]**

فظلَّ يُنَاجيني يقلِّب طرفَه ... بأطْيَبَ من نجوى الأماني وألْطفَا

غيره:

عَلِّلِيني بموعدِ ... وامْطُلِي ما حييتِ بهْ

ودعـــيـــنـــي أفـــوز مِـــنْـــ ـــكِ بـــنـــجـــوى تـــطـــلُّـــبِـــهْ
فـــعـــسَـــى يـــعْـــثُـــر الـــزَّمـــا ن بـــخـــطْـــي فـــيـــنـــتـــبِـــهْ

قوله: تُنظَرون، أي تؤخَّرون. يأنِ: يحِن ويقْرب. الخبيّ، أي المخبوء المستور، يريد ما خَبّأ لهم في الشعر من اللّغز. استسلام: انقياد. الغبيّ، أي الجاهل بالشيء. أغْوَصْت: أتيت بعويص وهو الصّعب. الشَّرَك: آلة يُصاد بها. قَنَصْتُ: صِدْت. الغُنْم: الغنيمة والجائزة. الصِّيت: الذِّكْر الحسَن. يُنشر في الناس ويَشيع. فَرْض: قِسْط. وأوجب: وألزم. والفرض: العطية واستخلصه: جعله خالصاً. نضًّا: حاضراً. فتح الأقفال، أي حلّ ألفاظ الألغاز وإلباسها وكأنّها لتعميتها كأنّ عليها أقفالاً، فحلّها بتفسير. والأغفال: جمع غُفْل، وهو الشيء المهمل ليس له علامة يعرف بها. وَسَمها: جعل لها علامة حاولَ الإجفال، أراد الفِرار، وأجفل القوم: انهزموا. ومِدْرَة القوم: لسانهم وفصيحهم المتكلّم عنهم، وأصل المدرة المِدْفَاع، وقد دَرَهْتُه، إذا دفعتَه: لُبْسة: شبهة، وقد التبس الأمر إذا أشكل، ومُتْعة الطلاق، أن يهب الرجل لامرأته شيئاً من ماله إذا طلّقها يسلّيها بذلك عن فراقه لها، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: أكثر المتعة خادم، وأقلها ثلاثون درهماً، وقيل: أكثرها خادم وأوسطها ثوب وأقلها ماله ثَمَن. وهبْها: احْسِبْها، يقول: احسب انتسابك لنا مُتْعَةً وتسليةً لفراقك عنا. أطرق: أمال رأسه وسكت مُريب: صاحب ريبة. والدّمع مجيب، يريد أن إنشاده دعا دمعه فأجابه وقد قال أبو الطيب: [البسيط]

* أجاب دَمْعِي وما الداعي سِوَى طَلَلِ[1] *

يريد أنه لمّا وقف على الطلل وهو أَثَرُ دارِ أحبابه هيَّجه لهم فبكى، فالطلل لمّا دعاه للتذكّر أجابه بدموعه. [المجتث]

* * *

سَـــروجُ مَـــطْـــلَـــعُ شـــمـــســـي ورَبْـــعُ لَـــهْـــوِي وَأُنْـــسِـــي
لَـــكِـــنْ حُـــرِمْـــتُ نـــعـــيـــمـــي بِـــهَـــا ولَـــذَّةَ نَـــفْـــسِـــي
واغْـــتَـــضْـــتُ عـــنـــهـــا اغـــترابـــاً أَمَـــرَّ يَـــوْمِـــي وَأَمْـــسِـــي
مَـــا لِـــي مَـــقَـــرٌّ بِـــأَرْضٍ ولا قـــرارٌ لِـــعَـــنْـــسِـــي
يـــومـــاً بِـــنَـــجْـــدٍ ويـــومـــاً بـــالـــشَّـــأمِ أُضْـــحِـــي وَأُمْـــسِـــي

---

(١) عجزه:

دعـا فـلـبّـاه قـبـل الـركـب والإبـلِ

والبيت في ديوان المتنبي ٤/ ٧٤.

أزجِي الـزمـان بـقـوتٍ مُـنَـغَّـصٍ مُـسْـتَـخَـسّ
ولا أبـيـتُ وعـنـدِي فَـلْـسٌ، ومَـنْ لِـي بِـفَـلْـسِ!
ومـن يَـعِـشْ مِـثْـلَ عَـيْـشِـي بـاع الـحـيـاةَ بِـبَـخْـسِ

ثُمَّ إنَّه اخْتَبَنَ خُلاَصة النَّضّ، ونَدَر ضارباً في الأرضِ، فناشَدْناه أن يَعُود، وأسْنَيْنَا له الوعود؛ فلا وأبيك مَا رَجع، ولا الترغِيبُ له نَجَع.

* * *

قوله: مَطْلع شمسي، يريد أن سَروج هي بلده التي نشأ فيها. ربع: منزل. اعْتَضْت: استبدلت. أمرّ: جَعَلهُ مُرًّا. مَقَرّ: إقامة. قرار: سكون وإقامة عَنْسي: ناقتي الوثيقة، نَجْد: ما ارتفع من الأرض، وأنجد: أتى نجداً. والشأم: أخِذ من اليد الشؤمى. أُزْجي: أسوق. منغّص: مكدّر، ويقال: نغّص علينا فلان، أي قطع علينا ما كنا نحبّ الاستكثار منه، وكلّ مَنْ قطع شيئاً يحبّ الازدياد منه فهو منغّص. مُسْتَخَسّ: مستهجَن. بَخْس: نقصان.

اخَتبن: جعله في خُبْنته، وهو طرف ثوبه، والْخُبْنة كالْحُجْزة للإزرار، والخُلاصة: ما خلص له منه وصفا. وندر: سبق، وذهب يضرب في الأرض إذا سار فيها، وأصل نَدَرَ، خرج وطار، مثل النّواة إذا طارت من تحت المرضِخ وشبهها. فناشدناه: حلّفناه. يعود: يرجع. أسْنَيْنَا: عَظَّمنا وجعلناها سنيَّة أي رفيعة. والوعود: جمع وَعْد، وهو ما وعدوه به من المال. الترغيب: التطميع، وقد رغّبته في الشيء إذا زيَّنته له وطمّعته فيه. ونجع: نفع، وقد نجع عليه الطعام، إذا أصلح عليه جسمه.

المقامة الثالثةَ والأربعُون

وهيَ البكريَّة

حَكى الحارثُ بن هَمامٍ قال: هَفَا بِي الْبَيْنُ المُطَوِّحُ، وَالسَّيْرُ المبرِّح، إلى أرضٍ يَضِلُّ بِهَا الْخِرِّيتُ، وتَفْرَقُ فِيهَا الْمَصَالِيت، فوجَدْتُ ما يَجِدُ الحائرُ الْوَحِيد، ورأيتُ ما كُنْتُ مِنه أَحِيد؛ إلا أنّي، شَجَّعْتُ قَلْبِيَ الْمَزْءود، ونَسَأتُ نِضْوِيَ الْمَجْهُود، وسِرْتُ سَيْرَ الضَّارِبِ بقِدْحَيْنِ، الْمُسْتَسْلِمِ لِلْحَيْنِ؛ وَلَمْ أَزلْ بَيْنَ وَخْدٍ وذَمِيل، وإجازةِ ميلٍ بعد مِيل؛ إلى أن كَادَتِ الشَّمْسُ تَجِب، والضِّيَاءُ يَحْتَجِب فارْتَعْتُ لإظْلالِ الظَّلاَمِ، واقْتِحامِ جَيْشٍ حام، وَلَمْ أَدْرِ أأكِفْتُ الذَّيْلَ وأرْتَبِطُ، أَمْ أغتمد اللَّيْلَ وَأَخْتَبِط!.

* * *

هفا، أي طار وخَفّ. المطوّح: المُبْعِد المُشْفِي على الهلاك، وقد طوّحتُ الشيء، إذا رميتُ به وألقيته إلقاء منكراً. المبرِّح: الشاقّ المتعب، وقد برَّح الأمر، إذا عَظُم واشتدّ. يضلّ: يتحيّر ويتلف. الخِرّيت: الدليل، وقيل: هو من خَرْت الإبرة كأنه من حسن دلالته يهتدي على مثال خرت الإبرة وهو ثُقْبها. تفرَق: تفزع المصاليت: الشجعان الماضون في الحروب، واحدهم مِصْلات، قال الفرّاء: المنصلِت: المسرِع من كلّ شيء، وجمعه مَصالت ومصاليت. أَحِيد: أخاف وأميل عنه. المزءود: المفزَّع، وزئد الرجل: فزِع نسأت: ضربتُ بالمِنْسَأة، وهي العصا. نِضْوِي: بعيري. المجهود: المُتعب قَدَحَيْن: سهمين.

[قداح الميسر]

وكان الرجل في الجاهلية يُمسك ثلاثة أقداح، على أحدها مكتوب: «أمرني ربي»، وعلى الثاني «نهاني ربي»، والثالث غُفْل لا شيء عليه وهو المَنيح، فإذا أراد سفراً أو أمراً ضرب بها، فإن خرج له «أمرني ربي» مضى آمناً، وإن خرج له «نهاني ربي» ترك ذلك الأمر وإن خرج له غُفْل أعاد الضّرب.

وقيل: كان يمسك قَدَحين مكتوب على أحدهما «افعل» وعلى الثاني «لا تفعل»، فإن خرج «أفعل» مضى، وإن خرج «لا تفعل» ترك.

وقيل: كان لا يمضي حتى يخرج له «افعل» ثلاث مرات، ولا يترك المضيّ حتى يخرج له «لا تفعل» ثلاث مرات، فإن خرج له مرة «افعل» ومرة «لا تفعل» ولم يخلص له أحدهما، فإن مضى في ذلك الأمر مضى وهو يرجو ويخاف، وهذا هو الذي أراد الحريري لأنه كان بين الرجاء والخوْف.

ولما قُتِل حجر أبو امرىء القيس، أخذ امرؤ القيس أزلاَمه وهي القِدَاح، وأتى ذا الخُلْصة ـ وهو صنم لدوْس وخثعم وبَجيلة ـ فاستقسم عندها بالأزلام فخرج له القِدْح الذي يكره، فأخذ الأزلام وكسرها وضرب بها وجه صَنَمِها، وقال: **[الرجز]**

لو كنتَ يا ذا الخَلَص الموتُورا[١]

مثلِي وكان شيخُك المقبورا

لم تنه عن قَتْلِ العداة زُورَا

وحكى الفَنجديهيّ، قال: الضارب بِقدْحين، يعني به قول الناس: إمّا الغُنْم، وإمّا الغُرْم، وإمّا المُلْك وإمّا الهُلكُ قال الشاعر: **[المتقارب]**

ضربتُ بها البيت ضَرْب القِدَا ح إمـا لهـذا وإمّـا لـذا

والقِدْح: السهم قبل أن يُراش ويركّب نَصْلُه.

وحكى ابن ظَفَر أن الأزلام سبعة قِدَاح، مكتوب على أحدها «نعم» وعلى الآخر «لا» وعلى قِدْح «منكم» وعلى قِدْح «من غيركم» وعلى قِدْح «مُلْصَق» وعلى قِدْح «العقل»، وعلى قِدْح «فضل العقل». وكانت بيد سادن الأصنام، فيأتيه ذو الحاجة بدراهم، فيسأل الصنم أن يوضّح له ما سأل عنه، ثم يَضرب بالقِدَاح، فإن أتى سائل عن تزويج أو سفر أو شبه ذلك مما يستشار في مثله ضَرَب له بالقِدْحين اللذين عليهما نعم ولا، فإن خرج «نعم» مضى على فعله وإن خرج «لا» ترك ذلك. فإن انتسب رجل إلى قبيلة ضرب له بالأقداح الثلاثة التي فيها «منكم» «من غيركم» «ملصق» فإن خرج «منكم» أضافوا نسبه إلى أنفسهم، وإن خرج «من غيركم» كان حليفاً وإن خرج «ملصق» لم يكن له حلف ولا نسب. فإن أتى سائل عن قتيل أو جناية ضرب بالقِدْحين اللذين عليهما العقل، فإن خرج على قوم «العقْل» برىء منه الآخرون، وإن عقلوا ففَضَل شيء، فإن اختلفوا فيه ضرب بالقِدْح الذي عليه فضل العَقْل، فإن خرج عليه أدّاه.

ومعنى الاستقسام بها الرِّضا بالقسمة بينهم من الأمر والنهي والبراءة والوجوب.

وسهام الميسر عشرة: ثلاثةُ يتكثّر بها لا أنصباء لها، وسبعة لها أنصباء، فأوّلها الفَذّ، وفيه فرضة واحدة وله نصيب واحد، والثاني التوأم وفيه فرضتان وله نصيبان، ثم

---

(١) الرجز بلا نسبة في معجم البلدان ٣/ ٤٥٨.

الرقيب وفيه ثلاث فُرض، وله ثلاثة أنصباء، ثم الْحِلْس بأربع، والنافس بخمس، والمسبل بست، والمعلى، وهو أعلاها بسبع فرض وعلى عدد الفرض هي الأنصباء وقال ابنُ لُبَّال فجمعها في بيت: **[الكامل]**

فـذٌّ وتـوأم والـرقـيـب ونـافـسٌ والْحِلس ثمَّت مُسبلٌ ثم المعلٌ

واسم الثلاثة الَّتي يُتكَثَّر بها: الفسيح والمَنيح والوغد؛ فإذا أرادوا الضَّرْب بها طلبوا أوَّل رجل يَلْقَوْنه، فشدُّوا عينيه، ويسمونه الحرضة، وأقاموا له الرقيب وضُرِب، فكلَّما خرج له قِدْحٌ دفعه إلى الرقيب، والرقيب هو الأمين على الضَّرب بالقِداح، قال الشاعر: **[المتقارب]**

لـهـا خـلـف أذنـابـهـا أزمـل مـكـان الـرقـيـب مـن الـيـاسـر

وكان أهلُ اليسار والجود من الجاهليَّة عند شدَّة الزمان، ينحَرُون الْجَزُور ويقْتَسِمُونها ويضربون عليها بالقِداح، فَمنْ قَمرَ جعل نصيبه لأهل الميسر، والقمار يُكنَى عنه بالميسر، وأصل المَيْسِر موضع تُنْحر به الْجَزور، والياسر: الجَازر، وتقسم الْجَزور عشرة أجزاء: العَضُدان في الكتفين جزآن، وهما ابنا ملاط، والعَجُز والزَّوْر جزآن، والكاهلُ واللحاء عليهما الجنب بنصفين جزآن، والوركان عليهما الذِّراعان جزآن، والفَخِذان وعليهما العُنُق مقسوماً جزآن. وبقي جَنْب، وهم يستثنونه وقد لا يستثنونه، فيردُّ منه على جزء الكاهل ضلعان وعلى سائرها ضِلَع ضلع، فإن فضلت قطعة أو عَظْم سمِّيَ الزِّيم، قال الشاعر: **[الطويل]**

وكنت كعظم الريم لم يدر جازرٌ على أيِّ أدنى مقسمُ اللَّحم يجعلُ[1]

وقال الأصمعيُّ في الميسر: إنَّه شيء كانت الجاهلية تفعله، فليس عندنا منه حقيقة.

قوله: المستسلم للحَيْن، أي المنقاد للهلاك. الوخد: نوع من السَّير وهو أن ترجُمَ الأرضَ بقوائمها لسرعة سيرها. والذَّميل: سيرٌ ليِّن. تجب: تسقط للمغيب ارتعت: فزعت لإظلال: لقُرْب ودُنوّ. اقتحام: دخول الشيء على غَرَر وحام، هو ابن نوح وقد تقدَّم في الحادية والعشرين، وأراد بجيش حام ظلاَمَ الليل، لأنَّ حاما أبو السُّودان، أكْفِت: أقبضه وأشمُره. أرتبط: أربط بعيري أعتمد: أقصد. أختبط: أمشي على غير هداية، وأراد أنه لا يدري ما يفعل، أينزل ويبيت، أم يسير في الليل على غرَر.

* * *

(١) البيت لأوس بن حجر في ديوانه ص ٦٠، وفيه «يُوضَعُ» بدل «يجعلُ»، وبلا نسبة في لسان العرب (بدأ)، (ريم).

وبَيْنَما أنا أُقَلِّب الْعَزْمَ، وَأَمْتَخِضُ الْحَزْمَ، تَراءَى لي شَبَحُ جملٍ، مُسْتَذْرٍ بجَبَل، فترجّيتهُ قُعْدة مُرِيح، وَقَصَدْتُه قَصْدَ مُشِيح؛ فإذا الظَّنُّ كَهانة، والْقُعْدَةُ عَيْرانة، والْمُرِيحُ قَدِ ازْدَمَلَ بِبِجَادِه، واكْتَحَل بِرُقَادِه، فجلستُ عِنْدَ رَأسِه؛ حَتَّى هَبَّ مِنْ نُعَاسِه؛ فلمَّا ازْدَهَرَ سِرَاجَاه، وَأَحسَّ بِمَنْ فَاجاه، نَفَرَ كَمَا يَنْفِرُ الْمُرِيب. وقال: أَخوكَ أم الذِّيب! فقلتُ: بَلْ خابطُ ليلٍ ضَلَّ المسلك، فأضِيءْ لِي أَقْدَحْ لَكَ فقال: لِيَسْرُ عَنْكَ هَمُّك، فَرُبَّ أَخٍ لَكَ لَمْ تَلِدْهُ أُمُّك. فَانْسَرَى عِنْدَ ذلِكَ إشْفَاقِي، وَسَرَى الْوَسَنُ إلى آماقِي، فقال: عِنْدَ الصَّباح يَحْمَدُ الْقَوْمُ السُّرَى، فَهَلْ تَرَى كَمَا أرى!

* * *

العزم والحزم: اجتماع رأي الرجل على ما يريد أن يفعله فلا يتردَّد فيه. أمتخض: أحرِّك وأحلب، وأراد أنه أخذ يحدِّث نفسه ويُدبِّر رأيه: هل يسري أو يقعد. تراءى، أي ظهر. مستذرٍ: مستعلٍ، والذروة أعلى الشيء، أراد أنه ظهر له شبح جمل، أي شخصه في أعلى جَبل. قُعدة: بعير يُقْعَدُ عليه عند الركوب. مريح: مستريح، قد نزل يريح نفسه وبعيره. مشيح: مُجِدّ. والقُعْدة: المركوب. والعيرانة: الناقة الصلبة تشبَّه بالعَيْر، وهو حمار الوحش.

وازْدَمل: التفَّ. ببجاده: بكسائه. هبّ: انتبه. ازدهر: انفتح وأضاء سراجاه: عيناه. فأجاه: أتاه على غفلة. المريب: الذي أتى ريبة. أخوك أم الذيب، مثل، كأنه خاطب نفسه، فقال: أأخوك هو الذي رأيت أتى لمؤانستك أم ذئب لإذايتك، وتضمّن الكلام أن الاستفهام وقع بالذي رآه، فكأنه قال له: يا هذا، أأخ أنت أم صاحب فأركن إليك أم عدوّ فأحذَرُك؟ فأجابه بأن قال له: بل خابط ليل، أي ماشٍ فيه على جهالة. ضلّ المسلك: أخطأ الطريق. أضيء لي: اكشف لي عن حالك. أقدح لك: أكشف لك عن حالي، وهذا أيضاً مَثَل، وفي هذا التباس؛ لأنه إذا أضاء له، أي أعطاه ضوءه أو أظهره له، فأيّ حاجة له في القَدْح، وهو الضرب بالزَّند ليخرج ناره، وإنما معناه أن رجلاً كان طلب لآخر ضوءًا مثل فتيل يوقده، فتخيّل من صاحبه أنه لا يعطيه، فقال له: أضيء لي، أي أعطني ضوءًا فليس عليك فيه تكلّف فإنك إن أتيتَني في مثلها فلم تجد لي ضوءًا قدحت لك زندي، وتكلفت لك ذلك، ثم استعمل فيمن يطلعك على أمره فتطلعه من أمرك على ما هو أفيد ممَّا أطلعك عليه، فمعناه أطلعني على ظاهر أمرك أطلعْك على باطن أمري ويروى: «أكدح لَك» قال أبو زيد: إذا طلب الرّجل إلى الرجل حاجة فلم يعرف وجهها، قال: أضيء لي أكدحْ لك، أي بيّن لي فأكدح لك، أي أسعى لك، وكدح لمعيشته: سعى واكتسب، وأضيء: أسرج.

الفنجديهيّ: أضيء لي أكدحْ لك، مثل يضرب في المساواة بالأفعال، والمعنى:

كن لي أكن لك، واسعَ لي أسع لك، والمراد به كُنْ لي أكثرَ مما أكون لك لأن الإضاءة أكثر نفعاً من القَدْح، ويقال: معناه: تولَّ الأمر الهيّن أتولّ الأمر الصعب. لِيَسْرُ: لِيَزُل وليذهب. سَرَى عِرْق الشجرة يسرِي: دبّ تحت الأرض، وسرى يَسْري سار.

[قصة المثل: رب أخ لم تلده أمك]

رُبّ أخ لك لم تلده أمك، معناه قد وجدتَ مني صديقاً يقوم لك مقام شقيقك، وأصل المثل أن لقمان بن عاد رأى امرأته قد خلا بها رجُلٌ وهي تلاعبه ويلاعبها، ومعها صبيٌّ صغير يبكي، وهما قد أقبلا على شأنهما لا يكترثان به، فسألها عن الرّجل، فقالت: هو أخي، فقال ربّ أخٍ لك لم تلده أمك، يكذّبها في قصدها أي هو أخوك بالمحبّة والصداقة لا بالولادة. وقال في الدُرّة: حكى ابن نصر الكاتب أن أبا العباس بن ياسر دخل عليه، رجل نصرانيّ ومعه فتى من أهل مِلّته حسن الوجه، فقال له: مَنْ هذا الفتى؟ فقال له: بعض أخواني، فأنشد أبو العباس: [الطويل]

دعتني أخاها أمُّ عمرو ولم أكنْ ... أخاها ولم أرضع لها بلِبانِ[1]
دعتْني أخاها بعد ما كان بيننا ... من الأمر ما لا يصنع الأَخوَانِ

وقالوا في هذا المعنى: ربّ بعيدٍ أقربَ من قريب، وقالوا: القريب مَنْ قَرُب نفعه، وقال أبو تمام: [الكامل]

ولقد سَبَرْت الناس ثم خبرتُهمْ ... وبلوت ما وصفوا من الأسباب
فإذا القرابة لا تقرّب قاطعاً ... وإذ المودّة أقرب الأنساب

وقال ابن ميادة: [الطويل]

وإنّي لزوّار لمن لاَ يزُورني ... إذا لم يكنْ في ودّه بمريبِ
تقرّب لي دار الحبيب وإنْ نَأَتْ ... وما دارُ من أبغضته بقريبِ
فلا تطلبنّ القرْبَ والبعدَ بعدَها ... إلى غير نيّاتٍ وغير قلوب

وقال آخر: [الطويل]

أخو ثقة يُسَرّ ببعض شأني ... وإن لم تُدْنِه منّي قرابَهْ
أحَبُّ إليّ من ألْفيْ قريب ... بنات قلوبهمْ لي مُسْتَرابَهْ

وقال ابن هَرْمة: [الكامل]

هشٌّ إذا وقف الوفودُ ببابه ... سهل الحجاب مؤدّب الخدّام

---

(١) البيت الأول لعبد الرحمن بن الحكم في معجم شواهد العربية ص ٣٩٧، وبلا نسبة في تخليص الشواهد ص ٤٤٠، وشرح شذور الذهب ص ٤٨٢، وشرح المفصل ٦/ ٢٧، والمقرب ١/ ١٢١.

فـإذا رأيـت صـديـقـه وشـقـيـقـه لـم تـدر أيُّـهـمـا أخـو الأرحـام

انسرى: زال وذهب، وسرَوتُ الثوب عني إذا جردته. إشفاقي: خوفي. سَرَى الوسن: أقبل النوم. آماقي: آخر عيني، والمُوقُ طَرفُ العين من جهة الأنف.

[قصة المثل: عند الصباح يحمد القوم السري]

قوله: عند الصباح يَحْمَد القوم السري مثل؛ ومعناه إذا سرى القوم بالليل قطعوا أرضاً كثيرة والأرضُ تُطْوَى بالليل لمن يمشيها فإذا أصبحوا حمِدُوا سيرَهم.

وهذا المثل بيت منْ رجزٍ وَقَع في شعر الشَّماخ، وذلك أنه سافر في قوم من بني ثعلبة، فمشوا حتى إذا كانوا قريباً من تَيْماء، قال الشماخ لابن أخيه: انزل فاحدُ بنا، فنزل فحدَا بهم ثم نزل القوم للحُداء واحداً بعد واحدٍ، فوقعت أرجيزُهم في ديوان الشّماخ، فنُسِبَتْ إليه، وأول الرجز: [الرجز]

طَـافَ خَـيـالٌ من سُـلَـيْـمَـى فـاعْـتَـرَى
بـنـجـدٍ أوْ تـيـمـاء أو وادِي الْـقُـرَى
فَـمـنَـع الـنَّـوْم وَمـنَّـى بـالـمُـنَـى

وفي آخره: [الرجز]

عِـنْـد الـصَّـبـاحَ يـحْـمَـد الـقـومُ الـسُّـرَى
وَتَـنْـجـلِـي عـنـهـمْ غَـيَـابـاتُ الْـكَـرَى[1]

قال المفضّل الضبيّ: أوّل مَنْ قال ذلك خالد بن الوليد، لما بعث إليه أبو بكر رضي الله عنه وهو باليمامة أن ينزلَ إلى العراق، فأراد سلوك المفازة، فقال له رافع الطائيّ: قد سلكتُها في الجاهليَّة، وهي خِمْسٌ للإبل الواردة، وما أظُنُك تقدِر عليها إلاّ أن تحمِل من الماء، فاشترى مائة شارِف فعطّشها ثم سقاها الماء حتى إذا مضى يومان خاف العطش على النَّاس والخيل، وخشِيَ أن يذهب ما في بطون الإبل، نحرها، واستخرج ما في بطونها. فسقى النَّاس والخيل ومَضَى، فلما كان في الليلة الرابعة قال رافع: انظروا، هل ترَوْن سِدْراً عظيماً؟ فإن رأيتموها وإلا فهو الهلاك، فنظر الناس فرأوها فأخبروه فكبّر وكبّر الناسُ ثم هجموا على الماء فقال خالد: [الرجز]

لِـلّـه دَرُّ رافـعٍ أنّـى اهْـتَـدَى
فـوّز مـن قـراقـر أنّـى سَـرَى
خِـمْـساً إذا سـار بـهـا الـخِـيسُ بـكَـى

(١) الرجز لخالد بن الوليد في لسان العرب (سرى)، وتاج العروس (جبس)، ولحسان في أساس البلاغة (فوز)، وبلا نسبة في كتاب العين ٤/ ٣٤٩، و٧/ ٣٨٩، ومقاييس اللغة ٤/ ٤٥٩.

مـا سـارَهـا مـن قـبـلـه إنـسٌ سَـرَى
عـنـدَ الـصَّـبَـاحِ يَـحْـمَـدُ الـقـومُ الـسُّـرَى

ويقال: فوّز إذا ركب المفازة. وقراقر: اسم قرية من اليمن. والخِيس: الجبان الضعيف، وقيل: الثَّقيل. قال أبو عبيدة: والخِمْس أن تشرب الإبل يومَ وردها وتُصْدِر يومَها فتظلُّ بعد ذلك اليوم من الماء ثلاثة أيام سوى يوم الصدر، وتردُ اليوم الرابع فذلك الخِمْس.

* * *

فقلت إنّي لَكَ لأطْوَعُ مِنْ حِذَائك، وأوْفَقُ من غذائك، فَصَدَعَ بمحبّتي، وبَخْبَخَ بِصُحْبَتِي، ثُمَّ احْتَمَلْنَا مُجِدِّيْنِ، وارْتَحَلْنَا مُدْلِجَيْنِ، ولم نَزَلْ نُعَانِي السُّرَى، ونعاصِي الْكَرَى؛ إلى أن بَلَغَ اللَّيْلُ غايَتَهُ، وَرَفَع الْفَجْرُ رايتَه.

فلمّا أسفر الْفَاضِح، ولم يَبْقَ إلاّ واضح، تَوَسّمتُ رَفيقَ رِحْلَتِي، وسَمِيرَ ليلتي، فإذا هو أبو زيدٍ مطلبُ النَّاشِد، ومَعْلَمُ الرَّاشِد، فتهادينا تحيَّة المحِبَّين؛ إذ التقينا بَعْدَ الْبَيْن، ثُمَّ تباثثنا الأسْرَار، وتناثثنا الأخْبار، وَبِعيري يَنْحِطُ من الْكَلاَل، وراحلتُه تَزِفُّ زفيف الرَّال؛ فأعجبني اشْتِدَادُ أَسْرِها، وامتدادُ صبرها؛ فأخذتُ أستشِفُّ جَوْهرها، وأسأله من أين تَخَيَّرها.

فقال: إنَّ لهذِه النَّاقة خبراً حُلْوَ المذاقة، مليح السِّياقة. فإن أحببتَ استماعه فأَنِخْ، وإنْ لم تشأ فلا تُصِخْ.

* * *

قوله: حذائك، أي نعلك. صَدَع: كشف وأظهر. وبخبخ: قال: بخ بخ، وهي كلمة تقال عند الإعجاب. مُجدّين: مُجْتهدين. مُدْلِجَيْن: ماشيَيْن باللَّيْل. نعاني: نقاسي. الكرى: النوم. رايته، أراد ضوءه. أسفر: أضاء الفاضح: من أسماء الصبح سمِّيَ بذلك لأنه يفضَح الأشياء، أي لا يظهُرها. واضح: بيّن، يريد أنّ الصبح كشف ما ستره الليل فاستبان كل شيء. توسمت: نظرت. الفنجديهي: واضح: نجم، والنجم الَّذي يُرى بعد الصُّبح مضيئاً في كثير من الأوقات وهو الزُّهرة. ابن سيده: الواضح: الكواكب الخمس، إذا اجتمعت مع الكواكب المضيئة من كواكب المنازل. والخنَّس: الراجعة والمتأخرة والمُنْقَبضة. رحلتي: ارتحالي. والسمير: محادِثُكَ باللّيل. مطلب الناشد، أي حاجة الطلاب التي تلفت له، فجعل يطلبها. مَعْلم الرَّاشد: دليل الهادي، والمعلم: الجبَل يعْلم به الطريق. فتهادينا تحية المحبين، أَي أهديته سلام محبٍّ أهدى لي مثلَ ذلك. تباثثنا:

تكاشفنا، أَي كشفتُ له سِرِّي وكشف لي سرَّه. تناثثنا: تفاشينا، أي أَفشيتُ له خبري وأفشى لي خبَره، والبثّ أصله التَّفريق، والنّث بالنون: أصله نشر الحديث وإفشاؤه الفنجديهي: تناثثنا: تذاكرنا، والنَّثّ: الذِّكْر ونَثَوْت الذِّكر ونَثَوْت الحديث، أنثوه، إذا أذعتَه وأفشيتَه. ابن الأعرابيّ النثاء في الحسَن والقبيح من الكلام، وقيل: النّثّ: نشر الحديث الذي كَتْمُه أوْلَى من نشره، وفي معنى هذا اللقاء قال المعريّ: [الوافر]

وَلَوْ لم أَلقَ غيرَك في اغتِرابي ... لكان لقاؤك الحظَّ الجزيلا[1]

سَتَحْمِلُ ناجباتُ العيسِ منِّي ... صديقاً عن ودادك لن يَحُولاَ

يؤمّل فيك إسعافَ الليالي ... وينتظر العواقب أن تُديلاَ

ينحِط: يزفِر ويتنفّس من شدّة التعب، والنَّحْط: خروج النَّفَس بصوت، وهو صوتٌ يعتري المهموم والمتعوب من صدْره بتوجع، وقد نَحَطَ ينْحَط نَحطاً ونحيطاً، والنّحيط يعتري الدّابة إذا كَلَّتْ أو زيد في حملها، فتسمع لها زفيراً بصوت، فذلك هو النَّحيطُ، وقد نحطَ القَصَّار إذا ضرب بالثوب على الحجر وتنفَّس ليكونَ أرْوَح له. تزفّ: تُسرع. والزفيف: مشى في سكون مُتَتابع والرأل: فَرْخ النَّعامة والجمع الرّئال. أسرها: قوّتها وشدّة خَلْقها. امتداد: طول. أستشِف: أنظر. جوهرها: خَلْقها وجوهر كلّ شيء: ما وُضِعَتْ عليه جِبِلّته. أنخ: حُطّ بعيرك وانزل. تُصخ: تستمع.

* * *

فأنخْت لقوله نِضوي، وأَهْدَفْتُ السَّمْعَ لما يَرْوِي، فقال: اعْلَمْ أنّي استعرضْتُها بحضْرَمْوَت، وكابَدْت في تحصيلها الموْت، وما زِلْتُ أجوبُ عَلَيْهَا البُلدان، وأطِسُ بأخفافِهَا الظّرّان؛ إلى أَنْ وجدتُهَا عَبْر أَسْفَار، وعُدَّة قرَار، لا يلحقُها الْعَنَاء، ولا تُرَاهقُها وَجْنَاء، ولا تَدْرِي ما الْهناء. فأرصدتُهَا للخير والشرّ، وأحللتُها محلَّ البرِّ السّرّ، فاتّفق أن نَدَّت مُنْذ مُدَّة، وما لِي سواها قُعْدَة، فاستشْعَرتُ الأسَف، واستشرفْتُ التَّلَف، ونسيتُ كلّ رزءٍ سَلَف، ومكثْتُ ثلاثاً، لا أستطيع انبعاثاً، ولا أَطْعَمُ النّوم إلا جِثاثاً، ثمّ أخذتُ في استِقْرَاءِ المسالِك، وتفقّد الْمَسَارح والمبارِك، وأنا لا أسْتَنْشِي منها ريحاً، ولا أسْتَغْشِي يأساً مُريحاً؛ وكلما اذّكرتُ مَضاءَها في السّير، وانْبراءها لمباراةِ الطير، لاعَنِي الادكار، واستهوتْنِي الأفكار.

* * *

(١) الأبيات في سقط الزند ص ١٤٠١.

نضوي: بعيري المهزول. أهدفت: جعلتُه غرَضاً يَقَع فيه كلامه. والسّمع: الأذن. والهدَف: الغَرَض تَرْمِي عليه، استعرضْتُها: طلبت أن تعرَض عليّ للبيع. حضرموت: كُورة من كور اليمن فيها مدائن، وتعمل بها النعال الحضرميّة وهي غاية في الجودة. كابدت: قاسيت. أجوب: أقطع أطس: أكسر. والوطْس: الوطء الشديد المؤثر. الظرّان: واحدها ظَرَر، بظاء منقوطة وراءين، وهي الحجارة العريضة، وقيل المحدّدة. عبر أسفار: أي قويّة على السَّفَر كأنها تُعْبَر بها المراحل، أي تقطع، وأصلُه عَبَرْت في النهر إذا جزته من جهة إلى جهة أخرى. فِرار، أي قد استعدّت للفرار والهرب. العَناء: التعب. تُرَاهقها: تدانيها وتقاربها، وقد أرهقتُ الرّجُلَ، إذا دانيتَه، وذلك أن يذهب أمامَك فتتبعه، فإذا قرُبتَ منه قلت: رهقتُه، فإذا أدركتَه قلت: أرهقتَه: ورواية ابن جهور «تُوَاهقها» بالواو، ومعناها تواظب على المشي معها، والمواهقة: المعارضة في السير. وجْناء: ناقة قويّة غليظة. والوجِين: ما صلُب من الأرض، وقيل: الوجناء: العظيمة الوجَنَات. والهِناء: الْقَطِران، أي ليس بها داء فتحتاجَ إليه فهي لا تعرفه. أرصدتها: أعددتها. البَرّ: الذي يُبرّك ويكرمك. والسَّرّ: ما يسرّك: ندّت: فَرّت وشَرَدَتْ. استشعرت: لبست. الأسف: الحُزْن. استشرفت التلف: عاينت الْهَلاَك ونظرته، واستشرفت فلاناً إذا رفعتَ رأسك لتنظرَ إليه ويدُك على حاجبك. والرُّزء: فقد الشيء. سلف: مَضَى. مكثت: أقمت. انبعاثاً: نهوضاً وخروجاً إلى السفر. حِثَاثاً: قليلاً، والحِثاث: أن يصيبك النّومُ ثم يزول عنك في الحال، ويوصف به فيقال: يوم حِثاث، أي قليل. والطعم: الذوْق. استقراء: تَتَبّع. والمسالك: الطُّرُق. المسارح: المراعي وحيث تسرح الإبل. والمَبارك: مراقد الإبل حول الماء. استنشاء الريح: شَمّها، مهموز وغير مهموز. استغشى ثوبَه: تغطّى به اليأس: قطع الرّجاء. مريحاً: يُدْخِل على صاحبه الراحة. ادّكرت: تذكّرت. مضاءها: نفادها وإسراعها. انبراءها: نهوضها، وقد انبرى لك فلان إذا عَرَض لك. مباراة: معارضة لاعني: أحرقني، اللوعة: حرقة القلب من شدّة الوجد. استهوتني: هَوَتْ بي في كلّ طريق. الأفكار: تذكر الهموم.

* * *

فبينما أنا في حِواء، بعضِ الأحياء، إذ سمعتُ من شخص مُتبعِّد، وصوتِ متَجرّد: مَنْ ضَلّتْ له مطيَّة، حَضْرِمَيَّة وطِيَّة، جلدُها قد وُسِم، وعرُّها قد حُسِم، وزمامُها قد ضفر، وظَهْرُها كأنْ قد كُسِر ثمّ جُبِر، تَزِينُ الماشية، وتُعين النَّاشية، وتقطع المسافةَ النائية، وتَظلّ أبداً لك مُدانية، لا يعتوِرُها الْوَنَى، ولا يعترِضها الْوَجَى، ولا تُحْوِج إلى العصا، ولا تَعْصي فيمَنْ عَصَى؟.

قال أبو زيد: فجذبني الصَّوْتُ إلى الصَّائت، وبَشّرني بدرْك الفائت فلمّا

أفضيت إليه، وسلَّمت عليه، قلت له: سلِّم المطيَّة، وتَسلَّم العطيَّة، فقال: وما مطيتُك، غُفِرت خطيَّتُك؟ قلت له: ناقة جُثَّتُها كالهضْبة، وذُرْوتُهَا كالْقُبَّة، وحَلَبُهَا ملء الْعُلْبة، وكنتُ أعطِيتُ بها عشرين، إذ حَلَلْتُ يَبْرِين، فاستزدت الَّذِي أعطى، ودَرَيْتُ أنه أخطا.

* * *

قوله: حِواء: بيوت مجتمعة مائتان أو نحوها. الأحياء: القبائل. متجرّد. ماض ظاهر، وقيل ضعيف لبُعْده. ضَلّت: تلفت وضاعت. مطية، يعني بها نعلاً في المعنى وناقة في اللفظ، وقد تقدّمت أشعار اللّغز بهما. وطيّة: لا تحرّك الراكب، وهي الذَّلُول، وفراش وطيء: وثير لا يؤذي جَنْب النائم عليه، وعلى من ضلّت له مطية [أن يقول ما] في حديث عتبة بن غزوان عن النبي ﷺ: «إذا ضل أحدكم شيئاً وأراد غوْثاً وهو بأرض ليس بها أحد فليقُلْ: يا عباد الله المسلمين أعينوني، يا عبادَ الله المسلمين أعينوني، فإنّ لله عبّاداً لا نراهم»، وقد جرّب ذلك. وسم: خُرِز، أي جعل الخرَز فيها كالعلامة. عَرّها: جَرَبها. حُسِم: استؤصِل بالقطع، يريد أنّ آثار الجرَب الّتي كانت في الجلد الذي صُنِعت منه هذه النعل قد قُطِعت وأزيلت. وزِمامُها: شَرَكها. كُسِر ثم جُبِر، يريد أنّ ظهرها يَبِس فتكسّر، فوُصِل بجلد آخر فصحّ.

والماشية: الرّجْل التي تَمشي فيها، وكذلك النّاشية، ويقال: نشأ الرجل، إذا نهض لحاجته وتنشّأ أيضاً. وسهل الناشية لأجل الماشية وأصلها الهمز الفنجديهي: تُعين الناشية، أي تُعين على السّير في ناشئة الليل، قال ابن عَرَفة: كلّ ساعة قامها قائم من الليل ناشئة. الأزهريّ: ناشئة الليل قيام الليل مصدر جاء على «فاعِلة» بمعنى النَّشْء كالعافية والخاتمة بمعنى الْعَفْو والختْم، وقيل: الناشية والنَّشيئة أن تنام أوّل الليل ثم تقوم. وقيل: النّاشئة أوّل النهار أول الليل، وأكثر المفسرين على أنّ ناشئة الليل أوّله، عاصم: يهمزُه والباقون لا يهمزون. جَذَبني، ساقني بعُنُف. الصّائت: صاحب الصوت الذي سمع، وقد أصات إذا رفع صوته، دَرْك الفائت: لحوق التّالف. أفضيت: وصلت تَسَلّم: خذ. جُثَّتها: جسدها، والجثّة: شخص القائم والقاعد والراكب والهضْبة: الصخرة العظيمة، وقيل الجبل المنبسط الأملس. ذِرْوتها: أعلى ظهرها. والعُلْبة: إناء من جلود. يَبْرِين: أرض فيها رمل.

* * *

قال: فأعْرَض عَنّي، حِين سَمِع صِفتي، وقال: لستَ بصاحب لُقْطَتي. فأخذتُ بتلابيبه، وأصْرَرْت على تكذيبِه، وهَمْمتُ بتمزيق جَلابيبه، وهو يقول: يا هذا ما مطيّتِي بِطلْبِك، فاكفُفْ عَنّي مِن غَرْبك، وعَدِّ عن سَبِّك؛ وإلاّ فقاضِنِي إلى

حَكَم هَذَا الحيّ، البريء من الغيّ، فَإِنَّ أوْجَبَها لَكَ فتسلّمْ، وإن زَوَاها عَنْكَ فَلاَ تَتَكَلَّمْ، فَلَمْ أَرَ دواءَ قِصّتي، ولا مَساغَ غُصّتِي، إلاّ أنْ آتيَ الحكَم، ولو لَكَم.

فانخرطنا إلى شَيْخ رَكِين النِّصبة، أنيق الْعِصبة، يُؤنَس مِنه سكونُ الطَّائر، وأنْ لَيْس بِالجَائر، فانْدَرَأتُ أتظَلّم وأتألّم، وصَاحبي مُرِمٌ لا يَتَرَمْرَم، حتَّى إذَا نثلتُ كِنانتي، وقَضَيْت من الْقَصص لُبَانتي، أبرز نَعْلاً رزينة الْوَزْن، مَخْذوّةً لمسلك الحَزْن، وقال: هَذِهِ الَّتي عَرّفْت، وإيَّاهَا وَصَفْت، فَإِنْ كَانَتْ هِيَ الَّتي أُعْطِيَ بِهَا عِشْرينَ، وَهَا هُوَ مِنْ المُبْصِرينَ، فَقَدْ كذب فِي دَعْوَاه، وَكَبُر ما افتراهُ؛ اللَّهُمَّ إلاَّ أَنْ يَمُدَّ قَذالَه، ويُبينَ مِصداقَ ما قَالَهُ.

* * *

أغرَض: نحّى وجهه. واللُّقَطة: ما تجده قد سَقَط من غيرك فتلتقطه، وعامة أهل اللغة على فتح قافها مثل أبي عبيدة ويعقوب والمفضّل وثعلب وابن قُتيبة وغيرهم. وحكى ابنُ خالويه أن تسكينَها لغة تميم، وفتحها لغة أهل الحجاز، فهما لغتان، قال النبيُّ ﷺ: «مَنْ التقط لُقَطة فليُشهد ذا عدلٍ ثم لا يكتم ولا يغيب، فإن جاء صاحبُها فهو أحقُّ بها، وإلا فهو مال الله يؤتيه من يشاء»[1]. تلابيبه: أطواق ثوبه، والتلبيب الجيْب، وأخذت بتلبيب فلان، إذا جمعتَ ثوبه الذي حوالي صدرِه وقبضت على نحرِه، والجلباب: المِلْحفة والرِّداء. أصررت: أقمت. تمزيق جلابيبه: تخريق ثيابه. بطلْبك: بما تطلب. والطِّلْب: اسم ما تطلب. ابن دريد فلانة طِلْب فلان، إذا كان يطْلبها وَيهْواها. عَدّ: كُفّ واصرِفْ. سبّك: شتمك. قاضني: حاكمنِي الحيّ: القبيلة. الغيّ: الضّلال والفساد. زواها: نَحّاها.

قوله: مَساغ غُصتي، أي بلع ما أختنق به، وساغ الطعام والشراب في الحلْق: سهل نزوله فيه. لكَمه، يلكمه: ضربه بجُمْع كفِّه.

انخرطنا: سرنا مسرعين. رَكِين النِّصبة: وقور الهيئة، وفلان ركين بَيِّن الرّكانة، أي ثقيل المجلس ثابت قويّ. الأزهريّ. يقال للرجل إذا كان وقوراً ساكناً: إنه لَرَكين، وقد رَكُن ركانة. الجوهريّ. يقال جبلٌ ركين، أي له أركان عالية، فيحتمل على هذا المعنى أن يكون ركين النِّصبة، عالي الانتصاب حسَن القامة، والنِّصبة الفِعْلة من الانتصاب، وأراد بها هيئة انتصابه في جلوسه وحالته. أنيق: مُعْجِب. العِصْبة: هيئة العمامة على رأسِه، تقول: عَصَبْت رأسي بالعمامة إذا شددته بها، والعِصْبة هيئة التعمّم، يقول: إن

---

(١) أخرجه أبو داود في اللقطة باب ٩، وابن ماجه في اللقطة باب ٢، وأحمد في المسند ٤/ ١٦٢، ٢٦٦.

هذا الشيخ الحاكم رزينٌ في جلوسه حَسَن التعمّم والهيئة. يؤنس: يبصر. سكون الطائر، كناية عن الوقار والْحلم، وإنما ذكَّر الطائر لأنه لا ينزل إلا على ساكن، وإذا نزل عليه سكن هو، فإذا كان عند الرجل هَوَجٌ وطيش، قيل: طارت عصافيره، فإذا كان القوم أهلَ وقارٍ قيل: كأنّ على رؤوسهم الطير. اندرأت: اندفعت. اتظلّم: أتشكّى الظلم. أتألم: أتوجع. مُرِمّ: ساكت. لا يترمرم: لا يُجيب ولا يتحرك، وتكلّم فما تَرَمْرَم، أي ما أجاب، وأصل تَرَمْرَم تحرّك. نثلتُ كِنانتي: أخرجت ما فيها من السّهام، وأراد أتممت كلامي وقَضيت: أتممت. والقَصَص: ذكر الخبر. لُبانتي: حاجتي. أبرز: أظهر رزينة: ثقيلة.

محذوّة، جُعل عليها الحِذاء؛ وهو الجلد الَّذي تُنْعَل به. مسالك: طرق. والْحَزْن: ما غُلظ من الأرض. عَرفْت: صِحْتَ بها ليعرفها صاحبها. ما افتراه: ما جاء به من الادعّاء والكذب. قَذالة: عنقه، والقَذال: ما بين نُقْرة القفا إلى الأذن، وجمعه قُذُل، يقول: فإن كانت هذه النعل تُساوي عشرين ـ وها هو يبصر أنّ هذا باطل ـ فقد صارتْ دعواه باطلة، اللهمّ إلا أن يمدّ عنقه ويأتي ببيان أنّها تساوي عشرين، إلى هذا التفسير رأيتُ أكثر من لقيت يذهب، وهو ضعيف ولا يكون لمدّ قذا له معنى ولا لما بعده.

والتفسير الحسن الَّذي فيه جِلاءٌ للمعنى ما كان يفسّره به شيخي أبو بكر بن أزهر عن ابن جَهْور، وذلك أنه كان يفسّر أعطى بمعنى صُفِع وضرب، وكذلك كتب عليه في طرة كتابه، أنَّ أعطى بمعنى ضَرب، لغة أهل الشرق، وقد حُدِّثْتُ أنا عنهم أنّ الرجل إذا كلم الآخر بما لا يُرضيه ثم انصرف عنه صاح الآخر في أثرِه: أعطِهِ، بمعنى اصفعه، فهي لفظةٌ متعارَفة بينهم لهذا المعنى وبيان موقعها هُنَا أنه لما ادّعى السَّروجي أنه أُعْطِيَ بناقته عشرين، فوصفها بما يصحّ معناه في حقها من أنها تساوي عشرين. ثم قال: إن المعرِّف أبرز نعلاً رزينة الوزن، أي ثقيلة في الميزان. محذوة لمسلك الحزْن، أي قد جعل عليها حِذاء، أي رُقَعٌ من الجلد طرقت بها ليسلُك بها الحَزْن، أي ليمشي بها في أرض ذات حجارة فلا تؤثّر فيها لتلك الأطراف، وبتلك الأطراف صارت ثقيلة في الوزن، فلمّا أبرز هذه النّعل التي وصفتها رفعها بيده إلى الحاكم قائلاً له: هذه النّعل التي عَرَّفت، وإيّاها وصفْت، فإن كانت هذه التي أعْطِيَ بها عشرين، أي صُفِع بها عشرين. فقلت: الإعطاء للنعل بمعنًى يوافقها إذ عدّ عشرين دينار في ثمنها بعيد، ثم بينه بقوله: وها هو من المبصرين. والضَّرْب الجافي في العُنق تدمع له العينان، وإذا أفرط فيه عَمِيَ له المصفوع، فيقول المعرّف: هذه النعلُ لو صُفِع بها إنسانٌ صَفْعَةً واحدة لَعَمِيَ وهذا يقول إنه صُفع بها عشرين وهو سالم البصر، فقد كذب في ادّعائه أنه صُفع بها عشرين، وكبرتْ فرْيته، اللهمّ إلا أن يمدّ قفاه فيرينا فيها أثر الصفع، وأثره احمراره وتعجيره، فيتبيّن بذلك الأثر صدق قوله. فهكذا تفسير هذا الموضع ومعناه، وابن جَهْور الذي شافه الحريري بمشكلاتِ كتابه كان أضْبَطَ لها ممنّ يتحكم فيها بنظره، فيكون تخليصُ المعنى إنّ

المعرّف يقول: هذه النعل يدّعي هذا أنه أعْطِيَ بها عشرين، وأنتم ترونه سالمَ البصر، ومحالٌ أن يُصْفَع بها إنسان لخشنها وثقلها عشرين صَفْعة إلا ويعمى، فقد صارت دعواه كاذبة إلا أن يمدّ لنا عنقه فنرى فيها أثرَ الصفع والرّزء فنصدِّقه في دعواه. وفي رواية غير ابن جهور «بعد المبصرين» فقال: كذّب دعواه وهو داخل في قول المعرّف الأوّل فلا يحتاج إلى ادعائه، ولو جاء هنا بثمَّ مكان الفاء لكان أبْيَن فكان بمعنى قوله، قال: ثم يمشي في كلامه ثم ينسِّق عليه قال: لكلام ثان، وإنما وضع الفاء موضع ثُمّ لأن جواب الشرط الذي هو «فإن كان» مضمّن في قوله «وها هو من المبصرين» فإنه يتضمّن قوله: «وها هو من المبصرين» معنى فقد كذب، وليس فيه لفظ الجواب، فجاءت الفاء كأنها جواب لفظي، ووقعت قال: موطّئة لقال الأولى، ألا ترى أن في رواية ابن جهور مكان فقال فقد، والكلام بها متّصل حسن، قال أبو الرقعمق يصف العمَى من الصفع: [مجزوء الرمل]

ولـقـد بـتـنـا عـلـى زمـنٍ ... ورؤوس الـقـوم تُـسْـلَـبُ
وكـؤوسُ الـصـفـع دائـرة ... وبـهـا الـلَّـذات والـطَّـرَبُ
وكـأن الـصـفـع بـيـنـهـمُ ... شُـعَـلُ الـنِّـيـران تـلـهـبُ
والـعـمـى مـنـهـم وإن شـغـلـوا ... عـنـه بـالـلَّـذات مـقـتـربُ

وله: [مجزوء الكامل]

إنّ الـذيـن تـصـافَـعُـوا ... بـالـقـرع فـي زمـن الـقُـشُـورِ
أسـفـوا عـلـيّ لأنـهـم ... حـضـروا ولـم أكُ فـي الـحـضـورِ
لـو كـنـتَ ثـم لـقـيـل هَـلْ ... مـن آخـذٍ بـيـد الـضـريـر
يـا لـلَـرِّجـال تـصـافَـعُـوا ... والـصَّـفـع مـفـتـاح الـسـرورِ
لا تـغـفـلـوه فـإنّـه ... يَـسْـتَـلُّ أحـقـاد الـصُّـدورِ

وقال يصف أثر الصَّفْع في قفاه: [البسيط]

ففيّ ما شئتَ من حمق ومن هَوسٍ ... قليله لكثير الحمق إكْسِيرُ
كم رام إدراكه قوم فأعجزهمْ ... وكيف يُدْرَكُ ما فيه قناطيرُ
لا عيب فيّ سوى أنّي إذا طربوا ... وقد حضرت يرى في الرأس تعجيرُ
والأخدعان فما زالا يُرى لهما ... لكثرة المزْح توريمٌ وتخْمِيرُ

ففي هذه الأشعار تتبين لك تلك الأغراض التي قدمنا ذكرها.

[ابن المغازلي]

وتنتظم في سلكها حكاية ابن المغازليّ، وكان رجلاً يتكلّم ببغداد على الطُّرق

بأخبار ونوادر منوّعة، وكان نهايةً في الحذق لا يستطيع مَنْ سَمِعه ألاّ يضحك قال: وَقَفْتُ يوماً على باب الخاصّة أُضحِكُ النّاسَ وأتنادرُ، فحضر خَلْفي بعضُ خدّام المعتضد، فأخذت في نوادر الخدم، فأُعْجِب بذلك وانصرَف، ثم عاد فأخذ بيدي وقال: دخلتُ فوقفت بين يديْ سيِّدي فتذكرتُ حكايتَك فضحكتُ، فأنكر عليّ، وقال: ما لك ويلك! فقلتُ: على الباب رجل يعرف بابن المُغازلي يتكلّم بحكايات ونوادر تُضْحك الثّكول، فأمر بإحضارك ولي نصف جائزتك، فطمعت في الجائزة، وقلت: يا سيِّدي أنا ضعيف وعليّ عَيْلة، فلو أخذت سُدْسَهَا أو ربعها! فأبى وأدخلني فسَلّمت فردّ السَّلام، وهو ينظر في كتاب، فنظر في أكثرِه، وأنا واقف، ثم أطبقه ورفع رأسه إليّ، وقال: أنت ابن المغازلي؟ قلت: نعم يا مولاي، قال: بلغَني أنّك تحكي وتُضْحك بنوادرَ عجيبة، فقلت: يا أمير المؤمنين الحاجة تفتقُ الحيلة، أجمع النّاس حكايات أتقرَّب بها إلى قلوبهم فألتمس بِرّهم، فقال: هاتِ ما عندك، فإنْ أضحكتَنِي أجزتُكَ بخمسمائة درهم، وإن أنا لم أضحك فما لي عليك؟ فقلت للحِين: ما معي إلاّ قفاي، فاسأل ما أحببت، قال: أنصفتَ إنْ لم تُضْحِكْنِي أصفعك بذلك الجراب عشر صفعاتٍ، فقلت في نفسي: مَلِكٌ لا يصفع إلا بشيء ليّن خفيف، والتفتُّ فإذا بجراب من أدم معلّق في زاوية البيت، فقلت: ما أخطأ ظنّي، عسى فيه ربحٌ إن أضحكته ربحت، وأخذت الجائزة، وإلاّ فعشر صفعات بجراب منفوخ شيء هيِّن، ثم أخذت في النّوادر والحكايات والنّعاشة والعبارة، فلم أدعْ حكاية أعرابيٍّ، ولا نحويٍّ، ولا مخنَّث، ولا قاضٍ، ولا نَبَطِيٍّ، ولا سِنْديٍّ، ولا زِنْجيٍّ ولا خادم، ولا تركيّ، ولا شاطر، ولا عيّار، ولا نادرة، ولا حكاية إلا وأحضرتُهَا حتى نَفَدَ كلُّ ما عندي، وتصدَّع رأسي، وفترت وبردت، ولم يبق ورائي خادم، ولا غلام إلا وقد ماتوا من الضحك، وهو مقطِّبٌ لا يتبسمُ، فقلت: قد نَفَدَ ما عندي، ووالله ما رأيتُ مثلَكَ قطّ، فقال لي: هيه، ما عندك؟ فقلت: ما بقيَ لي سوى نادرة واحدة، قال: هاتِهَا، قلت: وعدتَني أن تجعل جائزتي عشر صفعاتٍ وأسألك أن تُضْعفها لي وتضيف إليها عشر صفعات أخرى. فأراد أن يضحك ثم تماسَك، قال: نفعل يا غلام خذ بيده ثم مددت قفاي فصُفِعتُ بالجراب صَفْعةً، فكأنّما سقطتْ على قفاي قطعةٌ من جبل، وإذَا هو مملوء حصاً مدوّراً فَصُفِعتُ عشراً، فكادت أن تنفصل رقبتي، وطَنَّت أذناي وانقدَحَ الشُّعاع من عيني، فصحتُ يا سيّدي، نصيحة، فرفع الصَّفْع بعد أن عزم على العشرين، فقال: قل نصيحتَك، فقلت: يا سيّدي إنّه ليس في الديانة أحسن من الأمانة، وأقبح من الخيانة، وقد ضَمِنتُ للخادم الذي أدخلني نصفَ الجائزة على قُلّها وكُثْرها، وأمير المؤمنين بفضله وكرمه قد أضعفها وقد استوفَيْتُ نصفي، وبقي نصفهُ. فَضحك حتى استلقَى، واستفزَّه ما كان سمع، فتحامل له، فما زال يضرب بيديه الأرض ويفحص برجليه ويُمسك بمراقّ بطنه، حتى إذا سكن قال: عليّ به، فأُتِي به، وأمر بصفعه، وكان طويلاً، فقال: وايشِ جنايتي؟ فقلت له: هذه جائزتي وأنتَ شريكي فيها، وقد استوفيتُ

نصيبي منها، وبقي نصيبُك، فلما أخذه الصَّفْع وطَرق قفاه الوقْع، أقبلتُ ألومه وأقول له: قلت لك إني ضعيف معِيل، وشكوتُ إليك الحاجة والمسكنة، وأقول لك خذ ربعَها أو سدسَها، وأنت تقول: لا آخذ إلا نصفَها، ولو علمتُ أن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه جائزته الصفع وهبتُها لك كلّها. فعاد إلى الضحك من عتابي للخادم، فلما استوفى نصيبه أخرج صُرّة فيها خمسمائة درهم، وقال: هذه كنت أعددتُها لك فلم يدعْك فضولك حتى أحضرت شريكاً لك، فقلت: وأين الأمانة؟ فقسمها بيننا وانصرفت.

* * *

فقال الحَكَم: اللَّهمَّ غفراً، وجَعَلَ يقلِّب النَّعلَ بَطْناً وظَهْراً؛ ثم قال: أمّا هٰذِهِ النَّعْلُ فَنَعْلِي؛ وامَّا مَطِيّتُك فَفِي رَحْلِي، فانْهَضْ لِتَسلُّم نَاقَتِكَ، وافْعل الخَيْرَ بِحَسَبِ طَاقَتِكَ، فقمت وقلت: [الرجز]

أقسمُ بالبيت الْعَتيق ذي الحُرَمْ
والطائفينَ الْعَاكفين في الحرَمْ
إنَّكَ نِعْم مَنْ إليه يُحْتَكَمْ
وخيرُ قاضٍ في الأعارِيبِ حَكَمْ
فاسلَمْ ودمْ دَوْمَ النَّعامِ والنَّعَمْ

فأجاب من غير رويّة، ولا عَقْدِ نيّة، وقال: [الرجز]

جُزيت عن شكرِك خيراً يا بْنَ عمّ
إذْ لستُ أستَوْجِبُ شكراً يُلْتَزمْ
شَرُّ الأنامِ مَنْ إذا استُقْضِي ظَلَمْ
ثمَّ مَن استُرعِي فلمْ يَرْعَ الحُرَمْ
فَذَانِ والكلبُ سواءٌ في الْقِيَمْ

ثم إنّه نَفَّذَ بين يديّ، مَنْ سلَّم النّاقة إلَيّ، ولم يَمْتنّ عليّ، فَرُحْتُ نَجيح الأَرَب، أجُرُّ ذيلَ الطَّرَب، وأقول يا لَلْعجب!

* * *

قوله: اللهم غفراً، أي اغفر غفراً، والغفر: السَّتر والتغطية. انهض: تقدّم لتسَلُّم: لقبْض العتيق: القديم. الْحُرَم: جمع حُرمة. والعاكفين: المقيمين فيه للعبادة، والعكوف: الإقامة، والحرَم حَرَم مكة. اسلم: دعاء، معناه سَلّمك الله والنّعام: طير معروف. الأعاريب: الأعراب وهم سكان البادية. والنَّعم: جمع نِعْمة، والدَّوْم والدوام

واحد. رويَّة، أي فكرة. عَقْد نيَّة: أي تدبير. استُرعِي: جُعل راعياً، أي حكماً على الناس. يَرْعَى: يحفظ فذان، أي فهذان القِيم: جمع قيمة. يمتَنّ: يعتدّها منّة، وامتنّ فلانٌ عليك، إذا فعل معك معروفاً فمتى أنكر عليك شيئاً ذكر لك معروفه وجبهَك به، وقالت الحكماء: أخْيِ المعروف بإماتة ذكره، وعظّمه بالتصغير له.

* * *

قال الحارث بن همام: فقلت لَهُ تَاللَّهِ لقد أطْرَفْتَ، وهرَفتَ بما عَرَفْتَ، فناشدْتُك اللَّهَ: هل أَلْقَيْتَ أسْحَرَ منك بَلاَغة، وأحْسَنَ لِلّفظ صِياغة؟ فقال: اللَّهُمّ نعَمْ، فاسْتَمِعْ وانْعَمْ... كنتُ عَزَمْتُ حِينَ أتْهَمْتَ، عَلَى أنْ أتَّخِذَ ظَعِينةً، لتكونَ لي مُعينة؛ فحين تعيّن الْخِطبُ المُلِبّ، وكادَ الأمْرُ يَسْتَتِبّ، أفْكَرْتُ فِكْرَ الْمُتحرز مِنَ الْوَهْم، المتأمّلِ كَيْفَ مَسْقِطُ السّهم، وبتُّ لَيْلَتِي أُنَاجِي الْقَلْبَ الْمُعَذَّب، وأُقلِّبُ الْعَزْم المَذَبْذَاب، إلى أن أجمعت على أن أسْحِر، وأشَاوِرَ أوّلَ من أبْصِر. فلمّا قوّضتِ الظُّلْمَةُ أبوابَها، وولّت الشّهب أذْنَابَها، غَدَوتْ غُدُوّ المتعرّفِ، وابتكرتُ ابتكارَ المُتَعيف فانبرى لي يافِعٌ في وجهه شَافِع، فَتيمَّنْتُ بمنظَره البَهِيج، واستقدحْت رأيه في التزويج فقالَ: أَو تَبْغِيها عَواناً، أم بكراً تُعاني؟ فقلت: اخترْ لي ما تَرَى، فقد ألقيتُ إليك الْعُرَى.

* * *

أطرفتَ: أتيتَ بطُرْفة، يريد بأمرٌ عجيب غريب. هَرَفْت بما عَرَفت، أي تكلّمت بشيء غريب، والهرَف: الإطناب في المدْح، ومن كلام العرب لا تهرِفْ بما لا تعرف. ناشدتك: حَلّفتُك: صياغة: صنعة وسَبْك. أتهمت: أتيت تِهامة، وهي ما انخفض من أرض العرب ظعينة: زوجة. الخِطْب: النكاح. وتَعيّن: تحقّق. يستتبّ: يتم. الوَهْم: الغلط المتأمل: الناظر المذبذب: المضطرب، الذي لا يعتمد على رأي، أزمعت: عزمت. أسحِر: أخْرُج في السَّحَر. قوّضت: هدمت. والأطناب: حبال الخِباء وتقويضها: إزالتها. الشهبُ: النجوم، وجعل لها أذناباً مجازاً، وأراد أنّ الفجر إذا طلع وانتشر غابت النُّجوم، فكأنها قد وَلَّت أذنابُها وقال التّهامي في ذلك: **[البسيط]**

فظلتُ أعثُر في ثوبِ الدُّجَى ولِهاً	والجوّ رَوْضٌ وزهرُ الشُّهْبِ كالزَّهَرِ
وللمجرّة فوقَ الأرض معتَركٌ	كأنها حَبَبٌ يعلو على نهَرِ
وللثريّا ركود فوق أرحُلِنا	كأنها قطعة من فَرْوَة النمِرِ
كأنّ أنجمَها والصّبح يُغمِضها	قَسْراً عيونٌ غفت من شدّة السَّهَرِ

المتعرّف: المكتسب لأنه يعرف ما جهل. المتعيّف: الزّاجر، من عاف الشيءَ إذا كرهه. يافع: فَتًى شابٌ وقد أيفع إذا شبّ. في وجهه شافع، أي هو حسن الوجه يشفع حسنُ وجهِه إذا أذْنَبَ أو أخطأ.

* * *

[مما قيل في الوجه الحسن]

وفي وجهه شافع صدر بيت للحكم بن قَنْبر.

وقال يحيى بن عليّ المنجم: كنتُ يوماً بين يدي المعتضِد، وهو مقطّب، فأقبل بدرٌ مولاه، فلمّا رآه من بعيد ضحِك وقال: يا يحيَى مَنِ الذي يقول: «في وجهه شافع»؟ فقلت: يقوله ابن قنبر المازني البصريّ، فقال لله: دَرّه، فأنْشِد هذا الشعر، فأنشدته: [البسيط]

وَيْلِي على مَنْ أطار النوم فامتنعَا ... وزاد قلبي على أوجاعِه وَجَعَا
كأنما الشمس في أعطافه لمعتْ ... حُسْناً أو البدر مِنْ أزرارِه طَلعَا
مستقبل بالّذي يهوَى وإن كثُرتْ ... منه الذنوب ومعذور بما صَنَعَا
في وجهه شافع يمحُو إساءَتَه ... من القلوب وجيهٌ حيثما شَفَعَا

أنس، قال النبي ﷺ: «حسن الوجه مال».

وقال ﷺ: «اطلبوا الخيرَ عند حسان الوجوه».

وقال الشاعر: [الخفيف]

أنت شرط النبيّ إذ قال يوماً ... اطلبوا الخير من حسان الوجوهِ

وقال النبي ﷺ: «مَنْ آتاه الله وجهاً حسناً واسماً حسناً، وجعله في موضع غير شائن، فهو من صفوة الله من خلقه».

ابن عمر رضي الله عنهما قال ﷺ: «ثلاثة تجلُو البصَر: النظرُ إلى الْخُضرة، والنّظر إلى الماء الجاري، والنّظر إلى الوجه الحسن»، نظمها الشاعر فقال: [السريع]

ثلاثة يُذهِبنَ للمرء الحزَنْ ... الماءُ والخضرة والوجْهُ الحسنْ

قولَه تَيمنت: تبرّكت. البهيج. الحسَن. استقدحت: طلبت، وأصلها، في قَدْح النار. تبغيها: تطلبها. عَواناً: ثيِّباً. تعاني: تعالج وتُراضي. العرا: جمع عروة.

* * *

فقال: إليّ التّبيين، وعَلَيْك التّعيين، فاسْمَع أَنَا أَفْدِيك، بعد دَفْنِ أَعادِيك؛ أمّا البِكر فالدُّرَّة المخزونَة، والْبَيْضَةُ المكنونة، والْبَاكُورَةُ الْجَنِيَّة، والسُّلافَةُ الْهَنِيّة،

والرَّوْضَةُ الأنُف، والطَّوْق الَّذي ثَمُن وشَرُف؛ لم يدنِّسْها لامِس، ولا اسْتَغْشَاها لاَبس، ولا مَارَسَها عَابِث، ولا وَكَسَها طَامِث، ولَهَا الْوَجْه الْحَيّ، والطّرْف الْخَفيّ، واللِّسَانُ الْعَيِّ، والْقَلْبُ النَّقيّ. ثم هي الدّمْيَةُ الْمُلاَعِبة، واللُّعبة الْمُدَاعِبَة، والْغَزالَةَ الْمُغَازِلة، والْمُلْحَةُ الْكَامِلة، والْوِشَاحُ الطَّاهِرُ الْقَشِيب، والضَّجِيع الذّي يُشِبّ ولا يُشيب... أمّا الثيّبُ فالمطِيّة المُذَلَّلة، واللُّهْنَةُ الْمُعجَّلةَ. والبِغْيَةُ الْمُسهّلَة، والطَّبّة الْمُعَلّلة، والفرينة المتحبِّبة، والْخَلِيلة المتقرّبة، والصَّنَاع المدبِّرَة، والْفِطْنَة المختبِرَة. ثمّ إنّها عُجَالةُ الرَّاكب، وأُنْشُوطَةُ الْخَاطِب، وقُعْدَةُ الْعَاجِز، ونُهْزَة الْمُبارِز، عَريكَتُها ليِّنَة، وَعُقْلَتُها هَيِّنَة، ودِخْلَتُها متبيِّنة، وخِدْمَتُها مُزَيِّنَة، وأُقْسِمُ لقد صَدَقْتُ في النَّعْتَيْن، وجلَوْتُ الْمَهَاتَيْن، فبأَيَّتِهما هَامَ قَلْبك، وعَلَى أيَّتِهمَا قَام رُبّك؟.

* * *

الدّرّة: الجوهرة. المخزونة: التي جُعلت في الخِزانة لرفعتها، يريد أنّ البِكر تحجَب وتُصَان: البيضة المكنونة، أراد بيضة النعام، ويشبَّه بها النساء لبياضها والصُّفرة التي تضرِب فيها، وقد تقدمت هذه الصفة في العاشرة، وقال امرؤ القيس: **[الطويل]**

كَبِكْرِ مُقَانَاةِ البياض بصُفْرَةٍ غَذَاها نَمِيرُ الماء غيرُ المحلَّلِ(١)

وقال ذو الرُّمة: **[البسيط]**

* كأنَّها فضة قد مسها ذهبُ(٢) *

والمكنونة: المصونة، والنعامة تُكِنّ بيضَتها بريشها، ولا تبديها للشمس والريح لئلا تتغيّر، وقال الله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ [الصافات: ٤٩]، الباكورة: أوّل ما يُباكر من الثمر. والسلافة: الخمر، والمذْخُورة: المحجوبة في آنيتها الأُنُفُ: التي لم تُدْخَل ولا رعيت. والطّوْق: ثوب رفيع. ثَمنُ: كثر ثَمنُهُ اللامس: الذي يلْمَس الشيءَ بيده ويدنّسه، وأراد به الذي يلاعبها ويعضّها ابن عباس: اللمس والملامسة واللّماس، كناية

---

(١) البيت في ديوان امرىء القيس ص ١٦، وشرح المفصل ٦/ ٩١، ولسان العرب (نمر)، (حلل)، (قنا)، وتاج العروس (حلل)، (قنا).

(٢) صدره:

كحلاء في برج صفراءُ في دَعَجٍ

والبيت في ديوان ذي الرمة ص ٣٣، وجمهر اللغة ص ١٣٣١، وجمهرة أشعار العرب ص ٩٤٥، والكامل ص ٩٣٤، والبيت بلا نسبة في المخصص ١/ ٩٨.

عن الجماع، وفلانة لا تردّ يدَ اللامس، أي لا تمنع مجامَعتها مَنْ أرادهَا. استغشاها: جَامَعها، وغشيان النِّساء: مجامعتهنّ. واللابس: الذي لابسها واختلط بها، يريد نكَحها. مارسها: عالجها وعانَاها. عابث: مفسد، وأراد من يَعْبَثُ بها عند الجماع. وَكَسها: نَقَصها، ووضع منها، والوكْس: الخسارة في البيع، طامث: ناكح. والطامث: المفتضّ للبكر. العيّ: الّذي لا يعرف تصرّفات الكلام: والدّمية صورة الرخام. واللُّعبة: ما يلعَب به، وتقول: لمن اللعبة؟ أي لمن الغلب في لعب الشطرنج وشبّهه. عليّ رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «المرأة لُعبة زوجها، فإن استطاع أن يُحْسِن لعبته فليفعل» والمداعبة: الممازحة والمغازلة: تقول غازلتني المرأة إذا تماجَنَتْ عليك في كلامها، وأشارت لك بعينها وغمزتك بحاجبها حتى إذا طمعت فيها صدّت عنك. والمُلْحة: الصورة المستملحة كالدُّمى وكالصورة التي تلعب بها البنات والشطّار، وهي اللعبة وجاء بمُلْحة أي بكلمة طيبة مليحة. والوشاح: الحِزام. والقشيب: الجديد جعلَها كالوشاح عند عناقها وجماعها. والضجيع: المراقد. يشبّ: يردّك شابًا. يُشيب: يُكْسِبك الشّيب. اللُّهنَة: ما يعجّل للضّيف قبل القِرى والطَّبّة: الحاذقة بمصالحها. المعلِّلة: التي تعطيك ما تريد منها مَرّةِ بعد مرّة، وهي بكسر اللام، والمعلّلة: التي تعلّل مرتشفَها بالريق، قال امرؤ القيس **[الطويل]**:

* وَلاَ تَمنَعِينا من جَنَاكِ المعلَّل(١) *

ابنُ الأعرابيّ: المعلِّل: المعين بالبرّ بعد البرّ، ومن نصَب اللاّم فمعناه المطيَّب مَرَّة بعد مرة، والتعليل سَقْي بعد سقي. والقرينة: الصّاحبة. والحليلة: الزَّوجة. والصّناع: الحاذقة بالصَّنعة. وعُجَالة الراكب: ما يعجَّل له من الطعام والشراب، مثل التمر والسويق، وما لا يتعِب بمعالجته، وكانت العرب لكرمها يمر عليها الرجل، وهو راكب فتعرِض عليه النزولَ لِلقِرى، فيمتنع لأعذار له فيمسَك؛ حتَّى يُخرَجَ له من البيوت أيسرُ ما يوجد، يأكله وهو راكب، فجعَل الثَّيِّب لسهولتها كالعُجالة التي لا يُتكلَّف لها، وقال عمر ابن الخطاب رضي الله عنه: البِكْر كالبرّة تطحنها وتعجنها وتخبزها وتأكلها، والثَّيِّب عجالة الراكب تمر وسويق. والأنشوطة: عُقْدة تُحَلُّ بسهولة. نهزة: فرصة وغنيمة سهلة. عريكتها: طبيعتها، ورجل ليّن العريكة إذا كان سهلاً سَلِس القياد، وأصل العريكة سنام البعير، وكانوا يَعْمِدون للبعير إذا كان فيه شِماس وامتناع، فيقطعون في حَدَبَته وهي مرتفعة يَصْعُب الرّكوب عليها، فإذا قطع فيها سكن البعير ولان، وتوطّأ موضع الرّكوب منه فيقال: قد لانت عريكته وقال الشاعر: **[الطويل]**

---

(١) يروى البيت:

فـقـلـت لـهـا سـيـري وأرخـي زمـامـه ... ولا تـبـعـديـنـي مـن جـنـاك الـمـعـلَّـلِ

وهو في ديوان امرىء القيس ص ١٢، وبلا نسبة في لسان العرب (علل)، وتهذيب اللغة ١/ ١٠٥.

من اللَّواتي إذا أَوْدَت عريكتُها ... يَبْقَى لها بعدها ألٌّ ومحهودُ

قوله: أَوْدَت، أي زالت وذهبت، فهذا يدلُّ على ما ذكرنا. عُقْلتها: حبستها، يريد أن ما يعقلها به صاحبها شيء هيّن، والعُقْلة مثل العُقدة، ولفلان عُقْلة يعقِل بها الناس فيغلِبهم ويصرعهم. دِخْلتها: باطن أمرها، وفلان عفيف الدِّخلة وخبيثها، أي الباطنة والسَّريرة. متبينة: مكتشفة ظاهرة، أي سرُّها ظاهر. المهاتين: البِكر والثيّب، والبقرة الوحشية هي المهاة. هام: تحيّر من شدة الحبّ.

* * *

قال أبو زيد: فرأيتُهُ جَنْدَلة يتقِيها المُرَاجِم، وتُدْمَى منها المحاجِم؛ إلاّ أنّي قلت له: كنتُ سمعتُ أنّ البِكْرَ أشدُّ حُبًّا، وأقلُّ خِبًّا، فقال: لَعمري قد قيل هَذَا، ولَكِن كمْ قولٍ أذَى، ويحك! أمَا هي المُهْرَةُ الأبيَّة العِنان، والمَطِيَّةُ الْبَطِيَّة الإذْعَان، والزَّندة المتعسّرة الاقتداح، وَالقَلْعةُ المُسْتَصعَبَة الافتتاح. ثم إنّ مُؤنتها كَثيرة، وَمَعُونتهَا يَسيرة، وعِشْرَتَها صَلِفَة، ودَالَّتها مُكَلَّفة، ويَدَها خَرْقَاءُ، وفِتْنَتَها صَمَّاء، وعَرِيكَتَها خَشْنَاء، ولَيْلَتَها لَيْلاَء، وفي رِيَاضَتِها عَنَاء، وعَلَى خِمْرَتها غِشَاء، وطالمَا أَخْزَت المُنَازل، وفَركَتِ المَغَازِل، وأحْنقَتِ الْهَازِل، وأَضْرَعَتِ الْفَنِيقَ البازلَ. ثمّ إنّها التي تقول: أنا ألبَس وأجلس، فأطلب من يُطْلِق ويَحْبس.

فقلت له: فما تَرى في الثَّيِّب، يا أبا الطَّيب؟ فقال: وَيْحك! أَتَرْغَب في فُضالة المآكل، وثُمَالَةِ الْمَنَاهِل، واللِّباس المستبذَل، والوعاءِ المسْتَعْمَل، والذَّوّاقةِ المتطرِّفة والخرّاجَة المُتَصرِّفة، والْوَقَاحِ المُتَسَلِّطة، والمُحتَكِرَةِ المُتَسَخِّطة. ثم كِلمتُها: كنتُ وصِرْت، وطالما بُغي عليّ فنُصِرْت وشَتَّان بين اليوم والأمس، وأين القمرُ من الشمس! وإن كانت الحنّانةَ الْبَرُوك، والطَّمَّاحَة الْهَلُوك، فهي الغُلّ القَمِل، والجُرْح الَّذي لا يندَمِل.

* * *

قوله: المُرَاجم، أي الذي ترجُمه ويرجُمك. خِبًّا: مكراً وخديعة، ورجل خِبّ: غاشّ فاجر. الأبيّة العِنَان: الممتنعة القياد. الإذعان: الخضوع والذلة الزَّندة: ما تزنُد منه النار. المتعسرة الاقتداح: التي يعسر إخراج النار منها القَلْعة: الحِصْن والمكان المرتفع. عشرتها: صُحبتها. صَلِفَة: مجاوزة حدِّ الطَّوْق، وأصل الصَّلف الإعراض عن الشيء كأنه إذا استقبلك أبديْت له صَلِيفَك، وهو صفحة عُنُقك، ودَالّتها: انبساطها، يريد انبساطَها إذا أرادت أن تُدِلَّ عليك تتكلّف ذلك. خَرْقاء: لا تحسِن العمل. صمّاء: شديدة، كأنها لا

تسمع النَّهي والعذْل. وفِتْنتها: شرها. خشناء: خَشِنة صعبة. ليلاء: شديدة السّواد طويلة. خِمرْتها: لبستها الخِمار. غشاء: غطاء وسَتْر. فُضالة: بقية، وكذلك ثمالة المنهل: موضع الماء. والنَهَل: الشرب الأوّل. والذّوّاقة المتطرفة، أي التي تذوق طَرف الشيء وتتركه أو تذوق بطَرفِ لسانها ثم تبصقُه، وتَطَرّفت الناقة: رَعَتْ بأطراف المرعى، فيريد أنها لا تبقى على زوج واحد، إنما هي تذوق كلّ زوج وتجرّب لذة مباشرتِهم، وقال رجل للنبي ﷺ: إني قد طلّقت زوجتي فقال النبي ﷺ: «إن الله لا يحبّ الذوّاقين ولا الذوّاقات»[1]. الخرّاجة: الكثيرة الخروج. المتصرّفة: الجوّالة الوَقّاح: الصُّلبة الوجه التي ليس عندها حياء. المتسلطة: المستطيلة اللسان والمحتكرة: التي تَسْرِق رزْق زوجها، ثم تحتكره، أي تدّخره وترفعه، فإذا احتاج زوجُها لشرائه أخذت منه ثمن ما عندها محتكَراً. كنتُ وصرت: تخاطب به زَوْجها أي كنت في نعمةٍ مع الزوج الأوّل وأنا معك على شقاء بُغِي عليّ، أي اجتمع عليّ بالظلم، والبغي: الظلم. وشتّان: بعُد. واليوم وأمس: الزوج الحاضر معها والزوج المفقود، وهو الذي أراد بالقمر والشمس، ويقال: شتان زيد وعمر وترفعهما بشتّان، وتفتح نونها للالتقاء الساكنين تشبيهاً بالأدوات ويقال: شتان ما زيد وعمرو، فتجعل ما صلة أو تنصبها على التمييز على حدِ نْعَم رجلاً زيدٌ والتقدير: شتان شبهاً زيد وعمرو، وبرفعهما بشتّان بمعنى بَعُد شبهاً زيد وعمرو، ويجوز كسر نون شتانِ على أنها تثنية شتّ، وهو التفرّق، وجمعه أشتان، ويقال: شتان ما بين زيد وعمرو، فترفع «ما» بشتّان على أنها بمعنى الّذي، وبين صلتُها، ولا يجوز كسر نون شتانَ لأنها اسم واحد، ومعنى هيهات بَعُد الحنّانة: صاحبة الولد الذي من غير الزّوج الذي هي معه، فمتى رأتْ ولدها حنّت لوالده، والبروك: التي تتزوّج ولها ولدٌ كبير، ويسمى ولدها الحوبند. والطماحة الهلوك: هي التي فارقها زوجُها فتطمح له أبداً وتتهالك في محبَّته. وقيل: الطماحة التي تطمح إلى كلِّ شهوة، والهلوك الفاجرة. والغُلّ: الشّرَك التي يُغَلّ بها الأسير أي يربطها في عنقه ويديه. والقمِل: الذي كثرت فيه القمل ويضرب بالغُلّ القمِل المثل للمرأة السيئة الخلق. لا يندمل: لا يبرأ.

أبو موسى رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث يدعُون الله فلا يَستجيب لهم: رجل كانت عنده امرأة سيّئة الخلُق فلم يطلِّقْها، ورجل أعْطَى مالَه سفيهاً، وقد قال الله تعالى **﴿وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أموالَكمْ﴾** [النساء: ٥]، ورجل كان له على رَجُلٍ دَيْنٌ فلم يشهد عليه».

المقدمي: قال بعض الحكماء: أربعة أشياء يمنعْنَ النّوم والقَرار: المرأة السوء، والولد الجاهل، والعَشِير المخالف، والعبد اللئيم. قال الأصمعيّ: قال لي زائدة البندار: قيل لي بالشأم: هل لك أن ترى العَجَب؟ فذهبتُ فإذا سبعة في شق، جدّ وستة من ولده

(١) رواه ابن الأثير الجزري في النهاية في غريب الحديث ٢/ ١٧٢.

وولد ولده، وإذا الجَدّ السابع أشب من الابن السابع، فسألت عنه فقيل: كان للجدّ امرأة مُوافقة وللابن السابع امرأة سَلِيطة.

وقال ﷺ: «أربعة لا يشبَعْنَ من أربعة: عينٌ من نظر، وأرض من مَطَر، وأنثى من ذكر، وعالم من علم».

قال الأصمعي: تزوّج رجل من عُذْرة امرأةً مَن بليّ حمقاء، فغاب عنها غيبةً ثم قدم عليها، فلما جمعهما المضجع أنشأت تقول: [الرجز]

ما مسَّنِي بعدك مِنَ إنسيّ ... غير غلامٍ واحدٍ جَعْدِيّ

ورجلٍ أحمق من بلِيّ ... ورَجُلين من بني عديّ

وتسعةٍ كانوا مع المطيّ ... وسبعةٍ كانوا على الطّويّ

وخمسة وافوْا مع العَشيّ ... من بين جَدّيّ إلى مكيّ

* ومن تِهَامِيٍّ إلى نجديّ *

فقام إليها بالسوط فضربها، فاجتمع لذلك مَنْ حوله يلومونه، فقال: والله لولا ما قمتُ لضرْبها لَعَدّت عليّ أهل عَرفات ومِنى.

وقيل ليحيى المديني: ما الجرحُ الذي لا يندمل؟ قال: حاجة الكريم إلى اللئيم.

* * *

فقلت له: فهلْ تَرى أنْ أَترهَّبَ، وَأَسْلُكَ هَذَا الْمَذْهَب؟ فانْتَهرَني انتهارَ المؤدِّب، عند زلّة المتأدِّب، ثمّ قال: ويلك! أتقتدي بالرّهبان، والحقُّ قد اسْتَبان! أفٍّ لك ولِوَهْنِ رَأيك، وتبًّا لك ولأُولئك أتُراك ما سمعت بأنْ لا رهبانيّة في الإسلام، أو ما حدِّثت بمناكح نبيِّكَ عليه أزكى السلام. ثمّ أما تعلمُ أن القرينةَ الصالحة تَرُبُّ بيتَك، وتلبِّي صوتَك وتغُضّ طَرْفَك، وتُطَيِّب عَرْفك، وبها تَرى قُرَّة عَيْنِك، وريحانةَ أَنْفِك، وفَرْحةَ قَلْبِك، وخُلْدَ ذِكْرِك، وتَعِلَّة يَوْمِك وغَدِك! فكيفَ رغبتَ عن سُنَّة الْمُرْسَلين، ومُتْعَةِ المتأهّلين، وشِرْعَة الْمُحْصَنين ومجلبةِ المال والْبَنين: والله لَقَدْ ساءني فيك، مَا سَمِعْت مِنْ فِيك. ثمّ أعرض إعراض المغضَب، ونَزَا نَزَوَان العُنظَب، فقلت له: قاتلك الله! أتَنْطَلِق مُتبختِراً، وتَدَعُني متحيِّراً! فقال أظنّك تدّعي الْحَيْرة، لِتَجْلِدَ عُمَيْرة، وتَسْتَغْنِي عن الْمُهَيْرة. فقلت له: قبَّح الله ظَنَّك، ولا أشبَّ قرنَك. ثم رُحْتُ عنه مَرَاح الْخَزيان، وتُبتُ من مشاورة الصبيان.

* * *

قوله: أترهَّب، أي أترك التزويج، والتَّرهب ترك النساء، انتهزني: زجرني وأخذني

بلسانه. زَلَّة: سقطة. استبان: ظهر. الأفّ وسخ الأذنين، والوهن: الضعف والخسران، ولأولئك، إشارة للرهبان. السَّكن: الزوجة يُسكَن إليها تَرُبّ: تصلح. تلبّي: تجيب. تَغُضّ طرفك، أي تحصّنك وتمنَعك من نظر النساء. عَرْفك: ريحك الطيب، وقرّة العين: ما يتمنى وتقَرّ به العين.

ريحانة: شجرة طيّبة الريح، وريحانة من صفة المرأة. قال عليّ رضي الله عنه في وصيته لابنه محمد ابن الحنفية: «لا تملِّكن المرأة من الأمر ما يتجاوز نفسها فإن المرأة ريحانة وليست بقهرمانة، وإن ذلك أدْوَمُ لحالها وأرضى لبالها» وما أحسن ما قال ابن اللّبانة يرثي أختَ المرتضى صاحب ميُورقة، وماتت بعد أخيها: **[الطويل]**

أبنتَ العلا جدَّدْت منعي على منعي ... مضَى المرتضى أصلاً وأتبعتِه فرعَا

جرى الموت جَرْي الريح في منبتيكما ... فأذوَاكِ ريحاناً وكسَّرَهُ نَبْعَا

تَعِلة: أي تتعلّل وتنتفع بما عندها من القيام بمؤنتك. ومُتعة: ما يُتَمتّع به ويتلذذ. المتأهلين: المتزوّجين الذين لهم أهل. شِرْعة: طريقة، المحصَنين: المتزوجين. نزا: وثب وارتفع. العُنْظُب: ذكر الجراد.

[الزواج والترغيب فيه]

ونذكر هنا فصلاً يليق بهذا الموضع.

قال رسول الله ﷺ لعطاف بن وداعة الملالي: «يا عطّاف ألك امرأة؟ قال: لا قال: فأنت إذًا من إخوان الشياطين، إن كُنتَ من رهبان النصارى فالحق بهم، وإن كنت مِنّا فسنّتنا النكاح»[(١)].

أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ركعتان من المتأهّل خير من اثنتين وثمانين ركعة من العزَب».

وقال ﷺ: «تزوّجوا الولُود الودود من النّساء فإني مكاثرٌ بكم الأمم»[(٢)].

وقال ﷺ «النّساء ثلاث: صِنْفٌ كالرحَى تحمِل وتَضَع، وصِنْفٌ كالعَرّ وهو الجرَب، وصِنفٌ ودود ولود تُعِين زوجَها على إيمانه فهي خيرٌ له من الكنز»[(٣)].

ابن عمرو رضي الله عنهما قال النبيّ ﷺ: «إذا أتى على أمتي مائة وثلاثون سنة فقد حلّت لهم العزبة والترهّب في رؤوس الجبال».

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٥/ ١٦٣، وابن ماجه في النكاح باب ١، بلفظ: «النكاح من سنتي».

(٢) أخرجه أبو داود في النكاح باب ٣، والنسائي في النكاح باب ١١، وأحمد في المسند ٣/ ١٥٨، ٢٤٥.

(٣) أخرجه البخاري في الشروط باب ١٥.

وقال ﷺ: «الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة»[١].

وقال خالد بن صفوان لرجل: أتزوجت؟ قال: لا، قال: فتزوج، ثم قال بعد ساعة: لا تتزوج، فقال: لم؟ قال: إنك إن تزوّجت واحدة فتطهر إن طَهُرت وتحيض إن حاضت وتغضَب إن غضبت، فإن تزوّجت باثنتين تقع بين ضَرّتين، فإن تزوجت ثلاثاً تقع بين أثافِ، وإن تزوجت بأربع يغلِّسْنَك ويُهرمنك. قال: أفتحرّم ما أحلّ الله لك؟ قال: لا، ولكن كُوزان وخِماران وعباءة وقُرْصان.

وقال رجل: أردتُ النّكاح فقلت: لأستشيرن أوّل مَنْ يطلع عليّ، فأعمل برأيه، فأول مَنْ طلع عليّ هبنّقة القيْسيّ الأحمق وتحته قصبة، فقلت له: إني لأستشيرك في النّكاح، فقال: البِكْر لك والثَّيّب عليك، وذات الولد لا تقربها، واحذر جوادي لا ينفحك.

وقال رجل لولده: يا بنيّ لا تتخذها حَنّانة ولا أنّانة ولا منّانة ولا عَشِبة الدار ولا كية القفا، فالحنّانة التي لها ولَد من غيره فهي تحنّ إليه، والأنانة: التي مات زوجها فهي إذا رأت الثاني أنّت للأوّل وقالت: يرحم الله فلاناً، والمنّانة التي لها مال، فهي تمنّ به على زوجها متى احتاج إليه، وعَشِبة الدار: خضراء الدّمن، وقد تقدَّمت، وكية القفا: التي انصرف ابنُها أو زوْجَها من بين القوم قال رجل قد كان بيني وبين أمّ هذا أو زوجته شيء.

وسُئِل أعرابيّ عن النساء، وكان ذَا تجربة لهنّ فقال: أفضلهنّ أطولهنّ إذا قامتْ، وأكظمهن إذا قعدَتْ وأصدقهن إذا قالت، التي إذا غضبت حلمت وإذا ضحكت تبسّمت، وإذا صنعت شيئاً جوّدت، التي تلزم بيتَها ولا تعصي زوجَها العزيزة في قومها، الذليلة في نفسها، الودود الولُود، وكلّ أمرها محمود.

نظر خالد بن صفوان إلى جماعة في مسجد البصرة فقال: ما هذه الجماعة قالوا: امرأة تَدُلّ على النساء، فأتاها فقال لها: أبغي امرأة، قالت: فصفها، قال: أريدها بِكْراً كثيّب، أو ثَيِّباً كبكر، حُلْوة من قريب، ضخمة من بعيد، كانت في نعمة، وأصابتها حاجة، ففيها أدب النّعمة وذلّة الحاجة، إذا اجتمعنا كنَّا أهلَ دنيا، وإذا افترقنا كنا أهل آخرة، قالت: قد أصبتُها لك، قال: فأين هي؟ قالت: في الرفيق الأعلى من الجنّة فاعمل لها.

[خالد بن صفوان والسفاح]

وقال خالد لأبي العباس السَّفَّاح ـ وكانت عنده أُمُّ سلمة بنت يعقوب بن سلمة المخزوميّ، وكان تزوَّجها قبل الخلافة، وحلف ألاّ يتزوج عليها، ولا يتسرَّى ـ: يا أميرَ

---

(١) أخرجه مسلم في الرضاع حديث ٥٩، وابن ماجه في النكاح باب ٥، وأحمد في المسند ٢/١٦٦.

المؤمنين، إنّي تفكّرت في أمرك، مع سَعَة ملكك، وقد ملَكَتْك امرأة واحدة، إن مرضتْ مرضتَ لمرضها، وإن غابت غبْتَ، وحرَمتَ نفسك التلذّذ بالجواري ومعرفة جلالتهنَّ، فإنَّ منهنّ الطويلة الغَيْداء، والفضة البيضاء، والعقيقة الأدْمَاء، والرقيقة السَّمراء، والبربرية العجزاء، يفتنَّ بمحادثتهنَّ. ونأتْك عن بنات الأحرار والنَّظر إليهنَّ، ولو رأت الطويلة البيضاء، والسمراء العيناء، والبيضاء العجزاء، والمولدات من البصريات والكوفيات ذواتِ الألسن العذْبة والقدود المهفهفة، والأوساط المخصَّرة والأصداغ المزرنقة، والعيون المكحلة، والثديّ المحقّقة، وحسن زينتهنَّ وشكلهنَّ، لرأيت شَكَلاً حسناً، فقال له: ويحك يا خالد! ما سلك مسامعي والله كلامٌ أحسنُ مما سمعت منك. فانصرف وبقيَ أبو العباس متفكّراً. فدخلتْ عليه أم سلمة فرأته، مغموماً فقالت له: إني لأنكرك يا أمير المؤمنين، هل أتاك خبرٌ فارتعت له؟ قال: لا، قال: فما قصَّتُك، فزوَى وجهَه عنها، فلم تزل به حتى أخبرها، قالت: فما قلت لابن الفاعلة؟ قال: سبحان الله! ينصحني وتشتمينه! فخرجتْ مغضَبة، وأرسلت إليه جماعة من العبيد، وبأيديهمْ مقامعُ من حديد، وأمرتْهم ألاَّ يتركوا من خالد عضواً صحيحاً. قال خالد: فانصرفتُ مسروراً لما رأيتُ من إعجابه بما ألقيت عليه، ولم أشكَّ أنَّ صلتي ستأتيني.

فإنّي لقاعد على باب داري، وإذا بالعبيد قد أقبلُوا نحوي فلم أشكَّ في الجائزة، فسألوا عنّي فقلت: أنا خالد، فأهوى أحدُهم إليّ بهراوة فوثبتُ إلى منزلي، وعلمت أني أُتيتُ من أم سلمة. وطلبني أبو العباس طلباً شديداً، وأنا مستخفٍ، فهُجِم عليّ في الثالث، فقالوا: أجب أمير المؤمنين. فأيقنت بالموت، فدخلْتُ عليه وليس في وجهي دم، فسلّمت وجلستُ، وإذا خلف ظهري سِترٌ خلْفه حركة فقال لي: يا خالد أين كنت منذ ثلاثة أيام؟ قلت: عليلاً، قال: إنَّك وصفت لي من أخبار النساء والجواري ما لم يخرق مسامعي قطّ شيءٌ أحسنُ منه، فأعِدْه عليّ، قلت: نعم أعلمتك يا أمير المؤمنين أنَّ العرب اشتقت اسمَ الضرّة من الضّر، وإن أحدهم لم يكنْ عنده أكثرُ من واحدة إلا كان في جَهْدِ قال: ويحك لم يكن هذا في الحديث! قلت: بلى والله، وأعلمتك أنَّ الثلاث من النساء كأثافيّ القدر يُغْلَى عليهنَّ. قال أبو العباس: برئتُ من قرابتي من رسول الله ﷺ إن كنت سمعتُ هذا منكَ في حديثك، قلت: وأخبرتُك أنَّ الأربع شؤم مجتمع لصاحبهنَّ، يُسْقمْنه ويُهْرِمنه ويُشَيِّبْنَه قال: والله ما سمعت هذا منك قطّ! قلت: بلى والله يا أمير المؤمنين، قال: ويحك! وتكذّبني! قلت: وتريد أن تقتلَني! قال: مرّ في حديثك، قلت: وأخبرتك أنَّ أبكار النساء رجالٌ ولكن لا خُصَى لهنَّ، قال: وسمعتُ الضَّحِكَ من وراء الستر، قلت: وأخبرتُك أن بني مخزوم ريحانة قريش وعندك ريحانة من الريَّاحين، وأنت تطمح إلى غيرها من الإماء! فقيل لي من وراء الستر: صدقتَ والله يا عمّاه وبرزت، وبهذا حدَّثته، ولكنه غيّر وبدّل. فقال لي أبو العباس: ما لك قاتلك الله وأخزاك! وفعل وفعل! فتركتُه

وخرجت، فما شعرت إلا برسل أم سلمة، ومعهم عشرة آلاف درهم، وتَخْت وبرذون وغلام، فقبضتها.

وفي هذا الحديث المليح تعلُّقٌ بما ذكر الحريريّ من مدْح النّساء وذمهنَّ، وخالد بن صفوان لفصاحته أقدر الناس على مدح الشَّيْء وذمه، وقد تقدّم في الثالثة هذا الفنّ.

وقال أبو العباس السفاح لخالد وعنده أخواله الحارثيّون: كيف علمك بأخوالي يا خالد؟ قال: يا أمير المؤمنين، هُمْ هامة الشَّرَف وعِرْنين الكرم، وغَرْس الجود، وفيهم خصال ليستْ لغيرهم، إنّهم لأصونُهم أمًّا، وأحسنهم أمَما، وأكرمهم شيما، وأطيبهم طعمًا، وأوفاهم ذمماً، وأبعدهم هِمماً، الجمرْة في الحرْب، والوقد عند الجدْب، وهم الرأس في كل خطب، وغيرهم بمنزلة العُجْب. فقال: لقد وصفت يا بن صفوان فأحسنت، فزاد أخوالُه في الفخر، فغضِب أبو العباس لأعمامه فقال: افخر يا خالد، فقال: أعَلَى أخوال أمير المؤمنين؟ قال: فأين أنت من أعمامه! قال: كيف أفاخر قوماً هم بين ناسج برْد وسائس قرد، ودابغ جلد، دلّ عليهم هدهد، وغرَّقتهم فأرة، ومَلَكَتْهم امرأة!.

ودخل خالد على أبي الجهم العدويّ وهو يريد ركوبَ حمار، فقال خالد: أما علمتَ أنّ العير عار، وأنّ الحِمار شنار، منكر الصوت، قبيح الفوت، مترنِّح في المحْل، مرتطم في الوحْل، ليس بركوبة فحل، ولا مطية رَحْل، راكبه مقرِف، ومسايره مشرف. فاستوحش العدويّ من رُكوبه، فركب فرساً وركب خالد الحمار، فقال: ويحك يا خالد! أتنهى عن شيء وتأتي مثله! قال: أصلحك الله عِيرٌ من بنات الكداد، أسحم السربال، مدمج الأوصال، محملج القوائم، يحمل الرّحلة، ويبلِغ العقبة، ويمنعني من أن أكونَ جبّاراً عنيداً، أو ملكاً شديداً، فقد ضللت إذا وما أنا من المهتدين! ذلك لك، وهذا لي. فتبسم العدويّ.

[مما قيل في وصف النساء]

ثم نرجع إلى جملة مقاطيع من أوصاف النساء تتبين بها أوصافهنَّ، قال العديل بن الفرخ: **[الكامل]**

لـعِبَ الـنَّسِـيم بـهـنّ فـي أَظْـلاَلِـهِ ... حَـتَّـى لَـبِـسْـن زمـان عـيش غـافـلِ
يـأخـذْنَ زيـنـتـهـنّ أحـسـن مـا يُـرى ... وإذا عُـطِّـلْـن فـهـنّ غـيـر عـواطـلِ
وإذا أريْـن خـدودهـن أريـنَـهـا ... حَـدَق الـمـهـى وأخذنَ سَـهْـم الـقـاتـلِ
ورَمَـيْـنَـنِـي لا يَـسْـتَـتِـرْن بـجـنّـةٍ ... إلاّ الـصِّـبَـا وعَـرَفْـن أيـن مـقـاتـلِـي

وقال العباس بن طرخان: **[الطويل]**

تَـقَـسَّـمْنَ قـلـبـاً كـان مـجـتـمِعَ الـشَّـمْـل ... وفـرَّقْـنـهُ بـيـن الْـمَـسَـالِـكِ والـسُّـبُـلِ

زَرَعْنَ الهوى في القلب ثم سقَينه ... صَبابات ماء الشوق بالأعْيُن النّجْلِ
رَمَيْنَ فلما أن أصَبْنَ مقاتِلي ... تولَّيْنَ وانْضَمَّت جِراحي على النَبْلِ

وقال البحتري: **[الكامل]**

لمَّا مشيْنَ بذِي الأراك تَشَابَهتْ ... أعطاف قُضْبَانٍ بِه وقُدُودِ[1]
في يمنتي حِبَرٍ ورَوْضٍ فالتقى ... وشْيَان: وَشْيُ رُباً ووَشْيُ بُرودِ
وسَفَرْنَ فامتلأتْ عيونٌ راقَها ... وردان: وَرْدُ جَنًى ووَرْدُ خدودِ
ومتَى يساعدنا الوصالُ ودهُرنا ... يومان: يوم منى ويوم صدودِ!

وقال التهامي: **[الكامل]**

ماتَتْ لفقدِ الظَّاعِنين ديارُهُمْ ... فكأنهم كانوا لَهَا أَرْوَاحَا
لا عيب فيهم غير شحٍّ نسائهم ... ومِنَ السماحة أن يكنّ شحاحا
طرقته في أترابِها فجلَتْ له ... وهناً من الغرر الصِّباح صباحا

وأنشد الأصمعي: **[الطويل]**

خُزاعِيّة الأطرافُ مُرِّية الحشَى ... نِزَارية العينين طائيّة الْفَم
لها حُكْم لقمانٍ وصورةُ يوسف ... ونَغْمَةُ دَاوُدِ وعِفَّة مَرْيمِ

وقال الأسعد بن نبيط: **[الطويل]**

غُلاَمِيَّةٌ جاءت وقد جَعَل الدُّجى ... لخاتم فيها فصّ غانيةٍ خَطَّا
فقلت: أحاجيها بما في جفونها ... وما بالشفاه اللُّعس من حُسْنِهَا المعطَى
محبّرة العينين من غير سَكْرةٍ ... متى شربت ألحاظ عينيك إسْفَنْطا
أرى صُفْرَة المِسْوَاك من حُمْرة اللّمَى ... وشاربك المخضرّ بالمسْك قد خُطا
عَسَى قَدَحٌ قَبَّلته فإخاله ... على الشفة اللَّمياء قد جاء مُنْحَطّا

فتصور في البيتين قبل هذا أحسنَ مقابلة، وتصوّر في البيتين من آخر هذه القطعة ثلاث تشبيهات شبّهت بشيء واحد يتضمنها جمعياً!.

وقال ابن شرف: **[البسيط]**

قامَتْ تجر ذيوَل الْعَصْبِ والحبرِ ... ضعيفةَ الخَطْوِ والميثاق والنَّظَرِ
تخطُو فتولِي الحصا من حَلْيِها نُبَذاً ... وتخلِطُ العنبَر الورديّ بالْعَفَرِ
تلَفتَتْ عن طلاً وَسْنَانَ وابتسمتْ ... عن واضحٍ مثل نَورْ الرّوضة العطِر

---

(١) الأبيات في ديوان البحتري ص ٦٩٨.

ما لذّ للعين نومٌ بعد ما ذكرتْ ... ليلاً سمرناه بين الضّال والسَّمُرِ
تساقَط الطلُّ من فوق النّحور بهِ ... تَساقُطَ الدُر في اللَّبَّات والثَّغَرِ

وقال الرمادي: [البسيط]

شَطَّتْ نواهم بشمسٍ في هوادجهم ... لولا تلألوها في ليلهنّ عَشُوا
شكَتْ محاسنَها عيني وقد عذرتْ ... لأنها بضمير القلب تنخمِشُ
شَعْرٌ ووجْهٌ تبارى في افتخارهما ... لحسن هذا وذاك الرُّومُ والْحَبَشُ
شككت في سَقَمي منها، أفي فرشي ... إذا تأمّلت إلاّ الطيفُ والفُرشُ؟

ولبعض أصحابنا: [الكامل]

سَائِلْ سُقَاة الحيّ عن نجديةٍ ... وردَ الحجيجُ بها سقايةَ زَمْزَم
صفراء كالدّينا رغُلّ تَرِيبُها ... بالزَّعفران وخَدّها بالعندم
لبستْ بُرودَ السابريّ فأفضلت ... من ذيلها ولبستُ جلدَ الأرْقَم
يا ليت شعري وهي أنسك ناسكٍ ... لِمْ تستحلُّ دمَ المحبِّ المُسْلِم!
نبِّئت أنّ الظاعنين بها سَعَوا ... للأجر فانقلبوا بكُبْر المأثَم
سفكوا دماء الرائحين إلى مِنًى ... بجفونها ونجوا بسافكة الدمِ

وهذا القدر في هذا الموضع كاف، وقد تضمن هذا الديوان مقطعات بديعة في أوصاف النساء.

[ما جاء في الاستمناء]

قوله: لتجلد عميرة، يقال لهذا الفعل الخضخضة والتدليك والاستمناء والاعتمار، واعتمر الرجل: جمع يديه وضمّهما لذلك، والإلطاف للنساء مثل الخضخضة للرّجال، يقال منه: ألطفت المرأة، وقال القتيبي بيتاً ما سمعناه على وجه الدهر [الطويل]:

إذا مررتَ بوادٍ لا أنيس به ... فاضرب عُميرة لا عارٌ ولا حَرَجُ

آخر: [الكامل]

بيدي ورجلي لا عدِمْت كليهما ... أصبَحْت أغني مَنْ يَروُح ويغتدِي
أمشي على هذِي وأنكح هذه ... فمطيتِي رِجْلِي وجاريتي يدي

آخر: [الرجز]

تسألني عن عَتدي وعندي ... فإنني يا بنة آل مرثدِ
* راحلتي رجلاي وامرأتي يدي *

وقال أعرابيّ: [الرجز]

إن تبخلي بالمركب المحلوقِ ... فإن عندي راحَتِي وريقِي

ودَلْـكـاتٍ لَـسْـن لـلـتَّـمـزيـق ... أشـهـى مـن الـتـصـبـيـح والـتـغـبـيـقِ

وقال الخزاميّ: [المتقارب]

خـطـبـتُ إلـى سـاعـدي راحـتِـي ... ومـا كـنـتُ مـن شـرّ خُـطّـابِـهـا

ومـا إن تـكـلّـفـتُ مـن مَـهْـرِهـا ... سـوى ريـقـةٍ أتـجـرّى بـهـا

فـإن شـئـتُ أوتَـى بـهـا ثـيّـبـاً ... وبـكـراً إذا شـئـت أوتَـى بـهـا

ونَـزَّهـت نـفـسـي عـن الـغـانـيـات ... وعـن ذِكْـر سَـلْـمـى وأتـرابـهـا

وقال الحسن: [الطويل]

إذا أنتَ أنْكَحْتَ الكريمةَ كُفؤها ... فأنكح حسيباً راحة لابن ساعدِي

وقل بالرّفا ما نلت من وَصْل حرّة ... لـهـا سـاحـة حُـفـت بـخـمْـسِ ولائـدِ

وقال ابن الرقعمق: [مخلع البسيط]

ومـن بـلائـي أبـو عـمـيـرِ ... مـعـرَّضٌ بـي إلـى الـمـنـونِ

مـنـتـصـبـاً مـا يـنـام وقـتـاً ... ولَـيْـس يـهـدَا مـن الـزَّنـيـن

مـن يـك ذا زوجـة فـإنـي ... لـشـقـوتـي زوجـتـي يَـمـيـنـي

عـمـيـرة قـد جـلـدتُ حـتـى ... خـشـيـت والله تـجـلـدونِـي

فـراقـبـوا الله فـي يـمـيـنِـي ... وخـلّـصـوهـا وزوّجـونـي

وقال آخر يشتكي غلظ يده: [البسيط]

لـو أنـهـا لَـذْنَـةٌ قـضـيـتُ مـن وطـرِي ... لـكـنـه خَـشِـنٌ أربـى عـلـى الـسَّـفِـنِ

أشـكـو إلـى الله نـعـظاً قـد مُـنِـيت بـه ... ومـا ألاقـي مـن الإمـلاق والـحـزَنِ

آخر: [مجزوء الوافر]

ومـغـتـابٍ إذا نـبـحَـا ... يـظـنّ سـواه قـد جُـرِحَـا

ومَـنْ لـم يـدر لـم يـألـم ... فـعـاد عـلـيـه مـا اجْـتَـرَحَـا

كـنـاكـح كـفّـه يَـنْـوي ... فـتـاةً كـانَ قَـدْ لَـمَـحَـا

ومـا نـكـح الـفـتـى أحـداً ... ولـكـنْ نَـفْـسَـه نـكـحَـا

فنكاحُ الكفّ هو جَلْد العميرة.

قال ابن أبي الأزهر: مررت على بَرذعة الموسوس، وقد أدخل يدَه في جَيْبه، وهو يخضخض، فضربتُه برجلي، فانكشف، فإذا هو منعظٌ، فقلت: ما هذا؟ فقال: أما تَرى تلك! وأشار بيده إلى جارية جميلة في عِلّيّة متطلعة، فقال: إني دعوتها إلى نفسي فلمّا لم تجبْني أجبتها، فقلت: قبّحك الله! وولّيتُ عنه. فلم يلبث أن لحِق بي،

وَقال: قضيتُ الحاجة على رغم أنفك، ثم أنشدني: [الطويل]

أأنكَرْت ما عَايَنْتَ من كفِّ دالِك ... وهل يُنْكَرُ التدليك في قول مالِك
لقد أمِنَ الدُّلاَّكُ من أن تنالهمْ ... حُدود الزِّنا في واضحات المسالكِ
وإنّي قد سكّنت عزمة عملتي ... بحسن عيون والشديّ العواتك

كذب على مالك والشافعي، وعامةُ العلماء يحرّمون الاستمناء، وحجتهم قولُهُ تعالى: ﴿**والَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إلاَّ على أزواجِهِمْ أو مَا مَلَكَتْ أيمانُهم فإنَّهُمْ غيرُ مَلُومِينَ**﴾ [المؤمنون: ٥ ـ ٦].

الفنجديهي: وقد جاء في تحريم الخضْخضة حديث مشهور، وسندُه إلى أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «سبعة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة، ولا يزكّيهم ولا يجمعهم مع العالمين، ويُدْخِلهم النار مع الداخلين؛ إلا أن يتوبوا، فمن تاب تاب الله عليه: الناكح يده، والفاعل والمفعول به، ومُدمِن الخمر، والضّارب أبويْه حتى يستغيثا، والمؤذِي جيرانَه حتى يلعنوه، والناكح حليلةَ جارِه». وإنّما رُويت الرخصة في ذلك عن عمرو بن دينار.

وروي عن ابن عباس أنه سئل عن الخَضْخضة فقال: نكاح الأمَة خيرٌ منها وهي خير من الزنا.

الأزهري: أبو عمير ذَكَر الرجل.

الفنجديهي: سمعتُ الحافظ أبا العلاء يقول: الخضخضة على مذهب الإمام أحمد ابن حنبل جائزة لمن استولَتْ عليه الشَّهوة حتى خاف على نفسه إتيان الفواحش.

أبو الفرج محمد بن أبي جعفر الطائيّ بهمَذَان، قال: أنشدنا الإمام أبو المظفّر المعاوِي لنفسه، وكان من أروع الفضلاء وأزهدهم: [الطويل]

خليليّ لا بغداد تدنُو فتنقضي ... همومي ولا الريّ البغيضة تبعدُ
فليس من الأنصاف والعدلْ أنكم ... تنيكون ربّات الحجال ونُجْلَدُ
وترْضونَ بالحرمان للفيْشة الّتي ... على غضب باتت تقومُ وتقعدُ
فلا تحسبوا جَلْدِي عُميرة وصمةً ... عليّ فقد أفتى بها الشَّيْخُ أحمدُ
ولو وسعتها راحتي لاحتملتُها ... فما حيلتي إذ ضاق ذرعاً بها اليدُ

وذكر بيتين آخرين.

قال: وأنشدني إمام أهل اللغة أبو المعالي إسماعيل بن الحسن البديع لبعضهم: [مجزوء الرمل]

إنّما همّي كُسَيْرَهْ ... نشفت ماء قُدَيْرهْ

وخـمـيـرةٌ فـي ذُكـيـره بُـلْـغَـتِـي مـنـهـا سُـكَـيْـرهْ
وغـلام أو فـتـاة قـد كـفـي جـلـدَ عُـمَـيْـرَهْ
مَـنْ رأى عـيـشـيَ هـذا عـاش لا يـؤثـر غَـيـرَهْ

قال: وأنشدني البديع أيضاً لبعضهم: [مخلع البسيط]

يـا سـيـدي نـحـن فـي زمـان أبـدلَـنـا الله مـنـه غَـيْـرَهْ
فـكـل ذي خِـسَّـةٍ وذلٍّ مـتّـع بـالـطّـيـبـات أيـرَهْ
وكـل ذي فـطـنـة وكَـيْـسٍ يـجـلِـد فـي بـيـتـه عُـمَـيْـرَهْ

* * *

قوله: أشَبَّ قرنك: يُدْعَى بذلك للصبيّ أن يكبُر وتطول قامته، كما تقول للصبيّ في ضدّ ذلك: لا كبرك الله. ويقال: شبَّ الصبيّ يشِبُّ بكسر الشين شَباباً بفتح الشين وكسرها، إذا طال وَنمَا جسمهُ والصبيّ شاب، وأشبَّ الله قرنه، أي جعله شاباً أسود الذؤابة، والقَرْن الضفيرة، وهي الذؤابة وقيل: القَرْن جانب الرأس. المَرَاح كالرَّواح. الخزيان: المُهان والمستحيي، وخِزيَ يَخْزَى خِزْياً: أهين، وخزايةً استحيا، فهو خَزْيان أي مستحي، وقوم خزايا.

وتُبتُ من مشاورة الصبيان، قال عمر رضي الله عنه: خصلتان من علامةِ الجهل: مشاورة النِّساء والصبيان، واستكتام السرّ النساء والصبيان.

* * *

قال الحارث بن همام: فقلتُ له: أُقْسِم بمَنْ أنْبَتَ الأيْك، أنَّ الجدَل مِنك وإلَيك؛ فَأَغْرَبَ في الضَّحِك، وطَرب طَرْبَةَ المُنْهَمِك، ثم قال: الْعَقِ العسل، ولا تَسَلْ، فأخذتُ أُسْهِبُ في مذح الأدب، وأفضِّل ربَّه على ذِي النَّشَب، وهو ينظر إليَّ نظرَ المستجهِل، ويغضي عنِّي إغْضَاء المتمهِّل. فلما أفرطتُ في الْعَصَبِيَّة، لِلْعُصْبةِ الأَدَبِيَّة، قال لي: صَهْ، واستمع منِّي وافْقَهْ: [المتقارب]

يَـقُـولُـونَ إنَّ جَـمَـالَ الْـفَـتَـى وزيـنـتَـهُ أدبٌ رَاسِـخُ
ومـا إن يَـزِيـنُ سـوَى الـمـكـثـريـن ومَـنْ طَـوْدُ سُـودَدِه شـامِـخُ
وأمّـا الـفـقـيـرُ فـخـيـرٌ لَـهُ مـن الأدب الـقُـرْصُ والـكـامِـخُ
وأيُّ جـمـالٍ أن يـقـال أديـبٌ يـعـلِّـمُ أو نَـاسِـخُ!

ثم قال: سَيَضِحُ لك صدق لَهْجَتِي، واستنارة حُجَّتِي.

* * *

الأيك: شجر. الجدَل منك وإليك، أي إنّما كان هذا الخصام بينك وبين نفسك، ولم يكن ثَمّ صبي تحاوره، أي أن حديثَك مصنوع لا أصل له.

[الأخبار المصنوعة]

ومن مستعمَل الأخبار المصنوعة ما يحكى أن حبيب بن أوس، قال: لَقِيَنا أَعرابيٌ، وقد خرجتُ في أيام الواثق إلى سرّ مَنْ رأى، فقلت له: ممنّ؟ قال: من بني عامر، قلت: كيف علمك بعسكر أمير المؤمنين؟ قال: قَتَل أرضاً عالمُها، قلت: ما تقول في أمير المؤمنين؟ قال: وثِق بالله فكفاه، أشجى العاصية، وقَمَع العادية، وعدل في الرعيَّة. قلت: فما تقول في أحمد بن أبي دؤاد؟ قال: هَضْبة لا ترام، وجبل لا يُضام، تُشْحَذ له المُدَى، وتُنْصَب له الحبائل، حتى إذا قُيِّد وثب وثبةَ الذئب، وَخَتل خَتْل الضّب. قلت: فحمد بن عبد الملك؟ قال: وسعَ الدانيَ شرُّه، ووصل البعيد ضُرُّه، له في كل يوم صريع، لا يُرَى فيه أثر نابٍ، ولا نَدَب مِخْلب، قلت: فما تقول في الفضْل بن مروان؟ قال: ذلك الرجل نُشِرَ بعد ما قُبِر، فعليه حياة الأحياء، وخَفْته الموتى. قلت: فابن الخصيبُ؟ قال: أَكَل أكلة نَهِم، وذرق ذرقةَ بشِم، قلت: فأخوه إبراهيم؟ قال: أمواتٌ غير أحياء وما يشعرون أيان يُبْعثُون، قلت فأحْمَدُ بن إبراهيم؟ قال: لله دَرُّه! أيّ رجل هو! اتَّخذ الصَّبر دثاراً، والحق شعاراً، وإن هوّن عليه يهمّ، قلت: فسليمان بن وهب؟ قال: ذلك رجلُ السلطان، وبهاء الدّيوان، قلت: فأخوه الحسن؟ قال: عُودٌ نضير، غُرِسَ في منابت الكرْم حتى إذا اهتز لهم حَصَدُوه، قلت: فإبراهيم بن نجاح؟ قال: ذلك رجلٌ أوثقه كرمُه، وأسلمه حسبُه، وله دعاء لا يُسلمه، وربٌ لا يخذله، وخليفة لا يظلمه، قلت: فنجاح بن سلمة؟ قال: لله درّه أيّ طالبِ وتْر ومدرك ثأر! يلتهب كأنه شعلة نار، له من الخليفة في الأنام جلسة تزيل نعماً، وتحلّ نقماً، قلت: يا أعرابيّ أين منزلك؟ قال: اللهمّ غَفْراً إذا اشتمل الظَّلام، ألتحف الليل، فحيثما أدركني الرّقاد رقدت، ولا أخلق وجَهْي بمسْألتهم؟ أما سمعت هذا الطائيّ يقول: [البسيط]

وما أبالي وخيرُ القوم أصدقُه ... حَقَنْتَ لي ماء وجهي أو حقنْتَ دمي

فقلت له: أنا قائل هذا الشعر، قال: أئنّك لأنت الطائي! قلت: نعم، قال: لله أبوك، أنت الذي تقول: [البسيط]

ما جودُ كفّك إنْ جَادَتْ وإن بخلت ... من ماء وجهي إذا أخلقتَه عِوَضُ

قلت: نعم، قال: أنت أشعر أهل زمانِك.

ونُمِي خبره إلى ابن أبي داود فأوصله إلى الواثق، فأعطاه ألف دينار، وأخذ له من أهل الدولة ما غَنِيَ به عَقِبُه بعده.

وهذا الخبر خرج عن أبي تمام، فإن كان صادقاً وما أراده، فقد أَحسن الأعرابيّ الوصف، وإن كان صنعه فقد قَصَّر إذ منزلته أَكبر من هذا.

* * *

قوله: أَغرب، أَي أَكثر الضحك حتى دمعتْ عيناه. المنهمك: المبالغ الطرب. العق العَسَل ولا تسَلْ، معناه إن طابَ لك الكلام فاحفظْه ولا تسل عن صدقه ولا باطله، كما إذا وجدت العسل حلواً فلا يلزمك السؤال عن نَحْله وقد قال فيما مضى: [المتقارب]

* ولا تسأل الشَّهد عن نَحْلِهِ *

فهذا هو ذلك أُسهِب: أبالغ وأكثر. ذي النَّشب: صاحب المال يغضي: يتغافل. المستجهل: الذي يحسَبُني جاهلاً. الممهل: المؤخّر، وقد أمهله أي أخّره. صه: معناه اسكت. القُرْص: الخبز، وتسمُّى الخبزة قرصة؛ لأن الخابز يقرصُها من العجين، أي يقطعها.

[الكامخ]

والكامخ: شيء يصنع من اللَّبن الحامض، وهو أنواع.

وقد قُدِّم لأعرابيٍّ كامخ، فقال: ما هذا؟ قالوا: كامخ، فقال: قد علمت فأيُّكم كمخ به؟ يقال: كمخ البعير إذا أخرج ثَلَطه رقيقاً.

وقُدِّم لأعرابيِّين كامخ، فذاقَه أحدهما، فلم يستطبْه، فقال: هذا خرء، وذاقه الآخر فاستطابه، فقال: يوشك أن يكون خرء الأمير!.

وقدِّم لأعرابيّ كامخ فلم يستطبْه قال: ما هذا؟ قالوا كامخ، قال: ومن أيّ شيء صُنع هذا؟ قالوا: من الحِنْطة واللّبن قال: أبوان كريمان: وما أنجَبا.

وقُدِّم لأعرابي كامخ، فلم يستطِبْه، وأكل منه شيئاً وخرج، ودخل المسجد والإمام في الصلاة يقرأ: ﴿**حُرِّمَتْ عليكم الميتة والدَّمُ ولَحْمُ الْخِنزير**﴾ [المائدة: ٣]، فقال الأعرابيّ: والكامخ لا تَنْسه أصلحك الله!.

وقيل: هو طعامٌ يؤتدَم به.

وقيل: هو البقل في الطعام مثل الكبر والزّيتون والمريء والعنّاب إذا غلب طخاء الشحم على المعدة، أخذ الرَّجُل منه شيئاً، فانجلى عن معدتِه، وتنشَّط للأكل.

وقال أعرابي يصف إبطيه بالنَّتَن: [الرجز]

كأن إبْطيّ وقد طال الْمَدَى ... نفحة خُرْءٍ من كَوامِيخ الْقُرَى

الأصمعيّ: قدم علينا أبو طَيْبَة الأعرابيّ بعد ما خرج إلى البادية، وتفقّه، فقلنا له: ما قولك في البَيْض؟ قال: حرام، فقلنا: ولم؟ قال: لقوله تعالى: ﴿**وَعَلَى الَّذِين هَادُوا**

حَرَّمْنا كلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾ [الأنعام: ١٤٦] والدجاج عندي من ذوي الأظفار. قلنا: فما قولك في الكامخ؟ قال: حرام، قلنا: ولم؟ قال: لقوله تعالى: **﴿خُلقَ الإنْسَان منْ صَلْصَالٍ كَالْفُخَّار﴾** [الرحمن: ١٤]، والكامخُ يتخذ من الفخار، فأظنُّ بينه وبين الجلْد نسبا.

قوله: وافقه، معناه افهم. راسخ: ثابت. المكثرين: الأغنياء طوْد سوْدده: ارتفاع سيادته. والطَّوْد: الجبل. شامخ، أي ثابت مُرتفع وقال النبي ﷺ «يأتي على النَّاس زمان مَنْ لم يكن معه فيه أصفَرُ وأبيض لم يتمن العيش» ـ يعني الذهب والفضة.

وقال مهيار الديلميّ: **[المتقارب]**

تشرف بحظٍّ فإن الحظوظَ ... حُلَى كلِّ ذي نسبٍ يفضُلُ

وما الحظّ في أدبٍ مُفْصحٍ ... وَمِنْ دونه نسبٌ مُجهلُ

تُراضِي الفتى رتبة وهو حيـ ... ـث يجعلُه ماله يُجْعَلُ

وقال ابن قاضي ميلة: **[الكامل]**

أسْعد بجدِّك لا تكونُ أديباً ... أو أن يرى فيك الورى تَهْذِيبا

إن كنتَ مستوياً ففعلك كلُّه ... عِوجٌ، وإن أخطأت كنت مصيبَا

كالنَّقش ليس يصحُّ معنى خَتْمِه ... حتَّى يكون بناؤه مقلوبَا

قوله: لَهْجتي، أي منطقي، وقيل: هي جَرْس الكلام، وقيل: هي طَرَف اللسان، وفلان فصيح اللَّهجة، وهي لغته التي جُبِل عليها فاعتادها ونشأ عليها. استنارة: ظهر نُورِها.

* * *

وسِرْنا لا نَألُو جُهْداً، ولا نستفيق جَهْداً؛ حتَّى أدَّانا السَّير، إلى قريةٍ عَزَبَ عنها الْخَيْرُ، فدخلناها للارْتِيَاد، وكِلاَنَا مُنْفِضٌ من الزّاد؛ فما إنْ بَلَغْنَا المَحطّ، والمناخَ المُخْتَطّ، أو لَقِينَا غلامٌ لم يبلُغ الْحِنْث وعلى عاتقه ضِغْث. فحيَّاه أبو زيدٍ تحيَّة المُسْلم، وسأله وَقْفَةَ المُفْهِم، فقال: وعمَّ تسأل وفّقك الله؟ قال: أيُبَاع ها هنا الرُّطَب بالْخُطَب؟ قال: لا والله. قال: ولا الْبَلَحُ بالمُلَح؟ قال: كلاً والله، قال. ولا الثَّمر بالسَّمَر؟ قال: هيهات والله. قال: ولا الْعَصائد بالقصائد؟ قال: اسْكُتْ عافاك الله. قال: ولا الثَّرائِدُ بالفرائد؟ قال: أين يُذهبُ بِكَ أَرْشَدَكَ الله! قال: ولا الدَّقيق بالمعنى الدَّقيق؟ قال: عَدِّ عن هذا أصلحك الله!.

* * *

نألو: نقصّر. جهداً: طاقة واجتهاداً. نستفيق جُهْداً: نستريح من المشقة أدَّانا:

أوصلنا. والقرية: في كلامهم: الموضع الَّذي يجتمع الناس فيه، وقَرَيْتُ الماء في الحوض جمعتُه فيه. وعَزَب: بَعُد للارتياد: لطلب ما يُؤكل مُنْفِض: فارغ، وأنْفَضَ: فنِيَ زادُه فنفض مِزْودَه من الفُتات. المحطّ: المنزل الّذِي تُحَطّ فيه الأحمال. والمناخ: مثله في المعنى. والمُختطّ: المُعْلَم عليه بخطّ، وكلُّ موضع أردتَ حمايتَه ومنعَه خَطَطْتَ عليه بخطّ، فمن رآه علم أنه محميٌّ فاجتنبه. الْحِنْث: الإثم، أي لم يبلغ حَدَّ التكليف، وهو الحلم فيكتب عليه إثم. على عاتقه ضِغْث، أي على عُنُقه حزمة حَشيش، والعاتق: ما بين المنكِب والعنُق، والضِّغْث قبضةٌ من أخلاط النبات أو من قُضْبَان مختلفة المُفْهِم: المخبر المبين. أيباع هاهنا الرُّطَبُ بالخُطَب؟ الرُّطب والبلح نوعان من التَّمر. والسَّمَر: السهر باللَّيل على الحديث. هيهات، أي بعد.

ابن عباسٍ رضي الله عنهما: ما باع الدقيق برٌّ ولا فاجرٌ إلاَّ اصفرّ لونُه وقسا قلبُه، ونُزِعت الرَّحمةُ من قلبه.

الفرائد: جواهر الكلام. أين يذهب بك: أين تتلف وتضلُّ! ولذلك دعا له، فقال: أرشدك الله، أي هداك الطريق. عَدّ: كُفَّ واصْرِف.

* * *

واسْتَحْلَى أبُو زيدٍ تَراجُعَ السُّؤالِ والجوَابِ، والتَّكَايلَ مِنْ هذا الْجِرَاب. ولَمحَ الغلام أن الشَّوْطَ بَطِين، والشَّيْخَ شُوَيْطِين، فقال له: حسبُك يا شيخُ قد عَرَفْت فنَّك، واسْتَبَنْتُ أنَّك، فخذ الجوابَ صُبرَة، واكْتفِ به خُبْرَة؛ أمَّا بهذا المكانِ فلا يُشْتَرى الشِّعْرُ بشَعِيرة، ولا النَّثْر بُنثارَة، ولا الْقَصَصُ بقُصاصة، ولا الرِّسالة بغُسَالة، ولا حِكَمُ لُقْمان بِلُقْمة، ولا أَخْبَارُ الملاحِم بِلَحْمة. وأما جيلُ هذا الزمان، فما منهم من يَمِيح، إذَا صِيغَ لَهُ الْمَدِيح، ولا مَنْ يُجيز، إذا أنشِد له الأَرَاجيز، ولا مَنْ يُغيث، إذَا أَطْرَبَهُ الْحَدِيث، ولا مَنْ يَمِير، ولو أنَّه أمِير وعندَهم أن مثلَ الأدِيب، كالرَّبع الجديب، إن لَمْ تَجدِ الرَّبعَ دِيمة، لم تكن له قِيمة، ولا دَانَتْه بَهِيمة. وكذلك الأدَب، إنّ لم يَعْضُدْه نَشَب، فَدَرْسُه نَصَب، وخَزْنه حَصَب. ثم انْسَدَرَ يَعْدو، وولَّى يَحْدُو.

* * *

لمح: نظر. الشَّوْط: الطلَق والجرْي إلى الغاية: الأخفش الشَّوْط أن تأتِيَ إلى موضعٍ تريده، ثم ترجع وإن رجعت إليه مَرَّة أخرى، فذلك شَوْطٌ آخر، ومن الحَجر إلى الحجرِ شَوْط: وجَرَى الفرسُ شوطاً إذا بلغ مجراه ثم عاد. بَطِين: متَّسِع، ومعناه: علم أن كلام الشيخ كثير، ورجل بطين: عظيم البطن، وكيس بطين، أي ملآن، وأخذه من قول كعب بن زهير: **[المتقارب]**

وَزَخْـزَخْـنَ بـيـن أداني الـغـضـى ... وبـيـن عُـنَـيْـزَة شـوطـاً بَـطِـيـنـا[(١)]

شُويطين، أي دويهية لا تقاوم، وتصغيره بمعنى التعظيم. حسبك: يكفيك. فنّك: نوعك وطريقك. استبنت أنّك، أي تحققت أنك داهية: صُبرَة: أي جملة بغير كيل، وكَدْسُ القمح، وما يكال يُسمَّى صُبْرَة. أكتف: اقتنع خبرة: اختبار النثر: ضد النظم مثل التراسل والخطب. والنُّثار: ما تناثر من الشيء، أي تفتّت، تقول: نثرت الشيء أي رميتُ به مُفْتَرَقاً، واسم ما يتساقط منه النُّثارة. والقَصَص: أخبار المتقدمين. والقُصَاصة: ما تساقط من الشَّعرِ إذا قُصَّ. والغُسالة: الماء الذي قد غُسِل به بقيَّة الطعام أو غير ذلك ويروى: «بفضالة»، مكان غسالة، والفُضَالة من الزرع إذا غُرْبِل تبقَّى في الغربال فتدرَس بعد ذلك، ويخرَج ما فيها من الزَّرْع.

وأنشد الْفَنْجَدِيهيّ في هذه المعاني: **[الطويل]**

عرضت على الخبَّاز نحوَ المبرَّدِ ... وكُتْباً حِساناً للخليل بن أحمدِ
ورؤيا ابن سيرينٍ وخَطُّ مهلهلٍ ... وتجويد عمرٍ وبَعْدَ فقه محّمدِ
وأنشدته شعر الكُمَيْتِ وجَرْوَلٍ ... وغنَّيْتُهُ لحنَ الْغَريضِ وَمَعْبَدِ
فما نفعتْنِي دون أن قلتُ هاكها ... مدوّرة صُفْراً تطنّ على اليدِ

وقال أخبرني أبو المحاسن بن أبي العلاء بن محمد الأديب، قال: أنشدنيه لنفسه أبو يوسف بن محمد يعقوب الأديب.

[لقمان عليه السلام]

قوله: ولا حكم لقمان بلقمة، في لقمان سَبْعَةُ أقوال:

قال قتادة: خيَّره الله بين النبوّة والْحِكْمة، فاختار الحِكْمَة، فقذفها عليه جبريلِ، وهو نائم، فأصبح ينطق بالحكمة، فسئِل عن ذلك، فقال: لو أرسل الله إليّ النُبوّة عزمةً، لرجوتُ الفوز بها، ولكنَّه خيَّرَني فخفت أنْ أضعُف عن النبوّة.

وقيل: كان من النُّوبة قصيراً أَفْطَس الأنف.

وقيل: كان حبشيًا.

سعيد بن المسيّب: كان أسود من سُودان مصر، ذا مِشْفَرٍ، حكمتُه حكمة الأنبياء.

---

(١) يروى البيت:

وبـصـبـصـن بـيـن أداني الـغـضـا ... وبـيـن عـنـيـزة شـأواً بـطـيـنـا

وهو لكعب بن زهير في ديوانه ص ١٠٢، ولزهير بن أبي سلمى في أساس البلاغة (بطن)، وليس في ديوانه وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٣٦١، وتاج العروس (بصص)، (بطن)، ولسان العرب (بصص)، (بطن).

وقيل: كان خياطاً.

وقيل: كان راعياً؛ فرآه رجلٌ كان يعرِفه قبل ذلك، فقال: ألستَ عبد بني فلان كنت ترعى بالأمس؟ قال: بلى؟ قال: فما بلغ بك ما أرَى، قال: وما يُعْجِبك من أمري؟ قال: وطء النَّاس بساطَك، وغشيهُم بابَك؟ ورضاهم بقولك؛ قال؛ يا بن أخي، إن صنعتَ ما أقولُ لك كنتَ كذلك، قال: وما تَصْنَع؟ قال غضّ بصري، وكفّ لسانِي، وعفّة طمعي، وحفظ فَرْجِي، وقيامي بعَهْدِي، ووفائي بوعْدِي، وتكرِمة ضيفي، وحفظ جاري؛ وترك ما لا يعنيني؛ فذلك الَّذِي صَيَّرَني كما ترى.

ويروى أنه قال: قَدَرَ الله وأداء الأمانة وصدق الحديث وترك ما لا يعنيني.

أنس رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «الحكمة تزيد الشريف شرفاً، وترفع المملوكَ حتى يجلسَ مجالس الملوك، قال الله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الحِكْمَةَ**﴾» [لقمان: ١٢].

وقال الإمام أبو إسحاق أحمد بن محمد إبراهيم الثعالبيّ المفسّر: اتفق العلماء على أنّ لقمان كان حكيماً، ولم يكن نبياً، إلا عكرمة فإنّه تفرّد بأنه نبيّ.

ابن عمر رضي الله عنهما: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «حقاً أقول، لم يكن لقمان نبياً ولكن كان عبداً صَمْصَامَة، كثير التفكّر، حسن اليقين، أحبَّ الله فأحبّه، ومنَّ الله عليه الحكمة».

وهب بن منبّه: كان لقمانُ ابن أخت داود عليه السلام، وقيل: ابن خالته، وكان في زمنه، وكان داود يقول له: طوبى لك! أُوتيتَ الحكمة، وصرفتَ عنك البلوى، وأُوتيَ داودُ الخِلافَة وبُلِيَ بالبليَّةَ، وكان داود يَغْشَاه ويقول: انظروا إلى رجلٍ أوتي الحكمة، ووُقِيَ الفتنة.

عبد الوارث: أوتي لقمانُ الحكمة في قالةٍ قالها، فقيل: وهل لك أن تكون خليفة فتعمل بالحقّ؟ فقال: إن تختر لي فسمعاً وطاعة، وإن تخيِّرني أختار العافية فقيل: وما عليك أن تكون خليفة فتعمل بالحق؟ قال: فإن أعمل بالحقّ فبالحري أن أنجُو، وإن أخطىء الحق أخطىء طريق الجنَّةِ، وإنه مَنْ يبع الآخرة بالدنيا يخسرْهما جميعاً، وأن أعيش حقيراً ذليلاً أحبُّ إلي مِنْ أن أعيش قويّاً عزيزاً. فشكر الله تعالى مقالتَه، فغطّه في الحكمة غَطّة فأصْبَح وهو أحكم الناس.

وقيل: كان عبداً نجّاراً فقال له سيِّده: اذبح شاةً وأتني بأطيب مُضغَتَيَن، فأتاه بالقلب واللسان، ثم أمره بمثل ذلك، وأن يُخْرِج أخبثَ مُضْغتين، فأخرج القلب واللسان، فقال له: ما هذا؟ فقال: ليس شيء أطيبُ منهما إذا طابا، ولا أخبثُ منهما إذا خَبُثَا.

وأما حكمتُه فقد ذكر الله تعالى منها في كتابه ما عُلم، وذكر مالك في مُوَطَّئِه منها كلاماً كثيراً، وذكر منها فصلاً في كتاب الجامع من الموطأ.

ومن حكمته: يا بنيّ إنَّ الناس قد تَطاول عليهم ما يوعدون، وهم إلى الآخرة سِرَاعاً يذهبون، وإنّك قد استدبرت الدنيا منذ كنت، واستقبلتَ الآخرة، وإن داراً تسير إليها أقربُ من دارٍ تخرج منها. يا بنيّ ليس غنًى كصِحّة، ولا نعيمٌ كطيبِ نفسٍ. يا بُني لا تجالس الفُجّار ولا تماشِهم؛ اتّق أن ينزل عليهم عذابٌ من السّماء فيصيبك معهم، وجالس العلماء وزاحمهم بركبتيك، فإن الله تعالى يُحيي القلوب الميّتة بالعلم، كما يُحيي الأرض بوابل المطر.

أبو إسحاق الثعالبي بإسنادٍ له عن عكرمة. قال: كان لقمان مِنْ أهون مماليك سيّده عليه، فبعثه مولاه مع عبيدٍ له إلى بستانه يأتونه بشيء من ثمرٍ فجاؤوه وما معهم شيء، وقد أكلوا الثَمَر، وأحالوا على لقمان، فقال لقمان لمولاه: ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً، فاسقني، وإياهم ماء حميماً ثم أرسلْنا لنعدو ففعل فجعلوا يتقيؤون تلك الفاكهة ولقمان يتقيَّأ ماء، فعرف مولاه صدقه وكذبهم.

قال: وأوّل ما عُرِف من حكمته أنه كان مع مولاه؛ فدخل مولاه المبرّز فأطال فيه الجلوس، فناداه لقمان: إنَّ طول الجلوس مع الحاجةِ ليَجع منه الكبد، ويُورِث الباسور، ويصعد الحرارة إلى الرأس، فاجلس هوينًى، قال: فخرج وكتب حكمتَه على باب الحُش.

قال: وسكر مولاه يوماً فخاطر قوماً أن يشرب مَاءَ بُحَيرة، فلمّا أفاق عَرَف ما وقع فيه، فدعا لقمان فقال له: لمثل هذا كنت اختبأتُك، فقال لمولاه: أخرج أباريقَك ثم اجمعهم؛ فلما اجتمعوا قال: على أيِّ شيء خاطرتموه؟ قالوا: على أن يشرب ماء هذه البُحَيرة. قال: فإن لها موادّ فاحبسوا عنها موادّها، قالوا وكيف نستطيع ذلك! قال لقمان: كيف يستطيع هو أن يشربَها ولها موادّ!.

وأراد مولاه بيعَه. فقال: يا مولاي إن لي عليك حقاً فلا تبعْني إلاّ ممَّن أُحِبّ، قال: لك ذلك، فكان الرَّجل إذا جاء يستامه قال: لأيِّ شيء تريدني؟ فقال أحدهم: تحفظ عليّ بابي. قال: اشترِني، فلما جنَّه الليل أغلق الباب، وقام يصلّي في الدهليز. وكان لبنات الرجل أخلاّء فجاؤوا فضربوا الباب، فقلن: يا لقمان، افتح الباب، فقال: بأبي أنتنّ وأميّ! ليس لهذا اشتراني أبوكّن، فضربْنَه ضرباً كِدْنَ أن يأتين منه على نفسه، فلما أصبح لم يخبر أباهنّ، فلما كانت الليلة الثانية عاودْنه بمثل ذلك، فلما أصبح لم يخبر أباهنّ، فلما كانت الليلة الثالثة عاودْنه بمثل ذلك. فلما أصبح لم يخبر أباهنّ فأقبل بعضهنّ على بعض فقلن: ما جعل الله هذا العبد الأسود أولى بهذا الخير منا، قال: فنسكنَ نسكاً لم يكن في بني إسرائيل أفضلُ منهنّ.

عبد الله بن دينار، قال: قَدِم لقمان من سفرٍ، فاستقبله غلام له في الطريق، فقال له

لقمان: ما فعل أبي؟ قال: مات، قال: الحمد لله ملكتُ أمري، قال: ما فعلت أمي؟ قال: ماتت، قال الحمد لله، ذهب هَمِّي. قال: ما فعلت امرأتي؟قال: ماتت، قال الحمد لله جدِّد فراشي، قال: ما فعلت ابنتي؟ قال ماتت، قال: الحمد لله سُتِرَتْ عورتي، قال: ما فعل ابني؟ قال مات، قال: إنا لله وإنَّا إليه راجعون، انقطع ظهري!.

وقيل له: ما أقبح وجهك! قال: أتعيب عليّ هذا النَّقشِ أم على النقاش!.

وقال النبي ﷺ: «سادة السودان أربعة: لقمان والنجاشي وبلال ومهجَع».

وثَمَّ لقمانُ آخر وهو لقمان بن عاد، وهو تذكره العرب في أخبارها، وكان أيضاً حكيماً، وكانت له أخت محمّقة فقالت لامرأته: هذه ليلة طهوري، فهبي لي ليلتك، طمعاً في أن تعلق من أخيها ينجيب، ففعلت فولدت لُقَيْم بن لقمان، وفيه يقول النَّمِر بن تولب: **[المتقارب]**

لُقَيْمُ بنُ لقمانَ من أُختِهِ ... فكانَ ابنَ أختٍ له وابْنَمَا[1]

وقال المسيّب يذكره: **[الكامل]**

أنتَ الرّئيس إذا هُم نزلُوا ... وتواجَهوا كالأسد والنَّمِرِ

ولأنت أبيَن حين تنطق مِنْ ... لقمان لَمَّا عيّ بالفكَرِ

وقالت بنت عثمان بن وثيمة ترثي أباها: **[مجزوء الكامل]**

الوَاهب المائة التِّلا ... دَلَنَا وَيَكْفِينا العَظِيمَهْ

والدَّافع الخصم الألـ ... ـدَّ إذا تفوضح في الخصومهْ

بلسان لقمان بن عا ... د وفَضْل خطبته الحكيمه

ألجمتهم بعد التجا ... ذُب والتَّدافع في الحكومه

* * *

قوله الملاحم: مواضع الحروب التي تَلْتَحِم فيها الجموع، وتختلط عند القتال وتسمَّى أخبار الوقائع والحروب ملاحِم. جيلُك: أهل عصرك. الأوان: الحِين والعصر. يميح: يعطي معروفاً؛ ويحتمل أن يريد يسقيك ماء، والمائح: النازل في قَعْر البئر، يخرج ماءها، وقد ماح الماءَ، إذا استقاه. صِيغ: صُنِع. يُجِيزُ: يُعطي الجائزة. يُغِيثُ: يتكرَّم ويجود، وهو من الغيْث. يَمير: يُعطي الميرة، والميرة: الطعام المجلوب. والرَّبْع: المنزل. الجديب: الذي لا يمطر، ديمة: مَطَر دائم. دانته: قاربته. يعضِّده:

---

(١) البيت في ديوان النمر بن تولب ص ٣٨٣، والبيان والتبيين ١/ ١٨٤، وتخليص الشواهد ص ٢١٣، ٢٢٢، والحيوان ١/ ٢٢، ولسان العرب (حمق)، (قلم)، والمقاصد النحوية ١/ ٥٧٥، وهو بلا نسبة في سمط الآلي ص ٧٤٣.

يقوّيه. نَشَب: مال نَصَب: تعب. حزبه: أهله، والحصَب: وهو الحطب الملقى في النار، وكلّ ما تطعمه النار فهو حَصَب، وهو من حَصَبْتُه بالحصباء، أي رميته بها، انْسَدَر: جرى وانصبَّ في جريه، وانسدر البازي، إذا انحطّ. يَعْدو: يسرع. يحدو: يتابع الجري، وكل شيء اتبعته فقد حَدَوْتَه.

* * *

فقال لي أبو زيد: أعلِمْتَ أنّ الأدب قَدْ بَارَ، وولّتْ أنصارُه الأدْبار؛ فبؤتُ له بِحُسْنِ البَصيرة، وسلّمتُ بحكم الضَّرورة، فقال دَعْنا الآن من المِصَاع، وخُضْ في حديث القِصَاع، واعلم أنّ الأسْجَاع، لا تُشبعُ مَنْ جَاع؛ فما التدبير فيما يُمسكُ الرَّمَق، ويُطفِىء الحَرَق؟ فقلت: الأمرُ إليك، والزِّمام بيديْك، فقال: أرى أن ترهنَ سيفك، لتُشْبع جوفَك وضَيْفَك، فناوِلْنيه وأقِمْ، لأنقلب إليك بما تَلْتَقِم.

فأحسنت به الظّنّ، وقلّدته السَّيْفَ والرّهْن، فما لبث أن ركب النّاقة. ورفض الصِّدْقَ والصَّداقة؛ فمكثتُ مليّاً أترَقَّبُهُ، ثمّ نهضت أتعقّبَهُ؛ فكنتُ كمن ضيّع اللّبنَ في الصَّيف، ولم ألقَه ولا السَّيْف.

* * *

بَارَ: هَلَك. ومنه بار الطعام؛ إذا كسد، وفي الحديث: «نعوذ بالله من بَوْر الأيّم»[1]، أي من كسادها، وقال الله تعالى: **﴿يَرجَوْنَ تجارةً لَنْ تَبُور﴾** [فاطر: ٢٩]، أي لن تَكْسَد، وقال تعالى: **﴿وكُنتُم قَوْماً بُوراً﴾** [الفتح: ١٢] أي هالكين. قال الفرّاء: البُور يكون للمذكر والمؤنث والاثنين والجمع بلفظ واحد، أبو عبيدة رحمه الله: هو جمع بائر كعائذ وعُوذ، ويدلّ على صحة قول الفراء قوله ابن الزِّبَعْرَى: **[الخفيف]**

يا رسولَ المليكِ إنَّ لساني ... راتقٌ ما فتقْتُ إذ أنا بُورُ[2]

بؤت: رجعت. البصيرة: اليقين والاعتماد الصحيح، المِصاع: مراجعة الكلام. والمصاع فى الأصل: القتال والدفاع وكلّ ما عانيته بشدّة وجدّ فقد ماصعته، القِصَاع في الأصل: صحاف الطعام، الأسجاع: الكلام المفقّر. الرَّمَق: بقية النفس. والحُرَق: جمع حُرقة، وأراد بطفْء الحُرَق تسكينَ ألم الجوع، ما لبث: ما أقام ولا استقرّ. رَفَضَ:

---

(١) رواه ابن الأثير الجزري في النهاية في غريب الحديث ١/ ١٦١.

(٢) البيت لعبد الله بن الزبعرى السهمي في ديوانه ص ٣٦، ولسان العرب (بور)، والمخصص ٣/ ٤٨، ٧/ ٣٠، ٣١١، ١٤/ ٣٣، ومقاييس اللغة ١/ ٣١٦، ولعبد الله بن رواحة في ديوانه ص ٩٥، ولأحد الاثنين في تاج العروس (بور)، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٣٣٠، وتهذيب اللغة ١٥/ ٢٦٧.

تركَ. الصدق: قول الحقِّ، والصَّداقة: الصحبة، مكثت مليّاً: أقمت زماناً. أترقبه: أنتظر مجيئَه. أتعقّبه: أمشي في أثره وأطلبه.

[قصة المثل: ضيّع اللبن في الصيف]

وضيَّع اللبن في الصيف، مثل يُضرب لكل مَنْ ضَيَّع أمره، ثم تعرّض لاستدراكه بعد فوته، قاله عمرو بن عُدَس التّميميّ، وكان تزَوَّج دَخْتنوس بنت لقيط بن زُرارة ـ وكان شيخاً مُسنّاً ذا مال كثير ـ فأبغضتْه بسببِ كِبَره وسألته طلاقها، فطلّقها وتزوجها عمير بن مَعْبَد بن زرارة ـ وكان شاباً معدِماً ـ فبينما هو معها جالس إذ مرّت بهما إبل عمرو بن عمرو بن عُدَس كالليل لكثرتها، فقال لها عمير: ابعثي إلى عمرو يعطيك لبناً أو حلوبة، فأرسلت إليه رسولاً بذلك، فقال لرسولها قل لها: الصَّيْفَ ضيَّعتِ اللبن، فلما بلغها ذلك ضربتْ على كتف ابن عمها، وقالت: هذا ومذقهُ خير، فيريد أنه طلقها في الصَّيْف فضاع لبنُها في ذلك الوقت، وقال في الدرّة: خصَّ الصَّيْف بالذّكر لأنها كانت سألته الطّلاق فيه، فكأنها يومئذ ضيَّعت اللبن. والله أعلم.

المقامة الرابعة والأربعون

وتعرف بالشّتوية

حَكَى الحارثُ بن همام قال: عَشَوتُ في ليلةٍ داجيةِ الظُّلَم، فاحِمة اللِّمَم، إلى نارٍ تُضْرَمُ على عَلَم، وتُخْبِرُ عَنْ كَرَم، وكانت ليلةً جَوُّها مَقْرورٌ وجَيْبُها مَزْرور، ونجمُها مَغْمُومٌ، وغيْمُها مَرْكوم وأنا فيها أصرَدُ مِنْ عَيْنِ الحْرباء، والعنز الجرباءَ، فلم أزل أنُصُّ عَنْسِي، وأقول: طوبى لَكِ ولنفسي، إلى أن تبصّر الموقِد آلِي، وتبيَّن إرقَالي، فانحدرَ يَعْدُو الجَمْزَى، ويُنشدُ مُرْتَجِزاً!.

* * *

دَاجية وفاحمة: شديدة السّواد. واللِّمَم: جمع لِمة، وهي جُمّة الشعر التي ألَمَّتْ بالمنكب، أي قاربته. وجعل للّيلة لِمَّة مجازاً، وهو يريد شدّة سوادها، تُضْرم: توقُد. علم: جَبَل. جَوُّها: ناحية سمائها. مَقرُور: بارد. وأراد أنّ ما يجيء من جوّها من الريح والهواء بارد جداً. مَزرُور: مشدود بالأزرَار، وهي أطواق الثّياب، وهذا يكون في طوق الصّغير يُشَقّ في صَدْر الثّوب عوضاً عن الجيب، ويترك من الطّوق طرفان على ذلك الشق، فإذا لبس الثوب شدّ الطرفين، فيقال عند ذلك: قد زرّرتُ الثوب، يريد أن السحاب قد تكاثف في تلك الليلة، فلا تبصر العين فيها لشدة ظلامها، لأن الثوب إذا شددتَ أزراره، لم يجد رأسُ الإنسان من أين يَخْرج، فلما جعل لليلته ثوباً من الظلام والسحاب جَعَلَهُ مربوطاً مشدوداً مغموماً مستوراً، غيمها: سحابها، مركوم، أي متراكِب بعضه على بعض، أنصُّ عَنسي، أي أجهد ناقتي وأتعبها، والنّصّ رفع السير، وقالت أم سَلَمة لعائشة رضي الله عنهما: ما كنتِ قائلةً لو أن رسول الله ﷺ عارضك ببعضِ الفلوات ناصّة قَلوصاً من منهل إلى آخر، ومنه نصّ الحديث إلى فلان، أي رفعه إلى شخص. وإرقالي: سُرْعتي. يعدو: يُسْرِع. الجَمْزى: عدوٌ شديد. [الرجز]

* * *

حُيِّيتُ من خَابط ليل سَارِي هَدَاه بل أهداهُ ضوءُ النّارِ
إلى رحيب البَاع رَحْبِ الدارِ مُرَحِّبٍ بالطّارِقِ المُمْتارِ
تَرْحابَ جَعد الكفّ بالدِّينارِ ليس بمزورٍّ عن الزُّوار
ولا بِمعتامِ القِرى مِئخارِ إذا اقْشَعَرَّتْ تُرَبُ الأقطارِ

وضــنّــتِ الأنــواءُ بــالأمــطــارِ فــهــو عــلــى بُــؤس الـزّمــان الـضــارِي
جَــمُّ الــرَّمــادِ مُــرْهَــفُ الـشِّـفَــار لــم يَــخْــلُ فــي لــيــلٍ ولا نَــهَــارِ

* مــن نِــحْــر وَارٍ واقــتِــداحِ وَارِي *

* * *

قوله: ساري، أي آتٍ بالليل. والخابِط: الماشي على غير علْم بالطريق. هداه، من الهداية. وأهداه، من الهدية. رحيب الباع: كثير البِرّ. واسع العطاء: واسع البرّ. والرّحب: المتسع. مَرْحَب؛ يقول: مرحباً بك. والطّارق: الآتي بالليل. الممتار: طالب المِيرة، وهي الطعام يُجْلَب من بلد إلى بلدٍ. جعْد الكفّ، هو البخيل أي يرحِّب بالضيف كما يرحِّب البخيل بالدّينار إذا وقع في كفّه.

نظر أعرابيٌّ إلى درهم في يد رجل، وأدام النّظر إليه، فقال له الرجل: لو كان لك ما كنت صانعاً؟ قال: كنت أنظر إليه نظرة ثم تكون آخر عهده باليد.

وكان بعضُ البخلاء إذا وقع الدرهم في يده يخاطبه ويقول له: أنت عَقْلي وديني وصلاتي وصيامي وجامع شملي وقرة عيني وأنسي، وقوتي وعُدَّتي وعمادي ثم يقول له: **[السريع]**

أهــلاً وســهــلاً بــك مــن زائــرٍ كــنــتُ إلــى وجــهــك مــشــتــاقــا

ثم يقول: يا نورَ عيني وحبيبَ قلبي، قد صرتَ إلى من يصونك، ويعرف قدرَك، ويُعظِّم حقَّك، ويراعي قيمتك، ويشفق عليك، وكيف لا تكون كذلك وأنت تعظِّم الأقدار وتعمرُ الدِّيار، وتفتَضُّ بك الأبكار، وتسمو على الأشراف، وترفع الذكر، وتُعلِي القَدْر وتؤنس من الوحشة، ثم يطرحه في الكِيس، ويقول: **[الطويل]**

بنفسي محجوبٌ عن العين شخصُه ومَنْ ليس يخْلُو من لساني ولا قلبي
ومَنْ ذكرهُ حظيٌّ من الناس كلهمُ وأوّلُ حظِّي منه في البعد والقربِ

مُزوَرّ: منقبض. معتام: مؤخر مبطىء. والقرى: طعام الضيف، معناه أنه لا يؤخر طعامه، ويقال: أعتم بإبله إذا أخّر حَلْبها، ومنه العَتَمَة لتأخر وقتها. مئخار: كثير التأخّر. اقشعرّت: انقبضت من شدة البرد.

تُرب: جمع تُربة وهي وجه الأرض. والأقطار: البلاد والنواحي. ضَنَّت الأنواء: بخلت النجوم. وكانوا يستمطرون بها. بؤس: شدة. الضّاري: المعتاد، أي الذي عادته ألاّ يكون فيه غير بؤس. جمّ: كثير، وإذا كثر الرماد كان عن كثرة النار، وكثرة ما يُطبخَ عليها، مرهف: قاطع. اقتداح: ضرب بالزّند. وارٍ: بعير سمين، وورِيَ المخُّ: اكتنز فهو وارٍ، ووريَ الزّند فهو وارٍ، أي مبد للنار.

* * *

ثمَّ تلقاني بمحيّاً حَيِيّ، وصافحني براحة أريحيّ، واقتادني إلى بيت عِشارُه تخُورُ، وأعْشارُهِ تَفُور، وولائده تمور، وموائده تدور، وبأكساره أضيافٌ قد جَلَبَهم جالِبِي، وقُلِّبوا في قَالَبِي، وهم يجْتَنُون فاكهة الشِّتاء، ويمرَحُونَ مَرحَ ذِي الفَتَاء، فأخذتُ مأخذهم في الاصْطِلاء، ووجدت بهم وجدَ الثَّمِل بالطِّلاء.

* * *

مُحَيّاً: وجه. صافحني: واجهني وقابلني. براحة: بكفّ. أريحيّ: كريم يهتزّ للكرم. اقتادني: ساقني. ولائده: خَدَمُه. تمور: تسير وتختلف. بالطعام موائده: جمع مائدة.

أبو عبيد: سُمِّيت مائدة لأنها ميدَ بها صاحبها، أي أُعْطِيَها وتُفُضِّل عليه بها والعرب تقول: مادني فلان يميدني، إذا أحسن إليّ، فكأن المائدة تميد من حواليها مما أُحْضِر عليها، قال رؤبة: [الرجز]

* إلى أمير المؤمنين الممتاذْ[1] *

أي المستعطي غيره، سميت مائدة لأنها تميد بها عليها، أي تتحرّك، وماد الغصنُ يميد: مال، قال الله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنا الأرض رواسيَ أنْ تَمِيد**﴾ [الأنبياء: ٣١]، الجَرْمي يقال: مائدة وميْدة وأنشد: [الرجز]

وَمَيْدَةٍ كثيرة الألوانِ تُصْنَعُ للإخوان والجيرانِ[2]

وذكر القولين أبو محمد في درة الغوّاص وزاد أنه لا يقال لها مائدة إلا أن يُحْضَر عليها طعام، وإلاّ فهي خِوان، واستدلّ بأن الحَواريين لما اقترحوا على عيسى عليه السلام أن يُنْزِل عليهم مائدة، قالوا نُريد أن نأكُلَ منها.

قال: وحكى الأصمعيّ قال: غدوت ذات يوم إلى زيارة صديق لي، فلقيني أبو عمرو بن العلاء فقال لي: إلى أين يا أصمعي؟ فقلت: إلى صديق لي، فقال: إن كان لفائدة أو لعائدة أو لمائدة، وإلاّ فلا، وهذا باب يتسع كثيراً، وسأسوق جملة تأتي على أكثره.

[الكرم وقرى الضيف]

وهذه الحالة التي وصف من إيقاد النار هي التي كان يفعل حاتم، وكان إذا اشتدّ

---

(١) الرجز في ديوان رؤبة بن العجاج ص ٤٠، ولسان العرب (ميد)، وتهذيب اللغة ١٤/٢١٩، وتاج العروس (ميد).

(٢) الرجز بلا نسبة في لسان العرب (ميد)، وتاج العروس (ميد)، وتهذيب اللغة ١٤/٢١٩.

البرد وكَلَب الشتاء أمر غلامه، فأوقد ناراً في يفاعٍ من الأرض، لينظر إليها مِنْ أضلّ الطريق ليلاً فيهتدي إليها، وقال في ذلك: **[الرجز]**

أوقِدْ فإنّ الليلَ ليلٌ قَرُّ ... والريحُ يا موقِدُ ريحٌ صِرُّ[١]

علّ يَرَى نارَكَ مَنْ يمُرُّ ... إن جلبت ضيفاً فأنتَ حُرُّ

ولابن هَرمة في هذا أشعار مُسْتَحْسَنة منها: **[الكامل]**

أغشى الطريق بقبَّتي ورواقها ... وأحُلُّ في قُلَلِ الرُّبا وأُقِيمُ[٢]

إنّ امرأ جعَلَ الطّريق لبيته ... طُنُباً وأنكر حقَّه للئيمُ

وقال مهيار: **[الكامل]**

ضَرَبُوا بمدْرَجَةِ الطّريق قِبابَهُمْ ... يَتَقارَعُون على قِرى الضِّيفان

ويكاد مُوقدها يجُود بنفسه ... حُبّ القِرى - حَطَباً على النِّيران

ولابن هرمة أيضاً: **[الطويل]**

ومستنبحٍ تستكشط الرِّيح ثوبَهُ ... ليسقط عنه وهو بالرَّملِ مُعْصمُ[٣]

عَوَى في سواد اللّيل بعد اغتساقه ... لِيَنْبحَ كلبٌ أو ليفزَع نُوَّمُ

فجاوبه مُسْتَسْمِع الصَّوْت للِقرى ... له عند إتيان الملبين مَطْعَمُ

يكاد إذا ما أبصر الضيفَ مقبلاً ... يكلِّمُهُ من حُبِّه وهوَ أعْجَمُ

وقال بعض المحدثين: **[الكامل]**

ويدل ضيفي في الظّلاَمِ على القِرَى ... إشراقُ ناري أو نُباح كلابي

حتى إذا واجهنه ولقينَه ... حيَّيْنَهُ ببصائص الأذناب

وتكادُ من عِرْفان ما عُوِّدنَه ... من ذاك أن يُفْصِحْن بالتّرْحابِ

ولابن هرْمة في ذلك أيضاً: **[البسيط]**

كيف احتيالي لبسْط الضَّيف من حَصَرِ ... عند الطعام فقد ضاقت به حِيَلِي[٤]

أخاف ترداد قوليَ: «كلْ» فأقطعه ... والسَّكتُ ينزله منّي على البَخَلِ

وقال حاتم: **[الطويل]**

سَلِي الطّارقَ المعتارَ يا أمّ مالكِ ... إذا ما اعتراني بين قِدْرِي ومَجْزَرِي[٥]

---

(١) الرجز في ديوان حاتم الطائي ص ٦٠. (٢) البيتان في ديوان ابن هرمة ص ١٩٤.

(٣) ديوان ابن هرمة ص ٤٩. (٤) ديوان ابن هرمة ص ١٨٢.

(٥) البيتان ليسا في ديوان حاتم الطائي، وهما لعروة بن الورد في ديوانه ص ٧٣.

أيُسْفِر وجهي إنه أوّل القِرى | وأبذلُ معروفي له دون مُنْكَرِي

وقال أيضاً: [الطويل]

أما والَّذِي لا يعرفُ السرَّ غيرُه | ويحيي العظام البيضَ وهي رَمِيمُ[1]
لقد كنت أختار القِرَى طاوي الحشى | محافظة من أن يقال لئيمُ
وإنِّي لأستحيي يميني وبينَها | وبين فِمي داجي الظلام بهيمُ

وقال أيضاً: [الطويل]

أكُفُّ يَدي من أن تنالَ التماسَهَا | أكفُّ صِحَابي حين حاجاتُنا مَعا[2]
أبيتُ هضيمَ الكشحِ مضطرمَ الحَشَى | من الجوع أخْشَى الذمّ أن أتضلّعا
وإني لأستحيي رفيقي أن يَرَى | مكان يَدِي من جانب الزَّادِ أقْرَعَا
وإنّكَ إن أعطيتَ بَطْنَكَ سؤله | وفرْجَكَ نالا مُنْتَهى الذم أجمَعَا

وقال أبو زياد الأعرابي: [الوافر]

له نارٌ تُشَبّ على يفاعٍ | إذا النيران ألْبَسَتِ القِنَاعَا
فلم يكُ أكثرَ الفتيانِ مالاً | ولكنْ كان أرحَبَهم ذِرَاعا

وقال آخر: [البسيط]

لَعَلّ عاراً إذا ضيفٌ تأوَّبني | ما كان عندي إذا أعطيت مجهودِي
جُهْدَ المُقِلّ إذا أعطاك نائله | ومكثرٌ في الغِنى سِيَّان في الجود

وقال آخر: [البسيط]

تركت ضأني تودّ الذئب راعيَها | وأنها لا تراني آخرَ الأبَدِ
الذئب يطرُقُها في الدهر واحدة | وكلّ يوم تراني مدية بيدي

وقال آخر: [البسيط]

وسّع بمدّك ماء اللحم تقسِمُه | وأكثر الشَّوب إن لم يكثر اللّبنُ
وسّع به وتلفَّت نحو حاضِرِه | إنَّ الكريم الَّذِي لم يخله الفطنُ

---

(١) الأبيات في ديوان حاتم الطائي ص ٨٧، والبيت الأول في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ١٧١٥، ولسان العرب (رمم)، والبيت الثاني في لسان العرب (قوا)، وتاج العروس (قوي).

(٢) الأبيات في ديوان حاتم الطائي ص ٦٩، والبيت الأول في أمالي القالي ٢/ ٣١٨، والدرر ٣/ ١٤٤، وشرح شواهد المغني ٢/ ٧٤٤، والبيت الثالث في أساس البلاغة (قرع)، والبيت الرابع في الجنى الداني ص ٦١٠، وخزانة الأدب ٩/ ٢٧، والدرر ٥/ ٧١، وشرح شواهد المغني ص ٧٤٤.

وقال الغنوي: [الطويل]

لِحافي لحافُ الضَّيْفِ والبيتُ بيتُه ... ولم يلهني عنه غَزالٌ مُقَنَّعُ
أحدِّثه إن الحديث من القِرى ... وتكلأ عيني عينَه حينَ يَهجعُ

وقال آخر: [الطويل]

وإنَّا لمشَّاؤون بين رحالِنا ... إلى الضيف منّا لاحفٌ ومُنِيمُ
فذو الحلم منَّا جاهل دون ضَيْفِه ... وذو الجهل منَّا عن أذاه حليمُ

وقال آخر: [الطويل]

سأقدح من قِدْرِي نصيباً لجارتي ... وإن كان ما فيها كِفافاً على أهلي
إذا أنت لم تُشرِك رفيقك في الذي ... يكون قليلاً لم يشارِكْه في الفَضْلِ

ولبعضِ أصحابنا: [الطويل]

وسارٍ تَخَلّى أنجم اللَّيلِ زِينَةً ... ويلبس من ظلمائها ثَوْبَ ثاكل
رفعتُ له ناري فآنس ضَوْءهَا ... كما آنس الظمآن بَرْدُ المناهل
أتانا فحيَّانا فكان جوابُه ... صليلَ شِفار السَّيْفِ في ساقَ بَازِلِ
وما أنا من سؤاله ممّن الفتى ... وتلك سحابا كلّ أطلس بالي
فداك الذي أودى بما اكتسبت يدي ... وإن عاد وفري عُدْتُ غير مواكل

[مما قيل في البخل]

وقال آخر في ضد ما قلناه: [الوافر]

أراني من بني حكَمٍ غريباً ... على قترٍ أزْور ولا أُزَارُ
أناسٌ يأكلون اللّحم دوني ... ويأتيني المعاذِرُ والقَتَارُ

القتر والقطر: الجانب.

وقال آخر: [مجزوء الرمل]

مات في عُرسِ سُلَيْما ... نَ من الجُوع جَمَاعَهْ
مات أقوامٌ وقومٌ ... حملوا فيه القناعَهْ
لم يكن يوجد فيه الخبز ... إلاَّ بشفاعهْ

آخر: [الطويل]

وما تُنْسني الأيام لا أنسَ جوعنا ... بدار بني بَدْرٍ وطولَ التَّلَدُّدِ
ظللنا كأنا بينهم أهلُ مأتمٍ ... على ميِّت مستودع بطنَ مَلْحَدِ

يحدّث بعضٌ بعضَنا عن مصابه ... ويأمر بعضٌ بعضنا بالتجلُّدِ

وفي هذا طرف من قول الآخر: [الطويل]

إذا ما عراكُمْ حادثٌ فتحدثوا ... فإنّ حديث القوم يُنْسي المَصَائبَا

وأهل الحُزْن يستعملون الحديث اشتغالاً عن المصيبة.

وقال بشار: [البسيط]

أبناء عمرٍو لفي خفضٍ وفي دعةٍ ... وفي عطاءٍ لعمري غَيْرِ مَمْنُوعِ

وضيف عمرو وعمرو ساهرانِ معاً ... عمرو لبطنته والضيفُ للجُوعِ

وآخر: [البسيط]

ما كنت أحسب أن الخبز فاكهة ... حتى نزلتُ على قوم بميْسَانِ

قوم إذا حلَّ ضيفٌ بين أظهرِهم ... لم يُنْزِلُوه ودلّوه علّى الخانِ

آخر:

والناس في فِطرٍ سوى شهرهِمْ ... ودهر أضيافك شهر الصيام

آخر:

كتبت له صيفاً فظنّ بأنني ... كتبت له ضيفاً فقام إلى السيف

فقلتُ خيراً فَظَنَّ بأنّني ... ذكرتُ له خبزاً فمات من الخوف

وإن ابن هرمة ألأمُ الناس مع ادِّعائه في شعره الكرم، قال رجل: أتيناه في جماعة من قريش أحببنا أن يتنزه عندنا، ومشينا بزادٍ كثير فخرج علينا، وقال: ما جاء بكم؟ قلنا: شعرك حيث قلت: إن امرأ جعل الطريق لبيته...، وقولك أيضاً [الكامل]

وإذا تنوَّر راكباً مستنبحٌ ... نَبَحت فدلَّته عليّ كلابي

وعوَيْنَ يستعجلنَه فلقينه ... يَضْرَبْنَهُ بَشَراسِفِ الأذناب

وسمعناك تقول: [المنسرح]

كم ناقةٍ قد وجأتُ منْحَرها ... بمستهلّ الشؤبوب أو جَمَلِ

لا أُمْتِع العُوذَ بالفصال ولا ... أبتاعُ إلاّ قريبةَ الأجلِ

فنظر إلينا وقال: ما على وجه الأرض عصبةٌ أسخفُ عقولاً منكم، أما سمعتم قول الله عز وجل: ﴿وأنَّهُمْ يَقُولونَ مَا لا يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٦] في الشعراء، والله أني لأقول ما لا أفعل، وأنتم تريدون أن أفعل ما أقول، والله لا أُغضب ربِّي في رضاكم، فضحكنا منه وأخرجناه معنا يتنزه حتى فَني الزَّاد.

أتى الحطيئة رجلٌ وهو في غنمه، وقال: يا صاحب الغنم، سلام عليك فرفع

الحُطيئة العصا، وقال: إنها عَجْراء من سَلَم، فقال الرجل: إنِّي ضَيف، فقال: للضيفان أعددتُها، فأعاد السّلام، فقال: إن شئتَ قمتَ بها إليك.

ومرّ به ابن حمامة وهو جالس بفناء بيته، فقال: السلام عليكم، فقال: قد قلتَ ما لا ينكَر.

وقال: خرجت من أهلي بغير زاد، قال: ما ضمِنْتُ لأهلك قراك، قال: أفتأذن لي أن آتي ظلَّ بيتك؟ قال: دونك الجبل يفيء عليك، قال: أنا ابن حمامة، قال: انصرف وكن ابن أيّ طائرٍ شئت. يروى هذا عن أبي الأسود الدؤلي.

ونزل الغضبانُ بن القَبعثري خارج كِرمان وهي قرية كثيرة الرّمضاء، فضرب قبّته، فورد عليه أعرابيّ، من بكر، فقال: السلام عليك، قال: السلام عليك كثير، وهي كلمة مقولة، قال الأعرابيّ: ما اسمك؟ قال: آخذ، قال أو تعطي؟ قال: ما أحبّ أن يكون لي اسمان، قال: ومن أين جئت؟ قال: من الذَّلول، قال: وأين تريد؟ قال: أرضنا أمشي في مناكبها، قال: ومن عُرض اليوم؟ قال آل فرعون على النَّار، قال: فمن بُشِّر؟ قال: الصّابرون، قال: فمن غَلَب؟ قال: حزب الله قال: أفتقرض؟ قال: إنما تقرض الفأرة، قال: أفتُسْمِع قال: إنّما تُسمع القينة، قال: أتُنشد؟ قال: إنما تُنشَد الضالة، قال: أفتقول؟ قال: إنما يقول الأمير، قال: أفتسجَع؟ قال: إنما تسجع الحمامة، قال: أفتنطق: قال: كتاب الله ينطق، قال: إنك لمنكر، قال: إني لمعروف، قال: ذلك أريد. قال: وما إرادتك؟ قال: الدُّخول عليك، قال: وراءك أوسع، قال: قد أضرَّتني الشّمس، قال: الساعة يأتيك الفيء، قال: الرّمضاء أحرقت قدميّ، قال: بُلْ عليهما تبردَا، قال قد أوجعني الحرّ، قال: ليس لي عليه سلطان، قال: إني لا أريد طعامك ولا شرابك، قال: أتعرّض بهما؟ والله لا تذوقهما عندي، قال: سبحان الله! قال: قبل كَوْنِك، قال: ما أرَى عندك: قال: هراوة أرزن، أدقّ بها رأسك. فتركه وانصرف.

الأصمعيّ: عذلت أعرابية أباها في إتلاف ماله، فقالت: يا أبتِ، حبْس المال أنفع للعيال من بَذْل الوجه للسؤال، وقد أتلفت التلاد، وبقيت ترقب ما بأيدي العباد، ومن لم يحفظ ما ينفعه يُوشك أن يقع فيما يضرُّه، أخذه ابن المعتز فقال: **[السريع]**

يا ربَّ جودٍ جَرّ فقر امرئٍ ... فقام للناس مقَامَ الذّليل
فاشْدُدْ عُرَا مالك واستبقِه ... فالبخل خيرٌ من سؤال البخيلِ

وقال بعض البخلاء: **[الكامل]**

أعْدَدْتُ للأضياف كلباً ضارياً ... عندي وفضل هراوة من أرْزَنِ
ومَعَاذِراً كذباً ووجْهاً باسرا ... وتشكّيا عضَّ الزمان الألْزَنِ

الألزن: المضيق.

محمد بن الجهم: وددْتُ أنّ عشرةً من الفقهاء، وعشرة من الشعراء، وعشرة من الخطباء، وعشرة من الأدباء، تواطؤوا على ذمي حتى ينتشر ذلك عنهم في الآفاق، فلا يمتدّ إلى أمل آمل، ولا ينبسطُ نحوي رجاء لراجٍ.

وكان يقول: مَنْ وَهب في عملِه فهو مخدوع، ومن وَهَبَ بعد العزل فهو أحمق، ومِنْ وهب في جوائز سلطانه، أو عمل لم يتعبْ فيه فهو مخذول، ومَنْ وهب من كسبه وما استفاد بحيلته فهو المطبوع على قلبه، المختوم على سمعه وبصره.

وقال: مَنْع الجميع، أرضى للجميع، وهذا كقول الأصمعي! لو قسمت في الناس ألف ألف لكان أكثر للأئمى من لو أخذتها منهم، قالوا: ولم يُرد البخل؛ ولكن إذا تعذر عليه أن يعمّ فلا يخصّ.

وقال آخر: قول «لا» يدفع البلاء وقوله «نعم» يزيل النِّعم.

دعبل كنّا يوماً عند سهلِ بن هارون وأطلنا الحديث حتى أضرَّ به الجوع، فدعا بغدائه، فإذا بصحفة فيها مَرَقٌ ولحم ديك، قد هَرِم، لا تحزّ فيه سكين ولا يؤثر فيه ضِرْس، فأخذ قطعة من خبز فنلع بها جميع المرق، وفقد الرأس فبقي مطرقاً ساعة ثم رفع رأسه إلى الغلام وقال: أين الرأس؟ قال: رميتُ به. قال: ولم؟ قال: لم أظنك تأكله، قال: ولم ظَنَنْتَ ذلك؟ فوالله إنّي لأمقت مَنْ يرمي برجله فضلاً عن رأسه، والرأس رئيس الأعضاء وفيه الحواس الخمس، ومنه يصيح الديك، وفيه عيناه اللتان يُضرب بهما المثل في الصفاء، فيقال: شراب مثل عين الديك، ودماغه عجيب لوجع الكلية، فإن كان بَلَغ من جهلك أنني لا آكله، فإنَّ عندنا من يأكله، انظر أين هو؟ قال: والله لا أدري أين رميت به، قال: لكني والله أدري، رميتَ به في بطنك.

ولسهل هذا رسالة مدح فيها البخل وفضَّله على السخاء، ليرى في ذلك بلاغته، وأهداها إلى الحسن بن سهل في وزارته للمأمون فوقع عليها: لقد مدحت ما ذمَّه الله، وحسنت ما قبّح، وما يقوم صلاح لفظك بفساد معناك، وقد جعلنا ثوابك عليها قبول ما فضلت فيها، ونتأدّب فيها بأدبك. ولم يعطه شيئاً.

وقيل: إنَّ الذي أُهْدِي إليه كتابٌ ألّفه، مدح فيه البخل، وذمَّ الجود فوقّع عليه بما تقدم، قال دعبل: **[البسيط]**

صدّق أليته إن قال مجتهداً ... لا والرغيفِ فذاك البَرُّ من قَسَمِهْ

فإن هممتَ به فافتِكْ بخُبزته ... فإن موقعَها من لحمه ودمِهْ

قد كان يعجبني لو أن غيْرتَهُ ... على جُرَادقه كانت على حُرَمِهْ

أبو نواس في البؤبؤ الزنديق: **[السريع]**

لقيت في آل زياد فتًى ... يلقّب البؤبؤ حُلوٌ ظريفْ

ينزل للضيف بنيّاته صيانة منه لِعرْض الرغيف
وإن في النَّيْك لمستمتعاً عند اعتياضِ الخبز للمستضيف

آخر: [مجزوء الكامل]

أمات الرغيف لدى الخوا ن فمن حَمامَات الحَرمْ
ما إن يُحَسُّ ولا يمسُّ ولا يذاق ولا يُشَمّ
فتراه أخضرَ يابساً بالي النقُوش من الهَرمْ

آخر: [الوافر]

أبو نوحٍ دَخلْتُ عَلَيْهِ يوماً فغدَّاني برائحة الطَّعَامِ
وقدم بينَنَا لَحماً سميناً أكَلْنَاهُ على طَبَقِ الكلامِ
فلما أن رفعت يدي سقاني كؤوساً خمرُها ريح المُدَامِ
فكان كمن سقى الظمآن آلاً وكنت كمن تَغَذَّى في المنام

وقال في أبي نوح أيضاً: [مجزوء الرمل]

لأبي نوحٍ رغيفٌ أبداً في حِجْر دايَهْ
فهي تَخمِيه مَدى الدهـ ـر بكمٌ ووقايَهْ
وله كاتب صدقٍ خَطَّ فيه بعنايه
فسيكفيكهم الله إلى آخر الآيَهْ

آخر: [مجزوء الكامل]

استبقِ ودّ أبي المقا تل حين تأكلُ من طعامِهْ
سِيّان كسرُ رغيفِه أو كسرُ عَظْم من عِظَامِهْ
فارفق بكسْرِ رغيفهِ إن كنتَ ترغب في كلامِهْ
وتراه من خَوْف النُّزو ل به يروَّع في منامِهْ

آخر: [الطويل]

خان عَهدِيَ عمرو وما خُنْتُ عَهْدَهْ وجفاني وما تغيَّرْتُ بَعْدَهْ
ليس لي مُذْ حَييتُ ذنبٌ إليه غير أنّيَ يوماً تَغَدَّيْتُ عِنْدَهْ

آخر: [المتقارب]

أبو جعفر رجل عالم بما يُصلح المعدةَ الفَاسِدَهْ
تخوّف تُخْمة أضيافهِ فعوّدهم أكلةً واحدَهْ

أبو نواس: [الوافر]

فتًى لرغيفِه قُرطٌ وشنفٌ ولؤلؤتان من خَرَزٍ وشَذْرِ
ودون رغيفه قلعُ الثّنايا وحربٌ مثل وقعة يوم بَدْرِ
وإن كُسِرَ الرَّغيف بكى عليه بكا الخنساء إذْ فُجِعَتْ بصخرِ

آخر: [الوافر]

رغيف أبي عليّ حلّ خوفاً من الأضياف منزلة السِّمَاكِ
إذا كسروا رغيفَ أبي عليّ بكى يَبْكي بُكاءً فهو باكِ

آخر: [الخفيف]

إنّ هذا الفتى يصون رغيفاً ما إليه لناظرٍ من سبيلِ
هو في قفتين من أدم الطا ئف في سَلَّتَيْنِ في مِنْدِيلِ
في جراب في جوف تابوتِ مُوسى والمفاتيح عند ميكائيلِ

ابن بسام: [المتقارب]

أتانا بخبزٍ له يابسٍ كمثل الدّراهم في خلقتِه
إذا ما تنفَّست عند الخوان تَطَاير في البَيت من خِفّتِهْ

وقال عباس الخياط: [السريع]

رغيفُه النّجم لمن رامهُ يُرى ولا يُطمَعُ في لمسهِ
كأنه في جوفِ مرآتِه يَبْدُ ولا يُطْمَعُ في جَسِّهِ
وفَلْسُه الأمسُ الذي قد مضى بل أمسُه أوجَدُ من فَلْسِهِ

آخر: [الوافر]

رغيف في الحجال عليه قُفلٌ وخَزّانٌ وأبوابٌ منيعهْ
رأى في بيته يوماً رغيفاً فقال لضيفه هذا وديعهْ

اعتلّ أبو هِفّان في منزل ابن أبي طاهر فأبطؤوا عليه بالغداء فقال: [مجزوء الرمل]

أنا في منزلِ خِلٍّ مشفق بي ورفيقي
رجلٌ أعمر من منز له ظهر الطريقِ
ليس لي أكل سوى لحـ ـمِي وشرْبٌ غَيرُ رِيقي

ولجحظة يهجو رجلاً: [الكامل]

لا تعذلوني إن هَجَرْتُ طعامُه خوفاً على نَفْسِي من المأكُولِ

فمتى أكَلْتَ قتلتَه من بخله ومتى قَتَلْت قُتِلْتَ بالمقتول

وله أيضاً يذم بخيلاً: [المتقارب]

تَبَرَّم إذ جئته للسّلام وأبدى لِيَ الكُرهَ لَمّا دَخلتُ

فقلت له: لا يَرُعْكَ الدُّخولُ فوالله ما جئت إلا أكلتُ

أين هذا من قول إبراهيم بن العباس الصوليّ: [الطويل]

لنا إبلٌ كومٌ يَضيق بها الفَضَا وتفترُّ عنها أرضُها وسماؤها

فمن دونها أن تستباحَ دِماؤنا ومِنْ دوننا أن تُسْتَذَمّ دماؤها

حِمًى وقِرًى فالموت دُونَ مَرَامِهَا وأهونُ خَطْبٍ في الحقوق بناؤها

وقوله: [الخفيف]

لا تلومي فإنّ همَّكِ أن تُثْـ ـري وهمِّي مكارم الأخلاقِ

كيفَ يَسْتَطيعُ حفظ ما جمعت كفّا ه مَنْ ذاق لذة الإنفاق

وقوله: [الكامل]

تلجُ الضُّيوفُ بيُوتهم وتَرَى لها عن جار بيتهمُ ازورارَ مَناكِب

وتراهم بسيوفهمْ وشفارِهمْ مستشرفين لراغبٍ أو راهب

حَامين أو قارين حيثُ لقيتَهُمْ نَهْبَ العفاةِ ونُهزةً للرَّاغب

وجلس هارون بن محمد بن الزيات في مجلس عبد الله بن سليمان، فجعل هارون يُنْشد من شعر أبيه محاسنه، فقال له ابن برد الخباز: إن كان لأبيك مثل قول إبراهيم: [الرمل]

أسدٌ ضارٍ إذا ما هجْتَهُ وأبٌ بَرٌّ إذا ما قَدَرا

يعرف الأبعد إنْ أثرَى ولا يعرف الأدنى إذا ما افتقرا

أو مثل قوله: «تلج الضيوف» البيتين فاذكُرهْ وفاخرْ به، وإلا فأقْلِلْ من الفخار والتطاول بما لا طائل فيه، فخجل هارون. وإبراهيم هذا أشعر الكتّاب بلا خلاف.

[مما قيل في القدور]

وذكر الحريريّ القدور، وممن وصفها فأحسن الفرزدق حين قال: [الطويل]

وقد علم الجيران أنّ قدُورَنا ضوامنُ للأرزاق والريح زَفْزفُ[1]

تُفَرّغُ في شِيزي كأنّ جفانهم حياض الملاَ منها ملاء ونُصّفُ

---

(١) الأبيات في ديوان الفرزدق ص ٥٦٠.

ترى حولهنّ المعتفين كأنّهُمْ على صَنمٍ في الجاهليّة عُكَّفُ

وقال أمية بن أبي الصَّلت: **[مجزوء الكامل]**

وكأنها بفنائه للضيف مترعة زواخرْ(1)

وكأنّهنَّ بما شحنّ وما حمين به ضرائرْ

زبد وقرقرة كقر قرة الفحول إذا تُخاطِرْ

وقال النابغة في مثله: **[الطويل]**

له بفِناء البيت سَوْدَاء فَخْمَةٌ تلقَّمُ أعضاء الجَزور العراعرِ(2)

بقية قِدْر من قُدور تُوَرِّثت لآل جُلاحٍ كابراً بعد كابرِ

يظلُّ الإماءُ يبتدرن قديحَها كما ابتدرتْ سعدٌ مياهَ قراقرِ

ـ قديحها: مرقها لأنه يقدح، أي يؤخذ بالمقدحة، وهي المغرفة ـ وقال آخر: **[الطويل]**

وسوداء لا تكسي الرقاعَ نبيلةٌ لها عند قرّات العشياتِ أزمَلُ

إذا ما قَرَيْناه قراها تضمّنت قِرى مَنْ عرانا أو تزيد فتفضِلُ

وقال مسكين الدارمي: **[الوافر]**

كأنّ قُدورَ قومِي كلَّ يوْمٍ قِبَابُ التّرك ملبَسة الجِلاَلِ

بأيديهمْ مغارِفُ من حديدٍ أشبّهها مقيَّرة الدَّوالي

الدالية: الخَطّارة.

وفي ضدِّ ذلك لأبي نواس: **[الطويل]**

رأيتُ قدورَ النَّاسِ تَبْلَى على الصِّلَى وقِدْر الرّقاشِيّيْن بيضاءُ كالْبَدْر

يَضِيقُ بحيزُوم البَعوضة صدرُها ويُخْرَجُ ما فيها على طَرَفِ الظُّفرِ

---

(1) يروى صدر البيت الأول:

فقدوره بفنائه

وهو في ديوان أمية بن أبي الصلت ص ٣١، ولسان العرب (زخر)، وتاج العروس (زخر).

(2) يروى صدر البيت الأول:

له بفناء البيت جوفاء جونة

والأبيات في ديوان النابغة الذبياني ص ١٧٥، والبيت الأول في مقاييس اللغة ٤/ ٣٧، وكتاب الجيم ٢/ ٣٠٣، والبيت الثاني في لسان العرب (قدح)، (طبق)، وتاج العروس (قدح). والبيت الثالث في التنبيه والإيضاح ١/ ٢٦٢، وتهذيب اللغة ٤/ ٣٢، وأساس البلاغة (قدح)، وبلا نسبة في مقاييس اللغة ٥/ ٦٨.

إذا ما تنادَوْا للرَّحِيلِ سَعَى بِها ... أمامهم الحوليّ مِنَ ولَدِ الذَّرِّ

وقال الفرزدق: [البسيط]

لو أن قِدْراً بكتْ من طول ما جَهَشَتْ ... على الجفوف بَكتِ قِدْرُ ابنِ عمَّارِ

ما مسَّها دَسمٌ مذ فضّ معدنُها ... ولا رأتْ بعدَ نارِ القين من نارِ

وتسمّى النار فاكهة الشتاء لما يُجْتَنَى من تسخينها:

وقد أحسن ابن قتادة في وصفها حيث قال: [الكامل]

هاتِ الّتي للأيك أصلُ ولادِها ... ولها جبينُ الشَّمْسِ في الأشْمَاسِ

يَتَقشَّعُ الياقوتُ من لَبَّاتِها ... بِوَسَاوسَ تَشْفِي من الوسواسِ

أُنسُ الوحيد وصبح عين المجتلي ... ولباس مَنْ أمسَى بغير لباسِ

حمراء تَرْفُلُ في السواد كأنها ... ضَرَبتْ بَعرْقَ من بني العَبّاسِ

وقال آخر: [الخفيف]

لابْنَةِ الزَّند في الكوانين جَمْرٌ ... كالدَّراري في اللَّيْلةِ الظَّلْماءِ

خَبِّروني عنها ولا تكذِبوني ... ألديْها صِناعة الكِيمياءِ

سبكت فحمها سبائك تبْرٍ ... رصَّعتْها بالفِضة البيضاء

كُلّما ولولَ النَّسيم عليها ... رقصت في غلالة حَمراءِ

سفرتْ عن جبينها فأرتنا ... حاجبَ الشمس طالعاً في العشاء

لو ترانا من حَوْلها قلت شِرْبٌ ... يتعاطوْن أكؤوس الصَّهبَاءِ

وقال الفقيه الأديب ابن لبّال رحمه الله: [السريع]

فحم ذكتْ في حشاه نارٌ ... فقلت مسكٌ وجلَّنَارُ

أو خدّ مَنْ قد هويتُ لمّا ... أظلَّ من فوقه العِذارُ

وقال البحتريّ يصف كانوناً: [المتقارب]

وذي أربع لا يطيق النهو ... ضَ ولا يألف السَّيْرَ فيمن سَرَى[1]

تحمله سبجا أسودا ... فيَقْلِبُهُ ذهبا أحمرا

* * *

قوله: قلّبوا في قالبي، أي هم أمثالي لأن قالب الشيء كلّ ما يجعل فيه ليجيء مثله وقُلِّبوا: جُعلوا في القالب. يمرحون: ينشطون ويطربون. ذوي الفتاء: أهل الفتُوّة. والفتاء: الحداثة والشباب، يقال منه: فتؤ يفتأُ فتاءً، ويقال أيضاً: بكر فتيّ بيِّن الفتاء،

---

(١) البيتان في ملحق ديوان البحتري ص ٢٥٦٧.

وفتيٌّ من الناس: بين الفُتُوة، والفتى والفتية: الشاب والشابة. الاصطلاء: التسخن بالنار، الثَّمل: السكران، والطِّلاء: الخمر، وأصل الطِّلاء الرّبّ الثّخين الأسود، فسميت الخمر الصافية طِلاءً بضد صفتها، كما سُمِّي اللديغ سليما، والأسود أبا البيضاء، والذئب أبا جعدة، وجعدة اسم الشاة.

* * *

ولما أن سرى الحَصْر، وانسَرى الخَصَر، أُتينا بموائدَ كالهالاتِ دوْراً، والروضات نَوراً، وقد شُحنَّ بأطعِمَة الولائم، وحُمِين من العائب واللائم، فرفضنا ما قيلَ في البِطنة، ورأينا الإمعان فيها من الفِطنَة، حتّى إذا اكتَلْنا بصاع الحُطَم، وأشفينا على خَطر التُّخم، تعَاوَرْنا مشُوشَ الغمَر، ثم تبوأنا مَقَاعِدَ السّمر، وأخَذَ كُلُّ واحدٍ منّا يشولُ بِلسانِه، وينشرُ ما في صِوَانه، ما عدَا شيخاً مشتبهاً فوداهُ مخلولقاً بُرْدَاه؛ فإنّه رَبَض حَجَرَةً، وأوسَعَنا هِجْرَة، فغاظنا تجنّبُه، الملتبسُ موجبه، المعذور فيه مؤنِّبُه، إلا أنا ألنا له القول، وخشينا في المسألة العول، وكلما رُمْنا أن يفيض كما فضنا، أو يفيض فيما أفضنا أعرض إعراض العليةِ الأرذلين، وتلا **﴿إنْ هَذَا إلا أساطيرُ الأوَّلِين﴾** [الأنفال: ٣١]. ثم كأن الحمية هاجته، والنَّفس الأبية ناجته، فدلف، وازدَلَف، وخلع الصّلَف، وبَدَلَ أن يَتلافى ما سلفَ، ثمّ استرعى سَمْعَ السَّامِرِ. واندفع كالسيل الهامِرِ وقال:

* * *

سَرَى الحَصَر، أي زال السكوت، والحصر: انقطاع الكلام، وهو العِيّ، وحصر يحصر: عيّ، والحصر أيضاً: ضيق الصدر. انسرى الخصرَ: ذهَب البرْد، والخصر: البارد، وخصِر الرجل: إذا آذاه البرد وآلمه في أطرافه. والروضات نوراً، أي هي فاعمة بكثرة الطعام وأنواع الألوان. شُحنّ: ملئن. الولائم: الأعراس. حمين: مُنعن. العائب: الذي يعيب الطعام. واللائم: الذي يقف على رؤوس أضيافه، فيقول: ما أكلتم، استعملوا، زِد يا فلان، فيخجلُ أضيافه لذلك، فلا يتمكّنون من الطعام. رفضنا: تركنا.

[البطنة]

البطنة: الامتلاء من الطعام، والذي قيل في البطنة: البطنة تُذهب الفِطنة، فقال تركنا هذا المعنى وخالفناه، ورأينا أنّ البِطنة وهي امتلاء البطن من الطعام والإمعان فيه، أي المبالغة في الأكل يقوي الفطنة، ويولدها لا أنّه يُذهبها، والفطنة: الذكاء وحدّة الذهن.

معاذ عن النبي ﷺ أنه قال: «ما أحل الله حلالاً أبغض إليه من بطنٍ مليء طعاماً، فقصِّروا من الطعام تملؤوا من الحكمة».

المقدام بن معد يكرب عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما ملأ آدمي وعاءً شراً من

بطنه، بحسب ابن آدم أكلات يُقمنَ صُلْبَه، فإن كان لا محالة، فثُلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه».

عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا أيها الناس، إياكم والبطنة فإنها مكسلة عن الصلاة، مفسدة للجسد، مورثة للسقم.

وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: إياكم والبطنة فإنها مفسدة للقلب.

الأصمعيّ قال أعرابيّ: إذا كنت بطيناً فعد نفسك زمِناً.

وقال الحارث بن كلدة: أربعة أشياء يُهرمن البدن: الغشيان على البطنة، ودخول الحمَّام على الامتلاء، وأكل القديد، ومجامعة العجوز.

وقال الأصمعي: كنت عند هارون الرشيد فقدّمت إليه فالوذجة فقال: يا أصمعي، حدثني بحديث مزرد أخي الشماخ، قلت: إنَّ مزرِّداً كان رجلاً جسيماً، وكانت أمه تؤثر عيالها بالزاد، وكان يُحْفِظه ذلك منها، فذهبت يوماً في بعض حقوق أهلها، وخلَّفته في بيتها فدخل خَيْمتهَا فأخذ صاعين من دقيق، وصاعاً من عجوة، وصاعاً من سمن، فضرب بعضه ببعض وأكله ثم أنشأ يقول: **[الطويل]**

ولـمَّـا مـضـتْ أمـي تـزورُ عـيـالـهَـا — أغـرت عـلـى الـعكّ الـذي كـان يُـمْـنَـعُ
خلطت بصاعيْ حنطة صاعَ عجوةٍ — إلـى صـاع سـمـن فـوقـهـا يـتـربَّـعُ
ودلَّـيـت أمـثَـال الأثـافـي كـأنّـهـا — رؤوس لـعـادٍ قُـطِّـعـت لا تـجـمَّـعُ
وقـلـتُ لـبـطـنـي أبـشِـر الـيـوم إنّـه — حـمَّـى آمـنٌ مـمـا يـغُـيـر ويُـفْـزعُ
فـإن مـصـفـوراً فـهـذا داؤه — وإن كـنـت غَـرْثَـانـا فـذا الـيـوم تَـشْـبَـعُ

فاستضحك منه حتى أمسك بطنه، واستلقى على ظهره، ثم قدّم يدَه بمال، وقال: خذ، فهذا يوم تشبع يا أصمعي:

قوله الحُطَم، أي الذي يحطم ويُكسر، ورجل محطَّم وحُطمة، إذا كان قليل الرحمة للماشية، وفي المثل: شرُّ الرِّعاء الحُطَمة، وقال الزاجر: **[الرجز]**

قَـدْ لَـفَّـهـا الـلـيـلُ بـسـواقٍ حُـطَـمْ[(١)]

فمعنى اكتلنا بصاع الحُطَم، أي أكلنا أكل أكول لا يُشْفِق على نفسه من السقم،

---

(١) الرجز لرشيد بن رميض العنزي في الأغاني ١٥/ ١٩٩، ٢٠٠، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ٣٥٥، وللأغلب العجلي في الحماسة الشجرية ١/ ١٤٤، وللحطم القيسي في شرح المفصل ١/ ٦٢، والكتاب ٣/ ٢٢٣، وله أو لأبي زغيبة الأنصاري في شرح أبيات سيبويه ٢/ ٢٨٦، وللحطم القيسي أو لأبي زغبة، الخزرجي في لسان العرب (خفف) (سوق)، ولهما أو لرشيد بن رميض العنزي في لسان المعرب (حطم)، وبلا نسبة في أساس البلاغة (حطم)، ومقاييس اللغة ٢/ ٧٨، والمخصص ٥/ ٢٢.

وأشفينا: أشرفنا. خطر: غرَرَ التُّخَم: جمع تُخَمة بفتح الخاء، وهو أن يثقُل الطعام على المعدة ويتغيَّر. والعامة تسكِّن الخاء، وقد يجيء ذلك في الشعر قال أعرابيّ: [مجزوء الوافر]

وإذا الـمـعـدة جـاشَـتْ ... فـارْمِـهـا بـالـمِـنْـجَـنِـيـقِ
بـثـلاثٍ مـن نـبـيـذ ... لـيـس بـالـحـلـو الـرقـيـقِ
تَـهْـضـم الـتُّـخْـمـة هَـضْـماً ... حـيـن تـجـري فـي الـعـروقِ

وتعاورنا الشيء: تداولناه، وأخذه بعضنا من بعض، وأزلناه من موضع إلى موضع، وَعَورُ العين: زوالها. والغَمَر: ريح اللحم وزَهمُه. تبوّأنا: أخذنا ونزلنا. السَّمر: الحديث يُسْمر عليه. يشول بلسانه، أي يضرب به في كلّ كلام، وشال: رفع. والصّوان: وعاء يُصان فيه الشيء. فواده: ناحيتا رأسه، والفود: ما بين طرف الجبهة والأذن. مخلولقاً: كثير البِلَى. بُرداه: ثوْباه. رَبَض: جلس، وفي المثل: فلان يَرْبِضُ حَجْرَةً، ويرتقي وسطاً، يضرب مثلاً لمن يساعدك ما دمت في خير، فربَض حَجْرة، أي جلس ناحية وبرك. أوسَعَنَا: كثَّر لنا. الهجرة: المباعدة والمقاطعة، يريد أنه اعتزلهم وجلس ناحية ولم يكلِّمهم بكلمة. تجنُّبه: تباعده، يقال: تجنَّبْتك وتجانبتك، أي تباعدت عنك، والجار الجُنب: البعيد. وما زاره إلا عن جنابة، أي عن بعد. المتلبِّس موجبه، أي الذي التبسَ علينا ما أوجَبه. مؤنّبه: لائمه. العول: الزيادة. رُمْنا: طلبنا، يفيض كما فِضْنا: يتكلّم كما تكلّمنا والفيض زيادة الماء، ويُفيض فيما أفضنا، أي يأخذ معنا في النوع الذي أخذنا فيه. أعرض: لوى وجهه. العِلْية: الأشراف. الأرذَلين: الأدنياء. أساطير: تآليف وكتب. الحميّة: عزة النفس. هاجته: حركته. الأبية: العزيزة. نَاجتْه: حَدّثَتْه. دلف: مشى إلينا، وازدلف: تقرّب. خلع: أزال. الصلَف: مجاوزةَ قدْر الظَّرْف حتى يفضي به ذلك إلى أن تأخذ به باباً ما فيخالفك ولا يعبأ بك. يتلاقى: يتدارك. سلف: مضى. استرعى: دعاهم للاستماع يقال: أرعني سمعَك أي اسمع مني، الهامر: الكثير الانصباب. [البسيط]

* * *

عـنـدي أعـاجـيب أرْويـهـا بـلاَ كـذب ... عـن الـعِـيـان فـكـنّـونـي أبَـا الـعَـجـبِ
رأيـتُ يـا قـومِ أقـوامـاً غِـذاؤهُـمُ ... بـولُ الـعـجـوزِ ومـا أعْـنـي ابْـنَـةَ الـعِـنَـبِ

ـ بَوْل العجوز: لبن البقرة، والعجوز أيضاً من أسماء الخمر ـ

ومُـسْـنِـتِـيـن مـن الأعـرابِ قـوتُـهُـمُ ... أن يَـشْـتَـوُا خِـرقـةً تُـغْـنِـي مـن الـسَّـغَـبِ

ـ الخِرْقة: القطعة من الجراد ـ

وقـادريـن مـتَـى مـا سـاء صـنـعـهُـمُ ... أو قـصَّـرُوا فـيـه قـالـوا الـذّنـبِ لِـلـحَـطَـبِ

ـ القادر: الطَّابخ في القِدْر، والقَدِير: المطبوخ فيها.

وكاتبين وما خطّت أنامِلَهُمْ حرفاً ولا قرؤوا ما خُطَّ في الكتبِ

ـ الكاتبون الخرّازون؛ يقال: كتب السقاء والمزادة؛ إذا خَرَزَهما وكتب البغلة أو الناقة، إذا جمع بين شفريها وخاطهما، قال الشاعر: [البسيط]

لا تأمننَّ فزارياً خَلَوْتَ به على قَلوصك واكتبها بأسيار

وتابعين عقاباً في مسيرهم على تكمّيهمْ في البَيْضِ واليَلَب

ـ العُقاب: الراية. كانت راية النبي ﷺ تسمّى العُقاب[1].

* * *

العيان، أي المشاهدة بالعين. مسنتين: أصابتهم السنّة، أي اشتدّ عليهم. يَشْتَوا: يتخذوا شواء. السَّغب: الجوع. تَكمِّيهم: تسترّهم. الْبَيْض: ما يجعل في الرؤوس في الحرب.

ومنتدِينَ ذَوِي نُبْلِ بدت لهمُ نبيلةٌ فانْثَنَوْا منها إلى الهرَبِ

ـ النّبيلة: الجِيفة، ومنه تَنَبَّل الأميرُ؛ إذا مات وأروح، يعني نتن.

وعُصْبَةً لم تَرَ البيتَ العتيق وقدْ حَجّتْ جُثِيا بلا شكٍّ على الرُّكَبِ

ـ معنى حجّتْ جثيّاً، أي غلبت بالحجة مجادلين جاثِين على الرُّكَب، وجُثِيّ: جمع جاثٍ.

ونسوةً بعدما أدْلَجْنَ من حَلَبٍ صَبَّحْن كاظمةً من غير ما تَعَبِ

ـ كاظمة في هذا الموضع من كَظَم الغيظ ـ

ومُدْلِجينَ سَرَوا من أرْضِ كاظمةٍ فأصبحوا حينَ لاح الصُّبح في حَلَبِ

ـ في حلب، أي أصبحوا يحلبون اللبن ـ

ويافعاً لمْ يلامسْ قَطُّ غانيةً شاهدتُه وله نسلٌ من العَقِبِ

ـ النَّسلِ هاهنا: العدوّ قال تعالى: ﴿وَهِمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٦]. والعقب: مؤخّر القدم.

* * *

منتدين: مجتمعين. انثنوا: رجعوا. والنّبيلة: الحاذقة في فعلها. عُصبة: جماعة. أدلَجْنَ: سرن بالليل، ومثله سَرَوا. لاح: ظهر، يافعاً: شاباً. يلامس:

(١) رواه ابن الأثير الجزري في النهاية ٣/ ٢٦٩. بلفظ: «أنه كان اسم رايته عليه السلام العقاب».

يلاعب، ويمّسها بيده. غانية: امرأة جميلة غَنِيَتْ بحسنها عن الزينة. صُبحْن كاظمة، أي سُقين الصّبوح كاظمةَ غيظها. وصَبَحه. سقاه صبوحاً، وكظم غيظه: تجرعه، وهو قادر على الإيقاع بعدوّه ولم يمضه، وكظم خصمه: أجابه بالمسكِت فأفحمه، وأصل الكظم للبعير، وهو أن يردّد جِرته في حَلْقه ولا يجترها: وكاظمة: موضع على سيف البحر، أي على ساحله على مرحلتين من البصرة، وفيه ركايا كثيرة، وماؤها شروب.

* * *

وشائباً غَيْرَ مُخْفٍ للمشيب بدا في البدو وهو فتيُّ السِّنّ لم يَشبِ

ـ الشائب هاهنا: مازج اللبن، والمشيب: اللبن الممزوج، ويقال فيه مَشِيب ومَشوب. **[البسيط]**

ومُرْضَعاً بلبانٍ لم يفُهْ فُمهُ رأيتُه في شِجارٍ بَيِّن السَّببِ

ـ الشِّجار: المحفّة ما لم تكن مُظَلَّلة فإنْ ظلَّلتْ فهو الهودج. والسّبب هاهنا: الحبل، ومنه قوله تعالى: ﴿**فليمدُدْ بسببٍ إلى السماء**﴾ [الحج: ١٥] ـ **[البسيط]**

وزارعاً ذُرَةً حتّى إذا حُصِدَت صَارَتْ غُبَيْرَاءَ يَهْواها أخو الطَّرَبِ

ـ الغبيراء: المُسْكِر المتَّخَذ من الذُّرة ويُسمى أيضاً السُّكركه، وفي الحديث: «إياكم والغبيراء فإنّها خمر العالم»[1].

وراكباً وهو مغلولٌ على فرس قد غُلّ أيضاً وما ينفك عن خَبَبِ

ـ المغلول هاهنا العطشان، وغلّ، أي عطش. **[البسيط]**

وذا يدٍ طُلُقٍ يَقْتَاد راحلةً مستعجِلاً وهو مأسورٌ أخو كُرَبِ

ـ المأسور: الّذي يجد الأسر، وهو احتباس البول.

* * *

اللّبان: لبن الآدميات. يفُهْ: ينطق، يهواها: يحبّها. أخو الطَّرَب: صاحبه المولع به. ينفك: يزول. خَبَب: نوع من السير. طَلُق. سارح. كُرَب: همّ.

* * *

وجالساً ماشياً تهوي مطيَّتُه به وما في الَّذي أوْرَدْتُ من رِيَبِ

الجالس: الآتي نَجْداً، والماشي: الذي كثرتْ ماشيتُه، وعليه فسّر بعضهم قوله تعالى: ﴿**أنِ امْشُوا**﴾ [ص: ٦]؛ كأنه دعاء عليهم بكثرة الماشية والنماء والبركة.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٣/ ٤٢٢.

وحائكاً أجْدَم الكفَّيْن ذا خَرَسٍ فإن عجبتم فكمْ في الخَلْقِ من عَجَبِ

ـ الحائك هاهنا: الذي إذا مشى حرّك منكبيه وفجج بين ركبتيه.

وذا شَطَاطٍ كصَدرِ الرُمح قامتُه صادَفْتُه بِمنًى يَشْكُو من الحَدَبِ

ـ الحدَب: ما ارتفع من الأرض ـ

ساعياً في مسرَّات الأنام يَرَى إفراحَهُمْ كالظُّلْم والكَذبِ

ـ إفراحهم: إثقالهم بالدّين، ومنه قوله عليه السلام: «لا يُترك في الإسلام مُفْرَج»[1] أي مُثْقَلٌ من الدَّين أو يقضَى عنه دينُه ـ

ومُغْرَماً بمناجاة الرّجال لَهُ وما لَهُ في حديث الخَلْقِ من أرَبِ

ـ الخلق هاهنا: الكذب، ومنه قوله تعالى: **﴿إنْ هذَا إلاَّ خُلُق الأوَّلِينَ﴾** [الشعراء: ١٣٧] ـ

وذا زمامٍ وَفَتْ بالعَهْدِ ذِمّتُه ولا ذِمَامَ لَهُ في مَذْهَبِ العَرَبِ

ـ الذمام الثاني: جمع ذمّة، وهي البئر القليلة الماء. وعنى بالمذهب المسلك، أي ما له آبار قليلة الماء في البدو.

* * *

تهوي: تسقط وتسرع. ريب: شكوك. أجذم: مقطوع. خَرَس: بكم. شَطَط: طول. مُغْرماً: شديد الحب. مناجاة: محادثة. أرب: حاجة.

وذا قُوًى ما استبانَتْ قطُّ لِينتُه ولِينُه مُستبينٌ غيرُ محتجبِ

ـ اللِّين: نخيل الدَّقَلْ، ومنه قوله تعالى: **﴿ما قَطَعتُم مِنْ لينةٍ﴾** [الحشر: ٥].

وساجداً فوق فحلٍ غيرَ مكترثٍ بما أتى بلْ يَراهُ أفضَلَ القُرَبِ

ـ الفحل: الحصير المتَّخَذ من فُحالِ النخل.

وعاذراً مَنْ ظَلَّ يَعْذِرُه مع التلطّف والمعذور في صَخَبِ

ـ العاذر: الخائن. والمعذور: المَخْتُون.

وبَلْدَةَ ما بها ماءٌ لمغترفٍ والماء يَجْري عَلَيْها جَري مُنْسَرِبِ

ـ البلدة: الفُرجة بين الحاجبين، وتسمَّى أيضاً البَلْجة ـ

وقَرْيَةٌ دون أفحوصِ القَطا شُحِنَتْ بديلمٍ عَيْشُهُمْ مِنْ خُلْسَة السَّلَبِ

---

(١) رواه ابن الأثير الجزري في النهاية ٣/ ٤٢٣ بلفظ: «العقل على المسلمين عامةً فلا يُتْركُ في الإسلام مُفْرَج».

ـ القرية: بيت النمل. والديلم النمل الكثير. وخلسة السَّلَب: لِحَاء الشّجر.

وكوكباً يتوارَى عند رؤيته الـ ـإنْسَانُ حتى يُرَى في أمنَعِ الحجُبِ

ـ الكوكب: النّكتة البيضاء التي تحدث في العين. والإنسان هاهنا: إنسان العين.

* * *

مكترِث: منكسر من الهمّ. القُرَب: جمع قُرْبة، وهي ما يتقرّب به إلى الله تعالى من الأعمال البرّ. عاذر: قابل العذر. مؤلماً: موجعاً، التلطف: الرفق واللين. الصّخب: الصياح، وتفسير ظاهر البيت أن تقول: رأيتُ عاذراً يوجع الذي يعتذر له مع تلطّف العاذر للمعتذر وتليينه القول له، والمعتذر في صيَاحٍ من شدة ضَرراً لعاذراً له، فتتقابل هذه الأضداد، فإذا فسّرت بتفسير الحريريّ صحّ المعنى. ومُنْسَرب: داخل في السَّرَبِ وهو الحفير في الأرض قرية: مدينة، وأفحوص القطا: مرقدها وهي تَفْحَصُه: برجليها توسّعه. شُحِنَتْ: ملئت. والدّيلمْ: أمة من العجم. خُلْسة: سرقة. والسَّلَب: المال المسلوب. يتوارى: يتغطّى، وقال الحسن بن هانىء في صفة الكواكب الذي هو النكتة على إنسان العين: **[الرمل]**

أعورُ المقْلة من غير عِوَجْ لو عداه عَوَرُ العين انْسَمَجْ

تحسب النكتة في ناظره درةً بيضاء في فصّ سَبَجْ

* * *

ورَوْثةً قُوِّمَتْ مالاً لَهُ خَطَرٌ ونفسُ صاحبِها بالمال لَمْ تَطِبِ

ـ الرَّوثة: مقدَّم الأنف ـ

وصحفةً مِنْ نُضَارٍ خالص شُرِيَتْ بَعْدَ المكاسِ بقيراطٍ من الذَّهبِ

ـ النُّضار هاهنا: شجر النَّبع، ومنه قول بعض التابعين: لا بأس أنْ يُشرَب في قدح النضار؛ عَنَى به هذا.

ومُسْتَجِيشاً بخشخاشٍ ليَدْفَعَ ما أظَلَّه من أعاديهِ فلم يخِبِ

ـ الخشخاش: الجماعة عليهم دُروع وأسلحة ـ

وطالما مرّ بي كلبٌ وفي فمِه ثَوْرٌ، ولكنَّه ثورٌ بلا ذَنَبِ

الثَّوْر: القطعة من الأقِط، وهو نوع من الجبن.

وكم رأى ناظِري فيلاً على جملٍ وقد تورَّكَ فوق الرَّحْلِ والقَتَبِ

ـ الفيل: الرجل الفائل الرأي.

وكم لقيتُ بعُرْضُ البِيدِ مُشْتَكياً وما اشتكَى قَطُّ في جِدٍّ ولا تعِبِ

ـ المشتكي: المتخذ شكوةً وهي القِرْبة الصغيرة.

* * *

قوله: خَطَر، أي حظ كثير، والخطير: الرفيع القدر، نُضار: ذهب أحمر. المِكَاس: المُمَاكسة بين المُتبايعين، وهو أن يطلب صاحب السِّلعة من المشْتَرِي سَوْماً، فلا يزال المشتري يراجعه وينقصُ له ممّا طلب شيئاً حتى يتفقا على ما يتراضيان عليه. والمستجيش: الجامع للجيش. والخشخاش: بنت معروف، وقال ابن وَكيع يصفه: [الوافر]

وخشخاش كأنّا منه نفري قميصَ زَبَرْجَدٍ عن جسم دُرِّ

كأقداح من البلور صيغَتْ وأغشيةٍ من الدِّيباج خُضْرِ

أظلَّه: قَرُب منه، وكأنه أغشاه ظلَّه. القَتَب: خشب الرّحْل، والرَّحْل برذعة البعير. بعُرْض البيد: بجانب القِفار. [البسيط]

وكنت أبصرتُ كرّازاً لراعيةٍ بالدَّوِّ ينظر من عينين كالشُّهُبِ

ـ الكرّاز: كبش يَحْمِل عليه الرّاعي أداته.

وكَمْ رأتْ مقلتِي عينَين ماؤهما يجري من الغرْبِ والعينانِ في حَلَبِ

ـ الغرْب: مجرى الدمع، والعينان: المقلتان.

وصادعاً بالقنا مِنْ غَيْرِ أن عَلِقَتْ كفّاه يوماً برمحٍ لا ولم يَثِبِ

ـ القَنَا: ارتفاع الأنف وتحدُّب وسطه، وصدع به، أي كشفه.

وكم نزلتُ بأرضٍ لا نَخيلَ بها وبَعْدَ يَوْمٍ رَأيتُ البُسْرَ في القُلبِ

ـ البُسرْ: جمع بُسْرة، وهو الماء الحديث العهد بالمطر، والقُلْب: جمع قَلِيب ـ

وكم رأيت بأقطار الفَلا طَبَقاً يَطِير في الجوِّ مُنْصبّاً إلى صَبَبِ

ـ الطّبق: القطعة من الجراد.

وكم مِنْ مشايخَ في الدُّنْيَا رأيتُهم مخلَّدين، ومَنْ يَنْجُو من العَطَبِ

ـ المخلد: الذي أبطأ شيبه.

وكم بدا لَيِ وَحْشٌ يشتكي سَغَباً بمنطقٍ ذَلِقٍ أمضَى من القُضُبِ

ـ الوحش: الرَّجل الجائع.

وكم دَعَانِيَ مُسْتَنْجٍ فَحَادثني وما أخَلّ ولا أخْلَلْتُ بالأدبِ

ـ المستنجي: الجالس على نَجْوة، وهر المكان المرتفع.

كَرّاز: إناء. والدّوّ: الصحراء، والغرْب: الدّلْو العظيمة، في حلب: في سَيَلان

وجَري. البُسْر: التمر الذي لم يَطِبْ. القليب البئر، والجمع القُلُب. أقطار الفلا: نواحي القِفار. والصَّبب: الانحدار. العطب: الهلاك. السّغَب: الجوع. ذلق: حادّ. أمضى: أقطع. القُضُب: السيوف. أخلّ: نقَصَ. المستنجي: الجالس لقضاء حاجة الإنسان.

* * *

وكم أنختُ قَلُوصِي تحت جُنْبُذَةٍ ... تُظِلُّ ما شئت من عُجَمٍ ومن عُرُبِ

ـ الجُنْبَذَة: القبة، والعُرُب: جمع عَروب؛ وهي المتحبّبة إلى زوجها، من قوله تعالى: ﴿**عُرُباً أتراباً**﴾ [الواقعة: ٣٧].

وكم نظرتُ إلى مَنْ سُرَّ ساعَتَهُ ... ودَمْعُه مستَهِلُّ القَطْرِ كالسُّحُبِ

ـ سُرّ، أي قطع سَرَرُه، ويسمى ما يبقى بعد القطع السّرة ـ

وكم رأيتُ قميصاً ضرَّ صاحِبَهُ ... حتَّى انثنى واهيَ الأعضاء والعَصَبِ

ـ القميص: الدَّابة الكثيرة القُماص، وهو الوثوب والقفز.

وكم إزارٍ لَوَ أنَّ الدَّهْرَ أتلفَهُ ... لجفَّ لِبدُ حَثِيث السَّيْر مُضطربِ

ـ الإزار: المرأة، ومنه قول الشاعر: **[الوافر]**

* فدًى لك من أخي ثقةٍ إزارِي[1] *

[البسيط]

هذا وكَمْ من أفانينٌ مُعَجبةٍ ... عندي ومن مُلَحٍ تُلْهي ومن نُخَبِ

فإن فَطِنتمْ لِلَحنِ القول بان لكمْ ... صدقي وَدَلَّكمُ طَلْعِي على رُطَبي

وإن شُدِهْتُمْ فإن العارَ فيه على ... مَنْ لا يُميِّز بين العُودِ والخَشَبِ

* * *

أنخت: أبركت. قَلُوصِي: ناقتي الفتية. تظلّ: تستر، سُرّ: أدخل عليه السرور، وقد بيّن هو أنه المقطوع السرة، وقال في الدّرة فيما يكنى في المعاريض. المقلُول: الذي ضُربتُ قلّته، أي أعلاه، والمركوب: الذي ضُربَت ركبته، والمذكور: الذي قُطِع ذكره، والمسرور: الذي قُطِعت سرّته، قال: ومن الأحاجي بأبيات المعاني:

---

(١) صدره:

ألا أبلغ أبا حفص رسولاً

والبيت لبقيلة الأشجعي (أبي المنهال)، في لسان العرب (أزر)، والمؤتلف والمختلف ص ٦٣، وعجزه لجعدة بن عبد الله السلمي في لسان العرب (أزر)، والبيت بلا نسبة في شرح اختيارات المفضل ص ٢٥٠.

نَسُرّهُم وإن هم أقبلوا وإن أدبروا فهُم من سببِ

أي نطعنهم إذا أقبلوا في السّرة، وإذا أدبروا في السُّبَة وهو الإست، وأنشد أيضاً: [الطويل]

ذَكَرتُ أبا عمرو فماتَ مكانَهُ فوا عجباً هلْ يهلِك المرءُ من ذَكَرِ
وزُرت عليّاً بعدَهُ فرأيته ففارق دنياه ومات على صبرِ

ذكرتُه: قطعت ذَكره، ورأيته: قطعتُ رئته. مستهل: سائل. القَطر: مصدر قطر. إذا سقط، ولا يقال استهلّ حتى يكون مع انصبابه صوت. واهي: ضعيف. العَصَبِ: حبال الجسد. الإزار، وهو المئزر الذي يجعل عوضاً من السراويل، حثيث: مسرع أراد به ذكَر الإنسان في حال نكاحه المرأة إنه مضطرب سريع السير والدفع فيقول: إن المرأة التي كانت تبلّ الذَّكَر عند الجماع لو هلكت لبقي جافاً وأراد باللّبد موضع اللبد وهو الظهر، الفنجديهي يقول: كم من امرأة لو ماتت لترك زوجها كثرة الحركة في طلب المعاش مرضاة لها، وجفوف العرق قد يكون من السكون، والتفسير الأوّل أبين، وهذا الثاني يحتمل إما وصفه بالسرعة والاضطراب، وهو صفة فرس جعل له لبدا فألغز بذلك، وقال أعرابي ماتت امرأته: [الوافر]

وكنتِ فَرِيسَتِي وغِلاَفَ بُضْعي فأمسى البُضع ليس له غلاف

ومن اللغز فيه قول الآخر: [البسيط]

وصاحب معجب في طول صُحْبَته ولا ينفع الدّهر إلاّ وهو محمومُ
تأتيك في نافض الحميّ منافعه وإن أفاق يُرَى في وجهه اللّومُ

وقال الأقيشر: وكان عنّيناً، فغالط في شعره بالضدّ: [الكامل]

ولقد عَدَوْت بمشرِفٍ يافوخُه عَسِر المكرّة ماؤه يتدفَّقُ
أرنّ يسيل من النشاط لعابُه ويكاد جِلْد إهابه يتمزَّق
حتى علوتُ به مَشْق ثنيةٍ طوراً يفور بها وطوراً يَغرقُ

قوله: أفانين، أي ضروب وأنواع، والأفانين: الأساليب وهي أجناس الكلام وطرقه، والأزهريّ: أفانين: جمع أفنان: جمع فنَن، وهو الغصن والخُصْلَة من الشّعر، وقيل: الأفنونُ الفنّ، وهو ضَربٌ من الشجر، والحبال، والجمع أفانين. مُلح: ما يتكلم به من حلو الكلام وألغازه. تُلْهِي: تَشغَل نُخب: مختارة. لحن القول: معناه ومذهبه، واللحن التّورية، وهي أن تُظهر خلاف ما تضمر. الطّلع: أوّل ما يخرج من الثمر، والرُّطب: الطّيب منه. شُدِهْتُم: تحيرتم.

* * *

قال الحارث بن همام: فطفقنا نَخْبِط في تقليب قريضِه، وتأويل معاريضه وهو يلهو بنا لهوَ الخَليّ بالشَّجي، ويقول: ليس بعُشِّك فادْرُجي، إلى أن تعسَّر النِّتَاج، واستحكم الارْتِتَاج؛ فألقينا إليه المَقَادة، وخطبْنا منه الإفادة؛ فوقفنا بين المَطْمَع واليَأس، وقال: الإيناسُ قَبْلَ الإبْسَاس؛ فعلِمنا أنّه ممن يرغبُ في الشُّكْم، ويَرتَشِي في الحُكم، وساء أبا مثوانا أن نُعرَّض للغُرْم، أو نخَيَّبَ بالرُّغم؛ فأحضر صاحبُ المنزل ناقةً عِيديّة، وحُلّةً سَعِيديّة، وقال لَهُ: خُذْهما حَلالاً ولا ترزَأْ أضيافي زِبالاً، فقال: أشهد أنّها شِنْشِنَةٌ أخزَميّة. وأريَحيةٌ حاتميّة.

* * *

طفقنا: أخذنا نخبط: نتكلم بالزائد والناقص. تأويل: تفسير. معاريضه: ما عُرض به ولم يتمّه. الخليّ: الذي لا هم له، والشجي: الحزين وياء الخليّ مشددة وياء الشجيّ مخففة. وقد شُدِّدَتْ ياء الشَّجِي في الشعر إتباعاً لياء الخَلي، وقالوا: إني لآتيه بالغدايا والعشايا، فحملوا الغدايا على العشايا، وحكى ثعلب في غير الفصيح عن الأصمعي تثقيل الياء فيهما، ومن جعل شَجي فَعِل كحذر خفف، ومن جعله فعيل مثل غنّى شدّد، وفعل بغير ياء أقيس، والتشديد في المثل أحسنُ للازدواج. تَعَسَّر: صَعُب. النِّتاج: ما ينتج لهم من المعاني. استحكم: توثّق الارتتاج: الانغلاق، وأُرتِج على القارىء وارتجج، إذا لم يقدر على القراءة كأنه أُطْبق عليه. ويرتشي: يأخذ الرِّشوة، وعن ثوبان مولى رسول الله ﷺ أنه قال: «لعن الله الراشي والمرتشي والرائش»، فقيل: وما الرائش؟ قال: الذي يمشي بينهما.

ألقينا إليه المقادة: أي انقدنا له، ورزأت الرّجل أرزؤه؛ إذا أصبت منه خيراً، وزرأته ماله: نقصته والزِّبال بالكسر: ما تحمله النّملة بفيها، والأريحية: الاهتزاز للجود. ساء حزن. والرّغم: الذلة والهوان. شِنْشِنة: طبيعة حاتمية منسوبة إلى حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج أحد بني ثُعَل بن عمرو بن الغوث بن طيىء.

[حاتم الطائي]

يكنى أبا سفّانة وأبا عديّ. فارس شاعر جاهليّ، أحد الأجواد الذين يُضرَب بهم المثل، بل هو أشهر منهم، وهم: كعب بن مامة، وهرم بن سنان، وحاتم، وكان إذا قاتل غلب، وإذا غنِم نَهَبَ، وإذا سئل وَهَب، وإذا قامَرَ سَبَق، وإذا أَسَر أَطْلَقَ، وإذا أثرى أنفق. ويقال: أنه لا يُعرف ميّت قرَى أضيافه إلاّ هو، وذلك أن ركباً من العرب نزلوا بموضع قبره، وقد نفد زادهم، وفيهم رجلٌ يكنى أبا خيبريّ، فجعل يقول: أبا سَفّانة، أما تَقْري أضيافك أبا سفّانة، إن أضيافك جياع، يعيدها، فلما نام ثار من نومه، . وهو يقول: واراحلتاه! عُقرت والله ناقتي، فقال له أصحابه: وكيف؟ قال: رأيت أبا سَفّانة قد انشق عنه قبره فاستوى قائماً ينشدني: **[المتقارب]**

أبــا خــيــبــريّ لأنــتَ امــرؤ ظــلــومُ الــعــشــيــرة لَــوّامُــهــا
ومــاذا تــريــد إلــى رمّــة بــدويــة صــخــب هــامُــهــا
تــبــغــي أذاهــا وإســعــارَهــا ودُونــك طــيٌّ وأنــعــامــهــا

ثم عمد إلى سيفي، فانتضاه من غمده، وعَقَر ناقتي، وقال: دونكم فما أيقظني إلا رغاؤها؛ وإذا بالناقة ترغو ما تنبعث، فقالوا: قد والله قَرَاك حاتم فنحروها، وأكلوا وتزودوا واقتسموا متاع أبي خيبريّ، واستمرّوا لوجهتهم، فلمّا صاروا في الظهيرة وَضَح لهم: راكب يجنُب بعيراً يؤمّ سمتهم، حتى التقوا فقال لهم: أفيكم أبو خيبريّ؟ قالوا نعم، فقال: فإن عديّ بن حاتم رأى أباه البارحة، وهو يقول: إنّ أبا خيبريّ وأصحابه استقرُوني، فقريتُهم ناقته، فعوّضه منها، وزدْه بَكراً يحمل عليه متاعه؛ وهذه الناقة وهذا البَكْر، فارتحل أبو خيبريّ الناقة، وتخفّف هو وأصحابه من أزوادهم، على البَكرَ، ومضوا بأتَمّ قرًى.

وأدرك عدي ابنه النبي ﷺ وروى عنه، وكان يحدِّث أصحابه بهذا الحديث بعد إسلامه وقال الشاعر في عديّ: **[الطويل]**

أبـوكَ أبـو سَـفّـانَـةَ الـخـيـر لـم يـزلْ لدنْ شبَّ حتى مات في الخير راغبا
قـرى قـبـره الأضـيـاف إذ نـزلـوا بـه ولـم يـقـرِ قـبـرٌ قـبـلَـه الـدَّهـرَ راكـبـا

وكانت سفّانة بنته من أجود نساء العرب، وكان أبوها يعطيها الصِّرمة من إبله فتهبها وتعطيها الناس، فقال لها أبوها: يا بنيّة إن الغويَّيْن إذا اجتمعا في المال أتلفاه، فإما أن أعطي وتُمسكي، وإما أن أُمسك وتُعطي أنت؛ فإنه لا يبقى على هذا شيء، فقالت: والله لا أمسك أبداً، قال: وأنا لا أمسك أبداً قالت: فلا نتجاور، فقاسمها ماله وتباينا.

وحكي أن أمّه كانت مِنْ أسخى النّاس، وأقراهم للضيف؛ وكانت لا تحبس شيئاً تملكه، وهي عُتْبَة بنت عُفيف بن عمرو بن عبد القيس، فلما رأى إخوتُها إتلافها، حجروا عليها ومنعوها مالها؛ حتى إذا ظنوا أنها قد وجدَتْ ألَمَ ذلك أعطوها صِرمة من إبلها، فجاءتها امرأة من هَوازن تسألها، فقالت: دونك الصِّرمة، فخذيها، فوالله لقد عضَّنِي من الجوع ما لا أمنع بعده سائلاً أبداً، ثم أنشأت تقول: **[الطويل]**

لَعَمْرِي لقِدْماً عضّني الجوع عَضَّةً فـآلـيـتُ ألاّ أمـنـع الـدَّهـرَ جـائـعـا
فـقـولا لـهـذا الـلائـم: الـيـوم أعـفـني فإن أنت لـم تـفـعـل فـعـضّ الأصابـعَا
فـإذا عـسـيـتـم أن تـقـولـوا لأخـتُـكـمُ سوى عذلكم أو عدلِ مَنْ كان مانعا
وهـل مـا تـرون الـيـوم إلا طـبـيـعـة وكـيـف بـتـركـي يا بـنَ أمّ الـطِّـبَـائـعـا

فقد اكتنَفه الجودُ من أمه وأبيه.

وقالت امرأته النّوار: أصابتنا سنة اقشعرتْ لها الأرض واغبّر أفق السماء، وضنّت

المراضع عن أولادها فما تبضّ بقطرة، فأيقنا بالهلاك، فوالله إني لفي ليله صَبِيرة[١] بعيدة الطرفين، إذ تضاغى صبيتُنا جوعاً: عبد الله وعديّ وسفانة، فقام إلى الصبيَّيْن وقمت إلى الصبية، فوالله ما سكتوا إلاً بعد هدأة من الليل، وأقبل يعلِّلني بالحديث، فعرفت ما يريد، فتناومت، فلما تغوّرت النجوم إذا شيء قد رفع كسر البيت، فقال: مَنْ هذا؟ فقالت: جاريتك فلانة أتيتك من عند صبية يتعاوَوْن من الجوع عُواء الذئاب، فما وجدتُ معوَّلاً إلاّ عليك أبا عديّ فقال: أعجليهم فقد أشبعك الله وإياهم، فأقبلت تحمل اثنين، ويمشي إلى جانبها أربعة، كأنها نعامة حولها رِئالها، فقام إلى فرسه فوجأ لبّتها بمدية، فخرَّت، ثم كشط الجلد، ودفع المدية إلى المرأة وقال شأنك، فاجتمعنا على اللّحم نشوي ونأكل، ثم جعل يأتيهم بيتاً بيتاً، ويقول: هبوا أيّها القوم، عليكم بالنار، فاجتمعوا والتفّ في ثوبه ناحية ينظر إلينا، والله إن ذاق منها مُزْعة، وإنه لأحوجُ إليها منا، فأصبحنا وما على الأرض منها إلا عظمٌ وحافر، فأنشأ يقول: **[البسيط]**

مـهـلاً نـوار أقـلّـي الـلـومَ والـعـذلا	ولا تـقـولـي لـشـيء فـاتَ مـا فَـعَـلا[٢]
ولا تـقـولـي لـشـيء كـنـتُ مـهـلـكَـهِ	مهلاً وإن كنتُ معطي العَنْسَ والجَملا
يرى الـبـخـيـلُ سبيـل الـمـالِ واحـدةً	إن الـجـواد يَـرَى فـي مـالـه سُـبُـلا

ولم يكن يمسك شيئاً ما عدا فرسه وسلاحه، فإنه كان لا يجود به.

وذكر الحريري أن عُقَيْلاً تمثّل بقول حاتم: **[الرجز]**

* شـنـشـنـةٌ أعـرفُـهـا مـن أخْـزَمِ[٣] *

وكان عُقَيل بن عُلَّفة المريّ غيوراً فخوراً وكانت الخلفاء تُصاهره، فخطب إليه عبد الملك ابنته لبعض ولده، فقال: أمّا إن كان ولا بدّ، فجنِّبْني هُجناء ولدك، وخرج يمتار ومعه ابنه وابنته الجرباء فنزلوا بالشأم بدير سعد فلما ارتحلوا قال عُقَيل: **[الطويل]**

قـضـتْ وطـراً مـن دَيْـرِ سـعـدٍ وربّـمـا	عـلـى عُـرُضٍ نـاطـحـنَـه بـالـجـمـاجـمِ

ثم قال لابنه أجزيا عملّس، فقال: **[الطويل]**

فـأصـبـحـن بـالـمـومـاة يـحـمِـلْـنَ فـتـيـةً	نَـشـاوَى مـن الإدلاجِ مـيـلَ الـعـمـائـمِ

---

(١) ليلة صبيرة: أي ليلة شديدة البرد.

(٢) الأبيات في ديوان حاتم الطائي ص ٧٤.

(٣) الرجز لأبي أخزم الطائي في لسان العرب (خزم)، (شنن)، ومجمل اللغة ٢/ ١٨٣، ولعقيل بن علّفة في جمهرة اللغة ص ٥٩٦، وبلا نسبة في تهذيب اللغة ٧/ ٢١٨، ١١/ ٢٨١، وكتاب العين ٦/ ٢٢٠، والمخصص ٦/ ١٩٤، وديوان الأدب ٣/ ١٠٦.

ثم قال لابنته الجرباء: أجيزي، فقالت: [الطويل]

كأنَّ الكرى أسقاهمُ صَرخدِيَّةً عُقاراً تمشَّت في المطا والقوائم

فقال لها: وما يدريك ما نعتُ الخمر؟ ثم سل السيف، فاستغاثت بأخيها فاختبل فخذيه بسهم، فبرك ومضوا وتركوه حتى بلغوا المياه الدانية إليهم، فقالوا لأهل المياه: إنّا أسقطنا جَزُوراً، فأدركوها فوجدوا عُقيلاً باركاً، وهو يقول الأبيات: [الرجز]

* إنّ بنيّ ضرجوني بالدمِ[1] *

* * *

ثمَّ قابلنا بوجهٍ بشرُه يشفّ، ونُضرتُه ترفّ وقال: يا قوم؛ إنّ اللّيل قد اجلوّذَ، والنّعاس قد استَحوذ، فافزعوا إلى المراقِد، واغْتَنِموا راحة الرّاقِدِ، لتشربُوا نَشاطاً، وتُبْعَثُوا نِشاطاً، فتعُوا ما أُفسِّر، وبتسهّل لكم المتعسر، فاستصْوبَ كُلٌّ ما رآه، وتوسَّد وسادة كَرَاه. فلما وَسَنَتِ الأجفان وأغفَتِ الضِّيفان، وثب إلى النَّاقة فرحَلها ثمّ ارتَحلها، وقال مخاطباً لها: [الرجز]

سَروج يا ناقُ سِيري وخِدِي وأدْلِجي وَأوّبي وأسئِدي

حتَّى تطا خُفَّاكِ مَرْعاها النَّدي فتَنْعَمي حينئذٍ وتسْعَدي

وتأمَني أن تُتْهمي وتُنْجِدي إيه فَدَتْك النُوق جِدّي واجْهَدي

وَافري أديم فَدْفَدٍ فَفَدْفَدِ واقْتَنِعي بالنّشج عند المؤرِد

ولا تَحُطّي دون ذاك المقصِدِ فقد حَلَفتُ حَلْفة المجتهِدِ

بحرمة البيت الرّفيع العُمُدِ إنَّك إنْ أحْلَلْتِني في بَلَدي

* حَلَلْتِ منّي بِمَحَلِّ الوَلَدِ *

* * *

قوله: بشره، أي طلاقته. يشفّ: يتلألأ ويرقّ حتى يكاد يصفُ ما وراءه من السُّرور. نُضرته: نعمته ورونقه. تَرِفّ: تندَى. استحوذ: غلب واستولى، افزعوا: الجؤوا، لتشربوا نشاطاً، أي يتمشى النشاط في أجسادكم حتى تُرْوَوْا به، تُبعثوا: تنتبهوا. نشاطاً: جمع نشيط ككريم وكرام، ونشط ينشَط فهو نشيط، إذا كان طيّب النفس للعمل. تعوا: تحفظوا. المتعسّر: الصعب. كراه: نومه. سَنَتْ: خالطها الوسَن، وهو النوم. أغفت: نامت.

قوله: خِدِي، أي أسرعي. تُتْهمي وتُنْجدي: تقصدي تهامة ونجداً. إيه، معناه

(١) راجع تخريج الرجز قبل قليل.

زيدي في سيرك، اجهدي: اتعبي. افري: أقطعي، أديم: جلد فدفد: أرض صُلبة. وقيل مستويةٍ، وقيل فلاة، وأراد بالأديم وجه الأرض. ونَشَح ينشح نَشْحاً: شرب قليلاً قليلاً. تَحُطّي: تنزلي، العُمُد، والعمود: ما يقومُ عليه الخِباء.

وقوله يخاطب ناقته: **[الرجز]**

إنك إن أحللتِني في بلدي ... حَلَلتِ منّي بمحلّ الوَلَدِ

قد جاء في كلامهم نظيره وضدّه، وكلاهما في بابه حسن، قال الشماخ في ضدّه من مجازاة الناقة على إحسانها بالسوء: **[الوافر]**

إذ بلّغتِني وحَمَلْتِ رَحْلِي ... عَرابَةَ فاشْرَقِي بدمِ الوَتِينِ[(١)]

وناقضه الآخر فقال: **[الوافر]**

أقول لناقتي إذ بلّغتْني ... لقد أصبحتِ منّي باليمينِ

فلم أجعلك للقربان طَعْماً ... ولا قلتُ اشرقي بدم الوتينِ

وتبعه ذو الرُّمة فقال: **[الطويل]**

أقول لها إذ شمّر الليل واستوتْ ... بها البِيدُ واستَنّتْ عليها الحزَاورُ[(٢)]

إذا ابن أبي موسى بلالاً بلغتِه ... فقام بفأسٍ بين رجليك جَازِرُ

وتوجيه الحسن في هذا المذهب على شنعة ظاهره أنّه لا يبالي بفقدها، لأن الممدوح يحمله، ويعطيه فهو في غنًى عنها، ومن يعيب هذا يقول مجازاةُ الحسن بالسوء قبيح، وقد قال رسول الله ﷺ للمرأة التي قالت وقد نجت على ناقته: نذرتُ إن نجّاني الله عليها أن أنحرها: «بئس ما جازيتها، ولا نذر لك في مال غيرك»[(٣)] والمذهب الأحمد في ذلك قولُ عبد الله بن رواحة رضي الله عنه حين خرج في جيش مؤتة يخاطب ناقته: **[الوافر]**

إذا بلّغتنِي وَحَمَلْتِ رَحْلِي ... مسيرة أربعٍ بعد الحساءِ[(٤)]

---

(١) البيت في ديوان الشماخ ص ٣٢٣، ومقاييس اللغة ٢/ ٢٣٦.

(٢) البيتان في ديوان ذي الرمة ص ١٠٤٢، والبيت الثاني في خزانة الأدب ٣/ ٣٢، ٣٧، وسمط اللآلي ص ٢١٨، والكتاب ١/ ٨٢، وبلا نسبة في أمالي ابن الحاجب ١/ ٢٩٦، ومغني اللبيب ١/ ٢٦٩، وفي الديوان «بين وصليك» بدل «بين رجليك».

(٣) أخرجه أبو داود في الأيمان باب ٢١، والدارمي في السير باب ١، وأحمد في المسند ٤/ ٤٢٩، ٤٣٠، ٤٣٢، ٤٣٤.

(٤) البيت في ديوان عبد الله بن رواحة الأنصاري ص ٧٩، والبيت الأول في لسان العرب (حسا)، والكامل ص ١٦٨، وسمط اللآلي ص ٢١٩، والبيت الثاني في لسان العرب (خلا)، وتهذيب اللغة ٧/ ٥٦٩، وخزانة الأدب ٢/ ٣٠٣، ٣/ ٣٩.

فشأنكِ فانعمي وخلاكِ ذمٌّ ولا أرجع إلى أهلي ورائي

ولهذا تبعه الحريري في شعره.

وقال الحسن: [الكامل]

وإذا المطيّ بنا بلغن محمداً فظهورهنّ على الرِّجال حرام[1]

قرّبنَنَا مِنْ خير من وَطِىءَ الثرى فلها علينا حُرْمَةٌ وذمام

وقال داود بن أسلم يمدحُ قُثَم بن العباس رضي الله عنهما: [السريع]

نجوتِ من حَلٍّ ومن رِحْلَةٍ يا ناق إن بَلَّغتنِي من قُثَمْ[2]

إنّك إنْ بلّغتنيه غداً عاش لنا الخير ومات العَدَمْ

* * *

قال: فعلمت أنّه السَّروجي الّذي إذا بَاعَ انباع، وإذا ملأ الصاعَ انصاع.

ولمّا انبَلَجَ صَبَاحُ اليَوم، وهبَّ النوّام من النوم، أعلمْتُهُم أن الشيخ حين أغشاهم السُّبات، طَلَّقَهم البَتَات، وركب الناقة وفات؛ فأخذهم ما قدُم وما حَدُث، ونسوا ما طابَ منه بما خَبُث؛ ثمّ انشعبنا في كلّ مَشْعَب، وذَهَبْنا تحت كلِّ كَوْكَب.

* * *

قوله: انباع، أي جرى ومدّ باعه، ومعناه هرب منه في سيره. يقال: صُعْت الشيء فانصاع، أي فرقْته فتفرّق، ومعناه إذا ملأ كيسه من عطاء قوم راح عنهم. انبلج: أضاء، هبّ: انتبه، أغشاهم: غطّاهم. السُّبَات: النوم الخفيّ كالغاشية: ثعلب: السُّبات ابتداء النوم في الرأس حتى يبلغ القلب، وسبت الرجل فهو مسبوت: نعس. والبتات: القطع البائن. فات. أي فرّ فلا يُلْحَق.

وذكر الحريري في درّة الغواص: أن قولهم: حَدُث أمر بضم الدال قياساً على أخذهم ما قَدُم وما حَدُث خطأ، وإنما ضُمّت الدال من حدُث حين قرن بقَدُم للمحافظة على الموازنة، فإذا أفردت لفظة حَدُث زال موجب الضم، ووجب الردّ إلى الأصل. قال: وأنشدني بعضُ أدباء خُراسان لأبي الفتح البستي: [الرجز]

جزعت من أمرٍ فظيع قد حَدُثْ أبو تميم وهو شيخ لا حدَثْ

* قد حبس الأصلع في بيت الحدَث*

* * *

---

(١) البيتان في ديوان أبي نواس ص ٦٤.

(٢) البيتان لسليمان بن قنة في الكامل ٢/ ٢٢٩.

لم نتعرض في شرح هذه المقامة، لما ثبت في كتاب المقامات من شرح منُشْيها، بل نُعقب ما أهمله، وكان الأولى إثبات ما شرح بنصه؛ إذ هو وَفْقٌ لغرضِه.

قال الشيخ الرئيس أبو محمد القاسم بن عليّ رحمه الله تعالى:

قد فسّرتُ سرَّ كل لغز تحته، ولم أُبعد على مَنْ يقرؤه كشفه، وقد بقيتْ أَلْفَاظ اشتملت عليها هذه المقامة ربما التبس تفسيرُها على بعض مَنْ تقع إليه فأحببتُ إيضاحها له ليُكْفَى حَيرة الشبهة وكُلْفة الفكرة، ووصْمَة البحث والمسألة، وبالله تعالى الاستعانة والقوة.

قوله: «عشوتُ إلى نار» يعني تنوّرتها فقصدتها فإن لم تقصدها قلت: عَشَوت عنها، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عن ذِكْرِ الرَّحمنِ﴾ [الزخرف: ٣٦]، أي يُعْرِض.

وقوله: «وأنا أصْرَد من عينِ الحَرباء والعَنْزِ الحَرْباء»، هذان مَثَلان يُضْربان لمن يبلغ منه البرد، وذلك لأنّ الحرباء تدور أبداً مع الشمس وتستقبلها بعينها، ولذلك شبّه ابن الرومي الرّقيب بالحرباء في قوله: **[الكامل]**

ما بالُها قد حُسِّنَت ورقيبها ... أبداً قَبيحٌ، قَبِّحَ الرُّقَباء
ما ذاك إلاّ أنّها شمس الضُّحا ... أبداً يكون رقيبَها الحِرْباءُ

والعنز الجَرباء لا تدفأ في الشتاء لقلة شعرها، وذكر بعضهم أن العَنْز الجرباء تصحيف المثَل الأول.

وقوله: «من نحر وارٍ» يعني الجمل المكتنز شحماً، الكثير مُخّاً.

وقوله: «عِشاره تخورُ وأعشاره تفور» العِشار: النوق الحوامل والأعشار: البُرمة العظيمة. كأنها شُعبت لعظمها، يقال: بُرَمةٌ أعشار وجفنَةٌ أكسار وثوبٌ أسمال وبردٌ أخلاق وحبل أرمام، ووصف الجماعة منها كوصف الواحد.

وقوله: «فاكهة الشتاء» كنَى بها عن النار، ومنه قول بعض المحدثين: **[الكامل]**

النّار فاكهة الشتاء فمن يُردْ ... أكل الفواكه شاتياً فليصْطَلِ
إنّ الفواكه في الشتاء شهيةٌ ... والنّار للمقرور أفضلُ مأكل

وقوله: «موائد كالهالات» يعني دارات القمر، ودارة الشمس تسمّى الطُّفاوة.

وقوله: «مَشوش الغَمر» يعني المنديل، يقال: مشّ يده بالمنديل، أي مَسَحها، ومنه قول امرىء القيس: **[الطويل]**

نمُشُّ بأعراف الجياد أكُفَّنا ... إذا نحن قُمنا عن شِواءٍ مُضَهّبِ[1]

---

(١) البيت في ديوان امرىء القيس ص ٥٤.

وقوله: «مشتبهاً فوداه أي صارا من الشَّيْب في لون الأشهب، ومنه قول امرىء القيس:

قـالـتِ الـخَـنْـسَـاءُ لـمّـا جـئـتُـهـا شـابَ بَـعْـدِي رأس هـذا واشْـتـهـبْ[1]

وقوله: «رَبَض حَجْرة» يعني ناحية، ويقال في المثل لمن يشارك في الرّخاء ويجانب عند البلاء: يَرْتَعُ وسطاً ويَربض حَجْرة.

وقوله: «فاسْتَرْعَى سَمْعَ السَّامر» يعني السُّمار؛ لأن السامر اسم للجمع كالحاضر اسم للحيّ النازلين على الماء، وكالباقر: اسم لجماعة البقر.

وقال بعض أهل اللغة: هو اسم للبقر مع رُعاتها، واشتقاق السَّامر من السّمر، وهو ظل القمر مأخوذ من السمرة فلمّا كان غالب أحوال السّمّار أنهم يتحدثون في ظل القمر اشتُقّ لهم اسم منه، وإلى هذا يَرْجع قولهم: «لا أكلّمه القَمَر والسَّمر».

وقوله: «ليس بعُشِّك فادرُجي» هذا مثل يضرب لمن يتعاطى ما لا ينبغي له، والعُشُّ: ما يكون في شجرة، فإذا كان في حائط أو كهف جبل فهو وكر.

وقوله: «الإيناس قبل الإبساس» هذا مثل أيضاً، ومعناه أنه ينبغي أن يؤنس الإنسان ثم يكلّف، وأصله أنّ حالب الناقة يؤنسها حين يَرُوم حَلَبها، ثم يبسّ بها للحلب، والإبساس أن تقول لها: بس بس، لتسكُن وتَدِرّ وتسمّى الناقة التي تَدِرّ على الإبساس: البَسوس.

وقوله: «يرغب في الشَّكْم» الشكم ما أعطيتَه على سبيل المجازاة، فإن أعطيته مبتدئاً فهو الشّكد.

وقوله: «ساء أبا مثوانا» يعني المُضيف الذي أووا إليه وثووا عنده.

وقوله: «ناقة عيديّة» قيل إنها منسوبة إلى فحل منجب اسُمه عيد، وقيل: هي منسوبة إلى فخذ من مَهرة اسمه عيد بن مهرة وكانت مهرة وعيِد تتخذان نجائب الإبل، فنسبت إليهما.

وقوله: «حلّة سعيدية» هي منسوبة إلى سعيد بن العاص، وكان رسول الله ﷺ كَسَاه وهو غلام حُلّة فنُسِب جِنسُها إليه.

وقوله: «لا تَرزَأ أضيافي زبالاً» أي لا ترزؤهم شيئاً وإن قل، والأصل في الزِّبال ما تحمله النملة بفيها.

وقوله: «شنشنة أخزمية» أشار به إلى المثل الذي ضربه جدُّ حاتم بن عبد الله بن

---

(١) البيت في ديوان امرىء القيس ص ٢٩٣، ولسان العرب (شهب)، والمخصص ١/ ٧٨، وبلا نسبة في تهذيب اللغة ٦/ ٨٧، وديوان الأدب ٢/ ٣٩٤.

سعد بن الحشرج بن أخزم الطائي، حين نشأ حاتم وتقبَّل أخلاق خدّه أخزم في الجود. فقال: «شنشنة أعرفها من أخزم» وتمثَّل عُقيل بن علّفة به حين قال: [الرجز]

إن بَنِي ضرّجوني بالدمِ مَنْ يَلْقَ آساد الرجال يُكلم

* شِنْشِنَةٌ أعرفها من أخزمِ[1] *

ومن ادّعى أن المثل له فقدسها فيه.

وقوله: «اجلوّذ» أي أسرع في الذَّهاب ومثله اخرَوَّط.

وقوله: «وَثَب إلى النَّاقَةِ فرحَلها» يعني شدّ عليها الرّحْل، وبه سُمِّيت الراحلة لأنها فاعلة بمعنى مفعولة كقوله تعالى: ﴿فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١]، أي مَرْضية. وكقوله تعالى: ﴿مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: ٦]، أي مدفوق، والرَّاحلة تقع على الناقة والجمل ودخولها الهاء فيها للمبالغة، مثل داهية وراوية.

وقوله: «ارتحلها» أي ركبها، وفي الحديث أن النبي ﷺ سجد، فركبه الحسن فأبطأ في سجوده، فلمّا قضى صلاته قال: «إنّ ابني ارتحلني فكرهتُ أن أُعجِله»[2].

وقوله: «ورحَلها» أي أزعجها وأشخَصها وأجدّ بها في الرحيل، ومنه الخبر: «تخرج عند اقتراب الساعة نارٌ من قَعْرِ عَدَن تَرْحَلُ الناس»[3].

وقوله: «فأدْلجي وأوّبي وأسئدي». الإدلاج: أن تسير الليل كلّه والاسم منه الدَّلجة بفتح الدال والادّلاج بالتشديد: أن تسير من آخره والاسم منه الدُّلجة، بضم الدال. وقيل فتحها وضمها بمعنى واحد. والتأويب: سَيْر النّهار وحده، والإسئاد: أن تسير ليلاً ونهاراً. والنَّشْح: أن تشرب دُون الرّيّ.

وقوله: «ما قدُم وما حدُث» يقال ذلك لمن تستولي الهموم عليه وتتلاعب به. وتضمّ الدال من «حَدُث» في هذا الموضوع وحده، ليوافق لفظها لفظ «قَدُم»؛ فإن أفردت «حدَث» عن قَدُم وجب فتح الدال من «حَدَث». ومثله قولهم: هنأني ومرأني بحذف الألف من أمرَأني إذ ذكر مع «هنأني» فإن أفردته قلت: أمرأني الشيء.

وقوله: «ذهبنا تحت كلّ كوكب» هذا المثل يضرب لمن تختلف في السفر طُرُقهم وتتباين سبلهم.

---

(١) الرجز لأبي أخزم الطائي في لسان العرب (رمل) (خزم)، (شنن)، ومجمل اللغة ٣/ ١٨٣، ولعقيل بن علفة في جمهرة اللغة ص ٥٩٦، وبلا نسبة في تهذيب اللغة ٧/ ٢١٨، ١١/ ٢٨١، وتاجر العروس (نشش)، وجمهرة اللغة ص ٨٠١، وكتاب العين ٦/ ٢٢٠، والمخصص ٦/ ٩٤، وديوان الأدب ٣/ ١٠٦.

(٢) أخرجه النسائي في التطبيق باب ٨٢، وأحمد في المسند ٣/ ٤٩٤، ٦/ ٩٩.

(٣) أخرجه مسلم في الفتن حديث ٤٠، وأحمد في المسند ٤/ ٧.

المقامة الخامسة والأربعون

وهي الرّمليّة

حكى الحارث بن همام قال: كنت أخذتُ عن أولي التَّجاريب، أن السّفَر مرآة الأعاجيب، فلم أزل أجوبُ كلَّ تَنُوفة، وأقتحم كلَّ مَخُوفة، حتى اجتلبت كلَّ أُطروفة: فمن أحسن ما لمحتَهُ، وأغربِ ما اسْتَمْلَحْتُهُ، أن حَضَرتُ قاضي الرَّمْلة، وكان من أرباب الدّولة والصَّولة، وقد ترافع إليه بالٍ في بال، وذاتُ جمالَ في أسمال، فهمّ الشَّيخُ بالكلام، وتبيان المَرَام؛ فمنعته الفتاة من الإفصاح، وخسأته عن النّباح، ثمَّ نَضَتْ عنها فضْلَة الوشاح، وأنشدته بلسان السَّلِيطَة الوقاح.

* * *

أولي التجاريب، أي أصحابها وأهلها. أجوب: أقطع، تنوفة: قفرة. أقتحم: أدخل. اجتليت: رأيت. أطروفة: عجيبة. لمحته: نظرته. استملحته: وجدته مليحاً. الصولة: الاستطالة. وقد صال إذا استطال وهدّد. ترافع، أي تداعى للحكومة، ورفع كلّ واحد صاحبه. بال: شيخ كبير. في بال: في ثوب خَلَق. وأسمال، ثياب خَلَقَة، واحدها سَمَل، وسمل الثوبُ وأسمل، ويقال أيضاً: ثوب أسْمال، فيوصف بالجمع، كما يقال: رمح أقصاد، وبُرمة أعشار. تبيان المرام: تبيين مراده. وإظهار حجته. الإفصاح: التبيين. خسأته: أبعدته وطردته، النُّباح: الكلام هنا. وخسأ ونبح أصلهما في الكلب، ويقال: خسأتُ الكلب خسئاً: طردته وأبعدته، وخسأ الكلب بنفسه، أي انخسأ، يتعدى ولا يتعدّى، قال تعالى: ﴿**اخسَئُوا فيها**﴾ [المؤمنون: ١٠٨] أي تباعدوا تباعدَ سُخْط. نضت: جردت. الوشاح: الحزام، وهو المنطقة، الفنجديهي: الوشاح شبه قلادة تنسج من أدم عريضة وتُرَصَّع بالجواهر وغيرها، السّليطة: المستطيلة بلسانها، الوقاح: التي ليس في وجهها حياء، فهي تقول ما شاءت. **[السريع]**

* * *

يـا قـاضِـيَ الـرّمـلـة يـا ذا الـذيّ … فـي يـده الـتَّـمـرةُ والـجَـمْـرَهْ

إلـيـك أشـكُـو جَـوْر بَـعْـلـي الَّـذِي … لـم يَـخْـجُـجِ الـبَـيـتَ سِـوى مـرّهْ

ولـيـتَـهُ لـمَّـا قـضـى نُـسـكَـه … وخـفَّ ظَـهْـراً إذ رَمَـى الـجـمـرهْ

كـانَ عـلـى رأي أبـي يـوسُـفِ … فـي صِـلَـةِ الـحِـجَّـةِ بـالـعُـمْـرَهْ

هـذا عـلـى أنـى مُـذ ضَـمَّـنِـي إلـيـهِ لَـمْ أعـصِ لـه أمْـرَهْ
فـمـرُهْ إمَّـا ألـفـةً حُـلْـوَةً تُـرْضِـي وإمّـا فُـرْقَـةً مُـرّهْ
مـن قـبـل أن أخـلـع ثـوب الـحـيـا فـي طـاعـة الـشـيـخِ أبـي مُـرّهْ

* * *

الرّملة: قرية بالشأم، وقسم الشأم خمسة أقسام، فخُمس منه فلسطين ومدينته العظمى الرّملة، والرملة أربعة آلاف ضيعة، ومن مدن فلسطين إيلياء مدينة بيت المقدس، وبينها وبين الرملة ثمانية عشر ميلاً، وقال ابن ظَفَر: عشرون فرسخاً، التّمرة والجمرة: الخير والشر، والنفع والضّر، ويضرب بهما المثل في هذا المعنى، ومن قضى له بشيء فكأنه قد أعطاه. والبيت، وغَنَتْ به فَرَجها يُحْجَج: يقصد إليه بالجماع، وقولها سوى مرّة، تريد أوّل مرّة وطئها وافترعها ولم يعُدْ لها بعد تلك المرة، وتعني بالنسك افتراعها وما هناك من الدم. وعَنَتْ برمي الجمرة إتيانه لها، وجمع الجمر جمار، وهي الحجارة الصغار عند العرب، وجمر الرجل تجميراً: رمى جمار مكة، قال عمر بن أبي ربيعة: **[الطويل]**

فـلـم أر كـالـتـجـمـيـر مـنـظرَ نـاظرٍ ولا كَـلَـيـالـي الـحـج أفـلـتـن ذا هَـوَى

ومنه الحديث: «وإذا استجمرتَ فأوتر»[1]. معناه تمسَّحت بالحجارة.

[أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم]

أبو يوسف، هو يعقوب بن إبراهيم بن حسين بن سعد بن حبيب الأنصاريّ.

وأبو يوسف كوفيّ صاحب أبا حنيفة فغلب عليه؛ حتى قالوا: أبو يوسف أبو حنيفة. أي يسدّ مسدّه ويغني عنه، وروي عن أبي حنيفة والمطرّف والمغيرة وهشام بن عروة الشيباني. وكان صدوقاً من أهل الدين والعلم، وكان قاضيَ القضاة ببغداد لثلاثة خلفاء: المهدي والهادي والرشيد، وكانت أم جعفر قد استفتته في مسألة، فأفتاها بما أوجبه العلم عنده، فوافق بذلك مرادها، فأهدت له حُقّاً من فضة فيه طيب وجام فضة فيه دنانير، فقال له بعضُ مَنْ حضره: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أهدِيتْ له هدية فجلساؤه شركاؤه فيها»، فقال أبو يوسف تأوّلتَ الخبر على ظاهره، والاستحسان قد منع من إمضائه، فإن ذلك إذ كان هدايا الناس التّمر واللبن، لا في هذا الوقت، والهدايا ذهب ووَرِق، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

---

(١) روي بطرق وأسانيد متعددة، أخرجه البخاري في الوضوء باب ٢٥، ٢٦، ومسلم في الطهارة حديث ٢٠، ٢٢، ٢٤، وأبو داود في الطهارة باب ١٩، والترمذي في الطهارة باب ٢١، والنسائي في الطهارة باب ٣٨، ٧١، وابن ماجه في الطهارة باب ٢٣، ٤٤، والدارمي في الوضوء باب ٥، ٣٢، ومالك في الطهارة حديث ٤، وأحمد في المسند ٢/ ٢٣٦، ٢٥٤، ٢٧٧، ٣٠٨، ٣١٥، ٣٥١، ٣٥٦، ٣٦٠، ٣٧١، ٣٨٧، ٤٠١، ٤٦٣، ٤٨٢، ٣/ ٢٩٤، ٤٠٠، ٤/ ١٥٦.

قال أبو جعفر الطحاوي: ولد أبو يوسف سنة ثلاث عشرة ومائة.

حمّاد: رأيت أبا حنيفة يوماً وعن يمينه أبو يوسف وعن يساره زُفر، وهما يتجادلان في مسألة، فلا يقول أبو يوسف قولاً إلاّ أفسده عليه زُفر، ولا يقول زُفَر قولاً إلاّ أفسده عليه أبو يوسف إلى وقت الظهر، فلمّا أذّن المؤذن رفع أبو حنيفة يدَه، فضرب بها فخِذَ زُفر، وقال: لا تطمع في رياسة في بلد فيها أبو يوسف، فَقَضى لأبي يوسف.

عليّ بن حرملة التيميّ: قال أبو يوسف: كنت أطلبُ الحديث والفقه، وأنا مُقلٌّ رثُّ الحال، فجاء أبي يوماً وأنا عند أبي حنيفة، فانصرفت معه، فقال: يا بنيَّ لا تمدَّنَّ رجليك مع أبي حنيفة، فإن خير أبي حنيفة مستوٍ، وأنت محتاج إلى المعاش، فقصَّرت عن كثير من الطَّلب، وآثرتُ طاعة والدي فتفقَّدني أبو حنيفة، وسأل عني، فجعلتُ أتعهَّد مجلسه، فلمّا كان أوّل يوم أتيته بعد تأخُّري عنه، قال لي: ما يشغلك عنا؟ قلت: الشَّغْل بالمعاش، وطاعة والدي، فلمّا انصرف الناس دفَع إليَّ صُرَّة، وقال: استمتع بهذه، وإذا فيها مائة درهم، وقال لي: الزم الجماعة، فإذا نَفِدتْ فأعلمني، فلزمت الحلقة، فلمّا مضت مدَّة يسيرة دفع إليّ مائة أخرى، ثم كان يتعهَّدني كذلك، وما أعلمته بنفادها قطُّ، وكأنه كان يخبر بنفادها حتى استغنيت وتموَّلت.

عليّ بن الجعد: حدثني أبو يوسف، قال: توفِّيَ أبي إبراهيم، وخلَّفني صغيراً في حِجْرِ أمي فأسلمتْني، إلى قصَّار أخدمه، فكنت أدَعُ القَصَّار وأمرّ على حلقة أبي حنيفة فأجلس وأستمع، فتجيء أمي فتأخذ بيدي وتذهب بي إلى القصار، وكان أبو حنيفة يُعنى بي لِمَا كان يرى من حرْصي على التعلّم، فلما طال ذلك على أمي وكثُر عليها هربي، قالت لأبي حنيفة: ما لهذا الصبيِّ فساد غيرك، هذا صبيٌّ يتيم لا شيء له، وإنما أطعمه من مِغْزَلي، وآمل أن يكتسب دانقاً يعود به على نفسه، فقال لها أبو حنيفة: مرِّي يا رعناء، ها هو ذا يتعلَّم أكل الفالوذج بدُهن الفستق، فانصرفَتْ عنه وهي تقول: أنت شيخ قد خرِفت وذهب عقلك. قال: ثم لزمته ونفعني الله تعالى بالعلم ورفعني حتى تقلَّدت القضاء، فكنت أجالس الرشيد، وآكل معه على مائدته، فلما كان في بعض الأيام قُدِّم إليه فالوذجة. فقال لي: كلْ يا يعقوب، فليس في كلِّ يوم يُعْمَل لنا مثلها، فقلت: وما هذه يا أمير المؤمنين؟ فقال: هذه فالوذجة بدُهن فُسْتُق، فضحكت فقال لي: مِمَّ تضحك؟ فقلت: خيراً، وأبقى الله أمير المؤمنين، فقال: لتخبرنِّي وألحَّ عليَّ، فحدّثته بالقصَّة من أولها إلى آخرها. فعجب من ذلك، وقال: لعمري إنَّ العلم لينفع ويرفع ديناً ودنيا، وترحَّم على أبي حنيفة، وقال: إنه كان ينظُر بعين عقله ما لا ينظره غيرُه بعين رأسِه. وأبو يوسف أوّل من دُعي بقاضي القضاة في الإسلام.

إسحاق الموصليّ: حدَّثني بشر بن الوليد، وسألته: من أين جاء؟ فقال: كنت عند أبي يوسف القاضي، وكنت في حديث ظريف. فقلت: حدثني به، فقال: قال لي أبو

يوسف: كنت البارحة قد أوَيْتُ إلى فراشي، فإذا داق يدُقّ الباب بشدَّة، فأخذت عليّ إزاري، وخرجت، فإذا هو ابنُ أعين يقول: أجب أمير المؤمنين، فقلت: يا أبا حارثة لِي بك حُرمة، وهذا وقتٌ كما ترى، ولست آمن أن يكون أمير المؤمنين دعاني لمكروهٍ، فإن أمكنك أن تَدَع الأمير إلى غد فلعله أن يحدث له رأي! فقال: ما لي إلى ذلك من سبيل، قلت: كيف كان السبب؟ قال: خرج إليَّ مسرور الخادم، فأمرني أن آتيَ بك أميرَ المؤمنين، فقلت: أتأذن لي أن أصبَّ عليَّ ماء وأتحنّط فإن كان أمرٌ كنت قد أحكمتُ شأني، وإن رزق الله العافية فلن يضرَّ، فدخلت ففعلت ذلك، وتطيبت ثم خرجنا إلى دار الرشيد ومسرور واقف، فقلتُ: يا أبا هاشم خِدمتي وحُرمْتي، وهذا وقت ضيِّق، أفتدري لم طلبني؟ قال: لا، قلت: فمن عنده؟ قال: عيسى بن جعفر وحدَه، ثم قال: مُرَّ فإذا صرت في الصّحن فحرِّك رجليك، فإنه في الرواق ففعلت، فقال: مَنْ هذا؟ قلت: يعقوب، قال: ادخل، فدخلت فسلَّمت فردّ عليّ السلام، وقال: أظنُّنا روَّعناك؟ قلت: إي والله ومَنْ خَلَفي، قال اجلس، فلما سكن رَوْعى، قال: يا يعقوب هَلْ تدري لم دعوتك؟ قلت: لا، قال: لأشهدك على هذا؛ إنّ عنده جاريةً، فسألته أن يهبهَا أو يبيعها لي فأبى، ووالله لئن لم يفعل لأقتلنه. فالتفتُّ إلى عيسى وقلت: وما بلغ قَدْر الجارية؟ أتمنعُها أمير المؤمنين وتنزّل نفسك هذه المنزلة؟ فقال لي: عجَّلت القول قبل أن تعرف ما عندي، إن عليَّ يميناً بالطلاق والعتاق وصدقة ما أملك ألاّ أبيعها لأحدٍ ولا أهبها، فالتفت إليَّ الرشيد، فقال لي: هل لك في ذلك مخرج؟ فقلت: نعم، قال: وما هو؟ قلت: يهب لك نصفَها ويبيعُك نصفها، فيكون لم يبعْ ولم يَهبْ، قال عيسى: ويجوز ذلك؟ قلت: نعم، قال: فأشهدك أني قد وهبتُ له نصفها، وبعت منه نصفها بمائة ألف دينار، وأتِيَ بالجارية، فقال: خذها يا أمير المؤمنين بارك الله لك فيها، قال: يا يعقوب، وبقيت واحدة، قلت: يا أمير المؤمنين، وما هي؟ قال: هي مملوكة ولا بدَّ أن تُسْتَبرأ، ووالله إنّ نفسي لتخرج إنْ لم أبت معها. فقلت: يا أمير المؤمنين تعتقها وتتزوجها، فإن الحرَّة لا تُستبرأ، قال: فإني قد أعتقتها، فدعا بمسرور وحسن، وخَطَبْت وحمدت الله ثم زوجت على عشرين ألف دينار، ودُفع المال إليها، ثم قال: يا يعقوب انصرف، ثم قال: يا مسرور احمل إلى أبي يوسف مائتي ألف درهم وعشرين تخْتاً ثياباً، فحمل معي ذلك، قال بشر: فالتفت إلي يعقوب، فقال: هل رأيت بأساً فيما فعلت؟ قلت: لا قال: فحقّك منها العُشْر فشكرته، وذهبت: لأقوم وإذا بعجوز دخلتْ، فقالت: يا أبا يوسف، بنتُك تقرِئك السلام، وتقول: والله ما وصلني من أمير المؤمنين في ليلتي هذه إلاّ المهر الذي قد عرفت، وقد جَعَلت إليك النصف منه، وخلّفت الباقي لما أحتاج إليه، فقال: رُدِّيه، فوالله لا قبلتُه، أخرجتُها من الرّق وزوَّجتها من أمير المؤمنين وترضيني بهذا، فلم نزل نتلطف إليه أنا وعمومتي يقبَلها فقبلها وأمر لي بألف دينار.

وأما صلة الحج بالعمرة التي ذكر الحريري، فإن أبا يوسف في ذلك مخالف لمالك

رضي الله عنهما في أن القِران في الحج أفضلُ من الإفراد، وهو مذهب عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وقوله: خَفَّ ظهراً، أي حطَّ عن ظهره بعضَ الذنوب، والذي أرادت أنه لم يأتها ولا جامعها غير مرَّة واحدةً خفَّف بها ظهره وبعض شهوته وليته فعل ذلك مرَّتين فورَّت بظاهر كلامها عن هذا المعنى.

وجاءت امرأة إلى المغيرة بن شعبة بزوجها تستعديه عليه، وتذكر أنه عِنّين فقال الرجل: [الكامل]

الله يعلم يا مغيرةُ أنني ... قد دُسْتُها دَوْسَ الحِصانَ المُرْسَلِ[1]

وأخذتها أخذ المعنّف شاته ... عَجْلان يذبحها لقوم نُزَّلِ

فقال له المغيرة: إنّي لأرى ذلك في شمائلك.

وخاصمت الدّهناء بنت مسحل أحد بني مالك بن سعد بن زيد مناة العجَّاج، وكان من بني عمها إلى والي اليمامة، فكان أبوها يُعينها على ذلك، فقال له أهل اليمامة: ألا تستحي، تطلب العُسْبَ لابنتك! فقال: إني أحبّ أن يكون لها ولد، فإن أفرطتهم أجِرت، وإنْ بَقُوا دعوا الله لها، فدخلتْ على الوالي، فقالت: إني منه بجمع، فقال: لعلّك تغارين الشيخ؟ فقالت: إنّي لأرخي له بادّي، وأقيم صُلبْي، فقال العجاج: [الرجز]

أظنت الدهنا وظنّ مسحَلُ ... أن الأمير بالقضاء يعجلُ[2]

عن كسلاتي والحصان يكْسَلُ ... عن السِّفاد وهو طِرْف هيْكلُ

فقالت هي: [الرجز]

والله لولا خشيةُ الأميرِ ... وخشية الشّرطيّ والمشيرِ[3]

لجلت من شيخ بني الفقيرِ ... كجولاَن صَعْبَةٍ عسير

فأخذها وضمها إليه يقبّلها فقالت: [الرجز]

تالله لا تخدعُني بالضَّمّ ... إليك والتَّقْبِيل بعْد الشَّمّ[4]

---

(١) البيتان للعجاج في ملحق ديوانه ٢/ ٣١٢، وتاج العروس (فتخ) ولسان العرب (فتخ).

(٢) الرجز للعجاج في ملحق ديوانه ٢/ ٣١١، ولسان العرب (كسل)، (هكل)، (دهن)، وتهذيب اللغة ١٠/ ٦٠، وتاج العروس (كسل)، (دهن).

(٣) الرجز للدهناء بنت مسحل (امرأة العجاج) في لسان العرب (ترر)، وتاج العروس (تأر)، (ترر)، وبلا نسبة في مقاييس اللغة ١/ ٣٣٨، ومجمل اللغة ١/ ٣١٨.

(٤) يروى الرجز:

إلاّ بزعزاع يُسلّي همّي ... تُسقط منه فَتَخني في كمّي

وهو للدهناء بنت مسحل في لسان العرب (فتخ)، (زعع)، والتنبيه والإيضاح ١/ ٢٨٨، وبلا نسبة في مقاييس اللغة ٤/ ٤٧٠.

إلاّ بـهـزْهـازٍ يُـسَـلِّـي هـمِّـي   يـنـزع عَـنِّـي فـتـجـي فـي كُـمـيِّ

فذهب بها إلى أهلها، فطلّقها في تلك الليلة سراً، ولو استقبلها العجاج بما وصف ابن الرومي حيث يقول: [الوافر]

ألاَ يـا هـنـد هـل لـك فـي مـمـدٍّ   غـلـيـظٍ تـفـرحـيـن بـه مـتـيـنْ

يـشـدُّ بـه حـشـاك غـلام نَـيْـكٍ   مـن الـفـتـيـان مـنـقـطـع الـقـريـنْ

فـمـن يـره يـبـولُ يـقـول: أنـثـى   بـدا مـن فـرجـهـا ثـلـثـا جـنـيـنْ

لرضيتْه، ولم تحاكمه.

قوله: ألفة: صُحبة. أخلع: أزيل. وأبو مرّة. كنية إبليس لعنه الله، وكني بذلك لما تقدَّم أنَّ أبغض الأسماء إلى الله مرَّة وحرب. تقول: إما يصاحبني صحبةً يرضيني فيها بكثرة الجماع، وإلا أزلتُ عني الحياء وخرجت أزني وأفسق في طاعة إبليس، ولو عالجها بما كان يعالج به رجل زوجته، وكان إذا وقع بينهما شرٌّ انحنى عليها بالجماع، فكانت تقول: لعنك الله! كلمّا وقع بيننا شرّ جئتني بشفيع لا أقدر على ردّه! فلو جاءها بهذا الشفيع لما رفعته إلى الوالي.

محمد بن يحيى بن حيّان: عاتبت جدَّتي جَدّي في قلة الباه، فقال لها: أنا وأنت على قضاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قالت: وما قضاء عمر؟ قال: قال: إن الرجل إذا أتى امرأته في كلِّ طُهرٍ مَرّة فقد أدَّى حقها، قالت: فكلُّ الناس تركوا قضاء عمر، وأقمتُ أنا وأنت عليه!.

وقال أعرابي كَبر وَعَجَز: [الرجز]

عـجـبـت مـن أيْـرِي كـيـف يَـصْـنَـعْ   أدفـعـه بـإصـبـعـي فـيـرجِـعْ

* يـقـوم بـعـد الـشـدِّ ثـم يـركـع *

دخل عيسى بن موسى على جارية له فعجز، فقال: [البسيط]

الـنَّـفْـس تـطـمـع والأسـبـاب عـاجـزة   والنَّفْس تهلِك بيْن العجز والطمعِ

خلا ثمامة بن أشرس بجارية له فعجز، فقال: ويحك! ما أوسع حرك! فقالت: [البسيط]

أنـت الـفـداء لـمـن قـد كـان يـمـلـؤهُ   ويشتكي الضِّيق منه حين يَلْقَاهُ

وكان عُروة بن شُيَيْم أوفر الناس أيراً وأشدّهم نِكاحاً، وكان إذا أنعظ يستلقي على قفاه فيأتي الفصيل الجرب فيحتَك بأيره يظنّه الجِذْل، وهو عود في العَطَن يُنْصب لتحتك به الإبل الجرْبَى.

ويزعمون أنه أصاب أيْرهُ جنب عروس زُفَّت إليه، فقالت له: أتهددني بالركبة! وهو القائل: [الطويل]

ألا رُبَّما أنعظتُ حتى إخالُه ... سينقدّ للإنعاظ أو يتمزقُ

فأُعْمِلهُ حتى إذا قلت: قَدْنَي ... أبى وتمطّى جامحاً يتمطقُ

وأقبل رجل على عليّ رضي الله عنه فقال: إن لي امرأة كلما غشيتها، تقول: قتلتني قتلتني! فقال: اقتلها وعليّ إثمها.

وقع أعشى همدان أسيراً عند الدّيلم، ثم إن ابنة العلج الذي أسَرَه عشقته، فمكنته ليلة من نفسها، فأصبح وقد واقعها ثمان مرات، فقالت له: يا معشر المسلمين، أهكذا تفعلون بنسائكم! قال: هكذا نفعل كلُّنا، فقالت: بهذا العمل نصرتم، أفرأيت إن خلّصتُك تصطفيني؟ فعاهدها، فحلت قيوده بالليل، وأخذت به في طرقٍ تعرفها حتى تخلّص، فقال أسير شاعر فيه: [الطويل]

فمن كان يَفْدِيه من الأسر مالُه ... فهمْدان تفديها الغداة أيورُها

كان عبد الله بن عمر من أنزه النّاس نفساً، وأبعدهم عن المزاح وذكر الفاحشة، فجاءه ابن أبي عتيق يوماً، وكان صاحب مُزاح وفكاهة، وفي يده رُقعة فيها: [الطويل]

ذهبَ الإله بما تعيشُ به ... وقَمَرْتَ مالك أيّما قَمْرِ

أنفقت مالك غير مكترثٍ ... في كلّ زانيةٍ وفي الخمر

وكانت هجتْه بهما امرأته عاتكة بنت عبد الرحمن المخزوميّ، فقال: يا أبا عبد الرحمن، انظُر هذه الرقعة وأشِرْ عليّ برأيك فيها، فلما قرأها عبد الله استرجع فقال: ما ترى فيمن هجاني بهذا الشعر؟ قال: أرى أن تعفُوَ وتصفح، فقال: يا أبا عبد الرحمن، لئن لقيتُ صاحبه لأنيكنّه نيْكاً جيداً، فأخذ ابن عمر من قوله وأرعد وأزبد، قال: ما لك؟ غضب الله عليك! فقال: ما هو إلا ما قلت لك، وافترقا، فلمّا كان بعد أيام لقيه ابن عمر، فأعرض عنه، فصاح: يا أبا عبد الرحمن، إني لقيت صاحب البيتين فنكته والله نَيْكاً شافياً، وأقسم على ذلك، فصعق ابن عمر، فلما رأى ابنُ أبي عتيق ما حلَّ به دنا منه، وقال له في أذنه: إنها والله امرأتي، فقام ابن عمر وقد سُرِّي عنه، وهو يضحك، فقبله بين عينيه، وقال أحسنت، زده من هذا الأدب، ، فلن يهجوك بعدها أبداً.

* * *

فقال له القاضي: قد سمعتُ ما عزتكَ إليه، وتوعَّدتك عليْه، فجانِبْ ما عرَّك، وحاذرْ أن تُفْرَك، وتعرك، فجثا الشيخُ على ثَفِناته، وفجَّر ينبوع نفثاتِهِ، وقال: [الرجز]

اسمَعْ عَداكَ الذَّمُّ قولَ امرىءٍ ... يُوضح فيما رابها عُذْرَه

والله ما أعرضتُ عنها قِلًى ... ولا هَوَى قلبي قَضَى نذْرَهْ

وإنَّما الدّهرُ عَدا صَرْفُهُ ... فابتزَّنا الدُّرَّة والذَّرّهْ

فمنزلِي قفرٌ كَمَا جيدُها ... عُطْلٌ من الجِزْعَةِ والشَّذْرَهْ
وكنت من قَبْلُ أرى في الهَوَى ... ودِينِه رأى بني عذرهْ
فمُذْنبا الدّهرُ هجرتُ الدُّمَى ... هِجرانَ عفٌ آخذٍ حِذْرَهْ
وملتُ عن حَرْثِي لا رغبةً ... عنه ولكن أتّقِي بَذْرَهْ
فلا تَلُمْ مَنْ هذهِ حالُه ... واعطفْ عليه واحتمِلْ هَذْرَهْ

قوله: عَزَتْك، أي نسبتك. توعّدتك: هدّدتك. عَرَّك: شانك، وعابك ولطّخك بشرّ وساءك، وعرّ فلان قومه بشرّ: لطّخهم به. حَاذِرْ خف. تُفْرَك: تُبغَض، وفَرِكت المرأة زوجها: أبغضته. وتعْرَك: تُدْلك دَلْكاً شديداً مثل دلك الأديم، وعركتُ القوم في الحرب قاتلتُهم. جَثَا يجثو جُثواً وجثياً: جلس على رُكبتيه. الثَّفِنات: ما وَلي الأرض من أعضاء البعير وغَلُظ؛ إذا برَك على الرّكبتين والكرْكرة، ينبوع: ماؤها النابع. نَفثاته: كلماته. عَدَاك: تجاوزك. يُوضِح: يُبيّن. رابها: شكّكها وأدخل عليها الرِّيبة.

أعْرضتْ: صَدَدت. قِلَى. بغض. هَوَى: حبّ. النذر: أن ينذر الإنسان على نفسه شيئاً يفعله، وقضى نحبه: استوفى غَرَضه، عدا: ظلم. صَرْفه: تصرّفه بالإنكاد، ابتزّنا: سلبنا، الدّرّة: اللؤلؤة، والذرّة: اللبن، ومالُ العرب الإبل، وعيشهم من لبنها، فلهذا جنّس بالذّرّة مع الدرّة. جيدها: عنقها. عطل: خال الجزْعة: خَرَز يماني، وهي التي فيها بياض وسواد. والشَّذر: قطع من ذهب، يفصل بها بين الجواهر، وقيل: الجزع: خرزٌ مُلَوّن، والشَّذر: خرز أخضر، وقيل: الشَّذرة: القطعة من الذهب تُلتقَط من المعدن من غير إذابة الحجارة.

بني عذرة. قبيلة يغلب على قلوبهم حب النساء، فكلّ مَنْ أفرط في حبهن قيل له: عُذرِيّ، فنسب إليهم. وسُئل أعرابيّ، فقيل له: من أين أنت؟ فقال: من قبيلة إذا أحبُّوا ماتوا، فسمعته جارية، فقالت: عِذريّ وربّ الكعبة.

قوله: نبا، أي ارتفع وزال خيرُه، الدّمى: النّساء المشبهات في بياضهن وصفائهن بصور الرّخام. ، وكان العاشق من العرب إذا غلب عليه العاشِقْ والهجر ذهب إلى الأمصار فاشترى صُورة من رُخام على صورة محبوبته، فإذا ركب بعيرَه أجلس الصُّورة بين يديه يحدثها، ويستريح إليها، فسمَّوا النساء دُمًى تشبيهاً بصور الرخام. عفّ: عفيف. البذر: ما يزرع في الأرض من الحبوب، وحرثه نكاحه، وأراد بالبذر ما يزرعه فيها من النُّطفة هذره: هذيانه، وكلامه الفارغ.

* * *

قال: فالتَظَتِ المرأة من مَقَالِه، وانتَضَتِ الحُججَ لجدَالِه وقالت له: ويلك يا مرقعان! يا مَنْ هو لا طعامٌ ولا طِعان؛ أتضيق بالولد ذَرْعاً، ولكلّ أكولةٍ مَرْعَى؛ لقد ضلّ فهمك، وأخطأ سهمُك، وسفِهتْ نفسك، وشقيت بك عِرسُك.

فقال لها القاضي: أمّا أنت فلو جادَلْتِ الخنساء، لانثَنَتْ عنكِ خَرْسَاء، وأمّا هو فإن كانَ صَدَق في زعمه، ودَعْوى عُذمِه، فلهُ في همّ قَبْقَبه، ما يَشْغَلُه عن ذَبذَبه، فأطرقَتْ تنظر ازوراراً، ولا تَرْجع حِواراً. حتى قلنا قد راجعها الخفر، أو حاق بها الظفر، فقال لها الشيخ: تَعْساً لكِ إن زَخْرَفْتِ، أو كتمتِ ما عَرَفْتِ. فقالت: ويحك! وهل بعد المنافرة كَتَم، أو بَقِي لنا على سرٍّ ختم! وما فينا إلاّ مَنْ صَدَق، وهتك صَونِه إذ نَطق، فليتنا لاقينا البَكَم، ولم نلق الحَكَم، ثم التفعَت بوشاحِها، وتباكَتْ لافتِضَاحِها، وجعل القاضي يَعْجَب من خَطبهما ويُعْجِّب، ويلوم لهما الدّهر ويُؤنّب، ثم أحضر من الورق ألفين، وقال: أرضيا بهما الأجوَفين، وعاصيا النازعَ بين الإلفين، فشكراه على حسن السَّراح، وانطلقا وهما كالماء والراح.

* * *

التظَت: حَقَدَتْ والتهبت غيظاً، وانتضت: جَرّدتْ: جداله: خصامه.

مرقعان: كثير الرّقاعة، والرّقاعة كالحماقة، كأن عقله تخرّق فرُقّع، وضِقت بالشيء ذرعاً، إذا لم تقدر عليه، ضلّ: تحير. عرسك: زوجُك. جادلت: خاصمت. انثنت: رجعت. خرساء: بكماء. زَعْمه: ما ادّعاه. قوله: قبقبه، القَبْقَب: البطن، والقبقبة: الصوت الّذي يدور فيه، فسمّي به.

والذّبذب: الذّكر، وأصل الذّبذبة الاهتزاز والاضطراب، فسمي الذّبذبَ لحركته، ونَظَرَ عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى شابّ، فقال: يا شابّ إن وُقيت شرّ ثلاث، وُقيت شرَّ الشَّباب: لقلقك، وذبذبك، وقبقبك، الأصمعيّ: اللقلق: اللسان، والقبقب البطن، والذبذب: الذكر.

قوله: أطرقتْ، أي سكنت مميلةً إلى الأرض رأسها حياءً. ازوراراً: مَيلانا.

والحِوار: مراجعة الكلام. الخفَر: الحياء. حاق: لحق، والظَّفر هنا: غلبة حُجَّتِها وظفرها به. تعساً: هلاكاً، زخرفت هنا: زيّنت الباطل، المنافرة: المحاكمة. خَتْم: ربط، أي قد أظهرنا جميع أسرارنا، هتك: خرق. صونه: صيانته. لاقينا البَكَم، أي أصابنا البَكَم وخلقنا خُرساً، فلم نبد ما أبديناه من القبائح، والبكم: الخرس مع عيّ. وقال ثعلب: البكم: أن يولد الإنسان لا ينطق ولا يسمع ولا يبصر، وبكم بَكماً وبَكاماً، والحكم: الحاكم. التفعَتْ: التفّت. والوشاح: الثوب، وقد توشحت بثوبها، جعلته موضع وشاحها. لافتضاحها: لاشتهارها بالقبائح. خَطبهما: أمرهما. يعجّب: يجعل غيره يعْجَب منه، يؤنّب: يوبّخ ويلوم. الورِق: الدراهم. الأجوفين: البطن والفرج. النازع: الماشي بالشّر المفسد، ونزغ الشيطان بينهم ينزغ نزغاً، أغوى وأفسد، والإلفين: الصاحبين، السَّراح: الانصراف. والرّاح: الخمر، وهي سريعة الامتزاج مع الماء، فيُضرب بهما المثل في امتزاج نفوس المتحابين.

وقد جاء من ذلك في الشّعر ما يستحسن، قال ابن أبي فَنَن: أحسن ما قيل فيه قولُ العباس بن الأحنف: [البسيط]

ما أنسَ ما أنسَ يُمناها معطّفةً ... على فؤادي ويُسراها على رَاسي[1]

وقولها: ليته ثوبٌ على جَسدي ... وليتني كنتُ سرْبالا لعباس

أو ليتَه كان لي خمراً وكنت له ... من ماء مزنٍ فكنا الدَّهرَ في كاس

قال الحاتمي: وأحسن دعبل كل الإحسان في قوله: [البسيط]

الله يعلم والأيام دائرةٌ ... والمرء ما بين إيحاش وإيناسِ[2]

أني أحبُّكِ حبّاً لو تضمّنَهُ ... سَلْمى سميُّك دكَّ الشاهقَ الرَّاسي

حبّاً تلبّس بالأحشاء وامتزجا ... تمازُج الماء بالصَّهْباء في الكاس

وقال البحتري فأحسن: [البسيط]

تهتزُّ مِثْلَ اهتزاز الغصن حرّكَه ... مُرُور غيثٍ من الوَسميّ سَحّاحِ[3]

إني وَجدتك من قلبي بمنزلةٍ ... هي المصافاةُ بين الماء والرّاحِ

* * *

وطفِق القاضي بَعْد مُسْرَحِهما، وتَنَائى شَبَحِهما، يُثْني على أدبهما. ويقولُ: هل من عارفٍ بهما؟ فقال له عينُ أعوانه، وخالصةُ خُلْصَانِه: أما الشيخ فالسَّرُوجيّ المشهودُ بفضلِهِ، وأمَّا المرأة فقعيدة رَحْلِهِ، وأمَّا تحاكمهما فمكيدةٌ من فعله، وأحبُولةٌ من حبائل ختله، فأحفظ القاضي ما سمع، وتلهب كيف خُدع، ثم قال للواشي بها: قُم فردَّهما، ثم اقصِدْهما وصدْهما، فنهض ينفض مِذْرويه، ثم عاد يَضرب أصدَرَيْه، فقال له القاضي: أظهرْنا على ما نبثتَ، ولا تُخْفِ عَنَّا ما استخبثت، فقال: وما زلتُ أستقري الطرق، وأستفتح الغُلُق، إلى أن أدركتهما مُصْحِرَيْن، وقد زمَّا مَطيّ البين، فرغَّبتهما في العَلل، وكلفت لهما بنيل الأمل، فأشرب قلب الشيخ أن ييأس، وقال: الفِرار بُقرابِ أكيس، وقالت هي: بل العود أحمد، والفروقة يكمد.

* * *

قوله: طَفَق، أي جعل. مسرحهما: انصرافهما. تنائى شبحهما: بعد شَخْصهما، وعين الأعوان: مقدّمهم. والخُلْصان: الأحباب وخالصة: خيار، فكأنه خيار خيارهم. قعيدة رَحله: زوجته وصاحبة بيته. مكيدة: مكر أحبولة: شبكة. ختله: خداعه. أحفظ:

---

(١) الأبيات في ديوان العباس بن الأحنف ص ١٥٦.

(٢) الأبيات في ديوان دعبل بن علي الخزاعي ص ٩٤.

(٣) البيتان في ديوان البحتري ص ٤٤٢.

أغضب. تلهف: تندّم فصاح: يا لهفي! رُدّهما: اطلبهما. مذرويه: أطراف أليتيه. والأصدران: عرقان في الصُدغين، وقيل: هما المنكبان، وقيل: العطفان، ويقال: أتى فلان ينفض مِدرَوَيْه، إذا جاء غاضباً يتهدد، ويضرب أصدريه، إذا جاء فارغاً بلا حاجة، فإذا قضى حاجته قيل: جاء ثانياً من عنانه، وقال الحسن البصريُّ، ورأى الناس يوم عيد يضحكون، فقال: تلقى أحدهم أبيض بضّاً يملخ في الباطل مَلْخاً، ينفض مذرَوْيه، ويضرب أصدريه، يقول: ها أنا ذا فاعرفوني، قد عرفناك، مقتَك الله، ومقتك الصالحون. يملخ: يلجّ، وقيل ينثني ويتكسر. استخبثت: أصبته خبيثاً، أستقري: أتتبع، الغُلق: جمع غُلقة. وهي المغالق التي تسدّ بها الطرق وغيرها، وباب غِلق، أي مغلق. مصحرين: ذاهبين في الصحراء. زَمّاً: شدّا، والبين: الفراق. والعَلل هنا: العطاء. كَفَلْت: ضمنت، نيل الأمل: درك الحاجة. أُشرب: دوخل وألقي في نفسه، والفرار بقراب أكيس، مثل، وقُراب الشيء ما يقاربه وأراد الهروب باليسير والقريب أكيس من الرّجوع إلى الطمع، ويروى: الفرار بقراب، بكسر القاف، وهو مصدر بمعنى المقاربة، والمثل لجابر بن عمر المازني، وكان سائراً في الطريق ومعه أوفى بن مطر وشهاب بن قيس، فتراءى آثار رَجُلين معهما فرَسان وبعيران وكان قائفاً فقال: أرى آثار رَجُلين شديد كلَبُهما، عزيز سَلَبُهما، والفرار بقُراب أكيس، ثم مضى هارباً، والمعنى: فرارنا ونحن بقرب السَّلامة خير لنا من أن نتورط في المكروه. والعَود أحمد، أي أوفق وأحق أن يوجد محموداً، والعَود أحمد مثل، أي الرجوع أحسن، وقال المرقش: **[الطويل]**

وأحسن فيما كان بيني وبينه ... فإن عاد بالإحسان فالعود أحمدُ[1]

وأنشد أبو الحسن لعمارة: **[الطويل]**

بني دارم إن يفن عُمري فقد مَضَى ... حياتي لكمْ مني ثناء مخلَّدُ

بدأتمْ فأحسنتم وأثنيت جاهداً ... وإن عدتُمُ أحسنت والعَوْد أحمَدُ

قوله: الفروقة، أي الفزّاع الكثير الفَرق وهو الخوف، يكمد: يحزن حزناً لا يستطيع إمضاءه. تبيَّن: علم. غرَر: خطر.

* * *

فلمَّا تبيَّن الشيخ سَفَه رأيها، وغَرَرَ اجترائها، أمسك ذَلاذِلَها ثم أنشأ يقول لها: **[الرجز]**

دونَكِ نُصْحي فاقتفي سُبْلَهْ ... واغْنَى عن التفصِيل بالجُمْلَهْ

---

(١) يروى صدر البيت:

قد أحسن سعدٌ في الذي كان بيننا

وهو بلا نسبة في كتاب العين ٢/ ٢١٧، والمخصص ١٢/ ٢٣١.

طيري متى نقرْتِ عن نَخْلَةٍ وطلِّقيها بَتَّة بتلَهْ
وحاذِري العَوْدَ إليها ولو سبَّلها ناطُورُها الأبلَهْ
فخير ما لِلِّص ألاَّ يُرَى بِبُقعَةٍ فيها له عُمْلَه

* * *

سَفَه: خفة. والسفيه: الخفيف العقل. اجترائها: جسارتها وجرأتها. ذلاذلها: أطراف ثوبها، وذلاذل القميص: ما يلي الأرض من أسافله، الواحدُ ذُلْذُل مثل قُمْقُم وقَماقِم. دونك: معناه قاربك ما تطلب فتناولهْ. اقتفي: اتبعي. سُبْله: طرقه، نقَّرتِ: أكلتِ ثمرتها بمنقارك، وهو مثل، ونقّرت أيضاً: بحثت، والتَّنقير: البحث عن الشيء، يقول: متى ما أخذتَ من ثمر نخلة بنصيبٍ ففارقها ولا ترجع إليها، وفي حديث أبي سعيد قال النبي ﷺ: «خلقت النّخْلة والرّمانة والعنب من فَضل طينة آدم عليه السلام»، والبتّة البَتْلة: التي لا رجعة فيها، والبتُّ: القطع، سبَّلها: طرقها وأصله لابن السبيل، الناطور: حارس النّخل خاصة، بطاء غير معجمة، وقيل: هو حافظ الكرم، والجمع النواطير. الأبله: الكثير الغفلة. اللّص: السارق. وعُمْلة: سَرِقة وفعلة قبيحة.

* * *

ثم قال لي: لَقَد عُنّيت، فيما وُلّيت، فارجع من حَيْث جِئْت، وقل لِمُرْسِلِك إنْ شئت: **[الطويل]**

رُوَيدك لا تُعْقِبْ جميلَك بالأذى فَتُضْحِي وشَمْلُ المالِ والحَمدِ منصدِعْ
ولا تتغضّبْ مِنْ تزيُّدِ سَائلٍ فما هو في صَوْغ اللسان بمبتدِعْ
وإن تَكُ قَدْ ساءتْكَ مِنّي خَديعَةٌ فقبلَك شيخُ الأشعريِّينَ قد خُدِعْ

فقال له القاضي: قاتله الله! فما أحسن شجونه، وأملح فنونه! ثم إنه أصْحَب رائده بُرْديْن، وصُرّة مِن العين، وقال له: سِر سَيرَ من لا يَرَى الالتفات، إلى أن ترى الشيخ والفتاة، قَبِّلْ يديهما بهذا الحِباء، وبيِّن لهما انخِداعي لِلأُدَباء.

قال الرّاوي: فلم أر في الاغتراب، كَهذا العُجاب، ولا سمعتُ بمثله مِمّن جَالَ وجَاب.

* * *

عُنِّيت: تعبت. وُلِّيت: كُلِفتُ. رُويدك: رفقَك. أي أولِنا منك الرِّفق والمهل. لا تُعْقب: لا تتْبَع. الأذى: الضّرَر، وشَمْل: جَمع. منصدع: متفرّق. صوغ اللسان: كذبه وحِيَله، وفي الحديث «هذه كذبة صاغها الصوَّاغ»[1]، أي اختلقَها الكذّاب. مُبْتَدع: أوّل

---

(١) رواه ابن الأثير الجزري في النهاية ٣/ ٦١، بلفظ: «من حديث أبي هريرة وقيل له خرج الدجّال فقال: كذبة كذبها الصوّاغون».

فاعل. ساءتك: أحزنتك. شيخ الأشعريين، هو أبو موسى الأشعري صاحب رسول الله ﷺ، واسمه عبد الله بن قيس، من ولد الأشعر بن أُدَد بن زيد بن يشجب بن يعرب بن كَهْلان بن سبأ، قدم مكة وأسلم بها، ثم هاجر إلى أرض الحبشة، ثم قدم مع جعفر بن أبي طالب إلى المدينة، والذي خدعه هو عمرو بن العاص في قصّة التحكيم بين عليّ ومعاوية رضي الله عنهما، وهي قصّة مشهورة في كتاب العقد وفي كتاب المسعودي وغيرهما من كتب الأدب، وفيهما أشياء مناكير في حق الصحابة رضي الله عنهم، فلذلك أضربنا عن ذكرها.

رائده: طالبه أصحبه: جعله في صُحْبته. بُرْدين: ثوبين: صُرَّة: خرقة تشدّ فيها الدراهم. العين: الذهب والفضة سير من لا يرى الالتفات، أي سيراً سريعاً لا يلتفت معه إلى مهمّ. قوله: بلّ أيديهما، يقال: بللت به أبلّ إذا ظفرتَ به، وبلّك الله بابن، أي رزقكه، وفي الحديث: «بُلُّوا أرحامكم ولو بالسلام»[1]، أي صِلُوها، وبَلَلت رَحِمي أبُلها بللاً وبلالاً، إذا نديتها ووصلتها. الحباء: العطاء جال: تصرّف وقطع البلاد بالمشي.

---

(١) رواه ابن الأثير الجزري في النهاية ١/ ١٥٣.

المقامة السّادسة والأربعون

وهي الحَلبيَّة

روى الحارث بن همام قال: نَزَع بي إلى حلب، شوقٌ غَلَب، وطلبٌ يا له مِنْ طلب! وكنتُ يومئذٍ خفيف الحاذ، حديث النفاذ، فأخذتُ أُهْبَة السَّير، وخفقتُ نحوها خُفُوق الطَّير؛ ولم أزل مذ حَلَلْت رُبُوعها، وارتبعتُ ربيعها، أُفاني الأيام، فيما يشفي الغرام، ويُروى الأُوام؛ إلى أن أقصر القلب عن وَلُوعه، واستطار غرابُ البين بعد وقوعه.

***

نزَع بي، أي شوّقني وَحَملني.

[مدينة حلب]

حلَب : مدينة عظيمة بالشام وقنّسرين، خمس من أخماس الشام، ومدينته العظمى حَلَب وساحلها أنطاكية. وذكرها شيخنا ابن جبير فقال: حلب بلدة قدرها خطير، وذكرُها في كلّ زمان يطير، خُطابها من الملوك كثير؛ كانت في القديم ربوة فيما يقال، كان يأوي إليها إبراهيم الخليل عليه السلام بغنمه، فيحلبُها هناك ويتصدّق بلبنها، فسميت حَلَب، وبها مشهد كريم منسوب إليه، يتَبرّك الناس بالصلاة فيه، ولها قلعة شهيرة الامتناع، بائنة الارتفاع، معدومة الشبه والنظير في القلاع، تنزهت حصانةً أن تُرام أو تُستطاع، قاعدة كبيرة، ومائدة من الأرض مستديرة، منحوتة الأرجاء، موضوعة على نسبة اعتدال واستواء، فسبحان من أحكم تدبيرها وتقديرها، وأبدع كيف شاء تصويرها وتدويرها، ومن كمال جمالها الزائد على المشترط لحصانة القلع أنّ الماء بها نابع وقد صنع عليها جفان، والطعام يصير فيها الدهر كله، وليس من شروط الحصانة أهمّ من هاتين الخَلّتين، ويُطِيف بجبلها سوران حصينان، يعترض دونهما خندق بالماء، فلا يكاد البصر يبلغ مدى عمقه، وسُورها الأعلى مجلّل، كله أبراج منتظمة فيها القلالى المنيعة، وقد تفتحت كلّها طبقات، وكل برج منها مسكون، والبلد ضخم جداً، جميل الترتيب، أسواقه متصلة الانتظام، تخرج من سماط صفّة إلى سماط أخرى، وقيساريتها وجامعها ومدارسها ما سُمع بمثل وصفها في بلد من بلاد الله تعالى؛ كل سوق من أسواقها مسقّف بالخشب، يقيد البصر حسناً ويستوقف المستوفز تعجباً. وقيساريتها حديقة بستان نظافة وجمالاً،

مطيفة بجامعها، وأكثر حوانيتها خزائن من الخشب البديع الصنعة، قد اتّصل السماط كله خزانة واحدة، وتخللتْها شرف حسنة، بديعة النقش وتفتَّحَت كلها حوانيت، فجاءتْ في أجمل منظر، وكلّ سِماط منها يتصل بباب من أبواب الجامع.

ثم أخذ ابن جبير في وصف الجامع والمدارس والبيمارستان بأنواع من الأوصاف الحسان.

* * *

قوله: يا له! معناه التّعجب كأنه قال: ما أعجبه من طلب: خفيف الحاذ، أي قليل العيال. وتقدّم الحاذ في السادسة. حثيث النفاذ: سريع المضيّ في أموره، ورجل نافذ ونَفُوذ ونفّاذ: ماض في جميع أموره. أُهبة: عدّة. خففْت: ارتحلت بسرعة. حللت ربوعها: نزلت في بيوتها. ارتبعت ربيعها: التمست خيرها. أُفاني: أقاطع، وفني الشيء تم وانقطع. والغرام: عذاب الحب. والأوام: العطش. وأقصر: كف، وأقصرت عن الشيء: تركته، وأنت عليه قادر. ولوعه: مصدر ولع به إذا أحبه ولزمه. استطار، بمعنى انتشر. وقوعه: نزوله، وهم يتشاءمون بالغراب لأنه يؤذن عندهم بالفراق، وذلك أنهم لا يرون الغراب عند منازلهم إلاّ إذا حطّوا بيوتهم للرحيل، ينزل يلتمس ما يتركون مما يُلقَط، ولذلك سمُّوه غراب البين، واشتقوا من اسمه الغريب والغربة.

* * *

فأغرانِي البال الخِلْو، والمَرَحُ الحُلو؛ بأن أقصد حِمص لأصطاف ببقعَتِها، وأسبُر رَقَاعة أهلِ رُقْعَتِها؛ فأسرعْتُ إليها إسراعَ النّجم؛ إذا انقضّ للرّجْم، فحين خيّمتُ بِرُسُومها، ووجدتُ رَوح نَسيمها، لمح طرفي شيخاً قد أقبل هَرِيرُه، وأدبر غريرُهُ، وعند عشرة صِبْيان، صِنوانٌ وغير صنوان، فطاوعْتُ في قصده الحِرص؛ لأخبُر به أدباء حِمْص فبشَّ بي حين وافيته، وحيّا بأحسنَ ممّا حَيَّيْتُه، فجلست إليه لأبْلُوَ جَنَى نُطقِهِ، وأكتَنه كنْه حُمْقه، فما لبث أن أشار بعُصيَّه، إلى كُبر أُصَيْبيتِه، وقال له: أنشد الأبيات العَواطل، واحذرْ أن تُماطل، فجثا جَثْوةَ ليث، وأنشد من غير رَيْث.

* * *

أغراني: حرضَني وسَلّطنيِ. الخلو: الفارغ. المرح: النشاط وخفّة النفس من الطرب.

[مدينة حمص]

حمص مدينة عظيمة، بينها وبين دمشق مائة ميل، وأرض حمص خُمْسٌ من أخماس الشام، وهي مدينة يقال إن لها سوراً وفي وسطها حصنها، ولا تدخلها حيّة ولا عقرب، وأول من ابتدع الحسابَ أهلُها، لأنهم كانوا تجّاراً بإشبيليَة وأحوازها، نزل أهلُ

حمص عند افتتاح الأندلس، فلذلك سميت حمص، وأخذت من قولهم: حَمَص الجُرْح يحمِص حُمُوصاً، وانحمص ينحمص انحماصاً. إذا ذهب وَرَمُه.

قال اليعقوبي: مدينة حِمص من أوسع مباني الشام، ولها نهر عظيم، منه يشرب أهلها، وافتتحها أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه. وفي حديث عمر رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَيبعثَنّ الله تعالى من مدينة بالشام يقال لها حمص سبعين ألفاً يوم القيامة لا حساب عليهم».

ودخلها شيخنا ابن جبير سنة ثمانين وخمسمائة وقال: هي فسيحة الساحة، مستطيلة المساحة، نزهة لعين مبصرها من النّظافة والملاحة، موضوعة في بسيط من الأرض، عريض مداه، لا يتخرّقه النسيم بمسراه، ويكاد البصر يقف دون منتهاه، وماؤها يجلب لها من نهرها العاصي، وهو منها بنحو ميل، ومنبعه في مغارة بسفح جبل بمرحلة منها، بموصل يقابل بَعْلَبكّ، وأهل حمص موصوفون بالنجدة لمجاورتهم العدوّ، وأسوارها في غاية العتاقة والوثاقة، مرصوص بناؤها بالحجارة السود، وأما داخلها فما شئت من بادية شَعْثاء، خَلَقة الأرجاء لا إشراق لآفاقها، ولا رَونق لأسواقها، وما ظنُّك ببلد حصن الأكراد منه على أميال يسيرة. وتجد فيها عند اطّلاعك عليها بعض شَبَهٍ من مدينة إشبيلية يقع للحين في نفسك حبّها، ولذلك سميت باسمها في القديم، ولهذا نزل إشبيلية بعضُ أعراب حمص.

وقال الفنجديهي: بأهل حمص يضرب المثل في الحماقة، وكثرة الرقاعة، وتنسب إليهم حكايات مضحكة، حكي عن بعضهم أنه قال: دخلتُها وفي فمي درهم لأشتري به بعض ما اشتهيه، فإذا برجلٍ بباب الجامع جالس على كرسيّ، وعلى رأسه عمامة محنّك بها على قلنسوة، وقد لبس فرْوة مقلوبة بلا سراويل، وقد تقلّد بسيف، وفي حجره مصحف يقرأ فيه، وعنده كلب رابض يمسكه بِمِقْوَدِهِ، فسلّمت عليه، فردّ السلام، وقلت له: أترى القوم صَلُّوا؟ فقال لي: أو أنت أعمى! أما تراني قاعداً! قلت: من أنت؟ قال: أنا أبو خالد إمام الجامع، فقلت: ما هذه الحلية؟ قال: وِرد رجل زنديق يقرأ السبع الطوال، ويشتم أبا بكر الصّناديقي وعمر القواريريّ وعثمان بن أبي سفيان ومعاوية بن أبي غَسّان الذي هو من حملة العرش، وزوّجه النبي ابنته عائشة في زمن الحجّاج بن يوسف، فاستولدها الحسن والحسين، فقلت: ما أعرفَك بالمقالة والأنساب! قال: وما خُفيَ عنك أكثر، قلت: أتحفظ القرآن؟ قال: نعم، قلت: فاقرأ شيئاً منه، فقال: بسم الله الرحمن الرحيم **﴿وإذْ قَالَ لُقْمَانَ لابْنه وَهوَ يَعِظُهَ يا بُنَيّ لا تقصص رُؤيَاكَ عَلى إخْوَتِكَ فَيَكيدُوا لَكَ كَيْداً وأكيدُ كَيْداً فَمهِّل الكافرِينَ أمْهِلهم رُويْداً﴾** [يوسف: ٥]، فصفعته صفعةً سقطت عمامتُه، وبقي التحنّك في عنقه، فصاح بالناس: قلنسوتي! وقال: احملوه إلى المحتسِب، فأوصلوني إلى رجل حاسر حافٍ، قد لبس درّاعة بلا سراويل، فقال: ما

صنع هذا؟ قالوا: صفع إمام الجامع، قال: يا مسكين، أهلكْتَ نفسك، قلت: هذا حكم الله فصبراً عليه؟ قال: أيّما أحبّ إليك سَمْل عينيك، أو قطع يدَيك، أو تدفع نصف درهم؟ قال: فرفعت يدي وصفعت المحتسب صفعة، ثم أخرجت الدرهم من فمي وقلت: يا سيدي خذ نصف درهم لك، ونصف درهم لإمامك.

وقال فيهم بعض الشعراء: **[البسيط]**

لأنهم أهلُ حمص لا عقول لهمْ ... بهائم غير معدودين في النَّاس

ونزلها في القديم أهل اليمن، ولم يكن فيها من مصر إلا ثلاثة أبيات، وكان لهم إمام من مصر، فغضبوا عليه وعزلوه، فقال فيهم ديك الجن يهجوهم: **[الكامل]**

سمعوا الصلاة على النبيِّ تَوَالَى ... فتفرّقوا شِيَعاً وقالُوا: لاَ، لاَ[1]

ثم استمرّ على الصَّلاة إمامهم ... فتحزّبوا ورمَى الرِّجالُ رجالا

يا أهلَ حِمْصَ توقّعوا من عارها ... خِزياً يحلُّ عليكمُ وَوَبالاَ

شاهت وجوهكمُ وجوهاً طالما ... رغمت معاطسها وساءت حالاَ

* * *

قوله: أصطاف، أي أسكن في الصَّيف. وأسبر: وأختبر، والرّقاعة تجاوز الحدّ في الوقاحة وصلابة الوجه. والبقعة: القطعة من الأرض، وكذلك الرقعة. وانقضَّ النجم للرجم، إذا استطار لرجم الشياطين، وأراد أنه أسرع إليها بسرعة الخيل كسرعة النجم المنقضّ، قال خلف الأحمر: **[الكامل]**

كالكوكب الدّريّ مبتهلاً ... سيراً يفوت الطرفَ أسرعُهْ

وكأنما جهدت أليّتُه ... ألاّ تمس الأرض أربَعُه

وقال ابن الرومي: **[البسيط]**

خذها تَبُوعاً لمن أولى مسوَّمة ... كأنها كوكب في إثر عفريتِ[2]

وما أحسنَ قول ابن المعتز في هذا المعنى:

كأنما النجم والعفريت مسترِقاً ... للسمع ينقضّ يُلقي خلفه لهبَهْ

كفارس حلّ من عَجب عمامتَه ... فرّدها كلّها من خلفه عذبَه

قوله: خيَّمت أي أقمت، وأصله ضربت خَيْمة. رسومها: آثارها. روْح نسيمها: لذة ريحها: لمح طرفي: أبصرتْ عيني. هريره: صياحه، وقد هرّ الكلب هريراً، إذا نبح

---

(١) الأبيات في ديوان ديك الجن الحمصي ص ١١٠.

(٢) البيت في ديوان ابن الرومي ١/ ٣٧٩.

وحمل على مَنْ أنكره، وغريره: شبابُه، والغرَّة: صغر السن، ومعناه أقبل شرّه وسوء خلقه، وأدبر صباه وحسن خُلقه، ولما كانت خليقته في هذه المقامة منبسطة مع صبيانه صار هذا التفسير فيه بُعْد. وقال بعضهم: أقبل هريره، أقبل هَرَمهُ ويُبْسه، من هرّ الشوكُ إذا اشتدّ يُبسه حتى صار كأنياب الهرّ، وهذا يوافق الغرض، فمعناه أقبل هَرَمَه وكِبَرهُ وأدبر صباه وصِغَرهُ، ومثله كالبت الإبل شجر الشَّوك، إذا رعته كأنها رعت فيه أنياب الكِلاب لصعوبته، والغرير أيضاً: الضامن، ويكنى به هنا عن الشباب كأنه ضمن لصاحبه طولَ الحياة المفقود معناها في الهرَم. والصِّنو: الأخ الشقيق، وأصل الصِّنو في النخيل والشجر، وهي التي تجتمع أُصولها وتفترق أجسادها، الحرص: الرغبة والطمع.

أخبر: أجرِّب. بشَّ: استبشر. والبشاشة إظهار السرور وبسط الوجه. وافيته، اتيته. جنى نطقه: ما يجني من كلامه ويحصل منه. أكتنه: أتعرّف وأتحقَّق. كنه قدر وحقيقة، ابن الأنباريّ: الحمق عند العرب الخمر، ثم أخِذ منه الأحمق وهو المتغيِّر العقل.

[المعلمون ونوادرهم]

فممَّا يحكى من حماقتهم: كان حمزة المعلم متقلْنِساً فأشد فيه أبو جعفر الحاكم: **[البسيط]**

أرَى على حمزة المقرِي قلنسوةً ... عساكر القمل تجري في حواشِيها
إن المعلّم لا تخفى حماقتُه ... ولو تقلْنَس بالدُّنيا وما فيها

تقلنس: لبس القلنسوة.

الجاحظ: عَقل مائة معلِّم عقل امرأة، وعقل مائة امرأة عقل حائك، وعقل مائة حائك عقل خصيّ وعقل مائة خصي عقل صبيّ، قال الشاعر: **[الطويل]**

معلّم صبيان وصاحب درّةْ ... وليس له عقل بمقدار ذَرّةْ

الفنجديهي: قال أبو طاهر: عقل امرأتين كاملتين عقل رجل، وعقل أربعة خصيان عقل امرأة، وعقل أربعين حائكاً عقل خصيّ، وعقل أربعين معلماً عقل حائك.

الزبير بن عبد الملك الهاشميِّ قال: مررت ببعض المعلّمين ويعرف بكسرى، فرأيته يصلّي بالصبيان صلاة العصر، فلم أزل واقفاً أفكّر فيه، فلما أن ركع أدخلَ رأسه بين رجليه، لينظر ما يصنع الصبيان خَلْفَه، فرأى صبيّاً يلعب فقال له وهو راكع: يا بن البقال؛ هو ذا؟ أتدري ما تصنع!.

الجاحظ: مررت بمعلم وقد كتب على لوح صبي: «وإذْ قال لقمان لابنه وهو يعظه، **﴿يا بنيّ لا تَقْصُصْ رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً وأكيدُ كيداً فمهل الكافرين أمهلهم رويداً﴾** [يوسف: ٥]، فقلت: ويحك! أتدخل سورة في سورة؟ فقال:

نعم عافاك الله، إن أبا العاضّ بَظْر أمه يدخل أجرة شهر في شهر، وأنا أيضاً أدخل آية في آية، فلا أنا آخذ شيئاً ولا الصبيُّ يتعلم شيئاً.

أبو بكر القبطيّ: عبرت على معلم وهو يُملي على غلام بين يديه: «فريق في الجنة وفريق في السعيد»، فقلت: يا هذا ما قال الله من هذا شيئاً إنما هو في السعير، فقال: أنت تقرأ على حرف أبي عاصم بن العلاء الكسائي، وأنا أَقْرأ على حرف أَبي حمزة بن عاصم المدني فقلت: معرفتُك بالقراء أعجب إليَّ؛ وانصرفت وروى بعض الفضلاء قال: مررتُ في بعض قُرى السَّواد، وإذا معلم صبيان يقول: وَيحكم يا صبيان، تفسون! فصاح به وَاحدٌ منهم، وقال: إنَّما فسا أخي، فقال المعلم: أني لأعلم فسوته الخبيثة، وَلَكن أعلِّل نفسي بالأباطيل، ثم قال: أني لأعرف فساءكم كما أعرف أصواتَكمْ، وَحلف على ذلك ثم أنشد: **[الطويل]**

معلم صبيان يروح وَيغتدِي ... على أنفه ألوان ريح فُسَائِهمْ
وقد أفسدوا منه الدِّماغ بفَسْوِهم ... ورفعهم أصواتهم في سَحائِهمْ

الجاحظ: كان في المدينة رجلٌ معلِّم صبيان، يُفرط في ضربهم، فلاموه على ذلك، فساءني حالُه معهم، فاستفتح صبيّ، وقال: يا معلم، وإنّ عليك اللعنة إلى يوم الدين ما بعده؟ فقال: بل عليك وعلى والديك لعائن الله تترى.

وجاء آخر فقال: يا معلم، اخرج منها فإنك رجيم، ما بعده؟ قال: ذاك أبوك الكَشْخان، وجاء آخر، فقال: يا معلّم ما لنا في بناتك من حقٍّ، ما بعده؟ فقال: لا ولا رأيتهنّ، فقال: على هذا أضربهم، أتعذرونني؟ قلت: نعم.

العتْبي: كان ببغداد معلّم يشتم الصبيان فأخذت بيد المشايخ فدخلنا عليه، فقلنا: يا شيخ ما يحلّ لك أن تشتم هؤلاء الصبيان؟ فقال: أنا مبتلًى بهم، ما أشتمُ إلا من يستحقّ الشتم، فاحضروا حتى تسمعوا بعض ما أنا فيه، فحضرنا معه، فقرأ عليه صبيّ: «عليها ملائكة غلاظ شداد يعصون الله ما أمرهم ولا يفعلون ما يؤمرون»، فقال: يا ماصّ بَظر أمه، فليس هؤلاء ملائكة ولا أعراب ولا أكراد شهرزور، قال: فضحكنا والله حتى بال أحدُنا في سراويله، فقرأ عليه آخر: «لا تنفقوا إلاّ من عند رسول الله»، وتردّد فقال: من عند أبيك القَرْنان أولى، فإنه أكثر مالاً يا بن الفاعلة. أتُلْزِم النبي ﷺ نفقةً لا تجب عليه؟ أأعجبك كثير ماله؟ فقال: فكنت بعد ذلك أترك أشغالي، وأجلس عنده أتعجّب.

الجاحظ: سرق صبي عثمانيٌّ مصحفاً، فقال له المعلم: ماذا لقيت المصاحف منكم يا آل عثمان! أبوك أحرقها وأنت تسرقها!.

قال أفلح التركي: خرجنا مرّة إلى حرب لنا، ومعنا معلم كان يقول: أنا أتمنى أن أرى الحرب كيف هي؟ فأخرجناه معنا، فأوّل سهم جاء وقع في رأسه، فلما انصرفنا دعونا له معالجاً فنظر إليه، وقال: إن خرجَ الزّج وفيه شيء من دِماغه مات، وإن لم

يخرج عليه شيء من دماغه لم يكن عليه بأس، فسبق إليه المعلم فقبّل رأسه، وقال: بشرك الله بخير، أنزعه فما في رأسي دماغ، فقال الطبيب: كيف ذلك؟ قال لأني معلّم كتاب الله تعالى، وما في رؤوس المعلمين ذرّة من دماغ، ولو كان فيه ذرّة من دماغ ما كنت هاهنا.

وقال موسى بن حَسّان الكاتب: رأيت بالبصرة معلّماً قد أجلس أولاد الأغنياء للظلّ وأولاد المساكين للشمس، وهو يقول لأولاد الأغنياء: يا أهل الجنة، ابزُقوا على أهل النار ـ يعني أولاد المساكين ـ فقلت: يا هذا، ما بال هؤلاء يبخسون؟ فقال: هؤلاء يبخسون الأخطار.

أحمد بن دليل: مررت بمعلّم يضرب صبياً، ويقول: والله لأضربنّك حتى تقول لي: مَنْ حفر البحر؟ فقلت: أعزّك الله، والله لا أدري أنا مَنْ حفر البحر، فقل لي حتى أتعلّم أنا، فقال: حفر البحر كردم أبو آدم عليه السلام.

أبو العنبس: كان في دَرْبنا معلّم طويل اللحية، فكنت أجلس إليه كثيراً وأتلهّى به، فجئته يوماً وبين يديه صبيّ يقول له: ويلك! الدجلة من حفرها! قال: عيسى ابن مريم، قال: فالجبل مَنْ خَلَقه؟ قال: موسى بن عمران قال: فالبعر، مَنْ دوّره في است الجمل، قال: شيطان يقال له الحيّ، قال: أحسنت، فآدم مَنْ أبوهُ، قال: نوح، قال: بخ بخ، نجوت والله! فقلت: يا سبحان الله أليس آدم أبا البشر. قال: نعم. قلت: فكيف يكون نوح أباه! قال: ويلك أتعرّفني بآدم وأنا أبو عبد الله المعلم، يا صبيان كَرْفِسُوه فكرفسوني، حتى صيّروني مقيداً، فحلفت ألاّ أقف على معلم أبداً.

الجاحظ: أتت امرأة إلى معلّم بابن لها، وكان المعلّم طويل للحية، فقالت: إن هذا الصبي عاقّ لا يطيعني فأحب أن تفزّعه، فأخذ المعلم لحيته وألقاها في فمه وحرّك رأسه، وصاح صيحة، فضرَطت المرأة من الفزع، وقالت: إنما قلت لك: فزّع الصبي، ليس إياي، فقال: لها: مرّي يا حمقاء إن العذاب إذا نزلَ هلك الصّالح والطالح.

الأصمعي: مررت بمعلّم بالبصرة يضرب صبياً، ثم أقام الصبيان صفاً وجعل يدُور عليهم، ويقول: اقرؤوا، فلما بلغ الصبيَّ المضروب قال لآخر إلى جنبه: قل له: يقرأ فإني لا أكلمه!.

[الأدباء والمؤدبون]

ونذكر هنا في التأديب والأدباء ما يكون من شكل هذا الموضع، ثم نتبع عند ذكر الغلمان الحسان من الأشعار ما يجري كالبيان والتفسير لأحوالهم بعون الله تعالى.

قالت الحكماء: من أدّب ولده صغيراً سُرّ به كبيراً، ومن أدّب ولده أرغم حاسده.

وقال ابن عباس مَنْ لم يجلس في الصغر حيث يكْره لم يجلس في الكبر حيثُ يحبّ.

وقالوا: أطبعُ الطّين ما كان رطباً، وأغرز العُود ما دام لدنا وقال رسول الله ﷺ:

«مثل الذي يتعلم في صغره كالنقش على الصخر، والذي يتعلم في كبره كالذي يكتب على الماء».

وسمع الأحنف: التعلم في الصغر كالنقش على الحجر، فقال: الكبير أكبر عقلاً، ولكنه أشغل قلباً.

وقال عليّ رضي الله تعالى عنه: قلْب الحدَث كالأرض الخالية إذا أُلقِيَ فيها شيءٌ قبِلته.

وقالوا: نشاط الألباب في عصر الشباب، والسودَد مع السواد، وشواظ النار قبل الرّماد.

وقال الشاعر: **[البسيط]**

إنّ الغصون إذا قوّمتها اعتدلتْ ... ولن تَلين إذا قوّمتَها الخُشُب

وقال آخر: **[الكامل]**

إنّ الكبير إذا تناهى سِنّه ... أعيت رياضته على الرُّوّاضِ

فإذا دفعت إلى الصغير فإنما ... تكفيك منه إشارةُ الإيماضِ

وقال آخر: **[الكامل]**

* ومن العناء رياضة الهرِم *

وأنشدوا: **[البسيط]**

* أبعد شيبك هذا تبتغي الأدبا *

وقال الشاعر في تدريج الصبي برفق: **[السريع]**

سَدّد مرامي الطفلِ في شَأنه ... بلفظةٍ تَشْدُدْ بها أزْرَهْ

واغتنمِ اللمحَة من فَهْمِه ... إن المبادي أبدا نَزْرَهْ

كما تربَّى النار من شعلةٍ ... والدّوحة الغناء من بَذْرَهْ

وهذا ضدّ ما قال المعري: **[البسيط]**

لا يستوي ابناك في خَلْقٍ ولا خُلُقٍ ... إن الحديدة أمّ السَّيف والجلَمِ

فاضرب وليدك وادلله على رشدٍ ... ولا تقل هو طفل غير محتلِم

فربّ شق برأس جرّ منفعةً ... وقسى على نفع شق الرأس بالقلم

أشار إلى قوله تعالى: **﴿يا يحيى خذ الكتاب بقوة﴾** [مريم: ١٢].

وقال صالح بن عبد القدوس: **[السريع]**

وإنّ مَنْ أدّبتَه في الصّبا ... كالعود يُسْقى الماء مِنْ غَرْسِهِ

حـتـى تـراه مـورقـاً نـاضـراً ... بـعـد الـذي أبـصـرتَ مـن يُـبْـسِـهِ
والـشـيـخ لا يـتـرك أخـلاقَـه ... حـتـى يـوارَى فـي ثَـرَى رمْـسِـهِ
إذا ارعـوى عـاوده جـهـلُـه ... كـذي الـضـنـى عـاد إلـى نـكْـسـه
مـا يـبـلـغ الأعـداء مـن جـاهـلٍ ... مـا يـبـلـغ الـجـاهـل مـن نـفـسِـه

وقال عتبة بن أبي سفيان لمعلم ولده: ليكن أوّل إصلاحِك لولدي إصلاحُك لنفسك، فإن عيوبهم معقودة بعيبك، فالحَسن عندهم ما صنَعت، والقبيح عندهم ما تركت، علِّمهم كتاب الله ولا تمهلهم فيه فيتركوه، ولا تتركهم فيه فيهجروه، وروّهم من الحديث أشرفه، ومن الشعر أعفّه، ولا تنقلهم من علم إلى آخر حتى يُحكِموه، فإنّ ازدحام الكلام في السَّمْع مشغلة في الفهم، وعلِّمْهم سير الحكماء، وأخلاق الأدباء، وهددهم في أدبهم دوني، وكن لهم كالطبيب الذي لا يعجل بالدّواء قبل معرفة الداء، وجنبهم محادثة النساء، واستزدني بزيادتك إيّاهم ازِدْك في برّي، وإيّاك أن تتّكل على عذر منّي، فقد اتَّكلت على كفاية منك لي.

وأوصى الرّشيد مؤدب ولده الأمين، فقال: إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه، وثمرة قلبه، فصيِّر يدك عليه مبسوطة، وطاعتك عليه واجبة، فكن له بحيث وضَعك أمير المؤمنين، أقرئه القرآن، وعرفه الآثار، وروِّه الأشعار، وعلمه السنن، وبصّره مواقع الكلام، وامنعه الضحك إلا في أوقاته، ولا تمرر بك ساعة إلاّ وأنت مغتنم فيها فائدة تفيدها له من غير أن تخرق به فتميت ذهنه، ولا تمعن في مسامحته، فيستحلي الفراغ ويألفه، وقوّمه ما استطعتَ بالقرب والملاينة، فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة، وبالله توفيقكما.

وقال للأصمعيّ: يا عبد الملك، أنت أعلم منَّا، ونحن أعقل منك، لا تعلِّمنا في ملا، ولا تسرع بتذكيرنا في خلا، واتركنا حتى نبتدئك بالسؤال؛ فإذا بلغت الجواب حسب الاستحقاق، فلا تزد إلاّ أن نستدعيَ ذلك منك.

الماوردي: إذا كان لبعض الملوك رغبة في العلم، فلا تجعل ذلك ذريعة للانبساط عليه والإدلال، وكتب شُريح إلى معلم ولده: **[الكامل]**

تَـرَك الـعـلاة لأكْـلُـبٍ يـسـعـى بـهَـا ... يـبـغـي الـهِـراش مع الـغُـوَاة الـرُّجّـسِ
فـإذا هـمـمـت بـضـربـه فـبـدِرّة ... وإذا بـلـغـت بـه ثـلاثـاً فـاحْـبـس
وإذا أتـاك فـعـضّـه بـمـلامـة ... وعـظـنـه مـوعـظـةَ الأديـب الأكـيـس
واعـلـم بـأنّـك مـا أتـيـت فـنـفـسـه ... مـع مـا يـجـرّعـنـي أعـزُّ الأنـفـس

اتصل حمّاد عجرد بالربيع يعلم ولده، فكتب إليه بشار: **[مجزوء الخفيف]**

يـا أبـا الـفـضـل لا تـنـم ... وقـع الـذئـب فـي الـغـنـم

إنّ حـــمـــاد عـــجـــردٍ إن رأى غـــفـــلـــةً هَـــجَـــمْ
بـــيـــن فـــخـــذيـــه حَـــرْبَـــةٌ فـــي غـــلافٍ مـــن الأدَمْ
إن خـــلا الـــبـــيـــتُ ســـاعـــةً تـــجـــمَّـــع الـــمـــيـــمُ بـــالـــقـــلَـــمْ

فطرده الربيع.

واتخذ المهديّ قطرباً لتأديب بعض ولده، وكان حماد يطمع في ذلك، فلم يتم له لتهتُّكه وشهرته في الناس بما قال بشار، فلما تمكن قطرب من موضعه، صار حماد كالملغى، فجعل يقوم ويقعد قلقاً، ثم دسّ إلى المهدي رقعة فيها: [البسيط]

قـل لـلإمـام جـزاك الله صـالـحـةً لا تجمع الدهرَ بين السَّخْلِ والذِّيبِ
الـسـخـل غِـرّ وهـمّ الـذئـب فـرصـتـه والذئب يعلم ما في السَّخْل من طيب

فقال المهديّ: انظروا لا يكون هذا المؤدب لوطياً، ثم أخرجوه من الدار، فبعث الضجر حماداً حيث حَرَمه بشّار هذه المراتب إلى أن قال فيه: [الطويل]

لـقـد صـار بـشـارٌ بـصـيـراً بـدبـره ونـاظـره بـيـن الأنـام ضـريـرُ
لـه مـقـلـةٌ عـمـيـاء وأسـتٌ بـصـيـرة إلى الأيرُ من تحت الثياب تشيرُ
عـلـى ودّه أن الـحـمـيـر تـنـيـكـهُ وأنّ جـمـيـع الـعـالـمـيـن حـمـيـر

وقال فيه: [الهزج]

ألا مَـــنْ مـــبـــلـــغ عـــنـــى الـــ ـــذي والـــــــده بُـــــــرْدُ
إذا مـــــا ذُكـــــر الـــــنـــــاس فـــــلا قَـــبْـــلٌ ولا بَـــعْـــدُ
وأعـــمـــى يـــشـــبـــه الـــقـــرد إذا مـــا عـــمـــي الـــقـــردُ

قال فيه: [الطويل]

دُعـيـت إلـى بُـرْدٍ وأنـت لـغـيـره وهبك ابن برد نكت أمَّكَ من بُرْدِ

وكان عبد الصمد بن عبد الأعلى مؤدّب الوليد لُوطيًا زنديقاً، وكان سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت جميلَ الوجه شاعراً، فدخل على عبد الصمد فراوده في نفسه فسبَّه، وخرج مغضباً، فدخل على هشام بن عبد الملك، وهو يقول: [الرمل]

إنّـــه والله لـــولا أنـــت لَـــمْ يـنـجُ مـنـي سـالـمـاً عـبـد الـصَّـمَـدْ

فقال هشام: ولم؟ قال: [الرمل]

إنـــه قـــد رامَ مـــنـــي خُـــطّـــةً لـم يَـرُمْـهـا قـبـلـه مـنـي أحـدْ

قال: وما هي؟ قال: [الرمل]

رامَ جَـهْـلاً بـي وجـهـلاً بـأبـي يُـدخـل الأفـعـى إلـى غـيـل الأسـدْ

فضحك هشام، وقال: لو فعلت به شيئاً لم أنكر عليك.

وكان سعيد يومئذ صغيراً في المكتب ومؤدّبه عبد الصمد هذا، فلما راوده عن نفسه شكاه إلى هشام وأبدع في الكناية، ورقّق هذا المنكر الأكبر بلفظ يقابل به خليفةً، وغاية ذوي الْحُنْكة من الخطباء محاكاة براعته واستعارته، وليس ببدع، فهو من بيت ثلاثة شعراء في نَسَق، وكان هذا الشعر سبب إبعاد عبد الصمد من تأديب أولاد الخلفاء.

قوله: ما لبث، أي ما أقام ولا تأخّر. كبر أصيبيته، أي أكبرهم، وكُبْر ولد الرجل أكبرُهم من الذّكُور، وكبر قومه: أقعدهم في النَّسب، أي أقربهم إلى الجدّ الأكبر، ومنه قيل: الولاء للكبر. أصيبيته تصغير أصبية. قال الجوهري: الصبيّ: الغلام، وجمعه صبية وصبيان وهو من الواو، ولمّا لم يقولوا: أصبية ولا أغلمة استغنوْا عنهما بصبية وغلمة، وجاء في الشعر أصيبية. وقال سيبويه: تصغير صِبْيَة أصيبيَة، وتصغير أَصْبيَة صبية وكلاهما على غير قياس.

ابن سيده: عندي أن صبية تصغير صبيّة وأصيبيَة تصغير أصْبية، ليكون كل شيء منهما على بناء مكبره.

العواطل: التي لا نقْطَ فيها. تماطل: تؤخر إنشادها. جثاً: برك. ليث: أسد. ريث: بطء وتأخير.

* * *

[السريع]

أَعْـدِدْ لـحـسّـادِك حـدّ الـسِّـلاحْ ... وَأَوْرِدِ الآمِــلَ وِرْدَ الــسَّــمــاحْ

وصـارِم الـلَّـهْـوَ ووصْـلَ الـمَـهـا ... وأَعْـمِـل الـكـومَ وسُـمْـرَ الـرِّمـاحْ

واسْـعَ لإدراكِ مـحـلٍّ سَـمَـا ... عــمــادُه لا لاذّراعِ الــمِــراحْ

والله مـا الـسـؤدد حَـسْـوُ الـطِّـلا ... ولا مَـرَاد الـحـمـد رؤْدٌ رداحْ

واهــاً لــحُــرٍّ واسـعٍ صـدره ... وهَـمُّـه مـا سـرَّ أهـلَ الـصَّـلاحْ

مـوردُهُ حُـلْـوٌ لـسُـؤّالـه ... ومـالُـه مـا سـألـوهُ مُـطَـاحْ

مـا أسـمـع الآمـلِ رداً ولاَ ... مـاطَـلَـهُ والـمَـطْـلُ لُـؤْمٌ صُـرَاحْ

ولا أطـاعَ الـلَّـهْـوَ لـمَّـا دعـا ... ولا كَـسَـا راحـاً لـه كـأسَ راحْ

سـوّده إصـلاحُـه سِـرَّه ... وردْعُـه أَهَـواءَه والـطِّـمَـاحْ

وحـصَّـل الـمـدحَ لـه عِـلْـمُـهُ ... مـا مُـهِـر الـعُـورُ مـهـور الـصِّـحَـاحْ

* * *

أورد الآمل، أي أعطِ الراجي. وِرد السماح: ماء الكرم. صارم: قاطع. المها:

جمع مهاة وهي البقرة الوحشية، وأراد النساء. الكُوم: جمع كَوْماء، وهي الناقة العظيمة السنام. اسع: اجر مسرعاً. محلّ سما: منزل ارتفع. والعماد: قائمة الخِباء وإذا علت علا البيت. ادّراع: لبس الدّروع. والمِراح: الطرب والنشاط، كأنه يقول: لا تشتغل باللّهو واشتغل بكسب الشرف. حسو الطِّلا: شرب الخمر. السُّودَد: الفعل الذي يرجع به فاعله سيّداً. مَراد، بفتح الميم: مذهب وطريق، وأصله موضع اختلاف الإبل مقبلة ومدبرة وهو المرعى. رُود: جارية ناعمة شابة. والرّدَاح: العظيمة العَجزُ، وهو كما قال أبو نواس: **[الوافر]**

لئن خُلِق الأنام لحب كأسٍ	ومزمارٍ وطنبورٍ وعُوذْ
فلم يُخْلق بنو حمدان إلاّ	لبأسٍ أو لمجد أو لجوذْ

واهاً: عجباً. ما: بمعنى الذي. مطاح: هالك بالعطاء. صراح: ظاهر. راحاً: كَفًّا. راح الثاني: خمر. سؤدده: شرفه، وجعله سيّداً. سرّه: باطنه. ردعه: كفه. أهواءه: شهواته. والطماح: ارتفاع النظر. العُور: جمع عَوْراء وهي الفاقدة إحدى عينيها. مهور: جمع مهر، وهو الصداق، وأعمل علمه فيما بعده من الكلام، وضرَب العور والصحاح مثلاً للأفعال الجميلة والذميمة، فأراد أن تمييزه بين الأشياء المتضادة وعلمه أن مهر القبيحة العوراء لا يبلغ مهر المليحة الحسناء، جعل ممدوحاً سيداً. ومثل هذا الشعر الذي لم ينقَط ما أنشد أبو القاسم الزجاجي لأحمد بن الورد:

علم العدوّ ملامة اللوّامِ	ودوام صدّك وهو صَدٌّ حمام
لولاك ما حَدَر السهاد دموعَه	ولما أطار كراه حَرّ أُوامِ
هل ما أسرّ وما أؤمّل رادعٌ	هول الهموم وروْعة الأحلامِ
رُدّ السلام وما أراك مسلّماً	ورآك أهلُ هواك سرَّ كلام
كم حاسد لك أو مسرٌّ وداده	ومعلّل أهواه طول ملامي

وهي قصيدة نحو الثمانين بيتاً وما زال المحدثون يظهرون اقتدارَهم في هذا الفن، إلاّ أنه قَلَّما يقع في ذلك بيت مستحسن، فلذلك تركنا أن نمشي مع أشعار هذه المقامة فيما يماثلها، وقد أكثر الناس القول في ذلك، وفائدته أن يقال: قدَر على لزوم ما لا يلزم لا أن يقال: قد أحسن فيما قال، وقد أنشد أبو القاسم أيضاً، أبياتاً لا تنطبق عليها الشفاه، منها: **[الطويل]**

أتيناك يا جَزْل العطية إننا	رأيناك أهلاً للعطايا الجزائلِ
عقيل النّدى يا حار عدنا عقيلةً	نعدك انتجاعاً للحسان العقائلِ

* * *

فقال له: أَحْسَنْتَ يا بُدَيْر، يا رأسَ الدَّيْر، ثمّ قال لِتِلْوه، المشتبِه بِصنْوِه: اذن

يا نُوَيْرةَ، يا قَمر الدُّوَيْرَة، فدنا ولم يَتَبَاطَا، حتَّى حلّ منه مَقْعَدَ الْمُعَاطَى، فقال له: اجْلُ الأبياتَ الْعَرائس، وإن لم يكُنَّ نفائس، فبرى الْقَلَمَ وقَط، ثمّ احتجرَ اللوْح وخطّ: [الخفيف]

فَتَنَتـنِي فـجنَّنَتْنِي تَجنّي ... بـتـجَـنٍّ يَـفْـتَـنُّ غِـبَّ تَـجَـنِّـي

شغفتنِي بجفنِ ظبي غَضيضٍ ... غَنِجٍ يَقْتَضِي تَغَيُّضَ جَفْنِي

غشيَتْنِي بزينتيْنِ فَشَفَّتْـ ... ـنِي بِزِيٍّ يشِفُّ بين تَثَنِّي

فتظنَّيتُ تَجْتِبِي فَتَجْزِ ... نِي بِنَفْثٍ يَشفِي فخيَّبَ ظَنِّي

ثبَّتتْ فيّ غشٌ جيبِ بتَزْيِيـ ... ـنِ خبيثٍ يَبْغِي تشفِّيَ ضِغْنِ

فـزت في تَجَنُّبِي فَثَنَتْنِي ... بنشيجٍ يُشْجِي بِفَنٍّ فَفَنِّ

* * *

قوله: أحسنت يا بدير: تَصغير بَدْر، صغَّره لصغر سنه، على أنه قد زَعَم أنه كبير صبيانه. وفي مثل هذا البدر الذي قد نثر هذه الدرر قال الشاعر:

دُرَّان من فَمِهِ شَفًّا محدِّثه ... للنَّثْر والنَّظْم مسموع ومُلْتَثِمْ

قد قلت لو قبل الوعظ المبينَ له ... خَفِ المهيمين فينا إننا نَسَمْ

فقال مَنْ ضَرَّجَتْ خدي نظرتُه ... فإن سيف جُفوني مِنْهُ ينتقمْ

يا رأس الدير: يا عظيم القوم، والدير، موضع القسِّيسين، أراد به حَلْقَة أصحابه. تِلْوه: التابع له، أو الجالس إلى جانبه. صنوه: أخوه الَّذي على قدر سِنِّه. ادْنُ: اقرب. نُوَيْرة: تصغير نار، شبّه في حدته وذكائه بها، أو في حسنه وبهائه. والدويرة: تصغير دارة، وهي حَلْقتهم التي اجتمعوا فيها، فكأنه قال: يا قمراً في أصحابه.

[الغلمان والكتاب]

ومما قيل في غلام كاتب: سأل الثعالبيّ أبا الفضل الدارمِيّ أن يصف له غلاماً كاتباً حسن الخطّين: خَطّي اليد والوجه، فقال: [السريع]

وكاتب أهديتُ نَفْسي له ... فهي من السُّوء فِدَى نفسِهِ

سلّط خدّيه على مُهجتي ... فاستأصَلاَهَا وهي من غَرْسِهِ

فلستُ أدري بعد ما حَلّ بي ... بمِسْكِه أتلف أم نِفْسِهِ

وقال في ذلك: [السريع]

وشادن أسرف في صَدِّه ... وزاد في التيه على عَبْدِهِ

الحسن قد بَثَّ على خدّه بنفسجاً يربُو على وَرْدِهِ
رأيته يكتب في طِرْسِهِ خطًّا يباري الدُّرَّ في عِقْدِهِ
فخلتُ ما قد خطَّه كفُّه للحسن قَدْ خطَّ على خَدِّهِ

ولابن رشيق: [المتقارب]

كتبت ولو أنني أستطيعُ لإجلال قَدْرك دُون البشَرْ
قَدَدْتَ البراعة من أنملي وكان المدادُ سواد البَصَرْ

وله أيضاً: [الطويل]

عزيز يُبَارِي الصُّبْحَ إشراق خدِّه وفي مَفْرِق الظَّلْمَاءِ منه نسيبُ
يزفّ إليه ضاحكاً أقحوانُهُ ويهتزّ في برديه منه قضيبُ

ولابن المعتز في العِذار المشبه بالحروف: [الوافر]

بُليتُ بشادنٍ كالبدر حُسْناً يُعَذّبني بأنواع الدَّلاَلِ
غُلالة خدّه ورد جنيٌّ ونون الصُّدغ معجمة بخالِ

وله أيضاً: [البسيط]

كأن خطَّ عذارٍ فوق وجنتِهِ مَيْدَانُ آسٍ على وَرْدٍ ونَسْرِينِ
وخطَّ فوق حَباب الدّر شاربه بنصف صادٍ ودار الصُّدغ بالنونِ

وله أيضاً: [الطويل]

لَهُ من عيون الوحش عينٌ مريضة ومن خضرة البستان خضرة شاربِ
كأن غُلاماً حاذقاً خطَّه لَهُ فجاء كنصف الصَّاد من خط كاتب

وقال آخر: [البسيط]

تعلّم العطف من صُدغيه فانعطَفَا وكان عادتُه ألاَّ يفِي فَوَفى
دبّ العِذار على ميدان صَفْحَتِهِ حتى إذا هَمّ أنْ يسعَى به وقفَا
كأنه كاتبٌ عزَّ المِدادُ به أراد يكتب لاماً فابتدى ألفَا

وقال أبو القاسم بن المغربي: [الطويل]

ولمَّا احتوى بَدْرُ الدّجى صحنَ خدِّه تحيَّر حتى ما دَرَى أين يَذْهبُ
كأن انعطاف الصُّدغ لامٌ أمَالَهَا أديب يُجيد الخَطّ أيَّان يكتبُ

فهذه الأشعار المستعذبة الّتي بها تعلّق بالغلمان الذين يذكر أنهم كتّاب من جهة حسنهم واعتدال قدودهم وتوريد خدودهم، وتطريزها بالعذار أحسن من ذكر شعر لزوميّ ليس فيه شيء من الأنس للنفس.

قوله تَبَاطا: أي تأخر وأصله الهمز. المعاطَى: الّذي تعطيه كأس الخمر ويُعطِيها لك، وقد عاطيته وعاطاني وقد تعاطى فلان كذا، أي تناوله وأخذه، من قولهم: عَطَوْت أعطو عَطْواً، أي تناولت. العرائس: جمع عروس، وسمَّاها عرائس لما فيها من التزيين بالنقط، وكانت زينة العروس عند العرب أن تُنقط في خديها نقطٌ صغار بالزعفران، فلذلك سمّى هذه عرائس لنقطها، وسمّى التي قبلها عواطل لعدم نَقْطها. نفائس: جمع نفيس، وهو الرفيع القدر، يريد أنه لما لزمها ما لم يلزم ضعفتْ، وقد ذكرنا أن الغرض بمثل هذه الأشعار إظهار الاقتدار، وعلى ما ذكر أنها غير نفائس فهي أحسن مما عمل في بابها، وما أحسن ما قال ديك الجن في جاريته: **[الكامل]**

انْظُر إلى شمس القصور وبدرِها ... وإلى خُزاماها ونفحة زهرها[١]
لم تَبْلُ عينُك أبيضاً في أسود ... جمع الجمال كوجهها في شَعْرِها
وردية الوجَنات يختبرُ اسمها ... من ريقها من لا يحيط بخبرِها
وتمايلت فضحكتُ من أردافها ... عجباً ولكني بكيت لخصرِها
تَسْقِيك كأس مُدامة من كَفِّها ... وردية ومدامة من ثَغْرِها

ولابن الزّقاق: **[الطويل]**

تَضَوَّعْن إشراقاً وأشرقن أوجهاً ... فهن منيرات الصَّباح بواسمُ[٢]
لئن كنَّ زهراً فالجوانح أبرجٌ ... وإن كن زهراً فالقلوب كمائمُ

قوله: قط: قطع، وقيل: القَطّ القطْع عرضاً، والقدّ: القطع طولاً. احتجر: جعله في حجره. خط: كتب. فتنتني، أي عذبت قلبي. جنَّنتني: أي صيرتني مجنوناً. تجني: اسم امرأة، والتجنّي الدلال والتيه.

وللبحتريّ: **[الوافر]**

إذا خطرتْ تأرَّج جانباها ... كما خطرت على الأرض القَبولُ[٣]
ويحسن دَلُّهَا والموت فيه ... وقد يستحسن السَّيْفُ الصَّقِيلُ

شغفتني: بلغ حبّها شِغاف قلبي، والشّغاف حجاب القلب. ظبي: غزال. غضيض: منكسر الطرف فاتر العينين. والغُنْج: تكسير الكلام وتخنيثه وهو المجانة. يقتضي: يتضمن. تغيّض جفني: سيلان عيني.

ومما قيل في مرض العينين وحَسُن فيه التشبيه قول البحتريّ: **[الطويل]**

---

(١) الأبيات في ديوان ديك الجن الحمصي ص ١٦٨.

(٢) الأبيات في ديوان ابن الزقاق ص ٢٩٧.

(٣) البيتان في ديوان البحتري ص ٨٢٢.

غـداة تـثـنّـت لـلـوداع وسـلّـمـت | بعينين موصولٍ بجفنيهما السِّحْرُ[(١)]
توهَّـمـتُـهـا ألـوي بـأجفـانـهـا الْـكَـرَى | كَرَى النّوم، أو مالت بأعطافِهَا الخمرُ

وقال ذو الرُّمة: **[الطويل]**

لـهـا بَـشَـرٌ مـثـل الـحـريـر ومـنـطـقٌ | رخيـمُ الـحـواشـي لا هُـراء ولا نَـزْرُ[(٢)]
وعـيـنـان قـال الله كـونـا فـكـانـتـا | فَـعُـولان بـالألـبـاب مـا تـفـعـل الـخـمـر

وقد تقدَّم جملة من هذا.

غشيتنِي: أتتني على غفلة. شفَّتني: أنحلت جسمي. والزّي: الهيئة الحسنة من اللباس. يشفّ: يفضل. تثنّ: اهتزاز وانعطاف. تظنَّيت: حسبت. تجتبيني: تختارني. بنفْث: بلفظ وكلام. والجيب: القلب. يبغي: يطلب. تشفّي ضِغني: إزالة عداوتي. نزت: وثبت. تجنُّبي: بعدي. ثنتني: ردّتني. نشيج: صوت البكاء. يشجي: يحزن. بفنٍّ ففنّ: بنوع فنوْع.

* * *

فلمَّا نظر الشيخُ إلى ما حبَّره، وتصَفَّح ما زَبَرَه، قال له: بوركَ فيك من طَلاً، كما بُورِكَ في لا ولا. ثم هَتَف: اقرُب، يا قُطْرب، فاقترب منه فتًى يَحْكِي نَجْمَ دُجية، أو تِمْثالَ دُمْيَة، فقال له: ارْقُمِ الأبيات الأخْيَاف، وتجنّبِ الْخِلاف، فأخذ القلم، ورَقَم: **[مخلع البسيط]**

اسْـمَـحْ فَـبَـثُّ الـسَّـمَـاحِ زيْـنٌ | ولا تَـخِـبْ آمـلاً تَـضَـيَّـفْ
ولا تُـجِـز ردَّ ذي سُـؤالٍ | فَـنَّـنَ أم فـي الـسـؤال خـفَّـفْ
ولا تـظـنَّ الـدُّهـورَ تُـبْـقِـي | مَـالَ ضَـنـيـنٍ ولَـوْ تـقـشَّـفْ
واحْـلُـمْ فـجفـن الـكِـرام يُـغْـضِـي | وصَـدْرهُـمْ فـي الـعَـطَـاءِ نَـفْـنَـفْ
ولا تَـخُـنْ عـهـدَ ذي ودادٍ | ثـبْـتٍ ولا تَـبْـغِ مـا تَـزَيَّـفْ

حبَّره: زينه. زبره: كتبه. طَلا: غزال. لاولا، يعني الزيتون، ومن كلام العامة، بورك فيك كما بورك في الزّيت، وأراد بلا ولا قولَه تعالى: **﴿يوَقدُ من شَجَرةٍ مُباركةٍ زَيتُونةٍ لا شَرْقيّةٍ ولا غربيّةٍ﴾** [النور: ٣٥]، فأخذ من الآية لا ولا واكتفى بهما.

الفنجديهي: يحكى أن بعض الناس ظهرت به علة مزمنة شديدة أعيا الأطباءَ

---

(١) البيتان في ديوان البحتري ص ٨٤٤.

(٢) البيتان في ديوان ذي الرمة ص ٥٧٧، والبيت الأول في الخصائص ١/ ٢٩، ٣/ ٣٠٢، ولسان العرب (هرأ)، (نزر).

علاجها، فلما أيسَ رأى النبي ﷺ في النَّوم فشكا إليه علّته المزمنة، فقال له: عليك بلاَ ولا، فقصَّ رؤياه على ابن سيرين، فقال له: إن صدقتْ رؤياك فإنه ﷺ أمرك بتناول الزيتون، فتناولها الرجل فبرىء من علّته، فقال لابن سيرين: من أين قلتها؟ قال: من قوله تعالى: ﴿**زَيْتُونةٍ لا شرقيّةٍ ولا غربيّة**﴾ [النور: ٣٥]، المعنى من زيت شجرة مباركة زيتونة لا شرقية، أي ليست تطلع عليها الشمس أوّل النهار فقط، ولا غربيّة أي عند الغروب فقط، أي لا يسترها من الشمس في وقب من النهار شيء، فهو أنْضرُ لها وأجود لزيتها، وقالﷺ: «كلوا الزيت وادّهنوا به فإنه يخرج من شجرة مباركة»(١).

قوله: هتف: صاح. قطرب: خفيف النوم، والقطرب: دويبة تمشي بالليل. وجنّية: تبرك على الإنسان فيجد لها ثقلا، والعامة تبدل طاءها تاء، والعرب تسميها النّئدلان، والكابوس والجاثوم، ويسميها أهل بغداد البحت. دُجْية: ظلمة. دمية: صورة رخام، وجمعها دُجًى ودُمًى وكأنّ صورة هذا الغلام الذي ذكر الشاعر: **[الطويل]**

بَدَا فبدا من وجهه البدرُ طالعًا ... لدى الروض يستعلي قضيبا منعَّمَا
وقد أرسلت أيدي العذارى بخدِّه ... عِذاراً من الكافور والمسك أسْحَمَا
وأحسِب هاروتاً أطاف بطرْفه ... يعلّمه من سحره فتعلَّمَا
ألم بنا في دامسِ الليل فانجلى ... فلما انْثَنى عنّا وودّع أظلَمَا

والأبيات للأمير أبي الحسن أحمد بن عضد الدولة.

وقال أبو إسحاق الحصري مؤلف كتاب الزهر: **[مجزوء الكامل]**

عليلُ طرفٍ سقيتُ خمراً ... مِنْ مقلتيه فمتُّ سكرَا
ترقرقت وجنتاه ماء ... مازج فيه العتيق دُرًّا
يُحرِّك الدلّ منه غصناً ... ويُطلع الحسنُ منه بدرَا
قد نمَّ مسكٌ بعارضيه ... خلّف للعاشقين عُذْرَا

قوله: الأخياف، أي المختلفة. وقوله: فأخذ القلم ورقم، كأنّ أبا إسحاق الحصري إيَّاه عنَى بهذه الأبيات: **[البسيط]**

إذا بدا القلم الأعلى براحتِهِ ... مطرِّزاً لرداء الفجر بالظُّلَم
رأيتَ أسود في الأبصار أبيض في ... بصائر لحظها للفهم غير عمِي
كروضةٍ خطرتْ في وشي زهرتها ... وافتر نَوّارها عن ثغرِ مبتسم

---

(١) أخرجه الترمذي في الأطعمة باب ٤٣، وابن ماجه في الأطعمة باب ٤٣، والدارمي في الأطعمة باب ٢٠، وأحمد في المسند ٣/ ٤٩٧.

وكأن الحسن استعار منه الدواة والقلم حيث قال: [المنسرح]

يا ريم هاتِ الدواة والقلَما أكتب شَوْقي إلى الّذي ظَلَمَا
غضبان قد غرّني رضاه ولو يُسأل فيما غضبت ما عَلِمَا
لو نظرتْ عينُه إلى حَجَرِ ولّد فيه فتورُها سقَمَا
فليس ينفكّ منه عاشِقُه في جمع عذرٍ لغير ما اجْتَرَمَا
علقتُ مَنْ لو أوى إلى أنفس الـ ـماضين والغابرين ما ندمَا

قوله: اسمح: جُدْ. بث: نشر. آملا: راجياً. تضيّف: طلب منك أن تضيفَه. فنَّن: أتى بفنون من السؤال. ضنين: بخيل. تقشّف: ترك النظافة. يُغْضِي: يتغافل. نفنف. واسع، والنفنف متسع الأرض. ثبتْ: صادق الودّ، ويروى: نَثّ أي نشر. تبغ: تطلب. تزيّف: تنقص، وصار زائفاً، وهو الدرهم الرديء.

* * *

فقال له: لاَ شَلّتْ يداك، وَلاَ كَلّتْ مُداك، ثم نادى: يَا غَشَمْشَم، يَا عِطْر مَنْشَمْ، فَلبَّاه غلامٌ كدُرّه غوَّاص، أو جؤذَرِ قَنّاص، فقال له: اكتب الأبيات الْمَتَائِيم، ولا تكن من المشائيم، فتناول القَلَم المثقف، وكتب ولم يتوقّف: [الخفيف]

زيّنتْ زينبٌ بقدٍّ يَقُدُّ وَتَلاه ويلاه نَهْدٌ يَهُدُّ
جُنْدها جِيدُها وظَرفٌ وطَرْفٌ ناعِسٌ تاعسٌ بحدٍّ يَحُدُّ
قدرُها قدْ زَهَا وتاهَتْ وباهَتْ واعْتدتْ واغتدتْ بِخدٍّ يَخُدُّ
فارَقَتْني فأرَّقتني وشَطَّتْ وسَطَت ثمّ نمَّ وجْدٌ وجِدُّ
فدنتْ فدِّيتَ وحنَّتْ وحَيّتْ مُغْضَباً مُغْضِياً يَودُّ يُوَدُّ

* * *

قوله كلّت، أي حفيت. مُداك: سكاكينك، جمع مُدْية. الغشمشم: الذي لا يردّه شيء عن مراده.

[قصة المثل: دقُّوا بينَهُم عطر مَنْشَم]

عطر مَنْشَم، قيل: كانت مَنْشَم جارية عطّرت رجالها حين خرجوا للقتال، فقُتِلوا عن آخرهم، فضرب بها المثل في الشؤم. وقيل: بل الإشارة إلى عطارة، أغار عليها قوم فأخذوا عِطْرَها فتطيّبوا فاستغاثت بقومها، فخرجوا في طلبهم، فمن شمُّوا عليه رائحة الطيب قتلوه، ومن أوّله على هذا قال: عِطْر مَنْ شَمَّ، فجعلوه من كلمتين. وقيل: الكناية عن قرون السنبل الّذي يقال إنه سمّ ساعة.

وذكر ابن الكلبيّ أنها امرأة من خُزاعة كانت تبيع العطر فتطيَّب بعطرها قومٌ وتحالفوا على الموت، فماتوا.

وقال غيره: بل هي صاحبة يَسار الكواعب، وكان عبداً أسود مُشوّه الخلقة راعي إبل، فمتى رأَته النساء ضحكن منه، فتوهّم أنهنّ يضحكْنَ من إعجابهنّ بحسنه، فقال يوماً لرفيق له: أنا يسار الكواعب، ما رأتني جارية كاعب إلا وعشقتْني، فقال له رفيقه: يا يسار، اشرب لبن العِشار، وكل لحم الحُوار، وإياك وبنات الأحرار، فأبى وراود مولاته عن نفسها، فقالت له: مكانك حتى آتيك بطيب أشمك إياه، فأتته بموسى، فلما أدنى أنفه ليشمّ الطيب جدَعته.

ويقال إنه لما راودَها قالت له: أهكذا تأتيني بذفَرِك ووَسخِك! ادنُ حتى أعطّرك، فأدخلت يدها تحته وفيها موسى لطيفة قد أعدّتها له، فقبضت على ذكره وخصيته، فاقتطعت الجميع، فخرج فمن رآه على تلك الحالة قال له: ما هذا؟ فيقول: عطرُ من شمّ. وقيل: كانت تبيع الحنوط وهو عطر الموتى. وقيل: المنْشَم: الشر نفسه، وقيل: المنشَم ثمرة سوداء منتنة. وقيل فيها غير ما ذكر.

وذكر الحريري في الدرة أكثَر هذه الوجوه، وذكر أن كسر شين منشِم أكثر وأشهر ويروى بفتحها.

قوله المتائيم: جمع مُتْئم، وهي التي من عادتها أن تلد توأمين، ولما كانت أبياته لا يوجد فيها إلا الألفاظ المزدوجة، سمِّيَتْ متائيم، وقيل: المتائيم: جمع توأم على غير قياس. المشائيم: جمع مشآم، وهو الكثير الشؤم، وشبّه بدرَّة غواص في بياضه ورقة ديباجه. وجؤذر قناص، هو الظبي الفاتر العينين، والقنّاص: الصياد، فكأنه يصطاد بعينيه مَنْ نظر، وإن أضفت جؤذر إلى القناص فمعناه مستقيم، فيصفه بالخوف وكثرة التلفّت خشية أن يُصاد. وما أحسن ما قال صاحبنا الوزير الحسيب أبو المطرّف الزّهري في هذا المعنى وكان جالساً في باب داره مع زائر له، فخرجت عليهما من زقاق جارية سافرة الوجه كالشمس الطالعة، فحين نظرتْهما على غفلة نفرت خجلة فزِعة، فرأى الزائر ما أبهته، فكلّفه وصفها، فقال مرتجلاً: **[البسيط]**

يا ظبيةً نفرتْ والقلب مَسْكَنُها	خوفاً لختليَ أو عمداً لتعذيبي
لتأمني فابنُ عبد الحيّ ألحقنا	عِدْلاً يؤلف بين الظبي والذيب

وكأن ابن رشيق وصف هذا الغلام الكاتب حيث قال: **[السريع]**

وفاترِ الأجفان ذي وجنةٍ	كأنها في الحسن ورد الرِّياضْ
قلت له: يا ظبي خُذْ مهجتي	داوي بها تلك الجفون المراضْ
فجاوبتْ من خدّه خجلة	كيف ترى الحمرة فوق البياضْ

وقال أيضاً: [مجزوء الرمل]

بـيـن أجـفـانـك سـحـرُ ولأغـصـانـك بـدرُ
جـرّدت عـيـنـاك سـيـفـيـن لـذا أمْـرُك أمْـرُ
فـعـلـى خـدّيـك مـن نَـزْف دِمـا الـعـشّـاق أُثـرُ
ومـن الـكـثـبـان شَـطْـرٌ لـك والأغـصـان شـطـرُ
وسـواء قـلـت درٌّ مـا أرى أو قـلـت ثَـغْـرُ
وبـمـاذا أصـف الـخَـصْـر ومـا إن لـك خَـصْـرُ
بـك شـغـلـي واشـتـغـالـي ومـضـى زيـد وعـمـرو

وقال خالد الكاتب: [الكامل]

قد قلتُ لـمّا أن بدا متبختراً والرِّدف يجذب خَصْره من خَلْفِه
يا من يسلِّم خَصْرَه من رِدْفِه سَلِّمْ فؤاد محبِّه من طرْفِهِ

وله مما يتعلق بالكتابة: [المتقارب]

كتبت إليك بماء الجفون وقلبي بماء الهوى مُشْرَبْ
فكيف تخطّ وقلبي يملّ وعَيْنِيَ تمحو الّذي أكتبْ
فليس يتم كتابي إليك بشوقي فمن هاهنا أعجبْ

قوله: زينت زينب بقدّ يقدّ، إنما أراد بقدّ يقدّ، أي ينقطع لرقة خَصره، فعوّض منه يقدّ لقرب ما بين اللفظين ولضرورة الازدواج. وقال البحتريّ في القدود: [الوافر]

من السّمر اللدان إذا اسْبَكَرَّتْ وصرف الموت في السّمر اللدانِ
شبيهات الرّماح قنى جفونٍ وكلمٍ في القلوب بلا سنان
فهل من ضربةٍ أو من سنانٍ كعين أو كثغر أو بَنَانِ

وقال السريّ: [الكامل]

قَامَتْ وخُوط البانة الـ ـميّاس في أثوابِها
تسقي بصهباءين من ألحاظها وشَرَابها
ويهزّها سُكرانِ سُكْر شرابها وشبابها
وكأنَّ كأس مُدامها لما ارتدت بحِبَابها
توريد وجنتِها إذا ما لاح تحتَ نقابها

وقال القاضي أبو حفص بن عمر: [الكامل]

هذا فؤادي أقصدته الأَسْهُمُ مَنْ ذا يرى تلك الجفونَ وَيَسْلَمُ

يا غِرّة حكم الجمال لَها على ... شمس الضحى وأصاب فيما يحكمُ
يحكي الجآذر جيدُها ولحاظُها ... هيهات دون العالم المتعلِّمُ
وكأنّ قامَتها ونغمة لفظها ... غُصْنٌ عليه بلبلٌ يترنَّمُ
يضحي الخليّ إذا رآها عاشقاً ... والعقل توقظه اللحاظ النوّم

وما أحسن ما قال أبو الحسن بن القبطُرنة: [المتقارب]

ذكرت سليمى وحرّ الوغى ... كقلبي ساعة ودّعتُها
وأبصرت بين القنا قدّها ... وقد ملن نحوِي فعانقتُها

قوله: تلاه، أي تبعه. ويلاه: دعا لنفسه بالويل والخسران حين رأى نَهْداً لا يصبر عنه.

[مما قيل في النهود]

ومما جاء من التشبيهات الحسان في أوصاف النّهود قول عمرو بن كلثوم: [الوافر]

وثدياً مثل حقّ العاج رخصاً ... مصاناً من أكفّ اللامسينا[1]

بشار: [البسيط]

والنهد تحسبه وسنان أو كَسِلاً ... وقد تمايل ميلاً غير منكسرِ

ابن الرومي: [الوافر]

صدور فوقهنّ حقاق عاج ... ودرٌّ زانه حُسْنُ اتّساقِ
يقول القائلون إذا رأوْه ... أهذا الدّرّ من هذي الحقاقِ!

وأخذه من قول عبد الله بن السبط: [المتقارب]

كأنَّ الثدي إذا ما بدت ... وزان العقود بهنّ النُّحورَا
حِقاقٌ من العاج مكنونةٌ ... يَسَعْنَ من الدرّ شيئاً يسيرا

ولإدريس اليماني: [الطويل]

أيا ربَّة النَّهد الذي بسنانهِ ... يحطّ فتى الهيجاء عن فرس نَهْدِ
أحقان مِنْ عاج بصدْرك أم هما ... رقيبان قد قاما على جَنّة الخلدِ

---

(١) البيت في ديوان عمرو بن كلثوم ص ٦٨، ولسان العرب (حقق)، وجمهرة اللغة ص ١٠١، وجمهرة أشعار العرب ١/ ٣٩٣، وشرح ديوان امرىء القيس ص ٣٢٢، وشرح القصائد السبع ص ٣٨١، وشرح القصائد العشر ص ٣٢٧، وشرح المعلقات السبع ص ١٦٩، وشرح المعلقات العشر ص ٨٩.

ومن البدائع الروائع قول الآخر: [المتقارب]

وذات دلالٍ سبتْ مهجتِي بمستشرفيْن على مئزر
كأنهما خُوطُ كافورةٍ بأعلاهما نُقْطتا عنْبَر

وللقاضي عبد الوهاب، ويروي لغيرهِ: [الكامل]

يا صاحبيَّ قبالتي خُمصانةٌ مالت فمال الدِّعْص من أعْطافها
في الصَّدر منها للطِّعان أسنَّةٌ ما أشرِعت إلا لجنْي قِطافها
إن تنكرا قتلي بها فتبيَّنا تجدا دمِي قد جفَّ في أطرافها

علي بن الجهم: [الرمل]

كنت مشتاقاً وما يحجزني عنك إلا مانع يمنعُني
شاخص في الصدر غضبانُ على قَبَبِ البطنِ وطيّ العُكن
يملأ الكفَّ ولا يفضلُها فإذا أثنيتهُ لاَ ينثني

* * *

قوله جيدها: أي عنقها، وكأنّ حبيباً وصف هذه الجارية وجيدها بقوله: [الكامل]

كالخوطِ في القدِّ والغزالة في الـ بَهجة وابن الغزال في غِيدِه
وما حكاه ولا نعيم له في حسنه بلْ حكاه في جيده

وإن كان هذا الجِيدُ عاطلاً حلّيناه بقول ابن العباس الأعمى: [الطويل]

ونبِّئت ذاك الجيدَ أصبح عاطِلاً خذي أدمعي إن كُنْت غَضْبى على الدّرّ
خذي فانظميها أوكِليني لنظمِها حُلِيًّا على تلك التَّرائب والنّحْر
خذي اللؤلؤ الرطب الذي لَهِجُوا به مَحَارتُه جفني ولجته صَدْري
ولا تخبري حُور الجنان فربَّما غَصَبْنَكه بين الخديعة والمكر

طرف: عين. ظرف: حلاوة ورشاقة، وجعل الطَّرف والعنُق جنداً لها، لأنها لما حُسنَتْ معنى هذه الصفات انقاد لها عشاقها أذلاّء، فكأنها أغارت على قلوبهم فاستلبتْها، وقد قال فيما تقدَّم: [المتقارب]

* وأحوى حوَى رقِّي لفظه *

فجعله قد ملكه بحلاوته. وقال حبيب: [الكامل]

وحشيّة ترمي القلوب إذا اغتدت وسْنَى فما تصطاد غير الصَّيد

فجعلها تصطاد السادات بفتور عينيها، وهذا المعنى لا يحصى كثرة.

وأراد بالنّاعس الفاترَ النّظر وينعش من كان له منه نصيب وتمكن. يحدّ: يمنع من

رآه من التسلي والتصبُّر. زهَا: تكبَّر. والتّيه: ضرب من الزَّهو، وهو الكِبْر. باهت: فاخرت وعظمت. واعتدت: ظلمت. يخدّ: يقطع، أي أن خدّها يقْطع في القلوب لا سيما إن كان كما قال من أحسن: **[المتقارب]**

وبيضاء تحسبها دُرَّةً ... تضيء الدُّجى إن بدت أو تكادْ

تُنَمِّمُ بالمسك كافورتيْ ... محيًّا حَوى الحسن طُرًّا وزادْ

فقلت: أوصلُك هذا البياض ... وبعض صدودك هذا السواد

فقالت: أبي كاتب للملوك ... دنوت إليه بحسن الوداد

فخافَ اطلاعي على سرِّه ... فلم يعد أن رشَّني بالمِدَادْ

فوصفها بأنّ في خدَّيها خِيلانا.

قوله: أرَّقتني، أي منعتني النوم. شَطَّت: بعدت. سَطَتْ: بطشت. نمّ: أفشى السرَّ، أي أفشى ما بي من الحب. وجْد: حزن من الحبّ وهمّ. جدّ: اجتهاد. فدنت: قربت. حنَّت: أشفقت. مغضياً: متغافلاً عمّا ينال منه. يودّ: يتمنى. يُودّ: يُحبّ، يقول: لما نمَّ لها وجدي بما أُجِنُّه من حبّها وأبصرت ما فعل هجرها بي دنَتْ عند ذلك منّي شفقةً، وحيّتْني بسلامها وأنا في حال غضبان، لما حلَّ بي من الهجر متمنّياً أن تجيئني، فلمَّا سلمتْ عليّ أزالت غضبي، وأغضيت عما سلف من الفعل القبيح.

[مما قيل في وصف الجواري شعراً]

ونذكر هاهنا من الأشعار الحسان مما يوافق وصف هذه الجارية جملة مستظرفة، قال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر: **[المتقارب]**

يَزيدني البعد شوقاً إليكِ ... وطُول صُدودُكِ حِرْصاً عليك

ولو كنت أملك ما تملكينَ ... من الصَّبر ما طال شوقي إليك

وقال آخر: **[المتقارب]**

وما أنسَ لا أنس ذاك الخضوعَ ... وفَيْض الدموع وغمز اليد

وخدّي مضافٌ إلى خدِّها ... قياماً إلى الصُّبح لم نرقُد

وقال أبو مطرف الزهريّ: **[البسيط]**

مرَّتْ بنا وبَدَتْ كالبدر وانفلَتَتْ ... كالغصن والتفتتْ كالشادن الخرقِ

تسربلتْ ببرود الحُسن والتحفتْ ... بالغُنج واشتملت مِرْطاً من الغسق

وقال السّري: **[الكامل]**

لبستْ مصندلة الثياب فَمَنْ رأى ... قمراً تسربل قَبْلَها أثوابا

وحكتْ من الظبي الغرير ثلاثةً ... جِيداً وطرفاً فاتراً وإهابَا

وله أيضاً: [الوافر]

مذهبّة الخدود بجلنار ... مفضّضة الثغور بأقْحُوان
سَقَانا اللّهُ من ريّاك ريًّا ... وحيَّانَا بأوجهك الحِسَان

وللقاضي أبي حفص: [الوافر]

همْ نظروا لواحظَها فهامُوا ... وتشرَّب عقلَ شاربها المُدَامُ
سَمَا طرفِي إليها وهو باكٍ ... وتحت الشَّمس ينْسَكِبُ الغمامُ
يخاف النَّاسُ مقلتَها سِوَاها ... أيذعر قلبٌ حامله الحسامُ!
وأذكر قدّها فأنوح شوقاً ... على الأغصان تنتدب الحمامُ
وأعقب همّها في الصَّدْرِ غمًّا ... إذا غربَتْ ذكاءُ أتى الظَّلامُ

وله أيضاً: [الوافر]

أعيذك يا سليمى من سُلَيْمِ ... قتلتِ فتاهُم وهو الكريمُ
فما لكِ طالب بتراتِ نفسي ... إذا قتل الغرامُ فلا غريمُ
فؤادي سار نحوك عن ضُلُوع ... بها يا ريمُ حبُّك لا يَرِيمُ
ودادكُ صحّ في قلبٍ سليم ... كطرفك صحّ ناظره السقيمُ
إذا أعرضت تسود الأماني ... وإن أقبلتْ تبيّضُ الهمومُ

* * *

فطفِق الشيخُ يَتَأمَّل مَا سَطَره، ويقلِّب فيه نَظَرَه، فلمَّا اسْتَحْسَن خَطّه، واسْتَصَحَّ ضَبْطَه، قال له: لا شَلَّ عَشْرُك، ولا استُخْبِثَ نَشرُك. ثمَّ أهابَ بفتًى فتَّان، يُسْفِرُ عن أزهارِ بُسْتَان، فقال له: أَنْشِدِ الْبَيْتَيْن المطرَّفَيْن، المشْتَبِهِي الطَّرَفَيْن، اللَّذيْن أَسْكَتَا كُلَّ نَافِث، وَأَمِنَا أن يُعَزَّزا بثالث، فقال له: اسمع لا وُقِرَ سَمْعُكَ، ولا هُزِمَ جَمْعُكَ، وأنشد من غير تلبّث، ولا تَرَيّث: [السريع]

سِمْ سِمَةً تَحْسُن آثارها ... وَاشْكُرْ لمن أَعْطَى ولو سِمْسِمهْ
والمكرُ مَهْمَا اسْطَعتَ لا تأته ... لتقتَنِي السُّؤدُدَ والمكرُمَهْ

* * *

قوله: طفِق، أي أخذ. يتأمَّلُ: ينظر. سَطَرَه: كتبه. استصَحّ: وجده صحيحاً، والضَّبط: الشكل والنقط: لا شَلَّ عشرُك، دعاء، أي لا يبستْ أصابعك، ويروى: لا ثُلَّ

عرشك، أي لا هُدِم عزك، والرّوَاية الأولى هي الصحيحة. استُخْبِث: فَسَد وصار خبيثاً. نشرك: رائحتك العطرة. أهاب: دعا وصاح. يُسْفِر: يكشف عن وجهه لثامه. عن أزهار بستان: عن بياض الوجه وحمرة الخدّين والشّفتين وسواد العينين والأشفارِ وخضرة الشارب والعِذار ومحاسن لا تفي بها ناضرات الأنوار، وقد يكون يُسفر بمعنى يَتبَسّم عن بياض شقيق وأقحوان واحمرار عقيق ومرجان، وكأنّ هذا الغلام هو الذي ذكر أبو الرقعمق بقوله: [البسيط]

إذا جرتْ يدهُ في الطرس كاتبةً ... تبلّج الطِّرس عن دُرٍّ ومَرْجَانِ
وإنْ تكلّم جاءته براعتهُ ... بكلِّ ما شاء من فَهْم وتبيانِ

وقال بعضهم يصف غلاماً كاتباً: [الكامل]

انظر إلى أثر المدادِ بِطرْسِه ... كبنفسج الرَّوض المشوب بوردِهِ
ما أخطأتْ نوناته من صُدْغه ... شيئاً ولا أَلِفاته منَ قدِّهِ
وكأنَمَا أَلِفاته من شَعْرِه ... وكأنما قِرَطَاسُه من خَدِّهِ

ولعمر بن فتح: [الكامل]

فنوناته من حاجبيْه استعارها ... ولاماته من صُدْغِه المتعاطفِ
ومن صدّه المؤذي اسوِدادُ مداده ... ومن وصله المحيي ابيضاض الصحائف

ولأبي إسحاق الحصري في وصف هذا الغلام: [الوافر]

أيا من تُمْسِك الأوصافُ عنه ... أعِنَّةَ وصْفِنَا نَظْماً ونثْرَا
ومن يدعو القلوب إلى مُناها ... بعينيه فلا تأتيه قَسْرَا
ومَنْ يُجْرِي اللآلىء في أقاحٍ ... يمازج ظَلْمَهُ بَرَداً وخَمْرا
ويعرض في رياض الدّلّ غصناً ... ويطلعُ في سماء الحسن بَدْرا
كأن بخدّه ذهبَاً صَقِيلاً ... أذاب عليه ياقوتاً ودُرّا

ومنها في وصف الكتاب: [الوافر]

قرأت كتابكَ الأعلى محلاً ... لديّ ومُوقِعاً شرفاً وقَدْرَا
فأحياني وقد غودرت مَيْتاً ... وأنشرني وقد ضُمِّنْتُ قَبْرَا
نقشت بحالِكِ الأنقاش نَوْراً ... جَلاَ لعيوننَا نَوْراً وزَهْرَا
فدبج من بَسِيط الفِكْرِ رَوْضاً ... أنيقاً مشرق الجنَبَاتِ نَضْرَا
لو استسقى العليلُ به لأروي ... أو استشفي العليلُ به لأَبْرَى
هَفَا عطر الجنوب له نسيمٌ ... أَقول إذا أناسم منه نَشْرَا

نشرتَ لنا على الكافورِ مِسْكاً ... ولم تنشر على القرطاسِ حبْرَا

وله في العذار: [الكامل]

سَلَبَتْ محاسنُه سوادَ عيوننا ... وقلوبنا وكَسَتْ أديمَ عِذَارِهِ

فبدا طرازا في أسيلِ مشرقٍ ... ماء الْحياة يجولُ في أسرارِهِ

علم الذي استُلبت له يدٌ حسنَه ... منا فمازج أمنه بحذارِهِ

فله توقُّف مستريبٍ تائب ... ولنا تلهُّب عاجزٍ عن ثارِهِ

وقال أبو الفضل الدارمي: [الكامل]

ظبيٌ إذا حَرَّكَ أصداغَه ... لم يلتفت خلق إلى الْعِطر

غنى بشعرِي مُنشداً ليتني اللـ ... ـفظ الذي ضمنته شعرِي

فكلما كرر إنشادَه ... قبلتُه فيه ولا يدري

ولمهيار: [الرجز]

مشتبه أعرفُه وإنما ... مغالطاً قلت لصحبي دَارُ مَنْ

وحاملِي على السّرور حاملٍ ... في كفِّه وَطرفه سيفَ الفِتَنْ

قد كتب الحسنُ على عارضِه ... ما أقبح الهجران بالوجه الحَسَنْ

ولأبي إسحاق الطليطلي: [الكامل]

ومعذَّرٍ رَقَّت له خمر الصبا ... حيث العذار حبابها المترقّقُ

ديباج حسنٍ تاه عقلاً ناقصاً ... فأتمها علم الشّباب المونق

وشكا الجمال مقيله في وَرْدِه ... فأظله آس العذار المشفِقُ

عامت بماء الصَّقل شَامةُ خدّه ... وحما العِذار زُوَيرقاً لا يغرق

إن كان يمحو نقشه من خده ... فطلا الغزال بمسكها يتفتَّقُ

قوله: المطرفين، أي الغريبين، وقد أطرفته، جئته بطُرفة، أي بشيء معجب، نافث: متكلم. يعزّزا: يقويا ويشدّدا، وإذا صلب الشيء قيل: تَعزَّز وأصله من العَزاز وهي الأرض الصلبة.

وقال في الدّرة: ويقولون شفَّعت الرّسولين بثالث فيوهمون فيه، والعرب تقول: شفعت الرّسول بآخر، أي جعلتهما اثنين ليطابق معنى الشفع في كلامهم، وهو اثنان، فأما إذا بلغت ثلاثاً فوجهه أن يقال: عززت بثالث، قال تعالى: ﴿**إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث**﴾ [يس: ١٤]، والمعنى في عزّزْته قوّيْتُه، وأعززته: جعلته عزيزاً، فإن واترت الرّسل فالأحسن أن تقول قفّيت بالرسل، قال تعالى: ﴿**ثُمَّ قَفَّينا على آثارهم برسلنا**﴾ [الحديد: ٢٧].

وما أحسن ما قال ابنُ شرف في العذار وذكر التعزيز بثالث: **[الكامل]**

قد كنتَ في وعد العذار فأنجزا ... وقضى لحسنك بالكمال فأوجَزَا
وافي لنصرِ الحسن إلا أنه ... ولّى إلى فئة الهوى متحيِّزا
عطفٌ تعلّم منه قلبي عطفَه ... وجَدَ الفؤادُ به السَّبيلَ إلى العزا
لم يكف وجهك حسنُه وبهاؤُه ... حتى اكتسى ثوبَ الجمَالُ مطرّزا
سبحان مَنْ أعطاك حُسناً ثانياً ... وبثالثٍ من حُسْنِ فعلك عَزَّزا

الوَقر: الثقل في الأذن. تلبّث: طويل إقامة. تريّث، إذا احتبس ومكث، ويقال: تريّث بنقطتين وتربّث تربّثاً بواحدة، والمعنى فيهما واحد، سم: عَلِّم. سمة: علامة سمسمة: حبة جلجلان. المكر: الخداع، تقتني: تكتسب. السودد: الشرف. والمكرمة: الكرامة.

وممن اشترط أن بيتيه لا يعززان بثالث قبل الحريري أبو دلف حين قال: **[البسيط]**

أنا أبو دلفِ المهدي بقافيةٍ ... جوابها يهلك الزّاهي من الغيظِ
مَنْ زاد فيها له رَحْلِي وراحلتي ... وخاتمي والمدي فيها إلى القيظ

وذكر الحصَري الأعمى المكرمة في تجنيس قوافيه، فسمع قوماً يقدحون فيه وفي أبي خلصة فقصده وقال: **[مجزوء الرمل]**

يا أديباً ملكتْني ... في يديهِ المكرُمات
ليت قوماً دأبهم فـ ... ـيَّ وفيك المكرُ ماتوا

وله: **[مجزوء الخفيف]**

رب ظبي هويته ... ينتمي للهوازِنه
قلت: ما أثقل الهوى ... قال: ما للهوى زِنَهْ

وله أيضاً: **[مجزوء الخفيف]**

إن كتمتَ الهوى فقد ... صار سرِّي علانِيَهْ
بسقامٍ أذابني ... وشحُوبٍ علانيهْ

* * *

فقال له: أجَدتَ يا زُغْلول، يا أبا الغُلول، ثم نادى: أوضحْ يا ياسين، ما يُشْكِل من ذوات السِّين، فنهض ولم يتأنّ، وأنشدَ بصوتٍ أغنّ: **[البسيط]**

نِقْسَ الدَّواة ورُسْغُ الكفّ مثبَتةٌ ... سِينَاهما إن هُما خُطَّا وإن دُرسا
وهكذا السِّين في قِسْبٍ وباسقةٍ ... والسّفح والبَخْسِ واقْسِرْ واقْتَبِس قَبسا

وفي تقسّسْت بالليل الكلامَ وفي مُسَيْطرٍ وشَموسٍ واتخذ جَرَسا
وفي قَريسٍ وبردٍ قارسٍ فخذ الـ ـصّوابَ مِنّي وكنْ للعلم مُقتْبِسَا

فقال له: أحسنتَ يا نُغَيْش، يا صَنَّاجة الجيش، ثم قال: ثبْ يا عنبسة، وبين الصاداتِ المتلبسة، فوثب وَثَب شِبْلٍ مُثار، ثمَّ أنْشَدَ من غير عِثار:

بالصاد يكتب قد قَبَضْت دراهماً بأناملي وأصِخْ لِتَسْتمع الخَبَرْ
وبَصَقتُ أبصُق والصماخ وصَنْجةٌ والقصُّ وهو الصَّدْرُ واقتصّ الأثرْ
وبخصْتُ مقلتَه وهذِي فرصةٌ قد أُرعِدتْ منه الفريصةُ للخوَرْ
وقصرتُ هِنْداً أي حبست وقَدْ دَنا فِصْحُ النَّصارى وهو عيدٌ مُنْتَظَرْ
وقَرَصْتُه والخمر قارِصَةٌ إذا حَذَتِ اللّسان وكلّ هذا مُستَطَرْ

* * *

أجَدت: أتيت بجيّد، الزّغلول: الخفيف، وزغلول الرجل: ولده، والغلول: لخيانة في المغنم، وأصله الستر والتغطية، تقول: غلَّ الشَّيء غَلاً وغلولاً، إذا ستره، وصفه كأنه يغُلُّ العقول، أي يمسكها ويخون أصحابها فيها، وقالت عُلَيَّة:

* يـا غُـلَّ ألـبـاب الـرجـال *

أوضح: بيِّن. يتأنَّى يتباطأ ويفتر، والتأني: التَّثبت، وفي الحديث أنه نظر ﷺ إلى رجل يتخطى رقاب الناس يوم الجمعة، فقال: «آنيت وآذيت»[(١)]، أي أخّرت المجيء، ويكون يتأنَّى من قولهم: فلان ذو أناة منَ وَنَى يني، وتكون الهمزة مبدلة عن واو، وهو الأظهر، أغنّ: فيه غُنَّة، وهو البَحح الخفيف، والأغنّ: الذي يتكلم من قِبَل خياشيمه، نقْس: مداد، رسغ الكف: موصلها من الذراع، والقَسْب: نوى التمر، باسقة: نخلة طويلة. السَّفح: أسفل الجبل، البخس: النقص، اقسر: اقهر واغلب. اقتبس قبساً: اطلب شعلة من نار. وتقسست: تتبّعت والشموس: الدابة التي تمنع أن تُسرج وأن تُرْكَب. جَرَساً: الذي يضرب به فيصوِّت. قِريس: حوت. قارس: شديد. مقتبساً: طالباً حريصاً على كَسبْه.

قوله: نُغيش، أي كثير الحركة، وقيل: نُغَيْش تصغير النَّغاش من الرجال الحقير الخلقة، الغاية في القصر، فصفة هذا الغلام أنه حقير الخلقة كثير الحركة، وقلّما تكون تلك الخلقة إلا ومعها الحركة والحدّة. ورواه الفنجديهي «نفيش» بالفاء، أي قصير.

(١) أخرجه ابن ماجه في الإقامة باب ٨٨، وأحمد في المسند ٤/ ١٨٨، ١٩٠.

ثعلب: النّفّاشون، هم القصار الضعاف الحركة، ومنه الخبر أنه رأى نفّاشاً فسجد شكراً، قال: والنَّفْش: تحرّك الشيء في مكانه، يقال: دار تنتفش صبياناً، والتنفّش: دخول الشيء بعضه في بعض، وصنّاجة الجيش: التي يُضرب بها المثل في الحروب، وقيل: الصَّنّاجة الضرَّابة بالدفوف والطنابير وعود الغناء ونحوه من آلات اللهو، قال الهُذلي وهو ساعدة بن جُؤيّة: **[الطويل]**

وعـاودنـي دِيـنـي فـبـتَ كـأنـمـا ... خلال ضلوع الصدر شِرْعٌ ممدَّدُ(١)

بـأوب يـديْ صَنّاجةٍ عـنـد مـدمـنٍ ... غـويٌ إذا مـا يَـنْـتَـشِـي يـتـغـرّدُ

يصف ما في صدره من الحُرق، ودينه: حالته التي تعتاده من الهمّ، والشِّرْع: الوتر يقول: كأنما في صدري عود، لأوتاره رنّة مما أحدِّث به نفسي من الهمُوم. وأوب يديْها: رجعهما بضرب الصّنَج، أي بتحريك يديها حين تمرّ أوتارها، وينتشي: يسكر. ويتغرد: يتغنّى، وفلان صنّاجة قومه، أي المقدّم عليهم في الفضل، وقيل: صَنّاجة الجيش هو البطل المعروف، ويقال: ليلة قمراء صَنَّاجة وصَيّاجة، إذا كانت مضيئة، وصنجَ فلان بفلان إذا صَرَعه، وكان أعشى قيس يُدعى صنّاجة العرب لفصاحته، وقيل: لرقة شعره، وقيل: الصَّنّاجة الغناء، ويريد بالجيش الصبية الذين جيشوا حوله، فُنغَيْش صنّاجتهم، أي أنبلهم وأحذقهم أو كالصنجة في خلقته وقصره. ثب: اقفز، عنبسة: اسم أسد، والشبل: ولده مُثار: مفزع، وقد أُثير: استخرج من مكانه بالبحث عليه. قبصت: أخذت بأطراف أصابعي، والقبصة أقل من القبضة. أصخ: استمع. الصُماخ: ثقب الأذن. صَنجة، وهي التي يوزن بها، والمقلة، شحمة العين. بخصْتُها: فقأتها. واستلبتها فرصة: نهزة وغنيمة. والفريصة: بضعة عند الكتف تُرْعد عند الفزع. الخور: الضّعف. قرصته: عضضته بظفري. حذت اللسانَ: قرصته بحدَّتها. مُسْتَطِر: مكتوب.

* * *

فقال له: رَعياً لك يا بنيّ، فقد أقررت عينيّ، ثم استنهض ذا جُثَّةٍ كالبيذَق، ونغْشَةٍ كالسوذَق، وأمره أن يقف بالمرصاد، ويسرُدَ ما يجري على السين والصاد، فنهض يَسْحَبُ بُرْدَيْه، ثمّ أنشد مشيراً بيديه: **[الطويل]**

إن شئت بالسِّين فاكتُبْ ما أبيِّنُه ... وإن تشأ فهو بالصادات يُكْتَتَبُ

مَغْسٌ وفقس ومُسْطارٌ ومُمَّلِسٌ ... وسالغٌ وسراط الحق والسَّقَبُ

والسامِغان وسَقْرٌ والسوبق ومسْـ ... ـلاقٌ وعن كلٍّ هذا تُفْصِحُ الكتب

---

(١) البيتان لساعدة بن جؤية الهذلي في شرح أشعار الهذليين ص ١١٦٥، والبيت الأول في لسان العرب (شرع)، وجمهرة اللغة ص ٧٢٧، وتاج العروس (شرع)، والكتاب ٣/ ٢٢٥، والمقاصد النحوية ٤/ ٣٥٠.

فقال له: أحسنتَ يا حبَقة، يا عَيْنَ بَقّة. ثم نادى: يا دَغْفل، يا أبا زنفل، فلباه فتًى أحسنُ من بيْضَة، في روضة: فقال له: ما عَقْد هجاء الأفعال، التي آخرها حرف اعتلال، فقال اسمع، لا صَمَّ صداك، ولا سمعت عِدَاك، ثم أنشد، وما استرشد: [الطويل]

إذا الفِعل يوماً غُمَّ عنك هجاؤه ... فألحق به تاء الخطاب ولا تقفْ

فإن تَرَ قبْل التاء ياءً فَكتْبُهُ ... بياءٍ وإلا فهو يُكْتَبُ بالألفْ

ولا تحسب الفعل الثلاثيَّ والذي ... تعدّاه والمهموزَ في ذاك يختلفْ

* * *

رَغْياً: حفظاً، أي رعاك الله رعياً. استنهض: أمره بالنهوض. جُثّة: جسد. وبيذق الشطرنج، معروف؛ يشبَّه به الخفيف الروح الحاذق. نغشة: حركة. والسَّوْذق، هو السَّذَانق من الطير التي يُصطاد بها. بالمرصاد، أي قريب منه حيث ينظره. يَسرد: يقرؤها بسُرعة. يسحب برديه: يجرُ ثوبيه. وقال الحسن يصف مثل هذا الغلام: [المنسرح]

يأيها المبطلونَ مَعْذِرَتي ... أراكم الله وجه تحقيقِ

نمَّ بما كنتُ لا أبوح به ... على لسان بالدمع مِنْطِيقِ

شوقاً إلى حسن صورة ظفرتْ ... من سلسبيل الجنان بالرِّيقِ

وصيفُ كأسٍ محدّثٌ مَلكٌ ... تيه مغنّ وظرْف زنديقِ

يشوبُ عِزّاً بذلة فله ... ذلُّ محبٍّ وزهو معشوقِ

أمشي إلى جنبه أزاحمه ... عَمْداً وما بالطريق من ضيقِ

ومن مدحها: [المنسرح]

وإن عبَّاساً مثل والده ... ليس إلى غاية بمسبُوقِ

تأنّق الحسن حين زانكما ... ففقتما النّاس أيّ تأنيقِ

فصُوِّر الفضل من حجاً وندًى ... وأنت من حكمةٍ وتوفيقِ

وله أيضاً: [الوافر]

ترى للحسنِ والحركات فيه ... سَواماً لا تُذَاد عن القلوبِ

فيا مَنْ صِيغ من حسنٍ وطيبِ ... جَلّ عن المشاكل والضَّريبِ

أصبني منك يا أملي بذنبِ ... تتيه على الذُّنوب به ذنوبي

قوله: سراط، أي طريق. والسَّقر من الجوارح: التي يُصطاد بها، السَّويق: الشعير إذا قُلِي وطُحن، حَبْقة: ضرْطة، عين بقّة، يقال: ذلك للصغير. دَغفل: اسم رجل كان نسَّابة، والدّغفل، ولد الفيل، والدغفل: الزمن الخصيب، فسُمِّي الصبي بأحدهما. والزّنفل، من أسماء الداهية، والبيضة: بَيضة النّعام، وجعلها في رَوضَة، يريد أنها مصونة

منعمة، وتشبيههم للنساء بهذه البيْضة مشهور في شعر امرىء القيس وغيره، وقيل للأوسيَّة ـ وهي امرأة حكيمة من العرب ـ بحضرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أي منظر أحسن؟ فقالت: قُصُورٌ بيض في حدائق خضر، فأنشد رضي الله تعالى عنه لعديّ بن زيد:

كـدُمَـى الـعـاج فـي الـمـحـارب أو كـالبيض في الروض زهرُه مستنير

قوله: لا صمّ صَداك، أي لا هلكت، فلا يكون لك صوت.

وقال امرؤ القيس في الدار الخالية: [السريع]

صَـمَّ صَـدَاهـا وَعَـفـا رسـمُـهـا واستعجمتْ عن منطقِ السَّائلِ(١)

والصَّدى: الصوت الذي يجيبك من الجبل، أو من الموضع الخالي، والصّدى: طائر يخرج من رأس المقتول، فلا يزال يصيح: اسقوني اسقوني، حتى يُقتل قاتله على زعمهم، ولا صمّ صداك، دعاء بطول العمر، لأن الصدى تابع للصوت، فإذا مات الإنسان انقطع صوته، فلا يُسمع له صدى، فكأنَّ صداه بعد موته أصمّ لا يسمع ولا يجيب، ما استرشد، أي ما طلب مَنْ يرشده ويدلّه.

* * *

فطرب الشيخ لما أدّاه، ثمّ عَوذَهُ وفدّاه، ثمّ قال: هلمّ يا قَعْقاع، يا باقِعَة البِقاع. فأقبل فتًى أحْسَنُ من نارِ القِرَى، في عين ابن السُّرَى، فقال له: اصدَعْ بتَمييزِ الظَّاء من الضّاد، لتصدع به أكْبَاد الأضْدَاد؛ فاهتزّ لقوله واهتشّ ثم أنشد بصوتٍ أجشّ: [الخفيف]

أيـهـا الـسّـائـلـي عـن الـضّـاد والـظّـا ءِ لـكـيـلا تُـضِـلَّـه الألـفـاظُ
إن حفظ الظاءات يُغنِيكَ فاسْمَعْـ ـهـا اسْتِمـاع امرىء لـه اسْتِيـقـاظُ
هـي ظَـمـيـاءُ والـمـظـالـمُ والإظْـ ـلامُ والـظَّـلْـمُ والـظَّـبـيَ والـلَّـحـاظُ
والعَظا والظَّليمُ والظَّبْي والشَّيـْ ـظَـمُ والـظِّـلُّ والـلَّـظـى والـشُّـوَاظُ
والتّظنيّ واللفظ والنَّظم والتقْـ ـريـظُ والـقَـيْـظُ والـظَّـمَـا والـلّـمَـاظُ
والـحِظَا والنّظِيرُ والظِّئر والجَا حِــظَ والــنــاظِــرُون والأيــقَــاظُ
والتَّشَظّي والظُّلْفُ والعظم والظُّنْـ ـبُوبُ والظَّهرْ والشَّظا والشّظاظُ
والأظـافـيـرُ والـمـظـفَّـر والـمـحْـ ـظُـورُ والحـافِـظُـون والإحـفـاظُ
والـحظِـيـراتُ والـمِـظـنّـة والـظّـنّـ ـة والـكَـاظِـمُـون والـمُـغْـتَـاظُ
والـوظـيـفـات والـمـواظـب والـكِـظّـ ـةُ والانــتــظــارُ والإلــظــاظُ

---

(١) البيت في ديوان امرىء القيس ص ٢٥٥، ولسان العرب (صمم)، (عجم)، (صدى)، وتهذيب اللغة ١٢/ ١٢٦، ٢١٥، ومقاييس اللغة ٣/ ٣٤١، ٤/ ٢٤، وأساس البلاغة (عجم)، وكتاب العين ٧/ ١٣٩، والبيت بلا نسبة في المخصص ١/ ٨٧، ١٣/ ٧.

ووظـيـف وظـالـعٌ وعـظـيـمٌ وظـهـيـرٌ والـفـظ والإغـلاظُ
ونـظـيفٌ والـظّـرف والـظلَف الـظّا هـر ثـم الـفِـظـيـع والـوُعّـاظُ
وعـكـاظٌ والـظّـعْـن والـمظّ والـحنْـ ظـل والـقَـارِظـانِ والأوْشَـاظُ
وظـرابُ الـظّـرّان والـسَّـظَـفُ الـبَـا هِـظُ والـجَـعْـظَـريّ والـجـوّاظُ
والـظّـرابـيـنُ والـحَـنَـاظِـبُ والـعُـنْـ ظُـبُ ثـمّ الـظَّـيّـان والأرْعَـاظ
والـشّـنـاظي والـدِّلْظُ والـظّـأبُ والـظّبْـ ظَـابُ والـعُـنْـظُـوانُ والـجِـنـعـاظُ
والـشّـنـاظِـيـرُ والـتَّـعـاظـل والـعُـظْـ لـمُ والـبَـظْـرُ بَـعـدُ والانـعـاظُ
هي هـذي سوى الـنّوادِر فاحْـفَـظْـهَـا لِـتَـقْـفُـوَ آثـارَكَ الـحـفّـاظُ
واقضِ فـيـمـا صـرفـت مـنـهـا كـمـا تَـقْـ ضـيـه فـي أصـلـه كـقـيْـظٍ وقـاظـرا

* * *

أدّاه: أبلغه، تقول: أدّيتُ الأمانة، إذا بلَّغتها صاحبها، عوّذه: قرأ عليه المعوّذتين، وفدّاه: قال: نفسي فداؤك. قعقاع: شديد الصوت، والقعقعة، صوت متتابع، والباقعة: الداهية. والبقاع: جمع بُقعة، قطعة من الأرض، لِقَرى: طعام الضيف. ابن السُّرى، هو الطارق بالليل، وقد تقدّم ذكر هذه النار عند قوله: **[الرجز]**

فـلـم أزل أنـصُّ عـنـسـي وأقـول: طـوبـى لـك ولـنـفـسـي

وهم يضربون المثل بها وحدها في الحسن فيقولون: هو أحسن من النار، فكيف إذا كان إنسان مع ظلام الليل في ريح وبزد وجوع، لا يدري أين يتوجّه، فرأى ناراً قد أُوقِدَتْ لِقري الأضياف، فلا يقِدر قَدْرَ حسنها إلا مَنْ جرّبها.

وقالت اعرابية: كنت في شبيبتي أحسنَ من النار.

وأنشد التوزي ملغزاً في النار: **[الطويل]**

وشـعـثـاءَ غـبـراءَ الـفـروع كـأنّـمـا بها تُوصفُ الحسناء بل هي أجملُ
دعوتُ بـهـا صـحبِي بـلـيـلٍ كـأنَّـهُـمْ وقـد أبـصـروهـا يـعطشـون فـأنـهـلـوا

فهذا مثل الذي ذكره الحريري.

وقال الآخر يصف ناراً: **[الطويل]**

ومـشـبـوبـةٍ لا يَـقْـبـس الـجـار ريَّـهـا ولا طـارق الـظـلـمـاء مـنـهـا يـؤنـسُ
متى مـا يـزرهـا زائـر يُـلـفِ دُونـهـا عَـقـيـلـة داريّ مـن الـمـسـك تـغـرَسُ

وأنشد أبو زيد فيها ملغزاً: **[الطويل]**

وزهـراء إن كـفَّـنْـتَـهـا فـهـو عـيـشُـهـا وإن لـم تـكـفِّـنْـهَـا فـمـوتٌ مـعـجَّـلُ

وكان الحسن بن وهب أشدَّ الناس عشقاً لنبات جارية محمد بن حماد وكانت تغنّي في مجلسه، وبين يديها كانون فحم، فتأذّت بالنار، وأمرت بإبعادها، فقال الحسن مرتجلاً: **[الكامل]**

بأبي كرهت النَّار لمَّا أوقِدَتْ ... فعرفتُ ما معناك في إبعادها
هي ضُرَّةٌ لك بالتِماع ضِيائها ... وبحسن صورتها لَدَى إيقادها
وأرَى صنيعَك في القلوب صنيعها ... بأراكِمها وسَيَالها وقتَادِها
شركتْك في تلك الجهات بحسنْها ... وضيائها وصلاحِها وفسادِها

وكان مع أصحابه يوماً. فقال: لو ساعدنا الزمان لجاءتنا نبات، فما تكلموا بشيء حتى دخلت، فقال: إني وإياك لكما قال عليّ بن أمية: **[الطويل]**

وفاجأتنِي والقلبُ نحوكِ شاخصٌ ... وذكراك ما بين اللِّسان إلى القَلْبِ
فيا فرحةً جاءت على إثرِ ترحة ... ويا غفْلتي عنها وقد نزلت قربِي

ودخلت عليه يوماً وهو محموم، فسلمت وقبّلت يده، فأراد تقبيل يدها فأُرْعِش وقال: **[الطويل]**

أقول وقد حاولتُ تقبيلَ كفِّهَا ... ولي رعدة أهتزُّ منها وأسكنُ
فديتكِ إني أشجع الناس كلِّهم ... لدى الحرب إلاّ أنني عنك أجبُنُ

قوله: اصدع، أي بيِّن وأظهر. تصدع: تشق، الأضداد: الأعداء. أجشّ: أبح. تضلُّه: تضيِّعه وتتلفه، استيقاظ: انتباه، ظمياء: عطشى.

الأزهري: شفة ظمياء، ليست بوارمة كثيرة الدم ويحمَد ظمؤها، ولِثَةٌ ظمياء، ورجل أظمى، وامرأة ظمياء، وقيل: شفة ظمياء، إذا كانت فيها سُمْرة وساق ظَمْياء: قليلة اللحم. والظلَم، بالفتح: ماء الأسنان، وقيل: بريقها وصفاؤها، والجمع ظلوم، واللحاظ: طرف العين الذي يلي الصُدغ. العظَاء: جمع عَظاية، وهي دويبّة حمراء إلى الغبرة، ذات قوائم أربع. الظَّليم: ذكر النعام. الشَّيظم: الطويل، اللَّظى: النار والشواظ: لهبها بغير دخان. التّظني: مصدر تظنَّيت أي حسبت، والأصل تظنّنت بالنون، فأبدلت ياء. والتقريظ: مدح الرجل حيّاً. والقيظ: فصل الحر. والظَّمأ: العطش، واللَّماظ: الشيء اليسير من الطعام وقد تلمّظت، إذا تتبعت بلسانك بقيَّة الطعام بعد الأكل، واسم تلك البقية اللُّماظة، وقيل: التّلمظ هو لَعْق الشفتين باللسان من عطشٍ أو غيظٍ. الحظا: انتفاخ اللحم. النَّظير: المثل، الظِّئر: المرضع بالأجرة، الجاحظ: الذي بَرَزَت عيناه. الأيقاظ: ضدُّ النّيام، الواحد يقُظ بضم القاف وكسرها، قوله التّشظِّي: أن تصيِّر العودَ فلقاً، والشَّظية: الفِلْقَة منه. والشَّظى: عظم لاصق بالركبة. وقيل هو تشقّق عصب الذراع، والظِّلْف للغنم والبقر بمنزلة الحافر للدّواب، وكل حافر مشقوق ظِلْف،

الظُّنبوب: مقدّم عظم الساق، والشظاظ: عود الشّداد، الذي يشدّ به المتاع، وقيل: هو عود يدخل في عُرا الغِرَارتين فيحملان به على ظهر البعير. المظفّر: المؤيد. المحظور: الممنوع. الإحفاظ: الإغضاب. الحظيرات: جمع حظيرة، وهي الزّرْب يُعمل منه شبه الدار، تسكنها الغنم والإبل، وقد يكون من حائط، وأصل الحظر المنع، وكلّ مانع بين شيئين حَظِير. والمظنّة: الموضع تَرْمي فيه بظنّك، وفلان مظنّة خير، أي يُظنّ فيه الخير، والظنة: التهمة، الكاظمون: المتجرّعون غيظهم، وقد كَظَم غيظه، تجرعه ورده. الوظيفات: جمع وظيفة وهي ما يلزمك من المغرَم، المواظب: الملازم، وقد واظبت على الشيء، داومت عليه. الكِظّة: الامتلاء من الطعام، والإلظاظ: اللزوم. الوظيف لكل ذي أربع: ما فوق الرُسغ إلى الساق. والظالع: الأعرج. والظَّهير: القويّ الظهر، وهو أيضاً المُعين، والفظّ: الغليظ، والفظاظة: الجفاء والغلظة، والإغلاظ: الجفاء. والنّظيف: النّقيُّ الحسن. والظّلَف المنع والردّ، وقد ظلفت أثري ظلفاً، إذا مشيتَ في حُزونة الأرض وصلابتِها فمنعت أثرك أن يؤثر فيها والفظيع: الكريه المطعم، وقد فَظَع الشيء اشتدت كراهيته ومرارته. عُكاظ: موسم للعرب، الظعن: السفر. الحنظل: شجر مرّ، والباهظ: الغالب. والبظر: زيادة في فرج المرأة، ورجل أبظر: في شفته العليا نتوء، وامرأة بظراء، والأول راجع إلى هذا المعنى، الانعاظ: قيام الذكر. النوادر: الغرائب والشواذ. تقفو: تتبع. قيظ: شدة الحرّ، وقاظُوا: دخلوا في زمن القَيْظ.

* * *

فقال له الشيخ: أحسنْتَ لأفُضّ فُوك، ولأبُرَّ مَنْ يجفوك، فوالله إنّك مع الصِّبا الغضّ، لأحفظُ من الأرض، وأجمع من يوم العرض، ولقد أوردتُك ورفقتك زُلالي، وثقفتكمْ تثقيف العوالي، فاذكروني أذكركم، واشكرُوا لي ولا تكفرون.

قال الحارث بن همام: فعجبتُ لما أبدَى من براعَه، معجونةٍ برقاعة، وأظهر من حَذَاقة، ممزوجةٍ بحماقة؛ ولم يزل بصري يصعّد فيه ويصوّب، وينقّر عنه وينقّب، وكنت كمن ينظر في ظَلْمَاء، أو يسري في بهماء؛ فلمّا استراث تنبّهي، واستبان تدلّهي، حملق إليّ وتبّسم، وقال: لم يبق من يتوَسم، فبُهتُ لِفَحوى كلامه، ووجدتُه أبا زيدٍ عند ابتسامِه، فأخذت ألومه على تديُر بقعة النوكى، وتخيّر حِرفة الحمقى، فكأن وجهه أُسِفَّ رماداً، أو أُشرِبَ سواداً، إلا أنه أنشد وما تمادى: **[الوافر]**

تخيرّت وحِمْص وهذي الصِّناعهْ ... لأُرزَق حُظْوَةً أهل الرَّقاعَة

فما يصطفي الدهرُ غير الرقيعِ ... ولا يوطِن المالَ إلاّ بقاعَة

ولا لأخي اللُّبِّ من دهره ... سوى ما لعيْرٍ ربيطٍ بقاعَة

* * *

فضّ: كسر، يجفوك: يغلظ لك في الكلام، الغضّ: الطريّ، يوم العرض: يوم

القيامة، ولما أشار مِنْ أوّل على أكبرهم، انحطَّ في أسنانهم إلى أصغرهم، فختم به كما بدأ بأكبرهم، فلذلك قال: مع الصبا الغضّ.

[مما قيل في الغلمان الصغار]

ومما قيل في الصغار من الشعر المستحسن، قال أبو الفضل الدارمي وقد سأله الثعالبي أن يصف له غلاماً صغيراً، بديع الحسن ليثبت ذلك في كتابه المترجم بألف غلام، فأنشد: [المجتث]

إنّـي عـشـقـتُ صـغـيـراً ... قـد دبَّ فـيـه الـجـمـالُ
وكـاد يـفـشـي حـديـثَ الـ ... ـفُـضـول فـيـه الـدَّلاَلُ
لـو مـرّ فـي طـرق الـوضـ ... ـلِ مـا اعـتـراه الـضَّـلالُ
يـريـك بـدراً مـنـيـراً ... فـي الـحُـسْـن وهـو هِـلاَلُ

قال الحسن: [الخفيف]

حيـن أوفـى عـلـى ثـلاث وعـشرٍ ... يَـطـلْ عـهـد أذنـه بـالـشُّـنُـوفِ
غـنـة فـيـه لـلـصـبـا تَـغـتـلـيـه ... بـحَـةُ الاحـتـلام لـلـتـشـريـفِ
حيـن رام الـنِّـسـاء مـنـه بـعـيـنٍ ... وطـوى أخـتـهـا عـلـى الـتـخـويـفِ

وقال آخر: [البسيط]

لئـن يـزيـد عـلـى عـشرٍ بـواحـدة ... وزاد أخرَى وشـاب الـحبّ بـالـجَـزَعِ
وجاوب اللّحظ منه لحظَ عاشقه ... وجوّز الوعـد بـين اليأس والطمعِ
قد كان غِرّاً بقتلي ليس يُحْسِنَهُ ... فاليوم يبدِع في قتلي على البِدَعِ

وقال آخر: [مخلع البسيط]

قـالـوا أتـبـكـي عـلـى صـغـيـرٍ ... خـصـصـتَـه بـالـوداد طِـفْـلا
فـقـلـت إن الـبـنـان خـمـس ... أصـغـر مـا بـيـنـهـا يُـحَـلَّـى

ولابن إدريس اليماني: [مخلع البسيط]

عـشـقـتـه شـادنـاً صـغـيـراً ... وكـنـت لا أعـشـق الـصِّـغـارَا
أعـارنـي سـقْـمَ نـاظـريـه ... فـاشـتـشـرفَـتْ نـفـسُـه حـذارَا
يُـسـفـر عـن وجـه مـسـتـنـيـرٍ ... يـردّ جُـنـحَ الـدُّجـى نَـهَـارَا
لـم أر مـن قـبـل ذاك نُـوراً ... أضـرمَ فـيـه الـحـيـاءُ نـارَا

ولابن شهيد: [الرمل]

راقـنـي مـن شـيـمـه بـرقٌ بـدا ... أم سـنـا الـمـحـبـوب أورَى أزنُـدَا
هـبَّ مـن نَـعْـسَـتِـه مـنـكـسـراً ... مُـسـبَـل الـكُـمّـيـن مُـرْخٍ لـلـرِّدا

يمسح النَّعسة من عَيْنَيْ رشاً   صائدٍ في كلّ يوم أسدَا
قلت هب لي يا حبيبي قبلةً   تَشْفِ من حبّك تبريح الصدَى
فانثنى يهتز من منكِبه   قائلاً: لا، ثم أعطاني اليَدَا
قال لي يلعب: صِدْ لي طائراً   فتراني الدّهر أجري بالكُدَى
وإذا استنجزتُ يوماً وعَدَه   قال لي يمطل: ذكِّرني غدَا
شربتْ أعطافه خمرَ الصبا   وسقاه الحسن حَتى عَرْبَدَا

ورأى الحسن غلاماً في المكتب فأشار إلى تقبيل يده فقبّله فقال: [مجزوء الوافر]

ظفرت بقبْلةٍ منه   على عيني معلِّمهْ
أشرتُ بها إلى يده   فأوصلها إلى فَمِهْ

وقال الحُلْواني: [الوافر]

تعرَّضتُ مَنْ شَفَّنِي هجرُه   ببدء سلام عليه شِفَاهَا
وقلت عساه يردُّ السَّلام   فتبلغ نفسي منه مُنَاهَا
فجاد عليّ بتقبيلةٍ   وقد كان أعرض عنِّي وَتاها
وكنت كموسى أتى للضياء   لقبْس نارِ فناجى إلها

وكتب الحسن لغلام كاتب يستعطفه، فوقع الغلام في كتابه: «تزاد هجراً إلى يوم الحساب» فقال الحسن: [الوافر]

كتبت إلى الحبيب ببيت شِعْرٍ   أعاتبه فأغضبه كتابِي
أجبني يا ملولُ على كتابي   فإنَّ النَّفس تسكن بالجوابِ
فوقع في الكتابِ: يزاد هجراً   وإبعاداً إلى يوم الحسابِ

وقال ابن رشيق في محبوبه الصائغ: [الوافر]

وظبيٍ من بني الكتاب يَسْبِي   قلوبَ العاشقين بمقلتَيه
رفعت إليه أستقضي رضاه   وأسأله خلاصاً من يديْه
فوقّع: قد رددت فؤاد هذا   مسامحةً فلا يُعْدَى عليه

وناوله يوماً تفاحة فقال: [الطويل]

وتفاحةٍ من كفّ ظبي أخذتُها   جَناها من الغصن الَّذي مثلُ قَدِّهِ
لها لمسُ ردفيْه وطيبُ نسيمه   وطعم ثناياه وحُمرة خدِّه

ولابن فرج: [الوافر]

ومن ينظر إلى خديك يحكمْ   على ورد الحدائق للخدودِ

وما اهتزَّتْ غصون الرَّوض إلا تمنَّتْ حُسْنَ قدِّك في القُدود

وقال مسلم بن الوليد: **[مجزوء الرجز]**

تفاحة شامية من كفِّ ظَبْيٍ غَزِلِ
ما خلقت مذ خلقْت تلك لغير القُبَلِ
كأنَّما حمرتها حُمرة خدٍّ خَجِلِ

وقال آخر في ضدّ ما تقدّم: **[الوافر]**

فديتك لا تخِفْ منّي سُلوّاً إذا ما غيّر الشعر الصِّغَارَا
أدين بدنٍ خلٍّ كان خمراً وأهوى لحية كانت عِذَارَا

وقال ابن المعتز في مثله: **[مجزوء الخفيف]**

مَنْ مُعِيني على السَّهَرْ وعلى الحبِّ والفِكَرْ
ويل ما بي من شادنٍ كَبِرَ الحبُّ إذ كَبِرْ

قوله: زُلالي، أي خالص عليّ، والزُلال: الماء العذب الصافي. ثقَّفتكم: قوَّمتكم العوالي: صدور الرِّماح. براعة: فصاحة. الحذاقة: المهارة في كلِّ عمل، وهي الحِذق، وأصله القطع، كأنّ الحاذق يقطع الأمور المشكلة بعقله، وحذق الصبيُّ القرآن: قَطَعه حفظاً. الرقاعة: الحماقة، رَقُعَ رقاعة فهو رقيع. يصعُد: يرفع نظره. يصوب: ينظر في اعتدال واستواء. ينقِّر: وَينقِّب: يفتش، بَهمَاء: أرض مجهولة. استراث: استبطأ. تدَلُّهي: تحيري، ودلهه الحب: حيَّره وأدهشه، حَملق: نظر بحملاقه، وهو باطن جفنه، وهو نظر المغضَب. يتوسَّم: يحسن النَّظر والميز. بُهتُ: فطنت، وفي الحديث «ربَّ ذي طِمْرين لا يؤبه له»، أي لا يفطنَ له لذلّته، وتأبّه فلان: تكبّر، وإنه لذو أبّهة، أي ذو كِبْر ونحوه. الفنجديهي: رأيت بخط الحريري: يقال: أبَهْتُ له وأبهت وبهت له بمعنى قال يعقوب، تقول: ما بهت له، وما بهت به وما أو بهتُ له، وما بهأت له: ما فطنت له، فحْوَى: معنى. عند ابتسامته، قد تقدّم وصفه بالقلَحَ، يريد لمَّا ابتسم ورأى قَلَحه عرفه. تديّر بُقعة النوكى، أي اتخاذه حمص داراً، وجعلهم نوْكى لرقاعتهم، والنَّوْك: الحمق. حِرْفة: صنعة أُسِفّ رماداً، أي تغيّر فكأنه ذرّ عليه الرماد. وأسف الجرح الدواء أي حشاه به. ما تمادى، أي ما دام ولا بقي على غضبه، وتمادى في الشيء: لَجّ فيه. حظوة، أي منزلة. يصطفي: يختار. يوطن: يسكن. بقاعه: منازله. وهي جمع بُقعة. أخي اللّب: صاحب العقل. عَيْر: حمار. قاعة: انخفاض، أي ليس للإنسان من دهره إلاّ ما أكله.

***

ثمّ قال: أمَا إنّ التعليم أشرفُ صناعة، وأرْبَحُ بضاعة، وأنجح شَفَاعة وأفضلُ بَراعة، وربّه ذو إمرةٍ مطاعة، وهيبةٍ مُشاعة، ورعْيَةٍ مِطواعة، يَتَسيْطر تسيطرَ أمير، ويرتِّبُ

ترتيب وَزِير، ويتحكم تحكم قدير، ويتشبّه بذي مُلكٍ كبير، إلاّ أنه يخْرَفُ في أمدٍ يسير، ويتسمُ بحُمقٍ شَهير، ويتقلّب بعقلٍ صغير؛ ولا ينبّئك مثلُ خبيرٍ فقلت له: تالله إنَّك لابنُ الأيام، وعَلَمُ الأعلام، والساحرُ اللاعِبُ بالأفهام، المذلَّل له سُبلُ الكَلام. ثمّ لم أزل مُعْتَكفاً بنادِيه، ومُغترِفاً من سَيْلِ وادِيه، إلى أن غابت الأيام الغُرّ، ونابَتِ الأحداثُ الغُبْر، ففارقته ولعيني العَبْر.

* * *

قوله: أنجح، أي أنفع وأسرع لقضاء الحاجة. أمرةٌ مطاعة، العرب تقول: لك عليّ أمرة مطاعة، بفتح الألف، أي أمرةٌ أطيعك فيها، وحكى الفرّاء كسرها على ضَعْف، والفتح أفصح، والأمرة بالفتح: المرة الواحدة من الأمر، وبالكسر الإمارة والولاية، مُشاعة: فاشية. يتسيطر: يتسلط يَخْرَفْ: يَهرَم. يتَّسِم: يجعل لنفسه سِمة، أي علامة الحمق.

ومما قيل في المعلم وتفضيله على الوالد، أنشد الماوردي: **[المنسرح]**

يا فاخراً للسّفاه بالسّلف	وتاركاً للعلاء والشرفِ
آباء أجسادنا هُمُ سببٌ	لأن جُعِلنَا عوارض التلفِ
مَنْ عَلَّم الناس كان خير أبٍ	ذاك أبو الروح لا أبو النُّطَفِ

أخذه من قول الإسكندر، وقيل له: ما بال تعظيمك لمعلمك أشدُّ من تعظيمك لوالدك؟ فقال: إن أبي سبب حياتي الفانية، ومعلمي سبب حياتي الباقية.

ولبعضهم: **[الكامل]**

إنَّ المعلم والطبيبَ كلاهما	لا ينصحان إذا هما لم يُكْرَما
فاصبر لدائك إن جفوت طبيبَه	واصبْر لجهلك إن جفوت معلما

جاء في الحديث «يُجاء بالمعلم يوم القيامة ووجهه عَظْم لا لحم عليه». قال عطاء: الذين يأخذون على القرآن أجراً. ابن الأيام: الخبير بها والبصير بحوادثها، علم الأعلام: أشهر المشاهير، الأفهام، جمع فهم، أراد اللاّعب بالأذهان والعقول. سبل: طرق. معتكفاً بناديه: ملازماً لمجلسه. مغترفاً من سيل واديه: آخذاً من بحر علمه. الغرُّ: البيض الحسان نابت الأحداث الغُبْر: رجعت النوازل الشداد التي تغبِّر الأرض من شدّة قحطها، لعيني العُبر، أي سخنة الدمع لحزنه. واستعبر: بكى. والله تعالى أعلم.

المقامة السّابعة والأربعون

وهي الحجريَّة

حكى الحارث بن هَمّام؛ قال: احتجتُ إلى الحِجَامَةِ، وأنا بِحَجْر اليَمامة، فأرْشِدْت إلى شيخ يَحْجُمُ بلطافة، ويُسْفِرُ عن نَظافة؛ فبعثتُ غلامي لإحضاره، وأرْصَدتُ نَفسي لانتظَارِه، فَأبطأ بَعْد ما انطَلَق. حتى خلْتُه قد أبَق، أو ركِبَ طَبقاً عَنْ طَبَقٍ. ثم عَاد عَوْدَ المُخفِق، مسعاه، الكلُّ على مَولاه، فقلتُ له: ويلك! أبْطَء فِنْد. وصُلُودَ زَنْد! فزعم أن الشَّيخ أشْغَلُ من ذاتِ النَّحيين، وفي حَرْبٍ كحرب حُنَيْن، فعفتُ المَمْشَى إلى حَجّام، وحِرتُ بين إقدام ،وإحْجَامٍ: ثمّ رأيتُ ألاَّ تَغنيف. على مَنْ يأتي الكَنِيف.

* * *

قوله: احتجتُ للحِجامة، وأنا بحَجْر اليَمامة. أنس عن النبي ﷺ، قال: «خير ما تداويتم به الحجامة والشُّونيز والقُسط»[1].

القسط: عوذ يجاء به من الهند، يجعل في الدّواء والبخور.

وروى ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «خيرُ يومٍ يُحْتَجم فيه سبعة عشر وتسعة عشر وأحد وعشرون، وما مررتُ بملأ من الملائكة ليلةَ أُسْرِيَ بي إلاّ قالوا: عليك بالحِجَامة يا محمد»[2].

وقال عبدُ الله بن عمر رضي الله عنهما: لقد تبيّغ بي الدّم يا نافع، ادْعُ لي حجَّاماً، ولا يجعله شيخاً كبيراً، ولا صبياً، ثم: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحجامة على الرّيق أمْثَلُ، فيها شفاء وبَركة، تزيد في العقل والحفظ، وتزيد الحافِظَ حفظاً، فمن احتجم فيومَ الخميس والأحد والاثنين والثلاثاء، فإنه يومٌ رفع الله فيه البلاء»[3].

عن أيوب عليه السلام، وأصابه [مرض] يوم الأربعاء: لا يبدأ جذام أو برص إلا في يوم الأربعاء أو ليلته.

---

(١) أخرجه البخاري في الطب باب ١٣، ومسلم في المساقاة حديث ٦٣، وأحمد في المسند ٣/ ١٠٧، ١٨٢.

(٢) أخرجه بنحوه الترمذي في الطب باب ١٢، وأحمد في المسند ١/ ٣٥٤ بلفظ: «إنّ خير ما تحتجمون فيه يوم سبع عشرة».

(٣) أخرجه ابن ماجه في الطب باب ٢٢.

حَجْر: قصبة. اليمامة: يأتي ذكرها في الخمسين إن شاء الله تعالى، وهي بلدة كبيرة كثيرة النخل، وسكنتْها حَنيفة، وهي بلدة مسيلمة الكذاب الحنفيّ، وبها تنبّأ وآمن به أهلُها، وهي «فَعالَة» من اليَمَم، وهو طائر، أو من يمّمتُ الشيء إذا تعمّدتَه، من الأمام، بمعنى قدّام وأبدلت الهمزة ياء لمّا دخلتها الهاء، وأقرب المدن منها البصرة.

يُسفر: يكشف. نظافة: صقالة وحسن. أرصدت: أعددت أبَق: هرب. طبقاً عن طبق: حالاً عن حال، وأمراً عن أمر. المخفق: الخائب مسعاه: سعيه. الكَلّ على مولاه: الذي لا ينفعه بشيء، ولا يكفيه أمرَ نفسِه، والكَلّ: الثقيل الروح. قوله: صُلود زَنْد، هو ألاّ يسمح الزَّند بالنار. حُنَين: موضع وقعة مشهورة، كانتْ بين النبي ﷺ وبين هوازن، هُزِمت فيها هوازن، وسُبِيَتْ أموالُهم وعيالُهم، وقُتِل فيها دُرَيد بن الصّمة كافراً. عِفْت: كرهت. الإقدام: الجُرأة والترامِي. والإحجام: الرجوع إلى خَلْف أراد أنه ردّد رأيه: هل يأتيه أم لا؟ والتَّعنيف: العتب. والكنيف: المرحاض.

[من أسماء المرحاض]

ونذكر هنا حكاية ظريفة تجمع أسماءه. رحَل رجلٌ من الكوفة إلى ابن عمٍّ له من بني هاشم بالمدينة، فأقام حوْلاً عنده، لا يدخل مُستراحاً، فلما أراد الرجوع إلى الكوفة، قال: ابنُ عمّه لقينتين له: أما رأيتما ظَرْفَ ابن عمّي، أقام حولاً عندنا لم يدخل الخلاء، قالتا: فعلينا أن نصنع له شيئاً لا يجد معهُ بُدًّا من الخلاء، قال: شأنكما، فعَمَدتا إلى خشب العُشَر، وطرحتاه في شرَابه وهو مستهلّ؛ فلما حضر وقت شرابهما قرّبتاه له وسقَتا مولاهما من غيره، فلما أخذ الشراب منهما تناوم مولاهما، ومَغَص الفتى من بعده، فقال لإحداهما: يا سيدتي، أين الخلاء؟ فقالت لها صاحبتها: ما يقول لك؟ قالت: يسألك أنْ تُغنِّيه: **[الوافر]**

عَـفَـا مـن آل فـاطـمـة الـجِـوَاءُ فـمـنـزل أهـلِـهـا مـنـهـا خَـلاَءُ

فغنّته، فقال: أظنّهما كوفيتين، فقال للأخرى: يا سيدتي أين الحُشّ؟ فقالت لها صاحبتها: ما يقول لك؟ قالت: يسألك أن تغنيه:

* لقد أوحش الرَّيانُ فالدّيْر منهما *

فغنّته، فقال الفتى: أظنُّهما عراقيّتين، وما فهمتَا عني، فقال للأخرى: يا سيدتي، أين المتوضَّأ؟ فقالت لها صاحبتها: ما يقول لك؟ قالت: يسأل أنْ تغنّيَه: **[الوافر]**

تـوضَّـأْ لـلـصَّـلاة وصَـلِّ خـمـسـاً وأذِّن بـالـصَّـلاة عـلـى الـنـبـيِّ

فقال: أظنُّهما حجازيّتين، وما فهمتا عني، فقال لإحداهما: يا سيدتي، أين الكنيف؟ فقالت لها صاحبتها: ما يقول لك؟ قالت: إنه يسألك أن تغنيه:

تَكنَّفني الواشُونَ من كلِّ جانبٍ ولـو كـان واشٍ واحـدٌ لـكَـفَـانِـي

فغنَّته، فقال: أظنُّهما تِهاميَّين، فقال للأخرى: يا سيدتي أين المستراح؟ فقالت لصاحبتها: ما يقول لك؟ قالت: يسألك أن تغنّيه: [الكامل]

تَـرَكَ الـفُـكَـاهَـةَ والـمُـزاحَـا ... وقـلَّـى الـصَّـبـابـة فـاسـتـراحَـا

فغنَّته، والمولى يسمع، فلما كَرَبه الأمر أنشأ يقول: [الوافر]

تـكـنَّـفـني الـمِـلاحُ وأَضْـجَـرُونِـي ... عـلـى مـا بـي بـتـكْـريـر الأغـانِـي

فـلـمّـا ضـاقَ عـن ذاك اصـطـبـارِي ... ذرفْـتُ بـه عـلـى وجْـه الـزوانِـي

ثم حلَّ سراويلَه، وسلَح عليهما، فتركهما آية للناظرين. وانتبه مولاهما، فلمّا رأى ما نزل بهما، قال له: يا أخِي ما حملك على هذا؟ قال له: يابن الزانية، لك جَوارٍ يريْن المخرجَ صراطاً مستقيماً فلا يدْلُلْنَنِي عليه، فلم يكن لهنَّ جزاء عندي غير هذا، ثم رحَل عنه.

فيقول أبو محمد: لا بأس للإنسان أن يأتيَ المواضع الخسيسة عند الضرورة، وأصل الكنيف الساتر.

* * *

فلمّا شِهدْتُ مَوْسِمَه، وشاهَدْتُ مِيسَمَهُ، رأيتُ شيخاً هيئتُه نظيفة، وحركتُه خفيفة. وعَليْه من النَّظارة أطْوَاق، ومن الزّحام طِبَاق، وبين يديه فتًى كالصَّمْصَامة، مُسْتَهْدِفٌ للحِجامة، والشيخ يقول له: أراك قد أبرزتَ رأسَك، قبل أن تُبْرِزَ قِرْطَاسَك، وولّيتَنِي قَذَالك، ولم تقل: لي ذَالَكَ، ولستُ ممّن يبيع نَقْداً بدين، ولا يَطْلُب أثراً بعد عَيْن، فإنْ أنتَ رَضَخْتَ بالعَيْن، حُجِمتَ في الأَخْدَعَيْن. وإنْ كُنْتَ تَرَى الشّحّ أوْلَى، وخَزْنَ الْفَلْسِ في النَّفْس أحْلَى، فاقْرأ ﴿**عَبَسَ وتولّى**﴾ [عبس: ١]، واغْرُبْ عَنِّي وإلاَّ؛ فقال الفتَى: والَّذي حَرَّم صَوْغَ الْمَيْن؛ كما حرَّم صَيْد الْحَرَمَيْن؛ إني لأفْلَسُ من ابن يومين، فثِقْ بسيْلِ تَلْعتِي، وأنظِرْني إلى سَعَتِي.

* * *

موْسمه: مجتَمعه وسوقه. مِيسمَه: علامته. النظارة: الناس الناظرون أطواق: أي حلقةٌ خلف حلقة، قد استداروا حوله. والطِّباق: الذي طُوبق، فجُعِل بعضُه على بعض، شبَّه به ركوبَ بعضِ النَّاس بعضاً.

[الصمصامة]

والصَّمصامة: سيف عمرو بن معد يكرب، وكانت تقطَع الحديد كما يَقْطَع الحديدُ الخشب. وبعث مَلكُ الهند إلى الرَّشيد بسيوفٍ قَلْعِيَّة، وكلاب سَلُوقيَّة، وثياب هندية،

فأمر الأتراك فصُفُّوا بين يديه صَفَّيْن، قد لبسوا الحديد، ودخل الرشيد فقال لهم: ما جئتم به؟ قالوا: هذه أشرفُ كُسْوة بلادنا، فأمرَ فقُطِّعت جِلالاً وبراقع لخيله، فَكَبُّوا على وجوههم، وتذمَّموا، ثم قال: ما عندكم؟ قالوا: هذه سيوف قَلْعية، لا نظيرَ لها؛ فدعا بالصَّمصامة، فقُطِعت بها السيوفُ سيفاً سيفاً، كما يُقْطع الفُجْل من غير أن تنثني لها شَفرة. ثم عرض عليهم حَدَّ السَّيف فإذا هو لا فَلَّ فيه، ثم قال: ما عندكم؟ قالوا: كلاب سَلوقيَّة، لا يبقى لها كلبٌ ولا سَبعُ إلاّ عقرتْه، فأمر بالأسد فأُخْرِج إليهم، فلما نظروا إليه هالهم، وقالوا: ليس عندنا مثل سَبعُكم، ثم أرسلوا عليه الأكلب ـ وكانت ثلاثة ـ فمزَّقته، فقال: تمنَّوْا في هذه الأكلب ما شئتم، قالوا: السَّيف الذي قطع سيوفنا، قال: لا يجوز في ديننا أن نُهادِيَكم بالسلاح فانقلبوا خائبين.

وكانت الصمصامة عند الهادي، فدعا بها يوماً وبمكتلٍ مملوء دنانير، وأمر الشُعراء أن يقولوا فيه، فبدأهم ابن يَامين فقال: [**الخفيف**]

حاز صَمْصامةَ الزُّبيديّ عمرٌو من بيْـ ـــن جـمـيـع الأنـام مـوسـى الأمـيـنُ
سيف عمرو، وكان فيما سمعنَا خيـرَ مـا أُغْـمِـدَتْ عـلـيـه الـجـفـونُ
أوقـدت فـوقـه الـصَّـواعـق نـاراً ثـم شـابـت بـه الـزّعـاف الْـقُـيُـونُ
وإذا مـا شَـهَـرتْـهُ بَـهـر الـشَّمْـ ـس ضـيـاء فـلـم تـكْـد تـسـتـبـيـنُ
يستطير الأبصار كالقبَس المشـ ـعَـلِ مـا تـسـتـقـرّ فـيـه الـعـيـون
وكـأن الْـفِـرِنْـدَ والـجـوهـر الـجـا رِي عَـلَـى صـفـحـتـيـه مـاءُ مَـعِـيـنُ
مـا يـبـالـي إذا الـضـريـبـة حـانـت أشـمـالٌ سـطـتْ بـه أم يَـمِـيـنُ
وكـأنّ الـمـنـونَ نِـيـطـتْ إلـيـه فـهـو مـن كـلّ جـانـبـيْـه مـنـونُ

فقال له: لك السيف والمِكْتل، ففرّق، المِكْتل على الشعراء، وقال: حرمتَهم بسببي، وأخذ من المهديّ في السيف خمسين ألف دينار.

وممن أفرط في وصف قَطْع السّيف النمر بن تولب حين قال: [**البسيط**]

أبـقـى الـحـوادث والأيـام مـن نـمـرٍ أسـبـاد سـيـفٍ كـريـم أثـره بـادِي
تـظـلّ تـحـفـر عـنـه الأرض مـنـدفـنـاً بـعـد الـذّراعـيـن والـسـاقـيْن والـهـادِي

ويروى: [**البسيط**]

* تـظـلّ تـحـفـر عـنـه إن ضـربـت بـه *

والأسباد: البقايا، واحدها سِبْد، وقال أبو الهول: [**الطويل**]

حُـسـام غَـدَاة الـرَّوْع مـاضٍ كـأنّـهُ مِـنَ الله فـي قَـبْـضِ الـنّـفـوس دلـيـلُ
كـأنّ جـنـودَ الـذرّ كُـسِّـرْن فـوقـه قـرونُ جـراد بـيـنـهـنّ دخـولُ

كـأن عـلـى إفـرنـده مَـوْجُ لُـجَّـةٍ تَـقَـاصَـرُ فـي ضـحـضـاحـه وَتُـطـولُ

وقال ابن الرومي: [الوافر]

يـقـول الـقـائـلـون إذا رَأَوْه لأمـرٍ مـا تُـغـولـيـت الـدُّرُوعُ

والشعر في وصف السيف كثير مشهور فلذلك اقتصرنا على هذه النبذة.

قوله: مستهدِف، أي منتصف، والهَدَفُ: الْغَرَض، وأراد بالقِرْطاس قطعةً من كاغَد توضع فيها الدرهم. الفنجديهي: القرطاس: دِرْهَمٌ مِن نُحاس، وفيه شيء من الفضة، يتعاملون به في الشأم. قذالك: مؤخّر عنقك وهو ما بين نُقْرة الْقفا إلى الأذن وجمعه قُذُل. ذا، إشارة إلى الدرهم نقداً: حاضراً.

أثراً بعد عين، قد تقدّم، والعين: نفس الشيء، وقيل: العين المعاينة، فمعناه لا أترك شيئاً وأنا أعاينه، وأطلب أثرَه إذا غاب. وقال الفنجديهيّ: سمعت بعضَ الفضلاء بفنجديهَة، يقول: حكي أنّ رجلاً سُرق منه شيء، فخرج يطلب السّارق، فلما ظفر به أخذ يضربه ويشدُّ وثاقه، فقال له أحد أهل البلد: خَلِّ سبيله، حتى يخرج فإن هنا أثر قدميه، فضحك الرجل منه وقال: لا أطلب أثراً بعد عين، فصار مثلاً لمن ترك شيئاً حاصلاً ثم تبع أثره بعد فوت عَيْنه.

رضخت: أعطيت. والعين: الدراهم والدنانير. الأخدعان: عِرْقان يقع عليهما المحجمتان، وقيل: هما في صفحتي العنق قد خفيَا وبُطِنا فلخفائهما يَخْدَعان الحاجم. خَزْن: إمساك وحبس. اغرُب: غبْ. وإلاّ، معناه وإلاّ صفعتُ عنقك. المَيْن: الكذب. الحرمين: مَكّة والمدينة، حرم الله تعالى بمكة وحرم رسول الله ﷺ بالمدينة. التَّلْعة: مجرى الماء من أعلى الوادي أنظِرْني: أخِّرْني، سَعَتِي: غِناي.

* * *

فقال له الشيخ: وَيْحك! إن مَثَل الوُعود، كغرْسِ العُود، هو بين أن يُدْرِكَه الْعَطَبُ، أو يُدْرَكَ منه الرُّطب، فما يُدْريني: أَيحصُلُ مِنْ عُودك جَنَى، أمْ أَحْصُل منه على ضَنَى، ثم ما الثِّقَةُ بأنَّكَ حِينَ تَبْتَعِد، سَتَفِي بما تعِد! وقد صار الغدرُ كالتحجيل، في حِلْيَةِ هذَا الجيل، فأرِحْني باللّهِ من التَّعْذيب، وارْحَل إلى حيث يَعْوِي الذّيب. فاسْتَوى الغلامُ إليه، وقد اسْتَوْلى الخجلُ عَلَيْه، وقال: والله ما يخيسُ بالْعَهْد، غيرُ الْخسِيسِ الوَغْد، ولا يَردُ غديرَ الْغَدْر، إلاّ الوضيعُ القَدْر؛ ولو عرفتَ مَنْ أنا، لما أَسَمْعتَنِي الخنا؛ لكنَّك جَهِلْتَ فقلت، وحيثُ وجب أن تسجد بلْت، وما أقبح الْغُرْبَةَ والإقْلالَ، وأحسنَ قَولَ مَنْ قال:

* * *

جَنَى: ما يُجنى منه. ضَنًى: مَرَض. التَّحْجيل: بياض في قوائم الفرس حِلْيَة: صفة وزينة. الجِيل: أهل العَصْر. اسْتَوى: اعتدل قائماً اسْتوْلَى: غلب عليه الخجل. يخيس: يغدر، وخاس الشيء تغيّر. الوغد: الرَّذْل الساقط الخسيس الدنيء. الخنا: الفُحْش. **[البسيط]**

إن الغريب الطَّوِيلَ الذَّيْلِ مُمْتَهَنٌ فكيفَ حال غريبٍ ما لَهُ قوتَ!

لكنَّه ما تشينُ الحرَّ مُوجِعَةٌ فالمِسْكُ يُسْحَق والْكَافورُ مفتوتُ

وطالما أُصْلِيَ الْيَاقُوتُ جَمْرَ غَضًى ثمّ انطفى الجمْرُ والياقوتُ ياقوتُ

فقال له الشيخ: يا ويلةَ أبيك، وعوْلَةَ أهليك! أأنت في موقف فخرٍ يَظْهر، وحَسَبٍ يُشْهَر، أمْ موقف جِلْدٍ يُكْشَط، وقَفاً يُشْرَط؛ وهبْ أنَّ لَكَ الْبَيْت، كما ادَّعيت، أيحصلُ بذلك، حَجْمُ قَذَالِك؛ لا والله ولو أنَّ أباك أَنَاف، على عَبْد مناف، أو لخَالِكَ دَانَ، عَبْدُ المَدان.

* * *

الطويل الذيل: الكثير المال. تَشين: تعيب. أُصْلِي: أَدْخل النار الياقوت: حجارة يتزين بها والنار لا تغيره.

ومما جاء في معنى هذا الشعر: **[البسيط]**

إن الغريبَ ذليلٌ حيثُما سلكا لو أنه مُلِّكَ كلَّ الورَى ملكا

إذا تَغَنَّى حمامُ الأيك في غُصُنٍ حنَّ الغريبُ إلى أوطانه فبكى

آخر: **[الكامل]**

وإذا حَلَلْتَ بدار قوم دارِهِمْ فلهم عليك تعزُّز الأوطان

فالشَّمْس تُشْرِق في مَحِلَّة كَبْشِها وتكون منحطًّا مع الميزان

وقال الفقيه الحافظ أبو محمد بن حزم: **[البسيط]**

لا يشمتنْ حاسدٌ إن نكبةٌ عَرَضَتْ فالدّهر ليس على حالٍ بمتركِ

فالحرّ كالتِّبر يلفَى تحت منقَعةٍ طوراً وطوراً يُرَى تاجاً على ملك

وقال البحتريّ في سعيد وقد حبس: **[الكامل]**

وما هذه الأيام إلاّ مراحلٌ فمِنْ منزلٍ رَحْبٍ ومن منزلٍ ضَنْكِ

وقد هذّبتك النائباتُ وإنَّما صفا الذهبُ الإبريز قبلك بالسَّبْكِ

وقال أبو بكر بن دريد: **[المنسرح]**

لا تحقرنْ عالماً وإن خَلُقَتْ أثوابُه في عيونِ رامِقِهِ

وانـظـر إلـيـه بـعـيـن ذي خَـطَـرٍ مـهـذّب الـرأي فـي طـرائـقـهِ
فـالـمـسـك إذْ مـا تـراه مـمتَـهـنـاً بـفـهـر عـطّـارِه وسـاحـقـهِ
سـوف تـراه بـعـارضـيْ مـلـكٍ ومـوضـع الـتّـاج مـن مـفـارِقـه

وقال ابن شماخ: **[الطويل]**

نوائبُ غالتْني فأبدت فَضَائلي فكانت وكنتُ النَّارَ والعنبر الْوَرْدَ

وعلى لسان عود الطيب: **[المجتث]**

إنْ مـسّـتِ الـنَّـار جـسـمـي أبـديـتُ طـيـبَ نـسـيـمـي
كـالـدّهـر إنْ عَـضّ يـومـاً أبـانَ فَـضْـلَ كَـرِيـم

وسخِط المتوكلّ على عَليّ بن الجَهم، فنفاه إلى خراسان، وكتب أن يُصْلَب إذا وردها يوماً إلى الليل، فلمّا وصل إلى الشاذياخ حَبسه طاهر بن عبد الله، ثم أخرجه فصلبه إلى الليل مجرّداً فقال: **[الكامل]**

لم يصلبُوا بالشاذياخ عشية الاثنيـ ـن مـسـبـوقـاً ولا مَـجْـهُـولا
نـصـبـوا بـحـمـد الله ملء عـيـونِـهـمْ شـرفـاً ومـلءَ صـدورهـم تَـبْـجـيـلا
مـا ازداد إلا رفـعـة وسـعـادةً وازدادت الأعـداء عـنـه نـكـولا
هـل كـان إلا الـلـيـثَ فـارق غِـيـلَـه فـرأيـتَـه فـي مَـحْـمَـلٍ مـحـمـولا
مـا عـابـه أن بُـزَّ عـنـه لـبـاسُـه كـالـسّـيـف أفـضـلُ مـا يُـرى مـسـلـولا

وقال في الحبس: **[الكامل]**

قالت حُبسْت فقلت ليس بضائرٍ حَـبْـسِـي وأيّ مـهـنَّـدٍ لا يُـغْـمَـدُ
أو مَـا رأيـت الـلّـيـث يـألـف غِـيـلَـه كِـبْـراً وأوْبـاشُ الـسّـبـاع تـصـيّـدُ
فـالـشـمـس لـولا أنـهـا مـحـجـوبـةٌ عـن نـاظـريـك لـمـا أضـاء الـفـرقـدُ
والـنَّـار فـي أحـجـارهـا مـخـبـوءة لا تُـصْـطَـلَـى إن لـم تُـثِـرهـا الأزنـدُ
والـحـبـس إن لـم تَـغْـشَـه لـدنـيـةٍ شـنـعـاءَ نـعـم الـمـنـزل الـمـتـورَّدُ
بـيـت يُـجَـدّد لـلـكـريـم كـرامـةً ويُـزار فـيـه ولا يـزور ويُـحْـمَـدُ
لـو لـم يـكـن فـي الـحـبـس إلا أنـه لا تـسـتـذلـك بـالـحـجـاب الأعـبـدُ

أخذ الأحوصَ أحدُ الأمراء بأمر الوليد بن عبد الملك لأنّه كان يراود غلمانه، فضربه مائة سوط وصبّ عليه الزيت، وأوقفه في الشمس، وهو مع ذلك يقول: **[الكامل]**

مـا تـعـتـريـنـي مـن خـطـوبِ مِـلـمـةٍ إلا تـشـرّفـنـي وتـرفَـعُ شـانِـي[1]

(١) الأبيات في ديوان الأحوص ص ٢٠٣.

إنّي على ما قدْ علمت مجسَّدٌ ... أُنمى على البَغضاء والشنآن
فإذا تَزُول تزول عن متخمِّطٍ ... تُخشى بوادرُه على الأقران
إني إذا خفِيَ اللئيمُ وجدتَني ... كالشَّمْسِ لا تَخفَى بكلِّ مكان

* * *

قوله: يا ويلة أبيك. الويلة: الفضيحة. والوَيْل: الحزن. والعَوْلة: البكاء الشديد، وأَعْوَل يُعوِل إعوالاً، إذا رفع صوته وصاح. أهليك: جمع أهل يكشط: يحلق شعره. هب، أي احسب. وذكر في الدرة أن خواصّ العراق يقولون: هب أني فعلت، وهبه فعل، كقول أبي دَهْبل: **[الطويل]**

هَبُوني امرأً منكمْ أضل بعيره ... له ذمَّةٌ إنّ الذمام كبيرُ[1]

قال: وهَبْني، أي عدّني واحسبني، فكأنّ فيه معنى الأمر من وهب انتهى ما قاله في الدرة.

وقال هنا: وهب أن لك... البيت، وبيت القبيلة: أشرف فخِذٍ فيها أناف: أشرف.

[عبد مناف بن قصي]

عبد مناف بن قصيّ، هو بيت قريش وشريفُها، وهو جدّ رسول الله ﷺ، واسمه المغيرة، وكان يقال لعبد مناف: القمر لجماله وبهائه ورفعه منزلته، وسمِّيَ عبد مَناف لأنه شَرُف وعَلاَ، وأناف على أشراف العرب، وكانت الرّكاب تَضْرِب إليه من أطراف الأرض يُتْحِفونه تحفَ الملوك، فيكرمهم، وكان عنده لواء نزار، وقوس إسماعيل، وسقاية الحاج والمفاتيح ولما قسَم والدُه المجدَبيْن أولاده جعل السّقاية والرّياسة لعبد مناف، والدّار لعبد الدار، والرفادة لعبد العُزّى، وجانبي الوادي لعبد بن قصيّ قال الشاعر: **[الكامل]**

كانتْ قريشٌ بيْضَةً فتفلَّقتْ ... فالمحُّ خالِصُه لعبد منافِ[2]

ولما مات قُصَيّ رأس ابنه عبد مناف، وجلّ قدرُه، فأتته خُزاعة وبنو الحارث بن كنانة يسألونه الْحِلف ليعزُّوا به، فعقد معهم.

---

(١) البيت لعروة بن أذينة في تخليص الشواهد ص ٤٤٢، ولأبي دهبل الجمحي في ديوانه ص ٧٧، والأغاني ٧/ ١٤٠.

(٢) البيت لعبد الله بن الزبعرى في ديوانه ص ٥٣، ولسان العرب (محح)، والتنبيه والإيضاح ١/ ٢٦٧، وتهذيب اللغة ٤/ ٢١، وتاج العروس (محح)، (نوف)، وبلا نسبة في ديوان الأدب ٣/ ١٨، وكتاب العين ٣/ ٣٥.

وأمّا شَرَفُ عقبِهِ فلأن منه بني هاشم، الذين فيهم النبوّة والخلافة، ومنه بنو أميّة القادة في الجاهلية، وأهل الخلافة في صدر الإسلام، وقد قدّمنا في أخبار الشافعيّ أن عبد مناف، يجتمع بنو هاشم وبنو أمية فيه، فلهؤلاء انتهى شرف مُضر.

[بنو عبد المدان]

وأما بنو عبد المدان فأشراف اليمن، وبهم يضرب المثل في الشرف والعزة، وهو عبد المدان بن الديان بن قطن بن زياد بن الحارث بن مالك بن ربيعة بن مالك بن كعب ابن الحارث بن كعب بن خالد بن بجيلة بن مذحج وقال لقيط بن زُرارة: **[الوافر]**

شربتُ الخمرَ حتى خِلْتُ أني ... أبو قابوسَ أو عبدُ المدَان

أمشي في بني عُدُس بن زيد ... رخيَّ البال منطلقَ اللّسان

وَقال حسان رضي الله عنه: **[الوافر]**

وقد كنا نقول إذا رأينا ... لذي جسم يعدّ وذي بيانِ

كأنك أيُّها المعطي بياناً ... وجسماً من بني عَبْد المدانِ

وقالوا لحسّان: كنّا يا أبا الوليد، ونحن نطُول بأجسامنا على العرب نَرى لأنفسنا بذلك فضلاً، حتى قلت: **[البسيط]**

دعوا التخاجؤ وامْشُوا مِشْيَةً سُحُجا ... إنّ الرجال أولو قدّ وتذكيرِ

لا بأس بالقوم من طُولٍ ومن عِظَمٍ ... جسمُ البغال وأحلام العصافير

فتركتَنا لا نرى لأجسامنا فضلاً.

وحكى الأصمعيّ: أنه اجتمع يزيد بن عبد المدان وعامر بن الطُّفيل بسوق عُكاظ، وقدم أميّة بن الأسكر الكناني ومعه ابنة له، من أجمل أهل زمانها، فخطبها يزيد وعامر، فقالت أمّ كلاب (امرأة أمية): مَنْ هذان الرجلان؟ فعرّفها أمية، فقالتْ: أعرف بني الديان ولا أعرف عامراً، قال: هل سمعتِ بمُلاعب الأسنة؟ قالت: نعم، فقال: هذا ابن أخته، فقال يزيد: يا أمية أنا ابن الديان، صاحب الكِثيب ورئيسُ مَذْحج ومكلّم العُقاب، ومَنْ كان يصوّب أصابعَه فتنظُف دماً، وراحته فتخرج ذهباً، فقال أميَّة: بخ بخ، فقال عامر: جدّي الأجذم، وعمّي الأصم، وخالي ملاعب الأسنة، وأبي فارس قرزل، فقال أمية: بخ بخ، مرعًى ولا كالسّعَدان، فأرسلها مثلاً، فقال يزيد: يا عامر، هل تعلم شاعراً من قومي رحل بمدحةٍ إلى رجل من قومك؟ قال: لا، قال: فهل تعلم أن شعراء قومك يرحَلُون بمدائحهم إلى قومي؟ قال: اللهم نعم، فنهض يزيد وهو يقول: **[الكامل]**

أميّ يا ابنَ الأسكرِ بن مدلجٍ ... لا تجعلنْ هوزاناً كمذحجِ

لا النبع في مغرسه كالْعَوْسج ... ولا الصريحُ المحضُ كالمُمْزَجِ

* * *

فلا تضْرِبْ في حديدٍ بارد، ولا تطلُبْ ما لستَ له بواجد، وباهِ إذا باهَيْتَ بموجودِك؛ لا يُجدودِك، وبمَحْصُولك، لا بأُصُولك، وبصفَاتِك، لا برُفَاتِك، وبأَعْلاَقِك، لا بأعْرَاقِك؛ ولا تُطِع الطَّمَع فيُذلَّك، ولا تَتَّبعِ الْهَوَى فيُضِلَّك، ولله القائل لابنه: [الطويل]

بُنَيَّ استَقِمْ فالعودُ تَنْمِي عروقُه ... قويماً ويَغْشَاه إذ ما الْتوَى التَّوَى

ولا تُطِع الحِرْص المُذِلَّ وكنْ فتًى ... إذا التهبتْ أحشَاؤه بالطَّوى طَوَى

وعاصِ الْهَوَى المُرْدِي فكم من مُحلِّق ... إلى النَّجمْ لما أنْ أطاع الْهَوَى هَوَى

وأسْعِفْ ذوي الْقُرْبَى فيقبح أن يُرَى ... على مَنْ إلى الحُرِّ اللّباب انْضَوى ضَوى

وحافظ على مَنْ لا يخون إذا نَبَا ... زَمَانٌ ومَنْ يَرْعَى إذا ما النَّوى نَوى

وإن تَقْتدِرْ فاصفَحْ فلا خيرَ في امرئٍ ... إذا اعتلقَتْ أظفارُه بالشَّوَى شَوَى

وإياك والشَّكوى فلم تَرَ ذا نُهى ... شَكَا بل أخو الجَهْلِ الّذي ما ازعَوَى عَوَى

قوله: لا تضرب في حديد بارد، هو مَثَل لمن يحاول الانتفاع بمَنْ ليس عنده نفع، وقال أبو الشمقمق يهجو سعيدَ بن سَلْم: [الطويل]

هَيهاتَ تضرب في حديدٍ باردِ ... إن كُنْتَ تطمع في نوال سعيدِ

تاللّهِ لو مَلَك البحارَ بأسْرِها ... وأتاه سَلْمٌ في زمانٍ مُدُودِ

يبغيه منها شَرْبةً لطَهوره ... لأبَى وقال: تَيَمما بصَعِيدِ

وكذَب عليه، كان سعيد بن سلم من أجود الناس. قوله: باهِ، أي فاخر موجودك ومحصولك: ما تجدُه من المال ويحْصُل لك. رفاتك: عِظَام أجدادك البالية. الأعلاق: جمع عِلْق، وهو النَّفيس الرفيع من الذَّخائر. أعراقك: أصولك. قوله: ولا تطع الطَّمع فيذلّك، ومن دعاء النبي ﷺ: «اللّهُمَّ إني أعوذ بك من طمع حيثُ لا طَمع، وأعوذ بك من طَمعٍ يَهدْي إلى الطَّبَع»[1]، وقال النبي ﷺ: «خيار المؤمنين القانع، وشِرارهم الطامع». وقال الحسَنُ البَصْريّ لبعض ولد عليّ رضي الله عنهما: ما مِلاكُ الدِّين؟ قال: الورع، قال: ما آفَته؟ قال: الطمَع. قوله: ولا تتَّبع الْهَوَى فيضلّك، ابنُ عباس رضي الله

(١) أخرجه أحمد في المسند ٥/ ٢٣٢، ٢٤٧.

عنهما، قال ﷺ: «ثلاثٌ مهلكات، شُحٌ مُطاع، وهوًى متَّبع، وعجبُ كلّ ذي رأي برأيه»[١]. وقال ﷺ: «إنّ أخوَف ما أخاف على أمتي الهوى وطول الأمل، أمَّا الهوى فيصدّ عن الحق، وأما طول الأمل فيُنسي الآخرة»[٢]. وقال بعضُهم: أفضل النَّاس مَنْ عصى هواه، وأفضلُ منه مَنْ رَفَض دنياه. تنمي: تزيد. التوى: اعوجّ. التَّوَى: الهلاك. القويم: المعتدل. التهبت: اشتعلت الطُّوى: الجوع. طَوَى، أي طوى عليه ضلوعَه وستره. وقال أبو فراس: **[الكامل]**

لا أرتـضـي وُدًّا إذا هـو لـم يَـدُمْ ... عـنـد الـجـفـاء وقـلـة الإنـصـافِ[٣]

تَـعِـسَ الـحـريـصُ وقـلّ مـا يـأتـي بـه ... عِـوَضـاً مـن الإلـحـاح والإلـحـافِ

إنّ الـغـنـيّ هـو الـغـنـيُّ بـنـفْـسِـهِ ... ولـو أنـه عـاري الْـمـنـاكِـبِ حَـافِـي

مـا كـلُّ مـا فـوقَ الْـبَـسِـيـطـة كَـافـيـاً ... فـإذا قَـنَـعْـت فـكـلُّ شـيء كـافِـي

ويـعـافُ لـي طـمـعَ الـحـريـص فُـتُـوّتـي ... ومُـرُوءتـي وقَـنَـاعـتـي وَعـفَـافِـي

شِـيَـمٌ عُـرِفْـتُ بِـهـنّ مـذ أنـا يـافـعٌ ... ولـقـد عُـرِفْـتْ بـمـثـلـهـا أسـلاَفِـي

قوله: المردي، أي المهلك المحلّق: الطائر يستديرُ في طَيَرانه. هَوَى: سقط. أسْعِف: اقْضِ حوائجهم. اللُّباب: الخالص. انطوى، انْقَطَع إلى جودك وتعلّق به. نبا: ارتفع ولم يوافق. يَرْعَى: يحفظ. النّوى: البعد نَوَى: أراده وقَصده، وقد قالوا: خيرُ الإخوان، مَنْ أقبل عليك إذا أدْبرَ الزمان. الشَّوَى: القوائم، ويقال لجلدة الرأس: شوًى. وقوله: شَوَى، أي صنع شواء وأولاها النار. يقول: مَن اعتذر إليك من الإخوان فاعذِرْه، ولا تكن ممّن إذا وقع على ذنبٍ لصاحبه أَخَذه به، ونزع جلدةَ رأسِه فشوَاها.

[مما جاء في قبول العذر]

وقال ﷺ: «مَنْ لم يقبل من متنصِّلٍ عذراً، صادقاً كان أو كاذباً، لم يَرِدْ عليّ الحوض».

وقالوا: المعترف بالذنب كمن لا ذنب له.

واعتذر رجلٌ إلى إبراهيم بن المهديّ، فقال: قد أغناك الله بالعذر عن الاعتذار، وأغنانا بحسن النية عن سوء الظن.

وقال الحسن بن وهب: **[السريع]**

مَـا أَحْـسَـنَ الْـعَـفْـوَ مـن الْـقَـادِرِ ... لا سـيـمـا عـن غـيـر ذي نـاصـرِ

---

(١) أخرجه بمعناه أبو داود في الملاحم باب ١٧، والترمذي في تفسير سورة ٥، باب ١٨، وابن ماجه في الفتن باب ٢١، بلفظ: «وإعجاب كل ذي رأيٍ برأيه».

(٢) أخرجه بنحوه البخاري في الرقاق باب ٥.

(٣) الأبيات في ديوان أبي فراس الحمداني ص ٨١.

إن كـان لـي ذنـبٌ ولا ذنـبَ لـي ... فـمـا لـه غـيـرُك مـن غـافـرِ
أعـوذُ بـالـوُدّ الـذي بـيـنـنـا ... أن تـفـسـد الأوّل بـالآخـرِ

وقالوا: ليس من الْعَدْل، سُرْعة العذْل.

وقال آخر: [البسيط]

أقْبَلْ معاذيرَ من وافاك معتذِراً ... أبرَّ فيما أتى من ذاك أو فَجَرَا
فقد أطاعك مَنْ يُرْضِيك ظاهرهُ ... وقد أجلَّك مَنْ يَعْصِيك مستترَا

آخر: [الطويل]

وهبْني مسيئاً كالذي قلتَ ظالماً ... فعفواً جميلاً كي يكون لك الفضلُ
فإن لم أكن للعفو عندك للّذي ... أتيتُ به أهلاً فأنت له أهلُ

الأحنف: ربَّ ملومٍ لا ذنبَ له.

آخر: [الطويل]

* لـعـل لـه عـذراً وأنـت تـلـومُ *

آخر: [الطويل]

إذا اعتذر الجاني مَحَا العذرُ ذنبَه ... وكلّ امرىء لا يقبل العذرَ مذْنبُ

وقال محمد بن سليم لابن السمّاك: بلغني عنك شيءٌ كرهتُه، فقال: إذا لا أبالي، قال: لم؟ قال: لأنه إن كان حقًّا غفرتَه، وإن كان باطلاً لم تقبَلْه.

وقالوا في ترك الاعتذار: [الطويل]

إذا كان وجه العذر ليس ببيِّنٍ ... فإنّ اطّراحَ العذر خيراً من العُذْرِ

قوله: الشَّكوى، أي المشتكيَ إلى الناس بالضر. نُهًى: عقل. ارعوى: رجع. وارْعَوَى عن القبيح: كفّ عنه وحَسُن رجوعه ونزوعُه عنه من الرِّعوى، وهي حسن المراجعة والنزوع عن الجهل.

الفراء وابن سيده: عوَى الفصيلُ والكلبُ، إذا صاح فمدّ صوته، قال الشاعر: [الطويل]

بها الذّئبُ محزوناً كأنّ عُواءه ... عُواء فصيلٍ آخر الليل مُحْثَلُ

المحثل: السيىء الغذاء، وإذا دعا الرّجل النّاس إلى الفتنة فقد عوَى واسْتَعْوَى، وسمعتُ عَوَّة القوم، أي أصواتهم وجلبَتهم، قاله الأصمعيّ وأبو زيد: بل أخو الجهل الّذي عَوَى بالشكاية وقت ارعوائه أي رجوعه عنك، والمعنى كلما غاب عنك: تشكّى، وما مع الفعل مصدرية وظرف الزمان محذوف، أي وقت ارعوائه كقوله تعالى: ﴿مَا

دَامَت السَّمَواتُ والأرْضُ﴾ [هود:١٠٧] أي مدة دوامهما، يريد أن العاقل يحتمل ضُرّ الزمان ولا يشتَكِي والجاهل الَّذي متى رجع عن التشكِّي لم يرجع رجوعاً حسناً، بل يَعْوِي بالتّشكي عُواء الذئب.

* * *

فقال الغلام للنَّظارة: يا لَلْعجيبة، والطرفة الغريبة! أنفٌ في السّمَاء، واستٌ في الماء، ولفظٌ كالصَّهباء، وفِعْلٌ كالْحَصْبَاء. ثمَّ أقبل على الشَّيْخ بلسانٍ سَليط، وغيظٍ مُسْتَشِيط، وقال: أفٌ لك مِنْ صوّاغٍ باللّسان، رَوَّاغٍ عن الإحسان: تأمرُ بالبِرّ، وتعقُّ عُقَوق الهِرّ، فإنْ يكنْ سببُ تعنُّتِك، نَفَاقُ صَنْعَتِك، فَرَمَاها اللَّهُ بالْكَسَاد، وإفسادِ الحُسّاد؛ حَتَّى تُرَى أَفْرَغَ من حجَّامِ سَابَاط، وأَضْيقَ رِزْقاً مِنْ سم الخياط فقال له الشيخ: بلْ سلَّط الله عليك بَثَرَ الْفَم، وَتَبيُّغَ الدّم؛ حتَّى تُلْجأ إلى حجَّام عظيم الاشْتِطاط، ثقيل الاشتراط، كَلِيل الْمِشْرَاط، كثيرِ المُخَاط والضُّراط.

* * *

قوله: الطُّرْفَة الْغريبة، أي التي لم يرَ مثلُها. الصَّبْهَاء: الخمر. الحصْباء: الحجارة. سليط، أي متسلط. مستشيط: منتشر في الشرّ ملتهب في الغضب صوّاغ: كذّاب، وصاغ الكذب: صنعه. راغ: مال إليه من حيث لا يعلم، وراغ إلى أهله: رجع في إخفاء. روّاغ: ميّال وفرّار في خُفْية. تعقّ: تقطع وعقُوق الهرة، أنّها تأكل أولادها.

وحكى الأصمعي في كتاب «أفعل من كذا»، يقال: أعقّ من ضَبّ، قال: أرادوا ضَبَّة، فكثر الكلام بها فقالوا: ضبّ، وعقوقها أنها تأكل أولادها، وذلك أن الضّبّة، إذا باضتْ حَرَسَتْ بيضتَها من كلٍّ ما قدرتْ عليه من وَرَلٍ وحيّة وغير ذلك، فإذا خرجتْ أولادُها من بَيْضتها ظنتها شيئاً يريدُ بيضَها، فوثبت عليه تقتله، فلا ينجو منها إلا الشديد. قال: وهذا موضوع قد وضعتْه العرب في موضعه، وأتتْ بعلّته، ثم جاءت إلى ما هو في العقوق مثل الضّبّة، فضربَت به المثل على الضدّ، فقالوا: أبرُّ من هِرّة، وهي أيضاً تأْكل أولادها، فحين سُئِلوا عن الفرْق وجَّهُوا أكْلَ الهرة أولادها إلى شدة الحبّ، فلم يأتوا بحجّة مقنعة. وقال الشاعر:

أمـا تَـرَى الـدَّهْـر وهَـذَا الْـوَرَى　　　كـهـرّة تـأْكُـل أولادَهـا

واخْتُصِم إلى شُريح، في ولد هِرّة، فقال شُريح: ألقه مع هذه، فإن هي قرَّتْ ودَرَّت واسبطرّت، فهو لها، وإن هي هَرَّتْ وفَرَّتْ واقشعرّتْ، فليس لها. اسبطرّت: اضطجعت وهرّت كهرت، من هَرير الكلب، واقشعرَّ الجلد: قامت شُعوره.

قوله: تعنتك: طلب مشقتك، والتّعنُّت: طلب الزَّلّة، وتعنَّته أدخل عليه الأذى إذا

سأَله عن شيء، أراد به اللَّبْس والمشقّة عليه. سمّ الخياط: ثُقْب الإبرة. بَثَر: خرَّاج صغار، ويقال بَثَر الجرح، إذا خرجت به أورام صغار فيزيد به سيلان الدم عن الأكل وغيره. تبيُّغ: هَيَجان وتَبَيَّغ دمُه: هاج عليه تلجأ: تحوج. الاشتطاط: مجاوزة القدْر. كَلِيل: حافٍ.

* * *

قَالَ: فلمّا تبيّن الفتى أنه يَشْكو إلى غيرِ مُصمَّت، ويُراوِدُ اسْتِفْتَاحَ باب مُصْمَتٍ، أضْرَبَ عن رَجْعِ الْكلاَمِ، واحْتَفَزَ لِلْقِيام، وَعَلِم الشيخ أنه قد أَلاَمَ، بِمَا أَسْمَعَ الْغُلام، فجنح إلى سِلْمِه، وبذَل أنْ يُذْعِنَ لِحُكمْه، وَلاَ يَبْغي أَجْراً على حَجْمِهِ، وأبَى الْغُلامُ إلاّ المشْيَ بِدَائِهِ، والهربَ مِنْ لقَائِهِ، وَمَا زَالاَ فِي حِجَاجٍ وَسِبَابٍ، ولِزَازٍ وجِذَابٍ، إلَى أنْ ضَجَّ الْفَتَى من الشّقَاقِ، وتَلاَ رُدْنُه سُورَةَ الانْشِقاق، فأعْوَلَ حينئذٍ لِوفَارَةِ خُسْرِهِ، وانعِطَاطِ عِرْضِهِ وطِمْرِهِ. وأخَذَ الشَّيْخُ يَعْتَذِرُ من فَرَطَاتِهِ، ويُغَيِّضُ من عَبَراته، وهوَ لا يُصْغِي إلى اعْتِذَارِهِ، ولا يُقصر عن اسْتِعْبَارِهِ، إلى أن قالَ لَهُ: فَدَاك عمُّك، وعَدَاك ما يَغمُّك، أما تسأم الإعْوَال، أما تعرفُ الاحْتِمَالَ، أما سَمِعْتَ بمنْ أَقالَ، وأَخَذَ بِقَوْلِ مَنْ قَالَ: [السريع]

أَخْمِدْ بِحِلْمِكَ ما يُذْكِيه ذُو سَفَهٍ ... مِنْ نَارِ غَيْظِكَ واصْفَحْ إنْ جَنَى جَانِي

فالحِلْم أفضلُ ما ازْدَانَ اللَّبيبُ بِه ... والأَخْذُ بالعفو أحْلَى ما جَنَى جَانِي

* * *

يُراود: يُعالج. مصمَّت: مغلق. احتفز: تهيّأ وتشمّر. ألام: أتى بما يلام عليه. قال الشاعر:

* ومـن يَـخْـذَلْ أخـاه فَـقَـدْ ألامـا *

جَنَحَ: مال سِلْمه: صلحه. بذل أن يذعن، أي أعطى الانقياد من نفسِه يبغي أجراً: يطلب أجرة، في حِجاج وسِباب، أي في لحةٍ وشتم. لزاز: ملازمة للخصومة. وخصم لزّاز ملزٌّ، أي لا يفارق الخصُومة. جذاب: مضاربة وجذب كلّ واحد منهما بثوب صاحبه. ضجّ: صاح. وتلا ردنه، أي قرأ كمه، وجعل صوب التّخريق كأنه قراءة. أعول: بكى. وفارة خسره، أي كمال خسرانه. انعطاط عِرْضِه وطِمْره، أي تمزيق عِرْضه بالشّتم، وثوبه بالتخريق، والطِّمر: الثوب الخلَق. فَرَطاته: بوادره، وما سبق من إذايته. يغيِّض: يذهب وينقص. عبراته: دموعه. يُصغي: يستمع، يقصّر: يكفّ. استعباره: بكائه عَدَاك: تجاوزك. يغمّك: يغطّي قلبَك بالهمّ. تسأَم: تملّ. الإعوال: البكاء الاحتمال: التسامح والصَّبر على الأذيّة: أقال: غَفَر الذنب. أخمِدْ:

أطفِيء وسكِّن. يذكيه: يوقده. سَفَه: جهل، اصفح: أظهر كَرَمك. جَنَى: أوقع بك جناية. والجاني: فاعلُها. الحلم: العقل والصَّبْر على المضرّات. ازدان: افتعل من الزَّيْن، أي تزيَّن به. اللبيب: العاقل. العفو: غفر الذنب. جَنَى: قطف الثمر. وهذان البيتان من بدائع مزدوجاته التي نبّهنا على أنها من فائق شعره، وسبقه سابق البربريّ إلى معناهما بقوله: [البسيط]

لا تُظْهِرَنَّ لذِي جهلٍ معاتبةً ... فرُبّما هَيّجت بالشيء أشياءُ

فالماء يخمد حرّ النار يُطفئها ... وليس للجهل غير الحلم إطفاءُ

تَرَى السَّفِيه له عن كلّ محلمةٍ ... زيغ، وفيه إلى التسفه إصغاءُ

وقال أبو فراس: [البسيط]

ما كنتُ مذ كنتُ إلاّ طوع إخواني ... ليست مؤاخذةُ الأخوان مِنْ شَانِي

يجني الصَّديقُ فأستحلي جنَايتَهُ ... حتى أدلّ على عفوي وإحساني

وُيتْبِع الذنب ذنباً حين يعرفُنِي ... عمداً فأتبِع غفراناً بغُفْرَانِ

يجني عليّ فأعفو صافحاً أبداً ... لا شيء أحسنُ من حانٍ على جاني

وذكر الحريري هذين البيتين والمقطوعة قبلهما، وجنّس فيهما بين لفظ القافية واللفظ قبله.

ومما جاء من ذلك وهو أضبط مما ذكر قول الشاعر: [المجتث]

قدِّم لنفسك زاداً ... وأنت مالكُ مالِكْ

من قبل أن تتفانى ... ولونُ حالِك حالكْ

ولستَ تعلم يوماً ... أيّ المسالك سَالكْ

إمّا لجنّة عدنٍ ... أو في المهالك هالكْ

وقال آخر: [الرجز]

ما لك من مالك إلاّ الذي ... قدَّمْتَ فابذُلْ طائعاً مالَكا

تقول أعمالي ولو فتّشوا ... وجدت أعمالك أعْمَى لَكَا

وقالت للمعتمد جارية له: لقد هُنَّا هنا، فقال: [الرجز]

قالت لقد هَنَّا هَنَا ... مولاي أين جاهُنَا

قلت لها إلى هنا ... صيَّرنا إلاهُنَا

* * *

فقال له الغلام: أما إنّك لَوْ ظَهَرْتَ عَلَى عَيْشِي المنْكَدِرِ، لَعَذَرْتَ في

دَمْعِي الْمُنْهَمِرِ، ولكن هَان على الأَمْلَس ما لاقَى الدَّبِر. ثمَّ كأنه نَزَع إلى الاسْتِحْيَاءِ، فَأَقْلَعَ عن الْبُكَاء، وفَاءَ إلى الارْعِوَاء، وقال للشيخ: قَدْ صِرْتَ إلى ما اشْتَهَيْتَ، فارْقَع مَا أَوْهَيْتَ، فقال: هَيْهَات شغلتْ شِعابَي جَدْوَايَ، فشِمْ بَارِقَ سِوَايَ.

ثمَّ إنَّه نَهَضَ يَسْتَقْرِي الصُّفُوفَ، وَيَسْتَجْدِي الْوُقُوفَ، ويُنْشد في ضِمْن ما هُوَ يَطُوف: [الرجز]

أُقْسِمُ بِالْبَيْتِ الْحَرَامِ الَّذِي ... تَهْوِي إليه الزُّمَرُ المحرِمَهْ
لَوْ أَنَّ عِنْدِي قُوتَ يَوْمٍ لَمَا ... مَسَّتْ يَدِي المِشْرَاط وَالمِحْجَمَهْ
ولا ارتضتْ نفسي الّتي لم تَزلْ ... تَسْمو إلى المجدِ بهذي السِّمَهْ
ولا اشْتَكيَ هَذَا الْفَتَى غِلْظَةً ... منّي ولاَ شَاكَتْهُ مِنّي حُمَهْ
لكنْ صُروفُ الدَّهْرِ غَادَرْنَنِي ... كخابطٍ في اللَّيْلَةِ الْمُظْلِمَهْ
واضْطرني الْفَقْر إلى مَوْقفٍ ... من دونِهِ خَوْضُ اللَّظَى المُضْرَمَهْ
فهل فتًى تدركهُ رقّةٌ ... عليّ أو تَعْطِفُهُ مَرْحَمَهْ!

* * *

قوله: المنكدر، أي المتغيّر والكَدْرَة ضدّ الصفاء. المنهمِر: السائل أقلع: ارتفع وزالَ. فاء: رجع. الارعواء: الاستحياء والرّجوع الحسن أوهيت: أفسدت. شِمْ: انظر يَسْتَقْرِي: يتتبع يستجدي: يطلب الجَدَا، وهو العطيّة. في ضمن: في أثناء وفي خلال تهوي: تُسْرِع المشي وتتساقط إليه. الزُّمَر: الجماعات. المحرِمة: الداخلة في الحرَم. تسمو: ترتفع المجد: الشرف. السِّمة: العلامة. غلظة: جفاء شاكته: ضربته حُمَة: شوكة العقرب التي تَلْسَع بها، والحُمة: السّمّ فسمي ما يخرج عنه السّمّ باسمه صروف: نوائب. غادرنِي: تركْنَني. خابط: ماش على جهالة. اضطرني: ألجاني. خوض اللّظَى: دخول النار. المُضْرَمة: الموقدة. رقّة: شفقة. تَعْطِفه: تلينُه. مرحمة: رحمة.

* * *

قال الحارث بن همام: فكنت أوَّلَ من أَوَى لبَلْوَاه، ورقَّ لشكواه، فنفحتُه بدرهمين، وقلت: لا كَانَا ولو كان ذامْين، فابتهج بباكُورَة جَنَاه وتَفَاءَل بهما لِغِنَاه، ولم تزل الدَّراهم تنهال عليْه، وَتَنْثَال لَدَيْه؛ حتى آل ذَا عيشةٍ خَضْرَاء، وحقِيبةٍ بَجْرَاء، فازدهاه الفرحُ عند ذلك، وهنّأ نفسَه بما هنالك، وقال للغلام: هذا رَيْعٌ

أنْتَ بَذْرُه، وحَلَبٌ لك شَطْرُه؛ فهَلُمّ لنَقْتَسِم، ولا نَحْتَشِم. فتَقَاسَمَاهُ بينهما شِقَّ الأُبْلمة، ونَهَضَا مُتَّفِقَي الكلمة ولمَّا انْتَظَم بَيْنَهُما عَقْد الاصْطِلاَح، وهَمَّ الشيخ بالرّواح، قلت له: قد تَبَوَّغَ دَمِي، ونَقَلْتُ إليك قَدَمِي، فهل لك أن تَحْجُمَنِي، وتُكَفكِفَ ما دَهَمَنِي، فصوَّب طَرْفَهُ فيّ وصعّد، ثم ازْدَلَف إليّ وأنشد.

* * *

أوى: أشفق. نَفَحْتُه: رميته ونبذته. ذامين: صاحب كذب ابتهج: فرح. باكورة: أول ما يَطيب من الشجر، فجعل الدرهمين باكورة لأنهما أول ما أخذ تفاءل: جعلهما فألا، أي لمّا كان أوّل ما حَصَل بأيديهما درهمين، استكثرهما فرَجا أن تتمشى عطايا الحاضرين على هذا المثال، وقد كررت ذِكْرَ الفأل.

[مما قيل في الطيرة والفأل الحسن]

ونذكر هنا منه فصلاً على ما أجرينا العادة في غيره.

كان ﷺ يكره الطِّيَرة ويُعْجِبه الفأل الحسن(١).

ولما قدم المدينَة نزل على رجلٍ من الأنصار، فصاح الرجل بغلمانه: يا سالم يا يسار، فقال ﷺ: «سَلِمتْ لنا الدار في يسر».

وقيلِ لرجلٍ من العرب: ما لكم تسمُّون أبناءكم بأَسماء السباع والكلاب، وتسمون مواليَكم بأسماءِ حسان، مثل عطاء ونجاح؟ فقال: لأنّا أعددنا أبناءنا لأعدائنا، وموالينا لأنفسنا.

وسأَل عمرُ رضي الله عنه رجلاً عن اسمه واسم أبيه، فقال: ظالم بن سرَّاق، قال: تظلم أنت ويسرق أَبوك!.

وجاءه رجل فقال له: ما اسمك؟ قال: جمرة، قال: ابن من؟ قال: ابن شهاب، قال: ممَّن؟ قال: من الحرَقة، قال: وأيًا تسكن؟ قال: بحرّة النار. قال: بأَيِّها؟ قال: بذات لظًى، قال: أدرِكْ أَهَلك، فقد احترقوا، فرجع فوجدهم قد احترقوا، فكان كما قال.

الفنجديهي بسنده، حدثني أحمد بن عليّ، حدثني أبو مسعود، قال: قال لي أبو داود السّنْجي: ما اسمك؟ قلت: سعد، قال: ابن من؟ قلت: ابن مسعدة، قال: أبو من؟ قلت: أبو مسعود، قال لي: مسألتك مثل أعرابي لقي آخر، فقال: ما اسمك؟ قال: فَيْض فقال: ابن من؟ قال: ابن الفرات، قال: أبو مَنْ؟ قال: أبو بحر، قال: ليس لنا أن نكلِّمك إلا في زَوْرق.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الطب باب ٤٣، وأحمد في المسند ٢/ ٣٣٢.

وقال عليّ بن الجهْم: دخلتُ يوماً على المتوكل، وهو جالس في صحن داره، وبيده غصن آسٍ، وهو يتمثل بهذا الشعر [البسيط]

بالشَّطِّ لي سَكنٌ أفديه مَنْ سَكَنِ ... أهدي من الآس لي غصنين في غُصُنِ

فقلت إذ نُظِمَا إلفيْن وانتسقا ... سقياً ورعياً لفألٍ منكما حَسَنَ

فالآسُ لا شكَّ آسٍ من تشوّقنا ... شافٍ وآسٍ تبقَى لِي عَلَى الزَّمَنِ

بشَّرْتُماني بأَسبابٍ ستجمعُنا ... إن شاء ربِّي وَمَهْمَا يَقْضِه يَكُنِ

ثم قال لي ـ وكدتُ أنشقُّ حسداً: لمن هذا الشعر يا عليّ؟ فقلت: للحسين بن الضحَّاك يا سيِّدي، فقال: هو والله عندي أشعرُهم وأحسنهُم مذهباً وأظرفهم نمطاً، فقلت: وقد زاد غيظي: في هذا النمط يا سيدي؟ قال: وفي غيره، وإنْ رغِم أنفك ومتَّ حسداً، وأردت إنشاده قصيدةً، فقلت: إني لا أنتفع بها مع ما جرى، فأَخّرتها إلى وقت آخر.

قوله: تنهال، أي تنصَبُّ متفرقة. آلَ: رجع. خضراء: ناعمة لكثرة الرَزق. حقيبة بجراء، أي وعاء ممتلىء، والأبجر: الذي خرجتْ سُرَّته ازدهاه: هزَّه وأعجبه الرّيع: الزيادة والفضل والبَذْر: ما يُزْرَع من الحبوب حَلَب: لبن شطره: نصفه. نحتشم: نستحي أو نغضب. الأبلمة: الدّومة تشق ورقتها فتخرج أبداً معتدلة. تكفكف: تدفع وتكفّ. دهمني: أصابني ازدلف: قَرُب.

* * *

[الرجز]

كَيْفَ رأيتَ خُدْعَتِي وخَتْلي ... وما جَرَى بيني وبين سَخْلِي

حتّى انثنيتُ فائزاً بالْخَصْلِ ... أرْعَى رياضَ الخِصْبِ بَعْدَ المحْلِ

بالله يا مهجة قلبي قُلْ لي ... هل أبصرتْ عيناك قطّ مثلِي

يفتَحُ بالرُّقية كُلَّ قُفْلِ ... ويَسْتَبِي بالسِّحْرِ كُلَّ عَقْلِي

ويَغْجِنْ الجِدَّ بماء الهزلِ ... إن يكن الإسكندريّ قَبْلِي

فالطَّلُّ قَدْ يَبْدُو أمام الوبْلِ ... والفضلُ للوابل لا لِلطَّلِّ

قال: فَنَبَّهَتْنِي أُرْجوزتُه عَلَيْه، وأَرتنِي أنَّه شيخُنا المشارُ إليه، فقَرّعتُه على الابْتِذال، والالتحاقِ بالأَرْذَال، فأعْرَض عَمَّا سَمِع، ولم يُبَلْ بما قُرِع، وقال: كلُّ الحِذاء يَحتْذِي الحافِي الْوَقِع. ثم قاصاني مُقَاصَة المُهَان، وانطلقَ هُوَ وابنُه كفرسَيْ رهَان.

* * *

ختلِي: مكري. سخْلِي: ولدي. الخصْل: الغَلَب في القمار، وفي مسابقة الخيل، وفي مراماة السهام. يستبي: يأخذ ويسبي، وقد تقدّم في شرح الصدر التنبيه على هذا الموضع. الطّلّ: أضعف المطر. والوبل: أشدّه قرّعته: أقلقته بكثرة اللّوم، وبأَخْذِي له بلساني. الأبْتذال: امْتهان نفسه في الصّنعة الهجينة. الأرْذَال: الأدنياء، فأراد عنَّفته ولمتُه أشدّ اللوم على حِرْفَة الحجامة، فإنّها صَنْعَةُ أرذال الناس وسِفْلَتُهم.

ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «العرب بعضُها لبعض أكفاء، قبيلة لقبيلة، وحيّ لحيّ، ورجل لرجل. والموالي أكفاء إلا حائكاً أو حجَّاماً».

وقال عليّ بن الحسين: أربعة أعمالٍ كانت في سُفْلِ بني إسرائيل، وصارت في سُفْلِ العبيد وستكون في سُفْلِ الأحرار: الحياكة، والحجامة، والدِّباغة والكناسة.

رفاعة بن موسى: سمعت الصادق يقول: ستُّ لا يُنْجبُون: الملاّح، والمكاري، والحمامي، والحجام، والبيطار، والحائك.

وممَّن شهر من الأدباء بصنعة هجينة نصر بن محمد الخابزرزيّ، كانتْ صنعتُه خَبْزَ خُبْز الأرزّ في دكانه بِمربَد البصرة، فكان ينشد أشعاره على الغزل، والنَّاس يزدحمون عليه، وأحداثُ البصرة يتنافسون في ميله إليهم.

وكان ابن لَنْكك على ارتفاع قَدْره ينتاب دكانه، فحضره يوماً وعليه ثياب بِيض فاخرة، فتأذّى بالدكان من الدخان وسوء أثره على ثيابه، فانصرف وكتب إليه: [الوافر]

لنصرٍ في فؤادي فَرْطُ حبٍّ ... يُنيف به على كلِّ الصِّحاب
أتيناه فبخَّرَنا بخوراً ... من السَّعف المدخّن بالتهاب
فقمت مبادراً وحسبتُ نصراً ... يريد بذاكَ طَرْدِي أوْ ذَهابي
وقال: متى أراكَ أبا حسينٍ؟ ... فقلت له إذا اتسخت ثيابي

فلما قُرِئت عليه أَمْلَى على مَنْ قرأها، وكتب على ظاهرها: [الوافر]

مَنَحْتُ أبا الحسين صَميمَ ودِّي ... فخاطبني بألفاظٍ عِذَابِ
أتى وثيابُه كالشيب لوناً ... فعُدْنَ له كريْعَان الشَّبابِ
وبغضي للمشيب أعدّ عندي ... سواداً لونُه لون الخِضابِ
فإن يكن المعطّر فيه فخراً ... فلِمْ يَكُنِ الوصيّ أبا ترابِ

ومن شعره: [الطويل]

خليليّ هل أبصرتُمَا أو سَمِعْتُمَا ... بأحْسَنِ مِنْ مَوْلًى تمشَّى إلى الْعَبْدِ
أتى زائراً من غير وعدٍ وقال لي: ... أصونك عن تعذيب قلبك بالوعْدِ

فما زالَ نجمُ الكأس بيني وبينه يدور بأفلاك السعادة والسَّعْدِ

وله: [البسيط]

وَرْدُ الخدود ورُمَّان النهود وأغـ ـصان القدودِ تَصِيدُ السَّادَةَ الصِّيدا

مَنْ لي إذا ما رأيت الخَصْر مختصراً والرّدف مرتدفاً والقَدَّ مقدُودا

وكان يحيى السَّرَقُسْطِيّ أديباً فرجع إلى الجزَّارين، فأَمر الحاجب بن هود أبا الفضل ابن حُميد أن يوبّخه على ذلك فكتب إليه: [الوافر]

تركتَ الشِّعْر من عدم الإصابَهْ وملتَ إلى الجزارة والقصابَهْ

فأجابه يحيى: [الوافر]

تَعِيبُ عليّ مألوفَ القِصَابَهْ ومَنْ لم يدرِ قَدْرَ الشيء عَابَهْ

ولو أحكمتَ منها بعض فنّ لما استبْدَلْتَ عنها بالحجابَهْ

وإنَّكَ لوْ طَلَعْتَ عليّ يوماً وحَوْلِي مِنْ بني كلْبٍ عصَابَهْ

لهالك ما رأيتَ وقلتَ هذا هزبرٌ صيّر الأوضام غابَهْ

فتكْنَا في بني الْعَنَزِيّ فتكاً أقرَّ الذُّعْرَ فيهم والمهابَهْ

ولم نُقْلِعْ عن الثَّوْرِيّ حتَّى مَزَجْنَا بالدَّمِ القانِي لُعَابَهْ

ومَنْ يعتزّ منهمْ بامتناعٍ فإنَّ إلى صوَارِمنَا إيابَه

ويبرز واحدٌ منّا لألْفٍ فيغلبُهم وتلك من الغرابَهْ

وحَقِّك ما تركتُ الشِّعْر حَتَّى رأيتُ البخل قد أمْضَى شِهَابَهْ

وحتَّى زُرْتُ مشتاقاً حميمي فأبْدَى لي التجهّمَ والكآبَهْ

وظنَّ زيارتي لطلاب شيء فأقصاني وأغلظ لي حجابَهْ

قوله: ولم يُبَلْ: أصله يبالي، حذفت ياؤه للجزم، فصار يبال، فلما كثر استعماله صار بمنزلة ما لم يحذف منه شيء فقدّرُوا تكريرَ الجازم عليه مرة أخرى فحذفتْ حركةُ اللام للجزم، فسكنت اللَّام، وقبلها ألف ساكنة فحذفتْ الألف لالتقاء الساكنين.

ولأبي عليّ في هذه المسألة عبارة استوحش منها أكثر العلماء، فمن مخطِّىء ومن مُصوّب، وتحقيقها غائب إلا عَنْ أهل التحقيق، وقد أوضحناها في شرحنا لكتاب الإيضاح، والإكثارُ من مسائل الإعراب في كتب الآداب مما يُسْتَبْرد ويعاب.

أَعرض، أي نحى وجهَه لجهة قاصاني: فارقني، وقال الفرّاء: كل شيء أبنته من شيء فقد قَصّيْته منه، وتقصَّى الرجل من الرجل: بان عنه، وكلُّ رجلٍ بايَنَ شيئاً فقد تقصَّى عنه. الليث رحمه الله: كلُّ شيء لازم خلّصته فقد تقصَّى، وتقصَّيْت من الديون: خرجتُ منها. فرسي رهان: هما اللذان يجريان ويُجْعل معهما جُعْل، فمن سبق أخذه.

ومما أستحسن من أبيات اللغز في هذا الباب قولهم في المشارط : [المتقارب]

وخضراء لا من بنات الهديلِ يُلَفَّف بالسَّير مِنْقَارُها
كأَنَّ مشق عيون القطا إذا هنّ هوَّمن آثارُها

آخر : [البسيط]

وكان جَدّي هراش في كتابته من أكتب الناس يا هرون بالألِف

يعني آثار التشريط تبقى كصور الألفات .

وقال آخر : [مجزوء الرمل]

يابنَ مَنْ يكتب في الأرْ قاب من غير دَوَاةِ
لم يكن يكتب فيها غير خطِّ الألِفاتِ

وقال ابن كناسة يخاطب إبراهيم بن سيابة : [المنسرح]

يابن الذي عاش غير مضطهدٍ يرحمه الله أيّما رَجُلِ
له رقاب الملوك خاضعةٌ من بين حافٍ منهمُ ومنتعلِ
أبوك أوْهى النَّجادَ كاهلُه كم من كَمِيٍّ أدمى ومن بَطَلِ
يَأخذ من مالهِ ومِنْ دَمِه لَمْ يُمسِ من ثأره على وَجَلِ
في كفِّه صارمٌ يقلِّبه يقدُّ أعناق سَادة نُبُلِ

وأخذ صاحبُ الشرطة رجلاً في ريبة، فقال: أصلحك الله: احفظ فيَّ الأبوَّة، وقال: [الكامل]

أنا الذي لا تنزل الدهرَ قِدْره وإن نزلت يوماً فسوف تعودُ
ترى الناس أفواجاً إلى ضوء ناره فمنهم قيامٌ حولَها وقُعُودُ

فأَمر بتركه، ثم أُخبر أنَّ أباه باقلانيّ، فقال: لو لم نتركه إلاّ لأدبه وحسن تخلُّصه من الكذب لكان فعلنا سداداً .

وكان بالمدينة فتًى أبوه مغنٍّ وأمُّه نائحة، فأَغضبه إنسان، فقال: أتُغضِبني وأنا ابن الطَّرب والحرَب! .

وقال ابن عباس المصري يذكر غلاماً جميلاً، والحجام يأْخذ من شعره في الحمام: [مخلع البسيط]

مزيِّنٌ انبرى لظَبْيٍ كأنه البدر في سُجُوفِهِ
كأنَّ موساه وهو لمَّا نَضَى بها الشَّعر في وقوفِهِ
كيوان في كفِّه حسام يخلِّص البدر من كسوفِهِ

ولبعضهم يمدح حجاماً: [البسيط]

إن المزين إنسانٌ صناعته تعلو الصَّنائع إذ ما مثلها صُنِعَتْ
ألا ترى أنه لا يُستراب به وآله الموت في صندوقِهِ جُمِعَتْ
يخلو مع الملك المرهوب جانبهُ فيما إليه ضرورات الأمور دعتْ
تعلو أناملُه في حين خلوته مواضعاً لو عَلَتْها غيرها قطِعت

وقال السَّري في مزين محسن: [المتقارب]

هل الحِذْقُ إلا لعبد الكريم حَوَى فضلُه حادثاً عن قديمِ
إذا لمع البرق في كَفِّه أفاض على الرأس ماءَ النَّعِيمِ
جهولُ الْحُسامِ ولكنَّهُ يروح ويَغْدُو بكَفَّيْ عَلِيمِ
له راحةٌ سيرها راحةٌ تمرّ على الرأس مرَّ النسيمِ
نعمْنَا بخدمتهِ مُذ نشا فنحن به في نعيمٍ مقيمِ

وله في طبيب: [السريع]

أوضح نهج الطبّ في معشر ما زال فيهم دارس الرَّسْمِ
كأنّه من لُطْف أفكاره يجول بين الدَّمِ واللَّحْمِ
إن غضبت روحٌ على جسمها ألّف بَيْنَ الرُّوح والجسمِ

وفي ضده لأبي نصر كشاجم: [المجتث]

عيسى الطبيب تَرَفَّقْ فأنت طوفان نوحِ
يأبى علاجك إلا فراق جسمي وروحِي
شتان ما بين عيسى وبين عيسى المسيح
فذاك محيي مماتٍ وذا مميت الصحيح

وللخوارزمي: [السريع]

أبو سعيد راحل للكرام ومنسف ينسف عمر الأنامْ
لم أره إلا خشِيتُ الردى وقلت: يا روحي عليك السلامْ
يبقى ويفنى الناس من شؤمه قوموا انظروا كيف نحاة اللئامْ
ثم تراه آمناً سالماً يا ملك الموت إلى كم تنامْ

وللسَّرِيّ: [الكامل]

هل للعليل سِوَى ابن قُرَّة شاف بعد الإله وهل له من كافِ
فكأَنه عيسى ابن مريم ناطقاً يهب الحياة بأَيْسَرِ الأوْصَافِ

مثلت له قارورتي فرأى بها ... ما اكتنَّ بين جوانحي وشغافِي
يبدو له الدواء الحفيُّ كما بدَا ... للعين رضراض الغدير الصافي

وكثرةُ الكلام وَقْفٌ على أهل الحجامة، ولذلك صَرَفَ الحريريُّ بين الشيخ وابنه ما تقدَّم في هذه المقامة. وكان الفقيه الأعمش أكثَرَ الناس تبرُّماً إن أعاد أحد عليه سؤالاً انتهره، وأخطأ يوماً على قوم، فقالت لهم امرأته من وراء الستر: احملوا عنه فوالله ما يمنعه من الحج منذ ثلاثين سنة إلا مخافة أن يظلم كريّه أو يشتم رفيقَه، وكثر عليه الشَّعر فقال له تلامذته: لو أخذت من شَعْرك؟ فقال: لا نجد حجاماً يسْكُت، قالوا له: نأْتيك به، ونأخذ عليه أن يسكُت حتى يفرغ، قال: افعلوا. فأُتِيَ بحجام ووُصِّيَ ألا يكلمه، فبدأ بحلقه، فلما أمعن سأله في مسألة فنفض ثيابه، وقام بنصف رأسه محلوقاً، حتى دخل بيته، فأُخرِج الحجَّام، وأُتِيَ بغيره، فقال: والله لا أخرج إليه حتى توصُّوه، وتحلِّفوه، فحلف ألاَّ يسأله في شيء، وحينئذ خرج إليه.

ومقامة الحجام في البديعية، منها قال عيسى بن هشام: فطلبت حجاماً فجاؤوا برجل نظيف، ظريف لطيف، فارتحت إليه، وسلَّمت عليه، فقال لي: السلام عليك، مِنْ أيِّ بلد أنت؟ فقلت: من مصر، فقال لي: حيَّاكَ الله، من أرض النعمة والرفاهة، وبلد السنة والجماعة، ولقد حضرت في رمضان جامعها، وقد اشتعلت المصابيح، وأقيمت التراويح، فما شعرنا إلا بمدِّ النيل، قد أتى على تلك القناديل، ولكن صنع الله لي بخف، كنت لبسته رطباً فلم يحصل طرازه على كمّه، وَعاد الصبيُّ إلى أمِّه، بعد أنْ صلَّيت العتمة، واعتدل الظلُّ، ولكن كيف كان حجُّك، هل قضيت مناسكه كما وجب، وصاح الصبيان: العجب العجب، فنظرت إلى المنارة، وما أهون الحرب عند النَّظَّارة ووجدت الهريسة على حالها، فعلمت أنَّ الأمر بقضاء من الله وقدر، وإلى متى هذا الضجر، واليوم وغد، والسبت والأحد، ولم أكثر وأطِيل، وما أكثر القال والقيل، وإن أردت أن تعلم المبرِّد حديد الموسَى في النَّحو فلا تشتغل بقول العامة، فلو كانت الاستطاعة قبل الفعل لحلقت رأسك، فهل ترى يا سيدي أن ابتدىء؟.

قال عيسى: فبقيت والله متعجِّباً من هَذَيانه، وسأَلت عنه فإذا هو أبو الفتح قد غلب السَّواد عليه، فتركته وانصرفت فهذه غرارة حجام على الحقيقة.

قال الشيخ الإمام الرئيس أبو محمد القاسم بن علي رضي الله عنه:

قد أوْدَعْتُ هذه المقامةَ بضعةَ عشرَ مثلاً من أمثال العرب، وها أنا أفسِّر منْها ما إخاله يلْتَبِس، على مَنْ يقتبس.

أما قوله: بُطْءُ فِعْد، فهو مولَى عائشة بنت سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وكانت بعثته بالمدينة ليقتبس لها ناراً، فقصد من فَوْره مصر، وأقام بها سنة، ثم جاءها بعد السَّنة وهو يشتدّ ومعه جَمْر، فتبدّدَ منه فقال: تَعِسَت الْعَجَلة!.

وأمّا ذات النّحيين فهي امرأة من تَيمْ الله بن ثعلبة، حضرت سوق عُكَاظ ومعها نِحْيَا سمنٍ، فاستخْلَى بها خَوَّات بن جُبَيْرٍ الأنصاري ليبتاعهما منها، ففتح أحدَهما وذاقه ودفعه إليها، فأخذته بإحدى يديها، ثم فتح الآخر وذاقه ودفعه إليها، فأمْسَكَتْه بيدها الأخرى ثم غَشِيَها، وهي لا تقدر على الدَّفْع عن نَفْسها لحفظها فَمَ النّحيين وشُحِّها على السمن. فلما قام عنها قالت له: لا هَنأَك، فضُرِب بها المثل فيمن شُغِل، وهي في هذا المثل مفعولة، لأنها شُغِلت. وأكثر الأفعال التي على أفعل تأتي من فعل الفاعل.

وأما قولُه: أَنْفٌ في السَّماء واسْتٌ في الماء، فيُضْرَب هذا المثل لمن يكبُر مقالا، ويَصْغُر فَعالاً.

وأما قوله: أفْرَغُ من حجّام ساباط، فَذُكِر أنَّهُ كان حَجّاماً ملازماً ساباط المدائن يحجمُ الجنديّ بدانقٍ نسيئةً، وربّما مَرَّتْ عليه بُرْهة لا يقربه فيها أحدٌ فكان يُبْرِزُ أمّه عند تمادي عُطْلَتِه، فيحجمها لكيلا يقرَّع بالبطالَة، فما زال يحجُمها حتى نَزِف دمُها وماتت.

وأما قوله: يشكو إلى غير مصمت، فهو مثل يضرب لمن لا يكترث بشأن صاحبه، ولا يعبأ باستمرار شكايته، لأنه لو أشْكاه لصَمتَ. وأمسك عن الكلام، ومنه قول الراجز يخاطب جملا له: [الرجز]

إنّك لا تشكو إلى مُصَمِّتِ[1]
فاصبر على الحمل الثقيل أو مُتِ

ونحو هذا المثل: هانَ على الأَملس ما لاقى الدَّبر.

وأمّا قوله: شغلت شِعابي جَدْوَاي، فالمراد به أنه ليس يفضل عنّي ما أصرِفُه إلى غيري. والشِّعاب: هي النَّواحي، واحدها شِعْب.

وقوله: كلّ الحذاء يحتذي الحافي الوقع، معناه أن المجهود يقنع بما يجد، والواقع أن تصيب الحجارةُ القدم فُتوهنها. فأما البعير الموقَّع فهو الذي يَكْثُر آثار الدَبر بِظَهْره.

---

(١) الرجز بلا نسبة في لسان العرب (صمت)، وأساس البلاغة (صمت)، تاج العروس (صمت)، وجمهرة اللغة ص ٤٠٠.

المقامة الثامنة والأربعُون

وَتعرف بالحراميّة

روى الحارث بن همام عن أبي زيد السَّرُوجيّ قال: ما زِلتُ مذ رَحَلْتُ عَنْسِي، وارتحلْت عن عِرْسي وغرْسي، أحِنّ إلى عِيانِ الْبَصْرة، حَنِين المظلوم إلى النُّصْرة، لِمَا أجْمَع عليه أربابُ الدِّراية، وأصْحَاب الرّواية؛ من خصائص معالِمِها، وعلمائها، ومآثر مشاهِدِها وشُهدَائها، وأسألُ الله أن يُوطِئَني ثرَاها، لأفُوزَ بِمَرَاها، وأن يُمْطِيَنِي قَرَاها، لأفترِيَ قُرَاها. فلمَّا أحَلَّنيها الحظّ، وسَرَحَ لي فيها اللّحْظ، رأيتُ بِهَا ما يملأ الْعَيْنَ قُرّةً، ويُسْلِي عن الأوطان كُلَّ غَرِيبٍ، فغلَّسْتُ في بعض الأيام، حين نَصَل خِضابُ الظَّلام، وهتف أبو المنذِر بالنُّوَّام لأخْطُوَ في خِطَطِها، وأقْضِيَ الْوَطَرَ من توسُّطِها، فأدَّانِي الاختراق في مَسَالِكِها، والانْصِلاَت في سِككِها، إلى مَحِلَّةٍ مَوْسُومَة بالاحْتِرَام، منسوبةٍ إلى بني حَرَام، ذاتِ مساجِدَ مشهودة، وحياضٍ مَورُودَة، ومَبَانٍ وثيقة، ومغانٍ أنيقة، وخصائصَ أثيرة، ومزايا كثيرة.

* * *

رَحَلْت، أي شددتُ عليها الرَّحْل، والرّحْلُ: سَرْج النّاقة، والْعَنْس: الناقة القوية، شُبّهت بالعنس وهي الصَّخرة لصلابتها، قال الليث: إذا تمّ سنُّ الناقة، واشتدّت قوّتُها وصَلُبَتْ عِظَامها وأعضاؤها فهي عَنس. عِرْسي: زَوجْتي غَرْسِي: أوْلاَدِي. أحِنُّ: اشتاق. عِيان: معاينة ومشاهدة. خصائص: ما يختصّ به من الفضائل. معالمها: مواضعها المشهورة. والمآثِر: الفضائل والمكارم، والمأثُرَة: الْفَضِيلة يخصّ بها. مشاهدها: مواضع اجتماع أهلها يوطِئَني ثَراها: يجعَلني أطؤها وأمشي عليها، وأوطأه الشيء: أمكنه من أن يطأه. الثرى: التّراب النديّ. ومرآها: منظرها. يُمْطِيَنِي قَراها: يُرْكِبني ظهرها. اقترِي: أتَتَبّع. أحلَّنيها: أنزلنيها. الحظّ: السعد. اللَّحظ: العين قُرة: سُرُور. يسلِي: يُشْغل. غلَّسْت: خَرَجْتُ في الغَلَس، وهي ظلمة آخر الِليل. نَصَل: زال. هَتف: صاح. أبو المنذر: كُنية الديك، ويكنى أبا سليمان. أبو هريرة: إنّ النبيّ ﷺ قال: «لا تسبُّوا الديك فإنّه يوقظ للصلاة».

أبو هريرة أنّ النبيّ ﷺ قال: «إذا سمعتم الدِّيكة تصيح فإنها رأتْ ملَكاً فاسألوا الله من فضله، وإذا سمعتم نهيق الحمير، فإنها رأت شيطاناً فاستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم»(١).

قال ﷺ: «الديك الأبيض صديقي وإنه يحرس دار صاحبِه وسبع دور وكأنّ مستمعه في البيت».

وقال ابن المعتز ويصف ديكاً: [المنسرح]

بشّر بالصبح طائر هَتَفَا ... هاج من اللَّيل بعد ما انْتَصَفا
مذكِّرٌ بالصباح صاح بنا ... كخاطبٍ فوق مَنْبَرٍ وقفا
صفق إمّا ارتياحه لسنا الفـ ... ـجر وإما على الدّجا أسَفَا

وله: [المنسرح]

وصاح فوق الجدار مشترفاً ... كمثل طرف علاه أسوارُ
ثم غدا يسأل الفرات عن الـ ... ـأرزاق منه ثغر ومِنْقَارُ
رافع رأسه طوراً وخافضهُ ... كأنّما العُرْف منه مِنْشَارُ

وقال الأسعد بن بليط: [البسيط]

وقامَ بها ينْعَى الدُّجى ذو شقشقةٍ ... يدير الينا بين أجفانه سقطا
إذا صاح أصغى سمعهُ لأذانه ... وبادر ضرباً من قوادمه الإبطا
ومهما اطمأنت نفسه قام صارخاً ... على خيرازنٍ نيط من صُفْرَه خِرَطا
كأن أنو شروان أعلاه تاجَهُ ... وناطت عليه كفُّ مارية القرطَا
سَبَى حُلّة الطاوس حسن لباسِه ... ولم يكفه حتى سَبى مشية البطَا

قوله: أخطو، أي أمشي. خططها: طرقها. الوطر: الحاجة. توسّطها: المشيُ في وسطها. أدّاني: أوصلني. الاختراق: المشي، واخترقت البلدة، إذا قطعت أرضَها بالمشي. والاختراق: المرور والسلوك. والمسالك: الطرق والانصلات: الخروج بسرعة من زُقَاقٍ إلى آخر، وانصلت السيف: خرج بسرعة. سككها: أزقتها الواحدة سِكّة، وسمِّيت سِكّة لاصطفاف الدور فيها، ويقال للطريق المستوية المصطفة من النَّخل: سِكّة. محِلَّة: منزلة. موسومة: مُعْلَمة. الاحترام: الامتناع. حياض: جَمْع حَوْض. موردة: مقصودة للشُرْب. مغانٍ: منازل. أنيقَة: مُعْجبة حَسَنة. أثيرة: منتشرة لكثرتها مزايا: جمع مزيَّة وهي الفَضِيلةَ يختصّ بها الشيء: [الوافر]

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق باب ١٥، ومسلم في الذكر حديث ٨٢، والترمذي في الدعوات باب ٥٦، وأحمد في المسند ٢/٣٠٦، ٣٢١، ٣٦٤.

بِهَا ما شِئتَ مِنْ دينٍ ودُنْيَا — وجيرانٍ تنافَوْا في المعاني
فمشغوفٌ بآياتِ المثانِي — ومَفْتونٌ بِرَنَّاتِ الْمَثَانِي
ومضطلعٌ بتلخيصِ المعانِي — ومطَّلعٌ إلى تَلْخِيص عانِي
وكم من قارِىءٍ فيهَا وقارِ — أَضَرَّا بالجُفُون وبالجِفَانِ
وكَمْ من مَعْلَمٍ للعلم فيهَا — ونادٍ للنَّدَى حُلْوِ المجانِي
ومغْنًى لا تزالُ تُغَنُّ فيهِ — أَغَاريدُ الْغَوانِي والأَغَانِي
فصِلْ إنْ شِئْتَ فيها تَصِلْ — وإمَّا شئتَ فاذن من الدِّنانِ
ودونَك صُحْبَةَ الأكْياسِ فيها — أو الكاساتِ منطلِقَ الْعِنَانِ

* * *

تنافَوْا: تباعَدُوا. مشغوف: مولع شديد الحبّ. المثاني: أمّ القرآن، وقيل السَّبْع الطوال من أوّل القرآن. ورنات: أصوات. المثاني: أوتار عود الغناء. مضطلع: قويّ التلخيص: تهذيب الشيء وتخليص فوائده، وكأنه مقلوب التّخليص. وتخليص عان: افتكاك أسير. قارىء: عابد مكثِر لقراءة القرآن، قار: مطعم للضيف. الجفون: العيون. الجفان: صحاف الطَّعام، يريد أن هذا أضرّ بجفونه بكثرة النّظر في الورق قارئاً ما فيها وهذا بجفَانه لإطعام ما فيها. مغنى: منزل. تغنُّ: تصوّت. أغاريد: أصوات. الغواني: جمع غانية، وهي المرأة الجميلة. الأغاني: جمع أغنيّة، وهي ما يتغنَّى به. الدّنان: خوابي الخمر. دونك، أي الزم. الأكياس: أهل الفِطْنة والتدبير. منطلق العنان: مسيب مسرّح.

* * *

قال: فبينما أنا أَنفضُ طُرَقَها، وأستشِفّ رَوْنَقَها؛ إذْ لمحتُ عند دُلُوك بَرَاحِ، وإظلالِ الرَّواح، مسجداً مشتهِراً بطرائِفه، مُزْدَهِراً بطوائِفه، وقَدْ أَجْرَى أهلُه ذكرَ حُروف الْبَدَل، وجَرَوْا في حَلْبَةِ الْجَدَل، فعُجْتُ نحوهم، لأَسْتَمْطِر نَوْءَهم، لا لأقتبسَ نَحْوَهم، فلم يَكُ إلاّ كَقَبْسهِ الْعَجْلاَن، حتَّى ارتفَعَتِ الأَصْواتُ بالأَذَان، ثم رَدِف التأذينَ بروزُ الإمام، فأُغْمِدَتْ ظُبَى الكلام، وحُلَّت الحُبَى للقيام، وشُغِلْنَا بالقنوت، عن اسْتِمْدَاد الْقُوت، وبالسُّجود، عن استنزالِ الْجُود ولمَّا قُضِيَ الْفَرْض، وكَادَ الْجَمْعُ يَنْفَضّ، انبرَىَ من الجماعة، كهْلٌ حُلْوُ الْبَرَاعة، له مع السَّمْتِ الْحَسَن، ذلاقةُ اللَّسَن، وفَصَاحةُ الحسن. وقال: يا جيرتي، الذين اصْطَفَيْتُهُمْ على أغصان شَجرَتي، وجَعلتُ خِطَّتَهم دَارَ هِجْرَتِي، واتَّخَذْتُهم كَرِشِي وعَيْبَتِي،

وأَعْدَدْتُهُمْ لمحضَرِي وغيْبَتي، أما تعلمون أنَّ لَبوس الصِّدق أبهى الملابس الفاخرة، وأنَّ فُضوح الدنيا أهونَ من فضُوح الآخرة، وأنّ الدِّين إمحاضُ النّصيحة، والإرشادَ عُنوان العقيدة الصحيحة، وأن المستشار مؤتمن، والمسترشِد بالنُّصح قَمِن.

* * *

انفضُ طرقَها، أي أمشي بها وحدي، يقال: جاء فلان ينفضُ الطَّريق إذا جاء وحده وقالت الجهنيّة: **[الكامل]**

يـرد الـمـيـاه حـضـيـرةً ونـفـيـضـةً ... وِرْدَ الْـقـطـاة إذا اسـمـألّ الـتُّـبّـعُ[1]

الحضيرة: الذي يحضر معه غيرُه، وجمعه الحضائر. والتّبّع: الظلّ واسْمَألّ: نقص، ويقال أيضاً: نفضَ المكانَ واستنفضه، إذا نظر جميعَ ما فيه حتى يعرفه. استشف: استقْصَى النظر. رونقها: حسنها، لمحت: نظرت. دُلُوك بَرَاح: زوال الشمس، وَبَراح من أسمائها مبني على الكسر. عبد الله بن مسعود دلُوكها: غروبها. أبو عُبيدة: دلوك الشمس زوالُها وميْلُها، وهو قول ابن عباس الأزهريّ هذا القول أصحّ عندي، وقيل: دُلُوكها، من زوالها إلى غروبها.

ويدلّك هذا الوصفُ على أنّ البصرة من نهاية العظم والكِبَر على جانب عظيم، لأنه زعم أنّه خرج في الغلَس، وبقيَ يمشي في أزقّتها إلى الظهر. ويقال إنها في آخر الدولة الأمويَّة كسرَتْ فوجد في طولها فرسخان، وفي عَرْضها فرسخ وخمسة أسداس فرسخ.

قوله: إظلال، أي دنوّ وقُرْب. طرائفه: عجائبه وغرائبه. مزدهراً: مضيئاً بحلَق الفضلاء والعلماء. طوائفه: جماعاته، وحروف الإبدال يجمعها طال يوم أنجدته. والحَلْبة: جماعة الخيل في الطَّلَق تُجرَى ليُختبر عتيقُها من هَجِنها الجدل: الخصام. عجت: ملت. أستمطر نوءَهم: أطلب معروفَهم، والنَّوءُ طلوع نجم من المنَازل وسقوط آخر يقابله. أقتبس: آخذ، وقبسةَ العجلان أَخْذَه القبس، وهو شعلة من نار يقتبسها من مُعْظَم النار. رَدِف: تبع وجاء بعده قال تعالى: ﴿رَدِفَ لَكُمْ﴾ [النمل: ٧٢]، أي جاء بعدكم، وأردفت الرجل جئت بعدَه ابن الأعرابي: ردفت الرجل وأردفته ولحقته وألحقته بمعنًى واحد. القُنُوت: الطاعة، وهو أيضاً طول القيام في

(١) البيت لسعدى الجهنية في لسان العرب (حضر)، (نفض)، (تبع)، (سمأل)، وتهذيب اللغة ٢/ ٤٨٣، ٤/ ٢٠٢، ١٢/ ٤٥، ٤٥٥، ولسلمى الجهنية في التنبيه والإيضاح ٢/ ١٠٨، وجمهرة اللغة ص ٢٥٤، ٥١٥، ٩٠٨، وللفرزدق في كتاب العين ٢/ ٧٩، وليس في ديوانه، وللهذلي في المخصص ٩/ ٥٥، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ١٠٨٩، ومقاييس اللغة ١/ ٣٦٣، ٢/ ٧٦، ٥/ ٤٦٢، وكتاب العين ٧/ ٤٧.

الصلاة. ابن الأنباري: القنوت أربعة أقسام: الصّلاة وطول القيام وإقامة الطاعة والسكوت. استمداد: طلب أن يمدّوه بالقُوت وهو الاستنزال. ينفض: يتفرق. انبرى: ظَهَر وقام بسرعة. كهل: تامّ الخلْق. السَّمْت: الوقار. ذلاقة: حدّه. اللَّسَن: حدّة اللسان، وتقدم الحسن في الأربعين. اصطفيتهم: اخترتهم. أغصان شجرتي: بني عمّي وقَرابتي وأولادي. خُطَّتهم: بلدتهم، والمهاجِر عند العرب: المستقبل من البادية إلى الحاضرة. ودار هجرتي: موضع سكناي الذي هاجرتُ إليه. كَرِشي: أهلي عيبتي: خاصّتي الذين أنفرد بهم. وعيْبة الرجل: موضع سرّه. وكَرِشه: عياله والعيبة: وعاء يجعل فيه المتاع، والكرش مثلها، والكرِش الجماعة من النّاس، والكرش أيضاً لكل مجترّ من البهائم بمنزلة المعدة من الإنسان، فساق الكرشَ والعيبة على جهة المثل وإنهم موضع سرّه، وقال ﷺ: «الأنصار كرِشي وعيبتي»(١)، قيل: موضع سرّي، وقيل مدادي لأنّ ذات الكرش تستمد من كَرِشها الفضوح والفضيحة: الشّهرة. إمحاض: إخلاص. الإرشاد: الهداية. عنوان العقيدة: دليل البواطن والمعتقدات. والمستشار: الذي تستشيره في رأيك. مؤتمن: قد أمن على الأسرار والنفوس، لا يخون فيها، وقال ﷺ: «ما ندم مَنِ استشار، ولا شقيَ مَن استخار» وقال بشار: **[الطويل]**

إذَا بلَغ الرأيُ المشورةَ فاستعنْ	بـرأي نـصيـحِ أو مـشـورةِ حـازِم
ولا تجعل الشُّورى عليك غضاضةً	فـإنّ الـخـوافـي رافـداتُ الـقـوادِم
وما خير كَفٍّ أمسك الغلّ أختهَا	ومـا خيـر سيـفٍ لـم يـؤيَّدْ بـقـائـم
وخلّ الهوينَى للضعيف ولا تكُنْ	نَـؤُومـاً فـإنّ الـدهـرَ لـيـس بـنـائِـم
وحـارب إذا لـم تُـعْـطَ إلاّ ظُـلاَمـةً	شَبَا الحرب خيرٌ من قبول المظالم

وهي قصيدة طويلة، قالها في إبراهيم بن عبد الله، فلمّا قُتِل صرفها إلى المنصور في أبي مسلم، وكان بشّار يقول: المشاور على إحدى الحسنيين: صواب يفوز بثمرته، وخطأ يشارَك في مكروهه وقال الله تعالى لرسوله ﷺ: **﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾** [آل عمران: ١٥٩]، لما في ذلك من الائتلاف، وهو أغنى الناس عن المشورة وقال ابن المعتز: **[الوافر]**

تـجـاوز عـن إسـاءة كـل دَهْـرِ	وصـاحـب يـوم حـادثـةٍ بـصَـبْـرِ
وإن نـابـتـك نـائـبـةٌ فـشـاور	فـكـم حـمِـد الـمـشـاورُ غِـبَّ أمـرِ
وقـسِّـم هـمّ نـفـسك فـي نـفـوسٍ	ولا تـنـفـردَنْ بـطـول فِـكْـر

(١) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار باب ١١، ومسلم في فضائل الصحابة حديث ١٧٦، والترمذي في المناقب باب ٦٥، وأحمد في المسند ٣/ ١٥٦، ١٧٦، ١٨٨، ٢٠١، ٢٤٦، ٢٧٢.

إذا كـظَّ الـفـرات بـمـاء مـدّ أغـصّ بـه حـلاقِـمَ كـلِّ نـهْـرِ

قال عيسى بن عليّ: ما زال المنصور يشاور في أمرِه، حتى قال فيه ابنُ هَرْمة: [الطويل]

إذا ما أراد الأمر ناجَى ضميرَه فناجى ضميراً غير مختلف العقْلِ
ولم يترك الأدنين في كلّ أمره إذا اختلفت بالأضعفيْن قُوَى الحبْلِ

وأنشد الجاحظ: [الرمل]

لَيْت هِنْداً أنجزتنا ما تَعِدْ وشفت أنفسَنا ممَّا تَجِدْ[1]
واستبدّتَ مرّة واحدةً إنَّما العاجزُ مَنْ لا يستبدْ

ثم قال: ولا أعلم الموصوفَ بالاستبداد إلا مجهَّلا مذموماً، والمثل السائر على الأفواه: [الطويل]

وما العجزُ إلا أن تشاور عاجزاً وما العزم إلاّ أن تهمَّ وتفْعَلاَ

وقال سعد بن ناشب: [الطويل]

إذا همّ أَلْقَى بين عَيْنَيْه عَزْمَهُ ونكّبُ عن ذِكْرِ العواقبَ جانبَا[2]
ولم يستشر في رأيه غير نفسِه ولم يرض إلا قائم السَّيْفِ صَاحِبَا

وقال ابن رشيق في أدب قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]: [الطويل]

أشاور أقواماً لآخذ رأيهُم فليوُون عنّي أعيناً وخُدُودَا
وليس برأيي حاجة غَيْرَ أنّني أؤنّسه كيْ لا يكون وَحيدَا
ولا أنا ممن يبعث السَّهمْ رَامياً إلى غرض حتى يكون سديدَا
فلا يتَّهِمْ عقلي الرّجال فإنني أعرّفهم أنّي خُلِقْتُ وَدودا

وأنشد الحريري بيتي بشار في درّة الغواص على أن قول الخواص مشْوَرَة بوزن مفعلة خطأ وإنما هي مَشُورة بوزن مَعُونة ومَثُوبة مثل مكرمة من الصّحيح، فنُقِلت حركة الواو إلى ما قبلها فسكنتْ، واختلف في اشتقاقها فقيل: هو من شُرْتُ العسل أشُوره إذا جنيتَه، فكأن المستشير يجني الرأي من المشير، وقيل من شُرْت الدابّة إذا أجريتَها مقبلة ومدبرة لتختبرها، والاشتقاقان متقاربان. المسترشد: السّائل أن يُرشَدَ. قمِن: حَقِيق.

* * *

(١) البيتان لعمر بن أبي ربيعة في ديوانه ص ٣٠.
(٢) البيتان في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ٦٩.

وأنّ أخاك هُوَ الّذِي عَذَلكَ، لا الّذِي عَذَرك، وصديقَك مَنْ صَدّقَكَ، لا مَنْ صَدّقَك، فقال له الحاضرون: أيُها الخِلُّ الودُود، والخِدْنُ المَوْدُود، مَا سِرُّ كلامِك المُلْغز، ومَا شرحُ خطابك الموجَز؟ وما الّذي نبغيه منّا ليُنْجَز، فوالّذي حبانَا بمحبّتِك، وجَعَلَنا من صَفوةِ أحبّتِك، مَا نَأْلُوك نُصْحاً، وَلاَ نَدَّخِر عنك نَضْحاً، فقال: جُزيتُم خيراً، ووُقيتم ضيراً، فإنّكُمْ مِمَّنْ لا يَشْقَى بِهِمْ جليس، وَلاَ يصْدرُ عَنْهُمْ تَلْبِيس، ولاَ يخيَّب فيهم مَظْنُون، ولا يُطْوَى دونَهُمْ مَكْنُون، وسأبُثّكُمْ ما حاكَ في صَدْرِي، وأَسْتَفْتِيكم فِيمَا عِيلَ فِيهِ صَبْرِي.

* * *

عَذَلك: لاَمَك. صَدَقك: قال الصدق، كأنه أراد أن الصديق إنما سُمِّيَ صَدِيقاً لصدقه لصاحبه، يريد أنّ أخاك هو الذي يلومك ويقبِّح لك سوءَ فعلك ومَنْ حسَّن عذرك في ذلك، فليس بصديقٍ ولا أخٍ، مثل ما حَكَى الأصمعيّ، قال: سمعتُ أعرابياً يقول لأخٍ له: اعلم أنّ الناصح لك المشفِق عليك، مَنْ طالع لك ما وراء العواقب برويّته ونظره، ومثَّل لك الأحوال المخوفة، وخلَط لك الوعْر بالسّهل من كلامه ومشورته، ليكون خوفُك كفاءَ رجائك، وشكرك إزاء النعمة عليك، وأنّ الغاشّ لهواك والحاطب عليك من مَدّلك في الاغترار، ووطّأ لك مهاد الظلم، تابعاً لمرضاتك منقاداً لهواك، وقال الشاعر فيمن لا يقبل النصح: **[المتقارب]**

إذا ما هديت امرأً مخطئاً ... أضل السّبيلَ إلى قَصْدِهِ

فلم تلفِه سامعاً قابلاً ... فحس له المشيَ في ضِدّه

الْخِلّ: الخليل. الودود: الصاحب الكثير الودّ: الخدن المودود: الصديق لمحبوب. الملغَز: المبهم الخفيّ الموجَز: المختصر. تبغيه: تطلبه ليُنْجز: ليفعل في الحين. حبانا: اختصّنا صفوة: خيار. نألوك نصحاً: نقصّر في نصيحتك ندخر: نرفع ونخبأ نضحاً: عطية ندفعها لك، مأخوذ من النّضح وهو الشرب القليل دون الريّ. والنَّضح أيضاً: الرشّ بالماء. وقيتُم ضيراً: كفيتم الضَر يَصْدر: يرجع. تَلْبيس: التباس وتخليط. لا يخيّب فيهم مظنون، أي ما ظن فيهم من النّصح والمعاونة موجودة فيهم غير مفقودة. مكنون: مستور يُطْوى: يُحجَب ويستتر. أبثّكم: أنشر لكم وأظهر. حاك في صدري: أثّر فيه واحتكّ به. عيل: غلب وعالني الشيء عَوْلاً: غلبني وثَقُلَ عليّ.

* * *

اعلموا أنّي كنتُ عِنْد صُلود الزّنْد، وصدود الْجَدّ، أخصلتُ مع اللَّهِ نيَّة الْعَقْد، وأعطيتُه صَفْقَةَ الْعَهْد، على ألاّ أسبأ مُداماً، ولا أُعَاقِر نَدَامَى. ولا أَحْتَسِي

قَهْوَة، ولاَ أكْتَسِي نَشْوَة، فسوّلتْ لي النَّفْسُ المُضِلّة، والشَّهْوة المذِلَّة المُزلَّة، أنْ نادمْتُ الأَبْطالَ، وعَاطَيْتُ الأَوْطَال، وأَضعْتُ الوَقار، وارْتَضَعْتُ العُقَار، وامْتَطَيْتُ مَطَا الْكُمَيت، وتَنَاسَيْتُ التَّوْبَة تناسِيَ الْمَيْتِ، ثم لمْ أَقْنَعْ بِهَا تِيكُمُ المَرَّة، في طاعة أبي مُرّة، حتى عكفتُ على الْخَنْدَرِيس، في يوم الخميس، وبِتُّ صَرِيع الصَّهْبَاء، في اللّيلة الغرّاء، وهَا أَنَا بادِي الْكَآبة، لِرَفْضِ الإنَابة، نامِي النَّدَامَة، لِوَصْلِ المُدَامة، شديدُ الإشْفاق، من نقضِ الميثاق، معترفٌ بالإِسْرَاف، في عَبِّ السُّلاَف: **[الطويل]**

فـيـا قـوْمِ هـل كـفّـارةٌ تـعـرِفُـونَـهـا ... تُـبـاعِـدُ مِـنْ ذَنْـبِـي وتُـدْنِـي إلَـى رَبِّـي

* * *

قوله: صُلُود الزّند، هو ألاّ يسمح بالنّار صُدود الجَدّ: إعراض السعد، يريد الأيام التي كنت فيها فقيراً. والعَقْد، كانت العرب إذا عاهد الرجل صاحبَه عَقَد أصابعه، ثم صارت المعاهدة باللسان تسمّى عقْداً، وكان أحدُهم يربطُ رَسَن بعيره بخباء مَنْ يستجير به أو يرسل حَبْلَه في البئر مع حبله، فيشبكه به، وكان هذا كله عندهم عَقْداً لا يسلِّم المستجارُ به المستجيرُ إلا لما يسلم ولَده، وقال حبيب: **[البسيط]**

بلَى لقد سلفت في جاهليتهمْ ... للحق ليس كحقي حرمة عَجَبُ

أن يعلق الدَّلو بالدّلو الغريبة أوْ ... يلامس الطنبَ المستحصدَ الطُّنُبُ

الصَّفقة: ضربة يد المشتري على يد البائع. أسبأ: أشتري. مُداماً: خمراً. أكْتَسِي نَشْوة: أُظهر سَكْرة. سوّلت: زيّنت وحسّنت. المضِلّة: المحيّرة. الأبطال: فرسان الخلاعة للسنّ. الأرطال: وهي أربعة، وقال في ذلك: **[مجزوء الوافر]**

سـألـتُ أخـي أبَـا عـيـسـى ... وجـبـريـل لـه فَـضْـلُ

فـقـلـتُ: الـخـمـرُ تُـعـجـبـنِـي ... فـقـال كـثـيـرُهـا قَـتْـلُ

فـقـلـت لـه فـقـدِّرْ لِـي ... فـقـال وقـولـه فَـصْـلُ

وجـدت طـبـائـع الإنـسـا ... ن أربـعـةً هـي الأصْـلُ

فـأربـعـة لأربـعـة ... لـكـلٍّ طـبـيـعـةٍ رطـلُ

يذكر هذا الرجل أنه تاب من شرب المسكر، وعاهد الله، ألاّ يشرب خمراً، ثم ارتدّ ورجع لخلاعته.

ومثل حالته هذه حالة أبي محمد البصريّ، كان تاب وحجّ، فلما قَفَل راجعاً بدا له في شرب الخمر، فقال: **[الوافر]**

ألا يا هِنْدُ قد قضَّيت حجِّي فهاتِ شرابَكِ الْعَطِرَ العجيبَا
فقد ذهبتْ ذنوبي بالليالي فقومِي الآن نَقْتِرَفُ الذّنُوبَا
خَلَطْنا ماء زمزم فِي حَشانا بماء المزْنِ فامتزجَا قريبَا

وكان أبو القاسم المغربي قد نسك زماناً، ولبس الصُّوف وترهّب وحجّ، فعشق غلاماً تركيًّا وهام به، وتقلَّد الوزارة ببغداد وغيرها، وانتهى في الجاه إلى الغاية وتملّك الأحرار، واشترى الغلام التركيَّ وقال: **[الوافر]**

تبدَّل من مَرْقَعةٍ ونُسْكِ بأنواع الممسك والشُّفوفِ
وعنّ له غلام ليس يحوِي هواه ولا رضاه بلبس صُوفِ
فعاد أشدّ ما كان انتهاكاً كذاك الدهر مختلِفُ الصُّروفِ

وقال أيضاً: **[المنسرح]**

يا أهلَ مصر قد عاد ناسككمْ بالكرخ بعد التُّقى إلى الفَتْكِ
خَمّشَ قلبِي مقرطق غَنِجٌ قد بدّ قلبي به من النُّسْكِ
رمى فؤادي بسهمِ مُقْلَتِهِ وكيف يُخطِي مولد التُّرْكِ!

وقال كشاجم: **[الطويل]**

يقولون تُبْ والكأس في كَفّ شادنٍ وصوتُ المثاني والمثالث عالي
فقلت لهم: لو كنت أزمعت توبةً وأبصرت هذا كلُّه لَبَدَا لِي

وقال الحسن: **[الكامل]**

كيف النُّزوع عن الصِّبا والكأس قل ذا لنا يا صاحِبِي بقياسِ
قالوا كَبِرْتَ فقلت ما كبرتْ يدِي عن أن تسير إلى فمي بالكأسِ
والرّاح طيِّبة وليس تمامها إلا بطيب خلائقِ الجلاَّسِ
وكأنَّ شاربها لفرط شَعاعها بالليل يكرع في سَنا مِقْبَاسِ
وإذا نَزَعْتَ من الغواية فليكنْ لله ذاك النَّزْعُ لا للنَّاسِ

قوله: أضعت الوقار، يريد أنه ضيَّع وقاره في مجلس اللَّهو، وقد تقدّم قوله:

وأصفى السرورَ إذا ما الوقورُ أماط ستور الحيا واطَّرَحْ

العُقَار: الخمر، لأنها عاقرت الدنّ، أي لازمته، أو لأنَّها تعقر شاربها بثقل السُّكر. امتطيت: ركبت. مَطَا الكُمَيْت: ظهر الخمر، وورَّى بفرس، أراد أنّه اعتكف على شربها، وسُمّيَت كميتاً لأنها حمراء إلى الكُمْتَة، وأبو مرة كنية إبليس، وقد تقدَّم، وقال الحسن: **[السريع]**

نِمْتُ وإبليس إلى الصّبح في ... كلّ الّذي يؤثِمُني خَصْمُ
رأيته في الجوّ مستعلياً ... ثم هوى يتبعه نَجْمُ
فقال لي لمَّا هَوَى مرحباً ... بتائب يتبعه وَهْمُ
هل لك في غَيْدَاء ممكورةٍ ... يرتجُ منها كَفَلٌ ضَخْمُ!
ذي غُنَّة يجرجُه اللَّثمُ ... فقلت: لا، قال: ففي أغْيَدِ
لستَ أبا مرّة إن لم تَعُذْ ... فإن ذا من فعلك الْغَشْمُ

وقال فيه وذكر أنه قاد له غلاماً: [السريع]

دبّ له إبليس فاقتادَه ... والشيخ نَفَّاعٌ على لعنتِهْ
عجبت من إبليس في كبره ... وخُبْثِ ما أضمر من نيَّتِهْ
تاه على آدم في سجدةٍ ... وصار قوّاداً لذرّيتِهْ

وقال سليمان بن الأعمى في الوليد، أخو صريع الغواني: [البسيط]

يأبى السجود له مِنْ فرط نخوته ... وقد تحوّل في مِسْلاَخِ قَوَّادِ

وقال ابن رشيق يشكر إبليس: [المنسرح]

رأيتُ إبليس مِنْ مُرُوءَته ... لكلِّ ما لا يُطاقُ محتمِلا
إذا هويتُ امرأ وأعجزني ... جاء به في الظلام معتقَلا
تبذُّلاً منه في حَوَائجنا ... ولا يزال الكريم مبتذلا

وقال أيضاً يلعنه: [المتقارب]

أَرَى الشَّيْخ إبليسَ ذا علَّةٍ ... فلا برىء الشيخ من عِلَّتِهِ
يقود على الحب مستيقظاً ... ويأتيك في الليل في صُورتِهِ
فيُؤتيك ما شاء من نفسِهِ ... ويُبلِغ ما شاء من لَذَّتِهِ
ومن كان ذا حيلةٍ هكذا ... تمثَّل للمرء في يَقْظَتِهِ
فلا تدَّخروا دونه لعنةً ... لأنَّ رضا الله في لَعْنَتِهِ

قوله: عكفت، أي أقمت ولازمت: الْخَندريس: الخمر القديمة، وإنما ذكر يوم الخميس لأنه يومُ تعرَض فيه الأعمال على الله تعالى وإقدام العبد على الذنوب وقت العرْض على الله تعالى أكبر خطراً. الصّهْباء: التي عُصِرَتْ من عنب أبيض. الأصمعيّ: هي التي تضرب إلى البياض، من أبيضَ عُصِرَتْ أو من غيره. صريعها: الذي صرعته بالسُّكر، يريد أنه بات سكران مطروحاً وقال أبو العلاء بن زهر في سَكارى: [الكامل]

وموسَّدِينَ على الأكفّ خدودَهُمْ ... قد غالَهُمْ شُرْبُ الصَّبُوح وغالنِي

ما زالت أسقيهمْ وأشربْ فضلهمْ حتى سكرت ونالهمْ ما نالنِي
والخمرُ تعرف كيف تأخذ ثأرها إني أملْتُ إناءها فأمالني

الغرّاء: ليلة الجمعة. رفض الإنابة: طرح التَّوْبة والرجوع. نامي الندامة: كثير الندم. بادي الكآبة: ظاهر الانكسار والحُزْن وسوء الحال. المُدام والمُدامة: الخمر، سُمِّيتْ بذلك لأنها أديمت في ظَرْفِها. الإشفاق: الخوف نَقْض الميثاق: حلّ العهد الإسراف: الإكثار. عَبّ: حَسْو، والعبّ أن يتابع الرجل الجرْعة بعد الجرْعة بغير تنفّس. السُّلاف: الخمر العتيقة، والسُّلاف والسُّلافة: ما سال منها من غير أن تُعصر، وهي أفضل الخمر قال الأعشى: **[الطويل]**

ببابلَ لم تُعْصَر فجاءت سُلافةً تخالط قنديداً ومسكاً مُخَتَّما[1]

القِنْديد: الخمر تطبخ ويجعل فيها أفاويه طيب

[من الخمريّات]

ونذكر هنا جملة من المقاطيع الخمريّات، نجعلها خاتمة ما قيل في الخمر.

عزم الواثق على الصَّبوح فقال للحسين بن الضحاك: اكتب إلى الفتح بن خاقان تدعُوه إلى الصَّبوح، وكان قد بَرِيء من مرض، فكتب إليه: **[البسيط]**

لمَّا اصطبحتُ وعينُ اللّهو ترمُقُنِي قد لاَح لي باكراً في ثَوْبِ لَذَّتهِ[2]
ناديت «فتحاً» وبشرت المُدام به لمَّا تخلَّص من مكروه عِلَّتِهِ
ذَبُّ الفتى عن حَريم الرَّاحِ مكرمةٌ إذا رآها امرؤ ضدًّا لخلقتِهِ
فاعْجَلْ إلينا وعجّل يالسرور لنا وخالس الدهر في أوقات غفلتِهِ

فسار واصطبح معه.

وقال الحسين بن الضحاك: دخلتُ على الحسَن بن سهل، في فصل الخريف وقد جاد الوسميّ من المطر برشٍّ حسن، واليوم في أحسن منظر وأطيبه، وهو جالس على سرير أبنوس، وعليه قبّة فوقها طارفة ديباج أصفر، تشرِفُ على بستان، وعلى رأسه غلام كالدينار، فسلّمت عليه فردّ عليّ السلام، ونظر إليّ كالمستنطِق، فقلت: **[المتقارب]**

ألستَ تَرَى ديمةً تهطُلُ وهذا صباحُك مستقبَلُ[3]
وهذا المدام وقَدْ راعنا بطلعته الشّادن الأكحلُ

---

(١) البيت في ديوان الأعشى ص ٣٤٣، ولسان العرب (قند)، (ببل)، وديوان الأدب ٢/ ٧٧، وتاج العروس (قند).

(٢) الأبيات في ديوان الحسين بن الضحاك الخليع ص ٣٣.

(٣) الأبيات في ديوان ابن الضحاك ص ٩١، ٩٢.

فـعـادَ بـنـا وبـه سَـكْـرَةٌ ... تـهـوّن مـكـروه مـا تـسـأَلُ
فـإنّـي رأيـتُ لـه طُـرَّةً ... تـخـبـرنـي أنّـه يَـفْـعَـلُ
وقـد أشـكـل الـعـيشُ فـي يـومـنـا ... فـيـا حـبـذا عـيـشـنـا الـمُـشْـكِـلُ

فقال: العيش مشكل، فما ترى؟ قلت: مبادرة القَصْف، وتقريب الإلْف، قال: على شرط أن تبيت، قلت: لك الوفاء على أن يكون هذا الواقف على رأسِك يسقيني، فضحك، وقال: ذلك لك على ما فيه، ثم دعا بالطعام والشراب، ففقدت الغلام ساعة ثم جاء من الحمَّام، فقلت: [السريع]

جـرّده الـحـمـام عـن درّة ... تـلـوح فـيـهـا عُـكَـنٌ بَـضَّـهْ[1]
كـأنّـمـا الـرَّشُّ عـلـى خـدّه ... طـلٌّ عـلـى تـفّـاحـةٍ غَـضَّـهْ
يـا لـيـتَـه زوّدنـي قُـبْـلـةً ... أولاً فـمـن وجـنـتـه عَـضَّـهْ

فقال الحسن: قد عمل فيك النبيذ، فقلت: [الرجز]

اسْـقـيـانـي وصـرّفَـا ... بـنـت حَـوْلـيـن قَـرْقَـفَـا[2]
واسْـقِـيَـا الأهْـيَـفُ الْـغَـرِيــ ... ـر سَـقَـى الـلّـهُ أهْـيَـفَـا
بـأبـي مـاجـن الـسـريــ ... ـرة يـبـدي تَـعـطُّـفَـا
فـإذا رمـت مـنـه ذا ... ك تـأبّـى وَعـنَّـفَـا
فـإذا هـمّ لـلـمـنـا ... م فـقـومَـا وخَـفِّـفَـا

فتغاضب الغلام فذهب، ثم عاد وقال: أقبل على شرابك، ثم ناولني قدحاً، والحسَن قد خرج، فشربت وأعطاني نقلاً، فقلت: اجعل بدله قُبلة، فأَبى، فقال له فرج غُلام الحسن: بحياتي يا بنيّ، أسعفه بما طلب، فضحك ثم دنا منّي كأنه يعطيني نُقْلا وتغافل، فاختلست منه قُبْلة، فقال: هي حرام، فقلت: [الرمل]

هـوّنَ الأمْـرَ عـلـيـه لـي فَـرَجْ ... بـتَـأتّـيـهِ فَـسَـقْـيـاً لِـفَـرَجْ[3]
وبـنـفـسـي نـفـس مَـنْ قـال وقـدْ ... كـان مـا كـان: حـرامٌ وحـرَجْ

ثم اشتهر الصبح، فخرجت ثم عدت للحسن من غدٍ، فقال: كيف كان مبيتُك يا حسين؟ فقلت: [المتقارب]

تـألّـفـتُ طـيـفَ غـزالِ الـحـرَمْ ... فـواصـلـنـي بـعـد مـا قـد صـرَمْ[4]
فـغـضّ الـجـفـون عـلـى خـجْـلَـةٍ ... وأعـرض إعـراضـةَ الـمـحـتـشـم

---

(١) الأبيات في ديوان ابن الضحاك ص ٧٠، ٧١.
(٢) ديوان ابن الضحاك ص ٨١.
(٣) ديوان ابن الضحاك ص ٨١، ٨٢.
(٤) ديوان ابن الضحاك ص ٩٤.

فـمـا زلـتُ أبـسُـطـه مـازحـاً وأُفـرط فـي الـلّـهْـوِ حـتّـى ابـتـسَـمْ
وحـكّـمـنـي الـرّيـم فـي نـفـسـه بـشـيء ولـكـنّـه مُـكْـتَـتَـمْ

فقال: يا فاسق، أظنّ ما ادّعيتَه في النوم وكان في اليقظة؟ وأصلَحُ الأشياء بنا أن نَرْحَضَ العار عن أنفسنا بهبته لك، فخذه لا بارك الله لك فيه، فأخذته وانصرفت.

وقد تقدّم في هذا الكتاب من كلام الحُسين ما يفوق به كلّ شاعر، وهو القائل: [الطويل]

أجِرْنِي فإنّي قد ظمئتُ إلى الوعدِ متى يُنجز الوعد المؤكّد بالعَهْدِ![1]
أعيذكَ من خُلْفِ الملوك وقد تَرَى تـقـطّـع أنفاسي عليك من الوجْدِ
أيبخلُ فَرْدُ الحسن عنّي بنائلٍ قـليـل وقـد أفردته بـهـوًى فَـرْدِ!

وهذا منتهى ما أوردته للحسين من العجائب.

دخل عليّ بن الجهم على عبد الله بن طاهر في غَدْوة الربيع، وفي السماء غيم رقيق، والمطر يجيء قليلاً، ويسكن قليلاً، فغاضبتْه جارية له، فانتقَض عزمه فخبَّر ابنَ الجهم بذلك، فأراد تنشيطه فدخل عليه فأنشده: [البسيط]

أما ترى اليوم ما أحلَى شمائلَه صـحـوٌ وغـيـمٌ وإبـراق وإرعـادُ[2]
كـأنـه أنـت يـا مَـنْ لا شـبـيـهَ لـه وصـلٌ وهـجـرٌ وتـقـريـبٌ وإبـعـادُ
فـبـاكِرِ الـرَّاح واشـربْـهـا مُـعـتَّـقَـةً لـم يـدّخر مـثـلـهـا كـسرى ولا عـادُ
واشرب على الرَّوْضِ إذْ لاحتْ زخارفه زَهْـــرٌ ونَـــوْرٌ وأوراق وأورادُ
كـأنـمـا يـومـنـا فـعـل الـحـبـيـب بنَـا بـذل وبُـخـلٌ وإبـعـاد ومـيـعَـادُ
ولـيـس يـذهـب عـنـي كـلّ فـعـلِـكُـمُ غـيّ ورشـد وإصـلاح وإفـسـادُ

فـاسـتـحـسـنـهـا وأمـر لـه بـثـلاثـمـائـة ديـنـار وحـمـلـه وخـلـع عـلـيـه

وقال علي أيضاً: [البسيط]

الوردُ يَضْحَكُ والأوْتَارُ تصطخب والـنـاي يـنـدب أحـيـانـاً ويـنـتـحِـبُ[3]
والراح تُعْرَض في يوم الربيع كما تُجْلَى العروسُ عليها الدرّ والذهب
وكـلـمـا انسكبت في الكأس آونةً حسبت أن شُعاع الشَّمْسِ ينْسَكِبُ

وقد مرّ من كلام ابن الجهم كلُّ بديعٍ، في نظمه رفيع، وآخر شعر قاله وهو أحسن ما قيل في معناه: [المنسرح]

---

(١) ديوان ابن الضحاك ص ٤٦.

(٢) الأبيات في ديوان علي بن الجهم ص ١٢٢. (٣) ديوان ابن الجهم ص ١٠٥.

يا رحمةً للغريب في البلد النّـ ـازِح مَاذَا بنفسِهِ صَنعَا[1]
فارق أحبابه فما انتفعوا بالعيْش من بعده ولا انتفَعَا
يقولُ في نأيه وغربتِه: عَدْلٌ منَ الله كل ما صَنعَا

وكان هجاء لعلي بن أبي طالب، وسمعه يوماً أبو العيناء يطعَن على عليّ فقال له: أنا أدرِي لم تطعَن على أمير المؤمنين، قال: أتعني قصَّة بيعة أهلي، قال: لا، أنت أوضع من ذلك ولكن لأنه قتل الفاعل [فعل] قوم لوط وأنت أسفلهما. وقال البحتري فيه: **[الوافر]**

إذا ما حُصِّلتْ عُليا قريشٍ فلا في العيرِ أنتَ ولا النفيرِ[2]
ولو أعطاك ربّك ما تمنَّى لزاد الخلق في عِظَمِ الأيورِ
علام هجوت مجتهداً عليًّا بما لفَّقت من كذبٍ وزورِ
أما لك في استك الوجْعاء شغلٌ يكف أذاك عن أهلِ القبورِ

وقال ابن القناص كاتب سيف الدولة: **[البسيط]**

قُمْ فاسقِني بين خفْق النّايِ والْعُودِ ولا تَبِعْ طيبَ موجود بمفقودِ
كأساً إذا أبصرتْ في القوم محتشماً قال السرور له قُمْ غيرَ مطرودِ
نحنُ الشّهود وخفْق النّاي خاطبنا يزوّج ابْن سحابٍ بنتَ عَنْقودِ

وقال المصحفي: **[الرجز]**

صَفْراء تطرقُ في الزُّجاج فإن سَرَتْ في الجسم دبَّتْ مثل صلّ اللَّادغِ
خفيتْ على شرّابها فكأنّهم يجدُون ريًّا في إناءٍ فارغِ

إدريس بن اليماني: **[الكامل]**

ثقلَتْ زجاجاتٌ أتتْنا فُرَّغاً حتى إذا مُلِئَتْ بصرْف الرَّاحِ
خفّتْ فكادت أن تطير بِمَا حَوتْ إن الجسُوم تخِفُّ بالأَرْواحِ

ابن المعتز: **[الوافر]**

ونَدْمانٍ سُقِينَ الرَّاحَ صِرْفاً وأُفُقُ اللَّيْلِ مُرْتَفِعُ السُّجُوفِ
صَفَتْ وصَفَتْ زجاجتها فأضْحَتْ كمعنًى دقَّ في ذهنٍ لطيفِ

وله، وهو مما يتصل بأبيات الديك المتقَدمة: **[المنسرح]**

فاشرب عُقَاراً كأنّها قَبَسٌ قد سَبَكَ الدَّهْرُ تبرَها فَصَفَا

---

(١) ديوان ابن الجهم ص ١٥٤.
(٢) الأبيات في ديوان البحتري ص ١٠٣٨.

تَرَى النَّدامى الإبريقَ من دَمِها ... كأنه راعفٌ ومَا رعُفَا

ولبعضهم: [الكامل]

ما زال يشربُها وتشرب عقلَه ... خَبْلاً وتُؤذِنُ رُوحَةُ بِرواحِ

حتى انثنَى متوسِّداً بيمينه ... سكراً وأسلم رُوحَه للراحِ

وقال النظام: [البسيط]

ما زلت آخذ رُوح الزِّق في لطفٍ ... وأستبيح دماً من غير مَجْرُوحِ

حتى انثنيتُ ولي روحان في جَسَدِي ... والزِّقّ مطَّرح، جِسمٌ بلاَ رُوحِ

أخذه أحسن أخذ من بَشّار حيث قال: [الوافر]

شربنَا من فؤادِ الزِّق حَتّى ... تركنا الزِّق ليسَ لَه فُؤادُ

وقال ديك الجن: [الطويل]

وقم أنت فاحثث كأسنا غير صاغر ... ولا تسق إلاّ خمرَها وَعُقَارَها[1]

فقام تكاد الكأس تخضب كفَّهُ ... وتحسبه من وجْنَتَيْه اسْتَعارَها

مورّدةٌ من كفّ ظبيٍ كأنّما ... تناولها من خدِّه فأدارَها

ظلِلْنَا بأيدينا نتعتِع روحَها ... فتأخذ من أقدامنا الرَّاحُ ثارَها

وقال حبيب: [الطويل]

وكأسٍ كمعسول اللّماء شربتُها ... ولكنّها أجلَتْ وقد شربت عَقْلِي[2]

إذا عُوتبت بالماء كان اعتذارُها ... لهيباً كوقع النّارِ بالحطَبِ الْجزلِ

إذا اليدُ نالتْها بوتر توقّرَتْ ... على ضِغْنِها ثم استقادت من الرِّجل

وقال الحسن: [الطويل]

وصفراءُ قبل المزْج بيضاءُ بَعْدَهُ ... كأنّ شُعاع الشَّمْسِ يَلْقَاك دُونَها

تَرعى العيْنَ تستعفيك من لمعانِها ... وتحمرّ حتى ما تقلّ جفونَها

كأن يواقيتا رواكدَ حولَها ... وزُرْقَ سنانير تُدير عُيونَها

وللخوارزمي: [الطويل]

وصفراء كالدّينار بنت ثلاثة ... شمالٍ وأنهارٌ ودَهرٍ مُحرَّمُ

مسرة محزونٍ، ورَغْدُ معربدٍ ... وكنز مجوسيٍّ وفتنة مُسْلِم

يطوف بها ظبي يريدُ عيوننا ... على عينه، من شَرْطِ يحيى بن أَكْثَمِ

---

(١) الأبيات في ديوان ديك الجن الحمصي ص ١٠٧.

(٢) الأبيات في ديوان أبي تمام ص ٤١٩.

وقال مسلم بن الوليد: [الكامل]

إبريقُنا سلب الغزالَة جيدَها وحكى المدير بمقلتيْه غَزَالا[1]
يَسْقِيك من عَيْنَيْهِ كأس صبابةٍ ويُعيدُها من كَفّه جِرْيالاَ

وقال أبو دُلامة: [الطويل]

سقاني أبو بشرٍ من الرّاح شرْبةً لها لذّةٌ ما ذقتُها بشراب
وما طَبخُوها غير أنّ غلامهم مَشَى في نواحي كَرْمِها بشهاب

ولما أنشدها علي بن الخليل صاح: أحرقها العبد أحرقه الله!.

كان ابن لنكك أسرعَ الناس سكراً، فقال في ذلك: [الوافر]

فَدْيتُكَ لو عَلِمْتَ ببعض مَا بِي لما جرّعْتَنِي إلاّ بمُسْعِطْ
فحسبك أن كرماً في جواري أمرُّ ببابه فأكاد أسْقُطْ

قوله: فيا قوم هل كفارة تعرفونها، إنما غَيَّر بيت أعرابيّ، أنشد أبو العباس أبياته، وهي: [الطويل]

فياقوم هل كفارة تعرفونها تُبَاعِدُ من ذنبي وتُدْني إلى رَبِّي
شكوت فقالتْ كلّ هذا تبرُّماً بحبّي أراح الله قلبك من حُبّي
فلما كتمت الحبّ قالت: لَشدّ ما صبرت وما هذا بفعلِ شَجِي الْقَلْبِ
وأدنو فتُقْصيني وأبعدُ طالباً رضاها فتعتدّ التّباعد من ذَنْبِي
فشكوايَ يُؤْذِيها وصبري يَسُوءها وتجزع من بُعْدِي وتنفُر من قُرْبِي
فيا قوم هل من حيلةٍ تعرفونها أشيروا بها واستوجبوا الشكْر مِنْ رَبِّي!

وقال أبو العبر الهاشمي المتحامق: [البسيط]

أبكي إذا غضبت حتى إذا رضيت بكيت عند الرضا خوفاً من الْغَضَبِ
فالموتُ إنْ غَضِبَتْ والموت إنْ رَضِيَتْ إن لم يُرِحْنِي سُلُوٌّ عِشْت في تعبِ

وأبو العبر على تحامقه جيِّد الشعر، ومن ذلك قوله: [الطويل]

وفي ساعدي ممن تعلقت عَضَّةٌ تذكِّرني ذاك الشُّنَيبَ المفَلَّجَا
وآثار خدشٍ في يدي مليحةٍ أقام عليها القلب مني وعرّجَا
أما والذي أمسيتُ أرجُو ثوابه لقد حلّ ما أخشاه وانقطع الرجَا

وله: [السريع]

(١) البيتان في ديوان مسلم بن الوليد ص ٢٠٤.

داء دفـــيـــنٌ وهـــوًى بـــادِي أظـلـم مُـجـازيـك بـمـرصـادِ
يـا واحـد الأمـة فـي حـسـنِـه أشْـمَـتَ فـي صـدّك حُـسّـادِي
عـبـدُك تُـحْـيِـي مـوتَـه قـبـلـةٌ يـجـعـلـهـا خـاتـمـة الـزّادِ

ولأعرابي في نحو ما أنشده أبو العباس: [الطويل]

سكتُّ فقالت: لِمْ سَكَتَّ عن الحقّ وفُهتُ فقالت: ما دَعاك إلى النُّطْقِ
فأومأتُ هل من حالةٍ بين ذا وذا فقالتْ وذا الإيماء أيضاً من الحُمقِ
فلم أرَ لِي إذ حَلَّتِ الغرب مخلَصاً من الشرّ إلا في المسير إلى الشرقِ
فلمّا أتيتُ الشّرْقَ ألفيتُها به وقد قعدتْ لي منه في أضْيَق الطُّرْقِ

* * *

وعلى ما تقدّم في وصف الخمر من النظم المستحسن المرغب في شربها، فإنه جاء من التحذير فيها ما يوجب تركَها على أهل التخصيص والفضل.

من حديث أنس رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ شَرِبَ الخمر لم تقبل له صلاةٌ أربعين ليلة فإن تاب تاب الله عليه، فإن عاد الثانية لم تقبل له صلاةٌ أربعين ليلة، فإن تاب تاب الله عليه، فإن عاد الثالثة لم تقبل له صلاةٌ أربعين ليلة، فإن تاب تاب الله عليه، فإن عاد الرابعة كان حقًّا على الله أن يسقيَه من طينة الخبال»[1].

ابن الأعرابي: طينة الخبال عُصارة أهل النار في النار. وعن ابن عمر أنّ النبي ﷺ قال: «مدمِن الخمر كعابد وثن»[2].

قال أبو زيد: فلمّا حلَّ أنشوطَة نَفْثِه، وقَضَى الوَطرَ من اشتكاءِ بَثّه، ناجتْنِي نفسي: يا أبا زَيْد، هذه نُهزةُ صَيْد، فشمِّرْ عن يدٍ وأيْد فانتهضتُ مِنْ مَجْثَمِي انتهاضَ الشَّهْم، وانخرطْت من الصّفّ انخِراط السَّهْم، وقلت: [مجزوء الخفيف]

أيُّـــهـــا الأرْوعُ الّـــذي فَـــاقَ مـــجـــداً وسُـــؤْدُدَا
والّـــذي يـــبـــتـــغِـــي الـــرَّشَـــا دَ لِـــيَـــنْـــجُـــو بـــهِ غَـــدَا
إنَّ عِـــنْـــدي عِـــلاجَ مـــا بـــتَّ مـــنـــه مُـــسَـــهَّـــدَا
فـــاســـتـــمِـــعْـــهـــا عـــجـــيـــبـــةً غـــادرتْـــنِـــي مُـــلَـــدَّدا
أنـــا مِـــنْ ســـاكِـــنِـــي سَـــرُو جَ ذَوِي الـــدِّيـــن والْـــهُـــدَى

* * *

(١) أخرجه أبو داود في الأشربة باب ٥، والترمذي في الأشربة باب ١، وابن ماجه في الأشربة باب ٤، والدارمي في الأشربة باب ٣، وأحمد في المسند ٢/ ١٨٩.

(٢) أخرجه ابن ماجه في الأشربة باب ٣.

قوله: أنشوطة، عُقْدة سهلة تسمِّيها العامة اللّجّ. نفثه: لفظه. الوطر: الحاجة. بثّه: حزنه. ناجتْني: حدّثتني. النُهزَة: الفرصة وما أخِذ بلا تعب أيْد: قُوّة: انتهضت: تقدّمت. مجْثمي: موضع قُعودي. الشَّهمْ: الشّديد النفس. انخرطت: اندفعت بسرعة والانخراط التصميم وركوب الرأس. الأرْوع: السّيّد. فاق: زاد على غيره في الفضل. عِلاج: معاناة وطبّ مسهَّداً: ممتنع النوم. ملدَّداً: ملتفتاً يميناً وشمالاً من شدة الخوف.
[مجزوء الخفيف]

* * *

كـنـتُ ذا ثـروةٍ بـهـا	ومُـطـاعـاً مـسـوَّدا
مـربَـعـي مـألـف الـضُّيُـو	ف ومـالِـي لَـهُـمْ سُـدَى
أشـتـري الْـحَـمْـدَ بـالـلُّهَـا	وأَقِـي الـعِـرْض بـالـجَـدَا
لاَ أُبَـالِـي بـمـنْـفِـسٍ	طـاحَ فـي الـبـذْلِ والـنَّـدى
أُوقِـدُ الـنَّـار بـالْـيَـفَـا	ع إذا الـنِّـكْـسُ أخْـمَـدا
ويـرانـي الـمـؤمِّـلُـو	نَ مَـلاَذاً ومَـقْـصِـدَا
لَـمْ يَـشِـمْ بـارِقِـي صـدٍ	فـانْـثَـنَـى يَـشْـتَـكِـي الـصَّـدَى
لاَ ولاَ رَامَ قَـابـسٌ	قَـدْحَ زَنْـدِي فـأصْـلَـدا
طَـالَـمـا سَـاعَـدَ الـزَّمَـا	نَ فـأصـبَـحْـتُ مُـسْـعَـدَا
فـقـضـى الـلَّـهُ إن يُـغَـيِّـر	مـا كـان عـوَّدَا
بـوَّأ الـرُّومَ أرْضَـنَـا	بـعـد ضِـغْـنٍ تـولَّـدَا
فـاسـتـبـاحـوا حَـرِيـمَ مَـنْ	صـادَفـوه مـوحَّـدَا
وحـوَوْا كـل مـا اسْـتَـسَـرَّ	بـهَـا لِـي ومَـا بَـدَا

* * *

ثروة: غنى. مسوَّداً: مقدّماً للسِّيادة. مربعي: منزلي. مألف: موضع الاجتماع. سُدّى: مهمل. اللّها: العطايا. اليَفَاع: ما ارتفع من الأرض. النِّكس: الدنيء. أخمد: أطفأ. المؤمِّلون: الرّاجون. ملاذ: ملجأ، المقصد: الموضع تقصِده يِشمْ بارقي: ينظر برقي. صَدٍ: عطش. انثنى: رجع. رام: طلب. قابس: طالب النّار. قدح زندي: استخراج ناره. أصلد: وجَده صَلْداً أي شحيحاً ساعد: وافق. بوّأ، أي أنزل. ضغن: حقد وعداوة. استباحوا: صيّروه مُبَاحاً حريم: عِيال. موحّد: مُسْلم. حووا: ضموا، استسرّ: خفي. بدا: ظهر.

تَطوَّحت: ترامَيتُ على جهالة وألقيتُ بنفسي للهلاك. طريداً: منفيّاً. مشرَّداً مفزّعاً عند الهرب فاراً. **[مجزوء الخفيف]**

أجْـتَـدي الـنَّـاس بَـعْـدَ مـا كـنـتُ مـن قـبـلُ مُـجْـتـدَى
وتُـرى بـي خـصـاصـةٌ أتـمـنَّـى لـهـا الـرّدى
والـبـلاءُ الّـذي بـهِ شَـمْـلُ أُنْـسِـي تَـبَـدَّدا
اسْـتِـبـاء ابـنـتـي الّـتـي أَسَـرُوهـا لـتُـفْـتَـدى
فـاسـتـبِـن مِـحْـنَـتِـي ومُـدَّ إلـى نـصـرتـي يـدا
وأجِـرْنـي مـن الـزمـا نِ فـقـد جـارَ واعـتَـدَى
وأعِـنِّـي عـلـى فَـكـا كِ ابـنـتـي مـن يـدي الـعِـدَى
فـبِـذا تَـنْـمَـحـي الـمـآ ثِـمُ عَـمَّـن تـمـرّدا
وبـه تُـقْـبَـلُ الإنـا بَـةُ مِـمَّـن تَـزَهَّـدا
وهـو كـفّـارة لـمـن زاغَ مـن بَـعْـدِ مـا اهـتَـدَى
ولـئـن قـمـتُ مُـنْـشِـداً فـلـقـد فـهـتُ مُـرشِـدا
فـاقْـبَـلِ الـنُّـصْـح والـهـدا يَـة واشْـكُـرْ لـمـن هَـدَى
واسْـمَـح الآن بـالّـذي يـتـسَـنَّـى لـتُـحْـمَـدَا

* * *

أجتدي: أسأل، خَصَاصة: فقر، الردّى: الهلاك، شَمْل: مجتَمع، تبدّد: تفرّق، استباء ابنتي: أخذها أسيرة. استَبِن: تحقّق وتبين. محنتي: بليتي. جار واعتدى: مال وظلم، وفكّ الرقبة وفَكاكها: تخليصها من أسر الرّق وكذلك الرهن، وفي الحديث «اعتق النَّسمة وفكّ الرَّقبة»[1] قيل أو ليسا واحداً؟ قال: لا، عتق النَسمة: أن تنفرد في عتْقها، وفكّ الرقبة: أن تعين في عتقها، ابن عباس رضي الله عنهما قال النبي ﷺ: «مَنْ فَدَى أسيراً من أيدي العدّو، فأنا ذلك الأسير». تنمحي، أي تذهب، تمرّد: أكثر الفساد، الإنابة: الرجوع إلى الله تعالى، تزهّد: ترك الرّغبة في الدنيا زاغ: مال فهت: نطقت، مرشداً: دالاً على الخير. اسمح: جُدْ. يتسنّى: يتيسر، الفنجديهي: كان ابن قَطَريّ قاضي ناحية المزار، بلد عند البصرة قد تاب من الشرب، ثم نقض التوبة، وعاد يشرب، ثم بعد المعاودة حضر مسجد بني حَرَام يوماً بالبصرة، وتاب ورجع إلى الله تعالى بصِدق النّية، وسأل عن كفارة ذنبه، وكان في المسجد رجلٌ يزعم أنّه من أهل سَرُوج، وله بنت مأسورة في أيدي الكفّار، فقال لابن قَطَري: كفارة ذنبك أن تتصدق عليّ بشيء أفكّها به فأعطاه عشرة دنانير، فلمّا أخذها منه دخل الحانة.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٣٩٩/٤.

ثم إن الحريري أنشأ هذه المقامة الحراميّة في ذلك فقيل له: هي أحسن من مقامات البديع، فأنشأ أربعين مقامة، ثم استزادُوه فكمَّلها خمسين.

* * *

قال أبو زيد: فلمّا أتممتُ هذْرَمِتي، وأُوهِمَ المسؤولُ صِدقَ كلمتي أغرَاه القَرَمُ إلى الكَرمِ بِموَاساتِي، ورغَّبه الْكَلَف بحمل الكُلَف في مُقاساتي، فرضَخَ لي على الحَافِرَة، ونَضَخ لي بالعدَةِ الوَافِرَةَ.

فانقلبتُ إلى وكْرِي، فرِحاً بنُجْح مَكْرِي، وقَد حَصَلتُ مِنْ صَوْغِ المَكْيدَة، على سَوغِ الثَّرِيدة، ووصَلْتُ مِنْ حَوْكِ القَصِيدة، إلى لَوْكِ العَصيدة.

قوله: هذرمتي، أي كثرة كلامي، أوهم: أي خُيِّل له. كلمتي، أي قصيدتي، أغراه، أي حرّضه القَرَم: الشَّهْوة. مواساتي: إعطائي، الكلف: الحُبّ، والكُلفَ: جمع كُلْفة وهي ما يُتَكَلَّف من العمل. رضخ: أعطى، على الحافرة، أي عندما أكملت كلامي، والحافرة: أوّل الأمر، وقيل إنّ أصلها في بيع الفرس، ولرفعة الخيل عندهم كان لا يفارق البائع حافرَ فرسه، حتى يأخذ ثمنه، نضخ: رفع، ونَضْخُ الماءِ فورانه من منبعه، الوافرة: الكثيرة، وكْرِي: بيتي، وأصله للطائر، صَوغ المكيدة: صنعة الكيد. سوّغ: بلع بسهولة، لَوْك: مضغ.

قال الحارث بن همام: فقلت له: سبحان مَنْ أبْدَعَكَ، فما أعظمَ خُدَعك، وأخْبَث بِدَعك! فاستغربَ في الضّحك، ثم أنشد غير مرْتَبِكٍ: **[مجزوء الكامل]**

عِـشْ بـالـخـداعِ فـأنـت فـي ... دهـرٍ بـنـوه كـأُسْـدِ بـيـشَـهْ

وأدِرْ قَـنـاة الـمـكْـرِ حـتَّـى تَـسْـتَـديـر رَحَـا الـمـعـيـشَـهْ

وصـد الـنّـسـور فـإنْ تَـعـذّ ... ر صَـيْـدُهـا فـاقـنـعْ بـريـشَـهْ

واجْـنِ الـثـمـار فـإنْ تَـفُـتْـ ... ـكَ فـرضِّ نَـفْـسَـكَ بـالـحـشـيـشَـهْ

وأرِحْ فـؤادَكَ إن نَـبَـا ... دهـرٌ مـن الـفـكَـر الـمُـطِـيـشَـهْ

فـتـغـايـرُ الأحْـدَاث يُـؤْ ... ذِن بـاسـتـحـالـة كـلِّ عـيـشَـهْ

* * *

أبدعك، أي أوجدك وخلقك. استغرب: أكثر الضحك. مرتبك: مختلط في كلامه، بيشة: موضع كثير الأسد، المكر: الخديعة. نبا: ارتفع، المطيشة: المدهشة للعقل. تغاير: اختلاف، الأحداث: النوازل يؤذن: يعلم. استحالة: تغيّر.

المقامة التاسعة والأربعُون

وهي السّاسَانيّة

حكى الحارث بن همام قال: بَلَغني أنّ أبا زيد حينَ ناهزَ القَبْضَة، وابتزّه قَيْدُ الهَرِمِ النَّهضة، أحضر ابنَه، بعد ما استجاشَ ذهنه، وقال له: يا بني إنّهُ قد دَنا ارتحالي من الفِناء، واكتحالي بِمروَد الفَنَاء، وأنت بحمْدِ الله وليُّ عَهْدِي، وكَبْشُ الكَتِيبَة السَّاسانيّة مِنْ بَعْدِي. ومثلك لا تَقْرع لَهُ العَصَا، ولا يُنَبَّهُ بِطَرْق الحَصا؛ ولكن قد نُدِبَ إلى الإذكار، وجُعِل صَيْقلاً للأفكار، وإنّي أُوصِيك بما لم يوصِ به شِيثُ الأنباط، ولا يعقوبُ الأسباط؛ فاحفظ وصيّتي، وجانب معصيتي، واحْذُ مِثالي، وافقَهْ أمثالي، فإنَّك إن استَرْشَدْتَ بِنُصْحِي، واستَصبَحْتَ بِصُبْحِي، أَمْرَعَ خَانُك، وارتفع دُخانُك، وإنْ تَنَاسَيْتَ سُورَتِي، ونبذتَ مَشُورتي، قلّ رمادُ أثَافِيك، وزَهِدَ أهلُكَ ورَهطُكَ فيك.

***

ناهزَ: قارب. القَبْضَة، أراد بها ثلاثاً وتسعين سنة، لأنك إذا قيل لك: اعقد في يديك ثلاثاً وتسعين قبضْتَ أصابعك كلها وشددْتَ عليها الإبهام، والمعنى أنه قارب المائة الّتي ليس في العيش بعدها منفعة، والشعراء يضمّنونها أشعارهم إذا وصفوا البخيل بقبض الكف، قال الخليل بن أحمد: **[المتقارب]**

وكـفٌ عـن الـخـيـر مـقـبـوضـةٌ ... كـمـا قـبـضـت مـائـة سَـبْـعَـهْ[1]

وقال: **[الوافر]**

فـمـا تِـسْـعُـون تـخـفـرهـا ثـلاث ... يـضـمُّ حـسـابَـهـا رجـل شـديـدُ

بـكـفّ خـرقـةٍ جُـمِـعَـتْ لِـوَجْءٍ ... بـأنـكَـدَ مَـن عـطـائـك يـا يـزيـدُ

وابتزَّه: سَلَبَه. الهرم: كبرُ السّن. النهضة: القيام إلى ما يريد.

ودخل هشام بن عبد مناف وقد أسنَّ على فتية من قومه فقاموا إليه إجلالاً، وأجلسوه في أرفع موضع، فقال: بارك الله فيكم، إن بني مرّة كانوا إذا شاخ عندهم الرجل قيّدُوه وقالوا له: ثبْ، فإن وَثب أحبّوه. وقالوا: فيك بقية، وإن لم يثبْ قالوا: ليس في هذا منفعة فقتلوه، وقال ابن الرومي: **[السريع]**

---

(١) البيت للخليل بن أحمد الفراهيدي في لسان العرب (شرع)، وتهذيب اللغة ١/ ٤٢٧، وتاج العروس (شرع)، وكتاب العين ١/ ٢٥٣.

لـو أنّ عـمـري مـائـةٌ هَـدَّنِـي ... تـذكُّـري أنّـي تـنـصَّـفـتـهـا[١]

لهفي على خمسينَ عاماً مضت ... كـانـت أمـامـي ثـم خـلّـفـتُـهـا

استجاش: استجمع وحَشد. والفناء: ما حول الدار، والفناء بالفتح: الموت. الكتيبة: الجيش. وكَبْشُها: رئيسها وحاميها، والّذي كانت العصا تُقرَع له عامر بن الظَّرِب العَدوانيّ حكيم العرب في الجاهليّة، ولما أسنّ كان يَزِلُّ في حكمه، وكانت له بنت حكيمة، فأمرها أن تقعد وراء سِتْر لتنظر حكمه، فإذا أنكرت منه شيئاً قرعتْ له العصا، فمتى سمع صوت قَرْعِها علم أنه زلّ، فرجع. وقيل قُرِعَت لأكثم بن صيفيّ، وقيل لسعد ابن مالك الكنانيّ، وقيل لعمرو بن حُمَمَة الدَّوسي.

وخطَب صعصعة بن معاوية إلى عامر بن الظَّرِب بنتَه عَمْرة، وهي أم عامر بن صعصعة، فقال: يا صعصعة إنك تشتري منّي كبدي، فارحم ولدي؛ قبلتُك أو رددتُك. والحسيب: الرجل الصالح أباً بعد أب، وقد أنكحتك خشية ألاّ أجد مثلك، أفرّ من السرّ إلى العلانية، يا معشر عَدْوَان أخرجت من بين أظهركم كريمتَكم من غير رهبَة، أقسم لولا قسمة الحظوظ على الجدود ما ترك الأوّل للآخر ما يعيش به، وفيه يقول المتلمس: **[الطويل]**

لذِي الحِلْم قَبل اليوم ما تُقْرع العصا ... ومـا عُـلِّـم الإنـسـان إلا لـيـعْـلَـمَـا[٢]

وهو أوّل منْ جلس على المنبر وتكلَّم، وفيه يقول الأسود بن يعفُر: **[الكامل]**

ولـقـد عـلـمـتُ لـو أنَّ عـلـمـي نـافـعٌ ... أنَّ الـسـبـيـل سـبـيـل ذي الأعـوادِ[٣]

قال الأصمعيّ: نزلت عَدوان ماء، فأحصى عليه سبعون ألف غلام أغرل، سوى مَنْ كان مختوناً لكثرتهم، ثم وقع بأسهُم بينهم، فتفانوا، فقال ذو الإصبع العَدْوَانيّ: **[مجزوء الوافر]**

عــذيــر الــحــيّ مــن عَــدْوا ... نَ كــانــوا حــيَّــة الأرضِ[٤]

---

(١) البيتان في ديوان ابن الرومي ١/ ٣٦١.

(٢) البيت في ديوان المتلمس الهذلي ص ٢٦، ولسان العرب (قرع)، وجمهرة اللغة ص ٦٦٧، ٧٦٩، وتاج العروس (قرع)، وهو بلا نسبة في تهذيب اللغة ١/ ٢٣٢.

(٣) يروى صدر البيت:

ولـقـد عـلـمـت سـوى الـذي نـبّـأتـنـي

وهو للأسود بن يعفر في ديوانه ص ٢٦، ولسان العرب (عود)، وجمهرة اللغة ص ٦٦٧، وتهذيب اللغة ٣/ ١٢٦، وتاج العروس (عود)، وشرح اختيارات المفضل ص ٩٦٦، ومعجم البلدان (أنقرة).

(٤) الأبيات في ديوان ذي الإصبع العدواني ص ٤٦، ٤٧، والبيت الأول في الاشتقاق ص ٢٦٩، والأغاني ٣/ ٨٥، وأمالي الزجاجي ١/ ٢٢١، والحيوان ٤/ ٢٣٣، وخزانة الأدب ٥/ ٢٨٦، وشرح أبيات سيبويه ١/ ٢٩٨، والشعر والشعراء ٢/ ٧١٢، والكتاب ١/ ٢٧٧ ولسان العرب (عذر)، (حيا)، =

بغى بعضٌ على بعضٍ فلم يُبقوا على بَغْضِ
ومنهم مَنْ يجيز النا س بالسُّنّة والفرْضِ
ومنهم حَكَمٌ يقضي فلا يُنقَض ما يقضي

الحكم: عامر بن الظرب، والذي كان يجيز النّاس في الحجّ منهم رجل كان يسمى أبا سيارة، أجاز الناس على حمارٍ له أسود، من المزدَلِفة إلى منى أربعين عاماً. فقيل في المثل: أصحّ من عير أبي سيارة، وكانت إجازته أن يقول: اللّهمَّ حَبِّب بين نسائنا وبغِّض بين رعائنا، واجعل المال في سُمَحائنا. وأوفُوا بعهدكم، وأكرموا جارَكُمْ واقروا ضيفكم ثم يدفع فيقول: [الرجز]

خَلّوا الطريقَ عن أبي سَيَّارهْ وعن مواليه بني فَزَارَهْ
* حتى يجيز سالماً حماره[1] *

ثم يقف فيقول: أشْرق ثبير. كيما نغير، وكانت الإجازة قبلهم في خُزاعة، فغلبتْهم عليها عَدْوان. ولا تقرع له العصا مثل، يُضرب لمن وافق صاحبه وساوَاه.

ولما خطب رسول الله ﷺ خديجة رضي الله عنها قال عمُّها: مثْل محمد لا تقرع له العصا[2]، وأصل ذلك أن الناقة الكريمة إذا أتاها فحل غير كريم منعوه عنها، وقرعُوه بالعصا على أنفه. وفي المثل: إن العصا قُرعت لذي الحلم.

قوله: ولا ينبَّه بطرق الحَصا، كانت العرب إذا أرادت اختبار الرجل: هل يصلح للسفر والغارة: ترك الرجل صاحبه حتى ينام، فيأخذ حصاة فيرمي بها إلى جانبه، فإن انتبه توثق به.

وخرج أبو كبير الهذلي ومعه تأبط شراً للغارة، فلما جَنّ الليل أووا إلى موضع ليناموا فيه، فتركه أبو كبير حتى نام، فرمى إلى جانبه بحصاة، فساعة مَسَّت الأرض وثَب ثم عاد إلى نومه، ففعلها ثلاثاً فكان ينتبه لوقوعها ويثب ويجول يطلب لها رامياً، فلا يجد إلا أبا كبير نائماً، فقال له عند الثالثة: والله لئن عُدْتَ لأقتلنّك، فإنه ليس هنا مَنْ يفعل هذا غيرك، فضحك أبو كبير وقال: أردت اختبارك، ثم ذكر القصة في قصيدته التي يقول فيها: [الكامل]

= والبيت الثاني في لسان العرب (رعى)، وتهذيب اللغة ٣/ ١٦٣، ومجمل اللغة ٢/ ٣٩٢، وتاج العروس (عذر)، والحماسة البصرية ١/ ٢٦٩، وأمالي المرتضى ١/ ٢٥٠.

(١) الرجز بلا نسبة في لسان العرب (سير)، (جوز) وتاج العروس (سير)، (جوز)، ومعجم البلدان (ثبير).

(٢) رواه ابن الأثير الجزري في النهاية ٤/ ٤٣، بلفظ: «حديث خطبة خديجة، قال ورقة بن نوفل: هو الفحل لا يُقرع أنفه».

وإذا رمَـيْـت لـه الـحـصـاة رأيـتـه ينـزو لـوقـعـتـهـا طُـمـورَ الأخـيـلِ[1]

يريد أن ابنه كان فوق هذا في ذكاء القلب فهو كأنه منتبه أبداً.

وطرق الحصا أيضاً من فعل الكُهان يأخذ الكاهن حصياتٍ، فيضرب بها الأرض وينظر فيها فيخبر بالمغيّبات.

قوله: نُدِب، أي دعي وحرِّضَ. الإذكار: التذكير بما يفعل الأفكار: الأذهان.

شيث هو ولد آدم عليه السلام، وكان أجمل بنيه وأحبَّهم إليه، وهو وصيُّ أبيه وإليه ترجع الأنساب، وقال ﷺ: «أربعة من الأنبياء سريانيون: آدم وشيث وإدريس ـ وهو أخنوخ ونوح، وأنزل الله تعالى على شيث خمسين صحيفة»، وقال بقية بن أرطأة: بلغني أن حوّاء حملت بشيث الرّضا حتى نبتتْ أسنانه، وكانت تنظر إلى وجهه من صفائه في بطنها، وهو الثالث من ولد آدم، وإنه لمّا حَضَرها الطّلق أخذها عليه شدّة، فانتبذتْ به، فلما وضعته أخذته الملائكة، فمكث معهم أربعين يوماً، فعلموه المِهن، ثم ردّوه إليها معلماً، والمهن جمع مِهنة، وهي الخدمة.

الأنباط، قيل سمّوا أنباطاً لاستنباطهم البناء، واستخراجهم المياه، والنسابون يزعمون أنهم ولد يافث بن نوح ولا يصحّ على هذا أن يوصيهم شيث، لأنّ بين زمن شيث وزمن يافث آلافاً من السنين. الجوهريّ: النبيط والنَّبَط: قوم كانوا ينزلون بين البَصْرة والكوفة والجمع أنباط، والرجل نَبطيّ. ابن دريد: النَّبَط. جيلٌ من الناس معروف وهم النّبط والأنباط والأسباط: بنو يعقوب عليه السلام، ومنهم تشعَّبَتْ قبائل بني إسرائيل، والأسباط في ولد يعقوب كالقبائل في ولد إسماعيل.

احـذُ مـثـالـي، أي امـش عـلـى طـريـقـي وافـعـل بـفـعـلـي، اسـتـرشـدُت: استدللت. استصبحت: استضأت، أمرع: أخصب، الخان: الفندق، وهذا مثل لرفاهة العيش. نَبذت: طرحت. الأثافيّ: أحجار القِدر. زهد: لم يرغَبْ.

يا بنيّ؛ إنّي جَرَّبتُ حَقائق الأمور، وبَلَوْتُ تصاريف الدُّهور؛ فرأيتُ المرء بنشبِه، لا بنَسَبِه. والفحصَ عن مَكْسَبِه، لا عَنْ حَسَبِه، وكنتُ سَمِعْتُ أن المعايش: إمارة، وتجارة، وزراعة، وصناعة، فمارسْتُ هذه الأربع، لأنظُرَ أيُّها أوفقُ وأنفَع، فما أحْمَدْت مِنْها مَعِيشَة، ولا استَرْغَدْتُ فيها عِيشة، أما فُرَصُ الولايات، وخُلَسُ الإماراتِ؛ فَكأضْغاثِ أحلامٍ. والفيءِ المنْتَسِخِ بالظَّلام؛ وناهيكَ غُصّةً بمرارة الفِطام.

(١) البيت لأبي كبير الهذلي في شرح أشعار الهذليين ص ١٠٧٤، ولسان العرب (طمر)، (نزا)، وتاج العروس (طمر). (خيل)، وللهذلي في جمهرة اللغة ص ٧٥٩، وبلا نسبة في تهذيب اللغة ١٣/ ٣٤٣.

وأما بَضَائع التِّجارات، فَعرضَةٌ للمخاطراتِ، وطُعْمَةٌ للغَارَاتِ، وما اشْبَهَهَا بالطُّيور الطَّيارات، وأما اتخاذُ الضِّياع، والتَّصدّي للازْدِرَاع، فَمنهَكةٌ للأعراض، وقيودٌ عائقة عن الارتِكاض، وقَلّما خلا رَبّها عن إذلاَل، أو رُزق روح بال، وأما حِرفُ أولي الصِّناعات، فغيرُ فاضِلَةٍ عن الأقوات، ولا نافِقةٍ في جميع الأوقات، ومُعظمُها معصوبٌ بشبيبة الحياة، ولم أر ما هو باردُ المغنم، لذيذ المطعم، وافي المَكسب، صافي المشْرب، إلاّ الحِرفة التي وَضَع ساسانُ أساسهَا، ونوَّع أجناسها.

* * *

بلوت: اختبرتُ. نشبه: ماله، الفحص: البحث، والأربع التي ذكر نسبها الثعالبي للمأمون قال: قال لي المأمون: النَّاس أربع طبقات بين إمارة وتجارة، وزراعة، وصناعة، فمن لم يكن منهم كان كلاً علينا، مارست: خالطت، أحمدت: صادفتها محمودة، استرغدت: استكثرت، فُرَص: نهز، والنُّهزة والفرصة ما يحضرك من الفوائد من غير أن تتعنّى في طلبها، فإن فوّتَها ولم تغتنم أخذها ففاتتك، فربما تتعنّى غاية التعنّي في طلبها، فلا تظفر بها، الجوهري: الفرصة، النوْبة والشرب، يقال: وجد فلان فرصةً، أي نهزة، وجاءت فرصتُك من الشيء، أي نوبتك. خُلَس: جمع خُلسة، وهي كالخطف وشبهه، يريد أن الأمير كأنه اختلس أيامه، أي اختطفها لقصر مدتها، ويقال: الخُلْسة. فرصة. وأضغاث الأحلام: أباطيلها التي لا يصحّ تغويلها لاختلاطها والضِّغث: كلّ ما كان مختلطاً لا حقيقة له، والحُلم: الرؤيا والجمع أحلام. ويقال: هذا رجل ناهيك من رجل! ونهيُك من رجل، أي أنه نجدة وعناية ينهاك عن تطلب غيره، فناهيك: كافيك. الغُصّة: ما يختنق به، الفِطام: قطعُ الرّضاعة عن الصبيّ، وفي الكلام معنى التعجب كأنه قال: ما أنكد غصة العزل على أهل الولايات، والعزل للولاة كالحيض للنساء. والبضائع: الأموالُ يتّجر فيها عرضة للمخاطرات، أي معرضة للضّرر والسلب، وفلان عُرضة لكذا، أي نُصبٌ، وهو له عُرضة، أي يتعرَّض له دونه، وهذا عُرضة لك، أي عُدة. وقال النقاش في قوله تعالى: ﴿عرضَةً لأيمَانِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٤]، أي علة لها وسبباً ومتَّخذاً لذلك، وأصل العُرضة: الدابة تتّخذ للسفر لقوّتها، ثم جعل كل ما صلح لشيء عرضة له حتى قيل: المرأة عرضة للزوج، والطعمة: المأكلة، وهذه الضَّيعة طعمة لفلان، والطعمة أيضاً: وجه المكتسب، فطعمة للغارات، يريد أن قُطاع الطرق يسلبون أموال التّجار أبدا فأرزاقهم معرّضة للتلف، التصدّي: التعرض، منهكة: مذلة وسبب نَهْك، وهو الجهد والضَّعف، ونهكته الحمى وأنهكته، إذا جهدته وأضنته ونقصت لحمه، ونهكه السلطان عقوبة: بالغ في عقوبته، رَوْح بال: راحة قلب. عائقة: حابسة، الارتكاض: الجري والتصرّف وهذه مشاهدة من أحوال أهل الحرث وقال ﷺ حين رأى السكة: «ما دخلت

قطّ دارَ قوم إلا ذَلّوا». وقال ﷺ في الإمارة: «ستحرصون على الإمارة ثم تكون حسرة وندامة، فنعمت المرضعة وبئست الفاطمة»[١].

والحرفة: الصنعة: فاضلة: زائدة، معصوب: مربوط، والعصب الفتل الشديد، يريد أنّ الصنعة يُنْتَفَعُ بها ما دام صاحبها شابّاً قوياً فإذا شاخ لم يقدر على الانتفاع بها، قوله: بارد المغنم، أي السهل منه، وهو الذي يؤخذ بغير قتال.

ساسان: شيخ المكدين والغرباء، وهم بنو غَبْراء، والغبراء: الأرض، وسُمُّوا بني غَبْراء لقطعهم جهات الأرض وجَولانهم في البلدان، فكأنهم ليس لهم أصلٌ يُنْسَبون إليه إلا الأرض، وقيل: سُمُّوا بذلك للزومهم لغبراء الأرض وهو وجهها وترابها والرقاد فيها فيُغَيرون بذلك ويتغيَّرُون.

وكان الأحنف العكبري، وهو أبو الحسن عقيل بن العكبريّ، كان فصيحاً شاعراً وذكر الصاحب فيه فصلاً وهو: ولو أنشدتُك ما أنشدَنيه الأحنف العكبري، وهو فردٌ بني ساسان اليوم في مدينة السلام في الفصاحة وحسن الطريقة في الشعر لامتلأت تعجُّباً من ظَرْفِه وإعجاباً بنظمه، ومن افتخاره قوله: **[مجزوء الوافر]**

عـلـى أنـي بـحـمـد الله ... فـي بـيـتٍ مـن الـمـجـد
وإخـوانـي بـنـو سـاسـا ... ن أهـل الـجِـدّ والـجَـدِّ
لـهـم أرض خُـراسـا ... ن فَـغَـسَّـان مـع الـلّـدِّ
إذا مـا أعـوز الـطّـرق ... عـلـى الـطُّـرّاق والـجُـنْـدِ
حـذاراً مـن أعـاديـهـمْ ... مـن الأعـراب والـكـردِ
قـطـعـنـا ذلـك الـنـهـج ... بـلا سَـيْـفٍ ولا غِـمْـدِ
ومَـنْ خـاف أعـاديـه ... بـنـا فـي الـرَّوْع يَـسْـتَـعْـدِي

ففي هذا البيت معنى بديع، يريد أن ذوي الثروة وأهل الفضل إذا وقع أحدهُم في أيدي العداة وأراد التخلّص قال: أنا مكدٍ، فبنى الحريري هذا الموضع من مقامته على شعر الأحنف، وأكثر هذه المقامة مأخوذ من مُلَحِه، ومن هذا الشعر: **[الهزج]**

وقـالـوا قـد سـلا عَـنْـ ... ـكَ وقـد حـالَ عـن الـعَـهْـدِ
ولا والله مـا حُـلْـتُ ... ولـكـن قـلّ مـا عِـنْـدي

ومن شعره: **[الخفيف]**

عـشـت فـي ذلـة وقـلّـة مـالِ ... واغـتـرابِ فـي مـعـشـرِ أنـذالِ

---

(١) أخرجه البخاري في الأحكام باب ٧، والنسائي في البيعة باب ٣٩، والقضاة باب ٥، وأحمد في المسند ٢/ ٤٤٨، ٤٧٦.

بالأماني أقول لا بالمعاني ... فغذائي حلاوةُ الأمالِ
لي رزق يقول بالوقف في الـ ... ـرَّأي ورجلٌ تقول بالاعتزال

وله: [البسيط]

العنكبوت بنتْ بيتاً على وَهنْ ... تأوي إليه وما لي مثله وَطنْ
والخنفساء لها من جنسها سكَنْ ... وليس لي مثلها إلفٌ ولا سكنْ

وله: [الوافر]

نرى العقيان كالذهب المصفى ... يركب فوق أثفار الدّواب
وكيسي منه خلوٌ مثل كفي ... أمَا هذا من العجب العجابِ!

وله: [البسيط]

رأيت في النّوم دنيانا مزخرفةً ... مثل العروس تراءتْ في المقاصير
فقلت جُودي فقالت لي على عجلٍ ... إذا تخلَّصتَ من أيدي الخنازيرِ

* * *

وأضرم في الخافقين نارها، وأوضَح لبني غَبْراء مَنارَها، فشهدتُ وقائعَها مُعْلِماً، واختَرتُ سِيماها لي مِيسما؛ إذ كانت المتْجر الّذي لاَ يَبُور، والمنهل الّذي لا يغُورُ، والمصباح الذي يَعْشُو إليه الجمهور، ويسْتَصْبِحُ به العُمْيُ والعُور. وكان أهلها أعزّ قبيلٍ، وأسعدَ جيلٍ، لا يرْهقُهم مسُّ حَيْف، ولا يقْلقهم سلُّ سَيْف، ولا يخشَون حُمَةَ لاسِع، ولا يَدينُون لدانٍ وَلا شاسِع ولا يَرْهَبُونَ مِمَّن بَرَق ورَعَد، ولا يحفِلون بمن قام وقَعَد؛ أنديتُهم منزَّهة، وقُلوبهم مُرَفَّهة، وطُعَمُهُمْ مُعَجّلة، وأوقاتُهُمْ غُرٌّ مُحجّلة، أينما سَقَطوا لقَطُوا، وحيثما انخرطوا خَرَطوا، لا يتَّخذون أوطاناً، ولا يتَّقُون سُلطاناً، ولا يمتازون عمّا تَغْدُو خِماصاً وتَرُوح بطاناً.

قوله: أضرَم. أي أوقد، الخافقين: المشرق والمغرب، أوضح: بَيّن منَارها: سِراجها، مُعَلِماً: مشهوراً. سماها: علامتها، يريد أنه اختار علامَتَهم لِنَفْسِهِ، يبور: يكسد ويهلك أهله: المنهل: موضع الماء، يغور: يغوص في الأرض، يعشو: ينظر، الجمهور: معظم الشيء، العور: جمع أعور. الجيل: أهل العصر، يُرهقهم: يدركهم ويغشاهم حيف: جور وظلم. حُمة: سم. لاسع: ضارب. واللسع: الضرب بمؤخره، مثل العقرب، واللدغ لما كان بالفم. ولسَعَه بلسانه: عابه وآذاه، ورجل لُسَعة ولسَّاعة ولسّاع، أي عيّابٌ مؤذٍ، يدينون: يطيعون، دانٍ وشاسع: قريب وبعيد يرهبون: يخافون. بَرَق ورعد: هدّد وخوّف، يحفلون: يبالون. من قام وقعد: من غيظه وشره. انخرطوا:

ركبوا رؤوسهم، واندفعوا بشدة، وخرطت الغصن، إذا وضعتَ يدك عليه ثم تجرّه عليك، فيسقط ما فيه من ورَقٍ وثمر. أنديتهم: مجالسهم. مرفّهة: الرفاهية: العيش اللّين. غرّ: بيض. محجلة: مشهورة. سقطوا: وقعوا لقطوا: جمعوا الرزق. وأصله للطير، يمتازون: يفترقون. خِماصاً: جياعاً، بطاناً: شباعاً وهي للطير، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لو أنكم توكلتم على الله حقّ توكله لرزقكم كما يرزق الطير تَغْدُو خِماصاً وتَرُوح بِطاناً»[١].

* * *

فقال له ابنه: يا أبتِ لَقَدْ صَدَقْتَ، فيما نَطَقتَ؛ وَلَكِنَّكَ رَتَقْتَ، وَما فَتَقْتَ؛ فَبيِّن لي كيف أقْتَطِف، ومن أينَ تُؤكلُ الكتف، فقال: يا بنيّ إنّ الارْتِكاضَ بَابُها، والنَّشَاط جِلْبَابُها، والفِطنَة مِصْبَاحُها، والقِحَةَ سِلاَحُها، فكُنْ أجْوَلَ من قُطْرُب، وأسرَى من جُنْدُب، وأنشَطَ من ظَبْيٍ مُقمر، وأسْلَط من ذئبٍ مُتَنَمِّر، واقدَحْ زَنْدَ جَدّك بجدك، واقرعْ باب رَعيك بِسَعْيِكَ، وجبْ كُلَّ فَجٍّ، ولجْ كلّ لجّ، وانتَجِعْ كُلَّ روض، وألقِ دَلْوكَ في كلِّ حَوض، ولا تَسْأَم الطَّلَب، ولا تَمَلَّ الدَّأبَ، فقد كان مكتوباً على عَصَا شيخِنا ساسَان: مَنْ طلَب، جَلَبَ، ومن جَال، نالَ. وإيّاك والكسل، فإنه عُنْوان النُّحوس، ولَبُوس ذَوي البُوس، ومفتاحُ المتربَة، ولِقَاح المتْعبة، وشيِمَة العَجَزَةَ الجهلة، وشِنْشِنَةُ الوُكلَة التُّكلة، وما اشتار العَسل، من اختار الكسل، ولا ملأ الرّاحة؛ من اسْتَوطأ الرّاحة.

* * *

قوله: رتقت، أي ألحمت وسدّيت، وهو ضدُّ فتقْت، تقول: رتقت الشيء، إذا ضممتَ بعضه إلى بعض، وفتقتُه: نقضته، أقتطف: أجني الثمر، وهذا مثل قوله: مِنْ أين تُؤكل الكتف، قالوا: تؤكل من أسفلها، لأن المرقة تدخلُ بينَ عِظَامها ولحمها، فمن أكلها من أعلاها جرت المرقةُ عليه، ولفظ المثل على ذكره أبو عبيد: فلان أعلم من حيث تؤكل الكتف، يُضرب مثلاً لمن جرّب الأمور ودَرَى تَصرُّفَهَا، قال البكري: إن لحم الكتِف إذا أُكِل من أعلاه تناثر، وإذا أُكل من قبَل الغُضروف، لم يتأتّ لآكله. والغُضْروف: اللحم الرَخص المتّصل بأسفل الكتف المتّسع، وقيل: أكل الكتف، إذا أمسك فيها بطرف الغُضْرُوف ربما سقطت فتربَتْ، وإذا أمسكها بالطرف الآخر أمِن من ذلك.

الفنجديهي: لحم الكتف إذا جُذب من الجانب الأسفل انقطع بكليته، وإذا جذب

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الزهد باب ١٤.

من الجانب الأعلى تقطّع اللحم ولم ينقطع، لأنَّ المرقة تجري بين لحم الكتف والعظم، فإذا أخذتَه من أعلاه تصببت المرقة عليك بسرعة، وإذا أخذت اللحم من أسفله تقشّر من عظمها فلم تنصبّ المرقة بالسرعة، وهو مَثَل يُضرب للبصير بالأمور، وقال أوس بن حجر: **[البسيط]**

أم دلَّكُمْ بعضُ من يرتاد مشتمتي   بـأيّ أكـلـة لـحـم تُـؤكـلُ الـكـتـفُ[1]

يقول: أنا أعلم كيف أنالكم.

وقال آخر: **[المنسرح]**

إنّـي عـلـى مـا تـرون مـن كِـبَـري   أعـلـم مـن أيـن تُـؤكَـلُ الـكـتـفُ[2]

قطرب: دويبّة تجول اللّيل كله ولا تنام، ويقال فيه أيضاً: أسهر من قُطرب، وهذا قول أبي عمرو، وغيره يرويه: أسعى من قُطرب، لا أسهر، ويقول: هو دويبة لا تستقرّ بالنهار ويحتجّ بقول ابن مسعود: لا أعرفنّ أحدكم جيفة ليلٍ قُطربَ نهار، وقُطربُ اسم رجل مشهور، وهو ابن المستنير صاحب المثلّث وكان من أهل العربية فجلس لسيبويه يناظره، فلما رآه سيبويه قد احتدّ بالسؤال قال: إنك لقطرب ليلٍ، فسمّي بذلك، والقُطْربُ أيضاً ذكر الغيلان، ابن ظفر ذكر مَنْ يعوّل عليه أنه حيوان يكون بالصعيد من أرض مصر، يظهر للمنفرد من الناس، فربما صده عن نفسه إذا كان شجاعاً وإلاّ لم ينته حتى ينكحه، فإذا أنكحه تدوّد دُبره وهلك، قال: وهم إذا رأوا من ظَهَر له القطرب قالوا: أمنكوح أم مروّع، فإن قال: منكوح يئسوا منه. وإن قال: مروّع سكنوه وعالجوه، قال: فقد رأيتُ أهل مصر وما بين يديها وما خلفها، وتحققت أهل صعيدها والعربان، وهم مستوون في الجهل بهذا الحيوان، ومختلفون الاختلاف الشديد في فعله وصورته، إلا أن أهل مصر أكثر لهَجاً به. والقطارب أيضاً: صغار الكلاب.

قوله: أسري، أي أمشي بالليل، الجندب: ذكر الجراد، وقيل: هي دويبّة تشبه الجراد ذات جناحين، فلا تزال ترمح. ولفظ المثل: أسرى من جراد. مقمر: لاعب في القمر، وأنشط: أخفّ، والظبي يأخذه النشاط في الليلة المقمرة فيلعب، متنمر: متشبه بالنَّمر وهو سَبُعٌ مؤذ، جدّك: حظّك، اقرع: اضرب. رَعيك: أكلك. وأراد بباب رعيك الذي يجيئك منه الرزق، ألق دلوك إلى كل حوض: لفظ المثل «ألق دلوك في الدلاء»، يضرب في بذل الجهد في اكتساب المال والبحث عليه، وهو كما قال الشاعر: **[الوافر]**

ولـيـس الـرزق عـن طـلـب حـثـيـث   ولـكـن ألـق دلـوك فـي الـدلاء[3]

---

(١) البيت في ديوان أوس بن حجر ص ٧٦.

(٢) البيت لقيس بن الخطيم في ديوانه ص٢٣٩، وفيه «على ما ترين» بدل «على ما ترون».

(٣) البيتان لأبي الأسود الدؤلي في ديوانه ص ١٦٠، ٣٠٤، ٤٢٥، وجمهرة الأمثال ١/ ٧٤، وبلا نسبة=

تـجـئـك بـمـلـئـهـا طـوراً وطـوراً تـجـئـك بـحـمـأةٍ وقـلـيـل مـاء

قوله: فقد كان مكتوباً على عصا شيخنا ساسان، الفنجديهي قرأت في بعض الفوائد أنه كان مكتوباً على عصا ساسان المكدِي: الكسل شؤم، والتمييز مذموم، والحركة بركة والتواني هِلكة، وكلبٌ طائف: خير من أسد رابض، ومَنْ لم يغترف: لم يعتلف جال: تصرّف ومشى في البلاد، نال: أدرك حاجته، عنوان: دليل، النحوس: جمع نحس، وهو ضدُ السعد، وذوي البؤس: أهل الفقر: لقاح المتعبة، أي أصلها وسببها، شيمة: طبيعة، وكذلك الشنشنة، الوكُلة التُّكلة: هو العاجز الذي يَكلُ أمره لغيره ويتّكل عليه فيه. أشتار: حرّك واستخرج، الراحة الأولى: الكفّ، والثانية ضدُّ التعب.

وعليك بالإقدام، ولو على الضّرغام، فإن جَراءة الجَنان، تُنطق اللّسان، وتُطلق العِنان، وبها تُدرك الحُظوة، وتُمْلَك الثروة، كما أن الخَور صِنْوُ الكسلِ، وسَبَبُ الفشل، ومبْطأة للعمل، ومخيَبةٌ للأمل، ولهذا قيل في المثل: مَنْ جَسَرَ، أَيْسَ، ومن هابَ، خاب. ثمّ ابرُز يا بني في بكورِ أبي زاجرِ، وجراءة أبي الحارث، وحَزَامةِ أبي قُرّة، وخَتْلِ أبي جَعدة، وحِرْصِ أبي عُقْبة، ونَشَاطِ أبي وَثّاب، ومَكْرَ أبي الحُصَين، وصَبْر أبي أيّوب، وتلَطُّف أبي غَزْوان، وتلَوُّن أبي بَرَاقش، وحيلةِ قَصِير، ودهَاء عمرو، ولُطف الشعبيّ، واحتمال الأحنف، وفِطْنَةِ إياس، ومجَانة أبي نُواس، وطَمَع أشْعَب، وعَارِضَة أبي العَيْناء.

* * *

الإقدام: الجراءة، الضرغام: الأسد. والجراءة: الشجاعة. والجَنان: القلب. والحظوة: المنزلة الرفيعة، والثروة: الغنى. صنو: أخ. الفشل: الضعف والحيرة، يريد أن فَزَع النفس وضعيفها يخيّب الأمل والرجاء، وقال معاوية: الهيبة مقرونٌ بها الخيبة.

أبو زاجر: هو الغراب، سُمّي بذلك، لأن العرب تزْجُر به وتتشاءم، وتقدَّم ذلك، ومن وصيته لولده على ألسنتهم، قالوا: قال الغراب لابنه: يا بنيّ إذا رميت فتلوّص أي تلوّ، قال: يا أبت أنا أتلوّص قبل أن أرمي، وقال لابنه قد رأى رجلاً فوّق سهماً: يا بني اتّئد، حتى تعلم ما يريد الرّجُل، فقال: يا أبت، الحذر قبل إرسال السهم.

وأبو الحارث: الأسد كني بذلك لاحترائه، أي لاكتسابه بقوته.

وأبو قرّة: الحرباء كني بذلك لأن البرد لا يفارقه. فالحرباء تدور لذلك مع الشمس حيثما دارت، وتقدّم حزامتُها، ومرّ أنها لا تفارق ساق الشجرة حتى تمسك ساق الأخرى.

= في أساس البلاغة (دلي)، وفصل المقال ص ٢٩٣، وكتاب الأمثال ص ١٩٩، والمستقصى ١/ ٣٣٨، ومجمع الأمثال ٢/ ٩٠، والمخصص ١٦/ ٣١.

وأبو جعدة: كنية الذئب، وهي كنية بالضدّ لأن جعدة عندهم الشّاة، ولما كان الذئب يقتلها حيث وجدها جعلوه أباها بضدّ ما يفعل الأب الذي لا يقال له أب إلا لوجود الرحمة عنده على بنيه، ونحوها قولهم للأسود: أبو البيضاء، والختل: المكر.

وأبو عقبة الخنزير، ومن حرصه أنه يمشي بالليل وبالأسحار لطلب ما يأكل، ويستتر بالنهار حرصاً على السّلامة.

وأبو وثاب: الظّبي وكني بذلك لسرعة وثبه.

وأبو الحصين: الثعلب، وهو أكثر الحيوان مكراً، ومن بعض مكره أنّه إذا رأى الغلبة تماوت فلا تشكّ في أنه ميّت، فإذا وقع له غير عارف تركه فما يمرّ يسيراً حتى يقوم فارّاً أو تحصينه يبصل العنصل من الذئب، لأن الذئب لا يطؤه في زعم قوم، وقالوا: إنّ الضبُع صادت ثعلباً، فقالت: أخيّرك يا ثعلب بين خصلتين، فقال: ما هما؟ فقالت: إما أن آكلك وإما أن أكلمك، فقال لها الثعلب، أما تذكرين يوم نكحتُك؟ فقالت: متى؟ فانفتح فوها وانفلت الثعلب، فذكروا ذلك مثلا، وقالوا: ضرب عليه خصلتي الثعلب، وقالوا: إن الثعلب اطّلع في بئر وهو عاطش وعليها رشاء في طرفيه دلوان، فقعد في الدلو العليا فانحدرت، فشرب، فجاء الضبع فاطلعت في البئر، فأبصرت القمر في الماء منتصفاً والثعلب قاعد في قعر البئر فقالت له: ما تصنع هنا؟ فقال لها: إني أكلت نصف هذه الجبنة وبقي نصفها لك فانزلي فكليها، فقالت: وكيف أنزل؟ قال: تقعدين في الدلو فقعدت فيها، فانحدرت وارتفع الثعلب في الدلو الأخرى فلمّا التقيا في وسط البئر قالت له: ما هذا؟ قال: كذا التّجار، نختلف، فضربت بها العرب المثل في المختلفين، وأوصاف مكره كثيرة.

وأبو أيوب: الجمل سُمّي بذلك لأنه أصبر الدوابّ على العطش والجوع وقطع الأشهر بالسير المتصل ونقل الأوقار، ومهما كان به شيء من قوّة تجلّد، فإذا وقف عُلم أنه ليس فيه بقية ينتفع بها.

وأبو غزوان الهرّ لغزوه الفئران وخشاش الأرض وتلطّفه يظهر في محاولاته لتصيد الفأر فإذا قدمت المائدة: قرُبَ منها وأخذ يتلطف في صياحه ويتضرّع ويحتكّ بالمائدة أو بالأكل حتى يعطى.

وأبو براقش: طائر أغبر أوسطه أحمر، إذا انتفض تلوّن ألواناً. أخذ الحريريّ هذا الفصل من كلام العلماء، قالوا: ابن آدم هو العالم الكبير الذي جَمَع الله تعالى العالم كلّه فيه فكان فيه بَسالة الأسد وصبر الجمل وحرص الخنزير وحذر الغراب ورَوَغان الثعلب؛ وضرع السِّنّور، وحكاية القرد وجُبْن الصقر.

قيل لرجل من كبار العلماء وكان بليداً سريع النّسيان في ابتداء تعلّمه: بم أدركت العلم مع بلادتك وكلل خاطرك؟ قال: ببكور كبكور الغراب وصَبْرٍ كصبر الجمل وحِرص كحرص الخنزير.

واخلُبْ بصَوْغ اللّسان، واخْدَعْ بِسِحْر البيان، وارتَدِ السُّوقَ قَبْل الجَلَب وامتر الضّرع قبل الحَلَب، وسائِل الرُّكْبَان قَبْل المُنْتَجع، ودمِّثْ لِجَنْبِكَ قَبْل المضْطجَع، واشْحذْ بصيرتَك للعيافِة، وأنعِمْ نَظَركَ لِلقِيافَة، فإنّ مَنْ صَدَقَ توسُّمه، طال تَبَسُّمه، ومن أخطأت فِرَاستُه أبطأت فَرِيسته.

وكُنْ يا بُنيّ خفيف الكَلّ، قليل الدّل، رَاغِباً عن العَلّ، قانعاً من الوَبْل بالطّلّ. وعظّمْ وقع الحقِير، واشْكُرْ على النَّقير، ولا تقْنَط عِند الرّدّ. ولا تسْتَبعِد رَشْحَ الصَّلْد، ولا تيئس من رَوح الله، إنه لا يَيْئَسُ مِن رَوْحِ الله إلاّ القَومُ الكافرُونَ.

وإذا خيِّرتَ بَيْنَ ذَرَّة منْقودة، ودُرّةٍ مَوعودة، فمل إلى النّقد وفضّل اليوم على الغد، فإنَّ للتأخير آفات وللعزائم بَدَوات، وللعِداتِ مُعَقَّبات، وبَيْنَهَا وبين النَّجازِ عَقَبات وأيّ عَقَبَات.

* * *

قوله: اخلُب بصوغ اللسان، أي بعذوبة الكلام، قال ابن كناسة الشاعر: كنت أتكلم بكلام فلو لم يجدْ سامعه إلا القطن الذي في وجه أمه في القبر، لتغلغل إليه حتى يخرجه ويهديه إليّ. وأنا اليوم أتحدث بذلك الحديث بعينه فما أفرغ منه حتى أُهِيِّىء له اعتذاري وارتّد، أي اطلب. والجلب: ما يجلب إلى السوق للبيع، امتر: امسح، ويفعل ذلك بالضرع لأنه يُدرّ لبنه. المنتجع: موضع العشب، أراد به موضع طلب الرزق، دَمِث: ليّن، اشْحَذ: اجلُ واصقل، وقال في الدّرة: ويقولون: شحّات بالتاء، وصوابه. بالذال لأن اشتقاقه من شحذت السيف، إذا بالغت في إحداده فكأنّ الشحاذ هو الملِحّ في المسألة المبالغ في طلب الصّدقة، بصيرتك: ذهنك، العيافة: زجر الطير، أنعم: بالغ، القيافة: الاستدلال على الولد، وذلك أن ينظر خِلقته وصفته، فيشبّهه بأبيه. توسمه: نظره، الفِرَاسة: الحكم بحالات الشيء على ما يكون منه في المستقبل. الكلّ: الثقيل، والدّلّ والدّلال بمعنى واحد، العَلّ: الشّرب بعد الشُّرب وراغباً عنه: تاركاً له: النقير: حفرة في ظهر نوى التّمر، ومنها تنبت النخلة، تقنط: تيأس، روح الله: رزقه. ولبعضهم في هذا المعنى: **[المتقارب]**

سَيُفْتَح بابٌ إذا سُدَّ بَابُ ... نعم وتلين الأمور الصِّعَابُ
ويتّسع الحال من بعدما ... تضيق المذاهب فيه الرّحابُ
مع العسر يُسْرَان هوّن عليك ... فلا اليسر دامٍ ولا الاكتئابُ
إذا احتجبَ الناس من سائل ... فما دون سائل ربِّي حجابُ

آخر: **[الطويل]**

عَسَى فرجٌ يأتي به الله إنه ... له كلَّ يومٍ في خليقته أمْرُ
إذا اشتدّ عسرٌ فارج يُسْراً فإنه ... قضى الله أن العسْر يتبعه يسرُ

آخر: [الوافر]

فلا تجزَعْ إذا أعْسَرْت يوماً ... فقد أيْسَرْتَ في الزَّمن الطويل
ولا تيأس فإن اليأس كفر ... لعل الله يُغْنِي عن قليل
وإن العسرَ يَتْبَعهُ يسارٌ ... وقول الله أصْدَقُ كلِّ قيلِ
ولا تظننْ بربّك ظنَّ سوء ... فإن الله أوْلَى بالجميل

قوله: ذَرّه، كناية عن الشيء القليل: دُرّة: جوهرة. آفات: جوائح. وللعزائم بدوات، يريد أنّ الإنسان يعزم على فعل الشيء في وقت ثم يبدو له ألاّ يفعله. النّجز: تعجيل قضاء الحاجة، وقد قدّم مثل هذا المعنى عند قوله: [الطويل]

* وبع آجلا منك بالعاجل *

* * *

وَعَليْك بصبْرِ أُولِي الْعَزْم، ورِفقِ ذَوِي الْحَزْم، وجَانِبْ خُرْقَ المشْتط، وتخلَّقِ بالْخُلُقِ السَّبْط، وقيّد الدِّرْهم بالرَّبط، وشُبِ البذْل بالضَّبط، ولا تجعل يَدَكَ مغلولَةً إلى عُنُقِك ولا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْط، ومَتَى نَبَا بِكَ بلد، أو نابَكَ فيه كَمَد، فبُتَّ منه أمَلَك، واسْرَحْ عَنْهُ جملَك، فخيْرُ البلادِ ما جَمَّلَك، ولا تَسْتثْقِلَنَّ الرِّحْلَة، ولا تَكْرَهَنَّ النُّقْلَة، فإنّ أعْلامَ شريعتِنا، وأشياخَ عشيرتنا، أَجْمَعُوا على أنّ الحركة بَرَكة، والطَّرَاوة سُفْتَجه، وزَرَوْا عَلَى مَنْ زعَم أنّ الغُرْبة كُرْبة، والنُّقْلَةَ مُثلة، وقالوا: هي تَعِلَّةُ منِ اقتنع بالرّذيلة، ورَضِيَ بالْحَشَفِ وسُوءِ الكِيلَة. وإذا أزْمَعْتَ على الاغْتِرَاب، وأعْدَدْتَ لهُ الْعَصا والجِراب، فتخيّر الرّفيق المُسْعِد، من قبل أن تُصْعِد؛ فإن الجارَ قبْلَ الدار، والرّفيقَ قبل الطريق. [مجزوء الكامل]

خُذْها إليك وصيّةً ... لم يُوصِها قبْلِي أحَدْ
غرّاءَ حاويةً خلا ... صاتِ المعاني والزُّبَدْ
نقّحتُها تنقِيحَ مَنْ ... مَحَضَ النّصِيحَةَ واجْتَهَدْ
فاعملْ بما مثّلْتهُ ... عمل اللّبيبِ أخِي الرّشَدْ
حتّى يقولَ الناس هَـ ... ـذَا الشّبْلُ من ذَاكَ الأسَدْ

* * *

المشتطّ: المتجاوز القدر في محاولته. والخُرْق ضدّ الرتق. السَّبْط: السهل. شُبْ: أخلط. البَذْل: العطاء. والضّبط: الحبس. قال أبو حاتم الداري: دخلت مع أبي مدينة السلام فرأيت رجلاً واقفاً على الطريق يلعب بحيّة ويقول: مَن يهب لِي درهماً حتى أبتلع هذه الحية؟ فالتفت إليّ أبي وقال: يا بني احفظ دراهمَك فمن أجلها تُبْلَع الحيات. مغلولة: محبوسة، أي لا تكن شحيحاً ممسِكاً ولا كريماً متلفاً. نابَك: نزل بك. كمد: حزن. بتّ: اقطع. أملك، أي رجاءك: أسرح عنه، أي أزله وسرحه بالمشي إلى غيره. الرّحلة: الارتحال. النّقلة: الانتقال. أعلام شريعتنا: مشايخ طريقتنا. الطّراوة: أن يطرأ على بلد لم يره. السّفتجة: ما أتاك بغير تكلّف ولا مشقّة، وهي عند أهل المشرق أن يأخذَ الرجلُ الدراهمَ والدّنانير، فيعطيها صاحبه، ويقول: احملها لي معك لأمْن طريقِك، ولمنَعتك إلى بلد كذا فادفعْها إليّ، ثم فإن طريقي غير آمن من اللصوص. قال مالك رضي الله تعالى عنه: إن قَصَد بها المنفعة لَم يُجزْ لأنه سَلَفٌ جرّ منفعة، فيقول: الطراوة على الناس كالسَّفْتَجة، ترغب لك في أخذ الدراهم، وقد يكون منك تمنّع عن أخذها. زرَوْا: عابوا. كربة: همّ، وقالَ: مَنْ ذمّ السفر: الغربة كربة والنّقلة مُثلة، والغريب كالغرس الّذي زايل أصله وفقد شربه، فهو ذاوٍ لا يثمر وذابلٌ لا ينضر. إذا كنت في غير بلدك فلا تَنْس نصيبك من الذل. تعلّة: عذر. الرذيلة: الدون من كلِّ شيء. الحشَف: الرديء من التمر. الكِيلة الهيئة، ومعناه أنه اجْتمع عليه عيبان: تمر فاسد وكيل ناقص. أزمعت: عزمت. الاغتراب: الجوَلان والغربة. الْجُراب: الوعاء للزاد. المسعد: الموافق القليل الخلاف. تُصعد: ترتفع وتخرج، الجار قبل الدار، يقول: لا تشتر داراً حتى تعلم مَنْ جيرانُك، وكفى الجار أن قال ﷺ في حقه: «ما زال جبريل يُوصيني بالجار حتى خفت أن يورّثه»[1]، وقال الزاهد ابن عمران: **[البسيط]**

لا خيرَ في الدار ما لم يحمَد الجارُ	لِتُغْنَ بالجار قبل الدارِ تسكنُها
نعم الخليفَةُ هم أهلٌ وأَنصارُ	الجار إن غبت عن أهلٍ وعن وطنٍ

والجار المساعد أحسن من القرابة. ويروى أن رجلاً كان جاراً لأبي دلف ببغداد، فأدركته حاجة، وركبه ديْن فادح حتى احتاج إلى بيع داره، فساوموه فيها، فسمّى لهم ألف دينار، فقالوا له: إنّ دارك تساوي خمسمائة دينار، فقال: أبيع داري بخمسمائة وجوار أبي دلف بخمسمائة، فبلغ أبا دلف الخبر، فأمر بقضاء ديْنه ووصلَه، وقال: لا تنتقل من جِوارنا، فانظر كيف صار الجوار يُباع كما يباع العقار، وقال الشاعر: **[الطويل]**

---

(١) روي بطرق وأسانيد متعددة، أخرجه البخاري في الأدب باب ٢٨، ومسلم في البر حديث ١٤٠، وأبو داود في الأدب باب ١٢٣، والترمذي في البر باب ٢٨، وابن ماجه في الأدب باب ٤، وأحمد في المسند ٢/ ٨٥، ١٦٠، ٢٥٩، ٣٠٥، ٤٤٥، ٤٥٨، ٥١٤، ٥/ ٣٢، ٢٦٧، ٣٦٥، ٦/ ٥٢، ٩١، ١٢٥، ٢٣٨.

يلومونني إن بعت بالرّخص منزلِي ولـم يـعـلـمـوا جـاراً هـنـاك يـنـغِّـصُ
فـقـلـت لـهـم كـفُّـوا الـمـلام فـإنـمـا بـجـيـرانـهـا تـغـلُـو الـديـارُ وتـرخُـصُ

غراء: ظاهرة حسنة. حاوية: جامعة. خلاصات: جمع خلاصة، وهو الذي يتخلَّص من الشيء ويصفو منه، والزُّبد: جمع زبدة اللبن. نقَّحتُها: هذَّبتها. محَضَ: أخلص. اللبيب: العاقل. أخي الرّشد: صاحبُ الرّشد. الشِّبل: ولد الأسد.

* * *

ثم قال: يا بنيّ، قد أوصيتُ واستقصيْتُ، فإن اقتديتَ فواهاً لك، وإن اعْتدَيت فَآهاً منك، والله خليفتي عَلَيْك، وأرجو ألاّ تُخلف ظنّي فيك. فقال له ابنه: يا أبتِ لا وُضِع عَرْشُكَ، ولا رُفِع نعشُك، فلقد قلتَ سَدداً، وعلَّمتَ رَشَداً، ونَحلْتَ ما لم يَنْحَل والدٌ ولَداً، ولئن أُمْهِلتُ بَعْدك ـ لا ذقتُ فَقْدَك ـ فلأ تأدَّبَنَّ بآدابك الصَّالحة، ولأقتديَنّ بآثارِك الْواضحة؛ حتى يقال: ما أشْبَه اللَّيلَة بالبارحة والغادية بالرّائحة! فاهتزّ أبو زيد لجوا بِهِ وابْتَسَم، وقال: مَنْ أشبه أباه فما ظَلَم.

قال الحارث بن همام: فأُخْبِرتُ بأن بَنِي سَاسَان، حينَ سمعوا هذِي الوصايا الحسَان، فضَّلوها على وَصايا لقمان، وحفظوها كما تُحفَظُ أُمُّ القرآن؛ حتَّى أَنَّهُمْ ليرونَها إلى الآن، أوْلَى ما لَقّنُوه الصّبيان، وَأَنْفع لهم من نحلةِ العِقْيَان.

* * *

غرَّاء: ظاهرة حسنة. حاوية: جامعة. خلاصات: جمع خلاصة وهو الذي يصفو منه، والزبد: جمع زبدة اللبن. اقتديت: اتّبعتَ وصيتي. واهاً: عجباً. اعتديت: ظلمت. آها: كلمة معناها التوجّع. عرشك: سريرك، والمعنى أنه يدعو له بالبقاء. سَدَداً: صوابا. نحلت: أعطيت. الواضحة: البينة. الغادية: السحابة تأتي بالغدو. والرّائحة بالعشيّ، قال الفراء النحويّ: مَنْ أشبه أباه فما ظلم مثل أخذه الناس من قول كعب بن زهير: [الطويل]

أنا ابنُ الذي لم يخزِني في حياته قديماً ومَنْ يشبِهْ أباه فما ظلمْ[1]

لقّنوه: عَلّموه. أوْلَى: أحق. نحْلة: عطية. العِقْيان: الذّهَب.

---

(١) البيت في ديوان كعب بن زهير ص ٦٥، ومقاييس اللغة ٣/ ٤٦٨، وهو بلا نسبة في مقاييس اللغة ٣/ ٢٤٤.

وهي البصرية

حكى الحارث بن همام قال: أشْعِرْتُ في بعض الأيام هَمًّا برَّح به استعارُه، ولاحَ عليّ شعارُه، وكنتُ سمعت أن غِشيان مجالِسِ الذّكْر، يَسرُو غواشِيَ الفِكْر، فلم أر لإطفاء ما بي من الجمْرَة، إلاَّ قَصْد الجامع بالبَصْرة، وكان إذ ذَاك مأهولَ المساند، مَشْفوه الموارد، يُجتنَى من رِياضِه أزاهيرُ الكلام، ويُسمع في أرجائه صَرِيرُ الأقلام، فانطلقْتُ إليه غير وَانٍ، ولا لاوٍ على شان، فلمَّا وطئتُ حصاه، واستشرفتُ أقْصاه، تراءى لي ذو أطمارٍ بالية، فوق صخرة عَالِية، وقد عَصَبَتْ به عُصَبٌ لا يحْصَى عديدُهم، ولا ينادى وليدُهم، فابتدرْتُ قَصْدَهُ، وتورّدْت وِرْدَه، ورجوتُ أَنْ أجِدَ شِفائي عنده، فلم أزل أتنقّل في المراكز، وأغْضِي للاكز والوَاكِزِ، إلى أن جلستُ تُجاهَه، بحيثُ أمِنْت اشتباهَه، فإذا هو شيخنا السَّرُوجيّ لا ريْبَ فيه، ولا لَبْس يُخْفِيه، فَانْسَرَى بمرْآه هَمِّي، وارْفَضَّتْ كتيبة غمّي.

* * *

أُشعرت: أُلبِسْت. برّح: شق واشتدّ. استعارُه: توقّده في القلب. لاح: ظهر، يريد أنه لبس الهمّ كالشِّعَار. والشِّعَار: ثَوب يلي الجسد، والشّعار علامة القوم في الحرْب، فمعناه عَبَس وجْهُه من شدة الهم. يسرو: يزيل. غواشي الفكر: ما يغشاه ويدخل عليه من الهمّ. مأهول: كثير الأهل. المساند: جمع مُسْنَد، وهو ما يسند إليه ظهره، أراد مواضع العلماء المتصدّرين لِلإقراء. والموارد: مواضع المياه. مشفوه: كثيرة الشفاه عليه للشّرب، وأراد ازدحامَ الطلبة على الأشياخ لأخذ العلم. أزاهير: أنوار. أرجائه: نواحيه. صرير: أصوات. وانٍ: مقصّر. لاوٍ على شان: معرّج على أمر. استشرفت أقصاه: اطَّلعت بنظري عليه كله. تراءى: ظهر. أطمار: ثياب خَلَقة. عصبت: أحدقت وحلّقت. عُصَب: جماعات. لا ينادَى وليدهم، هذا مثل يستعمل في الأمر المعجب المبالغ في وصفه المعجب منه، وقد يؤوّل على تأويلات، وهو يستعمل في الخير والشر. والرخاوة والشدة. ابتدرت قصده، أي عجلت المشي إلى جهته. توردت وِرْده، أي طلبتُ منفعتَه. والمراكز: مواضع الجلوس، ومركز الرجل: موضعه، وركزت الشيء غرستُه. أغضِي:

أغمض على المكروه. اللاكز: الضارب في الصدر. الواكز: الضارب في ناحية الفم، والوكز واللّكز بجُمْع اليد. تُجاهه: قبالة وجهه. اشتباهه: التباسه بغيره. يخفيه: يستره. انْسَرَى: زال وانكشف. ارفضّتْ: تفرّقت. كتيبة غمي، أي عسكره.

* * *

وحِينَ رَآني، وبَصُرَ بمكاني، قال: يا أهلَ البصرة، رَعاكم الله ووقَاكم، وقوّى تُقَاكم، فَمَا أضْوعَ رَيَّاكم، وأفْضَلَ مَزَايَاكم، بلدُكم أوفَى البِلادِ طُهْرَة، وأَزْكَاها فِطْرَة، وأَفْسَحها رُقعة، وأمْرَعها نُجْعة وأقومُها قِبْلة، وأوسعُها دِجْلة، وأكثرُها نهراً ونَخلْة، وأحسنُها تفصيلاً وجملة، دِهْلِيزُ البلد الحرام وقُبالة الباب والمقام، وأَحَدُ جَنَاحَي الدُّنْيا، والمِصْرُ المؤسّسُ على التَّقْوى، لم يَتَدَنّس ببيُوت النِّيران، ولا طِيف فيه بالأوْثَان، ولا سُجِد على أَدِيمه لغيرِ الرَّحْمن، ذَو المشاهد المشهودة، والمساجِد المقصودة، والمعالِم المشهورة، والمقابرِ الْمَزُورة، والآثارِ المحمودة، والخِططِ المحدودة، به تَلْتقي الفُلْكُ والرِّكاب، والحيتانُ والضِّباب، والحادِي والملاّح، والْقَانص والفَلاَّح، والنَّاشب والرّامح، والسَّارح والسَّابح، وله آيةُ المدّ الفائض، والجزْرُ الغائض.

* * *

وقوله: وحين رآني، يريد أنّ السَّروجي علم أنّ ابن هَمَّام يَعرِف مكره الناس في كل بلد، فخشي ألاّ يُسمح له بخداع أهل بلده، فأخذ يمدح البصْرة وأهلَها ليرضيه بذلك. رعاكم الله: حَفَظكم. وقاكم: كفاكم ما يحذر. تقاكم: خَوفكم لله. أَضْوَعَ رَيَّاكم: أفْوَح رائحتكم. مزاياكم: فضائلكم الّتي خُصِصتم بها. أوْفَى: أكمل. أفسحها: أوسعها. الرقعة: القطعة من الأرض. أمْرَعها: أخصبها. النُّجعة: موضع العشب ينتجعه النّاس. دِجْلة: نهر البصرة. تفصيلا وجملة، يقول: إن جزئت مواضعها وتناظر كل جزء منها مع كل جزء من غيرها كان لها الفضلُ، فإن قيل: أي البلاد أحسن على الجملة؟ قيل البصرة. الدّهليز: أسطوان الدار ومدخله، والمقَام: موضع قيام إبراهيم عليه السلام عند الكعبة للدّعاء. أحد جناحي الدنيا: من قول أبي هريرة: «الدنيا على مثال الطائر، فالبصرة ومصر الجناحان فإذا خربا وقع الأمر». المؤسس على التقوى: الذي بُنِي أساسُه في الإسلام. يتدنس: يتوسّخ. الأوثان: الأصنام. أدِيمه: جلده، أراد به أرضه. الْخِطَط: الدور والأزقّة. المختطة: الموسومة ليبني فيها. الفُلْك: السفن. الركَاب: الإبل، يريد أنها بحرية برية. الضِّباب: جمع ضَبّ. الحادي: سائق الإبل فإذا كان الحادي حسنَ الصوت بلغت الإبل جهدَها في المشي. الملاح: خادم السفينة. القانص: صائد الحوت. الفلاح: الحرّاث. الناشب: الرامي النشّاب. الرامح: الطّاعن بالرمح، أراد الإغزاز لأنهم

رماة والعرب لأنهم أصحاب رماح. والسّارح: راعي الإبل، والسابح: العائم في الماء. آية: علامة. المدّ والجزر، أي زيادة البحر ونقصانه وهما الملء والحصر، ونهر البصرة يركض فيه البحر.

* * *

وأمّا أنتم فمّمن لا يَخْتَلِفُ في خصائصهم اثنان، ولا يُنْكِرُها ذُو شنآن؛ دَهْمَاؤكم أَطْوَعُ رعيَّةً لِسُلطَان، وأَشْكَرُهم لإحسان، وزاهدكمْ أَوْرَعُ الخليقة، وأَحْسَنُهُمْ طريقَةً على الحقيقة، وعَالمكم علامة كُلِّ زمان، والحجّةُ البالِغَةُ في كلِّ أَوانٍ، ومنكمْ من اسْتَنبطَ عِلْمَ النَّحْو ووضَعه، والّذي ابتَدَعَ مِيزَان الشِّعْرِ واخْتَرَعه، وما مِنْ فَخْرٍ إلاّ ولَكُمْ فِيهِ الْيَدُ الطُولَى، والقِدْحُ المعلَّى، ولاَ صِيتٍ إلاّ وأَنْتُم أَحقُّ به وَأَوْلَى. ثمَّ إنّكُمْ أَكْثَرُ أَهل مِصْرٍ مؤذّنين، وأَحْسَنُهُمْ في النُّسْكِ قَوانينَ، وبِكُمْ اقْتُدِيَ في التَّعريف، وعُرِفَ التّسْحِيرُ في الشَّهْرِ الشَّريف، ولكم إذا قَرَّتِ المضاجِعُ، وهَجَعَ الهَاجع، تَذْكارٌ يُوقظُ النَّائم، ويُؤْنِسُ القائم، وما ابتسم ثَغْرُ فَجْر، وَلاَ بزغَ نورُهُ في بَرْدٍ ولا حرّ، إلاّ ولتأذِينكُمْ بالأسحار، دَوِيٌّ كدَويّ الرّيح في البحار. وبهذا صَدَع عنكم النّقل، وأَخبر النبيّ عليه السلام مِنْ قَبْل، وبَيَّنَ أَنّ دَوِيَّكُمْ بالأسحار، كَدَويّ النّحْل في القِفار، فشرفاً لكم بِبِشارة المصطفى وواهاً لِمِصْرِكم وإنْ كان قَدْ عفا، ولم يَبْق منه إلاّ شفا.

* * *

خصائصهم: ما يختصون به من الفضائل، أراد أن البصرة اجتمعت فيها الأشياء المتنافرة والمتضادة الّتي لا تجتمع ببلد، فهي أجمع بلاد الله فائدة، قال ابن أبي عيينة في نحوه: **[البسيط]**

زُرْ واديَ القصر نعم القصر والوادي ... لا بدّ من زَوْرة من غير ميعادِ
زُرْه فليس له شبه يقاربه ... مِن منزِلٍ حاضر إن شئت أَو بادِ
تَرى قراقره والعيس واقفةٌ ... والضَّبُّ والنون والملاّح والحادِي

[البصرة]

والبصرة اختطّها عُتْبة بن غَزْوان صاحب رسول الله ﷺ بأمْر عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعُتبة بدريّ مهاجريّ، بناها سنة أربع عشرة من الهجرة فمرّ بموضع منها فوجد الكذّان، وهي الحجارة الرّخوة فقال: هذه البصرة، انزلوها بسم الله، فسمِّيت لذلك البَصْرة، واختُطّت الكوفة سنة سبع عشرة من الهجرة في المحرّم، وكُسِرت البصرة في

أيام خالد القسري فوجد طولها فرسخين في مثلهما والكوفة ثلثاها. وأمّا في أيام المنصور فقسَم على مَن يستوجب العطاء من أهل البصرة ألْف ألْف درهم، فأصاب كلَّ رأس درهمين.

ولأهل البصرة ثلاثة أشياء ليس لأحد من أهل البلدان أن يدّعيَهَا عليهم: النّخل والشّاء والحمام، أما النخل فهم أعلم خلق الله به وأحذقهم بإصلاحه، وفيها من أصناف النخل ما ليس في بلد من البلدان، وأما الشاء المعبدية فقد وفد على رسول الله ﷺ رجل من عبد القيس، فقال: يا رسولَ الله إني رجل أحبّ الشاء، فدفع له فحلا من المعز فقبض بيده على أصل أذنه، حتى استدارتْ أصابعه، فصار في أذنه كالسِّمة فسار إلى بلده فأطرقه شاءه، فحُملت إلى البحرين، فتناسلت هناك فليس في البحرين شاة كريمة إلا وفي أذنها سمة كالحلْقة، فيغالَى بها لتلك العلامة حتى تبلغ الشاة منها خمسين ديناراً، وتعقد بالبصرة عقودها، وفيها شاة لبني فلان أمّها فلانة، وأبوها تيس بني فلان، مقدار حلبها بالغداة والعشيّ كذا. وحمامهم بلغت في الهِداية أن جاءتْ من أقاصي بلاد الروم ومن مصر إلى البصرة وينتهي ثمنُ الطائر منها إلى تسعمائة دينار، وتباع بيضتها بعشرين ديناراً، وكلّ ما وصف في المقامة موجود في البصرة، ولمّا صعد عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه منبرها خطب وقال في آخر خطبته: يا أهلَ البصرة، يا بقايا ثمود ويا جند المرأة، ويا أتباع البهيمة، دعا فاتَّبعتم، وعقر فانهزمتم، أما إني أقول لا رغبةً فيكم ولا رهبة منكم، غير أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أرض يقال لها البصرة، أقْوَم الأرضين قبلة، قارئها أقرأ الناس، وعابدها أعبد الناس، ومتصدقها أكثر الناس صدقة، وتاجرها أعظم الناس تجارة منها إلى قرية يقال لها الأبلّة أربع فراسخ، يستشهد عند مسجدها سبعون ألفا، الشهيد منهم كالشهيد في يوم بدْر». فبنى الحريري في مدح البصرة على هذا الحديث، وإنما ختم كتابه بذكر البصرة وأهلها لتقوى مفاخرهم، ومفاخر بلدهم في البلدان فيلهجون بالمقامات ويقدمونها على غيرها.

قوله: شنآن، أي عداوة. دهماؤكم: جماعاتكم، والدهماء معظمُ الناس وأكثرهم. والدّهم: العدد الكثير. عابدكم: زاهدكُمْ كالحسن البصري ومحمد بن سيرين وغيرهما. الخليقة، أي أخوف النّاس من الله تعالى. علاّمة: كثير العلم.

[أبو الأسود الدؤلي]

ومستنبط علم النحو هو أبو الأسود الدؤلي، واسمه ظالم بن عمرو بن جندل بن سفيان أحد بني الديل من كنانة، وهو يعدّ في التابعين والمحدّثين والشعراء والبخلاء والنّحويين، ويُعدُّ في العُرج والمفاليج والبُخْر، شهد مع علي رضي الله عنه صِفّين، وولي البصرة لابن عباس رضي الله عنهما، وكان من شيعة عليّ وكانت امرأته عثمانية، وكان أصهاره لا يزالوا أن يردّون عليه قوله في عليّ، فقال فيهم: [الوافر]

يـقـولُ الأرذلـون بـنـو قُـشَـيْـرٍ طَـوالَ الـدَّهـر لا تـنـسـى عـلـيّـا
فـقـلـت لـهـم وكـيـف يـكـون تـركِـي مـن الأعـمـال مـا يـعـصـي عَـلـيّـا
أحـبّ مـحـمـداً حـبـاً شـديـداً وعـبـاسـاً وحـمـزة والـوصـيّـا
بـنـو عـمّ الـنـبـي وأقـربُـوه أحـبُّ الـنّـاس كـلُّـهـمُ إلـيَّـا
فـإن يـك حـبـهـمْ رَشَـداً أصـبـه ولـسـت بـمـخـطـىء إن كـانَ غـيًّـا

ولم يشكّ أبو الأسود أنه رشد، وعلى هذا تأويل قوله تعالى: **﴿وإنَّا أو إياكُمْ لعلَى هدًى أو في ضلال مبين﴾** [سبأ: ٢٤].

ومن بخله أنه كان يقول: لا تجاودوا الله فإن الله أجود وأمجد، ولو شاء الله أن يوسّع على خَلْقه حتى لا يكون فيهم محتاج لفَعل. وكان يقول لولده: إذا بسط الله لك في الرزق فانبسطْ، وإن قبضه فانقبضْ.

ومرّ برجل وهو يقول: مَنْ يعشّي هذا الجائع؟ فأدخله وعشّاه حتى شبع، ثم ذهب السائل ليخرج، فقال له: أين تذهب؟ فقال: لأهلي فقال: لا أدعك تؤذي المسلمين بسؤلك، اطرحوه في الأدهم، فبات عنده مكبولاً حتى أصبح.

وكتب إلى رجل يستسلفه فكتب إليه الرجل: المؤنة كثيرة، والفائدة قليلة، والمال مكذوب، فراجعه أبو الأسود: إن كنت كاذباً فجعلك الله صادقاً، وإن كنت صادقاً فجعلك الله كاذباً.

وقال الخليل: كان أبو الأسود ضنيناً بما أخذه من عليّ رضي الله عنه، وذلك أنه سمع لحناً فقال لأبي الأسود: اجعل للناس حروفاً، فأشار إلى الرفع والنصب والخفض.

وقال له زياد: قد فَسَدت ألسنة الناس، لأنه سمع رجلاً يقول: سَقَطت عصاتي، فدافعه أبو الأسود.

وسمع رجلاً يقرأ **﴿أن الله بريءٌ من المشركين ورَسولِه﴾** [التوبة: ٣] فخفض، فقال: ما بعد هذا شيء، فقال له: ابغني كاتباً يفهم، فجيء برجل من عبد القيس، فلم يرضه فَهْمُه، فأُتِيَ بآخر من قريش، فقال له: إذا رأيتَني قد فتحتُ فيّ بالحرف فانقط نقطة على أعلاه، وإذا ضممتُ فيّ فانقط نقطة بين يديه، وإذا كسرت فيَّ، فاجعل النقطة تحت الحرْف، فإذا أُشْرِبت ذلك غُنّة، فاجعل النقطة نقطتين، فهذا نقط أبي الأسود.

واختلف الناس إليه يتعلمون العربية، وفرّع لهم ما أصّله فأخذه جماعة كان أبرعَهم عنبسةُ بن معدان المهري يقال له الفيل، فأقبل الناس عليه بعد موت أَبي الأسود، فبرع من أصحابه ميمون الأقرن، فرأس في الناس وزاد في الشرح، فبرع من أصحابه عبدُ الله ابن أبي إسحاق الحضرمي، فبرع في النّحو وتكلم في الهمز، وأملى فيه كتاباً، وأخذ أبو عمرو بن العلاء عمّن أخذ عنه، ثم نجم من أصحاب أبي عمرو عيسى بن عُمر، ويونس

ابن حبيب وأبو الخطاب الأَخفش، فألّف عيسى كتابيْن سمى أحدهما الكامل والآخر الجامع، قال المبرد: فأخذ الخليل عن عيسى، فلم يكن قبله ولا بعده مثله، وهو القائل يمدح كتابي عيسى: [الرمل]

بـطـل الـنـحـو الّـذي جَـمَّـعـتُـم غـيـر مـا أحـدث عـيـسـى بـن عُـمَـرْ

ذاك إكـمــال وهـــذا جــامـــع وهُـمَـا لـلـنَّـاس شـمـسٌ وقـمـرْ

قال أبو العباس: وقد قرأت أوراقاً من أحدهما فكان كالإشارة إلى الأصول، ثم أخذ عن الخليل جماعة لم يكن فيهم مثل عمرو بن قنبر سيبويه، ويكنى أبا بشر وأبا الحسن، وهو من موالي بني الحارث بن كعب فألف كتابه الذي سماه قرآن النحو، وعقد أبوابه بلفظه ولفظ الخليل.

وأبو الأسود من سكان البصرة.

ومستنبط: مستخرج، والّذي استنبط العروض هو الخليل، وذكره بعض العروضيين فقال: للخليل في العروض حكمة مخترعَة، وسابقة مبتدعَة، تبيَّن بذلك فضله، وظهر تقدمه لأنه لم يتّبع فيما وضعه أثراً موجوداً، ولا اقتفى فيه رسماً مرسوماً، واهتدى إلى ما لم يهتد إليه المتقدمون ولا أوجد مزيداً عليه المتأخرون. ولولا الخليل لم يُعْلَم صحيح الشعر من كَسِيره، ولا سقيمه من عليله، وفي حَصْره لجميع أوزان العرب في خمس دوائر أعظم العَجب لمن تدبر ما صنع وفَهِم.

وكان الخليل يحب أن يرى عبدَ الله بن المقفع، وكان ابنُ المقفع يحب ذلك، فجمعهما عبَّاد المهلبي، فتحادثا ثلاثة أيام ولياليهن ثم افترقا، فقيل للخليل: كيف رأيتَ عبد الله؟ فقال: ما رأيت مثلَه قطّ وعلمه أكثر من عقله. وقيل لابن المقفع: كيف رأيتَ الخليل؟ فقال: ما رأيتُ مثله قطّ وعقله أكثر من علمه، وصدقاً في ذلك، أدَّى عقل الخليل إلى أن مات وهو أزهد الناس، وجَهْل بن المقفع أردَاه، فكتب كتاباً لعبدالله بن عليّ على المنصور، فقال فيه ما كان مستغنياً أن يقوله، ولا يحتمل الأمراء دون الخلفاء مثلَه، فقال فيه: ومتَى غَدَر أمير المؤمنين بعمّه عبد الله بن عليّ، فنساؤه طوالق ودوابة حَوابسِ، وعبيده أحرار، والمسلمون في حلٍّ من بيعته، فاشتد ذلك على المنصور وكتب إلى أمير البصرة أن اقتل عبدالله بن المقفع فقتله.

وقال ابن المقفعَ إنْ أكرمك الناس لمالٍ أو لسلطانٍ فَلا يعجبنّك ذلك، فإن زوال الكرامة بزوالهما، ولكن ليعجبك إن أكرموك لأدبٍ أو دين.

واتخذ عباد المهلبي أرضاً فأراد غرسها، فلامه أصحابُه وقالوا: هي سَبخةِ فأشار عليه الخيل بغرْسها فغرسها، فجاءت بكل شيء حسن، فحمل إليها الخيل فاستحسنها، وقال: [البسيط]

ترفعتْ عن ندى الأعماق وانخفضتْ عن المعاطِش واستغنت بسُقْيَاها
فمال بالخوخ والرمان أسفلُها واعتمّ بالنخل والزيتون أعْلاَها
وصار يغبطه مَنْ كان يعذِلُهُ ولائم لامه فيها تمنّاها
أبا معاوية اشكر فضل واهِبها وكلما جئتها فاعمزْ مُصَلاَّها

وله: [الكامل]

عش ما بدا لك قصرُك الموتُ لا مهربٌ منه ولا فَوْتُ
بينا غنى بيت وبهجتُه زالَ الغنى وتقوَّض البيت

وتوفي الخليل سنة سبعين ومائة وهو ابن خمس وسبعين سنة وتقدمت أخباره في الأربعين فلتنظر هناك.

قوله: اخترعه، أي أوجده قبل أن يكون. مصر، أي بلد. وقوانين: طرق مستقيمة. التعريف: حلْق الرأس بعد يوم عَرفَة. قرت المضاجع: نام الناس فيها. هجع: نام. ثغر: سنّ وأراد به بياض الصبح. بَزَغ: صَدَع وظهر. النَّقْل: الحديث: المنقول عن النبي ﷺ. واهاً: عجباً. عفا: دَرس. شَفا: طَرْف وشيء قليل، وشفا كلّ شيء حدُّه وطَرْفه.

* * *

ثمّ إنّه خزن لسانه، وخَطَم بيانَه؛ حتّى حُدِج بالأبصار، وقرِف بالإقصار، ووُسِم بالاستقصار، فتنفّس تنفُّسَ مَنْ قِيدَ لِقوَد، أو ضَبَثَتْ به براثِنُ أسَد، ثم قال: أمّا أنتم يا أهلَ البصرة، فما منكم إلاّ الْعَلَمُ المعروف، ومَنْ له المعْرِفة والمعروف. وأمّا أنا فَمَنْ عَرفَني.

فأنَا ذَاك، وشرُّ المعارف مَنْ آذاك، ومَنْ لم يُثْبِتْ عِرْفَتِي، فَسَأصْدُقُه صِفَتِي.

أنا الّذي أنْجدَ وأَتْهم، وأيْمَنَ وأشأم، وأَصْحَرَ وأَبْحَرَ، وأدْلج وأسْحَر، نَشَأْتُ بسَرُوج، ورُبيتُ على السُّرُوج.

ثم وَلَجْتُ المَضايق، وفتحْتُ المغالق، وشَهِدْت المعارك وألنتُ الْعَرَائك، واقْتَدْتُ الشَّوامِس، وأرْغَمْتُ المعاطس، وأَذَبْتُ الْجوامِد، وأَمَعْتُ الْجَلاَمِد.

* * *

خزن: حبس. خَطَم: زمَّ، والْخِطام حبلٌ: يشد على أنف البعير. حَدَج: نظر إليه بحدّة. قُرِف: اتُّهم، وقَرَفتُه بشرّ رميته به. الإقصار العجْز. قَود: قتل نفس بنفس.

ضَبَثَتْ: عَلِقَتْ. براثن: أظافير. العلم المشهور بالفضائل، والمعروف الثاني: العطاء. أنجد وأتهم: أتَى نجداً وتهامة. أيمن وأشام: أتى اليَمنَ والشأم. أصحر وأبحر: مشَى في الصحراء والبحر. أدلج وأسحر: مشى باللّيل والسَّحَر. نشأت: كَبِرت. ولَجْتُ: دخلت. المعارك: مواضع القتال. العرائك: الطبائع الصعبة. الشوامس: الشَّوارد التي تأبَى الانقياد. ارغمت المعاطس: أذللت الأنوف أمعت الجلامد: أسَلْت المياه من الجنادل الصمّ.

* * *

سلُوا عنّي الْمَشَارِق والمَغَارب، والْمَناسِمَ والْغَوَارِب، والمحافلَ والْجَحافل، والقبَائِلَ والْقَنَابِلَ، واسْتَوْضِحُونِي من نَقَلَةِ الأَخْبَار، ورُواةِ الأسْمَار، وحُداة الرُّكْبَان، وحُذّاق الكُهّان، لتعلموا كَمْ فجٍّ سَلَكْتُ، وحِجابٍ هَتَكْتُ، ومَهْلكَةٍ اقْتَحَمْتُ، ومَلْحَمَةٍ أَلحمتُ، وكَمْ أَلْبابٍ خَدَعْت، وبِدَعٍ ابْتَدَعْت، وفُرَصٍ اخْتَلَسْت، وأسْدٍ افْتَرَسْت؛ وكم مُحَلِّقٍ غادرتُه لَقًى، وكامِنٍ استخرجْتُه بالرُّقى، وحَجَرٍ شَحَذْتُه حَتَّى انْصَدَع، واسْتَنْبَطْتُ زُلالَه بالْخُدَع، ولكن فَرَط ما فَرَط، والغُصنُ رَطيب، والفَوْد غِرْبيب، وبُرْدُ الشَّبَابِ قَشِيب؛ فأمَّا الآن وقد اسْتَشَنَّ الأديم، وتأوّد القويمُ، واسْتَنَار اللَّيْلُ الْبَهيم؛ فَلَيْس إلاَّ الندم إن نَفَع، وتَرْقيع الخرْق الَّذِي قَدْ اتَّسَع.

* * *

المَنَاسم: أخفاف الإبل. الغَوَارب: مَقَادِم ظهورها. المحافل: الجموع الجحافل: الجيوش. القنابل: جماعة الخيل واحدها قُنْبلة. استوضحوني: اطلبوا بيانَ أمرِي. الأسمار: الأحاديث باللّيل يُسْمَرُ عليها. الْحُداة، خدام الإبل. فجّ: طريق في الجبل. سلكت: دخلْت. هتكت: خرقت مهلَكة: موضع خوف يَهْلِك فيه الناس. اقتحمتُه: تراميت فيه. ملحمة: مواضع الحرْب الشديدة يلتحم فيها أهلُ العسكرين ويلتصِق بعضُهم ببعض. ألحمت، أي أوقدت النار بينهم حتى التصقوا وصاروا لحمةً واحدة، وذلك أشدّ ما يكون الحرب. ألباب: عقول. بِدَع: جمع بدْعة، وهو الشيء المبدع اختلستُها: أخذتها بسرعة واختطفتُها. محلّق: طائر في الهواء. لقى: مطروحاً على الأرض. وكامن: مستور. شحذتُه: صقلته. انصدع: انشق، وأراد بالحجر بخيلاً لا يرشح بشيء كالحجر، فتحيّل عليه حتى أخذ مالَه. استنبطت: استخرجت. زلاله: ماءه العذْب الصافي، أراد أخذت ماله. فرَط ما فرط، أي سبق ما سَبق. رطيب: ناعم، وغصنه: قامته. والفَوْد: ناحية الرأس غربيب: أسْود. بَرْد: ثوب. قَشيب: جديد. استشنَّ الأديم:

يبس الجلد، والشنّ: القِرْبة البالية اليابسة. تأوّد القويم: اعوجّ المعتدل. استنار: أضاء وشاب. الليل البهيم: الشعر الأسود. وقال الشاعر في معنى استشنّ الأديم: [الكامل]

يا مَنْ لشيخٍ قد تخدّد لحمة ... أفنى ثلاث عمائم ألوانا
سَوْدَاء حالكةٌ وسحق مفوّفٌ ... وأجدّ لونا بعد ذاك هجانا
قصر الليالي خطوَه فتدانى ... وحَنَوْن قائمَ صُلْبه فتحانى
والموت يأتي بعد هذا كلِّه ... وكأنما يعنِي بذَاك سوانا

وقال ابنُ الرومي في استنارة الليل: [الطويل]

فجار على ليل الشباب فضامَه ... نهارُ مشيبٍ سرمدٌ ليس ينفد
وعَزّاك عن ليل الشباب معاشرٌ ... وقالوا نهار الشيب أهدَى وأرْشَدُ
وكان نهارُ المرء أهْدَى لرشْدِه ... ولكنّ ظَلّ الليل أندى وأبرد

وأنشد الزاهد ابن عمران قول الشاعر: [الخفيف]

لم أقل للشباب في كنف الله ... ولا حفظه غَدَاة استقلاً

فزاد بعد استقلا: [الخفيف]

لا ولا للمشيّب لَمَّا بدا لي ... مرحَباً بالمشيب أهلاً وسهلا
مؤذن بالحمام هذا وذاكم ... سوّد الصحف بالذنوب وولّى

وأحسن ما قيل في ذم خضابه قول ابن الرومي: [الطويل]

رأيتُ خضاب المرء بعد مشيبه ... حداداً على فقْد الشبيبة يلبسُ
وإلا فما يغري الفتى بخضابه ... أيطمع أن يخفي شبابٌ مدلَّس
وكيف بأن يَخْفَى المشيب لناظر ... وكلّ ثلاث صُبْحه يتنفس
وَهبهُ يواري شيبَه أين ماؤه ... وأين أديمٌ للشبيبة أملس

وقال محمود الوراق: [الرجز]

يا خاضبَ الشيبةِ نخْ فقدها ... فإنما تدرُجُها في كَفَنِ
أما تراها منذ عاينتَها ... تزيد في الرأس بنقص البدنِ

قوله: ليس إلاّ النّدم. ابن مسعود قال رسول الله ﷺ «من أذنَبَ ذنباً أو أخطأ خطيئة فندم كانَ كَفّارةً لما صنع».

وقال ﷺ: «الدعاء سلاح المؤمن، وعماد الدين ونور السموات والأرض وإن لكم من الله نَظِرة».

كتب عبد الملك إلى الحجاج يتوعّد عليَّ بن الحسين ويكتب إليه بما يقول ففعل،

فقال: إن لله لوحاً محفوظاً يلحظُه في كلّ يوم مائة لحظة، ليس منها لحظة إلا يُحْيِي فيها وَيُميت، ويُعِزّ ويُذِلّ ويفعل ما يشاء، وإني لأرجو أن يكفيَك الله منها بلحظةٍ واحدة، فكتب بها الحجاج إلى عبد الملك.

وكتب ملك الروم إلى عبد الملك: أكلت الجمل الذي ركب عليه أبوك من المدينة لأغزينّك جنوداً مائة ألف ومائة ألف، فكتب إليه عبد الملك بكلام عليّ فقال ملك الروم: ما خرج هذا إلا من كَلاَم النّبوة.

* * *

وكنتُ رُوِّيتُ من الأخبار المسنَدة، والآثار المعتمدة، أنَّ لكم من الله تعالى في كلّ يوم نظْرة، وأنَّ سلاح النّاس كلّهم الْحَدِيد، وسلاحَكم الأَدْعِية والتَّوْحِيد، فقصدْتُكم أُنْضِي الرّواحل، وأطوِي المراحِل؛ حتى قمت هذا المقام لديْكم، ولا مَنَّ لي عليكم؛ إِذ ما سعيتُ إلاّ في حاجتي، ولا تعبْتُ إلاّ لِراحتي، ولستُ أبغي أعطيتَكم، بل أستدعي أَدْعِيتَكُم، ولا أسأَلُكُمْ أموالَكُم؛ بل أستَنْزِل سؤَالكم، فادعوا اللَّهَ بتوفيقي للمتاب، والإعداد للمآب، فإنَّه رفيع الدَّرجات، مُجيب الدعوات، وهو الذي يَقْبَل التّوبة عن عباده ويعْفُو عن السيئات ثم أنشد: [الرجز]

استغفرُ الله من ذنوبٍ	أفرطتُ فيهنّ واعتدَيتُ
كم خُضتُ بحرَ الضَّلالِ جَهْلاً	ورحتُ في الغيّ واغْتَدَيْتُ
وكم أطعتُ الْهَوَى اغتراراً	واختلْتُ واغتلتُ وافتريتُ
وكم خَلَعْت العِذارَ رَكْضاً	إلى المعاصي وما وَنيتُ
وكم تناهيتُ في التخطِّي	إلى الْخَطَايا ومَا انْتَهَيتُ
فليتَنِي كنتُ قبل هذا	نسْياً ولم أجْنِ ما جنيتُ
فالموت للمجرمينَ خيرٌ	من المساعي التي سعيتُ
يا ربِّ عفواً فأنت أهلٌ	للعفوِ عَنّي وإن عَصَيْتُ

* * *

أنضى الرواحل: أهزل الإبل. أطوي المراحل: أقطع الأرض مجتهداً، وأردّ المرحلتين والثلاث مرحلةً واحدة. منّ: إحسان. أبغي: أَطلب. الأعطية والأدعية: اسم لما يعطَى ولما يدعى. استنزل: أَطلب بتلطّف. سؤالكم: طلبكم التوبة لي من الله تعالى. والمآب: الرجوع. يعفو: يمحو، وعفا الله عنك: درس ذنوبك ومحاها، من عفا المنزل: درس وانمَحَتْ آثارُه. وقال ابن المعتز: **[الخفيف]**

كنت في سفرة البطالة والغـ ـيّ زمانـاً فحـان منـي قـدوم
تُبْتُ عن كلِّ مأثمٍ فعسى يُمـ ـحى بهذا الحديثِ ذاك القديمُ

وله: [البسيط]

الله يعلم ما إثمٌ هَممتُ به إلاّ ونغّصه خوفي من النّارِ
وإنّ نفسيَ ما همَّتْ بمعصيةٍ إلا وقلبي عليها عائبٌ زاري

آخر: [الطويل]

تطالبني نفسي بما فيه صونُها فأغضي ويسطو توقُها فأطيعُها
ووالله ما يخفى عليّ ضلالُها ولكنّها تأبى فلا أستطيعُها

قوله: أَفرطت، أي ضيّعت. اعتديت: ظلمت نفسي، قال داود الطائي: ما أخرج الله عبداً من ذُل المعْصية إلى عز الطاعة إلا وأغناه بغير مالٍ، وآنسه بغير أهلٍ، وأعزّه بلا عشيرة. خضت: جُزْتُ الغيَّ الضلال. اغترار: انخداع. اختَلْت: تكبرت ومشيت تخيُّلاً، واغتلت: أهلكت، والغِيلة: القتل بالخداع، وغالهم: قتلَهم غِيلةً. افتريت: كذبت. خلعت العِذار: أزلت لجامَ الدّين الذي يمسكني، وتسيَّبْتُ في المعاصي. ركضاً: جرياً ووثباً ونيت: فترت وقصّرت في الجري إليها. تناهيت: أي بلغت النّهاية، وهي آخرُ الشيء: التخطي. الجواز والقطْع، وتخطّيت الشيء: جزته، والخطايا: الذنوب، وهي من الخطأ لأنّ فاعلها مخطىء بفعلها. والنسيّ: الشيء المنسيّ لحقارته لا يخطر ببالك فتنسَاه. أَجْنِ: أكتسب. المساعي: جمع مسعاة، وهي السعي والمشي الكديد، والمساعي أيضاً: المواضع التي يُسْعَى فيها، أي يُمْشَى بكدّ، وقال حبيب: [الطويل]

أَخاف إلهي ثم أرجو نوالَه ولكنّ خوفِي غالبٌ لرجائيَا
ولولا رجائي واتّكالي على الذي تكفّل لي بالصنع كهلاً وناشيَا
لما ساغ لي عذبٌ من الماء بارد ولا لذّلي نوم ولا زلت باكيَا
على أنه قد كان مني جَهالةٌ ليالِيَ فيها كنتُ لله عاصيا

أخذه من قول الحسن البصريّ: ينبغي أن يكون الخوف أغلبَ من الرجاء فإن الرّجاء إذا غلب الخوف فسد القلب.

* * *

قال الرَّاوي: فطفقتِ الجماعةُ تُمِدُّه بالدُّعاء، وهُوَ يُقَلِّبُ وجْهَهُ في السَّماءِ إلى أنْ دَمَعَتْ أجْفَانُهُ، وبَدَا رَجَفَانُه، فصاحَ: اللَّهُ أكْبَرُ بانَتْ أَمَارَةُ الاسْتِجابة، وانجابَتْ غشَاوةُ الاسْتِرابة. فجُزِيتُمْ يا أهْلَ الْبُصَيْرَة، جَزَاء مَنْ هَدَى مِنَ الْحَيْرَة.

فلم يبقَ من الْقَوْمِ إلاَّ مَنْ سُرَّ لِسُرُورِه؛ ورَضَخَ لَهُ بِمَيْسُورِهِ فقَبِلَ عَفْوَ بِرِّهِم، وأقْبَلَ يَغْرِقُ في شُكْرِهِم.

ثمَّ انْحَدَرَ منَ الصَّخْرَةِ، يَؤُمُّ شاطِىءَ الْبَصْرَة، واعْتَقَبْتهُ إلى حيثُ تخالَيْنا، وأمنَّا التَجَسُّسَ والتَّحَسُّس عَلَيْنا، فقلْتُ لهُ: لَقَدْ أغْرَبْتَ في هذهِ النَّوْبَةِ، فما رأْيُكَ في التَّوْبَةِ، فقال: أُقْسِمُ بعلاَّمِ الخَفِيَّاتِ، وغفَّارِ الخَطِيّاتِ، إن شَأني لَعُجابٌ، وإنَّ دعاءَ قومِكَ لَمُجابٌ، فقلْتُ زِدْنِي إفصاحاً، زادَكَ الله صلاحاً فقال: وأَبِيكَ لقدْ قمتُ فيهِمْ مقام المريب الخادِع، ثمّ انقلبْتُ منْهمْ بقَلْبِ المُنِيب الْخاشِع، فَطُوبَى لمنْ صَغَتْ قلوبُهُمْ إليه وويلٌ لمن باتَ يَدْعُونَ عَلَيْهِ. ثُمَّ ودَّعَنِي وانطَلَقَ، وأَودَعَنِي الْقَلَقَ.

قوله: فطفِقْت، أي أخذت وجعلْت. تمدّه بالدعاء، أي تَصل دعاءَها بدعائه، وتقول: أمددته بالمال، إذا قوّيْتَه به، ومددتَه بالجيش. رَجَفانه: اهتزازه، ورجف الشيء: تحرّك، والرجفة: اهتزازُ الأرض. بانت: ظهرت. انجابت: انكشفت وزالَتْ. غشاوة الاسترابة: غطاء الشكّ. رَضَخ: أعطى. ميسوره: ما تيسر له. وعفو برهم: فضل إحسانهم. يهرِف: يكثر الكلام ويُطْنِب في الشكر. انحدر: انصبّ. يؤمّ: يقصد. شاطىء: ساحل. اعتقبته: تبعته تخالَيْنا: صِرْنا في خلوة من الناس. التّجسّس: طلب الشيء باليد، وقيل: التجسّس: طلب الشيء بالكلام. والتّحسس: طلبه باليد، ثم قد يقع كلّ واحد منهما موقع صاحبه. ابن الأنباريّ: تجسس الرجل وتحسّس بمعنى واحد، هذا إجماع أهل اللغة. وفرّق بينهما يحيى بن أبي كثير، فقال: التحسّس البحث عن عورات الناس والتجسّس الاستماع لحديث القوم. ابن الأنباري: الجاسوس: الباحث على أُمور الناس. النّوْبة: الدولة. إيضاحاً: بياناً. المريب: صاحب الريبة. المنيب: الرّاجع إلى الله بتوبته. الخاشع: هو الخاضع. صغت: مالت.

* * *

فلمْ أَزَلْ أعانِي لأجْلِه الفِكَر، وأتشوّفُ إلى خِبْرةِ ما ذَكر وكلّما استنشيْتُ خَبَره مِنَ الرّكبان، وجَوّابةِ البُلْدَان، كنتُ كمن حَاوَر عَجْمَاء، أو نادَى صَخرةً صَمَّاء، إلى أن لقيتُ بعد تَرَاخِي الأمَد، وتَرَاقي الْكَمَدَ ركباً قافِلِين مِنْ سَفر، فقلتُ: هَلْ من مغرِّبةِ خبَر؟ فقالوا. إنّ عندنا لخبراً أغْرَبَ مَنَ الْعَنْقَاء، وأَعْجَبَ مِنْ نَظَرِ الزَّرْقَاء.

* * *

أَعاني: أَقاسي. أَتشوف: أَتطلع. خِبْرة: اختبار. اسْتَنْشَيت: استطلعت، وأَصل معناه شممت. جوّابة: قَطّاعة. وجَوّالة أَي الذين عادتهم الجوَلان في البلاد. حاور: كَلّم. عَجْماء: بهيمة، والمحاورة: المراجعة في الكلام. تراخي. طُول المدة. الكمَد: مُصاحبة الهمّ والحزَن. ركباً: أَصحاب الإبل. قافلين: راجعين من سفر. مغرّبة، أَي هل عندكم من حديث غريب. والعنقاء، قال ابن عباس رضي الله عنه: هو طائرٌ فُضّل به بنو إسرائيل، فانتقل بعد يوشع إلى بلاد قيس عيلان بنجدْ والحجاز، فآذى الولدان، فشكوْا ذلك إلى خالد بن سنان ـ وكان نبيًا بين عيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام ـ فدعا الله أن يَقْطع نَسْلها فبقيت صورتها تصوَّر في البسط، وكان أَجمل طائر وأَعظمه، ووجْهُه على هيئة وجوه الناس. وقال أَهل الرواية: عنقاء مغْرِب، إنما هو الأمر العجيب. والعَنَق: السرعة، وذكرتْ عجائبَ البلدان بمجلس الراضي، فقال قائل: أَعجَبُ ما في الدنيا طائر بأرض طبرِستان على شاطىء الأنهار شبيه بالباشق، يسمّى الكلم، وهو يصيح في فصل الربيع فتجتمع إليه العصافير، وصغار الطير، فتزقّه فإذا كان آخر النهار أَخذ واحداً مما قرب من الطير فيأكله، فذلك فعلُه إلى أَن ينقضي فصل الربيع، فتجتمع إليه العصافير وصغار الطّيرْ فتطرده وتضربه، فيفرّ منها فلا يسمع له صوت إلى الفصل الربيعي. وهو طائر حسن، موشّى العينين.

وذكر الجاحظ أنه من عجائب الدنيا، وذلك أنّه لا يَطَأُ الأرض بقدميه، بل بإحداهما خوفاً على الأرض أن تنخسف من تحته، والثاني دودة تُضيء بالليل كالشمع، وتصير بالنهار لها أجنحة خُضر، وبالليل لا جناحين لها، غذاؤها التراب، لم تشبع قط منه خوفاً أن يفنى التّراب فتموت جوعاً، والثالث أعجب من الطّائر، والدودة من يكري نفسه للقتال، يعني المسترزقة من الجند، فاستحسن الخبرَ مَنْ حضر، فقال الرّاضي معارضاً لما ذكر الجاحظ أنّ أعجب ما في الدنيا ثلاث: البوم، لا تظهر بالنهار خوفاً أن تصيبها العين لحسنها وجمالها، فتظهر بالليل، الثاني الكركيّ لا يطأ الأرض بقدميه معاً بل بإحداهما فإذا وطئها لم يعتمد عليها اعتماداً قوياً خوفاً من أن تنخسف الأرض بثقله، الثالث الطائر الذي يقعد في مشارق الماء من الأنهار الذي عرف بمالك الحزين، يشبِه الكركيّ لا يشبع من الماء خشية أن يفنى فيموت عطشاً، فافترق أهلُ المجلس والكلّ متعجبون من الرّاضي كيف تأتي منه مثل هذه المذاكرة مع مَنْ حضره من أهل السنّ والمعرفة مع صِغَر سنه. والحكاية بكاملها في كتاب المسعودي.

[زرقاء اليمامة]

وأما الزرقاء فكانت تُبصر على مسيرة ثلاث ليال، وكانت من جَديس بن عامر بن إرم بن سام بن نوح، وكان مع جَديس طَسْم بن لاوذ بن إرم، وكانت مملكتُهم في طسْم، وكانوا يَسكنون اليمامة، وهما من العرب العاربة فأقاموا بُرهة، وبلادهم أفضلُ

البلاد، حدائق ملتفَّة، وقصور مصطفة، فكفروا بأنعم الله فأهلكهم، وذلك لأنهم ملَكَهم عُمْلوق بن طسْم، وكان غشوماً لا يملك نفسه في هواه، فاختصمت إليه امرأة من جَديس اسمها هزيلة مع زوجها في ابن لها، فأمر بالولد فجعل في غلمانه، وأمر بالزوج أن يُباع وتُعطى المرأة عُشْر ثمنه، وبالمرأة أن تباع ويُعطى الزوج خمس ثمنها، فقالت هزيلة: [الطويل]

أتينا أخا طسْمٍ ليحكم بيننا ... فأبدع حُكماً في هزيلَة ظَالِما

وهي أبيات، فبلغه قولها، فأمر ألاّ تتزوّج امرأة من جَدِيسٍ حتى تُحمَل إليه قبل زَوْجها فيعتذرها، فلقوا منه ذلاً طويلاً إلى أن تزوّجت الشموس بنت غفار أخت الأسود ابن غفار، وكان سيّدَ جَدِيس فلمّا كانت ليلة إهدائها حُملت إليه، والقيان معها يُقلْن: [الرجز]

ابدأ بعملوق إليه فاركبِ ... وبادر الصّبْح بأمر معجبِ

فما لبكر بعدكم من مذهبِ

فلما افتضّها، خرجت على قومها في دمائها شاقةَ جيبَهَا من دُبر ومن قُبُل وهي تقول: [الطويل]

أيصلح ما يؤتى على فتياتكمْ ... وأنتمْ رجال فيكُم عددُ الرَّمْلِ

فإن أنْتُمُ لم تَغْضَبُوا بعد هذهِ ... فكونُوا نساءً لا تفرّ من الفَحْلِ

فلو أننا كنّا رجالاً وكُنْتُمُ ... نساء لكنا لا نُقِيم على الذلِّ

فأنفت جديس عند ذلك، واجتمعت إلى أخيها الأسود، وأجمعوا على أن يصنعوا لها طعاماً، فيدعو عملوقاً مع قومه فإذا جاؤوا في الخيل والبغال عمَّوهم بالقتل، فقالت الشموس لأخيها: الغدر عار وعاقبته بوار، صبّحوا القوم في ديارهم تظفروا أو تموتوا كراماً، فقالوا لها: المكرُ أمكنُ من نواصِيهم، ثم صنع لهم الطعام ودفنوا سيوفهم في الرمل، فلما استكملوا في المِدْعاة أتوا عليهم أجمعين، وهرب من طسْم رياح بن مرة، فأتى حسان بن تبّع لينصره، فاستبعدوا أرضهم، وكان قد تُبّع لرياح كلبة، فضربها في رجلها حتى عرجت، فقال: أبعيدة أرض قطعتها كلبة عرْجاء! فتجهز معه بجيش فلما صاروا من جديس على ثلاثة أيام، صعدت الزرقاء على منار كان لها لتنظر الجيش، وكان رياح قد قال لهم: إنّ الزرقاء تُبْصِر على ثلاث ليال، ولكنْ ليقطعْ كل رجلٍ منكم غصناً من شجر، فيحمله لنشبّه عليها، فلمّا رأتهم، قالت: يا قوم أتتكم الشجر أو أتتكم حِمْير، فلم يصدقوها فقالت: [الرمل]

أُقْسِمُ بالله دبَّ الشَّجَرْ ... أو حمير قد أقبلت شيئاً تجرّ

فكذّبوها، وقالوا، كلٌّ بصرك وضَعُف، فقالت: أقسِم بالله لقد أرى رجلاً ينهش

كَتِفاً، أو يخْصِفُ نعلاً، فتهاونوا بحديثها، حتى صبَّحهم حسان فاجتاحهم فأخِذت الزّرقاء، فشق عيناها فإذا فيها عروق سود من الإثمد، وكانت أول مَنْ اكتحل به، وهرب الأسود، فنزل بطيىءٍ، فنسله فيهم، وتسمى زرقاء اليمامة، واسم البلد جوّ، فلما صُلِبَت على بابها، سُمِّيت اليمامة، وقيل اليمامة اسم البلد، واسم الزرقاء عَنْز، وقيل إن حسّاناً لم يصلبها، ولكن حملها في السَّبْي، وقالت عندما قُرِّبَ لها البعير لتركبه، ولم تكن اعتادت ركوبه: **[الخفيف]**

شـرّ يـومـيـهـا وأغـواه لـهـا ... ركـبـتْ عَـنْـز بـجـذْجِ جَـمَـلا

وقيل إن عنزاً هي أُخت الزرقاء، وقال الشاعر: **[البسيط]**

مـا نـظـرتْ ذات أجـفـان كـنـظـرتـهـا ... حَقاً كما صدع الذّين الّذي صدعا

قـالـت أرى رجـلاً فـي كَـفّـه كـتِـفٌ ... أو يخصف النَّعْل لَهفي أية صنعا

فـكـذَّبـوهـا فـوافـتْـهَـا عـلـى عَـجَـلٍ ... أقيال حمير تُزْجِي الموت والشّرعا

فاستنزلوا أهل جَوٍّ من معاقلهم ... وهَـدَّمـوا شامخ الـبـنـيـان فـاتَّـضـعـا

* * *

فسألتُهُمْ إيضاحَ ما قالوا، وأن يكيلُوا لِي بما اكتالوا، فحكوْا أنَّهُمْ ألَمُّوا بِسَرُوح، بعد أن فارقها العُلوج، فرَأوْا أبا زَيْدِها المعروف، قدْ لَبِسَ الصُّوف، وأمَّ الصّفُوف وَصارَ بِهَا الزَّاهِدَ المَوصُوف، فقلت: أتعْنونَ ذَا المَقَامات. فقالوا: إنّه الآن ذُو الكَرَامَات، فحفزني إليه النِّزاع، ورأيتهَا فُرْصة لا تُضاع، فارتحَلْتُ رحْلَةَ المُعِدّ، وسِرْتُ نحوَهُ سَيْرَ الْمُجدّ، حتى حَلَلْتُ بمسجدِهِ، وقَرارَةِ مُتَعَبَّدِه، فإذا هو قد نَبَذَ صُحْبَةَ أصْحَابِهِ، وانتصَبَ في مِحْرَابِهِ، وهُوَ ذُو عباءةٍ مخلولة، وشَمْلَةٍ مَوصولةٍ؛ فِهِبتُه مَهَابَةَ مَنْ وَلَجَ على الأُسود، وألفيتُهُ مِمَّنْ سِيماهُهمْ في وُجُوههم من أثَرِ السُّجود. ولّما فَرَغ من سُبْحَتِه، حَيّاني بِمُسَبَّحَتِه، من غير أن نَغَمَ بحَديثٍ، ولا اسْتَخْبَرَ عن قديم ولا حَديث، ثمّ أقبل على أوْرَادِه، وتَركَنِي أعْجَبُ من اجْتِهادِهِ، وأغبِط مَنْ يَهْدِي الله من عباده، ولم يزل في قُنوتٍ وخُشُوع، وسُجُود ورُكوع، وإخْبَاتٍ وخُضُوع، إلى أن أكْمَلَ إقامة الخَمْسَ، وصارَ اليوم أمس، فحينئذٍ انكفأ بي إلى بيته، وأسهمني في قُرْصهِ وزَيْتِه، ثم نهض إلى مُصَلاّه، وتخلّى بمناجاة مَولاه؛ حتى إذا التَمعَ الفَجْر، وحقّ للمجتهدّ الأجْر، عقَّبَ تهجُّدَهُ بالتسبيح، ثم اضطجع ضِجْعةَ المُستَرِيحِ، وجَعَلَ يُرَجِّعُ بصوتٍ فصيح.

* * *

قوله: يكيلوا لي ما اكتالوا، أي يعطوني ما أعطوا من العلم. ألمُّوا: نزلوا، العلوج: الروم، أمّ: صار إماماً. حفزني: عجَّلني. النزاع: الشوق. فرصة: غنيمة. المعدّ: الكامل العُدّة في السفر. قرارة: الموضع الذي يقرّ فيه متعبّده: موضع عبادته، نبذ: ترك. انتصب: قام ووقف. المحراب عند العرب: سيد المجالس ومقدَّمها وأشرفها، وقيل للقبلة محراب لأنه أشرف موضع في المسجد، وقيل للقصر محراب لأنه سيّد المنازل، الأصمعيّ المحراب عندهم: الغُرْفة.

أحمد بن عبيد: المِحْراب: مجلس الملك، سمي بذلك لانفراد الملك به لا يقرَبُه أحد، وسُمي محراب المسجد لانفراد الإمام به ويقال فلان: حَرْب لفلان، إذا كان بينهما مباعدة، عباءة: كِساء، مخلولة بالية مشدودة بالخلال والشَّملة: الكِساءُ يُشْمَل به. موصولة، يريد أنها خلَفه قد تقطَّعت فوُصِلتْ وَلَجَ: دخل. أَلفيته: وجدته. سيماهم: علامتهم حيّاني بمسبّحته، أي بسبّابته وقد تقدّم ذكرها. نغم: تكلم بكلام خفيّ؛ والأوراد: جمع وِرْد، وهو النصيب من القرآن يقوم به الإنسان كلّ ليلة. أغبط: أحسد وأتمنَّى أن أكون مثله. وسجود وركوع: سجد الرجل إذا انحنى ومال إلى الأرض، من قول العرب: سجدت الدابة وأسجدت، إذا خفضت رأسها لتركيب، ويقال: قنت الرجل، إذا أخذ في التَّعظيم والدعاء لله تعالى، والقنوت على أربعة أقسام: الطاعة كقوله تعالى: ﴿**كُلٌّ له قانِتُون**﴾ [البقرة: ١٦٦]، والصّلاة كقوله تعالى: ﴿**اقْنُتِي لربِّك واسجُدِي**﴾ [آل عمران: ٤٣]، وطول القيام، كقوله ﷺ وقد سئل: أيّ الصلاة أفضلُ؟ فقال: «طول القنوت والسكوت»(١)، كقول زيد بن أرقم كنا نتكلم في الصلاة يكلِّم أحدُنا الذي يليه حتى نزلَ ﴿**وقُومُوا لله قَانِتِينَ**﴾ [البقرة: ٢٣٨]، فأمْسَكْنا عن الكلام، قال أبو عبيدة: نرى أنّ القنوت في الصُّبح سمِّي قنوتاً لأن الإنسان قائمٌ في الدُّعاء من غير أن يقرأ القرآن، فكأنه في سكوت. إخبات، أي تذلل، انكفأ: انقلب، أسْهَمَني، أي أعطاني سهماً، أي نصيباً، تهجّده: قيامه للصلاة. **[الرجز]**

خَلِّ ادّكارَ الأرْبُعِ	والمَعْهَدَ المرتَبِعِ
والظَّاعِنَ المودِّعِ	وَعَدِّ عنه وَدَعِ
واندُبْ زماناً سَلَفاً	سَوَّدْت فيه الصُّحُفا
ولم تَزَلْ مُعْتَكِفاً	عَلَى القَبيحِ الشَّنِعِ
كم ليلةٍ أوْدَعْتَها	مآثماً أبْدَعْتَها
لِشَهْوَةٍ أطَعْتَهَا	في مَرْقَدٍ ومَضْجَعِ

(١) أخرجه بنحوه، مسلم في المسافرين حديث ١٦٤، ١٦٥، والترمذي في الصلاة باب ١٦٨، والنسائي في الزكاة باب ٤٩، وابن ماجه في الإقامة باب ٢٠٠، وأحمد في المسند ٣/ ٣٠٢، ٣٩١، ٤١٢.

وكم خُطاً حَثَثْتَها في خَزْيةٍ أحْدَثْتَها
وتوبةٍ نَكَثْتَهَا لملعب ومَرْتَعِ
وكمْ تجرَّأتَ على ربّ السَّموات العُلا
ولمْ تُراقِبْهُ وَلا صدَقْتَ فِيمَا تَدَّعِي
وكمْ غَمَضْتَ بِرَّهُ وكم أمِنْتَ مَكْرَهُ
وكم نَبَذْتُ أمْرَهُ نَبْذ الحِذَا المرقعِ
ولَمْ رَكَضْتَ في اللَّعِبْ وفُهْتَ عمداً بالكذبْ
ولَمْ تراعِ ما يَجِبْ من عَهْدِهِ المتَّبَعِ
فالْبَسْ شعارَ النّدمِ واسْكُبْ شآبيب الدّمِ
قبْلَ زوالِ القَدَمِ وَقَبْلَ سوءِ المصرَعِ
واخْضَعْ خُضُوعَ المعترفْ ولُذْ مَلاذَ المقترِفْ
واعْصِ هواكَ وانْحَرِفْ عَنْهُ انحرافَ المُقْلِعِ
إلاَمَ تَسْهُو وَتَنِي ومُعْظَمُ العُمْرِ فَنِي!
فيما يضرُّ المقتني ولَسْتَ بالمرْتَدِعِ
أما تَرَى الشَّيْبَ وَخَطْ وخَطَّ في الرّأس خُطَطْ
وَمَنْ يَلُحْ وَخْطُ الشَّمَطْ بِفَوْدِه فَقَدْ نُعِي

* * *

ادّكار : تذكر . الأربع : المنازل . عدّ : كُفّ . دَع : اترك . اندب : ابك . سلف : ذهب وتقدمَ . الصحف : الكتب . المعتكف : المقيم . الشنع : الذي يُتحدث يقبحه . أودعتها : أي ضمنتها وجعلتها فيه . المآثم : الذّنوب . أبدعتها : اخترعتها . خطاً : جمع خُطوة وهي الباع ، حثثتها : عجلتها ، خزي : هوان . ونكثْتَها : نقضتها . مرتع : أكل رغد . تجرأت : تشجّعت وأقدمت . تراقبه : تحارسه وتخشى منه . غمضت : نقصت . بره : إحسانه . نبذت : تركت ، الحذاء : النعل ، ركضت : جريت . فُهْت : نطقت . تُراع : تحفظ . والعهد : الميثاق ، شعار : ثوب يُلْصَق بالجسد ، اسكب : صبّ . شآبيب : دُفَع المطر ، واحدها شؤبوب ، فاستعارها للدم كما استعار الدم للدمع . المصرع : موضع السَّقطة وصرعت : أسقطت ، لُذْ : الجأ . ملاذ : ملجأ . المقترف : المذنب ، انحرف : مل . المقلع : الذي يقلع عن المعاصي ويُفارقها . تسهو : تخطىء . تني : تفتر . فنى : تمّ . سكّن الياء ضرورة . المقتني : المكتسب . المرتدع : المنتهي الكافّ عن شهواته . وَخَط : فشا وانتشر ، والوخط : مخالطة بياض شيب الرأس بسواده ، والوخط في غير هذا الطّعن غير النافذ ، خَطّ كتب . خطط :

طرائق. والشّمط: اختلاط بياض الشيب بسواد الشعر. بفوْده: بجانب رأسه. نعى: تحدّث بموته، وقال الألبيري: [الكامل]

الشَّيب نَبه ذَا النُّهى فتنبَّها ... ونَهى الجهولَ فلا استفاق ولا انتَهى
بل زاد غيّاً نفسه فتهافتتْ ... تبغي اللّها وكأنّها بين اللّها
فإلى متى ألهو وأفرح بالمُنى ... والشيخ أقبح ما يكون إذا لَها
ما حسنه إلا التُّقى لا أن يرى ... صبّاً بألحاظ الجآذر والمهَا
أنّى يقاتِلُ وهو مغلول الظّبا ... كأبي الجريّ إذا استقلّ تأوّها
محقَ الزمانُ هلالَهُ فكأنما ... أبقى له منه على قدر السُّها
فغدا حسيراً يشتهي أن يشتهي ... ولكم جَرَى طلق الجَمُوح كما اشتهى
إن أنّ أوّاه وأجهش بالبُكا ... لذنوبه ضحِك العدوّ وقَهقَها
ليست تُنَهْنَهُ العِظاتُ ومثلُه ... في سنّه قد آن أن يَتَنَهْنَهَا
فقد اللذات وزاد غيّاً بعدهم ... هلاّ تيقَّظ بعدهمْ وتَنَبَّها
يا ويحه ما بالُه لا يَنْتَهي ... عن غَيِّه والعمرُ منه قد انْتَهَى!

* * *

[الرجز]

وَيْحكِ يا نفسُ احْرِصي ... على ارتيادِ المَخْلَصِ
وطاوعِي وأخلِصي ... واسْتَمِعِي النُّصْحَ وَعِي
واعْتَبِري بِمَنْ مَضَى ... من القُرُونِ وانْقَضَى
واخْشَيْ مُفَاجاةَ القَضَا ... وحَاذِرِي أن تُخْدَعي
وانتَهِجي سُبْلَ الهُدَى ... وادَّكِرِي وَشْك الرَّدَى
وأنَّ مَثواكِ غَدَا ... في قَعْرِ لَحْدٍ بَلْقَعِ
آهاً له بيتَ البِلَى ... والمنزلَ القَفرَ الخَلاَ
ومَوردَ السَّفْرِ الأولَى ... واللاَّحِقِ المتْبِعِ
بَيْتٌ يُرَى مَنْ أُودعَهْ ... قَدْ ضَمَّهُ واسْتُودِعَهْ
بَعْدَ الفضاءِ والسَّعه ... قِيدُ ثلاثِ أذرُع
لا فرْقَ أن يَحُلَّهُ ... داهِيَةٌ أو أبلَهُ
أو مُعْسِرٌ أو مَنْ لَهُ ... مُلْكٌ كمُلْكِ تُبَّعِ

* * *

قوله: ارتياد، أي طلب. المخلص: المنجَى، عي: احفظي، وهو أمر للمؤنث من

وَعى يَعي، اعتبري: اتعظي. القرون: الأمم السابقة: انقضى: فرغ وتم. والقضاء هنا: الموت. ومفاجأته: إتيانه على غفلة. حاذِري: خافي. انتهجِي: اسلُكي وامشي في نهج، وهو الطريق البين. سبل الهدى: طرق الرشاد. ادَّكري: تذكّري. وشك الردى: سرعة الموت. مثواك: موضع إقامتك، لأنّ المثوى والثُّواء: الإقامة، والمثوى: الموضع الذي تقيم فيه، لحد: شق في جانب القبر. بلقع: خالٍ. آها: كلمة توجع. مورد: موضع الماء. السّفر: المسافرون، الأولى: الأولون المتقدمون، والألى: مقلوب الأول. تقول: أولى وأوّلُ ككُبرى وكُبَرَ، وأخرى وأخَر، ثم قلبوا الأول فقالوا: الأولى، وتأتي الأولى في كلامهم بمعنى الذين موصولة وهي كثيرة، يريد أن القبر موردٌ للأولين والآخرين، وسماهم سفراً، لأن الإنسان في الدنيا مسافر لا يقيم؛ إنما يقطعُ أيامه، وقال التّهامي: **[الكامل]**

العيش نومٌ والمنيَّة يقظة ... والمرء بينهما خيالٌ ساري[1]
فاقضُوا مآربكمْ عجالاً إنما ... أعماركمْ سفرٌ من الأسفارِ

قيْد: قَدْر. فإن قيل: كيف جعل القبر ثلاثة أذرع، والذراع شبران، والقدر قدره ما بين تسعة أشبار إلى ثمانية؟ فأخبرني الحاج ابن السقاط أن عندهم بالمشرق ذراعاً يسمونه المالكي، يذرعون به ثيابهم، وغيرها فيه من ذراع اليد ذراع ونصف.

وقال أبو القاسم الزجاجي: الذّراع الهاشمي ذراع وثلث، ففي ثلاثة أذرع بالهاشمي ثمانية ففي ثلاثة أذرع بالهاشمي ثمانية أشبار، وبالمالكي تسعة أشبار، فإحدى الذراعين أراد.

وإنما نقل لفظ ثلاثة أذرع من قول عطاء بن يسار أن رسول الله ﷺ قال لعمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: «كيف بك إذا أنت مت؟ فانطلق بك قومك، فقاسوا لك ثلاثة أذرع في ذراع وشبر، ثم رجعوا بك فغسلوك وكفنوك وحنّطوك ثم حملوك حتى يضعوك فيه، ثم يهيلوا عليك التراب ويدفنوك، فإذا انصرفوا عنك أتاك فتّانا القبر مُنكَر ونكير أصواتهما كالرعد القاصف، وأبصارهما كالبرق الخاطف، يجرّان أشعارهما، ويحثيان التراب بأنيابهما فتلتلاك وتَرْتراك، كيف بك عند ذلك يا عمر؟» قال عمر: يكون معي مثل عقلي هذا؟ قال: نعم، قال: «فإذن أكفيكهما».

داهية: مجرب للأمور حاذق بها. أبله: عي كثير الغفلة. مُعْسِر: فقير. تبع، أراد به تُبَّعاً الأكبر، وهو الذي ذكر الله في كتابه.

[تبع الأكبر]

قال صاحب التيجان، اسمه شمو رعش بن ناشر النّعم، وسمي أبوه ناشر النعم لأنه

---

(١) البيت الأول للتهامي في تاج العروس (يقظ).

أحيا مُلْك حمير بعد أربعين عاماً، وهي أيام مُلْك سليمان وسمي شمغورش تبّعاً الأكبر، وإن كانت العرب لم تسمّ قبله تُبعّاً لأن العرب لم يقم لها أحفظ منه، وكان يتجاوز عن مسيئهم ويُحسن إلى محسنهم، وكان جميع أهل الأرض شاكرين لأيامه، وكان أعقل مَنْ رأوا من الملوك وأعلاهم همة، وأبعدهم غَوْراً، وأشدهم مكراً لمن حارب، وغزا جمع ملوك الآفاق، وقطع بجيوشه الأرض كلّها شرقاً وغرباً، ثم رجع إلى قصر غمدان يريد ملك الأرض وذلّتْ له ملوكها وعمَّر زماناً طويلاً، وهو أوّلُ مَنْ أمر بصنعة الدروع السوابغ، جعل على أهل فارس ألف درْع، وعلى الروم ألفِ درْع، وعلى اليمن كذلك، وعلى ممالكه كلها مثل ذلك فكانوا يَغْدُون عليه كل سنة بذلك العدد، ولذلك قال أبو ذؤيب: [الكامل]

وعليه مسرودتان قَضَاهما ... داود أو صنع السوابغ تُبّعُ[1]

وقال ابن الكلبي: لم يملك الأرض كلّها إلا ثلاثة أبرار، وهم سليمان عليه السلام وذو القرنين وتُبَّع، وهو أسعد وأبو كرب. وثلاثة كُفّار، وهم النمروذ وبختنصر والضّحاك. و أبو كرِب الذي ذكر هو تبع، وكان مَلِكاً عظيماً، فتح البلاد، وملك العباد، وأقبل من اليمن يريد العراق فنزل الحيرة وحفر لهم نهراً، وهو نهر الحيرة إلى سوقها، وبعث إليه حسان في جنده ليطوفَ الأرض، فمضى به حسان في عسكر عظيم جرار، لا يمرّ بمدينة إلا فتحها ولا ملك إلا قهره. وقيل في تسمية ملوك اليمن تبابعة أنه لكثرة ما يتبع الملك منهم من الجنود، وقيل سُمّي تُبَّعاً لأنه تبع من قبله، ولابن سُكّرة في معنى بيت المقامة [الكامل]

الجوع يطرَد بالرغيف اليابس ... فعلام تُكْثر حسرتي ووساوسي
والموت أنصف حين عدّل قسمة ... بين الخليفة والفقير البائس

* * *

وبَعدهُ العَرض الّذِي ... يَخوي الحَيِيَّ والبَذِي
والمبتَدَي والمُحْتَذِي ... ومَنْ رعَى وَمَنْ رُعِي
فَيَا مفاز المتَّقِي ... ورِبْحَ عَبْدِ قَدْ وُقِي
سُوءَ الحسابِ المُوبقِ ... وهَوْلَ يوم الْفَزَعِ
ويا خَسارَ مَنْ بَغَى ... وَمَنْ تَعَدَّى وطَغَى
وشَبَّ نيرانَ الوَغَى ... لمطعَم أو مَطْمَع

(١) البيت لأبي ذؤيب الهذلي في شرح أشعار الهذليين ١/ ٣٩، وسر صناعة الإعراب ٢/ ٧٦٠، وشرح المفصل ٣/ ٥٩، ولسان العرب (تبع)، (صنع)، (قضى)، والمعاني الكبير ص ١٠٣٩، وتاج العروس (صنع)، (قضى)، وبلا نسبة في شرح المفصل ٣/ ٥٨.

يـا مَـنْ عـلـيـه الـمـتَّـكَـلْ قـدْ زاد مـا بـي مـن وَجَـل
لـمـا اجـتـرحـتُ مِـنْ زَلَـلْ فـي عُـمْـرِيَ الـمُـضَـيَّـعِ
فـاغْـفِـرْ لـعـبـدٍ مُـجْـتَـرِمْ وارحَـمْ بُـكَـاء الـمُـنْـسَـجِـمْ
فـأنْـتَ أولـى مَـنْ رَحِـمْ وخـيـرُ مَـدْعُـوٍّ دُعِـي

* * *

قوله: وبعد العرض، يريد عرض الناس للحساب. يحوي: يضُمّ. الحيي: المستحيي. البذِيّ: المتكلم بالفواحش. المحتذي: المتبع: الحاذي حذوه. رعى: ملك. يريد أن العَرْض يعمّ الناس، فيحتوي على العفيف والبذي، وعلى الأغنياء والفقراء والملوك ورعيتهم ولا يتميز فيه أحد ولا يشرف إلا بعمل صالح، قوله: فيا مفاز المتقي، المفاز: الخلاص، وقي: كفي، الموبق: المهلك. هَوْل: خوف. بَغْى: ظلم. وتعدّى: جاوز الحد في جوره، طغى: جاوز الحد في تكبره. شبّ: أوقد. الوغَى: الحرب. وجل. خَوف. اجترحت: اكتسبت. زلل: خطأ. زفير: نفخ. والشهيق: رد النَّفسَ مع البكاء بصوت. رِدْفه: خلفه.

* * *

قال الحارثُ بن همَّام: فلم يَزَلْ يُردّدُها بصوتٍ رقيق، ويَصِلُها بزفيرٍ وشهيقٍ، حتى بَكيتُ لبكاءِ عَيْنَيْه، كما كنتُ من قبلُ أبكي عَلَيه، ثم بَرَزَ إلى مسجده، بوُضُوءِ تهجّده، فانطَقْتُ رِدْفَهُ، وصَلَّيْتُ مع مَنْ صلّى خلفه. ولما انفضَّ مَنْ حَضَرَ، وتفرّقُوا شَغَرَ بَغَر، أخَذ يُهَيْنِمُ بِدَرْسِهِ، ويَسْبِكُ يَومَهُ في قالبِ أمسِهِ، وفي ضِمْنِ ذَلِكَ يُرِنُّ إرنَانَ الرَّقُوب. ويبكي ولا بكاءَ يَعْقُوب، حتى اسْتَبَنْتُ أنَّه التَحَق بالأفرَاد، وأُشْرِبَ قلبهُ هوى الانفِرَاد، فأخْطَرْتُ بقَلْبِي عَزْمه الارتحال، وتخيلته والتَّخَلي بتلك الحال، فكأنّه تفرَّسَ ما نَوَيت أو كوشِفَ بِما أخْفَيت، فَزَفَرَ زفير الأواه ثم قرأ: **﴿فإذا عَزمتَ فتوكَّلْ على الله﴾** [آل عمران: ١٥٩]؛ فأسْجَلْتُ عِنْدَ ذلك بصدْقِ المحدِّثين، وأيقنتُ أنَّ في الأمّةِ محدَّثين. ثم دنوتُ إليه كما يَدْنُو المصافح، وقلت: أوصِني أيُها العَبْدُ الصَّالح، فقال: اجْعَل الموتَ نُصْبَ عَيْنِكَ، وهذا فراقُ بيني وبينك. فودَّعتُه وعَبَرَاتي، يتحدّرن من المآقي، وزفراتي يتصعَّدن من التَّراقِي وكانت هذه خاتمة التّلاقي.

* * *

انفض: تفرق. شغَر بغَر، أي في كل طريق وعلى كل جهة، يهيم: يرد كلامه خفياً

لا يفهم. يسبك يومه في قالب أمسه: استعارة، أي يفعل في اليوم ما فعل في الأمس، وفي ضمن ذلك، أي في أثنائه، يرنّ: يصوت. الرَّقُوب: المرأة التي لا يعيش لها ولد. ولا بكاء يعقوب: يجوز رفع بكاء ونصبه والرفع أكثر، وبكاء يعقوب على يوسف عليهما السلام حتى عَمِيَ، وهو قوله تعالى: ﴿**وابيضَّتْ عيناه من الحزن فهو كظيم**﴾ [يوسف: ٨٤]، استبنت: تحققت. الأفراد: العباد، يقال: فلان فرد فضله، أي ليس له نظير، والأفراد سبعة من العباد لا تخلو الدنيا منهم حتى إذا مات واحد خلف الله تعالى في موضعه آخر. أُشْرب: خولط وغلب عليه. هوى الانفراد: حب الوحدة، قال ابن الرومي: **[مجزوء الوافر]**

إلى الزُّهاد في الدُّنيا ... جنان الخلد تشتاقُ
عبيد من خطاياهمْ ... إلى الرحمن أُبَّاقُ
حذَتهمْ نحوه الرَّغبـ ... ـة مع الرّهبان فاستاقوا
عليهم حين تلقاهم ... سكينات وإطراقُ
يضجون إلى الله ... ودمع العينِ مهراقُ
مليك الملك هل مما ... تطوّقناه إطلاَقُ
ففي أعناقنا طرّاً ... من الآثام أطواق

وللفقيه أبي العباس بن خليل: **[الكامل]**

فهموا إشارات الحبيب فهاموا ... وأقام أمرهُمُ الرَّشاد فقامُوا
وتوسَّلوا بمدامعٍ منهلَّةٍ ... تحت الدياجي والأنام نيامُ
وتلوا من الذكر الحكيم جوامعاً ... جُمِعَت لها الألباب والأفهام
يا صاح لو أبصرت ليلهم وقد ... صفت القُلوب وصُفَّت الأقدام
لرأيت نورَ هداية قد حفَّهُمْ ... فسرَى السُّرور وأشرق الإظلامُ
فهم العبيد الخادمون مليكهمْ ... نعم العبيد وأفلح الخدَّامُ
سلموا من الآفات لما استسلموا ... فعليهمُ حتى المماتِ سلامُ

وقالوا في هوى الانفراد: الوحدة خير من القرين السوء، وأنشدوا: **[السريع]**

أنسْتُ بالوحدة علماً بها ... فإنها خير من الجمْعِ
ألا ترى الواحد أصْلاً لما ... يحسب من أصلٍ ومن فرعِ
أترك من لا أرتجي نَفْعَه ... رجاء ربِّ الضر والنفع

آخر: **[الوافر]**

أنست بوحدتي حتى لو أني ... أتاني الأنس لاستوحشت منه

ولم تدع التجارب لي صديقاً أميل إليه إلاّ مِلْتُ عنه

وقال آخر: [البسيط]

اهرب بنفسك تستأنسْ بوحدتها تلق الرَّشاد إذا ما كنت منفردا

إن السِّباع لتهدأ في مرابضها والناس ليس بهادٍ شرَّهمْ أبدا

قوله: تفرّس، أي علم بفراسته وجودة نظره. نويت: أضمرت في نيتي كوشف: اطلع عليه. زفر: نفخ. الأواه: الحزين الذي يصيح: آه آه. أسجلت: صدقت. المحدثين: الذين حدثوه بتوبة السروجي. محدّثين، هم المكاشفون من الزهاد الذين يحدثون بالغيوب، كأن المكاشف قد حدث بما يقول. وقيل: المحدثون الصَّادقون ظناً وفراسة.

وقال ﷺ: «قد كان فيمن قبلكم، محدثون، فإن يكن من أمتي هذه فهو عمر بن الخطاب»[1]. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه المعيّا وهو الصادق الظنِّ، ودليله ما ذكره ﷺ في عمر حديث سارية بن زُنَيْم، وكان عمر رضي الله تعالى عنه قد أرسله في جيش للمسلمين، فألقى الله في روح عمرٍ رضي الله تعالى عنه وهو يخطُب الناس بالمدينة إن العدوّ قد نهز المسلمين واشتد الخطب عليهم، وكانوا بحضرة جبل، فقطع عمر الخطبة وقال: يا سارية الجبل، فأسمع الله تعالى سارية من مسافة شهر نداء عمر، فانحاز بالمسلمين إلى الجبل، فتخلصوا، قوله: المصافح، أي المعانق عند الوداع، نصيب عينك، أي غرضها وقدامها، وأول مَنْ قال: اجعل الموت نصب عينك أُمية بن أبي الصلت في قوله: [الخفيف]

كلُّ عيش وإن تطاول يوماً صائر أمره إلى أنْ يزُولاَ

ليتني كنت قبل ما قد بدا لِي في رؤوس الجبال أرعى الوُعولا

فاجعل الموت نُصب عينك واحذرْ غولة الموت إن للموت غولا

عبراتي: دموعي. يتصعدن: يترفعن. التراقي: العظمان المعوجان أعلى الصدر. خاتمة التلاقي: آخر لقائه.

[مما قيل في الوداع شعراً]

ونذكر هنا جملة من الشعر في ذكر الوداع الذي كان بينهما ونجعلها كالتوديع لما سلف لهما في هذا الكتاب من رياض الآداب فإنها كانت أُنس الوحيد. ومسلاة الطريد، فمن ذلك قول بعضهم: [المتقارب]

وداعك مثل وداع الرَّبيع وفقدك مثل افتقاد الدِّيَمْ

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة باب ٦، والأنبياء باب ٥٤، ومسلم في فضائل الصحابة باب ٢٣، والترمذي في المناقب باب ١٧، وأحمد في المسند ٦/ ٥٥.

عليك سلام فكم من ندى فقدناه منك وكمْ من كرمْ

وقال آخر:

أقول له يوم ودعته وكلٌّ بعبرتِه مُبْلِسُ
لئن رجعتْ عنك أجسامُنا لقد سافرت معك الأنفُسُ

وقال أبو سعيد الهمذاني: أنشدني هلال بن الغلاء حين ودّعني: [الكامل]

لأودعنّك ثم تدمع مقلتي إن الدموع هي الوداع الثاني
وأصوم بعدك عن سواك فأغتدي متقلداً صومين في رَمَضَانِ
في فرقة الأحباب شغل شاغلٌ والموت صدقاً فرقة الإخوان

(وأنشدني أبو محمد بن حزم) [الوافر]

لئن أصبحتُ مرتحلاً بشخصي فقلبي عندكم أبداً مقيمُ
ولكن للعيان لطيف معنًى له سأل المعاينة الكليم

وكرر هذا المعنى فقال: [الوافر]

يقول أخي شَجَاك رحيلُ جسمٍ وروحك ما لها عنه رحيلُ
فقلت له المعاينُ مطمئنٌ لذا طلب المعاينةَ الخليلُ

وقال آخر: [السريع]

بَانُوا فأضحى الجسم من بعدهمْ ما تبصر العين له فيّا
ووا أسفي منه ومنْ قولِهِمْ ما ضرَّك الفقد لنا شيا
بأي وجهٍ أتلقاهم إن وجدوني بعدهمْ حيّا

وقال آخر: [مخلع البسيط]

لا كان يوم الفراق يوماً لم يُبْقِ للمقلتين نوْما
شتّتَ مني ومنك شملا فسر قوماً وساء قوما
يا قوم مَنْ لي بفقد خل يسومني في العذاب سَوْما
ما لامني الناس فيه إلا بكيت كيما أُزاد لوما

وقال صاعد اللغوي: [المنسرح]

قلت له والرقيب يعجله مستعجلاً للفراق: أين أنا
فمدّ كفا إلى ترائبه وقال: سر آمناً فأنت هنا

* * *

قال الشيخ الرئيس أبو محمد القاسم بن عليّ، بَرّد الله مضجعه: هذا آخر المقامات التي أنشأتُها بالاغتراز، وأملَيْتُها بِلِسان الاضطرار، وقد أُلْجِئْتُ أن أرصُدَها للاسْتِعْرَاض، وناديتُ عليها في سُوقِ الاعتراض، هذا مع معرفتي بأنّها من سَقَط المتاع، وممّا يستوجب أن يُبَاع ولا يبتَاع، ولو غَشِيَنِي نورُ التوفيق، ونظرت لنَفْسِي نظر الشّفيق، لَسَترتُ عَوارِي الّذي لم يَزَلْ مَسْتُوراً، ولكن كان ذلك في الكتاب مسطوراً، وأنا أستغفر الله تعالى ممّا أودَعْتُها من أباطيلِ اللّغو، وأَضَالِيلِ اللّهْو، وأَسْتَرْشِدهُ إلى ما يَعْصِم من السّهْو، ويُحْظي بالْعَفْوِ إنّه هو أهلُ التَّقْوى وأهلُ المغفِرة، ووليُّ الخيرات في الدّنيا والآخرة.

* * *

قوله: أنشأتها، أي صنعتها، الاغترار: الجهل والانخداع، أمليتُها: ألقيتها لمن يكتبها. واضطر اضطراراً إذا لم يجدْ بُداً من فعله أرصدتها: أعددتها. الاستعراض: أن تعرض على الناس حَتى يروها، سقط المتاع: هجينة. يبتاع: يشتري. غَشيني: غطاني. أَودعتها: ضمنتها. اللّغو: سقط الكلام. الأضاليل: جمع أضلولة، وهي ما يضل به مَنْ ركبه، استرشده: أستهديه، يعصم: يمنع. السهو: الخطأ، يحظي: يسعد. العفو: المغفرة.

وقوله: هو أهل التقوى، عن أنس رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «يقول ربُكم عز وجل: أنا أهلُ التقوى فلا يشرك بي غيري، وأنا أهل لمن اتقى أن يشرك بي أن أغفر له»[1].

* * *

انتهى الشرح بحمد الله وتوفيقه وحسن عَونه، وكان من توفيق الله تعالى أن أوّل حرف شرحت من اللغة في هذا الكتاب حَمْد الله، وآخر حرف ختمت به عَفو الله، وما وقع بين حمد الله سبحانه وتعالى، والثناء عليه، وبين عَفوِه عن عبيده مرجوٌ من جميل صنعه الامتنان بالصفح عن جميع هَذَرِه، وملتمس من جلاله تعالى وكرمه جزيلُ الأجر على ما ضمنته من حكم الآداب وغيره.

[في العفو عن المذنبين]

واذكر فصلاً أدبياً في العفو عن المذنبين، أختم به الديوان، فمن وَقَف عليه، ووجد في نفسه لذته، واستشعر؟ لرجاء وطمع في العفو، فرغبتُنا إليه أن يسأل لنا العفو مع نفسه.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الزهد باب ٣٥.

فمن ذلك أنه كان للمأمون خادم لوضوئه، فبينما هو يصب الماء على يديه إذ سقط الإناء، فغضب المأمون فقال له الخادم: يا أمير المؤمنين إن الله تعالى يقول: **﴿والكَاظِمِينَ الغَيْظَ﴾**، [آل عمران: ١٣٤] قال: كظمت غيظي، قال: **﴿والعافين عن الناس﴾** [آل عمران: ١٣٤]، قال عفوت عنك، قال: **﴿الله يحبُّ المحسِنِينَ﴾** [المائدة: ١٣]، قال: اذهب فأنت حرٌّ.

وأمر عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه بعقوبة رجل، فقال له رجاء بن حيوة: إن الله تعالى قد فَعَل ما تحبّ من الظفر، فافعل ما يحبّ من العفو، فعفا عنه.

العتبي: وقعت دماء بين حيَّين من قريش، فأقبل أبو سفيان فما بقي أحد واضع رأسه إلا رفعه، فقال: يا معشرَ قريش، هل لكم في الحق أو فيما هو أفضل من الحق؟ قالوا: وهل شيء أفضل من الحق؟ قال: نعم العفو، فتبادر القوم فاصطلحوا.

قال المبارك بن فضالة: كنت جالساً في السمّاط عند أبي جعفر إذ أمر برَجلٍ أن يُقتل فقلت: يا أمير المؤمنين، قال ﷺ: «إذا كان يوم القيامة ينادِي منادٍ بين يدي الله عز وجل: مَنْ كانت له يد عند الله فليقُمْ، فليتقدم فلا يتقدَّم إلا من عفا عن مذنب». فأمر بإطلاقه.

وكان رجل شرِّيب جمع قوماً من ندمائه ودفع إلى غلام له أربعة دراهم أن يشتريَ بها من الفواكه للمجلس، فمرَّ الغلام بباب مجلس منصور بن عمار وهو يسأل الفقير شيئاً، ويقول: مَنْ دفع له أربعة دراهم دعوتُ له أربعَ دعوات، فدفع له الغلام الدراهم، فقال له منصور: ما الذي تريدُ أن أدعو لك؟ قال: أن يعتقني الله من رقّ العبودية، فدعا له منصور وأمّن الناس. قال: والثانية؟ قال: أن يخلف الله عليّ الدّراهم، فدعا له وأَمّن الناس، قال: والثالثة يا غلام؟ قال: أَن يتوب الله على مَولاي، فدعا له وأمّن الناس. قال: والرابعة يا غلام؟ قال: أن يغفر الله لي ولمولاي ولك يا منصور وللحاضرين، فدعا منصور وأمّن الناس، فرجع الغلام، فقال له مولاه لمَ أبطأت؟ فقص عليه القصة، قال: وبم دعا؟ قال: سألت لنفسي العِتق، قال: اذهب فأنت حرّ، قال: والثانية؟ قال: أن يخلف الله عليّ الدراهم، قال: لك أربعة آلاف درهم، قال: الثالثة؟ قال: أن يتوب الله عليك، قال تبت إلى الله عز وجل، قال والرابعة؟ قال: أن يغفر لي ولك، وللواعظ وللحاضرين، وقال: هذه الواحدة ليست إليّ، فلما بات رأى في المنام كأن قائلاً يقول: أنت فعلت ما كان إليك أتراني لا أفعل ما كان إلي! قد غفرت لك وللغلام ولمنصور وللحاضرين.

قال يحيى بن معاذ: يكاد رجائي لك مع الذنوب يغلبُ رجائي لك مع الإخلاص، لأني أعتمد في الإخلاص على الأعمال، وفي الذنوب أعتمد على عفوك، وقال السّلامي: **[الوافر]**

تبسطنا على الآمال إنا　　　رأينا العفو من ثمر الذنوب

وقال بكر بن سليمان الصواف: دخلنا على مالك بن أنس في العشيَّة التي قُبض فيها، فقلت: يا أبا عبد الله، كيف تجدك؟ قال: لا أدري ما أقول لكم، ستعاينون من عفو الله تعالى ما لم يكن في حسابكم. ثم ما خرجنا حتى أغمضنا عينيه.

وفي الحديث: «لو لم تذنبوا لجاء الله بأمة يذنبون فيغفر لهم»، وقال أبو نواس: **[مجزوء الوافر]**

يا نواسي توقر ... وتعزى وتَصبَّرْ
ساءك الدهر بشيء ... ولَما سرك أكثرْ
يا كبير الذنب عفو الله ... من ذنبك أكْبَرْ
أكبر الأشياء في أصغـ ... ـر عفو الله أصغرْ
ليس للإنسان إلا ... ما قضى الله وقَدّرْ
ليس للمخلوق تدبيـ ... ـرٌ بل الخالق دَبَّرْ

وقال أبو العتاهية: **[الوافر]**

إلهي لا تعذِّبْني فإني ... مقر بالذي قد كان مِنِّي
فما لي حيلة إلا رجائي ... لعفوك إن عفوت وحُسْن ظني
يظن الناس بي خيراً وإني ... لشَرُّ الناس إن لم تعف عني
وكم من زلة في الخطايا ... وأنت عليّ ذو فضل ومنِّ
وإذا فكرت في ندمي عليها ... عَضَضْتُ أناملي وقرَعْتُ سنيِّ

وهذا آخر شعر قاله أبو العتاهية، وآخر شعر ختمت به هذا الشرح، راجياً من ربي صفحَه وعفوَه، والحمد لله أولاً وآخراً كما يجب لجلاله غفرانك. اللهم تباركت وتعاليت. والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم، ورضي الله تعالى عن أصحاب رسول الله أجمعين وعن التابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

فهرس المحتويات

المقامة الثالِثَة والثلاثون

المقامة الرّابعة والثلاثون

المقامة الخامسة والثلاثون

المقامة السّادسة والثلاثون

المقامة السّابعة والثلاثون

المقامة الثامنَة والثلاثون

المقامة التاسِعة والثلاثون

المقامة الأربعُون

المقامة الحادية والأربعُون

المقامة الثانية والأربعُون

المقامة الثالثةَ والأربعُون

المقامة الرابعة والأربعون

المقامة الخامسة والأربعون

المقامة السّادسة والأربعون

المقامة السّابعة والأربعون

المقامة الثامنة والأربَعُون

المقامة التاسعة والأربعُون

المقامة الخمسون